شرح رياض الصالحين

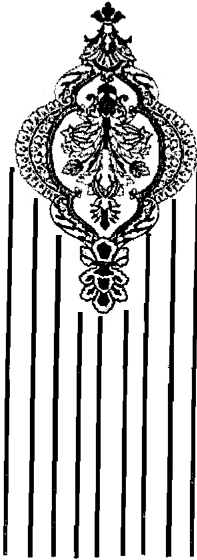
من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء الأول





شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 2-025-763-977-978

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر / أمام الجامع الأزهر / القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠

١ درب الأتراك / خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

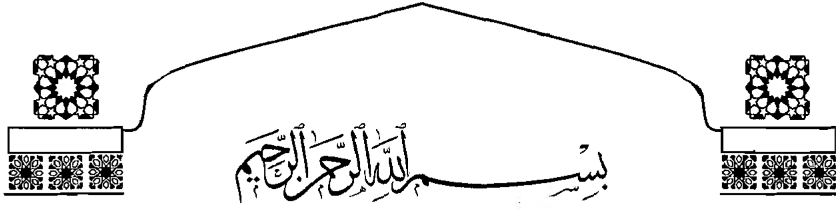
للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء الأول

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين، فمازال فضل الله العظيم الكريم يتوالَى علينا بالتوفيق لإخراج ونشر الكتب النافعة، المبينة لشرع ربنا تبارك وتعالى ، فقد مَنَّ علينا سبحانه بالتوفيق لإخراج عدة طبعات جديدة للمصحف الشريف، حرصنا فيها على غاية الإتقان فى جميع ما يتعلق بها.

كما وفقنا لإخراج كتب تفسير كتاب الله العزيز، سواء كان كاملًا، أو مفرقًا على هيئة سورة تلو السورة، أو مجموعة سور، أو موضوع تلو موضوع، كآيات الأحكام وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز، كما وفقنا لإخراج كتب الحديث النبوى الشريف والتى عليها قوام هذا الدين وهى بيان وتفسير لكتاب الله العزيز، والتى قام بها الجهابذة الأولون من سلفنا الصالح علماء الحديث، الذين وفقهم الله عز وجل لتوصيل الدين وتبليغه كتابًا وسنةً، قولًا وفعلًا، نصًّا وفَهمًا وعملًا.

وقد أخرجنا بفضل الله عدة كتب كموطأ الإمام مالك، وصحيحى الإمامين البخارى ومسلم، وسير أعلام النبلاء، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى، وشرح صحيح مسلم وغيرها من الكتب المتضمنة لحديث رسول الله ﷺ رواية ودراية، وشرحًا وبيانًا.

وأيضًا وفقنا لإخراج كتب العلوم الشرعية التى تخدم الكتاب والسنة بشتى الأشكال. والتى قام بها من تبع الأولين بإحسان لبيان مراد الله عز وجل فى كتابه



وسنة رسوله ﷺ، في صور شتى ما بين المطول والمختصر - رحمنا الله وإياهم وغفر لنا ولهم، وأحسن إلينا وإليهم.

ويسرنا اليوم أن نقدم هذا الكتاب الذي بين يديك أخي القارئ وهو كتاب: «شرح رياض الصالحين»، وهو إضافة جديدة لإصداراتنا والتي نرجو من الله عَزَّوَجَلَّ أن يتقبلها منا قبولًا حسنًا، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله منارًا لخدمة العلم والدين





ترجمة الإمام النووي رحمه الله

۞ نسبه.. مولده.. ابتداء اشتغاله.. حرصه على العلم:

هوَ الإمام، الحافظ، الأوحد، القدوة، شيخ الإسلام، علم الأولياء، محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرى الحزامى الحورانى الشافعى، صاحب التصانيف النافعة:

وُلِدَ فى المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة (٦٣١ هـ)، وقَدِمَ دمشق سنة تسع وأربعين (٦٤٩ هـ)، فسكن فى الرواحية يتناول خبز المدرسة، فحفظ التنبيه فى أربعة أشهر ونصف وقرأ ربع المهذب حفظًا فى باقى السنة على شيخه الكمال إسحاق بن أحمد ثم حَجَّ مع أبيه وأقام بالمدينة النبوية شهرًا ونصفًا ومَرِضَ أكثر الطريق.

ذكر الشيخ أبو الحسن بن العطار أن الشيخ محيى الدين ذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثنى عشر درسًا على مشايخه شرحًا وتصحيحًا... درسين فى الوسيط، ودرسًا فى المهذب، ودرسًا فى الجمع بين الصحيحين، ودرسًا فى صحيح مسلم، ودرسًا فى اللمع لابن جنى، ودرسًا فى إصلاح المنطق، ودرسًا فى التصريف، ودرسًا فى أصول الفقه، ودرسًا فى أسماء الرجال، ودرسًا فى أصول الدين...قال: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة وضبط لغة...وبارك الله تعالى فى وقتى، وخطر لى أن أشتغل فى الطب واشتريت «كتاب القانون» فأظلم قلبى وبقيت أيامًا لا أقدر على الاشتغال فأفقت على نفسى وبعت القانون فأنار قلبى.

۞ شيوخه:

سمع من الرضى بن البرهان وشيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد الأنصارى

وزين الدين بن عبد الدائم وعماد الدين عبد الكريم بن الحرستانى وزين الدين خالد بن يوسف وتقى الدين بن أبى اليسر وجمال الدين بن الصيرفى وشمس الدين بن أبى عمر وطبقتهم.

وسمع الكتب الستة والمسند والموطأ وشرح السنة للبغوى وسنن الدارقطنى وأشياء كثيرة وقرأ الكمال للحافظ عبد الغنى على الزين خالد، وشرح فى أحاديث الصحيحين على المحدث أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادى وأخذ الأصول على القاضى التفليسى وتفقه على الكمال إسحاق المغربى وشمس الدين عبد الرحمن بن نوح وعز الدين عمر بن سعد الإربلى والكمال سلار الإربلى.

وقرأ النحو على الشيخ أحمد المصرى وغيره وقرأ على ابن مالك كتابًا من تصنيفه ... ولازَم الاشتغال والتصنيف ونشر العلم والعبادة والأوراد والصيام والذكر والصبر على العيش الخشن فى المأكل والملبس ملازمة كُلية لا مزيد عليها ملبسه ثوب خام وعمامته شبختانية صغيرة.

۞ تلاميذه:

أخذ عنه جماعة من العلماء منهم الخطيب صدر الدين سليمان الجعفرى وشهاب الدين أحمد بن جعوان وشهاب الدين الأربدى وعلاء الدين بن العطار، وحدَّث عنه ابن أبى الفتح والمزى وابن العطار.

۞ تصانيفه:

من تصانيفه «شرح صحيح مسلم» و«رياض الصالحين» و«الأذكار» و«الأربعين» و«الإرشاد» فى علوم الحديث و«التقريب» و«المبهمات» و«تحرير الألفاظ» للتنبيه و«العمدة فى تصحيح التنبيه» و«الإيضاح» فى المناسك، وله ثلاثة مناسك سواه و«التبيان فى آداب حملة القرآن»، و«الفتاوى» و«الروضة»

أربعة أسفار و«شرح المهذب» إلى باب المصراة فى أربع مجلدات وشرح قطعة من البخارى وقطعة من الوسيط، وعمل قطعة من الأحكام، وجملة كثيرة من الأسماء واللغات، ومسودة فى طبقات الفقهاء، ومن التحقيق فى الفقه إلى باب صلاة المسافر.

وفاته:

سافر الشيخ فزار بيت المقدس وعاد إلى (نوى) فمرض عند والده فحضرته المنية فانتقل إلى رحمة الله فى الرابع والعشرين من رجب سنة ستٍّ وسبعين وستمائة وقبره ظاهر يُزار.

قاله الشيخ قطب الدين اليونينى وقال: كان أوحد زمانه فى العلم والورع والعبادة والتقلل وخشونة العيش واقف الملك الظاهر بدار العدل غير مرة فحكى عن الملك الظاهر أنه قال: أنا أفزع منه ... ولى مشيخة دار الحديث.

قلت: وليها سنة خمسٍ وستين بعد أبى شامة إلى أن مات قدَّس الله سِرَّه.

ولم يتجاوز من العمر الخامسة والأربعين (يوم أن مات).

فرحمه الله رحمة واسعة وجمعنا وإياه مع الحبيب ﷺ فى جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سررٍ مُتقابلين.

مقدمة المؤلف.. الإمام النووي رحمه الله

الْحَمْدُ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، مُكَوِّرِ الليلِ عَلَى النَّهَارِ، تذكِرةً لأُولي الْقُلُوبِ والأَبصارِ، وَتَبْصِرةً لِذَوى الأَلْبَابِ والاعتبار، الَّذى أَيقَظَ مِن خلْقه مَنِ اصْطَفَاهُ، فزَهَّدهُمْ فى هَذِهِ الدَّارِ، وَشغَلَهُمْ بِمُراقبَتِهِ وإِدَامَةِ الأفكَار، ومُلازمَةِ الاتِّعاظ والادِّكَارِ، ووَفَّقهُم للدَّأْبِ فى طاعَتِهِ، والتَّأَهُّب لدَارِ الْقَرَارِ، والْحَذَرِ ممَّا يسْخِطُهُ ويوجبُ دارَ الْبوَارِ، والمحافظةِ عَلَى ذَلِكَ مع تغايرِ الأَحْوَالِ والأَطْوَارِ. أَحْمَدُهُ أَبْلَغَ حمْدٍ وأَزْكَاهُ، وأَشْملهُ وأَنْماه.

وأَشْهدُ أن لا إله إِلَّا الله الْبَرُّ الْكَرِيمُ، الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ، وَأَشْهدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وحبيبُهُ وخليلُهُ، الْهادى إِلَى صِراطٍ مُستْقيمٍ، والدَّاعى إِلَى دِينٍ قَوِيمٍ. صلَوَاتُ الله وَسلامُهُ عَلَيهِ، وَعَلَى سَائِرِ النبيين، وَآل كُلٍّ، وَسائِرِ الصَّالِحِين.

أما بعدُ: فقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُمْ خُلقُوا للعبَادَة، فَحَقَّ عَلَيهِمْ الاعتنَاءُ بِمَا خُلقُوا لَهُ، والإِعراضُ عَنْ حُظُوظِ الدُّنْيا بالزَّهَادة، فَإِنَّهَا دَارُ نَفَادٍ لا مَحَلُّ إِخْلادٍ، ومَرْكبُ عُبورٍ لاَ منْزل حُبورٍ، ومَشْرَعُ انْفصَامٍ لا مَوْطن دَوَام.

فَلِهذَا كَانَ الأَيقَاظُ منْ أَهْلِهَا هُمُ الْعُبَّادُ، وَأَعقَلُ الناسِ فيها هُم الزُّهَّادُ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، والآيات فى هذا المعنى كثيرةٌ.

ولقد أَحْسَنَ الْقَائلُ:

إن لله عبـــاداً فُطنَـــا طَلَّقُـوا الـدنيا وخـافوا الفِتَنـا

نَظَـرُوا فيهـا، فلمـا علمـوا أنهـا ليـست لحـى وطنـا

جعلوهـا لُجّـةً واتخـذوا صـالحَ الأعمـال فيهـا سُـفُنا

فإذا كان حالُها ما وصفْتُهُ، وحالُنَا وَمَا خُلقْنَا لَهُ ما قَدَّمْتُهُ، فحَقٌّ على الْمُكَلَّف أنْ يذْهَبَ بنَفْسِه مَذهَبَ الأخْيارِ، ويسْلُكَ مَسْلَكَ أُولى النُّهَى والأَبْصارِ، ويتأَهَّبَ لمَا أَشَرْتُ إِلَيهِ، ويهْتَمَّ بِما نَبَّهْتُ عَلَيه. وَأَصْوبُ طريقٍ له فى ذلك، وأَرْشَدُ ما يسْلُكُهُ من الْمَسَالك:

التَّأَدُّبُ بمَا صَحَّ عَنْ نبينَا سَيد الأَوَّلينَ وَالآخرينَ، وأَكرَمِ السَّابقينَ واللاَّحقينَ. صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيه وعَلى سَائِرِ النَّبيينَ ...وقد قالَ الله تَعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، وقد صَحَّ عنْ رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**واللهُ فى عَوْنِ الْعبْدِ مَا كَانَ الْعبْدُ فى عَوْنِ أَخيه**»[١] وَأَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خيرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فاعِلِه**»[٢] وَأَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ دعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبعَهُ لا ينْقُصُ ذلكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئا**»[٣] وَأَنَّهُ قَالَ لِعَلِى رضي الله عنه: «**فوَاللهِ لأنْ يهْدِى اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خيرٌ لك مِنْ حُمْرِ النَّعَم**»[٤].

فرأيتُ أنْ أَجْمعَ مُخْتَصرًا منَ الأَحَاديث الصَّحيحَة، مُشْتملاً عَلَى مَا يكُون طَريقًا لِصَاحِبه إلَى الآخِرة، ومُحَصِّلاً لآدَابِه الْباطِنَةِ والظَّاهِرَة، جَامِعًا للتَّرْغِيبِ والتَّرْهيبِ وسائِرَ أَنْوَاعِ آدَابِ السَّالكينَ: مِنْ أَحَاديث الزُّهْد، ورياضَات النُّفُوسِ،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٣) كتاب الإمارة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤) كتاب العلم.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢١٠) كتاب المغازى، ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

وَتَهْذِيبِ الأَخْلاَقِ، وطهَاراتِ الْقُلوبِ وعِلاجِهَا، وصِيانَةِ الْجَوَارِحِ وإِزالَةِ اعوجَاجِها، وَغَيرِ ذِلكَ مِنْ مقَاصِدِ الْعَارِفِينَ.

وَأَلْتزمُ فيه أن لا أذكُرَ إلَّا حدِيثًا صَحيحًا من الْواضِحات، مُضَافًا إلَى الْكُتُبِ الصَّحِيحَة الْمشْهُوراتِ، وأُصدِّرُ الأَبْوابَ مِن الْقُرْآنِ الْعزِيزِ بآياتٍ كرِيماتٍ، وَأُوَشِّحُ مَا يحْتَاجُ إِلَى ضبْطٍ أو شرحِ معنى خَفِى بنفَائس مِن التَّنْبِيهاتِ. وَإِذا قُلْتُ فى آخِرِ حَديثٍ: مُتَّفقٌ عَلَيهِ، فَمَعنَاهُ: رواه البخارى ومسلم.

وَأَرْجُو إِنْ تَمَّ هَذَا الْكِتَابُ أَنْ يكُونَ سَائقًا للْمُعتَنِى بِهِ إلىَ الْخيرَاتِ، حَاجِزًا لَهُ عَنْ أَنْواعِ الْقَبَائِحِ والْمُهْلِكَات. وَأَنَا سَائِلٌ أَخًا انْتَفَعَ بِشَىءٍ مِنْه أَنْ يدعُوَ لِى، وَلِوالدَى، ومَشايخِى، وسَائِرِ أحْبَابِنَا، والْمُسْلِمينَ أَجْمَعِينَ، وَعَلَى الله الْكَرِيم اعتمَادى، وَإِليهِ تَفْوِيضِى وَاسْتِنادِى، وَحسْبِى الله ونِعمَ الْوكِيلُ، وَلا حَوْلَ وَلاقُوَّةَ إِلَّا بِالله الْعزِيزِ الْحَكِيمِ.

***

مقدمة الشارح

۞ إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[(٢)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[(٣)].

أما بعد:

فإن الإنسان فى هذه الدنيا مسافر إلى الله (جلَّ وعلا) يقطع المسافات والأوقات فى طاعة رب الأرض والسماوات من أجل الوصول إلى النعيم والرضوان فى أعالى الجنات.

والعاقل هو الذى يعلم أن السفر كله مشقة وأنه لا راحة إلا بعد الوصول... وما عليه إلا أن يعد الزاد لهذا السفر البعيد.

۞ ولقد أخبرنا الله (جلَّ وعلا) بأعظم زادٍ نتزود به فى طريقنا إلى الله وإلى الدار الآخرة فقال (جلَّ وعلا): ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان (٧٠، ٧١).

﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[١].

والتقوى هو الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل[٢].

والتقوى أيضًا: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله.. وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله[٣].

۞ ولن تستطيع أن تصل إلى حقيقة التقوى إلا إذا سرت خلف النبى محمد ﷺ فتتخذه أُسوة وقدوة لك فى أقواله وأفعاله وأحواله ﷺ.

والسبيل إلى ذلك لن يكون إلا بالعودة إلى كتابِ الله وإلى سُنة رسول الله ﷺ من أجل إقامة مجتمعٍ مسلمٍ يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله.

۞ ومن أجل ذلك كان الناس بحاجة شديدة إلى أن يتعرفوا على الأخلاق والآداب والمعاملات التى جاء بها النبى ﷺ لكى يتعايشوا معها بقلوبهم وجوارحهم فيفوزوا بسعادة الدارين فى الدنيا والآخرة.

۞ ومن الكتب التى اعتنت بالآداب والأخلاق والمعاملات والمبادئ (كتاب رياض الصالحين للإمام النووى رحمه الله).

فلقد كتب الله القبول لهذا الكتاب عند عامة المسلمين قاطبة وعند أهل العلم خاصة وذلك لما فيه من مسائل تربوية عظيمة وقيم روحية عالية فلا تكاد ترى بلدًا ولا بيتًا من بيوتات المسلمين إلا وجدت فيه كتاب (رياض الصالحين)... فما أجمل الإخلاص لله - جلَّ وعلا-.

۞ ولقد كنت أتمنى منذ أكثر من عشرين عامًا أن أشرح هذا الكتاب القيم

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٧).

(٢) هذا تعريف على بن أبى طالب رضي الله عنه.

(٣) هذا تعريف (طلق بن حبيب) رحمه الله.

«رياض الصالحين».. إلى أن قدَّر الله عَزَّوَجَلَّ أن أبدأ في شرحه في العشر الأوائل من شهر ذي الحجة عام (١٤٣٤ هـ) مُستعينًا بالله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقني لشرحه شرحًا يسيرًا يستطيع أن يقرأه العوام قبل العلماء وطلبة العلم.

فقمت بشرحه بكل يُسرٍ وسهولة، وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله عَزَّوَجَلَّ.

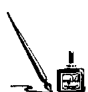
۞ ولا أنسى في هذا المقام أن أدعو لشيخي الحبيب الغالي فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين (رحمه الله رحمة واسعة) الذي استفدت كثيرًا من كتابه «شرح رياض الصالحين» فجزاه الله عني وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وجعل ذلك كله في ميزان حسناته.

۞ وها أنا اليوم أقدم لأمتي الحبيبة هذا الكتاب القيم الذي لا ينبغي أن يخلو بيت مسلمٍ منه أبدًا «شرح رياض الصالحين».

فما أحوج الأمة بأسرها إلى قراءة مثل هذا الكتاب والعمل بما فيه لكي تنصلح أحوال الأمة المسلمة فتعود مرة أخرى خير أمة أُخرجت للناس لتقود البشرية كلها إلى طريق السعادة والخلاص.

وما أحوج الدُّعاة إلى الله إلى أن يُعلِّموا الناس كل ما جاء في هذا الكتاب... فإن الدُّعاة كالأطباء المهرة يقدمون كل شيءٍ بحساب ويُشخِّصون المرض وينصحون بالعلاج الناجع ... فإن وجدوا استجابة وهداية فذلك من فضل الله على الخلق جميعًا وإن لم يجدوا شيئًا من ذلك فلا إحباط ولا تواني بل يمضون إلى غاياتهم بقدر وسعهم... كما ذكر القرآن الكريم على لسان سيدنا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [1].

(١) سورة هود: الآية (٨٨).



والآمال فى الله كبيرة والدعاء إلى الله مرفوع أن ينفع بهذا العمل كما نفع بأصوله وأن يجزى المؤلف خير الجزاء، وأن يرزقنا جميعًا الصدق فى القول والإخلاص فى العمل.. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله على حبيبنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى أبو عمار

دعوة مباركة

في بداية هذا الكتاب المتواضع أدعو نفسي وإخواني إلى كثرة الاستغفار، فإنَّ المعاصي تَحُول بين العبد وبين تدبُّر العلم، فإذا تاب العبد إلى الله فإنَّ الله يرزقه العلم النافع والعمل الصالح ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

والمعصية تَنكُت في القلب نُكتة سوداء، كما قال النبي ﷺ:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تعلُوَ عَلى قلبِهِ، فَهُوَ الرَّانُ الَّذِى ذَكَرَ اللهُ تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[2]»[3].

وهذه الذنوب والمعاصي تحجب الخير عن العبد ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[4].

وكذلك أدعو نفسي وإخواني إلى كثرة الصَّلاة والسلام على رسول الله ﷺ فإنَّه كما قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَاعلَمُوا رحمكم الله أَن فِي الصَّلاة على سيدنَا مُحَمَّد ﷺ عشر كرامات: إِحْدَاهُنَّ صَلَاة الْملك الْجبَّار،وَالثَّانية شَفَاعَة النَّبِي الْمُخْتَار، وَالثَّالِثَة: الِاقْتِدَاء بِالْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَار، وَالرَّابِعَة: مُخَالفَة الْمُنَافِقين وَالْكفَّار، وَالْخَامِسَة: محو الْخَطَايَا والأوزار، وَالسَّادِسَة: قَضَاء الْحَوَائِج والأوطار، وَالسَّابِعَة: تنوير الظَّوَاهِر والأسرار، وَالثَّامِنَة: النجَاة من عَذَاب دَار الْبَوَار. والتاسعة: دُخُول دَار الرَّاحَة والقَرَار، والعاشرة: سَلام الْملك الْغفار»[5].

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٨٢).

(٢) سورة المطففين: الآية: (١٤).

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٠).

(٤) سورة النساء: الآية: (١٦٠).

(٥) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزي (ص ٣١٩).

(١) باب الإخلاص وإحضار النّية

في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية

۞ ها نحن نبدأ هذا الكتاب المبارك بأهمِّ وأعظم عبادة نتقرب بها إلى الله (جلَّ وعلا)... ألا وهى عبادة الإخلاص.

وهى العبادة التى لا يقبل الله أى عبادة بدونها.. والإخلاص محله القلب... فلا بد أن يمتلئ القلب بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ فى كل عمل تعمله.

۞ وما أجمل أن يكون المسلم مُخلصًا لله (جلَّ وَعَلَا) فى جميع أقواله وأفعاله وأن يزهد فى ثناء الناس ومدحهم.

۞ وكيف لا يريد المسلم بعمله وجه الله وهو يعلم أن الناس جميعًا لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا ولا يملكون له موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا.

۞ ولذا فإنه يجب علينا جميعًا أن نجعل حياتنا كلها خالصة لوجه الله تعالى ممتثلين قول الله (جلَّ وعلا): ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

۞ فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع خُلق الإخلاص عسى الله أن يحشرنا فى زُمرة المخلصين.

قَالَ الله تعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقَالَ تعَالَى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحج:٣٧]، وَقَالَ تعَالَى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [آل عمران: ٢٩].

۞ لَا بُدَّ أن نعلم ابتداءً أن النية محلها القلب وليس اللسان.. ولقد كان

النبى ﷺ يتوضأ ويصلّى ويصوم ويتصدَّق ويحج ولم يكن ينطق بالنية.. وذلك لأن محلها القلب.

ولذلك مَن نطق بالنية عند إرادة أى عملٍ صالح فقد ابتدع وجاء بشىءٍ لم يأتِ به النبى ﷺ.

۞ ومن أجل ذلك لَا بُدَّ أن نستحضر النية الصالحة قبل أى عمل: أن هذا العمل ابتغاء مرضاة الله (جلَّ وعلا).

۞ فالنية الصالحة بالنسبة للعمل الصالح كالروح بالنسبة للجسد فلا ينفع قول ولا عمل إلا بنية صالحة وموافقة للسُّنة.

۞ وقد يتحصل الإنسان على الأجر والثواب العظيم بسبب النية الصالحة وإن لم يعمل أى شىء.

قال ﷺ: «... **إِنَّمَا الدُّنْيا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيةِ، يقُولُ: لَوْ أَنَّ لِى مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ...**»[1].

۞ وتخلَّف رجال من الصحابة فى غزوة تبوك لم يكن عندهم زاد ولا راحلة... حبسهم العذر، ولم يكن عند النبى ﷺ ما يحملهم عليه، فبكوا بكاء الرجال شوقًا إلى الغزو فعلم الله نيّاتهم، فجعلهم شُركاءً للغُزاة فى الأجر.

قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾

[التوبة: ٩٢]

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٠٢٤).

۞ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في غزاة، فقال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلاَ قَطَعتُمْ وَادِيا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»(١)، قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»(٢).

۞ بل قد يظفر العبد بمنازل الشهداء إن سأل الله الشهادة بصدق حتى وإن مات على فراشه.

۞ عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»(٣).

۞ وإذا كان القلب في الدنيا هو محل النية فهو في الآخرة محل الحساب... ولذلك فسوف يُبعث كل عبدٍ على نيته ويحاسبه الله (جلَّ وعلا) على هذه النية.

۞ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيهِ»(٤).

۞ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى نِياتِهِمْ»(٥).

۞ بل إن الخلود في الجنة أو في النار يكون بسبب النيات.

۞ قال الحسن: «إنما خُلِّد أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، بالنيات»(٦).

۞ وقد يقول قائل: لِمَ يعذّب الله الكافر بالخلود في النار مُددًا لا نهاية لها مع أن العدل يقتضي أن يعذبه بمقدار المدة التي كَفَرَها؟ ولِمَ يُخلَّد المؤمن في الجنة مع أنه لم يؤمن ولم يُطع إلا مدة محدودة من الزمان، بل قد يُسلم لله قبل الغرغرة ويدخل في الإسلام ويموت ولم يسجد لله سجدة واحدة؟

---

(١) في رواية الإسماعيلي كما قال الحافظ في «فتح الباري» (٦/ ٤٧): «إلا وهم معكم فيه بالنية»، وفي حديث جابر عند مسلم (١٩١١): «إلا شركوكم في الأجر» أي: أن لهم من الأجر مثل أجر الغازي.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٤٢٣) كتاب المغازي.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٩) كتاب الإمارة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٨٧٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، وأحمد (١٤١٣٤).

(٥) صحيح: رواه أحمد في مسنده (٨٨٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠١٤).

(٦) الإحياء (٤/ ٣١٧).

والسبب فى ذلك أن المؤمن ينوى أن يطيع الله أبدًا، فجُوزى بالخلود جزاء نيته، والكافر كان عازمًا وناويًا الكفر أبدًا فجُوزى بنيته[١].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

(١) وعَنْ أَميرِ الْمُؤْمنينَ أبى حفْصٍ عُمرَ بنِ الْخَطَّابِ بْن نُفَيل بْنِ عَبْد الْعُزَّى ابن رياح بْن عبدالله بْن قُرْطِ بْنِ رزاح بْنِ عَدِى بْن كَعبِ بْن لُؤَى بن غالبٍ القُرَشى العدوى رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «إنَّمَا الأعمَالُ بالنِّياتِ، وإنَّمَا لكُلِّ امرئٍ مَا نَوَى، فمنْ كانَتْ هجْرَتُهُ إلى الله ورَسُوله فَهجرتُه إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، ومَنْ كَانَتْ هجْرَتُه لدُنْيا يُصيبُها، أو امرَأةٍ ينْكحُها فهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَر إليهِ»[٢] متَّفَقٌ على صحَّته. رواهُ إماما المُحَدِّثينَ: أَبو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بنُ إسْمَاعيل بْن إبْراهيمَ بْن الْمُغيرة بْن برْدزْبَهْ الْجُعفِى الْبُخارِى، وَأَبُو الحُسَينِ مُسْلمُ بْن الْحَجَّاجِ بن مُسلمٍ القُشَيرى النَّيسَابُورى رضي الله عنهما فى صَحيحيهما اللَّذَينِ هما أَصَحُّ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَة.

قَوْله ﷺ: «إنَّمَا الأعمَال بالنِّياتِ» الْحَدِيث ... أَجْمَع الْمُسْلِمُونَ عَلَى عِظَم مَوْقِع هَذَا الْحَدِيث، وَكَثْرَة فَوَائِده وَصِحَّته... قَالَ الشَّافِعِي وَآخَرُونَ: هُوَ ثُلُث الْإِسْلَام، وَقَالَ الشَّافِعِي: يدخُل فِي سَبْعِينَ بَابًا مِنْ الْفِقْه، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ رُبْع الْإِسْلَام، وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِي وَغَيره: يَنْبَغِي لِمَنْ صَنَّفَ كِتَابًا أَنْ يَبْدَأ فِيهِ بِهَذَا الْحَدِيث تَنْبِيهًا لِلطَّالِبِ عَلَى تَصْحِيح النِّيَّة.

وَنَقَلَ الْخَطَّابِي هَذَا عَنْ الْأَئِمَّة مُطْلَقًا، وَقَد فَعَلَ ذَلِكَ الْبُخَارِي وَغَيره، فَابْتَدَءُوا بِهِ قَبْل كُلّ شَيْء، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِي فِي سَبْعَة مَوَاضِع مِنْ كِتَابه[٣].

قال أبو عُبيد: ليس فى الأحاديث أجمع، ولا أغنى، ولا أنفع، ولا أكثر فائدة منه.

(١) انظر «الأشباه والنظائر» للسيوطى ص(١١)، و«تهذيب اللغة» للأزهرى (١/ ٥٥٦).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١) كتاب بدء الوحى، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.
(٣) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٧٩-٨٠).

۞ واتفق العلماء أمثال الشافعي وأحمد وابن المديني وأبي داود والدارقطني والبيهقي وغيرهم على عدِّه ربع الإسلام أو ثلثه أو نصفه.

فهذا أبو داود صاحب السنن يقول: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما تضمنه هذا الكتاب - يعني «كتاب السنن» - جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث...ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث:

أحدها: قوله ﷺ: « **إِنَّمَا الأَعمَالُ بالنِّيات** ».

والثاني: قوله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يعنِيهِ**»[١].

والثالث: قوله ﷺ: «**لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه**»[٢].

والرابع: قوله ﷺ: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**»[٣].

۞ والإمام أحمد يرى أن حديث: « **إِنَّمَا الأَعمَالُ بالنِّيات**» أحد قواعد الإسلام ولكنه عدَّ الأحاديث التي هي قواعد الإسلام ثلاثة: حديث: «**إنما الأعمال بِالنِّيَّاتِ**» وحديث: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**»، وحديث: « **مَنْ أَحدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ** »[٤].

۞ ووجَّه البيهقي كون حديث: «**إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ** » ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة، وغيرها محتاج إليها[٥].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩١١).

(٢) ورد هذا الحديث بهذا اللفظ عند السيوطي في «شرحه لسنن النسائي»، وورد الحديث بلفظ: «**لا يؤمِنُ أحدكم حتى يحب لأخيه، أو لجاره ما يحب لنفسه**»، وأخرجه بهذا اللفظ البخاري (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب المساقاة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

(٥) «فيض القدير» (١/ ٣٢)، و«فتح الباري» (١/ ١٠).

۞ «إِنَّمَا الأَعمَالُ بالنِّياتِ».. لقد وُضع هذا الحديث فى باب الإخلاص لله لنعلم أنه لَا بُدَّ أن تكون النية خالصة لله فى كلِّ قولٍ أو فعلٍ وعلى كل حال.

فعلى قدر النية الصالحة التى تكون فى قلبك يكون الأجر والثواب على ذلك العمل.. فمن الناس مَن تكون نيته فى القمة.. ومنهم مَن تكون نيته فى الحضيض.

حتى إنك لترى الرَّجلين يعملان عملاً واحدًا يتفقان فى ابتدائه وانتهائه وفى أثنائه وفى الحركات والسكنات والأقوال والأفعال، وبينهما كما بين السماء والأرض ...كل ذلك باختلاف النية.

۞ «وإِنَّمَا لكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» إن نويت الله والدار الآخرة فى أعمالك الشرعية حصل لك ذلك، وإن نويت الدُّنيا فقد تَحصُل وقد لا تَحصُل.

قال الله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨].

ما قال عجَّلنا له ما يريد، بل قال ما نشاء - أى لا ما يشاء هو - لمن نريد - لا لكل إنسان - فقيد المُعَجَّل والمُعَجَّل له.

إذًا ... من الناس مَن يُعطَى ما يريد من الدُّنيا ومنهم مَن يُعطَى شيئًا منه ومنهم مَن لا يُعطَى شيئًا أبدًا.

۞ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ الذى ذعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ أى: مقبولًا مُنَمَّى، مُدَّخرًا، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم. ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا.

۞ فَتَقْدِير هَذَا الْحَدِيث: إِنَّ الْأَعمَال تُحْسَب بِنِيةٍ، وَلَا تُحْسَب إِذَا كَانَتْ بِلَا نِية... وَفِيهِ: دَلِيل عَلَى أَنَّ الطَّهَارَة وَهِى الْوُضُوء وَالْغُسْل وَالتَّيمُّم لَا تَصِحّ إِلَّا

بِالنِّيةِ، وَكَذَلِكَ الصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصَّوْم وَالْحَجّ وَالِاعتِكَاف وَسَائِر الْعِبَادَات. وَأَمَّا إِزَالَة النَّجَاسَة فَالْمَشْهُور عِنْدنَا أَنَّهَا لَا تَفْتَقِر إِلَى نِية ؛ لِأَنَّهَا مِنْ بَاب التُّروك، والتَّرك لا يحتَاجُ إِلَى نِية.

۞ قَوْله ﷺ: «فَمَنْ كَانَ هِجْرَته إِلَى الله وَرَسُوله فَهِجْرَته إِلَى الله وَرَسُوله» مَعنَاهُ: مَنْ قَصَدَ بِهِجْرَتِهِ وَجْه الله وَقَعَ أَجْره عَلَى الله، وَمَنْ قَصَدَ بِهَا دُنْيا أَوْ اِمْرَأَة فَهِي حَظّه وَلَا نَصِيب لَهُ فِي الْآخِرَة بِسَبَبِ هَذِهِ الْهِجْرَة.

وَأَصل الْهِجْرَة التَّرْك، وَالْمُرَاد هُنَا تَرْك الْوَطَن. وَذِكْر الْمَرْأَة مَعَ الدُّنْيا يحتَمِل وَجْهَينِ: أَحَدهمَا: أَنَّهُ جَاءَ أَنَّ سَبَب هَذَا الْحَدِيث أَنَّ رَجُلًا هَاجَرَ لِيتَزَوَّج اِمْرَأَة يقَال: لَهَا أُمّ قَيس، فَقِيلَ لَهُ: مُهَاجِر أُمّ قَيس...وَالثَّانِي: أَنَّهُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى زِيادَة التَّحذِير مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ بَاب ذِكْر الْخَاصّ بَعد الْعَامّ تَنْبِيهًا عَلَى مَزِيته. وَاللهُ أَعلَم[1].

۞ **والهجرة**: أن ينتقل المسلم من دار الكفر إلى دار الإسلام.. إذا كان لا يستطيع أن يظهر دينه هناك ولا يقدر أن يمارس شعائر دينه فيهاجر إلى إحدى البلاد الإسلامية.

۞ والناس يختلفون فى هجرتهم.. فمنهم مَن يهاجر إلى الله ورسوله ﷺ.. يعنى يهاجر إلى المكان الذى يستطيع أن يتعايش فيه بقلبه وجوارحه مع شرع الله وسُنة رسوله ﷺ.. فهذا الذى ينال الخير.. ولذا قال ﷺ: «**فَهِجرتُه إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**»، ومنهم مَن يهاجر من أجل الدنيا.. كمن يريد أن يجمع المال حتى لو كان ذلك على حساب دينه والتزامه... أو كالذى يهاجر من أجل أن يتزوج امرأة؛ لأن أهلها قالوا له: لا نُزوجك إلا فى بلاد الإسلام واشترطوا عليه ألا يسافر بها إلى بلاد الكفر.. فمن أراد المال ومَن أراد المرأة لم يهاجر إلى الله ورسوله.. ولذا قال النبى ﷺ: «**فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٨٠، ٨١) بتصرف.

ولم يَقُل: «فهجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها».

احتقارًا وإعراضًا عن ذكرهما؛ لأنها نية فاسدة.

أقسام الهجرة

أقسام الهجرة: الهجرة تكون لِلْمَكَانِ وَللعمل، وتكون للعامل.

۞ **القسم الأول: هجرة المكان،** بأن ينتقل الإنسان من مكانٍ تَكثُر فيه المعاصي، ويكثر فيه الفسوق، وربما يكون بلد كفرٍ ... فيُهاجر إلى بلدٍ لا يوجد فيه ذلك.

وأعظمه الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وقد ذكر أهل العلم أنه تجب الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يُظهر دينه.

وأمَّا إذا كان قادرًا على إظهار دينه ولا يُعارَض إذا أقام شعائر الإسلام فإن الهجرة لا تجب عليه ولكنها تُستحب.

۞ فلا يجوز للإنسان أن يسافر إلى بلد الكفر إلا بشروطٍ ثلاثة:

الشرط الأول: أن يكون عنده علم يدفع به الشُّبهات، لأن الكفار يُوردون على المسلمين شُبَهًا فى دينهم وفى رسولهم وفى كتابهم وفى أخلاقهم.

فالكفار يُدخلون على المسلمين الشك حتى أن بعض زعمائهم صرَّح قائلاً: «لا تحاولوا أن تُخرجوا المسلم من دينه إلى دين النصارى ولكن يكفى أن تُشككوه فى دينه، لأنكم إذا شكَّكتموه فى دينه سلبتموه الدين وهذا كافٍ».

الشرط الثانى: أن يكون عنده دين يحميه من الشهوات لأن الإنسان الذى ليس عنده دين إذا ذهب إلى بلاد الكفر انغمس فى المعاصى؛ لأنه يجد زهرة الدنيا هناك، من خمرٍ وزنا ولواط وغير ذلك.

الشرط الثالث: أن يكون محتاجًا إلى ذلك ... مثل أن يكون مريضًا يحتاج إلى السفر إلى بلاد الكفر للاستشفاء، أو يكون محتاجًا إلى علم لا يوجد فى بلاد الإسلام فيذهب إلى هناك ... أو يكون الإنسان محتاجًا إلى تجارة، يذهب ويتَّجر ويرجع.

والسَّفر إلى بلاد الكفر للدَّعوة يجوز إذا كان له أثر وتأثير هناك فإنه جائز لأنه سفر لمصلحة... وبلاد الكفر كثير من عوامهم قد عمى عليهم الإسلام لا يدرون عن الإسلام شيئًا بل قد ضُلِّلوا وقيل لهم: إن الإسلام دين وحشية وهمجية.

۞ **القسم الثاني: هجرة العمل**، وهى أن يهجر الإنسان ما نهاه الله عنه من المعاصى والفسوق كما قال النبى ﷺ: «**المُسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِن لسَانِهِ ويدِهِ والمهاجرُ مَن هَجَر ما نَهى اللهُ عنه**»[1] فاهجر كل ما حرَّم الله عليك سواء كان مما يتعلق بحقوق الله أو مما يتعلق بحقوق عباد الله ... فتهجر السَّب والشَّتم والقتل والغش وأكل المال بالباطل وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام وكل شيء حرَّمه اللهُ ... تهجره، حتى لو أن نفسك دَعَتك إلى هذا وألحَّت عليك فذكّرها أنَّ الله حرَّم ذلك حتى تهجره وتبعد عنه.

۞ **القسم الثالث: هجرة العامل**، فالعامل قد تجب هجرته أحيانًا.

قال أهل العلم: مثل الرَّجل المجاهر بالمعصية الذى لا يبالى بها فإنه يُشرع هجره إذا كان فى هجره فائدة ومصلحة.

والمصلحة والفائدة أنه إذا هُجِر عَرفَ قدر نفسه ورجع عن المعصية.

أما إذا كان الهجرُ لا يُفيد ولا ينفع وهو من أجل معصية لا من أجل كفر لأن الكافر المُرتدَّ يُهجر على كل حال - أفاد أم لم يُفِد- لكن صاحب المعصية التى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.

دون الكفر إذا لم يكن فى هجره مصلحة فإنَّه لا يحل هجره لأن الرسول ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيانِ فَيُعرِضُ هَذَا وَيُعرِضُ هَذَا وَخَيرُهُمَا الَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»(١).

فيبقى النَّظر هل الهجر يفيد أم لا، فإن أفاد فإنه يُهجَر ... ودليل ذلك قصَّة كعب بن مالك، وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع رضي الله عنهم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فهجرهم النبى ﷺ وأمر المسلمين بهجرهم لكنهم انتفعوا بذلك انتفاعًا عظيمًا، ولجأوا إلى الله وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، وضاقت عليهم أنفسهم وأيقنوا ألاَّ ملجأ من الله إلا إليه فتابوا وتاب الله عليهم(٢).

***

(٢) وعَنْ أُمِّ الْمُؤْمنينَ أُمِّ عَبْدِ الله عَائشَةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغْزُو جَيشٌ الْكَعبَةَ فإذا كَانُوا ببيداءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بأَوَّلِهم وَآخِرِهِمْ» قَالَتْ: قُلْتُ يا رَسُولَ الله، كَيفَ يُخْسَفُ بَأَوَّلِهم وَآخرِهمْ وَفيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيسَ مِنهُمْ؟ قَالَ: «يُخْسَفُ بِأُوَّلِهم وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُون عَلَى نِياتِهِمْ»(٣).

۞ تلك الكعبة التى بناها آدم عليه السلام.. وقيل: إن الذى بناها الملائكة لكنها هُدمت وبقيت قواعدها مدفونة تحت الرمال.. إلى أن أمر الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام برفع قواعدها وبنائها من جديد.

۞ وتمر الأيام ويأتى أبرهة من بلاد اليمن ليغزو الكعبة من أجل أن يهدمها.. وكان معه فيلٌ ضخم.. فلما اقترب من الكعبة بَرَكَ الفيل على الأرض وأَبى أن يتقدم خطوة واحدة.. فإذا وجَّهوه نحو اليمن هرول وأسرع.. فأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل. أى: وسلط عليهم من جنوده طيرًا أتتهم جماعات،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٠) كتاب البر والصلة.
(٢) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ ابن عثيمين رحمه الله.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢١١٨) كتاب البيوع، ومسلم (٢٨٨٤) كتاب الفتن.

متتابعة بعضها فى إثر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أى تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات ثاقبة، لا تصل إلى أحدٍ إلا قتلته ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ أى فجعلهم كورق الشجر، الذى عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم راثته، فأهلكهم عن بكرة أبيهم... وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة.

وهكذا حمى الله الكعبة من كيد أبرهة الذى جاء لكى يهدم بيت الله... وفى آخر الزمان يغزو جيشٌ عظيم الكعبة مرة أخرى.

۞ وقوله: «**حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض**» أى بأرضٍ واسعة، خسف الله بأولهم وآخرهم.

خسفت بهم الأرض وساخوا فيها هم وأسواقهم وكل مَن معهم.

وفى هذا دليلٌ على أنَّهم جيش عظيم لأنَّ معهم أسواقهم للبيع والشِّراء وغير ذلك.

فيخسف الله بأولهم وآخرهم.

فقالت عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيسَ مِنْهُمْ؟

فهؤلاء جاءوا للبيع والشراء، وليس فى نيتهم أى قصدٍ لغزو الكعبة.

وفى رواية أنها قالت: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ الطَّرِيقَ قَد يَجْمَعُ النَّاسَ. قَالَ: «**نَعَمْ فِيهِمْ الْمُسْتَبْصِرُ وَالْمَجْبُورُ وَابْنُ السَّبِيلِ يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى يَبْعَثُهُمْ اللهُ عَلَى نِيَاتِهِمْ**»(١).

أَمَّا (الْمُسْتَبْصِر) فَهُوَ الْمُسْتَبِين لِذَلِكَ الْقَاصِد لَهُ عَمْدًا.... وَأَمَّا (الْمَجْبُور) فَهُوَ الْمُكْرَه.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٤) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

وَأَمَّا (ابْن السَّبِيل) فَالْمُرَاد بِهِ سَالِك الطَّرِيق مَعَهُمْ، وَلَيس مِنْهُمْ.

وَيَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا: أَي يقَع الْهَلَاك فِي الدُّنْيا عَلَى جَمِيعهم، (وَيصْدُرُونَ يوْم الْقِيامَة مَصَادِر شَتَّى)، أَي يُبْعَثُونَ مُخْتَلِفِينَ عَلَى قَدر نِيَّاتهم، فَيُجَازَوْنَ بِحَسَبِهَا.

وَفِي هَذَا الْحَدِيث مِنْ الْفِقْه التَّبَاعُد مِنْ أَهْل الظُّلْم، وَالتَّحْذِير مِنْ مُجَالَسَتهمْ، وَمُجَالَسَة الْبُغَاة وَنَحْوهمْ مِنْ الْمُبْطِلِينَ ؛ لِئَلَّا ينَالهُ مَا يُعَاقَبُونَ بِهِ... وَفِيهِ أَنَّ مَنْ كَثَّرَ سَوَاد قَوْم جَرَى عَلَيهِ حُكْمهمْ فِي ظَاهِر عُقُوبَات الدُّنْيا[1].

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].



(٣) وعَنْ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَت: قالَ النَّبِي ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعدَ الْفَتْحِ، وَلكِنْ جِهَادٌ وَنيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فانْفرِوا»[2].

لقد كانت مكة تحت سيطرة المشركين من كفار قريش فترة من الزمان.. فحاربوا النبي ﷺ وأصحابه حتى أخرجوا الرسول ﷺ فهاجر إلى المدينة المنورة وأقام فيها للإسلام دولة عظيمة.. ثم عاد بعد ثمان سنوات إلى مكة فاتحًا منتصرًا، فصارت مكة بلد إيمانٍ وإسلام ولم تُصبح بلد كفرٍ.. فلم يكن منها هجرة بعد ذلك.

وفي هذا دَليلٌ: على أن مكة لن تعود لتكون بلاد كفر بل ستبقى بلاد إسلام إلى أن تقوم السَّاعة أو إلى أن يشاء الله.

ثم قال: «ولكِن جِهَادٌ ونية» أي الأمر بعد هذا جهاد...أي يخرج أهل مكة من مكة إلى الجهاد.

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٨/ ١٠-١١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٩٠٠) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٦٤) كتاب الإمارة.
وَمَعنَاهُ: لا هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ لأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ.

و«النية»: أى النية الصَّالحة للجهاد فى سبيل الله وذلك بأن ينوى الإنسان بجهاده، أن تكون كلمة الله هى العليا.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: مَعنَاهُ: أَنَّ الْهِجْرَة الْفَاضِلَة الْمُهِمَّة الْمَطْلُوبَة الَّتِى يَمْتَاز بِهَا أَهْلهَا امْتِيازًا ظَاهِرًا انْقَطَعَتْ بِفَتْح مَكَّة، وَمَضَتْ لِأَهْلِهَا الَّذِينَ هَاجَرُوا قَبْل فَتْح مَكَّة، لِأَنَّ الْإِسْلَام قَوِىَ وَعَزَّ بَعدَ فَتْح مَكَّة عِزًّا ظَاهِرًا بِخِلَافِ مَا قَبْله.

۞ قَوْله ﷺ: «وَلَكِنْ جِهَاد وَنِيَّة». مَعنَاهُ: أَنَّ تَحصِيل الْخَير بِسَبَبِ الْهِجْرَة قَد انْقَطَعَ بِفَتْحِ مَكَّة وَلَكِنْ حصوله بِالْجِهَادِ وَالنِّيَّة الصَّالِحَة. وَفِى هَذَا: الْحَثّ عَلَى نِيَّة الْخَير مُطْلَقًا، وَأَنَّهُ يُثَاب عَلَى النِّيَّة (١).

۞ قوله ﷺ: «وإذا استُنْفِرْتُم فانْفِرُوا» يعنى: إذا استَنفركم وَلىُّ أمركم للجهاد فى سبيل الله فانفروا وجوبًا، وحينئذٍ يكون الجهاد فرض عين.

فلا يتخلف أحدٌ إلا مَن عَذره الله... لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩]. وهذا أحد المواضع التى يكون فيها الجهاد فرْض عين.

والموضع الثانى: إذا حصر بلدةً العدوُّ...أى جاء العدو حتى وصل إلى البلد وحصر البلد صار الجهاد فَرْض عين ووجب على كل أحدٍ أن يُقاتل حتى على النساء والشُّيوخ القادرين فى هذه الحال لأن هذا قتال دفاع.

وفرقٌ بين قتال الدِّفاع وقتال الطَّلب.

فيجب فى هذه الحال أن ينفر الناس كلهم للدِّفاع عن بلدهم.

الحالة الثالثة: إذا حضر الصَّف، والتقى الصَّفَّان، صفُّ الكفار وصفُّ

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ١٣).

المسلمين صار الجهاد حينئذٍ فَرْضَ عين ولا يجوز لأحدٍ أن ينصرف كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٥،١٦].

وقد جعل النبى ﷺ التَّولِّى يوْمَ الزَّحف من السَّبع المُوبِقات.

الموضع الرابع: إذا احتيج إلى الإنسان ... بأن يكون السِّلاح لا يعرفه إلا فرْدٌ من الأفراد، وكان الناس يحتاجون إلى هذا الرجل لاستعمال هذا السلاح الجديد مثلاً فإنه يتعين عليه أن يُجاهد وإن لم يستنفره الإمام وذلك لأنه محتاج إليه.

ففى هذه المواطن الأربعة، يكون الجهاد فرض عين.

وما سوى ذلك فإنه يكون فرض كفاية.

قال أهل العلم: ويجب على المسلمين أن يكون منهم جهاد فى العام مرة واحدة ... يُجاهدون أعداء الله لتكون كلمة الله هى العليا، لا لأجل أن يدافعوا عن الوطن لأنه وطن، لأن الدِّفاع عن الوطن من حيث هو وطن يكون من المؤمن والكافر... حتى الكفار يُدافِعُون عن أوطانهم لكن المسلم يُدافع عن دين الله، فيُدافع عن وطنه لا لأنَّه وطنه مثلاً، ولكن لأنه بلد إسلامى فيُدافع عنه حماية للإسلام.

أما الدفاع بنية الوطنيَّة أو بنيَّة القوميَّة فهذا يكون من المؤمن والكافر ولا ينفع صاحبه يوم القيامة... وإذا قُتل وهو يدافع بهذه النية فليس بشهيد، لأن الرسول ﷺ سُئِلَ عن الرَّجل يُقاتل حمية ويُقاتل شجاعة ويُقاتل لِيُرى مكانه أيُّ ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قاتَل لتكُون كَلِمَةُ الله هى العليا، فهُو فى سبيل الله»(١)(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣) كتاب العلم، ومسلم (١٩٠٤) كتاب الإمارة.

(٢) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١/ ٣٦-٣٧).

(٤) وعَنْ أبى عَبْد الله جابِرِ بْنِ عَبْد الله الأنْصَارى رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا مَع النَّبِى ﷺ فى غَزَاة فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعتُمْ وَاديًا إِلَّا كانُوا مَعكُم حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» وَفِى رِوَايَةٍ: «إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِى الأَجْرِ»(١).

(٥) وَرَوَاهُ البُخَارىُّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ: رَجَعنَا منْ غَزْوَة تبُوك مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَقْوامًا خلْفَنَا بالمدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعبًا وَلاَ وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»(٢).

فمعنى هذا الحديث أن المسلم إذا نوى أن يعمل عملًا صالحًا ولكن حبسه عنه حابس فإنه يُكتب له أجر ما نوى.

أما إذا كان المسلم يعمل عملًا صالحًا ثم حدث له عُذر فى وقتٍ ما.. أو عجز عن ذلك العمل الذى لم يكن يتركه أبدًا فى حال الصحة والإقامة فإنه يُكتب له أجر العمل كاملًا.

لأن النبى ﷺ قال: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يعمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»(٣).

۞ فمثلًا: إذا كان من عادته أن يصلى قيام الليل كل ليلة ولكنه حدث له ما يمنعه فى ليلة من الليالى أو فى بعض الليالى فلم يتمكن من القيام بسبب عُذرٍ أو مرض فإنه يُكتب له الأجر كاملًا..

وكذلك مَن كان عادته أن يصوم صيام تطوع ولكنه مرض فلم يتمكن فى وقتٍ ما من الصيام فإنه يُكتب له الأجر كاملًا.

أما إذا كان ليس من عادته أن يفعله فإنَّه يُكتب له أجْرُ النية فقط دون أجر العمل.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١١) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٨٣٩) كتاب الجهاد والسير.

الشِّعب: الطريق فى الجبل- والوادى: هو المكان الذى يسير فيه الماء بين جبلين.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

ودليله: أن فقراء الصَّحابة رضي الله عنهم قالوا: يا رسول الله، سَبَقَنا أهلُ الدُّثور بالأجُور والنَّعيم المُقيم – يعنى أن أهل الأموال سبقوهم بالصَّدقة والعتق فقال النبى ﷺ : «**أَلا أُخبركُم بشىء إذا فَعَلتمُوه أدركْتُم مَنْ سبقكُم ولم يُدرككم أحدٌ إلَّا مَنْ عمِلَ مثْلَ ما عَمِلْتُم**» فقال: «**تُسبِّحُون وتُكبِّرون وتَحمدونَ دُبر كلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِين**» ففعلوا، فَعِلمَ الأغْنياء بذلك ففعلوا مِثْلَما فَعَلُوا!!

فجاء الفقراء إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله، سمع إخْواننا أهْلُ الأموال بما فَعَلْنا ففعلوا مِثْله.

فقال النبى ﷺ : «**ذلك فضْلُ الله يُؤتيه مَن يشاء**» والله ذُو الفضل العظيم، ولم يَقُل لهم: إنكم قد أدركتم أجر عملهم لكن لا شك أن لهم أجر نية العمل.

۞ ولهذا ذكر النبى عليه الصلاة والسلام فيمن آتاه الله مالاً فجعل ينفقه فى سُبل الخير ... وكان هُنَاكَ رجلٌ فقير يقول: لو أن لى مالًا مثل فُلان لعملت فيه عمل فلانٍ ... قال النبى ﷺ : «**فهُو بنيتِه فهُمَا فى الأجْر سواء**».

أى: سواء فى أجر النية ... أما العمل فإنَّه لا يُكْتب له أجره إلا إن كان من عادته أن يعمله.

وفى هذا الحديث: إشارة إلى أن مَن خرج فى سبيل الله فى الغزو والجهاد، فإن له أجر ممشاه، ولهذا قال النبى ﷺ : «**ما سرتُم مَسِيرًا ولا قطعتم واديًا ولا شِعبًا إلَّا وهُم مَعكم**».

ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٢٠-١٢١]

ونظير هذا: أنَّ الرجل إذا توضأ فى بيته فأسبغ الوضوء ثمَّ خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة فإنَّه لا يخطو خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة.

وهذا من فضل الله عَزَّوَجَلَّ أن تكون وسائل العمل فيها هذا الأجر الذى بيَّنه الرَّسول ﷺ[١].

۞ وَفِى هَذَا الْحَدِيث: فَضِيلَة النِّيَّة فِي الْخَير، وَأَنَّ مَنْ نَوَى الْغَزْو وَغَيره مِنْ الطَّاعَات فَعَرَضَ لَهُ عُذْر مَنَعَهُ حَصَلَ لَهُ ثَوَاب نِيَّته، وَأَنَّهُ كُلَّمَا أَكْثَرَ مِنْ التَّأَسُّف عَلَى فَوَات ذَلِكَ، وَتَمَنَّى كَوْنه مَعَ الْغُزَاة وَنَحْوهمْ كَثُرَ ثَوَابه. وَاللهُ أَعلَم[٢].

(٦) وعَنْ أبى يَزيدَ مَعنِ بن يَزيدَ بْنِ الأَخْنسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ وَأَبُوهُ وَجَدّهُ صَحَابِيُّونَ، قَالَ: كَانَ أبى يَزيدُ أخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فى الْمَسْجِدِ فَجِئْتُ فَأَخَذْتُهَا فَأَتيتُهُ بِهَا. فقَالَ: وَالله مَا إِيَّاكَ أَردتُ، فَخَاصمْتُهُ إِلى رسول الله ﷺ فَقَالَ: «لَكَ مَا نَويتَ يا يَزِيدُ، وَلَكَ مَا أَخذْتَ يَا مَعنُ»[٣].

ففى هذا الحديث أن يزيد أخرج بعض الدراهم وأعطاها لرجلٍ فى المسجد من أجل أن يتصدق بها على الفقراء.. فجاء ابنه معن فأخذها.. فربما يكون ذلك الرجل الذى وكَّله يزيد لم يعلم أن هذا هو ابنه أو أنه رآه من المستحقين.. فلما بلغ ذلك أباه يزيد قال له: ما أردت إياك.. يعنى ما أردت أن أتصدق بهذا المال عليك..

فلما ذهبا إلى النبى ﷺ قال: «لَكَ مَا نويتَ يا يزيدُ، وَلَكَ مَا أَخذْتَ يا مَعنُ».

وهذا يدل على أن الأعمال بالنيات.. وأن الإنسان يتحصل على الأجر إذا نوى الخير.. فيزيد نوى أن يتصدق ولم يقصد أن يصل المال إلى ابنه.. لكن ابنه

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٨).
(٢) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٨٤).
(٣) صحيح: رواه البخارى (١٤٢٢) كتاب الزكاة.

أخذها وكان من المستحقين فحصل على الأجر.

والحديث يدل أيضًا على أن الإنسان يُكتب له أجر ما نوى وإن وقع الأمر على خلاف ما نوى.

فإذا أعطى المسلم زكاته لإنسانٍ وهو يظن أنه مُستحق لتلك الزكاة ثم تبين له أنه غني وليس من أهل الزكاة فإن زكاته تُجزئه وتبرأ بها ذمته وتكون مقبولة؛ لأنه نوى أن يعطيها لمن يستحقها ولكن الأمْرَ وقع على خلاف ما نوى.

۞ وفى هذا الحديث أنه يجوز للمسلم أن يعطى ولده من زكاته لكن بشرط ألا يقصد بذلك إسقاط واجب نفقته على ابنه... بمعنى أنه إذا أراد أن يعطى ابنه زكاته من أجل ألا يطالبه بالنفقة فهذا لا يجوز ولا يجزئه ذلك لأنه أراد أن يعطيه الزكاة من أجل أن يسقط واجب نفقته.

أما لو أعطاه زكاته من أجل أن يقضى دَينًا عليه أو أن يدفع له ثمن غرامة عليه بسبب حادث وقع له فإن ذلك يجزئه عن الزكاة؛ لأنه لم يقصد بذلك إسقاط واجب نفقته.

والدليل على هذا: ما فى حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حينما قال لزوجته - وقد أرادَتْ أن تَتَصَدَّق - قال لها: زَوْجُكِ ووَلَدُك أحَقُّ مَنْ تَصَدَّقتِ عليه.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر بالصدقة وحثَّ عليها، فأرادت زينب زوجة عبد الله بن مسعود أن تتصدَّق بشيءٍ من مَالِها فقال لها زَوْجها ما قَال لأنه كان فقيرًا رضي الله عنه فقالت: لا! حتى أسْألَ النبى ﷺ فسألت النبى ﷺ فقال: «**صَدَقَ عبدُ الله، زَوْجُك وَوَلدُك أحقُّ مَنْ تصدقتِ به عليهم**»[1].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٤٦٢) كتاب الزكاة.

(٧) وعَنْ أَبي إِسْحَاقَ سَعد بْنِ أبي وَقَّاصٍ مَالك بن أُهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَاف بْنِ زُهرةَ بْنِ كِلاب بْنِ مُرَّةَ بْنِ كعبِ بن لُؤىٍّ الْقُرشىِّ الزُّهَرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحدِ الْعَشرةِ الْمَشْهودِ لَهمْ بِالْجَنَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: « جَاءنى رَسُولُ الله ﷺ يَعُودُنِى عَامَ حَجَّة الْوداعِ مِنْ وَجعٍ اشتدَّ بى فَقُلْتُ: يَا رسُول الله إِنِّى قَد بلغَ بِى من الْوجعِ مَا تَرى، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلاَ يَرِثُنى إِلَّا ابْنةٌ لِى، أَفأَتصدَّق بثُلُثَى مَالِى؟ قَالَ: «لَا»، قُلْتُ: فَالشَّطْرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «لَا»، قُلْتُ: فَالثُّلُثُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ إِنَّكَ إِنْ تَذر وَرثتك أغنياءَ خَيْرٌ مِن أَنْ تذرهُمْ عالَةً يَتكَفَّفُونَ النَّاس، وَإِنَّكَ لَنْ تُنفِق نَفَقَةً تبْتغى بِهَا وجْهَ الله إِلَّا أُجرتَ عَلَيهَا حَتَّى ما تَجْعلُ فى فِىِّ امْرَأَتِكَ» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أُخَلَّفُ بَعدَ أَصحَابِى؟ قَال: «إِنَّك لن تُخَلَّفَ فتعمَل عَمَلًا تَبْتغى به وَجْهَ الله إِلَّا ازْددتَ به دَرجَةً ورِفْعَةً ولعَلَّك أَنْ تُخلَّف حَتى ينْتفعَ بكَ أَقْوامٌ وَيُضَرَّ بك آخرُونَ. اللَّهُمَّ أَمْضِ لأصحابى هجْرتَهُم، وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعقَابِهِمْ، لَكن الْبائس سعدُ بْنُ خوْلَةَ يرْثى لَهُ رسولُ الله ﷺ أن مَاتَ بمكَّةَ»[1].

يحكى سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ جاءه يعوده فى مرضه.. وكان ذلك فى مكة مع أن سعد بن أبى وقاص من المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وترك بلده ابتغاء مرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ.

وكان من عادة النبى ﷺ أنه كان يعود كل مَن مرض من أصحابه.. وكان يسأل عنهم ويطمئن عليهم دائمًا.

فلما عاده النبى ﷺ اشتكى له سعد ما يجده من الوجع.. ثم أخبره أنه يمتلك الكثير من المال وأنه لا يرثه إلا ابنة واحدة.. أى ليس له ورثة بالفرض إلا هذه البنت.. ثم قال له: «أَفأَتصدَّق بثُلُثَى مالى» أى أعطيه صدقة لمن يستحق. فمنعه النبى ﷺ لأنه كان مريضًا مرضًا يُخشى منْهُ الموت ولذلك منعه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٥) كتاب الجنائز، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

النبى ﷺ أن يتصدق بأكثر من الثلث.

لأن المريض مرض الموت المخوف لا يجوز أن يتصدَّق بأكثر من الثلث، لأن ماله قد تعلَّق به حقُّ الغير وهم الورثة. أما مَن كان صحيحًا ليس فيه مرض أو فيه مرض يسير لا يخشى منه الموت فَلَهُ أن يتصدَّق بما شاء بالثلث أو بالنصف أو بالثلثين أو بماله كله لا حرج عليه.

لكن لا ينبغى أن يتصدَّق بماله كله إلا إن كان عنده شىء يعرف أنه سوف يستْغنى به عن عباد الله.

المهم أن الرسول ﷺ منعه أن يتصدَّق بأكثر من الثلث، وقال: «**الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كثير أو كبير**».

وفى هذا دليلٌ على أنَّه إذا نقص عن الثلث فهو أحسن وأكمل، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لَوْ أنَّ الناس غَضُّوا من الثُّلث إلى الرُّبع لأنَّ النبى ﷺ قال: «**الثُّلُثُ والثُّلثُ كثير**».

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «أرضَى ما رَضيهُ الله لنفسه» يعنى: الخُمس، فأوصى بالخمس رضي الله عنه.

قال فقهاؤنا - رحمهم الله-: والأفضل أن يوصى بالخُمس لا يزيد عليه اقتداءً بأبى بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إنَّك إنْ تَذَر ورَثَتك أغْنياء خيرٌ مِن أنْ تَذَرَهُم عَالَةً يتكَفَّفُونَ الناس**».

أى كونك تُبقى المال ولا تتصدق به حتى إذا مت وورثه الورثة صاروا أغنياء به، هذا خيرٌ من أن تذرهم عالةً لا تترك لهم شيئًا «يتكفَّفون الناس» أى: يسألون الناس بأكُفهم أعطونا أعطونا.

وفى هذا دليل على أن الميِّت إذا خلَّف مالاً للورثة فإن ذلك خيرٌ له.

لا يظن الإنسان أنه إذا خلف المال وَوُرث منه قهرًا عليه أنه لا أجر له فى ذلك، لا ... بل له أجر[(١)].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِى هَذَا الْحَدِيث: حَثٌّ عَلَى صِلَة الأَرحَام، وَالإِحسَان إِلَى الأَقَارِب، وَالشَّفَقَة عَلَى الْوَرَثَة، وَأَنَّ صِلَة الْقَرِيب الأَقْرَب وَالإِحسَان إِلَيهِ أَفْضَل مِنْ الأَبْعَد.

۞ قوله ﷺ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنفِق نَفَقَةً تبْتغى بِهَا وجْهَ الله إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيهَا حَتَّى ما تَجْعلُ فى فِيِّ امْرَأَتِكَ**» أى: حتى اللقمة التى تطعمها امرأتك تُؤجَر عليها إذا قصدت بها وجْه الله، مع أن الإنفاق على الزَّوجة أمرٌ واجب، لو لم تنفق لقالت أنفِق أو طلِّق، ومع هذا إذا أنفقت على زوجتك تُريد به وجْه الله آجرك الله على ذلك. وكذلك إذا أنفقت على أولادك، وإذا أنفقت على أمك وعلى أبيك، بل إذا أنفقت على نفسك تبتغى بذلك وَجْهَ الله فإن الله يُثيبك على هذا.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لِأَنَّ زَوْجَة الإِنْسَان هِى مِنْ أَخَصّ حُظُوظه الدُّنْيوِيَّة وَشَهَوَاته وَمَلَاذه الْمُبَاحَة، وَإِذَا وَضَعَ اللُّقْمَة فِى فِيهَا فَإِنَّمَا يكُون ذَلِكَ فِى الْعَادَة عِنْد الْمُلَاعَبَة وَالْمُلَاطَفَة وَالتَّلَذُّذ بِالْمُبَاح، فَهَذِهِ الْحَالَة أَبْعَد الأَشْيَاء عَنْ الطَّاعَة وَأُمُور الآخِرَة، وَمَعَ هَذَا فَأَخبرَ ﷺ أَنَّهُ إِذَا قَصَدَ بِهَذِهِ اللُّقْمَة وَجْه الله تَعَالَى، حَصَلَ لَهُ الأَجْر بِذَلِكَ...فَغَير هَذِهِ الْحَالَة أَوْلَى بِحُصُولِ الأَجْر إِذَا أَرَادَ وَجْه الله تَعَالَى، وَيَتَضَمَّن ذَلِكَ أَنَّ الإِنْسَان إِذَا فَعَلَ شَيئًا أَصله عَلَى الإِبَاحَة، وَقَصَدَ بِهِ وَجْه الله تَعَالَى يُثَاب عَلَيهِ، وَذَلِكَ كَالأَكْلِ بِنِيَّةِ التَّقَوِّى عَلَى طَاعَة الله تَعَالَى، وَالنَّوْم لِلِاسْتِرَاحَةِ؛ لِيَقُومَ إِلَى الْعِبَادَة نَشِيطًا، وَالِاسْتِمْتَاع بِزَوْجَتِهِ وَجَارِيته؛ لِيكُفّ نَفْسه وَبَصَره وَنَحوهمَا

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٤١).

عَنْ الْحَرَام؛ وَلِيَقْضِي حَقّهَا ؛ وَلِيُحَصِّل وَلَدًا صَالِحًا، وَهَذَا مَعنَى قَوْله ﷺ: «**وَفِي بُضْع أَحَدكُمْ صَدَقَة**» واللهُ أعلَم[1].

۞ ثم قال رضي الله عنه: «**أُخلَّفُ بعدَ أصحابي؟**» يعني: أؤُخَلَّف بعد أصحابي، أي: هل أتأخر بعد أصحابي فأموت بمكة. فبيَّن النبي ﷺ أنَّه لن يُخَلَّف فقال: «**إنك لن تُخلف**» وبَيَّن له أنه لو خُلِّف ثم عملَ عملاً يبتغي به وجه الله لازداد به عند الله درجة ورفْعة.

يعني: لو فُرض أنك خُلفت ولم تتمكن من الخروج من مكة وعملت عملاً تبتغي به وجه الله فإن الله سبحانه يزيدك به رِفْعةً ودَرَجة...رِفْعة في المقام والمرتبة ودرجة في المكان.

فيرفعك الله عز وجل في جنَّات النعيم درجات، حتى لو عملت بمكة وأنت قد هاجرت منها.

۞ ثم قال النبي ﷺ: «**وَلَعَلَّك أَنْ تُخَلَّف حَتَّى يَنْتَفِعَ بِك أَقْوَام وَيُضَرّ بِك آخَرُونَ**»، وَهَذَا الْحَدِيث مِنْ الْمُعجِزَات، فَإِنَّ سَعدًا رضي الله عنه عَاشَ حَتَّى فَتَحَ الْعِرَاق وَغَيره، وَانْتَفَعَ بِهِ أَقْوَام فِي دِينهمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَتَضَرَّرَ بِهِ الْكُفَّار فِي دِينهمْ وَدُنْيَاهُمْ فَإِنَّهُمْ قُتِلُوا وَصَارُوا إِلَى جَهَنَّم، وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَأَوْلَادهمْ، وَغُنِمَتْ أَمْوَالهمْ وَدِيَارهمْ، وَوَلِيَ الْعِرَاق فَاهْتَدَى عَلَى يَدَيهِ خَلَائِق، وَتَضَرَّرَ بِهِ خَلَائِق بِإِقَامَتِهِ الْحَقّ فِيهِمْ مِنْ الْكُفَّار وَنَحوهمْ.

۞ ثم قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ أمْضِ لأصحَابي هِجْرتَهم**» سأل الله أن يُمضي لأصحابه هجرتهم وذلك بأمْرَين:

الأمر الأول: ثباتهم على الإيمان لأنَّه إذا ثبت الإنسان على الإيمان ثبت على الهجرة.

---

(١) مسلم بشرح النووي (١١/ ١١٢).

والأمر الثانى: ألا يرجع أحدٌ منهم إلى مكة بعد أن خرج منها مهاجرًا إلى الله ورسوله.

لأنك إذا خرجت من البلد مُهاجرًا إلى الله ورسوله فهو كالمال الذى تتصدق به لا يمكن أن ترجع فيه.

«**وَلا تَرُدَّهم على أعقابِهِم**» أى: لا تجعلهم ينتكسون عن الإيمان فيرتدون على أعقابهم... لأن الكفر تأخُّر والإيمان تَقدُّم وهذا على عكس ما يقوله الملحدون اليوم حيث يصِفُون الإسلام بالرَّجعية، ويقولون: إن التَّقدُّمية أن ينسلخ الإنسان من الإسلام وأن يكون علمانيًّا لا يفرق بين الإيمان والكفر والعياذ بالله ولا بين الفسوق والطاعة... فالإيمان هو التقدُّم فى الحقيقة.

۞ **قَوْله ﷺ**: «**لَكِنْ الْبَائِسُ سَعدُ بْنُ خَوْلَة**» الْبَائِس: هُوَ الَّذِى عَلَيهِ أَثَر الْبُؤْس، وَهُوَ: الْفَقْر وَالْقِلَّة.

قَوْله: «يرْثِى لَهُ رَسُول الله ﷺ أَنْ مَاتَ بِمَكَّة».

قَالَ الْعُلَمَاء: هَذَا مِنْ كَلَام الرَّاوِى وَلَيسَ هُوَ مِنْ كَلَام النَّبِىِّ ﷺ بَلْ اِنْتَهَى كَلَامه ﷺ بِقَوْلِهِ: «**لَكِنْ الْبَائِس سَعد بْن خَوْلَة**» فَقَالَ الرَّاوِى: تَفْسِيرًا لِمَعنَى هَذَا الْكَلَام: أَنَّهُ يَرْثِيه النَّبِىّ ﷺ وَيَتَوَجَّع لَهُ وَيَرِقّ عَلَيهِ ؛ لِكَوْنِهِ مَاتَ بِمَكَّة، وَاخْتَلَفُوا فِى قَائِل هَذَا الْكَلَام مَنْ هُوَ؟ فَقِيلَ: هُوَ سَعد بْن أَبِى وَقَّاص، وَقَد جَاءَ مُفَسَّرًا فِى بَعض الرِّوَايَات... قَالَ الْقَاضِى: وَأَكْثَر مَا جَاءَ أَنَّهُ مِنْ كَلَام الزُّهْرِىّ، قَالَ: وَاخْتَلَفُوا فِى قِصَّة سَعد بْن خَوْلَة فَقِيلَ: لَمْ يُهَاجِر مِنْ مَكَّة حَتَّى مَاتَ بِهَا.

وَذَكَرَ الْبُخَارِىُّ أَنَّهُ هَاجَرَ وَشَهِدَ بَدرًا ثُمَّ اِنْصَرَفَ إِلَى مَكَّة وَمَاتَ بِهَا.

وَقَالَ اِبْن هِشَام: إِنَّهُ هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَة الْهِجْرَة الثَّانِية، وَشَهِدَ بَدرًا وَغيرهَا، وَتُوُفِّىَ بِمَكَّة فِى حَجَّة الْوَدَاع، سَنَة عَشر.

فعلى هذا سَبَب بُؤْسه سُقُوط هِجرَته لِرجُوعِهِ مُخْتَارًا وَموته بِهَا... وَعَلَى

قَول الآخرينَ سَبَب بُؤسه مَوْته بِمَكَّة عَلَى أَى حَالٍ كَانَ، وَإِنْ لَمْ يكُنْ بِاخْتِيَارِهِ لَمَا فَاتَهُ مِنْ الأَجْر وَالثَّوَاب الْكَامِلِ بِالْمَوْتِ فِى دَار هِجْرَته، وَالْغُرْبَة عَنْ وَطَنه إِلَى هِجْرَة لِلَّهِ تَعَالَى[1].

۞ وفى هذا الحديث فوائد عظيمة كثيرة:

منها: أن من هدى الرَّسول ﷺ عيادة المرضى لأنه عَاد سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه... وفى عيادة المَرْضى فوائد للعائد وفوائد للمَعُود.

أما العائد فإنه يؤدى حق أخيه المسلم لأن من حق أخيك المسلم أن تعوده إذا مرض.

ومنها: أنه ينبغى للإنسان مشاورة أهل العلم لأنَّ سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه استشار النبى ﷺ حينما أراد أن يتصرَّف بشىءٍ من ماله.

ففيه استشارة أهل العلم والرأى، وكل إنسان بحسبه ... فمثلاً إذا كنت تُريد أن تُقْدِم على شىءٍ من أمور الدين فشاور أهل العلم لأنَّهم أعلم بأمور الدين من غيرهم... وإذا أردت أن تشترى بيتًا فشاور أصحاب المكاتب العقارية... وإذا أردت أن تشترى سيارة فاستشر المهندسين فى ميكانيكية السيارات وهكذا.

ولهذا يُقال: «ما خابَ مَن اسْتَخار ولا نَدِمَ مَن اسْتَشَارَ».

ومن فوائد الحديث: أنَّه لا يجوز للمريض مرضًا مخوفًا أن يعطى أكثر من الثُّلث إلا إذا أجازه الورثة لأن الورثة تعلَّق حَقُّهم بالمال لمَّا مَرِضَ الرَّجل .. لقول النبى ﷺ: «**الثُّلث والثُّلث كثير**».

وفيه دليل: على أنَّه ينبغى أن يكون عطاؤه أقل من الثُّلث كما قال ابن عباس رضي الله عنهما لو أنَّ النَّاس غَضُّوا من الثُّلث إلى الرُّبع لأن النبى ﷺ قال: «**الثلث والثُّلث كثير**».

---

(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ١١٣-١١٤) بتصرف.

ومنها: أنَّه لا يجوز للإنسان إذا كان مريضًا مرضًا يُخشَى منه الموت أن يتبرع بأكثر من الثُّلث من مَالِه، لا صدقة ولا مشاركة فى بناء مسَاجد ولا هبة ولا غير ذلك..لا يزيد على الثُّلث لأن النبى ﷺ منع سعدًا من أن يتصدَّق بأكثر من الثلث.

والوصية كالعطية فلا يجوز أن يوصى الإنسان بشيء من ماله بعد موته زائدًا على الثُّلث.

والأفضل فى الوصية أن تكون بالخمس لأثر أبى بكر المتقدم آنفًا.

ومنها: إذا كان مال الإنسان قليلاً وكانَ وَرَثته فقراء فالأفضل ألا يُوصى بشيءٍ لا قليل ولا كثير لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنَّك إنْ تذر ورثتك أغْنياء خيرٌ من أن تذرهم عَالَة**» خلافًا لما يظنُّه بعض العوام أنَّه لا بُدَّ من الوصية .. هذا خطأ.. لأنَّ الإنسان الذى مَالُه قليل ووَرَثته فقراء ليس عندهم مال لا ينبغى له أن يوصى.

ومنها: أنه ما من إنسان يعمل عملاً يبتغى به وجه الله إلا ازداد به رفْعَة ودرجة حتى وإن كان فى مكان لا يحل له البقاء فيه، لأن العمل شيء والبقاء شيءٌ آخر.

ولهذا كان القول الرَّاجح من أقوال أهل العلم أن الإنسان إذا صلّى فى أرضٍ مغصوبة فإن صلاته صحيحة لأن النّهى ليس عن الصَّلاة بل النَّهى عن الغصب.

ومنها: أن الإنسان إذا أنفق نفقة يبتغى وجْه الله فإنه يُثاب عليها، حتى النفقات على أهله وعلى زوجته بل وعلى نفسه إذا ابتغى بها وَجه الله أثابه الله عليها.

وفيه: إشارة أنه ينبغى للإنسان أن يستحضر نية التَّقرُّب إلى الله فى كل ما ينفق حتى يكون له فى ذلك أجر[١].

---

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٨) وعَنْ أبى هُريرة عَبْد الرَّحْمن بْنِ صخْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا ينْظُرُ إلى أَجْسامِكُم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ ينْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ [وَأَعمالِكُمْ]»[١].

فالله عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إلى أجساد العباد.. هل هى قوية أو ضعيفة.. هل هى كبيرة أو صغيرة.. هل هى صحيحة أو سقيمة.. وكذلك لا ينظر إلى صور العباد هل هى جميلة أو دميمة.. لأن كل هذا لا يساوى أى شىء عند الله جلَّ وعلا. وكذلك لا ينظر للأحساب والأنساب والمناصب وغيرها من حُطام الدنيا الزائل.. وإنما ينظر إلى قلوب العباد وأعمالهم فإنه ليس بين الله وبين عباده صلة إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

فمن كان لله أتقى كان من الله أقرب وكان عند الله أكرم.

۞ فإياك أن تفتخر بقوتك أو صحتك أو جمالك أو مالك أو حسبك أو أولادك أو قصورك وسياراتك ولا بأى شىءٍ من حُطام الدنيا الفانى... وإنما عليك أن تحمد الله وأن تسجد شُكرًا لله إذا رزقك نعمة التقوى وجعلك من عباده المُتقين المُخلصين العابدين.

۞ ولا بد أن تعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ مُطَّلع على قلبك.. يعلم ما فيه لأنه سبحانه وتعالى يعلم السرَّ وأخفى... يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور.. ويرفع قدرك فى الدنيا والآخرة على قدر ما فى قلبك من الحب والخوف والرجاء والثقة واليقين والتوكل وحُسن الظن.. ويوم القيامة يكون الأجر والثواب على قدر ما فى قلبك من الإيمان والتقوى ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] فإن كانت السريرة طيبة كان الثواب العظيم.. وإن كانت السريرة غير طيبة كان العذاب الأليم.

ومن أجل ذلك لَا بُدَّ أن تحرص على سلامة قلبك من الشرك والرياء

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.



والنفاق وكل ما يُغضب الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

واعلم أن الناس لن ينفعوك.. فاحرص على أن تجعل عملك كله خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ.. فإنك إذا فعلت ما يُرضي ربك فإن الله سيَرضى عنك وسيُرضي عنك الناس من حولك.... وإذا فعلت ما يجلب لك سخطه فسوف يَسخط عليك ويُسخط عليك الناس من حولك.

قال ﷺ: **«مَنْ أَرضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ، وَمَنْ أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَا الله كَفَاهُ اللهُ مُؤنَةَ النَّاسِ»** وَفِي رِوَايَةٍ: **«مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ»**[1].

۞ وهنا وقفة لطيفة مع الزيادة الواردة فى الحديث الأول: « **وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ [وَأَعمالِكُمْ]**» أى بزيادة كلمة « **وَأَعمالِكُمْ**».

۞ **قال الشيخ الألبانى** رَحِمَهُ اللهُ:

وهذه الزيادة هامة جدًّا، لأن كثيرًا من الناس يفهمون الحديث بدونها فهمًا خاطئًا، فإذا أنت أمرتهم بما أمرهم به الشرع الحكيم من مثل إعفاء اللحية، وترك التشبُّه بالكفار، ونحو ذلك من التكاليف الشرعية، أجابوك بأن العُمدة على ما فى القلب، واحتجوا على زعمهم بهذا الحديث، دون أن يعلموا بهذه الزيادة الصحيحة الدالة على أن الله تبارك وتعالى ينظر أيضًا إلى أعمالهم، فإن كانت صالحة قَبِلَها وإلا ردَّها عليهم كما تدل على ذلك عديد من النصوص ... كقوله ﷺ: **«مَنْ أَحدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»**.

والحقيقة أنه لا يمكن تصوُّر صلاح القلوب إلا بصلاح الأعمال، ولا صلاح الأعمال إلا بصلاح القلوب، وقد بيَّن ذلك رسول الله ﷺ أجمل بيان فى

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠١٠) (٦٠٩٧).

حديث النعمان بن بشير: «... **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

(٩) وعَنْ أبى مُوسَى عبْدِ الله بْنِ قَيس الأشعرِى ﷺ قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجَاعَةً، ويُقاتلُ حَميةً ويُقاتلُ رياءً، أى ذلك فى سَبيل الله؟ فقَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لتَكُوّن كلِمةُ الله هِى الْعُلْيا فهُوَ فى سَبِيل الله»(٢).

❁ فقد سُئل الرسول ﷺ عن الذى يقاتل على أحد الوجوه الثلاثة: شجاعة، وحمية، وليُرى مكانه.

أما الذى يقاتل شجاعة: فمعناه أنَّه رجل شجاع يحب القتال ... لأن الرّجل الشجاع متصف بالشجاعة، والشجاعة لَا بُدَّ لها من ميدان تظهر فيه ... فتجد الشجاع يُحبُّ أن الله ييسِّر له قتالاً ليُقاتل ويُظهر شجاعته. فهو يُقاتل لأنه شجاع يحب القتال.

الثانى يقاتل حميةً: حمية على قومية، حمية على قبيلة، حمية على وطن، حمية لأى عصبية كانت.

الثالث يقاتل ليُرى مكانه: أى ليراه الناس ويعرفوا أنه شجاع.

فعدل النبى ﷺ عن ذلك وقال كلمةً موجزة ميزانًا للقتال فقال: «**مَنْ قاتلَ لِتكُون كَلِمةُ الله هِى العُلْيا فُهو فى سَبيل الله**»(٣).

ولذلك فإن أول ما يُطلَب من المجاهد: أن يصحِّح نيته فى جهاده، فلا يكون جهاده غضبًا لنفسه، أو حَمِيَّة لقومه، أو إظهارًا للشجاعة، أو

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب البيوع.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣) كتاب العلم، ومسلم (١٩٠٤) كتاب الإمارة.
(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٥١).

طلبًا لشهرة ومَحمَدة عندَ الناس، أو تطلُّعًا إلى غنيمة لذاته أو لجماعته وقومه... كالاستيلاء على المواد الخام فى بلدٍ ما، أو فتح الأسواق أمام سلعٍ ما، أو احتكار سوق مُعينة لحسابه، أو لحساب قومه أو دولته، أو نحو ذلك، وإنما يُمحِّض قصده لوجه الله، ولنُصرة دينه، وإعلاء كلمته، وكسب رضاه.

فمما لا شك فيه: أن الجهاد قُربةٌ وعبادة من عبادات الإسلام، بل هو أفضل ما يتطوَّع به المسلم من قُربات، كما دلَّت على ذلك الآيات والأحاديث. ولا تُقبل عبادة فى الإسلام عند الله إلا بنيَّة التعبُّد والامتثال لأمر الله تعالى، وقصد الإخلاص له [1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

۞ ومن أجل ذلك فإنه لا ينبغى لمسلم أن يُجاهد من أجل القومية العربية أو من أجل الدفاع عن الأرض فقط.. بل لَا بُدَّ أن يصحب ذلك أعظم نية.. ألا وهى الدفاع عن الإسلام ونُصرة المسلمين فى كل مكان وليس فى بلدك فحسب.

أما قتال الدفاع: أى لو أن أحدًا صَالَ عليك فى بيتك يريد أخذ مالك أو يريد أن ينتهك عِرض أهلك مثلاً فإنك تُقاتله كما أمرك بذلك النبى عليه الصَّلاة والسلام.

فقد سُئل عن الرَّجل يأتيه الإنسان ويقول له: أعطنى مالك؟ قال: «**لا تُعطه**». قال: أرأيت إن قاتلنى؟ قال: «**قاتله**»، قال: أرأيت إن قَتلنى؟ قال: «**إنْ قَتلكَ فأنت شَهيدٌ**». قال: أرأيت إنْ قَتَلْتُهُ؟ قال: «**إن قَتَلْتَهُ فهو فى النَّار**»[2] لأنه معتدٍ ظالم حتى وإن كان مسلمًا....إذا جاءَك المسلم يريد أن يُقاتلك من أجل أن يُخرجك من بلدك أو من بيتك فقاتِله فإن قتلته فهو فى النَّار وإن قتلك فأنت شهيد.

(١) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/ ٦٩٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٠) كتاب الإيمان.

(١٠) وعَنْ أبى بكْرَة نُفيعِ بْنِ الْحارثِ الثَّقفى رضي الله عنه أنَّ النَّبى ﷺ قال: «إذَا الْتقَى الْمُسْلمَانِ بِسَيفَيهِما فالْقاتِلُ والمقْتُولُ فى النَّارِ» قُلْتُ: يا رَسُول الله، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»(١).

۞ فقوله: «إذَا الْتقَى الْمُسْلمَانِ بِسَيفَيهِما» أى: كان كل واحدٍ منهما يُريد أن يقتل الآخر فسلَّ عليه سيفه أو مُسدسه أو بندقيته أو غير ذلك من آلات القتل... وليس المقصود السيف بعينه وإنما المقصود أى أداة للقتل.

« فالْقاتِلُ والمقْتُولُ فى النَّارِ »، فقال أبوبكرة للنبى ﷺ: هذا القاتل؟ يعنى أن كونه فى النار واضح لأنه قتل نفسًا مؤمنة متعمدًا ... والذى يقتل نفسًا مؤمنة متعمدًا بغير حقّ فإنَّه فى نار جهنم.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

أى: أننا سلَّمنا بأن القاتل فى النار ؛ لأنه قتل مؤمنًا فما بال المقتول.. لماذا يكون فى النار؟

فقال النبى ﷺ: « إنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » أى: أنه كان حريصًا على قتل صاحبه لولا أن صاحبه تفوق عليه بقوته فاستطاع أن يقتله.. ولو تمكّن هو من قتله لقتله ولم يتركه أبدًا على قيد الحياة... فيكون بنيته القتل وأخذه بالسبب الموصل للقتل كأنه قاتل.

وهذا دليلٌ على أن الأعمال بالنيات وبهذا نعرف الفرق بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُون دَمِه فَهُو شَهيدٌ، ومنْ قُتِلَ دُون أهْلِهِ فَهُو شَهيدٌ، ومنْ قُتِلَ دُون مَالِه فَهُو شَهيدٌ»(٢) وقوله فيمنَ أتى ليأخذ مالك: «إن قَتَلْتَهُ فهُو فى النَّار وإن قتلَكَ فأنتَ شَهيد».

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٥).

وفى هذا الحديث دليلٌ على عِظَم القتل، وأنه من أسباب دخول النار.

۞ وهنا وقفة فى غاية الأهمية: أنه لَا بُدَّ أن تعلم أَنَّ الدِّمَاء الَّتِى جَرَتْ بَين الصَّحَابَة رضي الله عنهم لَيسَتْ بِدَاخِلَةٍ فِى هَذَا الْوَعِيد.

وَمَذْهَبُ أَهْل السُّنَّة وَالْحَقّ إِحسَان الظَّنّ بِهِمْ، وَالْإِمْسَاك عَمَّا شَجَرَ بَينهمْ، وَتَأْوِيل قِتَالهمْ، وَأَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ مُتَأَوِّلُونَ لَمْ يقْصِدُوا مَعصِية وَلَا مَحض الدُّنْيَا، بَلْ اعتَقَدَ كُلّ فَرِيق أَنَّهُ الْمُحِقّ، وَمُخَالِفه بَاغٍ، فَوَجَبَ عَلَيهِ قِتَاله لِيَرجِع إِلَى أَمْر الله. وَكَانَ بَعضهمْ مُصِيبًا، وَبَعضهمْ مُخْطِئًا مَعذُورًا فِى الْخَطَأ؛ لِأَنَّهُ لِاجْتِهَادٍ، وَالْمُجْتَهِد إِذَا أَخْطَأَ لَا إِثْم عَلَيهِ... وَكَانَ عَلِيٌّ رضي الله عنه هُوَ الْمُحِق الْمُصِيب فِى تِلْك الْحُرُوب. هَذَا مَذْهَب أَهْل السُّنَّة، وَكَانَتْ الْقَضَايا مُشْتَبِهَة حَتَّى إِنَّ جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة تَحَيَّرُوا فِيهَا فَاعتَزَلُوا الطَّائِفَتَينِ، وَلَمْ يُقَاتِلُوا، وَلَمْ يَتَيقَّنُوا الصَّوَاب، ثُمَّ تَأَخَّرُوا عَنْ مُسَاعَدَته مِنْهُمْ[1].

❊ ❊ ❊

(١١) وعَنْ أبى هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلاَةُ الرَّجُلِ فى جماعة تزيدُ عَلَى صَلاَتِهِ فى سُوقِه وَبَيتِه بضعًا وعشرينَ دَرَجَةً، وذلكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذا تَوَضَّأَ فَأَحسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِد لا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلاَةَ، لا يَنْهَزُهُ إلا الصَّلاَةُ، لَمْ يَخطُ خُطوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بها دَرجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ حتَّى يَدخلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دخل الْمَسْجِدَ كانَ فى الصَّلاة مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هى التى تحبسُهُ، وَالْمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ ما دام فى مَجْلسه الَّذى صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارحمهُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيهِ، ما لمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحدِثْ فِيهِ»[2].

فِى رِوَاية: «إِنَّ صَلَاة الْجَمَاعَة تَفْضُل صَلَاة الْمُنْفَرِد بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا»

(١) مسلم بشرح النووى (١٨/ ١٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٧) كتاب الأذان، مسلم (٦٤٩) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَنْهَزُهُ»: أى يُخْرِجُهُ ويُنْهِضُهُ.

وَفِى رِوَايَة: «بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَة» وَفِى رِوَايَة: «بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَة» وَالْجَمْع بينهَا مِنْ ثَلَاثَة أَوْجُه:

أَحدهَا: أَنَّهُ لَا مُنَافَاة بَينهَا فَذِكْر الْقَلِيل لَا يَنْفِى الْكَثِير، وَمَفْهُوم الْعَدَد بَاطِل عِنْد جُمْهُور الْأُصُولِيينَ.

وَالثَّانِي: أَنْ يكُون أَخْبَرَ أَوَّلًا بِالْقَلِيلِ، ثُمَّ أَعلَمَهُ الله تَعَالَى بِزِيَادَةِ الْفَضْل فَأَخْبَرَ بِهَا.

الثَّالِث: أَنَّهُ يَخْتَلِف بِاخْتِلَافِ أَحوَال الْمُصَلِّينَ وَالصَّلَاة، فَيكُون لِبَعْضِهِمْ خَمْس وَعِشْرُونَ وَلِبَعْضِهِمْ سَبْع وَعِشْرُونَ، بِحَسَبِ كَمَالِ الصَّلَاة وَمُحَافَظَته عَلَى هَيئَاتِهَا وَخُشُوعهَا، وَكَثْرَة جَمَاعَتهَا وَفَضْلهمْ، وَشَرَف الْبُقْعَة وَنَحْو ذَلِكَ... فَهَذِهِ هِيَ الْأَجْوِبَة الْمُعتَمَدَة[1].

۞ ومعنى الحديث أن المسلم إذا صلى فى المسجد مع الجماعة كانت هذه الصلاة أفضل من صلاته فى بيته بسبعٍ وعشرين مرة.. وذلك لأن الصلاة مع الجماعة فرض عين.. وأنه يجب على المسلم أن يصلى مع الجماعة فى المسجد إلا إذا كان عنده عذرٌ يمنعه من ذلك.

وقد أشار الله (جلَّ وعلا) فى كتابه إلى ذلك حيث قال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].

فأوجب الله الجماعة فى حال الخوف ... فإذا أوجبها فى حال الخوف ففى حال الأمن من باب أَوْلَى وأَحرى.

ثمَّ ذكر السبب فى ذلك: «بأن الرَّجل إذا توضَّأ فى بَيْتِهِ فأسْبغ الوُضوء ثمَّ خرج من بَيْتِهِ إلى المسجد لَا يَنْهزُهُ أو لا يُخْرجه إلا الصَّلاة لم يَخطُ خطوة إلا رفع الله له بها درجةً وحَطَّ عنه بها خطيئة».

---

(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ٢١٠-٢١١).

فكل خطوة يخطوها إلى المسجد يرفعه الله بها درجة ويحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد.. وكلما كان المكان بعيدًا كلما ازدادت رفعة الدرجات ومغفرة الخطايا والسيئات.

« **فَإِذَا دخل الْمَسْجِدَ كانَ فِى الصَّلاة مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِىَ التى تحبسُهُ** » وهذه نعمة عظيمة.. فلو أنك دخلت المسجد وصليت تحية المسجد أو سُنة الصلاة ثم جلست تنتظر الصلاة... فإذا انتظرت نصف ساعة يُكتب لك أنك كنت تُصلى لمدة نصف ساعة.

۞ **وفوق ذلك كله: «وَالْمَلائِكَةُ يصَلُّونَ عَلَى أَحَدكُمْ ما دام فى مَجْلسه الَّذى صَلَّى فِيهِ»** فماذا تقول الملائكة وبأى شىءٍ تدعو لك طوال فترة انتظارك للصلاة؟

يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تُب عليه.. ومن المعلوم أن دعاء الملائكة لك أفضل من دعائك أنت لنفسك ؛ لأن الملائكة ﴿**لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦] .

لكن بشرط ألا تؤذى أحدًا وأن تظل محتفظًا بوضوئك.

۞ وكل ذلك الأجر مشروطٌ بأعظم شرط ألا وهو: ألا تكون نيتك عند خروجك من بيتك إلا للصلاة.

والشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ: «ثمَّ خرج من بيته إلى المسجد لا يُخرجه إلَّا الصلاة» فإنه يدلُّ على اعتبار النيَّة فى حُصول هذا الأجر العظيم.

أما لو خرج من بيته لا يُريد الصَّلاة فإنه لا يُكتب له هذا الأجر ... مثل أن يخرج من بيته إلى دُكانه فلمَّا سمع الأذان ذهب ليُصلى ... فإنه لا يَحصُل على هذا الأجر لأن الأجر إنَّما يَحصُل لمن خرج من البيت لا يُخرجه إلا الصَّلاة.

لكن ربما يُكتب له الأجر من حين أن ينطلق من دكّانه أو من مكان بيعه وشرائه إلى أن يصل إلى المسجد ما دام انطلق من هذا المكان وهو على طهارة.

(١٢) وعَنْ أبى الْعَبَّاسِ عَبْدِ الله بْنِ عبَّاسِ بْنِ عَبْد الـمُطَّلِب رضي الله عنهما، عَنْ رسول الله ﷺ، فيما يَرْوى عَنْ ربِّه، تبارَكَ وَتعَالَى قَالَ: «إنَّ الله كتَبَ الْحسنات والسَّيِّئات ثُمَّ بيَّن ذلك: فمَنْ هَمَّ بِحَسَنة فَلَمْ يَعمَلْهَا كتبهَا الله تبَارَكَ وَتَعَالى عنْدَهُ حسنةً كاملةً وَإِنْ هَمَّ بسيِّئَة فَلَمْ يَعمَلْهَا كَتبهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِها فعَمِلهَا كَتبهَا الله سَيِّئَة وَاحدَةً»(١).

قوله ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات» كتابته للحسنات والسَّيئات تشمل معنيين:

المعنى الأول: كتابة ذلك فى اللَّوح المحفوظ فإنَّ الله تعالى كتب فيه كل شىءٍ كما قال الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]. فالله سبحانه وتعالى كتب السيئات والحسنات فى اللوح المحفوظ.

والمعنى الثانى: كتابته إيَّاهما إذا عملها العبد فإن الله تعالى يأمر الملائكة بكتابتها بحسب ما تقتضيه حكمته وبحسب ما يقتضيه عدلُه وفضله.

«فمَنْ همَّ بِحَسَنة فَلَمْ يَعملْهَا كَتبهَا الله تبَارَكَ وَتَعَالى عنْدَهُ حسنةً كاملةً».

ومثال ذلك: أن يهم الإنسان بفعل طاعة أو فعل خيرٍ بعينه ثم يُحال بينه وبين فعل ذلك فإنه يُكتب له حسنة كاملة... بل قيل إنه بمجرد أنْ يَهم بفعل أى طاعة تُكتب له حسنة كاملة إن لم يفعلها حتى ولو لم يكن هناك شىء حال بينه وبين تلك الطاعة... وذلك فضل الله يُؤتيه مَن يشاء.. فهو سبحانه يجزى عبده بمجرد أن ينوى فعل الخير أو الطاعة.

مثاله: رجلٌ هَمَّ أن يتوضأ ليقرأ القرآن، ثم لم يفعل ذلك وعدل عنه فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٩١) كتاب الرقاق - ومسلم (١٣١) كتاب الإيمان.

همَّ أن يتصدّق وعيَّن المال الذى يريد أن يتصدق به ثم أمسك ولم يتصدّق فيُكتب له بذلك حسنة كاملة ... همَّ أن يصلِّى ركعتين فأمسك ولم يُصلِّ فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة.

«**وإنْ هَمَّ بهَا فَعَملَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْر حَسَنَاتٍ إلَى سَبْعمائة ضعفٍ إِلَى أَضعَافٍ كثيرة**».

وهذا التَّفاوت مبنى على الإخلاص والمتابعة فكلما كان الإنسان فى عبادته أخلص لله كان أجره أكثر وكلما كان الإنسان أتبع فى عبادته للرسول ﷺ كانت عبادته أكمل وثوابه أكثر.

وأما السيئة فقال: «**وإن همَّ بسيئة فلَم يعملها كتبها الله حسنة كاملة**» .

كرجلٍ هَمَّ أن يسرق ولكن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فأدركه خوف الله فترك السرقة، فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة لأنه ترك فعل المعصية لله فأُثيب على ذلك.

كما جاء ذلك مُفسَّرًا فى لفظٍ آخر: «**لأنه تركها من جرَّاى**»[(١)] أى من أجلى.

فإن عمل السيئة كُتبت سيئة واحدة فقط لا تزيد ... لقوله تعالى: ﴿**مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وهذا الحديث فيه: دليل على اعتبار النِّية وأن النِّية قد تُوصل صاحبها إلى الخير.

وسبق لنا أن الإنسان إذا نوى الشَّر وعمل العمل الذى يُوصل إلى الشَّر ولكنه عجز عنه فإنه يُكتب عليه إثم الفاعل ...كما سبق فيمن التقيا بسيفيهما من المسلمين: «**إذا التقى المُسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتُولُ فى النَّار**. قالوا: يا رَسولَ الله، هذا القاتِلُ فما بالُ المقتُول؟ قال: **لأَنَّه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[(٢)(٣)].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٧٥٠١) كتاب التوحيد، ومسلم (١٢٩) كتاب الإيمان.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣١) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٣) (شرح رياض الصالحين) (١/ ٥٦-٥٧) بتصرف.

فأما الهم الذى لا يُكتب فهى الخواطر التى لا تُوطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية وعزم.

(١٣) وعَنْ أبى عَبْد الرَّحْمَن عَبْدِ الله بْن عُمَرَ بْنِ الْخطَّابِ رضي الله عنهما قال: سَمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «انطَلَقَ ثَلاثَةُ نفر ممَّن كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ الْمبِيتُ إلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فانْحَدَرَتْ صَخْرةٌ منَ الْجبلِ فَسَدَّتْ عَلَيهمْ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ هذه الصَّخْرَةِ إِلَّا أنْ تَدعُوا الله تعالى بصَالِح أعمَالكُمْ.

قال رجلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِى أبَوان شَيخان كَبيران، وكُنْتُ لا أغبقُ قبْلهُما أهْلاً وَلا مالاً فَنَأَى بى طَلَبُ الشَّجر يَوْمًا فَلَمْ أُرِح عَلَيهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلبْت لَهُمَا غَبُوقَهمَا فَوَجَدتُهُمَا نَائمينِ، فكَرِهْت أَنْ أُوقظَهمَا وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أهْلاً أو مَالاً، فَلَبِثْتُ والْقَدَحُ عَلَى يَدى أَنْتَظِرُ اسْتيقَاظَهُما حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْن عِنْدَ قَدمَيَّ فَاستيقظا فشَربَا غَبُوقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلكَ ابْتغَاءَ وَجْهك فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَة، فانْفَرَجَتْ شَيئًا لا يَسْتَطيعُونَ الْخُرُوج مِنْهُ.

قال الآخر: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كانتْ لِى ابْنَةُ عمٍّ كانت أحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، وفى رواية: كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشد مَا يُحبُّ الرِّجَالُ النِّساءَ، فَأَرَدتُهَا عَلَى نَفْسهَا فَامْتَنَعَتْ منِّى حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنينَ فَجَاءَتْنِى فَأعطَيتُها عِشْرينَ وَمِائَةَ دينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّى بَينِى وَبَينَ نَفْسِهَا ففعَلَت، حَتَّى إذَا قَدَرتُ عَلَيهَا، وفى روايَةٍ: فَلَمَّا قَعَدتُ بَينَ رِجْليهَا، قَالَتْ: اتَّقِ الله ولا تَفُضَّ الْخاتَمَ إِلَّا بِحَقِّه، فانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتركْتُ الذَّهَبَ الَّذى أعطَيتُهَا، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعلتُ ذَلكَ ابْتِغَاء وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غيرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

وقَالَ الثَّالثُ: اللَّهُمَّ إِنِّى اسْتَأْجَرْتُ أُجرَاءَ وَأَعطَيتُهمْ أجْرَهُمْ غيرَ رَجُلٍ وَاحدٍ تَرَكَ الَّذى لَهُ وذهب فثمَّرت أجْرَه حتَّى كَثُرت منه الأموالُ فجاءنى بَعدَ حين فقال: يا عبد

الله أدِّ إلَيَّ أجْرِى، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ: مِنَ الإبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيق فقال: يَا عَبْدَ الله لا تَسْتَهْزِئْ بى، فَقُلْتُ: لا أَسْتَهْزِئُ بك، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاسْتاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْه شَيئًا، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعلتُ ذَلكَ ابْتِغاء وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فخرَجُوا يَمْشُونَ»[1].

۞ هذه القصة تُرشدنا إلى سَبيل الخلاص عندما تُحيط بنا الكربات، وينقطع حبل الرجاء من العباد، ففى هذه الأحوال هناك باب مَن لا ينقطع منه الرجاء، فهو حاضرٌ أبدًا، وقادرٌ أبدًا، يُجيب المضطر إذا دعاه، ويَكشف السوء.. وقد أخبرنا رسولنا ﷺ فى هذا الحديث بقصة أصحاب الغار الذين وقعت صخرة على فم غارهم فأغلقته، فتوسل كل واحدٍ منهم إلى ربه بأرجى عملٍ عَمِلَه، ودعا الله به، فاستجاب الله دعاءهم، وكشف بلاءهم، وفرج كربهم.

۞ هذه القصة تُحدثنا عن ثلاثة رجال خرجوا من ديارهم ليتنزهوا أو يرتادوا لأهلهم، ويطلبون لهم القوت، وبينما هم فى سيرهم تلبَّدت السماء بالغيوم، وتساقط المطر غزيرًا مما أحوجهم إلى أن يبحثوا عن مكانٍ يأويهم من المطر، فوجدوا طلبتهم فى غار قريب منهم، ولكن الغار الذى دخلوه مُحتمين به من الأمطار أصبح لهم قبرًا، فقد جرفت السيول الشديدة التى شكَّلتها الأمطار الصخور من أعالى الجبال، وانحدرت صخرة عظيمة من الجبل، ومضت فى طريقها حتى استقرت على فم الغار فسدَّته، وكانت من العِظَم بحيث لا تُجدى قوتهم شيئًا فى دفعها وتحريكها.

لقد أصبحوا بعد انطباق الصخرة عليهم فى حالٍ أشد من الحال التى كانوا فيها، فقد كانوا يستطيعون الصبر على الأمطار التى كانت تتساقط عليهم، أما هذه الحال فإنها تؤدى إلى هلاكٍ مُحقق.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٧٢) كتاب الإجارة، ومسلم (٢٧٤٣) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

لقد أصبحوا محصورين فى هذا الغار الذى لا حيلة لهم باختراقه بقوتهم الذاتية، ولا سبيل عندهم لإخبار أقوامهم...فوسائل الاتصال الحديثة غير موجودة فى تلك الأيام، ولو أراد أقوامهم أن يَبحثوا عنهم عندما تطول غيبتهم فلن يهتدوا إلى مكانهم، فالآثار التى تتركها أقدام الضائعين والتى كان قُصَّاص الأثر ولا يزالون يتتبعون بها مَن يريدون البحث عنه ضاعت، فإن الأمطار الشديدة، والسيول التى تُشكلها تزيل آثار الأقدام، كما تزيلها الرياح السوافى من الرمال، وحتى لو مَرَّ بعض الناس بقربهم فإنهم لا ينتبهون إليهم، ولا يعرفون بمكانهم... وصراخهم لن يصل صداه إلى أبعد من جدران الكهف الذى يحيط بهم.

فى مثل هذا الموقف يعلم العباد يقينًا أنه لا نجاة لهم إلا بالله، وأن الله وحده هو العالم بمكان وجودهم، وهو يراهم ويسمعهم، فالله لا تَخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

ومثل هؤلاء مثل الذين أحاطت بسفينتهم أمواج البحر فى يومٍ عاصف، ترفعهم موجة، وتهبط بهم أخرى، وهم لا يملكون من أمرهم شيئًا.

ومثلهم مثل الذين حدث خلل فى بعض محركات طائرتهم، فأخذت تتأرجح بهم فى الفضاء، تستقيم مرة، وتميل أخرى، تسكن مرة، وتضطرب أخرى.

ومثلهم مثل الذين خُسفت بهم الأرض أو زُلزلت وخَرَّت فوقهم عروش بيوتهم، وأصبحوا مأسورين فى مساحة ضيقة تحت الأنقاض... إن العباد فى مثل هذه الأحوال حتى لو كانوا فَجَرة فاسقين، فإنهم يجأرون إلى ربهم يطلبون عونه ورعايته، فهو القادر حيث لا تعمل قدرة العباد، وهو الحافظ حيث لا تصل الوسائل التى يحفظ بها العبادُ العبادَ ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [لقمان: ٣٢]، ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا

أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

وبعض العباد فى مثل هذه المواقف يكتفى بالدعاء، وآخرون يتوسلون إلى الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وآخرون يتوسلون إلى الله بصالح أعمالهم، وهذا ما أشار أحدهم به فقد طلب من صاحبيه أن يتوسل كُلٌّ منهم بأرجى ما عمله قاصدًا فيه وجه الله.

وقد ذكر كل واحدٍ منهم عملًا صالحًا عمله لله، وشفع ذلك بدعاء ربه أن يفرج عنهم شيئًا مما هم فيه إن كان صادقًا فيما أخبر به...وكانت الصخرة تنفرج شيئًا كلما ذكر واحدٌ منهم عمله ودعا بالتفريج، حتى إذا أتم الثالث خبره ودعاءه انزاحتِ الصخرة، وخرجوا يمشون.

وكان فى ذلك أعظم دلالة على أن الله كان يسمع شكاتهم، ويعلم حالهم، وصدقهم فيما قالوه، فأزال ضرهم، وفرج كربتهم، وكان خبرهم عبرة لغيرهم، ممن أصابه الضُّر كما أصابهم.

وكان فيما حدثوا به من صالح أعمالهم التى أنجاهم الله بها ما يدل على صلاحهم وتقواهم من جهة، ويدل من جهة أخرى على عِظَم هذه الأعمال وأنها محبوبة عند الله تعالى.

وقد توسل أولهم ببره بوالديه، وكان يعمل راعيًا... وأهل الرعى يعتمدون على حليب أغنامهم وأبقارهم وجِمالهم، وكان من أمره أنه يحلب بعد عودته مواشيه، ثم يبدأ بوالديه فيسقيهما قبل أولاده وزوجته.

وفى أحد الأيام ابتعد فى طلب المرعى، فلم يَعُد إلا فى وقتٍ متأخر من الليل، فحلب كما يحلب، وجاء بالحلاب إلى والديه، فوجدهما قد ناما، فكره أن يوقظهما، وكره أن يسقى صغاره قبلهما، فبقى ليله ساهرًا، إناء الحليب على يده، وصغاره يبكون عند رجليه يريدون طعامهم، وهو يكره إيقاظ والديه، حتى

طلع الفجر، فسقاهما، ثم سقى صغاره وأهله بعدهما.

ولا يعلم أحدٌ غير الله مدى المشقة التى عاناها هذا الرجل فى تلك الليلة... فالأمر لم يكن سهلًا عليه، فهو رجل يرعى الغنم، وقد سار بعيدًا عن الديار، فأجهده المسير وأرهقه، وزاده رهقًا أنه لم يتناول عشاءه...أضِف إلى هذا وذاك أن صغاره يبكون... وكم يألم الآباء إذا رأوا صغارهم جَوعى باكين.

إنها صورة فريدة لما يصنعه الإيمان... فالمبادئ الأرضية، والتعاليم البشرية لا يمكن أن ترتقى بالإنسان ليبلغ هذا المبلغ من قوة الاحتمال، ونُبل العواطف، وتقدير الآباء وتوقيرهم.

وتوسل الثانى إلى ربه بمخافته من الله... تلك المخافة التى دفعته إلى ترك الفاحشة، وكبت الشهوة، وكان من أمره أنه أراد ابنة عَمٍّ له على نفسها، وكانت أحب الناس إليه، فكان يعصمها إيمانها منه، فتأبى عليه، حتى أصابتها فاقة وحاجة اضطرتها إلى موافقته على رأيه والخضوع لرغبته، بعد أن دفع لها مبلغًا كبيرًا من المال اشترطت عليه أن يدفعه لها قبل أن تُمكنه من نفسها، ولكنه عندما قدر عليها وقعد منها مقعد الرجل من زوجته انتفضت وارتجفت، فلما استعلم منها عن سبب رجفتها وانتفاضتها أخبرته أن ذلك من مخافة الله، فإنها لم ترتكب هذه الفاحشة من قبل.

فقام عنها مخافة الله، وترك لها الذى أعطاها إياه.

وتوسل الرجل الثالث بحفظه لأموال أجيرٍ ترك ماله وذهب، فثمَّر له ماله حتى أصبح مالًا عظيمًا، فلما جاءه الأجير بعد غيبة طويلة يطلب ذلك الأجر القليل، أعطاه كل المال الذى نتج عن ماله، فأخذه، ولم يترك منه شيئًا.

إن ما قاموا به نماذج راقية، لا يعرفها العالم المتحضر اليوم، إلا من رحم الله، وقد فرج الله عن هؤلاء الأخيار كربهم، وكشف عنهم، وأطلق أَسرهم.

الدروس المستفادة:

(١) مشروعية التوسل إلى الله بصالح الأعمال، كما توسل هؤلاء الثلاثة إلى الله بأعمالهم الصالحة التي عملوها فأنجاهم الله.

(٢) أثر التقوى في تخليص العبد من كربه وبلائه، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

(٣) مشروعية الدعاء عند حلول الكرب والبلاء، وقد أمر الله بدعائه، فمن لا يدعو الله يغضب عليه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

(٤) بر الوالدين من أعظم الأعمال الصالحة التي يحبها الله وتُقرب إليه، وتُخلص العبد من كرب الدنيا، وكرب يوم القيامة.

(٥) مخافة الله من العبادات العظيمة التي تدفع النِّقَم، وتقى الفواحش، وتُقرب من الله...فقد كان الخوف من الله السبب في ترك ذلك الرجل الفاحشة، وكان ذلك أحد الأسباب في خلاصهم من الغار.

(٦) فضل محافظة العبد على حقوق العباد وأموالهم...فقد حافظ صاحب المال على أُجرة ذلك الأجير ونمَّاه له، ودفع إليه كل ما نتج عنه عندما جاء يطلب حقه.

(٧) بركة العمل في الزراعة وتربية الأنعام والمواشي، فقد عمل صاحب الأرض لعامله في أجره، فأصبح المال القليل كثيرًا، وبارك الله فيه فأصبح أضعافًا مُضاعفة.

(٨) كان صاحب العمل محسنًا إلى العامل بتنمية ذلك المال، ولكن الأجير لم يُحسن إلى رب العمل، فكان الواجب عليه أن يترك له من المال مقدار جهده وتعبه[1].

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص: ٢٠٧-٢١٣) باختصار.

(٢) باب التوبة

۞ قال العلماءُ: التوْبَةُ وَاجبَةٌ منْ كُلِّ ذَنْب... فَإِنْ كَانتِ المعصيةُ بَينَ الْعَبْدِ وَبَينَ الله تَعَالَى لا تتعَلَّقُ بِحَقِّ آدَمِي، فَلَهَا ثَلاَثَةُ شُرُوطٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يقْلِعَ عن الْمَعصِية.

والثَّاني: أَنْ ينْدَمَ عَلَى فعلِهَا.

والثَّالثُ: أَنْ يعزِمَ أَلا يعُودَ إِلَيهَا أَبدًا. فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَلاَثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبتُهُ.

وإنْ كَانَت المَعصِيَةُ تتعَلَّقُ بآدَميٍّ فشُرُوطُهَا أَربَعَةٌ: هَذِهِ الثَّلاَثَةُ، وَأَنْ يَبرَأَ مِنْ حقِّ صَاحبها... فَإِنْ كَانَتْ مَالاً أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيه، وَإِنْ كَانَت حَدَّ قذْفٍ ونحوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوطَلَب عَفْوَهُ وإنْ كانَتْ غيبةً استَحلَّهُ مِنْهَا. وَيَجبُ أَنْ يَتُوبَ مِنْ جَميعِ الذنُوبِ، فَإِنْ تابَ مِنْ بعضها صَحَّتْ توْبَتُهُ عِنْد أَهْل الحقِّ مِنْ ذلكَ الذَّنْبِ، وبقىَ عَلَيْه الباقي. وقَد تَظَاهَرَتْ دَلائلُ الكتَابِ، والسُّنَّةِ، وإِجْمَاعُ الأُمَّةِ عَلَى وجُوبِ التَّوْبَة: قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨](١).

۞ التوبة لغة: من تاب يتوب إذا رجع...وشرعًا: الرجوع من معصية الله تعالى إلى طاعته.

وأعظمها وأوجبها التَّوبة من الكفر إلى الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. ثم يليها التَّوبة من كبائر الذنوب.

---

(١) رياض الصالحين/ للإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ١٧).

ثم المرتبة الثالثة التوبة من صغائر الذنوب.

والواجب على المرء أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من كل ذنب.

۞ ولقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاثة شروطٍ للتوبة..

ولكنها بالتَّتبُّع تبلغ ستة شروط وهى:

الشرط الأول: إخلاص النية لله:

وذلك بأن يقصد الإنسان بتوبته وجه الله عَزَّوَجَلَّ وأن يتوب الله عليه ويتجاوز عن سيئاته.. ولا يقصد بذلك مُراءاة الناس والحرص على التقرُّب إليهم أو يقصد دفع الأذى عنه.

وإنما يقصد بتوبته وجه الله والدار الآخرة.

الشرط الثاني: الإقلاع عن المعصية:

والذنوب والمعاصى أنواع...

فإن كان ذنبه أنه قد ترك واجبًا.. فالإقلاع عنه بفعله.. مثل أن يكون الإنسان لا يصلى فتوبته أن يصلِّى.. أو يكون لا يُزكِّى فتوبته أن يُخرج الزكاة.. أو يكونْ مُقصرًا فى بر الوالدين فتوبته أن يبر والديه.. أو يكون مُقصرًا فى صلة الرحم فتوبته أن يَصِل أرحامه.

وإن كانت المعصية بفعل مُحرم فالواجب أن يُقلع فورًا عن ذلك الشىء المحرم ولا يؤخر التوبة ولا لحظة واحدة.

فإن كانت المعصية فى الكذب فالواجب أن يترك الكذب فورًا وأن يتحلى بالصدق.. وإن كانت المعصية فى شرب الخمر فالواجب أن يترك شُرب الخمر فورًا.. وإن كانت المعصية فى التعامل بالربا فالواجب عليه أن يتخلص من الربا فورًا وأن يتخلص من المال الذى اكتسبه من الربا.. وهكذا.

فإن لم يُقلع الإنسان عن تلك المعاصى فتوبته مردودة عليه.

فإذا كان الذنب يتعلق بحق الله عَزَّوَجَلَّ فهذا يكفى أن تتوب بينك وبين ربك ولا يجوز أن تُحدث الناس بما صنعت من المحرم أو ترك الواجب.. لأن هذا بينك وبين الله ...فإذا كان الله قد مَنَّ عليك بالستر، وسترك عن العباد فلا تُحدث أحدًا بما صنعت إذا تُبت إلى الله ... وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**كلُّ أمَّتى مُعَافى إلا المُجاهرينَ**». ومن المجاهرة كما جاء فى الحديث: «**أن يفعل الذنب ثم يُصبح يُحدِّث به النَّاس يقول فعلت كذا وكذا..**» [(١)].

إلا أن بعض العلماء قال: إذا فعل الإنسان ذنبًا فيه حَدٌّ فإنه لا بأس أن يذهب إلى الإمام الذى يُقيم الحدود مثل الأمير ويقول إنه فعل الذنب الفلانى ويريد أن يُطَهِّره منه...ومع ذلك فالأفضل أن يستر على نفسه.

أمَّا إذا كان الذنب بينك وبين الخلق فإن كان مالاً فلا بُدَّ أن تُؤديه إلى صاحبه ولا تُقبل التوبة إلا بأدائه.

الشرط الثالث: الندم على فعل المعصية:

وذلك بأن يندم على كل ما فعله من الذنوب والمعاصى وأن ينكسر قلبه لله (جلَّ وعلا) وأن يتحسر على ما مضى من عمره فى معصية الله عَزَّوَجَلَّ

قال ﷺ «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**» [(٢)].

الشرط الرابع: العزم على عدم العودة في المستقبل إلى تلك المعصية:

فإن كان يريد أن يعود إلى المعصية عندما تسمح الظروف بذلك فإن التوبة لا تصح.. وذلك مثل رجل كان يشرب الخمر والمخدرات ثم افتقر فلم يَعُد يشرب تلك الأشياء، ولكنه كان عازمًا على أن يعود إلى شرب الخمر والمخدرات إذا رزقه الله مالًا.. فهذا لا تصح توبته.. بل الواجب أن يعزم

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٠٣) - ورواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٠٢) بلفظ: « النَّدَمُ تَوْبَةٌ ».

المسلم على عدم العودة مرة أخرى إلى معصية الله.. فإن وقع فى المعصية مرة أخرى دون قصدٍ أو تعمُّدٍ منه فعليه أن يُجدِّد التوبة ولا ييأس من رحمة الله ما دام أنه لا يقصد العودة إلى المعصية ولا يستحلّ فِعل المعصية.

الشرط الخامس: التحلُّل من المظالم:

فالذنب إذا كان يتعلق بحق الله عَزَّوَجَلَّ فهذا يكفى أن تتوب منه بينك وبين ربك.. أما إذا كان بينك وبين الخلق فلا بد أن تتحلل من المظالم.

فإذا أخذت من شخصٍ مالًا وجحدته فلا بد أن ترده إليه مرة أخرى وتطلب منه أن يسامحك.. وإذا كان قد مات فإنك تعطى المال لورثته...فإن لم تعرف ورثته ولم تستطع الوصول إليهم فتصدَّق عنه ليكون ذلك فى ميزان حسناته.

وإذا كنت قد اغتبت شخصًا فاطلب منه أن يسامحك.. فإن كان ذلك سيُوغر صدره عليك فعليك أن تدعو وتستغفر له وتذكره بكل خير فى المجالس التى اغتبته فيها..

وإن كنت قد سعيت بين اثنين بالنميمة فعليك أن تُصلح بينهما وأن تذكر لهما الحقيقة وتطلب منهما العفو والصفح عنك.

وهكذا فى سائر المظالم.

قال ﷺ: **«مَن كانت عنده مظلمة لأخيه من مالٍ أو عِرضٍ فليتحلله اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات»**(١).

فيجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَرُدَّ المظالم إلى أصحابها من قبل أن يجد نفسه يوم القيامة مُفلسًا من الحسنات... فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته أُخذ من سيئات مَن ظلمهم فتُطرح عليه ثم يُطرَح فى النار... أعاذنا الله جميعًا من نار جهنم.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٣٤) كتاب الرقاق.

الشرط السادس: التوبة قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها:

قال ﷺ: «إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَقْبَلُ توْبة العبْدِ مَا لَم يُغرغرِ »(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(٢).

وقد ذكر ابن حجر أحاديث وآثارًا كثيرة تدلُّ على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: «فهذه آثار يَشدُّ بعضها بعضًا متفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب، أُغلق باب التوبة، ولم يُفتح بعد ذلك، وأن ذلك لا يَختصُّ بيوم الطلوع، بل يَمتدُّ إلى يوم القيامة»(٣).

وقال ﷺ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل بالمغرب بابًا عُرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يُغلق حتى تطلع الشمس من قِبله، وذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ...﴾ الآية»(٤).

من بركات التوبة والاستغفار

أولاً: محبة الله عَزَّوَجَلَّ للتائبين:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ثانيًا: حصول المغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ:

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. قال ابن كثير: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أي: كل مَنْ تاب إليَّ تُبت عليه من أى ذنبٍ كان، حتى إنه تاب تعالى على مَن عَبَد العجل من بنى إسرائيل ... وقوله: ﴿تَابَ﴾

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٣) فتح البارى (١١/ ٣٥٤: ٣٥٥).

(٤) حسن: رواه أحمد، والبخارى فى التاريخ، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣١٣٧)، وصحيح الجامع (٤١٩١).

أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق(١).

ثالثًا: الفلاح فى الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

قال السعدى فى قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[النور: ٣١]، لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة، ثم علَّق على ذلك الفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة ... وهى الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا(٢).

رابعًا: تبديل السيئات إلى حسنات:

قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[الفرقان: ٧٠].

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ ﴾ أى: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التى كانت مستعدة لعمل السيئات ... تتبدل حسنات، فيتبدل شِركُهم إيمانًا ومعصيتهم طاعة وتتبدل نفس السيئات التى عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنبٍ منها توبةً وإنابة وطاعة ... تُبدَّل حسناتٍ كما هو ظاهر الآية. وورد فى ذلك حديث الرجل الذى حاسبه الله ببعض ذنوبه فعدَّدها عليه ثم أبدل مكان كل سيئةٍ حسنة فقال: يا رب إن لى سيئات لا أراها هاهنا... والله أعلم(٣).

خامسًا: تكفير السيئات ودخول الجنات:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٠٨).

(٢) تفسير السعدى (ص٦٦٠).

(٣) تفسير السعدى (ص٦٨٥).

وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

قال السعدى رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد أمر الله بالتوبة النصوح فى هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح»[١].

سادسًا: منع العذاب فى الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٣]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كان فيهم أمانان: النبى ﷺ والاستغفار، فذهب النبى ﷺ وبقى الاستغفار)[٢].

سابعًا: الإمداد بالأموال والبنين وإنزال الغيث:

قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أى: إذا تُبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كَثَّر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموالٍ وبنين، أى: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخلَّلها بالأنهار الجارية بينها)[٣].

وروى ابن أبى الدنيا بسنده إلى الشعبى قال: «خرج عمر يستسقى بالناس، فما زاد على الاستغفار حتى رجع، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما نراك استسقيت! فقال: لقد طلبت المطر بِمَجَادِيحِ[٤] السماء التى يُستنزل بها المطر...ثم قرأ:

---

(١) تفسير السعدى (ص١٠٣٦).

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٥١١-٥١٢) برقم: (١٦٠٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٣).

(٤) قال ابن الأثير: «المجاديح» واحدها مجدح والياء زائدة للإشباع. والقياس أن يكون واحدها مجداح. والمجدح: نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر. فجعل الاستغفار مشبهًا =

﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾. ثم قرأ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

وجاء رجلُ إلى الحسن البصرى يشكو إليه شدة الجدب ونقص الماء فقال له: استغفر الله.. وشكى آخر الفقر فقال له: استغفر الله.. وقال ثالث: يا أبا سعيد ادعُ الله أن يرزقنى الولد فإنى عقيم، فقال له: استغفر الله.. وشكى رابع جفاف بستانه فقال له: استغفر الله.. فقال أحد الجالسين: أتاك رجالٌ يشكون أنواعًا من البلاء فأمرتهم جميعًا بالاستغفار، فقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله تعالى يقول: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ۝١٢﴾.

ثامنًا: المتاع الحسن وزيادة القوة:

إن من أسباب القوة ومضاعفتها كثرة الاستغفار كما قال الله تعالى عن هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ٣].

وقال: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هود: ٥٢].

قال القرطبى رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أى يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم.

تاسعًا: مَن خُتِم له بالاستغفار دخل الجنة:

فعن شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعدِكَ مَا اسْتَطَعتُ،**

= بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء ... وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التى يزعمون أن من شأنها المطر. انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير: (١/ ٢٤٣).

أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنعتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعمَتِكَ عَلَىَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِى، فَاغْفِرْ لِى فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِى فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[١].

عاشرًا: أن عبوديةُ التوبةِ من أحبِّ العبوديات إلى الله وأكرمها عليه، والله تبارك وتعالى يفرح بتوبة التائبين:

قال النبى ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِى ظِلِّهَا، قَد أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِى وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»[٢][٣].

❊ ❊ ❊

(١٤) وعَنْ أبى هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولَ: «والله إِنِّى لأَسْتَغْفُر الله، وَأَتُوبُ إِليه، فى اليَوْمِ أَكثر مِنْ سَبْعِين مرَّةً»[٤].

(١٥) وعَنْ الأَغَرِّ بْن يَسار المُزنى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يا أَيُّها النَّاس تُوبُوا إِلَى اللهِ واسْتغفِرُوهُ فإِنى أَتوبُ فى اليَوْم مائة مَرَّة».

وفى رواية: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِى، وَإِنِّى لَأَسْتَغْفِر الله فِى الْيَوْم مِائَة مَرَّة»[٥].

فها هو النبى ﷺ الذى غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر.. ومع ذلك فهو يتوب فى اليوم والليلة مائة مرة.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٦) كتاب الدعوات.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٠٨) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٤٧) كتاب التوبة.

(٣) مفاتيح البركات والخيرات / أ. جاسر بركات (ص ٢٤٧-٢٥٣) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٧) كتاب الدعوات.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

ففي هذين الحديثين: دليلٌ على وجوب التَّوبة لأن النبي ﷺ أمر بها فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاس تُوبُوا إِلَى الله» فإذا تاب الإنسان إلى ربه حَصَّل بذلك فائدتين:

الفائدة الأول: امتثال أمر الله ورسوله ﷺ... وفي امتثال أمر الله ورسوله كل خير. فعلى امتثال أمر الله ورسوله تدور السعادة في الدنيا والآخرة.

والفائدة الثانية: الاقتداء برسول الله ﷺ حيث كان ﷺ يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة.

❁ **قال الإمام النووي** رَحِمَهُ الله **في قَوْله** ﷺ: **«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِر الله فِي الْيَوْم مِائَة مَرَّة»**.

وَالْمُرَاد هُنَا: مَا يَتَغَشَّى الْقَلْب، وَقِيلَ: الْمُرَاد الْفَتَرَات وَالْغَفَلات عَنْ الذِّكْر الَّذِي كَانَ شَأْنه الدَّوَام عَلَيهِ، فَإِذَا أَفْتَرَ عَنْهُ أَوْ غَفَلَ عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا، وَاسْتَغْفَرَ مِنْهُ.. وَقِيلَ: هُوَ هَمّه بِسَبَبِ أُمَّته، وَمَا اطَّلَعَ عَلَيهِ مِنْ أَحْوَالهَا بَعده، فَيَسْتَغْفِر لَهُمْ، وَقِيلَ: سَبَبه اشْتِغَاله بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِح أُمَّته وَأُمُورهمْ، وَمُحَارَبَة الْعَدُوّ وَمُدَارَاته، وَتَأْلِيف الْمُؤَلَّفَة، وَنَحْو ذَلِكَ فَيَشْتَغِل بِذَلِكَ مِنْ عَظِيم مَقَامه، فَيَرَاهُ ذَنْبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَظِيم مَنْزِلَته، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الأُمُور مِنْ أَعظَم الطَّاعَات، وَأَفْضَل الأَعمَال، فَهِيَ نُزُول عَنْ عَالِي دَرَجَته، وَرَفِيع مَقَامه مِنْ حُضُوره مَعَ الله تَعَالَى، وَمُشَاهَدَته وَمُرَاقَبَته وَفَرَاغه مِمَّا سِوَاهُ، فَيَسْتَغْفِر لِذَلِكَ، وَقِيلَ: يَحْتَمِل أَنَّ هَذَا الْغَين هُوَ السَّكِينَة الَّتِي تَغْشَى قَلْبه، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وَيَكُون اسْتِغْفَاره إِظْهَارًا لِلْعُبُودِيَّةِ وَالِافْتِقَار، وَمُلَازَمَة الْخُشُوع، وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَاهُ.

قَوْله ﷺ: **«يَا أَيُّهَا النَّاس تُوبُوا إِلَى الله فَإِنِّي أَتُوب فِي الْيَوْم مِائَة مَرَّة»**.

هَذَا الْأَمْر بِالتَّوْبَةِ مُوَافِق لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ وَقَد سَبَقَ بَيَان سَبَب اسْتِغْفَاره وَتَوْبَته ﷺ... وَنَحْنُ إِلَى الِاسْتِغْفَار وَالتَّوْبَة أَحْوَج[1].

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٣٨-٣٩) بتصرف.

۞ وفي هذين الحديثين: دليلٌ على أن نبينا محمدًا ﷺ أشدُّ الناس عبادة لله وهو كذلك.

فإنه أخشانا لله وأتقانا لله وأعلمنا بالله صلوات الله وسلامه عليه.

وفيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام مُعلم الخير بلسانه وفعاله.

فكان يستغفر الله ويأمر الناس بالاستغفار حتى يتأسُّوا به امتثالاً للأمر واتِّباعًا للفعل.

وهذا من كمال نُصحِهِ صلوات الله وسلامه عليه لأمته. فينبغي لنا نحن أيضًا أن نتأسَّى به، إذا أمرنا الناس بأمر أن نكون أول مَن يمتثل هذا الأمر.

وإذا نهيناهم عن شيء أن نكون أول مَن ينتهي عنه لأن هذا هو حقيقة الداعي إلى الله بل هذه حقيقة الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن تفعل ما تأمر به وتترك ما تنهى عنه كما كان الرسول ﷺ يأمرنا بالتوبة وهو (عليه الصلاة والسلام) يتوب أكثر منا(١).



(١٦) وعَنْ أبي حَمْزَةَ أَنَس بن مَالك الأَنْصَارِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَادِمِ رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَفْرَحُ بتْوبةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سقطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أَضلَّهُ في أَرضٍ فَلاةٍ»(٢).

وفي رواية لُمسْلمٍ: «للهُ أَشدُّ فرحًا بِتَوْبةِ عَبْدِهِ حين يتُوبُ إِلْيه مِنْ أَحَدِكُمْ كان عَلَى راحِلَتِهِ بأَرْضٍ فلاةٍ، فانْفلتتْ منْهُ وعلَيها طعامُهُ وشرَابُهُ فأَيسَ منْهَا، فأَتَى شَجَرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، وقد أَيسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبينما هوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قَائِمة عِنْدَهُ، فَأَخذ بِخطامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرحِ: اللَّهُمَّ أنت عبْدِي وأَنا ربُّكَ، أَخْطأَ مِنْ شِدَّةِ الفرح».

۞ هذه قصة رجل ضرب به الرسول ﷺ المثل لفرح الرب بتوبة عبده،

---

(١) (شرح رياض الصالحين) (١/ ٦٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٠٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٤٧) كتاب التوبة.

وكان من قصة هذا الرجل أنه سافر وحده، حاملًا على بعيره طعامه وشرابه، وانطلق مُخترقًا بريِّة لا يستطيع الوصول إلى مقصده إلا باختراقها، وقد دلَّت روايات الحديث على أن هذه البرية لا ينجو منها إلا مَن كان عارفًا بمعابرها وطرقاتها.. وكان معه من الماء والطعام ما يكفى للمدة التى يحتاج المسافر لاختراقها، فقد وصفت الأحاديث هذه البرية بأنها فلاة، أى خالية، وهى التى لا نبات فيها، وأنها قفر، وأنها مهلكة أى لعدم وجود الماء والطعام فيها.

ورأى ذلك المسافر فى وقت الظهيرة شجرة فى تلك البرية، وكان التعب أخذ منه كل مَأخذ، فنزل وقال فى ظلها-أى: نام القيلولة-... ونوم الظهيرة يرغب فيه كثيرٌ من الناس، وخاصة الذين أرهقهم التعب كما أرهق هذا المسافر.

وما إن أغمض عينيه، حتى ذهبت راحلته، فلما قام ولم يجدها، فزع فزعًا شديدًا...لا لخسارة راحلته وطعامه، فذلك أمره سهل، بل لأن ضياعها فى هذه الفلاة القفر يعنى هلاكه، ولذا فإنه أخذ يركض هاهنا وهاهنا، ينظرها فلم يجدها.

وعاد إلى الموضع الذى كان فيه تَعِبًا عَطِشًا...ولشدة معاناته أخذه النوم مرة أخرى، فلما أفاق وجد راحلته فوق رأسه، ففرح فرح الذى نجا من الموت والهلاك... ولشدة فرحه أخطأ فقال وهو يخاطب ربه: اللهم أنت عبدى وأنا ربك.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الله أشد فرحًا بتوبة التائب من هذا الذى أضلته ناقته على الصفة التى ذكرها الرسول ﷺ.

۞ وفي هذا الحديث عدة فوائد منها:

۞ فضل التوبة...فالتوبة تُرضى الرب تبارك وتعالى، والله أشد فرحًا بتوبة التائب من هذا الذى وجد ناقته بعد فقده إياها فى أرضٍ مهلكة.

۞ إثبات صفة الفرح لله...وفرح الله صفة تليق بجلاله وكماله، لا تُشبه فرح المخلوقين، على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

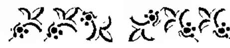
۞ لُطف الله بعباده ورحمته بهم، حيث رَدَّ لهذا الرجل ناقته بعد أن أيس منها.

۞ على المرء أن يحتاط لأمره..فلو عَقَل هذا الرجل راحلته لما وقع له ما وقع.

۞ يجوز أن يحكى المرء ما وقع من غيره من الألفاظ التى لا يقر عليها... كما حكى الرسول ﷺ مقالة هذا الرجل، وكما أخبر القرآن بقول الذين قالوا الكفر، كقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤][(١)].

۞ وفيه دليلٌ: على أن الإنسان إذا أخطأ فى قولٍ من الأقوال ولو كان كفرًا سبق لسانه إليه فإنه لا يُؤاخَذ به...فهذا الرجل قال كلمة كفر لأن قول الإنسان لربه أنت عبدى وأنا ربك هذا كفر لا شك فيه.

لكن لما صدر هذا عن خطأ من شدة الفرح صار غير مُؤاخَذ به.



(١٧) وعَنْ أبى مُوسى عَبْد الله بنِ قَيْسٍ الأَشْعَرِى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبى ﷺ قال: «إن الله تعالى يَبْسُطُ يَدهُ بِاللَّيلِ ليَتُوب مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدهُ بالنَّهَارِ ليَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مغْرِبِها»[(٢)].

(١٨) وعَنْ أبى هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تاب قَبْلَ أَنْ تطلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عليَه»[(٣)].

(١٩) وعَنْ أبى عَبْدِ الرَّحْمن عَبْدِ الله بن عُمَر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النَّبى ﷺ قال: «إِنّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ توْبة العبْدِ مَا لَم يُغرْغر»[(٤)].

---

(١) صحيح القصص النبوى/ د. عمر الأشقر (ص ٢٥٢-٢٥٤) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٣) كتاب الذكر والدعاء.

(٤) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣).

أما حديث أبى موسى فقد قال الرسولﷺ : «**إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار**... الحديث».

فهذا من كمال رحمة الله بعباده... وهذا من كرمه وجوده عَزَّوَجَلَّ أنه يقبل التوبة من عباده حتى وإن تأخرت.. فإذا أذنب الإنسان فى النهار فإن الله عَزَّوَجَلَّ يمهله حتى يتوب فيقبل توبته ولو تاب بالليل.. وكذلك يتوب عليه ويقبل توبته إذا أذنب بالليل وتاب فى النهار.

فالله (سبحانه وتعالى) يحب التوبة ويحب التوابين ويحب المتطهرين.. ويقبل توبة العبد وإن تأخرت.. لكن المبادرة بالتوبة واجبة على الإنسان؛ لأنه لا يدرى متى يموت.. فقد يفجأه الموت قبل أن يتوب.

وفى هذا الحديث إثبات اليد لله عَزَّوَجَلَّ فى حديث أبى موسى وهو كذلك بل له يدان جلَّ وعلا كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة: ٦٤] . وهذه اليد التى أثبتها الله لنفسه بل اليدان يجب علينا أن نؤمن بهما وأنهما ثابتتان لله عَزَّوَجَلَّ .

ولكن لا يجوز أن نتوهم أنها مثل أيدينا لأن الله يقول فى كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] . وهكذا كل ما مَرَّ بك من صفات الله فأثبتها لله عَزَّوَجَلَّ لكن بدون أن تُمثلها بصفات المخلوقين، لأن الله ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته عَزَّوَجَلَّ .

۞ وفى هذا الحديث والذى بعده أن الشمس إذا طلعت من مغربها فقد انتهى زمن قبول التوبة.. لأن من علامات الساعة الكبرى طلوع الشمس من مغربها.. فإذا طلعت من المغرب بدلًا من المشرق ورآها الناس آمنوا جميعًا سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو غيرهم.. بل وتابوا جميعًا إن كانوا من عُصاة المسلمين.. ولكن لا يقبل الله منهم إيمانًا ولا توبة فى هذه اللحظة.

قال ﷺ: «إن الله يَبْسُطُ يدهُ بِاللَّيلِ ليتُوب مُسِيءُ النَّهارِ وَيبْسُطُ يدهُ بالنَّهارِ ليتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مغْرِبِها»(١).

وقد ذكر ابن حجر أحاديث وآثارًا كثيرة تدلُّ على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: «فهذه آثار يَشُدُّ بعضها بعضًا متفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب، أُغلق باب التوبة، ولم يُفتح بعد ذلك، وأن ذلك لا يختصُّ بيوم الطلوع، بل يمتدُّ إلى يوم القيامة»(٢).

وقال ﷺ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل بالمغرب بابًا عُرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يُغلق حتى تطلع الشمس من قِبَله، وذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ ...﴾ الآية»(٣).

أما حديث ابن عمر: «إنَّ الله يقْبَل تَوْبَة عَبْدِه مَا لَمْ يُغرْغر» أي: ما لم تصل الروح الحُلقوم، فإذا وصلت الروح الحُلقوم فلا توبة ....وقد بيَّنت النصوص الأخرى أنَّه إذا حضر الموت فلا توبة...لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

فعلينا أن نُبادر بالتوبة والعودة إلى الله (جلَّ وعلا) قبل أن تُغرغر الروح أو تطلع الشمس من مغربها فلا تُقبل لنا توبة.



(٢٠) وعَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَال: أَتيتُ صفْوانَ بْنَ عسَّال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَسْأَلُهُ عن الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّينِ فقال: مَا جَاء بِكَ يَا زِرُّ؟ فقُلْتُ: ابْتغَاءَ الْعِلْم، فقَال: إِنَّ الْملائكَةَ تَضَعُ أَجْنِحتها لطَالِبِ الْعِلْمِ رضًا بمَا يَطلُبُ، فَقلْتُ: إِنَّه قد حَكَّ فى صدرى الْمسْحُ عَلَى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٢) فتح البارى (١١/ ٣٥٤: ٣٥٥).

(٣) حسن: رواه أحمد، والبخارى فى التاريخ، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣١٣٧)، وصحيح الجامع (٤١٩١).

الْخُفَّين بَعدَ الْغَائطِ والْبوْلِ، وكُنْتَ امْرَأً مِنْ أَصحاب النَّبيِّ ﷺ، فجئْت أَسْأَلُكَ: هَلْ سمِعتَهُ يَذْكُر فى ذَلك شيئًا؟ قال: نعَمْ كانَ يَأمُرنا إذا كنا سفرًا أَوْ مُسافرين أن لا نَنْزِعَ خفافَنا ثلاثة أَيَّام ولَيَاليهنَّ إلا منْ جنَابةٍ، لكنْ مِنْ غائطٍ وبَوْلٍ ونَوْمٍ. فقُلْتُ: هَل سمعتهُ يَذكُر فى الْهَوَى شيئًا ؟ قال: نعمْ كُنَّا مَع رسول الله ﷺ فى سفرٍ، فبيَنا نحنُ عِنْدهُ إِذ ناداهُ أَعرابىٌّ بصوْتٍ له جَهْوَرىٍّ: يَا مُحمَّدُ، فأَجابهُ رسولُ الله ﷺ نَحوًا مِنْ صَوْتِه: «هاؤُمْ» فقُلْتُ لهُ: وَيحكَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتكَ فإنَّك عِنْد النَّبىِّ ﷺ وقد نُهيت عَنْ هذا، فقال: والله لا أَغْضُضُ: قَالَ الأعرابىُّ: الْمَرْءُ يُحبُّ الْقَوم ولَمَّا يَلْحق بِهِمْ؟ قال النَّبِىُّ ﷺ: «الْمرْءُ مع مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقيَامة» فما زَالَ يُحدِّثُنَا حتَّى ذكر بابًا من الْمَغْرب مَسيرةُ عرْضِه أوْ يَسير الرَّاكبُ فى عرْضِهِ أرْبَعينَ أَوْ سَبْعينَ عَامًا. قَالَ سُفْيَانُ أَحدُ الرُّوَاة: قِبَل الشَّام خلقَهُ الله تعالى يَوْم خلق السموات والأرْض مفْتوحًا للتَّوبة لا يُغلقُ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ[1].

۞ هذا الحديث من أحاديث التَّوبة التى ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فى بيان متى تنقطع التَّوبة. لكنه يشتمل على فوائد:

منها: أن زر بن حبيش أتى إلى صفوان بن عسَّال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أجل العلم، فقال صفوان بن عسَّال: «**إن الملائكة لتضَع أجْنحتها لِطَالب العِلْم رِضًى بما يطْلُب**».

وهذه فائدة عظيمة تدلُّ على فضيلة العلم وطلب العلم ... والمراد به العلم الشرعى، أى العلم الذى جاء به الرسول ﷺ.

حتى إن بعض العلماء قال: «إن طلب العلم أفضل من الجهاد فى سبيل الله بالسِّلاح» لأن حفظ الشريعة إنما يكون بالعلم .... والجهاد بالسلاح مبنى على العلم، لا يسيرُ المجاهد ولا يقاتل ولا يُحجم ولا يُقسم الغنيمة ولا يحكم بالأسرى إلا عن طريق العلم، فالعلم هو كل شىء.

---

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وحسنه الألبانى فى الإرواء (١٠٤).

ولهـذا قـال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. ووضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يطلب واحترامًا له وتعظيمًا له.

ثم ذكر زر بن حبيش لصفوان بن عسَّال أنَّه حَكَّ فى صدره المسح على الخُفين بعد البول أو الغائط.

يعنى أن الله تعالى ذكر فى القرآن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

فيقول: إنه حَكَّ فى صدرى أى: صار عندى توقُّف وشك فى المسح على الخُفين بعد البول أو الغائط هل هذا جائز أو لا؟

فبيَّن له صفوان بن عسَّال رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ أن ذلك جائز لأن النبى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمرهم إذا كانوا سفرًا أو مسافرين ألا ينْزعوا خفافهم إلا من جنابة ولكن من غائط وبولٍ ونوم فلا... فدلَّ هذا على جواز المسح على الخُفين ... بل إن المسح على الخفين أفضل إذا كان الإنسان لابسًا لهما.

ومنها: أنه ينبغي إذا أشكل عليه شيء أن يسأل ويبحث عمَّن هو أعلم بهذا الشيء حتى لا يبقى فى قلبه حرج مما سمع.

قال الإمام أحمد: «ليس فى قلبى من المسح شك» أو قال: «شيء فيه أربعون حديثًا عن النبى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه» ... ولكن لَا بُدَّ من شروط لجواز المسح على الخُفين:

الشَّرط الأول: أن يضعهما على طهارة لأن النبى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال للمغيرة بن شُعبة رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ حينما أراد أن ينْزع خُفَّى النَّبى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**دَعهُما فإنِّى أدخَلتُهما طاهِرتين** فمسح عَليهما».

الشَّرط الثاني: أن يكون المسح عليهما في الحدث الأصغر ولهذا قال صفوان بن عسَّال: «إلا من جنابة لكن من غائط وبول ونوم» فإذا صار على الإنسان جنابة فإنَّه لا يُجزئ أن يمسح على الجوربين أو الخفين بل لا بُدَّ من نزعهما وغَسل القدمين وذلك لأن الطهارة الكبرى ليس فيها مسح إلَّا للضرورة في الجبيرة ولهذا لا يمسح فيها الرأس.

الشَّرط الثالث: أن يكون المسح في المدة التي حدَّدها النبي ﷺ وهي يوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام بلياليها للمسافر.

فإذا انتهت المدة فلا مسح، لا بُدَّ أن يخلع الجوربين أو الخُفين ثم يغسل القدمين ولكن إذا انتهت المدة وأنت على طهارة فاستمر على طهارتك، لا تنتقض الطهارة، ولكن إذا أردت أن تتوضأ بعد انتهاء المدة فلا بُدَّ من غسل القدمين.

ثم إن زر بن حبيش سأل صفوان بن عسال: هل سمع من النبي ﷺ يقول في الهوى شيئًا.

الهوى: المحبة والميل، فقال: نعم ثم ذكر قصة الأعرابي الذي كان جهوري الصَّوت فجاء ينادي يا محمد بصوتٍ مرتفع.

فقيل: ويحَك تُنادي رَسُول الله بصوت مُرْتفع والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

ولكن الأعراب لا يعرفون الآداب كثيرًا لأنهم بعيدون عن المدن وبَعيدون عن العلم.

فأجابه النبي ﷺ بصوتٍ مرتفع كما سأل الأعرابي، لأن رسول الله ﷺ أكمل النَّاس هديا يعطي كل إنسان بقدر مَا يتحمله عقله.

فخاطبه بمثل ماخاطب به النبى ﷺ، قال له الأعرابى: «المرء يحب القوم ولمَّا يلحق بهم» يعنى يحب القوم ولكن عمله دون عملهم لا يساويهم فى العمل، مع مَن يكون ... أيكون معهم أوْ لا؟

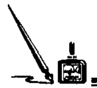
فقال النبى ﷺ: «**المَرْءُ مَع مَنْ أحَبَّ يوم القِيامة**».

هذه بشرى للإنسان أنَّه إذا أحبَّ قومًا صار معهم وإن قصَّر به عمله يكون معهم فى الجنة ويجمعه الله معهم فى الحشر ويشربون من حوض الرسول ﷺ جميعًا(١).

(٢١) وعَنْ أبى سعيد سَعد بْنِ مالك بْنِ سنان الْخُدرىِّ رضي الله عنه أن نَبِىَّ الله ﷺ قَال: «كان فيمنْ كَانَ قَبْلكُمْ رَجُلٌ قتل تسْعةً وتسْعين نفْسًا، فسأل عن أَعلَم أَهْلِ الأرْضِ فدُلَّ على راهبٍ، فَأَتاهُ فقال: إنَّهُ قَتَل تِسْعةً وتسعِينَ نفْسًا، فَهلْ لَهُ مِنْ توْبَة؟ فقال: لا فقتَلهُ فكمَّلَ بِهِ مائةً ثمَّ سأَلَ عن أعلم أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ فقال: إنهَ قَتل مائةَ نفسٍ فهلْ لَهُ مِنْ تَوْبة؟ فقالَ: نَعَمْ ومَنْ يَحُولُ بينَهُ وبينَ التوْبة؟ انْطَلِقْ إلَى أرضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُنَاسًا يَعبُدُونَ الله تعالى فاعبُدِ الله مَعَهُمْ، ولا تَرجع إلِى أَرضِكَ فإِنَّهَا أَرضُ سُوء، فانطَلَق حتَّى إذا نَصَف الطَّريقُ أَتَاهُ الْموْتُ فاختَصمتْ فيه مَلائكَةُ الرَّحمَةِ وملائكَةُ الْعَذابِ. فقالتْ ملائكةُ الرَّحمَةِ: جاءَ تائِبًا مُقْبلًا بِقلْبِهِ إلى الله تعالى، وقالَتْ ملائكَةُ الْعذابِ: إِنَّهُ لَم يَعمَلْ خيرًا قطُّ، فأَتَاهُمْ مَلكٌ فى صُورَةِ آدمىٍّ فجعلوهُ بينهُمْ - أى حَكَمًا - فقال: قِيسُوا ما بَين الأرضَين فإلَى أَيَّتهما كَان أدنى فهُو لَهُ، فقاسُوا فوَجَدُوه أدنى إِلى الأرضِ التى أَرَادَ فَقبَضَتْهُ مَلائكَةُ الرَّحمةِ»(٢).

(١) (شرح رياض الصالحين) للشيخ العلامة ابن عثيمين رحمه الله (١/ ٧٢-٧٤) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٧٦٦) كتاب التوبة.



وفى روايةٍ فى الصحيح: «فكَان إلى الْقَرْيَة الصَّالِحةِ أَقْربَ بِشبْرٍ، فجُعِل مِنْ أَهْلها» وفى رواية فى الصحيح: «فأَوْحَى الله تعالى إلى هَذِهِ أن تَبَاعَدى، وإلى هَذِهِ أن تَقَرَّبى وقَال: قِيسُوا مَا بينهمَا، فَوَجدُوه إلى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ». وفى روايةٍ: «فنأى بِصَدرِهِ نَحوهَا».

۞ هذه قصة تفتح باب الأمل لكل عاصٍ، مهما عَظُم ذنبه، وكبر جُرمه... قصة رجل أسرف على نفسه فى المعاصى والذنوب، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن هذا الرجل قتل مائة نفس، ولكن هذه الذنوب لم تقتلع من نفسه كل نوازع الخير ودوافعه، بل بقى فى أعماق نفسه بصيصٌ من نور، وبقية من مخافة ربه... ولعله تساءل فيما بينه وبين نفسه، هل انقطعت علاقته بربه، فلا يمكنه أن يعود إليه، ويرجع إليه، أم أن هناك أملًا، وأين هو من ربه إن آب إليه؟

لم يستطع أن يُفتَى نفسه، فمثله من الغَرقَى فى الذنوب لا علم عندهم، ولذا خرج من بيته يبحث عن عالِمٍ يُفتيه، ويجيب عن سؤاله، وهو يعلم أن مسألته كبيرة، لا يستطيع أن يُفتيه فيها إلا من عَظُم علمه، ولذا فإنه لم يسأل عن عالم، بل سأل عن أعلم أهل الأرض.

ولم يُقدَّر لمن دلَّه على مَن يُفتيه أن يدله على أعلم أهل الأرض فعلًا، وإنما دَلُّوه على رجلٍ راهبٍ... والرُّهبان كثيرو العبادة، قليلو العلم، والعوام قد يُخدعون بأمثال هؤلاء، فيظنون أن كثرة العبادة، تعنى كثرة العلم، فيُقبلون على هؤلاء يتعلمون منهم، ويستفتونهم... ويخطئ أمثال هذا الراهب إن خُدِعَ بإقبال الناس عليه، فأفتاهم بغير علم...والواجب على هؤلاء أن يُصرِّحوا للناس بحقيقة أمرهم، ويقولوا لهم فيما لا يعلمونه: الله أعلم، اسألوا غيرنا ممن عنده علم.

أقبل ذلك الرجل إلى ذلك الراهب الذى دُلَّ عليه، واستمع الراهب لمسألته، فاستعظم ذنبه، وظن أن رحمة الله تضيق عنه، وأن مثل هذا الرجل لا تسعه رحمة الله... وحسبُك بذلك جهلًا.

ولو كان الأمر على ما ظنه ذلك الراهب لازداد أهل الفجور جُرمًا ... فالمجرم عندما يَيأس من رحمة الله، ويعلم أنه لا سبيل له للعودة إلى الله، فإن ذلك يُغريه بالإيغال فى الإفساد والإجرام... يَدُلك على صدق هذا فعل هذا الرجل، فعندما علم منه أن التوبة محجورة عنه، وأن رحمة الله لا تسعه ازداد طُغيانًا، ومَدَّ يده إلى هذا الراهب فقتله، وأتمَّ بقتله المائة.

ويبدو أن ذلك الراهب كان مع قلة علمه، غير عارف بطبائع الرجال، ولو كان عالمًا بذلك لما سارع بالإجابة قبل أن يحتاط لنفسه بالحيطة المناسبة، كأن يُحضر حوله بعض أتباعه من الرجال الأشداء، أو يجيبه من وراء جدران صومعته، فأمثال هذا الرجل لا يُبالون بالقتل لأتفه الأسباب، لاعتيادهم القتل والولوغ فى الدماء.

قتل ذلك الرجلُ الراهبَ، ولكنه لم يقتنع بجوابه، فالأمل عنده بالله عظيم... وهذا الذى أفتاه جاهلٌ بالله، ولكنه يحتاج إلى مَن يؤكد له ذلك، ويُعرفه بالصواب، وبحث مرة أخرى عن عالِم يعرض عليه مُعضلته، فَدُلَّ على عالم بالله، وكان عالمًا حقًّا، ولذلك قال العالم لذلك الرجل مُستغربًا: ومَن يَحُول بينك وبين التوبة؟! وهذا السؤال الذى يحمل معنى الاستنكار والاستغراب يدل على أن هذا العلم كان عنده بديهيًّا لا يحتاج إلى كثير تفكير، ولا يحتاج إلى سؤال، إن رحمة الله واسعة، تَسَع هذا وأمثاله، ولا يَعظُم على الله ذنبٌ أبدًا مهما عَظُم وكَثُر.

ولم يكن هذا الرجل عالمًا فحسب، بل كان مُربيًا ومُرشدًا، ولذا فإنه لم يكتفِ بإجابته بأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، بل دَلَّه على الطريق الذى يجب عليه أن يسلكه...فالغارق فى الذنوب يجب أن يغير منهج حياته، فيترك القوم الضالين الذين يصحبهم ويعيش معهم، وعليه أن يترك ما كان عليه، وينتقل إلى بيئة صالحة، تفعل الخيرات، وتنأى عن المنكرات، وقد أمر ذلك العالم هذا التائب بأن يترك دياره فإنها بلاد سوء، ويهاجر إلى أرضٍ أخرى

حددها له، فيها قوم يعبدون الله فيصحبهم، ويعبد الله معهم.

ولم يُضع هذا الرجل وقته، فقد مضى إلى تلك الديار، يطلب حياة جديدة، حياة الطُّهر والصلاح والاستقامة، ليغسل نفسًا تقذَّرت بالذنوب، ويحييها بالإيمان والصلاح.

وعندما وصل منتصف الطريق حضر أجله، ودَنَتْ ساعته، ولشدة رغبته فى التوبة نأى بصدره جهة الأرض الطيبة وهو فى النزع الأخير، ومات مُقبلًا على الله، راحلًا إلى الديار الصالحة ليعبده، تاركًا وراءه حياة مليئة بالخطايا والذنوب...فما مصيره؟ وما موقعه من ربه؟

أخبرنا الرسول ﷺ أن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب اختصموا فيه، كل واحدٍ من الفريقين يريد أن يلى أمره، ويتكفل به... هؤلاء يقولون: هذا قتل مائة نفس، وأولئك يقولون: لقد تاب وأناب، وجاء مُقبلًا.

فأرسل الله لهم مَلَكًا فى صورة إنسان، فأمرهم أن يقيسوا ما بين الأرضين: أرض الظلم والفساد، وأرض الأخيار الصُّلحاء، فأمر الله الأرض الخيِّرة أن تتقارب، والأرض الظالم أهلها أن تتباعد، فوجدوه أقرب إلى أرض الصالحين بشبر...ولعله الشبر الذى تَحرَّكه عندما نأى بصدره وهو فى النزع، فتولته ملائكة الرحمة، وغُفرت له ذنوبه العظيمة: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

۞ ففي هذا الحديث دليل على فوائد كثيرة منها:

(١) سعة رحمة الله بقبول توبة التائبين، مهما كثرت ذنوبهم، وكثرت خطاياهم، ولذا فإن الذين ييأسون من رحمة الله جُهلاء بالله، لا يعلمون سعة رحمته.

(٢) قبول توبة القاتل إن تاب توبة صادقة...وقد نازع فى ذلك بعض أهل العلم، والحديث صريح فى قبول توبته، وهذا ليس قصرًا على الأمم السابقة... ويدل له قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ

اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

فقد استثنى الله التائبين الذين يعملون الصالحات من الذين يُضاعَف لهم العذاب من المشركين والقتلة المجرمين والزناة.

وعقيدة أهل السنة والجماعة أن كل ذنبٍ دون الشرك فهو قابل للمغفرة، إن شاء الله عذَّب صاحبه، وإن شاء غفر له: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

(٣) على العالِم أن يرشد التائبين إلى الأعمال التى تُرسخ الإيمان فى قلوبهم، وتخلصهم من الشرور التى كانوا يعيشونها كما دَلَّ هذا العالِم الرجل التائب إلى ترك أرضه والرحيل إلى قومٍ صالحين يعبد الله معهم.

(٤) فضل العالم على العابد... فقد أفتى العالِم بعلم، وأفتى الراهب بجهل.

(٥) الملائكة الموكلون ببنى آدم قد يختلف اجتهادهم فى الحكم عليهم، وقد يرفعون الأمر إلى ربهم للقضاء بينهم فيما اختلفوا فيه.

(٦) خصص الله ملائكة يتولون أرواح المؤمنين حين تقبض أرواحهم يُسمَّون بملائكة الرحمة، أما الملائكة الذين يتولون أرواح الفجرة الظالمين فهم ملائكة العذاب.

(٧) قدرة الملائكة على التشكُّل فى صورة البشر، كما فعل ذلك المَلَك الذى قضى بين ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

(٨) فضل بنى آدم حيث أرسل الله المَلَك الذى قضى بين الملائكة فى صورة رجل من بنى آدم.

(٩) لا يجب على العالِم الذى لم يتولَّ منصب القضاء أن يقيم حكم الله فى المجرمين، فهذا العالِم اعترف له هذا الرجل بقتل مائة نفس فلم يسجنه، ولم

يحقق فى أمره، بل أرشده إلى التوبة والهجرة(١).

(٢٢) وعَنْ عبْدِ الله بنِ كَعبِ بنِ مَالـكٍ، وكـانَ قائِـدَ كعـبٍ رَضِوَاللَّهُعَنهُ مـنْ بَنيه حيـنَ عَمِي، قال: سَمِعتُ كَعبَ بن مَالك رَضِوَاللَّهُعَنهُ يُحدِّثُ بِحدِيثِهِ حيـن تخَلَّـف عَـنْ رسول الله ﷺ، فِي غزوة تبُوك. قَال كعبٌ: لمْ أتخلَّفْ عَنْ رسول الله ﷺ، فى غَـزْوَةٍ غَزَاهـا قَطُّ إلَّا فى غزوةِ تبُوكَ، غَير أنِّى قد تخلَّفْتُ فى غَزْوِة بَدرٍ، ولَـمْ يُعَاتِـبْ أحـدًا تَخلَّـف عنْهُ، إنَّما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمُسْلمُونَ يُريدونَ عِيرَ قُريش حتَّى جَمعَ الله تعـالى بينهُم وبين عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيرِ ميعاد. وَلَقَد شهدتُ مَعَ رسول الله ﷺ ليلَةَ العَقَبةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلامِ، ومَا أُحِبُّ أَنَّ لى بهَا مَشهَدَ بَدرٍ، وإن كَانتْ بدرٌ أذْكَرَ فى النَّـاسِ مِنَها وكان من خبرى حينَ تَخلَّفْتُ عَنْ رسول الله ﷺ، فى غَـزْوَة تبُـوك أَنِّـى لَـمْ أكُـنْ قَطُّ أَقْوَى ولا أيسَرَ منِّى حِيـنَ تَخلَّفْـتُ عَنْهُ فى تلْـكَ الْغَـزْوَة، والله مـا جَمعـتُ قبْلهـا رَاحلتينِ قطُّ حتَّى جَمَعتُهُما فى تلك الْغزْوة، ولم يَكن رسـول الله ﷺ يُريـد غَـزْوةً إلَّا ورى بغَيرِهَا حتَّى كَانَتْ تلكَ الْغزْوةُ فغزَاها رسول الله ﷺ فى حَرٍّ شَـديد، وَاسْـتَقْبَلَ سَفرًا بَعيدًا وَمَفـازًا. وَاسْـتَقْبَلَ عَـددًا كَثيرًا، فجَلَّـى للْمُـسْلمِينَ أمْرَهُـمْ ليتَـأهَّبوا أُهْبَـةَ غَـزْوِهِمْ فَـأَخْبَرهُـمْ بـوَجْهِهِمُ الَّـذى يُريـدُ، وَالْمُـسْلمُون مَـع رسـول الله ﷺ كثيرٌ وَلاَ يَجْمَعُهُم كتَابُ حَافِظٌ «يُريدُ بذلك الدِّيوان» قال كَعبٌ: فقَـلَّ رَجُـلٌ يُريـدُ أَنْ يَتغَيـبَ إلا ظَنَّ أَنَّ ذلكَ سَيخْفى بِهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ فيـه وَحْـيٌ مـن الله، وغَـزَا رسـول الله ﷺ تلْـكَ الغـزوة حيـن طَابـت الثِّمَـارُ والظِّـلالُ، فَأَنَـا إِلَيهَـا أَصْـعرُ، فتجهَّـز رسـول الله ﷺ وَالْمُسْلمُون معهُ، وطفِقْت أغدو لِكى أَتَجَهَّز معهُ فأرْجعُ ولمْ أَقْض شيئًا، وأَقُولُ فى نَفْسى: أنا قَادرٌ علَى ذلك إذا أَردتُ، فلمْ يَزلْ يَتمادى بى حتَّى اسْتمَرَّ بالنَّـاسِ الْجِدُّ، فأصْبَحَ رسول الله ﷺ غاديًـا والْمُـسلمُونَ معَهُ، وَلَـمْ أَقْـضِ مِنْ جهـازى شيئًا، ثُـمَّ

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٢٤٧-٢٥٠) بتصرف.

غَدَوْتُ فَرَجَعتُ وَلَم أَقْض شَيئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتمادَى بِى حَتَّى أَسْرعُوا وتَفَارَط الْغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فأُدركَهُمْ، فَيَا ليتَنى فَعلتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذلك لى، فَكنتُ إذا خَرَجْتُ فى النَّاس بَعد خُرُوجِ رسُول الله ﷺ يُحْزِنُنى أَنِّى لا أَرَى لى أُسْوَةً، إلا رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيه فى النِّفاق، أَوْ رَجُلاً ممَّنْ عَذَرَ الله تعالى مِن الضُّعَفَاءِ، ولَمْ يَذكُرنى رسول الله ﷺ حتَّى بَلَغ تَبُوكَ، فقالَ وَهُوَ جَالسٌ فى القوْمِ بِتبُوك: «ما فَعَلَ كعبُ بْنُ مَالك؟» فقالَ رَجُلٌ مِن بَنِى سَلِمة: يَا رسول الله حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالنَّظرُ فى عِطْفَيهِ. فَقال لَهُ مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ: بئس ما قُلتَ: وَالله يَا رسول الله مَا عَلِمْنَا عَليه إلَّا خَيرًا، فَسكَت رسول الله ﷺ. فبَينَا هُوَ على ذلك رأى رَجُلاً مُبْيِضًا يَزُولُ به السَّرَابُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيثمَةَ»، فَإذا هو أَبُو خَيثَمَةَ الأَنصَاريُّ وَهُوَ الَّذى تَصدَّقَ بصاع التَّمْر حين لَمزَهُ المنافقون، قَالَ كَعبٌ: فَلَّما بَلَغنى أَنَّ رسول الله ﷺ قَد توَجَّهَ قَافلاً من تَبُوكَ حَضَرَنى بَثِّى، فطفقتُ أتذكَّرُ الكذبَ وَأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ من سَخطه غَدًا وَأَسْتَعينُ عَلَى ذلكَ بكُلِّ ذى رَأْيٍ مِنْ أَهْلى، فَلَمَّا قيل: إنَّ رسول الله ﷺ قد أظَلَّ قادمًا زاح عَنِّى الْباطلُ حَتَّى عَرَفتُ أَنِّى لم أنج مِنْهُ بشَىءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعتُ صِدقَهُ، وأَصْبَحَ رسول الله ﷺ قَادمًا، وكان إذا قدمَ منْ سَفَر بَدَأ بالْمَسْجد فرَكعَ فيه رَكْعَتَينِ ثُمَّ جَلس للنَّاس، فلمَّا فعل ذَلك جَاءهُ الْمُخلَّفُونَ يَعتذرُون إليه وَيَحْلفُون لَهُ، وكانوا بضعًا وثَمانين رَجُلاً فقبل منْهُمْ عَلانيَتهُمْ وَبايَعُهُم وَاسْتغفَر لَهُمْ وَوَكلَ سَرَائرَهُمْ إلى الله تعَالى.

حتَّى جئتُ، فلمَّا سَلَمْتُ تبسَّم تبسُّم الْمُغْضب ثمَّ قَالَ: «تَعَالَ» فجئتُ أمْشى حَتى جَلَسْتُ بين يَدَيه، فقال لِى: «مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تكُنْ قد ابْتَعتَ ظَهْرك؟»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إنِّى والله لَوْ جلسْتُ عنْد غيركَ منْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيتُ أنى سَأَخْرج منْ سَخَطه بعُذْرٍ، لقد أُعطيتُ جَدَلًا، وَلَكنِّى وَالله لقد عَلمْتُ لَئن حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حديث كَذبٍ ترْضى به عنِّى لَيُوشكَنَّ الله يُسْخطك علىَّ، وإنْ حَدَّثْتُكَ حديث

صدقٍ تجدُ علَيَّ فيه إنِّى لأرجُو فيه عُقْبَى الله عَزَّوَجَلَّ، والله ما كان لِى من عُذْرٍ، والله مَا كُنْتُ قطُّ أقْوَى وَلا أَيسر منِّى حينَ تَخلفتُ عنك قَالَ: فقالَ رسول الله ﷺ: «أمَّا هذَا فقَد صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِى الله فيكَ» وسَارَ رِجَالٌ مِنْ بنى سَلمة فاتَّبعُونى، فقالُوا لى: والله مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنبتَ ذَنْبًا قبْل هذَا، لقَد عَجَزتَ فى أنَ لا تكُون اعتذَرْت إلَى رسول الله ﷺ بمَا اعتذَرَ إليه الْمُخَلَّفُون فقَد كَانَ كافِيكَ ذنْبكَ اسْتِغفارُ رسول الله ﷺ لَك. قَالَ: فوالله ما زَالُوا يُؤنِّبُونَنِى حتَّى أَرَدت أَنْ أَرْجعَ إلى رسول الله ﷺ فأُكَذِّبَ نفْسى، ثُمَّ قُلتُ لُهم: هَلْ لَقِى هَذا معِى مِنْ أحدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لقِيهُ معك رَجُلان قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وقيل لَهمَا مثْلُ مَا قيلَ لكَ، قَال: قُلْتُ: مَن هُمَا؟ قالُوا: مُرارةُ بنُ الرَّبيع الْعَمْرِيُّ، وهلال بن أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ. قَالَ: فَذكَروا لى رَجُلَينِ صَالِحَين قد شَهِدا بدرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ. قَالَ: فَمَضيت حِينَ ذَكَروهُمَا لِى.

وَنَهى رسول الله ﷺ عن كَلامِنا أَيُّهَا الثلاثَةُ مِن بَين من تَخلَّف عَنهُ، قالَ: فاجْتَنَبَنا النَّاس أوْ قَالَ: تَغيَّرُوا لَنا حَتَّى تَنكَّرت لى فى نفسى الأرْضُ، فَمَا هىَ بالأرْضِ التى أعرِفُ، فَلَبْثنا علَى ذَلكَ خمْسِينَ ليلَةً. فأَمَّا صَاحبايَ فَاستكَانَا وَقَعَدَا فى بُيُوتهمَا يَبْكيَانِ وأمَّا أَنا فكُنتُ أشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنتُ أَخرُج فَأَشْهَدُ الصَّلاة مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأطُوفُ فى الأَسْواقِ وَلا يُكَلِّمُنى أحدٌ، وآتِى رسول الله ﷺ فأُسَلِّمُ عَلَيه، وَهُو فى مجْلِسهِ بعدَ الصَّلاة، فَأَقُولُ فى نفسى: هَل حَرَّكَ شفتَيهِ بردِّ السَّلام أم لا؟ ثُمَّ أُصلِّى قريبًا مِنهُ وأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقبلتُ علىَّ صلاتِى نَظر إلَيَّ، وإِذَا الْتفَتُّ نَحْوَهُ أعرَضَ عَنِّى، حَتى إذا طَال ذلكَ عَلَى مِن جَفْوةِ الْمُسْلمينَ مشَيت حَتَّى تَسوَّرْت جدارَ حَائط أَبى قَتَادَةَ وَهُوَ ابن عَمِّى وأَحبُّ النَّاسِ إلَيَّ، فَسلَّمْتُ عَلَيهِ فَوالله مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقُلْت لَه: يَا أَبَا قتادَة أنْشُدُكَ بالله هَلْ تعلَمُنى أُحبُّ الله وَرَسُوله ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدت فَنَاشَدتُه فسكَتَ، فَعُدت فَنَاشَدته فقَالَ: الله ورَسُولُهُ أَعلَمُ. فَفَاضَتْ عينَايَ، وَتَوَلَّيتُ حَتَّى تَسوَّرتُ الْجِدارَ فبينَا أَنَا أَمْشى فى سُوقِ

المدينةِ إِذَا نَبطيٌّ من نبطِ أَهْلِ الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبيعُهُ بالمدينةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كعبِ بْنِ مَالكٍ؟ فَطَفقَ النَّاسُ يُشيرون له إِلَيَّ حتى جاءَنى فَدَفَعَ إِلَيَّ كتَابًا منْ مَلِكِ غَسَّانَ، وكُنْتُ كَاتِبًا. فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فيه: أَمَّا بَعدُ فَإِنَّهُ قد بلَغَنا أن صاحِبَكَ قد جَفاكَ، ولَم يَجْعَلْكَ اللهُ بدَارِ هَوَانٍ ولا مَضْيعَة، فَالْحقْ بِنا نُوَاسِك، فَقلْت حين قرأْتُهَا: وَهَذِهِ أيضًا من الْبَلاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّور فَسَجرْتُهَا.

حَتَّى إذَا مَضَتْ أَرْبَعُون مِن الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبث الْوَحْى إِذَا رسولُ رسولِ الله ﷺ يَأْتينى، فَقَال: إنَّ رسول الله ﷺ يَأمُرُكَ أَنْ تَعتزِلَ امْرأَتكَ، فقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا، أَمْ مَاذا أَفعلُ؟ قَالَ: لا بَلْ اعتزِلْهَا فلا تقربَنَّهَا، وَأَرْسلَ إلى صَاحِبيَّ بمثْل ذلكَ. فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحقى بِأَهْلك فَكُونى عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِى اللهُ فى هذا الأمر، فَجَاءَت امْرأَةُ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ رسول الله ﷺ فقالتْ لَهُ: يَا رسول الله إِنَّ هلالَ بْنَ أُميَّةَ شَيخٌ ضَائعٌ ليسَ لَهُ خادمٌ، فهلْ تَكرهُ أَنْ أَخْدُمهُ؟ قال: «لا، وَلَكنْ لا يَقْربَنَّك». فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَالله مَا بِهِ مِنْ حَرَكة إلى شَيء، وَوَالله ما زَالَ يَبْكى مُنْذُ كَانَ مِنْ أمْرِهِ مَا كَانَ إلى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَال لى بعضُ أَهْلِى: لَو اسْتأذنْت رسول الله ﷺ فى امْرَأَتِك، فقَد أَذن لامْرأة هِلال ابْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخدُمَهُ؟ فقُلْتُ: لا أَسْتَأْذنُ فيهَا رسول الله ﷺ، ومَا يُدرينى مَاذا يَقُولُ رسولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلبِثْتُ بذلك عشر ليَالٍ، فَكَمُل لَنا خمسُونَ لَيلَةً مِنْ حينِ نُهى عَنْ كَلامنا.

ثُمَّ صَلَّيتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صباحَ خَمْسينَ لَيلَةً عَلَى ظَهْر بَيت مِنْ بُيُوتنَا، فَبينَا أَنَا جَالسٌ عَلَى الْحال التى ذكَر الله تعالى منَّا، قَد ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسى وضَاقتْ عَلَيَّ الأرضُ بمَا رَحُبَتْ، سمعتُ صَوْتَ صَارخٍ أوفى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بأعلَى صَوْتِهِ: يَا كَعب بْن مَالك أبْشِرْ، فخرَرْتُ سَاجدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَد جَاءَ فَرَجٌ فَآذَنَ رسول الله ﷺ النَّاس بِتوبَةِ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَينا حين صَلَّى صَلاة الْفَجْرِ فذهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فذهَبَ قِبَلَ صَاحبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وركض رَجُلٌ إِلَيَّ فرَسًا وَسَعَى ساعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِى وَأَوْفى

عَلَى الْجَبلِ، وكَان الصَّوتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فلمَّا جَاءَنى الَّذى سَمِعتُ صوْتَهُ يُبَشِّرُنى نزَعتُ لَهُ ثَوْبىَّ فكَسَوْتُهُمَا إيَّاهُ ببشارَته والله ما أمْلكُ غيرهُمَا يَوْمَئذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَينِ فَلَبسْتهُمَا وانطَلَقتُ أتأمَّمُ رسول الله ﷺ يَتَلَقَّانِى النَّاسُ فَوْجًا فوجًا يُهَنِّئوننى بِالتَّوْبة وَيَقُولُون لى: لتَهْنكَ تَوْبَةُ الله عَلَيكَ، حتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فإذا رسول الله ﷺ جَالسٌ حوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طلْحَةُ بْنُ عُبَيد الله رضي الله عنه يُهَرْوِل حَتَّى صَافَحَنى وهَنَّأنى، والله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهاجِرينَ غَيرُهُ، فَكَان كَعبٌ لا يَنْساهَا لطَلحَة. قَالَ كَعبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رسول الله ﷺ قال وَهو يَبْرُقُ وَجْهُه مِنَ السُّرُور: «أبْشرْ بخَيرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيكَ مُذْ ولَدَتْكَ أُمُّكَ»، فقُلْتُ: أمِنْ عنْدكَ يَا رَسُول الله أم مِنْ عنْد الله ؟ قَالَ: لا بَلْ مِنْ عنْد الله عَزَّ وَجَلَّ وكانَ رسول الله ﷺ إذَا سُرَّ اسْتَنارَ وَجْهُهُ حتَّى كَأنَّ وجْههُ قطْعةُ قَمر، وكُنَّا نعرِفُ ذلكَ مِنْهُ، فلَمَّا جلَسْتُ بيَنَ يَدَيهِ قُلتُ: يَا رسول الله إنَّ من تَوْبَتِى أنْ أَنْخَلِعَ مِن مَالى صدَقَةً إلى الله وإلى رَسُوله.

فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «أمْسكْ عَلَيْكَ بَعضَ مَالكَ فَهُوَ خَيْر لَكَ»، فَقُلْتُ: إنِّى أُمْسكُ سَهْمى الَّذى بخيْبَر. وَقُلْتُ: يَا رَسُول الله إن الله تَعالَى إنَّما أنْجَانِى بالصدق، وَإنَّ منْ تَوْبَتى أن لا أُحدِّثَ إلا صدقًا ما بَقيتُ، فوالله ما علمْتُ أحدًا مِنَ المسلمين أبْلَاهُ الله تعالى فى صدق الْحَديث مُنذ ذَكَرْتُ ذَلكَ لرِسُول الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أبْلانِى الله تَعالَى، والله مَا تَعمّدت كِذْبَةً مُنْذُ قُلْت ذَلكَ لرَسُول الله ﷺ إلى يَوْمِى هَذا وإنِّى لأَرْجُو أنْ يَحفظنى الله تعالى فيمَا بَقى، قَالَ: فَأنْزَل الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾. حتَّى بَلَغَ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]، حتى بلغ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قالَ كعبٌ: والله مَا أَنْعَمَ الله عَلَيَّ مِنْ نعمَة قَطُّ بَعدَ إذْ هَدانى الله للإسْلام أَعظَمَ فى نَفسِى مِنْ صِدقى رَسُولَ الله ﷺ أن لا أكُونَ كَذَبْتُهُ، فأهلكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ

كَذَبُوا، إن الله تَعَالَى قَالَ للَّذينَ كَذَبُوا حِينَ أنزلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأحَدٍ، فَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

قال كَعبٌ: كنَّا خُلِّفْنَا أَيُّها الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْر أُولئِكَ الَّذينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ حَلَفوا لَهُ، فبايعَهُمْ وَاستْغفَرَ لَهُمْ، وأرْجأ رَسولُ الله ﷺ أمْرَنا حَتَّى قَضَى الله تَعَالَى فِيهِ بذَلكَ، قَالَ اللُّه تَعالِى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾.

ولَيْس الَّذي ذَكَرَ ممَّا خُلِّفنا تَخَلُّفُنا عَن الغزو،وإنَّما هُوَ تَخْلِيفهُ إِيَّانَا وإرجاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعتذَرَ إِليْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ[١].

وفي رواية: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَرَجَ في غَزْوة تَبُوك يَوْمَ الخميسِ، وَكَان يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الخميس».

وفي روَاية: «وَكَانَ لا يَقدُمُ مِنْ سَفرٍ إِلَّا نهَارًا في الضُّحَى. فَإِذَا قَدِم بَدَأ بالْمسجِدِ فصلَّى فِيهِ ركْعتيْنِ ثُمَّ جَلَس فِيهِ».

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: مناقب كعب بن مالك وهي:

(١) حضوره جميع الغزوات التي غزاها النبي، ما عدا غزوة بدر، وغزوة تبوك، ولم يعتب عليه في بدر؛ لأن النبي لم يعزم على الصحابة في الخروج، لأنه ما كان يريد الغزو، وإنما كان يريد عير قريش، وبذلك تكون الغزوة الوحيدة التي تخلف عنها ويُلام عليها هي غزوة تبوك.

(٢) شهوده ليلة العقبة حيث أخذ عليهم العهد والميثاق على الإسلام والجهاد في سبيل الله... وهذه الليلة كانت أعظم عند كعب، من شهوده بدرًا،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٨) كتاب المغازي، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

لقوله: (وما أحب أن لي بها مشهد بدر) .

(٣) عظيم صدقه، حتى إن كان هذا الصدق ينتقص من قدره ويفضح أمره، ويُظهره أكثر تَقاعُسًا عن شهود الغزو، وذلك علمناه من:

أ- إخباره أنه ما كان في يوم أقدر استطاعة، ولا أيسر حالًا عنه في غزوة تبوك، حتى إنه لأول مرة في حياته يملك راحلتين.

ب- ذكره ما كان من أمره في تأخير وتسويف التجهز للغزو، ولم يذكر أيضًا عُذرًا له فى ذلك.

جـ- اعترافه بين يدي رسول الله، أن تَخلُّفه لم يكن لعذر بل صَدَقه القول، أنه ما كان قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عنه في غزوة تبوك.

(٤) إذا كان هذا هو صدق كعب بن مالك، فمن المناسب أن نذكر ما جناه كعب من هذا الصدق، وذلك ليكون دافعًا لنا لتحرِّى الصدق فى حياتنا كلها.

أ- تجنُّب سخط الرسول ﷺ.

ب- نجَّاه الله بصدقه من الهلاك مع الذين هلكوا.

ج- أنزل الله عَزَّوَجَلَّ فيه وفي صاحبيه، قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة، أثنى عليهم فيه خير الثناء حيث وصف حُزنهم لتخلُّفهم عن رسول الله.

د- تَحرِّيه الصدق بقية حياته، حتى إنه لا يرى أحدًا من أصحاب الرسول، مع جلالة قدرهم، وعلو منزلتهم، كان مثله في صدق الحديث...يقول كعب: (فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني) .

هـ- ذِكرُه الحسن في المسلمين، خاصة أهل العلم والفضل بحُسن توبته وصدقه.

(٥) نأخذ من الحديث فقه الصحابي كعب بن مالك، وذلك أنه علم أنه لن يُنجيه بين يدي رسول الله إلا الصدق، وأن الكذب لا ينفع ولا يُغني من الحق شيئًا.

(٦) كما نأخذ منه أيضًا قوة يقينه بعلم الله بأحوال العباد، وإحاطة سمعه لما يقولون...لقول كعب: (لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يُسخطك عليَّ).

(٧) نأخذ من الحديث أيضًا يقينه باتصال النبي الدائم بالله عَزَّوَجَلَّ وأن الوحي لا ينقطع عنه في كل الأمور كبيرها وصغيرها.

(٨) إجلال كعب للنبي ﷺ وتعظيم قدره، وأنهم كانوا يرون كل أهل الأرض من ملوك ووزراء وكبراء دونه.

(٩) نأخذ من الحديث يقينه بأن النبي ﷺ لا يعلم شيئًا من الغيب، وأن كل الذي نبأ به من أمور الغيب إنما هو بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ .

الفائدة الثانية: حرص النبي ﷺ على تربيته الأمة على العقيدة الصحيحة، والتي منها أن الأمر كله لله، يحكم بما يشاء وكيف شاء، ومتى شاء، لا مُعقب لحُكمه، ولا رادَّ لأمره... وذلك من قوله: «**فَقُم حتى يقضي الله فيك**».

الفائدة الثَّالثة: فيه تقدير الصحابة لمن شهد بدرًا، وأنهم كانوا يرونهم قدوة لهم وأُسوة... لقول كعب: (قد ذكروا لي رجلين قد شهدا بدرًا، فمضيت حين ذكروهما لي) ، وفيه أن الإنسان يتصبر في مصيبته إذا علم أن غيره يشاركه فيها؛ لأن كعبًا أراد أن يعود للنبي ﷺ ويُكذب نفسه، إلا أنه مضى لما علم أن مرارة ابن الربيع وهلال بن أمية قد قال لهما الرسول ﷺ مثل ما قال له.

الفائدة الرّابعة: في الحديث ما كان من طاعة الصحابة لنبيهم ﷺ: وعدم مخالفته أمره، ويتبين ذلك من:

(١) اجتناب الناس للثلاثة الذين خُلِّفوا، طاعة لأمر رسول الله.

لقول كعب: (فاجتنبنا الناس) ، وقوله: (وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد) . حتى ابن عمه أحب الناس إليه، أبي قتادة، لم يرد عليه السلام.

(٢) لما أمر الرسول ﷺ الثلاثة الذين خُلفوا أن يعتزلوا نساءهم. ولا يقربوهن، استفسر كعب أولًا عن مقصود الرسول ﷺ بالاعتزال، هل يعني الطلاق؟ مخافة أن يكون قصده الطلاق، فلا يبادر به ويتأخر عن الطاعة، فلما علم أنه الاعتزال فقط، أمر امرأته أن تلحق بأهلها.

(٣) في الحديث عظيم أسف وحزن الصحابة على ما يقع منهم من معصية الله ورسوله... يظهر ذلك من قول كعب: (أما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان).

الفائدة الخامسة: وهي فائدة جليلة، تتلخص في أهمية الرأي العام في المجتمع المسلم، وتأثيره على أهل المعاصي، وأن هذا أبلغ بكثير من إيداعهم السجن.

الفائدة السَّادسة: في الحديث ما عليه الكفار من الحرص على إضلال المسلمين، وتَحيُّن كل فرصة لذلك، حتى لو اصطادوا في الماء العكر.

ويجب علينا أن لاننخدع بقولهم المعسول، فنكون قد كذبنا الله وصدقناهم، فالله يقول: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨]. فماذا يدفع ملكًا من ملوك الأرض أن يكتب إلى أحدٍ من المسلمين في ظروفٍ كهذه؟ يُذكره بما يلاقيه من جفاء النبي ﷺ له، وهوانه على الناس، ورغبة الملك في اللحاق به فقال له: (فالحق بنا نواسك) ... وما أشبه الليلة بالبارحة، يذهبون لفقراء المسلمين، يُغرونهم بالمال في المجاعات ليرتدوا عن إسلامهم، ويمنحون أوائل الطلاب والنوابغ منهم في العلم، المِنَح الدراسية المجانية، فيذهب أولاد المسلمين إليهم في عقر دارهم، في سِنٍّ مُبكرة، يتشربون منهم عاداتهم ويأخذون عنهم تقاليدهم، ويرجعون إلى أهليهم بأسوأ حال- إلا من رحم الله-.

الفائدة السّابعة: في الحديث ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، من حُبٍّ لله ورسوله... يتبين ذلك من خروج كعب إلى مسجد رسول الله ﷺ، ويسلم عليه، ويتمنى في نفسه أن يحرك الرسول شفتيه تحريكًا فقط بردِّ السلام، بل ينظر إليه في خفية حُبًّا لرؤية الرسول ﷺ.

الفائدة الثّامنة: الثبات على العزيمة والرشد، في أشد الظروف وأحلكها، فهذا ملك غسان يرسل -بنفسه- كتابًا إلى كعب، يُذكره بما هو فيه ويُغريه بما يمكن أن يكون فيه، في وقتٍ قد ضاقت عليه الأرض بما رَحُبت، فماذا فعل كعب؟، هل شاور نفسه؟ هل فكر في أمره؟ انظروا ماذا فعل في كتاب ملك غسان، لقد حرقه.

الفائدة التّاسعة: في الحديث بيان ما يصيب المؤمن من فرح وسرور من توبة الله عليه... يتبين ذلك مما يلي:

١- سجود كعب بن مالك شُكرًا لله لما سمع صوت الصارخ من أعلى الجبل يبشره...وفي ذلك مشروعية سجود الشكر عند نزول النعم، وكذا عند رفع النِّقَم.

٢- سمَّى كعب التوبة فرجًا فقال: (وعرفت أن قد جاء الفرج) .

٣- إهداء كعب بن مالك ثوبيه، مع أنه لا يملك غيرهما، للذي بشره، واستعار ثوبين غيرهما يخرج بهما.

٤- تصدق كعب بن مالك بكل ماله- إلا سهمه بخيبر- تعبيرًا عن فرحه بتوبة الله عليه، وشكره على ذلك ... وكان يريد ابتداءً أن يتصدق بكل ماله، لولا مراجعة الرسول له.

الفائدة العاشرة: على جماعة المسلمين أن يفرحوا بتوبة أخيهم المسلم، ورجوعه إلى حظيرة الطاعة، كما رأينا ذلك جليًّا في موقف الصحابة من كعب رضي الله عنهم أجمعين[1] .

---

(١) بتصرف من كتاب (شمائل الرسول ﷺ) / للشيخ أحمد عبد الفتاح الزواوي.

(٢٣) وعَنْ أبى نُجَيْد عِمْرانَ بْنِ الحُصيْنِ الخزاعىِّ رضي الله عنهما أنَّ امْرأَةً منْ جُهينة أَتَت رَسُول الله ﷺ وَهى حُبْلَى منَ الزِّنَا، فقَالتْ: يَا رسول الله أَصَبْتُ حَدًّا فأَقِمْهُ عَلَىَّ، فَدَعا نَبِىُّ الله ﷺ وليَّهَا فقَالَ: «أَحْسِنْ إليْهَا، فَإذا وَضَعَت فأْتِنى بهَا» فَفعَلَ. فَأَمَرَ بِهَا نَبِىُّ الله ﷺ فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثيَابُها، ثُمَّ أَمَرَ بهَا فرُجمتْ، ثُمَّ صلَّى عَليْهَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّى عَلَيْهَا يَا رسُولَ الله وَقَد زَنَتْ، قَالَ: «لَقَد تَابَتْ تَوْبةً لَوْ قُسمَتْ بيْن سبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ وَهَلْ وَجدتَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنفْسهَا لله عز وجل؟»[١].

۞ لقد جاءت امرأة إلى النبى ﷺ وهى حُبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت حَدًّا فأقمه علىَّ... أى أصبت ذنبًا يُوجب الحدَّ فأقمه علىَّ.

فدعا نبى الله ﷺ وَليَّهَا فَقَالَ: «أحسِنْ إليْهَا، فَإذا وَضَعَت فائتِنى بِهَا» ففعل.

فقَوْله ﷺ لِوَلِىِّ الْغَامِدِيَّة: «أَحسِنْ إِلَيْهَا فَإِذَا وَضَعَتْ فَائْتِنِى بِهَا».

هَذَا الإِحْسَان لَهُ سَبَبَانِ:

أَحَدهمَا: الْخَوْف عَلَيْهَا مِنْ أَقَارِبهَا أَنْ تَحمِلهُمْ الْغَيْرَة وَلُحُوق الْعَار بِهِمْ أَنْ يُؤْذُوهَا، فَأَوْصَى بِالْإِحسَانِ إِلَيْهَا تَحذِيرًا لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

وَالثَّانِى: أَمَرَ بِهِ رَحمَة لَهَا إِذْ قَد تَابَتْ، وَحَرَّضَ عَلَى الْإِحسَان إِلَيْهَا لِمَا فِى نُفُوس النَّاس مِنْ النُّفْرَة مِنْ مِثْلهَا، وَإِسْمَاعهَا الْكَلَام الْمُؤْذِى وَنَحْو ذَلِكَ فَنَهَى عَنْ هَذَا كُلّه.

فلما وضعت جيء بها فأمر بها نبى الله ﷺ فشُدَّت عليها ثيابها ثم أمر بها فرُجمت.

وَفِى هَذَا اِسْتِحْبَاب جَمْع أَثْوَابهَا عَلَيْهَا وَشَدّهَا بِحَيْثُ لَا تَنْكَشِف عَوْرَتهَا فِى تَقَلُّبهَا وَتَكْرَار اِضْطِرَابهَا... وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّهُ لَا تُرجَم إِلَّا قَاعِدَة، وَأَمَّا الرَّجُل فَإِنَّهُ يُرجَم قَائِمًا[٢].

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٩٦) كتاب الحدود.
(٢) مسلم بشرح النووى (١١/ ٢٩٢) بتصرف.

۞ وفى الرواية الأخرى: فَقَالَ لَهَا: «حَتَّى تَضَعِى مَا فِى بَطْنك».

فِيهِ: أَنَّهُ لَا تُرجَم الْحُبْلَى حَتَّى تَضَع، سَوَاء كَانَ حَمْلهَا مِنْ زِنًا أَوْ غَيْره، وَهَذَا مُجْمَع عَلَيْهِ لِئَلَّا يُقْتَل جَنِينهَا، وَكَذَا لَوْ كَانَ حَدّهَا الْجَلْد وَهِىَ حَامِل لَمْ تُجْلَد بِالْإِجْمَاعِ حَتَّى تَضَع.

وَفِيهِ: أَنَّ الْمَرأَة تُرْجَم إِذَا زَنَتْ وَهِىَ مُحصَنَة كَمَا يُرجَم الرَّجُل، وَهَذَا الْحَدِيث مَحمُول عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مُحصَنَة ؛ لِأَنَّ الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة وَالْإِجْمَاع مُتَطَابِقَانِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُرْجَم غَيْر الْمُحصَن.

وَفِيهِ: أَنَّ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهَا قِصَاص وَهِىَ حَامِل لَا يُقْتَصّ مِنْهَا حَتَّى تَضَع، وَهَذَا مُجْمَع عَلَيْهِ، ثُمَّ لَا تُرْجَم الْحَامِل الزَّانِيَة وَلَا يُقْتَصّ مِنْهَا بَعد وَضْعهَا حَتَّى تَسْقِى وَلَدهَا اللَّبَن وَيَسْتَغْنِى عَنْهَا بِلَبَنِ غَيْرهَا.

۞ قَوْله: (فَكَفَلَهَا رَجُل مِنْ الْأَنْصَار حَتَّى وَضَعَتْ)

أَىْ قَامَ بِمُؤْنَتِهَا وَمَصَالِحهَا، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ الْكَفَالَة الَّتِى هِىَ بِمَعنَى الضَّمَان ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يَجُوز فِى الْحُدُود الَّتِى لِلَّهِ تَعَالَى(١).

۞ «ثم أمر بها فَرُجمت» أى: بالحجارة، - وهى ليست حجارة كبيرة ولا صغيرة - حتى ماتت ثم صلَّى عليها النبى ﷺ ودعا لها دُعاء الميت.

فقال له عمر: تصلِّى عليها يا رسول الله وقد زنت ... أى: والزِّنى من كبائر الذنوب.

فقال: «لقد تابت توبة لو قُسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم» يعنى توبة واسعة لو قسمت على سبعين كلهم مُذنب لوسعتهم ونفعتهم.

«وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عَزَّوَجَلَّ» أى: هل وجدت أفضل من هذه الحال؟... امرأة جاءت فجادت بنفسها يعنى: سلَّمت نفسها من أجل

---

(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ٢٨٧-٢٨٨) بتصرف.

التَّقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ والخلوص من إثم الزنى. ما هناك أفضل من هذا؟!

۞ ففي هذا الحديث دليل على فوائد كثيرة:

منها: أن الزَّاني إذا زنى وهو مُحصَن - يعني: قد تزوج - فإنه يجب أن يُرجم وجوبًا ... وقد كان هذا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ آية قرأها المسلمون وحفظوها ووعوها ونفذوها.

رجم النبي ﷺ ورجم الخلفاء من بعده ولكن الله بحكمته نسخها من القرآن لفظًا وأبقى حكمها في هذه الأمة. فإذا زنى المحصن - وهو الذي قد تزوج - فإنَّه يُرجَم حتى يموت ... يوقف في مكانٍ واسع ويجتمع الناس ويأخذون من الحصى يرمونه به حتى يموت.

وهذه من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، أي: أنه لم يأمر الشَّرع بأن يُذبح بالسيف وينتهي أمره، بل يُرجم بهذه الحجارة حتى يتعذب ويذوق ألم العذاب في مقابل ما وجده من لذة الحرام لأن هذا الزَّاني تلذذ جميع جسده بالحرام فكان من الحكمة أن ينال هذا الجسد من العذاب بقدر ما نال من اللذة.

ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: إنه لا يجوز أن يُرجم بالحجارة الكبيرة لأن الحجارة الكبيرة تُجْهِزُ عليه ويموت سريعًا فيستريح ولا بالصغيرة جدًّا لأن هذه تؤذيه وتُطيل موته. ولكن بحصى متوسط حتى يذوق الألم ثم يموت.

فإذا قال قائل: أليس قد قال النبي ﷺ: «**إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**»[1] والقتلة بالسيف أريح للمرجوم من الرجم بالحجارة؟

قلنا: بلى قد قاله الرسول عليه الصلاة والسلام لكن إحسان القتلة يكون بموافقتها للشرع.

فالرجم إحسان لأنه موافق للشرع، ولذلك لو أن رجلاً جانيًا جنى على

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٥٥) كتاب الصيد والذبائح.

شخص فقتله عمدًا وغرر به قبل أن يقتله فإننا نُغرر بهذا الجانى إذا أردنا قتله قبل أن نقتله.

مثلاً لو أن رجلاً جانيًا قتل شخصًا فقطع يديه ثم رجليه ثم لسانه ثم رأسه. فإننا لا نقتل الجانى بالسيف!! بل نقطع يديه ثم رجليه ثم لسانه ثم نقطع رأسه مثلما فعل ... ويُعتبر هذا إحسانًا فى القتلة ... لأن إحسان القتلة أن يكون موافقًا للشرع على أى وجهٍ كان.

وفى هذا الحديث دليل على جواز إقرار الإنسان على نفسه بالزنى من أجل تطهيره بالحد لا من أجل فضحه نفسه. فالإنسان الذى يتحدث عن نفسه أنه زنى عند الإمام أو نائبه من أجل إقامة الحد عليه هذا لا يُلام ولا يُذَم. وأما الإنسان الذى يخبر عن نفسه أنه زنى..يخبر بذلك عامة الناس فهذا فاضحٌ نفسه وهو من غير المعافين لأن الرسول ﷺ يقول: «**كل أمَّتى مُعافى إلَّا المُجاهرين**» قالوا: مَن المجاهرون؟ قال: «**الذى يفعل الذنب ثم يستره الله عليه ثم يصبح يتحدث به**»[(١)].

إذا قال قائل: هل الأفضل للإنسان إذا زنى أن يذهب إلى القاضى ليُقر عنده فيُقام عليه الحد أو الأفضل أن يستر نفسه؟

فيه تفصيل: قد يكون الإنسان تاب توبة نصوحًا وندم وعرف من نفسه أنه لن يعود فهذا الأفضل ألا يذهب ولا يخبر عن نفسه بل يجعل الأمر سرًّا بينه وبين الله ... ومَن تاب تاب الله عليه.

وأما مَن خاف ألا تكون توبته نَصوحًا وخاف أن يعود ويرجع إلى الذنب مرة أخرى فهذا الأفضل فى حقِّه أن يذهب إلى ولى الأمر - القاضى أو غيره - ليُقر عنده فيُقام عليه الحد[(٢)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) (شرح رياض الصالحين) (١/ ٨١-٨٣) بتصرف.

(٢٤) وعَنْ ابْنِ عَبَّاس وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ»(١).

ففى هذا الحديث يُخبر النبى ﷺ عن آفة الطمع الذى يملأ قلوب أكثر بنى آدم.. وأن ابن آدم لا يشبع من المال والذهب أبدًا حتى أنه لو كان يمتلك واديًا من الذهب الصافى.. وذلك الوادى قد يكفى أهل الأرض جميعًا ومع ذلك فهو لا يكتفى بذلك بل يتمنى أن يمتلك واديين من الذهب.

ثم يوضح النبى ﷺ أنه لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.. وذلك إذا مات ودُفن تحت التراب وترك الدنيا بما فيها ففى هذه اللحظة يُدرك حقيقة الدنيا... ومع ذلك فالنبى ﷺ يحث الناس على التوبة من الطمع والجرى وراء حُطام الدنيا الفانى... وذلك لأن الطمَّاع قد لا يحترز عند جمع المال فيجمع الحلال مع الحرام.. فيخبر النبى ﷺ أن دواء ذلك فى التوبة والزهد فى الدنيا والرغبة فيما عند الله (جلَّ وعلا).



(٢٥) وعَنْ أبِى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يَضْحكُ الله سبْحَانُه وتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أحدُهُمَا الآخَرَ يدخُلاَنَ الجنَّة، يُقَاتِلُ هَذَا فى سبيلِ الله فيُقْتَل، ثُمَّ يَتُوبُ الله عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْلِمُ فيُستشهَدُ»(٢).

فالله عَزَّوَجَلَّ يضحك إلى رجلين... وسبب ضحك الله (جلَّ وعلا) أن هذين الرجلين كان بينهما من العداوة فى الدنيا ما يعجز القلم عن وصفه حتى أن أحدهما قتل الآخر... فيُقدر الله عَزَّوَجَلَّ أن تنقلب تلك العداوة إلى محبة يعجز القلم عن وصفها... فقد قُتل أحدهما ودخل الجنة ... وتاب القاتل وأسلم ونال

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٣٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٤٩) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٢٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٩٠) كتاب الإمارة.

الشهادة فدخل الجنة فاجتمعا فى الجنة بعد أن نزع الله ما فى صدورهما من غِلٍّ وملأ قلوبهما بالحب.. ولا عجب فى ذلك فقد قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فكان هذا هو وجه العجب من هذين الرجلين.

وفى هذا الحديث دليل على أن الكافر إذا أسلم وتاب من كُفره فإن الله يتوب عليه حتى ولو كان قد قتل أحدًا من المسلمين قبل أن يتوب فيُسلم.. وذلك لأن الإسلام يهدم ما قبله.

(٣) باب الصبر

۞ ما أعظم الصبر فى حياة المسلم... فالصبر عبادة من أعظم العبادات التى نتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ لكن لَا بُدَّ أن نعلم أن الصبر ثلاثة أنواع:

(١) الصبر على الطاعة.

(٢) الصبر عن المعصية.

(٣) الصبر على قضاء الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ **فأما النوع الأول وهو الصبر على الطاعة**... فالواجب علينا أن نحرص على طاعة الله وأن نُجاهد أنفسنا فى الصبر على الطاعة؛ لأن الطاعة تحتاج إلى صبر... فالمحافظة على الصلوات الخمس وبخاصة صلاة الفجر تحتاج إلى صبر كبير.... والمحافظة على صيام رمضان ثم الاجتهاد فى صيام النوافل تحتاجٍ إلى صبر.. وإيتاء الزكاة والحرص على بذل المال دائمًا يحتاج إلى صبر... وأداء مناسك الحج بما فيها من مشقة شديدة يحتاج إلى صبر... وحفظ القرآن يحتاج إلى صبر... وهكذا فكل طاعة تحتاج إلى الصبر.

وكلما احتاج الأمر إلى الصبر كلما ازداد الثواب والأجر.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

۞ **وأما النوع الثانى: فهو الصبر عن المعصية.**

ومما لا شكَّ فيه أن مُجاهدة النفس فى البُعد عن المعاصى تحتاج إلى صبر شديدٍ؛ لأن النفس أمَّارةٌ بالسوء-إلا ما رحم ربى- فهى تُحب الشهوات وتحضٌ صاحبها على الوقوع فيها.

فإن خالف العبد نفسه وشيطانه وهواه فقد انتصر ووصل إلى شاطئ الأمان بفضل الله أولًا ثم بالصبر.

۞ وأما النوع الثالث: فهو الصبر على قضاء الله (جلَّ وعلا):

فالحياة لا تخلو أبدًا من الابتلاءات والشدائد.. وذلك لأن الدنيا دار ابتلاءٍ وامتحان... ولن تكون الراحة الكاملة إلا فى جنة الرحمن (جلَّ وعلا).

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾[العنكبوت: ١-٤].

وقال ﷺ: « **مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ** »[(١)].

ولذلك لا بُدَّ أن تعلم أن طريق الجنة هو الصبر.

ولذا قال ﷺ: « **حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ** »[(٢)].

والمكاره لا بد لها من الصبر.

۞ والإنسان عند حُلول المصيبة له أربع حالات:

الحال الأولى: أن يتسخط. والحال الثانية: أن يصبر.

والحال الثالثة: أن يرضى. والحال الرابعة: أن يشكر.

هذه أربع حالات تكون للإنسان عندما يُصاب بالمصيبة.

أما الحال الأولى: أن يتسخَّط إما بقلبه أو بلسانه أو بجوارحه.

التسخط بالقلب أن يكون فى قلبه شيء على ربه من السُّخط والشره على الله والعياذ بالله وما أشبهه ... ويشعر وكأن الله قد ظلمه بهذه المصيبة.

وأما باللسان فأن يدعو بالويل والثُّبور ... يا ويلاه يا ثبوراه، وأن يَسُب الدَّهر فيؤذى الله عزَّ وجلَّ وما أشبهه ... كما قال تعالى: «**يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**»[(٣)].

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٤٥) كتاب المرضى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى(٦٤٨٧)كتاب الرقاق، ومسلم(٢٨٢٢) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى(٤٨٢٦) كتاب تفسير القرآن، ومسلم(٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب.

التسخُّط بالجوارح مثل أن يلطم خدّه أو يصفع رأسه أو ينتف شعره أو يشق ثوبه وما أشبه هذا.

هذا حال السخط ... حال الهلعين الذين حُرموا من الثواب ولم ينجوا من المصيبة بل الذين اكتسبوا الإثم، فصار عندهم مصيبتان: مصيبة فى الدِّين بالسخط، ومصيبة فى الدُّنيا لما أتاهم ما يُؤلمهم.

أما الحال الثانية: فالصبر على المصيبة بأن يحبس نفسه... فهو يكره المصيبة ولا يحبها ولا يحب أنها وقعت لكن يُصبر نفسه ولا يتحدث باللسان بما يُسخط الله ولا يفعل بجوارحه ما يُغضب الله ولا يكون فى قلبه على الله شىء أبدًا... صابر لكنه كارهٌ لها.

والحال الثالثة: الرِّضى بأن يكون الإنسان منشرحًا صدره بهذه المصيبة ويرضى بها رضاءً تامًّا وكأنه لم يُصَب بها.

والحال الرابعة: الشُّكر فيشكر الله عليها ... وكان الرسول ﷺ إذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال.

فيشكر الله من أجل أن الله يُرتب له من الثواب على هذه المصيبة أكثر مما أصابه.

ولهذا يُذكر عن بعض العابدات أنها أُصيبت فى أصبعها فقُطعت فحمدت الله على ذلك فقالوا لها: كيف تحمدين الله والأصبع قد أصابه ما أصابه؟! قالت: إن حلاوة أجرها أنستنى مرارة قطعها [(١)].

۞ قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

لقد أمر الله المؤمنين بتلك الأوامر الأربعة: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٨٥) بتصرف.

واختلف تفسير أهل العلم لتلك الأوامر الأربعة فمنهم مَن قال: الصبر عن المعصية والمصابرة على الطاعة والمرابطة كثرة الخير وتتابُع الخير والتقوى تَعُمُّ ذلك كله.

۞ وقال الشيخ السعدى رَحِمَهُ اللَّهُ فى تفسير تلك الآية:

حضَّ الله المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر، الذى هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصى، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

والمصابرة أى الملازمة والاستمرار على ذلك، على الدوام، ومقاومة الأعداء فى جميع الأحوال.

والمرابطة: وهى لزوم المحل الذى يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم.

لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الدينى والدنيوى والأُخروى، وينجون من المكروه كذلك.

فعُلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يُفلح مَن أفلح إلا بها، ولم يَفُت أحدًا الفلاحُ إلا بالإخلال بها أو ببعضها[(١)].

۞ وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلى عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سُنته تعالى فى عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل

(١) تيسير الكريم الرحمن / الشيخ عبد الرحمن السعدى رَحِمَهُ اللَّهُ (ص١٦٢).

الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذى هو فساد...وحكمة الله تقتضى تمييز أهل الخير من أهل الشر.

فأخبر فى هذه الآية أنه سيبتلى عباده ﴿ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ ﴾ من الأعداء ﴿ وَٱلۡجُوعِ ﴾ أى: بشىءٍ يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع، لهلكوا... والمحنُ تُمحص ولا تُهلك.

﴿ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعترى للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال... من الملوك الظلمة، وقُطاع الطريق وغير ذلك. ﴿ وَٱلۡأَنفُسِ ﴾ أى: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض فى بدن العبد، أو بدن مَن يحبه، ﴿ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ ﴾ أى: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخُضَر ببَرْدٍ، أو بَرَدٍ، أو حَرقٍ، أو آفة سماوية، من جرادٍ ونحوه.

فهذه الأمور، لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير، أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين.

فالجازع حصلت له المصيبتان: فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان.

وأما مَن وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخُّط، قولًا وفعلًا واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التى حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة فى حقه، لأنها صارت طريقًا لحصول ما هو خيرٌ له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب... فلهذا قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أى: بشرهم بأنهم يُوفَّون أجرهم بغير حساب ... فالصابرون، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن / الشيخ عبد الرحمن السعدى (ص/ ٧٢-٧٣).

۞ وَقولُهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وهـذا عـام فى جميـع أنـواع الـصبر... الـصبر علـى أقـدار الله المؤلمـة فـلا يتسخطها...والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها،والصبر على طاعته حتى يؤديها... فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أى: بغير حَدٍّ ولا عَدٍّ ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومَحِلَّهُ عند الله، وأنه مُعينٌ على كل الأمور.

۞ وَقولُهُ تَعالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وَغَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أى: لمن الأمور التى حَثَّ الله عليها وأكَّدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التى لا يُوفَّق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإنَّ تَرْكَ الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شىء عليها... والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على مَن يسَّره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقَّاه برحب الصدر، وسعة الخُلق، والتلذُّذ فيه[(١)].

وفى هذه الآية حثٌّ على صبر الإنسان على أذية الناس ومغفرته لهم ما أساءُوا إليه ... ولكن ينبغى أن تعلم أن المغفرة لمن أساء إليك ليست محمودة على الإطلاق فإن الله قيَّد هذا بأن يكون العفو مقرونًا بالإصلاح فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. أما إذا لم يكن فى العفو والمغفرة إصلاح فلا تعفُ ولا تغفر.

مثاله: لو كان الذى أساء إليك شخصًا معروفًا بالشَّر والفساد وأنك لو عفوت عنه لكان فى ذلك زيادة فى شره. ففى هذه الحال الأفضل ألا تعفو عنه بل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن / الشيخ عبد الرحمن السعدى (ص٩٠١).

تأخذ بحقك من أجل الإصلاح، أما إذا كان الشَّخص إذا عفوت عنه لم يترتب على العفو عنه مفسدة فإن العفو أفضل وأحسن لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وإذا كان أجرك على الله كان خيرًا لك من أن يكون ذلك بمعاوضة تأخذ من أعمال صاحبك الصالحة.

۞ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أمر الله تعالى المؤمنين، بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره.

فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها ... فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر.

فأنت إذا أُصبت بشيء يحتاج إلى صبر فاصبر وتحمَّل «**وَاعلَمْ أنّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْب، وأنَّ مَعَ الْعُسرِ يُسْرًا**»(١).

وأما الصلاة فإنها تُعين على الأمور الدينية والدنيوية حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام ذُكر عنه أنه «إذا حَزَبهُ أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة»(٢).

وبيَّن الله فى كتابه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ... فإذا استعان الإنسان بالصلاة على أموره يسَّر الله له ذلك لأن الصلاة صلةٌ بين العبد وبين ربِّه... فيقف الإنسان فيها بين يدى الله ويناجيه ويدعوه ويتقرب إليه بأنواع القربات التى تكون فى هذه الصلاة فكانت سببًا للمعونة.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يعنى بذلك: كلمة المعية الخاصة لأن معية الله سبحانه تنقسم إلى قسمين:

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والخطيب البغدادى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٠٦).
(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(١) معية عامة شاملة لكل أحدٍ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. وفي قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

وهذه المعيَّة العامَّة شاملة لجميع الخلق ... فما من مخلوق إلا والله معه يعلَمُه ويُحيط به سُلطانًا وقدرة وسَمْعًا وبصرًا وغير ذلك.

(٢) أما المعيَّة الخاصَّة فهي المعية التي تقتضي النَّصر والتأييد ... وهذه خاصة بالرُّسل وأتباعهم ليست لكل أحدٍ، فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ... وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دليل على أنه مُعان من قِبَل الله، وأنَّ الله يُعين الصابر ويؤيده ويكلؤه حتى يتم له الصَّبر على ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

لنبلونكم: لنختبرنكم ... فالابتلاء بمعنى الاختبار.

يعني أن الله اختبر العباد في فرض الجهاد عليهم ليعلم مَن يصبر ومَن لا يصبر ولهذا قال الله في آية أخرى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ قد يتوهم بعض من قَصُر عِلمه أن الله سبحانه لا يعلم الشَّيء حتى يقع وهذا غير صحيح ... فالله يعلم الأشياء قبل وقوعها كما قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

ومَن ادَّعى أنَّ الله لا يعلم بالشيء إلا بعد وقوعه فإنَّه مكذب لهذه الآية وأمثالها من الآيات الدالة على أن الله تعالى قد علم الأشياء قبل أن تقع!!

لكن العلم الذى فى هذه الآية ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ هو العلم الذى يترتب عليه الثواب أو العقاب؛ لأن علم الله بالشيء قبل أن يكون لا يترتب عليه شيء من جهة فعل العبد لأن العبد لم يُبلَ به حتى يتبين الأمر، فإذا اختبر به العبد حينئذ يتبين أنه استحق الثواب أو العقاب فيكون المراد بقوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ أى: عِلمًا يترتب عليه الجزاء.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أى: الذين يصبرون على ما كُلفوا به من الجهاد ويحملونه ويقومون به.

وقوله: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أى: نختبرها وتتبين لنا وتظهر لنا ظهورًا يترتب عليه الثواب والعقاب(١).

***

(٢٦) وعَنْ أبى مَالِكٍ الْحَارِثِ بْنِ عَاصِمِ الأشْعرىِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَان، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْميزانَ، وسُبْحَانَ الله والحَمْدُ لله تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأ مَا بَيْنَ السَّموَات وَالأَرْضِ، وَالصَّلاَة نورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاس يَغْدُو، فَبائِعٌ نَفْسَهُ فمُعتِقُها، أوْ مُوبِقُهَا»(٢).

❁ «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ».

الطُّهُورُ: يعنى بذلك طهارة الإنسان.

شَطرُ الإيمانِ: نصف الإيمان.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١/ ٨٨-٩٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.

وذلك لأن الإيمان تخلية وتحلية.

قيل في قوله ﷺ: « **الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ** » يشمل طهور الماء، والتيمم، وطهارة القلب من الشرك والشك والغل والحقد على المسلمين، وغير ذلك مما يجب التطهُّر منه فهو يشمل الطهارة الحسية والمعنوية... «**شَطْرُ الإيمانِ**»: نصفه، والنصف الثاني هو التحلِّي بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة؛ لأن كل شيء لا يتم إلا بتنقيته من الشوائب وتكميله بالفضائل...فالتكميل بالفضائل نصف، والتنقية من الرذائل نصفٌ آخر، ولهذا قال: « **الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ**» وأما شطره الثانى فهو التكميل بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة.

وقيل فى معناه: إنما كان كذلك لأن الإيمان يُطهر نجاسة الباطن... والوضوء يطهر نجاسة الظاهر... ويُحتمل أن المراد الترغيب فى إكمال الوضوء وتعظيم ثوابه حتى كأنه بلغ إلى نصف ثواب الإيمان ... والله سبحانه وتعالى أعلم.

۞ وتظهر أهمية الوضوء فى: أن طهارة الظاهر أمارة لطهارة الباطن؛ إذ الظاهر عنوانه ...فكما أن طهارة الظاهر ترفع الخَبَث والحدث فكذا طهارة الباطن فى التوبة تفتح باب السلوك للسائرين إليه سبحانه وتعالى ولهذا جمعهما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد اشتهر أن مَن أراد الوفود إلى العظماء يتحرى تطهير ظاهره من الدنس ولبس الثياب النقية الفاخرة...فوافد مالك الملوك ذى العزة والجبروت أَولى[١].

۞ « **وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْميزانَ** ». والحمد لله: هو الثناء على الله بالجميل الاختيارى والإذعان له والرضا بقضائه.

والميزان: المراد منه حقيقته: أى ما تُوزَن به الأعمال؛ إما بأن تُجَسَّم الأعمال أو تُوزن صحائفها، فتطيش بالسيئة وتثقل بالحسنة.

---

(١) ابن الإسلام (ص:٦١).

وهذه الكلمة كان لها هذا الثواب العظيم بحيث تملأ كفة الميزان مع سعتها، لأن معانى الباقيات الصالحات فى ضمنها...لأن الثناء تارة يكون بإثبات الكمال، وتارة بنفى النقص، وتارة بالاعتراف بالعجز، وتارة بالتفرُّد بأعلى المراتب... والألف واللام فى الحمد لاستغراق جنس المدح.

والحمد مما علمناه وجهلناه، وإنما يستحق الإلهية مَن اتصف بذلك، فاندرج الجميع تحت «الحمد لله».

۞ وقوله: **«وسُبْحانَ اللهِ والحَمْدُ لله تملآن - أوْ قال تمْلأ - ما بيْنَ السَّمواتِ والأرْضِ»**.

أى أن «سُبْحانَ اللهِ والحَمْدُ لله تملآن ما بيْنَ السَّمواتِ والأرْضِ»... وذلك لأن كلمة (سبحان الله) مشتملة على تنزيه الخالق (جلَّ وعلا) من كل نقصٍ.. وكلمة (الحمد لله) مشتملة على وصف الله بكل كمال... ولذا فقد جمعت هاتان الكلمتان بين التخلية والتحلية.

فالتسبيح: تَنْزِيه الله عما لا يليق به فى أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه.

فالله مُنَزَّه عن كل عيب فى أسمائه وصفَاته وأفْعاله وأحكامِهِ... لا تجد فى أسمائه اسمًا يشتمل على نقصٍ أو على عيبٍ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فالله عَزَّوَجَلَّ له الوصف الأكمل الأعلى من جميع الوجوه، وله الكمال المنزَّه عن كل عيب فى أفعاله...كما قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]. فليس فى خلق الله لَعِبٌ ولَهْوٌ وإنَّما هو خَلقٌ مبنىٌّ على الحكمة.

كذلك أحكامه لا تجد فيها عَيبًا ولا نقْصًا كما قال الله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

والله عَزَّوَجَلَّ يُحْمَدُ على كل حال. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أصابه ما يُسَرُّ به قال: «**الحمد لله الذى بنعمتِهِ تتمُّ الصَّالحات**»، وإذا أصابه سوى ذلك قال: «**الحمد لله على كُلِّ حالٍ**»[(١)][(٢)].

❁ **قوله** ﷺ: «**وَالصَّلَاةُ نُورٌ**».

فهى نورٌ للعبد فى قلبه وفى وجهه وفى حياته وفى قبره ويوم القيامة.. وأكثر الناس نورًا أكثرهم صلاة وأشدهم خشوعًا فيها.

وقيل معناه: أنها تمنع من المعاصى وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدى إلى الصواب كما أن النور يُستضاء به... وقيل معناه أن يكون أجرها نورًا لصاحبها يوم القيامة... وقيل لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف وانشراح القلب ومكاشفات الحقائق لفراغ القلب فيها وإقباله إلى الله تعالى بظاهره وباطنه ... وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ... وقيل معناه أنها تكون نورًا ظاهرًا على وجهه يوم القيامة ويكون فى الدنيا أيضًا على وجهه البهاء بخلاف مَن لم يُصلِّ[(٣)].

❁ **وقوله** ﷺ: « **والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ** ».

فهى برهانٌ على إيمان العبد ويقينه فيما عند الله.. وذلك لأن المال محبوبٌ إلى النفس.. والنفس فى أغلب أحوالها تكون شحيحة بالمال.. فإذا بذل الإنسان ماله لله فإن ذلك يكون برهانًا على إيمانه ويقينه وحُبه لله ؛ لأن الإنسان لا يبذل ما يُحب إلا لما هو أحب إليه منه.

❁ **وقوله** ﷺ: «**وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ** ».

أى: فيه نور ... لكنه نور مع حرارة كما قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم وابن السنى فى عمل اليوم والليلة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٤٠).
(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٩٢) بتصرف.
(٣) مسلم بشرح النووى (٣/ ١٢٧).

فالضَّوء لَا بُدَّ فيه من حرارة وهكذا الصَّبر لَا بُدَّ فيه من حرارة وتعب لأن فيه مشقة كبيرة ولهذا كان أجره بغير حساب.

فالفرق بين النُّور فى الصَّلاة والضياء فى الصَّبر، أن الضياء فى الصَّبر مصحُوب بحرارة لما فى ذلك من التَّعب القلبى والبدنى فى بعض الأحيان.

❁ وقوله ﷺ: «والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ».

فالقرآن حُجة الله على خلقه.. فإما أن يكون حُجة لك إذا قرأت القرآن وتدبرته وعملت بما فيه وتحاكمت إليه وقمت بواجب هذا القرآن العظيم من: التصديق بالأخبار، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهى، وتعظيم هذا القرآن الكريم، واحترامه. ففى هذه الحال يكون حُجة لك.

وإما أن يكون القرآن حُجة عليك إذا هجرته هجر تلاوة وتدبُّر وعملٍ وتَحاكُم ولم تَقُم بواجب هذا القرآن من التصديق بالأخبار وامتثال الأوامر واجتناب النواهى وتعظيم القرآن واحترامه.

❁ وأما قوله ﷺ: «كُلُّ النَّاس يَغْدُو، فَبِائِعٌ نَفْسَهُ فمُعتِقُها، أَوْ مُوبِقُهَا».

فمعناه أن كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم مَن يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب...ومنهم مَن يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها أى: يُهلكها.

❁ وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

أى: كل الناس يبدأ يومه من الغدوة بالعمل وهذا شىءٌ مُشاهَد.

فإن الله تعالى جعل الليل سكنًا وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. فهذا النوم الذى يكون فى الليل هو وفاة صغرى تهدأ فيه الأعصاب، ويستريح فيه البدن ويستجد نشاطه للعمل المقبل ويستريح من العمل الماضى.

فإذا كان الصباح وهو الغُدوة سار الناس واتجهوا .. كلٌّ لعمله، فمنهم مَن

يتجه إلى الخير وهم المسلمون ومنهم مَن يتجه إلى الشر وهم الكفار والعياذ بالله.

المسلم أول ما يغدو يتوضأ ويتطهر «**والطهور شطر الإيمان**» كما فى هذا الحديث ثم يذهب فيصلى فيبدأ يومه بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، بل يفتتحه بالتوحيد لأنه يُشرع للإنسان إذا استيقظ من نومه أن يذكر الله عَزَّوَجَلَّ وأن يقرأ عشر آيات من سورة آل عمران وهى قوله: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ...**﴾ إلى آخر السورة [آل عمران: ١٩٠-٢٠٠].

هذا المسلم..هذا الذى يغدو فى الحقيقة بائعٌ نفسه لكن هل باعها بيعًا يعتقها فيه؟!

نعم. المسلم باعها بيعًا يعتقها فيه.

والكافر يغدو إلى العمل الذى فيه الهلاك ... لأن معنى «أوبقها» أى: أهلكها؛ وذلك أن الكافر يبدأ يومه بمعصية الله[1].

(٢٧) وعَنْ أبى سَعيد سَعدِ بْن مَالكِ بْن سِنَانٍ الخُدرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ نَاسًا مِنَ الأنصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ فأعطاهُم، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَىْءٍ بِيَدِهِ: «مَا يَكُنْ عندى مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعِفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ. وَمَا أُعطِىَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[2].

۞ لقد كان النبى ﷺ أجود الناس وأكرمهم.. فلقد كان ﷺ أجود من الريح المُرسَلة.. وكان لا يسأله أحدٌ إلا أعطاه... وما عُهد عن النبى ﷺ أنه منع سائلًا أبدًا بل كان يُعطى عطاء مَن لا يخشى الفقر أبدًا.. مع أنه ﷺ كان يعيش حياة

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٩٤) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٦٩) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٥٣) كتاب الزكاة.

الفقراء وينام على الحصير حتى يُؤثِّر فى جنبه الشريف ويربط على بطنه حجرًا من شدة الجوع وكان لا يشبع ثلاثة أيامٍ من ردىء التمر ولا من خبز الشعير.. وكان يمر عليه هو وأزواجه الهلال تلو الهلال تلو الهلال.. ثلاثة أَهِلَّة فى شهرين مُتتابعين ولا يُوقد فى أبياته نار.

۞ وفى هذا الحديث جاء ناسٌ من الأنصار فسألوا النبى ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده ﷺ.. فلما نفد ما عنده قال لهم: « **مَا يَكُنْ عندى مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ** » أى: لا يمكن أن أمنع عنكم أى خير عندى.

ثم حثَّهم النبى ﷺ على الاستعفاف والاستغناء والصبر فقال لهم ﷺ: «**وَمَنْ يَسْتَعِفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ. وَمَا أُعطِىَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ** ».

۞ فهذه ثلاثة أمور:

أولًا: « **وَمَنْ يَسْتَعِفِفْ يُعِفَّهُ الله** ».. فمن يستعفف عن أكل الحرام يُعفه الله.. ومن يستعفف عن النظر إلى النساء وعن التطلُّع إلى فعل الفواحش يُعفه الله ويرزقه زوجة صالحة طيبة فى الحلال.. ومَن يستعفف عن سؤال الناس يُعفه الله (جلَّ وعلا)... ولذا جاءت الوصية الغالية من النبى ﷺ: « **إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَل الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله...** ».

ثانيًا: « **وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله** ».. أى: مَن يستغنِ بما عند الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله يُغنيه عما فى أيدى الناس..أما مَن يسأل الناس ولا يسأل الله فإنه يظل فقير النفس والقلب ولو كان يملك الدنيا كلها.. ولذلك لما جاء الرجل إلى النبى ﷺ وسأله قائلًا: يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِى عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِى اللهُ، وَأَحَبَّنِى النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ازْهَد فِى الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ، وَازْهَد فِيمَا فِى أَيْدِى النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ**»(1).

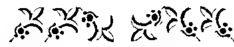
(1) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٢٢).

ثالثًا: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ» أى: يرزقه الله الصبر ...فَمَن حبس نفسه عن سؤال الناس، وصبر على ما أصابه فى الفقر والفاقة ولم يسأل الناس شيئًا.. وحبس نفسه عمَّا حرَّم الله عليه فإن الله يُصبره ويُعينه على الصبر.

ثم قال الرسول ﷺ: «وَمَا أُعطِىَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » أى: ما مَنَّ الله على أحدٍ بعطاءٍ من رزق أو غيره خيرًا وأوسع من الصبر.

لأن الإنسان إذا كان صَبورًا فإنه يصبر على الطاعة ويداوم عليها.. ويصبر عن كل المعاصى ويبتعد عنها.. ويصبر على القضاء والقدر وعلى كل بلاءٍ يُصيبه.. ويتحمل كل شىءٍ فى سبيل الله ولا يتسخط أبدًا..

فإذا كان الإنسان قد مَنَّ الله عليه بنعمة الصبر فقد أعطاه الله أعظم عطاءٍ فى هذه الدنيا كلها... ولهذا قال النبى ﷺ: « وَمَا أُعطِىَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ ».



(٢٨) وعَنْ أبى يَحْيَى صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلكَ لأحَدٍ إِلَّا للْمُؤْمِن: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فَكَانَ خيرًا لَهُ»(١).

فالنبى ﷺ فى هذا الحديث يُظهر العجب من حال المؤمن على وجه الاستحسان.. وكأنه يقول: إن شأن المؤمن كله إلى خير.. ثم فصَّل ووضح بعد ذلك فقال ﷺ: «إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فَكَانَ خيْرًا لَهُ» فالناس يعيشون بين السرَّاء والضرَّاء.

فعند السرَّاء ينقسمون إلى قسمين:

فمنهم مَن إذا أصابته السراء من نعمة دينية كالعلم والعمل الصالح أو نعمة دنيوية كالمال والبنين والمنصب والجاه تجده شاكرًا لله بقلبه ولسانه وجوارحه.. مستعملًا تلك النعمة فى طاعة الله ومرضاته.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق.

ومنهم مَن إذا أصابته السراء من نعمة دنيوية فإنه يُصاب بالكبر والبطر بل ويستعمل تلك النعمة في معصية الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ومنهم مَن إذا أصابته الضراء صبر على أقدار الله وأحسن الظن بالله، وانتظر الفرج واحتسب الأجر على الله فكان ذلك خيرًا له؛ لأنه ينال بذلك ثواب الصابرين.

ومنهم مَن إذا أصابته الضراء لم يصبر بل تَسخَّط على أقدار الله وسبَّ الدهر وسَبَّ الزمن فباء بسخط الله وعقابه.

فالمؤمن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه... يعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيءٍ فلن ينفعوه إلا بشيءٍ قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن يضروه بشيءٍ فلن يضروه إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليه رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف... فلماذا الاعتراض والتسخُّط على أقدار الله - جل وعلا -؟!

سأل أحد المرضى بالهواجس والهموم طبيبَ القلق والاضطراب، فقال له الطبيب المسلم: اعلم أن العالم قد فُرغ من خلقه وتدبيره، ولا يقع فيه حركة ولا همس إلا بإذن الله، فلِمَ الهمُّ والغمُّ؟! «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»(١).

۞ وفي هذا الحديث: الحثُّ على الإيمان وأن المؤمن دائمًا في خيرٍ ونعمة.

وفيه الحث على الصبر على الضراء وأن ذلك من خصال المؤمنين. فإذا رأيت نفسك عند إصابة الضراء صابرًا مُحتسبًا تنتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى وتحتسب الأجر على الله فذلك عنوان الإيمان، وإن رأيت بالعكس فلُم نفسَك وعدِّل مسيرك وتُب إلى الله.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

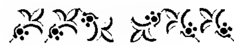
وفى هذا الحديث: الحث على الشكر عند السَّراء لأنه إذا شكر الإنسان ربه على نعمة فهذا من توفيق الله له وهو من أسباب زيادة النعم ...

كما قال الله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإذا وفَّق الله العبد لشكره فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرَّة ثانية، فإذا وفق فهى نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة ... وهكذا لأن الشُّكر قَلَّ مَن يقوم به فإذا مَنَّ الله عليك وأعانك عليه فهذه نعمة.

ولهذا قال بعضهم:

إذا كان شُكرى نعمةَ الله نعمة   علىَّ له فى مِثلِها يَجِبُ الشُّكْرُ
فكيف بُلُوغُ الشُّكرِ إلا بفضله   وإن طالت الأيام واتصل العمرُ[1]



(٢٩) وعَنْ أَنسٍ رضي الله عنه قَالَ: لمَّا ثَقُلَ النَّبِىُّ ﷺ جَعَلَ يتغشَّاهُ الكربُ فقَالتْ فاطمَةُ رضي الله عنها: واكَربَ أَبَتَاهُ، فَقَالَ: «ليْسَ عَلَى أبيكِ كربٌ بعدَ اليَوْمِ» فلمَّا مَاتَ قالَتْ: يَا أبتَاهُ أَجَابَ ربًّا دعَاهُ، يا أبتَاهُ جنَّةُ الفِرْدَوْسِ مأوَاهُ، يَا أَبَتَاهُ إِلى جبْريلَ نَنْعَاهُ، فلَمَّا دُفنَ قالتْ فاطمَةُ رضي الله عنها: «أطابتْ أنفسُكُمْ أَنْ تَحثُوا عَلَى رسُول الله ﷺ التُّرابَ؟»[2].

لا شك أن موت النبى ﷺ هو أعظم مصيبة أُصيب بها المسلمون ولذلك قال ﷺ: «إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ، فَلْيَذْكُر مُصِيبَتَهُ بِى، فَإِنَّهَا مِنْ أَعظَمِ الْمَصَائِبِ»[3].

۞ قال صاحب كتاب (تسلية أهل المصائب):

ومن أعظم المصائب فى الدين موت النبى ﷺ لأن المصيبة به أعظم من كل

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٩٧-٩٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٦٢) كتاب المغازى.

(٣) رواه البيهقى فى الشُّعب، والطبرانى، وابن عدى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٧).

مصيبة يُصاب بها المسلم... لأن بموته ﷺ انقطع الوحى من السماء إلى يوم القيامة وانقطعت النبوات، وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد الذين ارتدوا عن الدين من الأعراب ... فهذا أول انقطاع عُرى الدين ونُقصانه وغير ذلك من الأمور التى لا تُحصَى.

۞ قال أبو العتاهية مُسليًا بعض إخوانه فى موت ولدٍ له اسمه محمد:

اصبر لكل مصيبةٍ وتجلَّدِ
واعلم بأن المرء غيرُ مُخلَّدِ
أَوَ ما ترى أن المصائب جَمَّةٌ
وترى المنية للعباد بمرصدِ
مَن لم يُصَبْ ممن ترى بمصيبةٍ
هذا سبيلٌ لست فيه بأوحدِ
فإذا ذكرت محمدًا ومصابه
فاذكر مصابك بالنبى محمدِ[١]

وفى هذا الحديث يذكر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ لما كان فى سكرات الموت جعل يتغشاه الكرب ... أى من شدة ما يُصيبه لأنه ﷺ كان يُوعك كما يُوعك الرجلان من الناس وذلك من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر ومن أجل أن يكون أُسوة وقدوة للناس فى كل أحوالهم فى السراء والضراء.

فقالت فاطمة ابنته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**واكرب أبتاه**» فهى تتوجع وتتألم من أجل أبيها رسول الله ﷺ.. وإذا بالحبيب ﷺ يقول لها: «**ليس على أبيكِ كربٌ بعد اليوم**»

---

(١) «مختصر تسلية أهل المصائب» لأبى عبد الله محمد بن محمد المنبجى الحنبلى/ اختصار وتحقيق محمود المصري (ص: ١٧).

لأنه سينتقل من بلاء الدنيا وأحزانها وآلامها إلى جوار الرحمن الرحيم فى الرفيق الأعلى.. ولذا كان ﷺ يقول وهو فى سكرات الموت: «**اللهمَّ الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**»، وينظر إلى سقف البيت.

فلما تُوفى النبى ﷺ جعلت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تندبه ندبًا خفيفًا لا يدل على التسخُّط من قضاء الله وقدره.

فجعلت تقول: «**يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه**»؛ لأن الله هو الذى بيده ملكوت كل شىء، آجال الخلق بيده، تصريف الخلق بيده، كل شىء إلى الله.

إلى الله المنتهى وإليه الرُّجعى.

فأجاب داعى الله وهو أنه ﷺ إذا توفى صار كغيره من المؤمنين يُصعد بِرُوحه حتى توقف بين يدى الله عَزَّ وَجَلَّ فوق السَّماء السابعة.

ثم قالت: «**يا أبتاه جنة الفردوس مأواه**» وذلك لأن النبى ﷺ أعلى الخلق منزلة ومكانة فى الجنة ... فله درجة فى الجنة لا تكون لغيره ﷺ وهى درجة (الوسيلة) كما قال الرسول ﷺ: «**اسألوا لى الوسيلة فإنها أعلى درجة فى الجنة ولا تكون إلا لعبدٍ من عباد الله فأرجو أن أكون أنا هو**». ولا شك أن الرسول ﷺ مأواه جنة الفردوس، وجنة الفردوس هى أعلى درجات الجنة، وسقفها الذى فوقها عرش الرَّب جَلَّ جَلَالُهُ، والرسول عليه الصلاة والسلام فى أعلى درجة منها.

ثم قالت: «**يا أبتاه إلى جبريل ننعاه**».. والنعى هو الإخبار بموت الميت.. وكأنها تقول: إننا ننعاه إلى جبريل؛ لأنه هو الذى كان يأتيه بالوحى من السماء.. فإذا كان النبى ﷺ قد مات فقد انقطع الوحى من السماء، وانقطع نزول جبريل بالوحى مرة أخرى.

فلما دُفن النبى ﷺ قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟».

وذلك من شدة حزنها ووجدها على موت النبى ﷺ وهى تعرف كيف كانت محبة الصحابة للنبى ﷺ..

والجواب: أنها طابت لأن هذا أمر الله وتلك إرادة الله وشرعه.. ولو كان النبى ﷺ يُفدَى بكنوز الأرض كلها لفداه الصحابة رضي الله عنهم ولكن الله عز وجل هو الذى قال للنبى ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].. وهو الذى قال للنبى ﷺ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

۞ قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: لما توفى ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم مَن دُهش فخُولط، ومنهم مَن أُقعد فلم يطق القيام ومنهم مَن اعتُقل لسانه فلم يطق الكلام ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه(١).

۞ وفى هذا الحديث بيان أن رسول الله ﷺ كغيره من البشر يمرض ويجوع ويعطش ويبرد ويحترّ، وجميع الأمور البشرية تعترى النبى ﷺ كما قال ﷺ: «**إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تَنسَون**»(٢).

وفيه: رَدٌّ على هؤلاء القوم الذين يُشركون بالرسول ﷺ.

يَدعون الرسول ويستغيثون به وهو فى قبره، بل إنَّ بعضهم والعياذ بالله لا يسأل الله ويسأل الرسول! كأن الذى يجيب هو الرسول ... ولقد ضلُّوا فى دينهم وسَفهُوا فى عقولهم، فإنَّ الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا فكيف يملك لغيره.

قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

---

(١) لطائف المعارف (ص: ١١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠١) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٧٢) كتاب المساجد.

۞ وفي هذا الحديث إرادة الله- سبحانه وتعالى- الخير بالنبي ﷺ وذلك أنه يضاعف عليه شدة الألم، سواء في المرض أو في سكرات الموت، ليضاعف له الأجر يوم القيامة.

يتفرع على ذلك: أن نعلم أن من مقتضيات حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ربط الأسباب بالمُسببات... فربط الأجر بالعمل، حتى مع الأنبياء وهم أحب الخلق إليه، وكان من الممكن أن يجازي الأنبياء بالأجر العظيم دون أن يضاعف عليهم شدة المرض وشدة سكرات الموت... فعلى المسلم أن يصبر ويسترجع في كل ما يلاقيه في دُنياه، من مصائب وكرب وفتن وأمراض، فلعل الله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يرفع درجته في الآخرة... وقد بينت ذلك في أكثر من موضع.

۞ وفيه: ما يجب أن يكون عليه المسلم من حسن الظن بالله عند الموت، وأن يُغلِّب الرجاء على الخوف... لقول النبي ﷺ: «**ليس على أبيكِ كربٌ بعد اليوم**»، وعلى المسلم أن يتذكر في ذلك الوقت، ما ورد عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**قال الله: أنا عند ظنّ عبدي بي**».

۞ وفيه: تعظيم الرسول ﷺ في نفوس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حيث قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب» فبرغم أن هذا الأمر ضروري، بل هي سُنة النبي ﷺ عند الدفن، إلا أنها استعظمت أن يقوم الصحابة بفعلٍ يخالف في ظاهره المحبة والتعظيم.

۞ وفيه: جواز نعي الميت بما هو أهله، وليس هذا من النياحة..لقول فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل نعاه». ولكن ينبغي على المسلم، ألايذكر في نعيه لميتٍ، أنه في جنة الفردوس[١]، أو أنه مغفور له ...أو غير ذلك حتى لا نتألى على الله.. وإنما عليك أنت ومَن معك بكثرة الدعاء للميت بالرحمة والمغفرة والتثبيت والفوز بالجنة والرضوان.

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٤٠٩-٤١٠) بتصرف.

(٣٠) وعَنْ أبي زَيْد أُسامَة بن زيد بن حَارثَةَ موْلَى رسُول الله ﷺ وحِبِّه وابْنِ حِبِّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: أَرسلَتْ بنْتُ النَّبِيِّ ﷺ: إنَّ ابْنِي قَد احتُضرَ فاشْهدنَا، فأَرسَلَ يُقْرِئُ السَّلامَ ويَقُول: «إن لله مَا أَخَذَ، ولهُ مَا أَعطَى، وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بأجَلٍ مُسمَّى، فَلْتَصبر ولْتَحتسبْ» فأرسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ ليأْتينَّها. فَقَامَ وَمَعَهُ سَعدُ بْنُ عُبادةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرِجَالٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ الصبيُّ، فأقعَدَهُ فِي حجْرِه ونَفْسُهُ تَقعقعُ، فَفَاضتْ عَيْناهُ، فقالَ سَعدٌ: يَا رسُول الله مَا هَذَا؟ فقالَ: «هَذِه رَحمةٌ جعلَهَا الله تعَالَى فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ».

وفي رِوَايَةٍ: «في قُلُوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وإنَّمَا يَرحَمُ الله منْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[١].

كان زيد بن حارثة قد اشتراه حكيم بن حزام من سوق عُكاظ وأهداه لعمته خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .. فلما تزوجها النبي ﷺ ورأت حبه لزيد ابن حارثة وهبته للنبي ﷺ فكان يُسمَّى حِب النبي ﷺ.. ولما تزوج زيد وأنجب أسامة كان أُسامة يُسمَّى الحِبّ ابن الحِب.

وهنا يذكر أسامة أن إحدى بنات الرسول ﷺ أرسلت إليه رسولاً تقول له: إن ابنها قد احتضر أي حضره الموت، وأنها تطلب من الرسول ﷺ أن يحضر، فبلغ الرسولُ رسولَ الله ﷺ فقال له: «**مُرها فلتصبر ولتحتسب فإن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجلٍ مُسمى**».

أمر الرسولُ ﷺ الرسول بهذا!!

قوله: «**فلتصبر**» أي: فلتحبس نفسها عن السّخط وتتحمل المصيبة.

وقوله: «**ولتحتسب**» أي: تحتسب الأجر على الله بصبرها لأن من الناس مَن يصبر ولا يحتسب.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.
وَمَعنَى «تَقَعقَعُ»: تَتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ.

يصبر على المصيبة ولا يتضجر، لكنه ما يُؤَمِّل أجرها على الله فيفوته بذلك خيرٌ كثير ... لكن إذا صبر واحتسب الأجر على الله فهذا هو الاحتساب.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعطَى وَكُلّ شَىْء عِنْده بِأَجَلٍ مُسَمًّى».

مَعنَاهُ الْحَثّ عَلَى الصَّبْر وَالتَّسْلِيم لِقَضَاءِ الله ... وَتَقْدِيره إِنَّ هَـذَا الَّذِى أُخذ مِنْكُمْ كَانَ لَهُ لَا لَكُمْ فَلَمْ يَأْخُذ إِلَّا مَا هُوَ لَهُ فَيَنْبَغِى أَلَّا تَجْزَعُوا كَمَا لَا يَجْزَع مَنْ اسْتُرِدَّتْ مِنْهُ وَدِيعَة أَوْ عَارِيَة.

وَقَوْله ﷺ: «**وَلَهُ مَا أَعطَى**» مَعنَاهُ أَنَّ مَا وَهَبَهُ لَكُمْ لَيْسَ خَارِجًا عَنْ ملْكه بَلْ هُوَ سُبْحَانه وَتَعَالَى يَفْعَل فِيهِ مَا يَشَاء.

۞ **وَقَوْله ﷺ: «وَكُلّ شَىْء عِنْده بِأَجَلٍ مُسَمًّى».**

مَعنَاهُ اصْبِرُوا وَلَا تَجْزَعُوا فَإِنَّ كُلّ مَنْ مَاتَ قَد انْقَضَى أَجَله الْمُسَمَّى فَمُحَال تَقَدُّمه أَوْ تَأَخُّره عَنْهُ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ هَذَا كُلّه فَاصبِرُوا وَاحتَسِبُوا مَا نَزَلَ بِكُمْ[1].

۞ ولكن ابنة النبى ﷺ أقسمت أن يأتيها النبى ﷺ.. فعاد الرسول وأبلغ النبى ﷺ بذلك فقام النبى ﷺ ومعه جماعة من أصحابه وانطلق إليها... فلما وصل عندها ورُفع إليه الصبى ونفسُه تقعقع أى: تضطرب فتصعد وتنزل فبكى النبى ﷺ ودمعت عيناه.. فقال له سعد بن عُبادة: ما هذا يا رسول الله ؟

لأنه ظنَّ أن النبى ﷺ بكى جزعًا.. فقال له النبى ﷺ: «**هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرُّحماء**».

مَعنَاهُ أَنَّ سَعدًا ظَنَّ أَنَّ جَمِيع أَنْوَاع الْبُكَاء حَرَام، وَأَنَّ دَمْع الْعَيْن حَرَام، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِىّ ﷺ نَسِىَ فَذَكَّرَهُ، فَأَعلَمَهُ النَّبِىّ ﷺ أَنَّ مُجَرَّد الْبُكَاء وَدَمْع بِعَيْنٍ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَا مَكْرُوه بَلْ هُوَ رَحمَة وَفَضِيلَة وَإِنَّمَا الْمُحَرَّم النَّوْح وَالنَّدْب وَالْبُكَاء

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٣١٨).

الْمَقْرُون بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا[(١)].

ففى هذا الحديث دليلٌ على وجوب الصبر لأن النبى ﷺ قال: «**إن الله مَا أَخَذَ، ولهُ مَا أعطَى، وكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بأجَلٍ مُسمَّى، فلتصْبِر ولْتَحْتسبْ**»[(٢)].

وفيه دليل على أن هذه الصيغة من العزاء أفضل صيغة.

أفضل من قول بعض الناس: «أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وغفر لميتك» هذه صيغة اختارها بعض العلماء لكن الصيغة التى اختارها الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل، لأن المصاب إذا سمعها اقتنع أكثر.

والتعزية فى الحقيقة ليست تهنئة كما ظنها بعض العوام! يحتفل بها ويوضع لها الكراسى وتوضع لها الشموع ويحضر لها القراء والأطعمة!![(٣)] لا؛ بل التعزية تسلية وتقوية للمصاب أن يصبر.



(٣١) وعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فيمَنْ كَانَ قبلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ للْمَلِك: إِنِّى قَد كَبِرْتُ فَابعَثْ إِلَىَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ، وَكَانَ فى طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمهُ فأَعجَبهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهب وَقَعَدَ إِلَيْه، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلكَ إِلى الرَّاهِبِ فقال: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِر فَقُلْ: حبَسَنِى أَهْلِى، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِى السَّاحِرُ. فَبيْنَمَا هُو عَلَى ذَلكَ إذ أَتى عَلَى دابَّةٍ عظِيمَة قد

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٣١٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٤) كتاب الجنائز - ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(٣) وفى هذا أيضًا تبذير وإسراف منهىٌّ عنهما، وإحداث فى العبادة لا يرضاه الله، وهناك آفة خطيرة مترتبة على اعتياد الناس الإتيان بقارئ للقرآن فى هذا المأتم وهى: ترسيخ عقيدة فاسدة فى أذهان الناس بأن القرآن للأموات يلتمسون منه البركة بعد موتهم -على فهمهم- للنجاة من عذاب الله، وإن كانوا معرضين عن تلاوته والعمل بأحكامه فى الحياة.

حَبَسَت النَّاس فقال: اليومَ أعلَمُ السَّاحرُ أفْضَلَ أم الرَّاهبُ أفْضلَ؟ فأخَذَ حجَرًا فقالَ: اللهُمَّ إنْ كان أمْرُ الرَّاهب أحبَّ إلَيْكَ مِنْ أمْرِ السَّاحِرِ فاقتُلْ هَذِهِ الدَّابَّة حتَّى يمْضِيَ النَّاسُ، فرَماها فقتَلَها ومَضى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهب فأخبَرهُ. فقال لهُ الرَّاهبُ: أيْ بُنيَّ أنْتَ اليوْمَ أفْضلُ منِّي، قد بَلغ مِن أمْرك مَا أرَى، وإنَّكَ ستُبْتَلَى، فإنِ ابْتُليتَ فَلاَ تَدُلَّ عليَّ ... وكانَ الغُلامُ يُبْرئُ الأكْمهَ والأبرصَ، ويُدَاوي النَّاس مِنْ سائِرِ الأدواء. فَسَمعَ جلِيسٌ للملِكِ كانَ قد عمِيَ، فأتَاهُ بهدايا كثيرَةٍ فقال: ما ههُنَا لك أجْمَعُ إنْ أنْتَ شفَيْتني، فقال: إنِّي لا أشفِي أحَدًا، إنَّمَا يشْفِي الله تعَالى، فإنْ آمنْتَ بالله تعَالَى دعوْتُ الله فشَفاكَ، فآمَنَ بالله تعَالى فشفَاهُ الله تَعالَى، فأتَى المَلِكَ فجلَس إليْهِ كما كانَ يجْلسُ فقالَ لَهُ المَلِكُ: مَنْ ردَّ علَيْك بصَرك؟ قال: ربِّي. قَالَ: ولكَ ربٌّ غيْرِي؟، قَالَ: رَبِّي وربُّكَ الله، فأَخَذَهُ فلَمْ يزلْ يُعذِّبُهُ حتَّى دَلَّ عَلَى الغُلاَمِ فجيء بِالغُلاَمِ، فقال لهُ المَلِكُ: أيْ بُنَيَّ قد بَلَغَ منْ سِحرِكَ مَا تُبْرئُ الأكْمَهَ والأبْرصَ وتَفْعلُ وَتفْعَلُ .. فقالَ: إنِّي لا أشْفي أحَدًا،إنَّما يَشْفي الله تَعَالَى، فَأخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعذِّبُهُ حتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فجيء بالرَّاهِبِ فقيل لَهُ: ارجَع عنْ دينكَ، فأبَى، فدَعا بالمنْشَار فوُضِع المنْشَارُ في مفْرقِ رأْسِهِ، فَشَقَّهُ حتَّى وقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيء بجَليسِ المَلكِ فقِيلَ لَهُ: ارجع عنْ دينكَ فأبَى، فوُضِعَ المنْشَارُ في مفْرِقِ رَأسِهِ، فشقَّهُ به حتَّى وقَع شِقَّاهُ، ثُمَّ جيء بالغُلامِ فقِيل لَهُ: ارجِع عنْ دِينكَ، فأبى، فَدَفَعَهُ إلَى نَفَرٍ منْ أَصحَابِهِ فقال: اذْهَبُوا بِهِ إلَى جبَلِ كَذَا وكذَا فاصعدُوا بِهِ الجبلَ، فإذَا بلغتُمْ ذروتهُ فإنْ رجعَ عنْ دِينِه وإلّا فاطرَحوهُ فذهبُوا به فصعدُوا به الجَبَل فقال: اللَّهُمَّ اكفنيهمْ بمَا شئْت، فرجَف بِهمُ الجَبَلُ فَسقطُوا، وجَاءَ يمْشى إلَى المَلِكِ، فقالَ لَهُ المَلكُ: ما فَعَلَ أَصحَابكَ؟ فقالَ: كفانيهِمُ الله تعالىَ، فدفعَهُ إلَى نَفرٍ منْ أصحَابِهِ فقال: اذهبُوا بِهِ فاحملُوه في قُرقُور وَتَوسَّطُوا بِهِ البحرَ، فإنْ رَجَعَ عنْ دينِه وإلّا فَاقْذفُوهُ، فذَهبُوا بهِ فقال: اللَّهُمَّ اكفِنيهمْ بمَا شئْت، فانكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفينةُ فغرِقوا، وجَاءَ يمْشِي إلَى

المَلِك. فقالَ لَهُ الملكُ: ما فَعَلَ أَصحَابكَ؟ فقال: كفانِيهمُ الله تعالى. فقالَ للمَلِكِ إنَّك لسْتَ بقَاتِلِي حتَّى تفْعل ما آمُركَ بِهِ. قال: ما هُوَ؟ قال: تجْمَعُ النَّاس فى صَعيد واحِدٍ، وتصْلبُنى عَلَى جذْعٍ، ثُمَّ خُذ سَهْمًا منْ كنَانتِى، ثُمَّ ضع السَّهْمَ فى كَبدِ القَوْسِ ثُمَّ قُل: بسْمِ الله ربِّ الغُلاَمِ ثُمَّ ارمِنِى، فإنَّكَ إذَا فَعَلْتَ ذَلكَ قَتَلْتنى. فجَمَع النَّاس فى صَعيدٍ واحدٍ، وصلَبَهُ عَلَى جذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا منْ كنَانَتِهِ، ثُمَّ وضَعَ السَّهمَ فى كبدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْم الله رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ رمَاهُ فوقَعَ السَّهمُ فى صُدغِهِ، فَوضَعَ يدَهُ فى صُدغِهِ فمَاتَ. فقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بربِّ الغُلاَمِ، فَأُتِيَ المَلكُ فَقيلَ لَهُ: أَرَأيْت ما كُنْت تحذَر قَد وَالله نَزَلَ بِك حَذرُكَ. قد آمنَ النَّاسُ. فأَمَرَ بالأخدُودِ بأفْوَاهِ السكك فخُدَّتَ وَأُضْرِمَ فيها النيرانُ وقال: مَن لم يرجَع عنْ دِينِه فأَقْحمُوهُ فِيهَا أَوْ قيلَ لَهُ: اقْتَحمْ، ففعَلُوا حتَّى جَاءت امرَأَةٌ ومعَهَا صَبىٌّ لها، فَتقَاعَسَت أنْ تَقعَ فِيهَا، فقال لَهَا الغُلاُمُ: يا أمَّاه اصبِرِى فَإنَّكِ عَلَى الحَقِّ»[1].

۞ وأما شرح قصة الحديث فهي أنَّه كان هناك ملك اسمه (ذو نواس) وكان يعيش فى بلدة تُسمَّى (نجران) فى اليمن.

وكان هذا الملك عنده ساحر يعمل له كل ما يستطيع من الحِيَل والأعمال السحرية؛ لكى يُقنعَ الناس بأن هذا الملك هو إله الكون الذى يستحق أن يُعبَد من دون الله (جل وعلا).

وهذا الساحر فى الحقيقة هو أهون الناس على الملك، فإذا وجد الملك مَن هو أفضل منه تخلَّى عنه فى التوِّ واللحظة... بل إن حَدَثَ منه أى شىء يُغضب الملك فسرعان ما يتحول الملك إلى إعصارٍ مُدمِّر يعصف بحياة الساحر بلا تَردُّد.

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٠٠٥) كتاب الزهد والرقائق.

«**ذروةُ الجَبلِ**»: أعلاهُ- و«**القُرْقُورُ**»: نوْعٌ منَ السُّفُن و «**الصَّعيدُ**» هُنا: الأرضُ البارِزَةُ و«**الأخْدُودُ**»: الشُّقوقُ فى الأرْضِ كالنَّهْرِ الصَّغيرِ و«**أُضرِمَ**» أُوقِدَ «**وانكفَأَت**» أى: انقلبَتْ و«**تقاعسَت**» توقَّفتْ وجبُنتْ.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه كان لأحد الملوك ساحر، كبرت سِنُّه، فخشى أن يضيع علمه، فطلب من الملك أن يُرسل له غلامًا ذكيًّا نابهًا، كى يُورثه علمه وضلاله، وقد حقق له الملك مقصوده، فأرسل له بالغلام.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: لماذا طلب الساحر من الملك أن يبعث إليه غلامًا صغيرًا ولا يبعث إليه شابًّا أو شيخًا كبيرًا؟!

والجواب: لكى يتعلم الغلام السحر من صغره ويبقى مع الملك أكبر وقتٍ ممكن ليخدمه فى تنفيذ ما يريد.. ونحن نعلم جميعًا أن التعليم فى الصِّغَر كالنقش على الحجر.

ولكن الله تعالى قد أراد بهذا الغلام خيرًا!

مرَّ هذا الغلام يومًا من الأيام براهب، فسمع منهُ فأعجبه كلامُه، لأنَّ هذا الراهب - يعنى العابد- عابد لله عَزَّوَجَلَّ، لا يتكلم إلا بالخير، وقد يكون راهبًا عالمًا لكن تَغلُب عليه العبادة.

المهم أنه أعجبه وصار إذا خرج هذا الغلام من عند أهله جلس عند الرَّاهب فتأخَّر على السَّاحر.

فجعل السَّاحر يضربه، لماذا تتأخر؟ فشكا الغلام إلى الراهب ما يجده من السَّاحر من الضرب إذا تأخر.

فلقَّنه الرَّاهب أمرًا يتخلص به، من ذلك فقال له: إذا ذهبت إلى الساحر وخشيت أن يُعاقبك فقل إن أهلى حَبسونى، أى: تأخَّرت عند أهلي، وإذا أتيت عند أهلك فقل إنَّ الساحر حبسنى، حتى تنجو من هذا ومن هذا.

ففعل ذلك... فصار الغلام يأتى إلى الراهب ويسمع منه ثم يذهب إلى الساحر، فإذا أراد أن يُعاقبه على تأخره قال: إنَّ أهلى حبسونى وإذا رجع إلى أهله وتأخر عند الرَّاهب قال: إنَّ السَّاحر حبسنى.

۞ وفى يوم من الأيام كان الغلام فى طريقه إلى الراهب، فوجد الناس مذعورين خائفين.. فنظر فوجد أسدًا كبيرًا قد قطع الطريق على الناس.. فاغتنم الغلام هذه الفرصة وقال فى نفسه: اليوم أعرف وأتيقن أيهما أفضل عند الله: الساحر أم الراهب.

فأخذ الغلام حجرًا صغيرًا وقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذا الأسد حتى يمضى الناس.. فرمى الحجر فقتل الأسد ومضى الناس وهم يظنون أن الغلام قتل الأسد بسبب نبوغه فى السحر.

فعرف الغلام أن أمر الرَّاهب خير من أمر السَّاحر وهذا أمر لاشك فيه لأن السَّاحر إما مُعتدٍ ظالم وإمَّا كافر مُشرك ... فإن كان يستعين على سحره بالشِّياطين يتقرب إليهم ويعبدهم ويدعوهم ويستغيث بهم فهو كافر مشرك، وإن كان لا يفعل هذا لكن يعتدى على الناس بأدوية فيها سحر فهذا ظالم مُعتدٍ.

أمَّا الرَّاهب فإن كان يعبد الله على بصيرة فهو مهتدٍ، وإن كان عنده شىء من الجهل والضَّلال فنيته طيّبة وإن كان عمله سيئًا.

المهم أن هذا الغلام أخبر الراهب بما جرى فقال له الرَّاهب: أنت اليوم خيرٌ منى ... وذلك لأن الغلام دعا الله فاستجاب الله له.

وهذا من نعمة الله على العبد أنَّ الإنسان إذا شك فى الأمر ثم طلب من الله آية تبين له شأن هذا الأمر فبيَّنه الله له فإن هذا من نعمة الله عليه.

ومن هنا شُرعت الاستخارة للإنسان إذا همَّ بالأمر وأشكل عليه هل فى إقدامه خير أم فى إحجامه خير، فإنَّه يستخير الله ... وإذا استخار الله بصدقٍ وإيمان فإن الله يعطيه ما يستدل به على أن الخير فى الإقدام أو الإحجام، إما بشىءٍ يُلقيه فى قلبه ينشرح صدره لهذا أو لهذا وإمّا برؤيا يراها فى المنام، وإما بمشورة أحد من النَّاس وإما بغيره[1].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٠٥).

فقال له الراهب: أي بُنى أنت اليوم أفضلُ منى...قد بلغ من أمرك ما أرى.. ولكن اعلم أنك ستتعرض لابتلاءٍ شديد، فإذا وقعت فى هذا البلاء فلا تَدُلَّ الناس على مكانى ولا تخبرهم عنى.

وهذا درسٌ عظيم فى التواضع لأن الراهب أفضل من الغلام - بلا شك - فهو الذى علَّمه التوحيد ولقَّنه العلم ... وعلى الرغم من ذلك يقول له: أنت اليوم أفضل منى.

وقد أجرى الله على يد الغلام شفاء المرضى، وإبراء الأكمه والأبرص، وكان يخبر الناس أن الشافى هو الله، وأن مَن آمن بالله فإنه يشفيه...فكان يتخذ من المعالجة طريقًا لنشر الإيمان والتوحيد.

۞ فسمع جليس الملك - وكان أعمى - أن هناك غلامًا يداوى الناس من كل الأمراض.

فما كان من جليس الملك إلا أن أحضر الهدايا الثمينة والأموال الكثيرة وذهب لهذا الغلام فوجد زحامًا شديدًا على بابه فاستأذن من هؤلاء الناس ودخل على الغلام.. وإذا بالمفاجأة الكبرى!!

لقد علم جليس الملك أن الغلام الذى يداوى الناس من الأمراض هو ساحر الملك.. فقال له جليس الملك: لقد جمعت لك كل هذه الهدايا والأموال على أن تشفينى وترد إلىَّ بصرى.

فقال له الغلام: إنى لا أشفى أحدًا إنما يشفى الله فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك...

هكذا بدأ الغلام يضع بذرة التوحيد فى قلب جليس الملك ليعلم أن الله وحده هو النافع الضار وأنه بيده مقاليد السماوات والأرض وأنه هو وحده الذى يملك الشفاء.

فرفع جليس الملك رأسه إلى السماء وقال: أشهد أن لا إله إلا الله.

فقام الغلام فدعا الله أن يشفى جليس الملك وأن يَرُدَّ إليه بصره.

فشفاه الله وردَّ إليه بصره.. فصرخ جليس الملك من شدة الفرح وهو يردد: أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله.

فقال له الغلام: لا تُخبر الملك عنى ولا تدله علىَّ.

فوعده جليس الملك بذلك، ثم خرج وهو فى قمة السعادة.

۞ فلما أسلم جليس الملك ذهب إلى زوجته وأولاده وهو فى قمة السعادة لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد رَدَّ عليه بصره...وفرحت زوجته وفرح أولاده فرحًا شديدًا... لكنه لم يخبرهم بقصة إسلامه على يد الغلام لأنه وعده بذلك.

۞ وفى اليوم التالى جاء أحد حُرَّاس الملك إلى قصر جليس الملك الذى رَدَّ الله عليه بصره وأخبره أن الملك يطلب لقاءه فذهب معه دون أن يحتاج إلى مَن يقوده فى طريقه إلى الملك كما كان يفعل من قبل.

۞ فلما دخل على الملك قال له الملك: هنيئًا لك على أنك عُدت مُبصرًا مرة أخرى.

فقال جليس الملك: الحمد لله وحده على نعمة الشفاء من العمى.

فغضب الملك وقال له: وهل هناك إلهٌ فى هذه المملكة غيرى؟

قال جليس الملك: الله الذى خلقك ورزقك وجعلك ملكًا...وإذا أراد أن ينزع منك المُلك وأن ينزع منك كل شىء حتى روحك فإنه وحده القادر على ذلك.

۞ فما كان من الملك إلا أن أمر الحُراس أن يأخذوه ليُعذبوه حتى يدلهم على مَن جعله يُسلم ويدخل فى دينٍ غير دين الملك.

فأخذوه وظلوا يعذبونه حتى دَلَّهم على الغلام.

۞ ومع أن هذا الرجل كان جليسًا للملك إلا أن الملوك ليس عندهم وفاءٌ

لمن حولهم.. فما إن تعارضت وجهة الجليس مع وجهة الملك وإذا به يأمر بتعذيبه فى التوِّ واللحظة.

«فجيء بالغلام، فقال له الملك: أى بُنى قد بلغ من سحرك ما تُبرئ به الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إنى لا أشفى أحدًا إنما يشفى الله... فأخذه فلم يَزل يُعذبه حتى دَلَّ على الراهب».

۞ علم الملك أن الغلام وراء هذه الدعوة الجديدة فى مملكته: دعوة التوحيد وإنكار ربوبية الملك...فماذا يفعل هذا الطاغية لاحتواء هذه الدعوة؟

إن بطشه بالغلام الذى أحبَّه الناس وعرفوا إحسانه إليهم، وأنه هو الذى قتل الأسد، وأنه يُبرئ الأكمه والأبرص ويداويهم من سائر الأدواء..سوف يزيد من محبته ويجعله بطلاً أو شهيدًا، ويُصبح موته وقودًا دافعًا لاستمرار دعوته؛ فلا بد من محاولة الاستمالة أولاً، فهو يعرف جيدًا حقيقة دعوة الغلام وأنها تهدف إلى تحقيق العبودية لله وحده ونبذ عبودية الملك، ومع ذلك يقول له: «أى بُنى».

والنداء بالبُنوة أول محاولات الاستمالة والتلطُّف، فهو يقول له: أنت ابنى وأنا الذى توليت تربيتك، ثم يقول له: «قد بلغ من سحرك ما تُبرئ به الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل».

فهو يريد أن يقول له: لا مانع عندى من استمرارك فى ما تفعل، بشرط أن تقول للناس: إن هذا من السحر الذى تعلمته فى مدرسة الملك، وأن ما تدعو إليه هو بتوجيهات الملك وتحت إشرافه وبرعايته،... وهو يقول له ذلك وهو على يقين من أنه هو الذى قال لجليسه ولغيره: ربى وربك الله، وأنه سبحانه الذى يشفى الناس.

رفض الغلام إذًا أن يُسمِّى ما يفعله سحرًا، وأَبَى إلا أن يُجابه الملك بأن دعوته هى دعوة التوحيد الخالص بمقولته العظيمة: «إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله تعالى»، وفشلت محاولة الاحتواء وإلباس الحق ملابس

الجاهلية...فانكشف الملك على حقيقته ولجأ إلى الأسلوب المعتاد: البطش والتنكيل...فجىء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه».

فجىء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأَبَى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه».

۞ لقد حدث لجليس الملك مثلما حدث للراهب... لقد ذاق الرجل حلاوة الإيمان فهان عليه أن يُقدم حياته لله (جل وعلا) بدلاً من أن يعيش مُنعَّمًا فى قصر الملك وهو بعيد عن الله (سبحانه وتعالى).

ثم جىء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأَبَى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه...فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت...فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشى إلى الملك، فقال الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى.

۞ فأرسله الملك مع نفرٍ من أصحابه، فقال لهم: اذهبوا به فى سفينة صغيرة وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت؛ فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، ورجع يمشى إلى الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى.

۞ ثم تحوَّل الغلام من مأمورٍ إلى آمِر.. فقام يأمر الملك، فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به. قال الملك: وما هو؟

قال الغلام: تجمع الناس فى صعيدٍ واحد، ثم تصلبنى على جذعٍ، ثم خُذ سهمًا من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قُل: «بسم الله ربِّ الغلام، ثم ارمنى؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى».

۞ فقام الملك وجمع الناس فى صعيدٍ واحدٍ، وصَلَبَهُ على جذعٍ، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم فى كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه، فوضع يده على صدغه فمات.

فقال الناس: «آمنا بالله رب الغلام».

۞ فعل الملك ما أمره به الغلام.. وكان هذا الملك فى غاية الغباء لأنه لو ترك الغلام يدعو الأمة إلى توحيد الله لما آمن معه إلا القليل ولكنه لما قُتل الغلام؛ آمنت الأمة كلها وقاموا جميعًا على قلب رجلٍ واحد فقالوا: آمنا بالله رب الغلام.

فجاء حاشية الملك فقالوا له: أرأيت ما كنت تَحذر؟! قد والله نزل بك ما كنت تَحذر...قد والله آمن الناس، فأمر بالأخاديد (الحُفر) بأفواه السكك فخُدَّت «أى حُفرت»، وأُضرم فيها النيران، وقال: مَن لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، ففعلوا...حتى جاءت امرأة ومعها صبىٌّ لها، فتقاعست أن تقع فيها (أى ترددت وهمَّت أن ترجع)، فقال لها الغلام (أى ابنها الصبى): يا أُمه! اصبرى، فإنكِ على الحق».

۞ نعم.. لقد قامت البطانة السيئة لتُخبر الملك بأن الأُمَّة قد آمنت بالله عَزَّوَجَلَّ فما كان من الملك - الذى لا يملك الحُجة ولا الإقناع - إلا أن لجأ إلى البطش والعنف، فأمر زبانيته أن يحفروا الأخاديد فى أفواه السِّكك حتى لا يترك مكانًا يستطيع الناس أن يهربوا منه.

وجىء بالموحدين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان منذ ساعات معدودات وخيَّروهم بين الكفر وبين دخول نار الدنيا، فاختاروا جميعًا أن يموتوا على التوحيد والإيمان وأن يدخلوا نار الدنيا على أن يكفروا بالله عَزَّوَجَلَّ ويدخلوا نار الآخرة التى هى أشد من نار الدنيا سبعين مرة.

ويأتى هذا المشهد الأخير المؤثر.

قال ﷺ: «**حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّه اصبري فإنك على الحق**».

ويا له من مشهدٍ مهيب أن يُنطق الله هذا الطفل الصغير، ليربط على قلب أمه ولتعلم يقينًا أنها على الحق.

۞ وهكذا رحل هؤلاء الشهداء الأبرار عن دنيا الناس؛ ليَسعدوا بالنعيم المقيم في جنة الرحمن (جل وعلا).

۞ ولقد ذكر الله قصتهم في سورة البروج، فقال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ٤-١٠].

أولئك هم أصحاب الأخدود الذين ذكرهم الله في كتابه وذكرهم الرسول ﷺ في سُنته.

لم ينتقموا منهم ويحرقوهم إلا لأنهم آمنوا بالله...وهذه هي سُنة الله في خلقه المؤمنين الموحدين.

ولا تزال الحرب بين الإيمان وأهله والكفر وأهله حتى يرث الله الأرض ومَن عليها.

الدروس المستفادة

(١) حرص أهل الشَّرِّ على استمرار شَرِّهم من بعدهم، كما حرص الساحر على تعليم مَن يرث علمه الفاسد، ليبقى هذا العلم حيًّا يُضلُّ به عباد الله.

(٢) أن السحر من كبائر الذنوب...ومن أهل العلم مَن ذهب إلى أن السِّحرَ كُفرٌ؛ لأن السحر لا يتمُّ إلا مع الكفر وتعظيم الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[البقرة: ١٠٢]

(٣) اختار الملك الغلام ليكون الساحر الذى يثبت دعائم ملكه، وأراد الله له أن يكون الداعية الصالح الذى يُدمر مُلكه، ويهدى الناس إلى الدين الحق، وفى ذلك آية للمعتبرين... فالله يهيئ لدينه رجالاً.

(٤) الإيمان لا يحتاج إلى وقتٍ طويل كى يستقر فى القلوب، ويُحيى النفوس ... فالقوم الذين رضوا بعذاب النار لم يَكُن مضى على إيمانهم ساعات قليلة،... ومثل هؤلاء سحرة فرعون آمنوا، فلم يردعهم جبروت فرعون وعذابه عن الإيمان.

(٥) قد يُجرى الله على يد بعض أوليائه كرامات يؤيده بها، ويثبت بها إيمانه ويقينه... فالغلام لم يَكُن نبيًّا، وقد استجاب الله له فى قتل الدابة، وأجرى على يديه إبراء الأكمه والأبرص، ومداواة المرضى، واستجاب دعاءه فى تخليصه من القتل، والقضاء على أعوان الملك الذين أمرهم بقتله.

(٦) التضحية بالنفس فى سبيل الله ليست من الانتحار فى شىء .. فالغلام دَلَّ الملك على الطريقة التى يقتله بها... والمؤمنون كان بعضهم يُلقَى فى النار، وآخرون يقتحمونها، ولم يكن اقتحامهم لها انتحارًا، بل كان فيه إغاظة للظالمين، وإرضاء لله رب العالمين.

(٧) شدة عداء أهل الكفر لأهل الإيمان... فقد نشر أعوانُ الملك الراهبَ وجليسَ الملك بالمنشار، وأحرقوا الناس بالنيران.

(٨) حفظ الله لأوليائه، وإذلاله لأعدائه، فقد حفظ الغلام من القتل، واستجاب دعاءه، فأهلك مَن أرادوا به سوءًا.

(٩) وجوب الصبر على الأذى فى الله، كما صبر الراهب وجليس الملك والغلام، وكما صبر المؤمنون على الحرق بالنار.

(١٠)جواز الكذب فى الحرب ونحوها...فقد أرشد الراهبُ الغلامَ إلى أن يدَّعى أن الساحر حبسه إذا سأله أهله، وأن أهله حبسوه إذا سأله الساحر.

(١١)قد يَضعُف رجل العقيدة عن احتمال الأذى، وقد يبوح بأسرار لا يجوز له البوح بها من شدة العذاب...فجليس الملك الذى ردَّ الله عليه بصره دَلَّ على الغلام تحت وطأة العذاب، والغلام دَلَّ على الراهب لما ناله من العذاب، ومع ذلك فلم يُنقص اعترافهما من مكانتهما، ولكنهما احتملا العذاب الذى أدَّى بهما إلى الموت عندما طُلب منهما التنازل عن عقيدتهما، والكفر بالله.

(١٢)قد يكون التلميذ أفضل من شيخه...فقد حقق الغلام ما لم يستطع الراهب تحقيقه، ويبقى للراهب فضل هداية الغلام.

(١٣)التضحية بالنفس فى سبيل نشر الدعوة ... حيث دَلَّ الغلام الملك على الطريقة التى يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله، ولو كان الوصول لذلك على حساب حياته هو"[1].

(٣٢) وعَنْ أَنس رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ النَّبِىُّ ﷺ بامرَأةٍ تَبْكى عِنْدَ قَبْرٍ فَقَال: «اتَّقِى الله وَاصبِرِى» فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّى، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصيبتى، وَلَمْ تعرفْه، فَقيلَ لَها: إِنَّه النَّبِىُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِىِّ ﷺ، فَلَمْ تَجد عِنْدَهُ بَوَّابينَ، فَقالتْ: لَمْ أَعرِفْكَ، فقالَ: «إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدمَةِ الأُولَى»[2].

وفى رواية لُمسْلمٍ: «تَبْكى عَلَى صبىٍّ لَهَا».

۞ ففى هذا الحديث يحكى أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ مَرَّ بامرأة تبكى عند قبرٍ فقال لها: «اتقى الله واصبرى».. وهذا من حُسن خلق النبى ﷺ ورحمته بكل مَن

---

(١) قصص الرسول ﷺ / د. محمود المصرى (ص ١٠٠-١٣٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٦) كتاب الجنائز.

حوله... فقد كان يستطيع أن يسير دون أن يلتفت إليها ولكنه ﷺ أحسَّ بحزن هذه المرأة وبحاجتها إلى مَن يُصبرها.

فما كان منها إلا أن قالت للنبى ﷺ: «إليك عنى فإنك لم تُصَب بمصيبتى».. وهذا يدل على أن المصيبة قد بلغت منها مبلغًا عظيمًا.

فلما قالت ذلك للنبى ﷺ لم يَقُل لها: ألا تعرفين مَن أنا؟... بل ولم ينتقم منها أو يُعاقبها ؛ لأنه يعذرها ويعلم أن الحزن قد أخرجها عن وعيها حتى قالت هذا الكلام.

۞ فلما قيل لها: إنه النبى ﷺ.. ما كان منها إلا أن أتت النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين.. وهذا من تواضع النبى ﷺ وحرصه على أن يكون متواصلًا مع أمته يُعلمهم ويتابع أحوالهم وليكون عونًا لهم على أمور دينهم ودُنياهم.

فقالت له المرأة: لم أعرفك.. أى أننى أعتذر إليك يا رسول الله إن كان قد بَدَر منى أى كلامٍ يُغضبك فإنى من شدة حزنى لم أعرف مَن الذى يُكلمنى.

فلم يُعاتبها النبى ﷺ على أى كلمة قالتها بل عذرها لشدة حُزنها، وإنما عاتبها لعدم صبرها على قضاء الله فقال لها ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**».

وكأنه يقول لها: إن الصبر الذى يُثاب عليه الإنسان هو أن يصبر أول ما تصيبه المصيبة.. أما أن يتسخط ثم يصبر بعد ذلك فإن هذا ليس الصبر الذى يُثاب عليه الإنسان وإنما يكون تسلِّيًا.

۞ وهنا فائدة مهمة وهى: أنه لا يجوز للمرأة أن تذهب لزيارة القبور بمفردها حتى لا تتعرض لمن يتحرش بها فى تلك الأماكن المهجورة.. وإنما إذا أرادت أن تذهب لزيارة موتاها فإنها تذهب مع أحد محارمها غير متزينة ولا متعطرة وتكون مرتدية حجابها الشرعى.. فإذا ذهبت إلى القبر فإنما تذهب

للعظة والعبرة ولزيارة موتاها.. فلا تلطم خَدًّا ولا تشق جيبًا ولا تدعو بدعوى الجاهلية... وإنما تقف خاشعة تدعو لميتها.. فإن بكت فلا بأس بذلك شريطة ألا يكون ذلك البكاء تسخُّطًا واعتراضًا على قضاء الله وقدره (سبحانه وتعالى).

۞ وأخيرًا لا بد أن نعلم أن الله جعل الجنة ثوابًا لمن صبر واحتسب عند الصدمة الأولى.

بعض فوائد الحديث

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

(١) مداومته وحرصه ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على كل حال... لقوله للمرأة: «**اتقي الله واصبري**» ولم يَقُل ﷺ: إن المرأة الآن مصدومة، ولا يصح توجيه الخطاب إليها... ولما جاءته لتعتذر إليه، نصحها مرة أخرى، فقال لها: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**».

(٢) حكمته ورفقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... أما حكمته، أنه أمر المرأة أولًا بتقوى الله، أي بالأمر العام، الذي هو سبب امتثال العبد لكل أمرٍ وبُعده عن كل نهي، لتشعر بالخوف من الله، - سبحانه وتعالى-، ووجوب طاعته والبعد عن معصيته.

أما رفقه ﷺ في الأمر فيتضح من:

أ- أنَّ نُصحه للمرأة ما زاد عن قوله: «**اتقي الله واصبري**».

ب- أنه ما نهر المرأة وما عاتبها أولًا وآخرًا... أولًا: لما لم تعرفه وقالت له: (إنك لم تُصَب بمصيبتي). وفي رواية عند البخاري: (فإنك خلو من مصيبتي) وآخرًا: لما عرفته واعتذرت إليه، فقالت: (يا رسول الله لم أعرفك)، والغريب أنه ﷺ غيَّر سياق الموضوع ولم يُشعرها بحرجٍ من عدم معرفته، وقال لها: «**إنما الصبر عند أول صدمة**».

ج- تواضعه ﷺ ويتضح ذلك من:

أن المرأة لم تعرفه عندما قال لها: «اتقي الله واصبري». فلو أنه كان يمشي بحاشية وأتباع، يمشون خلفه أو كانت له مشية معينة أو أنه كان له زِيٌّ خاص، أو يتبع أسلوبًا مُعيَّنًا في الكلام يختلف عن الناس لعرفته المرأة، أو حتى ظنت أنه من أكابر القوم ومن خاصتهم، ولراعت ذلك في ردها.

- أنه ﷺ لم يجعل بوابين على أبواب بيته... أما ما ورد في الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ كان له بوابون، يستأذنهم الداخل على رسول الله ﷺ فيُحمَل على أن هذا الأمر لم يكن على الدوام، ولم يكونوا منقطعين لهذا العمل، ووقوفهم عند البيت كان وقت المصلحة، ولكن الأصل عدم وجودهم.

(٣) مهابته وإجلاله في نفوس أصحابه رضي الله عنهم ويتضح ذلك من شدة الكرب والفزع الذي انتاب المرأة، لما عرفت أن الذي حدثها هو النبي ﷺ.

الفائدة الثانية: تأدُّب الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ ومن ذلك:

(١) أن بعض الصحابة أنكروا على المرأة الطريقة التي ردَّت بها على رسول الله ﷺ ولو أنهم اعتادوا الكلام معه بغير توقير وإجلال، ما أنكروا على المرأة.

(٢) ذهاب المرأة إليه ﷺ تعتذر إليه عما بدر منها، وتبين له سببه، فقالت: (يا رسول الله لم أعرفك)، ولو كانوا لا يعرفون عن رسول الله ﷺ التسامح والعفو وعدم الغضب لنفسه، ما اقتصرت المرأة على تلك الكلمة البسيطة.

الفائدة الثالثة: أن الصبر درجات، وأعظم هذه الدرجات، هو الصبر عند الوهلة الأولى من نزول المصائب... وهذا هو الصبر الذي يكافئ الله- سبحانه وتعالى-، عليه بعظيم الأجر والثواب... قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ويتفرع عليه: جميل مِنَّة الله على عباده، أن خفَّف على الإنسان عظيم وقع

المصيبة عليه، بمرور الأوقات ومُلاقاة الأصحاب وتسلية الأحباب... فمن يظن بعد موت الأب أو الأم، أنه سيأتي عليه يوم يضحك فيه، أو حتى يأكل ويشرب، وعلى الإنسان أن يحمد الله كثيرًا على هذه النعمة الجليلة[(١)].

(٣٣) وعَنْ أبى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «يَقولُ الله تَعالَى: مَا لِعَبْدِى المُؤْمِنِ عِنْدِى جَزَاءٌ إِذَا قَبضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احتَسَبهُ إِلَا الجَنَّة»[(٢)].

فهذا الحديث يرويه النبى ﷺ عن رب العزة (سبحانه وتعالى)... فهو حديثٌ قُدسى - كما يُسميه أهل العلم -.

فيخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: « **مَا لِعَبْدِى المُؤْمِنِ عِنْدِى جَزَاءٌ إِذَا قَبضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احتَسَبهُ إِلَا الجَنَّة** ».

فيخبر الله عَزَّ وَجَلَّ أن المؤمن فقط هو الذى يحتسب ويصبر ويرجو الأجر والثواب من عند الله (جلَّ وعلا).. وأن غير المؤمن قد يصبر لكنه لا يحتسب ولا يرجو الأجر والثواب من عند الله.

والصَّفى: مَنْ يَصطفيه الإنسان ويختاره من ولدٍ، أو أخٍ، أو عم، أو أب، أو أم، أو صديق... المهم أنَّ مَا يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنَّه ذُو صِلة منه قوية. إذا أخَذَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ، ثمَّ احتسبه الإنسان، فليس له جزاء إلَّا الجنة.

ففى هذا: دليل على فضيلة الصَّبر على قبض الصَّفى من الدُّنيا وأن الله عَزَّ وَجَلَّ يجازى الإنسان إذا احتسب صفيَّه بالجنة.

۞ ففى هذا الحديث أن الله عَزَّ وَجَلَّ أرحم بعباده من رحمة الأم بطفلها

---

(١) شمائل الرسول ﷺ (٢/ ٢٩٩-٣٠١) بتصرف كبير.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٢٤) كتاب الرقاق.

الرضيع.. فهو وإن حرم العبد من أحد أحبابه إلا أنه جعل ثوابه الجنة إن صبر واحتسب...

۞ وأن الشر لا يُنسب إلى الله... فإذا فَقَد الإنسان أحد أحبابه فقد يكون موت هذا الحبيب شرًّا من وجهة نظر الذى فقده لكنه عين الخير فى تقدير الله عَزَّوَجَلَّ.. فقد قدَّر الله له ذلك من أجل حكمة لا يعلمها إلا الله... ومن أجل حكمة أخرى ألا وهى أن يصبر ويحتسب فيفوز بجنة عرضها السماوات والأرض... فما أرحم الله الذى قال فى كتابه: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾.

(٣٤) وعَنْ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **أَنَّها سَأَلَتْ** رسولَ الله ﷺ **عَن الطَّاعونِ، فَأَخبَرَهَا: «أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ الله تعالى عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ الله تعالى رَحمةً للْمُؤْمِنينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فى الطَّاعُون فَيَمْكُثُ فى بلَدِهِ صَابِرًا مُحتَسِبًا يَعلَمُ أَنَّهُ لا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ الله لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»**(١).

۞ ففى هذا الحديث أخبر النبى ﷺ أن الطاعون عذابٌ أرسله الله عَزَّوَجَلَّ على مَن يشاء من عباده.. ومع ذلك فقد جعله الله رحمة للمؤمنين؛ لأن مَن نزل الطاعون ببلده فبقى فيها صابرًا مُحتسبًا وهو يعلم أنه لا يُصيبه إلا ما كتب الله له.. فإن أُصيب بالطاعون فمات فقد فاز؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يكتب له مثل أجر الشهيد.

ونحن نعلم ما للشهيد عند ربه (جلَّ وعلا).. فقد قال النبى ﷺ: **«لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سَبْعُ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِى أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،**

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٧٣٤) كتاب الطب.

وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيَشْفَعُ فِى سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»(١).

۞ وقد أخبر النبى ﷺ أن الطاعون إذا نزل ببلدة.. فكل مَن بقى فيها محتسبًا فهو كالمرابط فى سبيل الله، وإن مات مات شهيدًا.. وإن فَرَّ منه كان كالفارِّ من الزحف.

قال ﷺ: «الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِأُمَّتِى، وَوَخْزُ أَعدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ ... غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ، تَخْرُجُ بَيْنَ الآبَاطِ وَالْمَرَاقِّ، مَنْ مَاتَ فِيهِ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ أَقَامَ فِيهِ كَانَ كَالْمُرَابِطِ فِى سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ فَرَّ مِنْهُ كَانَ كَالْفَارِّ مِنَ الزَّحفِ»(٢).

ولقد أمرنا النبى ﷺ بأننا إذا سمعنا أن الطاعون قد وقع فى أرض فإننا لا نَقْدم عليها، لأن الإقدام عليها إلقاء بالنَّفس إلى التَّهلكة، ولكنه إذا وقع فى أرض فإننا لا نخرج منها فرارًا منه لأنك مهما فررت من قدر الله إذا نزل بالأرض فإن هذا الفرار لن يُغْنى عنك من الله شيئًا.

قال ﷺ: «الطَّاعُونَ بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلَا تَهْبِطُوا عَلَيْهَا»(٣).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٨٢).

(٢) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٤٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٣) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢١٨) كتاب السلام.

(٣٥) وعَن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبِدى بحبيبتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجنَّةَ» يُريدُ عينيْه[1].

۞ ففى هذا الحديث يخبر الله عَزَّ وَجَلَّ أنه إذا ابتلى عبدًا من عباده بإطفاء نور حبيبتيه – أى عينيه– فصبر واحتسب فإن الله يعوضه بهما الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد سمَّى الله العينين بهذا الاسم (حبيبتيه) ؛ لأن الإنسان من خلالهما يحب الدنيا ويحب ما فيها...

ولذا فإن العبد إذا وُلِدَ أعمى لا يرى شيئًا فإنه لا يحزن على فوات أى شىء من الدنيا؛ لأنه لم يرها أصلًا.. وإنما يكون الألم الشديد لمن وُلِدَ مُبصرًا ورأى الدنيا وزينتها الفانية، ثم فَقَد بصره بعد ذلك.

ولأن العينين هما أغلى شىء عند الإنسان فإن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا قبضهما وحرم العبد من نعمة البصر فصبر واحتسب لم يجعل الله له جزاءً من الحسنات ولو كانت كثيرة وإنما جعل ثوابه الجنة مباشرة ؛ لأنه حُرم من جنته فى الدنيا – نعمة البصر – فصبر واحتسب فكان الجزاء جنة بجنة... وشتَّان ما بين الجنتين.

۞ واعلم أن الله إذا حرم عبدًا من نعمة البصر فإنه يعوضه فى بقية الحواس بما يُخفف عنه ألم الحرمان من تلك الحاسة التى فقدها... بل لقد رأيت أن أكثر الذين حُرموا من نعمة البصر قد منحهم الله قوة فى الحفظ وطهارة فى القلب لانعدام الذنوب التى تأتى أكثرها من النظر إلى المحرمات.. فيصبح القلب طاهرًا ويُصبح العقل حاضرًا.

وقد رأينا منهم الكثير والكثير من العلماء وحفظة القرآن... فهذا من لُطف الله ورحمته بأهل البلاء فى الدنيا والآخرة.

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٥٣) كتاب المرضى.

(٣٦) وعَنْ عطاءِ بْن أبى رَباحٍ قالَ: قَالَ لى ابنُ عبَّاسٍ رَضِّوَاللَّهُعَنْهُمَا: ألا أريكَ امْرَأةً مِن أَهْلِ الجَنَّة؟ فَقُلْت:بلَى، قَالَ: هَذِه المرأَةُ السوْداءُ أتَت النبىَّ ﷺ فقالَتْ: إِنِّى أُصرَعُ، وإِنِّى أَتكشَّفُ، فَادعُ الله تعالى لِى، قَالَ: «إن شئْتِ صَبَرْتِ ولـكِ الْجنَّةُ، وإنْ شِئْت دعَوْتُ اللّه تعالَى أنْ يُعافيَكِ» فقَالتْ: أَصبِرُ، فَقالت: إِنِّى أَتكشَّفُ، فَادعُ الله أَنْ لا أَتكشَّفَ، فَدَعَا لَهَا[1].

۞ فى البداية لا بُدَّ أن نعلم أن أهل الجنة ينقسمون إلى قسمين:

(١) قسمٌ نشهد لهم بالجنة بأوصافهم... وقسمٌ نشهد لهم بالجنة بأعيانهم.

فأمَّا الذين نشهد لهم بالجنة بأوصافهم فهم أهل الإيمان والتقوى.. فقد قال تعالى عن الجنة أنها ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [البينة: ٧، ٨].

فنشهد لأهل الإيمان والتقوى بأنهم من أهل الجنة.. لكن لا نقول فلانٌ فى الجنة ؛ لأننا لا نستطيع أن نشهد لمُعيَّن بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بنَصٍّ من القرآن أو السُّنَّة.

لكن إذا مات رجلٌ مشهودٌ له بالخير نقول: نرجو أن يكون من أهل الجنة لكن لا نشهد أنه من أهل الجنة ؛ لأن هذا فى علم الله (جلَّ وعلا).

(٢) أما القسم الآخر: فهم الذين نشهد لهم بالجنة بأعيانهم.. وهم الذين شهد لهم النبى ﷺ بالجنة: مثل العشرة المبشرين بالجنة.

ومثل: ثابت بن قيس بن شَمَّاس ومثل سعد بن معاذ ومثل عبد الله ابن سلام ومثل بلال بن رباح رَضِّوَاللَّهُعَنْهُمْ وغيرهم ممن عينَّهم الرَّسول عليه الصلاة والسَّلام.

هؤلاء نشهد لهم بأعيانهم ونقول: نشهد بأن أبا بكر فى الجنّة، ونشهد بأنّ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٥٢) كتاب المرضى - ومسلم (٢٥٧٦) كتاب البر والصلة.

عمر فى الجنَّة وهكذا.

۞ ومن بين هؤلاء الذين نشهد لهم بأعيانهم أنهم من أهل الجنة: هذه المرأة السوداء التى قال عنها ابن عباس لتلميذه عطاء: «ألا أرِيكَ امرأةً مِنْ أهْل الجنَّة».

فهذه المرأة جاءت إلى النبى ﷺ تشتكى له من أنها تُصرع وتنكشف وطلبت منه أن يدعو لها. فقال لها ﷺ: **«إن شئتِ دَعوْت الله لكِ وإنْ شئتِ صَبَرْتِ ولكِ الجنة؟»**.

فالمرأة أمامها فرصة عظيمة للشفاء بدعاء النبى ﷺ.. ولكنها مع ذلك لما خيَّرها النبى ﷺ بين الدعاء والشفاء وبين الجنة اختارت الجنة واختارت أن تصبر على هذا البلاء حتى تدخل الجنة.

ولكن كان عندها مشكلة تُؤرقها؛ لأنها مسلمة عفيفة عندها حياء فقالت للنبى ﷺ: إنى أتكَشَّف فادعُ الله ألا أتكشَّف، فدعا لها النبى ﷺ.. فكانت بعد ذلك تُصرع ولا تتكشف.

وأرجو من حضراتكم أن تقارنوا بين هذه المرأة التى تتكشف دون إرادتها؛ لأنها مُصابة بالصَّرع.. ومُحالٌ أن يُفتن بها أحدٌ وهى مصروعة.. وبين امرأة أخرى تتعرى بإرادتها لأنها تتبع بيوت الأزياء العالمية فتمشى شبه عارية لتفتن شباب المسلمين؛ ليكون ذلك فى ميزان سيئاتها هى ووليها المسئول عنها.

۞ والصَّرَع نعوذ بالله منه نوعان:

(١) صرع بسبب تشنُّج الأعصاب: وهذا مرض عضوى يمكن أن يُعالَج من قِبَل الأطباء بإعطاء العقاقير التى تُسَكِّنه أو تُزيله بالمرة.

(٢) وقسمٌ آخر بسبب الشَّياطين والجن: يتسلَّط الجنِّى على الإنسى فيصرعه ويدخل فيه، ويضرب به على الأرض ويُغمَى عليه من شِدّة الصَّرع ولا يشعر.

ويتلَّبس الشيطان أو الجنى بنفس الإنسان ويبدأ يتكلم على لسانه ...والذى

يسمع الكلام يقول إن الذى يتكلّم الإنسى ... ولكنَّه الجنى ولهذا تجد فى بعض كلامه الاختلاف لا يكون ككلامه وهو مستيقظ لأنه يتغير بسبب نطق الجنى.

هذا النوع من الصَّرع نسأل الله أن يُعيذنا وإيَّاكم منه ومن غيره من الآفات: هذا النَّوع علاجه بالقراءة من أهل العلم والخير.

أحيانًا يُخاطبهم الجنى ويتكلم معهم ويُبيِّن السَّبب الذى جعله يصرَع هذا الإنسى.

وأحيانًا لا يتكلم وقد ثبت هذا - أعنى صَرعَ الجنِّى للإنسى - بالقرآن والسُّنة والواقع.

ففى القرآن قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وهذا دليلٌ على أن الشيطان يتخبَّط الإنسان من المَسِّ وهو الصَّرع.

وهذا النَّوع من الصَّرع له علاج يدفعه وله علاج يَرفَعه.

۞ فهو نوعان:

(١) أمَّا دَفْعُه: فبأن يحرص الإنسان على الأورَاد الشَّرعية الصباحية والمسائية، وهى معروفة فى كتب أهل العلم منها: آية الكرسى فإن مَن قرأها فى ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يَقْربُه شيطان حتى يُصبح.

ومنها: سورة الإخلاص والفلق والنَّاس ومنها: أحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام فليحرص الإنسان عليها صباحًا ومساءً فإن ذلك من أسباب دفع أذيّة الجن.

(٢) وأما الرَّفع: فهو إذا وقع بالإنسان فإنَّه يُقرأ عليه آيات من القرآن فيها تخويف وتذكير واستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ حتى يخرج[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١١٤-١١٦) بتصرف كبير.

(٣٧) وعَنْ أبي عبْدِ الرَّحمنِ عبْدِ الله بنِ مسْعُود رضي الله عنه قَال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى رسول الله ﷺ يَحكِي نَبيًّا من الأنبِياءِ، صلواتُ الله وسَلامُهُ عَلَيْهم، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدمَوْهُ وهُو يمْسحُ الدَّم عنْ وجْهِهِ، يقُولُ: «اللَّهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمي فإِنَّهُمْ لا يَعلمُونَ»[1].

۞ في هذا الحديث يحكي النبي ﷺ بعض ما جرى لنبيٍّ من الأنبياء من الإيذاء الذي تعرَّض له من قومه.. وهو مع ذلك لا يرد عليهم الأذى ولا يدعو عليهم مع أنهم قد ضربوه حتى نزفت الدماء الشريفة من جسده وهو يمسح الدم عن وجهه وليس عن قدمه.. فلقد ضربوه على وجهه حتى نزفت الدماء منه وهو يمسح الدم ويدعو لهم قائلًا: « اللَّهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمي فإِنَّهُمْ لا يَعلمُونَ » ولا عجب في ذلك فلقد أخبر النبي ﷺ أن الأنبياء هم أشد الناس بلاءً.

قال ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»[2].

ولقد كان الرسل والأنبياء يتعرضون للإيذاء الشديد الذي قد يصل أحيانًا إلى القتل ومع ذلك فقد كانوا جميعًا لا يغضبون لأنفسهم، وإنما يغضبون إذا انتُهكت محارم الله عز وجل.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «يا مُخنَّثَ العزم أين أنت والطريقُ طريقٌ تَعِبَ فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمِي في النار الخليل، وأُضْجِعَ للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمنٍ بخسٍ، ولَبِثَ في السجن بضع سنين، ونُشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضُّرَّ أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٩٢) كتاب الجهاد والسير.
(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ»(١).

۞ وسار على نفس الطريق أصحاب النبى ﷺ فتعرض للإيذاء: أبوبكر وقُتل عمر، واغتيل عثمان وطُعن علىٌّ.... بل وتعرض للإيذاء الشديد الأئمة الكبار الذين جاءوا بعد أصحاب النبى ﷺ.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

۞ ولقد أخبرنا النبى ﷺ بذلك لنتأسى به وبجميع الأنبياء فى صبرهم على الأذى وشفقتهم على قومهم... حتى إذا أُوذى أحدنا وهو فى طريق الدعوة يصبر ويحتسب ويتذكر ما حدث لصفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين.

(٣٨) وعَنْ أبى سَعيدٍ وأبى هُرَيْرة رضي الله عنهما عن النَّبىِّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حَزَن وَلا أذًى وَلا غمٍّ، حتَّى الشَّوكَة يُشَاكُها إلَّا كفَّر الله بهَا مِنْ خطايَاه»(٢).

(٣٩) وعَنْ ابْن مسْعُود رضي الله عنه قَالَ: دَخلْتُ عَلى النَبىِّ ﷺ وَهُو يُوعَكُ. فَقُلْتُ: يا رسُولَ الله إنَّكَ تُوعَكُ وَعكًا شَدِيدًا. قال: «أَجَلْ إنِّى أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُم» قُلْتُ: ذلك أنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قال: «أَجَلْ ذَلك كَذَلك مَا مِنْ مُسْلِم يُصيبُهُ أَذًى، شوْكَةٌ فَمَا فوْقَهَا إلَّا كَفَّر الله بهَا سيئاته، وَحُطَّتْ عنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجرةُ وَرقَهَا»(٣).

---

(١) «الفوائد» للإمام ابن القيم (ص: ٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٤٢) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧٣) كتاب البر والصلة. وَ«الْوَصَب» الْمرضُ.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٤٨) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧١) كتاب البر والصلة. وَ«الْوَعكُ»: مَغْثُ الحمَّى، وقيل: الْحُمى.

۞ ففى هذين الحديثين يخبر النبى ﷺ أن المسلم لا يُصيبه مرضٌ ولا تعب ولا هم ولا حزن ولا أذى ... حتى إن أُصيب بشوكة صغيرة فى قدمه إلا كفَّر الله بها من خطاياه.

ومن المعلوم أن الحياة لا تخلو أبدًا من الآلام والأحزان والأمراض والأوجاع... فلا تستقيم الحياة على وتيرة واحدة.. فيومٌ تُساء ويومٌ تُسَرُّ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

فإذا أُصبت بشىء من تلك الآلام أو الأحزان أو الأمراض فلا تظن أنه سيذهب سُدى... فإنك إذا صبرت واحتسبت فإن الله عَزَّوَجَلَّ يغفر ذنوبك ويزيد من حسناتك.. بل ويرفع درجاتك فى الجنة.

فقد قال النبى ﷺ: « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَمَا يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا** »(١).

وقال ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتَلَاهُ اللهُ فِى جَسَدِهِ أَوْ فِى مَالِهِ أَوْ فِى وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى يُبَلِّغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِى سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى**»(٢)... فاحرص دائمًا عند البلاء أن تصبر وتحتسب الأجر والثواب عند الله حتى تفوز بالأجر والثواب من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

***

(٤٠) وعَنْ أبى هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ**»(٣).

فالنبى ﷺ يخبر فى هذا الحديث أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أراد بعبده خيرًا يُصب منه..

---

(١) حسن: رواه ابن حبان، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٢٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وأبو يعلى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٥٩٩).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٦٤٥) كتاب المرضى.

وضبطُوا «يُصِب»: بفَتْحِ الصَّادِ وكَسْرِهَا.

أي يُقدر عليه المصائب ويبتليه ويرزقه الصبر عليها.. لأن الله إذا ابتلى عبدًا ولم يصبر هذا العبد ولم يحتسب بل اعترض وتسخَّط على قضاء الله فإن هذا لا يكون خيرًا للعبد أبدًا.

فمن كمال رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يبتلى إلا مَن يحب.. فقد قال النبى ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»(١).

فإذا أحب الله عبدًا وابتلاه فإنه يرزقه الصبر على ذلك البلاء واحتساب الأجر عند الله ليفوز بتكفير السيئات وزيادة الحسنات ورفعة الدرجات.

ولكون المرض والبلاء نعمة كان الصالحون يفرحون به كما يفرح الواحد منا بالرخاء، فقد ذكر النبى ﷺ ابتلاء الأنبياء والصالحين بالمرض والفقر وغيرهما ثم قال: «**وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء**»(٢).

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن مَن قبلكم كان إذا أصاب أحدهم بلاء عدَّه رخاءً، وإذا أصابه رخاء عدَّه بلاءً»(٣).

وقال بعضهم: «ارضَ عن الله فى جميع ما يفعله بك، فإنه ما منعك إلا ليُعطيك، ولا ابتلاك إلا ليُعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليُحييك، فإياك أن تُفارق الرضى عنه طرفة عين، فتسقط من عينه»(٤).

فمن كمال رحمة الله أن يُطهر العبد من ذنوبه وآثامه في الدنيا من خلال المصائب والابتلاءات حتى لا يلقى الله بذنوبه وآثامه ... فإذا أحبَّ عبده وأراد به خيرًا تابع عليه البلاء ليُطهره من تلك الذنوب التي قد تُهلكه في الآخرة حتى

---

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١١٠).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٤٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٧).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢١٦).

يخرج من الدنيا وليس عليه خطيئة.

قال ﷺ: «إِذا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيا وَإِذا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ»[١].

(٤١) وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يتمنينَّ أَحدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فاعلاً فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحيِنى ما كَانَت الْحياةُ خَيرًا لِى وتوفَّنى إِذا كَانَتِ الْوفَاةُ خَيْرًا لِى»[٢].

۞ يُكره للمؤمن أن يتمنى الموت عندما يشتد عليه البلاء إلا أن يخشى الفتنة فى دينه.

عن أبى هُريرة رضي الله عنه أن رسُول الله ﷺ قال: «لا يتمنين أحدُكُمُ الموت إما مُحسنًا، فلعلهُ يزدادُ، وإما مُسيئًا فلعلهُ يَستعتبُ»[٣].

وفى رواية لمسلم عن أبى هُريرة رضي الله عنه عن رسُول الله ﷺ قال: «لا يتمنين أحدُكُمُ الموت، ولا يدعُ به من قبل أن يأتيهُ، إنهُ إذا مات انقطع عملُهُ، وإنهُ لا يزيدُ المُؤمنَ عُمُرُهُ إلا خيرًا»[٤].

تمنِّى الموت يقع على وجوه

والتحقيق فى تلك المسألة: أن تمنِّى الموت يقع على وجوه:

۞ منها: تمنِّيه لضُرٍّ دنيوى ينزل بالعبد فيُنهَى حينئذٍ عن تمنى الموت.

ووجه كراهيته فى هذا الحال أن المتمنى للموت لضرٍّ نزل به إنما يتمناه

(١) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٧١) كتاب المرضى، ومسلم (٢٦٨٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٧٢٣٥) كتاب التمنى.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

تعجيلًا للاستراحة من ضُرِّه وهو لا يدرى إلى ما يصير بعد الموت فلعله يصير إلى ضُرٍّ أعظم من ضُره فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وفى الحديث عن النبى ﷺ قال: «**إنما يستريح من غُفر له**»[1]، فلهذا لا ينبغى له أن يدعو بالموت إلا أن يشترط أن يكون خيرًا له عند الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ومنها: تمنِّيه خوف الفتنة فى الدين فيجوز حينئذ. وقد تمنّاه ودعا به خشية فتنة الدين خلقٌ من الصحابة وأئمة الإسلام... وفى حديث المنام: «**وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون**».

۞ تمنِّى الموت عند حضور أسباب الشهادة: فيجوز ذلك أيضًا، وسؤال الصحابة الشهادة وتعرُّضهم لها عند حضور الجهاد كثير مشهور وكذلك سؤال مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنفسه وأهل بيته الطاعون لما وقع بالشام.

۞ ومنها تمنِّى الموت لمن وثق بعمله شوقًا إلى لقاء الله عَزَّوَجَلَّ: فهذا يجوز أيضًا وقد فعله كثير من السلف.

۞ قال أبو الدرداء: أحب الموت اشتياقًا إلى ربى.

وقال عنبسة الخولانى: كان مَن قبلكم لقاء الله أحب إليه من الشهد.

وقال بعضهم: طال شوقى إليك فعجِّل قدومى عليك.

وقال بعضهم: لا تطيب نفسى بالموت إلا إذا ذكرت لقاء الله عَزَّوَجَلَّ فإننى حينئذ أشتاق إلى الموت كشوق الظمآن الشديد ظمؤه فى اليوم الحار الشديد حَرُّه إلى الماء البارد الشديد بَرده.

۞ وفى هذا يقول بعضهم:

أشتاق إليك يا قريب نائئ ... شوق ظمأ إلى زلال الماءِ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٤١٩٢) باقى مسند الأنصار، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى السلسلة الصحيحة (١٧١٠)، وقال: صحيح لكثرة طرقه.

۞ سُئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصى فكقدوم العبد الآبق على سيده الغضبان.

۞ رُئى أحد الصالحين فى النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيرًا لم يُرَ مثل الكريم إذا حلَّ به مطيع.. الدنيا كلها شهر الصيام للمتقين وعيد فطرهم يوم لقاء ربهم... وصدق مَن قال:

وقد صُمت عن لذات دهرى كلها ويوم لقاكم ذاك فطر صيامى

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِى كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا الْبَلَاءُ**»(١).

۞ فإن كنت تخشى على نفسك من الفتنة فى الدين ووصل بك الأمر إلى أنك تتمنى الموت لا محالة فتمنى الموت بصفة يرضاها الله عز وجل.. وهذا ما أخبرك به النبى ﷺ أن تقول: « **اللَّهُمَّ أَحْيِنى ما كَانَت الْحياةُ خَيرًا لِى وتوفَّنى إِذا كَانَتِ الْوفَاةُ خَيْرًا لِى** ».

وإذا كان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام نهى أن يتمنَّى الإنسان الموت للضُّر الذى نزل به، فكيف بمن يقتل نفسه إذا نزل به الضر!

كما يوجد من بعض الناس الذين إذا نزلت بهم المصائب خَنقُوا أنْفُسهَم أو نَحَرُوها أو أكلوا سُمًّا ومَا أشْبه ذلك، فإن هؤلاء ارتحلوا من عذابٍ إلى أشد منه -إلا أن يشاء الله عز وجل شيئًا آخر-.

لأنَّ الذى يقتل نفسه يُعذَّب بما قَتل به نفسه فى نار جهنم خالدًا فيها أبدًا كما جاء ذلك عن الرسول ﷺ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١١٥) كتاب الفتن، ومسلم (١٥٧) (١٨/ ٤٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة، واللفظ لمسلم.

قال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا، فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[(١)][(٢)].

(٤٢) وعَنْ أبي عبد الله خَبَّاب بْن الأرتِّ رضي الله عنه قال: شَكَوْنَا إلَى رسولِ الله ﷺ وَهُو مُتَوسِّدٌ بُردةً لَهُ في ظلِّ الْكَعبَة، فَقُلْنَا: أَلا تَسْتَنْصرُ لَنَا أَلا تَدعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَد كَانَ مَنْ قَبْلكُمْ يؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ لَهُ في الأرضِ فيُجْعَلُ فِيهَا، ثمَّ يُؤتَى بالْمِنْشارِ فَيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجعلُ نِصفَيْن، ويُمْشطُ بأمْشاط الْحديدِ مَا دُون لَحمِهِ وَعظْمِهِ، ما يَصُدُّهُ ذلكَ عَنْ دِينه، والله ليُتِمنَّ الله هَذا الأَمْر حتَّى يسير الرَّاكبُ مِنْ صنْعاءَ إِلى حَضْرموْتَ لا يخافُ إِلَّا الله والذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، ولكِنَّكُمْ تَسْتَعجِلُونَ»[(٣)].

وفي رواية: «وهُوَ مُتوسِّدٌ بُرْدةً وقَد لقِينَا مِنَ الْمُشْركِين شِدَّةً».

۞ كان خباب رضي الله عنه قينًا[(٤)]، وأراد الله له الهداية مبكرًا، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم[(٥)]، فكان من المستضعفين الذين عُذِّبوا بمكة لكي يرتد عن دينه.

وما إن وصل خبر إسلامه إلى «أم أنمار» -التي كانت تملكه- حتى مضت

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٧٨) كتاب الطب، ومسلم (١٠٩) كتاب الإيمان.

(٢) والتحقيق في هذه المسألة أن المنتحر إذا كان قد انتحر يأسًا من رحمة الله فهو كافرٌ مُخلَّد في نار جهنم - والعياذ بالله- وإذا لم يكن يائسًا من رحمة الله .. بل كان مُوحدًا حَسن الظن بالله عابدًا يؤدي ما افترضه الله عليه .. لكنه أصابه بلاءٌ شديدٌ فلم يصبر فقتل نفسه فهو مرتكبٌ لكبيرة من الكبائر .. وهو في مشيئة الله .. إن شاء عذَّبه وإن شاء عفا عنه ... ورحمته سبقت وغلبت غضبه عز وجل.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٦١٢) (٣٨٥٢) كتاب المناقب.

(٤) قينًا: حدَّادًا.

(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٧٩).

إليه مع أخيها «سِباع بن عبد العُزى» ومعهما مجموعة من فتيان «خُزاعة» ومضوا إلى خبّاب وبعد أن تيقنوا من خبر إسلامه قاموا جميعًا يضربونه ويعذبونه أشد أنواع التعذيب.

فكانوا إذا اشتدت الهاجرة وكادت الشمس أن تُذيب الصخور أخرجوه إلى بطحاء مكة، ونزعوا عنه ثيابه وألبسوه دروع الحديد ومنعوا عنه الماء حتى إذا بلغ منه الجهد كل مبلغ طلبوا منه أن يَكفُر بدين محمدٍ ﷺ وأن يقول خيرًا فى اللات والعُزى... فيأبى خبَّاب بكل عزةٍ وثباتٍ أن يفعل ما يريدون.

۞ لقد كان حظ «خَبَّاب» من العذاب كبيرًا، ولكن صبره وتضحيته من أجل الحق كانت أكبر وأعظم بكثير.

لقد كانوا يقاومون إيمانه بالعذاب، وكان هو يقاوم العذاب بالصبر والتضحية.

فكان المشركون يُذيقونه أنواعًا من التنكيل ... يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه تلوية عنيفة، وأضجعوه مراتٍ عديدة على فحامٍ ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرًا، حتى لا يستطيع أن يقوم[1].

لقد حوَّلوا كل الحديد الذى كان عنده يصنع منه السيوف إلى قيود وسلاسل يُحمَى عليها فى النار حتى تستعر وتتوهج ثم يُطوقون بها جسده ويديه وقدميه.

وكان رَضِيَ اللهُ عَنهُ صابرًا محتسبًا .. لكنه لما اشتدَّ عليه العذاب في ذلك اليوم وذهب ليشتكي للنبي ﷺ ويطلب منه أن يدعو له ولأمثاله بالخلاص من ذلك العذاب صبَّره النبي ﷺ بذكر مَن ابتُلى بأشد منه ثم فتح له ولأمثاله باب الأمل بأن التمكين قادم ولكنكم تستعجلون.

---

(١) رحمة للعالمين (١/ ٥٧).

إن النبى ﷺ لا يدَّخر جهدًا فى نُصح أصحابه وتربيتهم على الصبر والثبات والثقة بنصر الله عَزَّوَجَلَّ ووعده، فقد أتاه خباب بعد أن عُذب هذا العذاب الأليم... والنبى ﷺ يُعلمه بل ويُعلم الأمة كلها أن أصحاب الدعوة لَا بُدَّ لهم من الابتلاء، فإن ثبتوا على الحق وآثروا مراد الشرع نصرهم الله عَزَّوَجَلَّ وأعزهم ... فلا يتم التمكين إلا بعد المحنة والصبر والثبات[(١)].

وتلك هى سُنة الله فى عباده المؤمنين... تلك السُّنة التى لا تتبدل ولا تتغير أبدًا.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لَا بُدَّ أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومَن يصلح لموالاته وكرامته وَمَن لا يصلح، وليمحص النفوس التى تَصلُح له ويُخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذى لا يَخلُص ولا يصفو من غِشِّه إلا بالامتحان... إذ النفس فى الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج فى هذه الدار وإلا ففى كير جهنم، فإذا هُذِّب العبد ونُقِّى أُذن له فى دخول الجنة[(٢)].

۞ وفى هذا الحديث آية من آيات الله.. حيث وقع الأمر مُطابقًا لما أخبر به

---

(١) مواقف إيمانية / د. أحمد فريد (ص: ٢٥٤) بتصرف.

(٢) زاد المعاد للإمام ابن القيم (٣/ ١٨).

النبي ﷺ حينما قال: « والله ليتِمنَّ الله هَذا الأمْر حتَّى يسير الرَّاكبُ مِنْ صنْعاءَ إِلى حَضْرموْتَ لا يخافُ إِلَّا الله والذِّئْبَ عَلَى غنَمِهِ، ولكِنَّكُمْ تَسْتَعجِلُونَ ».

وفيه أيضًا: دليل على وجوب الصَّبر على أذية أعداء المسلمين. وإذا صبر الإنسان ظفر!!

فالواجب على الإنسان أن يُقابل ما يَحصُل من أذيَّة الكفار بالصَّبر والاحتساب وانتظار الفرج.

❊ ❊ ❊

(٤٣) وعَنْ ابن مَسعُود رضي الله عنه قال: لمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رسولُ اللهِ ﷺ نَاسًا فى الْقِسْمَة: فأَعطَى الأَقْرعَ بْنَ حابِسٍ مائةً مِنَ الإبِلِ وأعطَى عُيَيْنَةَ بْنَ حِصنٍ مِثْلَ ذلِكَ، وأَعَطى نَاسًا منْ أشرافِ الْعربِ وآثرهُمْ يوْمِئذٍ فى الْقِسْمَةِ.

فَقَالَ رجُلٌ: والله إنَّ هَذِهِ قسْمةٌ ما عُدِلَ فيها، وما أُريد فِيهَا وَجْهُ الله.

فَقُلْتُ: والله لأُخْبِرَنَّ رَسُول الله ﷺ، فأتيتُهُ فَأخبرته بما قال: فتغَيَّر وَجْهُه حتَّى كَان كَالصِّرف. ثُمَّ قال: «فَمنْ يَعدِلُ إِذَا لَمْ يعدِلِ الله ورسُولُهُ؟» ثم قال: «يرحَمُ الله موسى قَد أُوذِيَ بِأَكْثَر مِنْ هَذَا فَصبَر» فَقُلْتُ: لا جرمَ لا أَرفعُ إِلَيه بعدها حدِيثًا[1].

۞ لما انتصر النبى ﷺ وأصحابه فى غزوة حُنين وغَنِمَ فيها غنائم كثيرة جدًّا من إبلٍ وغنم ودَرَاهم ودنانير. ثم إن الرسول ﷺ نزل بالجعرانة وهى محلٌّ عند منتهى الحرم من جهة الطَّائف.

نزل بها وصار يُقسم الغنائم ... وقسم فى المؤلفة قلوبهم -أى فى زعماء القبائل- يؤلفهم على الإسلام، وأعطاهم عطاءً كثيرًا حتى كان يُعطى الواحد منهم مائة من الإبل.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٥٠) كتاب فرض الخمس، ومسلم (١٠٦٢) كتاب الزكاة.
وقَوْلُهُ: «كَالصِّرْف»: وَهُوَ صِبْغٌ أَحْمَرُ.

فقال رجل من القوم: «والله إنَّ هذِهِ قسمة ما عُدِلَ فيها وما أُريد فيها وجه الله» ... نعوذ بالله!!

يقول هذا القول فى قسمة قسمها رسول الله ﷺ ... لكن حُبَّ الدُّنيا والشَّيطان يوقع الإنسان فى الهلكة.

هذه الكلمة كلمة كفر، أن يَنْسب الله ورسوله إلى عدم العدل وإلى أن النبى ﷺ لم يُرد بها وجه الله.

ولا شك أن النبى ﷺ أراد بها وجه الله ... أراد أن يؤلف كبار القبائل والعشائر من أجل أن يتقوَّى الإسلام، لأن أسياد القوم إذا ألفوا الإسلام وقوى إيمانهم بذلك حصل منهم خيرٌ كثير وتَبِعهم على ذلك قبائل وعشائر، واعتز الإسلام بهذا. ولكن الجهل والعِياذ بالله يُوقع صاحبه فى الهلكة.

فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سمع هذه الكلمة تُقال فى رسول الله ﷺ أخبره بها ورفعها إليه ... أخبره بأن هذا الرَّجل يقول كذا وكذا فتغير وجه الرسول ﷺ حتى كان كالصرف -أى كالذهب- من صُفرته وتغيُّره.

ثم قال: «**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله**» وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام! إذا كانت قسمة الله ليست عدلاً وقسمة رسوله ﷺ ليست عدلاً فمن يعدل إذًا!

ثم قال: «**يرحم الله مُوسى لقد أُوذى بأكثر من هذا فصبر**».

وكأن النبى ﷺ كان يتسلَّى ويتصبر بما حدث لإخوانه من الأنبياء من قبله.. فلقد قال له الله (جلَّ وعلا): ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ففى هذا الحديث: دليل على أن للإمام أن يُعطى من يَرَى فى عطيته المصلحة ولو أكثر من غيره، إذا كان فى هذا مصلحة للإسلام!

وفيه: أن الرَّسول عليه الصلاة والسلام يعتبر بمن مضى من الرسل، ولهذا قال: لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر ... لأن الله يقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]. ويقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فأمر الله نبيه أن يقتدى بهدى الأنبياء قبله.

وهكذا ينبغى لنا نحن أن نقتدى بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى الصَّبر على الأذَى وأن نحتسب الأجر على الله وأن نعلم أن هذا زيادة فى درجاتنا مع الاحتساب وتكفير لسيئاتنا(١).



(٤٤) وعَنْ أنس ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذَا أَرادَ الله بعبْده خَيْرًا عجَّلَ لَهُ الْعُقُوبةَ فى الدُّنْيَا، وإِذَا أَرادَ الله بِعبْدِهِ الشَّرَّ أمسَكَ عنْهُ بذَنْبِهِ حتَّى يُوافِىَ بهِ يَومَ الْقِيامِة»(٢).

وقَالَ النبىُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجزاءِ مَعَ عِظَمِ الْبلاءِ، وإِنَّ الله تعالى إِذَا أَحَبَّ قَومًا ابتلاهُمْ فَمنْ رضِىَ فَلهُ الرضَا، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»(٣).

۞ لا شك أن مقاليد الأمور كلها بيد الخالق عَزَّوَجَلَّ..فقد قال الله عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى عن نفسه: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧]، والإنسان لا يخلو أبدًا من معصية أو خطأ أو تقصيرٍ فى واجب.. فإن لم تتداركه رحمة الله ومغفرته لقى الله بتلك الذنوب والخطايا.. فإذا أراد الله بذلك العبد خيرًا عجَّل له العقوبة فى الدنيا ... إما فى نفسه أو أهله أو ماله أو فى أى شىءٍ عزيز عليه.. المهم أن يُعجل له العقوبة لتكون كفارة لسيئاته إذا سَلِمَ من التبرُّم من الأقدار.. فإذا عجَّل له العقوبة وكفَّر الله بها عن سيئاته فإن هذا العبد

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٢٤-١٢٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٨).

(٣) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١١٠).

يَلقى الله يوم القيامة طاهرًا من الذنوب والمعاصى.. حتى إنه ليُشدَّد على العبد عند موته إذا كان عنده بعض السيئات حتى يخرج من الدنيا نقيًّا من الذنوب.. وتلك نعمة عظيمة لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

فإن لم يكن من أرباب المخالفات ونزل به بلاء كان زيادة فى درجاته، وعليه يُحمل حديث: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**».

لكن إذا أراد الله بعبده الشرَّ لم يُعاقبه على ذنوبه فى الدنيا بل أمهله واستدرجه وأسبغ عليه النِّعم ودفع عنه البلايا حتى يبطر ويفرح ويتكبر.. فإذا مات لقى ربه بذنوبٍ أمثال الجبال فيُعاقبه الله عليها كاملة... فإذا رأيت إنسانًا يبارز الله بالذنوب والمعاصى وقد أسبغ الله عليه النعم ودفع عنه النِّقم والبلايا فاعلم أن الله أراد به شرًّا؛ لأن الله قد أخَّر عنه العقوبة إلى يوم القيامة.

۞ وأما حديث: «إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء».

يعنى: أنه كلما كان البلاء شديدًا كلما كان الجزاء كبيرًا.. فالبلاء اليسير له أجرٌ يسير.. والبلاء الشديد له أجرٌ كبير وبخاصة إذا صبر العبد على قضاء الله ولم يتسخط أو يعترض... وهذا من فضل الله ورحمته أنه إذا ابتلى عباده بالبلاء الشديد فإنه يُعطيهم الأجر الكبير.. فإذا عَظُم الأجر هانت المصائب. «**وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم**» ؛ لأنه لو تركهم وزهرات الدنيا ربما استغرقت فيها قلوبهم فاشتغلوا بها عن ربهم (جلَّ وعلا) كما حدث للكفار وأرباب الغفلات.. فمن أراد الله إقباله عليه قطع عنه العلائق وأنزل به أنواع البلايا لتقوده إلى الرجوع إلى مولاه عَزَّوَجَلَّ فى كل ساعة.

وهذه بُشرى عظيمة للمؤمن.. أن الله إذا ابتلاه بمصيبة فلا يظن أن الله يُبغضه بل قد يكون هذا علامة على محبته له.

«**فمن رضى**» بما جرى به القدر ولم يتبرم ولم يتضجر «**فله الرضا**» بالفيض

الربانى والثواب الجزيل والأجر الجميل.

«**ومن سخط**» من ذلك وتبرَّم من تلك المقادير جرى المقدور ؛ لأنه لا مانع لما أراد سبحانه «**فله السُّخط**» أى: باء بسخط الله وعقابه لاعتراضه على الأقدار الإلهية والأحكام الربانية.. وليس ذلك من شأن العبيد ؛ لأن الله يفعل ما يريد.

قال رسول الله ﷺ: «**يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعطَى أَهْلُ الْبَلاَءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِى الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ**»(١).

(٤٥) وعَنْ أَنس رضي الله عنه قال: كَانَ ابْنٌ، لأبى طلْحةَ رضي الله عنه يَشْتكى، فخرج أبُو طَلْحة، فَقُبِضَ الصَّبِىُّ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحة قال:ما فَعَلَ ابنى؟ قَالَت أُمُّ سُلَيْم وَهىَ أُمُّ الصبَىِّ: هو أَسْكَنُ مَا كَان، فَقَرَّبَتْ إِلَيْه الْعَشَاء فتعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فرغ قَالَت: وارُوا الصَّبىَّ، فَلَمَّا أَصبحَ أَبو طَلْحَة أَتَى رسول الله ﷺ فأَخْبرهُ، فَقَالَ: «أَعرَّسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قال: «اللَّهمَّ بارِكْ لَهُما» فولَدتْ غُلامًا ... فقَالَ لى أَبُو طَلْحَةَ: احمِلْهُ حتَّى تَأْتِىَ بِهِ النبىَّ ﷺ، وبَعثَ مَعهُ بتَمْرَاتٍ، فقال: «أمعهُ شىءٌ؟» قال: نعمْ، تَمراتٌ فَأَخَذَهَا النَّبِىُّ ﷺ فَمضَغَهَا، ثُمَّ أخذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا فى فِىِّ الصَّبىِّ ثُمَّ حَنَّكه وسمَّاه عبدَ الله(٢).

وفى رواية للبُخارىِّ: قال ابْنُ عُيَيْنَة: فَقَال رجُلٌ منَ الأنْصارِ: فرَأَيْتُ تِسعة أوْلادٍ كلُّهُم قد قَرءُوا الْقُرْآن، يعنِى مِنْ أوْلاد عَبْد الله الْموْلُود.

وفى رواية لمسلم: ماتَ ابْنٌ لأبى طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْم، فَقَالَتْ لأهْلهَا: لا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بابنِهِ حتَّى أكُونَ أنَا أُحَدِّثُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْه عَشَاءً فَأكَلَ وشَرِبَ، ثُمَّ تَصنَّعتْ لهُ أَحسنَ ما كانتْ تَصنَّعُ قَبْلَ ذلكَ، فوقَعَ بِهَا، فَلَمَّا أَنْ رأَتْ أَنَّهُ قَد شَبِعَ

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٧٧).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٧٠) كتاب العقيقة، ومسلم (٢١٤٤) كتاب الآداب.

وأَصَابَ مِنْها قَالَتْ: يا أَبَا طلْحةَ، أَرَأيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعارُوا عارِيتهُمْ أَهْل بيْتٍ فَطَلبوا عاريَتَهُم، أَلَهُمْ أَنْ يمْنَعُوهَا؟ قَالَ: لا، فَقَالَتْ: فاحتسبْ ابْنَكَ. قَالَ: فغَضِبَ، ثُمَّ قَالَ: تركتِنِى حتَّى إِذَا تَلطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبرتِنِى بِابْنى، فَانْطَلَقَ حتَّى أَتَى رسولَ الله ﷺ فأَخْبَرهُ بما كَانَ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «بَارِكَ الله لكُما فى ليْلَتِكُما».

قال: فحمَلتْ، قال: وكَانَ رسول الله ﷺ فى سفَرٍ وهى مَعَهُ وكَانَ رسولُ الله ﷺ إذَا أَتى الْمَدينَةَ مِنْ سَفَرٍ لا يَطْرُقُها طُرُوقًا فَدنَوْا مِنَ الْمَدينَة، فَضَربَهَا الْمَخاضُ، فَاحتبَس عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وانطلَقَ رسول الله ﷺ قَالَ: يقُولُ أَبُو طَلْحةَ إِنَّكَ لتعلمُ يَا ربِّ أَنَّهُ يُعجِبُنِى أَنْ أَخْرُجَ معَ رسولِ الله ﷺ إذَا خَرَجَ ﷺ وأَدخُلَ مَعهُ إِذَا دَخل، وقَد احتبَسْتُ بما تَرى. تقولُ أُمُّ سُلَيْم: يا أَبَا طلْحةَ مَا أَجِد الَّذى كنْتُ أَجِدُ، انْطَلقْ، فانطَلَقْنَا، وضَربهَا المَخاضُ حينَ قَدِمَا فولَدتْ غُلامًا. فقالَتْ لِى أُمِّى: يا أَنَسُ لا يُرضِعُهُ أحدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رسُول الله ﷺ، فلمَّا أَصبَحَ احتملْتُهُ فانطَلَقتُ بِهِ إِلَى رسولِ الله ﷺ ... وذَكَرَ تمامَ الْحَديثِ.

۞ نحن نعلم أن أبا طلحة كان قد تقدَّم لأم سُليم من أجل أن يتزوجها وعرض عليها مالًا كثيرًا فرفضت؛ لأنه كان مُشركًا فعرضت عليه أن يُسلم ليكون ذلك مَهرًا لها.. فأسلم أبو طلحة فكان مهر أم سُليم (الإسلام) وهو أعظم مهر عرفه التاريخ. فلما تزوجها أبو طلحة أنجبت له طفلًا جميلًا تعلَّق قلبه به.

وكان النبى ﷺ يزورهم ويُداعب هذا الطفل ويقول له: «يا أبا عُمير ما فعل النُّغير».

وفى يوم من الأيام مرض هذا الطفل الصغير.. فخرج أبو طلحة لبعض حاجاته.. فلما عاد كان الطفل قد مات وهو لا يعلم.

فلما رجع سأل أمَّه عنه فقال: كيف ابنى؟ قالت: «هو أسكن ما يكون» وصَدقت فى قولها...هو أسكن ما يكون لأنَّه مات ولا سُكون أعظم من الموت.

وأبو طلحة رضي الله عنه فهم أنه أسكنُ ما يكون من المرض وأنَّه فى عافية.

فقدَّمت له العشاء فتعشَّى على أن ابنه برىء من المرض ... ثم أصاب منها -يعنى جامعها-، فلما انتهى قالت له: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعارُوا عارِيتهُمْ أَهْل بيْتٍ فَطَلبوا عاريَتَهُم، أَلَهُمْ أَنْ يمْنَعُوهَا؟ قَالَ: لا، فَقَالَتْ: فاحتسبْ ابْنَكَ.

فلما أصبح أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَوَارَى الصَّبى وعلم بذلك الرسول ﷺ.

فسأل: «**هل أعرستم اللَّيلة؟**». قال: نعم فدعا لهما بالبركة «**اللَّهُمَّ بارك لهما فى لَيلتهما**» فولدت غلامًا سمَّاه عبد الله، وكان لهذا الولد تسعة أولاد كلهم يقرءُون القرآن ببركة دعاء الرسول ﷺ.

وفى هذا الحديث: أنَّ الرسول ﷺ لما جاء أنس بن مالك بأخيه من أمِّهِ (ابن أبى طلحة) جاء به إلى النبى عليه الصلاة والسلام ومعه تمرات فأخذه النبى ﷺ ومضغ التمرات ثم جعلها فى فِى الصبى أى: أدخلها فى فمه وحنّكه أى: أدخل أصبعه وداره فى حَنكه وذلك تبرُّكًا بريق الرَّسول (عليه الصلاة والسلام) ليكون أول ما يَصلُ إلى بطن هذا الصبى ريق الرسول (عليه الصلاة والسلام)...وكان الصحابة يفعلون هذا إذا وُلِدَ لهم أولاد بنين وبنات جاءوا بهم إلى رسول الله ﷺ وجاءُوا بالتمرات معهم من أجل أن يُحنكهم.

۞ **لأن فى ذلك فائدتين:**

الأولى: بركة ريق النبى ﷺ وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتبركون بريق النبى ﷺ وبعرقه، حتى إنه من عادتهم أنه إذا كان فى الصباح وصَلُّوا الفجر أتوا بآنية فيها ماء، فغمس الرسول ﷺ يديه فى الماء، وعرك يديه فى الماء، فيأتى الصبيان بهذا الماء، ثم ينطلقون به إلى أهليهم يتبركون بأثر النبى ﷺ.

وكان الصحابة إذا توضأ النبى عليه الصلاة والسلام كادوا يقتتلون على وضوئه ... أى فضل الماء يتبركون به، وكذلك من عرقه وشعره.

حتى كان عند أم سَلمة - إحدى زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام وإحدى أمهات المؤمنين -عندها جلجل من فضة أى مثل (الطابوق) فيه

شعرات من شعرات النبى ﷺ يستشفون بها ... أى: يأتون بشعرتين أو ثلاثٍ فيضعونها فى الماء، ثم يُحركونها من أجل أن يتبركوا بهذا الماء ... لكن هذا خاص بالنبى (عليه الصلاة والسلام)[١].

الفائدة الثانية: من التمر الذى كان يحنكه الصبيان ... أن التمر فيه خير وبركة وفيه فائدة للمعدة فإذا كان أول ما يصيب الطفل مما يصل إلى معدته من التمر كان ذلك خيرًا للمعدة.

❁ ففى هذا الحديث: دليلٌ على قُوَّةِ صبر أم سليم رضي الله عنها وأن ابنها الذى مات بلغ بها الحال إلى أن تقول لزوجها هذا القول وتوارى هذه التورية وقدَّمت له العَشَاءَ ونال منها ثم قالت: ادفنوا الولد.

وفى هذ الحديث: آية من آيات الله عز وجل حيث دَعَا النبى ﷺ لهذا الصبى فبارك الله فيه وفى عقبه وكان له كما ذكرنا تسعة من الولد كلهم يقرءُون القرآن ببركة دعاء الرَّسول عليه الصلاة والسلام.

وفيه: أنَّه يُستحب التسمية بعبد الله ... فإن التَّسمية بعبد الله وبعبد الرَّحمن أفضل ما يكون.

قال النبى ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**»[٢].

وأما ما يُروى أنَّ: «**خير الأسماء ما حُمِّد وعُبِّد**»[٣] فلا أصل له وليس حديثًا عن رسول الله ﷺ.

---

(١) مع التنبيه على أنه لا يُعلم بقاء أى أثر من آثار النبى ﷺ ليُتبَرك بها ... وهذا من عظيم حكمة الله، درءًا لنازعة الشرك، وسدًّا للذريعة ... وأيضًا لم يتبرك المسلمون بأبى بكر أو بعمر بعد الرسول، مما يدل على أن هذا خاص بالرسول ﷺ ... وراجع كتاب (التوسل - أنواعه وأحكامه) للعلامة الألبانى رحمه الله، فإنه فريد فى بابه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٣٢) كتاب الآداب.

(٣) قال العجلونى فى كشف الخفا (٢٤٤): «قال السخاوى: وأما ما يُذكر على الألسنة «خير الأسماء ما حُمد أو عُبد» فباطل». اهـ.

ففي الحديث الصحيح: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ»(١) لأنها مُطابقة للواقع.

فكل واحد من بنى آدم فهو حارث يعمل، وكل واحد من بنى آدم فهو هَمَّام يهم وينوى ويقصد وله إرادة(٢).

۞ فهذا موقف إيمانى من أم سُليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مع أن النساء أشد هلعًا وجزعًا فى مثل هذه المواقف، ولكنه الإيمان الذى يغيرُ طبائع النفوس ويعلو بهمم العباد، ويرفعهم فى الدنيا والآخرة،... وعمَّت بركة هذا الموقف الإيمانى ذريةَ أبى طلحة وأم سليم ببركة دعوة النبى ﷺ... فكان فى أولاد أولادهما تسعةٌ كُلُّهم ختم القرآن.

قال الحافظُ: وفى قصة أَمِّ سُلَيم هذه من الفوائد أيضًا: جواز الأخذ بالشدة وترك الرخصة مع القدرة عليها، والتسلية عند المصائب، وتزيُّن المرأة لزوجها وتعرُّضها لطلب الجماع منه، واجتهادها فى عمل مصالحه، ومشروعية المعاريض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها، وشرط جوازها ألا تُبطل حقًّا لمسلم... وكان الحامل لأم سليم على ذلك المبالغة فى الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء إخلافه عليها ما فات منها، إذ لو أعلمت أبا طلحة بالأمر فى أول الحال تنكَّر عليه وقته ... ولم تبلغ الغرض الذى أرادته، فلما علم الله صدق نيتها بلَّغها مُناها وأصلح لها ذريتها ... وفيه إجابة دعوة النبى ﷺ وأن مَنْ تَرَكَ شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وبيان حال أم سليم من التجلُّد وجودة الرأى وقوة العزم(٣)(٤).

❊❊❊

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٤٠)، والكلم الطيب (٩٠٤).

(٢) بتصرف من شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ

(٣) فتح البارى (١/ ١٧١).

(٤) مواقف إيمانية (٣٠٤-٣٠٦).

(٤٦) وعَنْ أبِى هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ الشديدُ بالصُّرَعَة إنَّما الشديدُ الَّذى يمْلِكُ نَفسَهُ عِنْد الْغَضَبِ»[١].

۞ من المعلوم أن أكثر الناس يظنون أن الرجل الشديد هو الذى يمتلك قوة يستطيع من خلالها أن يصرع الرجال.. لكن النبى ﷺ يوضح لنا عكس ذلك.. وأن الشديد ليس هو الذى يصرع الرجال بل الشديد هو الذى يصرع نفسه ويملكها عند الغضب.

فالغضب سبب كل شرٍّ وبلاء.. فقد يغضب الإنسان ولا يملك نفسه عند الغضب فيضرب امرأته أو يُطلقها.. وقد تكون هذه الطلقة الأخيرة فتضيع الزوجة ويتشرد الأولاد.. وقد يغضب فيخسر ماله بالحرق أو التكسير أو بغير ذلك.. وقد يغضب فيخسر أعز أصحابه أو يضرب ابنه وهو غضبان فيكسر عظامه أو يقتله..

فالغضب جمرة من جمرات الشيطان.

ولهذا جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أوصنى. قال: «لا تغضب». قال: أوصنى. قال: «لا تغضب». قال: أوصنى. قال: «لا تغضب»[٢].

ومن أجل ذلك نهى النبى ﷺ أن يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان.. لأن الغضب قد يمنع القاضى من أن يحكم بالعدل فيظلم أحد المتحاكمين إليه دون أن يدرى.



(٤٧) وعَنْ سُلَيْمان بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ جالسًا مع النَّبِى ﷺ، ورجُلان يستبَّان وأحدُهُمَا قَد احْمَرَّ وجْهُهُ. وانْتفَخَتْ أوداجُهُ. فقال رسول الله ﷺ: «إنِّى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦١١٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٩) كتاب البر والصلة.
«والصُّرَعَةُ» بضمِّ الصَّادِ وفتحِ الرَّاءِ، وأصْلُهُ عنْد الْعربِ مَنْ يصرَعُ النَّاس كثيرًا.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦١١٦) كتاب الأدب.

لأعَلَمُ كَلِمةً لَوْ قَالَها لَذَهَبَ عنْهُ ما يجِدُ، لوْ قَالَ: أعوذُ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ ذَهَبَ عنْهُ ما يجدُ». فقَالُوا لَهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تعوَّذْ بِالله مِن الشَّيطان الرَّجِيمِ»[1].

۞ هنا يحكى سليمان بن صُرد رضي الله عنه أنه كان جالسًا مع النبى ﷺ.. فهنيئًا لكل مَن اكتحلت عيناه برؤية النبى ﷺ.

فكان هناك رجلان يستبَّان.. أى: يَسُب كل واحدٍ منهما الآخر.. وكان أحدهما قد احمرَّ وجهه من شدة الغضب وانتفخت أوداجه.. والأوداج هى ما أحاط بالعُنق من العروق التى يقطعها الذابح عند الذبح.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد**».

أى من شدة الغضب ببركة الكلمات وتأثير همته الشريفة فى دفع ذلك عنه. وهذا الحديث الشريف مُستمد من قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فما هى تلك الكلمة؟

قال ﷺ: « **لوْ قَالَ: أعوذُ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ ذَهَبَ عنْهُ ما يجدُ** ».

أى: أعتصم بالله من الشيطان الرجيم.. لأن ما أصابه من الغضب كان بسبب نفخ الشيطان.

وعلى هذا فالمشروع للإنسان أنه إذا غضب فعليه أن يكظم غضبه وأن يصبر وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأن يتوضأ؛ لأن الوضوء يُطفئ الغضب.

وإذا كان قائمًا فليقعد وإذا كان قاعدًا فليضطجع.. وإن خاف خرج من المكان الذى هو فيه حتى لا ينفذ غضبه فيندم حين لا ينفع الندم.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٢٨٢) كتاب بدء الخلق، و(٦١١٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦١٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٤٨) وعَنْ مُعاذ بْنِ أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كظَمَ غيظًا، وهُو قَادرٌ عَلَى أنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ الله سُبْحانَهُ وتَعالَى عَلَى رُءُوسِ الْخلائقِ يَوْمَ الْقيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يُزَوِّجُهُ مِنْهَا مَا شَاءَ»[١].

(٤٩) وعَنْ أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلاً قال للنبى ﷺ: أوْصِنى، قَالَ: «لا تَغضَبْ» فَردَّدَ مِرارًا قَالَ: «لا تَغْضَبْ»[٢].

۞من المعلوم أنه قد لا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من الغضب مرارًا وتكرارًا كلما حدث شىء يستثير غضب الإنسان.. وكأن المعنى: لا تكن سريع الغضب يستثيرك كل شىء ولا تنفعل فى غضبك انفعالًا يتسبب فى إيذائك أو إيذاء غيرك فتندم بعد ذلك.. بل كُن مطمئنًا متأنيًا لأن الغضب جمرة يُلقيها الشيطان فى قلب الإنسان حتى يغلى القلب وينفعل الإنسان ويفعل ما لا يُحمد عُقباه.

وإنما أوصى النبى ﷺ هذا الرجل ألا يغضب دون أن يوصيه بتقوى الله أو بالصلاة أو بالصيام أو ما أشبه ذلك، لأن حال هذا الرجل تقتضى ذلك، ولهذا أوصى غيره بغير هذا الشىء ...أوصى أبا هريرة أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وأن يُوتر قبل أن ينام، وأوصى أبا الدرداء بمثل ذلك، أما هذا فأوصاه ألا يغضب... وأوصاه ألا يغضب لأن النبى ﷺ علم من حاله أنه غَضوبٌ كثير الغضب، فلذلك قال: «لا تغضب».

والغضب يحمل الإنسان على أن يقول كلمة الكفر، أو أن يُطلق زوجته، أو أن يضرب أُمَّه، أو أن يعق أباه، كما هو مُشاهَد ومعلوم.

والإنسان الذى يتعود على سرعة الغضب يصبح الغضب طبعًا فيه.. فإذا غضب اليوم من شىءٍ فغدًا يغضب من شيئين أو ثلاثة ويظل يتمادى فى الغضب حتى يتهور فيسب الناس وقد يضربهم ويأتى يوم القيامة مُفلسًا من الحسنات

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٨).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٦١١٦) كتاب الأدب.

بعد أن أخذها أصحاب المظالم.

۞ فاحرص على أن تبتعد عن أسباب الغضب إلا إذا كان الغضب لله ﷻ ولشرعه ... ولذلك كان الجهاد فى سبيل الله ﷿ غضبة من المؤمنين لشرع رب العالمين سبحانه ... فيغضبون من الكفار ويجاهدون فى سبيل الله، وأما الغضب من أمر الدنيا فلا تستدعِ أسبابه، ولا تغضب.

۞ ولذا فهذا الرجل طلب من النبى ﷺ أن يوصيه وصية وجيزة جامعة لخصال الخير ليحفظها عنه خشية أن لا يحفظها لكثرتها فوصَّاه النبى ﷺ أن لا يغضب. ثم ردَّد هذه المسألة عليه مرارًا والنبى ﷺ يردد عليه هذا الجواب... فهذا يدل على أن الغضب جِماع الشر وأن التحرُّز منه جِماع الخير.

۞ ونحن نعلم أن الغضب سبب كل بلاءٍ وشر.

فالغضب يُغضب الرحمن ويُرضى الشيطان ويؤدى إلى التقاطع وإفساد ذات البين ويتولد منه الحقد والحسد وقد يؤدى إلى ارتكاب الجرائم وحصول العداوات.. وكثيرًا ما يعقبه الندم ولكن بعد فوات الأوان.

۞ ومن أجل ذلك حذرنا النبى ﷺ من الغضب.

علاج الغضب

ولكى نستطيع أن نعالج الغضب فعلى كل من يغضب أن يفعل ما يلى:

(١) أن يذكر الله ﷿، فيدعوه ذلك إلى الخوف منه، ويبعثه الخوف منه إلى طاعته، فعند ذلك يزول الغضب.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] قال عكرمة: يعنى إذا غضبت.

(٢) أن يتحوَّل من الحال التى كان عليها، فإن كان قائمًا جلس، وإن كان جالسًا اضطجع.

عن أبى ذرٍّ رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**»(١).

(٣) أن يتفكَّر فى الأخبار الواردة فى فضل كظم الغيظ، والعفو والحلم، والاحتمال، فيرغب فى ثواب ذلك، فتمنعه شدة الحرص على ثواب هذه الفضائل عن التشفِّى والانتقام، وينطفئ عنه غيظه.

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧] ... وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبدٌ ابتغاء وجه الله**»(٢).

(٤) أن يسكت لأنه يكون فى هذه الحالة أقرب إلى الخطأ، فالسكوت أسلم.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا غضب أحدكم فليسكت**»(٣).

(٥) أن يعلم أن القوة الحقيقية هى التحكم فى النفس عند الغضب.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصُّرَعَة(٤)، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب**»(٥).

(٦) أن يتذكر أن الشيطان هو الدافع له، والمُعين عليه.

(٧) أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم، ومذمَّة الانتقام.

(٨) أن يُحذر نفسَه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمير العدو فى هدم أعراضه، والشماتة بمصائبه(٦).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٤).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٧٥٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٣).

(٤) «الصُّرَعَة»: بفتح الراء: الذى يصرعُ الناسَ ويغلبهم. و«الصُّرْعة»: بسكون الراء: الضعيف الذى يصرعه الناس ويغلبونه.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦١١٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٩) كتاب البر والصلة والآداب.

(٦) منهاج الطفل المسلم / د. محمود المصري (ص ٦٣-٦٥).

(٥٠) وعَنْ أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا يَزَال الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمؤمِنَة فى نَفْسِهِ وَولَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تعالى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[(١)].

قال رسول الله ﷺ: «**ما يزال البلاء**» بالمصائب والمتاعب نازلاً «**بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه**» بالمرض والفقر، والغربة، التى هى فى الظاهر كربة، وإن نظرت إليها وأنها واردة إليك من أرحم الراحمين انقلبت من كونها محنة إلى كونها منحة «**وولده**» بالموت والمرض أو عدم الاستقامة أو نحوه مما يُؤلم الوالد بحسب الطبع البشرى «**وماله**» بالتلف ببعض الأسباب من حرق أو سرقة أو نحو ذلك «**حتى**» غاية لنزول البلاء بأرباب الإيمان... أى أن البلاء لا يزال بالإنسان -أى: الصابر كما يدل عليه لفظ المؤمن والمؤمنة- إلى أن يغفر الله له به الخطايا فـ«**يلقى**» أى المبتلى «**الله تعالى**» ولقاء الله كناية عن الموت «**وما عليه خطيئة**» أى ذنب.

وقوله خطيئة ظاهر عمومه شمول الكبائر والتبعات، فإن ثبت على ذلك وأنه مراد فذلك من محض فضل الكريم الجواد، إذ صالح العمل ومنه الصبر والاحتساب إنما يكفر الصغائر المتعلقة بحقوق الله تعالى[(٢)].

ففيه دليل على أن المصائب فى النَّفسِ والولد والمال تكون كفَّارة للإنسان، حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة، ولكن هذا إذا صبر.

أما إذا تسخط فإن مَن تَسخَّطَ فله السُّخط.

❊❊❊

(٥١) وعَنْ ابْن عَباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصن فَنَزلَ عَلَى ابْنِ أخيهِ الْحُرِّ ابْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِن النَّفَرِ الَّذين يُدنيهمْ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصحابَ مَجْلِسِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمُشاوَرَتِهِ كُهولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أخيه: يَا ابْنَ أخى لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لى عَلَيْه، فاستَأذنَ فَأَذِنَ لَهُ عُمرُ. فَلَمَّا دخلَ قَالَ: هِيْ

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٢٨٠)، وصحيح الجامع (٥٨١٥).

(٢) دليل الفالحين / محمد بن علان الصديقى الشافعى (١/ ١٦٥-١٦٦) بتصرف.

يا ابْنَ الْخَطَّاب، فَوَالله مَا تُعطينا الْجَزْلَ وَلا تَحكُمُ فينَا بالْعَدل، فَغَضب عُمَرُ ﷺ حتَّى هَمَّ أنْ يُوقِعَ به فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يا أَمِيرَ الْمُؤمنِينَ إنَّ الله تعَالى قَال لنبِيِّه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإنَّ هَذَا مِنَ الجاهلينَ، وَالله ما جاوَزَها عُمَرُ حِينَ تلاها، وكَانَ وَقَّافًا عِنْد كتَابِ الله تعالى[1].

۞ كان عمر بن الخطاب ﷺ هو الخليفة الثانى بعد أبى بكر الصديق ﷺ.. وكان يسير على سيرته فى الزهد والعدل والرحمة والتواضع.

وكان عمر ﷺ يُقرِّب منه الصالحين والعلماء فى مجلسه.. وكان أكثر جُلسائه القُرَّاء من أصحاب الرسول ﷺ.. سواء كانوا شيوخًا أو شبابًا.. وكان يُشاورهم ويتناقش معهم فى قضايا الأمة من أجل جلب الخير للأمة.

وهكذا ينبغى أن يحرص كل حاكم على أن يكون جُلساؤه من الصالحين؛ لأنه إن صحب الصالحين نفع الله به الأمة.. وإن صحب الطالحين هلك وأهلك الأمة.

المهم أن عُيينة بن حصن نزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس وطلب منه أن يستأذن له من أجل الدخول على أمير المؤمنين عمر ﷺ فاستأذن له ثم دخل معه.. فلما دخل عليه عُيينة بن حصن وكان من كبار قومه فقال لعمر ابن الخطاب: هِيْه يا ابن الخطاب فوالله ما تُعطينا الجَزل ولا تحكم فينا بالعدل.

فغضب عمر ﷺ؛ لأنه هو الذى شهدت له الدنيا كلها بالعدل.. نعم.. لقد غضب عمر وهَمَّ أن يُوقع به شيئًا من العقوبة لجفائه وسوء أدبه معه.

ولكن ابن أخى عيينة بن حصن (الحُرُّ بن قيس) قال له: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٦٤٢) كتاب تفسير القرآن، و(٧٢٨٦) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.
الجزل: العطاء الكثير - خذ العفو: الحلم والصفح - العُرف: المعروف.

فوقف عندها عمر رضي الله عنه ولم يتجاوزها لأنه كان وقّافًا عند كتاب الله عز وجل.

فوقف عمر رضي الله عنه ما ضرب الرَّجلَ وما بَطش به لأجل الآية التى تُلِيَت عليه.

وانظر إلى أدب الصحابة رضي الله عنهم عند كتاب الله لا يتجاوزون.

إذا قيل لهم: هذا قول الله وقفوا، مهما كان.

فقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أى: خذ ما عفا من الناس وما تيسَّر ولا تطلب حَقَّك كُله لأنه لا يحصُل لك.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أى أمُر بما عرفه الشَّرع وعرفه الناس، ولا تأمر بمنكر، ولا بغير العرف ... لأن الأمور ثلاثة أقسام:

(١) منكر يجب النهى عنه.

(٢) وعُرفٌ يُؤمَر به.

(٣) وما ليس بهذا ولا بهذا فإنَّه يسكت عنه.

وأما قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فالمعنى أن مَن جهل عليك وتطاول عليك فأعرض عنه، لا سيما، إذا كان إعراضك ليس ذُلًّا وخُنُوعًا(١).

ثم قال له: وإن هذا من الجاهلين.

فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن عفى عنه ولم يُعاقبه؛ لأنه كان وقّافًا عند كتاب الله عز وجل... ولذا فإنه ينبغى لك إذا جهل عليك أحدٌ أو أغضبك أن تتذكر كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ من أجل أن تسير على هدى رسول الله ﷺ الذى ضرب للكون كله المثل والأسوة والقدوة فى العفو والصفح ممتثلًا قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

[فصلت: ٣٤-٣٥]

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٣٥) بتصرف.

(٥٢) وعَنْ ابْنِ مسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّها سَتكُونُ بَعدِى أثَرةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرونَها»، قَالُوا: يا رسُولَ الله فَما تأمُرُنا؟ قالَ: «تُؤَدُّونَ الْحقَّ الَّذى عَلَيْكُمْ وتَسْألونَ الله الذى لكُمْ»[1].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أصحابه أنه ستكون بعده أثرة.. أى بعد موته ﷺ ستكون بعده أثرة.. أى استئثار بالشىء عمَّن له فيه حقٌّ.

ويقصد بذلك النبى ﷺ أنه سوف يكون هناك وُلاة على المسلمين يستأثرون بأموال المسلمين وينفقونها حيث شاءوا ويمنعون المسلمين من حقهم فيها... وهذا لا شك أنه ظُلمٌ للمسلمين بحرمانهم من حقوقهم.

فقالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟

فلم يطلب منهم النبى ﷺ أن يحاربوهم أو يخرجوا عليهم بل قال لهم ﷺ: «**تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِى عَلَيْكمْ وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِى لَكمْ**».

يعنى: لا يمنعكم استئثارهم بالمال أن تؤدوا الحق الذى عليكم من السمع والطاعة وعدم الخروج عليهم وعدم التشويش عليهم... فأوصاهم النبى ﷺ بالسمع والطاعة والصبر على هذا الظلم وعدم منازعتهم الأمر.

ثم قال لهم: «**وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِى لَكمْ**» أى: اسألوا الله أن يهديهم حتى يؤدوا الحق الذى عليهم لكم... وهذا من حكمة النبى ﷺ؛ لأنه ﷺ يعلم أن الناس لا يصبرون على هذا الظلم والحرمان من حقوقهم.. وأن استئثار الولاة بالمال دون الرعية يُوجب أن تثور الرعية لتُطالب بحقوقها.. ولكن الرسول ﷺ أمرهم بالصبر وبأداء الحق الذى عليهم ثم اللجوء إلى الله بأن يسألوه سبحانه وتعالى الحق الذى لهم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٠٣) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٣) كتاب الإمارة.
«**والأَثَرَةُ**»: الانفرادُ بالشىْءِ عمَّنْ لَهُ فيهِ حقٌّ.

۞ ولا بد أن نعلم هنا أنه كما نكون يُولَّى علينا.

فإذا أسأنا فيما بيننا وبين الله فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُسلِّط علينا من يستأثر علينا ويظلمنا..كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وإذا أصلحنا ما بيننا وبين الله يسَّر الله لنا وُلاة صالحين ينشرون العدل والرحمة بين الرعية.

قال رجلٌ لعلى بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لماذا كَثُرت الفتن فى عهدك ولم تكن كذلك فى عهد أبى بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟!... فقال له علىٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأن أبا بكرٍ وعمر كانا ولاة على أمثالى وأنا والٍ على أمثالك.

ومع ذلك نقول: أنه لا شك أن صلاح الراعى هو الأصل.. وأنه إذا صلح الراعى صلحت الرعية كلها.. لأن له سلطة يستطيع من خلالها تقويم المعوج وتأديب المسىء ومنع الظلم.

❊ ❊ ❊

(٥٣) وعَنْ أبى يَحيَى أُسَيْدِ بْنِ حُضَيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ قال:** يا رسولَ الله **ألا تَسْتَعمِلُنى كَمَا اسْتَعمَلْتَ فُلَانًا وفُلَانًا فَقَالَ: «إِنَّكُم سَتَلْقَوْنَ بَعدى أَثَرَةً فاصبِرُوا حَتَّى تلقَوْنى علَى الْحوْضِ»**(١).

۞ ففى هذا الحديث يُخبر أُسيد بن حُضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ قال: يا رسولَ الله ألا تَسْتَعمِلُنى كَمَا اسْتَعملتَ فُلَانًا وفُلَانًا... أى: ألا تجعلنى عاملًا على بلدٍ من البلدان كما استعملت فلانًا فجعلته عاملًا على أحد البلدان.

فَقَالَ لَهُ النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعدى أَثَرَةً»** أى: استئثار بالأمر والحُكم والولاية.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٧٩٢) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٥) كتاب الإمارة.
«وأُسَيْدٌ» بِضَمِّ الْهمْزةِ. «وحُضَيْرٌ» بِحاءٍ مُهْمَلَةٍ مضمُومَةٍ وضادٍ مُعجَمةٍ مفْتُوحةٍ، والله أَعلَمُ.

«فَاصبِرُوا حَتَّى تلقَوْنى علَى الْحوْضِ» أى: عليكم أن تصبروا ولا تُنازعوا أحدًا على المُلك أو الولاية حتى تلقونى على الحوض يوم القيامة فتشربوا من يدى شربة هنيئة مريئة لا تظمأون بعدها أبدًا.. ثم إذا دخلتم الجنة سترون المُلك العظيم الذى لا يُنازعكم فيه أحدٌ أبدًا.

۞ وما أجمل أن يكون اللقاء مع النبى ﷺ على الحوض.. فإنه يُحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا وأعطش ما كانوا وأعرى ما كانوا.. فيقفون فى أرض المحشر حُفاة عُراة غُرلًا غير مختونين... والشَّمس تدنو من الرؤوس حتى تكون كمقدار ميل.

فيشتد العطش على الناس أكثر وأكثر.. ويطول الوقوف والانتظار وقد ازدحمت الأمم من لَدُن آدم عليه السلام إلى آخر رجل يموت فى هذا الكون... واشتاق النَّاس جميعًا إلى شربة ماء بعد أن تشققت حلوقهم من العطش.

۞ وهنا يظهر لكلِّ أمة حوض نبيها.. فيشرب منه أتباعه الذين آمنوا معه ويُحرَم منه الذين كفروا فتطردهم الملائكة عن الحوض.

۞ ويظهر حوض نبينا لأمته فيهرع الناس إليه.. فمنهم مَن يشرب - وهم أهل الإيمان - ومنهم مَن يُطرد - وهم الذين ارتدوا عن دينه والذين ابتدعوا فى دينه.

۞ وحوض النبى ﷺ واسع الأرجاء.. ماؤه أبيض مَن اللبن وطعمه أحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك.. كيزانه عدد نجوم السَّماء.. تَرِدُ عليه أمته ﷺ.. فمن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا.

❊❊❊

(٥٤) وعَنْ أبى إبْراهيمَ عَبْد الله بْنِ أبى أَوْفى رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ فى بَعضِ أيَّامِهِ التى لَقِىَ فيهَا الْعَدُوَّ، انْتَظَر حَتَّى إذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فيهمْ فَقَالَ: «يَا أيُّهَا النَّاسُ لا تَتَمنَّوا لقَاءَ الْعدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ العَافيَةَ، فَإذَا لقيْتُموهم فَاصبُروا، وَاعلَمُوا أنَّ

الْجَنَّة تَحتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحزابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرنَا عَلَيْهِمْ»(١).

۞ عن عبد الله بن أبى أوفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان فى بعض غزواته فانتظر حتى زالت الشمس، وذلك من أجل أن تُقبِل البُرُودة ويَكثُر الظِّل ويَنَشَط النَّاسُ، فانتظر حتى إذا مالت الشمسُ قام فيهم خطيبًا.

وكان ﷺ يخطب النَّاس خُطبًا دائمة ثابتة كخطبة يوم الجمعة، وخُطَبًا عارضة إذا دعت الحَاجة إليها قام فخطب عليه الصلاة والسلام ...وهذه كثيرة جدًّا، فقال فى جملة ما قال: «لا تتمنوا لقاء العدو».

أى: لا ينبغى للإنسان أن يتمنى لقاء العدو ويقول: اللهم ألقنى عدوى.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّمَا نَهَى عَنْ تَمَنِّى لِقَاء الْعَدُوّ لِمَا فِيهِ مِنْ صُورَة الْإِعجَاب وَالِاتِّكَال عَلَى النَّفْس، وَالْوُثُوق بِالْقُوَّةِ، وَهُوَ نَوْع بَغْى، وَقَد ضَمِنَ الله تَعَالَى لِمَنْ بُغِىَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْصُرهُ ... وَلِأَنَّهُ يَتَضَمَّن قِلَّة الِاهْتِمَام بِالْعَدُوِّ وَاحْتِقَاره، وَهَذَا يُخَالِف الِاحتِيَاط وَالْحَزْم.

« وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ » أى: قل اللهم عافنى.

وَقَد كَثُرَتْ الْأَحَادِيث فِى الْأَمْر بِسُؤَالِ الْعَافِيَة، وَهِىَ مِنْ الْأَلْفَاظ الْعَامَّة الْمُتَنَاوِلَة لِدَفع جَمِيع الْمَكْرُوهَات فِى الْبَدَن وَالْبَاطِن فِى الدِّين وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَة. اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلك الْعَافِيَة الْعَامَّة لِى وَلِأَحِبَّائِى وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ.

«فَإِذَا لقِيْتُموهم» وابتُليتم بذلك «فاصبروا» هذا هو الشاهد من الحديث أى: اصبروا على مقاتلتهم واستعينوا بالله عَزَّوَجَلَّ وقاتلوا لتكون كلمة الله هى العليا.

فَهَذَا حَثٌّ عَلَى الصَّبْر فِى الْقِتَال وَهُوَ آكَد أَركَانه، وَقَد جَمَعَ الله سُبْحَانه آدَاب الْقِتَال فِى قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٦٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٤٢) كتاب الجهاد والسير.

وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

۞ وَأَمَّا قَوْله ﷺ: «وَاعلَمُوا أَنَّ الْجَنَّة تَحْت ظِلَال السُّيُوف».

فَمَعنَاهُ: ثَوَاب الله، وَالسَّبَب الْمُوَصِّل إِلَى الْجَنَّة عِنْد الضَّرب بِالسُّيُوفِ فِي سَبِيل الله، وَمَشْي الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيل الله، فَاحضرُوا فِيهِ بِصِدقٍ وَاثْبُتُوا[1].

فالجنة تحت ظلال السُّيوفِ التي يحملها المجاهد في سبيل الله. وإن المجاهد في سبيل الله إذا قُتل صار من أهل الجنة ... كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهمَّ منزل الكتابِ ومُجرى السحابِ وهازِمَ الأحزابِ اهزمهُم وانْصُرْنا عليهم» وهذا دُعاءٌ ينبغى للمجاهد أن يدعو به إذا لقى العدو.

فهنا توسل الرسول عليه الصلاة والسلام بالآيات الشرعية والآيات الكونية.

توسَّل بإنزال الكتاب وهو القرآن الكريم أو يشمل كل كتاب ويكون المراد به الجنس أى: منْزل الكتب على محمدٍ ﷺ وعلى غيره.

«ومُجرى السحاب» هذه آية كونية، فالسحاب المُسَخَّر بين السَّماء والأرض لا يُجريه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

لو اجتمعت الأمم كلها بآلاتها ومُعدَّاتها على أن تُجرى هذا السحاب أو أن

(١) مسلم بشرح النووى (١٢/ ٦٨-٦٩) بتصرف.

تصرف وجهه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وإنما يُجريه مَن إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون.

«**وهازم الأحزاب**» فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ وحده هو الذى يهزم الأحزاب.

ومنه: أن الله هَزَمَ الأحزاب فى غزوة الأحزاب، والتى قد تجمع فيها أكثر من عَشرة آلاف مُقاتل حول المدينة ليُقاتلوا الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولكن الله تعالى هزمهم وَرَدَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، فأرسل عليهم ريحًا وجنودًا زلزلتهم وكفأت قدورهم وأسقطت خيامهم وصار لا يستقر لهم قرار[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٣٩) بتصرف.

(٤) باب الصدق

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]

أى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ... الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا خالية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

هذه فى جملة الآية الطويلة التى ذكرها الله فى سورة الأحزاب وهى ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فذكر الله الصادقين والصادقات فى مقام الثناء وفيما لهم من الأجر العظيم.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

أى لو عاملوا الله بالصدق لكان خيرًا لهم ولكن عاملوا الله بالكذب فنافقوا وأظهروا خلاف ما فى قلوبهم وعاملوا النبى ﷺ بالكذب فأظهروا أنهم مُتَّبعون له وهم مخالفون له. فلو صدقوا الله بقلوبهم وأعمالهم وأقوالهم لكان خيرًا لهم ولكنهم كذبوا الله فكان شرًّا لهم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن / الشيخ عبد الرحمن السعدى رحمه الله (ص ٣٩٦).

وقال الله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٤].

فدَلَّ ذلك على أنَّ الصِّدق أمره عظيم وأنه مَحِلٌّ للجزاء من الله تعالى.

(٥٥) فَالأَوَّلُ: عَن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الصِّدقَ يَهْدى إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الجَنَّة، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيصدُقُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا، وإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إلى الفجُورِ، وَإِنَّ الفجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا»[1].

۞ ما أجمل أن يكون المؤمن صادقًا... فالمؤمن لا يكذب ... ولماذا يكذب وهو يعلم أن الله يعاقب الكذابين فى الدنيا ويعذبهم فى الآخرة.

۞ وكيف لا يكون صادقًا وهو يعلم أن الصادق حبيب الرحمن وأن الله يحبه ويرضى عنه ويُدخله جنته.

۞ وكيف لا يكون صادقًا وهو يعلم أن أسوته وقدوته هو الحبيب محمد ﷺ الذى كان الناس يسمونه بالصادق الأمين.

۞ إن الله عز وجل يحض عباده المؤمنين على أن يكونوا مع الصادقين.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

۞ بل ويوضح الحق (جل وعلا) أن الصدق ينفع صاحبه فى الدنيا والآخرة ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩].

۞ ومن ثَمَّ فإنه (سبحانه وتعالى) يحذرنا من الكذب فإن الكذب يشين

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٩٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

صاحبه فى الدنيا والآخرة... قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]

- والآيات التى تحض على الصدق وتحذر من الكذب كثيرة.

۞ **قوله ﷺ: « إِنَّ الصِّدقَ يَهْدى إِلَى الْبِرِّ »** أى: إن الصدق فى الأقوال والأفعال والأحوال يهدى إلى البر.. فالصدق يكون باللسان وكذلك بالأركان وبالأحوال.. فمن كان صادقًا فى كلامه ومَن كانت أحواله وأفعاله مُطابقة لكلامه فهو الصادق.. فإن كان كذلك فإن هذا الصدق يهدى إلى البر.

أى العمل الصالح الخالص من كل مذموم ... والبر: اسمٌ جامع للخير كله، وقيل البر الجنة، ويجوز أن يتناول العمل الصالح والجنة.

«**وإن البر يهدى إلى الجنة**» فصاحب البر يهديه بِرُّه إلى الجنة... ولذلك فإن المسلم يحرص دائمًا على أن يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار.

۞ **وقوله: «إن الرجل ليَصدُق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا».**

وفى رواية: «**ولا يزال الرجلُ يَصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا**».

الصِّدِّيق فى المرتبة الثَّانية من الذين أنعم الله عليهم... كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]. فالرجل الذى يتحرى الصدق يُكتب عند الله صِدِّيقًا ومعلوم أن الصِّديقية درجة عظيمة لا ينالها إلا أفذاذٌ من الناس.

وتكون فى الرجال وتكون فى النِّساء ... قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾ [المائدة: ٧٥].

وأفضل الصدِّيقين على الإطلاق أصدقهم، وهو أبو بكر رضي الله عنه، عبد الله بن عثمان بن أبى قُحافة الذى استجاب للنَّبى ﷺ حين دعاه إلى الإسلام ولم

يحصل عنده أيّ تردُّد وأى توقُّف ... بمجرد مَا دَعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام أسْلم، وصدّق النبى ﷺ حين كذبه قومه، وصدّقه حين تحدث عن الإسراء والمعراج، وكذَّبه الناس وقالوا: كيف تذهب يا محمد من مكة إلى بيت المقدس وترجع فى ليلة واحدة ثم تقول إنك صعدت إلى السماء هذا لا يمكن!

ثم ذهبوا إلى أبى بكر وقالوا له: أما تسْمَعُ ما يقول صاحبك؟ قال: ماذا قال؟ قالوا: إنَّه قال كذا وكذا، قال: «إنْ كان قد قالَ ذلك فقد صَدق»، فمنذ ذلك اليوم سُمِّى الصِّدِّيق رضي الله عنه.

۞ وقوله: «**وإنَّ الكذب يهدى إلى الفجور**» الفجور يعنى الخروج عن طاعة الله ... لأن الإنسان يفسق ويتعدَّى حدوده ويخرج عن طاعة الله إلى معصيته ... وأعظم الفجور الكفر.

فإن الكفَرة فَجَرة كما قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾ [المطففين: ٧، ١١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار:١٤].

فالكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار.

۞ وقوله: «**وإنَّ الرَّجُل ليَكْذِب**» وفى لفظ: «**لا يزالُ الرَّجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا**» والكَذب من الأمور المحرَّمة ... بل قال بعض العلماء:

إنَّه من كبائر الذنوب لأن الرسول ﷺ توَّعده بأنه يُكتب عند الله كذابًا.

فالكذب كله حرام، وكله يَهدى إلى الفجور ولكن يُستثنى منه ما ورد فى الحديث أنَّه يُستثنى من ذلك ثلاثة أشياء: فى الحرب والإصلاح بين الناس وحديثُ المرأة زوجها وحديثه إياها.

ولكن بعض أهل العلم قال: إنَّ المراد بالكذب في هذا الحديث التَّورية وليس الكذب الصريح.

وقال: التَّورية قد تُسمَّى كذبًا كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ عز وجل قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وواحدة في شأن سارة...»[1] الحديث ... وهو لم يكذب وإنما ورَّى تورية هو فيها صادق.

وسواء كان هذا أو هذا فإن الكذب لا يجوز إلا في هذه الثَّلاث على رأي كثير من أهل العلم.

وأشدُّ شيء في الكَذب أن يكذب ويحلف ليأكل أموال النَّاس بالباطل، مثل أن يُدَّعى عليه بحقٍّ ثابت فيُنكر ويقول: والله مَالَك علىَّ حق، أو يَدَّعى ما ليس له فيقول: لي عندك كذا وكذا وهو كاذب ... فهذا إذا حَلَفَ على دعواه وكذب فإن ذلك هو اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم تغمسه في النَّار والعياذ بالله.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ حَلَفَ على يَمين صَبْرٍ هُو فيها فاجر يقتطع بها مَال امرئٍ مُسْلم لِقِىَ الله وهو عليه غضبان»[2][3].

(٥٦) الثَّاني: عَنْ أبي مُحَمَّدٍ الْحَسنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالب رضي الله عنهما قَالَ: حفظْتُ مِنْ رسولِ الله ﷺ: «دَع ما يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدق طُمأنينَةٌ، وَالْكَذِبَ رِيبةٌ»[4].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٥٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٢٧١) كتاب الفضائل.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٥٥٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ١٦١-١٦٣) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٧٨).

قَوْلُهُ: «يريبُكَ» هُوَ بفتحِ الياء وضَمِّها، وَمَعناهُ: اتْرُكْ ما تَشُكُّ في حِلِّه، واعدِلْ إِلى مَا لا تَشُكُّ فيه.

ﷺ قال الشيخ صالح آل الشيخ:

هذا الحديث عظيم أيضًا، وهو في المعنى قريب من قوله - عليه الصلاة والسلام- في حديث النعمان بن بشير: «**فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**». فهذا الحديث قال فيه الحسن: حفظت من رسول الله ﷺ«**دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك**».

«**دع ما يريبك**» يعني: ما تشك فيه، ولا تطمئن له، وتخاف منه؛ لأن الرَّيب هو الشك وعدم الطمأنينة.

يعني: إذا أتاك أمر فيه عدم طمأنينة لك، أو أنت إذا أقبلت عليه، أو إذا أردت عمله، استربت منه، وصرت في خوفٍ أن يكون حرامًا، فدعه إلى شيء لا يريبك؛ لأن الاستبراء مأمور به ... فترك المشتبهات إلى اليقين هذا أصلٌ عام... وهذا الحديث دَلَّ على هذه القاعدة العظيمة: أن المرء يبحث عن اليقين؛ لأن فيه الطمأنينة، وإذا حصل له اليقين سيدع ما شك فيه.

وهذا يدل على أن كل ما فيه خير تطمئن له نفس المؤمن، فأنت تأتي إلى ما تتلفظ به من أقوال، فتزنها بهذا الميزان، ما تأتيه من أعمال فتزنها بهذا الميزان، والعجب ممن يتكلم بشيء وهو بداخله غير مرتاح له، ومع ذلك يغشاه، فهذا مخالف لهذا الأمر العظيم ... كذلك أعمال لا يرتاح لها، أو صحبة لا يرتاح لها، ومع ذلك يأتيها وهو غير مطمئن لذلك، وهذا - لا شك - أنه مخالفة لهذه الوصية العظيمة: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» وهذا توجيه نبوي عظيم الفائدة عظيم العائدة ... وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يستعملون هذا ... وهذا الحديث أصلٌ في الورع، أصلٌ في ترك المشتبهات، أصل في التَخَوُّف من

أى نوع من الحرام. والورع سهل... قال بعض السلف: «إذا أتانى أمر وفيه ريبة تركته، وما أسهلها على النفس».

وهذا - ولا شك - عند نفس المؤمن الذى أخبت لربه، فإنه إذا أتاه ما يريبه يتركه، ويكون فى ذلك راحة النفس وطمأنينة القلب، وهذا أمرٌ واضح فى الشريعة(١).

۞ وهذا الحديث من أحاديث الأربعين النَّووية وهو حديثٌ جامع مهم وهو باب عظيم من أبواب الوَرَع والاحتياط.

وقد سلك أهل العلم - رحمهم الله- فى أبواب الفقه هذا المَسْلَك وهو الأخذ بجانب الاحتياط وذكروا لذلك أشياء كثيرة.

منها: إنسان أصاب ثوبه نجاسة، ولا يدرى هل هى فى مقدم الثوب أو فى مؤخره ... إن غسل المقدم صار عنده ريبة لاحتمال أن تكون فى مؤخر الثوب، وإن غسل المؤخر صار عنده ريبة لاحتمال أن تكون فى مقدم الثَّوب! فما هو الاحتياط؟

الاحتياط أن يغسل مقدمه ومؤخره حتى تَزُول ريبته ويطمئن.

۞ **قال النبى ﷺ: «فإنَّ الصِّدق طُمَأنينة»** وهذا وجه الشَّاهد من هذا الحديث لهذا الباب.

فالصِّدق طمأنينة لا يندم صاحبه أبدًا، ولا يقول ليتنى وليت؛ لأن الصِّدق مَنجاة والصَّادقون يُنَجِّيهم الله بصدقهم ... وتجد الصَّادق دائمًا مطمئنًا لأنه لا يتأسف على شىء حصل أو يَحصُل فى المستقبل لأنه قد صدق، و«مَن صدقَ نجا».

أما الكذب فبيَّن النبى عليه الصلاة والسلام أنَّه ريبة ولهذا تجد أول مَن يرتاب هو الكاذب نفسه ... فيرتاب هل يصدقه الناس أو لا يُصدِّقونه.

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص ١٣١-١٣٢).

إذًا ... نأخذ من هذا الحديث أنَّه يجب على الإنسان أن يدَع الكذب إلى الصدق لأنَّ الكذب ريبة والصِّدق طمأنينة وقد قال النبى عليه الصَّلاة والسَّلام: «**دَع ما يَريبك إلى ما لا يريبك**».

(٥٧) الثَّالثُ: عنْ أبى سُفْيانَ صَخْرِ بْنِ حَربٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى حديثه الطَّويل فى قِصَّةِ هِرقْل ... قَالَ هِرقْلُ: فَماذَا يَأمُرُكُمْ - يعنى: النَّبِيَّ ﷺ - قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قُلْتُ: يقول: «اعبُدُوا الله وَحْدَهُ لا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا، واتْرُكُوا ما يَقُولُ آباؤُكُمْ، ويَأْمُرنَا بالصَّلاةِ والصِّدقِ، والْعفَافِ، والصِّلَةِ»[1].

۞ أبو سفيان صخر بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وُلِدَ قبل عام الفيل بعشر سنين، وأسلم ليلة الفتح وكان من المؤلفة، ثم حَسُن إسلامه. وشهد حُنينًا وأعطاه ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية، وأعطى لابنيه يزيد ومعاوية، فقال أبو سفيان: «والله إنك لكريم فداك أبى وأمى، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ولقد سالمتك فنعم المُسالم أنت، فجزاك الله خيرًا» ثم شهد الطائف وفُقئت عينه يومئذٍ وفُقئت عينه الأخرى يوم اليرموك...استعمله النبى على نجران، فمات النبى ﷺ وهو عليها.

قَدِمَ أبو سفيان ومعه جماعة من قريش إلى هرقل فى الشَّام، وهرقل كان ملك النَّصارى فى ذلك الوقت وكان قد قرأ فى التَّوراة والإنجيل وعرف الكتب السَّابقة وكان مَلِكًا ذكيًّا، فلما سمع بهم أى بأبى سفيان ومن مَعَه وهم قادمون من الحجاز دَعَاهم وجعل يسألهم عن حال النبى ﷺ وعن نَسَبه وعن أصحابه وعن تَوْقيرهم له، وعن وَفَائه ﷺ وكلما ذكر شيئًا أخبروه فعرف أنه النبى الذى أخبرت به الكتب السَّابقة، ولكنه والعياذ بالله شحَّ بمُلْكه فلم يُسلم للحكمة التى أرادها الله عَزَّ وَجَلَّ[2].

المهم أن هرقل سأل أبا سفيان عن النبى ﷺ فقال له: فماذا يأمركم؟

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧) كتاب بدء الوحى، ومسلم (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير.

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ١٦٤-١٦٥) بتصرف كبير.

فقال له أبو سفيان: يقول - أي النبي ﷺ-: «اعبُدُوا الله وَحدَهُ لا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا » أي: يعبدوا الله وحده ولا يعبدوا معه مَلَكًا ولا رسولًا ولا شمسًا ولا قمرًا ولا شجرًا ولا حجرًا ولا غير ذلك؛ لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده.. وهذا ما جاءت به الرسل جميعًا.

قال الله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. أي: اعبدوا الله واجتنبوا الشرك.

هذه دعوة الرسل ... فجاء النبي ﷺ بما جاءت به الأنبياء من قبله.

۞ «**واتْرُكُوا ما يَقُولُ آباؤُكُمْ**» أي: اتركوا كل ما كان عليه آباؤكم من عبادة الأصنام وفعل الفواحش وغيرها مما جاء الإسلام بتحريمه.

وهي كلمة جامعة لترك ما كانوا عليه في الجاهلية ... وإنما ذكر الآباء تنبيهًا على عذرهم في مخالفتهم له ؛ لأن الآباء قدوة عند الفريقين: أي عَبَدة الأوثان والنصارى.

وأما ما كان عليه آباؤهم من الأخلاق الفاضلة كالشجاعة والكرم فإنه لم يأمرهم بتركها.

۞ وقوله: «**وكَانَ يَأْمُرنَا بالصَّلاةِ**» الصَّلاة صِلَةٌ بين العبد وبين ربه وهي آكد أركان الإسلام بعد الشَّهادتين وبها يتميز المؤمن من الكافر، فهي العهد الذي بيننا وبين المشركين والكافرين كما قال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام: «**العَهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»[1].

۞ وقوله: « **ويَأْمُرنَا بالصِّدقِ**» وهذا هو الشَّاهد من الحديث وهذا كقوله

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٤٣).

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

والصدق قسمان: صدق مع الله، وصدق مع عباد الله...وضِدُّ الصِّدق الكذب، وهو الإخبار بخلاف الواقع، وهو من أخلاق المنافقين.

كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثلاثٌ - وذَكر منها- إذَا حَدَّث كَذَبَ»[1].

۞ وقوله: «والْعفَافِ» أي: العفة... والعفة نوعان:

عفة عن شهوة الفرج.. وعفة عن شهوة البطن.

فأما العفة عن شهوة الفرج فقد حرم الله الزنا وكل ما يُوصل إليه.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

ومن أجل ذلك اتخذت الشريعة الإسلامية اتجاهين لضمان عدم وقوع أفرادها في الزنا:

الأول: اتجاه وقائي يمنع من وقوع الفاحشة عن طريق سدِّ المنافذ المؤدية إليها سَدًّا مُحكَمًا.

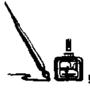
الثاني: اتجاه علاجي عن طريق تيسير سُبل التعفُّف من خلال الزواج الحلال.

۞ فأما الضمانات الوقائية فهي:

- أن الله منع الزواج ممن عُرف (أو عُرفت) بالفاحشة إذا لم يَتُب.
- أن الله حرم حُب إشاعة الفاحشة في البلاد وبين العباد.
- أن الله فرض الحجاب على النساء وحرم التبرج.
- تشريع الاستئذان والأمر بغضِّ البصر.
- تحريم مَسِّ المرأة الأجنبية ومصافحتها.

---

(١) متفق عليه رواه البخاري (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.



- تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية.
- قرار المرأة فى بيتها وعدم خروجها إلا لضرورة.
- تحريم سفر المرأة بغير مَحرم.
- تحريم خروج المرأة متعطرة.
- تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها.
- عدم وصف المرأة لامرأة أُخرى.
- تحريم الخضوع بالقول.
- الحض على الزواج لمن استطاع إليه سبيلًا.. والحض على الصيام لمن لم يستطع إليه سبيلًا.

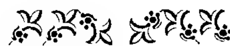
۞ وأما النوع الثانى من العفاف: فهو العفاف عن شهوة البطن.. أى: العفاف عن أكل الحرام والعفاف عمَّا فى أيدى الناس.

بحيث لا يسأل الإنسان أحدًا شيئًا؛ لأن السُّؤال مَذَلَّة والسَّائل يده دُنيا سُفلى... والمُعطى يده عُلْيَا فلا يجوز أن تسأل أحدًا، أى: إلا ما لا بُدَّ منه كما لو كان الإنسان مضطرًا أو مُحتاجًا حاجة شبه ضَرُورية فَحينئذٍ لا بأس أن يسأل.

۞ قوله: «والصِّلَةِ»:

والصِّلة أن تَصِل ما أمر الله به أن يُوصَل من الأقارب الأَدنَى فالأدنى وأعلاهم الوَالِدان، فإنَّ صلة الوالدين بِرٌّ وصِلة ... والأقارب لهم من الصلة بقدر ما لهم من القرب ... فأخُوك أوكد صلة من عَمك ... وعَمُّك أشدُّ صلة من عمِّ أبيك وهكذا.

والصِّلة جاءت فى الكتاب والسُّنة غير مُقَيَّدة، وكُلّ ما جاء فى الكتاب والسُّنة غير مقيد، فإنه يُحمَل على العُرف، فما جرى العرف على أنَّه صلة فهو صلة.



(٥٨) الرَّابعُ: عَنْ ابى ثَابِتٍ، وقِيلَ: أبى سعيد، وقيلَ: أبى الْولِيدِ، سَهْلِ بْنِ حُنيْف، وَهُوَ بدرىٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبىَّ ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ الله تعالىَ الشَّهَادَة بِصِدقٍ بَلَّغهُ الله مَنَازِلَ الشُّهدَاء، وإنْ مَاتَ عَلَى فِراشِهِ»(١).

۞ «مَنْ سَأَلَ الله تعالىَ الشَّهَادَة بِصِدقٍ..» فالعبد المسلم لا يسأل إلا الله؛ لأنه تعلَّم من النبى ﷺ أنه قال: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَل الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله...» فمن سأل الله الشهادة.. والشهادة لا تكون إلا بالجهاد والقتال فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ لتكون كلمة الله هى العُليا.. فإذا عَلِمَ الله منه صدق القول والنية بلَّغه الله منازل الشهداء يوم القيامة حتى وإن مات على فراشه.

والشهادة مرتبة عالية من الصدِّيقية كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

منها: الشهادة بأحكام الله عَزَّ وَجَلَّ على عباد الله وهذه شهادة العلماء التى قال الله فيها: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]

والشهادة أنواع كثيرة:

وقد ذهب كثير من العلماء فى تفسير قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ إلى أنهم العلماء... ولاشك أنَّ العلماء شُهَداء، فَيَشْهدون بأنَّ الله تعالى أرسل رسوله بالهُدَى ودين الحق ويَشْهَدون على الأمة بأنَّها بلغت شريعة الله ويشهدون فى أحكام الله هذا حلال وهذا حرام، وهذا واجب، وهذا مستحب، وهذا مكروه، ولا يعرف هذا إلا أهل العلم، لذلك كانوا شهداء.

۞ ولكن هناك شهداء غير الذين يُقتلون فى سبيل الله.

۞ عن أم حرام رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «المَائِدُ فِى الْبَحرِ الَّذِى

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٩) كتاب الإمارة.

يُصِيبُهُ الْقَيْءُ لَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ وَالْغَرِيقُ لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ »(١).

المائد: هو الذى يموت بسبب دوار البحر فله أجر شهيد.

۞ وعن ربيع الأنصارى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطَّعنُ، وَالطَّاعُونُ، وَالهَدمُ، وأَكْلُ السَّبُعِ، وَالْغَرَقُ، وَالحَرَقُ، وَالْبَطْنُ، وَذَاتُ الجَنْبِ شَهَادَةٌ »(٢).

۞ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنّ مِنْ وَرَائِكمْ زَمانَ صَبْرٍ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِ أَجْرُ خَمْسينَ شَهِيدًا مِنْكمْ »(٣).

۞ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن مَن يتردَّى من رؤوس الجبال وتأكله السباع ويغرق فى البحار لشهيدٌ عند الله»(٤).

۞ قلت: وذلك لمن مات على التوحيد ...أما من مات على الشرك فلا يكون شهيدًا ولا يرزقه الله نعمة الشهادة.

وقال ﷺ: « الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِم »(٥).

وقال ﷺ: « الشُّهَدَاءُ خَمسَةٌ: المَطْعُونُ، وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِقُ، وَصَاحِبُ الهَدمِ، وَالشَّهِيدُ فِى سَبِيلِ اللهِ »(٦).

۞ والموت بداء البطن... لقول رسول الله ﷺ: «... وَمَنْ مَاتَ فِى الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ »(٧).

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٤٩٣) كتاب الجهاد، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٦٤٢).

(٢) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير (٥/ ٦٨)، وابن قانع وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الترغيب والترهيب (١٣٩٥)، وصحيح الجامع (٣٩٥٣).

(٣) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير (١٠/ ١٨٢)، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٢٣٤).

(٤) إسناده صحيح: أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف»، كتاب الجهاد، باب فى الشهادة (٥/ ٢٦٩)، موقوفًا بإسنادٍ صحيح، والطبرانى فى الكبير (٩/ ٣٤٥). قال الحافظ فى «الفتح» (٦/ ٥٢): إسناده صحيح، وأخرجه سعيد بن منصور فى «سننه».

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٣٠) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩١٦) كتاب الإمارة.

(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٤) كتاب الأذان، ومسلم (١٩١٤) كتاب الإمارة.

(٧) صحيح: رواه مسلم (١٩١٥) كتاب «الإمارة».

۞ وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ عاد عبد الله بن رواحة قال: فما تحوَّز له عن فراشه فقال: «أتدرى مَن شهداء أُمَّتى؟»، قالوا: قتل المسلم شهادة قال: «إن شهداء أمتى إذًا لقليل! قتل المسلم شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء شهادة (يجرها ولدها بسرره إلى الجنة)»[1].

۞ **الموت بالحرق وذات الجنب:**

قال ﷺ: «الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِى سَبِيلِ الله: الْمَقْتُولُ فِى سَبِيلِ الله شَهِيدٌ، وَالْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الحريقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِى يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمعٍ[2] شَهِيدَةٌ»[3].

وقال ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[4].

۞ وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[5].

ولكن أعلى الشُّهداء هم الذين يُقتلون فى سبيل الله... كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧١]

(١) إسناده صحيح: رواه أحمد (١٧٣٤١)، والدارمى (٢٤١٤)، وصحح إسناده العلامة الألبانى رحمه الله فى أحكام الجنائز.

(٢) هو ورم حار يعرض فى الغشاء المستبطن للأضلاع: «أى تموت وفى بطنها ولد، وقيل التى تموت بكرًا، والجُمع بالضم بمعنى المجموع، كذخر بمعنى المذخور، وكسر الكسائى الجيم، والمعنى أنها ماتت مع شىء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكارة». قلت: والمراد هنا الحمل قطعًا بدليل الحديث المتقدم بلفظ «يقتلها ولدها جمعاء».

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وأحمد، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٧٣٩).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٥).

(٥) صحيح: رواه النسائى، وأحمد ، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٤٤٧).

وهؤلاء هم الذين قاتلوا لتكون كلمة الله هي العُلْيَا.

(٥٩) الخامسُ: عَنْ أَبى هُرَيْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبياء صلواتُ الله وسلامُهُ عليهِمْ فَقَالَ لقوْمِهِ: لا يتبعنى رَجُلٌ ملَكَ بُضْعَ امْرَأَة. وَهُوَ يُرِيدُ أَن يَبْنِيَ بَهَا وَلَمَّا يَبْنِ بها، ولا أحدٌ بنَى بيُوتًا لَمْ يرفَع سُقوفَها، ولا أحدٌ اشْتَرى غَنَمًا أوْ خَلِفَاتٍ وهُو يَنْتَظِرُ أَوْلادَهَا. فَغزَا فَدنَا مِنَ الْقَرية صلاةَ الْعصرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذلك، فَقَال للشَّمس: إِنَّكِ مَأمُورةٌ وأنا مأمُورٌ، اللهمَّ احبسْهَا علَينا، فَحُبِست حَتَّى فَتَحَ الله عليْه، فَجَمَعَ الْغَنَائم، فَجاءَتْ يَعنى النَّارَ لتَأْكُلهَا فَلَمْ تطْعَمْهَا، فقال: إنَّ فيكُمْ غُلُولًا، فليبايعنى مِنْ كُلِّ قبِيلَةٍ رجُلٌ ... فلزقتْ يدُ رَجُلٍ بيده فَقَالَ: فِيكُم الْغُلولُ، فلتبايعنى قبيلَتُك، فلزقَتْ يدُ رجُليْنِ أو ثلاثة بيَده فقَالَ: فيكُمُ الْغُلُولُ، فَجاءوا برَأسٍ مِثْلِ رَأْس بَقَرَةٍ مِنْ الذَّهبِ، فوضَعها فَجَاءَت النَّارُ فَأَكَلَتها، فلمْ تَحل الْغَنَائِمُ لأحدٍ قَبلَنَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنا الغنَائِمَ لمَّا رأى ضَعفَنَا وعجزنَا فأحلَّها لنَا»(١).

۞ كان القادة العسكريون يحشدون لمواجهة أعدائهم أكثر عدد يستطيعونه من الجند، ويظنون أن الكثرة أحد أسباب الانتصار فى الحروب، ولكن نبى الله يوشع الذى فتح الله على يديه الأرض المقدسة لبنى إسرائيل من بعد موسى لم يهتم بكثرة العدد عند مواجهة أعدائه، وإنما اهتم بالنوعية المقاتلة، ولذا أخرج من صفوف جنده أولئك الذين تعلقت قلوبهم بأمرٍ من الأمور الدنيوية التى تملك على العباد نفوسهم.

۞ وفى هذا الحديث يحدثنا الرسول ﷺ أن نبيًّا من أنبياء الله غزا غزوة لفتح إحدى القرى ... وهذا النبى هو يوشع بن نون عليه السلام أحد أنبياء بنى إسرائيل(٢)،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٢٤) كتاب فرض الخمس، ومسلم (١٧٤٧) كتاب الجهاد والسير.
«الخلفاتُ»: جمعُ خَلِفَةٍ، وهى النَّاقَةُ الحاملُ.

(٢) صَحَّ بذلك الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «مَا حُبست الشمس على بشرٍ قَطُّ إلَّا على يُوشع بن نون =

وكان قد صحب موسى فى حياته، وسار معه فى رحلته إلى الخضر عليه السلام وقد أوحى الله إليه بعد وفاة موسى، واستخلفه موسى على بنى إسرائيل من بعده، وهو الذى تم على يديه فتح الأرض المقدسة.

وقد حرص نبى الله يوشع عند انطلاقته لفتح المدينة التى يقصدها على أن يكون جيشه قويًّا متماسكًا، ولذلك أَخرج من جيشه المقاتلين الذين قد يكونون سببًا فى الهزيمة، لانشغال قلوبهم انشغالًا كبيرًا بمسائل الدنيا التى لا يستطيعون التخلُّص من إعمال قلوبهم وعقولهم بشأنها، فقد استثنى ثلاثة أصناف من المقاتلين وأمرهم بعدم الخروج معه.

الصنف الأول: الذى عقد نكاحه، ولم يدخل بزوجته، ولا شك أن هذا الصنف يكون متعلقًا قلبه بزوجه أشد التعلُّق، وبخاصة إذا كان فى مرحلة الشباب.

والصنف الثانى: المشغول ببناءٍ لم يُكمل بناءه بعد.

والثالث: الذى اشترى غنمًا أو نُوقًا حوامل وهو ينتظر أن تلد أو تُنتج.

إن المبدأ الذى اعتمده هذا النبى يدل على أنه قائدٌ فَذ، صاحب نظرية فى قيادة الجيوش وإعدادها للقتال الذى يكون به النصر... إن الجيوش لا تنتصر بكثرة عددها، بل بالنوعية التى تقاتل، فالنوعية أهم من العدد والكمية.

ولذا أخرج من جيشه المشغولى القلوب، الذين يكونون فى أرض المعركة وقلب الواحد منهم مُعلَّقٌ بالزوجة التى سيدخل بها، أو البناء الذى سيسكنه، أو الماشية والأنعام التى ستلد وتُنتج.

وفعله هذا شبيه بما أمر به طالوت جيشه من عدم الشرب من النهر، إلا مَن

= ليالى سار إلى بيتِ المقدس» رواه أحمد والخطيب البغدادى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦١٢).

اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلًا منهم ... وبذلك صفَّى طالوت جيشه من العناصر الضعيفة التى قد تكون سببًا فى الهزيمة.

وقد أخبر اللهُ رسوله ﷺ أن نكوص المنافقين فى معركة أُحد كان فيه خيرٌ للمؤمنين: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

خرج يوشع بجيشه مُتجهًا إلى القرية التى يريد غزوها، فدنا من القرية فى عصر ذلك اليوم، ومعنى ذلك أن فرصته فى فتح المدينة ليست قوية؛ لأن القتال فى الليل ليس سهلًا،... وكان ذلك اليوم يوم الجمعة، وعليه أن يُوقف القتال إذا غربت الشمس، لأن دخول الليل يعنى دخول يوم السبت، والقتال مُحرَّم على بنى إسرائيل فى يوم السبت ... ومعنى ذلك أنه سيعود عن القرية قبل فتحها، وهذا سيُعطى أهل القرية فرصة لتقوية جيشهم، وإصلاح أسوارهم، وإعداد المزيد من السلاح، فتوجَّه يوشع إلى الشمس مُخاطبًا لها قائلًا: إنك مأمورة، وأنا مأمور، ثم دعا ربه قائلًا: اللهم احبسها علينا... واستجاب الله دعاءه، فأخَّر الغروب حتى تم النصر.

إن إيمان يوشع كان عظيمًا ... فهو يوقن بقدرة الله على كل شىء، وهو قادر على إطالة النهار حتى يتم الفتح قبل الغروب، ولا يستعصى مثله على الله، ونحن نعلم اليوم أن النهار والليل يَحدثان من دوران الأرض حول نفسها... والذى يظهر - وعلم ذلك عند الله- أن دورة الأرض تباطأت بقدرة الله حتى تم الفتح.

ولم يُبح الله الغنائم لأمة من الأمم من قبلنا، فكانت الغنائم تُجمع ثم تنزل نار من السماء فتأكل الغنائم إن لم يَغُل أحدٌ من الجيش شيئًا منها، فإن غُلَّ من الغنيمة شىءٌ فلا تأكلها، وهذا يعنى أن الله غير راضٍ عنهم.

وعندما جُمعت الغنائم ونزلت النار لم تأكل منها شيئًا، فقال يوشع: فيكم غلول، وكشف الغالِّين بأن بايع من كل قبيلة رجلًا، فلصقت يده بيد رجل القبيلة

التى فيها الغلول، فبايع أفراد القبيلة التى فيها الغلول، فلصقت يده بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول ، عند ذلك جاءوا بقطعة كبيرة من الذهب مصنوعة على شكل رأس بقرة ... فوضعت مع الغنائم، فنزلت النار فأكلتها.... وقد نُسخ هذا الحكم فى حقنا، فأُبيحت لنا الغنائم، رحمة من الله بنا، وتفضُّلًا علينا، وكان إباحة الغنائم إحدى خصائص هذه الأمة.

عبر الحديث وفوائده

(١) غزو يوشع بمن معه من بنى إسرائيل يدل على أن القتال كان مفروضًا على الأمم من قبلنا، وليس خاصًّا بنا ... وقد عاقب الله بنى إسرائيل بالتيه أربعين سنة عندما أبوا مقاتلة الجبارين.

وقد دَلَّ على أن جَمْعًا كبيرًا من الأنبياء قاتلوا... قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ودَلَّ على فرضه على بنى إسرائيل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]

(٢) فى الحديث إرشاد لأولى الأمر أن لا يكلوا القيام بالمهمات الكبرى للذين شُغلت قلوبهم بما يُعيقهم عن القيام بها.

(٣) تحتاج قيادة الجيوش إلى خبرة بطبائع النفوس، واختيار النوعيات التى يمكنها الصبر فى ميدان القتال، واستبعاد النوعيات التى قد يُؤتَى الجيش من قِبَلها، كما فعل يوشع عليه السلام.

(٤) فى الحديث آيات ظاهرة ومعجزات باهرة تدل على قدرة الله وتأييده رسله، وإعانتهم على ما أُنيط بهم من مهمات ... فمن ذلك أن الله حبس الشمس

وأطال النهار حتى تمكن المقاتلون من إحراز النصر، وعرَّف رسوله بالقبيلة التى فيها الغلول، والأفراد الذين غَلُّوا، على النحو المذكور فى الحديث.

(٥) كانت الغنائم غير مُباحة للأمم من قبلنا، وخصَّنا الله دون الأمم بأن أحلَّ لنا الغنائم.

(٦) إثم الغلول... فالنار لم تكن تأكل الغنائم إذا ما غُلَّ منها، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن رجلًا غَلَّ شملة فاشتعلت عليه فى قبره نارًا، وأن الذى يَغُل يأتى بما غَلَّ يوم القيامة يحمله على ظهره.

(٧) كان فى بنى إسرائيل رجالٌ صالحون مجاهدون فى سبيل الله، يفتح الله عليهم وينصرهم.

(٨) على الرغم من تصفية يوشع لجيشه من الذين قد يُؤتَى من قِبَلهم إلا أن الجيش بقى فيه بعض مَن ضَعُف إيمانه، وهم الذين غَلُّوا من الغنيمة[1].

(٦٠) **السادسُ: عن أبى خالد حكيم بن حزام** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال: قال رسولُ الله** ﷺ: **«الْبيِّعَان بالخيار ما لم يَتفرَّقا، فإن صدقَا وبيَّنا بُورِكَ لهُما فى بيْعِهِما، وإن كَتَما وكذَبَا مُحِقَتْ بركةُ بيْعِهِما»**[2].

۞ **«البيِّعان»**: البائع والمُشْترى، وأطلق عليهما اسم البَيِّع من باب التَّغليب، كما يُقال: القمران للشمس والقمر ... والعُمران لأبى بكر وعمر.

وقوله: **«بالخيار»** أى: كل منهما يختار ما يُريد **«ما لم يتفرقا»** أى ما داما فى مكان العقد لم يتفرَّقا فإنهما بالخيار.

ومثاله: رجل باع على آخر سيارة بعشرة آلاف فما داما فى مكان العقد ولم يتفرَّقا فهما بالخيار إن شاء البائع فَسَخ البيع، وإن شاء المُشترى فسخ البيع...

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ١١٥-١٢٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٧٩) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٣٢) كتاب البيوع.

وذلك من نعمة الله سبحانه وتعالى وتوسيعه على العباد؛ لأن الإنسان إذا كانت السِّلعة عند غيره صارت غالية فى نفسه يحب أن يَحصُل عليها بكل وسيلة، فإذا حَصُلت له فربما تَزول رغبته عنها؛ لأنه أدركها، فجعل الشَّارع له الخيار لأجل أن يَتَرَوّى ويتزوّد بالتأنّي والنَّظر.

فما دام الرَّجلان لم يتفرّقا فهما بالخيار وإن طال الوقت لعموم قوله: «**ما لم يتفرقا**».

قوله: «**فإن صَدَقَا وبَيَّنَا**» إنْ صدقا فيما يَصِفان السِّلعة به من الصِّفات المرغوبة، وَبَيَّنَا فيما يَصِفان به السِّلعة من الصِّفات المكروهة.

فمثلاً لو باع له هذه السَّيَّارة، وقال: هذه السيَّارة جديدة موديلها كذا ونَظيفة وظل يَمْدَحُها بما ليس فيها نقول هذا كذب فيما قال...وإذا بَاعهُ السيَّارة وفيها عَيْبٌ ولم يخبره بالعيب نقول: هذا كتم ولم يُبين ... والبركة فى الصِّدق والبيان، فالفرق بين الصدق والبيان أن الصدق فيما يكون مرغوبًا من الصِّفَات ... والبَيان فيما يكون مَكْروهًا من الصِّفات، فكتمان العيب هذا ضد البيان ووصفه السِّلعة بما ليس فيها هذا ضد الصِّدق[1].

فالشاهد أنهما إن صدقا وبيَّنا فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيُبارك لهما في ذلك البيع .. سيُبارك للبائع في المال الذي أخذه ..وسيُبارك للمشتري في السلعة التي اشتراها سواء كانت شقة أوسيارة أو غير ذلك. وإن كتما عيوب السلعة وكذبا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يمحق بركة البيع .. فلا يجد البائع بركة في المال الذي أخذه .. ولا يجد المشتري بركة في السلعة التي اشتراها.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٧٣-١٧٤) بتصرف.

(٥) باب المُراقبة

۞ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

۞ «المراقبة»: دوام علم العبد، وتيقُّنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هى «المراقبة» وهى ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله.

۞ قال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظَّم الله، وتصغير ما صغَّر الله.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عَزَّوَجَلَّ.

المراقبة.. علم القلب بقرب الرب

۞ لما سُئل المحاسبى عن المراقبة قال: أولها علم القلب بقرب الرب (جل وعلا).

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ينبغى أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفى العمل، هل يحركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان لله تعالى، أمضاه، وإلا تركه ... وهذا هو الإخلاص).

۞ قال الحسن: رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

فهذه مراقبة العبد فى الطاعة، وهو أن يكون مخلصًا فيها، ومراقبته فى

المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته فى المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمةٍ لا بد له من الشكر عليها، ولا يخلو من بليَّةٍ لا بد من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة) (١).

موعظة بليغة

۞ قال العلامة محمد الأمين الشنقيطى رَحِمَهُ اللهُ: «..إذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه (جلَّ وعلا) ليس بغائبٍ عنه، وأنه مُطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوى لان قلبه، وخشى الله تعالى، وأحسن عمله لله (جَلَّ وعلا).

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله تبارك وتعالى صرح بأن الحكمة التى خلق الخلق من أجلها هى أن يبتليهم أيهم أحسنُ عملاً، ولم يَقُل: أيهم أكثر عملاً، فالابتلاء فى إحسان العمل، كما قال تعالى فى هذه السورة الكريمة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧].

وقال فى سورة المُلك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك:٢].

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التى خُلِقَ من أجلها هى أن يُبتلى: أى يُختبر بإحسان العمل فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه فى هذا الاختبار ... ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النبى ﷺ عن هذا ليُعلمه لأصحاب النبى ﷺ فقال: (أخبرنى عن الإحسان، ـ أى: وهو الذى خلق الخلق لأجل الاختبار فيه ـ فبيَّن النبى ﷺ أن الطريق إلى ذلك هو هذا الواعظ، والزاجر الأكبر الذى هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شىء مما يفعل

(١) إغاثة اللهفان (ص ٣٩٢).

خلقه، فقال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)].

هكذا فسَّر رسول الله ﷺ الإحسان تفسيرًا لا يستطيعه أحدٌ من المخلوقين غيره لما أعطاه الله تعالى من جوامع الكَلِم.

۞ وقال الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود:٥].

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه لا يخفى عليه شيء، وأن السر كالعلانية عنده ... فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر، وما يُعلَن، وما يُسَرّ، والآيات المبينة لهذا كثيرة جدًّا، كقوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] وقوله جل وعلا: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة:٢٣٥].

۞ واعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر، ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيبٌ عليهم، ليس بغائبٍ عما يفعلون.

وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلاً ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن ملكًا قتَّالاً للرجال، سفَّاكًا للدماء شديد البطش والنكال على مَن انتهك حُرمته ظلمًا ... وسيَّافه قائمٌ على رأسه، والنطع مبسوطٌ للقتل، والسيف يَقطُر دمًا، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يهم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مُطلع عليه؟! لا، وكلا، بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وَجِلَةً قلوبهم، خاشعةً عيونهم، ساكنة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.

جوارحهم خوفًا من بطش ذلك الملك[١].

ولا شك ـ ولله المثل الأعلى ـ أن رب السموات والأرض (جل وعلا) أشد علمًا، وأعظم مراقبة، وأشد بطشًا، وأعظم نكالاً وعقوبة من ذلك الملك... وحِماه فى أرضه محارمه)[٢]. اهـ.

ما الذى يُعينك على مراقبة الله (جل وعلا)؟

وأخيرًا: ما الذى يُعينك على مراقبة الله (جل وعلا)؟.

۞ إن من أعظم الأشياء التى تُعينك على مراقبة الله أن تتعرف على الله بأسمائه وصفاته... فإذا علمت أن الله هو الرقيب الحسيب الشهيد المُحصى العليم السميع البصير كان ذلك حاديًا لأن تستحضر رقابته عليك فى كل زمانٍ ومكان.. وهذا هو الترجمة الحقيقية لقول النبى ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٣].

۞ **وإن مما يعينك على مراقبة الله (جل وعلا)**: البُعد عن أصدقاء السوء والحرص على الرفقة الصالحة... ومن هنا جاءت وصية الحبيب ﷺ: «**لاَ تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**»[٤].

۞ **وإن مما يُعينك على مراقبة الله (جل وعلا)**: الخوف من سوء الخاتمة فإن الخوف من سوء الخاتمة طيَّر نوم العابدين وجعلهم دائمًا خائفين وَجِلين يخشون من سوء الخاتمة.. فكان أحدهم يظل الليل كله يقرأ قوله تعالى: ﴿وَبَدَا

(١) ونظير ذلك ما استحدث فى المستشفيات والمصانع والمحلات التجارية حيث تُبث الكاميرات التليفزيونية فى شتَّى المواقع لمراقبة العمال واللصوص، الذين ينزجرون بذلك لاحتمال تسلط الكاميرا عليهم وبالتالى انكشاف أمرهم ... ولله المثل الأعلى.

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٩، ١٠) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.

(٤) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٣٤١).

﴿لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٧٤] ويبكي خوفًا من سوء الخاتمة.

وكان النبي ﷺ يدعو ويقول: «..وأعُوذُ بِكَ أنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ المَوْتِ»[1].

بل كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يا مُقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»[2].

۞ وإن من أعظم الأسباب التي تعينك على مراقبة الله (جل وعلا):

استحضار نعيم الجنة وعذاب النار... فالعاقل هو الذي يحاسب نفسه في الدنيا ويُلزمها بطاعة الله لكي يفوز بالنعيم والرضوان في جنة الرحيم الرحمن (جل وعلا).. فكل نعيمٍ دون الجنة سراب وكل عذابٍ دون النار عافية.

(٦١) فالأوَّلُ: عَنْ عُمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، قال: بَيْنما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْد رسولِ الله ﷺ، ذَات يَوْمٍ إذْ طَلع عَلَيْنَا رجُلٌ شَديدُ بياض الثّيابِ، شديدُ سواد الشَّعر، لا يُرَى عليْه أَثَر السَّفرِ، ولا يَعرفُهُ منَّا أحدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النَّبيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْه إلَى رُكبتَيْه، وَوَضع كفَّيْه عَلَى فخذيه وقال: يا محمَّدُ أَخبِرني عن الإسلام فقالَ رسولُ الله ﷺ: «الإسلامُ أنْ تَشْهَدَ أن لا إِلَهَ إِلَّا الله، وأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وتَحُجَّ الْبيْتَ إنِ استطَعتَ إِلَيْهِ سَبيلاً». قال: صدَقتَ. فَعجبْنا لَهُ يسْأَلُهُ ويصدِّقُهُ، قَالَ: فَأخبرني عن الإيمان. قَالَ: «أنْ تُؤْمن بالله وملائِكتِهِ، وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ، والْيوم الآخر، وَتُؤْمِنَ بالْقَدر خَيْره وشَرِّه». قال: صدقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْني عَنِ الإحسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعبُدَ الله كَأَنَّكَ تَراهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ». قال: فأخْبرْني عن السَّاعة. قَالَ: «مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعلَمَ مِن السَّائِلِ». قَالَ: فَأخْبرني عَنْ أَمارَاتِها. قَالَ: «أنْ تلدَ الأَمَةُ ربَّتَها، وَأنْ تَرى الْحُفَاةَ الْعُراةَ الْعالَةَ رعاء الشَّاء يتطاولُون في

---

(١) صحيح: رواه النسائي والحاكم، من حديث أبي اليسر رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٢٨٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٨٠١)، والسلسلة الصحيحة (٢٠٩١).

الْبُنيانِ» ثُمَّ انْطلَقَ، فلبثْتُ مليًّا، ثُمَّ قَالَ: «يا عُمرُ، أتدرى مَنِ السَّائِلُ؟» قلتُ: الله ورسُولُهُ أَعلمُ قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعلِّمكُم دِينكُمْ»(١).

۞ هذا الحديث حديثٌ عظيم أيضًا، سمَّاه بعض أهل العلم أم السُّنة، يعنى: كما فى القرآن أم القرآن، فهذا الحديث أم السنة؛ لأن جميع السُّنة تعود إلى هذا الحديث.

فإن الحديث فيه بيان العقيدة، والعقيدة مبنية على أركان الإيمان الستة، وفيه بيان الشريعة، وذلك بذكر أركان الإسلام الخمسة ... وفيه ذكر الغيبيات والأمارات؛ بل قبل ذلك فيه ذكر آداب السلوك، والعبادة، وصلاح توجيه القلب، والوجه إلى الله (جَلَّ وعلا) بذكر الإحسان، وفيه ذكر الساعة وأمارتها، وهذا نوع من ذكر الأمور الغيبية ودلالات ذلك.

۞ **قال عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: «بينما نحن جُلوسٌ عند رسول الله ﷺ» هكذا كان الصحابة يجلسون عند رسول الله ﷺ ليتعلموا بين يديه.. وذلك لأن النبى ﷺ كان لا يُضيع وقته أبدًا.. فهو إما مع أصحابه يُعلمهم ويُزكيهم.. وإما مع أهله يعلمهم ويرعى شئونهم.. وإما فى الجهاد فى سبيل الله.. وإما فى الطاعة والعبادة ... فواجبٌ على كل مسلمٍ أن يتشبه بالنبى ﷺ وأن يُحافظ على وقته؛ لأن الوقت هو الحياة وهو أغلى ما يمتلكه العبد فى هذه الحياة الدنيا.

۞ المهم أنه بينما كان الصحابة جالسين عند النبى ﷺ: «إذ طلع عليهم رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر».

فى هذا مدح لهذه الصفة وإحداهما مكتسبة والأخرى جِبلِّية ... أما شدة

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.

ومعنَى: «تلدُ الأَمةُ ربَّتَها» أىْ: سيِّدتَها، ومعناهُ: أنْ تكثُرَ السَّرارِى حتَّى تَلد الأمةُ السُّرِّيةُ بنتًا لسيدها... وبنتُ السَّيِّد فى معنَى السَّيِّد ... وقِيل غيرُ ذَلكَ - و«الْعَالَةُ»: الْفُقراءُ. وقولُهُ: «مَلِيًّا» أىْ: زمانًا طويلاً، وكانَ ذلك ثَلاثًا.

سواد الشعر، فهذه جبلية لا تُكتَسَب، ولا يجوز أن يصبغ بالسواد لمن ليس بذى سواد، وأما شدة بياض الثياب، فسياق هذا الحديث يقتضى مدح مَن كان على هذه الصفة ... ولهذا كان النبى ﷺ يحب الثياب البيض، وكان يلبسها، وأمر بتكفين الموتى فيها - عليه الصلاة والسلام -(١).

قال: «ولا يُرى عليه أثر السفر» يعنى: أنه لا يعرفونه فى المدينة، وأتى بهذه الصفة الجميلة شدة سواد الشعر، ليس عليه أثر غبار أو تراب.

وعادة المسافر أن لا يكون كذلك، وأيضًا «شديد بياض الثياب» كأنه خرج من بيته فى نظافة أهله الساعة، فكيف يكون ذلك؟ فإذًا فى قوله: «ولا يرى عليه أثر السفر» إشعار بأنه مُستغرب أن يكون على هذه الصفة؛ لهذا قال بعدها: «ولا يعرفه منا أحد» وقد جاء فى بعض الروايات أن جبريل عليه السلام كان ربما أتاهم على صورة دحية الكلبى (أحد الصحابة) فيسأل النبى ﷺ فيجيب، وهذا غير مُرادٍ هنا؛ لأنه لا يتوافق مع قوله: «ولا يعرفه منا أحد» خلافًا لمن قال غير ذلك.

وهذا فيه فضل التعليم، فإن جبريل عليه السلام أتى متعلمًا ومُعلِّمًا ... متعلمًا من جهة الهيئة والسؤال والأدب، ومعلمًا حيث سأل لأجل أن يستفيد الصحابة -رضوان الله عليهم- وتستفيد الأمة من بعدهم(٢).

۞ قوله: «حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند رُكبتيه إلى رُكبتيه» أى: أسند جبريل عليه السلام رُكبتيه إلى رُكبتى النبى ﷺ.

«ووَضع كفَّيه على فخذيه» قال العلماء: وضع جبريل كفَّيه على فخذى نفسه لا على فخذى النبى ﷺ ... وذلك من كمال الأدب فى جلسة المتعلم أمام

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٠٦١)، والترمذى (٩٩٤)، وابن ماجه (١٤٧٢)، وأحمد (٢٢٢٠)، وصححه الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٢٣٦)، ولفظه: «**البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم**».

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ٥٢-٥٣) والشرح للشيخ صالح آل الشيخ.

المُعلم، بأن يجلس بأدب.

وفى هذا أن طالب العلم ينبغى له أن يكون مُهيِّئًا نفسه، ومهيئًا المسؤول للإجابة على سؤاله فى حُسن الجلسة، وفى حسن وضع الجوارح، وفى القرب منه، وهذا نوع من الأدب المهم، فإن سؤال طالب العلم للعالِم، أو سؤال المتعلم لطالب العلم له أثر فى قبول العالِم للسؤال، وفى انفتاحه للجواب.

۞ وقد ذُكر فى آداب طلب العلم، وفى الكلام عليه أن بعض العلماء من علماء السلف كانوا يَنشطون لبعض تلاميذهم فيعطونه، وبعضهم لا يَنشطون له فيعطونه بعض الكلام الذى يكون عامًّا، أو لا يكون مكتملًا من كل جهاته... وذلك راجع إلى حسن أدب طالب العلم أو المتعلم.

فإنه كلما كان المتعلم أكثر أدبًا فى جلسته، وأكثر أدبًا فى لفظه، وفى سؤاله كان أوقع فى نفس المسؤول؛ فيحرص ويتهيأ نفسيًّا لجوابه؛ لأنه مَن احتَرَم احترُم، ومن أَقبل أُقبل عليه .. فهذا فيه أن نتأدب جميعًا بهذا الأدب[1].

۞ المهم أنه جلس هذه الجلسة ثم قال: «يا محمد أخبرنى عن الإسلام»، ولم يَقُل: يا رسول الله أخبرنى، فهذا صنيع أهل البادية الأعراب؛ لأن الأعراب إذا جاءُوا إلى النبى ﷺ يقولون: يا محمد.

أما الذين سَمِعُوا أدب الله عَزَّوَجَلَّ لهم فإنَّهم لا يقولون: يا محمد، وإنَّما يَقُولون: يا رسول الله؛ لأنَّ الله قال فى كتابه: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣]. وهذا يشمل دعاءه عند النداء باسمه ويشمل دُعَاءَه إذا أَمَرَ أَوْ نَهَى .. فلا نجعل أمْره كأمْرِ النَّاس إنْ شِئنا امتثلنا وإن شِئْنَا تَرَكْنَا ولا نجعل نهيه كنهى النَّاس إن شئنا تَركنا وإن شئنا فعلنا.

۞ **وقال: «يا محمد، أخبرنى عن الإسلام»**، أى: ما هو الإسلام.

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص ٥٣).

فقال النبى ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» شهادة (أن لا إله إلا الله) و (أن محمدا رسول الله) هى الركن الأول من أركان الإسلام، ومعنى (لا إله إلا الله): لا معبود بحقٍّ إلا الله، وهى نفيٌ وإثبات. (لا إله) نافيًا جميع العبادة لغير الله، (إلا الله) مُثبتًا جميع العبادة لله وحده لا شريك له.

وأما كلمة (محمد رسول الله) فمعناها: الإقرار برسالة محمد ﷺ والإيمان بها والانقياد لها قولًا وفعلًا واعتقادًا، واجتناب كل ما ينافيها من الأقوال والأعمال والمقاصد والتروك ... وبعبارة أخرى معناها: طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يُعبَد الله إلا بما شرع[1].

وهذه الكلمة أَرسل الله بها جميع الرسل، فقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. أى: ابتعدوا عن الشرك.

هذه الكلمة إذا حققها الإنسان وقالها مَن قلبه ملتزمًا بما تقتضيه من الإيمان والعمل الصالح فإنه يدخل الجنة بها.

قال النبى ﷺ: «مَنْ كانَ آخِرَ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلا الله دَخَلَ الجَنَّة».

۞ وقوله: «وتقيم الصلاة» فهذا هو الركن الثانى.

فإن الصلاة هى أعظم الأركان بعد الشهادتين وهى أم العبادات وميزان تعظيم الدين فى قلب المؤمن ... فهى التى أمر الله بها وهى الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهى ملجأ المؤمن فى الكربات وهى التى يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسماوات وهى أمنية المعذَّبين والأموات وهى العاصمة من الشهوات والناهية عن المنكرات

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٨٦-٨٧) فتوى رقم (٦١٤٩).

وهى الحادى للنعيم المقيم فى الجنات.

والصلاة سُميت صلاة لأنها صلة بين العبد وبين ربه عَزَّوَجَلَّ.. ولذا فإن الإنسان إذا قام يُصلى فإنه يُناجى ربه ويحاوره.. كما ثبت فى الحديث الصحيح أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِى عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **قَالَ: مَجَّدَنِى عَبْدِى، فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ**»[1].

فتأمل معى تلك المحاورة والمناجاة التى تكون بين العبد وبين ربه جلَّ وعلا.. ومع ذلك فالكثير منا فى هذه المُناجاة مُعرضٌ بقلبه مشغولٌ بحُطام الدنيا الزائل مع أنه يُناجى مَن يعلم ما فى الصدور عَزَّوَجَلَّ.

إن الصلاة شأنها عظيم عند الله (جل وعلا) ولذلك فقد تميزت على ما عداها من الفرائض بخصائص لا تُعد ولا تُحصى.

وحسبُنا أنها العبادة الوحيدة التى منحها الله لنبيه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بلا واسطة من فوق سبع سماوات لعلو قدرها ومكانتها عند الله (جل وعلا) فهى الفريضة الوحيدة التى فُرضت فى السماء.

۞ وكانت الصلوات المفروضة خمسين صلاة.. فظل النبى ﷺ يسأل ربه التخفيف حتى جعلها خمس صلوات ولكنها بأجر وثواب خمسين صلاة.

وليس هذا من قبيل الحَسَنة بعشر أمْثالها، بل من قبيل الفعل الواحد يجزئ عن خمسين فعلاً.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٩٥) كتاب الصلاة.

فالخمس صَلوات هذه عن خَمْسين صلاة، فكأنَّما صلينا خمسين صلاة، كل صلاة الحَسَنة بعشر أمثالها، لأنَّه لو كان هذا من باب مُضاعفة الحَسَنَات لم يكن هناك فَرْقٌ بين الصَّلوات وغيرها، لكن هذه خاصة ... وهذا يدل على عِظَم هذه الصلوات، ولهذا فرضها الله على عباده فى اليوم والليلة خمس مرات لا بُدَّ منها... لَا بُدَّ أن تكون مع الله عَزَّ وَجَلَّ خَمْس مَرَّات فى اليوم تُنَاجِيه.

لو أن أحدًا من الناس حَصَلَ لَهُ مُقَابلة بينه وبين الملك خمس مرّات باليوم لَعُدَّ ذلك من مناقبه ولفرح بذلك.

أنت تناجى ملك الملوك عَزَّ وَجَلَّ فى اليوم خمس مرات على الأقل، فلماذا لا تفرح بهذا! احمد الله على هذه النِّعمة وأقم الصلاة.

۞ وقول النبى ﷺ: «**وتُقِيمَ الصَّلاة**» يعنى تأتِى بها قويمة سَالِمَة بِشُرُوطها وأرْكَانِها وواجباتها[١].

لقد بلغت الصلاة مبلغًا عظيمًا وقدرًا عاليًا فى قلب النبى ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبُنا أن نتأمل قول النبى ﷺ: «**حُبِّب إلىَّ من دنياكم: النساء والطِّيب وجُعلت قُرة عينى فى الصلاة**»[٢].

قال المروزى: ولو لم يستدل المؤمن على أن الصلاة أحب الأعمال إلى الله إلا بما ألزم قلب حبيبه المصطفى محمد ﷺ من حب الصلاة وجعل قرة عينه فيه دون سائر الأعمال كلها، وإن كان مُحبًّا لجميع الطاعات، ولكنه خص الصلاة فأخبر أن قُرة عينه جُعلت فى الصلاة لربه لكفاه بذلك دليلاً[٣].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٩١-١٩٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٣) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٣١).

وقد كان النبى ﷺ يفزع إلى الصلاة.... ففزع إليها ليلة الأحزاب.

قال حذيفة رضي الله عنه: «رجعت إلى النبى ﷺ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل فى شملة يصلى، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ صلَّى»(١)

وفزع إليها يوم بدر:... عن (علىٍّ) رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح.

۞ وكان يفزع إليها كذلك عند تجدُّد النعم.

فمن ذلك أن الله عز وجل لما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات شكرًا لله عز وجل.

وكان ﷺ يحب الصلاة حُبًّا جمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»(٢).

بل إنه ﷺ فى مرض الموت وفى آخر لحظات حياته يُغشَى عليه ثم يفيق ويقول: «**أصلَّى الناس؟**» فيقولون له: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، ويُغشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «**أصلى الناس؟**»(٣).

وتأملوا معى كيف كانت صلاته ﷺ كما وصفها حذيفة رضي الله عنه.

- **روى مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ** رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعلَى»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ(١).

وفى رواية للنسائى: لا يمر بآية تخويف أو تعظيم لله عَزَّ وَجَلَّ إلا ذكره.

وروى مسلم عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ قوما من جُهينة، فقاتلوا قتالاً شديدًا»... الحديث، وفيه: «وقالوا -أى: المشركون- إنه ستأتيهم صلاة هى أحب إليهم من الأولاد»(٢).

ولكونها كانت «قُرة عينه ﷺ كان ﷺ يُطيل القيام والتهجُّد، ولا يَقوى على مُفارقتها».

۞ قوله: «وتُؤتى الزكاة»:

نحن نعلم أن الناس لا يستوون فى أمر الدنيا... فمنهم الغنى ومنهم الفقير.

ومن عظمة هذا الدين أنه بثَّ روح الرحمة بين أبنائه حتى يرحم القوىُّ الضعيف ويرحم الغنُّى الفقير فيعطيه شيئًا يسيرًا من ماله ليستعين به على أمور دنياه...

وحتى يَنشط الغنى لفعل الخير أجزل الله له العطاء والأجر والثواب.. هذا غير البركة التى تدب فى ماله وأن الله يُخلفه خيرًا فى ماله فى الدنيا ويرزقه الأجر والثواب فى الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

والزكاة: جُزءٌ بَسيط يؤدى بها الإنسان رُكنًا من أركان الإسلام يُطَهِّر بها نفسه

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٤٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

من البُخل والرَّذيلة ويُطهِّر بها صفحات كتابه من الخطايا ... كما قال النبى ﷺ: «**الصَّدَقَةُ تُطْفِئ الخطيئة كَمَا يُطْفِئ المَاء النَّار**»(١).

وأفضل الصَّدقات الزَّكاة ... فَدِرهم تُخرجه فى زكاتك أفضل من درهم تُخرجه تطوعًا؛ لأنَّ الله تعالى قال فى الحديث القُدسى: «**مَا تَقَرَّب إِلَىَّ عَبْدى بِشَىءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ ممَّا افْتَرَضتُه عَلَيه**»(٢) وَرَكْعَة من صلاة مفروضة أفضل من رَكْعة من صَلاة تَطَوّع.

والزكاة مأخوذة من الزكاء، وهو: النماء... زكا الشىء: إذا نما، وزاد، ورجلٌ زكى، أى: زائد الخير .. وسُمى إخراج جزء من المال زكاة، أى: زيادة مع أنه نقصٌ منه؛ لأنها تكثر بركته بذلك، أو تُكثر أجر صاحبه.

وقيل: الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يُقال زكا فلان: أى: طَهُر(٣).

قال الراغب الأصفهانى: أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية ... يُقال: زكا الزرع يزكو إذا حصل منه نمو وبركة.

ومنه الزكاة لما يُخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء.

وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة أو لتزكية النفس - أى: تنميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعًا فإن الخيرين موجودان فيها.

وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق فى الدنيا الأوصاف المحمودة، وفى الآخرة الأجر والمثوبة(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: فإن التزكى هو التطهُّر والتبرُّك بترك السيئات

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٦).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.
(٣) فتح القدير: الشوكانى (١/ ١٢١).
(٤) انظر غريب القرآن للأصفهانى (١/ ٢١٣).

الموجب زكاة النفس كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] ولهذا تُفسَّر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإماطة ... والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين: إزالة الشر وزيادة الخير وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان(١).

۞ وقد يسأل سائل: ما هي الحكمة من مشروعية الزكاة؟ وما هي ثمرات الزكاة؟

والجواب: شُرعت الزكاة لحكمة سامية، وأهداف نبيلة، لا تُحصَى كثرة، منها:

(١) تطهير المال وتنميته، وإحلال البركة فيه، وذهاب شرِّه ووبائه، ووقايته من الآفات والفساد.

(٢) تطهير المُزكِّي من الشُّح والبُخل، وأرجاس الذنوب والخطايا، وتدريبه على البذل والإنفاق في سبيل الله.

(٣) مواساة الفقير، وسد حاجة المعوزين والبائسين والمحرومين.

(٤) تحقيق التكافل والتعاون والمحبة بين أفراد المجتمع، فحينما يعطى الغني أخاه الفقير زكاة ماله يستلُّ بها ما عسى أن يكون في قلبه من حقد وتمنٍّ لزوال ما هو فيه من نعمة الغِنى، وبذلك تزول الأحقاد ويَعُم الأمن.

(٥) إن في أدائها شكرًا لله تعالى على ما أسبغ على المسلم من نعمة المال، وطاعة لله عَزَّوَجَلَّ في تنفيذ أمره.

(٦) أنها تدل على صدق إيمان المُزكي؛ لأن المال المحبوب لا يخرج إلا لمحبوب أكثر محبة ... ولهذا سُميت صدقة؛ لصدق طلب صاحبها لمحبة الله، ورضاه.

(٧) أنها سبب لرضا الرب، ونزول الخيرات، وتكفير الخطايا، وغيرها(٢).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٨).

(٢) الفقه الميسر (ص ١٨٢).

وفى الزكاة أيضًا إغناء للفقراء عن التَّسَلُّط؛ لأنَّ الفقير إذا رأى أن الغنىّ لا يُعطيه شيئًا فإنَّه يُخشَى منه أن يتسلَّط وأن يكسر الأبواب ويَنْهب الأموال لأنَّه لَا بُدَّ أن يَعيش فيأكل ويشرب، فإذا كان لا يُعطَى شيئًا فإن الجوع والعَطش والعُرى يدفعونه على أن يتسلط على الناس بالسَّرقة والنَّهب وغير ذلك.

وفى الزكاة أيضًا: جَلْبٌ للخيرات من السَّماء ... فإنه قد ورد فى الحديث: «**مَا مَنَع قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ مِن السَّمَاء**»(١).

فإذا أدَّى النَّاسُ زَكاة أموالهم أنزل الله لهم بركات من السَّماء والأرض وَحَصَلَ فى هذا نُزُول المطر ونَبَاتُ الأرْض وشبع المَوَاشى وسَقى النَّاس بهذا الماء الذى ينْزل من السَّماء وغير ذلك من المصالح الكثيرة.

وفى الزكاة أيضًا: إعانة للمجاهدين فى سبيل الله ... لأن من مصارف الزكاة الجهاد فى سبيل الله ... كما قال الله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وفى الزكاة تحرير العَبيد فإنَّ الإنسان يجوز له أن يَشْتَرى عبدًا مملوكًا من الزكاة فيُعتِقه؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠].

ومن بركات الزكاة: ما أخبر الله تعالى به أن رحمته كُتبت للذين يؤتون الزكاة فقال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ** ١٥٦﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وجعل إسلام الكافر لا تتحقق له الأخوة الدينية إلا بعد إقامة الصلاة وإيتاءه للزكاة ... فقال تعالى: ﴿**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ**﴾ [التوبة: ١١].

أن الزكاة سبب للحصول على طعم الإيمان... قال ﷺ: «**ثلاثٌ مَنْ فعلهن فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان: مَنْ عَبَد الله وحده وأنه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبة بها**

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٧٨).

نفسه وافدة عليه كل عام»(١).

وهى سبب عظيم فى قضاء الحوائج وتفريج الكربات.

قال ﷺ: «**وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاللهُ فِي عَونِ العَبدِ مَا دَامَ العَبْدُ فِي عَونِ أَخِيهِ**»(٢).

أنها تزكى المال وتُنميه، وتكون سببًا فى البركة فى المال ... كما فى الحديث: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَة مِن مَالٍ**»(٣).

وفى الزكاة: فَكُّ الذِّمم من الدُّيون ... فكم من إنسان ابْتُلى بتراكم الديون عليه فتؤدَّى عنه من الزكاة فيحصل فى هذا خير كثير ... فِكاكٌ لِذِمَّته وَرَدُّ حقٍّ لمن له الحق.

وفى الزكاة: إعانة المُسَافرين الذين تَنْقَطع بهم السُّبل ... فقد يضيع مال المسافر الذى أتى به معه ولا يجد مَا يُوَصِّله إلى بلده، فهذا يُعطَى من الزكاة مَا يُوصله إلى بَلَده ولو كان غنيًّا فى بلده.

أنها سبب دعاء الملائكة... فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»(٤).

أنها سبب فى اتقاء النار: عن عدى بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وينظر أشأم مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى**

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٤١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٤٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة.

إِلاَّ النَّارِ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(١).

أنها من أسباب دخول الجنة ... فقد جاء رجل إلى الرسول ﷺ، وقال: دُلنى على عملٍ أعمله يدنينى من الجنة ويباعدنى من النار، فقال الرسول ﷺ: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتَصِل ذا رحمك**»، فلما أدبر الرجل، قال الرسول ﷺ: «**إن تمسَّك بما أُمر دخل الجنة**»(٢).

مصارف الزكاة

مصارف الزكاة ثمانية أوردها الله (جل وعلا) فى هذه الآية.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وإيضاح هذه الأصناف، كما يلى:

(١) الفقراء:

جمع فقير، وهو مَن ليس لديه ما يَسُدّ حاجته، وحاجة مَن يعول، من طعام وشراب وملبس ومسكن، بألا يجد شيئًا، أو يجد أقل من نصف الكفاية، ويُعطَى من الزكاة ما يكفيه سنة كاملة.

(٢) المساكين:

جمع مسكين، وهو مَن يجد نصف كفايته أو أكثر من النصف، كمن معه مائة، ويحتاج إلى مائتين،.... ويُعطَى من الزكاة ما يكفيه لمدة عام.

(٣) العاملون عليها:

جمع عامل، وهو مَن يبعثه الإمام لجباية الصدقات، فيعطيه الإمام ما يكفيه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٩) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣) كتاب الإيمان.

مدة ذهابه وإيابه ولو كان غنيًّا... لأن العامل قد فرَّغَ نفسه لهذا العمل، والعاملون هم كل مَن يعمل فى جبايتها، وكتابتها، وحراستها، وتفريقها على مستحقيها.

(٤) المؤلفة قلوبهم:

وهم قوم يُعطَون الزكاة؛ تأليفًا لقلوبهم على الإسلام إن كانوا كفارًا، وتثبيتًا لإيمانهم إن كانوا من ضعاف الإيمان المتهاونين فى عباداتهم، أو لترغيب ذويهم فى الإسلام، أو طلبًا لمعونتهم أو كَفِّ أذاهم.

(٥) فى الرقاب:

جمع رقبة، والمراد بها العبد المسلم أو الأَمة... يُشترى من مال الزكاة ويُعتَق... أو يكون مُكاتبًا فيُعطَى من الزكاة ما يسدد به نجوم كتابته؛ ليصبح حُرًّا نافذ التصرف، وعضوًا نافعًا فى المجتمع، ويتمكن من عبادة الله تعالى على الوجه الأكمل... وكذا الأسير المسلم يُفَك من الأعداء من مال الزكاة.

(٦) الغارمون:

جمع غارم، وهو المَدين الذى تحمَّل دَينًا فى غير معصية الله، سواء لنفسه فى أمرٍ مباح، أو لغيره كإصلاح ذات البين، فهذا يُعطَى من الزكاة ما يسدد به دَينه... والغارم للإصلاح بين الناس يُعطَى من الزكاة، وإن كان غنيًّا.

(٧) فى سبيل الله:

المراد به الغُزاة فى سبيل الله المتطوعون الذين ليس لهم راتب فى بيت المال... فيُعطَون من الزكاة، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء.

(٨) ابن السبيل:

وهو المسافر المنقطع عن بلده الذى يحتاج إلى مال؛ ليواصل السفر إلى بلده، إذا لم يجد مَن يُقرضه[1].

(١) الفقه الميسر (ص٢٠٤-٢٠٥).

مَن هم الذين لا تُدفَع لهم الزكاة؟

(١) الأغنياء والأقوياء القادرون على العمل والكسب:

وذلك لقوله ﷺ: «**لا حظَّ فيها لغنى ولا لقوى مُكتسب**»[(١)].

(٢) الكفار:

وذلك لأن النبى ﷺ قال عن الزكاة: «**تُؤخَذ من أغنيائهم وتُرد على فقرائهم**».

أى: أغنياء المسلمين وفقرائهم دون غيرهم ... ولأن من مقاصد الزكاة إغناء فقراء المسلمين، وتوطيد دعائم المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع المسلم، وذلك لا يجوز مع الكفار.

(٣) الفاسق المبتدع أو العاصى... إلا إذا تاب:

حتى لا يكون المال عونًا له على معصية الله (جل وعلا):

(٤) الأصول والفروع والزوجة الذين تجب نفقتهم عليه: فلا يجوز دفع الزكاة إلى مَن تجب على المسلم نفقتهم كالآباء والأمهات، والأجداد والجدات، والأولاد، وأولاد الأولاد ... لأن دفع الزكاة إلى هؤلاء يُغنيهم عن النفقة الواجبة عليه، ويُسقطها عنه، ومن ثَمَّ يعود نفع الزكاة إليه، فكأنه دفعها إلى نفسه.

(٥) العبد:

لا تُدفع الزكاة إلى العبد؛ لأن مال العبد لسيده، فإذا أُعطى الزكاة انتقلت إلى ملك سيده؛ ولأن نفقته تَلزم سيده، ويُستثنى من ذلك: المُكاتَب فإنه يُعطَى من الزكاة ما يقضى به دَين كتابته.

(٦) آل النبى ﷺ:

لا تحل الزكاة لآل النبى ﷺ إكرامًا لهم لشرفهم.

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤١٩).

لقوله ﷺ: «**إنها لاتحل لآل محمدٍ إنما هى أوساخ الناس**»(١).

۞ **قوله** ﷺ: «**وتصوم رمضان**».

ورمضان شهرٌ بين شعبان وشوَّال ... وسُمِّى رمضان بهذا، قيل: لأنَّه كان أول تسمية الشُّهور فصادف أنَّه كان فى شدَّة الرَّمضاء والحر فسُمِّى رمضان.

وقيل: لأنه تُطْفأ به حرارة الذُّنوب لأن الذُّنوب حارة «**وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إيمَانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه**» والمهم أن هذا الشَّهر معلوم للمسلمين ذكره الله تعالى باسمه فى كتابه فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولم يذكر الله اسمًا لشهرٍ من الشهور سوى هذا الشهر.

وصيام رمضان ركن من أركان الإسلام لا يتم الإسلام إلا به ولكنه لا يجب إلا على مَن تمَّت فيه الشُّروط الآتية:

أن يكون مُسْلمًا، وأن يكون بالغًا، وعاقلاً، قادرًا، مُقيمًا، سَالمًا من الموانع، هذه سِتة شُروط:

- فإن كان صغيرًا لم يجب عليه الصَّوم.
- فإن كان مجنونًا لم يجب عليه الصَّوم.
- فإن كان كافرًا لم يجب عليه الصوم.

فإن كان عاجزًا فعلى قسمين:

أ - إن كان عجزه يُرجَى زَوَاله كالمرض الطَّارئ أفْطر ثم قضى أيامًا بعدد ما أفطر.

ب- وإن كان عجزًا لا يُرجى زَوَاله كالكِبَر والأمراض التى لا يُرجى برؤها فإنّه يُطْعم عن كل يوم مِسكينًا.

- ومقيمًا ضده المُسَافر...فالمسافر ليس عليه صوَم ولكنَّه يقضى من أيامٍ أُخر.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٧٢) كتاب الزكاة.

سالمًا من الموانع احترازًا من الحائض والنُّفساء، فإنَّهما لا يجب عليهما الصَّوم ولا يجوز لهما ولكنهما تقضيان.

صوم رمضان يكون بعدد أيامه إمَّا تسعة وعشرين وإمَّا ثلاثين حسب رؤية الهلال؛ لأنَّ النبى ﷺ قال: «**إِذَا رأَيْتُموه فَصُومُوا وَإِذَا رَأَيْتُموه فَأَفْطِرُوا فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُم فَأَكْمِلُوا العِدَّة ثَلاثين**»[1].

۞ **قوله: «وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».**

فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام.

الحجُّ فى اللغة: القصد.

وفى الشرع: التعبُّد لله بأداء المناسك فى مكانٍ مخصوص فى وقتٍ مخصوص، على ما جاء فى سنة رسول الله ﷺ.

ولا بُدَّ أن نعلم أن الحج فريضة على المسلم والمسلمة عند القدرة وهو أحد أركان الإسلام.

لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ولقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ولحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**بُنى الإسلام على خمس...**». وذكر منها الحج.

وقد أجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع مرة واحدة فى العمر.

۞ وأما عن العمرة: فمن أهل العلم من قال أنها سُنة مؤكدة.

ومنهم من قال أن العمرة واجبة على المسلم والمسلمة مرة فى العمر عند القدرة وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٠) كتاب الصوم، ومسلم (١٠٨١) كتاب الصيام.

والحج له شروط منها: البلوغ، والعقل، والإسلام، وَالحُرية، والاستطاعة... خمسة شروط، فإذا اخْتَلَّ شَرطٌ وَاحد منها فإنَّه لا يجب.

ولكن العجز عن الحج إن كان بالمال فإنَّه لا يجب عليه لا بنفسه ولا بنائبه.

وإن كان بالبدن ... إن كان عجزًا يُرجَى زوَاله انتظر حتى يُعافيه الله ويَزول المانع وَإن كان لا يُرجى زواله كالكِبَر، فإنَّه يلزمه أن يُنيب عنه مَن يأتى بالحج.... لأنَّ امرأة سألت النبى ﷺ قالت: إنَّ أبى أَدرَكَته فَرِيضة الله على عِبَادِهِ شيخًا لا يَثْبُت على الرَّاحلة أفأحج عَنه، قال: «**نعم**»[1].

فأقرها النبى ﷺ على أنها سمَّت هذا فريضة مع أنَّه لا يستطيع لكنه قادر بماله فقال لها الرسول: حُجِّى عنه.

هذه خمسة أركان هى أركان الإسلام.

۞ فقال جبريل للنبى ﷺ لمَّا أخبَره بذلك قال له: «صَدَقْتَ».

قال عمر: «فعجبنا له يسأله ويُصدقه».

وسبب تعجُّبهم أن هذا خلاف عادة السائل الجاهل ... إنما هذا كلام خبير بالمسئول عنه، ولم يكن فى ذلك الوقت مَن يعلم هذا غير النبى ﷺ.

۞ **قوله: «فأخبرنى عن الإيمان».**

والإيمان مَحِلُّه القلب والإسلام مَحِلُّه الجوارح ... ولهذا نقول: الإسلام عملٌ ظاهرى والإيمان أمرٌ باطنى فهو فى القلب.

فالإيمان: هو اعتقاد الإنسان للشَّىء اعتقادًا جَازمًا به لا يتطرَّق إليه الشَّك ولا الاحتمال.

فقال له: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمن بالله وملائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ، والْيوم الآخر، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَر خَيْره وشَرِّه**» هذه ستة أركان هى أركان الإيمان.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٥١٣) كتاب الحج، ومسلم (١٣٣٤) كتاب الحج.

❁ **قوله: «أن تُؤمن بالله»:** الإيمان بالله هو التصديق بأنه سبحانه موجود موصوف بصفات الجلال والكمال مُنَزَّه عن صفات النقص، وأنه واحدٌ حقٌّ صمد فردٌ خالق جميع المخلوقات مُتصرف فيما يشاء ويفعل فى مُلكه ما يُريد.

والإيمان بالملائكة: هو التصديق بأنهم عباد مُكرَمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

والملائكة: هم عَالَمٌ غيبى خلقهم الله سبحانه وتعالى من نُورٍ وجعل لهم أعمالاً خاصَّة ... كُلٌّ منهم يعمل بما أمَرَهُ الله بِهِ ... وقد قال الله فى ملائكة النَّار: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. فهم ليس عندهم اسْتِكبار عن الأمر ولا عَجْز عنه ... يفعلون مَا أُمِرُوا به وَيَقْدِرُون عليه بخلاف البَشَر.

❁ **وقوله: «وَكُتُبِه» وهو الرُّكن الثَّالث:**

والكتب: جمع كتاب والمراد به الكتاب الذى أنْزَلَهُ الله على الرُّسل، فكُلُّ رسُولٍ لَهُ كتاب كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]. وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

❁ **ويشمل الإيمان بالكتب عدة أمور:**

أولاً: الإيمان الجازم بأن كلها مُنَزَّلة من عند الله عَزَّوَجَلَّ على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين.

ثانيًا: الاعتقاد بأنها كلام الله عَزَّوَجَلَّ لا كلام غيره، وأن الله - تعالى - تكلم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الذى أراد ... فمنها المسموع منه من وراء حجاب بلا واسطة، ومنها ما يسمعه المَلَك ويأمره بتبليغه إلى الرسول البشرى.... كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا

﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

ومنها ما خطَّه بيده عَزَّوَجَلَّ ... كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

ثالثًا: الاعتقاد بكل ما فيها من الشرائع، وأنه كان واجبًا على الأمم الذين نزلت إليهم هذه الكتب الانقياد لها والحكم بما فيها.

رابعًا: الاعتقاد بأن جميع الكتب المُنزلة يُصدِّق بعضها بعضًا.

كما قال تعالى فى الإنجيل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال فى القرآن: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

خامسًا: الإيمان بأن نسخ الكتب الأولى بعضها ببعضٍ حق.

كما نُسخت بعض شرائع التوراة بالإنجيل .... قال الله - تعالى - فى حق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وكما نسخت شريعة الإسلام ما قبلها من الشرائع.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

سادسًا: ينبغى أن نعتقد كذلك أن نسخ القرآن بعض آياته ببعض حق كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٦].

سابعًا: الاعتقاد بأن القرآن لا يأتى بعده كتاب ينسخه، ولا مُغيِّر ولا مُبدل لشىءٍ من شرائعه بعده، وأن الله عَزَّوَجَلَّ قد تكفل بحفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

۞ ما هى الكتب المُنزلة التى أخبرنا الله بها؟

القرآن: وهو الكتاب المُنزَّل من الله على النبى محمد ﷺ.

التوراة: وهى الكتاب المنزل من الله على نبى الله موسى عليه السلام.

الإنجيل: وهو الكتاب المنزل من الله على نبى الله عيسى عليه السلام.

الزبور: وهو الكتاب المنزل من الله على نبى الله داود عليه السلام.

صحف إبراهيم عليه السلام.

۞ قوله: «ورُسله» هذا هو الركن الرابع.

الرُّسل هم البَشَر الذين أرسلهم الله إلى الخلق وجعلهم واسطة بينهم وبين عباده فى تَبْليغ شَرَائِعه ... وهم بشرٌ خُلقوا بين أبٍ وأُمٍّ إلا عيسى ابن مريم فإن الله خَلَقَهُ من أُمٍّ بلا أب. أرسلهم الله سبحانه وتعالى رَحمَةً بالعباد وإقامة للحجة عليهم كما قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

وهم عددٌ كثير أوَّلهم نُوح وآخرهم محمَّد ﷺ ... ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وقد صحَّ فى الصَّحيحين وغيرهما فى حديث الشفاعة: «**أَنَّ النَّاس يوم القيامة يأتون إلى نُوحٍ فيقولون له: أنْتَ أوَّل رَسُولٍ أرسَلَهُ الله إلى أهْل الأرض**».

أمَّا دليل كون النبى عليه الصلاة والسلام آخر الرُّسل فهو قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**أنا خاتم النبيين**»[1] ... فعلينا أن نُؤمن أن جميع الأنبياء صادقون فيما بلَّغوا به عن الله وفى رِسَالتهم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٥٣٥) كتاب المناقب، ومسلم (٢٢٨٦) كتاب الفضائل.

علينا أن نؤمن بأسْمَاء مَن عُيِّنت أسماؤهم لنا ومَن لم تُعَيَّن أسماؤهم لنا فإننا نؤمن بهم على سبيل الإجمال.

علينا أن نؤمن أن مَا مِن أُمَّة إلا أرسل الله إليها رسولاً لتقوم عليهم الحجة... كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وعلينا أن نُصَدِّق بكل ما أخبرت به الرُّسل إذا صَحَّ عنهم من جهة النَّقل ونعلم أنَّه حق.

وعلينا أن نتَّبع خاتمهم محمدًا ﷺ، لأنَّه هو الذى فُرض علينا اتِّباعه... قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فأمرنا الله باتِّباعه ... وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١][(١)].

والإيمان برسل الله: هو التصديق أنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى... أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم وأنهم بلَّغوا عن الله رسالاته، وبيَّنوا للمكلفين ما أمرهم الله به، وأنه يجب احترامهم، وأن لا يُفرق بين أحدٍ منهم.

۞ **والإيمان باليوم الآخر:** هو التصديق بيوم القيامة وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت والحشر والنشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وأنهما دارا ثوابه وجزائه للمحسنين والمسيئين إلى غير ذلك مما صَحَّ من النقل[(٢)].

والمراد باليوم الآخر هو اليقين التام بفناء هذا العالم وانتهاء الحياة الدنيا وإقبال الحياة الآخرة وأن الله سيبعث الناس جميعًا ليحاسب كل إنسانٍ على

---

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١/ ٢٣٨-٢٣٩).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ٤٧).

عمله.. فمنهم مَن يدخل الجنة ومنهم مَن يدخل النار.

۞ والإيمان باليوم الآخر واجب لأنه أحد أركان الإيمان الستة التى تُبنى عليها عقيدة المؤمن.

۞ **وقوله ﷺ: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره» هذا الركن السادس.**

القدر: هو تقدير الله سبحانه وتعالى، لِما يكون إلى يوم القيامة .. وذلك أن الله سبحانه خلق القلم فقال له: اكتب، قال: ربِّ، وما أكتب؟

قال: اكتب ما هو كائن ... فجرى فى تلك السَّاعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، فما أصاب الإنسان لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه، وقد ذكر الله هذا فى كتابه إجمالاً، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. من قبل أن نبرأها: من قبل أن نخلقها، أى: من قبل أن نخلق الأرض، ومن قبل أن نخلق أنفسكم، ومن قبل أن نخلق المصيبة فإن الله كتب هذا من قبل خلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنة.

۞ قال أهل العلم: ولا بد للإيمان بالقدر من أن تؤمن بكل مراتبه الأربع.

فالإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان، مَن أقرَّ بها جميعًا فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملاً، ومَن انتقص واحدًا منها أو أكثر فقد اختلَّ إيمانه بالقدر ... وهذه الأركان الأربعة هى:

۞ **المرتبة الأولى: العلم:**

فالله يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون .. وعلمُ الله تعالى أزلى لا أول له ولا ابتداء، ولا يزيد ولا ينقص .. فلا يخفى على الله شىء مهما دَقَّ، ولا يغيب عنه شىء مهما حُجب.

وهو عالِمٌ بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومَن منهم من أهل الجنة، ومَن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السموات والأرض.

وكل ذلك مقتضى اتصافه - تبارك وتعالى - بالعلم، ومقتضى كونه - تبارك وتعالى - هو العليم الخبير السميع البصير.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ [الحشر: ٢٢].

وقال: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

المرتبة الثانية: الكتابة:

وهذا أمرٌ ثابت إذ أن كل شيء قدَّره الله تعالى فى الكون مكتوب بعلم الله تعالى وحكمته قبل أن يُخلق جملة وتفصيلاً.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

عن أبى حفصة ﷺ قال: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يَا بُنَىَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى تَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ، قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». يَا بُنَىَّ إِنِّى سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّى»[١].

وهذا المكتوب جملة فى اللوح المحفوظ يُنسخ تفصيلاً، لكل فرد بما يَخُصه فى مواضع أخرى.

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٨).

وقد كان أول أمر الكتابة قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة... ودليل ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١).

۞ المرتبة الثالثة: المشيئة:

وهى الإرادة الكلية الشاملة لجميع المخلوقات، وفيها أنه لا يكون فى مُلك الله تعالى إلا ما يشاء .... فلا يقع فيه شيء كرهًا عن الله تعالى ولا بغير إرادته ولا بغير فعله وعلمه، بل كلٌّ بإرادته وفعله وتكوينه وأمره.. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ... قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

۞ المرتبة الرابعة: الخلق والإيجاد:

وهو القدرة على الإيجاد والإنشاء والتكوين، فكل شيء مخلوق لله تعالى بأمره وفعله وقوته وحكمته، لا يُنسَب شيء من ذلك لمخلوق...

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

۞ **قوله: «فأخبرنى عن الإحسان.** قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

الإحسان: ضد الإساءة ... والْمراد بالإحسان هنا إحسان العمل فبيَّن النبى عليه الصلاة والسلام أن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ... يعنى مثلاً تُصلِّى وكأنك ترى الله عز وجل .. وتُزكى وكأنَّك تَراه .. وتَصُوم وكأنَّك تراه.. وتحج وكأنَّك تراه.. وهكذا بقية الأعمال.

وكون الإنسان يعبد الله كأنه يَرَاهُ فإن ذلك دليلٌ على الإخلاص لله عز وجل

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

وعلى إتقان العمل فى متابعة الرسول ﷺ لأن كل مَنْ عَبَد الله على هذا الوَصْف فلابد أن يقع فى قلبه من محبة الله وتعظيمه ما يَحمله على إتقان العمل وإحكام العمل.

۞ «فَإِنْ لم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» أى: فإن لم تعبد الله على هذا الوصف فاعبده على سبيل الْمراقبة والخوف، «فإِنَّه يَرَاك» ومعلومٌ أن عبادة الله على وجه الطَّلب أكمل من عبادته على وجه الهرب.

فها هنا مرتبتان:

المرتبة الأولى: أن تعبد الله كأنَّك تراه، وهذه مرتبة الطَّلب.

والثانية: أن تعبده كأنك تعلم أنه يراك وهذه مرتبة الهرب، وكلتاهما مرتبتان عظيمتان، لكن الأولى أكمل وأفضل[(١)].

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا مِنْ جَوَامِع الْكَلِم الَّتِى أُوتِيهَا النَّبِيُّ ﷺ لِأَنَّا لَوْ قَدَّرنَا أَنَّ أَحدنَا قَامَ فِى عِبَادَة وَهُوَ يُعَايِن رَبّه سُبْحَانه وَتَعَالَى لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا مِمَّا يَقْدِر عَلَيْهِ مِنْ الْخُضُوع وَالْخُشُوع وَحُسْن السَّمْت وَاجْتِمَاعه بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنه عَلَى الِاعتِنَاء بِتَتْمِيمِهَا عَلَى أَحسَن وُجُوههَا إِلَّا أَتَى بِهِ فَقَالَ ﷺ: اعبُد الله فِى جَمِيع أَحْوَالك كَعِبَادَتِك فِى حَال الْعِيَان.

فَمَقْصُودُ الْكَلَام الْحَثُّ عَلَى الْإِخْلَاص فِى الْعِبَادَة وَمُرَاقَبَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِى إِتْمَام الْخُشُوع وَالْخُضُوع وَغَيْر ذَلِكَ. وَقَد نَدَبَ أَهْلُ الْحَقَائِقِ إِلَى مُجَالَسَة الصَّالِحِينَ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَانِعًا مِنْ تَلَبُّسه بِشَيْءٍ مِنْ النَّقَائِص اِحْتِرَامًا لَهُمْ وَاسْتِحْيَاءً مِنْهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يَزَالُ الله تَعَالَى مُطَّلِعًا عَلَيْهِ فِى سِرّه وَعَلَانِيَته ؟ ! !.

قَالَ الْقَاضِى عِيَاض رَحِمَهُ اللهُ: وَهَذَا الْحَدِيث قَد اشْتَمَلَ عَلَى شَرْح جَمِيع وَظَائِف الْعِبَادَات الظَّاهِرَة وَالْبَاطِنَة مِنْ عُقُود الْإِيمَان وَأَعمَال الْجَوَارِح

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٥٣).

وَإِخْلَاص السَّرَائِر وَالتَّحَفُّظ مِنْ آفَات الْأَعْمَال حَتَّى إِنَّ عُلُوم الشَّرِيعَة كُلّهَا رَاجِعَة إِلَيْهِ وَمُتَشَعبَة مِنْهُ(١).

۞ **ثم قال جبريل: «أخبرنى عن الساعة»** أي: عن قيام الساعة التى يُبعث فيها الناس ويُجازون فيها على أعمالهم ... فقال النبى ﷺ: «**مَا الْمسئول عنها بأعلم من السَّائل**».

«**المسئول عنها**» يعنى نفسه عليه الصَّلاة والسَّلام «**بأعلم من السَّائل**» يعنى جبريل...يعنى إذا كنت أنت يا جبريل تجهلها فأنا كذلك أجهلها.

فهذان رَسُولان كريمان أحدهما رسولٌ مَلَكى، والثَّانى رسُول بشرى وهما أكمل الرُّسُل.

فأكمل الرُّسل من الملائكة جبريل، وأكمل الرُّسُل من البشر محمد ﷺ، ومع ذلك فكلٌّ منهما ينفى أن يكون له علم بالسَّاعة؛ لأنَّ علم السَّاعة عند مَن بيده إقامتها عَزَّ وَجَلَّ وهو تبارك وتعالى كما قال الله فى آياتٍ متعددة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٦٣]. فعلمها عند الله، فمن ادَّعى علم السَّاعة فإنه كاذب، ومن أين له أن يعلم ورسول الله ﷺ لا يعلم وجبريل لا يعلم وهما أفضل الرسل، ولكن السَّاعة لها أمَارات كما قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد: ١٨]. أي: علاماتها.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله ﷺ: « **مَا الْمسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِن السَّائِلِ** » فِيهِ أَنَّهُ يَنْبَغِى لِلْعَالِمِ وَالْمُفْتِى وَغَيْرهمَا إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعلَم أَنْ يَقُول: لَا أَعلَمُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَنْقُصهُ بَلْ يُسْتَدَلّ بِهِ عَلَى وَرَعه وَتَقْوَاهُ وَوُفُور عِلْمه.

ولهذا لما أخبر النبى ﷺ جبريل أنَّه لا يعلم بذلك قال: «فأخبرنى عن

---

(١) مسلم بشرح النووى (١/ ٢٢٢-٢٢٣) بتصرف.

أماراتها» أى: علاماتها الدَّالة على قُربها.

فقال: «أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتها، وأن ترى الْحُفَاة الْعُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشاء يَتَطَاوَلُونَ فى البُنيان».

۞ الأول: «أن تلد الأمة ربَّتها».

فقيل: المراد به أن يستولى المسلمون على بلاد الكفر فيكثر التسرِّى فيكون ولد الأَمة من سيدها بمنزلة سيدها؛ لشرفه بأبيه.

وعلى هذا فالذى يكون من أشراط الساعة استيلاء المسلمين على المشركين وكثرة الفتوح والتسرِّى ... وقيل: معناه أن تَفسد أحوال الناس حتى يبيع السادة أمهات أولادهم ويكثر ترددادهن فى أيدى المشترين فربما اشتراها ولدها ولا يشعر بذلك.

فعلى هذا الذى يكون من أشراط الساعة غلبة الجهل بتحريم بيعهن.

وقيل: معناه أن يكثر العقوق فى الأولاد فيعامل الولد أُمه معاملة السيد أَمته من الإهانة والسبِّ(١).

۞ الثَّانى: «وأن ترَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ العالة رعاءَ الشَّاءِ يتطاوَلُونَ فِى الْبُنيان»:

الحفاة الذين ليس لهم نِعال من الفقر، والعُراة ليس لهم كسوة من الفقر، العَالة الفقراء يتطاولون فى البنيان يعنى أنهم لا يلبثون إلا أن يكونوا أغنياء يتطاولون فى البنيان حسًّا ومعنى.

حِسًّا بأن يرفعوا بنيانهم إلى السَّماء ... ومعنًى بأن يُحسنوها ويزينوها ويدخلوا عليها كل ما يكون من مُكَمِّلاتها، لأنّ لديهم وفرة من المال.

ثم انطلق جبريل عليه الصَّلاة والسلام ولبثوا ما شاء الله أن يلبثوا، ثم قال النبى ﷺ لعمر: «أتدرى مَنِ السَّائِلُ؟» قال: الله ورسوله أعلم.

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص ٤٨).

قال: «فإنَّه جبريل أتاكم يُعلمكم دينكم».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله ﷺ: «هَـذَا جِبْرِيـلُ أَتَـاكُمْ يُعَلِّمُكُـمْ دِيـنكُمْ» فِيـهِ أَنَّ الْإِيمَـانَ وَالْإِسْـلَامَ وَالْإِحْسَانَ تُسَمَّى كُلُّهَا دِينًا ... وَاعلَمْ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَجْمَعُ أَنْوَاعًا مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالْآدَابِ وَاللَّطَائِفِ بَلْ هُوَ أَصلُ الْإِسْلَامِ.

وَمِمَّا لَمْ نَذْكُرُهُ مِنْ فَوَائِدِهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ حَضَرَ مَجْلِسَ الْعَالِمِ إِذَا عَلِمَ بِأَهْلِ الْمَجْلِسِ حَاجَةً إِلَى مَسْأَلَةٍ لَا يَسْأَلُونَ عَنْهَا أَنْ يَسْأَلَ هُوَ عَنْهَا لِيَحصُلَ الْجَوَابُ لِلْجَمِيعِ ... وَفِيهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَرْفُقَ بِالسَّائِلِ وَيُدنِيَهُ مِنْهُ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ سُؤَالِهِ غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا مُنْقَبِضٍ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلسَّائِلِ أَنْ يَرْفُقَ فِي سُؤَالِهِ ... وَاللهُ أَعلَمُ.

(٦٢) الثَّاني: عن أبي ذَرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ، وأبي عبْد الرَّحْمنِ مُعاذِ بْن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عنْ رسولِ الله ﷺ،قال: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وأتْبعِ السَّيِّئَةَ الْحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»[1].

هذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق الله، وحقوق عباده، فإنَّ حقّ الله على عباده أن يتقوه حق تقاته.

وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه... فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه، وسخطه، وعقابه وقاية من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه.

ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات، وترك المحرمات والشُّبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهو أعلى درجات التقوى.

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح الجامع (٩٧).

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله تركُ ما حرم الله، وأداء ما افترض الله... فمَن رُزق بعد ذلك خيرًا فهو خيرٌ إلى خير.

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين، حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: أُوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ التى لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يُثاب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين.

وقال رجل ليونس بن عبيد أوصنى قال: أوصيك بتقوى الله، والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

۞ **وقوله** ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت**» مراده فى السر والعلانية حيث يراه الناس، وحيث لا يرونه .. ولذا كان من دعاء النبى ﷺ: «**أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة**».

فمَن عَلِمَ أن الله عَزَّوَجَلَّ يراه حيث كان، وأنه مُطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلانيته، واستحضر ذلك فى خلواته أوجب له ذلك ترك المعاصى فى السر.

كان وهيب بن الورد يقول: (خَفِ الله على قدر قدرته عليك، واستحِ منه على قدر قُربه منك).

وقال له رجل عِظْنى فقال: (اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك).

وصفوة القول أن يُقال أنه مما يُعين على التقوى: التدرُّب على مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ، وإحساس القلب بقربه واطلاعه فيستحى العبد عند ذلك من المعصية، ويبذل جهده فى أداء الطاعة على أحسن وجوهها.

۞ وهذه بعض الآثار فى تقرير هذا المعنى:

ذُكر عن أعرابى قال: (خرجتُ فى بعض الليالى المظلمة، فإذا بجارية جميلة،

فأردتها عن نفسها فقالت: ويلك أما كان لك زاجر من عقل إذا لم يكن لك زاجر من دين!! فقلت: إنه والله ما يرانا إلا الكواكب. فقالت: فأين مُكوكبها؟).

وسُئل الجُنيد بِمَ يُستعان على غضِّ البصر؟ قال: (بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظر إليه).

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تَقُل خلوت ولكن قُل عليَّ رقيبُ

ولا تحسبن الله يغفلُ ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ

❁ قوله ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

لما كان العبد مأمورًا بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ فى السر والعلانية مع أنه لا بد أن يقع منه أحيانًا تفريط فى التقوى إما بترك بعض المأمورات أو بارتكاب بعض المحظورات، فأمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة، وهو أن يتبعها بالحسنة....

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

وفى الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا أصاب من امرأة قُبْلةً، ثم أتى النبى فذكر ذلك له فسكت النبى ﷺ حتى نزلت هذه الآية فدعاه فقرأها عليه فقال رجل: هذه له خاصة؟ قال: «**بل للناس عامة**»(١).

❁ وفى الصحيحين عن النَّبىِّ ﷺ، قَالَ: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى ذَنْبِى، فَقَالَ الله تبارك وتعالى: أذنَبَ عبدى ذَنبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أىْ رَبِّ اغْفِرْ لِى ذَنْبِى، فَقَالَ تبارك وتعالى: أذنَبَ عَبدِى ذَنبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، قَد غَفَرْتُ لِعَبْدِى فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ**»، يعنى: ما دام على هذه الحال كلما أذنب ذنبًا استغفر منه(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٧٦٣) كتاب التوبة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٠٧) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧٥٨) كتاب التوبة.

❁ **قوله ﷺ: «وخالق الناس بخُلقٍ حسن».**

هذا من خصال التقوى ولا تتم التقوى إلا به... وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه. فإن كثيرًا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده فنَصَّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس ... فإنه ﷺ كان قد بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن مُعلِّمًا لهم، ومُفقهًا، وقاضيًا ... ومَن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مُخالقة الناس بخُلقٍ حَسَن ما لا يحتاج إليه غيره ممن لا حاجة للناس به.

وقد عدَّ الله تعالى مخالقة الناس بخُلقٍ حسن من خصال التقوى بل بدأ بذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

وجعل النبي ﷺ حسن الخلق أكمل خصال الإيمان.

قال ﷺ: « **أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا** »[١].

وأخبر النبي ﷺ أن صاحب الخُلق الحسن يبلغ بخُلقه درجة الصائم القائم... عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ**»[٢].

وأخبر أن حُسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان وأن صاحبه أحبُّ الناس إلى الله، وأقربهم من النبي ﷺ مجلسًا. قال ﷺ: « **مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ** »[٣].

وقال ﷺ: « **أَلاَ أُحَدِّثُكُم بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟** »

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٠).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٢٦).

ثَلاَثَ مَرَّاتٍ يَقُولُهَا، قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «أَحسَنُكُمْ خُلُقًا»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أكثرُ مَا يُدخِلُ النَّاس الْجَنَّةَ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»(٢).

قال الله عز وجل مادحًا نبيه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وفى الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ »(٣).

وبما أن رسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة فقد اتصف بالأوصاف الخُلقية المحمودة كالعلم، والحلم، والتواضع، والكرم، والصدق، والوفاء، وشدةِ الحياء، وحُسن المعاشرة، والآداب ... إلى غير ذلك من الخصال العَلِيَّة والأخلاق المرضية.

وهذه أمثلة لحسن خلق السلف رضي الله عنهم نختم بها شرح هذا الحديث الشريف.

شتم رجلٌ سلمان الفارسى فقال: (إن خَفَّت موازينى فأنا شَرٌّ مما تقول، وإن ثَقُلت موازينى لم يضرنى ما تقول).

وسَبَّ رجلٌ ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال: (يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها؟)

فنكَّس الرجل رأسه واستحى.

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله إذا قيل له: إن فُلانًا يقع فى عِرضك يقول: والله لأغيظنَّ مَن أمره – يعنى إبليس – ثم يقول: (اللهمَّ إن كان صادقًا فاغفر لى، وإن كان كاذبًا فاغفر له).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٦٥٠).

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٩٧٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٦٣) الثَّالثُ: عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كُنتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يومًا فَقال: «يا غُلامُ إِنِّي أُعلِّمكَ كَلِمَاتٍ: احفَظِ الله يَحفَظْكَ احفَظِ الله تَجِدهُ تُجاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَل الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله، واعلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجتَمعتْ عَلَى أَنْ ينْفعُوكَ بِشيْءٍ، لَمْ يَنْفعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَد كَتبَهُ الله لَكَ، وإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوك بِشَيءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بَشَيءٍ قد كَتَبَهُ الله عليْكَ، رُفِعَتِ الأَقلامُ(١)، وجَفَّتِ الصُّحُفُ(٢)»(٣).

وفى رواية غير التِّرْمِذيِّ: «احفظَ الله تَجِدهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى الله فى الرَّخاءِ يعرِفْكَ فى الشِّدةِ، واعلَمْ أنّ مَا أَخْطَأكَ لَمْ يَكُنْ ليُصيبكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُن لِيُخْطِئَكَ، واعلَمْ أنّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْب، وأَنَّ مَعَ الْعُسرِ يُسْرًا».

هذا الحديث جامع لوصايا عظيمة تحتاج إلى تدبُّر وعمل ... فتدبر معى تلك الوصايا الجليلة، وتحفَّز للعمل:

(١) **احفظ الله:** يعنى احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه.

احفظ صلاتك: وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ومدح المحافظين عليها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

احفظ طهارتك؛ فإنها مفتاح الصلاة،... عن ثوبان عن النبى ﷺ قال: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحصُوا واعلمُوا أن خير أعمالكم الصلاةُ ولا يُحافظ على الوُضوء إلا مُؤمنٌ**»(٤).

احفظ أيمانك: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، فإن الأيمان يقع الناس فيها كثيرًا، ويهمل كثير منهم ما يجب بها من كفارة وغيرها، فلا

(١) كناية عن تقدير المقادير قبل الخلق.
(٢) كناية عن الفراغ من كتابة المقادير.
(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى صحيح الجامع (٧٩٥٧).
(٤) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٥٢).

يحفظه ولا يلتزمه؛ فاحذر.

احفظ رأسك: وحفظ الرأس وما وعى يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات.

احفظ بطنك: وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على ما حرم الله سبحانه وتعالى... قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ويتضمن أيضًا حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب.

احفظ كُلَّك: وقد جمع الله ذلك كله في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

احفظ النواهي: ومن أعظم ما يجب حفظه من نواهي الله عَزَّوَجَلَّ اللسان والفرج... قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**»(١).

احفظ حدود الله: فإنك إن حفظت حدود الله وراعيت حقوقه يحفظك الله؛ فإن الجزاء من جنس العمل ... كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠](٢).

۞ أما حفظ الله عَزَّوَجَلَّ للعبد فهو نوعان:

۞ **أحدهما**: حفظه في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وأهله وماله.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]

قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه.

ومَن حَفِظ الله في صباه وقوته، حفظه الله في حال كِبَره وضعف قوته، ومتَّعه

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.
ما بين لحييه: أي لسانه - ما بين رجليه: أي الفرج.
(٢) ابن الإسلام (ص ١٣٥-١٣٦).



بسمعه، وبصره، وقوته، وعقله.

كان ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ قد جاوز المائة سنة، وهو مُتمتع بقوته وعقله، فوثب يومًا وثبةً شديدةً فعُوتب في ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكِبَر.

قال بعض السلف: من اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومَن ضيَّع تقواه فقد ضيع نفسه، والله غني عنه.

وكان سعيد بن المسيب يقول لابنه: لأزيدن في صلاتي من أجلك؛ رجاء أن أُحفظ فيك، ثم تلا هذه الآية ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

۞ **والنوع الثاني من الحفظ وهو أشرف النوعين:** حفظ الله عَزَّوَجَلَّ للعبد في دينه وإيمانه ... فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان ... قال تعالى في حق يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، قال: يَحُول بين المؤمن، وبين المعصية التي تَجُره إلى النار.

۞ ثم قال ﷺ: «**احفظ الله تجده تجاهك**» وفي رواية: «**أمامك**» أي: معك.

قال قتادة: مَن يتقِ الله يكن معه، ومَن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

وكتب بعض السلف إلى أخٍ له: أما بعد فإن كان الله معك فمن تخاف، وإن كان عليك فمن ترجو.

والمعية معيتان: معية عامة، ومعية خاصة،... فالمعية العامة هي معية السمع والبصر والإحاطة كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا

﴿خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

والمعية الخاصة ففي مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقوله عز وجل حاكيًا عن رسولنا الكريم ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فالمعية الأولى تستوجب من العبد الخوف والحذر والمراقبة.

والمعية الثانية تستوجب الأُنس بالله عز وجل، والرضا به، والتسليم لأمره ونهيه، وقضائه وقدره.

۞ ثم قال ﷺ: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**» والسؤال إظهار ذُلٍّ ونقصٍ وحاجة وافتقار واعتراف للمسؤول بأنه قادر على جلب النفع ودفع الضر... والعبد لا يُظهر فقره ونقصه إلا إلى الله عز وجل.

وليس هناك أحد يقدر قدرة مطلقة على جلب النفع ودفع الضر إلا الله عز وجل... قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

والله عز وجل يحب أن يُسأل كما قال بعضهم:

لا تسألن بني آدم حاجةً ... وسَل الذي أبوابه لا تُحجبُ

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وإذا سألت بني آدم يَغضبُ

كذلك الاستعانة تكون بالله عز وجل دون غيره...لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا مُعين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل.

فمن أعانه الله عز وجل فهو المُعان، ومَن خذله الله عز وجل فهو المخذول.

ومَن ترك الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ واستعان بغيره وكله الله عَزَّوَجَلَّ إلى مَن استعان به، فلا يستطيع أن يجلب له نفعًا، أو يدفع عنه ضرًّا.

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله: لا تستعن بغير الله فيكلك إليه.

والاستعانة: طلب العَون ... فلا تطلب العَون من أى إنسان إلا للضَّرورة القُصوى ومع ذلك إذا اضطررت إلى الاستعانة بالْمخلوق فاجعل ذلك وَسيلة وسببًا لا رُكنًا تعتمد عليه ... اجعل الرُّكن الأصيل هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وفى هاتين الْجملتين دليلٌ على أنَّه من نَقْص التَّوحيد أن الإنْسَان يسأل غير الله ... ولهذا تُكْره الْمسألة لغير الله عَزَّوَجَلَّ فى قليل أو كثير.

والله سبحانه إذا أراد عونك يَسَّر لك العَون سواء كان بأسبابٍ معلومة أو غير معلومة.

قد يُعينك الله بسبب غير معلوم لك فيدفع عنك من الشرِّ ما لا طاقة لأحدٍ به وقد يُعينك الله على يد أحدٍ من الخلق يُسخره لك ويُذَلِّله لك حتى يعينك، ولكن مع ذلك لا يجوز لك إذا أعانك الله على يد أحد أن تنسى الْمُسَبِّب وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ثم قال ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىءٍ، لم ينفعوك إلا بشىءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىءٍ، لم يضروك إلا بشىءٍ قد كتبه الله عليك**» والمراد أن كل ما يصيب العبد مما ينفعه أو يضره إنما هو بقدر الله عَزَّوَجَلَّ.

كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[التوبة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾[الحديد: ٢٢].

وهذا هو مدار الوصية، فإن العبد إذا علم أنه لن يُصيبه إلا ما كتب الله له من خيرٍ وشرٍّ ونفعٍ وضُرٍّ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد ألبتة، علم حينئذٍ أن الله وحده هو النافع الضار، المعطى المانع، وأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عَزَّوَجَلَّ، وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده.

فبيَّن النبى عليه الصلاة والسلام فى هذه الجملة أن الأمة لو اجتمعت كلها على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىءٍ قد كتبه الله لك.

فإذا وَقَع منهم نَفْعٌ لَكَ فاعلم أنَّه من الله؛ لأنَّه هو الذى كتبه ... فلم يقل النبى ﷺ لو اجتمعت على أن ينفعُوك بشىء لم ينفعوك، بل قال: «**لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَىْءٍ قَد كَتَبَهُ الله لَكَ**».

فالنَّاس بلا شك ينفع بعضهم بعضًا ويُساعد بعضهم بعضًا لكن كل هذا مما كتبه الله للإنسان ... فالفضل لله فيه أولاً عَزَّوَجَلَّ.. فهو الذى سخَّر لكَ مَن ينفعك ويُحسن إليك ويُزيل كربتك ... وكذلك بالعكس لو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشىء لم يضروك إلا بشىءٍ قد كتبه الله عليك.

والإيمان بهذا يَسْتلْزم أن يكون الإنسان مُتَعَلِّقًا بربه ومُتكلًا عليه لا يهتم بأحدٍ، لأنَّه يعلم أنه لو اجتمع كل الخلق على أن يضروه بشىءٍ لم يضروه إلا بشىءٍ قد كتبه الله عليه.

وحينئذٍ يُعلق رجاءه بالله ويَعتَصم به ولا يُهمه الْخلق ولو اجتمعوا عليه ولهذا نجد الناس فى سلف هذه الأُمَّة لَما اعتمدوا على الله وتوكلوا عليه لم يَضُرهم كيد الكائدين ولا حَسَدُ الْحاسدين: ﴿**وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٠].

۞ وقوله ﷺ: «**رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف**» هو كناية عن تَقدُّم المقادير كلها، والفراغ منها، من أمدٍ بعيد ... فإن الكتاب إذا فُرغ من كتابته، ورُفعت

الأقلام عنه، وطال عهده، فقد رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف التى كُتب فيها...
كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»(١)(٢).

۞ وفى اللَّفظ الثانى قال: «**واعلم أنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبر، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ وأنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**». يعنى اعلم علم يقين أنَّ النَّصر مع الصَّبر فإذا صبرت وفعلت ما أمرك الله به من وسائل النَّصر فإن الله تعالى ينصرك.

والصبرَّ هنا يَشْمل الصَّبر على طاعَة الله وعن مَعصيته وعلى أقداره الْمُؤلمة... لأنَّ العدوَّ يُصيب الإنسان من كل جهة فقد يشعر الإنسان أنَّه لن يُطيق عدوه فيستحسر ويدع الْجهاد.

وقد يَشرع فى الْجهاد ولكن إذا أصابه الأذى استحسر وتوقف.

وقد يستمر ولكنه يُصيبه الألم من عدوه فهذا أيضًا يجب أن يصبر عليه.

قال الله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

فإذا صبر الإنسان وصابر ورَابط فإن الله سُبحانه ينصره.

۞ وقوله: «**واعلم أنَّ الفرج مع الكرب**».

كلما اكترَبت الأُمور وضَاقَت فإنَّ الفرج قريب؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول فى كتابه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

(٢) رياض الجنة / د. أحمد فريد (ص: ٢٦-٢٩) بتصرف.

﴿ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]. فكلما اشتدت الأمور فانتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى.

۞ وقوله: «**وإن مع العسر يسرًا**» فكل عُسرٍ بعده يُسر، بل إن العُسر مَحفوفٌ بيُسْرين.

يُسْرٌ سَابق ويُسْرٌ لاحق ... قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]. وقال ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا: «**لَنْ يَغْلب عُسْرٌ يُسْرينِ**».

فهذا الحديث الذى أوصى به عبد الله بن عباس ينبغى للإنسان أن يكون على ذكرٍ له دائمًا، وأن يعتمد على هذه الوصايا النافعة التى أوصى بها النبى ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا(١).

***

(٦٤) **الرَّابعُ: عنْ أنس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قالَ: «إِنَّكُمْ لَتعمَلُونَ أَعمَالًا هِىَ أدقُّ فى أعيُنكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رسولِ الله ﷺ مِنَ الْمُوبقاتِ»(٢).**

۞ من المعلوم أن أنس بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عاش بعد النبى ﷺ ما يَقرُب من تسعين سنة فتغيرت الأمور فى عهده رَضِوَاللَّهُعَنْهُ واختلفت أحوال الناس عمّا كان على عهد النبى ﷺ فصار بعضهم يتهاونون فى بعض الأمور العظيمة مثل صلاة الجماعة.. فقد كان أصحاب الرسول ﷺ لا يتخلف أحدٌ منهم عن الصلاة فى جماعة إلا من عُذرٍ أو مرضٍ.

وفى زماننا هذا صار كثيرٌ من الناس لا يتهاونون فى صلاة الجماعة فحسب بل فى الصلاة نفسها فتراهم لا يُصلون ... أو يصلون ويتركون أو يؤخرون

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٥٨-٢٦٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٩٢) كتاب الرقاق.

«الْمُوبِقَاتُ» الْمُهْلِكَاتُ.

الصلاة عن وقتها.. فكل هذه الأعمال أصبحت يسيرة عند بعض الناس لكنها كانت فى عهد رسول الله ﷺ وأصحابه من الموبقات.

۞ وكذلك الكذب.. فكثيرٌ من الناس فى زماننا هذا يكذبون ويتحرون الكَذِبَ ويرونه شيئًا هينًا مع أنه كان على عهد النبى ﷺ وأصحابه من الموبقات.. وكان النبى ﷺ يُحذرهم جميعًا من الكذب ويقول: «**وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»(١).

۞ وكذلك الغش.. فقد كان النبى ﷺ يقول: «**من غشَّنا فليس منَّا**»(٢).

فكان الصحابة يَحذرون ويُحذرون من الغش ويعتبرونه من الموبقات.. أما الآن فحدِّث ولا حرج فقد انتشر الغش انتشار النار فى الهشيم حتى صار بعض الناس يتفاخر بالغش ويعتبره شطارة فى البيع والشراء...ولا حول ولا قوة إلا بالله.

۞ بل هناك مَن يجمع بين الغش والخداع والكذب فيجحد ما عليه للناس، أو يدَّعى عليهم ما ليس له ويُحاكمهم عند القاضى ويحلف بالله على ذلك.. وتلك هى اليمين الغَموس التى يقتطع به المسلم حق أخيه فتغمسه تلك اليمين فى نار جهنم – عافانا الله وإياكم-... وهكذا فقد كانت تلك الأمور على عهد النبى ﷺ وأصحابه من الموبقات المُهلكات فصارت فى أعين بعض الناس أدق من الشعر... وذلك لأنه كلما قَوى الإيمان عَظُمت المعصية فى قلب الإنسان.. وكلما ضعف الإيمان خفَّت المعصية فى قلب الإنسان ورآها أمرًا هيِّنًا ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

البرُّ: الطاعة وفعل البر وهى كلمة جامعة لأبواب الخير – الفجور: الميل إلى الفساد والانبعاث فى المعاصى.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١) كتاب الإيمان.

وهذا كما جاء في الخبر «لا تنظر إلى صِغَر المعصية وانظر إلى عظمة مَن عصيت» وفي الخبر الآخر «المؤمن يرى ذنبه كأنه قاعد تحت أصل جبل يوشك أن يقع عليه، والكافر يرى ذنبه كأنه ذباب أطاح به هكذا وهكذا». وفي الحديث دليلٌ على كمال مراقبة القوم لله تعالى وكمال استحيائهم منه، حتى إنهم يرون تلك الأمور التي استهون غيرهم الوقوع فيها مهلكات لهم لِعِظَم شهودهم جلال الله تعالى وعظمته. وفيه أن الإنسان ينبغي له أن يَحذر من صغار الذنوب فلعلها تكون المُهلكة له في دينه، كما يحترز من يسير السموم خشية أن يكون فيها حَتفه[1].

(٦٥) الْخَامِس: عَنْ أبي هريْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ تَعَالَى، أَنْ يَأْتِي الْمَرْءُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْه»[2].

ففي هذا الحديث إثبات الغيرة لله (سبحانه وتعالى)... وسبيل أهل السُّنة والجماعة في مِثْلِ هذا الحديث وفي غيره من أحاديث الصِّفات وآيات الصِّفات أنهم يثبتونها لله سبحانه على الوجه اللائق به ... يقولون: إن الله يغار لكن ليست كغيرة الْمخلوق، وإن الله يفرح ولكن ليس كفرح الْمخلوق، وإن الله له من الصِّفَاتِ الكاملة ما يليق به، ولا تُشبه صفات الْمخلوقين.

وقد جاء في هذا الحديث الشريف أنّ اللّه عز وجل يغار، وأنّ غيرته عز وجل تكون من إتيان محارمه... ووجه ذلك؛ أنّ المسلم الّذي يطيع هواه أو ينقاد للشّيطان ويقع في محارم اللّه، فكأنّه جعل لغير اللّه فيه نصيبًا... ولمّا كانت الطّاعة خاصّة باللّه عز وجل ويأبى أن يشاركه فيها غيره، كان ذلك مَبعثًا لأن يستثير العاصي غضب مولاه وغيرته عليه، وما ذلك إلّا لأنّ المولى- سبحانه وتعالى-

---

(١) دليل الفالحين (١/ ٢٠١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٢٣) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٦١) كتاب التوبة.
والغيرة: بفتح الغين، وأصلها: الأَنَفَة.

لا يرضى لعباده المعصية كما لا يرضى لهم الكفر، ومن ثَمَّ تكون من جانب اللّه تعالى غيرة حقيقيّة على ما يليق بجلاله وكماله، ومن لوازمها: كراهية وقوع العبد فى المعاصى وإشراكه غير اللّه فيما هو حقّ المولى وحده من التزامٍ بأوامره، واجتنابٍ لمعاصيه(١).

فالشاهد من الحديث أن الغيرة صفة حقيقية لله عَزَّوَجَلَّ ولكنها ليست كغيرة المخلوق... ولذا فإن الله بحكمته أحلَّ لعباده أشياء وحرَّم عليهم أشياء وأوجب عليهم أشياء.

فما أوْجَبَه عليهم فهو خَيْرٌ لهم فى دينهم ودنياهم وفى حاضرهم ومستقبلهم... وما حَرَّمه عليهم فإنه شرٌّ لهم فى دينهم ودنياهم وحاضرهم ومستقبلهم ... فإذا حرَّم الله على عباده أشياء فإنَّه عَزَّوَجَلَّ يغار أن يأتى الإنسان محارمه.

فإذا تجرأ الإنسان وعصى الله وأتى محارمه فإن الله عَزَّوَجَلَّ يغار ولا سيما إذا وقع العبد فى الزنى أو اللواط - عياذًا بالله-.

فإنه ثبت عن النبى ﷺ أنَّه قال: «**مَا مِن أحَدٍ أغْيَرُ من الله أن يَزْنى عَبْدُهُ أو تزنِى أَمَتُه**» لأنَّ الزِّنَى فاحشة ومن ثَمَّ حرَّم الله على عباده الزِّنَى وجميع وسائل الزِّنَى... كما قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٣٢] فإذا زنى العبد والعياذ بالله فإن الله يغار غَيْرة أشد وأعظم من غيرته على ما دُونه من الْمحارم.

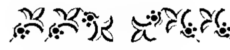
ومن باب أولَى وأشد اللواط وهو إتيان الذَّكر الذَّكَر... فإن هذا أعظم وأعظم ولهذا جعله الله تعالى أشد فى الفُحش من الزِّنَى ... فقال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأعراف: ٨٠].

قال هنا: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ وفى الزِّنَى قال: ﴿فَٰحِشَةً ﴾ أى: فاحشة من

(١) نضرة النعيم (٧/ ٣٠٧٨).

الفواحش، أمَّا اللّواط فجعله الفاحشة العظمى - نسأل الله العافية -.

وكذلك أيضًا السَّرقة وشُرب الخمر وكل الْمحارم يغار الله منها، لكن بعض الْمحارم تكون أشد غيرة من بعض حَسَب الْجرم والْمضار التى تترتب على ذلك[1].



(٦٦) السادسُ: عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ سمع النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ: «إنَّ ثَلاثَةً مِنْ بَنى إسْرائيلَ: أبْرَصَ، وأقْرَعَ، وأعمَى، أرَادَ الله أنْ يَبْتَليَهُمْ فَبَعث إلَيْهِمْ مَلَكًا، فأتَى الأبْرَصَ فَقَالَ: أىُّ شَىْءٍ أحبُّ إلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حسنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، ويَذْهَبُ عنِّى الَّذى قَد قذِرنَى النَّاسُ، فَمَسَحهُ فذَهَب عنهُ قذرهُ وَأُعطِىَ لَوْنًا حَسنًا. فقال: فَأىُّ الْمالِ أَحبُّ إلَيْكَ؟ قال: الإبلُ - أوْ قَالَ: الْبَقَرُ شَكَّ الرَّاوِى - فأُعطِىَ نَاقَةً عُشرَاءَ، فَقَالَ: بارَك الله لَكَ فيها. فأتى الأقْرعَ فَقَالَ: أىُّ شَىْءٍ أحبُّ إلَيْكَ؟ قال: شَعرٌ حسنٌ، ويذْهبُ عنِّى هَذَا الَّذى قَذرَنى النَّاسُ، فَمسحهُ فَذَهَبَ عنْهُ. وأُعطِىَ شَعرًا حسنًا. قال: فَأَىُّ الْمَالِ أحبُّ إلَيْكَ؟ قال: الْبَقرُ، فأُعِطىَ بقرةً حامِلاً، وقَالَ: بَاركَ الله لَكَ فيهَا. فَأَتى الأعمَى فَقَالَ: أىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إلَيْكَ؟ قال: أنْ يرُدَّ الله إلَىَّ بَصَرى فَأُبْصرُ النَّاسَ فَمَسَحَهُ فَردَّ الله إلَيْه بصَرَهُ. قال: فَأَىُّ الْمَالِ أحَبُّ إليْكَ؟ قال: الْغنمُ فَأُعطِىَ شَاةً والِدًا فَأَنْتج هذَانِ وَولَّدَ هَذا، فكَانَ لِهَذا وَادٍ منَ الإبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقرِ، وَلهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنم. ثُمَّ إنَّهُ أَتى الأبرص فى صورَته وَهَيْئته، فَقَال: رَجُلٌ مِسْكينٌ قد انقطعتْ بىَ الْحبَالُ فى سَفَرى، فَلا بَلاغَ لِىَ الْيوْمَ إلَّا بالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بالَّذى أعطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، والْجلْدَ الْحَسَنَ، والْمَالَ، بَعيرًا أتبلَّغُ بِهِ فى سفَرى، فقالَ: الحقُوقُ كَثِيرةٌ. فقال: كَأَنِّى أعرفُكَ أَلَمْ تكُنْ أَبْرصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقيرًا، فَأَعطَاكَ الله، فقال: إنَّما وَرِثْتُ هَذا المالَ كَابرًا عَنْ كابِرٍ، فقالَ: إنْ كُنْتَ كَاذبًا فَصَيَّرَكَ الله إلَى مَا كُنْتَ. وأَتى الأقْرَع فى صورته

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٦٢).

وهيئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثلَ ما قَالَ لهذا، وَرَدَّ عَلَيْه مِثلَ مَا ردَّ هَذا، فَقَال: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ. وأَتَى الأَعمَى فى صُورَتِه وهَيْئَتِهِ، فقالَ: رَجُلٌ مِسْكينٌ وابْنُ سَبيل انْقَطَعَتْ بىَ الْحِبَالُ فى سَفرى، فَلا بَلاغ لِىَ اليَوْمَ إلا بالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بالَّذى رَدَّ عَلَيْكَ بصَرَكَ شَاةً أَتبَلَّغُ بِهَا فى سَفرى، فقالَ: قَد كُنْتُ أَعمَى فَرَدَّ الله إِلَىَّ بَصرى، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدع مَا شِئتَ فَوَالله ما أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشىءٍ أَخَذْتَهُ لله عَزَّوَجَلَّ. فقالَ: أَمْسِكْ مالَكَ فإِنَّمَا ابْتُلِيتُم فَقَد رضىَ الله عنك، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[1].

۞ فى هذا الحديث ذكر النبى ﷺ أن ثلاثة من بنى إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى...

فقوله: «**ثلاثة من بنى إسرائيل**».. فمن المعلوم أن إسرائيل هو يعقوب عليه السلام وهو الذى كان من ذريته بنى إسرائيل وأنبياء بنى إسرائيل.

۞ **ولقد جاءت أخبارٌ كثيرة عن بنى إسرائيل وهى ثلاثة أقسام:**

الأول: ما جاء فى القرآن... والثانى: ما جاء فى صحيح السُّنة... والثالث: ما جاء عن أحبارهم وعن علمائهم.

فأما الأول والثانى فلا شك فى أنَّه حقٌّ، ولا شك فى قبوله، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٦٤) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٩٦٤) كتاب الزهد والرقائق.

«والناقةُ الْعُشَراءُ»: هِىَ الحاملُ.

قولُهُ: «أَنْتجَ» وفى رواية: «فَنَتَجَ» معناهُ: تَوَلَّى نِتَاجَهَا، والنَّاتجُ للنَّاقةِ كالقَابِلَةِ للْمَرْأَةِ.

وقولُهُ: «ولَّدَ هَذا»: أىْ: تَولَّى وِلادَتهَا، وهُوَ بمَعنَى أَنْتَجَ فى النَّاقَةِ. فالْمُوَلِّدُ، والناتجُ، والقَابِلَةُ بمَعنى، لَكِنَّ هَذا للْحَيَوانِ وذاكَ لغَيْرِهِ.

وقولُهُ: «انْقَطَعَتْ بى الحبالُ»: أى الأَسْبَاب.

وقولُه: «لا أجهَدُكَ» معناهُ: لا أَشُقُّ عليْك فى رَدِّ شَىْءٍ تَأْخُذُهُ أوْ تَطْلُبُهُ مِنْ مَالِى.

وفى رواية البخارى: «لا أَحْمَدُكَ»، ومعناهُ: لا أَحْمَدُكَ بِتَرْك شَىْءٍ تَحتاجُ إِلَيْهِ، كما قالُوا: لَيْسَ عَلَى طُولِ الحياة نَدَمٌ أَىْ عَلَى فَوَاتِ طُولِهَا.

نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ومن السُّنة مثل هذا الحديث الذى رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ.

۞ وأما ما رُوى عنهم عن أحبارهم وعلمائهم فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما شهد الشَّرع ببطلانه، فهذا باطل يجب ردُّه وهذا يقع كثيرًا فيما نُقل من الإسرائيليات فى تفسير القرآن، فإنه يُنقل فى تفسير القرآن كثير من الأخبار الإسرائيلية التى يشهد الشرع ببطلانها.

والثانى: ما شهد الشرع بصدقه، فهذا يُقبل، لا لأنه من أخبار بنى إسرائيل، ولكن لأنّ الشرع شَهِدَ بِصِدقِهِ وأنه حق.

والثَّالث: ما لم يكن فى الشَّرع تصديقُهُ ولا تكذيبه: فهذا يُتَوَقَّف فيه لا يُصَدَّقون ولا يُكَذَّبون؛ لأننا إن صدَّقناهم فقد يكون باطلاً فنكون قد صدقناهم بباطل، وإن كذَّبناهم فقد يكون حقًّا فقد كذَّبناهم بحقٍّ، ولهذا نتوقَّف فيه، ولا حرج من التحديث به، فيما ينفع فى ترغيب أو ترهيب[1].

۞ وتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع شرح هذا الحديث:

كثير من الذين ابتلاهم الله بالمرض أو الفقر يحنُّون إلى التخلُّص من أمراضهم وفقرهم، وبعضهم ينالون ما تمنوه، فيبدل الله مرضهم عافية وصحة، ويُبدل فقرهم غِنًى، ومن هؤلاء مَن ينسون البلاء الذى كان بهم، فلا يشكرون الله على نعمته عليهم، ولا يألمون للمصابين بمثل ما كانوا به مصابين، ومنهم الذين يحمدون الله على ما تفضَّل به عليهم، من إزالة ما كان بهم من ضُرٍّ... وعندما يرون المصاب بمثل ما كانوا مصابين به، يأسون لحاله، ويمدون له يد العون.

وقد حدثنا الرسول فى هذا الحديث عن هذين الصنفين من الناس، الكافرين بالنعمة والشاكرين... فقد ابتلى الله ثلاثة من ذوى العاهات من بنى إسرائيل،

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٦٤).

فأرسل إليهم مَلَكًا مسحهم، فأزال الضُّرَّ الذى بأجسادهم، وأعطاهم المال الذى يحبه كُلٌّ منهم... وما هى إلا سنوات حتى أصبح لكل واحدٍ منهم مالًا كثيرًا، وأرسل الله لهم المَلَك مرة ثانية... جاء كُلًّا منهم فى مثل صورته التى كان عليها أيام مرضه وفقره، يسألهم العون والمساعدة، فبخل اثنان كُفرًا بنعمة الله، وضَنًّا بالمال الذى تفضَّل الله به على كل واحدٍ منهما، وجاد الثالث، شاكرًا نعمة الله[1].

۞ والآن إليكم قصة هؤلاء الثلاثة... فلقد كانت هناك مدينة جميلة تقع على شاطئ البحر وكانت الأشجار تحيط بها من كل مكان.

وكان يعيش فى هذه المدينة ثلاثة من الرجال الذين ابتلاهم الله عَزَّوَجَلَّ.

فأما الأول فكان مصابًا بالبَرص وهو مرض خطير يصيب الجلد... وأما الثانى فكان أقرع ليس فى رأسه شعر... وأما الثالث فكان أعمى لا يرى... وفوق ذلك كله فلقد كان الثلاثة فقراء.

فأراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يختبرهم فبعث إليهم مَلَكًا فى صورة رجل.

فجاء المَلَك إلى الرجل الأبرص وأخبره أنه سوف يحقق له كل ما يتمناه - بإذن الله-... فسأله: ماذا تتمنى؟

قال الأبرص: أتمنى أن يصبح جلدى جميلاً وأن يصبح لونه جميلاً، فإن الناس يبتعدون عنى ولا يتكلمون معى بسبب لونى.

فقام الملك فمسح على جلده، فأصبح جلده جميلاً ولونه جميلاً ففرح الرجل فرحًا شديدًا.

قال له المَلَك: ماذا تريد من الأموال وأى المال أحب إليك؟

قال له الرجل: أحب الإبل.

فأعطاه المَلَك ناقة حاملاً فى شهرها العاشر وقال له: بارك الله لك فيها.

---

(١) صحيح القصص النبوى (ص ٣١٧).

۞ ثم ذهب الملك للرجل الأقرع وقال له: سوف أحقق لك كل ما تتمناه -بإذن الله- فماذا تتمنى؟

قال الأقرع: أتمنى أن يصبح لى شعر جميل فإن الناس يبتعدون عنى بسبب ما أنا فيه.

فمسح المَلَك على رأسه فأصبح له شعر جميل... ففرح الرجل فرحًا شديدًا.

قال له المَلَك: أى المال أحب إليك؟

قال له الرجل: أحب البقر.

فأعطاه المَلَك بقرة حاملاً وقال له: بارك الله لك فيها.

۞ ثم ذهب المَلَك للرجل الأعمى وقال له: سوف أحقق لك كل ما تتمناه -بإذن الله- فماذا تتمنى؟

قال الأعمى: أتمنى أن يرد الله إلىَّ بصرى لأرى الناس من حولى.

فمسح المَلَك على عينيه فعاد إليه بصره ففرح الرجل فرحًا شديدًا.

قال له المَلَك: أى المال أحب إليك؟

قال له الرجل: أحب الغنم.

فأعطاه المَلَك شاة والدًا وقال له: بارك الله لك فيها.

۞ ومرت الأيام وأصبح الثلاثة من الأثرياء... فأصبح للأبرص وادٍ من الإبل وأصبح للأقرع وادٍ من البقر... وأصبح للأعمى وادٍ من الغنم.

۞ وهنا جاء موعد الامتحان والاختبار.

فلقد جاء المَلَك مرة أخرى للأبرص فى صورة رجل فقير أبرص... أى جاءه على نفس هيئته التى كان عليها قبل ذلك حتى يَرِقَّ قلبه ويتذكر نعمة الله عليه.

قال له المَلَك: أنا رجل فقير لا أملك شيئًا.. فأسألك بالله الذى أنعم عليك بهذا



الجلد الحسن وأكرمك بهذا المال أن تعطينى ناقة أسافر عليها وأحلب لبنها.

فقال له الأبرص: لن أعطيك شيئًا... وأما عن هذا المال فلقد ورثته عن آبائى وأجدادى فأنا من عائلة ثرية.

فقال له المَلَك: كأنى أعرفك والله... ألم تكن أبرص يَقذرك الناس فشفاك الله وأعطاك هذا الجلد الحسن... وكنت فقيرًا فأغناك الله.

قال الأبرص: كلا... لقد ورثت هذا المال عن آبائى وأجدادى.

قال له المَلَك: إن كنت كاذبًا فأسأل الله أن يردك إلى ما كنت عليه.

فعاد الرجل أبرص كما كان... فقيرًا كما كان.

۞ وذهب المَلَك إلى الرجل الأقرع فى صورة رجل أقرع وفقير... أى جاءه على نفس هيئته التى كان عليها قبل ذلك حتى يرقَّ قلبه ويتذكر نعمة الله عليه.

قال له المَلَك: أنا رجل فقير لا أملك شيئًا.. فأسألك بالله الذى أنعم عليك بهذا الشعر الجميل وأكرمك بهذا المال أن تعطينى بقرة.

قال له الأقرع: لن أعطيك شيئًا.

قال له المَلَك: كأنى أعرفك والله... ألم تكن أقرع يَقذرك الناس فشفاك الله وأعطاك هذا الشعر الحسن... وكنت فقيرًا فأغناك الله.

قال له الأقرع: كلا.. لقد ورثت هذا المال عن آبائى وأجدادى فأنا من عائلة ثرية.

قال له المَلَك: إن كنت كاذبًا فأسأل الله أن يردك إلى ما كنت عليه.

فعاد الرجل أقرع كما كان... فقيرًا كما كان.

۞ ثم ذهب المَلَك إلى الرجل الأعمى فى صورة رجل أعمى وفقير... أى جاءه على نفس هيئته التى كان عليها قبل ذلك حتى يرق قلبه ويتذكر نعمة الله عليه.

قال له المَلَك: أنا رجل فقير لا أملك شيئًا.. وأعمى لا أرى... فأسألك بالله

الذى أنعم عليك بنعمة البصر وأكرمك بهذا المال.. أن تعطينى شاة واحدة...

فقال له الأعمى: والله لقد كنت أعمى فردَّ الله إلىَّ بصرى وكنت فقيرًا فأكرمنى الله بهذا المال... فخذ ما شئت من الأغنام فوالله لا أمنع عنك أى شىء أخذته منى ... فإنى أفعل ذلك طاعة لله (جل وعلا).

فقال له المَلَك: بارك الله لك فى بصرك وفى مالك...فأنا مَلَكٌ من الملائكة... وقد كان هذا اختبارًا لك ولصاحبيك فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك.

۞ الدروس المستفادة:

(١) ابتلاء الله لعباده، كما ابتلى الثلاثة، ليظهر الشاكر من الكافر، والصالح من الطالح.

(٢) فضل الشكر فى السراء ... ومن الشكر الجود بالمال على مُستحقيه، وعاقبة الكفر بالنعمة ... ومن الكفر البخل بالمال على مُستحقيه من أهل الفقر والمسكنة... وهو ما يُسمَّى: كُفر النعمة.

(٣) قدرة الملائكة على التمثل فى صورة البشر، كما فعل المَلَك المذكور فى الحديث.

(٤) لا يُعَدُّ المَلَك كاذبًا عندما ادَّعى أنه رجل مسكين تقطعت به الحبال فى سفره، فمراده ضرب المثل بما فعل.

(٥) إذا بارك الله فى مال الرجل نما وكَثُر، وأصبح مالاً عظيمًا فقد كثَّر الله أموالِ الثلاثة الذين ابتلاهم، فأصبح لكل واحدٍ منهم وادٍ يموج بالنعم، وأصل ذلك واحدة مما أُعطى من النعم ... وقد يهلك المال الكثير ويبيد فى الزمن القليل.

(٦) ليس كثرة المال دليلاً على حب الله للعبد ... فالله يختبر الذين يهبهم المال، كما اختبر الثلاثة بما أعطاهم.

(٧) قدرة الله على شفاء الأمراض المستعصية التى يظن البشر أنه لا شفاء لها، كالبرص والقرع والعمى.

(٦٧) السَّابعُ: عَنْ أبى يَعلَى شَدَّاد بْن أوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لما بَعدَ الْموْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَواهَا، وتمنَّى عَلَى الله الأمانيَّ»[1].

۞ وهذا الحديث ضعيف ولذا فسوف أنتقل للحديث الذى بعده وسأكتفى بشرح الأحاديث الصحيحة والحسنة الثابتة عن النبى ﷺ حتى نعتاد جميعًا ألا نذكر إلا ما ثبت عن النبى ﷺ.

(٦٨) الثَّامنُ: عَنْ أبى هُرَيْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعنِيْهِ»[2].

۞ فى الحياة أمور تتصل بالإنسان فى دينه أو دُنياه، وأمور لا تتصل بشىء من ذلك ... والإنسان مُطالَب بأن يرعى نفسه وإخوانه المسلمين قدر استطاعته وما يتصل بذلك كله، وليته يفى به ... أما ما بعد ذلك من اللغو واللهو والمفاسد والأمور التى لا تتصل به، فلا داعى لأن يشغل نفسه بها، لئلا ينشغل بذلك عما هو أَولَى وأجدى ... وهذه هى ثمرة الإسلام الصحيح الكامل .. أنه يملأ على الإنسان نفسه ويملك عليه شعوره ويتحكم فى سيره وسلوكه[3].

ولذا قال النبى ﷺ: « مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعنِيْهِ ».

۞ قال الشيخ صالح آل الشيخ:

هذا الحديث - أيضًا - من الأحاديث الأربعة التى قال فيها طائفة من أهل العلم: إنه أحد أحاديث أربعة هى أصول الأدب فى السُّنة.

---

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٣٠٥).
قال التِّرمذيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مَعنَى «دَانَ نَفْسَه»: حَاسَبَهَا.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩١١).

(٣) مفاهيم تربوية فى شرح الأربعين النووية (ص ٢١٤) بتصرف.

فهذا الحديث أصل من الأصول في الآداب.

۞ وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

الإسلام - عند الإطلاق - يدخل فيه الإيمان، والإحسان، وهو شرائع الدين الظاهرة والباطنة ... والمسلمون منقسمون في الإسلام إلى قسمين، كما دَلَّ عليه فحوى الحديث.

فمنهم: المحسن في إسلامه، ومنهم المسيء.

فمن قام بالإسلام ظاهرًا وباطنًا فهو المحسن ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النِّساء: ١٢٥].

فيشتغل هذا المحسن بما يعنيه مما يجب عليه تَركُه من المعاصي والسيئات، ومما ينبغي له تركه كالمكروهات، وفضول المباحات التي لا مصلحة له فيها، بل تفوت عليه الخير.

فقوله ﷺ: « مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعنِيْهِ » يَعُم ما ذكرنا.

ومفهوم الحديث: أن مَن لم يترك ما لا يعنيه: فإنه مسيء في إسلامه.

وذلك شامل للأقوال والأفعال، المنهي عنها نهي تحريم أو نهي كراهة.

فهذا الحديث يُعَدُّ من الكلمات الجامعة؛ لأنها قسَّمت هذا التقسيم الحاصر، وبيَّنت الأسباب التي يتم بها حسن الإسلام، وهو الاشتغال بما يعني، وترك ما لا يعني من قولٍ وفعل، والأسباب التي يكون بها العبد مُسيئًا، وهي ضد هذه الحال - والله أعلم[1].

۞ وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

إسلام الْمرء هو استسلامه لله عَزَّوَجَلَّ ظاهرًا وباطنًا، فأما باطنًا فاستسلام العبد

(١) شرح الأربعين النووية (ص ١٣٤-١٣٥).

لربه بإصلاح عقيدته وإصلاح قلبه، وذلك بأن يكون مؤمنًا بكل ما يجب الإيمان به على ما سبق فى حديث جبريل.

وأما الاستسلام ظاهرًا فهو إصلاحُ عَمَله الظَّاهر كأقواله بلسانه وأفعاله بجوارحه... والناس يختلفون فى الإسلام اختلافًا ظاهرًا كثيرًا كما أن الناس يختلفون فى أشكالهم وصورهم ... منهم الطويل ومنهم القصير ومنهم الضخم ومنهم مَن هم دون ذلك ومنهم القبيح ومنهم الجميل فيختلفون اختلافًا ظاهرًا.

فكذلك يختلفون فى إسلامهم لله عَزَّوَجَلَّ حتى قال الله فى كتابه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠].

وإذا كان الناس يختلفون فى الإسلام، فإن مما يزيد فى حُسن إسلام الْمرء أن يَدَع ما لا يعنيه ولا يهمه لا فى دينه ولا فى دنياه ... فالإنسان الْمسلم إذا أراد أن يجعل إسلامه حَسَنًا فليدع ما لا يعنِيه[١].

فمثلًا: لا تتدخل فى أمور الناس إذا كان الأمر لا يهمك فى شىء.. فإن هذا من حُسن إسلامك... وإذا كان هناك عمل وأنت مُتردد هل تفعله أم لا.. فانظر هل هو من الأمور الهامة فى دينك أو دُنياك فافعله أو اتركه.. فالسلامة أسلم.

فمن الناس مَن تجده مشغولًا بغيره.. فهو حريصٌ غاية الحرص على معرفة أخبار الناس من حوله فيُضيع أوقاته ويشغل قلبه ويُشتت فكره فيما لا ينفعه بل يضره... ولو انشغل هذا الإنسان بربه وانشغل بذكره (جلَّ وعلا) وطاعته.. أو حتى انشغل بما يعود عليه بالنفع فى أمور دُنياه لكان خيرًا له.

أتدرى ما الذى صيَّر لقمان الحكيم فى هذه المنزلة العالية والذكر الحسن الجميل؟ لقد سأله أحد الناس: ما الذى صيَّرك إلى ما أرى؟

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٦٨).

قال له: «يا هذا اسمع ما أقول لك: إن الذى صيَّرنى إلى هذا إنما هو غَضُّ بصرى، وكَفُّ لسانى، وعفة طعمى، وحفظ فرجى، وقولى بصدقٍ، ووفائى بعهدى، وتكرمى ضيفى، وحفظى جارى، وتركى ما لا يعنينى فذلك الذى صيَّرنى إلى ما ترى»(١).

وهذا أبو دجانة رضي الله عنه دخلوا عليه وهو مريض فكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما لك وجهك يتهلل يرحمك الله؟ فقال: ما من عمل شىءٍ أوثق عندى من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنينى، وكان قلبى سليمًا للمسلمين.

وذكر أبو سليمان أيضًا عن الشافعى: قيل لعمر بن عبد العزيز: ما تقول فى أهل صِفِّين؟ فقال: تلك دماء طهر الله يدى منها، فلا أحب أن أُخضب لسانى بها(٢).

***

(٦٩) **التَّاسعُ: عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «لا يُسْأَلُ الرَّجُلُ فيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ»(٣).**

❁ وللأمانة العلمية .. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبي ﷺ.

***

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ١٤٢).

(٢) كتاب العزلة للخطابى.

(٣) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٣٥٠).

(٦) باب فى التقوى

❁ ما أجمل أن يتحلى المسلم بالتقوى... فيا تُرى ما هى التقوى؟

التقوى هى: امتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه، بفعل كلّ مأمور به وترك كلّ منهيّ عنه حسب الطّاقة.... قال الحليميُّ: حقيقة التَّقوى فعل المأمور به والمندوب إليه واجتناب المنهيّ عنه والمكروه المُنزَّه عنه لأنّ المراد من التّقوى وقاية العبد نفسه من النّار وهو إنّما يقى نفسه من النّار بما ذكرت [١].

❁ وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه: التقوى هى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرِّضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

❁ وقال طلق بن حبيب رحمه الله: إذا وقعت الفتنة فأطفؤها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟.. قال: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله. وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله.

خلِّ الذُّنوب صغيرها وكبيرها ذاك التُّقى
واصنع كماشٍ فوق أرضِ الشوكِ يحذر ما يَرَى
لا تحقرنَّ صغيرة إنَّ الجبالَ من الحَصَى

❁ والتقوى: اسمٌ مأخوذ من الوقاية، وهو أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله. والذى يقيك من عذاب الله هو فعل أوامر الله عز وجل، واجتناب نواهيه فإن هذا هو الذى يقى من عذاب الله عز وجل... واعلم أن التقوى أحيانًا تقترن بالبر، فيُقال بِرّ وتقوى كما فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]. وتارة تُذكر وحدها، فإذا قُرنت بالبر صار البر فعل الأوامر واجتناب النواهى... وإذا أُفردت صارت شاملة، تَعُم فعل الأوامر واجتناب النواهى.

(١) التعريفات للجرجانى (٦٥).

وقد ذكر الله تعالى فى كتابه أن الجنة أُعدت للمتقين.

فأهل التقوى هم أهل الجنة جعلنا الله وإياكم منهم... ولذلك يجب على الإنسان أن يتقى الله عَزَّوَجَلَّ، امتثالًا لأمره وطلبًا لثوابه والنجاة من عقابه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذه الآية مبينة للمراد من الأولى.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن مَن عاش على شىء مات عليه ... فمن كان فى حال صحته ونشاطه وإمكانه مُداومًا لتقوى ربه وطاعته، مُنيبًا إليه على الدوام، ثبَّته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة.

وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: هو أن يُطاع فلا يُعصَى، ويُذكر فلا يُنسَى، ويُشكَر فلا يُكفَر ...وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جدًّا، يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه ... ثم أمرهم تعالى بما يُعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن فى اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يَصلُح دينهم وتَصلُح دُنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويَحصُل لهم من المصالح التى تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عَدُّها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادى يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحدٍ يعمل ويسعى فى شهوة نفسه، ولو أدَّى إلى الضرر العام.

۞ وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

يأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية، تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه ... كما قال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم**».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر[١].

ويُستفاد من قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦]. أن الإنسان إذا لم يستطع أن يقوم بأمر الله على وجه الكمال فإنَّه يأتي منه على ما قدر عليه.

ومنه قول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «**صلِّ قائمًا، فإنْ لَمْ تَستطع فَقاعِدًا فَإنْ لم تَسْتَطِع فَعَلَى جَنْبٍ**»[٢] فرتَّب الرسول ﷺ الصَّلاة بحسب الاستطاعة وبأن يُصَلِّي قائمًا فإن لم يستطع فقاعدًا فإن لم يستطع فعلى جنب.

وهكذا بقية الأوامر ومثله الصَّوم ... إذا لم يستطع الإنسان أن يصوم في رمضان فإنَّه يؤخره ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وفي الْحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فإذا لم تستطع الوصول إلى البيت فلا حج عليك.

لكن إن كنت قادرًا بِمالك دُون بدنك وَجَبَ عليك أن تقيم مَن يحج ويعتمر عنك ... فالْحاصل أن التَّقوى كغيرها مَنُوطة بالاستطاعة فمن لم يستطع شيئًا من أوامر الله فإنَّه يعدل إلى ما يَسْتطيع.

ومن اضطر إلى شيءٍ من مَحارم الله حَلَّ له ما ينتفع به في دفع الضَّرورة لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[الأنعام: ١١٩].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٣١).
(٢) صحيح: رواه البخاري (١١١٧) كتاب تقصير الصلاة.

حتى إن الرَّجل لو اضطر إلى أكل لحم الْميتة أو أكل لحْم الْخنْزِير أو أكل لحم الْحمار أو غيره من الْمحرمَّات فإنَّه يجوز له أن يأكل منه ما تَنْدَفع مِنه ضرورته[1].

﴿ وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾

[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، فى جميع أحوالهم، فى السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تَعذُّر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمرٍ بمعروف، ونهى عن منكر، وتعلُّم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، فى المسائل العلمية، وسلوك كل طريق مُوصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولُطفه، فى مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنُّصح والإشارة، بما هو الأصلح.

يجمعه قول النبى ﷺ: «مَنْ كَانَ يؤمِنُ بِالله وَاليوْمِ الآخِرِ فَلْيَقلْ خَيْرًا أَوْ ليَصمُتْ»[2]. وضد ذلك القول غير السَّديد، وهو القول الذى ليس بِصَواب، بل خطأ، إما فى مَوْضوعه وإما فى محله.

أما فى موضوعه بأن يكون كلامًا فاحشًا يشتمل على السَّبِّ والشَّتم والغيبة والنَّميمة وما أشبهه ... أو فى محله أى: أن يكون هذا القول فى نفسه هو خير لكن كونه يُقالِ فى هذا الْمكان ليس بخير؛ لانَّ لكل مقام مقالاً ... ففى هذا المحل لا يكون قولاً سديدًا، بل خطأ، وإن كان ليس حرامًا بذاته.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٧٠-٢٧١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٣٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

فمثلاً لو فرض أن شخصًا رأى إنسانًا على مُنكر ونهاه عن المنكر لكن نهاه في حالٍ لا ينبغي أن يقول له فيها شيئًا أو أغلظ له في القول أو ما أشبهه لعُدَّ هذا قولاً غير سديد.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقولهِ القول السديد فقال: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي: يكون ذلك سببًا لصلاحها، وطريقًا لقبولها، لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾.

ويُوفَّق فيه الإنسان للعمل الصالح ... ويُصلح الله الأعمال أيضًا بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلال بالتقوى، والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم تَرَتُّبِ آثارها عليها.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أيضًا ﴿ذُنُوبَكُمْ ﴾ التي هي السبب في هلاككم.

فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[1].

وعُلم من هذه الآية أن من لم يتَّقِ الله ويَقُل قولاً سديدًا فإنَّه حَرِيٌّ بأن لا يُصلح الله لهُ أعماله ولا يغفر له ذنبه...ففيه الْحثُّ على تقوى الله وبيان فوائدها.

۞ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

يتق الله بفعل ما أَمر الله به، وبترك ما نَهى عنه. يجعل له مَخرجًا من كل ضيق... فكلما ضاق عليه الشيء وهو مُتقٍ لله عَزَّ وَجَلَّ جعل له مخرجًا، سواء كان في معيشة، أو في أموال، أو في أولاد، أو في مجتمع، أو غير ذلك.

متى كنت متقيًا الله فثق أن الله سيجعل لك مَخرجًا من كل ضيق.

وما أكثر الذين اتقوا الله فجعل لهم مخرجًا،... ومن ذلك قصة الثلاثة الذين

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٩١).

انطبق عليهم الغار، فنزلت صخرة على باب الغار فسدَّته، فأرادوا أن يُزيحوها فعجزوا، فتوسل كل واحدٍ منهم بصالح عمله إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ففرج الله عَزَّوَجَلَّ عنهم وزالت الصخرة.

والأمثلة على هذا كثيرة... وقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ هذا أيضًا فائدة عظيمة، أن الله يرزقك من حيث لا تحتسب.

فمثلًا لو فرضنا أن رجلًا يكتسب المال من طريقٍ مُحرم، كطريق الغش أو الربا أو ما أشبه ذلك، ونُصح في هذا وتركه لله، فإن الله سيجعل له مَخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب... ولكن لا تتعجل، ولا تظن أن الأمر إذا تأخر فلن يكون، ولكن قد يبتلى الله العبد فيؤخر عنه الثواب، ليختبره هل يرجع إلى الذنب أم لا...، فمثلًا إذا كنت تتعامل بالربا، ووعظك مَن يعظك من الناس، وتركت ذلك، ولكنك بقيت شهرًا أو شهرين ما وجدت ربحًا. فلا تيأس، وتقول: أين الرِّزق من حيث لا أحتسب... بل انتظر، وثِق بوعد الله وصدق به، وستجده، ولا تتعجل... ولهذا جاء في الحديث: «**يُستجاب لأحدكم** - أي: إذا دعا - **ما لم يَعجل**، قالوا: كيف يَعجل يا رسول الله؟ قال: **يقول: قد دعوت فلم يُستجب لي**».

اصبر، واترك ما حرم الله عليك، وانتظر الفرج والرزق من حيث لا تحتسب.

قال المفسرون: الآية عامة وقد نزلت في «عوف بن مالك الأشجعي» أسر المشركون ابنه، فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة، وقال: إنَّ العدوَّ أسر ابني وجزعت أمه فما تأمرني؟ فقال ﷺ له: «**اتقِ اللهَ واصبِر، وآمرك وإياها أن تستكثرا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله**» ففعل هو وامرأته، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستقاها فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

(١) القرطبي (١٨/ ١٦٠)، والطبري (٢٨/ ٩٠).

۞ وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

۞ هذه ثلاث فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أى: يجعل لكم ما تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، وهذا يدخل فيه العلم، بحيث يفتح الله على الإنسان من العلوم ما لا يفتحها لغيره، فإنَّ التقوى يحصل بها زيادة الهدى، وزيادة العلم، وزيادة الحفظ.

فالتقوى سبب لزيادة الفهم... ويدخل فى ذلك أيضًا الفراسة... إن الله يعطى المُتَّقى فراسة يميز بها حتى بين الناس، فبمجرد ما يرى الإنسان يعرف أنه كاذب أو صادق، أو أنه بَرٌّ أو فاجر، حتى أنه ربما يحكم على الشخص وهو لم يُعَاشره ولم يعرف عنه شيئًا، بسبب ما أعطاه الله من الفراسة.

ويدخل فى ذلك أيضًا: ما يحصل للمُتَّقين من الكرامات التى لا تحصل لغيرهم... ومن ذلك: ما حصل لكثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم يخطب على المنبر فى المدينة، فسمعوه يقول فى أثناء الخطبة: «يا سارية الجبل، يا سارية الجبل»، فتعجبوا مَن يخاطب وكيف يقول هذا الكلام فى أثناء الخطبة... فإذا الله سبحانه وتعالى قد كشف له عن سرية فى العراق كان قائدها سارية بن زنيم، وكان العدو قد حصرهم، فكشف الله لعمر عن هذه السرية، كأنما يشاهدها رأى عين، فقال لقائدها: «يا سارية الجبل» أى: تحصَّن بالجبل، فسمعه سارية وهو القائد، وهو فى العراق، ثم اعتصم بالجبل.... فكان النصر بفضل الله عز وجل.

هذه من التقوى، لأن كرامات الأولياء كلها جزاء لهم على تقواهم لله عز وجل ... واتباعهم لرسول الله ﷺ.

فالمهم أن من آثار التقوى أن الله يجعل للمتقين فُرقانًا يفرقون به بين أشياء كثيرة لا تحصل إلا للمتقى.

الفائدة الثانية: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وتكفير السيئات يكون بالأعمال الصالحة فإن الأعمال الصالحة تُكفر الأعمال السيئة ...كما قال النبى ﷺ: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجتُنبت الكبائر**»(١). وقال النبى ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما**»(٢)، فالكفارة تكون بالأعمال الصالحة، وهذا يعنى أن الإنسان إذا اتقى الله سهَّل له الأعمال الصالحة التى يكفر الله بها عنه.

الفائدة الثالثة: قوله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بأن ييسركم للاستغفار والتوبة، فإن هذا من نعمة الله على العبد أن ييسره للاستغفار والتوبة(٣).

***

(٧٠) فَالأَوَّلُ: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ» فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللهِ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِ؟ خِيَارُهُمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِى الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقُهُوا»(٤).

۞ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ».

أى أن أكرم الناس أتقاهم لله عَزَّ وَجَلَّ.. ولا عجب فى هذا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذا الجواب موافق لتلك الآية...

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٧٧٣) كتاب الحج، مسلم (١٣٤٩) كتاب الحج.

(٣) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٢٦٩-٢٧٣) بتصرف.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٨) كتاب الفضائل. «وفَقُهُوا» بِضَمِّ الْقَافِ عَلَى الْمَشْهورِ، وحُكِىَ كسْرُهَا. أى: عَلِمُوا أحْكَامَ الشَّرْعِ.

فالله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

فأكرم الناس عند الله أتقاهم.. ولذا فإنه عَزَّوَجَلَّ يمدهم بالكرامات الظاهرة والباطنة ويرفع قدرهم فى الدنيا والآخرة ويحفظهم ويُلقى محبتهم فى قلوب الناس من حولهم.

۞ «**قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ**».

فذكر لهم أن أكرم الخلق يوسف ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم الصَّلاة والسلام)....فإنَّه (عليه الصَّلاة والسلام) كان نبيًا من سلالة الأنبياء، فكان من أكرم الخلق.

قَالَ الْعُلَمَاء: وَأَصْل الْكَرَم كَثْرَة الْخَيْر، وَقَد جَمَعَ يُوسُف ﷺ مَكَارِم الْأَخْلَاق، مَعَ شَرَف النُّبُوَّة، مَعَ شَرَف النَّسَب...وَكَوْنه نَبِيًّا اِبْن ثَلَاثَة أَنْبِيَاء مُتَنَاسِلِينَ أَحَدهمْ خَلِيل الله ﷺ ... وَانْضَمَّ إِلَيْهِ شَرَف عِلْم الرُّؤْيَا، وَتَمَكُّنه فِيهِ، وَرِيَاسَة الدُّنْيَا، وَمُلْكهَا بِالسِّيرَةِ الْجَمِيلَة، وَحِيَاطَته لِلرَّعِيَّةِ، وَعُمُوم نَفْعه إِيَّاهُمْ، وَشَفَقَته عَلَيْهِمْ، وَإِنْقَاذه إِيَّاهُمْ مِنْ تِلْكَ السِّنِينَ[(١)].

۞ **قالوا**: لَسْنَا عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوننى؟» معادن العرب يعنى أصولَهم وأنسابهم.

«**خيارهم فى الْجَاهِلِيَّة خِيارُهُم فى الإسْلام إذا فَقِهوا**» يعنى أن أكرم الناس من حيث النَّسب والمعادن والأصول هم الخيار فى الجاهلية، لكن بشرط إذا فقهوا.

فمثلاً بنو هاشم من المعروف هم خيار قُريش، فيكونون هم خيارهم فى الإسلام، لكن بِشَرْط أن يفقهوا فى دين الله، وأن يتعلَّموا من دين الله، فإن لم يكونوا فقهاء، فإنهم وإن كانوا من خيار العرب معدنًا فإنهم ليسوا أكرم الْخلق

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/ ١٩٥).

عند الله وليسوا خيار الْخلق.

ففى هذا دليل على أن الإنسان يشرف بنسبه لكن بشرط أن يكون له فقهٌ فى دينه، ولا شك أن النَّسب له أثر، ولهذا كان بنو هاشم أطيب الناس وأشرفهم نَسَبًا ... ومن ثَمَّ كان منهم النبى ﷺ الذى هو أشرف الْخلق ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فلولا أن هذا البطن من بنى آدم أشرف البطون ما كان فيه النبى ﷺ ... فلا يُبعث الرسول ﷺ إلا فى أشرف البطون وأعلى الأنساب...والشاهد من هذا الْحديث قول الرسول ﷺ: «**إن أكرم الْخلق أتقاهم**».

فإذا كنت تريد أن تَكُونَ كريمًا عند الله وذَا منْزلة عنده فعليك بالتَّقوى فكلما كان الإنسان لله أتقى كان عنده أكْرَم(١).

(٧١) **الثَّانِي: عَنْ أبى سَعيد الْخُدرىِّ رضي الله عنه عن النبىِّ ﷺ قال: «إنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خضِرَةٌ، وإنَّ الله مُسْتَخْلِفُكُمُ فِيهَا. فينْظُرَ كَيْفَ تَعمَلُونَ. فَاتَّقوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ. فَإنَّ أوَّلَ فِتْنةِ بَنِى إسْرَائيلَ كَانتْ فى النسَاء»(٢).**

۞ الخَضِر نوع من البقول ليس من أحرارها وجيدها...فشبَّه الدنيا للرغبة فيها والميل إليها بالفاكهة الحلوة الخضرة، فإن الحلو مرغوب فيه من حيث الذوق، والأخضر مرغوب فيه من حيث النظر، فإذا اجتمعا زادت الرغبة. وفيه إشارة إلى عدم بقائها....لأن الفاكهة والخضرة سرعان ما تَعطب وتَفسد بمرور الوقت.

فالدنيا حلوة فى مذاقها خَضِرة فى مرآها.. وقد يغتر الإنسان بها ويُقبل عليها ويجعلها أكبر همه حتى ينسى آخرته.

فلقد وضَّح لنا النبى ﷺ أننا مهما ملكنا وجمعنا من هذه الدنيا فإننا لا نملك شيئًا على الحقيقة ولكن الله قد استخلفنا فى كل ما رَزَقَنَا امتحانًا لنا وابتلاءً لينظر

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.

ماذا سنعمل فيما عندنا.. هل سنستخدمه فى طاعة الله أم أنه سيشغلنا عن طاعته أم أننا سوف نستعمله فى معصية الله عَزَّوَجَلَّ.

فإياك إياك أن تغترَّ بمالك أو بجاهك أو بحسبك أو بنسبك فتجعله عونًا لك على معصية الله عَزَّوَجَلَّ.. بل عليك أن تحمد الله على ما أكرمك به من نعمه وأن تستعمل تلك النعمة فى طاعته ونُصرة دينه وشريعته.

۞ قوله: «فاتقوا الدنيا».

أى: اجتنبوا فتنتها واحذروا أن تميلكم محبتها والاغترار بها عن أوامر الله تعالى واجتناب مناهيه فيها.

«واتقوا النساء» أى: اجتنبوا الافتتان بهن: أى أن يمنعكم التمتع بهن عن القيام بأداء حقوق العبودية والتقرب إلى مراضى الله تعالى.

فهذا تحذير من أن يفتتن المسلم بامرأة تشغله عن طاعة الله حتى ولو كانت زوجته فى الحلال.. لَا بُدَّ أن يحذر ألا تشغله زوجته عن أداء الفرائض وفعل الطاعات.

۞ «فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء» أى: افتتنوا بسبب النساء فضلُّوا وأضلوا.. ومن أجل ذلك كان أعداء ديننا حريصين على إفساد شبابنا من خلال فتنة النساء.. حتى قال أحدهم: كأسٌ وغانية تفعلان فى تحطيم الأمة المحمدية ما لا تفعله المدافع والصواريخ.

***

(٧٢) الثالثُ: عَنْ ابْنِ مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعفافَ والْغِنَى»[١].

۞ « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْهُدَى » أى: الرشاد.. وقد كان النبى ﷺ أهدى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢١) كتاب الذكر والدعاء.

الخلق وأرشدهم ... فالمراد هنا: ثبِّتنى على الهدى والرشاد... وقيل معنى الهدى هنا: العلم.. أى أن النبى ﷺ سأل الله العلم.. فالنبى ﷺ مُحتاجٌ إلى العلم كغيره من الناس.. بل إن الله عَزَّوَجَلَّ ما أمر النبى ﷺ أن يطلب المزيد إلا من العلم فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

والهُدى إذا ذكر وحده يشمل العلم والتَّوفيق للحق، أمَّا إذا قُرِن معه ما يدلُّ على التَّوفيق للحق فإنَّه يُفَسَّر بمعنى العِلم.

۞ وأما قوله: «والتُّقى» أى: التقوى.. وإذا كان النبى ﷺ هو أتقى الناس جميعًا فيكون المعنى هنا ثبِّتنى على التقوى... وهذا مثل قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى: ثبِّتنا على الصراط المستقيم. والتقوى تشمل امتثال الأوامر واجتناب النواهى.

۞ وأما قوله: «والعفاف» أى: أسألك العفاف والعفة عن كل ما هو حرام والتنزُّه عمَّا لا يُباح والكفَّ عنه.

۞ وأما «والغِنى» فالمراد به الغِنى عمَّا سوى الله والاستغناء عمَّا فى أيدى الناس.. فالإنسان إذا وفقه الله للاستغناء عن الخلق صار عزيز النفس غير ذليل.

فينبغى لنا أن نقتدى بالنبى ﷺ فى هذا الدعاء.

وأن نسأل الله الهُدى والتُّقى والعفاف والغِنى... وفى هذا دليل على أن النبى ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا وأن الذى يملك ذلك هو فاطر السموات والأرض جَلَّ جَلَالُهُ.

وفى هذا الحديث دليل على إبطال مَن تعلقوا بالأولياء والصالحين فِى جلب المنافع ودفع المضار.. كما يفعل بعضُ هؤلاء الذين يدعون الرسول ﷺ إذا كانوا عند قبره.. وكذلك الذين يذهبون إلى قبور مَن يزعمون أنهم أولياء ويدعونهم ويسألونهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

ولم يعلم هؤلاء أن الموتى سواء كانوا أنبياء أو أولياء فإنهم لا يملكون

لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا فكيف يملكون لغيرهم.

قال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. وقال له: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

بل إنهم يتبرءون تمامًا ممن يدعونهم من دون الله عَزَّ وَجَلَّ ... قال عيسى عليه الصلاة والسلام لَمَّا قال الله له: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

ليس من حق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا غيره أن يقول للناس اتخذوني إلهًا من دون الله: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

(٧٣) **الرَّابعُ: عَنْ أبي طَرِيفٍ عديِّ بْنِ حاتمِ الطائيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يمين ثُمَّ رَأى أتقَى لله مِنْها فَلْيأْتِ التَّقْوَى»**(١).

اليمين هي الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ أو باسمٍ من أسمائه أو صفة من صفاته... ولا يجوز الحلف بغير الله سواء كان المحلوف به مُعظَّمًا شرعًا كالكعبة المشرفة أو بالنبي ﷺ أو جبريل أو حتى بأي أحدٍ من الخلق.

لقول النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحلِفْ بِالله أوْ لِيَصمُتْ**»(٢)، وقال: «**مَنْ حَلَفَ بِغيرِ اللهِ، فقد كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»(٣).

فمن حلف بغير الله فهو آثم ولا يمين عليه؛ لأنها يمين غير منعقدة لقول

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٥١) كتاب الأيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٤٦) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم (١٦٤٦) كتاب الأيمان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٤).

النبي ﷺ: «مَن عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ»(١).

ولا ينبغي للإنسان أن يُكْثَر من اليمين، فإن هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]. على رأى بعض الْمُفَسِّرين، قالوا: واحفظوا أيمانكم أى: لا تُكثروا الْحلف بالله... وإذا حلفت فينبغى أن تُقيِّد اليمين بالمشيئة، فتقول: والله إن شاء الله ... لتستفيد بذلك فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: أن يتيسر لك ما حَلَفْتَ عليه.

والفائدة الثانية: أنَّك لو حنثت فلا كفَّارة عليك.

فقد قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَاسْتَثْنَى، فَإِنْ شَاءَ مَضَى، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ غَيْرَ حَنِثٍ»(٢).

واليمين التى تُوجب الكفارة هى اليمين على شىءٍ مُستقبَل ... أمَّا اليمين على شىءٍ ماضٍ فلا كفارة فيها، ولكن إن كان الْحالف كاذبًا فهو آثم، وإن كان صادقًا فلا شىء عليه ... ومثاله لو قال قائل: والله ما فعلت كذا.

فهنا ليس عليه كفارة صدق أوْ كَذِب، لكن إن كان صادقًا أنه لم يفعله فهو سَالِم من الإثم، وإن كان كاذبًا أنه قد فعله فهو آثم.

واليمين التى فيها الكفارة هى اليمين على شىء مُسْتقبَل، فإذا حلفت على شىء مستقبَل فقلت: والله لا أفعل كذا، فهنا نقول: إن فعلته فعليك الكفَّارة، وإن لم تفعله فلا كَفَّارة عليك ... فهذه يمين منعقدة، ولكن هل الأفضل أن أفعل ما حلفت على تركه، أو الأفضل ألا أفعل.

فى هذا الحديث بيَّن النبى عليه الصلاة والسلام أنك إذا حلفت على يمين ورأيت غيرها أتقى لله منها فكفِّر عن يمينك وأتِ الذى هو أتقى(٣).

فإذا قال قائل: والله لا أزور أمى أبدًا.. أو: والله لا أزور قريبى.. فهنا نقول له:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

(٢) صحيح: رواه النسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٠٦).

۞ استثنى: أى قال: إن شاء الله.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٧٩).

بر الوالدين واجبٌ عليك وصلة الأرحام واجبة فاذهب إلى أمك واذهب إلى قريبك وكفِّر عن يمينك ؛ لأن النبى ﷺ قال: «**فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ**»(١).

وإن قال قائل: والله لا أُكلم فلانًا - وهو مسلم - فإن الأتقى لله أن تُكلمه ولا تهجره ؛ لأن هجر المسلم حرام.. فكلِّمه وكفِّر عن يمينك.. وعلى هذا ينبغى أن تقيس كل الأمور.

الخلاصة أن نقول: اليمين على شىء ماضٍ لا يبحث فيها عن الكفَّارة؛ لأنَّه ليس فيها الكفارة، لكن إما أن يكون الْحالف سالمًا أو يكون آثمًا.

اليمين على الْمستقبل هى التى فيها الكفارة، فإذا حلف الإنسان على شىء مستقبل وخالف ما حَلَفَ عَلَيْهِ وجَبَتْ عليه الكفارة، إلا أن يقرن يمينه بمشيئة الله، فيقول: إنْ شاءَ الله، فهذا لا كفارة علَيْهِ ولو خَالَفَ.

(٧٤) الْخَامسُ: عنْ أبى أُمَامَةَ صُدَىِّ بْنِ عَجْلانَ الْباهِلِىِّ ﷺ قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يَخْطُبُ فى حَجَّةِ الْوداع فَقَالَ: «اتَّقُوا الله، وصَلُّوا خَمْسكُمْ، وصُومُوا شَهْرَكُم، وأَدُّوا زكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأطِيعُوا أُمَراءَكُمْ، تَدخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»(٢).

فى حجة الودَاع خطب النبى ﷺ يوم عرفة، وخطب يوم النَّحر، ووعَظَ النَّاسَ وذكَّرهم ... وهذه خطبة من الخطب الرَّواتب، التى يُسَنُّ لقائد الْحجيج أن يَخْطب النَّاس كما خطبهم النبى ﷺ.

وكان من جملة ما ذكر فى خطبته فى حجة الوداع أنه قال: «يا أيها الناس، اتقوا ربكم» وهذه كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١].

فأمر الرسول ﷺ الناس جميعًا أن يتقوا ربهم بامتثال أوامره واجتناب

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٠) كتاب الأيمان.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٩).

نواهيه.. فهو الذى خلقهم ورزقهم وأعدَّهم لقبول رسالاته وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

۞ وقوله: «وصلُّوا خمسكم» أى: صلوا الصلوات الخمس التى فرضها الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله ﷺ وعلى أُمته من فوق سبع سماوات.

۞ وقوله: «وصوموا شهركم» أى: صوموا شهر رمضان.. وأُضيف الشهر للأمة لما يُسبغ عليهم فيه من الفيوض الإلهية من عتق الرقاب من النار ومغفرة الذنوب وستر العيوب والفوز برحمة علَّام الغيوب.

۞ وقوله: «وأدُّوا زكاة أموالكم» أى: أعطوها لمُستحقيها طيبة بها نفوسكم ولا تبخلوا بها.

۞ وقوله: «وأطيعوا أُمراءكم» أى: أطيعوهم فى غير معصية الله عَزَّوَجَلَّ فمن المعلوم أنه لا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق (جلَّ وعلا)... فطاعة ولاة الأُمور تابعة لطاعة الله ورسوله ﷺ.

۞ فمن فعل ذلك كله: فاتقى الله وصلَّى الصلوات الخمس وصام رمضان وأدَّى زكاة ماله للمُستحقين وأطاع ولى الأمر فى غير معصية الله.. فإن الجنة هى الجزاء الذى ينتظره.. ولذا قال النبى ﷺ بعد تلك الأعمال: «**تدخلوا جنة ربكم**».

ولما كان من ثمرات التقوى العرفان الذى به تنجلى الأمور، والنور الذى تنشرح به الصدور ... ومَن انشرح صدره واستنار قلبه بشهود التوحيد وأنه لا شريك له فى ملكه ولا فى شىء من أفعاله، تيقَّن أن لا حول له ولا قوّة، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا... فخرج عما فى نفسه من التدابير، وألقى نفسه مع جرى المقادير، ففاز كما جاء فى الحديث الشريف «لا حول ولا قوة إلا باللهِ كنز من كنوز الجنة» وظهر بهذا أن التوكل واليقين من ثمرات التقوى فلذا عقبها بهما فقال: «باب فى اليقين والتوكل»[١].

(١) دليل الفالحين (١/ ٢٢٠).

(٧) باب في اليقين والتوكل

۞ فى هذا الباب جمع المؤلف بين اليقين والتوكل.. وذلك لأن التوكل ثمرة من ثمرات اليقين.

ولابد أن نعلم أن اليقين من الإيمان بِمنْزلة الروح من الجسد. وبه تَفاضَل العارفون. وفيه تنافس المتنافسون. وإليه شَمَّر العاملون. وعملُ القوم إنَّما كان عليه. وإشاراتِهم كلها إليه. وإذا تزوج الصبر باليقين وُلد بينهما حصول الإمامة فِى الدين... قال الله تعالَى، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخَصَّ الله سبحانه وتعالى أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين. فقال، وهو أصدق القائلين ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخَصَّ أهل اليقين بالْهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿ ...وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٤-٥].

۞ **فاليقين:** هو قوة الإيمان والثبات حتى كأن الإنسان يرى بعينه ما أخبر الله به ورسوله من شِدَّة يقينه .... فاليقين هو ثبات وإيمان ليس معه شَكٌّ بوجهٍ من الوجوه، فيرى الغائب الذى أخبر الله عنه ورسوله كأنَّه حاضرٌ بين يديه، وهو أعلى درجات الإيمان.

هذا اليقين يُثمر ثمرات جليلة، منها التَّوكل على الله عَزَّوَجَلَّ.

والتوكل هو: صدق اعتماد القلب على الله فى استجلاب المنافع ودفع المضار فى أمور الدنيا والآخرة.

ففى هاتين المرتبتين (اليقين والتوكل) يحصل للإنسان مقصوده فى الدنيا والآخرة ويستريح ويعيش مطمئنًا سعيدًا، لأنه موقن بكل ما أخبر الله به ورسوله ومتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

لقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ فى تلك الآية عن الأحزاب الذين تجمعوا حول المدينة وحاصروها وقد بلغ عددهم عشرة آلاف من أجل أن يقضوا على النبى ﷺ وأصحابه.. وكانت لحظات عصيبة جدًّا وصفها الله عَزَّوَجَلَّ فى كتابه بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]. الظُّنون البعيدة ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

فانقسم الناس فى هذه الأزمة العصيبة العظيمة إلى قسمين، بيَّنهما الله عَزَّوَجَلَّ فى هذه الآيات.

القسم الأول: قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. الْمنافقون الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، والذين فى قلوبهم مرض من الْمؤمنين وعندهم نقص فى يقينهم، قالوا: ما وعدنا الله ورسولُه إلا غرورًا.

قالوا: كيف يقول محمد: إنه سيفتح كِسرى وقَيصر وصنعاء، وهو الآن مُحاصَر من هؤلاء الناس.

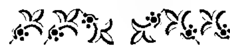
القسم الثَّانى: الْمؤمنون، قال الله عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ففى هذه الآية يحكى الله عَزَّوَجَلَّ موقف المؤمنين الصادقين فى غزوة الأحزاب أثناء رؤيتهم جنود قريش ومَن تَحزَّب معهم، وما صدر عن المؤمنين من إخلاص ويقين، تُظهر بوضوح روح الإيمان والتضحية، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أى ولما رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم، وقد أحاطوا بهم من كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، قالوا:

هذا ما وعدنا به الله ورسوله، من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أى صدق الله فى وعده، ورسوله فيما بشرنا به.

قال المفسرون: لما كان المسلمون يحفرون الخندق اعترضتهم صخرة عظيمة، عجزوا عن تكسيرها، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء وأخذ المعول وضربها ثلاث ضربات، أضاءت له منها مدائن كسرى، وقصور الروم، فقال أبشروا بالنصر، فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم، قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[1].

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أى وما زادهم ما رأوه من كثرة جُند الأحزاب، ومن شدة الضيق والحصار، إلا إيمانا قويًا عميقًا بالله، واستسلامًا وانقيادًا لأوامره[2].



الآية الثانية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

لما أصاب المشركون ما أصابوا من المسلمين فى غزوة أُحد وعاد النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة فندم أبو سفيان، وقرَّر أن يعود لمقاتلة المسلمين من أجل أن يقضى عليهم.. فلما علم النبى ﷺ بذلك ندب أصحابه للخروج واشترط ألا يخرج معه إلا الذين قاتلوا معه فى غزوة أُحد فخرجوا على ما بهم من جراح طاعة واستجابة لله ورسوله ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أى الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم: أن قريشًا قد جمعت لكم جُموعًا لا تُحصَى، فخافوا على أنفسكم..

---

(١) حاشية الصاوى (٣/ ٢٧٠).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٤٧٨).

فما زادهم هذا التخويف إلا إيمانًا ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي قال المؤمنون: الله كافينا وحافظنا ومُتولي أمرنا، ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه (جلَّ وعلا) ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي فرجعوا بنعمة السلامة، وفضل الأجر والثواب ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي لم ينلهم مكروه أو أذى ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي ذو إحسان عظيم على العباد[1].

***

❁ الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

أي: اعتمد في جميع أمورك على الواحد الأحد، الدائم الباقي الذي لا يموت أبدًا، فإنه كافيك وناصرك ومُظهر دينك على سائر الأديان ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي نَزِّه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار مما لا يليق به من الشُّركاء والأولاد ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي حسبُك أن الله مُطلع على أعمال العباد لا يخفى عليه شيءٌ منها.

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. دليلٌ على امتناع الْموت على الرَّب عَزَّوَجَلَّ.

قال الله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. فالله عَزَّوَجَلَّ لا يموت لكمال حياته فإنه دائمًا هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء. ثم إنه سبحانه وتعالى لا ينام أيضًا لكمال حياته وقيُّوميِّته ... قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٢٢٤).

أمَّا الإنس والجن فإنهم ينامون ويموتون.

❁ ❁ ❁

۞ الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أى إذا عقدت قلبك على أمر بعد الإستشارة، فاعتمد على الله وفوِّض أمرك إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أى يحب المعتمدين عليه، المُفوضين أمورهم إليه.

❁ ❁ ❁

۞ الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أى: فى أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله فى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به فى تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ أى: كافيه الأمر الذى توكل عليه به، وإذا كان الأمر فى كفالة الغنى القوى العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له ... فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ أى: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أى: وقتًا ومقدارًا، لا يتعداه ولا يقصر عنه(١).

❁ ❁ ❁

۞ الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

لما كان الإيمان قسمين: إيمانًا كاملًا يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام... وإيمانًا دون ذلك، ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص/ ١٠٣٣).

الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان. ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ أى: إذا ذُكرت عظمته وجلاله وسلطانه خافت قلوبهم ووجلت وتأثرت..

ولقد كان بعض السلف إذا تُليت عليه آيات الخوف يمرض أيامًا حتى يعوده الناس... أي: يزوره الناس في مرضه.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ إذا سمعوا كلام الله عَزَّوَجَلَّ ازدادوا إيمانًا من وجهين:

الوجه الأول: التَّصديق بما أخبر الله به من أمور الغيب الْماضية والْمستقبلة.

الوجه الثانى: القُبول والإذعان لأحكام الله فيمتثلون ما أمر الله به فيزداد بذلك إيمانهم... وينتهون عما نهى الله عنه تَقرُّبًا إليه وخوفًا منه فيزداد إيمانهم... فهم إذا تُليت عليهم آياته ازدادوا إيمانًا من هذين الوجهين.

قال السعدى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ووجه ذلك أنهم يُلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبُّره فعند ذلك يزيد إيمانهم. لأن التدبُّر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يُحدث فى قلوبهم رغبة فى الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصى، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يعتمدون فى قلوبهم على ربهم فى جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا تُوجَد ولا تكمُل إلا به.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذى هو روح الصلاة ولُبُّها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

﴿يُنفِقُونَ﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيمانهم...والمستحبة كالصدقة فى جميع طرق الخير.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان ..بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده ... وقدَّم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصلٌ لأعمال الجوارح وأفضل منها،.وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها.

وأنه ينبغى للعبد أن يتعاهد إيمانه ويُنميه، وأن أَولَى ما يحصل به ذلك تدبُّر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه ... ثم ذكر ثواب المؤمنين حقًّا فقال: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى: عالية بحسب عُلو أعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعدَّ الله لهم فى دار كرامته، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودَلَّ هذا على أن مَن لم يصل إلى درجتهم فى الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة[1].

❊ ❊ ❊

(٧٥) فالأوَّلُ: عَن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ومَعَهُ الرُّهَيطُ، والنبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، والنبىَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِى سَوَادٌ عَظيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فقيلَ لِى: هَذَا مُوسَى وَقَومُهُ، ولكنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرتُ فَإِذا سَوادٌ عَظِيمٌ، فقيلَ لى: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظيمٌ، فقيلَ لِى: هذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ ألفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فى أُولئكَ الَّذِينَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص/ ٣٤٦-٣٤٧) بتصرف.

حِسَابٍ ولا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذينَ صَحِبوا رسولَ الله ﷺ.. وَقَالَ بعضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فى الإِسْلامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيئًا - وذَكَرُوا أشيَاءَ - فَخَرجَ عَلَيْهِمْ رسولُ الله ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِى تَخُوضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فقالَ: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرقُونَ، وَلا يَسْتَرقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ؛ وعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُون» فقامَ عُكَّاشَةُ بنُ محصنٍ، فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلنى مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخرُ، فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلنِى مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»(١).

۞ قوله ﷺ: «**عُرِضَت علىَّ الأُمَمُ**» أى أن النبى ﷺ رأى الأمم وأنبياءهم .. وقد ورد فى رواية أخرى أن ذلك العرض كان فى ليلة الإسراء والمعراج.

۞ «**فَرَأَيْتُ النَّبِىَّ وَمعَه الرُّهَيطُ**» أى أن النبى ﷺ رأى نبيًّا ومعه عددٌ قليل من الناس الذين آمنوا معه .. وعددهم ما بين الثلاثة إلى العشرة.

ونحن نعلم أن نوحًا عليه السلام الذى ظلَّ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا .. وكان يدعوهم ليلًا ونهارًا .. سرًّا وجهرًا .. ومع ذلك لم يؤمن معه إلا عددٌ قليلٌ جدًّا .. فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

۞ «**والنَّبِىَّ ومَعُه الرَّجُل وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِىَّ ليْس مَعهُ أحدٌ**» وهذا يوضح لنا مدى المعاناة التى كان يُعانيها كل نبىٍّ في دعوته لأُمته ... فتخيل معى أن نبيًّا كريمًا من صفوة خلق الله يبعثه الله لأمة يُقدَّر عددها بالآلاف فلا يؤمن معه إلا رجلٌ أو رجلان .. بل منهم مَن لم يؤمن معه أحد!!! .. فهذا درس للدعاة حتى يصبروا على دعوتهم إن لم يستجب لهم أحدٌ .. فنحن لسنا أفضل من أنبياء الله ورسله الكرام (عليهم الصلاة والسلام).

۞ قوله: «**إذ رُفِعَ لِى سوادٌ عظيمٌ**» أى: عددٌ كبير من الناس « **فظننتُ أَنَّهُم**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٠٥) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤) كتاب الإيمان.
«الرُّهَيْطُ»: تصغير رَهْط، وهُم دُونَ عشرةِ أنفُس - «والأفُقُ»: النَّاحِيةُ والجانِب.
«وعُكاشَة» بِضَمِّ العَيْن وتَشْديد الكافِ وَبِتَخْفيفها، والتَّشْديدُ أفْصحُ.

أُمَّتِي، فَقِيلَ لي: هذا موسىَ وقومه» .. وذلك لأن موسى عليه السلام كان من أكثر الأنبياء أتباعًا بعد رسول الله ﷺ.

۞ ثم قيل للنبى ﷺ: «**ولكن انظر إلى الأفق، فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ فقيل لى: انظر إلى الأُفق الآخر فإذا سوادٌ عظيمٌ فقيل لى: هَذه أُمَّتُكَ**» وذلك لأن النبى ﷺ هو أكثر الأنبياء أتباعًا على الإطلاق .. وذلك لأنه خاتم الأنبياء .. فكل مَن آمن به إلى يوم القيامة يكون من أمته ويكون فى ميزان حسناته .. ومن أجل ذلك كانت أمته ﷺ تُمثل ثُلثى أهل الجنة .. والثلث الباقى يُوزَّع على (٦٩) أمة وذلك لأن الأمم يوم القيامة تكون سبعين أمة... كما أخبر النبي ﷺ.

قال ﷺ: «**إِنَّكُم تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**»(١).

وقال ﷺ: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ**»(٢).

۞ قوله: «**فقيل لى: هَذه أُمَّتُكَ، ومعهُمْ سبْعُونَ أَلْفًا يَدخُلُون الْجنَّةَ بِغَيْرِ حسابٍ وَلا عذابٍ**».

سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .. وكل هذا بفضل الله ورحمته .. فرحمته وسعت كل شيء.

فلما علم النبى ﷺ بتلك المنحة العظيمة طلب المزيد لأمته ﷺ لأنه يحب الخير لأمته .. فلما طلب المزيد لأمته أعطاه الله ما لا يخطر على قلب بشر.

وقال ﷺ: «**لَيَدخُلَنَّ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِى سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعمِائَةِ أَلْفٍ مُتَماسِكُونَ آخِذٌ بَعضُهُمْ بِيَدِ بَعضٍ لا يَدخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدخُلَ آخِرُهُمْ .. وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدرِ**»(٣).

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٣٠١).
(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٢٦).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٤٣) كتاب الرقاق، ومسلم (٢١٩) كتاب الإيمان.

وقال ﷺ: «وَعَدَنِى رَبِّى أَنْ يُدخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِى سَبْعِينَ أَلْفًا بِلاَ حِسَابٍ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلاَثَ حَثَيَاتٍ من حثيات ربى»[(١)].

وقال ﷺ: « أُعطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِى يَدخلونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسابٍ وُجُوهُهُمْ كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدرِ قُلُوبُهُمْ على قلب رجلٍ واحد فاستزدت ربى عَزَّوَجَلَّ فَزادَنِى مَعَ كلِّ واحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا »[(٢)].

فيا لها من فرحة لمن يدخل الجنة بغير حساب... وذلك لأن المؤمن يعلم أنه لو جاءه مَن يُبشره بالجنة، ولكن بعد أن يُحاسبه الله ثم يُدخله الجنة لكان ذلك عذابًا شديدًا ... لأن النبى ﷺ قال: « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ »[(٣)].

وفى رواية: « مَنْ نُوقِشَ الْمُحَاسَبَةَ هَلَكَ »[(٤)].

فمجرد مناقشة الحساب عذابٌ شديد ... فحسبُك أيها المؤمن أن يُعدِّد الله عليك ذنوبك وأوزارك.

فكيف بمن يحاسبه الله وهو لا يدرى هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟! وبذلك تستطيع أن تستشعر مدى فرحة هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب «فاللهم اجعلنا منهم».

۞ «ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِى أُولَئِكَ...قَالَ بَعضُهُمْ: لعلهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ، وقَالَ آخَرُونَ: لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِى الإِسْلامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا - وذَكَرُوا أَشْيَاءَ» ...وكُلٌّ أتى بما يظن أنه الصواب.

فخرج عليهم النبى ﷺ فسألهم عما يخوضون فيه فأخبروه فقال ﷺ: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرقُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَكْتَوون، ولا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ»

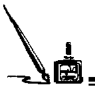
---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذى وابن حبان وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١١١).

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبى بكر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٥٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٠٣) كتاب العلم، ومسلم (٢٨٧٦) كتاب الجنة.

(٤) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٧٩).



هذا لفظ مسلم، وفيه: «**لا يرقون**».

قال الشيخ الألبانى: قلت: قوله: «**لا يرقون**»، هو مما تفرَّد به مسلم دون البخارى وغيره، ثم هو شاذٌّ سَندًا ومَتنًا، كما بيَّنته فى محلٍّ آخر!....وحسبُك دليلًا على شذوذه أن النبى ﷺ قد رقى غيره أكثر من مرة!.. بل ورقاه جبريل عليه السلام.

۞ وهنا يخبر النبى ﷺ أن الصحابة من شدة حرصهم على الخير أخذوا يتكلمون عن هؤلاء السبعين ألفًا عسى أن يعرفوا سبب دخولهم الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب فيفعلوا مثلهم.

فخرج عليهم النبى ﷺ وسألهم عما يخوضون فيه فلما أخبروه قال لهم: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ**» أى: لا يطلبون من أحدٍ أن يرقيهم.. وطلب الرقية ليس حرامًا ولكن إن سألت أحدًا أن يرقيك فقد حُرمت من أن تكون مع هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب.

ومن أجل ذلك أُوصى إخوانى بأن يرقى كل واحدٍ منهم أخاه دون أن يطلب منه حتى لا يُحرَم من هذا الفضل العظيم.. وكذلك أُوصى أخواتى بأن ترقى كل واحدةٍ أختها دون أن تطلب منها حتى لا تُحرَم من هذا الفضل العظيم.

۞ قوله: « **ولا يَكْتَوون** » أى: لا يطلبون من أحدٍ أن يكويهم إذا مرضوا؛ لأن النبى ﷺ نهى عن الكى.

روى البخارى أن النبى ﷺ قال: « **الشِّفَاءُ فِى ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِى عَنْ الْكَىِّ**»(١).

۞ قوله: « **ولا يَتَطَيَّرُونَ** » أى: لا يتشاءمون.

فمن الناس مَن يتشاءم عند حدوث أمرٍ ما أو عند رؤية شخصٍ ما .. والتشاؤم والتطير هو اعتقاد وقوع السوء أو حدوث المكروه عند حالٍ مُعين

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٨٠) كتاب الطب.

يحدث لمن يتطير ... وهذا من الشرك؛ لأن فيه معنى علم الغيب بهذه المجريات... وعلم الغيب لا يكون إلا لله وقد صَحَّ الحديث فى وصف هذا الأمر بأنه شرك ... فقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود: «**الطيرة شرك**»[(١)].
وقال ﷺ: «**لا طِيَرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ**، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ قَالَ: **الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ**»[(٢)]. وهذا الباب بابٌ عظيم الفساد فى الاعتقاد والأقوال والأعمال.

وقد كان العرب فى الجاهلية يتطيرون .. فإذا طار الطائر نحو اليسار تشاءموا وإذا طار نحو اليمين تفاءلوا ومضوا إلى الأمر الذى عزموا عليه.

۞ « **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** » أى: لا يعتمدون ولا يتوكلون إلا على الله عَزَّوَجَلَّ.

والتوكل هو صدق اعتماد القلب على الله فى استجلاب المنافع ودفع المضار فى أُمور الدنيا والآخرة.

۞ « فقام عُكَّاشَةُ بنُ محصن فَقَالَ: ادعُ الله أنْ يجْعَلَنى منْهُمْ » فلقد كان عكاشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب همة عالية .. فبمجرد أن سمع تلك البُشرى من النبى ﷺ لم يصبر بل قام وطلب من النبى ﷺ أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعله منهم .. فنزل جبريل فى تلك اللحظة ليُخبر النبى ﷺ أن عُكاشة من هؤلاء السبعين ألفًا ... فقال النبى ﷺ لعكاشة: «**أَنْتَ منهم**» .. ويا لها من منقبة عظيمة .. **فعكاشة هو** الرجل الوحيد الذى نعلم يقينًا أنه سيدخل الجنة بغير حسابٍ **ولا عذاب**.

فقام رجل آخر، فقال: ادعُ الله أن يجعلنى منهم.

قال: «**سَبَقَكَ بها عكاشة**» فرَدَّه النبى عليه الصلاة والسلام، لكنه ردٌّ لطيف.

لم يقل: لست منهم، بل قال: «**سبقك بها عكاشة**»، واختلف العلماء لماذا قال له: سبقك بها عكاشة؟ فقيل: لأنَّه كان يعلم بأن هذا الذى قال: ادعُ الله أن

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى صحيح الجامع (٣٩٦٠)، والسلسلة الصحيحة (٤٣٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٥٤) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٢٣) كتاب السلام.

يجعلني منهم ... قد علم الرسول بأنه منافق والمنافق لا يدخل الْجنة فضلاً عن كونه بغير حساب ولا عذاب.

وقال بعض العلماء: بل قال ذلك من أجل ألا ينفتح الباب فيقوم مَن لا يستحق فيطلب أن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وعلى كل حال، فنحن لا نعلم علمًا يقينيًا بأن الرسول ﷺ لم يدعُ الله له إلا لسببٍ معيَّن ... فالله أعلم.

لكننا نستفيد من هذا فائدة وهو الرَّدُّ الجميل من رسول الله ﷺ لأن قوله: «**سبقك بها عكاشة**» لا يجرحه ولا يُحزنه.

وسبحان الله ... صارت هذه مثلاً إلى يومنا هذا ... كلما طلب الإنسان شيئًا قد سُبق به قيل: سبقك بها عكاشة.

۞ أورد بعض العلماء إشكالاً على هذا الحديث وقال: إذا اضطر الإنسان إلى القراءة، أي: أن يطلب من أحدٍ أن يقرأ عليه مثل أن يُصاب بعين أو بسحر أو أُصيب بجنٍّ هل إذا ذهب يطلب مَن يقرأ عليه يخرج من استحقاق دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب؟

فقال بعض العلماء: نعم هذا ظاهر الحديث وليعتمد على الله وليتصبر ويسأل الله العافية.

وقال بعض العلماء: بل إن هذا فيمن استرقى قبل أن يصاب أى بأن قال: اقرأ عليَّ أن لا تصيبنى العين أو أن لا يصيبنى السِّحر أو الجن أو الحُمى فيكون هذا من باب طلبُ الرقية لأمرٍ مُتوقَّع لا واقع وكذلك الكى.

فإذا قال إنسان: الذين يكوون غيرهم هل يُحرَمون من هذا؟

لا، لأنَّ الرسول ﷺ يقول: «**ولا يكتوون**» أى: لا يطلبون مَن يكويهم، لم يَقُل: ولا يكوون ....وهو عليه الصَّلاة والسَّلام قد كوى أكحل سعد بن معاذ رضي الله عنه .

سعد بن معاذ الأوسى الأنصارى أُصيب يوم الخندق فى أكحله فانفجر الدَّم، والأكحل إذا انفجر دمه قضى على الإنسان.

فكواه ﷺ فى العرق حتى وقف الدَّم .... والنبى ﷺ هو أول مَن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فالذين يكوون مُحسنون والذين يقرءُون على الناس محسنون ولكن الكلام على مَن يسترْقون أى: يطلبون مَن يقرأ عليهم أو يكتوون أى: مَن يطلبون مَن يكويهم[1].

(٧٦) الثَّانى: عَنْ ابْن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيْضًا أنَّ رسول الله ﷺ كانَ يقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْك تَوكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ أعُوذُ بعزَّتِكَ؛ لاَ إلهَ إلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنى، أَنْتَ الحَىُّ الَّذِى لاَ تَمُوتُ، وَالجِنُّ والإنْسُ يَمُوتُونَ»[2].

۞ قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ» مَعنَاهُ: لَكَ انْقَدتُ وَبِكَ صَدَّقْتُ ... وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَام.

قوله ﷺ: «وَعَلَيْكَ تَوكَّلْتُ» أَىْ: فَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَ «وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ» أى: أقبلت بِهِمَّتِى وَطَاعَتِى وَأَعرَضْتُ عَمَّا سِوَاكَ. «وَبِكَ خَاصَمْتُ» أَىْ: بِكَ أَحتَجُّ وَأُدَافِعُ وَأُقَاتِلُ[3].

ثم توجَّه إلى ربه عَزَّوَجَلَّ قائلًا: «اللَّهمَّ أعُوذُ بِعزَّتِكَ، لا إِلَهَ إلاَّ أَنْتَ أنْ تُضِلَّنِى» فإن كان النبى ﷺ يخشى من ذلك فنحن أولَى بأن نخاف من الوقوع فى الضلال والبُعد عن الهداية .. فلا تأمن على نفسك بل عليك دائمًا بدعاء النبى ﷺ: «يا

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٨٩-٢٩٠) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٨٣) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧١٧) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٦٠-٦١) بتصرف.

مُقلب القلوب ثبِّت قلبى على دينك»[١].

ثم ختم الدعاء بالثناء على الله عَزَّوَجَلَّ فقال: « أنْت الْحىُّ الَّذى لا يَموتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يمُوتُونَ ».

(٧٧) الثَّالثُ: عن ابْنِ عَبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أيضًا قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إبْراهِيمُ ﷺ حينَ أُلْقى فى النَّارِ، وَقالَها مُحمَّدٌ ﷺ حينَ قَالُوا: إنَّ النَّاس قَد جَمعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمانًا وقَالُوا: حَسْبُنَا الله وَنِعمَ الْوكِيلُ[٢].

وفى رواية له عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: كَانَ آخِرَ قَوْل إبْراهِيمَ ﷺ حِينَ أُلْقِى فى النَّارِ «حسْبى الله وَنِعمَ الْوَكِيلُ»[٣].

۞ نحن نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ اصطفى المسلمين من الناس جميعًا .. واصطفى المؤمنين من المسلمين واصطفى الأنبياء من المؤمنين واصطفى الرُّسل من الأنبياء واصطفى أُولى العزم الخمسة من الرسل وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (عليهم الصلاة والسلام) .. ثم اصطفى الخليلين إبراهيم ومحمدًا من أُولى العزم الخمسة، ثم اصطفى محمدًا ﷺ على الأنبياء والمرسلين أجمعين، فجعله سيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة.

فإبراهيم ﷺ خليل الله ومحمد ﷺ خليل الله ...قال الله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وقال النبى ﷺ: «إنَّ الله قد اتَّخذَنِى خليلاً كما اتَّخذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»[٤] والخليل معناه الحبيب الذى بلغت محبته الغاية ... ولا نعلم أن أحدًا وصف بهذا الوصف إلا محمدًا وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى صحيح الجامع (٤٨٠١)، والسلسلة الصحيحة (٢٠٩١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٥٦٣) كتاب تفسير القرآن.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٥٦٤) كتاب التفسير.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٥٣٢) كتاب المساجد.

فهما الخليلان.

فإذا قلت: محمد ﷺ حبيب الله فهذا نقصٌ من حق النبى ﷺ وقدره ؛ لأن الخُلَّة أبلغ من المحبة .. لأن أحباب الله كثيرون .. فالله يحب المؤمنين والمقسطين والمحسنين والتائبين .. لكن الخُلَّة لم تَثبُت إلا لإبراهيم ومحمدٍ (عليهما الصلاة والسلام).

فالصواب أن تقول: إبراهيم خليل الله ومحمد خليل الله عليهما السلام.

۞ قوله: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حينما أُلقى فى النار .. وذلك أن إبراهيم عليه السلام دعا قومه إلى عبادة الله عز وجل وتوحيده ونبذ الأصنام التى يعبدونها ولكنهم أصروا على الكفر والشرك.

۞ ولا يظن أحد أن إبراهيم عليه السلام دعا قومه مرة واحدة بل استمر فى دعوتهم ومحاورتهم مراتٍ ومرات ومع ذلك لم يستجيبوا.

فلما يئس منهم توعَّدهم بأن يكسر أصنامهم فقال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

- أى: سأكسر تلك الأصنام التى تزعمون أنها آلهة لأُريكم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها.

وبالفعل فقد كسرها إبراهيم عليه السلام وجعلهم جُذاذًا إلا كبيرًا لهم ... فلما رجعوا من الاحتفال بعيدهم وجدوا آلهتهم قد كُسرت فأرادوا أن ينتقموا من إبراهيم عليه السلام.

أجمع قوم إبراهيم عليه السلام على قتل نبيهم انتصارًا لآلهتهم، واختاروا له أفظع قتلة، وهى: الإحراق فى النار، وليس فى أى نار، بل بنوا بُنيانًا شاهقًا، ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب شارك القوم كلهم فى جَمعها.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٩٧][1]

(١) فتح البارى (٧/ ٢٠٦).

۞ لقد انتشر هذا الخبر فى المملكة كلها وجاء الناس من المدن والقرى والجبال ليشاهدوا مشهد إلقاء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام فى النار.

۞ لقد وضعوا إبراهيم عليه السلام فى المنجنيق بعد أن قيدوا يديه ورجليه واشتعلت النار فى الحفرة وتصاعد اللهب إلى السماء .. وكان الناس فى هذه اللحظة يقفون بعيدًا عن تلك الحفرة لشدة اللهب الذى يخرج منها.

۞ وهنا أصدر كبير الكهنة أمره بإطلاق إبراهيم فى النار، فجاء جبريل عليه السلام ووقف عند رأس إبراهيم عليه السلام وقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟

فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا.. وأما إلى ربى فحسبى الله ونعم الوكيل.

وفى تلك اللحظة كان خازن المطر يقول: متى يأمرنى الله بأن أُرسل المطر ... وذلك من أجل أن يُطفئ تلك النار ... فكان أمر الله أسرع ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

۞ وهناك بعض المفسرين ينقلون عن بنى إسرائيل أن الله لما قال: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أن نيران الدنيا كلها صارت بردًا فلم ينتفع بها أحدٌ من البشر .. وهذا ليس بصحيح بل كان الأمر من الله عز وجل لتلك النار التى كان فيها إبراهيم عليه السلام فقط دون غيرها وبقيت نيران الدنيا على ما هى عليه.

۞ أما الخليل الثانى فهو رسول الله ﷺ الذى قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» فقد قالها النبى ﷺ وأصحابه حينما رجعوا من غزوة أُحد وبهم من الجراح ما لا يعلمه إلا الله .. فأراد أبو سفيان أن يعود إليهم ليقضى عليهم فقيل للنبى ﷺ وأصحابه إن الناس قد جمعوا لكم وسيأتوا إلى المدينة، ليقضوا عليكم فقالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل ».

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

فإذا اجتمع عليك أهل الأرض جميعًا فقل: «حسبنا الله ونعم الوكيل» وسوف يكفيك الله شرهم وينصرك عليهم.

(٧٨) الرَّابعُ: عَن أبي هُرَيْرةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَدخُلُ الْجَنَّةَ أقْوَامٌ أفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أفئدة الطَّيْرِ»[١].

قيل: معنَاهُ مُتوَكِّلُون، وقِيلَ: قُلُوبُهُمْ رقيقة.

الفؤاد: هو لُبُّ القلب وقيل: هو القلب نفسه، وقيل: هو غشاء القلب، وقيل غير ذلك، ولكن على أية حال المعنى المتبادر إلى الذهن أنه القلب.

والمعلوم أن أهل الجنة هم أهل الخوف من الله عز وجل، وهم أهل الرجاء، وأهل التوكل على الله عز وجل، قلوبهم رقيقة... والقلب يرق وقد يقسو حتى يكون أقسى من الحجارة، مع أنه قطعة لحم... ولما دخل وفد اليمن على النبي ﷺ قال: «**أتاكم أهل اليمن أرق الناس أفئدة، وألينهم قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية**» إلى آخر الحديث في أوصاف أهل اليمن... والشاهد منه: «**هم أرق الناس أفئدة وألينهم قلوبًا**»، إذاً: القلب يلين ويرق.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر:٢٨].

فكلما ازداد العبد علمًا ازداد لله خشية، وتوكُّلاً، ورجاءً، ومهابة، وإجلالاً...فكذلك هؤلاء الفئة يدخلون الجنة قلوبهم أرق من قلوب وأفئدة الطير ... والمعلوم إذا كان المعنى الخوف من الله فإن الطير معروفة بأنها أشد المخلوقات خوفًا.. فإذا ذهب طفل إلى جمهرة عظيمة من الطير طارت كلها؛ خوفًا من هذا الطفل، ولذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**» أي: في رقتها وخفتها وتوكلها على الله عز وجل[٢].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٤٠) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) شرح صحيح مسلم / للشيخ حسن أبو الأشبال.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «يَدخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ» قِيلَ: مِثْلُهَا فِي رِقَّتِهَا وَضَعفِهَا كَالْحَدِيثِ الْآخَرِ: «أَهْلُ الْيَمَنِ أَرَقُّ قُلُوبًا وَأَضْعَفُ أَفْئِدَةً» وَقِيلَ فِي الْخَوْفِ وَالْهَيْبَةِ ... وَالطَّيْرُ أَكْثَرُ الْحَيَوَانِ خَوْفًا وَفَزَعًا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وَكَأَنَّ الْمُرَادَ قَوْمٌ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْخَوْفُ كَمَا جَاءَ عَنْ جَمَاعَاتٍ مِنَ السَّلَفِ فِي شِدَّةِ خَوْفِهِمْ...وَقِيلَ: الْمُرَادُ مُتَوَكِّلُونَ وَاَللهُ أَعلَمُ[1].

(٧٩) الْخَامِسُ: عنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدركَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعرَابِيٌّ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي، وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: اللهُ، - ثَلاَثًا - » وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ.

وفي رواية: قَالَ جابرٌ: كُنَّا مع رسول الله ﷺ بذاتِ الرِّقَاعِ، فإذَا أتينا على شَجرةٍ ظليلة تركْنَاهَا لرسول الله ﷺ، فَجاء رجُلٌ من الْمُشْرِكين، وسيف رسول الله ﷺ مُعَلَّقٌ بالشَّجرةِ، فاخْترطهُ فقال: تَخَافُنِي؟ قَالَ: «لا» فَقَالَ: فَمَنْ يمْنَعُكَ مِنِّي؟ قال: «الله».

وفي رواية أبي بكر الإسماعيلي في صحيحه: فقال: مَن يمنعك مِنِّي؟ قال: «الله» فسقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِه، فأخذ رسول الله ﷺ السَّيْفَ فَقالَ: «مَنْ يمنعُكَ مِنِّي؟» فَقال: كُن خَيْرَ آخذٍ، فَقَالَ: «تَشهدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله، وأَنِّي رسول الله؟» قال: لا، ولكِنِّي أعاهدك أن لا أُقَاتِلَكَ، ولا أكُون مع قوم يقاتلونك، فَخلَّى سبيلهُ فأتى أصحابَه فقَالَ: جِئتكُمْ مِنْ عِندِ خيرِ النَّاسِ[2].

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٥٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩١٠) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٨٤٣) كتاب صلاة المسافرين.

=

۞ وفى هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ وفرط شجاعته وقوة يقينه وصبره على الأذى وحِلْمه على الجُهال...وفيها جواز تَفرُّق العسكر فى النزول ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه[1].

إن هذه القصة ثابتة وصحيحة وهى تكشف عن مدى رعاية البارى عَزَّوَجَلَّ وحفظه لنبيه ﷺ، ثم هى تزيدك يقينًا بالخوارق التى أخضعها الله عَزَّوَجَلَّ له عليه الصلاة والسلام، مما يزيدك تبصُّرًا ويقينًا بشخصيته النبوية... فقد كان من السهل الطبيعى بالنسبة لذلك المشرك، وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبى ﷺ وهو أعزل غارقٌ فى النوم، أن يهوى به عليه فيقتله، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التى أمكنته من رسول الله ﷺ فى قوله: مَن يمنعك منى؟ فما الذى طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟[2].

ليس لهذا تفسير إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهى، الذى يتخطى العادات والسنن، ويتجاوز قوى الناس، لنصرة نبيه، والذود عن دعوته[3]. فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف فى ساعديه تيارًا من الرجفة، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدبًا مطرقًا بين يدى رسول الله ﷺ...وما حدث مصداق لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فليست العصمة المقصودة فى الآية أن لا يتعرض الرسول ﷺ لأذى أو محنة من قومه...إذ تلك هى سُنة الله فى عباده كما قد علمت، وإنما المراد من

= قَوْلُهُ: «قَفَل» أى: رجع – و«العِضَاهُ» الشَّجر الذى له شَوْك – و«السَّمُرةُ»: الشَّجَرةُ مِنَ الطَّلْح، وهى الْعظَام منْ شَجرِ الْعِضاهِ – و«اخْترطَ السَّيْفَ» أى: سلَّهُ وهُو فى يدِهِ – «صلتًا» أىْ: مسْلُولاً، وهُو بِفتح الصادِ وضمِّها.

(١) انظر: فتح البارى (١٥/ ٣١٧) نقلا عن السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، (ص٤٢٧).

(٢) انظر: فقه السيرة، (ص٢٠٠).

(٣) انظر: دروس وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص١٧٨).

العصمة ألا تطول إليه أى يد تحاول اغتياله وقتله لتغتال فيه الدعوة الإسلامية التى بُعث لتبليغها(١) .

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

(١) حسن ثقته ﷺ بربه، ووجه ذلك:

أ- أنه ﷺ علق سيفه بغصن شجرة ثم نام، ولولا حسن ثقته بوعد الله، بكفايته وعصمته من الناس، لطلب حراسة عليه من الجيش أثناء نومه ﷺ ، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة: ٦٧] .

ب- أنه ﷺ لما استيقظ ووجد الأعرابى قد سَلَّ سيفه يهدده بالقتل، والنبى ﷺ ليس معه شىء يدافع به عن نفسه، والأعرابى يقول له: «**مَن يمنعك منى؟**»، أى: مَن يحميك منى؟، أو مَن يحول بينى وبين قتلك، لم يزد النبى ﷺ عن قوله «الله» ، وهذا يدل على عظيم تعلُّق قلبه ﷺ بربه، ويقينه أن أمر الأعرابى بيد الله وحده ... فالله سبحانه قادر على أن يشلَّ يد الأعرابى، بل قادر على أن يقتل الأعرابى فى مكانه، أو أن يهديه إلى الحق.

وأقول: كلنا نثق بالله عَزَّوَجَلَّ ونعلم أنه يرانا ويسمعنا فى كل أحوالنا وفى جميع أقوالنا، ولكن مَن منَّا إذا تعرض لما تعرض له الرسول ﷺ لا يجزع ولا يخاف، ولا يقول إلا (الله) .

(٢) شجاعته ﷺ حيث إنه لما استيقظ، ووجد السيف مُسلطًا عليه، لم تتحرك له ساكنة، ولم تظهر عليه أى علامة من علامات الخوف كطلب النجدة، أو الرعشة، أو التوسُّل إلى الرجل حتى يتركه ...

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح: (وفى الحديث فرط شجاعة النبى ﷺ وقوة

---

(١) انظر: فقه السيرة، (ص٢٠٠).

يقينه وصبره على الأذى وحلمه عن الجُهال)[١].

(٣) حبه ﷺ للعفو والصفح عمَّن أراد إيذاءه ... ورد فى الحديث: (فها هو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ)، ومعنى (ثم لم يعرض له)، أى لم يُعاقبه على ما فعل ... قال ابن حجر: (فمنَّ عليه لشدة رغبة النبى ﷺ فى استئلاف الكفار ليدخلوا فى الإسلام).

(٤) تمام عناية الله بنبيه ﷺ، فقد حماه من كل مَن أراد إيذاءه وقتله ﷺ، وصدق الله حيث قال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور: ٤٨].

الفائدة الثانية:

من فوائد الثبات وحسن الثقة بالله: تخويف الأعداء وإلقاء الرعب فى قلوبهم، بل ويجعلهم على يقين أننا على الحق وهم على الباطل.

فهذا الرجل فى الحديث الذى معنا، وقد تمكَّن من سَلِّ السيف على النبى ﷺ، ما الذى جعله يُغمد سيفه ويجلس دون أدنى إيذاء للنبى ﷺ؟!... أليس رؤيته لشجاعة النبى ﷺ وقوة يقينه بالله تعالى؟ قال الحافظ ابن حجر: (وكأن الأعرابى لما شاهد ذلك الثبات العظيم وعرف أنه حِيل بينه وبين النبى عَلِمَ تحقُّق صدقه وأنه لن يصل إليه، فألقى السلاح وأمكنه من نفسه).

يتفرع عليه، وجوب أن يرى أعداؤنا منا اليوم ثقتنا الكاملة بالله وتمسُّكنا بديننا، حتى ولو كنا ضعاف العُدة ... فهذا النبى ﷺ قد رَدَّ الله عنه كيد عدوه، بثقته بالله وحده وبدون أى أسباب أخرى مادية.

الفائدة الثّالثة:

إيثار الصحابة رضي الله عنهم النبيّ ﷺ على أنفسهم ... حيث ورد فى إحدى روايات البخارى: (فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى ﷺ)، وهذا يدل على عظيم

---

[١] انظر: فتح البارى، (٧/ ٤٢٨).

حبهم للنبى ﷺ وامتثالهم للتوجيهات الربانية لهم، مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٢].

الفائدة الرّابعة:

ومن شواهد حسن ثقته ﷺ بالله عَزَّوَجَلَّ ما رواه البخارى، عن ابن عبّاس: «﴿ **حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾ **قالها إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **حين أُلقى فى النّار، وقالها محمّد** ﷺ **حين قالوا:** ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾»(١).



(٨٠) السادسُ: عنْ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: سَمِعتُ رسولَ الله** ﷺ **يقُولُ: «لَوْ أَنَّكم تتوكّلونَ على الله حقَّ تَوكُّله لرزقكُم كَما يرزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِماصًا وترُوحُ بِطانًا»**(٢).

۞ قوله ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكُّله**» أى توكُّلًا حقيقيًّا تعتمدون فيه على الله عَزَّوَجَلَّ اعتمادًا كاملًا فى طلب الرزق وغيره.

۞ التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عَزَّوَجَلَّ فى استجلاب المصالح ودفع المضار فى أمور الدنيا والآخرة ... وكِلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه(٣).

وقال الجرجانى: التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عما فى أيدى الناس(٤).

---

(١) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح الزواوى (١/ ٣٦٨-٣٧٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى السلسلة الصحيحة (٣١٠)، وصحيح الجامع (٥٢٥٤).

معناهُ: تَذْهَبُ أَوَّلَ النَّهارِ خِماصًا: أى ضَامِرَةَ الْبُطونِ مِنَ الْجُوعِ، وتَرْجِعُ آخِرَ النَّهارِ بِطَانًا: أىْ مُمْتَلئةَ الْبُطُونِ.

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص ٤٠٩).

(٤) التعريفات (ص ٧٤).

۞ «**لرزقكم كما يرزق الطير**» أي: لو توكلتم على الله حق توكُّله فسوف يرزقكم كما يرزق الطير .. فالطير لا تتوكل إلا على الله، وهى تعلم أن الذى يرزقها هو الله لكنها تطير وتأخذ بالأسباب .. فلا تعود إلا وقد حصلت على رزقها ورزق أولادها.

«**تغدو خماصًا**»الغدو: الذَّهاب فى أول النَّهار. وخماصًا: جائعة كما قال الله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. مخمصة: مجاعة.

«تغدو خماصًا» ليس فى بطونها شيء، لكنها متوكِّلة على ربها عَزَّوَجَلَّ.

«**وتروح بطانًا**» تروح، أى: ترجع فى آخر النهار؛ لأنَّ الرَّواح هو آخر النهار. «**بطانًا**» أى: ممتلئة البطون من رزق الله عَزَّوَجَلَّ.

قال البيهقى فى «شُعَب الإيمان» : ليس فى هذا دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق، لأن الطير إذا غدت فإنها تغدو لطلب الرزق، وإنما أراد –والله أعلم–: لو توكلوا على الله تعالى فى ذهابهم ومجيئهم وتصرُّفهم ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا إلا سالمين غانمين كالطير تغدو خِماصًا وتعود بِطانًا ... لكنهم يعتمدون على قوتهم وجَلَدِهم ويغشُّون ويكذبون ولا ينصحون، وهذا خلاف التوكل ... اهـ[1].

وأجمع القوم على أن التوكل لا يُنافى القيام بالأسباب. فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكُّل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: مَن طعن فى الحركة فقد طعن فى السُّنة، ومَن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان.

فالتوكل حال النبى ﷺ والكسب سُنته...فمن عمل على حاله فلا يتركن سُنته.

---

(١) دليل الفالحين (١/ ٢٣٤).

۞ فالمسلم يأخذ بالأسباب ولكنه يتوكل على الله وحده .. وذلك لأنه يعلم يقينًا أن الأسباب وحدها لا تنفع ولا تضر إلا بأمر الله.

۞ فمن أراد أن ينجح فلا بُدَّ أن يُذاكر وفى نفس الوقت يتوكل على الله ومن أراد أن يشفى من مرضه فلا بُدَّ أن يذهب إلى الطبيب وأن يأخذ العلاج وفى نفس الوقت يتوكل على الله ويعلم يقينًا أن الشفاء من عند الله.

۞ قال الإمام الشافعى رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَوكلْتُ فى رِزْقى عَلَى اللهِ خَالقى ... وأيقنتُ أنَّ اللهَ لا شك رازقى

وما يكُ من رزقى فليسَ يفوتنى ... وَلَو كَانَ فى قَاعِ البَحَارِ الغَوامِقِ

سيأتى بهِ اللهُ العظيمُ بفضلهِ ... ولو لم يكن منى اللسانُ بناطقِ

ففى أى شىءٍ تذهبُ النفسُ حسرةً ... وَقَد قَسَمَ الرَّحمَنُ رِزْقَ الْخَلائِقِ

۞ وفى هذا الحديث دليل على أنه ينبغى للإنسان أن يتوكل على الله فى كل شؤون حياته .. وأنه ما من دابة إلا على الله رزقها مهما صغرت أو كبرت ... كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وأن الطيور وكل المخلوقات تعرف ربها وتعبده وتُسبح بحمده.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨].

(٨١) السَّابعُ: عن أبى عمَارةَ الْبراءِ بْنِ عـازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قـال: قـال رسـولُ الله ﷺ: «يا فُلان إذَا أويْتَ إِلَى فرَاشكَ فَقُل: اللَّهُمَّ أسْلَمْتُ نفْسى إلَيْكَ، ووجَّهْتُ وجْهى إلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أمرى إلَيْكَ وألْجأْتُ ظهْرى إلَيْكَ. رغْبَة ورهبْة إلَيْكَ، لا ملجَأ ولا منْجى منْكَ إلا إليْكَ، آمَنْتُ بكِتَابِكَ الَّذى أنْزَلْتَ، وبِنَبِيِّكَ الَّذى أرْسلتَ، فَإِنَّكَ إنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وإنْ أصبحتَ أَصَبْتَ خيْرًا».

وفى رواية فى الصَّحيحين عن الْبرَاء قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إذَا أتَيْتَ مضجعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجع عَلَى شِقِّكَ الأيْمَنِ وقُلْ...» - وذَكَر نحوَه ثُمَّ قَالَ-: «وَاجْعَلْهُنَّ آخرَ ما تَقُولُ»[1].

۞ نحن نعلم أن النبى ﷺ كان حريصًا على أمته رحيمًا بالمؤمنين ...

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].. ما ترك من خيرٍ إلا وقد دلَّنا عليه وما ترك من شرٍّ إلا وقد حذرنا منه.

وفى هذا الحديث يدلنا النبى ﷺ على هذا الخير فقال ﷺ: **«إذا أتيت مضجعك»** أى: إذا أردت النوم فى مضجعك.

«فتوضأ وضوءك للصلاة»...أى: الوضوء الكامل بأركانه وشرائطه.

وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ ثَلَاثُ سُنَنٍ مُسْتَحَبَّةٍ لَيَسَتْ بِوَاجِبَةٍ:

إِحدَاهَا: الوضوء عند إرادة النوم ... فإن كان متوضئًا كَفَاهُ ذَلِكَ الْوُضُوءُ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ النَّوْمُ عَلَى طَهَارَةٍ مَخَافَةَ أَنْ يَمُوتَ مِن لَيْلَتِهِ ... وَلِيَكُونَ أَصدَقَ لِرُؤْيَاهُ وَأَبْعَدَ مِنْ تَلَاعُبِ الشَّيْطَانِ بِهِ فِى مَنَامِهِ وَتَرْوِيعِهِ إِيَّاهُ.

الثَّانِيَةُ: النَّوْمُ عَلَى الشِّقِّ الْأَيْمَنِ لِأَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كَانَ يُحِبُّ التَّيَامُنَ وَلِأَنَّهُ أَسْرَعُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٧) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٧١٠) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

إلى الانتباه.

الثالثة: ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى لِيَكُونَ خَاتِمَةُ عَمَلِهِ[(١)].

۞ «**ثم اضطجع على شِقِّك الأيمن**».

وفيه: أنَّ النَّبى ﷺ أمره أن يضطجع على الجنب الأيمن؛ لأن ذلك هو الأفضل ... وقد ذكر الأطباء أن النوم على الجنب الأيمن أفضل للبدن وأصحُّ من النوم على الجنب الأيسر.

وذكر أيضًا بعض أرباب السُّلوك والاستقامة أنَّه أقرب فى استيقاظ الإنسان؛ لأنَّ بالنَّوم على الجنب الأيسر ينامُ القلب، ولا يستيقظ بسرعة، بخلاف النَّوم على الجنب الأيمن فإنه يبقى القلب متعلقًا، ويكون أقل عمقًا فى منامه فيستيقظ بسرعة.

۞ «**فقل: اللهم إنى أسلمت نفسى**» أى ذاتى «**إليك**» أى أسلمت وجعلت نفسى مُنقادة لك طائعة لحكمك راضية بقضائك قانعة بقدرك.

«**ووجهت وجهى إليك**» أى: أقبلت بذاتى إليك مُستسلمًا رَاضيًا قانعًا.

«**وفوضت أمرى إليك**» أى: توكلت فى جميع شؤونى الدنيوية والأُخروية عليك وجعلتها راجعة إليك.

۞ «**وألجأت ظهرى إليك**».

قال النووى رَحِمَهُ اللهُ: «أى توكلت عليك، واعتمدتك فى أمرى كله، كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يسنده إليه».

۞ «**رغبة ورهبة إليك**» الرغبة: الحرص والطمع مع الحب، والرهبة المخافة مع تحرُّز واضطراب ... ومعنى «**إليك**»: صرفت رغبتى فيما أُريده إليك... وحاصل المعنى: طمعًا فى ثوابك، وخوفًا من عذابك.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٥١-٥٢).

۞ «**لا ملجأ**» أي: لا حصن.

۞ «**ولا منجا**» أي: لا خلاص.

۞ «**منك إلا إليك**» أي: لا حصن أعتصم به، ولا خلاص من عذابك، وأخذك إلا إليك.

۞ «**آمنت بكتابك الذى أنزلت**» أي: صدقت بكتابك الذى أنزلته على نبيك.

۞ «**ونبيك الذى أرسلت**» ... وفى بعض طرق الحديث، عن البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قلت: وبرسولك الذى أرسلت؟ قال: «**قل: وَنَبِيِّكَ الَّذى أرسَلْتَ وَلَا تَقُل: ورسولك الذى أرسلت**».

قال أهل العلم: وذلك لأنَّ الرَّسول يكون من البشر ويكون من الملائكة... كما قال الله عن جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]. وأمَّا النَّبى فلا يكون إلا من البشر.

فإذا قال: ورسولك الذى أرسلت، فإنَّ اللفظ صالح لأنَّ يكون الْمراد به جبريل...لكن إذا قال: «**ونبيِّك الذى أرسَلت**» اختص بمحمدٍ ﷺ...هذا من وجه.

ومن وجهٍ آخر: أنَّه إذا قال: ورسولك الذى أرسلت، فإن دلالة هذا اللفظ على النُّبوة من باب دلالة اللُّزوم، وأما إذا قال: نبيك فإنه يدلُّ على النبوة دلالة مطابقة ... ومعلوم أنَّ دلالة الْمطابقة أقوى من دلالة اللزوم.

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللهُ:

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِى سَبَبِ إِنْكَارِهِ ﷺ وَرَدِّهِ اللَّفْظَ فَقِيلَ: إِنَّمَا رَدَّهُ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «**آمَنْتُ بِرَسُولِكَ**» يَحْتَمِلُ غَيْرُ النَّبِىِّ ﷺ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ... وَاخْتَارَ الْمَازِرِىُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّ سَبَبَ الْإِنْكَارِ أَنَّ هَذَا ذِكْرٌ وَدُعَاءٌ فَيَنْبَغِى فِيهِ الِاقْتِصَارُ عَلَى اللَّفْظِ الْوَارِدِ بِحُرُوفِهِ، وَقَد يَتَعَلَّقُ الْجَزَاءُ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ، وَلَعَلَّهُ أُوحِى إِلَيْهِ ﷺ بِهَذِهِ

الْكَلِمَاتِ فَيَتَعَيَّنُ أَدَاؤُهَا بِحُرُوفِهَا ... وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ»(١).

وجاء في نهاية الحديث قوله ﷺ: «**فَإِن مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، واجعلهن آخر ما تقول**».

قَوْلُهُ ﷺ: «**متَّ عَلَى الْفِطْرَةِ**» أَىْ الإِسْلَامِ وإن أصبحت أصبت خيرًا ... أَىْ حَصَلَ لَكَ ثَوَابُ هَذِهِ السُّنَنِ وَاهْتِمَامُكَ بِالْخَيْرِ وَمُتَابَعَتُكَ أَمْرَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

وفي هذا الحديث: أنَّ النبي ﷺ أمره أن يجعلهن آخر ما يقول مع أن هناك ذكرًا بل أذكارًا عند النَّوم تُقال غير هذا.

مثلاً التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير فإنَّه ينبغي للإنسان إذا نام على فراشه أن يقول: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين، والْحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر أربعًا وثلاثين.

هذا من الذكر ... لكن حديث البراء يدلُّ على أن ما أوصاه الرَّسول ﷺ به أن يجعلهن آخر ما يقول.

(٨٢) **الثَّامنُ**: عنْ أبي بَكْر الصِّدِّيق رضي الله عنه عبدِ الله بنِ عثمانَ بنِ عامرِ بن عُمَرو بن كعب بن سعد بْن تَيْم بْن مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْن لُؤيِّ بْنِ غَالب الْقُرَشيِّ التَّيْمِيِّ رضي الله عنه وهُو وأبُوهُ وَأُمُّهُ صحابةٌ رضي الله عنهم قال: نَظَرتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكينَ وَنَحنُ في الغَارِ وَهُمْ عَلَى رُؤُوسِنا، فقلتُ: يَا رسولَ الله، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحتَ قَدَمَيهِ لأَبْصَرَنَا فَقَالَ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبا بَكرٍ باثنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا»(٢).

۞ لما بعث الله نبيه ﷺ ليدعو الكون كله إلى عبادة الله عز وجل وتوحيده فقام المشركون وآذوه هو وأصحابه أشد الإيذاء .. فلما اشتد الإيذاء أَذِن النبي ﷺ

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٥٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٥٣) كتاب فضائل الصحابة، ومسلم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة.

لأصحابه بالهجرة ثم هاجر بعدهم وكان معه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه والدليل والخادم.

فلما سمع المشركون بخروجه إلى يثرب (المدينة) بحثوا عنه في كلِّ مكانٍ فلم يجدوه .. فجعلوا لمن جاء به مائة بعيرٍ ولمن جاء بأبي بكرٍ مائة بعيرٍ .. فصار الناس يبحثون عنهما في الجبال والأودية والمغارات بل وفي كلِّ مكانٍ حتى وصلوا إلى غار ثور الذي اختبأ فيه النبي ﷺ وأبو بكر لمدة ثلاثة أيام.

فقال أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا؛ لأننا في الغار تحته، فقال: «**ما ظنُّك باثنين الله ثالِثُهما**» وفي كتاب الله: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾[التوبة: ٤٠]. فيكون قال الأمرين كلاهما.

فقوله: «**ما ظنُّك باثنين الله ثالِثُهما**».

أي: هل يستطيع أحدٌ من البشر مهما أُوتي من القوة أن يقدر عليهما؟!

والجواب: أنه ما دام الله معك فلا يستطيع أحدٌ في الكون كله أن يقدر عليك.

۞ قال الإمام النووي رحمه الله:

قوله ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**» مَعنَاهُ ثَالِثُهُمَا بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ، وَالْحِفْظِ وَالتَّسْدِيدِ ... وَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وَفِيهِ بَيَانُ عَظِيمِ تَوَكُّلِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى فِي هَذَا الْمَقَامِ ... وَفِيهِ فَضِيلَةٌ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه وَهِيَ مِنْ أَجَلِّ مَنَاقِبِهِ. وَالْفَضِيلَةُ مِنْ أَوْجُهٍ: مِنْهَا هَذَا اللَّفْظُ. وَمِنْهَا بَذْلُهُ نَفْسَهُ وَمُفَارَقَتُهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، وَرِيَاسَتَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، وَمُلَازَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمُعَادَاةِ النَّاسِ فِيهِ، وَمِنْهَا جَعلُهُ نَفْسَهُ وِقَايَةً عَنْهُ وَغَيرِ ذَلِكَ(١).

۞ وفي هذه القصة دليلٌ واضح على كمال توكُّل النبي ﷺ على ربه عز وجل وأنه متوكلٌ عليه ومُعتمدٌ عليه في كل أموره.

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٥/ ٢١٤-٢١٥).

۞ ومع كل هذا اليقين والتوكل الذى امتلأ به قلب النبى ﷺ فقد كان يأخذ بالأسباب ويُعلم الأمة كلها أن تأخذ بالأسباب بشرط ألا تتعلق القلوب إلا بمُسبِّب الأسباب (جل وعلا).

فها هو النبى ﷺ فى هجرته من مكة إلى المدينة يستأجر رجلاً مشركًا ليدله على الطريق بل ويخرج مختفيًا عن أعين المشركين.

وفى يوم أُحد كان يقاتل ويُظاهر بين درعين... وكان يدَّخر القوت لأهله -صلوات ربى وسلامه عليه-.

۞ بل كان من أسماء رسول الله ﷺ: المتوكل. كما فى الحديث: «...**وسميتك المتوكل**»[١] وإنما قيل له ذلك ﷺ لقناعته باليسير والصبر على ما كان يكره[٢].

۞ بل وفى تلك القصة دليلٌ أيضًا على أنه لم يكن هناك على باب الغار حمامتان ولا نسج العنكبوت؛ لأنه لو كان ذلك موجودًا لما كانت هناك أى معجزة .. بل إن المعجزة فى أن الغار مفتوح وليس عليه أى شىء ومع ذلك لم يستطع المشركون رؤية النبى ﷺ وصاحبه.

❊❊❊

(٨٣) التَّاسعُ : عَنْ أُمِّ المُـؤمنينَ أُمِّ سلَمَةَ، واسمُهَا هِنْدُ بنْتُ أبى أُمَيَّةَ حُذَيْفةَ المخزومية رضي الله عنها أن النبىَّ ﷺ كانَ إِذَا خَرجَ مِنْ بيْته قالَ: «بِسْـمِ اللهِ، توكَّلْتُ عَلَى الله، اللَّهُـمَّ إِنِّـى أعـوذُ بِـكَ أنْ أَضِـلَّ أو أُضَـلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظلِـمَ أَوْ أُظْلَـم، أَوْ أَجْهَلَ أو يُجهَلَ عَلَىَّ»[٣].

(١) صحيح: رواه البخارى (٢١٢٥) كتاب البيوع، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) انظر فتح البارى (٨/ ٤٥٠).
(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٠٩).

۞ فى هذا الحديث تحكى أمنا أم سلمة رضي الله عنها ماذا كان يفعل النبى ﷺ إذا خرج من بيته .. فأخبرت أنه ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: « **بِسْمِ اللهِ**» أى: بسم الله أخرج.

« **توكَّلْتُ عَلَى الله**» أى: فوضت جميع أمورى إليه سبحانه وتعالى.

« **اللَّهُمَّ إِنِّى أعوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ** » أى: أن أضلَّ فى نفسى...والضلال الذى هو نقيض الهدى....وفى الأصل ضَلَّ الشىء إذا ضاع، وضَلَّ عن الطريق إذا حار.

« **أو أُضَلَّ**» أو أن يُضلنى غيرى.

« **أَوْ أزِلَّ أَوْ أُزَلَّ**» كلاهما من الزلة؛ أى: الخطأ...ومعنى الأول: أن أُخطئ من نفسى أو أُوقع غيرى به ...ومعنى الثانى: أن يوقعنى غيرى فيه.

« **أَوْ أظلِمَ أَوْ أُظلَم**» من الظلم، وهو وضع الشىء فى غير محله؛ معنى الأول: أن أظلم غيرى، أو نفسى، ومعنى الثانى: أن يظلمنى غيرى.

« **أَوْ أَجْهَلَ أو يُجهَلَ عَلَىَّ** » معنى الأول: أن أفعل فعل الجُهلاء، أو أشتغل فى شىء لا يعنينى ... ومعنى الثانى: أن يجهل غيرى علىَّ، بأن يُقابلنى مقابلة الجهلاء بالسفاهة والمجادلة...، ونحوهما.

وفى هذا تعليم لأمته ﷺ، وبيان الطريقة فى كيفية استعاذتهم عند خروجهم من منازلهم.

الشَّاهد من هذا الْحديث قوله: «**بِسْمِ الله، تَوَكَّلْتُ عَلَى الله**» فإنَّ فى هذا دليل على أنَّ الإنسان ينبغى له إذا خرج من بيته أن يقول هذا الذكر الذى منه التَّوكل على الله، والاعتصام به ...لأن الإنسان إذا خرج من بيته فهو عُرضة لأن يصيبه شىء أو يعتدى عليه حيوان من عقرب أو حيَّة وما أشبهه، فيقول: «**آمنتُ بالله، اعتَصمتُ بالله تَوكَّلْتُ على الله**».

❊ ❊ ❊

(٨٤) الْعَاشِرُ: عنْ أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال: رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَالَ - يَعنى إذا خَرَج مِنْ بيْتِهِ-: بِسْم الله توكَّلْتُ عَلَى الله، ولا حوْلَ ولا قُوةَ إلاَّ بالله، يُقَالُ لَهُ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ»[1]، زاد أبوداود: «فيقول: يعنِى الشَّيْطَانَ لِشَيْطانٍ آخر: كيْفَ لك بِرجُلٍ قَد هُدِىَ وَكُفى وَوُقِى»؟.

۞ وفى هذا الحديث يحكى أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خادم النبى ﷺ أن النبى ﷺ ذكر الثمرة العظيمة التى يجنيها مَن قال عند خروجه من بيته: « **بِسْم الله توكَّلْتُ عَلَى الله، ولا حوْلَ ولا قُوةَ إلاَّ بالله** ».

« **بِسْم الله** » أى: أتحصن بسم الله .. أو: بسم الله أخرج.

« **توكَّلْتُ عَلَى الله** » أى: فوضت أمرى إليه وعوَّلت فى سائر الأحوال عليه.

«**وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله** » ومعناها: لا حول عن المعاصى إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بالله.

فإن قال ذلك: «**يُقال له: هُديت وكُفيت ووُقيت وتنحَّى عنه الشيطان**» «**يُقَالُ لَهُ**» يجوز أن يكون القائل هو الله تعالى، ويجوز أن يكون ملك من الملائكة.

«**كُفِيتَ**» أى: صُرِف عنك الشر.

«**وَوُقِيتَ**» أى: حُفظت عن الأشياء الخفية عنك من الأذى والسوء.

« **وَهُدِيتَ** » إلى طريق الحق والصواب، حيث وُفِّقت على تقديم ذكر الله تعالى، ولم تزل مهديًا فى جميع أفعالك، وأقوالك، وأحوالك.

« **وَتَنَحَّى عَنْهُ** » أى: بَعُد عنه الشيطان، « **فيقول لِشَيْطانٍ آخر** » يَقْصِدُ أذاه، وإخلاله: « **كيْفَ لك بِرجُلٍ** » يعنى: ما بقى لك يد فى رجل قد هُدِى بذكر الله، وكُفى شرك، وَوقِى من مكرك وكيدك.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٩٩).

(٨٥) الحادي عشر: وعَنْ أنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان أخوانِ علَى عهْد النبيِّ ﷺ، وكَانَ أحدُهُما يأْتي النبيَّ ﷺ، والآخَرُ يحتَرِفُ، فشَكَا الْمُحتَرِفُ أخَاهُ للنبيِّ ﷺ فقال: «لَعلّكَ تُرْزَقُ بِهِ»(١).

۞ قَوْلُهُ:(كَانَ أَخوَانِ) أَيِ اثْنَانِ مِنَ الْإِخْوَانِ (عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ) أَيْ فِي زَمَنِهِ ...فكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ أَيْ لِطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْمَعرِفَةِ (وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ) أَيْ يَعمَلُ وَيَكْتَسِبُ أَسْبَابَ الْمَعِيشَةِ فكَأَنَّهُمَا كَانَا يَأْكُلَانِ مَعًا (فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ) أَيْ فِي عَدَمِ مُسَاعَدَةِ أَخِيهِ إِيَّاهُ فِي حِرْفَتِهِ وَفِي كَسْبٍ آخر لمعيشته فقال: (فلعلك تُرْزَقُ بِهِ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ...أَيْ أَرْجُو وَأَخَافُ أَنَّكَ مَرْزُوقٌ بِبَرَكَتِهِ لِأَنَّهُ مَرْزُوقٌ بِحِرْفَتِكَ فَلَا تَمْنُنْ عَلَيْهِ بِصَنْعَتِكَ(٢).

۞ والمقصود هنا أن هذا الشاب الذى يعمل بحرفة مُعينة لما شكا أخاه طالب العلم للنبى ﷺ بشَّره النبى ﷺ بأنه لعل الله يسوق إليه ذلك الرزق بسبب إنفاقه على أخيه الذى يطلب العلم ويدعو إلى الله .. وفيها بُشرى أُخرى وهى أنه إذا كان يُنفق على أخيه الذى يطلب العلم فإن هذا العلم وتلك الدعوة ستكون فى ميزان حسناته إذا جدَّد نيته واحتسب ما يُنفقه على أخيه عند الله من أجل أن يُفرغه لطلب العلم والدعوة إلى الله (جلَّ وعلا).

(١) صحيح:رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٨٤).
«يَحْتَرِفُ» : يكْتَسِب ويَتَسبَّبُ.
(٢)تحفة الأحوذى (٦/ ٢١٦) بتصرف.

(٨) باب في الاستقامة

۞ قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

۞ هُنَا أمر اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ، ومَن معه من المؤمنين، أن يستقيموا كما أُمروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يَمنة ولا يَسرة، ويداوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حَدَّه الله لهم من الاستقامة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها... ففيه ترغيبٌ لسلوك الاستقامة، وترهيبٌ من ضدها[1].

۞ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصّلت: ٣٠: ٣٢].

والغرض أنهم استقاموا على شريعة الله في سلوكهم، وأخلاقهم، وأقوالهم، وأفعالهم، فكانوا مؤمنين حقًّا، مسلمين صدقًا.. وقد سُئل بعض العارفين عن تعريف الكرامة، فقال: الاستقامة عين «الكرامة».

۞ وعن الحسن أنه كان يقول: اللَّهُمَّ أنت ربنا فارزقنا الاستقامة... ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ أي: تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بألا تخافوا مما تقدمون عليه من أهوال القيامة، ولا تحزنوا على ما خلَّفتموه في الدنيا من أهلٍ ومالٍ وولدٍ فنحن نخلفكم فيه. ﴿وَأَبْشِرُواْ

(١) تفسير السعدي (ص ٤٣٩-٤٤٠).

﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أى: وأبشروا بجنة الخلد التى وعدكم الله بها على لسان الرسل.. قال شيخ زادة: إن الملائكة تتنزَّل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة ألا تخافوا من هول الموت، ولا من هول القبر، وشدائد يوم القيامة، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان له: لا تَخف اليوم ولا تحزن، وأبشر بالجنة التى كنت تُوعَد، وإنك سترى اليوم أمورًا، لم ترَ مثلها فلا تهولنك فإنما يُراد بها غيرك»[1][2].

وهذا كما جاء فى حديث البراء رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخْرُجى أيتها الرُّوحُ الطيبةُ فى الجسد الطيب، كنت تعمرينه اخرجى إلى رُوحٍ وريحان وربٍّ غير غضبان**»[3].... وقال زيد بن أسلم: «يبشرونه عند موته، وفى قبره، وحين يُبعث»، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدًّا .. وهو الواقع.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم ... أى: قُرناءكم فى الحياة الدنيا نُسددكم، ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله.

وكذلك نكون معكم فى الآخرة نُؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور نُؤمِّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم.. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أى: فى الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقرُّ به العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أى: مهما طلبتم، وجدتم. وحضر بين أيديكم، كما اخترتم ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾أى: ضيافة وعطاءً، وإنعامًا من غفورٍ لذنوبكم، رحيم رؤوف... حيث غفر وستر ورحم ولطف»[4].

---

(١) «صفوة التفاسير» (٣/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) حاشية شيخ زادة على البيضاوى (٣/ ٢٦١).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى رحمه الله فى «صحيح الجامع» (١٩٦٨).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير/ للشيخ محمد نسيب الرفاعى (٤/ ١٠٠، ١٠١).

۞ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأحقاف:١٣، ١٤]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أى جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى فلا يلحقهم مكروهٌ فى الآخرة يخافون منه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا فى الدنيا ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى أولئك المؤمنون المستقيمون فى دينهم، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى نالوا ذلك النعيم جزاءً لهم على أعمالهم الصالحة(١).

۞ وقد يسألنى أحد إخوانى وأحبابى ويقول: ما معنى الاستقامة؟

فأقول له بكل بساطة: الاستقامة أن نستقيم على نعمة التوحيد والإيمان وأن نستقيم على فعل الطاعات كالصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن وبر الوالدين وحُسن الخلق وغيرها من الطاعات.

۞ ولا بُدَّ أن نعلم أننا لن نفوز بمحبة الله ورضوانه إلا إذا فعلنا هذه الطاعات واستقمنا عليها.

فلا يَصلُح أن أصلى اليوم ثم أترك الصلاة لمدة أسبوع.

ولا يصلح أن أقرأ القرآن فى الإجازة الصيفية وأهجره فى وقت الدراسة.

ولا يصلح أن أطيع أمى وأبى فى وقتٍ وأعصيهما فى وقتٍ آخر.

ولا يصلح أن أكون كريمًا فى وقتٍ وأكون بخيلاً فى وقتٍ آخر.

وهكذا: لا بد أن نستقيم وأن نستمر على فعل الطاعات حتى نفوز برضوان رب الأرض والسماوات.

---

(١) صفوة التفاسير (٣/ ١٨١).

ساعة وساعة

۞ وقد يسألنى أحد إخوانى وأحبابى ويقول: ألم يقل النبى ﷺ: «**ساعة وساعة؟**».

أقول: نعم... قال النبى ﷺ ذلك.

لكن هل تعلم ماذا كان يقصد النبى ﷺ من قوله: «**ساعة وساعة**»؟

لم يقصد النبى ﷺ أن نعبد الله فى ساعة ونعصيه فى ساعة.

أو أن نطيع الله فى ساعة ونترك العبادة فى ساعة أخرى.

وإنما كان النبى ﷺ يقصد أن من عظمة الإسلام أنه أباح لنا أن نتمتع ببعض المباحات حتى تكون عونًا لنا بعد ذلك على فعل الطاعات.

وسأذكر مثالاً يوضح ذلك: لو شعر واحدٌ منا بأنه قد أُصيب بالتعب من كثرة العبادة فلا مانع من أن يخرج مع زوجته وأولاده أو حتى مع أصحابه فى نُزهة فى أى مكان ليس فيه معصية لله (جلَّ وعلا) فيستمتع ويقضى يومًا جميلاً دون أن ينسى أوقات الصلاة... فإن ذلك يكون عونًا له بعد ذلك على أن يعود إلى العبادة بكل نشاطٍ وقوة.. فتكون ساعة النزهة عونًا له على ساعة الطاعة ولذلك قال النبى ﷺ: «**ساعة وساعة**» حتى يعلم الناس جميعًا أن ديننا فيه فُسحة وليس فيه تشدُّد وعبوس وحرمان من مُتع الدنيا الحلال.

❊ ❊ ❊

(٨٦) وعَنْ أبى عمرو، وقيل: أبى عمْرة سُفْيانَ بن عبد الله رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يا رسول الله قُلْ لِى فى الإسلام قَولاً لا أَسْأَلُ عنه أَحدًا غيْركَ. قال: «قُلْ آمَنْت بالله ثُمَّ اسْتَقِمْ»(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٨) كتاب الإيمان.

- وقول سفيان بن عبد الله للنبي ﷺ: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك ... طلب منه أن يُعلمه كلامًا جامعًا لأمر الإسلام، كافيًا حتى لا يحتاج بعده إلى غيره، فقال له النبي ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**».

فقوله: «**قل آمنت**» فمن المعلوم أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان ... فلا يكفي أن يقول العبد: آمنت بلسانه ولم يؤمن قلبه بتلك الكلمة، ولم تنشغل جوارحه بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ ولذلك فنحن نجد أن معظم آيات القرآن تجعل الإيمان ملازمًا للعمل الصالح ...وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

۞ وقوله: «**آمنت بالله**» يشمل الإيمان بوجود الله عَزَّوَجَلَّ، وبربوبيته وبأسمائه وصفاته، وبأحكامه، وبأخباره وكل ما يأتي من قِبله عَزَّوَجَلَّ، تؤمن به...فإذا آمنت بذلك فاستقِم على دين الله، ولا تَحِد عنه، لا يمينًا ولا شمالاً لا تُقصِّر ولا تَزِد.

فاستقم على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وذلك بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والمتابعة لرسوله.

استقم على الصلاة، وعلى الزكاة، والصيام، والحج، وعلى جميع الشرائع.

وقوله: «**آمنت بالله ثم...**» دليلٌ على أن الاستقامة لا تكون إلا بعد الإيمان، وأن من شرط الأعمال الصالحة -أي: من شرط صحتها وقبولها- أن تكون مبنية على الإيمان.

فلو أن الإنسان عمل بظاهره على ما ينبغي، ولكن باطنه خراب، وفي شَكٍّ واضطراب، أو في إنكار وتكذيب، فإن ذلك لا ينفعه ... ولهذا اتفق العلماء -رحمهم الله- على أن من شروط صحة العبادة وقبولها: أن يكون الإنسان مؤمنًا بالله، أي: معترفًا به، وبجميع ما جاء من قِبله تَبَارَكَ وَتَعَالَى[1].

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين (١/ ٣٠٠) بتصرف.

(٨٧) وعَنْ أبي هُرَيْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال: قال رسول الله ﷺ: «قَارِبُوا وسدِّدُوا، واعلَمُوا أنَّه لَنْ ينْجُوَ أحدٌ منْكُمْ بعملِه» قَالوا: ولا أنْت يَا رسُولَ الله؟ قال: «ولا أنَا إلا أنْ يتَغَمَّدنِى الله برَحمةٍ منْه وَفضْلٍ»[1].

۞ ففى هذا الحديث أن الإنسان إن لم يستطع أن يُسدِّد ويُصل إلى أعلى درجات الطاعة والاستقامة فعليه أن يُقارب .. وهذا من باب قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾.

وقوله: «سَدِّدُوا» أى: سددوا على الإصابة أى: احرِصُوا على أن تكون أعمالُكم مُصيبة للْحق بقدر الْمُسْتطاع، وذلك أن الإنسان مهما بلغ من التقوى، فإنه لَا بُدَّ أن يخطئ كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «**كلُّ بنى آدم خَطَّاء، وخير الخطائين التوابون**»[2] وقال عليه الصلاة والسلام: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ ثمَّ لَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فيستغفرون الله فيغفر لهم**»[3].

فالإنسان مأمور أن يُقارب ويُسدد بقدر ما يستطيع.

۞ « **واعلَمُوا أنَّه لَنْ ينْجُوَ أحدٌ منْكُمْ بعملِه** ».

أى أنه لن ينجو أحدٌ من النار بعمله وكذلك لن يدخل الجنة بعمله؛ لأن العمل الذى يعمله العبد مهما جوَّده وحسَّنه فإنه لا يبلغ ما يجب لله عَزَّ وَجَلَّ من الشكر .. ولكن الله هو الشكور الذى يشكر القليل من العمل ويغفر الكثير من الزَّلل ويُضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب ... فإذا تقربت إلى الله بعملٍ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧٣) كتاب المرضى، ومسلم(٢٨١٦)كتاب صفة القيامة والجنة والنار.
وَ«المُقَاربَةُ»: القَصدُ الَّذِى لا غُلُوَّ فِيهِ وَلاَ تَقْصيرَ - وَ«السَّدادُ»: الاستقامة والإصابة.
وَ«يتَغَمَّدنى»: يلبسنى ويسترنى.
قَالَ العلماءُ: مَعنَى الاسْتِقَامَةِ لُزُومُ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، قالوا: وهِىَ مِنْ جَوَامِعِ الكَلِم، وَهِىَ نِظَامُ الأُمُورِ؛ وبِاللهِ التَّوفِيقُ.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥١٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩) كتاب التوبة.

يسير فإنه يُعطيك الأجر الكبير.

۞ فلما قال الرسول هذا، قالوا له: ولا أنْتَ؟! قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه**».

فدلَّ ذلك على أن الإنسان مهما بلغ من المرتبة والولاية فإنه لن ينجو بعمله حتى النبى عليه الصَّلاة والسَّلام.

لولا أن الله منَّ عليه بأن غفر له ذنبه ما تقدم منه، وما تأخر، ما أنجاه عمله... مع أن النبي ﷺ كان معصومًا من الذنوب ﷺ.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

اعلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ أهلَ السُّنَّةِ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ بِالعَقلِ ثَوابٌ وَلَا عِقَابٌ وَلَا إِيجَابٌ وَلَا تَحرِيمٌ وَلَا غيرِهمَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْلِيفِ وَلَا تَثْبُتُ هَذِهِ كُلّهَا وَلَا غيرَهَا إِلَّا بالشرع...وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَيْضًا أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ (تَعَالَى اللهُ) بَلِ الْعَالَمُ مُلْكُهُ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ فِى سُلْطَانِهِ يَفْعَلُ فيهما ما يشاء، فلو عَذَّبَ الْمُطِيعِينَ وَالصَّالِحِينَ أَجْمَعِينَ وَأَدخلَهُمُ النَّارَ كَانَ عَدلًا مِنهُ، وَإِذَا أَكْرَمَهُمْ وَنَعَّمَهُمْ وَأَدخلَهُمُ الْجَنَّةَ فَهُوَ فَضْلٌ مِنْهُ ...وَلَوْ نَعَّمَ الْكَافِرِينَ وَأَدخلَهُمُ الْجَنَّةَ كَانَ لَهُ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ أَخبرَ وَخَبَرُهُ صِدقٌ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ هَذَا بَلْ يَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيُدخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحمَتِهِ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَيُخَلِّدُهُمْ فى النار عدلًا منه[1].

۞ فإن قال قائل: هناك نُصُوص من الكتاب والسُّنة تدلُّ على أن العمل الصَّالح ينجى من النَّار ويُدخل الْجنة ...مثل قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله تعالى:

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٢٣٢).

﴿وَنُودُوٓا أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]

فكيف نجمع بين تلك الآيات وهذا الحديث؟!.

فالجواب: أن الباء التى فى تلك الآيات: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ هى باء السببية وليست باء العوض .. أى: ادخلوا الجنة بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة..

ومن المعلوم أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى هدانا ابتداءً وهو الذى وفَّقنا لذلك العمل الصالح .. فلما عملناه وأخلصنا النية لله تقبل الله منَّا ذلك العمل فأدخلنا به الجنة .. فذلك العمل كان برحمة الله ابتداءً وانتهاءً.

وليس المقصود أن دخولنا الجنة عِوضًا عن تلك الأعمال الصالحة التى عملناها .. وكأن المعنى أن الجنة هى العوض عن تلك الأعمال أو أن تلك الأعمال تساوى دخولنا الجنة ... كلا .. فلو أن إنسانًا عَبَدَ الله ألف سنة ما كانت تلك العبادة تُساوى نعمة البصر فقط فكيف تساوى دخول الجنة.

ومن أجل ذلك لَا بُدَّ أن نعتقد أننا لن ننجو من النار ولن ندخل الجنة إلا برحمة الله .

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مَعنَى الْآيَاتِ أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ الْأَعمَالِ ثُمَّ التَّوْفِيقِ لِلْأَعمَالِ وَالْهِدَايَةِ لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا وَقَبُولِهَا بِرَحمَةِ اللهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ فَيَصِحُّ أَنَّهُ لَمْ يَدخُلْ بِمُجَرَّدِ الْعَمَلِ وَهُوَ مُرَادُ الْأَحَادِيثِ وَيَصِحُّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعمَالِ أَىْ بِسَبَبِهَا وَهِىَ مِنَ الرَّحمَةِ وَاَللهُ أَعلَمُ[١].

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٢٣٣).

(٩) باب في التفكُّر في عظيم مخلوقات الله تعالى وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة

۞ إن من أعظم العبادات التى نتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ: عبادة التفكُّر وذلك بأن نتفكر فى بديع خلق الله عَزَّوَجَلَّ ونتأمل فى عظمة تلك المخلوقات لنعرف مدى عظمة الخالق الذى أبدع فى جميع مخلوقاته جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧].

۞ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

[سبأ: ٤٦].

أى ﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصدين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ أى: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم فى سلوكها، وهى طريقٌ نَصَفٌ، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولى، ولا إلى ترك قولكم، من دون موجبٍ لذلك، وهى: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ أى: تنهضوا بهمة، ونشاط، وقصدٍ لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين فى ذلك، ومتناظرين، وفُرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله، مثنى وفرادى، استعملتم فكركم، وأجَلْتُموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟ أم هو نبىٌّ صادق، مُنذرُ لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة، واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ، ليس بمجنون، لأن هيئاته ليست كهيئات المجانين، فى خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجلُّ الحركات، وهو أكمل الخلق، أدبًا، وسكينةً، وتواضعًا، ووقارًا، لا يكون إلَّا لأرزن الرجال عقلًا[1].

وإنما قال: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ لأن الجماعة يكون من اجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من التفكر، كما يكون فى الدروس التى يجتمع بها الجماعة، وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصافٍ وعَرَضَ كل واحدٍ منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحقُّ أن يعدوهما، وإذا كان الواحد جيّد الفكر عرف الحق، فإذا تفكروا عرفوا أن نسبته عليه السلام للجنون لا يمكن، ولا يذهب إلى ذلك عاقل[2] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أى ما هو إلا رسول منذر لكم إن كفرتم من عذابٍ شديدٍ فى الآخرة.

وفى هذه الآية إشارة إلى أنه ينبغى للإنسان إذا قام لله بعمل، أن يتفكر ماذا فعل فى هذا العمل: هل قام به على الوجه المطلوب، وهل قصَّر، وهل زاد وماذا حصل له من هذا العمل من طهارة القلب، وزكاء النفس، وغير ذلك.

لا يكن كالذى يؤدى أعماله الصالحة وكأنها عادات يفعلها كل يوم، بل تفكر، ماذا حصل لك من هذا العبادة، وماذا أثرت على قلبك وعلى استقامتك.

ولنضرب لهذا مثلًا بالصلاة... قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥]، فلنفكر، هل نحن إذا صلينا زدنا طاقة وقوة ونشاطًا على الأعمال الصالحة، حتى تكون الصلاة مُعينة لنا؟

(١) تفسير السعدى (ص ٨٠٢-٨٠٣)

(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٠١) بشىء من الاختصار.

هل أنت إذا صليت وجدت فى نفسك كراهة للفحشاء والمنكر والمعاصى، أو أن الصلاة لا تفيدك فى هذا؟

ومثال آخر فى الزكاة وهى: المال الواجب فى الأموال الزكوية، يصرفه الإنسان فى الجهات التى أمر الله بها، وقد بيَّن الله فوائدها، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

فإذا أدَّيت الزكاة فانظر هل طهَّرتك من الأخلاق الرذيلة ... هل طهرتك من الذنوب، وهل زكَّت مالك؟

❁ وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران: ١٩٠، ١٩١]

هذه الآية هى أول الآيات العشر التى كان النبى ﷺ يقرؤها كلما استيقظ من صلاة الليل ... فينبغى للإنسان إذا استيقظ لصلاة الليل أن يقرأ من هذه الآية إلى آخر سورة آل عمران.

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من حيث الحجم والكِبَر والعظمة، وغير ذلك مما أودع الله فيهما ... فى هذا الخلق آيات: ففى النجوم آية من آيات الله، وفى الشمس آية من آيات الله، وكذا القمر، وكذا الأشجار والبحار والأنهار، وفى كل ما خلق الله فى السماوات والأرض آيات عظيمة، تدل على كمال وحدانيته (جل وعلا)، وعلى كمال قدرته، وعلى كمال رحمته، وعلى كمال حكمته.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يكون من وجوهٍ متعددة:

أولًا: من جهة أن الليل مظلم والنهار مضىء، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[الإسراء:١٢]

ثانيًا: اختلافهما فى الطول والقِصَر ...أحيانًا يطول الليل، وأحيانًا يطول النهار، وأحيانًا يتساويان كما قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١]، أى: يُدخل هذا فى هذا مرة فيأخذ منه، وهذا فى هذا مرة فيأخذ منه ... هذا من اختلافهما.

ثالثًا: اختلافهما فى الحر والبرودة ... تارة يكون باردًا وتارة حارًّا.

رابعًا: الخصب والجدب ...تارة تكون الدنيا جدبًا وقحطًا وسنين، وتارة تكون خصبةً وربيعًا ورخاءً.

خامسًا: اختلافهما فى الحرب والسلم ... تارة تكون حربًا وتارة تكون سِلْمًا وتارة تكون عِزًّا وتارة تكون ذِلة ... كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ومَن تأمَّل اختلاف الليل والنهار وجد فيهما من آيات الله عَزَّوَجَلَّ ما يُبهر العقول.

وقوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أى: علامات واضحات على وحدانية الله، وكمال قدرته وعزته وعلمه ورحمته وغير ذلك من آياته.

ثم قال تعالى فى وصف أُولى الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١]، أى: يذكرون الله فى كل حال.

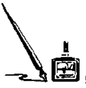
وذكر الله عَزَّوَجَلَّ نوعان: نوعٌ مُطلَق فى كل وقت، وهو الذى يُشرَع للإنسان دائمًا ... أوصى النبى ﷺ رجلًا قال له: إن شرائع الإسلام كَثُرت علىَّ، وإنى كبير فأوصنى. فقال: «لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله»[1].

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان النبى ﷺ يذكر الله على كل أحيانه[2] ... فذِكر الله هنا مُطلَق لا يتقيد بعدد، بل هو إلى الإنسان على حسب نشاطه.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٠٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٧٣) كتاب الحيض.



والنوع الثاني: ذكرٌ مُقَيَّد بعدد، أو في حال من الأحوال، وهو كثير.

منها أذكار الصلوات في الركوع والسجود وبعد السلام، وأذكار الدخول للمنزل، والخروج منه، وأذكار الركوب على الدابة وأشياء كثيرة شرعها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده من أجل أن يكونوا دائمًا على ذكره عَزَّوَجَلَّ ... ومنها أذكار النوم والاستيقاظ ... فالمهم أن الله شرع لعباده من الأذكار ما يجعلهم إذا حافظوا عليها يذكرون الله، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم.

واعلم أن الذكر أيضًا يكون على وجهين: ذكرٌ تام: وهو ما تواطأ عليه القلب واللسان.

وذكرٌ ناقص: وهو ما كان باللسان مع غفلة القلب.

قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ يتفكرون في خلق السماوات والأرض لماذا خُلقت؟ وكيف خُلقت؟ وما أشبه ذلك، ثم يقولون بقلوبهم وألسنتهم ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: لا بد أن يكون لخلق السماوات والأرض غاية محمودة، يُحمَد الرب عليها عَزَّوَجَلَّ ... ليس خلق السماوات والأرض باطلًا، لإيجاد الناس فيأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام! لا، بل هي مخلوقة لغرضٍ عظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

۞ وقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك أن تخلق هذه السماوات والأرض باطلًا.

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فيتوسلون إلى الله عَزَّوَجَلَّ بما يُثنون عليه من صفات الكمال، أن يقيهم عذاب النار...والوقاية من عذاب النار تكون بأمرين:

الأمر الأول: أن يعصمك الله من الذنوب، لأن الذنوب هي سبب دخول النار.

الأمر الثاني: أن يَمُنَّ الله عليك بالتوبة والإقلاع، لأن الإنسان بَشَرٌ لا بد أن يعصي، ولكن باب التوبة مفتوح ... قال الله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ

﴿أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

مهما عملت من المعاصي، إذا رجعت إلى الله، وتُبت، تاب الله عليك، ولكن إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي، فلا بد من الاستبراء من حقه، إما بوفائه أو باستحلاله منه، لأنه حق آدمي لا يُغفر، بخلاف حق الله.

۞ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ هذا من باب الحث على النظر في هذه الأمور الأربعة... أما الإبل: فتتأمل كيف خلقها الله على هذا الجسم الكبير، المتحمل لحمل الأثقال، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ﴾ [النحل: ٧].

هذه الإبل الكبيرة الأجسام القوية زلَّلها الله لعباده، حتى كان الصبي يقودها إلى ما يريد، مع أنها لو عتت ما استطاع الناس أن يدركوها.

ولهذا كان من المشروع أن يقول الإنسان إذا استوى على ظهرها: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[الزخرف: ١٣] أي لسنا مُطيقين لها لولا أن سخَّرها الله عَزَّوَجَلَّ.

سخرها الله لعباده، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ولهم فيها منافع ومشارب فيتخذون من جلودها بيوتًا ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، إلى غير ذلك من الآيات العظيمة التي تحملها هذه الإبل.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ هذه السماء العظيمة، رفعها الله عَزَّوَجَلَّ رفعًا عظيمًا باهرًا لا يستطيع أن يناله أحدٌ من الخلق، حتى الجن على قوتهم يقولون: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩] يقول

الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

هذه السماوات العظيمة، كيف رفعها الله تعالى بغير عَمَدٍ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، أى: ترونها مرفوعة بغير عَمَدٍ فاعتبروا بها.

وفى هذه السماوات من آيات الله عَزَّوَجَلَّ الشيء الكثير، فهى رُفعت هذا الرفع العظيم، وفيما بينها وبين الأرض آيات عظيمة من الأفلاك، والنجوم، وغيرها.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ هذه الجبال الصُّم العظيمة الكبيرة، لو أن الخلق اجتمعوا كلهم بقواهم ما كوَّنوا مثلها.

هذه الجبال الصُّم يجب أن نتفكر فيها، كيف نصبها الله عَزَّوَجَلَّ ؟

نصبها الله عَزَّوَجَلَّ على حكمة عظيمة، لأن الله يجعل فى هذه الجبال التى نصبها مصالح عظيمة وكبيرة... منها أنها رواسى تُرسى الأرض وتمسكها عن الاضطراب، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، أى: أن تضطرب ... فلولا أن الله أرساها بهذه الجبال، لكانت مضطربة كالسفينة على الماء فى شدة الأمواج، ولكن الله جعلها بهذه الجبال ساكنة قارة، لا تضطرب ولا تميد بأهلها.

هذه الجبال أيضًا تقى من أهوية ورياح شديدة عاصفة فى بعض الأماكن، وتقى أيضًا من برودة عظيمة تأتى من ناحية القطب، وتقى من حرارة شديدة ... وكذلك من سفوحها آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ من النبات، والأودية، والمعادن شىء عظيم كثير ... فلهذا قال: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فجعلها الله سطحًا، وسخَّرها للعباد، وجعلها ذَلولًا مُذللة، بحيث لم تكن تربتها لينة جدًّا لا يستقرون عليها، ولا صلبة جدًّا لا ينتفعون منها ... بل جعلها (سبحانه وتعالى) رخوة مُسطحة مبسوطة، حتى ينتفع الناس على سطحها بما يسَّر الله (سبحانه وتعالى) لهم من

الأسباب النافعة.

وهذه الأرض المُسطحة هى أيضًا كروية، أى أنها شبه الكرة، مستديرة من كل جانب، إلا أنها مفلطحة من الناحية الشمالية والجنوبية.

ولذلك لو أن أحدًا من الناس ركب طائرة متجهًا إلى المغرب - على خطٍّ مستقيم- لكان يخرج إلى المكان الذى أقلعت منه الطائرة، وهذا يدل على أنها مستديرة، لأن الإنسان يصل طرفها بطرفها.

❀❀❀

۞ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠] ... فأمر الله بالسير وهو ينقسم إلى قسمين: سير بالقدم وسير بالقلب.

(١) أما السير بالقدم: فأن يسير الإنسان فى الأرض على أقدامه، أو على راحلةٍ من بعيرٍ أو سيارة، أو طائرة، أو غيرها حتى ينظر ماذا حصل للكافرين، وماذا كانت حال الكافرين.

(٢) وأما السير بالقلب: فهذا يكون بالتأمل والتفكير فيما نُقل من أخبارهم.

والقرآن مملوء من أخبار الأولين المكذبين للرسل، والمؤيدين للرسل ... وبيَّن الله عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ولهذا ينبغى للإنسان أن يقرأ الآيات التى فيها أخبار مَن سبق، وأن يسأل عن معناها ويستفسر، حتى يكون على بصيرة من الأمر... وكذلك أيضًا ما جاءت به السُّنة من أخبار الماضين، فإنها جاءت بالأحاديث الكثيرة النافعة[1].

❀❀❀

(١) شرح رياض الصالحين - الشيخ ابن عثيمين (١/ ٣٠٤-٣٠٩) بتصرف.

(١٠) باب في المبادرة إلى الخيرات وحثّ مَن توجَّه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردُّد

۞ ما أجمل أن يتنافس المسلمون فى الطاعات التى تُقرِّبهم من رب الأرض والسماوات.. وما أجمل أن يتنافسوا فى الفوز بالحسنات والفوز بالمغفرة والرحمات والارتقاء فى درجات الجنات.

۞ فنحن فى سباقٍ حقيقى... وينبغى أن يسعى كل واحدٍ منَّا لأن يسبق كل مَن حوله فيما يقربه إلى الله (جلَّ وعلا).

۞ وتعالوا بنا لنتأمل سويًّا قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢-١٦٣] فكل واحدٍ منا يقرأ تلك الآيات ويقرأ فى آخرها: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.. نعم إنه سباقٌ حقيقى.. وكل واحدٍ يتمنَّى أن يكون أول المسلمين فى فعل الطاعات... وأول المسلمين فى الفوز بالمغفرة والرحمات... وأول المسلمين فى دخول الجنات.

۞ ومن هنا جاءت الآيات الكثيرة التى تحض على المسارعة إلى الخيرات والطاعات.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وهكذا... فالآيات التى تحض على المسارعة إلى الخيرات كثيرة جدًّا.

۞ ومن أجل ذلك لا بد أن تعلو همة كل واحدٍ منا من أجل أن يبذل أقصى ما في وسعه للفوز برضوان الله ورحمته ومغفرته وجنته.

۞ **وعنوان هذا الباب يتضمن أمرين: الأول:** المبادرة والمسارعة إلى الخير... **والثانى:** أن الإنسان إذا عزم على الأمر وهو خير فليمضِ فيه ولا يتردد.

أما الأول: فهو المبادرة، وهى ضد التوانى والكسل، وكم من إنسانٍ توانَى وكسل ففاته خيرٌ كثير، ولهذا قال النبى ﷺ: «**المؤمنُ القَوِيُّ خيرٌ وأحَبُّ إلى الله مِن المؤمِن الضَّعِيف وفى كُلٍّ خير، احرِص على ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِن بالله ولا تَعجِز**»(١).

فالإنسان ينبغى له أن يسارع فى الخيرات...كلما ذُكر له شيء من الخير بادر إليه...فمن ذلك الصلاة والصدقة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام، إلى غير ذلك من مسائل الخير، التى ينبغى المسارعة إليها.

فالإنسان ربما يتوانى فى الشيء ولا يقدر عليه بعد ذلك، إما بموتٍ أو مرض أو فواتٍ أو غير هذا...وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ: «**إذَا أَرَادَ أَحَدُكُم الحجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ فإنَّه قَد يَمْرَض المرِيضُ، وتَضلُّ الرَّاحِلة، وتعرِض الحاجة**»(٢).

فقد يعرض له شيء يمنعه من الفعل فسارع إلى الخير ولا تتكاسل(٣).

۞ **قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [البقرة: ١٤٨].

أى: كل أهل دين وملة، له وجهة يتوجه إليها فى عبادته، وليس الشأن فى استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التى تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النَّسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن، فى امتثال طاعة الله،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٢) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٠٤).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٣١٠) بتصرف.

والتقرب إليه، وطلب الزُّلفى عنده...فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذى إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به، فهى الرابحة على الحقيقة، وهذا أمرٌ مُتفَقٌ عليه فى جميع الشرائع، وهو الذى خلق الله له الخلق، وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات، قدرٌ زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها... ومَن سبق فى الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق فى الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة...والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة، وجهاد، ونفعٍ مُتعدٍّ وقاصر.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير ويُنشطها، ما رتَّب الله عليها من الثواب ... قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازى كل عاملٍ بعمله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

ويُستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة فى أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها... فلله ما أجمعها وأنفعها من آية!![1]

ومن ذلك المسابقة فى الصفوف فى الصلاة...فإن النبى ﷺ قال: «**خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**»[2].

ورأى النبى ﷺ أقوامًا فى مؤخرة المسجد لم يسبقوا ولم يتقدموا، فقال: «**لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله عَزَّوَجَلَّ**»[3]. فانتهز الفرصة واسبق إلى الخير.

(١) تفسير السعدى (ص ٦٨-٦٩).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٤٠) كتاب الصلاة.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٤٣٨) كتاب الصلاة.

۞ وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي وإلى جنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض ...كما قال في سورة «الحديد» ﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١] والغرض بيان سعتها فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي هُيئت للمتقين لله.

ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في حال عُسرهم ويُسرهم ... إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أُعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئًا ولو قلَّ.

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل- هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ يدخل في العفو عن الناس: العفو عن كل مَن أساء إليك بقولٍ أو فعلٍ...والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلَّى بالأخلاق الجميلة وتخلَّى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله، رحمة بهم وإحسانًا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير...كما قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها وأحسن وأعلى وأجلّ وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾...والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة



الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان فى عبادة الخالق فسَّرها النبى ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الدينى والدنيوى إليهم، ودفع الشر الدينى والدنيوى عنهم، فيدخل فى ذلك: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعى فى جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم وتبايُن أوصافهم، فيدخل فى ذلك بذلُ الندى، وكَفُّ الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين فى هذه الآيات...فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم، فقال[1]: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ والفاحشة: ما يُستفحش من الذنوب، وهى كبائر الذنوب مثل: الزِّنى، وشرب الخمر، وقتل النفس وما أشبهها، وكل ما يُستفحش فهو فاحشة ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بما دون الفاحشة من المعاصى الصغار، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ أى: ذكروا عظمته وذكروا عقابه، ثم ذكروا أيضًا رحمته وقبوله للتوبة وثوابها.

فهم يذكرون الله من وجهين:

الوجه الأول: من حيث العظمة والعقوبة والسلطان العظيم، فيوجلون ويخجلون ويستغفرون.

والثانى: من حيث الرحمة وقبول التوبة، فيرغبون فى التوبة ويستغفرون الله.. ولهذا قال: ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ ومن أفضل ما يُستغفر به سيد الاستغفار: «**اللَّهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك**

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٤٥).

ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، يعني: لا أحد يغفر الذنوب إلا الله عَزَّوَجَلَّ ... لو أن الأمة كلها من أولها إلى آخرها، والجِنَّة والملائكة اجتمعوا على أن يغفروا لك ذنبًا واحدًا ما غفروه، لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

ولكننا نسأل الله المغفرة، لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ... وأما أن يكون بيدنا أن نغفر!!... فلا يغفر الذنوب إلا الله.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

يعني: لم يستمروا على معاصيهم وظلمهم وهم يعلمون أنها معاصي وظلم... وفي هذا دليل على أن الإصرار مع العلم أمره عظيم، حتى في صغائر الذنوب... ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أن الإنسان إذا أصرَّ ولو على الصغيرة، صارت الصغيرة كبيرة(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تزيل عنهم كل محذور ﴿وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة والحبور والبهاء، والخير والسرور، والقصور، والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلًا، ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ عملوا لله قليلًا فأُجروا كثيرًا؛ فـ «عند الصباح يَحمَدُ القومُ السَّرى»، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملًا موفرًا.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافًا للمُرجئة.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣١٤-٣١٥).

ووجه الدلالة: إنما يتم بذكر الآية التي في سورة الحديد نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾، فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية... فدلَّ على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون[١].

بَابُ المُبَادَرَةِ إِلَى الخَيْرَاتِ

(٨٨) - فَالأَوَّل: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، ويُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[٢].

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

والمراد الأعمال الصالحة؛ هي كل عمل يعمله الإنسان خالصًا لله موافقًا فيه رسول الله ﷺ... يعني أن العمل الصالح ما بُني على أمرين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، وهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ... فالعمل الذي ليس بخالصٍ ليس بصالح... لو قام الإنسان يصلي؛ ولكنه يرائي الناس بصلاته، فإن عمله لا يُقبَل؛ حتى لو أتى بشروط الصلاة، وأركانها، وواجباتها، وسُننها، وطمأنينتها، وأصلحها إصلاحًا تامًّا في الظاهر، لكنها لا تُقبل منه، لأنها خالطها الشرك...والذي يُشرك بالله معه غيره لا يَقبل الله عمله.

كما في الحديث الصحيح؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[٣].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

يعني: أنا غني عَنِ الْمُشَارَكَةِ وَغَيْرِهَا فَمَنْ عَمِلَ شَيْئًا لِي وَلِغَيْرِي لَمْ أَقْبَلْهُ بَلْ

(١) تفسير السعدي (ص ١٤٥-١٤٦).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١١٨) كتاب الإيمان.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق.

أَتْرُكُهُ لِذَلِكَ الْغَيْرِ ... والمراد أن عمل المُرائى باطل لا ثواب فِيهِ وَيَأْثَمُ بِهِ [(١)].

كذلك أيضًا: لو أن الإنسان أخلص فى عمله، لكنه أتى ببدعة ما شرعها الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فإن عمله لا يُقبل حتى لو كان مخلصًا، حتى لو كان يبكى من الخشوع، فإنه لا ينفعه ذلك؛ لأن البدعة وصفها النبى ﷺ بأنها ضلالة، فقال: «**فإن كل مُحدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**».

۞ ثم قال: «**فتنًا كقطع الليل المظلم**» أخبر أنه ستوجد فتن كقطع الليل المظلم، يعنى أنها مُدلهمة مُظلمة لا يرى فيها النور والعياذ بالله، ولا يدرى الإنسان أين يذهب ... يكون حائرًا، ما يدرى أين المَخرج.

والفتن منها ما يكون من الشبهات، ومنها ما يكون من الشهوات.

ففتن الشبهات: كل فتنة مبنية على الجهل فهى فتنة شبهة، ومن ذلك ما حصل من أهل البدع الذين ابتدعوا فى عقائدهم ما ليس من شريعة الله، أو أهل البدع الذين ابتدعوا فى أقوالهم وأفعالهم ما ليس من شريعة الله، فإن الإنسان قد يُفتن والعياذ بالله فيضل عن الحق بسبب الشبهة.

إذًا... الفتن تكون من الشبهات، وتكون أيضًا من الشهوات، بمعنى أن الإنسان يعرف أن هذا حرام، ولكن لأن نفسه تدعوه إليه فلا يبالى، بل يفعل الحرام... يعلم أن هذا واجب، لكن نفسه تدعوه للكسل فيترك هذا الواجب... هذه فتنة شهوة، يعنى فتنة إرادة، ومن ذلك أيضًا - بل من أعظم ما يكون - فتنة شهوة الزنى أو اللواط والعياذ بالله، وهذه من أضر ما يكون على هذه الأمة ... قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**مَا تَرَكْتُ بَعدِى فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[(٢)(٣)].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٨/ ١٥٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٣١٦) بتصرف.

وقال ﷺ: « فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِى النِّسَاءِ»(١).

۞ « يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا، و يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصبِحُ كَافِرًا ».

ومن شدة تلك الفتن التى حذرنا النبى ﷺ منها .. أن الرجل يُصبح مؤمنًا ثم يرتد عن دينه خلال ساعات معدودات فيُمسى كافرًا .. أو يُمسى مؤمنًا وما تمر عليه تلك الليلة حتى يُصبح كافرًا.

لكن يا ترى ما هو السبب فى ذلك؟!

«يبيع دينه بِعَرَض من الدنيا» ولا تظن أن العَرَض من الدنيا هو المال فقط.

بل كل متاع الدنيا عَرَض، سواء كان مالًا أو جاهًا أو رئاسة، أو نساءً أو غير ذلك...كل ما فى الدنيا من متاع فإنه عَرَض، كما قال تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤]. فما فى الدنيا كله عَرَض.

فهؤلاء الذين يصبحون مؤمنين ويُمسون كفارًا أو يمسون مؤمنين ويصبحون كفارًا، كلهم يبيعون دينهم بعرض من الدنيا.

فكأن النبى ﷺ يحضنا على كثرة الأعمال الصالحة والمُسارعة إليها؛ لتكون سببًا للنجاة من الفتن.. أو ليُختَم لنا بخيرٍ إذا وقعت الفتن وفارقنا الحياة .. ولذلك أمرنا النبى ﷺ أن نَستعيذ بالله فى كل صلاة من فتنة المحيا والممات فقال ﷺ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ -يعنى: التشهُّد الأخير- فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَربَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ »(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

(٨٩) الثَّانى: عنْ أبى سِروَعَةَ عُقبةَ بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيتُ وَرَاءَ النَّبىِّ ﷺ بالمَدِينَةِ العَصرَ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بعضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيهِمْ، فَرأى أَنَّهُمْ قَد عَجِبُوا مِنْ سُرعَتِهِ، فَقَالَ: «ذَكَرتُ شَيئًا مِنْ تِبرٍ عِندَنَا فكَرِهتُ أَنْ يَحبِسَنِى فَأَمَرتُ بِقِسْمَتِهِ»[1].

وفى روايةٍ لَهُ: «كُنتُ خَلَّفتُ فى البَيْتِ تِبرًا مِنَ الصَّدَقةِ فكَرِهتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ».

۞ فى هذا الحديث يُخبر عقبة بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه صلَّى وراء النبى ﷺ بالمدينة صلاة العصر .. وكان الصحابة أحرص الناس على الصلاة خلف النبى ﷺ ليفوزوا بشرف صُحبة النبى ﷺ وليتعلموا بين يديه ويقتبسوا من أدب النبى ﷺ وأخلاقه.

فلما سلَّم النبى ﷺ من صلاته لم ينتظر حتى يقرأ أذكار ما بعد الفريضة بل قام مُسرعًا فخشى الصحابة أن يكون قد أصابه مكروه.

فلما قام النبى ﷺ مُسرعًا وتخطَّى رقاب الناس وذهب إلى بعض حُجر نسائه وفزع الصحابة من سُرعته .. فما كان منه ﷺ إلا أن عاد إليهم؛ ليوضح لهم ما الذى حمله على أن يفعل ذلك .. لأنه يعلم مدى حبهم له ﷺ ... فأراد أن يُطمئنهم وفى نفس الوقت أراد أن يُعلمهم.

فأخبرهم أنه ﷺ ذكر شيئًا من التبر (قطع الذهب أو الفضة) عنده فكَرِهَ أن يحبسه فأمر بقسمته.

۞ وفى هذا الحديث درسٌ عظيم وهو أن المسلم لا بد أن يكون حريصًا على المبادرة إلى فعل الخيرات، وأنه ينبغى عليه أن يغتنم كل لحظة فى فعل الخيرات؛ لأنه لا يدرى متى يموت .. ولعله أن يُختم له بهذا العمل الصالح.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٨١) كتاب الأذان.

«التِّبْرُ»: قِطَعُ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ.

والمسلم الذى يؤمن بالله واليوم الآخر، لَا بُدَّ أن يكون حريصًا على أن يعمل لما بعد الموت؛ لأن الدنيا مزرعة للآخرة وأن ما يزرعه هنا فسوف يحصده هناك وإذا كان الإنسان فى أمور دُنياه يكون حريصًا على اغتنام الفرص التى تجلب له المال والثراء فمن باب أَولَى أن يَغتنم أى فرصة تُقربه من الجنة، ومن رضوان رب الجنة (سبحانه وتعالى).

قال ﷺ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شَغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ**»[(١)].

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ على أن النبى ﷺ كان أسرع الناس مبادرة إلى فعل الخيرات؛ لأنه الأُسوة والقدوة ﷺ... وأنه ﷺ يحتاج إلى العمل كغيره من المسلمين... ولهذا كان ﷺ لا يتأخر عن فعل الخيرات مع أنه سيد ولد آدم عليه السلام وأنه قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر .. وأنه يعلم قدره ومكانته عند الله .. كان يفعل كل ذلك لنقتدى به ﷺ ولا نتكاسل عن الطاعات وفعل الخيرات.

ولهذا قال ﷺ: «**لَنْ يُدخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ: إِمَّا مُحسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعتِبَ**»[(٢)].

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ أيضًا على جواز تخطِّى الرقاب بعد السلام من الصلاة وبخاصة إذا كان هناك ضرورة أو حاجة .. وذلك لأن الصلاة قد انتهت وأصبح الناس ليسوا بحاجة إلى أن يبقوا فى أماكنهم .. وهذا بخلاف تخطِّى الرقاب قبل الصلاة فإن هذا منهىٌّ عنه؛ لأنه إيذاءٌ للناس ..

ولهذا عندما كان النبى ﷺ يخطب ورأى رجلًا يتخطَّى الصفوف قطع النبى

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٧٣) كتاب المرضى، ومسلم (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين.

ﷺ خُطبته وقال للرجل: «اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْت».

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ أيضًا على أن النبى ﷺ ينسى كغيره من البشر .. فإن كان النبى ﷺ ينسى ما كان معلومًا لديه فمن باب أَولَى ألا يعلم الغيب .. كما قال الله له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وكما قال الله له: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وفى تلك الآيات قطع السبيل على مَن يظنون أن النبى ﷺ يعلم الغيب وعلى مَن يذهبون إليه عند قبره ويسألونه من دون الله عَزَّوَجَلَّ ويطلبون منه قضاء الحاجات وتفريج الكربات ... فقد جاء النبى ﷺ لحماية التوحيد وتحقيق عبادة الله (جلَّ وعلا) ... ولذا قال ﷺ: « إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَل الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله...».

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ على شدة الأمانة وعِظَمها .. وأن الإنسان إذا لم يُبادر بأداء الأمانة فإنها قد تحبسه .. ولذا قال النبى ﷺ: « فَكَرِهتُ أَنْ تَحبِسَنِى » أى: فكرهت أن تحبسنى يوم القيامة .. وقال بعض أهل العلم: أى: فكرهت أن يشغلنى التفكير فيها عن التوجُّه والإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ.

وإذا كان هذا فى الأمانة فكذلك أيضًا فى الدَّين فإنه يجب على المسلم أن يُبادر بقضاء دَينه إذا كان حالًا إلا أن يسمح له صاحب الدَّين فلا بأس بذلك .. وذلك لأن الدَّين أمره عظيم.

ولذلك كان النبى ﷺ قبل أن يفتح الله عليه الفتوح إذا جىء إليه بالرجل سأل: «هل عليه دَيْن؟» فإن قالوا: لا، تقدم وصلى عليه، وإن قالوا: نعم، سأل: «هل له وفاء؟» فإن قالوا: نعم، تقدم وصلى، وإن قالوا: لا، تأخر ولم يُصلِّ... يترك الصلاة

على الميت إذا كان عليه دَيْن، فقُدِّم إليه ذات يوم رجل من الأنصار ليصلى عليه فخطا خُطواتٍ ثم قال: «**هل عليه دَيْن؟**» قالوا: نعم يا رسول الله، ثلاثة دنانير وليس لها وفاء، فتأخر وقال: «**صلوا على صاحبكم**» فعرف ذلك في وجوه القوم...تغيرت وجوههم، كيف لم يُصلِّ عليه النبى عليه الصلاة والسلام؟! فتقدم أبو قتادة رضي الله عنه وقال: يا رسول الله، عليَّ دَيْنه، فتقدم النبى ﷺ فصلى عليه[١].

ومع الأسف الآن تجد كثيرًا من الناس عليه دَيْنٌ وهو قادر على الوفاء، ولكنه يماطل والعياذ بالله، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «**مطل الغنى ظُلْم**»[٢].

۞ ولأن النبى ﷺ هو الأُسوة والقدوة فى كل شىء فتأمل معى تلك الصور المشرقة لأمانة النبى ﷺ:

(١) لما بنت قريش الكعبة، وبلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فى وضع الحجر، أى القبائل تلى رفعه، فقالوا: تعالوا نُحكِّم أول مَن يطلع علينا، فطلع عليهم رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا الأمين، رضينا حكمه، هذا محمد... فأمر بثوبٍ، فوضع الحَجَر فى وسطه، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرفٍ من الثوب، فرفعوه، وأخذه الرسول، فوضعه.. وكان هذا قبل البعثة بخمس سنوات..

(٢) وبعد البعثة، لما نزل عليه جبريل عليه السلام يقول: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وذهب النبي ﷺ إلى بيته فزعًا قالت له السيدة خديجة رضي الله عنها: « أَبْشِر، فَوَاللهِ لا يُخْزِيكَ الله أبدًا، وَاللهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصدُقُ الحَدِيثَ، وَتُؤَدِّى الأمانَةَ، وَتحمِلُ الكَلَّ، وَتَقرِى الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلى نَوَائِبِ الْحَقّ »[٣].

(٣) ولما ذهب أبو سفيان ومَن معه إلى هرقل ملك الروم، لم يستطع أن ينكر هذا الخُلق العظيم، ولم يقدر أن يخفيه، مع أنه حريص على أن يُقلل من شأنه ﷺ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٩٨) كتاب الكفالة، ومسلم (١٦١٩) كتاب الفرائض.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٨٧) كتاب الحوالة، ومسلم (١٥٦٤) كتاب المساقاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤) كتاب بدء الوحى، ومسلم (١٦٠) كتاب الإيمان.

أو يطعن فيه بدافع العداء آنذاك، لكنه لما سُئل عن ما يأمر النبي ﷺ به؟ قال أبو سفيان: «إنَّه يأمر بالصّلاة والصّدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة»[1].

(٤) ولما سُئل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه كما في قصته مع النجاشي ملك الأحباش، وذلك عندما سأله عن الدين الذي اعتنقوه، فكان من إجابته له، قوله: « حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَّتَهُ » وهكذا كان معروفًا بالأمانة قبل البعثة وبعدها.

(٥) ولما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، ماذا فعل النبي ﷺ وعنده ودائع القوم؟ أيفجعهم فيها وقد آذوه وطردوه؟ لو فعل ذلك ما كان عليه لومٌ! ولكنه ترك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ليقوم بهذه المهمة بدلًا عنه.

وهذا هو السر في أنه ترك عليًّا ينام مكانه في الفراش، وكانت هجرة عليٍّ مع الرسول ﷺ أولَى ولكنه تركه ليؤدي الأمانات التي كانت لديه ﷺ.

(٦) ولما دخل مكة فاتحًا، وعاد إليها كما وعده ربه ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، فلما نزل بمكة، واطمأن الناس خرج حتى جاء بيت الله الحرام - الكعبة المشرفة - طاف سبعًا على راحلته، يستلم الركن بمحجنٍ في يده، فلما انتهى من الطواف دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتح الكعبة ثم دفع المفتاح مرة أخرى لعثمان بن طلحة وقال له: **«هاك مفتاحك يا عثمان .. اليوم يوم برٍّ ووفاء .. خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم .. يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكُلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف»**.

۞ وفي هذا الحديث دليلٌ أيضًا على جواز التوكيل في قسم ما يجب على الإنسان قسمته .. ولهذا قال النبي ﷺ لأصحابه: **«فأمرت بقسمته»**.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير.

وهذا التوكيل جائز فى كل حق تدخله النيابة من حقوق الله؛ كالحج مثلاً، وأداء الزكاة، وحقوق الآدميين؛ كالبيع، والشراء، والرهن وما أشبهها.

(٩٠) الثَّالث: عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رجلٌ للنبىِّ ﷺ يومَ أُحُدٍ: أرأيتَ إنْ قُتلتُ فأينَ أَنا؟ قال: «فى الْجنَّةِ» فألْقى تَمراتٍ كُنَّ فى يَدِهِ، ثُمَّ قاتل حتَّى قُتلَ[١].

وهذا الحديث يُذكرنى بما فعله عُمير بن الحُمام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى غزوة بدر .. فإنه لما قال النبى ﷺ لأصحابه: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**»، قَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِىُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا يَحمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِى هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[٢].

قال النووى: فيه جواز الانغمار فى الكفار، والتعرُّض للشهادة وهو جائز بلا كراهة عند جماهير العلماء[٣].

وفيه قوة يقين الصحابة، وصدقهم، وتصديقهم لرسول الله ﷺ.

ولا يمكن للمسلم أن يبذل الدنيا إلا وهو مؤمن تمام اليقين بالآخرة... فإن حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير، وإنما كثرت قصص البذل والتضحية والفداء عند الصحابة الكرام لقوة يقينهم، وكمال إيمانهم وزهدهم، ولم تتشرف البشرية بجيل بعدهم ظهرت فيه هذه الآيات البينات والبراهين الساطعات على اليقين والزهد والصدق...فرضى الله عنهم أجمعين، وجمعنا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٤٦) كتاب المغازى، ومسلم (١٨٩٩) كتاب الإمارة.
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٠١) كتاب الإمارة.
(٣) شرح النووى لصحيح مسلم (١٣/ ٦٩).

بهم فى عِلِّيين مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

ونظير هذا أن النبى ﷺ خطب الناس يوم عيد، ثم نزل فتقدم إلى النساء فخطبهن، وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة منهن تأخذ خرصها وخاتمها، وتُلقيه فى ثوب بلال، يجمعه حتى أعطاه النبى ﷺ، ولم يتأخرن رضى الله عنهن بالصدقة، بل تصدقن حتى من حُليهن.

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ على حرص الصحابة على طلب العلم ومعرفة الأمور من أجل أن يعملوا بما علموا .. فإن من بركة العلم أن تعمل به ... فقد كان الصحابى يسأل النبى ﷺ فإذا عرف الإجابة يبدأ فى العمل فورًا وذلك لأنه ليس الغاية من العلم مجرد المعرفة النظرية بل التطبيق العملى .. ولذلك أنكر الله عَزَّوَجَلَّ على الذين لا يعملون بما يعلمون فقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].

وأخبر النبى ﷺ عن العقوبة التى تنتظر كل مَن يتعلم ولا يعمل بعلمه.

فقال ﷺ: **«يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَوْمَ القيامَةِ فَيُلْقَى فى النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ فى الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْه أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُ تَأْمُرُ بالمعرُوفِ وَتنهَى عَنِ المُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُ بِالمَعرُوفِ وَلا آتِيهِ، وأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»**(١).

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ على أن مَن قُتل فى سبيل الله فإنه فى الجنة .. ولكن مَن هو الذى يُقتل فى سبيل الله؟

الذى يُقتل فى سبيل الله هو الذى يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا، لا يقاتل

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٦٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٩٨٩) كتاب الزهد.

قوله: «تَنْدلِقُ» ومعناه تَخرُجُ - وَ«الأَقْتَابُ»: الأمعاءُ، واحدها قِتْبٌ.

حمية ولا شجاعة ولا رياءً، وإنما يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا.

۞ وأخيرًا: هل يجوز لنا أن نشهد لكل مَن يُقتل فى سبيل الله بأنه شهيد؟

والجواب: لا .. لا نستطيع أن نشهد لأحدٍ بعينه أنه شهيد ولو كان يُقاتل خلف النبى محمد ﷺ إلا إذا أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بأنه شهيد أو أخبر النبى ﷺ بأنه شهيد.. وذلك لأن النبى ﷺ قال: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِى سَبِيلِ اللهِ - وَاللهُ أَعلَمُ بِمَنْ يُكْلَم فِى سَبِيلِهِ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ»(١). فقوله: « وَاللهُ أَعلَمُ بِمَنْ يكْلَم فِى سَبِيلِهِ ».

هذا يدل على أن الأمر يتعلق بالنية .. وتلك النية التى محلها القلب لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وخطب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذات يوم فقال: أيها الناس، إنكم تقولون فلان شهيد وفلان شهيد، ولعله أن يكون قد أوقر راحلته...يعنى قد حملها من الغلول... يعنى لا تقولوا هكذا، ولكن قولوا: مَن مات أو قُتل فى سبيل الله فهو شهيد.

فلا نشهد لشخصٍ بعينه أنه شهيد إلا إذا شهد له النبى ﷺ .. ولكن نقول كلامًا عامًّا: مَن قُتِلَ فى سبيل الله فهو شهيد .. أو نقول لشخصٍ بعينه: نرجو أن يكون من الشُّهداء .. أو نسأل الله أن يحشره فى زُمرة الشهداء.

(٩١) الرَّابِعُ: عَنْ أَبى هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رجلٌ إلَى النَّبىِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أىُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأمُلُ الْغِنَى، وَلا تُمْهِلْ حتَّى إذا بلَغتِ الْحُلْقُومَ. قُلتَ: لِفُلانٍ كذا ولفلانٍ كَذَا، وقَد كان لفُلان كَذَا»(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١٩) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٢) كتاب الزكاة.

«الْحُلْقُوم»: مجرى النَّفس - و «الْمرىءُ» مجرى الطَّعامِ والشَّراب.

۞ لقد كان أصحاب الرسول ﷺ هم أصحاب الهمة العالية .. ولذا فإنهم كانوا لا يسألون عن العمل الصالح فحسب بل كانوا يسألون عن أفضل الأعمال.. ولذا جاء سؤال هذا الرجل للنبى ﷺ: يا رسولَ الله، أيُّ الصَّدقةِ أعظمُ أجْرًا؟ .. وهذا مثل سؤال الصحابة للنبى ﷺ: أى الأعمال أحب إلى الله؟.. وهكذا فقد كانوا أحرص الناس على الإتيان بأفضل الأعمال.

۞ وفى هذا الحديث كان هذا الصحابى لا يسأل عن أفضل أنواع الصدقة وإنما كان يسأل عن الوقت الذى تكون فيه الصدقة أفضل من غيرها.

فقال له ﷺ: «**أنْ تَصَدَّقَ وأنْت صحيحٌ شَحيحٌ** » يعنى: صحيح البدن شحيح النفس...لأن الإنسان إذا كان صحيحًا كان شحيحًا بالمال؛ لأنه يأمل البقاء ويخشى الفقر، أما إذا كان مريضًا، فإنه يزهد فى الدنيا؛ لأنه يشعر بأنه سيتركها عمَّا قريب.

قال ﷺ: « **أنْ تَصَدَّقَ وأنْت صحيحٌ شَحيحٌ، تَخْشى الْفقَر، وَتَأملُ الْغِنَى**»، وفى رواية: «**تَخْشى الْفقَر، وَتَأملُ البَقَاء**» ولكن الرواية الأولى أحسن، وقوله: «**تأمل البقاء**» يعنى أنك لكونك صحيحًا تأمل البقاء وطول الحياة؛ لأن الإنسان الصحيح يستبعد الموت.

مع أن الموت يأتى فجأة .. بل إن النبى ﷺ أخبر أن موت الفجأة من علامات الساعة الصغرى.

فالإنسان الصحيح قد يستبعد الموت .. أما المريض مرضًا شديدًا فقد يشعر بقُرب الموت.

۞ **وقوله** ﷺ: «**وتخشى الفقر**» أى أنه يخشى أن تطول حياته وينفد ما عنده فيصبح فقيرًا مُحتاجًا إلى الناس ... فمثل هذا تكون أفضل الصدقة فى حال صحته وشُحِّه بالمال.

«**ولا تمهل**» أى لاتترك الصدقة، «**حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا ولفلان كذا**» حتى إذا جاءك الموت وبلغت روحك حلقومك، وعرفت أنك خارج من الدنيا.

قلت لمن حولك: هذه الصدقة لفلان وتلك لفلان «**وقد كان لفلان**» أى: قد كان المال لوارثك .. لأن الإنسان إذا مات انتقل ملكه للورثة ولم يبقَ له من ماله أى شيء إلا الذى قدَّمه لنفسه فى حياته.

ولذا قال رسولُ الله ﷺ: «**أَيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أَحبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قالوا: يَا رسول اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «**فإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**»[1].

۞ قال **الإمام الخطابى** رَحِمَهُ اللهُ:

فَمَعنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الشُّحَّ غَالِبٌ فِى حَالِ الصِّحَّةِ، فَإِذَا سمح فِيهَا وَتَصَدَّقَ كَانَ أَصدَقَ فِى نِيَّتِهِ وَأَعظَمَ لِأَجْرِهِ، بِخِلَافِ مَنْ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ وَآيَسَ مِنَ الْحَيَاةِ وَرَأَى مَصِيرَ الْمَالِ لِغَيْرِهِ فَإِنَّ صَدَقَتَهُ حِينَئِذٍ نَاقِصَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالَةِ الصِّحَّةِ وَالشُّحُّ رَجَاء الْبَقَاءِ وَخَوْف الْفَقْرِ[2].

۞ ففى هذا الحديث دليلٌ على أن الإنسان لا بد أن يحرص على أن يُبادر بالصدقة فى حال صحته قبل أن يُبادره الموت .. لأنه إذا تصدق فى حال حضور الأجل كان ذلك أقل فضلًا مما لو تصدق وهو صحيحٌ شحيح.

وفى هذا دليل على أن الإنسان إذا تكلم فى سياق الموت فإنه يُعتبر كلامه إذا لم يذهل...فإن أذهل حتى صار لا يشعر بما يقول فإنه لا عبرة بكلامه...لقوله: «**حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان**».

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ أيضًا على أن الروح تصعد من أسفل البدن إلى

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٤٢) كتاب الرقاق.

(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٧٣).

أعلاه ثم يأتى ملك الموت عليه السلام ويقبض روحه من أعلى ...

ولهذا قال ﷺ: «**حتى إذا بلغت الحلقوم**» وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤]. فأول ما يموت من الإنسان أسفله ثم تصعد الروح من أسفل لأعلى حتى تصل إلى الحلقوم ثم يقبضها ملك الموت بعد أن يُنادى عليه بالنداء الذى يستحقه.

فإن كان من أهل الإيمان ينادى عليه ملك الموت قائلًا: «**يا أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان**» وإن كان كافرًا يُنادى عليه ملك الموت قائلًا: «**يا أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخطٍ من الله وغضب**»(١).

(٩٢) الخامس: عن أنس رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله ﷺ أخذَ سيْفًا يوم أُحد فقَالَ: «مَنْ يأْخُذُ منِّى هَذا؟» فبسطُوا أيْدِيَهُم، كُلُّ إنْسان منهمْ يقُول: أَنا أَنا. قَالَ: «فمنْ يأَخُذُهُ بحقِّهِ؟» فَأَحجَمَ الْقومُ، فقال أَبُو دجانة رضي الله عنه: أَنا آخُذه بحقِّهِ، فأَخَذهُ ففَلَقَ بِهِ هَام الْمُشْرِكينَ(٢).

۞ لقد حدث هذا الموقف العظيم فى غزوة أُحد .. وغزوة أُحد هى إحدى الغزوات الكبيرة التى خاضها النبى ﷺ بنفسه.

وكان سبب تلك الغزوة أن قريشًا لما هُزمت فى غزوة بدر وقُتل الزعماء والصناديد والأشراف منهم أرادت قريش أن تأخذ بالثأر من النبى ﷺ وأصحابه .. فاتفقت قريش على أن تقوم بحربٍ شاملة ضد المسلمين، تشفى غيظها، وتروى غلة حقدها، وأخذت فى الاستعداد للخوض فى مثل هذه المعركة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٧٠) كتاب فضائل الصحابة.

اسم أبى دجانة: سِماكُ بْنُ خرشة - قولُهُ: «أحجم الْقوم»: أى توقَّفُوا - و«فَلق بِهِ»: أى شَق. «هام الْمُشْرِكين»: أَىْ رُءوسهُمْ.

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان والتى كانت سببًا لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه؛ لعلنا أن نُدرك منه ثأرًا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينارٍ.

وجاءوا إلى المدينة يُريدون غزو الرسول ﷺ وأصحابه ... فاستشار النبى ﷺ أصحابه حين علم بقدومهم، فأشار عليه بعضهم بالبقاء فى المدينة، وأنهم إذا دخلوا المدينة أمكن أن يرموهم بالنبل وهم متحصنون فى البيوت، وأشار بعضهم ولا سيما الشباب منهم والذين لم يحضروا غزوة بدر أشاروا أن يخرج إليهم.

فدخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته[1]، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبى الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبى الله ﷺ: (أمرنا لأمرك تبعٌ) فأتى حمزة فقال له: يا نبى الله إن القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبعٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**»[2].

وهناك عند جبل أُحد التقى الجيشان فقام النبى ﷺ وصفَّ أصحابه استعدادًا للقتال.

واختار النبى ﷺ ثُلة من الرُّماة الماهرين قوامها خمسون مقاتلاً وجعل القيادة لعبد الله بن جُبير وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم مهما كانت ظروف تلك المعركة.. وأمرهم أنْ ينضحوا المشركين بالنَّبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم.

فلما اندلعت المعركة والتقى الجيشان كان النصر فى بداية المعركة للمسلمين وانهزم المشركون وولوا الأدبار، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم .. فلما رأى الرُّماة هزيمة المشركين قال بعضهم لبعض: هيا ننزل لنجمع الغنائم.

---

(١) لأمة الحرب: عدتها.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧١).

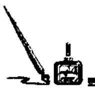
فذكَّرهم أميرهم عبد الله بن جُبير رضي الله عنه بأمر النبى ﷺ لهم أن يبقوا فى مكانهم، سواء كانت للمسلمين أو عليهم، ولكنهم رضي الله عنهم ظنوا أن الأمر قد انتهى، لأنهم رأوا المشركين ولَّوا ولم يبقَ إلا نفرٌ قليل.

فلما رأى فرسان قريش أن الجبل قد خلا من الرماة، هجموا على المسلمين من خلفهم وقتلوا سبعين من خيار الصحابة... وكان منهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ وأسد الله وأسد رسوله ﷺ... فلما هُزم المسلمون وأُصيبوا بهذه المُصيبة الكبيرة قالوا: أنَّى هذا .. كيف نُهزم ونحن جُند الله ومعنا رسول الله ﷺ.. وهؤلاء هم الكفار أعوان الشياطين؟!

فقال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. أنتم السبب لأنكم عصيتم...كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. يعنى حصل ما تكرهون.

فحصل ما حصل لحِكَمٍ عظيمة، ذكرها الله عز وجل فى سورة آل عمران، وتكلم عليها الحافظ ابن القيم رحمه الله كلامًا جيدًا لم أرَ مثله، فى كتاب «زاد المعاد» فى بيان الحِكَم العظيمة من هذه الغزوة.

۞ وتعالوا بنا لنرجع لهذا الموقف العظيم الذى جاء فى هذا الحديث عندما أخذ النبى ﷺ سيفًا وقال لأصحابه: «**مَن يأخذ منى هذا السيف؟**» كلهم قال: نأخذه...رفعوا أيديهم وبسطوها.. كل واحدٍ يقول: أنا أنا، فقال: «**فمن يأخذه بحقه؟**» فأحجم القوم، لأنهم لا يعلمون ما حقه، فهم يخشون أن يكون حقه كبيرًا جدًّا لا يستطيعون القيام به، ويخشون أيضًا أن يعجزوا عن القيام به، فيكونون قد أخذوا هذا السيف على العهد من رسول الله ﷺ ثم لا يوفون به، ولكن الله وفَّق أبا دجانة رضي الله عنه فقال: أنا آخذه بحقه فأخذه بحقه، وهو أن يضرب



به حتى ينكسر ... أخذه بحقه رضي الله عنه ...وقاتَل به وفلق به هام المشركين رضي الله عنه .

وفى رواية أخرى: أن الزبير بن العوام رضي الله عنه طلب من النبى ﷺ أن يأخذ السيف ولكن النبى ﷺ أعرض عنه .. فلما أخذ السيف أبو دجانة قال الزبير بن العوام: وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت- أى: فى نفسى-: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش وقد قمت إليه، فسألته إياه قبله فآتاه إياه وتركنى، والله لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته فأخرجَ عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت. فخرج وهو يقول:

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحنُ بالسَّفح لدى النَّخيلِ

ألّا أقوم الدهرَ فى الكيولِ[١] أضرب بسيف الله والرَّسُولِ

فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله ... وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا ذفَّ عليه، فجعل كل واحدٍ منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضَّت بسيفه فضربه أبو دجانة فقتله[٢] . ثم أمعن أبو دجانة فى هدِّ الصفوف، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش وهو لا يدرى بها.

قال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديدًا فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وكانت تلك المرأة هى (هند بنت عتبة) .

ولقد ثبت أبو دجانة رضي الله عنه يوم أُحد، وترَّس بنفسه على رسول الله ﷺ،

---

(١) الكيول: آخر الصفوف. يعنى أنه لا يقاتل فى مؤخرة الصفوف، بل يظل أبدًا فى المقدمة.

(٢) ابن هشام (٢/ ٦٨- ٦٩).

فحنى ظهره عليه، والنَّبل يقعُ فيه، حتى كثرت به الجراح...ولم تتوقف غزوة أحد حتى جَنْدَلَ بسيفه بضعة رجال من أبطال المشركين.

وفي هذا دليل: على أنه ينبغي للإنسان أن يبادر بالخير وألا يتأخر، وأن يستعين بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو إذا استعان بالله وأحسن الظن به أعانه الله.

كثير من الناس ربما يستكثر العبادة، أو يرى أنها عظيمة يستعظمها، فينكص على عقبيه، ولكن يُقال للإنسان استعن بالله وتوكل على الله، وإذا استعنت بالله وتوكلت عليه ودخلت فيما يُرضيه عَزَّوَجَلَّ، فأبشر بالخير، وأن الله تعالى سيُعينك... كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي هذا دليل أيضًا: على حُسن رعاية النبي ﷺ لأمته، لأنه لم يَخُص بالسيف أحدًا من الناس، ولكنه جعل الأمر لعموم الناس... وهكذا ينبغي للإنسان الذي استرعاه الله رعية ألا يحابي أحدًا، وألا يتصرف تصرُّفًا يُظَن أنه مُحابٍ فيه، لأنه إذا حابى أحدًا أو تصرف تصرُّفًا يُظَن أنه حابى فيه، حصل من القوم فُرقة وهذا يؤثر على الجماعة...نعم لو امتاز أحدٌ من الناس بميزة لا توجد في غيره، ثم خصَّه الإنسان بشيء، ولكنه يبين للجماعة أنه خصَّه لامتيازه بشيء لا يوجد فيهم فهذا لا بأس به[1].

(٩٣) السَّادس: عن الزُّبيْرِ بنِ عديٍّ قال: أَتَيْنَا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فشَكَوْنا إليهِ ما نَلْقَى من الْحَجَّاجِ. فقال: «اصبِرُوا فإنه لا يأْتى زمانٌ إلاَّ والَّذى بَعدَهُ شَرٌّ مِنهُ حتَّى تلقَوا ربَّكُمْ» سمعتُه منْ نبيِّكُمْ ﷺ[2].

۞ في هذا الحديث يُخبر الزبير بن عدي أنهم جاءوا إلى خادم الرسول ﷺ أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي عاش إلى سنة تسعين من الهجرة النبوية .. وذلك لأن

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٢٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٠٦٨) كتاب الفتن.

النبى ﷺ كان قد دعا له بطول العمر وكثرة المال وكثرة الذرية فقال ﷺ: «**اللهم ارزُقهُ مالًا وولدًا، وبارك له فيه**». قال: فإنى لمن أكثر الأنصار مالًا..وحدثتنى أمينةُ ابنتى: أنه دُفن من صُلبى إلى مَقْدَم (الحجَّاج) البصرة بضعٌ وعشرون ومائة[1].

وكان قد أدرك ذلك الوقت الكثير من الفتن .. فجاءوا يشكون إليه ما يجدونه من ظُلم الحجَّاج بن يوسف الثقفى .. وهو أحد الأُمراء لخلفاء بنى أمية .. وكان معروفًا بالظلم وسفك الدماء .. وهو الذى حاصر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه فى مكة ... فكان يرمى الكعبة المشرفة بالمنجنيق حتى هدم جزءًا كبيرًا منها .. وكان آخر مَن قُتل على يد الحجاج بن يوسف (سعيد بن جُبير رحمه الله) الذى دعا قبل أن يُقتل وقال: اللهم لا تُسلطه على أحدٍ بعدى.

فمات بعده الحجَّاج بن يوسف بأيامٍ قليلة.

المهم أنه لما جاء هؤلاء إلى أنس بن مالك رضي الله عنه يشكون من ظلم الحجَّاج قال لهم أنس: «اصبروا» فأمرهم بالصبر على ظلم الولاة .. وذلك لأن فى الخروج عليهم مفسدة عظيمة قد تُسفك بسببها دماء المسلمين ظُلما وعدوانًا.

وأمرهم بالصبر ؛ لأن الولاة قد يُسلَّطون على الناس بسبب ظلم الناس أنفسهم ... كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

[الأنعام: ١٢٩].

فالولاة يُسلَّطون على الناس بسبب ظلم الناس وانحرافهم عن شرع الله وسُنة رسول الله ﷺ وانغماسهم فى الذنوب والمعاصى ... وكما جاء فى الأثر - وهو ليس بحديث-: «كما تكونوا يُولَّى عليكم».

ولذا لما سُئل على بن أبى طالب رضي الله عنه: لماذا كَثُرت الفتن فى عهدك ولم تكن كذلك فى عهد أبى بكر وعمر رضي الله عنهما ؟

(١) صحيح: رواه البخارى (١٩٨٢) كتاب الصوم.

قال: لأن أبا بكر وعمر كانا وُلاةً على أمثالي وأنا والٍ على أمثالكم.

ويُذكر أن بعض خلفاء بني أمية - عبد الملك بن مروان - جَمَعَ وجهاء الناس، لما سمع أن الناس يتكلمون في الولاية، وقال لهم: أيها الناس، أتريدون أن نكون لكم كما كان أبو بكر وعمر؟ قالوا: بلى نريد ذلك، قال: كونوا كالرجال الذين تولى عليهم أبو بكر وعمر لنكون لكم كأبي بكر وعمر.

وهذا يعني أن الناس على دين ملوكهم .. فإن كان ولاة الأمر ظالمين فإن ذلك يكون غالبًا بسبب ظلم الناس وبُعدهم عن دين ربهم (جلَّ وعلا).

ولهذا قال أنس بن مالك لهؤلاء: «اصبروا» ثم أخبرهم بما سمعه من النبي ﷺ فقال لهم:

«فإنه لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم»، سمعته من نبيكم محمد ﷺ.

يعني أن الرسول ﷺ قال: «لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده أشر منه». شرٌّ منه في الدين، وهذا الشر ليس شرًّا مطلقًا عامًّا، بل قد يكون شرًّا في بعض المواضع، ويكون خيرًا في مواضع أخرى وهكذا.

۞ فإن الناس إذا هجروا كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ وانغمسوا في شهوات الدنيا وملذاتها وبارزوا الله بالمعاصي ولم يتوبوا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُسلط عليهم أُمراءهم ويبتليهم بشتَّى أنواع الابتلاءات.

كما قال ﷺ: «يَا مَعشَرَ المُهَاجِرِينَ! خِصَالٌ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيْتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِالله أَنْ تُدرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ؛ حَتَّى يُعلِنُوا بِهَا؛ إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ المؤنة وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إلا مُنعُوا القَطر من السماء ولولا البهائم لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ الله

وَعَهْدَ رَسُولِهِ إلاَّ سَلَّطَ الله عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعض مَا كَانَ فِى أَيْدِيهِمْ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وَيَتَحَرَّوْا فِيمَا أَنْزَلَ الله إلاَّ جَعَلَ الله بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[1].

وهكذا ...كلما ابتعد الناس عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وانغمسوا فى شهوات الدنيا وانتشر الظلم فيما بينهم فإنَّ الله يُسلِّط عليهم ولاتهم.

ولذا قال النبى ﷺ: **«والله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى عليكم أن تُفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها مَن قبلكم فتُهلككم كما أهلكتهم»**[2].

وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام...هذا الذى أهلك الناس اليوم، التنافس فى الدنيا والبُعد عن طاعة الله وظلم بعضهم لبعض.

۞ وفى هذا الحديث وجوب الصبر على ظُلم ولاة الأمور.. وبدلًا من أن ننشغل بهؤلاء الولاة .. علينا أن ننشغل بأنفسنا فنُصلح أحوالنا ونُقبل على الله (جلَّ وعلا) وندعو الناس من حولنا حتى تنحصر دائرة الفساد وتتسع دائرة الخير والصلاح ... فإذا حدث ذلك فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيُصلح لنا ولاة أمورنا أو يُبدلنا خيرًا منهم «فكما تكونون يُولَّى عليكم».

۞ **فإذا صبرت على ظلم ولى الأمر فاعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ سيقتص لك منه يوم** القيامة عندما تقف أنت وهو بين يدى الله فيقتص للمظلوم من الظالم .. فتأخذ من حسناته - إن كانت له حسنات - بقدر مظلمتك .. ويأتى غيرك ويأخذ وتأتى الرعية كلها لتأخذ .... ومن هنا تأتى النصيحة الواجبة علينا لكل مَن ولى شيئًا من أمور المسلمين بأن يتقى الله فى رعيته ولا يظلم أحدًا؛ لأنه إن ظلمهم فسوف يكونون جميعًا خُصماء له يوم القيامة بين يدى الله ليأخذوا من حسناته فإن فنيت

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٧٨).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٥٨) كتاب الجزية، ومسلم (٢٩٦١) كتاب الزهد والرقائق.

حسناته أُخذ من سيئاتهم جميعًا فطُرحت عليه ثم طُرح فى النار.

كما قال النبى ﷺ: «أَتَدرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ»؟ قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا دِرهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِى مَنْ يأْتِى يوْمَ القِيامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيام وَزَكَاةٍ، وَيأْتِى وَقَد شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يقْضِى مَا عَلَيهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّارِ»(١).

أما إن كان الراعى رحيمًا برعيته آخذًا بأيديهم إلى كل خيرٍ فهنيئًا له ثم هنيئًا له .. فإنه يأتى يوم القيامة وأعمال كل رعيته فى ميزان حسناته ؛ لأنه هو الذى هيَّأ لهم ذلك المناخ الإيمانى ... وهو الذى أعطاهم الأمان ليعبدوا الله دون خوفٍ أو فزعٍ بل كان عونًا لهم على طاعة الله.

وبالجملة: فالمقصود هنا من هذا الحديث أن يُسارع الناس إلى طاعة الله ولا يجعلوا الدنيا أكبر همهم ليرفع الله عنهم ظلم الولاة وليظفروا برحمة الله ومغفرته .. وليس معنى ذلك أن يتركوا الدنيا وإنما يأخذوا من الدنيا بقدر ما يعينهم على آخرتهم.

فاللهم اجعل ولاة أمور المسلمين رحمة عليهم ولا تجعلهم نقمة عليهم يا أرحم الراحمين.

(٩٤) السَّابع: عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعًا، هل تَنتَظرونَ إلاَّ فقرًا مُنسيًا، أَوْ غِنًى مُطْغيًا، أَوْ مرضًا مُفسدًا، أو هَرمًا مُفَنِّدًا، أو موتًا مُجهزًا، أَوِ الدَّجَّال فشرُّ غَائب يُنتَظر، أَوِ السَّاعة فالسَّاعةُ أَدهَى وَأَمرّ»(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع(٢٣١٥)، والسلسلة الضعيفة(١٦٦٦).

۞ هذا الحديث ضعيف .. وقد تعاهدنا من باب الأمانة العلمية ألا نشرح إلا حديثًا صحيحًا أو حسنًا وألا نشرح حديثًا ضعيفًا.

(٩٥) الثامن: عنه أن رسولَ الله ﷺ قال يوم خيْبر: «لأُعطِينَّ هـذه الراية رجُلاً يُحبُّ اللهَ وَرَسُوله، وَيُحِبُّهُ الله ورَسُوله، يفتَح الله عَلى يديهِ» قال عمر رضي الله عنه: ما أَحببْت الإمارة إلاَّ يومئذٍ فتساورْتُ لهَا رجَاءَ أَنْ أُدعى لهَا ، فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبى طالب رضي الله عنه ، فأَعطَاه إيَّاها، وقَالَ: «امْشِ ولا تلْتَفتْ حتَّى يَفتح الله عليكَ» فَسار عليٌّ شيئًا، ثُمَّ وقف ولم يلْتفتْ، فصرخ: يا رسول الله، على ماذَا أُقاتل النَّاس؟ قال: «قاتلْهُمْ حتَّى يشْهدوا أَنْ لا إلـه إلاَّ الله، وأَنَّ مُحمَّدًا رسول الله، فَإِذا فعلوا ذلك فقد منعوا منْك دماءَهُمْ وأَموالُهمْ إلاَّ بحَقِّها، وحِسابُهُمْ على اللهِ»[١].

۞ وقبل أن أبدأ فى شرح الحديث لَا بُدَّ أن أذكر الرواية الأخرى التى هى أكثر وضوحًا من هذه الرواية...قال رسول الله ﷺ: «لأُعطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعطَاهَا، فَلَمَّا أَصبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ». فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «فَأَرسِلُوا إِلَيْهِ». فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٢].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٥) كتاب فضائل الصحابة.
«فَتَساوَرْت»: أَىْ وثبت مُتطلِّعًا.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢١٠) كتاب المغازى - ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر، وكان من صور بطولته فيها أن خرج له مرحب (ملكهم) وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّى مَرْحَبُ   شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فَقَالَ عَلِيٌّ:

أَنَا الَّذِى سَمَّتْنِى أُمِّى حَيْدَرَهْ   كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ(١).

وخيبر مزارع وحصون لليهود، كانت نحو مائة ميل فى الشمال الغربى من المدينة، سكنها اليهود كما سكن طائفة منهم المدينة نفسها؛ لأن اليهود يقرءون فى التوراة أنه سيُبعث نبى، وسيكون مُهاجره إلى المدينة، وتُسمَّى فى العهد القديم يثرب، لكنه نُهى عن تسميتها يثرب...وأنه سيهاجر إلى المدينة وسيقاتل وينتصر على أعدائه، فعلموا أن هذا حق وذهبوا إلى المدينة وسكنوها، وسكنوا خيبر، وكانوا يظنون أن هذا النبى سيكون من بنى إسرائيل، فلما بُعث من بنى إسماعيل من العرب حسدوهم، وكفروا به والعياذ بالله، بعد أن كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]. وقالوا: ليس هذا هو النبى الذى بُشرنا به.

وحصل منهم ما حصل من العهد مع النبى عليه الصلاة والسلام، ثم الخيانة...وكانوا فى المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وكلهم عاهد النبى عليه الصلاة والسلام، ولكنهم نقضوا العهد كلهم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٠٧) كتاب الجهاد والسير.

فهزمهم الله - والحمد لله- على يد النبي ﷺ، وكان آخرهم بني قريظة الذين حكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بأن تُقتَل مقاتلتهم، وتُسبَى نساؤهم وذريتهم، وتُغنم أموالهم، وكانوا سبعمائة، فأمر النبي ﷺ بقتلهم فحصدوهم عن آخرهم، وهكذا اليهود أهل غدر وخيانة ونقضٍ للعهود، منذ بُعث فيهم موسى عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة، هم أغدر الناس بالعهد، وأخونهم للأمانة، ولذلك لا يُوثق بهم أبدًا، لا صرفًا ولا عدلاً، ومَن وثق بهم أو وثق منهم فإنه فى الحقيقة لم يعرف سيرتهم منذ عهدٍ قديم(١).

۞ قال النبى ﷺ يوم خيبر: أى يوم غزوة خيبر.

ولقد كانت خيبر هى من أكبر مراكز الشر اليهودية التى كانت قد تجمعت لحرب الإسلام والمسلمين وكانت مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع وهى على بُعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة من جهة الشمال.

وكان النبى ﷺ بعد صُلح الحديبية قد اطمأن وشعر بالأمان من ناحية كفار قريش بعد هذا الصلح الذى عقدوه معه ﷺ فأراد النبى ﷺ أن يُحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد- حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء فى المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما فتح النبى ﷺ حصون خيبر صالح اليهود الذى يعيشون فيها على أن يبقوا فيها مزارعين بالنصف...لهم نصف الثمرة وللمسلمين نصف الثمرة، وبقوا على ذلك حتى أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى خلافته، أجلاهم إلى الشام إلى أَذرُعات.

۞ وهذا الحديث يحكى لنا موقفًا عظيمًا حدث قبل أن تبدأ الغزوة فقال ﷺ: «**لَأُعطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٨٩-٤٩٠).

والراية هي ما يُسمَّى في عصرنا الحالي (العَلَم) يحمله قائد الجيش من أجل أن يهتدي به الجيش ويمشي وراءه ... وكذلك فإن بقاء تلك الراية مرفوعة أثناء القتال يرفع من الروح المعنوية للجيش فإذا سقطت الراية انهارت الروح المعنوية للجيش.

۞ فلما قال النبي ﷺ ذلك...قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أحببت الإمارة إلا يؤمئذٍ .. وذلك رجاء أن يفوز بما أخبر به النبي ﷺ من أن ذلك الرجل الذي سيأخذ الراية يُحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ﷺ.

فطمحت نفس عمر وتطاولت للفوز بتلك الراية...وبات الناس في تلك الليلة يخوضون ويتكلمون وكل واحدٍ منهم يرجو أن يُعطاها.

فلما أصبحوا دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عمه.

فقالوا: يا رسول الله إنه يشتكي عينيه .. يعني عنده رمدٌ في عينيه فدعا به فجاء فبصق النبي ﷺ في عينيه فبرأ بإذن الله وكأنه لم يكن به وجع .. ثم أعطاه النبي ﷺ الراية وقال له: «**امشِ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**».

۞ **قال الإمام النووي** رحمه الله:

هَذَا الِالْتِفَاتُ يَحتَمِلُ وَجْهَينِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ، أَيْ لَا تَلْتَفِتْ بِعَيْنَيْكَ لَا يَمِينًا وَلَا شِمَالًا؛ بَلِ امْضِ عَلَى جِهَةِ قَصدِكَ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ الْحَثُّ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى ذَلِكَ... وَحَمَلَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه عَلَى ظَاهِرِهِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ بِعَيْنِهِ حِينَ احتَاجَ. وفي هذا حمل أَمْره ﷺ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَقِيلَ: يحْتَمل أَنَّ الْمُرَادَ لَا تَنْصَرِف بَعدَ لِقَاءِ عَدُوِّكَ حَتَّى يَفْتَح اللهُ عَلَيْكَ[1].

۞ «**قاتِلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**».

هذه الكلمة كلمة عظيمة، لو وُزنت بها السموات والأرض لرجحت

(١) مسلم بشرح النووي (١٥/ ٢٥٢).

بالسموات والأرض...هذه الكلمة يدخل بها الإنسان من الكفر إلى الإسلام، فهي باب الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، «**فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**» يعني إذا قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإنهم لا يُقاتَلون، فقد منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، أي بحق لا إله إلا الله، أي بالحقوق التابعة لها، لأن لا إله إلا الله ليست مجرد لفظة يقولها الإنسان بلسانه، بل لها شروط ولها أمور لَا بُدَّ أن تتم.

ولهذا قيل لبعض السلف: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ فقال: نعم، مفتاح الجنة لا إله إلا الله، لكن لَا بُدَّ من عمل، لأن المفتاح يحتاج إلى أسنان.

وقد صدق رَحِمَهُ اللهُ: المفتاح يحتاج إلى أسنان، لو جئت بمفتاح بدون أسنان ما فتح لك.

إذًا... قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إلا بحقها**» يشمل كل شيء يَكفُر به الإنسان مع قول لا إله إلا الله...فإن مَن كَفَر وإن كان يقول لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، ولكنه أتى بمُكفِّرٍ فإن هذه الكلمة لا تنفعه.

ولهذا كان المنافقون يقولون: لا إله إلا الله، وإذا رأيتهم تُعجبك أجسامهم.. هيئتهم، وشكلهم كأنهم أكمل المؤمنين إيمانًا، ويأتون للرسول ﷺ يقولون له: نشهد إنك لرسول الله، فقال ربُّ العزة والجلال الذي يعلم ما في الصدور: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

ولما منع الزكاة مَن منعها من العرب بعد وفاة النبي ﷺ، واستعد أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لقتالهم، تكلم معه مَن تكلم من الصحابة، وقالوا: كيف تقاتلهم وهم يقولون: لا إله إلا الله؟ قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والله لأقاتلن مَن فرَّق بين الصلاة والزكاة...الزكاة حق المال، وقد قال النبي ﷺ: «**إلا بحقِّها**» فقاتلهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على ذلك وانتصر ولله الحمد[1].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٣٠-٣٣١) بتصرف.

۞ «وحسابه على الله تعالى» معناه: أَنَّا نَكُفُّ عَنْهُ فِي الظَّاهِرِ، وَأَمَّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى فَإِنْ كَانَ صَادِقًا مُؤْمِنًا بِقَلْبِهِ، نَفَعَهُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ وَنَجَا مِنَ النَّارِ، كَمَا نَفَعَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِلَّا فَلَا يَنْفَعُهُ بَلْ يَكُونُ مُنَافِقًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

وَفِيهِ: أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي صِحَّةِ الْإِسْلَامِ النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَإِنْ كَانَ أَخْرَسَ أَوْ فِي مَعناهُ كَفَتْهُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِمَا وَاللهُ أَعلَمُ[1].

۞ وفى الرواية الأخرى:

«فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» هِيَ الْإِبِلُ الْحُمْرُ، وَهِيَ أَنْفَسُ أَمْوَالِ الْعَرَبِ، يضربون بها المثل فى نفاسة الشيء، وَأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ أَعظَمُ مِنْهُ. وَقَد سَبَقَ بَيَانُ أَنَّ تَشْبِيهَ أُمُورِ الْآخِرَةِ بِأَعرَاضِ الدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ لِلتَّقْرِيبِ مِنَ الْأَفْهَامِ، وَإِلَّا فَذَرَّةٌ مِنَ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ خَيْرٌ مِنَ الْأَرْضِ بِأَسْرِهَا وَأَمْثَالِهَا مَعَهَا، لَوْ تُصُوِّرَتْ.

۞ وفى هذا الحديث مجموعة من الفوائد ... منها:

الفائدة الأولى: إطلاع الله عَزَّوَجَلَّ، نبيه ﷺ ببعض أمور الغيب، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، حيث أعلم أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه ستكون مواجهة بين المسلمين واليهود، وستكون الغلبة فيها للمسلمين...قال: «**لأعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه**»، وأقول: إنها من دلائل نبوته؛ لأن المعركة لا يعلم المنتصر فيها والمهزوم، إلا الله سبحانه وتعالى، الذى بيده الأمر كله، والغيب عنده حاضر، فمن أوحى لنبيه بنتيجة الموقعة إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولو لم يكن نبيًّا، ما تجرأ أن يقول لأصحابه ما سيحدث فى الغد القريب، بل إنه لم يستثنِ، أى لم يقل: «إن شاء الله» لأن الذى أخبره بالنصر غدًا لن يُخلف وعده، فكأنه يخبر بما أوحى الله إليه.

الفائدة الثانية: تعليم النبى ﷺ أصحابه أن الفتح والنصر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، لا

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/ ٢٥٣).

بيد غيره، وهى من أمور العقيدة، التى ينبغى أن نتعلمها جميعًا، ونُعلمها أولادنا.

فإذا كان الأمر كذلك، وجب على المسلمين أن يستنصروا الله وحده على أعدائهم، وألا يأملوا فى وجه أحدٍ غيره... قال رسول الله ﷺ: «**لأُعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه**»، يُصدق ذلك قوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فبيَّنت الآية غاية البيان، أن النصر بيد الله... وإذا كان الله مع فئة ونصرها، فلن يغلبها أحد، حيث لا قوة تنفع مع قوته (سبحانه وتعالى).

وكما يكون النصر من عنده، فالخذلان وعدم التوفيق أيضًا بيديه، وإذا حدث، فلا ينفع أبدًا نصر أحدٍ لنا مع عدم توفيق المولى عَزَّوَجَلَّ.

يتفرع على ما سبق، وجوب طاعة الله سبحانه وتعالى، بالتزام أوامره واجتناب نواهيه..وكذا سُنة نبينا ﷺ؛ لأن هذا شرط فى نُصرة الله لنا.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وما عند الله لا يُؤخَذ إلا بطاعته وإرضائه.

الفائدة الثالثة: مناقب على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(١) جعل الله فتح خيبر على يديه، وهذه تكرمة عظيمة من الله له؛ لأن الفتح عملٌ يحبه الله ورسوله ﷺ، لما فيه من انتشار الإسلام وعلو كلمة التوحيد.

(٢) ثبوت حب الله ورسوله ﷺ لعليٍّ، وثبوت حب عليٍّ لله ورسوله، وهما معًا منقبتان عظيمتان لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفائدة الرابعة: الحث على حب عليٍّ، لكون الله يحبه وكذلك رسوله ﷺ، ولا يسع أحدًا من المسلمين ألا يحب أحدًا من أصحاب النبى ﷺ، خاصة الخلفاء الراشدين، أبو بكر وعمر وعثمان وعلىٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل العقبة الأولى والثانية، ثم بقية الأصحاب رضوان

الله عليهم جميعًا، الذين اصطفاهم الله عَزَّوَجَلَّ، لنُصرة نبيه، وحملِ راية الإسلام، ونشر الدعوة، وهم الذين مات النبى ﷺ، وهو عنهم راضٍ.

الفائدة الخامسة: حرص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الخير ومعرفة أهل الفضل، وحبهم أن ينالهم شرف حب الله ورسوله وأن يكون النصر على أيديهم، لقوله: (فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها).

وقوله: (فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله كلهم يرجو أن يُعطاها) ومعنى «يدوكون» أى يخوضون فى الحديث، كأنهم قضوا ليلتهم كلها، كُلٌّ منهم يُخمن مَن ينطبق عليه شروط إعطاء الراية...ويمكن أن نستدل بقوله: (كلهم يرجو أن يُعطاها) أنهم كانوا جميعًا يحبون الله ورسوله، كما يأملون حب الله ورسوله لكل واحدٍ منهم، لذا رأى كُلٌّ منهم الشرط ينطبق عليه، وهذه فضيلة ظاهرة لهم.

الفائدة السادسة: تغليب جانب الدعوة لغير المسلمين على جانب القتال... وقد ذكر ابن حجر، بأن تآلف الكافر حتى يُسْلِم، أَولَى من المبادرة إلى قتله، لقوله ﷺ: «**فو الله لأن يهدى بك الله رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمر النَّعم**».

ويتفرع على التبشير بهذا الأجر العظيم، المترتب على هداية أحد الناس، حثّ المسلمين على الدعوة إلى الله، وترغيبهم فى ذلك، وأن على المسلم أن يبذل غاية جهده ليتحقق مراد الله وهو هداية الناس.

الفائدة السابعة: الهداية بيد الله، سبحانه وتعالى، يهدى مَن يشاء وقتما شاء...وأن الداعى إلى الله، هو سببٌ فقط فى تلك الهداية، لقوله ﷺ: «**لأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا**»، ونأخذ منه أيضًا، حب الله سبحانه وتعالى أن يعود الناس لحظيرة الإسلام، وأن رحمته قد سبقت غضبه، وأن العفو عنده مُقدَّم على العقاب... ودليله، أنه رتَّب الأجر العظيم على هداية رجلٍ واحد[1].

(١) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ١٩٠-١٩٢).

الفائدة الثامنة: لا علاقة بين هذا الحديث وإمامة على رضي الله عنه:

ذهب الروافض إلى أن عليًا رضي الله عنه هو الخليفة بعد النبى ﷺ، واستدلوا بمجموعة من الأحاديث تدل على فضله ولا تدل على إمامته، منها هذا الحديث وزادوا فيه زيادات باطلة لا تصح عند علماء الحديث، كما أنه لا ملازمة بين كونه محبًّا لله ورسوله ومحبوبًا لهما وبين كونه إمامًا بلا فضلٍ أصلاً... على أنه لا يَلزم من إثباتهما له نفيهما عن غيره، كيف وقد قال الله تعالى فى حق أبى بكر ورُفقائه: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال فى حق أهل بدر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف:٤].

ولا شك أن مَن يحبه الله يحبه رسوله، ومَن يحب الله من المؤمنين يحب رسوله ﷺ...وقال فى شأن أهل مسجد قباء: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة:١٠٨].ولما سُئل ﷺ: مَن أحب الناس إليك؟ قال: **عائشة**. قيل: ومن الرجال؟ قال: **أبوها**(١).وإنما نَصَّ على المحبة والمحبوبية فى حق عليٍّ مع وجودهما فى غيره لنُكتة دقيقة تحصل من ضمن قوله: «**يفتح الله على يديه**»(٢). وهى أنه لو ذكر مجرد الفتح لربما توهم أن ذلك غير موجب لفضيلته لما ورد فى قوله ﷺ: «**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**». فأزال ذلك التوهُّم بإثبات هاتين الصفتين له، فصار المقصود منه تخصيص مضمون «**يفتح الله على يديه**» وما ذكر من الصفات لإزالة ذلك التوهم(٣).

۞ **وفى قوله ﷺ: «انفذ على رِسلك، حتى تَنْزِل بساحتهم»** ولم يَقُل له: قاتلهم حتى يكونوا مثلنا، وذلك لأن الكفار لا يُقاتَلون على الإسلام ويُرغَمون

---

(١) فتح البارى (٧/ ٢٢) - والحديث رواه البخاري (٣٦٦٢) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٨٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) مختصر التحفة الاثنى عشرية: ص (٧٠).

عليه، وإنما يُقاتلون ليُذَلوا لأحكام الإسلام، فإن أسلموا فلهم وإن كفروا فعليهم، ولكن يذلوا لأحكام الإسلام فيعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون أو يدخلون فى الإسلام.

وقد اختلف العلماء -رحمهم الله-: هل هذا خاص بأهل الكتاب أى مقاتلتهم حتى يعطوا الجزية، أو أنه عام لجميع الكفار؟ فأكثر العلماء يقولون: إن الذى يُقاتَل حتى يُعطى الجزية أو يُسلم هم أهل الكتاب: اليهود والنصارى وأما غيرهم فيُقاتَلون حتى يُسلموا، ولا يُقبل منهم إلا الإسلام.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]. فقال: قاتلوهم ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ ﴾.

والصحيح أنه عام، ودليل ذلك: أن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وهم ليسوا أهل كتاب، كما أخرجه البخارى...ودليلٌ آخر: حديث بريدة بن الحصيب الذى أخرجه مسلم، أن النبى ﷺ كان إذا أمَّر أميرًا على جيشٍ أو سرية أوصاه ومَن معه من المسلمين خيرًا، وذكر فى الحديث أنه يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا يقاتلهم(١).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٩١).

(١١) باب في المجاهدة

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ أى: الذين جاهدوا النفس والهوى والشيطان.

وجاهدوا الكفار أعداء الدين وهاجروا فى سبيل الله وبذلوا مجهودهم فى اتباع مرضاته.

﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أى: الطرق الموصلة إلينا، وذلك، لأنهم مُحسنون.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ بالعون، والنصر، والهداية ... دَلَّ هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب، أهل الجهاد. وعلى أن مَن أحسن فيما أُمر به، أعانه الله، ويسَّر له أسباب الهداية. وعلى أن مَنْ جَدَّ واجتهد فى طلب العلم الشرعى، فإنه يحصل له من الهداية، والمعونة على تحصيل مطلوبه، أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسَّر له أمر العلم ... فإن طلب العلم الشرعى، من الجهاد فى سبيل الله، بل هو أحد نَوْعَى الجهاد، الذى لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين. والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رَدِّ نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين(١).

وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ أى: الموت ... أى: استمر فى جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات ... فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا فى العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا(٢).

---

(١) تفسير السعدى (ص ٧٤٧).

(٢) تفسير السعدى (ص ٤٩٧).

۞ وقال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾ [المزمل: ٨].

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ﴾: شامل لأنواع الذكر كلها، ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أى: انقطع إليه؛ فإنَّ الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو: الانفصالُ بالقلب عن الخلائق، والاتِّصاف بمحبَّة الله وما يُقرِّب إليه ويُدنى من رضاه(١).

۞ وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧].

وهذا شاملٌ عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التى هى أحقر الأشياء، وجُوزى عليها فما فوق ذلك من باب أَولَى وأَحرى ... كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ ﴾ ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ ﴾ وهذه الآية فيها غاية الترغيب فى فعل الخير ولو كان قليلًا والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا(٢).

۞ وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾ [المزمل: ٢٠].

أى أىَّ شىء تفعلوه أيها الناس من وجوه البر والخير تلقوا أجره وثوابه عند ربكم ﴿ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ ﴾ أى تجدوا ذلك الأجر والثواب يوم القيامة خيراً لكم مما قدمتم فى الدنيا من صالح الأعمال، فإن الدنيا فانية والآخرة باقية، وما عند الله خيرٌ للأبرار(٣).

۞ قال الشيخ عبد الرحمن السعدى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثيرة.

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٥٨).

(٢) تفسير السعدى (ص ١١٠٠) بتصرف.

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٤٤٦).

وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات(١).

۞ وأما عن المجاهدة فلقد خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ لعبادته والانشغال بطاعته.. ولكن الطاعة تحتاج إلى مُجاهدة النفس والهوى والشيطان...

إنها حربٌ ضَروس من هؤلاء الأعداء الثلاثة على المسلم لكى يتكاسل عن العبادة أو يتركها بالكلية.. ولكى ينغمس في الذنوب والمعاصى.

۞ يريد العبد أن يصلى صلاة الفجر في المسجد في برد الشتاء القارس فتُزين له نفسه وهواه وشيطانه النوم في الفراش الدافئ... ويريد العبد أن ينفق من ماله على الفقراء واليتامى والمساكين فيُخوفه الشيطان من الفقر ويوسوس له بأن أهله أحق بهذا المال... ويريد العبد أن يجلس ليقرأ القرآن فيُزين له الشيطان سهرة جميلة يلهو فيها مع أصحابه ويهجر القرآن.

تريد الفتاة المسلمة أن تلبس حجابها فيُزين لها شياطين الإنس أنها أجمل بدون حجاب... وأنها لو تحجبت فسوف تُصبح منبوذة في المجتمع.... وهكذا.

۞ وهنا تأتى مجاهدة النفس... فيستعين العبد بربه عَزَّوَجَلَّ ويُجاهد نفسه وهواه وشيطانه من أجل أن يطيع الله (جلَّ وعلا) ويستجيب لنداء الحق.

۞ **قال تعالى**: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

وأمرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نعبده لآخر لحظة في العمر فقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٦٠).

أنواع النفوس

۞ لا بد أن نعلم أن هناك مَن يستجيب لأمر الله بيُسرٍ وسهولة ومنهم مَن يستجيب ولكن بصعوبة... ومنهم مَن لا يستجيب أبدًا؛ وذلك لأن نفوس البشر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) **النفس الأمَّارة بالسوء:** وهى النفس التى تحض صاحبها دومًا على الوقوع فى المعاصى ولا تستجيب لأمر الله ولا لأمر رسول الله ﷺ .

(٢) **النفس اللوَّامة:** وهى النفس التى تنوَّرت بنور القلب ولكنها لا تخلو من غفلة تصيبها أحيانًا.... فإذا وقعت فى ذنبٍ فإنها تلوم نفسها ولذلك سُمِّيت بالنفس اللوَّامة.

(٣) **النفس المطمئنة:** وهى التى تنقاد إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ دون مشقة أو تكلُّف؛ لأنها استنارت بنور الإيمان وتخلَّصت من صفاتها الذميمة وتخلَّقت بالأخلاق الحميدة.

۞ ولا شك أن النفس المطمئنة واللوامة لا يصدر عنهما إلا الأخلاق الحميدة.. فالنفس المطمئنة يكون منها اليقين والخشوع والطاعة.. والنفس اللوامة هى مَبعث التوبة والاستغفار والإنابة.

أما النفس الأمَّارة بالسوء فهى التى تحتاج إلى المجاهدة؛ لأنها منبع الشرور والآثام.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(باب فى المجاهدة):**

والمجاهدة تعنى أن يُجاهد الإنسان نفسه وأن يجاهد غيره .

ومجاهدة الإنسان غيره أيسر بكثير من مجاهدته نفسه .. ولا تتم مجاهدة الغير إلا بمجاهدة النفس أولًا .

وإذا أراد الإنسان أن يُجاهد نفسه فإنه يجاهد نفسه على شيئين: على فعل

الطاعات وعلى ترك المعاصى والسيئات.

ففعل الطاعات ثقيلٌ جدًّا على النفس إلا مَن أعانه الله وخفَّف عليه الطاعات .. وترك المعاصى كذلك ثقيلٌ على النفس إلا مَن خفَّفه الله عليه.

ولذلك فإن الإنسان إن لم يُعنه الله على نفسه فإنه يعيش فى معاناة شديدة طوال حياته ليحملها على فعل الخير وليصرفها عن الوقوع فى المعاصى.

۞ ومن أهم الأشياء أن يُجاهد الإنسان نفسه على الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ فى العبادة .. وذلك لأن الإخلاص هو الذى يترتب عليه قبول أعمال العباد .. وذلك لأن العبد قد يفعل الخير الكثير ومع ذلك قد لا يتحصل على حسنة واحدة؛ لأنه لم يُرد بعمله وجه الله عَزَّوَجَلَّ فمجاهدة النفس على الإخلاص من أشق ما يكون .. وذلك لأن النفس تحب المدح والثناء .. والإنسان يُحب أن يكون محبوبًا بين الناس وأن يُقال عنه: هذا رجلٌ صالح .. هذا رجلٌ عابد ...

ومن أجل ذلك كان جزاء المُخلصين أن مَن قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه حرَّمه الله على النار وأدخله الجنة.

كذلك من الأشياء التى يُجاهد الإنسان فيها نفسه: فعل الطاعات الشاقة مثل الصوم والصلاة فى الجماعة ..فالصوم فيه ترك المألوف من الطعام والشراب والنكاح فتجده شاقًّا على النفس إلا مَن يسَّره الله عليه.

والصلاة فى الجماعة شاقة على النفس .. لكن المسلم يُجاهد نفسه مرة بعد مرة حتى تصبح صلاة الجماعة أحب إليه من الدنيا وما فيها.

ومن أجل أن يتيسَّر للعبد مجاهدة النفس فى الصيام جعل الله له الأجر العظيم فى الصيام.

قال ﷺ: « **مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

وقال ﷺ: « مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ حَرَّ جَهَنَّمَ عَنْ وَجْهِهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»(١).

وقال ﷺ: « مَنْ خُتِمَ لَهُ بِصِيَامِ يَوْمٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٢).

۞ ومن أجل أن يتيسَّر للعبد مجاهدة النفس في الصلاة في الجماعة جعل الله له الأجر العظيم في صلاته في المسجد في جماعة ..

قال رسول الله ﷺ: « صَلاةُ الرَّجُلِ فِي الجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعفًا»(٣).

وعن أبى أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحرِمِ»(٤).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ، أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا، كُلَّمَا غَدَا، أَوْ رَاحَ»(٥).

وهكذا تكون مجاهدة النفس فى جميع أنواع الطاعات.

۞ وأما مُجاهدة النفس على ترك المحرمات فلا بد أن نعلم أنه ما أكثر المحرمات التى يشق على بعض الناس تركها.

ونُعطى على ذلك مثالًا كالتدخين.

فإن كثيرًا من الناس ممن ابتُلى بالتدخين يقول لك: أنا لا أستطيع أن أتركه .. مع أنه لو استعان بالله عز وجل وتركه عدة أيام وابتعد عن الذين يشربونه واختلط بأُناسٍ لا يُدخنون فسوف يتركه نهائيًا خلال عدة أيام..

(١) صحيح: رواه النسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٢٩).
(٢) صحيح: رواه البزار، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٤).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٧) كتاب الأذان، ومسلم (٦٤٩) كتاب المساجد.
(٤) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٨).
(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.

ولكن الأمر يحتاج إلى استعانة بالله ومجاهدة قوية للنفس.

۞ أما مجاهدة الغير فإنها تنقسم إلى قسمين:

(١) مجاهدة بالعلم والبيان.

(٢) مجاهدة بالسلاح.

أما مَن نجاهدهم بالعلم والبيان: فهو الذى يتسمى بالإسلام وليس من المسلمين... مثل المنافقين وأهل البدع المكفرة وما أشبه ذلك، فإن هؤلاء لا يمكن أن نجاهدهم بالسلاح لأنهم يتظاهرون بالإسلام وأنهم معنا، ولكننا نجاهدهم بالعلم والبيان.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهاد الكفار يكون بالسلاح، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان.

ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلم بأن فى أصحابه منافقين، ويَعلمهم بأعيانهم ولكنه لا يقتلهم واستُؤذن فى قتلهم فقال: «**لا يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه**»[1].

فكذلك الذين ينطوون تحت لواء الإسلام من أهل البدع لا نقاتلهم بالسلاح، لكننا نقاتلهم بالعلم والبيان.

فلابد من مجاهدة أهل البدع وأهل النفاق بالعلم والبيان، وبيان بُطلان ما هم عليه بالأدلة المقنعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الهدى من بعدهم.

۞ **أما النوع الثانى من جهاد الغير**: فهو الجهاد بالسلاح وهذا فى جهاد الأعداء الذين يُظهرون العداوة للإسلام ويصرحون بذلك

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٠٥) كتاب التفسير، ومسلم (٢٥٨٤) كتاب البر والصلة والآداب.

فيجب على المسلمين أن يُقاتلوا أعداء الدين الذى يبذلون أموالهم لمحاربة الإسلام والمسلمين فى كل مكان... ولكن مع الأسف فالمسلمون اليوم فى ضعفٍ شديد، وفى هوانٍ وذُلٍّ يقاتل بعضهم بعضًا أكثر مما يقاتلون أعداءهم... هم فيما بينهم يتقاتلون أكثر مما يتقاتلون مع أعدائهم، ولهذا سُلط الأعداء علينا، وصِرنا كالكرة فى أيديهم يتقاذفونها حيث يشاءُون.

لهذا يجب على المسلمين أن ينتبهوا لهذا الأمر، وأن يعدوا العدة لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠][(١)].

***

(٩٦) فالأول: عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَد آذَنْتُهُ بِالحَربِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِى لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[(٢)].

أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى ولذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال:

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٣٤-٣٣٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

«آذنتُه»: أَعلَمْتُه بِأَنِّى محارب لَهُ - «استعاذنى» رُوى بالنون وبالباءِ.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيما يستقبلونه، مما أمامهم، من المخاوف والأهوال.

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يُسلفوا إلا صالح الأعمال. وإذا كانوا لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذى لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر واجتناب النواهى.

فكل مَن كان مؤمنًا تقيًّا كان لله تعالى وليًّا...لذلك كانت ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

أما البشارة فى الدنيا، فهى: الثناء الحسن، والمودة فى قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لُطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

وأما فى الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم... كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾.

وفى القبر، ما يُبشَّر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم.

وفى الآخرة، تمام البشرى، بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ بل ما وعد الله فهو حَقٌّ، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق فى قِيله، الذى لا يقدر أحدٌ أن يخالفه فيما قدَّره وقضاه.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور،

والظفر بكل مطلوبٍ محبوب... وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب، رتَّبه الله فى الدنيا والآخرة، على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم يُقيده[1].

۞ والخلاصة أن ولى الله هو القائم بطاعته المخلص فى عبادته، والموالاة هى المحبة والنصرة...ومن أعظم ما يتبين به الولى: أن يكون مُجاب الدعوة، راضيًا عن الله عَزَّوَجَلَّ فى كل حال، تاركًا لمناهيه، تاركًا لما يتكالب عليه الناس من طلب العلو فى الدنيا والحرص على رياستها، لا يكون له شُغلٌ بملاذ الدنيا، ولا بالتكاثر فيها، ولا بتحصيل أسباب الغِنى وكثرة اكتساب الأموال والعروض... إذا وصل إليه القليل صبر، وإذا وصل إليه الكثير شَكَر...يستوى عنده المدح والذم، والفقر والغِنى، والظهور والخمول...غير مُعجبٍ بما مَنَّ اللهُ عليه من خصال الولاية...إذا زاده الله رفعة زاد فى نفسه تواضعًا وخضوعًا...حَسن الأخلاق، كريم الصحبة، عظيم الحلم، كثير الاحتمال.

ومَن وُهبت له هذه الموهوبات الجليلة، وتفضل عليه بهذه الصفات الجميلة، فغير بعيد ولا مُستنكرٍ أن تظهر عليه الكرامات التى لا تنافى الشريعة، والتصرفات فى مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ الوسيعة، لأنه إذا دعاه أجابه وإذا سأله أعطاه.

فالكرامة ثابتة بالشريعة المطهرة، ولكن ينبغى أن يُعلَم أنه ليس كل خارقة كرامة...فالخارقة إما أن تكون خارقة رحمانية، أو خارقة شيطانية، والمقياس الذى لا يجور هو مقياس الكتاب والسُّنة، فلا بُدَّ أن يُقاس نفس الشخص الذى أتت على يديه الخارقة بمقياس الكتاب والسنة، وأن تُقاس نفس الخارقة بمقياس الكتاب والسنة ... كما قال الإمام الشافعى: إذا رأيتم الرجل يسير على

(١) تفسير السعدى (ص ٤١٢).

الماء أو يطير فى الهواء فانظروا فى عمله، أى: لا تحكموا له بأنه من أولياء الله بمجرد ظهور هذه الخارقة فقد يكون وليًّا للشيطان.

والكرامة ثابتة بالكتابة والسنة كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٣٧] فمريم كانت صدِّيقة ولية لله عَزَّوَجَلَّ، ولم تكن نبية، فما كان يجده زكريا عندها من رزقٍ كان على سبيل الكرامة.

كذلك قصة أصحاب الكهف الذين ضرب الله على آذانهم فناموا فى الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعة، كان ذلك كذلك على سبيل الكرامة.

أما أدلة السنة فمن ذلك ما ورد فى الصحيح من قصة أضياف جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهم كانوا كلما أكلوا من القصعة رَبَا -أى: زاد- من أسفلها أكثر منها حتى أطعم النبى ﷺ منها الجيش.

كذلك خُبيب بن عدى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أسره المشركون كانوا يجدون فى يده قِطْفًا من العنب وليس بمكة ثمرة وما كان إلا رزقًا رزقه الله عَزَّوَجَلَّ إياه.

أما كرامات السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهى كثيرة .... فمن ذلك أن إحدى الصحابيات ذهب بصرها من تعذيب المشركين. فقالوا: ما أذهبه إلا اللات والعزى. فقالت: كلا والله ... ودعت الله عَزَّوَجَلَّ، فردَّ الله عليها بصرها.

ومن ذلك أن أبا مسلم الخولانى. أحد أئمة التابعين أُلقى فى النار فوُجد فى النار قائمًا يُصلى.. ولما قابله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذهب به إلى أبى بكر، وقال: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ مَن فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ودعا أبو مسلم على امرأة أفسدت زوجته فعميت... فتابت فدعا لها فردَّ الله عليها بصرها.

ومن ذلك أن صلة بن أشْيَم - أحد العُبَّاد - مات فرسه فى الغزو، فقال:

اللهُمَّ لا تجعل لمخلوقٍ عليَّ منة ... ودعا الله فأحياه، فلما وصل إلى بيته، قال: يا بُنى خذ السرج، فإن الفرس عارية، فأخذ السرج فمات الفرس.

ومن ذلك أن الحسن البصرى دعا على رجل فقال: إن كنت كاذبًا فَعَجَّل اللهُ حتفك... فمات الرجل مكانه.

۞ والعبد لا يصل إلى هذه الدرجة العالية من الولاية، حتى يصل معها إلى درجات عالية من محبة الله عَزَّوَجَلَّ، والرضا به... كان سعد بن أبى وقاص رَضِوَالِلَّهُعَنهُ مُستجاب الدعوة، وكان يدعو للناس لمعرفتهم منه ذلك، فذهب بصره في آخر عمره، فقيل له: ألا دعوت لبصرك. فقال: قضاء الله أحب إليَّ من بصرى.

۞ فقوله عَزَّوَجَلَّ: « **مَنْ عادى لى وليًّا. فقد آذنتهُ بالْحرْب** » أى: فقد أعلمته أننى مُحاربٌ له، حيث إنه كان محاربًا لى بمعاداته وليًّا من أوليائى.

فأولياء الله عَزَّوَجَلَّ تجب موالاتهم ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥]، وتحرم معاداتهم.

وأعداء الله عَزَّوَجَلَّ تجب معاداتهم، وتَحرُم موالاتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

ثم بيَّن الحديث القدسى الشريف، كيف تصير وليًّا من أولياء الله عَزَّوَجَلَّ، فقال: «**وما تقرب إليَّ عبدى بشىءٍ أحب إليَّ ممَّا افترضت عليه**».

فطريق ولاية الله عَزَّوَجَلَّ يبدأ باستكمال الفرائض.

قال عمر رَضِوَالِلَّهُعَنهُ: أفضل الأعمال أداء ما افترض، والورع عما حرَّم الله، وحسن النية فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ... ومن أعظم الفرائض ترك المعاصى، كما دَلَّ على ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَىْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَدَعُوهُ** »[1].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٣٧) كتاب الحج.

فالصلوات الخمس مثلاً أحب إلى الله من قيام الليل، وأحب إلى الله من النوافل...وصيام رمضان أحب إلى الله من صيام الاثنين والخميس والأيام الست من شوال وما أشبهها ... كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل.

ووجه ذلك أن الفرائض ألزم الله بها العباد .. وهذا دليلٌ على شدة محبته لها (سبحانه وتعالى) فلما كان يحبها كل هذا الحب ألزم بها عباده؛ لأنه يحب لهم الخير .. أما النوافل فالإنسان له كامل الحرية فيها إن شاء أن يتنفَّل تنفَّل وفاز بالأجر والثواب، وإن كان لا يستطيع أن يتنفل فليس عليه وزرٌ ولا ذنب...

ولكن الشيطان أحيانًا يُزين للعبد الإكثار من النوافل ويجعله يتكاسل عن أداء الفرائض .. وهذا من تزيين الشيطان فلنَحذر جميعًا من مكائد الشيطان ولنحرص على أداء الفرائض التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قوله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه**» والنوافل: هي ما عدا الفرائض من أجناس الطاعات.

قال العلماء: ما بال النوافل هي السبب الموصل إلى محبة الله عَزَّوَجَلَّ دون الفرائض؟

وأجاب بعضهم: بأن العبد يفعل الفريضة مخافة العقوبة ورجاء الأجر، أما النوافل فليس هناك عقوبة في تركها، وإنما يفعلها العبد بإخلاص نية التقرُّب والتحبُّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ... فلما خلصت النية في النوافل، كانت هي السبب الموصل إلى محبة الله عَزَّوَجَلَّ دون الفرائض ... ولا يخفى أن النافلة هي التي تأتي زائدة على الفرائض، فطريق ولاية الله عَزَّوَجَلَّ يبدأ بالفرائض ، ثم الإكثار من النوافل كما قال بعضهم: مَن شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومَن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور.

۞ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: « **فَإِذَا أَحبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**».

قال الحافظ: وَقَدِ اسْتُشْكِلَ كَيْفَ يَكُونُ الْبَارِى جَلَّ وَعَلَا سَمْعَ الْعَبْدِ وَبَصَرَهُ... إِلَخْ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجُهٍ -وَذكر سبعة أوجه- أقربها للصواب: أَنَّ العَبدَ بِكُلِّيَّتِهُ يكونُ مَشْغُولًا بربه عَزَّوَجَلَّ، فَلَا يُصغِي بِسَمْعِهِ إِلَّا إِلَى مَا يُرْضِى الله عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يستعمل بَصَرِهِ إِلَّا فِيمَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ، ولا يستعمل يده إلا فى طاعته، ولا يحرك قدمه إلا فى مرضاته.

وقال الشوكانى: إن الله يمد جوارح العبد بنورٍ ... فبهذا النور يسمع، وبه يُبصر، وبه يبطش، وبه يمشى ... واستدل على ذلك بأدلة منها ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من دعائه ﷺ إذا خرج إلى الصلاة: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِى قَلْبِى نُورًا، وَفِى بَصَرِى نُورًا، وَفِى سَمْعِى نُورًا، وَعَنْ يَمِينِى نُورًا، وَعَنْ يَسَارِى نُورًا، وَفَوْقِى نُورًا، وَتَحْتِى نُورًا، وَأَمَامِى نُورًا، وَخَلْفِى نُورًا، وَاجْعَلْ لِى نُورًا**»[1].

۞ وقال الشيخ محمد رشيد رضا:

إنه توفيق الله عَزَّوَجَلَّ يحالف العبد، فإذا سمع فبتوفيق الله ، وإذا أبصر فبتوفيق الله، وإذا مدَّ يده فبتوفيق الله ... أى: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يوفق عبده للصواب، ويهديه للرشاد فى كل قولٍ وعمل وهو من قبيل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

۞ ثم قال: «**وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعطِيَنَّهُ**» أى: أن هذا العبد يصير فى درجة عالية سامية، تؤهله أنه إذا سأل الله عَزَّوَجَلَّ أعطاه، وإذا استعاذ بالله عَزَّوَجَلَّ - أى: احتمى بجنابه - أعاذه الله عَزَّوَجَلَّ.

روى الحاكم فى مستدركه عن أنس عن النبى ﷺ قال: «**كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**».

وأن البراء لقى زحفًا من المشركين، فقال له المسلمون: أَقسِم على ربك. فقال: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، ثُمَّ الْتَقَوْا مَرَّةً

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣١٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٧٦٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

أُخْرَى، فَقَالُوا: أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، وَأَلْحَقْتَنِى بِنَبِيِّكَ ﷺ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَهِيدًا(١).

۞ « **وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ** » يعنى: لئن اعتصم بى ولجأ إلَىَّ من شر كل ذى شرٍّ لأُعيذنه، فيحصل له بإعطائه مسئوله وإعاذته مما يتعوذ منه المطلوب، ويزول عنه المرغوب.

۞ قوله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسى: « **وَمَا تَرَدَّدتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ** ».

لما أحب المؤمن ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، وكره ما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ، أحب الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمن ما يحبه المؤمن، وكره له ما يكره....والموت يكرهه الناس كلهم؛ لأنه أكبر مصيبة فى الدنيا، والله عَزَّوَجَلَّ قضى على الخلق كلهم بالموت والفناء، فسمَّى الله عَزَّوَجَلَّ اختلاف الإرادتين فى حقه عَزَّوَجَلَّ تردُّدًا، فقال: « **وَمَا تَرَدَّدتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ** ».

۞ **وفي هذا الحديث عدة فوائد:**

أولاً: إثبات الولاية لله عَزَّوَجَلَّ...وولاية الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة وهى السلطة على جميع العباد، والتصرُّف فيهم بما أراد كل إنسان ... فإن الذى يتولى أموره وتدبيره وتصريفه هو الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ**﴾[الأنعام: ٦١، ٦٢]. فهذه ولاية عامة تشمل جميع الخلق.

أما الولاية الخاصة: مثل قوله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى**

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبى.

ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، والولاية العامة تكون بغير سبب من الإنسان، يتولى الله الإنسان شاء أم أبى وبغير سببٍ منه... أما الولاية الخاصة فإنها تكون بسببٍ من الإنسان فهو الذى يتعرض لولاية الله حتى يكون الله وليًّا له، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٣].

ومن فوائد هذا الحديث: فضيلة أولياء الله، وأن الله سبحانه وتعالى يُعادى مَن عاداهم، بل يكون حربًا عليهم عَزَّوَجَلَّ.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الأعمال الواجبة من صلاة وصدقة وصوم وحج وجهاد وعلم وغير ذلك أفضل من الأعمال المستحبة، لأن الله تعالى قال: «**ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه**».

ومن فوائده: إثبات المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وأن الله تعالى يحب الأعمال بعضها أكثر من بعض كما أنه يحب الأشخاص بعضهم أكثر من بعض.

فالله عَزَّوَجَلَّ يحب العاملين بطاعته ويحب الطاعة، وتتفاوت محبته سبحانه وتعالى على حسب ما تقتضيه حكمته.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسان إذا تقرب إلى الله بالنوافل مع القيام بالواجبات فإنه يكون بذلك مُعافًا فى جميع أموره... لقوله تعالى فى هذا الحديث القدسى: «**وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه...**» إلخ.

وفيه دليل أيضًا: على أن مَن أراد أنْ يحبه الله فالأمر سهلٌ عليه إذا يسَّره الله له... يقوم بالواجبات، ويُكثر من التطوع بالعبادات، فبذلك ينال محبة الله وينال ولاية الله.

ومن فوائد هذا الحديث: إثبات عطاء الله عَزَّوَجَلَّ وإجابة دعوته لوليه، لقوله: «**لئن سألنى لأُعطينَّه، ولئن استعاذنى لأُعيذنه**». وأتى به المؤلف فى باب المجاهدة لأن النفس تحتاج إلى جهادٍ فى القيام بالواجبات ثم بفعل المستحبات[1].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٣٨-٣٣٩) بتصرف.

(٩٧) الثاني: عن أنس رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ فيمَا يرْوِيه عنْ ربه عَزَّوَجَلَّ قال: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعبْدُ إِليَّ شبْرًا تقرَّبْتُ إِلَيْه ذراعًا، وإِذَا تقرَّب إِلَيَّ ذراعًا تقرَّبْتُ منه باعًا، وإِذا أتانِي يَمْشي أَتيْتُهُ هرْولة»[1].

۞ وهذا من كمال رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده .. فهو الغنى عن عباده لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .. فهو القائل (سبحانه وتعالى): «...**يَا عبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يا عبادي لو أَنَّ أَوَّلكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُم كانوا على أفْجَرِ قَلْب رَجلٍ واحِدٍ مِنكُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...**»[2].

ومع ذلك يقول عَزَّوَجَلَّ: «**إِذَا تَقَرَّبَ الْعبْدُ إِلَيَّ شبرًا تقرَّبْتُ إِلَيْه ذراعًا**».

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَمَعنَاهُ: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَتِي تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي، وَالتَّوْفِيقِ، وَالْإِعَانَةِ، وَإِنْ زَادَ زِدتُ. فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً. وَالْمُرَادُ أَنَّ جَزَاءَهُ يكون تضعيفه عَلَى حَسَبِ تقرُّبه[3].

قلت: والأَولَى في باب الأسماء والصفات أن نُثبت لله عَزَّوَجَلَّ ما أثبته لنفسه وما أثبته له نبيه ﷺ دون تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل .. فنثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة الهرولة ولا نسأل عن كيفيتها .. ونوقن أنها ليست كهرولة المخلوقين .. فالله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٣٦) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.
(٣) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٥).

(٩٨) الثالث: عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «نِعمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ»(١).

« نِعمتانِ » أى: نعمتان عظيمتان.

« مَغْبُونٌ فيهما كثيرٌ من النَّاس» من الغبن وهو الشراء بأضعاف الثمن أو البيع بدون ثمن المثل ... يعنى أن هذين الجنسين من النعم مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس .. أى مغلوبٌ فيهما: وهما الصحة والفراغ.

فكثيرٌ من الناس تجد الواحد منهم بصحة وعافية وعنده وقت وفراغ .. ومع ذلك تضيع أوقاته ويضيع عمره بلا فائدة تعود عليه فى دينه أو دُنياه .. ولا يعرف الثمرة المريرة لما يفعله من إهدار صحته ووقته فى غير طاعة الله إلا إذا حضره أجله.

والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] .... وقال عَزَّوَجَلَّ فى سورة المنافقون: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠].

فيتمنى الإنسان أن يعود إلى الدنيا ولو لدقيقة واحدة من أجل أن يسجد لله سجدة فتكون فى ميزان حسناته.

ومن أجل ذلك قال النبى ﷺ لرجل وهو يعظه:

« اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ »(٢).

۞ وأنشد أبو عبد الله بن أيوب:

اغتنم فى الفراغ فَضْلَ ركوعٍ   فعسى أن يكون موتك بَغْتَهْ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

فكم صحيحٍ رأيت من غير سقمٍ ذهبتْ نفسهُ الصحيحة فَلْتَه[١]

﴿ وعن ميمون بن مهران أنه قال: دخلتُ على عمر بن عبد العزيز يومًا وعنده سابق البربرى الشاعر وهو ينشد شعرًا، فانتهى بشعره إلى هذه الأبيات:

وكم من صحيحٍ باتَ للموت آمنًا أتته المنايا بغتةً بعدما هجع

ولم يستطع إذ جاءه الموت بغتةً فرارًا ولا منه بقوَّته امتَنَع

فأصبح تبكيه النساء مُقنَّعًا ولا يسمعُ الداعى وإن صوتَه رفَع

وقُرِّب من لحدٍ صار مقيلَهُ وفارق ما قد كان بالأمس قد جَمَع

ولا يترك الموت الغنىَّ لماله ولا مُعدَمًا فى الحال ذا حاجة يَدَع

قال: فلم يزل عمر رضي الله عنه يبكى ويضطرب، حتى غُشى عليه[٢].

﴿ وعن صالح بن موسى الطلحى عن أبيه قال: اجتهد الأشعرى قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له: لو أمسكت أو رفقتَ بنفسك بعض الرفق؟

فقال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربتْ رأسَ مجراها، أخرجتْ جميعَ ما عندها... والذى بقى من أجَلى أقلُّ من ذلك!.

قال: فلم يزل على ذلك حتى مات[٣].

﴿ وكان الحسن يقول فى موعظته: المبادرة عبادة....المبادرة! فإنما هى الأنفاس لو قد حُبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تقرَّبون بها إلى الله عز وجل.

رحم الله امرءًا نظر لنفسه، وبكى على ذنوبه! ثم قرأ هذه الآية:

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

ثم يبكى ويقول: آخر العدد خروجُ نفسك... آخر العدد فراق أهلك.

---

(١) الزهد الكبير/ للبيهقى (ص: ٢٣٥).

(٢) الزهد الكبير (ص: ٢٦٣).

(٣) قِصَر الأمل (ص: ١٠٨) وإحياء علوم الدين (٤/ ٦٦٩).

آخر العدد دخولك فى قبرك[١].

۞ **وقال عمر بن الخطاب** رضي الله عنه:

التؤدة فى كل شىء خير، إلا فى أمر الآخرة[٢].

۞ وعن عبد الواحد بن صفوان قال: كنا مع الحسن فى جنازة، فقال: رحم الله امرءًا عمل لمثل هذا اليوم. إنكم اليوم تَقْدرون على ما لا يقدر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور. فاغتنموا الصحة والفراغ، قبل يوم الفزعة والحساب[٣].

۞ **والإنسان** قد لا تفوته هاتان النعمتان (الصحة والفراغ) بالموت بل قد تفوته قبل الموت بأن يمرض ويعجز عن القيام بما أوجبه الله عليه..ولهذا ينبغى للإنسان أن يغتنم الصحة والفراغ فى طاعة الله قبل أن يندم حين لا ينفع الندم.

۞ والعبد إذا كان يستثمر الصحة والفراغ فى طاعة الله فإنه يُكتب له الأجر كاملًا إذا مرض أو سافر...قال ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[٤].

۞ وفى هذا دليل على أن نِعم الله تتفاوت، وأن بعضها أعظم من بعض.. فأعظم نعمة أنعم الله بها على عبده هى نعمة الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ**﴾ [المائدة:٣]. فإذا وجد الإنسان أن الله قد أنعم عليه بالإسلام وشرح الله صدره له فإن هذه أكبر النعم.

وكذلك نعمة العقل .. ونعمة الزوجة الصالحة.. ونعمة الأولاد الصالحين .. ونعمة الأمن فى الأوطان .. ونعمة الرزق الوفير .. ونعمة الدعوة إلى الله...

(١) الإحياء (٤/ ٦٦٨).

(٢) الزهد/ للإمام أحمد (١/ ٢٩).

(٣) قصر الأمل (ص: ١٠٥) نقلًا عن رحلة إلى الدار الآخرة / د. محمود المصري.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

وذلك بأن يستعملك الله ويُشرفك بالدعوة إلى دينه وسُنة نبيه ﷺ .. ومهما تكلمنا عن النعم فلن نستطيع أن نُحصيها فلقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

ماذا تصنع في دقيقة واحدة؟

وجدت أن الدقيقة من الزمن يمكن أن يُفعل فيها خيرٌ كثير، إما قراءة آيات... كل آية فيها عشرات الحروف، كل حرفٍ بعشر حسنات، فتصبح مئات الحسنات.

أخى المسلم: اعلم أن معظم هذه المشاريع لا تُكلف شيئًا أو تعبًا أو بذل جهد، بل قد تقوم بها وأنت تسير على قدميك أو راكبًا أو واقفًا أو جالسًا، وهذه المشاريع كالآتى:

(١) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تقرأ سورة الفاتحة (٥) مرات فتحصل على أكثر من (٧٠٠٠) حسنة.

(٢) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تقرأ سورة الإخلاص (١٥) مرة فإنها تعدل قراءة القرآن (٥) مرات.

(٣) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (٢٠) مرة وأجرها كعتق (٨) رقاب فى سبيل الله من ولد إسماعيل عليه السلام.

(٤) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول سبحان الله وبحمده (١٠٠) مرة، ومَن قال ذلك فى يوم غُفرت ذنوبه وإن كانت مثل زَبَد البحر.

(٥) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله أكثر من أربعين مرة، وهى كنز من كنوز الجنة.

(٦) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، أكثر من (١٠) مرات، وهى كلمات تُعادل أضعافًا مُضاعفة من أجور التسبيح والذكر.

(٧) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تستغفر الله أكثر من (١٠٠) مرة، فالاستغفار سبب للمغفرة، ودخول الجنة، وللمتاع الحسن وزيادة القوة، ودفع البلايا، وتيسير الأمور، ونزول المطر، والإمداد بالأموال والبنين.

(٨) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تصلى على النبى ﷺ (٢٠) مرة فيصلى الله عليك مقابلها (٢٠٠) مرة.

(٩) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم (٥٠) مرة، وهى كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن.

(١٠) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر (٢٥) مرة، وهذه الكلمات أحب الكلام إلى الله.

(١١) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: لا إله إلا الله (٥٠) مرة تقريبًا.

(١٢) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن ترفع يديك وتدعو بما شئت من جوامع الكلم.

(١٣) فى دقيقة واحدة: تستطيع أن تَنهى عن منكرٍ أو تأمر بمعروف أو تقدم نصيحة لأخ أو تشفع شفاعة حسنة، أو تواسى مهمومًا أو تُميط الأذى عن الطريق أو تصافح عددًا من الأشخاص.

۞ دقيقة واحدة فقط يمكن أن تزيد فى عمرك، فى عطائك، فى فكرك، فى فهمك، فى حفظك، فى حسناتك.

دقيقة واحدة تُكتب فى صحيفة أعمالك إذا عرفت كيف تستثمرها، وتحافظ عليها، فانظر كم من دقيقة؛ بل من ساعة، بل من يوم، بل من شهر، بل من سنة

ذهبت منًّا هدرًا، وضاعت منا لغوًا وعبثًا، وطارت هباءً منثورًا؟! وليت مَن ضيَّعها ينجو رأسًا لا له ولا عليه، بل تجد خلاف ذلك من ذنوب وخطايا وسيئات،... والله المستعان.

ويستطيع مَن صلى ركعتين خفيفتين يقتصر فيهما على الواجبات فقط كقراءة الفاتحة، وثلاثة تسبيحات في الركوع والسجود.

أقول: يستطيع أن يصليهما فيما يقارب الدقيقة، فمن صلى كل يوم ركعتين ضحى نافلة صلى في السَّنة أكثر من سبعمائة ركعة، وكل ركعة فيها سجدتان، أي: يسجد في السنة في صلاة الضحى أكثر من ألف وأربعمائة سجدة.

وفي الحديث الصحيح: «**إنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحَطَّ عنك بها خطيئة**»[1] .

في الدقيقة الواحدة تستطيع أن تُرضى الرب، وتمحو الذنب، وأن تكتب لك عند الله بها أجرًا، وتمحو بها وزرًا، وتجعلها لك عنده ذخرًا.

وتستطيع في الدقيقة مع الدقيقة أن تؤلف، وأن تكتب، وأن تحفظ، وأن تُنمى موهبتك وأن تُجود ذاكرتك،وأن تزيد من علمك، وأن تحافظ على وِردك وأن تُعمق ثقافتك، وتوسع معارفك، وتنوع مواهبك، لكن الأمر يحتاج يا أخى إلى همة...أعوذ بالله من موت الهمم، وبرود العزائم وخسة الطبع[2] .

هذا هو عمرك الثاني

۞ وتستطيع أيها الأخ الحبيب أن تُطيل عمرك فتكون بمثابة الأحياء وأنت ميت وتؤدى رسالة الأحياء وأنت مقبور. وذلك إذا تركت وراءك ما ينتفع به الناس من علمٍ نافع أو عملٍ صالح، أو ذرية مباركة لتكون امتدادًا لحياتك...

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٠٦٩).
(٢) حدائق ذات بهجة - الشيخ/ عائض القرنى (ص: ٥ - ٧) بتصرف.

ولذا قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثٍ: إلَّا مِن صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»(١).

وقال ﷺ: «مَن سَنَّ فى الإسلام سُنة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها من بعده من غير أن يَنقُص من أجورهم شىءٌ ..»(٢).

وقال ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا نشره، وولدًا صالحًا تركه، ومصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته، تلحقه من بعد موته»(٣).

وقال ﷺ: «أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت: مَن مات مُرابطًا فى سبيل الله، ومَن علَّم علمًا أُجرى له عمله ما عُمل به، ومَن تصدق بصدقة فأجرها يجرى له ما وُجدت، ورجل ترك ولدًا صالحًا فهو يدعو له»(٤).

وقال ﷺ: «سبعٌ يجرى للعبد أجرهُنَّ، وهو فى قبره بعد موته: مَن علَّم علمًا، أو أجرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته»(٥).

***

(٩٩) الرابع: عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كَان يقُومُ مِنَ اللَّيْـلِ حتَّى تتَفطَّرَ قَدمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تصنعُ هذا يا رسولَ الله، وقد غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ؟ قال: «أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟»(٦).

(١٠٠) ونحوه فى الصحيحين من رواية المُغيرة بن شُعبَةَ(٧).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة.

(٣) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٢٣١).

(٤) حسن: رواه أحمد، والطبراني، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٨٧٧).

(٥) حسن: رواه البزار، وسمويه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٠٢).

(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن- ومسلم (٢٨٢٠) كتاب صفة القيامة.

(٧) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣٠) كتاب التهجد - ومسلم (٢٨١٩) كتاب صفة القيامة.

۞ لقد كانت أمنا عائشة رضي الله عنها وسائر أمهات المؤمنين (رضى الله عنهن) أعلم الناس بما يفعله النبي ﷺ في بيته .. ولذا فقد وصفت أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ... أي: حتى تتشقق قدماه ﷺ .

فكان ﷺ يقوم أحيانًا أكثر الليل .. وأحيانًا نصف الليل .. وأحيانًا ثلث الليل؛ لأنه ﷺ يعطى نفسه حقها من الراحة مع القيام التام بعبادة ربه عز وجل .

ولذا قال تعالى في سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾[المزمل: ٢٠] .

فكان ﷺ يقوم أدنى من ثلثى الليل ... يعنى: فوق النصف ودون الثلثين ونصفه وثلثه حسب نشاطه (عليه الصلاة والسلام).

فإذا كان يقوم (عليه الصلاة والسلام) مثلاً في ليلة من ليالى الشتاء وهى اثنتا عشرة ساعة.. يقوم أدنى من ثُلثى الليل ... فلنَقُل إنه ﷺ يقوم سبع ساعات تقريبًا وهو يصلى (عليه الصلاة والسلام) في الليل الطويل، تصور كيف يكون حاله (عليه الصلاة والسلام)؟ ومع هذا فقد صَبَّر نفسه وجاهد نفسه، وقال: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا**».

وفى هذا دليل: على أن الشكر هو القيام بطاعة الله، وأن الإنسان كلما ازداد فى طاعة ربه عز وجل فقد ازداد شُكرًا لله عز وجل .

۞ قَالَ الْقَاضِى: الشُّكْرُ مَعرِفَةُ إِحسَانِ الْمُحسِنِ وَالتَّحَدُّثُ بِهِ.

وَسُمِّيَتِ الْمُجَازَاةُ عَلَى فِعلِ الْجَمِيلِ شُكْرًا؛ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَشُكْرُ الْعَبْدِ اللهَ تَعَالَى اعتِرَافُهُ بِنِعَمِهِ وَثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ وَتَمَامُ مُوَاظَبَتِهِ عَلَى طَاعَتِهِ ... وَأَمَّا شُكْرُ اللهِ تَعَالَى أَفْعَالَ عِبَادِهِ فَمُجَازَاتُهُ إِيَّاهُمْ عَلَيْهَا، وَتَضْعِيفُ ثَوَابِهَا، وَثَنَاؤُهُ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ الْمُعطِى وَالْمُثْنِى سُبْحَانَهُ، وَالشَّكُورُ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا المعنى. والله أعلم[1] .

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٢٣٧).

وفى هذا دليل : على أن النبى ﷺ قد غُفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر... كل ما تقدم من ذنبه قد غفر الله له، وكل ما تأخر قد غفر الله له.

وقد يخص الله أقوامًا فيغفر لهم ذنوبهم بأعمال صالحة قاموا بها مثل أهل بدر. فأهل بدر كانوا ثلاثمائة وبضع عشر رجلاً، منهم حاطب بن أبى بلتعة رضي الله عنه، فإن النبى ﷺ قال لعمر فى قصة مشهورة: «**أما علمت أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(١).

❁ ولقد جعل الله عز وجل لنا الأسوة والقدوة فى الحبيب المصطفى ﷺ فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فيا ليتنا نقتدى بالنبى ﷺ فى الحرص على قيام الليل والمداومة عليه ولا بد أن نعلم أن قيام الليل لا يداوم عليه إلا المخلصون ...لأنهم يعلمون يقينًا أنه لا يراهم إلا الله فهم يُخفون أعمالهم عن أعين الناس ويريدون بها وجه الله تعالى.

❁ **قال قتادة** رضي الله عنه: «كان يُقال: ما سهر الليل منافق».

وقيام الليل من أعظم الوسائل لتزكية النفس.

وإن مَن يتخرج من مدرسة الليل يُؤثِّر فى الأجيال التى بعده إلى ما شاء الله... والمتخلف عنها يابس. قاسٍ تقسو قلوب الناظرين إليه...والدليل عند بِشر بن الحارث الحافى منذ القديم، شاهده، وأرشدك إليك فقال:

«حسبُك أن قومًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قومًا أحياء تقسو القلوب برؤيتهم» بل تموت القلوب برؤيتهم فلِمَ كان ذلك إن لم يكن ليل الأولين يقظة وليل غيرهم نومًا. ونهار الأولين جدًّا ونهار الآخرين شهوة».

❁❁❁

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠٠٧) كتاب الجهاد ، ومسلم (٢٤٩٤) كتاب فضائل الصحابة.

(١٠١) الخامس: عن عائشة رَضِوَاللَّهُعَنهَا أنها قالت: «كان رسولُ الله ﷺ إذا دَخَلَ الْعشْرُ أحيا اللَّيْلَ، وأيقظ أَهْلَهُ، وجدَّ وشَدَّ الْمِئْزَرَ»(١).

من المعلوم أن النبى ﷺ كان طوال العام يقوم الليل حتى تتفطر قدماه .. فكان يُصلى أكثر من نصف الليل أو نصفه أو ثلثه .. أما فى ليالى العشر الأواخر من رمضان فإن النبى ﷺ كان يقوم الليل كله .. أى أنه كان يُحيى الليل كله بالعبادة .. وليس معناه أنه يقضى الليل كله فى الصلاة ... بل ربما أنه كان يُصلِّى أحيانًا ويذكر الله أحيانًا أُخرى ويقرأ القرآن أحيانًا .. وهكذا كان يقضى الليل كله فى الطاعة والعبادة..

ولم يكن النبى ﷺ يُحيى الليل كله بالعبادة سوى فى العشر الأواخر من رمضان .. أما باقى العام فكما ذكرنا أنه ﷺ كان يصلى أحيانًا أكثر من نصف الليل أو نصفه أو ثلثه.

۞ فلماذا كان النبى ﷺ يهتم كل هذا الاهتمام بالعشر الأواخر من رمضان؟ .. لأنه كان يتحرى ليلة القدر التى أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن فضلها فقال:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة القدر].

۞ وقد انتظمت هذه السورة الكريمة جملة فضائل لهذه الليلة:

١- أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل القرآن فى هذه الليلة... كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

٢- أن الله عَزَّوَجَلَّ عظَّم شأنها بذكرها بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٢٤) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٧٤) كتاب الاعتكاف.
والمراد: الْعشْرُ الأواخِرُ من شهر رمضان: «وَالمِئْزَر»: الإزارُ وهُو كِنايةٌ عن اعتزالِ النِّساء، وقِيلَ: المُرادُ تشمِيرُهُ للعِبادَةِ ... يُقالُ: شَددْتُ لِهذا الأمرِ مِئْزَرِى، أىْ: تشمرتُ وتَفَرَّغتُ لَهُ.

٣- أن العبادة فيها خيرٌ من العبادة فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

٤- أن الملائكة تتنزل فى هذه الليلة...قيل: تتنزل بالرحمات والبركات والسكينة وقيل: تتنزل بكل أمر قضاه الله وقدَّره لهذه السنة، كما قال سبحانه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤-٥].

٥- أن الأمن والسلام يحل فى هذه الليلة على أهل الإيمان، وتسليم الملائكة يتوالى عليهم فيها.

٦- وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»**[1][2].

قال الإمام النووى رحمه الله:

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِى مَعنَى (شَدِّ الْمِئْزَرِ) فَقِيلَ: هُوَ الِاجْتِهَادُ فِى الْعِبَادَاتِ زِيَادَةً عَلَى عَادَتِهِ ﷺ فِى غَيْرِهِ وَمَعنَاهُ التَّشْمِيرُ فِى الْعِبَادَاتِ...يُقَالُ شَدَدتُ لِهَذَا الْأَمْرِ مِئْزَرِى أَىْ تَشَمَّرْتُ لَهُ وَتَفَرَّغْتُ وَقِيلَ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ اعتِزَالِ النِّسَاءِ لِلاشْتِغَالِ بِالْعِبَادَاتِ ... وَقَوْلُهَا: أَحيَا اللَّيْلَ أَىِ اسْتَغْرَقَهُ بِالسَّهَرِ فِى الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا ... وَقَوْلُهَا: وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ أَىْ: أَيْقَظَهُمْ لِلصَّلَاةِ فِى اللَّيْلِ وَجَدَّ فِى الْعِبَادَةِ زِيَادَةً عَلَى الْعَادَةِ ... فَفِى هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ يُزَادَ مِنَ الْعِبَادَاتِ فِى الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَاسْتِحْبَابُ إِحْيَاءِ لَيَالِيهِ بِالْعِبَادَاتِ[3].

(١٠٢) السادس: عن أبى هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ القَوِىُّ خَيرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعيفِ وَفِى كُلٍّ خَيرٌ. احرِص عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تعجَزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَىءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَذَا كَانَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠١٤) كتاب فضل ليلة القدر، ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.
(٢) التسهيل لتأويل التنزيل/ الشيخ مصطفى العدوى (جزء عم) (٢/ ٤٤٨).
(٣) مسلم بشرح النووى (٨/ ١٠١).

كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدرُ[١] اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعلَ؛ فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ»[٢].

۞ «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ**» يعنى فى إيمانه، وليس المقصود هنا قوة الجسد أو البدن. لأن الإنسان القوى فى جسده قد يستعمل تلك القوة فى طاعة الله أو فى معصية الله .. أما المؤمن القوى فى إيمانه فإن إيمانه سيحمله على أن يقوم بما أوجبه الله عليه .. بل وسيجتهد فى النوافل ليفوز بمحبة الله (جلَّ وعلا) .. أما صاحب الإيمان الضعيف فإن إيمانه الضعيف قد لا يحمله على فعل الواجبات أو ترك المحرمات والمكروهات.

۞ وفى قوله: «**خَيرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعيفِ**» يعنى المؤمن القوى الإيمان خير من المؤمن الضعيف، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف... ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**وفى كُلٍّ خير**» يعنى المؤمن القوى، والمؤمن الضعيف كل منهما فيه خير، وإنما قال: «**وفى كُلٍّ خير**» لئلا يتوهم أحدٌ من الناس أن المؤمن الضعيف لا خير فيه، بل المؤمن الضعيف فيه خير...فهو خيرٌ من الكافر لا شك.

فهنا قال النبى ﷺ: «**وفى كُلٍّ خير**» أى المؤمن القوى والمؤمن الضعيف، لكن القوى خير وأحب إلى الله.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ**» وَالْمُرَادُ بِالْقُوَّةِ هُنَا: عَزِيمَةُ النَّفْسِ وَالْقَرِيحَةُ فِى أُمُورِ الْآخِرَةِ، فَيَكُونُ صَاحِبُ هَذَا الْوَصفِ أَكْثَرَ إِقْدَامًا عَلَى الْعَدُوِّ فِى الْجِهَادِ، وَأَسْرَعَ خُرُوجًا إِلَيْهِ،

---

(١) قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «قدَرُ الله وما شاء فعل»، وبعضهم ضبطها (قدَّرَ الله وما شاء فعل) أى قدّر الشيء الواقع ... والمعنى الأول أظهر، أى: أن هذا الواقع هو قدر الله أى مقدور الله، وما شاء الله فعل». شرح كتاب التوحيد: (٢٥٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) (٣٤) كتاب القدر.

وَذَهَابًا فِي طَلَبِهِ، وَأَشَدَّ عَزِيمَةً فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى فِي كُلِّ ذَلِكَ، وَاحتِمَالِ الْمَشَاقِّ فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى، وَأَرْغَبَ فِي الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْأَذْكَارِ، وَسَائِرِ الْعِبَادَاتِ، وَأَنْشَطَ طَلَبًا لَهَا وَمُحَافَظَةً عَلَيْهَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» فَمَعنَاهُ فِي كُلٍّ مِنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ خَيْرٌ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي الْإِيمَانِ مَعَ مَا يَأْتِي بِهِ الضَّعِيفُ مِنَ الْعِبَادَاتِ(١).

ثم قال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك**» هذه وصية من الرسول ﷺ إلى أمته، وهي وصية جامعة مانعة «**احرص على ما ينفعك**» يعني اجتهد في تحصيله ومباشرته... وضد الذي ينفع: الذي فيه الضرر، وما لا نفع فيه ولا ضرر، وذلك لأن الأفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسمٌ ينفع الإنسان، وقسمٌ يضره، وقسمٌ لا ينفع ولا يضر.

فالإنسان العاقل الذي يقبل وصية النبي ﷺ هو الذي يحرص على ما ينفعه... وما أكثر الذين يضيعون أوقاتهم اليوم في غير فائدة، بل في مضرة على أنفسهم وعلى دينهم، وعلى هذا فيجدر بنا أن نقول لمثل هؤلاء: إنكم لم تعملوا بوصية النبي ﷺ؛ إما جهلاً منكم وإما تهاونًا...لكن المؤمن العاقل الحازم هو الذي يقبل هذه النصيحة، ويحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه.

وقوله ﷺ: «**واستعن بالله**» ما أروع هذه الكلمة بعد قوله: «**احرص على ما ينفعك**» لأن الإنسان إذا كان عاقلاً ذكيًّا فإنه يتتبع المنافع ويأخذ بالأنفع، وربما تغره نفسه حتى يعتمد على نفسه وينسى الاستعانة بالله، وهذا يقع لكثير من الناس، حيث يُعجب بنفسه ولا يذكر الله عز وجل ويستعين به، فإذا رأى من نفسه قوة على الأعمال وحرصًا على النافع وفعلاً له، أُعجب بنفسه ونسى الاستعانة بالله ... ولهذا قال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله**» أي لا تنسَ

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٣٢٩).

الاستعانة بالله ولو على الشيء اليسير.

وفى الحديث: «**ليسأل أحدُكم ربَّه حاجته كلها حتى يسأل شِسع نعله إذا انقطع**» يعنى حتى الشيء اليسير لا تنسَ الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال: «**ولا تعجز**» يعنى استمر فى العمل ولا تعجز وتتأخر، وتقول: إن المدى طويل والشغل كثير... فما دُمت قد صممت فى أول الأمر أن هذا هو الأنفع لك واستعنت بالله وشرعت فيه فلا تعجز.

ثم قال ﷺ: «**فإن أصابك شيء فلا تَقُل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا**» يعنى بعد أن تحرص وتبذل الجهد وتستعين بالله وتستمر، ثم يخرج الأمر على خلاف ما تريد فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا، لأن هذا أمر فوق إرادتك... أنت فعلت الذى تُؤمر به ولكن الله عَزَّوَجَلَّ غالب على أمره ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ونضرب مثالاً لذلك: إذا سافر رجل يريد العمرة ولكنه فى أثناء الطريق تعطلت السيارة، ثم رجع فقال: لو أنى أخذت السيارة الأخرى لكان أحسن ولما حصل التعطل ...نقول: لا تقل هكذا لأنك أنت بذلت الجهد، ولو كان الله عَزَّوَجَلَّ أراد أن تبلغ العمرة ليسَّر لك الأمر، ولكن الله لم يُرد ذلك.

فالإنسان إذا بذل ما يستطيع بذله وأخلفت الأمور فحينئذ يفوض الأمر إلى الله لأنه فعل ما يقدر عليه ...ولهذا قال: «**إن أصابك شيء**» يعنى بعد بذل الجهد والاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ: «**فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا**».

«**ولكن قُل: قَدَّر الله وما شاء فعل**» أى هذا قدر الله أى تقدير الله وقضاؤه، وما شاء الله عَزَّوَجَلَّ فعله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]. لا أحد يمنعه فى مُلكه أن يفعل ما يشاء.

ولكن يجب أن نعلم أنه سبحانه وتعالى لا يفعل شيئًا إلا لحكمة خفيت

علينا أو ظهرت لنا ... والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

فبيَّن أن مشيئته مقرونة بالحكمة والعلم ... وكم من شيء كره الإنسان وقوعه فصار في العاقبة خيرًا له ... كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦](١).

فأنت إذا بذلت الجهد واستعنت بالله وصار الأمر على خلاف ما تريد لا تندم ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا؛ لأنك إذا قلت هذا انفتح عليك من الوساوس والندم والأحزان ما يُكدر عليك الصفو فقد انتهى الأمر وراح، وعليك أن تُسلِّم الأمر للجبار عَزَّوَجَلَّ ... قل: قدر الله وما شاء فعل.

ما حكم استعمال كلمة «لو»؟

۞ تدبر معي إلى ما قاله شيخنا المبارك ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما سُئل عن حكم استعمال كلمة «لو»... فقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

استعمال «لو» فيه تفصيل على الوجوه التالية:

الوجه الأول: أن يكون المراد بها مجرد الخبر فهذه لا بأس بها .. مثل أن يقول الإنسان لشخصٍ لو زُرتَني لأكرمتُك، أو لو علمتُ بك لجئتُ إليك.

والوجه الثاني: أن يقصد بها التمنِّي فهذه على حسب ما تمنَّاه ... إن تمنى بها خيرًا فهو مأجور بنيته، وإن تمنى بها سوى ذلك فهو بحسبه.

ولهذا قال النبي ﷺ في الرجل الذي له مال ينفقه في سبيل الله وفي وجوه الخير .. ورجل آخر ليس عنده مال قال: لو أنّ لي مِثْلَ مالِ فُلاَنٍ لعَمِلتُ فيه مِثْلَ عَمَلِ فلانٍ. فقال رسول الله ﷺ: «**هما في الأجْرِ سَوَاءٌ**».

والثاني رجل ذو مال لكنه ينفقه في غير وجوه الخير فقال رجل آخر لو أن لي

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٤٧-٣٤٩) بتصرف كبير.

مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان .. فقال رسول الله ﷺ «**هما فى الوِزْرِ سَوَاء**»(١). فهى إذا جاءت للتمنى تكون بحسب ما تمناه العبد إن تمنى خيرًا فهى خير، وإن تمنى سوى ذلك فله ما تمنى.

والوجه الثالث: أن يُراد بها التحسُّر على ما مضى فهذه منهىٌّ عنها لأنها لا تفيد شيئًا وإنما تفتح الأحزان والندم...وفى هذه يقول الرسول ﷺ: «**المؤمن القوىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى الله مِن المؤمن الضَّعِيفِ، وفى كُلٍّ خَيْرٌ، احرص على ما يَنْفَعُك، واسْتَعِنْ بالله ولا تَعجِزْ، وإنْ أصابك شَىْءٌ فلا تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كذا لكان كَذا؛ فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَان**»(٢). وحقيقةً أنه لا فائدة منها فى هذا المقام؛ لأن الإنسان عمل ما هو مأمورٌ به من السعى لما ينفعه؛ ولكن القضاء والقَدَر كان بخلاف ما يرى، فكلمة «لو» فى هذا المقام إنما تفتح باب الندم والحزن؛ ولهذا نهى عنها رسول الله ﷺ لأن الإسلام لا يريد من الإنسان أن يكون محزونًا ومهمومًا بل يريد منه أن يكون منشرح الصدر، وأن يكون مسرورًا طَلِيقَ الوجه... ونبَّه الله المؤمنين لهذه النقطة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠].

(١٠٣) السابع: عَن أَبى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ، وَحُجِبَتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ»**(٣).

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ وَفَصِيحِهِ وَجَوَامِعِهِ الَّتِى أُوتِيَهَا ﷺ مِنَ

(١) صحيح: رواه الترمذى، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٨٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٢٢) كتاب الجنة.

وفى رواية لمسلم: «حُفَّتْ» بدل «حُجِبَتْ» وَهُوَ بمعناه: أى بينه وبينها هَذَا الحجاب فإذا فعله دخلها.

التَّمْثِيلِ الْحَسَنِ ... ومعناه لايوصل الْجَنَّةَ إِلَّا بِارتِكَابِ الْمَكَارِهِ وَالنَّارَ بِالشَّهَوَاتِ، وَكَذَلِكَ هُمَا مَحجُوبَتَانِ بِهِمَا فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ وَصَلَ إِلَى الْمَحجُوبِ... فَهَتْكُ حِجَابِ الْجَنَّةِ بِاقْتِحَامِ الْمَكَارِهِ، وَهَتْكُ حِجَابِ النَّارِ بِارْتِكَابِ الشَّهَوَاتِ... فَأَمَّا (الْمَكَارِهُ) فَيَدخُلُ فِيهَا الاِجْتِهَادُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا وَالصَّبْرُ عَلَى مَشَاقِّهَا، وَكَظْمُ الْغَيْظِ، وَالْعَفْوُ، وَالْحِلْمُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْإِحسَانُ إِلَى الْمُسِيءِ، وَالصَّبْرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَنَحْو ذَلِكَ. وَأَمَّا (الشَّهَوَاتُ) الَّتِي النَّارُ مَحفُوفَةٌ بِهَا، فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا الشَّهَوَاتُ الْمُحَرَّمَةُ كَالْخَمْرِ، وَالزِّنَا، وَالنَّظَرِ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ، وَالْغِيبَةِ، وَاسْتِعمَالِ الْمَلَاهِي، وَنَحوِ ذَلِكَ ... وَأَمَّا الشَّهَوَاتُ الْمُبَاحَةُ فَلَا تَدخُلُ فِي هَذِهِ لَكِنْ يُكْرَهُ الْإِكْثَارُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ يَجُرَّ إِلَى الْمُحَرَّمَةِ، أَوْ يُقَسِّي الْقَلْبَ، أَوْ يَشْغَلَ عَنِ الطَّاعَاتِ، أَوْ يُحوِجَ إِلَى الاِعتِنَاءِ بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك[1].

وهكذا فقد أخبر النبي ﷺ أن النار قد أُحيطت بالشهوات وأن الجنة قد أُحيطت بالمكاره .. يعني: أُحيطت بما تكرهه النفوس .. وذلك لأن الباطل محبوبٌ للنفس الأمارة بالسوء والحق مكروهٌ لها .. فإذا جاهد الإنسان نفسه الأمارة بالسوء وتجاوز هذا المكروه بفعل الواجبات وترك المحرمات فسوف يصل إلى الجنة بفضل الله ورحمته.

۞ فالزنى - عياذاً بالله - محبوبٌ إلى النفس الأمارة بالسوء .. فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله النار.

وكذلك شُرب الخمر .. فهو محبوب إلى النفس الأمَّارة بالسوء وبخاصة حينما يكون الإنسان في صحبة أصدقاء السوء .. ولذلك جعل الشارع لشرب الخمر عقوبة رادعة بأن يُجلد شاربها.

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٤١-٢٤٢).

فإذا هتك الإنسان ذلك الحجاب وشرب الخمر فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله النار والعياذ بالله.

وكذلك الغيبة والنميمة محبوبة إلى النفس الأمّارة بالسوء وبخاصة عند اجتماع الأصدقاء .. فإذا هتك الإنسان ذلك الحجاب وخاض فى أعراض الناس فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله النار.

وهكذا فى كل شهوة محرمة كالسرقة والغش وسائر المحرمات، وعلاج ذلك كله فى قوله ﷺ: «**وحُفَّت الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ**»، فإذا تجاوز المسلم تلك الشهوات ولم يهتك حجابها ... وانشغل بفعل الطاعات التى هى قد تكونْ مكروهة إلى النفس فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله الجنة.

ولهذا قد تجد الإنسان يسمع صوت المؤذن فى صلاة الفجر وهو نائمٌ فى فراشه الوثير الدافئ فى الشتاء البارد .. فإذا آثر الراحة فاته الخير الكثير وإذا هتك حجاب المكروه فقام وتوضأ بالماء البارد وذهب إلى المسجد ليُصلى صلاة الفجر وصل إلى الجنة .. فقد قال النبى ﷺ: «**من صلَّى البَرْدَين دَخل الجنة**»(١) والبردان هما صلاة الفجر وصلاة العصر..

۞ وكذلك الصدقة مكروهة إلى النفس الأمارة بالسوء .. فإذا اقتحم الإنسان تلك العقبة وهتك حجاب المكروه فأخرج المال وتصدق فقد سار فى طريقه إلى الجنة.

۞ وكذلك الحجاب مكروهٌ جدًّا إلى النفس الأمارة بالسوء ... فالفتاة المسلمة قد تحب أن تخرج مُتزينة حتى تشعر بجمالها وأن الكل يمدحها ويمدح ثيابها الجميلة وشعرها الناعم .. فإذا هتكت حجاب المكروه فارتدت حجابها وتشبهت بأمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ فسوف يكون ذلك سببًا فى دخولها الجنة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.

۞ وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. قد يكون مكروهًا شديدًا على النفوس؛ لأن الإنسان يخشى أن يكون ثقيلًا على الناس إذا أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر فإذا هتك حجاب المكروه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله فإن هذا سيكون سببًا لدخوله الجنة.

۞ وكذلك الجهاد في سبيل الله مكروه إلى النفس ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]... بلى إنه مكروهٌ للنفس فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب كان ذلك سببًا لدخول الجنة.

واستمع إلى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]. فإذا كسر الإنسان هذا المكروه وصل إلى الجنة.

۞ وهكذا .. فالنار حُفَّت بالشهوات والجنة حُفَّت بالمكاره .. فجاهد نفسك على ترك المحرمات وفعل الواجبات وإن كرهت ذلك.. واعلم أنك إن أكرهت نفسك على طاعة الله فسوف تحب الطاعة وتألفها حتى تُصبح أحب إلى نفسك من كل متاع الدنيا الزائل ... وهذا كله من باب مُجاهدة النفس .. ولن يكون ذلك إلا بالاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ ثم مجاهدة النفس.

***

(١٠٤) الثامن: عن أبي عبد الله حُذَيفَةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ذَاتَ لَيلَةٍ فَافْتَتَحَ البقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَركَعُ عِنْدَ المائَةِ، ثُمَّ مَضَى. فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا في ركعَة فَمَضَى، فقُلْتُ: يَركَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا،

يَقرَأُ مُتَرَسِّلًا: إِذَا مَرَّ بآية فِيهَا تَسبيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ» فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ» ثُمَّ قَامَ طَويلًا قَريبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعلَى» فَكَانَ سُجُودُهُ قَريبًا مِنْ قِيَامِهِ[1].

(١٠٥) التاسع: عن ابن مسعود ﷺ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ لَيلَةً، فَأَطَالَ القِيَامَ حَتَّى هَمَمْتُ بأَمْرِ سُوءٍ! قيل: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ[2].

۞ لقد بلغت الصلاة مبلغًا عظيمًا وقدرًا عاليًا فى قلب النبى ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبُنا أن نتأمل قول النبى ﷺ: «**حُبِّب إلىَّ من دنياكم: النساء والطِّيب وجُعلت قُرة عينى فى الصلاة**»[3].

قال المروزى: ولو لم يستدل المؤمن على أن الصلاة أحب الأعمال إلى الله إلا بما ألزم قلب حبيبه المصطفى محمد ﷺ من حب الصلاة وجعل قُرة عينه فيه دون سائر الأعمال كلها، وإن كان مُحبًّا لجميع الطاعات، ولكنه خص الصلاة فأخبر أن قُرة عينه جُعلت فى الصلاة لربه لكفاه بذلك دليلاً[4].

وقد كان النبى ﷺ يفزع إلى الصلاة.... ففزع إليها ليلة الأحزاب.

قال حذيفة ﷺ: «رجعت إلى النبى ﷺ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل فى شملة يصلى، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلَّى»[5].

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣٥) كتاب الجمعة، ومسلم (٧٧٣) كتاب صلاة المسافرين.
(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣١٢٤).
(٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٣١).
(٥) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٧٠٣).

وفزع إليها يوم بدر: ... عن (عليٍّ) رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ويدعو حتى أصبح.

۞ وكان يفزع إليها كذلك عند تجدُّد النعم.

فمن ذلك أن الله عز وجل لما أنعم على نبيه صلى الله عليه وسلم بفتح مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات شكرًا لله عز وجل.

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الصلاة حُبًّا جمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**»(١).

بل إنه صلى الله عليه وسلم فى مرض الموت وفى آخر لحظات حياته يُغشَى عليه ثم يفيق ويقول: «**أصلَّى الناس؟**» فيقولون له: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، ويُغشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «**أصلى الناس؟**»(٢).

۞ وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قومًا من جُهينة، فقاتلوا قتالاً شديدًا»... الحديث، وفيه: «وقالوا -أى: المشركون- إنه ستأتيهم صلاة هى أحب إليهم من الأولاد»(٣).

۞ ولكونها كانت «قرة عينه صلى الله عليه وسلم كان صلى الله عليه وسلم يطيل القيام والتهجُّد، ولا يَقوى على مفارقتها».

۞ وفى هذا الحديث ذكر حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما أنه صلى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى إحدى الليالى .. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يُصلى معه بعض أصحابه أحيانًا فى قيام الليل .. فمرة صلَّى معه حذيفة ومرة صلى معه ابن مسعود ومرة صلَّى معه ابن عباس رضي الله عنهم .. لكن فى أكثر الأحوال كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى قيام الليل وحده وذلك لأن

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٤٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

صلاة الليل لا تُشرع فيها الجماعة إلا فى شهر رمضان.. لكن لا بأس أن تُقام الجماعة فيها أحيانًا وليس دائمًا بدليل الحديثين.

۞ وفى هذا الحديث يخبر حذيفة أنه صلَّى مع النبى ﷺ فافتتح بسورة البقرة بعد قراءة الفاتحة فأطال فيها النبى ﷺ فظنَّ حذيفة أن النبى ﷺ سوف يركع عند الآية رقم مائة ولكن النبى ﷺ أكمل سورة البقرة كاملة .. فقال حذيفة فى نفسه: لعله سيركع بعد أن يُكمل سورة البقرة ولكن النبى ﷺ بدأ فى سورة النساء فقرأها كاملة ... فقال حذيفة: لعله سيركع بعد سورة النساء؛ ولكن النبى ﷺ مضى فى قراءته حتى أكمل قراءة سورة النساء ثم قرأ سورة آل عمران كاملة .. وكل ذلك والنبى ﷺ يقرأ قراءة مُتأنية لا يتعجل فيها .. بل كان إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ لله سبَّح .. وإذا مرَّ بآية رحمة كان يقف عندها ويسأل الله الجنة ... وإذا مرَّ بآية وعيدٍ كان يقف عندها ويستعيذ بالله من النار.

فجمع عليه الصلاة والسلام بين القراءة وبين الذكر وبين الدعاء وبين التفكُّر؛ لأن الذى يسأل عند السؤال ويتعوذ عند التعوذ ويُسبح عند التسبيح، لاشك أنه يتأمل قراءته ويتفكر فيها، فيكون هذا القيام روضة من رياض الذكر؛ قراءة وتسبيحًا ودعاءً وتفكُّرًا ... والنبى عليه الصلاة والسلام فى هذا كله لم يركع، فهذه السور الثلاث: البقرة والنساء وآل عمران أكثر من خمسة أجزاء، فتدبر إذا كان الإنسان يقرأها بتأني، ويستعيذ عند آية الوعيد، ويسأل عند آية الرحمة، ويُسبح عند آية التسبيح. كم تكون المدة؟ لاشك أنها تكون طويلة، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقوم حتى تتورم قدماه وتتفطر.

حتى إن ابن مسعود وهو شاب لما صلى معه ليلة من الليالى يقول أطال النبى ﷺ القيام حتى هممت بأمر سوء، قيل: بِمَ هممت، قال: هممت أن أجلس وأدعه...عجز أن يصبر من طول القيام.

۞ ثم ركع النبى ﷺ بعد ذلك كله ... بعد أن أتمَّ قراءة السور الثلاث فقال: «**سبحان ربى العظيم**» فكان وقت الركوع مثل وقت القيام .. ثم رفع من ركوعه وقال: «**سمع الله لمن حمده**» ربنا ولك الحمد فكان قيامه بعد الركوع نحوًا من ركوعه .. ثم سجد بعد ذلك فقال: «**سبحان ربى الأعلى**» وأطال سجوده ﷺ حتى كان سجوده نحوًا من قيامه.

فكان ركوعه ﷺ بمقدار قراءة سورة البقرة والنساء وآل عمران.. وكان قيامه من ركوعه مثل ذلك .. وكان سجوده مثل ذلك.. وهكذا كانت صلاته كلها متناسقة ومتساوية .. فإذا أطال القيام أطال الركوع والقيام الذى بعد الركوع والسجود والجلوس الذى بين السجدتين .. وإذا خفَّف النبي ﷺ القراءة خفَّف الركوع والسجود من أجل أن تكون صلاته متساوية .. فكان يفعل ذلك فى الفريضة والنافلة.

۞ وهكذا كانت محبة النبى ﷺ للصلاة ولذا كان يقول ﷺ: «**وجُعلت قُرة عينى فى الصلاة**»(١).

۞ وهذا الحديث دليلٌ على أنه يجوز تقديم بعض السور على بعض؛ لأن النبى ﷺ قدَّم سورة النساء على آل عمران .. ولعلَّ هذا كان قبل السنة الأخيرة .. فإن النبى ﷺ فى السنة الأخيرة كان يُقدِّم سورة آل عمران على سورة النساء وكان ﷺ يقرن بين البقرة وآل عمران فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «**اقرءوا الزهراوين: البقرة، وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فِرْقان من طير صواف تُحاجَّان عن صاحبهما يوم القيامة**»(٢) ، فالمهم أن الترتيب فى الأخير كان تقديم سورة آل عمران على سورة النساء.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

وكذلك فإنه ينبغى للإنسان فى صلاة الليل إذا مَرَّ بآية رحمة أن يقف ويسأل، مثل لو مَرَّ بذكر الجنة يقف ويقول: اللهم اجعلنى من أهلها، اللهم إنى أسألك الجنة، وإذا مَرَّ بآية وعيد يقف ويقول: أعوذ بالله من ذلك، أعوذ بالله من النار، وإذا مَرَّ بآية تسبيح يعنى: تعظيم لله سبحانه وتعالى يقف ويُسبح الله ويُعظمه... هذا فى صلاة الليل، أما فى صلاة الفريضة لا بأس أن يفعل هذا ولكنه ليس بسُنة، إن فعله فإنه لا يُنهى عنه، وإن ترك فإنه لا يُؤمر به، بخلاف صلاة الليل، فإن الأفضل أن يفعل ذلك... أى يتعوذ عند آية الوعيد ويسأل عند آية الرحمة ويُسبح عند آية التسبيح[1].

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: همة النبى ﷺ فى العبادة والتى منها القيام الطويل جدًّا فى صلاة الليل.

الفائدة الثانية: فى مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١ - تَشرُّفه رضي الله عنه بالصلاة مع النبى ﷺ قيام الليل وليس معهما أحد، وكفى بذلك شرفًا وفضلًا.

٢ - صبره على التعب الذى أصابه من طول القيام وتحامله على نفسه حتى أتم الصلاة قائمًا.

٣- سمَّى الجلوس فى الصلاة أمر سوءٍ، بالرغم أن الجلوس فى صلاة النافلة جائز شرعًا، حتى ولو لم يشعر المصلى بالتعب فما بالكم إذا شعر بالتعب الشديد، ولكن الأمر السوء عنده ليس الجلوس ذاته ولكنه مخالفة هيئة النبى ﷺ وقد يكون سمَّاه سوءًا لأمرٍ آخر، هو أنه سيستريح بالجلوس ويذهب عنه التعب الذى يشعر به، والنبىّ ﷺ ما زال يتحمل تعب القيام.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٥٤).

٤- لم يلتفت ﷺ إلى الأجر الزائد الذى سيناله إذا واصل القيام مع تعبه الشديد، أو الأجر الفائت بالجلوس، وإن كان هذا أمرًا عظيمًا عند الصحابة ﷺ ولكن الذى التفت إليه وشغله كثيرًا هو مخالفة هيئة النبى ﷺ.

ولا غرابة فى ذلك؛ لأن الذى علمهم كيف يحصلون على أجر الصلاة والصوم وسائر العبادات، هو النبى ﷺ ... ويمكن أنه ﷺ لم يلتفت للأجر الفائت من الجلوس لاعتقاده أن سوء الأدب الذى سيلحقه من مخالفة هيئة النبى ﷺ أعظم خسارة من الأجر الفائت بتحمُّل طول القيام مع التعب الشديد.

أخى الحبيب: إذا كانت مخالفة هيئة النبى ﷺ فى القيام أو الجلوس- وهى أمر لا يؤاخذ عليه المولى- سبحانه وتعالى- أمر سوء عند الصحابة، فما بالكم بمخالفة أمره ونهيه ﷺ[١].

❊ ❊ ❊

(١٠٦) العاشر: عن أنس ﷺ، عن رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «يَتْبَعُ المَيتَ ثَلاَثَةٌ: أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَملُهُ، فَيَرجِعُ اثنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَرجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبقَى عَملُهُ»[٢].

❁ قال الحافظ ابن رجب ما مُلخصه:

وتفسير هذا أن ابن آدم فى الدنيا لا بد له من أهلٍ يُعاشرهم ومالٍ يعيش به، فهذان صاحبان يُفارقانه ويُفارقهما ... فالسعيد مَن اتخذ من ذلك ما يُعينه على ذكر الله تعالى، وينفعه فى الآخرة فيأخذ من المال ما يبلغ به إلى الآخرة، ويتخذ زوجة صالحة تُعينه على إيمانه.

فأما مَن اتخذ أهلًا ومالًا يشغله عن الله تعالى فهو خاسر كما قالت الأعراب: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾[الفتح: ١١].

---

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥١٤) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٦٠) كتاب الزهد والرقائق.

وقال تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فإذا مات ابن آدم وانتقل من هذه الدار لم ينتفع من أهله وماله بشيءٍ إلا بدعاء أهله له واستغفارهم وبما قدمه من ماله بين يديه ...

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

فأما مَن خلَّف مَن يدعو له من أهله أو قدَّم شيئًا من ماله فإنه ينتفع به.

كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له، أو علمٍ يُنتفع به»**(١).

فأهله لا ينفعه منهم بعد موته إلا مَن استغفر له ودعا له، وقد يكون الأجنبى أنفع للميت من أهله.

قال بعض الصالحين: وأين مثل الأخ الصالح .... أهلك يقتسمون ميراثك وهو قد تَفرَّد بحزنك يدعو لك وأنت بين أطباق الأرض.

وأكثر الورثة لا يوفون دَين مورثهم فيتركونه مُرتهنًا مُحتبسًا بدَينه.

كما قال النبى ﷺ لقومٍ مات منهم ميتٌ: **«إنَّ صاحبَكُم مُحتَبَسٌ بدَينه فأسلِمُوه أو فُكُّوه»**(٢).

فهذا أحد الأخلاء الثلاثة وهو الأهل يَصِلون مع خليلهم إلى باب القبر وهو اللحد ثم يرجعون عنه.

۞ وأما الخليل الثانى وهو المال فيرجع عن صاحبه أولًا ولا يدخل معه قبره ... ورجوعه كناية عن عدم مصاحبته له فى قبره ودخوله معه ... فلا ينتفع

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٨١٠).

الميت بشيءٍ من ماله بعد موته إلا بما كان قدَّمه بين يديه فإنه يَقدُم عليه، وهو داخل في عمله الذي يصحبه في قبره ... فأما ما خلَّفه وتركه فهو لورثته لا له، وإنما كان خازنًا لورثته.

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ »(١).

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ أَنَّهُ قال: «أَيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أَحبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يَا رسول اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ»(٢).

فلا ينتفع العبد من ماله إلا بما قدَّمه لنفسه، وأنفقه في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

فأما مآكله ولبسه فإنه لا له ولا عليه إلا أن يكون فيه نية صالحة وقيل: بل يُثاب عليه مُطلَقًا.

فأما ما أنفقه في المعاصي فهو عليه لا له وكذلك ما أمسكه ولم يؤدِّ حق الله فيه فإنه يُمثَّل له شجاعًا أقرع يتبعه ، وهو يفر منه حتى يأخذ لهزمتيه(٣)، ويقول: أنا مالك أنا كنزك ويلقمه يده فيقضمها قضم الفحل.

وإذا كان المكنوز ذهبًا أو فضة جُعل صفائح فأُحمى عليها ثم كُوى به جبينه وجنبه وظهره... لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٨) كتاب الزهد والرقائق .

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤٤٢) كتاب الرقاق.

(٣) يعنى شدقيه.

لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

فمن تحقَّق هذا فليُقدم لنفسه من ماله ما يُحب... فإنه إذا قدم كان له وبين يديه ينتفع به فى دار الإقامة.

وإذا خلَّفه كان لغيره لا له، وقد يكون هو ممن يحبسه عن النفقة فى سبيل الله فيراه يوم القيامة فى ميزان غيره فيتحسر على ذلك، ويدخل وارثه به الجنة.

فالعاقل هو مَن قَدَّم من ماله ما يحب فيفوز به فى دار الإقامة فإن مَنْ أحب شيئًا استصحبه معه، ولا يدعه لغيره فيندم حين لا ينفعه الندم.

قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢].

كان ابن عمر لا يُعجبه شىءٌ من ماله إلا قدمه لله حتى إنه كان يومًا راكبًا على ناقته فأعجبته فنزل عنها فى الحال وقلدها وجعلها هديًا لله عَزَّ وَجَلَّ.

وكان له جارية يحبها حبًّا شديدًا فأعتقها وزوَّجها بمولاه نافع.

دخل رجل على أبى ذر فجعل يُقلِّب بصره فى بيته فقال: يا أبا ذر أين متاعكم؟ قال: (إن لنا بيتًا نُوجِّه إليه صالح متاعنا. قال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت هاهنا. قال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه).

مَن قدَّم اليوم شيئًا قَدِمَ عليه غدًا ومَن لم يُقدم شيئًا قَدِمَ على غير شىءٍ فطال فقره فى دار الإقامة.

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التُّقى ... وأبصرت بعد الموت مَن قد تزودا

ندمت على ألَّا تكون شركته ... وأرصدت ما قد كان من قبل أرصدا

۞ **أما الخليل الثالث:** فهو العمل، وهو الخليل الذى يدخل مع صاحبه فى قبره فيكون معه فيه، ويكونُ معه إذا بُعث، ويكون معه فى مواقف القيامة، وعلى الصراط، وعند الميزان، وبه تُقتسم المنازل فى الجنة والنار.

قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾

[الروم: ٤٤].

قال بعض السلف: يمهدون لأنفسهم فى القبر:

يعنى أن العمل الصالح يكونْ مهادًا لصاحبه فى القبر حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراشٌ ولا وسادٌ ولا مِهادٌ بل كل عامل يفترش عمله، ويتوسده من خيرٍ أو شرٍّ.

فالعاقل مَن عمَّر بيته الذى تطول إقامته فيه.

قال بعض السلف: اعمل للدنيا على قدر مُكثك فيها ، واعمل للآخرة على قدر مُكثك فيها.

وقال بعضهم: لابن آدم بيتان؛ بيت على الأرض، وبيت فى بطن الأرض، فعمد إلى الذى على وجه الأرض فزخرفه وزيَّنه وجعل فيه أبوابًا للشمال وأبوابًا للجنوب، وجعل فيه ما يصلحه لشتائه وصيفه، ثم عَمَد إلى الذى فى بطن الأرض فأخربه. فإذا قيل له: هذا البيت الذى أصلحته كم تقيم فيه؟ قال: لا أدرى. قيل له: والذى أخربته كم تقيم فيه؟ قال: فيه مقامى، قال: تُقر بهذا على نفسك وأنت رجل تَعقل؟!

والمؤمن يأتيه عمله الصالح فى قبره فى أحسن صورة فيبشره بالسعادة من الله عَزَّوَجَلَّ والكافر بعكس ذلك.

الأعمال الصالحة تحيط بالمؤمن فى قبره:

فى صحيح ابن حبان عن أبى هريرة مرفوعًا: «والذى نفسى بيده إنَّه ليسمع قَرع نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا، كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ، وَكَانَ فِعلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ:

مَا قِبَلِي مَدخَلٌ ... وذكر سائر الأعمال»[(١)(٢)].

قال بعضهم:

تَـزَوَّد قَرِينًـا مِـنْ فِعَالِـكَ إِنَّمَـا ... قَـرِينُ الفَتَـى فِـى القَبْـرِ مَـا كَـانَ يَفْعَـلُ

وَإِنْ كُنْـتَ مَـشْغُولاً بِـشَىْءٍ فَـلا تَكُـنْ ... بِغَيْـرِ الـذِى يَرْضَـى بِـهِ اللهُ تَـشْغَلُ

فَلَـنْ يـصحبَ الإنسانُ مِـنْ بعـدِ مَوتِـهِ ... إِلَـى قَبْـرِهِ إِلَّا الـذى كَـانَ يَعمَـلُ

أَلَا إِنَّمَـا الإنـسانُ ضَـيفٌ لأهلِـهِ ... يُقيـم قَليـلاً عنـدهم ثـمَّ يَرحَـلُ

(١٠٧) الحادى عشر: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبىُّ ﷺ: «الجنة أقربُ إلى أَحدِكُم مِنْ شِراكِ نَعلِهِ والنَّارُ مِثْلُ ذلِكَ»[(٣)].

۞ وإذا أردت أن تفوز بالجنة فالنبى ﷺ يُطمئنك فى هذا الحديث ويقول لك: «الجنة أقرَبُ إلى أَحدِكُم مِنْ شِراكِ نَعلِهِ» فأبشر فالجنة قريبة جدًّا لدرجة أنها أقرب إليك من شِراك نعلك .. وهو السير أو الرباط الذى يكون على ظهر القدم.

نعم.. الجنة قريبة جدًّا؛ لأنها قد تكون فى كلمة تقولها من رضوان الله لا تظن أن تبلغ ما بلغت فترفعك فى الجنة سبعين خريفًا .. وقد تكون فى مسحة على رأس يتيم .. وقد تكون فى قُبلة على يد أمك أو أبيك .. وقد تكون فى بسمة فى وجه أخيك المسلم .. وقد تكون فى ركعة فى جوف الليل .. وقد تكون فى درهمٍ تدفعه لامرأة فقيرة .. وقد تكون فى دلالة أعمى على الطريق .. وقد تكون فى إصلاحٍ بين متخاصمين .. وقد تكون فى كلمة توقظ قلب إنسانٍ من غفلته ... أرأيت كيف أن الجنة سهلة وقريبة ... وأن الأعمال الموصلة إليها يسيرة وسهلة

(١) الإحسان (٣١١٣) وإسناده حسن.
(٢) رياض الجنة (١٩٤-١٩٨) بتصرف.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٤٨٨) كتاب الرقاق.

لا تُكلفك أى شيءٍ سوى أن تُخلص النية لله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وكذلك - فى المقابل - فالنار قريبة جدًّا حتى قال عنها النبى ﷺ: «والنَّارُ مِثْلُ ذلِكَ» أى أنها أقرب إليك من شِراك نعلك.

فقد تكون فى كلمة تقولها من سخط الله لا تُلقى لها بالًا فتهوى بك فى النار سبعين خريفًا .. وقد تكون فى كذبة تكذبها على الناس من حولك .. وقد تكون فى غيبة لأحد إخوانك ... أو فى نميمة تُشعل بها النار بين أصحابك .. أو فى عُبوسك فى وجه والديك .. أو فى قطيعة أرحامك .. أو فى أكل الحرام .. أو فى قذف المحصنات .. أو فى ترك الصلاة أو فى سخرية من صاحب عاهة .. أو فى ظلم إنسانٍ ضعيف .. أو غير ذلك..

۞ فاحرص على كل ما يُقربك من الجنة .. واحذر من كل ما يُقربك من النار.

فدلالة الحديث هنا أن الجنة قريبة جدًّا لمن جاهد نفسه بفعل الطاعات .. وجاهد نفسه بترك المنكرات ابتغاء مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.

(١٠٨) **الثانى عشر: عن أبى فِراس رَبيعة بنِ كَعبٍ الأسْلَمِيِّ خادم رسول الله ﷺ، ومِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فآتيه بوَضوئِهِ، وحاجتِهِ فقال: «سَلْنى» فقُلْت: أَسْأَلُكَ مُرافقَتَكَ فى الجنَّة. فقالَ: «أوَ غَيْرَ ذلِك؟» قُلْتَ: هو ذَاك. قال: «فَأَعِنِّى على نَفْسكَ بِكَثْرةِ السجُودِ»**[1].

(١٠٩) **الثالث عشر: عن أبى عبد الله ويُقَالُ: أبُو عبْدِ الرَّحمنِ ثَوْبانَ مولى رسول الله ﷺ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «عليكَ بِكَثْرةِ السُّجُودِ، فإنَّك لَنْ تَسْجُد لله سَجْدَةً إلاَّ رفَعكَ الله بِهَا درجةً، وحطَّ عنْكَ بِهَا خَطِيئَةً»**[2].

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٩) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٨) كتاب الصلاة.

۞ ففى الحديث الأول أن ربيعة بن كعب الذى كان خادمًا للنبى ﷺ يأتيه كل يوم بماء الوضوء خمس مرات فى الصلوات الخمس.

وكان ربيعة فقيرًا جدًّا من أهل الصُّفَّة الذين هم أضياف الإسلام وكان عددهم يربو على السبعين ويقترب من الثمانين ... وهم رجالٌ هاجروا إلى المدينة وليس لهم مأوى فجعل النبى ﷺ مكانًا لهم فى صُفَّة المسجد النبوى . وكان الصحابة يأتونهم باللبن والطعام وغير ذلك مما يتصدقون به.

۞ قال ربيعة: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوَضوئه .. أى بماء الوضوء ... فأراد النبى ﷺ أن يُكافئه .. وذلك لأن النبى ﷺ كان لا يترك أحدًا يفعل معه معروفًا إلا ويُكافئه ... حتى قال النبى ﷺ : **«مَا لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلاَّ وَقَد كَافَأْنَاهُ مَا خَلاَ أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَا نَفَعَنِى مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِى مَالُ أَبِى بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلاَ وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ»**(١) .

وكان ﷺ يقول: **«مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعرُوفًا فَكَافِئُوهُ»**(٢) .

فلما أراد النبى ﷺ أن يُكافئ ربيعة قال له ﷺ : **«سَلْنِى»** يعنى: اسأل ما بدا لك... وقد يتوقع أى إنسانٍ أن ربيعة سيطلب شيئًا من متاع الدنيا وبخاصة وأنه فقيرٌ وأنه من أهل الصُّفَّة ... ولكن ربيعة كان صاحب همة عالية فما كان منه إلا أن قال للنبى ﷺ : **« أَسْأَلُكَ مُرافَقَتَكَ فى الجنَّةِ »** وكأنه يُريد أن يقول: كما كنت مُرافقًا لك فى الدنيا، فأرجو ألا أُحرم من مرافقتك فى الجنة ولذلك أسألك مرافقتك فى الجنة.

فأراد النبى ﷺ أن يُعطيه الفرصة لعله يكون بحاجة إلى أى شىءٍ من متاع الدنيا، فقال له: **«أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ؟»**.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخارى فى «الأدب المفرد»، وأبو داود، والنسائى، والحاكم، وصححه الألبانى فى الإرواء (١٦١٧).

فقال ربيعة: هو ذَاكَ... يعنى: لا أُريد شيئًا غير ذلك. فقال له النبى ﷺ: «فَأَعِنِّى على نَفْسكَ بِكَثْرةِ السجُودِ».

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ الْحَثُّ عَلَى كَثْرَةِ السُّجُودِ وَالتَّرْغِيبُ فيه ... وَالْمُرَادُ بِهِ السُّجُودُ فِى الصَّلَاةِ وَفِيهِ دَلِيلٌ لِمَنْ يَقُولُ تَكْثِيرُ السُّجُودِ أَفْضَلُ مِنْ إِطَالَةِ الْقِيَامِ.

وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ وَلِأَنَّ السُّجُودَ غَايَةُ التَّوَاضُعِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَفِيهِ تَمْكِينُ أَعَزِّ أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ وَأَعْلَاهَا وَهُوَ وَجْهُهُ مِنَ التُّرَابِ الَّذِى يُدَاسُ وَيُمْتَهَنُ[١].

وكثرة السجود تستلزم كثرة الركوع، وكثرة الركوع تستلزم كثرة القيام، لأن كل صلاة فى كل ركعة منها ركوع وسجودان.

فإذا كثر السجود كثر الركوع وكثر القيام ... وذكر السجود دون غيره لأن السجود أفضل هيئة للمصلى، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وإن كان المصلى قريبًا من الله قائمًا كان أو راكعًا أو ساجدًا أو قاعدًا، لكن أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

وقد قال النبى ﷺ لثوبان: « عليكَ بِكَثْرةِ السُّجُودِ، فإنَّك لَنْ تَسْجُد لله سَجْدَةً إلاَّ رفَعكَ الله بِهَا درجةً، وحطَّ عنْكَ بِهَا خَطِيئَةً »[٢].

وقد وضَّح النبى ﷺ أن العبدَ إذا سجدَ سجدة فإنَّ الله يرفعه بها درجة أى منزلة عنده، وفى قلوب الناس ، وكذلك يحط عنه بتلك السجدة خطيئة فإذا رفع له درجة وحطَّ عنه خطيئة فقد فاز بما يرجو ونجا مما يخاف .

۞ فالسجود نعمة جليلة أنعم الله بها على عباده الصالحين.

---

(١) مسلم بشرح النووى (٤/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٨) كتاب الصلاة.

فالسجود أبلغ هيئات العبودية ... وتأمَّل الحكمة فى أمرك بالسجود إذْ أمرك الله بالسجود خشوعًا وتذلُّلًا بين يديه، ليردك بذلك إلى أصل العبودية وأعلى درجات الاستكانة إن كنت قد سَرَتْ فيك نزعة كِبر أو نفخة استعلاء.

ويكفى السجود شرفًا أن الله جعل علامته فى أشرف أعضاء الإنسان وهو الوجه حين قال: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد فسَّر مجاهد هذه العلامة بأنها الخشوع، وفسَّرها غيره بأثر الخشوع وهو النور والبهاء الذى يعلو وجوه الساجدين.

ويكفى السجود فضلًا أن النبى ﷺ يعرف أمته يوم القيامة بكونهم غُرًّا من أثر السجود ... أى بيض الوجوه منه، فمن كان أكثر سجودًا فى الدنيا كان وجهه أعظم ضياءً وأشد إشراقًا من غيره يوم القيامة، فيتعرَّف عليه النبى ﷺ أسرع من غيره ... وقد سجدت الأمم من قبلنا فلم يظهر على جباههم شىء، فتلك علامة مميِّزة لهذه الأمة فى موقف الحشر تُعرف بها بين الأمم.

ويكفى السجود كرمًا أن الله حرَّم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود.

وفى هذا الحديث دليل على أن الرسول ﷺ لا يملك أن يُدخل أحدًا الجنة، ولهذا لم يضمن لهذا الرجل أن يعطيه مطلوبه، ولكنه قال له: «**فأعنِّى على نفسك بكثرة السجود**» فإذا قام بكثرة السجود التى أوصاه بها رسول الله ﷺ، فإنه حَرِىٌّ بأن يكون مرافقًا للرسول ﷺ فى الجنة.

❊❊❊

(١١٠) الرابع عشر: عن أبى صَفْوانَ عبد الله بن بُسْرٍ الأسلَمِىِّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ مَن طالَ عُمُرُه وَحَسُنَ عَملُه»[1].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٩٦).

«بُسْر» بضم الباء وبالسين المهملة.

۞ وذلك لأن الإنسان إذا طال عمره في طاعة الله ازداد قُربًا من الله عَزَّوَجَلَّ وازداد رفعة في الآخرة .. فكل ساعة تمر من عمره يكون فيها صلاة أو قراءة قرآن أو ذكر لله أو غير ذلك من الطاعات فإنها تُقربه من الله وتزيده رفعة في الدنيا والآخرة.

۞ وطول العمر منحة من الله عَزَّوَجَلَّ ليس للعبد أي تصرُّف فيه .. وذلك لأن الأعمار بيد الله وحده ولا يملك إنسان أن يزيد في عمره ساعة ولا أن ينقص من عمره لحظة ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

وأما حُسن العمل فإن الإنسان يستطيع أن يُحسن عمله بأن يستعين بالله عَزَّوَجَلَّ ويجتهد في أن يعمل أعمالًا صالحة تُقربه من الله.

وقد أخبر النبي ﷺ أن بعض الأعمال الصالحة سبب لطول العمر .. وذلك مثل بر الوالدين وصلة الرحم .. فقد قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**».. وفي رواية: «**فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ، وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١).

قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **إِنَّ الْأَوْقَاتَ وَالسَّاعَاتِ كَرَأْسِ الْمَالِ لِلتَّاجِرِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَّجِرَ فِيمَا يَرْبَحُ فِيهِ ... وَكُلَّمَا كَانَ رَأْسُ مَالِهِ كَثِيرًا كَانَ الرِّبْحُ أَكْثَرَ فَمَنِ انْتَفَعَ مِنْ عُمُرِهِ بِأَنْ حَسُنَ عَمَلُهُ فَقَدْ فَازَ وَأَفْلَحَ وَمَنْ أَضَاعَ رَأْسَ مَالِهِ لَمْ يَرْبَحْ وَخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا**(٢).

۞ والأحاديث الصحيحة تدل على أن عمر المؤمن كلما طال ازداد بذلك ما له عند الله من خير، فلا ينبغي له أن يتمنى انقطاع ذلك ... اللَّهم إلا أن يخشى الفتنة على دينه، فإنه إذا خشى الفتنة على دينه فقد خشى أن يفوته ما عند الله من خير... والموت خير له على هذه الحال.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٦٧) كتاب البيوع، ومسلم (٢٥٥٧) كتاب البر والصلة.

(٢) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٠٢).

قال ميمون بن مهران: لا خير فى الحياة إلا لتائب أو رجل يعمل فى الدرجات.

۞ عن أبى سلمة، عن طلحة بن عُبيد الله أن رجلين من «بلَى» قَدِما على رسول الله ﷺ وكان إسلامهما جميعًا، فكان أحدهما أشد اجتهادًا من الآخر، فغزا المجتهد منهما فاستُشهد ثم مكث الآخر بعده سنة ثم تُوفى.

قال طلحة: فرأيت فى المنام، بينا أنا عند باب الجنة، إذا أنا بهما، فخرج خارج من الجنة فأَذِن للذى توفى الآخر منهما، ثم خرج فأذن للذى استُشهد، ثم رجع إلىَّ فقال: ارجع فإنك لم يأن لك بعد.

فأصبح طلحة يحدث الناس فعجبوا لذلك فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وحدثوه الحديث: فقال: «مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَعجَبُونَ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا كَانَ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ اجْتِهَادًا، ثُمَّ اسْتُشْهِدَ، وَدَخَلَ هَذَا الْآخِرُ الْجَنَّةَ قَبْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَيْسَ قَد مَكَثَ هَذَا بَعدَهُ سَنَةً؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «وَأَدركَ رَمَضَانَ فَصَامَ، وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا مِنْ سَجْدَةٍ فِى السَّنَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَا بَيْنَهُمَا أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[1].

۞ «الموتى فى قبورهم يتحسرون على زيادة فى أعمالهم بتسبيحة أو بركعة. ومنهم مَن يسأل الرجعة إلى الدنيا لذلك، فلا يقدرون على ذلك قد حيل بينهم وبين العمل وغُلقت منهم الرهون.

ورؤى بعضهم فى المنام فقال: ندمنا على أمرٍ عظيمٍ... نعلم ولا نعمل، وأنتم تعلمون ولا تعملون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان، أو ركعة أو ركعتان فى صحيفة أحدنا أحب إليه من الدنيا وما فيها[2].

(١) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٣١٦).
(٢) لطائف المعارف (ص: ٣٢٨).

۞ وأخيرًا لَا بُدَّ أن نعلم أن مُجرد طول العمر ليس خيرًا للإنسان إلا إذا كان معه أعمالٌ حسنة صالحة..لأنه أحيانًا يكون طول العمر شرًّا للإنسان.. كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فهؤلاء الكفار يملى الله لهم - أى يمدهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات - لا لخيرٍ لهم، ولكنه شر لهم والعياذ بالله، لأنهم سوف يزدادون بذلك إثمًا.

ومن ثَمَّ كره بعض العلماء أن يُدعى للإنسان بطول البقاء... قال: لا تقل أطال الله بقاءك إلا مقيدًا، قل: أطال الله بقاءك على طاعته، لأن طول البقاء قد يكون شرًّا للإنسان.

(١١١) الخامس عشر: عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: غَاب عمِّي أَنَسُ بنُ النَّضْرِ رضي الله عنه، عن قتالِ بدرٍ، فقال: يا رسولَ الله غِبْتُ عن أوَّل قِتالٍ قَاتلْتَ المُشركينَ، لَئِنِ الله أشْهَدَنِي قتالَ المشركين لَيَرَينَّ الله ما أصنعُ، فلما كانَ يومُ أُحدٍ انْكشَفَ المُسْلِمُون فقال: اللَّهُمَّ أعتَذِرُ إليْكَ مِمَّا صنَع هَؤُلاءِ يَعنى أصحَابَه، وأبرأُ إلَيْكَ مِمَّا صنعَ هَؤُلاء يعنى المُشْرِكينَ ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سعدُ بْنُ مُعاذٍ، فَقالَ: يا سَعدُ بْنَ معُاذ الْجنَّةُ وربِّ الكعبة، إِنِى أجدُ رِيحَهَا مِنْ دوُنِ أُحُدٍ. قال سعدٌ: فَمَا اسْتَطعتُ يا رسولَ الله ما صنَعَ، قَالَ أنسٌ: فَوجدنَا بِهِ بضْعًا وثمانينَ ضَرْبةً بالسَّيفِ، أوْ طَعنَةً بِرُمْحٍ، أو رمْيةً بِسهْمٍ، ووجدناهُ قَد قُتِلَ وَمثَّلَ بِهِ المُشرِكُونَ فَما عرفَهُ أحدٌ إلا أُخْتُهُ ببنَانِه. قال أنسٌ: كُنَّا نَرى أوْ نَظُنُّ أنَّ هَذِهِ الآية نزلتْ فيهِ وَفى أشْباهِهِ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، إلى آخرها [(١)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٠٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٠٣) كتاب الإمارة.

قوله: «لَيُرِيَنَّ اللهُ» روى بضم الياء وكسر الراء: أى لَيُظْهِرَنَّ اللهُ ذلِكَ للنَّاس، وَرُوىَ بفتحهما ومعناه ظاهر، والله أعلم.

۞ إن للجنة رائحة عطرة زكية لا يستطيع أهل الدنيا وصف جمالها .. وتلك الرائحة قد يشمها المؤمن من مسيرة أربعين عامًا أو سبعين عامًا أو مائة عامٍ أو خمسمائة عام... بل قد يشم رائحتها وهو ما زال حيًّا فى الدنيا.

۞ لما ماتت ليلى وعَلِمَ قيس بموتها أخذ يجرى كالمجنون ليبحث عن قبرها فظل يشم القبور قبرًا قبرًا حتى عرف قبرها من ريحها فأخذ يبكى عند قبرها.

۞ بل لما عرف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إخوته فى أرض مصر وأرسل معهم قميصه **ليُلقوه على وجه أبيه يعقوب** عَلَيْهِ السَّلَامُ ليعود بصيرًا بعد أن فقد عينيه من شدة الحزن لفراق يوسف.

فما أن خرج إخوته من أرض مصر حتى شم يعقوب رائحة قميص يوسف وهو فى شمال فلسطين... وذلك لشدة شوقه لابنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فما ظنك بمن يشتاق إلى الجنة...فعلى قدر شوقك تشم رائحتها من على بُعدٍ... حتى يصل بك الشوق إلى أن تشم رائحتها وأنت ما زلت فى هذه الحياة الدنيا.

قال ﷺ: **«من قتل رجلًا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عامًا»**[(١)].

۞ ونحن نعلم جميعًا كيف كان بعض أصحاب الرسول ﷺ يجدون ريح الجنة وهم فى أرض الشرف والجهاد.

فها هو أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أُحد[(٢)].

- بل وهذا سعد بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أرسله إليه النبى ﷺ بعد غزوة أُحد فوجده فى الرمق الأخير فقال له: يا سعد، إن رسول الله

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٠٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٠٣) كتاب الإمارة.

ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «**أخبرنى كيف تجدك؟**» فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار: لا عُذر لكم عند الله إن خَلُص إلى رسول الله ﷺ مكروهٌ وفيكم عينٌ تطرف. وفاضت نفسه من وقته(١).

وريح الجنة نوعان: ريح يوجد فى الدنيا تشمه الأرواح أحيانًا لا تدركه العباد... وريح يُدرَك بحاسة الشم للأبدان، كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة فى إدراكه فى الآخرة من قُربٍ ومن بُعدٍ، وأما فى الدنيا فقد يدركه مَن شاء الله من أنبيائه ورسله وأوليائه، وهذا الذى وجده أنس بن النضر يجوز أن يكون من هذا القسم، وأن يكون من الأول. والله أعلم(٢).

۞ وفى هذا الحديث ذكر أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمه أنس بن النضر رضي الله عنه تغيَّب عن غزوة بدرٍ؛ لأن النبى ﷺ لم يُخبر أحدًا أنه خارج للقتال، وإنما ندب النبى ﷺ بعض أصحابه للخروج من أجل الحصول على العير التى جاء بها أبو سفيان .. فلما خرج النبى ﷺ ومعه ثلاثمائة وبضع عشر رجلًا للحصول على العير قدَّر الله أن يتحوَّل الأمر إلى قتالٍ بين معسكر الإيمان والتوحيد وبين معسكر الشرك والكفر.

فحزن أنس بن النضر لأنه لم يشهد غزوة بدرٍ فما كان منه إلا أن عاهد الله أن يبذل كل ما فى وسعه إن شهد غزوة أُخرى.

فلما هُزم المشركون فى غزوة بدر أرادوا أن يثأروا من النبى ﷺ وأصحابه فى غزوة أُحد التى كانت بعد غزوة بدرٍ بسنة كاملة.

فخرج النبى ﷺ وأصحابه وكان معهم أنس بن النضر.

وكان النصر فى بداية المعركة للنبى ﷺ وأصحابه .. فلما انشغل المسلمون

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢٠١) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) مختصر حادى الأرواح (ص:٨٥) بتصرف.

بجمع الغنائم ونزل الرُّماة من على الجبل لجمع الغنائم مع أن النبى ﷺ أمرهم ألا يبرحوا الجبل سواء كان النصر للمسلمين أو للمشركين لكنهم نزلوا جميعًا إلا عشرة من الرُّماة وعلى رأسهم قائد الرُّماة عبد الله بن جُبير - وكانوا خمسين راميًا- فهجم المشركون على المسلمين فقتلوا منهم سبعين صحابيًّا وأرادوا بعد ذلك قتل النبى ﷺ .. فما كان من أنس بن النضر إلا أن بذل نفسه لله وأخذ يُقاتل بكل ما فى وسعه وهو يقول: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين-.

ثم تقدم رضي الله عنه فاستقبله سعد بن معاذ فسأله: إلى أين؟ قال: يا سعد إنى لأجد ريح الجنة دون أُحد.

فأخذ أنس يجرى وحده داخل أرض المعركة حتى أُصيب فى بضعٍ وثمانين موضعًا من جسده واستُشهد .. ولكنه قبل أن ينال الشهادة شَمَّ رائحة الجنة فنزل جبريل عليه السلام بتلك الآية التى نزلت فى أنس بن النضر وأمثاله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وما وصل أنس بن النضر إلى ذلك إلا بالصدق مع الله ثم مُجاهدة النفس على طاعة الله وبذل النفس من أجله.

وهكذا فالمواقف الشريفة الفاضلة يُوفَّق لها الشرفاء الفضلاء.

فقد جاء فى الصحيح عن أنس بن مالك أن الرُّبيِّع بنت النضر عمته لطمت جارية فكسرت سنها فعرضوا عليهم الأرش - أى الدية - فأبوا، فطلبوا العفو فأتوا النبى ﷺ فأمرهم بالقصاص، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله أتُكسر سِنَّة الرُّبيِّع - أى أخته - والذى بعثك بالحق لا تُكسَر سنها. قال: **«يا أنس كتاب الله القصاص»**. فعفا القوم. فقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ من عِبَاد الله مَن لو أقسم على الله لأبرَّه»**[1].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٠٣) كتاب الصلح.

فالمؤمن صادق مع الله عز وجل يحب مراد الله، ويُؤْثِر محبوبه .. والله عز وجل يحب للمؤمن ما يحبه المؤمن لنفسه...كما ورد في الحديث القدسي: « **وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[1].

وقد روى كذلك أن أنس بن النضر مَرَّ يوم أُحدٍ على جماعة فيهم عمر رضي الله عنه فقال: ما يُقعدكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ...ثم جالد بسيفه حتى قُتِلَ رضي الله عنه.

فهذه شواهد قوية على أن الذين يُوفَّقون للمواقف الإيمانية الشريفة هم أكابر المؤمنين وأشرافهم.

۞ ومن أجل ذلك قال تعالى في حق أنس بن النضر رضي الله عنه وكل مَن كان على شاكلته: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

۞ وقد أثنت عليهم تلك الآية بصفاتٍ حميدة:

الأولى: أنهم رجال، وهذه اللفظة تعطى للسامع انطباع القوة والشجاعة والهمة العالية...مثاله قوله تعالى في الثناء على أهل مسجد قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. ولم تُذكر لفظة رجال في القرآن إلا للمديح.

الثانية: أن هؤلاء الرجال فيهم صفة الصدق وهي صفة كمال، قَلَّ مَن يتصف بها.

الثالثة: أن هؤلاء الرجال عاهدوا الله- سبحانه وتعالى-، فكان خروجهم للجهاد لله، وفي ذلك تزكية عظيمة لهم؛ إذ إن نية خروجهم لا يشوبها أي شائبة، بل كانت وفاءً للعهد مع الله...والذي يدل على تَلَبُّسهم بهذا العهد ووفائهم به أنه قال: صَدَقُوا.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

الرابعة: وهى من كمال صدقهم مع الله وإخلاص النية، مع كمال رجولتهم أنهم لم يبدلوا أى تبديل ولم يدخل فى عهدهم أى تسويف أو شبهة رياء، وهذا من باب التوكيد الشديد على وفائهم بالعهد وصدق نياتهم.

فقد ينوى الإنسان عمل الخير إذا استطاع وهو صادق فى نيته، ولكن إذا جاء الاختيار ويسّر له العمل ووافته الفرصة تقاعس وسوَّف أو بخل واستغنى كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

(١١٢) السادس عشر: عن أبى مسعود عُقْبَةَ بن عمرو الأنصاريِّ البدريِّ رضي الله عنه قال: لمَّا نَزَلَتْ آيةُ الصَّدقَة كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنا. فَجَاءَ رَجُلٌ فتَصَدَّق بشَىْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا: مُراءٍ، وجاءَ رَجُلٌ آخَرُ فتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فقالُوا: إنَّ الله لَغنِىٌّ عَنْ صاعِ هَذَا، فَنزَلَتْ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة: ٩٧]، الآية[1].

۞ قال أبو مسعود بن عمرو رضي الله عنه: لما نزلت آية الصدقة .. أى الآية التى حثَّ الله فيها المؤمنين على الصدقة ليُعطوا إخوانهم الفقراء والمساكين ابتغاء مرضاة الله.

وسُمِّيت صدقة لأن بذل المال لله عز وجل دليل على صدق الإيمان بالله، فإن المال من الأمور المحبوبة للنفوس...قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠].

جمًّا أى كثيرًا عظيمًا ... وحيث أن المحبوب لا يُبذل إلا لمن هو أحب منه، فإذا بذله الإنسان ابتغاء وجه الله كان ذلك دليلاً على صدق الإيمان.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١٥) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٨) كتاب الزكاة.
«ونُحَامِلُ»: أىْ يَحْمِلُ أَحَدُنَا على ظَهْرِهِ بالأُجْرَةِ، وَيَتَصَدَّقُ بها.

قال أبو مسعود: لمَّا نَزَلَتْ آيةُ الصَّدقَة كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنا.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

معناه: نَحْمِلُ عَلَى ظُهُورِنَا بِالْأُجْرَةِ وَنَتَصَدَّقُ مِنْ تِلْكَ الْأُجْرَةِ أَوْ نَتَصَدَّقُ بِهَا كُلِّهَا .... فَفِيهِ التَّحرِيضُ عَلَى الِاعتِنَاءِ بِالصَّدَقَةِ وَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَتَوَصَّلُ إِلَى تَحصِيلِ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ مِنْ حَمْلٍ بِالْأُجْرَةِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُبَاحَةِ[1].

فالشاهد أنه لما نزلت تلك الآية أسرع الصَّحابة ببذل الصدقات إلى رسول الله ﷺ .. كُلٌّ على حسب قدرته وطاقته ... وتلك هى عادة أصحاب الرسول ﷺ أنهم إذا نزلت الآية وفيها أمرٌ من الله بادروا بتنفيذ أمر الله عَزَّوَجَلَّ ولم يتأخروا أو يترددوا أبدًا .. وكذلك إذا نزلت الآية بالنواهى بادروا بتركها فى التوِّ واللحظة.

ونحن جميعًا نعلم ما حدث عندما كان الصحابة يشربون الخمر عند أحد الصحابة ونزلت آية تحريم الخمر التى فى سورة المائدة فأنزلوا الأقداح من على أفواههم وقالوا جميعًا: انتهينا ربنا انتهينا... وأخذوا يسكبون الخمر فى الطرقات حتى جرت فى الطرقات ولم يتركوا فى بيوتهم قطرة خمرٍ واحدة.

۞ فلما نزلت آية الصدقة أخذ الصحابة يتصدقون .. كل واحدٍ منهم على قدر طاقته.

فجاء رجلٌ بصدقة كبيرة .. وهو عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال المنافقون: هذا مُراءٍ لا يريد بذلك وجه الله..

وجاء رجلٌ آخر فتصدق بصاعٍ فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صاع هذا .

فأنزل الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ﴾ أى: يعيبون ويطعنون ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ فيقولون: مُراءون، قصدهم الفخر والرياء.

(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٤٧).

﴿ وَ ﴾ يلمزون ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ فيُخرجون ما استطاعوا... ويقولون: الله غنى عن صدقاتهم ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ .

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فإنهم جمعوا فى كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تتبُّعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالًا يقولونه فيهم... والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفرًا بالله تعالى وبُغضًا للدين.

ومنها: أن اللمز مُحرم، بل هو من كبائر الذنوب فى أمور الدنيا، وأما اللمز فى أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن مَن أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذى ينبغى إعانته، وتنشيطه على عمله...وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على مَن أنفق مالًا كثيرًا بأنه مُراءٍ، غلطٌ فاحشٌ، وُحكمٌ على الغيب، ورجمٌ بالظن، وأى شَرٍّ أكبر من هذا؟!!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: «الله غنى عن صدقة هذا» كلام مقصوده باطل، فإن الله غنى عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير.

بل وغنى عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله - وإن كان غنيًّا عنهم- فهم فقراء إليه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ وفى هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بيِّن، ولهذا كان جزاؤهم أن ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

---

(١) تفسير السعدى (ص ٣٨٤).

۞ ففي هذا: دليل على حرص الصحابة على استباق الخير، ومجاهدتهم أنفسهم على ذلك.

وفي هذا: دليلٌ أيضًا على أن الله عَزَّوَجَلَّ يدافع عن المؤمنين... وانظر كيف أنزل الله آية في كتاب الله مدافعة عن المؤمنين الذين كان هؤلاء المنافقون يلمزونهم.

وفيه: دليل على شدة العداوة من المنافقين للمؤمنين.

(١١٣) السابع عشر: عن سعيد بن عبد العزيز، عن رَبيعةَ بنِ يزيدَ، عن أبي إدريس الخَوْلانيِّ، عن أبي ذَرٍّ جُنْدبِ بنِ جُنادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ فيما يَرْوي عَنِ الله تباركَ وتعالى أنه قال: «يا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظالمُوا، يَا عبَادي كُلُّكُم ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُوني أَهْدِكُمْ، يَا عبَادي كُلُّكُمْ جائعٌ إِلاَّ مَنْ أَطعمتُه، فاسْتطْعموني أُطعمْكم، يا عبادي كلكم عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُوني أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعًا، فَاسْتَغْفِرُوني أَغْفِر لَكُمْ، يَا عبادي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوني، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني، يَا عبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ في مُلْكِي شَيْئًا، يا عبادي لو أَنَّ أَوَّلكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُم كانوا على أفْجَرِ قَلْب رَجُلٍ واحدٍ مِنْكُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعيدٍ وَاحد، فَسألُوني فَأَعطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدخِلَ البَحرَ، يَا عِبَادي إِنَّما هِيَ أعمَالُكُمْ أُحصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيحمِد الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ». قَالَ سعيدٌ: كان أبو إدريس إذا حدَّثَ بهذا الحديث جَثَا عَلَى رُكبتيه[1].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ قال: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

۞ هذا النوع من الأحاديث يُسمَّى بالحديث القدسى أو الحديث الإلهى أما ما كان من حديث النبى ﷺ فإنه يُسمَّى بالحديث النبوى.

قال تعالى: « يا عِبادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظالمُوا ».

فالله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم عبده بزيادة سيئة لم يعملها ولا بنقص حسنة عملها بل هو سبحانه وتعالى الحكم العدل..لأن حُكمه وثوابه يدور بين الفضل والعدل... فضلٌ لمن عمل الحسنات بأن يجزيه على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة .. وأما السيئة فإن لم يغفرها فإنها تُكتب سيئة واحدة.... كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[الأنعام: ١٦٠].

فالله عَزَّوَجَلَّ حرَّم على نفسه الظلم وأوجب على نفسه الرحمة.. قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾[الأنعام: ٥٤].

فالله عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن الظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ أى: ينقصها من حسنات عبده أو يزيدها فى سيئاته...كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أى إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصًا ومحبة وكمالًا.

﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمالٍ أُخَر وإعطاء البر الكثير والخير الغزير[١].

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصواب الذى دلَّت عليه النصوص أن الظلم الذى حرمه الله على نفسه وتنزَّه عنه فعلًا وإرادة - هو ما فسره به سلف الأمة وأئمتها: أنه لا يُحمَّل المرء سيئات غيره، ولا يُعذَّب بما لم تكسب يداه، ولم يكن سعى فيه، ولا ينقص من حسناته، فلا يُجازَى بها أو ببعضها، إذا قارنها - أو طرأ عليها - ما يقتضى إبطالها - أو اقتصاص المظلومين منها، وهذا الظلم الذى نفى الله - تعالى - خوفه عن العبد بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢][٢].

❁ قوله تعالى: «**وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا**»، أى: لا يظلم بعضكم بعضًا.

وظلم العباد يكون بأمرين:

(١) ظُلمهم فى دينهم: وذلك بصرفهم عن دينهم الحق وعقيدتهم بإثارة الشبهات التى ينحرف بها العبد عن عقيدته .. أو بكتمان الحق أو إثارة الشهوات التى تُوقع العبد فى الرذيلة.

(٢) ظُلمهم فى النفس والعقل: وذلك بمنعهم حقوقهم أو فعل ما يضر بهم.

- وهذا النوع من الظلم لا يخرج عن صورتين:

أ- ظُلمٌ باللسان: كالغيبة والنميمة واللعن والسب والشتم وشهادة الزور وقذف المحصنات والسخرية والاستهزاء وإفشاء السر.

ب- ظُلمٌ بالفعل: كالقتل والسحر واقتطاع شىء من أرضه بغير حق والسرقة والغدر والخيانة والمماطلة فى حقه والغش وغير ذلك.

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٨١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٨).

۞ وهناك تقسيمٌ آخر لظلم العباد يُقسمه إلى ثلاثة أقسام:

بيَّنها الرسول ﷺ فى قوله وهو يخطب الناس فى حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحُرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم فاشهد**»(١).

فهذه ثلاثة أشياء: الدماء والأموال والأعراض.

ثم قال الله تعالى: «**يا عبادى كلكم ضالٌّ إلا مَن هديته فاستهدونى أهدكم**» ضال يعنى تائهًا. أى لا يعرف الحق... وضال يعنى غاويًا لا يقبل الحق.

۞ فالناس فى الضلال قسمان:

قسمٌ تائه: لا يعرف الحق مثل النصارى .. فإن النصارى ضالون تائهون لايعرفون الحق إلا بعد أن بُعث النبى ﷺ، فإنهم عرفوا الحق لكنهم استكبروا عنه، فلم يكن بينهم وبين اليهود فرق فى أنهم علموا الحق ولم يتبعوه.

وقسمٌ غاوٍ: أى اختار الغَى على الرشد بعد أن علم بالرشد، وهؤلاء مثل اليهود، فإن اليهود عرفوا الحق ولكنهم لم يقبلوه، بل رَدُّوه.

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]. هداهم الله وبيَّن لهم ودلَّهم لكنهم استحبوا العمى على الهدى، واستحبوا الغى على الرشد...فالناس كلهم ضالون إلا مَن هداه الله.

لكن ما هى هداية القسم الأول وهو الضال الذى لم يعرف الحق؟ هداية القسم الأول أن يبين الله لهم الحق ويدلهم عليه، وهذه الهداية حَقٌّ على الله...حقٌّ على الله أوجبه الله على نفسه...فكل الخلق قد هداهم الله بهذا المعنى. يعنى بمعنى البيان.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [الليل: ١٢]. وقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧) كتاب العلم، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

﴿ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. هدى للناس عمومًا.

ولكن الهداية الثانية وهى هداية التوفيق لقبول الحق هذه هى التى يختص الله بها مَن يشاء من عباده ... فالهداية هدايتان؛ هداية بيان الحق، وهذه عامة لكل أحد، وقد أوجبها الله على نفسه، وبيَّن لعباده الحق من الباطل.

وهداية توفيق لقبول الحق والعمل به، تصديقًا للخبر وقيامًا بالطلب، وهذه خاصة يختص الله بها مَن يشاء مَن عباده.

۞ والناس فى هذا الباب ينقسمون إلى أقسام:

القسم الأول: مَن هُدى الهدايتين، أى علَّمه الله ووفقه للحق وقبوله.

والقسم الثانى: مَن حُرم الهدايتين فليس عنده علم وليس له عبادة .

والقسم الثالث: مَن هُدى بالدلالة والإرشاد ولكنه لم يُهدَ هداية التوفيق، وهذا شر الأقسام والعياذ بالله.

والمهم أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «**كلكم ضال**» أى كلكم لا يعرف الحق، أو كلكم لا يقبل الحق، «**إلَّا مَن هديته فاستهدونى أهدكم**» يعنى اطلبوا الهداية منى، فإذا طلبتموها فإننى أجيبكم وأهديكم إلى الحق.

ولكن أكثرنا مُعرضٌ عن هذا، فأكثرنا قائم بالعبادة لكن على العادة وعلى ما يفعل الناس ... ما كأننا مفتقرون إلى الله سبحانه وتعالى فى طلب الهداية ... فالذى يليق بنا أن نسأل الله دائمًا الهداية، والإنسان فى كل صلاة يقول: «**رب اغفر لى وارحمنى واهدنى**»، بل إنه فى الصلاة يقول على سبيل الركنية: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

والذى يليق بنا أن ننتبه وأن نعلم أننا مفتقرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ فى الهداية، سواء الهداية العلمية أو الهداية العملية ... أى هداية الإرشاد والدلالة أو هداية التوفيق، فلابد أن نسأل الله دائمًا الهداية.

«**فاستهدونى أهدكم**» وربما تشمل هذه الهداية الطريق الحسى كما تشمل الطريق المعنوى، فالهداية للطريق المعنوى هى الهداية إلى دين الله، والهداية للطريق الحسى كأن تكون فى أرضه قد ضللت الطريق وضِعتَ، فإنك تسأل الله الهداية ... ولهذا قال الله عن موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]. أى السبيل المستوى الموصل للمقصود بدون تعب ... وقد جُرب هذا، فإن الإنسان إذا ضاع فى الصحراء فإنه يلجأ إلى الله تعالى ويقول: رب اهدنى سواء السبيل، أو عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل، وذلك لأننا محتاجون إلى الله فى الهدايتين؛ هداية الطريق الحسى، كما أننا محتاجون إلى الله فى الهداية إلى الطريق المعنوى.

۞ ثم قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أُطعمكم، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسونى أَكسُكم**» هاتان الجملتان الخاصتان بالجوع والعرى ذكرهما الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن ذكر الهداية، لأن الهداية فيها غذاء القلب فى العلم والإيمان، والجوارح بالعمل الصالح.

وأما الطعام والشراب والكسوة فهى غذاء البدن... لأن البدن لا يستقيم إلا بالطعام ولا يستتر إلا بالكسوة، ولهذا قال: «**يا عبادى كلكم جائع إلا مَن أطعمته، فاستطعمونى أُطعمكم**».

وصدق ربنا عَزَّوَجَلَّ؛ كلنا جائع إلا مَن أطعمه الله، ولولا أن الله تعالى يسَّر لنا ما يكون به طعامنا لهلكنا ... يقول الله تعالى مبينًا ذلك فى سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

والجواب: بل أنت يا رب الذى زرعته، لأن الله يقول: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥-٦٧].

وتأمل كيف قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ ولم يَقُل لو نشاء ما أنبتناه، لأنه إذا نبت وشاهده الناس تعلقت قلوبهم به، فإذا جُعل حطامًا بعد أن تعلقت به القلوب صار ذلك أشد نكاية... ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾. يعني من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]؛ لأن الماء الذي نشرب من السحاب، يُنْزِله الله عَزَّوَجَلَّ على الأرض كالأنهار، ثم يُستخرج بالأدوات التي سخرها الله عَزَّوَجَلَّ للناس في كل وقتٍ بحسبه...وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أن استودع الماء في بطن الأرض، ولو بقي على ظهر الأرض لفسد، وأفسد الهواء وأهلك المواشي، بل وأهلك الآدميين من رائحته ونتنه، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ بحكمته ورحمته جعل هذه الأرض تشربه، وتسلكه ينابيع فيها، حتى تأتي حاجة الناس إليه فيحفرونه فيصلون إليه.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أنزله، ولو اجتمع الناس كلهم على أن يُنْزِلوا قطرة من السماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُنْزِله بقدرته ورحمته.

واستطعام الله عَزَّوَجَلَّ يكون بالقول وبالفعل... فبالقول بأن نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يطعمنا وأن يرزقنا، وأما بالفعل فله جهتان:

الجهة الأولى: العمل الصالح، فإن العمل الصالح سبب كثرة الأرزاق وسعتها... قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

الجهة الثانية: من جهتي الاستطعام بالفعل ... أن نحرث الأرض، ونحفر الآبار ونستخرج المياه، ونزرع الحبوب، ونغرس الأشجار، وما أشبه ذلك.

واستطعام الله عَزَّوَجَلَّ يحتاج إلى أمرٍ مهم وهو حسن الظن بالله (جل وعلا)، أى أن تُحسن الظن بربك أنك إذا استطعمته أطعمك، أما أن تدعو الله وأنت غافل لاهٍ، أو تفعل الأسباب وأنت معتمد على قوتك لا على ربك فإنك قد تكون مخذولاً والعياذ بالله، ولكن استطعم الله وأخلص له وحده فى ذلك.

۞ «**يا عبادى كلكم عارٍ إلا مَن كسوته فاستكسونى أكسُكم**» كلكم عارٍ إلا مَن كسوته... وذلك لأن الإنسان يخرج من بطن أمه ليس عليه ثياب بل يخرج مجردًا بغير ثياب، ولا شعرٍ يكسوه... وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن حكمته تعالى أن جعلنا نخرج بادية أبشارنا، بادية جلودنا، حتى نعرف أننا محتاجون إلى كسوة تستر عوراتنا حسًّا، كما أننا محتاجون إلى عمل صالح يستر عوراتنا معنًى ... لأن التقوى لباس المؤمن كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولهذا ذكر بعض العابرين للرؤيا أن الإنسان إذا رأى نفسه فى المنام عاريًا فإنه يحتاج إلى كثرة الاستغفار، لأن هذا دليل على نقصان تقواه، فإن التقوى لباس[(١)].

۞ **ثم قال تعالى:** «**يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم**» هذا أيضًا من تمام نعمة الله على العبد، أنه (جل وعلا) يعرض عليه أن يستغفر إلى الله ويتوب إليه مع أنه يقول: «**إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا**» أى جميع الذنوب من الشرك والكفر والكبائر والصغائر كلها يغفرها الله، ولكن بعد أن يستغفر الإنسان ربه ... ولهذا قال: «**فاستغفرونى أغفر لكم**» أى اطلبوا منى المغفرة حتى أغفر لكم.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٦٨-٣٧١) بتصرف كبير.

ولكن طلب المغفرة ليس مجرد أن يقول الإنسان: اللَّهم اغفر لى، بل لَا بُدَّ من توبة صادقة يتوب بها الإنسان إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ والتوبة الصادقة هى التى تجمع الشروط الآتية:

(١) الإخلاص في التوبة:

وذلك بأن يتوب العبد ابتغاء مرضاة الله (جلَّ وعلا) ... لا للخوف من أى مخلوق أو لأنه عاجز عن فعل المعصية أو لأنه يخشى على سمعته وجاهه، أو لأىِّ حظٍّ دنيوى.

(٢) الإقلاع عن الذنوب:

فإنه - والله- تستحيل التوبة مع مباشرة الذنب ... ولذلك يجب على التائب أن يترك المعصية فور توبته إلى الله (جلَّ وعلا).

(٣) الندم على فعل تلك الذنوب:

إن الندم توبة ... والعبد إذا لم يندم على ما فعل من المعاصى كان ذلك دليلًا على رضاه بفعلها، وهذا كله يقدح فى توبة العبد.

(٤) العزم على ألا يعود إليها أبداً:

وينبغى على التائب أن يعزم على أن لا يعود إلى مقارفة الذنوب مرة أخرى ... ولكنه إن فعل ذلك ثم عاد إلى نفس الذنب أو إلى غيره من الذنوب فإنْ توبته عن الذنب الماضى صحيحة ويلزمه أن يتوب من الذنوب التى وقع فيها بعد ذلك.

(٥) التحلل من المظالم:

قال ﷺ: **«مَن كانت عنده مظلمة لأخيه من مالٍ أو عِرضٍ فليتحلله اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات»**(١).

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٣٤) كتاب الرقاق.

فيجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَرُدَّ المظالم إلى أصحابها من قبل أن يجد نفسه يوم القيامة مُفلسًا من الحسنات... فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته أُخذ من سيئات مَن ظلمهم فتُطرح عليه ثم يُطرَح في النار... أعاذنا الله جميعًا من نار جهنم.

(٦) التوبة قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها :

قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١).

وقال ﷺ: «**إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقْبَلُ توْبة العبْدِ مَالَم يُغرغرِ** »(٢).

۞ ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: «**يَا عِبادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّى فَتَضُرُّونى، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونى** ». فشأن العباد أقل وأذل من أن ينفعوا الله عَزَّ وَجَلَّ بطاعتهم ... بل العباد أنفسهم ينتفعون بطاعاتهم، وهم أنفسهم يتضررون بمعاصيهم.

فلو أن العباد جميعًا كانوا أتقياء بَررة على أتقى قلب رجل واحد منهم - وهو قلب نبينا محمد ﷺ - ما زاد ذلك في ملك الله عَزَّ وَجَلَّ شيئًا، لأن مُلكه كامل عَزَّ وَجَلَّ ولو أنهم جميعًا أشقياء فَجَرَة على أفجر قلب رجل واحدٍ منهم، ما نقص ذلك من مُلك الله شيئًا... قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ولهذا قال الله تعالى بعد هذه الجملة: «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكى شيئًا» لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا متقين، على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ، ما زاد ذلك في مُلك الله شيئًا، لأن المُلك مُلكه لا للطائعين ولا للعاصين.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٣).

ثم قال (جلَّ وعلا): «يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك فى مُلكى شيئًا» لو كان الناس كلهم من جِنٍّ وإنسٍ وأولهم وآخرهم، لو كانوا كلهم فُجَّارًا وعلى أفجر قلب رجل، فإن ذلك لا ينقص من مُلك الله شيئًا...قال الله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

فالله (جل وعلا) لا ينقص مُلكه بمعصية العُصاة، ولا يزيد بطاعة الطائعين[١].

ثم تَمنَّن الله عَزَّوَجَلَّ بكمال سمعه وبصره، وكمال قدرته، وكمال غناه، فقال: «يَا عِبادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فى صَعيدٍ وَاحد، فَسألُونى فَأَعطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدى إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدخِلَ البَحرَ».

فمن كمال سمع الله عَزَّوَجَلَّ أن يسمع الإنس والجن الأولين والآخرين إذا اجتمعوا فى مكانٍ واحد واجتهدوا فى إنزال الرغبات والطلبات بالله عَزَّوَجَلَّ، على اختلاف اللغات، واختلاف اللهجات، واختلاف الطلبات، فالله تعالى لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ ... ومن كمال قدرة الله عَزَّوَجَلَّ أنه يُجيب الجميع فى وقتٍ واحدٍ لا يشغله إجابة داعٍ عن داعٍ آخر... ومن كمال غِنى الله عَزَّوَجَلَّ، لا ينقص ما عند الله عَزَّوَجَلَّ إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر ... والمخيط إذا أُدخل البحر لا يُنقص منه شيئًا ... قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدُ اللهِ مَلأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ -أى لا تنقصها نفقة- سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ -أى لم ينقص- مَا فِى يَمِينِهِ»[٢].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٧٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: «مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدخِلَ الْبَحرَ» الْمِخْيَطُ: هُوَ الإِبْرَةُ...قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا تَقْرِيبٌ إِلَى الْأَفْهَامِ وَمَعنَاهُ: لَا يُنْقِصُ شَيْئًا أَصلًا، كَمَا قَالَ فِى الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «لَا يَغِيضُهَا نَفقَةٌ» أَىْ لَا يَنْقُصُهَا نَفقَةٌ لِأَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لَا يَدخُلُهُ نَقصٌ وَإِنَّمَا يَدخُلُ النَّقْصُ الْمَحدُودَ الْفَانِىَ ... وَعَطَاءُ اللهِ تَعَالَى مِنْ رَحمَتِهِ وَكَرَمِهِ وَهُمَا صِفَتَانِ قَدِيمَتَانِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِمَا نَقْصٌ ... فَضَرَبَ الْمَثَلَ بِالْمِخْيَطِ فِى الْبَحرِ لِأَنَّهُ غَايَةُ مَا يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِى الْقِلَّةِ وَالْمَقْصُودُ التَّقْرِيبُ إِلَى الإِفْهَامِ بِمَا شَاهَدُوهُ فَإِنَّ الْبَحرَ مِنْ أَعظَمِ الْمَرْئِيَّاتِ عَيَانًا وَأَكْبَرِهَا وَالْإِبْرَةُ مِنْ أَصغَرِ الْمَوْجُودَاتِ مَعَ أَنَّهَا صَقِيلَةٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مَاءٌ[1].

❁ ثم قال عَزَّوَجَلَّ: «يَا عِبَادِى إِنَّما هِىَ أعمَالُكُمْ أُحصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيحمِدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ»، كما ابتدأ الحديث القدسى بتحريم الظلم، انتهى بكمال العدل، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ... قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

والعبد قد ينال فى الدنيا من بركة الحسنة ثوابًا مُعجَّلًا، أو من شؤم المعصية عقابًا مُعجلًا ... كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن للحسنة ضياءً فى الوجه، ونورًا فى القلب، وسعةً فى الرزق، ومودة فى قلوب الخلق، وإن للسيئة ظُلمة فى الوجه، وسوادًا فى القلب، وضيقًا فى الرزق، وبُغضةً فى قلوب الخلق».

أما توفية الأعمال فيوم القيامة ... حيث ينال المحسن جزاء إحسانه كاملًا، والمسىء جزاء إساءته، أو يعفو الله عَزَّوَجَلَّ ... قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٠٠-٢٠١).

«فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيحمِد الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ» أى: فمن وجد ثوابًا ونعيمًا أو حياةً طيبة فليحمد الله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى هداه ووفقه للعمل الصالح ثم تقبَّل منه عمله الصالح وأجزل له الثواب والعطاء فى الدنيا والآخرة.

«وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ» لأنه هو الذى آثر الشهوات على رضا الله عَزَّوَجَلَّ وانغمس فى المعاصى والسيئات ولم يفكر لحظة واحدة أن يتوب وأن يعود إلى ربه وخالقه (جَلَّ وعَلَا) الذى يغفر الذنوب ويستر العيوب ويُبدل السيئات إلى حسنات .

فهذا الحديث حديث عظيم، تناوله العلماء بالشرح واستنباط الفوائد والأحكام منه ... وممن أفرد له مؤلفًا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه شرح هذا الحديث فى كتابٍ مُستقل ... فعلى الإنسان أن يتدبر هذا الحديث ويتأمله.

ولقد كان السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يعظمون شأن هذا الحديث.

وكان أبو إدريس الخولانى إذا حدث بهذا الحديث جثَا على ركبتيه ... وقيل: هو أشرف حديثٍ لأهل الشام.

(١٢) باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر

۞ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧] قَالَ ابن عباس والمُحَقِّقُونَ: معناه أَو لَمْ نُعَمِّرْكُمْ سِتِّينَ سَنَةً؟ وَيُؤَيِّدُهُ الحديث الَّذِى سنذْكُرُهُ إنْ شاء الله تَعَالَى ... وقيل: معناه ثمانى عَشْرَة سَنَةً، وقيل: أَربَعينَ سَنَةً، قاله الحسن والكلبى ومسروق ونُقِلَ عن ابن عباس أيضًا... وَنَقَلُوا أنَّ أَهْلَ المدينَةِ كانوا إِذَا بَلَغَ أَحَدُهُمْ أربعينَ سَنَةً تَفَرَّغَ للعِبادَةِ ... وقيل: هُوَ البُلُوغُ. وقوله تَعَالَى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ قَالَ ابن عباس والجمهور: هُوَ النَّبىّ ﷺ وقيل: الشَّيبُ، قاله عِكْرِمَةُ وابن عُيَيْنَة. والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أى: أَوَلم نتركم ونُمهلكم فى الدنيا عُمرًا مديدًا يكفى لأن يتذكر فيه مَن يريد التذكُّر والتفكُّر؟ فماذا صنعتم فى هذه المدة التى عشتموها؟ وما لكم تطلبون عُمرًا آخر؟

وفى الحديث: «**أَعذَرَ الله إلى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً**»(١).

ومعنى «أعذر» أى بلغ به أقصى العذر ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أى وجاءكم الرسول المنذر وهو محمد ﷺ الذى بُعث بين يدى الساعة، وقيل: ﴿النَّذِيرُ﴾ هو الشيبُ... والأول أظهر(٢).

﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أى فذوقوا العذاب يا معشر الكافرين، فليس لكم اليوم ناصر ولا مُعين يدفع عنكم عذاب الله(٣).

۞ لا بد أن نعلم أن مدار السعادة والشقاوة فى حياة العبد يدور على خواتيم

(١) أخرجه البخارى وترجم له بقوله: «باب مَن بلغ ستين سنة فقد أعذر إليه فى العمر» وذكر الآية.
قال ابن كثير: وهذا هو الصحيح فى مقدار العمر».

(٢) ترجم الإمام البخارى ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يعنى: الشيب، وروى هذا عن ابن عباس وعكرمة..
قال ابن كثير: وما روى عن قتادة أن النذير هو رسول الله ﷺ هو الصحيح، وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر.

(٣) التفسير الكبير (٢٦/ ٣٠).

الأعمال فى آخر العمر .. فمن خُتِمَ له بخير فاز بخير الآخرة ووجد الراحة والنعيم والسرور.. ومن خُتِمَ له بشرٍّ فقد خسر كل شيء.

ولذا قال النبى ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَها إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدخُلُهَا**»(١)...زاد الإمام البخاري قوله ﷺ: «**فَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**».

ولهذا كان من الدعاء المأثور: اللَّهم اجعل خير عمرى آخره وخير عملى خواتمه ... وصَحَّ عن النبى (عليه الصلاة والسلام) أنه قال: «**مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(٢).

۞ وقد أخبر النبى عن الغالب من عمر الإنسان فقال ﷺ: «**أَعمَارُ أُمَّتِى مَا بَيْنَ السِّتِّينَ، إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**»(٣)، فينبغى على الإنسان أنه كلما طال به العمر أن يُكثر من الأعمال الصالحة وأن يجتهد فى طاعة الله؛ لأنه لا يدرى متى يموت .. بل أقول هذا الكلام أيضًا للشباب؛ لأن الإنسان قد يموت صغيرًا أو شابًّا أو كبيرًا فالموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل.

۞ **يقول الإمام ابن الجوزى** رَحِمَهُ اللَّهُ: **يجب على مَن لا يدرى متى يبغته الموت** أن يكون مستعدًّا، ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقل مَن يموت الأشياخ، وأكثر مَن يموت الشُّبان، ولهذا يَندُر مَن يَكْبُر... فالحذر الحذر من المعاصى. فإن عواقبها سيئة، فكم من معصية لا يزال صاحبها فى هبوطٍ أبدًا من تعثير أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا(٤).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٣٢) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وأبو يعلى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٣).

(٤) صيد الخاطر للإمام ابن الجوزى (ص: ٢٠٥، ٢٠٦) بتصرف.

ولقد قال ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»(١).

وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن تُوزَن عليكم، وتجهزوا للعرض على الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

ولذلك فإن على كل مسلمٍ أن يقف مع نفسه وقفة يحاسبها فى الدنيا على كل فعلة فعلها وعلى كل كلمة قالها،... فإن مَن حاسب نفسه فى الدنيا خَفَّ عليه الحساب فى الآخرة(٢).

كلمات على فراش الموت

۞ ولقد كان سلفنا الصالح يحاسبون أنفسهم حتى عند سكرات الموت!!!... فلنتأمل سويًّا تلك الكلمات.

قيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدنى كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] ... ثم مات.

ولما حضرت معاذًا رضي الله عنه الوفاة قال: اللهم إنى كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمإ الهواجر ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلق الذكر.

ولما حضرت بلالًا الوفاة قالت امرأته: واحُزناه. فقال: بل واطرباه .. غدًا

---

(١) صحيح: رواه الحاكم والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

(٢) رحلة إلى الدار الآخرة/ د. محمود المصري (ص ١٩-٢٠) بتصرف.

نلقى الأحِبَّة محمدًا وحزبه.

وحُكى أن هارون الرشيد انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

هكذا كانوا يرون الحقيقة الكبرى (الموت) واضحة جليَّة جلاء الشمس فى رابعة النهار.

- بل هذا الإمام ابن الجوزى يبكى عند الموت فيقول له تلاميذه: يا إمام ألست قد فعلت كذا وكذا؟! فقال: والله إننى أخشى أن أكون فرّطت ونافقت فيحقّ علىَّ قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨].

ثم قال: ولقد تاب على يدىَّ فى مجالس الذكر أكثر من مائتى ألف. وأسلم على يدىَّ أكثر من مائتى نفس.

وكم سالت عينُ متجبرٍ بوعظى لم تكن تسيل من قبل .... ويحقُّ لمن تلمَّح هذا الإنعام أن يرجو التمام.

وربما لاحت أسباب الخوف بنظرى إلى تقصيرى وزَللى.

ولقد جلست يومًا فرأيت حولى أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا مَن قَد رَقَّ قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسى: كيف بك إن نَجَوْا هؤلاء جميعًا وهلكت: فصِحتُ بلسان وجدى: إلهى وسيدى إن قضيت علىَّ بالعذاب غدًا فلا تخبرهم بعذابى، صيانة لكرمك لا لأجلى، لئلا يقولوا عذَّب الله مَن دَلَّ عليه[1].

۞ فالواجب على الإنسان أن يحرص فى أواخر عمره على الإكثار من طاعة الله ليفوز بحُسن الخاتمة .. ونفس الكلام يُقال للشباب لكنه أوجب فى حق مَنْ تَقدَّم به العمر؛ لأنه يكون قد اقترب من نهاية العمر .. ولعلكم تعلمون

(١) صيد الخاطر: (ص: ٢٤٩) بتصرف.

أن فى سباق الخيل ... فإن الخيل يجرى فى مضمار السباق بسرعة متوسطة فإذا ما اقترب من نهاية السباق جمع كل قوته وسرعته وأخرج كل ما عنده ليفوز بالسباق ... ونحن فى سباقٍ إلى الجنة وينبغى للإنسان إذا كان فى آخر عمره أن يُخرج أفضل ما عنده من الطاعات ليفوز فى السباق.

(١١٤) فالأوَّل: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»(١).

۞ فإذا بلغ العبد الستين أو السبعين من عمره فهو أولى الناس بالاجتهاد فى طاعة الله ليختم حياته بالطاعة فيسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا فى جنات النعيم التى فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

۞ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ: (أَعذَرَ اللهُ) الإِعذَارُ إِزَالَةُ الْعُذْرِ ... وَالْمَعنَى: أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ اعتِذَارٌ كَأَنْ يَقُولَ: لَوْ مُدَّ لِى فِى الْأَجَلِ لَفَعَلْتُ مَا أُمِرْتُ بِهِ... يُقَالُ: أَعذَرَ إِلَيْهِ إِذَا بَلَّغَهُ أَقْصَى الْغَايَةِ فِى الْعُذْرِ وَمَكَّنَهُ مِنْهُ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عُذْرٌ فِى تَرْكِ الطَّاعَةِ مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْهَا بِالْعُمرِ الَّذِى حَصَلَ لَهُ فَلَا يَنْبَغِى لَهُ حِينَئِذٍ إِلَّا الِاسْتِغْفَارُ وَالطَّاعَةُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْآخِرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ ... وَنِسْبَةُ الْإِعذَارِ إِلَى اللهِ مَجَازِيَّةٌ ... وَالْمَعنَى: أَنَّ اللهَ لَمْ يَتْرُكْ لِلْعَبْدِ سَبَبًا فِى الِاعتِذَارِ يَتَمَسَّكُ بِهِ. وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَا يُعَاقَبُ إِلَّا بَعدَ حُجَّةٍ.

قَوْلُهُ: (أَخَّرَ أَجَلَهُ) يَعنِى أَطَالَهُ (حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً).

وَفِى رِوَايَةِ مَعمَرٍ: «لَقَد أَعذَرَ اللهُ إِلَى عَبْدٍ أَحياهُ حَتَّى يَبْلُغَ سِتِّينَ سَنَةً أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً ... لَقَد أَعذَرَ اللهُ إِلَيْهِ، لَقَد أَعذَرَ اللهُ إِلَيْهِ».

قَالَ ابن بَطَّالٍ: إِنَّمَا كَانَتِ السِّتُّونَ حَدًّا لِهَذَا لِأَنَّهَا قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُعتَرَكِ وَهِىَ سِنُّ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٩) كتاب الرقاق.

قال العلماءُ معناه: لَمْ يَتْرُكْ لَه عُذْرًا إذ أمهَلَهُ هذِهِ المُدَّةَ ... يُقال: أعذَرَ الرَّجُلُ إذا بلغَ الغاية فى العُذْرِ.

الْإِنَابَةِ وَالْخُشُوعِ وَتَرَقُّبِ الْمَنِيَّةِ ... فَهَذَا إِعْذَارٌ بَعدَ إِعْذَارٍ لُطْفًا مِنَ اللهِ بِعِبَادِهِ حَتَّى نَقَلَهُمْ مِنْ حَالَةِ الْجَهْلِ إِلَى حَالَةِ الْعِلْمِ ثُمَّ أَعذَرَ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يُعَاقِبْهُمْ إِلَّا بَعدَ الْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ وَإِنْ كَانُوا فُطِرُوا عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ لكِنهمْ أُمروا بمجاهدة النَّفس فِي ذَلِك ليمتثلوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَيَنْزَجِرُوا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الْمَعصِيَةِ... وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اسْتِكْمَالَ السِّتِّينَ مَظِنَّةٌ لِانْقِضَاءِ الْأَجَلِ.

قَالَ بَعضُ الْحُكَمَاءِ: الْأَسْنَانُ أَربَعَةٌ: سِنُّ الطُّفُولِيَّةِ ثُمَّ الشَّبَابِ ثُمَّ الْكُهُولَةِ ثُمَّ الشَّيْخُوخَةِ وَهِيَ آخِرُ الْأَسْنَانِ ... وَغَالِبُ مَا يَكُونُ مَا بَيْنَ السِّتِّينَ وَالسَّبْعِينَ فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ ضَعفُ الْقُوَّةِ بِالنَّقْصِ، فَيَنْبَغِي لَهُ الْإِقْبَالُ عَلَى الْآخِرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ لِاسْتِحَالَةِ أَنْ يَرجِعَ إِلَى الْحَالَةِ الْأُولَى مِنَ النَّشَاطِ وَالْقُوَّةِ(١).

وكما قيل: إن العمر الذى يمضى فلن يعود .. ولذا فالواجب على مَن بلغ سن الستين أن يعمل دراسة جدوى لأعظم مشروع فى حياته .... وهو مشروع الطاعة والعبادة المُوصلة إلى رضوان الله وجنته بدلًا من أن يفقد الفرصة الأخيرة فيخرج من الدنيا صِفر اليدين لم يعمل خيرًا قَط.. فها هى الفرصة أمامك أيها الوالد الكريم .. وأيتها الوالدة الكريمة للتوبة والعودة إلى الله وبذل المُستطاع فى طاعة الله عسى الله أن يغفر الذنوب ويُبدل السيئات إلى حسنات ويكتب لهم السعادة فى نعيم الجنات.

(١١٥) الثانى: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر رضي الله عنه يُدخلُنى مَع أشْياخ بَدرٍ، فَكأَنَّ بعضَهُمْ وجدَ فى نفسه فقال: لِمَ يَدخُلُ هَذا معنا ولنَا أبْنَاء مِثْلُه؟ فقال عُمَرُ: إنَّهُ مَن حيْثُ عَلِمْتُمْ، فدَعَانى ذاتَ يَوْمٍ فَأدخلَنى معهُمْ، فما رأَيْتُ أنَّه دعانى يوْمئذٍ إلاَّ ليُرِيهُمْ قال: ما تقولون فى قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]،

(١) فتح البارى / للحافظ ابن حجر (١١/ ٢٤٤) بتصرف.

فقال بَعضُهُم: أُمِرْنَا نَحمَدُ الله ونَسْتَغْفِره إذَا نَصرنَا وفَتَحَ علَيْنَا. وسكَتَ بعضهُم فلم يَقُلْ شيئًا فقال لي: أكذلك تقول يابْنَ عَبَّاسٍ؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هُو أجلُ رسول الله ﷺ، أعلمَه له قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣]، فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلَم منها إلاَّ ما تَقُول[١].

۞ لقد أخبر ابن عباس رضي الله عنهما حَبر الأمة وترجمان القرآن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يُدخله مع أشياخ بدر .. أى مَن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار.

فلقد كان عمر رضي الله عنه لا يحتكر الرأى لنفسه بل كان يطبق مبدأ الشورى الذى تعلَّمه من القرآن ومن النبى ﷺ .. كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والشورى الشرعية أن ولىّ الأمر إذا أشكل عليه أمر من الأمور جمع الناس له من ذوى الرأى والأمانة من أجل أن يستشيرهم فى القضية الواقعة، فكان من هدى عمر رضي الله عنه ومن سُنته المشكورة، وسعيه الحميد، أنه يشاور الناس يجمعهم ليستشيرهم فى الأمور الشرعية والأمور السياسية، وغير ذلك.

فكان يُدخل عبد الله بن عباس مع كبار الصحابة من أشياخ بدر .. وكان ابن عباس فى ذلك الوقت صغير السن بالنسبة لهؤلاء الأكابر. فلما رأوا أن عمر يُدخل ابن عباس معهم وجدوا فى أنفسهم ؛ لأن عُمر يُدخل ابن عباس ولا يُدخل أبناءهم وهم فى نفس سنِّ ابن عباس.. فقال: « إِنَّهُ مَن حيْثُ عَلِمْتُمْ » يشير بذلك إلى قرابته من رسول الله ﷺ وإلى علمه وفطنته.

فأراد عمر رضي الله عنه أن يُريهم قدر ومكانة ابن عباس فى العلم والفهم والفطنة

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٢٩٤) كتاب المغازى.

والذكاء حتى يعرفوا لماذا يخص ابن عباس بهذا الفضل.

فعرض عليهم هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

وسألهم عن تفسيرها ومغزاها .. فما كان منهم إلا أن انقسموا إلى قسمين: فمنهم مَن قال: إن الله أمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا .. وأما القِسم الثانى فسكت ولم يتكلم.

فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن سأل ابن عباس رضي الله عنهما وقال له: ما تقول فى هذه السورة؟

قال: هو أجلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعنى علامة قرب أجله، أعطاه الله إياه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يعنى فتح مكة فإن ذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عُمر: ما أعلم فيها إلا ما علمت، وظهر بذلك فضل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وَفِيهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ وَتَأْثِيرٌ لِإِجَابَةِ دَعوَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُعَلِّمَهُ اللهُ التَّأْوِيلَ وَيُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ، وَفِيهِ جَوَازُ تَحدِيثِ الْمَرْءِ عَنْ نَفْسِهِ بِمِثْلِ هَذَا لِإِظْهَارِ نِعمَةَ اللهِ عَلَيْهِ وَإِعلَامِ مَنْ لَا يَعرِفُ قَدرَهُ لِيُنْزِلَهُ مَنْزِلَتَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ لَا لِلْمُفَاخَرَةِ وَالْمُبَاهَاةِ... وَفِيهِ جَوَازُ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ بِمَا يُفْهَمُ مِنَ الْإِشَارَاتِ وَإِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي الْعِلْمِ وَلِهَذَا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَوْ فَهمًا يؤتيه الله رجلًا فِي الْقُرْآن[1].

وفيه إشارة إلى أنه ينبغى للإنسان أن يفطن لمغزى الآيات الكريمة .. وذلك لأن المعنى الظاهر قد يكون أمرًا سهلًا لكن مغزى الآيات هو الذى قد يخفى

---

(١) فتح البارى (٨/٦٠٨-٦٠٩).

على كثيرٍ من الناس ويحتاج إلى فهمٍ يُؤتيه الله مَن يشاء من عباده.

۞ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كَانَ عمر يَدعُو ابن عَبَّاسٍ وَيُقَرِّبُهُ وَيَقُولُ: إِنِّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاكَ يَوْمًا فَمَسَحَ رَأْسَكَ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيل**»[1]... ففعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا؛ تقريرًا لجلالة قدر ابن عباس، وبيانًا لكبير منزلته فى العلم والفهم... وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: نِعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وكان يقول إذا أقبل: جاء فتى الكهول، ذو اللسان السَّؤول، والقلب العَقول[2].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أى سبِّح الله مصحوبًا بالحمد... فالباء هنا للمصاحبة، وذلك لأنه إذا كان التسبيح مصحوبًا بالحمد فإنه به يتحقق الكمال، لأن الكمال لا يتحقق إلا بانتفاء العيوب، وثبوت صفات الكمال... فانتفاء العيوب مأخوذٌ من قوله سبحانك، لأن التسبيح معناه التنْزِيه عن كل نقصٍ وعيب ... وثبوت الكمالات مأخوذ من قوله وبحمدك، لأن الحمد هو وصف المحمود بالصفات الكاملة.

۞ أما قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ فمعناه: اطلب منه المغفرة... والمغفرة: هى التجاوز عن الذنب والستر، يعنى المغفرة تجمع بين ستر الذنب والتجاوز عنه.

۞ وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ ففيه أن الله عَزَّ وَجَلَّ موصوف بكثرة التوبة لقوله: ﴿تَوَّابَۢا﴾، وهى صيغة مبالغة لكثرة مَن يتوب الله عليه.

والله عَزَّ وَجَلَّ توابٌ على عبده توبة سابقة لتوبته، وتوبة لاحقة لها... كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]، فالتوبة السابقة أن يوفق الله العبد للتوبة... والتوبة اللاحقة أن يقبل الله منه التوبة إذا تاب إليه.

---

(١) فتح البارى (١/ ١٧٠).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣٠٣).

❁ وللتوبة شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في التوبة.

والثاني: الندم على ما حصل منه من الذنب.

والثالث: الإقلاع عن الذنب في الحال.

والرابع: العزم على ألا يعود.

والخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبل فيه.

فإن التوبة لا تُقبل عند غرغرة الروح .. فقد قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٨]، .. وكذلك لا تُقبل التوبة عند طلوع الشمس من مغربها .. وهي علامة من علامات الساعة الكبرى .. فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٨].

قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١).

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبَلُ توْبة العبْدِ مَا لَم يُغرغرِ**»(٢).

وينبغي للإنسان أن يُكثر من هذا الذكر في الركوع والسجود: «**سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك، اللَّهم اغفر لي**». فإنه جامع بين الذكر والدعاء...وكان النبي ﷺ يُكثر أن يقوله في ركوعه وسجوده بعد نزول هذه السورة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٣).

(١١٦) الثالث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صَلَّى رسولُ الله ﷺ صلاةً بعد أَنْ نزلَتْ عليْه ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلاَّ يقول فيها: «سُبْحانك ربَّنا وبِحمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لى»(١).

وفى رواية فى الصحيحين عنها: كان رسول الله ﷺ يُكْثر أنْ يَقُول فِى ركُوعِه وسُجُودِهِ: «سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وَبحمْدِكَ، اللَّهمَّ اغفِرْ لى» يتأوَّل الْقُرْآن.

معنى: «يتأوَّل الْقُرْآنَ» أىْ: يعمل مَا أُمِرَ بِهِ فى الْقُرآنِ فى قولِهِ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾.

وفى رواية لمسلم: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أنْ يَقولَ قبْل أنْ يَمُوتَ: «سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحمدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وأتُوبُ إِلَيْكَ». قالت عائشةُ: قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمَاتُ الَّتى أَرَاكَ أحْدثْتَها تَقولها؟ قال: «جُعِلَتْ لِى علامةٌ فى أمَّتى إذا رَأَيتُها قُلتُها ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة».

وفى رواية له: كان رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «سُبْحَانَ الله وبحَمْدِهِ. أَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْه». قالت: قلت: يا رسولَ اللهِ أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِليْهِ؟ فقال: «أخْبَرَنى ربِّى أَنِّى سَأَرَى علامَةً فِى أُمَّتى فَإِذَا رأَيْتُها أَكْثَرتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ الله وبحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إلَيْهِ، فَقَد رَأَيْتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾».

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

قَوْلُهَا (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِى رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغفِرْ لِى ... يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ) وَفِى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى (أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ) مَعنَى يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ: يَعمَلُ مَا أُمِرَ بِهِ فِى قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَسَبِّح بِحَمْدِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٦٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٤٨٤) كتاب الصلاة.

رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ توابا ... وَكَانَ ﷺ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ الْبَدِيعَ فِي الْجَزَالَةِ الْمُسْتَوْفِي مَا أُمِرَ بِهِ فِي الْآيَةِ وَكَانَ يَأْتِي بِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لِأَنَّ حَالَةَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا فَكَانَ يَخْتَارُهَا لِأَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ لِيَكُونَ أَكْمَلَ.

وَقَوْلُهُ: (وَبِحَمْدِكَ) أَيْ وَبِحَمْدِكَ سَبَّحْتُكَ ... وَمَعنَاهُ بِتَوْفِيقِكَ لِي وَهِدَايَتِكَ وَفَضْلِكَ عَلَيَّ سَبَّحْتُكَ لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي ... فَفِيهِ شُكْرُ اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعمَةِ وَالِاعتِرَافُ بِهَا وَالتَّفْوِيضُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَأَنَّ كُلَّ الْأَفْعَالِ لَهُ(١).

هكذا كان النبي ﷺ يُكثر في آخر أيامه من قول: «سُبْحَانك اللَّهُمَّ وبِحمْدِكَ، أَسْتَغْفِرك وَأَتُوب إِلَيكَ» وهو الذي غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر .. فأين نحن من الاستغفار والتوبة والعودة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فيا ليتنا نحرص على الاستغفار..فلقد كان هناك أمانان للبشرية: الأمان الأول هو وجود النبي ﷺ..فلما تُوفي النبي ﷺ بقي الأمان الثاني ألا وهو الاستغفار.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ»(٢).

وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»(٣).

فالعبد لا يدري ولا يعلم ذنوبه كلها فعليه أن يُكثر من الاستغفار.

۞ بل إن العبد إذا قال دعاء سيد الاستغفار ثم مات فهو من أهل الجنة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ فقال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعدِكَ مَا اسْتَطَعتُ، أَعُوذُ

(١) مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٦٨-٢٦٩) بتصرف.

(٢) حسن: رواه البيهقي في شعب الإيمان، والضياء في المختارة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٥٥).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٣٠).

بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ... مَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ »(١).

(١١٧) الرابع: عن أنسٍ رضي الله عنه قال: إنَّ الله عز وجل تابعَ الوَحيَ على رسول الله ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ، حتَّى تُوُفِّي أكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحيُ عَلَيْهِ(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

وَالسِّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْوُفُودَ بَعدَ فَتحِ مَكَّةَ كَثُرُوا وَكَثُرَ سُؤَالُهُمْ عَنِ الْأَحكَامِ فَكَثُرَ النُّزُولُ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: (حَتَّى تَوَفَّاهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحيُ) أَيِ الزَّمَانُ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ وَفَاتُهُ كَانَ نُزُولُ الْوَحْيِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَزْمِنَةِ.

وَهَذَا الَّذِي وَقَعَ أَخِيرًا عَلَى خِلَافِ مَا وَقَعَ أَوَّلًا فَإِنَّ الْوَحْيَ فِي أَوَّلِ الْبَعثَةِ فتَرَ فَتْرَةً ثُمَّ كَثُرَ وَفِي أَثْنَاءِ النُّزُولِ بِمَكَّةَ لَمْ يَنْزِلْ مِنَ السُّوَرِ الطِّوَالِ إِلَّا الْقَلِيلُ ... ثُمَّ بَعدَ الْهِجْرَةِ نَزَلَتِ السُّوَرُ الطِّوَالُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى غَالِبِ الْأَحْكَامِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ الزَّمَنُ الْأَخِيرُ مِنَ الْحَيَاةِ النَّبَوِيَّةِ أَكْثَرَ الْأَزمِنَةِ نُزُولًا بِالسَّبَبِ الْمُتَقَدِّمِ(٣).

(١١٨) الخامس: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبْعثُ كُلُّ عبْدٍ على ما مَاتَ عَلْيه»(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٣٠٦) كتاب الدعوات.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٨٢) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٣٠١٦) كتاب التفسير.

(٣) فتح الباري (٨/ ٦٢٤) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٨٧٨) كتاب الجنة وصفة أهلها.

وهذا من كمال رحمة الله (جَلَّ وعلا) أن العبد يُبعث يوم القيامة على نفس الحالة التى مات عليها...

فمن مات ساجدًا يُبعث يوم القيامة ساجدًا .. ومَنْ مات مُحرمًا فى الحج يُبعث يوم القيامة مُلبيًا ... وهكذا فكُلّ مَنْ مات على طاعة يُبعث على نفس الحالة التى مات عليها.

۞ **وفى المقابل**: فمن مات على معصية - عياذًا بالله من سوء الخاتمة- فإنه يُبعث يوم القيامة على الحالة التى مات عليها.

أسأل الله أن يرزقنى وإياكم حُسن الخاتمة.

عن ابن عباس أن رجلًا كان مع النبى ﷺ مُحرِمًا فوقصته[1] ناقته فمات، فقال رسول الله ﷺ: « **اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدرٍ وَكَفِّنُوهُ فِى ثَوْبِهِ وَلا تَمَسُّوهُ بِطِيبٍ وَلا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا** » وفى رواية «**ملبدًا**»[2][3].

---

(١) وقص: وقصت الدابة براكبها: رمت به، فكسرت عنقه.

(٢) ملبدًا: تلبيد الشعر أن يجعل فيه شىء من صمغ عند الإحرام، لئلا يشعث ويقمل إبقاءً على الشعر، وإنما يلبد مَن يطول مُكثه فى الإحرام.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٢٦٥) كتاب الجنائز، ومسلم (١٢٠٦) كتاب الحج.

(١٣) باب في بيان كثرة طُرق الخير

۞ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [الجاثية: ١٥]، والآيات في الباب كثيرةٌ.

۞ إن من كمال رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يحرمنا الثواب على أيِّ عملٍ صالحٍ نعمله مهما كان صغيرًا أو كبيرًا.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

وقال ﷺ: «كُلُّ مَعرُوفٍ صَدَقَة»(١).

۞ وقد يفعل الإنسان الخير لنفسه من خلال طاعة بدنية كالصلاة والصيام والجهاد ... أو طاعة مالية كالزكاة والصدقة والنفقات ... أو طاعة بدنية مالية كالجهاد فقد يكون بالنفس والمال.

۞ وقد يفعل الإنسان الخير لغيره: كبِرِّ الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجار وكفالة اليتيم وقضاء حوائج الناس وإسداء النصيحة وتنفيس الكربات وتبشير المسلم بما يَسُرُّه والشفاعة الحسنة وصنائع المعروف وإغاثة الملهوف وإصلاح ذات البين وإماطة الأذى عن الطريق ونُصرة المظلوم وجبر الخواطر وتعليم الناس العلم الشرعى وغير ذلك من أبواب الخير الكثيرة التى وردت فى كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ.

فما أجمل أن يحمل المؤمن فى قلبه الخير لكل الناس من حوله ثم يُحوِّل هذه المشاعر وتلك الأحاسيس إلى واقعٍ ملموسٍ فى دنيا الناس... فتتحرك

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٢١) كتاب الأدب، ومسلم (١٠٠٥) كتاب الزكاة.

جوارحه من أجل بذل المعروف وإيصال الخير لكل الناس من حوله.. فيُفرج هم المكروبين ويمد يد العون للفقراء واليتامى والمساكين.

راجيًا من وراء ذلك كله وجه الله والفوز برضوانه ومحبته جل جلاله.

۞ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم، وأحبُّ الأعمال إلى الله** عز وجل **سرورٌ تُدخلهُ على مسلم، أو تكشفُ عنه كُرْبَةً، أَوْ تقضى عنه دَيْنًا، أَوْ تطردُ عنه جوعًا، ولأَنْ أمشى مع أخى المسلم فى حاجةٍ أحبُّ إلىَّ مَن أن أعتكفَ فى المسجد شهرًا، ومَنْ كفَّ غضبه، ستر اللهُ عوْرتَهُ، ومَن كظم غيظًا ولو شَاء أن يُمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضًى يوم القيامة، ومَنْ مشى مع أخيه المسلم فى حاجته حتى يُثبتَها لهُ، أثبتَ الله تعالى قدمَهُ يوم تزِلُّ الأقدامُ، وإنَّ سوءَ الخُلُقِ ليُفسِدُ العملَ، كما يُفسِدُ الخلُّ العسل**»[1].

اقْضِ الحوائجَ ما استطعـتَ وكُنْ لِهَمِّ أخيك فارِجْ
فَلَخَيْرُ أيام الفتى يومٌ قضى فيه الحوائِجْ

والأصل فى المسلم أن يعين إخوانه على نوائب الدهر، ومتاعب العمر، ومصائب الحياة؛ بسدِّ خلَّتهم، والشد من أزرهم، وقضاء حاجتهم، والقيام على مصالحهم، وإعانة محتاجهم، ومساعدة ضعيفهم، ورعاية شئونهم، ومُناصرة مظلومهم، والأخذ على يد ظالمهم؛ لتستقيم حياتهم، ويصلح بهم ولهم معاشهم، فكأنهم جسدٌ واحدٌ، مختلط المشاعر، متَّحدُ الشعائر، متمازجُ الأحاسيس، متوافقُ العواطف.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ترى المؤمنين فى تراحُمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عُضو ، تداعى**

---

(١) حسن: رواه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج، والطبرانى فى «المعجم الكبير»، وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» رقم (٩٠٦)، و «صحيح الجامع» رقم (١٧٦).

له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١).

ولا خير فيمن يحجب خيرَه عن غيره، ويزوى معروفه عمَّن يستحقه، ولا يعطى كل ذى حَقٍّ حَقَّهُ.

عن ابن عمر رضي الله عنهما **قال**: لقد أتى علينا زمانٌ، وما أحدٌ أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم ... ثم الآن الدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كم من جارٍ متعلق بجاره يوم القيامة، يقول: يا رب، هذا أغلق بابَه دونى، فمنع معروفه**»(٢).

ومَن يكون هذا حاله، فوجوده كعدمه، وحضوره كغيابه، وموته كحياته فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تعالى أقوامًا يختصهم بالنعم لمنافع العباد، ويُقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها، نزعها منهم، فحوَّلَها إلى غيرهم**»(٣).

وقال فيض بن إسحاق رحمه الله: كنت عند الفُضيل بن عياض رحمه الله: فجاء رجل فسأله حاجة، فألحَّ فى السؤال عليه، فقلت: لا تُؤذِ الشيخ، فزجرنى الفُضيل، وصاح علىَّ، وقال: أما علمت أن حوائج الناس إليكم نِعمٌ من الناس عليكم؟! فاحذروا أن تملوا النعم فتُحوَّل نِقمًا ... ألا تحمد ربك أن جعلك موضعًا تُسْأل، ولم يجعلكَ تَسْأل(٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا بعث عُماله شرط عليهم أمورًا؛ منها: ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس، فإن فعلتم شيئًا من ذلك حلَّت بكم

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى فى الصَّحِيحَة: (٢٦٤٦)، وصَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب: (٢٥٦٤)، وصَحْيح الْأَدَبِ الْمُفْرَد: (٨١).

(٣) حسن: أخرجه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج، والطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٦٤).

(٤) كتاب الحدائق/ ابن الجوزى، (٢/ ٣٨٥).

العقوبة، ثم يشيعهم[١].

وليس الأمر بالعسير، وإنما يحتاج من العبد الصالح نية حسنة، وإرادة صادقة، وكفًّا ممتدة، ونفسًا هينة لينة، وقلبا ممتلئًا بحب الخير للغير، وتحريًّا لمواضع الإحسان، وحرصًا على البذل والعطاء ... وإنَّ العبد ليُدرك بنيته ما لا يُدرك بِعَمَلِه.

قال عبدان بن عثمان الأزدى: ما سألنى أحدٌ حاجة إلا قمت له بنفسى، فإن تمَّ وإلاَّ قمت له بمالى، فإن تمَّ وإلا استعنت له بالإخوان، فإن تمَّ وإلا استعنت بالسلطان[٢].

أتى سائل سفيان بن عيينة، فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى، فقيل: يا أبا محمد! ما الذى أبكاك؟ قال: أى مصيبة أعظمُ من أن يُؤمِّل فيك رجلٌ خيرًا فلا يصيبه[٣].

وقال **حكيم بن حزام:** ما أصبحتُ وليس ببابى صاحب حاجة، إلا علمتُ أنها من المصائب التى أسألُ الله الأجر عليها[٤].

وفعل المعروف حماية من كل وبال، وصيانة للنفس فى أى حال، ووقاية من كل ما يُتَّقى، ودرع حصينة من أى أذى، وهو سبب لحسن الخاتمة، ومهاد لطيب العاقبة.

قال رسول الله ﷺ: «صَنَائِعُ المَعْرُوفِ تَقِى مَصَارِعَ السُّوءِ وَالآفَاتِ وَالهَلَكَاتِ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة»[٥].

---

(١) مشكاة المصابيح / التبريزى، تحقيق الألبانى، (٢/ ١١٠١)، (٣٧٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء / الذهبى (١٠/ ٢٧١).

(٣) وفيات الأعيان / ابن خلكان (٢/ ٥٩٣).

(٤) سير أعلام النبلاء / الذهبى (٣/ ٥١).

(٥) صحيح: أخرجه الحاكم فى المستدرك، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٩٥).

وصانع المعروف مأجورٌ على فعله، مُثابٌ على عمله، سواء كان لفقير أو لغنيٍّ؛ لكبيرٍ أو لصغيرٍ..لعظيمٍ أو لحقيرٍ...لبشرٍ أو لمن ليس من جنس البشر!!

فعن علقمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **كُلُّ مَعرُوفٍ صَنَعتَهُ إِلى غَنِيّ أَوْ فَقِيرٍ فَهُو صَدَقَةٌ** »[(١)].

ولو لم يكن فى المعروف إلا الأجر والثواب، وإعانة رب الأرباب، لكفى داعيًا إليه، ومُرغبًا فيه؛ وحاثًّا عليه.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، ومَن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كربة، فرَّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»[(٢)].

(١١٩) الأوَّل: عن أبى ذرٍّ جُنْدَب بن جُنَادَةَ رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أىُّ الأعمالِ أفْضَلُ؟ قال: «الإيمانُ بالله، وَالجهادُ فِي سَبِيله». قُلْتُ: أىُّ الرِّقَاب أفْضَلُ؟ قال: «أنْفَسُهَا عِنْد أهْلِهَا، وأكثَرُهَا ثَمَنًا». قُلْتُ: فَإنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قال: « تُعينُ صَانعًا أوْ تصنَعُ لأخْرَقَ » قُلْتُ : يا رسول الله أرَأيتَ إنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعضِ الْعملِ؟ قال: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَن النَّاسِ فَإنَّها صدقةٌ مِنْكَ على نَفسِكَ»[(٣)].

❁ لقد كان أصحاب الرسول ﷺ يسألون دائمًا عن أفضل الأعمال؛ لأن همتهم فى السماء عالية لا ترضى بأقلِّ الأعمال .. بل بأفضل الأعمال وأحبها

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٥٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥١٨) كتاب العتق، ومسلم (٨٤) كتاب الإيمان.

«الصانِعُ» بالصَّاد المهملة هذا هو المشهور - ورُوى «ضَائعًا» بالمعجمة: أىْ ذَا ضَياعٍ مِنْ فقْرٍ أوْ عِيالٍ، ونُحو ذلكَ - «والأخْرَقُ»: الَّذى لا يُتقنُ ما يُحاوِلُ فِعلهُ.

إلى الله... فهذا ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النبى ﷺ أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله».

وهم إذا سألوا فإنهم يسألون من أجل أن يعملوا وليس من باب المعرفة النظرية .. بل كانوا أحرص الناس على العمل بما يعلموا.

۞ وفى هذا الحديث يسأل أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ ويقول له: يا رسول الله أى الأعمال أفضل؟.. أى: أيها أكثر ثوابًا عند الله تعالى وأفضلها وأحبها عند الله.

فقال له ﷺ: «**الإيمان بالله والجهاد فى سبيله**».

فالإيمان بالله جزاؤه الخلود فى الجنة والفوز برضى الرحمن (جَلَّ وعلا) ولا شيء فوق ذلك.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده (سبحانه وتعالى) والإيمان بوحدانيته سبحانه فى ربوبيته وأُلوهيته وأسمائه وصفاته.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ وَقَد سُئِلَ أَيُّ الْأَعمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**» ففيه تصريح بأن العمل يُطلَق على الإيمان ... وَالْمُرَادُ بِهِ وَاللهُ أَعلَمُ الْإِيمَانُ الَّذِى يَدخُلُ بِهِ فِى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ التَّصدِيقُ بِقَلْبِهِ وَالنُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ فَالتَّصدِيقُ عَمَلُ الْقَلْبِ وَالنُّطْقُ عَمَلُ اللسان[1] .

وأما الجهاد فذروة سنام الإسلام.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٠٤).

﴿ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

[الصف: ١٠-١٢].

۞ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ -وَاللهُ أَعلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ- كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ لا يَفْتُرُ: مِنْ صِيَامٍ، وَلا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ»**(١).

۞ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنة مائة درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»**(٢).

۞ وقد استشكل على بعض الناس أن النبي ﷺ في بعض الأحاديث كان يُسأل: أي العمل أحب إلى الله؟ فيقول مثلًا: «**الصلاة على وقتها**» ثم «**بر الوالدين**».. وفي حديثٍ آخر يقول: «**إيمانٌ بالله ورسوله**» ثم «**الجهاد**»، وفي حديثٍ ثالث يقول: «**خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه**».

فكيف نجمع بين تلك الأقوال؟

قال الإمام الحليمي أن شيخه الإمام القفَّال الشاشي الكبير جَمَعَ بَيْنَهَا بِوَجْهَيْنِ فقال رحمه الله:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ ذَلِكَ اخْتِلَافُ جَوَابٍ جَرَى عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحوَالِ وَالْأَشْخَاصِ ... فَإِنَّهُ قد يُقَالُ خَيْرُ الْأَشْيَاءِ كَذَا وَلَا يُرَادُ بِهِ خَيْرُ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ الْأَحوَالِ وَالْأَشْخَاصِ بَلْ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ أَوْ نَحو ذَلِكَ ... وَاسْتَشْهَدَ عَلَى ذلك بأخبار منها عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«حَجَّةٌ لِمَنْ لَمْ يَحُجَّ أَفْضَلُ مِنْ أَربَعِينَ غَزْوَةً ... وَغَزْوَةٌ لِمَنْ حج أفضل من أربعين حجة»**.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٨٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٨) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

الوجه الثَّانِى: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ أَفْضَلِ الأَعمَالِ كَذَا أَوْ مِنْ خَيْرِهَا أَوْ مِنْ خَيْرِكُمْ مَنْ فَعَلَ كَذَا فَحُذِفَتْ (مِنْ) وَهِىَ مُرَادَةٌ، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ أَعقَلُ النَّاسِ وَأَفْضَلُهُمْ وَيُرَادُ أَنَّهُ مِنْ أَعقَلِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ ... وَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ**» وَمَعلُومٌ أَنَّهُ لَا يَصِيرُ بِذَلِكَ خِيرَ النَّاسِ مُطْلَقًا[١].

۞ **ثم سأل أبو ذر، وقال للنبى ﷺ:** أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا**».

۞ **أَمَّا قَوْلُهُ ﷺ فِى الرِّقَابِ: «أَفْضَلُهَا أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا»** فَالْمُرَادُ بِهِ وَاللهُ أَعلَمُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعتِقَ رَقَبَةً وَاحِدَةً أَمَّا إِذَا كَانَ مَعَهُ أَلْفُ دِرهَمٍ وَأَمْكَنَ أَنْ يَشْتَرِىَ بِهَا رَقَبَتَيْنِ مَفْضُولَتَيْنِ أَوْ رَقَبَةً نَفِيسَةً مُثَمَّنَةً فَالرَّقَبَتَانِ أَفْضَلُ...وَهَذَا بِخِلَافِ الْأُضْحِيَّةِ فَإِنَّ التَّضْحِيَةَ بِشَاةٍ سَمِينَةٍ أَفْضَلُ مِنَ التَّضْحِيَةِ بِشَاتَيْنِ دُونَهَا فِى السِّمَنِ.

قَالَ الشَّافِعِىُّ رضي الله عنه: فِى الْأُضْحِيَّةِ اسْتِكْثَارُ الْقِيمَةِ مَعَ اسْتِقْلَالِ الْعَدَدِ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنَ اسْتِكْثَارِ الْعَدَدِ مَعَ اسْتِقْلَالِ القيمة ... وفى العتق استكثار العدد مع استقلال القيمة أحب إلىَّ من استكثار القيمة مع استقلال العدد لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْأُضْحِيَّةِ اللَّحمُ ... وَلَحمُ السَّمِينِ أَوْفَرُ وَأَطْيَبُ وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْعِتْقِ تَكْمِيلُ حَالِ الشَّخْصِ وَتَخْلِيصُهُ مِنْ ذُلِّ الرِّقِّ ... فَتَخْلِيصُ جَمَاعَةٍ أَفْضَلُ مِنْ تَخْلِيصِ وَاحِدٍ وَاللهُ أَعلَمُ[٢].

۞ **قال أبو ذرٍّ** رضي الله عنه: فإن لم أفعل..أى: إن لم أقدر على ذلك أو لم أستطع.. قال ﷺ: « **تُعينُ صَانعًا أوْ تصنعُ لأخْرَقَ** ».

قال الإمام النووى رحمه الله:

الْأَخْرَقُ هُوَ الَّذِى لَيْسَ بِصَانِعٍ ... يُقَالُ رَجُلٌ أَخْرَقُ وَامْرَأَةٌ خَرْقَاءُ لِمَنْ لَا صَنْعَةَ

---

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٠٢-١٠٣) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٠٤-١٠٥) بتصرف.

لَهُ فَإِنْ كَانَ صَانِعًا حَاذِقًا قِيلَ رَجُلٌ صَنَعٌ بِفَتْحِ النُّونِ وَامْرَأَةٌ صَنَاعٌ بِفَتْحِ الصَّادِ(١).

۞ قال أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أرَأيتَ إنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعضِ الْعملِ؟ قال: «تكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّها صدقةٌ مِنْكَ على نَفسِكَ».

وهذا أدنى شيء يستطيع أن يفعله الإنسان .. وهو أن يَكُفَّ شرَّه عن الناس .. وهذا أمرٌ يستطيع أن يفعله أى إنسان .. فإن فعل ذلك وكَفَّ شرَّه عن الناس فإنها تكون صدقة منه على نفسه.

(١٢٠) الثانى: عن أبى ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضًا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «يُصبحُ على كلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صدقَةٌ، فَكُلُّ تَسبِيْحةٍ صَدقةٌ، وكُلُّ تحميدَة صدقَةٌ، وكُلُّ تهليلة صَدَقةٌ، وكلُّ تَكْبِيرة صَدَقَةٌ، وأمْرٌ بالمعرُوف صدقَة، ونَهْيٌ عَن المُنْكَر صدقَةٌ. ويُجْزِئُ مِنْ ذَلكَ رَكعتَان يركَعُهُما مِنَ الضُّحى»(٢).

قال ﷺ: «يُصبحُ على كلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صدقَةٌ» السُّلامَى هى العظام أو مفاصل العظام .. يعنى أنه يصبح على كلِّ واحدٍ من الناس فى كلِّ يومٍ صدقة على كلِّ عضوٍ من أعضائه ... أى على كل مفصل من مفاصله.

ومن المعلوم أن البدن فيه ثلاثمائة وستون مفصلًا ما بين صغيرٍ وكبيرٍ كما قال النبى ﷺ: «خُلِق الإنسان على ستين وثلاثمائة مفصل على كل مفصلٍ صدقة»، فيُصبح على كلِّ إنسانٍ كل يوم ثلاثمائة وستون صدقة.

«يُصبحُ على كلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ» إذا أصبح سليمًا من الآفات باقيًا على الهيئة التى تتم بها منافعه وأفعاله «صدَقَةٌ» عظيمة شُكرًا لله تعالى على عظيم منته على أن الصدقة تدفع البلاء... فبوجودها عن أعضائه يُرجى دوام اندفاع

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ٩٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

«السُّلامَى»: المِفْصَلُ.

البلاء عنها[١].

۞ ولكن تلك الصدقات ليست صدقاتٍ مالية فقط بل هى صدقات تشمل كل أبواب الخير « **فَكُلُّ تَسبِيْحةٍ صَدقةٌ**» أى قول: سبحان الله صدقة. «**وكُلُّ تهليلة صَدَقةٌ**» أى قول: لا إله إلا الله صدقة. « **وكُلُّ تحْميدَة صدقَةٌ**» أى قول: الحمد لله صدقة. « **وكلُّ تكْبِيرة صَدَقَةٌ** » أى قول: الله أكبر صدقة ... والأمر بالمعروف صدقة؛ لأنك تدل الناس على الخير .. والنهى عن المنكر صدقة؛ لأنك تمنع الناس من الوقوع فى الشر وكل ما يُغضب الله ..

وليس المقصود هو الاقتصار على تلك الأشياء .. وإنما ذكر لنا النبى ﷺ ذلك لنعلم أن كل خير نفعله فهو صدقة سواء كان ذلك يعود علينا بالخير أو على غيرنا .. لكن المقصود أن تتصدق عن نفسك كل يوم بثلاثمائة وستين صدقة ... وكأنك تقول: فإن لم أستطع. فإذا بالنبى ﷺ يقول لك: « **ويُجْزئُ مِنْ ذَلكَ رَكعَتَان يرْكعُهُما مِنَ الضُّحى** ».. وهذا دليلٌ على أن صلاة الضُّحَى سُنة كل يوم لكى تقضى الصدقات التى عليك كل يوم (٣٦٠ صدقة).

قال أهل العلم: يبتدئ وقت صلاة الضحى من بعد شروق الشمس بثلث ساعة تقريبًا ويستمر إلى قُبيل صلاة الظهر بثلث ساعة تقريبًا.

لكن قال العلماء: إن تأخير ركعتى الضحى إلى آخر الوقت أفضل من تقديمها، كما كان النبى ﷺ يستحب أن يؤخر صلاة الضحى إلى آخر الوقت، إلا مع المشقة.

فالحاصل أن الإنسان قد فتح الله له الكثير والكثير من أبواب الخير .. وأن كل ما يفعله من ذلك الخير فإن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.

---

(١) دليل الفالحين (١/ ٢٩٧).

(١٢١) الثَّالثُ عن أبى ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال النبى ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أعمالُ أُمَّتى حسَنُهَا وسيِّئُهَا فوجَدت فى مَحاسِنِ أعمالِهَا الأذَى يُماطُ عن الطَّرِيقِ، وَوجَدت فى مَساوِئِ أعمالِها النُّخَاعَةُ تَكُونُ فِي المَسْجِدِ لاَ تُدفَنُ**»[١].

۞ قوله ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أعمالُ أُمَّتى حسَنُهَا وسيِّئُهَا**» أى أن الله عَزَّ وَجَلَّ عرض على النبى ﷺ تلك الأعمال من خلال الوحى عن طريق جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فعرض الله عَزَّ وَجَلَّ على نبينا محمد ﷺ المحاسن والمساوئ من أعمال الأمة، فوجد من محاسنها «**الأذى يُماط عن الطريق**»، ويُماط: يعنى يُزال، والأذى ما يؤذى المارة من شوك، وأعواد، وأحجار، وزجاج، وأرواث، وغير ذلك. كل ما يؤذى فإماطته من محاسن الأعمال.

وقد بيَّن النبى (عليه الصلاة والسلام) أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، فهو من محاسن الأعمال، وفيه ثواب الصدقة ... وقال النبى ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شُعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[٢].

وَعن معاوية بن قرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال**: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ أَمَاطَ أَذًى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ وَمَنْ تُقُبِّلَتْ مِنْهُ حَسَنَةٌ دَخَلَ الجَنَّة**»[٣].

وَعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**مَرَّ رَجُلٌ بِغُصنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنْ الْمُسْلِمِينَ لا يُؤْذِيهِمْ فَأُدخِلَ الْجَنَّةَ**»[٤].

فإذا وجدت فى الطريق أى شىء يؤذى الناس فأمطه عن الطريق لأن هذا من محاسن أعمالك وهو من خصال الإيمان وشُعب الإيمان وهو صدقة لك.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٥٣) كتاب المساجد

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

(٣) حسن: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٩٨).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة.

وإذا كان هذا من المحاسن ومن الصدقات، فإن وضع الأذى فى طريق المسلمين من مساوئ الأعمال...فهؤلاء الناس الذين يُلقون القشور...قشور البطيخ أو البرتقال أو الموز أو غيرها فى الأسواق فى ممرات الناس، لاشك أنهم إذا آذوا المسلمين فإنهم مأزورون...قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

قال العلماء: ولو زلق به حيوان، أو إنسان فانكسر، فعلى مَن وضعه ضمانه... يضمنه بالدية أو بما دون الدية إذا كان لا يحتمل الدية ... المهم أن هذا من أذية المسلمين.

وكذلك ما يفعله بعض الناس من إراقة المياه فى الشوارع والأسواق مما يتسبب فى فساد الأسفلت بسبب أن كثرة المياه تُذيب الأسفلت .. وكذلك فتلك المياه تُسبب الأذى للناس ... فربما تمر سيارة فتُغرق ملابسه بالمياه المختلطة بالأتربة .. إلى غير ذلك.

فينبغى علينا ألا نُلقى أى شىء يؤذى الناس فى الطُّرقات .. وكذلك ينبغى علينا أن نُميط الأذى عن طريق الناس فلنا بذلك صدقة.

۞ **ثم قال ﷺ: «ووجدت فى مساوئ أعمالها النُّخاعة تكون فى المسجد لا تُدفن»** النخاعة يعنى النخامة، وسُميت بذلك لأنها تخرج من النخاع، النخامة تكون فى المسجد لا تُدفَن، لأن المسجد فى عهد الرسول ﷺ مفروش بالحصى الصغار...فالنخامة تُدفَن فى التراب، أما عندنا الآن فليس هناك تراب، ولكن إذا وجدت فإنها تُحَك بالمنديل حتى تذهب.

۞ **قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

قَوْلُهُ ﷺ: «وَوَجدتُ فِى مَسَاوِى أَعمَالِهَا النُّخَاعَةُ تَكُونُ فِى الْمَسْجِدِ لا تُدفَنُ» هَذَا ظَاهِرُهُ أَنَّ هَذَا الْقُبْحَ وَالذَّمَّ لا يَخْتَصُّ بِصَاحِبِ النُّخَاعَةِ بَلْ يَدخُلُ فِيهِ هُوَ

وَكُلُّ مَنْ رَآهَا وَلَا يُزِيلُهَا بِدَفْنٍ أو حَكٍّ ونحوه.

وَفِى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: «**إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِى الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِى رَبَّهُ فَلَا يَبْزُقَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ وَلَكِنْ عَنْ شِمَالِهِ تَحتَ قَدَمِهِ**» فِيهِ نَهْىُ الْمُصَلِّى عَنِ الْبُصَاقِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَهَذَا عَامٌّ فِى الْمَسْجِدِ وَغَيْرِهِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**وَلْيَبْزُقْ تَحْتَ قَدَمِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ**» هَذَا فِى غَيْرِ الْمَسْجِدِ أَمَّا الْمُصَلِّى فِى الْمَسْجِدِ فَلَا يَبْزُقْ إِلَّا فِى ثَوْبِهِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**الْبُزَاقُ فِى الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ**» فَكَيْفَ يَأْذَنُ فِيهِ ﷺ وَإِنَّمَا نَهَى عَنِ الْبُصَاقِ عَنِ الْيَمِينِ تَشْرِيفًا لَهَا ...

وَفِى رِوَايَةِ الْبُخَارِىِّ: «**فَلَا يَبْصُقْ أَمَامَهُ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا**».

قَالَ الْقَاضِى: وَالنَّهْىُ عَنِ الْبُزَاقِ عن يمينه هو مع إمكان غير اليمين فَإِنْ تَعذَّرَ غَيْرُ الْيَمِينِ بِأَنْ يَكُونَ عَنْ يَسَارِهِ مُصَلٍّ فَلَهُ الْبُصَاقُ عَنْ يَمِينِهِ لَكِنِ الْأَوْلَى تَنْزِيهُ الْيَمِينِ عَنْ ذَلِكَ مَا أَمْكَنَ.

وَاعلَمْ أَنَّ الْبُزَاقَ فِى الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ مُطْلَقًا سَوَاءٌ احْتَاجَ إِلَى الْبُزَاقِ أَوْ لَمْ يَحْتَجْ ... بَلْ يَبْزُقُ فِى ثَوْبِهِ فَإِنْ بَزَقَ فِى الْمَسْجِدِ فَقَدِ ارْتَكَبَ الْخَطِيئَةَ وَعَلَيْهِ أَنْ يُكَفِّرَ هَذِهِ الْخَطِيئَةَ بِدَفْنِ الْبُزَاقِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «**وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا**» فَمَعنَاهُ إِنْ ارتَكَبَ هَذِهِ الْخَطِيئَةَ فِعلَيْهِ تكفيرها كما أن الزنى وَالْخَمْرَ وَقَتْلَ الصَّيْدِ فِى الْإِحْرَامِ مُحَرَّمَاتٌ وَخَطَايَا وَإِذَا ارْتَكَبَهَا فِعلَيْهِ عُقُوبَتُهَا ... وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِى الْمُرَادِ بِدَفْنِهَا فَالْجُمْهُورُ قَالُوا الْمُرَادُ دَفْنُهَا فِى تُرَابِ الْمَسْجِدِ وَرَمْلِهِ وَحَصَاتِهِ إِنْ كَانَ فِيهِ تُرَابٌ أَوْ رَمْلٌ أَوْ حَصَاةٌ وَنَحْوُهَا وَإِلَّا فَيُخْرِجُهَا[1].

❊❊❊

(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ٥٥-٥٨) بتصرف كبير.

(١٢٢) الرابع عن أبى ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ ناسًا قالوا: يا رسُولَ الله، ذَهَب أهْلُ الدُّثُور بالأجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّى، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بفُضُولِ أمْوَالهمْ قال: «أوَ لَيْس قَد جَعَلَ الله لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ: إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحة صَدقَة، وكُلِّ تَكبِيرة صدقة، وكلِّ تَحمِيدةٍ صدقة، وكلِّ تهْلِيلَةٍ صَدقَة، وأمرٌ بالمعرُوفِ صدقةٌ، ونَهْىٌ عنِ مُنْكر صدقةٌ وفى بُضْعِ أحدكُمْ صدقةٌ» قالوا: يا رسولَ الله أيأتى أحدُنَا شَهْوَتَه، ويكُونُ لَه فيها أجْرٌ؟، قال: «أرأيْتُمْ لو وضَعهَا فى حرامٍ أكَانَ عليهِ وِزْرٌ؟ فكذلكَ إذا وضَعهَا فى الحلاَلِ كانَ لَهُ أجْرٌ»[1].

۞ فى هذا الحديث يظهر جليًّا كيف كان التنافس بين أصحاب الرسول ﷺ فى فعل الخيرات والحرص على الطاعات.

فلقد ذهب بعضهم إلى النبى ﷺ وقالوا له: «يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأُجور» .. أهل الدُّثور هم أهل الأموال الأغنياء..

ذهب أهل الدثور بالأجور .. أى أنهم استأثروا بالأجور .. فهم يصلون كما نُصلِّى ويصومون كما نصوم ولكن عندهم أموالٌ كثيرة يتصدقون بها ونحن ليس عندنا ما نتصدق به...

فهم يغبطون إخوانهم بما أنعم الله به عليهم من الأموال التى يتصدقون بها .. ولم يقولوا: إخواننا عندهم أموالٌ كثيرة يركبون بها الدواب الفارهة ويسكنون القصور الشاهقة ويلبسون أجمل الثياب ... فهم قد اشتكوا إلى رسول الله شكوى غبطة لا شكوى حسد أو اعتراض على الله عَزَّ وَجَلَّ .. فهم يطلبون من النبى ﷺ أن يدلهم على طاعة يتميزون بها عن هؤلاء الأغنياء الذين يتصدقون بأموالهم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٦) كتاب الزكاة.
«الدُّثُورُ»: الأموالُ، واحِدُها: دَثْرٌ.

فقال النبى ﷺ : «**أَوَ ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به**» يعنى إذا فاتتكم الصدقة بالمال فهناك الصدقة بالأعمال الصالحة «**إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة**».

وهذا مبنى على معنى الصدقة فى الشريعة؛ فإن الصدقة فى الشريعة ليست هى الصدقة بالمال ... والصدقة بالمال نوع من أنواع الصدقة.

فالصدقة إيصال الخير، والنفع للغير؛ ولهذا يوصف الله (جل وعلا) بأنه مُتصدقٌ على عباده. كما ثبت فى صحيح مسلم بن الحجاج رحمه الله أن النبى ﷺ لما سألوه عن مسألة القصر فى السفر.

فقال - عليه الصلاة والسلام -: «**صدقة من الله عليكم، فاقبلوا صدقته**»[1].

فالله (جل وعلا) يتصدق على عباده، بمعنى: يوصل الخير وما ينفعهم لهم... فالصدقة: إيصال الخير للغير، وقد يكون هذا الإيصال متعديًا، وقد يكون لازمًا...يعنى: قد يكون العبد يوصل الخير لنفسه فيكون مُتصدقًا، ويوصل الخير لغيره فيكون متصدقًا على غيره.

ثم انتقل (عليه الصلاة والسلام) إلى نوع من الصدقة مُتَعدٍّ، فقال: «**وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة**» هذا تمثيل لأنواع الصدقات التى فيها النفع المُتَعدِّى... فذكر الأمر بالمعروف ... والمعروف: هو ما عُلِمَ حُسنه ... فما عُرِف فى الشريعة حُسنه، فهو معروف.

والمنكر، ضده: ما عُرف فى الشريعة سُوءه ونكارته، فمن أمر بما عُرف فى الشريعة حُسنه فقد أمر بالمعروف (وأعلاه التوحيد)، ومَن نهى عن المنكر - وهو ما أُنكر فى الشريعة (وأعلاه الشرك بالله - جل وعلا -) فقد نهى عن

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٨٦) كتاب صلاة المسافرين.

المنكر... فإذًا كل أمرٍ بمعروف صدقة لك، وكل نهيٍ عن المنكر صدقة.

وتعليم العلم يدخل في ذلك، فهو من أنواع الصدقات، فمن لازم العلم تعلُّمًا وتعليمًا فإنه يتصدق في كل لحظة تمر عليه على نفسه، وكذلك على غيره؛ ولهذا أهل العلم أعظم الناس أجورًا إن صلحت نياتهم[1].

۞ ولكن لا بُدَّ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شروط:

الشرط الأول: أن يكون الآمر الناهي عالمًا بحكم الشرع، فإن كان جاهلاً فإنه لا يجوز أن يتكلم.

فمن منكرات الأمور: أن يتكلم الإنسان عن الشيء يقول: إنه معروف وهو لا يدري أنه معروف أو يقول: إنه منكر وهو لا يدري أنه منكر.

الشرط الثاني: أن يكون عالمًا بأن المُخاطَب قد ترك المأمور أو فعل المحظور.

الشرط الثالث: أن لا يترتب على النهي عن المنكر ما هو أنكر منه، فإن تَرتَّب على ذلك ما هو أنكر منه، فإنه لا يجوز من باب درء أعلى المفسدتين بأدناهما.

فلو فُرض أن شخصًا وجدناه على منكرٍ كأن يشرب الدخان مثلاً، ولو نهيناه عن شرب الدخان ذهب يشرب الخمر، فإننا لا ننهاه إذا كنا نعلم أن هذا الرجل سيُقْدِم على ما هو أعظم فإننا لا ننهاه عن شرب الدخان عندئذ، لماذا؟ لأن شرب الدخان أهون من شرب الخمر...ودليل هذه المسألة قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٨].

فسبُّ آلهة المشركين مصلحة مشروعة، لكن إذا ترتَّب عليها سب الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أهلٌ للثناء والمجد فإنه يُنهَى عنه.

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص ٢١٤-٢١٥) بتصرف.

فالحاصل أنه لَا بُدَّ أن لا يؤدى الإنكار إلى ما هو أنكر من المنكر؛ درءًا لأعلى المفسدتين بأدناهما.

ثم إنه يجب على الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يَنْوِىَ بهذا إصلاح الخلق، لا الانتصار عليهم(١).

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالثَّوَابُ فِى الْأَمْرِ بِالْمَعرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَكْثَرُ مِنْهُ فِى التَّسْبِيحِ وَالتَّحمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعرُوفِ وَالنَّهْىَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرضُ كِفَايَةٍ وَقَد يَتَعَيَّنُ وَلَا يُتَصَوَّرُ وُقُوعُهُ نَفْلًا ... وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّحمِيدُ وَالتَّهْلِيلُ نَوَافِلُ ... وَمَعلُومٌ أَنَّ أَجْرَ الْفَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ أَجْرِ النَّفْلِ لِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**».

وَقَد قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ مِنْ أَصحَابِنَا عَنْ بَعضِ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ ثَوَابَ الْفَرضِ يَزِيدُ عَلَى ثَوَابِ النَّافِلَةِ بِسَبْعِينَ دَرَجَةً(٢).

❁ ثم قال النبى ﷺ: «**وفى بُضع أحدكم صدقة**».

يعنى إذا أتى الرجل امرأته فى الحلال يريد بذلك إعفافها وإعفاف نفسه أو ينوى بذلك أن يرزقه الله الذرية الصالحة فإن ذلك يكون له به صدقة.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِى هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ فَالْجِمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعرُوفِ الَّذِى أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ أَوْ إِعفَافَ نَفْسِهِ أَوْ إِعفَافَ الزَّوْجَةِ وَمَنْعَهُمَا جَمِيعًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ أَوَ الْفِكْرِ فِيهِ أَوِ الْهَمِّ بِهِ أَوْ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ(٣).

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٩٠).

(٢)، (٣) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٢٨) بتصرف.

يعنى أنه لو زنى ووضع شهوته فى الحرام كان عليه وزر ... وكذلك إذا استغنى بالحلال عن الحرام وجامع زوجته فى الحلال فله أجر.

ومن ذلك أيضًا: إذا أكل الإنسان طعامًا، فإنه ينال شهوته بالأكل والشرب، ومع ذلك لكونه يستغنى به عن الحرام فإنه يُكتب له به أجر، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبى وقاص: «**وَاعلَم أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِى بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِى فِيِّ امْرَأَتِكَ**»[(1)]، كما روى الشيخان عن أبى مسعود الأنصاريّ عن النّبىّ ﷺ قال: «**إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة**»[(2)].

۞ وهذه من منن الله العظيمة على أفراد هذه الأمة إذ جعل لهم من أعمالهم الدنيوية التى يقومون بها بالليل والنهار- وهم مضطرون إليها ولا ينفكون عنها- جعل لهم فيها أجرًا وثوابًا إذا هم قاموا بها إيمانًا واحتسابًا، تقرُّبًا إلى الله وطلبًا لفضله ومرضاته... ومن تلك الأعمال النفقة على الأهل وإطعام الزوجة اللقمة فى فمها، وحتى معاشرتها لقضاء الوطر.

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم مِنة الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأمة ... ومظاهر ذلك:

(١) أن الله جعل ما يفعله العبد ويقوم به من العادات كالإنفاق على الأهل والولدان، وما يتلذذ به كمضاجعة الزوجة وإطعامها اللقمة فى فمها، جعل منها أعمالًا يُؤجَر عليها العبد وتكون فى ميزان أعماله يوم القيامة عبادات...

قال الإمام النووى: (إن الحظ إذا وافق الحق لا يقدح فى ثوابه؛ لأن وضع اللقمة فى فم الزوجة يقع غالبًا فى حال المداعبة، ولشهوة النفس فى ذلك مدخلٌ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٥١) كتاب النفقات، ومسلم (١٠٠٢) كتاب الزكاة.

ظاهر ومع ذلك إذا وجد القصد فى تلك الحالة إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله)[1].

(٢) مكّن الله عَزَّوَجَلَّ عبده المؤمن أن يكون دائمًا متصلًا به مُستحضرًا ثوابه ورؤيته له، وذلك بأن شرع له أن يبتغى وجهه الكريم فى كل عملٍ يقوم به سواء كان هذا العمل فيه مجاهدة أو كان لذة للنفس.

(٣) إرادة الله عَزَّوَجَلَّ الشرعية أن يغتنم العبد كل وقته بما يفيده وينفعه فى الآخرة، فلا يُضيع على نفسه شيئًا من عمره هباءً، لقدرته على أن يكون كل عمله بأجرٍ وثواب، ويتفرع عليه عظيم قدر وقت المؤمن إذ يمكنه أن يستثمره كله فى طاعته سبحانه وتعالى.

(٤) يسَّر- سبحانه وتعالى- لكل مسلمٍ أبوابًا من الخير كثيرة، ضمن بها لكل عبدٍ ألا يعدم عملًا صالحًا له فيه الأجر والثواب... فمَن مِنَّا يعجز أن ينوى بنومه ليلًا التقوِّى للعبادة وأداء صلاة الفجر فى جماعة المسلمين وكذلك إذا أكل وشرب ... ومَن منَّا يعجز أن يجامع زوجته بنية إنجاب الذرية الصالحة التى تقوم بأمر الدين وهكذا.

ويتبين من ذلك أن الكثير منا مغبون يضيع عليه حسنات كثيرة لعدم استحضار النية عند قيامه بعاداته.

(٥) كرمه عَزَّوَجَلَّ حيث يقبل- مع غناه عن العباد وافتقارهم إليه- القليل ويثيبهم عليه ... ودليله قوله ﷺ: «**إذا أنفق المسلم نفقة**» . قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحذف المقدار من قوله: «**إذا أنفق**» لإرادة التعميم ليشمل الكثير والقليل»[2].

وأقول: إن تنكير كلمة «**نفقة**» يفيد التحقير ... أى أدنى نفقة. كما أن من

---

(١) نقله ابن حجر فى الفتح (١/ ١٣٧) من كلام النووى رحمه الله تعالى.

(٢) فتح البارى (٩/ ٤٩٨) .

كرمه- سبحانه وتعالى- أنه هو الذى رزق العباد ثم إذا هم أنفقوها فيما يحبونه ويتلذذون به باحتسابٍ ونية أثابهم على ذلك.

الفائدة الثانية: من شروط قبول العبادة واستحقاق العباد الأجر والثواب عليها أن يبتغى العبد بها وجه الله ... أى يطلب بها ثواب الله ورضاه والتقرُّب إليه، وأن يقصد بالقيام بها طلب الأجر، وهو المقصود من قوله ﷺ: «**وهو يحتسبها**»، ولكن كيف يحتسب العبد النفقة على أهله.

قال الإمام النووى: (وطريقه فى الاحتساب أن يتذكر أنه يجب عليه الإنفاق على الزوجة وأولاده وغيرهم ممن تجب نفقته على حسب أحوالهم واختلاف العلماء فيهم وأن غيرهم ممن ينفق عليه مندوب إلى الإنفاق عليهم فينفق بنية أداء ما أُمر به وقد أُمر بالإحسان إليهم)[1].

الفائدة الثالثة: كل عمل يستطيع كسبه من الحرام فيعدل عنه إلى الحلال والمشروع من الدين فإن له فيه أجرًا، لقوله ﷺ: «**أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟! فكذلك إذا وضعها فى الحلال**»، فالرجل الذى يستطيع أن يكسب عيشه من حرام فعفَّ عنه والتمس رزقًا حلالًا كان له فى ذلك أجر[2].

(١٢٣) الخامس عن أبى ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال لى النبىُّ ﷺ: «لَا تَحقِرَنَّ مِنْ الْمَعرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[3].

احرص على أن تفعل أى معروفٍ وأن تعمل أى خيرٍ ولا تحتقر أى معروفٍ مهما كان فلربما تحتاج يوم القيامة حسنة واحدة تدخل بها الجنة .. فأنت لا تدرى ما العمل الذى ستدخل به الجنة.

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (٧/ ٨٩) .

(٢) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة والآداب.

فقد تقوم الليل كله تصلى وتبكى من خشية الله .. فإذا أصبح الصباح وخرجت من بيتك ذاهبًا إلى عملك فرأيت طفلًا يتيمًا فمسحت على رأسه وأعطيته قطعة شيكولاتة صغيرة... فلربما تدخل الجنة بما فعلته مع ذلك الطفل اليتيم... وليس في ذلك تقليل لشأن القيام .. لكن أفضل الأعمال ما تعدَّى نفعُه للغير.

فإذا وجدت خيرًا تظن أن ثوابه قليل فلا تحتقر هذا الخير وافعله عسى أن يكون سببًا لدخولك الجنة.

۞ قوله ﷺ: «ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق».

فربما تدخل الجنة ببسمة ابتسمتها فى وجه مسلمٍ يائسٍ من الحياة فأعدت إلى قلبه الأمل ببسمتك .... ولذا أخبر النبى ﷺ أن **«تَبسُّمك فى وجه أخيك لك صدقة»**.

ولذا فعليك أن تُكثر من التبسُّم.

فهذا هو هدى نبينا ﷺ... فعن عبد الله بن الحارث بن جزءٍ رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحدًا أكثر تبسُّمًا من رسول الله ﷺ»(١).

واعلم أن ثمرات التبسُّم لا تقتصر على تكثير الحسنات وتكفير السيئات وكسب قلوب الناس بل إنه يبعث على السرور والانشراح ويجعلك تستمتع بمباهج الحياة.

***

(١٢٤) السادس: عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صدَقةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ: تعدِلُ بين الاثنينِ صدَقَةٌ، وتُعِينُ الرَّجُل فى دابَّتِهِ، فَتحمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ ترفَعُ علَيْهَا متاعَهُ صدقةٌ، والكلمةُ الطَّيِّبةُ صدَقةٌ،

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى مختصر الشمائل (١٩٤)، هداية الرواة (٤٦٧٦).

وبِكُلِّ خَطْوةٍ تَمْشيها إلى الصَّلاَةِ صدقَةٌ، وَتُميطُ الأذى عَن الطريق صَدَقةٌ»(١).

ورواه مسلم أيضًا من رواية عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّه خُلِقَ كُلُّ إنْسانٍ مِنْ بنى آدم علَى سِتِّينَ وثلاثمائَة مِفْصلٍ، فَمنْ كَبَّر الله، وحمدَ الله، وهَلَّلَ الله، وسبَّحَ الله، واستَغْفَر الله، وعَزلَ حَجرًا عنْ طَريقِ النَّاسِ أوْ شَوْكَةً أوْ عظْمًا عن طَرِيق النَّاس، أوْ أمر بمعرُوفٍ أوْ نَهى عنْ مُنْكَرٍ، عَددَ السِّتِّينَ والثَّلاَثمائة، فَإِنَّهُ يُمْسى يَوْمِئذٍ وَقَد زَحزحَ نفْسَهْ عنِ النَّارِ».

قال الإمام النووى رحمه الله:

قوله ﷺ: «**كل سُلامى من الناس عليه صدقة**» السُّلاَمَى: أعضاء الإنسان، وذكر أنها ثلاثمائة وستون عضوًا. على كل عضو منها صدقةٌ كل يوم، وكل عمل برٍّ من تسبيح أو تهليل أو تكبير أو خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، فمن أدى ركعتين من أول يومه فقد أدَّى زكاة بدنه فيحفظ بقيته.

وجاء فى الحديث أن ركعتين فى الضحى تقوم مقام ذلك(٢).

وفى الحديث: «**يقول الله تعالى: يا ابن آدم، صلِّ لى أربع ركعات فى أول النهار أكفك آخره**»(٣).

قوله ﷺ: « **كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ** » يعني كل يوم يصبح على كل عضوٍ من أعضائنا صدقة، أي: ثلاثمائة وستون في اليوم، فيكون في الأسبوع ألفان وخمسمائة وعشرون. لكن من نعمة الله أن هذه الصدقة عامة في كل القربات، فكل القربات صدقات، وهذا شيء ليس بصعبٍ على الإنسان ، ما دام كل قربة صدقة ... فما أيسر أن يؤدي الإنسان ما يجب عليه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٨٩) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٠٠٩) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٩).

۞ ثم قال ﷺ: « تعدِلُ بين الاثنينِ صدَقَةٌ» تعدل أي: تفصل بينهما إما بصلحٍ وإما بحكمٍ... والأَولَى العدل بالصلح إذا أمكن ما لم يتبين للرجل أن الحكم لأحدهما، فإن تبين أن الحكم لأحدهما حرم الصلح ... وهذا قد يفعله بعض القضاة، يحاول أن يصلح مع علمه أن الحق مع المُدَّعِي أو المُدَّعَى عليه، وهذا مُحرم؛ لأنه بالإصلاح لا بُدَّ أن يتنازل كل واحد عما ادَّعاه فيُحال بينه وبين حقه.

إذًا ... العدل بين اثنين بالصلح أو بالحكم يكون صدقة ... لكن إن علم أن الحق لأحدهما فلا يُصلح، بل يحكم بالحق.

۞ « وتُعِينُ الرَّجُل فى دابَّتِهِ » كأن تساعده على ركوب دابته أو سيارته إن كان عاجزًا عن ذلك .. أو ترفع له متاعه على الدابة أو تضع متاعه فى شنطة السيارة فهذا كله صدقة فى ميزان حسناتك...

۞ « والكلمةُ الطَّيِّبةُ صدَقةٌ » فقد تقول كلمة تكون سببًا فى هداية إنسان من الكفر إلى الإسلام أو من المعصية إلى الطاعة .. وقد تقول كلمة تواسى بها حزينًا أو تُصلح بها بين مُتخاصمين أو تفتح الأمل فى قلب يائسٍ أو تُرضى بها والديك أو غير ذلك.

۞ « وبِكُلِّ خَطْوةٍ تَمْشيها إلى الصَّلاَةِ صدقَةٌ» أى: صدقة على نفسك.. لأنك بكل خطوة تفوز بحسنة وتُمحَى عنك سيئة وتُرفَع بها درجة.

۞ «وَتُميطُ الأذَى عَن الطريق صَدَقةٌ » لأنك بذلك تُزيل الأذى عن طريق الناس فتكون سببًا فى نجاتهم من الأذى الذى قد يحدث لهم من الشوك أو الزجاج أو الأحجار أو القمامة التى تُلقَى على الطريق أو غير ذلك .. فتكون بذلك سببًا فى نفع الناس ودفع الأذى عنهم فى آنٍ واحدٍ .. فكل هذا من الصدقات.

۞ فالشاهد: أن النبى ﷺ يحثنا على أن نُكثر من فعل الخيرات ومن فعل المعروف الذى يعود بالخير على أنفسنا وعلى كل الناس من حولنا.

(١٢٥) السابع: عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَنْ غدَا إلى المَسْجِدِ أو رَاحَ، أعدَّ الله لَهُ فى الجنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدا أوْ رَاحَ»(١).

۞ كتب سلمانُ رضي الله عنه إلى أبى الدرداء رضي الله عنه: يا أخى، عليك بالمسجد فالزمهُ؛ فإنى سمعتُ رسُول الله ﷺ يقول: «المَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ مُؤْمِنٍ»(٢).

ما أجمل أن تتعلق قلوبنا بالمساجد فنَسعد حين نذهب إلى المساجد ونشعر بالغربة والوحشة عندما نخرج منها.

فالمسلم لا يكتفى بمجرد صلاته فى المسجد بل يحرص كل الحرص على أن يعتكف فى المسجد ويحضر دروس العلم فيه ويجلس فى حلقات تلاوة القرآن ليتعلم كيف يقرأ كتاب الله... فهو إنسان قد تعلق قلبه ببيت الله (جل وعلا).

۞ والنبى ﷺ فى هذا الحديث يخبر أن (مَن غدا إلى المسجد) أى: مَن ذهب إلى المسجد غدوة .. أى ذهب أول النهار .. وذلك مثل أن يذهب لصلاة الفجر ... «أو راح» الرواح يُطلق على ما بعد الزوال .. مثل الذهاب إلى المسجد فى صلاة الظهر أو العصر.

وقد يُطلق الرواح على مجرد الذهاب، كما فى قول النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث أبى هريرة: «**مَن اغتسل يوم الجمعة ثم راح فى الساعة الأولى...**» فإن معنى راح فى الساعة الأولى: أى ذهب إلى المسجد فى الساعة الأولى، لكن إذا ذُكرت الغدوة مع الرواح، صارت الغدوة أول النهار والرواح آخر النهار.

۞ فمن غدا إلى المسجد أو راح من أجل الصلاة أو طلب العلم أوالاعتكاف

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.
«النُّزُل» : القُوتُ والرِّزْقُ ومَا يُهَيَّأ للضَّيْفِ.

(٢) حسن: رواه أبو نعيم فى الحلية ، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٧٠٢).

أو قراءة القرآن طلبًا لمرضاة الله فإن الله يُعد له نزلًا فى الجنة كلما غدا أو راح .. والنُّزل: هو ما يُعَدُّ للضيف .. ولك أن تتصور ما أعدَّه الله فى الجنة لضيوف الرحمن رُوَّاد المساجد فقد قال تعالى: «أَعدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ فِي الجَنَّة مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[١].

(١٢٦) الثامن: وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يا نِسَاء المُسْلِماتِ لا تَحقِرنَّ جارَةٌ لِجارَتِها ولَوْ فِرْسِنَ شاةٍ»[٢].

۞ إن للجار منزلة عظيمة فى الإسلام .. فقد أوصى الله عَزَّ وَجَلَّ بالإحسان إلى الجار .. وكذلك أوصى النبى ﷺ بالإحسان إلى الجار.

قال الله سبحانه: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى[٣] وَالْجَارِ الْجُنُبِ[٤]﴾ [النساء: ٣٦].

وعن ابن عُمرَ وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصينى بالجار، حتى ظننت أنه سيُورثه[٥]»[٦].

۞ وفى هذا الحديث يوصى النبى ﷺ النساء المسلمات بالإحسان إلى الجارة.

فقال ﷺ: «يا نِسَاء المُسْلِماتِ لا تَحقِرنَّ جارَةٌ لِجارَتِها ولَوْ فِرْسِنَ شاةٍ».

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٦٦) كتاب الهبة، ومسلم (١٠٣٠) كتاب الزكاة.
قال الجوهرى: الفِرْسِنُ مِنَ الْبعيرِ: كالحافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ، قال: ورُبَّمَا اسْتُعِير فى الشَّاةِ.

(٣) الجار ذى القربى: الذى بينك وبينه قرابة.

(٤) الجار الجُنب: الذى ليس بينك وبينه قرابة.

(٥) أى: ظننت أنه سيبلغنى عن الله الأمر بتوريث الجار جاره. وفى هذا توكيدٌ عظيمٌ على الحثِّ على رعاية حقوقه.

(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٢٤) كتاب البر والصلة والآداب.

والفِرسِن من البعير كالحافر من الدابة .. وربما استُعير فى الشاة.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَعناهُ: لَا تَمْتَنِعُ جَارَةٌ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْهَدِيَّةِ لِجَارَتِهَا لِاسْتِقْلَالِهَا وَاحتِقَارِهَا الْمَوْجُودَ عِنْدَهَا بَلْ تَجُودُ بِمَا تيَسَّرَ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا كَفِرْسِنِ شَاةٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْعَدَمِ ... وَقَد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ وقال النبى ﷺ: «اتقوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[(١)].

فإذا كان عندك حفنة من التمر أو بعض الخبز أو أى شىء ولو كان ليس له قيمة عندك فلا حرج أن تقدميه هدية لجارتك .. فقد قال النبى ﷺ لأبى ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَد جِيرَانَكَ»[(٢)]، فإن الهدية تجلب المحبة بين القلوب ولذا قال ﷺ: «تَهَادُوا تَحَابُوا»[(٣)].

(١٢٧) التاسع: وعن أبى هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «الإيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعبَةً، فَأَفْضلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأدنَاهَا إِمَاطَةُ الأذى عنِ الطَّرِيقِ، وَالحيَاء شُعبةٌ مِنَ الإيمانِ»[(٤)].

۞ ففى هذا الحديث يوضح النبى ﷺ أن الإيمان ليس شُعبة واحدة ولا خصلة واحدة ولكنه شُعَبٌ كثيرة تصل إلى بضعٍ وسبعين شعبة .. يعنى من ثلاثٍ وسبعين إلى تسعٍ وسبعين شُعبة ... ولكن أفضلها كلمة واحدة ألا وهى: لا إله إلا الله.. التى من أجلها خلق الله السماوات والأرض وأنزل الكتب

(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٦٨).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٥) كتاب البر والصلة والآداب.
(٣) حسن: رواه أبو يعلى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٠٤).
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.
«البِضْعُ» من ثلاثة إلى تسعةٍ، بكسر الباء وقد تُفْتَحُ - «والشُّعبةُ»: القطْعة.

وأرسل الرسل وخلق الجنة والنار ... فمن قال لا إله إلا الله وعاش من أجلها ومات عليها أدخله الله الجنة.. ومَن أَبَى أن يقولها وعاش على الشرك والكفر ولم يَتُب ومات على ذلك أدخله الله النار.

۞ ولا يقبل الله من الإنسان أى شُعبة من شُعب الإيمان إلا إذا صَحَّ توحيده وصحَّت عقيدته وتحققت عنده شروط لا إله إلا الله وهى: العلم واليقين والقبول والانقياد والصدق والإخلاص والمحبة ... فهى سبعة شروط لا بد من تحقيقها.

وَقَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو حَاتِمِ ابْنُ حِبَّانَ: تَتَبَّعتُ مَعنَى هَذَا الْحَدِيثِ مُدَّةً، وَعَدَدتُ الطَّاعَاتِ، فَإِذَا هِيَ تَزِيدُ عَلَى هَذَا الْعَدَدِ شَيْئًا كَثِيرًا، فَرَجَعَتُ إِلَى السُّنَنِ، فَعَدَدتُ كُلَّ طَاعَةٍ عَدَّهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْإِيمَانِ، فَإِذَا هِيَ تنقص عَنِ الْبِضْعِ وَالسَّبْعِينَ، فَرَجَعَتْ إِلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، فَقَرَأْتهُ بِالتَّدَبُّرِ، وَعَدَدتُ كُلَّ طَاعَةٍ عَدَّهَا اللهُ تَعَالَى مِنَ الْإِيمَانِ فَإِذَا هِيَ تَنْقُصُ عَنِ الْبِضْعِ وَالسَّبْعِينَ، فَضَمَمْتُ الْكِتَابَ إِلَى السُّنَنِ وَأَسْقَطتِ الْمُعَادَ فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ عَدَّهُ اللهُ تَعَالَى وَنَبِيُّهُ ﷺ مِنَ الْإِيمَانِ: تِسْعٌ وَسَبْعُونَ شُعبَةً، لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا تَنْقُصُ، فَعَلِمْتُ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ هَذَا الْعَدَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ[1].

۞ **وقد يسأل سائلٌ ويقول: ولماذا لم يذكر النبي ﷺ تلك الشُّعَب كلها؟**

والجواب: لم يذكرها النبي ﷺ لأجل أن يجتهد الإنسان بنفسه، ويتتبع نصوص الكتاب والسُّنة حتى يجمع هذه الشُّعَب ويعمل بها... وهذا كثير أي أنه يكون في القرآن والسُّنة أشياء مُبهمة يُبهمها الله ورسوله ﷺ من أجل امتحان الخلق ليتبين الحريص من غير الحريص.

فمثلاً ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، أو في السبع الأواخر من

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ٦-٧).

رمضان، لكن لا تعلم في أي ليلة هي، من أجل أن يحرص الناس على العمل في كل الليالي رجاء هذه الليلة، ولو عُلمت بعينها لاجتهد الناس في هذه الليلة وكسلوا عن بقية الليالي... ومن ذلك ساعة الإجابة في يوم الجمعة: «**فيها ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه**»(١) هذه أيضًا مُبهمة من أجل أن يحرص الناس على التحرِّي والعمل... كذلك في كل ليلة ساعة إجابة لا يوافقها أحدٌ يدعو الله سبحانه وتعالى إلا استجاب له.

كذلك أخبر النبي (عليه الصلاة والسلام): «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا مَن أحصاها دخل الجنة»(٢) ولم يعدها.

وعلى هذا فإن قول النبي ﷺ هنا: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة»، ترك تعيينها من أجل أن نحرص نحن على تَتبُّعها في الكتاب والسُّنة، حتى نجمع هذه الشُّعب، ثم نقوم بالعمل بها، وهذا من حكمة النبي ﷺ التي آتاه الله تعالى.

يقول الرسول ﷺ عن هذه الشُّعب: «أفضلها» أو «أعلاها قول: لا إله إلا الله» هذه الكلمة العظيمة لو وزنت السموات السبع والأرضين السبع وجميع المخلوقات لرجحت بهن، لأنها أعظم كلمة، وهي كلمة التوحيد **التي إذا قالها** الإنسان صار مسلمًا، وإذا استكبر عنها صار كافرًا... فهي **الحَدُّ الفاصل بين** الإيمان والكفر.

ولذلك كانت أعلى شُعب الإيمان وأفضلها: «لا إله إلا الله»؛ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله (عز وجل)، فكل المعبودات من دون الله باطلة إلا الله وحده لا شريك له.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩٣٥) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٢) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٩٢) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٧) كتاب الذكر والدعاء.

«**أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها**» يعني الشيء الهين «**إماطة الأذى عن الطريق**»... «**الأذى**»: ما يؤذي المارة من شوكٍ أو خشبٍ أو حجر أو غير ذلك... فإماطة الأذى عن الطريق من شُعب الإيمان، وهذا يدل على سعة الإيمان وأنه يشمل الأعمال كلها.

«**والحياء شعبة من الإيمان**»، فالحياء من الله يُوجب للعبد أن يقوم بطاعة الله، وأن ينتهي عما نهى الله...والحياء من الناس يُوجب للعبد أن يستعمل المروءة، وأن يفعل ما يُجمله ويُزينه عند الناس، ويتجنب ما يُدنسه ويشينه، فالحياء كله من الإيمان.

وسُئل النبي (عليه الصلاة والسلام) عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**»، فإذا جمعت هذا الحديث بذاك الحديث الآخر تَبيَّن لك أن الإيمان كما ذهب إليه أهل السُّنة والجماعة يشمل العقيدة، ويشمل القول، ويشمل الفعل...فيشمل عمل القلب – عقيدة القلب وعمل القلب – وقول اللسان وعمل الجوارح.

«**لا إله إلا الله**»: هي قول اللسان...«**إماطة الأذى عن الطريق**»: عمل الجوارح، «**الحياء**»: عمل القلب، «**الإيمان بملائكته وكتبه**»: اعتقاد القلب.

فالإيمان عند أهل السُّنة والجماعة يتضمن كل هذه الأربعة: اعتقاد القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح...وأدلة ذلك من الكتاب والسُّنة كثيرة.

في هذا الحديث: حَثٌّ على إماطة الأذى عن الطريق، لأنه إذا كان من الإيمان فافعله يزدد إيمانك ويَكمُل....فإذا وجدت أذى في الطريق؛ حجرًا أو زجاجًا أو شوكًا أو غير ذلك، فأزله فإن هذا من الإيمان[1].

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٢/ ٣٦٧-٣٦٨) بتصرف.

(١٢٨) العاشر : وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشى بطَرِيق اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوجد بِئرًا فَنزَلَ فيها فَشَرِبَ، ثُمَّ خرج فإذا كلْبٌ يلهثُ يَأكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فقال الرَّجُلُ: لَقَد بلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ العطشِ مِثْلُ الَّذى كَانَ قَد بَلَغَ مِنِّى، فَنزَلَ الْبِئْرَ فملأ خُفَّه مَاءً ثُمَّ أَمْسَكه بِفِيهِ، حتَّى رَقِىَ فَسَقى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَه فَغفَرَ لَه». قَالُوا: يا رسولَ الله إِنَّ لَنَا فى الْبَهَائم أَجرًا؟ فَقَالَ: «فى كُلِّ كَبِدٍ رَطْبةٍ أَجْرٌ»[١].

وفى رواية للبخارى: «فَشَكَر الله لهُ فَغفَرَ له، فَأدخَلَه الْجنَّةَ» .

وفى رواية لَهُما: «بَيْنَما كَلْبٌ يُطيف بِرَكِيَّة قَد كَادَ يقْتُلُه الْعطَشُ إِذْ رأتْه بَغِىٌّ مِنْ بَغَايا بَنِى إِسْرَائيلَ، فَنزَعَتْ مُوقَهَا فاسْتَقت لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ فَغُفِر لَهَا بِهِ» .

۞ هاتان قصتان لرجلٍ وامرأة، رأى كُلٌّ منهما كلبًا عطشًا ، فرَحِمَه وسقاه، فشكر الله لكُلٍّ منهما، وغفرَ له ذنوبه ... وهكذا الإحسان إلى الحيوان تُغفر به الذنوب، ويُقرب العبد إلى ربه.

۞ أما الرجل فإنه كان يسير خارج دياره ، بعيدًا عن المساكن ، فعطش عطشًا شديدًا، فمرَّ ببئرٍ لا يوجد عليها سقاء، فنزل إلى أسفل البئر، فشرب حتى ارتوى، وصعد، فوجد كلبًا قد عطش عطشًا شديدًا، ولشدة عطشه كان يمد لسانه فيضعه على التراب الرطب الذى بجوار البئر، ليخفف العطش الذى به.

لقد ميَّز الله الإنسان بخصائص لا تملكها كثيرٌ من الحيوانات، ومن ذلك قدرة الإنسان على الاستسقاء من البئر بالدلو إن وجد، أو بالنزول إلى أسفل البئر كما فعل ذلك الرجل ... أما هذا الكلب فلا يستطيع أن يفعل شيئًا من ذلك، وكان سيهلك عطشًا إن لم يسقه أحد.

نظر الرجل إلى ذلك الكلب العطش، وتذكَّر حاله قبل أن يروى ظمأه، فقد بلغ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٦٣) كتاب الشرب والمساقاة، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام.
«الْمُوقُ»: الْخُفُّ - «وَيُطِيفُ» : يَدُورُ حَوْلَ «رَكيَّةٍ» وَهىَ الْبِئْرُ.

العطش بالكلب مثل الحال التى كانت به، ولكن أنَّى له أن يسقى الكلب، ولا دلو عنده ينزع به الماء، لقد نزل بنفسه إلى البئر فشرب، أما الكلب فلا بد من حمل الماء إليه ليشرب، ولم يجد وسيلة لإخراج الماء من البئر إلا بنزع خُفِّه ونزول البئر، ونقل الماء بها إلى الكلب ... وبما أنه لا يستطيع أن يمسك الخُفَّ بيديه لحاجته إلى يديه طليقتين كى يتمكن من نزول البئر وصعوده باستعماله لهما.

والإنسان يأنف أن يحمل خُفَّه بفمه ... فالخُف لباس الرجل، يدوس الإنسان به الأرض، وقد يكون قذرًا، وقد تفوح منه روائح عفنة، ولا يكاد الإنسان يُقرب فى العادة خُفَّه أو نَعله من فمه وأنفه، فضلًا عن أن يحمله بفمه.

ولكن قوة الرحمة التى حلَّت فى قلبه دفعته إلى فِعل ما فعله، فسقى الكلب بهذه الطريقة، فشكر الله له فِعله، وغفر له ذنبه، وأدخله رحمته.

۞ أما المرأة التى سقت كلبًا فغفر لها، فإنها إحدى بغايا بنى إسرائيل اللواتى كنَّ يتعاطين الزنا ، ويجعلنه مهنة يرتزقن منها، وعلى الرغم من مشاركتها للرجل فى رحمتها للكلب العطش، ومغفرة الله لها بفعلها ذاك، فإن بينهما فروقًا بيِّنة.

فقد كانت المرأة أعظم ذنبًا من الرجل؛ لأنها كانت تتعاطى الزنا، ولم يُذكر مثل ذلك فى الرجل ... فذنبها أشد وأعظم من هذه الجهة، ولم تكن قبل سقيها الكلب عَطِشة لبُعدها عن ديارهما كما كان الرجل ... وهذا الفرق بينهما يجعل دافِع سقى الكلب عند المرأة دافعًا ذاتيًّا؛ لأن الرجل عندما رأى حال الكلب كان قد عانى من العطش مثل الذى عاناه الكلب، أما المرأة فلم يقع لها ذلك، ولذا فإن الدافع لها هو تألُّمها لرؤية الكلب العَطِش ورحمتها إياه، ولم تمر بتجربة مشابهة لحالة الكلب فى عطشه كما حصل مع الرجل.

ولكن معاناة الرجل فى سقيه الكلب كانت أشد من معاناة المرأة.

فالمرأة جاءت إلى البئر، وكان ماؤه قريبًا، فلما لم تجد دلوًا تُخرج الماء به

خلعت موقها، وهو الحذاء أو الخُف، وربطته بخمارها، وجعلته بذلك سقاءً تستقى به من البئر، فأخرجت الماء بهذه الطريقة، وسقت الكلب.

أما الرجل فيبدو أن ماء البئر كان بعيدًا، وليس عنده من الثياب ما يكفى لربط خُفِّه، ونزع الماء بالطريقة التى تحدثنا عنها آنفًا، ولذا فإنه بذل جهدًا مُضاعَفًا، وحَمَلَ الماء بطريقة يأنف كثيرٌ من الرجال والنساء أن يحمل الماء بها.

وعلى الرغم من الفروق التى بين حالى الرجل والمرأة إلا أن الله غفر لِكُلٍّ منهما، وقد اشتركا فى عملٍ واحد... فقد رَحِمَ كُلٌّ منهما كلبًا عَطِشًا، وسقاه، فرحمه الله برحمته للكلب، وغفر له[1].

وهذا مصداق قول النبى عليه الصلاة والسلام: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله**»[2] عملٌ يسير شكر الله به عامل هذا العمل، وغفر له الذنوب، وأدخله الجنة.

ولما حدَّث النبى ﷺ الصحابة بهذا الحديث، وكانوا رضي الله عنهم أشد الناس حرصًا على العلم، لا من أجل أن يعلموا فقط، ولكن من أجل أن يعلموا فيعملوا، سألوا النبى عليه الصلاة والسلام، قالوا: يا رسول الله، إن لنا فى البهائم أجرًا؟ قال: «**فى كل ذات كبدٍ رطبة أجر**» لأن هذا كلب من البهائم، فكيف يكون لهذا الرجل الذى سقاه هذا الأجر العظيم ... فاستغربوا ذلك ولهذا سألوا النبى ﷺ فقال: «**فى كل ذات كبدٍ رطبة أجر**» الكبد الرطبة تحتاج إلى الماء؛ لأنه لولا الماء ليبست وهلك الحيوان.

(١٢٩) الحادى عشَرَ: وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لَقَدْ رأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرةٍ قطعَها مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤذِى الْمُسلِمِينَ»[3].

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر رحمه الله (ص ٢٢٥-٢٢٦).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٨٨) كتاب الرقاق.
(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة.

وفي رواية: «مرَّ رجُلٌ بِغُصن شَجرةٍ عَلَى ظَهْرِ طرِيقٍ فقَالَ: والله لأُنَحِّينَّ هذا عنِ الْمسلِمِينَ لا يُؤْذيهِمْ، فأُدخِلَ الْجَنَّةَ».

وفي رواية لهما: «بيْنَما رجُلٌ يمشِي بِطريقٍ وجد غُصن شَوْكٍ علَى الطَّرِيقِ، فأَخَّرُه فشَكَر الله لَهُ، فغَفر لَهُ».

۞ أخبرنا رسول الله ﷺ أن الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ويخبرنا رسولنا ﷺ في قصة هذا الحديث أن رجلًا أدخله الله الجنة بتنحيته غُصن شوكٍ عن طريق المسلمين حتى لا يُؤذيهم.

۞ فهذا الحديث يحكي قصة رجلٍ كان مارًّا في إحدى الطرقات، فوجد غُصن شجرة ذات شوكٍ يمتد على طريق المسلمين، فيتأذى منه المارُّون، فعزم على قطع ذلك الغصن، وإبعاده عن الطريق، وكان هدفه - الذي صرَّح به- تنحية الأذى عن طريق المسلمين، فغفر الله له عمله، وأدخله جنته، ورآه الرسول ﷺ يتقلب في الجنة بعمله هذا.

لقد عمل هذا الرجل قليلًا، وأُجر كثيرًا، ورحمة الله واسعة، وفضله عظيم... وما فعله هذا الرجل حَثَّ عليه دينُنا... فقد أمرنا ﷺ بمثل فعله، فقال: «نَحِّ الأذى من طريق المسلمين»(١) وحذرنا تحذيرًا شديدًا من إيذاء المسلمين في طرقهم، وفي ذلك يقول ﷺ: «مَن آذى المسلمين في طُرقهم، وجبت عليه لعنتهم»(٢).

والنصوص الواردة في هذا الموضوع كثيرة، وهي تدل على الخُلق الراقي الذي يتصف به المسلمون العاملون بالإسلام، فهم يحرصون على نظافة

---

(١) صحيح: رواه أبو يعلى، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٤٧).
(٢) حسن: رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٢٣).

طرقاتهم، وعدم تقذيرها وتوسيخها، ورفع الأذى عنها ... يتصفون به دينًا يدينون الله به، ويرجون منه عليه الأجر والثواب، ولا يتكلفونه تكلُّفًا.

۞ **ومن عبر هذه القصة وفوائدها:**

(١) بيان فضل تنحية الأذى عن طريق المسلمين، وما فيه من أجرٍ عظيم، وثوابٍ جزيل.

(٢) سعة رحمة الله، وعظم أجره، فقد أثاب هذا الرجل الكثير بإدخاله الجنة بالعمل القليل، وهو إماطة الأذى عن الطريق.

(٣) مدى مخالفة المسلمين لتعاليم دينهم، فترى بعضهم لا يكتفى بعدم تنحية الأذى عن طريق المسلمين، بل يرمى مخلفات منزله، وبقايا ما يأكله فى طريق المسلمين.

(٤) الشجرة التى يجوز قطعها هى المؤذية للمسلمين، أما إذا كانت نافعة للمسلمين كالشجرة التى يستظل الناس فى ظلها، فلا يجوز قطعها، وقد تهدد الرسول ﷺ قاطعها بالنار...ففى الحديث: «**قاطع السدر يصوب الله رأسه فى النار**»[١][٢].

ففيه: دليل على فضيلة إزالة الأذى عن الطريق، وأنه سبب لدخول الجنة.

(٥) **وفيه أيضًا**: دليل على أن الجنة موجودة الآن؛ لأن النبى ﷺ رأى هذا الرجل يتقلّب فيها، وهذا أمرٌ دَلَّ عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة؛ أن الجنة موجودة الآن، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]. أُعدت: يعنى هُيئت،وهذا دليل على أنها موجودة الآن، كما أن النار أيضًا

---

(١) صحيح: رواه البيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢٩٩).

(٢) صحيح القصص النبوى (ص ٢٤٢-٢٤٤) بتصرف.

موجودة الآن، ولا تفنيان أبدًا، خلقهما الله عَزَّوَجَلَّ للبقاء لا فناء لهما، ومَن دخلهما لا يفنى أيضًا ... فمن كان من أهل الجنة كان خالدًا مُخلدًا فيها أبد الآبدين، ومَن كان من أهل النار دخلها خالدًا مخلدًا فيها أبد الآبدين.

(٦) **وفى هذا الحديث**: دليل على أن مَن أزال عن المسلمين الأذى فله هذا الثواب العظيم فى أمرٍ حِسِّى، فكيف بالأمر المعنوى؟

هناك بعض الناس والعياذ بالله أهل شرٍّ وبلاء، وأفكارٍ خبيثة، وأخلاق سيئة، يصدّون الناس عن دين الله، فإزالة أفكار هؤلاء عن طريق المسلمين أفضل بكثير وأعظم أجرًا عند الله... فإذا أُزيل أذى هؤلاء، إذا كانوا أصحاب أفكار خبيثة سيئة إلحادية، يُرَدّ عليها، وتُبطل أفكارهم.

والواجب على ولاة الأمور أن يزيلوا الأذى عن طريق المسلمين.

أى أن يزيلوا كلَّ داعية إلى شر، أو إلى إلحادٍ، أو إلى مُجونٍ، أو إلى فسوقٍ، بحيث يُمنع من نشر ما يريد من أيِّ شىء كان من الشر والفساد، هذا هو الواجب[١].

❊❊❊

(١٣٠) **الثَّانى عشَر : وعن أبى هريرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ قالَ: قَال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ توضَّأ فَأحسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتى الْجُمعةَ، فَاستمع وأنْصتَ، غُفِر لَهُ ما بيْنَهُ وبيْنَ الْجُمعةِ وزِيادةُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، ومَنْ مسَّ الْحصا فَقد لَغَا»**[٢].

۞ فالاغتسال والذهاب إلى صلاة الجمعة مُبكرًا والاستماع والإنصات إلى الإمام له فضلٌ عظيمٌ كما جاء فى الحديث.

فمن السُّنة التبكير إلى الصلاة، ساعيًا إليها بالسكينة والوقار.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٩٦) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٥٧) كتاب الجمعة.

قـــال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

وكلما بكَّر الإنسان بالذهاب إلى صلاة الجمعة كلما كان الأجر عظيمًا.

۞ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»(١).

۞ وعن أوس بن أوس أن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنْ الإِمَامِ فَاسْتَمَعَ وأنصت وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يخطوها من بيته إلى المسجدِ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»(٢).

۞ فقوله ﷺ: «مَن توضأ فأحسن الوضوء».

وفي الرواية الأخرى: «مَنِ اغْتَسَلَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ، فَصَلَّى مَا قُدِّرَ لَهُ. ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ خُطْبَتِهِ. ثُمَّ يُصَلِّي مَعَهُ. غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى، وَفَضْلُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»(٣).

وقوله في هذا الحديث: «مَن توضأ» لا يُعارض ما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «غُسل الجمعة واجب على كل محتلم»(٤) فإن هذا الحديث الثاني فيه زيادة على الحديث الأول، فيؤخذ بها، كما أنه أيضًا أصح منه، فإنه أخرجه الأئمة السبعة، وهذا لم يخرجه

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٨١) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٠) كتاب الجمعة.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٤٠٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٥٧) كتاب الجمعة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٨٥٨) كتاب الأذان، ومسلم (٨٤٦) كتاب الجمعة.

إلا مسلم، فيجب أولاً على مَن أراد حضور الجمعة، أن يغتسل وجوبًا، فإن لم يفعل كان آثمًا، ولكن الجمعة تصح؛ لأن هذا الغسل ليس عن جنابة حتى نقول إن الجمعة لا تصح، بل هو غسلٌ واجب كغيره من الواجبات، إذا تركه الإنسان أَثِم، وإن فعله أُثيب.

۞ **قال الإمام النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ اسْتِحْبَابُ تَحْسِينُ الْوُضُوءِ ... وَمَعنَى إِحسَانِهِ الْإِتْيَانُ بِهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا وَدَلْكُ الْأَعضَاءِ وَإِطَالَةُ الْغُرَّةِ وَالتَّحجِيلِ وَتَقْدِيمُ الْمَيَامِنِ وَالْإِتْيَانُ بِسُنَنِهِ الْمَشْهُورَةِ وَفِيهِ أَنَّ التَّنَفُّلَ قَبْلَ خُرُوجِ الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُسْتَحَبٌّ.

وَفِيهِ أَنَّ النَّوَافِلَ الْمُطْلَقَةَ لَا حَدَّ لَهَا لِقَوْلِهِ ﷺ: «**فَصَلَّى مَا قُدِّرَ لَهُ**».

وفي هذا الحديث: دليل على فضيلة الاستماع إلى الخطبة والإنصات، فالاستماع: أن يرعاها بسمعه، والإنصات: ألا يتكلم، هذا هو الفرق بين الاستماع والإنصات...فيستمع الإنسان ويتابع بسمعه كلام الخطيب ولا يتكلم.

وفيه أن الكلام بعد الخطبة قبل الإحرام بالصلاة لا بأس به.

۞ **قوله** ﷺ: «**غُفِرَ له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام**».

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعنَى الْمَغْفِرَةِ لَهُ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ وَثَلَاثَةِ أَيَّام أَنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَصَارَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ الَّذِى فَعَلَ فِيهِ هَذِهِ الْأَفْعَالَ الْجَمِيلَةَ فِي مَعنَى الْحَسَنَةِ الَّتِى تُجْعَلُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا. قَالَ بَعضُ أَصحَابِنَا: وَالْمُرَادُ بِمَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَخُطْبَتِهَا إِلَى مِثْلِ الْوَقْتِ مِنَ الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ حَتَّى تَكُونَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ وَيُضَمُّ إِلَيْهَا ثَلَاثَةٌ فَتَصِيرُ عَشَرَةً.

۞ قَوْلُهُ ﷺ: «**وَمَنْ مَسَّ الحَصَا لَغَا**» فيه النهى عن مس الحصا وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَبَثِ فِى حَالَةِ الْخُطْبَةِ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى إِقْبَالِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ عَلَى الْخُطْبَةِ. وَالْمُرَادُ بِاللَّغْوِ هُنَا الْبَاطِلُ الْمَذْمُومُ الْمَرْدُودُ[1].

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢١٠).

وقد كان فى عهد الرسول ﷺ يُفرش المسجد بالحصبة وهى الحصى الصغار مثل العدس، أو أكبر قليلاً، أو أقل ... يُفرش بها بدل الفرش التى نفرشها الآن، فكان بعض الناس ربما يعبث بالحصى، يحركها بيده، أو يمسحها بيده، أو ما أشبه ذلك، فقال ﷺ: «مَن مَسَّ الحصى فقد لغا» لأن مسَّ الحصى يُلهيه عن الاستماع للخطبة، ومَن لغا فلا جمعة له... يعنى يُحرَم ثواب الجمعة التى فُضلت بها هذه الأمة عن غيرها.

(١٣١) الثَّالثُ عَشر : وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذَا تَوضَّأَ الْعَبدُ الْمُسْلمُ، أو الْمُؤْمِنُ فغَسلَ وجْههُ خرج مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خطيئة نظر إِلَيْهَا بَعَيْنَيْهِ مَعَ الْماءِ، أوْ مَعَ آخِر قَطْرِ الْماءِ، فَإِذَا غَسَل يديهِ خَرج مِنْ يديْه كُلُّ خَطيئَة كانَ بطشتْهَا يداهُ مع الْمَاءِ أو مع آخِرِ قَطْرِ الْماءِ، فَإِذَا غسلَ رجليْه خَرجَتْ كُلُّ خَطِيْئَةٍ مشَتْها رِجْلَاهُ مع الْماءِ أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يخْرُج نقيًّا من الذّنُوبِ»[1].

۞ لم يفرض الله على عباده شيئًا إلا لحكمة، فهو لا يشرع شيئًا اعتباطًا ولا عبثًا، كما لا يخلق شيئًا باطلًا. وقد نعلم هذه الحكمة، وقد تَخفى علينا، أو على بعضنا، ولكن جهلنا بها لا ينفى وجودها.

وللوضوء الذى فرضه الله على المسلمين إذا قاموا إلى الصلاة حِكَم وفوائد وآثار طيبة، بعضها أُخروى، وبعضها دنيوى ... بعضها روحى، وبعضها مادى، وبعضها نفسى، وبعضها بدنى.

فمن **الآثار الروحية أو الأُخروية**: ما صحَّت به الأحاديث من أن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جَسَدِهِ، حتى تخرج من تحت أظفاره.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٤) كتاب الطهارة.

ونحن لا نرى الخطايا تخرج من تحت الأظفار، لأننا لم نُؤتَ من الحواس ما نُبصر به الخطايا، ولكنا نؤمن بكلِّ ما صَحَّ عن رسول الله ﷺ.

وعن عثمان رضي الله عنه: أنه توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: مَن توضأ مثل وضوئي هذا، ثم أتى المسجد فركع ركعتين، ثم جلس، غُفر له ما تقدم من ذنبه[1].

قال: وقال رسول الله ﷺ: «**لا تغتروا**».

هذه الجملة توجيه نبوى مهم. وتحذير للمسلم من الوقوع فى المعصية بارتكاب المحظور وترك المأمور، اتكالًا على أنه بالوضوء يُغفَر له، فهذا من الغرور المُهلك، فينبغى أن يظل المؤمن بين الرجاء والخوف، فلا يغلو به الرجاء حتى يأمن مكر الله، ولا يغلو به الخوف حتى ييأس من روح الله.

هذه الأحاديث النبوية فى فضل الوضوء وآثاره فى إخراج الخطايا مع ماء الوضوء من جسد المتوضئ: لها أثرها كذلك فى نفس المتوضئ، بما يشعر به من رضا وانشراح صدر، وسكينة نفس، بما أدى من واجب، وما حصَّل من فضل الله تعالى ومثوبته. حتى إنك لتسمع من كثيرٍ من المسلمين قولهم: الوضوء سلاح المؤمن. فهو يحس كأن الوضوء عدة وقوة له.

فالطهارة المعنوية التى ينبغى أن يقصدها المسلم، هى تطهيره من الذنوب، فإذا غسل وجهه، خرجت كل خطايا نظر إليها بعينيه..وذِكْر العين والله أعلم إنما هو على سبيل التمثيل، وإلا فالأنف قد يخطئ والفم قد يخطئ، فقد يتكلم الإنسان بكلام حرام، وقد يشم أشياء ليس له حق أن يشمها، ولكن ذَكَرَ العين؛ لأن أكثر ما يكون الخطأ فى النظر.

فلذلك إذا غسل الإنسان وجهه بالوضوء خرجت خطايا عينيه، فإذا غسل يديه خرجت خطايا يديه، فإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه، حتى يكون

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٥٩) كتاب الوضوء.

نقيًّا من الذنوب، ولهذا قال الله تعالى حين ذكر الوضوء والغُسل والتيمم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يعني ظاهرًا وباطنًا، حِسًّا ومعنى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦] فينبغي للإنسان إذا توضأ أن يستشعر بهذا المعنى، أي أن وضوءه يكون تكفيرًا لخطيئاته، حتى يكون بهذا الوضوء محتسبًا الأجر على الله عَزَّوَجَلَّ.

ولا يقف الأمر عند هذا الجانب النفسي، بل ترى للوضوء آثاره في الجانب الصحي والوقائي للمسلم. بما يهيئه من نظافة الأعضاء التي تتعرض للأتربة والتلوث والاتساخ من جسم الإنسان، مثل الوجه والفم والأنف واليدين والرأس والأذن والرجلين، فالمسلم إذا توضأ: بدأ بغسل اليدين إلى الرسغين، ثم تمضمض فنظف فمه، واستنشق فنظف أنفه، واستخدم السواك فنظف أسنانه، وغسل وجهه، ثم غسل يديه إلى المرفقين، ثم مسح رأسه وأذنيه، وغسل رجليه ، ويُسَنُّ له أن يغسل كل عضوٍ ثلاث مرات، اقتداءً برسوله ﷺ، وأن يُخلل أصابع يديه ورجليه ... وهو يُكرر ذلك عدة مرات في كل يوم، قد تكون ثلاث مرات أو أربعًا أو خمسًا بعدد صلوات اليوم[١].

وكان الرأس بصدد أن يُغسل كما تُغسل بقية الأعضاء، ولكن الله خفف في الرأس، لأن الرأس يكون فيه الشعر، والرأس هو أعلى البدن، فلو غسل الرأس ولاسيما إذا كان فيه الشعر، لكان في هذا مشقة على الناس، ولا سيما في أيام الشتاء، ولكن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل فرض الرأس المسح فقط، فإذا توضأ الإنسان لاشك أنه يطهر أعضاء الوضوء تطهيرًا حِسيًّا، وهو يدل على كمال الإسلام، حيث فرض على مُعتنقيه أن يطهروا هذه الأعضاء التي هي غالبًا ظاهرة بارزة.

---

(١) فقه الطهارة / د. يوسف القرضاوي (ص ١٩٩-٢٠٢) بتصرف.

وهذا لا شك له أثره الصحي على هذه الأعضاء المتوضئة الطاهرة، وعلى الجسم كله معها، ويقى المسلم من أمراضٍ كثيرة قد يتعرض لها غيره ممن لا يعرفون الوضوء.

۞ **لكن لا بُد لنا من وقفة هنا مع قوله ﷺ: «فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء»**،فكلمة (بطش) بمعنى: أمسك..فهنا خرجت من يديه كل خطيئة كانت أمسكتها يداه، أو أي شيء من الحرام وقع فيه...أما أن يضرب مسلمًا أو يلطمه على وجهه ومن ثم يتوضأ ويقول: ذهبت، فلم تذهب؛ لأنه حَقٌّ الواجب فيه القصاص، فلا يذهب حتى يقتص منك أو يعفو عنك... إذًا: ليس حق الإنسان من الذنوب التي يكفرها الوضوء بل لا بد من ردِّها أو التحلُّل منها.

فلا يفهم أحدٌ بطشة اليد فهمًا خطأً...فبطش بمعنى: أمسك، وهذا هو أصل كلمة بطش، ومنها قول النبي ﷺ في الحديث: «**يصعق الناس يوم القيامة فأكون أول مَن يفيق، فإذا بموسى باطش بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أو أُخذ بصعقته الأولى؟!**»، أي: يوم الطور؛ ولأنه صعق في الدنيا لم يصعق يوم القيامة، فالنبي ﷺ يقول: «**لا أدري**»، أي: أي الأمرين..لكن المهم أن الناس يصعقون يوم القيامة ويكون أول مَن يفيق النبي ﷺ «**فإذا بموسى باطش**»، بمعنى: مُمسك بقائمة العرش...فالمقصود أن كلمة بطش تفيد معنى أمسك بالشيء.

يقول ﷺ: «**فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء**»، إذا مشى إلى ذنب أو معصية فإذا تاب إلى الله فقام فتوضأ فإن الله يكفر عنه ذنوبه حتى يخرج نقيًّا من الذنوب... والمراد هنا صغائر الذنوب التي ليس فيها حَقٌّ لمسلم، وإنما هي ذنوب بينك وبين الله عَزَّوَجَلَّ، أما ما فيه حقوق للناس فلا بد من إعطاء الناس حقوقهم... فإذا شتمت إنسانًا أو أخذت ماله أو سفكت دمه أو ضربته، فإما أن تدفعها له في الدنيا بأن يقتص منك، أو تدفع له الجناية على ما

فعلت أو تستحلها منه، وإما أن يأخذها منك يوم القيامة حتى ولو كنت من أهل الجنة... فإنه إذا مَرَّ الناس على الصراط وعبروه حُبسوا على قنطرة بينه وبين الجنة فيتقاصون مظالم كانت بينهم ... مظالم كانت للعباد مع أنهم من أهل الجنة، فقد خرجوا من الصراط ولم يبقَ إلا أن يدخلوا الجنة... فلا يدخلوها حتى يتحللوا من المظالم التي بينهم... فالإنسان قبل أن يدخل الجنة إذا كانت عليه مظلمة لفلان فإنه يأخذ من حسناته ما ينتفع به ويدخل به الجنة، ولعل هذا كان قد استحق منزلة ثم نزل عنها بسبب أن فلاناً أخذ من حسناته كذا وكذا، فصعد هذا درجة فى الجنة ونزل هذا الذى ظلمه درجة من الجنة ... فاحذر من ظلم العباد[1].

(١٣٢) الرَّابعُ عشرَ : وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «الصَّلواتُ الخَمْسُ، والجُمُعَةُ إلى الجُمُعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ مُكفِّرَاتٌ لِمَا بَينهنَّ إذا اجْتُنِبَت الكَبَائِرُ»[2].

۞ لماذا جمع النبى ﷺ فى هذا الحديث بين الصلوات الخمس والجمعة ورمضان؟

لأن الصلاة كانت هى القاسم المشترك بين الثلاثة..

فالصلوات الخمس هى الركن الثانى بعد الشهادتين... والجمعة هو العيد الأسبوعى للمسلمين وفيه يجتمع المسلمون فى صلاة الجمعة التى تُغسل فيها القلوب وتتزكَّى النفوس فى خُطبة يوم الجمعة .. وشهر رمضان يجتمع فيه المسلمون فى الصلوات الخمس وكذلك فى صلاة التراويح.

فالصلاة هى أعظم شىء فى حياة المسلم بعد التوحيد ولذا فقد اعتنى الإسلام بشأن الصلاة اهتمامًا كبيرًا.

---

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

فهى عمود الدين، ومفتاح الجنة،وخير الأعمال، وأول ما يُحاسَب عليه المؤمن يوم القيامة . يذكرها القرآن فى دعاء الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾[إبراهيم: ٤٠]، ويمدح بها الذبيح إسماعيل: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾[مريم: ٥٥]، ويأمر الله كليمه موسى بإقامتها أول ما يأمر به فى ساعات الوحى الأولى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[طه: ١٣، ١٤]، ويوحى إليه وإلى أخيه هارون: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ ﴾[يونس: ٨٧]، وفى وصية لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[لقمان: ١٧]، وينطق المسيح عيسى فى مهده: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[مريم: ٣١]، ويأمر الله بها خاتم أنبيائه: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ ﴾[العنكبوت: ٤٥]، ويجعلها صفة جوهرية من صفات المتقين تتلو الإيمان بالغيب ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[البقرة: ٢، ٣]، ويبدأ بها ويختم أوصاف المؤمنين المفلحين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[المؤمنون: ١-٢].

ويؤكد المحافظة عليها فى الحضر والسفر، والأمن والخوف، والسلم والحرب: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ ﴾[البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩]، أى فصلُّوا فى حال الخوف والحرب مُشاة أو راكبين كيف استطعتم، بغير ركوع ولا سجود، بل بالإشارة والإيماء. وبدون اشتراط استقبال القبلة للضرورة هنا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾[البقرة: ١١٥].

تلك هى مكانة الصلاة فى الإسلام...ولهذه المكانة كانت أول عبادة فُرضت

على المسلمين، فقد فُرضت فى مكة قبل الهجرة، وكانت طريقة فرضيتها دليلًا آخر على عناية الله بها، إذ فُرضت العبادات كلها فى الأرض، وفُرضت الصلاة وحدها فى السماء، ليلة الإسراء والمعراج، بخطابٍ مباشر من رب العالمين إلى خاتم المرسلين ﷺ(١).

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الصلوات الخمس تُكفِّر الخطايا من بين صلاة الفجر إلى الظهر، ومن الظهر إلى العصر، ومن العصر إلى المغرب، ومن المغرب إلى العشاء، ومن العشاء إلى الفجر. فإذا عمل الإنسان سيئة وأتقن هذه الصلوات الخمس، فإنها تمحو الخطايا، لكن قال: «**إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**» يعنى إذا اجتُنبت كبائر الذنوب.

وَالْكَبَائِر هِيَ: مَا نهى الله وَرَسُوله عَنهُ فِى الْكتاب وَالسّنة [وكان فيه حَدٌّ فى الدنيا أو وعيدٌ فى الآخرة، أو نفى إيمانٍ أو لعنٌ أو تبرؤٌ أو ليس منا].

وَقد ضمن الله - تَعَالَى - فِى كِتَابه الْعَزِيز - لمن اجْتنب الْكَبَائِر المحرمات أَن يكفر عَنهُ الصَّغَائِر من السَّيِّئَات...لقَوْله تَعَالَى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١].

فقد تكفل الله تَعَالَى بِهَذَا النَّص لمن اجْتنب الْكَبَائِر أَن يُدخلهُ الْجنَّة(٢).

۞ **ومعنى الحديث**: أن الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان يُكفِّر الله بها الصغائر التى وقع فيها العبد.. أما الكبائر فإنها تحتاج إلى توبة خاصة من كل كبيرة يرتكبها العبد. فإن ارتكب العبد بعض الصغائر بعد صلاة الظهر ثم صلَّى العصر فإن الله يغفر له ما كان من الصغائر فيما بين الظهر والعصر ما لم يكن مُستحلًّا لتلك الصغائر... وهكذا فى جميع الصلوات.

---

(١) العبادة فى الإسلام / د. يوسف القرضاوى (ص ١٧٧-١٧٩) بتصرف كبير.

(٢) الكبائر / للإمام الذهبى (ص ٣).

والجمعة إلى الجمعة تمحو ما بَدَر منه من الصغائر خلال الأسبوع .. مع أنها قد غُفرت فيما بين الصلوات الخمس .. وكأنها تأكيدٌ لتوبة الله على العبد، بل وكأنها عناية خاصة .. ثم يأتي رمضان فيمحو ما بَدَر من العبد طوال العام وكأنه عناية أخص من الخاصة من أجل أن يعلم العبد أنه لا يستغنى عن الله عَزَّوَجَلَّ طرفة عينٍ ولا أقل من ذلك....فإن كانت الصغائر قد غُفرت فإنَّ الصلوات بعد ذلك تكون رفعة لدرجاته في الجنَّة.

***

(١٣٣) الخَامِسُ عَشر : وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلُّكَم على ما يَمْحُو الله بِهِ الْخَطايا، ويرْفَعُ بِهِ الدَّرجاتِ؟» قالوا: بلى يا رسُولَ الله، قال: «إسباغ الْوُضوءِ على الْمَكَارِهِ وكَثْرةُ الْخُطَا إِلَى الْمسَاجِدِ، وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بعدِ الصَّلاةِ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ»(١).

۞ لقد كان النبي ﷺ يُنوِّع في خطابه لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم .. فتارة يذكر لهم الحديث مُباشرة .. وتارة يكون ذلك بصورة عملية يراها الصحابة.. وتارة يعطيهم المعلومة من خلال سؤالٍ ليُثير انتباههم .. وهذا ما فعله النبي ﷺ في هذا الحديث.

قال لهم: « ألا أدلُّكَم على ما يَمْحُو الله بِهِ الْخَطايا، ويرْفَعُ بِهِ الدَّرجاتِ؟».

وهل هناك أحدٌ لا يرغب في هذا الخير؟! ... فمن المعلوم أنهم سيقولون: نعم يا رسول الله... أخبرنا عن ذلك فإننا نُريد أن نعرف ما الذي يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.

فلما أصبحت القلوب مُتهيئة لمعرفة ذلك قال لهم ﷺ: **«إسباغ الْوُضوءِ على الْمَكَارِهِ وكَثْرةُ الْخُطَا إِلَى الْمسَاجِدِ، وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بعدِ الصَّلاةِ، فَذلِكُمُ**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

الرِّبَاطُ » هذه ثلاثة أشياء:

۞ «**إسباغ الوضوء على المكاره**»: يعنى أن الإنسان يتوضأ ويُسبغ وضوءه على كُرْهٍ منه: إما لكونه فيه حُمَّى ينفر من الماء فيتوضأ على كُره.. وإما أن يكون الجو باردًا، وليس عنده ما يُسخَّن به الماء فيتوضأ على كُره... وإما أن يكون هناك أمطار تَحُول بينه وبين الوصول لمكان الوضوء فيتوضأ على كُرهٍ... المهم أنه يتوضأ على كُرهٍ ومشقة لكن بدون ضرر... أما مع الضرر فلا يتوضأ بل يتيمم، **هذا** مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات، ولكن هذا لا يعني أن الإنسان يَشُق على نفسه ويذهب يتوضأ بالماء البارد ويترك الساخن، أو يكون عنده ما يُسخن به الماء، ويقول: لا.. بل أريد أن أتوضأ بالماء البارد؛ لأنال هذا الأجر، فهذا غير مشروع، لأن الله يقول: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ ورأى النبي ﷺ رجلاً واقفًا في الشمس قال: ما هذا؟ قالوا: نذر أن يقف في الشمس، فنهاه عن ذلك وأمره أن يستظل... فالإنسان ليس مأمورًا ولا مندوبًا في أن يفعل ما يَشُق عليه ويضره، بل كلما سهلت عليه العبادة فهو أفضل، لكن إذا كان لا بد من الأذى والكُره فإنه يُؤجَر على ذلك؛ لأنه بغير اختياره.

كذلك «**كثرة الخُطا إلى المساجد**» فيه دليل على أن الجماعة تكون في المسجد ولا تكون في البيت، وأن الإنسان إذا كثرت خُطاه إلى المساجد: يرفع الله له به الدرجات ويمحو عنه الخطايا... وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الرجل إذا توضأ في بيته فأسبغ الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يخطُ خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحَطَّ عنه بها خطيئة. وهذه نعمة عظيمة، فإذا وصل المسجد وصلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصلَّاه، تقول: اللهم صَلِّ عليه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه... ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة، «**وكثرة الخُطا**» معناه أن يأتي الإنسان للمسجد ولو من بُعدٍ.

وليس المعنى أن يتعمد السير فى الطريق البعيد أو أن يُقارب الخُطا ... فهذا

غير مشروع، بل يمشى على عادته ولا يتقصد البُعد ... يعنى: مثلاً لو كان بينه وبين المسجد طريق قريب وآخر بعيد لا يترك القريب ويمشى فى البعيد ... لكن إذا كان بعيدًا ولا بد أن يمشي إلى المسجد فإن كثرة الخُطا إلى المساجد مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.

وأما «**انتظار الصلاة بعد الصلاة**»: بمعنى أن الإنسان إذا فرغ من هذه الصلاة يتشوق إلى الصلاة الأخرى وهكذا يكون قلبه مُعلَّقًا بالمساجد: كلما فرغ من صلاة فهو ينتظر الصلاة الأخرى ... هذا أيضًا مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات... قال: «**فذلكم الرباط فذلكم الرباط**»: يعني المرابطة على الخير، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1].

فمن انتظر الصلاة بعد الصلاة شوقًا إليها فإن الله يمحو عنه خطاياه ويرفع له الدرجات.

قَالَ الْقَاضِى عِيَاضٌ: مَحوُ الْخَطَايَا كِنَايَةٌ عَنْ غُفْرَانِهَا. قَالَ: وَيُحتَمَلُ مَحوَهَا مِنْ كِتَابِ الْحَفَظَةِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى غُفْرَانِهَا ... وَرَفْعُ الدَّرَجَاتِ إِعلَاءُ الْمَنَازِلِ فِى الْجَنَّةِ[2].

وقوله ﷺ: «**فذلكم الرباط**» أصل الرباط: الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها، وهذا من أعظم الأعمال فلذلك شبَّه به ما ذُكر من الأفعال الصالحة والعبادة فى هذا الحديث ... أى: أن المواظبة على الطهارة والصلاة والعبادة كالجهاد فى سبيل الله.

وقيل: إن الرباط هاهنا اسمٌ لما يربط به الشىء، والمعنى أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصى وتَكُفُّه عنها.

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٣٧-١٣٨).
(٢) مسلم بشرح النووى (٣/ ١٧٩).

(١٣٤) السَّادس عشَر: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منْ صلَّى الْبَرْديْنِ دَخَلَ الْجنَّةَ»(١).

۞ قال ﷺ: «منْ صلَّى الْبَرْديْنِ دَخَلَ الْجنَّةَ» والبردان هما صلاة الفجر وصلاة العصر.. وذلك لأن صلاة الفجر تقع في أبرد وقتٍ من الليل .. وأما صلاة العصر فإنها تقع في أبرد وقتٍ في النهار وذلك بعد الزوال .. فمن حافظ عليهما في وقتهما وصلَّاهما في المسجد إن كان رجلًا...لأن صلاة الجماعة واجبة في حقه .. وإن كانت امرأة فإنها تُصليها في البيت أو المسجد إن أرادت ولكن في أول الوقت.

قال **الخطابي**: سُمِّيا بَردين لأنهما يُصلَّيان في بردى النهار وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب شدة الحر.

۞ وفي الحقيقة أن صلاة الفجر والعصر لهما مزية خاصة. فقد أخبر النبي ﷺ أن مَن صلَّاهما لن يدخل النار.

فقال ﷺ: «**لن يلج النار أحدٌ صلى قبل طُلوع الشمس وقبل غُرُوبها**» يعني الفجر، والعصر»(٢).

بل وأخبر النبي ﷺ أن الملائكة تشهد صلاة الفجر والعصر ويشهدون عند الله عز وجل لمن صلاهما.

قال ﷺ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ وَصَلاَةِ العَصرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبهُم- وَهُوَ أَعلَمُ بِهِمْ- كَيْفَ تَركْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَركْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.
«البَرْدَانِ» : الصُّبْحُ والْعَصْرُ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٣٤) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٢) كتاب المساجد.

۞ بل وأخبر النبى ﷺ أن مَن حافظ على صلاة العصر فإن له أجره مرتين.

عن أبى بَصرة الغِفارى رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر بالمُخمَّص[1] وقال: «**إن هذه الصلاة عُرضت على مَن كان قبلكم فضيعوها فمن حافظ عليها كان له أجرُه مرتين**»[2].

بل أخبر النبى ﷺ أن المحافظة على صلاتى الفجر والعصر من أسباب الفوز بالنظر إلى وجه الله عز وجل.

عن جرير بن عبد الله البجلى رضي الله عنه قال: كنا عند النبى ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامون فى رُؤيته، فإن استطعتُم أن لا تُغَلبُوا على صلاةٍ قبل طُلُوع الشمس، وقبل غُرُوبها فافعلُوا**»[3].

۞ «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر**» هذا فيه تشبيه الرؤية بالرؤية، وليس المعنى تشبيه المرئى بالمرئى، لأن الله ليس كمثله شىء، ولكنكم ترونه رؤية حقيقية مؤكدة كما يرى الإنسان القمر ليلة البدر، وإلا فإن الله عز وجل أجلُّ وأعظم من أن يُشابهه شىء من مخلوقاته.

ثم قال النبى ﷺ فى آخر هذا الحديث: «**فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا**» يعنى بالتى قبل طلوع الشمس: الفجر، والتى قبل غروبها: العصر.. فهاتان الصلاتان هما أفضل الصلوات.. وأفضلهما صلاة العصر؛ لأنها هى الصلاة الوسطى التى قال الله تعالى عنها: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقد صَحَّ عن النبى ﷺ أنه قال فى غزوة الأحزاب: «**ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا كما شغلونا**

---

(١) المُخمَّص: اسم طريق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٣٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.

عن الصلاة الوسطى صلاة العصر». وهذا نَصٌّ صريح من رسول الله ﷺ أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر(١).

۞ وقفة لطيفة:

فوجه تخصيصها بالذكر أن وقت الصبح يكون عند النوم ولذته، ووقت العصر يكون عند الاشتغال بتتمات أعمال النهار وتجارته وتهيئة العشاء، ففى صلاته لهما مع ذلك دليل على خُلوص النفس من الكسل ومحبتها للعبادة... ويَلزم من ذلك إتيانه بجميع الصلوات الأُخر، وأنه إذا حافظ عليهما كان أشد محافظة على غيرهما، فالاقتصار عليهما لا لإفادة أن من اقتصر عليهما بأن أتى بهما دون باقى الخمس يحصل له ذلك لأنه خلاف النصوص.

فمن صلاها مع ذلك استحق دخول الجنة من غير سابقة عذاب (٢).

(١٣٥) السَّابِعُ عَشَر: عن أبى موسى الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِب لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعملُ مُقِيمًا صَحِيحًا»(٣).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الإنسان إذا كان من عادته أن يكون مواظبًا على أى عملٍ صالحٍ ثم مرض أو سافر فإنه يُكتب له الأجر كاملًا.

فإذا كان الإنسان مواظبًا على الصلوات الخمس فى المسجد.. وكان محافظًا على السنن الرواتب الخاصة بالصلوات الخمس .. وكان يصلى قيام الليل ويقرأ كل يوم ثلاثة أجزاءٍ من القرآن ويُكثر من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ... فإذا مرض هذا الإنسان أو سافر فلم يُصلِّ إلا الصلوات الخمس فقط فإنه يُكتب له ما كان

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٠٢).
(٢) دليل الفالحين (١/ ٣١٧).
(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.



يعمله وهو صحيحٌ مقيم دون أن ينقص أى شيءٍ من أجره.

۞ وفى هذا تنبيه على أنه ينبغى لنا أن نجتهد فى طاعة الله ما دُمنا فى حال الصحة والفراغ حتى إذا عجزنا عن ذلك لمرضٍ أو سفرٍ كُتب لنا الأجر كاملًا.

ولهذا قال النبى ﷺ: **«نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ»**[1].

وقال ابن عمر: «وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[2].

***

(١٣٦) الثَّامِنُ عشَرَ: عنْ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كُلُّ معرُوفٍ صدقَةٌ»[3] رواه البخارى... ورواه مسلم من رواية حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4].

۞ **قوله ﷺ: «كُلُّ مَعرُوفٍ صَدَقَةٌ»** المعروف ما يتعارف الناس على حُسنه، أو ما عُرف فى الشرع حُسنه، إن كان مما يتعبد به لله، فهو ما عُرف فى الشرع حُسنه، وإن كان مما يتعامل به الناس فهو مما تعارف الناس على حُسنه.

مثل الإحسان إلى الخلق بالمال أو بالجاه أو التبسُّم فى وجه أخيك أو إسداء النصيحة الخالصة له أو ستر المسلم أو تنفيس الكرب عنه أو إدخال السرور عليه أو تبشيره بما يَسُرُّه أو قضاء حوائجه أو إصلاح ذات البين أو إماطة الأذى عن الطريق أو عيادة المريض .. أو غير ذلك ..

ولذا قال النبى ﷺ: **«لا تَحقِرنَّ مِن المعرُوف شَيئًا ولَوْ أنْ تلْقَى أخَاكَ بِوجهٍ طَلقٍ»**.

***

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٦) كتاب الرقاق، موقوفًا على ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٠٢١) كتاب الأدب.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٥) كتاب الزكاة.

(١٣٧) التَّاسع عشر : وَعنْ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مُسْلم يَغْرِسُ غَرْسًا إلَّا كانَ ما أُكِلَ مِنْهُ لهُ صدقةً، وما سُرِقَ مِنْه لَه صدقَةً، ولا يرْزؤه أَحَدٌ إلَّا كَانَ له صدقةً»[1].

وفى رواية لَهُ: «فَلاَ يَغْرِسُ المُسْلِمُ غَرْسًا فَيَأْكُلَ مِنْهُ إنْسَانٌ وَلاَ دَابَّةٌ وَلاَ طَيْرٌ إلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقة إِلَى يَوم القِيَامةِ».

وفى رواية لَهُ: «لاَ يَغرِسُ مُسْلِمٌ غرسًا، وَلاَ يَزرَعُ زَرعًا، فَيَأكُلَ مِنهُ إنْسَانٌ وَلاَ دَابَةٌ وَلاَ شَيءٌ، إلاَّ كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً».

(١٣٨) ورويَاه جميعًا مِنْ رواية أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن غرس غرسًا أو زرع زرعًا فأكل منه إنسان أو طير أو حيوان أو غير ذلك.. أو حتى سُرق منه فإنه يكون له بذلك صدقة.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

فِى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فَضِيلَةُ الزَّرعِ وَأَنَّ أجر فاعلى ذلك مستمر مادام الْغِرَاسُ وَالزَّرعُ وَمَا تَوَلَّدَ مِنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ...وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِى أَطْيَبِ الْمَكَاسِبِ وَأَفْضَلِهَا فَقِيلَ: التِّجَارَةُ وَقِيلَ الصَّنْعَةُ بِالْيَدِ وَقِيلَ الزِّرَاعَةُ وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَفِى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَيْضًا أَنَّ الثَّوَابَ وَالْأَجْرَ فِى الْآخِرَةِ مُخْتَصٌّ بِالْمُسْلِمِينَ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يُثَابُ عَلَى مَا سُرِقَ مِنْ مَالِهِ أَوْ أَتْلَفَتْهُ دَابَّةٌ أَوْ طَائِرٌ وَنَحْوُهُمَا[3].

۞ فهذا الغرس يعود على الإنسان بالخير والنفع والمصلحة فى الدين والدنيا.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٥٢) كتاب المساقاة.

قوله: «يَرْزَؤُهُ» أى ينقصه.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٢٠) كتاب المزارعة، ومسلم (١٥٥٣) كتاب المساقاة.

(٣) مسلم بشرح النووى (١٠/ ٣٠٦) بتصرف.

أما المصلحة الدينية: فإنه إن غَرَس غرسًا فأكل منه إنسان أو طير أو حيوان أو حتى سُرق منه فإن له به صدقة سواء كان ينوى ذلك أو لم ينوِ ذلك فإن الأجر محفوظٌ له.

وأما المصلحة الدنيوية: فإن مصلحة الغرس والزرع ليست كمصلحة الدراهم والنقود .. فالنقود تُوضع فى الصناديق أو البنوك الإسلامية ولا ينتفع بها سوى صاحبها .. أما الغرس والزرع فينتفع به صاحبه وكل مَن حوله .. بل قد ينتفع بذلك الزرع البلد كلها.. وقد يصل النفع إلى البلاد المجاورة من خلال تصدير ذلك الزرع.

وفيه دليل: على كثرة طرق الخير، وأن ما انتفع به الناس من الخير، فإن لصاحبه أجرًا، وله فيه الخير، سواء نوى أو لم ينوِ ... وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]. فذكر الله سبحانه وتعالى أن هذه الأشياء فيها خير سواء نويت أو ما نويت ... مَن أمر بصدقة أو إصلاح بين الناس فهو خيرٌ ومعروف، نوى أم لم ينوِ، فإن نوى بذلك ابتغاء وجه الله. فإن الله يقول: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وفى هذا دليل: على أن المصالح والمنافع إذا انتفع الناس بها، كانت خيرًا لصاحبها وإن لم ينوِ... فإن نوى زاد خيرًا على خيرٍ، وآتاه الله تعالى من فضله أجرًا عظيمًا. أسأل الله العظيم أن يَمُنَّ علىَّ وعليكم بالإخلاص والمتابعة للرسول ﷺ ... إنه جوادٌ كريم.

***

(١٣٩) العشْرُونَ: وعنْ جابرٍ رضي الله عنه قالَ: أراد بَنُو سَلِمَة أَن ينْتَقلوا قُربَ الَمسْجِدِ فبلَغَ ذَلِكَ رسولَ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «إنَّه قَد بَلَغَنى أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقلُوا قُربَ الْمَسْجد؟» فَقَالُوا: نَعَمْ يا رسولَ الله قَد أَرَدنَا ذلكَ، فقالَ: «بَنِي سَلِمَةَ ديارَكُمْ،

تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيارَكُم، تُكْتَبْ آثارُكُمْ»(١).

وفي روايةٍ لِمُسْلِمٍ: «إِنَّ بِكُلِّ خَطْوةٍ درجةً».

(١٤٠) ورواه البخاري أيضًا بِمعناهُ مِنْ روايةِ أَنَسٍ رضي الله عنه(٢).

(١٤١) الْحَادي والْعِشْرُونَ: عنْ أَبِي الْمُنْذر أُبيِّ بنِ كَعبٍ رضي الله عنه قال: كَانَ رجُلٌ لا أَعلمُ رجُلاً أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ، وكَانَ لا تُخْطِئُهُ صلاةٌ فَقيل لَه، أَوْ فقُلْتُ لهُ: لَوْ اشْتَرَيْتَ حمارًا تَركَبُهُ في الظَّلْماءِ، وفي الرَّمْضَاءِ فَقَالَ: ما يسُرُّنِي أَن منْزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي ممْشَايَ إِلَى الْمَسْجد، ورُجُوعِي إِذَا رجعتُ إِلَى أَهْلِي، فقالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قَد جمع الله لكَ ذَلِك كُلَّهُ»(٣).

وفي روايةٍ: «إِنَّ لَكَ مَا احتسَبْت».

۞ ففي هذا الحديث يوضح النبي صلى الله عليه وسلم فضل المشي إلى المساجد.

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على فضل المشي إلى المساجد .. يُخبر فيها النبي صلى الله عليه وسلم أن من خرج من بيته متطهرًا إلى صلاة مكتوبة فإن الله عز وجل يُعد له نُزلًا في الجنة كلما غدا أو راح وأن كل خطوة يحط بها خطيئة والأُخرى يرفع له بها درجة..بل كانت كل خطوة يُكتب له بها عشر حسنات .. وفي رواية أن كل خطوة تمحو سيئة والأخرى تُكتب له بها حسنة، وأنه يُكتب بذهابه إلى الصلوات الخمس أجر خمس حجات نافلة .. وأنه إذا مشى إلى المسجد فهو زائر الله .. وحَقٌّ على المَزور أن يُكرم الزائر.

۞ وحتى لا يكون كل هذا الكلام من كيسي فإليكم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٦٥) كتاب المساجد.

و«بنُو سَلِمَةَ» بكسر اللام: قبيلة معروفة من الأنصار رضي الله عنهم - و«آثَارُهُمْ» خُطاهُم.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٨٨٧) كتاب فضائل المدينة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٦٣) كتاب المساجد.

«الرمْضَاءُ» الأَرْضُ الَّتِي أَصَابَهَا الْحرُّ الشَّديدُ.

تثبت لكم كل هذا الأجر الذى ذكرته.

۞ عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «**مَن غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله لهُ فى الجنة نُزُلاً كلما غدا أو راح**»(١).

۞ وعنه أن النبى ﷺ قال: «**مَنْ تَطَهَّرَ فِى بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِىَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً**»(٢).

۞ **وعن أُبى بن كعبٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** كان رجُلٌ من الأنصار لا أعلم أحدًا أبعد من المسجد منهُ، وكانت لا تُخطئُهُ صلاةٌ، فقيل له: لو اشتريت حمارًا لتركبهُ فى الظَّلماء وفى الرمضاء قال: ما يسرُّنى أن منزلى إلى جنب المسجد، إنى أريدُ أن يُكتب لى ممشاى إلى المسجد، ورجُوعى إذا رجعتُ إلى أهلى. فقال رسول الله ﷺ: «**قد جمع الله لك ذلك كُله**»(٣).

۞ **وعن جابر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَلَتْ البقاعُ حول المسجد، فأراد بنو سَلِمَةَ أن ينتقلُوا قُرب المسجد، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال لهم: «**بلغنى أنكُم تُريدُون أن تنتقلُوا قُرب المسجد؟**» قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال: «**بنى سلمة دياركُم تُكتب آثارُكُم، دياركُم تُكتب آثارُكُم**» فقالوا: ما يسُرُّنا أنَّا كُنا تحولنا(٤).

۞ وعن أبى موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أعظم الناس أجرًا فى الصلاة أبعدُهُم إليها ممشى فأبعدُهُم. والذى ينتظرُ الصلاة حتى يُصليها مع الإمام أعظمُ أجرًا من الذى يُصليها ثُم ينام**»(٥).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٦) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٦٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٦٦٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥١) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٢) كتاب المساجد.

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدُلُّكم على ما يمحُو اللهُ به الخطايا، ويرفعُ به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغُ الوُضُوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكُمُ الرباطُ،، فذلكُمُ الرباطُ»(١).

۞ وعن عُقبة بن عامرٍ رضي الله عنه عن النبى ﷺ، أنه قال: «إذا تطهر الرجلُ، ثم أتى المسجد يرعى الصلاة، كتب له كاتباهُ أو كاتبُه بكل خُطوةٍ يخطوها إلى المسجد عشر حسناتٍ .. والقاعدُ يرعى الصلاة كالقانت، ويُكتَبُ من المصلين، من حين يَخرُجُ من بيته حتى يرجع إليه»(٢).

۞ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن راح إلى مسجد الجماعة؛ فخُطوةٌ تمحو سيئةً، وخُطوةٌ تكتبُ له حسنةً، ذاهبًا وراجعًا»(٣).

۞ وعن عثمان رضي الله عنه أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَصَلَّاهَا مَعَ الْإِمَامِ، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»(٤).

۞ وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِى الْمَكَارِهِ وَإِعمَالُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعدَ الصَّلَاةِ تَغْسِلُ الْخَطَايَا غَسْلًا»(٥).

۞ وعن أبى أُمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلَاةٍ لا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِى عِلِّيِّينَ»(٦).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٤).

(٣) حسن: رواه أحمد والطبرانى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٩٩).

(٤) صحيح: رواه ابن خزيمة، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٠٠).

(٥) صحيح: رواه أبو يعلى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٢٦).

(٦) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٨).

۞ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ، إِنْ عَاشَ رُزِقَ وَكُفِيَ، وَإِنْ مَاتَ أَدخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ: مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَسَلَّمَ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ، وَمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ»(١).

۞ وعن سلمان رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله وحَقٌّ على المَزور أن يُكرم الزائر»(٢).

وفى هذا الحديث: دليل على أنه إذا نُقل للإنسان شىء عن أحد، فإنه يتثبت قبل أن يحكم بالشىء... ولهذا سأل النبى ﷺ بنى سلمة قبل أن يقول لهم شيئًا، قال: بلغنى أنكم تريدون كذا وكذا، قالوا: نعم...فيُؤخذ منه ما ذكرت أنه ينبغى للإنسان إذا نُقل له شىء عن أحدٍ أن يتثبت قبل أن يحكم بمقتضى الشىء الذى نُقل له، حتى يكون إنسانًا رزينًا ثقيلاً معتبراً ... أما كونه يصدق بكل ما نُقل، فإنه يفوته بذلك الشىء الكثير، ويحصل له ضرر عظيم، بل الإنسان ينبغى عليه أن يتثبت.

ودَلَّ ذلك على أن المجيء إلى المسجد على القدمين أفضل من المجيء على مركوبٍ لأنه يُحسَب لك أجر الخُطا... ولكن إذا كان الإنسان معذورًا فلا بأس أن يأتي بالسيارة ... وخطوة السيارة دورة لعجلتها إذا دار عجلها دورة واحدة فهذه خطوة لأنه عند دورانه يرتفع الذي باشر الأرض ثم يدور حتى يرجع ثانية إلى الأرض فهو كرفع القدم من الأرض ثم وضعها مرة ثانية... فإذا كان الإنسان معذورًا فلا بأس أن يأتي بالسيارة وهذا أيضًا من فضائل المشي إلى المساجد أن الله تعالى يكتب للإنسان الخطوات كلما ذهب وكلما رجع.

---

(١) صحيح:رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٥٣).
(٢) حسن:رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١١٦٩).

(١٤٢) الثانى والعشرُونَ : عنْ أبِى محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال : قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعُونَ خَصلةً أَعلاها منيحةُ الْعَنْزِ، ما مِنْ عامِلٍ يعمل بِخَصلَةٍ مِنْها رجاءَ ثَوَابِهَا وتَصدِيقَ مَوْعُودِهَا إِلّاَ أَدخَلَهُ الله بِهَا الْجنَّةَ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن طرق الخير وخصال الخير كثيرة جدًّا .. وأن الله عَزَّوَجَلَّ شرعها لعباده من أجل أن يفوزوا برضوانه وجنته إذا عملوا بها أو ببعضها .. وذلك لأن النبى ﷺ قال عن الصدقة أنها: «**تُطْفِئ الخطيئة كَمَا يُطْفِئ المَاء النَّار**»[٢]، وأن «**صدقة السِّرِّ تُطفئ غضب الرب**»[٣].

۞ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَد حَضَّ النَّبيُّ ﷺ عَلَى أَبْوَابٍ مِنْ أَبْوَاب الْخَيْر وَالْبر لَا تُحصى كَثْرَة وَمَعلُومٌ أَنَّهُ ﷺ كَانَ عَالمًا بالأربعين الْمَذْكُورَة وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْهَا لِمَعنًى هُوَ أَنْفَعُ لَنَا مِنْ ذِكْرِهَا وَذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ التَّعيِينُ لَهَا مُزَهِّدًا فِى غَيْرِهَا مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ... قَالَ: وَقَد بَلَغَنِى أَنَّ بَعضَهُمْ تَطَلَّبَهَا فَوَجَدَهَا تَزِيدُ عَلَى الْأَرْبَعِينَ فَمِمَّا زَادَهُ إِعَانَةُ الصَّانِعِ وَالصَّنْعَةُ لِلْأَخْرَقِ وَإِعطَاءُ شِسْعِ النَّعلِ وَالسَّتْرُ عَلَى الْمُسْلِمِ وَالذَّبُّ عَنْ عِرْضِهِ وَإِدخَالُ السُّرُورِ عَلَيْهِ وَالتَّفَسُّحُ فِى الْمَجْلِسِ وَالدَّلَالَةُ عَلَى الْخَيْرِ وَالْكَلَامُ الطَّيِّبُ وَالْغَرْسُ وَالزَّرْعُ وَالشَّفَاعَةُ وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ وَالْمُصَافَحَةُ وَالْمَحَبَّةُ فِى اللهِ وَالْبُغْضُ لِأَجْلِهِ وَالْمُجَالَسَةُ لِلَّهِ وَالتَّزَاوُرُ وَالنُّصحُ وَالرَّحمَةُ ... وَكُلُّهَا فِى الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَفِيهَا مَا قَد يُنَازَعُ فِى كَوْنِهِ دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ.

۞ فالشاهد أننا لَا بُدَّ أن نحرص على فعل الخير مهما كان صغيرًا .. فقد قال النبى ﷺ: «**لَا تَحقِرنَّ مِن المعرُوف شَيئًا ولَوْ أَنْ تلْقَى أخَاك بِوجهٍ طلقٍ**».

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٦٣١) كتاب الهبة وفضلها.

«الْمنِيحةُ»: أَنْ يُعطِيه إِيَّاهَا ليشرب لبنَها ثُمَّ يَردَّهَا إِليْهِ.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٦).

(٣) صحيح: رواه الطبرانى فى الأوسط، والصغير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٥٩).

(١٤٣) الثَّالثُ والْعشرون: عَنْ عَدِيِّ بنِ حاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «اتَّقُوا النار وَلوْ بِشقِّ تَمْرةٍ»(١).

وفي رواية لهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُه ربُّه لَيْس بَيْنَهُ وبَيْنَهُ تَرْجُمَان، فَيَنْظُرُ أَيْمنَ مِنْهُ فَلا يَرى إِلَّا مَا قَدَّم، ويَنْظُر أشأمَ مِنْهُ فلا يَرَى إِلَّا ما قَدَّمَ، وَينْظُر بَيْنَ يدَيْهِ فَلا يَرى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فاتَّقُوا النَّارَ ولوْ بِشِقِّ تَمْرةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجد فَبِكَلِمَة طيِّبَةٍ».

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه ما من إنسان إلا وسيقف بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ ليُحاسبه يوم القيامة.

ولهذا قال النبي ﷺ هنا في الحديث: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ» يعني: يكلمه الله يوم القيامة بدون مترجم. يكلِّم الله كلّ عبدٍ مؤمن، فيقرره بذنوبه، يقول له: عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا، فإذا أقرَّ بها وظن أنه قد هلك قال: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

۞ عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْترُهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَد سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ.. وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ»(٢).

۞ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يدني الله العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كنفه فيستره من الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك ... قال: فيمر بالحسنة فيبيضّ لها وجهه، ويمر بالسيئة فيسودّ لها

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٢٣) كتاب الأدب، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤١) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٧٦٨) كتاب التوبة.

وجهه، قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبدى؟ قال: فيقول نعم يا رب أعرف، قال: فيقول: (فإنى) أَعرَفُ بها منك، قد غفرتها لك... قال: فلا تزال حسنة تُقبل فيسجد وسيئة تُغفر فيسجد فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادى الخلائق بعضها بعضًا: طوبى لهذا العبد الذى لم يعصِ قط ... فلا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه»[1].

۞ إنه مشهدٌ عظيم لا يستطيع إنسان أن يعلم مدى رهبته ...فإن الإنسان إذا ما وقف أمام ملك من ملوك الدنيا فإنه يرتجف فؤاده خوفًا وفزعًا أن يَصدُر منه ما يُغضب صاحب السلطان فما ظنكم بالوقوف بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

۞ **قوله** ﷺ: «**فينظر أيمن منه**» يعنى عن يمينه «**فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه**» أى: على يساره. «**فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه**».

فقال النبى ﷺ: «**فاتقوا النار ولو بشق تمرة**» أى: بنصف تمرة.. فما أجمل أن تكون نصف تمرة سببًا للنجاة من النار.. وذلك حتى لا نحتقر فعل أى خيرٍ ولو كان قليلًا.

۞ «**فمن لم يجد فبكلمة طيبة**». يعنى إن لم يجد شق تمرة فليتقِ النار بكلمة طيبة.

والكلمة الطيبة تشمل قراءة القرآن...فإن أطيب الكلمات القرآن الكريم، وكذلك تشمل التسبيح والتهليل، وكذلك تشمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتشمل تعليم العلم، وتعلُّم العلم، وتشمل كذلك كل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه من القول... يعنى إذا لم تجد شق تمرة فإنك تتقى النار ولو بكلمة طيبة.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص: ٢١٥) فى زوائد الزهد بإسنادٍ حسن.

فهذا من طرق الخير وبيان كثرتها ويُسرها ... فالحمد لله أن شق التمرة تُنجى من النار، وأن الكلمة الطيبة تُنجى من النار. نسأل الله أن ينجينا وإياكم من النار.

۞ قَالَ ابن بَطَّالٍ: وَجْهُ كَوْنِ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ صَدَقَةً أَنَّ إِعطَاءَ الْمَالِ يَفْرَحُ بِهِ قَلْبُ الَّذِى يُعطَاهُ وَيَذْهَبُ مَا فِى قَلْبِهِ...وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ فاشتبها من هَذِه الْحَيْثِيَّة.

(١٤٤) الرَّابع والْعشرونَ: عنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فيحمَدَهُ عَلَيْها ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحمَدَهُ عليْها»[1].

۞ ففى هذا الحديث دليلٌ على أن رضا الله عَزَّ وَجَلَّ قد يُنال بأدنى سبب .. لأنه هو الودود (سبحانه وتعالى) الذى يتودد إلى عباده وهو الغنى عنهم .. فالله يرضى عن الإنسان إذا انتهى من طعامه فقال: الحمد لله.. ويرضى عنه إذا شرب فقال: الحمد لله.

ولابد أن نعلم للطعام والشرب آدابًا فعلية وقولية.

۞ أما آداب الطعام الفعلية والقولية فهى:

تحرِّى أكل الحلال وعدم الأكل على شبع وعدم الأكل فى آنية الذهب والفضة ودعوة مَن حضر ودعوة الخادم وإطعامه وإشراك الجار فى الطعام وعدم الإسراف والحرص على الاجتماع وتكثير الأيدى على الطعام وغسل اليد قبل الطعام وانتظار الطعام الساخن حتى يبرد، وعدم تحقير الطعام وذكر الله عند الطعام، والتسمية أول الطعام والأكل باليد اليمنى والأكل بثلاثة أصابع والأكل مما يليه والأكل من جوانب القصعة وليس من وسطها؛ لأن البركة تنزل فى وسطها وعدم الإسراع فى الأكل واجتناب كل ما يُؤذى الآكلين وعدم النظر

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء.
«وَالأَكْلَة» بفتح الهمزة: وهى الْغَدوة أوِ الْعَشْوة.

إليهم حتى لا يُحرَجوا وعدم القران بين تمرتين أو لقمتين ورفع الطعام الساقط على الأرض وإطعام الزوجة باليد وتقديم الطعام للضيوف وعدم الإفراط فى الأكل والحرص على لعق الصحفة والأصابع وحمد الله بعد الطعام وغسل اليدين والفم والدعاء لصاحب الطعام.

۞ وأما عن آداب الشرب الفعلية والقولية فهى:

التسمية فى أوله والشرب قاعدًا إن أمكن والشرب باليد اليمنى وعلى ثلاث مرات وعدم الشرب من فم السقاء (الزجاجة) والتنفس أثناء الشرب وعدم التنفس فى الإناء وعدم الشرب فى أوانى الذهب والفضة والبُعد عن المشروبات المحرمة وعدم الإسراف فى الشرب واستحباب شرب ألبان البقر وأن يتمضمض بعد شرب اللبن وتقديم الأيمن فالأيمن وأن يكون ساقى القوم آخرهم شُربًا وأن يحمد الله بعد الشرب.

❊ ❊ ❊

(١٤٥) الْخامِسُ والْعشرُون: عن أَبِى مُوسى ﷺ، عن النبى ﷺ قال: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صدقةٌ» قال: أرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِد؟ قالَ: «يعمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَه وَيَتَصدَّقُ»: قَال: أرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يستطِعِ؟ قال: «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهوفَ» قالَ: أَرأَيْت إِنْ لَمْ يسْتَطِعِ قالَ: «يَأْمُرُ بِالمَعرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ» قالَ: أَرأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعلْ؟ قالْ: «يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقةٌ»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث من خلال شرح بعض الأحاديث السابقة. ولكن المعنى الذى ينبغى أن نقف عنده هنا هو أنه ينبغى للإنسان العاقل أن يُبادر وأن يُسارع إلى فعل الخير حتى لا يندم حين لا ينفع الندم .. فعليه أن يُسارع وأن يمتثل قول الله (جلَّ وعلا): ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة: ٤٨]

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٢٢) كتاب الأدب، ومسلم (١٠٠٨) كتاب الزكاة.

ولأن الإنسان إذا انفتح له باب الخير أول مرة ثم لم يفعل فإنه يوشك أن يؤخره الله عَزَّوَجَلَّ...وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله**»(١) فالمهم أنه ينبغى للإنسان العاقل الحازم المؤمن أن ينتهز سُبل الخير، وأن يحرص غاية الحرص على أن يأخذ من كل بابٍ منها بنصيب حتى يكون ممن سارع فى الخيرات.

۞ ونحن لَا بُدَّ أن يكون همنا الأكبر هو الفوز بالجنة وبرضوان رب الجنة (سبحانه وتعالى).

۞ ونحن نعلم أن سلعة الله غالية كما قال النبى ﷺ: «.. **ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هى الجنة**»(٢).

فالجنة تحتاج لمن يدفع مهرها من صيام وقيام وعبادات وطاعات.

ونحن جميعًا فى ميدان السباق الحقيقى .. فلا بُدَّ أن تحرص على أن تكون سبَّاقًا إلى كل خير حتى تكون مع السابقين إلى الجنة.

۞ **قال أبو حامد الغزالى** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثَقُل عليك ذلك، وضاق به صدرك، وتنغَّص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة...وفيها أقوام سبقوك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها»(٣).

فهل ضاق صدرك يومًا لأن جارك سبقك فى صلاة الفجر أو تكبيرة الإحرام؟!

هل تحرَّقت ساعة لأن غيرك أنفق أكثر مما أنفقت أو بذل من وقته وجهده لله ما حُرِمت منه أو تقدم فى ميدان من ميادين الخير وتأخرت؟! أرجو ذلك!!

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٣٨) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه الترمذى (٢٤٥٠) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

(٣)الإحياء (٤/ ٥٣٧) بتصرف.

(١٤) باب في الاقتصاد في الطاعة

❁ إنَّ من محاسن هذا الدين العظيم أنه دينٌ يدعو إلى التوسُّط والاعتدال .. وينبذ التشدُّد والإفراط.

فالنفس إذا كلَّفتها ما هو فوق طاقتها فإنها لا تُطيق ذلك وقد تتفلت وتنحرف عن الصراط المستقيم.

فالإسلام منهج حياة يكفل لنا السعادة فى الدارين - فى الدنيا والآخرة- .. وهو منهج كله يُسرٌ وسهولة وسعادة.

❁ ومن أجل ذلك أمرنا النبى ﷺ بالتوسُّط فى الأمور كلها والبُعد عن الغلو والتشدُّد وتكليف النفس فوق طاقتها.

❁ قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١-٢].

﴿طه﴾ من جملة الحروف المُقطعة التى يُفتتح بها كثيرٌ من السور .. وهى ليست اسمًا للنبى ﷺ كما يزعم بعض الناس.

وابتداء السورة بالحروف المُقطعة وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المُعرضين عن هذا القرآن... إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة فى تخاطبهم، فينتبهوا إلى ما يُلقَى إليهم من آياتٍ بينات، وفى هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على إعجاز القرآن فإن هذا الكتاب منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن[1]... يقول العلامة ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما ذُكرت هذه الحروف فى أوائل السور بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مُركَّب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها... وهو قول جمع من المحققين. وإليه ذهب الإمام «ابن تيمية» ثم قال: ولهذا كلُّ سورة افتتحت

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٥).

بالحروف، فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١-٢]﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١-٢] ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١ - ٢] ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ - ٣] وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن[١].

۞ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ أى: ليس المقصود بالوحى، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون فى الشريعة تكليف يشق على المكلَّفين، وتعجز عنه قوى العاملين. وإنما الوحى والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله مُوصلًا للسعادة والفلاح والفوز، وسهَّله غاية التسهيل، ويسَّر كل طُرقه وأبوابه، وجعله غذاءً للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقَّته الفِطَر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير فى الدنيا والآخرة[٢].

فالله عَزَّوَجَلَّ ما أنزل هذا القرآن على النبى ﷺ ليشقى به هو ومَن اتبعه .. بل لينال به سعادة الدنيا والآخرة هو ومَن اتبعه .. وذلك كما قال تعالى فى نفس السورة: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

۞ **قال صاحب الظلال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فى قوله تعالى:**

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ .. ما أنزلنا عليك القرآن ليؤدى إلى شقائك به أو بسببه. ما أنزلناه لتشقى بتلاوته والتعبُّد به حتى يجاوز ذلك طاقتك، ويشق

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٠).

(٢) تفسير السعدى (ص ٥٧٩).

عليك فهو مُيسَّر للذكر، لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر، ولا يكلفك إلا ما فى وسعك، ولا يفرض عليك إلا ما فى طوقك والتعبُّد به فى حدود الطاقة نعمة لا شقوة، وفرصة للاتصال بالملأ الأعلى، واستمداد القوة والطمأنينة، والشعور بالرضى والأُنس والوصول..

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به. فلست مُكلَّفًا أن تحملهم على الإيمان حملًا ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار(١).

ولهذا قال: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ إلا ليتذكر به مَن يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب لأجلِّ المطالب، فيعمل بذلك... ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيرهب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المُفصلة، التى كان مستقرًّا فى عقله حُسنها مُجملًا فوافق التفصيل ما يجده فى فطرته وعقله، ولهذا سمَّاه الله ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ والتذكرة لشىء كان موجودًا، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله.

وخصَّ بالتذكرة ﴿ لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به مَن لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا فى قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴾(٢).

❁ وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أى: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويُسهلها أبلغ تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده فى غاية السهولة فى أصله.

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٣٢٧).

(٢) تفسير السعدى (ص ٥٧٩-٥٨٠).

وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهّله تسهيلًا آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات.

وهذه جملة لا يمكن تفصيلها؛ لأن تفاصيلها جميع الشرعيات ويدخل فيها جميع الرُّخص والتخفيفات(١).

وهذه الآية نزلت في آيات الصيام، حتى لا يظن الظان أنه أُنزل على الناس للمشقة والتعب... فبيَّن الله تعالى أنه يريد بنا اليسر، ولا يريد بنا العُسر.

ولهذا مَن سافر لم يجب عليه الصوم، ويقضي من أيامٍ أُخر، ومَن مرض لم يجب عليه الصوم، ويقضي من أيامٍ أُخَر... فهذا من التيسير ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

***

(١٤٦) عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ دخَلَ عليْها وعَنْدها امْرأَةٌ قال: منْ هَذِه؟ قالت: هَذِهِ فُلانَة تَذْكُرُ مِنْ صَلاتِهَا قالَ: «مَه عليكُمْ بِما تُطِيقُون، فَوَ الله لا يَمَلُّ الله حتَّى تَمَلُّوا وكَانَ أَحَبُّ الدِّينِ إِلَيْهِ ما داوَمَ صَاحِبُهُ علَيْهِ»(٢).

وفي رواية أُخرى للحديث: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِنْدِي امْرَأَةٌ، فَقَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟» فَقُلْتُ: امْرَأَةٌ لَا تَنَامُ... تُصَلِّي، قَالَ: «عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»(٣).

۞ فعندما دخل النبي ﷺ على أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فوجد عندها امرأة سألها

---

(١) تفسير السعدي (ص ٨٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٧٨٥) كتاب صلاة المسافرين.

«ومَهْ» كَلِمة نَهي وزَجْر – ومَعنى «لا يملُّ الله» أي: لا يَقْطَعُ ثَوابَهُ عنْكُمْ وَجَزاءَ أعمَالكُمْ، ويُعَامِلُكُمْ مُعاملَةَ الْمالِّ حَتَّى تَملُّوا فَتَتْرُكُوا، فَيَنْبغي لكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا ما تُطِيقُون الدَّوامَ عَلَيْهِ لِيَدُومَ ثَوابُهُ لَكُمْ وفَضْلُه عَلَيْكُمْ.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٨٥) كتاب صلاة المسافرين.

ابتداءً: «مَنْ هَذِهِ؟».

وهذا دليلٌ على أنه ينبغى على الإنسان إذا دخل على زوجته ورأى عندها امرأة أن يسألها: «مَنْ هَذِهِ؟» لأنها قد تكون ممن لا يرغب هو فى دخولها البيت.. لأنها مشهورة بالغيبة والنميمة أو تكون ممن اشتهرت بإفشاء أسرار البيوت .. أو تكون ممن يُفسدون بين الأزواج.

۞ فقالت أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: هذه فلانة.. وأخذت تذكر من صلاتها .. وفى رواية أنها ذكرت أنها الحولاء بنت تُوَيْتٍ .. وفى رواية قالت: امرأة لا تنام ... أى من كثرة صلاتها.

فقال النبى ﷺ: «**مَهْ**» وهى تعنى أمرٌ بالكَفِّ... فهى عند النحويين اسم فعل بمعنى اكفُف ... وصَهْ: بمعنى اسكت.

والمعنى أن النبى ﷺ أمر هذه المرأة أن تَكُفَّ عن كثرة الصلاة لأنها قد تشق عليها بعد ذلك وتعجز عنها فى المستقبل فتتركها بالكلية.

۞ ثم إن النبى ﷺ أمرنا أن نأخذ من العمل بما نطيق فقال ﷺ: «**عليكم بما تُطيقون**» يعنى: إذا أردتم أن تجتهدوا فى أى عبادة فلا تُكلفوا أنفسكم فوق الطاقة فإن الإنسان إذا كلف نفسه فوق طاقتها فإنه سوف يملّ ويشعر بالتعب وينحسر وينقطع عن العمل بالكلية.

ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام: «فَوَاللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا»، يعنى أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعطيكم من الثواب بقدر عملكم مهما داومتم، فإن الله تعالى يُثيبكم عليه.

وهذا الملل الذى يُفهم من ظاهر الحديث، أن الله يتصف به ليس كمللنا نحن... لأن مللنا نحن ملل تعب وكسل، وأما ملل الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه صفة يختص بها عَزَّ وَجَلَّ ...والله -سبحانه وتعالى- لا يلحقه تعب ولا يلحقه كسل...قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]. هذه السموات العظيمة والأرض وما بينهما خلقها الله تعالى فى ستة

أيام: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة...قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ يعنى ما تعبنا بخلقها فى هذه المدة الوجيزة مع عظمها[1].

۞ تقول أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه.

ففى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلَّ**».

۞ والمعنى: ألا يُقبِل العبد على نافلة من النوافل بشدة ثم يتركها مرة واحدة بل الأفضل أن يبدأ بالتدريج من الأقل إلى الأكثر دون أن يكلف نفسه فوق الطاقة ... وكذلك عليه أن يداوم على الطاعة، أو أى عملٍ صالح ولا ينقطع أبدًا ولو اكتفى بقدرٍ قليل يستطيع أن يداوم عليه.

***

(١٤٧) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاءَ ثَلاثةُ رهْط إِلَى بُيُوتِ أَزْواجِ النَّبِيِّ ﷺ يسْأَلُونَ عنْ عبَادَة النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخبِروا كأَنَّهُمْ تَقَالُّوها وقالُوا: أين نَحنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ وقَد غُفِر لَهُ ما تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّر. قالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصلى الليل أبدًا، وقال الآخَرُ: وَأنا أَصُومُ الدَّهْرَ أبدًا ولا أُفْطِرُ، وقالَ الآخرُ: وأَنا أعتَزِلُ النِّساءَ فلا أَتزَوَّجُ أَبَدًا، فَجاءَ رسول الله ﷺ إِلَيْهِمْ فقال: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كذا وكذاَ؟، أَما والله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُم له لكِني أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصلِّى وَأَرْقُد، وَأَتزَوّجُ النِّسَاءَ، فمنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّى»[2].

۞ فى هذا الحديث يحكى أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن ثلاثة نفر جاءوا إلى بيوت النبى ﷺ ليسألوا زوجاته أُمهات المؤمنين (رضى الله عنهن) عن عمل النبى ﷺ الذى يعمل فى بيته.

وذلك لأن عمل النبى ﷺ إما أن يكون عملًا ظاهرًا يعرفه الناس جميعًا

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٦٣) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٠١) كتاب النكاح.

كالذى يفعله فى المسجد وأمام أصحابه فى كل مكان .. فهذا عملٌ ظاهر يراه كل أصحاب الرسول ﷺ... وإما أن يكون سِرًّا لا يعرفه أحد إلا أزواجه ومَن يخدمونه كأنس بن مالك وابن مسعود وغيرهما..فلما جاء هؤلاء الثلاثة إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألونهن عن عبادة النبى ﷺ فى السر - يعنى فى بيته- وأُخبروا بها فكأنهم تقالُّوها .. أى ظنوا أنها قليلة .. وهذا هو بداية الغلو...أن يظن إنسانٌ على وجه الأرض أن عبادة النبى ﷺ كانت قليلة وهو أعبد خلق الله.

ولماذا ظن هؤلاء أن عبادة النبى ﷺ كانت قليلة؟

لأنه ﷺ كان يصوم ويفطر ويصلى ويرقد ويتزوج النساء.. فهو أعظم مثال لوسطية الإسلام.

لكنهم تقالُّوها لأنهم كانوا شبابًا وعندهم نشاطٌ زائدٌ على حب الخير والعبادة .. ولكن النشاط ليس مقياسًا .. وإنما المقياس هو ما جاء به الشرع.

فجاء النبى ﷺ ، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا»، قالوا: نعم؛ لأن أحدهم قال: أصلى الليل ولا أرقد..والثانى قال: أصوم النهار أبدًا ولا أفطر، والثالث قال: أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فأقروا على أنفسهم بأنهم قالوا ذلك.

وهذا بالطبع خلاف الشرع وخلاف هدى النبى ﷺ.. فكيف لإنسانٍ أن يصلى الليل كله ولا يرقد طوال العمر .. وكيف لإنسانٍ أن يصوم العمر كله صيفًا وشتاءً ولا يفطر أبدًا .. وكيف لإنسانٍ أن يعيش بلا زوجة .. وبخاصة إذا كان شابًّا .. فهذا كله من المشقة التى تخالف وسطية الإسلام.

۞ فلما أقروا على أنفسهم بذلك وعلم النبى ﷺ بل وتأكد أنهم قالوا هذا.. فقال لهم: **«أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنتى فليس منى»** يعنى مَن رَغِبَ عن طريقتى واتخذ عبادة أشد، فإنه ليس منى.

۞ ففى هذا دليلٌ على أنه ينبغى للإنسان أن يعيش الوسطية الحقيقية للإسلام وأن يقتصد فى العبادة .. بل ويقتصد فى جميع أموره .. وذلك لأنه إن قَصَّر فسوف يفوته الخير الكثير .. وإن شدَّد على نفسه فسوف يملّ ويعجز عن تلك العبادة فى المستقبل ويدعها بالكلية...

فالاقتصاد فى كل شىء من سُنة النبى ﷺ .. فمن أراد أن يقتدى بالنبى ﷺ فعليه أن يقتصد مثل النبى ﷺ.

۞ **بعض فوائد الحديث:**

الفائدة الأولى: عظيم أمر السنة الشريفة، ووجوب اتباعها، والرضى بها منهجًا وسلوكًا..حيث إن النبى ﷺ قد حكم على مَن رغب عنها بوصفٍ شديد حيث قال: «**فليس منى**» . قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: فليس منى، إن كانت الرغبة عن السُّنة بضربٍ من التأويل يُعذَر صاحبه فيه فيكون المعنى: ليس على طريقتى، ولا يَلزم أن يخرج من الملة ... وإن كان إعراضًا وتنطُّعًا يُفضى إلى اعتقاد أرجحية عمله، فمعنى «**فليس منى**» أى ليس على ملتى لأن اعتقاد ذلك نوعٌ من الكفر) . انتهى[1] .

الفائدة الثانية: كما أن النقص فى أمور الدين مذموم، فإن الزيادة أيضًا مذمومة... فهؤلاء النفر أرادوا أن يزيدوا فى أمور العبادة بما لم يفعله النبى ﷺ فزجرهم ﷺ عن تلك الزيادة.

وأقول: إذا كان النبى ﷺ قد وبَّخ مَن زاد فى عبادة لها أصلٌ فى الدين، كان ﷺ يفعلها، بل يداوم عليها، وهى صيام النفل وقيام الليل، فكيف الحال بأُناسٍ ابتدعوا فى دين الله عَزَّوَجَلَّ ما ليس له أصل فى الكتاب ولا فى السُّنة، وتمسكوا بهذه البدع وتعلَّقوا بها أشد التعلُّق أكثر من تعلُّقهم بسُنة المصطفى ﷺ ... كابتداع

(١) انظر «فتح البارى» (٩/ ١٠٦).

أوراد وصلوات واحتفالات- يزعمون أنها دينية- ليست على هدى النبوة فى شىء ... أسأل هؤلاء كيف سيكون توبيخ النبى ﷺ لهم يوم القيامة؟ بل كيف سيكون تبرؤه منهم، وهو الذى قال: «**مَن أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رَدّ**».

ويتفرع عليه أن مدار الأمر ليس على كثرة العبادة والتشدُّد فيها، ولكن مدار الأمر على اتباع سُنة النبى ﷺ، دون تفريط أو مغالاة.

الفائدة الثالثة: قد تُطلَق السُّنة فى الأحاديث النبوية ولا يُراد بها الأعمال التى يُثاب فاعلها ولا يُعاقَب تاركها، بل يُقصَد بها الهدى النبوى ... كما فى قوله ﷺ: «**فمن رغب عن سُنتى فليس منى**» . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (المراد بالسُّنة الطريقة لا التى تقابل الفرض ... ومعنى الرغبة عن الشىء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد مَن ترك طريقتى وأخذ بطريقة غيرى فليس منى)[1][2].

❊ ❊ ❊

(١٤٨) وعَنْ ابن مسعودٍ رضي الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطّعُونَ» قالَها ثلاثًا[3].

۞ **قال النبى ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطّعُونَ» ثلاثًا.**

قال الإمام النووى رحمه الله: «**هَلَكَ الْمُتَنَطّعُونَ**» أى: المتعمقون المُغالون المجاوزون الحدود فى أقوالهم وأفعالهم[4].

فهم المتشددون فى أمورهم الدينية والدنيوية.. ولهذا قال النبى ﷺ: «**لا تُشددوا فيُشدد الله عليكم**».

---

(١) انظر «فتح البارى» (٩/ ١٠٥) .

(٢) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٥٢-٥٣) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٠) كتاب العلم.

«الْمُتَنَطِّعُونَ»: الْمُتعمِّقونَ الْمُشَدِّدُون فِى غَيْرِ موْضَعِ التَّشْدِيدِ..

(٤) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٢٠).

۞ ولا بد أن نعلم أن من نعمة الله على هذه الأمة وتشريفه لها أن جعلها أمة وسطًا خيارًا عُدولًا فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣].

فهى خير الأمم التى أُخرجت للناس ... وقد وصفها المولى عَزَّوَجَلَّ وشهد لها بذلك ... فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم اصطفى الله سبحانه وتعالى لها رسولًا من خيارها وأوسطها نسبًا ومكانة فبعثه فيها نبيًّا رسولًا: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وأنزل عليها أشرف كتبه وجعله مهيمنًا على الكتب قبله شاملًا لخير ما جاءت به: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

بهذا الرسول الكريم، وهذا القرآن العظيم، شُرفت هذه الأمة، وبمتابعتهما والاهتداء بهديهما كانت خير الأمم وأوسطها وأعدلها.

وكان أسعد هذه الأمة باتباعهما وأحرصهم على هديهما قولًا وعملًا واعتقادًا أصحاب رسول الله ﷺ ثم تابعوهم، ثم التابعون لهم بإحسانٍ من القرون الثلاثة المُفضلة التى شهد لها النبى ﷺ بالخيرية فى قوله: «**خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

فهؤلاء هم خيار الأمة ثم يَلحق بهم كل مَن كان على مثل ما كانوا عليه من الهدى والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فى كل زمانٍ ومكان فهؤلاء جميعًا خيار هذه الأمة وأوسطها وأعدلها.

فإنه بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى جوار ربه، ومضى عصر الخلافة الراشدة بدأ فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ظهور التفرق والاختلاف..

فخرجت الخوارج ببدعها، وظهرت الشيعة بغلوها وفتنها، ثم توالى ظهور البدع وتكونت الفرق، وتوارثت الأجيال كثيرًا من الانحرافات العقدية والسلوكية وغيرها، وابتعدت عن منهج الاعتدال والتوسط الذى رسمه القرآن الكريم ومارسه فى الحياة سيد المرسلين ﷺ[١].

۞ ولقد حكى لنا القرآن قصة بنى إسرائيل حين قتلوا قتيلاً فادَّارءوا فيه وتنازعوا حتى كادت الفتنة أن تَسود بينهم، فقال لهم موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧]. يعنى وتأخذوا جزءًا منها فتضربوا به القتيل، فيُخبركم مَن الذى قتله، فقالوا له: أتتخذنا هزوًا، فلو أنهم استسلموا وسلَّموا لأمر الله وذبحوا أىَّ بقرة كانت، لحصل مقصودهم، لكنهم تعنتوا فهلكوا، قالوا: ادعُ لنا ربك يُبين لنا ما هى، ثم قالوا: ادعُ لنا ربك يُبين لنا ما لونها، ثم قالوا: ادعُ لنا ربك يُبين لنا ما هى وما عملها.

فشدَّدوا فشدَّد الله عليهم حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْبَقَرَةِ الَّتِى أُمروا بِذَبْحِهَا فَوَجَدُوهَا عِنْدَ رَجُلٍ لَيْسَ لَهُ بَقَرَةٌ غَيْرُهَا، فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَنْقُصُهَا مِنْ مِلْءِ جِلْدِهَا ذَهَبًا، فَاشْتَرُوهَا بِمِلْءِ جِلْدِهَا ذَهَبًا فَذَبَحُوهَا فَضَرَبُوهُ بِبَعضِهَا فقَامَ، فَقَالُوا: مَنْ قَتَلَكَ؟ قَالَ: هَذَا وَأَشَارَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ ثُمَّ مَالَ مَيِّتًا[٢].

۞ فمن التشدُّد ما يفعله بعض المتشددين من طلبة العلم المجتهدين فى باب التوحيد حيث تجدهم إذا مرَّت بهم آيات صفات الرب عَزَّوَجَلَّ جعلوا يُنقبون عنها، ويسألون أسئلة ما كُلفوا بها، ولا دَرَج عليها سلف الأمة من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم، فتجد الواحد ينقب عن أشياء ليست من الأمور التى كُلف بها تنطُّعًا وتشدُّدًا ... فنحن نقول لهؤلاء: إنه يَسَعكم ما وسع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فأمسكوا، وإن لم يسعكم ثِقوا بأنكم ستقعون فى شدة وفى حرج وفى قلق.

(١) الوسطية فى القرآن الكريم / د. على الصلابى (ص ٥-٦).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٧٦).

ومثال ذلك أن بعض الناس يقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ له أصابع، كما جاء فى الحديث الصحيح: «**إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ يُصرفه حيث يشاء**»(١) فيأتى هذا المتنطع، فيبحث كم عدد هذه الأصابع؟ وهل لها أنامل؟ وكم أناملها؟ وما أشبه ذلك.

كذلك مثلاً: «**ينْزِل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى الثلث الأخير**»(٢) يقول: كيف يَنْزِل؟ ولِمَ ثلث الليل؟ وثُلث الليل يدور على الأرض كلها...معنى هذا أنه نازلٌ دائمًا...وما أشبه ذلك من الكلام الذى لا يُؤجَرون عليه، ولا يُحمَدون، بل هُم إلى الإثم أقرب منهم إلى السلامة، وهُم إلى الذَّمِّ أقرب منهم إلى المدح.

هذه المسائل التى لم يُكلَّف بها الإنسان، وهى من مسائل الغيب، ولم يَسأل عنها مَن هو خيرٌ منه، وأحرص منه على معرفة الله بأسمائه وصفاته، يجب عليه أن يمسك عنها، وأن يقول: سمعنا وأطعنا وصدقنا وآمنا، أما أن يبحث عن أشياء دقيقة ما لها فائدة، فإن هذا لا شك أنه من التنطُّع(٣).

۞ ومن ذلك ما يفعله بعض المتشددين فى الوضوء .. حيث تجده يتوضأ ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا وهو فى عافية من ذلك.. فيظل يتوضأ حتى ربما تفوته الصلاة.. بل وربما يملّ بعد ذلك من الوضوء والصلاة فيترك الصلاة.

۞ وكذلك فى الاغتسال من الجنابة تجد بعض المتشددين يتكلف إدخال الماء فى أذنه أو فى أنفه .. وهذا كله يدخل تحت قول الرسول ﷺ: «**هلك المتنطعون**».

۞ ومن ذلك أيضًا ما يفعله بعض الناس من التشديد على نفسه فى الصلاة حتى يمل ويتركها .. وبعضهم يتشدد على نفسه فى الصيام وهو مريض مرضًا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٥) كتاب التهجد، ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٤١٧).

شديدًا وقد أباح الله له الفطر؛ لأنه يحتاج إلى الطعام والشراب والدواء ولكنه يُشدد علَى نفسه فيبقى صائمًا وهو مريض فيزداد مرضًا.. فهذا يدخل تحت قول الرسول ﷺ: «**هلك المتنطعون**».

فهرس الموضوعات

هذه وصيتي

كنت منذ طفولتي اينما ذهبت وجدت القرآن الكريم وبجواره كتاب "رياض الصالحين" للإمام النووي رحمه الله وكنت احب القراءة في هذا الكتاب لكني كنت لا افهم الكثير من الاحاديث وتمنيت ان اجد كتابا سهلا فيه شرح لتلك الاحاديث التي تبلغ (١٩٠٤) حديثا

ومرت الأيام وشرح الله عز وجل صدري لشرح هذا الكتاب ففرغت حياتي لشرح هذا الكتاب الممتع الذي استطاع الامام النووي رحمه الله من خلاله ان يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الاسلامية والعقائد وفقه العبادات والمعاملات فوجدته كتابا شاملا لكل شيء، فاستعنت بالله عز وجل في حله شرحا يسيرا يفهمه العوام قبل العلماء وطلبة العلم وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله عز وجل وقضيت أحلى أيام عمري في شرح هذا الكتاب الممتع الذي لا يستغني عنه بيت مسلم أبدا . ففيه الخير الكثير الكثير ولعلكم تلمسون مدى سعادتي عندما تسعدون بقراءة هذا الكتاب القيم.

وصيتي لكل إخواني وأخواتي وأهلي وأحبابي أن تحرصوا على اقتناء هذا الكتاب القيم لنتربى جميعًا على المنهج الصافي: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فتصبح بيوتنا بركة على الإسلام والمسلمين في كل مكان.

أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسنات أبي وأمي (رحمة الله عليهما) وميزان حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به.

وأرجو ألا تبخلوا علي بدعوة صادقة بظهر الغيب بأن يرزقني الله عز وجل الإخلاص في القول والعمل وأن يرزقني حُسن الخاتمة وأن يجمعني بكم في الفردوس الأعلى مع الحبيب المصطفى ﷺ.

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري أبو عمار

شرح رياض الصالحين

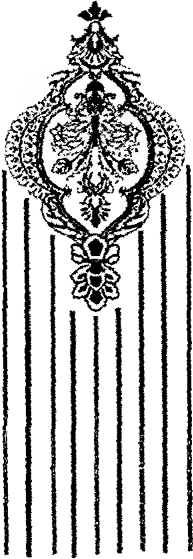
من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء الثاني





شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٢ ميدان الأزهر / أمام الجامع الأزهر / القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠

١ درب الأتراك / خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء الثاني

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤


بسم الله الرحمن الرحيم

(١٤٩) عن أَبِى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبه فسدِّدُوا وقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، واسْتَعِينُوا بِالغَدوةِ والرَّوْحة وشَىءٍ مِن الدُّلْجةِ»[1].

وفى رواية له: «سدِّدُوا وقَارِبُوا واغْدوا ورُوحُوا، وشَىْءٌ من الدُّلْجة، الْقَصد الْقصد تَبْلُغُوا».

۞ قوله ﷺ: «إِنَّ الدين يُسرٌ» أى إن هذا الدين الذى بعث الله به محمدًا ﷺ.. والذى ارتضاه الله لعباده ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ هو دين اليُسر.. كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالله عَزَّ وَجَلَّ رفع عن هذه الأمة الإصر الذى كان على الأُمم من قبلنا.. ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن التوبة فى بنى إسرائيل كانت بأن يقتل بعضهم بعضًا.. وأما توبة هذه الأمة فهى بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة إليه مرة أخرى ... وأحلَّ الله لنا الغنائم ولم تكن كذلك للأمم من قبلنا... وجمع الله ذلك كله بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨].. فالله رفع الحرج والمشقة عن هذه الأمة.

فالنصوص كلها تدل على أن هذا الدين يُسْرٌ، وهو كذلك.

ولو تَفكر الإنسان فى العبادات اليومية لوجد الصلاة خمس صلوات مُيَسَّرة مُوزَّعة فى أوقات، يتقدمها الطُّهر... طُهر للبدن وطُهر للقلب، فيتوضأ الإنسان عند كل صلاة، ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩) كتاب الإيمان.

قوله: «لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ»: أَىْ: غَلَبَه الدِّينُ وَعَجزَ ذلكَ الْمُشَادُّ عنْ مُقَاوَمَةِ الدِّينِ لِكَثْرةِ طُرقِهِ. «والْغَدْوةُ» سَيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ. «وَالرَّوْحةُ»: آخِرُ النَّهَارِ «والدُّلْجَةُ» آخِرُ اللَّيْلِ. وَهَذا استعارةٌ، وتمثيلٌ... ومعناهُ: اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعةِ الله عز وجل بالأعمالِ فى وقت نشاطِكُم، وفَراغِ قُلُوبِكُمْ بحيثُ تَسْتلذُّونَ الْعِبادَةَ ولا تسأمُونَ وتَبْلُغُونَ مقْصُودَكُمْ، كما أَنَّ الْمُسافِرَ الْحاذِقَ يَسيرُ فى هَذِه الأَوْقَاتِ وَيستَريحُ هُو ودابَّتُهُ فِى غَيْرِهَا فيصِلُ الْمقْصُودَ بغير تَعبٍ، والله أعلم.

ورسوله.. اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين.

فيطهر بدنه أولاً ثم قلبه بالتوحيد ثانيًا، ثم يصلى.

ولو تفكرت أيضًا فى الزكاة، وهى الركن الثالث من أركان الإسلام، تجد أنها سهلة ...فأولاً لا تجب إلا فى الأموال النامية، أو ما فى حكمها، ولا تجب فى كل مال، بل فى الأموال النامية التى تنمو وتزيد كالتجارة، أو ما فى حكمها كالذهب والفضة وإن كان لا يزيد، أما ما يستعمله الإنسان فى بيته، وفى مركوبه، فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**ليس على المؤمن فى عبده ولا فرسه صدقة**»... جميع أوانى البيت وفرش البيت والسيارات وغيرها مما يستعمله الإنسان لخاصة نفسه، فإنه ليس فيه زكاة.

ثم الزكاة الواجبة يسيرة جدًّا، فهى ربع العشر، يعنى: واحد من أربعين، وهذا أيضًا يسير، ثم إذا أديت الزكاة فإنها لن تُنقص مالك، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**ما نقصت صدقة من مال**»[1]، بل تجعل فيه البركة وتُنمِّيه وتُزكيه وتطهره.

وانظر إلى الصوم فهو أيضًا يسير فليس كل السَّنة ولا نصف السَّنة ولا ربع السَّنة، بل شهرٌ واحد من اثنى عشر شهرًا ... وفوق ذلك فهو مُيسَّر، إذا مرضت فأفطر، وإذا سافرت فأفطر، وإذا كنت لا تستطيع الصوم فى كل دهرك فأطعم عن كل يوم مسكينًا.

والحج أيضًا مُيسَّر ... قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]، ومن لم يستطع: إن كان غنيًّا بماله أناب مَن يَحُج عنه، وإن كان غير غنى بماله ولا بدنه سقط عنه الحج.

والحاصل أن الدين يُسر ... يُسرٌ فى أصل التشريع، ويُسر فيما إذا طرأ ما يوجب الحاجة إلى التيسير ... قال النبى - عليه الصلاة والسلام - لعمران ابن حصين:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة.

«صَلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنْب»[1] فالدين يُسر.

ثم قال النبي ﷺ: «وَلَن يُشادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غلبه» يعني: لن يطلب أحدٌ التشدد في الدين إلا غُلِبَ وهُزِمَ، وكَلَّ ومَلَّ وتَعِب، ثم استحسر فترك... هذا معنى قوله: «لَن يُشادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غلبه» يعني: أنك إذا شددت الدِّين وطلبت الشدة، فسوف يغلبك الدِّين، وسوف تهلك، كما قال النبي ﷺ في الحديث السابق: «هلك المتنطعون».

۞ قَالَ ابن الْمُنِيرِ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَلَمٌ مِنْ أَعلَامِ النُّبُوَّةِ، فَقَد رَأَيْنَا وَرَأَى النَّاسُ قَبْلَنَا أَنَّ كُلَّ مُتَنَطِّعٍ فِي الدِّينِ يَنْقَطِعُ ... وَلَيْسَ الْمُرَادُ مَنْعَ طَلَبِ الْأَكْمَلِ فِي الْعِبَادَةِ فَإِنَّهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْمُودَةِ بَلْ مَنْعُ الْإِفْرَاطِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْمَلَالِ أَوِ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّطَوُّعِ الْمُفْضِي إِلَى تَرْكِ الْأَفْضَلِ أَوْ إِخْرَاجِ الْفَرْضِ عَنْ وَقْتِهِ كَمَنْ بَاتَ يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ وَيُغَالِبُ النَّوْمَ إِلَى أَنْ غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ فَنَامَ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي الْجَمَاعَةِ أَوْ إِلَى أَنْ خَرَجَ الْوَقْتُ الْمُخْتَارُ أَوْ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَخَرَجَ وَقْتُ الْفَرِيضَةِ.

وَفِي حَدِيثِ مِحْجَنِ بْنِ الْأَدرَعِ عِنْدَ أَحْمَدَ: إِنَّكُمْ لَنْ تَنَالُوا هَذَا الْأَمْرَ بِالْمُغَالَبَةِ وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْيَسَرَةُ ... وَقَد يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْإِشَارَةِ إِلَى الْأَخْذِ بِالرُّخْصَةِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّ الْأَخْذَ بِالْعَزِيمَةِ فِي مَوْضِعِ الرُّخْصَةِ تَنَطُّعٌ كَمَنْ يَتْرُكُ التَّيَمُّمَ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنِ اسْتِعمَالِ الْمَاءِ فَيُفْضِي بِهِ اسْتِعمَالُهُ إِلَى حُصُولِ الضَّرَرِ.

۞ قَوْلُهُ: (فَسَدِّدُوا) أَيِ الْزَمُوا السَّدَادَ وَهُوَ الصَّوَابُ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ ... قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: السَّدَادُ التَّوَسُّطُ فِي الْعَمَلِ.

۞ قَوْلُهُ: (وَقَارِبُوا) أَيْ إِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا الْأَخْذَ بِالْأَكْمَلِ فَاعمَلُوا بِمَا يُقَرِّبُ مِنْهُ.

۞ قَوْلُهُ: (وَأَبْشِرُوا) أَيْ بِالثَّوَابِ عَلَى الْعَمَلِ الدَّائِمِ وَإِنْ قَلَّ ... وَالْمُرَادُ تَبْشِيرُ مَنْ عَجزَ عَنِ الْعَمَلِ بِالْأَكْمَلِ بِأَنَّ الْعَجْزَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ صَنِيعِهِ لَا يَسْتَلْزِمُ

(١) صحيح: رواه البخاري (١١١٧) كتاب تقصير الصلاة.

نَقْصَ أَجْرِهِ ... وَأَبْهَمَ الْمُبَشَّرَ بِهِ تَعظِيمًا لَهُ وَتَفْخِيمًا.

۞ قَوْلُهُ: (وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدوَةِ) أَيِ اسْتَعِينُوا عَلَى مُدَاوَمَةِ العِبَادَةِ بِإِيقَاعِهَا فِى الْأَوْقَاتِ الْمُنَشِّطَةِ ... وَالْغَدوَةُ سَيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ، وَالرَّوْحَةُ: السَّيْرُ بَعدَ الزَّوَالِ، وَالدُّلْجَةُ: سَيْرُ آخِرِ اللَّيْلِ وَقِيلَ سَيْرُ اللَّيْلِ كُلِّهِ وَلِهَذَا عَبَّرَ فِيهِ بِالتَّبْعِيضِ.

وَلِأَنَّ عَمَلَ اللَّيْلِ أَشَقُّ مِنْ عَمَلِ النَّهَارِ وَهَذِهِ الْأَوْقَاتُ أَطْيَبُ أَوْقَاتِ الْمُسَافِرِ وَكَأَنَّهُ ﷺ خَاطَبَ مُسَافِرًا إِلَى مَقْصِدٍ فَنَبَّهَهُ عَلَى أَوْقَاتِ نَشَاطِهِ لِأَنَّ الْمُسَافِرَ إِذَا سَافَرَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ جَمِيعًا عَجَزَ وَانْقَطَعَ وَإِذَا تَحَرَّى السَّيْرَ فِى هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْمُنَشِّطَةِ أَمْكَنَتْهُ الْمُدَاوَمَةُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ ... وَحُسْنُ هَذِهِ الِاسْتِعَارَةِ أَنَّ الدُّنْيَا فِى الْحَقِيقَةِ دَارُ نُقْلَةٍ إِلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ بِخُصُوصِهَا أَرْوَحُ مَا يَكُونُ فِيهَا الْبدن لِلْعِبَادَةِ[(١)].

۞ قوله ﷺ: «**الْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبلغُوا**»: وَالْقَصْدُ الْأَخْذُ بِالْأَمْرِ الْأَوْسَطِ وَمُنَاسَبَةُ إِيرَادِ الْمُصَنِّفِ لِهَذَا الْحَدِيثِ عَقِبَ الْأَحَادِيثِ الَّتِى قَبْلَهُ ظَاهِرَةٌ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا تَضَمَّنَتِ التَّرْغِيبَ فِى الْقِيَامِ وَالصِّيَامِ وَالْجِهَادِ فَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْأَوْلَى لِلْعَامِلِ بِذَلِكَ أَنْ لَا يُجْهِدَ نَفْسَهُ بِحَيْثُ يَعجِزُ وَيَنْقَطِعُ بَلْ يَعمَلُ بِتَلَطُّفٍ وَتَدرِيجٍ ليدوم عمله وَلَا يَنْقَطِع»[(٢)].

(١٥٠) وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمسجِدَ فَإِذَا حبلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فقالَ: «ما هَذَا الْحبْلُ» ؟ قالُوا: هَذا حبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَترَتْ تَعلَّقَتْ بِهِ. فقال النَّبِيُّ ﷺ: «حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحدُكُمْ نَشاطَهُ، فَإِذا فترَ فَلْيَرقُد»[(٣)].

۞ دخل النبى ﷺ المسجد النبوى يومًا فرأى حبلًا مربوطًا بين ساريتين –

---

(١) فتح البارى (١/ ١١٧-١١٨) بتصرف.

(٢) فتح البارى (١/ ١١٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١١٥٠) كتاب التهجد، ومسلم (٧٨٤) كتاب صلاة المسافرين.

أى: بين عمودين- فما كان من النبى ﷺ إلا أن سأل وقال: «**ما هذا الحبل؟**» فقالوا: هذا حبل زينب تربطه بين الساريتين وتصلى .. فإذا تعبت من كثرة الصلاة فإنها لا تجلس بل تتعلق بالحبل وتستمر واقفة تصلى ... فلم يَقُل النبى ﷺ: بارك الله فيها .. ما شاء الله .. ما هذه الهمة العالية. بل قال ﷺ: «**حُلُّوه**» .. أى: اقطعوه وأزيلوه.

ثم قال ﷺ: «**ليُصلِّ أحدكم نشاطه فإذا فَتر فليرقد**».

۞ ففى هذا دليلٌ على أنه ينبغى للإنسان ألا يُكلف نفسه ما لا تُطيق وألا يتنطع فى العبادة وأن يُصلى ما دام نشيطًا .. فإذا أحسَّ بالتعب فعليه أن يجلس أو يرقد ليستريح وليستطيع أن يُعاود العبادة بعد أن يعود إليه نشاطه مرة أخرى.

وذلك لأنه إذا صلَّى وهو مُتعَبٌ فإنه لن يستطيع أن يخشع .. بل إنه ربما يريد أن يدعو لنفسه وهو ساجد فيدعو على نفسه؛ لأنه نائم.. فبدلًا من أن يقول: اللهم اغفر لى.. فيقول: اللهم لا تغفر لى.

۞ وإن كان هذا الأمر قد وَرَد فى الصلاة فإنه يشمل جميع أنواع العبادة .. فلا تُكلف نفسك فوق طاقتها حتى لا تملّ وتسأم من العبادة بل عامل نفسك بالرفق واللين.

۞ وكذلك إن كنت تُصلح أى شيء وشعرت بالتعب فارقد حتى ترتاح ثم واصل عملك.

وإذا كنت تُذاكر وشعرت بالتعب فارقد حتى ترتاح ثم واصل المُذاكرة ... وهكذا فى كل أمور دينك ودُنياك.

* * *

(١٥١) وعَنْ عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا نَعَسَ أحدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّى، فَلْيَرقُد حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فإن أَحدَكم إِذَا صلَّى وهُو نَاعسٌ لا يَدرِى**

لعلَّهُ يذهَبُ يسْتَغْفِرُ فيَسُبُّ نَفْسَهُ»(١).

۞ ما يُقال فى شرح هذا الحديث هو ما قد قيل فى الحديث السابق .. فالنبى ﷺ يوصينا - وهو الذى ما ترك خيرًا إلا وقد دلَّنا عليه وما ترك شرًّا إلا وقد حذرنا منه- فهو ﷺ يُوصينا بأن يصلى أحدنا وهو نشيط فإذا شعر بالتعب أو غَلَبه النُّعاس وهو يُصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم وحتى يستعيد نشاطه فيُصلى بعد ذلك وهو نشيط.

ثم وضَّح النبى ﷺ العلة من ذلك فقال: **«فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعسٌ لا يدرى لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه»**.

فقد يريد أن يقول: اللهم أدخلنى الجنة .. فيقول: اللهم لا تُدخلنى الجنة.

وقد يريد أن يقول: اللهم اغفر لي وارحمنى .. فيقول: اللهم لا تغفر لى ولا ترحمنى... وهكذا.

وفى النهاية فلا بد أن نعلم أن الإنسان لنفسه عليه حق.. فإذا أجبر نفسه على فعل أى عبادة وهو مريض أو تعبان فإنه يكون بذلك قد ظلم نفسه..

فما أجمل هذا الدين الذى يُعلمنا الوسطية بلا إفراطٍ ولا تفريط.

(١٥٢) وعَنْ أَبِى عبد الله جابر بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كُنْتُ أُصَلِّى مَعَ النبىِّ ﷺ الصَّلَوَاتِ، فَكَانَتْ صلاتُهُ قَصدًا وخُطْبَتُه قَصدًا»(٢).

۞ فى هذا الحديث يخبر جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يصلى مع النبى ﷺ صلاة الجمعة فكانت خطبته قصدًا وصلاته قصدًا .. أى: أنها وسط بين

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٢) كتاب الوضوء، ومسلم (٧٨٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٦٦) كتاب الجمعة.

قولُهُ: قَصْدًا : أىْ بَيْنَ الطُّولِ وَالْقِصَرِ.

التخفيف المُخل وبين التثقيل المُمل... فهى خطبة ليست طويلة وليست قصيرة.. وكذلك الصلاة.. وهذا من حكمة النبى ﷺ ومن فقه النبى ﷺ حتى نقتدى به ونفعل مثله ﷺ ...ففى هذا الزمان نجد أن بعض الخطباء يتعمدون إطالة الخطبة حتى يملّ الناس ويخرجوا من الصلاة بغير فائدة.. وهذا بالطبع مخالف لهدى النبى ﷺ.

عن واصل بن حيان قال: قال أبو وائل: خطبنا عمار، فأوجز وأبلغ. فلمّا نزل قلنا: يا أبا اليقظان! لقد أبلغت وأوجزت. فلو كنت تنفَّست! فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ طول صلاة الرجل، وقِصَر خُطبته، مَئِنَّةٌ من فِقهه فأطيلوا الصلاة واقصُرُوا الخُطبة وإن من البيان سحرًا**»(١).

وفى رواية لأحمد: «خطبنا عمار بن ياسر فتجوَّز فى خُطبته، فقال له رجل من قريش: لقد قلت قولاً شفاءً، فلو أنك أطلت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ نهى أن نُطيل الخطبة»(٢).

قال الإمام النووى رحمه الله: وليس هذا الحديث مخالفًا للأحاديث المشهورة فى الأمر بتخفيف الصلاة لقوله فى الرواية الأخرى: «وكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا»؛ لأن المراد بالحديث الذى نحن فيه أن الصلاة تكون طويلة بالنسبة إلى الخطبة لا تطويلاً يشق على المأمومين ... وهى حينئذ قصد أى معتدلة، والخطبة قصد بالنسبة إلى وضعها(٣).

(١٥٣) وعَنْ أَبِى جُحَيْفَةَ وَهبِ بْنِ عبد الله رضي الله عنه قال: آخَى النَّبِىُّ ﷺ بَيْن سَلْمَانَ وأبى الدَّرداءِ، فَزَارَ سلْمَانُ أَبَا الدَّرداءِ، فَرَأى أُمَّ الدَّرداء مُتَبَذِّلَةً فقالَ: ما

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٩) كتاب الجمعة.
(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣٢٠) بسندٍ صحيح.
(٣) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٢٦).

شَأْنُكِ؟ قالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرداءِ لَيْسَ له حَاجَةٌ فى الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرداءِ فَصَنَعَ له طَعَامًا، فقالَ لَهُ: كُلْ فَإِنِّى صَائِمٌ، قالَ: ما أَنا بآكلٍ حَتَّى تأْكلَ، فَأَكَلَ، فَلَمَّا كانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْداءِ يقُوم فقالَ لَه: نَمْ فَنام، ثُمَّ ذَهَبَ يقُوم فقالَ لَه: نَمْ ... فَلَمَّا كان من آخر اللَّيْلِ قال سلْمانُ: قُم الآنَ، فَصَلَّيَا جَمِيعًا، فقالَ له سَلْمَانُ: إِنَّ لرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لنَفْسِكَ عَلَيْكَ حقًّا، ولأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّه... فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكر ذلكَ لَه،فقالَ النَّبِيُّ ﷺ:«صَدَقَ سلْمَانُ»[١].

۞ قال أَبو جُحَيْفَةَ وَهبُ بْنُ عبد الله: آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْن سَلْمَانَ وأبى الدَّرداءِ رضي الله عنهما.

فإنه لما هاجر النبى ﷺ من مكة إلى يثرب (المدينة) وبعد أن بنى النبى ﷺ مسجده آخى بين المهاجرين والأنصار، وذلك لتقوية الجبهة الداخلية وزيادة ترابطها، وحتى يواسى الأنصار إخوانهم المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم لنُصرة دين الله وإعزاز شرعه ... ومدح الله عز وجل الأنصار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقد ترتَّب على تشريع نظام المؤاخاة حقوقٌ خاصة بين المتآخين كالمواساة بين الاثنين، والمواساة ليست مُحدَّدة بأمورٍ مُعينة، بل مُطلَقة لتعنى كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواء كان عونًا ماديًّا، أو رعاية ونصيحة وتزاورًا ومحبة ... كما ترتَّب على المؤاخاة أن يتوارث المتآخون دون ذوى أرحامهم مما يرقى بالعلاقات بين المتآخين إلى مستوى أعمق وأعلى من أُخوة الدم[٢]. ثم نُسخ هذا التوارث بقول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦١٣٩) كتاب الأدب.

(٢) المجتمع المدنى فى عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى (٧٤، ٧٦) باختصار/ د. أكرم العمرى.

بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنفال: ٧٥]. وذلك بعد أن تغيرت أحوال المهاجرين بإصابة الغنائم، ومعرفة مسالك طلب الرزق فى وطنهم الجديد.

ولقد ذَكَرَ أَصحَابُ الْمَغَازِى أَنَّ الْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَقَعَتْ مَرَّتَيْنِ الْأُولَى قَبْلَ الْهِجْرَةِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ خَاصَّةً عَلَى الْمُوَاسَاةِ وَالْمُنَاصَرَةِ فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ أُخُوَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثُمَّ آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بَعدَ أَنْ هَاجَرَ وَذَلِكَ بَعدَ قُدُومِهِ الْمَدِينَةَ(١).

۞ وقد يسأل سائلٌ ويقول: كيف آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء إذا كان سلمان قد أسلم بعد غزوة أُحد وكان أول غزوة شهدها هى غزوة الخُندق؟

والجواب عن ذلك أن النبى ﷺ قد ابتدأ فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة وبعدما بنى مسجده ﷺ.. ثم لم تنقطع المؤاخاة بعد ذلك فقد كان النبى ﷺ يؤاخى بين مَن يأتى بعد ذلك وهَلُمَّ جرًّا.. وليس باللازم أن تكون المؤاخاة قد وقعت دفعة واحدة .. ولذا فإن سلمان لما أسلم بعد غزوة أُحد آخى النبى ﷺ بينه وبين أبى الدرداء رضي الله عنهما.

۞ فجاء سلمان ذات يومٍ لزيارة أخيه أبى الدرداء فلم يجده فى البيت ووجد امرأته أم الدرداء تلبس ثيابًا رثة ولم تكن مُتزينة لزوجها.

فقال لها: ما شأنك؟ فقالت له: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا .. يعنى أنه مُعرض عن الدنيا وعن الزوجة وعن الطعام وعن كل شىء.

فلما جاء أبو الدرداء صنع لسلمان طعامًا وقدَّمه إليه وقال له: كُلْ فإنى صائم- أى صيام نافلة- فقال له سلمان: ما أنا بآكلٍ حتى تأكل ... وذلك لأنه قد علم من زوجته أنه يصوم دائمًا ولا يُفطر حتى أثَّر ذلك على حياته وعلاقته بزوجته فلقد أصبح زاهدًا فى الدنيا وما فيها.

(١) فتح البارى (٤/ ٢٤٧).

فأفطر أبو الدرداء وأكل مع سلمان ثم نام.

فلما أقبل الليل قام أبو الدرداء ليُصلى قيام الليل، فقال له سلمان: نَمْ فنام.. ثم قام مرة أخرى بعد فترة ليُصلى فقال له سلمان: «نَمْ فنام» فلما كان الثلث الأخير من الليل قال له سلمان: قم الآن .. فقام أبو الدرداء وصلى مع سلمان قيام الليل...

ومن المعلوم أن صلاة قيام الليل لا تُصلَّى جماعة ولكنها تجوز أحيانًا إذا لم يكن ذلك على سبيل المداومة .. وقد صلى حذيفة بن اليمان مع النبى ﷺ قيام الليل .. وكذلك صلَّى ابن مسعود مع النبى ﷺ قيام الليل وكذلك ابن عباس (رضى الله عنهم جميعًا).

ثم قال له سلمان: «إن لنفسك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لربك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذى حقٍّ حقه» ... وهذا القول الذى قاله سلمان هو القول الذى قاله النبى ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

فلما قال سلمان ذلك لأبى الدرداء .. وخرجا ليُصليا الصبح مع النبى ﷺ فذكر أبو الدرداء للنبى ﷺ ما قاله له سلمان .. فقال له النبى ﷺ: «**صدق سلمان**».

ففى هذا دليل: على أن الإنسان لا ينبغى له أن يكلف نفسه بالصيام والقيام، وإنما يصلى ويقوم على وجهٍ يَحصُل به الخير، ويزول به التعب والمشقة والعناء.

***

(١٥٤) وعَنْ أَبى محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أُخبِرَ النَّبِىُّ ﷺ أَنِّى أَقُول: وَالله لأَصومَنَّ النَّهارَ، ولأَقُومنَّ اللَّيْلَ ما عشْتُ، فَقَالَ رسُول الله ﷺ: «أَنْتَ الَّذِى تَقُول ذلك؟» فَقُلْت له: قَد قُلْتُه بأَبِى أَنت وأُمِّى يا رسولَ الله. قَالَ: «فإنكَ لا تَستَطِيعُ ذِلكَ، فَصُمْ وأَفْطِرْ، ونَمْ وَقُمْ، وصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثلاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحسنَةَ بعَشْرِ أَمْثَالِها، وذلكَ مِثْلُ صيامِ الدَّهْر قُلْت: فَإِنِّى أُطيق أَفْضَلَ منْ ذلكَ قالَ: فَصمْ يَوْمًا وَأَفْطرْ يومَينِ، قُلْت: فَإِنِّى أُطيق أفْضَلَ مِنْ ذلكَ قالَ: فَصمْ

يَوْمًا وَأَفْطِرْ يوْمًا، فَذلكَ صيَام داود ﷺ، وَهُو أَعدَل الصِّيَام».

وَفِى رواية: «هوَ أَفْضَلُ الصِّيامِ» فَقُلْتُ: فَإِنِّى أُطِيقُ أَفْضلَ مِنْ ذلكَ، فقال رسول الله ﷺ: «لا أَفْضَلَ منْ ذلك»... وَلأنْ أَكُونَ قَبِلْتُ الثَّلاثَةَ الأَيَّامِ الَّتِى قال رسول الله ﷺ أَحَبُّ إِلىَّ منْ أَهْلِى وَمالى.

وفى رواية: «أَلَمْ أُخبَرْ أَنَّكَ تَصومُ النَّهَارَ وتَقُومُ اللَّيْلَ؟» قلت: بلَى يا رسول الله. قال: «فَلا تَفْعل: صُمْ وأَفْطِرْ، ونَمْ وقُمْ فَإِنَّ لجَسَدِكَ علَيْكَ حقًّا، وإِنَّ لعيْنَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لزَوْجِكَ علَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لزَوْركَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ بحَسْبكَ أَنْ تَصْومَ فِى كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّام، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِن ذلك صِيَامُ الدَّهْرِ» فشَدَّدتُ فَشُدِّدَ عَلَىَّ، قُلْتُ: يا رسول الله إِنِّى أَجِدُ قُوَّةً، قال: «صُمْ صِيَامَ نَبِىِّ الله داوُدَ وَلا تَزد عَلَيْه» قلت: وما كَان صِيَامُ داودَ؟ قال: «نِصْفُ الدهْرِ» فكَانَ عَبْدُ الله يقول بعد مَا كَبِر: يا ليتنى قَبِلْتُ رُخْصةَ رسول الله ﷺ.

وفى رواية: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّك تَصُومُ الدَّهْرَ، وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَة؟» فَقُلْتُ: بَلَى يا رسول الله، ولَمْ أُرد بذِلكَ إِلَّا الْخيْرَ، قَالَ: «فَصُمْ صَوْمَ نَبِىِّ الله داودَ، فَإِنَّه كَانَ أَعبَدَ النَّاس، واقْرأْ الْقُرْآنَ فى كُلِّ شَهْر» قُلْت: يَا نَبِىَّ الله إِنِّى أُطِيق أَفْضل مِنْ ذلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأه فِى كُلِّ عِشرِينَ» قُلْت: يَا نبىَّ الله إِنِّى أُطِيق أَفْضَل مِنْ ذَلكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِى كُلِّ عَشْر» قُلْت: يَا نَبِىَّ الله إِنِّى أُطِيق أَفْضلَ مِنْ ذلكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْه فى كُلِّ سَبْعٍ وَلاَ تَزِد عَلَى ذَلِكَ» فَشَدَّدتُ فَشُدِّدَ عَلَىَّ، وقَالَ لِى النَّبِىُّ ﷺ: «إِنَّكَ لا تَدرِى لَعلَّكَ يَطُول بِكَ عُمُرٌ» قالَ: فَصِرْت إِلَى الَّذِى قَالَ لِى النَّبِىُّ ﷺ فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدتُ أَنِّى كُنْتُ قَبِلْت رخْصَة نَبِىِّ الله ﷺ.

وفى رواية: «وَإِنَّ لوَلَدكَ علَيْكَ حَقًّا» وفى رواية: «لا صَامَ من صَامَ الأَبَدَ» قَالَهُ ثَلاثًا. وفى روايةٍ: «أَحبُّ الصِّيَامِ إِلَى الله تَعَالَى صيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى الله تَعَالَى صَلاةُ دَاوُدَ: كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يوْمًا

ويُفْطِرُ يَوْمًا، وَلا يَفِرُّ إِذَا لاقَى».

وفى رواية قَالَ: أَنْكَحَنى أَبِى امْرَأَةً ذَاتَ حسَبٍ، وكَانَ يتعَاهَدُ كِنَّتهُ أى: امْرأَة ولَده فَيسْأَلُهَا عَنْ بَعلِهَا، فَتَقُولُ لَهُ: نِعمَ الرَّجُلُ مِنْ رجُل لَمْ يَطأْ لنا فِرَاشًا ولَمْ يُفتِّشْ لنا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ فَلَمَّا طالَ ذَلِكَ عليه ذكَرَ ذلكَ للنَّبيِّ ﷺ فقال: «الْقَنِى به» فَلقيتُهُ بَعدَ ذلك فقَالَ: «كيفَ تَصُومُ؟» قُلْتُ: كُلَّ يَوْم، قَالَ: «وكيْفَ تَخْتِمِ؟» قلتُ: كُلَّ لَيلة، وذَكَر نَحْوَ مَا سَبَق وكَان يقْرَأُ عَلَى بعض أَهْله السُّبُعَ الَّذى يقْرؤهُ، يعرضُهُ من النَّهَارِ ليكُون أَخفَّ عَلَيْهِ باللَّيْل، وَإِذَا أَراد أَنْ يَتَقَوَّى أَفْطَر أَيَّامًا وَأَحصَى وصَام مِثْلَهُنَّ كَراهِية أَن يتْرُك شيئًا فارقَ علَيه النَّبى ﷺ[(١)].

كُلُّ هذِه الرِّوَايات صحِيحةٌ مُعظَمُهَا فِي الصَّحيحْينَ وقليلٌ منْهَا فى أَحَدِهِما.

۞ المداومة على قليل الدواء تورث الشفاء، وتناوُل الجرعة الكبيرة منه ثم الانقطاع لا يُحدث الأثر المرجو، بل يحقق مبتغى الشيطان وهو انقطاعك وعدم دوامك؛... لذا كان من أسهل ما يوصل عدوك إلى هدفه: الغلو وتحميل نفسك فوق طاقتها والغفلة عن سنة التدرُّج... وتفاصيل خطة الشيطان وبين ثناياها: إفراط فى بداية الطريق يورث التفريط آخره، وهو ما يسميه الأطباء اليوم بظاهرة الانتكاسة، فبعد أن يتناول المريض الدواء زمنًا وتبدو عليه أمارات الشفاء؛ يرتكس وينتكس من جَرَّاء ما شدد على نفسه فى الأول.

وهو ما حذر منه من قديم الزمن الحسن البصرى حين قال: «إن هذا الدين دينٌ واصب، وإنه مَن لا يصبر عليه يدعه وإن الحق ثقيل، وإن الإنسان ضعيف ... وكان يُقال: ليأخذ أحدكم من العمل ما يُطيق فإنه لا يدرى ما قدر أجله، وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف وكلف نفسه ما لا يُطيق أوشك أن يترك ذلك كله حتى لعله لا يقيم الفريضة وإذا ركب نفسه التيسير والتخفيف وكلف نفسه ما تُطيق كان

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤١٨، ٣٤١٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

أكيس وكان يُقال: شر السير الحقحقة»(١).

۞ فليس هناك أجمل من الوسطية في كل شيء ... فالتشدد يقود صاحبه إلى التفريط والضياع لأنه يتنافى مع فطرة الإنسان المعتدلة التي ترشد صاحبها إلى التمسك بدينه وفي نفس الوقت لا تُنسيه دُنياه.

ولذا قال ﷺ: «.... **ولن يُشاد الدين أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا**»(٢).

وقال ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ**»(٣).

۞ ومن أجل ذلك نقول: لا ينبغي للإنسان أن يُحمِّل بدنه ما لا يطيق فإن البدن كالراحلة إن لم يرفق بها صاحبها لم تصل به حيث يريد.

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: لم يُعظم الصحابة النبي ﷺ فحسب بل عظموا كل شيء يَخُصه... وتَعدَّى الأمر إلى أن عظَّموا كل ما التزموا به أمامه من العبادات أو الأعمال التي فارقهم- بموته ﷺ - وهم يحافظون عليها ... وهذا المسلك منهم رضي الله عنهم يدعو- والله- إلى التدبُّر والتفكر في أدبهم وإجلالهم للنبي ﷺ ويتضح ذلك من:

(١) الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص لم يلتزم للنبي ﷺ أو يعاهده على تلك العبادات التي ذكرها في الحديث. وهي صوم يوم وإفطار يوم وختم القرآن في سبعة أيام. وإنما اعتبر نُصح الرسول ﷺ له بذلك والتزامه رضي الله عنه بتلك العبادات طيلة حياة النبي ﷺ كالعهد مع النبي ﷺ الذي يجب الوفاء به.

(٢) العبادات التي التزم بها عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ليس من الواجب ولا الفروض ولكنها من السنن.

---

(١) الزهد لابن المبارك (١/ ٤٦٨) بتصريف يسير - والحقحقة: شدة السير وأتعبه للظهر.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٩) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٤) كتاب الرقاق، ومسلم (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) بلغت المشقة بعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أقصاها، لما كبر سِنُّه، من المواظبة على تلك العبادات.

ومع كل ما ذُكر لم يستطع عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يترك تلك العبادات، مع أنه يعلم تمامًا أن المشقة تُوجب التخفيف، ويتذكر جيدًا أن النبي ﷺ راجعه ليُخفِّف عن نفسه، وما تركها رضي الله عنه مخافة ضياع ثوابها- لأنه يعلم أن الله يكتب للمريض ما كان يفعله وهو صحيح- وإنما لم يتركها كراهية أن يترك شيئًا فارق عليه النبيّ ﷺ ... قال الإمام النووي رحمه الله (معناه أنه كَبِر وعجز عن المحافظة على ما التزمه ووظفه على نفسه عند رسول الله ﷺ فشقَّ عليه فِعلُه لعجزه ولم يعجبه أن يتركه لالتزامه له، فتمنى لو قَبِلَ الرخصة فأخذ بالأخف)[1]. وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (ومع عجزه وتمنِّيه الأخذ بالرخصة لم يترك العمل بما التزمه)[2].

الفائدة الثانية: شفقة النبي ﷺ بأصحابه، حيث راجع الصحابي عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما في أمر زوجته حتى يعطيها حقها، كما راجعه في أمر عبادته حتى لا يشق على نفسه ويجهدها مما قد يضطره إلى قطع تلك العبادة إذا كبر سِنُّه... وهذا فيه بُعد نظر جميل من النبي ﷺ.

الفائدة الثالثة: حياؤه ﷺ وحكمته... أما حياؤه فإنه ﷺ لم يصارح عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما بما بدر منه تجاه زوجته منذ زواجهما، أما حكمته ﷺ فتتضح من معالجته لأصل المشكلة وهي تَفرُّغ عبد الله بن عمرو للعبادة وانشغاله بها طوال ليله ونهاره.

الفائدة الرابعة: حب الصحابة رضي الله عنهم للعبادة... لقد ودوا لو استغرقت كل أوقاتهم، لولا أن النبي ﷺ كان يرشدهم دائمًا إلى القصد وإعطاء كل ذي حَقٍّ

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٨/ ٤٣).
(٢) انظر فتح الباري (٤/ ٢٢٠).

حقه. قال ﷺ «فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا» [١].

الفائدة الخامسة: حياء الصحابة رضي الله عنهم وتقديمهم التعريض على التصريح فيما يخدش الحياء، ولو كان المتحدّث إليه من المحارم.

يتضح ذلك جليًا من قول زوجة عبد الله بن عمرو: (لم يطأ لنا فراشًا ولم يُفتش لنا كنفًا) . وهذا أمر نفتقده كثيرًا فى كلامنا اليوم، فنأتى بكلام يخدش الحياء بمصلحة وبغير مصلحة، وفى جدّنا وهزلنا [٢].

(١٥٥) وعَنْ أَبِى ربْعِيٍّ حنْظَلَةَ بنِ الرَّبيع الأُسيدِيِّ الْكَاتِب أَحدِ كُتَّابِ رسول الله ﷺ قال: لَقِيَنِى أَبُو بَكْر رضي الله عنه فقال: كَيفَ أَنْتَ يا حنْظلَةُ؟ قُلتُ: نَافَقَ حنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحانَ الله ما تقُولُ؟ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْد رسول الله ﷺ يُذكِّرُنَا بالْجنَّةِ والنَّارِ كأَنَّا رأْيَ عين، فَإِذَا خَرجنَا مِنْ عِنْدِ رسولِ الله ﷺ عافَسنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ... قال أَبُو بَكْر رضي الله عنه: فَوالله إِنَّا لنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ... فانْطلقْتُ أنا وَأَبُو بَكْر حتى دَخَلْنَا عَلى رسول الله ﷺ. فقُلْتُ: نَافَقَ حنْظَلةُ يا رسول الله ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «ومَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يا رسولَ الله نَكُونُ عِنْدكَ تُذَكِّرُنَا بالنَّارِ والْجَنَّةِ كَأَنَّا رأْيَ العَيْنِ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدكَ عَافَسنَا الأزوَاج والأَوْلاَدَ والضَّيْعاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فقال رسولُ الله ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِى بيدِه لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدى وَفِى الذِّكْرِ لصَافَحَتْكُمُ الملائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُم وفى طُرُقِكُم، وَلَكِنْ يا حنْظَلَةُ ساعةً وساعة» ثَلاثَ مرَّاتٍ [٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٧٥) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(٢) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح (٢/ ٢٩٠-٢٩٢) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٠) كتاب التوبة.

قولُهُ: «ربْعِى» بِكَسْرِ الرَّاءِ. «والأُسيِّدى» بِضمِّ الْهَمزْةِ وفَتْحِ السِّينِ وَبعدها ياء مكْسُورةٌ مُشدَّدةٌ. وقَوْلُهُ: «عافسْنَا» هُوَ بِالْعينِ والسِّينِ الْمُهْملتَيْنِ أَيْ: عالَجْنَا ولاعبنَا - «والضَّيعَاتُ» الْمَعَايِشُ.

۞ الإسلام دينٌ واقعى لا يُحلِّق فى أجواء الخيال المثالية الواهمة ، ولكنه يقف مع الإنسان على أرض الحقيقة والواقع. ولا يعامل الناس كأنهم ملائكة أولو أجنحة مَثنى وثُلاث ورُباع. ولكنه يعاملهم على أنهم بشر يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق.

لذلك لم يفرض على الناس - ولم يفترض فيهم - أن يكون كل كلامهم ذِكْرًا، وكل صمتهم فكرًا، وكل سماعهم قرآنًا، وكل فراغهم فى المسجد. وإنما اعترف بهم وبفطرهم وغرائزهم التى خلقهم الله عليها.

وقد خلقهم سبحانه يفرحون ويمرحون ، ويضحكون ويلعبون، كما خلقهم يأكلون ويشربون.

ولقد بلغ السمو الروحى ببعض أصحاب النبى ﷺ مبلغًا ظنوا معه أن الجد الصارم، والتعبُّد الدائم، لَا بُدَّ أن يكون دَيدنهم، وأن عليهم أن يُديروا ظهورهم لكل مُتع الحياة، وطيبات الدنيا، فلا يلهون ولا يلعبون، بل تظل أبصارهم مشدودة إلى السماء، وأفكارهم متجهة إلى الآخرة ومعانيها، بعيدة عن الحياة ولهوها. وتظل أعينهم من خشية الله دامعة، وقلوبهم من ذكر الله خاشعة، وأَكُفهم إلى الله ضارعة، فإذا تَخلُّوا عن هذه الحال الربانية الراقية بعض الأوقات اتهموا أنفسهم بالنفاق[1] .

وإذا بالنبى ﷺ يوضح لهم المنهج الوسط فى هذه المسألة فيقول: «**ساعة وساعة**» فإن الحياة إذا كانت جامدة فلن يستطيع المسلم أن يُعطى فى الجوانب الأُخرى... بل إن الساعة التى يُروِّح فيها المسلم عن نفسه بالتمتع بالمباحات فى حدود المعقول تكون عونًا له على عبادة الله وعلى خدمة دين الله (جلَّ وعلا).

والمثل الإنسانى الأعلى، والأسوة الإنسانية المُثلَى فى ذلك هو الرسول

(١) فقه اللهو والترويح/ د. يوسف القرضاوى (ص ١٣).

الخاتم محمد ﷺ ...فقد كانت حياته ﷺ مثالًا رائعًا للحياة الإنسانية المتكاملة: فهو فى خلوته يُصلى ويُطيل الخشوع والبكاء حتى تتورم قدماه، وهو فى الحق لا يبالى بأحدٍ فى جنب الله، ولكنه مع الحياة والناس بشرٌ سَوىٌّ، يحب الطيبات، ويبش ويبتسم للناس، ويُلاعب الأطفال، ويُداعب أزواجه، ويُطيب نفوسهن ويمزح ولا يقول إلا حقًّا.

كان ﷺ يحب السرور وما يجلبه ويكره الحزن وما يدفع إليه من ديون ومتاعب ويستعيذ بالله من شره، ويقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن**»(١).

وكذلك كان أصحابه الطيبون الطاهرون، يمزحون ويضحكون ويلعبون ويتندرون، معرفة منهم بحظ النفس، وتلبية لنداء الفطرة، وتمكينًا للقلوب من حقها فى الراحة واللهو البرىء، لتكون أقدر على مواصلة السير فى طريق الجد، وإنه لطريقٌ طويل.

قال على بن أبى طالب رضي الله عنه: روِّحوا عن القلوب وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان(٢)(٣).

۞ وفى هذا الحديث نجد أن حنظلة الكاتب أحد كُتاب الوحى لرسول الله ﷺ، أنه قال: لقينى أبو بكر رضي الله عنه فقلت: نافق حنظلة، يعنى: نفسه، ومعنى نافق: يعنى: صار من المنافقين ... قال ذلك ظنًّا منه رضي الله عنه أن ما فعله من النفاق.

فقال أبو بكر: وأنا أجد مثل ذلك.

فانطلقا إلى النبى ﷺ فقال له حنظلة: نافقَ حنظلة يا رسول الله. فقال ﷺ: «**وما ذاك؟**» فقال: يا رسول الله نكون عندك تُذكرنا بالنار والجنة كأنَّا رأى العين... أى: كأننا نراهما أمام أعيننا.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٦٣) كتاب الدعوات.
(٢) رواه الخطيب البغدادى فى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (٢/ ١٢٩).
(٣) فقه اللهو والترويح (ص ١٥-١٦).

فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ... يعنى: لهونا معهم ونسينا ما كنا عليه عند النبى ﷺ.

فقال النبى عليه الصلاة والسلام: «**والذى نفسى بيده، لو تدومون على ما تكونون عليه عندى لصافحتكم الملائكة على فُرشكم وفى طُرقكم**» أى: من شدة اليقين تصافحكم إكرامًا لكم وتثبيتًا لكم؛ لأنه كلما زاد يقين العبد، فإن الله سبحانه وتعالى يثبته ويقويه... كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، «**ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ساعة وساعة. ساعة وساعة**» يعنى: ساعة لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وساعة مع الأهل والأولاد، وساعة للنفس حتى يعطى الإنسان لنفسه راحتها، ويعطى ذوى الحقوق حقوقهم... وفي النهاية فكلها ساعات لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها، وذلك أن المسلم يُقسم وقته وحياته على الحقوق والواجبات ولا ينسى فى خِضَمّ كل هذا أن يستمتع بشىء من المباحات لتكون عونًا له بعد ذلك على القيام بالحقوق والواجبات ... وذلك لأن الإنسان إذا أتعب نفسه وشدَّد عليها فإنها تملّ وتكون سببًا فى ضياع الحقوق والواجبات.

۞ وهذا كما يكون فى العبادة وفى حقوق الأهل والنفس والضيف فإنه يكون كذلك فى طلب العلم والمُذاكرة ... فإن الإنسان إذا كان يطلب العلم ورأى فى نفسه مللًا من مراجعة أو مذاكرة كتابٍ ما فعليه أن ينتقل إلى غيره حتى يُريح نفسه ويستطيع أن يستفيد من الكتاب الآخر ولا يُضيع وقته وعمره .. وهكذا فلنحرص بين الحين والحين على الترفيه عن النفس حتى لا نملّ.. ولنحرص على أن نستمتع أحيانًا ببعض المباحات لتكون عونًا لنا على أداء الحقوق والواجبات.

(١٥٦) وعَنْ ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: بيْنما النَّبيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرجُلٍ قَائِم، فسأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرائيل نَذَر أَنْ يَقُومَ فِى الشَّمْس وَلا يقْعُدَ، ولا يستظلَّ، ولا يتكَلَّمَ، ويصومَ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «مُرُوهُ فَلْيَتكَلَّمْ ولْيَستَظِلَّ ولْيَقْعُد ولْيُتمَّ صوْمَهُ»(١).

۞ ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فى باب الاقتصاد فى العبادة هذا الحديث الذى نذر فيه رجلٌ يُقال له: أبو إسرائيل، أن يقوم فى الشمس ولا يقعد، وأن يصمت ولا يتكلم، وأن يصوم... وكان النبى ﷺ يخطب فرأى هذا الرجل قائمًا فى الشمس، فسأل عنه فأُخبر عن قصته، فقال النبى ﷺ: «**مُروه فليقعد وليستظل وليتكلم وليُتم صومه**».

وهذا النذر كان قد تضمن أشياء محبوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأشياء غير محبوبة... أما المحبوبة إلى الله فهى الصوم؛ لأن الصوم عبادة، والنبى ﷺ قال: «**مَن نذر أن يطيع الله فليُطعه**» وأما وقوفه قائمًا فى الشمس من غير أن يستظل، وكونه لا يتكلم فهذا غير محبوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فلهذا أمر النبى ﷺ هذا الرجل أن يترك ما نذر.

وليُعلم أن النذر أصله مكروه... بل قال بعض العلماء: إنه محرم، وإنه لا يجوز للإنسان أن ينذر؛ لأن الإنسان إذا نذر كلف نفسه ما لم يكلفه الله، ولهذا نهى النبى ﷺ عن النذر، وقال: «**إنه لا يأتى بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل**»(٢) ولكن إذا قدر أن الإنسان نذر فالنذر أقسام: قسمٌ حُكمه حُكم اليمين، وقسمٌ آخر نذر معصية، وقسمٌ ثالث نذر طاعة.

أما الذى حُكمه حُكم اليمين: فهو الذى قصد الإنسان به تأكيد الشىء، نفيًا أو إثباتًا أو تصديقًا أو تأكيدًا. ومثاله إذا قيل للرجل: أخبرتنا بكذا وكذا، ولكنك لم تَصدُق، فقال: إن كنت كاذبًا فلله علىَّ نذر أن أصوم سنة، فلا شَكَّ أن غرضه

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٧٠٤) كتاب الأيمان والنذور.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠٨) كتاب القدر، ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر.

من ذلك أن يؤكد قوله ليصدقه الناس..هذا حُكمه حُكم اليمين؛ لأنه قصد بذلك تأكيد ما قال، وكذلك أيضًا إذا قصد الحث مثل أن يقول: إن لم أفعل كذا فلله عليَّ نذر أن أصوم سنة، فهذا أيضًا قصد الحث وأن يفعل ما ذكر، حكمه حكم اليمين أيضًا...ودليل هذا قول النبي ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى»**[1] وهذا نوى اليمين فله ما نوى.

أما القسم الثاني: فهو المُحرم...فالمُحرم إذا نذره الإنسان يَحرُم عليه الوفاء به...مثل أن يقول: لله عليه نذر أن يشرب الخمر، فهذا نذر محرم فلا يحل له أن يشرب الخمر، ولكنه عليه كفارة يمين على القول الراجح.

وإن كان بعض العلماء قال: إنه لا شيء عليه؛ لأنه نذرٌ غير منعقد.

ولكن الصحيح أنه نذرٌ منعقد، ولكن لا يجوز الوفاء به...ومثل ذلك أن تقول المرأة: لله عليها نذر أن تصوم أيام حيضها فهذا حرام، ولا يجوز أن تصوم أيام الحيض، وعليها كفارة يمين.

أما القسم الثالث: فهو نذر الطاعة، أن ينذر الإنسان نذر طاعة، مثل أن يقول: لله عليَّ نذر أن أصوم الأيام البيض، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر...فيلزمه أن يوفي بنذره، لقول النبي ﷺ: **«مَن نذر أن يطيع الله فليُطعه»**[2] أو يقول: لله عليَّ نذر أن أصلي ركعتين في الضحى فيَلزمه أن يوفي بنذره؛ لأنه طاعة، وقد قال النبي ﷺ: **«مَن نذر أن يطيع الله فليُطعه»**.

فإن اشتمل نذره على طاعة وغير طاعة، وجب أن يوفي بالطاعة، أما غير الطاعة فلا يوفي، ويُكفر كفارة يمين..مثل قصة هذا الرجل حيث نذر أن يقوم في الشمس، وألا يستظل وألا يتكلم وأن يصوم، فأمره النبي ﷺ أن يصوم؛ لأنه

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.

طاعة، ولكنه قال في القيام وعدم الاستظلال وعدم الكلام: «**مُروه فليستظل، وليقعد وليتكلم**» وكثير من الناس اليوم إذا استبعد الأمر أو أشفق عليه ينذر.... فمثلاً: إذا مرض له إنسان، قال: لله عليَّ نذر إن شفى الله مريضى لأفعلن كذا وكذا... فهذا منهيٌّ عنه، إما نهى كراهة أو نهى تحريم، اسأل الله العافية لمريضك بدون نذر، لكن لو فرضنا أنه نذر إن شفى الله مريضه أن يفعل كذا وكذا، فشفاه الله، وجب عليه أن يوفى بالنذر[1].

❊ ❊ ❊

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١/ ٤٢٦-٤٢٧).

(١٥) باب في المحافظة على الأعمال

۞ لما تحدثنا فى الباب السابق عن الاقتصاد فى الطاعة وعدم التشدُّد والغلو.. كان لَا بُدَّ أن نتحدث عن المحافظة على الطاعة حتى لا يظن أحدٌ أن نبذ التشدُّد يعطينا الحق فى أن نُفرِّط ونقصر فى العبادة... بل يجب علينا أن نحافظ على الأعمال حتى ولو كانت قليلة.

۞ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات فى الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك، فقال: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أى: ألم يأتِ الوقت الذى تلين فيه قلوبهم وتخشع لذكر الله، الذى هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذى جاء به محمد ﷺ؟ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولِمَا أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك[١].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أى أما حان للمؤمنين أن ترقَّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أى ولما نزل من آيات القرآن المبين؟ ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أى ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

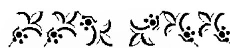
(١) تفسير السعدى (ص ٩٩٩-١٠٠٠).

أى فطال عليهم الزمن الذى بينهم وبين أنبيائهم، حتى صلبت قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ... قال ابن عباس: ﴿ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن.

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أى وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله، رافضون لتعاليم دينهم، من فرط قسوة القلب ... قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الزمن بدَّلوا كتاب الله الذى بأيديهم، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله ... فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعدٍ ولا وعيد[(١)].

۞ وحتى لا تقسو القلوب فنحن نحتاج إلى أن نُحافظ على العبادات التى أكرمنا الله بها ... وذلك أن كثيرًا من الناس ربما يكون نشيطًا مُقبلاً على الخير فيجتهد، ولكنه بعد ذلك يَفتُر ثم يتقاعس ويتهاون.

وهذا يجرى كثيرًا للشباب ... لأن الشاب يكون عنده اندفاع قوى أو تأخُّر شديد، إذ إن غالب تصرفات الشباب إنما تكون مبنية على العاطفة دون التعقُّل... فتجد الواحد منهم يندفع ويشتد فى العبادة، ثم يعجز أو يتكاسل فيتأخر، ولهذا ينبغى للإنسان أن يكون مقتصدًا فى الطاعة غير منجرف، وأن يكون محافظًا عليها؛ لأن المحافظة على الطاعة دليل على الرغبة فيها، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قَلَّ ... فإذا حافظ الإنسان على عبادته واستمر عليها كان هذا دليلاً على محبته وعلى رغبته فى الخير[(٢)].



(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٢٨).

۞ وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أي: أتبعنا ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ خصَّ الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ كما قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الآيات.. ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوبًا، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام.

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ والرهبانية: العبادة.. فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم.. قَصْدُهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.

ومنهم مَن هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال[1]: ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي: فأعطينا الصالحين من أتباع عيسى الذين ثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مُضاعفًا ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي: وكثيرٌ من

(١) تفسير السعدي (ص ١٠٠٣).

النصارى خارجون عن حدود الطاعة منتهكون لمحارم الله.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

❀ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢].

﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ فى نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَٱلَّتِى﴾ تغزل غزلًا قويًا فإذا استحكم وتم ما أُريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنكَٰثًا﴾ فتعبت على الغزل ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأى... فكذلك مَن نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة[1].

❀ وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أى: الموت ... أى: استمر فى جميع الأوقات على التقرُّب إلى الله بأنواع العبادات... فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا فى العبادة حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرا[2].

(١٥٧) وعَنْ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ مِنَ اللَّيْل، أَو عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقرأَه ما بينَ صلاةِ الْفَجر وَصلاةِ الظهرِ كُتب لَهُ

(١) تفسير السعدى (ص ٥١٣).

(٢) تفسير السعدى (ص ٤٩٧).

كأنَّما قرأَهُ مِن اللَّيْلِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث دليلٌ على أن الإنسان إذا اعتاد أن يقوم بعبادة مُعينة فلا بُدَّ أن يُحافظ عليها حتى ولو بعد ذهاب وقتها.

۞ «**مَن نام عن حزبه من الليل**» الحزب: هو الجزء من الشىء .. ومنه أحزاب القرآن .. وكذلك منه الأحزاب من الناس..

فإذا كان الإنسان لديه عادة أن يُصلى قيام الليل ولكنه فى ليلة من الليالى نام بسبب مرضٍ أو تعبٍ أو غير ذلك .. فإذا قضاه فيما بين صلاتى الفجر والظهر فكأنما صلَّاه فى ليلته...

وفيه تقييد النبى ﷺ القضاء فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، وهناك أحاديث تدل على أن صلاة الفجر لا صلاة بعدها حتى تطلع الشمس، ولا بعد طلوع الشمس حتى ترتفع قيد رمح ... فيقيد عموم هذا الحديث، وأن القضاء يكون من بعد ارتفاع الشمس قيد رمح، وقد يقال بأنه لا يُقيَّد؛ لأن القضاء متى ذكره الإنسان قضاه لعموم قول النبى ﷺ: «**مَن نام عن صلاة أو نسيها فليُصلها إذا ذكرها، لا كفارة له إلا ذلك**»(٢).

فإذا فاته قيام الليل ولم يستطع أن يقضيه فيما بين الصبح والظهر بسبب انشغاله فى عمله .. فلا بأس أن يُصليه فيما بين الظهر والعصر.

۞ ولكن إذا كان يُوتر فى الليل فإنه إذا فاتته صلاة الليل وقضاها بالنهار فإنه لا يوتر ولكنه يشفع الوتر: أى يزيده ركعة .. فإن كان يوتر بركعة فليقضها ركعتين وإن كان يُوتر بثلاث ركعات فليقضها أربعًا .. وهكذا.

ودليل **ذلك**: حديث عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا غالبه نوم أو وجع من الليل صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٧) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٧) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٨٤) كتاب المساجد.

ويُؤخَذ من الحديث: أنه ينبغى للإنسان المداومة على فعل الخير، وألا يدع ما نسيه إذا كان يمكن قضاؤه، أما ما لا يمكن قضاؤه فإنه إذا نسيه سقط...مثل سُنة دخول المسجد التى تُسمى تحية المسجد إذا دخل الإنسان المسجد ونسى وجلس وطالت المدة، فإنه لا يقضيها؛ لأن هذه الصلاة سُنة مُقيدة بسبب، فإذا تأخرت عنه سقطت سُنتها... وهكذا كل ما قُيد بسبب فإنه إذا زال سببه لا يُقضَى إلا أن يكون واجبًا من الواجبات كالصلاة المفروضة، وأما ما قُيد بوقتٍ فإنه يُقضَى إذا فات كالسنن الرواتب إذا نسى الإنسان صلاتها حتى خرج الوقت فإنه يقضيها بعد الوقت، كما ثبت ذلك عن النبى ﷺ.

وكذلك لو فات الإنسان صيام ثلاثة أيام من الشهر - الأيام البيض - فإنه يقضيها بعد ذلك، وإن كان صيامها واسعًا فتجوز فى أول الشهر وفى وسطه وفى آخره، لكن الأفضل فى الأيام البيض: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر[1].



(١٥٨) وعَن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لى رسولُ الله ﷺ: «يَا عبْدَ الله لا تَكُنْ مِثلَ فُلانٍ، كَانَ يقُومُ اللَّيْل فَتَركَ قِيامَ اللَّيْل»[2].

۞ لقد كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مجتهدًا شديد الاجتهاد، قائم الليل، صائم النهار رضي الله عنه ... فصار يصوم يومًا ويُفطر يومًا، ويقوم من الليل بعضه وينام بعضه، حين علَّمه وأخبره النبي ﷺ أن خير الصيام صيام داود، وخير القيام قيام داود (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) ... فكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سُدسه...واستمر عبد الله بن عمرو بن العاص على ذلك،

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٣٠).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (١١٥٢) كتاب الجمعة، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

وخشي عليه النبي ﷺ أن يمل فقال: «**لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فتركه... فما ترك عبد الله بن عمرو بن العاص قيام الليل**»، وقد تعب بعد النبي ﷺ، وأرهقه القيام وأتعبه الصيام، وكانوا يقولون: أنت شيخٌ كبير، لماذا تفعل هذا الأشياء كلها؟! فكان يقول: فارقني رسول الله ﷺ على شيء، وأكره أن ألقاه غدًا على غيره... انظروا! الحياء من رسول الله ﷺ منعه من ترك المحافظة على ما اعتاده.

۞ قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**يا عبد الله لا تكن مثل فلان**».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

لَمْ أَقِفْ عَلَى تَسْمِيَتِهِ فِي شَيْء من الطُّرُقِ، وَكَأَنَّ إِبْهَامَ مِثْلِ هَذَا لِقَصدِ السُّتْرَةِ عَلَيْهِ كَالَّذِي نَامَ حَتَّى أَصبَحَ....وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَقْصِد شَخْصًا مُعَيَّنًا، وَإِنَّمَا أَرَادَ تَنْفِيرَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو مِنَ الصَّنِيعِ الْمَذْكُورِ[1].

۞ ومن أجل ذلك فلا بُدَّ أن نهتم بالأمر أو القضية نفسها دون ذكر الأشخاص .. ولذا كان النبى ﷺ إذا أراد أن يوجِّه شخصًا أو يُصحح خطأً لشخصٍ ما فإنه كان لا يذكر اسمه وإنما كان يقول: «**ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا**» أو «**ما بال أقوامٍ يفعلون كذا وكذا**».

وفى الحقيقة أن عدم ذكر اسم الشخص الذى أخطأ فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: هى الستر على هذا الشخص «**ومَن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة**».

وأما الفائدة الثانية: فهى أن هذا الشخص رُبما يتغير حاله فيما بعد فلا يستحق الحكم الذى يُحكم عليه فى الوقت الحاضر .. بل قد يكون عدم ذكر اسمه سببًا فى توبته ... فإذا ذُكر اسمه قد يكون سببًا فى فتنته واستمراره على الخطأ الذى يفعله.

---

(١) فتح البارى (٣/ ٤٦).

فلو كان هذا الشخص يشرب الخمر فذكرت اسمه للناس وقلت لأحدهم: لا تكن مثل فلان فإنه يشرب الخمر .. فإذا تاب شارب الخمر هذا فسيظل مقرونًا فى أذهان الناس أنه فلان الذى كان يشرب الخمر .. ولا شك أن هذا ربما يكون فتنة له .. ولربما يرجع إلى المعصية بسبب ذلك.. ومن أجل ذلك كان الأفضل هو الستر على الناس وعدم ذكر أسمائهم.

۞ وفى قوله ﷺ: **«كان يقوم من الليل فترك قيام الليل»**.

أى: كان يقوم بعض الليل فتركه .. وفى هذا الحديث: دليل على أن قيام الليل ليس بواجبٍ إذ لو كان واجبًا لذمَّه النبى ﷺ لأنه قد ترك واجبًا.

وفى هذا الحديث استحباب الدوام على ما اعتاده الإنسان من الخير من غير تفريط .. وكذلك يُستنبط من الحديث كراهة قطع العبادة وإن لم تكن واجبة؛ لأن هذا يُنبئ عن رغبة هذا الإنسان عن تلك الطاعة وكراهته لها .. وهذا خطرٌ عظيم.

وإن كان الإنسان قد يترك الشىء لعذر، فإذا تركه لعذر فإن كان مما يمكن قضاؤه قضاه، وإن كان مما لا يمكن قضاؤه فإن الله تعالى يعفو عنه، وقد ثبت عن النبى ﷺ أن مَن مرض أو سافر كُتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا... وكذلك إذا تركه لعذر فإنه يقضيه.

(١٥٩) وعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: **كان رسولُ الله ﷺ إذَا فَاتَتْهُ الصَّلاةُ مِنْ اللَّيْلِ مِنْ وجعٍ أَوْ غَيرِه، صلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَى عشْرَةَ ركعةً**[١].

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ كان يُصلى قيام الليل إحدى عشرة ركعة .. فإن فاته قيام الليل - وكان هذا نادرًا- فإنه كان يقضيه فيما بين الشروق

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

والظهر اثنتى عشرة ركعة.. ولذلك فمن كان يوتر بثلاث ركعات ونام عن وتره لمرضٍ أو لغيره فإنه يقضى الوتر فيما بين الشروق والظهر أربع ركعات وإن كان يوتر بخمسٍ فليُصلِّ ستًّا.. وهكذا فيزيد ركعة على الوتر.

۞ وفى هذا دليلٌ على أن العبادة المؤقتة إذا فاتت عن وقتها بسبب عذرٍ كمرضٍ أو غيره فإنها تُقضَى .. أما العبادة المقرونة بسببٍ فإنه إذا زال سببها فإنها لا تُقضَى...

مثل سُنة تحية المسجد .. فإنه إذا دخل المسجد وجلس ناسيًا ولم يذكر إلا بعد فترة طويلة فإنها تسقط .. وكذلك سُنة الوضوء .. فإنه إذا توضأ الإنسان فإن من السُّنة أن يُصلى ركعتين .. فإذا نَسِى ولم يذكر إلا بعد فترة طويلة سقطت عنه .. وذلك لأن المقرون بسببٍ لَا بُدَّ أن يكون مواليًا للسبب فإذا فصل بينهما سقط.

(١٦) باب في الأمر بالمحافظة على السُّنة وآدابها

۞ «الأمر بالمحافظة على السُّنة»، السنة: يُراد بها سُنة الرسول ﷺ، وهى طريقته التى كان عليها فى عباداته وأخلاقه ومعاملاته...فهى أقواله ﷺ وأفعاله وإقراراته. هذه هى السُّنة... ويُطلق الفقهاء السُّنة على العمل الذى يترجح فِعلُه على تَركِه، وهو الذى يُثاب على فعله، ولا يُعاقَب على تَركِه.

إن اتباع سُنة النبى ﷺ هو مقتضى شهادة لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ... والطريق الصحيح لمعرفة قضايا الاتباع هو ما سار عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان.

ويكون الاتباع للنبى ﷺ فى الاعتقادات: بأن يعتقد العبد ما اعتقده النبى ﷺ، على الوجه الذى اعتقده - من ناحية الوجوب أو البدعية، أو لكونه من أُسس الدين أو ناقضًا لأصله أو قادحًا فى كماله ....، من أجل أنه اعتقده ﷺ.

ويكون الاتباع للنبى ﷺ فى الأقوال: بامتثال مدلولها، وما جاءت به من معانى، لا أن تُكرر ألفاظها وتُردد نصوصها فحسب... فمثلاً: الاتباع لقوله ﷺ: **«صلوا كما رأيتمونى أصلى»**[1] يكون بالصلاة كصلاته... والاتباع لقوله ﷺ: **«لا تحاسدوا ولا تناجشوا»**[2] بترك الحسد والنجش... والاتباع لقوله ﷺ: **«مَن سُئل عن علم علمه ثم كتمه أُلجم يوم القيامة بلجامٍ من نار»**[3] بنشر الإنسان لعلمه الصحيح النافع وعدم كتمانه له.

كما يكون الاتباع للنبى ﷺ فى الأفعال: بأن نفعل مثل فعله، على الوجه الذى

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣١) كتاب الأذان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٢٨٤).

فعله، من أجل أنه فعله.

ولتوضيح الاتباع فى الفعل: لو أردنا أن نقتدى بالنبى ﷺ فى صومه فلا بُدَّ أن نصوم على الصورة التى صامها ﷺ ... بحيث نُمسك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، بقصد التقرب إلى الله - تعالى - فلو أمسك أحدنا عن بعض المفطرات فقط لم يكن متبعًا، كما لو أمسك فى جزءٍ من الوقت فقط لم يكن متبعًا.

كما لا بد أن نصوم على الوجه الذى صامه ﷺ من ناحية القصد بحيث نريد بصيامنا وجه الله - تعالى - وصيام الواجب - أداءً أو قضاءً أو نذرًا - أو النفل، كالقصد الذى صام لأجله ﷺ (١).

ويكون الاتباع للنبى ﷺ فى التروك: بأن نترك ما ترك، على الصفة والوجه الذى ترك، من أجل أنه ترك، وهى القيود نفسها فى الاتباع فى الأفعال.

ولتوضيح ذلك: قام النبى ﷺ بترك الصلاة عند طلوع الشمس، فيترك المتأسى الصلاة فى ذلك الوقت على الوجه الذى ترك النبى ﷺ، لأجل أنه ترك(٢).

❁ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أى ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بكل خيرٍ وصلاح، وينهى عن كل شرٍّ وفساد ... قال المفسرون: والآية وإن نزلت فى أموال الفىء، إلا أنها عامة فى كل ما أمر به النبى ﷺ أو نهى عنه من واجبٍ، أو

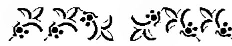
(١) إذا ثبتت كيفيات أو مقاصد خاصة بالنبى ﷺ كالوصال فى الصوم والوجوب فى قيام الليل: فلا يجوز مشاركة النبى ﷺ فيما اختص به من كيفية أو قصد: وتبقى قضية الاتباع مرتبطة بالمقاصد والكيفيات التى شرعها ﷺ لأمته.

(٢) انظر: الفتاوى لابن تيمية: (١٠/ ٤٠٩)، والإحكام للآمدى (١/ ٢٢٦، ٢٢٧).

مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره[١].

عن ابن مسعود أنه قال: «لعن اللهُ الواشمات، والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحُسن، المغيِّرات خلق الله» فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يُقال لها: «أم يعقوب» وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت: ما حديثٌ بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا!! وذكرته له، فقال ابن مسعود: وما لي لا ألعنُ مَن لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى؟ فقالت المرأةُ: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته! فقال: إن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأتِ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٢]؟

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي: خافوا ربكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد، لمن عصاه وخالف ما أمره به[٣].



۞ وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أي: ليس نُطقه صادرًا عن هوى نفسه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره.. ودلَّ هذا على أن السُّنة وحي من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحيٍ يُوحَى[٤].

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ٢٨٦).

(٢) رواه البخاري ومسلم ... قال العلماء: الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يُحشى بكحل، والمستوشمة هي التي تطلب أن يُفعل بها ذلك، والنَّامصة هي التي تنتف الشعر من الحاجب، والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين أسنانها من أجل الحُسن، وكل ذلك منهيٌّ عنه؛ لأن فيه تغييرًا لخلق الله.

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٣٣٢).

(٤) تفسير السعدي (ص ٩٧٣).

۞ قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله تعالى: رَأْسُ الْأَدَبِ مَعَ الرَّسُول ﷺ: كَمَالُ التَّسْلِيم لَهُ، وَالِانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ. وَتَلَقِّى خَبَرِهِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصدِيق، دُونَ أَنْ يُحَمِّلَهُ مُعَارَضَةً بخَيَالٍ بَاطِلٍ، يُسَمِّيهِ مَعقُولًا. أَوْ يُحَمِّلَهُ شُبْهَةً أَوْ شَكًّا، أَوْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرِّجَالِ، وَزُبَالَاتِ أَذْهَانِهِمْ، فَيُوَحِّدُهُ بِالتَّحكِيمِ وَالتَّسْلِيم، وَالِانْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ. كَمَا وَحَّدَ الْمُرْسِلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ[١].

۞ وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

هذه الآية هى الميزان، التى يُعرَف بها مَن أحب الله حقيقة، ومَن ادَّعى ذلك دعوى مجردة... فعلامة محبة الله، اتباع محمد ﷺ، الذى جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه، طريقًا إلى محبته ورضوانه ... فلا تُنال محبة الله ورضوانه وثوابه، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسُّنة وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما. فمن فعل ذلك، أحبه الله، وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه[٢].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل مَن ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذبٌ فى دعواه تلك حتى يتّبع الشرع المحمدى فى جميع أقواله وأفعاله»[٣] ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ أى: أطيعوا أمر الله وأمر رسوله ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أى: أعرضوا عن الطاعة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أى: لا يحب مَن كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾[التحريم:٨]

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٢).
(٢) تفسير السعدى (ص ١٢٩-١٣٠).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ١٧٨).

۞ بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ ويُحَبُّ... وهذا هو مذهب أهل السُّنة والجماعة، خلافًا لمن أنكر أن الله عَزَّوَجَلَّ يُحب، لحُججٍ عقلية، دفعوا بها النصوص الصريحة الصحيحة.

الفائدة الثانية: لما ادَّعى قومٌ حب الله عَزَّوَجَلَّ، وكان لِكُلِّ دعوى دليل لإثبات صدقها، اشترط الله لصدق هذه الدعوى- بل أقول: والمثوبة عليها- متابعة الرسول ﷺ فإن كانت دعوتهم صادقة اتبعوه، وإلا حادوا عن الاتباع.

الفائدة الثالثة: يُؤخَذ من الآية الكريمة، أنه كلما كان الإنسان صادقًا في حب الله عَزَّوَجَلَّ، كانت المتابعة عليه أسهل وأخف ... والعكس بالعكس.

الفائدة الرابعة: إذا كان شرفًا لك أن تحب الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله يكافئك على هذا الحب (إذا اتبعت) بما هو أعظم من حبك، ألا وهو أن يحبك الله.

وشتَّان بين الأمرين... وكما قالوا: ليس الشأن أن تُحِب ولكن الشأن أن تُحَب، وهل في الوجود أعظم من أن يحبك الله عَزَّوَجَلَّ؟.. وهل يعذب الله أحدًا يحبه؟..

الفائدة الخامسة: كما أن الناس يختلفون في متابعة النبي ﷺ فكذلك يختلف حب الله لهم ... فكلما قَوى الاتباع قَوى الحب، وكلما ضَعُف الاتباع ضَعُف الحب... لأن القاعدة: (أنه إذا ارتبط الحكم بوصفٍ مُعين، قوى الحكم كلما قَوى الوصف)، وهذا كثير في القرآن والسنة، ومثاله قوله- تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢، ٣]، فكلما قوى إيمان العبد بالغيب، وكان على الصلاة محافظًا وللزكاة فاعلًا، كان له نصيبٌ أكثر من هدى القرآن، ورأى في القرآن من الآيات والهدايات ما لم يرَ غيره ... وهذا مُشاهَد.

وكلما كثرت الشبهات في قلب الإنسان، وانقاد لها ولم يجاهدها، بل دعا

إليها، كان انتفاعه بهدايات القرآن أقل .

الفائدة السادسة: إن ادَّعى أحدٌ أمامك، مهما كانت منزلته بين الناس، أنه يحب الله عَزَّوَجَلَّ ، فلا تغتر بهذه الدعوى، إلا إذا رأيت منه حُسن الاتباع، ولو مشى على الماء، وطار فى السماء ... كما قال الإمام الشافعى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ ويبقى بعد ذلك الإخلاص فى العمل، وهذا لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ .

الفائدة السابعة: لم يَعِد الله عَزَّوَجَلَّ المتبعين للسُّنة بمحبته فقط ... وإن كان فيها الكفاية والوقاية، بل زاد على ذلك مغفرة الذنوب ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، فماذا بقى، فسينال العبد المطلوب بحب الله إياه، ويأمن من المرهوب بمغفرة الذنوب... فتأمل كيف كان فى الاتباع كل خير، وفى الابتداع كل شر.

الفائدة الثامنة: ما ثواب حب الله للعبد فى الدنيا قبل الآخرة؟ أقول: إن الثواب عظيم...قال رسول الله ﷺ: « **إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ**»[(١)] .

الفائدة التاسعة: قد يسأل سائل: هل فى آية الباب اشتراط حبّ المسلم للنبى ﷺ لنيل حب الله عَزَّوَجَلَّ، أم يكفى الاتباع وحده؟ أقول: يجب حب النبى ﷺ لأن الآية اشترطت المتابعة، وهى الطاعة الكاملة، فى كل ما أمر النبى ﷺ ونهى، فيدخل فى ذلك حبه أكثر من النفس...لما ورد عن عبد الله بن هشام بن زهرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: والله لأنت يا رسول الله أحبّ إليَّ من كل شىء إلا نفسى. فقال النبى ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة.

حتّى أكون عنده أحبّ إليه من نفسه» . قال عمر: فلأنت الآن والله أحبّ إليّ من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: **«الآن يا عمر»**[(١)].

وفى رواية: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين»**[(٢)(٣)].

❁ ❁ ❁

۞ وقال تعالى: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ أى لقد كان لكم أيها المؤمنون فى هذا الرسول العظيم قدوةٌ حسنة، تقتدون به ﷺ فى إخلاصه، وجهاده، وصبره، فهو المثل الأعلى الذى يجب أن يُقتدى به، فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله، لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى، بل عن وحى وتنزيل، فلذلك وجب عليكم تتبُّع نهجه، وسلوك طريقه ﴿ **لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ** ﴾ أى لمن كان مؤمنًا مخلصًا يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه ﴿ **وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ أى وأكثر من ذكر ربه، بلسانه وقلبه.

قال ابن كثير: أمر تبارك وتعالى النّاسَ بالتأسِّى بالنبى ﷺ فى صبره ومصابرته، ومجاهدته ومرابطته، ولهذا قال للذين تضجَّروا وتزلزلوا، واضطربوا يوم الأحزاب ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ والمعنى: هلاّ اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ!![(٤)].

۞ فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة ... فالأسوة الحسنة، فى

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٣٢) كتاب الأيمان والنذور.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٤) كتاب الإيمان.

(٣) شمائل الرسول ﷺ/ (١/ ٢٨-٣٢) بتصرف كبير.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٨٨).

الرسول ﷺ، فإن المتأسِّى به، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم. وأما الأسوة بغيره، إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسِّى بهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويُوفَّق لها، مَن كانْ يرجو الله، واليوم الآخر، فإن ذلك ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسى بالرسول ﷺ[(١)].

۞ وأخذ العلماء من هذه الآية: أن أفعال النبى ﷺ حُجة يُحتَج بها ويُقتدَى به فيها، إلا ما قام الدليل على أنه خاصٌّ به... فما قام الدليل على أنه خاصٌّ به فهو مختصٌّ به... مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. فما كان من خصائصه فهو من خصائصه.

ومن ذلك أيضًا: الوصال فى الصوم، أى أن يسرد الإنسان صوم يومين بلا فطر، فإن النبى ﷺ نهى عنه، قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، يعنى فكيف تنهانا؟ فقال: «**لستُ كهيئتكم، إنى أُطعم وأُسقى**»، وفى لفظ: «**إنى أبيتُ عند ربى يطعمنى ويسقينى**»[(٢)] يعنى يطعمه الله ويسقيه بما يمده به من ذِكره، وتعلُّق قلبه به حتى ينسى الأكل والشرب، ولا يحس بألم الجوع، ونحن نعلم الآن أن الرجل لو شُغل بأمرٍ من أمور الدنيا نسى الأكل والشرب، حتى أن الشعراء يتمثلون بهذا بقولهم لها:

أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتُلهيها عن الزاد

يعنى أن أحاديثها بك إذا قامت تتحدث ألهاها ذلك عن الشراب وعن الزاد.

---

(١) تفسير السعدى (٧٧٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٢٢) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٢) كتاب الصيام.

فالنبى (عليه الصلاة والسلام) من قوة تعلُّقه بربه، إذا قام من الليل يتهجد، فإن الله تعالى يُعطيه قوة، بما يحصل له من الذكر، تكفيه عن الأكل والشرب، أما نحن فلسنا كهيئته، ولهذا منع الوصال، وبيَّن أنه من خصائصه ﷺ[(١)].

❁ وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ، أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحَكِّمَ الرَّسُولَ ﷺ فِى جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَمَا حَكَمَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِى يَجِبُ الِانْقِيَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أَىْ إِذَا حَكَّمُوكَ يُطِيعُونَكَ فِى بَوَاطِنِهِمْ، فَلَا يَجِدُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَمْتَ بِهِ، وَيَنْقَادُونَ لَهُ فِى الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فَيُسَلِّمُونَ لِذَلِكَ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا، مِنْ غَيْرِ مُمَانِعَةٍ[(٢)].

❁ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فِى شُرَيجٍ مِنَ الحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زُبير ثُمَّ أرسل الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ» فَقَالَ الْأَنْصَارِىُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟! فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احبسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرجِعَ إِلَى الجدر، ثُمَّ أَرسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ» وَاسْتَوْعَى النَّبِىُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقّه فِى صَرِيحِ الْحُكْمِ، حِينَ أَحفَظَهُ الْأَنصَارِىُّ، وَكَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ... قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحسَبُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا نَزَلَتْ فِى ذَلِكَ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآيَةَ[(٣)].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٣٣-٤٣٤).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٦٠) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٣٥٧) كتاب الفضائل.

۞ وَعَنْ سَلَمَةَ، وَلَدِ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَ: خَاصَمَ رَجُلٌ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَضَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ، فَقَالَ: إِنَّمَا قَضَى لَهُ لأَنَّهُ ابْنُ عَمَّتِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[(١)].

فالتحكيم فى مقام الإسلام، وانتفاء الحرج فى مقام الإيمان، والتسليم فى مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب وكمّلها؛ فقد استكمل مراتبَ الدين كلها.

۞ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

نزلت هذه الآية فى عبد الله بن حُذافة رضي الله عنه إذ بعثه النبى فى سرية وأمّره عليهم.

۞ عَنْ عبد الله بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: نَزَلَتْ فى عَبدِ اللهِ بنِ حُذَافَةَ بن قيس بن عدى السهمى؛ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِى سَرِيَّةٍ[(٢)].

وها هى تفاصيل تلك السرية:

۞ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً، وَاسْتَعمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ: وَجَدَ[(٣)] عَلَيْهِمْ فِى شَىْءٍ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِى؟

(١) أخرجه سعيد بن منصور فى «سننه» (٤/ ١٣٠٠ رقم ٦٦٠)، والحميدى فى مسنده (١/ ١٤٣، ١٤٤ رقم ٣٠٠)- ومن طريقهما الهروى فى «ذم الكلام» (٢/ ٢٤٨ رقم ٣١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٨٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٨٣٤) كتاب الإمارة.

(٣) وجد: حَزِن وغَضِب.

قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَاجْمَعُوا حَطَبًا...، فَجَمَعُوا.

قَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فقَالَ: ادخُلوهَا، فَهَمَّ الْقَوْمُ أَنْ يَدخُلُوهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ شَابٌّ مِنْهُمْ: إِنَّمَا فَرَرتُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ النَّارِ، فَلَا تعجَلُوا حَتَّى تَلْقَوا النَّبِيَّ ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَدخُلُوا فَادخُلُوهَا.

قالَ: فَرَجعُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرُوهُ.

فَقَالَ لَهُمْ: «**لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعرُوفِ**»[١].

❁ وَقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾.

فأمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولى الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمُفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله...فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق. ولعل هذا هو السر فى حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومَن يُطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية[٢].

وأولو الأمر يشمل العلماء والأمراء؛ لأن العلماء ولاة أمورنا فى بيان دين الله.... والأمراء ولاة أمورنا فى تنفيذ شريعة الله...ولا يستقيم العلماء إلا بالأمراء، ولا الأمراء إلا بالعلماء، فالأمراء عليهم أن يرجعوا إلى العلماء ليستبينوا منهم شريعة الله، والعلماء عليهم أن ينصحوا الأمراء، وأن يُخوفوهم

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٣٤٠) كتاب المغازى، ومسلم (١٨٤٠) كتاب الإمارة.
(٢) تفسير السعدي (ص ١٨٦).

بالله، وأن يعظوهم حتى يُطبقوا شريعة الله فى عباد الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يعنى إن اختلفتم فى شىء من الأشياء، فليس قول بعضكم حجة على الآخر، ولكن هناك حكم الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ فعليكم بالرجوع إلى حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ...أما الرجوع إلى الله، فهو الرجوع إلى كتابه (إلى القرآن العظيم)، وأما الرجوع إلى رسول الله ﷺ، فهو الرجوع إلى سُنته ﷺ إن كان حيًّا بمراجعته شخصيًّا، وإن كان ميتًا فبما صَحَّ من سُنته ﷺ، ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ وهذا حَثٌّ على الرجوع إلى الله ورسوله، وأن الرجوع إلى الله ورسوله من مقتضيات الإيمان.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ يعنى أحسن عاقبة...فالرجوع إلى الله ورسوله خير للأمة وأحسن عاقبة، مهما ظن الظان أن الرجوع إلى الكتاب والسنة قد يُعجز الناس، وقد لا يطيقون ذلك فهذا ظَنٌّ خاطئ لا قيمة له، فبعض الناس يظنون أن الرجوع إلى الإسلام الذى كان فى صدر هذه الأمة لا يتناسب مع الوقت الحاضر والعياذ بالله، ولم يعلم هؤلاء أن الإسلام حاكم وليس محكومًا عليه، وأن الإسلام لا يتغير باختلاف الأزمان أو الأماكن أو الأشخاص... الإسلام هو الإسلام، فإن كنا نؤمن بالله واليوم الآخر، فلنرجع إلى الكتاب والسنة ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أى أحسن مآلاً وعاقبة[1].

۞ وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].

أى: كل مَنْ أطاع رسول الله فى أوامره ونواهيه ﴿فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ تعالى لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٣٤-٤٣٥).

وفى هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله أمر بطاعته مُطلَقًا... فلولا أنه معصوم فى كل ما يُبَلِّغ عن الله لم يأمر بطاعته مُطلقًا، ويمدح على ذلك. وهذا من الحقوق المشتركة ...فإن الحقوق ثلاثة:

حَقٌّ لله تعالى لا يكون لأحدٍ من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.

وقسمٌ مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنُّصرة.

وقسمٌ مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما، كما جمع الله بين هذه الحقوق فى قوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فمَنْ أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير ما رُتِّب على طاعة الله ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ ﴾ عن طاعة الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى: تَحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مُبلِّغًا ومُبينًا وناصحًا، وقد أدَّيت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا...كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ... ﴾ الآيات[١].

وفى هذه الآية: دليل على أن ما ثبت فى السُّنة فإنه كالذى ثبت فى القرآن، أى أنه من شريعة الله ويجب التمسُّك به، ولا يجوز لأحدٍ أن يُفرق بين الكتاب والسُّنة، ولقد أخبر النبى (عليه الصلاة والسلام) مُحذرًا حينما قال ﷺ: « يُوشِكُ أَنْ يَقْعُدَ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله فَمَا وَجَدنَا فِيهِ مِنْ حَلالٍ اسْتَحلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ... أَلا وَإِنَّ ما حَرَّمَ رَسُولُ الله مِثْلُ مَا حَرَّمَ الله»[٢].

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٩٢-١٩٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٨٦).

وقال ﷺ: «لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِى مِمَّا أَمَرتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لاَ أَدرِى مَا وَجَدنَا فى كتاب الله اتَّبَعنَاهُ»(١).

وقال ﷺ: «أَلا إنّى أُوتِيتُ الكِتابَ ومِثْلَهُ مَعَهُ .. أَلا يُوشكُ رُجُلُ شَبْعانٌ على أرِيكَتِهِ يَقولُ: علَيْكمْ بِهذا القرْآنِ فَما وجَدتمْ فِيهِ مِنْ حَلالٍ فأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدتمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فحَرِّموهُ...»(٢).

يعنى أنه ﷺ يُحذِّر من أنه ربما يأتى زمان على الناس يقولون: لا نتبع إلا ما فى القرآن... أما ما فى السُّنة فلا نأخذ به.

وهذا أمر قد وقع بالفعل... فوُجد من الملاحدة مَن يقول: لا نقبل السُّنة، لا نقبل إلا القرآن... والحقيقة أنهم كذبة، فإنهم لم يقبلوا لا السُّنة ولا القرآن؛ لأن القرآن يدل على وجوب اتباع السُّنة... وإن ما جاء فى السُّنة كالذى جاء فى القرآن، لكن هم يُموهون على العامة، ويقولون: إن السُّنة ما دامت ليست قرآنًا يُتلى ويُتواتر بين المسلمين، فإن ما فيها قابل للشك، وقابل للنسيان، وقابل للوهم، وما أشبه ذلك.

***

۞ وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وَقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أى أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وهو منهاجه وسُنته وشريعته ... فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبل، ومَن خالفه فهو مردودٌ على قائله وفاعله كائنًا مَن كان.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١٧٢).
(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٤٣).

كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، أَيْ مردودٌ عليه... فمعنى الآية أي: فليخشَ مَنْ خَالَفَ سُنَّة الرسول ﷺ باطنًا وظاهرًا ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أَيْ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ بِدعَةٍ ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الدنيا بِقَتْلٍ أَوْ حَدٍّ أَوْ حَبْسٍ أَوْ نَحوِ ذلك...قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللائى يَقَعنَ فِي النَّارِ يَقعنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فيقتحمن فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وتَقْتَحِمُونَ فِيهَا»[2][3].

❁ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾

[الشورى: ٥٢-٥٣].

الخطاب هنا للنبى ﷺ... أخبره الله عَزَّوَجَلَّ أنه يهدى إلى صراط مستقيم يعنى يدل إليه ويبينه للناس... والصراط المستقيم بيَّنه الله فى قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ يعنى الصراط الذى نصبه الله تعالى لعباده، وهو شريعته، وأضافه الله إلى نفسه؛ لأنه هو الذى نصبه ولأنه يوصل إليه، كما أنه أضافه فى سورة الفاتحة إلى الذين أنعم الله عليهم؛ لأنهم هم الذين يسلكونه.

فالنبى (عليه الصلاة والسلام) يهدى الناس إلى الصراط، ويدلهم عليه، ويهديهم إليه ويُرغبهم فى سلوكه، ويُحذرهم من مخالفته... وهكذا مَن خلفه

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٨٤) كتاب الفضائل.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٠).

من أمته من العلماء الربانيين، فإنهم يدعون إلى الصراط المُستقيم، صراط الله...

فإذا قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: ٥٦] . فإن هذه الآية نزلت حين اغتمَّ النبيﷺ لعمه أبي طالب، وكان عمه أبو طالب مشركًا، ولكنه كان يُدافع عنه، ويرفع مَنْزِلته، ويَذُبّ عنه، ويقول فيه المدائح والقصائد العظيمة، لكن حُرم خير الإسلام والعياذ بالله، ومات على الكفر.

فهنا يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وفي الآية التي ذكرها المؤلف يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال أهل العلم: والجمع بينهما أن الآية التي فيها إثبات الهداية يُراد بها هداية الدلالة، يعني أنك تدلّ الخلق، وليس كل مَن دُلَّ على الصراط اهتدى، وأما الهداية التي نفاها الله عن رسوله (عليه الصلاة والسلام) حيث قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فهي هداية التوفيق ... لا أحد يستطيع أن يوفق أحدًا للحق، ولو كان أباه، أو ابنه، أو عمه، أو أمه، أو خاله، أو جدته أبدًا ... مَن يُضلل الله فلا هادي له.

ولكن علينا أن ندعو عباد الله إلى دين الله، وأن نُرغبهم فيه، وأن نُبينه لهم، ثم إن اهتدوا فلنا ولهم، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم...قال الله تعالى:﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ١-٣] . يعني لعلك تُهلك نفسك بالهم والغم، إذا لم يكونوا مؤمنين، فلا تفعل، فإن الهداية بيد الله، بل أدِّ ما عليك وقد برئت ذمتك[١] .

۞ وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

أي: وَاذْكُرْنَ هَذِهِ النِّعمَةَ الَّتِي خُصِصتُنَّ بِهَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، أَنَّ الْوَحيَ يَنْزِلُ

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٤٢-٤٤٣).

فِي بُيُوتِكُنَّ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ ... وَعَائِشَةُ الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ رضي الله عنها أولاهن وأحظاهن بهذه النعمة وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْوَحْيُ فِي فِرَاشِ امْرَأَةٍ سِوَاهَا، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ صَلَوَاتُ اللهِ وسلامه عليه[١].

❁ وفى تفسيرٍ آخر:

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أى واقرأن آيات القرآن، وسُنة النبى ﷺ، فإن فيهما الفلاح والنجاح.

قال الزمخشرى: ذكَّرهن أن بيوتهن مهابط الوحى، وأمرهنَّ ألاّ ينسين ما يُتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: آيات بينات تدل على صدق النبوة، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية[٢] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى عالماً بما يصلح لأمر العباد، خبيراً بمصالحهم ولذلك شرع للناس ما يُسعدهم فى دنياهم وآخرتهم.

فإنه سبحانه وتعالى يدرك أسرار الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التى تَبين وتُسَرُّ.

فلُطفه وخبرته، يقتضى حَثُّهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال ... ومن معانى «اللطيف» الذى يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطُرقٍ خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق، ما لا يدريه... ويُريه من الأسباب، التى تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقًا له إلى أعلى الدرجات، وأرفع المنازل[٣].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٢).

(٢) الكشاف (٣/ ٤٢٥).

(٣) تفسير السعدى (ص ٧٨١).

(١٦٠) فالأَوَّل: عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «دَعُونِي ما تَرَكْتُكُمْ: إِنَّما أَهْلَكَ مَن كَانَ قَبْلَكُم كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبيائِهِمْ، فَإِذا نَهَيْتُكُمْ عنْ شَيْءٍ فاجْتَنِبُوهُ، وَإِذا أَمَرْتُكُمْ بأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ»[١].

❁ قال ﷺ: «دعونى ما تركتكم» أو «ذرونى ما تركتكم».

لماذا قال النبى ﷺ ذلك؟

لأن بعض الصحابة رضي الله عنهم من شدة حرصهم على طلب العلم ومعرفة سُنَّة النبى ﷺ كانوا يسألون النبى ﷺ ويُكثرون من السؤال عن بعض الأشياء التى قد لا تكون مُحرمة فتُحرَّم من أجل مسألتهم .. أو قد لا تكون واجبة فتصبح واجبة من أجل مسألتهم .. ولذا أمرهم النبى ﷺ أن يَدَعوه ويتركوه ما دام لم يأمرهم ولم ينههم.

❁ وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ فَقَالَ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ»، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: فَسَكَتَ عَنْهُ حَتَّى أَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ مَا قُمْتُمْ بِهَا، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»، وَذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾»[٢].

ثم علَّل ذلك بقوله: «فإنما أهلك مَن كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» يعنى أن الذين من قبلنا أكثروا المسائل على الأنبياء، فشدَّد عليهم كما شدَّدوا على أنفسهم ثم اختلفوا على أنبيائهم أيضًا... فليتهم لما سألوا

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٢٨٨) كتاب الاعتصام، ومسلم (١٣٣٧) كتاب الحج.

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٧٠٤) والطبرى فى جامع البيان (٧/ ٥٣) وسنده صحيح وأصله فى صحيح مسلم (١٣٣٧) دون التصريح بسبب النزول.

فأُجيبوا قاموا بما يلزمهم، ولكنهم اختلفوا على الأنبياء.

والاختلاف على الأنبياء يعنى مخالفتهم ... وهنا مثال جاء به القرآن مصداقًا لقول النبى ﷺ هذا ... اختلف بنو إسرائيل فى قتيلٍ قُتل بينهم، فادَّعت كل قبيلة أن الأخرى هى التى قتلته، وادَّارءوا فيها، وتنازعوا فيها، ورفعوا الأمر إلى نبيهم موسى (عليه الصلاة والسلام).

۞ وها هى القصة باختصار:

كان فى بنى إسرائيل شابٌّ فقير فى كل شىء... فقير فى المال وفقير فى الأخلاق ليس عنده دين ولا أمانة.

وكان له عمٌّ غنيٌّ كثير المال وكانت له ابنة جميلة جدًّا.

فكان هذا الشاب يتمنى موت عمه فى أقرب وقتٍ من أجل أن يرث المال الكثير ويتزوج ابنة عمه الجميلة.

ولكن عمه عاش طويلاً وكان فى غاية الصحة والعافية.

فتعجَّل هذا الشاب موت عمه من أجل أن يستمتع بالمال.

وأخذ هذا الشاب يدبر تلك المؤامرة الحقيرة لقتل عمه... إلى أن استطاع فى ليلة من الليالى أن يقتل عمه... وحتى لا يعرف الناس أنه هو الذى قتل عمه، أخذ جثة عمه وألقاها أمام بيت أحد أقاربه وجلس يبكى على باب البيت وكأنه حزينٌ على موته.

فلما مرَّ الناس عليه وجدوه يبكى ويتهم أهل هذا البيت بقتل عمه.

فخرج أصحاب البيت وأقسموا أنهم لم يقتلوه.

وضاع الحق بين الناس ولم يعرفوا مَن القاتل!!!

وذهبوا إلى نبى الله موسى عليه السلام وأخبروه بخبر هذا الرجل المقتول.

فقام نبى الله موسى عليه السلام وجمع الناس وقال لهم: أسألكم بالله مَن الذى

يعلـم قاتل هـذا الرجل؟... فلم يرد أحد.

فقال له رجل منهم: يا نبى الله لماذا لا تسأل ربك حتى يخبرك بخبر القاتل.

فسأل موسى ربه (جل وعلا) فأوحى إليه بأن يأمرهم أن يذبحوا بقرة.

فتعجب الناس من ذلك وظنوا أن موسى عليه السلام يستهزئ بهم.

فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]: أى أعوذ بالله أن أخبركم بشىء لم يأمرنى الله بـه أو أن استهزئ بشىء من أوامر الله فلقد أخبرتكم بما أمر الله به.

۞ ولقد كان يكفيهم أن يذبحوا أى بقرة؛ لأن الله (جل وعلا) لم يحدد لهم أى مواصفات لتلك البقرة ولكن شددوا فشدَّد الله عليهم.

فسألوا عن سِنِّها فأخبرهم بأنها متوسطة العمر لا كبيرة ولا صغيرة.

وأمرهم أن ينفذوا أمر الله (جلَّ وعلا) دون أى تأخير لكن بنى إسرائيل كانوا لا يطيعون الأوامر بل كانوا يتهربون ويتحايلون على تلك الأوامر بـأدنى الحيل حتى لا ينفذوها.. وكانوا يكثرون من الأسئلة بقصد التهرُّب من الأوامر وتضييع الوقت.

فسألوا نبى الله موسى عليه السلام: ما لونها؟

فأجابهم بأنها بقرة صفراء فاقعٌ لونها - أى شديدة الصُّفرة- جميلة المنظر .. تَسُرُّ مَن ينظر إليها من شدة حُسنها وبهائها.

ثـم شـددوا أيـضًا: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠].

فـأخبرهم بأنهـا بقـرة ليـست مُذلَّلـة أو مُعـدَّة للحـرث ولا لـسقى الأرض بالساقية.. سالمة من العيوب ليس فيها أى لون يخالف لونها فهى صفراء خالصة الصُّفرة.

فلما حددها بهذه الصفات: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١].

۞ أخذوا تلك المواصفات من موسى عليه السلام، وراحوا يبحثون عن بقرة تتصف بها.

بحثوا عند بنى إسرائيل، فلم يجدوا إلا بقرة واحدة فقط تتصف بهذه الصفات ... كانت تلك البقرة لشابٍّ يتيم فقير. كان بارًّا بأبيه الذى مات، وبارًّا بأمه التى ما زالت تعيش.

فساوموه على بيعها لهم، فساومهم، وبقى يساومهم، ويرفع سعرها تدريجيًّا، وهم يراجعونه ويساومونه...رفع سعرها من مائة دينار، إلى مائتين. ثم إلى أربعمائة. ثم إلى ثمانمائة.

ثم طلب منهم أن يضعوها فى الميزان، وأن يدفعوا له ثمنها بما يساوى وزنها ذهبًا!

فاضطروا إلى الموافقة لعدم وجود بقرة غيرها. ودفعوا للشاب ما طلبه، فصار من كبار الأغنياء لبرِّه بوالديه.

أخذوا البقرة وذبحوها، ثم أخذوا جزءًا منها، وضربوا بها جسد القتيل.

فأحيا الله القتيل فنظر حوله فوجد أُناسًا كثيرين فسأله أحدهم: مَن الذى قتلك؟

فقال: قتلنى ابن أخى طمعًا فى ثروتى.. ثم مات القتيل مرة أخرى.

فأُلقى القبض على القاتل وحُرم من الميراث عقوبة له على جريمته... ومنذ ذلك اليوم لم يرث قاتل من ميراث المقتول.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

أى: كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له...كذلك أمره فى سائر

الموتى، إذا شاء إحياءهم أحياهم فى ساعة واحدة.

۞ وعلى الرغم من إعجاب ودهشة بنى إسرائيل لِما حصل من موسى عليه السلام فإنهم ظَلُّوا على عنادهم وبقيت قلوبهم على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة منها.

۞ فالشاهد من هذا الحديث أنه فى عهد النبى ﷺ كان لا ينبغى أن يسأل أحدٌ عن أى شىءٍ مسكوتٍ عنه ... ولهذا قال ﷺ: «**ذرونى ما تركتكم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**».

أما فى عهدنا وبعد انقطاع الوحى بموت النبى ﷺ فاسأل عن كل شىء تحتاج إليه؛ لأن الأمر مستقر الآن وليس هناك زيادة ولا نقص، لكن فى عهد التشريع يمكن أن يُزاد ويمكن أن يُنقص ... وبعض العوام يفهم من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١].

وقوله ﷺ: «**ذرونى ما تركتكم...**» يفهم من ذلك فهمًا خاطئًا، فتجده يفعل الحرام، ويترك الواجب ولا يسأل ويستدل بهذه الأدلة وتلك النصوص ويُزين له الشيطان ذلك والعياذ بالله.

بل الواجب على الإنسان أن يتفقه فى دين الله ... قال النبى (عليه الصلاة والسلام): «**مَن يُرد الله به خيرًا يُفقهه فى الدين**».

۞ **ثم قال** ﷺ: «**فإذا نهيتكم عن شىءٍ فاجتنبوه**».

فأى شىء ينهانا عنه الرسول ﷺ فإننا نتجنبه..وذلك لأن الشىء المنهى عنه متروك .. فالنهى هو أمرٌ بالتَّرك .. ومن المعلوم أن التَّرك ليس فيه مشقة على أحدٍ .. فكل إنسانٍ يستطيع أن يترك الشىء الذى نهى عنه الرسول ﷺ .. إلا أن هذا مُقيد بالضرورة... فإذا اضطُّر الإنسان إلى شىءٍ مُحرم ولم يجد سواه وسوف تندفع به ضرورته فإنه يكون حلالًا.

وذلـك لقـول الله تعـالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] ولقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ...﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣].

فيكون قول الرسول ﷺ: «**ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**» يكون مُقيدًا بحال الضرورة ... يعنى أنه إذا وُجدت ضرورة إلى شيءٍ مُحرم صار هذا المحرم حلالاً بشرطين:

الشرط الأول: ألا تندفع ضرورته بسواه.

الشرط الثاني: أن يكون مُزيلاً للضرورة. وبهذين القيدين نعرف أنه لا ضرورة إلى دواءٍ محرم ... يعنى لو كان هناك دواء ولكنه حرام، فإنه لا ضرورة إليه. لأن الله ما جعل شفاءنا فيما حُرم علينا(١).

۞ والمنهى عنه قسمان: مَنهيٌّ عنه للتحريم، ومَنهيٌّ عنه للأفضلية.

يعنى: يكون النهى فيه للكراهة أو للتنزيه... وما كان للتحريم يجب فيه الاجتناب، وما كان للكراهية فيُستحب فيه الاجتناب.

إذا تقرر هذا، فالمنهى عنه خلاف الأصل؛ لأن الأصل فى الشريعة ليس هو النهى، وإنما الأصل فيها الأمر، والمنهيات بالنسبة للأوامر قليلة(٢).

ومن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه ما نهانا عن شيءٍ نحتاج إليه فى حياتنا ولا نستغنى عنه أبدًا.

وهذا من لطف الله (جل وعلا) بالعباد؛ فإنه (جل وعلا) ما جعل شيئًا منهيًا عنه فيه إقامة الحياة، بل كل المنهيات عنها إنما ابتلَى الله (جل وعلا) العباد بها.

فما نهانا الله إلا عن شيءٍ فيه ضررٌ لنا .. وما أمرنا بشيءٍ إلا فيه خيرٌ لنا.

۞ وأما قوله ﷺ: «**وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم**».

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٤٥).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ١١٨-١١٩) بتصرف.

وذلك لأن الأوامر كثيرة، ليست مثل المنهيات..ومنها ما قد لا يستطيعه العبد، ولهذا جاءت القواعد - بناء على هذا الحديث -: «**لا واجب مع العجز**». يعني: أن المرء إذا عجز عن الشيء فلا يجب عليه...كما جاء في حديث عمران: «**صلِّ قائما، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**».

فهنا يأتي ما استطاع، وقد قال (جل وعلا): ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ** ﴾

[البقرة: ٢٨٦]

وقال (جل وعلا): ﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ** ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال (جل وعلا): ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ** ﴾ [الحج: ٧٨][(١)].

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله ﷺ: «**فأتوا منه ما استطعتم**» لأن الأمر فِعلٌ وإيجاب، وقد يكون شاقًّا على النفس ولا يستطيع الإنسان أن يقوم به، فلهذا قيَّده بقوله: «**فأتوا منه ما استطعتم**»، ومع ذلك فإن هذا الأمر مُقيدٌ بقيدٍ آخر، وهو ألا يوجد مانع يمنع، فإذا وُجد مانع يمنع، فهذا يدخل في قوله: «**فأتوا منه ما استطعتم**». ولهذا قال العلماء: لا واجب مع عجز، ولا محرم مع الضرورة... والشاهد من هذا الحديث قول النبي ﷺ: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**» فإن هذا يدخل في المحافظة على السُّنة وآدابها.

وأما ما سكت عنه النبي ﷺ، فهو عفو ....المسكوت عنه معفوٌّ عنه، وهذا من رحمة الله. فالأشياء إما مأمورٌ بها، أو منهيٌّ عنها، أو مسكوتٌ عنها...فما سكت عنه الله ورسوله فإنه عفو لا يَلزمنا فعله ولا تَركه[(٢)].

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص ١٢٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٤٦).

(١٦١) الثَّاني: عَنْ أَبِي نَجيح الْعِرْباض بْنِ سَارِيَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: وَعَظَنَا رسولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً بليغةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ منْهَا الْعُيُون، فقُلْنَا: يا رَسولَ الله كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا. قال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوى الله، وَالسَّمْع وَالطَّاعَة وإِنْ تَأَمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حبشيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ منْكُمْ فَسَيرى اخْتِلافًا كثيرًا. فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتي وَسُنَّة الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ، وإِيَّاكُمْ ومُحدثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلاَلَةٌ»(١).

۞ هذا الحديث أصلٌ فى بابه فى بيان الاستمساك بتقوى الله (جل وعلا) والوصية بذلك، والاستمساك بالسمع والطاعة، وبالسُّنة وبطريقة الخلفاء الراشدين المهديين من بعد النبى (عليه الصلاة والسلام).

قال العرباض بن سارية رضي الله عنه: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون» وكان هذا دأب النبى ﷺ أنه كان يعظ أصحابه أحيانًا على وجهٍ راتب كما فى يوم الجمعة وخطب العيدين وغيرها إذا كان هناك سبب يقتضى موعظة كان النبى ﷺ يقوم ويعظ الناس.

«وعظنا رسول الله ﷺ موعظة» الوعظ هو التذكير بالأمر والنهى، وبحقوق الله (جل وعلا) فى الأمر والنهى - يعنى: فيما أمر به ونهى عنه -.

فالموعظة قد تكون بترغيب، وقد تكون بترهيب(٢).

قوله: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون».

هذا يبين كمال أحوال الصحابة الإيمانية رضي الله عنهم فإنهم قالوا: وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، ما قالوا: صرخنا أو صُرعنا أو هِمْنا على

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).
وَ«النَّواجذُ»: الأنيَابُ، وَقِيلَ: الأضراسُ.
(٢) شرح الأربعين النووية (ص ٢٢٨) بتصرف.

وجوهنا.. كما أحدث ذلك الصوفية في منتصف القرن الثاني..والصحابة كانوا أبرَّ منهم قلوبًا وأعمقهم علمًا، وهم تلامذة النبي ﷺ الذين ربَّاهم على عينه فلا يمكن لمن أتى بعدهم أن يكون خيرًا منهم مهما كان أكثر اجتهادًا وطاعة لله عَزَّوَجَلَّ.. كما قال ابن مسعود للتابعين: لأنتم أكثر عملًا من أصحاب رسول الله ﷺ ولكنهم كانوا خيرًا منكم .. كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة.

وقولهم: «كأنها موعظة مودع فأوصنا»، لأن المودِّع يستفرغ طاقته في النصيحة، والطاعة، والعبادة، فينبغي للمؤمن أن يصلي صلاة مُودِّع ويصوم صيام مُودِّع، فإن هذا أدعَى إلى كمال الإخلاص والمتابعة في الطاعة والعبادة.

ولأن المُودِّع إذا أراد المغادرة، فإنه يعظ مَن خلفه بالمواعظ البليغة التي تكون ذكرى لهم فلا ينسونها .. ولهذا تجد الإنسان إذا وعظ عند الفراق لسفر أو غيره، فإن الموعظة تمكث في قلب الموعوظ، وتبقى.

لهذا قالوا: كأنها موعظة مودع فأوصنا.

۞ قوله ﷺ: **«أوصيكم بتقوى الله»**.

والتقوى أن يأخذ العبد بأسباب الوقاية من سخط الله عَزَّوَجَلَّ وعذابه بفعل المأمور، وترك المحظور.

وقيل: هي ترك ما تهوى لما تخشى.

وقيل: هي أن تعمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ على نورٍ من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله.

وقيل: هي علم القلب بقرب الرب عَزَّوَجَلَّ.

وهي وصية الله عَزَّوَجَلَّ للأولين والآخرين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]

وقيل: (هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل).

وسُئِلَ أبو هريرة رضي الله عنه عن التقوى فقال: (هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى).

وأخذ هذا ابن المعتز وقال:

خَلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التُّقى

واصْنع كماشٍ فوق أر ... ضِ الشوكِ يحذرُ ما يَرَى

لا تَحقِرَنَّ صغيرةً ... إنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

۞ **وقوله ﷺ: «والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي».**

ففيه السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين الذين يحكمونهم بشرع الله عز وجل ... وهذا الإطلاق مُقيَّدٌ في مواضع أُخرى كقوله ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**» يعني فيما يُقره الشرع أما ما يُنكره الشرع فلا طاعة لأحدٍ فيه ... كما قال الصدِّيق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه عندما استُخلف: أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم.

وقصة عبد الله بن حذافة رضي الله عنه الذي أمَّره النبي ﷺ على سرية فأغضبوه فأمرهم أن يوقدوا نارًا ثم أمرهم بالدخول فيها، فقالوا: إنما آمنا برسول الله ﷺ هروبًا من النار، فلما عُرض ذلك على النبي ﷺ قال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا**».

فطاعة الأمراء، والعلماء، والوالدين لا تكون في معصية الله عز وجل...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النساء:٥٩].

فطاعة الله عز وجل مطلقة، وطاعة الرسول ﷺ مطلقة ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]. أما طاعة أُولي الأمر فهي مُقيدة بما لا يخالف أمر الله

عَزَّوَجَلَّ أو أمر رسوله ﷺ.

فمثلًا: لو أمر ولى الأمر أن تترك رعيته الصلاة وأن تخلع النساء الحجاب قلنا له: لا سمع ولا طاعة .. لأن الصلاة فريضة والحجاب واجبٌ على المرأة ولا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق.

لكن يجب أن يُطاع فى غير هذا... يعنى ليس معنى ذلك أنه إذا أمر بمعصية تسقط طاعته مطلقًا، لا... إنما تسقط طاعته فى هذا الأمر المعين الذى هو معصية لله، أما ما سوى ذلك، فإنه تجب طاعته...وقد ظن بعضُ الناس أنها لا تجب طاعة ولى الأمر إلا فيما أمر الله به، وهذا خطأ؛ لأن ما أمر الله به فإنه يجب علينا أن ننفذه، ونفعله، سواء أمرنا به ولىُّ الأمر أم لا.

فالأحوال ثلاثة: إما أن يكون ما أمر به ولى الأمر مأمورًا به شرعًا، كما لو أمر بالصلاة مع الجماعة مثلاً، فهذا يجب امتثاله لأمر الله ورسوله ولأمر ولى الأمر. وإما أن يأمر ولى الأمر بمعصية الله، مِن تَركِ واجبٍ أو فعل محرم، فهذا لا طاعة له ولا سمع، وإما أن يأمر الناس بما ليس فيه أمر شرعى، ولا معصية شرعية، فهذا تجب طاعته فيه؛ لأن الله قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: ٥٩]. فطاعة ولى الأمر من غير معصية طاعة لله ولرسوله ﷺ[١].

۞ قوله ﷺ: **«وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشى»**.

يعنى: إن تأمَّر عليكم رجل من الحبشة ولم يكن من العرب .. فتولى بطريقة شرعية وجعل الله له السلطة .. فإن الواجب علينا أن نسمع له ونطيع فى كل شىء إلا فى معصية الله عَزَّوَجَلَّ...

ولو قلنا بعدم السمع له والطاعة لأصبح الناس فى فوضى .. كُلٌّ يعتدى على الآخر .. وكُلٌّ يُضيع حقوق الآخرين.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٣٨).

ثم قال ﷺ: «**فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا**». وهذا عَلَم من أعلام النبوة ... فمن عاش من الصحابة رضي الله عنهم عاصر هذا الاختلاف.

فقد ظهرت الفتن والاختلافات منذ زمن الصحابة رضي الله عنهم وظلت الفتن تكثر وتنتشر وتتوغل فى بلاد المسلمين حتى أصبح الحليم حيرانًا فى زماننا هذا.. وأصبح الرجل يمر بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه فى القبر من شدة الفتن التى نعيش فيها.

المهم أنه ظهرت الفتن فى زمن الصحابة .. وكانت بدايتها بقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم بقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفي زمن الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ظهرت الخوارج وذلك في موقعة صِفِّين بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما. وكانوا ستة آلاف وأرسل إليهم ابن عمه عبد الله بن عباس فرجع بألفين ... ثم قاتلهم عليٌّ رضي الله عنه في موقعة النهروان فقتل ألفين وبقي ألفان ... وظهر كذلك الشيعة السبئية أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي، وهم الذين ألَّهوا على بن أبي طالب ، وقال مقالته المشهورة:

ولما رأيت الأمر أمرًا منكرًا ... أجَّجت نارًا ودعوت قنبرا

وقنبر: هو غلام عليٍّ رضي الله عنه.

وقال بعضهم لابن عمر رضي الله عنه: إن عندنا قومًا بالكوفة يقولون: إن الأمر أُنُف أى مُستأنَف أى بلا قدرٍ سابق (وهم القدرية) الذين يَنفون كل مراتب الإيمان بالقضاء والقدر من العلم والكتابة وإثبات مشيئة الله عز وجل النافذة وخلق أفعال العباد.

فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أخبرهم أنهم ليسوا منِّى ولستُ منهم).

فظهرت الفِرق التى أخبر عنها المعصوم ﷺ، وافترقت الأمة إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة ... واحدة ناجية تصير إلى جنة عالية قطوفها دانية.

۞ وأما عن الفتنة التى حدثت بين الصحابة ﭫ فلقد أجمع أهل السُّنة والجماعة على وجوب السكوت عن الخوض فى الفتن التى جرت بين الصحابة ﭫ - بعد مقتل عثمان ﭬ - والاسترجاع على تلك المصائب والاستغفار للقتلى من الطرفين والترحُّم عليهم.

قال أحد السلف لما سُئل عن القتال بين الصحابة ﭫ: «تلك دماء وأشلاء طهر الله منها أيدينا فلا نُلوث بها ألسنتنا ... ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٤].

فالواجب حفظ فضائل الصحابة والاعتراف بسابقتهم ونشر مناقبهم والاعتقاد أن كل واحدٍ منهم مجتهد لم يتعمد الخطأ فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر وخطؤه مغفور.

عن أبى سعيد الخدرى ﭬ قال: قال النبى ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أصحابى، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[١].

وعن عبد الله بن مغفل أن النبى ﷺ قال: «**الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى لهم أحبهم، ومَن أبغضهم فببُغضى أبغضهم، ومَن آذاهم فقد آذانى، ومَن آذانى فقد آذى الله، ومَن آذى الله أوشك أن يأخذه**»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى اختارنى، واختار لى أصحابًا، فجعل لى منهم وزراء وأنصارًا وأصهارًا، فمن سبَّهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة صرفٌ ولا عدل**»[٣]... أي: لا يُقبل منه فريضة ولا نافلة.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٦٧٣) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٨٧)، (٥/ ٥٤، ٥٧)، وقال محققه: إسناده حسن، ورواه أيضًا الترمذى رقم (٣٨٦٢) وغيره.

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٣٢)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى.

وقال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما يعرف فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مَن تَدبَّر أحوالهم وسيرهم وآثارهم فى حياة رسول الله ﷺ، وبعد موته من المسابقة إلى الإيمان، والمجاهدة للكفار، ونشر الدين، وإظهار شعائر الإسلام، وإعلاء كلمة الله ورسوله، وتعليم فرائضه، وسُننه، ولولاهم ما وصل إلينا من الدين أصلٌ ولا فرع، ولا علمنا من الفرائض والسنن سُنة ولا فرضًا، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئًا.

فمن طعن فيهم، أو سبَّهم، فقد خرج من الدين، ومَرَق من ملة المسلمين؛ لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم، وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره الله تعالى فى كتابه من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم.

۞ قوله ﷺ: « **فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتى وَسُنَّة الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْديِّينَ ، عضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ** ».

وفى هذا حَضٌّ شديد على أن يتمسك المسلم بسُنة رسول الله ﷺ خاصة عند اختلاف الناس ... فعلاج الاختلاف وسبيل النجاة عند الاختلاف التمسُّك بالسُّنة؛ لأن ظهور البدع والاختلاف ينشأ من تقديم الآراء والأهواء على سُنة النبى ﷺ وتقديم العقول الناقصة على الشرع الكامل... فإذا حدث خلاف بين المسلمين ثم تحاكموا إلى السُّنة لَا بُدَّ أن يجتمعوا... لأن السُّنة الواحدة لا تختلف ولكن إذا قدَّم كل واحدٍ رأيه وهواه ورأى شيخه، على سُنة النبى ﷺ لا يمكن أن يجتمعوا .. لأن السُّنة تُجمِّع والبدعة تُفرق.

وهذا هو الواجب على العباد حين الاختلاف.

إذا اختلفوا فى العقائد فعليهم أن يبحثوا فى سُنة المصطفى ﷺ وإذا اختلفوا فى الشرائع وفى الأحكام فعليهم أن يبحثوا فى سُنة المصطفى ﷺ وإذا كثر الاختلاف بينهم فى أمور الفتن والآراء ... إلى آخره فعليهم أن يرجعوا إلى سُنة المصطفى ﷺ وسُنة الخلفاء الراشدين؛ فإن فيها النجاة.

ولم نرَ مسألة من المسائل التى من أجلها اختلف الناس فى تاريخ الإسلام كله، من أوله إلى يومنا هذا إلا وفى السُّنَّة بيانها، لكن يُؤتَى الناس من جهة أنهم لا يرغبون فى السُّنة، لا يرغبون فى امتثال وصية المصطفى ﷺ وأمره ونهيه وبيانه ﷺ؛ لهذا أوصى ﷺ هذه الوصية العظيمة، فقال: «**فعليكم بسنتى**».

والسُّنة المقصود بها هنا الهدى والطريقة التى كان عليها ﷺ.. والسُّنة بيان للقرآن... فما كان من كلامه ﷺ، وما كان من أفعاله - فإن فى ذلك السُّنة، وهى الطريقة والهدى الذى كان عليه ﷺ.

وهذا فيه بيان واضح لمعنى القرآن، حيث قال (جل وعلا): ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[النحل: ٤٤]، فقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ «الذكر» هنا هو سُنة المصطفى ﷺ[(١)].

فأنزل الله السُّنة مُبينة لما أُجمل فى القرآن .... فنحن نقرأ فى القرآن ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لكن ليس هناك أى توضيح فى القرآن لكيفية الصلاة ومواقيتها وعددها فتجد هذا واضحًا فى سنة النبى ﷺ: «**صلوا كما رأيتمونى أصلى**»[(٢)]... ونقرأ فى القرآن ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ولا توجد آية واحدة فى القرآن تشرح مناسك الحج .. ولكن نجد ذلك واضحًا فى سُنة النبى ﷺ: «**خُذوا عنى مناسككم**»[(٣)].

وسُنته (عليه الصلاة والسلام) هى: طريقته التى يمشى عليها، عقيدة، وخُلقًا، وعملاً، وعبادة وغير ذلك...نلزم سُنته، ونجعل التحاكم إليها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]. فسُنة النبى (عليه الصلاة والسلام) هى سبيل النجاة لمن أراد الله نجاته من الخلافات والبدع.

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص/ ٢٣٠-٢٣١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٣١) كتاب الأذان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٢٩٧) كتاب الحج.

۞ وتأملوا معى كيف كان حرص سلفنا الصالح على اتباع سنة النبى ﷺ:

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فى مقدمة «طريق الهجرتين وباب السعادتين»:

قال الجنيد بن محمد: الطرق كلها مسدودة إلا طريق مَن اقتفى آثار النبى ﷺ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «وعزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك».

۞ وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا فرطكم على الحوض، وليختلجن رجالٌ دونى فأقول: يا رب أصحابى فيُقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك. فأقول: سُحقًا لمن بدَّل بعدى»**[(١)].

۞ وعن عمر بن عبد العزيز لما بايعه الناس: صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبى، ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد سُنتكم سُنة، ولا بعد أمتكم أمة، ألا وإن الحلال ما أحلَّ الله فى كتابه على لسان نبيه حلال إلى يوم القيامة، ألا وإن الحرام ما حرم الله على لسان نبيه حرام إلى يوم القيامة، ألا وإنى لست بمُبتدع ولكنى مُتبع.

ويقول سفيان الثورى ليوسف بن أسباط ناصحًا: يا يوسف إذا بلغك عن رجلٍ بالمشرق صاحب سُنة، فابعث إليه بالسلام، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب صاحب سُنة فابعث إليه بالسلام، فقد قَلَّ أهل السنة والجماعة[(٢)].

وعن أُبى بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: عليكم بالسبيل والسُّنة، فإنه ليس من عبدٍ على سبيل وسُنة، ذَكَر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسّه النار أبدًا، وإنَّ اقتصارًا فى سبيل وسُنة، خير من اجتهادٍ فى خلاف سبيل وسُنة[(٣)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٨٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢٩١) كتاب الفضائل.

(٢) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣٤/ ٧)، وابن الجوزى فى تلبيس إبليس (ص: ٩).

(٣) اللالكائى فى شرح أصول الاعتقاد (٥٤/ ١)، وابن الجوزى فى تلبيس إبليس (ص:١٠)، وذكره الشاطبى فى الاعتصام (٨١/ ١، ٩٤)، والبغوى فى شرح السنة (٢٠٨/ ١).

وهذا هو فاروق الأمة عمر ﷺ: أتى إلى الحجر الأسود فقبَّله ثم قال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يُقبلك ما قبَّلتك»(١).

ثم قال: إياكم وأصحاب الرأى فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأى فضلُّوا وأضلوا(٢).

وقال عليٌّ ﷺ: «لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخُف أَولَى بالمسح من أعلاه»(٣).

ولقد بلغ حرص صحابة النبى ﷺ على الاتباع وتحذيرهم من الابتداع وخوفهم منه مبلغًا عظيمًا.

فهذا صدِّيق الأمة الأكبر يخشى على نفسه ويخشى على إيمانه -الذى لو وُزن بإيمان الأمة لرجح- إن ترك شيئًا من أمره ﷺ.

فيقول: لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ(٤).

ويقول رضى الله عنه وأرضاه: أى أرضٍ تُقلنى وأى سماءٍ تُظلنى إن قلت فى آية من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم(٥).

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «مَن كان منكم مُستنًّا فليستنَّ بمن قد مات فإن الحى لا تُؤمَن عليه الفتنة، فأولئك أصحاب محمد ﷺ أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا، قد اختارهم الله تعالى لصُحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٩٧) كتاب الحج، ومسلم (١٢٧٠) كتاب الحج.

(٢) أعلام الموقعين (١/ ٥٥١) وقال ابن القيم معلقًا: وأسانيد هذا الأثر عن عمر فى غاية الصحة.

(٣) المرجع السابق (١/ ٨٥١).

(٤) الاعتصام (١/ ٨٠) ط. دار إحياء التراث.

(٥) أعلام الموقعين (١/ ٤٥) ط. دار الجيل.

فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم، فإنهم على الهدى المستقيم»[1].اهـ.

۞ وقوله ﷺ: «**وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضُّوا عليها**» ولم يقل ﷺ: عضوا عليهما ؛ لأن سُنة الخلفاء الراشدين من سُنته ﷺ فقد كانوا رضي الله عنهم أعلم الناس بالسُّنة وأتبعهم لها.

والخلفاء جمع خليفة: وهم الذين خلفوا النبى ﷺ فى أمته علمًا وعملاً ودعوةً وجهادًا وسياسةً...وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى - رضي الله عنهم وألحقنا بهم فى جنات النعيم- هؤلاء الخلفاء الأربعة ومَن بعدهم من خلفاء الأمة، الذين خلفوا النبى ﷺ فى أمته، هم الذين أمرنا باتباع سُنتهم...ولكن ليُعلم أن سُنة هؤلاء الخلفاء تأتى بعد سُنة الرسول (عليه الصلاة والسلام)، فلو تعارضت سُنة خليفة من الخلفاء مع سُنة النبى محمد ﷺ ، فإن الحكم لسُنة النبى محمد ﷺ لا لغيرها، لأنها -أعنى سُنة الخلفاء- تابعة لسنة النبى ﷺ .

فالمهم أن سُنة الخلفاء تأتى بعد سُنة الرسول ﷺ ... قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوشك أن تنَزّل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر!! هذا وهما أبو بكر وعمر، فكيف بمن عارض قول الرسول ﷺ بقول مَنْ دون أبى بكر وعمر بمراحل.

۞ «**عَضُّوا عليها بالنواجذ**» والنواجذ: هى الأضراس، وأشد ما يكون الاستمساك إذا أراد المرء أن يستمسك بشىءٍ بأسنانه أن يعض عليه بأضراسه؛ لأنها أشد الأسنان.

وهو كناية عن شدة التمسُّك...فإذا تمسك الإنسان بيديه بالشىء وعَضّ عليه بأقصى أسنانه، فإنه يكون ذلك أشد تمسُّكًا مما لو أمسكه بيدٍ واحدة، أو

(١) أخرجه أبو عمر بن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله» (٩٧/ ٢)، والهروى ورقمه (٨٦) وفيه من طريق قتادة عنه فهو منقطع - قاله الألبانى فى تخريج مشكاة المصابيح (ص: ١٩٣).

بيدين بدون عضّ ...فهذا يدل على أن النبى ﷺ أمرنا أن نتمسك أشد التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده (عليه الصلاة والسلام).

۞ «**وإياكم ومُحدثات الأمور**» يعنى: أُحذركم من المُحدثات فى دين الله عَزَّوَجَلَّ وفيما يتعبد به الإنسان لربه (جلَّ وعلا).

أما المُحدثات فى أُمور الدنيا فهذه ليس فيها إنكار إلا إذا كان فى شىءٍ قد ورد فيه نَصٌّ على تحريمه أو كان داخلًا فى قاعدة عامة تدل على التحريم..

فمثلًا: الطائرات والسيارات والدراجات لا نقول عنها أنها مُحدثة لأنها لم تكن على عهد رسول الله ﷺ .. لأن هذه من الأمور الدنيوية .. وكذلك الثياب وأنواعها، لا نقول: لا تلبس إلا ما كان يلبسه الصحابة ... بل البس ما شئت مما أحلَّ الله لك؛ لأن الأصل الحِلّ، إلا ما نَصَّ الشرع على تحريمه، كتحريم الحرير والذهب على الرجال، وتحريم ما فيه الصورة وما أشبه ذلك.

فالبدعة المُحدثة هى أن يبتدع الإنسان شيئًا فى الدين لم يفعله النبى ﷺ ولا الخلفاء الراشدون .. يقصد بذلك أن يتعبَّد لله به.

۞ «**فإن كل بدعة ضلالة**» يعنى أن كل بدعة فى دين الله عَزَّوَجَلَّ فهى ضلالة، وإن ظن صاحبها أنها خير وأنها هدى.

وخير أمور الدين ما كان سُنة ... وشر الأمور المحدثات البدائع

وكل خيرٍ فى اتباع مَن سلف وكل شَرٍّ فى ابتداع مَن خَلَف ... والبدعة كما عرَّفها الإمام الشاطبى: «طريقة مُخترعة فى الدين تُضاهى الشرعية يُقصَد بالسلوك عليها ما يُقصَد بالطريقة الشرعية أو مزيد من التعبد لله عَزَّوَجَلَّ».

۞ وقوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**» يشمل ما كان مبتدعًا فى أصله، وما كان مُبتدعًا فى وصفه... فمثلاً لو أن أحدًا أراد أن يذكر الله بأذكارٍ مُعينة بصفتها أو عددها، بدون سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ، فإننا ننكر عليه ولا ننكر أصل الذكر، ولكن ننكر ترتيبه على صفة معينة بدون دليل.

(١٦٢) الثَّالثُ: عَنْ أَبِى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَن رسول الله ﷺ قالَ: «كُلُّ أُمَّتِى يدخُلُونَ الْجنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبى». قِيلَ: وَمَنْ يَأَبى يا رسول الله؟ قالَ: «مَنْ أَطَاعَنِى دَخَلَ الجنَّةَ، ومنْ عصَانِى فَقَد أَبى»[1].

۞ الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعدَّه الله لأوليائه وأهل طاعته ... وهي نعيمٌ كامل لا يَشُوبه نقص، ولا يُعكر صفوه كَدَر.

وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يُحير العقل ويُذهله، لأن تَصوُّر عظمة ذلك النعيم يَعجز العقل عن إدراكه واستيعابه.

استمع إلى قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» ثم قال الرسول ﷺ: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**[السجدة: ١٧] »[2].

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا... فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافهٌ حقير، لا يساوي شيئًا...ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**موضعُ سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها**»[3].

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى[4] ... قال تعالى: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾[آل عمران: ١٨٥].

وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن كل مَن مات على التوحيد من أمته فسوف يدخل الجنة .. لأنه من المعلوم أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإيمان والتوحيد.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٢٨٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٢٥٠) كتاب بدء الخلق.

(٤) الجنة والنار/ د. عمر الأشقر رَحِمَهُ اللهُ (ص ١١٣).

فأخبر النبىﷺ أن كل أمته ستدخل الجنة إلا مَن رفض أن يدخل الجنة!!

وقد يسأل سائلٌ ويقول: وهل هناك أحدٌ فى الكون كله يرفض أن يدخل الجنة؟!

وهذا هو نفس السؤال الذى سأله الصحابة للنبىﷺ فقالوا له: ومَن يأبى يا رسول الله؟

فوضح لهم النبىﷺ كيف يرفض الإنسان أن يدخل الجنة فقالﷺ: «**مَن أطاعنى دخل الجنة، ومَن عصانى فقد أبى**» فيا مَن أردت أن تدخل الجنة .. اعلم أنه لا طريق إلى الجنة إلا خلف النبى محمدﷺ .. فمن أطاعه فسوف يدخل الجنة ومَن عصاه فقد أَبَى أن يدخل الجنة.

ولكن لَا بُدَّ أن نعلم أن عُصاة الموحدين فى مشيئة الله .. إن شاء عذَّبهم وإن شاء عفا عنهم.. ولكن إن دخل أي أحدٍ من عُصاة الموحدين النار فلا بُدَّ أن يخرج من النار بعد ذلك ويدخل الجنة لأنه لا يُخلَّد مُوحدٌ فى النار أبدًا .. فهذا هو اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة.

(١٦٣) الرَّابعُ: عن أَبِى مسلمٍ، وقيلَ: أَبِى إِيَاس سلَمَةَ بْنِ عَمْرو بِن الأَكْوعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رسولِ الله ﷺ بِشِمَالِهِ فقالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قَالَ: لا أَسْتَطِيعُ. قَالَ: «لا استطَعت» ما منعَهُ إِلاَّ الْكِبْرُ فَمَا رَفَعَها إِلَى فِيْهِ[1].

۞ لقد كان رسول الله ﷺ مُستجاب الدعوة فيما يدعو فيه ربه من قضاء الحوائج وتفريج الكرب وشفاء المرض وتحقيق المطالب وحلول البركة، حتى تواتر هذا الأمر عنه، فكان ذلك شاهدًا من حاله بتصديق الله له بإجابة دعائه.

وهنا فى هذا الحديث يحكى أحد الصحابة أن رجلًا كان جالسًا مع النبىﷺ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢١) كتاب الأشربة.

يأكل معه .. وهذا من تواضع النبى ﷺ فقد ذُكر هذا الرجل دون أن يُذكر اسمه ...وهذا دليل على أنه ليس من سادة وأشراف القوم .. فقد كان النبى ﷺ يحب الفقراء والمساكين ويُجالسهم .. بل كان يدعو ويقول: «**اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زُمرة المساكين**»(١).

فكان هذا الرجل يجلس مع النبى ﷺ ويأكل معه .. فنظر إليه النبى ﷺ فوجده يأكل بشماله .. وقد كان النبى ﷺ ينهى عن الأكل بالشمال فكان يقول ﷺ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**»(٢).

فلما لاحظ النبى ﷺ أن هذا الرجل يأكل بشماله خاف عليه وأشفق عليه أن يأكل كما يأكل الشيطان فقال له ﷺ: «**كُل بيمينك**» فلم يَقُل له الرجل: عندى مرض فى يدى اليُمنى .. أو أى عُذرٍ آخر .. وإنما تكلم مع سيد ولد آدم ﷺ بشىءٍ من الكبر وقال له: «**لا أستطيع**» .. وكان من الممكن أن يقول للنبى ﷺ: ساعدنى يا رسول الله فأنا لا أستطيع..

فلو قال ذلك للنبى ﷺ لدعا له النبى ﷺ حتى يُيسر الله له أن يأكل بيمينه .. ولكنه قالها بكل كِبرٍ : «لا أستطيع» فدعا عليه النبى ﷺ وقال له: «**لا استطعت**» فما رفعها مرة أخرى إلى فمه.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ الدُّعَاءِ عَلَى مَنْ خَالَفَ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ بِلَا عُذْرٍ وَفِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ فِى كُلِّ حَالٍ حَتَّى فِى حَالِ الْأَكْلِ وَاسْتِحْبَابُ تَعْلِيمِ الْآكِلِ آدَابَ الْأَكْلِ إِذَا خَالَفَهُ(٣).

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وعبد بن حميد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٦١).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.
(٣) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٢٧٩).

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: وجوب تعظيم أمر النبي ﷺ، والتواضع لسُنته والمبادرة إلى طاعته، حيث إن هذا الرجل لما لم يبادر لطاعته ﷺ كِبراً، دعا عليه بأمرٍ عظيم وهي أن تُشَلّ يده، واستجاب الله دعاءه على الفور، مما يؤكد عِظَمَ أمر الطاعة، ووجوب التواضع للسُّنة... ونخشى أن يصيب هذا الدعاءُ كلَّ مَنْ ترفَّع عن السُّنة إلى قيام الساعة، فيصيبه وبالُ ذلك في الدنيا أو الآخرة.

الفائدة الثانية: كيف يدعو النبي ﷺ على أحد من أصحابه بهذا الدعاء العظيم، وهو الذي زكاه الله عَزَّوَجَلَّ فقال فيه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أقول: إن هذا الخُلق كان هو السِّمة الغالبة عليه ﷺ، ولكن لا يمنع ذلك أن يُظْهِرَ الشدة في بعض الأوقات، مضطرًّا ويكون ذلك لصالح الفرد والأمة.

فهذا الرجل الذي تكبّر عن الطاعة فيما أُمر، هل ترون أنه سيستمر على ما كان عليه، أم سيتوب إلى الله ويستغفره مما بدر منه، ويستقيم بقية حياته..بالطبع سيستقيم، فيكون الدعاء في حقه، رحمة منه ﷺ؛ لأنه علاجٌ لداءٍ عظيم... فلأن يذهب هذا الكبر بذهاب يده، خيرٌ له من أن يبقى في قلبه وتبقى يده.

وهناك احتمال آخر أن هذا الرجل كان من المنافقين، لذلك استجاز النبي ﷺ أن يدعو عليه بذلك... وقد نقل النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض هذا الاحتمال.

وهناك أمرٌ آخر وهو ظهور معجزة من معجزاته ﷺ... وتَجَلَّى ذلك في استجابة الله له في الحال، ومن ثَمَّ يكون في هذا الأمر موعظةٌ وزجْرٌ لمن يتكبر على سُنة الرسول ﷺ. وفي هذا مصلحة عظيمة لهذا الرجل ولغيره من المسلمين.

الفائدة الثالثة: في الحديث دليل على أن الصحابة يمكن أن تقع منهم المعاصي بل الكبائر، لأنهم بشر، وغير معصومين... والشاهد على ذلك أن حدود السرقة والخمر والزنى والقذف، قد أُقيمت كلها في عصر النبوة وإن كان ذلك على نُدرة شديدة.

الفائدة الرابعة: في الحديث تعظيم أمر الكبر وخطورته؛ لأن دعاء النبي ﷺ على هذا الرجل، كان بسبب الكبر الذي منعه من امتثال الأمر... وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الكبر، وتهديد ووعيد لمن تَلَبَّس بهذه الصفة.

الفائدة الخامسة: من عظيم أمر الكبر، أنه هو المعصية الوحيدة، التي أبى الله عَزَّوَجَلَّ ، إلا أن يفضح عبده بها في الدنيا... فالإنسان المتكبر المتلبس بهذه الصفة، لا يمكن أن يسترها عن الناس، فتظهر في احتقاره الناس، أو رَدِّ الحق[1].

(١٦٤) الخامسُ: عنْ أَبِى عبد الله النُّعمَان بْنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: سمِعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بَيْنَ وُجُوهِكمْ»[2].

وفى رواية لمُسلم: كان رسولُ الله ﷺ يُسَوِّى صُفُوفَنَا حَتَّى كأَنَّمَا يُسَوِّى بِهَا الْقِداحَ حَتَّى إِذَا رأَى أَنَّا قَد عَقَلْنَا عَنْهُ ثُمَّ خَرَجَ يَومًا، فقامَ حتَّى كَادَ أَنْ يُكبِّرَ، فَرأَى رجُلاً بادِيًا صَدرُهُ فقالَ: «عِبادَ الله لَتُسوُّنَّ صُفوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بيْن وُجُوهِكُمْ».

۞ كان النبى ﷺ أحرص الناس على الصلاة .. وكانت تشغل عليه حياته كلها حتى قال النبى ﷺ: «**وجُعلت قرة عينى فى الصلاة**» .. وكان النبى ﷺ يحب أن تكون الصلاة على أكمل وجه؛ لأنه سيكون واقفًا بين يدى الخالق (سبحانه وتعالى).

فإذا كانت الصلاة فى جماعة - فى الصلوات الخمس أو الجمعة أو غيرها- فإنه كان يمر ﷺ بين الصفوف ليُسويها قبل أن تبدأ الصلاة.

---

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٥٣-٥٥) بتصرف كبير.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤٣٦) كتاب الصلاة.

وفى يومٍ من الأيام كان النبى ﷺ يُسوى الصفوف حتى كأنما يُسوى القِداح.. والقِداح هى ريش السهم أو هى خشب السهام حين تُنحت وتُبرى .. والمعنى أنه ﷺ كان يبالغ فى تسوية الصفوف بحيث لا يتقدم أحدٌ على أحدٍ أبدًا.

يقول راوى الحديث: «حتى إذا رأى أنا قد عقلنا عنه» يعنى فهمنا وعرفنا أن التسوية لَا بُدَّ منها، خرج ذات يوم فرأى رجلاً باديًا صدره، فقال: «عباد الله، لتُسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم» فدلَّ هذا على سبب قول الرسول ﷺ: «لتُسون صفوفكم»؛ لأن سببه أنه رأى رجلاً باديًا صدره فقط، يعنى ظاهرًا صدره قليلاً من على الصف، فدلَّ ذلك على أن من هدى النبى ﷺ ، أنه يتفقد الصف، وأنه يتوعد مَن يتقدم على الصف بهذا الوعيد: «لتُسون صفوفكم أو ليُخالفن الله بين وجوهكم».

واختلف العلماء -رحمهم الله- فى معنى مخالفة الوجه.

فقال بعضهم: إن المعنى أن الله يخالف بين وجوههم مخالفة حِسِّية، بحيث يلوى الرقبة، حتى يكون وجه هذا مخالف لوجه هذا...والله على كل شىء قدير، فهو عَزَّوَجَلَّ قَلَبَ بعض بنى آدم قِردة، فقال لهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ فكانوا قردة.

فهو قادر على أن يلوى رقبة إنسان حتى يكون وجهه من عند ظهره، وهذه عقوبة حسية.

وقال بعض العلماء: بل المراد بالمخالفة المخالفة المعنوية، يعنى مخالفة القلوب... لأن القلب له اتجاه، فإذا اتفقت القلوب على وجهة واحدة حصل فى هذا الخير الكثير، وإذا اختلفت تفرقت الأمة.

فالمراد بالمخالفة مخالفة القلوب، وهذا التفسير أصحّ؛ لأنه قد ورد فى بعض الألفاظ: «أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بَيْنَ قُلُوبِكُم».

وعلى هذا فيكون المراد بقوله: «أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بَيْنَ وُجُوهِكُم» أى: بين

وجهات نظركم، وذلك باختلاف القلوب... وعلى كل حال ففي هذا دليل على وجوب تسوية الصفوف، وأنه يجب على المأمومين أن تُسوَّى صفوفهم، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فقد عرَّضوا أنفسهم لعقوبة الله والعياذ بالله.

والواجب على الأئمة أن ينظروا في الصفِّ، فإذا وجدوا فيه اعوجاجًا أو تَقدُّمًا أو تَأخُّرًا، نبَّهوا على ذلك... وكان النبي ﷺ أحيانًا يمشي بين الصفوف يُسويها بيده الكريمة (عليه الصلاة والسلام) من أول الصف لآخره.. ولما كَثُر الناس في زمن الخلفاء أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يُسوي الصفوف إذا أُقيمت الصلاة، فإذا جاء وقال: إنها قد استوت كبَّر للصلاة، وكذلك فعل عثمان رضي الله عنه، كان قد وكَّل رجلاً يُسوي صفوف الناس، فإذا جاء وقال قد استوت كبَّر... وهذا يدل على اعتناء النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بتسوية الصفّ. ولكن - مع الأسف- الآن تجد بعض المأمومين لا يُبالون بالتسوية... يتقدم إنسان ويتأخر إنسان ولا يبالي، وربما يكون مستويًا مع أخيه في أول الركعة، ثم عند السجود يحصل من الاندفاع تقدُّم أو تأخُّر، ولا يساوون الصفّ في الركعة الثانية، بل يبقون على ما هم عليه، وهذا خطأ، فالمهم أنه يجب تسوية الصفّ.

فإذا قال قائل: إذا كان هناك إمام ومأموم فقط، فهل يتقدم الإمام قليلاً أو يساوي المأموم؟ الجواب: أنه يساوي المأموم؛ لأنه إذا كان إمام ومأموم.. فالصف واحد لا يمكن أن يكون الإمام خلفه المأموم وحده، بل هما صَفٌّ واحد، والصف الواحد يُسوَّى فيه...خلافًا لما قاله بعض أهل العلم: إنه يتقدم الإمام قليلاً؛ لأن هذا لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه، وهو أن يُسَوَّى بين الإمام والمأموم إذا كانا اثنين[١].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٥٣-٤٥٤) بتصرف.

(١٦٥) السَّادِسُ: عن أبى موسى رضي الله عنه قال: احترق بيْتٌ بالْمدِينة علَى أَهله مِنَ اللَّيْل فَلَمَّا حُدِّث رسول الله ﷺ بِشَأنِهِمْ قال: «إِنَّ هَذِهِ النَّار عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ»(١).

۞ لقد خلق الله تلك النار وأنشأ شجرتها وامتنَّ بها على عباده فقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ أَيْ: أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ أَيْ: هل أنتم الذين خلقتم شجرها أم نحن الخَالقون المخترعون.

قال ابن كثير رحمه الله: وَلِلْعَرَبِ شَجَرَتَانِ: إِحْدَاهُمَا (الْمَرْخُ) والأُخْرى (الْعُفَارُ) إِذَا أُخِذَ مِنْهُمَا غُصنَانِ أَخْضَرَانِ فَحُكَّ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ تَنَاثَرَ مِنْ بَيْنِهِمَا شَرَرُ النَّارِ(٢)، وقيل: أراد جميع الشجر الذى تُوقد منه النار، لما روى عن ابن عباس أنه قال: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُناب(٣): ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ أى جعلنا نار الدنيا تذكيراً للنار الكبرى «نار جهنم» إذا رآها الرائى ذكر بها نار جهنم، فيخشى اللهَ ويخاف عقابه.

وفى الحديث: «**ناركم هذه التى تُوقدون جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالوا يا رسول الله: إِنْ كانت لكافية!! فقال: والذى نفسى بيده لقد فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كُلهن مثل حرها**»(٤).

﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أى: المنتفعين أو المسافرين...وخَصَّ الله المسافرين لأن نفع المسافر بها أعظم من غيره، ولعلَّ السبب فى ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين وُلد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعًا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٩٤) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢٠١٦) كتاب الأشربة.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٨).
(٣) حاشية الصاوى على الجلالين (٤/ ١٦٦).
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٦٥) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٤٣) كتاب الجنة.

للمسافرين فى هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار[١].

ومع كل تلك الفوائد التى يجنيها العبد من منافع النار إلا أنها مع ذلك مُضرَّة .. وقد تقضى على الأخضر واليابس .. قد تحرق قرية كاملة أو تحرق غابة كبيرة بكلِّ ما فيها من أشجار وأغصان ... ومن أجل ذلك قال ﷺ: «**إن هذه النار عدوٌّ لكم**» فهى صديقٌ لمن يُحسن استخدامها ويتذكر بها نار الآخرة فيخشى الله ويُقبل على العبادة .. وهى فى نفس الوقت عدوٌّ إذا لم يُحسن الإنسان ضبطها وقيدها ففرَّط أو تعدَّى .. فأما التفريط وذلك بألا يُبعد ما يكون سببًا لاشتعالها ... وأما التعدِّى وذلك بأن يوقد النار بجوار ما يشتعل سريعًا كالغاز أو البنزين.

ومن أجل ذلك فإنه ينبغى أن نُنفذ وصية النبى ﷺ حينما قال: «**إِنَّ هَـٰذِهِ النَّار عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ**» فلا بد من إطفاء أى نار حتى لا تتسبب فى حريق البيت أثناء النوم .. فهذا أمرٌ فى غاية الخطورة على حياتنا.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ فى قول النبى ﷺ فى الرواية الأخرى:

«**لا تتركوا النَّارَ فِى بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ**» هَذَا عَامٌّ تَدخُلُ فِيهِ نَارُ السِّرَاجِ وَغَيْرُهَا ... وَأَمَّا الْقَنَادِيلُ الْمُعَلَّقَةُ فِى الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا فَإِنْ خِيفَ حَرِيقٌ بِسَبَبِهَا دَخَلَتْ فِى الْأَمْرِ بِالْإِطْفَاءِ وَإِنْ أُمِنَ ذلك كما هو الغالب فالظاهر أنه لا بأس بِهَا لِانْتِفَاءِ الْعِلَّةِ لِأَنَّ النَّبِىَّ ﷺ عَلَّلَ الْأَمْرَ بِالْإِطْفَاءِ فِى الْحَدِيثِ بِأَنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ فَإِذَا انْتَفَتِ الْعِلَّةُ زَالَ الْمَنْعُ[٢].

قَوْلُهُ ﷺ: «**فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ**» الْمُرَادُ بِالْفُوَيْسِقَةِ الْفَأْرَةُ... وَتُضْرِمُ أَىْ تُحرِقُ سَرِيعًا[٣].

---

(١) تفسير السعدى (ص ٩٩٤).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٢٧١).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٢٦٦).

ومن ذلك أيضًا فإنه ينبغى أن نحرص على تغطية أفياش الكهرباء حتى لا يحدث مكروهٌ لأطفالنا.

ومن ذلك أيضًا فإنه ينبغى أن نتأكد من صمامات الغاز التى تكون فى بيوتنا حتى لا يحدث منها أى تسريب يتسبب فى أى حرائق فى بيوتنا - عياذًا بالله-.

وإذا كان كل هذا الاحتراز من نار الدنيا التى هى جزء من سبعين جزءًا من نار الآخرة فمن باب أولَى أن نحترز من نار الآخرة .. وذلك لا يكون إلا بالإقبال على الله بالتوبة الصادقة والأعمال الصالحة التى نُزينها بالإخلاص والمتابعة.. وكذلك بالبُعد عن المعاصى التى تُهلك صاحبها فى نار جهنم - عافانا الله وإياكم.

(١٦٦) السَّابعُ: وَعَن أَبى مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَل مَا بَعَثنى الله به من الْهُدَى والْعلْم كَمَثَل غَيْث أَصَاب أَرضًا فكَانَتْ منها طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتتِ الْكلأ والْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكانَ مِنْهَا أجادِبُ أَمسكَتِ الماءَ، فَنَفعَ الله بها النَّاس فَشربُوا مِنْهَا وسَقَوا وَزَرَعَوا . وأَصَابَ طَائِفَةً منها أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً وَلا تُنْبتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فى دينَ الله تَعَالَى، وَنَفَعَه ما بعَثَنى الله بـه، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، وَمثلُ مَنْ لَمْ يَرفَع بذلكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الذى أُرسِلْتُ بِهِ»[1].

۞ في هذا الحديث الذي ساقه النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب فضل العلم تَعلُّمًا وتعليمًا لله، الذي رواه أبو موسى عن النبي ﷺ في هذا مثل بديع عجيب ... فقد مثَّل النبي ﷺ ما بعثه الله به من العلم والهدى بغيثٍ - يعني بمطر - ووجه الشبه أنه بالغيث تحيي الأرض وبالوحي تحيي القلوب.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٩) كتاب العلم، ومسلم (٢٢٨٢) كتاب الفضائل.
«فقُهَ» أيْ: صارَ فَقِيهًا.

ولهذا سمَّى الله سبحانه وتعالى ما بعث به محمدًا ﷺ سمَّاه روحًا، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

فالوحي غيث؛ لكنه كما مثَّل الرسول ﷺ نزل على الأرض فصارت الأرض ثلاثة أقسام: قسم قَبِل المطر وشرب وأنبت العُشب الكثير والكلأ فانتفع الناس بذلك؛ لأن الأرض أنبتت... والقسم الثاني: قِيعان لا تُنبت لكن أمسكت الماء ولم تشربه فسقى الناس منه وارتووا وزرعوا... القسم الثالث: أرض قِيعان بلعت الماء ولم تُنبت فلم تنتفع ولم تنفع الناس فهى أرض سباخ، سبخة تبلع الماء؛ ولكنها لا تُنبت.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَعنَاهُ: أَنَّ الْأَرْض ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ وَكَذَلِكَ النَّاسُ...فَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنَ الْأَرْضِ يَنْتَفِعُ بِالْمَطَرِ فَيَحيَى بَعدَ أَنْ كَانَ مَيْتًا وَيُنْبِتُ الْكَلَأَ فَتَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ وَالدَّوَابُّ وَالزَّرعُ وَغَيْرُهَا وَكَذَا النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنَ النَّاسِ يَبْلُغُهُ الهدى وَالْعِلْمُ فَيحفَظُهُ فَيَحيَا قَلْبُهُ وَيَعمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ غَيْرَهُ فَيَنْتَفِعُ وَيَنْفَعُ ... وَالنَّوْعُ الثَّانِى مِنَ الْأَرْضِ مالا تَقْبَلُ الِانْتِفَاعَ فِى نَفْسِهَا لَكِنْ فِيهَا فَائِدَةٌ وَهِىَ إِمْسَاكُ الْمَاءِ لِغَيْرِهَا فَيَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ وَالدَّوَابُّ وَكَذَا النَّوْعُ الثَّانِى مِنَ النَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ حَافِظَةٌ لَكِنْ لَيْسَتْ لَهُمْ أَفْهَامٌ ثَاقِبَةٌ وَلَا رُسُوخَ لَهُمْ فِى الْعَقْلِ يَسْتَنْبِطُونَ بِهِ الْمَعَانِىَ وَالْأَحْكَامَ وَلَيْسَ عِنْدَهُمُ اجْتِهَادٌ فِى الطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ بِهِ .. فَهُمْ يَحْفَظُونَهُ حَتَّى يَأْتِىَ طَالِبٌ مُحتَاجٌ مُتَعَطِّشٌ لِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أَهْلٌ لِلنَّفعِ وَالِانْتِفَاعِ فَيَأْخُذَهُ مِنْهُمْ فَيَنْتَفِعَ بِهِ فَهَؤُلَاءِ نَفَعُوا بِمَا بَلَغَهُمْ ... وَالنَّوْعُ الثَّالِثُ مِنَ الْأَرْضِ السِّبَاخُ الَّتِى لَا تُنْبِتُ وَنَحوُهَا فَهِىَ لَا تَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ وَلَا تُمْسِكُهُ لِيَنْتَفِعَ بِهَا غَيْرُهُ وَكَذَا النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنَ النَّاسِ لَيْسَتْ لَهُمْ قُلُوبٌ حَافِظَةٌ وَلَا أَفْهَامٌ وَاعِيَةٌ فَإِذَا سَمِعُوا الْعِلْمَ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَلَا يَحفَظُونَهُ لِنَفْعِ غَيْرِهِمْ

وَاللهُ أَعلَمُ ... وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْعِلْمِ مِنْهَا ضَربُ الْأَمْثَالِ وَمِنْهَا فَضلُ الْعِلْمِ وَالتَّعلِيمِ وَشِدَّةُ الْحَثِّ عَلَيْهِمَا وَذَمُّ الْإِعرَاضِ عَنِ الْعِلْمِ وَاللهُ أَعلَمُ(١).

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ على حُسن تعليم النبى ﷺ لأصحابه ولأمته وذلك من خلال ضرب الأمثال التى تُقرِّب الأفهام فتجعل المستمع حاضر الذهن مستوعبًا لكل كلمة سمعها.

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ أيضًا على أن مَن فقه فى دينه وتعلَّم سُنة النبى ﷺ وعمل بهذا العلم وبلَّغه لمن حوله فهذا من أفضل الناس .. ويليه مَن تعلَّم ولكنه لم يتفقه ولم يستفد من علمه ولكنه أفاد غيره .. ويليه فى المرتبة الأخيرة مَن لا خير فيه فهو يستمع ولا ينتفع بالعلم ولا يستوعبه ولا ينفع به غيره.

فاللهم اجعلنا من العلماء العاملين الذين ينتفعون وينفعون الناس من حولهم.

(١٦٧) الثَّامنُ: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثلِى ومثلُكُمْ كَمَثَل رجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقعنَ فيهَا وهُوَ يذُبُّهُنَّ عنهَا وأَنَا آخذُ بحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ منْ يَدِى»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يضرب النبى ﷺ للأمة مثلًا يوضح لهم مدى حبه ﷺ لأمته وحرصه عليهم ورغبته فى نجاتهم جميعًا من النار.

قال تعالى فى وصف النبى ﷺ ورحمته بالأمة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/ ٦٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٨٥) كتاب الفضائل.
«الْجَنَادبُ»: نَحوُ الْجَرَاد والْفرَاش، هَذَا هُوَ المَعرُوفُ الَّذِى يَقعُ فى النَّار – «والْحُجزُ»: جَمْعُ حُجْزَةٍ، وهِى معقِدُ الإِزَار والسَّراويلِ.

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبى الأُمى الذى من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ فى غاية النُّصح لهم، والسعى فى مصالحهم. ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى: يشق عليه الأمر الذى يشق عليكم ويعنتكم. ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده فى إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده فى تنفيركم عنه. ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مُقدَّمًا على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره[1].

۞ قال ﷺ: « **مَثلِى ومثلُكُمْ كَمَثَلِ رجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا** ».. فأراد النبى ﷺ بهذا المثل أن يُبين حاله مع أمته وخوفه على تلك الأمة المباركة .. وذكر أن حاله مع أمته كحال رجلٍ فى برية أوقد نارًا فجعل الجراد والفراش يطير بسرعة نحو النار ويقع فيها ... لأن هذه هى عادة الجراد والفراش حين يرى النار.

قال ﷺ: «**وأَنَا آخذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ**» يعنى لأمنعكم من الوقوع فيها ولكنكم « **تَفلَّتُونَ منْ يَدِى** » وتقعون فى النار.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَقْصُودُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ ﷺ شَبَّهَ تَسَاقُطَ الْجَاهِلِينَ وَالْمُخَالِفِينَ بِمَعَاصِيهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ فى نارالآخرة وَحِرصِهِمْ عَلَى الْوُقُوعِ فِى ذَلِكَ مَعَ مَنْعِهِ إِيَّاهُمْ وَقَبْضِهِ عَلَى مَوَاضِعِ الْمَنْعِ مِنْهُمْ بِتَسَاقُطِ الْفَرَاشِ فِى نَارِ الدُّنْيَا لِهَوَاهُ وَضَعفِ تَمْيِيزِهِ... وَكِلَاهُمَا حَرِيصٌ عَلَى هَلَاكِ نَفْسِهِ سَاعٍ فِى ذَلِكَ لِجَهْلِهِ[2].

ففى هذا دليل: على حرص النبى ﷺ على حماية أمته من النار، وأنه يأخذ

(١) تفسير السعدى (ص ٣٩٨).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٥/ ٧٣).

بحجزها ويشدها حتى لا تقع فى هذه النار، ولكننا نفلت من ذلك ونأبى إلا الورود ... نسأل الله أن يعاملنا بعفوه.

۞ وقد كان النبى ﷺ حريصًا كل الحرص على جلب الخير للأمة ودفع الشر عنها فى الدنيا والآخرة ... وها هى بعض الصور التى توضح لنا كيف كان حرص النبى ﷺ على أمته.

۞ فها هو يبكى خوفًا وشفقة على أمته.

ففى الحديث الذى رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عز وجل: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**»[(١)].

۞ وها هو ﷺ يدَّخِر دعوته شفاعة لأمته يوم القيامة ليُنقذهم من النار... ففى الحديث الذى رواه مسلم أن النبى ﷺ قال: «**لكل نبىٍّ دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبىٍّ دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعةً لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله تعالى مَن مات من أمتى لا يُشرك بالله شيئًا**»[(٢)].

۞ بل ها هو ﷺ يخبر أن سبعين ألفًا من أمته سيدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب ... ولا يكتفى النبى ﷺ بهؤلاء السبعين ألفًا بل يسأل الحق (جل وعلا) أن يزيد من عدد هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب -حُبًّا لأمته ﷺ -.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٩) كتاب الإيمان.

۞ قال ﷺ: «أعطيت سبعين ألفًا من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر قلوبهم على قلب رجلٍ واحد فاستزدت ربى عَزَّوَجَلَّ فزادنى مع كل واحدٍ سبعين ألفًا»(١).

وفى رواية قال ﷺ: «وعدنى ربى أن يُدخل الجنة من أمتى سبعين ألفًا بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات ربى»(٢).

۞ ومن هنا فإنه ينبغى بل يجب أن نتبع سُنة النبى ﷺ فى كل ما أمر به وفى كل ما نهى عنه .. وأن نعلم يقينًا أن النبى ﷺ لم يأمرنا بشىء إلا وفيه كل الخير .. ولم ينهنا عن شىء إلا وهو عين الشر .. فإن النبى ﷺ ما ترك خيرًا إلا وقد دلَّنا عليه .. وما ترك شرًّا إلا وقد حذرنا منه.

۞ وكذلك لا بد أن نعلم حقوق النبى ﷺ على أُمته لنقوم بها قدر استطاعتنا ... لأننا مهما فعلنا فلن نوفيه حقه ﷺ.

فمن حقوق النبى ﷺ على أمته: الإيمان به ﷺ ومحبته دون غلوٍّ وطاعته فى كل أمر والانتهاء عن كل ما نهى عنه ﷺ والاتباع له فى أقواله وأعماله وأحواله وتصديقه فى كل ما أخبر عنه ﷺ وتعظيمه وتوقيره والأدب معه ﷺ والتحلِّى بأخلاقه ﷺ وتبليغ دعوته وسُنته ﷺ للكون كله والدفاع عنه ﷺ والصلاة عليه ﷺ.

(١٦٨) التَّاسعُ: وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ رسول الله ﷺ أَمَر بِلَعقِ الأَصابعِ وَالصَّحفَةِ وقال: «إِنَّكُم لا تَدرُونَ فى أَيِّهَا الْبَرَكةُ»(٣).

وفى رواية لَهُ: «إِذَا وَقعتْ لُقمةُ أَحَدِكُمْ. فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ ما كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى، وَلْيَأْكُلْهَا، وَلا يَدَعهَا لَلشَّيطانِ، وَلا يَمْسَح يَدَهُ بِالْمِنديلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعهُ، فَإِنَّهُ لا

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٠٥٧).
(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١١١).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٣) كتاب الأشربة.

يدرِى فى أىِّ طَعَامِهِ الْبَركَةُ» .

وفى رواية له: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحضُرُ أَحَدكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقطَتْ مِنْ أَحَدِكُمْ اللُّقْمَةُ فَلْيُمِطْ مَا كَان بِهَا منْ أَذىَ، فَلْيأكُلْها، وَلا يَدَعهَا للشَّيْطَانِ» .

۞ من المعلوم أن النبى ﷺ ما ترك خيرًا إلا وقد دَلَّ أمته عليه، وما ترك شرًّا إلا وقد حذر أمته منه.

وفى هذا الحديث يُعلمنا النبى ﷺ أدبًا عظيمًا من آداب الطعام: ألا وهو أنه إذا فرغ أحدنا من الطعام فلا بُدَّ أن يحرص على أن يلعق أصابعه الثلاثة قبل أن يمسحها بالمنديل وقبل أن يغسلها بالماء .. وكذلك يلعق ما تبقَّى من الطعام فى الصحفة (أو الطبق).

لكن لماذا أمرنا النبى ﷺ بذلك؟

لأنه يريد ألا تفوتنا البركة التى فى الطعام .. ولذا قال ﷺ: «**إنَّكم لا تدرون فى أيها البركة**» .. فقد تكون بركة ذلك الطعام فيما بقى على أصابعه الثلاثة التى يأكل بها.. أو قد تكون فيما تبقَّى من الطعام فى الصحفة.

ولهذا فمن السُّنة أن تضع أمامك ما يكفيك من الطعام حتى إذا بقى منك شىءٌ يسير تلعقه ولا تترك شيئًا للشيطان.

ولهذا قال الأطباء: إنّ فى لعق الأصابع من بعد الطعام فائدة عجيبة .... وهو تيسير الهضم؛ لأن الأنامل هذه فيها مادة تفرزها عند اللعق بعد الطعام تُيسر الهضم ... ونحن نقول: هذا من باب معرفة حكمة الشرع فيما يأمر به، وإلا فالأصل أننا نلعقها امتثالاً لأمر النبى ﷺ.

وفى هذا الحديث أدبٌ آخر من آداب الطعام ألا وهو: أنه إذا كنت تأكل فسقطت منك لقمة على الأرض فلا تدعها للشيطان الذى يَحضُر الإنسان فى كل شئونه من

أكل وشُربٍ وجماعٍ وغيره .. فإن لم تُسمِّ الله قبل الأكل فإنه يشاركك في الأكل ... ولهذا تُنزع البركة من الطعام إذا لم تُسمِّ الله قبل الأكل.. فإذا سميت الله قبل الطعام ثم بدأت في الأكل .. وبينما أنت تأكل سقطت منك لقمة على الأرض فلا تتركها للشيطان بل خُذها وأَمِط عنها الأذى وما علق بها من تراب ثم كُلها فقد تكون البركة في تلك اللقمة .. وإن لم تكن بها البركة فلا تتركها للشيطان.

وبذلك تكون قد حققت ثلاثة فوائد: الامتثال لأمر النبي ﷺ والتواضع وحرمان الشيطان من أكل تلك اللقمة.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِي هذه الأحاديث أنواع من سُنَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا اسْتِحْبَابُ لَعقِ الْيَدِ مُحَافَظَةً عَلَى بَرَكَةِ الطَّعَامِ، وَتَنْظِيفًا لَهَا، وَاسْتِحْبَابُ الْأَكْلِ بثلاث أصابع، ولا يضم إليها الرابعة والخامسة إلا لعذر بأن يكون مَرَقًا وغيره مما لايمكن بِثَلَاثٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعذَارِ ... وَاسْتِحْبَابُ لَعقِ الْقَصْعَةِ وَغَيْرِهَا وَاسْتِحْبَابُ أَكْلِ اللُّقْمَةِ السَّاقِطَةِ بَعدَ مَسْحِ أَذًى يُصِيبُهَا هَذَا إِذَا لَمْ تَقَع عَلَى مَوْضِعٍ نَجِسٍ فَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى مَوْضِعٍ نجس تنجست ولابد مِنْ غَسْلِهَا إِنْ أَمْكَنَ فَإِنْ تَعَذَّرَ أَطْعَمَهَا حيوانًا ولايتركها لِلشَّيْطَانِ ... وَمِنْهَا إِثْبَاتُ الشَّيَاطِينِ وَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَمِنْهَا جَوَازُ مَسْحِ الْيَدِ بِالْمِنْدِيلِ لَكِنَّ السُّنَّةَ أَنْ يَكُونَ بَعدَ لَعقِهَا.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ**» فِيهِ التَّحْذِيرُ مِنْهُ وَالتَّنْبِيهُ عَلَى مُلَازَمَتِهِ لِلْإِنْسَانِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَأَهَّبَ وَيَحْتَرِزَ مِنْهُ وَلَا يغتر بما يزينه له ... وَقَوْلُهُ ﷺ: «**يَلْعَقُهَا أَوْ يُلعقها**» معناه والله أعلم لايمسح يَدَهُ حَتَّى يَلْعَقَهَا فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَحَتَّى يُلعقها غيره ممن لايتقذر ذَلِكَ كَزَوْجَةٍ وَجَارِيَةٍ وَوَلَدٍ وَخَادِمٍ يُحِبُّونَهُ وَيَلْتَذُّونَ بذلك ولايتقذرون وَكَذَا مَنْ كَانَ فِي مَعنَاهُمْ كَتِلْمِيذٍ يَعتَقِدُ بَرَكَتَهُ -أي بركة لعق الطعام المتبقى على الأصابع- وَكَذَا لَوْ أَلْعَقَهَا شاة

ونحوها ... وَقَوْلُهُ ﷺ «لاتدرون فِي أَيِّهَا الْبَرَكَةُ» مَعناهُ وَاللهُ أَعلَمُ أَنَّ الطعام الذى يحضره الإنسان فيه بركة ولايدرى أَنَّ تِلْكَ الْبَرَكَةَ فِيمَا أَكَلَهُ أَوْ فِيمَا بَقِىَ عَلَى أَصَابِعِهِ أَوْ فِي مَا بَقِىَ فِي أَسْفَلِ الْقَصعَةِ أَوْ فِى اللُّقْمَةِ السَّاقِطَةِ فَيَنْبَغِى أَنْ يُحَافِظَ عَلَى هَذَا كُلِّهِ لِتَحصُلَ الْبَرَكَةُ ... وَأَصلُ الْبَرَكَةِ الزِّيَادَةُ وَثُبُوتُ الْخَيْرِ وَالْإِمْتَاعِ به والمراد هنا والله أعلم مَا يحصُلُ بِهِ التَّغذية وتسلم عَاقبته مِن أَذَى ويُقوِّى على طَاعة الله تعَالَى وغير ذَلِكَ[١].

❀❀❀

(١٦٩) الْعَاشِرُ: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَامَ فينَا رسولُ الله ﷺ بمَوْعِظَةٍ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحشُورُونَ إِلَى الله تَعَالَى حُفَاةً عُرَاةً غُرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، أَلا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلائِقِ يُكْسى يَوْمَ الْقِيَامَة إِبراهيم ﷺ، ألا وإِنَّهُ سَيُجَاء بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِى، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمال فأَقُولُ: يارَبِّ أَصحَابى، فيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدرِى مَا أَحدَثُوا بَعدَكَ، فَأَقُول كَما قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فَيُقَالُ لِى: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعقَابِهِمْ مُنذُ فارَقْتَهُمْ»[٢].

۞ فعن ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن الذى دعا له النبى ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيل»[٣].

فعن ابن عباس أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة .. أى قام فيهم خطيبًا .. وكان من عادة النبى ﷺ أنه كان يخطب فى أصحابه الخُطب الراتبة كالجمعة والعيدين والكسوف والاستسقاء... وكان أحيانًا يخطب خُطبًا عارضة بحسب

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٢٩٧-٢٩٨) بتصرف.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٢٦) كتاب الرقاق، و(٤٦٢٥) كتاب التفسير-ومسلم (٢٨٦٠) كتاب الجنة.
«غُرْلاً» أىْ: غَيْرَ مَخْتُونينَ.
(٣) صحيح: رواه البخاري (١٤٣) كتاب الوضوء.

الأحوال والمناسبات أو بسبب بعض الأمور العارضة التي يحتاج فيها أصحابه إلى بيان الحق في مسألةٍ ما أو التحذير من شيءٍ قد يُسبب لهم ضررًا في دينهم أو دُنياهم أو لتعليمهم الحلال والحرام وما بينهما من أمورٍ مشتبهات خوفًا عليهم وعلى دينهم.

۞ وفي هذا الحديث يخبر ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أيها الناس إنكم محشورون إلى الله تعالى حُفاة عُراة غُرلًا**» وهنا يُخبر النبي ﷺ أن الناس جميعًا سيُحشرون يوم القيامة في صعيدٍ واحدٍ على أرضٍ ليس فيها جبال ولا أشجار ولا أودية ولا بناء ... الكل بارز وظاهر ومكشوفٌ في أرض المحشر ... لكن كيف تكون هيئتهم عند حشرهم؟ يخبر النبي ﷺ أنهم سيُحشرون حُفاة لا يلبسون النِّعال ولا الأحذية ... عُراة ليس عليهم كسوة ... غُرلًا: أي غير مختونين.

نعم غير مختونين... والختان هو قطع الجلدة التي تكون على الحشفة ... وتُقطع من أجل الطهارة عند الرجل وضبط الشهوة عند المرأة.

فالأرض تُخرج من بطنها كل الأمانات .. يخرج الناس جميعًا من قبورهم لأرض المحشر ... ومن جملة الأمانات التي تردها الأرض: هي تلك الجلدة الصغيرة التي قُطعت من الإنسان عند الختان فتردها الأرض إليه مرة أخرى لتكون الأمانة قد وصلت كاملة .. ولذلك يُحشر الناس غير مختونين مع أن أكثرهم قد خُتن في الدنيا(١).

---

(١) ومن العلماء من قال: إنه لا يجب الختان لا على الرجال، ولا على النساء، وأن الختان من الفطرة المستحبة، وليس من الفطرة الواجبة.

ومنهم مَن توسَّط بين القولين فقال: الختان واجب في حق الذكور، وسُنة في حق الإناث، وهذا القول أوسط الأقوال وأعدلها، فإنه واجب في حق الرجال؛ لأن الرجل إذا بقيت هذه الجلدة فوق حشفته، فإنها ستكون مَجمعًا للبول، فيكون في ذلك تلويث للرجل، وربما يحدث إثر هذا التهابات فيما بين الجلدة والحشفة، ويتضرر الإنسان ... فالصحيح أن الختان واجب على الذكور، وسُنة في حق الإناث، وهذا أعدل الأقوال وأحسنها.

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء:١٠٤].

يعنى أن الله يحشرهم كما بدأهم أول خلق... يخرجون من بطون الأرض كما خرجوا من بطون أمهاتهم، حُفاةً عُراة غُرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ أى: مؤكدًا، أكده الله على نفسه... لأن من البشر مَن كذَّب بالحشر والعياذ بالله، وقال: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون: ٣٧]. فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

ولما حدَّث النبى ﷺ بهذا الحديث، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: واسوءتاه، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال النبى ﷺ: «**يا عائشة، الأمر أعظم من أن يُهمهم ذلك**»(١). الأمر عظيم، ما ينظر أحدٌ لأحد ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٤-٣٧].

حتى الأنبياء والرسل .. الكُل يقول: نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى - ما عدا النبى محمد ﷺ يقول: «**أنا لها أنا لها**».. الأنبياء والرسل يقولون عند عبور الصراط: اللهم سلِّم. اللهم سلِّم..فالأمر عظيم والخَطْب شديد..ولا يدرى أحدنا هل سينجو أم لا.. ولن ينجو أحدٌ إلا برحمة الله أولًا .. ثم بالأعمال الصالحة ... ولا أجد كلمة فى هذا المقام إلا قول النبى ﷺ: «**لمثل هذا اليوم فأعِدُّوا**».

۞ **ثم قال النبى ﷺ: «ألا وإن أول الخلائق يُكسَى يوم القيامة إبراهيم ﷺ»**.

لقد أخبرنا الحبيب ﷺ أن الناس يوم القيامة يُحشرون حُفاة عُراة غُرلًا ثم يُكسى العباد بعد ذلك... فالصالحون يُكسَون الثياب النفيسة الكريمة والطالحون يُسربَلون بسرابيل القطران ودروع الجَرَب وغيرها من الملابس التى تليق بكفرهم ومعصيتهم.

ولكن يا تُرى مَن أول مَن يُكسى يوم القيامة؟

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٢٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٥٩) كتاب الجنة.

والجواب يأتينا على لسان الحبيب ﷺ حيث يقول: «**أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ**».

۞ وعن على رضي الله عنه قال: « **أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى خَلِيلُ اللهِ إِبْرَاهِيمُ قُبْطِيَّتَيْنِ**[١] **ثُمَّ يُكْسَى مُحَمَّدٌ ﷺ حُلَّةً حِبَرَةً**[٢] **عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ** »[٣].

قال ابن حجر: «وأخرج البيهقى من طريق ابن عباس نحو حديث الباب وزاد: «**وأول مَن يُكسَى من الجنة إبراهيم... يُكسَى حُلة من الجنة، ويُؤتَى بكرسى فيُطرح عن يمين العرش، ثم يُؤتَى بى** -أى: بالنبى ﷺ- **فأُكسى حُلة من الجنة لا يقوم لها البشر**»[٤].

۞ وتكلم العلماء فى حكمة تقديم إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) بالكسوة... فروى أنه لم يكن فى الأولين والآخرين لله عز وجل عبدٌ أخوف من إبراهيم (عليه الصلاة والسلام)، فتعجل له كسوته أمانًا له ليطمئن قلبه.

ويُحتمل أن يكون ذلك لما جاء به الحديث من أنه أول مَن أُمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة فى التسترُّ، وحفظًا لفرجه من أن يماسّ مُصلاه ففعل ما أُمر به، فيُجزى بذلك أن يكون أول من يُستر يوم القيامة.

ويُحتمل أن يكون الذين ألقوه فى النار وجردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس كما يُفعل بمن يُراد قتله ... وكان ما أصابه من ذلك فى ذات الله عز وجل، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله تعالى دفع الله عنه شر النار فى الدنيا والآخرة، وجزاه بذلك العُرى أن جعله أول من يُدفع عنه العُرى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ... وهذا أحسنها، والله أعلم.

---

(١) قبطيتين: مثنى قبطية وهى ثوب من كتان أبيض رقيق.

(٢) حبرة: الثوب الناعم الموشى: أى المنقوش.

(٣) خبر صحيح: أخرجه ابن المبارك كما فى زوائد الزهد (٣٦٤) وابن أبى شيبة (٨/ ٣٤٨).

(٤) فتح البارى (١١/ ٣٨٤).

وإذا بُدىء في الكسوة بإبراهيم وثُنِّي بمحمدٍ ﷺ أُوتي محمدٌ ﷺ بحُلة لا يقوم لها البشر لينجبر التأخير بنفاسة الكسوة، فيكون كأنه كُسي مع إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ... قاله الحليمي[(١)].

۞ ثم أخبر النبي ﷺ أنه سيُجاء برجالٍ من أُمته فيُؤخذ بهم ذات الشمال .. أي إلى طريق أهل النار والعياذ بالله.

فيقول النبي ﷺ: «**يا رب أصحابي**» يعني أنه ﷺ يريد أن يشفع لهم عند ربه عَزَّوَجَلَّ فيُقال له: «**إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**» فيقول النبي ﷺ كما قال العبد الصالح، يعني به عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين يقول يوم القيامة إذا قال الله تعالى له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. كما يزعم النصارى الذين يقولون: إنهم متبعون له: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. لأن الألوهية ليست حقًّا لأحدٍ إلا لله رب العالمين.

ثم يقول: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

[المائدة: ١١٦، ١١٧].

فإذا قيل للنبي ﷺ يوم القيامة: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، قال كما قال عيسى ابن مريم: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم يقال للرسول عليه الصلاة والسلام: «**إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم**» فيقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**سُحقًا سُحقًا**»[(٢)].

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٨٤، ٣٨٥) الفتن الملاحم (ص ١٩٨) لابن كثير

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٦٣).

۞ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما؛ قالت: قال النبي ﷺ: «**إِنِّي عَلَى الحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ نَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: هَلْ شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعدَكَ، وَاللهِ مَا بَرِحُوا يَرجِعُونَ عَلَى أَعقَابِهِمْ**»(١).

وقال ﷺ: «**إني فَرَطُكمْ على الحوضِ، مَنْ مرَّ بي شرِبَ، ومَنْ شرِبَ لم يَظمأ أبدًا... وليَرِدَنَّ عليَّ أقوام أعرفُهم ويَعرفوني، ثمَّ يُحالُ بيني وبينهُمْ، فأقولُ: إنهُم مني فيُقالُ: إنكَ لا تَدري ما أحدثُوا بَعدكَ، فأقولُ: سُحقًا سُحقًا لمنْ بدَّل بَعدي**»(٢).

قال القرطبي: قال علماؤنا -رحمة الله عليهم أجمعين-: فكل مَن ارتد عن دين الله أو أحدث فيه مالا يرضاه الله، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المُبعَدِين عنه.... وأشدهم طردًا مَن خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم ... كالخوارج على اختلاف فِرقها، والروافض على تَبايُن ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مُبدلون.

وكذلك الظَّلَمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المُستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع ... ثم البُعد قد يكون في حال، ويُقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد، وعلى هذا يكون نور الوضوء يُعرفون به، ثم يُقال لهم: سُحقًا...وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يُظهرون الإيمان ويُسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يُكشَف لهم الغطاء فيُقال لهم: سُحقًا سُحقًا، ولا يُخلَّد في النار إلا كل جاحد مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»(٣).

۞ وقد تمسَّك الرافضة بقوله: «إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٩٣) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢٩٣) كتاب الفضائل.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٨٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢٩١) كتاب الفضائل.

(٣) التذكرة (١/ ٥٩٠).

فارقتهم» وقالوا: إن الصحابة كلهم قد ارتدوا عن الإسلام.. وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان .. أما (عليّ) وآل البيت فهم الذين لم يرتدوا.

ولا شك أنهم كاذبون ... لأن الخلفاء الأربعة وعامة أصحاب النبى ﷺ الذين صحبوه وتعلموا وتربوا بين يديه لم يرتد منهم أحد - بإجماع المسلمين- وإنما ارتد قومٌ من الأعراب الذين لم يَثبُت الإيمان فى قلوبهم .. وكان ذلك بعد وفاة النبى ﷺ فارتدوا ومنعوا الزكاة حتى قاتلهم أبو بكرٍ رضي الله عنه فعاد أكثرهم إلى الإسلام.

وهذا الحديث ليس قدحًا فى الصحابة الكرام رضي الله عنهم بل معناه: أنَّ الذين يُطرَدون عن الحوض هم الذين ارتدوا عن الإسلام فى عهد أبى بكر بعد وفاة النبى ﷺ فقاتلهم أبو بكر، فماتوا على الكفر.

ومعلوم عند كل مؤمن أنه لم يرتدّ من الصحابة المشهورين أحدٌ، وإنما ارتدَّ قومٌ من جُفاة وجَهلة الأعراب ممن لم يكن له نُصرة للدين، ولا مخالطة للنبى ﷺ ولا طول مجالسة، ولا طلبٍ للعلم، ولا حفظٍ للحديث.

وأيضًا مِن هؤلاء الذين يراهم النبى ﷺ فيعرفهم، ويظنهم أصحابه هم المنافقون...كعبد الله بن أُبى ابن سَلول وغيره، ممن كانوا يُبطنون الكفر ويُظهرون الإسلام... والله تعالى أعلم بسرائرهم(١).

فهؤلاء هم مَن مات النبى ﷺ وهم على دينه، ثم ارتدوا بعد ذلك، كما ارتدَّت كثير من قبائل العرب بعد موت النبى ﷺ ... فهؤلاء فى علم النبى ﷺ من أصحابه لأنه مات وهم على دينه ثم ارتدوا بعد وفاته ...ولذا يُقال له: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى(٢).

فظاهر أن هذا فى حق المرتدين بعد موت النبى ﷺ.

---

(١) العالم الأخير (ص ٢٧٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٨٥) كتاب الرقاق.

۞ ولا بُدَّ أن نعلم أن الذين يطعنون فى الصحابة تضمَّن طعنهم أربعة محاذير ومنكرات عظيمة والعياذ بالله: الطعن فى الصحابة، والطعن فى الشريعة، والطعن فى النبى ﷺ ، والطعن فى رب العالمين تبارك وتعالى، لكنهم قوم لا يفقهون ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٨].

أما كونه طعنًا فى الشريعة: فلأن الذين نقلوا إلينا الشريعة هم الصحابة، وإذا كانوا مرتدين، والشريعة جاءت من طريقهم، فإنها لا تُقبل؛ لأن الكافر لا يُقبل خبره، بل الفاسق أيضًا ...كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ٦].

وأما كونه طعنًا فى رسول الله ﷺ فذلك لأن نجابة التلميذ من نجابة الأستاذ .. فإذا كان الصحابة وهم تلاميذ النبى ﷺ قد ارتدوا وكفروا فهذا الكلام طعنٌ فيمن ربَّاهم وهو النبى ﷺ.

وأما كونه طعنًا فى رب العالمين .. فلأن الرافضة لما زعموا أن الصحابة قد ارتدوا فقد طعنوا فى النبى ﷺ الذى رباهم وطعنوا فيمن اختار النبى ﷺ لتلك الرسالة واختار أصحابه لصُحبته - وهو رب العالمين سبحانه وتعالى- وهذا كلامٌ لا يقوله عاقلٌ فضلًا عن أن يكون مؤمنًا.

ولهذا نعتقد أن هذه فِرية عظيمة على الصحابة رضي الله عنهم وعدوان على الله ورسوله ﷺ وشريعة الله ... ولا شَكَّ أننا نُكِنُّ الحبَّ لجميع أصحاب النبى ﷺ، ولآل النبى ﷺ المؤمنين ...ونرى أن لآله المؤمنين حَقَّين: حق الإيمان، وحق قُربهم من رسول الله ﷺ ...قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣]. يعنى: إلا أن تودوا قرابتى.

(١٧٠) الْحَادي عَشَرَ: عَنْ أَبِي سعيد عبد الله بنِ مُغَفَّلٍ ﷺ قال: نَهَى رسولُ الله ﷺ، عَنِ الخَذْفِ وقالَ: «إِنَّهُ لا يَقْتُلُ الصَّيْدَ، ولا يَنْكَأُ الْعَدُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ، ويَكْسِرُ السِّنَّ»(١).

وفي رواية: أَنَّ قريبًا لابن مُغَفَّلٍ خَذَفَ، فَنَهَاهُ وقال: إِنَّ رسولَ الله ﷺ نَهَى عن الخَذْف وقَالَ: «إِنَّهَا لا تصيدُ صَيْدًا» ... ثُمَّ عادَ فقالَ: أُحَدِّثُكَ أَن رسولَ الله ﷺ، نَهَى عَنْهُ، ثُمَّ عُدتَ تَخْذِفُ؟ لا أُكَلِّمُكَ أَبدًا.

۞ ففي هذا الحديث يحكي عبد الله بن مُغفل ﷺ أن النبي ﷺ نهى عن الخَذْفِ وقال: إِنَّهُ لا يَقْتُلُ الصَّيْدَ، ولا يَنْكَأُ الْعَدُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ، ويَكْسِرُ السِّنَّ».

أما الخذف وهو رمي الإنسان بحصاة أو نواة ونحوهما يجعلهما بين أصبعيه السبَّابتين أو الإبهام والسَّبَّابة.

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك .. وعلَّل ذلك النهي بأنه لا يُنتَفع به في أن يصيد صيدًا؛ لأنه ليس له نفوذ ولا أن ينكأ عدوًّا أو يدفعه .. لأن العدو إنما يُنكأ بالسهام وليس بهذه الحصاة الصغيرة.

۞ ثم حكى بعد ذلك عبد الله بن مُغفل ﷺ أنه رأى قريبًا له يخذف فنهاه عن الخَذْفِ وأخبره بكل وضوح أن النبي ﷺ نهى عن ذلك.. فأصبح قريبه عالمًا بنهي النبي ﷺ.

ثم إنه رآه مرة أخرى وهو يخذف ... فغضب عبد الله بن مغفل، وقال له: أخبرتك أن النبي ﷺ قد نهى عن الخَذْفِ ثم تعود وتخذف مرة أخرى .. لا أُكلمك أبدًا .. فهجره لأنه خالف نهي النبي ﷺ.

وهذا كما فعل عبد الله بن عمر مع أحد أبنائه، حين حدَّث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: **«لا تمنعوا إماءَ الله مساجد الله»**(٢) فقال أحد أبنائه، وهو بلال بن عبد الله

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٢٠) كتاب الأدب، ومسلم (١٩٥٤) كتاب الصيد والذبائح.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٠٠) كتاب الجمعة- ومسلم (٤٤٢) كتاب الصلاة.

ابن عمر: «والله لنَمنعهُنَّ» لأن النساء تغيرت بعد عهد النبى ﷺ، والناس تغيروا، فأقبل عليه أبوه عبد الله بن عمر، وجعل يَسُبّه سَبًّا عظيمًا، ما سَبَّه مثله قط، وقال: أُحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنَمنَعهُنَّ.

ثم هجره حتى مات، ولم يُكلمه .... فدَلَّ هذا على عِظَم تعظيم السلف الصالح لاتباع السُّنة.

وهكذا يجب على كل مسلمٍ أن يُعظم سُنة النبى ﷺ.

۞ وقد يقول قائل: وهل مثل هذا الفعل يُوجب الهجر ..

وقد نهى النبى ﷺ عن هجر المؤمن فوق ثلاث.

والجواب: أن النبى ﷺ وإن كان قد نهى عن هجر المؤمن فوق ثلاث فإن هذا نهىٌ عن أن يهجر المؤمن أخاه فوق ثلاثٍ من أجل حظ نفسه أو من أجل الدنيا.

أما إذا كان هذا الإنسان مُصرًّا على المعاصى أو كان من أهل البدع فقد أباح لنا النبى ﷺ أن نهجره حتى يُقلع عن معصيته أو عن بدعته .. فإن لم يُقلع عن المعصية أو البدعة فيجوز أن يستمر الهجر ولو لسنوات ولا يأثم المسلم على هذا الهجر ... ويُسمَّى هذا النوع من الهجر: الهجر للزجر .. أى من أجل أن يزجره هذا عن البدعة أو المعصية.

ونحن نعلم أن النبى ﷺ الذى نهى عن هجر المؤمن فوق ثلاثٍ قد أمر بهجر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.. واستمر الهجر خمسين ليلة لأنه كان هجرًا بسبب تلك المخالفة ولم يكن هجرًا من أجل دنيا.

أما إن كنا سنهجر رجلًا عاصيًا أو مبتدعًا ورأينا أن الهجر سيجعله يزداد عصيانًا أو إصرارًا على بدعته فإننا فى هذه الحالة لا نهجره بل نبذل له النصيحة الرقيقة المهذبة وندعو له بظهر الغيب بالهداية.

(١٧١) وعَنْ عابسِ بن ربيعةَ قال: رَأَيْتُ عُمَرَ بنَ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَبِّلُ الْحَجَرَ -يَعنِي الأَسْوَدَ- ويَقُولُ: إِنِّي أَعلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ مَا تَنْفَعُ ولا تَضُرُّ، ولَوْلا أَنِّي رأَيْتُ رسولَ الله ﷺ، يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ[1].

۞ ففي هذا الحديث أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يطوف بالبيت فقبَّل الحجر الأسود.. ونحن نعلم جميعًا أن الحجر الأسود من أحجار الجنة كما قال النبي ﷺ: «**الحجر الأسود من الجنة**»[2]. وشرع الله لنا أن نُقبله امتثالًا لأمره سبحانه وتعالى .. ولكن لا نعتقد أنه ينفع أو يضر.

ولذا قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قبَّله: «إني لأعلم أنك حجرٌ لا تنفع ولا تضر» .. وصدق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فالأحجار والأشجار والسماوات والأرض لا تنفع ولا تضر لأن النفع والضُّر بيد الله عَزَّ وَجَلَّ

ولكن بيَّن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن تقبيله إياه لمجرد اتباع النبي ﷺ، فقال: «ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يُقبلك ما قبَّلتك» يعني فأنا أُقبلك اتباعًا للسُّنة، لا رجاء للنفع، أو خوف الضرر.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَمَّا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي لأعلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَنفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، فَأَرَادَ بِهِ بَيَانَ الْحَثِّ عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي تَقْبِيلِهِ وَنَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ لولا الِاقْتِدَاءُ بِهِ لَمَا فَعَلَهُ وَإِنَّمَا قَالَ: (وَإِنَّكَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنفَعُ) لِئَلَّا يَغْتَرَّ بَعضُ قريبي الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ الَّذِينَ كَانُوا أَلِفُوا عِبَادَةَ الْأَحْجَارِ وتعظيمها ورجاء نفعها وخوف الضرر بِالتَّقْصِيرِ فِي تَعظِيمِهَا ... وَكَانَ الْعَهْدُ قَرِيبًا بِذَلِكَ فَخَافَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَرَاهُ بَعْضُهُمْ يُقَبِّلُهُ وَيَعتَنِي بِهِ فَيَشْتَبِهَ عَلَيْهِ ... فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنفَعُ بِذَاتِهِ وَإِنْ كَانَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٩٧) كتاب الحج، ومسلم (١٢٧٠) كتاب الحج.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٧٤).

امْتِثَالُ مَا شُرِعَ فِيهِ يَنْفَعُ بِالْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ ... فَمَعنَاهُ أَنَّهُ لَا قُدرَةَ لَهُ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضُرٍّ وَأَنَّهُ حَجَرٌ مَخْلُوقٌ كَبَاقِي الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَأَشَاعَ عُمَرُ هَذَا فِي الْمَوْسِمِ لِيُشْهَدَ فِي الْبُلْدَانِ ويحفظه عنه أهل الموسم المختلفوا الْأَوْطَانِ(١).

ولهذا لا يُشرع أن نُقبل أى شيء من الكعبة إلا الحجر الأسود فقط .. أما الركن اليمانى فليس فيه إلا الاستلام باليد اليُمنى ولا نُقبله .. ولا يكون الاستلام باليد اليُسرى سواء للحجر الأسود أو الركن اليمانى؛ لأن اليد اليُسرى لا تُستعمل إلا لإزالة الأذى.

۞ فنحن نُقبل الحجر الأسود ونستلمه باليد اليُمنى .. فإن لم يُمكن تقبيله نستلمه ونُقبِّل اليد اليُمنى التى استلمناه بها .. فإن لم يُمكن استلامه بسبب الزحام فإننا نُشير إليه ولا نُقبل اليد ؛ لأن تلك اليد لم تلمس الحجر الأسود.

أما بقية الأركان كالركن الشامى والعراقى .. يعنى الشمال الشرقى والشمال الغربى ... فهذان الركنان لا يُقبَّلان ولا يُمسحان وذلك لأنهما ليسا على قواعد إبراهيم عليه السلام.

وذلك أن قريشًا لما أرادوا بناء الكعبة، قالوا: لن نبنيها إلا بمالٍ طيب، لا نبنيها بأموال الربا – وانظر كيف عظَّم الله بيته حتى على أيدى الكفار – فجمعوا المال الطيب، فلم يكفِ لبنائها على قواعد إبراهيم، ثم فكروا من أى جانب ينقصونها. قالوا: ننقصها من الشمال؛ لأن الجانب اليمانى الجنوبى فيه الحجر الأسود، ولا يمكن أن ننقصها من جانب الحجر الأسود، فنقصوها من هناك، فلم تكن على قواعد إبراهيم، ولذلك لم يُقبِّل النبى عليه الصلاة والسلام ولم يمسح الركن الشمالى الشرقى ولا الركن الشمالى الغربى.

۞ وبالجمة فالحجر الأسود لا يُتبرك به، وإنما يُتعبد لله بمسحه وتقبيله؛ اتباعًا للرسول ﷺ ... وبذلك تحصل بركة الثواب. ولهذا قال عمر رضي الله عنه: إنى لأعلم

(١) مسلم بشرح النووى (٩/ ٢٤).

أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يُقبلك؛ ما قبلتك».
فتقبيله عبادة مَحضة خلافًا للعامة، يظنون أن به بركة حِسِّية، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبرُّكًا بذلك(١).

وفى هذا دليل: على أن كمال التعبُّد أن ينقاد الإنسان لله عَزَّوَجَلَّ، سواءٌ عرف السبب والحكمة فى المشروعية أم لم يعرف ... فعلى المؤمن إذا قيل له: افعل أن يقول: سمعنا وأطعنا... إن عرفت الحكمة فهو نورٌ على نور، وإن لم تعرف فالحكمة أمر الله ورسوله.

ولهذا قال الله فى كتابه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وسُئلت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: لماذا تقضى الحائض الصوم ولا تقضى الصلاة؟ فقالت: كان يُصيبنا ذلك فنُؤمَر بقضاء الصوم ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة...كأنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقول: إن وظيفة المؤمن أن يعمل بالشرع، سواء عرف الحكمة أم لم يعرفها، وهذا هو الصواب(٢).

۞ ولامانع من أن نتعرض لنبذة يسيرة عن التبرُّك الممنوع.

فالتبرُّك فى الأصل هو طلب البركة ... وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

(١) أن يكون التبرُّك بأمرٍ شرعى معلوم: مثل القرآن.

قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾[ص: ٢٩] . فمن بركته أن مَن أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أُممًا كثيرة من الشرك... ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد....، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

(٢) أن يكون بأمرٍ حِسِّى معلوم: مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يُتبرك بعلمه ودعوته إلى الخير؛ فيكون هذا بركة لأننا نلنا منه خيرًا كثيرًا.

---

(١) القول المفيد (ص ٢١٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٦٨).

ومن ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التى انتفع بها الناس فى حياته وبعد موته(١).

۞ والتبرك ينقسم من حيث الأصل إلى قسمين:

الأول: تبرُّك دينى شرعى: وهو أن يريد المتبرك بهذا التبرك التقرب إلى الله تعالى، كأن يريد الثواب من الله تعالى أو النجاة من عذابه.

الثانى: تبرُّك دُنيوى: وهو أن يريد الإنسان بتبرُّكه مصلحة دنيوية، كالشفاء من مرض ونحو ذلك.

والشىء الذى يُتبرك به - أى تطلب البركة بواسطته - قد يكون فيه بركة دينية، وقد يكون فيه بركة دنيوية، وقد يكون فيه بركة دينية ودنيوية معًا.

فمثال الأول: المساجد الثلاثة، لما فيها من الأجر العظيم لمن صلى فيها وغير ذلك.

ومثال الثانى: الماء واللبن، لما فيهما من المنافع الدنيوية الكثيرة.

ومثال الثالث: القرآن، ففيه منافع دينية ودنيوية كثيرة ... ويكفى أن مَن تمسَّك به أفلح فى الدنيا والآخرة، وهو شفاء للقلوب والأبدان.

ومن ذلك: خير البشر نبينا محمد ﷺ، فمن اقتدى به وسار على هديه سَعِدَ فى الدنيا والآخرة، وصلحت دُنياه وآخرته ... وأيضًا فى جسده وآثاره عليه الصلاة والسلام بركات دينية ودنيوية.

۞ والتبرك الممنوع ينقسم من حيث حُكمه إلى قسمين:

(١) تبرُّك شركى: وهو أن يعتقد المتبرِّك أن المتبرَّك به - وهو المخلوق - يهب البركة بنفسه، فيبارك فى الأشياء بذاته استقلالاً(٢)... لأن الله تعالى وحده مُوجد

(١) القول المفيد (ص ٢١١-٢١٢) بتصرف.

(٢) كتاب التبيان (ص٢٦، ٢٧)، وكتاب التنشيط (ص٦٠-٦٥)، كلاهما للرستمى الحنفى نقلاً عن كتاب جهود علماء الحنفية لشمس الدين الأفغانى (٣/ ١٥٧٥-١٥٧٨)، وينظر: التيسير، باب من

البركة وواهبها ... فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «**البركة من الله**»[1]، فطلبها من غيره، أو اعتقاد أن غيره يهبها بذاته شركٌ أكبر.

(٢) تبرُّك بدعى: وهو التبرك بما لم يَرِد دليلٌ شرعى يدل على جواز التبرك به، معتقدًا أن الله جعل فيه بركة ... أو التبرك بالشيء الذى ورد التبرك به فى غير ما ورد فى الشرع التبرك به فيه.

وهذا بلا شك محرم؛ لأن فيه إحداث عبادة لا دليل عليها من كتاب أو سُنة.

۞ وهذا القسم من التبرك - وهو التبرك البدعى - ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التبرك الممنوع بالأولياء والصالحين:

ولقد وردت أدلة كثيرة تدل على مشروعية التبرك بجسد وآثار النبى ﷺ: كشعره وعرقه وثيابه وغير ذلك.

وآثار النبى ﷺ كلها قد فُقدت، ومنبره احترق سنة ٦٥٤هـ فلا يوجد شيء من آثاره الآن على سبيل القطع واليقين... فلم يبقَ إلا التبرك باتِّباعه عليه الصلاة والسلام، فمن آمن به ﷺ واتَّبعه حصل له خيرٌ كثيرٌ فى الدنيا والآخرة من بركة الرسول (عليه الصلاة والسلام) بسبب إيمانه به، وطاعته له.

أما غير النبى ﷺ من الأولياء والصالحين فلم يَرِد دليلٌ صحيح صريح يدل على مشروعية التبرك بأجسادهم ولا بآثارهم[2]، ولذلك لم يرد عن أحدٍ من أصحاب النبى ﷺ، ولا عن أحد من التابعين أنهم تبركوا بجسد أو آثار أحد من

= تبرك بشجرة أو حجر (ص١٤٨).

(١) متفق عليه: رواه البخارى(٥٦٣٩) كتاب الأشربة، و مسلم (٧٧١) كتاب الصلاة.
عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه فى استفتاح الصلاة: «**والخير كله فى يديك**».

(٢) بركة المسلم هى فى طاعته لله تعالى، وما يُجرى الله على يديه من النفع للمسلمين، وما يُغيث الله تعالى به العباد من المطر والخير والنصر، وما يدفع عنهم من الشر ببركة طاعته وصلاحه ودعائه، فهذا حق وثابت، وليس من التبرك الممنوع ... يُنظر: مجموع الفتاوى (١١/ ١١٣-١١٥) و (٢٧/ ٩٦).

الصالحين ... فلم يتبركوا بأفضل هذه الأمة بعد نبيها، وهو أبو بكر الصديق ﵁ ولا بغيره من العشرة المبشرين بالجنة، ولا بأحدٍ من أهل البيت.

ومن أنواع التبرك المحرم بالصالحين:

(أ) التمسُّح بهم[١] ولبس ثيابهم أو الشرب بعد شُربهم طلبًا للبركة.

(ب) تقبيل قبورهم[٢]، والتمسُّح بها، وأخذ ترابها طلبًا للبركة.

(ج) عبادة الله عند قبورهم تبرُّكًا بها، معتقدًا فضل التعبُّد لله تعالى عندها، وأن ذلك سببٌ لقبول هذه العبادة، وسبب لاستجابة الدعاء.

النوع الثاني: التبرك بالأزمان والأماكن والأشياء التي لم يَرِد في الشرع ما يدل على مشروعية التبرك بها.

ومن أمثلة هذه الأشياء:

١ - الأماكن التى مَرَّ بها النبى ﷺ، أو تعبَّد لله فيها اتفاقًا من غير قصدٍ لها لذاتها، وإنما لأنه ﷺ كان موجودًا فى هذه الأماكن وقت تعبُّده لله تعالى بهذه العبادة... ولم يَرِد دليل شرعى يدل على فضلها.

ومن هذه الأماكن: جبل ثور، وغار حراء، وجبل عرفات[٣]، والأماكن التى

---

(١) وقد ذكر الحافظ ابن رجب الحنبلى فى رسالة «الحكم الجديرة بالإذاعة»ص٥٦ أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد، فمسح يديه على ثيابه، ومسح بهما وجهه، فغضب الإمام أحمد، وأنكر ذلك أشد الإنكار، وقال: عمَّن أخذتم هذا الأمر؟!.

(٢) قال الإمام عزالدين بن جماعة الكنانى الشافعى فى هداية السالك (ص ١٣٩٠، ١٣٩١): «عَدَّ بعض العلماء من البدع الانحناء للقبر المقدس عند التسليم، قال: يظن مَن لا علم له أنه من شعار التعظيم... وأقبح منه تقبيل الأرض للقبر، لم يفعله السلف الصالح... والخير كله فى اتباعهم - رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم - ومَن خَطَر بباله أن تقبيل الأرض أبلغ فى البركة فهو من جهالته وغفلته؛ لأن البركة إنما هى فيما وافق الشرع وأقوال السلف وعملهم... وليس عجبى ممن جَهِل ذلك فارتكبه، بل عجبى ممن أفتى بتحسينه مع علمه بقُبحه ومخالفته لعمل السلف، واستشهد لذلك بالشعر... نسأل الله أن يوفقنا فى القول والعمل، وأن يعصمنا من الهوى والزلل بمنه وكرمه». وينظر: رسالة التوحيد للدهلوى الهندى (ص٢٣، ٢٤).

(٣) ويسمى جبل «إلال» على وزن «هلال»، ويُسميه العامة «جبل الرحمة»، ينظر: الاقتضاء (ص٨١٠)، =

مَرَّ بها النبى ﷺ فى أسفاره، والمساجد السبعة التى قُرب الخندق.

فلا يجوز للمسلم قصد زيارة هذه الأماكن للتعبُّد لله تعالى عندها، أو فوقها، بصلاة أو دعاء أو غيرهما، كما لا يجوز للمسلم مسح شىء من هذه الأماكن لطلب البركة.

(٢) التبرك ببعض الأشجار وبعض الأحجار وبعض الأعمدة وبعض الآبار والعيون التى يظن بعض العامة أن لها فضلاً، إما لظنهم أن أحد الأنبياء والأولياء وقف على ذلك الحجر، أو لاعتقادهم أن نبيًّا نام تحت تلك الشجرة.

ولا شك أن التبَرُّك بالأشجار والأحجار والعيون ونحوها، بأى نوع من أنواع التبرك، من مسحٍ أو تقبيلٍ، أو اغتسالٍ، أو غيرها مما سبق ذكره محرم بإجماع أهل العلم[(١)].

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه ليس هناك حجر أو غيره يشرع مسحه أو تقبيله تبرُّكًا، حتى مقام إبراهيم الخليل عليه السلام.

ومسح الحجر الأسود وتقبيله وكذلك مسح الركن اليمانى فى أثناء الطواف إنما هو من باب التعبُّد لله تعالى، واتباع سنة النبى ﷺ.

النوع الثالث: التبرك بالأماكن والأشياء الفاضلة:

وردت نصوص شرعية كثيرة تدل على فضل وبركة كثير من الأماكن،

= رسالة: «جبل إلال بعرفات» للشيخ بكر أبو زيد.

(١) قال شيخ الإسلام فى الاقتضاء (ص ٨٠٨، ٨٠٩): «اتفق العلماء على ما مضت به السُّنة من أنه لا يُشرع الاستلام والتقبيل لمقام إبراهيم عليه السلام، الذى ذكره الله فى القرآن، فقال: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ، فإذا كان هذا بالسُّنة المتواترة، وباتفاق الأئمة لا يُشرع تقبيله بالفم، ولا مسحه باليد، فغيره من مقامات الأنبياء أولَى ألا يُشرع تقبيلها بالفم ولا مسحها باليد. وأيضًا، فإن المكان الذى كان النبى ﷺ يصلى فيه فى المدينة النبوية دائمًا لم يكن أحد من السلف يستلمه ولا يقبله، ولا المواضع التى صلى فيها بمكة وغيرها، فإذا كان الموضع الذى كان يطؤه بقدميه الكريمتين ويصلى عليه لم يُشرع لأمته التمسح به ولا تقبيله، فكيف بما يُقال: إن غيره صلى فيه أو نام عليه».

كالكعبة المشرفة، والمساجد الثلاثة... وكثير من الأزمان كليلة القدر ويوم عرفة ... وكثير من الأشياء الأخرى، كماء زمزم، والسحور للصائم، والتبكير فى طلب الرزق ونحوه، وغير ذلك.

والتبرك بهذه الأشياء يكون بفعل العبادات وغيرها مما ورد فى الشرع ما يدل على فضلها فيها

فمثلاً يكون التبرك بالكعبة المشرفة بالطواف بها، والتعبُّد لله تعالى باستلام الحجر الأسود والركن اليمانى، أو تقبيل الحجر الأسود حال الطواف فقط، وبالصلاة داخلها ... والتبرك بالمسجد الحرام بالصلاة والاعتكاف فيه، ونحو ذلك ... والتبرك بليلة القدر بقيامها بالصلاة وقراءة كتاب الله تعالى ونحو ذلك... وماء زمزم بشربه والاغتسال منه طلباً للشفاء من الأمراض ونحو ذلك، وهكذا بقية الأشياء المباركة الفاضلة[١].

وإذا كان لا يجوز التبرُّك بالحجر الأسود الذى هو أفضل الكعبة .. فمن باب أَولَى أنه لا يجوز التمسُّح والتبرُّك بالقبور ومقامات الأولياء.

---

(١) بتصرف من كتاب (تسهيل العقيدة الإسلامية / أ.د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين).

(١٧) باب في وجوب الانقياد لحكم الله عَزَّوَجَلَّ وما يقوله من دُعي إلى ذلك وأُمر بمعروفٍ أو نُهي عن منكر

۞ قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ اللام لتأكيد القسم أي فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حَكَمًا بينهم ويرضوا بحُكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أي ثم لا يجدوا فى أنفسهم ضيقًا من حُكمك وينقادوا انقيادًا تامًّا كاملاً لقضائك، من غير مُعارضة ولا مُدافعة ولا منازعة... فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان(١).

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: فالتحكيم في مقام الإسلام .. وانتفاء الحرج في مقام الإيمان .. والتسليم في مقام الإحسان .. فمن استكمل هذه المراتب وكمَّلها فقد استكمل مراتب الدين كلها (٢).

۞ وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

أي: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حقيقة، الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم حين

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢١).

(٢) تفسير السعدي (ص ١٨٧).

يُدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا مَن دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ حَصَر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا مَن حَكَّم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله ... ولما ذكر فضل الطاعة فى الحكم خصوصًا، ذكر فضلها عمومًا، فى جميع الأحوال، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيصدق خبرهما ويمتثل أمرهما، ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ أى: يخافه خوفًا مقرونًا بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ بترك المحظور، لأن التقوى - عند الإطلاق- يدخل فيها، فعل المأمور، وترك المنهى عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما فى هذا الموضع - تُفسَّر بتوقِّى عذاب الله، بترك معاصيه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه...فالفوز محصورٌ فيهم ...وأما مَن لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصَّر عنه من هذه الأوصاف الحميدة[(١)].

(١٧٢) عن أبى هريرة ﵁، قال: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رسولِ الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾، اشْتَدَّ ذلكَ عَلَى أَصحَابِ رسول الله ﷺ، فأَتَوا رسول الله ﷺ، ثُمَّ بركُوا عَلَى الرُّكَب فَقالُوا: أَىْ رسولَ الله كُلِّفْنَا مِنَ الأعمالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاَةَ وَالْجِهادَ وَالصِّيام وَالصَّدقَةَ، وَقَدَ أُنزلتْ عليْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلا نُطِيقُهَا. قالَ رسولُ الله ﷺ: «أَتُريدُون أَنْ

(١) تفسير السعدى (ص ٦٦٧).

تَقُولوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكتابَينِ مِنْ قَبْلكُمْ: سَمِعنَا وَعصينَا؟ بَلْ قُولوا: سَمعنا وَأَطَعنَا غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمصِيرُ» فَلَمَّا اقْتَرأَهَا الْقَومُ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسنَتُهُمْ، أَنزلَ الله تَعَالَى فى إِثْرهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فعَلُوا ذلك نَسَخَهَا الله تَعَالَى، فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ قَالَ: نعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ[1].

۞ ففى هذا الحديث يذكر أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه لما أنزل الله على نبيه ﷺ هذه الآيـــــة: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾، اشْتَدَّ ذلكَ عَلَى أَصحابِ رسول الله ﷺ.

وذلك لأن ما يخطر فى النفس من الحديث أمرٌ لا ساحل له .. فالشيطان قد يأتى إلى الإنسان ويُحدثه بأشياء منكرة عظيمة .. منها ما يتعلق بذات الله عَزَّوَجَلَّ .. ومنها ما يتعلق بالأمور الدينية ومنها ما يتعلق بالأمور الدنيوية وغير ذلك من الأشياء التى يُلقيها الشيطان فى قلب الإنسان فشقَّ ذلك على أصحاب الرسول ﷺ أصحاب القلوب النقية التقية فجاءوا إلى النبى ﷺ وهم فى غاية الحزن والهمِّ فجثوا على رُكبهم ... وذلك لأن الإنسان إذا نزل به أمرٌ شديد فإنه يجثو على رُكبتيه .. فلما فعلوا ذلك قالوا للنبى ﷺ كُلِّفْنَا مِنَ الأَعمالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاَةَ وَالْجِهادَ وَالصِّيام وَالصَّدقةَ، وَقَدَ أُنْزلتْ عليْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلا نُطِيقُهَا ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ وهذه شديدة لا أحد

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢٥) كتاب الإيمان.

يُطيق أن يمنع نفسه عمَّا تُحدثه به من الأمور التى لو حُوسب عليها لهلك.

فقال النبى عليه الصلاة والسلام: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا**» أهل الكتابين هم اليهود والنصارى، اليهود كتابهم التوراة، وهى أشرف الكتب الْمُنَزَّلة بعد القرآن، والنصارى كتابهم الإنجيل وهو مُتممٌ التوراة ... واليهود والنصارى عصوا أنبياءهم، وقالوا: سمعنا وعصينا، فهل تُريدون أن تكونوا مثلهم؟ «**ولكن قولوا**: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾».

۞ وهكذا يجب على كل مسلم إذا سمع أمر الله وأمر رسول الله ﷺ أن يكون شعاره دائمًا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ويمتثل بقدر ما يستطيع فإنه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

والمسلم الحقيقى لا يسأل: هل هذا الأمر واجب أو مُستحب بل يفعله؛ لأن النبى ﷺ فعله أو أمر بفعله .. فمن امتثل الأمر وكان واجبًا فقد أبرأ ذمته وإن كان مُستحبًّا فقد حصَّل الخير الكثير.

ولذلك فنحن لا نعلم أن أحدًا من الصحابة كان إذا سمع أمر النبى ﷺ كان يقول له: يا رسول الله هل هذا الأمر واجب أم مُستحب ... ما سمعنا بهذا أبدًا .. لأنهم كانوا يفعلون الطاعة بحبٍّ.

أما نحن فنقول: هل هذا الأمر واجب أم مستحب ... هذا النهى للتحريم أم للكراهة ... لكن إذا وقع الأمر فلك أن تسأل حينئذ هل أثمت بذلك أم لا، لأجل أنه إذا قيل لك: إنك آثم تُجدد توبتك، وإذا قيل: إنك غير آثم يستريح قلبك...أما حين يُوجَّه الأمر فلا تسأل عن الاستحباب أو الوجوب، كما كان أدبُ الصحابة مع الرسول (عليه الصلاة والسلام)... يفعلون كل ما يأمر به النبى ﷺ ويتركون كل ما نهى عنه النبى ﷺ.

۞ وبالعودة إلى الحديث عندما ذهب الصحابة إلى النبي ﷺ بعد نزول تلك الآية حتى جثوا على الرُّكب .. أقول لكم : إن من كمال رحمة الله أنه لا يُحاسبك على ما حدثت به نفسك ما لم تتكلم أو تعمل به.

فقد قال ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتى ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»[1] . الحمد له، رفع الحرج، كلُّ ما حدثت به نفسك، ولكنك ما ركنت إليه، ولا عملت، ولا تكلمت، فهو معفوٌّ عنه، حتى ولو كان أكبر من الجبال. فاللَّهم لك الحمد.

حتى إن الصحابة قالوا: يا رسول الله نجد فى نفوسنا ما نحبُّ أن تكونْ حُمَمَةً -يعنى فحمة محترقة- ولا نتكلم به قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[2].

يعنى ذاك هو الإيمان الخالص؛ لأن الشيطان ما يُلقى مثل هذه الوساوس فى قلبٍ خَرِبٍ... فى قلبٍ فيه شك... إنما يتسلط الشيطان - أعاذنا الله منه - على قلبٍ مؤمن خالص؛ ليُفسده.

ولما قيل لابن عباس أو ابن مسعود: إن اليهود إذا دخلوا فى الصلاة لا يُوسوَسون، قال: وما يصنع الشيطان بقلبٍ خراب ... فاليهود كفار، قلوبهم خربة، فالشيطان لا يوسوس لهم عند صلاتهم؛ لأنها باطلة من أساسها... الشيطان يوسوس للمسلم الذى يُصلى صلاة صحيحة مقبولة ليُفسدها... يأتى للمؤمن صريح الإيمان ليُفسد هذا الإيمان الصريح.

۞ ولذلك لما سُئل الشيخ الألبانى رَحِمَهُ الله: ماذا يفعل مَن وسوس إليه الشيطان بقوله: «مَن خلق الله» فقال: لقد دلَّت هذه الأحاديث الصحيحة على أنه يجب على مَن وسوس إليه الشيطان بقوله: مَن خلق الله؟ أن ينصرف عن مجادلته إلى إجابته بما جاء فى الأحاديث .. وخُلاصتها أن يقول: « آمنت بالله ورسله، الله أحد،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٦٩) كتاب الطلاق، ومسلم (١٢٧) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٢) كتاب الإيمان.

الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن لـه كُفـوًا أحـد». ثـم يَتفُـل عـن يساره ثلاثًـا، ويستعيذ بالله من الشيطان، ثم ينتهى عن الانسياق مع الوسوسة.

وأعتقد أن مَن فعل ذلك طاعة لله ورسوله ﷺ، مُخلصًا فى ذلك أنه لَا بُدَّ أن تذهب الوسوسة عنه، ويندحر شيطانه لقوله ﷺ: « **فإن ذلك يذهب عنه**»(١).

وهذا التعليم النبوى الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية فى هذه القضية... فإن المجادلة قَلما تنفع فى مثلها. ومن المؤسف أن أكثر الناس فى غفلة عن هذا التعليم النبوى الكريم، فتنبهوا أيها المسلمون، وتعرَّفوا إلى سُنَّة نبيكم، واعملوا بها، فإن فيها شفاءكم وعِزّكم(٢).

۞ ثم إن الصحابة رضي الله عنهم لما قالوا: ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ ولانت لها نفوسهم، وذَلَّت لها ألسنتهم أنزل الله بعدها: ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ -يعنى والمؤمنون آمنوا- ﴿ **كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فبيَّن الله عز وجل فى هذه الآية الثناء عليهم وعلى رسوله وعلى المؤمنين لأنهم قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

ثـم أنـزل الله: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ** ﴾[البقرة: ٢٨٦] فالذى ليس فى وسع الإنسان لا يكلفه الله به، ولا حرج عليه فيه، مثل الوساوس التى تهجم على القلب، ولكن الإنسان إذا لم يركن إليها ولم يُصدق بها ولم يرفع بها رأسًا فإنها لا تضره؛ لأن هذه ليست داخلة فى وسعه، والله عز وجل يقول:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦٢٤٦) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: اللهُ. فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقْرَأْ آمَنْتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنْهُ**».

(٢) السلسلة الصحيحة (١١٨) - والفتوى للشيخ الألبانى رحمه الله.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فقد يُحدث الشيطان الإنسان فى نفسه عن أُمورٍ فظيعة عظيمة، ولكن الإنسان إذا أعرض عنها واستعاذ بالله من الشيطان ومنها زالت عنه ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم. يعنى قال الله: نعم، لا أؤاخذكم إن نسيتم أو أخطأتم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: نعم. ولهذا قال الله تعالى فى وصف رسوله محمد ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال الله: نعم.

ولهذا لا يكلف الله تعالى فى شرعه ما لا يُطيقه الإنسان، بل إذا عجز عن الشىء انتقل إلى بدله إذا كان له بدل، أو سقط عنه إن لم يكن له بدل، أما أن يكلف ما لا طاقة له به فإن الله تعالى قال هنا: نعم ...يعنى: لا أُحملكم ما لا طاقة لكم به ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال الله: نعم ... فاعفُ عنا، واغفر لنا، وارحمنا، هذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ يعنى تقصيرنا فى الواجب، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ يعنى انتهاكنا للمحرم، ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ يعنى وفقنا للعمل الصالح ... فالإنسان إما أن يترك واجبًا أو يفعل مُحرَّمًا... فإن ترك الواجب فإنه يقول: اعفُ عنا ... أى اعفُ عنَّا ما قصَّرنا فيه من الواجب.

وإن فعل المحرم، فإنه يقول: اغفر لنا، يعنى ما اقترفنا من الذنوب، أو يطلب تثبيتًا وتأييدًا وتنشيطًا على الخير فى قوله: ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾، فهذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أى متولى أمورنا فى الدنيا والآخرة، فتولنا فى الدنيا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قد يتبادر للإنسان أن المراد أعداؤنا من الكفار، ولكنه أعمّ حتى إنه يتناول الانتصار على الشيطان؛ لأن الشيطان رأس الكافرين.

إذًا ... نستفيد من هذه الآيات الكريمة الأخيرة: أن الله سبحانه وتعالى لا يُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به، ولا يُكلفنا إلا وسعنا، وأن الوساوس التى تجول فى صدورنا إذا لم نركن إليها ولم نطمئن إليها ولم نأخذ بها، فإنها لا تضر[1].

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١/ ٤٧٠-٤٧١) بتصرف.

(١٨) باب في النهي عن البدع ومُحدثات الأمور

۞ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ... وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، والآياتُ فى الْبابِ كَثِيرةٌ مَعلُومةٌ.

۞ إن الله عَزَّوَجَلَّ أكمل لنا الدين وأتمَّ علينا نعمته ولم يرضَ لنا سوى الإسلام دينًا .. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فمن ابتدع بعد ذلك أى شيءٍ فى دين الله عَزَّوَجَلَّ فقد اتهم ربه عَزَّوَجَلَّ واتهم نبيه ﷺ بأنه لم يُبلغ الأمة كل ما جاءه من عند الله (جلَّ وعلا)... بل وطعن فى الإسلام نفسه والعياذ بالله.

والبدعة: هى الفعلة المخالفة للسُّنَّة[1].

قال الشاطبى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البدعة: طريقةٌ فى الدِّين مُختَرَعة تُضاهى الشَّرعيَّة يُقصَد بالسُّلوك عليها المبالغة فى التعبُّد لله - سبحانه-.

والبدعة فى الشرع: كل مَن تَعبَّد لله سبحانه وتعالى بغير ما شرع عقيدة أو قولاً أو فعلاً...فمن تعبد لله بغير ما شرعه الله من عقيدة أو قولٍ أو فعلٍ فهو مبتدع.

فإذا أحدث الإنسان عقيدة فى أسماء الله وصفاته مثلاً فهو مبتدع، أو قال قولاً لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع، أو فعل فعلاً لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع.

(١) كتاب التعريفات (ص ٤٤).

۞ وفي البدع عدة محاذير .. منها :

(١) البدعة ضلالة بنص القرآن والسُّنَّة :

وذلك أن ما جاء به النبى ﷺ فهو الْحق...وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]. هذا دليل القرآن...ودليل السُّنة قوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»، ومعلوم أن الْمؤمن لا يختار أن يتبع طريق الضالين الذين يتبرأ منهم الْمصلى فى كل صلاة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

(٢) أن في البدعة خروجًا عن اتباع النبي ﷺ :

وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]. فمن ابتدع بدعة يتعبد لله بها فقد خرج عن اتباع النبى ﷺ، لأن النبى ﷺ لم يشرعها، فيكون خارجًا عن شرعة الله فيما ابتدعه.

(٣) أن البدعة تُنافي تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله :

لأن مَن حقق شهادة أن محمدًا رسول الله فإنه لا يخرج عن التعبُّد بما جاء به... بل يلتزم شريعته ولا يتجاوزها ولا يقصر عنها .. فمن قصَّر فى الشريعة أو زاد فيها فقد قصَّر فى اتباعه، إما بنقصٍ أو بزيادة، فحينئذ لا يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله.

(٤) أن مضمون البدعة الطعن في الإسلام :

فإن الذى يبتدع تتضمن بدعته أن الإسلام لم يكمُل، وأنه كَمَّلَ الإسلام بهذه البدعة...وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. فيُقال لهذا الْمبتدع: أنت الآن أتيت بشريعة غير التى كَمُل عليها الإسلام، وهذا يتضمن الطعن فى الإسلام وإن لم يكن الطعن فيه باللسان، لكن الطعن فيه هنا بالفعل...أين رسول الله ﷺ، ثم أين الصحابة عن هذه العبادة التى ابتدعتها؟ أَهُم فى جهلٍ منها؟ أم فى تقصير



عنها؟ إذًا... فهذا يكون طعنًا فى الشريعة الإسلامية.

(٥) أنه يتضمن الطعن في رسول الله ﷺ:

وذلك لأن هذه البدعة التى زعمت أنها عبادة إما أن يكون الرسول ﷺ لم يعلم بها، وحينئذ يكون جاهلاً -حاشا لله- وإما أن يكون قد علم بها ولكنه كتمها، وحينئذ يكون كاتمًا للرسالة أو لبعضها، وهذا خطيرٌ جدًّا.

(٦) أن البدعة تفرق شمل الأمة:

لأن الأمة الإسلامية إذا فُتح الباب لها فى البدع .. فصار هذا يبتدع شيئًا، وهذا يبتدع شيئًا، وهذا يبتدع شيئًا، كما هو الواقع الآن، فتكون الأمة الإسلامية كل حزبٍ منها بما لديه فَرِح... كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]. كل حزب يقول: الْحقُّ معى، والضلال مع الآخر، وقد قال الله لنبيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩، ١٦٠].

(٧) صاحب البدعة يَضل عن الصراط ويُضل غيره:

قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى: «إنما هلك مَن كان قبلكم حين تشعبت بهم السُّبل وحادوا عن الطريق فتركوا الآثار وقالوا فى الدين برأيهم فضلُّوا وأضلوا»[(١)].

❁ ولذا قال الفُضيل بن عياض رحمه الله: «اتبع طُرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين»[(٢)].

❁ وسُئل إبراهيم الخواص رحمه الله عن العافية فقال: «العافية أربعة أشياء: دينٌ بلا بدعة، وعملٌ بلا آفة، وقلبٌ بلا شغل، ونفسٌ بلا شهوة»[(٣)].

---

(١) الاعتصام (١/ ١٠٢).
(٢) الاعتصام (١/ ٨٣).
(٣) الاعتصام (١/ ٨٥).

(٨) المبتدع يجعل نفسه مُشرعًا وندًّا لله (جل وعلا) :

والمبتدع فى الدين يُعطى نفسه منزلة ليست له.

فإن المُشرع الفرد لعباده جميعًا هو الله (جل وعلا)، فكيف يجيء أحدٌ - مهما كانت نيته ومنزلته - ليضم إلى أحكام الله أحكامًا من عند نفسه.

قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[الشورى:٢١]

(٩) المبتدع يُعسّر الدين ويُخرجه عن طبيعته السمحة :

«فالدين قد جاء مُيسَّرًا للناس.. والذين يبتدعون فيه، يخرجون بهذا الدين عن طبيعته السمحة المُيسِّرة الميسَّرة... فهم يُعنتون الناس، ويَشقُّون عليهم، ويضيفون إليه ما يجعله آصارًا وأغلالاً على المكلفين».

(١٠) كأن المبتدع يَظن أن الدين لم يَكتمل :

وكأن المبتدع يظن أن الدين لم يكتمل فهو بذلك يضيف إليه أشياء من عنده ليُكمله!!!!

❁ قال ابن الماجشون رحمه الله تعالى: سمعت مالكًا رحمه الله تعالى يقول: «من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة...لأن الله يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[المائدة:٣] .. فما لم يكن يومئذٍ دينًا فلا يكون اليوم دينًا»[1].

(١١) صاحب البدعة لا يُرجى له توبة :

وصاحب البدعة لا يُرجى له توبة بخلاف أهل المعاصى.

- فالعاصى يعلم أنه على معصية ...فلذلك قد يفكر فى التوبة يومًا ما، أما المبتدع فهو يعتقد أن البدعة التى يفعلها هى عين السُّنة فكيف يتوب منها.

---

(١) الاعتصام (١/ ٤٩).



- ولذلك قال ﷺ: «**إن الله احتجز التوبة عن صاحب كل بدعة**»(١).

۞ قال سفيان الثورى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية... المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»(٢).

(١٢) البدعة إثمها متجدد لا يَنقطع ما دام يُعمل بها:

صاحب البدعة إثمه متجدد طالما أنه يُعمل بتلك البدعة ... بل إنه يتحمل وزر مَن يعمل بتلك البدعة إذا كان سببًا فى دعوته إليها... ولذا قال ﷺ: «**....ومَن سَنَّ فى الإسلام سُنة سيئة فعليه وزرها ووزر مَن عمل بها من بعده، من غير أن يَنقُص من أوزارهم شىء**»(٣).

(١٣) صاحب البدعة لا يَقبل الله منه صَرفًا ولا عَدلاً(٤):

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَبَى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته**»(٥).

(١٤) الله يُبغض كل صاحب بدعة:

روى البخارى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلحد فى الحرم، ومُبتغٍ فى الإسلام سُنة الجاهلية، ومُطَّلِب دم امرئ بغير حق ليُهريق دمه**»(٦).

(١٥) البدع تُميت السنن:

فكلما أحدث الناس بدعة كان فى مقابل ذلك أن تموت سُنة من سنن النبى

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي، والضياء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٩٩).
(٢) تلبيس إبليس (ص١٣).
(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة.
(٤) أي: لا يقبل منه فريضة ولا نافلة.
(٥) رواه ابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٩)، وكان الشيخ الألبانى قد صححه فى صحيح الترغيب (٥٤) ثم تراجع عن تصحيحه.
(٦) صحيح: رواه البخارى (٦٨٨٢) كتاب الديات.

ﷺ... وذلك لأن صاحب البدعة يُوهم الناس أن بدعته هى السُّنة فإذا تعارضت مع سُنة من سُنن النبى ﷺ طرح السُّنة وتمسك ببدعته ودعا الناس إليها.

- ولذا قال أحد السلف: «ما أحيا قومٌ بدعة إلا أماتوا مثلها من السُّنة».

(١٦) صاحب البدعة لا يُختم له بخير:

فمن عاش على البدع وأصرَّ عليها حتى آخر لحظة فى حياته ولم يَتُب فإنه لا يُختم له بخير.

- وقد علمنا قول ابن مسعود رضي الله عنه: «لو تركتم سنة نبيكم لضللتم».

❁ قال ابن عباس رضي الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾: فأما الذين ابيضَّت وجوههم فأهل السُّنة والجماعة وأولو العلم. وأما الذين اسودَّت وجوههم فأهل البدع والضلالة»[١].

(١٧) المبتدع يُحرم من الشرب من حوض النبى ﷺ:

قال ﷺ: «**إنى فَرَطُكمْ على الحوضِ، منْ مرَّ بى شرب، ومنْ شرِبَ لم يَظمأ أبدًا وليَرِدَنَّ علىَّ أقوام أعرفُهم ويَعرفونى، ثمَّ يُحالُ بينى وبينهُمْ، فأقولُ: إنهُم منى فيُقالُ: إنكَ لا تَدرى ما أحدثُوا بَعدكَ، فأقولُ: سُحقًا سُحقًا لمنْ بدَّل بَعدى**»[٢].

(١٧٣) عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحدثَ فى أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فهُو رَدٌّ»[٣].

وفى رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو ردٌّ».

هذا الحديث أصلٌ عظيم من أصول الدين... كما قال الإمام أحمد رحمه الله: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر: «**إنما الأعمال بالنيات**»،

---

(١) أصول الاعتقاد (١/ ٧٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٨٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢٩١) كتاب الفضائل.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

وحديث عائشة: «**مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»، وحديث النعمان ابن بشير: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**»، وعَدَّه إسحاق بن راهويه واحدًا من أربعة أحاديث هي من أصول الدين.

۞ وهذا الحديث هو نصف العلم؛ لأن الأعمال إما ظاهرة وإما باطنة... فالأعمال الباطنة ميزانها حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١)، وميزان الأعمال الظاهرة حديث عائشة هذا: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه.

فهناك شرطان لقبول العمل كما قال بعض السلف: ما عمل آدميٌّ عملًا إلا ونُشر له ديوانان: لِمَ فعلت، وكيف فعلت؟ فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة.

ودَلَّ على ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فالعمل الصالح: هو الموافق للشرع وهو شرط المُتابعة ... وعدم الإشراك إشارة إلى الإخلاص.

كذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فإسلام الوجه الله عَزَّوَجَلَّ هو إخلاص القصد والنية، والإحسان هو متابعة سُنة النبي ﷺ.

كذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال الفُضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه...فإن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لا يُقبل وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لا يُقبل، حتى يكون صوابًا خالصًا.

وفي هذا الحديث بيان لحكم الأعمال الظاهرة التي يقوم بها العبد، فإذا كانت مما هو معلوم من هدى النبي ﷺ وأصحابه، إما أمرًا منه أو فعلًا أو

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.

تقريرًا، فهذا من الأعمال المشروعة التى يُثاب عليها العبد إذا صحَّت نيته، أما إذا كان مخالفًا لهدى الكتاب والسُّنة، فهذه هى البدعة سواء أكان ذلك فى العقائد أو الأعمال الظاهرة أو غيرها، وهو بيان لاشتراط المتابعة لهدى النبى ﷺ؛ ليكون العمل مقبولًا مع شرط الإخلاص الذى دَلَّ عليه قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» والصواب هو ما كان على هدى النبى ﷺ. وهو ما دَلَّ عليه قوله ﷺ: «**مَن عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**».

فإذا علمنا ذلك تبين لنا أن كل عملٍ يُؤتَى به على وجه التعبُّد والتقرُّب إلى الله تعالى فيه، فلا بُدَّ من عَرضِهِ على هدى الرسول ﷺ، فإن كان من هديه، فهذا هو المشروع، وهو الذى يُثاب صاحبه عليه إذا صحَّت نيته، وقصد به وجه الله وحده... وإذا كانت هذه العبادة لم تُنقل عن النبى ﷺ، أو أتى به على كيفية، أو هيئة لم تكن معروفة فى عهده ﷺ، ولا عهد أصحابه، ولا فى عهد سلف هذه الأمة، فهو مردودٌ على صاحبه ، وغير مقبول؛ لمخالفة هدى الرسول ﷺ... واستحق ذلك العمل أن يُسمَّى بدعة، ومعلوم أن كل بدعة ضلالة، وذلك مثل ما يفعله بعض المتصوفة من الأذكار التى ابتدعوها ولم تكن معروفة فى عهد السلف الصالح، كاجتماعهم فى حلقة، فيقوم أحدهم ويقول لهم: سبِّحوا كذا، هلِّلوا كذا، كبِّروا كذا... فإن ابن مسعود رضي الله عنه لما أُخبر عن أُناسٍ فى المسجد يعملون هذا العمل ذهب إليهم، ووقف، وأنكر عليهم ذلك[1].

۞ وفى اللفظ الثانى: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»، وهو أشد من الأول؛ لأن قوله: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا**» يعنى لَا بُدَّ أن نعلم بأن كل عملٍ عملناه لَا بُدَّ أن يكون موافقًا لأمر الله وأمر رسوله ﷺ وإلا فهو مردود... وهو يشمل العبادات ويشمل المعاملات ... ولهذا لو باع الإنسان بيعًا فاسدًا، أو رهن رهنًا فاسدًا أو أوقف وقفًا فاسدًا، فكله غير صحيح ومردود على صاحبه ولا ينفذ.

---

(١) من هدى المصطفى / الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ٤٧-٤٩) بتصرف.

(١٧٤) وعَـنْ جـابرٍ ﵁ قـال: كـان رسـولُ الله ﷺ إِذَا خَطَـبَ احمَـرَّتْ عَيْنَـاهُ، وعَـلا صوتُهُ، وَاشْـتَدَّ غَـضَبهُ، حتَّـى كَأَنَّـهُ مُنْـذِرُ جَيْـشٍ يَقُـولُ: «صَـبَّحَكُمْ ومَـسَّاكُمْ» وَيقُـولُ: «بُعِثْـتُ أَنَـا والـسَّاعةُ كَهَـاتَيْن» وَيَقْـرنُ بيـن أُصـبَعَيْه، الـسبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعدُ، فَإِنَّ خَيرَ الْحَديثِ كِتَابُ الله ، وخَيْرَ الْهَدى هـدىُ مُحمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدثَاتُهَا وكُلَّ بِدعَـة ضَـلالَةٌ» ثُـمَّ يقُـولُ: «أَنَـا أَوْلَـى بُكُـلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ. مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضِيَاعًا، فَإِلَيَّ وعَلَيَّ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر جابر ﵁ أن النبى ﷺ كان إذا خطب ... يعنى: يوم الجمعة احمرَّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ... حتى كأنه مُنذر جيشٍ يقول: «صبَّحكم ومسَّاكم».

۞ قال الإمام النووى ﵀:

يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْخَطِيبِ أَنْ يُفَخِّمَ أَمْرَ الْخُطْبَةِ وَيَرْفَعَ صَوْتَهُ وَيُجْزِلَ كَلَامَهُ وَيَكُونَ مُطَابِقًا لِلْفَصلِ الَّذِى يَتكَلَّمُ فِيهِ مِنْ تَرْغِيبٍ أَوْ تَرْهِيبٍ وَلَعَلَّ اشْتِدَادَ غَضَبِهِ كَانَ عِنْدَ إِنْذَارِهِ أَمْرًا عَظِيمًا وَتَحدِيدِهِ خَطْبًا جَسِيمًا[٢]...

وإنما كان النبى ﷺ يفعل ذلك ؛ لأنه أقوى فى التأثير على السامع.. فكان ﷺ يفعل هذا من أجل مصلحتهم.. وإلا فإنه من المعلوم أن النبى ﷺ كان أحسن الناس خُلقًا وأكثر الناس رفقًا ورحمة بكل مَن حوله ... لكن لكل مقامٍ مقال .. فالخطبة ينبغى أن تؤثر فى النفوس وتُحرك القلوب.

وكان ﷺ يقول: «بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ويقرن بين السبَّابة والوسطى، يعنى بين الإصبعين.

والسبابة هى الإصبع الذى بين الإبهام والوسطى، وتُسمَّى السبَّابة لأن الإنسان إذا أراد أن يَسُب أحدًا أشار إليه بها... وتُسمَّى السبَّاحة أيضًا لأن

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٧) كتاب الجمعة.

(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٢٢).

الإنسان عند الإشارة إلى تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ يرفعها، ويشير بها إلى السماء.

۞ فبعثة النبى ﷺ هى أول علامة من علامات الساعة الصغرى .. وهى دليل على قُرب قيام الساعة.

قال القرطبى: « أولها النبى ﷺ لأنه نبى آخر الزمان، وقد بُعث وليس بينه وبين القيامة نبى »[1].

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فالنبى ﷺ هو خاتم الأنبياء وليس بعده نبى .. وإنما تكون بعده القيامة.

۞ وأما عن نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فى آخر الزمان فإنه لا ينزل إلى الأرض مرة أخرى كنبيٍّ وإنما ينزل ليحكم الأرض بشريعة النبى ﷺ (شريعة الإسلام) .. كما سيأتى.

۞ ومن هنا نعلم أن أول علامة من علامات الساعة الصغرى: بعثة النبى ﷺ الذى أرسله الله عَزَّوَجَلَّ رحمة للعالمين.

والمعنى أن أجل الدنيا قريب وأنه ليس ببعيد ...وهذا كما فعل ﷺ ذات يوم حيث خطب الناس فى آخر النهار، والشمس على رءوس النخل، فقال: «**إنه لم يبقَ من دنياكم إلا مثل ما بقى من هذا اليوم**»[2].

فإذا كان الأمر كذلك والنبى ﷺ قد مات منذ أكثر من ألفٍ وأربعمائة سنة، ولم تَقُم القيامة دَلَّ هذا على أن الدنيا طويلة الأمد، ولكن ما يقدره بعض الجيولوجيين من عمر الدنيا الماضى بملايين الملايين فهذا خرص، لا يُصدَّق ولا يُكذَّب، فهو كأخبار بنى إسرائيل؛ لأنه ليس لدينا علم من كتاب الله أو سُنة رسوله ﷺ فى مقدار ما مضى من الدنيا، ولا فى مقدار ما بقى منها على وجه التحديد.

---

(١) «التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص ٦٢٦).

(٢) رواه أحمد (٦١٧٣)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

۞ ثم قال ﷺ: «**أما بعد**».

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ اسْتِحبَابُ قَوْلِ أَمَّا بَعدُ فِى خُطَبِ الْوَعظِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدِ وَغَيْرِهَا، وَكَذَا فِى خُطَبِ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ ... وَقَد عَقَدَ الْبُخَارِىُّ بَابًا فِى اسْتِحْبَابِهِ وَذَكَرَ فِيهِ جُمْلَةً مِنَ الْأَحَادِيثِ. وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِى أَوَّلِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ فَقِيلَ: دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقِيلَ: يَعرُبُ بْنُ قَحْطَانَ، وَقِيلَ: قسُّ بْنُ سَاعِدَةَ(١).

۞ ثم قال ﷺ: «**أَمَّا بَعدُ، فَإِنَّ خَيرَ الْحَديث كِتَابُ الله، وخَيْرَ الْهَدى هدىُ مُحمَّد ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدثَاتُهَا وكُلَّ بِدعَة ضَلالَةٌ**».

وقد سبق شرح معناها فى الأحاديث السابقة باستفاضة ولله الحمد.

۞ ثم قال ﷺ: «**أنا أَولَى بكل مؤمنٍ من نفسه**».

وهو موافقٌ لقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أقرب ما للإنسان، وأَولَى ما له نفسه... فالرسول أَولَى به من نفسه، لأنه (عليه الصلاة والسلام)، بذل لهم من النُّصح، والشفقة، والرأفة، ما كان به أرحم الخلق، وأرأفهم...فرسول الله، أعظم الخلق مِنَّةً عليهم، من كل أحدٍ...فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسببه ﷺ.

فلذلك، وجب عليهم إذا تَعارض مُراد النفس، أو مراد أحدٍ من الناس، مع مراد الرسول، أن يُقدَّم مراد الرسول، وأن لا يُعارَض قول الرسول، بقول أحدٍ، كائنًا مَن كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه.

وهو ﷺ، أبٌ للمؤمنين، كما فى قراءة بعض الصحابة، يربيهم كما يربى الوالد أولاده.

---

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٢٢).

فترتب على هذه الأُبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم... أى: فى الحُرمة والاحترام، والإكرام، لا فى الخلوة والمحرمية[١].

۞ ثم قال ﷺ: «**من ترك مالاً فلأهله**» يعنى: مَن ترك من الأموات مالاً فلأهله، يرثونه حسب ما جاء فى كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، «**ومَن ترك دَينًا أو ضِياعًا**» يعنى أولادًا صغارًا يضيعون «**فإلىَّ وعلىَّ**» يعنى فأمرهم إلىَّ، وأنا وليهم، والدَّيْن علىَّ أنا أقضيه ... هكذا كان ﷺ حينما فتح الله عليه.

أما قبل ذلك فكان يُؤتَى بالرجل ليصلى عليه فيسأل: «**هل عليه دَين؟**» إن قالوا: نعم، وليس له وفاء ترك الصلاة عليه... فجىء إليه فى يوم من الأيام برجل من الأنصار فتقدم ليصلى عليه، ثم سأل: «**عليه دَين؟**» قالوا: نعم... ثلاثة دنانير، فتأخر وقال: «**صلوا على صاحبكم**»[٢] فعرف ذلك فى وجوه القوم... ثم قام أبو قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: صلِّ عليه يا رسول الله وعلىَّ دَينه... فالتزمها أبو قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتقدم النبى ﷺ فصلى.

وفى هذا دليل: على عِظَم الدَّين، وأنه لا ينبغى للإنسان أن يستدين إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

(١٧٥) وعَنْ الْعِرْبَاض بن سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، حَدِيثُهُ السَّابِقُ فى بابِ الْمُحَافَظِة عَلَى السُّنَّة[٣].

---

(١) تفسير السعدى (ص ٧٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٩٧) كتاب الحوالات، ومسلم (١٦١٩) كتاب الفرائض.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(١٩) باب فيمن سَنَّ سُنة حسنة أو سيئة

۞ قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

هذا من جملة ما يدعو به عباد الرحمن، الذين ذكر الله أوصافهم فى آخر سورة الفرقان: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾[الفرقان: ٦٣: ٧٤].

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ﴾ أى: قرنائنا من أصحابٍ وأقرانٍ وزوجات ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أى: تَقَرُّ بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من هممهم، وعُلو مرتبتهم، أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مُطيعين لربهم عالمين عاملين... وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم، فى صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك، هبة لهم فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا ﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح مَن ذُكر، يكون سببًا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم، وينتفع بهم.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى: أوصلنا يا ربنا، إلى هذه الدرجة العالية... درجة الصدِّيقين، والكُمَّل من عباد الله الصالحين، وهى درجة الإمامة فى الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين، فى أقوالهم، وأفعالهم، يُقتدى بأفعالهم ويُطْمئنُّ لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون، ويهتدون.

ومن المعلوم، أن الدعاء ببلوغ شىء دعاءٌ بما لا يتمُّ إلا به.

وهذه الدرجة - درجة الإمامة فى الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين.

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال، والصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام، الذى يُوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيرًا كثيرًا، وعطاءً جزيلًا، وأن يكونوا فى أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل ... ولهذا - لما كانت هِمَمُهم ومطالبهم عالية - كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أى: المنازل الرفيعة، والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى، وتلذُّه الأعيُن، وذلك بسبب صبرهم، نالوا ما نالوا...كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ من ربهم، ومن ملائكته الكرام، ومن بعضٍ على بعضٍ، ويَسلَمون من جميع المُنغصات والمكدرات[1].

* * *

۞ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

أى: ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ... وهذا من أكبر نِعَم الله على عبده أن يكون إمامًا يهتدى به المهتدون، ويمشى خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ أى: يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته... ولا يكون العبد إمامًا حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شاملٌ للخيرات كلها، من حقوق الله، وحقوق العباد.

---

(١) تفسير السعدى (ص ٦٨٦-٦٨٧).

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن مَن كمَّلهما كما أُمر، كان قائمًا بدينه، ومَن ضيَّعهما، كان لما سواهما أضيع.... ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التى فيها حَقُّه، والزكاة أفضل الأعمال، التى فيها الإحسان لخلقه.

﴿وَكَانُواْ لَنَا﴾ أى: لا لغيرنا ﴿عَٰبِدِينَ﴾ أى: مُديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية فى أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله[1].

۞ وفى الآية الأخرى وضَّح الله عَزَّوَجَلَّ أنه جعلهم أئمة بسبب أنهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

لما صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله، وصبروا على أقدار الله، صبروا على طاعة الله ففعلوا ما أُمر به، وصبروا عن معصية الله فتركوا ما نهى عنه، وصبروا على أقدار الله التى تأتيهم من أجل دعوتهم إلى الحق وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى: علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين فى أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى...فالكتاب الذى أُنزل إليهم، هدى، والمؤمنون به منهم، على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباعٌ مُهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهى درجة الصدِّيقين...وإنما نالوا هذه الدرجة العالية ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ على التعلُّم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى فى سبيله، وكَفُّوا أنفسهم عن جِماحها فى المعاصى، واسترسالها فى الشهوات.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أى: وصلوا فى الإيمان بآيات الله، إلى درجة

---

(١) تفسير السعدى (ص ٦١١).

اليقين، وهو العلم التام، الموجب للعمل... وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعلُّمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذاك... فبالصبر واليقين، تُنَالُ الإمامة فى الدين[١].

(١٧٦) عَنْ أَبِى عَمرو جَرير بنِ عبد الله رضي الله عنه، قال: كُنَّا فى صَدر النَّهار عِنْد رسول الله ﷺ فَجاءهُ قوْمٌ عُرَاةٌ مُجْتابى النِّمار أَو الْعَباءِ. مُتَقلِّدى السُّيوفِ عامَّتُهمْ، بل كلهم مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّر وجهُ رسول الله ﷺ، لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنْ الْفَاقة، فدخلَ ثُمَّ خرج، فَأَمر بلالاً فَأَذَّن وأَقام، فَصلَّى ثُمَّ خَطبَ، فَقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى آخرِ الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وَالآيةُ الَّتى فى آخر الْحشْرِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ «تَصدَّق رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاع بُرِّه مِنْ صَاعِ تَمرِه» حَتَّى قَالَ: «وَلوْ بِشقِّ تَمْرةٍ» فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كادتْ كَفُّهُ تَعجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَد عَجزتْ، ثُمَّ تَتابعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعامٍ وَثياب، حتَّى رَأَيْتُ وجْهَ رسول الله ﷺ، يَتهلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فى الإِسْلام سُنَّةً حَسنةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وأَجْرُ مَنْ عَملَ بها من بَعدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورهِمْ شَىءٌ، ومَنْ سَنَّ فى الإِسْلامِ سُنَّةً سيِّئَةً كَانَ عَليه وِزرها ووزرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بعده مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزارهِمْ شَىْءٌ»[٢].

---

(١) تفسير السعدى (ص ٧٧١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة.

قَوْلُهُ: «مُجْتَابِى النِّمارِ» هُو بالجِيمِ وبعد الألِفِ باء مُوَحَّدَةٌ. والنِّمَارُ: جمْعُ نَمِرَة، وَهِىَ: كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ مُخطَّط. وَمَعنَى «مُجْتَابِيها» أى: لابِسيهَا قدْ خَرَقُوهَا فى رءوسهم. «والْجَوْبُ»: الْقَطْعُ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]، أَىْ: نَحَتُوهُ وقَطَعُوهُ. وَقَوْلُه «تمعَّرَ» هو بالعينِ

۞ لا بد أن نعلم أنه كلما ازداد الإيمان فى قلب العبد فإنه يكون أكثر مواساة لكل مَن حوله.

ولذلك كان النبى ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه.

وكان الصحابة أعظم الناس مواساة فيما بينهم.

۞ ونحن نعلم أن كل إنسان لا بد أن يتعرض لأى ابتلاء فى هذه الحياة الدنيا... فمنهم مَن يمرض.. أو يفتقر.. أو يموت له قريب.. أو يعانى من الهم والغم... وكل هؤلاء يحتاجون إلى مَن يواسيهم ويَجبر خاطرهم ويساهم فى حل مشاكلهم وتفريج همومهم.

ومَن نفَّس عن مؤمنٍ كُربة من كُرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة.

وها نحن فى هذا الحديث العظيم نرى صورة مُشرقة للمواساة بين المسلمين.. ففى هذا الحديث العظيم نرى كيف كان حرص النبى ﷺ وشفقته على أصحابه وأمته ... فبينما كان أصحاب الرسول ﷺ عند رسول الله ﷺ فى أول النهار إذ جاء قومٌ عامتهم من مُضَر أو كلهم من مُضَر، مُجتابى النمار، مُتقلدى السيوف رضي الله عنهم ... يعنى أن الإنسان ليس عليه إلا ثوبه قد اجتابه يستر به عورته، وقد ربطه على رقبته، ومعهم السيوف استعدادًا لِما يُؤمَرون به من الجهاد رضي الله عنهم.

فتمعَّر وجه النبى ﷺ ... يعنى تغيَّر وتَلوَّن لما رأى فيهم من الحاجة، وهم من مُضَر، من أشراف قبائل العرب، وقد بلغت بهم الحاجة إلى هذا الحال... فدخل بيته ثم خرج ثم أمر بلالاً فأذن ثم صلى ثم خطب الناس (عليه الصلاة والسلام)،

= المهملة، أَىْ: تَغَيَّرَ. وَقَوْلُه: «رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ» بفتح الكاف وضمِّها، أَىْ: صبْرَتَيْنِ. وَقَوْلُهُ: «كَأَنَّه مُذْهَبَةٌ» هو بالذال المعجمة، وفتح الهاءِ والباءِ الموحدة، قَالَهُ الْقَاضى عِيَاضٌ وغَيْرُهُ. وصَحَّفَه بَعضُهَمْ فَقَالَ: «مُدْهُنَةٌ» بِدَال مهملةٍ وضم الهاءِ وبالنون، وَكَذَا ضَبَطَهُ الْحُمَيْدِىُّ، والصَّحيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الأَوَّلُ. والْمُرَادُ بِهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ: الصَّفَاءُ وَالاسْتِنَارَةُ.

فحمد الله كما هى عادته، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

سبب قراءة هذه الآية أنها أبلغ فى الحث على الصدقة عليهم، ولِمَا فيها من تأكُّد الحق لكونهم إخوة.

۞ ثم أخذ النبى ﷺ يحثهم على الصدقة وهو يقول: «**تصدق رجل بديناره، تصدق بدرهمه، تصدق بثوبه، تصدق بصاع بُرِّه، تصدق بصاع تمره، حتى ذكر ولو شِق تمرة**».

وكان أصحاب الرسول ﷺ أحرص الناس على فعل الخير وأشدهم مسابقة إلى كل خير .. فذهب رجلٌ من الأنصار إلى بيته فجاء بصُرَّة كادت يده أن تعجز عن حملها .. بل قد عجزت من كثرة الأشياء التى أتى بها من بيته رضي الله عنه .. فلما رآه الصحابة أسرعوا جميعًا إلى بيوتهم وجاء كل واحدٍ منهم بما فى وسعه واستطاعته .. وبدأت الخيرات تتتابع حتى أصبح أمام النبى ﷺ الكثير والكثير من الطعام والثياب .. فبدأ وجه النبى ﷺ يتهلل بعد أن كان حزينًا لحال هؤلاء الناس ... صار وجهه ﷺ يتهلّل كأنه مذهبة.. يعنى من شدة بريقه ولمعانه وسروره ﷺ.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

وَأَمَّا سَبَبُ سُرُورِهِ ﷺ فَفَرَحًا بِمُبَادَرَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَبَذْلِ أَمْوَالِهِمْ لِلَّهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلِدَفْعِ حَاجَةِ هَؤُلَاءِ الْمُحتَاجِينَ وَشَفَقَةِ الْمُسْلِمِينَ بَعضِهِمْ عَلَى بَعضٍ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى...وَيَنْبَغِى لِلْإِنْسَانِ إِذَا رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَنْ يَفْرَحَ وَيُظْهِرَ سُرُورَهُ وَيَكُونَ فَرَحُهُ لِمَا ذَكَرنَاهُ[١].

(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٤٤).

ثم قال ﷺ: **«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، ومَن سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سيئة كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»**.

والمراد بالسُّنة فى قوله ﷺ: **«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً»** أى: ابتدأ العمل بسُنة، وليس مَن أحدث... لأن مَن أحدث فى الإسلام ما ليس منه فهو رَدّ وليس بحسن... لكن المراد بمَن سَنَّها أى: صار أول مَن عمل بها، كهذا الرجل الذى جاء بالصدقة رضي الله عنه ... فدلَّ هذا على أن الإنسان إذا وُفِّق لسَنِّ سُنة حسنة فى الإسلام، سواء بادر إليها أو أحياها بعد أن أُميتت فله أجرها وأجر مَن عمل بها من بعده.

❁ وذلك لأن السُّنة فى الإسلام ثلاثة أقسام:

سُنة سيئة: وهى البدعة.. فهى سيئة، وإن استحسنها مَنْ سَنَّها.

لقول النبى ﷺ: **«كل بدعة ضلالة»**[(١)].

وسُنَّة حسنة: وهى على نوعين:

النوع الأول: أن تكون السُّنة مشروعة ثم يُترك العمل بها .. ثم يُجددها مَن يُجددها... مثل قيام رمضان بإمام، فإن النبى ﷺ شرع لأمته فى أول الأمر الصلاة بإمام فى قيام رمضان، ثم تخلف خشية أن تُفرض على الأمة، ثم تُرك الأمر فى آخر حياة النبى ﷺ وفى عهد أبى بكر رضي الله عنه، وفى أول خلافة عمر... ثم رأى عمر رضي الله عنه أن يجمع الناس على إمامٍ واحد ففعل ... فهو رضي الله عنه قد سَنَّ فى الإسلام سُنة حسنة؛ لأنه أحيا سُنة كانت قد تُركت.

والنوع الثانى: من السنن الحسنة أن يكون الإنسان أول مَن يبادر إليها، مثل حال الرجل الذى بادر بالصدقة حتى تتابع الناس، ووافقوه على ما فعل.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٧) كتاب الجمعة.

فالحاصل أن مَن سَنَّ فى الإسلام سُنة حسنة - ولا سُنة حسنة إلا ما جاء به الشرع - فله أجرها وأجر مَن عمل بها من بعده[(١)].

۞ فهيا يا أحبابى ندل الناس على الخير ليفعلوه وليكون ذلك فى ميزان حسناتنا يوم القيامة فقد قال النبى ﷺ: «**الدَّالُّ على الخير كفاعله**»[(٢)].

- فإذا رأيتم إخوانكم لا يُصلون فشجعوهم على الصلاة وسيكون ذلك فى ميزان حسناتكم.. وإذا رأيتموهم لا يقرأون القرآن فشجعوهم على قراءته وسيكون ذلك فى ميزان حسناتكم.. وإذا رأيتموهم لا يستعملون السواك فشجعوهم على استعماله ولكم الأجر إلى يوم القيامة... وهكذا فى كل سُنة ينساها المسلمون ينبغى علينا أن نُذكرهم بها وسيكون ذلك فى ميزان حسناتنا.

(١٧٧) وعَنْ ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «ليس مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابنِ آدمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دمِهَا لأَنَّهُ كَان أَوَّل مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»[(٣)].

۞ ففى هذا الحديث يذكر النبى ﷺ أنه لما قتل قابيلُ هابيل وكان هابيل هو أول مقتول على وجه الأرض فلم يُقتل أحدٌ قبله ... وقد كان هابيل أقوى من قابيل ويستطيع أن يقتله ولكنه لم يفعل لأنه كان أتقى من قابيل...ولذا قال: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[المائدة: ٢٨-٢٩].

فكان قابيل هو أول قاتل فى هذا الكون..وهو أول مَن سَنَّ القتل فى هذا الكون .. وكان هابيل هو أول مَن سَنَّ الورع عن القتل والعفو والتسامح.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٨٠-٤٨١).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٦٠٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣٢١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٦٧٧) كتاب القسامة.

فجاءت ذرية آدم عليه السلام بعد ذلك .. فكان منهم مَنْ يقتدى بهابيل الطيب الذى كان يخاف من الظلم والعدوان.

ومن ذرية آدم مَنْ يقتدى بابن آدم القاتل، فيبْغِى ويعتَدِى، ويظلم ويؤذى، ويتبعُ الشيطان...وهؤلاء كثيرون موجودون على وجه الأرض، فى كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وقد دَعانا رسولُ الله ﷺ إلى أن نقتدىَ بابن آدم الطيب .

عَنْ سَعدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ فِتْنَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ خَيرٌ مِنَ المَاشِى، وَالمَاشِى خَيرٌ مِنَ السَّاعِى»**.

قَالَ: أَفَرَأَيتَ إِنْ دَخَلَ عَلَىَّ بَيتِى وَبَسَطَ يدَهُ إِلَىَّ لِيقْتُلَنِى؟

قَالَ: **«كُنْ كَابْنِ آدَمَ»**[1] .

وبيَّنَ لنا رسولُ الله ﷺ، أنَّ ابنَ آدم القاتل يتحمَّلُ جزءًا من دمِ كلِّ إنسانٍ يُقْتَلُ ظلمًا، حتى قيامِ الساعة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: **«لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»**[2][3].

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٢٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٢١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٦٧٧) كتاب القسامة.

(٣) القصص القرآنى / د. صالح الخالدى (١/ ١٤٧-١٤٨).

(٢٠) باب في الدلالة على الخير والدعاء إلى هدًى أو ضلالة

۞ الدلالة على الخير يعنى أن يبين الإنسان للناس الخير الذى ينتفعون به فى أمور دينهم ودنياهم...ومَن دلَّ على خير فهو كفاعله، وأما الدعوة إليه فهى أخص من الدلالة؛ لأن الإنسان قد يدل فيبين ولا يدعو، فإذا دعا كان هذا أكمل وأفضل، والإنسان مأمور بالدعوة إلى الخير أى الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ...كما قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وآخر الآية: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج:٦٧].

۞ وقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

أى: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أى: كل أحدٍ على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين.

فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهى المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها...والنواهى من المضار وتعدادها... وإما بذكر إكرام مَن قام بدين الله وإهانة مَن لم يَقُم به.

وإما بذكر ما أعدَّ الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل ... فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعية إلى الباطل، فيُجادل بالتى هى أحسن، وهى الطرق التى

تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التى كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدى المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ علم السبب الذى أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيُجازيه عليها.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ علم أنهم يَصلُحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم[1].

فهذه الآيات وأمثالها كلها تدل على أن الإنسان ينبغى له أن يكون داعيًا إلى الله ... ولكن لا يمكن أن تتم الدعوة إلا بعلم الإنسان بما يدعو إليه؛ لأن الجاهل قد يدعو إلى شىء يظنه حقًّا وهو باطل، وقد ينهى عن شىء يظنه باطلاً وهو حق... فلا بُدَّ من العلم أولاً فيتعلم الإنسان ما يدعو إليه.

الدعوة إلى الله تعالى (وظيفة الأنبياء)

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

۞ وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فالدعوة إلى الله تعالى هى وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل فى أممهم، والناس تَبعٌ لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله أن يُبلغ ما أُنزل إليه، وضَمِن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته، لهم من

(١) تفسير السعدى (ص ٥١٩).

حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبى ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلَّغ عنه ولو حديثًا.

وتبليغ سُنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعله كثيرٌ من الناس، وأما تبليغ السُّنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم فى أممهم... جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

السبيل إلى دعوة الناس

۞ إن الداعية الصادق هو الذى يعلم من أين يدخل إلى قلوب الناس من حوله فهو دائمًا يرفع شعار البسمة والرحمة ممتثلًا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا؛ فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم ... فتَرْكُ الدنيا فضيلة، وتَرْكُ الذنوب فريضة، فكيف يُؤمَر بالفضيلة مَن لم يَقُم بالفريضة!

فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تُحبِّب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله؛ فإن القلوب مفطورة على محبته فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والإصرار عليها والاستقلال منها.

(١٧٨) وعَنْ أَبِى مسعود عُقبَةَ بْن عمْرو الأنْصَارِىِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مثلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٣) كتاب الإمارة.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ فَضِيلَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ وَالْمُسَاعَدَةِ لِفَاعِلِهِ وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لاسيما لِمَنْ يَعمَلُ بِهَا مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ وَغَيْرِهِمْ وَالْمُرَادُ بِمِثْلِ أَجْرِ فَاعِلِهِ أَنَّ لَهُ ثَوَابًا بِذَلِكَ الفعل كما أن لفاعله ثوابًا ولايلزم أَنْ يَكُونَ قَدرُ ثَوَابِهِمَا سَوَاءً[١].

۞ والمقصود أنه قد يكون هناك إنسان قد مَنَّ الله عليه بالمال الحلال الوفير .. وهو من خير الناس فلا يستعمل هذا المال إلا فيما يُرضى الله ..فتراه يبنى المساجد ويكفل اليتامى والأرامل ويبنى المدارس ويكفل طلبة العلم ويفعل الخير الكثير وهو يعلم يقينًا أن الله عَزَّوَجَلَّ سيُخلف عليه أضعاف ما أنفقه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

[سبأ: ٣٩]

وأن النبى ﷺ قال: «**ثلاثٌ أُقسم عليهن: ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة**»[٢].

۞ وقد يكون هناك إنسانٌ آخر عنده مالٌ كثير من الحلال ولكنه لا يدرى كيف يُنفق المال فى أوجه الخير ولا يعرف أوجه الخير التى ينبغى أن ينفق فيها هذا المال...فيأتيه رجلٌ فقير ولكنه يعلم أماكن الفقراء واليتامى والمحتاجين.. فيذهب إلى ذلك الرجل الغنى فيدله على هؤلاء الفقراء واليتامى والمحتاجين.. فإذا ذهب إليهم ذلك الرجل الغنى وأعطاهم زكاة ماله وفرج كُرباتهم كان له الأجر الكبير ... وكان للرجل الذى دَلَّه عليهم مثل أجره مع أنه لم ينفق جنيهًا واحدًا «**الدَّال على الخير كفاعله**».

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٥٨-٥٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢٤).

۞ وقد يكون هناك رجلٌ عالِم يُعلم الناس فى كل مكان ويجنى الثواب الجزيل على تعليم الناس وهدايتهم ... وهناك رجلٌ آخر يحب الدين ويحب أهل العلم وليس عنده علم لكنه يحب الخير .. فيذهب إلى أصدقائه وجيرانه ويتصل بهم ويرسل لهم الرسائل ليدلهم على هذا العالم الجليل ليتعلموا على يديه .. فكل مَن يتعلم وكل مَن يهتدى فهم فى ميزان حسنات ذلك العالم وكذلك الرجل الذى دلَّهم عليه «**الدَّال على الخير كفاعله**».

۞ وقد يكون هناك طبيب يتمنى أن يفعل الخير ... فيأتيه رجلٌ ويدله على أماكن المرضى الفقراء فيذهب إليهم ويُداويهم .. فكل من يَكتب الله له الشفاء على يد ذلك الطبيب فهو فى ميزان حسنات الطبيب والرجل الذى دَلَّ الطبيب عليهم «**الدَّالُّ على الخير كفاعله**».

۞ فإن لم تكن تملك مالًا ولا علمًا ولا منصبًّا لخدمة الناس ونفعهم فاحرص على أن تدل الناس من حولك على فعل الخير وسيكون لك مثل أجرهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا.

(١٧٩) وعَنْ أَبِى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إلى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبعَهُ لا يَنقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِم شَيْئًا، ومَنْ دَعَا إلى ضَلالَةٍ كان عليه من الإثْم مِثْلَ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنقُصُ ذلك مِنْ آثامهم شيئًا»[1].

۞ «**مَن دعا إلى هدى**» الدعوة إلى الهدى والخير والصلاح تكون بالقول والعمل .. فمن الناس مَن يدعو إلى الجنة بقوله وعمله .. كمن يدعو الناس إلى الصلاة وهو يُصلى ويواظب على الصلاة ... فهذا من أفضل الناس؛ لأن الناس يُصدقونه ويتبعونه ؛ لأن أعماله وأحواله تُصدق أقواله.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤) كتاب العلم.

ومن الناس مَن يدعو إلى الجنة بقوله ويصدهم عنها بعمله .. كمن يدعو الناس إلى الصلاة وهو لا يُصلِّى .. فهذا لا يُصدقه أحد ولا يتبعه أحد.

فما أجمل أن تدعو الناس إلى الطاعة التى تفعلها أنت .. أو تدعوهم إلى الخُلق الذى تتحلَّى به أنت .. أو تدعوهم إلى الخير الذى تفعله أنت .. فمن تبعك وفعل مثلك فلك مثل أجره وأجر مَن تبعك إلى يوم القيامة.

فإن دعوت الناس إلى كفالة الأيتام .. فكل مَن يكفل يتيمًا يكون لك مثل أجره وأجر مَن تبعك إلى يوم القيامة .. وإن دعوت الناس إلى صلاة الضحى أو قيام الليل أو صيام النوافل أو المحافظة على الأذكار أو عمل المشروعات الخيرية التى تعود بالنفع على الناس .. فكل مَن يفعل ذلك يكون لك مثل أجره وأجر مَن تبعك إلى يوم القيامة.

۞ وعلى العكس .. فمن دعا الناس إلى لهوٍ أو إلى معصية أو إلى ترك العبادات أو إلى إيذاء الناس أو سرقة أموالهم .. فكل مَن يفعل ذلك فله مثل وزره ووزر مَن تبعه إلى يوم القيامة.

۞ وكما أسلفت .. فالدعوة إلى الهدى تكون بالقول والفعل .. وبخاصة من الذين يقتدى الناس بهم .. فإنه إذا كان يُقتدى به ثم قال: افعل كذا أو افعلى كذا فكأنه دعا الناس إلى فعله .. فإن دعاهم إلى خير فله مثل أجرهم دون أن يُنقص ذلك من أجورهم شيئًا .. وإن دعاهم إلى شرٍّ فله مثل وزرهم دون أن يُنقص ذلك من أوزارهم شيئًا.

فاللهمَّ اجعلنا دُعاة إلى الخير والهدى.

۞ **وفى هذا الحديث عدة فوائد عظيمة .. منها :**

الفائدة الأولى: عظيم ما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ وادَّخره لنبيه ﷺ فى الآخرة من الأجر والثواب... وذلك لأنه هو الذى دعا الأمة كلها إلى فعل الخيرات والطاعات

فله مثل أجور أمته كلها إلى يوم القيامة.

الفائدة الثانية: فضيلة الإرشاد لأعمال الخير، وتعليم الناس، والتواصي بالحق، ومساعدة فاعل الخير قدر الإمكان... لقوله: «**مَن دعا إلى هدى**».

الفائدة الثالثة: الحث على تَلقِّي العلم، حيث إن المسلم لن يدل على خير ويُعلّمه الناس، حتى يعلم أن هذا العمل خير، وموافق لسُنة المصطفى ﷺ، حتى لا يدعو إلى بدعة أو يقع فى محظور آخر، دون أن يدرى.

والذى يدل على وجوب العلم أولًا قبل العمل، قوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] ، وبوَّب الإمام البخارى رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه الآية بابًا سمَّاه (باب العلم قبل العمل) ، ولكن يجب أن يفهم هذا الكلام فهمًا صحيحًا، ويكون وسطًا، بين مَن ينصح ويأمر الناس دون أى علم، ودون أن يحقق شيئًا حتى أمر التوحيد.. وبين مَن يأخذ العلمُ جُلَّ وقته، ويترك النُّصح لأفراد المسلمين بحُجة تلقِّى العلم أولًا.

الفائدة الرابعة: سعة ما عند الله عَزَّوَجَلَّ من الأجر والمثوبة لعباده المؤمنين، حيث يعطى مَن دعا إلى هدى أجره وأجر مَن عمل بدعوته إلى يوم القيامة.

الفائدة الخامسة: علمنا من الحديث أن أحدًا لا يحمل عن أحدٍ وزره، حتى ولو كان هو الذى أضله... ولكن الذى دعا إلى ضلالة يحمل مثل وزر مَن أضله، أى أنه يحمل وزرين: وزر الضلال ووزر الإضلال... وعلى هذا المعنى يُفهم قوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥] (١).

---

(١) شمائل الرسول ﷺ/ أحمد عبد الفتاح الزواوى (٢/ ٨٦-٨٧) بتصرف.

(١٨٠) وعَنْ أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأعطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ، يُحبُّ الله ورسُولَهُ، وَيُحبُّهُ الله وَرَسُولُهُ» فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعطَاهَا. فَلَمَّا أصبحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رسولِ الله ﷺ: كُلُّهُمْ يَرجُو أَنْ يُعطَاهَا، فقال: «أَيْنَ عليُّ بن أبى طالب؟» فَقيلَ: يا رسول الله هُو يَشْتكى عَيْنَيْه قال: «فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ» فَأُتِى بِهِ، فَبَصقَ رسولُ الله ﷺ فى عينيْهِ، وَدعا لَهُ، فَبَرِئَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجعٌ، فَأَعطَاهُ الرَّايَةَ. فقال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا رسول الله أُقاتلهمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِما يجِبُ عليهم مِنْ حقِّ الله تَعَالَى فِيهِ، فَو الله لأَنْ يَهْدِىَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله وحده عند شرحنا للحديث رقم (٩٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٨١) وعَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ فَتَى مِنْ أَسْلَمَ قال: يا رسُولَ الله إِنِّى أُريدُ الْغَزْوَ ولَيْس مَعِى مَا أَتجهَّزُ بِهِ؟ قَالَ: «ائْتِ فُلانًا فإِنه قَد كانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ» فَأَتَاهُ فقال: إِنَّ رسولَ الله ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلامَ وَيَقُولُ: أَعطِنِى الذى تجَهَّزْتَ بِهِ، فقال: يا فُلانَةُ أَعطِيهِ الذى تجَهَّزْتُ بِهِ، ولا تَحبِسِى مِنْهُ شَيْئًا، فَوالله لا تَحبِسِينَ مِنْهُ شَيْئًا فَيُبَارَك لَكِ فِيهِ[٢].

۞ ففى هذا الحديث يخبر أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خادم الرسول ﷺ أن فتًى من قبيلة أسلم جاء إلى النبى ﷺ يطلب منه أن يُجهزه للغزو فى سبيل الله؛ لأنه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢١٠) كتاب المغازى ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.
قوله: «يَدُوكُونَ»: أىْ يخُوضُونَ ويتحدَّثون، قوْلُهُ: «رِسْلِكَ» بكسر الراءِ وبفَتحِهَا لُغَتَانِ، وَالْكَسْرُ أَفْصَحُ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٤) كتاب الإمارة.

ليس عنده المال الذى يكفيه لشراء ما يحتاج إليه فى الغزو من سلاح ودابة قوية وغير ذلك من مستلزمات الجهاد ... فأرشده النبى ﷺ ودلَّه على رجلٍ آخر كان قد تجهَّز براحلته وسلاحه من أجل الغزو والجهاد ولكنه أُصيب بمرضٍ أقعده عن الخروج إلى الجهاد ... فذهب هذا الفتى المُحب للجهاد إلى ذلك الرجل المريض فأخبره أن النبى ﷺ يُقرئه السلام ... وأخبره بأنه يريد الجهاد وليس عنده ما يتجهز به .. وأن النبى ﷺ دَلَّه عليه ليأخذ منه ما تجهَّز به ليذهب ويجاهد فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ .. فما كان من هذا الرجل إلا أن قال لزوجته: يا فُلانَةُ أَعطِيهِ الذى تجهَّزْتُ بِهِ، ولا تَحْبِسِى مِنْهُ شَيْئًا، فَوالله لا تَحْبِسِينَ مِنْهُ شَيْئًا فَيُبَارَك لَكِ فِيهِ.

ففى هذا دليلٌ على أن الإنسان إذا دَلَّ أحدًا على الخير فإنه يفوز بالأجر والثواب.. وقد قال النبى ﷺ: «**الدَّالُّ على الخير كفاعله**».

وفيه دليلٌ أيضًا على أن الإنسان إذا أراد أن يعمل عملًا صالحًا ولكن حال المرض بينه وبين ذلك العمل الصالح فإنه ينبغى أن يدفع ما تجهَّز به وأعدَّه للقيام بهذا العمل الصالح إلى مَن يقوم به حتى يُكتب له الأجر كاملًا .. وذلك لأن الإنسان إذا نوى خيرًا أو طاعة وتجهَّز لذلك وأخذ بالأسباب فحال المرض بينه وبين ذلك الخير أو تلك الطاعة فإنه يُكتب له الأجر كاملًا بفضل الله (جلَّ وعلا) ... قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ قَالَ: هَاجَرَ خَالِدُ بْنُ حِزَام إِلَى أَرضِ الْحَبَشَةِ، فَنَهَشَتْهُ حَيَّةٌ فِى الطَّرِيقِ فَمَاتَ، فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ: فَكُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ

وَأَنْتَظِرُ قُدُومَهُ وَأَنَا بِأَرضِ الْحَبَشَةِ، فَمَا أَحْزَنَنِى شَىْءٌ حُزْنَ وَفَاتِهِ حِينَ بَلَغَنِى؛ لِأَنَّهُ قَلّ أَحَدٌ مِمَّنْ هَاجَرَ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا مَعَهُ بَعضُ أَهْلِهِ، أَوْ ذَوِى رَحِمِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعِى أَحَدٌ مِنْ بَنِى أَسَدِ ابْنِ عَبْدِ الْعُزَّى[(١)].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ فَضِيلَةُ الدلالة على الخير وفيه أن ما نوى الإِنْسَانُ صَرْفَهُ فِى جِهَةِ بِرٍّ فَتَعَذَّرَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْجِهَةُ يُسْتَحَبُّ لَهُ بَذْلُهُ فِى جِهَةٍ أُخْرَى مِنَ الْبِرِّ وَلَا يَلْزَمُهُ ذَلِكَ مَا لَمْ يَلْتَزِمْهُ بِالنَّذْرِ[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣/ ١٠٥٠ رقم ٥٨٨٨)، وأبو نعيم الأصبهانى فى «معرفة الصحابة» (٢/ ٩٥٣-٩٥٤ رقم ٢٤٦٥).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٥٩-٦٠).

(٢١) باب في التعاون على البر والتقوى

التعاون معناه التساعُد، وأن يعين الناس بعضهم بعضًا على البر والتقوى... فالبر: فعل الخير، والتقوى: اتقاء الشر.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ أي: ليُعن بعضكم بعضًا على البر. وهو: اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله، وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسمٌ جامع، لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة ... وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المؤمنين، بكل قول يبعث عليها، وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ﴾ أي: لا يكن أحدكم عونًا لأخيه على فعل كل ما يُغضب الله من المعاصي التي يأثم العبد عليها ويبوء بسببها بغضب الله وعقابه.

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ هو: التعدِّي على الخلق، في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم... فكل معصية وظلم، يجب على العبد، كَفُّ نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على مَنْ عصاه وتجرأ على محارمه. فاحذروا المحارم، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل(١).

والأمر في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟﴾ أمر إيجاب فيما يجب، واستحباب فيما

(١) تفسير السعدي (ص ٢٢٨).

يُستحب... وكذلك فى التقوى أمر إيجاب فيما يحرم،وأمر استحباب فيما يُكره.

۞ وأما الدليل الثانى فى التعاون على البر والتقوى فهو قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر] فأقسم الله بالعصر الذى هو الزمن (الليل والنهار) محل أفعال العباد وأعمالهم .. فالزمن هو وعاء الأعمال .. فمن الناس مَن يملؤه بالخير ومنهم مَن يملؤه بالشرِّ .. فأقسم الله تعالى بالعصر ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أى: إن كل إنسانٍ خاسر ... وذلك يشمل كل إنسان : مؤمن وكافر .. طائع وفاسق .. ذكر وأنثى .. والخسارة قد تكون مُطلقة .. كحال مَن خسر الدنيا والآخرة ، وقد تكون خسارة من بعض الوجوه دون بعض كمن خسر الدنيا ولكنه ربح الآخرة أو كمن ربح الدنيا وخسر الآخرة.

فأقسم الله بالعصر على أن الإنسان فى خُسر إلا مَنْ جمع هذه الصفات الأربعة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ فأصلحوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح، وأصلحوا غيرهم بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر.

فالإيمان يكون بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به، مما أخبر به الله ورسوله... وقد بيّنه الرسول ﷺ فى قوله: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[1].

ولا يكون الإيمان بدون علم .. فهو فرعٌ عنه لا يتم إلا به .. فإن الإنسان إذا لم يكن عنده علم فقد يفعل شيئًا مخالفًا لأصول الإيمان والتوحيد وهو يظن أنه من الإيمان.

وأما عمل الصالحات فهو كل عملٍ يُقرب العبد إلى الله (جلَّ وعلا) ..

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.

ولا يكون العمل صالحًا إلا بشرطين اثنين هما: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والمتابعة لرسول الله ﷺ.

فالإخلاص: أن تقصد بعملك وجه الله والدار الآخرة ولا تقصد بعملك مُراءاة الناس لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عَمِل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشِركَه**»(١).

وأما المتابعة: فهي المتابعة للرسول ﷺ بحيث لا تأتي ببدعة تجعل العمل مردودًا عليك ... فقد قال ﷺ: «**مَن عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢). أي مردودٌ عليك.

والعمل الصالح هذا شاملٌ لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، الواجبة والمستحبَّة.

۞ ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فأما التواصي بالحق، الذى هو الإيمان والعمل الصالح، أى: يوصى بعضهم بعضًا بذلك، ويَحثُّه عليه، ويُرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين، يُكمِّل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يُكمِّل غيره... وبتكميل الأمور الأربعة، يكون العبد قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم(٣).

قال الشافعى رَحِمَهُ اللَّهُ: **لو لم يُنْزِل الله على عباده سورة غير هذه السورة لكفتهم.** لأنها جامعة مانعة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

(٣) تفسير السعدى (ص ١١٠٢).

(١٨٢) عن أَبى عبد الرحمن زيد بن خالد الْجُهَنىِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ جهَّزَ غَازِيًا فى سبِيل الله فَقَد غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَد غَزَا»[1].

۞ «**مَنْ جهَّزَ غَازِيًا فى سبِيل الله فَقَد غزَا**» ؛ لأن هذا من باب التعاون على البر والتقوى .. ويكون تجهيز الغازى بتزويده بالراحلة والسلاح والمتاع .. فإن فعل ذلك فقد غزا أى: كُتب له أجر الغازى ؛ لأنه أعانه على ذلك.

«**وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَد غَزَا**» فالدولة الإسلامية لها جبهة خارجية وجبهة داخلية .. أما الجبهة الخارجية فيتكفل بها الجيش الإسلامى المجاهد فى سبيل الله .. وأما الجبهة الداخلية فيتكفل بها رجال الشرطة فى تلك البلدة. فإذا خرج الغُزاة مجاهدين فى سبيل الله ناشرين وناصرين للإسلام فهناك عناية خاصة بالجبهة الداخلية: ألا وهى العناية بأُسر المجاهدين والقيام بشئونهم .

وفى الحقيقة أن من أبرز معالم العناية بالجبهة الداخلية: العناية بأُسر المُجاهدين، والقيام بحاجات نسائهم وأولادهم، وصيانة حُرماتهم، فهم مشغولون بالذَّود عن حِياض الأمة، ويُعرِّضون أرواحهم للخطر فى سبيلها، فلا أقل من أن ترعى الأمة أهليهم وعائلاتهم فى غيبتهم... حتى إن رسولنا الكريم ﷺ ليعتبر هذه الرعاية ضربًا من الجهاد فى سبيل الله.

وفى هذا جاء الحديث الصحيح المتفق عليه: «**مَنْ جهَّزَ غَازِيًا فى سبِيل الله فَقَد غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَد غَزَا**».

فما أجمل هذا وما أروعه! أن تُعَدَّ خلافة الغازى بخيرٍ فى أهله وماله ضَربًا من الغزو، ومشاركة فى الجهاد...فهذا يُقاتل العدو، وهذا يحفظ له أهله وولده.

وقريبٌ من ذلك رعاية ما خلَّفه وراءه من مالٍ، من أرضٍ وحرثٍ، أو مصنعٍ،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٤٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٩٥) كتاب الإمارة.

أو محل تجارة، أو غير ذلك...فينبغى أن يتقرَّب المجتمع المدنى إلى الله بحفظه، واعتباره كمال اليتيم، لا يُقرَب إلا بالتى هى أحسن، ولا يُعتبَر مالًا (سائبًا) حيث غاب عنه صاحبه، ويُطبَّق عليه المثل القائل: (المال السايب يُعلِّم السرقة).

إذًا... فإعانة الغازى تكون على وجهين: الأول: أن يُعينه فى رَحله ومتاعه وسلاحه...والثانى: أن يُعينه فى كونه خلف عنه فى أهله؛ لأن هذا من أكبر العون، فإن كثيرًا من الناس يُشكل عليه مَن يكون عند أهله يقوم بحاجاتهم، فإذا قام هذا الرجل بحاجة أهله وخلفه فيهم بخيرٍ فقد غزا.

ومن ذلك ما جرى لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه حين خلَّفه رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك...خلفه فى أهله، فقال: يا رسول الله، أتدعنى مع النساء والصبيان! فقال له: **«أما ترضى أن تكون منى بِمَنْزِلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى»**(١) يعنى أن أُخلفك فى أهلى، كما خلف موسى هارون فى قومه، حينما ذهب إلى ميقات ربه.

التحذير من خيانة المجاهد في أهله:

أما مَن خَان المُجاهد فى أهله، فقد ارتكب إثمًا عظيمًا، ويُضاعَف الوزر عليه، فإن المعصية يَتَاضعف إثمها بما يُصاحبها من مُلابسات.

فالزانى بامرأة المُجاهد، أو بحليلة الجار: أعظم عقوبة عند الله من الزانى بامرأة عادية ... وقد روى مسلم، عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«حُرمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِى أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟»**، وفى رواية: **«فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ»**، فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **«فَمَا ظَنُّكُمْ؟»**(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤١٦) كتاب المغازي، ومسلم (٢٤٠٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٧) كتاب الإمارة.

ومعنى: «فَمَا ظَنُّكُمْ؟»: أى ما تظنون فى رغبته فى أخذ حسناته والاستكثار منها فى ذلك المقام ... أى: لا يُبقى منها شيئًا إن أمكنه!

وقد رواه النسائى، وزاد فيه: «أَتَرَوْنَ يَدَعُ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئًا؟»[١].

قال ابن النحاس: (وقد روى هذا الحديث من وجوه لا تُحصَى، وعن عدد من الصحابة.

قال أبو عبد الله الحليمى مُعلِّقًا على هذا الحديث: هذا - والله أعلم - لعِظَم حقِّ المُجاهد على القاعد، فإنَّه نابَ عنه، وأسقط بجهاده فرض الخروج عنه، ووقاه مع ذلك بنفسه، وجعل نفسه حصانًا له، وجُنَّة دونه، فكانت خيانته له فى أهله أعظم من خيانة الجار فى أهله، كما يكون خيانة الجار أعظم من خيانة البعيد، والله أعلم)[٢].

وقد جاء فى حديث المقداد، عند أحمد والطبرانى: «وَلأَنْ يَزْنِىَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ: أيسرُ (أى أهون) مِنْ أَنْ يَزْنِىَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ»[٣].

فانظر كيف جعل الحديث حرمة نساء المجاهدين كحرمة الأمهات، وهذا يتمثَّل فى أمرين:

الأول: فى بِرِّهن والإحسان إليهنَّ، وقضاء حوائجهنَّ.

والثانى: فى تحريم التعرُّض لهنَّ بريبة من خَلوة أو نظر بشهوة، أو حديثٍ محظور، أو غير ذلك ... ومعنى هذا: أن مَن زنى بامرأة المُجاهد فكأنما زنى بأمه، والعياذ بالله.

وفى الحديث الذى رواه عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «مَثَلُ الَّذِى يَجْلِسُ عَلَى

(١) رواه النسائى (٣١٩١)، وفى الكبرى (٣/ ٣٤)، فى الجهاد، عن بريدة بن الحصيب.

(٢) نقله ابن النحاس فى مشارع الأشواق (١/ ٣٠٨).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والبخارى فى الأدب، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٤٣).

فِرَاشِ الْمُغِيّبَةِ، مَثَلُ الَّذِى يَنْهَشُهُ أَسْودُ (أى حية) **مِنْ أَسَاوِدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١]، والمغيبة: التى غاب عنها زوجها، لا سيما فى الجهاد.

وبهذا يحيا المُجاهد فى جهاده بنفسٍ مطمئنة، واثقًا بأنَّ من ورائه مجتمعًا أمينًا على مَن خلَّفه وما خلَّفه ... وهذا له أثره وأهميته فى بقاء (الرُّوح المعنوية) فى الجيش المسلم قوية وثابتة، لا يعتريها وَهَنٌ ولا خَوَرٌ[٢].

ويُؤخَذ من هذا أن كل مَن أعان شخصًا على طاعة الله فله مثل أجره.

فإذا أعنت طالب علم فى شراء الكتب له، أو تأمين السكن، أو النفقة، أو ما أشبه ذلك، فإن لك أجرًا - أى: مثل أجره - من غير أن يُنقص من أجره شيئًا، وهكذا أيضًا لو أعنت مُصليًا على تسهيل مهمته فى صلاته فى مكانه وثيابه، أو فى وضوئه، أو فى أى شىء فإنه يُكتب لك فى ذلك أجر.

فالقاعدة العامة أن مَن أعان شخصًا على طاعة الله كان له مثل أجره، من غير أن يُنقص من أجره شيئًا[٣].

(١٨٣) **وعَنْ أَبِى سعيدٍ الخُدرِىِّ** رضي الله عنه **أَنَّ رسولَ الله** ﷺ**، بَعَثَ بَعثًا إِلى بَنى لِحيانٍ مِنْ هُذَيْلٍ فقالَ: «لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا»**[٤].

❁ أى: أن النبى ﷺ بعث سرية لغزو بنى لِحيان .. وقد اتفق العلماء على أن بنى لحيان كانوا فى ذلك الوقت كفارًا فبعث إليهم النبى ﷺ بعثًا ليغزوهم وأمر ذلك البعث أن يخرج من كل قبيلة نصف عدد رجالها وأن يبقى النصف الآخر ليحفظوا المجاهدين فى نسائهم وأولادهم وليقوموا بشئونهم .. والأجر

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٤٠٥).

(٢) فقه الجهاد / د. يوسف القرضاوى (١/ ٦٦٢-٦٦٤) بتصرف.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٩٥).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٦) كتاب الإمارة.

بينهما ... وأما كون الأجر بينهما فهو محمولٌ على ما إذا خلف المقيمُ الغازى فى أهله بخيرٍ كما شرحناه فى الحديث السابق.

(١٨٤) وعَنْ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسُولَ الله ﷺ لَقِيَ رَكْبًا بالرَّوْحَاءِ فقال: «مَنِ الْقَوْمُ؟» قالُوا: المُسْلمُونَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قال: «رسولُ الله» فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قال: «نَعمْ وَلَكِ أَجْرٌ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبى ﷺ لَقِيَ ركبًا بالرَّوحاء .. والرَّكب هم أصحاب الإبل خاصة .. وأصله أن يُستعمل فى عَشرة فما دونها .. وأما الرَّوحاء فهى مكان على بُعد ستةٍ وثلاثين ميلًا من المدينة .. وكان هذا اللقاء فى حجة الوداع.

فقال لهم ﷺ: «مَن القوم؟».

قَالَ الْقَاضِى عِيَاضٌ: يُحتمَلُ أَنَّ هَذَا اللِّقَاءَ كَانَ لَيْلًا فَلَمْ يعرِفُوهُ ﷺ وَيُحتَمَلُ كَوْنُهُ نَهَارًا لَكِنهُمْ لَمْ يَرَوْهُ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ لِعَدَمِ هِجْرَتِهِمْ فَأَسْلَمُوا فِى بُلْدَانِهِمْ وَلَمْ يُهَاجِرُوا قَبْلَ ذَلِكَ(٢).

فلما قال لهم النبى ﷺ: «مَنِ الْقَوْمُ؟» قالُوا: المُسْلمُونَ، فَمَنْ أَنْتَ؟ قال: «رسولُ الله» فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قال: «نَعمْ وَلَكِ أَجْرٌ».

۞ ففى هذا الحديث مجموعة من الفوائد منها:

(١) أن الإنسان ينبغى أن يسأل عمَّن لا يعرفه إذا دعت الحاجة لذلك .. لأن الرسول ﷺ سأل: «مَن القوم؟»؛ لأنه قد يُخشى أن يكونوا من الأعداء فيغدروا به .. أما إذا لم تدعُ الحاجة إلى ذلك فلا تسأل عن الشخص وتقول: مَن أنت؟

---
(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٣٦) كتاب الحج.
(٢) مسلم بشرح النووى (٩/ ١٤٢).

لأن هذا قد يكون تدخُّلًا فيما لا يعنيك «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعنِيهِ**»(١).

(٢) أن الإنسان إذا وصف نفسه بالصفات الحميدة ولم يقصد بذلك الفخر فلا بأس بذلك.. لأن هؤلاء الصحابة لما سُئلوا: مَن أنتم؟ قالوا: المسلمون.. وهذا وصف مدح .. لكن إن كان المسلم يذكره على سبيل الخبر فلا بأس بذلك كأن يقول: أنا مسلم لمجرد الخبر .. أو يقول ذلك على سبيل التحدُّث بنعمة الله فلا بأس بذلك.. كأن يقول: الحمد لله الذى جعلنى من المسلمين.

(٣) أن مَن أعان شخصًا على طاعة فله مثل أجره .. فهذه المرأة ستُعين طفلها على الحج ومناسكه من أولها لآخرها ولذلك لما سألت النبى ﷺ وقالت: ألهذا حج؟ قال: «**نعم ولكِ أجرٌ**».

(٤) أن المسلم لَا بُدَّ أن يغتنم وجود العالِم ليسأله عمَّا يشكل عليه من أمور دينه .. فهؤلاء الصحابة لما عرفوا أنه رسول الله ﷺ جعلوا يسألونه ليستفيدوا من علمه ﷺ.

(٥) ومن فوائده أيضًا: أن الصبى إذا حَجَّ به وليه فله أجر، والحج يكون للصبى لا للولى، وقد اشتهر عند عامة الناس أن الصبى يكون حجه لوالديه، وهذا لا أصل له، بل حج الصبى له، لقول النبى ﷺ لما قالت المرأة: ألهذا حج؟ قال: «**نعم ولك أجر**» فالحج له ... وليعلم أن الصبى بل كل مَن دون البلوغ يُكتب له الأجر، ولا يُكتَب عليه الوزر.

واستدل بعض العلماء بقوله: «**نعم**» له حج .. أنه إذا أحرم الصبى لزمه جميع لوازم الحج.يلزمه الطواف، والسعى، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة ومِنى، ورمى الجمرات... يفعل ما يقدر عليه، وما لا يقدر عليه يُفعل عنه، إلا

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٥٩١١).

الطواف والسعى فإنه يُطاف ويُسعى به.

وقال بعض أهل العلم: لا بأس أن يتحلل الصبى ولو بدون سبب؛ لأنه قد رُفع عنه القلم، وليس بمُكلَّف، ولا يُقال: إن نفل الحج كفرضه، لا يجوز الخروج منه، وهذا الصبى متنفل فلا يجوز له أن يخرج.. لأن الأصل أن الصبى من غير المكلفين، فلا تُلزمه بشىء وهو غير مُكلف، وهذا مذهب أبى حنيفة رَحِمَهُ اللهُ أن الصبى لا يُلزَم بإتمام الحج، ولا بواجبات الحج، ولا باجتناب محذوراته، وأن ما جاء منه قُبل، وما تخلف لا يُسأل عنه.

(٦) وفى هذا الحديث أيضًا: ما يدل على أن الصبى وإن كان غير مميز فإنه يصح منه الحج ولكن كيف تصح نيته وهو غير مميز؟ قال العلماء: ينوى عنه وليه بقلبه أنه أدخله فى الإحرام، ويفعل وليه كل ما يعجز عنه.

وفى هذه المناسبة نود أن نُبين: هل يجب على مَن دخل فى الحج أن ينوى الطواف بنية مستقلة والسعى بنية مستقلة والرمى كذلك، أو لا يشترط؟

هذه المسألة فيها خلاف بين العلماء .... من العلماء مَن قال: إذا أحرم الإنسان بالحج وطاف وسعى على النية الأولى، يعنى لم يُجدد نيته عند الطواف ولا عند السعى، فإن حَجَّه صحيح، لأن الطواف والسعى والوقوف والرمى والمبيت كلها أجزاء من عبادة فتكفى النية الأولى، كما أن الإنسان إذا صلى ونوى عند الدخول فى الصلاة أنه دخل فى الصلاة، فإنه لا يلزمه أن ينوى الركوع ولا السجود ولا القيام ولا القعود؛ لأنها أجزاء من العبادة، فكذلك الحج[1].

❊ ❊ ❊

(١٨٥) وعَنْ أَبى موسى الأَشْعَرِىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال: «الخَازِنُ المُسْلِمُ الأَمِينُ الذى يُنَفِّذُ ما أُمِرَ بِهِ، فَيُعطِيهِ كَاملاً مَوفَّرًا، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَيَدفَعُهُ إِلى

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٩٧) بتصرف.

الذى أُمِرَ لَهُ به أَحَدُ المُتَصَدِّقَيْنِ»[(١)].

وفى رواية: «الذى يُعطِى مَا أُمِرَ بِهِ».

۞ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِذَا أَنْفَقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ طَعَامِ بَيْتِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ، كَانَ لَهَا أَجْرُهَا بِمَا أَنْفَقَتْ، وَلِزَوْجِهَا أَجْرُهُ بِمَا كَسَبَ، وَلِلْخَازِنِ مِثْلُ ذَلِكَ، لا يَنْقُصُ بَعضُهُمْ أَجْرَ بَعضٍ شَيْئًا»**.

وفى رواية: **«مِنْ طَعَامِ زَوجِهَا»**[(٢)].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

مَعنَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُشَارِكَ فِى الطَّاعَةِ مُشَارِكٌ فِى الْأَجْرِ.

وَمَعنَى الْمُشَارَكَةِ أَنَّ لَهُ أَجْرًا كَمَا لِصَاحِبِهِ أَجْرٌ وَلَيْسَ مَعنَاهُ أَنْ يُزَاحِمَهُ فِى أَجْرِهِ وَالْمُرَادُ الْمُشَارَكَةُ فِى أَصْلِ الثَّوَابِ فَيَكُونُ لِهَذَا ثَوَابٌ وَلِهَذَا ثَوَابٌ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَكْثَرَ وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مِقْدَارُ ثَوَابِهِمَا سَوَاءً بَلْ قَد يَكُونُ ثَوَابُ هَذَا أَكْثَرَ وَقَد يَكُونُ عَكْسَهُ ... فَإِذَا أَعطَى الْمَالِكُ لِخَازِنِهِ أَوِ امْرَأَتِهِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِائَةَ دِرْهَمٍ أَوْ نَحْوَهَا لِيُوصِلَهَا إِلَى مُسْتَحِقِّ الصَّدَقَةِ عَلَى بَابِ دَارِهِ أَوْ نَحْوِهِ فَأَجْرُ الْمَالِكِ أَكْثَرُ وَإِنْ أَعطَاهُ رُمَّانَةً أَوْ رَغِيفًا وَنَحْوَهُمَا مِمَّا لَيْسَ لَهُ كَثِيرُ قِيمَةٍ لِيَذْهَبَ بِهِ إِلَى مُحْتَاجٍ فِى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ بِحَيْثُ يُقَابِلُ مَشْىَ الذَّاهِبِ إِلَيْهِ بِأُجْرَةٍ تَزِيدُ عَلَى الرُّمَّانَةِ وَالرَّغِيفِ فَأَجْرُ الْوَكِيلِ أَكْثَرُ وَقَد يَكُونُ عَمَلُهُ قَدرَ الرَّغِيفِ مَثَلًا فَيَكُونُ مِقْدَارُ الْأَجْرِ سَوَاءً[(٣)].

۞ وفى هذا الحديث نجد أن هذا الخازن قد اتصف بتلك الأوصاف الأربعة: المسلم - الأمين - الذى يُنفذ ما أُمر به - طيبة بها نفسه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٣٨) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٢٣) كتاب الزكاة.

وضَبطُوا «المُتَصدِّقَيْنِ» بفتح القاف مع كسر النون على التَّثْنِيَةِ، وعَكْسُهُ عَلَى الجمْعِ وكلاهُمَا صَحِيحٌ

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٢٤) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم بشرح النووى (٩/ ١٥٦-١٥٧).

فهو خازنٌ مسلم احترازًا من أن يكون كافرًا .. لأن الخازن الكافر ليس له أجر وإن كان أمينًا لأن الكفار ليس لهم أجرٌ فى الآخرة على أى خيرٍ عملوه فى الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان:٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢١٧]

أما إذا أسلم فإنه يُسلم على ما أسلف من الخير ويُكتب له أجر وثواب ما كان يعمل من الخير قبل أن يُسلم.

ولذلك لما جاء حكيم بن حزام رضي الله عنه إلى النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِى الْجَاهِلِيَّةِ؟ هَلْ لِى فِيهَا مِنْ شَىْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ»[1].

وَفى رواية: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى صَالِحِ مَا سَلَفَ لَكَ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَا أَدَعُ شَيْئًا صَنَعْتُهُ فِى الْجَاهِلِيَّةِ إِلا صَنَعْتُ للهِ فِى الإِسْلام مِثْلَهُ ... وَكَانَ أَعتَقَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ مِائَةَ رَقَبَةٍ فَأَعتَقَ فِى الإِسْلامِ مِثْلَهَا وَسَاقَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ مِائَةَ بَدَنَةٍ وَسَاقَ فِى الْإِسْلَام مثلهَا.

۞ فالوصف الأول لذلك الخازن أنه مسلم.

الوصف الثانى: الأمين.. فهو يؤدى كل ما اؤتُمن عليه فلا يأخذ منه شيئًا ولا يُضيعه أو يُفسده.

الوصف الثالث: الذى يُنفذ كل ما أُمر به .. وذلك لأنك قد تجد إنسانًا أمينًا لكنه كَسول .. أما هذا الخازن فهو يجمع بين القوة والأمانة ... فهو أمين ويُنفذ ما أُمر به.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٣٦) كتاب الزكاة، ومسلم (١٢٣) كتاب الإيمان.

الوصف الرابع: أن تكون طيبة به نفسه .. فهو يُنفذ ما أُمر به ويعطى ولا يَمُن على الفقير الذى يأخذ منه .. فهذا يكون أحد المُتصدقين مع أنه لم يدفع جُنيهًا واحدًا.

مثال ذلك: إذا كان هناك رجل أعمال وعنده رجل يعمل أمينًا على الخزينة .. فأعطاه رجل الأعمال عشرة آلاف جنيه وأمره أن يوزعها على بعض الفقراء .. فوزعها على نفس الوصف الذى وصف النبى ﷺ به الخازن المسلم فإنه يكون له نفس أجر رجل الأعمال ... أى كأنه تصدَّق بعشرة آلاف جنيه دون أن يُنقص من أجر المتصدق شيئًا .. رغم أنه لم يدفع جُنيهًا واحدًا ... فهذا فضل الله يُؤتيه من يشاء.

❊❊❊

(٢٢) باب في النصيحة

۞ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فهذا عقدٌ عقده الله عَزَّوَجَلَّ بين المؤمنين .. فإذا وجدنا شخصًا فى مشارق الأرض أو فى مغاربها يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره فهو أخٌ لنا نحبه ونواليه وننصره ونُقدم له النصيحة الخالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن أجل ذلك صدَّر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب النصيحة بتلك الآية العظيمة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

۞ وإذا كنا نتحدث هنا عن النصيحة فلا بد أن نعلم أن النصيحة لها مكانة عظيمة فى دين الله (جل وعلا) وذلك لما يترتب عليها من صلاح المجتمع ونقائه وطهارته.

ومن المعلوم أن بذل النصيحة من أعظم مقومات ترسيخ الأخوة الإيمانية فى المجتمع المسلم وبخاصة إذا كانت النصيحة خالصة لوجه الله وخرجت برحمة وحنان وبصورة تجعل الإنسان يشعر بحرص إخوانه على إيصال الخير إليه.

۞ ومن أجل مكانة النصيحة فى دين الله (جل وعلا) جعلها النبى ﷺ عماد الدين وقوامه فقال ﷺ: «**الدين النصيحة**»(١).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٥) كتاب الإيمان.

بذل النصيحة من صفات الأنبياء

۞ ولقد كان الأنبياء يبذلون النصيحة لقومهم من أجل أن يأخذوا بأيديهم إلى طاعة الله (جل وعلا).

قال تعالى مُخبرًا عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وقال تعالى مخبرًا عن نبيه هود عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

وقال تعالى مخبرًا عن نبيه صالح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[الأعراف:٧٩].

۞ وقال تعالى مخبرًا عن نبيه شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

۞ ووصى إبراهيم عليه السلام بنيه بأن يموتوا على الإسلام.... قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

۞ بل كان الصالحون يحرصون على بذل النصيحة..

فها هو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة ليبذل النصيحة لنبى الله موسى عليه السلام كما وصفه الحق (جل وعلا) فقال: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠].

(١٨٦) فَالأَوَّلُ: عن أبى رُقيَّةَ تَميم بنِ أوْس الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النبى ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لله وَلِكِتَابِهِ ولِرسُولِهِ وَلأئمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[١].

۞ هذا الحديث جليل القدر وعظيم الشأن، ثم هو قليل الألفاظ، كثير الفوائد والمعانى... بل إن أحكام الإسلام داخلةٌ تحته؛ لأنه يَنُص على أن عماد الدين وقوامه النصيحة، فبوجودها يبقى الدين قائمًا فى المسلمين، وبعدمها يدخل النقص على المسلمين فى جميع شؤون حياتهم.

وأهمية هذا الحديث تأتى من أهمية النصيحة التى جعلها رسول الله ﷺ قوام الدين وعماده.. وقد حدَّد ﷺ الناصح والمنصوح بشكل واضح...فالناصح هو كل مسلم آمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً.... وكل هذا قد بيَّنه ﷺ فى قوله: «**الدين النصيحة**» فمن التزم بدين الإسلام وجب أن يكون ناصحًا.

أما المنصوح: فقد بيَّنه ﷺ بقوله: «**النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**».

ولربما يسأل المرء نفسه: كيف تكون النصيحة لهذه الأصناف؟

الجواب وبالله التوفيق:

(١) **النصيحة لله:** النصيحة لله تعالى معناها منصرف إلى الإيمان به، ونفى الشريك عنه، وترك الإلحاد فى صفاته، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه- سبحانه وتعالى - من جميع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحب فيه والبغض فيه، وموالاة مَن أطاعه ومُعاداة مَن عصاه، وجهاد مَن كفر به، والاعتراف بنعمته وشكره عليها، والإخلاص فى جميع الأمور والدعوة إلى جميع الأصناف المذكورة، والحث عليها، والتلطف مع جميع الناس ودعوتهم إليها،....

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٥) كتاب الإيمان.

وخلاصة القول: أن يكون الإنسان مطيعًا لله بفعل أمره وترك نهيه، ووصفه بصفات الكمال والعظمة، وتنزيهه من النقص.

۞ ومن النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ أن يكون المسلم ذاكرًا لله دائمًا بقلبه ولسانه وجوارحه.

۞ ومن النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ أن يسعى المسلم لنشر دين الله عَزَّوَجَلَّ فى كلِّ أقطار الأرض بعلمه أو بماله من خلال شراء الكُتب والأشرطة والسيديهات وتوزيعها على الناس فى كلِّ أقطار العالم .. وفتح القنوات والمواقع الإسلامية وكفالة طلبة العلم الذين يُبلغون دين الله فى أقطار الأرض .

۞ ومن النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ أن يُدافع المسلم عن الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ وأن يُدافع عن دينه ويَدفع عنه الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام.

۞ ومن النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ أن تكون غيرة المسلم لله إذا انتُهكت حُرمات الله (سبحانه وتعالى).

(٢) **النصيحة لكتاب الله:** النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى: الإيمان بأنه كلام الله تعالى - حروفه ومعانيه - منه بدأ وإليه يعود، مُنزَّلٌ غير مخلوق، تكلم الله به حقًّا، وألقاه إلى جبريل فنزل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على محمد ﷺ ... ثم الاهتمام بتلاوته والخشوع عندها، وحفظه، وتفسيره، والذَّبِّ عنه، ودحض تأويل المحرفين وتعرُّض الطاعنين، والتصديق بما فيه، والاعتقاد بأنه منهج للحياة شامل كامل صالح لكل زمانٍ ومكان، وبذل ما فى الوسع لإقامة حُكمه، والعمل به، والوقوف عند أحكامه وتفهُّم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتصديق بأخباره والتفكير فى عجائبه، والعمل بمُحكمه والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه. والاهتمام بتعلُّمه وتعليمه عملاً بقوله ﷺ: «**خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه**»[1] .

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٠٢٧) كتاب فضائل القرآن.

(٣) **النصيحة لرسول الله ﷺ:** النصيحة لرسول الله ﷺ تصديقه على الرسالة والإيمانُ بجميع ما جاء به، وطاعته فى أمره ونهيه، ونُصرته حيًّا وميتًا، ومعاداة مَن عاداه، وموالاة مَن والاه، وإعظام حقه، وتوقيره، وإحياء طريقته وسُنته، وبَثّ دعوته ونشر شريعته، ونفى التهمة عنها، ونشر علومها والتفقُّه فى معانيها، والتلطُّف فى تعلُّمها وإعظامها، وإجلالها، والتأدُّب عند قراءتها والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلُّق بأخلاقه والتأدب بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومُجانبة مَن ابتدع فى سُنته أو تعرَّض لأحدٍ من أصحابه... فالنصيحة للرسول ﷺ هى محبته حبًّا يفوق محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين عملاً بقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[1].

(٤) **النصيحة لأئمة المسلمين:** وتكون بإعانتهم على ما حُمِّلوا القيام به، ومعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وتنبيههم وتذكيرهم برفقٍ ولُطفٍ، وإعلامهم بما غفلوا عنه ما لم يبلغهم من حقوق المسلمين، وتألُّف قلوب الناس لطاعتهم، والاتصال بهم وإخبارهم بعيوبهم بكلِّ أدبٍ.. وتذكيرهم بالله تعالى واليوم الآخر، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وحثِّهم على الزهد والورع والعدل، ومُجانبة الظلم.

ومن النصيحة لهم: الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم ضعف أو سوء عشرة أو فجور أو ظلم؛ ما أقاموا الصلاة، وأن لا يُغرَوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدعَى لهم بالصلاح...وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين؛ مَن يقومون بأمور المسلمين ويُحكِّمون شرع الله تعالى، وقد يتأول ذلك على الأئمة الذين هم العلماء فتكون

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٤) كتاب الإيمان.

نصيحتهم بتوقيرهم وأخذ العلم عنهم، واتباعهم فى الأحكام وإحسان الظن بهم.

(٥) **النصيحة لعامة المسلمين:** هى فى إرشادهم لمصالحهم فى آخرتهم ودنياهم، وكَفِّ الأذى عنهم؛ فيُعلمهم ما يجهلونه من دينهم ويُعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم وسد خلاّتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفقٍ وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وترك غِشِّهم وحسدهم، وأن يُحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذَّبِّ عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثِّهم على التخلُّق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيطهم إلى الطاعات(١).

آداب النصيحة

۞ وهناك آداب ينبغى أن نتحلى بها عند بذل النصيحة لمن حولنا:

(١) **أن تكون النصيحة خالصة لوجه الله:**

بحيث لا يرجو الناصح إلا وجه الله والدار الآخرة ولا يكون ذلك لمطمع دنيوى أو لطلب الرياء والسمعة.

(٢) **أن تكون عن دراية وعلم:**

لأن الإنسان إذا لم يكن على علم فقد ينصح بمنكر، وقد ينهى عن معروفٍ، فلا بُدَّ من العلم بذات الأمر الذى فيه النصيحة، وليس شرط العلم أن يكون حافظًا للقرآن الكريم كاملاً، وحافظًا للصحيحين، لا.. بل المقصود هو العلم بذات الأمر المنصوح به.

(٣) **أن يَتحلى الناصح بخُلق الرفق:**

كذلك على الناصح أن يتخلق بالرفق، أى: أن تكون النصيحة برفقٍ ولين...

---

(١) النصيحة / أ. عبد الله بن عبد الحميد الأثرى (ص ٧-١٠) بتصرف.

وقد أمر الله تعالى باللين مع مَن هو أكفر أهل الأرض فى زمنه (فرعون) فقال لنبييه موسى وهارون عليهما السلام حينما أمرهما بالذهاب إلى فرعون الطاغية المتكبر: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، والنبى ﷺ يقول: «**إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه، ولا يُنزع من شىء إلا شانه**»[(١)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَن يُحرَم الرفق يُحرَم الخير كله**»[(٢)].

قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾ [النحل: ١٢٥]، فمن لوازم النصيحة الرفق، أن تكون رفيقًا رحيمًا فى نصيحتك.

(٤) اختيار الأسلوب المناسب للنصيحة:

وهذا يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص... فبعض الناس يحتاج إلى النصيحة بشكلٍ مباشر وبعضهم يحتاج إلى النصيحة بشكلٍ غير مباشر... كما كان النبى ﷺ يقول: «**ما بال أقوام يقولون كذا... أو يفعلون كذا...**».

- بل وفى أكثر الأحوال يحتاج الناس إلى النصيحة من خلال القدوة المتمثلة فى شخص الناصح الذى يبذل لهم النصيحة.

- ولا ننسى أيضًا أن بذل النصيحة للصغير يختلف عن بذلها للكبير... وكذلك فإن بذلها لصاحب المكانة المرموقة يختلف عن بذلها للرجل البسيط.

- فالحاصل أنه ينبغى لمن يبذل النصيحة أن يتحلى بالذكاء وفقه النفس حتى يعلم متى يتكلم ومتى يصمت ومتى يبذل النصيحة بشكلٍ مباشر ومتى يبذلها بشكل غير مباشر.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٢) كتاب البر والصلة والآداب

(٥) أن لا يكون الهدف منها التشهير أو الانتقاص :

فالواجب على الناصح أن يجعل المنصوح يشعر بأن المقصود إرادة الخير له... وأن تلك النصيحة ليس من ورائها أى مطمع سوى الفوز برضوان الله والحرص على جلب المنفعة لإخوانه المسلمين امتثالاً لقول سيد المرسلين ﷺ **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[(١)].

(٦) أن تشمل النصيحة أمر الدين والدنيا :

فإذا رأيت أخاك مُقصرًا فى طاعة الله أو جريئًا على معصية الله عَزَّوَجَلَّ فعليك أن تبذل له النصيحة بكل رحمة وحنان... وكذلك إذا رأيته مُقبلاً على أمرٍ من أمور الدنيا وعلمت أن مصلحته فى أن يبتعد عن ذلك الأمر فانصحه فى ذلك فإن الواجب على المسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير فى أمور الدنيا والآخرة.

(٧) لا تنصح أخاك إلا سراً :

۞ قال مسعر بن كدام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: «رحم الله مَن أهدى إلىَّ عيوبى فى سِرٍّ بينى وبينه، فإن النصيحة فى الملأ تقريع»[(٢)].

۞ ولذلك قال الإمام الشافعى رَحِمَهُ اللَّهُ:

تعهَّدنى بنُصحك فى انفرادٍ ... وجنِّبنى النصيحة فى جماعه
فإن النُّصح بين الناس نوعٌ ... من التوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتنى وعصيت أمرى ... فلا تجزع إذا لم تُعطَ طاعه

وقال: «مَن وعظ أخاه سرًّا فقد وعظه وزانه، ومَن وعظه علانية فقد فضحه وشانه»[(٣)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٩٠).
(٣) مقدمة المجموع شرح المهذب (١/ ٣١).

۞ ولذلك فينبغى أن نحرص كل الحرص على بذل النصيحة للغير سرًّا حتى لا نجرح مشاعره ونؤذى أحاسيسه فيكون ذلك حائلاً بينه وبين قبول النصيحة والانتفاع بها.

(٨) على الناصح أن يتخلق بخُلق الصبر:

وأخيرًا فإن الذى يبذل النصيحة للناس عليه أن يتحلى بالصبر وذلك؛ لأن أكثر الناس لا يستجيبون فى التو واللحظة بل إن بعضهم قد يسمع النصيحة فلا يستجيب لها إلا بعد سنوات ...ولذلك فعلى الناصح أن يعلم يقينًا أنه ليس عليه إلا البلاغ.

أما الهداية فلا يملكها أحد إلا الله عَزَّوَجَلَّ فقد قال تعالى للحبيب محمد ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

- ونحن نعلم أن النبى ﷺ عُرضت عليه الأمم فرأى النبى ومعه الرُّهَيط ورأى النبى ومعه الرجل والرجلان ورأى النبى وليس معه أحد[١] ... أى: لم يؤمن معه من قومه أحد.

- بل ونحن نعلم أيضًا كيف تحمَّل النبى ﷺ الأذى من مشركى قريش وغيرهم وكيف أنهم دبروا المؤامرات تلو المؤامرات لقتل الحبيب محمد ﷺ ومع ذلك كان يقول: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[٢] بل وعند فتح مكة لم ينتقم من أهل مكة ولم يُعلق لهم المشانق بل قال لهم بلسان الرحمة: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[٣].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٥٢) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٠) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٩٢) كتاب الجهاد والسير.

(٣) رواه البيهقى فى الكبرى (٩/ ١١٨).

(١٨٧) الثَّاني: عَنْ جرير بْنِ عبدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بَايَعتُ رَسولَ الله ﷺ علَى: إِقَامِ الصَّلاَةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصحِ لِكلِّ مُسْلِمٍ(١).

(١٨٨) الثَّالثُ: عَنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «لاَيُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحبَّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٢).

۞ ففى هذا الحديث بايع جرير بن عبد الله رسول الله ﷺعلى ثلاثة أشياء: الأولى حَقٌّ محضٌ لله عَزَّ وَجَلَّ وهو إقام الصلاة .. والثانية حَقٌّ جامعٌ بين حق الله وحق العباد وهى الزكاة .. والثالثة: حَقٌّ محضٌ لعباد الله...وهي النُّصح لكلِّ مسلم.

۞ أما الحق الأول فهو إقام الصلاة: ومعنى «إقام الصلاة» أن يأتىَ بها الإنسان على الوجه المطلوب فيُحافظ على أوقاتها ويقوم بأركانها وواجباتها وشروطها ويُتمم ذلك بمُستحباتها .. ومن إقامة الصلاة أن يُصليها الرجال فى الجماعة فى المسجد .. أما المرأة فهى غير مُطالَبة بالصلاة فى المسجد بل إنها تنال ثواب صلاة الجماعة فى المسجد بصلاتها فى بيتها فى أول الوقت.

أما الرجل فإنه إذا صلى فى البيت بدون عُذر، ولم يُصلِّ فى المسجد مع الجماعة فإن صلاته صحيحة ولكنه آثم .. وهذا هو رأى الجمهور - أى: جماهير أهل العلم-.

ومن إقامة الصلاة أن يُصليها المسلم بخشوع وأن يكون حاضر القلب فى صلاته.

۞ وأما قوله: «إيتاء الزكاة» يعنى إعطاءها لمستحقها...وهذه جامعة بين حق الله وحق العباد...أما كونها حقًّا لله فلأن الله فرض على عباده الزكاة وجعلها من أركان الإسلام، وأما كونها حقًّا للآدمى فلما فيها من قضاء حوائج

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٦) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

المحتاجين، وغير ذلك من المصالح المعلومة فى معرفة أهل الزكاة.

وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ لِكَوْنِهِمَا قَرِينَتَيْنِ وَهُمَا أَهَمُّ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَأَظْهَرُهَا...وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّوْمَ وَغَيْرَهُ لِدُخُولِهَا فِي السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.

۞ وأما قوله: «**النُّصح لكل مسلم**» فهذا هو الشاهد من الحديث للباب، أى: أن ينصح لكل مسلم، قريب أو بعيد، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى.

وكيفية النصح لكل مسلم هى كما ذكره فى حديث أنس بعده «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» هذه هى النصيحة أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك، بحيث يَسُرك ما يَسُرهم ويسوءك ما يسوءهم، وتُعاملهم بما تحب أن يعاملوك به... وهذا الباب واسعٌ كبيرٌ جدًّا.

فنفى النبى (عليه الصلاة والسلام) الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه فى كل شيء... ونفى الإيمان قال العلماء: المراد به نفى الإيمان الكامل، يعنى لا يكمل إيمانك حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وليس المراد انتفاء الإيمان بالكلية[(١)].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومما يتعلق بحديث جرير منقبة ومكرمة لجرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواها الحافظ أبو القاسم الطبرانى بإسناده، اختصارها أن جريرًا أمر مولاه أن يشترى له فرسًا، فاشترى له فرسًا بثلاثمائة درهم، وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن، فقال جرير لصاحب الفرس: فرسك خير من ثلاثمائة درهم، أتبيعه بأربعمائة درهم؟ قال: ذلك إليك يا أبا عبد الله. فقال: فرسك خير من ذلك أتبيعه بخمسمائة درهم؟ ثم لم يزل يزيده مائة فمائة، وصاحبه يرضى وجرير يقول: فرسك خير إلى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها...فقيل له فى ذلك. قال: إنى بايعت رسول الله ﷺ على النُّصح لكل مسلم[(٢)].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٠٨).

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ٥٣).

(٢٣) باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

۞ قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: ولتكن منكم طائفة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو الدين: أصوله وفروعه وشرائعه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عُرف حُسنه شرعًا وعقلًا ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ﴾ وهو ما عُرف قُبحه شرعًا وعقلًا ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب... ويدخل فى هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمُتصدون للخطابة ووعظ الناس، عمومًا وخصوصًا، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات... فكل مَن دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل فى هذه الآية الكريمة.

۞ وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب التى تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نُصحًا، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليمًا، وإرشادًا، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وجمعًا بين تكميل الخلق، والسعى فى منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان(١).

(١) تفسير السعدى (ص ١٤٠).

❁ بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فى الآية بيان فضل النبى ﷺ على هذه الأمة.

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإنما حازت هذه الأمة قَصَب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله..وبعثه الله بشرعٍ كامل عظيم لم يُعطَه نبيٌّ قبله ولا رسول من الرسل...فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم بالقليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه) . انتهى(١) .

الفائدة الثانية: بيان فضل الإيمان بالله تعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حيث إن الآية لما أخبرت أن أمة محمد ﷺ هى خير الأمم، أتت بوصفين هما بمثابة القيد لهذه الخيرية...لذا قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا الثناء عليهم والمدح... ومَن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذَمَّهم الله بقوله: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٩]؛ ولهذا لما مدح الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمة بهذه الصفات شرع فى ذَمِّ أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ ... ﴾. انتهى(٢) .

❁ ويتفرع على هذه عدة أمور؛ منها:

(أ) هذه الخيرية لا تثبت لكل أمة الإسلام على مَرِّ العصور بنفس القوة، وإنما تَقوى وتَضعُف على حسب ما تقوم به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله.

(ب) لا ينبغى لأحدٍ أن يتباهى بهذه الآية ويفرح بها إلا إذا اتصف بهاتين الصفتين، وإلا كانت الآية حجة عليه.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٣٩٢) .

(٢) انظر المصدر السابق، (١/ ٣٩٧) .

(ج) الحثُّ على التمسُّك بهاتين الصفتين لتحقيق الخيرية التى مَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بها على هذه الأمة.

الفائدة الثالثة: لا ينبغى أبدًا لأحدٍ من المسلمين أن يظن أن أى أمة (غير أمة الإسلام) هى خيرٌ من أمتنا أو أن ما عندها هو خير مما عندنا- مما يتصل بأمور العقيدة والشريعة وما يتفرع منهما وما ينبغى عليهما-؛ لأن فى ذلك تكذيبًا لصريح القرآن الكريم...فلو قال قائل: إن هذه الخيرية قد نُزعت منا لتقصيرنا فى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قلت له: بحمد الله لم تُنزَع منَّا لأن معنا أصل الإيمان بالله ورسوله... وهذا الأصل لا يشاركنا فيه أحدٌ ألبتة فى كل أنحاء المعمورة.

الفائدة الرابعة: فى الآية دليل واضح على أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا أفضل مَن أَمَر بالمعروف ونهى عن المنكر وآمن بالله...فمنهم نتعلم وبهم نقتدى؛ لأن الآية الكريمة قيدت الخيرية بالإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وورد فى الحديث الصحيح، عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النَّبىُّ ﷺ: «**خير النَّاس قرنى ثمَّ الَّذين يلونهم ثمَّ الَّذين يلونهم**». قال عمران: لا أدرى أَذَكَر النَّبىّ ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة[1].

الفائدة الخامسة: إرادة الله- سبحانه وتعالى- الشرعية أن تكون هذه الأمة هى خير الأمم...ولذلك يجب على هذه الأمة أن تأخذ بكل أسباب العزة والقوة والتقدم المحمود تحقيقًا لإرادة الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائدة السادسة: يجب على كل مؤمن أن يربى نفسه على أن يكون نَفعُه متعديًا لغيره وألا يقتصر على نفسه...تَعلَّمنا ذلك من أمر الله لنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو من أعظم أبواب إيصال الخير إلى الغير.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٥١) كتاب الشهادات، ومسلم (٢٥٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

الفائدة السابعة: تختلف الأمم في الأفضلية والخيرية اختلافًا بيِّنًا بحسب تَفاضُل أنبيائها وكتبها وشرائعها... ولما كان نبينا ﷺ هو خير الأنبياء، وكتابنا القرآن الكريم هو خير الكتب وشريعة الإسلام هى أفضل الشرائع وأكملها، كانت هذه الأمة هى خير أمة أُخرجت للناس[1].

❁ وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ أى: ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ فى المحبة والموالاة، والانتماء والنُّصرة.

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وهو اسمٌ جامع لكل ما عُرف حُسنه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول مَن يدخل فى أمرهم أنفسهم.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقَضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة.

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ﴾ أى لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ أى: يُدخلهم فى رحمته، ويشملهم بإحسانه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: قويٌّ قاهر... ومع قوته، فهو حكيم، يضع كل شيءٍ موضعه اللائق به الذى يُحمَد على ما خلقه وأمر به[2].

---

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٢٥٢-٢٥٣).

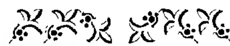
(٢) تفسير السعدى (ص ٣٨٢).

۞ وقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: طُردوا وأُبعدوا عن رحمة الله ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها. ﴿ذَٰلِكَ ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ أي: بعصيانهم لله، وظُلمهم لعباد الله، صار سببًا لكفرهم، وبُعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم، عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلَّت بهم المَثُلات وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ ﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضًا. فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر، مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم. فلو كان لديهم تعظيمٌ لربهم، لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه. وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجبًا للعقوبة، لما فيه من المفاسد العظيمة(١).



۞ وقد أورد المصنف رحمه الله الآيات التي تتحدث عن قصة أصحاب السبت .. وسأذكر شرحها على سبيل الاختصار.

قال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ ﴾ أي واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقُرب البحر وعلى شاطئه ماذا حلَّ بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟

---
(١) تفسير السعدي (ص ٢٥٤-٢٥٥).

ألم يمسخهم الله قردة وخنازير؟ قال ابن كثير: وهذه القرية هى (أيلة) وهى على شاطئ بحر القلزم ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ أى يتجاوزون حَدَّ الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أى حين كانت الحيتان «الأسماك» تأتيهم يوم السبت - وقد حُرّم عليهم الصيدُ فيه - كثيرةً ظاهرةً على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أى وفى غير يوم السبت وهى سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفى ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أى مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء فى اليوم المُحرَّم عليهم صيده... وإخفائها عنهم فى اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمات الله ... قال القرطبى: روى أنها كانت فى زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتُم عن أخذها يوم السبت ... فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون فى صيدها[1] ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنهَ ولكنها قالت للمُنكرة ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أى لِمَ تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة فى نهيكم إياهم؟[2] ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أى قال الناهون: إنما نعظهم لنُعذَر عند الله بقيامنا بواجب النُّصح والتذكير ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى ينزعون عمَّا هم فيه من الإجرام .

---

(١) تفسير القرطبى (٧/ ٣٠٦).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩).

قال الطبرى: أى لعلهم أن يتقوا الله فينيبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إيّاه وتعدِّيهم الاعتداء فى السبت[١] ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ ﴾ أى فلما تركوا ما ذكَّرهم به صلحاؤهم تَرْكَ الناسى للشىء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضًا كُليًّا ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ أى نجَّينا الناهين عن الفساد فى الأرض ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ أى وأخذنا الظالمين العُصاة بعذابٍ شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أى بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ أى فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نُهوا عنه ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ أى مسخناهم إلى قردة وخنازير...والمعنى أنهم عُذبوا أولاً بعذابٍ شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا فى الطغيان مُسخوا قردة وخنازير...والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فِرَق: فرقةٌ عصتْ فحلَّ بها العذاب، وفرقة نهت ووعظت فنجَّاها الله من العذاب، وفرقة اعتزلت فلم تنهَ ولم تُقارف المعصية وقد سكت عنها القرآن[٢].

لأن الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحًا فيُمدحوا ولا ارتكبوا عظيمًا فيُذَمُّوا ... ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الناجين أم الهالكين[٣].

---

(١) الطبرى (١٣/ ١٨٥).

(٢) صفوة التفاسير (١/ ٤٤٣-٤٤٤).

(٣) قلت: بل نحن مع الذين قالوا بهلاك الساكتين كما هلك الظالمون لأنهم استحقوا ذلك بسكوتهم وعدم نُصحهم ... فلعل سكوتهم كان سببًا لتمادى الظالمين بظلمهم - إذ عدم التناهى عن المنكر له عقاب عند الله...قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩] ولا شك أن السكوت عن فعل الظالم هو ظُلمٌ بحدِّ ذاته، واشتراك مع الظالم بظلمه ، وإن كانوا لا يقصدون ذلك ... وإن الرسول ﷺ أمرنا أن نأخذ على يد الظالم ونأطره على الحق أطرًا وإذا لم نفعل فإن الله تعالى يُعاجلنا بعقابٍ منه، جزاء إهمالنا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٩) للشيخ محمد نسيب الرفاعى.

۞ وإذا أردنا أن نتكلم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا بد أن نعلم أولًا أن المعروف هو كل ما عرَّفه الشرع وأقره من العبادات القولية والفعلية الظاهرة والباطنة...والمنكر: كل ما أنكره الشرع ومنعه من أنواع المعاصى، من الكفر والفسوق والعصيان، والكذب، والغيبة، والنميمة، وغير ذلك.

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به مَن يكفى حصل المقصود، وإذا لم يَقُم به مَن يكفى وجب على جميع المسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ فبدأ بالدعوة إلى الخير، ثم ثَنَّى بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وذلك لأن الدعوة إلى الخير قبل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر...والدعوة إلى الخير هى بيان الخير للناس، بأن يدعوهم إلى الصلاة وإلى الزكاة وإلى الحج، وإلى الصيام وإلى بر الوالدين وإلى صلة الأرحام وما أشبه ذلك، ثم بعد هذا يأتى دور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[1].

الآداب التي ينبغي أن تتوافر في الآمِر بالمعروف الناهي عن المنكر

۞ **أولاً: إخلاص النية لله تعالى:**

فإنه على قدر الإخلاص فى العمل تكون الثمرة... فعلى كل مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يبتغى بعمله وجه الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى...»**[2].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٠٩).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١) كتاب بدء الوحى - ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.

ثانيًا: العلم:

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يُفقهه في الدين»(١).

فعلى مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون مُلِمًّا بما يأمر به وينهى عنه من جهة الأحكام والأدلة، وكونه فيه خلاف أو لا خلاف فيه إلى آخره.

ومَن أَمَرَ ونهى بغير علم أفسد أضعاف ما يُصلح.

ثالثًا: الرحمة والرفق:

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام عندما ذهبا لدعوة فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

لما قرأ قتادة (رحمه الله) تلك الآية قال: سبحانك إن كان هذا حلمك بفرعون الذي قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فكيف يكون حلمك بعبدٍ قال: «سبحان ربي الأعلى»؟!!

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١) كتاب العلم - ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

وقال ﷺ: «إن الرفق لا يكون فى شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه»(١).

وقال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»(٢).

❁ **قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

وينبغي للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يَرفُق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب...فقد قال الإمام الشافعى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: مَن وعظ أخاه سِرًّا فقد نصحه وزانه، ومَن وعظه علانية فقد فضحه وشانه»(٣).

قال سفيان الثورى: لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا مَن كان فيه ثلاث خصال: رفيقٌ بما يأمر، رفيقٌ بما ينهى، عدلٌ بما يأمر، عدلٌ بما ينهى، عالمٌ بما يأمر، عالمٌ بما ينهى.

❁ **وقال أحمد:** الناس مُحتاجون إلى مُدارة ورفق الأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجل مُعلنٌ بالفسق فلا حُرمة له...قال: وكان أصحاب ابن مسعود إذا مَرُّوا بقومٍ يرون منهم ما يكرهون، يقولون: مهلاً رحمكم الله، مهلاً رحمكم الله.

وقال أحمد: يأمر بالرفق والخضوع فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون يريد أن ينتصر لنفسه...والله أعلم(٤).

❁ رابعًا: الصبر والثبات:

قال تعالى حاكيًا عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المزمل: ١٠].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٣) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) مسلم بشرح النووى (٢ / ٣٢) بتصرف.

(٤) جامع العلوم والحكم/ للإمام ابن رجب الحنبلى (ص: ٢٤٦، ٢٤٧) بتصرف.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٢].

فكأن الله يطلب من الداعية الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يتصف بصبر الإبل وسمو السماء وثبات الجبال وذلة الأرض.. فإذا اتصف بتلك الصفات جاءه الخطاب من الحق (جل وعلا): ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾.

ولا شك أن مَن يأمر وينهى سوف يجد الطريق شاقًّا مملوءًا بالأشواك فعليه أن يصبر ويحتسب كل ذلك عند الله.

ومَن تعايش مع سيرة الحبيب ﷺ يعلم كيف عانى النبى ﷺ وكيف صبر على أذى المشركين... وفى النهاية .. فالكل موقوف أمام الله وسيحكم بين العباد فى هذا اليوم العصيب.

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

۞ خامسًا: ألا يفتش عن عورات الناس:

قال الإمام النووى:

قال أقضى القضاة الماوردى: ليس للمحتسب أن يبحث عمَّا لم يظهر من المحرمات...فإن غلب على الظن استسرار قوم به لأمارة وآثار ظهرت، فذلك ضربان:

أحدهما: أن يكون ذلك فى انتهاك حُرمة يفوت استدراكها، مثل أن يخبره مَن يثق بصدقه أن رجلاً خلا برجل ليقتله، أو بامرأة ليزنى بها، فيجوز له فى هذه الحال أن يتجسس، ويقدم على الكشف والبحث حذرًا من فوات ما يُستدرَك... وكذا لو عرف ذلك غير المحتسب من المتطوعة، جاز لهم الإقدام على الكشف والإنكار.

الضرب الثاني: ما قصر عن هذه الرتبة فلا يجوز التجسس عليه ولا كشف الأستار عنه... فإن سمع صوت الملاهي المنكرة من دارٍ أنكرها خارج الدار، لم يهجم عليها بالدخول؛ لأن المنكر ظاهر، وليس عليه أن يكشف عن الباطن(١).

۞ سادسًا: لا يُشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال:

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال العلماء: ولا يُشترط فى الآمر والناهى أن يكون كامل الحال، ممتثلاً بما يأمر به، مجتنبًا ما ينهى عنه... بل عليه الأمر، وإن كان مُخلاًّ بما يأمر به، والنهى وإن كان متلبسًا بما ينهى عنه... فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخلَّ بأحدهما كيف يُباح له الإخلال بالآخر؟(٢).

۞ سابعًا: أن يحب الخير والهداية للناس من حوله:

قال ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه...**»(٣).

ومعنى لا يُسلمه: أى لا يتركه واقعًا فى الإثم ويتخلَّى عنه. ويقول: مالى ومالـه ... فهذه الكلمة غريبة، ودخيلة على المجتمع المسلم يردها هذا الحديث... فحق الموالاة والأُخوة والنُّصرة يُوجب على المسلم أن ينصح لأخيه ويتدخل فيما يعينه وينفعه فيُقوِّم عِوَجه ويُصلح من أمره ما وسعه وذلك أرقى درجات الإيمان.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٤).

---

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ٣٣، ٣٤) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ٣٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

إخواني وأحبابي: إن أجر الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر عظيم وهو من المجاهدين ... فعن على رضي الله عنه قال: «للجهاد أربع شُعب: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصدق فى المواطن، وشنآن الفاسقين».

فمن أمر بالمعروف شدَّ ظهر المؤمن، ومَن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين، ومَن صدق فى المواطن قضى الذى عليه وأحرز دينه ومَن شنأ الفاسقين غضب لله ومَن غضب لله يغضب الله له.

والناس فى هذه الحياة أصناف. فمنهم صنفٌ ضالٌّ لا خير فيه وهو شَرٌّ على غيره. ومنهم صنفٌ سلبى لا خير فيه ولا شر منه... ومنهم صنفٌ صالح فى ذاته لكن لا خير فيه لغيره... ومنهم صنفٌ صالح فى ذاته ولكن فيه خير وإصلاح لغيره.

ولا شك أن أكمل الناس نفسًا وأرفعهم درجة هو الذى صلح فى ذاته، ثم امتد بالإصلاح إلى الآخرين ... وهؤلاء هم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، المتبرعون بفعل الخير المتطوعون لإنقاذ الناس.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣][1].

ثامنًا: أن يفعل ذلك على قدر طاقته:

قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وبذلك فإن الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يفعل ذلك كله على قدر طاقته واستطاعته ويترك النتائج لمن يملك الهداية (سبحانه وتعالى).

ومن أجل ذلك قال ﷺ: «**ومَن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**».

(١) المختار فى أحكام وآداب الحديث فى شهر رمضان/ إعداد مجموعة من طلبة العلم فى القصيم (ص: ١٩٤، ١٩٥) ط. دار الوطن العربى.

وهذا أكبر دليل على أن هذا الأمر يتوقف على القدرة والاستطاعة وأن الذى لا يستطيع أن ينكر إلا بقلبه لا يُؤمَر بأن ينكر بيده أو بلسانه.

۞ ولا يختص الأمر والنهي بأصحاب الولايات:

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين... قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين، فإن غير الولاة فى الصدر الأول والعصر الذى يليه، كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر مع تقرير المسلمين إياهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، من غير ولاية والله أعلم ... ثم إنه إنما يأمر وينهى مَن كان عالمًا بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة، كالصلاة والصيام، والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد، لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء.

ثم العلماء إنما ينكرون ما أُجمع عليه أما المختلف فيه فلا إنكار فيه.

۞ تاسعًا: النظر في مراتب إنكار المنكر من حيث المصالح والمفاسد:

يختلف المنكر قوة وضعفًا، فتارة يكون من الشرك، وتارة يكون من المعاصى، هذا من جانب.

فإذا كان المنكر الذى أمامك درجات فى حدِّ ذاته، فابدأ بأكبره وأعظمه. ولنوضح ذلك بالمثال التالى:

لنفرض أن أمامك زانيًّا خمَّارًا مشركًا؛ وتريد أن تنكر عليه[1] . فهنا تبدأ معه

---

(١) والإنكار هنا هو الدعوة... والدعوة هى الإنكار وإن قُسمت اصطلاحًا.

بما يصلح معتقده وينقى سريرته، ويُثبت إيمانه، وبما يَرده إلى التوحيد... فلو قال لا إله إلا الله ودخل فى الإسلام، جاء بها مستجمعًا لشروطها، ولم يرتكب مانعًا من موانع الاستفادة منها، وعنده ما عنده من الكبائر. لو مات عند هذه الخطوة لكان من المسلمين، وكان من أهل الجنة... إن دخل النار طُهر منها، وإن لم يدخها شمله قول الله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

إذًا ... فلنبدأ فى معالجة المنكر بأهمه وأعظمه، ولنتدرج تدرُّجًا تنازُليًّا لا تَصاعُديًّا.

۞ وأما مراتب إنكار المنكر من جانب آخر، فقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أربع مراتب وهى:

المرتبة الأولى: أن يغلب على ظنك أنك إذا أنكرت هذا المنكر أن يحل محله معروف.

المرتبة الثانية: أن يغلب على ظنك أنك إذا أنكرت المنكر أن يَخِفَّ المنكر.

المرتبة الثالثة: أن يتساويا... أى بمعنى أنه قد يترك المنكر الذى هو واقعٌ فيه، لكن ينتقل إلى منكرٍ يساويه.

المرتبة الرابعة: أن ينتقل من منكرٍ إلى ما هو أشد وأنكى منه.

۞ **قال الإمام ابن القيم** رحمه الله تعالى:

أما الأولان فمشروعان: يعنى إذا كان إنكار المنكر يؤدى إلى إحلال معروف، أو يُخفف المنكر فهذا لا يُختلف عليه.

وأما الثالثة إذا تساويا: يعنى إذا خرج من كبيرة أنكرتها عليه، وذهب وارتكب كبيرة مشابهة لها. فيقول رحمه الله: «أما هذا فمحل اجتهاد». بمعنى أن الإنسان يجتهد إن رأى المصلحة فى الإنكار عليه أنكر، وإن رأى المصلحة فى تركه فليتركه.

وأما الرابعة وهى الخطرة: وقد قال: «إذا رأيت مَن هو على منكر وأنكرت

عليه وترك ما هو فيه لذهب وارتكب ما هو أشد منه».

ويضرب رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا بمثال:

يقول: فلو أن رجلاً كان مُغرَمًا بقراءة كتب الجنس والروايات والغرام ومُنهمكًا فى هذا الأمر. وعنده رغبة فى القراءة والاطلاع. ولكنك إذا أنكرت عليه وترك هذا المنكر لانتقل إلى كتب الابتداع والإلحاد. أيهما أشد ضررًا ؟... يقول: (نتركه على كتب الجنس الصادر عن مرض الشهوة. لئلا ينتقل إلى كتب الابتداع والإلحاد الصادر عن مرض الشبهة).

ومعلوم أن مرض الشبهة أشد وأنكى من مرض الشهوة.

فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (مثل هذا دعه لا تنقله من سوءٍ إلى ما هو أشد منه).

۞ وينقل الإمام ابن القيم عن شيخه (شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى) أنه قال: (مررت أنا وبعض أصحابى فى زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم مَن كان معى، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس، وسَبي الذرية، وأخذ الأموال فَدَعهُم)[1][2].

(١٨٩) فالأَوَّلُ: عن أبى سعيد الخُدرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمِعتُ رسول الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنكُم مُنْكرًا فَلْيُغيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطع فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبقَلبِه وَذَلَكَ أَضْعَفُ الإيمانِ»[3].

۞ قال القاضى عياض رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَد تَطَابَقَ عَلَى وُجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ

(١) أثر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حياة الأمة: عبد الله بن حسن آل قعود (ص: ٢٨ - ٣١) بتصرف.

(٢) إعلام الموقعين: للإمام ابن القيم (٣/ ١٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان.

وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ النَّصِيحَةِ الَّتِى هِىَ الدِّينُ.

وَأَمَّا قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ فَلَيْسَ مُخَالِفًا لِمَا ذَكَرْنَاهُ ... لِأَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ فِى مَعنَى الْآيَةِ أَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ فَلَا يَضُرُّكُمْ تَقْصِيرُ غَيْرِكُمْ ... مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمِمَّا كُلِّفَ بِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِذَا فَعَلَهُ وَلَمْ يَمْتَثِلِ الْمُخَاطَبُ فَلَا عَتْبَ بَعدَ ذَلِكَ عَلَى الْفَاعِلِ لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْىُ لَا الْقَبُولُ وَاللهُ أَعلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعرُوفِ وَالنَّهْىَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ سَقَطَ الْحَرَجُ عَنِ الْبَاقِينَ وَإِذَا تَرَكَهُ الْجَمِيعُ أَثِمَ كُلُّ مَنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ بِلَا عُذْرٍ وَلَا خَوْفٍ ... ثُمَّ إِنَّهُ قَد يَتَعَيَّنُ كَمَا إِذَا كَانَ فِى مَوْضِعٍ لَا يَعلَمُ بِهِ إِلَّا هُوَ أو لا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ كَمَنْ يَرَى زَوْجَتَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ غُلَامَهُ عَلَى مُنْكَرٍ أَوْ تَقْصِيرٍ فِى الْمَعرُوفِ ... قَالَ الْعُلَمَاءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم: وَلَا يَسْقُطُ عَنِ الْمُكَلَّفِ الْأَمْرُ بِالْمَعرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ لِكَوْنِهِ لَا يُفِيدُ فِى ظَنِّهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِعلُهُ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَد قَدَّمْنَا أَنَّ الَّذِى عَلَيْهِ هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْىُ لَا الْقَبُولُ وَكَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾(١).

۞ واعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد ضُيِّع أكثره فى هذا الزمان .. فإذا كَثُر الخَبَث فإن العقاب سوف يَعُم الصالح والطالح ... وإذا لم يأخذ الناس على يد الظالم أوشك أن يَعُمهم الله بعقابٍ من عنده.. وإذا دعوا الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يستجيب لهم.

كما قال النبى ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِن عِندِهِ، ثُمَّ لتَدعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(٢).

---

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ٢٩-٣٠) بتصرف.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٧٠).

وَأَمَّا صِفَةُ النَّهْيِ وَمَرَاتِبُهُ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ فَبِقَلْبِهِ»..فَقَوْلُهُ ﷺ: «فَبِقَلْبِهِ» مَعناهُ فَلْيَكْرَهْهُ بِقَلْبِهِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِإِزَالَةٍ وَتَغْيِيرٍ مِنْهُ لِلْمُنْكَرِ وَلَكِنَّهُ هُوَ الَّذِي فِي وُسْعِهِ ... وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ» مَعناهُ وَاللهُ أَعلَمُ أَقَلُّهُ ثَمَرَةً.

فَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّ تَغْيِيرَهُ بِيَدِهِ يُسَبِّبُ مُنْكَرًا أَشَدَّ مِنْهُ مِنْ قَتْلِهِ أَوْ قَتْلِ غَيْرِهِ كَفَّ يَدَهُ، وَاقْتَصَرَ عَلَى الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ وَالْوَعْظِ وَالتَّخْوِيفِ، فَإِنْ خَافَ أَنْ يُسَبِّبَ قَوْلُهُ مِثْلَ ذَلِكَ غَيَّرَ بِقَلْبِهِ وَكَانَ فِي سَعَةٍ[1].

ودلَّ قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيغيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ فَبِقَلْبِه وَذَلَكَ أَضْعَفُ الإِيمانِ» على أن إنكار المنكر يجب بحسب القدرة عليه... أما إنكار القلب فلا بُدَّ منه، فإذا لم ينكر القلب المنكر، دَلَّ على ذهاب الإيمان منه ... سمع ابن مسعود رجلًا يقول: هلك مَن لم يأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر. فقال: هلك مَن لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر.

فالإنكار باليد واللسان يكون بحسب الطاقة، أما معرفة المعروف والمنكر بالقلب ففرضٌ لا يسقط عن أحدٍ، فمَن لم يعرفه هلك.

قال ابن تيمية رحمه الله: «مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ بُغْضُ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الْمُنْكَرِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ؛ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ الإِيمَانُ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْهِ ... فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُبْغِضًا لِشَيْءٍ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ أَصْلًا؛ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إيمَانٌ أَصلًا».

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: إني أعمل أعمال الخير كلها إلا خصلتين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال عمر رضي الله عنه: «لقد طمست سهمين من سهام الإسلام إن شاء الله غفر لك وإن شاء عذبك».

---

(١) مسلم بشرح النووي (٢/ ٣٢-٣٣) بتصرف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

وينبغي لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون فقيهًا قبل الأمر، رفيقًا عند الأمر، ليسلك أقرب الطرق في تحصيله .. حليمًا بعد الأمر، لأن الغالب أنه لا بد أن يصيبه أذى ... كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

قال سفيان الثوري: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى»(١).

ومن الحكمة والفطنة أن لا يُغير المنكر مَن كان على يقين أن تغييره للمنكر سيترتب عليه منكرٌ أكبر من الأول.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وَسَمِعت شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ يَقُولُ: مَرَرْت أَنَا وَبَعْضُ أَصْحَابِي فِي زَمَنِ التَّتَارِ بِقَوْمٍ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مَعِي، فَأَنْكَرْت عَلَيْهِ، وَقُلْت لَهُ: إنَّمَا حَرَّمَ اللهُ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ، وَهَؤُلَاءِ يَصُدُّهُمْ الْخَمْرُ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ فَدَعهُمْ(٢).

(١٩٠) الثَّاني: عن ابنِ مسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بعثَهَ الله في أُمَّة قَبْلِي إلاَّ كان لَه مِن أمَّتِهِ حواريُّون وأَصحَابٌ يَأْخذون بِسُنَّتِهِ ويقتَدُون بأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّها تَخْلُفُ مِنْ بعدِهم خُلُوفٌ يقُولُون مَالا يَفْعلُونَ، ويَفْعلُون مَالاَ يُؤْمَرون، فَمَنْ جاهدهُم بِيَدِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جاهدهم بقَلْبِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، ومَنْ

---

(١) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٢٠٤).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٦).



جَاهَدَهُمْ بِلِسانِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، وليس وراءَ ذلك مِن الإيمانِ حبَّةُ خرْدلٍ»[١].

قَوْلُهُ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بعثَهَ الله فى أُمَّة قَبْلِي إلاَّ كان له مِن أمَّتِهِ حواريُّون وأَصحَابٌ»، أى: ما من رسول من الرسل المتقدمة. ويعنى بذلك: غالب الرسل، لا كُلَّهم، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الآخر الذى أخبر فيه عن مجىء الأنبياء فى أممهم يوم القيامة؛ فإنه قال فيه: «يأتى النبى ومعه الرجل والرجلان، ويأتى النبى وليس معه أحد»[٢] والحواريون: جمع حوارى، وهم خُلصان الأنبياء[٣]، الذين أخلصوا فى حب أنبيائهم، وخلصوا من كلِّ عيب ...

قال ابنُ الأنبارى: هم المختصّون المُفضَّلون. وسُمِّى خبز الحُوَّارى؛ لأنه أشرف الخبز. وقيل: هم الناصرون للأنبياء. كما قال عليه الصلاة والسلام: «لكلِّ نبى من أمته حواريون[٤]، وحوارىّ الزبير»[٥].

وهؤلاء الحواريون والأصحاب المقربون من ذلك النبى لا يكتفون بقربهم منه وحُبهم له بل كانوا يحرصون غاية الحرص على اتباعه والاقتداء به واتباع سُنته ولذا قال ﷺ: «يأخذون بسُنته ويقتدون بأمره».

۞ ثم تمر الأيام وتأتى الأجيال وراء الأجيال ويتناقص الإيمان فى قلوبهم ... ولذا فإنهم يقولون ما لا يفعلون، أى يتشبعون بما لم يُعطوا وينسبون لأنفسهم ما لا يفعلوه من طاعة أو حالٍ أو مقام «ويفعلون ما لا يؤمرون» أى: يفعلون خلاف المأمور به من المنكرات التى لم يأتِ بها الشرع.

«فمَن جاهدهم بيده» ليزيل هذا المنكر دون أن يُسبب مفسدة أو منكرًا أعظم من الأول «فهو مؤمن» كامل الإيمان .. «ومَن جاهدهم بلسانه» بأن أنكر عليهم

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٠) كتاب الإيمان.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٥٢) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٠) كتاب الإيمان.
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ١٤٨).
(٤) أى: خاصة الأنبياء.
(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٤٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٤١٥) كتاب فضائل الصحابة.

واستعان بمن يدفع ذلك المنكر «**فهو مؤمن .. ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن**» وتتفاوت مراتب كمال الإيمان بتفاوت ثمراته «**وليس وراء ذلك**» أى: كراهة المنكر بالقلب «**من الإيمان حبة خردل**» فليس هناك مرتبة أقل من الإنكار بالقلب ... وذلك بأنك إن لم تستطع أن تُزيل المنكر فاحرص على أن تزول أنت عنه وتترك مكان المنكرات والمعاصى.

قال القرطبى: الإيمان هنا بمعنى الإسلام، والمراد أن آخر خصال الإيمان المتعينة على العبد وأضعفها الإنكار بالقلب ولم يبقَ بعدها رتبة أخرى.

❊❊❊

(١٩١) الثالثُ: عن أبى الوليد عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمع والطَّاعَة فى العُسْرِ وَاليُسْرِ والمَنْشَط والمَكْرَه، وَعلى أَثَرَة عَلَيْنَا، وعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدكُمْ مِنَ الله تعالَى فيه بُرهَانٌ، وعلى أن نقول بالحقِّ أينما كُنَّا لا نخافُ فى الله لَوْمَةَ لائم»[(١)].

۞ إن السمع والطاعة لولاة أمر المسلمين أصلٌ من أصول الدِّين الذى نَدينُ اللهَ به، فإنه لا دينَ إلَّا بجماعَةٍ، ولا جماعةَ إلَّا بإمامةٍ، ولا إمامةَ إلا بسمعٍ وطاعةٍ... وقد أجمع أهلُ السُّنة والجماعة على وجوب السمع والطاعة لولاةِ الأمور استنادًا إلى النصوص الواردة فى ذلك، ومنها.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

قال النووى رحمه الله: «المراد بأُولى الأمر: مَنْ أَوجب الله طاعتَهُ من الوُلاة والأُمراء، وهو قول جماهير السَّلَف والخَلَف من المفسِّرين، والفقهاء،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٥٦) كتاب الفتن، ومسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة.

«المَنْشَط والمَكْره»: أىْ: فى السَّهْل والصَّعبِ - «والأَثَرةُ»: الاخْتِصاصُ بالمُشْتَرك، وقَدْ سبقَ بيَانُها- «بوَاحًا»: أَىْ ظَاهِرًا لاَ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلاً.



وغيرهم... وقيل: هم العلماء وقيل: هم الأمراء والعلماء»[١].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والظاهرُ واللهُ أعلمُ أنها عامَّةٌ في كلِّ أُولي الأمر من الأُمراء والعلماء»[٢].

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«عَلَى المرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أحبَّ وَكَرِهَ، إلَّا أَنْ يُؤمَرَ بِمَعصِيَةٍ، فَإِن أُمِرَ بِمَعصِيةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»**[٣].

قال الإمام القلعِيُّ: «ولا يُفهَم من ذلك أنه إذا أَمَرَ بمعصيةٍ فلا يُسمع له مُطْلَقًا في كلِّ أوامره، بل يُسمع له ويُطاعُ مُطْلَقًا إلَّا في المعصية، فلا سمعَ ولا طاعةَ»[٤].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عليكَ السَّمْعِ والطَّاعَة فِي عُسرِكَ ويُسْرِكَ، ومَنْشَطِكَ ومَكْرَهِكَ، وأَثَرَةٍ عليك»**[٥].

قال العلماء: معناه: تجبُ طاعةُ وُلاة الأُمور فيما يشقُّ وتكرهُهُ النُّفُوسُ وغيره مما ليس بمعصيةٍ، فإن كانت معصية فلا سمعَ ولا طاعةَ.

۞ فهيا بنا نعود مرة أخرى إلى حديث عُبادة بن الصامت لنتعايش معه بقلوبنا وأرواحنا.

۞ قال عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة» أي: بايع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رسول الله ﷺ على السمع والطاعة .. أي لكل مَن ولَّاه الله الأمر عليهم .. وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]، وقد سبق أن وضَّحنا مَن هم أولو الأمر وقلنا

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٣).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥١٨).
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٤٤) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٣٩) كتاب الإمارة.
(٤) تهذيب الرياسة وترتيب السياسة (ص ١١٤).
(٥) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٦) كتاب الإمارة.

أنهم طائفتان: العلماء والأمراء .. فالعلماء هم أُولو الأمر فى العلم والبيان .. والأمراء هم أُولو الأمر فى التنفيذ والسلطان.

فكانت البيعة على السمع والطاعة فى كل شىءٍ إلا فى معصية الله عَزَّوَجَلَّ ؛ لأنه لا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق.

ولهذا قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين تولى الخلافة، قال: أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم.

لأنه كيف نطيع عبدًا مثلنا إذا أمرنا بمعصية الخالق (جلَّ وعلا) فالأمراء والسلاطين عبيدٌ لله.. فكيف نُطيعهم فى معصية مَن خَلَقَنا وخلقهم؟!

۞ وقوله: «فى العُسر واليُسر» يعنى بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لأُولى الأمر فى العُسر واليُسر .. يعنى سواء كنا فى سعة من المال أو كنا مُعسرين ليس معنا إلا القليل .. ففى كلا الحالين لَا بُدَّ أن نسمع ونطيع لأولى الأمر ما دام أن النبى ﷺ قد أمرنا بذلك .. ونحن قد بايعناه على ذلك.

۞ قوله: «والمنشط والمكره» أى: علينا أيضًا بالسمع والطاعة فى أى أمرٍ ليس فيه معصية لله (جلَّ وعلا) سواء كان هذا الأمر يوافقنا ويُلائمنا أو كنا كارهين لهذا الأمر لا نُريده ولا نهواه .. ففى الحالتين لَا بُدَّ أن نسمع ونُطيع.

۞ **«وعلى أثرة علينا»** .

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَثَرَةُ: الِاسْتِئْثَارُ وَالِاخْتِصَاصُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ أَيْ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اخْتَصَّ الْأُمَرَاءُ بِالدُّنْيَا وَلَمْ يَصِلكُمْ حَقَّكُمْ مِمَّا عِنْدَهُمْ»[1].

أيها الناس: إن الله سبحانه وتعالى حَمَّل الوُلَاة، وأوجب عليهم العدل بين الناس ، فإذا لم يُقيموه أَثِموا... وحمَّل الرَّعيَّةَ السمعَ والطَّاعةَ لهم، فإن قاموا بذلك كان الفوزُ والفلاحُ، والنجاةُ من الفتن، وإلا أثموا.

---

(١) شرح مسلم (١٢/ ٢٢٥).

ففى «صحيح مسلم» مِن حديثِ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلِ الْحَضْرَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلَ مَسْلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَأَعرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، وَقَالَ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ**»(١).

۞ قوله: «وعلى أثرة علينا» أى: علينا أن نسمع لهم ونُطيع حتى لو استأثروا علينا بالأموال وغيرها من متاع الدنيا الزائل.. وحتى لو سكنوا القصور وكنا نسكن فى الأكواخ ونعيش على الكفاف ... فيجب علينا السمع والطاعة ابتغاء مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ .. لأن الدنيا كلها إلى زوال فهى متاعٌ زائلٌ وسوف ننتقل جميعًا إلى الدار الآخرة حيث يُحاسِب الله عَزَّوَجَلَّ كل إنسان على ما قدَّمه وعلى ما فعله فى هذه الحياة الدنيا.

وقد أمرنا النبى ﷺ بالسمع والطاعة حتى لو استأثروا علينا بالمال .. بل حتى لو أخذوا أموالنا .. فقد قال ﷺ: «**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**»(٢) ولا بد أن نعلم أننا سوف نقتص من كل مَن ظلمنا يوم القيامة، وسنأخذ من حسناتهم بقدر مظلمتنا .. فإن فَنِيت حسنات مَن ظلمنا فسوف يُؤخذ من سيئاتنا وتُطرح عليه ثم يُطرح فى النار.

۞ ثم قال: «وألا ننازع الأمر أهله» يعنى لا ننازع ولاة الأمور ما ولاهم الله علينا، لنأخذ الإمرة منهم، فإن هذه المنازعة تُوجب شرًّا كثيرًا، وفتنًا عظيمة، وتَفرُّقًا بين المسلمين.

۞ «وعلى ألا نُنازع الأمر أهله إلا أن تروا كُفرًا بواحًا عندكم فيه من الله بُرهان» فتلك أربعة شروط إذا رأيناها فحينئذٍ يجوز أن نُنازع الأمر أهله ونحاول

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٦) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٧) كتاب الإمارة.

إزالتهم عن ولاية الأمر .. وإليك هذه الشروط الأربعة:

(١) أن نرى كُفرًا بواحًا .. فلا يجوز أن نخرج على الأئمة وولاة الأمر بمجرد الظن بل لَا بُدَّ من علم نتيقن من خلاله أن ما يفعلونه هو كفرٌ بواح.

(٢) أن نعلم أن هذا كفرٌ وليس فسقًا ... فلا يجوز الخروج على ولاة الأمور لفسقهم .. كأن يشربوا الخمر أو يزنوا أو يظلموا ... لا يجوز الخروج عليهم ؛ لأن المفسدة التى ستحدث من وراء ذلك أكبر بكثير .. لكن إذا رأينا كُفرًا بواحًا يجوز لنا الخروج عليهم.

(٣) الكفر البواح ... وهذا معناه الكفر الصريح، والبواح الشىء البيِّن الظاهر... فأما ما يحتمل التأويل فلا يجوز الخروج عليهم ... يعنى لو قدَّرنا أنهم فعلوا شيئًا نرى أنه كفر، لكن فيه احتمال أنه ليس بكفر، فإنه لا يجوز أنْ نُنازعهم أو نخرج عليهم ونولهم ما تولوا.

لكن إذا كان بواحًا صريحًا مثل لو أن ولى من ولاة الأمور قال لشعبه: إن الخمر حلال، اشربوا ما شئتم، وإن اللواط حلال، وإن الزنى حلال .. ازنوا بمن شئتم، فهذا كفرٌ بَواح ليس فيه إشكال ... فهذا يجب على الرعية أن يُزيلوه بكل وسيلة ... لأن هذا كُفرٌ بواح.

(٤) «**عندكم فيه من الله برهان**» ... يعنى عندنا دليل قاطع على أن هذا كفر، فإن كان الدليل ضعيفًا فى ثبوته، أو ضعيفًا فى دلالته، فإنه لا يجوز الخروج عليهم؛ لأن الخروج فيه شَرٌّ كثيرٌ جدًّا ومفاسد عظيمة.

وإذا رأينا هذا مثلاً فلا تجوز المنازعة حتى تكون لدينا قدرة على إزاحته... فإن لم يكن لدينا قدرة فلا تجوز المنازعة؛ لأنه ربما إذا نازعنا وليس عندنا قدرة يُقضَى على البقية الصالحة، وتتم سيطرته.

فهذه الشروط .. شروط للجواز أو للوجوب - وجوب الخروج على ولى الأمر - لكن بشرط أن يكون لدينا قدرة، فإن لم يكن لدينا قدرة فلا يجوز

الخروج؛ لأن هذا من إلقاء النفس فى التهلكة.

۞ حق الناس على ولاة الأمر أن يعدلوا فيهم، وأن يتقوا الله تعالى فيهم، وألا يَشقُّوا عليهم، وألا يولوا عليهم مَن يجدون خيرًا منه، فإن النبى ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ**»[١] دعاء من الرسول (عليه الصلاة والسلام): أن مَن ولى من أمور المسلمين شيئًا صغيرًا كان أم كبيرًا وشَقَّ عليهم، قال: «فاشقق عليه»، وما ظنك بشخصٍ شَقَّ الله عليه والعياذ بالله... إنه سوف يخسر ويضيع... وأخبر النبى (عليه الصلاة والسلام) أنه: «**مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِى أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ إِلَّا لَمْ يَدخُلْ مَعَهُمْ الْجَنَّةَ**»[٢]. لأنه يجب على الأمير أن ينصح للرعية، ويختار لها الأصلح.

وأما قول بعض الناس: إنه لا تجب علينا طاعة ولاة الأمور إلا إذا استقاموا استقامة تامة، فهذا خطأ وهذا غلط وهذا ليس من الشرع فى شىء، بل هذا من مذهب الخوارج، الذين يريدون من ولاة الأمور أن يستقيموا على أمر الله فى كل شىء، وهذا لم يحصل من زمن فقد تغيرت الأمور.

ويُذكر أن أحد ملوك بنى أُمية سمع أن أُناسًا يتكلمون فيه وفى خلافته، فجمع أشراف الناس ووجهاءهم وتكلم فيهم، وقال لهم: إنكم تُريدون منا أن نكون مثل أبى بكر وعمر؟ قالوا: نعم، أنت خليفة وهم خلفاء، قال: كونوا أنتم مثل رجال أبى بكر وعمر نكن نحن مثل أبى بكر وعمر.

وهذا جوابٌ عظيم ... فالناس إذا تغيروا لَا بُدَّ أن يُغير الله ولاتهم، كما تكونون يُولَّى عليكم. أما أن يريد الناس من الولاة أن يكونوا مثل الخلفاء وهم أبعد ما يكونون عن رجال الخلفاء، هذا غير صحيح... والله حكيم عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٨) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٢) كتاب الإيمان.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩][(١)].

۞ ويجب على الرعية أن ينصحوا لولى الأمر نصيحة خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ ومُغلَّفة بالأدب حتى يتقبل منهم النصيحة.

۞ ويجب على الرعية أن تُصلح حالها مع الله حتى يُصلح الله لهم ولاة أمورهم .. فقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلبها كيف يشاء.

۞ وعلينا أن نُكثر من الدعاء لولاة الأمور بأن يُصلحهم الله عَزَّوَجَلَّ وأن يأخذ بناصيتهم إليه، وأن يستعملهم فى حفظ الدين وتحكيم الشريعة ومحاربة أعداء الإسلام.

كان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لو كان لى دعوة مُستجابة لاختبأتها للحاكم .. قالوا: لماذا؟

قال : لأن بصلاحه تصلح الرعية كلها.

۞ وينبغى علينا أن نبذل النصيحة لأولياء الأمور بطريقة مباشرة إن استطعنا .. فإن لم نستطع فنبذلها لمن يستطيع أن يوصلها له .. لكن لنحرص على ألا نخوض فى أعراضهم بالغيبة والقذف والبُهتان؛ لأن هذا سيكون فى ميزان سيئاتنا.. وإذا وصل إليهم فإنه سيُوغر صدورهم على رعيتهم فيزدادون ظُلمًا لهم .. ونحن لا نريد أن نُغير منكرًا بمنكرٍ أشد منه.

وليس معنى ذلك أن نسكت على الخطأ ولا نغير المنكر .. كلا.. بل نغير ولكن بالوسائل المشروعة التى تعلمناها من النبى ﷺ.

۞ قوله: «وعلى أن نقول بالحق أينما كُنَّا لا نخاف فى الله لومة لائم».

يعنى أن نقوم بالحق الذى هو دين الإسلام وشرائعه العظام أينما كنا، يعنى فى أى مكان، سواء فى البلد، أو فى البر، أو فى البحر، أو فى أى مكان، وسواء فى

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥١٩-٥٢٠) بتصرف.

بلاد الكفر، أو فى بلاد الإسلام، نقوم بالحق أينما كنا، لا تأخذنا فى الله لومة لائم، يعنى لا يهمنا إذا لامنا أحد فى دين الله، لأننا نقوم بالحق.

فمثلاً لو أراد الإنسان أن يطبق سُنة يستنكرها العامة، فإن هذا الاستنكار لا يمنع الإنسان من أن يقوم بهذه السُّنة... ولكن علينا أن نقول كلمة الحق بكل أدبٍ ورفقٍ ورحمة.

***

(١٩٢) الرَّابع: عن النعمان بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ القَائِمِ فى حُدودِ الله، والْوَاقِعِ فيها كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ فصارَ بعضُهم أعلاهَا وبعضُهم أسفلَها وكانَ الذينَ فى أسفلِها إِذا اسْتَقَوْا مِنَ الماء مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرقْنَا فى نَصِيبِنا خَرقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَركُوهُمْ وَمَا أَرادُوا هَلكُوا جَمِيعًا، وإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِم نَجوْا ونجوْا جَمِيعًا»[1].

۞ «مَثَلُ القَائِمِ فى حُدودِ الله، والْوَاقِعِ فيها» «القَائِمِ فى حُدودِ الله» يشمل معنيين: المعنى الأول: أى مثل الذى استقام على دين الله عَزَّوَجَلَّ فقام بالواجب وتَرَك المُحرم..

والمعنى الثانى: أى مثل مَن وُسِد إليه أمرها وجُعِلَ له الولاية عليها، والقيام بحفظها ورعايتها من الولاة والقضاة؛ يعينهم فى ذلك من المسترشدين والدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

والدليل على المعنى الثانى تلك الرواية الأخرى والتى قال فيها النبى ﷺ: «مثل القائم على حدود الله».

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٤٩٣) كتاب الشركة.

«القَائِمُ فى حُدودِ الله تعالى» مَعنَاهُ: المُنْكِرُ لها، القَائمُ فى دفعِهَا وإِزالَتِهَا والمُراد بِالحُدودِ: مَا نهى الله عَنْهُ - «اسْتَهَمُوا» اقْتَرعُوا.

۞ أما قوله: «**والْوَاقِعِ فيها** » أي: الواقع فى حدود الله الذى يفعل المحرم ويترك الواجب.

۞ «**كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ** » أي: اقترعوا أيهم يكون أعلى السفينة وأيهم يكون أسفلها.

«**فصارَ بعضُهم أعلاهَا وبعضُهم أسفَلها** » أي: صار بعضهم أعلى السفينة والآخرين أسفل السفينة.

« **وكانَ الذينَ فى أسفلها إِذا اسْتَقَوْا مِنَ الماء** » أي: أن الذين فى أسفل السفينة كانوا إذا طلبوا الماء ليشربوا أو ليستعملوه فى أى شىءٍ آخر « **مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ** » أي: اضطروا إلى أن يمروا على مَن فوقهم حتى يستطيعوا أن يحصلوا على الماء من النهر.

« **فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فى نَصِيبِنا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا**» أي: لو أننا خرقنا خرقًا فى أسفل السفينة لنحصل منه على الماء بدلًا من أن نصعد إلى أعلى السفينة كلما احتجنا إلى الماء فنُزعج مَن فوقنا .. فهذا يكون أفضل.

فقال ﷺ: « **فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلكُوا جَمِيعًا**»؛ لأنهم إذا خرقوا خرقًا فى أسفل السفينة دخل الماء، ثم أغرق السفينة، «**وإن أخذوا على أيديهم**» ومنعوهم من ذلك «**نجوا ونجوا جميعًا**» يعنى نجا هؤلاء وهؤلاء.

۞ وهذا المثل الذى ضربه النبى ﷺ هو من الأمثال التى لها مغزى عظيم ومعنًى عالٍ... فالناس فى دين الله كالذين فى سفينة فى لُجة النهر .. فهم تتقاذفهم الأمواجَ، ولابد أن يكون بعضهم إذا كانوا كثيرين فى الأسفل وبعضهم فى الأعلى، حتى تتوازن حمولة السفينة، وحتى لا يضيق بعضهم على بعض، وفيه أن هذه السفينة المشتركة بين هؤلاء القوم إذا أراد أحدٌ منهم أن يخربها، فإنه لَا بُدَّ أنْ يمسكوا على يديه، وأن يأخذوا على يديه، لينجوا جميعًا، فإن لم

يفعلوا هلكوا جميعًا...هكذا دين الله، إذا أخذ العقلاء وأهل العلم والدين على الجُهَّال والسُّفهاء نجوا جميعًا، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا...كما قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفى هذا المثل دليل: على أنه ينبغى لمُعلم الناس أن يضرب لهم الأمثال، ليقرب لهم المعقول بصورة المحسوس...قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وكم من إنسانٍ تشرح له المعنى شرحًا كثيرًا وتُردده عليه فلا يفهم، فإذا ضربت له مثلاً بشىءٍ محسوس يعرفه، فَهِم[1].

۞ وفى هذا الحديث: إثبات القُرعة وأنها جائزة...وقد وردت الآيات والأحاديث بالقُرعة فى موضعين من كتاب الله، وفى ستة مواضع من سُنة الرسول ﷺ...أما عن الموضعين من كتاب الله، وكلكم يقرأهما والحمد لله:

۞ الموضع الأول فى سورة آل عمران: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فإنه لما كان عمران ذلكم العالم الجليل والد مريم قد مات وهى فى بطن أمها فقد أراد علماء وشيوخ ذلك الزمان أن يربوا مريم ويكفلوها.

- وكان كل واحدٍ منهم حريصًا كل الحرص على أن ينال هذا الشرف وذلك بأن يكفل ابنة شيخهم وعالمهم الجليل وإمامهم عمران.

فقام زكريا عليه السلام وقال: أنا أكفلها لأنها قريبتى .. فزوجتى خالتها وأنا نبى هذه الأمة فأنا أَولَى الناس بها.

فقال العلماء والشيوخ: ولماذا لا يكفلها أحدنا؟ فنحن أيضًا نحرص على الفوز بهذا الأجر والثواب.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٢٣) بتصرف.

وفى النهاية اتفقوا جميعًا على إجراء قُرعة يتم من خلالها اختيار مَن يكفل مريم .. فمن وقعت عليه القُرعة فهو الذى سيكفلها ويربيها ويكون له شرف خدمتها حتى تكبر وتخدم بيت المقدس وتتفرغ لعبادة الله (جل وعلا).

وتمَّت القُرعة .. وذلك بأنهم جاؤوا بمريم ووضعوها وهى مولودة صغيرة على الأرض ووضعوا إلى جوارها أقلام الذين يرغبون فى كفالتها ثم أحضروا طفلاً صغيرًا وأمروه أن يختار قلمًا من تلك الأقلام الموضوعة بجوار مريم.

فما كان من الطفل إلا أنه أخرج قلم زكريا عليه السلام.

فاعترض العلماء والشيوخ وقالوا: نريد أن تكون القرعة ثلاث مرات.

فوافق نبى الله زكريا عليه السلام.

وقاموا بإجراء القرعة الثانية وذلك بأن حفر كل واحد منهم اسمه على قلمٍ خشبى وقالوا: نُلقى أقلامنا فى النهر فمن سار قلمه ضد التيار وحده فهو الذى سيكفل مريم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وألقوا أقلامهم فى النهر فسارت كل الأقلام مع التيار ما عدا قلم زكريا عليه السلام فقد سار قلمه وحده ضد التيار .. ومع ذلك لم يقتنعوا وأصروا أن يعملوا القُرعة للمرة الثالثة.

وبالفعل أجروا القُرعة للمرة الثالثة وقالوا: فى هذه المرة الأخيرة سنُلقى أقلامنا فى النهر فمن سار قلمه مع التيار وحده يكفل مريم.

وألقوا الأقلام فسارت كل الأقلام ضد التيار ما عدا قلم زكريا عليه السلام فقد سار قلمه مع التيار.. وهنا فقط وافقوا على أن يعطوا مريم لزكريا عليه السلام ليكفلها.

فأخذها زكريا عليه السلام ليربيها ويُعلمها ويكرمها... وهذا من سعادتها، لتقتبس



من هذا النبى الكريم العلم النافع والعمل الصالح.

وأصبح بعد ذلك لها مكان خاص تعيش فيه فى المسجد .. محراب تتعبد فيه لله (جل وعلا) فقد أخذت الصلاة والعبادة والذكر كل وقتها.

۞ وأما الموضع الثانى ففى سورة الصافات... قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾[الصافات: ١٣٩-١٤٤].

يونس أحد الأنبياء ركب مع قوم فى سفينة فضاقت بهم، وقالوا: إن بقينا كلنا على ظهرها هلكنا وغرقت، لَا بُدَّ أن نُنْزِل بعضنا فى البحر، فمَن نُنْزِل؟ أول راكب، أم أكبر راكب، أم أكبر بدنًا؟ فعملوا قرعة، فصارت القرعة على جماعة، منهم يونس عليه السلام ... لأن الآية تقول: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ إذن معه ناس، أنزلوهم، لكن الذين معه الله أعلم بهم لا نعرف ماذا صار لهم.

أما هو فالتقمه حوتٌ عظيم، أى: ابتلعه بلعًا فصار فى بطن الحوت، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فسمع صوته الملائكة فشفعت له عند الله فقَبِلَ شفاعتهم فأمر الحوت فلفظه الحوت على سيف البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، مثل قرع النجد ... فقَرعُ النجد ليِّن وأوراقه لينة، ومن خصائصه أنه لا يقع عليه الذباب، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين حتى ترعرع بعد أن بقى فى بطن الحوت فترة، ثم أنجاه الله عز وجل[1].

(١٩٣) الخامسُ: عَنْ أُمِّ المُوْمِنينَ أُمِّ سَلَمَة هِنْد بنت أَبِى أُمَيَّةَ حُذيْفَةَ رضي الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ يُسْتَعملُ عَلَيْكُمْ أُمَراءُ فَتَعرِفُونَ وتُنكِرُونَ فَمَنْ كَرِه فقَد بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَد سَلِمَ، وَلَكِنْ منْ رَضِى وَتَابَعَ» قالوا: يا رَسُولَ الله أَلا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ»[2].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٢٤) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٥٤) كتاب الإمارة.

۞ في هذا الحديث يُخبر النبي ﷺ أنه سيكون علينا أُمراء .. أي سيتولى علينا أُمراء من قِبَل ولي الأَمر الذي له البيعة .. وأنه سيكون في هؤلاء الأُمراء ما نعرف وما نُنكر .. أي أنهم لا يستقيمون على أمر الله ولا يقيمون حُدود الله .. وقد نرى منهم أحيانًا ما لا نُنكره .. لكن في أغلب الأحوال نرى منهم ما نُنكره.

فمن أنكر عليهم أو حتى كَرِهَ فعلهم وأنكره بقلبه فقد سَلِم..

فقوله ﷺ: «**فَمَنْ كَرِهَ فَقَد بَرِئَ**»، مَعنَاهُ مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ الْمُنْكَرَ فَقَد بَرِئَ مِنْ إِثْمِهِ وَعُقُوبَتِهِ وَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِنْكَارَهُ بِيَدِهِ ولَا لِسَانِهِ فَلْيَكْرَهْهُ بِقَلْبِهِ وَلْيَبْرَأْ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**» مَعنَاهُ ولَكِنَّ الْإِثْمَ وَالْعُقُوبَةَ عَلَى مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ إِزَالَةِ الْمُنْكَرِ لَا يأثم بمجرد السكوت، بل إنما يأثم بالرضى به أو بأن لا يَكْرَهَهُ بِقَلْبِهِ أَوْ بِالْمُتَابَعَةِ عَلَيْهِ(١).

۞ فسألوا الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: «**لا .. ما أقاموا فيكم الصلاة**».

فَفِيهِ مَعنَى مَا سَبَقَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَى الْخُلَفَاءِ بمجرد الظلم أو الفسق مالم يغيروا شيئًا من قواعد الإسلام.

فدلَّ هذا على أننا إذا رأينا من الأمراء ما نكره فإننا نكره ذلك ونُنكر عليهم بكلِّ أدب.. فإن اهتدوا فالحمد لله .. وإن لم يهتدوا فقد برئت ذمتنا أمام الله وألقينا الحُجة عليهم وسوف يُحاسبهم الله يوم القيامة .

۞ **أيُّها الإخوة الكرام**: إن مذهب أهل السنة والجماعة وجوبُ إنكار المنكر بالضَّوابط الشرعية التي جاءت بها السُّنَّة، وكان عليها سلفُ هذه الأُمَّة، فمنها: أن يُناصَح وُلاةُ الأمورِ سِرًّا فيما صدر عنهم من مُنكرات، ولا يكون ذلك على

= مَعنَاهُ: مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ ولَمْ يَسْتطِع إِنْكَارًا بِيَدٍ وَلا لِسَانٍ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الإِثْمِ وَأَدَّى وَظِيفَتَهُ، وَمَنْ أَنْكَرَ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ المعصية، وَمَنْ رَضِيَ بِفِعلِهِمْ وتابعهم، فَهُوَ العَاصي.

(١) مسلم بشرح النووي (١٢/ ٣٣٨-٣٣٩) بتصرف.

رؤوس المنابر، وفى مجامع الناس؛ لما يَنْجُمُ عن ذلك - غالبًا- من تأليب العامَّة، وإثارة الرعاع عليهم، وإشعال الفتن[١].

والعمدة فى ذلك ما أخرجه ابن أبى عاصم فى «السنة»، والحاكم فى «المستدرك» بسندٍ صحيح، صحَّحه الألبانيُّ فى كتابه «ظلال الجنَّة فى تخريج السُّنة» من حديث عياض بن غَنْم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ، فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ، فَيَخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَد أَدَّى الَّذِى عَلَيْهِ لَهُ»**[٢].

فهذا الحديث أصلٌ فى إخفاء نصيحة السلطان، وأن الناصح إذا قام بالنُّصحِ على هذا الوجه، فقد بَرِئ وخَلَتْ ذمَّتُهُ...والحُجَّة إنما هى فى حديث رسول الله ﷺ لا فى قولٍ أو فعلٍ أحدٍ من الناس مهما كان.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢].

أيُّها الإخوة الكرام: إن النصيحة لوُلاةِ الأمور يجب أن تكون سِرًّا بُناءً على هذا الحديث العظيم.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله[٣]: «ليس من منهج السلف التشهير بعُيُوب الوُلاة، وذِكْرُ ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يُفضى إلى الانقلابات، وعدم السمع والطاعة فى المعروف، ويُفضى إلى الخروج الذى يضرُّ ولا ينفعُ ... ولكن الطريقة المُتَّبعة عند السلف: النصيحةُ فيما بينهم وبين السُّلطان، والكتابة إليه،

---

(١) انظر كتاب معاملة الحكام / لابن برجس (ص ٤٣).

(٢)السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٢٢)، وظلال الجنة (٢/ ٥٢١-٥٢٢)، وصححه الألبانى فى ظلال الجنة (١٠٩٨).

(٣) من فتاوى للشيخ مطبوعة فى آخر رسالة حقوق الراعى والرعية (ص ٢٧-٢٨).

أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يُوجَّه إلى الخير. وإنكار المنكر بدون ذكر الفاعل: فينكر الربا من دون ذكر مَن فَعَله. ويكفى إنكار المعاصى والتحذير منها من غير ذكر أن فلانًا يفعلها لا حاكمًا ولا غير حاكم ...

ولما وقعت الفتنة فى عهد عثمان رضي الله عنه قال بعض الناس لأسامة بن زيد رضي الله عنه: «ألا تُنكرُ على عثمان؟» فقال: «أُنكِرُ عليه عند الناس؟! بل أنكر عليه بينى وبينه، ولا أفتحُ بابَ شَرٍّ على الناس».

ومما يدلُّ على إخفاء النصيحة للسُّلطان والمنع من إعلان الإنكار عليه ما أخرجه الإمام أحمد من حديث سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ قَالَ: أَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِى أَوْفَى وَهُوَ مَحْجُوبُ الْبَصِيرَةِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ- إلى أن قال-: قُلْتُ: فَإِنَّ السُّلْطَانَ يَظْلِمُ النَّاسَ، وَيَفْعَلُ بِهِمْ، قَالَ: فَتَنَاوَلَ يَدِى فَغَمَزَهَا بِيَدِهِ غَمْزَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ يَا ابْنَ جُمْهَانَ عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعظَمِ، عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعظَمِ ... إِنْ كَانَ السُّلْطَانُ يَسْمَعُ مِنْكَ، فَأْتِهِ فِى بَيْتِهِ، فَأَخْبِرْهُ بِمَا تَعلَمُ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْكَ، وَإِلَّا فَدَعهُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِأَعلَمَ مِنْهُ».

۞ ومن دُرر العلَّامة محمد بن صالح العُثَيمين رحمه الله قوله:

«فإنَّ مُخالفة السُّلطان فيما ليس من ضروريَّات الدِّين عَلَنًا، وإنكار ذلك عليه فى المحافل، والمساجد، والصُّحف، ومواضع الوعظ - وغير ذلك - ليس من باب النصيحة فى شيء، فلا تَغْتَرَّ بمن يَفْعَلُ ذلك، وإن كان عن حسْنِ نيَّةٍ؛ فإنَّه خلافُ ما عليه السَّلفُ الصَّالحُ المُقتدَى بهم...والله يتولَّى هُداك»[(١)(٢)].

ودلَّ هذا أيضًا على أنه لا يجوز لنا أن نُقاتل الأُمراء إذا رأيناهم يرتكبون بعض المنكرات ؛ لأن مُقاتلتهم ستفتح باب شرٍّ كبير ولن يزيدهم ذلك إلا شرًّا.. ولقد اشترط النبى ﷺ فى هذا الحديث شرطًا لقتالهم فقال: «ما أقاموا

(١) مقاصد الإسلام (ص ٣٩٣).

(٢) الصحيح من الأثر فى خطب المنبر / الشيخ فيصل الحاشدى (٤٢٣-٤٢٦) بتصرف.

فيكم الصلاة» فدلَّ هذا على أنهم إذا لم يقيموا فينا الصلاة فإننا نُقاتلهم ولكن بشرط أن يكون لدينا القدرة على ذلك .. لأنه إذا لم يكن لدينا القدرة على ذلك فسوف يقضى على كل الصالحين فى هذه البلدة التى يحكمها.

وفى هذا الحديث دليلٌ على أن تارك الصلاة تركًا مُطلقًا قد تركها جُحودًا لا يُصلى مع الجماعة ولا يُصلى فى بيته فهو كافر .. وقد علمنا أنه لا يجوز قتال ولاة الأمور إلا إذا رأينا كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان، فإذا أذن لنا النبى ﷺ أن نقاتلهم إذا لم يقيموا الصلاة، دَلَّ ذلك على أن ترك الصلاة كُفرٌ بَواحٌ عندنا فيه من الله برهان.

فاللهُمَّ ارزق أُمتنا ولاة صالحين مُصلحين يأخذون بأيدى الأمة إلى طاعة الله وإلى تحكيم شرع الله عَزَّوَجَلَّ.. وارزقهم البطانة الصالحة التى تكون عونًا لهم على الخير يا أرحم الراحمين.

***

(١٩٤) السَّادسُ: عن أُمِّ الْمُؤْمِنين أُمِّ الْحكَم زَيْنبَ بِنْت جحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزعًا يقُولُ: «لا إِلَهَ إِلّا الله، ويْلٌ للْعربِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْترَب، فُتِحَ الْيَوْمَ مِن رَدم يَأْجُوجَ وَمأْجوجَ مِثْلُ هذِهِ» وَحلَّقَ بإِصبعِهِ الإِبْهَامِ والتى تَلِيهَا. فَقُلْتُ: يَا رسول الله أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالِحُونَ؟ قال: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[١].

۞ وقبل أن أبدأ فى شرح هذا الحديث أُريد أن أقف وقفة لطيفة عند إسناد هذا الحديث ... فالحديث مروىٌّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِى سَلَمَةَ عَنْ حَبِيبَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ... هَذَا الْإِسْنَادُ اجْتَمَعَ فِيهِ أَربَعُ صَحَابِيَّاتٍ زَوْجَتَانِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وربيبتان له بعضهن عن بعض ولا يُعلم حَدِيثٌ اجْتَمَعَ فِيهِ أَربَعُ صَحَابِيَّاتٍ بَعضِهِنَّ عَنْ بَعضٍ غَيْرهُ ... وَأَمَّا اجْتِمَاعُ أَربَعَةِ صَحَابَةٍ أَوْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٤٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٨٠) كتاب الفتن.

أَربَعَةِ تَابِعِيِّينَ بَعضِهِمْ عَنْ بَعضٍ فَوَجَدتُ مِنْهُ أَحَادِيثَ[١].

۞ عن أُمِّ المؤمنين زينب بنت جحش رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

أسلمت زينب رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قديمًا وهاجرت مع رسول الله ﷺ .. ثم تزوجها رسول الله ﷺ وأصبحت أُمًّا للمؤمنين .. وكانت قبله تحت زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ثم طلقها فاعتدَّت، ثم زوَّجها الله من رسوله ﷺ وأنزل فيها: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٤] وكانت تفتخر على نساء رسول الله ﷺ وتقول: زوَّجكن أهاليكنَّ وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات»[٢] .. ومناقبها كثيرةٌ جدًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ... وأجمع أهل السير أنها أول نساء رسول الله ﷺ موتًا بعده، ودُفنت بالبقيع وصلى عليها عمر بن الخطاب، وهى أول امرأة جُعل عليها النعش.

۞ لقد أخبرت زينب رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن النبى ﷺ دخل عليها وهو فى غاية الفزع وهو يقول: «لا إله إلا الله» تحقيقًا للتوحيد وتثبيتًا له وتطمينًا للقلوب ... ثم أخذ يُحذِّر العرب ويقول: «ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب».

وحذر العرب؛ لأن العرب هم حاملو لواء الإسلام..فالله تعالى بعث محمدًا ﷺ فى الأُميين، فى العرب: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٢، ٣]. فبيَّن النبى (عليه الصلاة والسلام) هذا الوعيد للعرب؛ لأنهم حاملو لواء الإسلام.

وقوله: «مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ» الشر هو الذى يحصل بيأجوج ومأجوج، ولهذا فسَّره بذلك فقال: «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدمِ يَأجُوجَ ومأجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وأشار بالسَّبابة والإبهام...يعنى أنه جُزءٌ ضعيف، ومع ذلك فإنه يُهدِّد العرب.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٨/ ٣).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٤٢٠) كتاب التوحيد.

فالعرب الذين حملوا لواء الإسلام من عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) إلى يومنا هذا، مُهدَّدون من قِبَل يأجوج ومأجوج الذين يفسدون فى الأرض، كما حكى تعالى عن ذى القرنين أنه قيل له: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فهم أهل الشر وأهل الفساد.

ويأجوج ومأجوج قبيلتان كان لهم أنواع من الإفساد، حتى بَنى ذو القرنين السد، فصار السدُّ حائلًا بينهم وبين الوصول إلى الناس، وهم داخل سدِّهم بلا شك عندهم طعامهم وشرابهم، ولهم حياتهم ومعيشتهم الخاصة...ولا يزال يأجوج ومأجوج يجتهدون فى سبيل هدم هذا السد، فهم يحفرون وينقبون ويجتهدون.

۞ ولقد أخبرنا النبى ﷺ عن كيفية خروجهم.

وذلك أنهم يحاولون فى كل يوم أن يهدموا هذا السد.. فيحفرون فى السد كل يوم حتى إذا رأوا شعاع الشمس قال زعيمهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا.

فيعودون فى اليوم التالى فيجدوه قد عاد كما كان قبل أن يحفروه.

ولا يزالون على تلك الحالة حتى يأتى الموعد الذى حدده الله لخروجهم فيذهبون إلى السد ويحفرونه حتى إذا رأوا شعاع الشمس قال زعيمهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله.

وكأن كلمة «إن شاء الله» هى كلمة السر.. فإذا بهم يعودون فى اليوم التالى فيجدون السد على هيئته كما تركوه بالأمس فيحفرونه ويخرجون على الناس ويعيثون فى الأرض فسادًا.

فلا يتركوا شيئًا من الزروع والحبوب والثمار والماشية والأغنام إلا أكلوه.. بل ويشربون الماء كله فلا يتركون للناس نقطة ماءٍ واحدة.

ويصبح الناس فى همٍّ وغمٍّ لا يعلمه إلا الله.

ويكون في هذا الوقت قد نزل نبي الله عيسى عليه السلام وقتل المسيح الدجال وأصبح كل الناس مؤمنين.

قَالَ ﷺ: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارجِعُوا فَسَتَحفِرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، حَفَرُوا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارجِعُوا فَسَتَحفِرُونَهُ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللهُ، وَيَسْتَثْنِي، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيُنَشِّفُونَ الْمِيَاهَ، وَيَتَحَصَّنَ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ، فَيَقُولُونَ: قَهَرنَا أَهْلَ الأَرْضِ، وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا[1] فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا،... وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ دَوَابَّ الأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكَرُ شُكْرًا[2] مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ»[3].

❁ وفي آخر الحديث قالت أُمُّنا زينب رضي الله عنها: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون! قال: «**نعم إذا كثر الخَبَث**»...الصالح لا يهلك وإنما هو سالمٌ ناج، لكن إذا كثر الخبث هلك الصالحون...لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

والخَبَث هنا يُراد به شيئان: الأول: الأعمال الخبيثة، والثاني: البشر الخبيث.

فإذا كثرت الأعمال الخبيثة السيئة في المجتمع ولو كانوا مسلمين فقد عَرَّضوا أنفسهم للهلاك. وإذا كثر فيهم الكفار فقد عَرَّضوا أنفسهم للهلاك أيضًا... ولهذا حذر النبي (عليه الصلاة والسلام) من بقاء اليهود والنصارى والمشركين في جزيرة العرب ...حذَّر من ذلك فقال: «**أخرجوا اليهود والنصارى**

(١) هو: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٢) أي: تسمن وتمتلئ شحمًا.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٦).

من جزيرة العرب».

وقال في مرض موته: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

وقال في آخر حياته: «لئن عشتُ لأُخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب».

أو قال: «لأُخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أَدَعُ فيها إلا مسلمًا» ... هكذا صَحَّ عنه (عليه الصلاة والسلام).

ولهذا مَن تأمل أحوالنا اليوم وقارن بينها وبين أحوالنا بالأمس، وجد الفرق الكبير... ولولا الناشئة الطيبة التي مَنَّ الله عليها بالاستقامة، والتي نسأل الله أن يثبتها عليه... لولا هذا لرأيت شرًّا كثيرًا... ولكن لعل الله أن يرحمنا بعفوه، ثم بهؤلاء الشباب الصالح الذين لهم نهضة طيبة أدام الله عليهم فضله، وأعاذنا وإياهم من الشيطان الرجيم[١].

(١٩٥) السَّابعُ: عنْ أَبِي سَعيد الْخُدريِّ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِيَّاكُم وَالْجُلُوسَ في الطُّرُقات» فقَالُوا: يَا رسَول الله مَالَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ، نَتحدَّثُ فِيهَا، فقال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا أَبيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلس فَأَعطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قالوا: ومَا حَقُّ الطَّرِيقِ يا رسولَ الله؟ قال: «غَضُّ الْبَصَر، وَكَفُّ الأَذَى، ورَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بالْمعروفِ، والنَّهْيُ عنِ الْمُنْكَر»[٢].

۞ هذا الحديث من الأحاديث الجامعة وأحكامه ظاهرة .. وهو حديثٌ كثير الفوائد ... جلس النبي ﷺ يومًا يُعلِّم أصحابه ويُربيهم كعادته ﷺ فقال لهم: «إياكم والجلوس في الطُّرقات» فهو ﷺ يحذرهم خوفًا عليهم فقد قال الله

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٢٦-٥٢٧) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٦٥) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢١٢١) كتاب اللباس والزينة.

تعالى عن النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].. فالنبي ﷺ حريصٌ علينا وهو رؤوفٌ رحيمٌ بنا ﷺ.

وفي هذا الحديث يحذِّرهم النبي ﷺ ويحذِّرنا من الجلوس في الطرقات... لأن الجلوس فيها يؤدي إلى كشف عورات الناس والنظر إلى أغراضهم الشخصية .. وربما يُفضي الأمر إلى السُّخرية منهم أو الوقوع في الغيبة بأن يتكلموا في عِرض مَن مَرَّ أمامهم.

فلما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**إياكم والجلوس في الطرقات**» وحذرهم. قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ، يعني أننا نجلس نتحدث، ويأنس بعضنا ببعض، ويألف بعضنا بعضًا، ويحصل في ذلك خير؛ لأن كل واحدٍ منَّا يعرف أحوال الآخر.

فلما رأى النبي ﷺ حرصهم الشديد على الجلوس في الطرقات لم يُشدد عليهم ولم يمنعهم من هذه المجالس؛ لأنه ﷺ كان - وما زال بهديه وسُنته- بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ .. فقال لهم: «**إن أبيتم إلا المجلس**» يعني إلا الجلوس «**فأعطوا الطريق حقه**» قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «**غضُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهي عن المنكر**» خمسة أشياء:

وسأذكر لكم تلك الخمسة التي ذكرها النبي ﷺ وسأزيد عليها بعض الآداب التي تعلمناها أيضًا من سُنة الحبيب المصطفى ﷺ.

۞ فتعالوا بنا لنتعرف سويًا على بعض حقوق وآداب الطريق:

(١) ألا نخرج إلى الطريق إلا لحاجة:

وذلك لأن كثرة الخروج في الطريق تُعرِّض المسلم لكثرة الفتن فلا ينبغي أن يخرج إلا إلى المدرسة أو الجامعة أو العمل أو الذهاب لصلة رحم أو زيارة مريض

أو فعل خيرٍ أو شراء احتياجات البيت أو غير ذلك من المصالح الدينية والدنيوية.

قال رسول الله ﷺ لمن سأله: ما النجاة؟ قال: «**أَمْسِكْ عليكَ لِسانَكَ ولْيَسَعكَ بَيْتُكَ وابْكِ على خطيئتك**»[1].

(٢) غَضُّ البصر:

فإن المسلم لَا بُدَّ أن يغض بصره عن الحرام... فقد قال تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [النور: ٣٠].

(٣) كفُّ الأذى عن الناس:

ومن آداب الطريق: كَفُّ الأذى عن الناس فى أبدانهم وأعراضهم.

فقد قال النبى ﷺ: «**المُسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِن لسَانِهِ ويَدِهِ**»[2].

بل إن من محاسن هذا الدين أن كان كَفُّ المرء شره وأذاه عن الناس صدقة يتصدق بها على نفسه.

(٤) ردُّ السلام:

فقد قال النبى ﷺ: «**خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ: رَدُّ السَّلَامِ وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ وَإِجَابَةُ الدَّعوَةِ وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ**»[3].

فيجب على كل مسلم إذا سلَّم عليه أحدٌ من المسلمين أن يرد عليه السلام بأحسن منه أو مثله.

(٥) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

فمن آداب الطريق أن المسلم إذا وجد أخاه المسلم واقعًا فى منكر أن ينهاه بكل رفقٍ ورحمة عن هذا المنكر.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٤٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢١٦٢) كتاب السلام.

وإذا وجد أخاه غافلاً عن أي طاعة أن يأمره بالمعروف.

فقد قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكرًا فَلْيُغيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَستَطع فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبقَلبِه وَذَلَكَ أَضْعَفُ الإيمانِ»[١].

۞ وعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[٢].

(٦) أن يمشى متواضعًا :

فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

(٧) هداية السبيل :

فإذا وجد الجالس (أو السائر) فى الطريق مَن ضَلَّ طريقه، أو لا يعرف مقصده، فعليه أن يدله ويرشده، ويهديه إلى مقصده، فإن هذا من البر، ومن خُلق المسلم، ومن حق الطريق... كما قال ﷺ: «**إن أبيتم إلا أن تَجْلِسُوا فاهْدُوا السَّبِيلَ ورُدُّوا السَّلامَ وأعِينُوا المَظْلومَ**»[٣] ويَحْرُم كذلك إضلال أحد عن الطريق إذا سأل عن

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٧٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٤٠٧).

مقصده، فضلَّله الجالسون لكى يَتَسَلَّوا بذلك. وتشتد الحُرمة إذا كان الذى يسأل عن الطريق أعمى. بل الواجب الأخذ بيده، وإيصاله إلى مقصده(١).

(٨) إماطة الأذى عن الطريق:

فإن ذلك من شُعب الإيمان ... كما قال ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعبَةً، فَأَفْضلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأدنَاهَا إمَاطَةُ الأذى عنِ الطَّرِيقِ...**»(٢). وهو صدقة... لقوله ﷺ: «**كل سُلامَى من الناس عليه صدقة** - ومنها - **وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»(٣).

(٩) المحافظة على نظافة الطريق:

وذلك يكون بعدم إلقاء النفايات، والأوساخ، والنجاسات فى ممرات الناس ومجالسهم وتجنُّب البول والغائط فى الطرقات، والأماكن العامة.

وكذلك رفع الأطعمة وفُتات الخبز عن قارعة الطريق... وإبعاد الأوراق التى كُتب فيها أسماء كريمة، أو كلمات قرآنية عن ممرات الناس... ولا مانع من حرقها لصونها من العبث.

(١٠) عدم قضاء الحاجة فى طريق الناس:

فإن قضاء الحاجة فى طريق الناس يجلب اللعن لفاعله ... فقد قال النبى ﷺ: «**اتقوا اللَّاعِنَين**»، قالوا: وما اللاعنان: يا رسول الله؟ قال: «**الذى يتخلى فى طريق الناس أو فى ظلهم**»(٤).

قال الخطابى: المراد باللاعنين: الأمران الجالبان للعن.

والحديث يدل على تحريم التخلِّى فى طُرق الناس وظِلِّهم لما فيه من أذية

---

(١) موسوعة الآداب الإسلامية (٣/ ٥٦٨) أ. عبد العزيز ندا.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٨٩) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٠٠٩) كتاب الزكاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩) كتاب الطهارة.

المسلمين بتنجيس مَن يَمُر به ونتنه واستقذاره.

(١١) تجنُّب الأكل فى الطرقات:

وذلك لأن الأكل فى الطرقات يتنافى مع الأدب والمروءة... فالمسلم لا يأكل إلا فى البيت أو فى مكانٍ مُغلق كالمطاعم ونحو ذلك.

(١٢) رفع الطعام عن قارعة الطريق:

رفع الأطعمة وفُتات الخبز عن قارعة الطريق، وإبعاد الأوراق التى فيها أسماء كريمة أو كلمات قرآنية عن ممرات الناس ... ولا مانع من حرقها؛ لصونها من العبث وتعظيمًا لاسم الله سبحانه وتعالى وكلامه.

(١٣) تجنُّب رفع الصوت فى الطرقات:

سواء كان ذلك فى البيع والشراء... أو كان ذلك مرورًا بالسيارات... أو تشغيل مكبرات الصوت فى الأفراح وغير ذلك مما تَنفُر منه الطباع السليمة.

(١٤) ألا يَحمل ما يُزعج الناس أو يضرهم:

فلا يجوز لمسلم أن يمشى بين الناس وهو يحمل سلاحًا من أى نوعٍ كان بطريقة مخيفة... كأن يحمل السيف خارجًا من غمده.

فما دام الضرر محتملاً فإن منعه ومنع أسبابه واجب... ولذلك أمر النبى ﷺ مَن مَرَّ بسلاح فى مسجد أو سوق أو غيرهما من المواضع الجامعة للناس أن يُمسك بالسلاح من الموضع الذى يؤذى الآخرين حتى يمنع ضرره عن الناس.

فعن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِى مَجْلِسٍ أَوْ سُوقٍ وَبِيَدِهِ نَبْلٌ فَلْيَأْخُذْ بِنِصَالِهَا ثُمَّ لِيَأْخُذْ بِنِصَالِهَا ثُمَّ لِيَأْخُذْ بِنِصَالِهَا**»[١].

(١٥) الالتزام بآداب المشى:

وذلك بأن يمشى متواضعًا.. وأن يُسلِّم الماشى على القاعد إذا مَرَّ به.. وألا

(١) رواه مسلم (٢٦١٥) كتاب البر والصلة والآداب.

يُكثر من الالتفات.. وأن يتجنب المشيات المذمومة.. وألا تسير المرأة فى وسط الطريق بل تمشى فى جانب الطريق.

(١٦) إعانة الرجل فى حمله على دابته أو رفع متاعه :

ومن آداب الطريق المستحب فعلها أنك إذا رأيت رجلاً يريد أن يركب دابته وكان ذلك يشق عليه، فإنك تُعينه على ذلك، أو تُعينه فى حمل متاعه، ويمكن فعل ذلك الآن... فإن بعض كبار السن قد لا يتمكن من الركوب فى (العربات المتحركة) بسهولة، وخصوصًا إذا كانت كبيرة.

وفعل ذلك كله من الصدقة التى يُؤجَر المسلم عليها.

فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «**كل سُلامى عليه صدقة، كل يوم، يُعين الرجل فى دابته يُحامله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة... الحديث**»[١].

(١٧) أن تَحلم على الناس ولا تجهل عليهم :

فلا تعامل الناس بأخلاقهم بل تعفو عنهم وتَحلُم عليهم إذا أساءوا إليك وتصبر على أذاهم قدر استطاعتك.

(١٨) عدم مخالفة القوانين المتعلقة بتنظيم السير :

فلا ينبغى للإنسان فى الطريق أن يسير بسيارته عكس اتجاه السير، أو أن يقطع إشارة المرور، أو يمشى فى طريقٍ ممنوع، أو يستعمل البوق بدون داعٍ، أو غير ذلك مما يؤذى الناس، وقد يتسبب له ولغيره فى الأضرار الفادحة. فهذا كله لا يتفق مع ما يدعو إليه الإسلام[٢].

(١٩) إعانة المظلوم :

وهذا واجب على المسلم عمومًا...ومن حق المسلم على أخيه المسلم.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٩١) كتاب الجهاد والسير.

(٢) موسوعة الآداب الإسلامية (١/ ٥٧٠).

وكذلك فإنه من حق الطريق،... فينبغى لمن رأى مظلومًا فى الطريق، أو إنسانًا يتعرض للأذى، أو يُسلَب حقه، ينبغى له أن يتدخل لمساعدته ونُصرته، والوقوف معه. ويدخل فى ذلك مَن رأى أشخاصًا يحاولون سلب مال إنسان، أو اختطافه، أو خطف زوجته، أو نحو ذلك، فإنه لو خاف كل واحدٍ على نفسه ووقف موقفًا سلبيًّا لعمَّ الفساد والفوضى، ولدارت الدائرة حتى لا ينجو منها أحد(١).

(٢٠) اغتنام الوقت الضائع:

وذلك بإشغاله بذكر الله تعالى، وتسبيحه وتحميده.. أو الصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ.. أو مراجعة شىء من المحفوظ من آيات القرآن الكريم.. أو نحوه.

***

(١٩٦) الثَّامنُ: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ رأى خَاتمًا مِنْ ذَهَبٍ فى يَد رَجُلٍ، فَنَزعَهُ فطرَحَهُ وقَال: «يَعمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيجْعلهَا فى يَدِهِ» فَقيل للرَّجُل بَعدَ مَا ذَهَبَ رسولُ الله ﷺ: خُذْ خَاتَمكَ، انتَفِع بِهِ. قَالَ: لا والله لا آخُذُهُ أَبَدًا وقَد طَرحهُ رسول الله ﷺ(٢).

۞ أتى المؤلف رحمه الله بهذا الحديث فى باب: (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)؛ لأن فيه تغيير المنكر باليد ... فإن لبس الرجل الذهب مُحرم ومنكر، كما قال النبى (عليه الصلاة والسلام) فى الذهب والحرير: إنهما أُحلا لنساء أمتى وحُرِّما على ذكورها.

فلا يجوز للرجل أن يلبس خاتمًا من ذهب، ولا أن يلبس قلادة من ذهب،

---

(١) موسوعة الآداب الإسلامية (١/ ٥٦٨، ٥٦٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٩٠) كتاب اللباس والزينة.

ولا أن يلبس ثيابًا فيها أَزِرَّةٌ من ذهب، ولا غير ذلك... بل يجب أن يتجنب الذهب كله، وذلك لأن الذهب إنما يلبسه مَن يحتاج إلى الزينة والتجمُّل، كالمرأة التى تتجمل لزوجها حتى يرغب فيها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[الزخرف:١٨] يعنى: النساء.. فالنساء يُنشَّأن فى الحِلية ويُرَبَّيْن عليها.

أما الرجل فإنه لا يحتاج إلى التزيُّن إلا لزوجته فى الحلال .. ولذا فإنه لا يجوز له أن يلبس الذهب .. وأما لبس الفضة فلا بأس به، يجوز أن يلبس الرجل خاتمًا من فضة، ولكن بشرط ألا يكون هناك عقيدة فى ذلك، كما يفعله بعض الناس الذين اعتادوا عادات النصارى فى مسألة الدبلة، التى يلبسها البعض عند الزواج... يقولون: إن النصارى إذا أراد الرجل منهم أن يتزوج، جاء إليه القسيس - بمَنْزِلة العالم عند المسلمين - وأخذ الخاتم ووضعه فى أصابعه: إصبع بعد إصبع، حتى ينتهى إلى ما يريد ثم يقول: هذا الرباط بينك وبين زوجتك... فإذا لبس الرجل هذه الدبلة معتقدًا ذلك فهو تشبُّه بالنصارى، مصحوب بعقيدة باطلة... فلا يجوز حينئذ للرجل أن يلبس هذه الدبلة[١].

أما لو لبس خاتمًا عاديًا بغير عقيدة، فإن هذا لا بأس به ... وليس التختُّم من الأمور المستحبة، بل هو من الأمور التى إذا دعت الحاجة إليها فُعلت وإلا فلا تُفعَل... بدليل أن الرسول (عليه الصلاة والسلام) كان لا يلبس الخاتم. لكنه لما قيل له: إن الملوك والرؤساء لا يقبلون الكتاب إلا بختم، اتخذ خاتمًا نقش فى فصِّه:

---

(١) أى إذا لبس الرجل هذه الدبلة معتقدًا أنها شعيرة من شعائر الزواج، وأنه لا يصلح الزواج بدونها، فقد وقع فى محرم، سواء كانت الدبلة فضة أم ذهبًا. هذا بجانب بعض المعتقدات الفاسدة المصاحبة لهذا الأمر خاصةً عند النساء.. وهى تشاؤم المرأة إذا خلع الرجل الدبلة وتنصب هذا دليلاً على احتمال الفراق أو حدوث المشاكل، والحقيقة أن سبب المشاكل الفعلى هو هذا الاعتقاد الفاسد مع المخالفات الأخرى التى تصحب الزواج ولمعرفة المزيد عن حكم الدبلة، يُراجَع كتاب «آداب الزفاف» للعلامة الألبانى رحمه الله (ص١٤٠-١٤٢).

«محمد رسول الله» حتى إذا انتهى من الكتاب ختمه بهذا الخاتم.

وفى هذا الحديث: دليل على استعمال الشدة فى تغيير المنكر إذا دعت الحاجة إلى ذلك... لأن النبى ﷺ لم يَقُل له: إن الذهب حرام فلا تلبسه، أو فاخلعه، بل هو بنفسه خلعه وطرحه فى الأرض... ومعلوم أن هناك فرقًا بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبين تغيير المنكر... لأن تغيير المنكر يكون من ذى سلطة قادر، مثل الأمير ومَن جُعل له تغييره... مثل الرجل فى أهل بيته، والمرأة فى بيتها وما أشبه ذلك، فهذا له السلطة أن يغير بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه.

أما الأمر فهو واجب بكلِّ حال، الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر واجبٌ بكل حال؛ لأنه ليس فيه تغيير، بل فيه أمر بالخير ونهى عن الشر، وفيه أيضًا دعوة إلى الخير والمعروف وإلى ترك المنكر.

فهذه ثلاث مراتب: دعوة، وأمر ونهى، وتغيير.

وفيه أيضًا دليل: على جواز إتلاف ما يكون به المنكر؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام طرحه لما نزعه من يده ولم يَقُل له: خُذه وأعطه أهلك مثلاً... ولهذا كان من فقه هذا الرجل أنه لما قيل له: خُذ خاتمك، قال: لا آخذ خاتمًا طرحه النبى ﷺ ... لأنه فهم أن هذا من باب التعزير وإتلافه عليه؛ لأنه حصلت به المعصية.

وفى هذا الحديث: دليل على أن لبس الذهب موجب للعذاب بالنار والعياذ بالله... لقوله عليه الصلاة والسلام: «**يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها فى يده**» فإن الرسول ﷺ جعل هذا جمرة من نار، يعنى يُعذَّب بها يوم القيامة، وهو عذاب جزئى أى: على بعض البدن .. على الجزء الذى حصلت به المخالفة... ونظيره قوله ﷺ فيمن جرَّ ثوبه أسفل من الكعبين، قال: «**ما أسفل**

من الكعبين من الإزار ففى النار»[١] ونظيره أيضًا حين قصَّر الصحابة فى غسل أرجلهم، فقال النبى ﷺ: «ويلٌ للأعقاب من النار»[٢].

فهذه ثلاثة نصوص من السُّنة كلها فيها إثبات أن العذاب بالنار قد يكون على جُزءٍ مُعيَّن من البدن.

وفى القرآن أيضًا من ذلك كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾[التوبة: ٣٥]. مواضع مُعيَّنة، فالعذاب كما يكون عامًّا على جميع البدن، قد يكون خاصًّا ببعض أجزائه وهو ما حصلت به المخالفة.

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: بيان كمال صدق الصحابة فى إيمانهم، فإن هذا الرجل لما قيل له: خُذ خاتمك انتفع به. قال: لا آخذ خاتمًا طرحه النبى (عليه الصلاة والسلام)، وذلك من كمال إيمانه رضي الله عنه.

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أن الإنسان يستعمل الحكمة فى تغيير المنكر... فهذا الرجل كما ترون استعمل معه النبى ﷺ شيئًا من الشدة...لكن الأعرابى الذى بال فى المسجد لم يستعمل معه النبى ﷺ الشدة... ولعل ذلك لأن هذا الذى لبس خاتم الذهب عَلِمَ النبى ﷺ أنه كان عالمًا بالحكم والتحريم ولكنه متساهل، بخلاف الأعرابى، فإنه كان جاهلاً لا يعرف... فقد جاء ووجد هذه الفُسحة فى المسجد، فجعل يبول، يحسب نفسه أنه فى الصحراء!!

ولما قام إليه الناس يزجرونه، نهاهم النبى ﷺ عن ذلك ... وكذلك استعمل النبى ﷺ اللين مع معاوية بن الحكم السُّلَمى حين تكلم فى الصلاة ... وكذلك مع الرجل الذى جامعَ زوجته فى نهار رمضان ... فلكل مقامٍ مقال.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٧٨٧) كتاب اللباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠) كتاب العلم - ومسلم (٢٤١) كتاب الطهارة.

فعليك يا أخى المسلم أن تستعمل الحكمة فى كل ما تفعل وكل ما تقول، فإن الله تعالى يقول فى كتابه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩][(١)].

(١٩٧) التَّاسِعُ: عَنْ أَبِى سعيد الْحسنِ البصرِى أَنَّ عَائِذَ بن عمْرٍو ﵁ دخَلَ عَلَى عُبَيْدِ الله بن زِيَادٍ فَقَالَ: أَىْ بُنَىَّ، إِنِّى سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «إِنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الْحُطَمَةُ» فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ. فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنت مِنْ نُخَالَةِ أَصحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فقال: وهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخالَةُ بَعدَهُمْ وَفى غَيرِهِمْ[(٢)(٣)].

۞ إن النبى ﷺ الذى أرسله الله ﷿ رحمة للعالمين كان يُوصى دائمًا كلَّ مَن يلى أمر المسلمين أن يرفق بهم وأن يرحمهم .. وكان يُحذِّرهم من ظُلم الرعية وعدم الرفق بهم.

۞ وفى هذا الحديث أن عائذ بن عمرو ﵁ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ دخل على عُبيد الله بن زياد فقال له: أى بُنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن شرَّ الرِّعاء الحُطمة فإياك أن تكون منهم**» يقول: إن شرَّ الرِّعاء الحُطمة .. والحُطمة هو العنيف فى رعاية الإبل لا يرفق بها فى سَوقها ومرعاها بل يحطمها فى سَوقها ومرعاها وفى سقيها وغيره ويزحم بعضها ببعضٍ ويُلقى بعضها بحيث يؤذيها ويُحطمها ... وهذا مثلٌ ضربه الرسول ﷺ للوالى السيئ القاسى القلب الذى يظلم الرعية.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٣٠-٥٣٢) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٠) كتاب الإمارة.

(٣) الرِّعاء: جمع راعٍ - الحُطمة: العنيف في رعيته الذي لا يرفق بهم - المقصود بالنُّخالة: أي لست من فُضلائهم وعلمائهم.

❁ والسؤال: لماذا قال عائذ بن عمرو هذا الكلام لعُبيد الله بن زياد؟

والجواب: لأنه كان غلامًا سفيهًا سفك الدماء سفكًا شديدًا .. وكان هو الذى أمر بقتل الحسين بن على رضي الله عنهما حفيد النبى ﷺ وسيد شباب أهل الجنة.

❁ وها هى قصة قتل الحسين رضي الله عنه باختصارٍ شديد.

الحسين بن على رضي الله عنهما تعرض لفتنة عظيمة .. وحَلَّ به كربٌ وبلاء فى كربلاء، وذلك أن أهل العراق أرادوا الوقيعة بين الحسين بن على ويزيد بن معاوية، فكتبوا إلى الحسين بأن يخرج إليهم، ووعدوه أن ينصروه وأن يؤازروه وأن يؤمِّروه عليهم حتى لا يترك الأمر ليزيد الذى اتُّهم فى دينه، والله يتولاه.

ورأى الحسين رضي الله عنه أن هذا العرض قد يحقق خيرًا يريده للناس ولا يريده لنفسه... إنه يعلم أن رسول الله ﷺ قال: **«يا عبد الرحمن بن سَمُرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِّلت إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها»**[1].

فمضى رضي الله عنه وقد أشار عليه بعض الصحابة بعدم الخروج فأبى إلا الخروج ليقضى الله أمرًا كان مفعولًا...ووثق الحسين بعهود ومواثيق أهل العراق، وأقبل يسير نحو الكوفة حتى إذا نزل بكربلاء رفع يديه إلى السماء ثم قال: اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى من كل أمر نزل ثقة وعدة ... فكم من هَمٍّ يضعف فيه الفؤاد وتَقِلُّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو ... فأنزلته بك وشكوته إليك رغبة فيه إليك عمَّا سواك، ففرجته وكشفته وكفيتنيه فأنت ولى كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل غاية[2].

ولما نزل فى كربلاء قال: ما هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، قال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، كربٌ وبلاء،... وعلم الأعداء بقدومه فأحاطوا به من كل مكان ...

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢٢) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم (١٦٥٢) كتاب الإمارة.

(٢) البداية والنهاية جزء ٨.

وكان رضي الله عنه يقوم الليل هو ومَن معه يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ويقرأون قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨] وتحرَّش به الأعداء ونالوا منه سبًّا وشتمًا وما كان له إلا أن يدافع عن نفسه وأهله الذين اصطحبهم معه، وقد وقف لهم وقوف الجبال الراسية حتى قُتل جميع مَن معه وبقى وحده يقاتل حتى قُتل، وقُطع رأسه في يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ، وكان ذلك بأمرٍ من عُبيد الله بن زياد، فلما أُحضر بين يديه أخذ عودًا ينكت به في ثنايا الحسين، ويقول: لقد كان جميلًا ... قال زيد بن أرقم: ارفع القضيب فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الثنيتين يُقبلهما...وأُرسل رأس الحسين إلى يزيد فلما رآه حزن حُزنًا شديدًا وقال: لعن الله ابن مرجانة - يعني عُبيد الله بن زياد - لو قبل طلبه في عدم القتل وأعطاه سؤاله، لقد بغَّضني إلى الناس بقتل الحسين وزرع لي في قلوبهم العداوة والبغضاء، وكان الذي رمى الحسين رجلٌ اسمه حصين بن تميم ... رماه بسهم في حنكه حتى سال الدم فتلقَّاه الحسين وهو يقول رافعًا يديه إلى السماء مملوءتان دمًا: اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تَذَر على الأرض منهم أحدًا...ودعا عليهم دعاءً بليغًا وقد استجاب الله دعاءه فما مكث الرامي إلا يسيرًا حتى صَبَّ الله عليه الظمأ فجعل لا يُروى ويُسقَى الماء مبردًا فلا يُطفئ عطشه ولا يروى ظمأه لأن النار تشتعل في فؤاده، فما لبث إلا قليلًا حتى مات من شدة العطش ... والماء البارد بين يديه.

ومرت الأيام وابن مرجانة - عُبيد الله بن زياد- يفتخر بقتل الحسين ويتعالى بسفك دمه ويحسب أن الدنيا ستخلو له، وأن الحياة ستبقى له، وأن يزيد سيمنعه من عذاب الله ويحول بينه وبين الموت .. ونسى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]

وفى اليوم الذى قُتل فيه الحسين وهو يوم عاشوراء سلط الله على ابن مرجانة - عُبيد الله بن زياد- المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى أرسله إبراهيم بن الأشتر فالتقوا فى أول سنة سبع وستين بالخازر قريبًا من الموصل وقُتل ابن زياد يوم عاشوراء وأرسل ابن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار فلما وضع بين يديه جاءت حية عظيمة ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت فى فم ابن زياد وخرجت من منخره ودخلت من منخره وخرجت من فمه وهكذا ترددت عدة مرات.

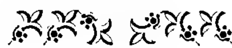
وهكذا ينتقم الله لأوليائه من كل ظالم عنيد، والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدًا [١].

وكانت أمه مرجانة من بنات ملوك الفرس تقول له: قتلت ابن بنت رسول الله ﷺ لا ترى الجنة.... وقد أفضى إلى ما قدم ويتمنى أنه ما فعل فعله .... كيف وخصمه يوم القيامة ريحانة رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة، فبأى جواب يجيب؟ وبأى عمل يقدم؟ [٢].

❁ فيُستفاد من هذا الحديث فائدتان:

الفائدة الأولى: أنه لا يجوز للإنسان الذي ولَّاه الله على أمرٍ من أمور المسلمين أن يكون عنيفًا عليهم، بل يكون رفيقًا بهم.

الفائدة الثانية: وجوب الرفق بمن ولَّاه الله عليهم بحيث يرفق بهم في قضاء حوائجهم وغير ذلك، مع كونه يستعمل الحزم والقوة والنشاط، يعني لا يكون لينًا مع ضعف ولكن لينًا بحزمٍ وقوة ونشاط.



(١)البداية والنهاية (جزء ٨)، تاريخ الطبرى (جزء ٣)، سير أعلام النبلاء (جزء ٣).

(٢)اتق دعوة المظلوم (٦٥ - ٦٨).

(١٩٨) العاشر: عَنْ حذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسي بيَده لتَأْمُرُنَّ بالْمعرُوفِ، ولتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يَبْعثَ عَلَيْكمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجابُ لَكُمْ»(١).

❁ قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسي بيَده» أي أن النبي ﷺ يُقسم بالله عَزَّ وَجَلَّ ... وكان النبي ﷺ يُقسم أحيانًا ويقول: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَده» لأن نفس النبي ﷺ هي أطيب الأنفُس... وفي هذا الحديث أقسم النبي ﷺ وقال: «وَالَّذِي نَفْسي بيَده» وذلك لأن أنفُس العباد بيد الله عَزَّ وَجَلَّ.. يهديها إن شاء، ويُضلها إن شاء، ويُميتها إن شاء، ويُبقيها إن شاء، فالأنفس بيد الله هدايةً وضلالة، وإحياءً وإماتة.

❁ ثم ذكر النبي ﷺ المُقسَم عليه وهو: «لتَأْمُرُنَّ بالْمعرُوفِ، ولتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ» لأننا إن لم نفعل ذلك فسوف يبعث الله علينا عقابًا شديدًا ثم إذا دعوناه (سبحانه وتعالى) أن يرفع عنَّا هذا العقاب وذلك العذاب فلن يستجيب دعاءنا.

❁ وقد ذكرنا قبل ذلك الأحاديث التي تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من تَرْكِه.. فالواجب علينا جميعًا أن نأمر بالمعروف - ولكن بكلِّ معروفٍ - وأن ننهى عن المنكر - ولكن بغير منكر-.

فإذا رأينا أخًا لنا قد ترك واجبًا أو قصَّر فيه أمرناه بالمعروف وحذَّرناه من ترك ذلك الواجب .. وإذا رأيناه قد أتى مُنكرًا نهيناه عن ذلك ولكن بكلِّ رحمة.

حتى نكون أمة واحدة .. لأننا إذا لم نفعل ذلك فسوف تتفرق الأمة وسوف يبعث الله عليها عذابًا ثم لا يستجيب دعاءنا إذا دعوناه بأن يرفع عنَّا هذا العذاب.

ولا بد أن يكون قصدنا هو إصلاح مَن نأمره بالمعروف أو ننهاه عن المنكر .. ولا يكون قصدنا الانتقام منه أو الاستئثار عليه.

لأن مَن فعل ذلك فقد يُصيبه الكبر والعُجب بنفسه وبعمله ويحتقر أخاه ..

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠).



وربما يستبعد أن يرحمه الله فيُحبط الله عمله.

كما جاء ذلك فى الحديث الذى صَحَّ عن النبى ﷺ أن رجلاً قال لرجل آخر مُسرف على نفسه: «والله لا يغفر الله لفلان» فقال الله عَزَّوَجَلَّ: **«مَن ذا الذى يتألَّى علىَّ أن لا أغفر لفلان.. فإنِّى قد غفرتُ لفلان، وأحبطت عملك»**(١).

فانظر إلى هذا الرجل، تكلم بكلمة أوبقت دُنياه وآخرته.. هلك كلّ عمله وسعيه؛ لأنه حَمَله إعجابه بنفسه، واحتقاره لأخيه، واستبعاده رحمة الله على أن يقول هذه المقالة.. فكانت النتيجة أن أوبقت هذه الكلمة دُنياه وآخرته.

وفى هذا الحديث: دليل على جواز القَسَم بدون أن يُستقسم الإنسان، أى: جواز القسم دون أن يُطلَب من الإنسان أن يُقسم، ولكن هذا لا ينبغى إلا فى الأمور التى لها أهمية ولها شأن، فهذه يقسم عليها الإنسان، أما الشىء الذى ليس له أهمية ولا شأن، فلا ينبغى أن تحلف عليه إلا إذا استُحلفت للتوكيد فلا بأس. فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أهم واجبات الدين وفروضه، حتى إن بعض العلماء عدَّه رُكنًا سادسًا من أركان الإسلام. والصحيح أنه ليس ركنًا سادسًا من أركان الإسلام، وإنما هو من أوجب الواجبات(٢).

***

(١٩٩) الْحَادى عشَرَ: عنْ أَبِى سَعيد الْخُدرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبىِّ ﷺ قال: **«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدلٍ عندَ سلْطَانٍ جائرٍ»**(٣).

(٢٠٠) الثَّانى عَشَر: عنْ أَبِى عبد الله طارق بن شهابِ الْبَجَلِىِّ الأَحمَسىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً سأَلَ النَّبِىَّ ﷺ وقَد وَضعَ رجْلَهُ فى الغَرزِ: أَىُّ الْجِهادِ أَفْضَل؟ قَالَ: «كَلِمَةُ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة.

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٣٣) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٠٩).

حقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جائرٍ»[١].

قَوْلُهُ: «إِنَّ مِنْ أعظَمِ الْجِهَادِ» وَفِي رِوَايَةٍ: أَفْضَلِ الْجِهَادِ «كَلِمَةُ عَدلٍ» أَيْ: كَلِمَةُ حَقٍّ كَمَا فِي رِوَايَةٍ ... وَالْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ مَا أَفَادَ أَمْرًا بِمَعرُوفٍ أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ مِنْ لَفْظٍ أَوْ مَا فِي مَعنَاهُ كَكِتَابَةٍ وَنَحْوِهَا «عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» أَيْ: صَاحِبِ جَوْرٍ وَظُلْمٍ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَإِنَّمَا صَارَ ذَلِكَ أَفْضَلَ الْجِهَادِ لِأَنَّ مَنْ جَاهَدَ الْعَدُوَّ كَانَ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ لَا يَدرِي هَلْ يَغْلِبُ أَوْ يُغْلَبُ ... وَصَاحِبُ السُّلْطَانِ مَقْهُورٌ فِي يَدِهِ فَهُوَ إِذَا قَالَ الْحَقَّ وَأَمَرَهُ بِالْمَعرُوفِ فَقَد تَعَرَّضَ لِلتَّلَفِ وَأَهْدَفَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ فَصَارَ ذَلِكَ أَفْضَلَ أَنْوَاعِ الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ غَلَبَةِ الْخَوْفِ.

وَقَالَ الْمُظْهِرُ: وَإِنَّمَا كَانَ أَفْضَلَ لِأَنَّ ظُلْمَ السُّلْطَانِ يَسْرِي فِي جَمِيعِ مَنْ تَحْتَ سِيَاسَتِهِ وَهُوَ جَمٌّ غَفِيرٌ ... فَإِذَا نَهَاهُ عَنِ الظُّلْمِ فَقَد أَوْصَلَ النَّفْعَ إِلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ بِخِلَافِ قَتْلِ كَافِرٍ[٢].

۞ ولابد أن نعلم أن السلطان له بطانتان: بطانة خير وبطانة سوء .. فبطانة الخير: تنظر ما يُرضى الله فتدل الحاكم عليه وتقوله له ... وأما بطانة السوء: فإنها تنظر ما يُرضى السلطان فتقوله له وتُزينه له وتُلبسه ثوب الحق.

وقوله: «عندَ سُلطانٍ جائر» لأن كلمة الحق عند السلطان العادل لا تضر قائلها بل تنفعه ... لأن السلطان العادل يقبلها وينفع بها الرعية فتكون في ميزان حسنات مَن قالها له.

أما السلطان الجائر فإنه ينتقم ممن يقول كلمة الحق عنده.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٠).
«الْغَرْز» وَهُوَ رِكَابُ كَورِ الْجمَل إذا كَانَ مِنْ جِلْدٍ أَوْ خَشَبٍ، وَقِيلَ: لاَ يَخْتَصُّ بِجِلْدٍ وَخَشَبٍ.
(٢) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٤).

۞ فالآن عندنا أربعة أحوال:

(١) كلمة حق عند سلطان عادل، وهذه سهلة.

(٢) كلمة باطل عند سلطان عادل، وهذه خطيرة، لأنك قد تفتن السلطان العادل بكلمتك، بما تُزينه له من الزخارف.

(٣) كلمة حق عند سلطان جائر، وهذه أفضل الجهاد.

(٤) كلمة باطل عند سلطان جائر، وهذه أقبح ما يكون.

فهذه أقسام أربعة، لكن أفضلها كلمة الحق عند السلطان الجائر.

(٢٠١) الثَّالثَ عشَرَ: عن ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرائيل أَنَّه كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ الله وَدَع مَا تَصنعُ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لك، ثُم يَلْقَاهُ مِن الْغَدِ وَهُو عَلَى حالِه، فلا يمْنَعُه ذلك أَنْ يكُونَ أَكيلَهُ وشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فعَلُوا ذَلكَ ضَربَ الله قُلُوبَ بَعضِهِمْ بِبَعضٍ» ثُمَّ قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ إلى قوله ﴿فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٨١] ثُمَّ قَالَ: «كَلاَّ، والله لَتَأْمُرُنَّ بالْمعرُوفِ، وَلَتَنهوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، ولَتقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ الله بقُلُوبِ بَعضِكُمْ عَلَى بَعضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»[١].

هذا لفظ أبي داود، ولفظ الترمذي: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائيلَ

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٨٢٢).
قَوْلُهُ: «تَأْطِرُوهم» أَيْ تَعطِفُوهُمْ - «ولَتَقْصُرُنَّهُ» أيْ لَتَحْبِسُنَّهُ.

فى المَعَاصِى نَهَتهُمْ عُلمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فى مَجالِسِهِمْ ووَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ الله قُلُوب بَعضِهِم ببَعضٍ ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذِلكَ بِمَا عَصوْا وكَانُوا يَعتدُونَ» فَجَلَسَ رسول الله ﷺ وكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «لا والَّذِى نَفْسِى بِيدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا».

۞ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف .. وقد تواعدنا – من باب الأمانة العلمية – ألا نشرح حديثًا ضعيفًا؛ لأن عندنا من الأحاديث الصحيحة ما يكفينا .. وحتى نتعود ألا نروى إلا حديثًا صحيحًا.

***

(٢٠٢) الرَّابع عَشَر: عن أبى بَكْر الصِّدِّيق، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تقرءونَ هَذِه الآيَةَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥] ،وإِنى سَمِعت رسول الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍ مِنْهُ»(١).

۞ عن أبى بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أما بعد أيها الناس، فإنكم تقرءُون هذه الآيـة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ وهذه الآية ظاهرها أن الإنسان إذا اهتدى بنفسه فإنه لا يضره ضلال الناس.

وذلك لأنه قد استقام على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ ... هذا هو ظاهر الآية ..

لكن الله عَزَّ وَجَلَّ قد اشترط لكون مَن ضَلَّ لا يضرنا أن نهتدى نحن ...

فقال تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ ومن الاهتداء: أن نأمر بالمعروف وأن ننهى عن المنكر ... ولهذا قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وإنى سمعت النبى ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أو فلم يأخذوا على يد الظالم، أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقابٍ من عنده**» يعنى أنهم يضرهم مَن ضَلَّ، إذا كانوا يرون الضال

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٧٣).

ولا يأمرونه بالمعروف، ولا ينهونه عن المنكر، فإنه يوشك أن يَعُمهم الله بالعقاب: الفاعل والغافل ... الفاعل للمنكر.. والغافل الذى لم يأمر بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر.

۞ وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى قال:

قَوْلُهُ: «قَالَ: يَا أيها الناس إنكم تقرأون هَذِهِ الآيَةَ» ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ أَي: الْزَمُوا حِفْظَ أَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَعَاصِى فَإِذَا حَفِظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لَمْ يَضُرَّكُمْ إِذَا عَجَزْتُمْ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ضَلَالُ مَنْ ضَلَّ بِارْتِكَابِ الْمَنَاهِي إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اجْتِنَابِهَا (فإنكم) أى أنكم تقرأون هَذِهِ الْآيَةَ وَتَجْرُونَ عَلَى عُمُومِهَا وَتَمْتَنِعُونَ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ (فَإِنِّى سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ» أَي: الْمُطِيقِينَ لِإِزَالَةِ الْمُنْكَرِ مَعَ سَلَامَةِ الْعَافِيَةِ «إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ» أَىْ: عَلِمُوا ظُلْمَهُ وَفِسْقَهُ وَعِصيَانَهُ «فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ» أَىْ: لَمْ يَكُفُّوهُ عَنِ الظُّلْمِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعلٍ «أَوْشَكَ» أَىْ: قَارَبَ أَوْ أَسْرَعَ «أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ» إِمَّا فِى الدُّنْيَا أَوِ الْآخِرَةِ أَوْ فِيهِمَا لِتَضْيِيعِ فَرْضِ اللهِ بِلَا عُذْرٍ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: خَافَ الصِّدِّيقُ أَنْ يَتَأَوَّلَ النَّاسُ الْآيَةَ غَيْرَ تَأْوِيلِهَا فَيَدعُوهُمْ إِلَى تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعرُوفِ فَأَعلَمَهُمْ أَنَّهَا لَيَستْ كَذَلِكَ وَأَنَّ الَّذِى أُذِنَ فِى الْإِمْسَاكِ عَنْ تَغْيِيرِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الشِّرْكُ الَّذِى يَنْطِقُ بِهِ الْمُعَاهِدُونَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَتَدَيَّنُونَ بِهِ وَقَد صُولِحُوا عَلَيْهِ..فَأَمَّا الْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ وَالرَّيْبُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا يَدخُلُ فِيهِ.

۞ وَقَالَ النَّوَوِيُّ: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ فَلَيْسَتْ مُخَالِفَةً لِوُجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لِأَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ فِى مَعنَى الْآيَةِ أَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ فَلَا يَضُرُّكُمْ تَقْصِيرُ غَيْرِكُمْ ... مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾ .

فَـإِذَا كَـانَ كَـذَلِكَ فَمِمَّـا كُلِّـفَ بِـهِ الْأَمْـرُ بِـالْمَعرُوفِ إِذَا فَعَلَـهُ وَلَـمْ يَمْتَثِـلِ الْمُخَاطَبُ فَلَا عَتْبَ بَعدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ(١).

وفى هذا دليل على أنه يجب على الإنسان العناية بفهم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، حتى لا يفهمه على غير ما أراد الله، وأن الناس قد يظنون المعنى على خلاف ما أراد الله فى كتابه، فيضلوا بتفسير القرآن ... ولهذا جاء فى الحديث الوعيد على مَن قال فى القرآن برأيه، أى فسَّره بما يرى ويهوى، لا بمقتضى اللغة العربية والشريعة الإسلامية.

---

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ١٨-١٩) بتصرف.

(٢٤) باب تغليظ مَن أَمر بمعروفٍ أو نهى عن منكرٍ وخالف قولُه فعلَه

۞ لما كان الباب الذى قبله فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كان المناسب ذكر هذا الباب فى تغليظ عقوبة مَن أَمَر بمعروف ولم يفعله، أو نهى عن منكر وفعله - والعياذ بالله - وذلك أن مَنْ هذه حاله، لا يكون صادقًا فى أمره ونهيه؛ لأنه لو كان صادقًا فى أمره، معتقدًا أن ما أمر به معروف، وأنه نافع، لكان هو أول مَن يفعله لو كان عاقلاً. وكذلك لو نهى عن منكر، وهو يعتقد أنه ضار، وأنَّ فِعله إثم، لكان أول مَن يتركه لو كان عاقلاً.

فإذا أمر بمعروف ولم يفعله، أو نهى عن منكر وفَعَله، علم أن قوله هذا ليس مبنيًا على عقيدة والعياذ بالله.

ولهذا أنكر الله على مَن فعل ذلك فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. والاستفهام هنا للإنكار(١).

۞ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ أى: بالإيمان والخير ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أى: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وسُمِّى العقل عقلًا؛ لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أولَّ فاعلٍ لما يأمر به، وأول تاركٍ لما ينهى عنه... فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دَلَّ على عدم عقله وجهله، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك .. قد قامت عليه الحُجة.

وهذه الآية وإن كانت نزلت فى سبب بنى إسرائيل فهى عامة لكل أحد؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٣٦).

﴿ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وليس فى الآية أن الإنسان إذا لم يَقُم بما أُمر به أنه يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنها دَلَّت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها ... فتركُ أحدهما لا يكون رخصة فى ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما.

وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس فى رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضًا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قولَه فعلُه، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة[1].

۞ ومثل ذلك: مَن يأمر الناس بالصلاة ثم لا يُصلى هو .. ومَن يأمر الناس بالصدق وهو كاذب .. ومن يأمر الناس بترك الربا وهو يتعامل بالربا أو يأخذ الربا بالمكر والاحتيال .. فهل مَن يفعل ذلك عاقل؟!

ولهذا قال أيوب السختيانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى أهل الحيل والمكر: «إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان، لو أنهم أتوا الأمر على وجهه لكان أهون» .

۞ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أى يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله لِمَ تقولون بألسنتكم شيئًا ولا تفعلونه؟ ولأى شىءٍ تقولون نفعل ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ ... قال ابن كثير: هذا إنكارٌ على من يَعِد وعدًا، أو يقول قولاً لا يفى به... وفى الصحيحين: «آية المنافق ثلاثٌ: إذا وعد أخلف، وإذا حدَّث كذب، وإذا ائتُمن

(١) تفسير السعدى (ص ٤١-٤٢).

خان»[1][2] ثم أكَّد الإنكار عليهم بقوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أى عَظُم فعلكم هذا بُغضًا عند ربكم ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى أن تقولوا شيئًا ثم لا تفعلونه، وأن تَعدوا بشيء ثم لا تفون به.

قال ابن عباس: كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ دلَّنا على أحبِّ الأعمال إليه فنعمل به..فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يُقروا به، فلما نزل الجهاد كَرِهَ ذلك ناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره فنزلت الآية[3]... وقيل: هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا يأتمر به، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه...كقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤][4]؟

❁ وقال تعالى عن شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨].

أى أن نبى الله شعيبًا قال لقومه: لقد نهيتكم عن الشرك وعن نقص المكيال والميزان .. وما دُمت قد نهيتكم عنه فلا يمكن أن أنهاكم عن شيء وأنا أفعله .. بل إذا أمرتكم بشيءٍ فلا بُدَّ أن أكون أول مَن يفعله وإذا نهيتكم عن شيءٍ فلا بُدَّ أن أكون أول مَن ينتهي عنه..

وذلك لأن الأنبياء والمُرسلين هم أشد الناس تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ وامتثالًا لأمره واجتنابًا لنهيه .. وهم أنصح الخلق للناس.

وفى هذا دليل: على أن الإنسان الذى يفعل ما ينهى عنه، أو يترك ما أُمر به،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩١).
(٣) المختصر (٣/ ٤٩٢) وهذا القول هو اختيار الطبرى.
(٤) صفوة التفاسير (٣/ ٣٥٠).

مخالف لطريقة الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم لا يمكن أن يخالفوا الناس إلى ما ينهونهم عنه.

(٢٠٣) وعَنْ أَبى زيد أُسامةَ بْنِ زَيد بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنهما قال: سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بالرَّجُل يَوْمَ الْقِيامة فَيُلْقَى فى النّار، فتَنْدلقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ فى الرَّحا، فَيجْتَمعَ إِليْهِ أَهْلُ النَّار فَيَقُولُونَ: يا فُلانُ مَالكَ؟ أَلَمْ تَكُن تأمُرُ بالمَعرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُ بالمَعرُوفِ وَلاَ آتِيه، وَأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»[(١)].

۞ يخبر النبى ﷺ أنه «يُؤتَى بالرجل يوم القيامة» أى: تأتى به الملائكة .. لكن لماذا تأتى به الملائكة؟

لتُلقيه فى النار إلقاءً شديدًا بحيث لا يدخل النار برفق - وحسبُه أنه سيدخل النار- لكنه يُلقَى كما يُلقَى الحجر فى البحر فتندلق أقتاب بطنه .. أى تندلق أمعاؤه ... أى تخرج من بطنه من شدة الإلقاء فى النار.

فإذا اندلقت أمعاؤه فإنه «يدور بها كما يدور الحمار فى الرَّحا»... وهنا شبَّهه بالحمار احتقارًا لشأنه..

وسبب تشبيهه بالحمار الذى يدور فى الرَّحا أنه كان فى المطاحن القديمة قبل تلك الآلات الحديثة كانوا يأتون بحجرين كبيرين ويُنقشَان فيما بينهما - أى: يُنقَّران- ويوضع للأعلى منهما فتحة تدخل فيها الحبوب التى يريدون أن يطحنوها ... وفيها خشبة كبيرة يربطونها بمتن الحمار ويبدأ الحمار فى الدوران حول الحجرين لتطحن الرَّحا الحبوب .

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٦٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٩٨٩) كتاب الزهد.
قولُهُ: «تَنْدلِقُ» وَمَعناهُ تَخْرُجُ - و«الأَقْتابُ»: الأَمْعَاءُ، واحِدُهَا قِتْبٌ.

فهذا الرجل الذى يُلقَى فى النار يدور حول أمعائه كما يدور الحمار حول الرَّحا .. فيجتمع إليه أهل النار فيقولون له: ما لك؟ ما الذى جاء بك إلى هنا وأنت الذى كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتُذكر الناس بالله.

فيقول مُعترفًا بجريمته: كنت آمُر بالمعروف ولا آتيه...أى: كنت أقول للناس: صَلُّوا وأنا لا أصلى .. وأقول لهم: ادفعوا زكاة أموالكم وأنا لا أُزكِّى .. وأقول لهم: بِرُّوا آباءكم وأنا عاقٌّ لهما .. وهكذا كنت آمُر بالمعروف ولا أفعل منه أى شىء.

«**وأنهى عن المنكر وآتيه**» أى: كنت أقول للناس: لا تشربوا الخمر وأنا أشربها .. لا تأكلوا الربا وأنا آكل الربا.. لا تغشوا وأنا أغش .. لا تقطعوا أرحامكم وأنا أقطع أرحامى ... وهكذا كان يفعل فى سائر الأشياء المحرمة.

۞ ولذا فالواجب على الإنسان إذا أمر الناس بمعروفٍ أن يبدأ هو بنفسه فيفعله .. وإذا نهاهم عن المنكر أن يبدأ هو بنفسه فينتهى .. لأن أعظم الناس حقًّا عليك بعد النبى ﷺ وأصحابه نفسك..

۞ **قال الشّعبىّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يطَّلعُ قومٌ من أهل الجنّة إلى قوم من أهل النّار، فيقولون لهم: ما أدخلكم النّار؟ وإنّما أدخلنا الله تعالى الجنّة بفضل تأديبكم وتعليمكم، فقالوا: إنَّا كُنَّا نأمر بالخير ولا نفعله» [(١)].

۞ **قال كعب**: «فى آخر الزّمان علماء يُزهِّدون النّاس فى الدّنيا ولا يزهدون، ويُخوِّفون، ولا يخافون، وينهونْ عن غشيان الولاة ويأتون... يُؤْثِرونْ الدّنيا على الآخرة، يأكلون بألسنتهم ..يُقرِّبون الأغنياء دون الفقراء، أولئك الجبَّارون أعداء الرّحمن» [(٢)].

---

(١) تنبيه الغافلين (٩١).
(٢) تنبيه الغافلين (٩٢).

۞ قال حاتم الأصمّ: «ليس فى القيامة أشدّ حسرة من رجلٍ علَّم النَّاس علمًا فعملوا به ولم يعمل هو به وفازوا بسببه وهلك» .

۞ قال الشّاعر:

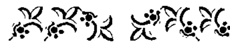
يــا أيّهــا الرَّجــلُ المُعلِّــمُ غيــره ... هــلّا لنفــسك كــان ذا الــتّعليمُ

تَصِفُ الدّواء لذى السِّقام وذى الـضَّنا ... كــى مــا يَـصِحَّ بـه وأنــت سـقيمُ

ابــدأ بنفــسك فانههــا عـــن غيِّهــا ... فــإذا انتهــت عنــه فأنــت حكيــمُ

فهنــاك تُعــذَرُ إن وعظــت ويُقتــدَى ... بــالقول منــك ويُقبَــلُ الــتَّعليمُ

لا تنــهَ عــن خُلُــقٍ وتــأتى مثلــه ... عــارٌ عليـك إذا فعلـت عظيــمُ[1]



(١) أدب الدنيا والدين (٣٩، ٤٠) .

(٢٥) باب الأمر بأداء الأمانة

۞ ما أجمل أن يكون المسلم أمينًا مع ربه (جلَّ وعلا).. أمينًا مع الناس وهو يعلم أن أُسوته وقدوته هو النبى محمد ﷺ الذى كان المشركون يُلقبونه قبل وبعد البعثة بالصادق الأمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

۞ وقد يظن أحدنا أن الأمانة هى مجرد حفظ الأموال ودفعها لأصحابها... ولم يعلم أن الأمانة لها صورٌ كثيرة.

صور الأمانة

۞ إن الأمانة التى أمرنا الله - تعالى - أن نحافظ عليها، ونؤديها لأصحابها لا تكون بحفظ أموال الناس فحسب، وإنما تكون فى أشياء أخرى كثيرة:

۞ فإن أعطاك أحدٌ أى شىء حتى ولو كان رخيصًا، وقال لك احفظه لى وديعةً عندك حتى أطلبه منك فهو أمانةٌ.

۞ وحفظ أسرار الآخرين أمانةٌ.

۞ ونقل رسالة كلَّفك بها إنسانٌ كاملةً دون زيادةٍ أو نُقصان أمانةٌ.

۞ وأن تشهد فى موقفٍ ما بما رأيته بالضبط من غير تغيير أمانةٌ.

۞ والوقت أمانةٌ فلا نقضيه إلا فى كل ما هو مفيدٌ، ولا نُضيِّعه فيما يُغضب الله.

۞ وأداء العبادات التى كلَّفنا الله بها كالصوم والصلاة هى أهم أمانة، فالصلاة عندما نُؤديها فى وقتها، ونُتِم ركوعها وسجودها باهتمام وخشوع دون تقصير أو إهمال نكون بذلك قد أدينا الأمانة.

۞ وعدم الغش فى البيع أو الشراء أمانة ... والتاجر الأمين هو من ينصح المشترى، ولا يبيعه سلعة قبل أن يوضِّح له كل ما فيها، ولا يحاول أن يُخفى

عيوبها... ويبتعد عن الغشِّ بكلِّ أنواعه.

قال رسول الله ﷺ: «... مَنْ غَشَّنَا فَلَيسَ مِنَّا»(١).

۞والمحافظة على المواعيد أمانةٌ، فإذا أعطيت زميلاً لك موعدًا باللقاء فعليك أن تذهب إليه فى الموعد المُحدَّد بالضبط، ولا تتأخَّر أو تتخلَّف عن الموعد.

۞وطلب العلم أمانةٌ، وإفادة الناس بما تعلَّمناه أمانةٌ.

۞وجسم الإنسان أمانةٌ ... علينا أن نحافظ عليه، ولا نستخدمه إلا فى الخير وكل ما هو مفيد.

۞وتأدية العمل بإتقان ودون إهمال أمانةٌ ... فالتلميذ أمينٌ على دروسه وواجباته المدرسية، ولا يغشُّ فى الامتحان ولا يُغشِّش غيره ... والمُعلِّم أمينٌ على العلم والمتعلِّمين ... والموظَّف أمينٌ على وظيفته وعليه مساعدة كل الناس دون إبطاءٍ أو تقصيرٍ ... والجندىُّ أمينٌ على وطنه يحافظ عليه من الأعداء ... والأمُّ أمينةٌ على بيتها وتربية أولادها.

وكل ما يُكلَّفُ به الإنسان من عملٍ مفيدٍ له وللناس أمانةٌ عليه أن يُؤدِّيها(٢).



۞ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

الأمانات: كل ما ائتُمن عليه الإنسان وأُمر بالقيام به...فأمر الله عباده بأدائها أى: كاملة مُوفَّرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولًا بها...ويدخل فى ذلك، أمانات الولايات والأموال، والأسرار؛ والمأمورات التى لا يطلع عليها إلا الله.

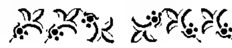
وقد ذكر الفقهاء أن مَنْ ائتُمن أمانة وجب عليه حفظها فى حرز مثلها.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١) كتاب الإيمان.

(٢) الأمانة (ص: ٤-٥) - مكتبة سفير.

قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ دلالة على أنها، لا تُدفَع وتُؤدَّى لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها، لم يكن مُؤديًا لها[1].



۞ وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

يُعظم تعالى شأن الأمانة، التى ائتمن الله عليها المكلفين، التى هى امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، فى حال السر والخفية، كحال العلانية. وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة: السموات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنكِ إن قمتِ بها وأديتيها على وجهها، فلكِ الثواب، وإن لم تقومى بها، ولم تؤديها، فعليكِ العقاب.

﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ أى خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا فى ثوابه ... وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام:

منافقون: أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا... ومشركون: تركوها ظاهرًا وباطنًا...ومؤمنون: قائمون بها ظاهرًا وباطنًا.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا﴾.

فله تعالى الحمد، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالَّين

(١) تفسير السعدى (ص ١٨٦).

على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده. مع أن المحكوم عليهم، كثيرٌ منهم مَن لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشِركِه[١].

فإذا قال قائل: كيف يعرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال، وهي جماد ليس لها عقل ولا تشعر.

فالجواب: أن كلَّ جماد فهو بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ عاقل يفهم ويمتثل ... أرأيت إلى قوله تعالى فيما أخبر به النبي ﷺ: «**إن الله تعالى لما خلق القلم قال له: اكتب**». فخاطب الله القلم وهو جماد، وردَّ عليه القلم قال: «**وماذا أكتب؟**» لأن الأمر مُجمَل ولا يمكن الامتثال للأمر المُجمَل إلا ببيانه.. قال: «**اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[٢]. فكتب القلم بأمر الله ما هو كائن إلى يوم القيامة..هذا أمر وتكليف وإلزام.

بل إن الله عَزَّوَجَلَّ أخبر أن الكون كله يُسبح بحمد الله ويسجد لله (جلَّ وعلا) فقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

بل أخبر النبي ﷺ أن عرش الرحمن قد اهتزَّ فرحًا بقدوم روح سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... فقال ﷺ: «**اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**»[٣].

وأخبر النبي ﷺ أن حجرًا كان يُسلِّم عليه قبل البعثة .. بل وأخبر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا يسمعون صوت تسبيح الطعام والحصى في يد النبي ﷺ والأمثلة على ذلك كثيرة لا حصر لها.

---

(١) تفسير السعدي (ص ٧٩١).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٨٠٣) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٦٦) كتاب فضائل الصحابة.

فهنا بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبت أن تحملها.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت: ١١]. فخاطبهما بالأمر وقال: ائتيا طوعًا أو كرهًا، فقالتا: أتينا طائعين ... ففهمت السموات والأرض خطاب الله، وامتثلتا وقالتا: أتينا طائعين ...وعُصاة بنى آدم يقولون: سمعنا وعصينا.

الأمانة حملها الإنسان، ولكن كيف حملها؟ حملها بأمرين: العقل والرسل... العقل الذى أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ، وفضَّله به على كثيرٍ ممن خلق تفضيلاً... والرسل الذين أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان، وبيَّنوا له الحق من الضلال، فلم يبقَ له عذر، ولكن مع ذلك وصف الإنسان بأنه ظلوم جهول، فاختلف العلماء هل «الإنسان» هنا عام، أم خاصٌ بالكافر؟...فقال بعض العلماء: إنّه خاصٌّ بالكافر، فهو الظلوم الجهول، أما المؤمن فهو ذو عدل وعلم وحكمة ورشد...وقال بعض العلماء: بل هو عام .. والمراد الإنسان بحسب طبيعته، أما المؤمن فإن الله منَّ عليه بالهداية، فيكون مُستثنَى من هذا .. وأيًّا كان فمن قام بالأمانة انتفى عنه وصف الظلم والجهالة التى فى قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢][(١)].

إن الأمانة من أبرز أخلاق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب - فى سورة الشعراء - يخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن كل رسولٍ من هؤلاء قد قال لقومه: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء: ١٠٧].

ورسولنا محمد ﷺ قد كان فى قومه قبل الرسالة وبعدها مشهورًا بينهم بأنه الصادق الأمين ...وكان الناس يختارونه لحفظ ودائعهم وأماناتهم عنده.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٤١).

ولما هاجر ﷺ وكَّل على بن أبى طالب رضي الله عنه بردِّ الودائع إلى أصحابها.

وجبريل عليه السلام أمين الوحى، وقد وصفه الله بذلك فى قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٤][(١)].

۞ وقال القرطبى: «الأمانة تَعُم جميع وظائف الدين..ونسب هذا القول لجمهور المفسرين، فالأمانة هى الفرائض التى ائتمن الله عليها العباد، واختلف فى تفاصيل بعضها على أقوال: فقيل هى أمانات الأموال كالودائع وغيرها وقيل: فى كل الفرائض، وأشدها أمانة المال، وقيل: من الأمانة أن ائتُمنت المرأة على فرجها، وقال بعضهم: غُسل الجنابة أمانة، وقيل: الأمانة هى الصلاة (إن شئت قلت: صليت، وإن شئت قلت: لم أُصلِّ) وكذلك الصيام وغُسل الجنابة... وعلى ذلك فالفرج أمانة[(٢)]، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة واليد أمانة، والرِّجل أمانة.

قال: «ولا إيمان لمن لا أمانة له»[(٣)]، وقيل: هذه الأمانة هى ما أودعه الله تعالى فى السموات والأرض والجبال والخلق من الدلائل على ربوبيته أن يُظهروها فأظهروها إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها... والمراد بالإنسان على ذلك هو الكافر والمنافق[(٤)].

مجالات الأمانة

والمجالات التى تدخل فيها الأمانة كثيرة منها:

الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية

(١) نضرة النعيم (٣/ ٥٠٩).

(٢) أى حفظ الفرج.

(٣) أى لمن لم يحفظ هذه الأمانات التى استودعها الله إياه.

(٤) انظر هذه الآراء وغيرها فى تفسير القرطبى (١٤/ ٢٥٣-٢٥٨).

والوصاية والشهادة والقضاء والكتابة ونقل الحديث والأسرار والرسالات والسمع والبصر وسائر الحواس، ولكل واحدة من التفصيل ما يناسبها[1].

انقسام الناس عند حمل الأمانة

۞ ولقد علم الحق (جل وعلا) أنه إذا حمَّل الناس التكاليف الشرعية فإن الناس سينقسمون إلى ثلاثة أقسام... ولذا قال تعالى في الآية التي تليها: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

۞ فانقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

١- فمنهم قسم ترك الأمانة ظاهرًا وباطنًا بل وكفر بتلك الأمانة (وهم المشركون).

٢- ومنهم قسم تَظاهر بحمل الأمانة لكنه مُبغضٌ وكارهٌ لها في الباطن (وهم المنافقون)... كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ٨-١٠].

٣- والقسم الثالث هم الذين يحملون الأمانة ظاهرًا وباطنًا (وهم المؤمنون).

(٢٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[2].

وفي رواية: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وزعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

(١) الأخلاق الإسلامية (١/ ٦٤٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.

وفى رواية أخرى قال ﷺ: «أَربَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(١).

۞ «آية المنافق ثلاث» آية: يعنى علامة .. فعلامة المنافق ثلاث كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]. يعنى أَوَ لم يكن لهم علامة على صدق ما جاء به النبى ﷺ، وصحة شريعته وأن هذا القرآن حق: ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ويعلمون أنه هو الذى بشَّر به عيسى (عليه الصلاة والسلام)... وكذلك قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:١٤].

۞ «آية المنافق ثلاث» آيته: يعني علامته ثلاث «إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمن خان» يعني أن هذه من علامات المنافقين.

إذا رأيت الرجل يكذب إذا حدث، ويُخلف إذا وعد، ويخون إذا اؤتُمن، فهذه من علامات المنافقين... لأن أصل النفاق مبني على التورية والستر، والمنافق يستر الخبيث ويُظهر الطيب، يستر الكفر ويُظهر الإيمان - هذا إذا كان نفاقًا اعتقاديًّا.. ولكن المقصود هنا النفاق العملي -.

والكاذب كذلك يُخبر بخلاف الواقع، والواعد الذي يعد ويُخلف كذلك، وكذلك الذي يخون إذا اؤتُمن ... فهذه علامات النفاق والعياذ بالله.

۞ فالمؤمن لا يكذب لأن الكذب من صفات المنافقين.. وقد حذرنا النبي ﷺ من الكذب فقال ﷺ: «وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٨) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٩٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والكذب جماع كل شر، وأصل كل ذمٍّ؛ لسوء عاقبته، وخُبث نتائجه؛ لأنه يُنتج النميمةَ، والنميمةُ تُنتج البغضاءَ، والبغضاءُ تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة؛ ولذلك قيل: مَنْ قَلَّ صِدقُه قَلَّ صَديقُه»(١).

وأسوأ أنواع الكذب هو الكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال ﷺ: «**مَنْ كَذَب عليَّ مُتعمِّدًا فَلْيتبَوَّأْ مَقْعَدهُ مِنَ النَّار**»(٢).

۞ قوله ﷺ: «**وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ**».

فإخلاف الوعد حرام .. لأنه يجب الوفاء بالوعد سواء كنت وعدته مالًا أو مساعدة من أي نوع أو أعطيته موعدًا لا بد أن تكون صادقًا في وعدك ولا تُخلفه أبدًا؛ لأن هذا من صفات المؤمنين...

وقد يتعجل بعض الناس في الحكم على إنسانٍ بالنفاق إذا أعطى أحدهم موعدًا ولم يأتِ ... والحقيقة أن المسألة فيها تفصيل .. فلو أعطى إنسانٌ موعدًا لمقابلة أخيه وكان في تلك اللحظة قد أضمر في قلبه أنه لن يذهب إليه فهو نوعٌ من النفاق العملي .. أما إذا أعطاه الموعد وهو ينوي أن يُقابله في الموعد لكن حدث له ما يمنعه من الذهاب إليه فهذا معذور وليس منافقًا.

۞ قوله ﷺ: «**وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**».

عَدَّ الإمام الذهبي الخيانة من الكبائر، وقال: الخيانة قبيحة في كل شيء.. وبعضها شرٌّ من بعض.. وليس مَن خانك في فِلسٍ كمن خانك في أهلك ومالك

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٢٦٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء.

وارتكب العظائم[١].

فالخيانة تكون في الأموال .. بأن يأخذ الإنسان مالك على سبيل القرض ولا يرده إليك.. أو يأخذ مالك ليُشغله لك ثم يخونك ولا يرده إليك..

وتكون أيضًا في الأعراض .. بأن يخون أخاه في أهله... وتكون أيضًا في الأسرار .. بأن يُفشي أسرار أخيه . وتكون في أشياء كثيرة...

أسأل الله أن يحفظني وإياكم من الكذب والخيانة ومن كل صفات المنافقين.

(٢٠٥) وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، قَد رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ: حَدَّثَنَا: «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ[٢] قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّة» وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الوَكْتِ[٣]، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ[٤]، كَجَمْرٍ دَحرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ[٥]، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا[٦] وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلاَ يَكَادُ أَحَدهم يُؤَدِّي الأَمَانَةَ،

---

(١) الكبائر (ص ١٥٠).

(٢) (جذر): الجذر: الأصل من كل شيء، انظر: «النهاية فى غريب الحديث» (١/ ٢٥٠).

(٣) (الوكت): جمع وكتة، وهى الأثر فى الشيء كالنقطة من غير لونه، ومنه قيل للبسر إذا وقعت فيه نقطة من الأرطاب: قد وكت. انظر: «النهاية فى غريب الحديث» (٥/ ٢١٨).

(٤) (المجل): هو ما يكون فى الكف من أثر العمل بالأشياء الصلبة الخشنة، كهيئة البثر. انظر: «النهاية فى غريب الحديث» (٤/ ٣٠٠)، و«صحيح البخارى» (٦٤٩٧)، كتاب الرقاق.

(٥) (نفط): يقال: نفطت يده؛ أى: قرحت من العمل، والنفطة: بثرة تخرج فى اليد من العمل ملأى ماء. انظر: «لسان العرب» (٧/ ٤١٦-٤١٧).

(٦) (منتبرًا): المنتبر كل مرتفع، ومنه اشتق المنبر، يقال: انتبر الجرح إذا ورم وامتلأ ماء. انظر: «النهاية فى غريب الحديث» (٥/ ٧-٨)، و«فتح البارى» (١٣/ ٣٩).

فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعقلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ» وَلَقَد أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعتُ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمُ، وَإِنْ كَانَ نَصرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا اليَوْمَ: فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلاَنًا وَفُلاَنًا[1].

۞ قوله ﷺ: «**إن الأمانة نزلت فى جَذْر قلوب الرجال**» يعنى فى أصلها، ثم أنزل عليهم من القرآن والسُّنة ما يُثبت ويُؤيد هذا الأصل، فجاء القرآن والسُّنة مؤيدًا للفطرة التى فطر الناس عليها...وعَلِموا من كتاب الله تعالى وسُنة نبيه ﷺ فازدادوا بذلك إيمانًا وثباتًا وأداءً للأمانة.

ثم أخبر النبى ﷺ كيف تُقبَضُ الأمانةُ وتُرفَعُ من القلب ... يَنام الرجلُ النومة فتُقبَضُ وتُرفَعُ الأمانة من قلبه، ولا يبقى للأمانة فى القلْبِ أثر، إلا كأثر الوكْت؛ أى: كالنقطة السوداء، ثم ينام النومة الأخرى فتُقْبَض الأمانة من قلْبه، فلا يبقى للأمانة أثرٌ إلا كالمَجْل، ثم يبين النبى ﷺ كيف تُقبض الأمانة فى المرحلة الثانية؛ فيقول: «**كجَمْرٍ دَحْرجتَهُ على رجلك فنفط**»؛ أى: انتفخ الجلد، وتورَّم، وإن ضغطتَ عليه، فلا ترى فيه شيئًا؛ فيظهر أن الأمانة موجودةٌ، لكن لو فتشت ونقَّبْتَ عن حقيقة وجودها لن تجدَ لها أثرًا.

فترى الرجل يدَّعى الأمانة ويُظهرها، ولكنك لو نقَّبْتَ وفتشت عن حقيقة هذه الأمانة، فلن ترى لها أثرًا؛ كالجمر الذى دحرجته على رجلك، فنفط الجلد له، فانتبر وانتفخ، ولكنه فى الوقت ذاته خالٍ من أى شىء.

يقول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَيُصبِحُ النَّاسُ يَتبَايَعُونَ، فَلاَ يَكَادُ أَحَدهم يُؤَدِّى الأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلًا أَمِينًا! ... أليس هذا هو الواقع الذى تحياه الأمة الآن؟ يُشار بالبَنان لرجلٍ أمين، سواء كان هذا الرجل تاجرًا أو حتى عالمًا...

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٩٧) كتاب الرقاق، ومسلم (١٤٣) كتاب الإيمان.

فالأمانة - لا أقول - نُزِعَتْ من التُّجَّار؛ بل نُزِعت من كثيرٍ ممَّن ينتسبون إلى العلم... فكم ممَّن يُشار إليهم الآن بالبنان من أهل العلم فقدوا الأمانة أو خانوها؛ لأن الأمانة لا يُراد بها فقط الودائع التى تُحفظ عند بعض الناس لبعضهم، لا؛ بل هذا مفهومٌ قاصرٌ جدًّا لمعنى الأمانة.

فالأمانة لها معنًى أوسع ومفهومٌ أشمل؛ كما قال الله (جلَّ وعلا): ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الأمانة هى الفرائض التى افترضها الله على عباده»[(١)].

وقال أبو العالية: «الأمانة هى ما أُمروا به وما نُهوا عنه»[(٢)].

وقال قتادة - وهو أجمل الأقوال عندى: «الأمانة هى الدين»[(٣)].

فالدين كلُّه أمانة .... الفرائض أمانة، والصلاة أمانة؛ والصيام أمانة، والزكاة أمانة، والحج أمانة، وكلُّ شرائع الدين أمانة .. فالمال أمانة، والعلم أمانة، والولاية أمانة، والوظيفة أمانة، والزوجة أمانة، والأولاد أمانة، والنظر أمانة، والسمع أمانة، والجوارح أمانة.

فالدين كلُّه أمانة ... وستُسأل عن هذه الأمانة بمفهومها الشامل الكامل الذى خَشيتْ كلُّ المخلوقات من حملها، وتقدَّم الإنسان الضعيفُ القصير العمر الذى تتحكم فيه الأهواء والشهوات؛ ليتحمل هذا الحِمْل الثقيل، وتلك الأمانة العظيمة؛ فمن أدَّاها فهو الأمين، ومن خانها فهو الخائن والظلوم الجهول!!

---

(١) أخرجه الطبريُّ فى «تفسيره» (لسورة الأحزاب : ٧٢)، عن ابن عباس، وورد مثله عن سعيد بن جبير.

(٢) انظر «تفسير البغوى» (٦/ ٣٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (النساء: ٥٨). وعزاه فى «الدر المنثور» (٨/ ٢١٨) لابن أبى حاتم فى «تفسيره» وغيره.

(٣) كما عند الطبريُّ فى «تفسيره» (لسورة الأحزاب : ٧٢) (٢٠/ ٣٣٩)، قال: «يعنى به: الدين والفرائض والحدود، وهو قول الضحاك»؛ كما عزاه السيوطى فى «الدر» للفريابى.

فلا يَكاد أحدهم يؤدى الأمانة، فيُقال: «**إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلًا أَمِينًا**»، فيأتيه الناس من أبعد مكانٍ لأمانته، وَ«**يُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعقلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**».

يقولُ حُذَيفةُ: «وَلَقَد أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعتُ»، لأن الأصل فى الناس حينئذٍ هو الأمانة، «لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمُ»، أى: هذا الذى أُبايعه وأتعامل معه إن كان من المسلمين ، فإنه يُراقب ربه (جلَّ وعلا) ويُنفذ تعاليم إسلامه، ويُحول هذا الإسلام فى واقعه إلى منهج حياة... فالمسلم لا يخون، ولا يكذب، ولا يغش؛ بل إن المسلم الصادق يَصْدُق مع أخيه المسلم.

«وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ»، أى: ولى الأمر المسلم... فإن غَشَّ النصرانيُّ فهو يعلم يقينًا أن ولى الأمر سيأخذُ منه الحق لمن غشَّه.

فتصور هذا المجتمع كيف تكون الحياة فيه؟!

«فَأَمَّا اليَوْمَ: فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلاَنًا وَفُلاَنًا»، وهذا الكلام يقوله حذيفة بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

فالأمانة تُقبض كما يقبض العلم، كما أخبر النبيُّ ﷺ ، حتى يصير الرجلُ خائنًا بعد أن كان أمينًا... فالأمانة حِمْلٌ ثقيلٌ ، ومفهومٌ ضخم .

۞ فمن أعظم المعانى التى بيَّنها النبيُّ ﷺ فى تضييع الأمانة؛ إسناد الأمر إلى غير أهله.

رَوَى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ، جَاءَهُ أَعرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعضُ القَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَع، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «**أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ**» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «**إِذَا وُسِّدَ**

الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» (١).

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ -وفى لفظ: «السَّفِيهُ»- يتكلَّم فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ» (٢).

فالوظائف على اختلافها قد وُسِّدت - فى الغالب- إلى غير أهلها.. إلى غير القادرين على تسييرها بما يُرضى الربَّ سبحانه وتعالى...وفى ذلك تضييعٌ للأمانة، وتضييع لحقوق الناس، واستخفافٌ بمصالح القوم، وإيغارٌ للصدور، وإثارةٌ للفتن بين الناس، وإذا ضَيَّع مَنْ يتولى أمر الناس الأمانة، فالناس تَبَعٌ له، يُضيعون - هم من باب أَولَى - الأمانات فيما بينهم ... فصلاح حال الولاة صلاحٌ لحال الرعية...نسأل الله أن يُصلح أحوالنا، وأن يردَّ الجميع إلى دينه ردًّا جميلًا.

(٢٠٦) وعَنْ حذَيْفَةَ، وَأَبى هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يَجْمعُ الله، تَبارك وَتَعالَى، النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤمنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ صلوات الله عَلَيْه، فَيقُولُون: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنا الْجَنَّةَ، فَيقُولُ: وهَلْ أَخْرجكُمْ مِنْ الْجنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ، لَسْتُ بصاحبِ ذَلكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِى إبراهيمَ خليل الله، قَالَ: فَيأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فيقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلك إِنَّمَا كُنْتُ خَليلاً مِنْ وَرَاءَ وراءَ، اعمَدُوا إِلَى مُوسَى الذى كَلَّمهُ الله تَكْلِيمًا، فَيأْتُونَ مُوسَى، فيقُولُ: لسْتُ بِصَاحِب ذلكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسى كَلِمَة الله ورُوحِهِ فيقُولُ عيسَى: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذلكَ. فَيَأْتُونَ مُحمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الأَمانَةُ والرَّحِمُ فَيَقُومَان جنْبَتَى الصراط

(١) صحيح:رواه البخارى (٥٩) كتاب العلم، و(٦٤٩٦) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح:رواه أحمد، وابن ماجه وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٦٥٠).

يَمِينًا وشِمالاً، فيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ» قُلْتُ: بأَبِي وَأُمِّي، أَيُّ شَيءٍ كَمَرِّ الْبَرْق؟ قال: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يمُرُّ ويَرْجعُ في طَرْفَة عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الريح ثُمَّ كَمرِّ الطَّيْر وَأَشَدِّ الرِّجالِ تَجْرِي بهِمْ أَعمَالُهُمْ، ونَبيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ، حَتَّى تَعجِزَ أَعمَالُ الْعَبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ لا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إلاَّ زَحْفًا، وفِي حافَتي الصِّرَاطِ كَلاليبُ مُعلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمُكَرْدَسٌ في النَّارِ وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعرَ جَهنَّم لَسبْعُونَ خَرِيفًا»(١).

۞ يُخبر النبي ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ يجمع الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرلًا غير مختونين ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] .. والشمس تدنو فوق الرؤوس حتى تكون كمقدار ميل .. ويفيض العرق فمنهم مَن يبلغ العرق إلى كعبيه، ومنهم مَن يصل إلى رُكبتيه، ومنهم مَن يصل إلى حِقويه، ومنهم مَن يُلجمه العرق إلجامًا .. ويُؤتَى بجهنم لها سبعون ألف زمامٍ مع كل زمامٍ سبعون ألف ملكٍ فلا يبقى مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَل إلا جثى على رُكبتيه وقال: يا رب سلِّم سلِّم.

في هذا الوقت العصيب يقوم الناس ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[المطففين:٦] .. وتُقرَّب لهم الجنة كما قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١].

فإذا رأوها اشتاقوا لدخولها.

وفي هذا الموقف العصيب يحتاج المسلمون جميعًا لمن يشفع لهم لدخول الجنة والتمتُّع بنعيمها الذي لا يخطر على قلب بشر .

فيجتمعون ويقولون: مَن يشفع لنا عند الله حتى ندخل الجنة ... فيذهبون إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ويطلبون منه الشفاعة فيقول لهم: « وهَلْ أَخْرجكُمْ مِنْ الْجنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ، لَسْتُ بصاحبِ ذَلكَ ».

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٥) كتاب الإيمان.

قوله: «وراءَ وَراءَ» وَمَعنَاهُ: لسْتُ بتلْكَ الدَّرجَةِ الرَّفيعَةِ، وهِي كَلِمةٌ تُذْكَرُ عَلَى سَبِيل التَّواضُعِ. وَقَدْ بَسَطْتُ مَعنَاهَا في شَرْحِ صحيح مسلمٍ، والله أعلم.

والخطيئة التي وقعت منه أن الله سبحانه وتعالى قال له ولزوجه حين أسكنهما الجنة: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

فإنه لما خلق الله آدم وفضَّله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجه؛ ليسكن إليها، ويستأنس بها، وأمرهما بسُكنى الجنة، والأكل منها ﴿رَغَدًا﴾ أي: واسعًا هنيئًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: من أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ نوع من أنواع شجر الجنة، الله أعلم به.

وإنما نهاهما عنها امتحانًا وابتلاءً، أو لحكمة غير معلومة لنا.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دَلَّ على أن النهي للتحريم؛ لأنه رتَّب الظلم عليه.

فلم يزل عدوهما إبليس يوسوس لهما ويُزين لهما تناول ما نُهيا عنه حتى أزلَّهما...أي: حَملهما على الزَّلل بتزيينه ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أقسم لهما بالله ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فاغترَّا به وأطاعاه، وأكلا من الشجرة ... فكان سبب إخراجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأُهبطوا إلى دار التعب والنَّصَب والمجاهدة.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته[1].

فالشاهد أن آدم عليه السلام تذكر خطيئته هو وزوجته، وهي أكلهما من الشجرة التي حظرها الله عليهما، ولكنه تاب إلى الله تعالى من ذلك، فأمره الله سبحانه أن يهبط هو وزوجته إلى الأرض فهبطا وكانت منهما هذه الذرية...فمنهم الشهداء والرسل والأنبياء والصالحون، ومنهم غير ذلك من أهل الفساد والكفر والنفاق والإلحاد والضلال.

فعندما يذهب الناس إلى آدم عليه السلام في هذا الموقف العظيم يوم القيامة يعتذر

(١) تفسير السعدي (ص ٣٩) بتصرف.

عن مساعدتهم ويتذكر خطيئته التى أخرجته من الجنة.

أما القصة التى تُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما فى سبب خروج آدم وحواء من الجنة، وأن حواء حملت فجاءها الشيطان فقال: سَمِّيا الولد عبد الحارث، أو لأجعلن له قرنًا، فيخرج من بطنك فيشقه فأبيا أن يُطيعا، فجاءهما فى المرة الثانية، فأبيا أن يُطيعا، فجاءهما فى المرة الثالثة فأدركهما حب الولد فسمَّياه عبد الحارث، وجعل ذلك تفسيرًا لقوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الأعراف:١٨٩، ١٩٠] فإن هذه القصة قصة مكذوبة ليست بصحيحة

فنحن نعلم من خلال حديث الشفاعة وما تقرر من عصمة الأنبياء أن هذا الفعل لا يصح من آدم عليه السلام أبدًا؛ لأنه شرك ... والشرك لا يقع من الأنبياء[1] .

۞ المهم أنه بعد أن يعتذر آدم عليه السلام عن الشفاعة ويقول لهم: « **لَسْتُ بصاحبِ ذَلكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِى إِبْراهيمَ خَليل الله** » فيذهب الناس إلى إبراهيم خليل الرحمن (جلَّ وعلا) فيطلبون منه الشفاعة فيعتذر ويقول: «**لَسْتُ بصَاحبِ ذَلك إِنَّمَا كُنْتُ خليلاً مِنْ وَرَاءَ وراءَ** » ... قَالَ صَاحِبُ التَّحرِيرِ: هَذِهِ كَلِمَةٌ تُذْكَرُ عَلَى سَبِيلِ التَّوَاضُعِ ... أَىْ لَسْتُ بِتِلْكَ الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ.

قَالَ: وَقَد وَقَعَ لِى مَعنًى مَلِيحٌ فِيهِ وَهُوَ أَنَّ مَعنَاهُ أَنَّ الْمَكَارِمَ الَّتِى أُعطِيتُهَا كَانَتْ بِوَسَاطَةِ سِفَارَةِ جِبْرِيلَ عليه السلام وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى فَإِنَّهُ حَصَلَ لَهُ سَمَاعُ الْكَلَامِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ...قَالَ وَإِنَّمَا كَرَّرَ وَرَاءَ وَرَاءَ لِكَوْنِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ حصل له السماع بغير واسطة فقال إبراهيم ﷺ :«**أنا وراء موسى عليه السلام الذى هو وراء محمد ﷺ** »[2] .

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٤٧) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووى (٣/ ٨٦).

ثم يدلهم أن يذهبوا إلى موسى عليه السلام ويقول: «**اعمدوا إلى موسى** عليه السلام **الذى كلَّمه الله تكليمًا**».. فيذهب الناس إلى موسى ﷺ ويطلبون منه الشفاعة لدخول الجنة فيعتذر ويقول: «**لست بصاحب ذلك**» ثم يدلهم على أن يذهبوا إلى عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه .. فيذهب الناس إلى عيسى عليه السلام.

وتأمل معى كيف تعب الناس كل هذا التعب حتى يدخلوا الجنة .. وهى فى الحقيقة تستحق هذا التعب وأكثر من ذلك .. فهى سلعة الله الغالية «.. **ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هى الجنة**»(١).

وعندما يذهب الناس إلى عيسى عليه السلام يعتذر لهم ويقول: لستُ بصاحب ذلك اذهبوا إلى محمد ﷺ فإنه عبدٌ غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر.

فيذهبوا إلى النبى ﷺ فيقوم فيُؤذَن له بالشفاعة.

هذا هو مقام ومكانة النبى محمد ﷺ .. فإنه سيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة.

۞ وهنا يخبر النبى ﷺ ويقول: وتُرسَل الأمانة والرحم فتقومان جنبتى الصراط يمينًا وشمالًا لتُطالبا كل مَن يريد الجواز على الصراط بحقهما.

فإنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها، وبيان السعيد من الشقى فى الجملة، يضطر الناس إلى المرور على الصراط، وهو جسرٌ دقيقٌ منصوبٌ على ظهر جهنم...وهى عقبة فى طريق الذاهبين إلى دارالسلام (الجنة) وممرٌّ خطيرٌ للغاية يشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته والناس يمرون، وهو: يدعو «**رب سَلِّمْ سَلِّمْ**»(٢). ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم فى الدنيا...فمنهم مَن يمر بسرعة مدهشة حتى لكأنه البرق الخاطف.

ومنهم مَن يمر كمَرِّ الريح، ومنهم مَن يَمرُّ فى سرعة الطير، ومنهم مَن يمر

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٥) كتاب الإيمان.

كشدِّ الرجال تجرى بهم أعمالهم .. فكل مَن كان فى هذه الدنيا أسرع إلى التزام صراط الله عَزَّوَجَلَّ واتباع شريعته، كان على هذا الصراط أسرع مرورًا، ومَن كان مُتباطئًا عن الشرع فى الدنيا، كان سيره هناك بطيئًا.

والنبى ﷺ الذى يحب أمته ويخشى عليهم فى الدنيا والآخرة .. يقوم على الصراط ويقول: «يا رب سلِّم سلِّم» .. ويظل الناس يتفاوتون فى سُرعة مرورهم على الصراط حتى يجيء آخرهم يزحف على الصراط زحفًا.

أما الكفار الخُلَّص فإنهم لا يصعدون هذا الصراط ولا يمرون عليه، بل يُذهَب بهم إلى جهنم قبل أن يصعدوا هذا الصراط، ويُذهَب بهم إلى جهنم وِردًا.... إنما يصعده المؤمنون والمنافقون .. فأمَّا المنافقون فسرعان ما تنطفئ أنوارهم على الصراط فيسقطون في النار ولا يخرجون .. وأما المؤمنون فمن كان له ذنوب لم تُغفَر فإنه قد يقع فى نار جهنم، ويُعذَّب بحسب أعماله.

ثم يخرج من النار ويدخل الجنة؛ لأنه لا يُخلَّد موحدٌ فى النار .

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن على حافتى الصراط كلاليبُ مُعلَّقة - مثل الخطاطيف -وهى مأمورة بأخذ مَن أمرها الله بأخذه.. فمنهم مَن يُخدش لكنه يمر من على الصراط وينجو بجروحه الشديدة .. ومنهم مكدوسٌ فى نار جهنم لا يستطيع النجاة.

وهنا يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -أحدُ رواة الحديث-: وَالَّذِى نَفْسُ أَبِى هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعرَ جَهنَّم لَسبْعُونَ خرَيفًا.. أى سبعون سنة .. عافانا الله وإياكم.

۞ فلنحرص من الآن على أن نجتهد فى طاعة الله وعلى أن نُسرع فى تلك الطاعة حتى نكون أسرع مرورًا على الصراط يوم القيامة.

(٢٠٧) وعَنْ أَبِي خُبَيْبٍ عبد الله بنِ الزُّبَيْرِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: لَمَّا وَقَفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الْجَمَلِ دعانِي فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَابُنَيَّ إِنَّهُ لا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إِلاَّ ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وإِنِّي لا أُرانِي إِلاَّ سَأُقْتَلُ الْيومَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي أَفَتَرَى دَيْنَنَا يُبْقِي مِنْ مالنا شَيْئًا؟ ثُمَّ قَالَ: يا بُنَيَّ بع مَالَنَا واقْضِ دَيْنِي، وَأَوْصَى بالثُّلُثِ، وَثُلُثِهِ لبنيه، يَعنى لَبِنى عَبْدِ الله بن الزبير ثُلُثُ الثُّلُث. قَالَ: فَإِن فَضلَ مِنْ مالنَا بعدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ شَيءٌ فثُلُثُهُ لِبَنِيك، قَالَ هِشَامٌ: وكان بَعضُ وَلَدِ عَبْدِ الله: قد وازى بعض بني الزبير خُبيبٍ وعبَّادٍ، وله يومئذٍ تسعُ بنين، وتسع بنات. قال عبد الله فَجَعَل يُوصِيني بدَيْنِهِ وَيقُول: يَابُنَيَّ إِنْ عَجزْتَ عنْ شَيءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بموْلاىَ. قَالَ: فَوَالله مَا دريْتُ ما أرادَ حَتَّى قُلْتُ: يا أَبَتِ مَنْ مَوْلاَكَ؟ قَالَ: الله. قال: فوالله مَا وَقَعتُ فى كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ إِلاَّ قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزبَيْر اقضِ عَنْهُ دَيْنَهُ، فَيَقْضِيَهُ. قَالَ: فَقُتِلَ الزُّبَيْرُ وَلَمْ يَدَعْ دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا إِلاَّ أَرَضِينَ، مِنْهَا الْغَابَةُ وَإِحْدَى عَشَرَة دارًا بالْمَدينَة. ودارَيْن بالْبَصْرَةِ، وَدَارًا بالْكُوفَة وَدَارًا بِمصْرَ. قال: وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الذى كَانَ عَلَيْه أَنَّ الرَّجُلَ كان يَأْتِيهِ بالمالِ، فَيَسْتَودِعُهُ إِيَّاهُ، فيَقُولُ الزبيْرُ: لا وَلكنْ هُوَ سَلَفٌ إِنِّى أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعةَ. وَمَا ولِي إِمَارَةً قَطُّ وَلا جبايَةً ولا خراجًا ولا شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فى غَزْوٍ مَعَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ مَعَ أَبِي بَكْر وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، قَالَ عَبْدُ الله: فَحَسَبْتُ مَا كَانَ عَلَيْه مِنَ الدَّيْنِ فَوَجدتُهُ أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمائَتَيْ أَلْفٍ، فَلَقِيَ حَكِيمُ بْنُ حِزَام عَبدَ الله بْن الزُّبَيْرِ فَقَالَ: يَابْنَ أَخِي كَمْ عَلَى أَخِي مِنَ الدَّيْنِ ؟ فَكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ: مِائَةُ أَلْفٍ. فقَالَ: حَكيمٌ: وَالله مَا أَرى أَمْوَالَكُمْ تَسعُ هَذِهِ، فَقَالَ عَبْدُ الله: أَرَأَيْتَكَ إِنْ كَانَتْ أَلْفَى أَلْفٍ؟ وَمائَتَيْ أَلْفٍ؟ قَالَ: مَا أَرَاكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا، فَإِنْ عَجزْتُمْ عَنْ شَيْء مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِي. قَالَ: وكَانَ الزُّبَيْرُ قدِ اشْتَرى الْغَابَةَ بسَبْعِينَ ومائَة أَلْف، فَباعَهَا عَبْدُ الله بأَلف أَلفٍ وسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ شَيْء فَلْيُوافِنا بِالْغَابَة، فأَتَاهُ عبْدُ الله بْنُ جَعفر، وكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ أَرْبعمِائَة أَلْفٍ، فَقَال لعبْد الله: إِنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكُمْ؟ قَالَ عَبْدُ الله: لا، قال: فَإِنْ شِئْتُمْ جعلْتُموهَا فِيمَا تُؤخِّرُونَ إِنْ أَخَّرْتُمْ، فقال

عَبْدُ الله: لا، قال: فَاقْطَعُوا لِي قِطْعَةً، قال عبْدُ الله: لَكَ مِنْ هاهُنا إِلَى هاهُنَا. فَبَاعَ عَبْدُ الله مِنْهَا فَقَضَى عَنْهُ دَيْنَه، وَوَفَّاهُ وبقى منْهَا أَرْبَعةُ أَسْهُمٍ وَنصْفٌ، فَقَدم عَلَى مُعَاوِيَةَ وعَنْدَهُ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبيْرِ، وابن زَمْعَةَ. فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ: كَمْ قُوِّمَتِ الْغَابَةُ؟ قال: كُلُّ سَهْمٍ بِمائَةِ أَلْفٍ قال: كَمْ بَقِىَ منْهَا؟ قال: أَرْبَعَةُ أَسْهُم ونِصْفٌ، فقال الْمُنْذرُ بْنُ الزُّبْيرِ: قَد أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمائَةِ أَلْفٍ، وقال عَمْرُو بنُ عُثْمان: قَد أَخَذْتُ منْهَا سَهْمًا بِمِائَة أَلْفٍ. وقال ابْن زمْعَةَ: قَدْ أَخَذْتُ مِنها سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَال مُعاوِيةُ: كَمْ بَقِىَ مِنْهَا؟ قال: سَهْمٌ ونصْفُ سَهْمٍ، قَالَ: قَد أَخَذْتُهُ بِخَمسِينَ وَمِائَةِ ألف. قَالَ: وبَاعَ عَبْدُ الله بْنُ جعفَر نصيبَهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بستِّمِائة أَلْفٍ. فَلَمَّا فرغَ ابنُ الزُّبيرِ مِنْ قَضاءِ دَيْنِهِ قَالَ بَنُو الزُّبْيرِ: اقْسِمْ بَيْنَنَا مِيراثَنَا. قَالَ: وَالله لا أَقْسِمُ بيْنكُمْ حَتَّى أُنَادِىَ بالموسم أربعَ سنين: ألا مَنْ كان له على الزُّبَيْر دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِه. فَجَعَل كُلَّ سَنَةٍ يُنَادِى فى الْمَوْسِمِ، فَلَمَّا مَضى أَرْبَعُ سِنِينَ قَسم بَيْنَهُمْ ودَفَعَ الثُلث وكَان للزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نِسْوةٍ، فَأَصاب كُلَّ امْرَأَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ ومِائَتَا أَلْفٍ، فَجَمِيعُ مَالِهِ خَمْسُونَ أَلْف أَلْفٍ ومِائَتَا أَلْف[1].

۞ كان الصحابى الكبير حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة...شَهِدَ بدرًا وما بعدها، وهاجر الهجرتين، وهو أول مَنْ سَلَّ سيفًا فى سبيل الله...أسلم وهو ابن ست عشرة سنة، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وعُذِّب فى الله، وثبت وكان يقول: لا أكفر أبدًا.

۞ وفى هذا الحديث الجميل فوائد كثيرة، وعرض لجوانب رائعة من حياة جيل الصحابة العظيم.

۞ فالزبير رضي الله عنه فى الساعة العصيبة التى توقَّع فيها قُرب أجله كان أكبر همه أن يُقْضَى دَينُه، حتى يَلقى الله وذمته بريئة من أى حقٍّ لأحدٍ من الناس.

(١) صحيح: رواه البخارى (٣١٢٩) كتاب فرض الخمس.

وهذا يدل على شأن الدَّين وضرورة الاهتمام بقضائه.

۞ والزبير رضي الله عنه امتثل أمر رسول الله ﷺ بالوصية وقد ذكر الحديث أنه رضي الله عنه أوصى ابنه بأن يَقضىَ دَينَه وقال لابنه: إن الشىء الذى يهمه هو هذا الدَّين... وتساءل لكثرة الدَّين: هل يُبقى هذا الدَّين من تركته شيئًا.

ومعلوم أن الورثة لا يَتقَاسمون ما تركه لهم مُورثهم إلا بعد وفاء الدَّين، فإذا استهلك الدَّينُ المال لم يبقَ لهم شيء.

۞ وهناك فى الوصية شيءٌ لطيف ، وذلك قوله: يَابُنَيَّ إِنْ عَجزْتَ عنْ إنجاز شَيءٍ مِنْ هذه المهمة فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بموْلاىَ. ويُقسم عبد الله أنه ما عرف ما أراد أبوه حتى سأله: يَا أَبَتِ مَنْ مَوْلاَكَ؟ قَالَ: الله.

ويمتثل الولد أمر أبيه ويقول: والله ما وقعت فى كُربة من دَينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقضِ عنه دَينه، فيقضيه.

وفى ذلك ما فيه من صدق التوكل على الله، ووافر اليقين وعظيم الثقة بالاستعانة بالله.

۞ فقد مات الزبير وله تسعة بنين وتسع بنات. وفصَّلت كتب التراجم وشروح الحديث أسماءهم.

وقد تُوفى عن أربع زوجات وهن (أم خالد والرباب وزينب وعاتكة).

۞ وفى الحديث أن الزبير ما ولى إمارة قط، ولا ولى جباية خَراجٍ قَط ... أى لم يعمل موظفًا فى الحكومة، وقد قال ذلك عبد الله بن الزبير ليبيِّن أن كثرة ماله ما حصلت من هذه الجهات المقتضية لظن السوء بأهلها، بل كان ماله مما يكسبه من الغنيمة وغيرها من الأعمال التى لا علاقة للأموال العامة بها.

۞ وفى الحديث تصوير واقعى للمستوى الرفيع الذى كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم...فالزبير كان موضع ثقة الناس، يلجأ إليه كثير من الناس ليودعوا أموالهم عنده، ولكن حرصه الشديد على أموال الناس كان يحمله على

أن يتفق مع هؤلاء المودعين على أن هذه الأموال سلف تستقر فى ذمته، فيقترضها، ويفعل ذلك لمصلحة هؤلاء الذين وثقوا به.

ذلك لأن الوديعة إذا تلفت بغير تفريط من المستودع، فليس عليه ضمان سواء ذهب معها شىءٌ من مال المستودع أم لم يذهب. ولا يضمن إلا بالتعدِّى[1].

أما الدَّين فيستقر فى الذمة سواء تلف مال الإنسان أم لا.. وهكذا فإن تصرُّف الزبير أوثق لصاحب المال، وأبقى لمروءة الزبير رضي الله عنه.

۞ وفى الحديث بيان لإباء عبد الله بن الزبير وتعفُّفه وعزة نفسه، إذ لم يقبل من أحدٍ الهبة أو أن يُحلله من دَينه، ولم يقبل عرض تأخير السداد. وهذا ما ربَّى الإسلام عليه أتباعه من التعفُّف والحرص على أداء الأموال لأصحابها، والبُعد عن الشبهات.

۞ ويدل الحديث على هذا المستوى الرفيع الذى كان يحياه الصحابة رضي الله عنهم ومن التعاون والتسامح وإغاثة الملهوف، وإعانة الذى فى أزمة أو حاجة... فعبد الله بن جعفر عندما شعر بأن تركة الزبير لا تفى بالديون الكثيرة عرض على ابن الزبير أن يُحلله ويتنازل عن حقه، فأبى ابن الزبير .. وإذا عرفنا ضخامة المبلغ أدركنا كرم ابن جعفر وإشفاقه على أبناء الزبير، ورغبته الصادقة فى تنفيس كربتهم... وكذلك فإن ابن عمه حكيم بن حزام كان يهمه دَين الزبير ولما علم مقداره، قال لعبد الله: مَا أَرَاكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْء مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِى. ولكن عبد الله أَبَى ولم يحتج إلى شىء من ذلك.

والقصة بكاملها تدور حول مَغزى مهم وهو الاهتمام بشأن الدَّين، وأداء الحقوق إلى أصحابها ... فإذا كان الزبير – مع ما سبق له من السوابق وثبت له من المناقب ومع أنه من المُبشرين بالجنة – خاف من مطالبة أصحاب الحقوق

---

(١) انظر كفاية الأخيار (٢/ ١١)، ومعجم الفقيه الحنبلى (١٠١٦) وكتب الفقه باب الوديعة.

له بعد موته، وأهمَّه شأن الدَّين جدًّا فما قولنا بالناس الآخرين الذين لم يثبت لهم شيء مما ثبت للزبير ... إن أمر الدَّين لشديد.

وهذا المعنى قررته نصوصٌ كثيرة فى الكتاب والسنة ... من ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ قال: «**مَن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله**»(١).

إذا أخذ المرء المال يريد وفاءه فإن الله تعالى يؤدى عنه إما بأن يفتح عليه فى الدنيا وإما بأن يتكفل عنه فى الآخرة ... وفى الغالب أنه يؤدى عنه فى الدنيا، وأما مَن فاجأه الإعسار أو مات وله مال لا يعرفه ورثته وضاع على الدائن ماله فإنَّ الله يتولاه فى الآخرة بأن يتكفل عنه لصاحب الدَّين ولا يُؤخذ من حسناته.

أما مَن كان يريد أكل المال فهو مُهدَّد بالإتلاف من الله ... ويقع هذا الإتلاف فى الدنيا فى معاشه أو فى نفسه. وإن لم يقع هذا الإتلاف فى الدنيا أتلفه الله بعذابه فى الآخرة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وردُّ الدَّين من مقابلة الإحسان بالإحسان ... فجزاء الذى فرج كُربتك أن تَرُد إليه ماله إن أيسرت، والنية فى هذا مهمة جدًّا، والله سبحانه يعلمها، ومدار الأعمال كلها عليها.

عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «**لَوْ كَانَ لِى مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا يَسُرُّنِى أَنْ لاَ يَمُرَّ عَلَىَّ ثَلاَثٌ، وَعِنْدِى مِنْهُ شَىْءٌ إِلَّا شَىْءٌ أَرصُدُه لِدَيْنٍ**»(٢).

فهو ﷺ لا يريد أن يبقى عنده من هذا المال الكثير شىء لو صار إليه إلا دينارًا يرصده لدَينٍ ... وهذا دليل على الاهتمام بوفاء الدَّين .

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٣٨٧) كتاب الاستقراض.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٣٨٩) كتاب الاستقراض.

وأخرج البخارى عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدعُو فِى الصَّلاَةِ وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ**»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ يَا رَسُولَ اللهِ مِنَ المَغْرَمِ؟ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»(١).

فقد كان ﷺ يستعيذ من الدَّين خشية ألا يقدر على الوفاء .. ولأنه – فى الغالب– ذريعة إلى الكذب فى الحديث والخلف فى الوعد.

فالاستعاذة من الدَّين ليست لذاته، بل لما يُخشى من غوائله.

فالأسلم للإنسان ألا يقترض إلا عند الحاجة أو الضرورة.

وقد قيل لرجلٍ صالح من العلماء كان يسكن بيتًا يحتاج إلى طلاء: لِمَ لا تستدين وتُكمل البيت؟ قال: إنى لو فعلت لم أسترح فى نومٍ ولا يقظة ، وكنت أشعر أن الدائن ينام فى فراشى ويشاركنى وسادتى، وأنا لا أحب أن ينام معى أحد. إن الدَّين هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار.

وممَّا يدل على أهمية الدَّين وتأثُّر صاحبه الذى يَلقى الله وذمته مشغولة بحقوق الناس .. الحديث الصحيح عن ثَوْبَانَ، مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ فَارَقَ الرُّوحُ جَسَدَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ، دَخَلَ الْجَنَّةَ: مِنَ الْكِبْرِ، وَالْغُلُولِ، وَالدَّيْنِ**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**نفسُ المؤمنِ معلَّقة بدَينه حتى يُقضَى عنه**»(٣).

وكان ﷺ لا يُصلى على جنازة مَن عليه دَين ولم يترك ما يَسُدُّه حتى يتكفل أحد الصحابة بقضاء دَينه .. فلما فُتحت الفتوح صار يُصلى عليه.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «**هَلْ عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ؟**»، قَالُوا: لاَ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى، فَقَالَ: «**هَلْ**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٩٧) كتاب الاستقراض، ومسلم (٥٨٩) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤١١).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٧٩).

عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»، قَالَ: أَبُو قَتَادَةَ عَلَيَّ دَيْنُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ[(١)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا، فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ»[(٢)].

إن هذا يبين لنا أهمية الدَّين، وضرورة قضائه حتى ينجو الميت.

وبقيت مسألة مهمة تتعلق بالدائن ومسألة بالمدين:

أما المَدين فإنه مُطالَب بالمسارعة بسداد الدَّين عندما يتيسر له المبلغ، ولا سيما في زماننا هذا الذي شاع فيه التضخُّم ونزول القيمة الشرائية للعملة الورقية... وقد عدَّ الشارع امتناع المرء الميسور عن أداء ما بذمته من الدَّين ظلمًا فقال ﷺ: «مَطْلُ الغنى ظُلْم»[(٣)].

وأمر المَدين بحُسن القضاء... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: «دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا، وَاشْتَرُوا لَهُ بَعِيرًا فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ» وَقَالُوا: لَا نَجِدُ إِلَّا سِنًّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ: «اشْتَرُوهُ، فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»[(٤)].

وهو يدل على حُسن خُلق النبي ﷺ وعِظَم حلمه وتواضعه وإنصافه، وعلى أن مَن عليه دَينٌ لا ينبغي له مُجافاة صاحب الحق. وعلى جواز المطالبة بالدَّين إذا حَلَّ الأجل.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٢٩٥) كتاب الكفالة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٩٩) كتاب الاستقراض، ومسلم (١٦١٩) كتاب الفرائض.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٨٧) كتاب الحوالات، ومسلم (١٥٦٤) كتاب المساقاة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٩٠) كتاب الاستقراض، ومسلم (١٦٠١) كتاب البيوع.

إن هذه العناية البالغة بردِّ الدَّين إلى صاحبه ترجع إلى أصل يرعاه الإسلام ويؤكده وهو أن المال مَصونٌ فى الإسلام ... يقول ﷺ: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**»(١) . فانظر يا أخى كيف قرن الرسول الأعظم ﷺ الدماء بالأموال، وكيف جعل حُرمتها مساوية لحُرمة الشهر الحرام والبلد الحرام.

فليتقِ الله هؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

وهذا الحرص الشديد على أداء الديون بعد وفاة الإنسان الذى نواجهه فى هذه القصة ، من قِبَل الزبير فى وصيته، ومن قِبَل ابنه بعد الوفاة ... هذا الحرص وجدناه عن غير الزبير وابنه ... وقد تكون هناك قصص جرت لعدد من الصحابة رضوان الله عليهم... ومن ذلك قصة سعيد بن العاص رضي الله عنه وقيام ابنه بتنفيذ وصية والده بعد دفنه فورًا.

۞ وفى الحديث ما يدل على مشروعية الوصية، فهذا سيدنا الزبير رضي الله عنه عندما أحسَّ بدنوِّ أجله نادى ابنه ليبلغه وصيته التى كانت تدور حول أمرين:

أولهما: قضاء دَينه، والاستعانة بالله لتحقيق ذلك.

وثانيهما: وصيته لأولاد ابنه عبد الله، وهم مساوون فى الأعمار لأعمامهم، وكلهم لا يحق لهم أن يرثوا؛ لأنهم محجوبون بأبيهم وأعمامهم، فأوصى لهم بالثلث بعد قضاء الدَّين. وقد كانت هذه الوصية شفهية. ويبدو أنَّ الظرف الحرج الذى كان فيه الزبير لم يُتح له الكتابة.

وليس من شَكٍّ أن الكتابة فى الأمور كلها أدقُّ وأوثق ولا سيما فى الأمور المادية ... ومن هنا كان الأمر بالكتابة فى الدَّين والوصية والأمور الأخرى .. وإذا كان مع الكتابة شهود يكتبون شهادتهم كان ذلك أحسن. فالكتابة وثيقة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧) كتاب العلم، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

تطرد النسيان وتَنفى التلاعُب والكذب، وتنأى بالإنسان عن التهمة وسوء الظن وضياع الحقوق... ولكن العقود والوصايا تثبت بالشهود ولو كانت شفهية، ومن هنا جاءت الأحاديث الصحيحة الثابتة فى الحضِّ على كتابة الوصية.

عَنْ ابنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيلَتَينِ** - وَفِي رِوَايَةٍ: **ثَلَاثَ لَيَالٍ**-، **إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**»، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: «مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي مَكْتُوبَة»[1].

والحق أن الوصية تقطع دابر المشكلات، وتوضح الأمور، وتبيِّن الحقوق التى للإنسان، والحقوق التى للناس، وتُتيح له التصرف بثلث ماله بعد موته، ولكن الشرع حذَّر من الجَور فى الوصية أو التعسُّف فى استعمال حقه بأن يوصى بفعل أمور حرَّمها الشرع، وقد يكون هذا من الأعمال السيئة التى يختم المرء بها حياته ويستمر تحمُّله لآثامها بعد موته والعياذ بالله.

والحديث مَثَلٌ واضحٌ على بِرِّ الولد بأبيه بعد وفاة الوالد ... فقد حرص عبد الله على أن يقوم بما أوصاه به أبوه، وقد بذل قصارى جهده لأداء ما على أبيه من الديون، وهذا من البر الذى أوصى به الشرع وحضَّ عليه وجعله من أعظم القربات.

وفى الحديث إكرام الله للزبير، فقد بارك الله تعالى فى المال الذى خلَّفه، حتى وفَّى الدَّين كله، وكان للورثة منه مبالغ مجزئة.

قال ابن حجر: «وفيه بركة العقار والأرض لما فيه من النفع العاجل والآجل بغير كثير تعب ولا دخول فى مكروه كاللغو الواقع فى البيع والشراء»[2][3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٣٨) كتاب الوصايا، ومسلم (١٦٢٧) كتاب الوصية.

(٢) فتح البارى (٦/ ٢٣٥).

(٣) بتصرف من كتاب (من هدى النبوة) / د. محمد بن لطفى الصباغ.

(٢٦) باب تحريم الظلم.. والأمر بردِّ المظالم

۞ ليس هناك شيء فى هذا الكون أبشع من الظلم... لأن الظلم عاقبته وخيمة فى الدنيا والآخرة.

۞ فلقد بدأ الظلم منذ بداية الخلق عندما وقعت أول جريمة فى هذا الكون وذلك عندما قتل قابيل أخاه هابيل... وانتشر الظلم بعد ذلك بين الناس وظل يتصاعد حتى وصل إلى أعلى درجاته فى العصر الجاهلى قبل بعثة النبى محمد ﷺ، الذى جاء ليُحذر الكون كله من عواقب الظلم الوخيمة فى الدنيا والآخرة.

فالظلم إيذانٌ بهلاك الأمم.. وهو يجلب غضب الرب وسخطه... ودعوة المظلوم على الظالم لا تُرد... والظالم يُحرَم من محبة الخالق جل وعلا ومن محبة الخلق... والظالم يُحرم من نعمة الهداية... وإن لم يتحلل الظالم من تلك المظالم فإنه يأتِى يوم القيامة مُفلسًا من الحسنات التى تُوزَّع على كل مَن ظلمهم... فالظلم ظُلمات يوم القيامة.

- بل حسبُك أن تتأمل معى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]... وتالله لو لم ينزل فى حق الظالمين إلا تلك الآية لكانت كافية لأن تردع أى ظالم عن ظُلمه للناس من حوله.

وأقول: إن كان الله عَزَّوَجَلَّ سيُدخل امرأة النار؛ لأنها حبست هِرة (قطة) فماذا يكون مصير مَن يظلم أهل التوحيد والإيمان.

۞ فلا يغتر الظَّالمُ بإمهال الله لهُ؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُمهل ولا يهمل.

۞ قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

وأَمَّا الأَحاديثُ فَمِنْهَا حَدِيثُ أَبِى ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُتَقَدِّمُ فى آخِرِ بابِ الْمُجَاهَدَةِ.

(٢٠٨) وعَنْ جابر ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يَوْمَ الْقِيامَة، واتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ .. حَمَلَهُمْ على أَنْ سفكَوا دِماءَهُمْ واسْتَحلُّوا مَحارِمَهُمْ»[١].

۞ (باب تحريم الظلم والأمر بردِّ المظالم)، يعنى إلى أهلها.

هذا الباب يشتمل على أمرين: الأمر الأول: تحريم الظلم، والأمر الثانى: وجوب ردّ المظالم... واعلم أن الظلم هو النقص، قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]. يعنى لم تنقص منه شيئًا... والنقص إما أن يكون بالتجرؤ على ما لا يجوز للإنسان، وإما بالتفريط فيما يجب عليه، وبذلك يدور الظلم على هذين الأمرين، إما ترك واجب، وإما فعل محرم.

والظلم نوعان: ظلم يتعلق بحقوق الله عَزَّوَجَلَّ، وظلم يتعلق بحقوق العباد، وأعظمهما المتعلق بحقوق الله والإشراك به... فإن النبى ﷺ سُئل: أى الذنب أعظم؟ فقال: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**»[٢] ويليه الظلم فى الكبائر، ثم الظلم فى الصغائر.

أما فى حقوق العباد: فالظلم يدور على ثلاثة أشياء، بيَّنها النبى ﷺ فى خطبة حجة الوداع، فقال: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم، كحُرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا**»[٣].

والظلم فى النفس هو الظلم فى الدماء... ويكون بأن يعتدى الإنسان على حق غيره... بسفك الدماء أو الجروح أو ما أشبه ذلك... والظلم فى الأموال بأن يعتدى الإنسان ويظلم غيره فى الأموال، إما بعدم بذل الواجب، وإما بإتيان محرم، وإما بأن يمتنع من واجبٍ عليه، وإما بأن يفعل شيئًا محرمًا فى مال غيره.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٧٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧) كتاب العلم، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

وأما الظلم في الأعراض، فيشمل الاعتداء على الغير بالزنى، واللواط، والقذف، وما أشبه ذلك[1].

۞ ولا بد أن نعلم أن الأصل فى الإنسان الظلم والجهل حتى يُطهر الله قلبه ويوفقه لأن يكون رحيمًا عادلًا.

ومما يدل على أن الظلم من طبيعة البشر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما قول مَن يقول: الأصل فى الإنسان العدالة فهو باطل، بل الأصل فى بنى آدم الظلم والجهل، كما قال - تعالى -: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإنسان خُلق فى الأصل ظَلومًا جَهولًا، ولا ينفكُّ عن الجهل والظلم إلَّا بأن يُعلمه الله ما ينفعه، ويُلهمه رُشده، فمن أراد به خيرًا، علَّمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه، فخرج به عن الظلم، ومن لم يُرد به خيرًا، أبقاه على أصل الخلقة، فأصل كل خير هوالعلم والعدل، وأصل كل شَرٍّ هو الجهل والظلم....وقد جعل الله - سبحانه - للعدل المأمور به حدًّا، فمن تجاوزه كان ظالمًا معتديًا، وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه»[2].

۞ وكل الظلم بأنواعه محرم، ولن يجد الظالم مَن ينصره أمام الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ أى أنه يوم القيامة، لا يجد الظالم حميمًا أى صديقًا ينجيه من عذاب الله، ولا يجد شفيعًا يشفع له فيُطاع؛ لأنه منبوذ بظلمه وغُشمه وعدوانه...وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٠-٥٥١).
(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٣٦، ١٣٧).

أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]. يعني لا يجدون أنصارًا ينصرونهم ويُخرجونهم من عذاب الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم.

۞ ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**اتقوا الظلم**» أي: احذروا الظلم واجتنبوه فلا تظلموا أحدًا: لا أنفسكم بالوقوع في الشرك أو المعاصي.. ولا تظلموا غيركم بأي نوعٍ من أنواع المظالم.

لماذا؟ لأن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة.

فيوم القيامة ليس هناك نور إلا مَن رزقه الله النور على قدر إيمانه وإخلاصه وأعماله الصالحة ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] .. فمن كان مؤمنًا جعل الله له النور على قدر إيمانه .. لكن إن كان ظالمًا فإنه يفقد من ذلك النور بقدر ما حصل منه من الظلم .. لأن النبي ﷺ قال: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَة**».

فلقد كان النبي ﷺ أحرص الناس، وأشفقهم على أمته، فلا يزال يحثهم على فعل ما ينفعهم، ويقربهم إلى ربهم، ويحذرهم أشد التحذير من كل ما يعود عليهم بالضرر .. فما ترك النبي ﷺ خيرًا إلا وقد دَلَّ أمته عليه .. ولم يترك شرًّا إلا وقد حذَّر أمته منه.

ومن أجل ذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فلا يحصل الأمن التام يوم القيامة إلا لمن سَلِمَ من الظلم، قليله وكثيره... ويحصل عليه من عدم الأمن بقدر ما لديه من الظلم، فلهذا يحذرنا ﷺ من الظلم غاية التحذير.

وأعظم أنواع الظلم على الإطلاق هو الشرك بالله، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

ومن الظلم ترك الصلاة والتهاون فى أدائها، ومنع الزكاة، وترك إخراجها، وترك الصيام مع القدرة، وترك الحج مع الاستطاعة.

ومن الظلم وأعظمه: ترك التحاكم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واستبدالها بقوانين وضعية مخالفة لشريعة الإسلام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومن أنواع الظلم عقوق الوالدين، وعدم برهما، وترك الإحسان إليهما، وكذلك قطيعة الرحم التى أمر الله أن تُوصَل، وقد توعَّد الله على ذلك أشد الوعيد، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

ومن أنواع الظلم عدم الوفاء بما وجب، كالتقصير بحقوق الزوجات والأصدقاء، والأصحاب، وكل مَن له عليك حق، إما من باب المعاوضات، أو من باب المكافآت، أو الديون الواجبة ... فلا يجوز المماطلة بشيء من ذلك، لقوله ﷺ: «**مَطْلُ الغنى ظُلْم**»(١).

ويدخل فى الظلم الذى حذرنا منه ﷺ فى هذا الحديث ظلم الناس بالقدح فيهم، والكلام فى أعراضهم، والطعن عليهم، والاستهزاء بهم، والتنقُّص لهم، كما قال (عليه الصلاة والسلام) فى خطبة حجة الوداع: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِى شَهْرِكُمْ هَذَا، فِى بَلَدِكُمْ هَذَا**».

فالظلم كله ظلمات يوم القيامة، يُعاقَب عليه فاعله يوم القيامة على قدر ظلمه... فقد بيَّن المصطفى ﷺ أنه يُؤخَذ من حسنات الظالم فتُعطَى للمظلوم، فإن لم يكن لهم حسنات أو فنيت حسناتهم، أُخذ من سيئات المظلومين،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٨٧) كتاب الحوالات، ومسلم (١٥٦٤) كتاب المساقاة.

فطُرحت على الظالمين ثم طُرحوا فى النار ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وما أحسن قول القائل:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنتَ مُقتَدِرًا ... فَالظُّلْمُ يرجِعُ عُقباهُ إلى النَّدَمِ

تَنامُ عينَاكَ والمَظْلُوم مُنَتبِهٌ ... يدعو عليكَ وعَينُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

ولآخر:

أَمَا واللهِ إنَّ الظُّلْمَ شُؤمٌ ... وَمَا زالَ المسيءُ هُوَ الظَّلُومُ

إلَى الدَّيَّانِ يومَ العَرضِ نَمضِي ... وَعِندَ اللهِ تَجْتَمِعُ الخُصومُ

وقد حرم الله الظلم على نفسه، وجعله مُحرَّمًا بين عباده، كما فى الحديث القدسى: «**يا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظالمُوا**»(١).

۞ واعلم أن الظلم على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نوع لا يغفره الله، وهو الشرك بالله، فإن الله لا يغفر لمن أشرك به، ومات على شركه ... يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

النوع الثانى: نوع لا يترك الله منه شيئًا، وهو ظلم العباد بعضهم لبعض، فإن حقوق العباد مبنية على المُشاحَّة ... وقد قال ﷺ: «**أَتَدرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ**»؟ قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا دِرهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يأْتِي يوْمَ القِيامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيامٍ وَزَكَاةٍ، ويأْتِي وَقَد شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يقْضِى مَا عَلَيهِ أُخِذَ مِنْ خَطَاياهُمْ**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

فَطُرِحَتْ عَلَيهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّارِ».

النوع الثالث: نوع تحت مشيئة الله (جلَّ وعلا) إن شاء عاقب عليه، وإن شاء عفا عنه، وهى الذنوب التى بين العبد وربه، فيما هو دون الشرك.

واعلم أن الواجب على مَن ظلم نفسه، أو قصَّر فى حق ربه (جلَّ وعلا)، أو ظلم عباد الله أن يُبادر إلى التوبة النصوح، فإن الله يغفر الذنوب جميعًا، إذا تاب العبد منها توبة نَصوحًا... والتوبة النصوح هى ما اشتملت على الشروط التالية.

١- الإقلاع عن الذنب.

٢- الندم على ما فات.

٣- أن يعزم على أن لا يعود لمثل فعله.

فإن كان لأحدٍ من الخلق حَقٌّ عليه، فيُشترط أيضًا أن يرد الحق لصاحبه، ولابد أن يكون هذا قبل أن تطلع الشمس من مغربها، وقبل أن تبلغ الروح الحلقوم.

فالواجب على كل مسلم أن يبتعد عن الظلم، فإن حصل منه شىء من ذلك بادر إلى التوبة، وعليه أن يتبع أوامر الله، وأوامر نبيه ﷺ، وأن يعامل الناس بما يحب أن يُعاملوه به، فإنه متى فعل ذلك سلم من ظلم الناس[1].

۞ **ثم قال النبى ﷺ: « واتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»...** قَالَ الْقَاضِى: يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا الْهَلَاكَ هُوَ الهلاك الذى أخبر عنهم بِهِ فِى الدُّنْيَا بِأَنَّهُمْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ... وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ هَلَاكُ الْآخِرَةِ وَهَذَا الثَّانِى أَظْهَرُ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ[2].

والشُّحُّ: الحرص على المال... وقوله ﷺ: **«فإنه أهلك مَن كان قبلكم»** لأن

(١) من هدى المصطفى ﷺ/ الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ٢٦٦-٢٦٩) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٠٢).

الحرص على المال، يُوجب للإنسان أن يكسب المال من أى وجهٍ كان، من حلال أو حرام، بل قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**حملهم**» أى حمل مَن كان قبلنا على «**أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» يسفك الشحيح الدماء إذا لم يتوصل إلى طمعه إلا بالدماء، كما هو الواقع عند أهل الشحّ... يقطعون الطريق على المسلمين، ويقتلون الرجل، ويأخذون متاعه، ويأخذون بعيره، وكذلك أيضًا يعتدون على الناس فى داخل بيوتهم، ويهتكون حُجُبَ بيوتهم، فيأخذون المال بالقوة والغلبة.

فحذر النبى ﷺ من أمرين: من الظلم ومن الشحّ... فالظلم هو الاعتداء على الغير، والشح هو الطمع فيما عند الغير.

وقيل: الشُّح هو الحرص على ما ليس عنده والبُخل بما عنده.

فكل ذلك حرام... ولهذا قال الله تعالى فى كتابه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. فدلَّت الآية على أن مَن لم يُوقَ شُح نفسه فلا فلاح له... فالمفلح مَن وقاه الله شحَّ نفسه.

***

(٢٠٩) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه أَن رسولَ الله ﷺ قال: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقيامَةِ حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الْجَلْحَاء مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاء**»[1].

۞ ففى هذا الحديث يُقسم الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ أن الحقوق لَا بُدَّ أن تُؤدَّى إلى أهلها يوم القيامة ولن يضيع حق أحدٍ من البشر .. بل حتى البهائم لن يضيع حقَّها .. فتأتى الشاة الجلحاء التى ليس لها قرن فيقتص الله لها من الشاة القرناء التى لها قرن فنطحتها به فى الدنيا.. ومع أن البهائم لا تعقل ولا تفهم إلا أن الله بحكمته وعدله يحكم بينهم ليُرى عباده

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب.

كمال عدله وليعلموا أن الحقوق لا تضيع بين البهائم فكيف ببنى آدم عليه السلام.

عن عبد الله بن عمرو قال: «إذا كان يوم القيامة مُدَّ الأديم، وحُشر الدواب والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص بين الدواب ... يُقتص للشاة الجَمَّاء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فُرغ من القصاص بين الدواب، قال لها كوني ترابًا... قال: فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠]».

۞ وروى أحمد بإسنادٍ صحيح عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ رَأى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدرِى فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟**» قَالَ: لَا. قَالَ: «**لَكِنَّ الله يَدرِى، وَسَيَقْضِى بَيْنَهُمَا**»[١].

۞ قال الإمام النووى: هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يُعاد أهل التكليف من الآدميين وكما يُعاد الأطفال والمجانين ومَن لم تبلغه دعوة...وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة... قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التكوير: ٥] وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقلٌ ولا شرع، وجب حَمْلُه على ظاهره...

قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة فى القيامة المُجازاة والعقاب والثواب، وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة،... والجلحاء: هى الجَمَّاء التى لا قرن لها[٢].

قال الشيخ ابن عثيمين: أمَّا القصاص فيشمل البهائم؛ لأنَّه ثبت عن النبى ﷺ: «**أَنَّهُ يُقْتَصُّ للشَّاةِ الجَلْحاءِ مِن الشَّاةِ القَرْنَاءِ**»[٣]، وهذا قصاصٌ، لكنَّها لا تُحاسَب حساب تكليفٍ وإلزامٍ؛ لأنَّ البهائم ليس لها ثوابٌ ولا عقابٌ[٤].

---

(١) رواه أحمد (٢١٤٧٦)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٥٨٨).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٤) شرح الواسطية (ص ٣٦٥).

۞ وقال الشيخ الألباني:

«فإن قيل: الشاة غير مكلفة، فكيف يُقتص منها؟ قلنا: إن الله تعالى فعَّالٌ لما يريد، ولا يُسأل عما يفعله، والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع، بل يقتص حق المظلوم من الظالم»(١).

(٢١٠) وعَنْ ابن عمر رضي الله عنهما قال: كُنَّا نَتحدَّثُ عَنْ حَجَّة الْوَدَاع، وَالنبى ﷺ بَيْن أَظْهُرِنَا، وَلاَ ندرِى مَا حَجَّةُ الْوداع، حَتَّى حَمِدَ اللهَ رسولُ الله ﷺ، وَأَثْنَى عَلَيْه ثُمَّ ذَكَر الْمسِيحَ الدَّجَالَ فَأَطْنَبَ فى ذكْرِهِ، وَقَالَ: «ما بَعَثَ الله مِنْ نَبىٍّ إلاَّ أَنْذَرَهُ أُمَّتهُ: أَنْذَرَهُ نوحٌ وَالنَّبيُّون مِنْ بَعدِهِ، وَإِنَّهُ إنْ يَخرُجْ فِيكُمْ فما خفىَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ، أنَّ رَبَّكُمْ، لَيس بأَعورَ، وَإِنَّهُ أَعورُ عَيْن الْيُمْنَى، كَأَنَّ عيْنَهُ عِنبَةٌ طَافِيةٌ. ألا إن الله حرَّم علَيْكُمْ دِمَاءكُمْ وَأَمْوالكُمْ كَحُرْمَة يوْمكُمْ هذا، فى بلدِكُمْ هذا، فى شَهْرِكُم هذا ألاَ هل بلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قال: «اللَّهمَّ اشْهد - ثَلاثًا - ويْلَكُمْ أَوْ: ويحكُمْ، انظُرُوا: لا ترجِعُوا بَعدِى كُفَّارًا يضْرِبُ بَعضُكُمْ رِقَابَ بَعضٍ»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يخبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنهم كانوا يتحدثون عن حجة الوداع .. وكان النبى ﷺ حيٌّ بين أظهرهم.

وحجة الوداع هى الحجة التى حجَّها النبى ﷺ فى السنة العاشرة من الهجرة.

ولم يحج النبى ﷺ من المدينة غير حجته التى كانت فى العام العاشر، وعُرفت هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع؛ لأنه ﷺ ودَّع الناس فيها ولم يَحُج بعدها، وحجة البلاغ لأنه ﷺ بلَّغ الناس شرع الله فى الحج قولًا وعملًا، ولم يكن بقى من دعائم الإسلام وقواعده شىء إلا وقد بيَّنه، فلما

---

(١) السلسلة الصحيحة (٤/ ٦١٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٠٢) كتاب المغازى، ومسلم (١٦٩) كتاب الإيمان.

بيَّن لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عليه بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣][١].

ولما نزلت هذه الآية بكى بعض الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكأنهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرسول ﷺ.

ولما قيل لسيدنا عمر: ما يُبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان[٢]، وكان عدد الذين مع رسول الله أكثر من مائة ألف[٣].

وقد ذُكر أنَّه ﷺ حَجَّ قبل الهجرة مرتين، ولكن الظاهر والله أعلم أنه حجَّ أكثر من ذلك ... لأنه كان هناك في مكة، وكان يخرج في الموسم يدعو الناس والقبائل إلى دين الله عز وجل فيبعد أنه يخرج ولا يحجّ. وعلى كل حال فالذي يهمنا أنه ﷺ حجَّ في آخر عمره في السنة العاشرة من الهجرة، ولم يَحُجّ قبلها بعد هجرته، وذلك لأن مكة كانت بأيدي المشركين إلى السنة الثامنة من الهجرة، ففتحها النبي ﷺ في رمضان في السنة الثامنة، ثم خرج بعد ذلك إلى الطائف، وغزا ثقيفًا وحصلت غزوة الطائف المشهورة، ثم رجع بعد هذا ونزل في الجعرانة، وأتى بعمرة ليلاً، ولم يطلع عليه كثير من الناس، ثم عاد إلى المدينة ... هذا في السنة الثامنة.

وفي السنة التاسعة: كانت الوفود تَرِدُ إلى النبي ﷺ من كل ناحية، فبقي في المدينة، ليتلقى الوفود، حتى لا يثقل عليهم طلبه، حتى إذا جاء الوفود إلى المدينة وجدوا النبي ﷺ ولم يتعبوا في طلبه ويلحقونه يمينًا وشمالاً، فلم يَحُجّ في السنة التاسعة لتلقِّي الوفود ... هذا من وجه.

ومن وجهٍ آخر: في السنة التاسعة حجَّ مع المسلمين المشركون لأنهم لم يُمنَعوا من دخول مكة ثم مُنعوا من دخول مكة، وأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٤٠٧) كتاب المغازي.
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٥٧٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص٣٨٦).

ﵟالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚﵞ [التوبة: ٢٨]. وأذن مؤذن رسول الله ﷺ بألا يَحُجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان... وكان أمير الناس فى تلك الحجة - أعنى حجة سنة تسع - أبا بكر ﵁ ثم أردفه النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فى السنة العاشرة... وأعلن النبى ﷺ أنه سيحجّ، وقَدِمَ المدينة بشرٌ كثير يُقدَّرون بأكثر من مائة ألف... والمسلمون كلهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا، أى لم يتخلف من المسلمين إلا القليل، فحجوا مع النبى ﷺ هذه الحجة التى سُميت «حجة الوداع»، لأن النبى ﷺ ودَّع الناس فيها بقوله: «**لعلِّى لا ألقاكم بعد عامى هذا**» فصار الأمر كذلك، فإنه تُوفى بعد رجوعه من المدينة فى ربيع الأول، أى بعد حجه... فمضى محرم وصفر واثنا عشر يومًا من ربيع الأول ثم تُوفى النبى (صلوات الله وسلامه عليه).

وكان ﷺ فى حجة الوداع يخطب الناس ... خطبهم فى عرفة، وخطبهم فى مِنى، فذكر المسيح الدجال، وعظَّم من شأنه، وحذر منه تحذيرًا بالغًا، وفعل ذلك أيضًا فى المدينة، ذكر الدجال وحذّر منه، وبالغ فى شأنه، حتى قال الصحابة: كنا نظنُّ أنه فى أفراخ النخل أى قد جاء ودخل، من شدة قول النبى ﷺ فيه، ثم أخبر عليه الصلاة والسلام أنه ما من نبى إلا أنذر قومه، من فتنة الدجال[1].

أجل .. لقد كان الأنبياء يُحذرون أقوامهم من فتنة المسيح الدجال مع أنهم يعلمون يقينًا أنه لن يخرج إلا فى آخر الزمان، ومع ذلك فهم يُحذرون أقوامهم منه؛ لأنهم يعلمون يقينًا خطر فتنته.

۞ ثم قال لهم النبى ﷺ: «**وَإِنَّهُ إِنْ يَخْرُجْ فِيكُمْ فما خفىَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ**»، ثم ذكر النبى ﷺ بعض علامات الدجال فقال ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ، لَيس بأَعورَ، وَإِنَّهُ** -أى الدجال- **أَعورُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ**»

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٣).

فمن صفاته: أنه أعور العين اليُمنى .. والله عَزَّوَجَلَّ ليس بأعور بل هو كاملٌ في صفاته وليس في صفاته أي نقصٍ (سبحانه وتعالى).

ومن علاماته أنه مكتوبٌ بين عينيه كلمة كافر ولكن مُقطعة (ك . ف . ر) .. وتلك الكلمة يقرؤها المؤمن فقط حتى وإن كان لا يعرف القراءة والكتابة .. ويعجز الكافر عن قراءتها حتى ولو كان معه شهادة الدكتوراة.

فإن قال قائل: إذا كان فيه العلامة الحسية فكيف يُفتن الناس به؟ نقول: إن الله قال في كتابه: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. الذين أضلهم الله لا تنفعهم علامات الضلال تحذيرًا، ولا علامات الهدى تبشيرًا، ولا يستفيدون من آيات الله ودلائل وحدانيته وأُلوهيته، وإن كانت العلامات ظاهرة.

۞ وإن الدجال ستكون معه مجموعة من الخوارق والإمكانيات التي ستكون سببًا في فتنة غير المؤمنين الذين اعتصموا بالله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وأما عن القدرات والإمكانات التي ستكون مع الدجال... والتي ستكون سببًا في فتنة أصحاب القلوب المريضة فهي:

(١) جنته وناره:

فقد ورد أن معه ما يشبه الجنة والنار أو أن معه ما يشبه نهرًا من ماء ونهرًا من نار... وليس الأمر كما يراه الناس فإن الذي يرونه نارًا فإنما هو ماءٌ بارد وإن الذي يرونه ماءً باردًا فإنه نارٌ.

۞ قال رسول الله ﷺ: «**معه** (أي الدجال) **جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار**»[١].

(٢) سرعة انتقاله بين البلدان:

ومن فتنة الدجال أنه يتجول بين البلدان بسرعة تَفُوق الخيال.

فلقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ، كما عند مسلم - فقالوا: يا رسول الله

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٤) كتاب الفتن.

وما إسراعه فى الأرض؟ قال: «**كالغيث استدبرته الريح**».

ولذلك فهو سيدخل كل بلدٍ على وجه الأرض فيما عدا مكة والمدينة.

(٣) استجابة السماء والأرض لأمره!!!

ومن فتنته أنه يأمر السماء فتُمطر ويأمر الأرض فتُنبت ويدعو الماشية فتتبعه ويأمر الخرائب أن تُخرج كنوزها المدفونة فتستجيب.

۞ قال ﷺ: «... **فَيَأْتِى عَلَى الْقَوْمِ فَيَدعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتُنْبِتُ، وَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ دُرًّا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِى الْقَوْمَ فَيَدعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَتَتْبَعُهُ أَمْوَالُهُمْ وَيُصبِحُونَ مُمْحِلِينَ مَا بِأَيْدِيهِمْ شَىْءٌ، ثُمَّ يَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِى كُنُوزَكِ، فَيَنْطَلِقُ وَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ**...»[1][2].

(٤) الدجال يستعين بالشياطين:

قال ﷺ: «... **وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِلأَعْرَابِىِّ: أَرَأَيْتَ أَنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّى رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِى صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَقُولانِ: يا بُنى اتَّبِعهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ**..»[3].

(٥) يقتل شابًا ثم يُحييه (بإذن الله):

۞ **عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدرِىِّ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ** ﷺ **يَوْمًا حَدِيثًا**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٣٧) كتاب الفتن.

(٢) قال الإمام النووى: أما (تروح) فمعناه ترجع آخر النهار، و(السارحة) هى الماشية التى تسرح أى تذهب أول النهار إلى المرعى، وأما (الذُّرى) وهى الأعالى، و(الأسنمة) جمع ذروة وقوله: (وأسبغه) أى أطوله لكثرة اللبن، وكذا (أمده خواصر) لكثرة امتلائها من الشبع.
قوله ﷺ: (فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل) هى ذكور النحل هكذا فسره ابن قتيبة وآخرون.
قال القاضى: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة لكنه كنَّى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها، لأنه متى طار تبعته جماعته والله أعلم. [مسلم بشرح النووى (١٨/ ٨٩)].

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

طَوِيلًا عَنِ الدَّجَّالِ، فكَانَ فِيمَا حَدَّثَنَا، قَالَ: «يَأْتِى، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدخُلَ نِقَابَ الْمَدِينَةِ، فَيَنْتَهِى إِلَى بَعضِ السِّبَاخِ الَّتِى تَلِى الْمَدِينَةَ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ - أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ - فَيَقُولُ لَهُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِى حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا، ثُمَّ أَحيَيْتُهُ، أَتَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، قَالَ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحيِيهِ، فَيَقُولُ حِينَ يُحيِيهِ: وَاللهِ مَا كُنْتُ فِيكَ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّى الآنَ - قَالَ: فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ - أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ»[1].

۞ والسبب فى استجابة بعض الناس لفتنته أن الناس قبل ظهوره بثلاث سنوات يعيشون فى جدبٍ وقحطٍ شديد ... فقبل خروج الدجال بثلاث سنوات يحدث جدبٌ وقحط شديد فتمنع السماء مطرها وتحبس الأرض نباتها كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «وَإِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ شِدَادٍ، يُصِيبُ النَّاسَ فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ، يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى أَنْ تَحبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الأَرضَ فَتَحبِسُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ، فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ فَتَحبِسُ ثُلُثَيْ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الأَرضَ فَتَحبِسُ ثُلُثَيْ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ، فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ، فَتَحبِسُ مَطَرَهَا كُلَّهُ، فَلَا تُقْطِرُ قَطْرَةً، وَيَأْمُرُ الأَرْضَ، فَتَحبِسُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ، فَلَا تُنْبِتُ خَضْرَاءَ، فَلَا تَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَتْ، إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ»، قِيلَ: فَمَا يُعِيشُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؟ قَالَ: «التَّهْلِيلُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحمِيدُ، وَيُجْرَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مُجْرَى الطَّعَامِ»[2].

ولقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن المدة التى يمكثها المسيح الدجال فى الأرض فقالوا: يا رسول الله وما لبثه فى الأرض؟ قال: «أربعون يومًا. يومٌ كسنة ويوم كشهر. ويوم كجمعة. وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٨) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

اليوم الذى كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا... اقدروا له قدره**»(١).

لما حدث النبى ﷺ الصحابة بهذا الحديث، لم يستشكلوا كيف تبقى الشمس سنة كاملة ما تدور على الأرض، وهى تدور عليها فى كل أربعٍ وعشرين ساعة، فقدرة الله فوق ذلك، وأن الله على كل شىء قدير، والصحابة لا يسألون فى الغالب عن المسائل الكونية والقدرية؛ لأنهم يعلمون قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، لكن يسألون عن الأمور التى تهمهم، وهى الأمور الشرعية، فلما حدَّثهم بأن اليوم الأول كسنة: قالوا: يا رسول الله اليوم الذى كسنة، هل تكفينا فيه صلاة واحدة؟ قال: «**لا، اقدروا له قدره**» يعنى قدروا ما بين الصلاتين وصَلُّوا.

مثلاً: إذا طلع الصبح نصلى الصبح.

ثم نُقدِّر عدد الساعات التى بين الصبح والظهر فنُصلى الظهر.. ثم نقدر عدد الساعات التى بين الظهر والعصر .. والتى بين العصر والمغرب .. والتى بين المغرب والعشاء .. وهكذا .. لأن الشمس ستظل مشرقة لمدة ستة أشهر ثم تغيب ستة أشهرٍ أخرى .. فلا بُدَّ أن نقدر وقت الصلاة بالساعات التى بين الصلوات.

إذًا ... نصلى فى اليوم الأول صلاة سنة، والصيام نصوم شهرًا، ونُقدِّر للصوم، والزكاة كذلك.

وكان بعض أهل العلم يستخدمون تلك المعلومة كلغزٍ من الألغاز فيقولون لطلبة العلم: رجلٌ عنده مال لم يمضِ عليه إلا يومٌ ومع ذلك فقد وجبت فيه الزكاة .. فكيف ذلك؟

فلا يعرف أحد أن يُجيب .. فيُجيب الشيخ: إنه أول يومٍ يظهر فيه المسيح الدجال ؛ لأنه سيكون بمقدار سنة كاملة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٣٧) كتاب الفتن.

۞ فاليوم الأول نُصلى فيه صلاة سنة كاملة.

كذلك اليوم الثانى نقدّر فيه صلاة شهر، والثالث صلاة أسبوع، وبعده تعود الأيام كما هى ... وفى إلهام الله للصحابة أن يسألوا هذا السؤال عبرة؛ لأنه يوجد الآن فى شمالى الأرض وجنوبى الأرض، يوجد أُناسٌ تغيب عنهم الشمس ستة أشهر، وتطلع عليهم ستة أشهر ... ولولا هذا الحديث لأشكل على الناس، كيف يُصلى هؤلاء، وكيف يصومون، لكن الآن نطبّق هذا الحديث على حال هؤلاء فنقول: هؤلاء الذين تكون الشمس عندهم ستة أشهر كاملة يقدرون للصلاة وقتها، كما أرشد النبى ﷺ الصحابة فى أيام الدجال(١).

۞ ثم قال النبى ﷺ: « **ألا إن الله حرَّم علَيْكُمْ دِمَاءكُمْ وَأَمْوالكُمْ كَحُرْمَة يوْمكُمْ هذا، فى بلدِكُمْ هذا، فى شَهْرِكُم هذا ألَا هل بلَّغتُ؟** » قالُوا: نَعَمْ،قال: «**اللَّهمَّ اشْهَد -ثَلاثًا - ويْلَكُمْ أَوْ: ويحكُمْ، انظُرُوا: لا ترجِعُوا بَعدِى كُفَّارًا يضْرِبُ بَعضُكُمْ رِقَابَ بَعضٍ**».

قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لا تَرجِعُوا بَعدِى كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعضُكُمْ رِقَابَ بَعضٍ**» قِيلَ فِى مَعناهُ: سَبْعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ فِى حَقِّ الْمُسْتَحِلِّ بِغَيْرِ حَقٍّ .. وَالثَّانِى: الْمُرَادُ كُفْرُ النِّعمَةِ وَحَقِّ الْإِسْلَامِ .. وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ يُقَرِّبُ مِنَ الْكُفْرِ وَيُؤَدِّى إِلَيْهِ.. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ فِعلٌ كَفِعلِ الْكُفَّارِ .. وَالْخَامِسُ: الْمُرَادُ حَقِيقَةُ الْكُفْرِ وَمَعنَاهُ لَا تَكْفُرُوا بَلْ دُومُوا مُسْلِمِينَ .. وَالسَّادِسُ: حَكَاهُ الْخَطَّابِىُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكُفَّارِ الْمُتَكَفِّرُونَ بِالسِّلَاحِ يُقَالُ تَكَفَّرَ الرَّجُلُ بِسِلَاحِهِ إِذَا لَبِسَهُ... قَالَ الْأَزْهَرِىُّ فِى كِتَابِهِ تَهْذِيبُ اللُّغَةِ: يُقَالُ لِلَابِسِ السِّلَاحِ كَافِرٌ .. وَالسَّابِعُ: قَالَهُ الْخَطَّابِىُّ مَعنَاهُ لَا يُكَفِّرُ بَعضُكُمْ بَعضًا فَتَسْتَحِلُّوا قِتَالَ بَعضِكُمْ بَعضًا.

وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ الرَّابِعُ وَهُوَ اخْتِيَارُ الْقَاضِى عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢).

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٥).

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ٧٣).

(٢١١) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ ظَلَم قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرضِ طُوِّقَهُ منْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[1].

۞ النبي ﷺ في هذا الحديث يتكلم عن نوعٍ من أشد أنواع الظلم وهو ظلم الناس بالتعدِّي على أراضيهم..وذلك بأن يأخذ أحدهم قطعة من أرض جاره ليضمها إلى أرضه سواء كان ذلك دون علم جاره أو كان ذلك بالقوة على مرأى ومسمع من جاره .. فهذا من الكبائر ؛ لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله مَنْ غيَّر منار الأرض»[2].

قال العلماء: منار الأرض حدودها؛ فإذا غير الإنسان من هذه الأرض، بأن أدخل شيئًا من هذه الأرض إلى أرض غيره، فإنه ملعون على لسان النبي ﷺ... واللعنة: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وهناك عقوبة أخرى ذكرها النبي ﷺ في الحديث الذي نشرحه .. وهو أن هذا الظالم إذا ظلم قيد شبر - يعنى إذا أخذ قطعة أرض ظلمًا تُقدر مساحتها بشبر - طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين ... لأن الأرضين سبع كما جاء ذلك في سُنة النبي ﷺ.

وكما ذكره الله تعالى في القرآن إشارة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[الطلاق: ١٢]. ومعلوم أن المماثلة هاهنا ليست في الكيفية؛ لأن بين السماء والأرض من الفرق كما بينهما من المسافة... فالسماء أكبر بكثير من الأرض، وأوسع، وأعظم .. قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾[الذاريات: ٤٧]. أى بقوة ... وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[النبأ: ١٢]. أى قوية.

فالإنسان إذا ظلم قيد شبر من الأرض فإنه يُطوَّق من سبع أرضين يوم القيامة... أى يُجعَل له طوقًا في عُنقه والعياذ بالله، يحمله أمام الناس أمام العالم،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٥٣) كتاب المظالم ، ومسلم (١٦١٢) كتاب المساقاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٧٨) كتاب الأضاحي.

يُخزَى به يوم القيامة .. وقول: «**قيد شبر من الأرض**» ليس هذا على سبيل القيد، بل هو على سبيل المبالغة يعنى، فإن ظلم ما دونه طُوِّقه أيضًا، لكن العرب يذكرون مثل هذا للمبالغة، يعنى ولو كان شيئًا قليلاً فإنه سيطوقه يوم القيامة.

وفى هذا الحديث دليل: على أن مَن مَلَكَ الأرض مَلَكَ قعرها إلى الأرض السابعة ... فليس لأحدٍ أن يضع نفقًا تحت أرضه إلا بإذنه ... يعنى لو فُرض أن لك أرضًا مسافتها ثلاثة أمتار بين أرضٍ لجارك، فأراد جارك أن يفتح نفقًا بين الأرضين ويمرّ من تحت أرضك، فليس له الحقُّ فى ذلك؛ لأنك تملك الأرض وما تحتها إلى الأرض السابعة ... كما أن الهواء لك إلى السماء، فلا أحد يستطيع أن يبنى على أرضك سقفًا إلا بإذنك.

قال أهل العلم: ولو كان عند جارك شجرة، فامتدت أغصانها إلى أرضك، وصار الغصن إلى أرضك، فإن الجار يلويه عن أرضك، وإن لم يمكن لَيُّه فإنه يُقطَع، إلا بإذنٍ منك وإقرار؛ لأن الهواء لك وهو تابع للقرار[1].

۞ وهناك قصة لطيفة بمناسبة هذا الحديث ... عن هشام بن عروة، عن أبيه أن أَرْوَى بنت أويس ادَّعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئًا من أرضها فخاصمَتهُ إلى مروان بن الحَكَم فقال سعيدٌ: أنا كنت آخذُ من أرضها شيئًا بعد الذى سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن أخذَ شبرًا من الأرض ظُلمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين**» فقال له مروان: لا أسألك بيِّنةً بعد هذا. فقال: اللهم إن كانت كاذبة فعمِّ- فأعم- بصرها واقتلها فى أرضها. قال: فما ماتت حتى ذهب بصرُها ثم بينا- بينما- هى تمشى فى أرضها إذ وقعت فى حُفرةٍ فماتت[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦١٠) كتاب البيوع.

(٢١٢) وعَنْ أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

۞ فى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ قد لا يُعاقب الظالم من أول مرة بل يُعطيه الفرصة لعله يتوب ويرد المظالم إلى أصحابها ويتحلل منها .. فإذا استمرأ الظلم واستمر عليه وأخذ يظلم الناس من حوله بلا رحمة ولا هوادة فإن الله عَزَّوَجَلَّ يستدرجه ويُملى له..أى يُمهله حتى يتمادى فى ظلمه وتجتمع عليه الأوزار تلو الأوزار وتتكدس عليه المظالم فيأخذه الله عَزَّوَجَلَّ أخذ عزيزٍ مُقتدر ولا يُفلته ..

ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فيجب على الظالم أن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأن يُدرك نفسه قبل فوات الأوان فيتحلل من المظالم ولا يغتر بحلم الله وإمهاله .. لأنه إن لم يَتُب فسوف يندم فى يومٍ لا ينفع فيه الندم ولا تُجدى فيه الحسرة.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

من عقوبات الظالمين فى الدنيا

۞ لقد أعدَّ الله تعالى فى الدنيا العديد من العقوبات للظالمين، جزاءً وفاقًا، وما ظلمهم الله تعالى شيئًا، ولكنهم كانوا أنفسهم يظلمون.

۞ فمن عقوبة الله تعالى للظالمين فى الدنيا:

محق البركة، وخراب البيوت. فمهما كان الظالم غنيًّا فأمواله لا بركة فيها،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٦) كتاب التفسير، ومسلم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة والآداب.

ومهما كان عالى البنيان فهى أقرب إلى الانهيار بسبب ظلم العباد.

قال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [النمل: ٥٢].

خاوية: أى: خالية من أهلها خرابًا، ليس بها ساكن.

۞ ومن عقاب الله تعالى للظالم فى الدنيا:

أن يسلط عليه ظالمًا غيره، أقوى وأشد منه، ليذوق مما كان يسقيه لغيره...

وفى الأخبار: «مَن لم يعرفنى سلَّطت عليه مَن لا يعرفه».

۞ ومن عقاب الله تعالى للظالم فى الدنيا:

أنه يحيا فى الدنيا، ويعلم فى قرارة نفسه أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يحبه، بل يلعنه ويُبغضه، كما قال جلَّت قدرته:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧].

إن الظالم ملعون بنَصِّ القرآن الكريم، فكيف يحبه رب العالمين؟!

قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨].

ولعن الظالم أى: الإبعاد والطرد من الخير والرحمة.

۞ ولا بد أن نعلم أن الظالم لا يرى فلاحًا ولا نجاحًا فى حياته...

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

۞ والظلم إيذان بهلاك الظالمين.. فقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[الكهف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٧].

۞ بل إن الظالم يُحرَم من نعمة الهداية... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأحقاف: ١٠].

۞ ومن عقوبات الله تعالى للظالمين فى الدنيا:

شدة السكرات عند الممات، والتقبيح والذم كما قال جل شأنه:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

من عقوبات الظالمين فى الآخرة

۞ إن كل ما يلقاه الظالم فى الدنيا من العقوبة لا يساوى شيئًا من عقوبة الآخرة، بل لا يُقاس أصلًا بين الدنيا والآخرة.

بل قد يعيش الظالم، ويُعمَّر، ويرحل عن الدنيا، ولا نراه يعانى من عقوبة الله فى الدنيا، ولماذا؟

أمهله الله تعالى حتى يرى العذاب كله فى يوم القيامة حيث الحسرة والندامة،... وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ

ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٥٢].

وقد أعدَّ الله سبحانه للظالمين من العذاب ما لا يعلمه إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ... كما قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف: ٢٩].

إن أهل الظلم مع فقدهم للهداية الربانية يفقدون مع ذلك النصير... كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٧]

أي: فذوقوا عذاب النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال[(١)].

وكذلك لا يجد أهل الظلم لهم أي حميم، أو شفيع لهم فيُطاع... كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر: ١٨][(٢)].

***

(٢١٣) وعَنْ مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعَثَني رسولُ الله ﷺ فقال: «إنَّكَ تَأْتِي قوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب، فادعُهُمْ إِلَى شَهادة أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ الله، وأَنِّي رسول الله فإنْ هُمْ أَطاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعلِمهُمْ أَنَّ الله قَد افْتَرضَ عليْهم خَمْس صَلَواتٍ في كُلِّ يوم ولَيْلَةٍ، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلكَ، فَأَعلِمْهُمْ أَنَّ الله قَد افْتَرَضَ عَلَيهِمْ صدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغنيائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرائهم، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لذلكَ، فَإِيَّاكَ وكَرائِمَ أَمْوالِهم. واتَّقِ دعوةَ الْمَظْلُومِ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٠).

(٢) الظلم والظالمون (١٥-١٧) بتصرف.

فَإِنَّهُ لَيْس بينها وبيْنَ الله حِجَابٌ»[١].

۞ كان معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثمرة مباركة من ثمرات الدعوة إلى الله تعالى.

فلقد أسلم على يدى مصعب بن عمير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذى كان يعتمد فى دعوته على الرحمة والحكمة والموعظة الحسنة -وهذه والله من أفضل أساليب الدعوة إلى الله-.

وفى ليلة العقبة كان معاذ مع الاثنين والسبعين الذين شهدوا تلك البيعة المباركة.. فوضع يده فى يد الحبيب ﷺ وبايعه ليُسطِّر بذلك صفحة ناصعة البياض على جبين التاريخ.

وما أن عاد معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى المدينة حتى أيقن أن الخير الذى حصل له لم يكن إلا ببركة الدعوة إلى الله تعالى، فقام يحمل لواء الإسلام خفَّاقًا عاليًا ليأخذ بأيدى الناس من حوله إلى جنة الرحمن (جل وعلا) التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فكان من بركة دعوته أن الله جعله سببًا فى إسلام سيدٍ من سادات (بنى سَلِمَة) وهو عمرو بن الجموح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

۞ وكان معاذ بن جبل منذ أن أسلم قد انشغل بحفظ القرآن وطلب العلم حتى أصبح فى فترة يسيرة واحدًا من الأربعة الذين أمر النبى ﷺ أصحابه أن يتعلموا القرآن على أيديهم.

فعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خُذوا القرآن من أربعةٍ: منْ ابن مسعود، وأُبيٍّ، ومعاذ بن جبل، وسالمٍ مولى أبى حذيْفة**»[٢].

بل وأصبح معاذ أعلم الأمة بالحلال والحرام بعد رسول الله ﷺ.

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «**أرحم أُمتى بأمتى أبو بكر، وأشدها فى دين**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٩٦) كتاب الزكاة، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٩٩) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٢٤٦٤) كتاب فضائل الصحابة.

الله عمر، وأصدقها حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ...»[١].

وفوق ذلك فلقد أصبح من أعلم العلماء الذين لا يُشق لهم غبار .. حتى شهد له النبي ﷺ أنه سيكون مِقدام العلماء يوم القيامة.

فعن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن معاذ بن جبل أمام العلماء رتوة»**[٢]. والرتوة هي الدرجة والمنزلة.

وعلم أصحاب النبي ﷺ مكانة- معاذ- فكانوا يحملون له كل الحب والتقدير في قلوبهم.

۞ فعن عبد الله بن مسعود أنه قال: إن معاذًا كان أُمة قانتًا لله.

قال: فقال رجل من أشجع يقال له: فروة بن نوفل: نسي ... إنما ذاك إبراهيم عليه السلام، قال: فقال عبد الله: مَن نسي؟ إنما كنا نُشبهه بإبراهيم. قال: وسُئل عبد الله عن الأمة: فقال معلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله[٣].

۞ وهنا في هذا الحديث يحكي معاذ بن جبل أن النبي ﷺ بعثه إلى اليمن ليُعلم الناس القرآن والعلم الذي تعلمه على يد النبي ﷺ ... وكان ذلك في شهر ربيع من السنة العاشرة من الهجرة .

فلقد كان الحبيب ﷺ يضع الرجل المناسب في المكان المناسب فهو يعلم طاقات الرجال من حوله فكان يوظف تلك الطاقات في خدمة الإسلام والمسلمين على أكمل وجه.

وها هو النبي –عليه الصلاة والسلام- يرى جموع قريش تدخل في دين الله أفواجًا، بعد فتح مكة. ويشعر بحاجة المسلمين الجُدد إلى مُعلِّم كبير يُعلمهم الإسلام، ويفقههم بشرائعه ... فيعهدُ بخلافته على مكة لعتَّاب بن أُسيد،

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٥).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢/ ١٠٧)، وقال العدوي: وهو صحيح بمجموع طُرقه.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٧٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

ويستبقى معه معاذ بن جبل ليُعلِّمَ الناس القرآن ويُفقههم فى دين الله.

ولما جاءت رسل ملوك «اليمن» إلى رسول الله ﷺ تُعلنُ إسلامها وإسلام مَن وراءها، وتسأله أن يبعث معها مَن يُعلِّمُ الناس دينهم؛ انتدب لهذه المهمة نفرًا من الدُّعاة الهُداة من أصحابه، وأمَّرَ عليهم معاذ بن جبل رضي الله عنه.

ثم أخبره النبى ﷺ بطبيعة المكان الذى سيذهب إليه ليكون على استعدادٍ للتعامل مع هذا المجتمع الجديد .. فقال له ﷺ: «**إنك تأتى قومًا من أهل الكتاب**» فأخبره بذلك ليكون مستعدًّا لهم.. لأن الذى يُجادل أهل الكتاب لَا بُدَّ أن يكون معه من العلم والحُجة ما يَفوق الذى عندهم.

۞ ثم وجَّهه النبى ﷺ إلى أول شىءٍ يدعوهم إليه وهو التوحيد والرسالة فقال له ﷺ: «**ادعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله**».

أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ... أى لا معبود بحقٍّ إلا الله سبحانه وتعالى: فهو المستحق للعبادة، وما عداه فلا يستحق العبادة، بل عبادته باطلة... كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠] ... «**وأنى رسول الله**» ، يعنى مُرسَلَهُ الذى أرسله إلى الإنس والجن، وختم به الرسالات، ومَن لم يؤمن به فإنه من أهل النار.

ثم قال له: «**فإن هم أطاعوا لذلك**» يعنى شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كلِّ يوم وليلة**» وهى الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر ... لا يجب شىء من الصلوات اليومية إلا هذه الخمس ... فالسنن الرواتب ليست بواجبة، والوتر ليس بواجب، وصلاة الضحى ليست بواجبة.

ثم قال له: «**فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تُؤخَذ من أغنيائهم فتُردُّ فى فقرائهم**» وهذه هى الزكاة[(١)].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٧) بتصرف.

فالزكاة فريضة من فرائض الإسلام وركنٌ من أركانه الخمسة بل هى أهم الأركان بعد الصلاة التى هى عماد الدين ..

قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣].

فهى صدقة واجبة فى المال تُؤخَذ من الغنى وتُرَدُّ فى الفقير.

وقوله: «**تُرَدُّ فى فقرائهم**» أى تُصرَف فى فقراء البلد؛ لأن فقراء البلد أحقُّ مَن تُصرَف إليهم صدقات أهل البلد.

ولأن الأقربين أَولَى بالمعروف .. ولأنهم كذلك يعرفونك ويعرفون المال الذى عندك ويعرفون أنك غنى فإن لم تُعطهم من زكاة مالك فسوف تمتلئ قلوبهم حقدًا عليك.

۞ ثم قال ﷺ: «**فإن هم أطاعوك لذلك**» أى: انقادوا إليك ووافقوا على إخراج الزكاة «**فإيَّاك وكرائم أموالهم**» أى: لا تأخذ من أموالهم أطيب ما عندهم، ولكن خُذ المتوسط ... لا تَظلم ولا تُظلَم.

«**واتق دعوة المظلوم**» يعنى أنك إذا أخذت من نفائس أموالهم، فإنك ظالم لهم، وربما يدعون عليك، فاتقِ دعوتهم، «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» تصعد إلى الله تعالى، ويستجيبها، وهذا هو الشاهد من هذا الحديث فى الباب الذى ذكره المؤلف فيه، أن الإنسان يجب عليه أن يتقى دعوة المظلوم.

۞ ومن فوائد هذا الحديث:

(١) وجوب إرسال العلماء والدعاة إلى شتَّى بقاع الأرض لدعوة الناس إلى الله وتعليمهم الكتاب والسُّنة.

(٢) ينبغى أن تذكر للداعية حال أهل البلدة التى سيذهب إليها ليتأهب لذلك ويُنزلهم منازلهم ويستعد لهم بالعلم الشرعى والقضايا التى تُناسب أحوالهم.

(٣) أن يهتم الداعية إذا ذهب إلى بلدٍ غير مسلم أن يكون أول ما يدعوهم

إليه هو «**لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله**» ليحققوا التوحيد لله (جلَّ وعلا) ... فلا ينشغل بالفروع عن الأصول... يجعلهم أولًا يحققوا التوحيد ثم يأمرهم بالفرائض ثم ينهاهم عن المعاصي والسيئات.

(٤) أن يُعرفهم أن الصلاة هي أهم شيء بعد الشهادتين .. وبخاصة الصلوات الخمس.

(٥) أن الزكاة واجبة وهي فرض من فروض الإسلام، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام، والثاني بعد الشهادتين. ولهذا قال ﷺ: «**أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تُؤخَذ من أغنيائهم**».

(٦) أن الزكاة تُصرف في فقراء البلد؛ لقوله: «**فتُرَدّ في فقرائهم**» ولا تُخرَج عن البلد إلا لسببٍ ... أما ما دام في البلد مستحقون، فإنهم أَولَى من غيرهم.

(٧) أنه يجوز صرف الزكاة في صنفٍ واحد من أصناف الزكاة، وأصناف الزكاة ثمانية: الفقراء والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل ... فإذا أداها المُزكي إلى صنفٍ من هذه الأصناف أجزأ، بل إذا أداها إلى فردٍ في نوع من هذه الأنواع أجزأ. مثل لو أعطى مُزَكٍّ زكاته كلها فقيرًا واحدًا فلا حرج.

(٨) تحريم الظلم .. وأنه لا يجوز للساعي على الزكاة أن يأخذ أكثر من الواجب أو أن يأخذ أطيب أموالهم .. بل عليه أن يأخذ القدر الواجب وأن يأخذ من أوسط أموالهم.

(٩) أن دعوة المظلوم مستجابة .. وذلك لقول النبي ﷺ عن دعوة المظلوم: «**فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب**».

(١٠) أنه يجب على المسلم أن يتقي الظلم وأن يتقي دعوة المظلوم.

(٢١٤) وعَنْ أَبِى حُميْد عبْدِ الرَّحْمن بنِ سعد السَّاعِدِىِّ رضي الله عنه قال: اسْتعملَ النَّبِىُّ ﷺ رَجُلاً مِن الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللُّتْبِيَّة عَلَى الصَّدقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قال: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهدِىَ إِلَىَّ، فَقَامَ رسولُ الله ﷺ عَلَى الْمِنبرِ، فَحمِدَ الله وأَثْنى عَلَيْهِ، ثُمَّ قال: «أَمَّا بعدُ فَإِنِّى أَسْتعمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ على الْعمَلِ مِمَّا ولَّانِى الله، فَيأْتِى فيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذا هَديَّةٌ أُهْدِيَت إِلَىَّ، أَفَلا جَلس فى بيت أبيه وأمِّه حتى تأتيه هَدِيَّتُهُ إن كانَ صادقًا! واللهِ لا يَأْخُذُ أحدٌ منكم شيئًا بغير حَقِّهِ إلا لَقِىَ اللهَ تعالى يَحمِلُهُ يَوْمَ القيامةِ، فلا أَعرِفنَّ أحدًا منكم لَقِىَ اللهَ يحملُ بعيرًا له رُغَاءٌ، أو بقرةً لها خوارٌ، أَوْ شاةً تَيْعَرُ» ثُمَّ رفَعَ يَدَيْهِ حتَّى رُؤِىَ بَياضُ إبْطيْهِ فقال: «اللَّهمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثلاثًا[1].

❁ ففى هذا الحديث نجد أن النبى ﷺ أرسل رجلًا من الأزد يُقال له: ابن اللُّتبية ليجمع الصدقة من المسلمين - أى الزكاة - .. فلما ذهب ليجمعها كان بعضهم يعطيه الزكاة المفروضة عليه .. وكان بعضهم يعطيه الزكاة ويعطيه فوقها مالًا على سبيل الهدية له. فلما عاد إلى النبى ﷺ قال: «هذا لكم - أى الزكاة التى جمعتها - وهذا أُهدى إلىَّ .. فغضب النبى ﷺ خوفًا وشفقة على هذا الرجل حتى لا يأكل مالًا حرامًا من الرشوة.

فقام رسول الله ﷺ عَلَى الْمِنبر، فَحمِدَ الله وأَثْنى عَلَيْهِ، ثُمَّ قال: «**أَمَّا بعدُ فَإِنِّى أَسْتعمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ على الْعمَلِ مِمَّا ولَّانِى الله، فَيأْتِى فيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذا هَديَّةٌ أُهْدِيَت إِلَىَّ، أَفَلا جَلس فى بيت أبيه وأمِّه حتى تأتيه هَدِيَّتُهُ إن كانَ صادقًا!**».

فأول شىءٍ فعله النبى ﷺ أنه جمع الناس ليُحذرهم من الوقوع فى الرشوة ... ولكن أخلاق النبى ﷺ لم تسمح له أن يُشهِّر بهذا الرجل الذى فعل ذلك ويذكر اسمه .. بل تعامل معه من باب قوله ﷺ: «**ما بال أقوام يفعلون كذا**» فبهذا يُعلِّم الناس الحكم الشرعى دون أن يجرح مشاعر مَن فعل ذلك ويُشهِّر به.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٩٧) كتاب الهبة - ومسلم (١٨٣٢) كتاب الإمارة.

۞ ولقد حذرنا الله عَزَّوَجَلَّ من الرشوة وحذرنا النبي ﷺ... فالرشوة حرام وهي من أكل أموال الناس بالباطل.

وهي ما يُدفع من مال إلى ذي سلطان أو وظيفة عامة، ليحكم له أو على خصمه بما يريد هو، أو ينجز له أو يؤخر لغريمة عملًا، وهَلُمَّ جرًّا.

وقد حرَّم الإسلام على المسلم أن يَسلُك طريق الرشوة للحكام وأعوانهم، كما حرَّم على هؤلاء أن يقبلوها إذا بُذلت لهم، وحظر على غيرهم أن يتوسطوا بين الآخذين والدافعين.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال ﷺ: «**لعنة الله على الرَّاشي والمُرتشي**»(١).

وعن ثوبان قال: لعن رسول الله ﷺ: «الراشي والمرتشي والرائش»(٢).

وإذا كان آخِذُ الرشوة قد أخذها ليظلم فما أشد جُرمه، وإن كان سيتحرى العدل فذلك واجب عليه لا يُؤخَذ في مقابله مال.

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة إلى اليهود ليُقدِّر ما يجب عليهم في نخيلهم من خَراجٍ، فعرضوا عليه شيئًا من المال يبذلونه له، فقال لهم: «**فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سُحت، وإنَّا لا نأكلها**»(٣).

ولا غرابة في تحريم الإسلام للرشوة، وتشديده على كل مَن اشترك فيها، فإن شيوعها في أي مجتمعٍ شيوعٌ للفساد والظلم من حكمٍ بغير الحق أو امتناع عن الحكم بالحق، وتقديم مَن يستحق التأخير، وتأخير من يستحق التقديم،

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١١٤).

(٢) ضعيف: رواه أحمد، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٦٨٤).

(٣) صحيح: رواه مالك في الموطأ، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٥٩).

وشيوع روح النفعية فى المجتمع لا روح الواجب.

والإسلام يُحرِّم الرشوة فى أى صورة كانت، وبأى اسم سُمِّيت.

وإن تسميتها باسم «الهدية» لا يُخرجها من دائرة الحرام إلى الحلال.

وفى الحديث: «**مَن استعملناه على عملٍ فرزقناه رزقًا** - أى: منحناه راتبًا- **فما أخذه بعد ذلك فهو غلول**»(١).

قال الإمام الغزالى: « إذا ثبتت هذه التشديدات فالقاضى والوالى -ومَن فى حُكمهما- ينبغى أن يقدر نفسه فى بيت أمه وأبيه... فما كان يُعطَى بعد العزل وهو فى بيت أمه يجوز له أن يأخذه فى ولايته، وما يعلم أنه إنما يُعطاه لولايته فحرام أخذه...وما أشكل عليه فى هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولاً؟ فهو شبهة فليجتنبه»(٢).

ومَن كان له حقٌّ مُضيَّع لم يجد طريقة للوصول إليه إلا بالرشوة، أو وقع عليه ظلم لم يستطع دفعه عنه إلا بالرشوة فالأفضل له أن يصبر حتى يُيسر الله له أفضل السُّبل لرفع الظلم، ونيل الحق.

فإن سلك سبيل الرشوة من أجل ذلك فالإثم على الآخِذ المُرتشى وليس عليه إثم الراشى فى هذه الحالة ما دام قد جرَّب كل الوسائل الأُخرى فلم تأتِ بجدوى ... وما دام يرفع عن نفسه ظُلمًا أو يأخذ حقًّا له دون عدوانٍ على حقوق الآخرين(٣).

۞ ثم قال ﷺ: « **والله لا يَأْكُلُ أحدٌ منكم شيئًا بغير حَقِّهِ إلا لَقِىَ اللهَ تعالى يَحْمِلَهُ يَوْمَ القيامةِ، فلا أعرِفنَّ أحدًا منكم لَقِىَ اللهَ يحملُ بعيرًا له رُغَاءٌ، أو بقرةً لها خوارٌ، أوْ شاةً تَيْعَرُ** » ثُمَّ رفَعَ يَديْهِ حتَّى رُؤِىَ بَياضُ إبْطيْهِ فقال: «**اللَّهمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**» ثلاثًا.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٢٣).

(٢) «إحياء علوم الدين»، كتاب الحلال والحرام من ربع العادات (ص/ ١٣٧).

(٣) الحلال والحرام/ د. يوسف القرضاوى (٢٨٦-٢٨٨) بتصرف.

ففي هذا الحديث بيانٌ أن هدايا العمال حرامٌ وغلولٌ ؛ لأنه خان في ولايته وأمانته .. ومن أجل ذلك ذكر النبي ﷺ أن كل مَن أكل شيئًا بغير حقه من الحرام فسوف يَلقى الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة وهو يحمله على ظهره .. فلو أخذ بعيرًا - جملًا - من السرقة أو الرشوة المحرمة فسوف يَلقى الله يوم القيامة وهو يحمله على ظهره وله رُغاء - صوت البعير - ... ولو أخذ بقرة من السرقة أو الرشوة فسوف يَلقى الله يوم القيامة وهو يحمل تلك البقرة على ظهره ولها خُوار - صوت البقرة - ولو أخذ شاة من السرقة أو الرشوة فسوف يَلقى الله يوم القيامة وهو يحمل تلك الشاة على ظهره وهي تيعر - أي تصيح - ... ومن أجل خطورة هذا الأمر فقد رفع النبي ﷺ يديه حتى رُؤي بياض إبطيه وقال: «**اللهم هل بلَّغت**» ثلاثًا.

۞ قَالَ فُرَاتُ بْنُ مُسْلِمٍ: اشْتَهَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ التُّفَّاحَ فَلَمْ يَجِد فِي بَيْتِهِ شَيْئًا يَشْتَرِي بِهِ فَرَكِبْنَا مَعَهُ فَتَلَقَّاهُ غِلْمَانُ الدَّيْرِ بِأَطْبَاقِ تُفَّاحٍ فَتَنَاوَلَ وَاحِدَةً فَشَمَّهَا ثُمَّ رَدَّ الْأَطْبَاقَ فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ...فَقُلْتُ أَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَقْبَلُونَ الْهَدِيَّةَ فَقَالَ إِنَّهَا لِأُولَئِكَ هَدِيَّةٌ وَهِيَ لِلْعُمَّالِ بَعدَهُمْ رِشْوَةٌ(١).

(٢١٥) وعَنْ أَبِي هُرِيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ كَانتْ عِنْدَه مَظْلَمَةٌ لأَخِيه، مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يكُونَ دِينَارٌ ولا دِرهَمٌ، إنْ كَانَ لَهُ عَملٌ صَالحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقدرِ مظْلمَتِهِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سيِّئَاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»(٢).

۞ قال ﷺ: « **مَنْ كَانتْ عِنْدَه مَظْلَمَةٌ لأخِيهِ، مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه الْيَوْمَ** » أي: في الدنيا قبل أن يخرج منها وعليه مظالم يُعاقَب عليها .. « **قَبْلَ أَنْ**

---

(١) فتح الباري (٥/ ٢٦١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٤٤٩) كتاب المظالم والغصب.

لا يكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ » وذلك يوم القيامة ... فإن الإنسان فى الدنيا يستطيع أن يتحلل من المظالم التى عليه إما بأدائها إلى أصحابها أو استحلالهم منها .. لكن إن لم يتحلل منها فى الدنيا وجاء بها يوم القيامة فليس هنا إلا الحسنات والسيئات .. فإن كان الظالم له حسنات أُخذت منه تلك الحسنات وقُدِّمت لمن ظلمهم .. فإن فَنِيت حسناته وبقى عليه مظالم أُخذ من سيئاتهم وطُرحت على الظالم ثم طُرِحَ فى النار.

۞ فظاهر الحديث أنه يجب على الإنسان أن يتحلل من كل المظالم وبخاصة ما كانت فى الأعراض؛ لأنها من أشد المظالم ... ولذلك ذكرها النبى ﷺ وحدها مع أنها داخلة فى جملة المظالم.

وذلك أن الْمظالم إما أن تكون بالنفس، أو بالْمال، أو بالعرض، لقول النبى ﷺ: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم**»(١).

فإن كانت بالنفس: مثل أن يكون قد جنى عليه، أو ضربه حتى جرحه، أو قطع عضوًا من أعضائه أو قتل له قتيلاً، فإنه يتحلل منه بأن يُمكِّن صاحب الحق من القصاص، أو من بذل الدية، إذا لم يكن القصاص، أو اختيرت الدية.

أما إن كانت فى المَال: فإنه يعطيه ماله، إذا كان عنده مالٌ لأحد، فالواجب أن يعطيه لصاحبه، فإن لم يستطع الوصول إليه أو كان صاحب المال قد مات فإنه يبحث عن الورثة فإن لم يكن له ورثة أو كان له ورثة ولكنه لم يستطع الوصول إليهم فإنه يتصدق بهذا المال وينوى أن يصل ثوابه لصاحب المال... والله سبحانه وتعالى يعرف صاحب المال وسيوصل له حقه وافرًا يوم القيامة.

أما إن كانت فى العِرض: مثل أن يكون قد سَبَّ شخصًا فى مجالس أو اغتابه، فلا بُدَّ أن يتحلل منه إذا كان قد علم بأنه سَبَّه، فيذهب إليه، ويقول: أنا فعلت كذا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧) كتاب العلم - ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

وفعلت كذا، وأنا جئتك معتذرًا، فإن عذره فهذا من نعمة الله على الجميع؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. وإن لم يعفُ فليُعطه مالاً...يُشبعه من الْمال حتى يُحلله... فإن أَبَى فإن الله تعالى إذا علم أن توبة الظالم توبة حقيقية، فإنه سبحانه وتعالى يرضى الْمظلوم يوم القيامة.

وقال بعض العلماء: إن كان الْمظلوم لم يعلم فلا حاجة أن يُعلمه، مثل أن يكون قد سَبَّه في مجلس من الْمجالس، وتاب فإنه لا حاجة أن يُعلمه، ولكن يستغفر له ويدعو له، ويُثني عليه بالخير في الْمجالس التي كان يَسُبه فيها، وبذلك يتحلل منه.

والمهم أن الأمر خطير، وحقوق الناس لَا بُدَّ أن تُعطَى لهم، إما في الدنيا وإما في الآخرة[١].

(٢١٦) وعَنْ عبد الله بن عَمْرو بن الْعاص رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ، والْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى الله عَنْهُ»[٢].

وفي روايةٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعرِفْ»[٣].

قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ: قَوْلُهُ: (أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ) مَعنَاهُ: أَيُّ خِصَالِهِ وَأُمُورِهِ وَأَحوَالِهِ .. قَالُوا: وَإِنَّمَا وَقَعَ اختِلَافُ الْجَوابِ فِي خَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لِاخْتِلَافِ حَالِ السَّائِلِ وَالْحَاضِرِينَ ... فَكَانَ فِي أَحَدِ الْمَوْضِعَيْنِ الْحَاجَةُ إِلَى إِفْشَاءِ السَّلَامِ وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ أَكْثَرُ وَأَهَمُّ لِمَا حَصَلَ مِنْ إِهْمَالِهِمَا وَالتَّسَاهُلِ فِي أُمُورِهِمَا وَنَحْوِ ذَلِكَ وَفِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ إِلَى الْكَفِّ عَنْ إِيذَاءِ الْمُسْلِمِينَ[٤].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٦٣).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٠) كتاب الإيمان - ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٣٩) كتاب الإيمان.
(٤) مسلم بشرح النووي (٢/ ١٣-١٤).

والْمسلم يُطلَق على معانٍ كثيرة، منها الْمستسلم..فالْمستسلم لغيره يُقال له: مسلم...ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. أى: قولوا استسلمنا، ولم نقاتلكم...والقول الثانى فى الآية: إن الْمراد بالإسلام، الإسلام لله عَزَّوَجَلَّ وهو الصحيح.

والْمعنى الثانى: يُطلَق الإسلام على الأصول الْخمسة التى بيَّنها النبى ﷺ لجبريل جين سأله عن الإسلام، فقال: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت**»[(١)].

ويُطلَق الإسلام على السلامة، يعنى أن يَسلَم الناس من شره، فيُقال: أسلم بمعنى دخل فى السِّلم، أى: الْمُسالَمة للناس، بحيث لا يؤذى الناس... ومنه هذا الْحديث: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ**».

سَلِمَ الْمسلمون من لسانه فلا يَسُبهم، ولا يلعنهم، ولا يغتابهم، ولا يَنُم بينهم، ولا يسعى بينهم بأى نوع من أنواع الشر والفساد، فهو قد كَفَّ لسانه... وكَفُّ اللسان من أشد ما يكون على الإنسان، وهو من الأمور التى تصعب على الْمرء وربما يستسهل إطلاق لسانه[(٢)].

ولذلك قال النبى ﷺ: «**إِذَا أَصبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعوَجَجْتَ اعوَجَجْنَا**»[(٣)].

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا** – وأشار إلى لسانه–» قَالَ: يَا نَبِىَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «**ثَكِلَتْكَ**

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.
(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٦٣).
(٣) حسن: رواه الترمذى، وابن خزيمة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١).
تُكفر اللسان: أى تذل وتخضع له.

أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»(١).

وفي رواية: « إِنَّكَ لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَّ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ كُتِبَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ».

ولذلك ضمن النبي ﷺ الجنة لمن يضمن له لسانه وفَرْجَه عن كل أنواع الحرام.

فقال ﷺ: «مَنْ يَضمن لِي ما بين لَحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»(٢).

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبانُ

كم في المقابر من قتيلِ لسانهِ كانت تهاب لقاءه الشجعانُ!(٣)

۞ قوله ﷺ: «المسلم» معناه المسلم الكامل وليس المراد نفي أصل الإسلام عن مَن لم يكن بهذه الصفة.. بل هذا كما يُقال: الناس العرب والمال الإبل... فكل هذا على سبيل التفضيل وليس الحصر.

ثُمَّ إِنَّ كَمَالَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِ مُتَعَلِّقٌ بِخِصَالٍ أُخَرَ كَثِيرَةً وَإِنَّمَا خَصَّ مَا ذَكَرَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْحَاجَةِ الْخَاصَّةِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» مَعنَاهُ مَنْ لَمْ يُؤْذِ مُسْلِمًا بِقَوْلٍ وَلَا فِعلٍ ... وَخَصَّ الْيَدَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ مُعظَمَ الْأَفْعَالِ بِهَا وَقَد جَاءَ الْقُرآنُ الْعَزِيزُ بِإِضَافَةِ الِاكْتِسَابِ وَالْأَفْعَالِ إِلَيْهَا(٤).

۞ فالمسلم الكامل هو الذي يَكُف لسانه عن الناس فلا يذكرهم إلا بكلِّ خيرٍ ولا يَسُب ولا يشتم ولا يقذف ولا يغتاب ولا يَنُم .. فهو رجلٌ مُسالمٌ لكل مَن حوله أينما وقع نفع.. حتى أنه إذا سمع كلامًا سيئًا عن أحد إخوانه لا يطير به فرحًا وينشره بين الناس بل يُدافع عن عِرضِ أخيه ويرفض أن يسمع غيبة أخيه

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

(٣) جواهر الأدب (ص ٧١٨).

(٤) مسلم بشرح النووي (٢/ ١٤) بتصرف.

بأُذنه لأنه يحب المسلمين ؛ ولأنه يعلم أن وزر المستمع للغيبة كالمغتاب تمامًا.

۞ وكذلك المسلم الكامل هو الذى يَكُف يده عن الناس فلا يعتدى عليهم بالضرب أو المقاتلة أو أخذ أموالهم أو الاعتداء على بيوتهم أو نسائهم أو أولادهم.. بل يحرص على ألا يستعمل يده إلا فى العمل وفعل الخير ومساعدة إخوانه والدفاع عنهم. فمن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده فهذا هو المسلم الكامل.

(٢١٧) وعَنْ ابن عَمْرو رضي الله عنهما قال: كَانَ عَلَى ثَقَل النَّبِىِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرةُ، فَمَاتَ فقال رسول الله ﷺ: «هُوَ فِى النَّارِ» فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فوَجَدُوا عَبَاءَةً قَد غَلَّهَا[1].

۞ **نحن نعلم أن الظلم على ثلاثة أقسام:**

أحدها: أكل المال بالباطل، وثانيها: ظلم العباد بالقتل والضرب والكسر والجراح... وثالثها: ظلم العباد بالشتم واللعن والسب والقذف.

فالغلول هو من النوع الأول من الظلم ألا وهو: أكل المال بالباطل.

وفى هذا الحديث أن هذا الرجل (كِركِرة) كان على ثَقَل[2] النبى ﷺ فلما مات فوجئ الصحابة أن النبى ﷺ يقول عنه: «**هو فى النار**» فذهبوا يبحثون عن السبب فى قول النبى ﷺ فوجدوا عباءة قد غلَّها .. أى أخذها من الغنائم قبل أن يُقسمها النبى ﷺ على المُجاهدين.

۞ ولقد كان النبى ﷺ يشدد فى الغلول جدًّا، ويقول: «**هو عارٌ ونارٌ وشَنَارٌ على أهله يوم القيامة**»[3].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٠٧٤) كتاب الجهاد والسير.

(٢) الثَّقَل: العيال وما يَثقُل حمله من الأمتعة.

(٣) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، إِلَى جَنْبِ بَعِيرٍ مِنَ الْمَقَاسِمِ، ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْبَعِيرِ، فَأَخَذَ مِنْهُ قَرَدَةً، يَعْنِي وَبَرَةً، فَجَعَلَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذَا مِنْ غَنَائِمِكُمْ، أَدُّوا الْخَيْطَ، وَالْمِخْيَطَ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَمَا دُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ، عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،**
=

ولما أُصيب غلامه مِدعَم قالوا: هَنِيئًا لَـهُ الجَنَّـةُ، فَقَـالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلَّا، وَالَّـذِي نَفْسِي بِيَـدِهِ، إِنَّ الـشَّمْلَةَ الَّتِـي أَخَـذَهَا يَـوْمَ خَيْبَـرَ مِـنَ المَغَـانِمِ، لَـمْ تُـصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا» فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ - أَوْ شِـرَاكَيْنِ - لَمَّـا سـمع ذلـكَ، فَقَالَ: «شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ - أَوْ: شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ -»[(١)].

وقـال أبـو هريـرة: قَـامَ فِينَـا رَسُـولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَـوْمٍ، فَـذَكَرَ الْغُلُـولَ، فَعَظَّمَـهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، فَقَالَ: «لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَـهُ رُغَـاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَـكَ شَـيْئًا، قَـدْ أَبْلَغْتُـكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ»[(٢)].

❁ وقـالوا في بعـض غـزواتهم: فُـلَانٌ شَـهِيدٌ، فُـلَانٌ شَـهِيدٌ، حَتَّـى مَـرُّوا عَلَـى رَجُلٍ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلَّا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٍ -» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ،

= وَشَنَارٌ وَنَارٌ» رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣٠٠).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٢٣٤) كتاب المغازي، ومسلم (١١٥) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٧٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٣١) كتاب الإمارة.

كما رواه أحمد في المسند (٩٣٠٥)، عن أبي هريرة، والثغاء: صوت الشاة، والحمحمة: صوت الفرس عند العلف وهو دون الصهيل، والصامت: الذهب والفضة، وقوله: «رقاع تخفق» أي: تقعقع وتضطرب، والمراد بها الثياب التي غلَّها.

أَنَّهُ لا يَدخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ»(١).

وتُوفى رجلٌ يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ». فَتَغَيَّرَتْ وُجُوهُ النَّاسِ لِذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ فِي سَبِيلِ اللهِ». فَفَتَّشْنَا مَتَاعَهُ فَوَجَدنَا خَرَزًا مِنْ خَرَزِ يَهُودَ لَا يُسَاوِى دِرهَمَيْنِ(٢).

وكان إذا أصاب غنيمة أمر بلالًا، فنادى فى الناس، فيجيؤون بغنائمهم، فيُخمِّسه، ويُقسِّمه ...فجاءَ رَجُلٌ بعدَ ذَلِكَ بِزِمَامٍ مِنْ شَعرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «سَمِعتَ بِلالًا يُنَادِى ثَلَاثًا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟» فَاعتَذَرَ، فَقَالَ: «إِنِّى لَنْ أَقْبَلَهُ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ الَّذِى تُوَافِينِى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).(٤) انتهى.

وإنما شدَّد عليه هذا التشديد ليرتدع هو وأمثاله عن الطمع فى المال العام... وليحرص كلُّ واحدٍ منهم على أن يُؤدِّى هذا المال فى وقته ليُوزَّع على أهله قبل أن يتفرَّقوا(٥).

(٢١٨) وعَنْ أَبِى بَكْرَةَ نُفَيْعِ بنِ الحارث رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ وَالأرضَ: السَّنَة اثْنَا عَشَر شَهْرًا، مِنْهَا أَربَعَةٌ حُرُم: ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعدة وَذو الْحِجَّة، والْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَر الذى بَيْنَ جُمادَى وَشَعبَانَ .. أىُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قلْنَا: الله ورسُولُهُ أَعلَم، فَسكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قال: «أَلَيْس ذَا الْحِجَّة؟» قُلْنَا: بلَى: قال: «فأَىُّ بلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: الله

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٤) كتاب الإيمان.

(٢) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٤٨١)، والإرواء (٧٢٦).

(٣) حسن: رواه أبو داود، وابن حبان، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٣٤٨).

(٤) زاد المعاد (٣/ ١٠٨).

(٥) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/ ٧٧٣-٧٧٤) بتصرف.

وَرسُولُهُ أعلمُ، فَسَكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سيُسمِّيه بغَيْر اسْمِهِ. قال: «أَلَيْسَ الْبلْدةَ؟» قُلْنا: بلَى. قال: «فَأَيُّ يومٍ هذَا؟» قُلْنا: الله ورسُولُهُ أَعلمُ، فَسكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّه سيُسمِّيهِ بغير اسمِهِ. قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحرِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قال: «فإِنَّ دِماءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأَعراضَكُمْ عَلَيْكُمْ حرامٌ، كَحُرمَةِ يَوْمِكُمْ هَذاَ فى بَلَدِكُمْ هَذا فى شَهْرِكم هَذَا، وَسَتَلْقَوْن ربَّكُم فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعمَالِكُمْ، أَلَا فَلا تَرجِعُوا بَعدى كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعضُكُمْ رِقَابَ بَعضٍ، أَلاَ لِيُبلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فلَعلَّ بعض من يبْلغُه أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَه مِن بَعضِ مَنْ سَمِعه» ثُمَّ قال: «أَلا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلا هَلْ بلَّغْتُ؟» قُلْنا: نَعَمْ، قال: «اللَّهمْ اشْهَد»[١].

۞ فى هذا الحديث ذكر أبو بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ خطب فى المسلمين يوم النحر .. وكان ذلك فى حجة الوداع وهى الحجة الوحيدة التى حجَّها النبى ﷺ فى الإسلام.

ولقد لاحظنا أن النبى ﷺ كرَّر خُطَبه... فقد خطب فى عرفة، وفى مِنى مرتين، كما كرَّر معانى بعض هذه الخطب ، فعلى الدعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ، فيكرروا خُطَبهم، ويكرروا بعض معانيها التى يرون حاجة لتكرارها، حتى يستوعبها السامعون ويحفظوها ... لأن القصد من خُطب الخطيب إفادة السامعين بما يقول، فإذا كانت الفائدة لا تَحصُل أو لا تتم إلا بتكرار الخُطب من حيث عددها، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها، فليكررها الداعية، ولا يكون حرصه على أن يأتى بجديد فى خُطَبِه ما دام يرى الحاجة فى ترسيخ معانٍ معينة فى أذهان السامعين .. إن الداعية همّه أن يُفيد السامعين وليس همه أن يُظهر براعته فى الخُطب، وفى تنوع معانيها دون نظر ولا اعتبار إلى ما يحتاجه السامعون، ودون اعتبار لفهمهم هذه المعانى واستيعابهم لها[٢].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٧٤١) كتاب الحج، و(٤٤٠٦) كتاب المغازى - ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥١٨).

۞ وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» فَقَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعنَاهُ: أَنَّهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَمَسَّكُونَ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي تَحرِيمِ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَكَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ تَأْخِيرُ الْقِتَالِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ مُتَوَالِيَاتٍ فَكَانُوا إِذَا احتَاجُوا إِلَى قِتَالٍ أَخَّرُوا تَحرِيمَ الْمُحَرَّمِ إِلَى الشَّهْرِ الَّذِي بَعدَهُ وَهُوَ صَفَرٌ ثُمَّ يُؤَخِّرُونَهُ فِي السَّنَةِ الْأُخْرَى إِلَى شَهْرٍ آخَرَ.

وَهَكَذَا يَفْعَلُونَ فِي سَنَةٍ بَعدَ سَنَةٍ حَتَّى اخْتَلَطَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ وَصَادَفَتْ حَجَّةُ النَّبِيِّ ﷺ تَحْرِيمَهُمْ وَقَد تَطَابَقَ الشَّرْعُ وَكَانُوا فِي تِلْكَ السَّنَةِ قَد حَرَّمُوا ذَا الْحِجَّةِ لِمُوَافَقَةِ الْحِسَابِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَأَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الِاسْتِدَارَةَ صَادَفَتْ مَا حَكَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: كَانُوا يَنْسَئُونَ أَيْ يُؤَخِّرُونَ ... وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ فَرُبَّمَا احْتَاجُوا إِلَى الْحَربِ فِي الْمُحَرَّمِ فَيُؤَخِّرُونَ تَحرِيمَهُ إِلَى صَفرٍ ثُمَّ يُؤَخِّرُونَ صَفَرٍ فِي سَنَةٍ أُخْرَى فَصَادَفَ تِلْكَ السَّنَةَ رُجُوعَ الْمُحَرَّمِ إِلَى مَوْضِعِهِ[1].

۞ ثم وضح النبي ﷺ أن عدة الشهور اثنا عشر شهرًا، وهي: الْمُحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الْحجة.

هذه هي الأَشهُر الاثنا عشر شهرًا، التي جعلها الله أشهُرًا لعباده منذ خلق السموات والأرض... كانوا في الْجاهلية يُحلون الْمحرم، ويُحرمون صفر.

وبيَّن (عليه الصلاة والسلام): أن هذه الاثنى عشر شهرًا منها أربعة حُرُم: ثلاثة متوالية، وواحدٌ منفرد ... الثلاثة المتوالية هي: ذو القعدة وذو الْحجة والْمحرم، جعلها الله تعالى أشهُرًا محرمة، يَحرُم فيها القتال، ولا يعتدى فيها أحدٌ على أحدٍ؛ لأن هذه الأشهر هي أشهر سير الناس إلى حج بيت الله، فجعلها

(١) مسلم بشرح النووي (١١/ ٢٤٢).

الله عَزَّوَجَلَّ مُحرمة لئلا يقع القتال فى هذه الأشهر والناس سائرون إلى بيت الله الحرام، وهذه من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ.

والصحيح: أن القتال ما زال مُحرمًا، وأنه لم يُنسَخ إلى الآن، وأنه يَحرُم ابتداء القتال فيها(١).

۞ وَقَد أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أن الأشهُر الْحُرُمَ الْأَربَعَةَ هِىَ هَذِهِ الْمَذْكُورَةُ فِى الْحَدِيثِ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فِى الْأَدَبِ الْمُسْتَحَبِّ فِى كَيْفِيَّةِ عَدِّهَا فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ: يُقَالُ: الْمُحَرَّمُ ورَجَبٌ وَذُو الْقَعدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ لِيَكُونَ الْأَرْبَعَةُ مِنْ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ ... وَقَالَ عُلَمَاءُ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَجَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ: هِىَ ذُو الْقَعدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ ثَلَاثَةٌ سَرْدٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ ... وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ الَّذِى جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ.

مِنْهَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِى نَحنُ فِيهِ ... وَعَلَى هَذَا الِاسْتِعمَالِ أَطْبَقَ النَّاسُ مِنَ الطَّوَائِفِ كُلِّهَا ... وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «**وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِى بَيْنَ جُمَادَى وَشَعبَانَ**» وَإِنَّمَا قَيَّدَهُ هَذَا التَّقْيِيدَ مُبَالَغَةً فِى إِيضَاحِهِ وَإِزَالَةً لِلَّبْسِ عَنْهُ ... قَالُوا: وَقَد كَانَ بَيْنَ بَنِى مُضَرَ وَبَيْنَ رَبِيعَةَ اخْتِلَافٌ فِى رَجَبٍ فَكَانَتْ مُضَرُ تَجْعَلُ رَجَبًا هَذَا الشَّهْرَ الْمَعرُوفَ الْآنَ .. وَهُوَ الَّذِى بَيْنَ جُمَادَى وَشَعبَانَ..وَكَانَتْ رَبِيعَةُ تَجْعَلُهُ رَمَضَانَ... فَلِهَذَا أَضَافَهُ النَّبِىُّ ﷺ إِلَى مُضَرَ ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ(٢).

۞ **ثم سألهم النبى ﷺ**: «**أى شهرٍ هذا؟**» سألهم من أجل أن يُلفت انتباههم ويستحضر فُهومَهم وهممهم .. وذلك لأن الأمر عظيم.

فقالوا: الله ورسوله أعلم... وذلك لأنهم استبعدوا أن يسأل النبي ﷺ عن شهر ذى الحجة وهو يعرفه .. ولكنهم من كمال أدبهم وتوقيرهم للنبى ﷺ لم

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٦٥).

(٢) مسلم بشرح النووى (١١/ ٢٤١-٢٤٢).

يقولوا: هذا شهر ذى الحجة بل قالوا: الله ورسوله أعلم.

۞ وهنا سكت النبى ﷺ حتى قال أبو بكرة رضي الله عنه: حتى ظننَّا أنه سيُسميه بغير اسمه.

وقد يسأل سائل: لماذا سكت النبى ﷺ؟

سكت حتى ينتبه الناس.. لأن الإنسان إذا تكلم ثم سكت انتبه الناس: ما الذى أسكته؟ وهذه طريقة مُتَّبعة فى الإلقاء .. أن الإنسان إذا رأى من الناس الذين حوله عدم إنصات يسكت حتى ينتبهوا؛ لأن الكلام إذا كان مُسترسَلاً فقد يَحصُل للسامع غفلة، لكن إذا توقف فإنهم سينتبهون، لماذا وقف.

قال القرطبى: سؤال النبى ﷺ عن الثلاثة: أى عن اليوم والشهر والبلد، وسكوته بعد كل سؤالٍ منها كان لاستحضار فُهومهم، وليُقبلوا عليه بكُليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه .... فعلى العلماء والدعاة أن يقدموا بين يدى ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السامعين ويشدهم إلى كلامهم[1].

وقال الإمام النووى: هَذَا السُّؤَالُ وَالسُّكُوتُ وَالتَّفْسِيرُ أَرَادَ بِهِ التَّفْخِيمَ وَالتَّقْرِيرَ وَالتَّنْبِيهَ عَلَى عِظَمِ مَرْتَبَةِ هَذَا الشَّهْرِ وَالْبَلَدِ وَالْيَوْمِ وَقَوْلُهُمْ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ هَذَا مِنْ حُسْنِ أَدَبِهِمْ وَأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُ ﷺ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا يَعرِفُونَهُ مِنَ الْجَوَابِ فَعَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مُطْلَقَ الْإِخْبَارِ بِمَا يَعرِفُونَ[2].

۞ المهم أن النبى ﷺ بعدما سكت قال: «**أليس ذا الحجة**» فقال الصحابة: بلى يا رسول الله .. ثم قال النبى ﷺ: «**أى بلدٍ هذا؟**».

قالوا: الله ورسوله أعلم.. وهم يعلمون جيدًا أنها مكة المكرمة لكنهم قالوا ذلك أيضًا لأدبهم واحترامهم للرسول ﷺ .. فلم يقولوا: وهل هذا سؤال.. إنها

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥١٨).

(٢) مسلم بشرح النووى (١١/ ٢٤٣).

مكة المكرمة .. بل قالوا: الله ورسوله أعلم .. ثم سكت النبى ﷺ مرة أخرى حتى ظنوا أنه ﷺ سيُسمى مكة باسمٍ آخر وسيُغير اسمها فإذا به ﷺ يقول: «**أليس البلدة؟**» .. والبلدة اسم من أسماء مكة.

ثم قال ﷺ: «**أى يومٍ هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم.. ففعلوا كما فعلوا كل مرة؛ لأن الأدب والاحترام لا يتغيران أبدًا. فقال ﷺ: «**أليس يوم النحر**» قالوا: بلى يا رسول الله.

۞ ثم قال ﷺ: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وأَمْوَالَكُمْ وأعرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِى بَلَدِكُمْ هَذَا فِى شَهْرِكُمْ هَذَا**» فأكَّد عليه الصلاة والسلام تحريم هذه الثلاثة: الدماء والأموال والأعراض، فكلها محرمة.

والدماء تشمل النفوس وما دونها، والأموال تشمل القليل والكثير، والأعراض تشمل الزنى واللواط والقذف، وربما تشمل الغيبة والسب والشتم والقذف... فهذه الأشياء الثلاثة حرام على الْمسلم أن ينتهكها من أخيه الْمسلم. فلا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاثٍ: الثيِّب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

المرادُ بهذا كله بيان توكيد غِلَظ تحريم الأموال والدماء والأعراض، والتحذير من ذلك.

ثم قال ﷺ: «**ألا فلا ترجعوا بعدى كُفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**».

ففى هذا الحديث حذَّر النبى ﷺ أمته أن يَقْتَتلوا، كما كان يفعل أهل الجاهلية، الذين كانوا يُغِيرون بعضهم على بعض، طمعًا فى الغنائم والأسلاب، أو حَمِيَّة لبعض أبناء قبيلتهم، أو طاعةً لبعض شيوخهم وزعمائهم، أو استجابةً لدسائس بعض الأشرار من غيرهم كاليهود...أو لغير ذلك من الأسباب.

وقد تتقاتل القبيلتان بسببٍ تافه، ومع هذا تستمر الحرب أربعين عامًا أو تزيد، كما فى حرب البَسُوس بين بكر وتَغْلِب، التى انطلقت شرارتها من أجل ناقة!

وقد رأينا قبيلتى الأوس والخزرج فى يثرب قبل الإسلام، ظلتا تحارب إحداهما الأخرى سنين طويلة، تنتصر هذه مرَّة، وتنهزم أخرى. يُؤَجِّج نار الحرب بينهما اليهود الذين كانوا يجاورونهم. وكان بعضهم حلفاء للأوس، وبعضهم حلفاء للخزرج.

فلا غرو أن يُحذِّر الرسول أمته فى حَجَّة الوداع أن يعودوا إلى عهد الجاهلية الجَهْلاء، فى النزاع والقتال بعضهم لبعض، وقال بصريح العبارة كما فى الحديث عن جرير بن عبد الله البجلى قال: قَالَ لِى رسول الله ﷺ فى حَجَّةِ الوَدَاعِ: «**اسْتَنْصِتِ النَّاسَ**» -أى ادعُهم إلى الإنصات - حتى يُصدر إعلانه عليهم وهم فى حالة هدوء- ثُمَّ قَالَ: «**لا تَرْجِعُوا بَعدِى كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعضُكُمْ رِقَابَ بَعضٍ**». ومعنى هذا الحديث: أن القتال بين المسلمين ضَربٌ من الكفر أو يؤدِّى إلى الكفر، أو هو يُشبه عمل الكفار المُشركين فى الجاهلية ... وروى ابن مسعود أنه ﷺ قال: «**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقتاله كُفر**»[1].

وعن أبى بكرة أنه عليه الصلاة السلام قال: «**إذَا الْتقَى الْمُسْلمَانِ بِسَيْفَيْهِما فالْقَاتِلُ والمقْتُولُ فى النَّارِ**» قُلْتُ: يَا رَسُول الله، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «**إنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[2].

بل حرَّم رسول الله ﷺ على المسلم أن يُشير - مُجرَّدَ إشارة- إلى أخيه بالسِّلاح، ولو كان مازحًا ... قال ﷺ: «**لا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلاحِ، فَإنَّهُ لا يَدرِى أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِى يَدِهِ فَيَقَعُ فِى حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ**»[3][4].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٦٤) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣١) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٧٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٦١٧) كتاب البر والصلة.

«لَا يُشِيرُ» .. الأصل أنها «لَا يُشِر» .. لكنها هنا نهي بلفظ الخبر .. كقوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ﴾.

(٤) فقه الجهاد / د. يوسف القرضاوى (٢/ ١٠٦٤-١٠٦٥) بتصرف.

وهذه المسألة بحسب النصوص فيها تفصيل: إن قاتل المسلم مُستحلًّا لقتله بغير إذنٍ شرعى فهو كافر كُفرًا مُخرجًا عن الْملة، وإن قاتله بتأويل، أو لقصد رئاسة، أو لقصد سلطان، فهذا لا يَكفُر كُفر رِدة، ولكنه كفرٌ دون كفر، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]. وهذا هو الْجمع بين هذه الآية وبين الحديث... فيُقال: إن تَقاتَل الْمسلمون مُستحلًّا كل واحدٍ دم أخيه فهو كافر كُفرًا مُخرجًا عن الملة، وإن كان لرئاسة أو عصبية أو حمية أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يَكفُر كُفر رِدة، بل يكون كُفره كُفرًا دون كفر، وعليه أن يتوب ويستغفر.

ثم قال (عليه الصلاة والسلام): «**ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟**» يسأل الصحابة رضي الله عنهم. قالوا: نعم، أى: بلغت ...فتأمل كيف يُقرِّر النبى عليه الصلاة والسلام، أنه بلَّغ فى المواطن العظيمة الكثيرة الجَمع، فى عرفة خطبهم (عليه الصلاة والسلام) قال: «**ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس، يقول: اللهم اشهد عليهم أننى بلغتهم.

وكذلك أشهد ربه على أنه بلَّغ أمته، وأقروا بذلك فى يوم النحر.

ونحن نَشهَد ونُشهِد الله وملائكته ومَن سمعنا من خلقه أن النبى ﷺ بلَّغ البلاغ المُبين وأنه بلغ الأمانة وأدى الرسالة ونصح الأمة، فما ترك خيرًا إلا ودَلَّ أمته عليه، ولا شرًّا إلا وحذرهم منه، وأنه ترك أمته على الْمَحجة البيضاء.

والصحابة رضي الله عنهم بلَّغوا جميع ما سمعوه منه عليه الصلاة والسلام.

ما كتموا من سُنته شيئًا، وبلغوا ما جاء به من الوحى، ولم يكتموا منه شيئًا، فجاءت الشريعة ولله الحمد كاملة من كل وجه...بلغها النبى ﷺ عن ربه ثم

بلغها الصحابة رضي الله عنهم ثم التابعون عمَّن قبلهم وهكذا إلى يومنا هذا ولله الحمد.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن يُبلغ الشاهدُ الغائبَ .. يعنى يبلغ مَن شهده وسمع خطبته أن يبلغ باقى الأمة، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه ربما يكون مُبلَّغ أوعى للحديث من سامع، وهذه الوصية من الرسول عليه الصلاة والسلام وصية لمن حضر فى ذلك اليوم، ووصية لمن سمع حديثه إلى يوم القيامة... فعلينا إذا سمعنا حديثًا عن الرسول عليه الصلاة والسلام أن نبلغه إلى الأمة[١].

۞ ويُستفاد من هذا الحديث: تحذير النبى ﷺ أمته من قتال بعضهم بعضًا .. ولكن بكل أسف فقد وقعت الفتنة منذ مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.. ووقع بينهم السيف والقتال وما زال إلى يومنا هذا .. ولكنه يختلف قِلَّة وكثرة باختلاف الزمان والمكان .. فقد يكون فى وقتٍ أكثر من وقتٍ آخر وقد يكون فى زمان أكثر من غيره... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فيجب على المسلم أن يتقى دماء إخوانه المسلمين ما استطاع.

لكن إن دخل عليك مسلم يريد أن يقتلك أو أن ينتهك عِرضك أو أن يسرق مالك فلك أن تُدافع عن نفسك وعِرضك ومالك ... ولكن عليك أن تدفعه بالأسهل فإن لم يندفع فادفعه بوسيلة أشد من الأولى .. فإن لم يندفع إلا بالقتل فاقتله فإن قتلته فهو فى النار .. وإن قتلك فأنت شهيد - بإذن الله- كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ.

قال ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**»[٢].

۞ وفى هذا الحديث أيضًا تحذير من الوقوع فى أعراض المسلمين .. فلا

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٥).

يجوز لمسلمٍ أن ينتهك عِرض أخيه المسلم بالغيبة أو السَّبِّ أو الشتم أو القذف أو انتهاك حُرمته أو ما هو فوق ذلك .. فإذا رأيت من أخيك أى شىء فى عباداته أو معاملاته أو أخلاقه فعليك أن تُقدِّم له النصيحة الخالصة لوجه الله.. وتكون النصيحة فيما بينك وبينه .. فلا تفضحه أمام الناس ؛ لأنك إذا فضحته فلن يستمع لنصيحتك أما إذا نصحته فى السرِّ فسيشعر بحبك له وحرصك عليه وسيكون ذلك أدعى للاستجابة.

(٢١٩) وعَنْ أبى أُمَامَةَ إيَاسِ بنِ ثعلَبَةَ الْحَارِثِىِّ رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلمٍ بيَمِينِهِ فقد أوْجَبَ الله لَه النَّارَ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فقال رجُلٌ : وإِنْ كَانَ شَيْئًا يسِيرًا يا رسولَ الله؟ فقال: «وإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»[1].

۞ ففى هذا الحديث أن مَن اقتطع حَق امرئٍ مسلمٍ بأن حلف كاذبًا ليأخذ حق أخيه – وهى ما تُسمَّى باليمين الغَموس التى تغمس صاحبها فى النار– فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة.

قَوْلُهُ ﷺ: «فَقَد أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَفِيهِ الْجَوَابَانِ الْمُتَقَدِّمَانِ الْمُتكَرِّرَانِ فِى نَظَائِرِهِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَحمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ لِذَلِكَ ... إِذَا مَاتَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ وَيُخَلَّدُ فِى النَّارِ. وَالثَّانِى: مَعنَاهُ فَقَدِ اسْتَحَقَّ النَّارَ وَيَجُوزُ الْعَفْوُ عَنْهُ وَقَد حَرُمَ عَلَيْهِ دُخُولُ الْجَنَّةِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ مَعَ الْفَائِزِينَ[2].

۞ وقوله ﷺ: «من اقتطع حق امرئٍ مسلم» ليس معناه أن مَن اقتطع حق امرئٍ كافر فليس حرامًا .. بل هو حرام وذلك لأن المسلم حُرم عليه أن يسرق المسلم وغير المسلم أو أن يقتل المسلم وغير المسلم -إلا أن يكون غير

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ٢١٤).

المسلم مُحاربًا- وحُرم على المسلم أن يزنى بالمرأة المسلمة وغير المسلمة وهكذا فى سائر المحرمات.

۞ فمن اقتطع حق امرئ مسلم باليمين الغموس فقد أوجب الله عليه النار وحرم عليه الجنة .. فَهَذِهِ الْعُقُوبَةَ لِمَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ الْمُسْلِمِ وَمَاتَ قَبْلَ التَّوْبَةِ أَمَّا مَنْ تَابَ فَنَدِمَ عَلَى فِعلِهِ وَرَدَّ الْحَقَّ إِلَى صَاحِبِهِ وَتَحَلَّلَ مِنْهُ وَعَزَمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ فَقَد سَقَطَ عَنْهُ الْإِثْمُ وَاللهُ أَعلَمُ.

وما دُمنا قد تكلمنا عن اليمين الغموس فلا بد أن نعرف ما هى اليمين الغموس.

فاليمين الغموس أن يحلف الإنسان على أمرٍ متعمدًا الكذب، ليهضم بها حقَّ غيره .. وتُسمى: الزور، والفاجرة ... وسُميت فى الأحاديث: يمين صبرٍ (أى: التى يصبر فيها نفسه على الجزم باليمين الكاذبة) ويمينًا مصبورة.

قال فى النهاية: غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها فى النار.

حكمها: هى كبيرة من الكبائر، وفاعلها آثِمٌ باتفاق المسلمين.

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ»**(١).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينَ صَبْرٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»**(٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»** قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ**

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٧٥) كتاب الأيمان والنذور.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٧٦) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.

سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»(١).

وقد يسأل سائل: هل اليمين الغموس تلزمها الكفارة؟

والجواب: أنه اختلف أهل العلم فى ذلك .. ولكن الراجح أن اليمين الغموس لا تحتاج إلى كفارة بل تحتاج إلى التوبة والندم على الوقوع فيها ورَدِّ الحق إلى صاحبه والتحلُّل منه والعزم على عدم العودة إلى ذلك.

۞ وفى آخر الحديث لما علم الصحابة أن الله أوجب النار على مَن اقتطع حق أخيه المسلم باليمين الغموس بل وحرم عليه الجنة فقالوا: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: «وإن قضيبًا من أراك» وهو السواك..

وهذا يجعل المسلم يحرص كل الحرص على ترك الحرام قليله وكثيره وعلى ترك الذنوب صغيرها وكبيرها.

***

(٢٢٠) وعَنْ عَدى بن عُمَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يَقُول: «مَن اسْتَعمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عمَل، فَكَتَمَنَا مِخْيطًا فَمَا فَوْقَهُ، كَانَ غُلُولاً يَأْتِى بِهِ يوْم الْقيامَة» فقام إِلَيْهِ رجُلٌ أَسْودُ مِنَ الأَنْصَارِ، كأَنِّى أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فقال: يا رسول الله اقْبل عنى عملَكَ قال: «ومالكَ؟» قال: سَمِعتُك تقُول كَذَا وَكَذَا، قال: «وَأَنَا أَقُولُهُ الآن: من اسْتَعملْنَاهُ عَلَى عملٍ فلْيجِئ بقَلِيلِهِ وَكثِيرِه، فمَا أُوتِى مِنْهُ أَخَذَ ومَا نُهِى عَنْهُ انْتَهَى»(٢).

۞ قوله ﷺ فى الحديث: «مَن اسْتَعمَلْنَاهُ مِنكُمْ عَلَى عمَل فليجئ بقَلِيلِهِ وكَثِيرِه» يدلُّ: على أنَّه لا يجوز له أن يقتطعَ منه شيئًا لنفسه، لا أجرةً ولا غيرَها، ولا لغيره إلا أن يأذنَ له الإمامُ، الذى تلزمُهُ طاعتُهُ. وَ(المَخيطُ): الإبرة.

***

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٣) كتاب الإمارة.

(٢٢١) وعَنْ عمر بن الخطاب ﷺ قال: لمَّا كان يوْمُ خيْبرَ أَقْبل نَفرٌ مِنْ أَصحابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، وفُلانٌ شهِيدٌ، حتَّى مَرُّوا علَى رَجُلٍ فقالوا: فَلانٌ شهِيد. فقال النَّبِيُّ ﷺ: «كلاَّ إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّها أَوْ عباءَةٍ»(١).

۞ ففي هذا الحديث أنه لما كان يوم غزوة خيبر التي كانت في السَّنة السابعة للهجرة قُتل بعض أصحاب الرسول ﷺ فأقبل نفرٌ من أصحاب الرسول ﷺ فقالوا: فلانٌ شهيد وفلان شهيد .. حتى مَرُّوا على رجلٍ فقالوا: فلان شهيد ... لكن هذا الرجل كان عنده مشكلة كبيرة ولذا قال عنه النبي ﷺ: «**كلا إني رأيته في النار في بُردة غلَّها أو عباءة**».

فهذا الرجل سرق بُردة وهي الشملة أو النَّمِرَة .. أما العباءة فهي معروفة وتُسمَّى العباية.

فهذا الرجل رآه النبي ﷺ في النار بسبب عباية سرقها من الغنائم قبل أن يقسمها النبي ﷺ بين أصحابه .. سرقها الرجل ولم يلبسها ودخل النار بسببها ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا ما يُسمَّى بالغُلول ... وهو أن يسرق الرجل أو يخون من الغنيمة قبل أن تُقسَّم على المُجاهدين ... وقيل: إن الغلول هو الخيانة في كل شيء.

۞ وفي رواية أخرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْنَا فَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلَا وَرِقًا -أي: فضة- غَنِمْنَا الْمَتَاعَ وَالطَّعَامَ وَالثِّيَابَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى الْوَادِي، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَبْدٌ لَهُ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُذَامٍ يُدعَى رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ، فَلَمَّا نَزَلْنَا الْوَادِيَ، قَامَ عَبْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحُلُّ رَحلَهُ، فَرُمِيَ بِسَهْمٍ، فَكَانَ فِيهِ حَتْفُهُ، فَقُلْنَا: هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَارًا**

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٤) كتاب الإيمان.

أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ»، قَالَ: فَفَزِعَ النَّاسُ، فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصَبْتُ يَوْمَ خَيْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ**»(١).

فهذا رجل سرق شملة من الغنيمة قبل أن تُقسَّم .. أى أنه غَلَّ من الغنيمة .. فلما قال الصحابة: هنيئًا له الشهادة يا رسول الله ﷺ قَال: «**كلا .. والذى نفس محمدٍ بيده إن الشملة لتلتهب عليه نارًا**».

فيأتى رجلٌ آخر قد غَلَّ شِرَاكًا أو شِرَاكَين .. والشِّراك هو السَّير المعروف الذى يكون فى النعل على ظهر القدم (رباط الحذاء).

فقال له ﷺ: «**شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ**» تَنْبِيهٌ عَلَى الْمُعَاقَبَةِ عَلَيْهِمَا .. وَقَد تَكُونُ الْمُعَاقَبَةُ بِهِمَا أَنْفُسُهُمَا فَيُعَذَّبُ بِهِمَا وَهُمَا مِنْ نَارٍ وَقَد يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمَا سَبَبٌ لِعَذَابِ النَّارِ وَاللهُ أَعلَمُ(٢).

۞ فهذا الرجل خرج مع النبى ﷺ مجاهدًا فى سبيل الله .. ونحن نعلم أن الجهاد فى سبيل الله ذروة سنام الإسلام .. وأن الشهادة فى سبيل الله تُكفِّر كل شىءٍ إلا الدَّين .. وأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى يتولَّى سداد دَين الشهيد يوم القيامة.

لكن هذا الرجل لما غَلَّ وأخذ العباءة وكتمها لأنه يريد أن يختص بها لنفسه فعُذب بها فى نار جهنم. وانتفت عنه هذه الصفة العظيمة وهى الشهادة؛ لأن النبى ﷺ قال: «**كلا**» يعنى ليس بشهيد؛ لأنه غَلَّ هذا الشىء البسيط. فأحبط جهاده وصار فى النار ... قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾[آل عمران: ١٦١] . ففى هذا دليل على أنه لا ينبغى لنا أن نحكم على شخصٍ بأنه شهيد، وإن قُتل فى معركة بين الْمسلمين والكفار.. لا نقول: فلان

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٣٤) كتاب المغازى، ومسلم (١١٥) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٧٠).

شهيد؛ لاحتمال أن يكون غَلَّ شيئًا من الغنائم أو الفيء ولو غَلَّ قِرشًا واحدًا، أو مسمارًا زال عنه اسم الشهادة، وكذلك لاحتمال أن تكون نيته غير صالحة، بأن ينوى بذلك الْحمية أو أن يُرَى مكانه.

ولهذا سُئل النبى (عليه الصلاة والسلام) عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمية، ويقاتل ليُرى مكانه، أى ذلك فى سبيل الله؟ قال: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله**»(١) والنية أمرٌ باطنى فى القلب لا يعلمه إلا الله.

ولهذا قال النبى (عليه الصلاة والسلام): «**ما من مكلوم يُكلَم فى سبيل الله**» أى: ما من مجروح يُجرَح فى سبيل الله، «**والله أعلم بمن يُكلَم فى سبيله**» قد نظن أنه يقاتل فى سبيل الله ونحن لا نعلم، «**والله أعلم بمن يُكْلَم فى سبيله**»، «**إلا جاء يوم القيامة وجُرحه يثغب دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح الْمسك**»(٢).

ولهذا ترجم الإمام البخارى رَحِمَهُ اللَّهُ فى «صحيحه» قال: باب لا يُقال: فلان شهيد... يعنى: لا تُعيِّن وتقول: فلان شهيد، إلا إذا عيَّنه الرسول (عليه الصلاة والسلام)، أو ذُكر عند الرسول ﷺ وأقره، فحينئذ يُحكَم بشهادته بعينه، وإلا فلا تشهد لشخصٍ بعينه(٣).

لكن نستطيع أن نقول لمن قُتل فى سبيل الله: نرجو أن يحشره الله فى زُمرة الشهداء أو أن يتقبله الله فى الشهداء .. أو أن نقول على وجه العموم: مَنْ قُتِل فى سبيل الله فهو شهيد.

۞ ومن أحكام هذا الحديث:

غِلَظُ تَحْرِيمِ الْغُلُولِ .. وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ حَتَّى الشِّرَاكُ وَمِنْهَا أَنَّ الْغُلُولَ يَمْنَعُ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ الشَّهَادَةِ عَلَى مَنْ غَلَّ إِذَا قُتِلَ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣) كتاب العلم، ومسلم (١٩٠٤) كتاب الإمارة.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.
(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٠).

وَمِنْهَا جَوَازُ الْحَلِفِ بِاللهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ» وَمِنْهَا أَنَّ مَنْ غَلَّ شَيْئًا مِنَ الْغَنِيمَةِ يَجِبُ عَلَيْهِ رَدُّهُ وَأَنَّهُ إِذَا رَدَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُحرَقُ مَتَاعُهُ سَوَاءٌ رَدَّهُ أَوْ لَمْ يَرُدَّهُ فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يُحَرِّقْ مَتَاعَ صَاحِبِ الشَّمْلَةِ وَصَاحِبِ الشِّرَاكِ وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا لَفَعَلَهُ وَلَوْ فَعَلَهُ لَنُقِلَ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ: «مَنْ غَلَّ فَاحرِقُوا مَتَاعَهُ وَاضْرِبُوهُ»... وَفِى رِوَايَةٍ: «وَاضْرِبُوا عُنُقَهُ» فَضَعِيفٌ[1].

❊❊❊

(٢٢٢) وعَنْ أَبى قَتَادَةَ الْحارثِ بنِ ربْعِيٍّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَام فيهِمْ، فذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهادَ فى سبِيل الله، وَالإيمانَ بالله أَفْضلُ الأعمالِ، فَقَامَ رَجلٌ فقال: يا رسول الله أَرَأَيْت إِنْ قُتِلْتُ فى سَبِيل الله،تُكَفَّرُ عنِّى خَطَايَایَ؟ فقال لَهُ رسولُ الله ﷺ: «نعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فى سَبيلِ الله وأَنْتَ صَابرٌ مُحْتَسبٌ، مُقْبِلٌ غيْرُ مُدبرٍ» ثُمَّ قال رسول الله ﷺ: «كيْف قُلْتَ؟» قال: أَرأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فى سَبِيل الله ، أَتُكَفَّر عنى خَطَايای؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَعمْ وأَنْت صابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيْرُ مُدبِرٍ، إِلاَّ الدَّيْن فَإِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قال لى ذِلكَ»[2].

❁ ففى هذا الحديث دليلٌ على أن المسلم إذا جاهد فى سبيل الله وكان صابرًا محتسبًا (مخلصًا) مُقبلًا غير مُدبر فنال الشهادة فإن ذلك يكفر عنه كل سيئاته وخطاياه إلا شيئًا واحدًا .. ألا وهو الدَّين ... وذلك لأن الشهادة تُكفر ما كان منك من تقصيرٍ في حقوق الله تعالى ولا تُكفر حقوق الآدميين.

وفى هذا دليل على عِظَم الدَّين وأنه لا ينبغى للإنسان أن يتساهل فيه... فلا ينبغى للإنسان أن يستدين إلا لحاجة ضرورية وليس من أجل الكماليات.. وإذا

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٧٠-١٧١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٥) كتاب الإمارة.

استدان فلا بُدَّ أن يستحضر نية أداء الدَّين.

وتعالوا بنا لنعرف كيف كان النبى ﷺ يُعلمنا الاعتدال فى حياتنا لكى نبتعد عن الدَّين.

فمما ينبغى للمسلم أن يعرفه من أحكام دينه أنه يأمره بالاعتدال فى حياته والاقتصاد فى معيشته: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

وحين طلب القرآن من المؤمنين أن يُنفقوا، لم يطلب منهم إلا إنفاق بعض ما رُزقوا ..لا كُلَّه...ومَن أنفق بعض ما يكتسب فقلَّما يَفتقر...ومن شأن هذا التوسُّط والاعتدال ألا يُحوج المسلم إلى الاستدانة، وخصوصًا أن النبى ﷺ كرهها للمسلم، فإن الدَّيْن فى نظر الرجل الحُرّ هَمٌّ بالليل ومَذَلَّةٌ بالنهار ... وكان النبى ﷺ يستعيذ بالله منه ويقول: «**اللهُمَّ إنى أعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال**»(١).

وكان يقول فى صلاته: «**اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ**»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ يَا رَسُولَ اللهِ مِنَ المَغْرَمِ؟ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»(٢).

فبيَّن ما فى الاستدانة من خطرٍ على الأخلاق نفسها..

وكان لا يُصلى على الميت إذا عرف أنه مات وعليه ديون لم يترك وفاءها، تخويفًا للناس من هذه العاقبة، حتى أفاء الله عليه من الغنائم والأنفال، فكان يقوم هو بسدادها.

وقال ﷺ: «**يُغفر للشهيد كل شىءٍ إلا الدَّيْن**»(٣).

وفى ضوء هذه التوجيهات لا يلجأ المسلم إلى الدَّيْن إلا للحاجة الشديدة،

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢١٦٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٩٧) كتاب الاستقراض، ومسلم (٥٨٩) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٦) كتاب الإمارة.

وهو حين يلجأ إليه لا تفارقه نية الوفاء أبدًا.

قال ﷺ: **«مَن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومَن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»**(١).

فإذا كان المسلم لا يلجأ إلى الدَّين المباح [أى بغير فائدة] إلا نزولًا على حُكم الضرورة وضغط الحاجة فكيف إذا كان هذا الدَّين مشروطًا بالفوائد الربوية؟!(٢)

(٢٢٣) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَن رسولَ الله ﷺ قال: «أَتَدرُون مَن الْمُفْلِسُ؟» قالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِى مَنْ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيامةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وزَكَاةٍ، ويأتِى وقَد شَتَمَ هذا، وقذَفَ هذَا، وَأَكَلَ مالَ هَذا، وسَفَكَ دَم هذَا، وَضَربَ هذا، فيُعطَى هذَا مِنْ حسَنَاتِه، وهَذا من حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حسناته قَبْلَ أَنْ يقْضِىَ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خطايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْه، ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّار»(٣).

۞ قوله ﷺ: **«أتَدرون مَن المفلس؟»** فهذا الاستفهام هنا للاستعلام الذى يُراد به الإخبار .. وذلك لأن المُستفهم تارة يستفهم عن جهلٍ ولا يدرى فيسأل غيره ليعلم .. وتارة يستفهم لتنبيه المُخاطَب لما يُلقى إليه أو لتقرير الحُكم كما حدث فى هذا الحديث.. فالنبى ﷺ يستفهم لتنبيه المخاطَب ولتقرير الحكم .. فهو ﷺ سوف يُخبر أصحابه فى هذا الحديث بأمرٍ لا يعلمونه أو لا يعلمون مُراد النبى ﷺ منه ... ولذا لما سألهم النبى ﷺ: **«أتدرون من المفلس؟»** قالوا:

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٣٨٧) كتاب الاستقراض.

(٢) الحلال والحرام / د. يوسف القرضاوى (ص ٢٣٣-٢٣٤) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.

المفلس فينا مَن لا درهم له ولا متاع.

فأراد النبي ﷺ أن يُوضح لهم مُراده فقال ﷺ: «**إن المفلس من أمتى مَن يأتى يوم القيامة بصلاة وصيامٍ وزكاةٍ**» أى أنه يأتى بحسناتٍ عظيمة كالجبال .. فهو صاحب ثروة ولكن ليست ثروة مادية وإنما ثروة من الحسنات .. وهى التى يحتاج إليها المسلم يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

ولكن هذا الرجل عنده مظالم كثيرة، ولذا قال عنه النبى ﷺ: «يأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا» .. أى أنه قد اعتدى على الناس من حوله بجميع أنواع الاعتداءات وظلمهم.. وهؤلاء الذى اعتدى عليهم وظلمهم يريدون أخذ حقوقهم التى لم يستطيعوا أن يأخذوها فى الدنيا.

فيقتص الله عَزَّ وَجَلَّ لهؤلاء المظلومين من هذا المفلس الظالم.

فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته، وهذا من حسناته بالعدل والقصاص بالْحق ... فإن فنيت حسناته أُخذ من سيئاتهم فطُرحت عليه ثم طُرح فى النار، والعياذ بالله.

هكذا تنتهى كل حسناته .. فثواب الصلاة ينتهى وثواب الزكاة ينتهى وكذلك ثواب الصيام .. وكل حسناته تنتهى بسبب تلك المظالم .. فإذا انتهت حسناته وبقى عليه مظالم كثيرة فإنه يُؤخذ من سيئات المظلومين فتُطرح عليه ثم يُطرح فى النار بسبب ضياع حسناته كلها وتراكُم الذنوب والسيئات عليه ... فهذا هو المفلس الحقيقى ... أما مفلس الدنيا فإن الدنيا لا تدوم على حالٍ .. فقد يذهب عنه الفقر ويغتنى .. وقد يكون الإنسان غنيًّا ويفتقر .. لكن الإفلاس الحقيقى هو أن يُفلس الإنسان من حسناته التى تعب من أجلها.

۞ ولنا هنا وقفات فى غاية الأهمية:

(١) أن هذا الرجل المُفلس كان له حسنات كثيرة .. والحسنات هى ثواب الأعمال الصالحة ... ولكى يحصل الإنسان على ثواب وحسنات من وراء عمله الصالح فلابد أن يكون مُخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ فى هذا العمل وأن يكون مُتبعًا لرسول الله ﷺ . فمعنى ذلك أن هذا الرجل كان مُخلصًا لله ومُتبعًا لرسول الله ﷺ ولذلك كُتبت له تلك الحسنات الكثيرة .. ولو لم يكن مخلصًا ولا متبعًا لم يكن له أى ثواب على تلك الأعمال ... والإخلاص والمتابعة يحتاجان إلى جهدٍ ومشقة واستحضار وتجديد النية الصالحة ومعرفة سُنة النبى ﷺ فى كل عملٍ من أجل اتباعه .. فبعد كل هذا التعب ضاع عمل هذا المفلس؛ لأنه كان ظالمًا لمن حوله ... وهذا يدل على خطورة المظالم وسوء عاقبتها.

(٢) أن هذا المفلس الذى فعل طاعاتٍ كثيرة وفاز بحسناتٍ كثيرة ولكنه كان قد وقع فى مظالم كثيرة.. كان من الممكن أن يحسب الله له حسناته ويحسب له سيئاته التى جناها من وراء تلك المظالم ويخصم هذه من تلك ويجعله يرى الباقى يوم القيامة .. بمعنى أنه لو كان عمل أعمالًا صالحة جنى من ورائها مليار حسنة طوال حياته ...وفى المقابل كان قد وقع فى مظالم جنى من ورائها مليار سيئة .. فكان من الممكن أن يخصم الله منه المليار سيئة مقابل المليار حسنة فتُكتب تلك الحسنات فى ميزان حسنات الذين ظلمهم هذا المفلس ثم يأتى يوم القيامة فلا يرى أى حسنة له فيظن أن الله لم يتقبل منه أى عمل صالح ... فهذه وإن كانت حسرة شديدة عليه ولكن الأشد منها أن يأتى المفلس يوم القيامة فيرى لنفسه جبالًا من الحسنات ويفرح بها فرحة شديدة ويُهيئ نفسه أنه سيدخل الجنة .. وفجأة يجد المظلومين قد أحاطوا به من كل جانب .. وكل واحدٍ منهم يأخذ من حسناته بقدر مظلمته. فيرى المفلس جبال الحسنات تتلاشى أمام عينيه حتى تنتهى فيتحسر عليها حسرة شديدة .. ثم تزداد

حسرته؛ لأن بعض المظلومين ما زالوا يحيطون به يريدون أن يأخذوا من حسناته فيقول لهم: ليس عندى حسنات .. فيأمر الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة أن تأخذ من سيئات المظلومين فتُطرح على المفلس ثم يُطرح فى النار .. فهل رأيتم حسرة أشد من هذه الحسرة؟!

۞ من أجل ذلك يا ليتنا نتقى ظلم العباد ومظالمهم .. ومَن كان ظالمًا لأحدٍ فى أى شىء فليُعطه حقه وليتحلل منه اليوم - أى فى الدنيا - قبل أن يكون مُفلسًا يوم القيامة ويعيش هذا المشهد البئيس عياذًا بالله.

(٢٢٤) وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعض، فأَقْضِى لَهُ بِنحو ما أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّار»[1].

۞ ففى هذا الحديث دليلٌ على أن الرسول ﷺ بَشرٌ مثلنا وأنه ليس مَلَكًا من الملائكة ..بل هو بشرٌ يعتريه ما يعترى البشر بمقتضى الطبيعة البشرية ... فهو ﷺ يجوع ويعطش ويأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويذكر وينسى ويتزوج كما يتزوج البشر ويفرح ويحزن ... ولذلك أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعلن ذلك أمام الملأ جميعًا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله. ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ عبدٌ من عبيد ربى، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أى: فُضلت عليكم بالوحى، الذى يوحيه الله إلىَّ، الذى أجلُّهُ الإخبار لكم، ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أى: لا شريك

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٦٩) كتاب الأحكام، ومسلم (١٧١٣) كتاب الأقضية.
«أَلْحَنَ» أىْ: أعلم.

له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذى يقربكم منه، ويُنيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه(١).

وبهذا تنقطع شُبهة الذين يتعلقون بالرسول ﷺ ويدعونه ويطلبون منه كشف الضُّرِّ وجلب الخير .. فإنه (عليه الصلاة والسلام) لا يملك ذلك بل الذى يملك ذلك هو الله فاطر السماوات والأرض .. ولذا أمر نبيه ﷺ أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ فإنى فقيرٌ مُدبَّر، لا يأتينى خير، إلا من الله، ولا يدفع عنى الشر، إلا هو، وليس لى من العلم إلا ما علمنى الله تعالى. ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أى: لفعلت الأسباب التى أعلم أنها تُنتج لى المصالح والمنافع، ولحذرتُ من كل ما يُفضى إلى سوءٍ ومكروهٍ، لعلمى بالأشياء قبل كونها، وعلمى بما تُفضى إليه.

ولكنى - لعدم علمى - قد ينالنى ما ينالنى من السوء، وقد يفوتنى ما يفوتنى، من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدلُّ دليل على أنى لا علم لى بالغيب.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ أُنذر بالعقوبات الدينية والدنيوية، والأُخروية، وأُبين الأعمال المُفضية إلى ذلك، وأُحذر منها.

﴿وَبَشِيرٞ﴾ بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه، والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذلك، ويقبله المؤمنون ... وهذه الآيات الكريمات، مُبينة جهل مَن يقصد النبى ﷺ ويدعوه لحصول نفعٍ، أو دفع ضُرٍّ.

فإنه ليس بيده شىء من الأمر، ولا ينفع مَن لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر،

---

(١) تفسير السعدى (ص ٥٦٣).

عمَّن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم، إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع مَن قَبِلَ ما أُرسل به، من البشارة والنذارة، وعمل بذلك. فهذا نفعه عليه السلام الذى فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان، بما حَثَّ العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبيَّنه لهم، غاية البيان والإيضاح(١).

❁ قال الإمام النووى رحمه الله:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ**» مَعناهُ التَّنْبِيهُ عَلَى حَالَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَأَنَّ الْبَشَرَ لا يَعلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ وَبَوَاطِنِ الْأُمُورِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ فِى أُمُورِ الْأَحْكَامِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالظَّاهِرِ وَاللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ فَيُحْكَمُ بِالْبَيِّنَةِ وَبِالْيَمِينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الظَّاهِرِ مَعَ إِمْكَانِ كَوْنِهِ فِى الْبَاطِنِ خِلَافَ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا كُلِّفَ الْحُكْمَ بِالظَّاهِرِ وَهَذَا نَحْوَ قَوْلُهُ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**» وَفِى حَدِيثِ الْمُتَلَاعِنَيْنِ: «**لَوْلَا الْأَيْمَانُ لَكَانَ لِى وَلَهَا شَأْنٌ**» وَلَوْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَأَطْلَعَهُ ﷺ عَلَى بَاطِنِ أَمْرِ الْخَصْمَيْنِ فَحَكَمَ بِيَقِينِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَهَادَةٍ أَوْ يَمِينٍ لَكِنْ لَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَالِاقْتِدَاءِ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ أَجْرَى لَهُ حُكْمَهُمْ فِى عَدَمِ الِاطِّلَاعِ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُورِ لِيَكُونَ حُكْمُ الْأُمَّةِ فِى ذَلِكَ حُكْمَهُ فَأَجْرَى اللهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ عَلَى الظَّاهِرِ الَّذِى يَسْتَوِى فِيهِ هُوَ وَغَيْرُهُ لِيَصِلَحَ الِاقْتِدَاءُ بِهِ وَتَطِيبُ نُفُوسُ الْعِبَادِ لِلِانْقِيَادِ لِلْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْبَاطِنِ وَاللهُ أَعلَمُ(٢).

❁ وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

وفى قوله: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم**» تمهيد لقوله: «**وإنكم تختصمون إلىَّ**» يعنى: فإذا كنت بشرًا مثلكم فإنى لا أعلم مَن الْمُحق منكم ومَن الْمُبطل.

---

(١) تفسير السعدى (ص ٣٤٢).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٢/ ٧-٨).

«**تختصمون إليَّ**»: يعنى تتحاكمون إليَّ فى الْخصومة، فيكون بعضكم ألْحن من البعض الآخر فى الْحجة، أي: أفصح وأقوى كلامًا ... يُقال: فلان حجيج وفلان ذو جدل، يقوى على غيره فى الْحُجة ... كما قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص:٣٢]. أى: غلبنى فى الخطاب والْمخاصمة، فهكذا هنا ألْحن يعنى أبين وأفصح وأظهر.

وهذا مُشاهَد ... فقد تجد اثنين يتحاكمان إلى القاضى، أحدهما يكون عنده لسان وعنده بيان وحجة وقوة وجدل، والثانى دون ذلك وإن كان الْحُكم معه... فيحكم القاضى للأول، ولهذا قال: «**وإنما أقضى بنحو ما أسمع**». وفى قوله: «**أقضى بنحو ما أسمع**» فُسحة كبيرة للقضاة، وأنهم لا يُكلَّفون بشىءٍ غاب عنهم، بل يقضون حسب البينات التى بين أيديهم، فإن أخطئوا فلهم أجر، وإن أصابوا فلهم أجران، ولا يُكلَّفون ما وراء ذلك، بل ولا يحل لهم أن يحكموا بخلاف الظاهر؛ لأنهم لو حكموا بخلاف الظاهر لأدى ذلك إلى الفوضى، وأدى ذلك إلى الاشتباه وإلى التهمة، ولقيل: القاضى يحكم بخلاف الظاهر لسببٍ من الأسباب.

لهذا كان الواجب على القاضى أن يحكم بالظاهر، والباطن يتولاه الله عَزَّوَجَلَّ[١].

۞ **لكن تأمل معى كيف توعَّد النبى ﷺ مَن قضى له بغير حَقٍّ** .. فقد قال ﷺ فى الرواية الأخرى: «**وَإِنَّهُ يَأْتِينِى الْخَصمُ، فَلَعَلَّ بَعضَهُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعضٍ، فَأَحسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِى لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِىَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَحمِلْهَا أَوْ يَذَرهَا**»[٢].

ففى هذا الحديث التحذير الشديد من أن يحكم الحاكم أو يقضى القاضى من غير الوثائق التى بين يديه مهما كانت الظروف .. حتى لو كان ذلك لأقرب الأقربين.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧١٣) (٥) كتاب الأقضية.

وقد يسأل سائل ويقول: هل يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه أم لا؟ فقيل: لا يجوز: لأنه قال: «**فأقضي له بنحو ما أسمع**»، ولأنه لو قضى بعلمه لأدى ذلك إلى التهمة؛ لأن العلم ليس شيئًا ظاهرًا يعرفه الناس حتى يحكم له به ...

وقال بعض العلماء: بل يحكم بعلمه، وقال آخرون: بل يتوقف إذا وصلت البينة إلى ما يخالف علمه.

والأصح أنه لا يحكم بعلمه إلا في مسائل خاصة ... ومثال ذلك إذا حكم بعلمه بمقتضى حُجة الْمتخاصمين في مجلس الحكم ... فمثلاً إذا تحاكم إليه شخصان فأقرَّ أحدهما بالحق، ثم مع الْمُداولة والأخذ والرَّد أنكر ما أقرَّ به أولاً... فهنا للقاضي أن يحكم بعلمه لأنه عَلِمَهُ في مجلس الْحُكم.

ومثالٌ آخر: إذا كان الأمر مشتهرًا، مثل أن يشتهر أن هذا الْملك وقفٌ عام للمسلمين أو يشتهر أنه ملك فلان ويشتهر ذلك بين الناس فهنا له أن يحكم بعلمه، لأن التهمة في هذه الحال منتفية، ولا يُتهم القاضي بشيء، ولا يمكن أن يتجرأ أحد للحكم بعلمه وهو خاطئ بناء على أنه أمرٌ مشهور.

والقول الصحيح في هذا هو التفصيل، وإلا فإن الواجب أن يكون القضاء على حسب الظاهر لا على حسب علم القاضي. وإذا جاء الشيء على خلاف علمه تُحوَّل الْمسألة إلى قاضٍ آخر، ويكون هو شاهد من الشهود، مثل أن يدَّعي شخص على آخر بمائة ريال فينكر الْمُدَّعَى عليه والقاضي عنده علم بثبوت الْمائة على الْمُدَّعَى عليه، فلا يحكم هنا بعلمه ولا يحكم بخلاف علمه، بل يقول: أُحولها على قاضٍ آخر، وأنا لك أيها الْمُدَّعِي شاهد ... فتُحوَّل القضية إلى قاضٍ آخر، ثم يكون القاضي هذا شاهدًا، فيحكم بيمين المدعي وشهادة القاضي[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٤).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِى هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَجَمَاهِيرِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَام وَفُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَمَنْ بَعدَهُمْ أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُحِيلُ الْبَاطِنَ وَلَا يُحِلُّ حَرَامًا فَإِذَا شَهِدَ شَاهِدَا زُورٍ لِإِنْسَانٍ بِمَالٍ فَحَكَمَ بِهِ الْحَاكِمُ لَمْ يَحِلَّ لِلْمَحْكُومِ لَهُ ذَلِكَ الْمَالُ ... وَلَوْ شَهِدَا عَلَيْهِ بِقَتْلٍ لَمْ يَحِلَّ لِلْوَلِيِّ قَتْلُهُ مَعَ عِلْمِهِ بِكَذِبِهِمَا وَإِنْ شَهِدَا بِالزُّورِ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ لَمْ يَحِلَّ لِمَنْ عَلِمَ بِكَذِبِهِمَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بَعدَ حُكْمِ الْقَاضِى بِالطَّلَاقِ[1].

***

(٢٢٥) وعَنْ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤمِنُ فى فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»[2].

۞ لقد أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث فى باب تحريم الظلم والأمر بردِّ المظالم ... أن النبى ﷺ قال: «**لا يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِى فُسْحَةٍ**» أى: فى سعة من دينه، «**مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**» يعنى: ما لم يقتل مؤمنًا أو ذميًّا أو معاهدًا أو مستأمنًا... فهذه هى الدماء الْمحرمة، وهى أربعة أصناف: دم الْمسلم، ودم الذمِّى، ودم الْمُعاهد، ودم الْمُستأمَن، وأشدها وأعظمها دم الْمؤمن، أما الكافر الحربى فهذا دمه غير حرام، فإذا أصاب الإنسان دمًا حرامًا فإنه يضيق عليه دينه، أى: أن صدره يضيق به.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

لقد بيَّن الله (جلَّ وعلا) حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٢/ ٩).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٨٦٢) كتاب الديات.

الشديدة فقال: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ أى ومَن يقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمدًا لقتله فجزاؤه جهنم مخلدًا فيها على الدوام ... وهذا محمول عند الجمهور على من استحلَّ قتل المؤمن كما قال ابن عباس لأنه باستحلال القتل يصبح كافرًا ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ أىويناله السخط الشديد من الله والطرد من رحمة الله والعذاب الشديد فى الآخرة(١).

أما إن لم يكن القاتل مُستحلًّا قتل أخيه المؤمن فإن الخلود الذى يكون فى حقه هنا فى قوله تعالى: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ يكون المقصود به هو طول المُكث فى النار .. لكنه لا يُخلَّد مُوحدٌ فى النار أبدًا فلا بد أن يخرج من النار بعد فترة وأن يدخل الجنة ما دام قد مات على الإيمان والتوحيد.

وهذه الآية تدل على أن إصابة الدم الحرام من كبائر الذنوب .. ولكن إذا تاب العبد من هذا القتل وتحلَّل من المظالم فإنه تصح توبته ..

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

۞ ولكن كيف تكون توبة مَن قتل مؤمنًا متعمدًا؟

لا بد أن نعلم أولًا أن قتل الْمؤمن عمدًا يتعلق به ثلاثة حقوق: الحق الأول: حق الله، الحق الثانى: حق الْمقتول، الحق الثالث: حق أولياء الْمقتول.

---

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٧٢).

أما حق الله فإذا تاب العبد منه تاب الله عليه، ولا شك فى هذا، وأما حق الْمقتول: فالْمقتول حقه عنده، وهو قد قُتل الآن، ولا يمكن التحلُّل منه فى الدنيا، ولكن هل توبته تقتضى أن يتحمل الله عنه حق الْمقتول فيؤديه عنه أم لَا بُدَّ من أخذه بالاقتصاص منه يوم القيامة؟

هذا محل نظر .. فمن العلماء مَن قال: إن حق الْمقتول لا يسقط بالتوبة؛ لأن من شروط التوبة رد الْمظالم إلى أهلها، والْمقتول لا يمكن رد مظلمته إليه؛ لأنه قُتل، فلا بد أن يقتص من قاتله يوم القيامة، ولكن ظاهر الآيات الكريمة التى ذكرناها فى سورة الفرقان يقتضى أن الله يتوب عليه توبة تامة، وأن الله عَزَّوَجَلَّ إذا علم من عبده صدق التوبة فإنه يتحمل عنه حق أخيه المقتول.

أما الْحق الثالث: فهو حق أولياء الْمقتول، وهذا لَا بُدَّ من التخلُّص منه؛ وذلك بأن يُسلِّم نفسه إليهم، ويقول لهم: أنا قتلت صاحبكم، فافعلوا ما شئتم، وحينئذ يُخيَّرون بين أمورٍ أربعة: إما أن يعفو عنه مجانًا، وإما أن يقتلوه قِصاصًا، وإما أن يأخذوا الدية منه، وإما أن يصالحوه مُصالَحة على أقل من الدية أو على الدية، وهذا جائز بالاتفاق(١).

۞ وهذا الحديث يدل على عِظَم قتل النفس وأنه من أكبر الكبائر.

فلقد قدَّس الإسلام الحياة البشرية، وصان حُرمة النفوس، وجعل الاعتداء عليها أكبر الجرائم عند الله، بعد الكفر به تعالى.

وقرَّر القرآن: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ذلك أن النوع الإنسانى كله أسرة واحدة... والعدوان على نفسٍ من أَنفُسه هو فى الحقيقة عدوان على النوع، وتجرؤٌ عليه.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٥).

وتشتد الحُرمة إذا كان المقتول مؤمنًا بالله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

قال ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»(١).

وقال ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤمِنُ فى فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ ما لَمْ يُصِبْ دَمًا حرامًا»(٢).

وقال ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا مَنْ مَات مُشركًا أو قتل مؤمنًا متعمدًا»(٣).

وَعَدَّ النبى ﷺ قتال المسلم بابًا من الكفر، وعملًا من أعمال أهل الجاهلية الذين كانوا يشنون الحرب ويُريقون الدماء من أجل ناقة أو فرس ...

قال ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»(٤).

وقال ﷺ: «لا ترجِعُوا بَعدِى كُفَّارًا يضْرِبُ بَعضُكُمْ رِقَابَ بَعضٍ»(٥).

ومن أجل ذلك نهى النبى ﷺ عن كل عمل يؤدى إلى القتل، أو القتال ولو كان إشارة بالسلاح فقال ﷺ: «لا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ، فَإِنَّهُ لا يَدرِى أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِى يَدِهِ فَيَقَعُ فِى حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»(٦).

وقال ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»(٧) بل قال ﷺ: «لا يحلّ لمسلم أن يُروِّع مسلمًا»(٨) أى يُخيفه ويُفزعه.

(١) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٧٧).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٨٦٢) كتاب الديات.
(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٢٤).
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٦٤) كتاب الإيمان.
(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١٢١) كتاب العلم، ومسلم (٦٥) كتاب الإيمان.
(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٧٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٦١٧) كتاب البر والصلة.
(٧) صحيح: رواه مسلم (٢٦١٦) كتاب البر والصلة والآداب.
(٨) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٥٨).

ولا يقف الإثم عند حَدِّ القاتل وحده، بل كل مَن شاركه بقولٍ أو فعلٍ، يصيبه من سخط الله بقدر مشاركته .. حتى مَن حضر القتل يناله نصيبه من الإثم.

حرمة دم المعاهد والذمي:

وإنما عنيت النصوص بالتحذير من قتل المسلم وقتاله؛ لأنها جاءت تشريعًا وإرشادًا للمسلمين فى مجتمع إسلامى، وليس معنى هذا أن غير المسلم دمه حلال، فإن النفس البشرية معصومة الدم حرَّمها الله وصانها بحكم بشريتها، ما لم يكن غير المسلم محاربًا للمسلمين .. فعند ذلك قد أَحلَّ هو دمه. أما إذا كان معاهدًا أو ذميًّا فإن دمه مصون لا يحل لمسلم الاعتداء عليه .. وفى ذلك يقول نبى الإسلام ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحِ رَائِحَةَ الجَنَّةِ** -أى لم يشمها-، **وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[1].

متى تسقط حرمة الدم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]

وهذا الحق الذى ذكره القرآن أن يكون جزاءً على جريمة من ثلاث:

(١) القتل ظلمًا ... فمن ثبتت عليه جريمة القتل وجب عليه القصاص نفسًا بنفس، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(٢) المجاهرة بارتكاب فاحشة الزنا بحيث يراه أربعة من خيار الناس رؤية عيانية وهو يرتكبها، ويشهدون عليه بذلك، بشرط أن يكون قد عَرف طريق الحلال بالزواج ... ويقوم مقام الشهادة أن يُقر على نفسه أمام الحاكم أربع مرات.

(٣) الخروج على دين الإسلام بعد الدخول فيه، والمجاهرة بهذا الخروج تحدِّيًا للجماعة الإسلامية ... والإسلام لا يُكره أحدًا على الدخول فيه، ولكنه

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣١٦٦) كتاب الجزية.

يرفض التلاعب بالدين، شأن اليهود الذين قالوا: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقد حصر النبى ﷺ استباحة الدم المحرم فى هذه الثلاثة فقال: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِى، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(١).

ولكن حق استباحة الدم بإحدى هذه الثلاث إنما يستوفيه ولى الأمر وليس للأفراد أن يستوفوه بأنفسهم حتى لايضطرب الأمن، وتَسود الفوضى ويجعل كل فرد من نفسه قاضيًا ومُنفذًا، إلا فى حالة القتل العمد العدوان الذى يُوجب القصاص فإن الإسلام أباح لأولياء المقتول أن يستوفوا القصاص بأيديهم فى حضرة ولى الأمر: شفاءً لصدورهم، وإطفاءً لكلِّ رغبة فى الثأر عندهم، وامتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣](٢).

(٢٢٦) وعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ عامرٍ الأَنْصارِيَّة، وَهى امْرَأَةُ حمْزَةَ رضي الله عنها، قالت: سِمعتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ رِجَالاً يَتَخوَّضُونَ فى مالِ الله بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيامِة»(٣).

۞ قوله ﷺ: «**إن رجالاً يتخوضون فى مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة**» هذا أيضًا مما يدل على تحريم الظلم فى الأموال الذى هو خلاف العدل.

وفى قوله: «**يتخوضون**»: دليل على أنهم يتصرفون تصرُّفًا طائشًا غير مبنى على أصولٍ شرعية، فيُفسدون الأموال ببذلها فيما يضر ... مثل مَن يبذل أمواله

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧٨) كتاب الديات، ومسلم (١٦٧٦) كتاب القسامة.

(٢) الحلال والحرام / د. يوسف القرضاوى (٢٨١-٢٨٤) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣١١٨) كتاب فرض الخمس.

في الدخان، أو في المخدرات، أو في شرب الخمور أو ما أشبه ذلك، وكذلك أيضًا يتخوضون فيها بالسرقات والغصب وما أشبه ذلك، وكذلك يتخوضون فيها بالدعاوى الباطلة، كأن يدَّعى ما ليس له وهو كاذب وما أشبه هذا.

فالمهم أن كل مَن يتصرف تصرُّفًا غير شرعى في المال - سواء ماله أو مال غيره - فإن له النار والعياذ بالله يوم القيامة إلا أن يتوب، فيرد المظالم إلى أهلها، ويتوب مما يبذل ماله فيه من الحرام؛ كالدخان والخمر وما أشبه ذلك، فإن مَن تاب تاب الله عليه ... لقول الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الزمر: ٥٣- ٥٩].

وفي هذا الحديث: تحذير من بذل المال في غير ما ينفع والتخوُّض فيه؛ لأن المال جعله الله قيامًا للناس تقوم به مصالح دينهم ودُنياهم، فإذا بذله في غير مصلحة كان من المتخوضين في مال الله بغير حق(١).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٦-٥٧٧) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢٧) باب تعظيم حُرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

۞ لَا بُدَّ أن نعلم أن المسلم له على أخيه المسلم حقوقٌ كثيرة وضَّحها النبى ﷺ فى مواضع كثيرة من السُّنة.

فالمسلم له حق على أخيه فى الإعانة بالمال والإعانة بالنفس فى قضاء الحاجات والدفاع عنه فى غيبته والعفو عن الزلات والهفوات وزيارته فى الله والدعاء له فى حياته وبعد مماته وحفظ سره وأن يحب له ما يُحب لنفسه وأن يُشاركه فى أحزانه وأفراحه وأن يهدى له ويقبل منه هديته وأن يُسلِّم عليه وأن يُراعى مشاعره وأن يُؤْثِره على نفسه وأن يَخلُفه بخيرٍ فى أهله وأن يَعوده - أى يزوره- إذا مرض وأن يتبع جنازته إذا تُوفى وألا ينساه من دعائه واستغفاره .. إلى غير ذلك من الحقوق.

ونحن فى هذا الباب نتحدث عن تعظيم حُرمات المسلمين وبيان بعض حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم.

۞ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠]. مَن يُعظم حرماته: أى ما جعله محترمًا من الأماكن أو الأزمان أو الأشخاص... فالذى يُعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه، ومَن كان يكره أو يَشُق عليه تعظيم هذا المكان كالحرمين مثلاً والمساجد، أو الزمان كالأشهر الحُرُم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وما أشبه ذلك، فليحمل على نفسه وليُكرهها على التعظيم.

ومن ذلك: تعظيم إخوانه المسلمين، وتَنْزِيلهم مَنْزِلَتهم، فإن المسلم لا يحل له أنْ يَحقر أخاه المسلم ... قال النبى (عليه الصلاة والسلام): «**بحسب امرئ من الشر**

أن يحقر أخاه المسلم»(١). والمعنى: يكفيه من الشر أن يحقر أخاه المسلم بقلبه، أو أن يعتدى فوق ذلك بلسانه أو بيده على أخيه المسلم، فإن ذلك حَسبُه من الإثم والعياذ بالله... وكذلك أيضًا تعظيم ما حرمه الله عَزَّوَجَلَّ فى المعاهدات التى تكون بين المسلمين وبين الكفار، فإنه لايحل لأحدٍ أن ينقض عهدًا بينه وبين غيره من الكفار.

❁ ولكن المعاهدين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم: أتموا عهدهم فهؤلاء نُتمم عهدهم.

وقسم آخر: خانوا أو نقضوا ... قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

فهؤلاء يُنتقض عهدهم كما فعلت قريش فى الصلح الذى جرى بينها وبين النبى ﷺ فى الحديبية، فإنهم وضعوا الحرب بينهم عشر سنين، ولكن قريشًا نقضوا العهد ... فهؤلاء ينتقض عهدهم، ولا يكون بيننا وبينهم عهد، وهؤلاء قال الله فيهم: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ ﴾ [التوبة: ١٣].

والقسم الثالث: مَن لم ينقض العهد لكن نخاف منه أن ينقض العهد، فهؤلاء نُخبرهم بألا عهد بيننا وبينهم ... كما قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[الأنفال: ٥٨].

فهذه من حرمات الله عَزَّوَجَلَّ، وكل شيء جعله الله محترمًا من زمانٍ أو مكانٍ أو عيانٍ فهو من حرمات الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الواجب على المسلم أن يحترمه.

ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠](٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٨).

۞ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

والشعائر: هى العبادات الظاهرة .. سواء كانت تلك العبادات صغيرة أو كبيرة .. مثل الأذان والصلاة وأعمال الحج كالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة وغيرها من شعائر الإسلام..

فمن عظَّم تلك الشعائر كان ذلك دليلًا على أنه من المتقين ؛ لأن التقوى هى التى تحمل العبد على تعظيم الشعائر.

قال القرطبى: أضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى فى القلب وفى الحديث: «**التقوى ههنا**» وأشار إلى صدره[(١)].

۞ وقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

والمعنى أن يتذلل المؤمن لإخوانه ويتواضع لهم ويلين لهم فى المقال والأفعال؛ لأن المؤمن لَا بُدَّ أن يكون رحيمًا بإخوانه المؤمنين .. كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفى قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، دليلٌ على أن المؤمن مأمورٌ بالتواضع مع إخوانه المؤمنين حتى وإن كان أغنى منهم أو أرفع منهم منزلة ومقامًا ... وأنه إن تواضع لله فإن الله يرفع قدره ومكانته عنده (سبحانه وتعالى) وعند عباده المؤمنين.

إن نعمة التواضع من أجلِّ وأعظم النعم التى يمتن الله بها على عباده... ولقد كان نصيب النبى ﷺ من هذا الخُلق هو النصيب الأعظم ... فلقد كان الحبيب ﷺ سيد المتواضعين حتى إنه لما أراد أن يخبر الأمة عن قدره ومكانته عند الله عَزَّوَجَلَّ قال بعدها: «**ولا فخرَ**» وهذا من فرط تواضعه ﷺ حتى لا يظن أحدٌ أن النبى ﷺ يقول ذلك تفاخرًا ... قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**

---

(١) القرطبى (١٢/ ٥٦).

وبيدى لواء الحمد ولا فخر وما من نبى يومئذٍ: آدم فمن سواه إلا تحت لوائى وأنا أول شافعٍ وأول مُشفَّع ولا فخر»(١).

فالتواضع: صفة من صفات عباد الرحمن ... قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ذكر أنَّ صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أى: ساكنين متواضعين لله وللخلق... فهذا وصفٌ لهم بالوقار والسكينة، والتواضع لله ولعباده»(٢).

ووصف الله عباده الذين هداهم للإيمان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهم للمؤمنين أذلة، من محبتهم لهم، ونُصحهم لهم، ولينهم، ورفقهم، ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذى يُطلَب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله أعزة قد اجتمعت هممهم وعزائمهم، على معاداتهم، وبذلوا جهدهم فى كل سببٍ يَحصُل به الانتصار عليهم(٣).

قال ابن الحاج يرحمه الله: «مَن أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى؛ فإن العزة لا تقع إلا بقدر النزول، ألا ترى أن الماء لما نزل إلى أصل الشجرة، صعد إلى أعلاها، فكأن سائلًا سأله: ما صعد بك هنا - أعنى فى رأس الشجرة، وأنت تحت أصلها-؟!، فكأن لسان حاله يقول: مَن تواضع لله رفعه»(٤).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٤٦٨).

(٢) «تفسير ابن سعدى» (ص ٥٨٦).

(٣) «تفسير ابن سعدى» (ص ٢٤٨).

(٤) «المدخل» لابن الحاج (٢/ ١٢٢).

۞ وقال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى من أجل حادثة «قابيل وهابيل» وبسبب قتله لأخيه ظُلماً فرضنا وحكمنا على بنى إسرائيل أن مَن قتل منهم نفساً ظلماً بغير أن يقتل نفساً فيستحق القصاص وبغير فسادٍ يوجب إهدار الدم كالرِّدَّة وقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أى فكأنه قتل جميع الناس ...

قال البيضاوى: من حيث أنه هتك حُرمة الدماء وسَنَّ القتل وجَرَّأ الناس عليه... والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها فى القلوب ترهيباً عن التعرُّض لها وترغيباً فى المحاماة عليها(١) ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أى ومن تسبَّب لبقاء حياتها واستنقذها من الهَلَكة فكأنه أحيا جميع الناس ... قال ابن عباس فى تفسير الآية: من قتل نفساً واحدةً حرّمها الله فهو مثلُ مَن قتل الناس جميعاً ومَن امتنع عن قتل نفسٍ حرمها الله وصان حُرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس جميعاً(٢).

وذلك لأن حُرمة المسلمين واحدة .. فمن انتهك حُرمة مسلمٍ واحدٍ فكأنما انتهك حُرمة المسلمين أجمعين..

كما أن مَن كذَّب رسولًا واحدًا فكأنما كذب جميع الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، مع أن قوم عادٍ لم يُكذبوا إلا نبى الله هود عليه السلام ...ولكنهم لما كذبوا نبيًّا واحدًا فكأنهم كذبوا جميع الأنبياء والمُرسلين.

---

(١) البيضاوى (١٥١).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٩).

۞ أما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يُستفاد منه أن مَن قتل نفسًا بنفسٍ فهو معذور.. وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].. فإن قتل شخصًا بحقٍّ أى بنفس أخرى فلا إثم عليه ولا لوم.. بل ويرث القاتل من المقتول إذا كان قتله بحقٍّ.. ولا يرث القاتل من المقتول إذا كان قتله بغير حقٍّ.

ولنضرب لهذا مثلاً بثلاثة إخوة .. قتل الكبير منهم الصغير عمدًا فالذى يرث الصغير أخوه الأوسط، وأخوه الكبير لا يرثه لأنه قتله بغير حق.

ثم طالب الأوسط بدم أخيه الصغير، فقتل أخاه الكبير قصاصًا، فهل يرث الأوسط من أخيه الكبير وهو قاتله؟ نعم يرث لأنه قتله بحق .. والكبير الذى قتل الصغير لا يرث؛ لأنه قتله بغير حق.

فالقتل بحقٍّ لا لوم فيه وليس له أثر؛ لأنه قصاص .. والله تعالى يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والفساد فى الأرض ليس معناه أن يُسلط الإنسان الحفَّار فيهدم بيتًا ولو كان ذلك بغير حق. فهذا وإن كان فسادًا، لكن لا يحل به دم مسلم .... الفساد فى الأرض إنما يكون بنشر الأفكار السيئة، أو العقائد الخبيثة، أو قطع الطريق، أو ترويج المخدرات أو ما أشبه ذلك، هذا هو الفساد فى الأرض .. فمن أفسد فى الأرض على هذا الوجه فدمه هدر حلال، يُقتل لأنه ساعٍ فى الأرض بالفساد.

بل إن الله قال فى نفس السورة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

على حسب جريمتهم .. إن كانت كبيرة فبالقتل، وإن كانت دونها فبالصلب، وإن كانت دونها فتُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

تُقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، وإن كان دون ذلك فيُنفَوا من الأرض، إما بالحبس مدى الحياة كما قال بذلك بعض أهل العلم، وإما بالطرد عن المدن كما قاله آخرون ... لكن إذا كان لا يندفع شرهم بطردهم من المدن حُبسوا إلى الموت.

فالحاصل أن الله بيَّن فى هذه الآية أن قتل نفسٍ واحدة بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض كقتل جميع الناس... وإحياء نفسٍ واحدة كإحياء جميع الناس ... وهذا يدل على عِظَم القتل، ولو أن إنسانًا أحصى كم قُتل من بنى آدم بغير حق لم يقدر.. ومع ذلك فكل نفس تُقتَل فعلى ابن آدم الأول الذى قتل أخاه كِفْلٌ منها، وعليه من إثمه نصيب.

وهكذا أيضًا مَن سَنَّ القتل بعد أمن الناس وصار يغتال الناس وما أشبه ذلك... وتجرأ الناس على هذا من أجل فعله، فإن عليه من الإثم نصيبًا؛ لأنه هو الذى كان سببًا فى هذا ... ومَن سَنَّ سُنة سيئة فعليه وزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم الدين[١].

۞ فمن ذريةِ آدم مَنْ يقتدى بابن آدم الطيبِ الخَيِّر، فيكونُ مُتَّبعًا للحق، متَّصلًا بالله، بعيدًا عن الظلمِ والعدوان .. وهؤلاء موجودون على وجهِ الأرض، فى كل زمانٍ ومكان.

ومن ذرية آدم مَنْ يقتدى بابن آدم القاتل، فيبْغِى ويعتَدِى، ويظلم ويؤذى، ويتبعُ الشيطان...وهؤلاء كثيرون موجودون على وجه الأرض، فى كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٨١-٥٨٢).

وقد دعانا رسولُ الله ﷺ إلى أن نقتدىَ بابن آدم الطيب .

عَنْ سَعدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ فِتْنَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ خَيرٌ مِنَ المَاشِى، وَالمَاشِى خَيرٌ مِنَ السَّاعِى**».

قَالَ: أَفَرَأَيتَ إِنْ دَخَلَ عَلَىَّ بَيتِى وَبَسَطَ يدَهُ إِلَىَّ لِيقْتُلَنِى؟

قَالَ: «**كُنْ كَابْنِ آدَمَ**»(١) .

وبيَّنَ لنا رسولُ الله ﷺ ، أنَّ ابنَ آدم القاتل يتحمَّلُ جزءًا من دمِ كلِّ إنسانٍ يُقْتَلُ ظلمًا، حتى قيامِ الساعة.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ**»(٢)(٣) .

(٢٢٧) وَعَنْ أَبِى موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشدُّ بعضُهُ بَعضًا**»(٤) وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِه.

۞ إن الاجتماع والأُلفة بين المؤمنين قوة، وإن التفرُّق والتشتُّت ضعف، فإن الإنسان قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه.

وما المرءُ إلا بإخوانه ... كما تقبض الكفُ بالمِعصَمِ

ولا خير فى اليد مقطوعة ... ولا خير فى الساعد الأجذمِ

يقول عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «ما أُعطى عبدٌ بعد الإسلام خير من أخٍ صالح يُذكره بالله، فإذا رأى أحدكم من أخيه وُدًّا فليتمسك به».

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٢٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٦٧) كتاب الديات، ومسلم (١٦٧٧) كتاب القسامة.

(٣) القصص القرآنى / د. صالح الخالدى (١/ ١٤٧-١٤٨).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٦) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٥) كتاب البر والصلة .

ويقول الحسن - عليه رحمة الله -: «إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكرونا بالدنيا، وإخواننا يذكرونا بالآخرة، ويعيننا على الشدائد فى العاجلة».

إن يختلف نَسَبٌ يؤلف بيننا ... دينٌ أقمناه مقام الوالدِ

أو يختلف ماءُ الوصال فماؤنا ... عذبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ

يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لولا أن أجلس مع إخوة لى ينتقون أطايب القول، كما يُنتقى أطايب الثمر لأحببت أن ألحق بالله الآن».

۞ وها هى جماعة من النمل، تُصادف بعيرًا فيقول بعضها: تفرَّقن عنه لا يحطمكن بخُفه، فقالت حكيمة منهن: اجتمعن عليه تقتلنه.

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسُّرًا ... وإذا انفردن تكسرت آحادًا

بنيانٌ واحد... جسدٌ واحد... أمة واحدة.

لو كبرَّت فى جموع الصين مئذنة ... سمعت فى الغرب تهليل المصلينَ

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] (١).

قال علىٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عليكم بالإخوان فإنهم عُدة فى الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: والله لو صُمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالى غَلَقًا غَلَقًا فى سبيل الله ثم أموت يوم أموت وليس فى قلبى حُبٌّ لأهل طاعة الله وبُغضٌ لأهل معصية الله ما نفعنى ذلك شيئًا...

(١) هكذا علمتنى الحياة/ د. على القرنى (ص ٦٧، ٦٨).

وقال ابن السماك عند موته: اللهم إنك تعلم أنى إذا كنت أعصيك كنت أحب مَن يُطيعك فاجعل ذلك قربة لى إليك.

وقال عمر رضي الله عنه: إذا أصاب أحدكم ودًّا من أخيه فليتمسك به فقلَّما يصيب ذلك.

وقال مجاهد: المتحابون فى الله إذا التقوا فكشر -أى: ضحك- بعضهم إلى بعض تتحاتّ - أى: تتساقط- عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس... وقال الفضيل: نظرُ الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة[1].

۞ **وقفة لطيفة:**

۞ لقد عبَّر القرآن أصدق التعبير عن الأخ فى الله ونعته بالنفس وليس بعد القرآن وعُلو بيانه وعُلو رياضه عُلو.

۞ قال الله تعالى في توبة بني إسرائيل: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] أى: إخوانكم.

۞ وقال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أى: إخوانكم.

۞ وقال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[النور:١٢] أى: بإخوانهم خيرًا.

۞ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أى: إخوانكم.

فجعل الأخ بمنزلة النفس.

۞ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥].

أى: يقتل بعضُكم بعضَكم.

(١) الإحياء / للإمام الغزالى (٢/ ٢٢٨) بتصرف.

۞ وقال تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]

قال ابن عرفة: «أي بأهل الإيمان وأهل شريعتهم»(١).

۞ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾

[النور: ٦١]

قال سعيدُ بن جبير والحسن البصرى وقتادة والزهرى: يعنى: «فيُسلِّم بعضُكم على بعض»(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال الله تعالى: «إن توبتَهم أن يقتلَ كلُّ رجلٍ منهم كلَّ مَن لقى - من ولدٍ ووالد -، فيقتله بالسيف»(٣).

وقال ابن كثير: وذلك أن أهلَ الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال ﷺ: **«مَثلُ المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحُمهم كَمَثلِ الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تَداعَى له سائر الجسد بالحُمى والسهر»**(٤).

وقال السعدى الشيرازى:

قال لى المحبوبُ لما زُرته مَن ببابى؟ قلتُ بالباب أنا
قال لى: أخطأت تعريف الهوى حينما فرَّقت فيه بيننا

---

(١) «بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز» للفيروزأبادى (٥/ ٩٨) طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٢٧٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٣٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب.

ومضى عامٌ فلما جئتُه أَطرُقُ الباب عليه مُوهنَا
قال لي؟ مَن أنتَ؟ قلت انظر فما ثَمَّ إلا أنت بالباب هنا
قال لي: أحسنت تعريف الهوى وعرفت الحب فادخل يا أنا[(١)]

(٢٢٨) وَعَنْ أَبِي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجدنَا، أَوْ أَسْوَاقِنَا، ومَعَه نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نِصالِهَا بِكفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ»[(٢)].

۞ لَا بُدَّ أن نعلم أولًا أن من فنون اللهو المشروعة اللعب بالسهام والحراب.

وكان النبي ﷺ يمر على أصحابه في حلقات الرمي [التصويب] فيشجعهم ويقول: «ارموا وأنا معكم».

ويرى عليه الصلاة والسلام أن هذا الرمي ليس هواية أو لهوًا فحسب، بل هو نوع من القوة التي أمر الله بإعدادها ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال عليه الصلاة والسلام في ذلك: «إلا إن القوة الرمي، إلا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[(٣)].

غير أنه ﷺ حذَّر اللاعبين من أن يتخذوا من الدواجن ونحوها غرضًا لتصويبهم وتدريبهم ... وكان ذلك مما اعتاده بعض العرب في الجاهلية.

وقد رأى عبد الله بن عمر جماعة يفعلون ذلك. فقال: «إن النبي ﷺ لعن مَن

(١) من أشعار الشاعر «السعدي الشيرازي».
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٧٥) كتاب الفتن، ومسلم (٢٦١٥) كتاب البر والصلة.
(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩١٧) كتاب الإمارة.

اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا»(١).

وإنما لعن مَن فعل ذلك، لما فيه من تعذيبٍ للحيوان وإتلافِ نفسه فضلًا عن إضاعة المال ... ولا ينبغى أن يكون لهو الإنسان ولعبه على حساب غيره من الكائنات الحية.

ومن أجل ذلك نهى النبى ﷺ عن التحريش بين البهائم(٢) وذلك بتسليط بعضها على بعض ... وكان من العرب مَن يأتون بكبشين أو ثورين يتناطحان حتى يَهلكا أو يُقاربا الهلاك، وهم يتفرجون ويضحكون.

قال العلماء: وجه النهى عن التحريش أنه إيلامٌ للحيوانات، وإتعابٌ لها، دون فائدة إلا لمجرد العبث(٣).

❁ وكذلك نهى النبى ﷺ مَن مَرَّ فى المسجد أو السوق ومعه نبلٌ (أى: سهم) أن يتركه دون أن يُمسك على نصاله ؛ لأن ذلك قد يؤذى المسلمين .. فإذا أمسك الإنسان بنصاله وقى الناس شرَّه.

ومثل ذلك أيضًا: العصىّ ... إذا كان معك عصًا فأمسكها طولاً، يعنى اجعل رأسها إلى السماء ولا تجعلها عرضًا؛ لأنك إذا جعلتها عرضًا آذيت الناس الذين وراءك، وربما تؤذى الذين أمامك.

ومثله: الشمسية أيضًا؛ إذا كان معك شمسية وأنت فى السوق فارفعها، لئلا تؤذى الناس.

فكل شىء يؤذى المسلمين أو يُخشَى من أذيته فإنه يتجنبه الإنسان؛ لأن أذية المسلمين ليست بالهينة...قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

(١) متفق عليه: رواه البخاري(٥٥١٥)كتاب الذبائح والصيد، ومسلم(١٩٥٨)كتاب الصيد والذبائح.
(٢) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٠٣٦).
(٣) الحلال والحرام (ص ٢٥٦-٢٥٧) بتصرف.

۞ ولهذا نهى النبى ﷺ عن مجرد الإشارة إلى أخيك المسلم بسلاحٍ ولو كنت مازحًا سدًّا للذرائع وحسمًا لمادة الشر التى قد تُفضى إلى القتل.

قال ﷺ: «**لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدرِى أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِى يَدِهِ فَيَقَعُ فِى حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ**»(١).

وقال ﷺ: «**مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ**»(٢).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ تَأْكِيدُ حُرْمَةِ الْمُسْلِمِ وَالنَّهْيُ الشَّدِيدُ عَنْ تَرْوِيعِهِ وَتَخْوِيفِهِ وَالتَّعَرُّضِ لَهُ بِمَا قَد يُؤْذِيهِ ... وَقَوْلُهُ ﷺ: «**وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ**» مُبَالَغَةٌ فِى إِيضَاحِ عُمُومِ النَّهْيِ فِى كُلِّ أَحَدٍ سَوَاءٌ مَنْ يُتَّهَمُ فِيهِ وَمَنْ لَا يُتَّهَمُ ... وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا هَزْلًا وَلَعِبًا أَمْ لَا ... لِأَنَّ تَرْوِيعَ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ بِكُلِّ حَالٍ وَلِأَنَّهُ قَد يَسْبِقُهُ السِّلَاحُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى ... وَلَعنُ الْمَلَائِكَةِ لَهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَرَامٌ(٣).

* * *

(٢٢٩) وعَنْ النُّعمَان بنِ بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مثَلُ الْمُؤْمِنينَ فى تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعَى لهُ سائِرُ الْجَسَدِ بالسَّهرِ والْحُمَّى**»(٤).

۞ الحب هو روح الوجود، وإكسير القلوب، وصمام الأمن لبنى الإنسان.

إذا كان قانون الجاذبية يُمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٧٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٦١٧) كتاب البر والصلة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦١٦) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٥٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب.

فتساقط أو تحترق وتزول، فقانون الحب هو الذى يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتحترق وتستحيل إلى دماء.

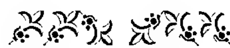
هذا هو الحب الذى عرف الناس قيمته فى القديم والحديث، وقالوا: لو ساد الحب ما احتاج الناس إلى العدل ولا إلى القانون.

۞ وقديمًا قال شاعرٌ كبير:

«إن الحب يُحول المُرَّ حُلوًا والتراب تِبرًا، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذى يُلين الحديد، ويُذيب الحجر».

«إن هذا الحب هو الجناح الذى يطير به الإنسان المادى الثقيل فى الأجواء ويصل من الأرض إلى السماء ومن الثرى إلى الثريا»[1].

فما أجمل أن يكون المؤمنون بالود الذى بينهم والرحمة التى تجمعهم والتعاطف الذى يزينهم كأنهم جسدٌ واحد ... إذا مرض أحدهم يشعر أخوه بالوجع وكأنه فى جسده .. فهل هناك أحدٌ يستطيع أن يُعبر عن هذا الوصف الرقيق مهما أُوتى من الفصاحة وقوة البلاغة . فأخوك لَا بُدَّ أن يشعر أنه نفسك التى بين جنبيك؛ لأن ذلك يجمع قلوب المسلمين على الحب فى الله ويجمع صفوف الأمة متماسكة وينشر رحيق الحب بين أفرادها.



(٢٣٠) وعَنْ أَبِى هُرِيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَبَّل النَّبِىُّ ﷺ الْحسنَ بن علىٍّ رضي الله عنهما، وعَنْدَهُ الأَقْرعُ ابْنُ حَابِسٍ، فقال الأَقْرَعُ: إِنَّ لِى عَشَرةً مِنَ الْوَلَدِ ما قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحدًا .. فَنظَر إِلَيْهِ رسولُ الله ﷺ فقال: «مَن لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»[2].

---

(١) الإيمان والحياة (ص ١٦٧ - ١٦٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٩٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١٨) كتاب الفضائل.

(٢٣١) وعَنْ عائشةَ رضي الله عنها قالت: قَدِمَ نَاسٌ مِن الأَعرابِ عَلَى رسول الله ﷺ فقالوا: أَتُقبِّلونَ صِبْيانَكُمْ؟ فقال: «نَعَمْ» قالوا: لَكنَّا والله ما نُقَبِّلُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ الله نَزعَ مِنْ قُلُوبِكُمْ الرَّحمَةَ»[1].

۞ ففى الحديث الأول يذكر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان جالسًا مع الأقرع بن حابس فى بيت النبى ﷺ .. وفجأة دخل الحسن بن على رضي الله عنهما ففرح النبى ﷺ لرؤيته كثيرًا فأخذه وقبَّله ... فتعجب الأقرع بن حابس وكان من زعماء بنى تميم وهم من أهل البادية .. والغالب على أهل البادية أنهم يكون فيهم جفاء.

فلما رأى النبى ﷺ يُقبِّل الحسن بن على رضي الله عنهما تعجَّب وقال للنبى ﷺ إن لى عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدًا .. فتعجب النبى ﷺ من قسوة قلب هذا الرجل فنظر إليه وقال له: «مَن لا يَرحم لا يُرحم».

أى: مَن لا يرحم عباده بل وجميع الكائنات لا يرحمه رب الأرض والسماوات (جلَّ وعلا).

وفي الرواية الثانية تحكى أُمنا عائشة رضي الله عنها أنه قَدِمَ نَاسٌ مِن الأَعرابِ عَلَى رسول الله ﷺ فقالوا: أَتُقبِّلونَ صِبْيانَكُمْ؟ فقال: «نَعَمْ» قالوا: لَكنَّا والله ما نُقَبِّلُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ الله نَزعَ مِنْ قُلُوبِكُمْ الرَّحمَةَ».

۞ ولا بد أن نعلم هنا أن الرحمة صفة من صفات الله تبارك وتعالى، ومن عظيم رحمته سبحانه وتعالى أنه أرسل محمدًا ﷺ رحمةً للبشريَّة كلها؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ... وهو ما أخبر به تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولقد شملت رحمته ﷺ الكبار والصغار، والرجال والنساء، والقريب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٩٨) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١٧) كتاب الفضائل.

والبعيد، بل الصديق والعدوَّ، كما أنها كذلك ليست محدودة بمكانٍ أو زمان، وإنما هى لكل العالمين منذ بعثته ﷺ إلى يوم الدين ... لذلك نجده ﷺ يُعَلِّم أُمَّته خُلُق الرحمة قائلًا: «**إِنَّما يرحم اللهُ مِن عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»(١).

فالرحمة التى ظهرت فى كل أقوال وأعمال رسول الله ﷺ لم تكن رحمة مُتكلَّفة، تَحْدُثُ فى بعض المواقف من قبيل التجمُّل أو الاصطناعَ، إنما كانت رحمة طبيعيَّة تلقائيَّة مُشاهَدة فى كل الأحوال، برغم اختلاف الظروف وتعدُّد المناسبات... حتى إن هذه الرحمة غلبت على كل أخلاقه فصارت أبرزها، وليس هذا عجيبًا؛ فإن المتدبِّرَ فى القرآن الكريم يجد أن أبزر الصفات الأخلاقية التى وردت فيه كان خُلق الرحمة.

فلننظر إلى رحمته بكبار السنِّ والأطفال ... فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ليس منا مَن لم يرحم صغيرنا، ويُوقر كبيرنا**»(٢). فما أعظم هذا المجتمع الذى ربَّاه النبى ﷺ ليتراحم الجميع فيما بينهم امتثالًا لأقواله ﷺ!

- ولقد رأينا كيف كانت رحمته ﷺ بالحسن بن على رضي الله عنهما والحسن ابن علىّ بن أبى طالب هو ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ... فجده من أمه رسول الله ﷺ، وأبوه على بن أبى طالب ابن عم النبى ﷺ... وكان النبى ﷺ يحب الحسن والحسين لأنهما سِبْطاه، وكان يُفضل الحسن على الحسين.

فالحسن قال فيه النبى ﷺ: «**إن ابنى هذا سيد، ولعلّ الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين**»(٣) فكان الأمر كما قال النبى ﷺ، لما حصلت الفتنة فى زمن معاوية، وآلت الخلافة إلى الحسن بعد أبيه على بن أبى طالب رضي الله عنه تنازل عنها رضي الله عنه لمعاوية بن أبى سفيان حقنًا لدماء المسلمين؛ لأنه يعلم أن فى الناس أشرار،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٤٥).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٧٠٤) كتاب الصلح.

وأنهم ربما يأتون إليه ويغرونه كما فعلوا بأخيه الحسين بن على رضي الله عنهم ... غرَّه أهل العراق وحصل ما حصل من المقتلة العظيمة فى كربلاء وقُتل الحسين رضي الله عنه.

أما الحسن رضي الله عنه فإنه تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان، لحقن دماء المسلمين فصار ذلك مصداقًا لقول النبى ﷺ: «**ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين**».

۞ فالشاهد أن النبى ﷺ كان رحيمًا بكل الأطفال وليس بالحسن فقط وكان النبى ﷺ يومًا من الأيام ساجدًا، فجاءه الحسن أو الحسين فركب عليه... أى جعله راحلة، فأطال النبى ﷺ السجود .. فلما سلَّم قال: «**إن ابنى ارتحلنى وإنى كرهت أن أقوم حتى يقضى نهمته**»(١).

وكان ﷺ يخطب الناس يومًا على المنبر، فأقبل الحسن والحسين وعليهما ثوبان جديدان يعثران بهما، فنَزَل النبى ﷺ وحملهما بين يديه، وقال: «صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥]. **نظرت إلى هذين الصبيّين يعثران فلم أصبر**»(٢) يعنى فما طابت نفسه حتى نزل وحملهما(٣).

۞ **وروى البخارى عن أسامة بن زيد** رضي الله عنهما **قال**: كان رسول الله ﷺ يأخذنى فيُقعدنى على فخذه ويُقعد الحسن بن على على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: «**اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما**»(٤).

۞ **وفى الصحيحين عن أبى قتادة** رضي الله عنه **قال**: (خرج علينا النبى ﷺ وأُمامة بنت أبى العاص على عاتقه فصلى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها)(٥).

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٠٧٦)، وصححه الألبانى فى صفة الصلاة (ص ١٤٨)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٠١٦).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٨٤-٥٨٥) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٠٠٣) كتاب الأدب.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٦) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٤٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

۞ وروى البخارى عن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ وضع صبيًّا فى حجره يُحنكه، فبال عليه، فدعا بماءٍ فأتبعه[١].

۞ وروى البخارى عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقًا، وكان لى أخٌ يُقال له أبو عُمير قال: أحسبه كان فطيمًا[٢] قال:

فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه قال: «**يا أبا عُمير، ما فعل النُّغير؟**»[٣] نُغر كان يلعب به... فربما حضر الصلاة وهو فى بيتنا، فيأمر بالبساط الذى تحته فيُكنس ويُنضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلى بنا[٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ[٥].

۞ وروى البخارى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القين[٦] وكان ظِئرًا[٧] لإبراهيم عليه السلام. فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقَّبله وشمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك -وإبراهيم يجود بنفسه- فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال له عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**يا ابن عوف إنها رحمة**». ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[٨].

۞ وروى البخارى عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبى ﷺ إليه:

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٠٢) كتاب الأدب.

(٢) فطيم: بمعنى مفطوم، أى انتهى إرضاعه.

(٣) النغير: طائر يشبه العصفور.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٢٠٣) كتاب الأدب.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٣١٦) كتاب الفضائل.

(٦) القين: الحداد. ويُطلق على كل صانع.

(٧) ظئرًا لإبراهيم: الظئر: زوج المرضعة، وإبراهيم هو ابن النبى ﷺ.

(٨) صحيح: رواه البخارى (١٣٠٣) كتاب الجنائز.

إن ابنًا لى قُبض، فأتنا. فأرسل يُقرئ السلام ويقول: «إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجلٍ مُسمًّى. فلتصبر ولتحتسب». فأرسلت إليه تُقسم عليه ليأتينَّها. فقام ومعه سعد بن عُبادة ومعاذ بن جبل وأُبى بن كعب وزيد ابن ثابت ورجال، فَرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبى ونفسه تتقعقع[١] قال حسبته أنه قال: كأنها شن[٢] ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «**هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[٣].

۞ ففى تلك الأحاديث دليل على أنه ينبغى للإنسان أن يكون رحيمًا مع كل الناس وبخاصة الأطفال وأنه ينبغى أن يُقبِّل أبناءه وبناته وأبناء بناته وأبناء أبنائه اقتداءً برسول الله ﷺ ورحمته بهم ليفوز برحمة الرحيم الرحمن (جلَّ وعلا) «**وإنما يرحم الله من عباده الرُّحماء**».

وتدبر أخى القارئ إذا كان النبى ﷺ قد اعتبر عدم تقبيل الأولاد من عدم الرحمة، التى تستوجب العقوبة ... والتقبيل شىء يسير جدًّا، مقارنة بما هو أعظم من ذلك، فماذا ستكون عقوبة مَن وقع فى أمورٍ أخرى كالإهمال فى التربية وعدم الأمر بالصلاة والصيام، وترك الأولاد لقرناء السوء فى الشوارع، وإدخال القنوات الفضائية فى البيوت بدون رقابة وغير ذلك كثير.

(٢٣٢) وعَنْ جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لا يرحَم النَّاس لا يَرحمُهُ الله»[٤].

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحمَةً

(١) تتقعقع: صوت الشىء اليابس إذا حرك.
(٢) شن: القربة القديمة.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٧٦) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٣١٩) كتاب الفضائل.

وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعطِفُ الْوَحشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

فالله عَزَّوَجَلَّ أنزل الرحمة فى قلب عباده .. وإذا أنزل الله الرحمة فى قلب عبده فلا بُدّ أن يرحم غيره .. وإذا رحم غيره رحمه الله عَزَّوَجَلَّ .. وإذا لم يرحم فلن يرحمه الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ﷺ: «**مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله**».

۞ ونحن نعلم أن أُسوتنا وقدوتنا هو النبى محمد ﷺ .. كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد كان النبى ﷺ أرحم الناس أجمعين.. وشهد له بذلك الكافر قبل المسلم ... فإنه لما أراد الله تعالى أن يمتنَّ على العالم برجل يمسح آلامه ويخفف أحزانه، ويجدد آماله، ويرثى لخطاياه، ويستميت فى هدايته، أرسل محمدًا ﷺ وسكب فى قلبه من العلم والحلم، وفى خُلُقه من الإيناس والبر، وفى طبعه من السهولة والرقة، وفى يده من السخاوة والندى، ما جعله أزكى عباد الله، وأوسعهم عاطفة، وأرحبهم صدرًا.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وها هى صور يسيرة من رحمته ﷺ.. وإن كان الحديث عن رحمة النبى ﷺ لا ينتهى أبدًا ... بل لا أكون مبالغًا لو قلت: إن الأعمار قد تفنى ونحن لا نستطيع أن نصف مدى رحمة النبى ﷺ بمن حوله فلقد سُكبت الرأفة والرحمة فى قلبه منذ نعومة أظفاره ﷺ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٦٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٧٥٢) كتاب التوبة.

۞ فها هى صورة مشرقة من رحمته ﷺ بأمته:

لقد كان النبى ﷺ يتمنى إيصال الخير لأمته لفرط محبته لتلك الأمة المباركة.

- فها هو ﷺ يفرح بتلك الآية التى تفتح باب الأمل للمذنبين.

عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية** ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] »(١).

۞ وها هو ﷺ يخشى المشقة على أمته فيقول ﷺ: «**لولا أن أَشُق على أمتى لفرضت عليهم السواك مع الوضوء ولأخَّرت العشاء الآخرة إلى نصف الليل**»(٢).

۞ بل وفى رحلة الإسراء والمعراج عندما فرض الله على الأمة خمسين صلاة ظل النبى ﷺ يسأل ربه جل وعلا التخفيف حتى أصبحت خمس صلوات بأجر خمسين صلاة... رحمة بتلك الأمة.

۞ بل ها هو ﷺ يختبئ دعوته شفاعة لأمته.

- ففى الحديث الذى رواه مسلم أن النبى ﷺ قال: «**لكل نبىٍّ دعوة مُستجابة، فتعجل كل نبىٍّ دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله تعالى مَن مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا**»(٣).

- وفى الحديث الذى رواه مسلم أن النبى ﷺ تلا قول الله عَزَّوَجَلَّ فى إبراهيم: «﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

---

(١) ضعيف: رواه أحمد، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٩٨٠).
(٢) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣١٩).
(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٩) كتاب الإيمان.

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «**اللهم أمتى**»، وبكى، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: يا جبريل اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فَسَلْهُ: ما يُبكيك. فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال -وهو أعلم- فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: «**إنَّا سنُرضيك فى أمتك ولا نسوؤك**»[١] .

۞ وأما عن رحمته ﷺ بالأطفال فلقد تكلمنا عنها باستفاضة فى شرح الحديث السابق .. فلقد كان ﷺ أرحم الناس بالأطفال وكان يُداعبهم ويُلاعبهم ويحنو عليهم ويُقبلهم ويُحب مَن يرحمهم.

۞ وأما عن رحمته ﷺ بالمذنبين فلقد كان النبى ﷺ فى قمة الرحمة بالمذنبين والمخطئين.

فكان يرفع عنهم الحرج ويفتح لهم باب الأمل ولا يُقنط أحدًا من رحمة الله.

ومن أمثلة ذلك ما يرويه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: بينما نحن جلوسٌ عند النبى ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكتُ. قال: «**ما لك؟**» قال: وقعتُ على امرأتى وأنا صائمٌ. فقال رسول الله ﷺ: «**هل تجدُ رقبةً تُعتقُها؟**» قال: لا.. قال: «**فهل تستطيعُ أن تصوم شهرين متتابعين؟**» قال: لا ... فقال: «**فهل تجدُ إطعام ستين مسكينًا؟**» قال: لا. قال: فمكث النبيُّ ﷺ فبينما نحن على ذلك أُتى النبىُّ ﷺ بعرقٍ[٢] فيها تمر، قال: «**أين السائلُ؟**» فقال: أنا. قال: «**خُذها فتصدق بها**». فقال الرجل: أعَلَى أفقر منى يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها[٣] - يريد الحرتين

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢) كتاب الإيمان.

(٢) العرق: المكتل والجراب والوعاء المنسوج من الخوص، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرق (١٠/ ٢٤٠).

(٣) لابتيها: مثنى لابة، وهى الأرض التى بها حجارة سُود، والرجل يقصد المدينة المنورة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لوب (١/ ٧٤٥).

- أهل بيتٍ أفقر من أهل بيتى. فضحك النبىُّ ﷺ حتى بدت أنيابُهُ، ثم قال: «أطعمهُ أهلك»(١).

۞ بل تلك رحمته ﷺ بالمشركين ... فلقد وصلت رحمة النبى ﷺ مبلغًا لا يخطر على قلب بشر.. فلقد كان ﷺ حزينًا كل الحزن لإعراض المشركين عن نور الهداية حتى قال له جل وعلا: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: يسلى الله تعالى نبيه ﷺ فى حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبُعدهم عنه ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ يقول: لا تُهلك نفسك أسفًا وحُزنًا... أى لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومَن ضَلَّ فإنما يضل عليها ولا تُذهب نفسك عليهم حسرات(٢).

حتى إنهم كانوا يُؤذونه ﷺ وهو يقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» ودبروا المؤامرات لقتله وطردوه من مكة واتهموه فى عِرضه وحاربوا دعوته فلما تمكَّن منهم يوم فتح مكة قال: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء».

۞ بل لقد وصلت رحمته ﷺ بالحيوان.

ومن أهم الحقوق التى أصَّلها الرسول ﷺ للحيوان عدم إيذائه.

فقد روى جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ مرَّ على حمار قد وُسم فى وجهه، فقال: «لعن اللهُ الذى وسمهُ(٣)»(٤). وفى رواية له قال: «نهى رسُولُ الله ﷺ عن الضرب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٣٦) كتاب الصوم، ومسلم (١١١١) كتاب الصيام.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦١).

(٣) وَسَمَه: إذا أثَّر أو علَّم فيه بكى، والوسم والسمة العلامة المميزة للشىء، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وسم (١٢/ ٦٣٥).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢١١٧) كتاب اللباس والزينة.

فى الوجه وعن الوسم فى الوجه»[١]. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لعن النبىُّ ﷺ مَن مثَّل بالحيوان»[٢]. وهذا يعنى أن إيذاء الحيوان وتعذيبه وعدم الرفق به يُعتبر جريمة فى نظر الشريعة الإسلامية.

وكذلك شرع الرسول ﷺ فى تأصيله لحقوق الحيوان: تحريم حبسه وتجويعه... وفى ذلك يقول الرسول ﷺ: «**عُذبت امرأةٌ فى هرةٍ؛ لم تُطعمها، ولم تسقها، ولم تترُكها تأكُلُ من خشاش الأرض**»[٣]. وروى سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ ببعير قد لُحق ظهرُهُ ببطنه[٤]، فقال: «**اتقُوا الله فى هذه البهائم المُعجمة... فاركبوها صالحةً، وكُلُوها صالحةً**»[٥].

كما أمر الرسول ﷺ أن يُستخدم الحيوان فيما خُلق له، وحدد الغرض الرئيسى من استخدام الدواب، فقال: «**إياكُم أن تتخذوا ظُهُور دوابكُم منابر**[٦]؛ **فإن الله إنما سخرها لكُم لتُبلغكمُ إلى بلدٍ لم تكُونُوا بالغيه إلا بشِقِّ الأنفُس**»[٧].

ونهى الرسول ﷺ عن اتخاذه غرضًا... فها هو ذا ابن عمر رضي الله عنهما يمرُّ بفتيانٍ من قريش قد نصبوا طيرًا وهم يرمونه، فقال لهم: لعن الله مَن فعل هذا.. إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا[٨].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١١٦) كتاب اللباس والزينة.
(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٥١٥) كتاب الذبائح والصيد.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٦٥) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٢٤٢) كتاب السلام.
(٤) لحق ظهره ببطنه: أى ظهر عليه الهزال من الجوع - انظر: العظيم آبادى: عون المعبود فى شرح سنن أبى داود (٥/ ٤٤٨).
(٥) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٤).
(٦) تتخذوا ظهور دوابكم منابر: كناية عن القيام عليها؛ لأنهم إذا خطبوا على المنابر قاموا، والمعنى: لا تجلسوا على ظهورها فتوقفونها وتحدثون بالبيع والشراء وغير ذلك، بل انزلوا واقضوا حاجاتكم، ثم اركبوا: انظر: العظيم آبادى: عون المعبود (٧/ ١٦٩).
(٧) صحيح: رواه أبو داود، والبيهقى، وقال الألبانى: صحيح: انظر السلسلة الصحيحة (٢٢).
(٨) متفق عليه: رواه البخاري(٥٥١٥)كتاب الذبائح والصيد،ومسلم(١٩٥٨)كتاب الصيد والذبائح.

ومن أهم ما أصَّله النبى ﷺ من حقوق الحيوان كذلك ما كان من وجوب الرحمة والرفق به، وقد تجسَّد ذلك فى قول رسول الله ﷺ: «**بينما رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث**(١)، **يأكل الثرى**(٢) **من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى. فنزل البئر، فملأ خُفَّه ماءً، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له**(٣) ». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا فى البهائم لأجرًا(٤) ؟ فقال: «**فى كل ذات كبدٍ رطبة أجر**»(٥).

ومن مظاهر شفقته ورحمته ﷺ كذلك ما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قائلاً: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمرة(٦) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمرة فجعلت تُعرش(٧)، فجاء النبى ﷺ فقال: «**مَن فجع هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها**»(٨).

۞ هكذا كان النبى ﷺ يُعلِّم أمته الرحمة بكل شىء ثم أخبر أن «مَن لا

---

(١) يلهث: يرتفع نَفَسُه بين أضلاعه، أو يخرج لسانه من شدة العطش والحر - انظر: ابن حجر العسقلانى: فتح البارى (٥/ ٤١)، وابن منظور: لسان العرب، مادة لهث (٢/ ١٨٤).

(٢) الثرى: التراب الندى، وقيل: أى يعضُّ أو يكدم الأرض الندية - انظر: ابن حجر العسقلانى: فتح البارى (٥/ ٤١)، وابن منظور: لسان العرب مادة ثرا (١٤/ ١١٠).

(٣) شكر الله له فغفر له: أى تقبله الله منه وأثابه عليه بتجاوزه عن ذنوبه-وشُكر الله هو الثواب على الطاعة، ولا يشكر الله سعيًا ولا عملاً إلا أثاب عليه - انظر: ابن حجر العسقلانى: فتح البارى (١/ ٢٧٨).

(٤) يعنون: أيكون لنا فى سقى البهائم والإحسان لها أجر؟!

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٦٦) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام.

(٦) الحُمرة: طائر صغير كالعصفور - انظر: العظيم آبادى: عون المعبود (٧/ ٢٤٠)، وابن منظور: لسان العرب مادة حمر (٤/ ٢٠٨).

(٧) تُعرش أى: ترفرف، والتعريش أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها - انظر: العظيم آبادى: عون المعبود (٧/ ٢٤٠)، وابن منظور: لسان العرب، مادة عرش (٦/ ٣١٣).

(٨) صحيح: رواه البخارى في الأدب المفرد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٥).

يرحم الناس لا يرحمه الله».

فانظر في قلبك الآن هل تجد فيه رحمة لكلِّ مَن حولك .. فإن وجدت فاحمد الله وإن لم تجد فأدرك نفسك وارحم كل مَن حولك حتى تفوز برحمة الله (جلَّ وعلا).

(٢٣٣) وعَنْ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا صلى أحدُكُمْ للنَّاسِ فلْيُخَفِّفْ، فَإنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالسقيمَ والْكَبِيرَ. وإذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّل ما شَاءَ»[1].

وفي روايةٍ: «وذَا الْحاجَةِ».

۞ وإذا كنا نتحدث عن الرحمة .. فمن أبواب الرحمة أن الإنسان إذا كان إمامًا في أحد المساجد فإنه لا ينبغي له أن يُطيل على الناس في الصلاة؛ لأن مِنهم الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

مَعنَى أَحَادِيثِ الْبَابِ ظَاهِرٌ وَهُوَ الْأَمْرُ لِلْإِمَامِ بِتَخْفِيفِ الصَّلَاةِ بِحَيْثُ لَا يُخِلُّ بِسُنَّتِهَا وَمَقَاصِدِهَا وَأَنَّهُ إِذَا صَلَّى لِنَفْسِهِ طَوَّلَ مَا شَاءَ فِي الْأَرْكَانِ الَّتِي تَحتَمِلُ التَّطْوِيلَ وَهِيَ الْقِيَامُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ وَالتَّشَهُّدُ دُونَ الِاعتِدَالِ وَالْجُلُوسِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ وَاللهُ أَعلَمُ[2].

والمراد بالتخفيف ما وافق سُنة النبي ﷺ ...هذا هو التخفيف وليس المراد بالتخفيف ما وافق أهواء الناس، حتى صار الإمام يركض في صلاته ولا يطمئن... قال أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما صليتُ وراء إمام قطّ أخفّ صلاة ولا أتم صلاة من

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٣) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٧) كتاب الصلاة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٤٤).

النبى ﷺ، ومع ذلك فكان يقرأ فى فجر الجمعة «ألم تَنْزِيل السجدة» كاملة فى الركعة الأولى. و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ كاملة فى الركعة الثانية.

ثم اعلم أنه قد يكون التخفيف عارضًا طارئًا، مثل ما كان النبى ﷺ يفعل... كان يدخل فى الصلاة وهو يُريد أن يُطيل فيها فيسمع بكاء الصبى فيوجز مخافة أن تفتتن أمه ... فإذا حصل طارئ يُوجب أن يخفف الإنسان صلاته فليخفف، لكن على وجهٍ لا يُخِلّ بالواجب.

فالتخفيف نوعان: تخفيفٌ دائم: وهو ما وافق سُنة النبى ﷺ.

وتخفيفٌ طارئ يكون أخفّ: وهو ما دعت إليه الحاجة، وهو أيضًا من السُّنة... فإن النبى ﷺ كان إذا سمع بكاء الصبى خفَّف الصلاة حتى لا تفتتن أمه... والمهم أنه ينبغى للإنسان مراعاة أحوال الناس ورحمتهم(١).

۞ ولنا مع هذا الحديث ثلاث وقفات:

(١) من مظاهر الرحمة والشفقة، أن النبى ﷺ قد أمر بتخفيف الصلاة لوجود (ذا الحاجة)، وهو الذى يكون عنده شغل سواء كان ذلك قضاء مصلحة لنفسه أم لأهله، أم يريد الضرب فى الأرض للتكسُّب ... وهذا يدل على أن هذا الدين قد جمع بين المصالح الشرعية والمصالح الدنيوية، وأنه لا يصطدم مع الواقع، ولا يلغى احتياجات الناس، بل العكس.

يطلب من الإمام التخفيف فى أعظم ركنٍ من أركان الإسلام، ليستطيع كل أحدٍ أن يقضى مصالحه المُباحة أيًّا كانت، وهذا ينسجم مع قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ ﴾ [المزمل: ٢٠]، فخفف الله عن الأمة بهذه الآية ما افترضه عليهم أول الأمر من قيام الليل.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٨٦-٥٨٧) بتصرف.

وتخيل أخى القارئ لو أن مأمومًا، ذهب إلى أحد الأئمة، الذين ليس لهم باعٌ طويل فى علم السُّنة، وسأله التخفيف فى الصلاة؛ لأن عنده شغلًا، لقام الإمام يخطب الناس، أنهم قد باعوا دينهم بعَرَضٍ من الحياة الدنيا، وأن أمر الدين هو آخر ما يشغلهم وغير ذلك من أساليب التوبيخ والتأنيب.

(٢) حسن تقسيم النبى ﷺ لأصناف الناس أصحاب الأعذار:

فالأول: صاحب العذر المؤقت الطارئ والذى قد يظهر على صاحبه، وهو الضعيف.

والثانى: صاحب العذر الذى يكون عارضًا وقد يكون مستمرًّا .. وهو السقيم - أى: المريض.

والثالث: صاحب العذر الملازم له والذى يظهر دائمًا على صاحبه، وهو الكبير.

والرابع: صاحب العذر غير الملازم له والذى لا يظهر على صاحبه، وهو ذو الحاجة.

قال ﷺ: «فأيكم صلى بالناس فليتجوز فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة»، وهذا من جوامع كَلِمِه ﷺ حيث جَمَع أمثال كل أصناف الناس بذكر هؤلاء الثلاثة.

ولما كان الغالب، ألا يخلو جماعة المصلين من وجود أحد أصحاب الأعذار، صدر أمر النبى ﷺ بالتخفيف دائمًا...ولذلك أقول: إن الشرع دائمًا يحكم على الأمور بالغالب الأعم وليس بالنادر، ولا يعتدّ بما يشذ، وهى من الحِكَم العظيمة لهذا الدين.

وأود أن أُنبِّه هنا، ألا يكون هذا الحديث حُجة لبعض أئمة المساجد ، للإخلال بركن الطمأنينة بالصلاة، والذى تُبطل الصلاة بالإخلال به، فعليهم التمييز بين

وجوب الطمأنينة فى كل أركان الصلاة، وبين التخفيف الذى أمر به النبى ﷺ.

(٣) على ولي الأمر أن يقتدي في كل شئونه، بالأضعف من الناس وأصحاب الحاجات الخاصة، وأن يراعي حالهم ومصلحتهم أولًا، ولو كانوا قِلة في الأقوياء من الناس ... لأن النبي ﷺ لما شرع التخفيف في الصلاة، راعى مصلحة الضعفاء دون مصلحة الأقوياء، والذين قد يتلذذون بتطويل الصلاة، ولا يجدون في ذلك أي مشقة، ولكن لما استحال الجمع بين مصلحة الفريقين، قدَّم ﷺ مصلحة الضعفاء(١).

(٢٣٤) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنْ كَان رسولُ الله ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ، وهُوَ يحِبُّ أَنَ يَعمَلَ بِهِ، خَشْيةَ أَنْ يَعمَلَ بِهِ النَّاسُ فيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ»(٢).

۞ ففي هذا الحديث تُخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان يترك العمل أحيانًا وهو يحب أن يفعله خشية أن يعمل به الناس فيُفرض عليهم فيشق عليهم.

والمقصود هنا أنه ﷺ كان يترك بعض النوافل أحيانًا وليس المقصود أنه كان يترك الفرائض أو السنن الرواتب.

۞ ويوضح هذا بداية هذا الحديث عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي سُبْحَةَ الضُّحَى قَطُّ، وَإِنِّي لَأُسَبِّحُهَا، وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ»(٣).

وفي رواية أُخرى: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَى أَرْبَعًا، وَيَزِيدُ مَا شَاءَ اللهُ».

---

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٤٣٩-٤٤٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٢٨) كتاب الجمعة، ومسلم (٧١٨) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧١٨) (٧٧) كتاب صلاة المسافرين.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَ حَدِيثَيْ عَائِشَةَ فِي نَفْيِ صَلَاتِهِ ﷺ الضُّحَى وَإِثْبَاتِهَا فَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّيهَا بعضَ الْأَوْقَاتِ لِفَضْلِهَا وَيَتْرُكُهَا فِي بَعضِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُفْرَضَ كَمَا ذَكَرَتْهُ عَائِشَةُ ... وَيُتَأَوَّلُ قَوْلُهَا مَا كَانَ يُصَلِّيهَا إِلَّا أَنْ يَجِيءَ مِنْ مَغِيبِهِ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ مَا رَأَيْتُهُ كَمَا قَالَتْ فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي سُبْحَةَ الضُّحَى ... وَسَبَبُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا كَانَ يَكُونُ عِنْدَ عَائِشَةَ فِي وَقْتِ الضُّحَى إِلَّا فِي نَادِرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُسَافِرًا وَقَدْ يَكُونُ حَاضِرًا وَلَكِنَّهُ فِي الْمَسْجِدِ أَوْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَإِذَا كَانَ عِنْدَ نِسَائِهِ فَإِنَّمَا كَانَ لَهَا يَوْمٌ مِنْ تِسْعَةٍ فَيَصِحُّ قَوْلُهَا مَا رَأَيْتُهُ يُصَلِّيهَا وَتَكُونُ قَدْ عَلِمَتْ بِخَبَرِهِ أَوْ خَبَرِ غَيْرِهِ أَنَّهُ صَلَّاهَا أَوْ يُقَالُ قَوْلُهَا مَا كَانَ يُصَلِّيهَا أَيْ مَا يُدَاوِمُ عَلَيْهَا فَيَكُونُ نَفْيًا لِلْمُدَاوَمَةِ لَا لِأَصْلِهَا وَاللهُ أَعْلَمُ[1].

۞ وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك في عبادات أُخرى من رحمته ورأفته بهم وحتى لا تُفرض على أمته فيشق ذلك عليهم.

فمن ذلك ما فعله في رمضان (عليه الصلاة والسلام) صلى في رمضان ذات ليلة، فعلم به أُناس من الصحابة، فاجتمعوا إليه وصلوا معه... وفي الليلة الثانية صلوا أكثر، وفي الثالثة أكثر وأكثر، ثم ترك الصلاة في المسجد، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أما بعد، فإنه لم يَخْفَ عليَّ مكانكم**» يعني ما جرى منهم من الاجتماع «**ولكني كرهتُ أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها**»[2] فترك هذا القيام جماعة خوفًا من أن تُفرض على الأمة، وهذا من شفقته.

ومن ذلك أنه كان يخشى أن يأمرهم ببعض الأشياء خشية أن يشق عليهم.

قال ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوا العِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ**

---

(١) مسلم بشرح النووي (٥/ ٣٢٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٢٤) كتاب الجمعة، ومسلم (٧٦١) كتاب صلاة المسافرين.

نِصْفِهِ»(١).

وقال ﷺ: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ، وَلأَخَّرْتُ صَلاةَ الْعِشَاءِ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ»(٢).

وقال ﷺ: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ»(٣).

وقال ﷺ: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ بوضوء، ومَعَ كُلِّ وضوءٍ بِسِوَاكٍ»(٤).

وهكذا كان النبي ﷺ يدع العمل أحيانًا ويدع الأمر بالعمل خوفًا من أن يُفرض على أمته فيشق عليهم.

***

(٢٣٥) وعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: نَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوِصالِ رَحمَةً لَهُمْ، فقالوا: إِنَّكَ تُواصِلُ؟ قال: «إِنِّي لَسْتُ كهَيئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُني رَبِّي ويَسْقِيني»(٥).

وفي رواية: عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «نَهى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الوِصَالِ» فَقَالَ لَهُ رِجَالٌ مِنَ المُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ تُوَاصِلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّكُمْ مِثْلِي، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُني رَبِّي وَيَسْقِينِ» فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنِ الوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا، ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوُا الْهِلالَ، فَقَالَ: «لَوْ تَأَخَّرَ لَزِدْتُكُمْ» كَالْمُنَكِّلِ بِهِمْ حِينَ أَبَوْا(٦).

ومناسبة هذا القول أن الرسول ﷺ كان يواصل صيام عدة أيام من شهر رمضان بدون إفطار فلما أراد الصحابة أن يفعلوا مثله ذكر لهم هذه المقولة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣١٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣١٦).

(٣) صحيح: رواه مالك والشافعي، والطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣١٧).

(٤) حسن: رواه أحمد، والنسائي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٣١٨).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٥) كتاب الصيام.
مَعناهُ: يُجْعَلُ في قُوَّة مَنْ أَكَلَ وَشَرِبَ.

(٦) صحيح: رواه البخاري (٦٨٥١) كتاب الحدود.

فمن شفقة النبي ﷺ ورحمته بأصحابه وأمته أنه ﷺ نهاهم عن الوصال رحمة بهم ... والوصال هو أن يصل الإنسان الصيام لمدة يومين أو أكثر دون أن يُفطر أو يتسحَّر .. يعني يصوم الليل والنهار لمدة يومين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك ... فلما أراد الصحابة أن يفعلوا مثل النبي ﷺ وأن يواصلوا نهاهم النبي ﷺ عن ذلك وقال لهم: «**وأيكم مثلي إني أبيتُ يُطعمني ربي ويسقيني**» ولكنهم ظنوا أن النبي ﷺ نهاهم رحمة بهم لا كراهة للعمل .. فلما أصروا على الوصال واصل النبي ﷺ بهم يومًا ثم يومًا حتى رأوا هلال شوَّال .. فقال لهم ﷺ: «**لو تأخَّر** - أي الهلال- **لزدتكم**» .. قال ذلك تنكيلًا لهم حتى يشعروا بألم الجوع فيكفوا عن الوصال بعد ذلك.

۞ وها هي بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: اجتهاده ﷺ في العبادة، حيث إنه كان يواصل عدة أيام في شهر رمضان بدون إفطار ... دليله: (فقال له رجال من المسلمين: فإنك يا رسول الله تواصل).

الفائدة الثانية: شفقته ﷺ ورحمته بالأمة، حيث نهى الأمة عن وصال الصيام، مع أنه كان يواصل.

الفائدة الثالثة: اختصاصه ﷺ دون البشر- بأمور تُبين فضله وتُزيد شرفه... ودليله قوله ﷺ: «**أيكم مثلي**»، فنفى أن يكون أحدٌ من الصحابة مثله، ووضح ﷺ وجه عدم المثلية، وهو أنه ﷺ يبيت يُطعمه ربه ويسقيه.

وذكر الإمام النووي في شرح الحديث رأيين لأهل العلم:

(أ) أن الله يجعل فيه قوة الطاعم والشارب ... ورجح الإمام النووي هذا الرأي، وحُجته في ذلك أنه إذا أكل حقيقة لم يكن مُواصلًا.

(ب) أنه ﷺ يُطعَم من طعام الجنة كرامة له.

ولقد ذهب بعض أهل العلم إلى ترجيح الرأي الأول ... وقالوا: معنى ذلك

أنه عليه الصلاة والسلام يتهجد بالليل، ويخلو بالله عَزَّوَجَلَّ، بذكره، وقراءة كلامه، وغير ذلك مما يُغنيه عن الأكل والشرب ... لأن الإنسان إذا اشتغل بالشيء نسي الأكل والشرب، خصوصًا إذا كان الشيء مما يحبه ويرضاه.

وهو أمرٌ واقعٌ واضح، حتى إن الإنسان قد يكون في الأشغال يشتغل بها، فيلهو عن الأكل والشرب ... مثل طالب العلم الذي يكون منهومًا بالعلم شَغوفًا به، رُبما يبقى في مكتبته يُطالع من الصباح إلى المساء فينسى الأكل والشرب... ينسى الغداء والعشاء، وربما ينسى النوم... وكذلك طالب الدنيا منهوم لا يشبع... ربما يبقى في دفاتره وحساباته فينشغل عن الأكل والشرب.

ويُذكَر أن رجلاً غنيًّا كان يشتغل بحساباته وبكتاباته وماله وله زوجة، وكان له جارٌ فقير متزوج، وكانوا يشعرون بأن هذا الجار الفقير يعاشر زوجته بالمعروف ... فغارت زوجة الغني؛ لأن الغني غافلٌ عنها، فقالت له: ألا تنظر إلى جارنا يعاشر زوجته بالمعروف، ويستأنس مع أهله.

ففطن الرجل الغني لهذا، فدعا الرجل الفقير وقال له: إنك رجل فقير تحتاج إلى المال، وأنا سأعطيك مالاً تتجر به، فأعطاه المال يتجر به، فانشغل به الفقير عن أهله، وصار لا يُعاشرهم ولا يؤانسهم، فصار مثل التاجر.

فالحاصل: أن الإنسان إذا انشغل بالشيء المحبوب إليه أنساه كلّ شيء... ولهذا قال النبي (عليه الصلاة والسلام): «**إني أبيت عند ربي يُطْعمني ويسقيني فلست كهيئتكم**»... وما زعمه بعض أهل العلم من أن المراد بالإطعام والإسقاء، الإطعام من الجنة والإسقاء من الجنة فليس بصحيح؛ لأنه لو طعم طعامًا حِسيًّا وشرب شرابًا حِسيًّا، لم يكن واصلاً، وإنما المراد بالطعام والسقي ما يشتغل به ﷺ من ذكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه[١].

۞ وذهب بعض أهل العلم إلى أن الرأي الآخر غير مُستبعد وقالوا: لأنه

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٨٨-٥٨٩) بتصرف.

لا يلزم من أكله من طعام أهل الجنة منافاة الصيام، لعدم علمنا بطبيعة هذا الأكل وكيفيته ... ولا داعي أن نعدل عن ظاهر الحديث.

وأيٌّ من الرأيين كان صحيحًا، فإننا نعتقد أن الرسول ﷺ يُطعمه ربه ويسقيه... وهي معجزة عظيمة له ﷺ.

وأود أن أوضح هنا أن عدم مثلية الرسول ﷺ لأصحابه لا تقتصر على هذه المسألة، ولكن ثبتت عدم المثلية في أمور كثيرة.

الفائدة الرابعة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على متابعة النبي ﷺ في كل أمر من أموره، حتى الأمور التي فيها مشقة ظاهرة، حيث إنهم أبوا أن ينتهوا عن الوصال، مع أن النبي ﷺ بيَّن لهم سبب قدرته على الوصال ... ففي الحديث: (فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومًا ثم يومًا) .

الفائدة الخامسة: حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه رضى الله عنهم، لأنهم لما أبوا الانتهاء عن وصال الصيام، واصل بهم يومين .. ولولا رؤية هلال شوَّال لواصل بهم اليوم الثالث تعزيرًا لهم، وليعلموا أنه لا طاقة لهم بالوصال مثله ﷺ ... ويُؤخَذ منه اتباع النبي ﷺ للتربية العملية إذا لم تُجدِ التربية القولية، بل قد يصل الأمر إلى حَدِّ التعزير بغرض التعليم، إذ ورد في الحديث «كالمُنكِّل بهم»[(١)] .

❊ ❊ ❊

(٧٣٦) وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْحارث بنِ ربْعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاةِ، وَأُرِيدُ أَنْ أُطَوِّل فِيها، فَأَسْمعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتجوَّزَ فِي صلاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»[(٢)].

۞ فهذا الحديث يُلقي الضوء على صورة من صور رحمة النبي ﷺ بأمته..

---

(١) شمائل الرسول ﷺ (٢/ ١٢١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٠٧) كتاب الأذان.

وكيف لا يكون كذلك وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في حقه ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فالنبي ﷺ كان يدخل في الصلاة وهو يريد أن يُطيل فيها إطالة تُوافق السُّنة وليس الإطالة الزائدة التي تُتعب المُصلين ... فإذا سمع صوت بُكاء الصبي أوجز في صلاته وخفَّف مخافة أن يَشُق على أمه .. لأنها إذا سمعت بكاء ابنها فإن ذلك يشق عليها .. بل ورُبما يشغلها عن صلاتها.

وقد ذكرنا قبل ذلك أن التخفيف نوعان: تخفيفٌ دائم وهو ما وافق سُنة النبي ﷺ .. وتخفيفٌ طارئ يكون أخف من ذلك: وهو ما دعت إليه الحاجة .. مثل أن يُخفف النبي ﷺ الصلاة إذا سمع بكاء الصبي.

❁ ففي هذا الحديث فوائد منها:

أولاً: رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليها.

ثانيًا: جواز حضور النساء إلى المساجد ليُصلين مع الجماعة... وهذا ما لم تخرج المرأة على وجهٍ لا يجوز، مثل أن تخرج متعطرة أو متبرجة، فإن ذلك لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أيما امرأة أصابت بخورًا فلا تشهد معنا العشاء الآخرة**»[1].

ثالثًا: جواز إدخال الصبيان للمسجد، لكن بشرط ألا يحصل منهم أذية لا على المسجد ولا على المصلين، فإن كان يُخشى منهم أذية على المسجد كتلويثه بالبول والنجاسة، فإنهم يُمنعون ... وكذلك إذا كان يُخشى منهم التشويش على الناس بالصراخ والركض واللجبة، فإنهم يُمنعون أيضًا، وأما إذا لم يكن منهم بأس فإنه لا بأس أن يُؤتَى بهم إلى المساجد.

وأما حديث: «**جنِّبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم**»[2] فهو ضعيف.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٤٤) كتاب الصلاة.

(٢) ضعيف: رواه ابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٦٣٦).

رابعًا: أنه يجوز للمُصلي أن يسمع ما حوله ولا يلزمه أن يَسُدّ أُذنيه، كما لو أراد الإنسان أن يُصلي في المسجد وحوله حلقة ذكر، أو حلقة قرآن، ويخشى أن يُشوشوا عليه إذا دنا منهم، فليبعد، وأما إذا لم يُشوشوا فلا بأس أن يسمع، بخلاف الاستماع فإن المصلي لا يستمع إلا إلى قراءة الإمام. وعلى هذا إذا كنت تُصلي وجاء القارئ يقرأ حديثًا أو موعظة، فلا تشد سمعك إليه ...لا تستمع إليه، ولا تجعل تركيزك معه، أما إذا سمعته ولكنك ماضٍ في صلاتك لم تهتم به ولم تلتفت إليه فلا بأس.

خامسًا: ومن فوائد هذا الحديث أنه يجوز للمصلي أن يغير نيته من تطويل إلى تقصير أو بالعكس، إذا وجد سببًا لذلك؛ لأن النبي ﷺ كان يدخل في الصلاة ناويًا أن يُطيلها فيوجز لما ذكره من السبب[(١)].

(٢٣٧) وعَنْ جُنْدبِ بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصبْحِ فَهُوَ في ذِمَّة الله فَلا يطْلُبنَّكُمْ الله مِنْ ذِمَّتِهِ بِشيءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدرِكْه، ثُمَّ يَكُبُّهُ عَلَى وجْهِهِ في نَارِ جَهَنَّم»[(٢)].

۞ من المعلوم أن من أعظم ما يتقرب به العبد إلى ربه الفرائض..كما قال تعالى في الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»[(٣)].

ومن أفضل الفرائض وأهمها الصلاة.. لأنها الركن الثاني للإسلام بعد الشهادتين؛ ولأنها صلة بين العبد وربه؛ ولأن الصلوات الخمس مُكفرات لما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر.

وأنها أول ما يُحاسَب عليه العبد يوم القيامة.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٩٠-٥٩١) بتصرف.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٥٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

قال ﷺ: « **إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ** »(١).

وأفضل ما في الصلوات الخمس: صلاة الصبح وصلاة العصر. فقد قال ﷺ: «**مَن صلَّى البردين دخل الجنة**»(٢) والبردان هما: صلاة الصبح والعصر.. لأن الفجر براد الليل والعصر براد النهار.

وصلاة الفجر تأتي وكثيرٌ من الناس نيام، ولهذا يتكاسل عنها المنافقون. كما قال النبي ﷺ: «**أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا**»(٣).

۞ وقوله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله**» أي في عهده وضمانه وأمانه (سبحانه وتعالى)... فكأنه فاز بعهد الله وضمانه ألا يُصيبه أحدٌ بسوء.

۞ فالله عَزَّوَجَلَّ يجعل الصلاة سببًا لحفظ العبد.

وحفظ الصلاة للمصلى على أوجه، منها: حفظه عن المعاصى.. لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فمن حفظ الصلاة حفظته الصلاة عن الفحشاء.

ومنها:حفظه من البلايا والمحن...قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣]...ومنها: حفظه من عذاب القبر، وعذاب النار يوم القيامة(٤).

قال بعض الصالحين:«والله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تخلى عنك المولى، فلا تَظُنَّن أن العدو غلب، ولكن الحافظ أعرض».

---

(١) صحيح:رواه الترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٢) متفق عليه:رواه البخاري (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.

(٣) متفق عليه:رواه البخاري (٦٥٧) كتاب الأذان، ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

(٤)التفسير الكبير / الرازى (٢/ ٢٧٤).

۞ وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دُنياه، كحفظه في بدنه ...وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته... كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]: «أنهما حُفظا بصلاح أبيهما».

قال سعيد بن المسيب لابنه: «لأزيدن في صلاتي من أجلك، رجاء أن أُحفظ فيك»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

۞ ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى، كما جرى لسفينة مولى رسول الله ﷺ «حيث كُسر به المركب، وخرج إلى جزيرة، فرأى الأسد، فجعل يمشي معه حتى دلّه على الطريق، فلما أوقفه عليها، جعل يهمهم كأنه يودعه، ثم رجع عنه»[1].

النوع الثاني من الحفظ -وهو أشرف النوعين-: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه... فيحفظه في حياته من الشُّبهات المُضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان.

۞ وأما قوله ﷺ: «**فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء**» يعني: لا يترك عهده على مَن صلى الفجر؛ لأنه في ذمة الله وفي عهده، فإياكم أن يطلبكم الله تعالى من ذمته بشيء، «**فإنه مَن يطلبه من ذمته بشيء يُدركه، ثم يَكُبه على وجهه في النار**»[2].

ففي هذا دليل: على أنه يجب احترام المسلمين الذين صدَّقوا إسلامهم بصلاة الفجر ... لأن صلاة الفجر لا يُصليها إلا مؤمن، فالمنافقون لا يشهدون الجماعة، ولا يُصلون الفجر أبدًا؛ لأنهم إنما يصلون مُراءاةً للناس، فإذا لم يكن الناس ينتبهون لهم، فإنهم لا يُصلون.

(١) رواه الطبراني والحاكم بإسنادٍ حسن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٥٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وقد كان المنافقون في عهد النبي ﷺ لا يُصلون الصبح والعشاء في جماعة؛ لأن الليل كان حالكًا وليس عندهم إضاءة في الشوارع مثلنا حتى أنه لا يكاد أن يُرى أحدٌ ... فليس عندهم إلا ضوء مصباح ضعيف في المسجد .. فلا يكاد أحدٌ يعرف مَن الذي جاء ومَن الذي غاب.. فكانت فرصة كبيرة للمنافقين حتى لا يصلوا الصبح والعشاء.

۞ فالشاهد من هذا الحديث أننا يجب أن نُحافظ على الصلوات الخمس في المسجد وبخاصة صلاة الصبح والعصر... أما النساء فلا يجب عليهن الصلاة في المسجد فإذا صلَّت في بيتها كل صلاة في وقتها فازت بأجر صلاتها في المسجد.

۞ كما أنه ينبغي أن نحترم المسلمين الذين برهنوا على إسلامهم وإخلاصهم بصلاة الصبح في جماعة .. ولا يجوز لأحدٍ أن يتعرض لهم أو يعتدي عليهم.

(٢٣٨) وعَنْ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم، لا يَظْلِمُه، ولا يُسْلمهُ، مَنْ كَانَ في حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حاجَتِهِ، ومَنْ فَرَّج عنْ مُسْلِمٍ كُرْبةً فَرَّجَ الله عنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوْمِ الْقِيامَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن «المسلم أخو المسلم» يعني في الدين.. كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وأُخوة الدين أعظم من أُخوة النسب .. فقد ينقلب عليك أخوك في النسب ويُصبح عدوًّا لك .. أما أُخوة الدين فيجمعها الحب في الله ولله.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب- ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

فهي راسخة باقية نافعة في الدنيا والآخرة .. كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وإن فضائل الأُخوة في الله كثيرة جدًّا .. فمنها:

(١) أنها سبب لتذوق حلاوة الإيمان:

قال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: -وذكر منها- وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»[1].

(٢) أن رؤيتك لأهل الاستقامة تجعلك تجتهد في طاعة الله (جلَّ وعلا).

قال ﷺ: «أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى»[2] فإن كان هذا الخير يحصل لمن رآهم فكيف بمن يُجالسهم.

(٣) أنهم يأخذون بيديك إلى فعل الخيرات وترك المنكرات والتزود من النوافل والسعي إلى مرضاة الله (جلَّ وعلا).

(٤) أنهم يحفظون غيبتك فلا يفشوا لك سرًّا، ولا ينتهكوا لك حُرمة بل يُدافعون عنك في كل زمانٍ ومكان.

(٥) أنهم مرآة لك تتعرف من خلالهم على أخطائك وعيوبك وتسعى لإصلاحها.

(٦) أن مجالسة أهل الصلاح اغتنام للأوقات في العلم والتعلُّم والذكر وغيره.

(٧) أنك تأنس بهم في الرخاء، وكذلك فهم عُدة في البلاء.

(٨) أن مجالسهم هي مجالس المغفرة والرحمة .... كما قال ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فِيهِ، فَيَقُومُونَ حَتَّى يُقَالَ لَهُمْ قُومُوا، قَدْ غَفَرَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٦)، (٢١) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٣) كتاب الإيمان.

(٢) حسن: رواه الحكيم، والطبرانى، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٥٧).

اللهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وبُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ»(١).

(٩) أن مَن يجالس الصالحين تشمله بركة مجالسهم ويَعُمُّه الخير الحاصل لهم، وإن لم يكن عمله بالغًا مبلغهم.

كما دَلَّ على ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة .... وفي آخره: **«هُمُ الْجُلَسَاءُ لا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ»**، وفي لفظ: **«فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»**(٢).

(١٠) ومنها أن المرء مجبول على الاقتداء بجليسه والتأثُّر بعلمه وعمله وسلوكه ومنهجه ... فمُجالس أهل الخير يتأثر بهم.

قال سفيان بن عُيينة: انظروا إلى فرعون معه هامان ..... انظروا إلى الحجَّاج معه يزيد بن أبي أسلم شرٌّ منه .... انظروا إلى سليمان بن عبد الملك صحبه رجاء بن حيوة فقوَّمه وسدَّده(٣).

(١١) أن جليسك الصالح يَكُفُّك عن المعاصي لحيائك منه ... وبذلك تعتاد ترك المعاصي لكثرة مجالسة أهل الصلاح.

(١٢) أنك تنتفع بدعائهم لك في الحياة الدنيا - بظهر الغيب- وبعد مماتك.

(١٣) أن الله أوجب محبته للمتحابين فيه ... قال تعالى: **«حُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ»**(٤).

(١٤) أن الحب فى الله والبُغض فى الله دليل على كمال إيمان العبد.

قال رسول الله ﷺ: «مَن أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»(٥).

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، والبيهقى، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٨) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) كتاب العزلة (ص ١٤١).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٥) صحيح: رواه أبو داود، والضياء، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦٥).

(١٥) ومن فوائد المحبة فى الله أن الله يكرم مَن أحب عبداً لله.

قال رسول الله ﷺ: «**ما أحب عبدٌ عبدًا لله إلا أكرمه الله**»[١].

(١٦) أن المرء يُحشر مع من أحب:

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ، فَقَالَ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[٢].

(١٧) المتحابون فى الله يُظلهم الله فى ظل عرشه يوم القيامة:

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، -وذكر منهم- ورجلان تحابًّا فى الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه**»[٣].

(١٨) أن المتحابين فى الله لهم منابر من نور، يجلسون عليها يوم القيامة:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله -سبحانه وتعالى-: المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور، يغبطهم[٤] النبيون والشهداء**»[٥].

(١٩) أنك تنتفع بشفاعتهم لك يوم القيامة:

إن صُحبة أهل الإيمان تُثمر لك الخير كله في الدنيا والآخرة.

فأما في الدنيا: فإنه يُذكرك بالله ويُعينك على طاعته وينصرك إذا كنت في حاجة إلى النُّصرة ويبذل لك كل ما يستطيع من أجل أن يُدخل عليك السرور والسعادة.

وفي الآخرة يشفع لك عند الله عز وجل.

---

(١) حسن: رواه أحمد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٥١٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٦٨) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٤١) كتاب البر والصلة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٠) كتاب الأذان، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٤) الغبطة - بكسر الغين: تمني مثل ما للمغبوط من نعمة دون تمني زوالها عنه، وليست بحسد، والفعل غبط من باب ضرب

(٥) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٢).

(٢٠) أنك بمحبتك للصالحين وزيارتك لهم تقترب من الجنة شيئًا فشيئًا...

قال ﷺ: **«ألا أخبركم برجالكم فى الجنة؟»** قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: **«النبى فى الجنة، والصدِّيق فى الجنة، والرجل يزور أخاه فى ناحية المصر لا يزوره إلا لله فى الجنة»**(١).

۞ وهكذا .. فالمسلم أخو المسلم .. **«لا يَظلمه ولا يُسلمه»**. لا يظلمه في نفسه ولا في عِرضه ولا في ماله ولا في بدنه ولا في أهله .. فهو لا يظلمه بأي نوعٍ من أنواع الظلم .. بل يؤازره ويُدافع عنه ويُسانده.

قال ﷺ: **«مَا مِنَ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»**(٢).

وقال ﷺ: **«مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**(٣).

وقال رسول الله ﷺ: **« مَنْ نَصَرَ أَخَاهُ بِالْغَيْبِ نَصَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»**(٤).

۞ وهكذا فهو لا يظلمه ولا يُسلمه بل يُدافع عنه فهو جامعٌ بين ثلاثة أمور:

(١) أنه لا يظلمه.

(٢) أنه لا يُسلمه لمن يظلمه.

(٣) أنه يُدافع عنه ... فيدافع عنه في عِرضه وماله وبدنه فلا يسمح لأحدٍ أن يَسُبه أو يغتابه بل يُدافع عنه ويدفع غيبته ويذكره بكل خير.

۞ **ثم قال ﷺ: «مَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته».**

فإن كنت تسعى في حاجة أخيك لتقضيها له وتُساعده عليها فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يُعينك على قضاء حوائجك ويُساعدك عليها .. بل وتكون من أحب الناس إلى

---

(١) حسن: رواه الدارقطني فِي الْأَفْرَاد، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٠٤).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في التعليق الرغيب (٣/ ٣٠٣)، والمشكاة (٤٩٨٣).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٢).

(٤) حسن: رواه البيهقي في الشعب، والضياء في المختارة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٤).

ربِّك (جلَّ وعلا).

قال ﷺ: « أحَبُّ النَّاسِ إلَى الله أنْفعُهُمْ وأحَبُّ الأعمَالِ إلَى الله عز وجل سُرُورٌ تُدْخِلُهُ على مُسْلِمٍ أوْ تَكْشِفُ عنهُ كُرْبَةً أوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا أوْ تَطْرُدُ عنهُ جُوعًا ولأنْ أمْشِيَ مَعَ أخِي المُسْلِمِ فِي حاجَةٍ أحَبُّ إلَيَّ من أن أعتكف في المَسْجِدِ شَهْرًا ومَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ الله عَوْرَتَهُ ومَنْ كَظَمَ غَيْظًا ولوْ شاءَ أنْ يُمْضِيَهُ أمْضاهُ مَلأ الله قَلْبَهُ رِضًى يَوْمَ القيامة ومَن مشى مَعَ أخِيهِ المُسْلِمِ فِي حاجَتِهِ حَتَّى يُثْبِتَها لهُ أثْبَتَ الله تَعالَى قَدَمَهُ يَوْمَ تَزِلُّ الأقْدَامُ وإنَّ سُوءَ الخُلُقِ لَيُفْسِدُ العَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ »[1].

۞ ثم قال ﷺ: « وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ».

فالكرب هو الذي يجعل الإنسان في هَمٍّ وغَمٍّ .. قد ضاقت عليه الدنيا بما رَحُبت .... فإذا فرجت عن أخيك هذه الكربة فرج الله عنك كُربة من كُرب يوم القيامة.

ويكون تفريج الكربات بإعطائه المال الذي يُزيل كربته أو بمواساته إن كان قد مات له حبيب ... أو بالشفاعة له إن كان في حاجة إلى عملٍ أو كان قد فَقَدَ عمله ويحتاج أن يرجع إليه ... أو بالإصلاح بينه وبين مَن يخاصمه أو بالتأليف بينه وبين زوجته وأولاده .. أو غير ذلك من صور تفريج الكربات ... وينبغي عليك وأنت تسعى في تفريج كربته أن تُذكره بالله وأن تَحُثه على الرضا بالقضاء والقدر وأن توضح له أن دوام الحال من المُحال وأن المصائب إن لم تنفرج وتزول عنَّا فسوف نزول نحن عنها بالرحيل عن هذه الدنيا لنَسعد بلقاء الله في جنته التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) حسن: رواه ابنُ أبي الدُّنيا فِي قضاء الحوائج، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٦).

ثم قال ﷺ: «وَمَن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة».

سترت فلانًا أي: غطَّيت عيبه ولم تُبينه لأحد.

فإن فعلت ذلك سترك الله في الدنيا والآخرة.

وهذا الستر ليس على إطلاقه ... فالستر قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا...

فإذا رأينا شخصًا من ذوي الهيئات معروفًا بالصلاح والتقوى ولكن حدثت منه هفوة فينبغي علينا أن نستره ولا نهتك ستره أمام الناس .. ثم ننصحه فيما بيننا وبينه عسى أن يتوب ويرجع عما يفعله .. أما إذا كان هناك شخصٌ معروف بالأذى والفساد وكثرة المعاصي حتى أنه يجهر بها ونحن نعلم أن الستر لن يزيده إلا طُغيانًا فإننا لا ينبغي أن نستره بل نرفع أمره إلى ولي الأمر حتى يرتدع ويرتدع كل مَن أراد أن يفعل مثله .. وبذلك تنحصر دائرة الفساد.

أما أهل الخير والصلاح إن حصلت منهم هفوة فإننا نسترهم فإن فعلنا ذلك سترنا الله في الدنيا والآخرة.

وإن وجدنا أحدًا من أهل الصلاح عنده عيبٌ خَلقِيٌّ كالبَرَص أو البُهاق أو أي جروحٍ مؤثرة فإننا نستر عليه .. وكذلك إن كان عنده أي شيءٍ يستحيي منه ولا يقدح في دينه فإننا نستر عليه .. وهكذا.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَمَّا السَّتْرُ الْمَنْدُوبُ إِلَيْهِ هُنَا فَالْمُرَادُ بِهِ السَّتْرُ عَلَى ذَوِي الْهَيْئَاتِ وَنَحوِهِمْ مِمَّنْ لَيْسَ هُوَ مَعْرُوفًا بِالْأَذَى وَالْفَسَادِ ... فَأَمَّا المعروف بذلك فيُستحب أن لا يُسْتَرَ عَلَيْهِ بَلْ تُرْفَعَ قَضِيَّتُهُ إِلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ إِنْ لَمْ يَخَفْ مِنْ ذَلِكَ مَفْسَدَةً لِأَنَّ السَّتْرَ عَلَى هَذَا يُطَمِّعُهُ فِي الْإِيذَاءِ وَالْفَسَادِ وَانْتِهَاكِ الْحُرُمَاتِ وَجَسَارَةِ غَيْرِهِ عَلَى مِثْلِ فِعْلِهِ ... هَذَا كُلُّهُ فِي سَتْرِ مَعْصِيَةٍ وَقَعَتْ وانقضت أما مَعصِيَةٌ رَآهُ عَلَيْهَا وَهُوَ بَعْدُ مُتَلَبِّسٌ بِهَا

فَتَجِبُ الْمُبَادَرَةُ بِإِنْكَارِهَا عَلَيْهِ وَمَنْعُهُ مِنْهَا عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَحِلُّ تَأْخِيرُهَا ... فَإِنْ عَجَزَ لَزِمَهُ رَفْعُهَا إِلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ إِذَا لَمْ تَتَرَتَّبْ عَلَى ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ ... وَأَمَّا جَرْحُ الرُّوَاةِ وَالشُّهُودِ وَالْأُمَنَاءِ عَلَى الصَّدَقَاتِ وَالْأَوْقَافِ وَالْأَيْتَامِ وَنَحْوِهِمْ فَيَجِبُ جَرْحُهُمْ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَلَا يَحِلُّ السَّتْرُ عَلَيْهِمْ إِذَا رَأَى مِنْهُمْ مَا يَقْدَحُ فِي أَهْلِيَّتِهِمْ وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْغِيبَةِ الْمُحَرَّمَةِ بَلْ مِنَ النَّصِيحَةِ الْوَاجِبَةِ وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ[١].

(٢٣٩) وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يخُونُه ولا يَكْذِبُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ عِرْضُهُ ومالُه ودمُهُ. التَّقْوَى هَاهُنا، بِحسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ المسلم»[٢].

۞ «**المسلم أخو المسلم**» تكلمنا عن معنى الأُخوة في الحديث السابق وذكرنا أن أُخوة الإيمان أعظم بكثير من أُخوة النسب .. وأن أخاك المسلم ينفعك في الدنيا والآخرة.

۞ «**لا يخونه**» أي: لا يغدر به في محل الائتمان ... فإذا ائتمنه على مالٍ أو على سِرٍّ أو على أي شيءٍ فإنه لا يخونه .. بل يحفظ أمانته ولا يخونه أبدًا في ماله ولا في عِرضه. ولا يجوز لأحدٍ أن يخون أخاه المسلم حتى وإن خانه فقد قال النبي ﷺ: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[٣] .. فإذا افترضنا أنك أقرضت شخصًا مالًا فخانك ولم يَرُد إليك مالك بل خانك وأنكر أنك أقرضته فإنه لا يحل لك أن تقترض منه بعد ذلك وتخونه بل أدِّ إليه أمانته واسأل الله الحق الذي لك «**وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**».

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢٠٣-٢٠٤).
(٢) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٠٦).
(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والبخاري في التاريخ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٠).

۞ قولـه ﷺ: «ولا يكذبـه» أي: لا يكـذب عليـه ولا يُحدثـه بالكـذب .. فالكذب حرام وكلما كانت آثاره أسوأ كان إثمه أشد .. وليس هناك كذب أبيض أو كذب حلال كما يقول بعض الناس .. فالكذب كله أسود .. لكنه يتضاعف إثمه بحسب ما يترتب عليه .. فإن كان يترتب عليه إيذاء لمسلم أو أخذ حقوقه صار إثمه أشد .. وإن كان لا يترتب عليه أي ضررٍ لأحدٍ صار إثمه أخف ولكنه أيضًا حرام.

لكن النبي ﷺ رخَّص في الكذب في ثلاثة أحوالٍ فقط:

(١) الكذب على الزوجة في الأمور العاطفية حتى تستقيم الحياة وتدوم العِشرة .. كأن يكون لا يحبها فيكذب عليها ويخبرها بأنه يحبها .. فهذا جائز لتدوم الحياة بينهما.

(٢) الكذب من أجل الإصلاح بين المتخاصمين.. كأن يذهب إلى هذا ويخبره بأن فلانًا يحبه ويرجع إلى الآخر ويقول له نفس الكلام من أجل الإصلاح بينهما وتأليف القلوب.

(٣) الكذب على الأعداء في الحرب حتى لا يتسبب في إيذاء بلده وأهل بلده .. فيكذب على الأعداء إذا سألوه عن أي شيءٍ من أسرار بلده وتجهيزاته العسكرية ومواقعه الاستراتيجية خوفًا على بلده التي يحبها.

واستدل العلماء بجواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**»[(١)].

زَاد مسلم في رواية: قَالَتْ أُمُّ كُلثُومٍ: وَلَمْ أَسْمَعهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ، تعني: الْحَرْبُ، وَالإِصلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٢) كتاب الصلح، ومسلم (٢٦٠٥) كتاب البر والصلة.

امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.

۞ **قوله ﷺ: «ولا يخذله»** أي: لا يترك نُصرته على عدوه ولا يترك إعانته عند أزمته.

قال النووي: مَعْنَاهُ إِذَا اسْتَعَانَ بِهِ فِي دَفْعِ ظَالِمٍ وَنَحوِهِ لَزِمَهُ إِعَانَتُهُ إِذَا أَمْكَنَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عُذْرٌ شَرْعِيٌّ.

۞ **قوله ﷺ: «كلُّ المسلم على المسلم حرام عِرضه وماله ودمه»**.

هذا مما كان النبي ﷺ يخطب به في المجامع العظيمة، فإنه خطب به في حجة الوداع يوم النحر، ويوم عرفة، واليوم الثاني من أيام التشريق، وقال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأَعرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**»[١].

وقد دلَّت النصوص كلها على أن المسلم لا يحل له إيصال الأذى إلى أخيه المسلم بوجهٍ من الوجوه من قولٍ أو فعل بغير حق... وقد قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وإنما جعل الله المؤمنين إخوة ليتعاطفوا ويتراحموا... عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعَى لهُ سائِرُ الْجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى**»[٢].

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: «اجعل كبير المسلمين عندك أبًا، وصغيرهم ابنًا، وأوسطهم أخًا فأي أولئك تحب أن تُسيء إليه».

ومن كلام يحيى بن معاذٍ الرازي: «ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة: إن لم تنفعه

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧) كتاب العلم، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب.

فلا تضره، وإن لم تُفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه».

فلا يجوز لمسلمٍ أن يعتدي على عِرض أخيه المسلم بأن ينتهك عِرضه ويتكلم عنه بين الناس ويقدح في عِرضه سواء كان صادقًا أو كاذبًا؛ لأن النبي ﷺ لما سُئل عن الغيبة فقال: «**ذِكرك أخاك بما يكره**» قالوا: يا رسول الله: أرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهتّه**».

ولا يجوز لمسلمٍ أن يعتدي على مال أخيه المسلم غصبًا ولا سرقةً ولا خيانةً ولا بأي شيءٍ يستحل به مال أخيه بغير حَقٍّ...أو أن يجحد الدَّين الذي عليه.

كذلك لا يجوز لمسلمٍ أن يعتدي على أخيه المسلم بالقتل أو الجرح أو غير ذلك مما يسبب له أذىً شديدًا.

۞ ثم قال ﷺ: «**التقوى هاهُنا**» يشير إلى صدره ثلاث مرات. يعني: أن التقوى في القلب.. فإذا أصبح القلب تقيًّا أصبحت الجوارح كلها تبعًا له.. وهذا كقول النبي ﷺ: «... **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1].

فإذا امتلأ القلب بالتقوى والخوف والخشية من الله استقامت الجوارح واستقامت أعماله الظاهرة؛ لأن الأعمال الظاهرة تتبع القلب.

۞ وأحيانًا يحدث جدالٌ بين الناس بسبب كلمة «**التقوى هاهنا**»..

فإذا أمرت أحدًا بالصلاة وهو لا يُريد أن يُصلي قال لك: التقوى هاهنا.. وإذا أمرت امرأة بالحجاب وهي لا تريد أن ترتدي الحجاب قالت: التقوى هاهنا..ونقول لهؤلاء : لو كان في القلب تقوى لظهر ذلك على الجوارح ؛ لأن

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢) كتاب الإيمان - ومسلم (١٥٩٩) كتاب البيوع.

القلب إذا اتقى اتَّقت الجوارح وإذا انهمك في المعاصي انهمكت الجوارح... وتلك الكلمة «التقوى هاهنا» فيها إشارة إلى أن كرم الخلق عند الله بالتقوى. فَرُبَّ مَن يحقره الناس لضعفه وقلة حظه من الدنيا، هو أعظم قدرًا عند الله تعالى ممن له قدر في الدنيا ... فإن الناس إنما يتفاوتون بحسب التقوى كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣]

وسُئل النبي ﷺ : مَنْ أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم لله عَزَّوَجَلَّ»[١].

وفي قوله: «التقوى هاهنا» وإشارته إلى صدره دليل على أن العقل في القلب الذي في الصدر، وهذا هو المطابق للقرآن تمامًا...قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

فقال: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ثم قال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾.

وليس القلبُ هو المخُّ كما يظنه بعض الناس.. فالعقل في القلب، ولكن المخ لاشك أن له أثرًا في أعمال العبد، في حركاته، وفي سكناته، لكنهم قالوا: إن المخ مثل الخادم ، يهيئ الأشياء ويطبخها، ثم يبعث بها إلى القلب، ثم يُصدر القلب الأوامر إلى المخ من أجل أن المخ يدبر الأعصاب وبقية الجسم فيكون هذا المخ خادمًا للقلب عند تصدير الأشياء إليه واستصدارها منه... فالأشياء تمر من القلب ذاهبة وآتية إلى المخ.. والمخ هو الذي يحرك البدن، ولذلك إذا اختلَّ المخُّ اختلَّ كل شيء[٢].

واعلم أن زيغ القلب لا يكون إلا بسبب الإنسان، فإذا كان الإنسان يريد الشر ولا يريد الخير، فإنه يزيغ قلبه والعياذ بالله... ودليل هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٨) كتاب الفضائل.

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٩٧).

ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

فإذا علم الله من العبد نية صالحة وإرادة للخير يسَّر الله له ذلك وأعانه عليه.. قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[الليل: ٥ - ٧]

۞ قوله ﷺ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**». يعني: يكفيه من الشر احتقار أخيه المسلم فإنه إنما يحتقر أخاه المسلم لتكبُّره عليه... والكبر من أعظم خصال الشر... قال ﷺ: «**لا يَدخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[1].

وفي هذا التحريم أعظم زاجر من احتقار أخيك المسلم وأن الواجب عليك أن تحترمه وتُعظمه بما فيه من الإسلام والإيمان.

❊ ❊ ❊

(٢٤٠) وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَحاسدُوا ولا تناجشُوا ولا تَباغَضُوا ولا تَدابرُوا ولا يبع بَعضُكُمْ عَلَى بيْعِ بَعضٍ، وكُونُوا عِبادَ الله إِخْوانًا. المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظلِمُه ولا يَحقِرُهُ ولا يَخْذُلُهُ. التَّقْوَى هَا هُنا» ويُشِيرُ إِلَى صَدرِهِ ثَلاثَ مرَّاتٍ «بِحسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحقِرَ أَخاهُ المسلم. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ: دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ**»[2].

۞ هذا الحديث أصلٌ في حق المسلم على المسلم، وفيما ينبغي أن يكون بين المسلمين من أنواع التعامل.

فقوله ﷺ: «**لا تحاسدوا**» يعني: لا يحسد بعضكم بعضًا.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.

«النَّجش» أَنْ يزيدَ فِي ثَمنِ سِلْعةٍ يُنَادَى عَلَيْهَا فِي السُّوقِ ونحوهِ، ولا رَغْبةَ لَهُ في شِرائهَا بَلْ يقْصِد أَنْ يَغُرَّ غَيْرهُ، وهَذا حرامٌ - «والتَّدابُرُ»: أَنْ يُعرِض عنِ الإِنْسانِ ويهْجُرَهُ ويجعلَهُ كَالشَّيءِ الذي وراءَ الظهْر والدُّبُرِ.

والحسد مركوز في طبع البشر وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحدٌ من جنسه في شيء من الفضائل.

ثم ينقسم الناس بعد هذا إلى أقسام: فمنهم مَن يسعى في زوال نعمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل ثم منهم مَن يسعى في نقل ذلك إلى نفسه، ومنهم مَن يسعى في إزالته عن المحسود فقط من غير نقلٍ إلى نفسه، وهو شرهما، وأخبثهما..وهذا هو الحسد المذموم المنهي عنه ... وكان ذلك ذنب إبليس حين حسد آدم عليه السلام لما رآه قد فاق على الملائكة بأنه خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعَلَّمَه أسماء كل شيءٍ. وأسكنه في جواره فما زال يسعى في إخراجه من الجنة حتى أُخرج منها.

وقسمٌ آخر من الناس إذا حسد غيره لم يعمل بمقتضى حسده، ولم يَبْغِ على المحسود بقولٍ ولا فعلٍ.

وقسمٌ آخر إذا حسد لم يتمنَّ زوال نعمة المحسود بل يسعى في اكتساب مثل فضائله ويتمنى أن يكون مثله ... فإذا كانت الفضائل دُنيوية فلا خير في ذلك كما قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩].

وإذا كانت دينية فهو حسن... وقد تمنَّى النبي ﷺ الشهادة في سبيل الله.

قال ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**»(١).

وقسمٌ آخر إذا وجد في نفسه الحسد سعى في إزالته وفي الإحسان إليه والدعاء له ونشر فضائله وفي إزالة ما وجد في نفسه من الحسد حتى يبدله عُجبة أن يكون أخوه المسلم خيرًا منه وأفضل: وهذا من أعلى درجات الإيمان. وصاحبه هو المؤمن الكامل الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين.

مفاسد الحسد

۞ لا بد أن نعلم أن الحسد من كبائر الذنوب ومن سمات اليهود والعياذ بالله كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[البقرة:١٠٩] ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي: على ما أعطاهم من فضله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٥٤] ، وحذر النبي ﷺ من الحسد وبيَّن أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

ثم إن الحسد فيه اعتراض على قضاء الله وقدره؛ لأن الحاسد لم يرضَ بقضاء الله وقدره ... يعني لم يرضَ أن الله أعطى هذا الرجل مالًا أو أعطاه أهلًا أو أعطاه علمًا ... ففيه اعتراض على قضاء الله وقدره. ثم إن الحسد جمرة في القلب والعياذ بالله كلما أنعم الله على عبده نعمة احترق هذا القلب والعياذ بالله حيث أنعم الله تعالى على عباده ... فتجده دائمًا في نكدٍ ودائمًا في قلق.

والحسد ربما يحصل منه بغيٌ وعدوان على مَنْ آتاه الله من فضله، وربما يُشوه سُمعته عند الناس ويقول فيه كذا وكذا وهو كاذب أو صادق لكن يريد أن يحسد هذا الرجل على النعمة... فربما يحصل منه هذا العدوان على أخيه المسلم ... ثم إن الحسد لا يرد نعمة الله على عبده مهما حسدت ومهما بغيت فإنك لن تمنع قدر الله على عباده،... قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك**»[1] وإلا فلن يضروك... فالواجب على الإنسان إذا رأى من نفسه حسدًا لأحدٍ أن يتقي الله وأن يُوبِّخ نفسه ويقول لها: كيف تحسدين الناس على ما آتاهم الله من فضله؟! كيف تكرهين نعمة الله على عباده؟! يقول: أرأيتِ يا نفس

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

لو كانت هذه النعمة عندك أتحبين أن أحدًا يحسدك عليها.

۞ قيل للحَسَنِ البصرىِّ: «أَيَحسُدُ المؤمنُ؟». فقال: «مَا أنسَاكَ إخوة يُوسُفَ عليه السلام؟! لا أبا لك، ولكن عَمِّهِ فى صدرك، فإِنَّهُ لا يضرُّكَ، مَا لَمْ تَعِد بِهِ يَدًا وَلِسَانًا»[1].

والحسد خُلقٌ ذميمٌ، نَاهيكَ بِهِ شرًّا ... فهُوَ أوَّل ذنبٍ عُصِىَ اللهُ به فى السَّماءِ، وأَوَّلُ ذنبٍ عُصِىَ اللهُ بِهِ فى الأرضِ ... ففى السَّماءِ حَسَدَ عدوُّ الله إبليسُ أبانَا آدم عليه السلام، وفى الأرض حَسَد ابنُ آدمَ أخاه حَتَّى قتله!

۞ قوله ﷺ: «ولا تناجشوا».

فسَّره كثيرٌ من العلماء بالنجش في البيع، وهو أن يزيد في السلعة مَن لا يريد شراءها إما لنفع البائع بزيادة الثمن له أو بإضرار المشتري بتكثير الثمن عليه .

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ «أنه نهى عن النجش»[2].

وقال ابن أبي أوفى: (الناجش آكل ربا خائن).

وقال ابن عبد البر: (أجمعوا أن فاعله عاصٍ لله عَزَّوَجَلَّ إذا كان بالنهي عالمًا).

مثال ذلك: عُرضت سلعة في السوق فصار الناس يتزايدون عليها، فقام رجل فجعل يزيد فيها وهو لا يريد الشراء ... تقدر بمائة فقال: بمائة وعشرة وهو لا يريد أن يشتري، ولكنه يريد أن يزيد الثمن على المشتري، أو يريد أن ينفع البائع فيزيد الثمن له أو الأمرين جميعًا ... فهذا حرام ولا يجوز لما فيه من العدوان... أما إذا زاد الإنسان في الثمن عن رغبة في السلعة؛ ولكن لما ارتفعت قيمتها تركها فهذا لا بأس به، فإن كثيرًا من الناس يزيد في السلعة لأنه يرى أنها رخيصة، فإذا زادت قيمتها تركها ... فهذا ليس عليه بأس. كما أن مِن الناس مَن يزيد في

(١) «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّة، تحقيق وإعداد عبد الله بدران، ومحمَّد عُمر الحاجى (ص ٢٤٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٤٢) كتاب البيوع، ومسلم (١٥١٦) كتاب البيوع.

السلعة يريدها ويزيد في ثمنها حتى تخرج عن قيمتها كثيرًا.

۞ وقوله ﷺ: «ولا تباغضوا» أي: لا يبغض بعضكم بعضًا، وهذه بالنسبة للمؤمنين بعضهم مع بعض ... فلا يجوز للإنسان أن يُبغض أخاه أي: يكرهه في قلبه؛ لأنه أخوه، ولكن لو كان هذا الأخ من العُصاة الفسقة، فإنه يجوز لك أن تُبغضه من أجل فِسقه... لا تُبغضه بُغضًا مُطلقًا ... لكن أبغضه على ما فيه من المعصية، وأحبه على ما فيه من الإيمان.

ومن المعلوم أننا لو وجدنا رجلاً مسلمًا يشرب الخمر ويشرب الدخان ويجر ثوبه خُيلاء، فإننا لا نُبغضه كما نُبغض الكافر .. فمَن أبغضه كما يبغض الكافر فقد انقلب على وجهه ... كيف تُسوِّي بين مؤمنٍ عاصٍ فاسقٍ، وبين الكافر؟ هذا خطأٌ عظيم ... ربما بعض الناس يكره المؤمن الذي عنده هذا الفسق أكثر مما يكره الكافر، وهذا والعياذ بالله من انقلاب الفطرة.

فالمؤمن مهما كان فهو خيرٌ من الكافر.

فأنت تُبغضه على ما فيه من المعصية وتُحبه على ما معه من الإيمان، فإن قلت: كيف يجتمع حُبٌّ وكراهية في شيءٍ واحد؟ فالجواب: أنه يمكن أن يجتمع حُبٌّ وكراهية في شيءٍ واحد ... أرأيت لو أن الطبيب وصف لك دواءً مُرًّا مُنتن الرائحة، ولكنه قال: اشربه وسوف تشفى بإذن الله، فإنك لا تحب هذا الدواء على سبيل الإطلاق؛ لأنه مُرٌّ وخبيث الرائحة، ولكنك تحبه من جهة أنه سببٌ للشفاءِ، وتكرهه لما فيه من الرائحة الخبيثة والطعم المُر.

هكذا المؤمن العاصي، لا تكرهه بالمَرة ... بل تحبه على ما معه من الإيمان وتكرهه على ما معه من المعاصي.

ثم إن كراهتك إياه لا تُوجب أن تُعرض عن نصيحته .. بل اتصل به وانصحه، لعل الله أن ينفعه على يديك .. ولا تيأس فكم من إنسانٍ استبعد الناس

هدايته.. فهداه الله عَزَّوَجَلَّ(١).

۞ قوله ﷺ: «ولا تدابروا» أقام الإسلام العلاقة بين أبناء مجتمعه على دُعامتين أصليتين: أولاهما: رعاية الأُخوة التي هي الرباط الوثيق بين بعضهم مع بعض.

والثانية: صيانة الحقوق والحُرمات التي حماها الإسلام لكل فردٍ منهم من دمٍ وعِرضٍ ومالٍ.

وكل قول أو عمل أو سلوك فيه عدوان على هاتين الدعامتين أو خدش لهما، يُحرِّمه الإسلام تحريمًا يختلف في الدرجة على حسب ما يَنجُم عنه من ضررٍ مادي أو أدبي.

ومن هنا حرَّم الإسلام على المسلم أن يجفو أخاه المسلم، ويُقاطعه، ويُعرض عنه ... ولم يُرخص للمتشاحنين إلا في ثلاثة أيام حتى تهدأ ثائرتهما، ثم عليهما أن يسعيا للصلح والصفاء والاستعلاء على نوازع الكبر والغضب والخصومة...فمن الصفات الممدوحة في القرآن ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٥٤].

قال ﷺ: «**لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ**»(٢).

وقال ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ، يَلْتَقِيَانِ: فيُعرض هَذَا وَيُعرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ**»(٣).

وتتأكد حُرمة القطيعة إذا كانت لذي رحم أوجب الإسلام صلته وأكَّد وجوبها ورعاية حرمتها ... قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وصوَّر الرسول ﷺ هذه الصلة ومبلغ قيمتها عند الله

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٦٠٠-٦٠١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٥٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٣٧) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢٥٦٠) كتاب البر والصلة.

فقال: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ**»(١).

وقال: «**لا يَدخل الجَنَّة قَاطِع**»(٢).

وليست صلة الرحم الواجبة أن يُكافئ القريبُ قريبه صلةً بصلةٍ، وإحسانًا بإحسانٍ ... فهذا أمرٌ طبيعي مفروض ... إنما الواجب أن يصل ذوي رحمه وإن هجروه ... قال ﷺ: «**لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا**»(٣).

وهذا ما لم يكن ذلك الهجران، وتلك المقاطعة لله وفي الله وغضبًا للحق، فإن أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

وقد هجر النبي ﷺ وأصحابه، الثلاثة الذين خُلفوا في غزوة تبوك خمسين يومًا حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، وضاقت عليهم أنفسهم، ولم يكن أحدٌ يُجالسهم أو يكلمهم أو يُحيِّيهم، حتى أنزل الله في كتابه توبته عليهم(٤).

وهجر النبي ﷺ نساءه شهرًا كاملًا.

وهجر عبد الله بن عمر ابنًا له إلى أن مات؛ لأنه لم يَنقَدْ لحديثٍ ذكره له أبوه عن رسول الله ﷺ نهى فيه الرجال أن يمنعوا النساء من الذهاب إلى المساجد(٥).

أما إذا كان الهجران والتشاحن لدنيا، فإن الدنيا لأهون على الله وعلى المسلم من أن يؤدي إلى التدابُر وتقطيع الأواصر بين المسلم وأخيه.

كيف وعاقبة التمادي في الشحناء حرمان من مغفرة الله ورحمته.

قال ﷺ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٨٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٥) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٨٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٦) كتاب البر والصلة.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٩٩١) كتاب الأدب.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٨) كتاب المغازي، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

(٥) رواه أحمد (٦٠٦٦)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحناءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَـذَيْنِ حَتَّى يَصطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصطَلِحَا »(١).

ومَن كان صاحب حق فيكفي أن يجيئه أخوه مُعتذرًا، وعليه أن يقبل اعتذاره وينهى الخصومة ... ويَحْرُم عليه أن يردَّه ويرفض اعتذاره، ويُنذر النبي ﷺ مَن فعل ذلك بأنه لن يَرِدَ عليه الحوض يوم القيامة(٢).

وخُلاصة القول في الهجر: أنه لا يجوز لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ من أجل الدنيا ولابد أن يصطلحا وإلا فسوف يأثما.. وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

أما إذا كان عاصيًا أو مُبتدعًا فيجوز لك أن تهجره من أجل أن تزجره عن البدعة أو المعصية إن كنت تعلم أن هجرك إياه سيرده إلى الحق والصواب .. وقد هجر النبي ﷺ وأصحابه الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك خمسين ليلة.

أما إن كنت تعلم أن هجرك للعاصي أو المبتدع سيزيده عنادًا أو إصرارًا على البدعة أو المعصية فلا يجوز أن تهجره وعليك أن تُقدم له النصيحة بكل رفقٍ ورحمة.

۞ قوله ﷺ: **«ولا يبع بعضكم على بيع بعض»**؛ لأن هذا يؤدي إلى الكراهية والعداوة والبغضاء. ومثال بيع الإنسان على بيع أخيه: أن يذهب لمن اشترى سلعة من شخصٍ بمائة فيقول: أنا أعطيك مثلها بثمانين، أو أعطيك أحسن منها بمائة فيرجع المشتري ويفسخ العقد الأول ويعقد مع الثاني... ففي هذا عدوان ظاهر على حق البائع الأول، وهذا العدوان يوجب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

ومثل ذلك الشراء على شرائه، مثل: أن يذهب إلى شخص باع سلعة بمائة

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة.

(٢) الحلال والحرام/ د. يوسف القرضاوي (ص ٢٦٨-٢٧١) بتصرف كبير.

فيقول له: أنا أشتريها منك بمائة وعشرين، فيذهب البائع ويفسخ العقد ويبيع للثاني، فهذا أيضًا حرام؛ لأنه بمعنى البيع على البيع[(١)].

❁ **وقوله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخوانًا»** هذا ذكره النبي ﷺ كالتعليل لما تقدم وفيه إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسُد، والتناجُش، والتباغض، والتدابر، وبيع بعضهم على بيع بعضٍ كانوا إخوانًا.

وفيه أمرٌ باكتساب ما يصير به المسلمون إخوانًا على الإطلاق.

وذلك يدخل فيه أداء حقوق المسلم من ردِّ السلام وتشميت العاطس، وعيادة المريض، وتشييع الجنازة، وإجابة الدعوة، والابتداء بالسلام عند اللقاء، والنُّصح بالغيب.

❁ وقوله ﷺ: « **الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظلِمُه ولا يَخْذُلُهُ ولا يكذبه ولا يَحْقِرُهُ**».

هذا مأخوذ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

فإذا كان المؤمنون إخوة أُمِرُوا فيما بينهم بما يُوجب تآلُف القلوب واجتماعها .. ونُهوا عما يوجب تنافُر القلوب واختلافها ... وهذا من ذلك.

وأيضًا فإن الأخ من شأنه أن يُوصل إلى أخيه النفع، ويَكُف عنه الضرر، الذي يجب كَفُّه عن الأخ المسلم.. فلا يظلمه ولا يخذله أبدًا.

لأن المؤمن مأمورٌ أن ينصر أخاه كما قال ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «**تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**»[(٢)].. ولا يحل له أن يكذب على أخيه المسلم

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٦٠٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤) كتاب المظالم والغصب، و(٦٩٥٢) كتاب الإكراه.

بل لا يُحدثه إلا صدقًا، ولا يجوز احتقار المسلم لأخيه... فهو ناشئ عن الكبر كما قال النبي ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(١).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ**﴾ [الحجرات: ١١].

فالمتكبر ينظر إلى نفسه بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص فيحتقرهم، ويزدريهم، ولا يراهم أهلًا لأن يقوم بحقوقهم ولا أن يقبل من أحدٍ منهم الحق إذا أورده عليه.

۞ قوله ﷺ: «**التَّقْوَى هَا هُنا**» ويُشِيرُ إِلَى صَدرِهِ ثَلَاثَ مرَّاتٍ «**بِحسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحقِرَ أَخاهُ المسلم. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ**».

تم شرحه كاملًا في الحديث السابق فأرجو الرجوع إليه فأنا لا أريد أن أُكرِّر شرح الحديث حتى لا أُتعب أحبابي بكثرة التكرار.

***

(٢٤١) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢).

ورواه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بلفظ: «**لا يبلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير**».

۞ فهذا الحديث يدل على أن الإنسان لا يكمل إيمانه، حتى يتصف بهذا الوصف، وإنَّ نفي الإيمان هنا المراد به نفي كماله، وبلوغ حقيقته ونهايته، فإن الإيمان قد ينتفي لانتفاء بعض أركانه وواجباته..لأن الأعمال الصالحة من الإيمان وحصول الإخلال بها يحصل به نقص الإيمان، كما أن وجود المعاصي

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

يُنقصه ويُضعفه .. كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(١)...وكقوله ﷺ: «**وَاللهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»(٢).

والحاصل أن من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، فإذا زال عنه هذا الوصف فقد نقص إيمانه بذلك...ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: «**أَحِبَّ للناس ما تُحب لنفسك تكن مؤمنًا**»(٣).

وفي هذا المعنى قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»(٤).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ**»(٥).

فهذا يدل على شدة نُصحه ﷺ وشفقته على أصحابه وأمته، ومحبته الخير لهم...فهو ﷺ مُتَّصفٌ بهذا، ويحب لكل مؤمن أن يتصف به، ولعله ﷺ عَلِمَ من أبي ذر رضي الله عنه عدم القدرة على القيام بأعباء الولاية، فنبَّهه على ذلك، وأرشده إلى عدم تولِّي أمور الناس، سلامة له من تَبعة الأمر، ومخافة أن يَضعُف رضي الله عنه عن القيام به، فيُقصر فيما أُنيط به، فيلحقه بسبب ذلك الإثم ... ولذلك لم يَقُل ﷺ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٧٥) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٥٧) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٦) كتاب الأدب، ومسلم (٤٦) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه البيهقي في الشُّعب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٨٠).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٤) كتاب الإمارة.

(٥) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٦) كتاب الإمارة.

ذلك في حق غيره من أصحابه الذين لهم قدرة وقوة على القيام بأعباء الإمارة، بل كان يوليهم ذلك ... والنبي ﷺ متصف بهذا فهو القائم بأمور المسلمين، وهو الذي يدبرهم في أمورهم الدينية والدنيوية؛ لأن الله قوَّاه على ذلك، وأمره بدعوة الخلق إلى دين الإسلام، وولَّاه سياستهم الدينية والدنيوية.

فمدار هذا الحديث، وهو قوله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** يدل على أن المؤمن يَسوؤه ما يسوء أخاه المؤمن، ويريد لأخيه المؤمن ما يريد لنفسه من الخير، وهذا إنما يحصل من سلامة الصدر من الغش والغل والحقد ... فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحدٌ في خيرٍ، أو يُساويه فيه؛ لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائله، وينفرد بها عنهم ... والإيمان الكامل يقتضي خلاف ذلك، وهو أن يحب أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير، من غير أن ينقص عليه منه شيء ... وقد مدح الله سبحانه في كتابه العزيز مَن لا يريد العلو في الأرض ولا الفساد، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣].

فينبغي للمؤمن أن لا يرى نفسه بعين الكمال، ويرى غيره بعين النقص، سواء فيما يتعلق بأمور دينه، أو غيرها، من خَلقٍ، أو خُلقٍ، أو علم، أو غير ذلك، فإذا رأى مَن هو فوقه في العبادة والطاعة تمنَّى أن يكون مثله ولا يحسده على ذلك... وكذلك إذا رأى أهل المعاصي ينبغي له أن يخشى على نفسه أن يكون مثلهم، ولذا لا يتكبر عليهم، ولا يظن أن له منزلة عند الله أفضل منهم ... لأن الأعمال بالخواتيم، ولا يدري ماذا يُختم له به .. والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، فيسأل الله الثبات على الحق، وينصح مَن رآه على معصية بنية تغيير المنكر، عملًا بقوله ﷺ: **«مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيغيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطع فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبقَلبِه وَذَلَكَ أَضْعَفُ الإيمانِ»**[1].

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان.

فينصح لأخيه المسلم، بدون سَبٍّ، أو تعنيف، أو تنقُّصٍ له.

فالمؤمن يأمره إيمانه، ويحمله على أن يكون في مساعدة أخيه المؤمن، مساعدة بكل ما يقدر عليه ... مساعدة بالمال والجاه.. مساعدة بالدعاء.. مساعدة بالنُّصرة له إن كان مظلومًا.. مساعدة بمنعه من الظلم إن كان ظالمًا، كما بيَّن النبي ﷺ أن مِن نُصرة الظالمَ ردَّه عن ظُلمه.

وكما قال النبي ﷺ: «**الْمُؤْمنُ للْمُؤْمِن كَالْبُنْيَانِ يَشدُّ بعضُهُ بَعْضًا**» وشبَّكَ بَين أصَابِعِهِ[1].

فعلى المؤمنين مراعاة هذا الأصل، وأن يكونوا إخوانًا متراحمين، متحابين، متعاطفين، يُحب كُلٌّ منهم للآخر ما يحب لنفسه، ويسعى في ذلك بكل جهده، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا ... فإن مجموع البنيان من أساسات وحيطان محيطة بجميع البنيان، وهناك حيطان تحيط بمنازل مخصوصة، وما تضمنته من سقوف وأبواب ونوافذ ومنافع، كل نوع من ذلك لايقوم بمفرده، لكن بانضمام بعضها لبعض يحصل المقصود من وقاية الحر، والقر، وصدِّ الرياح، والأتربة، وحصول الأمن، والاستقرار فيها، والخلوة، والستر عن أعين الناس ... فكذلك المؤمنون يحصل لهم كل ذلك إذا اتصفوا بهذا الوصف.

وبالجملة لا يكمل إيمانه إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ لأن المؤمنين كما شبههم الرسول ﷺ كالبنيان يشد بعضه بعضًا.. وهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تَدَاعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى[2].



(١) متفق عليه: رواه البخارى(٢٤٤٦) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٥) كتاب البر والصلة.

(٢) من هدي المصطفى ﷺ / الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (١٦٧-١٧٣) بتصرف كبير.

(٢٤٢) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالمًا أَوْ مَظْلُومًا» فقَالَ رَجُلٌ: يَا رسول الله أَنْصرهُ إِذَا كَانَ مَظلُومًا أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قال: «تَحْجزُهُ أَوْ تَمْنعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذلك نَصْرُهُ»[(١)].

۞ إن من الواجب على كل مسلم أن ينصر المظلوم قدر استطاعته وأن يحرص كل الحرص على نُصح الظالم والأخذ على يديه حتى يَكُفَّ عن الظلم.

ففى «صحيح مسلم»[(٢)] من حديثِ أَبِى سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيرْهُ بِيدِهِ، فَإِنْ لَمْ يسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**.

قالَ الإمام النَّووى رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا نصر الْمَظْلُوم فَمِنْ فُرُوضِ الْكِفَايةِ وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْى عَنِ الْمُنْكَرِ ... وَإِنَّمَا يتوَجَّهُ الْأَمْرُ بِهِ عَلَى مَنْ قَدرَ عَلَيهِ وَلَمْ يخَفْ ضَرَرًا»[(٣)].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ»**[(٤)].

قالَ النَّووى رَحِمَهُ اللهُ: « قَالَ الْعُلَمَاءُ الْخَذْلُ تَرْكُ الْإِعَانَةِ وَالنَّصْرِ.

وَمَعْنَاهُ: إِذَا اسْتَعَانَ بِهِ فِى دَفْعِ ظَالِمٍ وَنَحوِهِ لَزِمَهُ إِعَانَتَهُ إِذَا أَمْكَنَهُ وَلَمْ يكُنْ لَهُ عُذْرٌ شَرْعِى...(وَلَا يحقِرُهُ)... أَى لَا يحتَقِرَهُ فَلَا يُنْكِرُ عَلَيهِ وَلَا يسْتَصغِرُهُ»[(٥)].

ففى «مسند أحمد» بسندٍ صحيح من حديث أبى بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤) كتاب المظالم والغصب، و(٦٩٥٢) كتاب الإكراه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان.

(٣) «شرح النَّووى على مسلم» (١٤/ ٣٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

(٥) «شرح النَّووى على مسلم» (١٦/ ١٨٢).

«أيُّها النَّاس إنَّكُم تَقْرَأونَ هَـذِهِ الآيَـة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمِ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِيهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ**»(١).

وأمَّا متى يكونُ نصرُ المظلُوم، فيكون قبل وقوع الظُّلم، وبعد وقُوعه.

قال الحافظُ ابنُ حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وَيقَعُ النَّصْرُ مَعَ وُقُوعِ الظُّلْمِ وَهُوَ حِينَئِذٍ حَقِيقَةٌ... وَقَدْ يقَعُ قَبْلَ وُقُوعِهُ كَمَنْ أَنْقَذَ إِنْسَانًا مِنْ يدِ إِنْسَانٍ طَالَبَهُ بِمَالٍ ظُلْمًا وَهَدَّدَهُ إِنْ لَمْ يبْذُلْهُ وَقَدْ يقَعُ بَعْدُ وَهُوَ كَثِيرٌ»(٢).

۞ فقال رجلٌ: يا رسول الله أرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره**» فهذا الرجل لم يقُل: لن أنصره ولكن قال: أنا سأنصره ولكن أنصره وهو ظالم؟! فأخبره النبي ﷺ أنه إذا أراد أن ينصر ظالمًا فإنه ينصره على نفسه وذلك بأن تحجزه وتمنعه من الظلم ؛ لأنك إن تركته فسوف يتعرض لعقاب الدنيا والآخرة .. وذلك بأن ينتقم منه أهل المظلوم .. هذا غير ما ينتظره من العذاب يوم القيامة ... فقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[طه: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

فسوف يقتص الله منه للمظلوم ويُعطيه من حسناته بقدر مظلمته .. وليس المراد بالظلم: القتل فقط فأنواع الظلم كثيرة جدًّا .. فإن منعت الظالم من ظلمه فقد نصرته وأنقذته من عذاب الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٧٣).

(٢) «فتح الباري» (٥/ ٩٩).

(٢٤٣) وعَـنْ أبـي هريـرة رضي الله عنه أَنَّ رسـول الله ﷺ قـال: «حـقُّ الْمُـسْلمِ عَلَـى الْمُـسْلِمِ خمـسٌ: رَدُّ الـسَّلامِ، وَعِيَـادَةُ الْمـرِيضِ، واتِّبَـاعُ الْجنَـائِزِ، وإِجابـة الـدَّعوةِ، وتَشمِيت العاطِسِ»(١).

وفي رواية لمسلم: «حق الْمُسْلمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إذا لقِيتَهُ فسلِّم عليْه، وإِذَا دَعاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَح لهُ، وإِذا عطَس فحمِد الله فشَمِّتْهُ. وَإِذَا مرِض فَعُدْهُ، وَإِذَا ماتَ فاتْبعْهُ».

۞ وقبـل أن أبـدأ الحـديث عـن حقـوق الأخـوة فى الله أريـد أن أُذكِّـر نفـسى وإخوانى بـأن الواحـد منا إذا قـام بتلـك الحقـوق كلهـا ولـم تكـن صـحبته لأخيـه خالصة لوجه الله، فقد خاب سعيه وفسد عملـه؛ ولـذلك لابـد أن نستحـضر النيـة الصالحة أولاً بأننا نحب إخواننـا ونـصحبهم ونقـوم بحقـوقهم ابتغـاء مرضـاة الله (جل وعلا) لنفوز فى الدنيا والآخرة.

فإن الأُخوة فى الله لا تكون مقبولة عنـد الله حتـى تكـون مجـردة مـن أى نفـع، ومن أى مأربٍ خاص، وإنما لله، وفى الله، وعلى طاعة الله.

فعن أبى هريـرة رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إن رجـلاً زار أخًـا لـه فى قرية أخرى، فأرصد الله سبحانه وتعـالى علـى مدرجتـه ملكًـا، فلمـا أتـى عليـه قـال: أيـن تريد؟ قال: أريد أخًا لى فى هذه القرية، قال: هـل لـك عليـه نعمـة تربُّها عليه؟ قـال: لا.. غير أنى أحببته فى الله تعالى. قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قـد أحبـك، كمـا أحببته فيه»(٢).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أن يجد حلاوة الإيمـان، فليحب المرء لا يحبه إلا لله»(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٤٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢١٦٢) كتاب السلام.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة والآداب.
(٣) حسن: رواه أحمد ، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٨٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوثق عُرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**»(١).

فاجعل أخي في الله حُبك لأخيك خالصًا لله غير منتظر أي مصلحة من وراء هذا الحب فذلك من كمال التوحيد.

ففي هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أول الحقوق: أن تبدأ أخاك بالسلام إذا لقيته.. وإذا بدأك هو بالسلام فلا بُدَّ أن ترد عليه السلام.

فقد قال ﷺ: «**حق الْمُسْلِمِ على المسلم خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ**» يعني: إذا سلم عليك أن ترد عليه السلام.. وفي الحديث الثاني: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ**» أي: ابدأ أنت بالسلام عليه.

فهذان أمران: ابتداء السلام المأخوذ من قوله: «**إذا لقيته فسلِّم عليه**»، و رَدُّ السلام المأخوذ من قوله: «**رَدّ السلام**»، فابتداء السلام سُنة مؤكدة.

و رَدُّه فرض ... فرض عينٍ على مَن قُصد به ... وفرض كفاية إذا قُصد به جماعة، فإنه يجزئ رَدُّ أحدهم.

۞ السلام.. هو الأمان والاطمئنان.. وهو أقصى ما يتمناه الإنسان.. وغاية ما ترجوه البشرية.. في حين أن الإسلام الحنيف، منذ أربعة عشر قرنًا قد مجَّد السلام وكرَّمه.. ثم حققه ونشره.. وغرسه في قلوب أتباعه وأنصاره.. حتى ظهر على أقوالهم.. وفي كل أعمالهم.

السلام.. قدَّمه رب العالمين (جل وعلا)، فجعله اسمًا من أسمائه الحسنى... فقال عز وجل: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر: ٢٣] وسَمَّى الجنة التى هى عاقبة المتقين «دار السلام» فقال سبحانه: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وفى الحديث: «**السَّلَامُ اسْمٌ مِنْ**

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٣٩).

أَسْمَاءِ اللهِ، وَضَعَهُ اللهُ فِي الأَرْضِ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ»[(١)].

وجعله رب العالمين تحية لآدم أبى البشر... وزفَّتها إليه ملائكته الأطهار، وصارت تحية ذريته من بعده. قال ﷺ: «خَلَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ آدمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُجِيبُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، قَالَ: فَذَهَبَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، قَالَ فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، قَالَ: فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الْآنَ»[(٢)].

بل وجعله سبحانه وتعالى تحية أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠] والملائكة يُحيونهم فى الجنة بالسلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وحين جاءت الملائكة بالبشرى لخليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيوه بالسلام، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥]

ووصف سبحانه أعظم ليلة وأفضلها وأكرمها (ليلة القدر) بأنها ليلة السلام... فقال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤].

وكرر سبحانه السلام على أنبيائه ورسله تكريمًا لذكرهم، وتخليدًا لأعمالهم وتعريفًا بفضلهم، فقال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، وسلَّم على يحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

---

(١) صحيح: رواه البزار، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٩٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٢٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٤١) كتاب الجنة.

۞ فيا أيها المسلمون الأفاضل:

إن ربكم السلام.. ورسولكم هو نبى السلام.. وقرآنكم هو كتاب السلام.. وتحيتكم هى السلام.. وإن مسعاكم إلى الجنة دار السلام.. وإن رسالتكم هى رسالة السلام.. فأشعروا أنفسكم روح السلام.. ليعُمَّكم ربكم بنعمة السلام.... ورسولنا وحبيبنا محمد ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة، ووصل إلى هناك، وضع دستوره هناك.. لكن ماذا كان هذا الدستور؟

لقد كان دستورًا عظيمًا موجزًا.. لكنه يعطى الأمان والحب والإخلاص.. خطب يومها خطبة.. لم تكن ساعة ولا ساعتين.. وإنما كانت دقائق معدودة،... وهذا هو الصحابى الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه يحكي ماذا قال النبي ﷺ.. قَالَ عَبدُ اللهِ بنُ سَلَام: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَكُنْتُ فِيمَن انْجَفَلَ فَلَمَّا رأيته عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ.. فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ سَمِعتُهُ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»(١).

والسلام يعمق جذور الحب بين المسلمين، ويُدخل الطمأنينة على الخائف منهم... قال ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَ لا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»(٢).

فإذا أردت أن تفعل أعظم وأفضل ما جاء به هذا الدين العظيم فعليك بإطعام الطعام، وإفشاء السلام،... قال النبى عليه الصلاة والسلام عندما جاءه رجل، فقال له: أى الإسلام خير؟ قال: «**تُطعم الطعام**» قال الرجل: ثم ماذا؟ فقال ﷺ: «**أن تقرأ السلام على مَن عرفت ومَن لم تعرف**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

وإذا أردت أخي الحبيب أن تدخل دار السلام، فعليك بكثرة إفشاء السلام...

وإذا أردت أن تملأ صحيفتك بالحسنات، وأن تُرفع لك الدرجات، فأفشِ السلام. وذلك لأنه أعظم للأجر والثواب ... وقد جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: السلام عليكم، فقال النبى ﷺ: «**عشر**». وجاء آخر فقال: السلام عليك ورحمة الله، فقال النبى ﷺ: «**عشرون**» وجاء ثالث فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال النبى ﷺ: «**ثلاثون**»(١). يقصد بذلك الحسنات، فكلما كان السلام أكمل كلما كان الأجر أعظم.

۞ **قال ابن حبان البستى**: «والبادىء بالسلام بين حسنتين، إحداهما. تفضيل الله عَزَّوَجَلَّ إياه على المُسلَّم عليه بفضل درجة، لتذكيره إياهم بالسلام، وبين رَدِّ الملائكة عليه عند غفلتهم عن الرد.

ثم قال: الواجب على المسلم إذا لقى أخاه المسلم أن يُسلم عليه مبتسمًا إليه، فإن مَن فعل ذلك تتساقط عنهما خطاياهما كما يتساقط ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس، وقد استحق المحبة مَن أعطاهم بِشر وجهه»(٢).

ولذلك فإننا إذا أفشينا السلام تحاببنا، واجتمعت كلمتنا، وقهرنا عدونا، وعلونا عليهم، وكانت لنا الرفعة عند الله تعالى...فإن أعداءنا يحسدوننا على هذه التحية، وهذا الأدب الرفيع، الذى علمه لنا رسولنا ﷺ...فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**ما حسدتكم اليهود على شىء، ما حسدتكم على السلام والتأمين**»(٣).

لذا حرص السلف الصالح (رضوان الله عليهم) على إفشاء السلام...

فقد روى مالك فى الموطأ بإسنادٍ صحيح عن الطفيل بن أُبى بن كعب أنه كان يأتى عبد الله بن عمر فيغدو معه إلى السوق.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٧١٠).

(٢) روضة العقلاء لابن حبان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦١٣).

قال: فإن غدونا إلى السوق، لم يمر عبد الله على صاحب بيعة، ولا مسكين، ولا أحدٍ إلا سلَّم عليه. قال الطفيل: فجئت عبد الله ابن عمر يومًا، فاستتبعنى إلى السوق، فقلت له: ما تصنع بالسوق، وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس فى مجالس السوق؟ فقال له: يا أبا بطن - وكان الطفيل ذا بطنٍ - إنما نغدو من أجل السلام، فنُسلِّم على مَن لقيناه(١).

۞ أما إذا كان المسلم في حالة خصام مع أخيه وقد هجره فله ألا يُسلِّم عليه .. فقد أجاز النبي ﷺ للمسلم أن يهجر أخاه ثلاثة أيام فأقل... لأن الإنسان بَشَرٌ.. فقد يكون في النفوس شيء، ولا يتحمل المرء أن يُسلم عليه، أو أن يرد السلام، فرُخص له ثلاثة أيام فأقل... ثم يتصالحا بعد ذلك.

هذا إذا كان الهجر من أجل أمرٍ من أمور الدنيا .. أما الهجر الشرعي لأهل البدع والمعاصي فيجوز أن تهجرهم من أجل زجرهم عن البدع والمعاصي إن كنت تعلم أن الهجر سيكون سببًا في تركهم للبدع والمعاصي أما إذا تيقنت أن الهجر سيزيدهم عنادًا وفسادًا فلا يجوز هجرهم حينئذٍ.

۞ ولا بد أن نعلم أن السلام حسنة من الحسنات إذا قام به الإنسان فله عشر أمثاله؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، يعنى إذا سلمت على أخيك وقلت: السلام عليك، فلك عشر حسنات أجرًا باقيًا تجده أحوج ما تكون إليه.

ونحن نعلم أنه لو قيل لشخص كلما لقيت أحدًا فسلمت عليه فلك بكل تسليمة درهم واحد، لوجدت الإنسان يطلب الناس ليسلم عليهم ابتغاء هذا الدرهم الواحد..مع أن الدرهم الواحد يفني ويزول، والأجر والثواب يبقى.

هذا كله بالنسبة للمسلمين .. أما غير المسلمين فلا تبدأهم بالسلام لأن النبي ﷺ قال: **«لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا وجدتموهم في طريق فاضطروهم**

(١) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٣٥٩) رقم (٦).

إلى أضيقه»[١] فاليهودي والنصراني والمشرك والملحد والمرتد، والمبتدع بدعة يَكفُر بها... كل هؤلاء لا يحل ابتداء السلام عليهم، ولو كانوا أقرب الناس إليك، لكن إذا سلموا فَرُدّ عليهم بمثل ما سلموا به، إذا قالوا: أهلاً ومرحبًا، فقل: أهلاً ومرحبًا، وإذا قالوا: السلام عليكم، قل: وعليكم السلام، وإذا شككت: هل هو يقول: السلام عليكم، أويقول: السام عليكم، فقل: وعليكم... وذلك لأن اليهود كانوا يمرون بالنبي ﷺ وأصحابه فيسلمون عليه لكن يقولون: السام عليكم يدغمونها.. والسام يعني: الموت، فقال النبي ﷺ: «**إن اليهود إذا لقوكم قالوا: السام عليكم، فقولوا: وعليكم**»[٢] أي: إن كانوا يدعون لنا بالسلام فعليهم السلام، وإن كانوا يدعون علينا بالموت فعليهم الموت، وهذا من العدل[٣].

❁ **وأما الحق الثاني فهو عيادة المريض:**

تالله إن الأجساد لا تشعر بآلامها عندما ترى إخوانًا فى الله يحيطون بها.. بل إن الأحزان والأشجان تذهب برؤيتهم.

وعيادة المريض لها فضل عظيم عند الله (جل وعلا)..قال ﷺ: «**ما من مسلم يعود مسلمًا غُدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسى وإن عاده** (أى زاره) **عشية صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وكان له خريف فى الجنة**»[٤].

وفى رواية: «**مَن عاد مريضًا أو زار أخًا له فى الله ناداه مُنادٍ: أن طِبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً**»[٥].. فيا له من أجر لا ينبغى أن يفرط فيه كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر .. ويا لها من حياة طيبة حينما يجد المريض إخوانه المسلمين

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٧) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٤) كتاب السلام.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٦٠٧-٦٠٨) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه الترمذى، وصححه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٦٧).

(٥) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٨٧).

حوله يدعون له وينشغلون بحياته وصحته ويُذكرونه بأن المرض نعمة من عند الله .. فبذلك يَثبُت أمام فتنة المرض التى لا يَثبُت أمامها إلا أهل الإيمان.

وفى الحديث التالى يتبين لك ما لعيادة المريض من أجرٍ عظيم.

فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**»[١].

ونظرًا لخطورة عيادة المريض وعِظَم ثوابها، فإن من أهل العلم مَن يُوجبها، ودليلهم: حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أطعموا الجائع، وعودوا المريض**[٢]**، وفُكُّوا العانى**[٣]»[٤].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) استدل أهل العلم بذلك على مشروعية العيادة فى كل مريض، رجلاً كان أو امرأة، كبيرًا أو صغيرًا، مسلمًا أو كافرًا، أيًا كان مرضه. انظر «فتح البارى» (١٠/ ١١٧).

قلت: وتجوز عيادة المرأة للرجل الأجنبى إذا أُمنت الفتنة، ولم تكن هناك خلوة، ولا يتوقع من تلك الزيارة شرٌّ أو فساد... وقد زارت أم المؤمنين عائشة بلالاً ﷺ كما فى البخارى (٦٣٤٩)، ومسلم (٢٦٨١)، وأما زيارة الكافر فقد زار رسول الله ﷺ اليهودى كما فى البخارى (٥٦٥٧)، وزار عمه أبا طالب وهو مشرك كما فى زاد المعاد (١/ ٤٩٤)، وأما عيادة الفاسق أو المبتدع، ومَن على شاكلتهما فقد قال العسقلانى: «الصحيح الجواز؛ لأنه مسلم، والعيادة من حقوق المسلمين، وهذا غير حكم المخالطة» انظر «فضل الله الصمد» (١/ ٦٢٦).

(٣) العانى: الأسير.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٥٦٤٩) كتاب المرضى.

وقد ترجم الإمام البخاري للباب بقوله: (باب وجوب عيادة المريض):

قال الإمام ابن حجر: «جزم بالوجوب على ظاهر الأمر بالعيادة...قال ابن بطال: يُحتمل أن يكون الأمر على الوجوب بمعنى الكفاية: كإطعام الجائع، وفك الأسير، ويُحتمل أن يكون للندب، للحث على التواصل والأُلفة.

۞ وأما عن الآداب التي ينبغي أن يتأدب بها المسلم عند عيادة المريض فهي:

(١) إخلاص النية لله (جل وعلا): وذلك بأن يبتغي وجه الله بتلك الزيارة ليفوز بهذا الأجر العظيم المترتب على عيادته للمريض.

(٢) اختيار الوقت المناسب لعيادته:

بمعنى أن لا يزوره في وقت يسبب له أي إرهاق أو مشقة.

(٣) أن يُصبِّره ويُذكره بالله (جل وعلا):

وذلك بأن يُذكره بالأجر والثواب المذكور في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ للصابرين على المرض والراضين بقضاء الله (جل وعلا).

- وأنه إذا صبر فإنه قد يفوز بمعية الله ومحبته فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣]وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٦].

- وأنه إذا صبر فإنه يفوز بالأجر الذي لا يخطر على قلب بشر .... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

(٤) ويسأله عن حاله تأنيسًا له... فعن أنس رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك»؟[١]

(٥) والمستحب لمن عاد المريض: أن يسأل عن حاله كيف أنت .. وعن عبادته: كيف تتوضأ، كيف تصلي .... وعن معاملاته: هل لك حقوق على الناس، أو هل للناس حقوق عليك.

(١) حسن: رواه الترمذي، وابن ماجه ، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٥١).

(٦) يفتح له باب الأمل: فمثلاً إذا جئت مريضًا وقلت له: أنت اليوم أحسن من أمس، حتى وإن لم يكن أحسن من جهة المرض لكن تقول: أحسن من أمس؛ لأنك زدت خيرًا، ما بين الأمس واليوم صليت خمس صلوات، استغفرت، هَلَّلْتَ، كذلك زاد أجرك بالمرض ... وذلك حتى يُدخل عليه السرور[1].

(٧) يثنى على المريض بمحاسن أعماله:

وذلك بما يُذهب عنه خوفه، ويُحسن ظنه بربه عَزَّوَجَلَّ.

(٨) يَقُص عليه بعض القصص الجميل:

وذلك؛ لأنه مَدعاة لإدخال السرور عليه.

(٩) يُذكره بقصص مَن ابتُلى قبله من الأمم السابقة ومن سلفنا الصالح.

(١٠) يُذكره بأن الفرج قريبٌ جدًّا وقد يأتى من حيث لا يحتسب.

(١١) عيادة المريض فى وقتٍ لا يشق عليه:

فلا يذهب للعيادة فى وقتٍ مبكر جدًّا، أو متأخر جدًّا، فإن المريض قد يكون نائمًا، أو نحو ذلك .. فالأفضل الذهاب في الأوقات التي اعتاد الناس عيادة المريض فيها، ويكون فيها المريض متهيئًا لاستقبال زُواره.

(١٢) سؤال أهل المريض عنه وعن صحته:

فإن ذلك مما يجبر خاطرهم، ويُسكِّن قلوبهم.

(١٣) القعود عند رأس المريض:

وهذا من السُّنة...فإن النبى لما عاد الغلام اليهودى الذى كان يخدمه قعد عند رأسه[2] وهذا فيه إراحة للمريض وإيناس له، كما أنه يجعل العائد فى وضع يسمح له بوضع يده على رأس المريض لرقيته، أو ليمسك بيده، أو نحو ذلك.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤، ٣٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٣٥٦) كتاب الجنائز.

(١٤) تبشير المريض بثواب المريض:

فإن ذلك مما يُهوِّن عليه المرض، ويُطيب خاطره، ويُعينه على الرضا بقضاء الله، ويَرفع روحه المعنوية، ويُذكره بثواب الصبر على المرض.

(١٥) نهى المريض عن التسخُّط وسَبِّ المرض:

فإن المريض قد يتسخط على القضاء، وحينئذٍ يُنهى عن ذلك كما سبق، ويُذكَّر بالصبر.

(١٦) النُّصح للمريض بعدم الشكوى مُتسخطًا:

فإن مَن اشتكى مُتسخطًا فإنه يشكو الله إلى الخلق...والله أرحم به من نفسه، وهل يُغنى عنه الخلق شيئًا؟

(١٧) نهى المريض عن تَمنِّى الموت:

إذ إن كثيرًا من الناس يتمنى فى مرضه - إذا كان شديدًا - أن يموت، ولا يدرى أن المرض كفارة لذنوبه، وأن الموت فيه انقطاع عمله، وأنه إن يُؤخَّر فلعله يُستعتب ويتوب.

(١٨) تذكير المريض بإحسان الظن بالله تعالى:

لأنه قد يموت فى مرضه ذلك، فينبغى أن يُحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ ويُغلِّب الرجاء على الخوف.

(١٩) تذكيره بالوصية:

حتى لا يموت على غير وصية، فإنه ينبغى للمسلم أن تكون وصيته جاهزة على الدوام.

(٢٠) وصية أهله بالصبر على خدمته والإحسان إليه:

وقد ذكر ذلك الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وغيره، وهو من الأدب الواجب الاهتمام به...فإن أهله قد يستثقلونه، وخصوصًا إذا طال مرضه، أو اشتد وشَقَّ عليهم خدمته، أو كان مرض موت.

(٢١) تكرار الزيارة مرارًا:

وخصوصًا إذا طال مرضه، واشتد، فإنه يحتاج إلى أن يشعر بدوام سؤال الناس عنه، وعدم نسيانهم له، فإن هذا يُطيب نفسه جدًّا، ولعله يشفى - إن شاء الله - إذا تحسنت حالته النفسية.

(٢٢) استحباب طلب الدعاء من المريض... قال النبي ﷺ: «**إذا دخلت على مريض فَمُره أن يدعو لك فإن دعاءه كدعاء الملائكة**»[١].

(٢٣) عدم إكراه المريض على الطعام بل بالرفق واللين.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تُكرهوا مرضاكم على الطعام فإن الله يُطعمهم ويسقيهم**»[٢].

(٢٤) حَثُّ المريض على التداوي إن كان لا يهتم بصحته.

عن أسامة بن شريك قال: قالت الأعراب: يا رسول الله، ألا نتداوى؟ قال: «**نعم يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً إلا داءً واحدًا**» قالوا: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «**الهِرَم**»[٣].

(٢٥) يدعو للمريض ويرقيه بالأدعية والرُّقى الواردة عن النبي ﷺ.

(٢٦) ولا تُطِل الجلوس عنده؛ لأنه ربما يمَلّ... لأن حال المريض غير حال الصحيح، فربما يمل، ويحب أن تقوم عنه، ليأتي إليه أهله وما أشبه ذلك... ولكن إذا رأيت أن المريض مستأنس بك، ويفرح أن تبقى، وأن تُطيل الجلوس عنده، فهذا خير ولا بأس به وهذا ربما يكون سببًا في شفائه؛ لأن من أسباب الشفاء إدخال السرور على المريض[٤].

(١) ضعيف جدًّا: رواه ابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٨٧) وقال: ضعيف جدًّا.

(٢) حسن: رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٣٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٠).

(٤) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤).

(٢٧) تذكير المريض بالتوبة والوصية والخروج من المظالم: على أن يكون ذلك على وجهٍ لا يزعج المريض رفقًا به، وأن يُذكّره بحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، ويؤمله بالدعاء، وبإتمام أعماله الصالحة ... ففى حديث سعد دعا له النبي ﷺ وقال: «**اللهم اشفِ سعدًا، وأتِمَّ له هجرته**»(١).

(٢٨) وإذا أردت أن تقوم واستأذنت تقول: أتأذن لى. فإن هذا أيضًا مما يَسُره؛ لأنه ربما يود أن تبقى فلا يأذن لك ... ثم احرص على أن تُوجهه إلى فعل الخير فى هذا المرض. وقول الخير فى هذا المرض، فتقول: قد يقدر الله المرض على الإنسان فيكون خيرًا له، فيتفرغ للذكر ولقراءة القرآن وما أشبه ذلك لعله ينتبه ويكون لك مثل أجره(٢).

۞ أما الحق الثالث: فهو اتباع الجنائز:

إن الله كتب الموت على جميع الخلائق ... ولذا قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وإن المؤمن يذكر الموت دائمًا لأنه موعد لقاء الحبيب وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه (جل وعلا)، ولذا تراه يشتاق إلى الموت ليخرج من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين.. ولذا قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند موته: حبيبٌ جاء على فاقة.

فذكر الموت يجعل العبد دائمًا فى طاعة الله، ومن ثَم يقوده إلى حُسن الخاتمة.

۞ عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت**»(٣)

۞ فإن مات مسلمٌ فله حَقٌّ على إخوانه المسلمين وذلك بأن يشهد جنازته مَن استطاع منهم... ومن أجل أن يحرص كل مسلم على شهود الجنازة فقد

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٥٩) كتاب المرضى، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٥).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢١٠).

أجزل الله لنا الثواب على ذلك.

فقد قال ﷺ: «**مَن شهد الجنازة حتى يُصلِّي عليها فله قيراط، ومَن شهدها حتى تُدفَن فله قيراطان**». قيل: وما القيراطان يا رسول الله؟ قال: «**مثل الجبلين العظيمين**» وفي رواية: «**أصغرهما مثل أُحد**»[1] وهذا فضلٌ عظيم وأجرٌ كبير.

ولما بلغ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما هذا الحديث قال: لقد فرطنا في قراريط كثيرة، ثم صار بعد ذلك لا يرى جنازة إلا تبعها رضي الله عنه لأن هذه غنيمة.

غنيمة أن يُحصِّل الإنسان مثل الجبلين العظيمين في عملٍ يسير، وهذا الأجر متى يلقاه؟ يلقاه في يوم هو أحوج ما يكون إليه ... في يومٍ ليس عنده درهم، ولا دينار ولا متاع، ولا قرابة ولا زوجة تنفعه يوم القيامة، إلا العمل الصالح، فهو إذا تبع الجنازة حتى يصلى عليها، ثم حتى تُدفَن فله قيراطان مثل الجبلين العظيمين أصغرهما مثل أُحد.

وشهود الدفن له حكمة عظيمة .. فإنه كلما كَثُر المشيعون كثرت الدعوات الصالحات للميت .. ولذا كان الحبيب ﷺ إذا حضر جنازة كان يوصى أصحابه بكثرة الدعاء والاستغفار لأخيهم الذى تُوفى فيقول: «**استغفروا لأخيكم وسَلُوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل**»[2] .. ولك أن تتخيل هذا المشهد الإنسانى عندما يجد أهل الميت أُناسًا لا يعرفونهم يأتون إليهم ويحضرون صلاة الجنازة والدفن ويدعون لقريبهم الذى مات .. هنا يسأل الإنسان نفسه ما الذى جاء بهم؟! وسيأتيه الجواب فى التو واللحظة .. إنها الأُخوة والمحبة فى الله التى جمعت القلوب على «لا إله إلا الله».

۞ وينبغي لمن اتبع الجنازة أن يكون خاشعًا باكيًا مُتفكرًا في مآله ومصيره بعد الموت وأن يسأل نفسه: ماذا سيكون مصيرك بعد الموت.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٢٥) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٥) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٦٠).

وعليه أن يتذكر أنه إذا مات فسوف يُحمل على الأعناق كما حدث لمن كان قبله وكما سيحدث لمن سيأتي بعده .. وأن أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه سوف يضعه في قبره بنفسه ويتركه وحده ليَلقى مصيره ويجني ثمرة ما قدَّمه في هذه الحياة الدنيا .. إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا رأى أحدًا يحمل جنازة يقول لها: امضِ إلى ربك فَإنَّا على إثرك مَاضُون.

وكان مكحول الدمشقي يقول إذا رأى جنازة: اغدوا فإنَّا رائِحوُن، موعظة بليغة قليلة، وغفلة شنيعة، يذهب الأول والآخر لا يعتبر.

وكان ثابت يقول: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا مُتلفعًا باكيًا. وذلك لأنهم كانوا يتذكرون جنازة أنفسهم، فلا يبكون على الميت، ولكن على أنفسهم.

فجديرٌ بمن الموت مصرعه، والقبر مضجعه، والدود أنيسه، ومُنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا فى ذلك، ولا استعداد إلا له.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠]

قال بعض السلف: إنما تقول الملائكة ذلك لمن طال خوفه من الله عز وجل وحزنه مما فرط منه، أما مَن لم يَخف الله عز وجل ولم يحزن على ما فاته من الخير فلا يُقال له شيء من ذلك[١].

ولهذا قال العلماء: يُكرَه للإنسان المتبع للجنازة أن يتحدث في شيءٍ من أمور الدنيا أو أن يتبسم ويضحك.

(١) مستفاد من رسالة (من أخلاق السلف) للدكتور/ أحمد فريد (حفظه الله).

فإذا وصلت إلى القبر لدفن الميت فاحرص على أن تتخيل نفسك أنك أنت الذي سيُدفن الآن وأنك ستُسأل في قبرك: مَن ربك؟ ما دينك؟ مَن نبيك؟ وأنه لن يُثبتك في الإجابة على تلك الأسئلة إلا الله (جلَّ وعلا) الذي قال في كتابه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فتذكَّر نفسك وأنت في تلك الحفرة المُظلمة وحدك لا أنيس لك ولا جليس إلا عملك الصالح أو عملك الطالح. وأنك لابد أن تستعد لتلك اللحظة الحاسمة التي تنزل فيها إلى قبرك بإخلاص التوحيد لله وكثرة العمل الصالح وحُسن الظن بالله والتحلُّل من المظالم لتنجو في تلك اللحظة الحاسمة. ويا ليتك تُحدث الناس من حولك عند القبر وتخبرهم بما قاله النبي ﷺ لأصحابه حينما خرج في جنازة رجل من الأنصار، فانتهى إلى القبر ولَمَّا يُلحد، فجلس عليه الصلاة والسلام وحوله أصحابه، وفي يده مخصرة...أي: عود ينكت به الأرض، يعتبر (عليه الصلاة والسلام) ويتفكر ويحدث أصحابه بما يكون عند الاحتضار، وعند الدفن، حتى يكون جامعًا بين الموعظة وبين تشييع الجنازة.

فمن المشروع أن يقوم أحد المشيعين بإلقاء موعظة أثناء الدفن بقصد تذكير الحاضرين بالموت وما بعده.

على أن لا يكون ذلك سُنة وعادة وكأنه من مُتممات الدفن ... وذلك لأن النبى ﷺ كان يفعل ذلك أحيانًا لكنه لم يداوم على ذلك.

۞ أما الدليل على إلقاء الموعظة عند القبر أثناء الدفن فإن ذلك يتضح من خلال حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: «خرجنا مع النبى ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَّد، فجلس رسول الله ﷺ مُستقبل القبلة وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكت فى الأرض، فجعل ينظر إلى السماء، وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه ثلاثًا،

فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين، أو ثلاثًا- ثم قال: «**اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر**» ثلاثًا، ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحنوط**[1] **من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجىء ملك الموت عليه السلام**»[2] [3]... إلى آخر الحديث.

فإذا شرعوا في الدفن فينبغي للإنسان أن يشارك في الدفن، بأن يحثو بيديه ثلاث حثيات ثم ينصرف، وإن شاء شارك إلى انتهاء الدفن.

فإذا فرغوا من دفنه وقف عليه... وإذا كان مُطاعًا كالعالِم، قال للناس: استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل، فإن النبي ﷺ كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: «**استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل**».

فإن الميت إذا أُغلق عليه قبره وسُوِّي عليه التراب يبدأ الملكان في سؤاله .. فأما المؤمن فيثبته الله فيجيب وأما الكافر فلا يستطيع أن يجيب .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال نبى الله ﷺ: « **إِنَّ الْعَبْدَ، إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**» قَالَ: «**يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟**» قَالَ: «**فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**» قَالَ: «**فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ**».

قال نبى الله ﷺ: «**فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا**»[4].

---

(١) ما يُخلط من الطِّيب -العطر- لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

(٢) قلت: هذا هو اسمه فى الكتاب والسنة (ملك الموت) وأما تسميته (بعزرائيل) فمما لا أصل له خلافًا لما هو المشهور عند الناس ولعله من الإسرائيليات!

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٣٨) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٨٧٠) كتاب الجنة.

«وَأَمَّا المُنَافِقُ وَالكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ المَيتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيقُولُ: مَا كَانَ يقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيقُولاَنِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لا يوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيهِ، حَتَّى يبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يقُولُونَ قَولًا، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لا أَدْرِي، فَيقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاَعُهُ، فَلا يزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»(٢).

۞ قال الشيخ ابن عثيمين في شرح الواسطية: ورد في بعض الآثار أن اسمهما منكرٌ ونكيرٌ ... وأنكر بعضُ العلماءِ هذين الاسمين، وقالوا: كيف يُسمَّى الملائكة وهم الذين وصفهم الله تَعالى بأوصاف الثناء بهذين الاسمين المنكرين... وضعَّفوا الحديث الوارد في ذلك.

وذهب آخرون إلى أن الحديث حُجةٌ، وأنَّ هذه التسمية ليس لأنهما مُنكران من حيث ذواتهما، ولكنهما من حيث إن الميت لا يعرفهما وليس له بهما علمٌ سابق... وقد قال إبراهيم عليه السلام لأضيافه الملائكة: قومٌ مُنكرون: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ لأنه لا يعرفهم.

فهذان منكرٌ ونكيرٌ؛ لأنهما غير معروفين للميت..ثم هذان الملكان، هل

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٧٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٨٧٠) كتاب الجنة.

(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤).

هما ملكان جديدان موكلان بأصحاب القبور، أم هما الملكان اللذان عن اليمين وعن الشمال قعيد؟!

منهم مَن قال: إنهما الملكان اللَّذان يصحبان المرء، فإنَّ لكلِّ إنسان ملكين في الدنيا يكتبان أعماله، وفي القبر يسألانه هذه الأسئلة الثلاثة، ومنهم مَن قال: بل هما ملكان آخران... والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] والملائكة خلقٌ كثيرٌ... قال: فالمهم أنه لا غرابة أن ينشئ اللهُ تعالى لكل مدفونٍ ملكين يرسلهما إليه، واللهُ على كل شيء قدير[١].

۞ أما الحق الرابع: فإجابة الدعوة:

ولك أن تتخيل أن أخاك في الله على الرغم من كثرة مشاغله فإنه يأتي إليك إذا دعوته فتعلم أن لك قدرًا ومنزلة عنده... وذلك يجعل المحبة تزداد يومًا بعد يوم .. فهو يُشاركك في أفراحك وأحزانك فيجعلك تشعر بأخوة الإسلام.

۞ روى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليُجب، فإن شاء طعم وإن شاء ترك**».

۞ وفي رواية له أيضًا: «**إذا دعا أحدُكم أخاه فليُجبه عُرْسًا كان أو نحوه**»[٢].

فمن حق المسلم على أخيه إذا دعاه أن يجيبه... والإجابة إلى الدعوة مشروعة بلا خلاف بين العلماء فيما نعلم، إذا كان الداعي مسلمًا، ولم يكن مُجاهرًا بالمعصية، ولم تكن الدعوة مشتملة على معصية لا يستطيع إزالتها، ولكنها لا تجب عند جمهور العلماء إلا في دعوة العُرس.

ولكن هذا الوجوب مشروط بشروط:

(١) أن تكون «وليمة مسلم»: لقوله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم أخاه**».

فإن كان الداعي غير مسلم فلا تجب الإجابة، بل ولا تُشرع الإجابة، إلا إذا

(١) شرح الواسطية (٣٤٠-٣٤١).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٣٠) كتاب النكاح.

كان في ذلك مصلحة، فإذا كان في ذلك مصلحة كرجاء إسلامه، والتأليف فلا بأس بإجابة غير المسلم؛ لأن النبي ﷺ أجاب دعوة المرأة اليهودية التي دعته إلى الطعام بعد خيبر.

وقال بعض أهل العلم: إن إجابة دعوة الكافر جائزة إلا فيما يقصد به الشعائر الدينية فإنها تحرم الإجابة إليه مثلما في أعيادهم ..)[1].

قلت : وعلى هذا فلا يجوز أن يجيب دعوتهم إذا كانت في كنائسهم.

وأما إذا كان الداعي مسلمًا مجاهرًا بالمعاصي فإن إجابته ليست واجبة .. ولكن إن كان هناك مصلحة في إجابة دعوته : كأن تكون سبب توبته وعودته إلى الله فيجوز إجابة دعوته بل يُستحب ذلك .. وأما إن كانت إجابته ستكون سببًا في عدم إحساسه بالذنب وأنه سوف يستمر في جهره بالمعاصي فالأَولَى تَركُه ... وإن كان عدم إجابته وهجره ستكون سببًا في عودته إلى الله - وبخاصة إذا رأى أن أهل الخير والصلاح لا يجيبوا دعوته - فالأفضل عدم إجابته ليعود إلى الله ويتوب من كل ذلك.

(٢) «أن يدعوه»، فيكون حضوره إجابة لدعوته، وقد تقدم في الحديث: «إذا دعا...» وأما إذا لم يَدعُه فلا يجب عليه الحضور.

(٣) تعيينه بالدعوة لقوله: «إذا دعا أحدكم أخاه» فهذا يشعر بتعيينه، وأما إذا دعا دعوة عامة فإنه لا يدخل في الوجوب، بل وجَّه الكلام إلى الجميع، وعلى ذلك فيجوز له عدم الحضور، فهي لا تجب على كل أحدٍ؛ لأن الدعوة عامة فهي تُشبه فرض الكفاية.

(٤) ألا يكون هناك منكرات، إلا أن يقصد إزالتها:

قال الأوزاعي: «لا تدخل وليمة فيها طبل ولا معازف»[2].

---

(١) الشرح الممتع (٥/ ٣٣٧).

(٢) عزاه الشيخ الألباني في «آداب الزفاف» صـ٨١ إلى «الفوائد المنتقاة».

وأما إن قدر على تغيير المنكر، أو أن وجوده سيكون سببًا لتغييره وجب عليه الحضور، وإلا حُرم عليه.

ولكن إذا لم يحضر فهل يُبين لهم سبب عدم حضوره؟ الجواب: نعم، لبيان عذره، وليكون ردعًا لهم، أو ربما كانوا يجهلون حُرمته.

(٥) ألا يكون هناك عذر يمنعه من الحضور كمرضٍ أو سفرٍ، أو سبق بالدعوة إلى وليمة أخرى أو نحو ذلك[١].

۞ **وقد يسأل سائل:** وهل هناك أعذار تبيح للإنسان أن يترك إجابة الدعوة؟

الجواب: بلى ... ومن هذه الأعذار:

(١) أن يُدعى الشخص إلى موضع فيه منكر من خمر أو معازف ونحوها، فحينئذ لا يجوز الحضور إلا بقصد إنكارها ومحاولة إزالتها، فإن أُزيلت وإلا وجب الرجوع ... ومما يدل على هذا:

حديث عليٍّ رضي الله عنه **قال:** صنعت طعامًا فدعوت رسول الله ﷺ فجاء فرأى في البيت تصاوير فرجع فقلت: يا رسول الله، ما أرجعك بأبي أنت وأمي؟ قال: «**إن في البيت سترًا فيه تصاوير، وإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه تصاوير**»[٢].

۞ دعا ابن عمر أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنهم فرأى في البيت سترًا على الجدار، فقال ابن عمر: غلبنا عليه النساء فقال أبو أيوب: مَن كنت أخشى عليه فلم أكن أخشى عليك، والله لا أطعم لكم طعامًا، فرجع[٣].

(٢) أن يكون الداعي ممن يَخُص بدعوته الأغنياء لا الفقراء.

(٣) أن يكون الداعي ممن لا يتورع عن أكل الحرام ويتخوض في الشبهات،

---

(١) تمام المنة للعزازي (٣/ ٩٩-١٠٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه النسائي (٥٣٥١)، وابن ماجه (٣٣٥٩)، وأبو يعلى (٤٣٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في آداب الزفاف ص (٨٩).

(٣) رواه البخاري معلقًا في كتاب النكاح باب (هل يرجع إذا رأى منكرًا في الدعوة).

إلى غير ذلك من الأعذار الشرعية التي يُترك الواجب من أجلها.

وكذلك يُعذَر المدعو إذا وُجد عنده عذر شرعي كالذي يبيح التخلف عن الجمعة: من كثرة مطر أو وحلٍ أو خوف عدو أو خوف على مال أو نحو ذلك[١].

۞ أما الحق الخامس فالنصيحة:

إن المسلم مرآة لأخيه المسلم.. فإذا رآه قد أخطأ فلا بُدَّ أن يقدم له النصيحة بكل رحمة وحنان.. وإذا طلب منه النصيحة في أى أمرٍ من أمور الدنيا والآخرة فلا بُدَّ أن يقدم له النصيحة الخالصة.

۞ ومن أجل ذلك جعل النبى ﷺ من حق المسلم على أخيه أن يقدم له النصيحة الصادقة فقال ﷺ: «**حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له...**»[٢].

۞ وكان النبى ﷺ يبايع أصحابه على أن يقدموا النصيحة الخالصة لكل مسلم.

فعن جرير رضي الله عنه **قال**: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكل مسلم»[٣].

۞ فلا عجب بعد ذلك أن نعلم أن النبى ﷺ قد جعل النصيحة هى الدين كله.

۞ وذلك لما قال: «**الدين النصيحة**». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٤].

---

(١) صحيح فقه السنة (٣/ ١٨٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٤٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢١٦٢) كتاب السلام.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٦) كتاب الإيمان.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٥٥) كتاب الإيمان.

۞ ولكن تلك النصيحة لابد أن يكون لها بعض الآداب وهى:

(١) إخلاص النصيحة:

أن نقدم النصيحة لمن حولنا بكل صدقٍ وإخلاص.. ونرجو بذلك الأجر والمثوبة من الله (جل وعلا) ولا نرجو بذلك التعالى على الناس أو الشهرة بين الناس.

(٢) أن تكون النصيحة فى السر:

وذلك لأن أكثر الناس لا يقبلون النصيحة إذا كانت فى العلانية لأن ذلك يسبب لهم إحراجًا شديدًا بين الناس.

فمن أراد أن ينصح أخاه فعليه أن ينصحه فى السر فيما بينهما حتى لا يسبب له حرجًا وحتى يكون ذلك سببًا فى قبول النصيحة.

۞ ورَحِمَ الله الإمام الشافعى حيث يقول:

تعمَّدنى بنُصحِك فى انفرادى ... وجنِّبنى النصيحة فى الجماعةْ

فإن النُّصح بين الناس نوعٌ ... من التوبيخ لا أرضى استماعةْ

فإن خالفتنى وعصيت قولى ... فلا تغضب إذا لم تُلْقَ طاعةْ

وقال: «مَن وعظ أخاه سرًّا فقد وعظه وَزَانَهُ، ومَن وعظه علانية فقد فضحه وشانهُ».

(٣) أن تشمل النصيحة أمور الدنيا والآخرة:

ألا تقتصر النصيحة على أمر الدنيا فقط بل تشمل أمور الدين والدنيا والآخرة حتى ينتفع المسلمون بتلك النصيحة فى دُنياهم وآخرتهم.

فإن وجدت أخاك محتاجًا لنصيحتك فى أمرٍ من أمور الدنيا فانصحه وإن وجدته واقعًا فى معصية فانصحه بترك المعصية بكل رحمة وحنان.

(٤) أن تكون النصيحة بكل رحمة وحنان:

فينبغي أن تختار الأسلوب المناسب للنصيحة وذلك بأن تبتسم فى وجه مَن تريد أن تنصحه.. بل وتُثنى عليه خيرًا وتقول له:

أنا أعلم أنك أخٌ فاضل وستقبل نصيحتى لأنك تعلم أنى أحبك... وهكذا... فإن هذا الأسلوب يجعله يقبل النصيحة.

(٥) تقديم النصيحة ولو لم يطلبها أحد:

فإن وجدت أخاك سيحدث له أى ضرر أو أنه سيقع فى معصية أو أن هناك مَن يتربص به فانصحه وكُن رفيقًا فى تقديم النصيحة... ولا تنتظر أن يطلب منك النصيحة فإنك لو وجدت إنسانًا يغرق فى الماء فإنك تنقذه ولو لم يطلب منك.

فمن باب أَولَى: أنك إذا وجدت مَن يغرق فى المعاصى والمخالفات أو مَن سيقع فى شىء يعود عليه بالضرر أن تنصحه ولو لم يطلب منك النصيحة.

(٦) ألا تُفشى له سرًا:

فإذا نصحت أخاك فاستجاب أو لم يستجب فلا يَحِلُّ لك أن تُفشى سره أبدًا لأن الله حرَّم هذا... ولأنك إن أفشيت سره فلن يقبل منك أى نصيحة أخرى بعد ذلك.

وأما الحق السادس فتشميت العاطس:

فمن حق المسلم على أخيه المسلم أن يُشمته إذا عطس .. فإذا عطس الرجل وحَمِدَ الله وسمعته فشمِّته، يعني قُل له: يرحمك الله، فإذا قلت: يرحمك الله، وجب عليه أن يقول: يهديكم الله ويصلح بالكم.

والعطاس يحبه الله تبارك وتعالى .. كما فى حديث أبى هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يحب العطاس ويكره التثاؤب..**»[1] لأن العطاس يدل

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٢٣) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٤) كتاب الزهد والرقائق.

على خفة بدن صاحبه ونشاطه.. فيكون قويًا في العبادة.. لكن التثاؤب يكون غالبًا علامة لثقل البدن وامتلائه واسترخائه.. فلذلك أضافه إلى الشيطان.. لأنه يُرضيه.. أو أنه سبب لدعوته إلى الشهوات.

لكن هل تشميت العاطس إذا حمد فرض عين أو فرض كفاية؟ يعني: هل يكفي واحد من الجماعة إذا شمَّته عن الجماعة، أم لا بُدَّ على كل مَن سمعه أن يُشمته؟ والجواب: أنه ذهب بعض أهل العلم إلى أن التشميت فرض كفاية... فإذا كنا جماعة وعطس رجل وقال: الحمد لله، فقال أحدنا له: يرحمك الله... كفى.

وقال بعض أهل العلم: بل تشميته فرض عين، على كل مَن سمعه.

لأن النبي ﷺ قال: «**كان حقًّا على كل مَن سمعه أن يقول: يرحمك الله**».

وظاهر هذا أنه فرض عين ... فعلى كل مَن سمعه أن يقول له: يرحمك الله، ويقول هو: يهديكم الله ويصلح بالكم ... ويكفي منه رَدٌّ واحد على الجميع، إذا نواه للجميع كفى.

۞ والعطاس له آدابٌ لا بد أن نتعلمها .. فمنها:

(١) وضع اليد على الفم لخفض الصوت:

وذلك من أجل خفض الصوت حتى لا نُزعج الآخرين.. وكذلك حتى لا يتطاير الرذاذ من فم العاطس فيؤذى مَن حوله أو يتسبب في نقل عدوى (إذا قدَّر الله ذلك).

ولذا كان من هدى النبى ﷺ أنه «كان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض بها صوته»[1].

(٢) أن يحمد الله بعد العطاس:

أن يقول العاطس: الحمد لله.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٥٥).

أن يقول مَن سمعه: يرحمكم الله.

أن يرد العاطس: يهديكم الله ويصلح بالكم.

۞ عن النبى ﷺ قال: «**إذا عطس أحدُكُم فليقُل الحمدُ لله وليقُل أخُوهُ أو صاحبُهُ يرحمُك الله ويقول هُو يهديكُمُ الله ويُصلحُ بالكُم**»(١).

(٣) عدم تشميت العاطس إذا لم يحمد الله:

فقد قال النبى ﷺ: «**إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمِّتوه، وإذا لم يحمد الله فلا تُشمِّتوه**»(٢)، وقد كان هذا هو فعل النبى ﷺ، فقد عطس رجلان عند النبى ﷺ، فشمَّت أحدهما، ولم يُشمِّت الآخر، فقال الرجل: يا رسول الله! شمَّت هذا ولم تُشمتنى! قال: «**إن هذا حَمِدَ الله، وإنك لم تحمد الله**»(٣).

(٤) عدم التشميت بعد الثلاث مرات فقط:

فإذا تكرر العطاس من شخصٍ بشكل متتابع، فمن المستحب تشميته حتى يبلغ الثلاث مرات... فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: عطس رجل عند رسول الله ﷺ، وأنا شاهد، فقال رسول الله ﷺ: «**يرحمك الله**» ثم عطس الثانية أو الثالثة فقال رسول الله ﷺ: «**يرحمك الله، هذا رجل مزكوم**»(٤) أى مصاب بالزكام.. فلا يُشمَّت بعد ثلاث.. لكن استحب بعضهم أن يدعو له مَن حضر معه بالعافية والسلامة ... ولا يكون هذا من باب التشميت(٥).

(٥) تشميت غير المسلم بقول: يهديكم الله:

۞ فقد ذُكر أن اليهود كانوا يتعاطسون عند النبي عليه الصلاة والسلام

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٢٢٤) كتاب الأدب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٢٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩١) كتاب الزهد والرقائق.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٣) كتاب الزهد والرقائق.

(٥) منهاج الصالحين / أ. محمد عبد العاطى بحيرى (ص:٤٧٧).

- يتعاطسون يعني يتكلفون العطاس - من أجل أن يقول لهم: يرحمكم الله.

فكان ﷺ يقول لهم: «**يهديكم الله ويُصلح بالكم**»[(١)].

وقد كانوا يفعلون هذا لأنهم يعلمون أنه نبي وأن دعاءه بالرحمة قد ينفعهم، ولكنه لا ينفعهم؛ لأن الكفار لو دعوت لهم بالرحمة لا ينفعهم ذلك، ولا يحل لك أن تدعو لهم بالرحمة إذا ماتوا ولا بالمغفرة، لقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣].

فإن قيل: أليس إبراهيم استغفر لأبيه وإبراهيم على الحنيفية وعلى التوحيد، والجواب يتضح في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾

[التوبة: ١١٤].

(٦) تذكير العاطس بالحمد إذا نسي:

فإذا وجدنا إنسانًا قد عطس، ولم يتلفظ بحمد الله تعالى، فينبغي تذكيره، فهذا من التواصي بالحق، ومن الأمر بالمعروف.

وقد رأى عبد الله بن المبارك إنسانًا يعطس، ولم يحمد الله تعالى. فقال له: ماذا يقول المرء إذا عطس؟ قال: يقول: الحمد لله. فقال ابن المبارك: يرحمك الله.

وينبغي أن يكون التذكير بأسلوبٍ حسن، وبلُطفٍ. وإذا كان الناسي من أهل العلم والفضل فيمكن تذكيره بشكلٍ غير مباشر، فهذا أمثل[(٢)].

(٧) إذا عطس صبي صغير يُقال له: بورك فيك:

فمن آداب العطاس أنه إذا عطس صبيٌّ صغير أن يُقال له: بُورك فيك:

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٧٧).

(٢) موسوعة الآداب الإسلامية (ص: ٦٢٠).

أو يُقال له: جبرك الله.. هذا إن كان قد تعلَّم أن يقول إذا عطس: الحمد لله.. فإن لم يكن يعلم.. فليحمد عنه وليه.. ثم ليُعلمه كيف يحمد الله.

فعن الحسن رَحِمَهُ اللهُ قال: سُئل الإمام أحمد عن الصبى الصغير يعطس؟ قال: يُقال له: بورك فيك(١).

(٨) يجوز أن يقول المصلى إذا عطس: الحمد لله:

فهذا مباح وجائز للمصلى ولا تبطل به الصلاة.

عن رفاعة بن رافع ابن عفراء قال: صليتُ خلف رسُول الله ﷺ فعطستُ فقلتُ: الحمدُ لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه مُباركًا عليه كما يُحبُّ ربنا ويرضى... فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فقال: «**مَن المُتكلم فى الصلاة؟**» فلم يتكلم أحد .. ثم قالها الثانية: «**مَن المُتكلم فى الصلاة؟**» فلم يتكلم أحد ثم قالها الثالثة: «**مَن المُتكلم فى الصلاة؟**» فقال رفاعةُ بنُ رافع ابنُ عفراء: أنا يا رسول الله قال: «**كيف قلت؟**» قال قلتُ: الحمدُ لله حمدًا كثيرًا طيبًا مُباركًا فيه مُباركًا عليه كما يُحبُّ ربُنا ويرضى، فقال النبيُّ ﷺ: «**والذى نفسى بيده لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكًا أيُهم يصعدُ بها**»(٢).

ولكن عليه أن يحمد الله في سِرِّه ولا يجهر بذلك حتى لا يتسبب في أن يُشمته مَن بجواره فيقع بذلك في نهي النبي ﷺ عن تشميت العاطس في الصلاة.

(٢٤٤) وعَنْ أَبي عُمارة الْبَراءِ بنِ عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أَمرنا رسول الله ﷺ بِسَبْعٍ ونَهَانَا عن سَبْع: أَمرنَا بِعِيادة المريضِ، وَاتِّبَاعِ الْجنازةِ، وتَشْمِيت الْعاطِس، وَإِبْرارِ الْمُقْسِمِ، وَنَصرِ المظْلُومِ، وَإِجابَةِ الدَّاعي، وإِفْشاءِ السَّلامِ، وَنَهَانَا عَنْ خواتِيم أو

(١) منهاج الصالحين (ص:٤٧٨).

(٢) حسن: رواه الترمذى (٤٠٤) كتاب الصلاة، وحسنه الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى المشكاة (٩٩٢)، والحديث عند البخاري (٧٩٩) كتاب الأذان، بغير هذا اللفظ.

تَختُّمٍ بالذَّهب، وعَنْ شُرْبٍ بالفضَّةِ، وعَنْ المياثِرِ الحُمْرِ، وعَـنْ القَسِّيِّ، وعَـنْ لُبْسِ الحَرِيرِ وَالإِسْتَبْرَقِ وَالدِّيبَاجِ[1].

وفي روايةٍ: وإِنْشَادِ الضَّالةِ في السَّبْعِ الأُولِ.

۞ ففي هذا الحديث ذكر المصنف حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «أمرنا بسبعٍ ونهانا عن سبعٍ».. وقد تقدَّم الكلام عن ستة من الأمور التي أمرنا بها النبي ﷺ في الحديث السابق والذي قبله فلا حاجة إلى إعادة الشرح .. ولم يتبقَ في هذا الحديث من الأوامر سوى «إبرار القسم أو المُقسم».

يعني إذا أقسم عليك أحد إخوانك أو أقاربك بشيءٍ فبِرَّه وافعل ما أقسم به عليك.. إلا إذا كان ذلك القَسَم على شيءٍ فيه معصية..

كأن يقول لك: أقسمت عليك أن تعطيني مالًا لأشتري علبة سجائر ... فهنا لا يجوز لك أن تَبَرَّ قَسَمه لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق سبحانه وتعالى.

ومثل ذلك: كأن يقول لك والدك - بعد أن طلق أمك-: أقسمت عليك ألا تزور أمك .. فلا يجوز أن تبرَّ قَسَمه لأنه يجب عليك زيارة أمك والاطمئنان عليها وقضاء احتياجاتها ومساعدتها في جميع شئون حياتها إلا ما كان في معصية الله عز وجل.

وكذلك إذا قال والدك: أقسمت عليك ألا تزور أحدًا من إخوانك أو أعمامك أو أقاربك فلا تُطعه ولا تبر قَسَمه لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق عز وجل.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٣٩) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٠٦٦) كتاب اللباس.
«المياثِر»، وهىَ جمْعُ مَيْثرةٍ، وَهِي شَىْءٌ يُتَّخَذُ مِنْ حرير وَيُحْشَى قُطْنًا أَوْ غَيْرَهُ ويُجْعلُ فِي السُّرُجِ وكُورِ الْبعير يجْلسُ عَلَيْهِ الرَّاكِبُ - «والقَسىُّ»: وَهِىَ ثِيَاب تُنْسَجُ مِنْ حَرِيرٍ وكِتَّانٍ مُخْتَلِطَيْن. «وإِنْشَادُ الضَّالَّةِ»: تَعْرِيفُهَا.

۞ وهنا وقفة هامة: فقد تكون عند أحد إخوانك في بيته مدعوًّا على طعام الغداء .. فأقسم هو وأقسمت أنت لكنك أنت بدأت بالقسم وقلت له: أقسمت عليك بالله ألا تذبح لي أي شيءٍ وتُكلف نفسك .. فقال لك: وأنا أقسمت عليك بالله أن أذبح لك شاة الآن ... فهنا مَن الذي يُبَرَّ قسمه؟ الأول أم الثاني؟

الجواب: يبرّ الأول؛ لأن حقه ثابت، ونقول للثاني صاحب البيت الذي حلف أن يذبح، نقول: لا تذبح وكَفِّر عن يمينك؛ لأن الأول أحق بالبر وأسبق.

ثم إني أشير عليكم بأمرٍ هام، أنك إذا حلفت على يمين فقل: إن شاء الله، ولو لم يسمعها صاحبك، لأنك إذا قلت: إن شاء الله يسَّر الله لك الأمر حتى تبرّ بيمينك، وإذا قُدر أنه ما حصل الذي تريد فلا كفارة عليك، وهذه فائدة عظيمة.

فلو قلت لواحدٍ مثلاً: والله ما تذبح لي، ثم قلت: إن شاء الله - بينك وبين نفسك - ثم ذبح فلا شيء عليك، ولا عليك كفارة يمين.

وكذلك أيضًا بالعكس، لو قلت:والله سوف أذبح، ثم قلت - بينك وبين نفسك-: إن شاء الله، وما سمع صاحبك، فإنه إذا لم تذبح ليس عليك كفارة، لقول النبي ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ فَاسْتَثْنَى فَإِنْ شَاءَ مَضَى وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ غَيْرَ حَنِثٍ**»(١) وهذه فائدة عظيمة اجعلها على لسانك دائمًا، اجعل الاستثناء بـ «إن شاء الله» على لسانك دائمًا، حتى يكون فيه فائدتان: الفائدة الأولى: أن تُيسَّر لك الأمور. والفائدة الثانية: أنك إذا حنثت لا يلزمك الكفارة(٢).

۞ وورد في رواية أُخرى أن من السبع التي أمرهم النبي ﷺ بها: إنشاد الضالة: أي أن الإنسان إذا وجد ضالة وجب عليه إنشادها .. أي البحث عن صاحبها وطلب مَن هي له... والضالة هي ما ضاع من البهائم.

---

(١) صحيح: رواه النسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٠٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٦١٨).

۞ وقد قسَّم العلماء (رحمهم الله) الضالة إلى قسمين:

الأول: قسمٌ يستطيع أن يحمي نفسه من صغار السباع (كالذئاب وشبهها). وليس عليه خطر فهذا لا يجوز التقاطه ولا إيواؤه .. وذلك مثل الإبل التي تستطيع أن تحمي نفسها فهذه لا يجوز للإنسان أن يلتقطها، ولا يجوز له أن يؤويها بل يطردها من إبله... فإن النبي ﷺ سُئل عن ضالة الإبل فقال: «**ما لك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها**[1]»[2] معها سقاؤها: يعني بطنها تملؤه ماءً، وحذاؤها: يعني خُفُّها تمشي عليه... تَرِد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها.

فلا يجوز لك أن تؤوي هذه الضالة ولا أن تلتقطها، ولو كنت تريد الخير، اللهم إلا إذا كنت في أرض فيها قُطاع طريق تخشى أن يأخذوها ويُضيّعوها على صاحبها، فلا بأس أن تأخذها حينئذ، أو إذا كنت تعرف صاحبها فتأخذها لتردها عليه، فهذا لا بأس به.

ومن ذلك القسم الذي يستطيع أن يحمي نفسه من الذئاب ونحوها: الصقور والحمام .. فهي تستطيع أن تطير سريعًا إذا لمحت ذئبًا أو أي شيءٍ فيه خطر على حياتها ... وكذلك الظباء؛ لأنها سريعة جدًّا فلا يستطيع الذئب أو ما شابهه أن يدركها ... فهذه الأنواع كلها لا يجوز التقاطها ولا إيواؤها.

الثاني: ما لا يستطيع أن يحمي نفسه من الذئاب ونحوها مثل الغنم أو الماعز أو الشياه أو ما أشبه ذلك ... فهذه إذا وجدتها فإنك تأخذها وتبحث عن صاحبها فإذا تمَّت السنة ولم تجد لها صاحبًا فهي لمن وجدها .. وذلك لأنه لو تركها في الطريق سيأخذها اللص أو يأكلها الذئب ويحرم صاحبها منها .. أما إذا

---

(١) ربها: أي صاحبها.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩١) كتاب العلم، ومسلم (١٧٢٢) كتاب اللقطة.

أخذتها أنت وبحثت عن صاحبها فلعلك تجده وتردها إليه .. ولذلك قال النبي ﷺ: «**هي لك، أو لأخيك، أو للذئب**» ولكن يجب عليك أن تبحث عن صاحبها.

وقوله: «**هي لك**» يعني إن لم تجد صاحبها، «**أو لأخيك**» يعني صاحبها إذا عرفته، «**أو للذئب**» إذا لم يجدها أحد أكلها الذئب.

۞ ولابد أن نعلم أن إنشاد الضالة له معنيان:

المعنى الأول: ما ذكرناه .. إذا وجدت ضالة الغنم أو الماعز أو الشاه فإنك تُعلن عنها وتبحث عن صاحبها لمدة سنة كاملة فإن لم تجده فهي لك وإنشاد الضالة هنا واجب للوصول إلى صاحبها.

المعنى الثاني: منهيٌّ عنه .. وذلك مثل ما يقع في بعض المساجد وهو أن بعض الناس إذا ضاع منه شيء فإنه يذهب إلى المسجد ويطلب من القائمين عليه أن يعلنوا في «الميكروفون» عن ضالته... وهذا خطأ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك.

قال ﷺ: «**من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليَقُل: لا ردَّها الله عليك فإن المساجد لم تُبنَ لهذا**»[1].

بل دعا النبي ﷺ نفسه على رجلٍ نادى على جملٍ أحمر ضاع منه، فأخذ ينادي عليه في المسجد فقال النبي ﷺ: «**لا وجدت...إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له**»[2].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: في هذا الحديث فوائد منها:

النهي عن نشد الضالة في المسجد ويلحق به ما في معناه من البيع والشراء والإجارة ونحوها من العقود وكراهة رفع الصوت في المسجد.

۞ أما السبع التي نهى عنها النبي ﷺ فسوف أشرحها بدون ترتيب .. وذلك لاقتران الذهب والحرير في أكثر الأحاديث وشروحها ..

وها هي السبع التي نهى عنها النبي ﷺ:

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٦٨) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٦٩) كتاب المساجد.

الأول والثاني والثالث والرابع: التختُّم بالذهب ولبس الحرير والاستبرق والديباج[1]:

لقد أباح الإسلام للمسلم - بل طلب إليه - أن يكون حسن الهيئة، كريم المظهر، جميل الهندام متمتعًا بما خلق الله من زينة وثياب ورياش.

والغرض من الملبس في نظر الإسلام أمران: ستر العورة، والزينة، ولهذا امتنَّ الله على بني الإنسان عامة بما هيأ لهم بتدبيره من لباسٍ ورياش فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾[الأعراف:٢٦].

فمن فرَّط في أحد هذين الأمرين: الستر أو التزين، فقد انحرف عن صراط الإسلام، إلى سُبل الشيطان، وهذا سر النداءين اللذين وجههما الله إلى بني آدم - بعد النداء السابق- يحذرهم فيهما من العُرى، وترك الزينة، اتباعًا لخطوات الشيطان ... قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وإذا كان الإسلام قد أباح الزينة بل طلبها، واستنكر تحريمها. ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فإنه حَرَّم على الرجال نوعين من الزينة - على حين أحلَّهما للإناث.

أولهما: التحلِّي بالذهب الخالص.

ثانيهما: لبس الحرير الخالص.

فعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريرًا فجعله في يمينه، وأخذ ذهبًا فجعله في شماله، ثم قال: «**إن هذين حرامٌ على ذكور أمتي، حِلٌّ لإناثهم**»[2].

---

(١) الإستبرق والديباج: هما من أنواع الحرير.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٤).

وعن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تلبسوا الحرير فإنَّ مَن لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»(١).

وقال ﷺ في حُلة من الحرير: «**إنما هذه لباس مَن لا خَلاق له**»(٢).

ورَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ: «**يَعمَدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**» فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَمَا ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: خُذْ خَاتَمَكَ تَنْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا، وَاللهِ لَا آخُذُهُ وَقَد طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ(٣).

ومثل الخاتم ما نراه عند المترفين من قلم الذهب، وساعة الذهب، وقدَّاحة [ولَّاعة] الذهب، وعلبة الذهب للسجائر، والفم الذهب .. إلخ.

أما التختُّم بالفضة فقد أباحه (عليه الصلاة والسلام) للرجال.

روى البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «اتَّخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَاتَمًا مِنْ وَرِقٍ [فضة] فَكَانَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ كَانَ بَعدُ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعدِهِ، ثُمَّ كَانَ بَعدُ فِي يَدِ عُمَرَ، ثُمَّ كَانَ بَعدُ فِي يَدِ عُثْمَانَ حَتَّى وَقَعَ مِنْهُ فِي بِئْرِ أَرِيسَ »(٤).

أما المعادن الأخرى كالحديد وغيره، فلم يَرِد نَصٌّ صحيح يحرمها.

بل ورد في صحيح البخاري أن الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال للرجل الذي أراد أن يتزوج المرأة الواهبة نفسها: «**التمس ولو خاتمًا من حديد**»(٥).

وبه استدلَّ البخاري على حِلِّ خاتم الحديد.

ورُخِّصَ في لبس الحرير إذا كان لحاجة صحية... فقد أذن النبى عليه الصلاة والسلام بلبسه لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله عنهما، لحكة كانت بهما.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤٢٦) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٦٧) كتاب اللباس والزينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٤٨) كتاب العيدين، ومسلم (٢٠٦٨) كتاب اللباس والزينة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٩٠) كتاب اللباس والزينة.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٨٦٦) كتاب اللباس.

(٥) صحيح: رواه البخاري (٥١٣٥) كتاب النكاح.

وأما تختُّم المرأة بالذهب فلا بأس به، ولا حرج فيه، فيجوز لهن التختم بالذهب والتسور به، وأن يلبسن ما شئن منه، إلا إذا بلغ حد الإسراف، فإن الإسراف لا يحل...لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]

وقد حكى بعض العلماء إجماع أهل العلم على جواز لباس المرأة للخاتم والسوار ونحوهما...وأما الأحاديث الواردة في النهي عن الذهب المُحلق للنساء فهي أحاديث إما ضعيفة، وإما شاذة تُرك العمل بها، وتواترت الأحاديث الكثيرة التي فيها إقرار النبي ﷺ النساء على لبس المُحلَّق من الأسورة، وكذلك من الخواتم.

ولكن يجب على المرأة إذا كان عندها ما يبلغ النصاب من الحُلي من الذهب أداء زكاته، بأن تقومه كل سنة بما يساويه وتُخرج منه ربع العُشر؛ لأن النبي ﷺ رأى امرأة وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من الذهب، يعني سوارين غليظين، فقال: «**أتؤدين زكاة هذا؟**» قالت: لا، قال: «**أيَسُرك أن يُسورك الله بهما سوارين من نار يوم القيامة**»[1] فخلعتهما وأعطتهما النبي ﷺ وقالت: هما لله ورسوله[2].

۞ وقد يسأل سائلٌ ويقول: ولماذا حُرم الذهب والحرير على الرجال؟!

والجواب: لقد قصد الإسلام بتحريم هذين الأمرين على الرجال هدفًا تربويًّا وأخلاقيًّا نبيلًا... فإن الإسلام - وهو دين الجهاد والقوة - يحب أن يصون رجولة الرجل من مظاهر الضعف والتكسُّر والانحلال... والرجل الذي ميزه الله بتركيبٍ عضوي غير تركيب المرأة، لا يليق به أن ينافس النساء في جَرِّ الذيول، والمباهاة بالحُلي والحُلل.

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٩٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٦٠٩).

ثم هناك هدف اجتماعي وراء هذا التحريم.

فتحريم الذهب والحرير جزء من برنامج الإسلام في حربه للترف عامة، فالترف في نظر القرآن قرين للانحلال الذي يُنذر بهلاك الأمم، وهو مظهر للظلم الاجتماعي، حيث تُتخَم القِلة المترفة على حساب أكثرية بائسة، وهو بعد ذلك عدو لكل رسالة حق وخير وإصلاح..والقرآن يقول: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

وتطبيقًا لروح القرآن حرَّم النبي عليه الصلاة والسلام كل مظاهر الترف في حياة المسلم، فكما حرَّم الذهب والحرير على الرجال، حرم على الرجال والنساء جميعًا استعمال أواني الذهب والفضة.

وبعد هذا وذاك، هناك اعتبار اقتصادي له وزنه كذلك، فإن الذهب هو الرصيد العالمي للنقد، فلا ينبغي استعماله في مثل الأواني أو حُلي الرجال(١).

خامسًا وسادسًا: نهى النبي ﷺ عن المياثر الحُمر وعن القَسِّي:

أما المياثر الحُمر فهي مثل المخدة، يجعل في حشوها قطن ويجعل على هذا القطن خرقة من الحرير، وتُربَط في سرج الفرس أو في كور البعير من أجل أن يجلس عليها الراكب فيستريح.

وكذلك القَسِّيّ وغيرها، فإنها كلها من أنواع الحرير...وهي حرام على الرجال؛ لأنه لا يجوز للرجل أن يلبس الحرير، ولا أن يجلس عليه، ولا أن يفترشه، ولا أن يلتحفه.

وأما المرأة فيجوز لها لبس الحرير؛ لأنها محتاجة إلى الزينة والتجمُّل كما قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٨].

---

(١) الحلال الحرام / د. يوسف القرضاوي (ص ٧٣-٧٧) بتصرف كبير.

يعني: أَوَمَن يُرفَّه في الحلية وهو في الخصام غير مُبين كمن ليس كذلك وهم الرجال.. فالرجال لا يُرفهون في الحلية ولا يُنشَّئون فيها لأنهم مُستغنون ببطولتهم ورجولتهم عن التزيُّن والتجمُّل بهذه الأشياء.

وأما افتراش المرأة للحرير والتحافها به وجلوسها عليه، فقد اختلف فيه العلماء... منهم مَن منع وحرم واستدل بعموم هذا الحديث، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى عن المياثر الحمر وشبهها، وقال: إن المرأة يُباح لها أن تلبس الحرير لاحتياجها إليه، أما أن تفترشه فلا حاجة لها إلى أن تفترش الحرير... وهذا القول أقرب من القول بالحِلِّ مُطلَقًا أي: بحِلِّ الحرير للنساء مطلقًا؛ لأن الحكم يدور مع علّته وجودًا وعدمًا[(١)].

سابعًا: نهى النبي ﷺ عن الشرب في آنية الفضة:

لقد حَثَّ النبي ﷺ على نظافة البيوت لتكون مظهرًا من مظاهر الإسلام دين النظافة .. وعنوانًا يتميز به المسلم عن غيره.. فقد قال ﷺ: «**إن الله جميلٌ يحب الجمال**»[(٢)].

ولا حرج على المسلم أن يُجمل بيته بألوان الزهور، وأنواع النقش والزينة الحلال: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ** ﴾ [الأعراف: ٣٢].

نعم لا حرج على المسلم في أن يعشق الجمال في بيته، وفي ثوبه ونعله، وكل ما يتصل به... وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يَدخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»[(٣)].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٦١٩-٦٢٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

لكن الإسلام يكره الغلو في كل شيء... والنبي ﷺ لم يرضَ للمسلم أن يشتمل بيته على مظاهر الترف والسرف التي نهى عنها الإسلام.

من أجل ذلك حرَّم الإسلام أواني الذهب والفضة ومفارش الحرير الخالص في البيت المسلم... وتهدَّد النبي ﷺ مَن ينحرف عن هذا الطريق بالوعيد الشديد... ففي الصحيحين عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ**»[1].

وروى البخاري عن حذيفة قال: «نَهَانَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَشْرَبَ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَأَنْ نَأْكُلَ فِيهَا، وَعَنْ لُبْسِ الحَرِيرِ وَالدِّيبَاجِ، وَأَنْ نَجْلِسَ عَلَيْهِ، وقال: «**هُوَ لَهُمْ** [أي الكفار] **فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الآخِرَةِ**» وما حُرِّم استعماله حُرِّم اتخاذه تحفة وزينة[2].

وهذا التحريم للأواني والمفارش ونحوها تحريم على الرجال والنساء جميعًا... فإن حكمة التشريع هنا هو تطهير البيت نفسه من مواد الترف الممقوت... وما أروع ما قاله ابن قدامة: «يستوي في ذلك الرجال والنساء لعموم الحديث. ولأن علَّة تحريمها السرف والخُيلاء وكسر قلوب الفقراء وهذا معنى يشمل الفريقين. وإنما أُبيح للنساء التحلِّي للحاجة إلى التزيُّن للأزواج، فتختص الإباحة به دون غيره، فإن قيل: لو كانت العلة ما ذكرتم لحُرمت آنية الياقوت ونحوه مما هو أرفع من أثمان [الذهب والفضة]. قلنا: تلك لا يعرفها الفقراء، فلا تنكسر قلوبهم باتخاذ الأغنياء لها بعد معرفتهم بها ولأن قلتها في نفسها تمنع اتخاذها فيستغني بذلك عن تحريمها بخلاف الأثمان[3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣٤) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٦٥) كتاب اللباس.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣١) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٧) كتاب اللباس.
(٣) المغني (٨/ ٣٢٣).

ولا يظن ظان أن في هذا التحريم تضييقًا على المسلم في بيته، فإن في الحلال الطيب مندوحة وسَعة، وما أجمل الأواني من القيشاني والزجاج والخزف والنحاس وسائر المعادن الكثيرة! وما أجمل المفارش والوسائد من القطن والكتان وغيرهما من المواد! (١)

۞ فهذه بعض الأوامر التي أمر بها النبي ﷺ وكلها خير .... وتلك بعض النواهي التي نهى عنها النبي ﷺ وكلها شر .. فالنبي ﷺ ما ترك خيرًا إلا وقد دلَّنا عليه وما ترك شرًّا إلا وقد حذرنا منه.

---

(١) الحلال الحرام (ص ٨٨-٩٠) بتصرف.

(٢٨) باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة

۞ لا شكَّ أنه ليس هناك أحدٌ معصوم إلا النبى ﷺ.

وأنه كما قال النبى ﷺ: «كلّ بنى آدم خَطَّاءٌ، وخير الخَطَّائين التَّوابون»(١).

۞ فإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ أن نعلم أن أى إنسان قد يقع فى ذنبٍ فى لحظة ضعفٍ من نفسه... فإذا وقع العبد فى ذنبٍ فإنه يحب مَن يستر عليه ذنوبه... ويُبغض مَن يهتك سِتره أمام الناس.

۞ ولو تأملنا فى قول الحق (جلَّ وعلا): ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

لعلمنا أن الإنسان موصوف بهذين الوصفين: الظلم والجهل؛ فإما أن يرتكب الخطأ عن عمدٍ؛ فيكون ظالمًا، وإما أن يرتكب الخطأ عن جهل فيكون جهولاً.... هذه حال الإنسان إلا مَن عَصَم اللهُ عَزَّوَجَلَّ ووفقه للعلم والعدل، فإنه يمشى بالحق ويهدى إلى الحق.

وإذا كان الإنسان من طبيعته التقصير والنقص والعيب؛ فإن الواجب على المسلم نحو أخيه أن يستر عورته ولا يشيعها إلا من ضرورة.

فإذا دَعَت الضرورة إلى ذلك فلا بد منه، لكن بدون ضرورة فالأَولَى والأفضل أن يستر عورة أخيه... لأن الإنسان بَشَرٌ ربما يُخطئ عن شهوة - يعنى عن إرادة سيئة - أو عن شُبهة، حيث يشتبه عليه الحق فيقول بالباطل أو يعمل به، والمؤمن مأمور بأن يستر عورة أخيه.

---

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥١٥).

هَبْ أنك رأيت رجلاً يكذب ويغش فى البيع والشراء؛ فلا تُفشِ ذلك بين الناس؛ بل انصحه واستر عليه، فإن استجاب واهتدى وترك ما هو عليه؛ كان ذلك هو المراد، وإلا وجب عليك أن تبين أمره للناس؛ لئلا يغتروا به.

وهَبْ أنك وجدت إنسانـًا مُبتلى بالنظر إلى النساء، ولا يغض بصره، فاستر عليه، وانصحه وبَيِّن له أن هذا سهم من سهام إبليس.

فما دام الستر ممكنًا، ولم يكن فى الكشف عن عورة أخيك مصلحة راجحة أو ضرورة مُلحَّة، فاستر عليه ولا تفضحه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [النور: ١٩].

۞ ولمحبة شيوع الفاحشة فى الذين آمنوا معنيان:

المعنى الأول: أن يحب شيوع الفاحشة فى المجتمع المسلم، ومن ذلك مَن يَبُثون الأفلام الخليعة، والصحف والمجلات الخبيثة الداعرة، فإن هؤلاء - لا شك - يحبون أن تشيع الفاحشة فى المجتمع المسلم، ويريدون أن يفتتن المسلم فى دينه بسبب ما يُشاع من هذه المجلات، والأفلام الخليعة الفاسدة، أو ما أشبه ذلك.

المعنى الثانى: أن يحب أن تشيع الفاحشة فى شخصٍ مُعيَّن، وليس فى المجتمع الإسلامى كله، فهذا أيضًا له عذابٌ أليم فى الدنيا والآخرة[1].

۞ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

وتدور تلك الآية الكريمة حول قصة الإفك التى ابتُليت بها أُمنا عائشة رضي الله عنها.

وهنا لابد أن نعلم أن الابتلاء سُنَّة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير .. ولكن الابتلاء التى تعرضت له أُمنا عائشة رضي الله عنها كان ابتلاءً يُفتت الصخور والجبال ويعصف

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣-٤) بتصرف.

بالقلوب فلقد اتُهمت فى أعز شىء تملكه المرأة ـ اتُهمت فى عِرضها ـ !!!.
إن هذا لهو البلاء العظيم ... عائشة رضي الله عنها تُتهم فى عرضها وهى الزهرة التقية النقية التى نبتت فى حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحى... ورسول الله ﷺ يُتهم فى عرضه وهو القائم على صيانة حُرمات الأمة وأعراض المسلمين ... والصدِّيق رضي الله عنه يُتهم فى عرض ابنته الغالية !!!.

كانت حادثة الإفك شديدة وأليمة على قلب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ... ومرت عليها وعلى البيت النبوى الطاهر والبيت البكرى الصادق أوقاتٌ قاسية حرجة، امتدت إلى شهرٍ من الزمن، حتى نزل القرآن الكريم بالبراءة للعفيفة الصدِّيقة بنت الصدِّيق ... وتحمل هذه البراءة شهادة مباركة للمؤمن صفوان بن المُعطَّل الذى رُمى بالحديث الآثم، كما وسمت المنافقين بميسم الزور والبهتان الذى ظل يلاحقهم إلى النهاية.

لم تسترح نفوس المنافقين الذين رأوا انتصارات الإسلام تتوسع يومًا بعد يوم، ووجدوا أن مكانتهم بدأت تنحسر وتتلاشى إلى أن مقتهم مجتمعهم، فأرادوا ـ بزعمهم ـ أن يوجهوا ضربة قاصمة إلى النبى الكريم ﷺ ، فرموا أُمنا الطاهرة الصدِّيقة بنت الصدِّيق بالبهتان العظيم.

وكان عبد الله بن أُبى ابن سَلول قد تولَّد النفاق والحسد فى قلبه من أول يوم سمع فيه بالإسلام، وطفق يكيد للنبى ﷺ وللإسلام المكيدة تلو الأخرى... ولكن حكمة الله سبحانه كانت له وللمنافقين بالمرصاد، فكانت تُلجمهم وتكبتهم(١).

۞ وكانت قصة الإفك فى غزوة بنى المصطلق وذلك بعدما انتصر المسلمون على بنى المصطلق وأسروا رجالهم، وسَبَوْا نساءَهم ، وغنموا من

---
(١) نساء مبشرات بالجنة (ص: ١٨٠) بتصرف.

ماشيتهم وإبلهم الشيء الكثير.

وبينما هم يستريحون ويستجمعون قبل الرحيل، تزاحم على الماء رجلٌ من المهاجرين ورجل من الخزرج، وتصايح الرجلان كُلٌّ ينادى قومه:

هذا يقول: يا معشر الأنصار.

وذاك يقول: يا معشر المهاجرين ..!!

وسمع تصايح الرجلين عبد الله بنُ أُبى رأس المنافقين، وهو من الخزرج، وهو الذى كان يحقد على المهاجرين من المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وكان يحسد النبى ﷺ على مكانته التى نالها بين الأنصار، بعدما كان عبد الله بن أُبَىّ هذا يُعِدُّ نفسه ليكون مِلكًا عليهم.

وتفوَّه عبد الله بألفاظٍ كان فيها تحريض منه للأنصار ضد المُهاجرين، وكادت أن تحدث فتنة بسبب ذلك، لولا أن تدارك النبى محمد ﷺ الأمر بحكمته، بأن أمر المسلمين بالرَّحيل، واستعجلهم فى ذلك استعجالًا شديدًا حتى لا يترك مجالًا للخلاف الذى بين المهاجرين والأنصار أن يزداد ويشتدّ.

أسرع المسلمون فجأة إلى رحالهم وشدُّوها، وساقوا إبلهم نحو المدينة، يصحبون معهم أَسراهم وغنائمهم، ويُواصلون سيرهم ليلًا ونهارًا بأمر رسول الله ﷺ، حتى قاربوا المدينة والليل قد أشرف، فأمر النبى ﷺ أصحابه أن يَحُطُّوا ليأخذوا قسطًا من الراحة حتى يبزغ الفجر.

وما إن استراح الناس وحَطُّوا رِحالهم حتى راحوا فى نومٍ عميق من شدة ما لاقوا من التعب بسبب مواصلة السير وسرعته.

وقضت عائشة ليلتها بخيمة الرسول ﷺ، حتى إذا ما قارب الفجر على الانبثاق خرجت فغادرت المعسكر فى قضاء حاجة لها، وأمعنت بعيدًا لئلا تقع عليها عين أحدٍ، وقضت عائشة ما خرجت لأجله، وفيما هى عائدة إلى حيث

ينزل الرسول وأصحابه تحسَّسَتْ عُنقها فلم تجد من حوله عقدها الذى كانت تتزين به، وكان عقدًا غاليًا عندها، عزيزًا عليها؛ لأنه من جزع ظفار ... وظفار بلدةٌ باليمن مشهورة بصنع العقود الثمينة.

حزنت عائشة وعَزَّ عليها ضياع العقد، ورَجَّحَتْ أَنَّهُ انِسَلَّ منها حيث كانت تقضى حاجتها، فعادت لتبحث عنه حيث تظن أنها فقدته.

وأذَّن مؤذن الرسول ﷺ فى جيش المسلمين بالرحيل، وهبَّ القوم من رقادهم يُقوضون خيامهم، ويشدون رحالهم ... فلما تهيأ أمرهم للسير حملوا هودج عائشة الذى كانوا يضعونه عادة أمام باب خيمتها.

ولم يشعروا أنها ليست فيه لأنها كانت صغيرة خفيفة اللحم، فقد تزوجها النبى ﷺ ولها ست سنين، ودخل عليها ولها تسع سنين، ومات عنها ولها ثمانى عشر سنة، فحملوا الهودج وظنوا أنها فيه ثم ساروا ... ثم قالت عائشة رضي الله عنها:

فوجدت عقدى بعدما استمرَّ الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داعٍ ولا مُجيب، فأقمت بمنزلى الذى كنت به، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلىَّ.

فبينما أنا جالسة فى منزل غلبتنى عينى فنمت، وكان صفوان بن المُعطَّل السُّلَمى من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلى.

لم يطل الوقت بعائشة فى انتظار النجدة، فقد ساق الله لها النجدة فى شخص صفوان بن المعطل السُّلَمىّ.

وكان صفوان قد تأخر عن الرَّكب فى حاجة له، فلما جاز ببعيره المكان الذى يخيم به جيش المسلمين قبل أن يرتحل، لمح سوادًا على الأرض فاتَّجه يتبينه، وهو يَحسِبُهُ متاعًا خلَّفه المسلمون من ورائِهِم فيحمله لهم، ولكن ما كان أشد دهشته وأكثر عجبه عندما رأى هذا السَّواد عائشة زوجة رسول الله مُلْتفَّة بثيابها ترقُدُ على الأرض..!

وعرف صفوان عائشة زوجة رسول الله ﷺ فقد كان يراها قبل أن يُفرض على النساء الحجاب- فقال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون!! زوجة رسول الله..!! ما خلَّفَكِ يَرْحَمكِ الله؟!

فلم ترد عائشة على صفوان جوابًا، فَقَدَّمَ صفوان بَعيرَهُ إلى عائشة قائلًا: اركبي.

ثم استأخر صفوان رضي الله عنه بعيدًا عنها حتى ركبت، فأَخَذَ بِمِقْوَدِ البعير يقودُهُ نحو المدينة يبغى اللحاق بجيش المسلمين.

وبينما الرسول ﷺ فى حيرة من غياب عائشة، ويتخذ أهبته للبحث عنها، كان خبر غياب عائشة رضي الله عنها يسرى وينتشر بين أهل المدينة ثم لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى دخلت عائشة على بعير صفوان بن المعطل، فى وضَحِ النهار، وعلى مرأى من الناس.

فرح المنافقون أعظم فرحٍ أن يجدوا مدخلًا للطعن فى رسول الله ﷺ فاتهموا صفوان بن المُعطَّل بأنه فعل الفاحشة مع أمنا عائشة الطاهرة المطهرة التى نبتت فى حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحى وتربَّت بين يدى الحبيب المصطفى ﷺ الذى ربَّاه الله عز وجل وصنعه على عينه ليُربى به الكون كله.

وكان الرسول ﷺ عائدًا لتوِّه من غزوة انتصر فيها، وبالطبع فهو منتصر ولديه غنائم أفاء الله بها عليه، ولذلك فقد شُغل عليه السلام بتقسيم ما أفاء الله به على المسلمين من غزوة بنى المصطلق، وبالقضاء بالحكمة على ما تخلَّفَ فى النفوس من آثار فتنة عبد الله بن أُبى التى كاد أن يثيرها بين الأنصار والمُهاجرين.

كما شُغِلَ أيضًا بزواجه من جويرية بنت الحارث بنت عم زعيم بنى المصطلق، ثم ابتدأ يصل إلى سمعِهِ شيءٌ غريب مريب، يثير العجب... كان

يتهامس به بعض أهل المدينة.

وذلك أن أعداء الرسول من المنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أُبى - الموتور- ما كانوا ليُفوِّتوا هذه الفرصة التى تهيأت لهم بعودة عائشة مع صفوان بن المعطل الشاب القوى الجميل، دون أن ينالوا من رسول الله ﷺ فى أحب زوجاتِهِ إلى قلبه، باتهامها إفكًا[1] بما هى بريئة منه كُلّ البراءة، بعيدة عنه كل البُعد.

وكان ممَّن أفصح بهذا الاتهام ضد عائشة، وممَّن صرَّح به نقلًا عمَّا كان يتسرَّبُ من مجالس ابن أُبى من أقوال (حمنة بنت جحش) ابنة عَمَّةِ النبى محمدٍ ﷺ .. أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين وزوجة الرسول ﷺ ... ومسطح بن أثاثة قريب أبى بكر، والذى كان أبو بكر يتولّى أمره والإنفاق عليه ... وحسان ابن ثابت شاعر الرسول المعروف.

هؤلاء الثلاثة راحوا يذيعون ويشيعون حديث الإفك (الكذب) عن عائشة رضي الله عنها حتى تَسامع به زوجها عليه السلام، ووصل خبره إلى والديها أبى بكر وأم رومان... وعائشة إذ ذاك مريضة بدار زَوْجها، لا تدرى ما يُقال عنها، ويُثار من حولها ... وكل الذى شعرت بغرابته من حولها، وأحسَّته عجيبًا بالنسبة لها ما لاحظته من نفور النبى ﷺ نحوها، وعدم بشاشته لها، وتبسُّطه معها، كما كان يفعل من قبل، فما كان يزيد عند دخوله عليها لعيادتها وأمها عندها تُمَرِّضها عن أن يقول: «كيف تيكم؟» وهو الذى لا يترك ما بوسعه للاهتمام بها وبكل ما يتعلق بأمرها ولا يَكفُّ عن العناية بشأنها إذا ما ألَمَّ بها مرض.

وتتحدث عائشة الطاهرة رضوان الله عليها فى حديثها الطويل عن الإفك فتقول: ... فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِى

---

(١) جاء فى الكليات للكفوى أن الإفك: هو الكذب .. انظر فصل الألف والفاء مادة «الإفك» (ص ١٥٣).

قَوْلِ أَصحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِى فِى وَجَعِى أَنِّى لاَ أَعرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِى كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتكِى، إِنَّمَا يَدخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الذى يَرِيبُنِى وَلاَ أَشْعُرُ.

لم ترَ عائشة بُدًّا وهذا حال زوجها ﷺ معها من الفتور ... لم ترَ إلا أن تستأذن زوجها فى الذهاب إلى دار أبيها لتُمرِّضها هناك أمها أم رومان رضي الله عنها.

فلما دخل عليها النبى ﷺ كعادته يقول لها: «كيف تيكم؟».

قالت له: لو أذنت لى، فأنتقل إلى أُمِّى، فتُمرضنى.

فكان جوابه لها: «لا عليك»، فسمح لها أن تنتقل إلى دار أبيها.

وانتقلت عائشة إلى دار أبيها، والدموع مِلْء عينيها، وقلبها يتفطر أسًى، ونفسها تذوب حُزنًا من هذا الفتور الذى ما اعتادته من الحبيب ﷺ وهى لا تدرى لذلك سببًا.

ونقهت عائشة وتعافت من مرضها بعد بضعٍ وعشرين ليلة.

وبينما هى ذات ليلة قد خرجت فى قضاء حاجة لها، تصحبها أُمُّ مِسْطح قريبة أبيها أبى بكر... تعثَّرت أُم مِسْطَحٍ فى ذيل ثوبها، فقامت تشتم ولدها مِسطحًا، وكان من ضمن أولئك الذين خاضوا فى حديث الإفك عن عائشة - قائلة: تَعِسَ مِسطح.

كان لابد لعائشة رضي الله عنها أن تسأل عن هذا الذى يُقال من أُمٍّ تُحب ولدها.. ولندع عائشة تكمل الحديث ... تقول عائشة رضي الله عنها:

فأقبلت أنا وأُم مسطح قِبَل بيتى قد فرغنا من شأننا، فعثرت أُم مسطح فى مِرطها فقالت: تَعِسَ مِسطح!!

فقلت لها: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدرًا؟!

فَقَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعِى مَا قَالَ؟؟! (١)

تقول أم مسطح لعائشة: أوَ ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر.

سألت عائشة: وما الخبر؟!

فأخبرتها أم مسطح ما كان من حديث أهل الإفك والكذب، وشعرت عائشة كأن الدنيا تميدُ بها مَيدًا، ولم تقوَ قدماها على حملها، فعادت إلى دارها وقد تبينت مبلغ الهوة السحيقة التى حُفِرت من حولها، ففصلت بينها وبين حب زوجها وعطفه عليها، ونالت من منزلتها ومكانتها بين الناس.

عادت لتقول لأمها مُعاتبة: يغفر الله لك يا أُمى .. تَحدَّث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لى من ذلك شيئًا.

فهوَّنت عليها أُمها أم رومان قائلة: أَى بُنَيَّةُ، خَفِّفى عَلَيْكِ الشَّأن، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ وكثَّر النَّاسُ عَلَيْهَا.

ولكن عائشة رضي الله عنها، قضت ليلتها تبكى حتى أحسَّت كأن كبدها يتمزَّق، وأصبحت وهى لا يرقأ لها دَمْعٌ، ولا تكتحل عيناها بنوم.

تألم الرسول ﷺ ألمًا نفسيًّا شديدًا من أجل عائشة الحبيبة، التقيَّة، الطاهرة، ولكن .. ما بال الناس يتحدثون ويخوضون!! ولم يجد أمامه إلَّا ربه الذى يتولاه، ولم يستطع صلوات الله وسلامه عليه أن يسكت على رجف المرجفين أكثر مما سكت، ولا أن يحتمل ما بنفسه من ريبة وشكٍّ أكثر مما احتمل، فدعا بابن عمه على بن أبى طالب، وبأسامة بن زيد بن حارثة رضوان الله عليهما يستشيرهما فى أمر عائشة.

أما أسامة فقد أثنى على عائشة وقال: يا رسول الله؛ أَهْلُكَ، وما نعلم منهم إلا خيرًا.

(١) الحديث رواه البخارى (٢٦٦١) كتاب الشهادات، ومسلم (٢٧٧٠) كتاب التوبة.

أمَّا على بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد قال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تَسْتَخلِف ... وسَل الجارية فإنها تُجيبك.

ودُعيت بريرة جارية عائشة، فسألها النبى ﷺ.

فقالت الجارية: والله ما أعلم إلَّا خيرًا، وما كنت أعيب على عائشة شيئًا إلَّا أنى كنت أعجن عجينى، فأطلب منها أن تحفظه، فتنام عنه لحداثة سِنِّها، فتأتى الشَّاةُ فتأكلُهُ.

وراح الرسول ﷺ يسأل زوجته زينب بنت جحش عن عائشة - وكانت أختها حمنة ممن أفصح بالإفك عنها- فقال لها: «**ماذا علمتِ أو رأيتِ؟**».

فأجابت زينب الرسول ﷺ على الفور: أَحمِى سمعى وبصرى، والله ما علمت إلا خيرًا![1]

قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحنُ عَلَى ذَلِكَ، دَخلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ.

قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِى مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ «لَبِثَ» شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِى شَأْنِى ... قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِى عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِى اللهَ وَتُوبِى إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**».

قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِى حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِى: أَجِبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ... قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِى مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّى: أَجِيبِى رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: مَا أَدْرِى مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ: إِنِّى وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِى أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَئِنْ،

---

(١) بتصرف من كتاب أزواج النبى ﷺ / أ. عبد المنعم الهاشمى.

قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ، قَالَ: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحقَرَ مِنْ أَنْ يَتكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا.

قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ.

قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكِ» فَقَالَتْ أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: لاَ وَاللهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحمَدُ إِلَّا اللهَ عَزَّوَجَلَّ ... فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ ﴾ الْعَشْرَ الآيَاتِ كُلَّهَا.

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النور: ٢٢] . قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، مَا

عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالوَرَعِ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصحَابِ الإِفْكِ»[1].

۞ وهكذا نزلت براءة أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فى آياتٍ قرآنية تُتلى إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١-٢٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أى جاءوا بأسوء الكذب وأشنع صور البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشة ... قال الإمام الفخر: الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أُفك به على عائشة وهى زوجة الرسول المعصوم[2] ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أى جماعة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسهم «ابن سَلول» رأس النفاق ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ أى لا تظنوا هذا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٥٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٧٧٠) كتاب التوبة.

(٢) التفسير الكبير (٢٣/ ١٧٢).

القذف والاتهام شرًّا لكم يا آل أبى بكر ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحى ببراءة أم المؤمنين، وهذا غاية الشرف والفضل ...

قال المفسرون: والخير فى ذلك من خمسة أوجُه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحى فى شأنها، والأجر الجزيل لها فى الفِرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين[(١)] ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أى لكل فردٍ من العُصبة الكاذبة جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أى والذى تولى مُعظمه وأشاع هذا البهتان وهو «ابن سَلول» رأس النفاق ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى له فى الآخرة عذابٌ شديد فى نار جهنم ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أى هلاَّ حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصدِّيقة عائشة ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أى هلاّ ظنوا الخير ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألاّ يصدق مؤمنٌ على أخيه قولة عائب ولا طاعن ... قال ابن كثير: هذا تأديبٌ من الله تعالى للمؤمنين فى قصة عائشة حين أفاض بعضهم فى ذلك الكلام السُّوء، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأمُّ المؤمنين أَولَى بالبراءة منه بطريق الأولَى والأحرى... روى أن امرأة «أبى أيوب الأنصارى» قالت له: أما تسمع ما يقول الناسُ فى عائشة! قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ... قال فعائشة والله خيرٌ منك[(٢)]. ﴿ وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أى قالوا فى ذلك الحين هذا كذبٌ ظاهر مُبين ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ أى هلاّ جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ما قالوا ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ ﴾ أى فإن عجزوا ولم يأتوا على

---

(١) التسهيل فى علوم التنزيل (٣/ ٦١).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩١).

دعواهم بالشهود ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ أى فأولئك هم المفسدون الكاذبون فى حكم الله وشرعه... وفيه توبيخٌ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أى لو لا فضله تعالى عليكم - أيها الخائضون فى شأن عائشة - ورحمته بكم فى الدنيا والآخرة حيث أمهلكم ولم يُعاجلكم بالعقوبة ﴿ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ ﴾ أى لأصابكم ونالكم بسبب ما خُضتم فيه من حديث الإفك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى عذابٌ شديدٌ هائل يُستحقَر دونه الجلد والتعنيف ...قال القرطبى: هذا عتابٌ من الله بليغ لمن خاضوا فى الإفك، ولكنه برحمته ستر عليكم فى الدنيا، ويرحم فى الآخرة مَن أتاه تائبـًا[1] ﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ ﴾ أى وذلك حين تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه ... قال مجاهد: أى يرويه بعضُكم عن بعض، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلانٌ كذا[2] ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾ أى تقولون ما ليس له حقيقة فى الواقع، وإنما هو محض كذبٍ وبهتان ﴿ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنًا ﴾ أى وتظنونه ذنبـًا صغيرًا لا يلحقكم فيه إثم ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أى والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع فى أعراض المسلمين ... قال فى التسهيل: عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء: الأول: تَلقِّيه بالألسنة أى السؤال عنه والثاني: التكلُّم به والثالث: استصغاره حيث حسبوه هينـًا وهو عند الله عظيم... وفائدة قوله بألسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أنَّ ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم[3] ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين أى: كان ينبغى عليكم أن تُنكروه أول سماعكم له وتقولوا لا ينبغى لنا أن نتفوه بهذا

---

(١) القرطبى (١٢/ ٢٠٣).

(٢) المختصر (٢/ ٥٩١).

(٣) التسهيل فى علوم التنزيل (٣/ ٦٢).

الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴾ أى سبحان الله أن يُقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذبٌ واضح، عظيم الجرم ... قال الزمخشرى: هو بمعنى العجب من عظيم الأمر والاستبعاد له ... والأصل فى ذلك أن يُسبَّح الله عند رؤية العجائب[(١)] ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أى يذكركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكى لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبدًا ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ أى إن كنتم حقًّا مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل هذا البهتان...وفيه حثٌّ لهم على الاتعاظ ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ ﴾ أى ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، لتتعظوا وتتأدبوا بها ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى عالِمٌ بما يُصلح العباد، حكيم فى تدبيره وتشريعه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ ﴾ أى يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط فى القبح كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات ﴿ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أى فى المؤمنين الأطهار ﴿ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ أى لهم عذاب موجع مؤلم فى الدنيا بإقامة الحدِّ، وفى الآخرة بعذاب جهنم ...

قال الحسن: عَنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إذاية الرسول ﷺ ... وذلك كُفرٌ وملعونٌ صاحبه[(٢)] ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أى هو تعالى عالمٌ بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك ... قال الإمام الفخر: وهذه الجملة فيها حُسنُ الموقع بهذا الموضع، لأن محبة القلب كامنةٌ ونحن لا نعلمها إلاّ بالأمارات...أما الله سبحانه فهو لا يَخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهايةً فى الزجر لأن مَن أحبَّ إشاعة الفاحشة وإن بالغَ فى إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه[(٣)] ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ

(١) الكشاف (٣/ ٢٢٥).
(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٣٩).
(٣) التفسير الكبير (٢٣/ ١٨٣).

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ محذوف لتهويل الأمر ... أى لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذَّبهم، وكان ما كان مما لا يكاد يتصوره الإنسان لأنه فوق الوصف والبيان[1].

ساعات المحنة

عندما يقف الإنسان يتدبر معانى الآيات الكريمة التى برَّأت عائشة رضي الله عنها، تَجُول فى خاطره تلك الساعات التى مَرَّ بها البيت النبوى، والبيت البكرى... وكيف تلقَّى النبى ﷺ هذا الخبر، وكيف صبر رسول الله ﷺ وآل أبى بكر تحت وطأة بلاء حديث الإفك؟!!

نعم .. لقد آذى رسول الله ﷺ ما بلغه عن عائشة أطهر الصادقات وأصدق الطاهرات... مَن أحبها مع أبيها حبًّا يَفُوق تَصوُّر المتصورين، فهو لا يعلم عن زوجه عائشة إلا خيرًا، ولكن ما بال الناس يقولون عليها هذا الكلام؟

لقد لبث رسول الله ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابرًا صبرًا لم يُعرَف فى تاريخ النوازل والبلايا والخُطوب لأحدٍ من قبله، ولا لأحدٍ من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد سبعٍ وثلاثين ليلة من بداية المحنة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، بعد ظفره ببنى المصطلق ... تَحدَّث به أهل النفاق ومرضى القلوب. ولاكته ألسنتهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مُفترون، يحسبونه هَيِّنًا وهو عند الله عظيم.

وما بالك بحال آل أبى بكر؟!

لم يكن حالهم أقل حُزنًا من حُزن رسول الله ﷺ، فإنهم منذ بلغهم الإفك، وما تحدث به المنافقون وأتباعهم، وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٣٠٠-٣٠١).

العاصف، لا يدرون ما يقولون، ولا ما يفعلون، تُلاحقهم النظرات المتنوعة من كل مكان، وفى كل مكان.

ولك أن تتخيل تلك اللحظات الحرجة، بل الساعات والأيام التى قضوها، وهم يعيشون مرارة المحنة، ولكنهم استسلموا لقضاء العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض، منتظرين حُكمه بكشف الغمة التى أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر النبى ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصفت أم المؤمنين عائشة حالها، وحال أبويها فى أحرج لحظات البلاء التى أذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية.. تقول عائشة: والله ما أعلم أهل بيتٍ دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام(١).

(٢٤٥) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «لا يسْتُرُ عَبْدٌ عبْدًا فِى الدُّنْيَا إِلاَّ سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقيامَةِ»(٢).

۞ ذكرنا قبل ذلك أن الستر ليس محمودًا على كلِّ حالٍ وليس مذمومًا على كلِّ حالٍ...

فأمَّا الستر المحمود فيكون فى حق إنسانٍ مستقيم من ذوى الهيئات غير معروفٍ بالشرِّ والفساد .. ولم يُعهَد منه فاحشة وهو غير معروفٍ بظلم الناس والاعتداء عليهم .. فمثل هذا ينبغى أن نستر عليه وأن نُبين خطأه ونُقدم له النصيحة الخالصة لوجه الله عَزَّ وَجَلَّ .... وأما الإنسان الذى لا ينبغى أن نستر عليه فهو الإنسان المُشتهر بالفساد والإفساد والذى يجهر بالمعاصى ويعتدى على عباد الله.. فمثل هذا لا ينبغى أن نستر عليه بل المشروع أن نوضح أمره لولاة

(١) نساء أهل البيت (ص: ١٣٧-١٣٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٠) كتاب البر والصلة والآداب.



الأمر حتى يردعوه عمَّا هو عليه وحتى يكون عبرة لغيره...

فالستر يتبع المصالح، فإذا كانت المصلحة فى الستر فهو أولَى وإن كانت المصلحة فى الكشف فهو أولَى...وإن تردد الإنسان بين هذا وهذا فالستر أولى.

۞ فمن ستر إنسانًا مستقيمًا وقع فى كبوة .. ستره الله يوم القيامة .

قَالَ الْقَاضِى فى معنى ستره يوم القيامة: يُحتَمَلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَسْتُرُ مَعَاصِيَهُ وَعُيُوبَهُ عَنْ إِذَاعَتِهَا فِى أَهْلِ الْمَوْقِفِ. وَالثَّانِى: تَرْكُ مُحَاسَبَتِهِ عَلَيْهَا وَتَرْكُ ذِكْرِهَا .. قَالَ وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ لِمَا جَاءَ فِى الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**يُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ.. يَقُولُ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[(١)(٢)].

۞ وإن كان هذا الستر المحمود فيما لو ظهر لك من أخيك ما ينبغى أن تستره عليه .. فمن باب أولَى ألا تتبع عورات أخيك المسلم.

۞ فمن المروءة ألا تتتبع عورات أخيك المسلم.. وإن وجدت به عيبًا فما عليك إلا أن تستره وتنصحه فيما بينك وبينه ولا تفضحه بين الناس... فإنَّ مَن ستر مسلمًا ستره الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ولذلك جاء الترهيب من تَتَبُّع عورات المسلمين ومحاولة فضحهم والتشهير بهم.

۞ وإن من كرامة المسلم على الله: أنه سبحانه يتولَّى الدفاع عنه بنفسه، والانتقام له من المسيئ إليه... وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**يَا مَعشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَو فِى جَوفِ بَيْتِهِ**»[(٣)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤١) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٧٦٨) كتاب التوبة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢١٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٤).

۞ وعن أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «لو أخذت سارقًا لأحببت أن يستره الله، ولو أخذت شاربًا لأحببت أن يستره الله عَزَّوَجَلَّ»(١).

فاستر إخوانك، فإنَّه لا طاقة لك بحرب الله، القادر على كشف عيوبك، وفضح ذنوبك، التي لا يعلمها الناس عنك. وألجِم لسانك عن الخوضِ فى الأعراض، وتتبُّع العورات، وإفساد صيت إخوانك، وإساءة سُمعتهم.

❊❊❊

(٢٤٦) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ أَمَّتِى مُعَافىً إلاَّ المُجاهرينَ، وإِنَّ مِن المُجاهرةِ أَن يعمَلَ الرَّجُلُ بالليلِ عمَلاً، ثُمَّ يُصبحَ وَقَد سَترَهُ الله عَلَيْهِ فيقُولُ: يَا فلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كذَا وَكَذَا، وَقَد بَاتَ يَسْترُهُ ربُّهُ، ويُصبحُ يَكْشِفُ سِتْرَ الله»(٢).

۞ إن المسلم إذا ستر على نفسه فإنه يَسلم بذلك من ألسنة الناس ومن سخط الله (جلَّ وعلا).. فإن الله يستر على مَن ستر على نفسه ولا يُحب من يجهر بمعصيته.

وإن المجتمع الذى يغلب عليه الطُّهر، لا يظهر فيه من الأخبار إلَّا ما كان طاهرًا وعفيفًا، ويبقى المُسِرُّ بالمعصية مستورًا بستر الله عليه، إلى أن يتوب... ويستره المؤمنون؛ لئلَّا يتجاسر على الجهر بها، أو الإصرار عليها، وليكونوا عونًا له على الشيطان، طالما أسرَّ واستتر.

۞ قوله ﷺ: «**كل أمتى مُعافى إلا المجاهرين**» يعنى بكل الأمة: أمة الإجابة الذين استجابوا للرسول ﷺ ... «مُعافَى» يعنى قد عافاهم الله عَزَّوَجَلَّ، «إلا المجاهرين» والمجاهرون هم الذين يجاهرون بمعصية الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) مكارم الأخلاق (ص٤٩٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرقائق.

والمجاهرون الذين يجهرون بالمعاصي ينقسمون إلى قسمين:

الأول: أن يعمل المعصية وهو مُجاهِرٌ بها، فيعملها أمام الناس، وهم ينظرون إليه... هذا لا شك أنه غير مُعافَى وهو من المجاهرين، لأنه جَرَّ على نفسه الويل، وجَرَّه على غيره أيضًا.

الثاني: أن يعمل المعصية في البيت في الخفاء بحيث لا يراه أحدٌ .. فإذا أصبح ذكر ما فعله للناس وفضح نفسه بعد أن ستره الله عَزَّوَجَلَّ.

فكل واحدٍ منهما غير مُعافى .. وذلك لأنه وقع في معصية الله (جلَّ وعلا) وظلم نفسه.. وكان ينبغي أن يعلم أن نفسه أمانة عنده ينبغي أن يرعاها حق رعايتها .. وكما أنه لو كان عنده ماشية فإنه يتخير لها المراعي الطيبة ويُبعدها عن المراعي الخبيثة الضارة .. فكذلك يجب عليه أن يتحرَّى المراتع الطيبة لنفسه: وهي الأعمال الصالحة وأن يُبعدها عن المراعي الخبيثة وهي الأعمال السيئة.

والمُجاهِر لم يكتفِ بأن ظَلَم نفسه وعصى الله عَزَّوَجَلَّ .. بل ظلم الناس من حوله .. وذلك لأن الناس إذا رأوه يجهر بالمعاصي هانت في نفوسهم ففعلوا مثله وظلموا أنفسهم بالوقوع في معصية الله عَزَّوَجَلَّ عندما فعلوا مثله وصار والعياذ بالله من الأئمة الذين يدعون إلى النار...كما قال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وقال النبي (عليه الصلاة والسلام): «.... **ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة فعليه وِزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة**»[(١)]. فهذا نوعٌ من المُجاهرة، ولم يذكره النبي ﷺ لأنه واضح، لكنه ذَكَر أمرًا آخر قد يَخفى على بعض الناس فقال: ومن المجاهرة أن يعمل الإنسان العمل السيئ في الليل فيستره الله عليه...يعمل العمل في بيته فيستره الله عليه ..ولا يُطلع عليه أحدًا ... ولو تاب فيما بينه وبين

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة.

ربه لكان خيرًا له،ولكنه إذا قام فى الصباح واختلط بالناس قال: عملت البارحة كذا، وعملت كذا، وعملت كذا ... فهذا ليس مُعافَى.

هذا والعياذ بالله قد ستر الله عليه فأصبح يفضح نفسه.

۞ وهذا الذى يفعله بعض الناس أيضًا يكون له أسباب:

السبب الأول: أن يكون الإنسان غافلاً سليمًا لا يهتم بشىء، فتجده يعمل السيئة ثم يتحدث بها عن طِيب قلبٍ لا عن خُبث قصدٍ.

والسبب الثانى: أن يتحدث بها تَبجُّحًا بالمعاصى واستهتارًا بعظمة الخالق، فيُصبحون يتحدثون بالمعاصى مُتبجحين بها كأنما نالوا غنيمة، فهؤلاء -والعياذ بالله- شَرُّ الأقسام.

والحاصل أنه ينبغى للإنسان أن يستتر بستر الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يحمد الله على العافية، وأن يتوب فيما بينه وبين ربه من المعاصى التى قام بها.

وإذا تاب إلى الله وأناب إلى الله ستره الله فى الدنيا والآخرة.

***

(٢٤٧) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «إِذَا زَنَتِ الأمةُ فَتبيَّنَ زِناهَا فَلْيَجْلِدها الحدَّ، ولا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّانية فَلْيجلدها الحدَّ ولا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالثةَ فَلْيبعها ولوْ بِحبْلٍ مِنْ شعرٍ»(١).

۞ إنسان عنده أَمة ... والآن لا يوجد إماء، ولكن هذا حكم من الأحكام التى ينبغى أن نوضحها .. والتى ينبغى فيها الستر الجميل ... فالأَمة إذا وقعت فى الزنا فلسيدها أن يُقيم عليها الحد... والحَدُّ هنا ليس رَجمًا، ولكن الحَدَّ هو الجلد، لأن فى رجمها إهدارًا لمال سيدها ... فيجلدها خمسين جَلدة، وبعدما

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٣٤) كتاب البيوع - ومسلم (١٧٠٣) كتاب الحدود.
«التَّثرِيبُ»: التَّوْبيخُ.

يقيم عليها الحد قال: «**ولا يُثرب**»، أى: لا يُعيرها ويقول لها: يا زانية! يا مَن أتيتِ الفاحشة! لماذا؟ لأن الإنسان لو اعتاد هذه الكلمة على لسانه فإنه سوف يفضحها بذلك، وحينئذ سوف تُفضِّل أن تقع فى الفاحشة طالما أنها قد افتُضحت ... ومعلوم أن الإنسان الذى يقع فى الفاحشة أو المعصية يستر على نفسه؛ لأنه يخاف أن يعرف الناس ذلك، فإذا عرف الناس هذا الشيء فحينئذ سوف يُكشَف بُرقع الحياء، ولن يستحى من الناس بعد ذلك، بل وسوف يعملها ويجاهر بها... لذلك قال النبى ﷺ لسيد الأَمة: «**فليجلدها الحَدَّ ولا يُثرِّب**»، فأقم عليها الحد، واجلدها خمسين جلدة، ولكن لا تفضحها، ولا تُشهِّر بها، ولا تُعيرها بهذا الشيء، وإلا كشفت عنها ثوب الحياء، وسوف تقوم هى بعد ذلك فتقع فى الفاحشة مرة وراء المرة، ولا يهمها شيء.

قال ﷺ: «**فإن زنت الثانية فليجلدها الحَدَّ ولا يُثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر**»، ففى المرة الثالثة أمره أن يبيعها، لأنه لا يستطيع أن يعفها...وسيد الأَمة إما أن يأتيها هو، وإما أن يُزوجها حتى تستعف... ولكن هذا لا يأتيها ولا يُزوجها، إنما تركها تزنى، فعليه إذًا أن يبيعها طالما أنه لم يقدر على أن يكفيها عن الحرام(١) .

والأَمة: هى المملوكة التى تُباع وتُشترى، فإذا زنت فيجلدها الحدَّ، وحدُّ الأمة نصف حدِّ الحرة ... كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ [النساء: ٢٥] .

والحُرة إذا كانت بِكرًا و زَنَتْ تُجلد مائة جلدة وتُغرَّب سَنة.

والأَمة نصف ذلك يعنى خمسين جلدة... وأما تغريبها ففى ذلك قولان للعلماء: منهم مَن قال: تُغرَّب نصف سنة. ومنهم مَن قال: إنها لا تُغرَّب، لأنه قد

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطيبة.

تعلق بها حقُّ السيد.

«**ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يُثرب، ثم إن زنت**» يعني في الثالثة أو الرابعة «**فليبعها ولو بحبل من شعر**»، يعني ولا يُبقيها لأنه لا خير فيها.

ففي هذا: دليل على أن السيد يُقيم الحد على مملوكه، وأما غير السيد فلا يقيم الحد[1].

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ على وجوب حد الزنى عَلَى الْإِمَاءِ وَالْعَبِيدِ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ وَالْأَمَةَ لَا يُرجَمَانِ سَوَاءٌ كَانَا مُزَوَّجَيْنِ أَمْ لَا لِقَوْلِهِ ﷺ «**فَلْيَجْلِدهَا الْحَدَّ**» وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ مُزَوَّجَةٍ وَغَيْرِهَا وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يُوَبَّخُ الزَّانِي بَلْ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ فَقَطْ .. قَوْلُهُ ﷺ: «**إِنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدهَا الْحَدَّ وَلَا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ فَتبيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَبِعهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعرٍ**» فِيهِ أَنَّ الزَّانِيَ إِذَا حُدَّ ثُمَّ زَنَى ثَانِيًا يَلْزَمُهُ حَدٌّ آخَرُ فَإِنْ زَنَى ثَالِثَةً لزمه حَدٌّ آخر ... فإن حُدَّ ثم زنا لَزِمَهُ حَدٌّ آخَرُ وَهَكَذَا أَبَدًا ... فَأَمَّا إِذَا زَنَى مَرَّاتٍ وَلَمْ يُحَدَّ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَيَكْفِيهِ حَدٌّ وَاحِدٌ لِلْجَمِيعِ... وَفِيهِ تَرْكُ مُخَالَطَةِ الْفُسَّاقِ وَأَهْلِ الْمَعَاصِي وَفِرَاقِهِمْ، وَهَذَا الْبَيْعُ الْمَأْمُورُ بِهِ مُسْتَحَبٌّ.. وَفِيهِ جَوَازُ بَيْعِ الشَّيْءِ النَّفِيسِ بِثَمَنٍ حَقِيرٍ وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ الْبَائِعُ عَالِمًا بِهِ فَإِنْ كَانَ جَاهِلًا فَكَذَلِكَ عِنْدَنَا وَعِنْدَ الْجُمْهُورِ، وهذا البيع الْمَأْمُورُ بِهِ يَلْزَمُ صَاحِبَهُ أَنْ يُبَيِّنَ حَالَهَا لِلْمُشْتَرِي لِأَنَّهُ عَيْبٌ وَالْإِخْبَارُ بِالْعَيْبِ وَاجِبٌ ... فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ يَكْرَهُ شَيْئًا وَيَرْتَضِيهِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ؟.. فَالْجَوَابُ لَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ عِنْدَ الْمُشْتَرِي بِأَنْ يُعِفَّهَا بِنَفْسِهِ أَوْ يَصُونَهَا بِهَيْبَتِهِ أَوْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا وَالتَّوْسِعَةِ عَلَيْهَا أَوْ يُزَوِّجُهَا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٩-١٠) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (١١/ ٣٠٠-٣٠١) بتصرف.

(٢٤٨) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أُتِىَ النَّبىُّ ﷺ بِرجلٍ قَد شرِب خَمْرًا قال: «اضْربُوهُ» قال أَبُو هُرَيْرَةَ: فمِنَّا الضَّارِبُ بيده، والضَارِبُ بِنَعله، والضَّارِبُ بثوبِه. فَلَمَّا انْصَرَفَ قَال بعضُ الْقَومِ: أَخْزاكَ الله، قال: «لا تقُولُوا هَكذا لا تُعِينُوا عليه الشَّيْطان»[1].

۞ والخمر: هى كل ما خامر العقل من أى شراب كان؛ سواء كان مما اعتيد شربه أم لا؛ وسواء كان من عصير العنب أو التمر أو الشعير أو البُر أو غير ذلك من أنواع العصائر التى تُسكر... فالمدار كلّه على الإسكار، وما أسكر كثيره فقليله حرام.

وفى الحقيقة أن الخمر هى أم الكبائر وهى آفة كبيرة لكل من ابتُلى بها .. وإن الإنسان لم يُصَب بضربة أشد من ضربة الخمر .. ولو عُمِلَ إحصاءٌ عام عمَّن فى مستشفيات العالم من المُصابين بالجنون والأمراض العضال بسبب الخمر، وعمَّن انتحر أو قَتل غيره بسبب الخمر، وعمَّن يشكون فى العالم من آلام عصبية ومعدية ومعوية بسبب الخمر، وعمَّن أورد نفسه موارد الإفلاس بسبب الخمر، وعمَّن تجرَّد من أملاكه بَيعًا أو غِشًّا بسبب الخمر ... لو عُمِلَ إحصاء بذلك أو ببعضه لبلغ حدًّا هائلًا نجد كل نُصحٍ بإزائه صغيرًا.

وقد كان العرب فى جاهليتهم مُولَعين بشربها والمُنادمة عليها.

ظهر ذلك فى لُغتهم، فجعلوا لها نحوًا من مائة اسمٍ فى شِعرهم فوصفوها، وأقداحها ومجالسها وأنواعها.

فلما جاء الإسلام أخذهم بمنهج تربوى حكيم، فتدرج معهم فى تحريمها، فبيَّن لهم أولًا أن إثمها أكبر من نفعها، ثم منعهم من الصلاة وهم سُكارى، ثم أنزل سبحانه الآية الجامعة القاطعة فى تحريمها فى سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٧٨١) كتاب الحدود.

﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وفى هاتين الآيتين أكد الله تحريم الخمر والميسر (القمار) تأكيدًا بليغًا، إذ قرنهما بالأنصاب والأزلام، وجعلهما رجسًا - وهى كلمة لا تُطلق فى القرآن إلا على ما اشتد فُحشه وقُبحه، وجعلهما من عمل الشيطان، وإنما عَمَلُه الفحشاء والمنكر، وطلب اجتنابهما، وجعل هذا الاجتناب سبيلًا إلى الفلاح، وذكر من أضرارهما الاجتماعية، تقطيع الصلات، وإيقاع العداوة والبغضاء ...

ومن أضرارهما الروحية الصد عن الواجبات الدينية من ذكر الله والصلاة، ثم طلب الانتهاء عنهما بأبلغ عبارة: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟

وكان جواب المؤمنين على هذا البيان الحاسم: قد انتهينا يا رب، قد انتهينا يا رب.

وصنع المؤمنون العجب بعد نزول هذه الآية ... فكان الرجل فى يده الكأس قد شرب منها بعضًا وبقى بعض، فحين تبلغه الآية ينزع الكأس من فِيه -أى من فمه- ويفرغها على التراب.

وقد تيقن كثير من الحكومات بأضرار الخمر على الأفراد والأُسر والأوطان... ومنهم مَن حاولوا أن يمنعوها بقوة القانون والسلطان - كأمريكا- ففشلوا، على حين نجح الإسلام وحده فى محاربتها والقضاء عليها(١).

وفى هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أنه قد أُتى برجلٍ قد شرب خمرًا وقد تأكد الجميع من خلال تصرفاته ورائحة فمه أنه بالفعل قد شرب خمرًا. فقال ﷺ: «**اضربوه**».

فقال أبو هريرة: فمنَّا الضارب بيده، ومنَّا الضارب بسوطه، ومنَّا الضارب

---

(١) الحلال والحرام / د. يوسف القرضاوى (ص ٦٥-٦٦).

بنعله... ولم يُحدد لهم النبى ﷺ عددًا معينًا، فلما انصرف بعضهم قال له رجل: أخزاك الله، فقال النبى ﷺ: «**لا تُعينوا عليه الشيطان**» لأن الخزى معناه العار والذّل... فأنت إذا قلت لرجلٍ: أخزاك الله، فإنك قد دعوت الله عليه بما يذله ويفضحه، فتُعين عليه الشيطان.

❁ **قال الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَوَجْهُ عَوْنِهِمُ الشَّيْطَانَ بِذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُرِيدُ بِتَزْيِينِهِ لَهُ الْمَعصِيَةَ أَنْ يَحصُلَ لَهُ الْخِزْىُ فَإِذَا دَعَوْا عَلَيْهِ بِالْخِزْىِ فَكَأَنَّهُمْ قَد حَصَّلُوا مَقْصُودَ الشَّيْطَانِ[1].

❁ وقد أجمع الصحابة ومَن بعدهم على جَلد شارب الخمر.. ثم اختلفوا فى مقداره على قولين:

الأول: مقداره أربعون جلدة: وهو مذهب الشافعى -ورواية عن أحمد- وداود وابن حزم وبه قال جَمعٌ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ... وحجة هذا المذهب:

١- **حديث أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كَانَ يَضْرِبُ فِى الْخَمْرِ بِالنِّعَالِ وَالْجَرِيدِ أَربَعِينَ[2].

٢-أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمر عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجَلد الوليد بن عقبة فى الخمر، فقال لعبد الله بن جعفر: «اجلده، فجلده، فلما بلغ الأربعين قال: أَمْسِكْ .. جَلَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَمَانِينَ وَكُلٌّ سُنَّةٌ وَهَذَا أَحَبُّ إِلَىَّ»[3].

قالوا: ففيهما الجزم بأن النبى ﷺ جلد أربعين، واعتمده أبو بكر فى خلافته، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صدرًا من خلافته حتى تتابع الناس فيها فزادها أربعين «تعزيرًا».

---

(١) فتح البارى (١٢/ ٦٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٠٦) كتاب الحدود.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧٠٧) كتاب الحدود.

الثاني: مقدار الحدِّ ثمانون جلدة: وهو مذهب جمهور العلماء منهم الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك وأحمد، وهو القول الآخر عند الشافعية، واستدلوا بما يلي:

١- ما يُروى «أن النبى ﷺ جلد فى الخمر ثمانين»[١] وهو ضعيف لا تقوم به حجة.

٢- حديث أنس: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِرَجُلٍ قَد شَرِبَ الْخَمْرَ، فَجَلَدَهُ بِجَرِيدَتَيْنِ نَحوَ أَرْبَعِينَ، قَالَ: وَفَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ اسْتَشَارَ النَّاسَ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحمَنِ: أَخَفَّ الْحُدُودِ ثَمَانِينَ، فَأَمَرَ بِهِ عُمَرُ»[٢].

والذى يترجَّح لدىَّ هو القول الأول: أن الحدَّ أربعون؛ لأنه الذى فعله النبى ﷺ وأبو بكر وعمر صدرًا من خلافته ... وأما ما زاده عمر رضي الله عنه واستشار فيه الصحابة، فإنه قدر زاده على الحدِّ من باب التعزير لما رأى من اجتراء الناس وتتابُعهم على شربها.

ففى هذا: دليل على أن الإنسان إذا فعل ذنبًا وعُوقب عليه فى الدنيا، فإنه لا ينبغى لنا أن ندعو عليه بالخزى والعار، بل نسأل الله له الهداية، ونسأل الله له المغفرة.

---

(١) ضعيف: رواه عبد الرزاق فى «المصنف» (٧/ ٣٧٩) مرسلًا، وانظر «التلخيص» (٤/ ٧٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٠٦) كتاب الحدود.

(٢٩) باب قضاء حوائج المسلمين

۞ ما أجمل أن يسعى المسلم فى قضاء حوائج إخوانه المسلمين.

فالمسلم أخو المسلم.. والمسلم للمسلم كالبُنيان يَشُدّ بعضُه بعضًا.

ولا بُدَّ أن نعلم أن الأيام دول.. فقد يقع أخوك فى ضائقة فتكون فى عونه.. وقد ينقلب الحال فتقع أنت فى ضائقة فيكون هو فى عونك.

قال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

ففعلُ الخير من أعظم أسباب الفلاح فى الدنيا والآخرة.. وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ يحب مَن فَعَلَ الخير مع عباده... ومَن أحبه الله (جلَّ وعلا) فإنه سيكون من السعداء المفلحين فى الدنيا والآخرة.

(٢٤٩) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُه، وَلاَ يُسْلِمهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حاجتِهِ، ومَنْ فَرَّج عَنْ مُسْلِمٍ كُرِبَةً فَرَّجَ اللهُ عنْهُ بِهَا كُرِبَةً مِنْ كُرَبِ يوْمَ الْقِيامَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرهُ اللهُ يَوْم الْقِيَامَةِ»[(١)].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المسلم الحقيقى هو الذى لا يظلم أخاه المسلم ولا يحقره؛ لأنه لا يدرى فقد يكون هذا المسلم الذى يحتقره له مكانة عظيمة عند الله .. فمن حق المسلم عليك أن تحترمه وتوقره مهما كان غنيًّا أو فقيرًا .. والمسلم لا يتخلى عن أخيه المسلم فى وقت الشدة بل يقف بجواره ويؤازره ولا يُسلمه لأحدٍ أبدًا .. والمسلم يكون دائمًا فى حاجة أخيه قدر استطاعته...

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب المظالم، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة.

والحوائج: ما يحتاجه الإنسان ليكمل به أموره ... وأما الضروريات؛ فهي ما يضطر إليه الإنسان ليدفع به ضرره ... ودفع الضرورات واجب؛ فإنه يجب على الإنسان إذا رأى أخاه في ضرورة أن يدفع ضرورته؛ فإذا رآه في ضرورة إلى الطعام أو إلى الشراب أو إلى التدفئة، أو إلى التبردة؛ وَجَبَ عليه أن يقضي حاجته، ووَجَبَ عليه أن يزيل ضرورته ويرفعها.

أما إذا كان الأمر حاجيًّا وليس ضروريًّا، فإن الأفضل أن تُعين أخاك على حاجته، وأن تيسرها له ما لم تكن الحاجة في مضرته، فإن كانت الحاجة في مضرته فلا تُعنه ... لأن الله يقول؛ ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ [المائدة: ٢].

فلو فُرض أن شخصًا احتاج إلى شرب دخان، وطلب منك أن تُعينه بدفع القيمة له أو شرائه له أو ما أشبه ذلك؛ فإنه لا يَحِلُّ لك أن تُعينه ولو كان محتاجًا... حتى لو رأيته مُكتئبًا يريد أن يشرب الدخان فلا تُعنه... لقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾(١).

وقد سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٣٨) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(٢٥٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحمَةُ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٢) بتصرف.

وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعِ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

۞ فكم من مسلم وقع فى كربٍ واحتاج إلى مَن يَمُدّ يده إليه ليُنقذه من ذلك الكرب...فبينما هو كذلك وإذا بأخٍ حبيبٍ من إخوانه يَمُد إليه يده ليُنفِّس عنه ولو شيئًا يسيرًا من ذلك الكرب.... فهذا من الخير الذى لا يُنسى أبدًا.

ولا بد أن نعلم أنه كلما ازداد الإيمان فى قلب العبد فإنه يكون أكثر مواساة لكل مَن حوله.

ولذلك كان النبى ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه.

وكان الصحابة أعظم الناس مواساة فيما بينهم.

۞ ونحن نعلم أن كل إنسان لا بد أن يتعرض لأى ابتلاء فى هذه الحياة الدنيا... فمنهم مَن يمرض.. أو يفتقر.. أو يموت له قريب.. أو يعانى من الهم والغم... وكل هؤلاء يحتاجون إلى مَن يواسيهم ويَجبر خاطرهم ويساهم فى حل مشاكلهم وتفريج همومهم.

ومَن نفَّس عن مؤمنٍ كُربة من كُرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة.

۞ فهذا حديثٌ عظيم .. وهو أصلٌ من أصول الإسلام .. مطلعه يدل دلالة عظيمة صريحة على أن الجزاء دائمًا يكون من جنس العمل إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .. فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ جزاء تنفيس هذا العبد لكرب إخوانه أن يُنفس عنه كُربة منْ كُرب يوم القيامة .

وهذا الحديث لا يشعر بمعناه إلا مَن وقع فى كربٍ عظيم لا مَخرج له إلا أن يُقيض الله تعالى له رجلًا يُنفس هذه الكربة على يديه فحينئذٍ يستشعر فضل الله عَزَّوَجَلَّ ورحمة وعظمة الإسلام ولذلك كان غير واحدٍ من السلف يقول: لأن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

أمشى مع أخى فى حاجته حتى أقضيها له أحبّ إلىَّ من ألف ركعة (أى: من النوافل).

وهذا الحديث يبين لنا أبوابًا من الخير يبينها لنا مُعلِّم الخير ﷺ ... فأوَّل هذه الأبواب: قوله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُربَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُربَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

والجزاء من جنس العمل ... كما قال النبى ﷺ: «إنَّما يرحم اللهُ مِن عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»(١).

والكربة: هى الشدة العظيمة التى تُوقع صاحبها فى الكرب .. وتنفيسها تخفيفها، والتفريج أعظم من ذلك.

وجزاء التنفيس التنفيس، وجزاء التفريج التفريج... قوله ﷺ: «كُربَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، ولم يَقُل من كرب الدنيا والآخرة كما قيل فى التيسير والستر. وقد قيل فى مناسبة ذلك: إن الكرب هى الشدائد العظيمة، وليس كل أحدٍ يحصل له ذلك بخلاف الإعسار، والعورات المحتاجة إلى الستر فإن أحدًا لا يكاد يخلو من ذلك، وقيل: لأن كرب الدنيا بالنسبة إلى كرب الآخرة كلا شىء.

فادَّخر الله جزاء تنفيس الكرب عنده، لينفس به كرب الآخرة.

۞ وقوله ﷺ: «وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة بأنه يومٌ عسير على الكافرين غير يسير. فقال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، فأخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ ييسر هذا اليوم على مَن يسَّر على مُعسرٍ ... والتيسير على المعسر فى الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين: إما إنظاره إلى الميسرة، وذلك واجب... كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. وتارة بالوضع عنه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

إن كان غريمًا وإلا فبإعطائه ما يزول به إعساره وكلاهما له فضل عظيم ... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ»[1]، وعن أبي اليسر عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَنْظَرَ مُعسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يوم لا ظل إلا ظله»[2].

۞ قوله ﷺ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ».

وشاهد ذلك حديث أبي بردة عن النبي ﷺ قَالَ: «يَا مَعشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»[3].

۞ واعلم أن الناس نوعان:

أحدهما: مَن كان مستورًا لا يُعرف بشيءٍ من المعاصي، فإذا وقعت منه هفوة أو زلة، فإنه لا يجوز هتكها، ولا كشفها، ولا التحدُّث بها؛ لأن ذلك غيبة محرمة. وهذا هو الذي وردت فيه النصوص: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

قال بعض الوزراء الصالحين لبعض مَن يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة، فإن ظهور معاصيهم عيبٌ في أهل الإسلام.

والنوع الثاني: مَن كان مشتهرًا بالمعاصي مُعلنًا بها ولا يُبالي بما ارتكب منها، ولا بما قيل له: فهذا هو الفاجر المعلن وليس له غيبة..كما نصَّ على ذلك الحسن البصري وغيره..ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره لتُقام عليه الحدود.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٧٨) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٦٢) كتاب المُساقاة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٠٧).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤).

۞ ثم قال ﷺ: «**والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه**».

بعث الحسن البصرى جماعة من أصحابه فى قضاء حاجة لرجل، وقال لهم: مروا بثابت البنانى فخذوه معكم .. فأتوا ثابتًا فقال: أنا معتكف فرجعوا إلى الحسن فأخبروه فقال: قولوا له: يا أعمش أما تعلم أن مشيك فى حاجة أخيك خير لك من حَجة بعد حَجة .. فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وخرج معهم.

وكان عمر رضي الله عنه يتعاهد الأرامل يستقى لهن الماء بالليل... ورآه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة فدخل إليها طلحة نهارًا فإذا هى عجوز عمياء مُقعَدة، فسألها ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت: هذا منذ كذا وكذا يتعاهدنى يأتينى بما يُصلحنى ويُخرج عنى الأذى.

فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعورات عمر تتبع.

وكان أبو وائل يطوف على نساء الحى، وعجائزهن كل يوم، فيشترى لهن ما يُصلحهن، وحوائجهن.

وقال مجاهد: صحبت ابن عمر فى سفر، لأخدمه فكان يخدمنى.

۞ وقوله ﷺ: «**ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة**».

وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقى، وهو المشى بالأقدام إلى مجالس العلماء.. ويدخل فيه سلوك الطريق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم مثل حفظه، ومُدارسته، ومُذاكرته، ومطالعته، وكتابته، والتفهُّم له، ونحو ذلك.

وقوله ﷺ: «**سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة**»، قد يُراد بذلك أن الله تعالى يُسهل له العلم الذى طلبه، وسلك طريقه، ويُيسره عليه... فإن العلم طريق يُوصل إلى الجنة.

قال بعض السلف: هل من طالب علمٍ فيُعان عليه... وقد يُراد أيضًا أن الله عَزَّوَجَلَّ ييسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله تعالى، والانتفاع به، والعمل بمقتضاه فيكون سببًا لهدايته، ولدخول الجنة بذلك... وقد يدخل فى ذلك أيضًا تسهيل طريق الجنة يوم القيامة، وهو الصراط، وما قبله، وما بعده... والعلم يدل على الله عَزَّوَجَلَّ من أقرب طريق بل لا طريق إلى معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وإلى الوصول إلى رضوانه، والفوز بمجاورته فى الآخرة إلا بالعلم النافع الذى بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه.

۞ قوله ﷺ: «**وما جلس قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**».

أما نزول السكينة وهى الطمأنينة والوقار ... فعن البراء بن عازب قال: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدُورُ وَتَدنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنْهَا، فَلَمَّا أَصبَحَ أَتَى النَّبِىَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ**»(١).

أما غشيان الرحمة فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وخرج الحاكم من حديث سَلْمَانَ: أنه كان فِى عِصَابَةٍ يَذْكُرُونَ اللهَ فَمَرَّ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَاءَهُمْ قَاصِدًا حَتَّى دَنَا مِنْهُمْ فَكَفُّوا عَنِ الْحَدِيثِ إعظَامًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ؟ فَإِنِّى رَأَيْتُ الرَّحمَةَ تَنْزِلُ عَلَيْكُمْ، فَأَحبَبْتُ أَنْ أُشَارِكَكُمْ فِيهَا**»(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠١١) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٧٩٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) رواه الحاكم (١/ ٢١٠، رقم ٤١٩) وقال: صحيح، ووافقه الذهبى.

أما حفوف الملائكة: ففي الصحيحين عن أبي سعيد أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ، إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخرَى، فقرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تطَأَ يحيَى -ابنه- فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ»** قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيضًا، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ»** قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اقْرَأِ ابْنَ حُضَيْرٍ»** قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ»**[1].

وكذلك حديث الملائكة السيارة، وفيه: « **فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا** »[2].

وأما ذكر الله تعالى لأهل المجلس ... ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: « **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»[3].

وذِكرُ الله عز وجل للعبد: هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى بين الملائكة، ومُباهاته به، وتنويهه بذكره.

۞ ثم ختم النبي ﷺ هذه الوصية الغالية بقوله ﷺ: «**ومن أبطأ به عمله لم**

---

(١) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (٥٠١٨) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٧٩٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٨) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٠٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

يُسرع به نَسَبُه»... ومعناه أن العمل هو الذى يبلغ بالعبد درجات الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأحقاف: ١٩]. فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله لم يُسرع به نَسَبُه فيُبلغه تلك الدرجات، فإن الله تعالى رتَّب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب.

كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته، ورحمته بالأعمال.

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤][(١)].

وقيل: من أبطأ به عمله فى المرور على الصراط لم يُسرع به نَسَبُه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ بِالصِّرَاطِ فَيُضْرَبُ عَلَى جَهَنَّمَ، فَيَمُرُّ النَّاسُ عَلَى قدر أَعمَالِهِمْ زُمَرًا زُمَرًا.. فيمر أَوَائِلُهُم كَلَمْحِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، ثُمَّ كَمَرِّ الْبَهَائِمِ، حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ سَعيًا، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ مَشْيًا، حَتَّى يَجِيءَ آخِرُهُمْ يَتَلَبَّطُ عَلَى بَطْنِهِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لِمَ بَطَّأْتَ بِى؟ فَيَقُولُ: إِنِّى لَمْ أُبَطِّئْ بِكَ، إِنَّمَا أَبْطَأَ بِكَ عَمَلُكَ.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

قَوْلُهُ ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِع بِهِ نَسَبُهُ» مَعنَاهُ مَنْ كَانَ عَمَلُهُ نَاقِصًا لَمْ يُلْحِقْهُ بِمَرْتَبَةِ أصحاب الأعمال فينبغى أن لايتكل عَلَى شَرَفِ النَّسَبِ وَفَضِيلَةِ الْآبَاءِ وَيُقَصِّرَ فِى الْعَمَلِ.

وفى هذا الحديث: فَضْلُ قَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ وَنَفْعِهِمْ بِمَا تَيَسَّرَ مِنْ عِلْمٍ

(١) رياض الجنة / د. أحمد فريد (ص ٨٤-٨٩) بتصرف كبير.

أَوْ مَالٍ أَوْ مُعَاوَنَةٍ أَوْ إِشَارَةٍ بِمَصلَحَةٍ أَوْ نَصِيحَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَفَضْلُ السِّتْرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَفَضْلُ إِنْظَارِ الْمُعسِرِ وَفَضْلُ الْمَشْيِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ الِاشْتِغَالُ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ بِشَرْطِ أَنْ يُقْصَدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ تعالى وان كَانَ هَذَا شَرْطًا فِي كُلِّ عِبَادَةٍ(١).

۞ فيا مَن نفَّست عن أخيك كُربة من كرب الدنيا أبشر بتفريج الله عنك كُربة من كُرب يوم القيامة... ويا من يَسَّرت على مُعسرٍ أبشر.. فسوف يُيسر الله عَزَّوَجَلَّ عليك فى الدنيا والآخرة:. ويا من سترت مسلمًا أبشر فسوف يسترك الله فى الدنيا والآخرة... وحسبُك أن الله عَزَّوَجَلَّ فاطر السموات والأرض سيكون فى عونك إذا كنت فى عون إخوانك المسلمين على أمور دينهم ودُنياهم.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٣٤-٣٥) بتصرف.

(٣٠) باب الشفاعة

❁ إن الشفاعة الحسنة من أسهل الطرق لتأليف القلوب وترسيخ المحبة بين قلب الشافع والمشفوع له.

والشفاعة الحسنة هى التى ليس فيها إضرار بأحد، ولا سلب لحقوق أحدٍ، ولا تعدٍّ على حدٍّ من حدود الله، ولا تعطيلٍ لحدٍّ ... فالحدود متى وصلت إلى الحاكم، فلا شفاعة فيها؛... لقول النبى ﷺ لأسامة لما شفع فى شأن المخزومية التى سرقت: «**أتشفع فى حدٍّ من حدود الله؟**».

قال الله تعالى: ﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء: ٨٥].

(٢٥١) وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجة، أقبل على جُلسائه، فقال: «اشفعوا فلتُؤجروا، وليقضِ الله على لسان نبيه ما أحبَّ»(١). وفى رواية: «ما شاء»

❁ هذا الحديث فيه الحثُّ على فعل الخير، واستحباب قضاء حاجة المسلم، والسعى وراء تحقيقها، وأن مَن سعى فى حاجة أخيه المسلم، وشفع له بجاهه، ومكانته فى مجتمعه ، أنه يَحصُل له الأجر الكبير، سواء حصل ما سعى فيه، أو لم يَحصُل، وسواء تم المراد على الوجه المطلوب، أو تم بعضه، أو لم يتم ... كما قيل:

على المرء أن يسعى إلى الخير جُهده وليس عليه أن تتم المقاصدُ

فإذا علم المؤمن أن الأجر فى السعى لحاجة أخيه المسلم حاصل قُضيت، أو لم تُقضَ، فلا ينبغى أن يُفوت على نفسه هذه الفضيلة، وهذا الأجر الذى رتَّبه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٣٢) كتاب الزكاة، ومسلم (٢٦٢٧) كتاب البر والصلة.

النبى على الشفاعة[1].

۞ والشفاعة: هى التوسُّط للغير؛ لجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال الأول: أن تتوسط لشخصٍ عند آخر فى أن يساعده فى أمرٍ من الأمور.

ومثال الثانى: أن تشفع لشخصٍ عند آخر فى أن يسامحه ويعفو عن مظلمته، حتى يندفع عنه الضرر.

ومثال ذلك فى أيام الآخرة؛ أن النبى ﷺ يشفع فى أهل الموقف ليُقضَى بينهم، حين يصيبهم من الكرب والغم ما لا يطيقون، فهذه شفاعة فى دفع مضرة.

ومثالها فى جلب منفعة؛ أن النبى ﷺ يشفع فى أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

۞ والمراد بالشفاعة فى كلام المؤلف: الشفاعة فى الدنيا؛ وهى أن يشفع الإنسان لشخصٍ عند آخر... يتوسط له لجلب المنفعة له أو دفع المضرة عنه.

۞ والشفاعة أقسام:

القسم الأول: شفاعة مُحرمة لا تجوز، وهى أن يشفع لشخصٍ وَجَب عليه الحدّ بعد أن يصل إلى الإمام، فإن هذه الشفاعة محرمة لا تجوز.

مثال ذلك: رجل وجب عليه حَدٌّ فى قطع يده فى السرقة، فلما وصلت إلى الإمام أو نائب الإمام؛ أراد إنسان أن يشفع لهذا السارق ألا تُقطَع يده، فهذا حرام.

القسم الثانى: أن يشفع فى شىءٍ مُحرَّم... مثل أن يشفع لإنسانٍ مُعتدٍ على أخيه... كأن يعرف مثلاً أن هذا الرجل يريد أن يخطب امرأة مخطوبة من قبل، والمرأة المخطوبة لا يَحِلُّ لأحدٍ خطبتها، فذهب رجلٌ ثانٍ إلى شخص وقال: يا فلان أحب أن تشفع لى عند والد هذه المرأة يُزوجنيها، وهو يعلم أنها مخطوبة، فهنا لا يحل له أن يشفع؛ لأن هذه شفاعة فى محرم.

والشفاعة فى المحرم تعاون على الإثم والعدوان...وقد قال الله تعالى:

(١) من هدى المُصطفى ﷺ/ الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ٣٠١).

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

القسم الثالث: الشفاعة في شيءٍ مُباح فهذه لا بأس بها، ويكون للإنسان فيها أجر[1].

مثل أن تشفع لإنسان لا يجد عملًا يحصل من خلاله على الرزق الحلال.. فتشفع له عند أحد أصدقائك الذين يعملون بالتجارة وعندهم شركات.

ومثل أن تشفع لشابٍّ صالح يريد أن يتزوج فتاة صالحة ولكن والدها قد اشترط عليه شروطًا قاسية في الزواج.. وكان والد الفتاة صديقك.. فتشفع لهذا الشاب الصالح عند والد الفتاة ليُيسر أمر الزواج لهذا الشاب الصالح.. وهكذا.

كما أنه ينبغي لمن شفع عنده أحد أن لا يتبرم من شفاعته، ولا يضيق صدره بذلك، ويوطن نفسه على الحرص على قضائها، إذا أمكنه ذلك، ولم يكن عليه به ضرر، ولا على غيره ... فإذا لم يتمكن ، فينبغي أن يَرُدَّ ردًّا حسنًا لطيفًا، فيه جَبرٌ لخاطر الشافع والمشفوع له... فإنه يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٨].

۞ ومن فوائد هذا الحديث استحباب السعي في سبيل الخير، وفعل كل ما يُزيل اليأس عن النفوس ، فإن وجود اليأس في النفس سبب لكثرة الهم، والغم، والانقباض، وضيق الصدر، وإذا حصل شيء من هذه الأمور تَشتَّت الذهن، وتبلَّد الفَهم، وضَعُف التفكير، واستولى على النفس الكسل، والخمول. وأما إذا واصل السعي في طلب الحاجات، وبذل جهده، واستعان بمن يظن أنه يحصل بسببه المقصود، واتكل على الله في نجاح أموره، فإن هذا عنوان على وجود الرجاء، والأمل في حصول المراد، وهذا مأمور به شرعًا حيث يقول ﷺ: «**احرِص على ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِن بالله ولا تَعجِز**»[2].

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٤-١٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

۞ وفى قوله ﷺ: «اشفعوا تُؤجَروا، ويقضى الله على لسان رسوله ما يشاء» أن الشفاعة لا يجب على المشفوع عنده قبولها، إلا أن يشفع فى إيصال شىء من الحقوق الواجبة، فإن الحق الواجب يلزم أداؤه، وإيصاله إلى مُستحقه، ولو لم تحصل فيه شفاعة، فإذا وجدت الشفاعة تأكد أداؤه أيضًا ...

ويدل الحديث على شدة شفقته ﷺ، ورحمته، ورأفته بأمته، حيث وجَّههم ﷺ إلى الشفاعة فى الخير وفى حاجات الناس وتحقيقها، وهذا من كريم خُلقه ﷺ، كما وصفه الله بذلك فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨][١].

❊❊❊

(٢٥٢) وعَنْ ابن عباس رضي الله عنهما فى قصَّة بَرِيرَةَ وزَوْجِها . قال: قال لَهَا النَّبِىُّ ﷺ: «لَوْ راجَعتِهِ؟» قَالتَ: يا رَسُولَ الله تأمُرُنِى؟ قال: «إِنَّما أَشْفعُ» قَالَتْ: لا حاجة لِى فِيهِ[٢].

۞ قصة مُغيث وبَريرة ينبغى أن تدخل فى زمرة قصص المُحبين، ومع طرافتها وصحة سندها فإن أحدًا من الكاتبين فى هذا الباب لم يتناولها بالدراسة والشرح والتحليل.

كان مغيث وبريرة عبدين، وكان مغيث متزوجًا من بريرة، فسعت فى حريتها فنالتها، وإذا عُتِقَتْ الأَمَة تحت العبد كان لها الخيار فى البقاء معه أو مفارقته، فاختارت فراقه، فأشجاه فراقها، وكان يسير وراءها فى سكك المدينة، ودموعه تنحدر على لحيته، علَّها ترحمه، وترجع إليه.

---

(١) من هدى المُصطفى ﷺ/ (ص ٢٠٢-٢٠٣) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٢٨٣) كتاب الطلاق.

۞ وتعالوا لنعرف قصتها من أولها:

كانت بريرة أَمَة مملوكة، وكانت تتوق إلى الحرية، فطلبت من أهلها أن يُكاتبوها ففعلوا، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾[النور: ٣٣] والمكاتبة أن يشترى العبد نفسه على قدرٍ معلوم من المال يدفعه لسيِّده، ويبقى عبدًا إلى أن يُوفى سيِّده المال الذى اتفق معه عليه، وعند ذلك يُعتق.

وقد اتفقت بريرة مع سيِّدِها على أن تدفع له تسع أواقٍ على تسع سنوات، فى كل سنة أُوقية.

وطلبت بريرة من أم المؤمنين عائشة إعانتها على سداد ما ألزمت به نفسها، فجاءها الفرج بأسرع مما كانت تظن ... لقد دفعت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لسيد بريرة كامل المستحق عليها دفعة واحدة، وأعتقتها، فنالت حريتها بأسرع مما كانت تظنه وإذا كانت بريرة قد سعدت بالحرية، بعد أن زال عنها رقّ العبودية، فإن زوجها وكان عبدًا أسودًا يُدعَى مُغيثًا شقى بنيلها حريتها ... فقد كان مُغيث يحب بَريرة حُبًّا مَلَك عليه نفسه، وكان هانئًا مع زوجه، وكان بمقدار ما كان يحبها كانت تُبغضه... والإسلام يُعطى الأَمَة التى كانت تحت نير الرِّق أن تفارق زوجها إذا كان عبدًا فى حال نَيلها الحريَّة ... ودعا الرسول ﷺ بريرة، وأعلمها بالحكم الشرعى، وأنها تملك مفارقة الزوج ما لم يُعاشرها بعد تحريرها، فإن عاشرها مَلَك عليها أمرها ... فاختارت فراقه.

علم مغيث بالأمر فوقع عليه وقوع الصاعقة، فرجاها أن ترجع عن قرارها، فأبت، فاستشفع برسول الله ﷺ فدعاها، وقال لها: «**يَا بَرِيرَةُ اتَّقِى اللهَ، فَإِنَّهُ زَوْجُكِ وَأَبُو وَلَدِكِ**»، قَالَتْ لَهُ: تَأْمُرُنِى بِذَلِكَ، فإن كان أمرًا ، فليس من طاعة رسول الله بُدٌّ ... فَقَالَ لها الرسول ﷺ : «**لا، إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ**»، فالرسول ﷺ لا يستطيع إلزامها

بما جعل الله لها فيه فسحة، وإنما هو شافع.

لم تقبل شفاعة الرسول ﷺ ... فمن باب أَولَى أن لا تقبل شفاعة غيره، فكان مغيث لتعلُّقه بها يطوف وراءها فى حارات المدينة وشوارعها ودموعه تسيل على خدَّيه، وتقطر من لحيته ... يقول ابن عباس راوى الحديث: «كأنى أنظر إليه يطوف خلفها ودموعه تسيل على لحيته».

ولفت نظر الرسول ﷺ طرافة هذه الحالة المتناقضة بين حُبٍّ وبُغضٍ... فمغيث يلاحقها راجيًا إياها أن تعود إليه، مما يدل على الحب العظيم الذى يُكنّه لها، وهى مُعرضة أشد الإعراض، لا تقبل رجاءه، ولا تُشفق على حاله، ولا ترضى بشفاعة الشافعين، ولو كانت شفاعة رسول ربِّ العالمين.

وقد عجَّب الرسول ﷺ عمَّه العباس من طرافة حالهما، فقال له: «**يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا**»[1].

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه / د. عمر الأشقر (ص ٣٥٨-٣٥٩).

(٣١) باب في الإصلاح بين الناس

۞ الإصلاح بين الناس هو أن يكون بين شخصين معاداة وبغضاء، فيأتى رجلٌ مُوفَّق فيُصلح بينهما، ويزيل ما بينهما من العداوة والبغضاء، وكلما كان الرجلان أقرب صلة بعضهما من بعض، فإن الصلح بينهما أوكد... يعنى أن الصلح بين الأب وابنه أفضل من الصلح بين الرجل وصاحبه، والصلح بين الأخ وأخيه أفضل من الصلح بين العم وابن أخيه، وهكذا كلما كانت القطيعة أعظم كان الصلح بين المتباغضين وبين المتقاطعين أكمل وأفضل وأوكد.

ولا يجوز للمجتمع المسلم أن يرى بعض أبنائه يتخاصمون أو يتقاتلون، وهو يقف موقف المتفرج تاركًا النار تزداد اندلاعًا، والخرق يزداد اتساعًا.

بل على ذوى الرأى والمقدرة أن يتدخلوا لإصلاح ذات البين متجردين للحق، مبتعدين عن الهوى ... كما قال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد بيَّن النبى ﷺ فى حديثه فضل هذا الإصلاح، وخطر الخصومة والشحناء، فقال: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «إِصلاحُ ذَاتِ البَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِىَ الحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحلِقُ الدِّينَ»(١).

قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

أى: لا خير فى كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون. وإذا لم يكن فيه خير،

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٩٥).

فإما لا فائدة فيه، كفضول الكلام المباح، وإما شَرٌّ ومضرة مَحضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مالٍ، أو علم، أو أى نفع كان...بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة، كالتسبيح، والتحميد، ونحوه، كما قال النبى ﷺ: «**إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة وفى بُضع أحدكم صدقة**»(١) الحديث.

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف فى الشرع والعقل حُسنه.. وإذا أُطلق الأمر بالمعروف، من غير أن يُقرَن بالنهى عن المنكر، دخل فيه النهى عن المنكر. وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف.

وأيضًا لا يتم فعل الخير، إلا بترك الشر. وأما عند الاقتران، فيُفسَّر المعروف، بفعل المأمور، والمنكر، بترك المنهى.

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين ... والنزاع، والخصام، والتغاضُب، يُوجب من الشر والفُرقة، ما لا يمكن حصره. فلذلك حَثَّ الشارع على الإصلاح بين الناس، فى الدماء والأموال والأعراض. بل وفى الأديان ... كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

والساعى فى الإصلاح بين الناس، أفضل من القانت بالصلاة، والصيام، والصدقة ... والمصلح لا بُدَّ أن يصلح الله سعيه وعمله.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٦) كتاب الزكاة.

كما أن الساعى فى الإفساد، لا يُصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾. فهذه الأشياء، حيثما فُعلت، فهى خير، كما دَلَّ على ذلك الاستثناء.

ولكن كمال الأجر وتمامه، بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ فلهذا ينبغى للعبد، أنْ يقصد وجه الله تعالى، ويُخلص العمل لله، فى كل وقتٍ، وفى كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك، الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا... لأن النية حصلت، واقترن بها، ما يمكن من العمل(١).

❁ وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

❁ ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ أى: وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفُّع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكُره لها لدمامتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى مَن هى أشبُّ وأجملُ منها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ﴾ أى فلا حرج ولا إثم على كل واحدٍ من الزوجين من المُصالحة والتَّوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقةٍ أو كسوةٍ أو مبيتٍ لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته.... روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت: هذا الرجل يكون له امرأتان إحداهما قد عجزت أو هى دميمة وهو لا يُحبها فتقول: لا تُطلقنى وأنت فى حلٍّ من شأنى ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾ أى والصلح

(١) تفسير السعدى (ص ٢٠٧-٢٠٨).

خيرٌ من الفراق ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ أى جُبلت الأنفس على الشُّح وهو شدة البُخل... فالمرأة لا تكاد تسمح بحقها من النفقة والاستمتاع، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يَقسم لها وأن يُمسكها إذا رغب عنها وأحبَّ غيرها ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ أى وإن تحسنوا فى معاملة النساء وتتقوا الله بترك الجَور عليهن ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء.(١).

❁ وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى: أصلحوا ما بينكم من التشاحن، والتقاطُع، والتدابُر، بالتوادُد، والتَّحاب، والتواصل. فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصُم، والتشاجُر والتنازع ... ويدخل فى إصلاح ذات البين، تحسين الخُلق لهم، والعفو عن المُسيئين منهم .. فإنه - بذلك - يزول كثيرٌ مما يكون فى القلوب من البغضاء، والتدابُر. والأمر الجامع لذلك(٢).

❁ وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ هذا عَقْدٌ، عَقَدَهُ الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أى شخصٍ كان، فى مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخٌ للمؤمنين ... أُخوة تُوجب أن يُحب له المؤمنون، ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له، ما يكرهون لأنفسهم .. ولهذا قال النبى ﷺ

---

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٨٣).

(٢) تفسير السعدى (ص ٣٤٦).

آمرًا بحقوق الأخوة الإيمانية: **«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا ولا يبع أحدكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخوانًا المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره»**[(١)].

وقال ﷺ: **«الْمُؤْمنُ للْمُؤمِن كَالْبُنْيَانِ يَشدُّ بعضُهُ بَعضًا»** وَشَبَّكَ ﷺ بَيْنَ أَصَابِعِه[(٢)].

ولقد أمر الله ورسوله، بالقيام بحقوق المؤمنين، بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد، والتواصل بينهم... كل هذا، تأييد لحقوق بعضهم على بعض... فمن ذلك أنه إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفرُّق القلوب وتباغُضها وتدابُرها، فليُصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم.

ثم أمر بالتقوى عمومًا، ورتَّب على القيام بالتقوى وحقوق المؤمنين، الرحمة فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة.. ودَلَّ ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة[(٣)].

***

(٢٥٣) وعَنْ أَبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كُلُّ سُلامى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يوْم تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعدِلُ بيْن الاثْنَيْنِ صَدقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتحمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتاعهُ صَدقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيبةُ صدقَةٌ، وبكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»**[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٦) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٥) كتاب البر والصلة.

(٣) تفسير السعدي (ص ٩٥٢) بتصرف.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٨٩) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٠٠٩) كتاب الزكاة.

ومعنى «تَعدِلُ بَيْنَهُمَا»: تُصلحُ بَيْنَهُمَا بِالْعَدل.

۞ والسُّلامى هى العظام والمفاصل... يعنى: كل يوم تطلع الشمس فعلى كل مفصل من مفاصلك صدقة.

قال العلماء من أهل الفقه والحديث: وعدد السُّلامَى فى كل إنسان ثلاثمائة وستون عضوًا أو مفصلاً .. فعلى كل واحدٍ من الناس أن يتصدق كل يوم تطلع فيه الشمس بثلاثمائة وستين صدقة، ولكن الصدقة لا تختص بالمال، بل كل ما يُقرب إلى الله فهو صدقة بالمعنى العام .. لأن فعله يدل على صدق صاحبه فى طلب رضوان الله عَزَّوَجَلَّ.

فمعنى الحديث أن هذه الأعضاء والمفاصل التى امتنَّ الله بها عليك، وركَّبها أحسن تركيب، من أعظم نعم الله عليك، فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة، يتصدق ابن آدم بها ، شُكرًا لله على هذه النعمة...كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-٩].

قال مجاهد: هذه نِعَمٌ من الله مُتظاهرة يُقرِّرك بها؛ كيما تشكر.

وقرأ الفُضيل هذه الآية الكريمة: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ ليلة فبكى ... فسُئل عن سبب بكائه فقال: هل بِتَّ ليلة شاكرًا لله، أن جعل لك عينين تُبصر بهما ... هل بِتَّ ليلة شاكرًا لله أن جعل لك لسانًا تنطق به... وجعل يُعدِّد من هذا الضرب.

فسبحان الله العليم الحكيم ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧-٩]

فينبغى لك أيها المسلم أن تذكر نِعَم الله عليك، وأن تُجدد شُكر الله كلما تذكرتها ... وقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيرًا ما يتذكرون نِعَم الله، ويُذكرون بها عباد الله من شفقتهم، ونُصحهم للمسلمين.

رُوى عن يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ أن رجلًا شَكَى إِلَيْهِ ضِيقَ حَالِهِ، فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: أَيَسُرُّكَ أن لك بِبَصَرِكَ هَذَا الَّذِى تُبْصِرُ بِهِ مِائَةَ أَلْفَ دِرهَم؟، قَالَ الرَّجُلُ: لَا، قَالَ: فَبِيَدَيْكَ مِائَةُ أَلْفِ دِرهَمٍ؟ قَالَ الرَّجُلُ: لَا، قَالَ: فَبِرِجْلَيْكَ؟ قَالَ الرَّجُلُ: لَا ... قَالَ: فَذَكَّرَهُ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ ... فَقَالَ يُونُسُ: أَرَى عِنْدَكَ مَا بَيْنَ مِئَاتِ آلَافٍ وَأَنْتَ تَشْكُو الْحَاجَةَ.

وروى عن أبى الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: الصحة غناء الجسد.

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبى ﷺ قال: «**نِعمتانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»(١).

فجميع هذه النعم التى امتنَّ الله بها على عبده، لا بُدَّ أن يسأله عنها يوم القيامة، وعن القيام بشكرها، وماذا عمل فيها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[الإسراء:٣٦] ... وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

وفى الترمذى عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ العبد يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ، أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُروِيكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ**»(٢).

فاعلم أيها المسلم أنك لو تدبرت نِعَم الله عليك، وعرفتها حق معرفتها، وتأملت حاجتك إليها، لو فُقدت منك، لأحدثت لذلك شُكرًا بلسانك، وشُكرًا بجَنانك -قلبك- وشكرًا بجوارحك ... ولعلمت أنك لا تُحصى شكرها، ولكن على حسب الاستطاعة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[النحل:١٨] فهو سبحانه إذا علم من عبده القيام بشكر النعم بقدر ما يستطيع غفر له ما قد

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٢).

يسهو عنه، أو ما يعجز عنه... ولذلك قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ففي خَتم هذه الآية الكريمة بهذين الاسمين الشريفين من أسمائه الحسنى دلالة على أن العبد مهما عمل، ومهما قام بشكر شيءٍ منها، لا يستطيع القيام بجميع شكرها، ولكن الله يغفر، ويرحم عباده.

ثم بيَّن ﷺ هذه الصدقة فقال: «تَعدِلُ بَيْنِ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ» يعني رجلان يتخاصمان إليك فتعدل بينهما .. أي: تحكم بينهما بالعدل ... وكل ما وافق الشرع فهو عدل،وكل ما خالف الشرع فهو ظُلمٌ وجَورٌ.

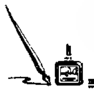
ومن العدل بين اثنين: العدل بينهما بالصُّلح؛ لأن الحاكم بين الاثنين سواءٌ كان متطوعًا أو من قِبَلِ ولي الأمر، قد لا يتبين له وجه الصواب مع أحد الطرفين... فإذا لم يتبين له فلا سبيل له إلا بالإصلاح... فيُصلح بينهما بقدر ما يستطيع.

أيها المسلم: إن العدل والإصلاح بين الناس من أفضل الأعمال، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]...وقال ﷺ: «أفْضَلُ الصَّدَقَةِ إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ»(١).

فالإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين، ومتخاصمين. والنزاع والخصام والتغاضُب يُوجب الشر، والفُرقة، والفساد الدائم في الدين والدنيا، وفوات المصالح ما لا يمكن حصره... فلذلك حَثَّ الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء، والأموال، والأعراض، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وإذا لم يحصل الاعتصام بحبل الله حصل التفرُّق والتنافُر ولا بُدّ... ولذلك كان الساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القائم

---

(١) حسن: رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في الصَّحِيحَة (٢٦٣٩)، وقد تراجع الألباني عن تضعيفه في ضعيف الجامع حديث رقم: (١٠١٢).



بالصلاة والصيام والصدقة؛ لأن نفعه أعظم، وفائدته أكبر.

۞ ثم قال (عليه الصلاة والسلام): «**وتُعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة**».

أى: إن إعانتك لأخيك المسلم ومساعدته فى بعض شؤونه يُعتبر من الصدقات التى يُكفر الله بها الخطايا والذنوب، ويرفع بها الدرجات ، وتكون شكرًا لله على نعمته، التى امتنَّ بها عليك فى ما أعطاك من القوة والقدرة على القيام بأعمالك ... فمِنْ شُكرها مساعدة أخيك المسلم المحتاج إليك، فإذا فعلت هذا فقد قمت ببعض ما يجب عليك من شكر الله على هذه النعمة.

وهذا عملٌ يسيرٌ لا يُكلفك أى شىءٍ سوى أن تُعين الرجل على ركوب دابته إن كان لا يستطيع أن يركبها بسبب مرضه أو كِبَر سِنِّه ... أو ترفع له متاعه على الدابة إن كان لا يستطيع أن يرفعه.

۞ وقوله ﷺ: «**والكلمة الطيبة صدقة**»: يدخل فى ذلك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وابتداء السلام وردِّه، وتشميت العاطس، ومساعدة أخيك إذا احتاج إليك فى التعبير عنه، والإخبار بمراده لمن لا يفهم ما يريد، ويدخل فى ذلك أيضًا رَدُّك عن عِرض أخيك إذا سمعت مَن يتكلم فيه بما يعيبه ويشينه، ومما يدخل أيضًا دخولًا أوليًّا التسبيح، والتهليل، والتكبير، والتحميد، والصلاة، والتسليم على الرسول الكريم ﷺ.

والكلمة الطيبة تنقسم إلى قسمين: طيبة بذاتها، طيبة بغاياتها.

أما الطيبة بذاتها: كالذكر: لا إله إلا الله، الله أكبر، الحمد لله، لا حول ولا قوة إلا بالله ... وأفضل الذكر قراءة القرآن.

وأما الكلمة الطيبة فى غايتها: فهى الكلمة المباحة كالتحدُّث مع الناس، إذا قصدت بهذا إيناسهم وإدخال السرور عليهم، فإن هذا الكلام وإن لم يكن طيبًا بذاته لكنه طيبٌ فى غاياته، فى إدخال السرور على إخوانك، وإدخالُ السرور

على إخوانك مما يُقربك إلى الله عَزَّوَجَلَّ ... فالكلمة الطيبة صدقة وهذا من أعمِّ ما يكون.

❁ وأما قوله ﷺ: **«وبكلِّ خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة»**.

فهذا يدل على فضيلة المحافظة على الصلاة في المساجد مع جماعة المسلمين، وأنه من جملة الصدقات التي يُثاب فاعلها، ويُكفَّر عنه بها خطاياه وذنوبه، وتُرفع له فيها درجاته، كما جاء في الحديث الآخر.

عَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي الجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ: إِذَا تَوَضَّأَ، فَأَحسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلاَةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً، إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى، لَمْ تَزَلِ المَلاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ، مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارحَمْهُ، وَلاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاَةَ»**[(١)].

وفي رواية لمسلم: **«اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحدِثْ فِيهِ»**.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرًا.

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **« إِنَّ أَعظَمَ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلاَةِ أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشًى، فَأَبْعَدُهُمْ»**[(٢)].

❁ وقوله ﷺ: **« وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ »**.

هذا مما يُثاب عليه الإنسان كما أخبر به ﷺ، وهو شُعبة من شُعب الإيمان، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ بقوله: **«الإيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ**

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٧) كتاب الصلاة، ومسلم (٦٤٩) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥١) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٢) كتاب المساجد.

شُعبَةً، فَأفْضلُهَا قَوْلُ لا إلَهَ إلَّا الله، وَأدنَاهَا إمَاطَةُ الأذى عنِ الطَّريقِ»(١).

فإزالة كل ما يؤذى المسلمين فى طريقهم فهو مما يحصل به الأجر لفاعله، ويُعتبر صدقة من الصدقات، وذلك كتنحية الحجر، أو تسوية الحُفر، أو إزالة الشوك، ونحو ذلك، مما يتأذى به المارة... فإذا نحّاه المسلم على وجه البر والإحسان دَلَّ ذلك على إيمانه، وأُثيب على ذلك.

واعلم أن كل ما يحصل فيه إزالة الضرر عن المسلمين، أو يحصل فيه إيصال النفع لهم، أو إدخال السرور عليهم فهو مما يُثاب عليه، ويُعتبر صدقة من الصدقات ... ففى صحيح البخارى رضي الله عنه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَربَعُونَ خَصلَةً أَعلاَهُنَّ مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعمَلُ بِخَصلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَصدِيقَ مَوْعُودِهَا، إلَّا أَدخَلَهُ اللهُ بِهَا الجَنَّةَ»(٢).

وفى صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «حَقُّ الْإِبِلِ حَلبُهَا عَلَى الْمَاءِ، وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا، وَإِعَارَةُ فَحلِهَا، وَمَنِيحَتُهَا وَحَمْلٌ عَلَيْهَا فِى سَبِيلِ اللهِ»(٣).

وفى مسند الإمام أحمد عن أبى جرى الجهنى قال: سألت النبى ﷺ عن المعروف فقال: «لا تَحقِرَنَّ مِنَ الْمَعرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُعطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، وَلَوْ أَنْ تُعطِيَ شِسْعَ النَّعلِ، وَلَوْ أَنْ تَنْزِعَ مِنْ دَلْوِكَ فِى إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِى، وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ، وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحشَانَ فِى الْأَرضِ»(٤).

وفى الصحيحين عَنْ أَبِى ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْأَعمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِى سَبِيلِهِ» قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.
(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٦٣١) كتاب الهبة.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٨٨) كتاب الزكاة.
(٤) صحيح: رواه أحمد، والنسائى فى الكبرى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣٤٢٢).

قَالَ: «أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصنعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»(١).

(٢٥٤) وعَنْ أُمِّ كُلْثُومِ بنت عُقْبَةَ بن أبى مُعَيْطٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الذى يُصلحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمى خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»(٢).

وفى رواية مسلم زيادة، قالت: وَلَمْ أَسْمَعهُ يُرَخِّصُ فى شَىْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إلاَّ فى ثَلاث، تَعنى: الحَرْبَ، وَالإِصلاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثَ المَرْأَةِ زَوْجَهَا.

۞ «ليس الكذاب الذى يُصلح بين الناس فينمى خيرًا أو يقول خيرًا».

فالإنسان إذا قصد الإصلاح بين الناس وقال للشخص: إن فلانًا يُثنى عليك ويمدحك ويدعو لك وما أشبه ذلك من الكلمات، فإن ذلك لا بأس به.

وقد اختلف العلماء فى المسألة، هل المراد أن يكذب الإنسان كذبًا صريحًا، أو أن المراد أن يُورِّى، بمعنى أن يُظهر للمُخاطَب غير الواقع، لكنه له وجهٌ صحيح... كأن يعنى بقوله مثلاً: فلان يُثنى عليك أى على أمثالك من المسلمين، فإن كل إنسان يُثنى على المسلمين من غير تخصيص.

أو يُريد بقوله: إنه يدعو لك ... أنه من عباد الله، والإنسان يدعو لكل عبد صالح فى كل صلاة ... كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «إنكم إذا قلتم ذلك - يعنى قلتم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - فقد سلَّمتم على كل عبدٍ صالح فى السماء والأرض»(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥١٨) كتاب العتق، ومسلم (٨٤) كتاب الإيمان.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٩٢) كتاب الصلح، ومسلم (٢٦٠٥) كتاب البر والصلة.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٢٣٠) كتاب الاستئذان.

وقال بعضهم: إن التورية تُعَدُّ كذبًا؛ لأنها خلاف الواقع، وإن كان المُتكلم قد نوى بها معنى صحيحًا، واستدلوا على ذلك بأن النبى ﷺ قد أخبر أن: إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعتذر عن الشفاعة بأنه كذب ثلاث كذبات فى ذات الله[1]، وهو لم يكذب عليه الصلاة والسلام،ولكنه وَرَّى.

وعلى كل حال فالإنسان المُصلح ينبغى له أن يتحرز من الكذب، وإذا كان ولا بُدَّ فليتأول، ليكون بذلك مُورِّيًا... والإنسان إذا كان مُورِّيًا فلا إثم عليه فيما بينه وبين الله، والتورية جائزة عند المصلحة.

أما اللفظ الثانى ففيه زيادة عن الإصلاح بين الناس، وهو الكذب فى الحرب.

والكذب فى الحرب هو أيضًا نوع من التورية مثل أن يقول للعدو: إن ورائى جنودًا عظيمة وما أشبه ذلك من الأشياء التى يرهب بها الأعداء.

۞ وتنقسم التورية فى الحرب إلى قسمين:

قسم فى اللفظ، وقسم فى الفعل، مثل ما فعل القعقاع بن عمرو رضي الله عنه فى إحدى الغزوات، فإنه أراد أن يُرهب العدو فصار يأتى بالجيش فى الصباح ثم يُغادر المكان ثم يأتى به فى صباح يوم آخر وكأنه مَدَدٌ جديد جاء ليُساعد المُحاربين المُجاهدين، فيتوهم العدو أن هذا مَددٌ جديد جاء ليساعد المحاربين المُجاهدين، فيتوهم العدو فيرهب ويخاف، وهذا جائز للمصلحة.

أما المسألة الثالثة فهى أن يُحدث الرجل زوجته وتُحدث المرأة زوجها، وهذا أيضًا من باب التورية... مثل أن يقول لها: إنك من أحبّ الناس إلىَّ، وإنى أرغب فى مثلك، وما أشبه ذلك من الكلمات التى تُوجب الألفة والمحبة بينهما[2].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧١) كتاب الفضائل.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٠-٢١) بتصرف.

(٢٥٥) وعَنْ عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ صَوْتَ خُصُوم بالْبَابِ عَالية أصواتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فى شىء، وَهُوَ يَقُولُ: والله لا أَفعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رسولُ الله ﷺ فقال: «أَيْنَ الْمُتَأَلِّى عَلَى الله لا يَفْعَلُ المَعرُوفَ؟» فقال: أَنَا يَا رسولَ الله، فَلهُ أَىُّ ذلكَ أَحَبَّ[1].

۞ ففى هذا الحديث تحكى أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان جالسًا عندها فى يومها .. وفجأة سمع صوت رجلين يتنازعان عالية أصواتهما ... فقد كان أحدهما مديونًا للآخر وقد حان وقت سَداد الدَّين فكان هذا الرجل المديون يسأل صاحب الدَّين أن يُسقط عنه بعض الدَّين وأن يضعه عنه ..

فمثلًا: بدلًا من أن يكون الدَّين عشرة آلاف طلب منه أن يُسقط عنه ألفين ويبقى الدَّين ثمانية آلاف .. ولكن صاحب الدَّين رفض ورفع صوته عليه وهو يقول: والله لا أفعل.

فلما اشتد النزاع بينهما خرج عليهما رسول الله ﷺ وقال: «**أَيْنَ الْمُتَأَلِّى عَلَى الله لا يَفْعَلُ المَعرُوفَ؟**» أى: أين هذا الرجل الذى يحلف على الله لا يفعل المعروف.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

الْمُتَأَلِّى: الْحَالِفُ، وَالأَلْيَةُ: الْيَمِينُ. وَفِى هَذَا كَرَاهَةُ الْحَلِفِ عَلَى تَركِ الْخَيْرِ وَإِنْكَارُ ذَلِكَ وَأَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ حَلَفَ لَا يَفْعَلُ خَيْرًا أَنْ يَحنَثَ فَيُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ... وَفِيهِ الشَّفَاعَةُ إِلَى أَصحَابِ الْحُقُوقِ وَقَبُولُ الشَّفَاعَةِ فِى الخير[2].

۞ وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

قَوْلُهُ: «فَلَهُ أَىُّ ذَلِكَ أَحَبُّ» أَىْ مِنَ الْوَضـعِ أَو الرِّفـق.. وَفِى رِوَايَـة ابـن حِبَّانَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٠٥) كتاب الصلح، ومسلم (١٥٥٧) كتاب المساقاة.
معنى «يَسْتَوْضِعُهُ»: يَسْأَلُهُ أَنْ يَضَعَ عَنْهُ بَعضَ دينِهِ– «وَيَسْتَرفِقُهُ»: يَسْأَلُهُ الرِّفْقَ – «والْمُتأَلى»: الحَالِفُ.
(٢) مسلم بشرح النووى (١٠/ ٣١٥).

فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ وَضَعتُ مَا نَقَصُوا وَإن شِئْتَ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ فَوَضَعَ مَا نَقَصُوا وَهُوَ يُشْعِرُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ الْحَطُّ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ وَبِالرِّفْقِ الِاقْتِصَارُ عَلَيْهِ وَتَرْكُ الزِّيَادَةِ لَا كَمَا زَعَمَ بَعضُ الشُّرَّاحِ أَنَّهُ يُرِيدُ بِالرِّفْقِ الْإِمْهَالَ ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحَضُّ عَلَى الرِّفْقِ بِالْغَرِيمِ وَالْإِحسَانِ إِلَيْهِ بِالْوَضْعِ عَنْهُ وَالزَّجْرُ عَنِ الْحَلِفِ عَلَى تَرْكِ فِعلِ الْخَيْرِ ... قَالَ الدَّاوُدِيُّ: إِنَّمَا كُرِهَ ذَلِكَ لِكَوْنِهِ حَلَفَ عَلَى تَرْكِ أَمْرٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَد قَدَّرَ الله وُقُوعه(١).

۞ وفي رواية أخرى في قصة مُشابهة أن ابن أبي حَدرَد قد اقترض من كعب بن مالك.. فلما جاء موعد سَداد الدَّين طلب كعبٌ مالَه من ابن أبي حَدرد في مسجد الرسول ﷺ فَارْتَفَعَتْ أَصوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، وَنَادَى كَعبَ بْنَ مَالِكٍ، فَقَالَ: «يَا كَعبُ»، فَقَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، «فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ»، قَالَ كَعبُ: قَد فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُمْ فَاقْضِهِ**»(٢).

فالشاهد أن النبي ﷺ لما سمع صوتهما خرج ليُصلح بينهما .. فإذا رأى أحدكم رجلين يتنازعان في شيءٍ فأصلح بينهما فله في ذلك أسوة برسول الله ﷺ .

وفيه: دليل على أنه لا حرج على الإنسان أن يتدخل في النزاع بين اثنين، إذا لم يكن ذلك سرًّا بينهما؛ لأن هذين الرجلين قد أعلنا ذلك، وكانا يتكلمان بصوتٍ مرتفع ... أما لو كان الأمر بين اثنين على وجه السر والإخفاء، فلا يجوز للإنسان أن يتدخل بينهما؛ لأن في ذلك إحراجًا لهما، فإن إخفاءهما للشيء يدل على أنهما لا يحبان أن يطلع عليه أحدٌ من الناس، فإذا أقحمت نفسك في الدخول بينهما أحرجتهما وضيقت عليهما، وربما تأخذهما العزة بالإثم فلا يصطلحان.

(١) فتح الباري (٥/ ٣٦٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥٥٨) كتاب المساقاة.

والمهم أنه ينبغى للإنسان أن يكون أداة خير، وأن يحرص على الإصلاح بين الناس وإزالة العداوة والضغائن حتى ينال خيرًا كثيرًا.

❁ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: قد يقع بين الصحابة رضي الله عنهم الخطأ، مثل ما حدث فى هذا الحديث، من التخاصم على أداء الدَّين، ورفع الصوت فى مسجد رسول الله ﷺ... وعلى المنصف أن يَزِنَ بين أعمالهم الصالحة التى كالجبال وبين زلاتهم التى تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة.

الفائدة الثانية: طاعة الصحابة المطلقة لرسول الله ﷺ وتتمثل هنا فى:

١- رَدّ كعب بن مالك رضي الله عنه للرسول ﷺ بقوله: (لبيك) مما يوحى أنه قد أطاع الأمر قبل سماعه، أو حتى صدوره...وهل يُعقَل أن يجيب الرجلُ الآمِر، بلبيك، ثم يعترض على الأمر؟!

٢- الأمر من النبى ﷺ لكعب رضي الله عنه، ما كان ليحتاج إلى كلام لإقناعه أن يضع شطر ماله، بعد هذه الخصومة فى المسجد، ولكن كل ما فعله النبى ﷺ أن أشار بيده لكعب، أن يضع شطر ماله، مع أن كعبًا، كان يسمع نداء النبى ﷺ بدليل أنه أجاب نداءه، وقال: (قد فعلت)، ولكن يبدو أن النبى ﷺ يعلم من أصحابه عظيم أدبهم معه، وسرعة امتثالهم لأمره، فلم يحتج إلا إلى إشارة لفضِّ النزاع بينهم.

٣- هذا الأمر المُوجَّه لكعبٍ، بوضع شَطر دَينه، ليس من الأوامر الشرعية فى نظرنا، ولكن الصحابة رضي الله عنهم، خاصة الأكابر منهم، ككعب بن مالك ما كانوا ليُفرقون بين أوامر النبى ﷺ المُلزم منها وغير المُلزم، حتى ولو كانت تتعلق بالمال، الذى عظَّم الله شأنه فى القرآن.

٤- من علامات الطاعة المطلقة للصحابة، مع شدة أدبهم عند تحقيق هذه الطاعة، يتبين من الرد الجميل لكعب على أمر الرسول ﷺ إذ قال له: (قد

فعلت) بصيغة الماضى، ولم يَقُل له: (سأفعل)، مبالغة فى سرعة امتثال الأمر وثبوته والإشعار بعدم وجود أدنى تردُّد منه...ومن أدبه- أيضًا- أنه لم يجادل فى الأمر، ولم يطلب منه أن يأمر المدين بحُسن القضاء وسرعته، وهذا غاية الأدب ومنتهى الطاعة، كما أن المَدين امتثل أيضًا لأمر الرسول ﷺ حيث إنه لم يُعقّب على الأمر، كأن يطلب منه التأجيل.

الفائدة الثالثة: جواز التقاضى فى المسجد، والنداء بصوتٍ مسموع، والمصالحة بين المتخاصمين...ونُنوه هنا إلى أن قولهم: (الكلام فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)[1] ليس بحديث[2].

(٢٥٦) وعَنْ أَبى العباس سهلِ بن سعد السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَن رسول الله ﷺ بلَغهُ أَنَّ بَنى عَمْرو بن عوْف كان بيْنهُمْ شَرٌّ، فَخرَجَ رسولُ الله ﷺ يُصلِحُ بَيْنَهمْ فى أُنَاسٍ مَعَه، فَحُبِسَ رسول الله ﷺ وَحَانَتِ الصَّلاَةُ، فَجاءَ بلالٌ إِلَى أَبى بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقال: يَا أَبا بَكْر إِنَّ رسولَ الله ﷺ قَد حُبِسَ، وَحَانَت الصَّلاةُ، فَهلْ لكَ أَنْ تَؤُمَّ النَّاس؟ قال: نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فَأَقَامَ بِلالٌ الصَّلاةَ، وَتقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَكَبَّرَ وكبَّرَ النَّاسُ، وَجَاءَ رسول الله ﷺ يمْشى فى الصُّفوفِ حتَّى قامَ فى الصَّفِّ، فَأَخَذَ النَّاسُ فى التَّصفِيقِ، وكَانَ أَبُو بَكْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يَلْتَفِتُ فِى صلاتِهِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ التَّصفِيقَ الْتَفَتَ، فإِذا رسولُ الله ﷺ.. فَأَشَار إِلَيْه رسول الله ﷺ، فَرفَعَ أَبْو بَكْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدَهُ فحمد الله، وَرَجَعَ القهقرى وَراءهُ حَتَّى قَامَ فى الصَّفِّ، فَتَقدَّمَ رسول الله ﷺ، فَصلَّى للنَّاس، فَلَمَّا فرغَ أَقْبلَ عَلَى النَّاسِ فقال: «أَيُّها النَّاسُ مالَكُمْ حِينَ نَابَكُمْ شَىْءٌ فى الصَّلاةِ أَخذْتُم فِى التَّصفيق؟، إِنَّما التَّصفِيقُ للنِّسَاءِ.

مَنْ نَابَهُ شىءٌ فى صلاتِهِ فَلْيَقل: سُبْحَان الله؟ فَإِنَّهُ لا يَسْمعُهُ أَحدٌ حينَ يَقُولُ: سُبْحانَ

(١) انظر «كشف الخفاء» للعجلونى، (١/ ٤٢٣).

(٢) شمائل الرسول ﷺ / أحمد عبد الفتاح الزواوى (٢/ ٢٦٥).

الله، إلا الْتَفَتَ. يَا أَبَا بَكْرٍ: ما منعَك أَنْ تُصلِّيَ بالنَّاسِ حِينَ أَشْرتُ إِلَيْكَ؟» فقال أَبُو بكْرٍ: مَا كَانَ ينبَغِي لابْنِ أَبِي قُحافَةَ أَنْ يُصلِّيَ بِالنَّاسِ بَيْنَ يَدَيْ رسولِ الله ﷺ(١).

۞ ففى هذا الحديث يتضح لنا أيضًا كيف كان حرص النبى ﷺ على الإصلاح بين الناس .... فعلى الرغم من كثرة انشغالاته ﷺ وهو المسؤول عن دعوة الإنس والجن ... وهو المسؤول عن تربية أصحابه وأمته ومُراعاة أزواجه التسع وبذل جهده فى عبادة الخالق (جل وعلا) .. إلا أنه ذهب بنفسه إلى بنى عمرو بن عوف ليُصلح بينهم حتى لا تتأجج الخصومة ويدخل الشيطان بينهم ويشعل نار الفتنة بينهم.

وفى هذا درسٌ عظيم لكل مَن كان من أتباع النبى ﷺ ... وذلك بأن تسعى للإصلاح بين الناس حتى ولو ذهبت إليهم فى مكانهم أو بلدهم .. ولك فى رسول الله ﷺ الأُسوة والقدوة .. ولك عند الله الأجر العظيم والثواب الجليل.

قال ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ**»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**إِصْلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ**»(٢).

وتالله إنه لعملٌ جليل أن يسعى المسلم للإصلاح بين إخوانه المسلمين... وكلما كانت النية صادقة كان التوفيق مُلازمًا لك في الإصلاح بين الناس ..

قال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء: ٣٥] .. وعلى الرغم من أن الآية تتحدث عن الإصلاح بين الزوجين إلا أن المعنى أشمل من ذلك .. فكل مَن أخلص النية لله في الإصلاح بين الناس فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيسوق الخير على يديه ويوفقه للإصلاح بين الناس.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣٤) كتاب الجمعة، ومسلم (٤٢١) كتاب الصلاة.
معنى «حُبِس»: أَمْسَكُوه لِيُضيِّفُوه.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٩٥).

(٣٢) باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف: ٢٨].

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغِنى والشرف.. قال المفسرون: كان عليه السلام حريصًا على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مُريدًا لزينة الدنيا قط، فأُمِر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تبتغي بمُجالستهم الشرف والفخر ... قال ابن عباس: لا تُجاوزهم إلى غيرهم تطلب بَدَلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي لا تُطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله، وقد شُغلوا عن الدين وعبادةِ ربهم بالدنيا.

قال المفسرون: نزلت في عُيينة بن حصن وأصحابه ... أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسي وعليه شَملة صوف قد عرق فيها فقال عُيينة للنبي ﷺ: أما يُؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادةُ مُضَر وأشرافها إن أسلمنا يُسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحِّهمْ عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلسًا ولهم مجلس ... فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما

نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي مَن أمرني ربي أن أُصبر نفسي معهم**»(١).

❁ ❁ ❁

❁ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

أي: ولا تَمُد عينيك مُعجبًا، ولا تُكرر النظر مُستحسنًا إلى أحوال الدنيا والمُمتَّعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المُجمَّلة. فإن ذلك كله، زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المُغترين، وتأخذ إعجابًا، بأبصار المعرضين، ويتمتع بها - بقطع النظر عن الآخرة - القوم الظالمون. ثم تذهب سريعًا، وتمضي جميعًا، وتقتل مُحبيها وعُشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قَدِمُوا يوم القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارًا، ليعلم مَن يقف عندها، ويغتر بها، ومَن هو أحسن عملًا ... كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجًا، في ذاته وصفاته ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لكونه لا ينقطع .. أُكلُها دائم وظلها.. كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه، طموحًا إلى زينة الدنيا، وإقبالًا عليها، أن يُذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا(٢).

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ١٧٥).

(٢) تفسير السعدي (ص ٥٩٨-٥٩٩).

۞ والمراد هنا تسلية هذا الصنف من الناس الذين قَدَّر الله على أحدهم أن يكون فقيرًا أو ضعيفًا فى بدنه أو ليس عنده منصب ولا جاه .. فإن الله قد يجعل هذا الإنسان الضعيف له قدرٌ ومكانة عظيمة بقوة إيمانه ودماثة أخلاقه ويُنزله المنازل العالية فى الجنة ... فقَدَرُ الإنسان ومنزلته تُقاس بقدره ومكانته عند ربه (جلَّ وعلا).

وكان النبى ﷺ إذا رأى شيئًا يعجبه من الدنيا قال: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة**»(١) ... كلمتان عظيمتان، فالإنسان إذا نظر إلى الدنيا ربما تعجبه فيلهو عن طاعة الله... فينبغى أن يذكر نعيم الآخرة عند ذلك، ويُقارن بينه وبين هذا النعيم الدنيوى الزائل، ثم يُوطن نفسه ويُرغبها فى هذا النعيم الأُخروى الذى لا ينقطع، ويقول: «اللهم إن العيش عيش الآخرة».

۞ وصدق الحبيب المصطفى ﷺ ... فالدنيا مهما تزينت فهى مليئة بالآلام والأحزان .. لذاتها ناقصة ومُكدرة وإن لم تكن كذلك فهى لا تدوم.

أما الجنة ففيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.. ليس فيها حزن ولا جوع ولا مرض ولا شقاء ولا بلاء .... لذاتها صافية وكاملة ودائمة وتزداد كل لحظة روعة وجمالًا ونعيمًا.

أما الدنيا فمهما طالت بنا ومهما تزينت لنا فمآلها أحد أمرين: إما الهرم حتى يعود الإنسان إلى أرذل العمر من ضعف البدن وضعف العقل وكثرة الأمراض والأسقام.

وإما الموت ... فكيف يطيب لعاقلٍ أن ينشغل بهذه الدنيا وينسى آخرته؟!

۞ وعلى كل حالٍ .. فالله عَزَّوَجَلَّ أمر نبيه ﷺ أن يُصبر نفسه مع هؤلاء الذين يدعون الله عَزَّوَجَلَّ بالغداة والعشى يريدون وجهه.. والآية ليست قاصرة على

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٣٤) كتاب الجهاد والسير-ومسلم (١٨٠٥) كتاب الجهاد والسير.

الضعفاء ..بل على كل الذين يدعون الله ويعبدونه سواء كانوا ضعفاء أم أقوياء.. فقراء أم أغنياء .. فكُن معهم دائمًا.

(٢٥٧) عن حَارِثَة بْنِ وهْب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: «ألا أُخْبِرُكُمْ بأَهْلِ الجنَّة؟ كُلُّ ضَعيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَم عَلَى الله لأبرَّه، أَلا أُخْبِرُكُمْ بأَهْلِ النَّار؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتكْبِرٍ»[1].

۞ ففى هذا الحديث يستعمل النبى صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب التشويقى الرائع وذلك من خلال أن يطرح المعلومة بسؤال يثير اهتمام الحاضرين فيقول لهم: **«ألا أُخْبِرُكُمْ بأَهْلِ الجنَّة؟»** فكأنهم قالوا: بلى يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم: **«كُلُّ ضَعيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَم عَلَى الله لأبرَّه»**.

يعنى أن هذه من علامات أهل الجنة .. وذلك بأن يكون الإنسان ضعيفًا متضعِّفًا لا يشغل نفسه بمنصبٍ ولا بمال ولا بجاه ولا يحرص على العلو فى الدنيا فهو يميل إلى الخمول وعدم الظهور ولا يشغل نفسه إلا بطاعة ربه والحرص على محبته ورضوانه حتى لو لم يكن له أى مكانة بين الناس.

ولذلك تجد أهل الآخرة لا يهتمون بما يفوتهم من حُطام الدنيا الزائل .. فهم يجعلون الدنيا مزرعة للآخرة وقنطرة يمشون عليها ليصلوا إلى الجنة .. فهم يعلمون أن الحياة الحقيقية فى جنة الرحمن (جلَّ وعلا) .. ولذلك لم يحزنوا لما فاتهم ولم يفرحوا بما جاءهم من الدنيا؛ لأن عيون قلوبهم تنظر إلى السماء وتسعى للفوز بالجنة ورضوان رب الجنة (سبحانه وتعالى).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩١٨) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٥٣) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.
«الْعُتُلّ» الْغَلِيظُ الجاف - «والجوَّاظُ» وَهُو الجَمُوعُ المَنُوع، وَقِيلَ: الضَّخْمُ المُخْتالُ فِى مِشْيَتِهِ، وقيل: الْقَصِيرُ الْبَطِينُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن فى الدنيا جنة مَن لم يدخلها، فلن يدخل جنة الآخرة.. قالوا: ما هى؟ قال: إنها جنة الإيمان.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ فى قوله: «مُتضعِّف»: ومعناه يستضعفه الناس ويحتقرونه وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَيْهِ لِضَعفِ حَالِهِ فِى الدُّنْيَا ... يُقَالُ تَضَعَّفَهُ وَاسْتَضْعَفَهُ وَأَمَّا رِوَايَةُ الْكَسْرِ فَمَعناهَا مُتَوَاضِعٌ مُتَذَلِّلٌ خَامِلٌ وَاضِعٌ مِنْ نَفْسِهِ.

قَالَ الْقَاضِى: وَقَد يَكُونُ الضَّعفُ هُنَا رِقَّةُ الْقُلُوبِ وَلِينُهَا وَإِخْبَاتُهَا لِلْإِيمَانِ وَالْمُرَادُ أَنَّ أَغْلَبَ أَهْلِ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ كَمَا أَنَّ مُعظَمَ أَهْلِ النَّارِ الْقِسْمُ الْآخَرُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ الِاسْتِيعَابَ فِى الطَّرَفَيْنِ(١).

۞ وقوله: «**لو أقسم على الله لأبرَّه**» أى: أنه لو حلف يمينًا طمعًا فى كرم الله تعالى بإبراره لأبرَّه ولو دعاه لأجابه وحقَّق له ما حلف عليه .. وهذا قد يحدث كثيرًا فى حياتنا .. أن يدعو أحدنا ويحلف على شىءٍ ثقة فى الله ورجاءً فيما عنده فيبرّ الله قَسَمه .. أما إذا أقسم على الله تعاليًا واستكبارًا وإحساسًا بأنه يستحق أن يبر الله قَسَمه فإن هذا يُخذل والعياذ بالله.

۞ وها هنا مثالان:

المثال الأول: أن الرُّبيِّعَ بنت النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهى من الأنصار، كَسرت ثنية جارية من الأنصار، فرفعوا الأمر إلى رسول الله ﷺ فأمر النبى ﷺ أن تُكسر ثنية الرُّبيِّع ... لقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ ﴾ فقال أخوها أنس بن النضر: والله يا رسول الله لا تُكسَر ثنية الربيع، فقال ﷺ: «**يا أنس كتاب الله القصاص**» فقال: والله لا تُكسر ثنية الربيع.

أقسم بهذا ليس ردًّا لحكم الله ورسوله، ولكنه يحاول بقدر ما يستطيع أن

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٢٧٢).

يتكلم مع أهلها حتى يعفوا ويأخذوا الدية، أو يعفوا مجانًا دون دية، كأنه واثق من موافقتهم، لا ردًّا لحكم الله ورسوله، ولكن ثقة فى فضل الله ورحمته ...فيسَّر الله سبحانه وتعالى فعفى أهل الجارية عن القصاص، فقال النبى ﷺ: «**إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرَّه**».

وهنا لاشك أن الحامل لأنس بن النضر هو قوة رجائه بالله عز وجل، وأن الله سيُيسّر من الأسباب ما يمنع كسر ثنية أخته الربيع.

۞ وأما المثل الثانى: فهو للبراء بن مالك رضي الله عنه ... فقد قال النبى ﷺ فى حقه: «**كم من أشعث أغبر ذى طِمرين لا يُؤبَه له لو أقسم على الله لأبرَّه، منهم البراء بن مالك**»[1].

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «كم من ضعيفٍ مُتضعف ذى طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه منهم البراء بن مالك»[2].

فلم ينسَ أصحاب النبى ﷺ تلك المنقبة للبراء... وكان البراء يتمنَّى الشهادة فى سبيل الله.

وظل بطلنا فى شوقٍ وحنين لتلك الأمنية الغالية -ألا وهى الشهادة فى سبيل الله- إلى أن جاء يوم فتح «تُستر» من بلاد «فارس» فقد تحصن الفُرس فى إحدى القلاع الممردة، فحاصرهم المسلمون وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، فلما طال الحصار واشتد البلاء على «الفرس»، جعلوا يدلون من فوق أسوار القلعة سلاسل من حديد، عُلقت بها كلاليب من فُولاذ حُميت بالنار حتى غدت أشد توهُّجًا من الجمر، فكانت تنشبُ فى أجساد المسلمين وتعلق بها فيرفعونهم إليهم إما موتى وإما على وشك الموت.

---

(١) رواه الترمذى والضياء عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٧٣)

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبى

ثم بدأ القتال بعد ذلك.

ولما اشتد القتال وجالد الأعداء، وبلغت القلوب الحناجر، قال بعض المسلمين للبراء: يا براء إن رسول الله ﷺ أخبر أنك لو أقسمت على الله لأبرَّك، فأقسِم على الله، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم.

ثم التقوا على قنطرة السوس، فأوجعوا فى المسلمين، فقالوا: أقسِم يا براء على ربك، فقال: «أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيِّ ﷺ» فمُنحوا أكتافهم وقُتل البراء شهيدا [(١)(٢)].

فهذان مثالان لمن أقسم على الله عَزَّوَجَلَّ ثقة فى الله ورجاءً فيما عنده جلَّ وعلا.

۞ وفى المقابل فهناك صنف قد أقسم على الله عَزَّوَجَلَّ تعاليًا وتحجُّرًا لرحمته سبحانه وتعالى... ومثال ذلك الرجل الذى كان مُطيعًا لله عَزَّوَجَلَّ عابدًا.. وكان يمر على رجلٍ عاصٍ ... فكان كلما مرَّ عليه وجده على المعصية، فقال: والله لا يغفر الله لك... حمله على ذلك الإعجاب بنفسه، والتحجُّر بفضل الله ورحمته، واستبعاد رحمة الله عَزَّوَجَلَّ من عباده.

فقال الله تعالى: «**مَن ذا الذى يتألى علىَّ** - أى يحلف علىَّ - **ألا أغفر لفلان، قد غفرت له، وأحبطت عملك**»، فانظر الفرق بين هذا وهذا.

عن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ حَدَّث: «**أَنَّ رجلًا قال والله لا يغفرُ اللهُ لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذى يتألَّى عَلَيَّ أن لا أغفر لفلان! فإنى قد غفرت لفلان وأحبطتُ عملك**»[(٣)].

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أصحاب الرسول ﷺ/ الشيخ محمود المصرى (٢/ ١٥١-١٥٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب.

وقال رسول الله ﷺ: «كانَ رَجُلاَنِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيِنِ، وَكانَ أحدهما مُذنبًا والآخر مُجتهدًا فِي الْعِبَادَةِ، وَكانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَالله لاَ يَغْفِرُ الله لَكَ - أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ الله الجَنَّةَ - فَقُبِضَ رُوحُهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالِمَينَ، فقال لهذا المُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوْ: كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قادِرًا؟! وَقالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادخُلِ الجَنَّةَ بِرَحمَتِي، وَقالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»(١).

۞ ثم قال ﷺ: «ألا أخبركم بأهل النار، كل عتلٍّ جواظٍ مستكبر».

هذه علامات أهل النار، «عُتُلٍّ»: يعنى أنه غليظ جافٍ، قلبه حجر والعياذ بالله، كالحجارة أو أشد قسوة «جواظٍ مُستكبرٍ» الجواظ فيه تفاسير متعددة، قيل: إنه الجَموع المَنوع، يعنى الذى يجمع المال ويمنع ما يجب فيه.

والظاهر أن الجواظ هو الرجل الذى لا يصبر، فجواظ يعنى أنه جزوع لا يصبر على شىء، ويرى أنه فى قمة أعلى من أن يمسَّه شىء.

دائمًا فى أنين وحزن وهمٍّ وغمٍّ، مُعترضًا على القضاء والقدر، لا يخضع له، ولا يرضى بالله ربًّا.

ومن ذلك قصة الرجل الذى كان مع الرسول ﷺ فى غزوة، وكان شجاعًا لا يدع شاذة ولا فاذة للعدو إلا قضى عليها.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، التَقَى هُوَ وَالمُشْرِكُونَ، فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، -وَفِي أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ، لاَ يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً(٢) إِلَّا اتَّبَعَهَا

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٥٥).

(٢) لا يدع لهم شاذة ولا فاذة: شجاع لا يستطيع أحد أن يلقاه.

يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ- فَقِيلَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا اليَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**».

قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ وَذُبَابَهُ[1] بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ[2] فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[3].[4]

۞ وأما المستكبر فهو الذى جمع بين وصفين: غمط الناس، وبطر الحق؛ لأن النبى ﷺ قال: «**الكبر بَطَرُ الحق وغَمطُ الناس**»[5] وبَطَرُ الحق: يعنى رَدُّه... وغمط الناس: يعنى احتقارهم... فهو فى نفسه عالٍ على الحق، وعالٍ على الخلق، لا يلين للحق ولا يرحم الخلق والعياذ بالله ... فهذه علامات أهل النار، نسأل الله أن يُعيذنا وإياكم من النار، وأن يُدخلنا وإياكم الجنة إنه جوادٌ كريم.

---

(١) ذبابه: رأسه.

(٢) تَحامل عليه: اتكأ عليه.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٠٢) كتاب المغازى، ومسلم (١١٢) كتاب الإيمان.

(٤) وقد جاء عند ابن هشام فى سيرته التصريح بأن هذا الرجل هو قزمان، وأنه قَتل نفسه يوم أُحد.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٢٥٨) وعَنْ أَبى العباسِ سهل بنِ سعدٍ الساعِدِيِّ ﷺ قال: مرَّ رجُلٌ على النَّبيِّ ﷺ فقالَ لرجُلٍ عِنْدهُ جالس: «ما رَأْيُكَ فى هَذَا؟» فقال: رَجُلٌ مِنْ أَشراف النَّاس، هذا والله حَرىٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. فَسَكَتَ رسول الله ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخرُ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «ما رأْيُكَ فِى هَذَا؟» فقال: يا رسول الله هذا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هذَا حرىٌّ إِنْ خطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمع لِقَوْلِهِ. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خَيْرٌ منْ مِلءِ الأَرْضِ مِثْلَ هذَا»(١).

۞ فها نحن نرى فى هذا الحديث رجلين: أحدهما من أشراف القوم له مكانة وكلمة فى قومه فإذا تحدَّث أنصت له الجميع وإذا خطب يُجاب ولا يُرد طلبه، وإذا شفع لأحدٍ عند أحدٍ لا تُرد شفاعته.

وأما الرجل الآخر فهو من الفقراء المغمورين الذين ليس لهم قدرٌ ولا مكانة بين قومه .. فهو إذا تكلم لا يُنصت إليه أحد وإن خطب لا يُجاب، وإن شفع لأحدٍ عند أحدٍ لا تُقبل شفاعته. فقال النبى ﷺ لأصحابه: «هذا - أى الفقير - خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا» .. أى خيرٌ عند الله من ملء الأرض من مثل هذا الرجل الذى له جاه ومكانة بين قومه .. وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إلى الجاه والحسب والنَّسب والمال والجمال والقوة والبيت والملبس والدابة وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان لله أتقى فهو لله أقرب .. فمن صلح قلبه واستقام على طاعة الله وصارت حياته كلها طاعة لله (جَلَّ وعلا) فهو يصبح ويُمسى عابدًا مُصليًا ذاكرًا لله تاليًا لكتاب الله فهذا هو الكريم عند الله.

ومن هنا نعلم أن الرجل قد يكون ذا حظوة ومنزلة ومكانة عالية فى الدنيا وليس له قدر عند الله... وقد يكون ليس له مكانة ولا قيمة عند الناس وهو عند

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٤٧) كتاب الرقاق - ولم أقف على هذه الرواية عند مسلم.
قوله: «حرى» أى حقيق وقوله: «شفع» بفتح الفاء.

الله في أعلى المنازل وله قدر ومكانة عظيمة عند ربه (جلَّ وعلا).

وليس معنى الحديث ذم الأغنياء والثناء على الفقراء؟.. كلا.. فالمدار على كل هذا هو إيمان العبد .. فالعبد سواء كان غنيًّا أو فقيرًا فلا بُدَّ أن يكون عبدًا لله.. سواء كان وزيرًا أو غفيرًا فلا بد أن يكون عبدًا لله.

۞ لكن الغالب أن الملأ والأشراف يكونون أقل استجابة للحق من الفقراء والمستضعفين .. ولهذا تجد أن أكثر أتباع الرسل كانوا من الفقراء والمستضعفين .. وأكثر الذين كذبوا الرسل وحاربوهم هم الملأ والأشراف والكُبراء..

قال تعالى حاكيًا عن الملأ من قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٧٥].

وقال تعالى حاكيًا عن الملأ من قوم فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

۞ ومع ذلك فإنه إذا وُجد الغنى للشاكر العابد فهو خيرٌ من الفقير الصابر .. وذلك لأن الله عز وجل اختبره بالمال وفتنة المال فلم يستعمل المال في معصية الله بل كان شاكرًا لله فاستعمل ذلك المال في كل ما يقربه من الله جلَّ وعلا ... أما الفقير الصابر فإنه لم يُختبَر بعد .. فقد يُعطيه الله المال فيزداد شكرًا لله .. وقد يُعطيه المال فيستعمله فيما يُغضب الله.. فمدار التفضيل بين هذا وذاك هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

(٢٥٩) وعَنْ أَبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «احتجَّت الجنَّةُ والنَّارُ فقالت النَّارُ: فِيَّ الجبَّارُونَ والمُتكبِّرُونَ، وقالت الجنَّةُ: فِيَّ ضُعفاءُ النَّاسِ ومسَاكِينُهُم فقَضَى الله بَيْنَهُما: إنَّكِ الجنَّةُ رحمتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذابِي أُعذِّب بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكلَيكُمَا عَلَيَّ مِلؤُها»(١).

۞ فى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه «احتجت الجنة والنار» يعنى تحاجَّا فيما بينهما، كل واحدة تُدلى بحُجتها، وهذا من الأمور الغيبية التى يجب علينا أن نؤمن بها حتى وإن استبعدتها العقول وحار الإنسان فيها، وقال: كيف تتحاجّ الجنة والنار وهما جمادان!.

فلقد أخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ أنه قال للسماوات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وهما جمادان .. وأخبرنا عَزَّ وَجَلَّ أنه أمر القمر فانشقّ نصفين لما طلب النبى ﷺ منه ذلك لتكون معجزة يراها المشركون فيؤمنوا ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] بل وأخبر النبى ﷺ أن عرش الرحمن (جلَّ وعلا) قد اهتزَّ لموت سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .. أى: فرحًا بقدوم روحه إلى السماء. وأخبرنا الحق (جلَّ وعلا) أن الأيدى والألسُن والجلود ستشهد على الإنسان يوم القيامة مع أنها جماد ... بل وأخبر الحق (جلَّ وعلا) أن الكون كله يسبح بحمد الله ويسجد لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب التفسير، ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

فالجنة احتجت على النار، والنار احتجت على الجنة،.... النار احتجت بأن فيها الجبارين والمتكبرين.

الجبارون أصحاب الغلظة والقسوة، والمتكبرون أصحاب الترفُّع والعلو، الذين يغمطون الناس ويردون الحق... كما قال النبى ﷺ فى الكبر أنه: «**بَطَرُ الحق وغَمطُ الناس**»[1].

فأهل الجبروت وأهل الكبرياء هم أهل النار والعياذ بالله.

وربما يكون صاحب النار حسن الأخلاق لين الجانب مع أهله وأصحابه؛ لكنه مستكبرٌ جبارٌ عنيدٌ بالنسبة للحق.. فلا يقبل الحق ويرفض الدين جملة وتفصيلًا .. ولذلك فلا ينفعه لين جانبه وحُسن أخلاقه لاستكباره على الحق ورفضه له.

أما الجنة فقالت: إن فيها ضعفاء الناس وفقراء الناس، فهم فى الغالب الذين يلينون للحق وينقادون له... وأما أهل الكبرياء والجبروت، ففى الغالب أنهم لا ينقادون.

فقضى الله عَزَّوَجَلَّ بينهما قال: «**إنك الجنة رحمتى أرحم بك مَن أشاء**» وقال للنار: «**إنك النار عذابى أُعذب بك مَن أشاء**» إنك الجنة رحمتى: يعنى أنها الدار التى نشأت من رحمة الله، وليست رحمته التى هى صفته؛ لأن رحمته التى هى صفته وصفٌ قائمٌ به ... لكن الرحمة هنا مخلوق.

أنت رحمتى يعنى: خلقتك برحمتى، أرحم بك مَن أشاء.

وقال للنار: أنت عذابى أُعذِّب بك مَن أشاء ... كقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]. فأهل الجنة هم أهل رحمة الله - نسأل الله أن يجعلنى وإياك منهم - وأهل النار هم أهل عذاب الله.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: «ولكليكما عليَّ ملؤها» تكفل عَزَّوَجَلَّ وأوجب على نفسه أن يملأ الجنة ويملأ النار ... وفضل الله سبحانه وتعالى ورحمته أوسع من غضبه، فإنه إذا كان يوم القيامة أُلقى مَن يُلقى فى النار، وهى تقول: هل من مزيد، يعنى أعطونى، أعطونى[1].

زيدونى ... ولكن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُدخل جهنم إلا من كفر بالله وقامت عليه الحُجة .. فيضع الله قدمه – وفى رواية: رجله– فينزوى بعضها إلى بعض وينضم بعضها إلى بعض من أثر وضع الرب عَزَّوَجَلَّ قدمه عليها وتقول: قَط قَط .. أى: حسبى ويكفينى هذا .. فهذا ملؤها.... أما الجنة فإن الجنة واسعة، عرضها السموات والأرض يدخلها أهلها ويبقى فيها فضلٌ زائد على أهلها، فيُنشئ الله تعالى لها أقوامًا فيُدخلهم الجنة بفضله ورحمته؛ لأن الله تكفل لها بملئها.

فمن كمال رحمة الله (جل وعلا) أنه بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ويظفر كل واحدٍ منهم بنعيم لا يخطر على قلب بشر فإنه يبقى فى الجنة فضلٌ فيخلق الله خلقًا جديدًا ويُسكنهم فضل الجنة.

عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ: **«لا تزال جهنم يُلقَى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قَط قَط بعزتك وكرمك .. ولا يزال فى الجنة فضل حتى يُنشئ الله لها خلقًا فيُسكنهم فضل الجنة»**[2].

وأما اللفظ الذى وقع فى صحيح البخارى فى حديث أبى هريرة: **«وإنه يُنشئ للنار مَن يشاء فيلقى فيها فتقول هل من مزيد»** فغلط من بعض الرواة[3].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٤٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٤٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) يوم فى الجنة / الشيخ محمود المصرى (ص ٤٢٨).

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «**وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ ينشئ لَهَا خلقًا**» هَذَا دَلِيلٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الثَّوَابَ لَيْسَ مُتَوَقِّفًا عَلَى الْأَعْمَالِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُخْلَقُونَ حِينَئِذٍ وَيُعطَوْنَ فِي الْجَنَّةِ مَا يُعطَوْنَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ... وَمِثْلُهُ أَمْرُ الْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينَ الَّذِينَ لَمْ يَعملُوا طَاعَةً قَطُّ فَكُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ بِرَحمَةِ اللهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ سَعَةِ الْجَنَّةِ فَقَد جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ لِلْوَاحِدِ فِيهَا مِثْلُ الدُّنْيَا وَعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا ثُمَّ يَبْقَى فِيهَا شَيْءٌ لِخَلْقٍ يُنْشِئُهُمُ اللهُ تَعَالَى[(١)].

(٢٦٠) وعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيأتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ العظِيمُ يَوْمَ الْقِيامة لا يزنُ عِنْد الله جَنَاحَ بعُوضَةٍ»[(٢)].

۞ وقد جاء هذا الحديث في باب (ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين) وذلك لأن الغالب أن السِّمنة تأتي من كثرة الأكل المترتب على كثرة المال والغِنى .. والغالب على أصحاب المال - إلا مَن رحم الله - الكِبر والأشر والبطر حتى إن أحدهم يأتي يوم القيامة كثير اللحم والشحم عظيم الجسد ولكنه إذا لم يكن رجلًا صالحًا فإنه يوضع في الميزان يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة.

فالوزن يوم القيامة وزن عدل ليس فيه ظلم، يُجازَى فيه الإنسان على حسب ما عنده من الحسنات والسيئات...قال أهل العلم: فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو من أهل الجنة، ومَن رجحت سيئاته على حسناته استحق أن يُعذَّب في النار... ومَن تساوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف، الذين يكونون بين الجنة والنار لمدة، على حسب ما يشاء الله عَزَّ وَجَلَّ، وفي النهاية يدخلون الجنة.

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٢٩) كتاب التفسير - ومسلم (٢٧٨٥) كتاب صفات المنافقين.

ما الذي يُوضع في الميزان

والقول فى الموزون على أربعة أوجه:

(١) أن الأعمال هى التى تُوزَن:

وأن أفعال العباد تُجسَّم فتوضع فى الميزان.. قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

.... وقال النبى ﷺ: « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِى المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ »(١).

(٢) أن صحائف الأعمال هى التى تُوزَن:

يدل على ذلك حديث البطاقة عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ سيُخلِّصُ رجلا من أُمّتى على رُؤُوس الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلَ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِى الحافظون؟ فَيَقُول: لا يارب فَيَقُول: أَفَلَك عذر؟ قَالَ: لا يارب فَيَقُولُ: بَلَى. إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ... فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: احضر وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: فَإِنَّكَ لا تُظْلَمُ...فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِى كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِى كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْء»(٢).

(٣) أن الموزون ثواب العمل:

كما جاء فى حديث أبى أمامة الباهلى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٠٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذى والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٧٦).

كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصحَابِهِمَا... اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»(١).

قال معاوية: بلغنى أن البطلة: السحرة.

قال الترمذى رحمه الله: معنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجىء ثواب قراءته.

(٤) أن الموزون هو العامل نفسه:

والدليل على ذلك ما جاء عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كنت أجتنى لرسول الله ﷺ من الأراك (ليأتيه بالسواك) قال: فضحك القوم من دقة ساقى فقال النبى ﷺ مِمَّ تَضحَكُون؟ قالوا: من دِقَّةِ سَاقَيهِ. فقال: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَهِىَ أَثْقَلُ فِى الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»(٢). أي من جبل أُحد.

فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون

۞ أخى الحبيب: هل وقفت يومًا لتشترى طعامًا أو فاكهة ورأيت كفة الميزان وهى تميل وترجح على الأخرى.. فتذكرت ميزان الآخرة وقد رجحت كفة السيئات على كفة الحسنات فكان ذلك حاديًا لك لأن تبادر إلى التوبة ولتجتهد فى طاعة الله عز وجل لتملأ كفة الحسنات بكل أنواع الطاعات والقربات ليرضى عنك رب الأرض والسماوات.

قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

[الأعراف: ٨-٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن سعد، والبزار، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠).

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾

[المؤمنون: ١٠١-١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

۞ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: إنكم لتعملون أعمالًا هى أدق فى أعينكم من الشعر إن كنا لنعدُّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات.

هل تدبرت أخى الكريم فى كلمات أنس رضي الله عنه.

إنه يقول تلك الكلمات لخير جيلٍ عرفته البشرية كلها... وكأنه يقصد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا فى عهد النبى ﷺ إذًا وقع أحدهم فى صغيرة ينظر بقلبه إلى ميزان يوم القيامة وقد تساوت كفة الحسنات مع كفة السيئات فتأتى تلك الصغيرة فتُرجِّح كفة السيئات فتكون سببًا فى دخوله النار فتكون بذلك من الموبقات ... فهل تخيلت نفسك عند الوقوع فى معصية - صغيرة كانت أو كبيرة - أن تلك المعصية ربما تُرجح كفة سيئاتك فيكون ذلك حاديًا لك لأن تتوب وتعود إلى الله وتجتهد فى طاعته لتكون من المفلحين فى الدنيا والآخرة.

ما الأعمال التى تثقل فى الميزان

إن كل أعمال البر والطاعة تثقل فى الميزان، وتجعل كفة الحسنات راجحة على كفة السيئات، ولكن هناك أشياء تجعل كفة الحسنات ثقيلة جدًا، منها:

(أ) حُسن الخلق:

قال ﷺ: «مَا مِنْ شَىْءٍ يُوضَعُ فِى الْمِيزَانِ أَثْقَلَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ»(١).

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٢٦).

(ب) تسبيح الله وتحميده :

قال رسول الله ﷺ: « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِى الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ »[(١)].

(جـ) الحمد لله :

قال رسول الله ﷺ: « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا »[(٢)].

ففى قوله:«وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ-أَوْ تَمْلأُ-مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»: سبب عظيم فضلها ما اشتملت عليه من التنزيه لله تعالى والافتقار إليه[(٣)].

(د) احتباس الخيل فى سبيل الله :

قال رسول الله ﷺ: « مَنِ احتبَسَ فَرَسًا فِى سَبِيلِ اللهِ إِيمَانًا بِاللهِ وَتَصدِيقًا بِوَعدِهِ، فَإِنَّ شِبعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِى مِيزَانِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ »[(٤)].

(٢٦١) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه أَنَّ امْرأَةً سوْداءَ كَانتَ تَقُمُّ المسْجِد، أَوْ شَابًّا، فَفقَدَهَا، أو فقده رسولُ الله ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا أَوْ عنهُ، فقالوا: مات. قال: «أَفَلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِى» فكَأَنَّهُمْ صغَّرُوا أَمْرَهَا، أَوْ أَمْرهُ، فقال: «دُلُّونِى عَلَى قَبْرِهِ» فدلُّوهُ فَصلَّى عَلَيه،ثُمَّ قال: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُور مملُوءَةٌ ظُلْمةً عَلَى أَهْلِهَا، وإِنَّ الله تعالى يُنَوِّرهَا لَهُمْ بصَلاتِى عَلَيْهِمْ»[(٥)].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٠٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.
(٣) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص٦١ ـ ٦٢).
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٥٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٩٨٧) كتاب الزكاة.
(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٨) كتاب الصلاة، ومسلم (٩٥٦) كتاب الجنائز.

=

۞ كانت هناك امرأة سوداء مؤمنة، طيبة القلب، تحب الخير لكل المسلمين.

وكانت هذه المرأة تبحث لنفسها عن أى دور تستطيع من خلاله أن تخدم الإسلام والمسلمين.

وبعد تفكيرٍ عميق رأت أن العمل الذى تستطيع أن تقوم به وتخدم من خلاله المسلمين هو أن تَقُمَّ المسجد النبوى - أى: تكنسه وتنظفه.

وظلت هذه المرأة تكنس المسجد وتنظفه كل يوم حتى آخر لحظة فى عمرها.

وفى يوم من الأيام مرضت هذه المرأة الطيِّبة وماتت ولم يعرف النبى ﷺ أنها ماتت(١).

وذلك لأنها ماتت بالليل وكان النبى ﷺ فى بيته .. فصغَّر الصحابة ﷺ من شأنها وقالوا: لا حاجة لنا إلى أن نُخبر النبى ﷺ بشأنها فى هذا الليل.. فدفنوها... فلما فقدها النبى ﷺ ولم يرها فى المسجد سأل عنها فقالوا: إنها ماتت يا رسول الله.

فقال: «أفلا كنتم آذنتمونى» يعنى أعلمتمونى حين ماتت، ثم قال: «**دُلونى على قبرها**» فدلوه، فصلى عليها، ثم قال ﷺ: «**إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها وإن الله ينورها لهم بصلاتى عليهم**».

۞ ففى هذا الحديث عدة فوائد منها: أن النبى ﷺ إنما يُعظم الناس بحسب أعمالهم،وما قاموا به من طاعة الله وعبادته.

ومن الفوائد: جواز تولِّى المرأة لتنظيف المسجد، وأنه لا يحجر ذلك على الرجال فقط، بل كل مَن احتسب ونظف المسجد فله أجره؛ سواء باشرته المرأة، أو استأجرت مَن يَقُمّ المسجد على حسابها.

ومن فوائد هذا الحديث: مشروعية تنظيف المساجد، وإزالة القمامة عنها.

= قوله: «تَقُمُّ» أَىْ تَكنُسُ - «وَالْقُمَامةُ»: الْكُنَاسَةُ - «وَآذَنْتُمونِى»: أَىْ: أَعلَمتُمُونِى.

(١) قصص الرسول ﷺ للأطفال / الشيخ محمود المصرى (ص ٣٤٢) بتصرف.

فالمساجد بيوت الله ينبغى العناية بها وتنظيفها، ولكن لا ينبغى زخرفتها وتنقيشها بما يوجب أن يلهو المصلون بما فيها من الزخرفة.

ومن فوائد هذا الحديث: أن النبى ﷺ لا يعلم الغيب، ولهذا قال: «**دُلونى على قبرها**»، فإذا كان لايعلم الشىء المحسوس فالغائب من باب أَولَى.

فهو ﷺ لا يعلم الغيب...وقد قال الله له: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ومن فوائد هذا الحديث: مشروعية الصلاة على الميت عند القبر لمن لم يُصلِّ عليه قبل الدفن؛ لأن النبى ﷺ خرج فصلى على القبر حيث لم يُصلِّ عليها قبل الدفن، ولكن هذا مشروع لمن مات فى عهدك وفى عصرك، أما مَن مات سابقًا فلا يُشرع أن تُصلى عليه... ولهذا لا يُشرع لنا أن نُصلى على النبى ﷺ على قبره، أو على قبر أبى بكر، أو عمر، أو عثمان، أو غيرهم من الصحابة، أو غيرهم من العلماء والأئمة.

ومن فوائد هذا الحديث: حُسن رعاية النبى ﷺ لأمته، وأنه كان يتفقدهم ويسأل عنهم، فلا يشتغل بالكبير عن الصغير ... كل ما يهم المسلمين فإنه يسأل عنه ﷺ.

ومن فوائد هذا الحديث: جواز سؤال المرء ما لا تكون به منّة فى الغالب... لأن الرسول ﷺ قال: «**دُلونى على قبرها**» وهذا سؤال، لكن مثل هذا السؤال ليس فيه منة، بخلاف سؤال المال فإن سؤال المال محرم، يعنى لا يجوز أن تسأل شخصًا مالاً وتقول: أعطنى عشرة ريالات أو مائة ريال إلا عند الضرورة.

وربما يُؤخذ من هذا الحديث: جواز إعادة الصلاة على الجنازة، لمن صلى عليها من قبل إذا وجد جماعة؛ لأن الظاهر أن الذين خرجوا مع النبى ﷺ صلوا معه.

فإذا قال قائل: إذا صليتُ على القبر فأين أقف؟ فالجواب أنك تقف وراءه تجعله بينك وبين القبلة، كما هو الشأن فيما إذا صليت عليه قبل الدفن[1].

(٢٦٢) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعثَ أَغبر مدفُوعٍ بالأبْوَابِ لَوْ أَقْسمَ عَلَى الله لأَبرَّهُ»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٥٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٢٦٣) وعَنْ أُسامَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «قُمْتُ عَلَى بابِ الْجنَّة، فَإِذَا عامَّةُ مَنْ دخَلَهَا الْمَساكِينُ، وأَصحابُ الجَدِّ محبُوسُونَ غير أَنَّ أَصحاب النَّارِ قَد أُمِر بِهِمْ إِلى النَّارِ. وقُمْتُ عَلَى بابِ النَّارِ فَإِذَا عامَّةُ منْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ»[3].

۞ قوله ﷺ: «قُمْتُ عَلَى بابِ الْجنَّة، فَإِذَا عامَّةُ مَنْ دخَلَهَا الْمَساكِينُ»، أى أكثر مَن دخل الجنة الفقراء والمساكين؛ لأنهم فى الغالب أقرب إلى الاستجابة للحق وأقرب إلى العبادة والخشية لله من الأغنياء ... وإن كان هناك من الأغنياء مَن هو أكثر عبادة لله من الفقراء إلا أن الغالب من حال الأغنياء ليس كذلك.

«وأَصحابُ الجَدِّ محبُوسُونَ»: ولكن ما المراد بأصحاب الجد؟ .. هل هم أصحاب المال فقط أم هم أصحاب الولايات والإمارات أيضًا... فإن كانوا هم أصحاب المال فهم محبوسون- أى: موقوفون- بين يدى الله عَزَّ وَجَلَّ للسؤال عن

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٢/ ٣٢-٣٣) بتصرف كبير.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٣٦) كتاب الذكر والدعاء.
«وَالجَدُّ»: الحظُّ والغِنى - وقوله «محبُوسُونَ» أى: لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ بَعدُ فِى دُخُول الجَنَّةِ.

أموالهم من أين اكتسوبها وفيم أنفقوها ... وأما إن كانوا من أصحاب الولايات والسلطات فهم محبوسون من أجل السؤال عن رَعاياهم ماذا عملوا فيهم؟ هل قاموا بواجب النُّصح والإرشاد والتعليم وحملهم على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وتأديبهم وإقامة الحدود فيهم أم أنهم ضيعوا رعيتهم وتركوهم يفسدون فى الأرض ولم يُذكروهم بالله عَزَّوَجَلَّ.

فأصحاب الجد إما أن يكونوا من أصحاب الأموال أو الولايات .. وقد ورد الخبر أنهم محبوسون وموقوفون للسؤال عن ما كان منهم.

۞ وفى هذا الحديث قسّم الرسول ﷺ الناس إلى ثلاثة أقسام:

أهل النار: دخلوا النار - أعاذنا الله وإياكم منها - والفقراء: دخلوا الجنة، والأغنياء: من المؤمنين موقوفون محبوسون، إلى أن يَشاء الله.

أما أهل النار فأخبر الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق أن عامة مَن دخلها النساء.

وقد يسأل سائل ويقول: هل الرجال أكثر فى الجنة أم النساء؟

والجواب: أن مثل هذا السؤال قد طُرح فى عهد الصحابة فتخاصم الرجال والنساء فى هذه المسألة.

ففى صحيح مسلم عن ابن سيرين قال: اختصم الرجال والنساء: أيهم أكثر فى الجنة؟ وفى رواية: إما تفاخروا، وإما تذاكروا: الرجال فى الجنة أكثر أم النساء؟ فسألوا أبا هريرة، فاحتجَّ أبو هريرة على أن النساء فى الجنة أكثر بقول الرسول ﷺ: **«إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ؟»**[1].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

والحديث واضح الدلالة على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال، وقد احتج بعضهم على أن الرجال أكثر بحديث: «**رأيتكن أكثر أهل النار**». والجواب أنه لا يلزم من كونهن أكثر أهل النار أن يَكُنَّ أقل ساكنى الجنة كما يقول ابن حجر العسقلانى[1]، فيكون الجمع بين الحديثين أن النساء أكثر أهل النار وأكثر أهل الجنة، وبذلك يَكُنَّ أكثر من الرجال وجودًا فى الخلق ... ويمكن أن يُقال: إن حديث أبى هريرة يدل على أن نوع النساء فى الجنة أكثر سواءً كن من نساء الدنيا أو من الحور العين.

والسؤال هو: أيهما أكثر فى الجنة: رجال أهل الدنيا أم نساؤها؟ وقد وفق القرطبى بين النَّصَّين بأن النساء يَكُنَّ أكثر أهل النار قبل الشفاعة وخروج عصاة الموحدين من النار، فإذا خرجوا منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين كُن أكثر أهل الجنة[2].

كيف نجمع بين ما ذُكر هنا أن النساء هُنَّ أكثر أهل الجنة، وبين حديث: «يا معشر النساء تصدَّقن وأكثِرن من الاستغفار فإنِّي رأيتكن أكثر أهل النار؟»

الجواب: أن عدد النساء فى الدنيا أصلًا أكثر من عدد الرجال، بمعنى أن عدد خلق الله من النساء أكثر من عددهم من الرجال ... وقد جاء فى الحديث أنه فى آخر الزمان فى الدنيا يكون لكل خمسين امرأة قيِّمٌ واحد .. أى: رجل واحد.

وفى عصرنا اليوم بدأت نِسَب الولادات من البنات تزداد بشكلٍ ملحوظ، حتى صارت نسبة الذُّكور فى بعض البُلدان تصل إلى خمس نساء مقابلَ رجل واحد، وبذلك تكون النساء أكثر من الرجال وجودًا فى البشر، فإذا دخل نصف رجال الدنيا إلى الجنة، ونصف نساء الدنيا أيضًا، فإن عدد النساء سيكون أكثر؛ لأن النساء فى الدنيا أكثر، وكذلك الحال فى النار... فلو دخل النار عُشر رجال الدنيا،

(١) فتح البارى: (٦/ ٣٢٥).

(٢) راجع التذكرة للقرطبى: (ص٤٧٥).

وعُشر نساء الدنيا، فستكون النساء في النار عددهن أكثر؛ لأنهن أكثر في الدنيا.

وعلى ذلك لا يُفهم من حديث إن النساء أكثر أهل النار ذَمّ جنس النساء، أو التنقُّص منهن[١].

۞ وفي هذا الحديث دليل على أنه ينبغي على الإنسان أن يحذر من ثلاثة أشياء: الغِنَى والصحة والفراغ .. فقد قال ﷺ: «**نِعمتانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»[٢].

فتلك الأشياء الثلاثة قد تكون سببًا للفتنة وقد تُؤدي بصاحبها إلى الأشر والبطر وردِّ الحق وغمط الناس .. ومن المعلوم أن الفراغ يأتي في الغالب من الغِنى .. لأن الغَنى قد يجد مَن يقوم بأعماله ويبقى هو متفرغًا.

۞ فينبغي على مَن رزقه الله مالًا أن يستعمل المال في طاعة الله وأن يشكر الله على نِعَمه .. وإذا كان عنده مَن يقوم بأعماله فعليه أن يستعمل هذا الفراغ فيما يُقربه من الله ليصبح كما قال النبي ﷺ: «**نِعمَ المالُ الصَّالح للرجل الصَّالح**».

۞ وعلى المرأة أن تحرص على كل عملٍ يقربها من الله عز وجل ومن جنته التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطَر على قلب بشر.

---

(١) العالم الأخير (ص ٥١٧).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

الفهرس

فهرس الموضوعات

هذه وصيتي

كنت منذ طفولتي كلما فتحت وجدت القرآن الكريم وبجواره كتاب «رياض الصالحين» للإمام النووي وكنت أحب القراءة في هذا الكتاب لكني كنت لا أفهم الكثير من الأحاديث وتمنيت أن أجد كتابا سهلا فيه شرح لتلك الأحاديث التي تبلغ ١٩٠٥ حديثًا

وتمر الأيام ويشرح الله صدري لشرح هذا الكتاب ففرغت حياتي لشرح هذا الكتاب الممتع الذي استطاع الإمام النووي من خلاله أن يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الإسلامية والعقائد وفقه العبادات والمعاملات. فوجدته كتابا شاملا لكل شيء، فاستعنت بالله وشرحته شرحا يسيرا يفهمه العوام قبل العلماء وطلبة العلم وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله وقضيت أجمل أيام عمري في شرح هذا الكتاب الممتع الذي لا يستغني عنه بيت مسلم أبدا. ففيه الخير الكثير والكثير ولذلك تعجبوا من شوق مشاعري عندما تسعدون بقراءة هذا الكتاب القيم

أوصيكم كل إخواني وأخواتي وأهلي وأحبابي أن تحرصوا على اقتناء هذا الكتاب القيم لتربوا جميعا على المنهج الصافي كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فتصبح بيوتنا بركة على الإسلام والمسلمين في كل مكان.

أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسنات أبي وأمي (رحمة الله عليهما) وميزان حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به.

وأرجو ألا تبخلوا علي بدعوة صادقة بظهر الغيب بأن يرزقني الله عز وجل الإخلاص في القول والعمل وأن يرزقني حسن الخاتمة وأن يجمعني بكم في الفردوس الأعلى مع الحبيب المصطفى ﷺ.

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري أبو عمار

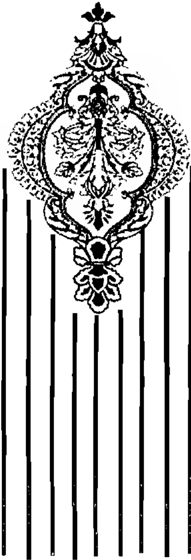
شرح رياض الصالحين
من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء الثالث

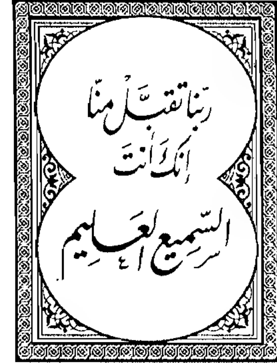




شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم



١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر / أمام الجامع الأزهر / القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك / خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء الثالث

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤


بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٦٤) وعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يتكَلَّمْ فِي المَهْدِ إلا ثَلاثَةٌ: عِيسى ابْنُ مرْيَمَ، وصَاحِب جُرَيْجٍ، وكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا، فَاتَّخذَ صَوْمَعةً فكان فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهو يُصلي فَقَالَتْ: يا جُرَيْجُ، فقال: يَارَبِّ أُمِّي وَصلاتِي فَأَقْبل عَلَى صلاتِهِ فَانْصرفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتتْهُ وهُو يُصَلِّي، فقَالَتْ: يا جُرَيْجُ، فقال: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلاتي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ،فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتتْهُ وهُو يُصَلِّي، فقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فقال: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلاتي. فَأَقبَلَ عَلَى صَلاتِهِ،فَقَالَتْ: اللَّهمَّ لا تُمتْه حَتَّى ينْظُرَ إِلَى وُجُوه الموسَات. فَتَذَاكرَ بَنُو إِسْرائيل جُرَيْجًا وَعِبادَته، وَكَانَت امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ، فتعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلى صَوْمعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نفسها فَوقَع عليْهَا. فَحملَتْ، فَلَمَّا وَلدتْ قَالَتْ: هَوَ مِن جُرَيْج، فَأَتَوْهُ فاسْتنزلُوه وهدَمُوا صوْمعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونهُ، فقال: ما شَأْنُكُمْ؟ قالوا: زَنَيْتَ بِهذه الْبَغِيِّ فَولَدتْ مِنْك. قال: أَيْنَ الصَّبيُّ؟ فَجاءُوا به فقال: دَعُوني حَتَّى أُصَلِّي فَصلَّى، فَلَمَّا انْصَرفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعن فِي بَطْنِهِ وقَالَ: يا غُلامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قال: فُلانٌ الرَّاعِي، فَأَقبلُوا على جُرَيْج يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وقَالُوا: نَبْني لَكَ صوْمعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قال: لا، أَعيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفعَلُوا. وَبيْنَا صَبِيٌّ يرضعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دابَّةٍ فارِهَةٍ وَشَارةٍ حَسَنَةٍ فَقالت أُمُّهُ: اللَّهم اجْعل ابْنِي مثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدىَ وَأَقْبَلَ إِلَيْه فَنَظَرَ إِلَيْهِ فقال: اللَّهمَّ لا تَجْعَلْني مِثْلهُ، ثُمَّ أَقبَلَ عَلَى ثَديِهِ فَجعلَ يَرْتَضِعُ» فكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى رسول الله ﷺ وَهُوَ يحكي ارْتضَاعَهُ بأُصبعِه السَّبَّابة في فِيهِ، فَجعلَ يَمُصُّهَا، قال: «وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، وَهي تقُولُ: حَسْبِيَ الله وَنِعمَ الْوكِيلُ. فقالت أُمُّهُ: اللَّهمَّ لا تَجْعلْ ابْني مِثْلَهَا، فترَكَ الرَّضَاعَ وَنظَرَ إِلَيْهَا فقال: اللَّهمَّ اجْعلْني مثْلَهَا، فَهُنالِكَ تَرَاجعَا الحَدِيثَ فقالَت: مَرَّ رَجُلٌ حسنُ الهَيْئة فَقُلْتُ: اللَّهمَّ اجعَلْ ابْني مِثْلَهُ فَقُلْتَ: اللَّهمَّ لا تَجعَلني مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بهَذِهِ الأَمَةِ وَهُم يَضربُونهَا ويَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللَّهمَّ لا تَجْعلْ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتَ: اللَّهمَّ اجعَلْنِي مِثْلَهَا؟، قَالَ: إِنَّ

ذلكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلتُ: اللَّهمَّ لا تجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لها زَنَيْتِ، وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرقْتِ، وَلَمْ تَسْرِق، فَقُلْت: اللَّهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا»(١).

۞ قوله ﷺ: «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة».

أولاً: عيسى ابن مريم ﷺ ... وعيسى ابن مريم آخر أنبياء بنى إسرائيل، بل آخر الأنبياء قبل محمد ﷺ، فإنه لم يكن بينه وبين النبى ﷺ نبى.

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. فليس بين محمد ﷺ وبين عيسى ابن مريم نبى.

وأما ما يُذكر عند المؤرخين من وجود أنبياء فى العرب كخالد بن سنان، فهذا كذب ولا صحة له.

وعيسى ابن مريم كان آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ ... كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

كان آية فى منشئه، وآية فى وضعه.

أما فى منشئه فإن أمه مريم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حملت به من غير أب، حيث أرسل الله عَزَّوَجَلَّ جبريل إليها فتمثل لها بشرًا سويًا، ونفخ فى فرجها فحملت بعيسى ﷺ.

والله على كل شىء قدير... فالقادر على أن يخلق الولد من المَنى قادر على أن يخلقه من هذه النفخة ... كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. لا يستعصى على قدرة الله شىء، إذا أراد شيئًا قال له: كُن فكان ... فحملت وولدت، وقيل: إنه لم يبقَ فى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٣٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٥٥٠) كتاب البر والصلة.

«والمُومِسَاتُ»: وهُنَّ الزَّوانِي . والمُومِسَةُ: الزانية - وقوله: «دابَّةَ فَارِهَة»: أى حاذقَةٌ نَفِيسةٌ.

«الشَّارَةُ»: وَهى الجمالُ الظَّاهرُ فى الهيْئَةِ والملْبسِ - ومعنى «تَراجعا الحديث» أَىْ: حدَّثَت الصَّبِيَّ وحدَّثَهَا، والله أعلم.

بطنها كما تبقى الأجنة، ولكنها حملته وشَبَّ سريعًا، ثم وضعته.

وكان آية في وضعه، حيث جاء مريم المخاض إلى جذع النخلة، فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[مريم: ٢٣]. هي لم تتمنَّ الموت لكنها تمنت أنه لم يأتها هذا الشيء حتى الموت ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[مريم: ٢٤]. أي عين تمشي تحت النخلة.

ثم قال: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[مريم: ٢٥].

تهز الجذع وهي امرأة قد أتاها المخاض، فتتساقط من هَزِّها الرُّطَب...... رُطبًا جَنيًّا لا يفسد إذا وقع على الأرض، وهذا خلاف العادة؛ فالعادة أن المرأة عند النفاس تكون ضعيفة، والعادة عند هَزِّ النخلة ألا تُهز من أسفل، بل تُهز من فوق، لأن الجذع لا يهتز لو هَزَّه الإنسان... والعادة أيضًا أن الرُّطَب إذا سقط فإنه يسقط على الأرض ويتمزق، لكن الله قال: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾، الله أكبر! إنها آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ ... فالله على كل شيء قدير.

ولما وضعت الولد أتت به قومها تحمله... تحمل طفلاً وهي لم تتزوج، فقالوا لها - يُعرضونها بالبِغاء - قالوا: يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ، وما كانت أمك بغيًّا، يعني كأنهم يقولون: من أين جاءك الزنى - نسأل الله العافية - وأبوك ليس امرأ سوءٍ وأمك ليست بغية ... وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان إذا زنى فقد يُبتلى نسله بالزنى والعياذ بالله... كما جاء في الأثر: «مَن زنى زُني أهله».

فهؤلاء قالوا: ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أُمك بغيًّا ... فألهمها الله عَزَّوَجَلَّ فأشارت إلى الطفل، أشارت إليه فكأنهم سخروا بها، قالوا: كيف نُكلم مَن كان في المهد صبيًّا؟ هذا غير معقول!.

ولكنه التفت إليهم، وقال هذا الكلام البليغ العجيب: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣].

سبع جُمَل من طفلٍ فى المهد!!!.

ولكن لا تتعجب فإن قدرة الله فوق كل شيء... أليست جلودنا وأيدينا وأرجلنا وألسنتنا يوم القيامة تشهد علينا بما فعلنا؟ بلى: تشهد، أليست الأرض تُحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها؟ الأرض تشهد بما عملت عليها من قولٍ أو فعل: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥].

إذًا .. هذا كلام عيسى ابن مريم، تكلم بهذه الكلمات العظيمة؛ سبع جُمَل وهو فى المهد.

۞ **أما الثانى**: فهو صاحب جُرَيج... وجريج رجلٌ عابد، انعزل عن الناس، والعزلة خيرٌ إذا كان فى الخلطة شر، أما إذا لم يكن فى الخلطة شر فالاختلاط بالناس أفضل ... قال النبى ﷺ: «**المؤمن الذى يُخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من المؤمن الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**»[1].

لكن إذا كانت الخُلطة ضررًا عليك فى دينك، فانجُ بدينك ... كما قال النبى ﷺ: «**يُوشك أن يكون خير مال الرجل غنمٌ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر**»[2] يعنى يفر بدينه من الفتن[3].

وكان هذا الرجل فى بداية أمره تاجرًا أمينًا يحبه كل الناس ويثقون فى صدقه وأمانته.. ثم زهد بعد ذلك فى التجارة وأحب العبادة حُبًّا جَمًّا فاتخذ صومعة

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٥١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٣٠٠) كتاب بدء الخلق، و(٧٠٨٨) كتاب الفتن.

(٣) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٧-٣٨).

يعبد الله فيها.

واعتزل جُريج الناس وجلس فى صومعته يعبد الله عَزَّوَجَلَّ فكان يصوم النهار ويقوم الليل.. وظل على تلك الحالة زمنًا طويلاً.

وكان لجريج أمٌّ صالحة تأتى إليه فى بعض الأيام لزيارته ومُحادثته والجلوس معه.

وفى يوم من الأيام جاءت إليه وقد اشتاقت لرؤيته فأخذت تنادى عليه.. وكان جريج يصلى فى هذا الوقت.. وبدلاً من أن يرد على أمه استمر فى صلاته ولم يُجب نداء أمه.

لقد كان الواجب على جريج أن ينصرف من صلاته، ويجيب نداء أمه، فإجابة الأم أَولَى من صلاة النافلة، وكان يمكنه أن يخفف صلاته، ويبادر بإجابة أمه، ولكنه قدَّم صلاته على إجابة أمه ... ويبدو أنه كان يجد للصلاة حلاوة فى قلبه، تُغريه بعدم ترك الصلاة لأى أمرٍ من الأمور.

۞ وذهبت الأم وهى غاضبة لأن ابنها لم يرد عليها.

وعادت فى اليوم التالى وهى فى أشد الشوق لرؤيته فنادت عليه فلم يرد عليها؛ لأنه كان مشغولاً بالصلاة فعادت الأم أيضًا وهى غاضبة، ثم عادت إليه فى اليوم الثالث ونادت عليه فوجدته يصلى فلم يرد عليها.

فما كان منها إلا أنها دعت عليه أن لا يُميته الله حتى يرى وجوه البغايا (النساء السيئات).

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن أم جريج لو دعت عليه أن يُفتن لفُتن.

ونحن نعلم أن الله (عَزَّوَجَلَّ) إذا أراد شيئًا فإنه يُهيئ له أسبابه.

فقد أخذ بنو إسرائيل يتذاكرون جُريجًا وعبادته فأرادوا أن يفتنوه وأن يجعلوه يقع فى معصية الله (جل وعلا).



فأخذوا يبحثون عن امرأة تغويه، فوجدوا امرأة فى غاية الحُسن والجمال ... فقد كان الناس يضربون بها المثل فى الحُسن والجمال.. وكانت مغرورة وواثقة فى نفسها وجمالها.

فلما ذهبوا إليها واتفقوا معها على أن تفتن جريج العابد، قالت لهم بكل ثقة: إن شئتم فسوف أفتنه لكم.

وذهبت إليه هذه المرأة وتعرضت له فى خلوته وأظهرت مفاتنها له، ولكنه لم يلتفت إليها فأحسَّت بأنه قد أهانها فى جمالها وأنوثتها، فشقَّ عليها هذا الذى حدث فلم تستطع أن تعود إلى القوم لتعلن عن فشلها فى فتنة جُريج.

فما كان منها إلا أنها ذهبت إلى رجلٍ راعٍ كان يأوى إلى صومعة جريج، وتعرضت له وفتنته وأمكنته من نفسها فوقع عليها، وفعل معها الفاحشة، وحملت هذه المرأة من الرجل الراعى فى تلك الليلة، فلما ولدت غلامًا صغيرًا ادَّعت أن هذا الولد من جُريج العابد، وأنه هو الذى فعل معها الفاحشة... ورغم أن بنى إسرائيل كانوا يتمنون فتنة جُريج العابد إلا أنهم لم يكن يخطر على بالهم أن هذا العابد يصدر منه هذا الفعل الذى أخبرتهم به هذه المرأة زورًا وكذبًا.

۞ لم يعلم أهل القرية أن هذه المرأة كاذبة.. وظنوا فعلاً أن هذا العابد قد فعل معها الفاحشة؛ فجاءوا إليه وهم فى قمة الغضب وأمروه أن ينزل من صومعته، وأخذوا يشتمونه شتمًا قبيحًا فلم يرد عليهم لأنه كان منشغلاً بصلاته... وإذا بهم يضربون الصومعة ويهدمونها بالفؤوس فلما رأى منهم ذلك نزل من صومعته وهو لا يعلم ما الذى حدث ولماذا يفعلون كل هذا؟

أخذ الناس يضربونه ضربًا شديدًا وهو يسألهم: لماذا تفعلون كل هذا؟ فأخبروه أن هذه المرأة أخبرتهم أنه قد فعل معها الفاحشة، وأنها قد أنجبت منه ولدًا من الحرام.

فتبسم جُريج لأنه واثق من أنه صادق فى عبادته واستقامته وأن هذه المرأة كاذبة.. فطلب من الناس أن يعطوه الفرصة لكى يتوضأ ويصلى فتركوه ليتوضأ ويصلى.

فلما صلى وانتهى من صلاته قال لهم: أين الصبى الذى تدَّعون أنه ابنى من الزنا؟.. فجاءوا بالصبى الذى لم تمضِ على ولادته أيام، فطعنه فى بطنه بإصبعه بكل رقة وحنان وقال له: يا غلام مَن أبوك؟ فأنطق الله الصبى المولود، وقال: أبى فلان الراعى.

فأدرك الناس عِظَم الجريمة التى ارتكبوها فى حق هذا العبد الصالح، وعلموا أن جُريجًا لم يكن من الصنف الذى ظنوه،... لم يكن مُرائيًا ولا مخادعًا، بل كان صادقًا فى تعبُّده وصلاحه، وأن هذه المرأة البغى كانت كاذبة فيما رمته به، وعلموا أنهم تسرعوا فى تصديق التهمة، كما تسرعوا فى إيذاء الرجل، وهدم صومعته، وحاول هؤلاء المتعجلون أن يُكفِّروا عما وقع منهم فى حق جريج، فعرضوا عليه أن يعيدوا له بناء صومعته من الذهب أو الفضة، ولكنه أبَى، وأصر على إعادتها من الطين كما كانت، وكذلك فعلوا... فلما أتموا بناءها، علاها جريج عائدًا إلى عبادة ربه.

لقد استجاب الله فى جريج دعاء أمه، فحقق ما طلبته، ولكن الله نجاه بصلاحه وتُقاه، وكان فى استجابة الله دعاء أمه ثم نجاته بعد ذلك درسان عظيمان[1].

۞ وفى هذا الجزء من الحديث – فى قصة جُريج العابد– مجموعة من الفوائد والدروس المستفادة ... منها:

(١) بيان أثر عقوق الوالدين وترك برهما والاستجابة لأمرهما، وأن ذلك قد يكون سببًا لمصائب تحل بالإنسان، كما وقع لهذا العابد الصالح.

---

(١) صحيح القصص النبوى (ص ٢٧٧).

(٢) أن الوالدين إذا ناداك وأنت تصلى، فإن الواجب إجابتهما، لكن بشرط ألا تكون الصلاة فريضة، فإن كانت فريضة فلا يجوز أن تجيبهما، لكن إذا كانت نافلة فأجبهما.

فمثلاً إذا جاءك أبوك وأنت تصلى سُنة الفجر، قال: يا فلان، وأنت تصلى... فإن كان أبوك رجلاً مرنًا يعذرك فتنحنح له، أو قل: سبحان الله، أو ارفع صوتك بالقراءة أو بالدعاء أو بالذكر الذى أنت فيه، حتى يعذرك.

وإن كان من الآخرين الذين لا يعذرون، ويريدون أن يكون قولهم هو الأعلى، فاقطع صلاتك وكلمه ... وكذلك يُقال فى الأم.

أما الفريضة فلا تقطعها لأحدٍ إلا عند الضرورة، كما لو رأيت شخصًا تخشى أن يقع فى هلكة ... كأن يقع فى بئر، أو فى بحر، أو فى نار، فهنا اقطع صلاتك للضرورة، وأما لغير ذلك فلا يجوز قطع الفريضة.

(٣) أن دعاء الوالد إذا كان بحقٍّ فإنه حريٌّ بالإجابة، فدعاء الوالد ولو كان على ولده إذا كان بحق فهو حرى أن يجيبه الله، ولهذا ينبغى لك أن تحترس غاية الاحتراس من دعاء الوالدين، حتى لا تُعرض نفسك لقبول الله دعاءهما فتخسر(١).

(٤) محاولة أهل الفجور تشويه صفحة الصالحين الأخيار، كما فعلت هذه المرأة البغى بجُريج.

(٥) لا يجوز المسارعة بتصديق التهمة من غير دليل ولا برهان، كما فعل أهل القرية عندما صدقوا ما قالته المرأة الفاجرة فى جُريج، وكان الواجب عليهم أن يتحققوا من مقولتها، قبل مهاجمة جُريج وسبِّه وضربه.

(٦) قد يوجد عند العبد الصالح من الثبات واليقين وحسن الظن بالله ما

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٨-٣٩) بتصرف كبير.

يجعله يواجه الأمور العظام بشجاعة ورباطة جأش، كما فعل جُريج.

(٧) شأن الصالحين أن يفزعوا إلى الصلاة عند نزول الكرب والبلاء.

(٨) إنجاء الله للعبد بصلاحه وتقواه، كما أنجى جُريجًا وبرَّأه من التهمة التى رُمى بها.

(٩) قدرة الله على إنطاق مَن لم يُعهد النطق من أمثالهم، كما أنطق هذا الغلام الصغير، فبرَّأ جُريجًا.

(١٠) فى الحديث إثبات كرامات الأولياء[1].

(١١) وفى هذا الحديث: دليل على صبر هذا الرجل - جريج - حيث إنه لم ينتقم لنفسه، ولم يكلفهم شططًا فيبنون له صومعته من ذهب، وإنما رضى بما كان رضى به أولاً من القناعة وأن تُبنى من الطين.

(١٢) عاقبة الابتلاء إلى خير إذا صبر العبد واتقى ربه، فجريج بعد بلائه كان أفضل عند الناس وعند رب الناس منه قبل الابتلاء.

۞ وأما الثالث الذى تكلم فى المهد فهو ذلك الصبى الصغير الذى كان مع أمه يرضع.

وتتلخص قصة هذا الطفل فى أنه كانت أمه تجلس به على قارعة الطريق تُرضعه فمرَّ أمامها رجل غنىٌّ يبدو عليه أثر الغِنى والثراء، فهو يلبس ملابس أنيقة ويركب دابة فارهة .. وفوق ذلك فهو جميل الشكل والمنظر قوى الجسد والبنية.. فأُعجبت الأم بمنظر هذا الرجل فقالت: اللهم اجعل ابنى مثله.

وإذا بالمفاجأة التى لا تخطر على قلب بشر .. لقد ترك الطفل الرضيع ثدى أمه ونظر إلى هذا الرجل وقال: اللهم لا تجعلنى مثله.

ثم عاد مرة أخرى يرضع من ثدى أمه .. فتعجبت الأم من فعل هذا الطفل الرضيع.

---

(١) صحيح القصص النبوى (ص ٢٧٧-٢٧٨) بدون ترتيب.

وبعد وقتٍ قصير مرَّ على هذه المرأة وطفلها جماعة من الناس يَجُرُّون جارية ويضربونها ضربًا قاسيًا وهم يقولون لها: زنيتِ .. سرقتِ .. وهى تقول: حسبى الله ونعم الوكيل.

فقالت الأم: اللهم لا تجعل ابنى مثلها .. وإذا بالطفل الرضيع يترك ثدى أمه مرة ثانية وينظر إلى تلك الجارية ويقول: اللهم اجعلنى مثلها.

فتعجبت الأم من فعل هذا الطفل الرضيع، ثم دار بينها وبين طفلها الرضيع حوار، فسألته أمه عن السبب الذى جعله يدعو ربه (جل وعلا) دعاءً يخالف دعاءها.

فأخبرها هذا الطفل الرضيع الذى ألهمه الله بهذا الجواب، فقال لها: إن هذا الرجل الغنى كان جبارًا كافرًا فقلت: اللهم لا تجعلنى مثله، وإن هذه الجارية فتاة صالحة قد اتهموها بالزنى وهى بريئة من الزنا واتهموها بالسرقة وهى لم تسرق، فقلت: اللهم اجعلنى مثلها فى طهارتها وإيمانها وصبرها على البلاء.

۞ وفى هذا الجزء من الحديث - فى قصة ذلك الطفل الرضيع- مجموعة من الفوائد والدروس المستفادة .. منها:

(١) قد يطلب البشر ما فيه مضرتهم، وينفرون مما فيه صلاحهم، فقد طلبت تلك المرأة أن يكون ابنها مثل ذلك الجبار الكافر، وهى لا تعلم أن فى ذلك هلاكه ... ودَعَتْ أن لا يكون ابنها مثل تلك الفتاة الصالحة، وكان الخير أن يكون ابنها مثلها فى صلاحها وتقواها، وإن اتُّهمت بما اتُّهمت به زُورًا وبُهتانًا.

(٢) ينبغى على الدعاة أن يستعملوا الوسائل التعليمية لإيضاح العلم وبيان الخير وإقراره فى النفوس، كما فعل الرسول ﷺ حين وضع إصبعه فى فمه حاكيًا رضاعة ذلك الصغير ... ويوجد لهذا نظائر فى الأحاديث الشريفة، فقد شرح الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، بأن رسم خطًّا فى الرمل، وقال: هذا صراط الله مستقيمًا، ورسم عن يمينه وشماله خطوطًا، وقال: هذه السُّبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه.

(٣) يُوجد الله فى كل عصر آيات تدل عليه، وتُعرف به، وتُظهر القيم التى يحبها الله، والقيم التى يُبغضها ... ومن ذلك كلام هذا الغلام، وعدم رضاه بحال ذلك الجبار، ورضاه بأن يكون مثل الجارية[١].

والحاصل أن الله سبحانه وتعالى على كل شىء قدير، فقد يحصل من الأمور المخالفة للعادة ما يكون آية من آياته، إما تأييدًا لرسوله أو تأييدًا لأحدٍ من أوليائه.

---

(١) صحيح القصص النبوى (ص ٢٧٧).

(٣٣) باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والتواضع معهم وخفض الجناح لهم

۞ قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩، ١٠]. وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١، ٣].

۞ قال المؤلف رحمه الله تعالى: (باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين) ونحوهم ممن هم محل الشفقة والرحمة ... وذلك أن دين الإسلام دين الرحمة، والعطف والإحسان، وقد حَثَّ الله عز وجل على الإحسان فى عدة آيات من كتابه، وبيَّن سبحانه وتعالى أنه يحب المحسنين،والذين هم فى حاجة إلى الإحسان يكون الإحسان إليهم أفضل وأكمل، فمنهم اليتامى.

واليتيم: هو الصغير الذى مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكرًا أو أنثى، ولا عبرة بوفاة الأم ... يعنى أن اليتيم هو الصغير الذى مات أبوه قبل بلوغه وإن كان له أم، وأما مَن ماتت أمه وأبوه موجود فليس بيتيم، خلافًا لما يفهمه عوام الناس حيث يظنون أن اليتيم هو الذى ماتت أمه وليس كذلك، بل اليتيم هو الذى مات أبوه.

ويُسمى يتيمًا ليُتمه ... واليُتم هو الانفراد؛ لأن هذا الصغير انفرد عن كاسب، وهو صغير لا يستطيع الكسب ... وقد أوصى الله سبحانه وتعالى فى عدة آيات باليتامى، وجعل لهم حقًا خاصًّا؛ لأن اليتيم قد انكسر قلبه بموت أبيه، فهو محل للعطف والرحمة، قال الله عز وجل: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ

ﵟذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًاﵞ [النساء: ٩][(١)].

نعم ..لقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بهؤلاء الضعفاء من اليتامى والأرامل والمساكين.

قال تعالى: ﵟوَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞﵞ [البقرة: ٢٢٠]

وقال تعالى فى حق المخلصين: ﵟوَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًاﵞ [الإنسان: ٨]. أى: ويطعمون الطعام ابتغاء وجه الله مع شهوتهم له وحاجتهم إليه... ﵟإِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗاﵞ [الإنسان: ٩-١٠]. فكان الجزاء لمن أطعم اليتيم ﵟفَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗاﵞ [الإنسان: ١١-١٢].... فيا له من أجرٍ عظيم.

۞ بل لقد أخبر الحق (جل وعلا) بأن نبيين كريمين قد أقاما جدارًا لغلامين يتيمين.

ففى تلك الرحلة المباركة التى صَحِب فيها نبى الله موسى (الخضر) عليهما السلام[(٢)]. فكان من بين الأحداث التى ذُكرت أنهما قاما ببناء جدار لغلامين يتيمين فى تلك المدينة... فلما سأله موسى عليه السلام عن سبب ذلك قال: ﵟوَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗاﵞ [الكهف: ٨٢].

۞ ولذا جاء الأمر من الله (جل وعلا): ﵟفَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡﵞ [الضحى: ٩].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤١).

(٢) مع الاعتراف بأن العلماء قد اختلفوا فى ذلك: هل كان الخضر نبيًّا أو كان عبدًا صالحًا والراجح - والله أعلم - أنه كان نبيًا - بدليل قوله: ﵟوَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚﵞ.

وحرصًا من النبى ﷺ على مصلحة اليتيم فقد حضَّ الأمة على الإحسان إلى الأرملة.. وذلك لأنها ليس عندها عائل يعولها وقد يكون عندها أطفال يتامى فقال ﷺ **«الساعى على الأرملة والمسكين كالمُجاهد فى سبيل الله، أو كالذى يصُومُ النهار ويقُومُ الليل»**(١).

۞ بل لقد أخبر ﷺ أن الإحسان إلى اليتامى يُزيل قسوة القلب.

رُوى أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له ﷺ: **«أتحب أن يلين قلبك وتُدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يَلِنْ قلبك وتُدرك حاجتك»**(٢).

وفى رواية قال: «أَدنِ اليتيم منك وأَلطفهُ وامسح رأسه وأطعمه من طعامك فإن ذلك يلين قلبك ويدرك حاجتك»(٣).

۞ بل أخبرنا النبى ﷺ أن المسح على رأس اليتيم يجعلنا نفوز بآلاف الحسنات.

۞ **عن أبى أُمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من مسح رأس يتيمٍ لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرةٍ مرت عليها يَدُهُ حسناتٌ، ومَن أحسن إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين»** وفرَّق بين أصبعيه السبَّابة والوسطى(٤).

۞ بل أخبر النبى ﷺ أن كافل اليتيم سيفوز بصحبته ﷺ فى الجنة.

قال ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِى الجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا(٥).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٥٣) كتاب النفقات، ومسلم (٢٩٨٢) كتاب الزهد.

(٢) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠).

(٣) حسن: رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق، وابن عساكر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٠).

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٩٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٥) صحيح: رواه البخارى (٥٣٠٤) كتاب الطلاق.

وفى رواية: «**أنا وكافل اليتيم له أو لغيره فى الجنة والساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله**»(١).

۞ **قال ابن بطال**: حقٌّ على مَن سمع هذا الحديث - يعنى قول الرسول ﷺ-: «**أنا وكافل اليتيم فى الجنة**» - أن يعمل به ليكون رفيق النبى ﷺ فى الجنة، ولا منزلة فى الآخرة أفضل من ذلك(٢).

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا أول مَن يفتح باب الجنة إلا أنه تأتى امرأة تبادرنى، فأقول لها: ما لكِ، وما أنتِ؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتامٍ لى**»(٣).

۞ ومن أجل كل هذا الخير حضَّنا النبى ﷺ على أن نضم اليتامى إلينا ونُكرمهم فقال ﷺ: «**مَن ضَمَّ يتيمًا بين أبوين مُسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنهُ وجبت لهُ الجنةُ ألبتَّة**»(٤).

كما قال ﷺ مُرغبًا فى إنفاق المال على المسكين واليتيم، فقال ﷺ:

«**... وإن هذا المال خَضِرةٌ حُلوةٌ، فنِعم صاحبُ المُسلم ما أَعطى منهُ المسكين، واليتيم، وابن السبيل....**»(٥).

۞ وفى المقابل فلقد حذرنا النبى ﷺ من ظلم اليتيم وأكل ماله.

قال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات** - وذكر منها -**وأكل مال اليتيم**»(٦).

ومن قبل ذلك فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا

---

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الأوسط وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٧٦).

(٢) فتح البارى (١٠/ ٤٥١).

(٣) رواه أبو يعلى وذكره الحافظ ابن حجر فى الفتح (١٠/ ٤٣٦) بإسنادٍ لا بأس به.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الأوسط، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٨٨٢).

(٥) صحيح: رواه البخارى (١٤٦٥) كتاب الزكاة.

(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٦٦) كتاب الوصايا، ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

❁ هكذا كان النبى ﷺ حريصًا على اليتامى والأرامل والمساكين... ولا عجب فى ذلك فلقد كان النبى ﷺ يتيمًا وذاق مرارة اليُتم ولذلك كان يشعر بآلام اليتامى وأحزانهم.

❁ قصة تملأ القلب نوراً:

قال أحد السلف: كنت فى بداية أمرى مُكبًّا على المعاصى وشرب الخمر فظفرت يومًا بصبىٍّ يتيم فقير فأخذته وأحسنت إليه وأطعمته وكسوته، وأدخلته الحمام وأزلت شعثه وأكرمته كما يكرم الرجل ولده بل أكثر ... فبتُّ ليلة بعد ذلك فرأيت فى النوم أن القيامة قد قامت ودُعيت إلى الحساب وأُمر بى إلى النار لسوء ما كنت عليه من المعاصى فسحبتنى الزبانية ليمضوا بى إلى النار وأنا بين أيديهم حقيرٌ ذليل يجروننى سحبًا إلى النار وإذا بذلك اليتيم قد اعترضنى بالطريق وقال: خَلُّوا عنه يا ملائكة ربى حتى أشفع له إلى ربى فإنه قد أحسن إلىَّ وأكرمنى ...

فقالت الملائكة: إنا لم نُؤمَر بذلك ... وإذا النداء من قِبل الله تعالى يقول: خَلُّوا عنه فقد وهبت له ما كان منه بشفاعة اليتيم وإحسانه إليه.

قال: فاستيقظت من النوم وتُبت إلى الله عَزَّوَجَلَّ وبذلت جهدى فى إيصال الرحمة إلى الأيتام ... فيا إخوانى هيا بنا نبذل جهدنا لإيصال الرحمة إلى الأيتام فلعل الله أن ينفعنا بدعواتهم وشفاعتهم لنا يوم القيامة ... فلنُسرع الخُطا إلى هذا الخير ولسان حال كل واحد منا: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

❁ ومن الذين حضَّنا الحق (جلَّ وعلا) وحضَّنا النبى ﷺ على الإحسان إليهم: البنات.

فقد كان العرب فى الجاهلية يكرهون البنات كراهية شديدة .. حتى وصل الأمر إلى أن يَئِدَ الرجل ابنته بعد ولادتها بدقائق بلا ذنبٍ ولا جريرة ارتكبتها.

قال تعالى عن هؤلاء المشركين وأشباههم:

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾ أي ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أي تنزَّه الله وتعظَّم عن هذا الإفك والبهتان ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراهتهم أنهم يأنفون من البنات ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي إذا أُخبر أحدهم بولادة بنت ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أي صار وجهه متغيرًا من الغم والحزن.

قال القرطبي: وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد.. والعربُ تقول لكل مَن لقى مكروهًا قد اسودَّ وجهه[1] ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوءٌ غيظًا وغمًّا ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ أي يختفي من قومه خوفًا من العار الذي يلحقه بسبب البنت، كأنها بليَّة وليست هبةً إلهية، ثم يفكر فيما يصنع ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ أي أيمسك هذه الأنثى على ذُلٍّ وهوانٍ أم يدفنها في التراب حية؟ ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء صنيعهم وساء حكمهم، حيث نسبوا لخالقهم البنات - وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة - وأضافوا البنين إليهم، تعالى الله عما يقولون عُلوًّا كبيرًا[2].

۞ فلما جاء الإسلام حرَّم وأد البنات وحضَّنا الشارع على الإحسان إلى البنات .. وأخبر أن تربية البنات والإحسان إليهن من أعظم أسباب النجاة من النار ودخول الجنة.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاءتني مسكينةٌ تحمل ابنتين لها، فأطعمتُها ثلاث تمراتٍ، فأعطت كل واحدةٍ منهما تمرةً، ورفعت إلى فيها تمرةً لتأكُلها،

---

(١) القرطبي (١٠/ ١١٦).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ١٢١-١٢٢).

فاستطعمتها ابنتاها، فشقَّت التمرة التى كانت تريدُ أن تأكُلها بينهما، فأعجبنى شأنُها، فذكرتُ الذى صَنَعَتْ لرسول الله ﷺ، فقال: «**إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار**»(١).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه ؛ **أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يكونُ له ثلاثُ بناتٍ فينفقُ عليهن حتى يَبِنَّ أو يَمُتن؛ إلا كُن له حجابًا من النار»**. فقالت له امرأةٌ: أو بنتان؟ قال: «**أو بنتان**»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كُن له ثلاثُ بناتٍ يُؤويهن ويرحمهُن ويكفلهُن؛ وجبت له الجنةُ ألبتة**». قيل: يا رسول الله! فإن كانتا اثنتين؟ قال: «**وإن كانتا اثنتين**». قال: فرأى بعضُ القوم أن لو قال: واحدةً، لقال: واحدة(٣).

۞ وفى هذا الباب جاءت الوصية باليتامى والبنات .. بل وسائر الضعفة والمساكين والتواضع معهم وخفض الجناح لهم.

كذلك أيضًا المنكسرين، يعنى الذين أصابهم شىء فانكسروا من أجله، وليس هو كسر العظم، بل كسر القلب... يعنى كالذى أصابته جائحة اجتاحت ماله، أو مات أهله أو مات صديق له فانكسر قلبه.

والمهم أن المنكسر ينبغى ملاطفته... ولهذا شُرعت تعزية مَن مات له ميت إذا أصيب بموته... يُعزَّى ويُلاطَف ويُبين له أن هذا أمر الله، وأن الله سبحانه وتعالى إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وما أشبه ذلك.

وكذلك ينبغى خفض الجناح لهم، ولين الجانب.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦٣٠) كتاب البر والصلة.

(٢) **حسن**: رواه الطبرانى وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٩٧٢).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد، والبزار والطبرانى فى الأوسط وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٩٧٥).

قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

أي: أَلِن لهم جانبك وحسِّن لهم خُلقك محبة وإكرامًا وتودُّدًا.

(٢٦٥) عن سعد بن أبى وَقَّاص رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ النَّبىِّ ﷺ سِتَّةَ نفَر، فقال المُشْرِكُونَ للنَّبىِّ ﷺ: اطْرُد هؤلاء لا يَجْتَرِئُون علينا، وكُنْتُ أَنا وابْنُ مسْعُودٍ ورجُل مِنْ هُذَيْلٍ وبلال ورجلان لَستُ أُسمِّيهِما، فوقَعَ فى نَفْسِ رسول الله ﷺ ما شاء الله أَن يقعَ فحدَّث نفْسهُ، فأنْزَلَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢][1].

۞ وقبل أن أشرح هذا الحديث أحب أن أذكر الرواية الأخرى.

۞ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصنٍ الْفَزَارِيُّ، فَوَجَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ، وَعَمَّارٍ، وَخَبَّابٍ، قَاعِدًا فِى نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِىِّ ﷺ حقَرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخلَوْا بِهِ، وَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا، تَعرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ، فَإِذَا نَحنُ جِئْنَاكَ، فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ، فَإِذَا نَحنُ فَرَغْنَا، فَاقْعُد مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالُوا: فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا، قَالَ: فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ، وَنَحنُ قُعُودٌ فِى نَاحِيَةٍ، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصنٍ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤١٣) كتاب فضائل الصحابة.

عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾، قَالَ: فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعنَا رُكبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَجْلِسُ مَعَنَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ، قَامَ وَتَرَكَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ وَلَا تُجَالِسِ الْأَشْرَافَ: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ يَعنِي عُيَيْنَةَ، وَالْأَقْرَعَ ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] قَالَ: هَلَاكًا، قَالَ: أَمْرُ عُيَيْنَةَ، وَالْأَقْرَعِ ... ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... قَالَ خَبَّابٌ: «فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا، قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ»[1].

۞ من المعلوم أن النبى ﷺ كان يجلس مع أصحابه دائمًا ليُعلمهم ويُربيهم.. وكان إذا غاب أحدهم يسأل عنه ويقول: أين فلان .. فإذا كان مريضًا أو أُصيب بشيءٍ كان يذهب إليه النبى ﷺ ويعوده ويُواسيه.

وفى هذا الحديث يحكى سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة أنهم كانوا جالسين مع النبى ﷺ وكانوا ستة نفر وهم: سعد بن أبى وقاص، وابن مسعود الذى كان فقيرًا يرعى الغنم .. وبلال بن أبى رباح الذى كان عبدًا مملوكًا ورجلٌ من قبيلة هُذيل ورجلان آخران لم يذكر اسمهما (رضى الله عنهم أجمعين).

فكانوا جالسين مع النبى ﷺ يستمعون إليه وينتفعون بعلمه وأخلاقه العذبة.. وكان بعض صناديد قريش وسادتهم يجلسون مع النبى ﷺ .. وكان النبى ﷺ عنده رغبة فى إسلامهم ليكون ذلك سببًا فى إسلام أهل مكة الذين كانوا يخشون من سادتهم وكُبرائهم .. فإذا أسلم سادة قريش كان إسلام أهل مكة سهلًا ميسورًا.

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مسنده» (١/ ٣١٨، ٣١٩ رقم ٤٧٧)، و«مصنفه» (١٢/ ٢٠٧، ٢٠٨، رقم ١٢٥٦٤)- ومن طريقه الطبرانى فى «المعجم الكبير» (٤/ ٧٥، ٧٧ رقم ٣٦٩٣)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٤٦، ١٤٧). وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه.

فقال هؤلاء المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا.

أي: اطردهم من مجلسك هذا؛ لأنهم فقراء لا يصلح أن يجلسوا معنا فيتجرأوا علينا بعد ذلك.

(فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع) أي مِن طَردِ أولئك عنه لما علم من كمال أنفسهم ومخالطة الإيمان لبشاشة قلوبهم.

(فحدَّث نفسه) أي بذلك ... قال القرطبي في «المفهم»: وفي بعض كتب التفسير أنهم لما عرضوا ذلك على النبي أبى. فقالوا له: اجعل لنا يومًا ولهم يومًا وطلبوا أن يكتب لهم بذلك فهمَّ النبي ﷺ بذلك ودعا عليًّا ليكتب فقام الفقراء وجلسوا ناحية فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ فنهاه الله عَزَّوَجَلَّ أن يطرد هؤلاء وإن كانوا فقراء، وإن لم يكن لهم قيمة في المجتمع، لكن لهم قيمة عند الله، لأنهم يدعون الله بالغداة والعشي، يعني صباحًا ومساءً، يدعونه دعاء مسألة فيسألونه رضوانه والجنة، ويستعيذون به من النار.

ويدعونه دعاء عبادة فيعبدون الله ... وأمره بأن يُصبر نفسه معهم بقوله: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ فكان رسول الله ﷺ إذا رآهم بعد ذلك يقول: مرحبًا بالذين عاتبني الله فيهم وإذا جالسهم لم يقم عنهم حتى يكونوا هم الذين يبدأون بالقيام.

وقوله: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ ﴾ بطلب التوفيق والتيسير، وبالعشي بطلب العفو عن التقصير...وقيل معناه: يذكرون الله من بعد صلاة الفجر وصلاة العصر، وقيل يصلون الصبح والعصر. وقال ابن عباس: يصلون الصلوات الخمس.

وقوله: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي يخلصون في عبادتهم وعملهم لله تعالى ويتوجهون إليه بذلك لا لغيره[1].

(١) دليل الفالحين (٢/ ٦٦-٦٧) بتصرف كبير.

فالإخلاص له أثرٌ كبير فى قبول الأعمال ورفعة العُمَّال عند الله عَزَّوَجَلَّ، فكلما كان الإنسان فى عمله أخلص، كان أرضى لله وأكثر لثوابه.

وكم من إنسانٍ يصلى وإلى جانبه آخر يصلى معه الصلاة، ويكون بينهما من الرفعة عند الله والثواب والجزاء كما بين السماء والأرض، وذلك لإخلاص النية عند أحدهما دون الآخر.

فالواجب على الإنسان أن يحرص غاية الحرص على إخلاص نيته لله فى عبادته، وألا يقصد بعبادته شيئًا من أمور الدنيا ... لا يقصد إلا رضا الله وثوابه حتى ينال بذلك الرفعة فى الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى فى آخر الآية: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: كُلٌّ له حسابه، وله عمله الحسن وعمله القبيح. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبَّر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(١).

ويُستفاد من هذا الحديث: أن الإنسان ينبغى له أن يكون جلساؤه من أهل الخير الذين يدعون الله صباحًا ومساءً، يريدون وجهه، وألا يهتم بالجلوس مع الأكابر، والأشراف، والأمراء والوزراء، والحكام، بل لا ينبغى أن يجلس إلى هؤلاء إلا أن يكون فى ذلك مصلحة... فإذا كان فى ذلك مصلحة مثل أن يريد أن يأمرهم بمعروف، أو ينهاهم عن منكر، أو يبين لهم ما خَفِى عليهم من حال الأمة. فهذا طيب وفيه خير.

أما مجرد الأُنس بمجالستهم، ونيل الجاه بأنه جلس مع الأكابر، أو مع الوزراء، أو مع الأمراء، أو مع ولاة الأمور، فهذا غرض لا يُحمَد عليه العبد...

---

(١) تفسير السعدى (ص ٢٧٥) بتصرف.

إنما يُحمَد على الجلوس مع مَن كان أتقى لله، من غنى وفقير، وحقير وشريف... المدار كله على رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى محبة مَن أحب الله[١].

(٢٦٦) وعَنْ أَبى هُبيْرَةَ عائِذِ بن عمْرو المزَنِىِّ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعةِ الرِّضوانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ أَبا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سلْمَانَ وصُهَيْب وبلالٍ فى نفر فقالوا: ما أَخَذَتْ سُيُوفُ الله منْ عَدُوِّ الله مَأْخَذَهَا، فقال أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَتقُولُونَ هَذَا لِشَيْخ قُرِيْشٍ وَسيِّدهمْ؟ فَأَتَى النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبرهُ فقال: «يا أبا بَكْر لَعلَّكَ أَغْضَبْتَهُم؟ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَد أَغْضَبت رَبَّكَ؟» فأَتَاهمْ فقال: يا إِخْوتَاهُ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قالوا: لا، يغْفِرُ الله لَكَ يا أُخَىَّ[٢].

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث ضمن الأحاديث التى تحض على مُلاطفة الضعفاء والمساكين والتواضع معهم وخفض الجناح لهم والإحسان إليهم.

ويذكر هنا عائذ بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن أبا سفيان قد مَرَّ أمام سلمان وصهيب وبلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وهؤلاء الثلاثة كانوا من الموالى: صهيب الرومى وبلال الحبشى وسلمان الفارسى .. وكان أبو سفيان فى ذلك الوقت مشركًا .. وكان مروره أمامهم فى وقت الهدنة التى كانت بعد صُلح الحديبية.

فلما مَرَّ أبو سفيان أمامهم قالوا جميعًا: ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها.. أى: كأنهم يقولون: كنا نتمنى أن تصل سيوف المسلمين إلى هذا العدو فتقتله ونستريح منه .. ولكنهم لم يعلموا أن أبا سفيان الذى كان عدوًّا للإسلام فى

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٠٤) كتاب فضائل الصحابة.

قولُهُ «مَأْخَذها» أَىْ: لَمْ تَسْتَوفِ حقَّهَا مِنْهُ - وقولُهُ: «يا أُخَىَّ» رُوِى بفتحِ الهمزِة وكسر الخاءِ وتخفيف الياءِ، ورُوِى بضم الهمزة وفتح الخاءِ وتشديد الياء.

تلك اللحظة سيُسلم بعد ذلك وسيكون جُندًا من جنود الله (جلَّ وعلا).

فلما قالوا تلك الكلمة سمعها أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث كان يمر أمامهم فى تلك اللحظة ... فخشى أن يسمع أبو سفيان قولهم لأنه لا يريد تنفيره عن الدين، وكذلك يخشى أن يغضب لنفسه فتشتعل الحرب مرة أخرى..لأن أبا سفيان كان قائد المشركين فى ذلك الوقت وكان زعيمهم.

ولم يكن أبو بكر يخاف من قتال المشركين؛ ولكنه رأى أمام عينيه أن عدد الذين أسلموا فى فترة الهدنة بعد صلح الحديبية كانوا أضعاف أضعاف الذين أسلموا منذ البعثة وحتى صلح الحديبية .. وذلك لأن أكثر الناس يخشون من الدخول فى الإسلام فى وقت الحروب خشية أن ينالهم الأذى .. فإذا كان وقت هدنة وشعروا بالأمان أقبلوا على الإسلام بقلوبهم وجوارحهم ؛ لأنهم يشعرون بالأمان...

بل حتى فى زماننا هذا .. كان كثيرٌ من الشباب المسلم يخشون من الالتزام فى وقت المشاكل الأمنية خوفًا على أنفسهم من السجون والمعتقلات .. فإذا هدأت الحالة الأمنية أقبلوا على الالتزام وأقبلت البنات على الحجاب لشعورهم بالأمن والأمان.

فهذا الذى كان يُزعج أبا بكر رضي الله عنه أنه كان يخشى من انتهاء الهدنة وعودة الحرب مرة أخرى بسبب تلك المقالة التى قالها سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم.. فذهب فى التو واللحظة إليهم وقال لهم: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟

ثم ذهب مباشرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما حدث .. وظن أن النبى صلى الله عليه وسلم سيقول له: أحسنت يا أبا بكر .. ولكنه فُوجئ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له: «**لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربَّك**» يعنى: لئن كنت أغضبت هؤلاء النفر - مع أنهم من الموالى، وليسوا بشىء فى عداد الناس وأشرافهم - لئن كنت أغضبتهم فلقد

أغضبت ربك... فذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى هؤلاء النفر وسألهم: يا إخوتاه، أأغْضَبْتُكُمْ؟ قالوا: لا، يَغْفِرُ الله لَكَ يَا أبَا بكر.

فدلَّ هذا على أنه لا يجوز للإنسان أن يترفع على الفقراء والمساكين ومَن ليس لهم قيمة فى المجتمع؛ لأن القيمة الحقيقية هى قيمة الإنسان عند الله.

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. والذى ينبغى للإنسان أن يخفض جناحه للمؤمنين ولو كانوا غير ذى جاه؛ لأن هذا هو الذى أمر الله به نبيه ﷺ حيث قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وفى هذا: دليل على ورع أبى بكر رضي الله عنه، وعلى حرصه على إبراء ذمته، وأن الإنسان ينبغى له، بل يجب عليه إذا اعتدى على أحدٍ بقولٍ أو فعلٍ أو بأخذ مالٍ أو سبٍّ أو شتم أن يستحله فى الدنيا، قبل أن يأخذ ذلك منه فى الآخرة.

لأن الإنسان إذا لم يأخذ حقه فى الدنيا فإنه يأخذه يوم القيامة، ويأخذه من أشرف شىء وأعز شىء على الإنسان .. يأخذه من الحسنات، ومن الأعمال الصالحة التى هو فى حاجة إليها فى ذلك المكان[١].

(٢٦٧) وعَنْ سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا**» **وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا**[٢].

۞ اليتيم هو الصغير الفاقد الأب من الإنسان .. ومن الحيوان مَن فقد أمه.. فإذا كبر وبلغ فقد زال وصف اليُتم عنه، وأصبح رجلًا يلى أمور نفسه ما دام رشيدًا.

وقد يُسمَّى بعد البلوغ يتيمًا باعتبار ما كان - لغرض من الأغراض البلاغية قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢]، ومن المعلوم

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٣٠٤) كتاب الطلاق.

و«كَافِلُ الْيتيم»: الْقَائِمُ بِأُمُورِهِ.

أنهم لا يُؤتَون أموالهم إلا بعد البلوغ، وحينئذٍ يزول عنهم وصف اليُتم.

والغرض هنا: هو الحث على دفع ماله إليه عند بلوغه، والتحذير من أكل شيء منه ... ونظرًا لأهمية أمر اليتيم فقد ورد لفظ «اليتيم» بمشتقاته في القرآن الكريم في ثلاثٍ وعشرين مرة ... سبع عشرة منهم في الآيات المدنية.. وست مرات في الآيات المكية.

۞ فإن قال قائل: لماذا لم يعتبر الشارع مَن فَقَد أمه يتيمًا كالذي فقد أباه؟

كان الجواب:

لأن الأب هو الذي يعول الصغير، ويرعى شئونه، ويقوم بتأديبه وتعليمه .. وتعاليم الإسلام تحث على معاملة اليتيم معاملة حسنة، وذلك مراعاة لنفسيته، لأنه لما فقد أباه شعر بالحاجة الشديدة إلى مَن يقوم بحمايته، ويُقوي عزيمته، ويَشُد أزره .. لما فقد أباه شعر بالوحشة والذلة والانكسار فكان لا بد من تعويضه.. لئلا ينحرف .. فجاء الإسلام ليُعالج هذا كله .. ويكفي اليتامى تسلية عن مُصابهم أن الرسول الأعظم، والنبي الأكرم ﷺ، سيد الأولين والآخرين، وقائد الغُرِّ المُحجلين، وحبيب رب العالمين كان يتيمًا ... قال له ربه مُخاطبًا: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦].

۞ ولقد اهتمَّ النبي ﷺ بشأن اليتامى أعظم اهتمام حتى أوحى إليه ربنا عَزَّوَجَلَّ أن يُخبر أمته أن كافل اليتيم سيكون معه في الجنة فقال ﷺ: **«أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا»** وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا.

يعني: بالأصبع السبابة والوسطى ... والأصبع السبابة هي التي بين الوسطى والإبهام، وتُسمى السبَّابة؛ لأن الإنسان يشير بها عند السَّبِّ... فإذا سَبَّ شخصًا قال هذا وأشار بها.

وتُسمَّى السبَّاحة؛ لأن الإنسان يشير بها أيضًا عند التسبيح، ولهذا يشير الإنسان بها في صلاته إذا جلس بين السجدتين ودعا: رب اغفر لي وارحمني...

كلما دعا رفعها، يشير إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله فى السماء (جل وعلا)، وكذلك أيضًا يشير بها فى التشهد إذا دعا: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»(١) فى كل جملة دعائية يشير بها إشارة إلى عُلو الله تعالى وتوحيده.

وفرج بينهما (عليه الصلاة والسلام)، يعنى: قارن بينهما وفرج... يعنى: أن كافل اليتيم مع النبى (عليه الصلاة والسلام) فى الجنة قريبٌ منه ... وفى هذا حَثٌّ على كفالة اليتيم ... وكفالة اليتيم هى القيام بما يُصلحه فى دينه ودُنياه.

يقوم بما يصلحه فى دينه من التربية والتوجيه والتعليم وما أشبه ذلك، وما يصلحه فى دنياه من الطعام والشراب والمسكن(٢).

۞ **قال بعض العلماء**: لعل الحكمة فى كون كافل اليتيم تُشبه منزلته فى الجنة منزلة الرسول ﷺ؛ لأن النبى ﷺ شأنه أنه بُعث إلى قومٍ لا يعقلون أمر دينهم، فيكون كافلًا لهم، ومُعلِّمًا ومُرشدًا، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة مَن لا يعقل أمر دينه، فيُرشده، ويعلمه ويحسن تربيته، فظهرت مناسبة ذلك.

قال ابن بطال: حَقٌّ على مَن سمع هذا أن يعمل به ليكون رفيق النبى ﷺ فى الجنة ولا منزلة أفضل من ذلك فى الآخرة.

(٢٦٨)وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيرِهِ. أَنَا وهُوَ كهَاتَيْنِ فى الجنَّةِ» وَأَشَارَ الرَّاوى وهُو مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ بِالسَّبَّابَةِ والْوُسْطى(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٦٥) كتاب الاستئذان، ومسلم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٠-٥١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٣) كتاب الزهد والرقائق.

وقوله ﷺ: «الْيَتِيمُ لَه أَوْ لِغَيرِهِ» معناهُ: قَرِيبهُ، أَوْ الأَجنَبِيُّ مِنْهُ ... فَالْقرِيبُ مِثْلُ أَنْ تَكْفُلَه أُمُّه أَوْ جدُّهُ أَو أَخُوهُ أَوْ غَيْرُهُمْ مِنْ قَرَابتِهِ، والله أَعلَم.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «**كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِى الْجَنَّةِ**» كَافِلُ الْيَتِيمِ الْقَائِمُ بِأُمُورِهِ مِنْ نَفَقَةٍ وَكِسْوَةٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَرْبِيَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ... وَهَذِهِ الْفَضِيلَةُ تَحصُلُ لِمَنْ كَفَلَهُ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِوِلَايَةٍ شَرْعِيَّةٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «**لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ**» فَالَّذِى لَهُ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا لَهُ كَجَدِّهِ وَأُمِّهِ وَجَدَّتِهِ وَأَخِيهِ وَأُخْتِهِ وَعَمِّهِ وَخَالِهِ وَعَمَّتِهِ وَخَالَتِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَقَارِبِهِ وَالَّذِى لِغَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ أَجْنَبِيًّا(١).

وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ تَأْتِى امْرَأَةٌ تُبَادِرُنِى فَأَقُولُ لَهَا: مَا لَكِ؟ وَمَا أَنْتِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا امْرَأَةٌ قَعدتُ عَلَى أَيْتَامٍ لِى**»(٢).

ماذا كانت مؤهلات تلك المرأة لكى تنال هذه الدرجة الرفيعة؟ لا شىء سوى أنها قامت بتربية اليتامى! لا شىء سوى أنها عكفت على تربية اليتامى والإحسان إليهم!

تأمل أى منزلة هذه؟! إنها أفضل وأشرف منزلة ... فيا سعادة مَن نال جواره ﷺ ... ويا سعد مَن كان رفيقه فى الجنة .. ويا شقاء مَن أُبعد عن رفقته ﷺ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

❁ **أخى الحبيب:**

إنْ كان لديك شوق أن تكون مع النبى ﷺ فى الجنة، فأحسِن معاملة اليتيم .. إن كان لديك شوق أن تكون مع سيد الأولين والآخرين، وقائد الغُرّ المُحجلين، فأَدخِل السرور على قلب يتيم.. امسح رأسه ..اكسُ بدنه.. أَضحك من اليتامى

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٨/ ١٥١).

(٢) رواه أبو يعلى وذكره الحافظ ابن حجر فى الفتح (١٠/ ٤٣٦) بإسنادٍ لا بأس فيه.

وجوهًا شَقَّ الحزنُ فى خدودها أخاديد! «أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ»(١) فامسح رؤوس اليتامى يُعطيك الله الأجر العظيم، والخير العميم ... وإن أردت أن يلين قلبك، وتُدرك حاجتك، فامسح على رأس اليتيم، واعطف عليه، واجبُر كَسره(٢).

(٢٦٩) وعَنْ أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الذى تَرُدُّهُ التَّمْرةُ وَالتَّمْرتَانِ، ولا اللُّقْمةُ واللُّقْمتانِ إِنَّمَا المِسْكِينُ الذى يتَعَفَّفُ»(٣).

وفى رواية فى «الصحيحين»: «لَيْسَ المسْكينُ الذى يطُوفُ علَى النَّاس تَرُدُّهُ اللُّقْمةُ واللُّقْمتَان، وَالتَّمْرةُ وَالتَّمْرتَان، ولَكِنَّ المِسْكِينَ الذى لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيه، وَلا يُفْطَنُ بِهِ فيُتصدَّقَ عَلَيهِ، وَلا يَقُومُ فَيسْأَلَ النَّاسَ».

أى أن المسكين ليس هو ذلك الرجل الذى يشحذ ويسأل الناس فترده اللقمة واللقمتان.. يعنى: إذا أعطيته لقمة أو لقمتين ردَّته.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

مَعناهُ: الْمِسْكِينُ الْكَامِلُ الْمَسْكَنَةِ الَّذِى هُوَ أَحَقُّ بِالصَّدَقَةِ وَأَحوَجُ إِلَيْهَا لَيْسَ هُوَ هَذَا الطَّوَّافُ بَلْ هُوَ الَّذِى لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطَنُ لَهُ وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ وَلَيْسَ مَعنَاهُ نَفْىَ أَصلِ الْمَسْكَنَةِ عَنِ الطَّوَّافِ بَلْ مَعنَاهُ نَفْىُ كَمَالِ الْمَسْكَنَةِ ... كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ(٤).

۞ فليس هذا هو المسكين الكامل المسكنة.. بل إن المسكين حقيقة هو

(١) صحيح: رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

(٢) منهاج الصالحين (ص ٦٠٦-٦٠٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٣٩) كتاب التفسير، ومسلم (١٠٣٩) كتاب الزكاة.

(٤) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٨٢).

الذى يتعفف ... كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

يعنى أنه ينبغى أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم فى سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة فى الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطرارًا، لم يُلحفوا فى السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكرًا لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

ومع ذلك، فالإنفاق فى طرق الإحسان وعلى المحاويج حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله... ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. فإن الله يُظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله يُنيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكريهات[1].

وفى هذا: إشارة إلى أنه ينبغى للمسكين أن يصبر وأن ينتظر الفرج من الله، وألا يتكفف الناس أعطوه أو منعوه ... لأن الإنسان إذا علّق قلبه بالخلق وُكل إليهم ... كما جاء فى الحديث: «**مَن تَعلّق شيئًا وُكِل إليه**» وإذا وكلت إلى الخلق نسيت الخالق ... بل اجعل أمرك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعلق رجاءك وخوفك وتوكلك واعتمادك على الله سبحانه وتعالى، فإنه يكفيك ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [**الطلاق**: ٣]. كل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به فهو بالغك، لا يمنعه شىء، ولا يرده شىء.

(١) تفسير السعدى (ص ١١٨).

فالمسكين يجب عليه الصبر، ويجب عليه أن يمتنع عن سؤال الناس، لا يسأل إلا عند الضرورة القصوى ... إذا حلَّت له الميتة حَلَّ له السؤال، أما قبل ذلك ما دام يمكنه أن يتعفف ولو أن يأكل كسرة من خبز أو شق تمرة فلا يسأل... ولا يزال الإنسان يسأل الناس، ثم يسأل الناس، ثم يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة، وما في وجهه مُزعة لحم[١].

(٢٧٠) وعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**السَّاعِي علَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ كَالمُجَاهِدِ في سبيلِ الله**» وأَحسَبُهُ قال: «**وَكَالْقَائِمِ الَّذي لا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ الَّذِي لا يُفْطِر**»[٢].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ» الْمُرَادُ بِالسَّاعِي: الْكَاسِبُ لهما العامل لمؤنتهما ... والأرملة: مَن لا زوج لَهَا سَوَاءٌ كَانَتْ تَزَوَّجَتْ أَمْ لَا ... وَقِيلَ: هي التي فارقت زوجها.

قال ابن قُتَيْبَةَ: سُمِّيَتْ أَرمَلَةً لِمَا يَحصُلُ لَهَا مِنَ الْإِرمَالِ وَهُوَ الْفَقْرُ وَذَهَابُ الزَّادِ بِفَقْدِ الزَّوْجِ ... يُقَالُ: أَرمَلَ الرَّجُلُ إِذَا فَنِيَ زَادُهُ[٣].

وقد اشتُهر بين الناس أن الأرملة هي التي تُوفي زوجها فقط .. بل إن الأرامل هم الذين لا عائل لهم سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا .. والمساكين هم الفقراء.

فمن قام بمصالح الأرامل الذين لا يجدون مَن يُنفق عليهم وكفاهم من كل ما يحتاجون إليه فله أجر المجاهد في سبيل الله، والقائم الذي يُصلِّي الليل ولا يَفترُ والصائم الذي لا يُفطر.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٠٧) كتاب الأدب - ومسلم (٢٩٨٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٨/ ١٥٠-١٥١).

۞ ومن هذا فإن قيام الإنسان على عائلته الذين لا يستطيع أحدهم العمل أو الكسب هو قيامٌ على أرملة ومساكين ويكون له أجر المجاهد والقائم والصائم .. ولكن غلب استعمال كلمة الأرملة على المرأة التى مات زوجها وترك لها أيتامًا لأنها أضعف الأصناف جميعًا وأكثرهم احتياجًا لمن يرعاها هى وأولادها ويقوم بمصالحهم ومئونتهم وما يلزمهم.

فعلينا أن نُجدد النية من الآن بقيامنا بمصالح عائلاتنا الذين لا يستطيعون الكسب ليفوز كل واحدٍ منا بأجر المجاهد فى سبيل الله والقائم الليل الذى لا يَفترُ والصائم النهار الذى لا يُفطر.

۞ وفى هذا دليلٌ أيضًا على أن الإنسان مسؤولٌ فى المقام الأول عن القيام بمصالح أسرته وتعليمهم وتربيتهم قبل الآخرين .. وذلك من باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم:٦] ... ومن باب قوله ﷺ: «كُلُّكم راعٍ وكُلُّكُم مسؤول عن رعيته»(١).

لأن هناك من ينشغل بنشر دعوته فى أقطار العالم ويُسافر هنا وهناك ويغترب بالأشهُر والسنوات ويترك أسرته وأولاده بلا توجيهٍ ولا تربية حتى يضيعوا .. ونسى قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].. فبدأ بعشيرته الأقربين قبل أى أحد. أما الذى يذهب إلى الدعوة إلى الله لمدة يومٍ أو يومين فهذا لا بأس به .. وإنما أتكلم عن الذين يتركون أولادهم شهورًا طويلة.

۞ إذًا .. فالساعى على الأرملة والمسكين له أجرٌ لا يخطر على قلب بشر.. فهو كالمجاهد فى سبيل الله الذى لا يعود من أرض الجهاد أبدًا.. وكالقائم الليل الذى لا يقعد أبدًا .. وكالصائم النهار الذى لا يُفطر أبدًا.. ما دام أنه مستمرٌ فى القيام بمصالحهم ومئونتهم وما يلزمهم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٠٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.

(٢٧١) وعَنْ أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبى ﷺ قال: «شَرُّ الطَّعَام طَعَامُ الْوليمة، يُمْنَعُها مَنْ يأْتِيهَا، ويُدعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا، ومَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعوةَ فَقَد عَصَى الله ورَسُولَهُ»[(١)].

وفى رواية فى الصحيحين عن أبى هريرة من قوله: «بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدعَى إِلَيْهَا الأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الفُقَراءُ».

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَعنَى هَذَا الْحَدِيثِ: الْإِخْبَارُ بِمَا يَقَعُ مِنَ النَّاسِ بَعدَهُ ﷺ مِنْ مُرَاعَاةِ الْأَغْنِيَاءِ فِى الْوَلَائِمِ وَنَحوِهَا وَتَخْصِيصِهِمْ بِالدَّعوَةِ وَإِيثَارِهِمْ بِطَيِّبِ الطَّعَامِ وَرَفْعِ مَجَالِسِهِمْ وَتَقْدِيمِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ الْغَالِبُ فِى الْوَلَائِمِ .. وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ[(٢)].

۞ قوله ﷺ: «شَرُّ الطَّعَام طَعَامُ الْوليمة» يُحتمل أن يكون المراد هنا وليمة العُرس.. ويُحتمل أن يكون أعم من ذلك فيشمل وليمة العرس وغيرها .. فيُقصد بالوليمة كل ما دُعى إلى الاجتماع إليه من عُرسٍ أو غيره.

ثم وضَّح النبى ﷺ تلك الوليمة التى طعامها شرّ الطعام بأنها هى التى يُدعى إليها مَنْ يأباها وهم الأغنياء؛ لأنهم عندهم ما يكفيهم ويزيد فليس عندهم حرص على الحضور.. ويُمنع من تلك الوليمة الفقراء الذين هم أحوج الناس إليها وإذا دُعوا أجابوا.. فتلك الوليمة ليست وليمة مُقرِّبة إلى الله لأنه يُدعى إليها الأغنياء ولا يُدعى إليها الفقراء وهم أحق بها لاحتياجهم.

۞ أما الوليمة وبخاصة وليمة العُرس فإنها سُنة مؤكدة لأمر النبى ﷺ عبد الرحمن بن عوف بها، كما تقدم.

ولحديث بريدة بن الحصيب قال: لَمَّا خَطَبَ عَلِيٌّ فَاطِمَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٧٧) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٣٢) كتاب النكاح.

(٢) مسلم بشرح النووى (٩/ ٣٣٦).

«إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعُرسِ مِنْ وَلِيمَةٍ»(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «ومَن لم يُجب فقد عصى الله ورسوله» يدل على أن إجابة دعوة الوليمة واجبة؛ لأنه لا شيء يكون معصية بتركه إلا وهو واجب، ولكن لا بد فيها من شروط:

الشرط الأول: أن يكون الداعى مسلمًا، فإن لم يكن مسلمًا لم تجب الإجابة، ولكن تجوز الإجابة لا سيما إذا كان فى هذا مصلحة.

يعنى: لو دعاك كافر إلى وليمة عرسه فلا بأس أن تجيب، لا سيما إن كان فى ذلك مصلحة كتأليفه إلى الإسلام... وقد ثبت عن النبى ﷺ أن يهوديًّا دعاه فى المدينة، فأجابه، وجعل له خبزًا من الشعير وإهالة سنخة، يعنى ودكًا قديمًا متغيرًا.

وأما اشتراط العدالة: يعنى اشتراط أن يكون الداعى عدلاً فليس بشرط، فتجوز إجابة دعوة الفاسق إذا دعاك، مثل أن يدعوك إنسان قليل الصلاة مع الجماعة، أو شارب دخان، فأجبه كما تجيب مَن كان سالمًا من ذلك.

لكن إن كان عدم الإجابة يُفضى إلى مصلحة بحيث يخجل هذا الداعى ويترك المعصية التى كان يعتادها حيث الناس لا يجيبون دعوته، فلا تُجب دعوته من أجل مصلحته ... أما إذا كان لا يستفيد سواء أجبته أو لم تُجبه، فأجب الدعوة؛ لأنه مسلم.

الشرط الثانى: أن يكون ماله حلالاً، فإن كان ماله حرامًا كالذى يكتسب ماله بالربا، فإنه لا تجب إجابته؛ لأن ماله حرام، والذى ماله حرام ينبغى للإنسان أن يتورع عن أكل ماله، ولكنه ليس بحرام ... يعنى: لا يحرم عليك أن تأكل من مال مَن كَسْبُه حرام؛ لأن النبى ﷺ أكل من طعام اليهود وهم يأكلون الربا، يأخذونه ويتعاملون به، لكن الورع ألا تأكل ممن ماله حرام.

أما إذا كان فى ماله حرام، يعنى ماله مختلط، يتجر تجارة حلالاً ويكتسب

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤١٩).

كسبًا محرمًا فلا بأس من إجابته، ولا تتورع عن ماله؛ لأنه لا يَسْلَم كثير من الناس اليوم من أن يكون في ماله حرام ... فمن الناس مَن يغش فيكتسب من حرام، ومنهم مَن يُرابي في بعض الأشياء، ومنهم الموظفون، وكثير من الموظفين لا يقومون بواجب وظيفتهم، فتجده يتأخر عن الدوام أو يتقدم فيخرج قبل وقت انتهاء الدوام، وهذا ليس كل راتبه حلالاً، بل إنه يأكل من الحرام بقدر ما نقص من عمل الوظيفة؛ لأنه ملتزم بالعقد مع الحكومة ... مثلاً أنه يقوم بوظيفته من كذا إلى كذا، فلو فتشت أحوال الناس اليوم لوجدت كثيرًا منهم يكون في ماله دَخَن من الحرام.

الشرط الثالث: ألا يكون في الدعوة منكر، فإن كان في الدعوة منكر فإنه لا تجب الإجابة ... مثل لو علمت أنهم سيأتون بمُغنين، أو عندهم «شِيَش» يشربها الحاضرون، أو عندهم شراب دخان فلا تجب إلا إذا كنت قادرًا على تغيير هذا المنكر، فإنه يجب عليك الحضور لسببين:

السبب الأول: إزالة المنكر... **والسبب الثاني**: إجابة الدعوة.

أما إذا كنت ستحضر ولكن لا تستطيع تغيير المنكر فإن حضورك حرام.

الشرط الرابع: أن يُعيِّن المدعو، ومعنى يعينه أن يقول: يا فلان، أدعوك إلى حضور وليمة العرس، فإن لم يُعينه بأن دعا دعوة عامة في مجلس فقال: يا جماعة، عندنا حفل زواج، ووليمة عرس فاحضروا، فإنه لا يجب عليك أن تحضر؛ لأنه دعا دعوة عامة، وما نَصَّ عليك.

فلا بد أن يُعينه فإن لم يُعينه فإنها لا تجب ... ثم إنه ينبغي للإنسان أن يجيب كل دعوة؛ لأن من حق المسلم على أخيه أن يجيب دعوته، إلا إذا كان في امتناعه مصلحة راجحة فليتبع المصلحة[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٤-٥٥).

(٢٧٢) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «مَنْ عَالَ جَارِيتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَومَ القِيامَةِ أَنَا وَهُو كَهَاتَيْنِ» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ(١).

۞ ففى هذا الحديث فضل عول الإنسان للبنات .. وذلك لأن البنت بطبيعتها ضعيفة لا حول لها ولا قوة .. وقد لا تجد الاهتمام الكبير ممن حولها؛ لأن أكثر الناس يهتمون بالذكور أكثر من الإناث .. وحُجّتهم فى ذلك أن الولد هو الذى يحمل اسم أبيه .. فلذلك جاء اهتمام النبى ﷺ بتلك القضية فقال: «مَنْ عَالَ جَارِيتَيْنِ » أى: مَن عال أُنثيين من بناتٍ أو أخواتٍ أو غيرهما.. والعول يكون بالقيام بما تحتاج إليه من الكسوة والطعام والشراب والسكن وبما تحتاج إليه من التعليم والتوجيه والتربية ودعوتها إلى الله (جلَّ وعلا)...

فمن فعل ذلك وعال جاريتين حتى تَبلُغا .. أى حتى تصلا سن البلوغ كان رفيق النبى ﷺ فى الجنة.. ويا له من ثوابٍ عظيم لا توازيه الدنيا بكل ما فيها.

۞ أما سن البلوغ عند المرأة فهو خمس عشرة سنة .. أو أن يظهر عندها أى علامة من علامات البلوغ.

وعلامات البلوغ فى المرأة أربع، هى:

الأولى: تمام خمس عشرة سنة.

الثانية: نبات العانة.

الثالثة: الاحتلام.

الرابعة: الحيض ... فإذا حاضت ولو كان لها أقل من خمس عشرة سنة فهى بالغ.

۞ ولماذا كان هذا الاهتمام الشديد بتربية البنات دون الذكور؟

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣١) كتاب البر والصلة والآداب.
«جَارِيَتَيْنِ» أَىْ: بِنْتَيْنِ.

والجواب: أنه كان العرب فى الجاهلية يتشاءمون بميلاد البنات، ويَضيقون به، حتى قال أحد الآباء - وقد بُشِّر بأن زوجه ولدت أنثى-: «واللهِ ما هى بنعم الولد، نَصرُها بكاء، وبِرُّها سرقة»!

يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباها وأهلها إلا بالصراخ والبكاء لا بالقتال والسلاح، ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تُبيح للأب أن يَئِد ابنته - يدفنها حية- خشية من فقرٍ قد يقع، أو من عارٍ قد تجلبه على قومها حين تكبر.

وفى ذلك يقول القرآن مُنكرًا عليهم ومُقرعًا لهم: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

ويصف حال الآباء عند ولادة البنات: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطى الأب الحق فى بيع ابنته إذا شاء، وبعضها الآخر - كشريعة حمورابى- تجيز له أن يُسلمها إلى رجلٍ آخر ليقتلها أو يملكها إذا قتل الأب ابنة الرجل الآخر.

وجاء الإسلام فاعتبر البنت - كالابن - هبة من الله ونعمة- يهبها لمن يشاء من عباده: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

وبيَّن القرآن فى قصصه أنَّ بعض البنات قد تكون أعظم أثرًا وأخلد ذِكرًا من كثير من الأبناء الذكور، كما فى قصة مريم ابنة عمران التى اصطفاها الله وطهَّرها واصطفاها على نساء العالَمين، وقد كانت أمها عندما حملت بها تتمنى أن تكون ذَكَرًا يخدم الهيكل، ويكون من الصالحين: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ

لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾

[آل عمران: ٣٥-٣٧].

وحمل القرآن - حملة شعواء - على أولئك القُساة الذين يقتلون أولادهم إناثا كانوا أو ذكورًا- فقال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

وجعل رسول الإسلام الجنة جزاء كل أبٍ يُحسن صُحبة بناته، ويصبر على تربيتهن وحُسن تأديبهن، ورعاية حق الله فيهن، حتى يبلغن أو يموت عنهن.. وجعل منزلته بجواره ﷺ في دار النعيم المقيم.

روى مسلم عن أنس عنه ﷺ أنه قال: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ ...**» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ، ورواه الترمذى بلفظ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ دَخَلْتُ أَنَا وَهُوَ الجَنَّةَ كَهَاتَيْنِ**»، وأشار بأصبعه السبَّابة والتى تليها.

وروى ابن عباس عنه ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ ابْنَتَانِ فَيُحسِنُ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَتَاهُ - أَوْ صَحِبَهُمَا -إِلَّا أدخلَتَاهُ الْجَنَّةَ**»[1].

ونصَّت بعض الأحاديث على أن هذا الجزاء - دخول الجنة- للأخ الذى يعول أخواته أو أختيه أيضًا.

كما نَصَّ بعض أهل العلم على أن هذه المكافآت الإلهية، لمن أحسن إلى جنس البنات ولو كانت واحدة.

ففى حديث أبى هريرة: «**مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاثُ بَنَاتٍ فَصبرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ**

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧١٣).

وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

وبهذه النصوص الصحيحة الصريحة، والبشارات المكررة المؤكدة، لم تَعُد ولادة البنت عبئًا يُخاف منه، ولا طالع نحس يُتطير به، بل نعمة تُشكر، ورحمة تُرجَى وتُطلَب، لما وراءها من فضل الله تعالى، وجزيل مثوبته(٢).

(٢٧٣) وعَنْ عائشةَ رضي الله عنها قالت: دَخَلَتْ عليَّ امْرَأَةٌ ومعهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ فَلَم تَجِد عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرةٍ واحِدةٍ، فَأَعطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمتْهَا بَيْنَ ابنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ثُمَّ قامتْ فَخَرَجتْ، فَدخلَ النَّبيُّ ﷺ عَلَيْنَا، فَأَخْبرتُهُ فقال: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا من النَّارِ»(٣).

(٢٧٤) وعَنْ عائشةَ رضي الله عنها قالت: جَاءَتنِي مِسْكِينَةٌ تَحمِلُ ابْنَتَيْن لها، فَأَطعمتُها ثَلاثَ تَمْرَاتٍ، فَأَعطَتْ كُلَّ واحدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً ورفعتْ إلى فِيها تَمْرَةً لتَأْكُلهَا، فاستطعمتها ابْنَتَاهَا، فَشَقَّت التَّمْرَةَ التي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تأْكُلهَا بينَهُمَا، فأَعجبني شَأْنُها، فَذَكرْتُ الَّذي صنعَتْ لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قَد أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجنَّة، أَو أَعتقَها بِهَا مَن النَّارِ»(٤).

❁ ففي هذين الحديثين قصتان .. كل واحدةٍ منهما أعجب من الأخرى ..وكلها تحث على الرفق بالضعفاء والبنات واليتامى وما أشبه ذلك.

ففي قصة الحديث الأول أن عائشة رضي الله عنها أعطت المرأة تمرة واحدة فقسمتها بين ابنتيها ... وفي قصة الحديث الثاني أن عائشة رضي الله عنها أعطت المرأة ثلاث تمرات .. فأعطت المرأة إحدى ابنتيها تمرة والأخرى تمرة ثم رفعت

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٨٨).

(٢) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده / د. يوسف القرضاوي (٣٣٢-٣٣٤) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٨) كتاب الزكاة، ومسلم (٢٦٢٩) البر والصلة والآداب.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٠) البر والصلة والآداب.

الثالثة إلى فيها لتأكلها فاستطعمتاها - يعنى أن البنتين نظرتا إلى التمرة التى رفعتها الأم - فلم تأكلها الأم، بل شقَّتها بينهما نصفين، فأكلت كل بنت تمرة ونصفًا، والأم لم تأكل شيئًا ... فذكرت أُمنا عائشة رضي الله عنها ذلك للرسول ﷺ وأخبرته بما صنعت المرأة.

فقال لها ﷺ فى الرواية الأولى: **«مَنِ ابْتُلِىَ مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ بِشَىْءٍ فَأَحسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا من النَّارِ»**.

وفى الرواية الثانية: **«إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار»**.

فهل هناك أروع من ذلك؟!

عملٌ قليل وأجرٌ كبير .. تنجو من النار وتدخل الجنة بتمرة.. هنا تتذكر قول النبى ﷺ: **«فاتقوا النار ولو بشق تمرة»**.

۞ **وتأمل معى قول النبى ﷺ حينما قال لعائشة رضي الله عنها: «مَن ابتُلِى من هذه البنات بشىء»** فليس المراد هنا بلوى الشر ولكن المراد: من قُدِّر له.. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

يعنى مَن قُدر له ابنتان فأحسن إليهما كُن له سترًا من النار يوم القيامة، يعنى أن الله تعالى يحجبه عن النار بإحسانه إلى البنات...لأن البنت ضعيفة لا تستطيع التكسُّب، والذى يكتسب هو الرجل.

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وهذا يوضح لنا أن الذى يُنفق على العائلة وعلى البنات هو الرجل .. أما المرأة فشأنها البيت لتُقيمه وتُصلحه وتُؤدب أولادها وبناتها.

فالأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراقِ

۞ فإذا أحسن الإنسان لهؤلاء البنات كُن له سترًا من النار وكتب الله له الجنة.

۞ وفى هذا الحديث مجموعة من الدروس والعِبَر:

(١) أن بيت النبى ﷺ وهو أشرف بيتٍ فى الكون كله لا يوجد فيه سوى تمرة واحدة أو ثلاث تمرات .. ونحن عندنا الكثير والكثير من أصناف الطعام وقد فُتحت علينا الدنيا .. فهل نحن أفضل من النبى ﷺ وأصحابه؟ .. كلا والله بل هم أفضل منا وأحب إلى الله ولكننا ابتُلينا بكثرة النعم وقلة الشكر...كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].. بل منَّا من يستعمل النعمة فى معصية الله عَزَّوَجَلَّ.. فيا ليتنا نشكر الله على نِعَمِه بالقلب واللسان والجوارح.. وذلك بأن نستعملها فى طاعة الله وأن نجعلها عونًا لنا على طاعته (سبحانه وتعالى).

(٢) أن الصحابة كان فيهم الفقير والغنى.. ونحن كذلك فينا الفقير والغنى حتى لا يستغنى أحدٌ عن أحدٍ.

قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]. ولولا هذا التفاوت ما اتخذ بعضنا بعضًا سخريًّا.... ولو كنا على حَدٍّ سواء، واحتاج الإنسان منا مثلاً لعملٍ ما فلن يجد مَن يعمل له هذا العمل .. فلو ذهب إلى نجار ليصنع له بابًا لقال له النجار: أنا غنىٌّ مثلك ولا أحتاج أن أصنع لك الباب فاصنعه أنت لنفسك .. فهذا التفاوت جعل الناس يخدم بعضهم بعضًا .. حتى الغنى يخدم الفقير.. فلو كان الغنى تاجرًا فهو يُحضر الغذاء والشراب الذى يشتريه الفقير وينتفع به.. فهو يخدم الفقير من حيث لا يدرى ... وهكذا فكلنا نحتاج إلى بعض من أجل إعمار الأرض وتوفير احتياجات وضرورات الحياة .

(٣) أن الذى يُكلَّف بالنفقة هم الرجال وليس النساء .. أما النساء فللبيوت ولمصالح البيوت .. وكذلك للمصالح التى لا يقوم بها إلا النساء كمُدرسة البنات وطبيبة النساء وغيرها ... فعمل المرأة حلال ولكن بشروط وضوابط أهمها: عدم الاختلاط بالرجال.

وقد قال النبى ﷺ: «**خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها**»(١)، وذلك لأن أولها قريب من الرجال فصار شرًّا، وآخرها بعيد عن الرجال فصار خيرًا ... فانظر كيف نُدب للمرأة أن تتأخر وتبتعد عن الإمام .. لكن إن كان هناك في المسجد مكانٌ خاص بالنساء بعيدًا عن الرجال فخير صفوف النساء أولها وشَرُّها آخرها.. لأن العلة قد انتفت وأصبح هناك مكان خاص بالنساء بعيدًا عن الرجال فيصبح الصف الأول أفضل من الصفوف المتأخرة ... كل ذلك من أجل البُعد عن الرجال .. نسأل الله أن يحمينا وإخواننا المسلمين من أسباب سخطه وعقابه.

(٤) فى هذين الحديثين دليل على فضل الإحسان إلى البنات ومراعاة أنفسهن؛ لأنهن ضعيفات .. وأن ثواب ذلك النجاة من النار ودخول الجنة.

(٥) ما كان عليه النبى ﷺ وأزواجه وأصحابه من الإيثار .... فإن عائشة ليس عندها إلا تمرة، ومع ذلك آثرت بها هذه المسكينة، ونحن الآن عندنا أموال كثيرة ويأتى السائل ونرده... إلا مَنْ رحم الله.

❊ ❊ ❊

(٢٧٥) وعَنْ أبى شُرَيْحٍ خُوَيْلِدِ بْنِ عَمْرٍو الخُزاعِىِّ ؓ قال: قال النبى ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّى أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفينِ الْيَتِيمِ والمرْأَةِ»(٢).

۞ لقد كان النبى ﷺ يوصى دائمًا بالضعفاء واليتامى والمساكين والنساء والأطفال؛ لأنهم ضعفاء لا حول لهم ولا قوة .. فهم يحتاجون إلى الرحمة والرفق والعناية والرعاية.. لكن النبى ﷺ خَصَّ فى هذا الحديث حق الضعيفين:

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٤٠) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٠١٥).
ومعنى «أُحَرِّجُ»: أُلْحِقُ الحَرَجَ وَهُوَ الإثْمُ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُمَا، وَأُحَذِّرُ مِنْ ذلِكَ تَحذِيرًا بَليغًا، وَأَزْجُرُ عَنْهُ زجرًا أكيدًا.

اليتيم والمرأة؛ لأنهما من أشدهم ضعفًا فاحتاجا إلى مزيدٍ من وصية النبي ﷺ بهما حتى لا يجور أحدٌ عليهما وحتى لا يضيع حقهما.

ومعنى «أُحَرِّجُ»: أُلحِقُ الحَرَجَ، وَهُوَ الإثْمُ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُما، وَأُحَذِّرُ مِنْ ذلكَ تَحذيرًا بَليغًا، وَأَزْجُرُ عَنْهُ زَجْرًا أَكيدًا.

فمن كان عنده امرأة فليتقِ الله فيها وليتذكر دائمًا أن النبي ﷺ قد أوصى بها في هذا الحديث وفي غيره كقوله ﷺ: «الله الله في النساء».

ومَن كان عنده يتيم فليتقِ الله فيه وليتذكر دائمًا أن النبي ﷺ قد أوصى به خيرًا في هذا الحديث وفي غيره كقوله ﷺ: «**أَنا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا**» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا[1].

(٢٧٦) وعَن مُصعبِ بنِ سعد بنِ أبي وقَّاصٍ رضي الله عنهما قال: رأى سعدٌ أنَّ لَهُ فَضْلاً علَى مَنْ دُونهُ، فقال النبيُّ ﷺ: «هل تُنْصرُونَ وتُرزقُون إلَّا بضُعفائكُم»[2].

رواه البخاري هَكَذا مُرسلاً، فإن مصعَب بن سعد تَابِعِيٌّ...ورواه الحافِظُ أَبو بكر البَرْقَانِي في صحيحِهِ مُتَّصلاً عن أبيه رضي الله عنه.

(٢٧٧) وعَنْ أبي الدَّرداءِ عُوَيْمرٍ رضي الله عنه قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ابْغوني في الضُّعَفَاءَ، فَإِنَّمَا تُنْصرُونَ، وتُرْزقون بضُعفائِكُمْ»[3].

ففي هذين الحديثين: ما يدل على أن الضعفاء سببٌ للنصر وسببٌ للرزق ... فإذا حنا عليهم الإنسان وعطف عليهم وآتاهم مما آتاه الله عز وجل كان ذلك سببًا للنصر على الأعداء، وكان سببًا للرزق؛ لأن الله تعالى أخبر أنه إذا

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٣٠٤) كتاب الطلاق.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٨٩٦) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١)، والسلسلة الصحيحة (٧٧٩)، صحيح أبي داود (٢٣٣٥)، التعليق الرغيب (١ / ٢٤).



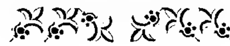
أنفق الإنسان لربه نفقة فإن الله تعالى يخلفها عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]. ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يأتي بخلفه وبدله.

قَالَ ابن بَطَّالٍ: تَأْوِيلُ الْحَدِيثِ أَنَّ الضُّعَفَاءَ أَشَدُّ إِخْلَاصًا فِي الدُّعَاءِ وَأَكْثَرُ خُشُوعًا فِي الْعِبَادَةِ لِخَلَاءِ قُلُوبِهِمْ عَنِ التَّعَلُّقِ بِزُخْرُفِ الدُّنْيَا.

وَقَالَ الْمُهَلَّبُ: أَرَادَ ﷺ بِذَلِكَ حَضَّ سَعدٍ عَلَى التَّوَاضُعِ وَنَفْيِ الزَّهْوِ عَلَى غَيْرِهِ وَتَرْكِ احتِقَارِ الْمُسْلِمِ فِي كُلِّ حَالَةٍ[1].

فلنحرص كل الحرص على الإحسان إلى الضعفاء والفقراء واليتامى والنساء ولا نُسيء إليهم ولا نجرح مشاعرهم عسى أن يجعل الله ذلك سببًا للرزق والنصر كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ.



(١) فتح البارى (٦/ ١٠٥).

(٣٤) باب الوصية بالنساء

۞ وفى هذا الباب «باب الوصية بالنساء» تستطيع أن تقرأ الباب من عنوانه وهو الوصية بالنساء بالرفق بهن وحُسن معاملتهن والقيام بحقوقهن على أكمل وجهٍ لأنهن ضعيفات يحتجن إلى مَن يَجبرهن ويكملهن.

۞ قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية؛ فعلى الزوج أن يُعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكَفِّ الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة ... ويدخل فى ذلك النفقة، والكسوة ونحوهما... فيجب على الزوج لزوجته، المعروف، من مثله لمثلها، فى ذلك الزمان والمكان. وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. أى: ينبغى لكم - أيها الأزواج - أن تُمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن فى ذلك، خيرًا كثيرًا ... من ذلك، امتثال أمر الله، وقبول وصيته التى فيها سعادة الدنيا والآخرة. ومنها: أن إجباره نفسه مع عدم محبَّته لها فيه مجاهدةُ النفس والتخلُّق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتَخلُفها المحبة كما هو الواقع فى ذلك... وربما رُزق منها ولدًا صالحًا، نفع والديه فى الدنيا والآخرة[1].

۞ وقال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

فهذا الخطاب لمن كان عنده زوجتان أو أكثر..

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٧٢-١٧٣).

فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن الإنسان لن يستطيع أن يعدل العدل التام بين نسائه ولو كان حريصًا غاية الحرص .. وذلك لأن هناك أشياء يستطيع أن يعدل فيها بينهم كالنفقة والكسوة والسكن والمبيت .. ولكن هناك أشياء لا يستطيع أن يعدل فيها لأنها تكون بغير اختياره كالمودة والمحبة والميل القلبي وما أشبه ذلك مما يكون في القلب.

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ** ﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمُعلَّقة التي ليست بذات زوج ولا مُطلقة ... شُبِّهت بالشيء المُعلَّق بين السماء والأرض، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء، وهذا من أبلغ التشبيه.

﴿ **وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟** ﴾ أي وإن تُصلحوا ما مضى من الجَور وتتقوا الله بالتمسُّك بالعدل ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم[(١)].

وهاتان الآيتان وغيرهما من نصوص الكتاب والسُّنة كلها تدل على الرفق بالمرأة وملاحظتها ومعاشرتها بالتي هي أحسن، وأن الإنسان لا يطلب منها حقه كاملاً؛ لأنه لا يمكن أن تأتي به على وجه الكمال فليَعفُ وليصفح.

(٢٧٨) وعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اسْتَوْصُوا بِالنِّساءِ خيْرًا، فإِنَّ المرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعوجَ ما في الضِّلعِ أَعلاهُ، فَإِنْ ذَهبتَ تُقِيمُهُ كَسرْتَهُ، وإِنْ تركتَهُ، لَمْ يزلْ أعوجَ، فاستوْصُوا بِالنِّسَاءِ»[(٢)].

وفي رواية في الصحيحين: «المرْأَةُ كالضلعِ إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وإِنِ استَمتعت

---

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٨٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٣١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٤٦٨) كتاب الرضاع.

قولُهُ: «عَوَجٌ» هو بفتح العين والواو.

بِهَا، اسْتَمتعت وفِيها عَوَجٌ» .

وفى رواية لمسلم: «إِنَّ المَرأَةَ خُلِقتْ مِن ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتقِيمَ لكَ علَى طريقة، فَإِنْ استمتعت بِهَا، اسْتَمتَعتَ بِهَا وفِيها عَوجٌ، وإِنْ ذَهَبْتَ تُقيمُها كسرتَهَا..وَكَسْرُهَا طلاقُها».

۞ قوله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا» فكأن النبى ﷺ يقول: إننى أوصيكم بالنساء خيرًا فاقبلوا هذه الوصية التى أوصيكم بها ... وذلك بأن تُحسنوا إلى النساء؛ لأنهن ضعيفات قاصرات فى جميع شئونهن فلقد خُلقن من ضلعٍ.

وذلك أن آدم عليه الصلاة والسلام خلقه الله من غير أب ولا أم، بل خلقه من تراب، ثم قال له: كُن فيكون ... ولما أراد الله تعالى أن يبث منه هذه الخليقة، خلق منه حواء... فخلقها من ضلعه الأعوج، فخُلقت من الضلع الأعوج ... والضلع الأعوج إن استمتعت به استمتعت به وفيه العِوَج، وإن ذهبت تُقيمه انكسر.

هى الضلع العوجاء لست تقيمها ألا إن تقويم الضلوع انكسارها
تجمع ضعفًا واقتدارًا على الفتى أليس عجيبًا ضعفها واقتدراها؟![1]

والمعنى أن المرأة خلقها الله من عضوٍ مُعوج فهى - بطبيعتها وفطرتها - مستعدة لأن تقع فى الخطأ أكثر من استعداد الزوج لذلك كمبدإٍ عام.... فإذا أراد الرجل أن يَحيا مع زوجته حياة طيبة سعيدة فليدرك أن خطأ زوجته أمرٌ طبيعى، فلا يُكثر من اللوم والتأنيب والمؤاخذة، ولا يُحول الحياة إلى جحيم ... بل عليه أن يتساهل ويتسامح حتى يعيش فى متعة وراحة واستقرار مع زوجته... أما إن أراد محاسبتها على كل صغيرة وكبيرة مُحاولاً أن يجدها يومًا بلا أخطاء فإنه لن يجدها كذلك أبدًا ... وتكون نتيجة تصلُّبه وتَشدُّده كسرًا للحياة الزوجية يترتب

(١) انظر: «فيض القدير» (١/ ٥٠٣).

عليه الطلاق ... فإذا أدرك الرجل ذلك وفَّر على نفسه كثيرًا من المتاعب.

۞ والأخطاء - التى من طبع المرأة أن تقع فيها - لا يُقصَد منها الأخطاء الاجتماعية المعلومة للناس جميعًا، ولا الخروج على الآداب واللياقة حسب عُرف الناس، فإنَّا نجد المرأة فى الغالب أكثر حرصًا على هذه الآداب من كثيرٍ من الرجال ... إنما المراد من الحديث - والله أعلم - أن المرأة جنسٌ غير جنس الرجل، وأن طبعها وخلقها وفكرها وعقلها يدور فى مجالاتٍ غير مجالاتها عند الرجال ... ونظرة المرأة للرجل ليست مثل نظرة الرجل للمرأة، إنما هى نمطٌ آخر، فمن أراد أن تكون امرأته على شاكلته كُلية ويشترط ذلك لتستمر الحياة الزوجية - فإنه مُخطئٌ غاية الخطأ.

وما يدريك أن هذا الاعوجاج الذى فى المرأة هو سِرُّ جاذبيتها وسِرُّ جمالها، وسِرُّ التصاقها بالرجل وحرصها عليه؟

إن المرأة بلا أخطاء تريدُ رجلاً بلا أخطاء أو تتعالى على الرجل وتحتقره... وذلك شأنه قطع صلة الزوجية قطعًا سريعًا. وأخطاؤها من النوع الذى فسرته لك تُثبت أنوثتها وتزيد من غرور الزوج بنفسه، وشعوره بأنه السيد ... ولذلك لعن الله ورسوله ﷺ النساء المسترجلات، والرجال المتشبهين بالنساء.

وقد كان ﷺ خير الناس مُعاشرة لأزواجه وأحسن الناس رفقًا بهن، وتَسامُحًا معهن ... وقد كانت تَبدُر من بعضهن ما يَبدُر من أية امرأة أخرى أحيانًا ... فما يغضب ولا يُؤاخذ، ولكن يعفو ويصفح.

۞ رُوى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه راجعته امرأته فى الكلام فقال لها: أَتُراجعينى يا لكعاء(١)؟ فقالت: إن أزواج رسول الله ﷺ يُراجعنه وهو خيرٌ منك.

۞ وعلى الرجل إذا كان مع زوجته أن يطرح التكلُّف والتزمُّت والتجمُّد؛ فإن

---

(١) أى: يا لئيمة.

ذلك يُنفرها منه وكأنه لم يفهم من معنى الزوجية إلا الجماع والأولاد.

كما أن عليه - مهما تَبسَّط - أن يحتفظ بأصول الرجولة والمروءة والحياء... ولذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه - مع خشونته - : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى، فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلاً.

وقد كان ﷺ يحض أصحابه على هذا النمط من المعاشرة الزوجية، فقال لجابر رضي الله عنه : «**هلاَّ بكرًا تُلاعبها وتُلاعبك**» (١) (٢).

(٢٧٩) وعَنْ عبد الله بن زَمْعَةَ رضي الله عنه، أَنه سمعَ النبىَّ ﷺ يخْطُبُ، وذكَر النَّاقَةَ والَّذى عقَرهَا، فقال رسول الله ﷺ: « ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ انْبعثَ لَها رَجُلٌ عزِيزٌ، عارمٌ منِيعٌ فى رهْطِهِ» ثُمَّ ذكَرَ النِّساءَ، فَوعظَ فِيهنَّ، فَقالَ: «يعمِدُ أَحَدكُمْ فيجْلدُ امْرأَتَهُ جلْد الْعَبْدِ فلَعلَّهُ يُضاجعُهَا مِنْ آخِر يومِهِ» ثُمَّ وَعَظهُمْ فى ضحكهِمْ مِن الضَّرْطَةِ وقال: «لِمَ يضحكُ أحَدُكُمْ مِمَّا يفعلُ؟» (٣).

۞ ففى هذا الحديث يذكر عبد الله بن زمعة رضي الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يخطب .. وكانت خطب النبى ﷺ على نوعين: نوع راتب ونوع عارض.

فالخطب الراتبة: كخطب يوم الجمعة وخطب العيدين والاستسقاء والكسوف وما أشبه ذلك.

والخطب العارضة: هى التى يكون لها سبب ... فيقوم النبى ﷺ فيخطب الناس ويعظهم ويبين لهم، وأحيانًا يخطب على المنبر، وأحيانًا يخطب قائمًا على الأرض، وأحيانًا يخطب على ناقته، وأحيانًا يخطب معتمدًا على بعض

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٩٧) كتاب البيوع، ومسلم (٧١٥) (٧٤) كتاب الرضاع.

(٢) السلوك الاجتماعى فى الإسلام (ص: ١٨٥-١٨٧) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٤٢) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٥٥) كتاب الجنة.

«وَالْعارِمُ»: هُو الشِّرِّيرُ الْمُفْسِد - وقولُه: «انبعثَ» ، أَىْ: قَامَ بسرعة.

أصحابه، حسب ما تقتضيه الحال فى وقتها؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام مِن هَدْيِهِ أنه لا يتكلف، فلا يطلب المعدوم، ولا يرد الموجود إذا لم يكن فى ذلك تقصير فى الشرع، أو تجاوز فيه.

فخَطَب النبى ﷺ وذكر الناقة التى كانت معجزة نبى الله صالح عليه السلام.. وذكر الشَّقى الذى قتلها وهو (قدار بن سالف).

ثم ذكر النبى ﷺ النساء فوعظ فيهن وذكر ما يقع من أزواجهن فقال: «**يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد**» يعنى: يضرب امرأته ضربًا عنيفًا ويجلدها كأنه يجلد عبدًا عنده لا علاقة له به .. وكأنها أسيرة عنده لا تربطه علاقة بها كزوجة له وكأُمٍّ لأولاده .. فإن هذا لا يليق لأن علاقة الرجل مع زوجه علاقة خاصة ينبغى أن تكون مبنية على الحب والبُعد عن الفُحش من القول والفعل.

أما أن يجلدها كما يجلد العبد ثم يُجامعها فى آخر اليوم .. فكيف يكون هذا بعد تلك الإهانات الجسيمة .. وكيف يستمتع بها أو تستمتع به بعدما حدث .

وصدق رسول الله ﷺ؛ إذ كيف يُعقَل أن يضرب الرجل امرأته، ثم يُعانقها، ويُقبلها؟! ففى ذلك تَناقُضٌ عظيم، لما يقع من النفور والقضاء على المحبة التى هى روح العشرة الحسنة .

۞ وإذا كان القرآن قد أباح للرجل أن يضرب امرأته ضربًا غير مُبرح إذا ظهرت عليها علامات النشوز .... بل وجعل الضرب هو آخر العقوبات بعد الوعظ والهجر فى المضجع .... فإن لم ترجع عن النشوز فأباح الله للزوج أن يضرب امرأته ضربًا غير مُبرح لا يكسر عظمًا ولا يُشوه لحمًا وألا يزيد فى ضربه على عشر ضربات وألا يضرب الوجه وأن يغلب على ظنه أن ضربه لها سيزجرها؛ لأن الضرب وسيلة إصلاح فإن تيقن أن الضرب لن يزجرها فلا يضربها.

فإن كان الشارع أباح للرجل أن يضرب زوجته عند النشوز فقد اتفق العلماء على أن ترك الضرب، والاكتفاء بالتهديد أفضل، وذلك:

- لما رواه إياس بن عبد الله بن أبى ذُباب[١] ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تضربوا إماء الله**»، فأتاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: «يا رسول الله، ذَئِر[٢] النساءُ على أزواجهن .. فأَذِنَ فى ضربهن، فأطاف بآل محمدٍ نساءٌ كثير، كُلُّهن يشكون أزواجهن، فقال النبى ﷺ: «**لقد طاف بآل محمدٍ نساءٌ كثيرٌ، كُلهنَّ تشكو زوجها من الضرب. وايم الله لا تجدون أولئك خياركم**»[٣].

- وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة قط، ولا خادمًا، ولا ضرب شيئًا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله»[٤].

ولما خطب معاوية بن أبى سفيان وأبو جَهْم رضي الله عنهما فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، ذَكَرَتْ ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أبو جَهْم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فَصُعلوكٌ لا مال له، انكحى أسامة بن زيد**»[٥] الحديث.

ومعنى قوله ﷺ: «**لا يضع عصاه عن عاتقه**» قيل: إنه كثير الأسفار، وقيل - وهو أصح - إنه كثير الضرب للنساء ... بدليل الرواية الأخرى عند مسلم بلفظ: «**وأما أبو جهم فرجلٌ ضَرَّابٌ للنساء**»، وعليه يُحمل وصفه ﷺ إياه فى رواية النسائى: «**إنه صاحب شر لا خير فيه**»، ورواية الترمذى: «**فرجل شديد على النساء**».

فتأمل كيف ذَمَّه رسول الله ﷺ لهذه الصفة.

❁ **وقال ابن الجوزى** رحمه الله:

(وليعلم الإنسان أن مَن لا ينفع فيه الوعيد والتهديد لا يردعه السوط، وربما كان اللُّطف أنجح من الضرب، فإن الضرب يزيد قلب المُعرض إعراضًا...

---

(١) جزم أحمد بن حنبل، والبخارى وابن حبان بأن لا صحبة له، وخالفهم أبو حاتم وأبو زرعة، ورجح قولهما الحافظ ابن حجر كما فى «تهذيب التهذيب» (١/ ٣٨٩).

(٢) أى: اجترأن ونشزن، والذائر: النَّفور، المغتاظ على خصمه، والمستعد للشر.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٧).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٣٢٨) كتاب الفضائل.

(٥) صحيح: رواه مسلم (١٤٨٠) كتاب الطلاق.

وفي الحديث: «**ألا يستحيي أحدكم أن يجلد امرأته جلد العبد، ثم يضاجعها**»[١]، فاللُّطف أولَى إذا نفع)[٢] اهـ.

۞ ثم تحدث أيضًا عن شيءٍ آخر وهو الضحك من الضرطة، يعني إذا ضرط الإنسان وخرجت الريح من دُبره ولها صوت ضحكوا، فقال ﷺ واعظًا لهم في ذلك: «**لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟**».

ألست أنت تضرط كما يضرط هذا الرجل؟ بلى، إذا كان كذلك فلماذا تضحك؟ فالإنسان إنما يضحك ويتعجب من شيء لا يقع منه، أما ما يقع منه، فإنه لا ينبغي أن يضحك منه، ولهذا عاتب النبي ﷺ مَن يضحكون من الضرطة؛ لأن هذا شيء يخرج منهم، وهو عادة عند كثير من الناس.

وبهذه المناسبة أود أن أُنبه على مسألة شائعة عند العامة، فإن من المعلوم أن لحم الإبل إذا أكل منه الإنسان وهو متوضئ انتقض وضوؤه، ووجب عليه أن يتوضأ إذا أراد الصلاة، سواء أكله نيئًا أو مطبوخًا، وسواء كان لحمًا، أو كبدًا، أو مُصرانًا، أو كرشًا، أو قلبًا، أو رئة ... كل ما حملت البعير فإن أكله ناقض للوضوء؛ لأن النبي ﷺ لم يستثنِ شيئًا، وإنما قال: «**توضئوا من لحوم الإبل**» وسُئل: أنتوضأ من لحوم الإبل؟ فقال: «**نعم**» فقال السائل: أنتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: «**إن شئت فتوضأ وإن شئت فلا توضأ**»[٣].. فلحم الغنم لا ينقض الوضوء، ولحم البقر لا ينقض الوضوء، ولحم الخيل لا ينقض الوضوء، لكن لحم الإبل ينقض الوضوء، إذا أكلته نيئًا أو مطبوخًا، وجب عليك أن تتوضأ.

---

(١) وذلك لأن المجامعة إنما تستحسن مع ميل النفس، والرغبة في العِشرة...والضرب عادة يورث النُّفرة والحديث يشير إلى ذَمِّه، فإن كان ولابد فاعلاً لنشوزها، فليعاملها معاملة الحرائر، وليكن بالضرب اليسير غير المبرح - أفاد معناه الحافظ في «الفتح» (٩/ ٣٠٣).

(٢) «أحكام النساء» ص (٨٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٣٦٠) كتاب الحيض.

فأما شرب لبنها، فإن الصحيح أنه ليس بناقض للوضوء؛ لأن النبى ﷺ لما أمر العُرنيين أن يخرجوا إلى إبل الصدقة، ويشربوا من أبوالها وألبانها لم يأمرهم بالوضوء..ولو كان واجبًا لأمرهم به ...فإن توضأت فهو أحسن، أما الوجوب فلا.

وكذلك المرق -الشوربة- لا يجب الوضوء منه، وإن توضأت فهو أحسن... أما اللحم فلا بد، وكذلك الشحم فلا بد من الوضوء منه.

يقول بعض الناس: إن السبب أن الرسول ﷺ كان فى وليمة وكان لحمها لحم إبل، وأنه خرجت ريح من بعض الحاضرين ولا يُدرَى مَن.

فقال الرسول ﷺ حتى لا يُحرجه: «**مَن أكل لحم إبل فليتوضأ**» فقام جميعهم يتوضئون.

وجعلوا هذا السبب فى أن الإنسان يتوضأ من لحم الإبل.

وهذا حديثٌ باطل، لا أصل له، وإنما أمر الرسول ﷺ بالوضوء من لحم الإبل لحكمة يعلمها الله، قد نعلمها نحن، وقد لا نعلمها... المهم نحن علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا... أمرنا الرسول ﷺ أن نتوضأ من لحوم الإبل إذا أكلنا منها فسمعًا وطاعة[(١)].

❊❊❊

(٢٨٠) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِه مِنها خُلقًا رضِىَ مِنْها آخَرَ» أَوْ قَالَ: «غَيْرَهُ»[(٢)].

۞ الفرك: يعنى البغضاء والعداوة .. أى: لا يُعادى ولا يبغض المؤمنُ المؤمنة... كزوجته مثلًا.. لأنه إن كَرِهَ منها خُلقًا لا يحبه رضى منه آخر ... وهذا

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٦٢-٦٣) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٦٩) كتاب الرضاع.

وقولُهُ: «يَفْركْ»، معناه: يُبغضُ، يقَالُ: فَرِكَتِ المرْأَةُ زَوْجَهَا، وفَرِكَهَا زَوْجُها، بكسر الراءِ، يفرَكُهَا بفتحهَا: أَىْ: أَبغضهَا، والله أعلم.

هو مقتضى العدل .. ألا ينظر الزوج إلى السيئات فحسب .. بل عليه أن يُوازن بين الحسنات والسيئات .. فإن غلبت حسناتها سيئاتها فإنه ينبغي عليه أن يتغاضى عن سيئاتها ... إن عجز عن إصلاحها باللين تارة وبالشدة تارة أخرى.

فإن أساءت الزوجة مرة فقد أحسنت مرات ... وإن احترق منها الطعام مرة فلقد قدمت لك الطعام الطيب آلاف المرات قبل ذلك ... فأنت إذا أساءت إليك زوجتك فلا تنظر إلى تلك الإساءة فى وقتها الحاضر ، ولكن انظر إلى الماضى والمستقبل واحكم بالعدل ووازن بين مميزاتها وعيوبها. فمن النادر أن تجتمع كل خصال الخير فى امرأة واحدة.

وقد قال النبى ﷺ: «**إنما الناس كإبلٍ مائة لا تكاد تجد فيها راحلة**»(١).

فلا تكاد تجد رجلاً شجاعًا مغوارًا مِقدامًا كريمًا سخيًّا عالِمًا مُحسنًا متصدقًا كاظمًا للغيظ صَبورًا يقوم الليل ويصوم النهار واصلاً للأرحام بارًّا بوالديه.. نادرًا ما تجد خصال الخير تجتمع فى رجل ... كالإبل فى المائة واحد تجده صبورًا على الجوع والعطش مُريحًا فى المشى هادئ الطبع لبنه كثير... نادرًا ما تجد فى الإبل كهذا فإذا كان هذا هو الشأن ... الشأن فى الناس أنهم كإبلٍ مائة لا تكاد تجد فيها راحلة، فالنساء اللواتى خُلقن من ضلع من باب أَولَى ألاَّ تجتمع فيهن خصال الخير، فقد تكون المرأة جميلة حسناء ولكنها بذيئة اللسان، وقد تكون جميلة حسناء لسانها طيب وقولها حلو جميل لكنها مبذرة فى الإنفاق ومتوسعة فيه وغير مقتصدة فى معيشتها.

وقد تكون مقتصدة فى معيشتها لكن لا تجيد الطهى والخبز(٢).

---

(١) **متفق عليه**:رواه البخارى (٦٤٩٨) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٥٤٧) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) وأسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين العاقلة الرشيدة تقول عن نفسها : ولم أكن أُحسن أخبز. انظر البخارى (٥٢٢٤) ومسلم، (٢١٨٢) وزينب بنت جحش أم المؤمنين كانت عابدة متصدقة جميلة لكن تعتريها حدةٌ أحيانًا. وأمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت غيورًا مع فضلها وعلمها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد تكون جميلة حسنة الخلق حسنة التبعُّل مُتقنة لعمل البيت لكنها شديدة الغيرة وقد يكون فيها ما ذُكر من جمال وبهاء وحسن تبعُّل وإتقان للعمل إلا أنها ضعيفة فى العبادة.. إلى غير ذلك.

الشاهد أن المرأة بها عوج كما قال النبى ﷺ كالضلع وكالعود، عودٌ فى آخره عوج تريد أن تُقوِّمه وتعدله فإذا ذهبت تُقوِّمه كُسر منك، وإن تركته بقى أعوج... فكذلك المرأة إن ذهبت تُقيمها كسرتها... وكَسْرُها طلاقها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج.

فلا بد أن يكون فى المرأة عيب وعوج، وكما قال النبى ﷺ: «**فدارِها تَعِش بها**»(١).

لا نقول لك اتركها بعيوبها ولكن قوِّمها برفقٍ ولينٍ قدر الاستطاعة وسدِّد وقارب ولن تستطيع أن تصل إلى التمام لقول النبى ﷺ «**وإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج**»(٢).

وهذا الذى ذكره النبى ﷺ فى المرأة يكون فى غيرها أيضًا ممن يكون بينك وبينه معاملة أو صداقة أو ما أشبه ذلك، إذا أساء إليك يومًا من الدهر فلا تنسَ إحسانه إليك مرة أخرى وقارن بين هذا وهذا، وإذا غلب الإحسان على الإساءة فالحكم للإحسان، وإن غلبت الإساءة على الإحسان فانظر، إن كان أهلاً للعفو فاعفُ عنه، ومَن عفا وأصلح فأجره على الله.. وإن لم يكن أهلاً للعفو فخُذ بحقك وأنت غير مَلوم إذا أخذت بحقك، لكن انظر للمصلحة.

فالحاصل أن الإنسان ينبغى له أن يعامل مَن بينه وبينه صلة من زوجية أو صداقة أو معاملة فى بيع أو شراء أو غيره .. أن يعامله بالعدل إذا كره منه خُلقًا أو

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٩٤٤).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٣١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٤٦٨) كتاب الرضاع.

أساء إليه فى معاملة أن ينظر للجوانب الأخرى الحسنة حتى يقارن بين هذا وهذا، فإن هذا هو العدل الذى أمر الله به ورسوله .. كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٩٠][(١)].

(٢٨١) وعَنْ عَمْرو بن الأحوَصِ الجُشميِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سمِعَ النبى ﷺ فى حجَّة الْوَداع يقُولُ بعد أَنْ حَمِدَ الله تعالى، وَأَثْنى علَيْه وذكَّر ووعظَ، ثُمَّ قال: «أَلا واسْتَوْصوا بِالنِّساءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عوانٍ عَنْدكُمْ لَيْس تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غيْرَ ذلكَ إِلَّا أَنْ يأْتِينَ بِفَاحشةٍ مُبيِّنةٍ، فإِنْ فعلْنَ فَاهْجُروهُنَّ فى المضَاجعِ، واضْربُوهنَّ ضَرْبًا غيْر مُبرِّح، فإِنْ أَطعنكُمْ فَلا تبْغُوا عَلَيْهِنَّ سبيلاً، أَلا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نسائكُمْ حَقًّا، ولِنِسائِكُمْ عَلَيْكُمْ حقًّا، فَحَقُّكُمْ عَلَيْهنَّ أَن لا يُوطئْن فُرُشكمْ منْ تكْرهونَ، وَلا يأْذَنَّ فى بُيُوتكمْ لِمن تكْرهونَ، أَلا وحقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَن تُحسنُوا إِلَيْهنَّ فى كِسْوتِهِنَّ وَطعامهنَّ»[(٢)].

۞ ففى هذا الحديث ذكر عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبى ﷺ فى حجة الوداع يخطب فى يوم عرفة بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه - وهذا من كمال أدبه ﷺ ومن تمام عبوديته لله عَزَّ وَجَلَّ - ثم ذكَّر الناس بالله ووعظهم ثم قال: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاء خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَان عِنْدَكُمْ» العوانى جمع عانية، وهى الأسيرة... يعنى أن الزوجة عند زوجها بمنزلة الأسير عند مَن أَسَرَهُ؛ لأنه

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٦٤).

(٢) حسن: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٨٠).
قوله ﷺ: «عوانٍ» أَىْ: أَسِيراتٌ، جمْعُ عانية، بالْعَيْنِ المُهْمَلَة، وهى الأَسِيرَةُ، والْعانِى: الأَسيرُ. شَبَّهَ رسول الله ﷺ المرْأَةَ فى دُخُولِهَا تحتَ حُكْم الزَّوْج بالأَسير.
«والضرْبُ المُبرِّحُ»: هُوَ الشَّاقُّ الشديدُ، وقوله ﷺ: «فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً» أَىْ: لا تَطلُبوا طرِيقًا تحتجُونَ بِهِ عَلَيْهِنَّ وَتُؤْذونهنَّ بِهِ، والله أعلم.

يملكها، وإذا كان يملكها فهى كالأسير عنده... ثم بيَّن ﷺ أنه لا حَقَّ لنا أن نضربهن إلا إذا أتين بفاحشة مُبينة... والفاحشة هنا عصيان الزوج، بدليل قوله: «**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً**». يعنى: إن أهملت الزوجة فى حق زوجها عليها فإنه يعظها أولاً، ثم يهجرها فى المضجع فلا ينام معها، ثم يضربها ضربًا غير مبرح إن هى استمرت على العصيان.

هذه مراتب تأديب المرأة إذا أتت بفاحشة مبينة، وهى عصيان الزوج فيما يجب له.

(١) الوعظ والإرشاد:

قد تهمل المرأة حق زوجها، أو تُقصِّر بواجبها نحو بيتها وأولادها، ففى هذه الحالة أمر الإسلام الزوج بوعظها، وتذكيرها بواجبها، وتحذيرها من مغبّة سوء معاملتها..كما يُذكرها بالموت والدار الآخرة، ويوم الحساب.. لعل هذا الوعظ يردعها عما هى فيه، وتُغير ما درجت عليه، فتُلَطِّف من معاملتها، وتُحسِّن من أخلاقها، وتنهض بمسؤوليتها، وتؤدى حق زوجها وبيتها وأولادها..

(٢) الهجر في المضجع:

فإذا لم يؤثر الوعظ والإرشاد، ولم ينفع التذكير بالله والدار الآخرة .. لجأ إلى هجرها فى فراش الزوجية، وهى عقوبة نفسية لعلها تفيد فى إعادة المرأة إلى صَوابها، وقيامها بالحق المفروض عليها.

(٣) الضرب غير المُبرِّح:

فإذا لم يُجْدِ الهجر شيئًا، يُباح للزوج أن يلجأ إلى الضرب غير المُبَرِّح - وهو الذى لا يترك أثرًا فى جسم المرأة - ويُشترط فى حق الزوج أن لا يضرب الوجه، وأن لا يضرب أى مكان فى الجسم يُسبب إتلافًا أو أذى .. كالضرب على البطن والصدر .. لما روى أبو داود وابن حبان عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه

قال: قلت: يا رسول الله! ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «**أن تُطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقبِّح - أن يقول لها: قبَّحكِ الله - ولا تهجر إلا فى البيت**»(١).

وهذا الضرب كما ترى إلى التهديد والزجر أقرب منه إلى الإيلام والإيذاء..

والأفضل فى حق الزوج: أن لا يلجأ إلى الضرب اقتداءً بالرسول الله ﷺ، فقد روى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «**ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة قط، ولا خادمًا، ولا ضرب شيئًا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله**»(٢).

ولقد قرر الفقهاء أن الزوج إذا انتهج هذه المراحل، فلا يجوز للزوج أن يلجأ إلى الأشد إذا كان ينفع الأخف ..

۞ ثم قال النبى ﷺ: ﴿ **فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا** ﴾ يعنى: لا تضربوهن ولا تقصروا فى حقهن؛ لأنهن قُمن بالواجب.

ثم بيَّن ﷺ الحق الذى لهن والذى عليهن، فقال: «**إلا إن لكم على نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا**» فكل واحدٍ له حقوق وعليه واجبات ... لكن أُحب أن أقول: إن الحياة الزوجية عبارة عن شركة قائمة على المودة والرحمة... وإذا كان الأمر كذلك فإن كلاًّ من الزوجين سيسعى ويجتهد لإرضاء الطرف الآخر ولإدخال السعادة والسرور عليه حتى ولو كان ذلك على حساب سعادته.

- وهنا لن يسأل الزوج أو الزوجة: ما هى حقوقى وما هى واجباتى؟ بل سيسعى كل واحدٍ منهما ليُسعد الآخر قدر استطاعته...

ولن يكون ذلك إلا بإخلاص النية لله (جل وعلا)(٣).

۞ «**فحقكم عليهن ألا يُوطئن فُرشكم مَن تكرهون**» يعنى: لا يجعلن أحدًا

(١) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٢٨) كتاب الفضائل.

(٣) موسوعة الزواج الإسلامى السعيد / الشيخ محمود المصرى (ص ٤٣١).

يدخل عليهن على فراش النوم أو غيره وأنت تكره أن يجلس على فراش بيتك... وكأن هذا - والعلم عند الله - ضَرب مثل ... والمعنى ألا يُكرمن أحدًا تكرهونه... فإن هذا من المضادة لكم أن يُكرمن مَن تكرهونه بإجلاسه على الفرش أو تقديم الطعام له، أو ما أشبه ذلك.

۞ «**وألا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون**» يعنى: لا يُدخلن أحدًا البيت وأنت تكره أن يدخل حتى ولو كانت أقرب الناس إليها ... فقد تكون هناك زوجة لها أخت أو قريبة كلما دخلت البيت أشعلت النار بين الزوجة وزوجها وبذلت كل ما في وسعها من أجل خراب هذا البيت.. فمن حق الزوج في ذلك الوقت أن يطلب من زوجته أن تمنع هذه المرأة من دخول البيت خوفًا على البيت من الخراب وتشريد الأسرة كلها.

۞ **ثم قال النبى ﷺ: «ألا وحَقُّهن عليكم أن تُحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن»**.

فمن حقوق الزوجة المادية وجوب نفقتها على زوجها، وهى تشمل الطعام، والشراب، والملبس، والمسكن(١)، وسائر ما تحتاج إليه الزوجة(٢) لإقامة مهجتها، وقوام بدنها.

وقد أخبر عَزَّوَجَلَّ أن الرجال هم المنفقون على النساء، ولذلك كانت لهم

(١) وهى التى أشار إليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]،وقد خص الله آدم بذكر الشقاء فقال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ ولم يقل: «فتشقيان» يُعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١١ / ٢٥٣).

(٢) وقال الفقهاء: «إنه يلزم للزوجة نفقة الخادم إذا كان الزوج موسرًا، وكانت المرأة ممن تُخدم فى بيت أبيها مثلاً ولا تخدم نفسها لكونها من ذوى الأقدار، أو مريضة؛ لأنه من المعاشرة بالمعروف والخادم هو من يحل له النظر إلى المرأة، بأن يكون امرأة أو ذا رحم محرم؛ لأن الخادم يلزم المخدوم فى أغلب أحواله، فلا يَسلم من النظر» انظر: «بدائع الصنائع» (٥ / ٢٢١٥)، «فتح القدير» (٣/ ٣٢٧ ـ ٣٢٩)، «بداية المجتهد» (٢ / ٥٤)، «شرح منح الجليل» (٢/ ٤٣٤)، «تكملة المجموع» (١٧/ ١٤٠)، «كشاف القناع»(٥/ ٣٧٨)، «المحلى»(١٠/ ١١١).

القوامة والفضل عليهن بسبب الإنفاق عليهن بالمهر والنفقة ... فقال تبارك وتعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وقد دَلَّ على وجوب هذه النفقة: الكتاب، والسُّنة، والإجماع، والمعقول.

أما أدلة الكتاب الكريم:

- فمنها قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

- ومنها قوله (جل وعلا): ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن، من غير إسرافٍ ولا إقتار، بحسب قدرته في يَساره وتوسُّطه وإقتاره». اهـ.

وأما أدلة السُّنة الشريفة:

فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال لرجل: «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا» يَقُولُ: فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ**»(١) ...

وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَعْطَى اللهُ أَحَدَكُمْ خَيْرًا فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ**»(٢).

وقد رُوي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يُضيع مَن يَقوت**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٩٧) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٢) كتاب الإمارة.

(٣) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨١).

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قلت: «يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟»، قال: «**أن تُطعمها إذا طعِمْتَ وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تُقبِّح الوجه**[(١)]، **ولا تضرب**[(٢)]»[(٣)] ... وفى رواية للإمام أحمد بزيادة: «**ولا تهجر إلا فى البيت**[(٤)]، **كيف وقد أفضى بعضكم إلى بعض**[(٥)]، **إلا بما حل عليهن**»[(٦)].

۞ **وأما دليل العقل**[(٧)]:

فهو أن المرأة محبوسة على الزوج بمقتضى عقد الزواج، ممنوعة من التصرُّف والاكتساب لتفرُّغها لحقه، فكان نفع حبسها عائدًا عليه، فكان عليه أن ينفق عليها، وعليه كفايتها وإلا هلكت.

من أجل هذا تجب نفقة الزوجة على الزوج حتى ولو كانت الزوجة موسرة[(٨)]، لأن نفقتها لم تجب للحاجة، وإنما بسبب احتباسها لحق الزوج[(٩)].

والرجل الكريم هو الذى تسخو يده على أهله فلا يتركهم ينظرون إلى ما عند الناس من جيران وأقارب، ما دام يستطيع ـ بدون مشقة ـ أن يكفيهم مطالبهم

(١) أى: لا يُسمعها المكروه، ولا يشتمها بأن يقول: «قبَّح الله وجهك» وما أشبهه من الكلام.
(٢) أى: لا تضرب الوجه، أو لا تضرب إلا بما حل عليهن من الضرب والهجر بسبب نشوزهن.
(٣) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧).
(٤) أى: لا يهجرها إلا فى المضجع، ولا يتحول عنها، أو يُحوِّلها إلى دارٍ أخرى.
(٥) يعنى: الجماع.
(٦) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٩٢٩).
(٧) انظر: «المغنى» (٧/ ٥٦٤)، «المبسوط» (٥/ ١٨١)، «شرح النووى» (٨/ ١٨٤).
(٨) بل لا تُكلَّف المرأة بشىء من الإنفاق عمومًا: أُمًّا كانت أو أُختًا، بنتًا كانت أو زوجة، قادرة على العمل أو عاجزة عنه، غنية كانت الزوجة أو فقيرة، كان زوجها قادرًا على العمل أو عاجزًا عنه، غنيًّا كان أو فقيرًا، فالرجل هو المسئول عن النفقة البيتية وليس من حقه أن يُلزمها بها إلا إذا تبرعت مساهمة فى تحمل بعض العبء.
والمرأة قبل البلوغ تحت وصاية أوليائها، وهى ولاية رعاية وتأديب وعناية بشأنها، وتنمية لأموالها، وليست ولاية تملُّك واستبداد، ثم هى بعد البلوغ كاملة الأهلية للالتزامات المالية سواء بسواء.
(٩) عودة الحجاب (٢/ ٣١٩، ٣٢٠).

فى غير إسراف أو تبذير.

۞ ولقد ثبت فى فضل النفقة على الأهل والأولاد أحاديث كثيرة:

۞ منها: ما رواه سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: **«إنك مهما أنفقت على أهلك من نفقة فإنك تُؤجَر، حتى اللقمة ترفعها إلى فِيِّ امرأتك»**(١).

۞ ومنها: ما رواه أبو مسعود الأنصارى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها، كانت له صدقة»(٢).

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: **«دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة(٣)، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك»**(٤).

***

(٢٨٢) وعَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ حَيْدةَ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله ما حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدنَا عَلَيْه؟ قال: «أَن تُطْعمَها إذَا طَعِمْتَ، وتَكْسُوهَا إذَا اكْتَسيْتَ ولا تَضْربِ الْوَجهَ، وَلا تُقَبِّح، ولا تَهْجُرْ إِلّا فى الْبَيْتِ»(٥).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٢) قوله ﷺ: «وهو يحتسبها» يفيد منطوقه أن الأجر فى الإنفاق إنما يحصل بقيد قصد القُربة، سواء كانت واجبة أو مباحة... أفاده القرطبى، كما نقله عنه فى «فتح البارى» (١ / ١٣٦).

والحديث أخرجه البخارى (٥٣٥١) كتاب النفقات، ومسلم (١٠٠٢) كتاب الزكاة.

۞ فائدة: قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (النفقة على الأهل واجبة بالإجماع، وإنما سمَّاها الشارع صدقة خشية أن يظنوا أن قيامهم بالواجب لا أجر لهم فيه، وقد عرفوا ما فى الصدقة من الأجر، فعرَّفهم أنها لهم صدقة حتى لا يُخرجوها إلى غير الأهل إلا بعد أن يكفوهم، ترغيبًا لهم فى تقديم الصدقة الواجبة قبل صدقة التطوع) اهـ.من «الفتح» (٩ / ٤٩٨).

(٣) أى: فى إعتاقها.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٩٩٥) كتاب الزكاة.

(٥) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧).

وقال: معنى «لا تُقَبِّح» أى: لا تقُلْ قَبَّحَكِ الله.

۞ ففى هذا الحديث أن معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النبى ﷺ سؤالًا .. وكان هذا دأب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أن يسألوا النبى ﷺ عن كل شىءٍ ليتعلموا وليعملوا بما تعلموه .. وليس كحال كثيرٍ من الناس فى هذه الأيام تراهم يُكثرون من السؤال من أجل أن تكون عندهم ثقافة دينية ثم لا تراهم يعملون بذلك العلم ولا يظهر ذلك على أخلاقهم ومعاملاتهم وسلوكياتهم ... فالواجب على المسلم أن يعمل بما يتعلمه من شرع الله ومن سُنة رسول الله ﷺ لأن هذا العلم سيكون حُجة عليه بين يدى الله يوم القيامة.

۞ المهم أن معاوية سأل النبى ﷺ قائلًا: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟

فقال له ﷺ: «**أن تُطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت**» أى: لا تَخُص نفسك بالطعام والكسوة دونها فهى شريكة حياتك فيجب عليك أن تُنفق عليها كما تنفق على نفسك .... وتأمل معى قول النبى ﷺ حينما قال: «**أن تُطعمها إذا طعمت**» فمعنى هذا الكلام أنك إذا لم تجد طعامًا لنفسك فهى شريكة معك أيضًا فى الجوع .. وفى العبارة الأخرى «**وتكسوها إذا اكتسيت**» فإن لم يكن عندك مالٌ لتشترى كسوة جديدة لنفسك فهى شريكة معك فى نفس الحال .. فهى شريكتك - كما يقول العوام - على الحلوة والمُرة- وما أقبح أن يتعاطى الرجل أطايب الطعام، ويلتذ بأشهى الشراب فى المطاعم والنوادى والرحلات، ثم يبخل بشىءٍ منه على زوجته وأولاده، كما يَصدُر ممن لا مروءة له.

حدَّث القالى قال: كان رجل من أهل الشام مع الحَجَّاج يحضر طعامه، فكتب إلى امرأته يُعلمها بذلك، فكتبت إليه:

أيُهْدَى إلىَّ القِرطاس والخبز حاجتى ... وأنت على باب الأميرِ بطينُ

إذا غبتَ لم تذكر صديقًا ولم تقِمْ ... فأنت على ما فى يديك ضنينُ

فأنت ككلب السوء ضيَّع أهله   فيُهزل أهل البيت وهو سمينُ

فإن لم تنفق على زوجتك فقد قال كثيرٌ من أهل العلم: إذا لم يُنفق الرجل على زوجته، وطالبت بالفسخ عند القاضى فللقاضى أن يفسخ النكاح؛ لأنه قصَّر بحقها الواجب لها.

❁ **قوله ﷺ: «ولا تضرب الوجه ولا تُقبِّح».**

أى: لا تضربها إلا لسببٍ .. والأفضل ألا تضربها؛ لأن النبى ﷺ لم يضرب امرأة أبدًا طيلة حياته ﷺ .. وهو أسوتنا وقدوتنا..

لكن على العموم إذا حدث شىء وأردت أن تضربها فاضربها ضربًا غير مُبرح لا يُهشم عظمًا ولا يُشوِّه جسدًا ولا تضربها على وجهها؛ لأن الوجه موضع تكريم الإنسان وهو أشرف موضع فى جسد الإنسان ... فإذا ضُرب الإنسان على وجهه كان ذلك إذلالًا له... ولذلك لا يجوز أن تضرب أى إنسانٍ على وجهه سواء كان زوجةً أو ابنًا أو أخًا صغيرًا أو غير ذلك .. فهناك نهىٌ عام عن ضرب أى وجه .. حتى وجه الحيوان - أعزكم الله- فيكون الضرب على الكتف أو الذراع أو الظهر ويكون ضربًا غير مُبرح .. وأُكرر أن الأفضل عدم الضرب ؛ لأن هذا هو هدى النبى ﷺ وفعله.

❁ **قوله ﷺ: «ولا تُقبح»** أى: لا تقل لها: يا قبيحة .. أو: أنتِ قبيحة أو قبَّح الله وجهك.. ويشمل التقبيح النهى عن التقبيح الحسِّى والمعنوى .. فلا تقل لها: أنتِ من عائلة سيئة أو وضيعة أو غير ذلك.

❁ **قوله: «ولا تهجر إلا فى البيت»** يعنى إذا وُجِدَ أى سببٍ للهجر فلا تهجرها علنًا أمام أهلك أو أهلها وتُظهر للناس أنك هجرتها ؛ لأن هذا يوسِّع حدة الخلاف والمشاكل .. بل اهجرها فى البيت وفى نفس الفراش بأن تُعطيها ظهرك أو تنام فى غرفة مجاورة إن أحببت لكن لا تُخبر أحدًا فعسى أن ينتهى الخلاف خلال يومٍ أو يومين فتعود الحياة والعِشرة الجميلة بينكما كما كانت.

(٢٨٣) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤْمنين إِيمَانًا أَحسنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيارُكُمْ خيارُكم لِنِسَائِهِم»(١).

۞ من المعلوم أن درجات الإيمان تتفاوت وتتفاضل بين إنسانٍ وآخر.. فمن الناس مَن يؤمن بكل ما فى الدار الآخرة وكأنه يرى أرض المحشر والميزان والصحف والصراط والجنة والنار أمام عينيه..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أى: ومن الناس مَن هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفًا، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أى: إن استمر رزقه رغدًا، ولم يحصل له من المكاره شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه.

فهذا، ربما أن الله يعافيه، ولا يُقيض له من الفتن، ما ينصرف به عن دينه، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب(٢) ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

إن أصابته فتنة فى بدنه، أو ماله، أو أهله انقلب على وجهه واعترض على القضاء والقدر، وتَسخَّط وهلك والعياذ بالله ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾.

فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا .. وفى هذا حَثٌّ على أن يتخلق المسلم بالأخلاق الحسنة مع الخالق (جلَّ وعلا) ومع الخلق.

فأما حُسن الخلق مع الخالق (سبحانه وتعالى) فبأن يرضى العبد بشريعته (جلَّ وعلا) وينقاد إليها ويمتثل الأوامر والنواهى راضيًا مطمئنًا مُسلِّمًا ... وأن يرضى بقضاء الله وقدره ولا يعترض ولا يتسخط على أقدار الله .. بل يكون شعاره دائمًا: كل ما جاء من عند الحبيب فهو حبيب.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٣٢).

(٢) تفسير السعدى (ص ٦٢١).

فيقول: يا رب كل شيء من عندك، فأنا راضٍ بك ربًّا، إن أعطيتنى ما يسرنى شكرت، وإن أصابنى ما يسوءنى صبرت... فيرضى بالله، قضاءً وقدرًا وأمرًا وشرعًا.. هذا حسن الخلق مع الله. أما حسن الخلق مع الناس، فكفُّ الأذى وبذلُ الندى، والصبر عليهم وعلى أذاهم، هذا من حُسن الخُلق مع الناس.

ومن أحق الناس بحُسن خُلقك بعد الوالدين: زوجتك التى يجب عليك أن تُعاشرها بالمعروف كما أمركَ الله وكما أمركَ رسول الله ﷺ.

ولذا قال النبى ﷺ: **«وخياركم خياركم لنسائهم»** .. وذلك لأن الأقربين أَولَى بالمعروف ... ومع ذلك فهناك مَن يخالف وصية النبى ﷺ فيتعامل مع زُملائه وأصحابه وجيرانه أفضل معاملة ويبتسم فى وجوههم ويقضى معهم أجمل الأوقات ... فإذا عاد إلى بيته تحوَّل إلى وحشٍ كاسر فيدخل البيت عابس الوجه لا يتكلم إلا بالكلمات البذيئة.. تتسول منه امرأته الكلمة الطيبة والبسمة الحانية فلا تجدها.

أيها الأخ الحبيب والزوج الكريم: أما استوقفك قول النبى ﷺ: **«خياركم خياركم لنسائهم»**.. فمعنى ذلك أن الزوج إذا كان سيئ الخلق مع امرأته فسوف ينقلب لفظ الحديث إلى: «وشراركم شراركم لنسائهم».. فهل ترضى أن يصفك النبى ﷺ بهذا الوصف ثم تلقاه على الحوض يوم القيامة على هذا الحال؟

حبيبى فى الله: ما الذى يمنعك أن تبتسم فى وجه زوجتك وقد قال النبى ﷺ: **«تبسُّمك فى وجه أخيك صدقة»**[1] ..وزوجتك هى أختك قبل أن تكون زوجتك.. بل قال النبى ﷺ: **«لَا تَحقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»**[2].

وأظن أن أَولَى الناس بطلاقة الوجه هى زوجتك .. هى شريكة حياتك هى رفيقة دربك .. هى قرة عينك.

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٠٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة والآداب.

۞ وما الذى يمنعك أن تُسلم على زوجتك إذا دخلت البيت فتكون قد امتثلت أمر ربك عَزَّوَجَلَّ ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وتكون قد امتثلت وصية النبى ﷺ حينما قال لأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»(١).

۞ وما الذى يمنعك أن تدخل على زوجتك بهدية بسيطة كل أسبوع .. حتى لو كانت وردة جميلة لتُدخل السعادة على قلبها.

۞ وما الذى يمنعك أن تأخذ زوجتك كل أسبوعٍ فى نُزهة سريعة لمدة ساعتين فى أى مكانٍ طيب ليس فيه معصية لله (جلَّ وعلا) لتجدد نشاطها الإيجابى فتُقبل على الطاعة .. وتجدد نشاطها الجسدى فتقوم بأعباء البيت على الوجه الأمثل.

۞ احرص على أن تكون ممن قال النبى ﷺ عنهم: «**وخياركم خياركم لنسائهم**».

(٢٨٤) وعَنْ إياس بن عبد الله بن أبى ذُباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَضْربُوا إِمَاءَ الله» فَجاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله ﷺ، فَقَالَ: ذَئِرْنَ النِّساءُ عَلَى أَزْواجهنَّ، فَرَخَّصَ فى ضَرْبِهنَّ فَأَطَاف بآلِ رسولِ الله ﷺ نِساءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْواجُهُنَّ، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَطَافَ بآلِ بَيْت مُحمَّدٍ نِساءٌ كَثِيرُ يشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أُولئك بخيارِكُمْ»(٢).

۞ قوله ﷺ: « **لاَ تَضْربُوا إِمَاءَ الله** » أى: لا تضربوا النساء.. لأن المرأة يُقال لها: أَمَة الله كما يُقال للرجل: عبد الله.. ويُقال للنساء: إماء الله كما يُقال للرجال:

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الكلم الطيب (٦٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٧).

وقوله: «ذَئِرْنَ»، أى: اجْتَرأْنَ - قوله: «أطافَ» أى: أحاطَ.

عباد الله.

فالشاهد أن النبى ﷺ نهى أصحابه وأمته من بعدهم عن ضرب النساء فكَفُّوا جميعًا عن ضرب النساء فلم يُعلم أن أحدًا من الصحابة قد ضرب امرأة قط .. وذلك لأن الصحابة كانوا خير القرون وكانوا من الطراز الأول الذين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ﷺ قالوا: سمعنا وأطعنا.

فلما كَفَّ الصحابة عن ضرب النساء اجترأن على أزواجهنَّ .. كما قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، إن النساء ذئرن على أزواجهن، يعنى اجترأن وتعالين على الرجال .. فلما سمع النبى ﷺ ما قال عمر أجاز ضربهن، فأفرط الرجال فى ذلك وجعلوا يضربونهن ضربًا شديدًا بعد ما حدث من جُرأة النساء عليهم.. فنحن نعلم أن الرجل العربى فى ذلك الوقت لم يكن يحتمل أن ترفع المرأة صوتها عليه أو أن تنظر إليه نظرة لا تُعجبه..

فلما أكثر الرجال من ضرب النساء طافت النساء بآل النبى ﷺ .. أى ببيوته ﷺ وجعلن يتجمعن حول بيوت النبى ﷺ يشكون أزواجهن.

فقام النبى ﷺ **يخطب** فى أصحابه بعد أن اجتمعوا ويقول لهم: «**لَقَد أَطَافَ بآلِ بَيْت مُحمَّدٍ نِساءٌ كَثيرُ يشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أُولئك بخيارِكُمْ**» أى: أن مَن يضرب زوجته بلا سبب .. أو حتى يضربها لسببٍ ضربًا مُبرحًا مؤلمًا فهذا ليس من خيار الرجال. وذلك لأن النبى ﷺ وصف خيار الرجال بهذا الوصف: «**خياركم خياركم لنسائهم**».. فخير الرجال هو الذى يُكرم زوجته ويُؤدبها بالوعظ والهجر ويجعل الضرب آخر العلاج (مثل الكيِّ) ويكون بالضوابط الشرعية التى ذكرناها قبل ذلك.. فدَلَّ هذا على أن الإنسان لا يُفْرِط ولا يُفَرِّط فى ضرب أهله، إن وجد سببًا يقتضى الضرب فلا بأس.

وقد بيَّن الله عز وجل مراتب ذلك فى كتابه فقال: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

المرتبة الثالثة: الضرب، وإذا ضربوهن فليضربوهن ضربًا غير مُبرح.

۞ ومع أن القرآن أباح للزوج ضرب الزوجة ضربًا غير مُبرح عند الضرورة إلا أن ترك الضرب والاكتفاء بالتهديد أفضل، وذلك لأن النبى ﷺ لم يضرب امرأة قط فى حياته أبدًا.

(٢٨٥) وعَنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتاعهَا المَرْأَةُ الصَّالحةُ»(١).

۞ **قوله ﷺ: « الدُّنْيَا مَتَاعٌ »** أى: أن الدنيا شىء يتمتع به الإنسان كما يتمتع المسافر بزاده ثم ينتهى .. كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠] .. فالدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة التى يُزينها دينها وعقلها وأخلاقها ... فهذه المرأة هى خير متاع الدنيا؛ لأنها تحفظ زوجها فى بيته وولده وماله وعِرضه وسِرِّه وتُدبر له حياته .. تَسُره إذا نظر إليها وتُطيعه إذا أمرها .

ولذا قال رسول الله ﷺ: «تُنكَح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك»(٢).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أى النساء خير؟، قال: **«التى تسُرُّه إذا نظر، وتُطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسِها ولا مالها بما يكره»**(٣).

وعن سعد رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من السعادة، وثلاثة من الشقاء، فمن السعادة: المرأة الصالحة؛ تراها فتُعجِبُكَ، وتغيب عنها فتأمنُها على نفسِها ومالك...»(٤).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٦٧) كتاب الرضاع.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٦٦) كتاب الرضاع

(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٩٨).

(٤) حسن: رواه الحاكم فى المستدرك، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٥٦).

۞ ومن العجب أنك تجد مَن يبحث عن الجمال أو المال أو الحسب والنسب ولا يبحث عن ذات الدين التي يجعلها الله بركة عليه وعلى بيته وأولاده..

وأقول أنه لا مانع من أن تبحث عن زوجة متدينة وجميلة.. أو متدينة وذات حسبٍ ونسب..لكن الأصل الذي تختار من أجله هو الدين.. عملًا بوصية النبي ﷺ **«فاظفر بذات الدين تربت يداك»**.

۞ وهذا مثالٌ حيٌّ لشابٍّ وقع أسيرًا لعنصر الجمال.

- يحكي لنا الشاعر قصته فيقول:

بعث امرؤٌ لأبي عزيزة مرةً ... برسالة يُبكي ويُضحك ما بها

فيها يقول أريد منك صبية ... حسناء معروفٌ لديكم أصلها

وعفيفة وحليمةً وأديبةً ... ورشيدة ورزينة في عقلها

قد أحرزت في العلم غيرَ شهادة ... وعلى النِّسا تُرى تَفوق بفضلها

وتكون ذات مالٍ وافرٍ ... تعطيه من بعد الزواج لبعلها

۞ فردَّ عليه أبو عزيزة قائلاً:

وافَى كتابُك سيدي فقرأْتُه ... وعرفت هاتيك المطالب كلها

لو كنت أقدر أن أرى مَن تشتهي ... طلقتُ أم عزيزةٍ وأخذتها

(٣٥) باب حق الزوج على المرأة

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [النساء: ٣٤].

(٢٨٦) وأَمَّا الأَحاديثُ فَمِنْهَا حَدِيثُ عَمْرو بنِ الأَحوَصِ السَّابقُ فى الْباب قَبْلَهُ.

لما ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ حقوق الزوجة على زوجها ذكر بعدها حقوق الزوج على زوجته .. وهذا من باب العدل والإنصاف .

ثم استدل بقول الله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أى قائمون عليهن بالأمر والنهى، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ ﴾ أى بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير، وخَصَّهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب ... قال أبو السعود: «والتفضيلُ للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأى ومزيد القوة، ولذلك خُصُّوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك»[1] ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان: قسمٌ صالحات مطيعات، وقسمٌ عاصيات متمردات...فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن، قائمات بما عليهن من حقوق، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن حافظات لما يجرى بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويَجمُل ستره ...

وفى الحديث: «إن من شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة، الرجلُ يُفْضى إلى امرأته وتُفْضى إليه ثم ينشر أحدهما سرَّ صاحبه» ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ هذا

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٣٣٩).

القسم الثانى وهنَّ النساء العاصيات المتمردات .. أى واللاتى يتكبرون ويتعالين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سُبل الإصلاح ﴿ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ أى فخوفوهنَّ الله بطريق النُّصح والإرشاد، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجروهنَّ فى الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن ... قال ابن عباس: الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره[1]، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مُبَرّح ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ أى فإن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ أى فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. .

انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مُبَرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لِيُنبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين![2]

(٢٨٧) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دعَا الرَّجُلُ امْرأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فلَمْ تَأْتِهِ فَبَات غَضْبانَ عَلَيْهَا لَعَنتها الملائكةُ حَتَّى تُصبحَ»[3].

وفى رواية لهما: «إِذَا بَاتَتِ المَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجهَا لَعنتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصبحَ»...وفى رواية قال رسولُ الله ﷺ: «والَّذى نَفْسِى بيَدِهِ مَا مِن رَجُلٍ يَدعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذى فى السَّماءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرضَى عَنْها».

❁ ومن أعظم الحقوق التى يجب على الزوجة أن تطيع فيها الزوج فى أى

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦).
(٢) صفوة التفاسير (١/ ٢٥١-٢٥٢).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٩٣) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٣٦) كتاب النكاح.

وقتٍ يشاء ويريد، حق الزوج فى الفراش، فإن الزوجة إن امتنعت عن زوجها إن دعاها لفراشه بغير سبب فقد ارتكبت كبيرة من الكبائر.

فإن امتنعت المرأة عن الزوج للدلال أو للضغط عليه، أو من أجل أن يأتى الزوج لها بما تشتهى، وبما تريد بغير سببٍ شرعى فقد ارتكبت الزوجة كبيرة من الكبائر.

فقد قال ﷺ: «إِذَا دعَا الرَّجُلُ امْرأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فلَمْ تَأْتِهِ فَبَات غَضْبانَ عَلَيْهَا لَعَنتهَا الملائكَةُ حَتَّى تُصبْحَ».

ولعن الملائكة يعنى أنها تدعو على هذه المرأة باللعنة ... واللعنة هى الطرد والإبعاد عن رحمة الله ... فإذا دعاها إلى فراشه ليستمتع بها بما أذن الله له فيه فأبت أن تجىء، فإنها تلعنها الملائكة والعياذ بالله، أى تدعو عليها باللعنة إلى أن تُصبح.

قال الإمام النووى: «هذا دليل على تحريم امتناعها من فراشه لغير عُذر شرعى، وليس الحيض بعذر فى الامتناع؛ لأن له حقًّا فى الاستمتاع بها فوق الإزار.

ومعنى الحديث: أن اللعنة تستمر عليها حتى تزول المعصية بطلوع الفجر والاستغناء عنها أو بتوبتها ورجوعها إلى الفراش[١] اهـ.

وعن عبد الله بن أبى أَوْفى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده، لا تؤدِّى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها، ولو سألها نفسها وهى على قَتَب[٢]، لم تمنعه نفسها»**[٣].

وفى الرواية الأخرى أن النبى ﷺ قال: «والَّذِى نَفْسِى بيَدِهِ مَا مِن رَجُلٍ يَدعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْبَى عَلَيْهِ إلاَّ كَانَ الَّذى فى السَّماءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْها».

---

(١) انظر: «صحيح مسلم بشرح النووى» (١٠/ ٩).

(٢) قَتَب: رَحل صغير.

(٣) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٢٩٥).

وهذا أشد من الأول؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا سخط فإن سخطه أعظم من لعنة الإنسان ... نسأل الله العافية.

ودليل ذلك أن الله تعالى ذكر فى آية اللعان أنه إذا لاعن الرجل يقول: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٧]. وهى إذا لاعنت تقول: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩]. وهذا يدل على أن الغضب أشد.

وفى هذا: دليل على عِظَم حق الزوج على زوجته، ولكن هذا فى حق الزوج القائم بحق الزوجة، أما إذا نشز ولم يَقُم بحقها، فلها الحق أن تقتصّ منه وألا تعطيه حقه كاملاً ... لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

لكن إذا كان الزوج مستقيمًا قائمًا بحقها فنشزت هى وضيعت حقه فهذا جزاؤها إذا دعاها إلى فراشه فأبت أن تأتى.

والحاصل أن هذه الألفاظ التى وردت فى هذا الحديث هى مُطَلَّقة، لكنها مقيدة بكونه قائمًا بحقها، أما إذا لم يَقُم بحقها فلها أن تقتص منه وأن تمنعه من حقه مثل ما منعها من حقها[(١)].

۞ ولقد سئل فضيلة الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى:

هل يقع على المرأة إثم إن امتنعت عن زوجها حين يطلبها بسبب حالة نفسية عابرة تمر بها، أو لمرضٍ أَلَمَّ بها؟.

الجواب: «يجب على المرأة أن تجيب زوجها إذا دعاها إلى فراشه، ولكن إذا كانت مريضة بمرضٍ عضوى لا تتمكن من مقابلة الزوج معه أو مريضة بمرض نفسى فإن الزوج فى هذه الحال لا يحل له أن يطلب ذلك لقول النبى

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٧٣).

ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»[1] وعليه أن يتوقف أو يستمتع بها على وجهٍ لا يؤدي إلى ضرر»[2] اهـ.

۞ **فالخلاصة**: أنه يجب على الزوجة أن تستجيب لأمر الزوج إذا دعاها للفراش إلا إذا كانت حائضًا فله أن يستمتع بها دون الفرج .. وكذلك إذا كانت مريضة فعليه أن يعذرها ولا يشق عليها وأن يراعى أحوال زوجته وظروفها فهذا كله من المودة والرحمة التي جعلها الله بين الزوجين.

وفي هذا الحديث: دليل صريح لما ذهب إليه أهل السُّنة والجماعة وسلف الأمة من أن الله عَزَّوَجَلَّ في السماء ... هو نفسه (جلَّ وعلا)، فوق عرشه، فوق سبع سموات، وليس المراد بقوله: «**في السماء**» أي مُلكه في السماء، بل هذا تحريفٌ للكلم عن مواضعه.

وتحريف الكلم عن مواضعه من صفات اليهود والعياذ بالله الذين حرفوا التوراة عن مواضعها وعما أراد الله بها... فإن مُلك الله سبحانه وتعالى في السماء وفي الأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٩]. وقال أيضًا: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال أيضًا: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ [الشورى: ١٢].

(٢٨٨) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيضًا أَن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحلُّ لامْرَأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلا بِإِذْنِهِ، وَلا تَأْذَنْ فى بَيْتِهِ إِلا بِإِذنِه»[3].

۞ فهذا من حقوق الزوج على زوجته، أنه لا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه ما دام حاضرًا فى البلد، أما إذا كان غائبًا فلها أن تصوم ما شاءت، لكن إذا كان فى

(١) رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني فى صحيح الجامع (٧٥١٧).

(٢) «فتاوى المرأة» لفضيلته (٦٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٩٥) كتاب النكاح، ومسلم (١٠٢٦) كتاب الزكاة.

البلد فلا تصوم.

ولذا فإنه لما جاءت امرأة صفوان بن المعطل تشكو إلى رسول الله ﷺ أمورًا ذكرت منها أنه: يُفطِّرها إذا صامت» فسأله ﷺ عما قالت، فقال فيما قال: (.... وأما قولها يُفطرنى إذا صمت، فإنها تنطلق فتصوم، وأنا رجلٌ شاب، فلا أصبر)،فقال رسول الله ﷺ يومئذ: «**لا تصومنَّ امرأة إلا بإذن زوجها**»[1] الحديث.

قال الحافظ: «وفى الحديث أن حق الزوج آكد على المرأة من التطوع بالخير، لأن حقه واجب، والقيام بالواجب مُقدَّم على القيام بالتطوع»[2].

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: عن رجل له زوجة تصوم النهار، وتقوم الليل، وكلما دعاها الرجل إلى فراشه تأبى عليه، وتُقدم صلاة الليل، وصيام النهار على طاعة الزوج، فهل يجوز ذلك؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لا يحل لها ذلك باتفاق المسلمين، بل يجب عليها أن تطيعه إذا طلبها إلى الفراش، وذلك فرضٌ واجب عليها، وأما قيام الليل، وصيام النهار، فتطوع، فكيف تُقدم مؤمنة النافلة على الفريضة؟»[3] اهـ.

۞ **والحقيقة أن الأمر فيه تفصيل:**

فالزوجة إذا أرادت أن تصوم رمضان فإنها لا تحتاج إلى إذن الزوج فى صيام الفريضة، ولا يجوز له أن يمنعها ... فإن أراد منعها فعليها أن تصوم؛ لأنه لا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق.

۞ أما إذا أرادت أن تصوم صيام نافلة أو تطوع فلا بد أن تستأذن زوجها قبل أن تبدأ فى الصيام إن كان زوجها حاضرًا.. وإن كان زوجها مسافرًا فلها أن

(١) صحيح: أخرجه أحمد، وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٥٩).

(٢) فتح البارى (٩/ ٢٩٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٧٤).

تصوم كما شاءت.

۞ وأما إذا كانت قد فاتها بعض الأيام من صيام رمضان لعذرٍ فإن كان قد بقى من السنة مدة أكثر مما يجب عليها، فلا يحل لها أن تصوم إلا بإذن زوجها إذا كان شاهدًا، يعنى مثلاً عليها عشرة أيام من رمضان، وهى الآن فى رجب، وقالت: أريد أن أصوم القضاء، نقول: لا تصومى القضاء إلا بإذن الزوج؛ لأن معك سعة من الوقت، أما إذا كان بقى فى شعبان عشرة أيام فلها أن تصوم وإن لم يأذن، لأنه لا يحل للإنسان الذى عليه قضاء من رمضان أن يؤخره إلى رمضان الثانى، وحينئذ تكون فاعلة لشىء واجب فرض فى الدين، وهذا لا يُشترط فيه إذن الزوج ولا غيره.

۞ **وقد يسأل سائل ويقول: هل تستأذن المرأة أيضًا فى الصلاة؟**

والجواب: أنها لا تستأذن فى صلاة الفريضة ولا فى صلاة النافلة ؛ لأن وقت الصلاة قصير على العكس من وقت الصيام فوقته طويل .. فإذا احتاج الزوج زوجته فله أن يطلب منها ما يُريده بعد الفريضة التى لا تستغرق سوى دقائق .. وله أن يطلب منها تأجيل النافلة حتى يقضى حاجته فى دقائق معدودات ثم تغتسل فى دقائق وتبدأ فى صلاة النوافل كما تشاء .. فالأمر بالنسبة للصلاة أيسر بكثير من الصيام.

۞ **قوله ﷺ: «ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه»** فإنه لا يجوز لها أن تُدخل أحدًا بيته إلا بإذنه ... لكن الإذن فى إدخال البيت نوعان:

الإذن الأول: إذن العُرف ... يعنى جرى به العُرف مثل دخول امرأة الجيران والقريبات والصاحبات والزميلات وما أشبه ذلك، هذا جرى العُرف به، وأن الزوج يأذن به، فلها أن تُدخل هؤلاء إلا إذا منع وقال: لا تدخل عليك فلانة، فهنا يجب المنع، ويجب ألا تدخل.

والإذن الثانى: إذنٌ لفظى، بأن يقول لها: أَدخلى مَن شئتِ ولا حرج عليكِ إلا مَن كان منه مضرة فلا تُدخليه... فيتقيد الأمر بإذنه.

(٢٨٩) وعَنْ ابن عمرَ رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسئولٌ عنْ رعِيَّته، والأميرُ رَاعٍ، والرَّجُلُ راعٍ علَى أَهْلِ بَيْتِهِ، والمرْأَةُ راعِيةٌ على بيْت زَوْجِها وولَدِهِ.. فَكُلُّكُمْ راعٍ، وَكُلُّكُمْ مسئولٌ عنْ رعِيَّتِهِ»(١).

۞ الخطاب للأمة جميعًا يبين فيه الرسول ﷺ أن كل إنسان راعٍ ومسئول عن رعيته.. والراعى هو الذى يقوم على الشىء ويرعى مصالحه فيهيئها له، ويرعى مفاسده فيُجنبه إياها... كراعى الغنم ينظر ويبحث عن المكان الخصب حتى يذهب بالغنم إليه، وينظر فى المكان المُجدب فلا يتركها فى هذا المكان.

هكذا بنو آدم... كل إنسان راع، وكلٌّ مسئول عن رعيته..فالأمير راعٍ ومسئول عن رعيته، والأمراء يختلفون فى نفوذهم وفى مناطق أعمالهم.

قد يكون هذا الأمير أميرًا على قرية صغيرة، فتكون مسئوليته صغيرة، وقد يكون أميرًا على مدينة كبيرة فتكون مسئوليته كبيرة، وقد يكون مسئولاً عن أمة، كالرؤساء فى البلاد الأخرى، وكأمراء المؤمنين فى عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهم... وكالخلفاء فى زمن بنى أمية وبنى العباس وغيرهم(٢).

والصورة التى نقف عليها فى هذا الحديث الرائع الجميل تتمثَّل فى راعٍ يرعى غنمًا.. وتنتظره محاسبة صارمة دقيقة يُحاسَب فيها حسابًا عسيرًا... يُحاسَب عن صحة الغنم وشبعها وريِّها وسلامتها ونمائها، فإذا عرف هذا الراعى أنه يترتب على المحاسبة مسؤولية تقتضى بعقابه العقاب الأليم إن أساء، ومكافئته

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٠٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٧٧).

إن أحسن .. إنه – دون شك – سيرعى غنمه عندئذ أفضل رعاية، وسيقوم بشؤونها على أتم الوجوه.

إن الحاكم والعالِم لا شك فى أن لهما دورًا كبيرًا ، ولكن ينبغى أن نقوم نحن بواجبنا الذى أوجبه الله علينا، ولا سيما فى بيوتنا وفى تربية أولادنا.

إن علينا أن نكون عونًا للعلماء العاملين وللحكام العادلين، وألا نُلقى كل شىء عليهما، ولا يستطيع العالم والحاكم أن يقوما بكل شىء.. ولذلك جاء الحديث بلفظ العموم: «كلكم راعٍ» وفى الحديث لون من تنمية الشخصية وإشعار الإنسان بقيمته...فكل امرئٍ له رعية مهما كان شأنه حتى ولو كان خادمًا. ولو شعر الناس بالمسؤولية بهذا المقياس لانحلَّت كثير من المشكلات[1].

۞ قوله ﷺ: « **والرَّجُلُ راعٍ علَى أَهْلِ بَيْتِهِ ، والمرْأَةُ راعِيةٌ على بيْت زَوْجِها وولَدِهِ فَكُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسئولٌ عنْ رعِيَّتِهِ** ».

وفى الحقيقة أن مسؤولية الرجل عن البيت والأسرة والأولاد تبدأ من قبل الزواج وذلك بأن يُحسن اختيار الزوجة الصالحة التى ستكون أُمًّا لأولاده بعد ذلك وسيرضعون من أخلاقها كل الخصال والأخلاقيات الطيبة.

۞ ويستمر دور الأب فى تلك المسئولية الكبيرة بأن يُحصن أولاده قبل مجيئهم إلى هذه الدنيا، ويكون ذلك عند الزواج وقبل الدخول بالزوجة يُسَنُّ للزوج أن يأخذ بناصيتها ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما جبلتها عليه**»[2].

وعند الدخول بالزوجة يُسَنُّ للزوج أن يقول: «**بسم الله اللهم جَنِّبنا الشيطان وجَنِّب الشيطان ما رزقتنا**» وهذا سُنة عند كل جماع.

---

(١)من هدى النبوة / د. محمد لطفى الصباغ (ص ٣٨٨-٣٩٠) بتصرف كبير.

(٢) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤١).

ففى «الصحيحين» أنَّ النبى ﷺ قَالَ: «**أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِى أَهْلَهُ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنِى الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا فِى ذَلِكَ، أَوْ قُضِىَ وَلَدٌ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا**»(١).

ثم يختار لهم الأسماء الحسنة الطيبة:

ففى «صحيح مسلم» من حديث عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحمَنِ**»(٢).

ثم يأمرهم بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين.

قال رسول الله ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِين وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِى الْمَضَاجِعِ**»(٣).

ومن حسن التربية تَفَقُّد أحوال الأولاد والنظر فى أصدقائهم: وحثهم على اختيار الأصدقاء الصالحين وتحذيرهم من أصدقاء السوء.

ففى «الصحيحين» من حديث أَبِى مُوسَى الأشعرى رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»(٤).

۞ ويحرص الأب على أن يُربى أولاده على العقيدة الصحيحة ويحذرهم من الوقوع فى الشرك الأكبر والأصغر.

ويحرص كل الحرص على أن يُحفظهم القرآن وأن يُعلمهم العلم الشرعى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٧١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٤٣٤) كتاب النكاح.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٣٢) كتاب الآداب.

(٣) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٦٨).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٤) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة.

وأن يقرأ عليهم سيرة الرسول ﷺ وأصحاب الرسول ليتعلموا سيرة أُسوتهم وقدوتهم محمد ﷺ وسيرة أصحابه رضي الله عنهم فينشأوا نشأة طيبة صالحة فيحبوا الصالحين ويحبوا صُحبتهم ... بل ويحرص على أن يُعلمهم أخلاق الرسول ﷺ لتكون لهم نبراسًا فى حياتهم.

۞ وكذلك المرأة يجب عليها أن تكون راعية فى بيت زوجها فتحفظه فى ماله وعِرضها وتحفظه فى أولاده فتهتم بشئونهم وتُربيهم على الأخلاق الحميدة وتهتم بطعام زوجها وأولادها ونظافة ونظام البيت الذى يعيشون فيه وتهتم بدروس أولادها وتحرص على تفوقهم فى الدراسة ..

وهكذا تكون المرأة ميزان البيت الذى يحفظ البيت من كل ما يهدمه ... فهى راعية وأمينة على زوجها وأولادها ويكون عليها النصيب الأكبر فى تربية الأولاد الذين هم ثمرة المستقبل.

۞ هكذا يكون الأب راعيًا فى أهله .. وهكذا تكون الأم راعية فى بيتها ... لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا أن نقى أنفسنا وأهلينا نار جهنم.. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ أى يا من صدقتم بالله ورسوله ﷺ وأسلمتم وجوهكم لله، احفظوا أنفسكم، وصونوا أزواجكم وأولادكم، من نارٍ حامية مستعرة، وذلك بترك المعاصى وفعل الطاعات، وبتأديبهم وتعليمهم... قال مجاهد: أى اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله وقال الخازن: أى مُروهم بالخير، وانهوهم عن الشر، وعلموهم وأدبوهم حتى تقوهم بذلك من النار[1]، والمراد بالأهل النساءُ والأولاد وما أُلحق بهما ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أى حطبها الذى تُسعَّر به نار جهنم هو الخلائق والحجارة... قال المفسرون: أراد بالحجارة حجارة الكبريت، لأنها أشد الأشياء حرًّا، وأسرع اتِّقادًا...وعَنى بذلك

(١) تفسير الخازن (٤/ ١٢١).

أنها مُفرطة الحرارة، تتقد بما ذُكر، ليست كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه ... قال ابن مسعود: حطبها الذى يُلقَى فيها بنو آدم، وحجارةٌ من كبريت، أنتن من الجيفة[١] ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أى على هذه النار زبانيةٌ غلاظ القلوب، لا يرحمون أحدًا، مُكلَّفون بتعذيب الكفار ... قال القرطبى: المراد بالملائكة الزبانية، وهم غِلاظ القلوب لا يرحمون إذا استُرحموا، لأنهم خُلقوا من الغضب، وحُبِّب إليهم عذاب الخلق كما حُبب لبنى آدم أكل الطعام والشراب[٢] ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ أى لا يعصون أمر الله بحالٍ من الأحوال ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ أى وينفِّذون الأوامر بدون إمهال ولا تأخير[٣].

***

(٢٩٠) وعَنْ أبى علىٍّ طَلْق بن علىٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا دعا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّور»[٤].

۞ قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ» أَىْ الْمُخْتَصَّةُ بِهِ كِنَايَةً عَنِ الْجِمَاعِ «فَلْتَأْتِهِ» أَىْ لِتُجِبْ دَعوَتَهُ «وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّورِ» أَىْ وَإِنْ كَانَتْ تَخْبِزُ عَلَى التَّنُّورِ مَعَ أَنَّهُ شُغْلُ شَاغِلٍ لَا يُتَفَرَّغُ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ إِلَّا بَعدَ انقضائه.

قال ابن الْمَلِكِ: هَذَا بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ الْخُبْزُ لِلزَّوْجِ لِأَنَّهُ دَعَاهَا فِى هَذِهِ الْحَالَةِ فَقَد رَضِىَ بِإِتْلَافِ مَالِ نَفْسِهِ...وَتَلَفُ الْمَالِ أَسْهَلُ مِنْ وقوع الزوج فى الزنى[٥].

وقد تحدثنا عن شرح ذلك بالتفصيل عند شرح الحديث رقم (٢٨٧).

فأرجو مراجعة شرحه... بارك الله فيكم.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٣).

(٢) تفسير القرطبى (١٨/ ١٩٦).

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٣٨٦).

(٤) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٤).

(٥) تحفة الأحوذى (٤/ ٢٤).

(٢٩١) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أحَدًا أَنْ يسْجُدَ لأَحدٍ لأَمَرْتُ المرأة أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»(١).

۞ قَوْلُـهُ ﷺ: «لأَمَـرْتُ الْمَـرْأَةَ أَنْ تَـسْجُدَ لِزَوْجِهـا» أَىْ لِكَثْـرَةِ حُقُوقِـهِ عَلَيْهَـا وَعَجْزِهَا عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا. وفِى هَذَا غَايَـةُ الْمُبَالَغَـةِ لِوُجُـوبِ إِطَاعَـةِ الْمَـرْأَةِ فِـى حَقِّ زَوْجِهَا فَإِنَّ السَّجْدَةَ لَا تَحِلُّ لِغَيْرِ اللهِ(٢).

۞ وأذكر بمناسبة هذا الحديث قصة عجيبة.

الجمل يسجد للحبيب ﷺ

فى يوم من الأيام كان هناك أهل بيت من الأنصار عندهم جمل يسقون عليه أرضهم فأصبح الجمل مفترسًا لا ينقاد لهم فذهبوا إلى النبى ﷺ يشكون إليه حالهم وأنهم قد أجدبت أرضهم بسبب ذلك الجمل.

فذهب معهم النبى ﷺ ... وكان الصحابة يخافون عليه من ذلك الجمل ولكن النبى ﷺ أخبرهم أنه لن يصيبه بسوء.. واقترب من الجمل فجاء الجمل إليه مسرعًا حتى سجد بين يديه فقام النبى ﷺ وأخذ بناصيته حتى أدخله فى العمل مرة أخرى..

۞ وها هى القصة كاملة نذكرها من خلال هذا الحديث:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه (أى: يسقون عليه) وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسنى عليه، وأنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل...فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٩٤).
(٢) تحفة الأحوذى (٤/ ٥٣).

«قوموا» فقاموا، فدخل الحائط -البستان-.. والجمل في ناحيته، فمشى النبى ﷺ نحوه فقالت الأنصار: يا رسول الله إنه قد صار مثل الكلب الكَلِب(١) وإنَّا نخاف عليك صَولته، فقال: «ليس عليَّ منه بأس»،فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خَرَّ ساجدًا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قَط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه، يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك فقال: «**لا يصلح لبشرٍ أن يسجد لبشرٍ، ولو صلح لبشرٍ أن يسجد لبشرٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقه عليها، والذى نفسى بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تتفجر بالقيح والصديد ثم استقبلته فلحسته ما أدَّت حقه**»(٢).

***

(٢٩٢) وعَنْ أُمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّما امرأةٍ ماتَتْ وزوْجُهَا عنها راضٍ دخلَتِ الجَنَّةَ**»(٣).

۞ هذا الحديث ضعيف ولكن معناه صحيح.. وقد وعدتكم ألا أشرح حديثًا ضعيفًا .. نفعنى الله وإياكم بالسُّنَّة الصحيحة الثابتة عن حبيبنا محمد ﷺ.

***

(٢٩٣) وعَنْ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «لا تُؤْذِى امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فى الدُّنْيا إِلَّا قالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الحُورِ الْعِينِ لا تُؤْذِيه قَاتلَكِ الله، فَإِنَّمَا هُو عِنْدَكِ دخيلٌ يُوشِك أَنْ يُفارِقَكِ إِلينا»(٤).

۞ **قوله ﷺ: « لا تُؤْذِى امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فى الدُّنْيا »** أى: بأى نوعٍ من أنواع الإيذاء

(١) أى: الكلب المفترس.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى فى صَحِيح الْجَامِع (٧٧٢٥).

(٣) ضعيف: رواه الترمذى، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٢٢٧).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١٩٢).

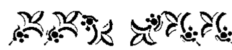
.. فكل زوجة تعلم جيدًا ما الذى يؤذى زوجها..

«**إِلَّا قالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الحُورِ الْعِينِ**» أى أن زوجته من الحور العين التى هى من نساء أهل الجنة تغار على زوجها الصالح من أهل الدنيا وتقول لزوجته إذا آذته: «**لا تُؤْذِيه قَاتلَكِ الله**» أى: قتلك أو لعنك أو عاداكِ.

(فَإِنَّمَا هُوَ) أَىْ الزَّوْجُ (عِنْدَكَ دَخِيلٌ) أَىْ ضَيْفٌ وَنَزِيلٌ .. يَعنِى هُوَ كَالضَّيْفِ عَلَيْكَ وَأَنْتِ لَسْتِ بِأَهْلٍ لَهُ حَقِيقَةً وَإِنَّمَا نَحنُ أَهْلُهُ فَيُفَارِقُكَ وَيَلْحَقُ بِنَا (يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَ إِلَيْنَا) أَىْ وَاصِلًا إِلَيْنَا[1].

فلتَحذر المسلمة المؤمنة أن تكون من أولئك النساء المولعات بمخالفة أزواجهن... فلا تُؤمَر الواحدة منهن بشيء إلا سارعت إلى مخالفته حتى ولو كان فيه مصلحتها ... إن هؤلاء يقعن فى سخط الله، ويُعرضن حياتهن للدمار، وتدعو عليهن الحور العين.

فاحرصى يا أختاه على إدخال السعادة والسرور على زوجك فإن الغريب يأنس إلى غريبٍ مثله ونحن فى غُربة لا يعلمها إلا الله ... فعلينا أن نتراحم فيما بيننا لتكون المودة والرحمة بين الزوج وزوجه كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].



(٢٩٤) وعَنْ أُسامَةَ بنِ زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبى ﷺ قال: «ما تركْتُ بعدِى فتْنَةً هى أَضرُّ عَلَى الرِّجالِ مِنَ النِّسَاءِ»[2].

۞ لقد أشار القرآن الكريم إلى خطر الفتنة بالمرأة، فقال سبحانه وتعالى:

---

(١) تحفة الأحوذى (٤/ ٣٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الذكر والدعاء.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾[آل عمران: ١٤].

فقدَّم سبحانه النساء لعراقتهن فى هذا الباب، ولأن أكثر الرجال إنما دخل عليهم الخلل من قِبل هذه الشهوة... ولعله لأجل ذلك أيضًا قدَّم سبحانه وتعالى المرأة على الرجل فى قوله جل وعلا: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾[النور: ٢]، وقال سبحانه وتعالى حاكيًا عن عزيز مصر: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾[يوسف: ٢٨].

وبيَّن النبى ﷺ خطر فتنة النساء قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان.

فقال ﷺ: «**إن الدنيا حُلوة خَضِرة، وإن الله مُستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء**»(١).

وقال ﷺ: «**ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء**»(٢).

وقال ﷺ: «**المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان**»(٣).

قال الطيبى: «والمعنى المتبادر أنها ما دامت فى خِدرها لم يطمع الشيطان فيها، وفى إغواء الناس... فإذا خرجت طمع؛ وأطمع لأنها حبائله، وأعظم فخوخه».

قال المنذرى: «أى ينتصب ويرفع بصره إليها، ويهم بها، لأنها قد تعاطت سببًا من أسباب تسلُّطه عليها، وهو خروجها من بيتها».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنما النساء عورة، وإن المرأة لتخرج من بيتها ما بها بأس، فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لا تمرين بأحدٍ إلا أعجبته... وإن المرأة لتلبس ثيابها، فيُقال: أين تريدين؟ فتقول: أعود مريضًا، أو أشهد جنازة،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٩٠).

أو أصلي في مسجد..وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها».

فالواجب علينا أن نَسُدَّ كل طريق يُوجب الفتنة بالمرأة..فكل طريق يُوجب الفتنة بالمرأة فإن الواجب على المسلمين سَدّه..ولذلك وجب على المرأة أن تحتجب عن الرجال الأجانب، فتلبس حجابها ويجب عليها كذلك أن تبتعد عن الاختلاط بالرجال؛ لأن الاختلاط بالرجال فتنة وسببٌ للشر من الجانبين، من جانب الرجال ومن جانب النساء.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**» وما ذلك إلا من أجل بُعد المرأة عن الرجال..فكلما بعدت فهو خيرٌ وأفضل.

وقد كان النبي ﷺ يأمر النساء أن يخرجن إلى صلاة العيد، ولكنهن لا يختلطن مع الرجال، بل يكون لهن موضع خاص،

وكان هذا ..والعصر عصر قوة في الدين وبُعد عن الفواحش، فكيف بعصرنا هذا؟.

فإن الواجب تَوقِّي فتنة النساء بكل ما يُستطاع، ولا ينبغي أن يغرنا ما يدعو إليه أهل الشر والفساد من المُقلدين للكفار، من الدعوة إلى اختلاط المرأة بالرجال، فإن ذلك من وحي الشيطان والعياذ بالله..هو الذي يُزين ذلك في قلوبهم، وإلا فلا شك أن الأمم التي كانت تُقدم النساء وتجعلهن مع الرجال مختلطات، لا شك أنها اليوم في ويلاتٍ عظيمة من هذا الأمر، يتمنون الخلاص منه فلا يستطيعون[1].

ومن بين تلك الويلات التي يُعاني منها المجتمع الغربي بسبب الاختلاط والإباحية والوقوع في فتنة النساء:

(١) انحلال الأخلاق:

فانحلال الأخلاق وطغيان الشهوات، وانتصار الحيوانية على الإنسانية،

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٧٩) بتصرف.

وضياع الحياء والعفاف بين النساء والرجال، واضطراب المجتمع كله نتيجة ذلك.

ولقد قال الرئيس الراحل «كينيدى» فى تصريح مشهور له، تناقلته الصحف ووكالات الأنباء عام ١٩٦٢: «إن الشَّباب الأمريكى مائع مُتْرَف مُنحل، غارق فى الشهوات، وإن من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين، بسبب انهماكهم فى الشهوات» .. وأُنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا.

(٢) في انتشار الأبناء غير الشرعيين:

وهى ظاهرة لازمة لانطلاق الغرائز، وذوبان الحواجز بين الفتيان والفتيات... وقد قامت بعض المؤسسات فى أمريكا، بعمل إحصاء للحبالى من طالبات المدارس الثانوية، فكانت النسبة مخيفة جدًّا.

(٣) كثرة العوانس بين الفتيات والعُزَّاب من الشباب:

فإنَّ وجود السُّبل الميسرة لقضاء الشهوة، بغير تحمُّل تبعة الزواج وبناء الأسرة، جعل كثيرًا من الشباب يختارون الطريق الأسهل، ويقضون أيام شبابهم بين هذه وتلك، متمتعين بلذة التنويع، دون التقيد بالحياة المُتشابهة المتكررة كما يزعمون! ودون التزام بتكاليف الزوجية والمسئولية، والأبوة الراعية.

وكان من نتيجة ذلك وجود كثرة هائلة من الفتيات، تقضى شبابها محرومة من زوج تسكن إليه ويسكن إليها، إلا العابثين الذين يتخذونها أداة للمتعة الحرام... ويقابل هؤلاء الفتيات كثرة من الشباب العُزَّاب المحرومين من الحياة الزوجية.

(٤) كثرة الطلاق وتدمير البيوت لأتفه الأسباب:

فإذا كان دون الزواج هناك عقبات وعقبات، فإن هذا الزواج، بعد تحققه غير مضمون البقاء، فسرعان ما تتحطم الأسرة، وتنفصم الروابط لأدنى الأسباب.

ففى أمريكا تزداد نسبة الطلاق عامًّا بعد عام إلى حَدٍّ مُفزع.

والذى يُقال عن أمريكا، يُقال عن معظم البلاد الغربية.

(٥) انتشار الأمراض الفتاكة:

انتشار الأمراض السرية، والعصبية، والعقلية، والنفسية، وكثرة العُقَد والاضطرابات التى يُعَد ضحاياها بمئات الألوف.

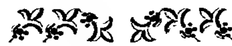
ومن أشد الأمراض خطرًا: ما اكتُشف أخيرًا وعُرف باسم «الإيدز» الذى يفقد المناعة من الجسم ويُعرضه للتهلكة...وغدا يهدد الملايين فى أوروبا وأمريكا بأخطر العواقب، كما دلَّت على ذلك التقارير الطبية والإحصاءات الرسمية التى نشرتها مجلات وصحف فى العالم كله.. وصدق بهذا ما حذَّر منه رسول الله ﷺ حيث قال فى حديثه: «**لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يُعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا**»[١].

هذا غير الأمراض العصبية والنفسية التى انتشرت عندهم انتشار النار فى الهشيم، وامتلأت بمرضاها المستشفيات والمصحَّات.

فهل يريد دُعاة الاختلاط أن ينقلوا هذه العلل والأمراض إلى مجتمعاتنا وقد كفانا الله شرها وأعاذنا منها؟! أم أن هذه الأرقام والإحصاءات غائبة عن أذهانهم؟!

لقد زعم «فرويد» ومَنْ تبعه من علماء النفس أن رفع القيود التقليدية عن الغريزة الجنسية يريح الأعصاب، ويحل عقد النفوس، ويمنحها الهدوء والاطمئنان.

ها هى القيود قد رُفعت، وها هى الغرائز قد أُطلقت، فلم تزد النفوس إلا تعقيدًا، ولم تزد الأعصاب إلا توتُّرًا، وأصبح القلق النفسى هو مرض العصر هناك، ولم تُغنِ آلاف العيادات النفسية عنهم شيئًا[٢].



(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٢) ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده / د. يوسف القرضاوى (ص ٣٧٧-٣٨١) بتصرف كبير.

(٣٦) باب النفقة على العيال

۞ العيال: هم الذين يعولهم الإنسان من زوجة أو قريب أو مملوك.

وقد سبق الكلام على حقوق الزوجة.. أما الأقارب فلهم حق..

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء:٣٦]

فالقريب له حق في أن يُنفَق عليه، يعني أن تبذل له من الطعام والشراب والكسوة والسُّكنَى ما يقوم بكفايته.

۞ قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مُطلقة، فإن على الأب رزقها أي: نفقتها وكسوتها، وهي الأجرة للرضاع.

ودَلَّ هذا على أنها إذا كانت في حباله، لا يجب لها أجرة غير النفقة والكسوة.. وكُلٌّ بحسب حاله، فلهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلا يُكلَّف الفقير أن ينفق نفقة الغني، ولا من لم يجد شيئًا بالنفقة حتى يجد[(١)].

۞ وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ففي هذه الآية قدَّر الله تعالى النفقة بحسب حال الزوج فقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾؛ أي: لينفق الغني من غِناه فلا ينفق نفقة الفقراء. ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾؛ أي: ضُيق عليه ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كُلاًّ بحسبه،

---

(١) تفسير السعدي (ص ١٠٥).

وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها فى باب النفقة وغيرها. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وهذه بشارة للمعسرين أن الله تعالى سيُزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة، فإن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا[1].

۞ ثم قال تعالى مبشرًا ذلك المنفق بأنه سبحانه وتعالى سيُخلف عليه بالحلال الطيب: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ نفقة واجبة، أو مُستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، أو غير ذلك. ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما يُنقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا فى الأسباب التى أمركم بها[2].

۞ ومن المعلوم أن أجر الإنفاق على الزوجة والأولاد عظيمٌ جدًّا.

وقد أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ مجموعة من الأحاديث التى تدل على فضل الإنفاق على الزوجة والأولاد.

(٢٩٥) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فى سبيلِ الله، وَدِينَارٌ أَنْفَقتَهُ فى رقَبَة، ودِينَارٌ تصدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنفقْتَهُ علَى أَهْلِكَ، أَعظمُهَا أَجْرًا الَّذى أَنْفَقْتَهُ علَى أَهْلِكَ»[3].

وهذا الحديث أورده الإمام مسلم فى باب: فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم مَن ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم.

وأورد رواية أخرى توضح هذا المعنى أكثر... وهى الرواية القادمة.

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٣٤).
(٢) تفسير السعدى (ص ٨٠١).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٩٥) كتاب الزكاة.

(٢٩٦) عَنْ أَبِى قِلَابَةَ، عَنْ أَبِى أَسْمَاءَ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِى سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصحَابِهِ فِى سَبِيلِ اللهِ».

قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَأَىُّ رَجُلٍ أَعظَمُ أَجْرًا، مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ، يُعِفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللهُ بِهِ، وَيُغْنِيهِمْ(١).

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

مَقْصُودُ الْبَابِ الْحَثُّ عَلَى النَّفَقَةِ عَلَى الْعِيَالِ، وَبَيَانُ عِظَمِ الثَّوَابِ فِيهِ؛ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَجِبُ نَفَقَتُهُ بِالْقَرَابَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مَنْدُوبَةً، وَتَكُونُ صَدَقَةً وَصِلَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ وَاجِبَةً بِمِلْكِ النِّكَاحِ أَوْ مِلْكِ الْيَمِينِ، وَهَذَا كُلُّهُ فَاضِلٌ مَحْثُوثٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**أَعظَمُهَا أَجْرًا الَّذِى أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ**» مَعَ أَنَّهُ ذَكَرَ قَبْلَهُ النَّفَقَةَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَفِى الْعِتْقِ وَالصَّدَقَةِ وَرَجَّحَ النَّفَقَةَ عَلَى الْعِيَالِ عَلَى هَذَا كُلِّهِ(٢).

فالنفقة على الزوجة والأولاد أفضل بكثير من الإنفاق فى سبيل الله وأفضل من عتق الرقاب وأفضل من الإنفاق على الفقراء والمساكين؛ لأن الله أوجب عليك أن تنفق على زوجتك وأولادك ... والإنفاق هنا فرض عينٍ عليك .. والإنفاق على مَن سواهم ممن يستحقون الإنفاق عليهم فرض كفاية .. وفرض العين أفضل من فرض الكفاية.

ففرض العين إن لم تَقُم به تكون آثمًا .. أما فرض الكفاية فإذا قام به البعض وأنفق على المساكين سقط الإثم عن الآخرين.

وقد يكون الإنفاق على مَن سواهم على وجه التطوع.. والفرض أفضل من التطوع؛ لقول الله تعالى فى الحديث القدسى: «**مَا تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب**

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٩٤) (٣٨) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١١٣).

إلىَّ مما افترضته عليه»(١).

لكن الشيطان يُرغِّب الإنسان فى التطوع ويُزهده فى الواجب، فتجده مثلاً يحرص على الصدقة ويدع الواجب.. يتصدق على مسكين أو ما أشبه ذلك ويدع الواجب لأهله.

(٢٩٧) وعَنْ أُمِّ سلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قلتُ يا رسولَ الله، هَلْ لى أَجْرٌ فى بنى أبى سلَمةَ أَنْ أُنْفِقَ علَيْهِمْ، وَلَستُ بتَارِكَتِهِمْ هَكَذَا وَهَكَذا، إِنَّما هُمْ بَنِىَّ؟ فقال: «نَعَمْ لَكِ أَجْرُ ما أَنْفَقْتِ علَيهِم»(٢).

❁ فعلى الرَّغم من أنها تنفق على أبنائها بعد موت أبيهم إلا أن النبى ﷺ أخبرها وبشَّرها أن لها أجرًا إذا أنفقت عليهم .. وقد جرت العادة بين الناس أن الإنسان إذا أنفق على أبنائه فهذا أمرٌ لا يحتاج إلى احتساب الأجر؛ لأنه لابد أن ينفق عليهم .. لكن النبى ﷺ يُلفت أنظارنا إلى أن نُجدد النية ونحن ننفق على أولادنا لنفوز بالأجر والثواب على نفس العمل الذى كنا نعمله على سبيل العادة .. فحثَّنا على أن نجدد النية لتتحول العادة إلى عبادة ... ويتضح معنى هذا الحديث أكثر من خلال الحديثين الآتيين.

(٢٩٨) وعَنْ سعد بن أبى وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى حدِيثِه الطَّويلِ الذى قَدَّمْناهُ فى أَوَّل الْكتَاب فى بَاب النِّيَّة أَنَّ رسول الله ﷺ قال له: «وإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِى بِهَا وَجهَ الله إلَّا أُجِرتَ بها حَتَّى ما تَجعلُ فى فِيِّ امرأَتِكَ»(٣).

(٢٩٩) وعَنْ أبى مَسْعُود الْبَدرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبى ﷺ قال: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٦٩) كتاب النفقات، ومسلم (١٠٠١) كتاب الزكاة.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٥) كتاب الجنائز، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

على أَهْلِهِ نفقةً يحتسبُها فهي لَهُ صدقةٌ»[١].

۞ قَوْلُهُ ﷺ: «**وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ تَعَالَى إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ**» فِيهِ اسْتِحبَابُ الإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ وَفِيهِ أَنَّ الْأَعمَالَ بِالنِّيَّاتِ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُثَابُ عَلَى عَمَلِهِ بِنِيَّتِهِ .. وَفِيهِ أَنَّ الإِنْفَاقَ عَلَى الْعِيَالِ يُثَابُ عَلَيْهِ إِذَا قَصَدَ بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى ... وَفِيهِ أَنَّ الْمُبَاحَ إِذَا قُصِدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ تَعَالَى صَارَ طَاعَةً وَيُثَابُ عَلَيْهِ وَقَد نَبَّهَ ﷺ عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ ﷺ: «**حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ**»[٢].

۞ قَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يحتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً**» فِيهِ بَيَانُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّدَقَةِ وَالنَّفَقَةِ الْمُطْلَقَةِ فِي بَاقِي الْأَحَادِيثِ إِذَا احتَسَبَهَا ... وَمَعنَاهُ أَرَادَ بِهَا وَجْهَ الله تعالى فَلَا يَدخُلُ فِيهِ مَنْ أَنْفَقَهَا ذَاهِلًا وَلَكِنْ يَدخُلُ الْمُحتَسِبُ وَطَرِيقُهُ فِي الِاحتِسَابِ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ الإِنْفَاقُ عَلَى الزَّوْجَةِ وَأَطْفَالِ أَوْلَادِهِ وَالْمَمْلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَجِبُ نَفَقَتُهُ عَلَى حَسَبِ أَحوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِيهِمْ وَأَنَّ غَيْرَهُمْ مِمَّنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِ مَنْدُوبٌ إِلَى الإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَيُنْفِقُ بِنِيَّةِ أَدَاءِ مَا أُمِرَ بِهِ وَقَد أُمِرَ بِالإِحسَانِ إِلَيْهِمْ[٣].

۞ ومن أجل ذلك جاء التهديد والوعيد لمن بخل على أهله وأولاده ولم ينفق عليهم .. بل ويشمل التهديد كل من بَخِلَ عن الإنفاق على مَن يلزمه الإنفاق عليه من الآدميين وغير الآدميين كالعبيد والإماء والمواشي وغير ذلك .. وفي هذا دليلٌ على وجوب الإنفاق على مَن ألزمك الله بالإنفاق عليهم.

***

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥) كتاب الإيمان، ومسلم (١٠٠٢) كتاب الزكاة.
(٢) مسلم بشرح النووي (١١/ ١١٢).
(٣) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٢٣).

(٣٠٠) وعَنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفى بِالمرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يقُوتُ»(١).

(٣٠٠أ) ورواه مسلم في صحيحه بمعنَاهُ قال: «كَفى بالمرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحبِسَ عَمَّنْ يملكُ قُوتَهُ»(٢).

۞ وإذا كان للأب الأجر والمثوبة في التوسعة على الأهل، والإنفاق على العيال.. فإن عليه بالتالي الوزر والإثم إذا أمسك عن الإنفاق، وقتَّر على الأهل والأولاد وهو مستطيع.. اسمعوا إلى ما يقوله عليه الصلاة والسلام في حق المضيِّعين لعيالهم، والمُمسكين عن نفقة أهلهم وأولادهم: «كَفى بِالمرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يقُوتُ».

ومن النفقة على العيال تهيئة الأب لأهله وعياله الغذاء الصالح، والمسكن الصالح، والكساء الصالح .. حتى لا تتعرض أجسامهم للأسقام، وتنهك أبدانهم الأوبئة والأمراض(٣).



ثم نختم بهذه البشرى العظيمة لمن يخشى من الإنفاق .. وذلك بأن يعلم أنه إذا أنفق فإن الله عز وجل يُقيد له مَلَكًا يدعو له كل يوم بأن يُخلف الله عز وجل عليه بالحلال.

(٣٠١) وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه أَن النبيَّ ﷺ قال: «مَا مِنْ يوْمٍ يُصبحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا ملَكَان يَنْزلانِ، فَيقولُ أَحدُهُما: اللَّهمَّ أَعطِ مُنْفِقًا خَلفًا، ويَقولُ الآخَرُ: اللَّهمَّ أَعطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»(٤).

۞ لقد وعدنا الله عز وجل في كتابه أنه يُخلف على الإنسان فيما أنفقه أضعافًا

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨١).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٩٦) كتاب الزكاة.
(٣) تربية الأولاد في الإسلام / د. عبد الله ناصح علوان (١/ ١٦١).
(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة.

كثيرة.. فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

أما مَن أمسك ولم ينفق فيما أوجبه الله عليه فهذا الذى تدعو عليه الملائكة بأن الله يُتلفه ويُتلف ماله.

۞ والتلف نوعان: تلفٌ حِسِّى، وتلفٌ معنوى.

(١) التلف الحسى: أن يتلف المال نفسه، بأن يأتيه آفة تُحرقه أو يُسرق أو ما أشبه ذلك.

(٢) والتلف المعنوى: أن تُنزع بركته، بحيث لا يستفيد الإنسان منه فى حياته.

(٣٠١ أ) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى وابْدَأْ بمن تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَة مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، ومَنْ يَسْتَعِفِفْ، يُعِفَّهُ الله، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِه الله**»(١).

۞ إن المسلم لا بُدَّ أن يعمل وأن يجتهد من أجل أن يُعف نفسه وأسرته عن سؤال الناس.. وليس ذلك فحسب بل لا بد أن يحرص على أن تكون يده هى العُليا دائمًا. فيعطى هذا ويساعد هذا.. وذلك لأن النبى ﷺ قال: «**اليد العُليا خير من اليد السفلى**».

فاليد العُليا هى اليد المنفقة التى تُعطى وتبذل رغبة فيما عند الله عَزَّ وَجَلَّ.. والمراد بالعُلو هنا عُلو الفضل والمجد ونَيل الثواب ... واليد السُّفلى هى الآخذة ... وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ: الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِى وُجُوهِ الطَّاعَاتِ، وَفِيهِ دليل لمذهب الجمهور أن اليد العليا هى الْمُنْفِقَةُ... وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمُتَعَفِّفَةُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: الْعُلْيَا الْآخِذَةُ وَالسُّفْلَى الْمَانِعَةُ... وَالْمُرَادُ بِالْعُلُوِّ: عُلُوُّ الْفَضْلِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٢٧، ١٤٢٨) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٤) كتاب الزكاة.

وَالْمَجْدِ وَنَيْلُ الثَّوَابِ (١).

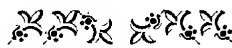
۞ «وابدأ بمن تعول» فالإنسان يبدأ بمن يعول .:. يعني بمن يَلزمه نفقته، فالإنفاق على الأهل أفضل من الصدقة على الفقراء، لأن الإنفاق على الأهل صدقة وصلة وكفاف وعفاف، فكان ذلك أَولَى ..والإنفاق على نفسك أَولَى من الإنفاق على غيرك، كما جاء في الحديث: «**ابدأ بنفسك فتصدَّق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك**».

وفيه الابتداء بالأهم فالأهم في الأمور الشرعية.

«**وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى**» مَعنَاهُ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا بَقِيَ صَاحِبُهَا بَعدَهَا مُسْتَغْنِيًا بِمَا بَقِيَ مَعَهُ ... وَتَقْدِيرُهُ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ بَعدَهَا غِنًى يَعتَمِدُهُ صَاحِبُهَا وَيَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى مَصَالِحِهِ وَحَوَائِجِهِ ... وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ لِأَنَّ مَنْ تَصَدَّقَ بِالْجَمِيعِ يَنْدَمُ غَالِبًا أَوْ قَدْ يَنْدَمُ إِذَا احتَاجَ وَيَوَدُّ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ بِخِلَافِ مَنْ بَقِيَ بَعدَهَا مُسْتَغْنِيًا فَإِنَّهُ لَا يَنْدَمُ عَلَيْهَا بَلْ يُسَرُّ بِهَا (٢).

۞ «**ومن يستعفف يُعفه الله**» أي: ومَن يستعفف عن مسألة الناس يُعفه الله.. أي: يرزقه العفة عن ذلك.

«**ومن يستغن**» أي: يُظهر الغِنى «**يُغنه الله**» أي: يُصيره غنيًّا.



---

(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٧٥).

(٢) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٧٦).

(٣٧) باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد

۞ لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وجوب الإنفاق على الزوجة وعلى الأقارب ذكر أنه ينبغي للإنسان أن يكون ذا همة عالية، وأن يُنفق من أطيب ماله ومما يحب من ماله.. وهناك فرق بين الأطيب وبين الذى يحب، فالغالب أن الإنسان لا يحب إلا أطيب ماله، لكن أحيانًا يتعلق قلبه بشىء من ماله وليس أطيب ماله.. فإذا أنفق من الطيب الذى هو محبوبٌ لعامة الناس ومما يحبه هو بنفسه وإن لم يكن من الطيب، كان ذلك دليلاً على أنه صادقٌ فيما عامل الله به.

ولهذا سُميت الصدقة صدقة لدلالتها على صدق باذِلها.

فالإنسان ينبغى له أن يُنفق من أطايب ماله، وينبغى له أن يُنفق مما يُحب، حتى يَصدُق فى تقديم ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ على ما تهواه نفسه.

ثم استدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بآيتين من كتاب الله، فقال: قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

يعنى: لن تنالوا وتدركوا البر، الذى هو اسمٌ جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها.

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التى جُبلت النفوس على قوة التعلُّق بها .. فمن آثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك مَن أنفق الطيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ورزقه أعمالًا وأخلاقًا، لا تَحصُل بدون هذه الحالة.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٨٣).

وأيضا فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأَولى والأَحرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هى أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

وسيجزى كل منفق، بحسب عمله، سيجزيه فى الدنيا بالخلف العاجل، وفى الآخرة بالنعيم الآجل[1].

۞ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧-٢٦٨].

۞ يَحُثُّ البارى عَزَّوَجَلَّ عباده على الإنفاق مما كسبوا فى التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض، من الحبوب والثمار .. وهذا يشمل زكاة النقدين، والعُروض كلها، المُعَدَّة للبيع والشراء، والخارج من الأرض، من الحبوب والثمار، ويدخل فى عمومها الفرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الردىء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم مَن لهم حَقٌّ عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المُغاضاة والإغماض[2].

۞ والخبيث من كل شىء بحسبه ... فالخبيث من المال يُطلَق على الردىء، ويُطلق على الكسب الردىء، ويُطلق على الحرام.

(١) تفسير السعدى (ص ١٣٧، ١٣٨).
(٢) تفسير السعدى (ص ١١٦).

فمِن إطلاقه على الرديء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ﴾.

فالخبيث بمعنى الرديء .. ومن ذلك أيضًا تسمية النبي ﷺ البصل والكراث: الشجرة الخبيثة؛ لأنها رديئة مُنتنة كريهة، حتى إن الإنسان إذا أكل منها وبقيت رائحتها في فمه فإنه يَحرُم عليه أن يدخل المسجد، لا للصلاة ولا لغير الصلاة .. لأن المسجد معمور بالملائكة فإذا دخل المسجد آذى الملائكة، والملائكة طيبون، والطيبون للطيبات، تكره الخبائث من الأعمال والأعيان.. فإذا دخلت المسجد وأنت ذو رائحة كريهة آذيت الملائكة.

وكان الرجل في عهد الرسول ﷺ إذا دخل المسجد وقد أكل كُراثًا أو بَصلاً طردوه طردًا إلى البقيع ... (والبقيع) تعرفون المسافة بينه وبين المسجد النبوي وأنها بعيدة، يُطرد إلى البقيع ولا يَقرب المسجد.

وللأسف أن بعض الناس - نسأل الله لنا ولهم الهداية والعِصمة - يشرب الدخان أو الشيشة ويأتي إلى المسجد ورائحة الدخان والشيشة في فمه أو على ثيابه.. مع أن هذه رائحة كريهة والكُل يكرهها، حتى إن بعض الناس لا يستطيع أن يُصلي بجوار هؤلاء .. وهؤلاء يَحرُم عليهم أن يدخلوا المسجد والروائح الكريهة بأفواههم.

ومن إطلاق الخبيث على الكسب الرديء قول النبي ﷺ: «**كَسْبُ الحجَّام خبيث**»[1] .. الحجَّام الذي يُخرج الدم بالحجامة، هذا كسبه خبيث، يعني رديء، وليس المراد أنه حرام.. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو كان كسب الحجام حرامًا ما أعطاه النبي ﷺ أُجرته، فقد احتجم النبي ﷺ، وأعطى الحجام أجره[2]، ولو

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٦٨) كتاب المساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٧٩) كتاب الإجارة، ومسلم (١٢٠٢) كتاب المساقاة.

كانت حرامًا ما أعطاه؛ لأن الرسول ﷺ لا يُقر على الحرام ولا يُعين على الحرام، لكن هذا من باب أنه كَسْبٌ ردىءٌ ينبغى للإنسان أن يتنزه عنه، وأن يُحجم الناس إذا احتاجوا إلى حجامته تبرُّعًا وتطوعًا.

ومن إطلاق الخبيث على المحرم قوله تعالى فى وصف النبى ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. يعنى يُحرم عليهم الخبائث وهى ضد الطيبات، مثل الميتة، ولحم الخنزير، والمنخنقة، والخمر، وما أشبه ذلك..ومعنى الآية أنه لا يُحرم إلا الخبائث، وليس معناها أن كل خبيث يُحرمه...لأننا عرفنا الآن أن الخبيث يُطلَق على أوصافٍ متعددة، لكن المعنى أنه ﷺ لا يُحرم إلا الخبائث ... فالحاصل أن الله عَزَّوَجَلَّ نهى أن يقصد الإنسان الردىء من ماله فيتصدق به، وحثَّ على أن ينفق مما يحب ومما هو خير[1].

۞ ثم قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فهو غنىٌّ عن جميع المخلوقين، وهو الغنى عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثَّهم عليها، لنفعهم ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غِناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام .. وحميدٌ فى أفعاله، التى لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة .. وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يَبلغ العباد كُنهها، ولا يُدركون وصفها.

فلما حثَّهم على الإنفاق النافع، نهاهم عن الإمساك الضار، وبيَّن لهم أنهم بين داعيين: داعى الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا ... وداعى الشيطان، الذى يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا... فمن كان مُجيبًا لداعى

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٨٤-٨٥) بتصرف.

الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليُبشِر بمغفرة الذنوب، وحُصول كل مطلوب، ومَن كان مُجيبًا لداعى الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير... فليختر العبد أى الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: واسع الصفات، كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهلٌ، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات(١).

(٣٠٢) عن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه أَكْثَر الأَنْصَارِ بالمدينة مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوالِهِ إِلَيْه بَيْرحاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المسْجِدِ وكانَ رسولُ الله ﷺ يدخُلُهَا وَيشْربُ مِنْ ماءٍ فيهَا طَيِّب .. قَالَ أَنَسٌ: فلَمَّا نزلَتْ هَذِهِ الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أَبُو طَلْحَةَ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّ الله تَعَالَى أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ مَالى إِلَىَّ بَيْرَحَاءَ، وإنَّهَا صَدقَةٌ لله تَعَالَى أَرجُو بِرَّهَا وذُخْرهَا عِنْد الله تعالى، فَضَعها يا رسول الله حيْثُ أَرَاكَ الله.. فقال رسول الله ﷺ: «بَخ، ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ، ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ، وَقَد سِمعتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّى أَرَى أَنْ تَجْعلَهَا فى الأَقْربينَ» فقال أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يا رسولَ الله، فَقَسَّمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فى أَقَارِبِهِ، وَبَنى عَمِّه(٢).

۞ ففى هذا الحديث أن أبا طلحة الأنصارى زوج أم سُليم رضي الله عنها - أم أنس ابن مالك رضي الله عنه - والتي تزوجها أبو طلحة وكان مهرها الإسلام .. أي كان مهرها أن يُسلم أبو طلحة فأسلم فكان مهرها الإسلام فكانت أعظم النساء

(١) تفسير السعدى (ص ١١٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٦١) كتاب الزكاة، ومسلم (٩٩٨) كتاب الزكاة.

وقولُهُ ﷺ: «مالٌ رَابحٌ» رُوى فى الصحيحين «رَابحٌ» و«رَايحٌ» بالباءِ الموحدةِ وبالياءِ المثناةِ، أَىْ رَايحٌ عَلَيْكَ نَفْعُهُ - و«بَيْرَحَاءُ» حَدِيقَةُ نَخْلٍ، وروى بكسرِ الباءِ وَفتحِها.

مهرًا.. كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من النخل والبساتين .. وكان له بستان في غاية الحُسن والجمال فيه ماءٌ طيبٌ عذب .. وكان أمام مسجد النبي ﷺ.. فكان المسجد في قبلة هذا البستان .. وكان النبي ﷺ يدخل هذا البستان كثيرًا ويشرب من مائه.

فلما نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. بادر رضي الله عنه وسابق وسارع وجاء إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الله تعالى أنزل قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالى إلىَّ بيرحاء- وهذا اسم ذلك البستان- وإنى أضعها: يعنى بين يديك صدقة، إلى الله ورسوله ﷺ.

يعنى: ضعها فى المكان الذى تراه مناسبًا يا رسول الله فإنى أرجو بِرَّها وذُخرها عند الله ... فقال النبى ﷺ مُتعجبًا: «**بخٍ بخٍ**» وهى كلمة تعجُّب .. يعنى ما أعظم هذه الهمة وما أعلاها «**ذلك مالٌ رابح ذلك مالٌ رابح**» ثم قال له النبى ﷺ: «**أرى أن تجعلها فى الأقربين**».

فاستجاب أبو طلحة فى التو واللحظة وذهب وقسَّمها فى أقاربه وبنى عمِّه.

هكذا كانت مبادرة الصحابة وسرعة استجابتهم لأمر الله ولأمر رسول الله ﷺ ومسارعتهم إلى فعل الخيرات.

والحقيقة أن مالك الحقيقى هو ما تُقدمه... وقد ذبح آل النبى ﷺ شاة وتصدقوا بها إلا كتفها، فقَدِمَ النبى ﷺ وقال: «**ما بقى منها؟**» قالت عائشة رضي الله عنها: ما بقى منها إلا كتفها، يعنى أنها تصدّقت بها كلها إلا كتفها.

فقال النبى ﷺ: «**بقى كلّها غير كتفها**»(١)، والمعنى أن الذى أكلتم هو الذى ذهب، وأما ما تصدقتم به فهو الذى بقى لكم.

فالحاصل أن الصحابة وذوى الهمم العالية هم الذين يعرفون قدر الدنيا

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٥٤٤).

وقدر المال، وأن ما قدموه هو الباقي.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِي هَذَا الْحَدِيثِ اسْتِحبَابُ الإِنْفَاقِ مِمَّا يُحِبُّ وَمُشَاوَرَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ فِي كَيْفِيَّةِ الصَّدَقَاتِ وَوُجُوهِ الطَّاعَاتِ وَغَيْرِهَا.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ غَيْرُ مَا سَبَقَ مِنْ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْأَقَارِبِ أَفْضَلُ مِنَ الأَجَانِبِ إِذَا كَانُوا مُحتَاجِينَ وَفِيهِ أَنَّ الْقَرَابَةَ يُرْعَى حَقُّهَا فِي صِلَةِ الأَرْحَامِ وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعُوا إِلَّا فِي أَبٍ بَعِيدٍ ... لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أَبَا طَلْحَةَ أَنْ يَجْعَلَ صَدَقَتَهُ فِي الأَقْرَبِينَ فَجَعَلَهَا فِي أُبَيِّ بْنِ كَعبٍ وَحَسَّان بْنِ ثَابِتٍ وَإِنَّمَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهُ فِي الْجَدِّ السَّابِعِ[1].

---

(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ١١٨-١١٩).

(٣٨) باب وجوب أمره أهله وأولاده المميزين وسائر مَن في رعيته بطاعة الله تعالى ونهيهم عن المخالفة وتأديبهم ومنعهم عن ارتكاب منهيٍّ عنه

۞ قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أي: وأْمُر يا محمد أهلك وأُمتك بالصلاة وحُثهم على أداء فرضها ونَفلها وعلِّمهم ما تَصلُح به الصلاة وتكمُل به.

﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، وبحدودها، وأركانها، وآدابها وخشوعها، فإن ذلك، مشقٌّ على النفس .. ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائمًا .. فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه، أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها، كان لما سواها أضيع .. ثم ضَمِنَ تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه فقال:

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: رزقُك علينا، قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق، كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟ ورزق الله عام للمتقى وغيره. فينبغى الاهتمام، بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ التى هى فعل المأمور وترك المنهى. فمن قام بها، كان له العاقبة...كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

۞ لما ذكر ما يجب للأهل من غذاء الجسم، ذكر لهم ما يجب من غذاء الروح على أبيهم ومَن له ولاية عليهم، وأَولَى ما يُؤمر به وأوجب وأفضل هى الصلاة... كما قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾

---

(١) تفسير السعدى (ص ٥٩٩).

﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]. فأمره أن يأمر أهله بالصلاة.

والأهل كل مَن فى البيت؛ من زوجة، وابن، وبنت، وعمة، وخالة، وأم، كل مَن فى البيت أهل ... أمره أن يأمرهم بالصلاة، وأمره أن يصطبر عليهم يعنى يحض نفسه على الصبر.

وذكر الله عن إسماعيل أبى محمد ﷺ -إذ أنه أحد أجداده - أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيًّا ... فالإنسان مسئول عن أهله، ومسئول عن تربيتهم، حتى ولو كانوا صغارًا إذا كانوا مميزين، أما غير المُميز فإنه يُؤمَر بما يتحمله عقله.

❊ ❊ ❊

(٣٠٣) وعَنْ أبى هريرةَ رضي الله عنه قال: أَخذ الحسنُ بنُ علىٍّ رضي الله عنهما تَمْرةً مِنْ تَمرِ الصَّدقَةِ فَجعلهَا فى فِيهِ فقال رسولُ الله ﷺ: «كُخْ كُخْ، ارْمِ بِهَا، أَما علِمْتَ أَنَّا لا نأْكُلُ الصَّدقةَ؟»(١).

وفى رواية: **«أَنَّا لا تَحِلُّ لنَا الصَّدقةُ»**.

۞ ففى هذا الحديث أن الحسن بن على رضي الله عنهما سيد شباب أهل الجنة أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها فى فمه .. فلما رآه النبى ﷺ قال له: «**كُخْ كُخْ**» أى اتركها وارمها فإنها لا تصلح لك.. ثم أمره أن يُخرجها من فمه وقال له: «**أما علمت أنَّا لا نأكل الصدقة؟**» أى: كيف يَخفى عليك هذا مع أن كل الناس يعلمون تحريم الزكاة والصدقات على النبى ﷺ وآله.

فالصدقة لا تحل لآل محمدٍ ﷺ؛ وذلك لأنهم أشرف الناس..والصدقات والزكوات أوساخ الناس ولا يتناسب لأشراف الناس أن يأخذوا أوساخ الناس..

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٩١) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٦٩) كتاب الزكاة.
وقوله: «كُخْ كُخْ» يُقالُ بإسْكَانِ الخَاءِ، ويُقَالُ بكَسرِهَا مع التَّنوِينِ وهىَ كلمةُ زَجْر للصَّبِيِّ عن المُسْتَقذَرَاتِ ... وكَانَ الحسنُ رضي الله عنه صبيًّا

كما قال النبي ﷺ لعمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: «**إنَّا آل محمدٍ لا تحل لنا الصدقة؛ إنما هى أوساخ الناس**»(١).

۞ ولقد كان النبي ﷺ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِطَعَامٍ سَأَلَ عَنْهُ: «**أَهَدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟**»، فَإِنْ قِيلَ صَدَقَةٌ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**كُلُوا**»، وَلَمْ يَأْكُلْ، وَإِنْ قِيلَ هَدِيَّةٌ، ضَرَبَ بِيَدِهِ ﷺ، فَأَكَلَ مَعَهُمْ(٢).

وقد يسأل سائلٌ ويقول: وما الفرق بين الهدية والصدقة أو الزكاة؟

والجواب: أن الصدقة تختلف عن الهدية فى الأمور التالية:

١ - تُخرج الزكاة لتطهير مال الغنى...قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣]، أما الهدية فتخرج لكسب وُدِّ الناس وحُبهم.

٢ - مَن يستحق الزكاة من المسلمين هم الفقراء والمصارف الأخرى التى ذكرها القرآن، أما الهدية فتخرج للفقراء والأغنياء على حَدٍّ سواء.

٣- الزكاة فريضة على كل مسلم غنى ... قد يدفعها المسلم بغير طيب نفس ولكن بغرض أداء الواجب أو خوف السلطان .. أما الهدية فهى ليست واجبة على العبد، فالأصل أنه يُخرجها عن طيب نفس.

٤- قد يشعر الغنى بمنة على الفقير عند إعطائه الزكاة، أما الهدية فلا.

٥- أُمر النبي ﷺ أن يقاتل الناس إذ هم منعوا زكاة أموالهم.

روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أُمرت أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدا رسول الله، ويقيموا الصّلاة،**

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٧٢) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٧٦) كتاب الهبة - ومسلم (١٠٧٧) كتاب الزكاة.

ويؤتوا الزّكاة: فإذا فعلوا ذلك عصموا منّى دماءهم وأموالهم إلّا بحقِّ الإسلام وحسابهم على الله»(١). وهذا غير موجود فى الهدية.

لهذه الأسباب أو لبعضها حرّم الله على الأنبياء- عليهم جميعًا الصلاة والسلام- الأكل من الصدقات والزكوات.

ويتفرع عليه: إرادة الله تعالى حفظ أعراض أنبيائه وصون ماء وجوههم، وأن تكون أيديهم هى العُليا(٢).

ففى هذا: دليل على أن الإنسان يجب عليه أن يؤدب أولاده عن فعل المحرم، كما يجب عليه أن يؤدبهم على فعل الواجب.

❊ ❊ ❊

(٣٠٤) وعَنْ أبى حفْصٍ عُمَر بن أبى سلَمةَ عبدِ الله بنِ عبدِ الأسد: ربيبِ رسول الله ﷺ قال: كُنْتُ غُلامًا فى حجْر رسول الله ﷺ، وكَانَتْ يَدى تَطيشُ فى الصَّحفَة، فقال لى رسولُ الله ﷺ: «يا غُلامُ سَمِّ الله تعالى، وَكُلْ بِيمِينِكَ، وكُلْ ممَّا يليكَ» فَما زَالَتْ تِلْكَ طِعمتى بعدُ(٣).

۞ ففى هذا الحديث يحكى عمر بن أبى سلمة رضي الله عنهما أنه كان يأكل مع النبى ﷺ .. وكان عمر ربيب النبى ﷺ يعنى ابن زوجته أم سلمة .. وكان غلامًا صغيرًا فى ذلك الوقت ... فلما جىء بالطعام للنبى ﷺ جلس يأكل معه فجعلت يده تطيش فى الصحفة ... فيأكل من أمامه مرة ومن وسط الصحفة مرة ومن آخرها مرة .. وكان النبى ﷺ لا يترك أحدًا بحاجة إلى التعليم إلا علَّمه ... حتى الصغار كان النبى ﷺ يهتم بهم ويُعلمهم. فقال له النبى ﷺ: «**يا غُلَام سَمِّ الله، وكُلْ**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

(٢) شمائل الرسول ﷺ/ أحمد عبد الفتاح (١/ ٧١).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٧٦) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٢٢) كتاب الأشربة.

«وتَطِيش»: تَدُورُ فى نَواحِى الصَّحفة.

بِيَمينكَ، وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » .. فتلك ثلاثة آداب من آداب الطعام .. ومن المعلوم أن التعليم فى الصِّغر كالنقش على الحجر، ولذلك لم ينسَ عمر بن أبى سلمة تلك الآداب بدليل أنه هو الذى يروى الحديث.

وكان النبى ﷺ يهتم بالصغار؛ لأن مَن شَبَّ على شىءٍ شاب عليه.

فإذا شَبَّ على أنه يأكل بيده الشمال، أو على أن يده تطيش فى الصحفة، أو على أنه لا يحترم الذى أمامه فى الأكل، أو على أنه يمد يده إلى الذى أمام غيره فيأخذه ويأكله، فإنه يصير هذا دأبه وطبعه بعد ذلك... فلذلك كان النبى ﷺ يُعوِّد أصحابه من صغرهم على أن يتأدبوا بالآداب الشرعية.

۞ وهنا علَّمه النبى ﷺ ثلاثة آداب:

أولًا: «سَمِّ الله» يعنى قُل: بسم الله .. ولا حرج لو قال: بسم الله الرحمن الرحيم .. لكن إن قال: بسم الله يكفيه .. والتسمية على الطعام واجبة إذا تركها الإنسان فإنه يأثم .. وفوق ذلك يُشاركه الشيطان فى طعامه ...

فإذا نسيت أن تُسمى فى أوَّل الطعام وتذكرت أثناء الطعام فقل: «بسم الله أوله وآخره» كما أرشد النبى ﷺ إلى ذلك فى الحديث الثانى.

ثانيًا: «وَكُلْ بيمينك»: فالأكل باليمين واجب .. وإذا كان مُتعودًا على الأكل بالشمال فليُجاهد نفسه حتى يأكل بيمينه .. لأن مَن أكل بشماله فهو آثمٌ عاصٍ لله ورسوله ﷺ- إلا إذا كانت يده اليُمنى شلَّاء أو مكسورة - .. وهو فى نفس الوقت يتشبه بالشيطان فى طعامه .. فقد قال النبى ﷺ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**»[1].

ثالثًا: «كُل مِمَّا يَليك»: يعنى: إذا كنت تأكل مع أحدٍ فكُل مما يليك- أى: من أمامك - ولا تأكل من جهته ومِمَّا يليه؛ لأن هذا من سوءِ الأدب ... وقد تُتَّهم

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

بالشراهة دون أن تدرى.

قال العلماء: إلا أن يكون الطعام أنواعًا، مثل أن يكون فيه قرع وباذنجان ولحم وغيره، فلا بأس أن تتخطى يدك إلى هذا النوع أو ذاك، كما كان الرسول ﷺ يتتبع الدُّبَّاء من الصحفة ويأكلها. والدُّبَّاء يعنى القرع.

وكذلك لو كنت تأكل وحدك فلا حرج أن تأكل من الطرف الآخر، لأنك لا تؤذى أحدًا فى ذلك ... لكن لا تأكل من أعلى الصحفة لأن البركة تنزل فى أعلاها ووسطها، ولكن كُلْ من الجوانب... حتى إذا انتهى الطعام من الجوانب تستطيع أن تأكل الطعام الذي في وسط الصحفة ولا حرج عليك.

(٣٠٥) وعَنْ ابن عمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسئولٌ عنْ رعِيَّتِه، والإمَامُ رَاعٍ، ومسئولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، والرَّجلُ رَاعٍ فى أَهْلِهِ ومسئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمرْأَةُ راعِيةٌ فى بيْت زَوْجِهَا ومسئولة عنْ رعِيَّتِهَا، والخادِمُ رَاعٍ فى مالِ سيِّدِهِ ومسئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فكُلُّكُمْ راعٍ ومسئولٌ عنْ رعِيتِهِ»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٩) فأرجو الرجوع إليه ... بارك الله فيكم.

(٣٠٦) وعَنْ عمرو بن شُعيب، عن أَبيه، عن جَدِّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَوْلادكُمْ بِالصَّلاةِ وهُمْ أَبْنَاءُ سَبْع سِنِينَ، واضْرِبُوهمْ علَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وفرِّقُوا بيْنَهُمْ فى المضَاجعِ»[٢].

(٣٠٧) وعَنْ أبى ثُرَيَّةَ سَبْرَةَ بنِ مَعبدٍ الجهَنِىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٠٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٦٨).

«عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلاةَ لسَبْعِ سنينَ، واضْرِبُوهُ عليْهَا ابْنَ عشْرِ سِنِينَ»(١).

ولَفْظُ أبي داوُد: «مُرُوا الصَّبِيَّ بالصَّلاَةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ».

۞ ففى هذين الحديثين يَحُثُّ النبى ﷺ الآباء والأمهات على أن يأمروا ويُعلِّموا أولادهم الصلاة وهم أبناء سبع سنين ... وليس معنى ذلك ألا نُعلمهم الصلاة قبل ذلك .. بل نُعلمهم قبل ذلك ولكن يكون الاهتمام بذلك أكثر إذا بلغ الطفل سبع سنين ويبلغ الاهتمام غايته إذا بلغ الطفل عشر سنين.

۞ فَالصَّلاةُ هيَ الرُّكنُ الثَّانِي من أركانِ الإسلام، وهي عمودُه، بل هي ألصقُ شَعيرة دينيَّةٍ تُلازمُ الإنسانَ ما دام حيًّا مُكَلَّفًا، وهي تربطُهُ بخالقِهِ ارتباطًا وثيقًا.

۞ ولأهميتها أوصى الله عَزَّوَجَلَّ المسلمينَ بأنْ يُحافظُوا عليها، وجاءتِ الوصيَّة الرَّبانية بصيغةِ الأمرِ للجماعةِ ... فقال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

۞ ولأهميتها أيضًا حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ مَن التهاون فى أدائها فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

۞ وفى السُّنَّةِ تحذيرٌ أيضًا لمن تركَ الصَّلاة أو تكاسَلَ فى أدائها، فقد قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ مُتعَمِّدًا، فَقَد حَبِطَ عَملُه»(٢).

۞ ومن خلال الصَّلاةِ نُعلِّمُ الطِّفلَ فوائدَهَا العظيمةَ فِى مَجَالِ الأخلَاقِ، وتهذيبِ النَّفْسِ، وصقْلِ الطِّبَاعِ .. فهى صِلَةٌ مُباشرةٌ ومُناجَاةٌ مع الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه الصِّلَة تُوقع الخشيةَ والرَّهْبَة فى نفْسِ الطِّفل، وتُشعره بتمامِ المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ويشرحُ المُربِّى أو الأبُ ما يجنيهِ المسلمُ فى حياته مِن ثِمَارِ الصَّلاةِ، وما تُورثه من أخلاقٍ وآدابٍ وتربيةٍ للنفس... ويقرأُ المُربِّى قولَ اللهِ تعالَى بصوتٍ

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٢٥).

(٢) انظر: مجمع الزوائد (١/ ٣٠٠) ورجال الحديث رجال الصحيح ... وإحباط العمل لا يكون في العادة إلا لاقتراف أمرٍ عظيم شنيع.

خاشع: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولا بأس أن يشرحَ معنى هذه الآيـة، أو أنْ يقرأ له تفسيرها من أحد المصادر المعتمدة، ويُذلِّلَ له المعانى حتى تستقرَّ فى نفسه.

۞ ويُتابع المُربِّى جنىَ رحيقِ وثمارِ الصَّلاة من خلالِ حديثِهِ للطِّفل عن فوائدها، ويُذكِّرُهُ بأنَّ الصَّلاةَ سببٌ لتكفيرِ المعاصى والذُّنوب التى يتركبُها الإنسانُ، ويشرحُ له قولَ رسولِ الله ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**»(١).

۞ وبأُسلوبٍ شائقٍ تربوى يحدِّثُ المربى الطِّفْلَ عن جماليَّةِ الانضباطِ وجمالِ النِّظام، وكمالِ السَّكينةِ، وأنَّ الصَّلاةَ تُدرِّبه على كلِّ هذا، وتُعوِّدُه على احترامِ الوقتِ، والاستفادةِ الكاملةِ منه، بالإضافةِ إلى آدابها المُفيدة فى جميعِ المجالاَتِ.

۞ ويأخذُ المربِّى بيدِ الطِّفل إلى تعليمِهِ الصَّلاة، ويبدأُ بتعليمه الوضوء والطَّهارة، ويرشدُهُ إلى الجانبِ المعنوى فيه، كأن يُسمعه قولَ رسولِ الله ﷺ فى محاسن الوضوء: «**إِذَا تَوَضَّأَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ خَرَجَتْ ذُنُوبُهُ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، فَإِنْ قَعَدَ قَعَدَ مَغْفُورًا لَهُ**»(٢).

۞ وكما يُعلِّمُ المُربِّى الطِّفْلَ الوضوءَ والطَّهارةَ نظريًّا وعمليًّا، فكذلك يُعلِّمه الصَّلاة، ويُدرِّبه على أدائها كاملةً حسنةً، ويلجأُ فى ذلك إلى عدَّةِ أساليبَ منها ما هو عن طريقِ المُشاهَدة والتَّقليدِ، ويكونُ هذا الأُسلوبُ فى سِنِّ الطُّفولةِ المبكِّرة ، حيثُ يشاهِدُ الأطفالُ والديهم والكبارَ فى أُسَرِهم يُصلُّون فيقلدونهم، ثم إنَّهم يتعوَّدون رؤيةَ المُصلِّى، ويتعرَّفُون كذلك أعمالَ الصَّلاة من تكبيرٍ وركوعٍ، وقيامٍ وسُجودٍ.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٢) حسن: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٨).

۞ وكثيرًا ما نُلاحظُ أنَّ الطفلَ الصَّغير يندفعُ برغبةٍ بريئةٍ كيما يُقلِّدَ أباه أو أُمَّه أو أخاه الكبير، فيقفُ فى جوارِهِ يقلِّدُهُ فى قيامِهِ وركوعِهِ وسائرِ أعمالِ الصَّلَاة، دون إدراكٍ منه أو وعى لما يقومُ به..وغالبًا ما يؤدِّى الطِّفلُ هذه الشَّعائرَ وهذا التَّقليدَ وهو فى غاية السُّرور والزَّهْوِ، لأنَّه استطاعَ أنْ يُحاكِى الكبار فى حركاتهم وفى سكناتهم، ولا شكَّ فى أنَّ تكرار هذا المشهدِ يوميًّا أمامَ الطفل يجعل الصلاة عنده أمرًا سهلًا، ثم يؤدِّيها فيما بعد برغبةٍ وحُبٍّ وخشوع.

۞ وتبدأ الأوامرُ الفعليَّةُ للصَّلاةِ وأداءِ الفُروضِ الخمسةِ حينما يكملُ الطِّفل ربيعَه السَّابع من عمره، ويبدأ الأبُ أو المُربِّى بترغيبِ الطفل فيها، والصَّبر عليه فى أدائِها، وهو يَمتثلُ أمرَ الله عَزَّوَجَلَّ فى قوله: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، فالصَّلاةُ تحتاجُ منَ المربِّى والأب إلى نَفَسٍ طويلٍ، وهمَّةٍ عاليةٍ، واصطبارٍ، حتى يستطيعَ الطِّفلُ أنْ يؤدِّيها دونَ أمْرٍ ودونَ متابعةٍ.

۞ وهكذا فتعليمُ الطِّفْلِ الصَّلاة من واجباتِ الأبِ وولىِّ الأمْرِ، وليس مِنَ المُستحبَّاتِ.

۞ ويستلزمُ على الأب وهو فى رحلةِ تعليمِ الطِّفل أمورَ الصَّلاة، أنْ يُعلمَه الطهارة، وسترَ العورةِ، والخشوعَ بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ، وأنْ يتابعَه ولا يغْفُلَ عنه، ويكررَ عليه الأمْرَ مرارًا ومرات، ويُذكّره بها دائمًا ويرغّبَه بشتَّى وسائلِ التَّرغيب من هدايا وتشجيعٍ وما شابَه ذلك، حتى لا يتهاونَ الطِّفلُ فى أمرها بعدَ أنْ يشتدَّ عودُه، وتَصلُبَ قناتُه، ويبلغَ سنّ البلوغِ والتَّمييز، وعندها يَصعُبُ التَّقويم والإصلاحُ والتَّهذيب.

۞ وقد يحدثُ تقصيرٌ منَ الطِّفْلِ فى أداءِ الصَّلوات المفروضةِ نتيجةَ كَسَلٍ، أو لهوٍ، أو لعبٍ، وهنا يجبُ على الأَب أنْ يعظَه وعظًا جميلًا، وأنْ يُذكِّره بها، وأنْ يُحدِّثَه عن الجانبِ الأخلاقى، ويُذكّره بالوفاءِ فى أداءِ الفرضِ، حتى يعودَ الطِّفْلُ إلى رشْدِهِ، ويتابعَ الصَّلاة فى فروضها وسُنَنِها. فإنْ لَمْ يستجبِ الطِّفلُ إلى

ذلك فَعَلَ معه بعضَ العقوباتِ التى تردعُهُ، وتردُّه إلى جادَّةِ الصَّوابِ... ويُشترطُ فى هذه العقوبات ألَّا تكونَ مُنفِّرةً منَ الصَّلاة وأن تكبحَ جماحَ الطفل، وذلك بأنْ لا يضرِبَه الأبُ ضَربًا مبرحًا.

۞ ومن مُرغِّباتِ متابعة الصَّلاة تعويدُ الطِّفلِ على أدائها جماعةً فى المسجدِ، لأنَّ الصَّلاة مع الجماعةِ تربطُ الطفل بمن حوله من المصلين، كما يمكن للأبِ أن يشرحَ للطِّفلِ محاسنَ صلاةِ الجماعةِ وثوابها الذى يفضُلُ على صلاة الرجل وحدَهُ بسبعٍ وعشرينَ درجةً[1].

۞ وها هى بعض أساليب الترغيب:

(١) أن يذكر الأب لأبنائه أن الصلاة هى جزء بسيط من شكر الله على نعمه الكثيرة علينا.

(٢) أن يذكر الأب لأبنائه فوائد الصلاة فى الدنيا والآخرة.

ففى الدنيا للصلاة فوائد كثيرة .. فهى رياضة وهى وقاية من أمراض العمود الفقرى والمفاصل وهى راحة وطمأنينة وهى تُعلم السمع والطاعة والنظام وترتيب الأوقات ..إلخ .... وفى الآخرة فهى سبب لدخول الجنة وما فيها من نعيم مقيم.

(٣) أن يجعل الأب مسابقة لأبنائه فى المحافظة على الصلاة ويجعل جائزة قيمة للفائز منهم.

(٤) يمدح مَن يصلى من الأبناء أمام أقاربه وأمام جيرانه ويكون المدح لأنه حَافَظ على الصلوات.

۞ أساليب الترهيب:

(١) يذكر الأب لأولاده حكم تارك الصلاة وعقوبته فى الدنيا والآخرة.

(٢) يتدرج مع أولاده بأن يبدأ أولًا بالمعاتبة وإبداء الضيق والغضب لمن

---

(١) الطفل فى ضوء القرآن والسنة / د. أحمد خليل جمعة (ص ١٢٨-١٣٢) بتصرف.

لم يُصلِّ ثم إذا لم يفلح ذلك يحرمهم من بعض الأمور التى يحبونها كالمصروف مثلًا، وكالحرمان من الخروج من البيت مع الأصحاب، وكحرمانه من الهدايا التى يعطيها للمتفوقين ..إلخ.

(٣) إذا لم ينفع معه ذلك فإن آخر الدواء الكى كما يُقال، فلا بد من استعمال الشدة كالضرب بالعصا[١]... بشرط أن يكون ضربًا غير مُبرح.

وذلك لأن الهدف هو تعليم الطفل الصلاة وترغيبه فيها.. فإذا كان الضرب مُهينًا أو عنيفًا فإن ذلك سيُنفره من الصلاة وسائر الطاعات.

۞ وأما قوله ﷺ: «وفَرِّقُوا بَيْنَهُم فى المَضَاجِعِ».

ويتم التفريق فى المَضاجِعِ لأنَّ نبينا ﷺ أمرنا بذلك ثُمَّ لأنَّ فى اتحاد المضجع تَكشُّفٌ للعورات واحتكاك بين الأجسام بما يُهيج على الشر والفساد خاصة بين المُراهقين والمُراهقات، وبين المُراهقين أنفسهم، وبين المراهقات أنفسهن.

وفضلًا عن هذا وذاك فالأنفاس والروائح والأمراض تنتقل من هذا إلى ذاك... وحديث الرسول ﷺ عام، ولم يُبيِّن العلة منه حيث قال: «**وفَرِّقُوا بَيْنَهُم فى المَضَاجِعِ**» ولم يذكر لذلك سببًا فتندرج تحته كل الأسباب المذكورة، بل وغيرها كذلك.

۞ **وها هى بعض أقوال العلماء فى ذلك:**

قال المناوى فى فتح القدير شرح الجامع الصغير[٢]: أى فرِّقوا بين أولادكم فى مضاجعهم التى ينامون فيها إذا بلغوا عشرًا حذرًا من غوائل الشهوة، وإن كُن أخوات[٣].

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام / أ. جاسر بركات (١/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٢) (١/ ٣٣٤) تحقيق عزت الدعاس.

(٣) فقه تربية الأبناء / الشيخ مصطفى العدوى (ص ١٤٧-١٤٨).

(٣٩) باب حق الجار والوصية به

۞ قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

إن الإحسان إلى الجار من الإيمان بالله واليوم الآخر .. ولا بد أن نعلم أن «الجيران ثلاثة: جارٌ له حقٌّ واحد، وجار له حقّان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذى له ثلاثة حقوق هو الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.... وأما الذى له حقان فالجار المسلم. له حق الجوار وحق الإسلام .. وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك.

۞ وللجار منزلةٌ عظيمةٌ، ومكانة عليَّةٌ، يدلُّ على ذلك كثرةُ النُّصوص الواردة فى الحث على الإحسان إليه، والترغيب فى ذلك، ولنَقْتطف من تلك النُّصوص ما يلى:

(٣٠٨) وعَنْ ابنِ عمرَ وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالا: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالجارِ حتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سيُوَرِّثُهُ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يوضح النبى ﷺ أن جبريل عليه السلام ظلَّ يُوصيه بالإحسان إلى الجار .. مع أن النبى ﷺ كان أكثر الناس إحسانًا لكل جيرانه سواء كانوا مسلمين أو مُشركين .. ومع ذلك ظلَّ يُوصيه جبريل عليه السلام بالجار كثيرًا كثيرًا حتى ظَنَّ النبى ﷺ أنَّ الوحى سينزل بعد ذلك ليأمره بتوريث الجار

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٤، ٦٠١٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٢٤) كتاب البر والصلة.

.. وليس المعنى أن جبريل هو الذى سيُشرع توريثه .. كلا .. فجبريل عليه السلام ليس له الحق فى أن يُشرع ذلك من تلقاء نفسه.. وإنما ظن النبى ﷺ أن الوحى سينزل ليأمره بتوريث الجار من كثرة إيصاء جبريل للنبى ﷺ بالجار.

(٣٠٩) وعَنْ أبى ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا ذرٍّ إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فأَكْثِرْ مَاءَها، وتَعَاهَد جِيرَانَكَ»[١].

وفى رواية له عن أبى ذر قال: إنَّ خليلى ﷺ أَوْصَانى: «إذا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرانِكَ، فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمعرُوفٍ».

(٣١٠) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه أَن النبى ﷺ قال: «والله لا يُؤْمِنُ، والله لا يُؤْمِنُ، والله لا يُؤْمِنُ» قِيلَ: مَنْ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «الَّذى لا يأْمنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ»[٢].

وفى رواية لمسلمٍ: «لا يَدخُلُ الجنَّة مَنْ لا يأْمنُ جارُهُ بوَائِقهُ».

(٣١١) وعَنْه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا نِسَاءَ المُسلِمَاتِ لا تَحقِرَنَّ جارَةٌ لجارتِهَا وَلَوْ فِرْسَنَ شَاةٍ»[٣].

(٣١٢) وعَنْه أَن رسول الله ﷺ قال: «لا يَمْنَع جارٌ جارَهُ أَنْ يَغرزَ خَشَبَةً فى جِدارِهِ» ثُمَّ يَقُولُ أَبو هريرة: مَالى أَرَاكُم عنْهَا مُعرِضِينَ، والله لأرمينَّ بها بيْنَ أَكْتَافِكُمْ[٤].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٥) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٦) كتاب الأدب – ومسلم (٤٦) كتاب الإيمان – وهذا لفظ البخارى.
«الْبَوائِقُ» الْغَوَائِل وَالشُّرُورُ.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٧) كتاب الأدب، ومسلم (١٠٣٠) كتاب الزكاة.
قال الجوهرى: الفِرْسِنُ مِنَ الْبعِيرِ: كالحافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ، قال: ورُبَّمَا اسْتُعِير فى الشَّاةِ.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٦٣) كتاب المظالم والغصب – ومسلم (١٦٠٩) كتاب المساقاة.
رُوى «خَشَبهُ» بالإضافَةِ والجمْعِ، ورُوى «خَشبَةً» بالتَّنوِينِ عَلَى الإفْرَادِ.
وقوله: مالى أَرَاكُمْ عنهَا مُعرِضِينَ: يعنى عنْ هذِهِ السُّنَّةِ.

(٣١٣) وعَنْه أَن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَان يُؤْمِنُ بالله والْيَوْمِ الآخرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمنُ بالله وَالْيومِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيسْكُتْ»(١).

(٣١٤) وعَنْ أبي شُريْح الخُزاعيِّ رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بالله والْيوْمِ الآخِرِ، فَلْيُحسِنْ إِلى جارِهِ، ومنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، ومنْ كانَ يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيسْكُتْ»(٢).

(٣١٥) وعَنْ عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله إِنَّ لى جَارَيْنِ، فَإِلى أَيِّهما أُهْدِى؟ قال: «إِلى أَقْربهما مِنْك بابًا»(٣).

(٣١٦) وعَنْ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الأَصحاب عِنْدَ الله تعالى خَيْرُهُمْ لصاحِبِهِ، وخَيْرُ الجيران عِنْدَ الله تعالى خيْرُهُمْ لجارِهِ»(٤).

۞ وتعالوا بنا لنتناول شرح تلك الأحاديث جملة واحدة من خلال عرض الآداب التى ينبغى أن نتحلى بها مع الجيران.

۞ أما عن الآداب التى ينبغى أن نتحلى بها مع الجيران فهى:

(١) **اختيار الجار الصالح:**

فينبغى للإنسان قبل أن يسكن فى مكانٍ ما أن يختار المكان الذى يكون فيه جيران صالحون..فإن الجار قد يطلع على أسرار البيت. وقد يحتاج الإنسان إلى جاره، فإذا كان صالحًا نفعه وخفَّف عنه، وإن كان غير ذلك سبَّب لجاره العنت، وقد يكون سببًا فى شقائه...فقد قال ﷺ: **«أربعٌ من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء،... وأربعٌ من الشقاء: المرأة**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٩) كتاب الأدب - ومسلم (٤٨) كتاب الإيمان.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٠٢٠) كتاب الأدب.
(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٧٠).

السوء، والجار السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»[١] وقد قيل في الأمثال: الجار قبل الدار[٢].

(٢) الإحسان إليه:

فقد أمر الله سبحانه وتعالى بذلك في كتابه فقال سبحانه: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾[النساء: ٣٦]

۞ **وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:** قال رسول الله ﷺ: **«ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»** [٣].

وقد أمر النبي بإكرام الجار وجعل ذلك من لوازم الإيمان، فقال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»**.

۞ بل إن من أوليات دعوة النبي ﷺ الأمر بحسن الجوار...كما جاء في قصة أبي سفيان مع هرقل أن هرقل قال لأبي سفيان: بما يأمركم، فقال أبوسفيان: (يأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء).

۞ **وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:**

قال رسول الله ﷺ: **«مَن يأخذُ عني هذه الكلمات فيعمل بهن أو يُعلم مَن يعمل بهن»** فقال أبو هريرة: قلتُ: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعدَّ خمسًا فقال: **«اتقِ المحارم تَكُن أعبدَ الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسِن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تُكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تُميت القلب»**[٤].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي، وأبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٨٧).

(٢) موسوعة الآداب الإسلامية / أ. عبد العزيز ندا (١/ ٢٩٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٩) كتاب الأدب، ومسلم (٤٨) كتاب الإيمان.

(٤) حسن: رواه أحمد، والترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠).

(٣) أن يُحب لجاره ما يُحب لنفسه من الخير:

إن من الإحسان إلى الجيران سلامة القلب عليهم، وحب الخير لهم، ففى البخارى ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ما يحب لنفسه»**[(١)].

وفى هذا تأكيد حق الجار، وأن الذى لا يحبّ لجاره ما يحبّ لنفسه من الخير فإنه ناقص الإيمان...وفى هذا غاية التحذير ومنتهى التنفير عن إضمار السوء للجار قريبًا كان أو بعيدًا.

(٤) أن يؤدى إليه كل حقوق المسلم على أخيه المسلم:

فإن الجار أَولَى وأحق بها...فيُحسن إليه من كل وجه: يعوده إذا مرض، ويُشمته إذا عطس، وينصحه بما يراه خيرًا له، ويُلبى دعوته، ويتفقد أهله وأولاده فى حال غيابه أو سفره، وبعد مماته، ويتبع جنازته إذا مات، ويدعو له، ويأخذ بيده إلى الخير ...إلى غير ذلك من الحقوق.

(٥) كَفُّ الأذى عنه:

قال رسول الله ﷺ: **«والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»**.

قيل: مَن يا رسول الله؟.

قال: **«الذى لا يأمن جاره بوائقه»**[(٢)].

أى: لا يأمن شره وخطره، وفى رواية لمسلم قال: **«لا يدخل الجنة مَن لا يأمن جاره بوائقه»**[(٣)].

وهذا فيه تعظيم حق الجار ووجوب كَفِّ الأذى عنه، وأن إضراره من كبائر الذنوب وعظائم المعاصى... وقد عظَّم الله (جل وعلا) إلحاق الأذى بالجار،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣) كتاب الإيمان، ورواه مسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٠١٦) كتاب الأدب.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٤٦) كتاب الإيمان.

وغلَّظ فيه العقوبة... ففى الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ: أى الذنب أعظم؟ فقال: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**»، قلت: ثم أى؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك**»، قلت: ثم أى؟ قال: «**أن تُزانى حَليلة جارك**»(١).

وقد جاءت الأدلة مشددة فى كف الأذى عن الجار ومُحذرة كل التحذير.... وقد رُبط عدم الإيذاء للجار بقضية الإيمان بالله واليوم الآخر، ففى الحديث عن أبى هريرة قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره**»(٢).

ونبَّه على عِظم خطر إيذاء الجار على الأعمال الصالحة.

ففى الحديث عن أبى هريرة أنه قيل للنبى: يا رسول الله! إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتتصدق وتؤذى جيرانها بلسانها، فقال رسول الله: «**لا خير فيها، هى من أهل النار**»، قالوا: وفلانة تصلى المكتوبة وتتصدق بأثوار أقط ولا تؤذى أحدًا - يعنى: عملها قليل غير أنها لا تؤذى أحدًا - فقال رسول الله: «**هى من أهل الجنة**»(٣).

فليَحذر الذين يؤذون جيرانهم، وليتوبوا إلى الله ويستغفروه من هذا الذنب العظيم، وليتحلّلوا جيرانهم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار.

إن الذنب الذى يُرتَكب بحق الجار يُضاعَف إلى عشرة أضعاف، اسمعوا إلى قول نبيكم ﷺ... ففى الحديث عن المقداد بن الأسود أن النبى سأل أصحابه عن الزنا، فقالوا: حرام حرَّمه الله ورسوله، فقال: «**لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره**»، وسألهم عن السرقة قالوا: حرامٌ حرمها الله ورسوله، فقال: «**لأن يسرق من عشرة أهل أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره**»(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٧٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.
(٣) صحيح: رواه أحمد، والبخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٩٠).
(٤) صحيح: رواه أحمد، والبخارى فى الأدب المفرد، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٠٤٣)، والصحيحة (٦٥).

فأذى الجار مهما كان نوعه جريمة عُظمى.

۞ ولقد ضرب رسول الله أروع الأمثلة فى كَفِّ الأذى عن الجار.

عن أبى هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال له: «**اذهب فاصبر**» فأتاه مرتين أو ثلاثًا.

فقال: «**اذهب فاطرح متاعك فى الطريق**».

ففعل فجعل الناس يمرون ويسألونه فيخبرهم خبر جاره فجعلوا يلعنونه... فعل الله به، وفعل، وبعضهم يدعو عليه فجاء إليه جاره.

فقال: ارجع فإنك لن ترى منى شيئًا تكرهه[1].

(٦) احتمال الأذى :

قال رسول الله: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة**»، وذكر فى الثلاثة الذين يحبهم: «**رجل كان له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه بحياة أو موت**»[2].

(٧) تعظيم حُرمة الجار وصيانة عِرضه وعدم خيانته :

لا بإفشاء سره، ولا بهتك عِرضه، ولا بالفجور بأهله، فإنه من أقبح الكبائر... وقد قال ﷺ لما سُئل: أى الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**». قيل: ثم أى؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». قيل: ثم أى؟ قال: «**أن تزانى حليلة جارك**»[3]، بل ينبغى أن يحفظه فى نفسه وعِرضه وماله، حتى يأمنه جاره، فقد قال ﷺ: «**والله لا يؤمن - ثلاثًا - الذى لا يأمن جاره بوائقه**»[4] أى: غدره وخيانته وشروره.

(١) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الترغيب (٢٥٥٩).
(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى واللفظ له، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الترغيب (٢٥٦٩).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٧٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان.
(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٠١٦) كتاب الأدب.

(٨) مواساته بالمال إذا احتاج أو افتقر:

فينبغي له أن يتفقد حال جاره إذا كان محتاجًا، فيعطيه من المال حتى من غير أن يطلب..فذلك من حق المسلم على أخيه، وحق الجار أعظم.

۞ وحسب المؤمن الذى يتعاون مع جاره الفقير، أن يكون أهلاً لما يشير إليه هذا الحديث الشريف: «**المسلم أخو المسلم: لا يَظلمه، ولا يُسلمه، مَن كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته، ومَن فرج عن مسلم كُربة فرج الله عنه بها كربة من كُرب يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»[(١)].

والقرض الحسن من سمات أهل المروءة، ومن صفات أهل التقوى. فبه يفرجون الكربات. ويحفظون الحرمات..فقد يحتاج صديقك أو جارك إلى كسوة عياله فى الشتاء أو فى الأعياد، أو يكون عليه دَينٌ حلَّ وقت سداده وليس فى يده السداد أو تحل به كارثة يعجز عن حملها أو تهدده بالإفلاس فيلجأ إليك لتُقرضه ما يُفرج به كربته وأنت قادر على ذلك..فإن أجبته وحققت رجاءه فيك وأمله، أعطاك الله ثوابًا يزيد ما لو تصدقت بالمال الذى أقرضته إياه...

وقد كان الناس إلى زمن قريب، يواسى بعضهم بعضًا..فإذا شعر الجار بحاجة جاره إلى معونة، بذل ماله من غير سؤال، وإذا علم صديق أن صديقه نزلت به فاقة بادر بعلاج فاقته وبذل فى ذلك ماله ونفسه.

(٩) مواساته بالطعام ولا سيما إذا كان فقيرًا:

فليس من حسن الجوار أن يشبع الإنسان وجاره جائع.

والنبى ﷺ يقول: «**ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه**»[(٢)].

وكثير من الناس لا يعبأ بجيرانه، فيأتى إلى بيته بالأطايب، ولا يفكر فى جيرانه

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، والطبرانى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٨٢).

الفقراء. وهذا لا ينبغي. بل إذا صنع الإنسان طعامًا فينبغي له أن يعطي جاره منه، وذلك تَودُّدًا إليه، وتطييبًا لنفسه، وتدعيمًا للمودة...وقد قال ﷺ: «**إذا طبخ أحدكم قِدرًا فليُكثر مرقها، ثم ليناول جاره منها**»(١) ولا يحتقر أن يرسل لجاره شيئًا بسيطًا، أو يستقله، أو يستحيي منه؛لأنه شيء متواضع...فقد قال ﷺ: «**يا نساء المسلمات! لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرسن شاة**»(٢). فينبغي لكل مسلم أن يتنبه إلى هذا الأدب الرفيع، وألا يهمله، فإن له أثرًا عظيمًا على الجار، وهو دليل على اتصاف المجتمع المسلم بالتراحم، والتعاطف، والتكافل بين أفراده.

أما أن يشتري الطعام، ويترك أولاده يخرجون بالحلوى والفاكهة أمام أبناء جاره الفقير، يغيظونهم بذلك، ولا يعطيه، فهذا إساءة إلى الجار وكسر لخاطره، ومخالفة لأمره ﷺ.

(١٠) مشاركته في أفراحه وأحزانه:

فإذا كان عند جاره مناسبة سارة فينبغي له أن يذهب إليه، وأن يشاركه ويقاسمه فرحه، ما لم يكن فيه معصية. وإذا ألَمَّت به نازلة فينبغي له أن يحضره، وأن يشاركه ويقاسمه حزنه، ويواسيه بالكلمة الصالحة، ويشد من أزره. وكل هذا من حق المسلم أصلاً على أخيه المسلم...والجار أَولَى بهذه الحقوق من غيره.

(١١) النُّصح له، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

فقد يرى الجار من جاره منكرًا، أو يراه تاركًا لعمل من أعمال البر، أو نحو ذلك، فيجب عليه أن ينصحه، وأن يأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، فإن حقه من ذلك أوكد من حق غيره .. وكثير من الناس يرى جاره على معصية ومنكر فلا ينهاه، ولا يأمره بالمعروف. وهذا خيانة للجار، وتفريط في حقه(٣).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الصغير، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٧٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٧) كتاب الأدب، ومسلم (١٠٣٠) كتاب الزكاة.

(٣) موسوعة الآداب الإسلامية (٣٠٠).

(١٢) أن يعرض عليه البيت قبل غيره إذا أراد التحول عنه:

فإذا أراد أن ينتقل من داره فليعرضها على جاره قبل غيره، فقد يرغب في شرائها، وكذلك أي أرض أو عقار...وقد قال ﷺ: «**مَن كانت له أرض فأراد بيعها فليعرضها على جاره**»(١)، وهذا أطيب لخاطره ولقلبه.

وإذا فرَّط الناس في هذا الأمر فإنهم يفتحون بابًا للمشاحنات والمنازعات والعداوات...فالله المستعان.

(١٣) ألا يمنع جاره من غرس خشبة في جداره:

إذا احتاج الجار إلى ذلك، فينبغي أن يسمح له بغرس هذه الخشبة، ولا يمنعه من الانتفاع بها ...فقد قال ﷺ: «**لا يمنع جارٌ جاره أن يغرس خشبه في جداره**»(٢) ثم قال أبو هريرة: «ما لي أراكم عنها مُعرضين؟ والله لأرمين بها بين أكتافكم» أي: لأُصرحنَّ ولأُحدثن بها بينكم مهما ساءكم ذلك وأوجعكم(٣).

(١٤) عدم استطالة البنيان بحيث يحجب الشمس والهواء عن جاره:

۞ فمن الضرورة أن يلاحظ الجار أن جاره الملاصق لمسكنه لا بد وأن يكون بعيدًا عن إيذائه بمثل هذه الصورة والتي مضمونها كما هو واضح: أنه إذا أراد الجار أن يبني جدارًا يفصل بينه وبين جاره، لا بد وأن يلاحظ عدم استطالة هذا الجدار حتى لا يحجب الريح - أي: الهواء - عن جاره.

وإذا رأى ضرورة ذلك فلا بد وأن يستأذن جاره. ويستمع إلى رأيه في هذا الموضوع بالذات الذي يتعلق به هو، والذي لا بد وأن يَصِلا فيه إلى حلٍّ حتى لا يكون هناك «ضرر أو ضرار» وحتى لا يكون هناك تَعدٍّ على مصلحة هذا الجار الملاصق.

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٢٤٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٦٣) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٦٠٩) كتاب البيوع.

(٣) موسوعة الآداب الإسلامية (ص: ٢٩٩، ٣٠٠).

۞ فهذه أيها المسلم جملة من أحاديث المصطفى تُبين هَدْيَه ﷺ فى حقوق الجيران، والإحسان إليهم، والنهى عن أذيتهم، والإساءة إليهم، فينبغى لنا الإحسان إلى الجيران، وتفقُّد أحوالهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، فإن ذلك من الشفقة عليهم، والنُّصح لهم، ويكون ذلك برفقٍ ولينٍ؛ ليكون أَدعَى إلى القبول وحصول المقصود، والسلامة من عدم قبول النصيحة.



(٤٠) باب بر الوالدين وصلة الأرحام

۞ حق الآباء والأمهات على الأبناء لا يستطيع إنسان أن يُحصيه أو يقدره... ولو استطاع الأبناء أن يُحصوا ما لاقاه الآباء والأمهات في سبيلهم، لاستطاعوا إحصاء ما يستحقونه من البر والتكريم، ولكنه أمر فوق الوصف، خصوصًا ما تحملته الأم من حملٍ، وولادة، وإرضاع، وسهرٍ بالليل، ونَصَبٍ بالنهار في سبيل الرعاية المطلوبة.

تَذْبُل الأم لذبول وليدها، وتغيب بسمتها إن غابت ضحكته، وتذرف دموعها، إن اشتد توعُّكه، وتحرم نفسها الطعام والشراب إن صام عن لبنها، وتُلقى نفسها في النار لتُنقذ وليدها، وتتحمل من الذل والشقاء أمثال الجبال كي يَحيا ويَسعد، وتموت راضية إذا اشتد عوده ولو كان على حساب صحتها وقوتها وسعادتها.

يرقص قلبها إذا ضحك الوليد، ولا تسعها الدنيا نشوة إذا حَبَا أو مشى، وتسمع نغم الدنيا في كلمته، وترى الحياة كلها نورًا وجمالًا وهي تراه مع الصبيان يلعب، أو إلى المدرسة يذهب... وهكذا تعيش له ومعه، وهي تنتظر الأيام الحاسمة في حياتها وحياته، حين ينجح، ويكسب، ويتزوج.

هل يكون لها في ولدها نصيب أم كل جهودها وتضحياتها وآمالها تذهب أدراج الرياح!!!!

هذه هي الأم... لذلك جعل الله الجنة تحت قدميها، وجعل حقها على الأبناء ثلاثة أضعاف حق أبيهم عليهم(١).

۞ وقبل أن أبدأ في شرح هذا الباب أُهدي لحضراتكم باقة عطرة من أحوال سلفنا الصالح مع بر الوالدين:

---

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام/ للشيخ حسن أيوب (ص: ٢٢١) بتصرف.

۞ ذكر صاحب عيون الأخبار هذا الخبر: قيل لعمر بن زيد: كيف بر ابنك بك؟ قال: ما مشيت نهارًا قط إلا وهو خلفى، ولا ليلًا إلا مشى أمامى، ولا رَقى سطحًا وأنا تحته.

۞ وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لى أمًّا بلغ منها الكِبرَ وأنها لا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية فهل أديت حقها؟ قال: لا.. لأنها كانت تصنع بك ذلك وهى تتمنى بقاءك وأنت تصنعه وتتمنى فراقها.

۞ وكان الفضل بن يحيى من أبرِّ الناس بأبيه... بلغ من بِرِّه إياه أنهما كانا فى السجن، وكان يحيى لا يتوضأ إلا بماءٍ ساخن، فمنعهما السجَّان من إدخال الحطب فى ليلة باردة، فلما نام يحيى، قام الفضل إلى قمقمة وملأها ماءً، ثم أدناه من المصباح، ولم يزل قائمًا - وهو فى يده - حتى أصبح»[١].

۞ نادت أم عبد الله بن عون (عبد الله) فأجابها، فعلا صوته على صوتها فأعتق رقبتين.

۞ وعن أبى عبد الرحمن الحنفى قال: رأى كهمس بن الحسن عقربًا فى البيت، فأراد أن يقتلها، أو يأخذها، فسبقته إلى جُحرها، فأدخل يده فى الجُحر ليأخذها، وجعلت تضربه، فقيل له: ما أردت من هذا؟ لِمَ أدخلت يدك فى جُحرها تُخرجها؟ قال: إنى خِفت أن تخرج من الجُحر فتجىء إلى أمى فتلدغها[٢].

۞ ولما مات ذر - وكان من الأولياء - قال أبوه عمر بن ذر: اللهم إنى قد غفرت له ما قصَّر فيه من واجب حقى، فاغفر له ما قصَّر فيه من واجب حقك... فقيل له: كيف كان عشرته معك؟ قال: ما مشى معى قط فى ليل إلا كان أمامى، ولا مشى معى فى نهار إلا كان ورائى، ولا ارتقى قط سقفًا كنت تحته[٣].

---

(١) بر الوالدين/ للطرطوشى (ص: ٧٨).

(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢١١).

(٣) بر الوالدين/ للطرطوشى (ص: ٧٦).

۞ وكان زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما كثير البر بأمه، حتى قيل له: إنك من أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة؟ فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها [1].

۞ وَعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: خَرَجْتُ بِأَبِي أَقُودُهُ فِي بَعْضِ سِكَكِ الْبَصرَةِ، فَمَرَرْتُ بِجَدولٍ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الشَّيْخُ أَنْ يَتَخَطَّاهُ، فَاضْطَجَعتُ لَهُ فَمَرَّ عَلَى ظَهْرِي [2].

۞ وَعَنِ الْأَشْجَعِي، قَالَ: «اسْتَسْقَتْ أُمُّ مِسْعَرٍ مَاءً مِنْهُ فِي بَعضِ اللَّيْلِ، فَذَهَبَ فَجَاءَ بِقِرْبَةِ مَاءٍ فَوَجَدَهَا قَد غَلَبَهَا النَّوْمُ، فَثَبَّتَ الشَّرْبَةَ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى أَصبَحَ» [3].

۞ وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ: «بِتُّ أَغْمِزُ رِجْلَ أُمِّي، وَبَاتَ أَخِي عُمَرُ يُصَلِّي، وَمَا يَسُرُّنِي أَنَّ لَيْلَتِي بِلَيْلَتِهِ».

۞ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ يَضَعُ خَدَّهُ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ يَقُولُ لِأُمِّهِ: قُومِي ثُمَّ ضَعِي قَدَمَكِ عَلَى خَدِّي [4].

۞ وجاء رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما فقال: حملت أمي على رقبتي من خُراسان حتى قضيت بها مناسك الحج، أَتُرَانِي جَزَيْتُهَا؟

فقَالَ: لَا، وَلَا بِطَلْقَةٍ وَاحِدَةٍ... ولكنك أحسنت .. والله يُثيبك على القليل كثيرًا.

۞ قال لقمان لابنه: ائتني بشيءٍ من الجنة.

فأسرع وأتاه بحفنة من التُّراب، وقال له: هذا ترابٌ من تراب الجنَّة.

فقال لقمان: من أين جئت به؟!

قال: من تحت قدم أمي.

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٩٧).

(٢) حلية الأولياء (٤/ ٨٢).

(٣) الحلية (٧/ ٢١٧).

(٤) الحلية (٣/ ١٥٠).

۞ ويُحكى أن أحد العلماء تأخر مرة عن مجلس أصحابه فسألوه عن سبب ذلك، فقال لهم: كنت أتمرَّغ فى رياض الجنة (يعنى تحت قدمى أمه)[1].

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ [الرعد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣٢، ٤٢]

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤].

وكل هذه الآيات تدل على عِظَم حق الوالدين .. ولكنى أُريد أن أقف مع تلك الآيات والتى تبدأ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ قضاء دينيًا وأمرًا شرعيًا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ ﴾ أحدًا من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى له كل صفة كمال، وله من كل صفة أعظمها، على وجهٍ لا يُشبهه أحدٌ من خلقه، وهو المُنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النِّقَم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كلّه، وغيره ليس له من ذلك شىء.

(١) بتصرف من كتاب (موسوعة أخلاق السلف)/ الشيخ محمود المصرى.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: أحسنوا إليهما، بجميع وجوه الإحسان، القولى والفعلى، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد، والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضى تأكُّد الحق، ووجوب البر. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أى: إذا وصلا إلى هذا السن، الذى تَضعُف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان، ما هو معروف. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبَّه به على ما سواه...

والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: تزجرهما، وتتكلم كلامًا خشنًا ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظٍ يُحبانه، وتأدب، وتلطف معهما، بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد، والأزمان. ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى: تواضع لهما، ذُلًّا لهما، ورحمة، واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لمالهما، ونحو ذلك من المقاصد، التى لا يُؤجَر عليها العبد. ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أى: ادعُ لهما بالرحمة أحياءً، وأمواتًا. جزاءً على تربيتهما إياك، صغيرًا.

وفُهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية، ازداد الحق... وكذلك مَن تولى تربية الإنسان فى دينه ودنياه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على مَن رباه حق التربية(١).



(٣١٧) عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سأَلتُ النبي ﷺ: أَيُّ الْعملِ أَحبُّ إلى الله تَعالى؟ قال: «الصَّلاةُ على وقتِهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: «بِرُّ الْوَالديْنِ» قلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: «الجهَادُ في سبيل الله»(٢).

---

(١) تفسير السعدى (ص ٥٢٣-٥٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٨٥) كتاب الإيمان.

۞ ففى هذا الحديث أن ابن مسعود سأل النبى ﷺ أَىُّ العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» يعنى: على الوقت المطلوب شرعًا إن كان مما يُطْلَب تقديمه فتقديمه أفضل، وإن كان مما يُطلب تأخيره فتأخيره أفضل... والصلوات الخمس كلها الأفضل فيها التقديم إلا العشاء فالأفضل فيها التأخير ما لم يَشُق على الناس، وإلا فالظهر فى شدة الحر فالأفضل فيها التأخير تيسيرًا على الناس وتخفيفًا عليهم ... أما الفجر والعصر والمغرب فالأفضل فيها التعجيل على كل حال. لكن قال العلماء - رحمهم الله - مَن قام حين يسمع النداء يتوضأ ويتأهب للصلاة فهذا تقديم - يعنى ليس المعنى أنه من حين يؤذن نصلِّى، المهم أن تستعد للصلاة من أول وقتها.

۞ **قال ابن مسعود**: ثم أىُّ؟ قال ﷺ: «**بر الوالدين**» يعنى: الإحسان إليهما بالقول والمال والخدمة وغير ذلك. قال: ثم أى؟ قال: «**الجهاد فى سبيل الله**».

وفى الحديث دليل على إثبات المحبة لله عَزَّوَجَلَّ وأنه يحب الأعمال كما يحب العاملين، وأن حبه يتفاوت - سبحانه وتعالى - وفيه أن برّ الوالدين مُقدَّمٌ على الجهاد فى سبيل الله... واجبه على واجبه، وتَطوُّعه على تطوعه.

فمثلاً إذا كان الوالدان ليس عندهما مَن يعولهما ولا مَن يخدمهما وهما فى ضرورة للولد؛ فإنه يجب عليه أن يبقى ولا يجاهد، وإذا كان عندهما مَن يقوم بخدمتهما وأمرهما فهذا بقاؤه عندهما مستحب... ثم الجهاد إذا احتاج إليه كان أفضل وإن لم يحتج إليه فبرُّ الوالدين أفضل. والله أعلم.

۞ وهنا ملحوظة بالنسبة لصلاة الفجر ... المعروف أن التوقيت الذى يعرفه الناس الآن ليس بصحيح؟

فالتوقيت مُقدَّم على الوقت بربع ساعة على أقل تقدير... وبعض الشباب خرجوا إلى الصحراء؛ فوجدوا أن الفرق بين التوقيت الذى بأيدى الناس، وبين طلوع الفجر نحو ثلث ساعة، فالمسألة خطيرة جدًّا.

ولهذا لا ينبغى للإنسان فى صلاة الفجر أن يبادر فى إقامة الصلاة، وليتأخر ثلث ساعة، أو (٢٥) دقيقة، حتى يتيقن أن الفجر قد حضر وقته[١].

(٣١٨) وعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَجْزِي ولَدٌ والِدًا إلَّا أَنْ يَجِدَهُ مملُوكًا، فَيَشْتَرِيَهُ، فَيُعتِقَهُ»[٢].

۞ ففى هذا الحديث يوضح النبى ﷺ أن الإنسان مهما فعل فلن يستطيع أن يُوفِّى والديه حقهما .. لدرجة أنه لو أراد أن يكون مُكافئًا لأحدهما فى معروفه إليه فلن يجد إلا شيئًا واحدًا يُوازى فضلهما عليه .. ألا وهو أن يجد أحدهما عبدًا مملوكًا لأحد الناس فيذهب إليه ويشتريه ليُصبح حُرًّا بعد أن كان عبدًا مملوكًا .. فهذا هو العمل الوحيد الذى يُكافئ به الولد فضل والديه .. فإذا حرَّر أحدهما من رِقِّ العبودية فقد رَدَّ إليه جميله وإحسانه .. لأنه بمجرد شراء الولد لوالده فقد أُعتق الوالد دون أن يحتاج الولد أن يقول له: لقد أعتقتك .. وذلك لأن الولد مِن كَسْبِ أبيه .. وقد قال النبى ﷺ: «**أنت ومالك لأبيك**» .. والنبى ﷺ يعلم أنه سيأتى يومٌ على الناس ولن يصبح على وجه الأرض عبدٌ رقيق عند أحد.. فكأنه يقول لكلِّ إنسان: لن تستطيع أن تُوفِّى حق والديك مهما فعلت فابذل قصارى جهدك من أجل برهما وإدخال السعادة عليهما.

(٣١٩) وعَنْه أيضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يؤْمِنُ بالله والْيومِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله والْيوم الآخر، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فلْيقُلْ خيرًا أَوْ لِيَصمُتْ»[٣].

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ١٦٦-١٦٧) بتصرف.
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥١٠) كتاب العتق.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٣٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

۞ هذا الحديث الشريف اشتمل على جملة من الآداب الشرعية التى تدل على حُسن إيمان مَن اتصف بها، وأن الاتصاف بها من كمال الإيمان، وذلك أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بالطاعة وكثرة العبادات، وينقص بالمعصية وكثرة السيئات... وقد ورد فى بيان زيادة الإيمان بالأعمال الصالحة عدة آيات وجملة من الأحاديث الشريفة.

۞ قوله ﷺ: « **مَنْ كَانَ يؤْمِنُ بالله والْيوِمْ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ** ».

فاعلم أن إكرام الضيف مما أمر به الشارع، وحَثَّ عليه ﷺ، وجعله من علامات الإيمان ... والمراد بإكرامه الإحسان إليه بضيافته.

فقد قال ﷺ: « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ**» قِيلَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ**»[١].

وقد ورد عن النبى ﷺ عدة أحاديث تدل على وجوب قِرى الضيف وأن مَن نزل بفنائك واستضافك وجب عليك ضيافته .. وتأثم بتركه، وعدم القيام به، وتُثاب عليه إذا قمت به... قال ﷺ: « **لَيْلَةُ الضَّيْفِ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَصبَحَ الضَّيف بِفِنَائِهِ فَهُوَ لَهُ عَلَيْهِ دَيْنٌ، إِنْ شَاءَ اقْتَضَى وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ**»[٢].

فهذه النصوص تدل على وجوب الضيافة يومًا وليلة، كما قال بذلك من الأئمة رحمهم الإمام أحمد بن حنبل، والليث بن سعد، إمام أهل مصر فى زمانه، وقال الإمام أحمد: له المطالبة بذلك إذا منعه؛ لأنه حَقٌّ له واجب.

وقد وردت أحاديث تدل على فضيلة إطعام الطعام، سواء كان لضيف أو غيره... فقد روى عنه ﷺ أنه قال: « **أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعَمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٩) كتاب الأدب، ومسلم (٤٨) (١٤) كتاب اللقطة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٧٠).

الْأَرحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ »(١).

وقد كان العرب يعتبرون بذل الطعام من السؤدد... وقد قال أبو حاتم: كل من ساد فى الجاهلية والإسلام حتى عُرف بالسؤدد، وانقاد له قومه، ورحل إليه القريب والقاصى، لم يكن كمال سُؤدده إلا بإطعام الطعام، وإكرام الضيف... والعرب لم تكن تعد الجود إلا قِرى الضيف، وإطعام الطعام، ولا تعد السخى مَن لم يكن فيه ذلك حتى إن أحدهم ربما سار فى طلب الضيف الميل والميلين... وقد قيل فى ذلك:

إذا ما أتاك الضيف فابدأ بحقه قبل العيال فإن ذلك أصوبُ

وعظِّم حقوق الضيف واعلم بأنه عليك بما توليه مُثنٍ وذاهبُ

كما ينبغى مُلاطفة الضيف، وإدخال السرور عليه؛ ليشعر منك بالفرح به، والاستبشار بقدومه(٢).

۞ وقوله ﷺ: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه**» لا بد أن نعلم أن صلة الأرحام والإحسان إلى الأقارب من أعظم القُربات والطاعات التى تُقربنا من رب الأرض والسماوات.

فالله عَزَّوَجَلَّ يصل مَن وصل رحمه فى الدنيا والآخرة ويمده بالرحمة وييسر له الأمور ويفرج عنه الكربات.

فصلة الرحم من الحقوق التى دعت إليها الفطرة السليمة وقررتها الشريعة السمحة ..فللقريب الذى يتصل بك فى القرابة حق هذه القرابة.

۞ **قال الإمام النووى**: صلة الرحم: هى الإحسان إلى الأقارب، على حسب حال الواصل والموصول .. فتارة تكون بالمال وتارة بالخدمة وتارة بالزيارة

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٢) من هدى المصطفى ﷺ/ الشيخ محمد عبد الله السبيل (ص ٢١١-٢١٣) بتصرف كبير.

والسلام وغير ذلك[١].

قال القاضي عياض: لا خلاف أن صلة الرحم واجبة فى الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة والأحاديث تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة... فمنها: واجب، ومنها: مستحب. ولو وصل بعض الصلة، ولم يَصل غايتها لا يُسمى قاطعًا..ولو قصَّر عمَّا يقدر عليه وينبغى له لا يُسمى واصلًا[٢].

فهذا الجزء من الحديث فى بيان فضل صلة الرحم، والرحم سبق لنا أنهم هم الأقارب، وصلتهم بما جرى به العُرف واتبعه الناس؛ لأنه لم يُبين فى الكتاب ولا السُّنة نوعها ولا جنسها ولا مقدارها؛ لأن النبى ﷺ لم يقيده بشىءٍ مُعيَّن؛ فلم يقيده بأن يأكلوا معك، أو يشربوا معك، أو يكتسوا معك، أو يسكنوا معك، بل أطلق... ولذلك يُرجَع فيها للعرف، فما جرى به العرف أنه صلة فهو الصلة، وما تعارف عليه الناس أنه قطيعة فهو قطيعة، هذا هو الأصل.

نعم، لو فُرض أن الأعراف فسدت وصار الناس لا يُبالون بالقطيعة، وصارت القطيعة عندهم صلة فلا عبرة بهذا العُرف... لأن هذا العُرف ليس عُرفًا إسلاميًا.

۞ وصلة الرحم لها فضائل وثمراتٍ كثيرة ... منها:

(١) صلة الرحم شعار الإيمان بالله واليوم الآخر:

فقد قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه**»[٣].

(٢) أن الله عَزَّوَجَلَّ يصل الواصل فى الدنيا والآخرة، فيمده بالرحمة، وييسر له الأمور ويُفرج عنه الكربات:

عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله**

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١١٣).

(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ١١٢، ١١٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٣٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

تعالى: أنا الرحمن، وهى الرحم، شققت لها اسمًا من اسمى، مَن وصلها وصلته، ومَن قطعها قطعته، ومن بَتَّها بَتَتُّه[(١)]»[(٢)].

(٣) أنها تجلب للعبد رضا الله ومحبته:

وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ يحب العبد الوفى الذى لا ينسى أبدًا حق أقاربه وأرحامه.

قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: حُقَّت[(٣)] محبتى للمتواصلين فىَّ**»[(٤)].

(٤) أنها أعجل الطاعة ثوابًا:

عن أبى بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «... **وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة، فتنمو أموالهم، ويكثر عددهم، إذا تواصلوا**»[(٥)].

(٥) صلة الرحم يُكفر الله بها سيئات العبد:

عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: أتى النبى ﷺ رجل فقال: يا رسول الله! إنى أصبت ذنبًا عظيمًا فهل من توبة؟ قال: «**هل لك من أم؟**» قال: لا. قال: «**هل لك من خالة؟**» قال: نعم. قال: «**فبرها**»[(٦)].

وقال ﷺ: «**الخالة بمنزلة الأم**»[(٧)].

---

(١) بتته: قطعته.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والبخارى فى الأدب المفرد، والترمذى، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُٱللَّهُ فى صحيح الجامع (٤٣١٤).

(٣) حقت: وجبت.

(٤) صحيح: رواه أحمد والطبرانى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٥) صحيح: أخرجه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى رَحِمَهُٱللَّهُ فى صحيح الجامع (٥٧٠٥).

(٦) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، والحاكم، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُٱللَّهُ فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٠٤).

(٧) صحيح: رواه البخارى (٢٦٩٩) كتاب الصلح.



(٦) صلة الرحم تجعلك فى أعلى المنازل:

قال ﷺ: «.... **إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا. فهذا بأفضل المنازل...**»(١).

(٧) أنها من أسباب البركة فى الرزق والعمر:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أحب أن يُبسط له فى رزقه(٢)، ويُنسأ له فى أثره(٣)، فليصل رحمه**»(٤).

(٨) صلة الرحم تُعمر الديار:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**صلة الرحم، وحُسن الخلق، وحُسن الجوار يُعمِّرن الديار، ويَزدِن فى الأعمار**»(٥).

(٩) أنها من أعظم أسباب دخول الجنة:

وعن أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: دُلنى على عمل أعمله يُدنينى من الجنة، ويباعدنى من النار. قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل ذا رحمك**» فلما أدبر(٦)، قال رسول الله ﷺ: «**إن تمسَّك بما أُمر به، دخل الجنة**»(٧).

✿ والخلاصة: أن صلة الرحم أن تُحسن إلى الأقارب أو ذوى الأرحام... ومن الإحسان الوصل ومن الوصل، أن تمنع عنهم الشر.

وفى صلة الرحم مرضاة للرب، وتقوية لأَواصِر العلاقات الاجتماعية بين

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٢) يُبسط له فى رزقه: يُوسَّع له فيه.

(٣) يُنسأ له فى أثره: يُؤخَّر له فى أجله وعمره.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٦٧) كتاب البيوع، ومسلم (٢٥٥٧) كتاب البر والصلة.

(٥) صحيح: رواه أحمد، والبيهقى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٧٦٧).

(٦) أدبر: ولّى وذهب.

(٧) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٩٧) كتاب الزكاة، ومسلم (١٤) كتاب الإيمان.

الناس... تَجلب سِعَة الرِّزق والبَركة فيه، وتُؤدى إلى طول العمر، وهى من كمال الإيمان إذ أن مَن وَصَلَ وُصِلَ بفضل الله، ومن قَطَعَ قُطِعَ بعدل الله[١].

❁ قوله ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فلْيَقُلْ خيرًا أَوْ لِيَصمُتْ» فهذا الحديث يدل دلالة واضحة على وجوب حفظ اللسان، وعدم إطلاقه فى كثرة الكلام، فإن الرجل قد يتكلم بالكلام السيئ، وهو لا يحسب له حسابًا، وتتكاثر عليه السيئات والذنوب، وهو لا يشعر، ولا يظن أنه عمل بهذا معصية... فعلى المسلم الناصح لنفسه أن يكون على حذر من كل ما يتكلم به، فإن علم أنه خير تكلم، وإن علم أنه ليس فيه خير أمسك، وإذا شَكَّ فيه فَتَرْكُه أَولَى... لقوله عليه الصلاة والسلام: «فلْيقُلْ خيرًا أَوْ لِيَصمُتْ». فإذا لم يعلم أنه خير فليصمُت امتثالًا لأمره ﷺ.

وروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إياكم وفضول الكلام... حسب امرئ ما بلغ حاجته».

وعن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبى ﷺ: «لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس عن الله القلب القاسى».

وكان أبو بكر رضي الله عنه من شدة خوفه من لسانه، ومراقبته لربه، يأخذ بلسانه، ويقول: «هذا الذى أوردنى الموارد».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «والله الذى لا إله إلا هو ما على الأرض أحق بطول سجنٍ من اللسان».

وقد أكثر العلماء والحكماء والأدباء فى الحث على قلة الكلام، والأمر بحفظ اللسان.

---

(١) بتصرف من كتاب (موسوعة أخلاق السلف)/ الشيخ محمود المصرى.

قال الشاعر:

أقلِل كلامك واستعذ من شره … إن البلاء ببعضه مقرونُ
واحفظ لسانك واحتفظ من غيِّه … حتى يكون كأنه مسجونُ
وَكِّل فؤادك باللسان وقُلْ له … إن الكلام عليكما موزونُ(١)

(٣٢٠) وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله تَعَالى خَلَقَ الخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هذا مُقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قال: نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قالت: بَلَى، قال: فَذلِكَ لَكِ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]»(٢).

وفي رواية للبخاري: «فقال الله تعالى: مَنْ وَصَلَكِ، وَصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَكِ قطعتُهُ».

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الله عز وجل خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم - أي من خلقهم - قامت الرحم .. لكن كيف قامت؟ وهل تمثلت في صورة بعينها أم ماذا حدث؟ أقول: الله أعلم ... وما دام أن النبي ﷺ لم يخبرنا بكيفية ذلك فلا حاجة لنا لأن نتكلف معرفة ذلك ... ولو كان هناك خير في معرفة ذلك لأخبرنا النبي ﷺ الذي قال: «**ما تركت من خيرٍ إلا وقد دللتكم عليه، وما تركت من شرٍّ إلا وقد حذرتكم منه**».

المهم أن الرحم قامت وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة .. فما كان من الحق (جلَّ وعلا) إلا أن قال لها: نعم .. أما ترضين أن أصل مَن وصلكِ

(١) من هدى المصطفى ﷺ (ص ٢٠٨-٢٠٩) بتصرف.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٣٠) كتاب التفسير، ومسلم (٢٥٥٤) كتاب البر والصلة.

وأقطع مَن قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لكِ.

فمن وصل رحمه وصله الله بلُطفه ورحمته وعطفه وإحسانه وجُوده وكرمه وحفظه.. ومن قطع رحمه حُرم من كل ذلك.

ولذا قال النبى ﷺ فى آخر الحديث: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

أى فلعلَّكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية، من الإفساد فى الأرض بالمعاصى، وقطع الأرحام!!

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟ قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ[1] ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ أى فأصمهم عن استماع الحق، وأعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد.

قال القرطبى: أخبر تعالى أن مَن فعل ذلك حقَّت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التى لا تعقل[2].

۞ قال القاضى عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: الرَّحِمُ الَّتِى تُوصَلُ وَتُقْطَعُ وَتُبَرُّ إِنَّمَا هِىَ مَعنًى مِنَ الْمَعَانِى لَيْسَتْ بِجِسْمٍ وَإِنَّمَا هِىَ قَرَابَةٌ وَنَسَبٌ تَجْمَعُهُ رَحِمُ وَالِدَةٍ وَيَتَّصِلُ بَعضُهُ بِبَعضٍ ... فَسُمِّىَ ذَلِكَ الِاتِّصَالُ رَحِمًا وَالْمَعنَى لَا يَتَأَتَّى مِنْهُ الْقِيَامُ وَلَا الْكَلَامُ فَيَكُونُ ذِكْرُ قِيَامِهَا هُنَا وَتَعَلُّقُهَا ضَرْبُ مَثَلٍ وَحُسْنُ اسْتِعَارَةٍ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِى اسْتِعمَالِ ذَلِكَ ... وَالْمُرَادُ تَعظِيمُ شَأْنِهَا وَفَضِيلَةُ وَاصِلِيهَا وَعَظِيمُ إِثْمِ

(١) البحر المحيط (٨/ ٨٢).

(٢) تفسير القرطبى (١٦/ ٢٤٦).

قَاطِعِيهَا بِعُقُوقِهِمْ لِهَذَا سُمِّيَ الْعُقُوقُ قَطْعًا ... وَالْعَقُّ الشَّقُّ كَأَنَّهُ قَطَعَ ذَلِكَ السَّبَبَ الْمُتَّصِلَ قَالَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ قَامَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَتَعَلَّقَ بِالْعَرْشِ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهَا بِهَذَا بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى[1].

(٣٢١) وعَنْ أبي هريرة ﷺ قال: جَاءَ رَجُلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسنِ صَحَابَتِي؟ قال: «أُمُّك» قال: ثُمَّ منْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أبُوكَ»[2].

وفى رواية: يا رسول الله مَنْ أَحَقُّ الناس بِحُسْن الصُّحبةِ؟ قال: «أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثمَّ أَباكَ، ثُمَّ أَدناكَ أَدنَاكَ».

۞ وهنا يوضح النبى ﷺ أن أحق الناس بالصحبة الأم. فلما سُئل فى المرة الثانية والثالثة قال: « أُمُّكَ ».. فلما سُئل فى المرة الرابعة قال: « أَبُوكَ » .. فالأم لها ثلاثة أرباع البر وذلك لأنها هى التى تحملت آلام الحمل والولادة والرضاعة ... والتربية بعد ذلك كانت مشتركة بين الأم والأب بل كان الحِمل الأكبر على عاتق الأم فى الخدمة والشفقة والتمريض وتحمُّل المشاق وغير ذلك.

ثم إنها أيضًا أنثى ضعيفة لا تأخذ بحقها، فلهذا أوصى بها النبى ﷺ ثلاث مرات، وأوصى بالأب مرة واحدة، وفى هذا الحث على أن يُحسن الإنسان صُحبة أمه وصُحبة أبيه أيضًا بقدر المستطاع.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٦٩-١٧٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٧١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة.
«والصَّحابة» بمعنى: الصُّحبة. وقوله: «ثُمَّ أباك» هَكَذا هو منصوب بفعلٍ محذوفٍ، أى ثم برَّ أَباك.
وفى رواية: «ثُمَّ أَبُوكَ» وهذا واضح.

(٣٢٢) وعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُم رغم أَنْفُ، ثُمَّ رَغِم أنف مَنْ أَدرْكَ أَبَويْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِما، فَلَمْ يدخلِ الجَنَّةَ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يدعو النبى ﷺ على مَن أدرك والديه عند الكِبَر والعجز والضعف فلم يبرهما حتى يدخل الجنة .. بل عقَّهما وأساء إليهما فحُرم من دخول الجنة .. فدعا عليه النبى ﷺ بالذل والخزى ...وأصل كلمة (رَغِمَ أنفه) أى: لصق أنفه بالرغام وهو ترابٌ مختلطٌ برمل.

۞ وفى هذا الحديث الْحَثُّ عَلَى بِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَعِظَمِ ثَوَابِهِ ... وَمَعنَاهُ أَنَّ بِرَّهُمَا عِنْدَ كِبَرِهِمَا وَضَعفِهِمَا بِالْخِدمَةِ أَوِ النَّفَقَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ فَمَنْ قَصَّرَ فِي ذَلِكَ فَاتَهُ دُخُولُ الْجَنَّةِ وأرغم الله أنفه(٢).

(٣٢٣) وعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَن رجلاً قال: يا رسول الله إنَّ لى قَرابةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونى، وَأُحسِنُ إِلَيْهِمِ وَيُسيئُونَ إِلَىَّ، وأَحلُمُ عنهُمْ وَيجْهلُونَ علَىَّ، فقال: «لَئِنْ كُنْت كما قُلْتَ، فَكأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ، ولا يَزَالُ معكَ مَنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ ما دُمْتَ عَلَى ذَلكَ»(٣).

۞ لقد كان النبىُّ ﷺ جالسًا فى مسجده، فجاءه رجلٌ حزينٌ جدًّا.

فسأله النبى ﷺ عن سبب حزنه.

فأخبره الرجل بأنه له أقارب يريد أن يصلهم حتى لا يغضب الله عليه وحتى يفوز بأجر صلة الأرحام ولكنهم يتعاملون معه معاملة سيئة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥١) كتاب البر والصلة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٦٤).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة.

«وتسِفُّهُمْ» بضم التاءِ وكسرِ السين المهملة وتشديد الفاءِ - «والمَلُّ» وهو الرَّماد الحارُّ: أىْ كأَنَّمَا تُطْعِمُهُمْ الرَّماد الحارَّ وهُو تَشبِيهٌ لما يلْحَقُهمْ مِنَ الإِثم بما يَلْحقُ آكِلَ الرَّمادِ مِنَ الألم، ولا شىءَ على هذا المُحسِنِ إِلَيْهِمْ، لَكِنْ يَنَالهُمْ إِثْمٌ عَظَيمٌ بَتَقْصِيرهِم فى حَقِّهِ، وإِدخَالِهِمُ الأَذَى عَلَيْهِ، والله أعلم.

فهو يصلهم ويزورهم ويحرص كل الحرص على أن يطمئن على أحوالهم .. ومع ذلك فهم يقطعون كل علاقة تصلهم به ولا يسألون عليه.

وهو أيضًا يُحسن إليهم غاية الإحسان بالمعاملة والكلمة الطيبة والسعى فى مصالحهم وبذل المال من أجلهم .. ومع ذلك فهم يسيئون إليه غاية الإساءة.

وهو أيضًا يتعامل معهم بكل رحمة وإذا أساءوا إليه، فإنه يكون حليمًا معهم .. ومع ذلك فهم يجهلون عليه ويبالغون فى إيذائه والإساءة إليه.

فتعجب النبى ﷺ من حال هذا الرجل مع أقاربه.. ولكنه خشى أن يكون هذا الرجل مبالغًا فى وصف تلك العلاقة بأقاربه.

فأخبره النبى ﷺ أنه إن كان صادقًا فى كلامه فكأنما يُطعمهم الرماد الحار وأن الله سيؤيده وينصره ويعينه عليهم مادام على تلك الحالة من الإحسان إلى أقاربه.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَعنَاهُ: كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الْحَارَّ ... وَهُوَ تَشْبِيهٌ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْأَلَمِ بِمَا يَلْحَقُ آكِلِ الرَّمَادَ الْحَارَّ مِنَ الْأَلَمِ وَلَا شيء عَلَى هَذَا الْمُحسِنِ بَلْ يَنَالُهُمُ الْإِثْمُ الْعَظِيمُ فِى قَطِيعَتِهِ وَإِدخَالِهِمُ الْأَذَى عَلَيْهِ ... وَقِيلَ: مَعنَاهُ إِنَّكَ بِالْإِحسَانِ إِلَيْهِمْ تُخْزِيهِمْ وَتُحَقِّرُهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ لِكَثْرَةِ إِحسَانِكَ وَقَبِيحِ فِعلِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْحَقَارَةِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَمَنْ يُسَفُّ الْمَلَّ ... وَقِيلَ ذَلِكَ الَّذِى يَأْكُلُونَهُ مِنْ إِحسَانِكَ كَالْمَلِّ يُحَرِّقُ أَحشَاءَهُمْ .. وَاللَّهُ أَعلَمُ[١].

(٣٢٤) وعَنْ أَنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ أَحبَّ أَنْ يُبْسَطَ له فى رِزْقِهِ، ويُنْسأَ لَهُ فى أَثَرِه، فَلْيصِلْ رحِمهُ»[٢].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٧٣-١٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٦٧) كتاب البيوع، (٥٩٨٦) كتاب الأدب- ومسلم (٢٥٥٧) كتاب البر والصلة.

ومعنى «ينسأَ لَهُ فى أَثَرِه»: أَىْ: يُؤَخَّر له فى أَجلهِ وعُمُرِهِ.

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن أحب أن يُوسِّع الله له رزقه وأن يُطيل فى عمره فعليه بصلة الرحم.

وفى رواية أخرى للحديث: «**فليبر والديه وليصل رحمه**» فصلة الرحم وبر الوالدين سببٌ لسعة الرزق وطول العمر.

لكن السؤال هنا: كيف يُبسط فى الرزق وكيف يطول العمر؟

ويتولى الإجابة على هذا السؤال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: وبسط الرِّزْقِ تَوْسِيعُهُ وَكَثْرَتُهُ وَقِيلَ الْبَرَكَةُ فِيهِ وَأَمَّا التَّأْخِيرُ فِى الْأَجَلِ فَفِيهِ سُؤَالٌ مَشْهُورٌ وَهُوَ أَنَّ الْآجَالَ وَالْأَرْزَاقَ مُقَدَّرَةٌ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ: ﴿**فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ وَأَجَابَ الْعُلَمَاءُ بِأَجْوِبَةٍ الصَّحِيحُ مِنْهَا أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ بِالْبَرَكَةِ فِى عُمْرِهِ وَالتَّوْفِيقِ لِلطَّاعَاتِ وَعِمَارَةِ أَوْقَاتِهِ بِمَا يَنْفَعُهُ فِى الْآخِرَةِ وَصِيَانَتِهَا عَنِ الضَّيَاعِ فِى غَيْرِ ذَلِكَ ... وَالثَّانِى أَنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَظْهَرُ لِلْمَلَائِكَةِ وَفِى اللَّوْحِ الْمَحفُوظِ وَنَحوِ ذَلِكَ ... فَيَظْهَرُ لَهُمْ فِى اللَّوْحِ أَنَّ عُمْرهُ سِتُّونَ سَنَةً إِلَّا أَنْ يَصِلَ رَحِمَهُ فَإِنْ وَصَلَهَا زِيدَ لَهُ أَرْبَعُونَ ... وَقَد عَلِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا سَيَقَعُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ مَعنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ**﴾ .... فيه النسبة إِلَى عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَمَا سَبَقَ بِهِ قدره ولا زِيَادَةَ بَلْ هِىَ مُسْتَحِيلَةٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا ظَهَرَ لِلْمَخْلُوقِينَ تُتَصَوَّرُ الزِّيَادَةُ وَهُوَ مُرَادُ الْحَدِيثِ ... وَالثَّالِثُ أَنَّ الْمُرَادَ بَقَاءُ ذِكْرِهِ الْجَمِيلِ بَعدَهُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ حَكَاهُ الْقَاضِى وَهُوَ ضَعِيفٌ أَوْ بَاطِلٌ وَاللهُ أَعلَمُ(١).

أي أنه ما كان فى علم الله عَزَّوَجَلَّ في أم الكتاب فلا يتغير .. وأما ما كان في علم المَلَك فهو قابل للتغيير .. بمعنى أن الله عَزَّوَجَلَّ يخبر الملك أن عبدي فلان إذا برَّ والديه ووصل رحمه فعمره سبعون سنة.. وإن عَقَّ والديه وقطع رحمه فعمره ستون سنة.. والله يعلم مُسبقًا إذا كان هذا العبد سيصل رحمه ويبر والديه أم لا ..

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٧٢-١٧٣).

فما كان في علم الله عَزَّوَجَلَّ لا زيادة فيه ولا نُقصان .. وإنما الزيادة والنقصان فيما يكون فى علم المَلَك.

❊ ❊ ❊

(٣٢٥) وعَنْ أَنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان أَبُو طَلْحَة أَكْثَر الأنصار بِالمَدينَة مالاً مِنْ نَخْلٍ، وكان أَحبُّ أَمْوَالِهِ بَيْرحَاءَ، وكَانتْ مُسْتَقْبِلَة المَسْجِدِ، وكَان رسولُ الله ﷺ يدخُلُهَا، وَيَشْرَب مِنْ ماءٍ فيها طَيِّبٍ، فَلَمَّا نَزَلتْ هذِهِ الآيَةُ : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٢٩] ، قام أَبُو طَلْحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّ الله تَبارَك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإنَّ أَحب مالى إِلَيَّ بَيْرحَاءَ، وإِنَّهَا صَدقَةٌ لله تعالى، أَرجُو بِرَّهَا وذُخْرهَا عِنْد الله تعالى، فَضَعهَا يا رسول الله حيثُ أَراكَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «بَخٍ، ذلكَ مالٌ رابحٌ ، ذلكَ مالٌ رابحٌ ، وقَد سمِعتُ ما قُلتَ ، وإِنِّى أَرى أَنْ تَجْعَلَهَا فى الأَقْربِين» فقال أَبُو طَلْحة: أَفعلُ يا رسول الله، فَقَسمهَا أَبُو طَلْحة فى أَقارِبِهِ وبنى عمِّهِ[1].

وسبق بَيَانُ أَلْفَاظِهِ فى بابِ الإِنْفَاقِ مِمَّا يُحِب.

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا عند شرح الحديث رقم (٣٠٢) فأرجو الرجوع إليه ... بارك الله فيكم.

❊ ❊ ❊

(٣٢٦) وعَنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: أَقْبلَ رجُلٌ إِلى نَبيِّ الله ﷺ، فقال: أُبايعُكَ على الهِجرةِ وَالجِهَاد أَبتَغِى الأَجرَ مِنَ الله تعالى. قال: «فهَلْ مِنْ والدِيْكَ أَحدٌ حَيٌّ؟» قال: نعمْ بل كلاهُما قال: «فَتَبْتغى الأَجْرَ مِنَ الله تعالى؟» قال: نعمْ. قال: «فَارجع إِلى والدِيْكَ، فَأَحسِنْ صُحبتَهُما»[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٦١) كتاب الزكاة، ومسلم (٩٩٨) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠٠٤) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٥٤٩) كتاب البر والصلة.

وفي روايةٍ لهما: جاءَ رجلٌ فاسْتَأْذَنَهُ في الجِهَادِ فقال: «أَحيٌّ والِداكَ؟» قال: نَعَمْ، قال: «فَفِيهِما فجاهِد».

۞ ففي هذا الحديث يحكي ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ وهو في قمة الشوق إلى الهجرة والجهاد لا يريد بذلك إلا وجه الله عز وجل .. فقال للنبي ﷺ: أُبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله .... وكان النبي ﷺ قبل أن يُقرِّر أي شيءٍ كان ينتظر الوحي من السماء حتى يكون كلامه موافقًا لمراد الله عز وجل .. وكان أيضًا يتحرَّى عن أحوال الناس حتى لا يكلفهم بشيءٍ يشق عليهم .. فما كان منه ﷺ إلا أن سأل هذا الصحابي: **«فهل لك من والديك أحدٌ حيٌّ؟»**. فقال له الرجل: نعم.. بل كلاهما .. أي: كلاهما حي.

فكأن النبي ﷺ قد أحسَّ بشدة احتياج الوالدين لهذا الابن البار.. فقال له: **«فتبتغي الأجر من الله تعالى؟»**.

فقال الرجل: نعم... فلقد قالها للنبي ﷺ في أول كلامه.

فإذا بالنبي ﷺ يقول له: **«فارجع إلى والديك فأحسِن صُحبتهما»** .. وفي رواية: **«ففيهما فجاهد»**.

فكأن الإحسان إلى الوالدين يعدل الهجرة والجهاد في سبيل الله.. وكأن بر الوالدين هو نوع من الجهاد فقد قال له النبي ﷺ: **«ففيهما فجاهد»**.

۞ قال الإمام النووي رحمه الله: هَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ لِعِظَمِ فَضِيلَةِ بِرِّهِمَا وَأَنَّهُ آكَدُ مِنَ الْجِهَادِ، وَفِيهِ حُجَّةٌ لِمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْجِهَادُ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا إِذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ أَوْ بِإِذْنِ الْمُسْلِمِ مِنْهُمَا، فَلَوْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ لَمْ يُشْتَرَطْ إِذْنُهُمَا عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُ وَشَرَطَهُ الثَّوْرِيُّ ...هَذَا كُلُّهُ إِذَا لَمْ يَحضُرَ الصَّفَّ وَيَتَعَيَّنِ الْقِتَالَ، وَإِلَّا فَحِينَئِذٍ يَجُوزُ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى الْأَمْرِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَأَنَّ عُقُوقَهُمَا حَرَامٌ مِنَ الْكَبَائِرِ[1].

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٥٧).

(٣٢٧) وعَنْ ابنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا عن النبى ﷺ قال: «لَيْسَ الْواصِلُ بِالْمُكافِئ وَلكِنَّ الواصِلَ الَّذى إِذا قُطِعتْ رَحِمُهُ وصلَهَا»(١).

۞ فهذا الحديث فى بيان فضيلة صلة الرحم، وأن الإنسان الواصل ليس المكافئ الذى إذا وصله أقاربه وصلهم، ولكن الواصل هو الذى إذا قُطعت رحمه وصلها... فتكون صلته لله لا مكافأة لعباد الله، ولا من أجل أن ينال بذلك مدحًا عند الناس ... قال النبى ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ**» يعنى بالذى إذا وصله أقاربه وصلهم مكافأة لهم، وإنما الواصل الذى إذا قُطعت رحمه وصلها.

(٣٢٨) وعَنْ عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرَّحِمُ مَعلَّقَةٌ بِالعَرش تَقُولُ: مَنْ وصلنى وَصَلَهُ الله، وَمَن قَطَعَنى قَطَعَهَ الله»(٢).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَحَقِيقَةُ الصِّلَةِ الْعطْفُ وَالرَّحمَةُ ... فَصِلَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى عِبَارَةٌ عَنْ لُطْفِهِ بِهِمْ وَرَحمَتِهِ إِيَّاهُمْ وَعَطْفِهِ بِإِحسَانِهِ وَنِعَمِهِ أَوْ صِلَتِهِمْ بِأَهْلِ مَلَكُوتِهِ الْأَعلَى وَشَرحِ صُدُورِهِمْ لِمَعرِفَتِهِ وَطَاعَتِهِ.

قَالَ الْقَاضِى عِيَاضٌ: وَلَا خِلَافَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ وَاجِبَةٌ فِى الْجُمْلَةِ وَقَطِيعَتَهَا مَعصِيَةٌ كَبِيرَةٌ. قَالَ: وَالْأَحَادِيثُ فِى الْبَابِ تَشْهَدُ لِهَذَا وَلَكِنَّ الصِّلَةَ دَرَجَاتٌ بَعضُهَا أَرفَعُ مِنْ بَعضٍ وَأَدنَاهَا تَرْكُ الْمُهَاجَرَةِ وَصِلَتُهَا بِالْكَلَامِ وَلَوْ بِالسَّلَامِ... وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ القدرة والحاجة فمنها واجب ومنها مُستحب... لو وصل بعض الصلة ولم يَصِلْ غَايَتَهَا لَا يُسَمَّى قَاطِعًا وَلَوْ قَصَّرَ عَمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَنْبَغِى لَهُ لَا يُسَمَّى وَاصِلًا(٣).

وقد تناولنا الرواية الأخرى لهذا الحديث بالشرح وذلك عند شرح الحديث

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٩٩١) كتاب الأدب.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٨٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٥) كتاب البر والصلة.

(٣) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٧٠).

رقم (٣٢٠) فأرجو الرجوع إليه ... بارك الله فيكم.

(٣٢٩) وعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ ميمُونَةَ بنْتِ الحارثِ رضي الله عنها أَنَّهَا أَعتَقَتْ وليدةً وَلَم تَستَأْذن النَّبِيَّ ﷺ، فلَمَّا كانَ يومُها الَّذي يدورُ عَلَيْهَا فِيه، قالت: يا رسول الله إِنِّى أَعتَقْتُ وليدتى؟ قال: «أَوَ فَعلْتِ؟» قالت: نَعمْ قال: «أَما إِنَّكِ لو أَعطَيتِهَا أخوالكِ كان أَعظَمَ لأجرِكِ»[(١)].

۞ ففى هذا الحديث أن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها التى تزوجها النبى ﷺ بعد عُمرة القضاء.. كانت قد أعتقت وليدة فى زمان النبى ﷺ.. وفى يوم من الأيام كان النبى ﷺ عندها فى ليلتها فذكرت له ما فعلته.

فقال لها ﷺ: «**لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك**».

هذا يدلُّ على أنَّ الصدقة على الأقارب أفضلُ من عِتقِ الرقاب. وهو قولُ مالك. وتخصيصُ الأخوال: إمَّا لأنَّهم من جهة الأمِّ، وللأمِّ ثلاثة أرباع البِرِّ. وإمَّا لأنهم كانوا أحوج. وهكذا صحَّت الروايةُ فى كتاب مسلم: «أخوالك»، ووقع فى البخارى من رواية الأصيلى: «أَخواتك» بالتاء بدل: أخوالك. ولعله الأصحُّ، بدليل رواية مالك فى الموطأ: «**أعطها لأختكِ، وصليها بما ترعى عليها، فهو خيرٌ لكِ**»[(٢)].

(٣٣٠) وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِى بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَىَّ أُمِّى وَهِىَ مُشْرِكَةٌ فِى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: قَدِمَتْ عَلَىَّ أُمِّى وَهِىَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّى؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِى أُمَّكِ»[(٣)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٩٢) كتاب الهبة، ومسلم (٩٩٩) كتاب الزكاة.

(٢) تحفة الأحوذى (٣/ ٣٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٢٠) كتاب الهبة، ومسلم (١٠٠٣) كتاب الزكاة.
وَقولُهَا: «رَاغِبَةٌ» أىْ: طَامِعَةٌ عِنْدِى تَسْألُنى شَيْئًا - قِيلَ: كَانَتْ أُمُّهَا مِن النَّسَبِ، وَقيل: مِن الرَّضَاعَةِ، وَالصحيحُ الأول.

ففى هذا الحديث تُخبر أسماء رضي الله عنها أن أمها قَدِمَت عليها .. وكانت أمها مشركة.

فاستفتت النبى ﷺ هل تَصِلها أم لا؟ وقالت: يا رسول الله، إن أمى قَدِمَتْ وهى راغبة أفأصلها؟ فأمرها أن تصلها.

وقولها: وهى راغبة ... قال بعض العلماء معناه: وهى راغبة فى الإسلام؛ فيكون الأمر بصلتها من أجل تأليفها على الإسلام... وقيل: بل معنى قولها: وهى راغبة أى راغبة فى أن أصلها، ومتطلعة إلى ذلك، فأمرها النبى ﷺ أن تصلها، وهذا هو الأقرب أنها جاءت تتشوق وتتطلع إلى أن تعطيها ابنتها ما شاء الله.

ففى هذا دليل على أن الإنسان يصل أقاربه ولو كانوا على غير الإسلام؛ لأن لهم حق القرابة... ويدل لهذا قوله تعالى فى سورة لقمان: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾[لقمان: ١٥] .... يعنى إن أمرك والداك وألحَّا فى الطلب على أن تشرك بالله فلا تُطعهما؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ولكن صاحبهما فى الدنيا معروفًا ... أى أعطهم من الدنيا ما يجب لهم من الصلة، ولو كانا كافرين أو فاسقين؛ لأن لهما حق القرابة.

وهذا الحديث يدل على ما دلَّت عليه الآية، وهو أن النبى ﷺ أمر أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنهما أن تصل أمها مع أنها كافرة.

❊ ❊ ❊

(٣٣١) وعَنْ زينب الثقفِيَّة امْرأَةِ عبدِ الله بن مسعود رضى الله عنه وعَنْها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «تَصدَّقنَ يا مَعشَرَ النِّساءِ ولَو مِن حُلِيِّكُنَّ» قالت: فَرجعتُ إلى عبدِ الله بن مسعودٍ فقلتُ له: إنَّك رجُلٌ خَفِيفُ ذات اليَد وإنَّ رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقِة، فأْته فاسأَلْهُ، فإن كان ذلك يُجْزِئُ عنِّى وَإِلا صَرَفْتُهَا إلى غَيرِكُمْ. فقال عبدُ الله: بَلِ ائتيهِ أَنتِ، فانطَلَقْتُ، فَإِذا امْرأَةٌ من الأَنصارِ بِباب رسول الله ﷺ حاجَتى حاجَتُهَا، وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيتْ علَيهِ المهابةُ. فَخَرج علينا بلالٌ، فقلْنا له:

ائْتِ رسول الله ﷺ، فَأَخْبِرْهُ أَنَّ امْرأَتَيْنِ بِالبَابِ تَسأَلانِكَ: أَتُجزِئُ الصَّدَقَةُ عنْهُمَا على أزواجِهِما وَعلى أَيتامٍ فى حُجُورِهِما؟ وَلا تُخْبِرهُ مَنْ نَحنُ، فَدَخل بلالٌ على رسول الله ﷺ، فَسأَلَهُ، فقال لهُ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ هُمَا؟» قَالَ: امْرأَةٌ مِنَ الأنصارِ وَزَيْنبُ. فقالَ رسول الله ﷺ: «أىُّ الزَّيانبِ هى؟» قال: امرأَةُ عبدِ الله، فقال رسول الله ﷺ: «لَهُمَا أَجْرانِ: أَجْرُ القرابةِ وَأَجْرُ الصَّدقَةِ»(١).

۞ إن صلة الأقارب بالصدقة يَحصُل بها أجران، أجر الصدقة وأجر الصلة، ودليل ذلك حديث زينب بنت مسعود الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ أمر النساء بالصدقة، فرجعت إلى بيتها وكان زوجها عبد الله بن مسعود خفيف ذات اليد، يعنى أنه ليس عنده مال، فأخبرته، فطلب منها أن تتصدق عليه، وعلى أيتام كانوا فى حاجتها، ولكنه أشكل عليه الأمر فذهبت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه، فلما وصلت إلى بيته وجدت عنده امرأةً من الأنصار، حاجتها كحاجة زينب، تُريد أن تسأل النبى ﷺ أن تتصدق على زوجها ومَن فى بيتها.

فخرج بلال وكان النبى ﷺ قد أعطاه الله المهابة العظيمة، كل مَن رآه هابه، لكنه مَن خالطه معاشرةً أحبَّه وزالت عنه الهيبة، لكن أول ما يراه الإنسان يهابه هيبة عظيمة، فإذا خالطه وعاشره أحبه وأَلِفَه ﷺ ... فخرج بلال فسألهما عن حاجتهما فأخبرتاه أنهما يسألان النبى ﷺ: هل تجوز الصدقة على أزواجهما ومَن فى بيتهما؟ ولكنهما قالتا له: لا تُخبر الرسول ﷺ مَن هما..أحبَّت كل واحدة منهما ألا يعرفها أحد حتى لا يعرف زوجها الذى تريد أن تتصدق عليه فتُسبب له حرجًا.

فدخل بلال على النبى ﷺ وأخبره وقال: إن بالباب امرأتين حاجتهما كذا و كذا، فقال: «مَن هُما؟» وحينئذ وقع بلال بين أمرين بين أمانة ائتمنتاه عليها المرأتان؛ حيث قالتا: لا تخبره مَن نحن، ولكن الرسول قال: مَن هما؟

قال: امرأة من الأنصار وزينب.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٦٦) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٠٠) كتاب الزكاة.

فقال: «أي الزيانب؟» حيث اسم زينب كثير، فقال: امرأة عبد الله.

وكان عبد الله بن مسعود خادمًا للرسول ﷺ يدخل بيته حتى بلا استئذان، وقد عرف النبى ﷺ أهله وعرف حاله.

وهو إنما أخبره مع قولهما له لا تخبره؛ لأن طاعة النبى ﷺ واجبة مُقدَّمة على طاعة كل أحد.

فقال: إن صدقتهما على هؤلاء صدقة وصلة، يعنى فيها أجران: أجر الصدقة وأجر الصلة... فدلَّ ذلك على أنه يجوز للإنسان أن يتصدق على أولاده عند الحاجة، ويتصدق على زوجته، وكذلك الزوجة تتصدق على زوجها، وأن ذلك عليهم صدقة وصلة.

أما الزكاة فإن كان مما يجب على الإنسان أن يدفعه فإنه لا يصح أن يدفع إليهم الزكاة لو كانت الزكاة لدفع حاجتهما من نفقة، وهو ممن تجب عليه النفقة، وماله يحتمل، فإنه لا يجوز له أن يعطيهما من الزكاة، أما إذا كان ممن لا يجب عليه، كمن قضى دَينًا عن أبيه أو عن ابنه أو زوجته، أو قضت دَينًا على زوجها فإن ذلك لا بأس به إذا كان المدين حيًّا... أما إذا كان المدين ميتًا فلا يُقضَى عنه إلا تبرُّعًا، أو من التركة، ولا يُقضَى عنه من الزكاة(١).

❊❊❊

(٣٣٢) وعَنْ أبى سُفْيان صخْر بن حرب رضي الله عنه فى حدِيثِهِ الطَّويل فى قصَّة هرقل أَنَّ هِرقْلَ قال لأبى سفْيان: فَماذا يأْمُرُكُمْ بِهِ؟ يَعنى النَّبىَّ ﷺ قال: قلت: يقولُ: «اعبُدُوا الله وحدَهُ، ولا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا، واتْرُكُوا ما يقُولُ آباؤكمْ، ويأْمُرُنا بالصَّلاةِ، والصِّدقِ، والعفَاف، والصِّلَةِ»(٢).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٠١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧) كتاب بدء الوحى، (٥٩٨٠) كتاب الأدب - ومسلم (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير.

۞ هذه الأحاديث التى ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كلها تدل على أهمية صلة الرحم، أى صلة القرابة...وصدَّرها بحديث أبى سفيان صخر بن حرب حين وَفَدَ ومعه قومٌ من قريش على هرقل ... وكان قد وفد على هرقل قبل أن يُسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه أسلم عام الفتح.

وأما قُدومه إلى هرقل فكان بعد صلح الحديبية، ولما سمع بهم هرقل وكان رجلاً عاقلاً، عنده علمٌ من الكتاب، وعنده علمٌ بمبعث النبى ﷺ وبما يدعو إليه؛ لأن صفة النبى ﷺ موجودة فى التوراة والإنجيل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. مكتوبًا بصفته ومعروفًا، حتى إنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لا يشكون فيهم.

فلما قَدِمَ هؤلاء الجماعة من العرب من مبعث النبى ﷺ، من الحجاز دعاهم يسألهم عن حال النبى ﷺ، وعمَّا يأمر به، وعما ينهى عنه، وعن كيفية أصحابه، ومعاملتهم له، إلى غير ذلك مما سألهم عنه... وقد ذكره البخارى مُطولاً فى «صحيحه» وكان من جملة ما سأله عنه: ماذا يأمر به؟ قال أبو سفيان: كان يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

الصلة يعنى: صلة الرحم، والصدق: الخبر الصحيح المطابق للواقع، والعفاف عن الزنى، وعما فى أيدى الناس من الأموال وكذلك الأعراض.

ثم إنه لما ذكر له ما ذكر قال له: إن كان ما تقوله حقًّا فَسَيَمْلك ما تحت قدمى هاتين...يقول ذلك وهو أحد الرئيسين فى الدولتين الكبيرتين الروم والفرس.

يقول ذلك وهو ملك له مملكة كبيرة عظيمة، لكنه يعلم أن ما جاء به النبى ﷺ حق، وأنه هو الصواب المطابق للفطرة ولمصالح الخلق.

كان يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، أى صلة الأرحام[1].

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٠٣) بتصرف.

(٣٣٣) وعَنْ أبى ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّكُم ستفْتَحُون أَرضًا يُذْكَرُ فِيهَا القِيرَاط»(١).

وفى رواية: «ستفْتَحُونَ مصر وهِى أَرضٌ يُسَمَّى فِيها القِيراطُ، فَاستَوْصُوا بِأَهْلِها خيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّة ورحِمًا».

وفى رواية: «فإذا افْتَتحتُموها، فَأَحسِنُوا إِلى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لُهم ذِمَّة ورحِمًا» أو قال: «ذِمَّةً وصِهرًا».

۞ ففى هذا الحديث أوصى النبى ﷺ أصحابه بأهل مصر خيرًا؛ لأن لهم ذمة ورحمًا.

ومصر الحبيبة ذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ فى كتابه العزيز فى أكثر من ثلاثين موضعًا... منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما دلَّت عليه القرائن والتفاسير.

فأما صريح اللفظ:

فمنه قوله تعالى مُخبرًا عن فرعون أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ [يوسف: ٢١].

وقوله تعالى مُخبرًا عن نبيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] ... وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧].

وأما ما دلَّت عليه القرائن فكثيرٌ جدًّا.. ومنه:

قوله تعالى مُخبرًا عن آل فرعون أنهم قالوا لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٤٣) كتاب فضائل الصحابة.
قال العُلَماءُ: الرَّحِمُ التى لهُمْ كَوْنُ هَاجَر أُمِّ إِسْماعِيلَ ﷺ مِنْهمْ - «والصِّهْرُ»: كونُ مارية أُمِّ إبراهِيمَ ابن رسول الله ﷺ منهم.

﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، يعنى أرض مصر.

وقوله تعالى مُخبراً عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. يعنى خزائن أرض مصر.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]. أى: مكنَّا له فى أرض مصر.

۞ وها هى بعض خصائص مصر:

(١) مصر بلاد مباركة:

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال القرطبى رحمه الله: «الظاهر أنهم ورثوا أرض القبط... والأرض هى أرض الشام ومصر».

وهى مباركة - أيضًا - بدخول الأنبياء إليها، ومرور أقدامهم عليها:

دخلها من الأنبياء: إدريس، وإبراهيم الخليل، وإسماعيل، ولوط، ويعقوب، وأولاده: يوسف وإخوته، وموسى وهارون، ويوشع بن نون، وعيسى، ودانيال، وإرميا»[(١)].

(٢) وفيها أرضٌ مقدسة:

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

قال ابن كثير: «عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: هى الطور وما حوله[(٢)].

(١) انظر: «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» لابن تغرى بردى (١/ ٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠).

(٣) وهي منازل صدق ومُبَوأُ صدق :

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

قال الطبرى: مبوأ صدق: منازل صدق... قيل: عنى بذلك: الشام وبيت المقدس، وقيل: عنى به الشام ومصر[١].

(٤) وهي الربوة ذات القرار والمعين التي جاءت في القرآن الكريم :

قال تعالى عن عيسى وأمه مُمْتَنًّا عليهما: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

(٥) أقسم الله في قرآنه بطورها الذي نَاجَى موسى من عليه رَبُّهُ وكلَّمه :

قال تعالى فى كتابه العظيم... والعظيم لا يُقْسِمُ إلا بعظيم وكريم عليه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، «فأما طور سينين؛ فهو جبل الطور .. وهو الجبل الذى كلم الله موسى عليه.

(٦) بمصر أثر من آثار الجنة، ونهرٌ من أنهارها، وهو نهر النيل :

يا لنعيم أهل مصر وحظهم الوافر حين يكون بمصرهم نهر من أنهار الجنة يجرى.

قال رسول الله ﷺ: **«أربعة أنهار من أنهار الجنة: سَيحان وجَيحان، والنيل والفرات»**[٢].

(٧) أم إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام هاجر مصريَّة جعل الله خطواتها رُكنًا من أركان الحج.

(٨) تقلَّد يوسف عليه السلام الوزارة في مصر .. ولُقياه لأبيه يعقوب وإخوته عليه السلام.

(٩) على أرضها المباركة نصر الله كليمه موسى بن عمران على فرعون وهامان.

(١) تفسير الطبرى (٦/ ١٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والشيرازى فى الألقاب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٧٦).

(١٠) وعلى أرضها وتحت سمائها عاشت آسية زوج فرعون لتُسطر أعظم ثبات على العقيدة.

(١١) وعلى أرض مصر سَطَّر السحرة أروع الأمثلة في إعلان حرية القلب المؤمن من كل قيود الأرض.. وانتصار العقيدة على الحياة.

(١٢) وفي مصر كانت الوفادة الكريمة لعيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام.

(١٣) ومن نسائها كانت «مارية القبطية» أم ولد النبي ﷺ إبراهيم رضي الله عنه.

(١٤) وفُتِحَتْ مصر، ودُخِلَتْ على يد رجل من أهل الجنة ... هو الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(١٥) وكان للزبير بن العوام رضي الله عنه حواري الرسول ﷺ أعظم الأثر في فتحها.

(١٦) وفُتِحَتِ الإسكندرية على يد الصحابي النقيب العقبي البدري «عبادة بن الصامت» رضي الله عنه.

(١٧) وشرفت مصر بقدوم الصحابة الكرام، والفاتحين العظام.

ومن هؤلاء الصحابة العظام: عبد الله بن حذافة السهمى صاحب رسول الله ﷺ والسابق إلى الإسلام.. فاتح عين شمس.

ومنهم الصحابى الشهيد خارجة بن حذافة العدوى القرشى فاتح الفيوم وأخميم والصعيد، وهو يعدل ألف فارس.

وعمير بن وهب الجمحى رضي الله عنه فاتح تنيس، ودمياط، وتونة ، ودميرة، وشطا، ودقهلة، وبنا، وبوصير من شمال مصر.

ومنهم عقبة بن عامر الجهنى فاتح أسفل أرض مصر «جنوبى مصر»(١).

(١٨) عاش فيها أكابر العلماء والفقهاء منذ بداية الإسلام وإلى يومنا هذا.

۞ وهكذا فالنبى ﷺ أوصى أصحابه بأهل مصر خيرًا فقال: «ستفتحون **مصر وهى أرض يُسمَّى فيها القيراط**».

(١) بتصرف من كتاب «اتقوا الله فى مصر» د. سيد حسين العفانى.

قال العلماء: القِيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما.

وكان أهل مصر يُكثرون من استعماله والتكلُّم به.

۞ «فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا» وَأَمَّا (الذِّمَّةُ) فَهِيَ الْحُرْمَةُ وَالْحَقُّ وَهِيَ هُنَا بِمَعنَى: الذِّمَامُ. وَأَمَّا (الرَّحِمُ) فَلِكَوْنِ هَاجَرَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ. وَأَمَّا (الصِّهْرُ) فَلِكَوْنِ مَارِيَةَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُمْ ... وَفِيهِ مُعجِزَاتٌ ظَاهِرَةٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: مِنْهَا إِخْبَارُهُ بِأَنَّ الأُمَّةَ تَكُونُ لَهُمْ قُوَّةٌ وَشَوْكَةٌ بَعدَهُ بِحَيْثُ يَقْهَرُونَ الْعَجَمَ وَالْجَبَابِرَةَ وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يَفْتَحُونَ مِصرَ ... وَمِنْهَا تَنَازُعُ الرَّجُلَيْنِ فِي مَوْضِعِ اللَّبِنَةِ وَوَقَعَ كُلُّ ذَلِكَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ(١).

❊❊❊

(٣٣٤) وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، دعا رسولُ الله ﷺ قُرَيْشًا فاجتْمَعُوا فَعَمَّ، وخَصَّ وقال: «يا بَني عبد شَمس، يا بني كَعب بنِ لُؤَي، أنقذوا أَنْفُسَكُمْ منَ النَّار، يا بني مُرَّةَ بنِ كْعبٍ، أَنْقذُوا أنفُسَكُمْ مِن النَّار، يا بني عبْدِ مَنَافٍ، أَنْقذُوا أنفُسَكُمْ مِن النَّارِ، يا بني هاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسكُمْ مِنَ النَّارِ، يا بني عبْد المطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّار، يا فَاطِمَة أَنْقذي نَفْسَكِ منَ النَّار، فَإِني لا أَمْلِكُ لَكُمْ منَ الله شيْئًا غَيْر أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سأَبلُّهَا بِبلالِها»(٢).

۞ فبعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية جاء الأمر من الله عز وجل بأن يصدع النبي ﷺ بدعوته .. فكان أول ما نزل بهذا الصدد ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ... والسورة التي وقعت فيها الآية -وهي سورة الشعراء- ذُكرت فيها أولًا قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل، ونجاتهم

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٤٥-١٤٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٥٣) كتاب الوصايا - ومسلم (٢٠٤) كتاب الإيمان.

قوله ﷺ: «ببلالهَا» هو بفتحِ الباء الثَّانية وكَسرهَا «والبِلالُ» الماءُ - ومعنى الحديث: سَأَصِلُهَا، شبَّهَ قَطِيعَتَهَا بالحرارةِ تُطْفَأُ بالماءِ وهذه تُبَرَّدُ بالصِّلَةِ.

من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه.

وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التى مَرَّ بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله.

أرى أن هذا التفصيل إنما جيء به حين أُمر الرسول ﷺ بدعوة قومه إلى الله، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجًا لما سيَلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم.

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل، من قوم نوحٍ، وعادٍ، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة -علاوة على ما ذكرت من أمر فرعون وقومه- ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم، وبما سيَلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب؛ وليعرف المؤمنون أن حُسن العاقبة لهم لا للمكذبين[1].

۞ فلما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا النبى ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ وظل يقول: يا بنى فلان يا بنى فلان أنقذوا أنفسكم من النار... إلى أن وصل إلى ابنته فاطمة رضي الله عنها فقال لها: «**يا فاطمة، أنقذى نفسك من النار؛ فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا**» وهذا من الصلة.

وبيَّن أن لهم رحمًا سيبلها ببلالها ... أى سيبلها بالماء؛ وذلك لأن قطيعة الرحم نار والماء يطفئ النار... وقطيعة الرحم موت والماء به الحياة.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فشبَّه الرسول ﷺ صلة الرحم بالماء الذى يُبَلّ به الشيء.

وفى هذا الحديث يتضح لنا أن المسلمين عامة وأصحاب الدعوة خاصة ... كل واحدٍ منهم تتعلق به بعض المسؤوليات التى تتدرج بحسب ترتيب

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٧٦).

الأولويات.

فأدنى درجة فى المسؤولية فهى مسؤولية المسلم عن نفسه بأن يتعهدها بأسباب الهداية ويُغذيها بالطاعات.

وأما الدرجة التى تليها فهى مسؤولية المسلم عن أهله وذويه وأرحامه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وأما الدرجة الثالثة: فهى مسؤولية العالِم عن حيِّه وبلدته بدعوتهم إلى الله والحرص على هدايتهم والأخذ بأيديهم إلى جنة الرحمن (جلَّ وعلا).

ومن أجل ذلك بدأ النبى ﷺ بعشيرته الأقربين.

(٣٣٥) وعَنْ أبى عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ جِهارًا غيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: «إنَّ آلَ بنى فُلانٍ لَيسُوا بأوْليائى إنَّما وَلِيِّى اللهُ وصالحُ المؤْمِنِين، ولَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّها بِبِلالِها»(١).

۞ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّمَا وَلِيِّى اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» مَعنَاهُ: إِنَّمَا وَلِيِّى مَنْ كَانَ صَالِحًا وَإِنْ بَعُدَ نسبه مِنِّى وَلَيْسَ وَلِيِّى مَنْ كَانَ غَيْر صَالِحٍ وان كان نَسَبُه قريبًا.

ففى هذا الحديث يُعلِّمنا النبى ﷺ أن نُوالى المؤمنين ولو كانوا غُرباء ونتبرأ من الكافرين ولو كانوا إخوانًا وأشقاء ... فلقد تبرأ النبى ﷺ من عمه أبى لهب وفى المقابل قال ﷺ: «سَلمَانُ مِنَّا آل البيت».

والولاء هو: محبة المؤمنين لأجل إيمانهم، ونُصرتهم، والنُّصح لهم، وإعانتهم، ورحمتهم، وما يلحق بذلك من حقوق المؤمنين.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٩٠) كتاب الأدب، ومسلم (٢١٥) كتاب الإيمان.

وهذا الولاء يكون فى حق المسلم الذى لم يُصر على شىء من كبائر الذنوب.

أما إذا كان المسلم مُصرًّا على شىء من كبائر الذنوب، كالربا، أو الغيبة، أو غير ذلك فإنه يُحَبُّ بقدر ما عنده من الطاعات، ويُبغَض بقدر ما عنده من المعاصى.

والمحبة للمسلم العاصى تقتضى أن يُهجَر إذا كان هذا الهجر يؤدى إلى إقلاعه عن هذه المعصية وإلى عدم فعل ما يشبهها من قِبله أو من قِبل غيره...كما هجر النبى ﷺ الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وأمر الصحابة أن يهجروهم، فلم يكلموهم خمسين يومًا[1]. أما إن كان الهجر سيزيده إصرارًا على المعاصى فلا نهجره بل ندعوه بالرفق والرحمة ...

كما أن المحبة للمسلم العاصى تقتضى مُناصحته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ليفعل الخير ويجتنب المعصية، فينجو من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة،... كما تقتضى المحبة للعاصى إقامة الحدود والتعزيرات عليه ليتوب ويرجع إلى الله تعالى، ولتكون تطهيرًا له من ذنوبه.

۞ والبراء هو: بُغض أعداء الله من المنافقين وعموم الكفار، وعداوتهم، والبعد عنهم.

وحكم الولاء والبراء أنهما واجبان، وهما أصلٌ عظيم من أصول الإيمان.

فقد وردت أدلة كثيرة جدًّا تدل على وجوب موالاة المؤمنين ووجوب البراء من جميع الكافرين.

ومن أوضح الأدلة على وجوب الولاء للمؤمنين قول تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤١٨) كتاب المغازى، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] ... ومن أوضح الأدلة على وجوب البراء من الكافرين وتحريم موالاتهم قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقد أجمع أهل العلم على وجوب الولاء للمؤمنين وعلى تحريم الولاء للكافرين.

(٣٣٦) وعَنْ أبى أَيُّوب خالد بن زيدٍ الأنصارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال: يا رسولَ الله أَخْبِرْنِى بعملٍ يُدخِلُنى الجنَّةَ، ويُبَاعِدنى مِنَ النَّارِ. فقال النبىُّ ﷺ: «تَعبُدُ الله، ولا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وتُؤتى الزَّكاةَ، وتَصِلُ الرَّحِم»[(١)].

۞ هذا الحديث له رواية أُخرى أوضح من هذه الرواية.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ، أَنَّ أَعرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولِ اللهِ، دُلَّنِى عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: «**تَعبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ**، وَتَصُومُ رَمَضَانَ»، قَالَ: وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيْئًا أَبَدًا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**»[(٢)].

۞ والشاهد هنا حيث قال: «**تصل الرحم**»، فجعل النبى ﷺ صلة الرحم من الأسباب التى تُدخل الإنسان الجنة وتُباعده عن النار.

ولا شك أن كل إنسان يسعى إلى هذا الكسب العظيم؛ أن ينجو من النار ويدخل الجنة، فإن مَن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز..

وكل مُسلم يسعى إلى ذلك، وهذا يحصل بهذه الأمور الأربعة:

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٨٣) كتاب الأدب، ومسلم (١٣) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤) كتاب الإيمان.

الأول: تعبد الله لا تُشرك به شيئًا... لا شركًا أصغر ولا شركًا أكبر.

والثانى: تقيم الصلاة، وتأتى بها كاملة فى أوقاتها مع الجماعة إن كنت رجلاً، ودون الجماعة إن كانت امرأة.

والثالث: تُؤتى الزكاة ... بأن تؤدى ما أوجب الله عليك من الزكاة فى مالك إلى مُستحقه.

والرابع: تصل الرحم؛ بأن تؤتيهم حقهم بالصلة حسب ما يتعارف الناس... فما أعدَّه الناس صلة فهو صلة، وما لم يعدوه صلة فليس بصلة.

إلا إذا كان الإنسان فى مجتمع لا يُبالون بالقرابات، ولا يهتمون بها، فالعبرة بالصلة نفسها المعتبرة شرعًا(١).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» فَالظَّاهِرُ مِنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلِمَ أَنَّهُ يُوفِى بِمَا الْتَزَمَ وَأَنَّهُ يَدُومُ عَلَى ذَلِكَ وَيَدخُلُ الْجَنَّةَ(٢).

(٣٣٧) وعَنْ سلْمان بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمرٍ، فَإِنَّهُ بركَةٌ، فَإنْ لَمْ يجِد تَمْرًا، فَالماءُ، فَإِنَّهُ طَهُورٌ»(٣)

وقال: «الصَّدقَةُ عَلَى المِسكِينِ صدقَةٌ، وعَلَى ذى الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وصِلَةٌ»(٤).

۞ وللأمانة العلمية فالجزء الأول من الحديث ضعيف .. والجزء الثانى صحيح، ولكن سبق شرحه فى الأحاديث السابقة ولله الحمد.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٠٥).

(٢) مسلم بشرح النووى (١/ ٢٤٤).

(٣) ضعيف: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٨٩)

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٥٨).

(٣٣٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: كَانَتْ تَحتى امْرأَةٌ، وكُنْتُ أُحِبُّها، وَكَانَ عُمرُ يكْرهُهَا، فَقَالَ لِى: طَلِّقْها فأبيْتُ، فَأَتَى عُمرُ رضي الله عنه النبىَّ ﷺ، فَذَكر ذلكَ لَهُ، فَقَالَ النبىُّ ﷺ: «طَلِّقْهَا»(١).

(٣٣٩) وعن أبى الدَّرداءِ رضي الله عنه أَن رَجُلًا أَتَاهُ فقال: إِنَّ لى امْرَأَةً وإِن أُمِّى تَأْمُرُنى بِطَلاَقِها؟ فَقَالَ: سَمِعتُ رَسُول اللهِ ﷺ يقولُ: «الْوالِدُ أَوْسطُ أَبْوابِ الجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِع ذلِك الْبابَ، أَوِ احفظْهُ»(٢).

۞ فى حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان له امرأة يحبها فأمره أبوه أن يطلقها، لكنه أبى ذلك؛ لأنه يحبها، فذكر عمر ذلك للنبى ﷺ، فأمر ابن عمر بطلاقها.

وكذلك الحديث الآخر فى امرأة كانت تأمر ابنها بطلاق زوجته فأخبره أبو الدرداء أنه سمع النبى ﷺ يقول: « **الْوالِدُ أَوْسطُ أَبْوابِ الجَنَّةِ** » فبيَّن النبى ﷺ أن بر الوالدين سببٌ لدخول الجنة، وهو إشارة إلى أنه إذا بَرَّ والدته بطلاق زوجته كان ذلك سببًا لدخول الجنة.

ولكن ليس كل والد يأمر ابنه بطلاق زوجته تجب طاعته... فإن رجلًا سأل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فقال له: إن أبى يقول: طلق امرأتك، وأنا أحبها... قال: لا تُطلقها، قال: أليس النبى ﷺ قد أمر ابن عمر أن يطلق زوجته لما أمره عمر، فقال له الإمام أحمد: وهل أبوك عمر؟...

وذلك لأن عمر لن يأمر عبد الله بطلاق زوجته إلا لسببٍ شرعى، وقد يكون ابن عمر لم يعلمه؛ لأنه من المستحيل أن عمر يأمر ابنه بطلاق زوجته ليفرق بينه وبين زوجته بدون سببٍ شرعى.. فهذا بعيد.

وعلى هذا فإذا أمرك أبوك أو أمك بأن تطلق امرأتك، وأنت تحبها ولم تجد عليها مَأخذًا شرعيًّا، فلا تُطلقها؛ لأن هذه من الحاجات الخاصة التى لا يتدخل

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٢٨٤).
(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١٤٥).

أحدٌ فيها بين الإنسان وبين زوجته[١].

ولكن إن أردت أن تحل المشكلة حَلًّا جَذريًّا فابحث عن سبب كراهية والدك أو والدتك لزوجتك .. فإن استطعت أن تزيل السبب فالحمد لله .. وإن كانت الكراهية بلا سبب فاستعن بالله عَزَّوَجَلَّ واجتهد قدر استطاعتك أن تُؤلف بين قلوبهم .. وذلك من خلال أشياء بسيطة مثل أن تُحضر هدية وتقدمها لأمك وتخبرها أن زوجتك قد أحضرتها لها وأنها كانت تريد أن تقدمها لها ولكنها خافت ألَّا تقبلى هديتها... فإذا استعنت بالله وأكثرت من الدعاء فى جوف الليل وأخذت بهذه الأسباب فسوف ترى الكراهية قد تبدلت إلى المحبة بإذن الله.

(٣٤٠) وعَنْ البراءِ بن عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبى ﷺ قال: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَة الأُمِّ**»[٢]

۞ وهذا الحديث له روايتان إحداهما قصيرة والأخرى طويلة.

فأما الرواية الطويلة فهى عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: صَالَحَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ عَلَى أَنَّ مَنْ أَتَاهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ وَمَنْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرُدُّوهُ وَعَلَى أَنْ يَدخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ وَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّام فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الْأَجَلُ خَرَجَ فَتبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنَادِي يَا عَمُّ يَا عَمُّ فتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجعفَرٌ ... قَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَخَذْتها وَهِيَ بِنْتُ عَمِّي وَقَالَ جعفَرٌ: بِنْتُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحتِي وَقَالَ: زَيْدٌ بِنْتُ أَخِي فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا وَقَالَ: «**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**» وَقَالَ لِعَلِيٍّ: «**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ**» وَقَالَ لِجعفَرٍ: أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي ... وَقَالَ لِزَيْدٍ: «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا**»[٣].

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٠٦).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٦٩٩) كتاب الصلح.
(٣) تحفة الأحوذى (٥/ ٣٢٣).

وأما الرواية القصيرة فهى عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِىَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّى أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِى تَوْبَةٌ؟ قَالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَبِرَّهَا**».

۞ قَوْلُهُ: (**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**) فِى الْحَضَانَةِ عِنْدَ فَقْدِ الْأُمِّ وَأُمَّاتِهَا لِأَنَّهَا تَقْرُبُ مِنْهَا فِى الْحُنُوِّ وَالِاهْتِدَاءِ إِلَى مَا يُصلِحُ الْوَلَدَ.

۞ قَوْلُهُ: (**إِنِّى أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا**) يَجُوزُ أَنَّهُ أَرَادَ عَظِيمًا عِنْدِى لِأَنَّ عِصيَانَ اللهِ تَعَالَى عَظِيمٌ وَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ صَغِيرًا ... وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَنْبُهُ كَانَ عَظِيمًا مِنَ الْكَبَائِرِ وَإِنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْبِرِّ يَكُونُ مُكَفِّرًا لَهُ وَكَانَ مَخْصُوصًا بِذَلِكَ الرَّجُلِ عَلِمَهُ النَّبِىُّ ﷺ مِنْ طَرِيقِ الْوَحيِ ... قَالَهُ الطِّيبِىُّ.

والمعنى أن صلة الرحم من جملة الحسنات التى يُذهبن السيئات[١].

۞ وفى الباب أحاديث كثيرة فى الصحيح مشهورة، منها حديث أَصحاب الغار، وحديث جُرَيْجٍ وقد سَبَقَا ... وأَحاديث مشهورة فى الصحيح حَذَفْتُهَا اختصارًا، وَمِنْ أَهَمِّهَا حَديثُ عمْرو بن عَبسَةَ رضي الله عنه الطَّويلُ المُشْتَملُ على جُمَلٍ كثيرة مِنْ قَوَاعِدِ الإِسْلامِ وآدابِهِ وَسَأَذْكُرُهُ بِتَمَامِهِ إِن شَاءَ الله تعالى فى بابِ الرَّجَاء، قال فيه:

دَخَلْتُ عَلى النبىِّ ﷺ بِمَكَّةَ، يَعنى فى أَوَّل النُّبُوَّة، فقلتُ له: ما أَنتَ؟ قال: «نَبِىٌّ» فقلتُ: وما نبىٌّ؟ قال: «أرسلنى الله تعالى»، فقلتُ: بأَىِّ شَىءٍ أَرسلَك؟ قال: «أَرسَلَنى بِصِلةِ الأَرحام، وكَسْرِ الأوثَانِ، وأَنْ يُوحَّدَ الله لا يُشرَكُ بِهِ شَىء» وذكر تَمامَ الحديث. والله أعلم[٢].

---

(١) تحفة الأحوذى (٥/ ٣٢٢-٣٢٣) بتصرف.

(٢) رياض الصالحين/ للإمام النووى رحمه الله (ص ١٢٧).

(٤١) باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم

۞ وبعد ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآيات والأحاديث التى تَحُض على بر الوالدين وصلة الأرحام.. ها هو يذكر فى هذا الباب الآيات والأحاديث التى تُحذر من عقوق الوالدين وقطيعة الرحم.

۞ والمراد بالعقوق هو صُدور كل ما يتأذى به الوالد من ولده من قولٍ أو فعلٍ.

والعقوق: مأخوذ من العق وهو القطع، ومنه سُمِّيت العقيقة التى تُذبح عن المولود فى اليوم السابع؛ لأنها تُعَقُّ: يعنى: تُقطَع رقبتها عند الذبح.

والعقوق وقطيعة الرحم من كبائر الذنوب لثبوت الوعيد عليه من الكتاب والسنة.

۞ قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[محمد:٢٢، ٢٣].

فبين سبحانه وتعالى أن الذين يُفسدون فى الأرض ويقطعون أرحامهم ملعونون والعياذ بالله، أى: مطرودون ومُبعَدون عن رحمة الله، وقد أصمَّهم الله؛ أى جعلهم لا يسمعون الحق ولو سَمِعوا ما انتفعوا به.. وأعمى أبصارهم؛ فلا يرون الحق، ولو رأوه لم ينتفعوا به.

المراد بالأبصار هنا: البصيرة وليس بصر العين ... والمراد أن الله تعالى يعمى بصيرة الإنسان - والعياذ بالله - حتى يرى الباطل حقًّا والحق باطلاً.

وهذه عقوبة أُخروية ودنيوية:

أما الأخروية: فقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

وأما الدنيوية: فقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾، يعنى أصم آذانهم عن سماع الحق والانتفاع به ، ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾، عن رؤية الحق والانتفاع به.

فسدَّ عنهم طُرُق الخير؛ لأن السمع والبصر يُوصل المعلومات إلى القلب، فإذا انسدَّ الطريق لم يصل إلى القلب خير والعياذ بالله.

❁ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

لما ذكر الله تعالى أوصاف المؤمنين التسع أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أى: ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أى: يقطعون الرحم التى أمر الله بوصلها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أى: أولئك الموصوفون بما ذُكر من القبائح لهم البُعد من رحمته، والطردُ من جنته ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أى: لهم ما يسوءهم فى الدار الآخرة وهو عذاب جهنم...على عكس المتقين(١).

والخلاصة: أن قطيعة الرحم ذنبٌ عظيمٌ، وجُرمٌ جسيمٌ، يفصم الروابط، ويقطع الوشائج، ويشيع العداوة والشنآن، ويحل القطيعة والهجران. وهى أيضًا مُزيلة للألفة والمودة، مُؤْذِنةٌ باللعنة وتعجيل العقوبة، مانعة من نزول الرحمة، ودخول الجنة، مُوجبة للتفرُّد والذلة، مجلبة لمزيد الهمِّ والغمِّ(٢).

مغبة قطيعة الرحم

(١) تقطع الصلة بين العبد وبين الرب (جَلَّ وعَلا):

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَتِ الرَّحِمُ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٧٦).
(٢) نزهة المشتاق (٢٢٦/ ٢٢٧).

قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكَ لَكِ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢]»(١).

وفى رواية للبخارى: «فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ».

(٢) تجلب للعبد سخط الرب وبُغض الناس من حوله:

فمن المعلوم أن الله (جَلَّ وعَلَا) يحب مَن أطاعه ويبغض مَن عصاه ومن المعلوم أيضًا أن الناس يحبون مَن يحبهم ويصلهم ويُحسن إليهم ويُبغضون مَن يقطعهم ولا يصلهم ولا يُحسن إليهم.

(٣) تقطع الأواصر الاجتماعية فى المجتمع الواحد:

فإن قطيعة الرحم تجعل المجتمع متفككًا مقطوع الأواصر والعلاقات الاجتماعية... ومن ثَمَّ يَضعُف المجتمع وتَضعُف الأمة ويكون هذا الضعف عقبة أمام تقدُّم هذا المجتمع .. وعقبة عند مواجهة الأعداء.

(٤) تجعل صاحبها بأخبث المنازل:

فقد قال ﷺ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَربَعَةِ نَفَرٍ -وذكر منهم-:.... وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلا يَعلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ....»(٢).

(٥) يُعجل الله لصاحبها العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له من العقوبة يوم القيامة:

قال ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَالْخِيَانَةِ، وَالْكَذِبِ، وَإِنَّ أَعجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا لَصِلَةُ الرَّحِمِ حَتَّى أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُوا فَجَرَةً فَتَنْمُو أَمْوَالُهُمْ وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٣٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٥٥٤) كتاب البر والصلة.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٧٥٧٠)، والترمذى (٢٣٢٥) كتاب الزهد، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٠٢٤).

إِذَا تَوَاصَلُوا»[(١)].

وقال ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أُطِيعَ الله تَعَالَى فِيهِ أَعجَلَ ثَوَابًا مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعجَلَ عِقَابًا مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ ... وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاَقِعَ»[(٢)].

(٦) قاطع الرحم يُعرِّض نفسه لعدم قبول عمله :

فقد قال ﷺ: « إِنَّ أَعمَالَ بَنِى آدَمَ تُعرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ »[(٣)].

(٧) الذى يبخل على أرحامه يُعرِّض نفسه للعذاب :

فقد قال ﷺ: « مَا مِنْ ذِى رَحِمٍ يَأْتِى رَحِمَهُ، فَيَسْأَلُهُ فَضْلًا أَعطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ فَيَبْخَلُ عَلَيْهِ إِلَّا أُخْرِجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَهَنَّمَ حَيَّةٌ يُقَالُ لَهَا: شُجَاعٌ يَتَلَمَّظُ فَيُطَوَّقُ بِهَا»[(٤)].

(٨) قطيعة الرحم تخرب الديار:

فكما أن صلة الرحم تُعمر الديار وتوسع الأرزاق وتجلب البركة فى الأعمار فإن قطيعة الرحم تخرب الديار وتضيق الأرزاق وتنزع البركة من العمر.

(٩) قاطع الرحم يُعرِّض نفسه لدخول النار:

فقاطع الرحم يُعرِّض نفسه لدخول النار إن لم يَتُب ويصل رحمه.

فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

---

(١) صحيح: أخرجه الطبرانى فى الكبير، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٧٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ٣٥)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٣٩١).

(٣) حسن: رواه أحمد (٩٩٠٢)، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الترغيب (٢٥٣٨).

(٤) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير (٢/ ٣٢٢)، وفى الأوسط (٥/ ٣٧٢)، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٢٥٤٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

(١٠) قاطع الرحم لا يدخل الجنة مع أول الداخلين:

قال ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**»(١).. يعنى: قاطع رحم.

فهو إن كان موحدًا فقد يُحرَم من دخول الجنة مع أول الداخلين.

۞ وقال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

فالله عَزَّوَجَلَّ أمرنا ببر الوالدين والإحسان إليهما.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أى حَكَم تعالى وأمر بأن لا تعبدوا إلهًا غيره ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أى وأمر بأن تُحسنوا إلى الوالدين إحسانًا.

قال المفسرون: قَرَنَ تعالى بعبادته برَّ الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أى قد أوصيناك بهما وبخاصة إذا كبرا أو كبر أحدهما... وإنما خَصَّ حالة الكِبَر لأنهما حينئذٍ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما...ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ أى فى كنفك وكفالتك ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أى لا تقل للوالدين أقل كلمة تُظهر الضجر ككلمة أُفٍّ ولا تُسمعهما قولًا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٨٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٦) كتاب البر والصلة.

سيئًا حتى ولو بكلمة التأفف ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى لا تزجرهما بإغلاظٍ فيما لا يعجبك منهما ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى قل لهما قولًا حسنًا لينًا طيبًا بأدبٍ ووقار وتعظيم ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أى ألِنْ جانبك وتواضع لهما بتذلُّل وخضوع من فرط رحمتك وعطفك عليهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أى ادعُ لهما بالرحمة وقُل فى دعائك: يا رب ارحم والدىَّ برحمتك الواسعة كما أحسنا إلىَّ فى تربيتهما حالة الصغر[1].

***

(٣٤١) وعَنْ أبى بكرةَ نُفيْعِ بنِ الحارثِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألا أُنبِّئُكمْ بِأكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» - ثلاثًا - قُلنا: بلَى يا رسول الله: قال: «الإِشْراكُ بالله، وعُقُوقُ الْوالديْن» وكان مُتَّكئًا فَجلَسَ، فقال: «ألَا وقوْلُ الزُّورِ وشهادَةُ الزُّورِ» فَما زَال يُكَرِّرُهَا حتَّى قُلنَا: ليْتهُ سكتْ[2].

۞ فالإشراك بالله كبيرة فى حق الله... وعقوق الوالدين كبيرة فى حق مَن هم أحق الناس بالولاية والرعاية، وهما الوالدان.

وكان ﷺ متكئًا فجلس ... أى كان معتمدًا على يده، فجلس واستقام فى جلسته وقال: **«ألا وقول الزور وشهادة الزور»**.

هذا أيضًا من أكبر الكبائر وإنما جلس النبى ﷺ عند هذا لأن هذا ضرره عظيم، وعاقبته وخيمة.

۞ **قوله** ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»**. (ألا) أداة عرض استفتح بها النبى ﷺ كلامه لتنبيه المُخاطَب إلى أمرٍ ذى شأن، ولهذا قال: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»** قالوا: بلى يا رسول الله قال: **«الشرك بالله»** وهذا أعظم الظلم وأكبر

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ١٤٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٥٤) كتاب الشهادات- ومسلم (٨٧) كتاب الإيمان.

الكبائر وأشد الذنوب عقوبة، لأن مَن يشرك بالله فإن الله قد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار.

والثانى عقوق الوالدين يعنى قطع برهما .. والوالدان هما الأب والأم، والواجب على الإنسان أن يبرهما، وأن يخدمهما بقدر ما يستطيع وأن يطيعهما إلا ما فيه ضرر أو معصية لله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يطيعهما.

قال: وكان متكئًا فجلس تعظيمًا لما سيقول ...قال: «**ألا وقول الزور وشهادة الزور**» وإنما عظَّم النبى ﷺ أمرها لكثرة الوقوع فيها وعدم اهتمام الناس بها[1].

۞ ولقد وصف الله عباد الرحمن بصفاتٍ جليلةٍ كان من بينها:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان: ٧٢].

أى: لا يشهدون الشهادة الباطلة (شهادة الزور) التى تُضيِّع حقوق الناس.

۞ ومع ذلك فقد ظهرت وانتشرت شهادة الزور فى زماننا هذا حتى إنك تستطيع أن تستأجر أُناسًا يقفون أمام المحاكم ليس لهم أى عمل سوى أنهم يشهدون الزور مقابل مبلغٍ من المال.

بل وهناك مَن يشهد الزور لأحد أقاربه مقابل أن يشهد هو أيضًا فى قضيته وذلك على غِرار (اشهد لى وأشهد لك).

ولذلك أخبر النبى ﷺ أنَّ شهادة الزور من علامات الساعة فقال ﷺ: «**إنَّ بَينَ يدى السَاعة ... شَهادة الزُّور**»[2].

وما أكثر شهادة الزُّور وكتمان شهادة الحق فى هذا الزمن!

ولعظم خطرها قرنها النبى ﷺ بالشرك وعقوق الوالدين؛ فإنَّ شهادة الزُّور سبب للظُّلم والجَور وضياع حقوق الناس فى الأموال والأعراض، وظهورها

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٩١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٦٤٧).

دليلٌ على ضعف الإيمان، وعدم الخوف من الرحمن(١).

وشهادة الزور ليست خاصة بالشهادة عند القاضى أو الحاكم، بل هى عامة فى كل شهادة، كشهادة الناس بين بعضهم بعضًا..كالموظفين فى الشركات والمؤسسات عند مسئوليهم، وشهادة الطلاب فى المدارس والجامعات، وشهادة الأولاد عند والديهم.

وقد حذر النبى ﷺ من شهادة الزور أو أكل حقوق الناس بالحلف كذبًا أو بهتانًا، فقال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» ثُمَّ قَرَأَ ﷺ، مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧٧](٢).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»(٣).

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «عدلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الشِّرْكَ باللهِ ثَلَاثَ مرَّاتٍ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[الحج: ٣٠](٤).

۞ قال الإمام الذهبى فى الكبائر:

شاهد الزور قد ارتكب عظائم:

۞ أحدها: الكذب والافتراء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

---

(١) أشراط الساعة (ص ١٩٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(٤) حسن موقوف: رواه الطبراني فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٣٠١).

۞ وثانيها: أنه ظَلَم الذى شهد عليه حتى أخذ بشهادته ماله أو عِرضه أو روحه.

۞ وثالثها: أنه ظلم الذى شهد له؛ بأن ساق إليه المال الحرام فأخذه بشهادته فوجبت له النار.

وقال ﷺ: «فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»(١).

(٣٤٢) وعَنْ عبد الله بنِ عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «الْكبائرُ: الإِشْراكُ بِالله، وعقُوق الْوالِديْنِ، وقَتْلُ النَّفْسِ، والْيمِينُ الْغَموس»(٢).

۞ الْكَبَائِرُ: مَا نهى الله وَرَسُوله ﷺ عَنهُ فِى الْكتاب وَالسّنة والأثر عَن السلف الصَّالِحين... وَقد ضمن الله تَعَالَى فِى كِتَابه الْعَزِيز لمن اجْتنب الْكَبَائِر والمحرمات أَن يكفر عَنهُ الصَّغَائِر من السَّيِّئَات ...قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١].

فقد تكفل الله تَعَالَى بِهَذَا النَّص لمن اجْتنب الْكَبَائِر أَن يُدخلهُ الْجنَّة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ ﴾ [النجم: ٣٢].

وَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «الصَّلَوَات الْخمس، وَالْجُمُعَة إِلَى الْجُمُعَة، ورمضان إِلَى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٥٨) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٧١٣) كتاب الأقضية.
(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٦٧٥) كتاب الأيمان والنذور.
«اليمين الْغَمُوسُ» التى يَحلِفُهَا كَاذِبًا عامِدًا.. سُمِّيت غَمُوسًا، لأَنَّهَا تَغْمِسُ الحالِفَ فى الإِثم.

رَمَضَان، مكفرات لما بَينهُنَّ إِذا اجْتُنِبَت الْكَبَائِر»(١).

فَتعين علينا الفحص عَن الْكَبَائِر مَا هِيَ لكَي يجتنبها الْمُسلمُونَ.

فَوَجَدنَا الْعلمَاء رَحِمهم الله تَعَالَى قد اخْتلفُوا فِيهَا فَقيل هِيَ سبع، وَاحتَجُّوا بقول النَّبِي ﷺ: **«اجتنبوا السَّبع الموبقات»**.

فَذكر مِنْهَا: **«الشرك بِالله وَالسحر وَقتل النَّفس الَّتِي حرم الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَأكل مَال الْيَتِيم وَأكل الرِّبَا والتولي يَوْم الزَّحف وَقذف الْمُحصنَات الْغَافِلَات الْمُؤْمِنَات»**(٢).

وَقَالَ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: هِيَ إِلَى السّبْعين أقرب مِنْهَا إِلَى السَّبع.

وَصدق وَالله ابْن عَبَّاس.

وَأما الحَدِيث فَمَا فِيهِ حصر الْكَبَائِر ... وَالَّذِي يتَّجه وَيقوم عَلَيْهِ الدَّلِيل أَن مَن ارْتكب شَيْئًا من هَذِه العظائم مِمَّا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا كَالْقَتْلِ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَة أَو جَاءَ فِيهِ وَعِيد فِي الْآخِرَة من عَذَابٍ أَو غضبٍ أَو تهديدٍ أَو لعن فَاعله على لِسَان نَبينَا مُحَمَّد ﷺ فَإِنَّهُ كَبِيرَة.

وَلَا بُد من التَّسْلِيم أَن بعض الْكَبَائِر أكبر من بعض(٣).

۞ وفى هذا الحديث ذكر النبي ﷺ مجموعة من أكبر الكبائر وليس المقصود منها حصر الكبائر كلها فيها .. ولكن المقصود التنبيه على خطورتها.

فالشرك هو أظلم الظلم فى حق الخالق (جلَّ وعلا)... وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس هى من أظلم الظلم فى حق المخلوقين.

وقد تكلمنا فى الحديث السابق عن الشرك وعقوق الوالدين وبقى لنا أن نتكلم هنا عن القتل واليمين الغموس.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٦٦) كتاب الوصايا، ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

(٣) الكبائر/ للإمام الذهبى رحمه الله (ص ١٥-١٦).

۞ فأما عن القتل ومغبته فحسبنا أن نتأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: ٣٢].

۞ ولا يشك عاقل من أنَّ القتل قد انتشر فى هذا الزمان بصورة لا تخطر على قلب بشر ... فلا تكاد تمر ساعة إلا وتُطالعنا النشرات الإخبارية والصحف المحلية والعالمية بأخبار العشرات والمئات من المقتولين ... ولا أكون مبالغًا إذا قلت أنه لم يصبح هناك أى حُرمة للدماء (وبخاصة الدماء المسلمة).

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْهَرجُ**» قَالُوا: وَمَا الْهَرجُ يا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ الْقَتْلُ**»[(١)].

۞ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَ يَدَىِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الهَرجِ، يَزُولُ فِيهَا العِلْمُ وَيَظْهَرُ فِيهَا الجَهْلُ**» قَالَ أَبُو مُوسَى: وَالهَرجُ..القَتْلُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ[(٢)].

۞ وَعَنْ أَبِى مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أنه قَالَ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَىِ السَّاعَةِ الْهَرجُ**». فَقَالُوا: وَمَا الْهَرجُ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ... إِنَّهُ لَيْسَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ قَتْلُ بَعضِهِمْ بَعضًا**». قَالُوا: وَمَعَنَا عُقُولُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ يَحسَبُ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُم عَلَى شَىْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى شَىْءٍ**»[(٣)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٨) (١٨) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٠٦٦) كتاب الفتن.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٤٧).

۞ وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لا تَذْهَبُ الدُّنْيَا، حَتَّى يَأْتِىَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لا يَدرِى الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ**» فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**الْهَرجُ.. الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِى النَّارِ**»(١).

وما أخبر به ﷺ فى هذه الأحاديث قد وقع بعضٌ منه، فحدث القتال بين المسلمين فى عهد الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثم صارت الحروب تَكثُر فى بعض الأماكن دون بعض، وفى بعض الأزمان دون بعض، ودون أن تعرف أسباب أكثر تلك الحروب.

وإنَّ ما حصل فى القرون الأخيرة من الحروب المُدمِّرة بين الأمم والتى ذهب ضحيَّتها الألوف، وانتشرت الفتن بين الناس بسبب ذلك، حتى صار الواحد يقتل الآخر، ولا يعرف الباعث له على ذلك.

وكذلك؛ فإن انتشار الأسلحة الفتَّاكة التى تُدمِّر الشعوب والأمم له دورٌ كبيرٌ فى كثرة القتل، حتى صار الإنسان لا قيمة له؛ يُذْبَحُ كما تُذْبَحُ الشاة، وذلك بسبب الانحلال، وطيش العقول... فعند وقوع الفتن يُقتل الرجل، ولا يدرى لماذا قُتِلَ وفيمَ قُتِل... بل إننا نرى بعض الناس يقتل غيره لأسبابٍ تافهة، وذلك عند اضطراب الناس... ويَصدُق على ذلك قوله ﷺ: «**إنَّه ليُنزَع عقول أكثر أهل ذلك الزمان**»، نسأل الله العافية، ونعوذ به من الفتن؛ ما ظهر منها وما بطن.

۞ وأما عن اليمين الغموس فهى اليمين الكاذبة التى يقتطع بها المسلم حق أخيه بيمينٍ كاذبة تغمسه فى نار جهنم - والعياذ بالله -.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٠٨) كتاب الفتن.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»(١).

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»(٢).

(٣٤٣) وعَنْ ابنِ عَمرٍو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مِنَ الْكبائِرِ شَتْمُ الرَّجل والِدَيْه» قالوا: يا رسول الله وهَلْ يشْتُمُ الرَّجُلُ والديْهِ؟، قال: «نَعمْ، يَسُبُّ أبا الرَّجُلِ، فيسُبُّ أَباه، ويسُبُّ أُمَّهُ، فَيسُبُّ أُمَّهُ»(٣).

وفي رواية: «إِنَّ مِنْ أَكْبرِ الكبائِرِ أَنْ يلْعنَ الرَّجُلُ والِدَيْه» قيل: يا رسول الله كيْفَ يلْعنُ الرجُلُ والِديْهِ؟، قال: «يسُبُّ أَبا الرَّجُل، فيسُبُّ أَبَاهُ، وَيسبُّ أُمَّه، فيسُبُّ أَمَّهُ».

❁ وفي ذلك تحذير من أن يكون الإنسان سببًا في شتم والديه بأن يأتي إلى شخص فيشتم والدى الشخص، فيقابله الشخص الآخر بالمثل ويشتم والديه... ولا يعني ذلك أنه يجوز للثاني أن يشتم والدي الرجل؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولكنه في العادة والطبيعة أن الإنسان يجازي غيره بمثل ما فعل به، فإذا سَبَّه سَبَّه.

وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، لذلك لما كان سببًا في سَبِّ والديه؛ كان عليه إثم ذلك.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤١٧) كتاب الخصومات - ومسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٧٣) كتاب الأدب، ومسلم (٩٠) كتاب الإيمان.

(٣٤٤) وعَنْ أبى محمد جُبيْرِ بنِ مُطعمٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَدخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ»(١) قال سفيان فى روايته: يعنى: قاطع رحِم.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «لا يَدخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» هَذَا الْحَدِيثُ يَتَأَوَّلُ تَأْوِيلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: حَمْلهُ عَلَى مَنْ يَسْتَحِلِ الْقَطِيعَةَ بِلَا سَبَبٍ وَلَا شُبْهَةٍ مَعَ عِلْمِهِ بِتَحرِيمِهَا فَهَذَا كَافِرٌ يُخَلَّدُ فِى النَّارِ وَلَا يَدخُلُ الْجَنَّةَ أَبَدًا. وَالثَّانِى مَعنَاهُ أَنَّهُ لَا يَدخُلُهَا فِى أَوَّلِ الْأَمْرِ مَعَ السَّابِقِينَ بَلْ يُعَاقَبُ بِتَأَخُّرِهِ الْقَدرِ الَّذِى يُرِيدُهُ اللهُ تَعَالَى(٢).

❁ فالشَّاهِدُ أن قاطع الرَّحم إن كان مُستحلًّا لقطيعة الرحم بلا سبب أو شُبهة.. أو كان ممن يُنكرون وجوب صلة الرحم مُكذبًا بذلك كل ما جاء فى كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ فقد أنكر بذلك ما هو معلومٌ من الدين بالضرورة.. ولذا فهو كافرٌ يُخلَّد فى نار جهنم - والعياذ بالله-.

أما إن لم يكن مُستحلًّا لذلك ولا مُكذِّبًا بوجوب صلة الرحم إلا أنه قد يكون مُقصِّرًا أو مشغولًا أو غير ذلك فإنه يُحرَم من دخول الجنة مع أول الداخلين، ثم يدخل الجنة بعد أن يُعاقبه الله أو يعفو عنه.. وذلك لأنه لا يُخلَّد موحدٌ فى النار أبدًا.

(٣٤٥) وعَنْ أبى عيسى المُغِيرةِ بن شُعبةَ ﷺ عن النبىِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمهَاتِ، ومنْعًا وهات، ووأْدَ البنَاتِ، وكَرِهَ لكُمْ قِيلَ وقالَ، وكثرة السؤالِ، وإضَاعة المالِ»(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٨٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٦) كتاب البر والصلة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٧١).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٧٥) كتاب الأدب، ومسلم (٥٩٣) كتاب المساجد.

قولُهُ: «منعًا» معناهُ: منعُ ما وجبَ عَلَيْه - وَ «هَاتِ»: طَلَبُ مَا لَيسَ لَهُ - و«وَأْدَ البنَاتِ» معناه: دَفْنُهُنَّ فى الحَياة - وَ «قيل وقالَ» مَعنَاهُ: الحديثُ بكُلِّ مَا يَسمعُهُ، فيقُولُ: قيلَ كَذَا، وقَال فُلانٌ كَذا مِمَّا لا يَعلَمُ صِحَّتَهُ، ولا يَظُنُّهَا، وكفى بالمرْءِ كذبًا أَنْ يُحَدِّث بِكُلِّ ما سَمِعَ - و«إضَاعَةُ المال»: تبذيره وصرفُهُ فى

وفي الباب أحاديث سبقت في الباب قبله كحديث: «وأقْطعُ مَنْ قَطَعكِ» وحديث «مَن قطعني قَطَعهُ الله».

۞ الشاهد من هذا الحديث قوله: «عقوق الأمهات»: وهو قطع ما يجب لهن من البر ... أما «وأد البنات»: فهو دفنهن أحياء، وذلك لأنهم في الجاهلية كانوا يكرهون البنات، ويعيبون بقاء البنت عند الرجل، ويقولون: إن بقاء البنت عند الرجل مَسبَّة له.

فكانوا - والعياذ بالله - يأتون بالبنت فيحفرون لها حفرة ويدفنونها وهي حية ... قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]. فحرم الله ذلك، وهو لا شك من أكبر الكبائر، وإذا كان قتل الأجنبي المؤمن سببًا لدخول النار ... كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. فالقرابة أشد وأشد.

«ومنعًا وهات»: يعني أن يكون الإنسان جَموعًا مَنوعًا، يمنع ما يجب عليه بذله من المال، ويطلب ما ليس له...فهات: يعني أعطوني المال، «ومنعًا»: أي يمنع ما يجب عليه... فإن هذا أيضًا مما حرمه الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يمنع ما يجب عليه بذله من المال، ولا يجوز أن يسأل ما لا يستحق، فكلاهما حرام... ولهذا قال: «**إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعًا وهات**».

«**وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»، كره وحرم ليس بينهما فرق... لأن الكراهة في لسان الشارع معناها التحريم، ولكنَّ هذا والله أعلم من باب اختلاف التعبير فقط.

= غَيْرِ الوُجُوهِ المأْذُون فيهَا مِنْ مَقَاصِدِ الآخِرةِ والدُّنيا، وتَرْكُ حِفْظِهِ مع إمْكَانِ الحفْظِ -و«كثرةُ السُّؤَالِ» الإلحاحُ فِيمَا لا حاجةَ إِلَيْهِ.

«**كره لكم قيل وقال**» يعنى نقل الكلام، وكثرة ما يتكلم الإنسان ويثرثر به، وأن يكون ليس له هَمٌّ إلا الكلام فى الناس... قالوا: كذا وقيل كذا، ولاسيما إذا كان هذا فى أعراض أهل العلم وأعراض ولاة الأمور، فإنه سيكون أشد وأشد كراهة عند الله عَزَّوَجَلَّ.

والإنسان المؤمن هو الذى لا يقول إلا خيرًا ... كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَقُل خيرًا أو ليصمت**».

وكثرة السؤال يحتمل أن يكون المراد السؤال عن العلم..ويُحتمل أن يكون المراد السؤال عن المال.

أما الأول: وهو كثرة السؤال عن العلم فهذا إنما يُكره إذا كان الإنسان لا يُريد إلا إعنات المسئول، والإشقاق عليه، وإدخال السآمة والملل عليه، أما إذا كان يُريد العلم فإنه لا يُنهى عن ذلك، ولا يُكره ذلك... وقد كان عبد الله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كثير السؤال، فقد قيل له: بِمَ أدركت العلم؟ قال: أدركت العلم بلسانٍ سَئولٍ، وقلبٍ عقول، وبدنٍ غير مَلول.

لكن إذا كان قصد السائل الإشقاق على المسئول والإعنات عليه، وإلحاق السآمة به، أو التماس زلاته لعله يَزِلّ فيكون فى ذلك قدحٌ فيه، فإن هذا هو المكروه.

وأما الثانى:وهو سؤال المال فإن كثرة السؤال قد تُلحق الإنسان بأصحاب الشُّح والطمع، ولهذا لا يجوز للإنسان سؤال المال إلا عند الحاجة، أو إذا كان يرى أن المسئول يحب أن يسأله... كما لو كان صديقًا لك قوى الصداقة، قريبًا جدًّا، فسألته حاجة وأنت تعرف أنه يكون بذلك ممنونًا، فهذا لا بأس به...أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فلا يجوز أن تسأل إلا عند الضرورة.

وأما إضاعة المال فهو بذل الإنسان له فى غير فائدة لا دينية ولا دنيوية؛ لأن

الله تعالى قال: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء: ٥].

فالمال قيامٌ للناس؛ تقوم به مصالح دينهم ودُنياهم، فإذا بذله الإنسان فى غير ذلك فهذا إضاعة له، وأقبح من ذلك أن يبذله فى مُحرم، فيرتكب فى هذا محظورين:

المحظور الأول: إضاعة المال.

والمحظور الثانى: ارتكاب المحرم.

فالأموال يجب أن يحافظ عليها الإنسان، وألا يَضعها وألا يبذلها إلا فيما فيه مصلحة له ..دينية أو دُنيوية[١].

---

[١] شرح رياض الصالحين (٢/ ١١٠-١١١) بتصرف.

(٤٢) باب فضل بِرِّ أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة وسائر مَن يندب إكرامه

(٣٤٦) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبى ﷺ قال: «إن أَبَرَّ البرِّ أَنْ يصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبيهِ».

وعَنْ عبد الله بن دينارٍ عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رجُلاً مِنَ الأعرابِ لقِيهُ بطريق مكَّة، فَسلَّم عَليْه عَبْدُ الله بْنُ عَمرَ، وحَمَلهُ على حمار كَانَ يرْكَبُهُ، وأَعطَاهُ عِمامةً كانتْ على رأْسِهِ.. قال ابنُ دِينار: فقُلنا لهُ: أَصلَحكَ الله إِنَّهمْ الأعرابُ وهُمْ يرَضَوْنَ باليسيرِ. فقال عبدُ الله بنُ عمر: إنَّ أبا هذا كَان ودًّا لعُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وإِنِّى سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَبرَّ البرِّ صِلةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبيهِ».

وفى روايةٍ عن ابن دينار عن ابن عُمَر أَنَّهُ كَانَ إذا خرج إلى مَكَّةَ كَانَ لَهُ حِمارٌ يَتروَّحُ عليْهِ إذا ملَّ رُكُوب الرَّاحلَةِ، وعِمامةٌ يَشُدُّ بِها رأسهُ، فَبيْنَا هُو يوْمًا على ذلكَ الحِمَارِ إذْ مَرَّ بِهِ أَعرابىٌّ، فقال: أَلَسْتَ فُلانَ بْنَ فُلانٍ؟ قال: بلى: فَأَعطَاهُ الحِمَارَ، فقال: اركَبْ هذا، وأَعطاهُ العِمامةَ وقال: اشْدُد بِهَا رأْسَكَ، فقال لَهُ بَعضُ أَصحابِهِ: غَفَر الله لَكَ، أَعطَيْتَ هذَا الأعرابىَّ حِمارًا كنْتَ تَروَّحُ عليْه، وعِمامَةً كُنْتَ تَشُدُّ بِهَا رأْسَكَ؟ فقال: إِنِّى سَمعتُ رسول الله ﷺ يقُولُ: «إِنْ مِنْ أَبَرِّ البرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعد أَنْ يُولِّيَ»[1] وإِنَّ أَبَاهُ كانَ صَدِيقًا لِعُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ... روى هذِهِ الرِّواياتِ كُلَّها مسلم.

۞ فمن الوفاء أن نصل أصدقاء الأب بعد موته وصديقات الأم بعد موتها ... فكل خير كان يفعله الآباء والأمهات إذا فعله الأبناء بعد موتهما يكون فى ميزان حسناتهما.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٢) كتاب البر والصلة.

۞ وهنا ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فضل بِرِّ أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة بعدما ذكر فضل بر الوالدين وصلة الأرحام.. وهذا من باب قول القائل:

حبيبُ حبيبي .. حبيبي   وعدو حبيبي ... عدوى

فإكرام هؤلاء هو فى الحقيقة إكرامٌ للوالدين وللأرحام.

۞ وهنا ذكر الإمام حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو حديثٌ يتضمن قصة عجيبة .

فقد كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا خرج إلى مكة حاجًّا يكون معه حمار يتروح عليه إذا شعر بشيءٍ من الملل من ركوب الراحلة -أى: ركوب البعير- فكان يستريح على ذلك الحمار لفترة ثم يعود فيركب الراحلة لتقطع به الطريق أسرع من الحمار.

وفى يومٍ من الأيام كان ابن عمر يستروح على ذلك الحمار فلقيه أعرابىٌّ فقير.... فلما رآه ابن عمر أقبل عليه وسأله: ألست فلان ابن فلان؟ فقال له الأعرابى: بلى أنا فلان ابن فلان. ففرح ابن عمر ونزل فى التوِّ واللحظة عن الحمار وقال للأعرابى: خُذ هذا الحمار واركب عليه .. فركب الأعرابى على الحمار وهو لا يصدق نفسه فقد كان يسير فى تلك الصحراء على رجليه..

وبينما هو فى لحظة الذهول السعيدة إذ بابن عمر يُفاجئه المفاجأة الثانية ويخلع عمامته التى كانت على رأسه ويقول له: اشدُد بها رأسك.

وكأنه دار حوارٌ قصير بين ابن عمر وهذا الرجل ثم انصرف وقد أخذ الحمار والعمامة..

فقال بعض أصحاب ابن عمر له: أصلحك الله أو غفر الله لك!.. إنهم الأعراب وإن الأعراب يرضون باليسير..

أى أنهم يفرحون بما هو أقل من ذلك بكثير... فكيف تعطيه حمارك الذى كنت تتروح عليه وقد كان أنفع له ولك أن تُعطيه درهمًا أو درهمين؟!

فقال: إنى سمعت النبى ﷺ يقول: «**إن أبرَّ البر صلة الرجل أهل وُدِّ أبيه**».

يعنى إن أبرَّ البر أنه إذا مات أبو الرجل أو أمه أو أحدٌ من أقاربه أن تَبَرَّ أهل وُدِّه... يعنى ليس صديقه فقط بل حتى أقارب صديقه.

وإن أبا هذا كان صديقًا لأبى (عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) فلما كان صديقًا لأبى أكرمته بِرًّا بأبى (عمر بن الخطاب).

وفى هذا الحديث: دليل على امتثال الصحابة، ورغبتهم فى الخير ومسارعتهم إليه... لأن ابن عمر استفاد من هذا الحديث فائدة عظيمة، فإنه فعل هذا الإكرام بهذا الأعرابى من أجل أن أباه كان صديقًا لعمر.. فما ظنك لو رأى الرجل الذى كان صديقًا لعمر؟ لأكرمه أكثر وأكثر.

فيُستفاد من هذا الحديث: أنه إذا كان لأبيك أو أمك أحدٌ بينهم وبينه وُدٌّ فأكرمه... كذلك إذا كان هناك نسوة صديقات لأمك فأكرم هؤلاء النسوة، وإذا كان رجال أصدقاء لأبيك فأكرم هؤلاء الرجال، فإن هذا من البر.

وفى هذا الحديث أيضًا: سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، حيث إن البر بابه واسع لا يختص بالوالد والأم فقط، بل حتى أصدقاء الوالد وأصدقاء الأم، إذا أحسنت إليهم فإنما بررت والديك ... فتُثاب ثواب البار بوالديه. وهذه من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ، أن وسَّع على عباده أبواب الخير[1].

۞ **قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:**

وَفِى هَذَا فَضْلُ صِلَةِ أَصدِقَاءِ الْأَبِ وَالْإِحسَانِ إِلَيْهِمْ وَإِكْرَامِهِم وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِبِرِّ الْأَبِ وَإِكْرَامِهِ لِكَوْنِهِ بِسَبَبِهِ ... وَتَلْتَحِقُ بِهِ أَصدِقَاءُ الْأُمِّ وَالْأَجْدَادِ وَالْمَشَايِخِ وَالزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١١٢).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٦٥).

(٣٤٧) وعَنْ أبى أُسَيْد مالكِ بنِ ربيعَةَ السَّاعِدىِّ رضي الله عنه قال: بَيْنا نَحنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رسول الله ﷺ إذ جاءَهُ رجُلٌ مِنْ بنى سَلَمة فقالَ: يا رسولَ الله هَلْ بقى مِن بِرِّ أبوىَّ شىءٌ أَبرُّهُمَا بِهِ بَعدَ مَوْتِهِمَا؟ فقال: «نَعمْ، الصَّلاَة عَليْهِمَا، والاسْتِغفَارُ لَهُما، وإِنْفاذُ عَهْدِهِما، وصِلةُ الرَّحِمِ التى لا تُوصَلُ إلاَّ بِهِمَا وإِكرَامُ صَدِيقهما»[1].

۞ على الرغم من أن هذا الحديث ضعيف إلا أنى سأشرحه شرحًا مُبسطًا وذلك لاشتهاره على ألسنة الناس ولأن هناك مَن يُخطئ فى فهم بعض ألفاظه.

ففى هذا الحديث يُخبر مالك بن ربيعة أنه بينما هم جُلوسٌ عند النبى ﷺ إذ جاءه رجلٌ من بنى سلمة فسأل النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله هل بقى علىَّ من بر أبوىَّ شىءٌ أبرهما به بعد موتهما؟

فمعنى ذلك أن هذا الرجل كان بارًّا بوالديه غاية البر.. فلما ماتا أراد أن يسأل: هل من الممكن أن أُكمل مسيرة البر بعد موتهما...

فهذا رجل يُريد أن يبرهما حتى بعد موتهما .. وهناك مَن يعقهما حتى فى حياتهما!!!

المهم أنه لما سأل النبى ﷺ هذا السؤال قال له النبى ﷺ: **«نَعَمْ، الصَّلاَةَ عَليْهِمَا، والاسْتِغْفَارُ لَهُما، وإِنْفاذُ عَهْدِهِما، وصِلةُ الرَّحِمِ التى لا تُوصَلُ إلاَّ بِهِمَا وإِكرَامُ صَدِيقهما».**

۞ فهذه خمسة أشياء تفعلها مع الوالدين بعد موتهما.

(١) الصلاة عليهما: بمعنى الدعاء لهما ... فالصلاة هنا بمعنى الدعاء وهى كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] ... وكان النبى ﷺ **إذا أتته الصدقة قال: «اللهم صَلِّ على آل فلان».**

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى المشكاة (٤٩٣٦)، وضعيف سنن ابن ماجه (٨٠٠).

(٢) الاستغفار لهما: وهو أن يستغفر الإنسان لوالديه ويقول: اللهم اغفر لهما... كما كان إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

(٣) إنفاذ عهدهما: يعنى إنفاذ وصيتهما ما لم يكن فيها معصية.

(٤) صلة الرحم التى لا تُوصَل إلا بهما: بأن تصل أرحامك التى كانوا يزورونها.

(٥) إكرام صديقهما: كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما بهذا الرجل الأعرابى الذى جاءت قصته فى الحديث.

(٣٤٨) وعَنْ عائشة رضي الله عنها قالت: ما غِرْتُ على أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النبى ﷺ مَا غِرْتُ على خديجة رضي الله عنها ومَا رَأَيْتُهَا قَطُّ، ولَكِنْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّما ذَبح الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعضاء، ثُمَّ يَبْعثُهَا فى صدائِق خدِيجةَ، فَرُبَّما قلتُ لَهُ: كَأَنْ لَمْ يكُنْ فى الدُّنْيَا إلا خديجةَ، فيقولُ: «إنَّها كَانتْ وكَانَتْ وكَانَ لى مِنْهَا ولَدٌ»[1].

وفى روايةٍ: وإنْ كَانَ لَيذبحُ الشَّاةَ، فَيُهْدِى فى خَلائِلِهَا منْهَا مَا يسَعُهُنَّ.

وفى روايةٍ: كَانَ إِذَا ذَبحَ الشَّاةَ يَقُولُ: «أَرسِلُوا بِهَا إِلى أَصدِقَاءِ خَدِيجةَ».

وفى روايةٍ قالت: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُختُ خَديجَةَ عَلَى رسول الله ﷺ فَعَرفَ اسْتِئْذَانَ خديجة، فَارتَاحَ لَذَلِكَ فقالَ: «اللَّهُمَّ هَالَةُ بِنْتُ خوَيْلِدٍ».

قَوْلُهَا: «فَارتَاحَ» هو بِالحاءِ، وفى الجمْعِ بين الصحيحين لَلْحُمَيْدى: «فَارتَاعَ» بِالعينَ ومعناه: اهْتَمَّ بِهِ.

۞ من المعلوم أن عائشة رضي الله عنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ... وأيضًا كانت خديجة رضي الله عنها حبيبة رسول الله ﷺ وأم أولاده جميعًا ما عدا إبراهيم فهو ابن

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨١٦) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

مارية القبطية ... فلقد وقفت خديجة بجوار الرسول ﷺ وساعدته وآزرته وضحَّت من أجله ومن أجل دعوته بالكثير والغالى والنفيس فكان النبى ﷺ لا ينساها أبدًا.

فكان فى المدينة إذا ذبح شاةً أخذ من لحمها وأهداه إلى صديقات خديجة رضي الله عنها ... ولم تصبر عائشة رضي الله عنها على ذلك، قالت: يا رسول الله، كأن لم يكن فى الدنيا إلا خديجة.

قال: « **إِنَّها كَانتْ وكَانَتْ** »، يعنى كانت تفعل كذا، وتفعل كذا، وذكر من خصالها رضي الله عنها « **وكَانَ لى مِنْهَا ولَدٌ** » حيث كل أولاده؛ أربع بنات وثلاثة أولاد كلهم منها إلا ولدًا واحدًا هو إبراهيم رضي الله عنه، فإنه كان من مارية القبطية التى أهداها إليه ملك القبط.

۞ بل كان النبى ﷺ يشتاق لكل مَن يُذكره بخديجة .. ولذلك لما استأذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة رضي الله عنها - فرح النبي ﷺ فرحًا شديدًا وقال: «**اللهم هالة**»... لأنها كانت تُذكره بخديجة رضي الله عنها .

۞ بل كان النبى ﷺ يعتبر حبه لخديجة رضي الله عنها رزقًا ساقه الله إليه.

عن عائشة قالت: ما غرت على نساء النبى ﷺ إلا على خديجة وإنى لم أُدركها قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**» قالت: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة ! فقال رسول الله ﷺ: «**إنى قد رُزقت حبها**»[(١)] .

قال الإمام الذهبى: قلت: وهذا من أعجب شىء[(٢)]. أن تغار رضي الله عنها من امرأة عجوز تُوفيت قبل تزوج النبى ﷺ بعائشة، ثم يحميها الله من الغيرة من عدة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٢٩) كتاب النكاح، مختصرًا-ومسلم (٢٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) علق الشوكانى رحمه الله على هذا الموطن فقال: سبب الغيرة ما كانت تسمعه من ثناء رسول الله ﷺ على خديجة، وتفخيمه لشأنها كما سبق فى ترجمتها رضي الله عنها، فلا عجب إذن.

نسوة يشاركنها في النبي ﷺ، فهذا من ألطاف الله بها وبالنبي ﷺ، لئلا يتكدر عيشهما. ولعله إنما خفَّف أمر الغيرة عليها حب النبي ﷺ لها وميله إليها ... فرضي الله عنها وأرضاها.

۞ وعن عائشة قالت: دخلت امرأة سوداء على النبي ﷺ، فأقبل عليها. قالت: فقلت: يا رسول الله، أقبلت على هذه السوداء هذا الإقبال! فقال: «**إنها كانت تدخل على خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان**»(١).

۞ فما أجمل أن نكون أوفياء لآبائنا وأمهاتنا وأرحامنا وأصدقاء آبائنا وأمهاتنا وأزواجنا وزوجاتنا وكل مَن حولنا.

(٣٤٩) وعَنْ أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خَرجْتُ معَ جرير بن عبد الله الْبَجَليِّ رضي الله عنه في سَفَرٍ، فَكَانَ يَخْدُمُني فقلتُ لَهُ: لا تَفْعلْ، فقال: إِنِّي قَد رَأَيْتُ الأنصارَ تَصنَعُ برسُول الله ﷺ شَيْئًا آلَيْتُ عَلى نَفْسي أَنْ لا أَصحبَ أَحدًا مِنْهُمْ إلا خَدمْتُهُ(٢).

۞ ففي هذا الحديث يُخبر أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ أنه خرج مع جرير بن عبد الله رضي الله عنه في سفرٍ فجعل جرير يخدم أنسًا وكل مَن معه من الأنصار ... فلما سأله أنس عن سبب ذلك قال له جرير: إني رأيت الأنصار تصنع برسول الله شيئًا فآليت على نفسي - يعني حلفت- أن لا أصحب أحدًا منهم إلا خدمته.

وهذا من فرط حبه للرسول ﷺ وكل مَن يحب الرسول ﷺ وكل مَن كان يخدم الرسول ﷺ ويُضحي من أجله.

وهذا من كمال حب جرير واحترامه وتوقيره للنبي ﷺ.

---

(١) حسن: رواه الحاكم (٤٠)، وحسنه الألباني في صَحِيح الْجَامِع (٢٠٥٦)، الصَّحِيحَة (٢١٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٨٨) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٥١٣) كتاب فضائل الصحابة.

۞ وهذا ما فعله ابن عباس رضي الله عنهما مع أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه الذي استضاف النبي ﷺ في بيته سبعة أشهر عندما هاجر من مكة إلىٰ المدينة.

فأراد ابن عباس بعد سنواتٍ طويلة أن يُكرمه لإكرامه لرسول الله ﷺ.

ففى سيرة ابن عباس أنه كان أميرًا على البصرة (لعلىٍّ)، وأن أبا أيوب الأنصارى وَفَد عليه، فبالغ فى إكرامه، وقال: لأجزينك على إنزالك النبى ﷺ عندك ... فوصله بكل ما فى المنزل، فبلغ ذلك أربعين ألفًا.

وفى رواية: أنَّ أبا أيوب قَدِمَ على ابن عباس البصرة، ففرَّغ له بيته، وقال: لأصنعنَّ بك كما صنعت برسول الله ﷺ... كم عليك؟ قال: عشرون ألفًا فأعطاه أربعين ألفًا، وعشرين مملوكًا، ومتاع البيت [1].

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

وَفِى حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَخِدمَتِهِ لِأَنَسٍ إِكْرَامًا لِلْأَنْصَارِ دَلِيلٌ لِإِكْرَامِ الْمُحسِنِ وَالْمُنْتَسِبِ إِلَيْهِ وإِنْ كَانَ أَصغَرَ سِنًّا ... وَفِيهِ تَوَاضُعُ جَرِيرٍ وَفَضِيلَتُهُ وَإِكْرَامُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَإِحسَانُهُ إِلَى مَنِ انْتَسَبَ إِلَى مَنْ أَحسَنَ إليه ﷺ [2].

---

(١) أخرجه الطبرانى، والحاكم (٣/ ٤٦١، ٤٦٢) وصححه، ووافقه الذهبى.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٠٥).

(٤٣) باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ وبيان فضلهم

۞ لابد أن نعلم أولًا أن أهل بيت رسول الله ﷺ ينقسمون إلى قسمين:

(١) قسمٌ مؤمنون: .. وهم الذين آمنوا من أهل بيت رسول الله ﷺ وقرابته .. ومنهم زوجات الرسول ﷺ.. فإن زوجاته ﷺ من أهل بيته كما قال تعالى عنهن: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣٣].

(٢) قسمٌ كفار: فهؤلاء ليسوا من أهل بيت النبى ﷺ حتى وإن كانوا أقارب له فى النسب لكنهم ليسوا من أهل بيته ﷺ.. لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]، فقال الله له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

الإحسان إلى آل بيت النبى ﷺ

۞ عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُذكركُمُ الله فى أهل بيتى، أُذكركُمُ الله فى أهل بيتى، أُذكركُمُ الله فى أهل بيتى»**(١).

۞ وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنى تاركٌ فيكم ما إن تمسكتُم به لن**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٨) كتاب فضائل الصحابة.

تضلوا بعدى؛ أحدهما أعظمُ من الآخر: كتابُ الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، ولن يتفرقا حتى يَرِدَا علىَّ الحوض، فانظروا كيف تَخلفونى فيهما»[1].

وموقف أهل السنة والجماعة من أهل البيت موقف الاعتدال والإنصاف، يتولون أهل الدين والاستقامة منهم، ويتبرؤون ممن خالف السُّنة وانحرف عن الدين ولو كان من أهل البيت ... فإن كونه من أهل ومن قرابة الرسول ﷺ لا ينفعه ذلك حتى يستقيم على دين الله ... فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: **«يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أُغنى عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغنى عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله لا أُغنى عنكِ من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئتِ لا أُغنى عنكِ من الله شيئًا...»**[2]، وفى حديث آخر عند مسلم: **«مَن بطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه»**[3].

وأهل السنة يتبرؤون من طريقة مَن غلا فى بعض أهل البيت وادَّعى لهم العصمة، ومن طريقة مَن ناصَب آل البيت العداوة وطعنوا فيهم، ومن طريقة المبتدعة والخرافيين الذين يتوسلون بأهل البيت ويصرفون لهم شيئًا من خالص حق الله عز وجل.

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]: «ولا ننكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم، وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيتٍ وُجد على وجه الأرض، فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة

(١) صحيح: رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٥٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٧٥٣) كتاب الوصايا.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه، وعليٍّ وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين».

ومع كل هذه المكانة التى أكرم الله بها آل بيت نبيه، إلا أن ذلك كله مشروط بالصلاح والتقوى، وهم فيما عدا ما لهم من خصائص كغيرهم من المسلمين... لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات، فليس قُربهم من النبى بمُجيزٍ لهم تجاوز أحكام الله وشرعه، أو أن ينالوا النجاة فى الآخرة دون تقوى وعملٍ صالح ... فكل عباد الله فى ميزان الله سواء.

وهذا ما أوضحته الأدلة الشرعية إيضاحًا تامًّا بعيدًا عن اللَّبس فى أحاديث كثيرة... منها ما رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشًا أهمَّهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت، فقالوا: ومَن يكلم فيها رسول الله ﷺ، فقالوا: ومَن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ، فكلَّمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: **«أتشفع فى حَدٍّ من حدود الله»**، ثم قام فاختطب فقال: **«إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها»**[1].

فهذا الحديث يبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الكُل أمام شرع الله سواء... سواء أكان من آل البيت أم من غيرهم، وسواء أكان من أشراف الناس أم من ضعفائهم... هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة.

فقد قال النبى ﷺ القول الفصل فى ذلك عندما أعلنها صريحة أن: **«مَن بَطَّأ به عمله لم يُسرع به نَسَبُه»**... فمدار النجاة على الإيمان والعمل الصالح، لا على الأنساب والأحساب.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٦٨٨) كتاب الحدود.

(٣٥٠) وعَنْ يزيد بن حيَّان قال: انْطَلَقْتُ أَنا وحُصيْنُ بْنُ سَبْرَةَ، وعمْرُو بن مُسْلمٍ إلى زَيْدِ بْنِ أرقم رضي الله عنهم، فلَمَّا جلَسْنا إِلَيه قال له حُصيْنٌ: لَقَد لَقيتَ يَا زيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتَ رسولَ الله ﷺ، وسمِعتَ حَدِيثَهُ، وغَزَوْتَ مَعَهُ، وَصَلَّيتَ خَلْفَهُ: لَقَد لَقِيتَ يا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، حَدِّثْنا يا زَيْدُ ما سمِعتَ مِنْ رسول الله ﷺ. قال: يا ابْنَ أخي والله لَقَد كَبِرتْ سِنِّي، وقَدُم عهْدي، ونسيتُ بعضَ الذى كنتُ أَعِي مِنْ رسولِ الله ﷺ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ، فَاقْبَلُوا، وَمَالا فَلا تُكَلِّفُونِيهِ ... ثُمَّ قال: قام رسول الله ﷺ يَوْمًا فينَا خطيبًا بمَاءٍ يُدعى خُمًّا بَيْنَ مكَّةَ وَالمَدِينَة، فَحَمِدَ الله، وَأَثْنى عَلَيْه، ووعَظَ، وَذكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بعدُ: أَلا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشكُ أَنْ يَأْتِيَ رسولُ ربى فَأُجيبَ، وأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهما كِتاب الله، فِيهِ الهُدى والنُّورُ، فخُذُوا بكتابِ اللهِ، واسْتَمْسِكُوا به» فحثَّ على كتابِ الله، وَرَغَّبَ فيه. ثمَّ قَالَ: «وأَهْلُ بَيْتِي، أُذكِّركم اللهَ فى أهل بيْتى، أُذكِّرُكم اللهَ فى أهل بيتى» فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: ومَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يا زَيْدُ؟ أليس نساؤُه من أهل بيته؟ قال: نساؤُه منْ أهلِ بيتِهِ وَلَكِن أَهْل بيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدقَة بعدَهُ، قَال: ومَنْ هُم؟ قَالَ: هُمْ آلُ عليٍّ، وآلُ عَقِيلٍ، وآلُ جعفَرٍ، وَآلُ عبَّاسٍ، قَالَ: كُلُّ هُؤلاءِ حُرِمَ الصَّدقَةَ؟ قَالَ: نعَمْ[1].

وفى رواية: «أَلا وَإِنِّى تَارِكٌ فيكُمْ ثَقَلَيْن: أحدُهما كِتَابُ الله وَهُو حبْلُ الله، مَنِ اتَّبعه كان على الهُدى، ومَن ترَكَهُ كان على ضَلالَةٍ».

(٣٥١) وَعَنْ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما، عن أبى بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه مَوْقُوفًا عليه أَنَّهُ قَالَ: ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فى أَهْلِ بيْتِهِ[2].

۞ ففى هذا الحديث أن حُصين بن سبرة قال لزيد بن أرقم رضي الله عنه: لَقد لَقيتَ يَا زيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتَ رسولَ الله ﷺ، وسمِعتَ حَدِيثَهُ، وغَزَوْتَ مَعَهُ، وَصَلَّيتَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٨) كتاب فضائل الصحابة.
(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٧١٣، ٣٧٥١) كتاب فضائل الصحابة.
مَعنى «ارْقُبُوا» رَاعُوهُ وَاحترِمُوه وأَكْرِمُوهُ، والله أعلم.

خَلْفَهُ.

ولا شكَّ أن أعظم نعمة فى هذا الكون بعد الإسلام هى شرف صُحبة النبى ﷺ.. لكن إن كنا حُرمنا صحبته ﷺ فى الدنيا فالفرصة ما زالت قائمة لنكون فى صحبته ﷺ فى الجنة...فالمرء مع مَن أحب...

فعلينا أن نُحبه ﷺ ونتبعه ونطيع أمره وننتهى عن نهيه ﷺ وننشر دعوته ونُدافع عنه ﷺ ونُصلى عليه ﷺ ونتحلَّى بأخلاقه ونُوقره ونتأدب معه لنكون فى صُحبته ﷺ.

۞ وفى هذا الحديث أخبر زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبى ﷺ خطب فى أصحابه عند غدير خُمٍّ...وهو غدير بين مكة والمدينة فأوصاهم بكتاب الله الذى هو منهج حياة يكفل لمن قرأه وتدبَّره وعَمِل بما فيه وتَحاكَم إليه سعادة الدنيا والآخرة.

ثم أوصاهم بأهل بيته خيرًا وقال: «**أُذكركم الله فى أهل بيتى**».. وقد تكلمنا عن وجوب محبة المؤمنين من آل بيت النبى ﷺ.

فلأهل بيت رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم حقوق يجب القيام بها.

فعلينا أن نحب آل بيت رسول الله ونتولاهم ونَذُبّ عنهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقوله ﷺ: «**أُذكركم الله فى أهل بيتى**»(١).

وقد أمرنا الرسول ﷺ بالصلاة عليهم مع الصلاة عليه، فقال لنا قولوا: «**اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد...**»...فمن بين حقوق آل بيت النبى ﷺ:

(١) مودة آل البيت:

اتفق العلماء على وجوب مودة آل البيت؛لأن فى مودتهم مودة للنبى ﷺ...

وقد قال ﷺ: «**أُذكركم الله فى أهل بيتى**»، قالها ثلاثًا.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٨) كتاب فضائل الصحابة.

ولا شك أن المراد بالمودة هنا قدرًا زائدًا عن مودة غيرهم من المؤمنين، ولو كانوا من الأقربين ... حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: «لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي»(١).

وإذا كان من الوفاء والبر «**أن يصل الرجل وُدّ أبيه**»(٢) -كما في الحديث الصحيح- فمن باب أَولَى أن نصل أهل بيت النبي ﷺ بمحبتنا إياهم واحترام مكانتهم وتوقيرهم والترضِّي عنهم والاستغفار لهم.

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن قريشًا إذا لقي بعضهم بعضًا لقوهم ببِشرٍ حَسن، وإذا لقونا لقونا بوجوهٍ لا نعرفها، قال: فغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا، وقال: «**والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله**»(٣).

(٢) الصلاة عليهم:

وقد بيَّن ﷺ كيفية الصلاة عليه، وأن الصلاة على آله تبعٌ للصلاة عليه، فعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا: اللهم صلِّ على محمدٍ وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»(٤).

وفي رواية: «**اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد، اللهم بارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على**

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧١٢) كتاب فضائل الصحابة، ومسلم (١٧٥٩) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) رواه أحمد (٣٧٥٨)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٦١٤٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٦٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٤٠٧) كتاب الصلاة.

آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد».

(٣) متابعة الصالحين[١] من أهل البيت:

فقد قال ﷺ: «**إنى تاركٌ فيكم خليفتين: كتاب الله حبلٌ ممدودٌ ما بين السماء والأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يتفرقا حتى يَرِدَا علىَّ الحوض**»[٢].

(٤) الدفاع عنهم والذَّود عن أعراضهم:

فإن كان النبى ﷺ قال: «**انصر أخاك**»[٣] فكيف بنُصرة آل بيت رسول الله ﷺ... إن نُصرتنا لهم ودفاعنا عنهم شرفٌ لنا وفخرٌ لنا.

(٥) تحريم أكل الصدقة عليهم:

قال ﷺ: «**إن هذه الصدقات إنما هى أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمدٍ، ولا لآل محمد**»[٤].

ومعنى أوساخ الناس أنها تطهير أموالهم ونفوسهم.

قال الإمام ابن قدامة: «ولا نعلم خلافًا فى أن بنى هاشم لا تحل لهم الصدقة المفروضة»، أما صدقة التطوع فتحلُّ لهم لأنها ليست من أوساخ الناس.

(٦) إعطاؤهم خُمس الخمس من الغنيمة والفىء:

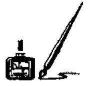
قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]

(١) والتقييد فى العنوان الذى عنونا به - بالصالحين - تقييد لا بد منه إذ لم يأمرنا الله عَزَّوَجَلَّ باتباع سبيل المفسدين مَن كانوا وأينما كانوا ... قال تعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ وقال النبى ﷺ: «مَن بطَّأ به عمله لم يُسرع به نَسَبُه» وقد كان أبو لهب - لعنه الله - هاشميًّا فنزلت فيه سورة من القرآن تُبكته وتذمه هو وزوجته.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٤٥٧).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٣) كتاب المظالم والغصب.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠٧٢) كتاب الزكاة.



(٤٤) باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم ورفع مجالسهم وإظهار مرتبتهم

۞ العلماء ورثة الأنبياء... والأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم.... لم يُورِّثوا عَرَضًا زائلًا، ولا مالًا فانيًا... وإنما ورَّثوا حياة الأرواح وزكاة النفوس ومكارم الأخلاق.

ورثوا عن نوح صبره على دعوته.. وتَحمُّله الإيذاء فى سبيل الله... من غير ضجر ... ولا ملل... ولا قنوط ولا يأس.

ورثوا عن خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ شجاعته وصموده أمام عدوان الباطل... ورثوا عنه التضحية بالروح والجسد... فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا.. وكلمة الذين كفروا السفلى.

ورثوا عن كليم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمانته وعفته... ورثوا عنه جهاده فى سبيل أن يُخرج الناس من ظلم الحكام... إلى عدل الرحمن... ومن عبادة الطواغيت إلى عبادة رب الأرض والسماوات.

ورثوا عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ زهده ورحمته.. ورثوا عنه سُمو النفس ورفعة الروح... وحُبه لجميع الخلق.

ورثوا عن سيد الأولين والآخرين ﷺ صبره وحلمه ... ورثوا عنه جهاده ونضاله... ورثوا عنه الفضائل الحميدة... والأخلاق الكريمة.

فصاروا بذلك أئمة الهدى ومصابيح الدُّجى.

۞ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعى، ودينه الجزائى، وما له فى ذلك من الأسرار، والحِكَم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئًا من ذلك؟ لا يستوى هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوى الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إذا ذُكِّروا ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ أى: أهل العقول الزكية الذكية. فهم الذين يُؤْثِرون الأعلى على الأدنى، فيُؤْثِرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته؛ لأن لهم عقولاً، ترشدهم للنظر فى العواقب. بخلاف مَنْ لا لُبَّ له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه[1].

۞ وإذا كان الأنبياء لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم، فلمن ورثهم نصيب من ذلك، أن يُبجَّل ويُعظَّم ويُكرم.

وبتوقير العلماء توقر الشريعة؛ لأنهم حاملوها، وبإهانة العلماء تُهان الشريعة؛ لأن العلماء إذا ذَلُّوا وسقطوا أمام أعين الناس؛ ذَلَّت الشريعة التى يحملونها، ولم يبقَ لها قيمة عند الناس، وصار كل إنسان يحتقرهم ويزدريهم فتضيع الشريعة.

فإذا استهان الناس بالعلماء لقال كل واحد: أنا العالم، أنا الفهَّامة، أنا العلَّامة، أنا البحر الذى لا ساحل له ... ولما بقى عالم، ولصار كُلٌّ يتكلم بما شاء، ويُفتى بما شاء، ولتمزقت الشريعة بسبب هذا الذى يحصل من بعض السفهاء.

۞ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فالعالِم يعبد الله على بصيرة...يعرف كيف يتوضأ، وكيف يصلى، وكيف يُزكِّى، وكيف يصوم، وكيف يحج، وكيف يبر والديه، وكيف يصل رحمه.

العالِم يهدى الناس إلى طريق الخير والهدى ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]

---

(١) تفسير السعدى (ص ٨٥٠).

لا يمكن أن يكون هذا مثل هذا ... فالعالم نور يُهتدَى به ويرفع الله به ... والجاهل عالة على غيره، لا ينفع نفسه ولا غيره، بل إن أفتى بجهلٍ؛ أَضَرَّ نفسه وأضَرَّ غيره، فلا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

(٣٥٢) وعن أَبى مسعودٍ عُقبةَ بنِ عمرٍو البدرىِّ الأنصارىِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤهُمْ لِكتَابِ اللهِ، فَإِنْ كَانُوا فى الْقِراءَةِ سَواءً، فَأَعلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فى السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كانُوا فى الهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ سِنًّا وَلا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فى سُلْطَانِهِ، وَلا يَقْعُد فى بيْتِهِ عَلَى تَكْرِمتِهِ إلاَّ بِإِذْنِهِ»[1].

وفى روايةٍ لَهُ: «فَأَقْدمهُمْ سِلْمًا» بَدل «سِنًّا»: أَىْ إِسْلامًا.

وفى رواية: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤهُمْ لِكتَابِ اللهِ، وأَقْدمُهُمْ قِراءَةً، فَإِنْ كَانَتْ قِراءَتُهمْ سَواءً فَيَؤُمُّهم أَقْدمُهُمْ هِجْرةً، فَإِنْ كَانوا فى الهِجْرَةِ سوَاء، فَلْيُؤمَّهُمْ أَكْبرُهُمْ سِنًّا».

۞ وهذا يدل على أن صاحب العلم مُقَدَّمٌ على غيره ... يُقَدَّمُ العالِم بكتاب الله، ثم العالِم بسُنَّة رسول الله ﷺ ولا يُقدَّم من القوم فى الأمور الدينية إلا خيرهم وأفضلهم.

وهذا يدل على تقديم الأفضل فالأفضل فى الإمامة...وهذا فى غير الإمام الراتب... أما الإمام الراتب فهو الإمام وإن كان فى الناس مَن هو أقرأ منه ... لقول النبى ﷺ فى الحديث: « وَلا يَؤمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فى سُلْطَانِهِ » وإمام المسجد الراتب سلطان فى مسجده.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٧٣) كتاب المساجد.

والمراد «بسلطانه» محل ولايته، أو الموضع الذى يختص به- «وتكرِمته»: وهى ما ينفرد به من فراش وسرير ونحوهما.

(٣٥٣) وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استووا ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم، ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[1].

(٣٥٤) وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم -ثلاثًا- وإياكم وهيشات الأسواق»[2].

❁ وأولو الأحلام: يعني الذين بلغوا الحلم وهم البالغون، والنُّهى جمع نهية وهي العقل.. يعني العقلاء فالذي يجب أن يتقدم في الصلاة العاقلون البالغون؛ لأن ذلك أقرب إلى فهم ما يقوله النبي ﷺ أو ما يفعله، فلهذا حثَّ النبي ﷺ أن يتقدم هؤلاء حتى يلوا الإمام.

وليس معنى الحديث لا يلني إلا أولو الأحلام والنُّهى، بحيث نطرد الصبيان عن الصف الأول، فإن هذا لا يجوز. فلا يجوز طرد الصبيان عن الصف الأول إلا أن يحدُث منهم أذية، فإن لم يحدث منهم أذية؛ فإن مَن سبق إلى ما لم يسبق إليه أحد أحق به.

وهناك فرق بين أن تكون العبارة النبوية: «لا يَلِنِي إلا أولو الأحلام»، وبين قوله: «لِيَلِني أولو الأحلام»، فالثانية تَحُثّ الكبار العقلاء على التقدُّم، والأولى لو قُدر أنها هي نَصُّ الحديث لكان ينهى أن يلي الإمام مَن ليس بالغًا، أو ليس عاقلًا.

ولهذا نقول: إن أولئك الذين يطردون الصبيان عن الصف الأول أخطئوا من

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٣٢) كتاب الصلاة.

وقوله ﷺ: «ليلني» هو بتخفيف النون وليس قبلها ياء وروى بتشديد النون مع ياء قبلها.

والنُّهى: العقول - وأولو الأحلام هم البالغون، وقيل: أهل الحلم والفضل.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٣٢) كتاب الصلاة.

هيشات الأسواق: ما يكون فيها من الجلبة وارتفاع الأصوات، وما يحدث فيها من الفتن، وأصله من الهوش وهو الاختلاط... قال المناوى: والمعنى لا تكونوا مختلطين اختلاط أهل الأسواق. فلا يتميز الذكور عن الإناث، ولا الصبيان عن البالغين.

جهة أنهم منعوا ذوى الحقوق حقوقهم... ومن جهة أخرى أنهم يُكرِّهون الصبيان المساجد، وهذا يؤدى إلى أن ينفر الصبى عن المسجد إذا كان يُطرَد عنه.

ثم إننا لو طردناهم من أوائل الصفوف؛ حصل منهم لعب... لو كانوا كلهم فى صَفٍّ وَاحِدٍ، لحصل منهم من اللعب ما يوجب اضطراب المسجد، واضطراب أهل المسجد، ولكن إذا كانوا مع الناس فى الصف الأول ومتفرقين؛ فإن ذلك أَسلَم من الفوضى التى تحصل بكونهم يجتمعون فى صَفٍّ واحد.

وقوله ﷺ: «**ليلنى منكم أولو الأحلام والنُّهى**» يُستفاد منه: أن الدنو من الإمام له شأن مطلوب، ولهذا قال: «**ليلنى**» أى يكون هو الذى يلينى.

وعلى هذا نقول: إذا كان يمين الصف بعيدًا، وأيسر الصف أقرب منه بشكل واضح، فإن الصف الأيسر أفضل من الأيمن، من أجل دنوه من الإمام، ولأنه لما كان الناس فى أول الأمر إذا كان إمامهم واثنان معه، فإنهما يكونان عن يمينه واحد، وعن شماله واحد، ولا يكون كلاهما عن اليمين، فدلَّ هذا على مراعاة الدنو من الإمام، وتوسط الإمام من المأمومين.

ولكن هذا الأمر أى كون الإمام واثنان معه يكونان فى صفٍّ واحد، هذا نُسخ، وصار الإمام إذا كان معه اثنان يَصُفَّان خلفه.

***

(٣٥٥) وعَنْ أبى يحيى وَقيل: أبى مُحمَّد سَهْلِ بن أبى حثْمة الأنصارى رضي الله عنه قال: انْطَلَقَ عبْدُ الله بنُ سهْلٍ وَمُحيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ إلى خَيْبَرَ وَهِىَ يَوْمَئِذ صُلْحٌ، فَتَفَرَّقَا. فَأَتَى مُحَيِّصةُ إِلى عبد الله بنِ سَهلٍ وهو يَتَشَحَّطُ فى دمِهِ قَتيلاً، فدفَنَهُ، ثمَّ قَدِمَ المدِينَةَ فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرحمنِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ وَحُويِّصةُ ابْنَا مسْعُودٍ إلى النَّبِىِّ ﷺ، فَذَهَب عَبْدُ الرَّحمنِ يَتكَلَّمُ فقال: «كَبِّرْ كَبِّرْ» وَهُوَ أَحدَثُ القَوْمِ، فَسَكَت، فتَكَلَّمَا فقال: «أَتَحلِفُونَ وَتسْتَحِقُّونَ قَاتِلكُمْ؟»[1] وَذَكَرَ تَمامَ الحديث.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٧٣) كتاب الجزية، ومسلم (١٦٦٩) كتاب القسامة.

=

۞ ففى هذا الحديث دليلٌ على توقير الكبار .. وذلك لأن النبى ﷺ لما أراد الرجل الصغير أن يتكلم قال له النبى ﷺ: «كبِّر كبِّر» أى: اترك مَن هو أكبر منك سنًّا يتكلم. وهذا نوعٌ من الآداب التى تعلمناها من النبى ﷺ.

أنه إذا كان هناك مجموعة من الناس فى مكانٍ ما فلا بد أن نُقدم الأكبر ليتكلم .. إلا إذا كان الأكبر قد تنازل عن الكلام لأحد الحاضرين لكثرة علمه وحُسن أدائه ولباقته فى الكلام فهذا لا بأس به.

❊❊❊

(٣٥٦) وعَنْ جابر رضي الله عنه أَنَّ النبى ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ.. يَعنى فى القَبْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهما أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟» فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إلى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فى اللَّحدِ(١).

۞ وفى هذا الحديث يذكر جابر رضي الله عنه أن النبى ﷺ لما أراد أن يدفن شهداء أُحد وهو فى قمة حزنه عليهم لم ينسَ فضل أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ... فكان النبى ﷺ يسأل: «**أيهما أكثر أخذًا للقرآن**» أى: أكثر حفظًا للقرآن.. فإذا أُشير له إلى أحدهما قدَّمه فى اللحد.

وهذا يدل على توقير أهل القرآن الذين يعملون به ويظهر أثر ذلك على أخلاقهم ومعاملاتهم وعباداتهم .. وليس أهل القرآن الذين يتاجرون به ويتخذونه حرفة ووسيلة للثراء ولا يظهر أثر القرآن على أخلاقهم ولا عباداتهم ولا معاملاتهم ... فاللهُمَّ اجعلنا من أهل القرآن الذين يحفظونه ويتدبرونه ويعملون به ويتحاكمون إليه.

❊❊❊

= وقوله ﷺ: «كَبِّرْ كَبِّرْ» معناهُ: يَتكلَّمُ الأَكْبَرُ.

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣٤٣) كتاب الجنائز.

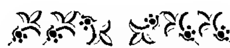
(٣٥٧) وعن ابن عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «أَرَانى فِى المَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ، فَجَاءَنِى رَجُلانِ، أَحدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الآخَرِ، فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الأَصغَرَ مِنْهُمَا، فقيلَ لِى: كَبِّرْ، فَدَفَعتُهُ إِلى الأَكْبَرِ»[١].

۞ وفى حديث الرؤيا التى رآها الرسول ﷺ أنه كان ﷺ يتسوك بسواكٍ فجاءه رجلان فأراد أن يعطيه الأصغر، فقيل له: كبِّر كبِّر.... فيه دليل أيضًا على اعتبار الكِبَر، وأنه يُقدَّم الأكبر فى إعطاء الشىء.

ومن ذلك إذا قدمت الطعام مثلًا أو القهوة أو الشاى فلا تبدأ باليمين، بل ابدأ بالأكبر الذى أمامك؛ لأن النبى ﷺ لما أراد أن يُعطيه الأصغر قيل له كَبِّر ... ومعلوم أنه لو كان الأصغر هو الأيسر ما ذهب الرسول ﷺ يعطيه إياه... فالظاهر أنه أعطى الأيمن من أجل التيامن، لكن قيل له كبِّر: يعنى أعطه الأكبر ... فهذا إذا كان الناس أمامك تبدأ بالكبير، لا تبدأ باليمين، أما إذا كانوا جالسين عن اليمين وعن الشمال فابدأ باليمين.

وبهذا يُجمَع بين الأدلة الدالة على اعتبار التكبير أى مراعاة الكبير[٢].

۞ قال ابن بطال: فيه تقديم ذى السن فى السواك، ويلتحق به الطعام والشراب والمشى والكلام... قال المهلب: هذا ما لم يترتب القوم، فإن ترتَّبوا فالسُّنة تقديم الأيمن وهو صحيح... ويؤيده تقديم الأعرابى على الصدِّيق فى دفع الشراب إليه. وفيه أن استعمال سواك الغير بإذنه غير مكروه إلا أن المستحبّ غسله ثم استعماله[٣].



(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧١) كتاب الرؤيا، ورواه البخارى تعليقًا (٢٤٦) كتاب الوضوء.
(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٢٥).
(٣) دليل الفالحين (٢/ ١٨٦).

(٣٥٨) وعَنْ أبى موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلال الله تعالى إِكْرَامَ ذى الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرآنِ غَيْرِ الْغَالى فِيهِ، والجَافى عَنْهُ، وإِكْرَامَ ذِى السُّلْطَانِ المُقْسِطِ»(١).

۞ (إن من إجلال الله) أى من تعظيمه وتبجيله (إكرام ذى) أى صاحب (الشيبة المسلم) الذى شاب شعره: أى ابيضَّ ونفد عمره فى الإسلام والإيمان.. فتعظيمه وتقديمه فى الصلاة بشرطه على غيره وفى المجامع والمجالس وفى القبر وغيره والرفق به والشفقة عليه من كمال تعظيم الله لحرمته عند مولاه سبحانه... (وحامل القرآن) أى قارئه.. سُمى حاملاً لما تحمَّل فى حفظه من الدرس والمشقة فى تفهُّمه والعمل بأحكامه وتدبُّره فهو كحامل المشاق الكثيرة التى تزيد على الأحمال الثقيلة.

«غير الغالى فيه» المتجاوز الحد فى التشدُّد والعمل به وتتبُّع ما خفى منه واشتبه عليه من معانيه، والكشف عن دقيق علله التى لا يصل إليها عقله إلا بما يبتدعه فى الدين ليَضلَّ ويُضلَّ غيره ويجاوز حدود قراءته ومخارج حروفه ومدِّه (والجافى عنه) أى التارك له البعيد عن تلاوته والعمل بما فيه فإن هذا من الجفاء وهو البُعد عن الشىء.

قلت: لا سيما مَن أعرض عنه بكثرة النوم والبطالة والإقبال على الدنيا والشهوات... وما أقبح بحامل القرآن أن يتلفظ بأحكامه ولا يعمل بها،... فهو إن فعل ذلك أصبح كمثل الحمار يحمل أسفاراً .... (وإكرام ذى) أى صاحب (السلطان) أى المُلك (المُقسط) أى العادل فى حُكمه بين رعيته(٢).

---

(١) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٩٩).

(٢) دليل الفالحين (٢/ ١٨٧) بتصرف.

(٣٥٩) وعَنْ عَمْرو بنِ شُعَيْبٍ، عن أبِيه، عن جَدِّه رضي الله عنهم قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَيْس مِنَّا مَنْ لَمْ يَرحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعرِفْ شَرفَ كَبِيرِنَا»(١).

وفي رواية أبي داود: «حَقَّ كَبِيرِنَا».

۞ «ليس منا» أي ليس من أهل سُنتنا وهدينا وطريقتنا (مَن لا يرحم صغيرنا) أي الصغير من المسلمين بأن يُشفق عليه ويرحمه ويُحسن إليه ويُلاعبه (**ويعرف شرف كبيرنا**) أي بما يستحقه من التعظيم والإجلال والتبجيل... وتُوضحه رواية أحمد «**ليس من أمتي مَن لم يُجلّ كبيرنا**»(٢).

ولابد أن نعلم أن الجزاء من جنس العمل .. فكما ترحم الصغير ستجد من يرحم صغارك وأطفالك في حياتك وبعد موتك.. وكما تحترم وتُوقر الكبير فسوف تجد مَن يحترمك ويُوقرك عندما تُصبح شيخًا كبيرًا.

(٣٦٠) وعَنْ مَيْمُونَ بنِ أبي شَبيب رحمه الله أَن عَائشَةَ رضي الله عنها مَرَّ بِها سَائِلٌ، فَأَعطَتْهُ كِسْرَةً، وَمرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَيْه ثِيَابٌ وهَيْئَةٌ، فَأَقْعدَتْهُ، فَأَكَلَ فَقِيلَ لَهَا في ذلكَ؟ فقالت: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»(٣) رواه أبو داود. ولكِنْ قال: مَيْمُونُ لَمْ يُدرِك عائِشَةَ رضي الله عنها.

وَقَد ذَكَرَهُ مُسْلمٌ في أَوَّلِ صَحِيحه تَعلِيقًا فقال: وَذُكِرَ عَنْ عائشَةَ رضي الله عنها قالت: أَمرنا رسولُ الله ﷺ أَنْ نُنْزِل النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، وَذَكَرَهُ الحاكِمُ أَبُو عبدِ الله في كِتابِهِ «مَعرفَة عُلُومِ الحَديث» وقال: هو حديثٌ صحيح.

۞ للأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف لم يَثبُت عن النبي ﷺ.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٤٤).
(٢) دليل الفالحين (٢/ ١٨٧-١٨٨) بتصرف.
(٣) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٣٤٤).

(٣٦١) وعَنْ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصنٍ، فَنَزَلَ عَلَى ابنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَر الَّذِينَ يُدنيهِمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولاً كَانُوا أَوْ شُبَّانًا.. فقال عُيَيْنَةُ لابْنِ أَخِيهِ: يا ابْنَ أخى لَكَ وجْهٌ عِنْدَ هذَا الأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لى عَلَيْه، فَاسْتَأْذَنَ لَهُ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فلما دَخَلَ: قال: هى يَا ابْنَ الخَطَّابِ: فَوَاللهِ مَا تُعطِينَا الجَزْلَ، وَلا تَحكُمُ فِينا بِالعَدل، فَغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فقال لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنَّ الله تعالى قال لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وإن هذا مِنَ الجَاهِلِينَ. والله ما جاوزَهَا عُمرُ حِينَ تَلاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ الله تعالى[(١)].

۞ فى هذا الحديث يحكى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قَدِمَ عُيينة بن حصن.. وكان قد أسلم بعد الفتح وقيل قبله، وشهد حُنيناً والطائف، وكان من المُؤلَّفة قلوبهم والأعراب الجُفاة... ثم ارتد وقاتل مع طُليحة الأسدى فأسره الصحابة وحملوه إلى الصدِّيق فأسلم فأطلقه،... والمراد أنه قَدِمَ المدينة (فنزل على ابن أخيه الحُر بن قيس) والحُرُّ صحابى، أحد الوفد الذين قَدِمُوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرجعه من تبوك[(٢)].

وكان الحُرُّ بن قيس من النفر الذين يُدنيهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... أى: يُقربهم منه لعلمهم وعملهم ... وكان القُرَّاء أهل القرآن وأهل العلم هم أصحاب مجلس عمر ومشاورته كُهولًا كانوا أو شُبَّانًا ...

وهكذا .. فالحاكم المسلم لا يُقرب إليه إلا أهل الخير والصلاح ليكونوا عونًا له على العدل والرحمة بالرعية.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِالأَمِيرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدقٍ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ، وَإِنْ ذَكَرَ

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٦٤٢) كتاب التفسير.

(٢) دليل الفالحين (٢/ ١٩٠).

لَمْ يُعِنْهُ»[(١)].

(فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى: لك وجه) أى تقدم (عند هذا الأمير) يعنى عمر (فاستأذن لى عليه) أى اسأل لى منه الإذن فى الدخول عليه (فاستأذن له فأذن له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

فلما دخل قال: هِى يا ابن الخطَّاب ... هكذا دون أن يقول له: يا أمير المؤمنين أو يُلقبه بأى لقبٍ يدل على احترامه وتوقيره.

قال له: « هى يَا ابْنَ الخَطَّابِ: فَوَاللهِ مَا تُعطِينَا الجَزْلَ» أى: لا تجزل لنا العطاء، «وَلا تَحكُمُ فِينا بِالعَدل» فاتهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى يُضرَب به المثل فى العدل.. اتهمه بالظلم!!! هنا غَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ العقوبة، وذلك لجفائه وسوء أدبه.

فقال لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنَّ اللهَ تعالى قال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغى فى معاملتهم.

فالذى ينبغى أن يُعامَل به الناس، أن يأخذ العفو أى: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يُكلفهم ما لا تسمح به طبعائهم، بل يشكر من كل أحدٍ، ما قابله به، من قولٍ وفعلٍ جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عند تقصيرهم ويَغُض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللُّطف والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أى: بكل قولٍ حسن، وفعلٍ جميل، وخُلقٍ كامل للقريب والبعيد. فاجعل ما يأتى إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حثًّا على خير، من

(١) صحيح: رواه أبو داود، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢).

صلة رحم، أو بَرِّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأى مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجرٍ عن قبيح، أو إرشادٍ إلى تحصيل مصلحة دينية، أو دنيوية... ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يُقابَل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهله. فمَن آذاك بقوله أو فعله لا تُؤذه، ومَن حرمك لا تحرمه، ومَن قطعك، فَصِلْهُ، ومَن ظلمك فاعدل فيه[١].

۞ فلما سمع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تلك الآية من الحُر بن قيس ما جاوزها... وكان وقَّافًا عند كتاب الله تعالى... فلم يُعاقب عُيينة بن حصن بل عفا عنه.

۞ الشاهد من الحديث أنه يجب احترام وتوقير ولاة الأمور وبخاصة أهل التوحيد والإيمان الذين يُطبقون شرع الله ويتقون الله فى رعيتهم فيتعاملون معهم بالعدل والرحمة ويحرصون كل الحرص على مصالح الرعية.

(٣٦٢) وعَنْ أبى سعيد سَمُرةَ بن جُنْدب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: **لَقَد كنْتُ عَلَى عهْد رسول الله ﷺ غُلامًا، فَكُنْتُ أَحفَظُ عنْهُ، فَمَا يَمْنَعُنى مِنَ القَوْلِ إلاَّ أَنَّ هَهُنَا رِجالاً هُمْ أَسنُّ مِنِّى**[٢].

۞ سمرة بن جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تُوفى أبوه وهو صغير فقَدِمَت به أمه المدينة فتزوّجها أنصارى وكان فى حجره حتى كبر... فقيل أجازه النبىّ فى المقاتلة يوم أُحد، وغزا مع النبى غزوات ثم سكن البصرة... وكان زياد يستخلفه عليها إذا سار إلى الكوفة وعلى الكوفة إذا سار إلى البصرة.. وكان الحسن وابن سيرين وفُضلاء البصرة يُثنون عليه. رُوى له عن النبى مائة حديث[٣].

(١) تفسير السعدى (ص ٣٤٤).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٦٤)(٨٨) كتاب الجنائز.
(٣) دليل الفالحين (٢/ ١٩٢).

يقول سمرة بن جندب رضي الله عنه: لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلامًا - أى فى زمان حياة النبى ﷺ-..

فكنت أحفظ عنه .. أى: يحفظ كلام النبى ﷺ.

يقول سمرة: فما يمنعنى من القول .. أى: من التحديث .. إلا أن ههنا رجالًا هم أسنُّ منى .. أى: كان هناك مَن هم أكبر منى فكنت لا أتكلم ولا أُحدث احترامًا وتوقيرًا لمن هم أكبر منى.... وهذا كله من بركة تربية النبي ﷺ لهم ومن بركة الأدب الذي تعلموه على يد النبي ﷺ.

(٣٦٣) وعَنْ أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أَكْرَم شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إلا قَيّضَ الله لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْد سِنِّه»(١).

۞ للأمانة العلمية .. فهذا الحديث ضعيف لم يَثْبُت عن النبي ﷺ.

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٠١٢).

(٤٥) باب زيارة أهل الخير ومُجالستهم وصُحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة

۞ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٠ - ٦٦] ... وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] .

۞ لا بد أن نعلم أن المسلم لا يستطيع أن يعيش فى هذه الحياة بدون إخوانه وأحبابه... فلا بد من المحبة والمؤاخاة.

ومن حق إخوانك وأقاربك أن يكون هناك تزاور بينكم وذلك من أجل تقوية روح المحبة والأُخوة بينكم.

۞ وزيارة أهل الخير قُربى نتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ... لأنهم هم أهل العلم والخير والصلاح... ومحبتهم واجبة وذلك لأن النبى ﷺ قد أخبر أن من أوثق عُرى الإيمان الحب فى الله والبُغْض فى الله.

وأهل الخير إذا جالستهم فأنت على خير؛ لأن النبى ﷺ مثَّل الجليس الصالح بحامل المسك؛ إما أن يُحذيك يعنى: يُعطيك، وإما أن يبيعك، يعنى يبيع لك، وإما أن تجد منه رائحة طيبة.

وكذلك ينبغى أن تطلب منهم أن يَزوروك ويأتوا إليك لما فى مجيئهم إليك من الخير.

۞ ولقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى بداية هذا الباب تلك الآيات التى تحكى زيارة موسى إلى الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأن الله أخبره بأن له عبدًا من عباده قد آتاه الله

رحمة منه وعلَّمه من لَدُنه علمًا فذهب إليه موسى عليه السلام ليزوره وليتعلم على يديه بعض العلوم التى ليست عنده .. مع أن موسى عليه السلام أعلى منه رُتبة ومنزلة لكنه ذهب إليه بكل أدبٍ وتواضع... والقصة مبسوطة كاملة فى سورة الكهف لمن أراد أن يرجع إليها... وقد شرحتها كاملة في كتاب (قصص الأنبياء) لمن أراد الرجوع إليها. .

(٣٦٤) وعَنْ أَنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لِعمرَ رضي الله عنهما بَعدَ وَفاة رسول الله ﷺ: انْطَلِقْ بِنَا إِلى أُمِّ أَيمنَ رضي الله عنها نَزُورُهَا كَما كانَ رسولُ الله ﷺ يزُورُهَا، فلَمَّا انْتَهَيا إِلَيْهَا، بَكَتْ، فَقَالاَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ أَما تَعلَمِينَ أَنَّ ما عِنْدَ الله خيرٌ لرسولِ الله ﷺ؟ فقالت: إِنِّى لا أَبْكى أَنى لا أعلمُ أَنَّ ما عِندَ الله تعالىَ خَيرٌ لرسول الله ﷺ، ولَكنْ أَبْكى أَنَّ الوَحىَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُما على البُكَاءِ، فَجعلا يَبْكِيانِ معهَا[1].

۞ ففى هذا الحديث أن أبا بكر طلب من عمر رضي الله عنهما أن يذهب معه لزيارة أم أيمن حاضنة النبى ﷺ التى كانت ترعى النبى ﷺ فى صغره .. حتى أنه ﷺ لما ماتت أمه كانت معه أم أيمن فقال لها: **«يا أم أيمن أنتِ أمى بعد أمى»** فكان أبو بكر يعرف قدرها ومكانتها فأراد أن يزورها إكرامًا ومحبة للنبى ﷺ لأنه كان يزورها كثيرًا.

فلما ذهبا إليها ورأتهما بكت .. فَقَالاَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ أَما تَعلَمِينَ أَنَّ ما عِنْدَ الله خيرٌ لرسولِ الله ﷺ؟ فقالت: إِنِّى لا أَبْكى أَنى لا أعلمُ أَنَّ ما عِندَ الله تعالىَ خَيرٌ لرسول الله ﷺ، ولَكنْ أبْكى أَنَّ الوَحىَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. **فَهَيَّجَتْهُما على البُكَاءِ، فَجعلا يَبْكِيانِ معهَا.**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٥٤) كتاب فضائل الصحابة.

لقد كانت تبكى لانقطاع الوحى بعد وفاة النبى ﷺ .. فلقد كان الوحى ينزل على النبى ﷺ طوال (٢٣ سنة) فلما مات انقطع الوحى.. ولهذا أكمل الله شريعته قبل أن يُتوفى.. فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]. فجعلا يبكيان؛ لأنها ذكّرتهما بما كانا قد نسياه.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ زِيَارَةُ الصَّالِحِينَ وَفَضْلُهَا وَزِيَارَةُ الصَّالِحِ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ وَزِيَارَةُ الْإِنْسَانِ لِمَنْ كَانَ صَدِيقُهُ يَزُورُهُ وَلِأَهْلِ وُدِّ صَدِيقِهِ.. وَزِيَارَةُ جَمَاعَةٍ مِنَ الرِّجَالِ لِلْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ وَسَمَاعِ كَلَامِهَا وَاسْتِصحَابُ الْعَالِمِ وَالْكَبِيرِ صَاحِبًا لَهُ فِى الزِّيَارَةِ وَالْعِيَادَةِ وَنَحوِهِمَا وَالْبُكَاءُ حُزْنًا عَلَى فِرَاقِ الصَّالِحِينَ وَالْأَصحَابِ وَإِنْ كَانُوا قَدِ انْتَقَلُوا إِلَى أَفْضَلَ مِمَّا كانوا عليه والله أعلم[(١)].

***

(٣٦٥) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فى قَرية أُخْرَى، فَأَرصد الله تعالى على مَدرجَته ملكًا، فَلَمَّا أَتى عَلَيْهِ قال: أَيْن تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ أَخًا لى فى هذِهِ الْقَرْيِة. قال: هَلْ لَكَ عَلَيْه مِنْ نِعمَة تَرُبُّهَا عَلَيْهِ؟ قال: لا، غَيْر أَنِّى أَحبَبْتُهُ فى الله تعالى، قال: فَإِنِّى رسول الله إِلَيْكَ بِأَنَّ الله قَد أَحبَّكَ كَما أَحببْتَهُ فِيهِ»[(٢)].

۞ لقد كان هذا الرجل طيب القلب يحب الناس من حوله ويتمنى لهم الخير... فإذا سمع أن أحد إخوانه قد مرض فإنه يزوره... وإذا علم أنه يحتاج إلى المال أعانه وساعده.

وفى يوم من الأيام تَذكَّر أحد إخوانه فى إحدى البلاد البعيدة.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة والآداب.

يقال: «أَرْصدَه» لِكَذا: إِذَا وكَّلَهُ بِحِفْظِهِ- و «المَدرَجَةُ» بفتحِ الميمِ والراء: الطَّرِيقُ.

ومعنى «تَرُبُّهَا»: تَقُومُ بِهَا، وتَسْعَى فى صَلاحِهَا.

فقد انقطعت عنه أخباره منذ فترة طويلة.

فقرر أن يسافر إليه ليطمئن عليه على الرغم من طول المسافة ومشقة السفر.

خرج هذا الرجل فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة لزيارة أحد إخوانه الذين يحبهم فى الله.. وعندما اقترب من القرية قابله مَلَكٌ فى صورة رجل فقال له المَلَك: إلى أين أنت ذاهب أيها الرجل؟

فقال له: ذاهب لزيارة أحد إخوانى الذين أحبهم فى الله.

قال له المَلَك: هل لك مصلحة تريد أن يقضيها لك..

قال له: لا.. ليس لى مصلحة..

قال له الملك: هل لك دَين تريد أن تأخذه منه..

قال له: لا .. ليس لى دَين عنده..

قال له الملك: إذًا لماذا تريد أن تذهب إليه؟

قال له: إنه صديقى.. وأنا أحبه حبًّا شديدًا.. فقد جئت من قريتى لأطمئن عليه..

قال له الملك: إذًا أبشر أيها الرجل الطيب.. فإن الله يحبك كما تحب أنت صاحبك..

فأنا رسول الله من الملائكة وقد أمرنى ربى أن أخبرك بهذا.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَحَبَّةُ اللهِ عَبْدَهُ هِىَ رَحمَتُهُ لَهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ وَإِرَادَتُهُ لَهُ الْخَيْرَ وَأَنْ يَفْعَلَ بِهِ فِعلَ الْمُحِبِّ مِنَ الْخَيْرِ... وَأَصلُ الْمَحَبَّةِ فِى حَقِّ الْعِبَادِ مَيْلُ الْقَلْبِ وَاللهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ... وفِى هَذَا الْحَدِيثِ فَضْلُ الْمَحَبَّةِ فِى اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِحُبِّ اللهِ تَعَالَى الْعَبْدَ، وَفِيهِ فَضِيلَةُ زِيَارَةِ الصَّالِحِينَ وَالأَصحَابِ، وَفِيهِ أَنَّ الآدَمِيِّينَ قَد يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ[1].

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٨٧).

(٣٦٦) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَار أَخًا لَهُ فى الله، نَادَاهُ مُنَادٍ: بِأَنْ طِبْتَ، وطَابَ ممْشَاكَ، وَتبَوَّأْتَ مِنَ الجنَّةِ مَنْزلاً»(١).

۞ قَوْلُهُ: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا) أَىْ مُحتَسِبًا (أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ) أَىْ فِى الدِّينِ (فِى اللهِ) أَىْ لِوَجْهِ اللهِ لَا لِلدُّنْيَا (ناداه مُنَادٍ) أَىْ مَلَكٌ (أَنْ طِبْتَ) دُعَاءٌ لَهُ بِطِيبِ عَيْشِهِ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَة (وَطَابَ مَمْشَاكَ) قَالَ الطِّيبِىُّ: كِنَايَةٌ عَنْ سَيْرِهِ وَسُلُوكِهِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ بِالتَّخَلِّى عَنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّحَلِّى بِمَكَارِمِهَا (وَتبَوَّأْتَ) أَىْ تَهَيَّأْتَ (مِنَ الْجَنَّةِ) أَىْ: مِنْ مَنَازِلِهَا الْعَالِيَةِ (مَنْزِلًا) أَىْ مَنْزِلَةً عَظِيمَةً وَمَرْتَبَةً جَسِيمَةً بِمَا فَعَلْتَ. فهذا دُعَاءٌ لَهُ بِطِيبِ الْعَيْشِ فِى الدُّنيا والآخرة(٢).

۞ وكل هذا من أجل أن تتآلف قلوب المسلمين وتجتمع على الحب فى الله عَزَّ وَجَلَّ ... فزيارة واحدة إلى مريضٍ أو إلى أخ لك فى الله يدعو لك مَلَكٌ من الملائكة الذين يستجيب الله دعاءهم؛ لأنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ .. فيدعو لك المَلَك بطيب العيش فى الدنيا والآخرة.

وأن تتبوأ منزلًا فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(٣٦٧) وعَنْ أبى موسى الأشعَرىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَن النَّبِىَّ ﷺ قال: «إِنَّما مثَلُ الجليس الصَّالح وَجَليسِ السُّوءِ. كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخ الْكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبةً. ونَافِخُ الكيرِ إِمَّا أن يحرِقَ ثيابَكَ وإِمَّا أَنْ تجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً»(٣).

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٨٧).

(٢) تحفة الأحوذى (٥/ ٤١٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٤) كتاب الذبائح والصيد- ومسلم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة والآداب.

«يُحذيك»: يُعطيك.

۞ هذا إرشادٌ منه ﷺ على اختيار الجليس الصالح، والقُرب منه، وترك جليس السوء، والبُعد عنه ... ولما كان غالب الناس محتاج إلى جليسٍ، ومؤانس له، يأنس بقُربه، ويألف بالاجتماع به، ويُسليه، ويُواسيه، كما قيل:

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة ... يُواسيك أو يُسليك أو يتوجعُ

فإن من اللازم لكل عاقل أن يُحسن اختيار جليسه ورفيقه ... وقد أخبر النبى الكريم ﷺ أن الجليس على نوعين:

أحدهما: أن يكون رجلًا صالحًا يدعو إلى الخير ، ويحبه، ويُحسِّنه لصديقه، ويُرغبه فيه، ويحثه عليه، ويفعله هو بنفسه، فيقتدى به صاحبه، ويتأثر به.

الثانى: أن يكون بعكس ذلك، وهو مَن كانت نفسه خبيثة، تحب السوء، وتميل إليه، ويعجبها ... لا يحب فعل المعروف، ولا يأمر به، ولا يُحسنه لغيره، بل يُنفِّر عنه، ويكون له بطانة سوء، يأمره بالشر، ويُحسنه له، ويحذره من الخير، ويُقبحه له.

فالنبى الكريم والناصح الأمين ﷺ حذرنا غاية التحذير عن هذا وأمثاله، وضرب لنا الأمثال، وشبَّه لنا الجليس الصالح، وجليس السوء بتشبيهٍ بليغ فى معناه، وفى مبناه، يفهمه العالم، والجاهل، والصغير، والكبير ... شبَّهه بشئٍ محسوس، يعرفه كل أحد، وقسَّم الجُلساء إلى قسمين: صالحين، يُستفاد من مجالستهم كل خير، وجلساء سوء يُكسبون جليسهم كل مكروهٍ وشرٍّ ... فمثل النبى ﷺ بهذين المثالين: حامل المسك، ونافخ الكير.

مُبيِّنًا أن الجليس الصالح خيرٌ فى كل أحواله، يُنتفع برائحة المسك الذى عنده، ولو لم يمنحك منه شىء، ولو لم تشترِ منه شيئًا، فإن الرائحة الزكية نفعٌ، وخير تجنيه منه، فتكون منشرح الصدر، مطمئن النفس.

فكذلك الجليس الصالح يدلك على الخير، وينهاك عن الشر، وينصحك

بالمعروف، ويُذكرك به، ويَحثُّك على فعله، والمبادرة إليه ... فيحثك على أداء الصلاة مع جماعة المسلمين، وأداء الزكاة، وحج بيت الله، والبر بالوالدين، وصلة الأرحام، وردِّ الحقوق لأصحابها، وغير ذلك من الطاعات.

والإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه والتأثُّر به، والتخلُّق بأخلاقه؛ لكثرة المجالسة والمخالطة ... والأرواح جُنودٌ مُجنَّدة، فما تَعارف منها ائتلف، وما تَناكر منها اختلف.

وفوائد صحبة الرجل الصالح وأهل الخير كثيرة... ولو لم يكن فيها إلا أنك تُعرَف به، وتكون على منواله في سلوكه، لكان ذلك كافيًا في العناية والاهتمام باختياره... كما ورد في الحديث: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل»، وقد قيل:

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه فكل قرينٍ بالمقارَنِ يقتدي

فهذه بعض فوائد مجالسة الجليس الصالح.

أما جليس السوء فقد حذَّر منه رسول الله ﷺ، وذكر أنه شبيهٌ بنافخ الكير، الذي لا تعدم منه مضرة، إما بناره تحرقك، وإما بكثرة دُخانه، ورائحته المُنتنة ... فما يحصل على المرء من اقتراف السيئات، وتَعاطي المنكرات، والوقوع في الفواحش، بسبب قرين السوء، ومُصاحبة أهل الشر والفساد، أعظم بكثير من إحراق النار، التي تُؤلم في تلك اللحظة، ويزول أثرها بعد ذلك... فإن شؤم الذنوب والمعاصي على صاحبها مستمرة معه، في دُنياه، وفي أُخراه، إلا إذا أيقظه الله، ووفقه للتوبة النَّصوح.

وشبَّه الرسول ﷺ بما يصيب المُجالس لصاحب الكير، ما يصيب الجليس من جليسه، وذلك أن جليس السوء يُشبه صاحبه، ويُدنس عِرضه، فلا يحب الناس مجالسته، ولا يرغبون به، ولا بالاجتماع به ..... فمضرة جليس السوء

تتعدى إلى غيره، وتَحصُل منه العدوى، كما حصلت له من جليسه عليه ... وكم هلك بسبب جليس السوء أقوامٌ كانوا قبل ذلك مستقيمين... وكم قادهم جلساؤهم إلى المهالك، من حيث يشعرون ، ومن حيث لا يشعرون.

وليعلم المرء أن كثرة المجالسة لأهل السوء تُورث محبتهم والرضا بصنيعهم،ثم يُفضى به الأمر إلى التشبُّه بهم، وفعل مثل فعلهم، فيأنس بهم، ويحبهم، ويبغض أهل الخير ويجتنبهم... وقد قال ﷺ: «**المرء مع مَن أحب**».

فعلى المسلم أن يَحذر من مُخالطة أهل السوء، وأن يجتنب مُجالستهم... ومَن ابتُلى بشىءٍ من ذلك، فليعزم على نفسه ، ويقطع الصلة بهم، ويُبادر إلى التوبة، واللحاق بالصالحين، فهم القوم لا يَشقى بهم جليسهم[1].

(٣٦٨) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى قال: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَربعٍ: لِمالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، ولِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[2].

۞ هذا الحديث خرج مَخرج الخبر .. وكأن النبى ﷺ يُخبرنا أن الناس عادة إذا أراد أحدهم أن يتزوج فإنه لا يخرج اختياره عن تلك الخصال الأربع: مالها وحسبها وجمالها ودينها ... وكثيرٌ منهم يجعل الدين آخر شىء يفكر فيه عند اختيار الزوجة.

وبعد أن أخبر النبى ﷺ عن تلك الخصال التى يتم على أساسها اختيار الزوجة ... كأنه يقول لك: وإن أردت اختيارى لك: «فاظفر بذات الدين تَرِبَت يداك».

---

(١) من هدى المصطفى ﷺ (ص ٣٢٧-٣٣٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٦٦) كتاب الرضاع.
ومعناه: أنَّ النَّاس يَقْصِدُونَ فى الْعَادَةِ مِنَ المَرْأَةِ هَذِهِ الخِصَالَ الأَربعَ، فَاحِرص أَنْتَ عَلى ذَاتِ الدِّينِ. وَاظْفَرْ بِهَا، واحِرص عَلى صُحبَتِهَا.

وهنا قدَّم الدِّين على المال والحسب والجمال، لأنها أمور دُنيوية زائلة ولا يبقى لك عند الله إلا دين هذه المرأة.

ولذا قال ﷺ: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»(١).

وقال ﷺ: «**ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة مؤمنة تُعينه على أمر الآخرة**»(٢).

إن جمال المرأة مهما كان لَيُرى سيئًا إذا كانت سيئة الخلق سليطة اللسان.

وإن المرأة مهما كان جمالها مُتدنيًا تُرى حسنة لطيب لسانها وصالح دينها وحُسن عشرتها.

فلهذا نبَّه رسول الله ﷺ على صفات المرأة الصالحة.

فنقول: ليعى هؤلاء الشباب الذين يشترطون لأمور الجمال شروطًا مُعقدة لا تكون موجودة إلا على غلاف بعض المجلات... نقول لهم:

ليس من العيب أن تشترطوا الجمال، ولا هو من المذموم أن تبحثوا عن المرأة الجميلة، لكن إذا تَعارض الجمال والدِّين فماذا تقدم؟

هذه هى المسألة المهمة.

ثم إن الناس لما تركوا غض البصر، ونظروا فى صفحات المجلات، وفى الأفلام والمسلسلات، وفى الأسواق صار لا يعجبهم شىء؛ لأن من سيئات إطالة النظر وعدم غض البصر: عدم القناعة بما هو موجود.

فالرجل عندما ينظر إلى المرأة فى الخِطبة أو إذا تزوجها فإن هذه السلسلة من الصور المتراكمة فى ذهنه مِن جَرَّاء النظر إلى فتيات الغلاف فى المجلات والنساء اللاتى يظهرن فى الأفلام والمسلسلات تُسبب عدم القناعة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٦٧) كتاب الرضاع.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٥٥).

فما أحكم الشارع حينما أمر بغضِّ البصر[١].

فالجمال يزول والمال يفنى والأحساب تتبدل وتتغير ولا يبقى إلا الدين .. فالزوجة ذات الدين هى التى تحفظك فى نفسها وفى مالك وهى التى تُربى لك أولادك على الأخلاق الفاضلة وهى التى تأخذ بيديك إلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.. ومن أجل ذلك: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**».

ولا بد أن تعلم أنه لا مانع من أن تختار زوجة جميلة وحسيبة وغنية.. لكن لا بد أن يكون الأساس الذي تختار من أجله تلك الزوجة هو الدين.

(٣٦٩) **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»، فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾** [مريم: ٦٤][٢].

۞ وهنا يوضح لنا النبى ﷺ كيف يكون حرص المؤمن على زيارة الصالحين له فى بيته ... فها هو ﷺ يطلب من جبريل (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أن يُكثر من زيارته له ﷺ فأخبره جبريل أنه لا ينزل إلا بأمر ربه عَزَّوَجَلَّ .. وكأنه يريد أن يقول: لو كان الأمر بيدى ما فارقتك أبدًا يا رسول الله.

وهنا يُعلمنا النبى ﷺ أن نَطلب من الصالحين أن يزورونا فى بيوتنا لتحلَّ البركة فى بيوتنا بإذن الله... فزيارة الصالحين كلها خير.. فالأخ الصالح يُذكرك بالله ويُعينك على طاعة الله ويأمرك بالمعروف وينهاك عن المنكر ويُشجعك على طلب العلم وحفظ القرآن وغير ذلك.. فلن تعدم خيرًا من زيارته.

---

(١) موسوعة الزواج الإسلامى السعيد/ د. محمود المصري (ص ١٧٧-١٧٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٧٣١) كتاب تفسير القرآن.

(٣٧٠) وعَنْ أبى سعيد الخُدرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبىِّ ﷺ قال: «لا تُصاحبْ إِلَّا مُؤْمِنًا ولا يَأْكُلْ طعَامَكَ إِلَّا تَقِىٌّ»(١).

۞ ففى هذا الحديث ينهى النبى ﷺ المؤمن أن يُصاحب إلا مؤمنًا خالصًا.. وهذا يتضمن النهى عن مصاحبة الكفار والمُنافقين وذلك لأن الإنسان يتطبع بأخلاق مَن يُصاحبهم وذلك لطول الصحبة.

ومن المعلوم أن صحبة المؤمنين كلها خير .. فهم يكونون عونًا لك على أمور دُنياك وآخرتك .. يُشاركونك أفراحك وأحزانك ويَعودوك إذا مرضت ويعطونك إذا افتقرت ويواسونك إذا أُصبت بمصابٍ ويأخذون بيديك إلى جنة الله ورضوانه (جلَّ وعلا).

ومن أجل ذلك جاءت وصية النبى ﷺ لكل مؤمنٍ: «لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقى» وذلك لأن التقى إذا أكل عندك فلن يُفشى أسرار بيتك ولن يسخر من طعامك إذا خرج من عندك... وفوق ذلك فسوف يستعين بذلك الطعام على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ الْخَطَّابِىُّ: هَذَا إِنَّمَا جَاءَ فِى طَعَامِ الدَّعوَةِ دُونَ طَعَامِ الْحَاجَةِ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] وَمَعلُومٌ أَنَّ أَسْرَاهُمْ كَانُوا كُفَّارًا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّمَا حَذَّرَ مِنْ صُحبَةِ مَنْ لَيْسَ بِتَقِىٍّ وَزَجَرَ عَنْ مُخَالَطَتِهِ وَمُؤَاكَلَتِهِ لِأَنَّ الْمَطَاعِمَ تُوقِعُ الْأُلْفَةَ وَالْمَوَدَّةَ فِى الْقُلُوبِ(٢).

۞ وأخيرًا لا بد أن نعلم أن النهى فى المصاحبة يشمل النهى عن مصاحبة أهل الكبائر والفجور؛ لأنهم ارتكبوا ما حرم الله، ومصاحبتهم تضر بالدين ... ويشمل النهى عن مصاحبة الكفار والمنافقين، وكل مَن حادَّ اللهَ ورسوله.

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن حبان، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٤١).

(٢) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٦٧).

۞ وقد ذكر أهل العلم فيمن تُؤْثَر صُحبته خمس خصال[١]:

أن يكون عاقلًا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا... أما العقل: فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير فى صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت ... قال على رضي الله عنه:

فـلا تـصحب أخـا الجهـلِ ... وإيــاك وإيـاهُ
فكـم مـن جاهـلٍ أردى ... حليمًـا حيـن آخـاهُ
يُقـاس المـرءُ بـالمرءِ ... إذا مـا المـرءُ ماشـاهُ
وللـشىء مـن الـشىء ... مقـاييسٌ وأشـباهُ
وللقلـب علـى القلـب ... دليـلٌ حيـن يلقـاهُ

(٣٧١) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكمْ مَنْ يُخَالِلُ»[٢].

۞ قَوْلُهُ: (الرَّجُلُ) يَعنِى الإِنْسَانَ (عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ) أَىْ عَلَى عَادَةِ صَاحِبِهِ وَطَرِيقَتِهِ وَسِيرَتِهِ (فَلْيَنْظُرْ) أَىْ فَلْيَتَأَمَّلْ وَلْيَتَدبَّرْ (مَنْ يُخَالِلْ) مِنَ الْمُخَالَّةِ وَهِىَ الْمُصَادَقَةُ وَالْإِخَاءُ... فَمَنْ رَضِىَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ اتخذه صاحبًا وخليلًا .. ومَن لم يرضَ دينه وخُلقه فلا ... فَإِنَّ الطِّبَاعَ سَرَّاقَةٌ وَالصُّحبَة مُؤَثِّرَةٌ فِى إِصلَاحِ الْحَالِ وَإِفْسَادِهِ.... قَالَ الْغَزَالِىُّ: مُجَالَسَةُ الْحَرِيصِ وَمُخَالَطَتُهُ تُحَرِّكُ الْحِرْصَ وَمُجَالَسَةُ الزَّاهِدِ وَمُخَالَطَتُهُ تُزَهِّدُ فِى الدُّنْيَا لِأَنَّ الطِّبَاعَ مجبولة على التشبه والاقتداء مِنْ حَيْثُ لَا يَدرِى[٣].

(١)نعمة الأخوة / فيصل الحاشدى (١٩، ٢٠).
(٢) حسن:رواه أبو داود، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٤٥).
(٣)تحفة الأحوذى (٦/ ٢٤٦) بتصرف.

۞ ولذلك قالوا قديمًا: قُل لى مَن صاحبك أقول لك مَن أنت .. وكم من مسلمٍ كان تقيًّا فلما صحب أهل الفساد فسد معهم.. وكم من فاسدٍ لما رغب فى صُحبة أهل الصلاح أصبح صالحًا مثلهم .. فاحرص على صُحبة أهل الصلاح فصُحبتهم خيرٌ لك فى دُنياك وآخرتك.

(٣٧٢) وعَنْ أبى موسى الأَشْعَرِىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَن النَّبِىَّ ﷺ قال: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ... وفى رواية قال: قيل للنبى ﷺ: الرجل يحب القوم وَلَمَّا يلحق بهم؟ قال: «المرءُ مَعَ مَنْ أَحبَّ»(١).

(٣٧٣) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَن أَعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قال رسولُ الله ﷺ: «مَا أَعدَدتَ لَهَا؟» قال: حُب الله ورسولِهِ قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحبَبْتَ»(٢).

وفى رواية لهما: مَا أَعدَدتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَوْمٍ، وَلا صَلاةٍ، وَلا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّى أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ.

(٣٧٤) وعَنْ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كَيْفَ تَقُولُ فى رَجُلٍ أحبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»(٣).

۞ وفى الحقيقة أن الأحاديث الثلاثة تدور حول هذا المعنى الجميل «المرء مع مَن أحب».

۞ ولنا هنا وقفة هامة مع حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما ذكر أن أعرابيًّا سأل النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله متى الساعة؟ .. فصرفه النبى ﷺ من المهم إلى الأهم

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٧٠) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٤١) كتاب البر والصلة والآداب.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٨٨) كتاب فضائل الصحابة، (٦١٦٧) كتاب الأدب - ومسلم (٢٦٣٩) كتاب البر والصلة والآداب.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٤٠) كتاب البر والصلة والآداب.

فقال له: «**ما أعددت لها؟**».

ففى هذا الحديث: دليل على أنه ليس الشأن كل الشأن أن يسأل الإنسان متى يموت، أو بأى أرضٍ يموت، ولكن على أى حال يموت، هل يموت على خاتمة حسنة، أو على خاتمة سيئة؟

ولهذا قال: «**ماذا أعددت لها؟**» يعنى لا تسأل عنها فإنها ستأتى.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

لكن الشأن ماذا أعددت لها، هل عملت؟ هل أنبت إلى ربك؟ هل تُبت من ذنبك؟ هذا هو المهم.

فقال له الأعرابى: «ما أعددت لها كثير صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقة» .. فكأنه يريد أن يقول: ما أعددت لها كثير نافلة من صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقة أما الفرائض فقد أديتها... لكنى وإن لم أكن قد اجتهدت فى النوافل إلا أنى أُحب الله ورسوله... فكانت المفاجأة الكبرى التى أذهلت هذا الرجل وأذهلت أنس ابن مالك - راوى الحديث- وأذهلتنا جميعًا ... فقد قال له النبى ﷺ: «**أنت مع مَن أحببت**» ولذا قال أنس رضي الله عنه: فَمَا فَرِحنَا، بَعدَ الإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحبَبْتَ**» قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعمَلْ بِأَعمَالِهِمْ[1].

ونحن - والله - نحب رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وسائر الصحابة والتابعين وكل الصالحين فى كل زمانٍ ومكانٍ ونرجو أن نُحشر معهم وإن لم نعمل بمثل أعمالهم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٩) (١٦٣) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣٧٥) وعَنْ أبى هُريرة رضي الله عنه عن النبىِّ ﷺ قال: «النَّاسُ معَادنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّة، خِيَارُهُمْ فى الجَاهِلِيَّة خِيارُهُمْ فى الإسْلام إِذَا فَقُهُوا. وَالأرْوَاحُ جُنُودٌ مُجنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»(١).

(٣٧٦) وروى البخارى قوله: «الأَرْوَاحُ» إلخ، من رواية عائشة رضي الله عنها(٢).

(٣٧٧) وعَنْ أُسَيْرِ بْنِ عَمْرو ويُقَالُ: ابْنُ جابر قال: كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب رضي الله عنه إذا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدادُ أَهْلِ الْيمنِ سألَهُمْ: أَفيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ رضي الله عنه، فقال له: أَنْتَ أُوَيس بْنُ عامِرٍ؟ قال: نَعَمْ قال: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَن؟ قال: نعَمْ، قال: فكَانَ بِكَ بَرَصٌ، فَبرأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضعَ دِرْهَمٍ؟ قال: نَعَمْ. قال: لَكَ والِدَةٌ؟ قال: نَعَمْ.

قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَأْتِي عليْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مع أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَن كَانَ بِهِ برصٌ، فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضعَ دِرْهَم، لَهُ وَالِدَةٌ هُو بِهَا برٌّ لَوْ أَقْسمَ على الله لأَبَرَّهُ، فَإِن اسْتَطَعتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ» فَاسْتَغْفِرْ لى، فاسْتَغْفَرَ لَهُ.

فقال له عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قال: الْكُوفَة، قال: أَلا أَكْتُبُ لَكَ إِلى عَامِلِهَا؟ قال: أَكُونُ فى غَبْراءِ النَّاسِ أَحبُّ إِلَيَّ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِل حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فوافق عُمر، فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْس، فقال: تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ قَليلَ المتَاع، قال: سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأْتى عَلَيْكُمْ أُوَيسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا موْضِع دِرْهَم، لَهُ والدَةٌ هُو بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَم علَى الله لأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ»، فَأَتَى أُوَيْسًا، فقال: اسْتَغْفِرْ لى قال: أَنْتَ أَحدَثُ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٣٣٦) كتاب أحاديث الأنبياء.

عَهْدًا بِسَفرٍ صالحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لى ، قال لى: لَقِيتَ عُمَرَ؟ قال: نَعَمْ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ، فانْطلقَ عَلى وجهِهِ(١).

وفى رواية لمسلم أَيْضًا عن أُسَيْر بن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَهلَ الكُوفَةِ وَفَدُوا عَلى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفِيهم رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ، فقال عُمَرُ: هَلْ هاهنا أَحَدٌ مِنَ القَرَنِيِّينَ؟ فَجاءَ ذلكَ الرَّجُلُ، فقالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قد قال: «إِنَّ رَجُلاً يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَنِ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ لا يَدَعُ بِاليمَنِ غَيْرَ أُمٍّ لَهُ قَد كَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدعَا الله تعالى، فَأَذْهَبَهُ إِلَّا مَوضِعَ الدِّينارِ أَوِ الدِّرْهَمِ، فَمنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ، فَلْيسْتَغْفِرْ لَكُمْ».

وفى رواية له عَنِ عمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنِّى سمِعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ خَير التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَال لَه: أُوَيْسٌ، وَلَه وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُروه، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ».

۞ يا ترى مَن هو أُويس القرنى رَحِمَهُ اللَّهُ؟

تعالوا بنا لنعرف نبذة يسيرة عنه من خلال هذه السطور.

فى يوم من الأيام كان النبى ﷺ جالسًا بين أصحابه يُعلمهم ويربيهم وإذا به فجأة يقول لأصحابه: **«إن خير التابعين رجلٌ يُقال له أويس وله والدة وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم»**.

وفى رواية: **«يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برٌّ لو أقسم على الله لأبرَّه فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»**.

- ثم استغفر الرسول ﷺ له وأكمل حديثه مع أصحابه.

- وكان أويس القرنى فى هذا الوقت يعيش فى بلاد اليمن مع أمه يخدمها ويرعاها ويحنو عليها وكان يتمنى أن يذهب ليرى النبى ﷺ ويصحبه لكن الذى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٤٢) كتاب فضائل الصحابة.
قوله: «غَبْراءِ النَّاس». وهم فُقَرَاؤهُم وصَعَاليكُهُمْ وَمَنْ لا يُعرف عَيْنُه مِنْ أَخلاطِهِمْ.
«وَالأَمْدَاد» جَمْع مَددٍ وَهُم الأعوان وَالنَّاصِرُونَ الَّذِينَ كَانُوا يُمِدُّونَ المُسْلِمِينَ فى الجِهَاد.

منعه من ذلك برُّه بأمه؛ لأنها لم يكن عندها أحدٌ يخدمها غيره... فلما بلغ به البر لهذه الدرجة أكرمه الله بأن أرسل جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ ليخبره بفضل أويس القرنى ومن ثَمَّ يخبر النبى ﷺ أصحابه وأمته بفضل هذا الرجل الزاهد العابد.

ولقد كان أويس القرنى عابدًا زاهدًا سخيًّا كريمًا رغم فقره الشديد.

- عن أصبغ بن زيد قال: كان أويس إذا أمسى يقول: هذه ليلة الركوع، فيركع حتى يُصبح، وكان إذا أمسى يقول: هذه ليلة السجود فيسجد حتى يصبح وكان إذا أمسى تصدق بما فى بيته من الفضل من الطعام والشراب. ثم قال: اللهم مَن مات جوعًا فلا تؤاخذنى به، ومَن مات عُريانًا فلا تؤاخذنى به(١).

- وعن مغيرة قال: إن كان أويس القرنى ليتصدق بثيابه، حتى يجلس عُريانًا لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة(٢).

لم ينسَ أصحاب النبى ﷺ ما قاله النبى ﷺ فى حق أويس فكانوا يسألون عنه كل مَن أتى من أهل اليمن.

وبعد سنوات طويلة.... وفى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عمر يسأل كل مَن يأتى من اليمن عن أويس القرنى... إلى أن عثر عليه... كيف حدث ذلك؟

فتعالوا بنا لنرى ما الذى حدث بين عمر بن الخطاب وأويس القرنى.

عن أُسير بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟

قال عمر: فقدم علينا رجل فقلت له: من أين أنت؟ قال: من اليمن قلت: ما اسمك؟ قال: أويس، قلت: فمَن تركت باليمن؟ قال: أُمًّا لى. قلت: أكان بك بياض، فدعوت الله فأذهبه عنك؟ قال: نعم. قلت: فاستغفر لى. قال: أَوَ يستغفر

(١) الحلية (٢/ ٨٧).

(٢) الحلية (٢/ ٨٤).

مثلي لمثلك يا أمير المؤمنين؟! قال: فاستغفر لي وقلت له: أنت أخي لا تفارقني. قال: فانملس مني(١).

وحين انفلت من عمر بن الخطاب قاصدًا الكوفة قال عمر بن الخطاب: مكانك يرحمك الله حتى أدخل مكة فآتيك بنفقة من عطائي، وفضل كسوة من ثيابي... ثم أكَّد عمر قائلاً: انتظر هنا يا أويس، هذا المكان ميعادٌ بيني وبينك.

فقال أويس: يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك لا أراك بعد اليوم تعرفني، ما أصنع يا أمير المؤمنين بالنفقة؟ وما أصنع بالكسوة، أما ترى عليَّ إزارًا من صوف، ورداءً من صوف متى تراني أمزقهما، أما ترى أن نعلي مخصوفتان؟ متى تراني أبليهما؟ أما تراني قد أخذت من أجر رعايتي الغنم أربعة دراهم متى تراني أنفقها؟.

يا أمير المؤمنين إن بين يدي ويديك عقبة كؤودًا لا يجاوزها إلا ضامرٌ مُخفٌّ مهزول!! فأخِفَّ يرحمك الله.

وفي الكوفة كان مجلسه مجلس الزُّهَّاد، فهو سيد الزهاد وشيخهم.

زاهدُ الدنيا لعزة نفسه واعتزازه بالآخرة في نفسه وفي يقينه أنها دارُ القرار، وأنها دار الحق(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: (**فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ**) وَفِي الرواية الْأُخْرَى قَالَ لِعُمَرَ: «**فَإِنْ اسْتَطَعتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**» هَذِهِ مَنْقَبَةٌ ظَاهِرَةٌ لِأُوَيْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَفِيهِ اسْتِحبَابُ طَلَبِ الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَإِنْ كَانَ الطَّالِبُ أَفْضَلَ مِنْهُمْ... قَوْلُهُ ﷺ (**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ إِلَى آخِرِهِ**) هَذَا صَرِيحٌ فِي

(١) انملس: أفلت.

(٢) بتصرف من كتاب (قصص التابعين)/ د. محمود المصري.

أَنَّهُ خَيْرُ التَّابِعِينَ وَقد يُقالُ: قد قَالَ أَحمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغيْرُهُ: أَفضَلُ التَّابِعِينَ سَعِيدُ ابْنُ الْمُسَيَّبِ... وَالْجَوَابُ أَنَّ مُرَادَهُمْ أَنَّ سَعِيدًا أَفْضَلَ فِى الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ كَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَنَحوهَا لَا فِي الْخَيْرِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى[١].

(٣٧٨) وعَنْ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ في العُمْرَةِ، فَأَذِنَ لى، وقال: «لا تَنْسَنَا يا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ» فقال كَلِمَةً مَا يسُرُّنى أَنَّ لى بِهَا الدُّنْيَا[٢].

وفى رواية قال: «أَشْرِكْنَا يَا أُخَيَّ فى دُعَائِكَ».

۞ للأمانة العلمية .. فهذا الحديث ضعيف لم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(٣٧٩) وعَنْ ابن عُمَر رضي الله عنهما قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُور قُبَاءَ رَاكِبًا وَماشيًا، فَيُصلِّى فِيهِ رَكْعَتْين[٣].

وفى رواية: كان النَّبِيُّ ﷺ يَأْتى مَسْجِدَ قُبَاءَ كُلَّ سبت رَاكِبًا وَمَاشِيًا وكَانَ ابْنُ عَمَرَ يَفْعَلُهُ.

۞ أما مسجد قُباء فهو المسجد المعروف وهو قريب من المدينة المنورة من عواليها .. وهو أول مسجد بناه النبى ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة.

وقد أخبر النبى ﷺ أن الصلاة فيه تعدل أجر عُمرة.

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن تطهَّر فى بيته ثم أتى مسجد قُباء فصلَّى فيه صلاة؛ كان له كأجر عمرة»**[٤].

وعن عامر بن سعد وعائشة بنت سعد أنهما سمعا أباهما رضي الله عنه يقول: «لأن

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٤٢).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٢٧٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١١٩٣، ١١٩٤) كتاب الجمعة، ومسلم (١٣٩٩) كتاب الحج.

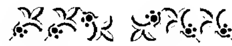
(٤) صحيح: رواه ابن ماجه، وأحمد، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٥٤).

أصلى فى مسجد قُباء أحب إلىَّ من أن أصلى فى مسجد بيت المقدس»[١].

۞ وهنا فى هذا الحديث يذكر ابن عمر أن النبى ﷺ كان يزور قُباء راكبًا وماشيًا فيُصلى فيه ركعتين.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَفَضْلِ مَسْجِدِهِ وَالصَّلَاةِ فِيهِ وَفَضِيلَةِ زِيَارَتِهِ وَأَنَّهُ تَجُوزُ زِيَارَتُهُ رَاكِبًا وَمَاشِيًا... وَهَكَذَا جَمِيعُ الْمَوَاضِعِ الْفَاضِلَةِ تَجُوزُ زِيَارَتُهَا رَاكِبًا وَمَاشِيًا وَفِيهِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ تَكُونَ صَلَاةُ النَّفْلِ بِالنَّهَارِ رَكْعَتَيْنِ كَصَلَاةِ اللَّيْلِ وَهُوَ مَذْهَبُنَا وَمَذْهَبُ الْجُمْهُورِ[٢].



(١) رواه الحاكم، وقال: إسناده صحيح على شرطهما، وقال الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١١٨٣): صحيح موقوف.

(٢) مسلم بشرح النووى (٩/ ٢٤٣).



(٤٦) باب فضل الحب في الله والحث عليه وإعلام الرجل مَن يحبه أنه يحبه وماذا يقول له إذا أعلمه

۞ الحب فى الله هو روح الوجود، وإكسير القلوب، وصمام الأمن لبنى الإنسان.

إذا كان قانون الجاذبية يُمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم فتتساقط أو تحترق وتزول، فقانون الحب هو الذى يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتحترق وتستحيل إلى دماء.

هذا هو الحب الذى عرف الناس قيمته فى القديم والحديث، وقالوا: لو ساد الحب ما احتاج الناس إلى العدل ولا إلى القانون.

۞ **وقديمًا قال شاعر كبير:**

«إن الحب يُحول المُرَّ حلوًا والتراب تبرًا، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذى يُلين الحديد، ويُذيب الحجر».

«إن هذا الحب هو الجناح الذى يطير به الإنسان المادى الثقيل فى الأجواء ويصل من الأرض إلى السماء ومن الثرى إلى الثريا»[(١)].

إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل الحب فى الله والبغض فى الله أوثق عُرى الإيمان.

قال ﷺ: «**أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ: الْمُوَالاَةُ فِى اللهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِى اللهِ، وَالْحُبُّ فِى اللهِ، وَالْبُغْضُ فِى اللهِ عَزَّوَجَلَّ**»[(٢)].

---

(١) الإيمان والحياة (ص ١٦٧ - ١٦٨).

(٢) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٣٩).

إن الإيمان لا يكمل إلا بصدقِ هذه العاطفة، وإخلاص هذه الرابطة: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»(١).

وقد جعل رسول الله ﷺ المفاضلة بين الأخوين المُتحابين، بمدى حبّ كل منهما لأخيه... فقال ﷺ: «**مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي اللهِ إِلَّا كَانَ أفضلهما أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ**»(٢).

ولكى يكون مجتمع المسلمين متعاونًا على البر، وغارسًا لمعانى الخير، فقد وردت أحاديث كثيرة تَحُثُّ على إعلام الأخ الذى له فى نفسك منزلة خاصة، ومحبة متميزة - فوق الأخوة العامة لجميع المؤمنين - بأنك تحبه، ومن ذلك قوله ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ، فَلْيَأْتِهِ فِي مَنْزِلِهِ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ لِلَّهِ**»(٣).

وزاد فى رواية: «**فإِنَّهُ أَبْقَى فِي الْأُلْفَةِ وأَثْبَتُ فِي المَودَّةِ**»(٤).

ومن الصور المُفجِّرة لمعانى الحب تبادل العلاقات الأخوية، والإكثار من الصلات الودية، من نوع ما عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**تَصَافَحُوا يَذْهَبِ الْغِلُّ. وَتَهَادَوْا تَحَابُّوا، وَتَذْهَبِ الشَّحنَاءُ**»(٥)، وكم تُذيب الهدية من رواسب الحقد! وكم يمحو البدء بالسلام من وَحَر الصدور! حيث لا تكون المصافحة مجرد تَلامُس للأكف، ولا إلقاء السلام مجرد ألفاظ تتحرك بها الشفاه، وإنَّما حيث يكون السلام بمعناه الأوسع والأعم، الذى يؤهلنا لدخول الجنة، ويحقق المحبة بيننا، وذلك ما عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا**

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والضياء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٩٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والضياء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨١).

(٤) حسن: رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخوان، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٠).

(٥) رواه مالك فى الموطأ، وقال ابن عبد البر: هذا يتصل من وجوه شتَّى حسان كلها.

فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»(١).

ومما يُعبّر عن صدق الأُخوة وحقيقة الأُلفة: ما تُقدمه لأخيك من دعواتٍ صالحات، حيث لا يسمعك ولا يراك، وحيث لا شبهة للرياء أو المُداهنة، كما في قوله ﷺ: «**دَعوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ**»(٢).

يقول الإمام النووي: «وكان بعض السَّلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المُسلم بتلكَ الدَّعوة؛ لأنَّهَا تُستجَاب ويحصل له مثلها»(٣)(٤).

وليس هذا فحسب، بل إن المحبة من أجل الله تُوجب محبة الله للعبد.

قال تعالى: «**حُقَّت محبتي للمتحابين فيَّ، وحُقت محبتي للمتواصلين فيَّ**»(٥).

۞ بل يصبح من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

فقد قال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**: - وذكر منهم - **ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»(٦).

ويستمر عقد الأخوة هذا إلى الآخرة؛ حيث لا يرى بعض أهل الجنة إخوانهم الذين كانوا معهم في الدنيا، فيسألون ربهم عَزَّوَجَلَّ عنهم.

وقد صوَّر النبي ﷺ ذلك الموقف بقوله: «**فَمَا مُجَادَلَةُ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَشَدَّ مِنْ مُجَادَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أُدخِلُوا النَّارَ، قَالَ: يَقُولُونَ: رَبَّنَا، إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا،**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٣) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) شرح أحاديث حق المسلم برواية البخاري ومسلم وأبي داود، والترمذي، والنسائي، (جامع الأصول ٦/ ٥٢٧ برقم (٤٧٣٣).

(٤) هذه أخلاقنا / الشيخ محمود الخزندار (١٦٢-١٦٨) بتصرف شديد.

(٥) صحيح: رواه أحمد والطبراني والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٠) كتاب الأذان، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

وَيَحُجُّونَ مَعَنَا، فَأَدخَلْتَهُمُ النَّارَ، قَالَ: فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَأَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ مِنْهُمْ...»[١]، فيُخرجونهم، ثم يأذن لهم فيُخرجون مَن كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان .... إن أُخوة لها هذا المقام عند الله، وإنَّ محبة لها ذلك الفضل فى الدنيا والآخرة، لحرية بالحرص عليها، والوفاء بحقوقها، والاستزادة منها: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

❊ ❊ ❊

❁ قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله بالثناء العاطر، وشهد لرسوله بصدق الرسالة فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أى هذا الرسول الكريم المُسمَّى محمداً هو رسولُ الله حقـًا لا كما يقول المشركون: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أى وأصحابه الأبرار الأخيار غلاظٌ على الكفار متراحمون فيما بينهم كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] قال أبو السعود: أى يُظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم فى الدين الرحمة والرأفة[٢]... قال المفسرون: وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٣٩) كتاب التوحيد، ومسلم (١٨٣) كتاب الإيمان.

(٢) أبو السعود (٥/ ٨٦).

من ثيابهم أن تمسَّ أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه فى الدين صافحه وعانقه ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ أى تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم.. رهبانٌ بالليل أسودٌ بالنهار ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أى يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه... قال ابن كثير: وصفهم بكثرة الصلاة وهى خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ورضاه(١).

﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أى علامتهم وسمتُهم كائنة فى جباههم من كثرة السجود والصلاة... قال القرطبى: لاحت فى وجوههم علامات التهجد بالليل وأمارات السهر.... قال ابن جُريج: هو الوقار والبهاء... وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع... قال منصور سألت مجاهدًا عن قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم ﴾ أهو أثرٌ يكون بين عينى الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عينى الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلبًا من الحجارة، ولكنه نورٌ فى وجوههم من الخشوع(٢) ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أى ذلك وصفهم فى التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ أى ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج فراخه وفروعه ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ أى فقوَّاه حتى صار غليظًا ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أى فقام الزرع واستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أى يعجب هذا الزرع الزُّرَّاع، بقوته وكثافته وحُسن منظره، ليغتاظ بهم الكفار.

وقال القرطبى: وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبى ﷺ يعنى أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبى ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفًا، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوى أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا فيقوى

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٥).
(٢) تفسير القرطبى (١٦/ ٢٩٥).

حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته، وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي وعدهم تعالى في الآخرة بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم في جنات النعيم... اللهم ارزقنا محبتهم يا رب العالمين[1].

❁ وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

لقد مدح الله تعالى الأنصار وبيَّن فضلهم وشرفهم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي والذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وآمنوا قبل كثيرٍ من المهاجرين وهم الأنصار.... قال القرطبي: أي تبوءوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه، والتبوء: التمكُّن والاستقرار، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم[2] ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسونهم بأموالهم... قال الخازن: وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم، وأشركوهم في أموالهم[3] ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ أي ولا يجد الأنصار حزازةً وغيظاً وحسدًا مما أُعطى المهاجرون من الغنيمة دونهم...

قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يُعطِ الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة منهم، فطابت أنفُس الأنصار بتلك القسمة ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي يُفضلون غيرهم بالمال على

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٢١١-٢١٢).
(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠).
(٣) تفسير الخازن (٤/ ٦٢).

أنفسهم ولـو كـانوا فى غاية الحاجة والفاقة إليه، فإيثارهم ليس عـن غِنَى عن المال، ولكنـه عـن حاجـة وفقـر، وذلـك غايـة الإيثـار ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أى ومَـن حمـاه الله وسَـلِمَ مـن البُخـل فقـد أفلـح ونجح... والشُّحُّ هو البخل الشديد مع الجشع والطمع، وهو غريزة فى النفس ولذلك أُضيف إليها... قال ابن عمر: ليس الشُّح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشُّحُّ أن تطمع عينه فيما ليس له[1].

وفى الحديث: «**واتقوا الشُّحَّ فإنه أهلك مَن كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»[2][3].

(٣٨٠) وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْه مِمَّا سِواهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لله، وَأَنْ يَكْرَه أَنْ يَعُودَ فى الكُفْرِ بَعدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فى النَّارِ»[4].

۞ «**ثلاث مَنْ كُنَّ فيه**» يعنى مَن اتصف بهن «**وجد بهن حلاوة الإيمان**» أى: وجد بسببهن حلاوة الإيمان .. وإذا كانت حلاوة الطعام يجدها المؤمن فى فمه وعلى لسانه فإن حلاوة الإيمان يجدها المؤمن فى قلبه .. وهى حلاوة لا توازيها الدنيا بما فيها وما عليها .. ولا يعرف قدرها إلا مَن ذاق حلاوتها فى قلبه.

۞ «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**» وهنا قال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولم يَقُل: ثم رسوله؛ لأن محبة الرسول عليه الصلاة والسلام هنا تابعة لمحبة الله سبحانه وتعالى.

(١) حاشية الصاوى (٤/ ١٩٠).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة.
(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٣٣٢).
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١٦)، (٢١) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٣) كتاب الإيمان.

فالإنسان يُحب الرسول بقدر ما يحب الله... كلما كان لله أحب، كان للرسول ﷺ أحبّ.

لكن مع الأسف أن بعض الناس يحبّ الرسول ﷺ مع الله ولا يحب الرسول لله.

فالشاهد أنك إذا أردت أن تجد حلاوة الإيمان فى قلبك فلا بد أن تكون محبة الله ورسوله ﷺ فى قلبك لا توازيها أى محبة مهما كانت ... ولا بد أن تغلب هذه المحبة كل محبة بحيث تكون أصلًا لكل المحاب وتكون كل محبة غيرها فرعًا عنها.. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

۞ ولهذه المحبة ثمرات ونتائج عديدة، منها:

(١) أن لا يحب المؤمن إلا الصالحين من الناس: لأنهم أهل محبة الله تعالى.

(٢) أن يحب المؤمن الأعمال الصالحة: من أعمال الخير والبر والطاعات؛ لأنها محبوبة لله، ولأنها هى التى تُعينه على تحصيل محبة الله تعالى.

(٣) أن يُبغض المؤمن كل ما يبغضه الله تعالى: من الكفار والمنافقين، والعُصاة، والأعمال الخبيثة وغير ذلك؛ لأن الله تعالى يبغض كل ذلك، ويكرهه، ويكره أهله، ولأن مَن أحب شيئًا؛ كان هواه دائرًا مع رضا محبوبه.

(٤) المسارعة إلى أداء الفرائض؛ لأنها مأمورٌ بها من الله تعالى: وعدم التقاعس عنها، ثم الاستزادة من النوافل، والاستكثار منها؛ لأن كل ذلك مُعين على محبة الله تعالى... كما فى الحديث القدسى أن الله تعالى قال: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا....**»[1].

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٥) اجتناب المعاصي، وكل ما يغضب الله تعالى: لأن كل ذلك مكروه عند الله عز وجل.... والمحب حقيقة لا يمكنه أن يعصي محبوبه.

(٦) الحرص على اتباع النبي ﷺ: ولزوم سُنته، وعدم هجرها؛ لأن ذلك برهان على صدق محبة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ، ومُعين على تحصيلها... كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

(٧) كثرة ذكر الله تعالى: وذلك لأن مَن أحب شيئًا وازدادت محبته له أكثَر من ذكره، ولم يَغِب محبوبه عن باله لحظة.

۞ وأما محبة النبي ﷺ.. فلا بد أن نعلم أن محبة الحبيب المصطفى ﷺ أصلٌ عظيم من أصول الإيمان.. وإذا استقرت شجرة المحبة الصادقة في القلب آتت أُكلها كل حين وأثمرت كل أنواع الاتباع والاقتفاء للمحبوب ﷺ.

وحقيقة المحبة «أن يميل قلب المسلم إلى رسول الله ﷺ ميلاً يتجلى فيه إيثاره ﷺ على كل محبوب من نفسٍ ووالدٍ وولدٍ والناس أجمعين». وذلك لما خَصَّه الله تعالى من كريم الخصال وعظيم الشمائل، وما أجراه الله على يديه من صنوف الخير والبركات لأمته وما امتنَّ الله على العباد ببعثته ورسالته إلى غير ذلك من الأسباب الموجبة لمحبته عقلاً وشرعًا»(١).

قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٢).

۞ «وأن يحب المرء لا يُحبه إلا لله» تحب أخاك المسلم.. لا من أجل قرابة ولا مال ولا دنيا ولا جاه وإنما تحبه لله (جلَّ وعلا) .. أما محبة القرابة

---

(١) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع/ عبد الرؤوف محمد عثمان (ص: ٤٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٤) كتاب الإيمان.

والأرحام فهذه محبة طبيعية.

لكن إذا كان قريبك من عباد الله الصالحين فأحببته فوق المحبة الطبيعية فأنت أحببته لله.

۞ «وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف فى النار».

وهذه ظاهرة جدًّا فيمن كان كافرًا ثم أنعم الله عليه بنعمة الإسلام وذاق حلاوة الإيمان .. فلو خيرته بين أن يكفر مرة أخرى أو يُقتل لاختار أن يُقتل بلا تردُّد...

ولعل قصة سحرة فرعون خير دليلٍ على ذلك.. فإنهم كانوا قبل أن يؤمنوا يُقسمون بعزة فرعون ويكفرون بالله عَزَّوَجَلَّ.. فلما قذف الله نعمة الإيمان والتوحيد فى قلوبهم وسجدوا لله عَزَّوَجَلَّ هددهم فرعون وقال لهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [طه: ٧١]، أى: فو الله لأقطعن الأيدى والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى أو بالعكس ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أى: لأُعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنَّكم شر قتلة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أى: ولتعلمن أيها السحرة مَن هو أشدُّ منا عذابًا وأدوم، هل أنا أم رب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذى صدقتم به وآمنتم ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أى قال السحرة: لن نختارك ونفضلك على الهدى والإيمان الذى جاءنا من الله على يد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولو كان فى ذلك هلاكنا ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قسمٌ بالله أى: مقسمين بالله الذى خلقنا ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أى: فاصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أى: إنما ينفُذ أمرك فى هذه الحياة الدنيا وهى فانية زائلة ورغبتنا فى النعيم الخالد.

لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة فلذلك قالوا ما قالوا:

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ أى: آمنا بالله ليغفر الذنوب التى اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصى ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ أى: ويغفر لنا السحر الذى عملناه لإطفاء نور الله ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (١).

أرأيتم كيف أنهم آثروا أن يُعذَّبوا ويُقتلوا عن أن يتركوا دينهم ويعودوا إلى الكفر مرة أخرى.

وهكذا يجب أن يكون المؤمن ثابتًا على عقيدته وإيمانه وتوحيده.. لا تُزعزه الفتن ولا تُؤثر فيه المحن والابتلاءات لأنه يعلم أن الدنيا كلها إلى زوال وأنه راحلٌ إلى الله... وسيقف بين يديه ليُحاسبه على كل صغيرة وكبيرة.. فما أجمل أن يَلقى المؤمن ربه عَزَّوَجَلَّ وهو ثابتٌ على إيمانه وتوحيده.

❊ ❊ ❊

(٣٨١) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم الله فى ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إمامٌ عادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فى عبَادَة الله عَزَّوَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ، ورَجُلان تَحَابَّا فى الله اجْتَمَعَا عَلَيْه، وَتَفرَّقَا عَلَيْه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقال: إِنِّى أَخافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَة، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضتْ عَيْنَاهُ»(٢).

(٣٨٢) وعَنْه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقولُ يَوْمَ الْقِيَامِة: أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلالِى؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فى ظِلِّى يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّى»(٣).

۞ عندما يكون الناس فى الموقف العظيم تحت وهج الشمس القاسى، يذوقون من البلاء شيئًا تنوء بحمله الجبال الشُّمّ الراسيات ... يكون فريق من

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٢٣٨-٢٤٠) بتصرف.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠) كتاب الأذان، (١٤٢٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٦) كتاب البر والصلة والآداب.

الأخيار هائنين فى ظل عرش الرحمن، لا يعانون الكربات التى يقاسى منها الآخرون.

وهؤلاء هم أصحاب الهمم العالية، والعزائم الصادقة، الذين تَمثَّلت فيهم عقيدة الإسلام، وقيمه الفاضلة، أو قاموا بأعمالٍ جليلة، لها فى مقياس الإسلام وزنٌ كبير.

فمن هؤلاء: الإمام العادل، الذى يملك القوة والسلطان، ولكنه لم يَطغَ، وأقام العدل بين العباد وفق سلطان الشرع الإلهى.

ومنهم الشاب الذى نشأ فى عبادة ربه، وألجم نفسه بلجام التقوى، وردع النفس والهوى، فعاش عمره طاهرًا نقيًّا.

ومنهم الذين يعمرون مساجد الله، يجدون فى رحابها الأُنس بالله ومناجاته، فلا يكادون يفارقونها حتى يَحِنُّوا إلى رحابها.

ومن هؤلاء: المتحابون فى الله ﷻ، تجمعهم رابطة الأخوة فيه، ويجتمعون على البر والتقوى والصلاح، ويتفرقون على عملٍ صالح.

ومنهم الذين تعرض لهم فتنة النساء، فيَحُول خوف الله بينهم وبين الوقوع فى الفاحشة.

ومنهم المُنفق الذى يُخلص فى دينه لله، فيُخفى الصدقة حتى عن نفسه.

ومنهم الذى تملأ مخافة الله قلبه، فتفيض عيناه من أجل ذلك وهو وحيدٌ ليس معه أحد(١).

والإظلال فى ظل عرش الرحمن ليس مقصورًا على السبعة المذكورين فى الحديث بل لقد أخبر النبى ﷺ عن غيرهم أنهم يكونون فى ظل عرش الرحمن (جل وعلا).

---

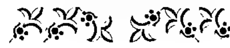
(١) القيامة الكبرى. د/ عمر الأشقر (ص ١٤٩، ١٥٠).



قال ﷺ: « إِنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ لِجَلاَلِي؟ الْيَوْمَ أَظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي. يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي »(١).

وقال ﷺ: « مَنْ أَنْظَرَ مُعسِرًا، أَوْ وَضَعَ لَهُ، أَظَلَّهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ تَحتَ ظِلِّ عَرشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ »(٢).

وقال ﷺ: « مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ -أَوْ مَحَا عَنْهُ- كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).



(٣٨٣) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا تَدخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بينكم»(٤).

۞ ففى هذا دليل على أن المحبة من كمال الإيمان، وأنه لا يَكمُل إيمان العبد حتى يحب أخاه، وأن من أسباب المحبة أن يُفشى الإنسان السلام بين إخوانه، أى يُظهره ويُعلنه، ويُسلم على مَن لقيه من المؤمنين، سواء عرفه أو لم يعرفه، فإن هذا من أسباب المحبة، ولذلك إذا مَرَّ بك رجل وسلم عليك أحببته، وإذا أعرض؛ كرهته ولو كان أقرب الناس إليك.

فالذى يجب على الإنسان؛ أن يسعى لكل سبب يُوجد المودة والمحبة بين المسلمين؛ لأنه ليس من المعقول ولا من العادة أن يتعاون الإنسان مع شخص لا يحبه، ولا يمكن التعاون على الخير والتعاون على البر والتقوى إلا بالمحبة، ولهذا كانت المحبة فى الله من كمال الإيمان(٥).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٦) كتاب البر والصلة.

(٢) رواه أحمد والترمذى عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٠٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٥) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٣٩).

(٣٨٤) وعَنْه عن النبى ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَار أَخًا لَهُ فى قَرْيةٍ أُخْرَى، فَأَرصَد الله لَهُ عَلَى مَدرَجتِهِ مَلَكًا» وذكر الحديث إلى قوله: «إن الله قَد أَحَبَّكَ كَمَا أَحببْتَهُ فِيهِ»(١).

ﷺسبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٦٥) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(٣٨٥) وعَنْ البَرَاء بْنِ عَازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النَّبِىِّ ﷺ أَنه قال فى الأَنْصَار: «لا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤمِنٌ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أحبَّه الله، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ الله»(٢).

وفى رواية: عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»(٣).

ﷺ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وَمَعنَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَرْتَبَةَ الْأَنْصَارِ وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِى نُصرَةِ دِينِ الْإِسْلَام وَالسَّعيِ فِى إِظْهَارِهِ وَإِيوَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَقِيَامِهِمْ فِى مُهِمَّاتِ دِينِ الْإِسْلَامِ حَقَّ الْقِيَامِ وَحُبِّهِمُ النَّبِىَّ ﷺ وَحُبِّهِ إِيَّاهُمْ وَبَذْلِهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقِتَالِهِمْ وَمُعَادَاتِهِمْ سَائِرَ النَّاسِ إِيثَارًا لِلْإِسْلَامِ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ صِحَّةِ إِيمَانِهِ وَصِدقِهِ فِى إِسْلَامِهِ لِسُرُورِهِ بِظُهُورِ الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامِ بِمَا يُرْضِى اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ كَانَ بِضِدِّ ذَلِكَ وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى نِفَاقِهِ وَفَسَادِ سَرِيرَتِهِ وَاللهُ أَعلَمُ(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٨٣) كتاب المناقب، ومسلم (٧٥) كتاب الإيمان.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٦) (١٣٠) كتاب الإيمان.
(٤) مسلم بشرح النووى (٢/ ٨٥-٨٦) بتصرف.

(٣٨٦) وعَنْ مُعَاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: المُتَحَابُّونَ فى جَلالى، لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاء»(١).

۞ «**المُتَحَابُّونَ فى جَلالى**» أى: لأجل إجلالى وتعظيمى .. لهم مكانة عالية عند ربهم فى الجنة كما أخبر النبى ﷺ حيث قال: «**لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ**».

وعلى قدر صدقهم فى محبتهم لبعضهم البعض ابتغاء مرضاة الله تكون درجة الأنوار فى تلك المنابر التى هى من النور .. لكن كما تختلف درجات الإيمان ودرجات الإخلاص وصدق المحبة تختلف الأنوار.. فكلما كنت صادقًا فى محبتك لأخيك كلما كانت أنوارك على الصراط أعظم وأنوارك فى تلك المنابر أكبر.

۞ قوله: «**يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاء**» .. الغبطة هي تمنِّي مثلما عند الغير من الخير دون تمنِّي زوال ما عند الغير.

فَمَعنَى الْحَدِيثِ: يَسْتَحسِنُ أَحوَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ.

وَقَالَ الْقَاضِى: كُلُّ مَا يَتَحَلَّى بِهِ الْإِنْسَانُ أَوْ يَتَعَاطَاهُ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ صَاحِبُهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ مَا هُوَ أَرْفَعُ قَدرًا وَأَعَزُّ ذُخْرًا فَيَغْبِطُهُ بِأَنْ يَتَمَنَّى وَيُحِبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مثل ذلك مفهومًا إلى ما له مِنَ الْمَرَاتِبِ الرَّفِيعَةِ أَوِ الْمَنَازِلِ الشَّرِيفَةِ وَذَلِكَ مَعنَى قَوْلِهِ: يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ... فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدِ اسْتَغْرَقُوا فِيمَا هُوَ أَعلَى مِنْ ذَلِكَ مِنْ دَعوَةِ الْخَلْقِ وَإِظْهَارِ الْحَقِّ وَإِعلَاءِ الدِّينِ وَإِرشَادِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّيَّاتٍ أَشْغَلَتْهُمْ عَنِ الْعُكُوفِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْجُزْئِيَّاتِ وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا... وَالشُّهَدَاءُ وَإِنْ نَالُوا رُتْبَةَ الشَّهَادَةِ وَفَازُوا بِالْفَوْزِ الْأَكْبَرِ فَلَعَلَّهُمْ لَنْ يُعَامَلُوا مَعَ اللهِ مُعَامَلَةَ هَؤُلَاءِ فَإِذَا رَأَوْهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى مَنَازِلِهِمْ وَشَاهَدُوا قُرْبَهُمْ وَكَرَامَتَهُمْ عِنْدَ

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١٢).

اللهِ وَدُّوا لَوْ كَانُوا ضَامِّينَ خِصَالَهُمْ فَيَكُونُونَ جَامِعِينَ بَيْنَ الْحَسَنَتَيْنِ وَفَائِزِينَ بِالْمَرْتَبَتَيْنِ... وَقِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَقْصِد فِي ذَلِكَ إِلَى إِثْبَاتِ الْغِبْطَةِ لَهُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ بَلْ بَيَانِ فَضْلِهِمْ وَعُلُوِّ شَأْنِهِمْ وَارْتِفَاعِ مَكَانِهِمْ وَتَقْرِيرِهَا عَلَى آكَدِ وَجْهٍ وَأَبْلَغِهِ.

وَالْمَعنَى أَنَّ حَالَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَثَابَةِ لَوْ غَبطَ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَئِذٍ مَعَ جَلَالَةِ قَدرِهِمْ وَنَبَاهَةِ أَمْرِهِمْ حَالَ غَيْرِهِمْ لَغَبَطُوهُمْ(١).

(٣٨٧) وعَنْ أبي إدريس الخولانيِّ رَحِمَهُ اللهُ قال: دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ، فَإِذَا فَتىً بَرَّاقُ الثَّنَايَا وَإِذَا النَّاسُ مَعهُ، فَإِذَا اخْتَلَفُوا في شَيءٍ، أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِه، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فقيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، هَجَّرْتُ، فَوَجَدتُهُ قَد سَبَقَنِي بِالتَّهْجِير، ووَجَدتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صلاتَهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ: والله إِنِّي لأُحبُّكَ لله، فَقَالَ: آلله؟ فَقُلْتُ: أَلله، فقال: آلله؟ فَقُلْتُ: أَلله، فَأَخَذَني بِحَبْوَةِ رِدائي، فَجَبذَني إِلَيْه، فَقَال: أَبْشِرْ، فَإِنِّي سَمِعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قالَ الله تَعالى: وَجَبَتْ مَحبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتَجالِسينَ فيَّ، وَالمُتَزَاوِرِينَ فيَّ، وَالمُتَباذِلِينَ فيَّ»(٢).

(٣٨٨) عَنْ أبي كَريمةَ المِقْدَاد بن مَعدِ يكَرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ، فَلْيُخْبِرْه أَنَّهُ يُحِبُّهُ»(٣).

(٣٨٩) وعَنْ مُعاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أَخَذَ بِيَدِهِ وقال: «يَا مُعاذُ والله، إِنِّي لأُحبُّكَ، ثُمَّ أُوصِيكَ يَا مُعاذُ لا تَدَعنَّ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُم أَعِنِّي على ذِكْرِكَ

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير ومالك وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣١).
قَوْلُهُ: «هَجَّرْتُ» أَيْ بَكَّرْتُ، وهُوَ بتشديد الجيم قوله: «آلله فَقُلْتُ: اللهِ» الأَوَّلُ بهمزةٍ ممدودةٍ للاستفهامِ، والثاني بِلا مَدٍّ.

(٣) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٢٧٩).

وَشُكْرِكَ، وحُسنِ عِبَادِتك»[١].

(٣٩٠) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَجُلاً كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ رجلٌ بِـهِ، فَقَـال: يا رسول الله إِنِّي لأُحِبُّ هَذا، فقال له النبيُّ ﷺ: «أَأَعلَمْتَهُ؟» قَـالَ: لا.. قـالَ: «أَعلِمْهُ» فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ في الله، فقال: أَحَبَّكَ الله الَّذِي أَحببْتَنِي لَهُ[٢].

۞ ونلاحظ هنا أن مدار تلك الأحاديث كلها على إخبار مَن تُحبه بأنك تحبه في الله.

فمن السُّنة أنك إذا أحببت أخاك في الله أن تذهب إليه وتخبره بأنك تحبه ... وما أجمل تلك اللحظات الجميلة حينما يأتي إليك أحد إخوانك وقد ارتسمت البسمة الحانية على وجهه الوضيء وهو يقول لك: والله إني أحبك في الله .... ما أجملها من كلمة تملأ القلوب بهجة وسعادة وسرورًا... وبخاصة حين تعلم أن المحبة التي ملأت قلبك تجاه أخيك ستكون سببًا في فوزك بمحبة فاطر السماوات والأرض الذي قال في الحديث القدسي: «**وَجَبَتْ مَحبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ**» ... الله أكبر... هل هناك منحة في الدنيا كلها أعظم من أن تفوز بمحبة الخالق (جل وعلا).. الذي إذا أحبك جعل محبتك في قلوب أهل السماوات والأرض وفوق ذلك يقول (جل وعلا) عن ثمرة محبته لعبده ووليه الصالح: «**فَإِذَا أَحبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**».

۞ وهنا أغتنم تلك المناسبة الجميلة عند شرح تلك الأحاديث التي تَحُثُّ المسلم على أن يُخبر أخاه أنه يحبه.. فأقول لكم جميعًا صدقًا من قلبي: والله إني أحبكم في الله.. وأسأل الله أن يجمعني بكم بهذا الحب في ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

(٢) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٥٣) وصحيح سنن أبي داود (٤٢٧٤).

(٤٧) باب علامات حب الله تعالى للعبد والحث على التخلُّق بها والسعي في تحصيلها

۞ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها.

فقال ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: ادَّعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التى ليس فوقها رتبة فلا يكفى فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها.. وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ فى جميع أحواله: فى أقواله وأفعاله، فى أصول الدين وفروعه، فى الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دَلَّ ذلك على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورَحِمَه وسدَّده فى جميع حركاته وسكناته، ومَن لم يتبع الرسول فليس مُحبًّا لله تعالى، لأن محبته لله تُوجب له اتباع رسوله، فما لم يُوجد ذلك دَلَّ على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها... وبهذه الآية يُوزَن جميع الخلق... فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

۞ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

يخبر تعالى أنه الغنى عن العالمين، وأنه مَن يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه. وأن لله عبادًا مخلصين، ورجالًا صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافًا، وأقواهم

نفوسًا، وأحسنهم أخلاقًا... أجلُّ صفاتهم أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فإن محبة الله للعبد هى أجلُّ نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضَّل الله بها عليه.

وإذا أحب الله عبدًا يسَّر له الأسباب، وهوَّن عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، فى أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

كما أن من لوازم محبة الله للعبد، أن يُكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره... فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جدًّا، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها.

ومَن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبدًا قَبِلَ منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونُصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقُرب الشيء الذى يطلب منهم.... وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله - أعزة، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على مُعاداتهم، وبذلوا جهدهم فى كل سبب يحصل به الانتصار عليهم.

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ بل يُقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين.

ولما مدحهم تعالى بما مَنَّ به عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية،

المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يُعجَبوا بأنفسهم، وليشكروا الذى مَنَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرُهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ أى: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمَّت رحمته كل شىء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه[1].

(٣٩١) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قال: مَنْ عادَى لى وليًّا، فقد آذَنْتُهُ بالحَرب، ومَا تَقَرَّبَ إلىَّ عَبْدِى بِشَىءٍ أَحَبَّ إلىَّ ممَّا افْتَرَضتُه عَلَيْهِ، وما يَزَالُ عَبْدِى يتقرَّب إِلىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإذَا أَحبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتى يَمْشِى بِها، وإِنْ سَأَلَنى لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٩٦) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(٣٩٢) وعَنْه عن النبى ﷺ، قال: «إِذَا أَحَبَّ الله تعالى العَبْدَ، نَادَى جِبْرِيل: إِنَّ الله تعالى يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جبْرِيلُ، فيُنَادى فى أَهْلِ السَّمَاء: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوْضَعُ له القَبُولُ فى الأَرْضِ»[3].

---

(١) تفسير السعدى (ص ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

معنى «آذَنْتُهُ»: أَعلَمْتُهُ بِأَنّى مُحارِبٌ له- وقوله: «اسْتَعَاذَنى» روى بالباءِ وروى بالنون.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، (٧٤٨٥) كتاب التوحيد- ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة.

وفى رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله تعالى إِذَا أَحبَّ عبْدًا دَعا جبْريلَ، فقال: إِنِّى أُحِبُّ فُلانًا فَأَحبِبْهُ، فَيُحبُّهُ جبْريلُ، ثُمَّ يُنَادِى فى السَّماءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبُّوهُ فَيُحبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ فى الأَرْضِ، وإذا أَبْغَضَ عَبدًا دَعا جِبْريلَ، فَيقولُ: إِنِّى أَبْغِضُ فُلانًا، فَأَبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْريلُ، ثُمَّ يُنَادِى فى أَهْلِ السَّماءِ: إِنَّ الله يُبْغِضُ فُلانًا، فَأَبْغِضُوهُ، فَيُبغِضُهُ أَهْلُ السَّماءِ ثُمَّ تُوضَعُ له البَغْضاءُ فى الأَرْضِ».

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قال العلماء: مَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ هِيَ إِرَادَتُهُ الْخَيْرَ لَهُ وَهِدَايَتُهُ وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِ وَرَحمَتُهُ وَبُغْضُهُ إِرَادَةَ عِقَابِهِ أَوْ شَقَاوَتِهِ وَنَحوِهِ وَحُبُّ جِبْرِيلَ وَالْمَلَائِكَةِ يُحتَمَلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا اسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ وَثَنَاؤُهُمْ عَلَيْهِ وَدُعَاؤُهُمْ وَالثَّانِي أَنَّ مَحَبَّتَهُمْ عَلَى ظَاهِرِهَا الْمَعرُوفِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَهُوَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ وَاشْتِيَاقُهُ إِلَى لِقَائِهِ... وَسَبَبُ حُبِّهِمْ إِيَّاهُ كَوْنُهُ مُطِيعًا لِلَّهِ تَعَالَى مَحبُوبًا لَهُ... وَمَعَنَى يُوضَعُ لَهُ الْقبُولُ فِي الْأَرضِ أَيِ الْحُبُّ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَرِضَاهُمْ عَنْهُ فَتَمِيلُ إِلَيْهِ الْقُلُوبِ وَتَرْضَى عَنْهُ... وَقَد جَاءَ فِي رِوَايَةٍ فَتُوضَعُ لَهُ الْمَحَبَّةُ[(١)].

ويا لها من كرامة حينما تعلم أن الله إذا أحبك فإنه يأمر جبريل بأمرٍ عظيم ثم يقوم جبريل بمهمة جليلة... أما الأمر: فإنه عَزَّ وَجَلَّ يأمر جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يحبك! الله أكبر.. هل تخيلت هذا مرة واحدة فى حياتك؟ الله فاطر السماوات يحبك - وحسبُك بهذا الحب- ومع ذلك فالله يأمر جبريل أن يحبك.. فيحبك جبريل ثم ينادى فى ملائكة السماوات السبع قائلًا: إن الله يحب فلانًا فأحبوه.. ويصدع باسمك فى السماوات السبع فتسمع كل الملائكة اسمك ويعرفوك بل ويحبوك.. فهل تريد شيئًا فوق ذلك؟ .. الله يحبك....وجبريل يحبك وملائكة

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٨٢-٢٨٣).
أقول: بل نُثبت لله عَزَّ وَجَلَّ صفة المحبة بدون تأويل وأنها صفة حقيقية لا تُماثل صفات المخلوقين.. فهو تعالى يحب مَن يشاء من خلقه ويُبغض مَن يشاء.

السماوات السبع يحبوك .. ومع كل هذا يُوضع لك القبول فى الأرض حتى تجتمع لك محبة أهل السماء ومحبة أهل الأرض.. لكن بشرط أن يحبك الله عَزَّوَجَلَّ.... ولن يحبك الله إلا إذا كانت حياتك كلها في طاعته والتحاكم إلى شرعه واتباع رسوله ﷺ.

(٣٩٣) وعَنْ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أَن رسول الله ﷺ، بعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ، فَكَانَ يَقْرأُ لأصحابِهِ فى صلاتِهِمْ، فَيخْتِمُ بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَلَمَّا رَجعُوا، ذَكَروا ذلك لرسولِ الله ﷺ، فقال: «سَلُوهُ لأىِّ شَىءٍ يَصنَعُ ذلكَ؟» فَسَأَلوه، فَقَالَ: لأَنَّهَا صِفَة الرَّحمَنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فقال رسول الله ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ الله تعالى يُحبُّهُ»(١).

۞ لقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل سور الإخلاص وحسبُك أن اسمها سورة الإخلاص.

عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبىِّ ﷺ، قَالَ: «أَيَعجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِى لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ تَعدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(٢).

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّى أُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: «إِنَّ حُبَّهَا أَدخلَكَ الْجَنَّةَ»(٣).

قَالَ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ»(٤).

۞ وفى هذا الحديث الذى نشرحه يحكى الراوى أن النبى ﷺ أرسل رجلًا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٧٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٨١٣) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨١١) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٤٨٤) وأصله فى الصحيحين.

(٤) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٢).

على رأس سرية يعنى: كان أميرًا عليهم، فكان يصلى بهم فيقرأ بآيات ثم يختم بـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فأنكروا عليه وقالوا: إما أن تقرأ بها وحدها وإما أن تقرأ بغيرها، لماذا تعمل هذا الشيء؟! فشكوه إلى النبى ﷺ... والنبى ﷺ لم يكن يفعل ذلك، ولكن الرجل من شدة حبه لهذه السورة كان يفعل ذلك! فلما سأله النبى ﷺ قال: (لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله تعالى يحبه).

فهذا الصحابى طغى حبه لهذه السورة على غيرها ... وغيره يحب القرآن كله، وينتفع بكل ما فى القرآن، ولكن هذا أحب صفة الله المذكورة فى هذه السورة؛... فالله عَزَّوَجَلَّ أحبه لحبه لسورة واحدة، فكيف بمن أحب القرآن كله؟ لا شك أنه أعظم وأعظم من هذا.

هذا تأمل فى سورة واحدة فيها صفات للرحمن سبحانه تبارك وتعالى... وربنا سبحانه وتعالى أمرنا بأن نتدبر القرآن فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤].

فإذا كان الإنسان الآن يعمل مثل هذا الصحابى فنقول: اعمل مثل النبى ﷺ. واتبعه فهو أولَى من اتباعك لهذا الصحابى.. فالنبى ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا .. احرص على أن تتدبر القرآن كله..

تدبَّر سورة الفاتحة.. وكيف أنك حين تقرؤها تخاطب الله عَزَّوَجَلَّ كما جاء فى الحديث : «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى نِصفَيْنِ، وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِى عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِى عَبْدِى - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَىَّ عَبْدِى - فَإِذَا**

قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

فالفاتحة فيها صفات الله سبحانه وتعالى: الله.. الرحمن.. الرحيم.. مالك يوم الدين.. وإذا تأملت ستجد مثل ذلك فى القرآن كله.

فالمؤمن عليه أن يتبع النبى ﷺ ويحب كتاب الله، ويحب سنة النبى ﷺ، ويرجو حب الله.

وحب الله غاية عظيمة يدركها الإنسان بفضل الله سبحانه.

فإن كنت تريد أن تفوز بمحبة الله فاعمل لذلك وأخلص النية لله وأحسن الظن بالله وسوف تفوز بها (بإذن الله) فإذا فُزت بمحبة الله عَزَّوَجَلَّ فقد فُزت بخيرى الدنيا والآخرة.. فسوف ينادى الله عَزَّوَجَلَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ويخبره بأنه يحبك ثم يأمره بأن يحبك.. فيحبك جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم ينادى فى ملائكة السماوات السبع ليحبوك.. فيحبوك ثم يوضع لك القبول فى الأرض.. وفوق ذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى: «... فَإِذَا أَحبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ».

فلذلك يتقرب المؤمن إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويرجو حب الله ويرجو أن يكون الله سبحانه تبارك وتعالى معه فى قيامه وفى قعوده وفى نومه وفى سجوده.. فى كل وقتٍ يرجو أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ معه، فلذلك يعمل لذلك.

ومستحيل أن يتقرب العبد إلى الله ويرجو وجه الله فيُبعده الله سبحانه وتعالى، ..فالله الكريم يعطى على إحسان العبد إحسانًا وزيادة على ذلك

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٩٥) كتاب الصلاة.

الحسنى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]، فاعمل لله سبحانه وارجُ فضل الله سبحانه الذى لا يبخل به على أحدٍ أبدًا،... وفضل الله عظيم.

قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَجَعَلَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ**»(١).

قَالَ الْمَازِرِيُّ: قِيلَ: مَعنَاهُ: أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلاثَةِ أنحاء: قصص وأحكام وصفات لله تعالى و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ متمحضة لِلصِّفَاتِ فَهِيَ ثُلُثٌ وَجُزْءٌ مِنْ ثَلاثَةِ أَجْزَاءٍ... وَقِيلَ مَعنَاهُ أَنَّ ثَوَابَ قِرَاءَتِهَا يُضَاعَفُ بِقَدرِ ثَوَابِ قِرَاءَةِ ثُلُثِ الْقُرْآنِ بِغَيْرِ تَضْعِيفٍ(٢).

۞ وفى هذا الحديث الذى نشرحه تخبر أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ بعث رجلًا أميرًا على سرية فكان هو الإمام الذى يصلى بأصحابه.. فكان يفعل شيئًا جعل أصحابه يتعجبون.. لقد كان يقرأ فى الصلاة الجهرية ثم يختم قراءته فى كل ركعة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.. فلما رجعوا ذهبوا إلى النبي ﷺ وذكروا له ذلك فقال النبي ﷺ: «**سَلُوهُ لأيِّ شَيءٍ يَصنَعُ ذلكَ؟**».. فلما ذهبوا إليه وسألوه. قال: لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها.. فقال له ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ الله تعالى يُحبُّهُ**» من أين أتى النبى ﷺ بهذا الكلام؟

جاءه فى التو واللحظة بالوحى من السماء... فقد نزل جبريل عليه السلام ليخبر النبى ﷺ بهذا الخبر فى تلك اللحظة... فيا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بما فيها وما عليها.

قَالَ ابن دَقِيقِ الْعِيدِ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يقْرَأ بغيْرِهَا ثمَّ يَقْرَأها فِي كُلِّ رَكْعَةٍ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ... وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَخْتِمُ بِهَا آخِرَ قِرَاءَتِهِ فَيَخْتَصُّ

(١) صحيح: رواه مسلم (٨١١) (٢٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ١٣٧-١٣٨).

بِالرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ... وَعَلَى الْأَوَّلِ فَيُؤْخَذُ مِنْهُ جَوَازُ الْجَمْعِ بَيْنَ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ.

قَوْلُهُ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحمَنِ قَالَ ابن التِّينِ: إِنَّمَا قَالَ إِنَّهَا صِفَةُ الرَّحمَنِ لِأَنَّ فِيهَا أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَاؤُهُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ صِفَاتِهِ... وَقَالَ غَيْرُهُ: يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الصَّحَابِيُّ الْمَذْكُورُ قَالَ ذَلِكَ مُسْتَنِدًا لِشَيْءٍ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِمَّا بِطَرِيقِ النُّصُوصِيَّةِ وَإِمَّا بِطَرِيقِ الاسْتِنْبَاطِ وَقَدْ أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كتاب الْأَسْمَاء وَالصِّفَات بِسَنَد حسن عَن ابن عَبَّاسٍ أَنَّ الْيَهُودِ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي تعبُدُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ هَذِهِ صِفَةُ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ... وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعبٍ قَالَ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ.

قَوْلُهُ: «أَخْبِرُوهُ أَن الله يُحِبهُ» قَالَ ابن دَقِيقِ الْعِيدِ: يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ مَحَبَّةِ اللهِ لَهُ مَحَبَّتَهُ لِهَذِهِ السُّورَةِ وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ كَلَامُهُ لِأَنَّ مَحَبَّتَهُ لِذِكرِ صِفَاتِ الرَّبِّ دَالَّةٌ عَلَى صِحَّةِ اعتِقَادِهِ[1].

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٦٨-٣٧٠) بتصرف كبير.

(٤٨) باب التحذير من إيذاء الصالحين والضعفة والمساكين

۞ قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩، ١٠].

وأما الأحاديثُ، فكثيرة منها.

حديث أبى هريرة رضي الله عنه فى الباب قبل هذا: «مَنْ عَادَى لى وَلِيًّا فَقَد آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ».

ومنها حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه السابق فى باب ملاطفة اليَتيمِ وقوله ﷺ: «يَا أَبا بَكْرٍ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُم، لَقَد أَغْضَبْتَ رَبَّكَ».

۞ ولنقف هنا وقفة مع قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ أى يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جنايةٍ واستحقاق للأذى ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

أى فقد حمَّلوا أنفسهم البُهتان والكذب، والزور، والذنب الواضح الجلى.

قال القرطبى: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيَّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حَقٍّ أبدًا، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ما يكون بحقٍّ ومنه ما لا يكون بحقٍّ[(١)].

۞ وتعالوا بنا لنقف الوقفة الثانية مع قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ أى: لا تسئ معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٤٣٩).

ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يُصنع بولدك من بعدك.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام يقتضي رَدَّه عن مطلوبه، بنَهْرٍ وشراسة خُلقٍ، بل أعطه ما تيسَّر عندك أو رُدَّه بمعروفٍ وإحسان.

وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنُّن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكرامًا لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية ﴿فَحَدِّثْ ۝١١﴾ أي: أثنِ على الله بها، وخُصَّها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

وإلا فحدِّث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدُّث بنعمة الله، داعٍ لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى مَن أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن[1].

۞ ثم أشار المؤلف إلى أحاديث تدل على التحذير من أذية المؤمنين، ومنها ما سبق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الله قال: «**مَن عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**» فالذي يُعادي أحدًا من أولياء الله فإن الله تعالى يُعلن عليه الحرب، ومَن كان حربًا لله تعالى فهو خاسر بلا شك.

قال أهل العلم: وأنواع الأذى كثيرة، منها أن يؤذي جاره، ومنها أن يؤذي صاحبه، ومنها أن يُؤذي مَن كان معه في عمل من الأعمال - وإن لم يكن بينهم صداقة - بالمضايقة وما أشبه ذلك، وكل هذا حرام.. والواجب على المسلم الحذر منه.

۞ وقال **الربيع بن خثيم** رحمه الله: (الناس رجلان: مؤمن فلا تُؤذه، وجاهلٌ فلا تجاهله)[2].

---

(١) تفسير السعدي (ص١٠٩٥).

(٢) آداب العشرة (١٥).

۞ وَمِنْ كَلَامِ يَحيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ: لِيَكُنْ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنْكَ ثَلَاثَةً: إِنْ لَمْ تَنْفَعهُ فَلَا تَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ تُفْرِحهُ فَلَا تَغُمَّهُ، وَإِنْ لَمْ تَمْدَحهُ فَلَا تَذُمَّهُ.

۞ قَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: اجْعَلْ كَبِيرَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَكَ أَبًا، وَصَغِيرَهُمُ ابْنًا، وَأَوْسَطُهُمْ أَخًا، فَأَيُّ أُولَئِكَ تُحِبُّ أَنْ تُسِيءَ إِلَيْهِ؟[١]

۞ وأضرار الأذى كثيرة.. فمنها:

(١) الإيذاء سبب في سخط الله عَزَّوَجَلَّ على العبد.

(٢) المؤذي يمقته الله، ويمقته النّاس.

(٣) يعيش في المجتمع منبوذًا فريدًا، يخاف النّاس أذاه، فيكرهون مخالطته ومصاحبته.

(٤) إذا كثر المؤذون في المجتمع وسكت النّاس عنهم فسدت أحواله وآل إلى الزّوال.

(٥) يسبّب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

(٦) دليل سوء الأخلاق وانحطاط النّفس وخُبثها[٢].

(٣٩٤) وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصُّبْحِ، فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكُبُّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»[٣].

۞ وهذا حديثٌ آخر عظيم يبين فضل الله عَزَّوَجَلَّ على عباده المؤمنين المحافظين على الصلوات...وأن الذي يصلي له من الله عَزَّوَجَلَّ المعونة والخير والبركة.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢٩٤).

(٢) نضرة النعيم (٩/ ٣٨٢٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٥٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

۞ ففى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ**».. ومن المعلوم أن (مَن) من ألفاظ العموم.. أى مَن صلى الصبح سواء كان رجلًا أو امرأة فى المسجد إلا إذا كان معذورًا فيصليها فى البيت فى وقتها.. مع العلم أن المرأة لا يلزمها صلاة الجماعة بل الأفضل لها أن تصليها فى بيتها.. لكن لو أحبَّت أن تذهب مع مَحرمٍ لها إلى صلاة الصبح «**فلا تمنعوا إماء الله مساجد الله**».

۞ إذًا .. «**مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فهُوَ فى ذِمَّةِ الله**» أى: فى عهد الله وأمانه وضمانه.. أى له الضمان والعهد عند الله أن يدافع عنه وأن ينتصر له وينتقم له ممن ظلمه... فاحذر أن تظلم أحدًا يحافظ على صلاة الفجر، وإذا ظلمته فإن الله كيده متين يُملى للظالم... ولا تغتر بأنك تصلى الفجر؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينتصر للمظلوم من ظالمه وإن كان الظَّالم يصلى الفجر.

يقول ﷺ فى رواية أخرى فى صحيح مسلم: «فلا يطلبنَّكم الله من ذمته بشىء؛ فإنه مَن يطلبه الله من ذمته بشىءٍ يُدركه، ثم يَكُبه على وجهه فى النار».

إن الظالم -وخاصة الذى يظلم مَن يصلى الفجر- يُملى الله له إلى أن يأخذه، فإذا أخذه لم يُفلته، بل يجعله عِبرة للخلق... هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فيكبه الله فى النار، أى: يُدخله نار جهنم.

۞ فعلى الإنسان المسلم أن يكون من المصلين الذين تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر وتدفعهم إلى فعل الخيرات والتحلِّى بأجمل الأخلاقيات .. أما أن يصلى ثم يذهب فيظلم الخلق ويأكل حقوقهم ويخوض فى أعراضهم ويأكل الحرام ويأخذ الرشوة فهذا ليس المصلى الذى ذكر النبى ﷺ أنه فى ذمة الله..

وصلاته ليست التى ذكرها الله فى قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ لأنه لا بد أن يظهر أثر هذه الصلاة على فعل العبد ... وذلك بأن يُتقن عمله ويُحسن إلى الخلق، ويفعل الخير، ويمتنع من الشر، ويجتنب الفواحش والمعاصى.

(٤٩) باب إجراء أحكام الناس على الظاهر وسرائرهم إلى الله تعالى

۞ قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

۞ جعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنوان هذا الباب: باب إجراء أحكام الناس على الظاهر وسرائرهم إلى الله تعالى...

فالمسلم لم يُؤمَر بأن يُنقب عما فى صدور الآخرين.. وإنما ينبغى عليه أن يعاملهم بما يظهر له منهم ويَكِل سرائرهم إلى الله تعالى.

ولذلك كان النبى ﷺ -وهو المُؤيَّد بالوحى من السماء- لا يتعامل إلا مع ما يظهر له من الناس.. وكان ﷺ يعلم أسماء المنافقين الذين حوله بعدما أعلمه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأسمائهم ومع ذلك لم يقتل واحدًا منهم.. بل حتى لما ظهر له عداوة رأس المنافقين عبد الله بن أُبى بن سَلول واستأذن أحد الصحابة من النبى ﷺ فى أن يقتل هذا المنافق رفض النبى ﷺ وقال: لا.. حتى لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه.

۞ فالشاهد أن العبرة فى الدنيا بما فى الظواهر.. كاللسان والجوارح.. والعبرة فى الآخرة بما فى السرائر بالقلب.

۞ فنحن فى الدنيا نحكم على الناس بما يظهر لنا من جوارحهم وبما تتكلم به ألسنتهم.. أما فى الآخرة ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذى يعلم السرَّ وأخفى ويعلم ما تُكنه الصدور وسوف يحاسب عباده على كل ما فى قلوبهم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

۞ فينبغى علينا أن نتعامل مع الناس بما يظهر لنا منهم ولا نفتش عما فى

قلوبهم.. وفى نفس الوقت علينا أن نُصلح نوايانا ونحرص على طهارة قلوبنا لأن القلب فى الدنيا محل النية وفى الآخرة محل الحساب... والله لا ينظر إلى أجسادنا ولا إلى أموالنا ولا إلى صورنا وإنما ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.

فاحرص يا أخى على طهارة قلبك قبل طهارة جوارحك ...فكَم من إنسانٍ يُصلى، ويصوم، ويتصدق، ويحج، لكن قلبه فاسد.

وهاهم الخوارج حدّث عنهم النبى عليه الصلاة والسلام، أنهم يصلون، ويصومون، ويتصدقون، ويقرءُون القرآن، ويقومون الليل، ويبكون، ويتهجدون، ويَحقر الصحابى صلاته عند صلاتهم، لكن قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**لا يُجاوز إيمانهم حناجرهم**» لا يدخل الإيمان قلوبهم.

مع أنهم صالحو الظواهر، لكن ما نفعهم، فلا تغتر بصلاح جوارحك، وانظر قبل كل شىء إلى قلبك... أسأل الله أن يُصلح قلبى وقلوبكم، فإن أهم شىء هو القلب.

رُفع رجل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام قد شرب الخمر، فجلده، ثم رُفع إليه مرة أخرى فجلده، فسبَّه رجلٌ من الصحابة، وقال: لعنه الله، ما أكثر ما يُؤتَى به إلى الرسول (عليه الصلاة والسلام).

فقال له الرسول ﷺ: «**لا تلعنه؛ فإنه يُحب الله ورسوله**» فالأصل فيه أنه مسلم، وفى قلبه محبة الله ورسوله، ولكن غلبته نفسه على المعصية .... فالأصل هو القلب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة: ٤١].

أما فى الدنيا بالنسبة لنا مع غيرنا، فالواجب إجراء الناس على ظواهرهم؛ لأننا لا نعلم الغيب، ولا نعلم ما فى القلوب، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وقد

قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**إنما أقضى بنحو ما أسمع**»(١).

ولسنا مُكلفين بأن نبحث عما فى قلوب الناس، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. يعنى المشركين إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة؛ فخلوا سبيلهم ... وأَمْرُهم إلى الله، إن الله غفور رحيم(٢).

***

(٣٩٥) **وعَنْ ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رسولَ الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، ويُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤتوا الزَّكاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلكَ، عَصمُوا مِنِّى دِماءَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلامِ، وحِسابُهُمْ عَلى الله تعالى»**(٣).

(٣٩٦) **وعَنْ أبى عبد الله طَارِقِ بن أَشْيَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قال لا إِلهَ إِلَّا الله، وَكَفَرَ بِما يُعبَدُ مِنْ دُونِ الله، حَرُمَ مالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسابُهُ على الله تعالى»**(٤).

۞ وبذلك يكون العمل بالظواهر؛... فإذا شهد إنسان أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، عُصم دمه وماله، وحسابه على الله؛ فليس لنا إلا الظاهر.

۞ **قال الشيخ صالح آل الشيخ:**

هذا الحديث - حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أن رسول الله ﷺ قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة**

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٩٦٧) كتاب الحيل، (٧١٦٩) كتاب الأحكام.
(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٤٥) بتصرف.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.
(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٣) كتاب الإيمان.

ويؤتوا الزكاة».... قوله: **«أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا»** يعني: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وما يلزم عنها من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة... هذه لا بد من مطالبة الناس بها جميعًا، المؤمن والكافر.

وللناس جميعا أُرْسِلَ إليهم المصطفى - عليه الصلاة والسلام -، وأُمِرَ أن يقاتلهم بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وبقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩]. فأمر الله عَزَّوَجَلَّ بالقتال حتى تُلْتَزم الشريعة ... وهذا لا يعنى أنه يُبْتَدأ بالقتال؛ بل هذا يكون بعد البيان، وبعد الإنذار، فقد كان - عليه الصلاة والسلام - لا يغزو قومًا حتى يؤذنهم، يعنى: حتى يأتيهم البلاغ بالدين.

فقد أرسل (عليه الصلاة والسلام) الرسائل المعروفة إلى عظماء أهل البلاد فيما حوله، يبلغهم دين الله عَزَّوَجَلَّ ، ويأمرهم بالإسلام، أو فالقتال، وهذا ذائع مشهور.... إذًا فقوله - عليه الصلاة والسلام -: **«أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا»** يعنى: بعد البيان والإعذار، فهو يقاتلهم حتى يلتزموا بالدين، وهل هذا يعنى أنه هو الخيار الوحيد؟ الجواب: هذا فى حق المشركين؛ ولهذا حمل طائفة من أهل العلم أن الناس هنا هم المشركون الذين لا تُقْبَل منهم الجزية، ولا يُقَرون على الشرك ... أما أهل الكتاب، فإنهم مُخيَّرون بين ثلاثة أشياء: إمَّا أن يُسلموا، فتُعصَم دماؤهم وأموالهم، وإما أن يُقَاتَلُوا حتى يظهر دين الله، وإما أن يرضوا بدفع الجزية، وهى ضريبة على كل رأس، فيبقوا رعايا فى دولة الإسلام، ويُسمون أهل الذمة.

❁ **قال الإمام النووى:**

قوله ﷺ : **«فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم»** فإن قيل: فالصوم

من أركان الإسلام، وكذلك الحج، ولم يذكرهما، فجوابه: أن الصوم لا يُقاتَل الإنسان عليه، بل يُحبَس ويُمنَع من الطعام والشراب... والحج على التراخي فلا يُقاتَل عليه، وإنما ذكر رسول الله ﷺ هذه الثلاثة؛ لأنه يُقاتَل على تركها ولهذا لم يذكر الصوم والحج لمعاذ حين بعثه إلى اليمن، بل ذكر هذه الثلاثة خاصة.

وقوله ﷺ: «**إلا بحق الإسلام**» فمن حق الإسلام فعل الواجبات، فمن ترك الواجبات جاز قتاله كالبُغاة، وقُطاع الطريق، والصائل[1] ومانع الزكاة.

قوله ﷺ: «**وحسابهم على الله**» يعني: مَن أتى بالشهادتين وأقام الصلاة وآتى الزكاة عصم دمه وماله، ثم إن كان فعل ذلك بنية خالصة صالحة فهو مؤمن، وإن كان فعله تقية وخوفًا من السيف -كالمنافق- فحسابه على الله وهو المتولى السرائر.

وكذلك مَن صلى بغير وضوء أو غسل جنابة أو أكل في بيته وادَّعى أنه صائم يقبل منه، وحسابه على الله عَزَّوَجَلَّ - والله أعلم[2].

۞ وهناك وقفة أخرى مع حديث: «أُمرت أن أقاتل الناس»:

يدَّعى منكرو السُّنة النبوية أن حديث: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[3] يدَّعُون أن هذا الحديث يتعارض مع الآيات القرآنية التى تفيد حرية الإنسان الدينية، والتى منها:

---

(١) الصائل: المعتدى.

(٢) شرح الأربعين النووية (١٠٨-١١١) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

وقوله سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله سبحانه: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]، وغير ذلك من الآيات التى فى هذا الموضوع.

وهم - منكرو السنة - إذ يدَّعُون أن هذا الحديث يتعارض مع هذه الآيات فإنهم يُرتبون على ذلك أنه حديث موضوع!! على الرغم من أنه فى البخارى ومسلم. ويزيدون بأن القول به إنما هو تَطرُّف وإرهاب.

وأقول لهم: إن هذا الحديث لا يتعارض مُطلَقًا مع أى آية من القرآن الكريم، وإنما يتفق مع الآيات القرآنية فى أن القتال إنما شُرع لتوفير الحرية الدينية للناس، ولإزاحة العقبات التى تعرقل وصول الحق إلى كل الناس، ولإشاعة الحق بين أفراد البشرية،... إن الحق له أعداء جاء هذا الحديث ليردعهم، وليوفر مناخ الحرية الدينية لكل الناس.

وأجيب تفصيلاً:

۞ فأقدم مقدمتين، أولاً:

١ - **قوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل»** هذا من القتال لا من القتل.

والفرق كبير.... فالقتال بذل الطاقة فى صرف العدو عن إيذائى، أما القتل فهو القضاء على العدو، والأول هو الذى هنا.

٢ - **قوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس»** ليس المراد كل الناس، وهذا أمر بديهى، فهو ﷺ والمسلمون معه من الناس، وعليه فهذا اللفظ ليس على إطلاقه، وقد جاء فى رواية لهذا الحديث: «**أُمرت أن أقاتل المشركين حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله... الحديث**»(١).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

۞ ثم أُفصل ثانيًا فأقول:

إن رسول الله ﷺ يقول: (ما معناه) أمرني ربي أن أقاتل المشركين الذين يحرمُون الناس حريتهم الدينية.. أمرني ربي أن أقاتلهم حتى يصبح الدين الإسلامي شائعًا ذائعًا، لا يمنع أحدٌ أحدًا عنه، وبعد ذلك فليعتنق الإنسان ما شاء من الدين.

إنه حديث يتفق مع آيات القتال كلها كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٩] ، أي قاتلوهم حتى لا يُكرَه أحدٌ على دين لا يرتضيه، وحتى يكون دين الله هو الظاهر العالي المعلوم.

والآيات والأحاديث التي في هذا الموضوع كلها تبين أن القتال في الإسلام إنما هو لنُصرة الحق، كما في حديث الذي سأل رسول الله ﷺ قائلاً: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذِّكر[1]، والرجل يقاتل ليُرى مكانه[2]، فمَن في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[3].

ومعنى: «كلمة الله» دعوة الله إلى الإسلام[4]... ومعنى «في سبيل الله» في طاعة الله تعالى.. فمن قاتلَ لإظهار الإسلام، فهذا الذي قتاله طاعة لله سبحانه.

إن غير المسلمين يؤذون المسلمين في دينهم، وهذا ثابت في كل الأعصار، فجاءت آيات القتال وأحاديثه لتحرض المؤمنين على الوقوف في وجه الظلم،

(١) أي ليُذكر بين الناس بالشجاعة.

(٢) أي رياء.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٨١٠) كتاب الجهاد والسير.

(٤) فتح الباري شرح حديث رقم (٢٨٠) (٦ / ٢٨).

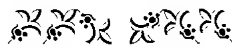
كى تنكسر شوكة الطغاة، ويتقلص ظلم القُساة، ويشيع الإسلام بين الناس كما أوحاه الله، وبعد ذلك فليعتنق الإنسان ما شاء من الدين.

إن مُنكرو السنة يصورون الحديث، وكأن رسول الله ﷺ يقول: أُمرت أن أقاتل الناس حتى يُسلم الجميع، يسلمون طوعًا أو كرهًا.

وهذا التصوير خطأ وضلال، فالإسلام ليس قائمًا على الإكراه، وإنما القتال غايته أن يعلم الناس حقيقة الإسلام من الشهادتين، وأن يعلموا أصوله من صلاة وصيام، ثم لهم الحرية الكاملة، فمن شاء أسلم لا يستطيع أحد أن يمنعه، ومَن شاء لم يُسلم ليس لأحدٍ أن يُرغمه.

وهكذا يوفر هذا الحديث وما فى موضوعه كامل الحرية الدينية لكل إنسان، إنه يزيح الموانع عن الحق، والواقفين فى وجه الصدق.

يدعوهم للإنصاف فإن استجابوا فلا عليهم، وإن لم يستجيبوا قاتلهم، ليوفر الحرية لأتباعهم من المقهورين[١].



(٣٩٧) وعَنْ أبى مَعبد المقْدَاد بنِ الأَسْوَد رضي الله عنه، قال: قلت لرِسُولِ الله ﷺ: **أَرَأَيْتَ إِنْ لَقيتُ رَجُلاً مِنَ الكُفَّارِ، فَاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ إِحدَى يَدَىَّ بِالسَّيْف، فَقَطَعها ثُمَّ لاذَ مِنِّى بشَجَرَةٍ، فقال: أَسْلَمْتُ لله، أَأَقْتُلُهُ يا رسولَ الله بَعدَ أَنْ قَالَها؟ فَقَالَ: «لا تَقْتُلْهُ»، فَقُلْتُ: يا رسُولَ الله قطعَ إِحدَى يَدَىَّ، ثُمَّ قال ذلكَ بَعدَما قَطعَها؟ فقال: «لا تَقْتُلْهُ، فإِنْ قَتَلْتَهُ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ. وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ التى قال»**[٢].

---

(١) رحمة للعالمين / د. محمود المصري (ص٧٠٠-٧٠٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠١٩) كتاب المغازى، (٦٨٦٥) كتاب الديات، ومسلم (٩٥) كتاب الإيمان.

ومعنى «**إِنَّهُ بِمَنْزِلَتِك**» أَيْ: مَعصُومُ الدَّمِ مَحكُومٌ بِإِسْلامِهِ.

ومعنى «**إِنَّكَ بِمَنْزِلَته**» أَيْ: مُبَاحُ الدَّمِ بِالْقِصَاص لِورَثَتِهِ، لا أَنَّهُ بِمَنْزِلَتِهِ فى الْكُفْرِ، والله أعلم.

۞ ففى هذا الحديث قال المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلاً مِنَ الكُفَّارِ، فَاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ إِحدَى يَدَيَّ بِالسَّيْف، فَقَطَعَهَا ثُمَّ لاذَ مِنِّى بشَجَرَةٍ، فقال: أَسْلَمْتُ لله، أَأَقْتُلُهُ يا رسولَ الله بَعدَ أَنْ قَالَها؟... يا ترى ماذا قال له النبى ﷺ؟ هل قال له: نعم اقتله فهو كافرٌ وقد قطع يدك ثم نطق بالشهادتين تقية حتى لا تقتله... لكن إياك أن يخدعك مثل هذا؟!....

كلا.. بل قال له النبى ﷺ بكل وضوحٍ: «**لا تَقْتُلْهُ**» مع أنه كافر وقد قطع يد رجلٍ من أصحاب الرسول ﷺ.

فقال المقداد: يا رسُولَ الله قطعَ إِحدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قال ذلكَ بَعدَما قَطعَها؟ فقال: «**لا تَقْتُلْهُ، فإِنْ قَتَلْتَهُ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ**» يعنى يكون مسلمًا ويكون قد مات على الإسلام لأنه نطق الشهادتين حتى وإن كان قالها خوفًا منك فهذا أمرٌ لا نعرفه نحن وإنما يعلمه الله وسيحاسبه عليه يوم القيامة.

ثم قال ﷺ: « **فإِنْ قَتَلْتَهُ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ. وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ التى قال**» يعنى إن قتلته فأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال..

مع العلم بأنى أنا وأنتم، نظن أن هذا الرجل قال: أشهد أن لا إله إلا الله خوفًا من القتل، ومع ذلك يقول: لا تقتله، فقد عُصم دمه وماله.

وفى هذا الحديث أيضًا: دليل على أن ما أتلفه الكفار من أموال المسلمين وما جنوه على المسلمين غير مضمون إذا أسلموا.. يعنى الكافر لو أتلف شيئًا للمسلمين، أو قتل نفسًا لا يضمن إذا أسلم، فالإسلام يمحو ما قبله.

(٣٩٨) وعَنْ أُسامةَ بن زَيْد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: بعثَنا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرَقة مِنْ جُهَيْنَة، فَصَبَّحنا الْقَوْمَ عَلى مِياهِهِمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ رَجُلاً مِنهُمْ فَلَمَّا غَشِيناهُ قال: لا إلهِ إلّا الله، فَكَفَّ عَنْهُ الأَنصارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ برُمْحي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدينَةَ، بلَغَ ذلكَ النَّبيَّ ﷺ، فقال لي: «يا أُسامةُ أَقتَلْتَهُ بَعدَ ما قَالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ؟» قلتُ: يا رسول الله إنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، فَقَالَ: «أَقتَلْتَهُ بعدَ ما قَالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ؟» فمازَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حتى تمنَّيْتُ أَنّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمتُ قَبْلَ ذلِكَ الْيَوْمِ(١).

وفي رواية: فَقالَ رسولُ الله ﷺ: «أَقَالَ: لا إلهَ إلّا الله وَقَتَلْتَهُ؟»، قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاحِ، قال: «أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تعلَمَ أَقالَهَا أَمْ لا؟» فَمَا زَال يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنّي أَسْلَمْتُ يَوْمئِذٍ.

(٣٩٩) وعَنْ جُنْدبِ بنِ عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَ بَعثًا مِنَ المُسْلِمِينَ إلى قَوْمٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَأَنَّهُمْ الْتَقَوْا، فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكِينَ إذا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إلى رَجُلٍ مِنَ المُسْلمِينَ قَصَدَ لَهُ فقتَلَهُ، وَأَنَّ رَجُلاً مِنَ المُسْلمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَلَمَّا رَفَعَ عليه السَّيْفَ، قال: لا إله إلا الله فقَتَلَهُ، فَجاءَ الْبَشِيرُ إلى رسول الله ﷺ، فَسَأَلَهُ، وأَخْبَرَهُ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبر الرَّجُلِ كَيْفَ صنَعَ، فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ، فقال: «لِمَ قَتَلْتَهُ؟» فقَالَ: يا رسول الله أَوْجَعَ في المُسْلِمِينَ، وقَتلَ فُلانًا وفُلانًا وسَمَّى له نَفرًا وإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قال: لا إله إلّا اللهُ. قال رسول الله ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ؟» قال: نَعمْ، قال: «فَكَيْفَ تَصنَعُ بلا إله إلّا الله، إذا جاءَت يوْمَ القيامَةِ؟» قَالَ: يا رسولَ الله اسْتَغْفِرْ لي. قال: «وكيفَ تَصنَعُ بِلا إله إلّا الله، إذا جاءَت يَوْمَ القِيامَةِ؟» فَجَعَلَ لا يَزِيدُ عَلى أَنْ يَقُولَ: «كيفَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨٧٢) كتاب الديات، ومسلم (٩٦) كتاب الإيمان.

«الحرقة» بضم الحاء المهملة وفتح الراء: بطن من جهينة القبيلة المعروفة، وقوله مُتَعوِّذًا: أي مُعتصمًا بها من القتل لا مُعتقدًا لها.

تَصنَعُ بِلا إِلَهَ إِلَّا الله إذا جاءَتْ يَوْمَ القِيامَةِ»(١).

۞ قد يكون قتلُ أحد الأعداء أمرًا حتميًّا نتيجة جرائمه السابقة فى حقِّ المسلمين ، ولكن الأخلاق النبوية الرفيعة كانت تتَّجه إلى إعطاء هذا العدو فرصة أخيرة إذا أعلن إسلامه، مع أن هذا الإعلان غالبًا ما يكون لتجنُّب القتل، ولكن رسول الله ﷺ كان يقبل إسلام الشخص مهما كان تاريخه العدائى، وليس فى هذا إكراه فى الدين؛ لأن الأصل فى الأمور بالنسبة لهؤلاء أن الحكم بقتلهم قد صدر بالفعل... وقبول إسلامهم والعفو عنهم بعد صدور هذا الحكم هو منَّة من رسول الله ﷺ عليهم.

ومن أفضل الأمثلة على هذا الأمر ما رأيناه منه ﷺ عندما أنكر على أسامة بن زيد رضي الله عنهما قتله لمشرك محارب بعد أن أعلن إسلامه... مع أن كل الظروف كانت تشير إلى أن المشرك لم يعلن إسلامه إلا تَقِيَّة!

۞ والقصة باختصار أن النبى ﷺ بعث أسامة بن زيد رضي الله عنه فى سرية إلى الحُرقة من جهينة.. فلما وصل إلى القوم وبدأ القتال كان هناك رجلٌ من المشركين يقتل فى المسلمين قتلًا شديدًا فاتجه إليه أسامة بن زيد ورجل من الأنصار ليقضوا عليه قبل أن يقتل أكثر من ذلك فى المسلمين.. فلما هجم عليه أسامة والرجل الآخر فرأى المشرك أن السيف فوق رأسه قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.. فكفَّ الرجل الأنصارى عنه ولم يقتله.. وأما أسامة فقد طعنه برمحه فقتله.

فالرجل الذى فى القصة كان قد أوجع فى المسلمين ، وقتل بالفعل عددًا من الصحابة، وحارب أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما، ولمَّا سقط السيف من يده، وشعر أن أسامة سيقتله قال: لا إله إلا الله! ... إن أى إنسان فى مكان أسامة لعله سيأخذ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧) كتاب الإيمان.

نفس القرار الذى أخذه أسامة... فكل الظروف تُوحى أنه من العجيب أن يدخل الإيمان فجأة فى قلب المقاتل المشرك عند رؤية السيف، لكن منهج رسول الله ﷺ فى حقن الدماء كان يرفض ما فعله أسامة رضي الله عنه.

ولذلك لما عادوا إلى المدينة وعلم النبى ﷺ بما حدث قال لأسامة: «**أَقَتَلْتَهُ بَعدَ ما قَالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ؟**» قال أسامة: يا رسول الله إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا... يعنى: إنما قال ذلك يتعوذ من القتل، يستجير بها من القتل.

قال: «**أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله**» قال: نعم، قالها يتعوذ من القتل... كرر ذلك عليه، حتى قال له فى رواية لمسلم: «**ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة**».

يقول أسامة رضي الله عنه: حتى تمنيتُ أنى لم أكن أسلمت قبل هذا اليوم.

لأنه لو كان كافرًا ثم أسلم عفا الله عنه... لكنه الآن فعل هذا الفعل وهو مسلم، فهذا مُشكل جدًّا على أُسامة.

والرسول ﷺ يكرر: «**أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله**». «**ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة؟**». مع العلم بأن الذى يغلب على الظن ما فهمه أُسامة؛ أنه قالها متعوذًا من القتل، يستجير بها من القتل(١).

لكن النبى ﷺ يُعلمه ويُعلم الأمة كلها أن الكافر إذا نطق الشهادتين فقد انتهى الأمر ويجب الكف عنه لأنه بذلك قد عُصم دمه وماله حتى وإن قالها متعوذًا فحسابه على الله.

فهذا: دليل على أننا نحمل الناس فى الدنيا على ظواهرهم، أما ما فى القلوب فموعده يوم القيامة، ..حين تنكشف السرائر، ويُحَصَّل ما فى الضمائر، ولهذا علينا أيها الأخوة أن نطهر قلوبنا قبل كل شىء ثم جوارحنا.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٤٦).

أما بالنسبة لمعاملتنا لغيرنا، فعلينا أن نُعامل غيرنا بالظاهر وَنكِل سرائرهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ يحاسبهم عليها.

وفى موقفٍ مُشابه أنكر الرسول ﷺ على خالد بن الوليد مثل هذا الأمر؛ فقد روى ابن عمر أَنَّ النبىَّ ﷺ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى بَنِى جَذِيمَةَ[١]، فَلَمْ يُحسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، حتى إذا كان يومٌ أَمَرَ خالدٌ أن يقتل كلُّ رجلٍ منَّا أسيره.. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَقْتُلُ أَسِيرِى، وَلاَ يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصحَابِى أَسِيرَهُ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّى أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ بن الوليد**» مَرَّتَيْنِ[٢].

لقد كان هذا تعليمًا للأمة كلها، وتحذيرًا شديدًا من القتل فى غير محله، بل هو فى الوقت نفسه حرصٌ شديد من النبى ﷺ على تَفادِى القتل عند أول فرصة تسنح بذلك، مما يؤكد لنا أن القتال فى الإسلام إنما هو أمر لا يكون إلا عند الحاجة الماسَّة إليه، ومتى وُجِدَت أيَّةُ فرصة للخروج من القتال وحفظ الدماء؛ كان الأخذ بها هو منهج الإسلام ومنهج الرسول ﷺ.

(٤٠٠) وعَنْ عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: سمِعتُ عُمَر بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «**إنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بالوَحى فى عَهْدِ رسولِ الله ﷺ، وإنَّ الوَحى قَدِ انْقطَعَ، وإنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآنَ بما ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لنا خَيْرًا، أَمَّنَّاهُ، وقرَّبناه وَلَيْس لنا مِنْ سَريرَتِهِ شىءٌ، الله يُحاسِبُهُ فى سَرِيرتِهِ، ومَنْ أَظْهَرَ لَنا سُوءًا، لَمْ نأمنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وإنْ قال إنَّ سَرِيرَته حَسنَةٌ**»[٣].

---

(١) بنو جذيمة هُم: بنو عامر بن عبد مناة بن كنانة، وكانوا جنوب مكة على مسافة ليلة، بناحية يلملم.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٣٣٩) كتاب المغازى.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٦٤١) كتاب الشهادات.

۞ ففي هذا الحديث يخبر عبد الله بن عتبة بن مسعود -وهو ابن أخي الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه- قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن ناسًا كانوا يُؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع .... يعني: كنا نعلم المنافقين الذين كانوا يُظهرون الخير ويُبطنون الشر على عهد النبي ﷺ.. وذلك لأن الوحي كان ينزل على النبي ﷺ ليخبره بأخبارهم وكان القرآن يفضحهم بأوصافهم التي تُحدد أعيانهم ولا يفضحهم بأسمائهم.

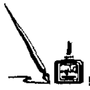
والحكمة من ذكرهم بالأوصاف دون الأعيان؛ أن ذلك يكون للعموم، يعني لكل مَن اتصف بهذه الصفات، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

ومثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]

۞ ثم قال عمر رضي الله عنه: وإنَّ الوَحي قَدِ انْقَطَعَ، وإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآنَ بِما ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنا خَيْرًا، أَمَّنَّاهُ، وقرَّبناه وَلَيْس لنا مِنْ سَرِيرَتِهِ شيءٌ، الله يُحاسِبُهُ في سَرِيرتِهِ، ومَنْ أَظْهَرَ لَنا سُوءًا، لَمْ نأمنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وإنْ قال إنَّ سَرِيرَتَه حَسنَةٌ.

يقول رضي الله عنه: مَن أظهر لنا خيرًا أخذناه بما أظهر لنا، وإن أَسرَّ سريرة -يعني سيئة-... ومَن أظهر لنا شرًّا، فإننا نأخذه بشره ولو أضمر ضميرةً طيبة؛ لأننا



نحن لا نُكلف إلا بالظاهر... وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا؛ ألا نحكم إلا بالظاهر؛ لأن الحكم على الباطن من الأمور الشاقة.

والله عَزَّوَجَلَّ لا يُكلف نفسًا إلا وسعها. فمن أبدى خيرًا عاملناه بخيره الذى أبداه لنا، ومَن أبدى شرًّا عاملناه بِشَرِّه الذى أبداه لنا، وليس لنا من نيته مسئولية، فالنية موكولة إلى ربّ العالمين عَزَّوَجَلَّ، الذى يعلم ما توسوس به نفس الإنسان[1].

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٤٨) بتصرف.

(٥٠) باب الخوف

۞ إن نعمة الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ نعمة عظيمة تجعل بين العبد وبين معصية الله سَدًّا منيعًا.

والعبد لا بد أن يعيش بين الخوف والرجاء فيكون خائفًا راجيًا.

ينظر إلى ذنوبه وآثامه فيخاف من الله أن يُعاجله بعقوبته.. فيتوب في التو واللحظة ... وينظر حتى إلى أعماله الصالحة وأنه قد يَشوبها شيء من الرياء أو العُجب فيخاف ألا يتقبلها الله منه .. ثم ينظر إلى عفو الله ورحمته ومغفرته وكرمه وحلمه فيرجو الله (جل وعلا)... فيعيش دومًا وأبدًا بين الخوف والرجاء.

۞ ولقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الآيات التي تملأ القلب رهبة وخوفًا من فاطر السماوات والأرض ومن عقابه عَزَّ وَجَلَّ:

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود: ١٠٢ - ١٠٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ - ٢]،

وَقالَ تَعالَى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وَقالَ تَعالَى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨].

وَالآيات في الباب كثيرة جدًّا معلومات، والغرض الإشارة إِلَى بعضها وقد حصل:

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا فنذكر مِنْهَا طرفًا وبالله التوفيق[١].

۞ اعلم: أن مقامات الخائفين تختلف... فمنهم مَن يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم مَن يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم مَن يغلب عليه خوف سوء الخاتمة ... وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالى يرفع مَن يشاء من غير وسيلة، ويضع مَن يشاء من غير وسيلة، لا يُسأل عما يفعل.

ومن أقسام الخائفين، مَن يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم مَن يخاف هيبة الوقوف بين يدى الله تعالى، والخوف من المناقشة والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة فى أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين[٢].

ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويُكدر اللذات، فتصير المعاصى

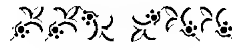
---

(١) رياض الصالحين/ للإمام النووى (ص١٤٨).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٥).

المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهـاً عند مَن يشتهيه إذ علم أن فيه سُمًّا... فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر فى خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس فى الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال مَن وقع فى مخالب سبعٍ ضارٍ لا يدرى أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيُهلكه.

ولا شُغل له إلا ما وقع فيه... فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال[(١)].



(٤٠١) عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ، وهو الصَّادقُ المصدوقُ: «إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فى بَطْن أُمِّهِ أربَعين يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرسَلُ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأربَعِ كلماتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجلِهِ، وعمَلِهِ، وَشَقىٌّ أَوْ سعيدٌ. فَوَ الَّذى لا إِله غَيْرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة حتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إِلاَّ ذراعٌ، فَيَسْبقُ عَلَيْهِ الْكِتابُ، فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْل النَّارِ، فَيدخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعمَلُ بعمَل أَهْلِ النَّار حَتَّى مَا يَكونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدخُلُهَا»[(٢)].

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، (٧٤٥٤) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

۞ وهذا الحديث أصلٌ فى باب القدر والعناية بذلك، والخوف من السوابق والخوف من الخواتيم... وكما قيل: قلوب الأبرار مُعلَّقة بالخواتيم.

يقولون: ماذا يُختم لنا، وقلوب السابقين أو المقربين مُعلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا؟ وهذا هو الإيمان بالقدر والخوف من الكتاب السابق والخوف من الخاتمة.. هذا من آثار الإيمان بالقدر خيره وشره.

فإن هذا الحديث دَلَّ على أن هناك تقديرًا عُمريًّا لكل إنسان، وهذا التقدير العمرى يكتبه المَلك بأمر الله عَزَّوَجَلَّ كما جاء فى هذا الحديث.

إذًا ... هذا الحديث مَسُوقٌ لبيان التقدير العمرى لكل إنسان؛ وليخاف المرء السوابق والخواتيم؛ وليؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليُخطئه وما أخطأه لم يكن ليُصيبه... والسوابق فى عمل العبد والخواتيم متصلة... كما قيل: الخواتيم ميراث السوابق.

فالخاتمة ترثها لأجل السوابق، فما من خاتمة إلا وسببها بلطف الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته أو بعدله وحكمته. سوابق المرء فى عمله وهى جميعًا متعلقة بسوابق القدر(١).

۞ **قال ابن مسعود** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: حدَّثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق... يعنى الصادق فيما يقول، والمصدوق فيما يُوحَى إليه من الوحى، وفيما يُقال له من الوحى... فهو صادق لا يُخبر إلا بالصدق، مصدوق لا يُنبأ إلا بالصدق صلوات الله وسلامه عليه.

وإنما قدم هذه المقدمة؛ لأنه سيُخبر عن أمرٍ غيبى باطن يحدث فى ظلماتٍ ثلاث.

۞ وقول ابن مسعود هنا: وهو الصادق المصدوق... هذه تهيئة، ...وهذه

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص٧٣).

فيها أدب للمعلم أن يهيئ العلم لمن يعلمه ومَن يخبره بالعلم؛ لأن هذا الحديث فيه شيء غيبي لا يُدرَك بالحِسِّ ولا بالتجربة، وإنما يُدرَك بالتسليم والعلم بالخبر لصدق المُخبِر به (عليه الصلاة والسلام).

ومعلوم أن الصحابة في ذلك الوقت لم يكونوا يعلمون تطور هذه المراحل بعلمٍ تجريبي أو برؤية أو بنحو ذلك، وإنما هو الخبر الذي يصدقونه... فكانوا علماء لا بالتجريب وإنما بخبر الوحي الذي ينزل على النبي صلوات الله عليه وسلامه[1].

۞ قوله ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِين يَوْمًا نُطْفَةً**» أي أنه إذا أتى الرجل امرأته في الحلال وألقى الماء في رحمها بقي أربعين يومًا وهو نطفة على ما هو عليه ماء... لكنه يتغير شيئًا فشيئًا... يميل إلى الحُمرة، حتى يتم عليه أربعون يومًا.

فإذا تم عليه أربعون يومًا... إذا هو قد استكمل الحُمرة وصار قطعة دم علقة، فيمضي عليه أربعون يومًا أُخرى وهو علقة... يعني قطعة دم، لكنها جامدة، ولكنه يثخن ويغلظ شيئًا فشيئًا، حتى يتم له ثمانون يومًا.

فإذا تَمَّ له ثمانون يومًا فإذا هو مضغة (قطعة لحم)، هذه المضغة قال الله تعالى فيها: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]. فتبقى أربعين يومًا، تُخلَّق من واحدٍ وثمانين يومًا إلى مائة وعشرين يومًا، ولا يتبين فيها الخلق تبينًا ظاهرًا إلا إذا تم لها تسعون يومًا في الغالب.

فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهي مضغة، أرسل الله إليها الملك الموكّل بالأرحام؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

فالملائكة جنود الله عَزَّوَجَلَّ.. وكُلٌّ منهم مُوكَّلٌ بشيءٍ؛ ...منهم المُوكَّل

(١) شرح الأربعين النووية (ص٧٤) بتصرف.

بالأرحام، ومنهم المُوكل بالنفوس يقبضها، ومنهم المُوكَّل بالأعمال يكتبها، ومنهم المُوكل بالأبدان يحفظها.. وظائف عظيمة للملائكة أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بها.

فيأتى ملك الأرحام إلى كل رحم، فينفخ فيه الروح بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الروح أمرٌ لا يعلمه إلا ربّ العالمين... قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

ينفخها فى هذا البدن، الذى هو قطعة لحم فى الرحم، ليس فيها حِراك ولا إحساس ولا شىء.... فإذا نفخ هذه الروح دخلت فى هذا البدن، فتسير فيه كما تسير الجمرة فى الفحمة بإذن الله، أو الطين فى المدر اليابس، فتدبُّ فى هذا الجسد حتى تدخل فى الجسد كله، فيكون إنسانًا، ويتحرك، وتحس الأم بتحرُّكه بعد مائة وعشرين يومًا، وحينئذ يكون إنسانًا، أما قبل هذا فهو ليس بشىء.

ولو سقط الجنين قبل تمام مائة وعشرين يومًا، فليس له حُكمٌ من جهة الصلاة عليه، بل يُؤخَذ ويُدفَن فى أى حفرة من الأرض، ولا يُصلَّى عليه.

أما إذا تم مائة وعشرين يومًا، يعنى أربعة أشهر، حينئذ صار إنسانًا، فإذا سقط بعد ذلك، فإنه يُغسَّل، ويُكفَّن، ويُصلَّى عليه... ولو كان قدر اليد، فإنه يُصلَّى عليه، ويُدفَن فى مقابر المسلمين إن كان مُسلمًا.

ويُسمَّى، ويُعَقُّ عنه على الأرجح ليشفع لوالديه يوم القيامة؛ لأنه يُبعث يوم القيامة.

قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**ويُؤمر**» يعنى المَلكَ «**بأربع كلمات؛ بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد**».

فيكتب رزقه: وكتب الرزق يعنى: هل هو قليل، أم كثير؟ ومتى يأتيه؟ وهل ينتقص أم لا ينتقص؟ المهم أنه يُكتَب كاملاً(١).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٥٠-١٥١) بتصرف.

ويكتب أجله أيضًا: فى أى يوم؟ وفى أى مكان؟ وفى أى ساعة؟ وفى أى لحظة؟ وعن بُعدٍ أم عن قُرب؟ وبأى سبب من الأسباب موته؟ والمهم أنه يُكتب كاملاً.

ويُكتب عمله: هل هو صالح، أم سيئ، أم نافع، أم قاصر على الشخص نفسه؟ والمهم أنه يُكتب كل أعماله.

ويُكتب مآله: وما أدراك ما المآل! فيُكتَب هل هو شقى أم سعيد.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

[هود: ١٠٦-١٠٨].

كل هذا يُكتَب، لكن أين يُكتب؟ وردت آثار أنه يُكتَب فى جبينه على جبهته.

فإن قال قائل: كيف تتسع الجبهة لكتابة هذه الأشياء كلها؟

قلنا: لا تسأل عن أمور الغيب، ومَن أنت حتى تسأل عن أمور الغيب؟ قل: آمنت بالله وصدقت بالله وبرسوله ﷺ ولا تسأل: كيف.

وقد وقع الآن فى وقتنا ما يشهد لمثل هذا.... كمبيوتر قدر اليد يكتب به الإنسان ملايين الكلمات، وهو من صنع البشر. فما بالك بصنع الله عَزَّوَجَلَّ!

۞ قال ﷺ: « **فَوَالَّذِى لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدخُلُهَا** ».

وقد يقول قائل: وما ذنب هذا الرجل حتى يعمل عملًا صالحًا طوال تلك السنوات ثم يُختم له بخاتمة أهل الشقاء فيدخل النار؟

أقول: يتضح ذلك فى الرواية الأخرى فقد قال النبى ﷺ: « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ** » أى أنه لم يكن يعمل هذا العمل لله وإنما كان

مُرائيًا ...فلذلك أخرج الله ما فى قلبه قبل موته فكانت تلك الخاتمة السيئة.

۞ وهناك قصة توضح لنا خاتمة مَن عمل عملًا لغير وجه الله سبحانه وتعالى ... ففى الصحيحين، أن رجلًا كان مع النبى ﷺ فى غزوة، وكان شُجاعًا مِقدامًا، لا يترك للعدو شاذة ولا فاذة إلا قضى عليه، فتعجب الناس منه؛ ومن شجاعته، ومن إقدامه، فقال النبى ﷺ ذات يوم: «**إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»(١).

أعوذ بالله ... هذا الشجاع الذى يفتك بالعدو من أهل النار؟

فكَبُر ذلك على المسلمين، وعَظُم عليهم، وخافوا، كيف يصير هذا من أهل النار؟

فقال رجل: والله لألزمنَّه... سوف أتابعه وأراقبه؛ لأرى نهايته كيف تكون؟ فمشى معه، وفى أثناء القتال أصاب هذا الرجل الشجاع السهم فجزع، فأخذ بسيفه فسلَّه، فوضعه فى صدره، واتكأ عليه حتى خرج من ظهره ... قتل نفسه جزعًا... فجاء الرجل إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله... قال: وبِمَ؟

قال: الرجل الذى قلت: إنه من أهل النار. حصل له كذا وكذا.

فقال النبى ﷺ: « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ** ».

وفى هذا درسٌ عظيمٌ أن نتعلم جميعًا ألا نعمل العمل إلا لله عَزَّوَجَلَّ وأن ندعو دائمًا بدعاء النبى ﷺ: « **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِىَ عَلَى دِينِكَ** ».

۞ ثم قال النبى ﷺ: « **وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدخُلُهَا** ».

هذا عكس الأول.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٠٢) كتاب المغازى، ومسلم (١١٢) كتاب الإيمان.

وهذا له أيضًا شاهد فى الواقع ... رجلٌ يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها... وقع هذا على عهد الرسول ﷺ ... كان هناك رجل يُقال له الأُصيرم من بنى عبد الأشهل، كافر مُنابذٌ للدعوة الإلهية... كان ضد المسلمين، فلما كان فى غزوة أُحد، وخرج الناس من المدينة يغزون، ألقى الله فى قلبه الإسلام، فأسلم وخرج يجاهد.

فلما حصل ما حصل للمسلمين وقُتل منهم مَنْ قُتِلَ وذهب الناس ينظرون فى قتلاهم، فوجدوا الأُصيرم في الرمق الأخير فقال له قومه: ما الذى جاء بك؛ فقد عهدناك ضد هذه الدعوة... أَحَدَبٌ على قومك، يعنى عصبية، أم رغبة فى الإسلام؟

قال: بل رغبة فى الإسلام، وأقرئوا الرسول ﷺ منى السلام، وأخبروه أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم مات... فأخبروا بذلك النبى ﷺ فقال: «**إنه من أهل الجنة**»(١) ... فهذا الرجل أمضى عمره كله فى الكفر، ضد الإسلام وضد المسلمين، وكان خاتمته هذه الخاتمة.

عمل بعمل أهل النار، حتى لم يكن بينه وبينها إلا ذراع، فسبق عليه الكتاب، فعمل بعمل أهل الجنة، فكان من أهل الجنة(٢).

❁ وهنا يذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بعض الأحاديث التى تتحدث عن أهوال يوم القيامة ونار جهنم -أعاذنا الله وإياكم منها-.

وفى الحقيقة أنه يجب علينا أن نخشى على أنفسنا من أهوال يوم القيامة ومن عذاب النار .

---

(١) حسن: رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٢٨) من حديث ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط فى أحمد (٢٣٦٨٤): إسناده حسن.

(٢) شرح رياض الصالحين/ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٢/ ١٥١-١٥٣) بتصرف.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

۞ تالله لو عرف المؤمن ما فى النار من عذابٍ ونكالٍ لم يهنأ بعيشٍ ولم يغفل عن طاعة الله لحظة واحدة ولم يتجرأ على معصيته حتى يلقاه.

۞ قال يوسف بن عطية عن المُعلَّى بن زياد: كان هرم بن حيان يخرج فى بعض الليالى وينادى بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالبها، وعجبت من النار كيف نام هاربها، ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧].

۞ وقال أبو الجوزاء: لو وُلِّيت من أمر الناس شيئًا اتخذت منارًا على الطريق وأقمت عليها رجالًا ينادون فى الناس: النار النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧].

قال الحسن فى قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ قال: «والله ما أُنذر العباد بشىء قط أدهى منها».

۞ وقال إبراهيم التيمى: ينبغى لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار. لأن أهل الجنة قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

وينبغى لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦].

۞ كان من دعاء النبى ﷺ:

«اللهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَرَبَّ إِسْرَافِيلَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ حَرِّ النَّارِ، وَمِن عَذَابِ الْقَبْرِ»[1].

(١) حسن: رواه النسائى عن عائشة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٠٥).

وكان ﷺ يقول: «إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»(١).

فهذه خمس مرات يوميًّا على الأقل يذكر فيها المسلم جهنم ويتعوذ منها(٢).

(٤٠٢) وَعَن ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(٣).

۞ وياله من مشهدٍ عجيب .. حينما يقف الناس في أرض المحشر حُفاةً عُراةً غُرلًا غير مختونين... بلا طعام ولا شرابٍ ولا ظِل.. وفجأة يسمعون صوتًا يكاد يُمزق القلوب.. ما هذا الصوت؟ لقد جِيء بجهنم من بعيدٍ وهى تزفر زفرة تُلقى الرعب فى قلوب أهل المحشر.

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أى: نارًا عظيمة، قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها. ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أى: قبل وصولهم، ووصولها إليهم ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ عليهم ﴿وَزَفِيرًا﴾ تقلق منهم الأفئدةُ، وتتصدعُ القلوبُ، ويكادُ الواحدُ منهم، يموتُ خوفًا منها، وذُعرًا،... قد غضبت عليهم، لغضبِ خالقها،... وقد زادَ لهبُها، لزيادة كُفرهم وشرهم(٤).

۞ يُؤتَى بجهنم فى تلك اللحظة لها سبعون ألف زمام.. والزمام الواحد قد بلغ من ضخامته أنه يَجُرُّه سبعون ألف مَلَك.. .. ولك أن تتصور مَلَكًا واحدا (جبريل عليه السلام) الذي قَلَبَ قُرى قوم لوطٍ واقتلعها من الأرض بجناحٍ واحدٍ مع

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.
(٢) بتصرف من كتاب (وصف الجنة والنار)/ د. محمود المصري.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٤٢) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.
(٤) تفسير السعدى (ص ٦٧٥).

أنه له ستمائة جناح.. ثم رفع تلك القرى إلى السماء الدنيا ثم قلبها وتركها تقع على الأرض.. فتصور مدى عظمة جهنم التي لها سبعون ألف زمام.. الزمام الواحد يَجُرُّه سبعون ألف مَلَكٍ.. حتى أنها تكاد أن تتفلت منهم من شدة غيظها وحنقها على كل مَن كفر بالله وغضبًا على كل مَن بارز الله بالذنوب والمعاصى... فإذا رآها أهل المحشر فلا يبقى مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَل إلا جثى على رُكبتيه وقال: يا رب سلِّم سلِّم.

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢١-٢٤].

تأمل معى هذه الحسرة الشديدة لكل مَن فرَّط فى حق اللّه عز وجل أو رأى جهنم فإنه يصرخ ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾... كلمة يقولها كل مَن فرَّط فى الصلاة وكل مَن عق والديه وكل مَن ظلم العباد وكل مَن حارب اللّه (جلَّ وعلا) .... وتقولها كل مَن تركت حجابها وخرجت سافرة متبرجة ناسيةً قول اللّه عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وناسيةً قول رسول الله ﷺ: «**صِنفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلا يَجِدنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**»(١).

أما آن الأوان يا أختاه أن تلبسى حجابك ليكون حجابًا لك من النار..... أما آن الأوان لتلبسى لباس الستر والعفاف وتنقادى لأمر اللّه وأمر رسول اللّه ﷺ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٢٨) كتاب اللباس والزينة.

حتى لا تكونى من أهل النار الذين أخبر عنهم النبى ﷺ فى الحديث السابق....إنها كلمة فى أذن كل فتاة مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر... - يا أختاه - أنقذى نفسك من النار قبل أن تصرخى وتقولى: «يا ليتنى قدمت لحياتى».

فها هى الفرصة أمامك فتوبى إلى الله وأسرعى الخُطا ولسان حالك ومقالك: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، واسجدى بين يدى الله عَزَّ وَجَلَّ واطلبى منه المغفرة والرحمة ... فهو القائل عَزَّ وَجَلَّ ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

ويا من تظلم وتتجبر لا تنسَ هذا المشهد المهيب عند مجىء جهنم فتُب إلى الله وتَحلَّل من المظالم. قبل أن تصرخ وتقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] فتندم حيث لا ينفع الندم ولا تُدفَع النِّقم[(١)].

(٤٠٣) وعَنْ النُّعمَانِ بنِ بَشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيامَة لَرَجُلٌ يُوضَعُ فى أَخْمَصِ قَدميْهِ جمْرَتَانِ يغْلى مِنْهُمَا دِمَاغُهُ مَا يَرى أَنَّ أَحدًا أَشَدُّ مِنْه عَذَابًا، وَإِنَّه لأَهْونُهُمْ عذَابًا»[(٢)].

۞ وهنا يُبين النبى ﷺ أن أهون أهل النار عذابًا، مَن يُوضع فى قدميه جمرتان من نار يغلى منهما دماغه. وهو يرى أنه أشد الناس عذابًا، وإنه لأهونهم... لأنه لو رأى غيره؛ لهان عليه الأمر، وتَسلَّى به، ولكنه يرى أنه أشد الناس عذابًا والعياذ بالله، فحينئذ يتضجر ويزداد بلاءً وتعبًا نفسيًّا والعياذ بالله... ولذلك ذكر النبى ﷺ هذا الحديث تحذيرًا لأمته من عذاب النار.... لأنه إذا كان هذا أهونهم عذابًا فما ظنك بأشدهم عذابًا؟!.

(١) نقلًا عن كتاب «رحلة إلى الدار الآخرة» د. محمود المصري (ص٥٤٨-٥٤٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٦١)، (٦٥٦٢) كتاب الرقاق، ومسلم (٢١٣) كتاب الإيمان.

(٤٠٤) وعَنْ سَمُرةَ بنِ جُنْدب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَن نبيَّ الله ﷺ قال: «مِنْهُم مَنْ تَأْخُذهُ النَّارُ إِلى كَعبَيه، ومِنْهُم منْ تأْخُذُهُ إِلى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ منْ تأْخُذُه إِلى حُجْزَتْهِ، وِمنْهُمْ منْ تَأْخُذُهُ إِلى تَرْقُوَتِهِ»[1].

۞ يتفاوت أهل الكفر في كفرهم .. فمنهم الكافر المحارب ... ومنهم الذى يَصُدّ الناس عن سبيل الله .. ومنهم الكافر المسالم الذى لا يُحارب أحدًا ولا يصد عن سبيل الله.

۞ وكذلك يتفاوت عُصاة الموحدين فى معاصيهم.

ولذلك تتفاوت درجة العذاب على عصاة الموحدين وكذلك على الكافرين بحسب تفاوت أعمالهم.

قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١].

۞ واعلم أن تفاوت أهل النار فى العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التى دخلوا بها النار... وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن من أهل النار مَن تصل النار إلى كعبيه .. ومنهم مَن هو أشد جُرمًا من الأول فيزداد عليه العذاب حتى أن النار تصل إلى رُكبتيه.. ومنهم مَن هو أشد جُرمًا من هذين الاثنين قبله حتى أن النار تصل إلى قُرب سُرته.... وأعظمهم جُرمًا مَن تصل النار إلى نحره... فيا ليتنا نتوب حتى ننجو من عذاب النار.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٤٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

«الحُجْزَةُ»: مَعقِدُ الإزارِ تحتَ السُّرَّةِ- و «التَّرْقُوَةُ» هِى العظمُ الذِى عِندَ ثَغْرَةِ النَّحرِ، وللإنْسَانِ ترْقُوَتانِ فى جَانِبى النَّحرِ.

(٤٠٥) وعَنْ ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسولَ الله ﷺ قال: «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العالَمِينَ حَتَّى يَغِيب أَحدُهُمْ في رَشْحِهِ إِلى أَنْصَافِ أُذُنَيه»(١).

۞ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ أي: يوم يقفون في أرض المحشر يوم القيامة حُفاةً عُراة خاشعين لله خاضعين له (سبحانه وتعالى).

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» وَفِي رِوَايَةٍ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدرِ أَعمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ».

قَالَ الْقَاضِي: وَيُحتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ عَرَقُ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ... وَيُحتَمَلُ عَرَقُ نَفْسِهِ خَاصَّةً وَسَبَبُ كَثْرَةِ العرق تَراكُم الأهوال ودُنو الشمس من رؤسهم ورحمة بعضهم بعضا(٢).. فهذا العرق هو عرق الذنوب.. فعلى قدر الذنوب يرتفع العرق.. حتى يغمر العرق الإنسان ويصل إلى شفته العُليا فيُلجمه إلجامًا... فمن تاب من ذنوبه وعاد إلى ربه عَزَّ وَجَلَّ فلن تصل إليه قطرة عرق لأنه سيكون في ظل عرش الرحمن (جل وعلا).

(٤٠٦) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال: خَطَبَنا رَسول الله ﷺ، خُطْبَةً ما سَمِعتُ مِثْلَها قَطُّ ، فقال: «لَوْ تعلَمُونَ مَا أَعلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ولبَكَيْتمْ كَثِيرًا» فَغَطَّى أَصحابُ رسولِ الله ﷺ وجُوهَهم، وَلهُمْ خَنينٌ(٣).

وفى رواية: بَلَغَ رسولَ الله ﷺ عَنْ أَصحابِهِ شَيءٌ فَخطَبَ، فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الجنَّةُ والنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَاليَوْمِ فى الخَيْر وَالشَّرِّ، ولَوْ تَعلَمُونَ مَا أَعلَمُ لَضحِكْتُمْ قليلاً،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٣٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٦٢) كتاب الجنة.
و«الرَّشحُ» العرَق.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٢٨٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٢١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٣٥٩) كتاب الفضائل.
«الخَنِينُ»: هَوَ البُكَاءُ مَعَ غُنَّةٍ وَانتِشَاقِ الصَّوت مِنَ الأَنْفِ.

وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» فَما أتَى عَلَى أَصحَابِ رسول الله ﷺ يوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ.. غَطَّوْا رُءُوسهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ.

۞ فى هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ بلغه شىء عن أصحابه فخطب ﷺ خطبة ما سمع الصحابة مثلها أبدًا... فقال ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الجنَّةُ والنَّارُ**» وقد رأى النبى ﷺ الجنة والنار أكثر من مرة... ثم قال ﷺ: «**فَلَمْ أَرَ كَاليَوْمِ فى الخَيْر وَالشَّرِّ، ولَوْ تَعلَمُونَ مَا أَعلَمُ لَضحِكْتُمْ قلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**» فِيهِ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ ... وَمَعنَى الْحَدِيثِ: لَمْ أَرَ خَيْرًا أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ فِى الْجَنَّةِ وَلَا شَرًّا أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ فِى النَّارِ... وَلَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ وَعَلِمْتُمْ مَا عَلِمْتُ مِمَّا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ وَقَبْلَ الْيَوْمِ لَأَشْفَقْتُمْ إِشْفَاقًا بَلِيغًا وَلَقَلَّ ضَحِكُكُمْ وَكَثُرَ بُكَاؤُكُمْ[(١)].

فقد رأى النبى ﷺ ما لم يرهُ أحدٌ قبله، وما لن يراه أحدٌ بعده.

وهى ليست رؤيا بشر كأى بشر... بل رؤيا المعصوم الذى لم تتلطَّخ بصيرته بمعصية قط ... حاشاه، ولم تمسّ فطرته غفلة أو خاطر غفلة...وما أجلّه وأسماه... لذا كانت أصدق حقيقة دون أدنى زيادة أو نقصان.

وفى رواية أن النبي ﷺ قال:

« **وَاللهِ لَوْ تَعلَمُونَ مَا أَعلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ، تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**»[(٢)].

وفى رواية : أن الصحابة بكوا على إثر ذلك بكاءً شديدًا، ثم انصرف عنهم رسول الله ﷺ فأوحى الله عز وجل إليه: «**يَا مُحَمَّدُ، لِمَ تُقَنِّطُ عِبَادِى؟**» ، فَرَجَعَ النَّبِىُّ ﷺ فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا، وَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا**»[(٣)].

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/ ١٦٣).
(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٤٩).
(٣) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣١٩٤).

لقد رأى النبى ﷺ كل ما غاب عنا ... رأى النعيم الرائع وبجواره الشر المُفزع فى لحظة تاريخية نادرة لن تتكرر ليخرج بعدها إلى أصحابه مُحذِّرًا ومُنذرًا حتى انفطرت قلوبهم لما رأوا عليه رسولهم من الخوف والوجل.

وكأنها رسالة من النبى ﷺ لأصحابه وأمته: لا تعودوا لما بلغنى عنكم وتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.. واتقوا النار ولو بشق تمرة.

(٤٠٧) وعَنْ المِقْدَاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «تُدنى الشَّمْسُ يَومَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيل» قَالَ سُلَيمُ بْنُ عَامرٍ الرَّاوى عنْ المقْدَاد: فَوالله مَا أَدرِى ما يَعنى بِالميلِ، أَمَسَافَةَ الأرضِ أَمِ المِيلَ الَّذى تُكْتَحَلُ بِهِ العيْنُ، قال: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدر أَعمالِهِمْ فى العَرَق، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلى كعبَيْه، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلى رُكْبَتَيْهِ، ومِنْهُمْ منْ يَكون إِلى حِقْوَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلجامًا»(١) وَأَشَارَ رسول الله ﷺ بِيدِهِ إِلى فِيه.

(٤٠٨) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَعرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يذْهَب عَرَقُهُمْ فى الأَرضِ سَبْعِينَ ذِراعًا، ويُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ»(٢).

۞ ولك أن تتخيل معى عندما يقف الناس فى أرض المحشر وقد اقتربت الشمس من رؤوسهم حتى أصبحت كمقدار ميلٍ فيفيض العرق على أجسادهم حتى يملأ الأرض ثم يتصاعد على أجسادهم بحسب ذنوبهم.. فمنهم مَن يبلغ العرق إلى كعبيه ومنهم مَن يصل إلى رُكبتيه ومنهم مَن يصل إلى حِقويه ومنهم مَن يُلجمه العرق إلجامًا لأنه قد وصل إلى الشفة العليا.. فلو فتح فمه ليتأوه

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٢) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٦٣) كتاب الجنة.
ومعنى «يَذْهبُ فى الأَرْضِ» : ينْزِل ويغوص.

لدخل العرق إلى فمه.

ولكنه يغلق فمه دائمًا ويُحرَم حتى من أن يتأوه من شدة العذاب الذى هو فيه.. ولذا قال ﷺ: « **ومِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلجامًا**».

(٤٠٩) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سَمِعَ وَجْبَةً فقال: «**هَلْ تَدرُونَ ما هذا؟**» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قال: «**هذا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فى النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يهْوِى فى النَّارِ حَتَّى انْتَهَى الآنَ إلى قَعرِهَا، فَسَمِعتُم وجْبَتَهَا**»[١].

۞ فى هذا الحديث يحكى أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنهم كانوا جالسين مع رسول الله ﷺ يعلمهم ويُربيهم.. وفجأة سمعوا صوت سقطة شديدة ففزعوا وقالوا للنبى ﷺ: ما هذا؟ وإذا بالحبيب المصطفى ﷺ المؤيَّد بالوحى من السماء يقول لهم: «**هذا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فى النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يهْوِى فى النَّارِ حَتَّى انْتَهَى الآنَ إلى قَعرِهَا، فَسَمِعتُم وجْبَتَهَا**».

وحتى نخشى على أنفسنا من النار ومن التقلُّب فى دركات النار حذرنا النبى ﷺ من أجل أن نتقى النار وأن ننتبه لأقوالنا وأفعالنا وأن نراقب الله فى سكناتنا وحركاتنا... فقال ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوى بها فى النار سبعين خريفًا**»[٢].

۞ وكان عمر يقول: أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٤٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) صحيح: رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦١٨) - وأصله فى الصحيحين.

(٤١٠) وعَنْ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيس بينَهُ وبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمنَ مِنْهُ، فَلا يَرَى إِلّا ما قَدَّمَ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينْظُرُ بيْنَ يَدَيه، فَلا يَرَى إِلّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجهِهِ، فاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بَشِقِّ تَمْرَةٍ»(١).

۞ إنه مشهدٌ عظيم لا يستطيع إنسان أن يعلم مدى رهبته... فإن الإنسان إذا ما وقف أمام ملك من ملوك الدنيا فإنه يرتجف فؤاده خوفًا وفزعًا أن يصدر منه ما يُغضب صاحب السلطان فما ظنكم بالوقوف بين يدى الواحد الديان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

فبينما أنت فى أرض المحشر إذ يأتيك النداء: أين فلان بن فلان.

فيُلقى الله فى روعك أنك أنت المقصود من بين الخلائق... فتُقبل على عرش الواحد الديان... ويا له من موقفٍ عصيب.

فأعظِم به من موقف وأعظِم به من سائل سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨].

يُقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: «**أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىءٍ أكنت مُفتديًا به؟ فيقول: نعم؟ فيقول الله: كذبت قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئًا فأبيت إلا أن تشرك**»(٢).

فهذا موقف عصيب لكل مَن أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ.....، أما المؤمن فله موقف يسيرٌ أمام الله (جل وعلا)، ولكن والله لو أننا سنقف أمام الله عَزَّ وَجَلَّ لمناقشة الحساب فقط وقد علمنا أننا من أهل الجنة لكان الموقف عصيبًا فكيف بنا ونحن لا نعلم مصيرنا إلى جنةٍ أم إلى نار.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٩) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٣٤) كتاب أحاديث الأنبياء- ومسلم (٢٨٠٥) كتاب صفة القيامة.

قال ﷺ: «**من حوسِبَ يوم القيامة عُذِّب، قالت عائشة: أَوَ ليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⁽٨⁾﴾ قال: ليس ذلك بالحساب، إنما ذلك العرض، ولكن مَن نوقش الحساب يَهلك**».

وفى رواية فى الصحيحين أنه ﷺ قال: «**مَن نُوقش الحساب عُذِّب**»(١).

وفى رواية الطبرانى: «**مَن نُوقش المحاسبة هلك**»(٢).

۞ فلينظر كل واحدٍ منَّا إلى ما قدَّم وليستعد للقاء الله عَزَّوَجَلَّ بكثرة العمل الصالح والبُعد عن المعاصى وإخلاص التوحيد لله وإحسان الظن بالله جل وعلا وليتق النار ولو بشق تمرة.

***

(٤١١) وعَنْ أبى ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إِنِّى أَرى مالا تَرَوْنَ، أَطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا موْضِعُ أَربَعِ أصابع إِلَّا وَمَلَكٌ واضِعٌ جبهتهُ ساجِدًا لله تَعَالى، والله لَوْ تعلَمُونَ مَا أَعلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَليلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثيرًا، وما تَلَذَّذْتم بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرجْتُمْ إِلى الصُّعُداتِ تَجْأَرُون إِلى الله تَعَالى**»(٣).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أصحابه أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أطلعه على بعض الغيبيات... ولذا قال لهم: «**إِنِّى أَرى مالا تَرَوْنَ، وأسمع ما لا تسمعون**».

ونحن نعلم أنه لا يعلم الغيب على إطلاقه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ⁽٢٦⁾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٠٣) كتاب العلم- ومسلم (٢٨٧٦) كتاب الجنة.

(٢) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٧٩).

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٤٩).
وَ«أَطَّتْ» بفتح الهمزة وتشديد الطاءِ، «وَتَئِطُّ» بفتح التاء وبعدها همزة مكسورة، والأَطِيطُ: صَوْتُ الرَّحلِ وَالْقَتَبِ وشِبْهِهِمَا، ومعناهُ: أَنَّ كَثْرَةَ مَنْ فى السَّماءِ مِنَ المَلائِكَةِ الْعابِدينَ قَد أَثْقَلَتْهَا حَتَّى أَطَّتْ- وَ«الصُّعُدَاتِ»: الطُّرُقَاتُ- ومعنى «تجأَرُونَ»: تَسْتَغيثُونَ.

رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

ثم ذكر لهم النبي ﷺ بعض ما رآه وبعض ما سمعه فقال ﷺ: **«أَطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ»** أي: أن السماء أنَّت وعانت ويحق لها ذلك فإن كثرة مَن فى السماء من الملائكة العابدين قد أثقلتها حتى أطَّت.. ولذا قال ﷺ بعدها: **«مَا فِيهَا موْضِعُ أَرْبَعِ أصابع إِلَّا وَمَلَكٌ واضِعٌ جبهتهُ ساجِدًا لله تَعَالى»** قال القارىء: أَيْ مُنْقَادًا لِيَشْمَلَ مَا قِيلَ إِنَّ بَعضَهُمْ قِيَامٌ وَبَعضَهُمْ رُكُوعٌ وَبَعضَهُمْ سُجُودٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مقام معلوم.. أَوْ خَصَّهُ بِاعتِبَارِ الْغَالِبِ مِنْهُمْ أَوْ هَذَا مُخْتَصٌّ بِإِحدَى السَّمَاوَاتِ(١).

ثم قال ﷺ: **«والله لَوْ تعلَمُونَ مَا أَعلَمُ ، لَضَحِكْتُمْ قليلاً، وَلَبكَيْتُمْ كَثيرًا، وما تَلَذَّذُتم بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرجْتُمْ إِلى الصُّعُداتِ تَجْأَرُون إِلى الله تَعَالى»**.

وقد تكررت تلك الكلمات عندما عُرضت الجنة والنار على النبي ﷺ.

«والله لَوْ تعلَمُونَ مَا أَعلَمُ» فالنبى ﷺ هو أعلم الناس بالله عَزَّوَجَلَّ وبما عند الله من النعيم والعذاب..

قوله ﷺ: **«لَضَحِكْتُمْ قليلاً، وَلَبكَيْتُم كَثيرًا»** لو علمنا ما عَلِمه النبى ﷺ لكان بكاؤها أكثر من ضحكنا ولعلمنا أن الأمر خطير وأنه كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٧، ٦٨] فيجب علينا أن نستعد لهذا اليوم الذي سنقف فيه بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ليسألنا عن كل صغيرة وكبيرة.

قوله ﷺ: **«وما تَلَذَّذُتم بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ»** أي: لو علمتم ما هو أمامكم ما خطر على بال أحدكم أن يتلذذ بامرأته على فراشها فى الحلال... فما ظنكم بمن يفعل ذلك فى الحرام ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ١٨٥).

لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٤-٦].

«**وَلَخَرجْتُمْ إِلى الصُّعُداتِ تَجأَرُون إِلى الله تَعَالى**» أي: لخرجتم إلى الطرقات والبراري والصحاري تتضرعون إلى الله بالدعاء ليرفع عنكم البلاء ولينجيكم من العذاب.

۞ وهذا يُذكرني بقوم يونس عليه السلام الذين لما رأوا العذاب سيحل بهم تابوا وعادوا إلى الله فرفع الله عنهم العذاب.. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

---

(٤١٢) وعَنْ أبي بَرْزَة نَضْلَة بن عُبَيْدٍ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَزُول قَدمَا عبْدٍ يوم القيامةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وعَنْ عِلْمِهِ فِيم فَعَلَ فِيهِ، وعَنْ مالِهِ منْ أَيْنَ اكْتَسبهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ»[1].

۞ فالنبي ﷺ يخبر هنا أن العبد سيُسأل يوم القيامة عن عمره فيم أفناه.. هل في الطاعة أم المعصية... ويُسأل عن مرحلة الشباب على وجه الخصوص لأنها مرحلة القوة والشهوة... فهل استعملها في طاعة أم في معصيته عز وجل.. وأنه يُسأل عن ماله هل اكتسبه من حلال أم من حرام..وهل أنفقه في الحلال أم الحرام.. ويُسأل عن علمه هل أراد به وجه الله أم السمعة والشهرة.. ولذا فلا بُدَّ للعبد أن يُجدد نيته دائمًا وأن يبتغي بعمله وجه الله ولا يحرص أبدًا على الشهرة أو على ثناء الناس عليه لأن هذا قد يُحبط عمله كله.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٠٠).

(٤١٣) وعَـنْ أبـي هريـرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قـال: قـرأ رسـولُ الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ثـم قـال: «أَتـدرُونَ مَـا أَخبَارُهَـا؟» قـالوا: الله ورَسُـولُهُ أَعلَـمُ. قـال: «فَـإِنَّ أَخْبَارَها أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَـا، تَقُولُ: عَمِلْـتَ كَـذَا وكذَا في يَوْمِ كَذَا وكَذَا، فهَذِهِ أَخْبَارُهَا»[1].

۞ للأمانة العلمية.. فالحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.

(٤١٤) وعَنْ أبى سعيد الخُدرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال: قال رسـول الله ﷺ: «كَيْـفَ أَنْعَـمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاستَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ» فَكَـأَنَّ ذلـكَ ثَقُلَ عَلَى أَصحَاب رسول الله ﷺ فقالَ لَهُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا الله وَنِعمَ الْوكِيلُ»[2].

۞ هـذا الكـون العجيب الغريـب الـذى نعيش فيـه، يعجُّ بالحياة والأحيـاء الـذين نـشاهدهم والـذين لا نـشاهدهم... وهـم فيـه فى حركـة دائبـة لا تهـدأ ولا تتوقـف...وسيبقى حالـه كـذلك إلـى أن يـأتى اليـوم الـذى يُهلـك الله فيـه جميـع الأحياء إلا مَن يشاء، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وعندما يأتى ذلك اليوم يُنفخ فى الصور، فتُنهى هذه النفخة الحياةَ فى الأرض والسماء ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وهى نفخة هائلة مـدمرة، يـسمعها المـرء فـلا يـستطيع أن يوصـى بـشىء، ولا يقـدر علـى العـودة إلـى أهلـه وخِلَّانـه ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ

---

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٤٥٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٩٢).

«الْقَرْنُ» : هُوَ الصُّورُ الَّذِى قال الله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾[ق:٢٠]، كَذَا فَسَّرَهُ رسول الله ﷺ.

يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٤٩-٥٠][(١)].

أما عن الصور فلقد سُئل عنه الحبيب ﷺ فقال: «الصور قرنٌ يُنفخ فيه»[(٢)].

۞ وأما صاحبه الذى ينفخ فيه فهو «إسرافيل» عليه السلام وهو مَلَكٌ كريم من ملائكة الرحمن (جل وعلا).

والنفخ فى الصور نفخٌ حقيقى تسمعه الخلائق فيغْشاها من الفَزَع والصَّعق أمرٌ عظيم.

وقد دلَّ القُرآن والسُّنَّة على النَّفخ فى الصور:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]

ولما كان الهول والخوف والفزع عند النفخ فى الصور شديد.. كان من كمال رحمة الله (جلَّ وعلا) أنَّه يأمر بقبض أرواح المؤمنين بكل رفقٍ ولينٍ قبل النفخ فى الصور حتى لا يبقى على وجه الأرض إلَّا شرار الخلق.. فهم الذين يحضرون النَّفخ فى الصور.. وعليهم تقوم الساعة.

ولقد أخبرنا النبى ﷺ أن إسرافيل - صاحب الصور - فى حالة استعداد دائمة ينتظر الأمر من الملك (جل وعلا) بالنفخ فى الصور.

ولذلك فهو ينظر إلى العرش ولا تطرف عينه لحظة واحدة خشية أن يأتيه الأمر فجأة.

قال رسول الله: **«إنَّ طَرَفَ صَاحِبِ الصُّورِ مُنْذُ وُكِّلَ بِهِ، مُسْتَعِدٌّ يَنْظُرُ نَحوَ الْعَرشِ، مَخَافَةَ أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرفُهُ، كَأَنَّ عَيْنَيْهِ كَوْكَبَانِ دُرِّيَّانِ»**[(٣)(٤)].

---

(١) القيامة الكُبرى / د. عمر الأشقر (ص ٢٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٦٣).

(٣) صحيح: رواه الحاكم وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٧٨).

(٤) بتصرف من كتاب (رحلة إلى الدار الآخرة) / د. محمود المصري.

وهنا يأمر الله إسرافيل أن ينفخ في الصور نفخة طويلة تبدأ بالفزع ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

وتنتهى تلك النفخة بالصعق.. ثم بعد ذلك بفترة لا يعلمها إلا الله ينفخ إسرافيل نفخة البعث ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

أما عن المدة التى تكون بين نفخة الصعق ونفخة البعث فلقد أخبر عنها الحبيب ﷺ.

۞ **عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»** قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ »(١).

۞ **قال القرطبى**: وقول أبى هريرة: أبيت: فيه تأويلان.

الأول: أبيت: أى: امتنعت من بيان ذلك، وتفسيره، وعلى هذا كان عنده علمٌ من ذلك ... أى: سمعه من النبى ﷺ.

الثانى: أبيت .... أى: أبيت أن أسأل عن ذلك النبى ﷺ ... وعلى هذا لم يكن عنده علم من ذلك. والأول أظهر وإنما لم يُبينه؛ لأنه لم تظهر لذلك حاجة، لأنه ليس من البينات والهدى الذى أُمر بتبليغه(٢).

وبعد نفخة الصعق تموت الخلائق كلها.. يموت كل حى ويبقى الحى الذى لا يموت (جل وعلا) فيصبح الكون كله فى سكونٍ رهيب موحش فيطوى الله السماوات بيمينه ويطوى الأرض بشماله ويقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨١٤) كتاب التفسير، ومسلم (٢٩٥٥) كتاب الفتن.

(٢) التذكرة (١/ ٣٢٠) بتصرف.

المتكبرون؟.

قال ﷺ: «يَطْوِى اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِى الأَرَضِينَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»(١).

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٢٦-٢٧]

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥-١٦].

فلا أحد يسأل ولا أحد يجيب إلا الله (عَزَّ وَجَلَّ).

ثم يُحيي اللهُ إسرافيل مرة أخرى ويأمره بأن يَنفخ فى الصور نفخة البعث لتقوم الخلائق كلها من القبور إلى أرض المحشر للفصل والحساب بين يدى الكريم التواب (جل وعلا).

(٤١٥) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدلَجَ، وَمَنْ أَدلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، ألا إنَّ سِلْعَةَ الله غَاليةٌ، ألا إنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ»(٢).

و«أَدلَجَ» معناه: سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَالمُرَادُ: التَّشْمِيرُ فى الطَّاعَة. والله أعلم.

۞ «مَن خاف أدلج، ومَن أدلج بلغ المنزل» أدلج يعنى مشى فى الدُّلجة، وهى أول الليل «ومَن أدلج بلغ المنزل»؛ لأنه إذا سار فى أول الليل، فهو يدل على اهتمامه فى المسير، وأنه جادٌّ فيه، ومَن كان كذلك بلغ المنزل.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٨) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) صحيح: رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

۞ **«ألا وإن سلعة الله غالية، ألا وإن سلعة الله الجنة»**. السلعة: يعنى التى يعرضها الإنسان للبيع، والجنة قد عرضها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده ليشتروها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فمن خاف: يعنى مَن كان فى قلبه خوفٌ لله، عمل العمل الصالح الذى يُنجيه مما يخاف.

قَالَ الطيبىُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النَّبِىُّ ﷺ لِسَالِكِ الْآخِرَةِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَلَى طَرِيقِهِ وَالنَّفْسَ وَأَمَانِيهُ الْكَاذِبَةَ أَعوانُهُ ... فَإِنْ تَيَقَّظَ فِى مَسِيرِهِ وَأَخْلَصَ النِّيَّةَ فِى عَمَلِهِ أَمِنَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ وَمِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ بِأعوانِهِ.

ثُمَّ أَرْشَدَ إِلَى أَنَّ سُلُوكَ طَرِيقِ الْآخِرَةِ صَعبٌ وَتَحصِيلَ الْآخِرَةِ مُتَعَسِّرٌ لَا يَحصُلُ بِأَدنَى سَعيٍ فَقَالَ (أَلَا) بِالتَّخْفِيفِ لِلتَّنْبِيهِ (إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ) أَىْ مِنْ مَتَاعِهِ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ (غَالِيَةٌ) أَىْ رَفِيعَةُ الْقَدرِ (أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ) يَعنِى ثَمَنُهَا الْأَعمَالُ الْبَاقِيَةُ الْمُشَارُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ وَبِقَوْلِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(١).

(٤١٦) **وعَنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «يُحشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيامَةِ حُفاةً عُراةً غُرلاً» قُلْتُ: يا رسول الله الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعضُهُمْ إِلى بَعضٍ؟ قال: «يا عَائِشَةُ الأمرُ أَشَدُّ من أَنْ يُهِمَّهُم ذلكَ»**(٢).

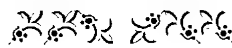
(١) تحفة الأحوذى (٦/ ٣٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٢٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٥٩) كتاب الجنة.
«غُرلاً» أى: غيرَ مختُونينَ.

وفي روايةٍ: «الأَمْرُ أَهَمُّ مِن أَن يَنْظُرَ بَعضُهُمْ إِلى بَعضٍ».

۞ «**يُحشر الناس**» يعني يُجمعون يوم القيامة «**حُفاة**» ليس لهم نعال «**عراة**» ليس عليهم ثياب «**غُرلاً**» غير مختونين. فالناس يخرجون من قبورهم كيوم ولدتهم أمهاتهم يعني في كمال الخلقة... كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله، الرجال والنساء، يعني عُراة ينظر بعضهم إلى بعض؟!.. قال: «**الأمر أهم أو أشدّ من أن يُهمهم ذلك، أو من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»، أي أن الأمر عظيم جدًّا، لا ينظر أحدٌ إلى أحد ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

فمن يستطيع في ذلك الموقف المهيب أن ينظر إلى أحدٍ وهو في تلك اللحظة ينتظر مصيره ومثواه الأخير.. هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار.. إن الإنسان لا تحمله أقدامه إذا علم أن نتيجة الامتحان غدًا سواء كان في مدرسة أو كلية.. فما ظنك بمن ينتظر نتيجة أعماله في الدنيا.. وهل هو من أهل السعادة الذين سيدخلون الجنة.. أم هو من أهل الشقاء الذين سيدخلون النار.



(٥١) باب الرجاء

۞ لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ باب الخوف أتبعه بعد ذلك بباب الرجاء.. وكأنه يقول لك: إذا رأيت الخوف قد غلب عليك فافتح باب الرجاء.

ثم ذكر بعض الآيات والأحاديث.. منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

يخبر تعالى عباده المُسرفين «أي: المُكثرين من الذنوب» بسعة كرمه ويَحُثُّهم على الإنابة، قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومَنْ قام مقامه، من الدعاة لدين الله، مخبرًا للعباد عن ربهم: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علاّم الغيوب.

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تيأسوا منها، فتُلقوا بأيديكم إلى التَّهلُكة، وتقولوا قد كَثُرت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يُزيلها، ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك، مُصرين على العصيان، مُتزودين بما يُغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم، بأسمائه الدالة على كرمه وجُوده.

واعلموا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: وصفُه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان، ذاتيان، لا تنفكُّ ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما، سارية في الوجود، مالئة للموجود، تَسحُّ يداه من الخيرات، آناء الليل والنهار، ويوالي النِّعَم والفواضل على العباد في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته. ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب، إن لم يأتِ بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة.

أعظمُها وأجلُّها- بل لا سبب لها غيره- الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النَّصوح، والدعاء، والتضرُّع، والتألُّه، والتعبُّد.... فهلُمَّ إلى هذا السبب الأجلِّ، والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها -أي: الإنابة والتوبة- فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بقلوبكم ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ بجوارحكم[1].

(٤١٧) وعَنْ عُبادَة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «منْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلّا الله وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحمَّدًا عبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وأَنّ عيسى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَريَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلى ما كانَ مِنَ العمَلِ»[2].

وفي رواية لمسلم: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله، وأَنَّ مُحَمَّدًا رسُولُ الله، حَرَّمَ الله علَيهِ النَّارَ».

۞ هذا الحديث العظيم يدل على فضل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وشهادة أن محمدًا عبده ورسوله... فمن نطق بهذه الشهادة عارفًا لمعناها، عاملًا بمقتضاها فإن جزاءه عند الله الجنة.

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم: هذا حديثٌ عظيم جليل الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم. اهـ.

فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله: الاعتراف قولًا وعملًا واعتقادًا أنه لا معبودٌ بحقٍّ إلا الله وحده لا شريك له.... كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

(١) تفسير السعدي (ص٨٥٩) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٣٥) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨) كتاب الإيمان.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فدلَّت هذه الآية الكريمة على أن المرسلين من أولهم إلى آخرهم إنما يدعون إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا هو التوحيد.

فالتوحيد: هو إخلاص العبادة لله وحده دون مَن سواه، فلا يُعبد مع الله أحد، سواء كان المعبود مع الله شجرًا أو حجرًا أو شمسًا أو قمرًا أو وليًّا أو مَلَكًا أو نبيًّا... ولهذا لما قال ﷺ لقريش: «**قولوا لا إله إلا الله**» قالوا: ﴿**أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا** وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾ [ص: ٥]... تعجَّبوا من هذه الدعوة؛ لأنها على خلاف ما هم عليه، وما وجدوا آباءهم عليه.

فهذا معنى لا إله إلا الله، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإله هو الذى تألهه القلوب محبة وإجلالًا، وإنابة، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذُلًّا، وخُضوعًا، وخوفًا، ورجاء، وتوكلًا.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله فى كتابه تيسير العزيز الحميد: لا إله إلا الله اشتملت على نفيٍ وإثبات، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلًا عن غيرهم فليس بإله، ولا له من العبادة شيء... وأثبتت الإلهية لله وحده. بمعنى: أن العبد لا يأله غيره.

أى: لا يقصده بشيءٍ من التألُّه، وهو تعلُّق القلب الذى يُوجب قصده بشيء من أنواع العبادة، كالدعاء، والنذر، والذبح، وغير ذلك.

وبالجملة فلا إله إلا الله، أى لا يُعبَد إلا هو سبحانه... فمن قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملًا بمقتضاها من نفى الشرك، وإثبات الوحدانية لله، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك، والعمل به، فهذا هو المسلم حقًّا... ومَن عمل بها ظاهرًا من غير اعتقادٍ فهو المنافق... ومَن عمل بخلافها من الشرك فهو

الكافر، ولو قالها».

۞ أما عن شهادة أن محمدًا عبده ورسوله، فهى قرينة شهادة أن لا إله إلا الله... فمَن شَهِدَ أن لا إله إلا الله، ولم يشهد أن محمدًا رسول الله لم تنفعه... فإنهما متلازمتان، ومَن ترك شهادة أن محمدًا رسول الله، فإنه لم يدخل فى الإسلام، ويكون أيضًا مُكذبًا لله... لأن الله يقول: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فإذا شهد العبد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فقد دخل فى الإسلام، وصار مسلمًا بذلك، وبقى عليه الالتزام، والقيام بفرائض الدين التى لا يتم إسلامه إلا بها، وامتثل أمر الرسول ﷺ فيما يأمر به، سواء كان ذلك مما جاء فى القرآن الكريم، أو مما جاءت به سُنته ﷺ؛ ليحقق معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

فإن معناها يتضمن تصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وأن لا يتعبد بشىء إلا ما شرعه الله على لسان رسوله ﷺ... فلا يكون كامل الشهادة مَن ترك أمره، وأطاع غيره، وارتكب نهيه.

۞ أما عن معنى: شهادة أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... وفى بعض روايات الحديث: وابن أَمته، وذلك خلافًا لما يعتقده النصارى أنه الله، أو ابن الله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢] ...فهذا من الغُلو المُحرم المذموم... فإن النصارى غَلَو فى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا الحد، فجعلوه إلهًا مع الله.

والله عَزَّوَجَلَّ يقول عن عيسى نفسه أنه قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فهو عبدٌ من عبيد الله، شرَّفه الله بالرسالة، فيجب على كل أحدٍ أن يشهد أن عيسى عبد الله، أي: عابد مملوكٌ لله، لا مالك، فليس له من الربوبية شيء، ولا من الإلهية شيء.

۞ وقوله ﷺ: «**وكلمته ألقاها إلى مريم**» قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عَزَّوَجَلَّ، فكان عيسى بإذن الله، وصارت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها.

وقوله: «**وروحٌ منه**»، قال أُبى بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عيسى روح من الأرواح التى خلقها الله، واستنطقها بقوله: ألست بربكم؟ قالوا: بلى.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ **فى قوله تعالى**: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: أي: من أمره كان الروح فيه..كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]

۞ وقوله ﷺ: «**والجنة حق، والنار حق**»، أى أن مَن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وشهد أن الجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل... فمَن شَهِدَ بأن الجنة التى خلقها الله، وأخبر بها سبحانه فى كتابه العزيز أنه أعدَّها لمن آمن به ورسوله... وأخبر عنها رسوله ﷺ... فمن شهد بأنها حقيقة حق ثابتة، لا شك فيها، وشهد أيضًا بأن النار التى أخبر الله عنها فى كتابه، وأخبر بها رسوله ﷺ حقيقة وحقٌّ ثابت، لا شك فيها، وأن الله أعدها للعاصين الكافرين بالله ورسوله، فقد حقق الإيمان بالجنة والنار.

وكيف لا يشهد المؤمن بأن الجنة حق، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وكيف لا يشهد بوجود النار ... والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي

وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤].

وفى هاتين الآيتين دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافًا لأهل البدع الذين يقولون: لا يُخلَقان إلا يوم القيامة.

۞ وقوله: «**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»، أى: مَن شَهِدَ بأن هذه الأشياء المذكورة أول الحديث حق، أدخله الله الجنة؛ لتصديقه فيما أخبر الله به، وأخبر به رسوله ﷺ... وجزاء مَن صدَّق الله، ومَن صدَّق رسوله ﷺ الجنة. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥].

وهذا الحديث يشهد له أيضًا حديث عتبان بن مالك الأنصارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «**إن الله حرم النار على من قال: لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجه الله**» رواه البخارى... وأصدق ما تكون هذه الشهادة وأنفعها عند الانقطاع من الدنيا، والإقبال على الآخرة لمن مَنَّ الله عليه بها ... كما قال عليه الصلاة والسلام: «**مَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[١].

***

(٤١٨) **وعَنْ أبى ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبىُّ ﷺ: «يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: مَنْ جاءَ بالحَسَنَة، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالها أَوْ أَزْيَدُ، ومَنْ جاءَ بالسَّيِّئَة، فَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثْلُها أَوْ أَغْفِرُ. وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شِبرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِراعًا، ومنْ تقرَّبَ مِنِّى ذراعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعًا، وَمَنْ أَتانى يمشى، أَتَيْتُهُ هَرْولَةً، وَمَنْ لَقِيَنى بِقُرابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بِى شَيْئًا لَقِيتُهُ بمثْلِها مغْفِرَةً»**[٢].

---

(١) بتصرف من كتاب من هدى المصطفى ﷺ/ الشيخ محمد عبد الله السبيل حفظه الله.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٧) كتاب الذكر والدعاء.

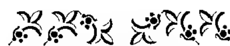
۞ معنى الحديث أن العبد إذا عمل حسنة فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُضاعفها إلى عشر أمثالها بل يزيد على ذلك بفضله وكرمه وجُوده... وأما إن عمل سيئة فإن الله عَزَّوَجَلَّ يأمر ملك السيئات أن يرفع القلم عنه لمدة ست ساعات فإن تاب لم تُكتب عليه سيئة وإن لم يتب كُتبت سيئة واحدة.. ثم هو فى مشيئة الله.. إن شاء غفر له وإن شاء عاقبه عليها.. ورحمته سبقت غضبه ورحمته غلبت غضبه..

۞ ثم قال الله تعالى: « **وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شِبرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، ومنْ تَقرَّبَ مِنِّى ذرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعًا، وَمَنْ أَتانى يمشى، أَتَيْتُهُ هَرْولَةً، وَمَنْ لَقِيَنِى بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِى شَيْئًا لَقِيتُهُ بمثْلِها مغْفِرَةً**».

فلقد ذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرم من عبده، فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبرًا، تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشى أتاه يهرول عَزَّوَجَلَّ ... فهو أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

وهذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السُّنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله عَزَّوَجَلَّ، لكننا لا ندرى كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرُّب ... فهو أمر ترجع كيفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن بمعناه ونفوض كيفيته إلى الله عَزَّوَجَلَّ[1].

«**وَمَنْ لَقِيَنِى بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِى شَيْئًا لَقِيتُهُ بمثْلِها مغْفِرَةً**» قراب الأرض خطيئة: أى ما يُقارب ملأها من الخطايا... وهنا يخبر الحق (جل وعلا) أن مَن لقيه بذنوبٍ تملأ الأرض كلها ولكنه على التوحيد والإيمان فإن الله عَزَّوَجَلَّ يلقاه بمثلها مغفرة لتلك الذنوب..... وليس هذا حضًّا على المعصية ولكنه حَضٌّ على الثبات على الإيمان والتوحيد والبُعد عن الشرك بأنواعه كلها.



(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٧٥).

(٤١٩) وعَنْ جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: جَاء أَعرَابِيٌّ إِلى النبِيِّ ﷺ فقال: يا رَسُولَ الله، ما المُوجِبَتانِ؟ فَقَالَ: «مَنْ مَات لا يُشرِكُ بِالله شَيْئًا دخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ ماتَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»(١).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا حُكْمُهُ ﷺ عَلَى مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا بِدُخُولِ النَّارِ وَمَنْ مَاتَ غَيْرَ مُشْرِكٍ بِدُخُولِهِ الْجَنَّةَ فَقَد أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.

فَأَمَّا دُخُولُ الْمُشْرِكِ النَّارَ فَهُوَ عَلَى عُمُومِهِ فَيَدخُلُهَا وَيَخْلُدُ فِيهَا ... وَلَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْكِتَابِيِّ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصرانِيِّ وَبَيْنَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ الْكَفَرَةِ ... وَلَا فَرْقَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ بَيْنَ الْكَافِرِ عِنَادًا وَغَيْرِهِ وَلَا بَيْنَ مَنْ خَالَفَ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَبَيْنَ مَنِ انْتَسَبَ إِلَيْهَا ثُمَّ حُكِمَ بِكُفْرِهِ بِجَحدِهِ مَا يَكْفُرُ بِجَحدِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا دُخُولُ مَنْ مَاتَ غَيْرَ مُشْرِكٍ الْجَنَّةَ فَهُوَ مَقْطُوعٌ لَهُ بِهِ ... لَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ كَبِيرَةٍ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ أَوَّلًا وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ كَبِيرَةٍ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَهُوَ تَحتَ الْمَشِيئَةِ فَإِنْ عُفِيَ عَنْهُ دَخَلَ أَوَّلًا وَإِلَّا عُذِّبَ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنَ النَّارِ وَخُلِّدَ فِي الْجَنَّةِ ... وَاللهُ أَعلَمُ(٢)...فإنه لا يُخلَّد موحدٌ فى النار حتى وإن كان مُرتكبًا لكبيرة لم يَتُب منها ما لم يكن مُستحلًّا لها.

❊ ❊ ❊

(٤٢٠) وعَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنّ النَّبِيَّ ﷺ، وَمُعَاذٌ ردِيفُهُ عَلى الرَّحلِ قَالَ: «يا مُعاذُ» قال: لَبَّيْكَ يا رسُولَ الله وَسَعدَيْكَ، قالَ: «يا مُعاذُ» قالَ: لَبَّيكَ يا رَسُول الله وَسَعديْكَ. قالَ: «يَا مُعاذُ» قال: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ الله وَسَعديْكَ - ثلاثًا- قالَ: «ما مِن عَبدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِله إِلا الله، وَأَنَّ مُحمدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ صِدقًا مِنْ قَلْبه إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ» قال: يَا رسول الله أَفَلاَ أُخْبِرُ بِها النَّاسَ فيستبشروا؟ قال: «إِذًا يَتَّكلوا»

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٣) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٢٨-١٢٩) بتصرف.

فَأَخْبَرَ بها مُعَاذٌ عِنْد مَوْتِهِ تَأَثُّمًا[1].

وقوله: «تَأَثُّمًا» أَيْ: خَوْفًا مِنَ الإِثْمِ في كَتْمِ هذا العِلْمِ.

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ أردف معاذ بن جبل معه على الدابة.. وهذا هو قمة التواضع من النبي ﷺ الذي علَّم الكون كله التواضع...

وبينما هما في الطريق إذ نادى النبي ﷺ على معاذ فقال: «يَا مُعاذُ» فقال له معاذ بكل أدب: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ الله وَسَعديْكَ ... فكررها النبي ثلاثًا ينادي على معاذ.. ومعاذ يرد عليه ويقول: لبيك يا رسول الله وسعديك.

فقال له ﷺ: «ما مِن عَبدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِله إِلا الله، وَأَنَّ مُحَمدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ صِدقًا مِنْ قَلْبِه إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ» ففرح معاذ بهذه البشرى العظيمة فأراد أن يخبر الصحابة لتنتشر تلك البشرى بعد ذلك بين الأمة كلها فيفرحوا ويكون ذلك في ميزان حسناته أن كان أول مَن نقل لهم تلك البشرى... فقال: يَا رسول الله أَفَلاَ أُخْبِرُ بِها النَّاسَ فيستبشروا؟ قال ﷺ: «إِذًا يَتَّكِلوا».

خشى النبي ﷺ أن يعرفوا تلك البشرى فيتكلوا عليها ويُقصروا في العمل.. فأراد أن يتركهم يجتهدون في طاعة الله (جل وعلا).. وسواء علموا أم لا فالبشرى محفوظة لهم بفضل الله عَزَّوَجَلَّ.

ولكن معاذ ظل يكتم هذه البشرى في صدره حتى نام على فراش الموت فخشي أن يموت قبل أن يبلغ الأمة بُشرى رسول الله ﷺ فأخبر الصحابة بتلك البشرى تأثُّمًا.. أي: خوفًا من الإثم في كتم هذا العلم.

فمن شهد الشهادتين صِدقًا من قلبه وأتى بشروطها السبعة وهي: العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا .. واليقين وهو استيقان القلب بها .. والقبول لها فلا يرد شيئًا من لوازمها ومقتضياتها .. والانقياد لها ظاهرًا وباطنًا.. والصدق فيها من صميم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨) كتاب العلم، ومسلم (٣٢) كتاب الإيمان.

القلب .. والإخلاص فيها.. والمحبة لها ولأهلها والموالاة والمعاداة لأجلها .. فمن حقق تلك الشروط السبعة ولم يأتِ بناقضٍ من نواقض (لا إله إلا الله) حرَّمه الله على النار وأدخله الجنة خالدًا فيها أبدًا.

(٤٢١) وعَنْ أبى هريرة أَوْ أبى سَعِيد الخُدرىِّ رضي الله عنهما -شَك الرَّاوى، وَلا يَضُرُّ الشَّكُّ فى عَينِ الصَّحابى، لأنهم كُلُّهُمْ عُدُولٌ- قال: لما كان يَوْمُ غَزْوَةِ تَبُوكَ، أصابَ الناسَ مَجَاعَةٌ، فَقالُوا: يا رَسُولَ الله لَوْ أَذِنْتَ لَنا فَنَحَرنَا نَواضِحَنا، فَأكلْنَا وَادَّهَنَّا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «افعلوا» فَجاءَ عُمَرُ رضي الله عنه، فقالَ: يا رَسولَ الله إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ، وَلَكِنْ ادعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادعُ الله لَهُمْ عَلَيْهَا بالبَرَكَةِ لَعَلَّ الله أَنْ يَجْعَلَ فى ذلكَ البَرَكَةَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «نَعَمْ» فَدَعَا بِنِطْعٍ فَبَسَطهُ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، فَجعلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ ويَجِيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ، ويَجِيءُ الآخَرُ بَكِسْرَةٍ حَتى اجْتَمعَ عَلى النِّطْعِ مِنْ ذَلكَ شَيءٌ يَسِيرٌ، فَدَعَا رسول الله ﷺ بِالبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا فى أَوْعِيَتكُمْ» فَأخَذُوا فى أوْعِيَتِهِمْ حتى ما تركُوا فى العَسْكَرِ وِعاءً إِلَّا مَلأوهُ، وأكلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضَلَ فَضْلَةٌ، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنِّى رَسُولُ الله لا يَلْقَى اللهَ بهما عَبْدٌ غَيْرُ شاكٍّ، فَيُحجَبَ عَنِ الجَنَّةِ»[1].

❁ من المعلوم أن غزوة تبوك هى غزوة العُسرة ... فلما كان النبى ﷺ وأصحابه فى تبوك أصاب الناس مجاعة لأن الطريق كان طويلًا والحر شديدًا وقد نفد ما معهم من الطعام.

فَقالُوا: يا رَسُولَ الله لَوْ أَذِنْتَ لَنا فَنَحَرنَا نَواضِحَنا، فَأكلْنَا وَادَّهَنَّا؟

وتأمل معى كيف كان أدب الصحابة مع النبى ﷺ.. فإنهم ما قالوا للنبى ﷺ: افعل كذا.. بل قالوا: لَوْ أَذِنْتَ لَنا... وهذا من حُسن آداب التعامل مع الأكابر

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧) كتاب الإيمان.

والعلماء فما ظنك بسيد الأتقياء وخاتم الأنبياء ﷺ.... المهم أنهم استأذنوا النبى أن ينحروا نواضحهم.. والنواضح من الإبل هى التى يُستقى عليها الماء. فلما وجد النبى ﷺ حاجتهم إلى الطعام قال: «**افْعَلُوا**».

وما هى إلا لحظات حتى جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رَسولَ الله إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ .. والمراد بالظهر هنا الدواب.. وسُميت ظهرًا لكونها يُركَب على ظهرها أو لكونها يُستظهر بها ويُستعان بها على السفر.

ثم أشار عمر رضي الله عنه على النبى ﷺ بشيءٍ فقال له: وَلَكِنْ ادعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادعُ الله لَهُمْ عَلَيْهَا بالبَرَكَةِ لَعَلَّ الله أَنْ يَجْعَلَ فى ذلكَ البَرَكَةَ. فوافق النبى ﷺ ودعا بنطع فبُسط على الأرض وطلب منهم أن يأتوا بما تبقّى من طعامهم فَجعلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ ويَجِيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ، ويَجِيءُ الآخَرُ بَكِسْرَةٍ حَتى اجْتَمَعَ عَلى النِّطْعِ مِنْ ذَلكَ شَىءٌ يَسِيرٌ، فَدَعَا رسول الله ﷺ بِالبَرَكَةِ... أى وضع يده المباركة على الطعام ودعا ربه عز وجل وقال: «**اللهم بارك**».. ثم طلب منهم أن يأخذوا ما يكفيهم من هذا الطعام فى أوعيتهم.. فجاء كل واحدٍ بوعائه وأخذ من الطعام ما يكفيه حتى امتلأت كل الأوعية التى فى العسكر.. فأكلوا جميعًا وشبعوا وبقى طعامٌ كثيرٌ معهم بعد أن كانوا يشكون من المجاعة التى أصابتهم.

فلما رأى النبى ﷺ ذلك قال: «**أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلّا الله، وَأَنِّى رَسُولُ الله لا يَلْقَى اللهَ بهما عَبْدٌ غَيْر شاكٍّ، فَيُحجَبَ عَنِ الجَنَّةِ**».

۞ ولم تكن تلك المعجزة الوحيدة التى حدثت للنبى ﷺ فى غزوة تبوك.. بل كان هناك أكثر من معجزة سأكتفى بذكر اثنتين منها:

۞ **عن ابن عباس** رضي الله عنهما **قال**: «قيل لعمر بن الخطاب: حدِّثنا عن شأن ساعة العُسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك فى قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه

عطش، حتى ظنَّنا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى أنه كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقى على كبده.

فقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد عوَّدك فى الدعاء خيرًا فادعُ الله لنا، قال: «**أتحب ذلك؟**» قال: نعم ... فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلت ثم سكبت، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر»[١].

۞ **وفى صحيح مسلم من حديث معاذ بن جبل** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة فصلى الظهر والعصر جميعًا والمغرب والعشاء جميعًا حتى إذا كان يومًا أخَّر الصلاة ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعًا ثم قال: «**إنكم ستأتون غدًا ـ إن شاء الله ـ عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئًا حتى آتى**» فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تَبِضُّ[٢] بشىءٍ من ماءٍ.

قال: فسألهما رسول الله ﷺ: «**هل مَسستُما من مائها شيئًا؟**» قالا: نعم فسبَّهما[٣] النبى ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول... قال: ثم غرفوا بأيديهم من

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع: (٦/ ١٩٤-١٩٥) رواه البزار والطبرانى فى الأوسط، ورجال البزار ثقات، والحاكم (١/ ١٥٩) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبى وهو صحيح على شرط مسلم فقط، وقال ابن كثير فى السيرة: (٤/ ١٦) إسناده جيد، ولم يخرجوه من هذا الوجه، قلت: الحديث صحيح والله أعلم.

(٢) تبض: أى تسيل - والشراك: سير النعل ومعناها أن الماء قليل جدًا.

(٣) أى زجرهما ... ولقد ثبت فى صحيح البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال: «**اللهم إنى أتخذ عندك عهدًا لن تُخلفنيه فإنما أنا بشر فأى مسلم آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقُربة بها إليك يوم القيامة**».

العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شىء، قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرتْ العين بماءٍ منهمر أو قال: غزير حتى استقى الناس...ثم قال: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مُلئ جنانًا**».

لقد كانت منطقة تبوك والوادى الذى كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء، ولكن الله عز وجل أجرى على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آتيًا لسدِّ حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة،... ولقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ بعد فترة قليلة من الزمن، وما زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لا يتكلم إلا صدقًا، ولا يخبر إلا حقًّا، ولا يُنبئ بشىء إلا ويتحقق[1].

(٤٢٢) وعَنْ عِتْبَانَ بن مالكٍ رضي الله عنه ، وهو مِمَّنْ شَهِدَ بَدرًا، قال: كُنْتُ أُصَلِّى لِقَوْمى بَنى سالمٍ، وَكَانَ يَحُولُ بَيْنى وَبينهُم وادٍ إذا جاءَت الأمطارُ، فَيَشُقُّ عَلَىَّ اجْتِيَازُهُ قِبَلَ مَسْجِدِهِمْ، فَجِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ، فقلتُ له: إِنِّى أَنْكَرْتُ بَصَرى، وَإِنَّ الوَادِىَ الَّذِى بيْنى وَبَيْنَ قَوْمى يسيلُ إِذَا جَاءَت الأَمْطارُ، فَيَشُقُّ عَلَىَّ اجْتِيازُهُ، فَوددتُ أَنَّكَ تَأْتى، فَتُصَلِّى فى بَيْتى مَكانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى، فقال رسُول الله ﷺ: «سأَفْعَلُ» فَغَدا علىَّ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْر رضي الله عنه ، بَعد ما اشْتَدَّ النَّهارُ، وَاسْتَأْذَنَ رسُولُ الله ﷺ، فَأَذنْتُ لهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حتى قالَ: «أيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصلِّىَ مِنْ بَيْتِكَ؟» فَأَشَرتُ لهُ إلى المَكَانِ الَّذِى أُحبُّ أَنْ يُصَلِّىَ فيه، فَقامَ رَسُولُ الله ﷺ، فَكبَّرَ وَصففْنا وراءهُ، فَصلَّى رَكعَتيْن، ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنا حِينَ سَلَّمَ، فَحَبَسْتُهُ علَى خَزِيرة تُصنَعُ لَهُ، فَسَمِعَ أَهْلُ الدَّارِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ فى بيْتى، فَثَابَ رِجَالٌ منهمْ حتَّى كَثُرَ الرِّجَالُ فى البَيْتِ، فَقَالَ

(١) الصراع مع الصليبيين (ص ١٤٢).

رجُلٌ: مَا فَعَلَ مَالكُ لا أَرَاهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ الله ورَسُولَهُ، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لا تَقُلْ ذَلِكَ أَلا تَراهُ قالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله يَبْتَغي بِذَلكَ وَجْهَ الله تعالى؟» فَقَالَ: الله وَرَسُولُهُ أعلَمُ، أَمَّا نَحنُ فَوالله ما نَرَى وُدَّهُ، وَلا حَديثَهُ إِلَّا إِلى المُنَافِقينَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «فَإِنَّ الله قَد حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله يَبْتَغِي بِذَلكَ وَجْهَ الله»[1].

۞ قال المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن عتبان بن مالك رضي الله عنه ، وكان يَؤُم قومه بنى سالم، وكان بين بيته وبين قومه وادٍ يجرى فيه السيل. فإذا جاء السيل؛ شَقَّ عليه عبوره.

وأضف إلى ذلك أن بصره ضَعُف، فصار يَشُق عليه مرتين؛ من جهة المشى، ومن جهة البصر والنظر. فجاء فأخبر النبى ﷺ بذلك، وطلب منه أن يأتى إلى بيته ليصلى فى مكانٍ من البيت، يتخذه عتبان مُصلًّى يصلى فيه، وإن لم يكن مسجدًا.

فقال النبى ﷺ : «**سأفعل**» ثم خرج هو وأبو بكر رضي الله عنه حين اشتد النهار، وكان أبو بكر رفيقه حضرًا وسفرًا، لا يفارقه... كثيرًا ما يكون معه، وكثيرًا ما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: جئت أنا وأبو بكر وعمر، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر.. ورجعت أنا وأبو بكر وعمر.

فهما صاحباه ووزيراه رضي الله عنهما ، صاحباه فى الدنيا، وصاحباه فى البرزخ، وقريناه يوم القيامة ... هؤلاء الثلاثة يقومون لله رب العالمين من مكانٍ واحدٍ، من البيت الذى دُفن فيه الرسول (عليه الصلاة والسلام)، والذى أصبح الآن فى قرارة المسجد النبوى.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٥) كتاب الصلاة، ومسلم (٣٣) كتاب الإيمان.
و«عِتْبَان» بكسر العين المهملة، وإسكان التاء المُثَنَّاةِ فَوْقُ وبَعدهَا باءٌ مُوَحَّدَةٌ.
و«الخَزِيرَةُ»: هِى دقِيقٌ يُطْبَخُ بِشَحمٍ - وقوله: «ثابَ رِجالٌ»، أَىْ: جَاءوا وَاجْتَمعُوا.

انظر إلى الحكمة: اختار الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون البيت الذى دُفن فيه الرسول ﷺ داخل المسجد؛ ليقوم هؤلاء الثلاثة يوم القيامة من وسط المسجد، مسجد النبى عليه الصلاة والسلام.

المهم أن النبى ﷺ خرج حين اشتد النهار، يعنى حين ارتفعت الشمس إلى دار عتبان بن مالك، فاستأذن، فأُذن له، فدخل ولم يجلس؛ بل قال: أين تريد أن أصلى... لأنه جاء لغرض، فأَحَبَّ أن يبدأ بالغرض الذى جاء من أجله قبل أى شيء... وهذا من الحكمة؛ أنك إذا أردت شيئًا لا تُعرج إلى غيره حتى تنتهى منه من أجل أن تضبط الوقت ويُبارَك لك فيه.

فصلى النبى ﷺ بالمكان، وصلوا معه جماعة؛ لأن هذه جماعة عارضة لا دائمة.

ثم لما فرغ من صلاته، إذا هو قد أعدَّ له طعامًا زهيدًا، فسمع أهل الدار. الدار هو ما نسميه عندنا بالحى والحارة - سمع أهل الدار أن الرسول ﷺ عند عتبان بن مالك، فثاب إليه أناس، يعنى اجتمعوا يريدون أن يهتدوا بالنبى عليه الصلاة والسلام، ويسمعوا من قوله، ويأخذوا من سُنته، فاجتمعوا فَقالَ رجُلٌ: مَا فَعَلَ مَالكٌ لا أَرَاهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ الله ورَسُولَهُ، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا تَقُلْ ذَلكَ أَلا تَراهُ قالَ: لا إِلَهَ إِلَّا الله يَبْتَغى بِذَلكَ وَجْهَ الله تَعالى؟**».

فقال الرجل: الله ورسوله أعلم ... لأن مَن قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله؛ فهو مؤمن ليس منافقًا ... والمنافق يقولها رياءً وسمعةً.

لا تدخل قلبه والعياذ بالله، أما مَن قالها يبتغى بها وجه الله؛ فإنه مؤمن بها، مصدق، تدخل قلبه.

ثم إن النبى ﷺ قال: «**إن الله حرم على النار مَن قال لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجه الله**» ... فكل مَن قالها يبتغى بها وجه الله، فإن الله يحرمه على النار، لماذا؟

لأنه إذا قالها يبتغى بها وجه الله؛ فإنه سيقوم بمقتضاها، ويعمل بما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة، من أداء الواجب، وترك المُحرم.

والإنسان إذا أدَّى الواجب وترك المحرم؛ وأحلَّ الحلال، وحرَّم الحرام، وقام بالفرائض، واجتنب النواهى، فإن هذا من أهل الجنة ... يدخل الجنة ويُحرَّم الله عليه النار.

۞ وفى هذا الحديث فوائد:

منها: أن مَن كانت حاله مثل حال عتبان بن مالك، فإنه معذور بترك الجماعة وله أن يصلى فى بيته، مثل أن يكون بينه وبين المسجد وادٍ لا يستطيع العبور منه، فإنه معذور... أو يكون قد ضَعُف بصره.

ومنها: أن الإنسان يُعذَر بترك الجماعة فيما إذا كان بينه وبين المسجد ما يشق عليه من وحلٍ أو ماءٍ أو غيره ... وقد كان من هدى النبى ﷺ أنه كان ينادى مُناديه فى الليلة المطيرة؛ أن صلوا فى رحالكم .. يعنى فى أماكنكم، وذلك من أجل أن لا يشق على الناس... فأما إذا كان ماءً بلا مشقة وبلا دحرٍ ووحلٍ؛ فإنه لا يُعذَر الإنسان بترك الجماعة.

ومن فوائد حديث عتبان بن مالك ﵁: أن المُصلَّى الذى يكون فى البيت لا يكون له حُكم المسجد .... فلو أن الإنسان اتخذ مُصلًّى فى بيته لا يصلى إلا فيه فليس بمسجد، سواء حَجَّره أو لم يُحجِّره.

وعلى هذا فلا تَثبُت له أحكام المسجد... فيجوز للإنسان أن يبقى فيه وهو جُنُب، وإذا جلس فيه لا يلزمه تحية المسجد ... فكل أحكام المساجد لا تثبت له، وإذا أراد أن يعتكف فيه؛ لم يصح اعتكافه. حتى لو كانت امرأة ولها مسجد فى بيتها، فإنها لا تعتكف فيه.

ومن فوائد حديثه ﵁: أنه يجوز أن تُقام الجماعة فى النوافل؛ لكن ليس

دائمًا بل أحيانًا ... فإن النبي ﷺ لما أراه عتبان المكان الذي يصلي فيه، وتقدم وصلى بهم ركعتين وصلوا خلفه ... فإذا صلى الإنسان الراتبة مثلاً أو سُنة الضحى، إذا صلاها جماعة؛ فلا بأس بذلك أحيانًا.

وثبت عنه ﷺ أنه صلى معه ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الليل، وصلى معه ابن مسعود، وصلى معه حذيفة، لكن ليس دائمًا ... فصلاة الجماعة نفلًا أحيانًا لا بأس بها.

ومن فوائد هذا الحديث: أنه لا بأس أن يتخذ الإنسان مصلى يعتاد الصلاة فيه في بيته، ولا يُقال إن هذا مثل اتخاذ مكان معين في المسجد لا يصلي إلا فيه، فإن هذا مَنهيٌّ عنه... يعني يُنهى الإنسان أن يتخذ في المسجد مكانًا لا يصلي إلا فيه، مثل أنه لا يصلي النافلة، لا تحية المسجد ولا غيرها إلا فيه، فإن النبي ﷺ نهى عن استيطانٍ كاستيطان البعير... يعني عن اتخاذ موطن كأعطان الإبل، تأوي إليه وتبيت فيه.

ومنها: أنه يجب على الإنسان أن يحبس لسانه عن الكلام في الناس، بنفاقٍ، أو كفر أو فسق، إلا ما دعت الحاجة إليه ... فإنه لا بد أن يبينه؛ لأن النبي ﷺ لما قال رجل عن مالك: إنه منافق، قال: «**لا تقل هكذا؛ أما علمت أنه قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله؟**».

لكن هذا متى يحصل أن يشهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) لرجل بالإخلاص... هو ليس بحاصل بعد موت الرسول (عليه الصلاة والسلام)، إنما ليس لنا إلا الظاهر، فمن ظهر لنا من حاله الصلاح؛ وجب علينا أن نحكم له بالصلاح، وألا نغتابه ولا نَسُبّه.

ومن فوائد هذا الحديث: محبة الصحابة لرسول الله ﷺ والجلوس إليه؛ لأنهم لما علموا أنه عند عتبان بن مالك ثابوا إليه، واجتمعوا عنده، ليتعلموا منه،

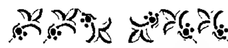
وينالهم من بركة علمه (عليه الصلاة والسلام).

ومنها: ما سبق أن أشرنا إليه أن الإنسان يبدأ بالشغل الذى يريده قبل كل شىء؛ لأن النبى ﷺ صلى فى المكان قبل أن يجلس، وقبل أن ينظر إلى ما صُنع له من الطعام.

ومن فوائده أيضًا: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان على جانبٍ كبير من التواضع؛ لأنه لما انتهى من الصلاة، يقول عتبان: حبسته على (خزيرة) نوع من الطعام ليس بذاك الجيد ... حبسه: يعنى قال له انتظر حتى ينتهى الطعام، ويقدمه إلى رسول الله ﷺ...وهذا لا شك أن فيه تواضعًا من رسول الله ﷺ.

ومنها: وهى من أكبر فوائد هذا الحديث. أن مَن قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله، فإن الله يُحرم عليه النار «**فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله**» يعنى يطلب وجه الله.

ومعلوم أن الذى يقول هذا طالبًا وجه الله، فسيفعل كل شىء يُقربه إلى الله، من فروضٍ ونوافل، فلا يكون فى هذا دليل للكسالى والمهملين؛ يقولون: نحن نقول لا إله إلا الله نبتغى بذلك وجه الله. نقول: لو كنتم صادقين ما أهملتم العبادات الواجبة عليكم[1].



(٤٢٣) وعَنْ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قَدِمَ رسُولُ الله ﷺ بِسَبْيٍ فَإذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْىِ تَسْعَى، إذْ وَجَدتْ صبيًّا فى السبْى أَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِها، فَأَرضَعَتْهُ، فقال رسُول الله ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ المَرأَةَ طارِحَةً وَلَدَهَا فى النَّارِ؟» قُلْنَا: لا والله. فَقَالَ: «لَلَّهُ أَرحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هَذِهِ بِولَدِهَا»[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ١٦١-١٦٤) بتصرف كبير.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٥٩٩٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٧٥٤) كتاب التوبة.

۞ وهنا صورة من صور حنان الأم مع ولدها لن تفوت على النبى ﷺ أن يعطى أصحابة العظة فيها... فهذه مجموعة من السبى وفيهم هذه المرأة تبحث عن صغيرٍ لها، فوجدت الطفل فأخذته بمنتهى الحنان، وضمَّته إلى صدرها فأرضعته.

يا ترى وهى فى هذه الحال هل من الممكن أن تأخذ الصبى وتُلقيه على الأرض مثلًا؟ هل من الممكن أن تأخذ هذا الصبى وتُلقيه فى النار مثلًا؟ هذا غير ممكن ... فيقول النبى ﷺ لأصحابه: «**أَتَرُوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طارِحَةً وَلَدَهَا فى النَّارِ؟**» قُلْنَا: لاَ والله. فَقَالَ ﷺ : «**لَلَّهُ أَرْحمُ بِعِبادِهِ مِنْ هَذِهِ بِولَدِهَا**».

ورحمة رب العالمين عظيمة... فالله أرحم بعباده من هذه بولدها، ... ولذا فإنه لن يدخل النار إلا مَن وقع فى المحرمات أو ترك أوامر الله سبحانه وتعالى وأشرك بالله سبحانه، وخالف وعاند واستكبر عن طاعة رب العالمين، فهذا الذى يستحق عذاب رب العالمين.

فالإنسان الذى يتوب إلى الله ... فالله رحيم ورءوف بعباده سبحانه.

فإذا دعا العبد ربه استجاب له، وإذا استغفر ربه غفر له، وإذا طلب من ربه أعطاه تبارك وتعالى.. فربنا رحيمٌ عظيم الرحمة ... وانظروا إلى قدر رحمته فى حديث أبى هريرة المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**لما خلق الله الخلق كتب فى كتابٍ فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى تغلب غضبى**»، قد يغضب الله عَزَّوَجَلَّ على عبدٍ من عبيده إذا وقع فى معصية ... وهذا العبد يبادر فيستغفر ربه تبارك وتعالى فإذا به يتوب عليه ويغفر له ويرحمه ... فالرحمة تغلب الغضب وتسبقه... وربنا يرحم هذا العبد الذى تاب إليه.

۞ فإذا كانت هذه الأم ترحم طفلها ولا تُلقيه فى النار .. فكل ذلك برحمة واحدة أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ فى الأرض .. فبها يتراحم الإنس والجن والوحش

والطير.. حتى إن الدابة لترفع حافرها عن وليدها خشية أن تُؤذيه ... فإذا كان يوم القيامة رفع الله تلك الرحمة إلى مائة رحمة ليرحم عباده يوم القيامة .. فالله أرحم بنا من رحمة الأم بطفلها الرضيع.

(٤٢٤) وعَنْ أبى هريرة ﵁ ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لما خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، كَتَبَ فى كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إن رَحمتى تَغْلِبُ غَضَبِى»(١).

وفى روايةٍ: «غَلَبَتْ غَضَبِى» وفى روايةٍ «سَبقَتْ غَضَبِى».

۞فالإنسان الذى يتوب إلى الله، فالله رحيم ورءوف بعباده سبحانه.

فإذا دعا العبد ربه استجاب له، وإذا استغفر ربه غفر له، وإذا طلب من ربه أعطاه تبارك وتعالى...فربنا رحيم عظيم الرحمة، وانظروا إلى قدر رحمته كما فى هذا الحديث.

۞ قال العلماء فى الحديث: **«إن رحمتى تغلب غضبى»**، وفى رواية: **«رحمتى سبقت غضبى»**.

قالوا المراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يُقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثر منه.

هكذا قال الإمام النووى نقلاً عن العلماء، وهذا النقل إنما هو نقل عن علماء الأشاعرة، لذا فليس هذا الكلام هو معتقد أهل السنة والجماعة، فالمعلوم أن الله تبارك وتعالى يغضب غضباً حقيقياً يليق بجلاله وكماله، والمعلوم أن الله تعالى يرحم عباده رحمة لا يعلم كُنهها إلا الله ﷻ.

أما نحن فقد أيقنَّا أن الله تعالى يغضب ويرضى ويسخط، ولا يستلزم إيماننا

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٩٤) كتاب بدء الخلق، و(٧٤٢٢) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧٥١) كتاب التوبة.

بهذا مشابهة غضب الله بغضب خلقه، ولا رحمة الله تعالى برحمة خلقه، ولا فرح الله تعالى بفرح خلقه، ولا رضا الله تعالى برضا خلقه... وقد قلنا: إن اختلاف صفات الله عَزَّوَجَلَّ عن صفات المخلوقين ما هو إلا فرع لأصل وهو اختلاف الذات، فلما اختلفت ذات الله تعالى عن ذوات المخلوقين لا بد أن تختلف الصفات... فليست ذاته كذوات المخلوقين، وبالتالى فإن صفاته ليست كصفات المخلوقين.

ثم إن صفات الله سبحانه وتعالى لا تُوهم التشبيه ولا التمثيل لصفات المخلوقين... وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة من جهة النقل عنهم.

أما من جهة العقل فما المانع أن نُسلِّم لله عَزَّوَجَلَّ بما أثبته لنفسه؟ فنكتفى فقط بأن الله تعالى يغضب، ولا يستلزم الغضب فى حق الله تعالى انفعالات نفسية، وإنما ذلك فى العبد، فتجعل المرء يتهور، أو يأتى بسفه أو بشىء من هذا، لكن الغضب فى حق الله ليس كذلك... وكذلك الفرح: «**لَلَّهُ أَفْرَحُ بتَوْبِة عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يجدُ ضالَّتَهُ بالْفلاةِ**»، فهل فرح الله عَزَّوَجَلَّ هو نفس فرح العبد؟ لا، وكذلك رحمة الله تبارك وتعالى لعباده ليست كرحمة العباد بعضهم لبعض... فإذا اختلفت الذات فلا بد وأن تختلف الصفات.

وأما قوله: (والمراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يُقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثر منه).

فأولاً: هذا القياس غير صحيح؛ للاختلاف بين الخالق والمخلوق، وإذا سلمنا بأن هذا قياس صحيح فلا بأس أن نقول: إن هذا المعنى ينضم إلى المعنى الأصلى، فيكون الأصل عندنا أن الله تعالى يغضب كما يشاء، ويفرح كما يشاء، ويغفر كما يشاء، ويسخط كما يشاء، فنؤمن بهذا ولا نخوض فيه، ولا بأس أن نضم إلى هذا المعنى الأصلى -الذى هو أصل القضية عندنا فيما يتعلق

بالصفات- معنىً آخر وهو: أن المراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، أى: أن رحمة الله تعالى أعظم وأكثر وأشمل من غضبه... فلا بأس بهذا المعنى خاصة وأن الأدلة أثبتت أن رحمة الله تبارك وتعالى أوسع من غضبه، وأن الله تعالى إذا وعد بالرحمة فإنه لا يُخلف وعده، وإذا تَوعَّد بالعذاب فإن ذلك داخلٌ فى مشيئته ... فقد تقع أو لا تقع، أى: قد ينفذها الله عَزَّوَجَلَّ، أو يعفو ويصفح.

إذاً: رحمة الله تعالى أوسع وأشمل وأعمُّ من غضبه ... لكن كيف يغضب؟ وكيف يسخط؟ وكيف يرضى؟ الكيفية لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك يحذر من تأويل النص عن ظاهره، بل يجب الإيمان به كما جاء، وإمراره كما جاء... وهذا معتقد أهل السُّنة والجماعة قاطبة، ولم يخالف فى ذلك أحدٌ منهم(١).

(٤٢٥) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «جَعَلَ الله الرَّحمَةَ مائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسعَةً وتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فى الأرْضِ جُزْءًا واحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَراحمُ الخَلائِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ ولَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

وفى رواية: «إِنَّ لله تَعَالى مائَةَ رَحمةٍ، أَنْزَلَ مِنْها رَحمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ والإِنْسِ وَالبَهَائم وَالهَوامِّ، فَبهَا يَتَعاطَفُونَ، وبها يَتَراحَمُونَ، وَبها تَعطِفُ الوَحشُ عَلى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ الله تعالى تِسْعًا وتِسْعِينَ رَحمَةً يَرْحَمُ بها عِبادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٢).

ورواهُ مسلم أَيضًا من روايةِ سَلْمَانَ الفَارسىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ لله تَعَالَى مِائَةَ رَحمَةٍ فَمِنْها رَحمَةٌ يَتَراحَمُ بها الخَلْقُ بَيْنَهُمْ وَتِسْعُ وَتِسْعُونَ لِيَوْم القِيامَةِ».

وفى رواية: «إِنَّ الله تعالى خَلَقَ يَومَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ مِائَةَ رَحمَةٍ كُلُّ رَحمَةٍ طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنها فى الأرضِ رَحمَةً فَبها تَعطِفُ

(١) شرح صحيح مسلم/ الشيخ حسن أبو الأشبال.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٠٠) كتاب الأدب، ومسلم (٢٧٥٢) كتاب التوبة.

الوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَالْوحشُ وَالطَّيْرُ بَعضُها عَلَى بَعضٍ فَإِذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ، أَكْمَلَها بِهَذِهِ الرَّحمَةِ».

۞ أى أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق الرحمة مائة جزءٍ.. فأنزل منها جزءًا واحدًا فى هذه الحياة الدنيا لتتراحم بها جميع الخلائق من إنسٍ وجنٍّ وحيوانٍ وطيرٍ وغيرها من الخلائق... فلك أن تتصور أن كل الرحمات التى نراها فى حياتنا بين الأم وأولادها وبين الناس وبعضهم البعض وبين الدابة وأولادها.. كل هذه الرحمات من آثار رحمة واحدة أنزلها الله (جل وعلا) فى هذه الحياة الدنيا.

فإذا كان يوم القيامة أضاف الله عَزَّوَجَلَّ تلك الرحمة إلى تسعٍ وتسعين رحمة اختبأها لعباده يوم القيامة ليرحمهم من أهوال وكُربات يوم القيامة.

فهو يوم وإن كان عصيبًا إلا أن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ تُدرك الموحدين بما يفوق الخيال.. حتى أن إبليس من كثرة الرحمات التى سيراها يوم القيامة من الله لعباده المؤمنين سيظن أن رحمة الله ستسعه.. وهيهات هيهات.

لكن على الرغم من تلك الرحمات فأنا لا أُعطى رُخصة لمن يريد أن يقع فى الذنوب والمعاصى اتكالًا على رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.. فربما لا تُدركه تلك الرحمة.. لأنه ليس وعدًا على الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر لكل عاصٍ .. وإنما كل عاصٍ إن لم يتب فهو داخلٌ يوم القيامة فى مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ.. إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له... فلا تتكل على هذا واعمل بما هو أحوط لك.. وهو لزوم الطاعة والبُعد عن المعاصى.. فإن وقعت فى أى معصية فأدرك نفسك بالتوبة الصادقة وأحسن الظن بالله أنه سيغفر لك وسيرحمك فى الدنيا والآخرة.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذِهِ الْأَحَادِيثُ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّجَاءِ وَالْبِشَارَةِ لِلْمُسْلِمِينَ ... قَالَ الْعُلَمَاءُ: لِأَنَّهُ إِذَا حَصَلَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ رَحمَةٍ وَاحِدَةٍ فِى هَذِهِ الدَّارِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْأَكْدَارِ: الْإِسْلَامُ وَالْقُرآنُ وَالصَّلَاةُ وَالرَّحمَةُ فِى قَلْبِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عليه ... فَكَيْفَ الظَّنُّ بمائة رَحمَةٍ فِى الدَّارِ الْآخِرَةِ

وَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ وَدَارُ الْجَزَاءِ ... وَاللهُ أَعلَمُ[١].

(٤٢٦) وعَنْ أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ: فِيمَا يَحكِي عَن ربِّهِ، تبارَكَ وَتَعَالى، قال: «أَذنَب عَبْدٌ ذَنبًا، فقالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال الله تَبارَكَ وَتَعالى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذنبًا، فَعَلِم أَنَّ لَهُ ربًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيأْخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عادَ فَأَذنَبَ، فقال: أَيْ ربِّ اغفِرْ لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أَذنبَ عبدِي ذَنبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأْخُذُ بِالذنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ، فقال: أَي رَبِّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال تَبارَكَ وَتَعالى: أَذنَبَ عَبدِي ذَنبًا، فعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيأْخُذُ بِالذَّنبِ، قد غَفَرْتُ لِعبدي، فَلْيَفعَلْ ما شَاءَ»[٢].

وقوله تعالى: «**فَلْيَفْعلْ ما شَاءَ**» أي: مَا دَامَ يَفْعَلُ هَكَذا، يُذْنِبُ وَيتُوبُ أَغْفِرُ لَهُ، فإِنَّ التَّوبَةَ تَهْدِمُ ما قَبْلَهَا.

۞ ففي هذا الحديث يحكي النبي ﷺ أن عبدًا أذنب ذنبًا فلم يفرح بذلك الذنب بل حزن حُزنًا شديدًا على ذلك الذنب ولجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ ليغفر له ذلك الذنب فقال: اللهم اغفر لي ذنبي.. فلما رأى الله عَزَّوَجَلَّ صدق توبته قال تعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب... فغفر الله عَزَّوَجَلَّ لذلك العبد التائب النادم.

ثم عاد هذا العبد وأذنب مرة أخرى رغمًا عنه وهو لا يريد أن يذنب ولكن غلبته نفسه وهواه وشيطانه.. فقال: أي رب اغفر لي ذنبي... فقال تعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب.. فغفر الله له.. وتكرر الذنب بعد ذلك وتاب العبد .. وتكررت التوبة من الله عليه فتاب عليه (جل وعلا)... إلى أن قال الحق (جل وعلا): قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء....

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٠٧) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٠٧) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧٥٨) كتاب التوبة.

وفى رواية قال تعالى له: «اعمل ماشئت فقد غفرت لك».

فيا لها من رحمة عظيمة من رب العالمين سبحانه ... وهنا قوله: (**فليفعل ما شاء**) ليس المعنى أنه يعصي كما يريد، ويذهب يشرك بالله كما يريد، وإنما المعنى: أنك قد تقع مرة ثانية وثالثة طالما أنت على ذلك، وكلما وقعت فى ذنب ندمت واستغفرت ... فالله يغفر وإن تكرر ذلك مائة مرة، طالما أنك تُجرد التوبة، وترجع إلى ربك سبحانه، وكل بنى آدم خطَّاء، وما من مؤمن إلا وله ذنب يعتريه الفَينة بعد الفَينة... وكل مرة لعله يقع فى شيء فيرجع يلوم نفسه ويتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولعله بعد فترة يقع مرة أخرى، فإذا كان العبد يسرع فى التوبة إلى الله، ويندم على الذنب، وينوى ألا يفعله .. ومن ثَمَّ تأتى الأقدار فيقع فيه مرة ثانية مع كراهته للذنب وحبه للرب سبحانه، وتوبته إلى الله... فالله عَزَّوَجَلَّ يغفر له وإن وقع مرارًا وتكرارًا فى هذا الذنب أو فى غيره بهذا الشرط، أن يتوب العبد إلى ربه سبحانه، وأن ينوى ألا يعود إلى ذلك.

أما الذى يقع فى الذنب ولا يهمه ذلك، واستغفر الله وهو مقيم على هذا الذنب، ويفعله وينوى أن يفعله مرة ثانية وثالثة ورابعة، فهذه التوبة ليست المذكورة فى هذا الحديث ... لكن مَن تاب إلى الله وهو ينوى ألا يعود إلى ذلك فهو المقصود[1].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ ظَاهِرَةٌ فِى الدَّلَالَةِ لَهَا وَأَنَّهُ لَوْ تَكَرَّرَ الذَّنْبُ مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَلْفَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ وَتَابَ فِى كُلِّ مَرَّةٍ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ وَسَقَطَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ تَابَ عَنِ الْجَمِيعِ تَوْبَةً وَاحِدَةً بَعدَ جَمِيعِهَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين/ الشيخ أحمد حطيبة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٧/ ١١٧).

(٤٢٧) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسى بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ الله بِكُمْ، وَجَاءَ بِقوم يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ الله تعالى، فيَغْفرُ لَهُمْ»(١).

(٤٢٨) وعَنْ أبى أَيُّوبَ خَالِدِ بنِ زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَوْلا أَنَّكُمْ تُذنِبُونَ، لَخلقَ الله خَلقًا يُذْنِبونَ، فَيَسْتَغْفِرُون، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(٢).

۞ لابد أن نعلم أن الإنسان قد كُتب عليه حظه من الذنوب.. وأن كل إنسانٍ يقع فى شىءٍ من الذنوب والأخطاء... والله عَزَّ وَجَلَّ هو الغفور الرحيم.. فمن مُقتضى ذلك أنه يغفر ويرحم.. ولكن يغفر لمن إن لم يكن هناك مَن يُذنب ثم يتوب ويستغفر.. فعلى ذلك قدَّر الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون هناك بعض الذنوب التى تصدر من بعض العباد.. فإذا تابوا بعد ذلك وجدوا ربًّا غفورًا رحيمًا يغفر لهم ويرحمهم .... وَالْمَعنَى الْمُرَادُ مِنَ الْحَدِيثِ هُوَ أَنَّ اللهَ كَمَا أَحَبَّ أَنْ يُعطِىَ الْمُحسِنِينَ أَحَبَّ أَنْ يَتَجَاوزَ عَنِ الْمُسِيئِينَ، وَقَد دَلَّ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَسْمَائِهِ: الْغَفَّارُ، الْحَلِيمُ، التَّوَّابُ، الْعَفُوُّ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْعَلَ الْعِبَادَ شَأْنًا وَاحِدًا، كَالْمَلَائِكَةِ مَجْبُولِينَ عَلَى التَّنَزُّهِ مِنَ الذُّنُوبِ، بَلْ يَخْلُقُ فِيهِمْ مَنْ يَكُونُ بِطَبْعِهِ مَيَّالًا إِلَى الْهَوَى مُتَلَبِّسًا بِمَا يَقْتَضِيهِ، ثُمَّ يُكَلِّفُهُ التَّوَقِّى عَنْهُ، وَيُحَذِّرُهُ عَنْ مُدَانَاتِهِ، وَيُعَرِّفُهُ التَّوْبَةَ بَعدَ الِابْتِلَاءِ، فَإِنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَإِنْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ فَالتَّوْبَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ ... فَأَرَادَ النَّبِىُّ ﷺ بِهِ أَنَّكُم لَوْ كُنْتُمْ مَجْبُولِينَ عَلَى مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَة لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يَتَأَتَّى مِنْهُمُ الذَّنْبُ، فَيَتَجَلَّى عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ عَلَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، فَإِنَّ الْغَفَّارَ يَسْتَدعِى مَغْفُورًا، كَمَا أَنَّ الرَّزَّاقَ يَسْتَدعِى مَرْزُوقًا(٣).

۞ وهناك معنى جميل أيضًا وبُشرى فى غاية الروعة والجمال: أنه مهما صدر منك من الذنوب والمعاصى فلا تيأس من رحمة الله بل أسرع بالتوبة

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩) كتاب التوبة.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٨) كتاب التوبة.
(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٥٩٠).

والعودة إلى الله وستجد ربك عَزَّوَجَلَّ غفورًا رحيمًا عفوًّا كريمًا... حتى لو كنت مشركًا أو كافرًا وأعلنت التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ فسوف يغفر لك ذنوبك وآثامك ويبدلها كلها إلى حسنات... كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهناك بشرى أخرى -ولا تنتهى البُشريات الجميلة أبدًا- فالعبد إن لم يقع فى الذنوب أبدًا فقد يُصيبه العُجب والغرور والترفُّع .. فقدَّر الله للعبد ألا يكون معصومًا وأنه يقع أحيانًا فى بعض المعاصى ليعلم أنه لا يستغنى عن ربه طرفة عينٍ.. فيرجع ويتوب إليه ليتوب الله عليه ويغفر له ذنوبه وآثامه.

(٤٢٩) وعَنْ أبى هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، قال: كُنَّا قُعودًا مَع رسول الله ﷺ: مَعَنا أَبُو بكْر وَعُمَرُ، رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا فى نَفَرٍ، فَقَامَ رسول الله ﷺ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا، فَخَشِينا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، ففزعنا، فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَخَرجتُ أَبْتَغِى رسول الله ﷺ، حَتَّى أَتَيتُ حَائِطًا لِلأَنْصَارِ -وَذَكَرَ الحديث بطُوله إلى قوله-: فقال رسول الله ﷺ: «اذْهَبْ فَمَنْ لَقِيتَ وَرَاءَ هَذَا الحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَه إِلّا الله، مُسْتَيقِنًا بهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر أبو هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أنهم كانوا قُعودًا مع النبى ﷺ.. وكان معهم أبو بكر وعمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ .. وفجأة قام رسول الله ﷺ من بين أظهرهم لحاجة من حوائجه وأبطأ وتأخر عليهم فخافوا عليه وفزعوا من أن يكون قد حدث له مكروه ﷺ.. فقد كان كل واحدٍ منهم يتمنى أن يفدى النبى ﷺ بنفسه وأهله وماله.

فقاموا جميعًا يبحثون عنه ﷺ .. وكان أول مَن فزع وخرج يبحث عن النبى ﷺ هو أبو هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٣١) كتاب الإيمان.

ظل أبو هريرة يبحث عن النبى ﷺ حتى دخل حائطًا -بُستانًا- للأنصار.. وكأنه ظن أن النبى ﷺ قد دخل هذا البستان... فأخذ يبحث عن باب البستان فلم يجده.. ولعله من شدة فزعه واندهاشه من غياب النبى ﷺ لم يرَ باب الحائط، فوجد جدولًا صغيرًا فدخل منه حتى وجد النبى ﷺ بالداخل. فلما دخل على النبى ﷺ قال النبى ﷺ: «**أبو هريرة؟**» فقال: نعم يا رسول الله ﷺ.

فسأله النبى ﷺ: «**ما شأنك؟**».. فأخبره أبو هريرة أنه ﷺ لما قام من بين أظهرهم فجأة وتأخر عليهم أنهم خافوا عليه.. وخرجوا ليبحثوا عنه ﷺ.

فنظر إليه النبى ﷺ وأعطاه نعليه وقال له: «**اذهب فمَن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مُستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**».

وكأنَّه دخل إلى هذا المكان فنزل عليه الوحى بذلك .. وكأن النبى ﷺ عَلِمَ أن الناس سيقولون لأبى هريرة: من أين أتيت بهذا الكلام، فنحن لم نجد النبى ﷺ؟ ... فأعطاه النعلين أمارة وعلامة على أنه ﷺ هو الذى أمره بذلك.

وبالفعل فقد خرج أبو هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ كما أمره النبى ﷺ فكان أول مَن لقيه عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، فقال له: إلى أين يا أبا هريرة؟ فقال: إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أُبشر مَن وجدت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مُستيقنًا بها قلبه بالجنة.

فإذا بعمر يخاف من اتكال الناس، فيأمر أبا هريرة بالرجوع .. فوكزه حتى أوقعه على الأرض، وقال له: ارجع يا أبا هريرة .... هنا ذهب أبو هريرة إلى النبى ﷺ يبكى، ووراءه عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، فسأله النبى ﷺ: لِمَ فعلت ذلك؟! فكان جواب عمر أنه قال: (يا رسول الله! إذاً يتكلوا)، فهى نفس الكلمة التى قالها النبى ﷺ لمعاذ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «**إذًا يتكلوا**»... لأن الناس لو علموا ذلك من غير أن يفهموا المعنى لاتكلوا على ذلك... حتى أنه ربما يقول أحدهم: ما دُمت أشهد أن لا إله إلا الله

أريد بذلك وجه الله فمن حقى أن أفعل كل ما أريده وسأدخل الجنة ما دُمت قد قلت: لا إله إلا الله مُستقينًا بها من قلبى .... فالأمر ليس كذلك. فلقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن النار لن يدخلها الكفار فحسب بل سيدخلها بعض عُصاة الموحدين الذين يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ... وأنهم تُوزن أعمالهم يوم القيامة، فمن رجحت سيئاته على حسناته أدخله الله عَزَّوَجَلَّ النار.

إذًا: هناك نار لعُصاة الموحدين يدخلونها يوم القيامة، فلو سمعوا أنهم سيدخلون الجنة ولن يُعاقَبوا فى النار على معاصيهم لأنهم قالوا: لا إله إلا الله فإنهم سيتكلوا عليها.

ومن أجل ذلك غضب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخشى أن يتكل الناس عليها ولا يعملوا فقال للنبى ﷺ: يا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِى أَنْتَ، وَأُمِّى، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعلَيْكَ، مَنْ لَقِىَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنِّى أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلِّهِمْ يَعمَلُونَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَخَلِّهِمْ»(١).

(٤٣٠) وعَنْ عبد الله بن عَمْرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النَّبِىَّ ﷺ تَلا قَولَ الله عَزَّوَجَلَّ فى إبراهِيمَ ﷺ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ، وَقَوْلَ عيسى ﷺ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْه وقال: «اللَّهُـمَّ أُمَّتِى أُمَّتِى» وبَكَى، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: «يا جبريلُ اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعلَمُ - فسَلْهُ مَا يُبْكِيهِ؟» فَأَتاهُ جبرِيلُ ... فَأَخَبَرهُ رسولُ الله ﷺ بِمَا قال: وَهُو أَعلَمُ، فقال الله تعالى: «يا جِبريلُ اذهَبْ إلى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرضِيكَ فى أُمَّتِكَ وَلا نَسُوءُكَ»(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٣١) (٥٢) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢) كتاب الإيمان.

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ جلس يتذكر يومًا ما قاله إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .. وتذكر قول عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فقام يدعو ويبكى ويقول: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِى أُمَّتِى**» أى: ارحم أمتى ولا تخفرنى فى أمتى ولا تحرمهم من دخول الجنة ولا تجعلهم من أهل النار... فكان دعاء النبى أعظم من دُعائهما. وهنا أرسل الله عز وجل جبريل عليه السلام وقال له: «**يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يُبكيه؟**» وربك أعلم ما الذى يُبكيه.

فلا يحتاج إلى أن يرسل جبريل عليه السلام ولكن أرسله حتى ينطق ويتكلم النبى ﷺ من تلقاء بنفسه بكل ما يتمناه ... فأتاه جبريل وسأله فأخبره النبى ﷺ بما قال.. فعاد جبريل إلى ربه عز وجل ليخبره بما قاله النبى ﷺ -والله أعلم بما قال- فقال تعالى لجبريل عليه السلام: «**يا جبريل اذهب إلى محمدٍ فقُل إنَّا سنُرضيك فى أمتك ولا نَسُوءك**».

وقد أرضاه الله عز وجل فى أمته، بأن جعل لهذه الأمة أجرها مُضاعفًا، كما جاء فى الحديث الصحيح: « **مَثَلُ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا، يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا إِلَى اللَّيْلِ، فَعَمِلُوا إِلَى نِصفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لاَ حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ، فَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ، فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمُ الَّذِي شَرَطْتُ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلاَةِ العَصرِ، قَالُوا: لَكَ مَا عَمِلْنَا، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ** »(١) وفى رواية: «...**فَقَالَ: أَهْلُ الكِتَابَيْنِ: أَيْ رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ هَؤُلاَءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ أَكْثَر عَمَلًا؟ قَالَ اللهُ عز وجل: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**»(٢). إذًا ... لا لوم عليه فى ذلك... ففضل الله على هذه الأمة كثير.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٥٨) كتاب مواقيت الصلاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٥٧) كتاب مواقيت الصلاة.

وقد أرضاه الله فى أمته -ولله الحمد- من عدة وجوه منها كثرة الأجر، وأنهم الآخرون السابقون يوم القيامة، وأنها فُضّلت بفضائل كثيرة، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ**»(١)(٢).

بل لقد أرضاه الله عَزَّوَجَلَّ في أمته حين جعل هذه الأمة خير أُمة أُخرجت للناس كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].. بل جعل الأمة المحمدية هي الأمة الشاهدة على كل الأمم يوم القيامة .. وتجاوز لهذه الأمة عمَّا توسوس به صدورهم ما لم يعملوا به أو يتكلموا به .... وجعلها أمة مرحومة لا يُخلَّد أي واحدٍ منهم فى النار ما دام قد جاء موحدًا .. وأرضاه فى أمته بأن عصمها أن تجتمع على ضلالة.. وأرضاه فى أمته بأن بعث لها على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لها أمر دينها ... وأرضاه فى أمته بأن جعل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ يصلى خلف واحدٍ من هذه الأمة -وهو المهدى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ... وأرضاه فى هذه الأمة بأن جعلهم يُدعَون يوم القيامة غُرًّا مُحجلين من أثر الوضوء ... وأرضاه فى أمته بأن جعل هذه الأمة آخر الأمم وأول مَن يُحاسَب يوم القيامة .. وأرضاه فى أمته بأن جعل ثُلثى أهل الجنة من هذه الأمة... وأرضاه فى أمته بأن أعطاه سبعين ألفًا من أمته يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب .. فلما استزاده النبى ﷺ زاده مع كل ألفٍ سبعين ألفًا وثلاث حثياتٍ من حثيات الرحمن (جلَّ وعلا).

فهذه الخصائص له ولأمته عليه الصلاة والسلام.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥) كتاب التيمم، ومسلم (٥٢١) كتاب المساجد.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٦٧).

(٤٣١) وعَنْ مُعَاذِ بن جَبَلٍ رضي الله عنه، قال: كُنتُ رِدفَ النبيِّ ﷺ على حِمارٍ فقال: «يَا مُعَاذُ، هَل تَدرى مَا حَقُّ الله عَلى عِبَادِهِ، ومَا حَقُّ الْعِباد عَلى الله؟» قلت: الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قال: «فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى العِبَادِ أَن يَعبُدُوه، وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحق العِبادِ عَلى الله أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فقلت: يا رسولُ الله أَفَلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قال: «لا تُبَشِّرْهُم فَيَتَّكِلُوا»(١).

۞ فى هذا الحديث يحكى معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يركب مع النبى ﷺ على حمارٍ.. وهذا هو قمة التواضع من النبى ﷺ أن يركب دابة متواضعة مثل الحمار.. وفوق ذلك أنه يُردف خلفه معاذ بن جبل.. فما أجمل تواضع النبى ﷺ الذى علَّم الدنيا كلها نعمة التواضع.

وبينما كان معاذ راكبًا مع النبى ﷺ إذ قال النبى ﷺ: **«يَا مُعَاذُ، هَل تَدرى مَا حَقُّ الله عَلى عِبَادِهِ، ومَا حَقُّ الْعِباد عَلى الله؟»**

ومعاذ يتأدب مع النبى ﷺ غاية الأدب ويقول له ﷺ: الله ورسوله أعلم.. مع أن معاذ بن جبل يعلم أن الله فرض على العباد أن يعبدوه ولكنه قال ذلك لعلَّ النبى ﷺ يقصد معنًى آخر ... ولذلك قال له: الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ حتى يتعلم من النبى ﷺ.

ولقد كان هذا دأب الصحابة رضي الله عنهم.. ففى حجة الوداع يحكى أحد الصحابة أن النبى ﷺ سألهم وفعلوا معه مثل ذلك.. فقد قال النبى ﷺ.

« **أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «**أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ؟**» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «**أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «**أَلَيْسَ البَلْدَةَ؟**» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «**فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٥٦) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (٣٠) كتاب الإيمان.

اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ، كحرمةِ يومِكم هذا، في بلدِكم هذا، في شهرِكم هذا»(١).

فلما قال معاذ: الله ورسوله أعلم.. قال النبي ﷺ: « فإنَّ حقَّ الله على العبادِ أن يعبدُوه، ولا يُشرِكُوا بِهِ شيئًا، وحقَّ العبادِ على الله أنْ لا يُعذِّبَ مَنْ لا يُشرِكُ بِهِ شيئًا».

۞ فحق الله على العباد أن يعبدوه.. فهي الغاية التي خلق الله الناس من أجلها..ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].. إذًا: هذه الآية تعطينا الغاية والحكمة التي من أجلها خلق الله عز وجل الإنس والجن، ومن باب أولى الملائكة الذين وصفهم ربهم عز وجل في القرآن الكريم بقوله: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

هذه الحكمة هي: أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ... خلق الجن والإنس ليعبدوه وحده لا شريك له(٢).

وفي الحقيقة أن العبادة لها مفهوم عام، ومفهوم خاص.

فالمفهوم العام: هي «التذلل لله محبة وتعظيمًا ... بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه ».

والمفهوم الخاص: يعني تفصيلها. قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية: هي «اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة... كالخوف، والخشية، والتوكل، والصلاة، والزكاة، والصيام، وغير ذلك من شرائع الإسلام ».

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٦٢) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٢) دروس ومحاضرات مفرغة من تسجيلات الشبكة الإسلامية / والفتوى للشيخ الألباني رحمه الله.

۞ والعبادة إما أن تكون عبادة كونية، أو عبادة شرعية ... يعنى أن الإنسان قد يكون متذللًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تذلُّلًا كونيًّا وتذلُّلًا شرعيًّا.

فالعبادة الكونية تشمل المؤمن والكافر، والبَر والفاجر ...

لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فكل مَن فى السماوات والأرض فهو خاضع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كونًا فلا يمكن أبدًا أن يُضاد الله أو يُعارضه فيما أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإرادة الكونية.

وأما العبادة الشرعية: فهى التذلُّل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرعًا ... فهذه خاصة بالمؤمنين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القائمين بأمره ... ثم إن منها ما هو خاصٌّ أخص كعبودية الرسل، (عليهم الصلاة والسلام)، مثل قوله - تعالى -: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]. وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]. وغير ذلك من وصف الرسل (عليهم الصلاة والسلام) بالعبودية.

وحق الله على العباد أن يعبدوه لكن بشرط ألا يُشركوا به شيئًا.. فهذا قيدٌ لهذه العبادة.

والشرك هو اتخاذ العبد من دون الله ندًّا يسويه برب العالمين ...

يحبه كحب الله، ويخشاه كخشية الله، ويلتجئ إليه، ويدعوه، ويخافه، ويرجوه، ويرغب إليه، ويتوكل عليه، و يطيعه فى معصية الله، أو يتبعه على غير مرضاة الله، وغير ذلك ... قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

ويستوى فى الخروج بهذا الشرك عن الدين المجاهر به ككفار قريش وغيرهم، والمُبطن له كالمنافقين المُخادعين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون

الكفر...قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، وغير ذلك من الآيات[١].

۞ وللشرك الأكبر ثلاثة أقسام رئيسة هي:

القسم الأول: الشرك في الربوبية:

وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيبًا من المُلك أو التدبير أو الخلق أو الرزق.

القسم الثاني: الشرك في الأسماء والصفات:

وهو أن يجعل لله تعالى مُماثلًا في شيء من الأسماء أو الصفات، أو يصفه تعالى بشيء من صفات خلقه.

ومن صور هذا الشرك:

الشرك بدعوى علم الغيب، أو باعتقاد أن غير الله تعالى يعلم الغيب...فمن ادَّعى أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب، فقد وقع في الشرك الأكبر المُخرج من الملة.

القسم الثالث: الشرك في الألوهية:

وهو: اعتقاد أن غير الله تعالى يستحق أن يُعبد أو صَرْفُ شيءٍ من العبادة لغيره[٢].

۞ وقد يسأل سائل ويقول: ما هي العبادات التي لا يجوز أن يُقصد بها غير الله؟

والجواب: أن العبادات التي لا يجوز أن يُقصَد ويُراد بها غير الله أنواع:

الأول: عبادات اعتقادية:

وهذه أساس العبادات كلها، وهي أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد

(١) ٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة (ص ٤١-٤٢).

(٢) عقيدة الطفل المسلم / د. محمود المصري (ص ٦٠).

الأحد الذى له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر .. الذى لا شريك له، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحقٍّ غيره.

الثاني: عملية قلبية:

والعبادات القلبية التى لا يجوز أن يُقصد بها إلا الله وحده،... وصرفها لغيره شركٌ: كالخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والخشوع والخشية، والحب، والإنابة، والتوكل، والخضوع.

الثالث: قولية: كالنُّطق بكلمة التوحيد... إذ لا يكفى اعتقاد معناها، بل لا بد من النُّطق بها... وكالاستعاذة بالله، والاستعانة والاستغاثة به، والدعاء له، وتسبيحه، وتمجيده، وتلاوة القرآن.

الرابع: بدنية: كالصلاة، والصوم، والحج، والذبح، والنذر، وغير ذلك.

الخامس: مالية: كالزكاة، وأنواع الصدقات، والكفارات، والأضحية، والنفقة[١].

فالمؤمن يعبد الله ولا يشرك به شركًا أكبر ولا أصغر ولا شركًا خفيًا، فالعبادة لا بد أن يكون فيها إخلاصٌ وتوجُّهٌ لله عز وجل وحده... ولا بد أن تكون المتابعة فيها للنبى ﷺ وأن يستن بسُنته، ويفعل ما جاء به، ولا يخترع، ولا يُشرع مع الله سبحانه تبارك وتعالى لنفسه ولا لغيره.

۞ وأما حق العباد على الله:

فهم إذا فعلوا العبادة فلهم حقٌّ... وليس العبد هو الذى فرض الحق على ربه سبحانه.. وإنما ربنا هو الذى ألزم نفسه بذلك بفضله وكرمه (سبحانه وتعالى).. فهو كتب على نفسه كتابًا وجعله فوق عرشه: **«إن رحمتى تسبق غضبى»**، لا يُلزمه أحد، ومَن يقدر أن يُلزم الله سبحانه وتعالى.... هو ألزم نفسه أن رحمته

---

(١) العقيدة فى الله/ د. عمر الأشقر (ص ٢٨٤، ٢٨٥).

تسبق غضبه، وألزم نفسه سبحانه أنه يعطى هؤلاء العباد إذا عبدوه حقًّا لهم على الله سبحانه أنه لا يعذبهم.

۞ قال ﷺ: «**وحق العباد على الله ألا يعذب من لم يشرك به شيئًا**»... كلمات يسيرة قليلة. ولكنها تحوى كل أنواع الرحمة من الرحمن الرحيم (جل وعلا).

فهنا الحديث وإن قلّت كلماته لكن معانيه عظيمة كبيرة قد يضيق عنها أُفق البعض من الناس ... فلذلك لما قال معاذ للنبى ﷺ: (يا رسول الله! أفلا أُبشر الناس؟) أى: بأن الذى سيموت وهو يقول: لا إله إلا الله سيدخل الجنة؟

(قال: **لا تُبشرهم فيتكلوا**)، أى: يتكلوا على قول: لا إله إلا الله ويتركوا العمل إن أساءوا فَهْمَ ذلك ... وقد قال الله عز وجل فى كتابه: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩].

قد يقول العبد: أنا لا أصلى ولا أصوم ولا أعمل إلا بقول: لا إله إلا الله، ومن قال: لا إله إلا الله دخل الجنة! وفى حديث آخر: (**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**) وما يدريك أنك تقدر أن تنطق بهذه الكلمة فى آخر حياتك أم لا تقدر عليها؟ وكم من إنسانٍ وهو فى سياق الموت يُقال له: قُل لا إله إلا الله فلا يقدر على أن يقول هذه الكلمة! ولعله يتكلم بأى شىء آخر وعند هذه الكلمة لا يقدر أن ينطق بها ... فهى كلمة عزيزة وغالية، وكلمة لا يقدر عليها كل إنسان فى حال وفاته.

فإن الذى يعيش على (لا إله إلا الله) هو الذى يموت على (لا إله إلا الله).

فمن مات على (لا إله إلا الله) ولم يُشرك بالله شيئًا رجونا له هذه البشارة بأن لا يُعذبه الله عز وجل وأن يُدخله الجنة.

لأن نفى الشرك يدل على الإخلاص والتوحيد ... ولا إخلاص وتوحيد إلا بعبادة.



۞ فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ فقال: «**لا تُبشرهم فيتكلوا**».

يعنى: لا تبشرهم فيتكلوا على ما يجب، ولا يقوموا بما ينبغى أن يقوموا به من النوافل ... ولكن معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبر بها عند موته تأثُّمًا ... يعنى خوفًا من إثم كتمان العلم فأخبر بها.

❊❊❊

(٤٣٢) وعَنْ البَرَاءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبِىِّ ﷺ قال: «**المُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فى القَبرِ يَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلّا الله، وأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله»، فذلك قولهُ تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾** [إبراهيم: ٢٧]»[1].

۞ إن الإنسان إذا دخل فى قبره تُعاد إليه الروح ليس كهيئتها فى الدنيا ولكن باتصالٍ برزخى الله عَزَّوَجَلَّ أعلم به.

(ويأتيه ملكان شديدا الانتهار يُجلسانه وينتهرانه ويسألانه: مَن ربك؟ وما دينك؟ وما تقول فى هذا الرجل الذى أُرسل إليكم؟ فإذا كان مؤمنًا قال: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد صلوات الله وسلامه عليه).

۞ وهذا هو محض فضل الله عَزَّوَجَلَّ حيث قال: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)** ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

يخبر الله تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين أى: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبى التام، الذى يستلزم أعمال الجوارح ويُثمّرها، فيثبتهم الله فى الحياة الدنيا، عند ورود الشبهات، بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها.

وفى الآخرة عند الموت، بالثبات على الدين الإسلامى، والخاتمة الحسنة،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٩٩) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٧١) كتاب الجنة.

وفى القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت «مَن ربك؟ وما دينك؟ ومَن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: «الله ربى، والإسلام دينى، ومحمد نبيِّى».

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ عن الصواب فى الدنيا والآخرة.

وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم ... وفى هذه الآية، دلالة على فتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبى ﷺ، فى الفتنة وصفتها، ونعيم القبر وعذابه[1].

وقد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر حين يُسأل: مَن ربك وما دينك ومَن نبيك؟

۞ وأما إذا كان العبد كافرًا فاجرًا يأتيه ملكان ينهرانه ويُجلسانه، ويسألانه السؤال نفسه: مَن ربك؟ وما دينك؟ وما تقول فى هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ فيقول مثلما كان حاله فى الدنيا... يقول: هاه هاه لا أدرى.

فلا يقدر أن يقول: لا إله إلا الله، ولا يقدر أن يجيب إلا بذلك... فقد كان فى الدنيا يتهكم بالمؤمنين وهو الآن فى قبره لا يستطيع أن يقولها ولا يستطيع أن يُجيب على أسئلة الملكين ... فيقولان له: لا دَريت ولا تَليت.

فيضربانه ضربة بمرزبة من نار ... هذه الضربة لو ضُرب بها جبل لصار ترابًا... ويُفرش له لوحان من النار، يوضع له لوح من النار فوقه ولوح تحته ويرى منزله من الجنة لو أطاع الله يقولان له: كنت ستذهب الجنة فى هذا المقعد لو أطعت الله ... وهنا يتحسر على نفسه. ويُعذَّب فى قبره إلى أن تقوم الساعة... قال ﷺ: **«وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِى هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لا أَدِرى كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ**

---

(١) تفسير السعدى (ص٤٨٤).

حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»(١).

۞ وقد يسأل سائل ويقول: ما صفة الملكين في القبر وما اسمهما؟

ويأتيك الجواب من رسول الله ﷺ حيث يقول:

« إِذَا قُبِرَ المَيتُ -أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ- أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَد كُنَّا نَعلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعتُ النَّاسَ يقُولُونَ قَولًا، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدرِي، فَيَقُولَانِ: قَد كُنَّا نَعلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ »(٢).

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرح الواسطية: ورد في بعض الآثار أن اسمهما منكرٌ ونكيرٌ ... وأنكر بعض العلماءِ هذين الاسمين، وقالوا: كيف يُسمَّى الملائكة وهم الذين وصفهم الله تَعالى بأوصاف الثناء بهذين الاسمين المُنكَرين .. وضعَّفوا الحديث الوارد في ذلك.

وذهب آخرون إلى أن الحديث حُجةٌ، وأنَّ هذه التسمية ليس لأنهما مُنكران من حيث ذواتهما، ولكنهما من حيث أن الميت لا يعرفهما وليس له بهما علمٌ سابق... وقد قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأضيافه الملائكة قومٌ مُنكرون: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ لأنه لا يعرفهم.

فهذان منكرٌ ونكيرٌ؛ لأنهما غير معروفين للميت ... ثم هذان الملكان، هل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٧٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٧٨٠) كتاب الجنة.

(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤).

هما ملكان جديدان موكلان بأصحاب القبور، أم هما الملكان اللذان عن اليمين وعن الشمال قعيد؟!

منهم مَن قال: إنهما الملكان اللَّذان يصحبان المرء .. فإنَّ لكلِّ إنسان ملكين في الدنيا يكتبان أعماله، وفي القبر يسألانه هذه الأسئلة الثلاثة... ومنهم مَن قال: بل هما ملكان آخران... والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] والملائكة خلقٌ كثيرٌ... قال: فالمهم أنه لا غرابة أن ينشئ اللهُ تعالى لكل مدفونٍ ملكين يرسلهما إليه، واللهُ على كل شيء قدير[١].

(٤٣٣) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أُطعِمَ بِهَا طُعمَةً مِنَ الدُّنيَا، وَأَمَّا المُؤمِن، فَإِنَّ الله تعالى يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ في الآخِرَةِ، وَيُعقِبُهُ رِزْقًا في الدُّنْيَا عَلى طَاعَتِهِ».

وفي رواية: «إِنَّ الله لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعطَى بِهَا في الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا في الآخِرَة، وَأَمَّا الْكَافِرُ، فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ لله تعالى في الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلى الآخِرَة، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»[٢].

۞ لا بد أن نعلم أن فضل الله عظيم على جميع خلقه ولذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الله لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً**» أي: لا يترك مجازاته بشيء من حسناته.. بل إن الله يعامل المؤمن بفضله لا بعدله.. فيضاعف له الحسنة إلى عشرة أمثالها وإلى سبعمائة ضعفٍ وإلى أكثر من ذلك.. لأن المؤمن الذي يريد الله والدار الآخرة فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يجزل له المثوبة والعطاء.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

---

(١) شرح الواسطية (٣٤٠-٣٤١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٨) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩] فالمؤمن يعطيه الله ويجزيه على عمله الصالح فى الدنيا والآخرة ... كما قال النبى ﷺ: « **إِنَّ الله لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعطَى بِهَا فى الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فى الآخِرَة** ».

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

فأما فى الدنيا فيرزقه ويُعافيه ويوفقه ويُسدده ويوسع عليه من كل أصناف الرزق فيرزقه بالأموال والأولاد والخيرات ... ثم يجزيه فى الآخرة بأن يُيسر حسابه ويُدخله جنته ويشمله برحمته ورضوانه.

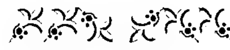
۞ أما الكافر فإنه إذا عمل حسنة فى الدنيا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُطعمه بها ويفتح عليه بها من خيرات الدنيا لكن ليس له أى ثوابٍ فى الآخرة لأنه لا يدخل الجنة إلا أهل التوحيد والإيمان.

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥-١٦].

قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ الَّذِى مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ لَا ثَوَابَ لَهُ فِى الْآخِرَةِ وَلَا يُجَازَى فِيهَا بِشَىْءٍ مِنْ عَمَلِهِ فِى الدُّنْيَا مُتَقَرِّبًا إِلَى اللهِ تَعَالَى ... وَصَرَّحَ فِى هَذَا الْحَدِيثِ بِأَنه يُطْعَمَ فِى الدُّنْيَا بِمَا عَمِلَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَىْ بِمَا فَعَلَهُ مُتَقَرِّبًا بِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِمَّا لَا يَفْتَقِرُ صِحَّتُهُ إِلَى النِّيَّةِ كَصِلَةِ الرَّحِمِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعِتْقِ وَالضِّيَافَةِ وَتَسْهِيلِ الْخَيْرَاتِ وَنَحوِهَا.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُدَّخَرُ لَهُ حَسَنَاتُهُ وَثَوَابُ أَعمَالِهِ إِلَى الْآخِرَةِ وَيُجْزَى بها مع ذلك أيضًا فى الدنيا ولا مانع مِنْ جَزَائِهِ بِهَا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... وَقَدْ وَرَدَ الشَّرْعُ بِهِ فَيَجِبُ اعتِقَادُهُ.

وَأَمَّا إِذَا فَعَلَ الْكَافِرُ مِثْلَ هَذِهِ الْحَسَنَاتِ ثُمَّ أَسْلَمَ فَإِنَّهُ يُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ عَلَى الْمَذْهَبِ الصَّحِيحِ(١).



(٤٣٤) وعَنْ جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْس مَرَّاتٍ»(٢).

۞ فهذا الحديث فيه الرجاء العظيم ... فهو يضرب لك هذا المثال: نهرٌ أمام بيتك تغتسل كل يوم فى هذا النهر ثم تخرج نظيفًا وتدخل البيت، ثم تغتسل مرة ثانية وتخرج نظيفًا إلى البيت، وهكذا خمس مرات كل يوم.

قال ﷺ : «**مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم**».

قوله: «**نهر جار**» لأنه إذا كان الماء واقفًا قد يتعفن؛ لأنه واقف، أما الجارى فيتبدل، والماء مع تَغيُّره وجريانه يكون ماءً نقيًّا.

والغمر: الكثير ... فالماء ليس قليلاً، «**غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات**» هل يُبقى ذلك من درنه شيئًا؟

الجواب: أنه لا يُبقى ذلك من الدرن شيئًا.

وفى رواية: «**فكذلك الصلوات الخمس**»، فالمؤمن يواظب على الصلوات حيث يُنادَى بهن، يرجو رحمة الله سبحانه .... فالصلاة فيها تكفيرٌ للسيئات، وفيها رفعٌ للدرجات، وفيها من الله عز وجل ما فيها من ثوابٍ عظيم يوم القيامة... تتوضأ لأجل أن تصلى فإذا بالخطايا تتساقط من أعضاء الوضوء، ومع غسل كل عضو تتساقط الخطايا.

إذا جئت إلى الصلاة جُمعت السيئات التى عملتها ووضعت فوق منكبيك،

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٢٢٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
«الْغَمْرُ» الْكَثِيرُ.

فإذا قمت تساقطت، وإذا ركعت تساقطت، وإذا سجدت تساقطت، وإذا أنهيت الصلاة فقرأت آية الكرسى لم يمنعك من دخول الجنة إلا أن تموت ... فإذا سبَّحت الله ثلاثـًا وثلاثين، وحمدت الله ثلاثـًا وثلاثين، وكبرت الله ثلاثـًا وثلاثين، وختمت بلا إله إلا الله غُفرت ذنوبك وإن كانت مثل زَبَد البحر ... ففى الصلوات الخمس تفعل ذلك.

وقبل أن تنام تُسبح الله عَزَّوَجَلَّ وتحمده وتكبره كما فى الصلاة، إلا أن التكبير يكون أربعـًا وثلاثين فيكون العدد مائة ... فهل تعمل من السيئات مثل هذا العدد؟ فالله عَزَّوَجَلَّ يجعل السيئة واحدة، ويجعل الحسنات مضاعفة حتى ترجو رحمته سبحانه، وتستعين به على عبادته سبحانه، وتواظب على هذه العبادة.

أما مَن اغترَّ بذلك وقال: أنا صليت فى النهار كذا وكذا ... وسبَّحت فى النهار كذا وكذا ... فمن حقى أن أعمل ما أريد من الذنوب، فهذا مغرورٌ بعمله محتقر عذاب رب العالمين سبحانه ... فالإنسان بمواظبته على الذنوب كأنه يحتقر العقوبة من الله فكان حقيقـًا بأن يُعذَّب ويُعاقَب يوم القيامة.

أما الإنسان الذى يتواضع فى مشيه، والذى يعلم أن الله قادر عليه، وأنه يغفر بفضله ورحمته ... وأنه لا يستحق شيئـًا إلا أن يتقبل منه الله سبحانه، فهذا يستحق من الله المغفرة والتوبة عليه... وهذا كله محض فضل الله عَزَّوَجَلَّ.

(٤٣٥) وعَنْ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنازَتِه أَرَبَعُونَ رَجُلاً لا يُشرِكُونَ بالله شَيئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ الله فيه»(١).

۞ هذا الحديث له رواية أخرى أن النبى ﷺ قال: «مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّى عَلَيْهِ أُمَّةٌ

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٤٨) كتاب الجنائز.

مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ»(١).

فهذا الحديث العظيم فيه عبرة للإنسان ليعرف مَن يصاحب.

فأهل الدنيا يأتون بالميت ويضعونه فى المسجد ثم يقفون فى الخارج ولا يصلون مع الناس ... والذى يصاحب أهل العبادة والطاعة عندما يموت يجرى الكل يتوضأ لأجل أن يصلى عليه، ويقفون على قبره يدعون له، ويسألون الله عَزَّوَجَلَّ له التثبيت، وإذا رجعوا إلى بيوتهم انشغلوا به هل عليه دَينٌ أو حاجة فنُسدد عنه؟ والأخ ينفع أخاه ... ومن النفع العظيم أن المؤمن إذا مات فصلى عليه أربعون لا يشركون بالله شيئًا يقولون: يا رب اغفر له، فيدعون ربهم سبحانه وتعالى، فيُشفعهم الله عَزَّوَجَلَّ فيه ويغفر له.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال القاضى:

قِيلَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ خَرَجَتْ أَجْوِبَةً لِسَائِلِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ فَأَجَابَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ سُؤَالِهِ ... هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَ بِقَبُولِ شَفَاعَةِ مِائَةٍ فَأَخْبَرَ بِهِ ثُمَّ بقبول شفاعة أربعين ثم ثلاث صُفُوفٍ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُمْ فَأَخْبَرَ بِهِ ... وَيَحتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يُقَالَ هَذَا مَفْهُومُ عَدَدٍ وَلَا يَحتَجُّ بِهِ جَمَاهِيرُ الْأُصُولِيِّينَ فَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْ قَبُولِ شَفَاعَةِ مِائَةٍ مَنْعُ قَبُولِ مَا دُونَ ذَلِكَ وَكَذَا فِي الْأَرْبَعِينَ مَعَ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ وَحِينَئِذٍ كُلُّ الْأَحَادِيثِ مَعمُولٌ بِهَا وَيَحصُلُ الشَّفَاعَةُ بِأَقَلِّ الْأَمْرَيْنِ مِنْ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ وأربعين(٢).

فهذه ثمرة الصُّحبة الطيبة .. فالصَّاحب المؤمن يشفع لأخيه ويدعو له عند موته..وإن أُذن له بالشفاعة يوم القيامة فإنه يَشفع لأخيه ليكون فى صُحبته فى الجنَّة..

ومن أجل ذلك قال النبى ﷺ: **«الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكمْ مَنْ يُخَالِلُ»**.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٤٧) (٥٨) كتاب الجنائز.

(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ٢٤-٢٥).

(٤٣٦) وعَنْ ابن مسعود رضي الله عنه قال: **كُنَّا مَعَ رسول الله ﷺ فى قُبَّةٍ نَحوًا مِنْ أَربَعِينَ، فقال: «أَتَرضَونَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَم، قال: «أَتَرضَون أَن تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّة؟» قلنا: نعم، قال: «والذى نفسُ محمدٍ بيده إنِّى لأرجو أن تكونوا نِصفَ أهلِ الجنة، وذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لا يَدخُلُهَا إِلَّا نَفسٌ مُسلِمَةٌ، وَمَا أَنتُمْ فى أَهْلِ الشِّركِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ البَيْضَاءِ فى جِلْدِ الثَّورِ الأَسودِ، أَوْ كَالشَّعَرَةِ السَّوداءِ فى جلدِ الثَّورِ الأَحمَرِ»**[1].

۞ ففى هذا الحديث يقول ابن مسعود رضي الله عنه: **كُنَّا مَعَ رسول الله ﷺ فى قُبَّةٍ نَحوًا مِنْ أَرْبعينَ، فقال: «أَتَرضَونَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟»**

ليس معنى الحديث أن هؤلاء الأربعين هم الذين سيدخلون الجنة وغيرهم لا يدخلها ... لكنه ﷺ يقصد أمة الإسلام الذين يدخلون وهم فى أهل الشرك كنسبة الشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود.

والمقصود: أنِ عدد المؤمنين بجوار عدد أهل الشرك قليل، فإذا كانوا يوم القيامة تَفضَّل الله عزوجل على المؤمنين فأدخلهم بفضله ورحمته الجنة وجعلهم أكثر أهل الجنة.

۞ ولقد جاء فى رواية أن النبى ﷺ قال: **«ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عامًا، وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظٌ من الزِّحام»**[2].

وهذا دلالة على سعة أبواب الجنة، وأنها أبوابٌ مفتوحة على الدوام لا تُغلق أبدًا ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ [ص: ٥٠]، «وفى تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تَصرُّفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم فى الجنة حيث شاءوا .. ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتُّحَف والمفاجآت من ربهم ودخول ما يَسُرهم عليهم كل وقت .. وأيضًا إشارة إلى أنها دار أمنٍ لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٢٨) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢١) كتاب الإيمان.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٧) كتاب الزهد والرقائق.

كانوا يحتاجون إلى ذلك فى الدنيا»[1].

وهذا الزحام على أبواب الجنة دلالة أيضًا على كثرة مَن يدخلون الجنة، لكن الأماكن محدودة، والأعداد غفيرة من لَدُن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها ... فكم سيكون نصيبنا -نحن أمة محمد- من مقاعد الجنة؟! هذا رسول الله ﷺ يقسم أمام الصحابة مبشِّرًا: «**والذى نفسى بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**» فكبَّر الصحابة ، فقال: «**أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»، فكبَّروا. فقال: «**أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة**»، فكبَّروا.

قال الإمام النووى رحمه الله: أَمَّا تَكْبِيرُهُمْ فَلِسُرُورِهِمْ بِهَذِهِ الْبِشَارَةِ الْعَظِيمَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ الشَّطْرَ وَلَمْ يَقُلْ أَوَّلًا شَطْرَ أهل الجنة فلفائدة حسنة وفى أَنَّ ذَلِكَ أَوْقَعُ فِى نُفُوسِهِمْ وَأَبْلَغُ فِى إِكْرَامِهِمْ ... فَإِنَّ إعطَاءَ الْإِنْسَانِ مَرَّةً بَعدَ أُخْرَى دَلِيلٌ عَلَى الِاعتِنَاءِ بِهِ وَدَوَام مُلَاحَظَتِهِ ... وَفِيهِ فَائِدَةٌ أُخْرَى هِىَ تَكْرِيرُهُ الْبِشَارَةَ مَرَّةً بَعدَ أُخْرَى وَفِيهِ أَيْضًا حَمْلُهُمْ عَلَى تَجْدِيدِ شُكْرِ اللهِ تَعَالَى وَتَكْبِيرِهِ وَحَمْدِهِ عَلَى كَثْرَةِ نِعَمِهِ وَاللهُ أَعلَمُ ... ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ فِى هَذَا الْحَدِيثِ شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَفِى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى نِصفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ[2].

۞لكن هل سنكون نصف أهل الجنة كما كان يرجو رسول الله؟!

والجواب: لا الربع ولا الثلث ولا النصف.

بل أكثر!!

والدليل على ذلك قول النبى ﷺ فى ما رواه عنه بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ**»[3].

(١) حادى الأرواح (ص٤٠).
(٢) مسلم بشرح النووى (٣/ ١٢٠-١٢١).
(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٢٦).

فهذا دليل على أن أمتنا ستُشكِّل ثُلثى أهل الجنة ... فيكون النبى ﷺ أخبر أولًا بحديث الشطر وهو رجاؤه من ربه، ثم تفضَّل الرب سبحانه بالزيادة على هذا ... وهو والله تدليلٌ لكل فرد من أفراد هذه الأمة، وهدية ثمينة مُقدَّمة لها من الرب لم تَحظَ بها غيرها من الأمم.

(٤٣٧) وعَنْ أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ دَفَعَ الله إِلى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُوديًّا أو نَصرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ».

وفى رواية عنهُ عن النبىِّ ﷺ قال: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيامَةِ نَاسٌ مِنَ المُسْلِمِين بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الجبَالِ يَغفِرُهَا الله لهمْ»[(١)].

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

قوله: «دَفَعَ إِلى كُلِّ مُسْلِمٍ يهوديًّا أَوْ نَصرانيًّا فيَقُولُ: هَذا فكَاكُكَ مِنَ النَّارِ» معناهُ مَا جَاءَ فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه: «لِكُلِّ أَحدٍ مَنزِلٌ فى الجَنَّةِ، ومَنزلٌ فى النَّارِ، فالمُؤْمِن إِذَا دَخَلَ الجنَّةَ خَلَفَهُ الكَافِرُ فى النَّار»، لأنَّه مُستَحِقٌّ لذلك بكُفْرِهِ...ومعنى «فِكَاكُكَ»: أَنَّك كُنْتَ مُعرَّضًا لِدُخولِ النَّارِ وَهَذا فِكَاكُكَ، لأَنَّ الله تعالى قَدَّرَ لِلنَّارِ عدَدًا يمْلؤُهَا، فإذا دَخلَهَا الكُفَّارُ بِذُنُوبِهمْ وَكُفْرِهِمْ، صَارُوا فى مَعنى الفِكَاك لِلمُسلِمينَ. والله أعلم[(٢)].

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠]»[(٣)].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٦٧) كتاب التوبة.

(٢) رياض الصالحين (ص١٦٠).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٩٩).

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خُلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له... فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أُمروا به مما خُلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عَزَّوَجَلَّ.

فالعبد المؤمن إذا كان فى قبره وأجاب على أسئلة الملكين يُقال له: انظر.. فينظر إلى مكانٍ فى النار فيُقال له: هذا منزلك لو مت على غير ذلك... أو لو كنت كافرًا من أهل النار.. ولكن انظر فهذا منزلك.. فينظر فيرى منزله فى الجنة فيفرح ويقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى... أى: حتى أدخل منزلى فى الجنة.

أما الكافر فإنه لا يُجيب على أسئلة الملكين فيُقال له: انظر فهذا منزلك لو كنت مت على الإيمان.. فيرى منزلًا فى الجنة.. فيُغلق هذا المشهد وتُفتح له نافذة على النار ويرى منزله فى النار فيُقال له: هذا منزلك لأنك كفرت بالله (جل وعلا) ... فالمؤمن يرث منزل الكافر فى الجنة لأن الكافر دخل النار... والكافر يرث منزل المؤمن الذى فى النار لأن المؤمن دخل الجنة وإذا دخل الكفار النار تظل النار تشتعل وتضطرم على أصحابها وتقول: «هل من مزيد» حتى يضع الجبار قدمه فيها فتقول: قط قط.. أى: قد اكتفيت لا أريد شيئًا بعد ذلك.. أما الجنة فإنه من رحمة الله (جل وعلا) أنه بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ويظفر كل واحدٍ منهم بنعيم لا يخطر على قلب بشر فإنه يبقى فى الجنة فضلٌ فيخلق الله خلقًا جديدًا ويُسكنهم فضل الجنة.

عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ: **«لا تزال جهنم يُلقَى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعضٍ، وتقول: قط قط بعزتك وكرمك ... ولا يزال فى الجنة فضلٌ حتى يُنشئ الله لها خلقًا فيُسكنهم فضل الجنة»**[١].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٨٤) كتاب التوحيد-ومسلم (٢٨٤٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

وأما اللفظ الذى وقع فى صحيح البخارى فى حديث أبى هريرة: «**وإنه ينشئ للنار مَن يشاء فيُلقى فيها فتقول هل من مزيد**» فغلط من بعض الرواة.

فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه ... فإنه لا يُعذب إلا مَن قامت عليه حُجته وكَذَّب رُسله ... قال تعالى: ﴿**كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾ [الملك: ٨-١٠] .... ولا يظلم الله أحدًا من خلقه.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَمَّا رواية: «**يجىء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بِذُنُوبٍ**» فَمَعنَاهُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْفِرُ تِلْكَ الذُّنُوبَ لِلْمُسْلِمِينَ وَيُسْقِطُهَا عَنْهُمْ وَيَضَعُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِثْلَهَا بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ ... فَيُدخِلُهُمُ النَّارَ بِأَعمَالِهِمْ لا بذنوب المسلمين ... ولا بد من هَذَا التَّأْوِيلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ وَقَوْلُهُ: «**وَيَضَعُهَا**» مَجَازٌ وَالْمُرَادُ: يَضَعُ عَلَيْهِمْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ.

لَكِنْ لَمَّا أَسْقَطَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَبْقَى عَلَى الْكُفَّارِ سَيِّئَاتِهِمْ صَارُوا فِي مَعنَى مَنْ حَمَلَ إِثْمَ الْفَرِيقَيْنِ لِكَوْنِهِمْ حَمَلُوا الإِثْمَ الْبَاقِي وَهُوَ إِثْمُهُمْ ... وَيُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ آثَامًا كَانَ لِلْكُفَّارِ سَبَبٌ فِيهَا بِأَنْ سَنُّوهَا فَتَسْقُطُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ بِعَفْوِ اللهِ تَعَالَى وَيُوضَعُ عَلَى الْكُفَّارِ مِثْلُهَا لِكَوْنِهِمْ سَنُّوهَا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ كُلِّ مَنْ يَعمَلُ بِهَا .. والله أعلم[(١)].

(٤٣٨) وعَنْ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ: يقول: «**يُدنَى المُؤْمِنُ يَومَ القِيَامَةِ مِن رَبِّه حتَّى يَضعَ كَنَفَهُ عَلَيه، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِه، فيقولُ: أَتَعرفُ ذنب كذا؟**

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ١٣٣-١٣٤).

أَتعرفُ ذَنبَ كَذَا؟ فيقول: رَبِّ أَعرِفُ، قال: فَإِنِّى قَد سَترتُهَا عَلَيكَ فى الدُّنيا، وَأَنَا أَغفِرُهَا لَكَ اليومَ، فَيُعطَى صَحِيفَةَ حسَنَاته»[1].

۞ نحن نعلم أنه ما من عبدٍ إلا وله ذنوبٌ تعتريه الفَينة بعد الفَينة.. وذلك لأنه ليس هناك أحدٌ معصوم إلا الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) .. فإذا كان يوم القيامة فإن الله عَزَّ وَجَلَّ من كمال رحمته أنه يُدنى عبده المؤمن ويضع عليه كَنَفَهُ ويستره ثم يسأله ويُقرره بذنوبه ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ وإذا بالعبد المؤمن يقول: رب أعرف.

وفى هذه اللحظة قد يظن العبد أنه قد هلك وأنه من أهل النار.. وإذا بالعزيز الغفار يقول له: **«فَإِنِّى قَد سَترتُهَا عَلَيكَ فى الدُّنيَا، وَأَنَا أَغفِرُهَا لَكَ اليَومَ، فَيُعطَى صَحِيفَةَ حسَنَاته»**.

وذلك لأن كل عبدٍ له صحيفة مُسَجَّلة فيها أعماله خيرها وشرّها... وهذه الصحيفة كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها ... وفى المحشر يُعطى كتابه ليقرأه وينظر أعماله.

وتختلف الطريقة التى يُؤتَى بها العباد كتبهم: فأمَّا المؤمن فإنه يُؤتَى كتابه بيمينه من أمامه بعد مُحاسبته الحساب اليسير، وينقلب إلى أهله مسرورًا...

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[الحاقة: ١٩-٢٤] .

وأمَّا أهل المعاصى والنِّفاق فإنَّ أحدهم يُؤتَى كتابه بشماله من وراء ظهره، وعند ذلك يدعو أحدهم بالويل والثُّبور.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤١) كتاب المظالم - ومسلم (٢٧٦٨) كتاب التوبة.
كَنَفُهُ: سَترُهُ وَرَحمَتُهُ.



كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَى سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

۞ وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «يدنى الله العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كنفه فيستره من الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه فى ذلك الستر فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك ... قال: فيمر بالحسنة فيبيضّ لها وجهه، ويمر بالسيئة فيسودّ لها وجهه، قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبدى؟ قال: فيقول نعم يا رب أعرف، قال: فيقول: (فإنى) أَعرَفُ بها منك، قد غفرتها لك... قال: فلا تزال حسنة تُقبل فيسجد وسيئة تُغفَر فيسجد فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادى الخلائق بعضها بعضًا: طوبى لهذا العبد الذى لم يعصِ قط ... فلا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه»(١).

(٤٣٩) وعَنْ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً أَصابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَة، فَأَتى النَّبىَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ﴾ [هود:١١٤]، فقال الرجل: أَلِىَ هذا يا رسولَ الله؟ قال: «لِجميعِ أُمّتى كُلهِمْ»(٢).

(٤٤٠) وعَنْ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النبىِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله أَصَبْتُ حدًّا،فَأَقِمْهُ عَلَىَّ، وَحَضرتِ الصَّلاةُ فَصَلَّى مَعَ رسول الله ﷺ فَلَمَّا قَضى

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص: ٢١٥) فى زوائد الزهد بإسنادٍ حسن.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٦) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٢٧٦٣) كتاب التوبة.

الصَّلاة قال: يا رسول الله إِنِّى أَصَبْتُ حَدًّا، فأَقِمْ فىَّ كتَابَ الله، قال: «هَلْ حَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلاةَ؟» قال: نَعم قال: «قد غُفِرَ لَكَ»[(١)].

۞ ففى هذا الحديث أن رجلًا سوَّلت له نفسه فأصاب من امرأة قُبلة فجاء إلى النبى ﷺ بوازعٍ من إيمانه فإنه لم يُجبره أحدٌ على الذهاب إلى النبى ﷺ والاعتراف بين يديه ﷺ .. فقال للنبى ﷺ: إنى أصبت حدًّا فأقمه علىَّ.

فسكت النبى ﷺ.... وحضرت الصلاة فقام هذا الرجل وصلى مع النبى ﷺ فلما قُضيت الصلاة لم يفضحه النبى ﷺ ولم يُفشِ سره أمام الصحابة.. بل قال له بكل رحمة: «**هل حضرت معنا الصلاة؟**» قال الرجل: نعم يا رسول الله.. فقال له ﷺ: «**قد غُفر لك**».. وفى الرواية الأخرى أن الله عَزَّوَجَلَّ تفضَّل على هذا العبد المذنب وأمثاله بأن غفر له ذلك بصلاته لله عَزَّوَجَلَّ فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

(فرح الرجل بذلك فقال للنبى ﷺ: أَلِيَ هذا يا رسول الله؟! فقال: **لجميع أمتى كلهم**).

وقد جاء أن العبد إذا أذنب ذنبًا فتوضأ وصلى لله أن الله يكفر عنه هذا الذنب بصلاته هذه.

۞ وعن أبى أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أيما رجلٍ قام إلى وضوئه يريد الصلاة، ثم غسل كفَّيه، نزلت كُل خطيئةٍ من كفَّيه مع أول قطرةٍ، فإذا مضمض واستنشق واستنثر، نزلت خطيئتُهُ من لسانه وشفتيه مع أول قطرةٍ، فإذا غسل وجهه، نزلت كُل خطيئة من سمعه وبصره مع أول قطرة، فإذا غسل يديه إلى المرفقين،**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٢٣) كتاب الحدود، ومسلم (٢٧٦٤) كتاب التوبة.

وقوله: «أَصَبْتُ حدًّا» معناه: مَعصِيَةً تُوجبُ التَّعزير، وَليس المُرَادُ الحَدَّ الشَّرْعِيَّ الْحقيقىَّ كَحَدِّ الزِّنا والخمر وَغَيْرِهَما، فَإِنَّ هَذِهِ الحُدودَ لا تَسْقُطُ بِالصلاةِ، ولا يجوزُ للإمام تَرْكُهَا.

ورجليه إلى الكعبين، سَلِم من كل ذنبٍ كهيئته يوم ولدته أمه. (قال:) فإذا قام إلى الصلاة رفع الله درجته، وإن قعد قعد سالمًا»[(١)].

۞ وعن عقبة بن عامرٍ عن النبى ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، يُقْبِلُ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»[(٢)].

وذلك لأن الإنسان إذا توضأ على الصفة الصحيحة للوضوء خرجت خطاياه ... وإذا صلى وقد فرَّغ قلبه لله كفَّر الله عنه ذنوبه وسيئاته.

فلا بد من ملاحظة هذا القيد؛ لأن من الناس مَن يُصلى ولكنه ينصرف من صلاته ما كُتب له إلا عشرها أو أقل؛ لأن قلبه غافل وكأنه ليس فى صلاة بل كأنه يبيع ويشترى أو يعمل أعمالاً أخرى حتى تنتهى الصلاة.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

قَوْلُهُ فِى الَّذِى أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ ... هَذَا تَصرِيحٌ بِأَنَّ الْحَسَنَاتِ تُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ وَاخْتَلَفُوا فِى الْمُرَادِ بِالْحَسَنَاتِ هُنَا فَنَقَلَ الثَّعلَبِىُّ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهَا الصلوات الخمس واختاره ابن جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِىَ قَوْلُ الْعَبْدِ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَيُحتَمَلُ أَنَّ المراد الحسنات مُطلَقًا[(٣)].

(٤٤١) وعَنْ أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله لَيَرضى عن الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأكلَةَ، فَيَحمَدُهُ عليها، أَوْ يَشْربَ الشَّرْبَةَ، فَيَحمدُهُ عليها»[(٤)].

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٧٢٤).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٤) كتاب الطهارة.
(٣) مسلم بشرح النووى (١٧/ ١٢٤).
(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء.
«الأَكْلَةُ» بفتح الهمزة وهى المرَّةُ الواحدةُ مِنَ الأكل كَالْغَدوَةِ والْعَشْوَةِ، والله أعلم.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحمَدُهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحمَدُهُ عَلَيْهَا**» الْأَكْلَةُ وَهِيَ المرة الواحدة من الأكل كالغداء والعشاء... وفيه استحباب حمد الله تَعَالَى عَقِبَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ... وَقَد جَاءَ فِي الْبُخَارِيِّ صِفَةَ التَّحمِيدِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا ... وَجَاءَ غَيْرُ ذَلِكَ ولو اقتصر عَلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ حَصَّلَ أَصلُ السُّنَّةِ(١).

❁ يا ترى هذه الأكلة والشربة لو فقدها الإنسان كم يدفع فيها؟ لو أنه فى مكانٍ صحراوى حار لا ماء فيه وهو يريد شربة ماء كم سيدفع فى هذه الشربة لمن يعطيه إياها؟ سُئل ملك من ملوك بنى أمية عن ذلك: لو مُنعت شربة الماء كم تدفع فيها؟ قال: نصف ملكى.

قيل: لو شربت هذه الشربة فلم تخرج منك فحُبس عنك البول فكم ستدفع لإخراجها؟ قال: مُلكى كله! .... يدفع فى شربة ماء محروم منها نصف ملكه، وفى إخراج هذه الشربة من جسده يدفع ملكه كله، فكم ثمن هذه الشربة؟ إذًا: ثمنها عظيم... فهل دفعت هذا الثمن لله عَزَّ وَجَلَّ ؟ لم ندفع شيئًا، وقد رضى من العبد أن يقول: الحمد لله... رضى منه أن يشكره سبحانه وتعالى، «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها**» يرضى عن عبده، وأيضًا يجعل الله هذا الذى قاله أحب إليه من النعمة التى أنعمها على العبد ... فالله ينعم على العبد بنعمة فإذا شكر العبد ربه على هذه النعمة، كان الشكر من العبد أحب إلى الله من النعمة التى أعطاها لهذا العبد.

انظروا إلى كرم الله سبحانه كيف يتفضل على العبد فيعطيه النعم، ويُلهمه أن يشكره، ثم يرضى منه على ما هو فضله هو ... فسبحان الله العظيم وله الحمد كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٨٠).

إذا عرف العبد ربه استراح، وعَبَدَ ربه سبحانه حتى يَلقاه فيُريحه بجنته: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة:٨٩].

فاللهم اجعلنا من عبادك الشاكرين.

(٤٤٢) وعَنْ أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «إِنَّ الله تعالى، يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيلِ لِيَتُوبَ مُسيءُ النَّهار، وَيَبْسُطُ يَدهُ بِالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسيءُ اللَّيلِ حتى تَطْلُعَ الشمسُ مِنْ مَغْرِبَها»(١).

۞ في البداية لا بد أن نعلم أن مذهب أهل السُّنة والجماعة أن لله تعالى يدين اثنتين، مبسوطتين بالعطاء والنعم. وهما من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به.

وقد دَلَّ على ثبوتهما الكتاب والسُّنة.

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]

ومن أدلة السُّنة قوله، ﷺ: «يَدُ الله مَلأَى لاَ يُغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يُغِضْ ما في يَدِهِ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»(٢).

وقد أجمع أهل السُّنة على أنهما يدان حقيقيتان لا تُشبهان أيدى المخلوقين، ولا يَصِحُّ تحريف معناهما إلى القوة، أو النعمة أو نحو ذلك لوجوهٍ منها:

أولًا: أنه صرفٌ للكلام عن حقيقته إلى مجازه بلا دليل.

ثانيًا: أنه معنى تأباه اللغة في مثل السياق الذى جاءت به مُضافة إلى الله تعالى... فإن الله قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ولا يصح أن يكون المعنى لما خلقت

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٨٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة.

بنعمتى، أو قوتى.

ثالثًا: أنه ورد إضافة اليد إلى الله بصيغة التثنية، ولم يَرِد فى الكتاب والسُّنة ولا فى موضع واحدٍ إضافة النعمة والقوة إلى الله بصيغة التثنية فكيف يُفسَّر هذا بهذا؟!

رابعًا: أنه لو كان المراد بهما القوة لصَحَّ أن يُقال: إن الله خلق إبليس بيده ونحو ذلك. وهذا ممتنع ... ولو كان جائزًا لاحتجَّ به إبليس على ربه حين قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

خامسًا: أن اليد التى أضافها الله إلى نفسه تصرفت تَصرُّفًا يمنع أن يكون المراد بها النعمة، أو القوة ... فجاءت بلفظ اليد، والكَفِّ، وجاء إثبات الأصابع لله تعالى، والقبض، والهزّ ... كقوله، ﷺ: «**يقبض الله سماواته بيده والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن ويقول: أنا الملك**».

وهذه التصرفات تمنع أن يكون المراد بها النعمة، أو القوة(١).

۞ وفى هذا الحديث قال النبى ﷺ: «**إِنَّ الله تعالى، يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيلِ لِيَتُوبَ مُسىءُ النَّهار، وَيَبْسُطُ يَدهُ بِالنَّهارِ ليَتُوبَ مُسىءُ اللَّيلِ حتى تَطْلُعَ الشمسُ مِنْ مَغْرِبَها**».

فالمؤمن يرجو رحمته الله ومغفرته لأنه يعلم أن رحمة الله وسعت كل شىء وأن رحمته سبقت غضبه وأن رحمته غلبت غضبه.

وفى هذا الحديث أن النبى ﷺ قال: «**إن الله تعالى يَبسط يده بالليل ليتوب مُسىءُ النهار**».

والمعنى: أن الله عَزَّوَجَلَّ يقبل توبة عباده ليل نهار ... فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، والله على كل شىء قدير، لا يُعجزه شىء مهما تعاظم ذنب الإنسان، فرحمة الله

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٤/ ٥٦-٥٧).

أعظم... فمهما كثرت خطايا الإنسان فإن رحمة الله أكثر وأكبر وأعظم ... فجعل بابًا للتوبة مفتوحًا لا يُغلَق حتى تطلع الشمس من مغربها.

وهنا عبَّر بهذه الكلمة الطيبة الجميلة: أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار.... وكأنه (جل وعلا) يدعو عبده للتوبة ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ لأن من عادة البشر فيما بينهم أنه إذا بسط الإنسان يده لأخيه فكأنه يقول له: تعالَ إليَّ...

ولله المثل الأعلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

فالله يبسط يده لعبده ليتوب ويرجع إليه.. وكأنه يقول له: تعالَ إليَّ أيها العبد المذنب لأتوب عليك وأغفر لك ذنوبك وأرحمك وأُدخلك جنتي....

ونحن نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا نُزولًا يليق بجلاله وكماله وينادى على عباده ويقول لهم: هل من تائبٍ فأتوب عليه؟! هل من مُستغفرٍ فأغفر له؟! هل من سائلٍ فأُعطيه؟!

(هل من تائب فأتوب عليه؟! هل من مستغفر فأغفر له؟! هل من سائل فأعطيه؟!).

ويظل فيكرر تلك الأسئلة الثلاثة حتى يطلع الصبح.

فالله عَزَّوَجَلَّ كريمٌ رحيمٌ وَدودٌ يقبل من عباده توبتهم ويُثيبهم الأجر.

بل وقد يُبدل سيئاتهم إلى حسنات فضلاً منه وكرمًا سبحانه... فيبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار...فمن أساء بالنهار لا ينتظر النهار الآخر حتى يتوب إلى الله، ولكن ليتب حالاً إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، ومن وقع فى الذنب بالليل فليتب حالاً ولا ينتظر ... فليتب إلى الله سريعًا ... فالمعنى هنا: أن العبد مهما أذنب وتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه سبحانه.

فهذه التوبة مفتوحة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من

مغربها فإن ذلك من العلامات الكبرى لقيام الساعة التى إذا تحققت هذه العلامات كلها فإنه يُختم على أعمال العباد .. فمن كان كافرًا لا يُقبل إيمانه فى تلك اللحظة .. ومن كان مؤمنًا لا يستطيع أن يزداد خيرًا.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا**»(١).

وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ**»(٢).

۞ ومن هنا يتضح لنا أنه **لا تُقبل توبة العبد فى حالتين:**

(١) عند الغرغرة .. أي: عندما تبلغ الروح الحلقوم:

قال ﷺ: « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ** »(٣).

(٢) إذا طلعت الشمس من مغربها .. كما جاء في الحديث:

أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(٤).

وقال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ لَبَابًا مَسِيرَةُ عَرْضِهِ سَبْعُونَ، أَوْ أَرْبَعُونَ، عَامًا،**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٣٥) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٥٧) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥٨) كتاب الإيمان.

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

فَتَحهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَلَا يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ»(١).

۞ قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: « فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ مَعَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ أَحدَثَ إِيمَانًا أَوْ تَوْبَةً بعد طلوع الشمس من مغربها لا يُقبل مِنْهُ...وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ وَاللهُ أَعلَمُ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَعَلَامَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَى اقْتِرَابِهَا وَدُنُوِّهَا، فَعُومِلَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مُعَامَلَةَ يوم القيامة»(٢).

فجعل ﷺ غاية قبول التوبة هو طلوع الشمس من مغربها.

۞ وقد ذكر ابن حجر أحاديث وآثارًا كثيرة تدلُّ على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: «فهذه آثار يشدُّ بعضها بعضًا متَّفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب؛ أُغلق باب التوبة، ولم يُفتح بعد ذلك وأن ذلك لا يختصُّ بيوم الطلوع، بل يمتدُّ إلى يوم القيامة»(٣).

۞ قال القرطبي: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَإِنَّمَا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، لِأَنَّهُ خَلَصَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْفَزَعِ مَا تَخْمَدُ مَعَهُ كُلُّ شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَتَفْتُرُ كُلُّ قُوَّةٍ مِنْ قُوَى الْبَدَنِ، فَيَصِيرُ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِإِيقَانِهِمْ بِدُنُوِّ الْقِيَامَةِ فِي حَالِ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فِي انْقِطَاعِ الدَّوَاعِي إِلَى أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي عَنْهُمْ، وَبُطْلَانِهَا مِنْ أَبْدَانِهِمْ ... فَمَنْ تَابَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ، كَمَا لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ»(٤).

۞ فيا ليتنا نتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ قبل ألا نستطيع أن نتوب ... فهيا أخي الحبيب ارفع يديك إلى مَن يسمع دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصمّاء في الليلة

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٢٩).

(٢) «النهاية في الفتن والملاحم» (١/ ٢١٩-٢٢٢).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٤) «التذكرة» (ص ٧٠٦)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ١٤٦).

الظلماء، واطلب منه أن يُعينك على التوبة وأن يغفر ذنوبك.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال: «أسألك بعِزِّك وذُلِّى إلا رحمتنى، أسألك بقوتك وضعفى، وبغناك عنى وفقرى إليك، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ... عبيدك سواى كثير، وليس لى ربٌّ سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال مَن خضعت لك رقبته، ورَغِم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه».

يا مَن ألوذُ به فيما أُؤمله ... ومَن أعوذ به مما أُحاذرهُ
لا يَجبُر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره (١)

(٤٤٣) وعَنْ أبى نجيح عَمرو بن عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنتُ وَأَنا فى الجَاهِلِيَّة أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلى ضَلالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا على شيءٍ، وَهُمْ يَعبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَسَمِعتُ بِرَجُلٍ بمكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعدتُ عَلى رَاحِلَتى، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رسولُ الله ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عليهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخلْتُ عَلَيهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ له: ما أَنتَ؟ قال: «أَنا نَبيٌّ» قلتُ: وما نَبِيٌّ؟ قال: «أَرسَلِنى اللهُ» قلت: وبِأَيِّ شَيْءٍ أَرسَلكَ؟ قال: «أَرسَلنى بِصِلَةِ الأَرحامِ، وكَسْرِ الأَوْثان، وَأَنْ يُوَحَّدَ الله لا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ» قلت: فَمنْ مَعَكَ عَلى هَذا ؟ قال: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» ومعهُ يوْمَئِذٍ أَبو بكر وبلالٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. قلت: إِنِّى مُتَّبعُكَ، قال: «إِنَّكَ لَنْ تَستطِيعَ ذلكَ يَوْمَكَ هَذا. أَلا تَرى حَالى وحالَ النَّاسِ؟ وَلكِنِ ارجع إِلى أَهْلِكَ فَإِذا سمعتَ بى قد ظَهَرتُ فَأْتِنى» قال: فَذهبْتُ إِلى

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ١٨٧) بتصرف.

أَهْلـى، وَقَـدِمَ رسـول الله ﷺ المَدينَـةَ. وكنتُ فى أَهْلـى. فَجَعَلْـتُ أَتَخَبَّرُ الأَخْبَـارَ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حينَ قَدِمَ المدينة حَتَّى قَدِمَ نَفرٌ مِنْ أَهْلِى المدينَةَ، فقلتُ: ما فَعَلَ هـذا الرَّجُلُ الـذى قَـدِمَ المدينـة؟ فقـالوا: النَّـاسُ إليـهِ سِـراعٌ وَقَـد أَرَادَ قَوْمُـه قَتْلَـهُ، فَلَـمْ يَسْتَطِيعُوا ذلكَ، فَقَدِمتُ المدينَة؟ فَـدَخَلتُ عليـه، فقلـتُ : يـا رسـول الله أَتعرِفُنـى؟ قال: «نَعم أَنتَ الَّذى لَقيتنَى بمكةَ» قال: فقلتُ: يا رسول الله أَخْبرنى عمَّا عَلَّمكَ الله وَأَجْهَلُهُ، أخبرنى عَنِ الصَّلاَةِ؟ قال: «صَلِّ صَلاةَ الصُّبحِ، ثُمَّ اقْصُر عَنِ الـصَّلاةِ حَتَّـى تَرتفَعَ الشَّمْسُ قِيدَ رُمْحٍ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حين تطلع بَيْنَ قَرنَى شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذ يَسْجُدُ لَهَا الكفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ، فإِنَّ الصَّلاَةَ مشهودةٌ محضورةٌ حتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بالرُّمْح، ثُمَّ اقْصُر عنِ الصَّلاَةِ، فإِنَّهُ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فإذا أقبل الفَىْءُ فَـصَلِّ ، فـإِنَّ الـصَّلاةَ مَـشهودةٌ محضورة حتـى تُـصَلِّىَ العـصرَ ثـم اقْـصُر عـن الـصلاةِ حتـى تَغْـرُبَ الـشمسُ، فإِنها تَغرُبُ بين قَرْنى شيطانٍ، وحينئذٍ يَسْجُدُ لها الكُفَّارُ».

قال: فقلت: يا نَبِىَّ الله، فالوضوءُ حـدِّثنى عنـه؟ فقـال: «مـا مـنْكُمْ رجُـل يُقَـرِّبُ وَضُوءَهُ، فَيَتَمَضْمَضُ ويستنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ، إِلَّا خَرَّتْ خطايَا وجهـهِ وفِيـهِ وخياشِـمِهِ. ثـم إذا غَسَلَ وجهَهُ كما أَمَرَهُ الله إِلَّا خرَّت خطايا وجهِهِ مِنْ أَطرافِ لحيَتِهِ مع الماءِ.

ثم يغسل يديـه إِلـى المِرفقَين إِلَّا خـرَّت خطايـا يديـه مـن أناملِهِ مـع المـاءِ، ثـم يَمْسحُ رَأْسَهُ، إِلَّا خَرَّتْ خطَايَا رَأْسِهِ من أَطـرافِ شَعرهِ مـع المـاءِ، ثـم يَغْسل قَدَمَيهِ إِلى الكَعبَيْنِ، إِلَّا خَرَّت خطايا رِجْلَيه من أَنَامِلِهِ مَع الماء، فإن هو قامَ فصلَّى، فحمِدَ الله تعالى، وأَثْنَى عليه وَمجَّدَهُ بالذى هُوَ له أَهـلٌ، وَفـرَّغَ قلبـه لله تعـالى. إِلا انـصَرَفَ من خطيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» .

فحدّثَ عَمرو بنُ عَبَسَةَ بهذا الحديثِ أَبَا أُمَامَة صاحِبَ رسـولِ الله ﷺ فقـال لـه أبو أمامة: يا عَمْرُو بن عَبسَةَ، انظر ما تقولُ فى مقامٍ واحـد يُعطـى هـذا الرَّجُلُ؟ فقـال عَمْرو: يا أَبَا أُمامةَ. فقد كَبِرَتْ سِنِّى، ورَقَّ عَظمى، وَاقْتَرَبَ أَجَلى، وما بى حَاجـة أَنْ

أكذِبَ على الله تعالى، ولا على رسول الله ﷺ لو لم أَسْمَعهُ من رسول الله ﷺ إلا مَرَّةَ أَوْ مرَّتَيْن أو ثلاثًا، حَتَّى عَدَّ سبعَ مَراتٍ، ما حَدَّثتُ أبدًا بِهِ، ولكنِّى سمِعتُهُ أكثَرَ من ذلك[1].

۞ وفى حديث عمرو بن عبسة فوائد كثيرة منها: أن النبى ﷺ بدأ غريبًا خائفًا متخفيًا (عليه الصلاة والسلام) ... جاءه عمرو بن عبسة وقد رأى ما عليه أهل الجاهلية وأنهم ليسوا على شىء، فصار يتطلب الدين الصحيح الموافق للفطرة، حتى سمع بالنبى ﷺ فى مكة، فجاء إليه، فوجده مستخفيًا فى بيته، لم يتبعه إلا حُرٌّ وعبدٌ - أبو بكر وبلال - لم يتبعه أحد.

وفى هذا: دليل على أن أبا بكر رضي الله عنه أول مَن آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام، ثم آمن بعده من الأحرار على بن أبى طالب رضي الله عنه.

ومن حكمة النبى ﷺ أنه قال لعمرو: «**إنك لا تستطيع أن تُعلن إسلامك فى هذا اليوم، ولكن اذهب فإذا سمعت أنى خرجت فأتنى**».

قال الإمام النووى رحمه الله: معناه قُلْتُ لَهُ إِنِّى مُتَّبِعُكَ عَلَى إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ هُنَا وَإِقَامَتِى مَعَكَ فَقَالَ: لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ لِضَعفِ شَوْكَةِ الْمُسْلِمِينَ وَنَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ أَذَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ ... وَلَكِنْ قد حَصَلَ أَجْرُكَ فَابْقَ عَلَى إِسْلَامِكَ وَارجِع إِلَى قَوْمِكَ وَاسْتَمِرَّ عَلَى الْإِسْلَامِ فِى مَوْضِعِكَ حَتَّى تَعلَمَنِى ظَهَرتُ فَأْتِنِى ... وَفِيهِ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٣٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

قوله: «جُرَءَاءُ عليهِ قومُهُ»: على وزنِ عُلماء، أى: جاسِرُونَ مُستَطِيلونَ غيرُ هائِبينَ. هذه الرواية المشهورةُ، ورواه الحُمَيْدِى وغيرهُ: «حِراء». وقال: معناه غِضَابُ ذَوُو غَمٍّ وهمٍّ، قد عيلَ صبرُهُمْ بهِ، حتى أَثَّرَ فى أجسامِهِم، من قولِهم: حَرَىَ جِسمُهُ يَحرى، إِذَا نقصَ مِنْ أَلمٍ أَوْ غم ونحوه، والصَّحيحُ أنَّهُ بالجيم.

وقوله ﷺ: «بين قَرنَى شيطانٍ» أىْ: ناحيتى رأسِهِ. والمرادُ التَّمثِيلُ. معناهُ أنه حينئذٍ يَتحرّكُ الشَّيطانُ وشِيعتُه. وَيَتَسَلَّطُونَ. وقوله: «يُقَرِّبُ وَضُوءَه» معناه: يُحضِرُ الماءَ الذى يَتَوَضَّأُ به. وقوله: «إلاَّ خَرَّتْ خطاياهُ»: أىْ سقطَت. ورواه بعضُهم. «جرتْ» بالجيم. والصحيح بالخاءِ، وهو رواية الجُمهور.

وقوله: «فَيَنْتَثِرُ» أىْ: يَستخرجُ ما فى أنفه مِنْ أذى، والنَّثرةُ: طَرَفُ الأنفِ.

مُعجِزَةٌ لِلنُّبُوَّةِ وَهِيَ إِعلامُهُ بِأَنَّهُ سَيظْهَرُ[١].

فذهب وأتى إليه بعد نحو ثلاث عشرة سنة في المدينة، بعد أن هاجر، وقال له: أتعرفني؟ قال: «نعم». وأخبره أنه يعرفه، لم ينسَ طوال هذه المدة.

ثم أخبره مما يجب عليه لله عَزَّوَجَلَّ من حقوق، وبيَّن له أن الإنسان إذا توضأ وأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جميع أعضائه، وأنه إذا صلى فإن هذه الصلاة تُكفر عنه... فدَلَّ ذلك على أن فضل الله عَزَّوَجَلَّ أوسع من غضبه، وأن رحمته سبقت غضبه... نسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته إنه جَوادٌ كريم[٢].

(٤٤٤) وعَنْ أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إذا أرادَ الله تعالى رحمةَ أُمَّة، قَبَضَ نبيَّهَا قَبلَهَا، فجعَلَهُ لها فَرَطًا وسلَفًا بين يَدَيها، وإذا أرادَ هَلَكةَ أُمَّة، عذَّبها ونبيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وهوَ حَيٌّ ينظُرُ فَأَقرَّ عينَهُ بِهلاكها حين كذَّبوهُ وعصَوا أَمْرَهُ»[٣].

۞ يخبر النبي ﷺ هنا أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أراد رحمة أمة قبض نبيها قبلها.. أي: توفاه ليكون صبرهم على المصاب به واحتسابهم ذلك زيادة في أجورهم.. فقد قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقال ﷺ: **«إذا أصاب أحدَكم مصيبةٌ فليذكر مصيبتهُ بيَّ، فإنها من أعظم المصائب»**[٤].

فدَلَّ مجموع الحديث والآية على أن المؤمن إذا صبر على مصيبته على فَقْدِ

(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ١٦٦).
(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٧٣).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٨٨) كتاب الفضائل.
(٤) صحيح: رواه البيهقي والطبراني في الكبير وابن عدي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٧).

المصطفى ﷺ واحتسب ذلك عند مولاه أُجِر ... كما أن الإنسان إذا ذكر مصابه بمن تَقَدَّم له من القرابة فاحتسب عند ذلك يُؤجَر.

(فجعله لها فرطًا) والفارط الذى يتقدم الوُرَّاد يُصلح لهم الحِياض والدلاء ونحوهما من أمور الاستقاء ... أى أنه المُهيئ لمصالحها فى عُقباها من مزيد رحمته.

(وسلفًا) قال فى «النهاية» قيل هو من سلف المال ... كأنه قد أسلفه وجعله ثمنًا للأجر والثواب الذى يُجازَى به على الصبر عليه[1].

۞ «**وإذا أرادَ هَلَكةَ أُمَّة، عذَّبها ونبيُّهَا حَيٌّ، وهوَ ينظرُ**».

أى أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أراد هلاك أمة عذَّبها ونبيها حيٌّ ينظر ويرى عذابها وهلاكها ليُقِرَّ الله عينه بهلاكها بسبب تكذيبهم لنبيهم وعصيانهم له ومخالفتهم لأمره وعداوتهم له.

۞ وعندما ذكر النبى ﷺ ذلك أمام أصحابه فلا شك أنهم كانوا يتساءلون: يا ترى هل سنكون من الصنف الأول أم الثانى ... هل سيموت النبى ﷺ ونحتسبه فى الوقت الذى نتمنى فيه أن نفديه بأنفسنا وأولادنا وأزواجنا وأموالنا... أم أنه ﷺ سيرى هلاكنا وعذابنا إن عصيناه وخالفناه.

۞ فالنبى ﷺ رحمة لهذه الأمة.. ووجوده أمانٌ لهم ولذلك لما قال المشركون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ ردَّ الله عليهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم ... أى أنهم مُستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكرامًا لك يا محمد... فقد جرت سُنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين

(١) دليل الفالحين (٢/ ٣١١).

ظهرانيها ... قال ابن عباس: لم تُعذَّب أمة قط ونبيها فيها[١]، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أى وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله.

وهو إشارة إلى استغفار مَن بقى بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين.

قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبى الله ﷺ، والاستغفار، أما النبى ﷺ فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة[٢].

فإذا قبض الله النبى ﷺ فالرحمة باقية منه سبحانه، بأن يستغفر المؤمنون رب العالمين فيغفر لهم ولا يعذبهم ... أى: عذابًا عامًّا يستأصل الجميع، ولكن لا يمنع أن يكون على بعض الأقوام شيء من غضب الله عَزَّوَجَلَّ فيأخذهم ببعض ذنوبهم فى الدنيا... ولكن العذاب العام الذى يستأصل الأمة لا يكون؛ لأن الله وعد هذه الأمة أنه لا يُهلكهم ونبيهم فيهم (عليه الصلاة والسلام) ولا يُهلكهم وهم يستغفرون.

---

(١) البحر (٤/ ٤٨٩).

(٢) الرازى (١٥/ ١٥٨).

(٥٢) باب فضل الرجاء

۞لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ النصوص الدالة على الرجاء وعلى سعة فضل الله وكرمه ... ذكر فضل الرجاء، وأن الإنسان ينبغي له أن يكون طامعًا في فضل الله عَزَّوَجَلَّ راجيًا ما عنده.

ثم ذكر قول العبد الصالح وهو الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، وكان ناصحًا لقومه، يُناصحهم ويُبين لهم بالبراهين ما هم عليه من الباطل، وما عليه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الحق

فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مَغبَّة عدم قبولها حين يَحِلُّ بكم العقاب وتُحرمون جزيل الثواب. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: ألجأ إليه وأعتصم وألقى أموري كلها لديه وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعلم أحوالكم وما تستحقون ويعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم، فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلَّطكم عليَّ فبحكمة منه تعالى وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك. ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾؛ أي: وقى الله القويُّ ذلك الرجل المؤمن المُوفَّق عقوبات ما مكر فرعونُ وآله له من إرادة إهلاكه وإتلافه لأنه بادأهم بما يكرهون وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيدًا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم.

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم... وفي البرزخ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟

ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة التى تحل بالمكذبين لرسل الله المعاندين لأمره(١).

(٤٤٥) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدى بى، وأنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنى، وَاللّهِ لَلَّهُ أفْرَحُ بتَوْبة عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يجدُ ضالَّتَهُ بالْفلاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقرَّبْتُ إِلَيْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرّبَ إِلَيَّ ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وإذا أَقْبَلَ إِلَيَّ يمْشى، أَقبلتُ إلَيه أُهَرْوِلُ»(٢).

وتقدَّم شرحُهُ فى الباب قبله. وروى فى الصحيحين: «**وأنا معه حينَ يَذْكُرُنى**» بالنون ... وفى هذه الرواية «**حَيْثُ**» بالثاءِ وكلاهما صحيح.

۞ «**أنا عند ظن عبدى بى**» يعنى أن الله عَزَّ وَجَلَّ عند ظن عبده المؤمن به عَزَّ وَجَلَّ.. إن ظن به خيرًا فله وإن ظن به غير ذلك فله أيضًا .. ولكن السؤال الذى ينبغى أن نعرف إجابته هنا هو: متى يكون العبد حسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ؟ ...

يكون ذلك بأن يفعل العبد ما أوجبه الله عليه وأن يعمل الصالحات التى تُوجب فضل الله ورحمته ويُحسن الظن بالله أن الله عَزَّ وَجَلَّ سوف يتقبل منه تلك الأعمال الصالحة.

أما أن يُحسن الظن وهو لا يعمل عملًا صالحًا .. فهذا من باب التمنِّى على الله ... ومَن أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأمانى فهو عاجز.

وكذلك لا يَصلُح أن يعمل العبد المعاصى ثم يُحسن الظن بالله.

لأن حُسن الظن بالله يكون عند عمل الصالحات ورجاء قبولها.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى**» قَالَ الْقَاضِى قِيلَ مَعنَاهُ بِالْغُفْرَانِ لَهُ إِذَا اسْتَغْفَرَ وَالْقَبُولِ إِذَا تَابَ وَالْإِجَابَةِ إِذَا دَعَا وَالْكِفَايَةِ إِذَا طَلَبَ

(١) تفسير السعدى (ص ٨٧٣-٨٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٠٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب التوبة.

الْكِفَايَةَ ... وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ الرَّجَاءُ وَتَأْمِيلُ الْعَفْوِ وَهَذَا أَصَحُّ[1].

۞ قوله: «**وأنا معه حيث يذكرني**» أي: أنا معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية والإعانة والنصر «**حيث يذكرني**» سواء ذكرني في نفسه أو ذكرني بين الملأ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فمعناه: معكم بالعلم والإحاطة.

۞ «**والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة**».

وهذا اختصار لما جاء في الرواية الأخرى أن النبي ﷺ قال: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**».

فهذا الرجل كان يركب ناقته وعليها طعامه وشرابه وملابسه وأمواله وكل أسباب حياته في تلك الصحراء.. وفجأة انفلتت منه دابته فأيس من رجوعها مرة أخرى وتيقَّن أنه قد تكون نهايته في تلك الصحراء.. فذهب واضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت.. فبينما هو كذلك إذ جاءت الناقة ووقفت عنده فلم يصدق نفسه ... وكأنه قد عادت إليه أسباب الحياة مرة أخرى فأخذ بخطام الناقة ثم قال من شدة الفرح: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**».. يقول النبي ﷺ عن هذا الرجل: «**أخطأ من شدة الفرح**».

فتأمل معي كيف كانت فرحة هذا الرجل برجوع ناقته حتى أخطأ هذا الخطأ الكبير.. فالله أفرح بتوبة عبده حين يتوب.. أكثر من فرحة هذا الرجل حين عادت إليه ناقته وعليها كل أسباب حياته.

مع أن الله عَزَّ وَجَلَّ غنيٌّ عنَّا.. لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا..

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٣).

قال تعالى: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أفْجَر قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»(١).

۞ ثم قال تعالى: « وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرّبَ إِلَيَّ ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وإِذا أَقْبَلَ إِلَيَّ يمْشى، أَقبلتُ إليه أُهَرْوِلُ»

ثم ذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرم من عبده ... فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبرًا، تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشى أتاه يهرول عَزَّوَجَلَّ ... فهو سبحانه وتعالى أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

وهذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السنة والجماعة على أنه حَقٌّ حقيقة لله عَزَّوَجَلَّ ، لكننا لا ندرى كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرُّب ... فهو أمرٌ ترجع كيفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن بمعناه ونُفوض كيفيته إلى الله عَزَّوَجَلَّ .

والسلف «أهل السُّنة والجماعة» يجرون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله عَزَّوَجَلَّ من غير تكييف ولا تمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى شرح حديث النزول: «وَأَمَّا دُنُوُّهُ نَفْسُهُ وَتَقَرُّبُهُ مِنْ بَعضِ عِبَادِهِ؛ فَهَذَا يُثْبِتُهُ مَنْ يُثْبِتُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِنَفْسِهِ وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنُزُولِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ. وَهَذَا مَذْهَبُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُورِينَ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالنَّقْلُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرٌ» ا.هـ.

فأى مانع يمنع من القول بأنه يقرب من عبده كيف يشاء مع عُلوه؟

وأى مانع يمنع من إتيانه كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل؟

وهل هذا إلا من كماله أن يكون فعَّالًا لما يريد على الوجه الذى يليق به؟(٢)

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٦٦).

(٤٤٦) وعَنْ جابر بن عبدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمعَ النَبِيَّ ﷺ، قَبْلَ مَوْتِهِ بثلاثَةِ أَيَّامٍ يقولُ: «لا يموتن أَحَدُكُم إِلاَّ وَهُوَ يُحسِنُ الظَّنَّ بالله عَزَّ وَجَلَّ»[١].

۞ لا بُدَّ أن نعلم أولًا أن الظن لا يخرج عن خمسة أمور:

الأول: الظن المحرم، وهو سوء الظن بالله، ويقابله وجوب حسن الظن بالله.

الثانى: حرمة سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة.. والمطلوب حسن الظن بهم.

الثالث: الظن المباح، وهو الذى يعرض فى قلب المسلم فى أخيه بسبب ما يوجب الريبة، وهذا الظن لا يُحقَّق.

الرابع: الظن المندوب إليه، وهو حُسن الظن بالأخ المسلم وعليه الثواب.

الخامس: الظن المأمور به، وهو الظن فيما لم يَنُصَّ عليه دليلٌ يوصلنا إلى العلم، وقد تعبَّدنا الله بالاقتصار على الغالب الظنى فيه .. كقبول شهادة العُدول وتَحرِّى القبلة[٢].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا تَحذِيرٌ مِنَ الْقُنُوطِ وَحَثٌّ عَلَى الرَّجَاءِ عِنْدَ الْخَاتِمَةِ وَقَد سَبَقَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى**» قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعَنى حُسْنُ الظَّنِّ بِاَللهِ تَعَالَى أَنْ يَظُنَّ أَنَّهُ يَرْحَمُهُ وَيَعفُو عَنْهُ.

قَالُوا: وَفِى حَالَةِ الصِّحَّةِ يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا وَيَكُونَانِ سَوَاءً ... وَقِيلَ: يَكُونُ الْخَوْفُ أَرجَحَ فَإِذَا دَنَتْ أَمَارَاتُ الْمَوْتِ غَلَّبَ الرَّجَاءَ أَوْ مَحضَهُ لِأَنَّ مَقْصُودَ الْخَوْفِ الِانْكِفَافُ عَنِ الْمَعَاصِى وَالْقَبَائِح وَالْحِرصُ عَلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْأَعمَالِ وَقَد تَعَذَّرَ ذَلِكَ أَوْ مُعظَمُهُ فِى هَذَا الْحَالِ فَاسْتُحِبَّ إِحسَانُ الظَّنِّ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٧٧) كتاب الجنة.

(٢) انظر منهج الدعوة الإسلامية فى البناء الاجتماعى (٤١٢).

الْمُتَضَمِّنُ لِلافْتِقَارِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَالإِذْعَانِ لَهُ[١].

۞ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «وَالَّذِى لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُعطِىَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ ... وَالَّذِى لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحسِنُ عَبْدٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ الظَّنَّ إِلَّا أَعطَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ... ظَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَيْرَ فِى يَدِهِ».

۞ عن سهل الْقُطَعِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ رحمه الله فِى مَنَامِى، فَقُلْتُ: يَا أَبَا يَحيَى لَيْتَ شِعرِى مَاذَا قَدِمْتَ بِهِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «قَدِمْتُ بِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ، مَحَاهَا عَنِّى حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ»[٢].

۞ وعن سفيان الثّورىّ رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] قال: «أحسنوا الظّنّ بالله».

۞ قال أحمد بن العبّاس النّمرىّ:

وإنّى لأرجو الله حتّى كأنّنى ... أرى بجميل الظّنّ ما اللهُ صانعُ[٣]

۞ أنشد محمود الورّاق:

حُسن ظنّى بحُسنِ عفوك يا ... رَبِّ جميلٌ وأنت مالكُ أمرى

صُنتُ سِرِّى عن القرابة والأهـ ... ـلِ جميعًا وكُنتَ موضعَ سِرِّى

ثِقةٌ بالَّذى لديك من السّتـ ... ـرِ فلا تُخزنى يوم نَشرى

يومَ هتكِ السّتور عن حُجُبِ الغيـ ... ـبِ فلا تهتكَنَّ للنّاس سِترى

لَقِّنِّى حُجَّتى وإن لم تكُن يا ... رَبِّ لى حُجَّةٌ ولا وجهُ عُذرِ[٤]

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٣٠٤).
(٢) حسن الظن بالله/ لابن أبى الدنيا (٩٦).
(٣) حسن الظن بالله / لابن أبى الدنيا (١٠٠).
(٤) حسن الظن بالله / لابن أبى الدنيا (١١٦).

(٤٤٧)وعَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعوْتَني وَرَجوْتَني غَفَرْتُ لَكَ عَلى ما كَانَ مِنكَ ولا أُبالى، يا ابْنَ آدمَ، لَوْ بَلغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السماءِ، ثم اسْتَغْفَرْتَني غَفرتُ لَكَ ولا أُبالى، يَا ابْنَ آدم، إِنَّكَ لَو أَتَيْتَنى بِقُراب الأرضِ خطايا، ثُمَّ لَقِيْتَنى لا تُشْرِكُ بِى شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

۞ هذا الحديث القدسى الشريف يبين ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة ... والاستغفار: هو طلب المغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ.

والمغفرة: هى وقاية شر الذنوب مع سترها، أى أن الله عَزَّوَجَلَّ يستر على العبد فلا يفضحه فى الدنيا، ويستر عليه فى الآخرة فلا يفضحه فى عَرَصَاتها، ويمحو عنه عقوبة ذنوبه بفضله ورحمته.

وقد كَثُر ذكر الاستغفار فى القرآن ... فتارة يُؤمَر به .. كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠].

وتارة يُمدَح أهله ... كقوله تعالى فى وصف المحسنين: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧].

وتارة يذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه يغفر لمن استغفره .. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وكثيرًا ما يُقرن الاستغفار بذكر التوبة فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح... وحكم الاستغفار كحكم الدعاء إن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه لا سيما إذا خرج من قلبٍ منكسر بالذنوب أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات ... وأفضل الاستغفار أن يبدأ بالثناء على ربه، ثم يُثَنِّى بالاعتراف بذنبه

(١) حسن: رواه الترمذى، والضياء، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٨).
«عَنَانُ السماءِ» بفتح العين، قيل: هو مَا عَنَّ لَكَ منها، أى: ظَهَرَ إِذَا رَفَعتَ رَأْسَكَ، وقيل: هو السَّحَابُ.
و«قُرَابُ الأرض» بضم القاف، وقيلَ بكسرِها، والضم أصح وأشهر، وهو: ما يقارِبُ مِلأَهَا، والله أعلم.

ثم يسأل ربه بعد ذلك المغفرة. كما فى حديث سيد الاستغفار أن النبى ﷺ قال: «سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»(١).

وقوله: « أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ » أى أعترف لك، و«أبوء بذنبى» أى أعترف، وأُقر بذنبى.

وعن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علِّمنى دعاءً أدعو به فى صلاتى قال: «قُل اللهم إنى ظلمت نفسى ظُلمًا كبيرًا -أو كثيرًا- ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم»(٢).

ومن أفضل الاستغفار أن يقول العبد: «أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأتوب إليه».

وقد ورد عن النبى ﷺ أن مَن قاله: «غُفر له وإن كان فَرَّ من الزحف»(٣).

۞ قوله ﷺ: «يا ابن آدم إنك ما دعوتنى، ورجوتنى، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى».

فأول سبب من أعظم أسباب المغفرة الدعاء مع الرجاء.

فإن الدعاء مأمورٌ به موعودٌ عليه بالإجابة..كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

فالدعاء سببٌ مُقتضٍ الإجابة مع استكمال شرائطه، وانتفاء موانعه... ومن أعظم شرائطه حضور القلب، ورجاء الإجابة من الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنبًا لم يَرجُ مغفرته من غير

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٦) كتاب الدعوات.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى التعليق الرغيب(٢ / ٢٦٩)، وصحيح أبى داود(١٥١٧).

ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب، ويأخذ بها غيره... فقوله: «**إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى...**» يعنى على كثرة ذنوبك، وخطاياك، لا يتعاظمنى ذلك، ولا أستكثره.

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال: «**إذا دعا أحدكم فلا يَقُل: اللهم اغفر لى إن شئت، ولكن ليَعزم المسأله، وليُعظِّم الرغبة، فإن الله لا يَتعاظَمُه شىءٌ أعطاه...**»[1].

فذنوب العباد وإن عَظُمت فعفو الله ومغفرته أعظم منها ...

كما قال الإمام الشافعى عند موته.

ولما قسَى قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلتُ الرَّجا منى لعفوك سُلَّما

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

فمن أعظم أسبب المغفرة: الدعاء مع الرجاء. قال النبى ﷺ: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ**»[2].

۞ قوله ﷺ: «**يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتنى غفرت لك ...**».

وهذا يبين فضل الاستغفار... فلو بلغت ذنوب العبد عَنان السماء -وهو السحاب، وقيل ما انتهى إليه البصر فيها- غفرها الله له، وهذا يبين فضل كثرة الاستغفار.

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «إن كُنَّا لنَعُدُّ لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد مائة مرة يقول: **رب اغفر لى وتُب علىَّ إنك أنت التواب الغفور ...**»[3].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى الصَّحِيحَة: (٥٥٦).

وعن أبى هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن النبى ﷺ أنه قال: «والله إنى لأستغفر الله، وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»(١).

وعن النبى ﷺ قال: «إنه لَيُغان على قلبى، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة...»(٢).

وقوله: «لَيُغان» أى: ليُغطى ويغشى.

وروى عن لقمان أنه قال لابنه: «يا بُنى عَوِّد لسانك: اللهم اغفر لى، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلًا».

وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار فى بيوتكم وعلى موائدكم، وفى طُرقكم، وفى أسواقكم، وفى مجالسكم، وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تتنزل المغفرة.

وقال ﷺ: «طُوبى لمن وجد فى صحيفته استغفارًا كثيرًا...»(٣).

وقال علىٌّ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: ما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يُعذبه.

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم، ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار.

وقال رياح القيسى: لى نَيِّفٌ وأربعون ذنبًا قد استغفرت الله لكل ذنب مائة ألف مرة.

۞ قوله ﷺ: «يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة ...».

فالتوحيد هو أعظم أسباب المغفرة، ومَن فقد التوحيد فقد حُرم من المغفرة بالكُلية... قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٧) كتاب الدعوات.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وأحمد فى الزهد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٣٠).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: يُعفى لأهل التوحيد المحض الذى لم يشوبوه بالشرك ما لا يُعفَى لمن ليس كذلك، فلو لقى الموحد الذى لم يُشرك بالله ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده... فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله، وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده ما يُوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض...فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوى.

ومعنى: «**قراب الأرض**» ملؤها أو ما يقارب ذلك، ولكن هذا مع مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، فإن شاء غفر بفضله ورحمته، وإن شاء عذَّب بعدله، وحكمته، وهو المحمود على كل حال.

قال بعضهم: الموحد لا يُلقَى فى النار كما يُلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار.

فإن كَمُل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه، وقام بشروطه كلها بقلبه، ولسانه، وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية.

والتوحيد هو الإكسير الأعظم ... فلو وُضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات. ودَلَّ على ذلك أيضًا حديث البطاقة.

قال ﷺ: «**إنّ الله سَيُخَلّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي على رءوس الخَلائِق يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنشُرُ عليْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سجلاً كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ثمَّ يَقولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظُونَ؟ فَيقولُ: لا يَا ربِّ فيقولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا يَا ربِّ فَيقولُ: بَلَى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عَلَيْكَ اليَوْمَ فتُخْرَجُ بِطاقةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فيقولُ: احضر وَزْنَكَ فَيَقولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطاقَةُ مَعَ هَذِهِ السّجِلاّتِ؟ فيُقالُ: فإنّكَ لا تُظْلَمُ .. فَتُوْضَعُ**

السجلاتُ فِي كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثَقُلت البِطاقَةُ وَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْم اللهِ تَعَالَى شَيْءٌ»[1].

۞ قال العلماء: بأن هذا الرجل وقع فى ذنوب كثيرة دون الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ولكنه أخلص توحيده لله عَزَّوَجَلَّ، ولم يقع فى شىء من الشرك فنجا ببركة التوحيد، ولكن أكثر المسلمين يخلط توحيده بالشرك ... كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

فهو يصلى لله عَزَّوَجَلَّ، ويصوم لله عَزَّوَجَلَّ، ويحج بيت الله، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ومع ذلك قد ينذر لغير الله أو يذبح لغير الله أو يحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ، فهو يخلط توحيده بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ولقد شرع الله عَزَّوَجَلَّ لنا أن نختم أعمالنا وأعمارنا بالاستغفار.

كما قال عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر].

وفى ختم الصلاة يقول المسلم: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩].

وفى الأسحار وبعد قيام الليل شرع الاستغفار ... كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧].

وفى كفارة المجلس يقول العبد: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك»[2].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٧٦).

(٢) رياض الجنة (ص ٩٤-٩٨) بتصرف.

(٥٣) باب الجمع بين الخوف والرجاء

۞ اعلَمْ أنَّ المُخْتَارَ للعَبْدِ فى حَال صحَّتِه أن يَكُونَ خائفًا راجيًا، وَيكونَ خَوْفُهُ ورجاؤُه سواءً ... وفى حال المرَضِ يُمَحِّضُ الرَّجاءَ... وقواعِدُ الشَّرْعِ، مِن نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ وَغَيْر ذلكَ مُتظاهِرةٌ على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩] ... والآيات فى هذا المعنى كثيرة. فَيَجْتَمِعُ الخَوف والرجاءُ فى آيَتْينِ مُقْتَرِنَتيْنِ أو آيات أو آية[1].

۞ هذا الباب قد اختلف فيه العلماء، هل الإنسان يُغلِّب جانب الرجاء أو جانب الخوف.

فمنهم مَن قال: يُغلب جانب الرجاء مُطلقًا ... ومنهم مَن قال: يُغلب جانب الخوف مُطلقًا.

ومنهم مَن قال: ينبغى أن يكون خوفه ورجاؤه سواءً، لا يُغلِّب هذا على هذا، ولا هذا على هذا؛ لأنَّه إن غلَّب جانب الرجاء أَمِنَ مكر الله، وإن غلَّب جانب الخوف يَئِسَ من رحمة الله.

وقال بعضهم: فى حال الصحة يجعل رجاءه وخوفه واحدًا .. كما اختاره النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى هذا الكتاب، وفى حال المرض يُغلِّب الرجاء أو يمحضه.

---

(١) رياض الصالحين (ص ١٦٤-١٦٥).

وقال بعض العلماء أيضًا: إذا كان فى طاعة فليُغلب الرجاء وأن الله يقبل منه، وإذا كان عند فعل المعصية فليُغلب الخوف؛ لئلا يقدم على المعصية.

والإنسان يجب عليه أن يكون طبيب نفسه ... إذا رأى من نفسه أنه أَمِنَ من مكر الله، وأنه مُقيم على معصية الله، ومُتمنٍّ على الله الأمانى، فليعدل عن هذه الطريق، وليَسلُك طريق الخوف.

وإذا رأى أن فيه وسوسة، وأنه يخاف بلا مُوجب، فليَعدل عن هذا الطريق، وليُغلِّب جانب الرجاء حتى يعتدل خوفه ورجاؤه.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ آيات جمع الله فيها ذكر ما يُوجب الخوف وذكر ما يوجب الرجاء ... ذكر فيها أهل الجنة وأهل النار، وذكر فيها صفته عَزَّوَجَلَّ وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [المائدة: ٩٨، ٩٩]. حيث إنه فى مقام التهديد والوعيد قدَّم ذِكر شدة العقاب ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وفى حال تَحدُّثه عن نفسه وبيان كمال صفاته قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

فقدَّم ذكر المغفرة على ذكر العذاب؛ لأنه يتحدث عن نفسه عَزَّوَجَلَّ، وعن صفاته الكاملة ورحمته التى سبقت غضبه[١].

(٤٤٨) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «لَوْ يَعلَمُ المُؤمِنُ مَا عِنْدَ الله مِنَ العُقُوبَةِ. ما طَمِعَ بجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعلَمُ الكافِرُ مَا عِنَد الله مِنَ الرَّحمَةِ، مَا قَنطَ مِنْ جنَّتِه أَحَدٌ»[٢].

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٥) كتاب التوبة.

أي: لو يعلم المؤمن الذى وجبت له الجنة ما عند الله من العقوبة ومن العذاب وما أعد لأهل النار فيها، ما طمع فى جنة الله عَزَّوَجَلَّ ... بل لتمنَّى أن ينجو من النار ومن العذاب، حتى وإن لم يدخل الجنة.

قال: «**ولو يعلم الكافر ما عند الله عَزَّوَجَلَّ من الرحمة ما قنط من جنته أحد**».

وهذا فى حق الكافر، وهو على عكس ما هو فى حق المؤمن.

وقد ذُكر عن الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فى ترجمته عندما كان قاضى القضاة فى مصر: أنه مَرَّ فى سوق التجار، فخرج إليه رجل يهودى كان يعمل فى بيع السمن والزيت... ومعلوم أن مثل هذه الأعمال تتسخ ملابس وأبدان أصحابها، فخرج إليه ذلك اليهودى وقال له: يا قاضى القضاة! أنتم تزعمون أن نبيكم قال: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)، ألا ترى ما أنا فيه، وما أنت فيه؟! وكأنه أراد أن يقول له: هذه الحال الذى أنا وأنت فيه إنما يخالف خبر نبيكم ﷺ ... فقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: إن النعيم الذى أنا فيه الآن يُعتَبر سجنًا بالنسبة لما أعدَّه الله لى فى الجنة لو مُتُّ على الإيمان والتوحيد .. وإن الشقاء الذى أنت فيه الآن يُعتبر جنة بالنسبة لما أعدَّه الله لك فى نار جهنم لو مُتَّ على الكفر .. فقال اليهودى: هل كان نبيكم يقصد ذلك؟.. فقال له الحافظ ابن حجر: بلى .. فقال اليهودى: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

۞ **ففي هذا الحديث: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة»، فقد يُعاقَب المرء وإن قال: لا إله إلا الله بعقوباتٍ شديدة في نار جهنم ... فبعض عُصاة الموحدين قالوا: لا إله إلا الله ووحدوا الله، فدخلوا نار جهنم بمعصيتهم: بآفات ألسنتهم وأعضائهم وجوارحهم... فبالآفات التي وقعوا فيها استحقوا العقوبة.**

قال: «**ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»، فالكافر لو عرف ما عند الله من رحمة ما قنط من جنته ... ولكن الكافر لا جنة له إلا أن

يتوب ويدخل في دين الله تبارك وتعالى.

وقد قال سبحانه في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، فالكافر لو اطَّلع على الرحمة لظن أن الله سيرحمه ويُدخله الجنة مع كُفره وشِركه بالله سبحانه ... وحاشا لله (عز وجل) أن يُخلف وعده... فقد وعد المؤمنين بالجنة، وأوعد العُصاة والكفار بالنار..فالمشركون الذين يموتون على الشرك بالله لا يستحقون دخول جنة رب العالمين سبحانه.

(٤٤٩) وعَنْ أبى سَعيد الخدرِىّ ﵁، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا وُضِعتِ الجَنَازَةُ واحتمَلَهَا النَّاسُ أو الرِّجَالُ عَلى أَعنَاقِهِم، فَإِنْ كانتْ صالِحَةً قالَتْ: قَدِّمُونى قَدِّمُونى، وَإنْ كانَتْ غَير صالحة، قالَتْ: يا ويْلَهَا، أَيْنَ تَذْهَبُونَ بَها؟ يَسْمَعُ صَوتَها كُلُّ شىءٍ إلاَّ الإِنْسَانُ، وَلَوْ سَمِعَهُ لَصَعِقَ»[1].

۞ قوله ﷺ: **«إذا وُضِعتِ الجَنَازَةُ»** .. وفى رواية: **«إذا وُضِع الميت على السرير»** فدلَّ ذلك على أن المراد بالجنازة الميت.

« واحتمَلَهَا الرِّجَالُ» وفيه أنه لا يُشرع للنساء حمل الجنازة سواء كان الميت ذكرًا أو أنثى، ولا خلاف فى هذا؛ لأن النساء يَضعُفن عن الحمل، وربما انكشف منهن شيء لو حملن، ويُضاف إلى هذا ما يتوقع منهن من الصراخ عند حمله ووضعه، ولأن الجنازة لا بد أن يُشيعها الرجال، فلو حملها النساء لكان ذلك ذريعة إلى اختلاطهن بالرجال فيُفضى إلى الفتنة[2].

۞ **«فَإِنْ كانتْ صالِحَةً قالَتْ: قَدِّمُونى قَدِّمُونى»** فصلاح العبد يجعله يتمنى لقاء الله (جل وعلا) ... وإذا ثبت على إيمانه وصلاحه حتى الموت فإنه وهو

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣١٦) كتاب الجنائز.

(٢) المجموع (٥/ ٢٧٠)، والفتح (٣/ ٢١٧)، وجامع أحكام النساء (١/ ٥٣٥).

محمولٌ على اكتاف الرجال بعد موته يقول: قدِّمونى قدِّمونى لما يرى من الخير الذى ينتظره... ويسمع صوته كل شىء فى الكون إلا الإنسان...... وهذا كفرحة العبد فى قبره حينما يُفرش له قبره من الجنة ويلبس من الجنة ويُفتح له باب إلى الجنة فإنه يقول من شدة فرحه: «**رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى**»[١].

۞ «**وَإِنْ كانَتْ غير صالحة، قالَتْ: يا ويْلَهَا، أَيْنَ تَذْهَبُونَ بَها؟ يَسْمَعُ صَوتَها كُلُّ شىءٍ إلاَّ الإنْسَانُ، وَلَوْ سَمِعَهُ لَصَعِقَ**» وهنا تتضح عاقبة البُعد عن الله والانغماس فى الكفر أو المعاصى. وإصرار العبد على ذلك حتى الموت.. فإذا مات وحملوا جنازته ليدفنوه فإنه يصرخ ويصرخ ويقول: يا ويلها أين تذهبون بها.. فيسمع صوته كل شىء فى هذا الكون إلا الإنسان.. ولو سمعنا صوته وصُراخه بعد ما رأى ما ينتظره من العذاب لصعقنا جميعًا...لكن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه لم يُطلعنا على ذلك.. لأننا لو سمعنا صراخ هؤلاء ما حملنا جنازة أبدًا.

وهذا كقوله ﷺ: «**إن هذه الأمة تُبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا**[٢]**، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه**»[٣].

(٤٥٠) وعَنْ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحدِكُمْ منْ شِراكِ نَعلِه وَالنَّارُ مِثْلُ ذلك»[٤].

۞ قَالَ ابن بَطَّالٍ: **فِيهِ أَنَّ الطَّاعَةَ مُوصِلَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَنَّ الْمَعصِيَةَ مُقَرِّبَةٌ إِلَى النَّارِ وَأَنَّ الطَّاعَةَ وَالْمَعصِيَةَ قَد تَكُونُ فِي أَيْسَرِ الْأَشْيَاءِ ... وَتَقَدَّمَ فِي هَذَا الْمَعنَى قَرِيبًا حَدِيثُ «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ» الْحَدِيثَ ... فَيَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ لَا يَزْهَدَ**

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).
(٢) أن لا تدافنوا: أى مخافة أن لا تدافنوا.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٧) كتاب الجنة.
(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٤٨٨) كتاب الرقاق.

فِى قَلِيلٍ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَأْتِيَهُ وَلَا فِى قَلِيلٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَجْتَنِبَهُ فَإِنَّهُ لا يَعلَمُ الْحَسَنَةَ الَّتِى يَرحَمُهُ اللهُ بِهَا وَلَا السَّيِّئَةَ الَّتِى يَسْخَطُ عَلَيْهِ بِهَا.

وَقَالَ ابن الْجَوْزِىِّ: مَعنَى الْحَدِيثِ أَنَّ تَحصِيلَ الْجَنَّةِ سَهْلٌ بِتَصحِيحِ الْقَصدِ وَفِعلِ الطَّاعَةِ .. وَالنَّارُ كَذَلِكَ بِمُوَافَقَةِ الْهَوَى وَفِعلِ الْمَعصِيَةِ[1].

وهنا يخبر النبى ﷺ أن الجنة قريبة جدًّا ... فقد تكون فى ركعتين فى جوف الليل.. وقد تكون فى مسحة على رأس يتيم.. وقد تكون فى تقبيل يد أمك أو أبيك.. وقد تكون فى صدقة يسيرة على مسكين.. وقد تكون فى تذكير إنسانٍ غافلٍ عن طاعة الله... وقد تكون فى دمعة من خشية الله (جل وعلا).

وكذلك أخبر النبى ﷺ أن النار قريبة جدًّا ... فقد تكون فى كلمة تجلب لك سخط الله .. وقد تكون فى إيذاءٍ لوالديك ..أو لقمة من الحرام .. أو غيبة في حق مسلم.. أو نميمة تسعى بها للإفساد بين اثنين .. أو غير ذلك ... فالواجب على المسلم أن يحرص على كل ما يُقربه من الجنة ومن رضوان الله عَزَّ وَجَلَّ حتى ولو كان عملًا يسيرًا .. وأن يتجنب كل ما يُقربه من النار ولو كانت معصية يسيرة .. فقد قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

❊ ❊ ❊

(١) فتح البارى (١١/ ٣٢٩).

(٥٤) باب فضل البكاء من خشية الله تعالى وشوقًا إليه

۞ لو يعلم المؤمن أن تلك الدمعة التى تسقط من خشية الله هى أغلى من الدنيا وما فيها... فهذه الدمعة تنجى العبد من عذاب الله يوم القيامة.

أخى الحبيب: إن البكاء دليلٌ على خشيتك لله ومراقبتك له.

وهو دليل على حياة قلبك واستقامة جوارحك... وهو دليل على رقة قلبك وسرعة استجابته لأمر الله... وهو طريق يوصلك إلى محبة الله ورضوانه ... والبكاء يورث الخوف من الله، وهو علامة على صحة الإيمان، وهو سبب من أعظم أسباب النجاة يوم القيامة.

۞ كان الحسن يقول: ما اغرورقت عينٌ بمائها من خشية الله إلا حرم الله جسدها على النار ... فإن فاضت على خدها لم يرهق ذلك الوجه قَتَرٌ ولا ذِلة... وليس من عمل إلا له وزن وثواب إلا الدمعة من خشية الله فإنها تُطفئ ما شاء الله من حَرِّ النار ... ولو أن رجلًا بكى من خشية الله فى أُمة لرجوت أن يرحم الله ببكائه تلك الأمة بأسرها»[1].

نزف البكاء دموع عينك فاستعِر ... عينًا لغيرك دمعها مدرارُ

مَن ذا يُعيرك عينه تبكى بها ... أرأيت عينًا للدموع تُعَارُ

۞ والبكاء من خشية الله إما أن يكون خوفًا من الله وإما إن يكون شوقًا إليه تبارك وتعالى ... فإذا كان البكاء من معصية فعلها الإنسان، فهذا البكاء سببه الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان بعد طاعة فعلها، كان هذا البكاء شوقًا إلى الله سبحانه وتعالى.

(١) الزهد/ للحسن البصرى (ص١٣٨-١٣٩).

۞ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضعين في القرآن.

الموضع الأول فيه ثناءٌ على الذين يبكون من خشية الله (جل وعلا).

والموضع الثاني فيه ذَمٌّ لمن يستمع إلى القرآن فيضحك ويعجب بدلًا من أن يبكي من خشية الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: أُوتوا العلم من قبل القرآن وهم أهل الكتاب ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، يعني: إن وعد ربنا واقعٌ لا محالة ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾:القرآن ﴿خُشُوعًا﴾: وهؤلاء كالذين مَنَّ الله عليهم من مُؤمني أهل الكتاب ... كعبد الله بن سلام، وغيره ممَّن أسلم في وقت النبي ﷺ وبعد ذلك.

۞وأما الموضع الثاني فهو في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حَدَّث صَدَق، وإذا قال قولًا فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن العظيم، الذي لو أُنزل على جبلٍ لرأيته خاشعًا مُتصدِّعًا من خشية الله .. الذي يزيد ذوي الأحلام رأيًا وعقلًا وتسديدًا وثباتًا، وإيمانًا ويقينًا والذي ينبغي العَجَبُ من عقل مَن تَعجَّب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعًا لأمره ونهيه، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتًا لأخباره الصادقة الحسنة[1].

(١)تفسير السعدي (ص ٩٧٩).

(٤٥١) وعَنْ ابن مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَال لِي النبيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عليَّ القُرآنَ» قلتُ: يا رسُولَ الله، أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قالَ: «إني أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فقرَأْتُ عليه سورَةَ النِّساء، حتى جِئْتُ إلى هذِهِ الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حَسْبُكَ الآنَ» فَالْتَفتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عيناه تَذْرِفانِ[١].

۞ ففي هذا الحديث يخبر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه القرآن.. وكان ابن مسعود من المقربين إلى النبي ﷺ حتى كان النبي ﷺ يجعله يدخل عليه في أي وقت ... حتى ظن أبو موسى الاشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بداية الأمر أن ابن مسعود من آل بيت النبي ﷺ.

المهم أن النبي ﷺ قال لابن مسعود: **«اقرأ عليَّ القرآن»** فتعجب ابن مسعود وقال: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ يعني: كيف أقرأ عليك يا رسول الله وأنت الذي أُنزل عليك القرآن وسمعته مباشرة من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ... ثم إن ابن مسعود كان يستحي من النبي ﷺ.. لكن النبي بتواضعه الذي ليس له مثيل قال لابن مسعود: **«إني أحب أن أسمعه من غيري»**.

وفيه دليل على أن الإنسان قد يكون إنصاته لقراءة غيره أخشع لقلبه مما لو قرأ هو، وهو كذلك أحيانًا.... فأحيانًا إذا سمعت القرآن من غيرك خشعت وبكيت، لكن لو قرأته أنت ما حصلت لك هذه الحال.

فقرأ عليه سورة النساء، فلما بلغ هذه الآية العظيمة: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ أي كيف يكون حال الكفار والفُجار حين نأتي من كل أمةٍ بنبيها يشهد عليها، ونأتي بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان؟ كيف يكون

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٥٠) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

موقفهم؟ وكيف يكون حالهم؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أى فى ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أى لو يُدفنوا فى الأرض ثم تُسوَّى بهم كما تُسوَّى بالموتى ... أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون ترابًا كقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ [النبأ: ٤٠] وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ أى لا يستطيعون أن يكتموا الله حديثًا لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه..[١][٢]

فلما وصل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ذلك الموضع من السورة قال له النبى ﷺ: «**حسبُك الآن**».. فنظر ابن مسعود إلى النبى ﷺ فإذا عيناه تذرفان الدموع ... يبكى ﷺ خوفًا من هذه الحال الرهيبة العظيمة.

وهكذا كان حال النبى ﷺ دائمًا مع القرآن وفى الصلاة.. كان كثير الخشوع والبكاء من خشية الله (جلَّ وعلا).

فقد كان يبكي (صلوات الله وسلامه عليه) حين يستحضر الآخرة ويوم القيامة، وحال وجوده يوم القيامة، وهي حال تشريف له ﷺ، وحال عُلوٍّ وارتفاعٍ له.

يقول له ربه: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك أنت شاهدًا على الكل ... فإذا كان هذا النبي الكريم الشاهد (عليه الصلاة والسلام) يبكي خوفًا من هذا اليوم، فكيف بالمشهود عليهم؟ وكيف يكون حالهم؟ وهذا النبي ﷺ يملأ الخوف من الله قلبه، وهو سيد الخلق (عليه الصلاة والسلام)، وهو صاحب لواء الحمد يوم القيامة، وصاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود، وصاحب الشفاعات

---

(١) هذا التفسير على أن الجملة مستأنفة وهو الظاهر ... وقيل: إن الجملة معطوفة على السابق أى يودون أن يُدفنوا تحت الأرض وأنهم لم يكتموا ولم يكذبوا فى قولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ لأنهم إذا كتموا افتضحوا فلشدة الأمر يتمنون أن تُسوى بهم الأرض - انظر الكشاف (١/ ٣٩٦).

(٢) صفوة التفاسير (١/ ٢٥٣).

يوم القيامة، ومع ذلك يبكي ﷺ من ذلك! فالمؤمن أولى أن يحدث في قلبه الخوف والرعب والرهبة من هذا اليوم، ويسأل الله عَزَّوَجَلَّ العفو والعافية.

۞ وفى هذا الحديث أن الشهداء طائفتان من الناس: الطائفة الأولى الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) ... كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١].

والثانية: أهل العلم الذين ورثوا الأنبياء فإنهم شهداء بعد أن يموت الأنبياء... فالشهداء على الخلق هم العلماء بعد الرسل، يشهدون بأن الرسل بلغوا ويشهدون على الأمة بأن الرسالة قد بلغتهم ... ويا لها من ميزة عظيمة لأهل العلم أن يكونوا هم شهداء الله فى أرضه.

❊❊❊

(٤٥٢) وعَنْ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قالَ: خَطَبَ رَسُولَ الله ﷺ خُطْبَةً مَا سَمعتُ مثْلَهَا قَطُّ، فقال: «لَوْ تعلمُونَ ما أَعلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كثيرًا» قال: فَغَطَّى أَصحَابُ رَسُولِ الله ﷺ. وُجُوهَهُمْ. ولهمْ خَنِينٌ[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرح الحديث رقم (٤٠٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊❊❊

(٤٥٣) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فى الضَّرْعِ وَلا يَجْتَمعُ غُبَارٌ فى سَبِيلِ الله ودُخانُ جَهَنَّمَ»[2].

۞ «لاَ يَلِجُ النَّارَ» من الولوج.. أى: لا يدخل النار: «رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله» والبكاء من خشية الله لا يكون إلا طاعة لله.. فلا يصح أن نقول: أن الذى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٢١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٣٥٩) كتاب الفضائل.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٧٨).

يبكى على فقد حبيبته أنه يبكى من خشية الله.. أو نقول: أن الذى يبكى لأن فريقه هُزم فى مباراة الكأس أنه يبكى من خشية الله ... فالغالب أن الذى يبكى من خشية الله إما أن يبكى وهو يصلى أو أثناء قراءته للقرآن أو أثناء طوافه حول الكعبة.. أو أنه جلس يتذكر نعم الله عليه فبكى حياءً من الله أو تذكَّر ذنوبه فبكى خوفًا من الله.. أو تذكر أحداث وأهوال يوم القيامة فبكى خوفًا من عذاب الله.

فمن بكى من خشية الله خالصًا لوجه الله سيكون فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة كما جاء فى حديث السبعة الذين يُظلهم الله فى ظله -ومنهم- «**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».. ومَن بكى من خشية الله لن يدخل النار إلا فى حالة واحدة ذكرها النبى ﷺ هنا فقال: «**حتى يعود اللبن فى الضرع**» فكما أنه مستحيل أن تحلب اللبن من ضرع الشاة أو البقرة أو غيرهما ثم ترده إلى داخل الضرع مرة أخرى.. فكذلك يستحيل أن يبكى مسلم من خشية الله ثم يدخل النار..

ولا بد أن نعلم أنه لا يُوفَّق للبكاء من خشية الله إلا صفوة خلق الله من عباده الصالحين.. أما غير الصالحين فبكاؤه على فوات الدنيا وحُطامها.

وقد ورد مثل هذا المثل فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١] فيخبر الله ﷻ هنا أن المكذبين بآيات الله من الكفار والمنافقين لن يدخلوا الجنة إلا فى حالة واحدة مستحيلة الحدوث.. ألا وهى: إذا دخل الجمل من ثُقب الإبرة.. فإذا استطعت أن تُدخل الجمل الضخم من ثُقب الإبرة فسوف يدخل الكافر الجنة.. وهذا أمرٌ مستحيل.. وكذلك دخول الكافر الجنة مستحيل.

۞ قوله ﷺ: «**ولا يجتمع غُبارٌ فى سبيل الله ودخان جهنم**» فهذه بُشرى للمجاهدين فى سبيل الله الذين خرجوا للجهاد لتكون كلمة الله هى العليا

واغبرَّت أقدامهم بذلك الغبار فى سبيل الله فإن الله لا يصرف عنهم نار جهنم فحسب بل يصرف عنهم حتى دخان جهنم لأنهم بذلوا أنفسهم لله سواء نالوا الشهادة أم لا.. وذلك لأن النبى ﷺ قال: **«مَن سأل الله الشهادة بصدقٍ بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»**[1].. فما ظنك بمن ينال الشهادة فى ميدان الشرف والجهاد؟!

أما الذين يقاتلون رياءً وسُمعة أو من أجل المغانم فلا يدخلون تحت تلك البشرى.

(٤٥٤) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فى ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِل إلاَّ ظِلُّه: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نَشَأَ فى عبَادَةِ الله تعالى. وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعلَّق بالمَسَاجِدِ. وَرَجُلانِ تَحَابَّا فى الله اجتَمَعا عَلَيهِ وتَفرَّقا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمال فَقَالَ: إنّى أَخافُ الله، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حتَّى لاَ تَعلَمَ شِمالهُ ما تُنْفِقُ يَمِينهُ. ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خاليًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[2].

۞ **سبق شرح هذا الحديث كاملًا بحول الله وقوته عند شرح الحديث رقم (٣٨١) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.**

(٤٥٥) وعَنْ عبد الله بنِ الشِّخِّير رضي الله عنه قال: أَتَيتُ رسُولَ الله ﷺ وَهُو يُصلِّى ولجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ مِنَ البُكَاءِ[3]..

۞ **وهنا يذكر عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه أنه أتى النبى ﷺ فوجده يصلى ويبكى من خشية الله كعادته ﷺ فى أكثر صلواته... فوجده ولجوفه ﷺ أزيزٌ**

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٩)، كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٢٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

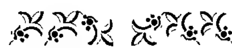
(٣) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٥٤٤).

كأزيز المِرجل من البكاء.

أى أنه وجد أزيز صدر النبى ﷺ من البكاء كأزيز القِدر الذى يغلى على النار وقد استجمع غليان الماء بداخله.... ولا شك أن بكاء النبى ﷺ كان من خشية الله (جل وعلا).

وأما عن صفة بكاء النبى ﷺ فلقد كان من جنس ضحكه فلم يكن بشهيقٍ ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، ويُسمع لصدره أزيزٌ. وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفًا على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحبٌ للخوف والخشية ... ولما مات ابنهُ إبراهيم، دمعت عيناه وبكى رحمة له، وقال: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(١).

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض... وبكى لما قرأ عليه ابنُ مسعود سورة (النساء) وانتهى فيها إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١](٢) وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كسفت الشمس، وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكى فى صلاته، وجعل ينفخ، ويقول: «**ربِّ ألم تعدنى ألا تُعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك**»(٣). وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته. وكان يبكى أحيانًا فى صلاة الليل(٤).



(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٠٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٣١٥) كتاب الفضائل.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٥٠) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين.
(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٠٧٩).
(٤) زاد المعاد (١/ ١٨٣-١٨٤).

(٤٥٦) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ، **لأُبِيِّ بنِ كَعبٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الله، عَزَّ وَجَلَّ، أَمْرنى أَنْ أَقْرأَ علَيْكَ: ﴿ **لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ [البينة: ١] ». قال: وَسَمَّانى؟ قال: «نَعَمْ» فَبكَى أُبَيٌّ[١]. وفى رواية: فَجَعَل أُبَيٌّ يَبْكى.

۞ هذا الحديث يخبر عن منقبة عظيمة للصحابى الجليل أُبى بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .. لكن قبل أن أذكر تلك المنقبة لا بد أن نعرف مَن هو أُبى بن كعب.

إنه واحد من الأربعة الذين كان النبى ﷺ يأمر الصحابة أن يأخذوا عنهم القرآن.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «**استقرئوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وسالم مولى أبى حذيفة، وأُبى، ومعاذ بن جبل**»[٢].

قال أنس بن مالك: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كُلُّهم من الأنصار: أُبىّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد أحد عمومتى[٣].

وعن ابن سيرين أن عثمان جمع اثنى عشر رجلًا من قريش والأنصار فيهم أُبى بن كعب، وزيد بن ثابت فى جمع القرآن[٤].

وقال الذهبى فى «**معرفة القُراء الكبار**»: أُبى بن كعب أقرأ من أبى بكر ومن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

۞ وفى هذا الحديث يُخبر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال لأُبى بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾** [البينة: ١]» ... فلم يُصدق أُبى نفسه من شدة الفرحة ولذلك سأل النبى ﷺ وقال له: «وسمَّانى؟» .. أى:

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٨٠٩) كتاب المناقب، ومسلم (٧٩٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخارى (٣٨٠٦) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٦٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخارى (٥٠٠٣) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٢٤٦٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه الفسوى (٢/ ٤٨٧) فى المعرفة والتاريخ.

هل أمرك الله عَزَّوَجَلَّ أن تقرأ تلك السورة على أى واحدٍ من أصحابك فاخترتنى أنا أم أن الله عَزَّوَجَلَّ أمرك أن تقرأها علىَّ وذكر لك اسمى عن طريق الوحى بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فأخبره النبى ﷺ أن الله ذكر اسمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. فبكى أُبى فرحًا وشوقًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ فى آنٍ واحدٍ.

ويا لها من منقبة يعجز اللسان عن وصفها ويعجز القلم عن التعليق عليها ولو بكلمة واحدة.

لك أن تتخيل معى أيها الأخ الحبيب أن الله قد ذكر اسمك من فوق سبع سماوات وليس ذلك فحسب، بل إن الله يأمر نبيه ﷺ أن يقرع عليك بابك ويقول لك: إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن!!!!

تالله لو كنت مكان أُبى بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتمنيت أن ألقى الله فى تلك اللحظة لتكون تلك المنقبة هى خاتمة السعادة.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: فإنها منقبةٌ عظيمة له لم يُشاركه فيها أحدٌ من الناس. وقيل: إنما بكى خوفًا من تقصيره فى شكر هذه النعمة[1].

وقال فى موضع آخر: وَفِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا اسْتِحبَابُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى الْحُذَّاقِ فِيهِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ بِهِ وَالْفَضْلِ وَإِنْ كَانَ الْقَارِئُ أَفْضَلَ مِنَ الْمَقْرُوءِ عَلَيْهِ ... وَمِنْهَا الْمَنْقَبَةُ الشَّرِيفَةُ لِأُبَيٍّ بِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ وَلَا يُعلَمُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ شَارَكَهُ فِي هَذَا ... وَمِنْهَا مَنْقَبَةٌ أُخْرَى لَهُ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى لَهُ وَنَصِّهِ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ ... وَمِنْهَا الْبُكَاءُ لِلسُّرُورِ وَالْفَرَحِ مِمَّا يُبَشَّرُ الْإِنْسَانُ بِهِ وَيُعطَاهُ مِنْ مَعَالِي الْأُمُورِ ... وَأَمَّا قَوْلُهُ آللهُ سَمَّانِي لَكَ فِيهِ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى أمر النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِهِ وَلَمْ يَنُصَّ عَلَى أُبَيٍّ فَأَرَادَ أُبَيٌّ أَنْ يَتَحَقَّقَ هَلْ نَصَّ عَلَيْهِ أَوْ قَالَ

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٠).

عَلَى رَجُلٍ فَيُؤْخَذُ مِنْهُ الِاسْتِثْبَاتُ فِى الْمُحتملاتِ ... وَاخْتَلَفُوا فِى الْحِكْمَةِ فِى قِرَاءَتِهِ ﷺ عَلَى أُبَيٍّ وَالْمُخْتَارُ أَنَّ سَبَبَهَا أَنْ تَسْتَنَّ الْأُمَّةُ بِذَلِكَ فِى الْقِرَاءَةِ عَلَى أَهْلِ الْإِتْقَانِ وَالْفَضْلِ وَيَتَعَلَّمُوا آدَابَ الْقِرَاءَةِ وَلَا يَأْنَفَ أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ... وَقِيلَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى جَلَالَةِ أُبَيٍّ وَأَهْلِيَّتِهِ لِأَخْذِ الْقُرْآنِ عنه وكان بعده ﷺ رَأْسًا وَإِمَامًا فِى إِقْرَاءِ الْقُرْآنِ وَمن أَجَلِّ نَاشِرِيهِ ... وَيَتَضَمَّنُ مُعجِزَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ... وَأَمَّا تَخْصِيصُ هَذِهِ السُّورَةِ فَلِأَنَّهَا وَجِيزَةٌ جَامِعَةٌ لِقَوَاعِدَ كَثِيرَةٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ وَمُهِمَّاتِهِ وَالْإِخْلَاصِ وَتَطْهِيرِ الْقُلُوبِ ... وَكَانَ الْوَقْتُ يَقْتَضِى الِاخْتِصَارَ وَاللهُ أَعلَمُ(١).

(٤٥٧) وعَنْ أَنس رضي الله عنه قالَ: قالَ أَبو بَكْرٍ لعُمَرَ رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انْطَلِقْ بِنا إلى أُمِّ أَيمنَ رضي الله عنها نَزورُها كما كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَزُورُها. فَلَمَّا انْتَهَيا إِلَيْها بَكَتْ. فقالا لها: ما يُبْكِيك؟ أَمَا تَعلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ الله تعالى خَيْرٌ لِرَسُولِ الله ﷺ، قالَتْ: إنى لاَ أَبْكِى، أَن لاَ أَكُونَ أَعلَمُ أَنَّ ما عندَ الله خيرٌ لِرَسُولِ الله ﷺ، ولكنِّى أَبْكِى أَنَّ الوَحيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّماءِ فَهَيَّجَتْهُما على البُكاءِ، فَجَعَلا يَبْكِيانِ مَعهَا(٢).

وقد سبق فى باب زيارة أهل الخير.

۞ سبق شرح الحديث كاملًا بحول الله وقوته عند شرحنا للحديث رقم (٣٦٤) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(٤٥٨) وعَنْ ابن عَمَر رضي الله عنهما قال: لَمَّا اشْتَدَّ بِرَسُولِ الله ﷺ وَجَعُهُ قيلَ لَهُ فى الصَّلاةِ فقال: «مُرُوا أبا بَكرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ» فقالتْ عائشةُ رضي الله عنها : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقيقٌ إذا قَرأَ القُرآنَ غَلَبَهُ البُكاءُ فقال: «مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ» .

وفى رواية عن عائشة رضي الله عنها ، قالَتْ: قلتُ: إِنَّ أَبا بَكْرٍ إذا قامَ مقامَكَ لَم يُسْمِع

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ١٢٣-١٢٤) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٥٤) كتاب فضائل الصحابة.

النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ[١].

۞ وهذا الحديث يحكى نبذة يسيرة عن اللحظات الأخيرة فى حياة النبى ﷺ قبل موته بأيام.. فإنه ﷺ لما اشتد به المرض والوجع أمر أن يصلى أبو بكر رضي الله عنه بالناس لأنه ﷺ كان لا يستطيع أن يخرج ليصلى بهم....

فقالت عائشة رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ[٢]، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُومُ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ؟ فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، قَالَتْ فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لاَ يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَتْ لَهُ حَفْصَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُومُ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَ: «**إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، قَالَتْ: فَأَمَرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ.

۞ وفى رواية: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - وَكَانَ رَجُلًا رَقِيقًا -: يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ[٣].

قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً فَقَامَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، وَرِجْلَاهُ تَخُطَّانِ فِي الْأَرْضِ، قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّهُ، ذَهَبَ يَتَأَخَّرُ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قُمْ مَكَانَكَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ جَالِسًا وَأَبُو بَكْرٍ قَائِمًا يَقْتَدِي أَبُو بَكْرٍ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَيَقْتَدِي النَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ[٤].

۞ ولكن يا ترى ما السبب فى مراجعة عائشة للنبى ﷺ؟

تقول عائشة رضي الله عنها: «لَقَدْ رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٩) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(٢) أسيف: حزين، وقيل: سريع الحزن والبكاء.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٤) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

كَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقَعِ فِي قَلْبِي: أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعدَهُ رَجُلًا، قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا، وَلاَ كُنْتُ أُرَى أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مَقَامَهُ إِلَّا تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ، فَأَرَدتُ أَنْ يَعدِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَبِي بَكْرٍ»[١].

فكان أبو بكر يصلى بالمسلمين، حتى إذا كان يوم الاثنين، وهم صفوف فى صلاة الفجر، كشف النبى ﷺ ستر الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوفٌ أمام ربهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته وجهاده، وكيف نشأت أمة تحافظ على الصلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيها وغيبته، وقد قَرَّت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النجاح الذى لم يُقدَّر لنبيٍّ أو داعٍ قبله، واطمأن أن صلة هذه الأمة بهذا الدين وعبادة الله تعالى، صلة دائمة، لا تقطعها وفاة نبيها ... فمُلئ من السرور ما الله به عليم واستنار وجهه وهو مُنير[٢].

۞ قال الإمام النووى رحمه الله: فِيهِ فَوَائِدُ: مِنْهَا فَضِيلَةُ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه وَتَرْجِيحُهُ عَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ رضوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَتَفْضِيلُهُ وَتَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ أَحَقُّ بِخِلَافَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ غَيْرِهِ .. وَمِنْهَا أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا عَرَضَ لَهُ عُذْرٌ عَنْ حُضُورِ الْجَمَاعَةِ اسْتَخْلَفَ مَنْ يُصَلِّي بِهِمْ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَخْلِفُ إِلَّا أَفْضَلَهُمْ ... وَمِنْهَا فَضِيلَةُ عُمَرَ بَعدَ أَبِى بَكْرٍ رضي الله عنه لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه لَمْ يَعدِلْ إِلَى غَيْرِهِ ... وَمِنْهَا أَنَّ الْمَفْضُولَ إِذَا عَرَضَ عَلَيْهِ الْفَاضِلُ مَرْتَبَةً لَا يَقْبَلُهَا بَلْ يَدَعُهَا لِلْفَاضِلِ إِذَا لَمْ يَمْنَع مَانِعٌ ... وَمِنْهَا جَوَازُ الثَّنَاءِ فِي الْوَجْهِ لِمَنْ أُمِنَ عَلَيْهِ الْإِعجَابُ وَالْفِتْنَةُ لِقَوْلِهِ أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ ... وَأَمَّا قَوْلُ أَبِى بَكْرٍ لِعُمَرَ رضي الله عنهما صَلِّ بِالنَّاسِ فَقَالَهُ لِلْعُذْرِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ أَنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ كَثِيرُ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ وَقَد تَأَوَّلَهُ بَعضُهُمْ عَلَى أَنَّهُ قَالَهُ تَوَاضُعًا[٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٤٥) كتاب المغازي، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(٢) انظر: السيرة النبوية للندوى (ص: ٤٠١).

(٣) مسلم بشرح النووى (٤/ ١٨١).

(٤٥٩) وعَنْ إبراهيمَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عوفٍ أنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ عَوْف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أُتِيَ بطَعامٍ وكانَ صائمًا، فقالَ: قُتِلَ مُصعَبُ بنُ عُمَيرٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهُوَ خَيْرٌ مِنِّى، فَلَمْ يُوجَد لَه ما يُكَفَّنُ فيهِ إلاّ بُرْدَةٌ إنْ غُطِّيَ بِها رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلاهُ، وإنْ غُطِّيَ بها رِجْلاه بَدَا رأْسُهُ، ثُمَّ بُسِطَ لَنا مِنَ الدُّنْيَا ما بُسِطَ -أَوْ قال: أُعطِينَا مِنَ الدُّنْيا مَا أُعطِينَا- وَقَد خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنا عُجِّلَتْ لَنا. ثُمَّ جَعَلَ يَبْكى حَتَّى تَرَكَ الطَّعامَ[1].

۞ وهنا ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين جىء إليه بالطعام وهو صائم ... والصائم يشتهى الطعام عادة، ولكنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تذكر ما كان عليه الصحابة الأولون، وهو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الصحابة الأولين من المهاجرين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ... لكنه قال احتقارًا لنفسه وتواضعًا: قُتل مصعب بن عُمير وهو خيرٌ منى.

وكان مصعبٌ رجلاً شابًّا ... كان عند والديه بمكة وكان والداه أغنياء، وكانا يُلبسانه من خير لباس الشباب والفتيان، وقد دلّلاه دلالاً عظيمًا فلما أسلم هجراه وأبعداه ... وهاجر مع النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان مع المهاجرين، وكان عليه ثوبٌ مُرقعٌ بعدما كان فى مكة عند أبويه يلبس أحسن الثياب، لكنه ترك ذلك كله مهاجرًا إلى الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأعطاه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الراية يوم أُحد، فاستُشهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان معه بُردة -أى ثوب- إذا غطوا به رأسه بدت رجلاه - وذلك لِقِصَر الثوب - وإن غطوا رجليه بدا رأسه ... فأمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُستر به رأسه وأن تُستر رجلاه بالإذخر -نباتٌ معروف-.

فكان عبد الرحمن بن عوف يذكر حال مصعب بن عُمير، ثم يقول: إنهم قد مضوا وسَلِموا مما فتح الله به من الدنيا على مَن بعدهم من المغانم الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾[الفتح: ١٩].

ثم قال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «قد خشينا أن تكون حسناتنا عُجلت

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٢٧٥) كتاب الجنائز.

لنا» ... لأن الكافر يُجزى على حسناته فى الدنيا وله فى الآخرة عذاب النار، والمؤمن قد يُجزى فى الدنيا وفى الآخرة، لكن جزاء الآخرة هو الأهم.

فخشى رضي الله عنه أن تكون حسناتهم قد عُجلت لهم فى هذه الدنيا، فبكى خوفًا وفَرَقًا، ثم ترك الطعام رضي الله عنه.

ففى هذا: دليل على البكاء من خشية الله ومخافة عقابه(١).

وفى هذا أيضًا دليل على تواضع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وعدم تزكيته لنفسه مع أنه من أفاضل الصحابة ومن السابقين ومن العشرة المبشرين بالجنة ومع ذلك يقول: قُتل مصعب بن عُمير وهو خيرٌ منى... وهكذا كان أصحاب الرسول ﷺ قمة فى التواضع وهضم النفس وعدم تزكيتها ولذا رفع الله قدرهم فى الدنيا والآخرة.

(٤٦٠) وعَنْ أبى أُمامة صُدَىِّ بْن عَجلانَ الباهِلىِّ رضي الله عنه، عن النبىِّ ﷺ قال: «لَيْسَ شَىءٌ أَحَبَّ إِلى الله تعالى من قَطْرَتَين. وأَثَرَيْنِ: قَطْرَةُ دُمُوعٍ من خَشيَةِ الله وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهرَاقُ فى سَبِيلِ الله تعالى، وأما الأثران فأثر فى سبيل الله تعالى وَأَثَرٌ فى فَرِيضَةٍ منْ فَرَائِضِ الله تعالى»(٢).

۞ لقد كان أصحاب الرسول ﷺ يسألون دائمًا عن أحب الأشياء إلى الله عز وجل.. وذلك لحرصهم الشديد على أن يفعلوا كل ما يحبه الله.. ولكن هذه المرة أخبرهم النبى ﷺ بأحب الأشياء إلى الله دون أن يسألوا.. وذلك للحرص الشديد من النبى ﷺ على إيصال الخير لأصحابه وأمته ﷺ.

وها هو يقول ﷺ: «**ليس شىء أحب إلى الله**» أى: ليس شىء أكثر محبوبية

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٨٣-١٨٤).

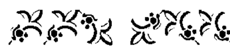
(٢) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٣٢٦).

إلى الله تعالى وأكثر ثوابًا وأعظم مكانة عند الله **«من قطرتين وأثرين»** .... **«قطرة دموعٍ من خشية الله»** أى: قطرة بُكاءٍ تسقط من خشية الله .. وهذا كقوله ﷺ فى السبعة الذين يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله -وذكر منهم- **«ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**.

«وقطرة دمٍ تُهراق فى سبيل الله تعالى» أى: قطرة دمٍ تُهراق فى الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العُليا.. وقد يشمل الجهاد وغيره من سبيل الخير.

ولعل وجه إفراد الدم وجمع الدموع: أن الدمع غالبًا يتقاطر ويتكاثر بخلاف الدم... وقال الطيبى: المراد بقطرة الدموع قطراتها، فلما أُضيفت إلى الجمع أُفردت ثقة بذهن السامع ... وفى إفراد الدم وجمع الدموع إيذان بتفضيل إهراق الدم فى سبيل الله، على تقاطر الدمع بُكاءً(١).

۞ قوله ﷺ: **«وأما الْأَثَرَانِ فَأَثَرٌ فِى سَبِيلِ اللهِ»** كَخُطْوَةٍ أَوْ غُبَارٍ أَوْ جِرَاحَةٍ فِى الْجِهَادِ أَوْ سَوَادِ حِبْرٍ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ ... **«وَأَثَرٌ فِى فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ»** كَإِشْقَاقِ الْيَدِ وَالرِّجْلِ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ فِى الْبَرْدِ وَبَقَاءِ بَلَلِ الْوُضُوءِ وَاحتِرَاقِ الْجَبْهَةِ مِنْ حَرِّ الرَّمْضَاءِ الَّتِى يَسْجُدُ عَلَيْهَا وَخَلُوفِ فَمِهِ فِى الصَّوْمِ وَاغْبِرَارِ قَدَمِهِ فِى الْحَجِّ(٢).



(١) تحفة الأحوذى (٥/ ٥٤).
(٢) تحفة الأحوذى (٥/ ٥٤).

(٥٥) باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلُّل منها وفضل الفقر

۞ لا يعرف قدر الآخرة إلا مَن عرف حجم الدنيا بالنسبة للآخرة.

فإذا أردت أن تعرف حجم الدنيا بالنسبة للآخرة فتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحديد: ٢٠] وتأمل قول النبي ﷺ: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1].

۞ وقوله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بِمَ يرجع!**»[2].

۞ **قال الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها[3] وقِلّتها وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يُعاين به حقيقة الدنيا والآخرة. ويُؤْثِر منهما ما هو أَولَى بالإيثار.

قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: الزهد تَرْكُ ما لا ينفع في الآخرة، والورع: تَرْكُ ما تخاف ضرره في الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الزهد، والورع» وأجمعها.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٥) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة.

(٣) إنما ذلك للحياة الدنية الخسيسة، التي يتعلق بها الغافلون عن كرامتهم، وينصرفون بها إلى البهيمية، ويخلدون إلى أرضها .. أما الذاكرون لكرامتهم ودرجاتهم العالية. فإنهم يتخذون من حياتهم الأولى وما فيها مما أنعم الله عليهم به وسخره لهم أسبابًا يرتفعون بها على مراق البر والإحسان. فهي حياة كريمة مباركة.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام. والثانى: ترك الفضول من الحلال. وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله. وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتى على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله وتبين درجاته، وهو من أجمع الكلام. وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى ... وقد شهد الشافعى رحمه الله بإمامته فى ثمانية أشياء «أحدها الزهد».

والذى أجمع عليه العارفون: أن الزهد: سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه فى منازل الآخرة[١].

۞ ولقد قرأت سيرة سعيد بن المسيب، وسفيان الثورى، وأحمد بن حنبل، والخليل بن أحمد وأمثالهم من علماء الملة، فوجدت العجب العُجاب، من قناعتهم من الدنيا بالقليل ... فهم على الخبز اليابس أحيانًا مع الماء، وأحيانًا مع الزيت، وربما جاعوا الأيام ولم يجدوا طعامًا، وربما لا يجدوا إلا خبز الشعير، مع أن الدنيا تطاردهم، وعطايا السلطان تطلبهم، وهم يرفضون ويفرون. وهذا هو العلم النافع الذى أثَّر فى حياتهم وأخلاقهم، فبقى ذكرهم مرفوعًا دائمًا وأبدًا، وعمَّ نفعهم، واستفيد من علمهم، وانتشر فضلهم والثناء عليهم ... رحمهم الله رحمة واسعة وإيانا معهم[٢].

والدنيا: هى حياتنا هذه التى نعيش فيها ... وسُميت دنيا لسببين:

السبب الأول: أنها أدنى من الآخرة لأنها قبلها كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤].

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٠-١٣) بتصرف.
(٢) حدائق ذات بهجة (ص: ١٦٦).

والثاني: أنها دنيئة ليست بشيء بالنسبة للآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا.

فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صِفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار ﴿وَ﴾ مما تأكل ﴿ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ كأنواع العُشب، والكلأ المختلف الأصناف.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: حصل معهم طمع، بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت ... فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نُبينها ونُوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

وأما الغافل المُعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يُزيلُ عنه الشكَّ البيانُ [(١)].

(١) تفسير السعدي (ص٤٠٤-٤٠٥).

وهذه هى الحياة الدنيا... واعتبر ذلك أنت فى واقعك، فكم من أُناسٍ عاشوا فى هذه الدنيا عيشة راضية، وفى رفاهية وأُنسٍ وأولاد وزوجات وقصور وسيارات، ثم انتقلوا عنها كأن لم يكونوا بالأمس... انتقلوا هم عنها أو انتقلت هى عنهم بشىءٍ أتلف دُنياهم ... فكم من إنسانٍ غنىٍّ عنده أموال عظيمة أصبح فقيرًا يسأل الناس.

فهذه هى الدنيا، وإنما ضرب الله هذا المثل لئلَّا نغتر بها.

❊ ❊ ❊

۞ وقال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾

[الكهف: ٤٥-٤٦].

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ هذا مثلٌ آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنتين فى الفناء والزوال... والمعنى: اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة فى زوالها وفنائها وانقضائها بماءٍ نزل من السماء فخرج به النبات وافياً غزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ ﴾ أى صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ أى قادراً على الإفناء والإحياء لا يُعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء(١).

❊ ❊ ❊

۞ وقال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ

(١) صفوة التفاسير (٢/ ١٧٧).

حُطَٰمًاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: ٢٠]

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ ﴾ أى اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هى إلا لعبٌ يُتعب الناسُ فيها أنفسهم كإتعاب الصبيان أنفسهم باللعب ﴿وَلَهۡوٞ﴾ أى وشُغلٌ للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ﴿وَزِينَةٞ﴾ أى وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ أى ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد ... كما قال القائل:

أرى أهل القُصور إذا أُميتوا ... بنوا فوق المقابر بالصخور

أبوا إلا مباهاةً وفخرًا ... على الفقراء حتى فى القبور

﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ أى مباهاة بكثرة الأموال والأولاد.

قال ابن عباس: يجمع المال من سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه فى مساخط الله، فهو ظلماتٌ بعضها فوق بعض(١) ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أى كمثل مطرٍ غزير أصاب أرضًا، فأعجب الزُّرَّاع نباتُه الناشئ عنه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أى ثم ييبس بعد خُضرته ونُضرته فتراه مُصفرَّ اللون بعد أن كان زاهيًا ناضرًا ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ أى ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيمًا تذروه الرياح ... كذلك حال الدنيا.

قال القرطبى: والمراد بالكفار هنا الزُّرَّاع لأنهم يُغطون البذر...ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزرع يُعجب الناظرين إليه لخُضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا كأن لم يكن، وإذا أعجب الزُّرَّاع فهو فى غاية الحُسن(٢).

---

(١) التفسير الكبير للرازى (٢٩/ ٢٣٣).

(٢) تفسير القرطبى (١٧/ ٢٥٥).

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أى والجزاء فى الآخرة إما عذابٌ شديد للفُجَّار، وإما مغفرة من الله ورضوانٌ للأبرار.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أى وليست الحياة الدنيا فى حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاعٌ زائل، ينخدع بها الغافل، ويغتر بها الجاهل.

قال سعيد بن جُبير: الدنيا متاع الغُرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة[1]..

ولما حقَّر الدنيا وصغَّر أمرها، وعظَّم الآخرة وفخَّم شأنها، حثَّ على المسارعة إلى نَيل مرضاة الله، التى هى سبب للسعادة الأبدية فى دار الخلود والجزاء فقال ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى تسابقوا أيها الناس وسارعوا بالأعمال الصالحة التى تُوجب المغفرة لكم من ربكم .... قال أبو حيان: وجاء التعبير بلفظ ﴿سَابِقُوا﴾ كأنهم فى ميدان سباق يجرون إلى غاية مُسابقين إليها، والمعنى سابقوا إلى سبب المغفرة وهو الإيمان، وعملُ الطاعات[2] ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى وسارعوا إلى جنةٍ واسعة فسيحة، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة ... قال السدى: إن الله تعالى شبَّه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ... فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك[3] وقال البيضاوى: إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول[4]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى هيأها الله وأعدها للمؤمنين المصدّقين بالله ورسله . قال المفسرون: وفى الآية دلالة على أن الجنة مخلوقة وموجودة لأن ما لم يُخلق

(١)مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٥).
(٢)البحر المحيط (٨/ ٢٢٥).
(٣)التفسير الكبير (٢٩/ ٢٣٤).
(٤)تفسير البيضاوى (٣/ ٤٥٤).

بعد لا يُوصف بأنه أُعِدَّ وهُيىءَ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أى ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع، يتفضل به على مَن يشاء من عبادة من غير إيجاب.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أى ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل(١).

۞ وهناك آيات أخرى ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى فضل الزهد فى الدنيا ... ومنها: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]... وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ١-٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، والآيات فى الباب كثيرة مشهورة.

(٤٦١) عن عمرو بنِ عوفٍ الأنصاريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ الله ﷺ بَعَث أَبا عُبيدةَ ابنَ الجرَّاحِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى البَحرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا فَقَدِمَ بِمالٍ مِنَ البحرَينِ، فَسَمِعَت الأنصارُ بقُدومِ أَبي عُبَيْدَةَ، فوافَوْا صَلاةَ الفَجْرِ مَعَ رسولِ الله ﷺ فَلَمَّا صَلى رسول الله ﷺ، انْصرَفَ، فَتعَرَّضُوا لَهُ، فَتبَسَّمَ رسول الله ﷺ حِينَ رَآهُمْ، ثُمَّ قال: «أَظُنُّكُم سَمِعتُم أَنَّ أَبا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيءٍ مِنَ الْبَحرَيْنِ» فقالوا: أَجَل يا رسول الله، فقال: «أَبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يَسرُّكُمْ، فوالله ما الفقرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلكنّى أَخْشى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيا عَلَيْكُم كما بُسِطَتْ عَلى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا. فَتُهْلِككُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(٢).

---

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٣٠٩-٣١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٥٨) كتاب الجزية، ومسلم (٢٩٦١) كتاب الزهد والرقائق.

(٤٦٢) وعَنْ أبى سعيدٍ الخدريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: جَلَسَ رسول الله ﷺ عَلى المنْبَرِ، وَجَلسْنَا حَوْلَهُ. فقال: «إنَّ مِمَّا أَخافُ عَلَيْكُم مِنْ بَعدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِن زَهْرَةِ الدُّنيا وَزِينَتِهَا»(١).

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ بعث أبا عُبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى البحرين ليأتى بجزيتها..

وأبو عبيدة هو أمين هذه الأمة كما أطلق عليه النبى ﷺ هذا اللقب.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لكل أمةٍ أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمةُ أبو عبيدة بن الجراح»**(٢).

قال العلماء: والأمانة مشتركة بينه وبين غيره من الصحابة، لكن النبى ﷺ خَصَّ بعضهم بصفاتٍ غلبت عليهم، وكانوا بها أخص(٣).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: والأمين هو الثقة الرضى ... وهذه الصفة وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره لكن السياق يُشعِر بأن له مزيدًا فى ذلك ... لكن خص النبى ﷺ كل واحد من الكبار بفضيلة ووصفه بها، فأشعر بقدرٍ زائد فيها على غيره، كالحياء لعثمان، والقضاء لعليٍّ ونحو ذلك(٤).

فذهب إليهم أبو عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم عاد بتلك الأموال إلى النبى ﷺ... فلما سمع الأنصار بعودة أبى عُبيدة من البحرين جاءوا إلى النبى ﷺ فوافوه فى صلاة الفجر وصلوا معه ﷺ ... فلما انصرف النبى ﷺ من صلاته تعرضوا له ووقفوا فى طريقه ﷺ...فما كان من النبى ﷺ-الذى قال عنه الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾- إلا أن تبسَّم في وجوههم لأنه علم أنهم جاءوا متشوقين

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٦٥) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٥٢) كتاب الزكاة.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخارى (٣٧٤٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤١٩) كتاب فضائل الصحابة.
(٣) مسلم بشرح النووى (١٥/ ٢٧٣).
(٤) فتح البارى (٧/ ١١٧).

للمال لاحتياجهم له.

فقال لهم: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قَدِمَ بشيءٍ من البحرين؟**» قالوا: أجل يا رسول الله، يعنى سمعنا بذلك وجئنا لننال نصيبنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**أبشروا وأَمِّلوا ما يَسُركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم**» فالفقر لا يخشاه علينا النبى ﷺ.

والفقر قد يكون خيرًا للإنسان، كما جاء فى الحديث القدسى الذى يُروى عن النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: «**إن من عبادى مَن لو أغنيته لأفسده الغِنى**» يعنى أطغاه وأضلَّه وصدَّه عن الآخرة والعياذ بالله ففسد «**وإن من عبادى مَن لو أفقرته لأفسده الفقر**»(١).

فقال النبى ﷺ: «**ما الفقر أخشى عليكم**» يعنى لا أخشى عليكم من الفقر، لأن الفقير فى الغالب أقرب إلى الحق من الغِنى.

وانظروا إلى الرسل (عليهم الصلاة والسلام) مَن الذى كان يكذبهم؟

كان يكذبهم الملأ الأغنياء، وأكثر مَن يتبعهم الفقراء، حتى النبى عليه الصلاة والسلام أكثر مَن اتبعه الفقراء.

فالفقر لا يُخشى منه، بل الذى يُخشى منه أن تُبسَط الدنيا علينا.

كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**ولكن أخشى أن تُبسَط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَن كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهلككم كما أهلكتهم**».

وهذا هو الواقع...وانظر إلى حالنا نحن، لما كان الناس إلى الفقر أقرب، كانوا لله أتقى، وأخشع، ولما كَثُرَ المال، كَثُرَ الإعراض عن سبيل الله، وحصل الطغيان، وصار الإنسان الآن يتشوف لزهرة الدنيا وزينتها: سيارة، بيت، فرش، لباس ... يُباهى الناس بهذا كله، ويُعرض عمَّا ينفعه فى الآخرة.

---

(١) ضعيف:رواه الخطيب، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٧٥).

وصارت الجرائد والصحف وما أشبهها لا تتكلم إلا عن الرفاهية وما يتعلق بالدنيا، وأعرضوا عن الآخرة، وفسد كثيرٌ من الناس إلا مَن شاء الله.

فالحاصل أن الدنيا إذا فُتحت - نسأل الله أن يقينا وإياكم شرها - أنها تجلب الشر وتُطغي الناس ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧](١).

❊ ❊ ❊

(٤٦٣) وعَنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ الله تعالى مُسْتَخْلِفُكُم فِيهَا، فَيَنْظُرَ كَيْفَ تعملُونَ فاتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ»(٢).

«إن الدنيا حلوة خضرة» حلوة المذاق، خضرة المنظر، تجذب وتفتن، فالشيء إذا كان حلوًا ومنظره طيبًا فإنه يفتن الإنسان... فالدنيا هكذا حلوة خضرة.

ولكن «إن الله مُستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون» يعني جعلكم خلائف فيها؛ يَخلُف بعضكم بعضًا، ويرث بعضكم بعضًا، «فينظر كيف تعملون» هل تُقدِّمون الدنيا أو الآخرة؟ ولهذا قال: «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء». ولكن إذا أغنى الله الإنسان، وصار غِناه عونًا له على طاعة الله، ينفق ماله في الحق، وفي سبيل الله، صارت الدنيا خيرًا.

ولهذا كان الرجل في الدنيا الذي ينفق ماله في سبيل الله، وفي مرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ، في منزلة العالم الذي آتاه الله الحكمة والعلم وصار يُعلم الناس.

فهناك فرق بين الذي ينهمك في الدنيا ويُعرض عن الآخرة، وبين الذي يُغنيه الله، ويكون غِناه سببًا لسعادته والإنفاق في سبيل الله ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٨٧-١٨٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٤٦٤) وعَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ»(١).

۞ أى أنه لا عيش باقٍ ولا عيش مطلوب إلا عيش الآخرة

۞ أيها الأخ الحبيب: هل تريد أن تحيا فلا تموت أبدًا؟.. وهل تريد أن تعيش سليمًا مُعافًا لا تمرض أبدًا؟.. وهل تريد أن تظل شابًّا ولا تهرم أبدًا؟.. وهل تريد أن تعيش مُنعَّمًا فلا تبأس أبدًا؟...

- إن كنت تريد ذلك فإنه لن يكون فى الدنيا بل هناك فى الجنة ... فالدنيا دار ابتلاءٍ وامتحان وهى سجن المؤمن وجنة الكافر.

- أما النعيم الكامل الذى لا ينتهى أبدًا ولا ينقص بل يزيد سيكون هناك فى الجنة التى أعدها الله لعباده الصالحين... تلكم الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

۞ وإذا أردت أن تستوثق من كلامى هذا فتأمل معى تلك النداءات التى يسمعها أهل الجنة عند دخول الجنة وبعد دخولها.

۞ عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «**يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**»(٢)... **فذلك قوله** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

۞ وعن صهيب أن النبى ﷺ قال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيُكْشَفُ الحِجَابُ فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ**»(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤١٣) كتاب الرقاق، ومسلم (١٨٠٥) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان.

۞ وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تبارَكَ وَتَعالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(١).

(٤٦٥) وعَنْ أَنسٍ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ: أَهْلُهُ وَمالُهُ وَعَمَلُهُ: فَيَرْجِعُ اثْنَانِ. وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَرجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٠٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٤٦٦) وعَنْ أَنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِن أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصبَغُ فِى النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خيرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يارَبِّ.

ويُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاس بُؤْسًا فِى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّة فَيُصبَغُ صَبْغَةً فِى الجَنَّة، فَيُقَالُ لَهُ: يا ابْنَ آدمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا، وَالله، مَا مَرَّ بِى بُؤْسٌ قَطُّ، وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(٣).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الخير كل الخير فى طاعة الله ولو كان صاحبها فقيرًا مُعدَمًا.. وأن الشر كل الشر فى معصية الله ولو كان صاحبها غنيًّا مُنعَّمًا.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٤٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٢٩) كتاب الجنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥١٤) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٦٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

فيوم القيامة يُؤتَى بأنعم أهل الدنيا... ولا شك أن هذا الرجل أنعم من قارون وذلك لأن قارون لما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٧٨﴾ [القصص: ٧٨].

فقد كان هناك مَن هو أغنى وأكثر جمعًا من قارون الذى لم يصف الله عَزَّوَجَلَّ خزائنه بل وصف مفاتيح خزائنه فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

لكنه لما كفر بالله عَزَّوَجَلَّ كانت النتيجة ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

فالشاهد أنه يُؤتَى يوم القيامة بأنعم إنسان .. ولا يُشترط أن يكون أنعم إنسان هو أغنى إنسان.. بل قد يكون هناك إنسان غنى ولكنه بخيل.. وقد يكون هناك إنسان أقل منه مالًا وثروة ولكنه يحرص كل الحرص على أن يتمتع بذلك المال..

المهم أنه يُؤتَى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار..لكنه بكل أسف لم يشكر الله على تلك النعم ولم يعبد الله بل كان بعيدًا عن طاعة الله لأنه استعمل هذا المال فى كل ما يُغضب الله.. فيأمر الله الملائكة فتغمسه غمسة سريعة فى نار جهنم ثم يسأله الله عَزَّوَجَلَّ ويقول له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قط؟

ولكن تلك الغمسة جعلته ينسى كل نعيم ... وهو مَن هو؟ هو أنعم أهل الدنيا.. فيقول: لا والله يا رب ما رأيت نعيمًا قط.. سبحان الله!!.. أين المال وأين الدنيا وأين المُتع؟!.. ذهب كل ذلك ولم يبقَ إلا أثر تلك الغمسة.

۞ وفى المقابل فإنه يُؤتَى بأشد الناس بُؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة.. فهو رجل حُرم من كل متاع الدنيا الزائل وعانى من كل بلاء ومع ذلك كان راضيًا



عن الله عابدًا لله صابرًا على قضاء الله.. فيأمر الله الملائكة فتغمسه غمسة سريعة في الجنة.. ثم يسأله الله عَزَّوَجَلَّ ويقول له: يا ابن آدم هل رأيت بُؤسًا قط؟ هل مَرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مَرَّ بي بُؤسٌ قط ولا رأيت شدة قط..

الله أكبر.. لقد نسي كل شقاءٍ وبلاءٍ مع أول غمسة في الجنة.. فما ظنك به وقد عاش في الجنة خالدًا مُخلدًا فيها أبدًا.

ألا فليهنأ الفقراء والمحرومون وأهل البلاء الذين صبروا على قضاء الله وعاشوا على طاعة الله.

۞ أيها المهموم بسبب الفقر وقلة ذات اليد.. لا تحزن..

وانظر ماذا فاتك من الدنيا..

ألست تأكل كما يأكل الأغنياء؟!

وتشرب كما يشرب الأغنياء؟!

أما يستحيل طعامك وطعامهم وشرابك وشرابهم إلى ما قد علمت؟

فأي مزيَّة - إذن - لطعامهم على طعامك، أو لشرابهم على شرابك.. فلماذا تحزن؟

ألست تنام كما ينامون، وتستيقظ كما يستيقظون...فأي فرقٍ بين أن تنام على حصيرٍ وينام الأغنياء على فُرُش وثيرة؟! وقد تكون الحصير أنفع وأصح من الفراش الناعم الوثير. فلماذا تحزن؟.

إذا مرضت أخذت قرصًا بفلسٍ فشفاك الله بسبب فقرك وحاجتك وانكسارك بين يديه..

ويدفع الأغنياء الآلاف ومئات الآلاف ويستمر بهم المرض، ولا تنقطع عنهم العلل..

فلماذا تحزن؟

تأكل ما شئت من الطعام، وتشرب ما شئت من الشراب، ويتحمل جسمك أقسى الأطعمة والأشربة، بينما كثير من الأغنياء لا يأكل إلا ما تعافه نفسك أن تأكله؛ لأن أجسامهم لا تقوى إلا على ذلك، فلماذا تحزن..؟!! (١).

۞ ويوم القيامة تتبدل الأحوال.. سينسى المؤمن الفقير كل ما كان يُعانيه من البؤس والشدة والجوع والحرمان والابتلاءات مع أول غمسة فى جنة الرحمن (جلَّ وعلا).

۞ وفى المقابل سينسى الغنى - إن لم يكن طائعًا لله - كل ما كان فيه من الثراء والغِنى والقصور والسيارات والخدم والشهوات مع أول غمسة فى نار جهنم.... فلماذا تحزن؟!... أما إن كان الغنى طائعًا لله عَزَّوَجَلَّ.. فنِعم المال الصالح للرجل الصالح.

***

(٤٦٧) وعَنْ المُسْتَوْرَدِ بنِ شدَّادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فى الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحدُكُمْ أُصبُعَهُ فى الْيَمِّ . فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرجِعُ؟» (٢).

۞ فالنبى ﷺ هنا يوضح لنا أننا إذا أردنا أن نعقد مقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة فما علينا إلا أن يذهب أحدنا إلى البحر أو المحيط ثم يضع أصبعه فى البحر ويرفعه ثم ينظر إلى الماء الذى على أصبعه ليرى كم يساوى بالنسبة إلى الماء الذى فى البحر.. بالطبع لا يساوى أى شىء.. ولا أى نسبة ولا تناسُب بينهما.. وهكذا الدنيا بالنسبة للآخرة .. فالدنيا تساوى القطرة التى تعلقت بأصبعك...والآخرة تساوى ذلك البحر بل أكثر وأعظم من ذلك بكثير.

وطبعًا هذا من باب تقريب الأفهام وإلا فالدنيا أصلًا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ولو كانت تساوى جناح بعوضه ما سقى كافرًا منها شربة ماء.

(١) لا تحزن وكن مطمئنًا (ص: ١٩، ٢٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعنى الحديث: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قِصَر مُدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصبع إلى باقي البحر(١).

۞ ولكي تعرف قدر الدنيا فتأمل معي إلى ما فعله النبي ﷺ مع أصحابه.

(٤٦٨) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَيْهِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُم يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدرهَم؟» فقالوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصنَعُ بِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا، إِنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ! فقال: «فَوَاللهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»(٢).

۞ فهذا جَديٌ ميت لا يساوي شيئًا، ومع ذلك فالدنيا أهون وأحقر عند الله تعالى من هذا الجدي الأسكّ الميت، فهي ليست بشيء ومع ذلك فإن مَن عمل فيها عملًا صالحًا؛ صارت مزرعة له في الآخرة، ونال فيها السعادتين: سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

أما مَن غفل وتغافل وتهاون ومضت الأيام عليه وهو لم يعمل؛ فإنه يخسر الدنيا والآخرة ... قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٨٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٧) كتاب الزهد والرقائق.

قوله: «كَنَفَتَيْهِ» أي: عن جانبيه - وَ «الأَسَكُّ»: الصغير الأذن.

وكل بني آدم خاسر إلا هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف الأربعة: آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر.

جعلنا الله والمسلمين منهم(١).

(٤٦٩) وعَنْ أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، في حَرَّةٍ بالمدينة، فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ فقال: «يا أبَا ذَرٍّ». قلت: لَبَّيْكَ يا رسول الله. فقال: «مَايَسُرُّني أنَّ عِنْدِي مِثل أُحُدٍ هذا ذَهبًا تَمْضي عَلَيَّ ثَلاثَةُ أيَّام وعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إلاَّ شَيْءٌ أَرصُدُهُ لِدَيْنٍ، إلاَّ أَنْ أَقُولَ بِهِ في عِبَاد الله هكَذَا وَهكَذا» عن يَمِينِه وعَنْ شماله ومن خلفه...ثم سار فقال: «إنَّ الأكثَرِينَ هُمُ الأقَلُّونَ يَومَ القيامة إلاَّ مَنْ قَالَ بالمَالِ هكذَا وهكذا» عن يمينِه، وعَنْ شمالِهِ، ومِنْ خَلفه «وَقَليلٌ مَا هُمْ». ثم قال لي: «مَكَانَك لا تَبْرَح حَتَّى آتيكَ». ثم انْطَلَقَ في سَوَاد اللَّيْل حتى تَوارَى، فسمعتُ صَوْتًا قَدِ ارْتَفَعَ، فَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ عَرَضَ للنَّبِيِّ ﷺ فَأَردتُ أَنْ آتِيَهُ فَذَكَرْتُ قوله: «لا تَبْرَح حَتَّى آتيكَ» فلم أَبْرَح حَتَّى أَتَاني، فَقُلْتُ: لقد سَمِعتُ صَوتًا تَخَوَّفْتُ منه، فَذَكَرْتُ له. فقال: «وَهَلْ سَمِعتَهُ؟» قلت: نَعَم، قال: «ذَاكَ جبريلُ أتاني فقال: مَن ماتَ مِنْ أُمَّتِكَ لا يُشرِكُ بالله شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، قلتُ: وَإنْ زَنَى وَإنْ سَرَقَ؟ قال: وَإنْ زَنَى وَإنْ سَرَقَ»(٢).

(٤٧٠) وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لو كان لي مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، لَسرَّني أنْ لا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاثُ لَيَالٍ وعَنْدِي منه شَيءٌ إلا شيءٌ أَرْصُدُهُ لِدَينٍ»(٣).

۞ ففي هذا الحديث يخبر أبو ذر رضي الله عنه أنه كان يمشي مع النبي ﷺ في المدينة حتى وصلا بالقرب من جبل أُحد فنظر النبي ﷺ إلى جبل أُحد ثم قال لأبي ذر: «يا أبَا ذَرٍّ». قلت: لَبَّيْكَ يا رسول الله. فقال: «مَايَسُرُّني أنَّ عِنْدِي مِثل

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٩٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٦٨) كتاب الاستئذان، ومسلم (٩٤) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٤٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٩٩١) كتاب الزكاة.

أُحُدٍ هذا ذَهبًا تَمْضى عَلَىَّ ثَلاثَةُ أَيَّام وعِنْدِى مِنْهُ دِينَارٌ، إِلاَّ شَىْءٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ، إِلاَّ أَنْ أَقُولَ بِهِ فى عِبَاد الله هكَذَا وَهَكَذا وَهَكَذا» عن يَمِينِه وعَنْ شماله ومن خلفه... وهذا يدل على أن النبى ﷺ كان أزهد الناس فى حُطام الدنيا الزائل.. فهو لا يريد أن يجمع المال ولا يحرص عليه إلا شيئًا يرصده لدَينٍ...

۞ وتأمل معى كيف كانت حياة سيد ولد آدم ﷺ.

ففى الحديث الذى رواه مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدَّقَل(١) ما يملأ به بطنه.

وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خُبز شعير يومين متتابعين حتى قُبض(٢).

وفى الصحيحين عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: والله يا ابن أُختى إن كُنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثةُ أَهِلَّة فى شهرين، وما أُوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نارٌ. قُلت: يا خالة فما كان يُعيِّشُكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار وكانت لهم منائح وكانوا يُرسلون إلى رسول الله ﷺ من أَلبانها فيسقينا(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علىَّ امرأةٌ من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فرجعت إلى منزلها، فبعثت إلىَّ بفراش حشوه الصوف، فدخل علىَّ رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا؟» فقلت: فلانةُ الأنصارية دخلت علىَّ، فرأت فراشك، فبعثت إلىَّ بهذا. فقال: «رُدِّيه» فلم أردّه، وأعجبنى أن

---

(١) الدقل: ردىء التمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤١٦) كتاب الأطعمة، و(٦٤٥٥) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٩٧٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥٩) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٩٧٢) كتاب الزهد والرقائق.

يكون فى بيتى، حتى قال ذلك ثلاث مرات فقال: «**يا عائشة، رُدِّيه، والله لو شئت، لأجرى اللهُ معى جبال الذهب والفضةِ**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: نام رسول الله ﷺ **على حصيرٍ فقام وقد** أثَّر فى جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاءً، فقال: «**ما لى وللدنيا؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرةٍ ثم راح وتركها**»(٢).

بل كان النبى ﷺ يُكثر من هذا الدعاء - كما فى الصحيحين- أنه ﷺ كان يقول: «**اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتًا**»(٣).. أى: ما يسد الرمق.

ولو كانت الدنيا محبوبة إلى الخالق (جل وعلا) ما حرم منها نبيه وحبيبه ﷺ.. فالدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة.

۞ ثم سار النبى ﷺ وقال لأبى ذر: «**إِنَّ الأكثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَومَ القيامِة إلاَّ مَنْ قَالَ بالمَالِ هكذَا وهكذا**» عن يمينِه، وعَنْ شمالهِ، ومِنْ خَلفه «**وَقَليلٌ مَا هُمْ**».

يقصد النبى ﷺ أن المُكثرين من الدنيا وحُطامها هم المُقلون من الأعمال الصالحة يوم القيامة.. وذلك لأن الغالب على صاحب المال الكثير والمشروعات الكبيرة أنه ينشغل بها غاية الانشغال من أجل تنمية تلك الأموال والمشروعات حتى تُلهيه الدنيا ويُعرض عن طاعة الله ولا يجد وقتًا حتى للصلاة.. فيكون مُكثرًا من المال فى الدنيا مُقلًّا فى الآخرة من الأعمال الصالحة.

۞ ثم قال أبو ذر رضي الله عنه: ثم قال لى النبى ﷺ: «**مَكَانَك لا تَبْرَح حَتَّى آتِيَكَ**». ثم انطَلَقَ فى سَوَاد اللَّيْل حتى تَوَارَى، فسمعتُ صَوْتًا قَدِ ارْتَفَعَ، فتَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ عَرَض للنَّبِيِّ ﷺ فَأَرَدتُ أَنْ آتِيَهُ فَذَكَرْتُ قوله: «**لا تبْرَح حَتَّى آتيكَ**» فلم أبْرَح حَتَّى

---

(١) رواه أحمد بسندٍ صحيح.

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذى (٢٣٧٧) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤١٠٩) كتاب الزهد، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٦٦٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٦٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٥) كتاب الزهد والرقائق.

أتانى، فَقُلْتُ: لقد سَمِعتُ صوتًا تخوَّفتُ منه، فذكرْتُ له. فقال: «وَهَلْ سَمِعتَهُ؟» قلت: نَعَم، قال: «ذَاكَ جبريلُ أتانى فقال: مَن ماتَ مِنْ أُمَّتِكَ لا يُشرِكُ بالله شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، قلتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قال: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»... فأخبر النبى ﷺ هنا أن مَن مات لا يشرك بالله شيئًا سيدخل الجنة وإن زنى وإن سرق..

وهذا لا يعنى أن الزنى والسرقة حلال أو أنهما من الذنوب اليسيرة.. بل هما من الكبائر .. ولذا استعظم أبو ذر ذلك فقال: وإن زنى وإن سرق!.. فقال النبى ﷺ: «وإن زنى وإن سرق» وذلك لأن مَن مات على الإيمان والتوحيد فلم يُشرك بالله شيئًا وكان قد وقع فى بعض الكبائر ولم يَتُب منها فهو فى مشيئة الله.. إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه.. لكنه حتى وإن عاقبه الله عَزَّوَجَلَّ فمآله فى النهاية إلى الجنة.. وذلك لأنه لا يُخلَّد موحدٌ فى النار أبدًا.

وعلى العموم .. فإن أصحاب الكبائر - ما سوى الشرك - فى مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ.. إن شاء عذَّبهم وإن شاء عفا عنهم .. ورحمته سبقت غضبه .. ورحمته غلبت غضبه عَزَّوَجَلَّ.

(٤٧١) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «انْظُرُوا إلى مَنْ هَوَ أَسفَلَ منْكُمْ وَلا تَنظُرُوا إلى مَنْ فَوقَكُم فهُوَ أَجْدرُ أَن لا تَزْدَرُوا نعمةَ اللهِ علَيْكُمْ»(١).

وفى رواية البخارى: «إذا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إلى مَنْ فُضِّلَ عليهِ فى المالِ وَالخَلْقِ فلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أَسْفَلُ مِنْهُ».

۞ وذلك لأن الإنسان إذا نظر إلى مَن هو أغنى منه وأعلى منه منصبًا فقد يعترض على قضاء الله عَزَّوَجَلَّ.. وقد يحسد هذا الإنسان على ما أنعم الله به عليه.. وقد يتحول الأمر إلى منافسة على حُطام الدنيا فينشغل ليل نهار بالجرى وراء

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٩٠) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٦٣) كتاب الزهد والرقائق.

حُطام الدنيا ليكون مثل فلان وفلان من أصحاب المال والثراء.

أما إذا نظر إلى مَن هو دونه فى حظوظ الدنيا فهذا سيجعله يحمد الله على ما أنعم عليه من النِّعم.. ولن يحسد أخاه بل رُبما يشفق عليه ويساعده لينال الأجر والثواب ولن ينشغل باللهث وراء الدنيا بل سيرضى بما قدره الله له ويجتهد فى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ: هَذَا حَدِيثٌ جَامِعٌ لِأَنْوَاعٍ مِنَ الْخَيْرِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيَا طَلَبَتْ نَفْسُهُ مِثْلَ ذَلِكَ وَاسْتَصْغَرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعمَةِ اللهِ تَعَالَى وَحَرَصَ عَلَى الِازْدِيَادِ لِيَلْحَقَ بِذَلِكَ أَوْ يُقَارِبَهُ فَهَذَا هُوَ الْمَوْجُودُ فِى غَالِبِ النَّاسِ ... وَأَمَّا إِذَا نَظَرَ فِى أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَى مَنِ هُوَ دُونَهُ فِيهَا ظَهَرَتْ لَهُ نِعمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ فَشَكَرَهَا وَتَوَاضَعَ وَفَعَلَ فِيهِ الْخَيْرَ(١).

(٤٧٢) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبى ﷺ قال: «تَعِسَ عبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرهَمِ وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعطَ لَمْ يَرْضَ»(٢).

۞ تلك الأحاديث كلها تدل على الزهد فى الدنيا، وأن الإنسان لا ينبغى أن تتعلق نفسه بها، وأن تكون الدنيا بيده لا بقلبه، حتى يُقبل بقلبه على الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا هو كمال الزهد، وليس المعنى أنك لا تأخذ شيئًا من الدنيا، بل خُذ من الدنيا ما يَحِلُّ لك، ولا تنسَ نصيبك منها، ولكن اجعلها فى يديك ولا تجعلها فى قلبك، وهذا هو المهم.

لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا بعبادته وبإعمار الأرض وكفل لنا أرزاقنا حتى آخر لحظة فى حياتنا.

(١) مسلم بشرح النووى (١٨/ ١٢٩-١٣٠).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٣٥) كتاب الرقاق، (٢٨٨٧) كتاب الجهاد والسير.

والنبى ﷺ فى هذا الحديث يدعو على مَن ترك آخرته وعكف على حُطام الدنيا الزائل حتى وصل الأمر به أنه أصبح عبدًا للدرهم والدينار.

قال ﷺ: «تَعِسَ عبد الدينار والدرهم» أى: سقط.. والمراد هنا: هلك .. وقيل: التعس هو الشر.. وقيل: التعس أى البُعد.. أى بُعدًا له.. وقيل: التعس أن يَخِرَّ على وجهه ... والنَّكس أن يَخِرَّ على رأسه.

«عبد الدينار» أى الذى يطلبه ويجرى وراءه ويحرص عليه فإذا حصل عليه قام على حفظه وسهر عليه كالخادم والعبد.

قال الطيبى: قيل خص العبد بالذكر ليُؤْذِن بانغماسه فى محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذى لا يجد خلاصًا، ولم يَقُل مالك الدينار ولا جامع الدينار لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة[(١)].

«والقطيفة والخميصة» : والقطيفة: كساءٌ غليظ ... والخميصة: ثوب مُخطط من حرير أو صوف.

۞ **قوله ﷺ: «إن أُعطى رضى وإن لم يُعطَ لم يرضَ»**.

قال الطيبى: يُؤْذِنُ بِشِدَّةِ الْحِرصِ عَلَى ذَلِكَ ... وَقَالَ غَيْرُهُ جَعَلَهُ عَبْدًا لَهُمَا لِشَغَفِهِ وَحِرْصِهِ فَمَنْ كَانَ عَبْدًا لِهَوَاهُ لَمْ يَصدُقْ فِى حَقِّهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فَلَا يَكُونُ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ صِدِّيقًا.

۞ **وفى الرواية الأخرى قال ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة: إن أُعطى رضى وإن لم يُعطَ سخط، تَعِسَ وانتكس، وإذا شِيك فلا انتقش»**.

قال الطيبى: فِى قَوْلِهِ **«تَعِسَ وَانْتَكَسَ»** فِيهِ التَّرَقِّى فِى الدُّعَاءِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ إِذَا تَعِسَ انْكَبَّ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا انْتَكَسَ انْقَلَبَ عَلَى رَأْسِهِ وَقِيلَ التَّعسُ الْخَرُّ عَلَى الْوَجْهِ .. وَالنَّكْسُ: الْخَرُّ عَلَى الرَّأْسِ.

---

(١) فتح البارى (١١/ ٢٥٩).

وَقَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْمَذْكُورَةِ «وَإِذَا شِيكَ» أَيْ إِذَا دَخَلَتْ فِيهِ شَوْكَةٌ لَمْ يَجِد مَنْ يُخْرِجُهَا بِالْمِنْقَاشِ وَهُوَ مَعنَى قَوْلِهِ «فَلَا انْتَقَشَ» وَيَحتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ لَمْ يَقْدِرِ الطَّبِيبُ أَنْ يُخْرِجَهَا ... وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الدُّعَاءِ عَلَيْهِ بِمَا يُثَبِّطُهُ عَنِ السَّعيِ وَالْحَرَكَةِ وَسَوَّغَ الدُّعَاءَ عَلَيْهِ كَوْنُهُ قَصرَ عَمَلَهُ عَلَى جَمْعِ الدُّنْيَا وَاشْتَغَلَ بِهَا عَنِ الَّذِى أُمِرَ بِهِ مِنَ التَّشَاغُلِ بِالْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ ... قَالَ الطِّيبِيُّ: وَإِنَّمَا خُصَّ انْتِقَاشُ الشَّوْكَةِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَسْهَلُ مَا يُتَصَوَّرُ مِنَ الْمُعَاوَنَةِ فَإِذَا انْتَفَى ذَلِكَ الْأَسْهَلُ انْتَفَى مَا فَوْقَهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى[(١)].

۞ فالنبى ﷺ الذى كان يرفض أن يدعو على أحدٍ إلا فى حالاتٍ نادرة يدعو هنا على الذى يُصبح عبدًا للدرهم والدينار وينسى آخرته ولا يعمل لذلك اليوم الذى سيقف فيه بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ ليسأله عن كل صغيرة وكبيرة.

(٤٧٣) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: «لقَد رَأَيتُ سَبْعِين مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، ما منْهُم رَجُلٌ عليه رداءٌ، إمَّا إزارٌ، وإمَّا كِسَاءٌ، قد ربطُوا فى أعناقِهِمْ، فَمنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصفَ السَّاقَيْن. ومنْهَا ما يَبْلُغُ الكَعبينِ. فَيجْمَعُهُ بيدِه كراهِيَة أَنْ تُرى عَوْرَتُهُ»[(٢)].

۞ ففى هذا الحديث يصف أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حال أهل الصُّفَّة ومدى ما كانوا عليه من الشدة والفقر.. ومع ذلك كانوا راضين بقضاء الله مُقبلين على طاعته (سبحانه وتعالى).

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ لَا يَأْوُونَ عَلَى أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ »[(٣)].

إن المهاجرين الأوائل الذين هاجروا قبل النبى ﷺ أو معه أو بعده حتى

---

(١) فتح البارى (١١/ ٢٥٩).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٢) كتاب الصلاة.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٤٥٢) كتاب الرقاق.

نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدر ... استطاع الأنصار أن يستضيفوهم فى بيوتهم وأن يشاركوهم النفقة ولكن فيما بعد كَبُر حجم المهاجرين مما لم يَعُد هناك قدرة للأنصار على استيعابهم[١].

فقد صار المهاجرون يَكثُرون بعد ذلك شيئًا بعد شيء.

فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه.. ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء، والآهلين والعُزَّاب ... فكان مَن لم يتيسر له مكان يأوى إليه، يأوى إلى تلك الصُّفة فى المسجد[٢].

والذى يظهر للباحث أن المهاجر الذى يقدم إلى المدينة كان يلتقى بالرسول ﷺ، ثم يُوجهه بعد ذلك إلى مَن يكفله فإن لم يجد فإنه يستقر فى الصُّفة مؤقتًا ريثما يجد السبيل[٣].... فقد جاء فى المُسند عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ يُشْغَلُ ، فَإِذَا قَدِمَ رَجُلٌ مُهَاجِرٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ دَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ مِنَّا يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ ، فَدَفَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا فَكَانَ مَعِي فِي الْبَيْتِ، أُعَشِّيهِ عَشَاءَ أَهْلِ الْبَيْتِ، فَكُنْتُ أُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ»[٤] وقد كان أول مَن نزل الصُّفة المهاجرون[٥] لذلك نُسبت إليهم فقيل: صُفة المهاجرين[٦] وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود التى كانت تَقدُم على النبى ﷺ مُعلنة إسلامها وطاعتها[٧] وكان الرجل إذا قدم على النبى ﷺ وكان له عريف نزل عليه وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصُّفّة وكان أبو هريرة رضي الله عنه عَرِيفَ مَن سكن الصُّفة من القاطنين، ومن نزلها من الطارقين... فكان النبى ﷺ إذا أراد دعوتهم عَهِدَ إلى

(١) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة / للشامى، (ص١٧٥).
(٢) الفتاوى (١١/ ٤٠، ٤١).
(٣) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، (ص١٧٥).
(٤) حسن: رواه أحمد (٥/ ٣٢٤) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.
(٥) انظر: وفاء الوفا للسمهودى، (١/ ٣٢٣).
(٦) رواه أبو داود ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٤٠٠٣).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٥٨).

أبى هريرة فدعاهم لمعرفته بهم، وبمنازلهم ومراتبهم فى العبادة والمجاهدة.

ونزل بعض الأنصار فى الصُّفّة حبًّا لحياة الزهد والمجاهدة والفقر، رغم استغنائهم عن ذلك ووجود دارٍ لهم فى المدينة ... ككعب بن مالك الأنصارى، وحنظلة بن أبى عامر الأنصارى (غسيل الملائكة) وحارثة بن النعمان الأنصارى وغيرهم[١].

(٤٧٤) وعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وجنَّةُ الكَافِرِ»[٢].

قال الإمام النووى رحمه الله: قوْلُهُ ﷺ «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» مَعنَاهُ أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مَسْجُونٌ مَمْنُوعٌ فِى الدُّنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالْمَكْرُوهَةِ مُكَلَّفٌ بِفِعلِ الطَّاعَاتِ الشَّاقَّةِ فَإِذَا مَاتَ اسْتَرَاحَ مِنْ هَذَا وَانْقَلَبَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّعِيمِ الدَّائِمِ وَالرَّاحة الْخَالِصَة مِنَ النُّقْصَانِ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّمَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا حَصَّلَ فِى الدُّنْيَا مَعَ قِلَّتِهِ وَتَكْدِيرِهِ بِالْمُنَغِّصَاتِ فَإِذَا مَاتَ صَارَ إِلَى الْعَذَابِ الدَّائِمِ وَشَقَاءِ الْأَبَدِ[٣].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«الدنيا سجن المؤمن» فيه تفسيران صحيحان:

أحدهما: أن المؤمن قَيَّده إيمانه عن المحظورات، والكافر مُطلَق التصرُّف.

الثانى: أن ذلك باعتبار العواقب...فالمؤمن لو كان أنعم الناس فذلك بالإضافة إلى مآله فى الجنة كالسجن... والكافر عكسه، فإنه لو كان أشد الناس بُؤسًا فذلك بالنسبة إلى النار جنته[٤].

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٥٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٦) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) مسلم بشرح النووى (١٨/ ١٢٤-١٢٥).

(٤) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٧).

وهنا قصة عجيبة لابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: وهي أنه خرج يومًا بأُبهته - وكان رئيس القضاة بمصر - فإذا برجل يهودي، في حالة رثة، فقال اليهودي: قِف. فوقف ابن حجر. فقال له: كيف تُفسر قول رسولكم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وها أنت تراني في حالةٍ رثة وأنا كافر، وأنت في نعيم وأُبهة مع أنك مؤمن؟!.... فقال ابن حجر: أنت مع تعاستك وبؤسك تُعَدُّ في جنة بالنسبة لما ينتظرك في الآخرة من عذاب أليم - إن مت كافرًا -.

وأنا مع هذه الأبهة - إن أدخلني الله الجنة - فهذا النعيم الدنيوي يُعد سجنًا بالمقارنة مع النعيم الذي ينتظرني في الجنات.

فقال: أكذلك؟ قال: نعم. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله(١).

❊❊❊

(٤٧٥) وعَنْ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَخَذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبَيَّ، فقال: «كُنْ في الدُّنْيا كأَنَّكَ غريبٌ، أَوْ عَابِرُ سبيلٍ».

وَكَانَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: إِذَا أَمْسَيْتَ، فَلا تَنْتَظِرِ الصَّباحَ وإِذَا أصبَحت، فَلا تَنْتَظِرِ المَساءَ، وخُذْ منْ صِحَّتِكَ لمرضِكَ ومِنْ حياتِك لِموتكَ(٢).

۞ قالوا في شرح هذا الحديث: معناه: لا تَركَن إلى الدُّنْيَا ولا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا، ولا تُحدِّثْ نَفْسكَ بِطُول الْبقَاءِ فِيهَا، وَلا بالاعتِنَاء بِهَا، ولا تَتعَلَّقْ مِنْهَا إلاَّ بِما يَتعَلَّقُ بِه الْغَرِيبُ في غيْرِ وطَنِهِ، ولا تَشْتَغِلْ فِيهَا بِما لا يشتَغِلُ بِهِ الغَرِيبُ الَّذِي يُرِيدُ الذَّهاب إلى أَهْلِهِ، وَبالله التَّوْفِيقُ(٣).

---

(١) إنها الجنة يا أختاه/ د. محمود المصري (ص:٦٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٦) كتاب الرقاق.

(٣) رياض الصالحين (ص ١٧٢).

❁ ففى هذا الحديث قال ابن عمر (رضي الله عنهما):

أخذ النبى ﷺ بمنكبى .... أخذ بمنكبه من أجل أن يستعد لما يُلقيه عليه فينتبه فقال: «**كُن فى الدُّنْيا كأنَّك غريب أو عابر سبيل**» يحتمل أن هذا من باب الشك، أى أن الراوى شك، هل قال رسول الله ﷺ الأول أو الثانى.

ويحتمل أنه من باب التنويع يعنى كن كالغريب الذى يداخل الناس ولا يهتم بهم، ولا يُعرَف بينهم، أو كأنك عابر سبيل تريد أن تأخذ ما تحتاجه فى سفرك وأنت ماشٍ.

وهذا التمثيل الذى ذكره النبى ﷺ هو الواقع؛ لأن الإنسان فى هذه الدنيا مسافر، فالدنيا ليست دار مقر، بل هى دار ممر.

وهذا الحديث أصلٌ فى قِصَر الأمل فى الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغى له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا فيطمئن فيها، ولكن ينبغى أن يكون فيها كأنه على جناح سفرٍ يهيئ جهازه للرحيل.

وقِصَر الأمل هو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة، التى تمر مَرَّ السحاب، ومبادرة طى صحائف الأعمال.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجر: ٣] ....أى: دعهم يعيشون كالأنعام، ولا يهتمون بغير الطعام والشهوات.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أى: يشغلهم طول الأمل والعمر، وبلوغ الوطر، واستقامة الحال، عن الإيمان والأخذ بطاعة الله تعالى.

قال الحافظ فى الفتح: هذا تنبيه على أن إيثار التلذُّذ والتنعُّم، وما يُؤدى إلى طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: خَطَّ النبى ﷺ خُطوطًا فقال: «**هذا الأمل، وهذا أجله**

فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب»(١).

قال النبي ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما مَثَلي ومثل الدنيا، كمثل راكبٍ قَالَ في ظل شجرة، ثم راح وتركها»(٢).

وروى عن المسيح عليه السلام أنه قال لأصحابه: اعبروها، ولا تُعمروها.

وروى عنه أنه قال: مَن ذا الذي يبني على موج البحر دارًا، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارًا.

ودخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه فجعل يُقلب بصرة في بيته فقال: يا أبا ذر! أين متاعكم؟ قال: إن لنا بيتًا نُوجهه إليه، قال: إنه لا بد لك من متاع، ما دُمت ها هنا، قال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إن الدنيا قد ارتحلت مُدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكلٍّ منهما بَنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عملٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل.

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطنًا، فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين: إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غُربة، هَمُّه التزود للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة ... فلهذا وصَّى النبي ﷺ ابن عمر أن يكون في الدنيا على أحد هاتين الحالين.

۞ **فأحدهما**: أن يُنزل المؤمن نفسه كأنه غريب في الدنيا يتخيل الإقامة، لكن في بلد غربة، فهو غير متعلق القلب ببلد الغربة، بل قلبه متعلق بوطنه الذي يرجع إليه.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٨) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦٨).

قال الفضيل بن عياض: المؤمن فى الدنيا مهموم حزين، همه مَرَمَّةُ جهازه.

ومَن كان فى الدنيا كذلك، فلا هَمَّ له إلا فى التزود بما ينفعه عند عودته إلى وطنه.

قال الحسن: المؤمن فى الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا يُنافس فى عزها ... له شأن، وللناس شأن.

لما خلق الله آدم أسكنه هو وزوجته الجنة، ثم أُهبطا منها، ووُعدا بالرجوع إليها وصالح ذريتهما... فالمؤمن أبدًا يحن إلى وطنه الأول.

نقِّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى ... ما الحبُ إلا للحبيبِ الأولِ

كم منزلٍ للمرءِ يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزلِ

والمنزل الأول للمؤمنين هو الجنة:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

فحى على جنات عدنٍ فإنها ... منازلك الأُولى وفيها المخيمُ

ولكننا سَبى العدو فهل ترى ... نعُود إلى أوطاننا ونَسلمُ

۞ الحال الثانى: أن يُنزل المؤمن نفسه فى الدنيا كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، وإنما هو سائر فى قطع منازل السفر، حتى ينتهى به السفر إلى آخره وهو الموت.

قال الحسن: يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يومُك ذهب بعضك.

وقال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا مَن يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سَنته، وسَنته تهدم عمره.

۞ قال الفُضيل بن عياض لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة.

قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ. فقال الرجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. فقال الفُضيل: أتعرف تفسيرها تقول: إنا لله وإنا إليه

راجعون.. فمن علم أنه لله عبدٌ، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومَن عَلِمَ أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومَن عَلِمَ أنه مسؤول فليُعد للسؤال جوابًا.

فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يَسيرة. قال: ما هى؟ قال: تُحسن فيما بقى، يغفر لك ما مضى ... فإنك إن أسأت فيما بقى أُخذت بما مضى وبما بقى.

قال بعض الحكماء: مَن كانت الليالى والأيام مطاياه، سارت به وإن لم يسر.

قال بكر بن عبد الله المزنى: إذا أردت أن تنفعك صلاتك فقل: لعلّى لا أُصلى غيرها ... وهذا مأخوذ من قول النبى ﷺ: «**صلِّ صلاة مُودِّع**».

۞ ومن أجل ذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء.

أقام معروف الكرخى الصلاة، ثم قال لرجل: تقدَّم فصلِّ بنا. فقال الرجل: إنى إن صليت بكم هذه الصلاة، لم أُصلِّ بكم غيرها ... فقال معروف: وأنت تُحدث نفسك أنك تصلى صلاة غيرها، نعوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع من خير العمل.

۞ وقول ابن عمر رضي الله عنه: «وخُذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك» يعنى اغتنم الأعمال الصالحة فى الصحة قبل أن يَحُول بينك وبينها السقم ... وفى الحياة قبل أن يَحُول بينك وبينها الموت.

وفى رواية: فإنك يا عبد الله لا تدرى ما اسمك غدًا .. يعنى: لعلك غدًا من الأموات دون الأحياء، فبدلًا من أن يقول الناس جاء فلان، أو خرج فلان، يقولون: غسلتم الميت، دفنتم الميت فإنك لا تدرى ما اسمك غدًا[1].

---

(١) رياض الجنة (ص٧٨-٨١) بتصرف.

(٤٧٦) **وعَنْ أبى الْعبَّاس سَهْلِ بنِ سَعدٍ السَّاعدىّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ: فقالَ: يا رسول الله دُلَّنى عَلى عمَلٍ إذا عَمِلْتُهُ أَحبَّنى الله، وَأحبَّنى النَّاسُ، فقال: «ازْهَد فى الدُّنيا يُحبكَ الله، وَازْهَد فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحبكَ النَّاسُ»**(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلًا جاء إلى النبى ﷺ فسأله عن عملٍ يجعله يفوز بمحبة الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبة الناس فى آنٍ واحد.. فأخبره النبى ﷺ وأخبر الأمة من بعده أن مَن أراد أن يفوز بمحبة الله عَزَّ وَجَلَّ فعليه أن يزهد فى الدنيا.. وليس معنى الزهد فى الدنيا أن نترك الدنيا ولا نعمل فيها ولا نُعمرها وأن نجلس فى بيوتنا عالة على الناس.

بل إن الزهد كل الزهد أن تعمل وتجتهد وتُعمر الأرض فإن أصبحت غنيًّا يكون المال فى يدك وليس فى قلبك.. وليس معنى الزهد أن تكون فقيرًا .. فقد تكون فقيرًا ومع ذلك فقلبك مُتعلق بالدنيا.. وقد تكون غنيًّا وقلبك متعلق بالآخرة .. والمال فى يدك وليس فى قلبك ... المهم أن النبى ﷺ أخبر هذا الرجل أن مَن أراد أن يفوز بمحبة الله فعليه أن يزهد فى الدنيا.. ومَن أراد أن يفوز بمحبة الناس فعليه أن يزهد فيما عند الناس ولا يطلب منهم شيئًا... بل أخبر النبى ﷺ أن مَن لم يسأل الناس شيئًا فثوابه الجنة..

قال ﷺ: «مَن يتكفّل لى أن لا يسأل الناس شيئًا، أتكفل له بالجنة»(٢).

۞ **قال الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ اللهُ:

لا تتم الرغبة فى الآخرة إلا بالزهد فى الدنيا، ولا يستقيم الزهد فى الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر فى الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخِسَّتها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما فى ذلك من الغُصص

(١) **صحيح:** رواه ابن ماجه، والطبرانى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٢٢).
(٢) **صحيح:** رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٠٤).

والنَّغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يَعقُب من الحسرة والأسف،... فطالبها لا ينفكُّ من هَمٍّ قبل حصولها وهَمٍّ فى حال الظفر بها، وغَمٍّ وحُزنٍ بعد فواتها فهذا أحد النظرين.

النظر الثانى: النظر فى الآخرة، وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها، وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات، والمسرَّات، والتفاوت الذى بينه وبين ما هاهنا... فهى كما قال سبحانه ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]؛ فهى خيراتٌ كاملة دائمة، وهذه خيالاتٌ ناقصة مُنقطعة مُضمحلة ... فإذا تَمَّ له هذان النظران؛ آثر ما يقتضى العقل إيثاره، وزَهِدَ فيما يقتضى الزهد فيه.

ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم وأطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعَدُّوها سجنًا لا جنة[١]، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها؛ لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب...فقد عُرضت عليه مفاتيح كنوزها فردَّها وفاضت على أصحابه فآثروا بها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها مَعبر وممر لا دار مقام ومستقر وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيالُ طيفٍ ما استتم الزيارة حتى آذن بالرحيل.

قال النبى ﷺ: «ما لى وللدنيا؟ إنما أنا كراكبٍ قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها»[٢].

وقال: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يُدخل أحدكم إصبعه فى اليم؛ فلينظر بِمَ ترجع؟»[٣][٤].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٦) كتاب الزهد والرقائق.
(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦٨).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة.
(٤) الفوائد (ص ٩٦- ٩٧).

(٤٧٧) وعَنْ النُّعمَانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: ذَكر عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ما أصاب النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا، فقال: لَقَد رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوى ما يَجِدُ مِنَ الدَّقَل ما يمْلأُ بِهِ بطْنَهُ(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذى كان مُلازمًا للنبى ﷺ هو وأبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى أكثر أحواله.. حتى كان الناس يقولون: جاء النبى ﷺ وأبو بكر وعمر.. وخرج النبى ﷺ ومعه أبو بكرٍ وعمر.. فعمر هو الوزير الثانى للنبى ﷺ بعد أبى بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وهنا يخبر النعمان أن عمر بن الخطاب ذكر ما أصاب الناس من الدنيا بعدما فُتحت عليهم زهرة الدنيا ومتاعها الزائل.. فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدَّقَل ما يملأ به بطنه.

لقد رأى النبى ﷺ يظل اليوم كله يلتوى من شدة الجوع فلا يجد بعض التمرات الرديئة ليأكلها.. وهو مَن هو؟! .. هو سيد ولد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ... هو الذى عُرضت عليه جبال مكة أن تصير له ذهبًا فقال: «**بل أجوع يومًا فأصبر وأشبع يومًا فأشكر**».. هو الذى لو أراد لاجتمعت أمامه كنوز الدنيا وأشهى المطعومات والمأكولات وكل ما يريد... بل لو أراد أن تنزل عليه كل يومٍ مائدة من السماء لأنزلها الله عليه... فقد أنزلها الله عَزَّ وَجَلَّ على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فكيف يمنعها عن حبيبه ﷺ... لكن النبى ﷺ ما أراد الدنيا طرفة عين.. بل جعل هَمَّه كله رضوان الله والجنة.. وكان شعاره دائمًا: «**ما لى وللدنيا وما للدنيا وما لى! والذى نفسى بيده، ما مثلى ومثل الدنيا، إلا كراكب سار فى يومٍ صائفٍ، فاستظلَّ تحت شجرة ساعة من النهار، ثم راح وتركها**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٧٨) كتاب الزهد والرقائق.
«الدَّقَلُ»: رَدِيءُ التَّمْرِ.
(٢) صحيح: رواه أحمد والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦٩).

(٤٧٨) وعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: تُوفِّيَ رسولُ الله ﷺ، وما فى بَيْتى مِنْ شَىْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَطْرُ شَعيرٍ فى رَفٍّ لى، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَال علَىَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِىَ(١).

۞ ففى هذا الحديث تُخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ لما تُوفى لم يترك أى شىءٍ من متاع الدنيا ولا طعامها إلا شيئًا يسيرًا من الشعير.. فلم تأخذه أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لتضعه على الميزان وتعلم حجم الشعير الذى عندها.. بل ظلت تأكل منه فترة طويلة وهى تتعجب وتقول لنفسها: كيفى بقى هذا القَدر اليسير من الشعير تلك الفترة الطويلة... وفى يومٍ من الأيام قررت أن تكيل الشعير لتعرف وزنه ففنى وانتهى خلال أيامٍ يسيرة... وكأنها تقول: لو تركته هكذا دون أن أكيله لما فنى أبدًا.

قَالَ الْقَاضِى رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْبَرَكَةَ أَكْثَرُ مَا تَكُونُ فِى الْمَجْهُولَاتِ وَالْمُبْهَمَاتِ ... وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ «كِيلُوا طَعَامَكُمْ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ» فَقَالُوا الْمُرَادُ أَنْ يَكِيلَهُ مِنْهُ لِأَجْلِ إِخْرَاجِ النَّفَقَةِ مِنْهُ بِشَرْطِ أَنْ يَبْقَى الْبَاقِى مَجْهُولًا وَيَكِيلُ مَا يُخْرِجُهُ لِئَلَّا يُخْرِجَ أَكْثَرَ مِنَ الْحَاجَةِ أَوْ أَقَلَّ(٢).

(٤٧٩) وعَنْ عمرو بنِ الحارث أخى جُوَيْرِية بنْت الحَارث أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «مَا تَرَكَ رسولُ الله ﷺ، عِنْدَ مَوْتِهِ دينَارًا وَلادِرهَمًا، ولا عَبْدًا، وَلا أَمَةً، وَلا شَيْئًا إلا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ الَّتى كَان يركَبُهَا، وَسِلاحَهُ، وَأَرضًا جَعَلَهَا لابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً»(٣).

۞ لقد فارق رسول الله ﷺ الدنيا وهو يحكم جزيرة العرب ويَرهبه ملوك

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥١) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٧٣) كتاب الزهد والرقائق.
«شَطْرُ شَعيرٍ» أى شَىْء مِنْ شَعيرٍ. كَذا فَسَّرهُ التِّرمذىُّ.
(٢) مسلم بشرح النووى (١٨/ ١٤٢-١٤٣).
(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٤٦١) كتاب المغازى.

الدنيا ويَفديه أصحابه بنفوسهم وأولادهم وأموالهم.. وما ترك عند موته درهمًا ولا دينارًا.

وهنا يحكى عمرو بن الحارث وهو أخٌ لأم المؤمنين جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.. يحكى عمرو أن النبى ﷺ عند موته لم يترك دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أَمة ولا شيئًا... سيد ولد آدم ﷺ لم يكن فى بيته عند موته سوى سبعة دراهم... فكان يقول لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَصدَّقى بالسبع دراهم يا عائشة... فإذا غُشى عليه وأفاق كان يقول لها: تصدقتِ بالدراهم يا عائشة؟ فتقول له: شغلنى مرضك يا رسول الله ﷺ.. فيقول لها: تصدقى بهن يا عائشة.. كيف أَلقَى ربى وفى بيتى سبعة دراهم.

سيد ولد آدم لم يترك ثروة ولم يترك قصورًا ولا أى شىء حتى لا يظن أحد أنه كان يدعو من أجل أن يجمع حُطام الدنيا الفانى وإنما كان يدعو ابتغاء مَرضاة الله (جلَّ وعلا).. حتى أنه ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث.. ما تركناه فهو صدقة**» ومع ذلك لم يترك النبى ﷺ شيئًا إلا بغِلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه الذى كان يجاهد به وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة.

فيا ليت (بعض) الدُّعاة الذين يتاجرون بدين الله عَزَّوَجَلَّ من أجل أن يجمعوا الدولارات والدينارات من الأمراء ورجال الأعمال.. حتى جعلوا الكثير من الناس يُسيئون الظن بالدُّعاة المحترمين ظنًّا منهم أنهم يفعلون مثلهم... يا ليت هؤلاء يراجعون سيرة الرسول ﷺ مرة أخرى وأن يتخذوه أُسوة وقدوة لهم فى كل شىء وأن يتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.. فالعلماء ورثة الأنبياء.. ولا يعنى هذا أنه لا يجوز أن يكون العالِم غنيًّا .. فنِعم المال الصالح للرجل الصالح.. ولكن يا ليته يكون غنيًّا من كدِّه وتعبه وتجارته وأعماله وليس من المتاجرة بدين الله على موائد الأمراء والأثرياء.... فاللهم احفظنا من أن نكون من الذين يتاجرون بدينك يا أرحم الراحمين: «اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك وبفضلك عمَّن سواك».

(٤٨٠) وعَنْ خَبَّاب بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال: هَاجَرنَا مَعَ رسول الله ﷺ نَلْتَمسُ وَجهَ الله تعالى فَوَقَعَ أَجْرُنا عَلى الله، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يأْكُلْ مِنْ أَجرِهِ شَيْئًا. مِنْهُم مُصعَبُ بن عُمَيْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ نَمِرَةً، فَكُنَّا إِذَا غَطَّيْنا بهَا رَأْسَهُ، بَدَتْ رِجْلاهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رِجْلَيْهِ، بَدَا رَأْسُهُ، فَأَمَرَنا رسولُ الله ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ، وَنَجْعَلَ عَلى رِجْليهِ شَيْئًا مِنَ الإِذْخِرِ، ومِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمرَتُهُ. فَهُوَ يَهدبُهَا[1].

۞ وهنا يحكى خباب بن الأرت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما حدث لمصعب بن عُمير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند موته .. وكان مصعب من المهاجرين الذين هاجروا لله عَزَّ وَجَلَّ ابتغاء وجهه، وكان شابًّا مُدلَّلاً من قِبَل والديه فى مكة، ولما أسلم طرده أبواه لأنهما كانا كافرين، فهاجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقُتل فى أُحد فى السنة الثالثة من الهجرة، فلم يمضِ على هجرته إلا ثلاثة أعوام أو أقل، فقُتل شهيدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وكان صاحب الراية، ولم يكن معه شىء إلا بُردة- ثوبٌ واحد- إن غطوا به رأسه بدت رجلاه، وإن غطوا به رجليه بدا رأسه، فأمر النبى ﷺ أن يُغطَّى رأسه، ويُجعَل على رجليه شىء من الإذخر، وهو نبات معروف تأكله البهائم... فأمر النبى ﷺ أن يُجعل على رجليه لأجل أن يغطيهما.

قال خبَّاب: «ومنّا»: يعنى المهاجرين «مَن أينعت له ثمرته» أينعت: يعنى استوت وأثمرت «فهو يهدبها» أى: يجنيها ويقطفها ويتمتع بها.... يقول ذلك شوقًا إلى العهد الأول، وإلى ما كانوا عليه من زهدٍ قبل أن تُفتح عليهم الدنيا فيشتغل بها البعض[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٧٦) كتاب الجنائز، (٣٨٩٧) كتاب المناقب، ومسلم (٩٤٠) كتاب الجنائز.

«النَّمِرَةُ»: كسَاء مُلَوَّنٌ منْ صُوفٍ. وقوله: «أَيْنَعَت» أىْ: نَضَجتْ وَأَدركَتْ. وقوله: «يَهْدِبُهَا». أىْ: يَقْطِفُهَا وَيَجتَنِيهَا .... وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ لمَا فَتَحَ الله تَعَالى عَلَيْهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَتَمَكَّنُوا فيهَا.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٩٤-١٩٥).

(٤٨١) وعَنْ سَهْلِ بنِ سَعد السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافرًا منْها شَرْبَةَ مَاءٍ»(١).

۞ «**لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعدِلُ**» أي: تساوى «**عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**» هُوَ مَثَلٌ لِلْقِلَّةِ وَالْحَقَارَةِ.

وَالْمَعنَى: أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَا أدنَى قَدرٌ «**مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا**» أَيْ مِنْ مِيَاهِ الدُّنْيَا «**شَرْبَةَ مَاءٍ**» أَيْ ما كان يُمَتِّعُ الْكَافِرَ مِنْهَا أَدنَى تَمَتُّعٍ ... فَإِنَّ الْكَافِرَ عَدُوُّ اللهِ.

وَالْعَدُوُّ لَا يُعطَى شَيْئًا مِمَّا لَهُ قَدرٌ عِنْدَ الْمُعطِى ... فَمِنْ حَقَارَتِهَا عِنْدَهُ لَا يُعطِيهَا لِأَوْلِيَائِهِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ حَدِيثُ «**إِنَّ اللهَ يَحمِى عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ عَنِ الدُّنْيَا كَمَا يَحمِى أَحَدُكُمُ الْمَرِيضَ عَنِ الْمَاءِ**»(٢).

۞ وفى الحديث الذى يليه:

(٤٨٢) وعَنْ أبى هَرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَلاَ إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلعون مَا فيها، إلاَّ ذِكْرَ الله تعالى، ومَا وَالاَه وَعالمًا وَمُتَعلِّمًا»(٣).

۞ «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ**» أَيْ مَبْغُوضَةٌ مِنَ اللهِ لِكَوْنِهَا مُبْعَدَةً عَنِ اللهِ «**مَلْعُونٌ مَا فِيهَا**» أَيْ مِمَّا يُشْغِلُ عَنِ اللهِ «**إِلَّا ذِكْر اللهِ وَمَا وَالاهُ**» أَيْ مَا أَحَبَّهُ اللهُ مِنْ أَعمَالِ الْبِرِّ وَأَفْعَالِ الْقُرَبِ ... الْمُرَادُ هُنَا يَعنِى مَلْعُونٌ مَا فِى الدُّنْيَا إِلَّا ذِكْر اللهِ وَمَا أَحَبَّهُ اللهُ مِمَّا يَجْرِى فِى الدُّنْيَا وَمَا سِوَاهُ مَلْعُونٌ.

وَقَالَ الْأَشْرَفُ: هُوَ مِنَ الْمُوَالَاةِ وَهِىَ الْمُتَابَعَةُ ... وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِمَا يُوَالِى ذِكْر اللهِ تَعَالَى طَاعَتَهُ وَاتِّبَاع أَمْرِهِ وَاجْتِنَاب نَهْيِهِ(٤).

(١) صحيح: رواه الترمذى، والضياء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٩٢).
(٢) تحفة الأحوذى (٦/ ١٩٣).
(٣) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٠٩).
(٤) تحفة الأحوذى (٦/ ١٩٤).

«وعالمًا ومُتعلمًا» أي: الدنيا مذمومة لا يُحمد فيها إلا ذكر الله وما أحبه الله من أعمال البر والطاعة وعالمٌ ومتعلم لأنه هو الذى يدل الناس على أعمال البر والطاعة

قَالَ الْمُنَاوِىُّ: قَوْلُهُ «مَلْعُونَةٌ» أَىْ مَتْرُوكَةٌ مُبْعَدَةٌ مَتْرُوكٌ مَا فِيهَا أَوْ مَتْرُوكَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَصفِيَاءِ ... كَمَا فِى خَبَرِ «لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ».

وَقَالَ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ» لِأَنَّهَا غَرَّتِ النُّفُوسَ بِزَهْرَتِهَا وَلَذَّتِها فَأَمَالَتْهَا عَنِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَى الْهَوَى ... وَقَالَ بَعدَ ذِكْرِ قَوْلِهِ «وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا» أَىْ هِىَ وَمَا فِيهَا مُبْعَدٌ عَنِ اللهِ إِلَّا الْعِلْمُ النَّافِعُ الدَّالُّ عَلَى اللهِ فَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا.

فَاللَّعنُ وَقَعَ عَلَى مَا غَرَّ مِنَ الدُّنْيَا لَا عَلَى نَعِيمِهَا وَلَذَّتِها فَإِنَّ ذَلِكَ تَنَاوَلَهُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ[1].

۞ فالدنيا لا تُذَم لذاتها وإنما يُذَم ما يفعله فيها الإنسان من الذنوب والمعاصى وظُلم العباد.

ومن المهم أن يعلم المسلم: (أن الدنيا) وإن اعتُبرت متاعًا قليلًا وزائلاً، ومتاع الغرور، فإنها دار لها أهمية عُظمى باعتبارها (مزرعة الآخرة)، فهى الفرصة الوحيدة للإنسان، ليصنع فيها مصيره، ويُحقق فيها أمله الكبير فى الخلود والسعادة الأبدية. لهذا كان عُمْر الإنسان فى الدنيا فى غاية النفاسة والغلاء، لأنه ليس له إلا عُمْرٌ واحد، هو هذه الأيام التى يقضيها من المهد إلى اللحد.

قال يحيى بن معاذ الرازى: كيف لا أحب دنيا قُدِّر لى فيها قُوت، أكتسب بها حياة ... أُدرك بها طاعة، أنال بها الآخرة.

وسُئل أبو صفوان الرعينى، وكان من العارفين: ما هى الدنيا التى ذمَّها الله فى القرآن، التى ينبغى للعاقل أن يجتنبها؟ فقال: كل ما أصبت فى الدنيا تريد به

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ١٩٥).

الدنيا، فهو مذموم، وكل ما أصبت فيها تريد به الآخرة، فليس منها(١).

وقال الحسن: نعمت الدار كانت الدنيا للمؤمن، وذلك أنه عمل فيها قليلًا، وأخذ زاده منها إلى الجنة ... وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه ضيَّع لياليه، وكان زاده منها إلى النار(٢).

وها هو على بن أبى طالب رضي الله عنه سمع رجلًا يَسُب الدنيا، فقال: إنها لدار صِدقٍ لمن صَدَقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غِنًى لمن تزود منها.. مسجد أحباء الله، ومهبط وحيه، ومُصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة.

فبيَّن أمير المؤمنين رضي الله عنه: أن الدنيا لا تُذَم مُطلَقًا، وأنها تُحمَد بالنسبة إلى مَن تزود منها الأعمال الصالحة، وأن فيها مساجد الأنبياء، ومهبط الوحى، وهى دار التجارة للمؤمنين، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا بها الجنة، فهى نعم الدار لمن كانت هذه صفته(٣).

***

(٤٨٣) وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبُوا فى الدُّنْيا»(٤).

۞ «الضَّيْعَةَ» هِيَ الْبُسْتَانُ وَالْقَرْيَةُ وَالْمَزْرَعَةُ.

وَضَيْعَةُ الرَّجُلِ مَا يَكُونُ مِنْهُ مَعَاشُهُ كَالصَّنْعَةِ وَالتِّجَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَالَ فِي الْقَامُوسِ: الضَّيْعَةُ الْعَقَارُ وَالْأَرْضُ الْمُغَلَّةُ.

«فَتَرْغَبُوا فِي الدُّنْيَا» أَيْ فَتَمِيلُوا إِلَيْهَا عَنِ الْأُخْرَى ... وَالْمُرَادُ النَّهْيُ عَنِ

(١) رواه ابن الأعرابى فى الزهد (٣٥)، وأبو نُعيم فى الحلية (١٠/ ٥)، والبيهقى فى الزهد الكبير (ص١٨٧).

(٢) رواه الإمام أحمد فى الزهد (ص٢٨٤).

(٣) الورع والزهد/ د.يوسف القرضاوى (ص ٨٢-٨٣) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٢١٤).

الِاشْتِغَالِ بِهَا وَبِأَمْثَالِهَا مِمَّا يَكُونُ مَانِعًا عَنِ الْقِيَامِ بِعِبَادَةِ الْمَوْلَى وَعَنِ التَّوَجُّهِ كَمَا يَنْبَغِي إِلَى أُمُورِ الْعُقْبَى... وَقَالَ الطِّيبِيُّ: الْمَعنَى لَا تَتَوَغَّلُوا فِي اتِّخَاذِ الضَّيْعَةِ فَتُلْهَوْا بِهَا عَنْ ذِكْرِ اللهِ قَالَ تَعَالَى ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1].

۞ وليس المقصود من وراء تلك الأحاديث أنه يَحرُم على الإنسان أن يعمل وأن ينجح وأن يمتلك وأن يصبح ذا ثروة فى الدنيا .. كلا بل من المهم أن يحرص الإنسان على إعمار الأرض وعلى أن يكون ناجحًا ليكون قدوة لمن أراد أن يجمع بين الدنيا والآخرة.. كما فعل أبو بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وغيرهم رضي الله عنهم ... ولكن المذموم هنا أن ينشغل العبد بحطام الدنيا عن الآخرة والجنة ... فيتعب فى الدنيا من أجل الدنيا .. وإنما ينبغى على الإنسان أن يغرس فى الدنيا كل الخير الذى سيجنى ثمرته فى الآخرة .. ومع ذلك ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

فله أن يستمتع بالمباح دون الوقوع فى المعصية بشرط ألا ينسى آخرته.

(٤٨٤) **وعَنْ عبد الله بن عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما، قال: مَرَّ عَلَيْنَا رسولُ الله ﷺ وَنحنُ نُعالجُ خُصًّا لَنَا فقال: «ما هذا؟» فَقُلْنَا: قَد وَهِى، فَنَحنُ نُصلِحُه، فقال: «ما أَرَى الأَمْرَ إلاَّ أَعجَلَ مِنْ ذلكَ»**[2].

۞ وهنا يحكى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبى ﷺ مَرَّ عليهم وهم يُصلحون خُصًّا لهم: أى بيتًا لهم من القصب أو من الخشب.

فسألهم النبى ﷺ: «ما هذا؟» أى: ماذا تفعلون؟ فأخبروا النبى ﷺ بأن البيت قد وهى... أى: ضَعُف وانشقَّ واسترخى رباطه وأنهم يحاولون إصلاحه من أجل أن يَصلُح لعيشهم فيه.

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٠١).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٢٦).

فقال لهم ﷺ: **«ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك»**.

أى أن الأَجل أَقْرَبُ مِنْ تَخرُّبِ هَذَا الْبَيْتِ ... أَىْ أنك تُصلِحُ بَيْتَك خَشْيَةَ أَنْ يَنْهَدِمَ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ وَرُبَّمَا تَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَنْهَدِمَ ... فَإِصلَاحُ عَمَلِكَ أَوْلَى مِنْ إِصلَاحِ بَيْتِكَ ... قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: أَىْ كَوْنُنَا فِى الدُّنْيَا كَعَابِرِ سَبِيلٍ أَوْ رَاكِبٍ مُسْتَظِلٍّ تحت شَجَرَةٍ أَسْرَع مِمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنِ اشْتِغَالِكَ بِالْبِنَاءِ[1].

وليس معنى هذا أن النبى ﷺ يُحرم عليهم إصلاح بيتهم ولكنه ﷺ يُلفت أنظارهم إلى أن هناك ما هو أهم من إصلاح البيت ألا وهو إصلاح النيات والأعمال التى سنقف بها بين يدى الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة.

أى: كما تهتمون بإصلاح بيوتكم وكل شئون حياتكم فاحرصوا على أن تكونوا أكثر اهتمامًا بأمور دينكم وآخرتكم.

(٤٨٥) وعَنْ كَعبِ بنِ عِيَاضٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فتنةً، وفِتنَةُ أُمَّتى المَالُ»[2].

۞ وفتنة المال ليست فى جَمْعِهِ وكسبِه من وجوهه المشروعة، إنما هى فى حُبه حُبًّا جَمًّا يُلهيه عن طاعة الله، والحرص عليه حرصًا يجعله لا يبالى أن يكسبه من غير حِلِّه، وينفقه فى غير مَحلِّه، ويبخل به عن حقِّه... والشر كله من هذا نَبع ... وهذا ما حذَّر منه النبي ﷺ حيث قال: **«ما ذئبان جائعان أُرسلا فى غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»**[3].

يعنى بالشرف: الجاه والمنزلة.

---

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٠٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٤٨).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٢٠).

من أجل ذلك يُعلِّم الإسلام أبناءه: أن المال ليس هو كل شيء في الحياة، بحيث يحصر الإنسان كل همه فيه، وكل سعيه له، وكل حماسه ونشاطه في طلبه وجَمعه، بحيث لا يدع في عقله وقلبه مكانًا للرغائب الكبيرة، والمُثل العُليا، التي يجب أن ترنو إليها الأبصار، وتشرئب نحوها الأعناق.

إن المُثُل الأخلاقية العُليا، والقِيَم الروحية الرفيعة، من الإيمان والعمل الصالح والخُلق الكريم، هي الثروة التي لا تَنفد، والكنوز التي لا تَفنَى، والباقيات الصالحات على مَرِّ الأعوام والأعصار... ولهذا يُوجه القرآن إليهما همم المؤمنين وآمالهم، بمثل قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، وقوله في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠]، وقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، فرزق ربِّه هنا ليس هو الموعود به في الجنة فحسب، بل ما أنعم الله به عليه في الدنيا من معاني الإيمان، ومنازل التقوى، ومكارم الأخلاق ... وبعد ذلك ما ينتظره من نعيم مقيم، في دار الخلود... قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥][1].

(١) دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي/ د. يوسف القرضاوي (ص ١٠٥-١٠٧).

(٤٨٦) وعَنْ أبى عمرو، ويقالُ: أبو عبد الله، ويقال: أَبو لَيْلى عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أنَّ النبىَّ ﷺ قال: «لَيْسَ لابْن آدَمَ حَقٌّ فى سِوى هَذِهِ الخِصَال: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوارِى عَوْرَتَهُ وَجِلْفُ الخُبز، وَالمَاءِ»(١).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.

(٤٨٧) وعَنْ عبْدِ الله بـنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،أَنَّهُ قَـالَ: أَتَيْتُ النَّبِـىَّ ﷺ وهُـوَ يَقْـرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «يَقُولُ ابنُ آدَم: مَالى، مَالى، وَهَل لَكَ يَا ابْـنَ آدمَ مَـنْ مالِـكَ إلاَّ مَا أَكَلتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لبِستَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضيْتَ؟»(٢).

۞ وفى هذا الحديث يقول عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ .. وهو هو نفس الصحابى الذى قال قبل ذلك: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيزٌ كأزيز المِرجَل من البكاء.

وأخبر هنا أنه أتى النبى ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أى شغلكم أيها النـاسُ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أى حتى أدرككم الموت، ودُفنتم فى المقابر... والجملةُ خبرٌ يُراد به الوعظ والتوبيخ ... قال القرطبى: المعنى شغلكم المباهاة بكثرة المال والأولاد عن طاعة الله، حتى مُتُّم ودُفنتم فى المقابر(٣).

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ زجرٌ وتهديدٌ أى: ارتدعوا أيها الناس وانزجروا

(١) ضعيف: رواه الترمذى، والحاكم، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٩١٤).
قال الترمذى: سمعتُ أبَا داودَ سلَيمَانَ بنَ سَالمِ البَلْخِيَّ يقول: سَمِعتُ النَّضر بْنَ شُمَيْل يقولُ: الجلفُ: الخُبزُ لَيْس مَعَهُ إدَامٌ.وقَالَ غيرُهُ: هُوَ غَلِيظُ الخُبْزِ. وقَالَ الهَروِىُّ: المُرَادُ بِهِ هُنَا وِعَاءُ الخُبـزِ، كـالجَوَالِقِ وَالخُرْجِ، والله أعلم.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٨) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) القرطبى (٢٠/ ١٦٨) وقال ابن كثير: المعنى: يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتَمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت، وزُرتم المقابر وصِرتم من أهلها.

عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد، فسوف تعلمون عاقبة جهلكم وتفريطكم فى جنب الله، وانشغالكم بالفانى عن الباقى ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ وعيدٌ إِثر وعيد، زيادة فى الزجر والتهديد ... أى سوف تعلمون عاقبة تَكاثُركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعاينتم أهواله وشدائده.

قال ابن عباس: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ما ينزل بكم من العذاب فى القبر ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ أى فى الآخرة إِذا حلَّ بكم العذاب(١) ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾ أى ارتدعوا وانزجروا فلو علمتم العلم الحقيقى الذى لا شك فيه ولا امتراء ... وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ لقصد التهويل أى لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله، ولما خُدعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها ... كما قال ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**»(٢) ... وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لو تعلمون لازدجرتم واستعددتم للآخرة، وإِنما حُذف لقصد التهويل ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ أى أُقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عيانـًا ويقينـًا ... أى والله لترون الجحيم ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أى ثم لترونها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أى ثم لتُسألنَّ فى الآخرة عن نعيم الدنيا من الأمن والصحة، وسائر ما يُتلذذ به من مطعم، ومشرب، ومركب، ومفرش(٣).

ثم قال رسول الله ﷺ: «**يقول ابن آدم مالى مالى**» يفتخر به «**وهل لك يا ابن آدم، من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت**»، هكذا قال النبى عليه الصلاة والسلام وهو كذلك ... فالإنسان ما لَه من مالِه إلا هذه الأشياء، إما أن يأكل طعامًا وشرابًا، وإما أن يلبس من أنواع اللباس، وإما أن

(١) القرطبى (٢٠/ ١٧٢).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٢١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٣٥٩) كتاب الفضائل.
(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٥٧١-٥٧٢) بتصرف.

يتصدق، والباقى له هو ما يتصدق به ... أما ما يأكله وما يلبسه؛ فإن كان يستعين به على طاعة الله كان خيرًا له، وإن كان يستعين به على معصية الله وعلى الأشر والبطر كان محنة عليه والعياذ بالله.

فالشاهد أن الطعام يَفنى واللباس يَبلى والصدقة تمضى إلى الآخرة ليكون المؤمن يوم القيامة فى ظل صدقته ولتكون يوم القيامة سببًا فى تفريج همه كما كان هو فى الدنيا سببًا فى تفريج هموم الآخرين.

(٤٨٨) وعَنْ عبدِ الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه قال: قال رجُلٌ للنَّبىِّ ﷺ: يا رسولَ الله، والله إِنِّى لأُحِبُّكَ، فقال: «انْظُرْ ماذا تَقُولُ؟» قال: وَالله إِنِّى لأُحِبُّكَ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فقال: «إِنْ كُنْتَ تُحبُّنى فَأَعِدَّ للفقر تِجْفافًا، فإِنَّ الفَقْر أَسْرَعُ إلى مَن يُحِبُّنى مِنَ السَّيْل إلى مُنْتَهَاهُ»[1].

❁ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف لم يَثْبُت عن النبى محمد ﷺ.

(٤٨٩) وعَنْ كَعبِ بنِ مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ذِئْبان جَائعَانِ أُرْسِلا فى غَنَم بأَفْسَدَ لَهَا مِن حِرْصِ المَرءِ على المالِ وَالشَّرفِ لِدِينهِ»[2].

❁ فهذا مثلٌ عظيم جدًّا، ضربه رسول الله ﷺ لبيان فساد دين المرء، مع حرصه على المال والشرف أى الرفعة فى الدنيا... وأن فساد الدين بذلك، ليس بأقل من فساد الغنم التى غاب عنها رعاؤها، وأُرسل فيها ذئبان جائعان ... ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم فى هذه الحالة إلا القليل.

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٢٩٧).
«التِّجْفَافُ» بكسرِ التاءِ المثناة فوقُ وإسكان الجيم وبالفاءِ المكررة، وَهُوَ شيءٌ يُلْبِسُهُ الفَرسُ، لِيُتَقى بِهِ الأَذى، وَقَد يَلْبَسُهُ الإِنْسَانُ.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٢٠).

أما الحرص على المال فهو نوعان: النوع الأول هو شدة محبة المال، والمبالغة فى طلبه من وجوهه المباحة، ولو لم يكن فى ذلك إلا تضييع العمر الشريف الذى يمكن أن يشترى به صاحبه الدرجات العُلى والنعيم المقيم، فى طلب رزقٍ مقسوم مضمون، لا يأتيه منه إلا ما قُسم له ثم يتركه لغيره.

قيل لبعض الحكماء: إن فلانًا جمع مالًا كثيرًا. قال: فهل جمع أيامًا ينفقه فيها؟ قيل: لا. قال: ما جمع شيئًا.

والنوع الثانى من الحرص: الحرص على المال أن يزيد على ما سبق ذكره فى النوع الأول، حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة، ويمنع الحقوق الواجبة... وهذا هو الشُّح الذى قال الله تعالى عنه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⁽٩⁾﴾ [الحشر: ٩].

وفى صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**اتقوا الشُّح فإن الشُّح أهلك مَن كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»(١).

فالشُّح هو شدة محبة المال، وجمعه من الوجوه المباحة وغير المباحة، ومنع الحقوق الواجبة.

أما الحرص على الشرف أى الرفعة فى الدنيا فهو أشد إهلاكًا من الحرص على المال... فإن المال يُبذل فى طلب الرياسة والشرف، وهو على نوعين أيضًا:

النوع الأول: هو طلب الشرف بآلة الدنيا من جمع المال، وطلب الولاية والسلطان، وهو فى الغالب يمنع شرف الآخرة، ورفعة الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ⁽٨٣⁾﴾ [القصص: ٨٣].

وَقَلَّ مَن يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيُوفَّق... بل يُوكل إلى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة - وأحمد (٣/ ٣٢٣).

نفسه ... كما قال النبى ﷺ لعبد الرحمن بن سَمُرَة: «**يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلت إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألةٍ أُعنت عليها**»[١]. وقال بعض السلف: ما حرص أحدٌ على ولاية فعدل فيها.

وقال ﷺ: «**إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المُرضعة، وبئست الفاطمة**»[٢].

أما النوع الثانى: من طلب الشرف وهو طلب الشرف بآلة الآخرة، كتعلُّم العلم النافع، وإظهار الزهد والورع، وطلب الشهرة، والتجرؤ على الفُتيا.

وهذا أفحش من الأول وأقبح، وأشد إفسادًا وخطرًا ... فإن العلم والعمل والزهد إنما يُطلب به ما عند الله، من الدرجات العُلى والنعيم المقيم.

قال الثورى: إنما فُضل العلم لأنه يُتقَى به الله، وإلا كان كسائر الأشياء.

قال ﷺ: «**مَن تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة**»[٣]. يعنى ريحها...

وسبب هذا - والله أعلم- أن فى الدنيا جنة مُعجَّلة، وهى معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته، والأُنس به والشوق إليه وخشيته وطاعته ... والعلم النافع يدل على ذلك، فمن دلَّه علمه على دخول هذه الجنة، المُعجلة فى الدنيا دخل الجنة فى الآخرة، ومَن لم يشم رائحتها، لم يَشُم رائحة الجنة فى الآخرة... ولهذا كان أشد الناس حسرة يوم القيامة، عالم لم ينفعه الله بعلمه، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا فى التوصُّل إلى أخَسِّ الأمور وأدناها وأحقرها... فهو كمن كان معه جوهرة نفيسة لها قيمة كبيرة فباعها ببعرة أو شىءٍ مُستقذَر لا ينتفع به... فهذا حال مَن طلب الدنيا بعلمه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٤٦) كتاب الأحكام، ومسلم (١٦٥٢) كتاب الأيمان.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧١٤٨) كتاب الأحكام.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٥٩).

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ -وذكر منهم- وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»(١).

قال سفيان الثورى: إن هذا الحديث عِزٌّ، فمن أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها.

ومِن طلب الشرف بالدين: محبة الشهرة والسعى إليها... ولقد كان السلف رضي الله عنهم يكرهون الشهرة أشد الكراهة... وكان محمد بن واسع يقول: لو أن للذنوب رائحة ما استطاع أحدٌ أن يُجالسنى.

وكان إبراهيم النخعى إذا دخل عليه أحد وهو يقرأ فى المصحف غطَّاه.

وكان أويس وغيره من الزُّهَّاد، إذا عُرفوا فى مكان ارتحلوا عنه.

واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ولكن العاقل يُنافس فى العلو الدائم الباقى، الذى فيه رضوان الله وقُربه وجواره، ويرغب عن العُلو الفانى الزائل، الذى يعقبه غضب الله وسخطه، وانحطاط العبد وسفوله...قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

قال الحسن: مَن نافسك في دينك فنافسه..ومَن نافسك فى دُنياك فألقها في نحره.

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحدٌ فافعل.

ففى درجات الآخرة الباقية يُشرَع التنافس وطلب العلو فى منازلها، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

وأما العُلو الفانى المنقطع، فهو الذى يشرع الزهد فيه، والإعراض عنه(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمارة.

(٢) رياض الجنة (ص ٦١-٦٤) بتصرف.

(٤٩٠) وعَنْ عبدِ الله بن مَسْعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: نَامَ رسولُ الله ﷺ على حَصيرٍ فَقَامَ وَقَد أثَّرَ فى جَنْبِه، قُلْنَا: يا رَسُولَ الله لوِ اتَّخَذْنَا لكَ وِطَاءً، فقال: «مَالى وَللدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فى الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكبٍ اسْتَظَلَّ تَحتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(١).

۞ لقد كان النبى ﷺ قمة فى الزهد... حتى وصل به الحال ﷺ أنه كان لا يحتفظ لنفسه بشىءٍ من المال بل كان ينفقه على مَن حوله ثم يمر عليه وعلى أزواجه الهلال تلو الهلال تلو الهلال ولا يُوقد فى بيوته التسع نار... وكان أكثر دعائه: «**اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قُوتًا**»(٢). وكان ينام على الحصير حتى يُؤثر الحصير فى جنبه الشريف.. فقال الصحابة له: يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاءً.. أى: فراشًا لينًا ليُريح جسدك وتنام عليه فترتاح.. فقال لهم ﷺ: «**ما لى وللدنيا؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**».

وفى رواية: «**ما لى وللدنيا، وما للدنيا وما لى! والذى نفسى بيده، ما مثلى ومثل الدنيا، إلا كراكبٍ سار فى يومٍ صائف، فاستظلَّ تحت شجرة ساعة من النهار، ثم راح وتركها**»(٣).

فالرسول ﷺ ليس له تَطلُّع إلى الدنيا، بل كان ينفق ماله كلّه فى سبيل الله، ويعيش عيشة الفقراء.

***

(٤٩١) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَدخُلُ الفُقَراءُ الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمائَة عَامٍ**»(٤).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦٨).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٦٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٥) كتاب الزكاة.
(٣) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦٩).
(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٧٦).

الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام.. فاليوم في الآخرة يوازي ألف سنة من زمان الدنيا.. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[الحج: ٤٧]

وذلك لأن الفقير ليس عنده من المال ما يُحاسَب عليه.. فقد قال ﷺ: **«لا تزول قدما عبدٍ من عند ربه يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع** -من بينها- **وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه»**.

والفقير ليس عنده ما يُحاسَب عليه.. فيدخل الجنة ويبقى الغنى يُحاسَب على كل أمواله من أين اكتسبها وفيم أنفقها .. وفوق ذلك فالله عَزَّوَجَلَّ يَجبُر كَسر المؤمن الفقير الذى عاش فى الدنيا محرومًا مقهورًا لا يستطيع أن يتلذذ بأى شىء من متاع الدنيا الزائل.. فإن كان مؤمنًا راضيًا عن قضاء الله فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُدخله الجنة قبل الغنى بخمسمائة عام ليستمتع فيها وينسى كل شقاءٍ وبلاءٍ رآه فى الدنيا.

وفى رواية أخرى: **قال ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا»**[(١)].

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا على هذين الحديثين:

فإما أن يكون هو المحفوظ، وإما أن يكون كلاهما محفوظًا وتختلف مدة السبق بحسب أحوال الفقراء والأغنياء .... فمنهم مَن يسبق بأربعين، ومنهم مَن يسبق بخمسمائة، كما يتأخر مُكث العُصاة من الموحدين فى النار بحسب أحوالهم والله أعلم ... ولكن ههنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يَلزم مِن سبقهم لهم - أى: سبقهم للأغنياء- فى الدخول ارتفاع منازلهم عليهم، بل قد يكون المتأخر أعلى منزلة، وإن سبقه غيره فى الدخول... والدليل على هذا أن مِن الأمة مَن يدخل الجنة بغير حساب وهم السبعون ألفًا وقد يكون بعض مَن يُحَاسَب أفضل من أكثرهم ... والغنى إذا حُوسب على غِناه فوُجِد قد شكر الله تعالى فيه وتقرب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف كان أعلى درجة من

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٧٩) كتاب الزهد والرقائق، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الفقير الذى سبقه فى الدخول ولم يكن له تلك الأعمال ولا سيما إذا شاركه الغَنى فى أعماله وزاد عليه فيها والله لا يُضيع أجر مَن أحسن عملًا.... فالمزية مزيَّتان مزيَّة سَبْقٍ ومزيَّة رِفعة، وقد يجتمعان وينفردان فيحصل لواحد السبق والرفعة، ويعدمهما آخر، ويحصل لآخر السبق دون الرفعة، ولآخر الرفعة دون السبق[١].

وهذا بحسب المقتضى للأمرين أو لأحدهما وعدمه، وبالله التوفيق[٢].

۞ فلا تحزن أيها الفقير فإن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

لا تحزن فلو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء.

لا تحزن فإن الدنيا قنطرة وممر وليست بدار إقامة ومقر.

لا تحزن فإن الدنيا ظِلٌّ زائل وعارية مُستردة.

لا تحزن فإن الدنيا متاع الغرور وليست دار إكرام وحبور ... وسوف تجد السعادة كلها فى دار السرور والحُبور عند الملك الكريم الودود الغفور.

❊❊❊

(٤٩٢) وعَنْ ابن عَبَّاسٍ، وعِمْرَانَ بن الحُصَيْن رضي الله عنهم، عن النبيِّ ﷺ قال: «اطَّلعتُ فى الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهلِهَا الفُقَراءَ. وَاطَّلَعتُ فى النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّساء»[٣].

(٤٩٣) ورواه البخارى أيْضًا من روايةِ عِمْرَان بنِ الحُصَينِ[٤].

۞ وهنا يخبر النبى ﷺ أنه اطَّلع فى الجنة فرأى أن أكثر أهلها هم الفقراء..

(١) أى: بالتباديل والتوافيق.

(٢) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ١٢٥، ١٢٦).

(٣) متفق عليه رواه البخارى (٣٢٤١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٧٣٧) (٩٣) كتاب الذكر والدعاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٩) كتاب الرقاق عن عمران بن حصين رضي الله عنهما - ورواه مسلم (٢٧٣٨) (٩٤) بلفظٍ مُقارب.



وذلك لأن الفقراء ليس عندهم ما يُطغيهم ولأن أكثر أتباع الأنبياء هم الفقراء وأكثر الذين كذبوا الرسل وحاربوهم هم الملأ الأشراف والأغنياء -إلا مَن رحم الله-.

فلهذا كان الفقراء أكثر أهل الجنة.. وكانوا أسبق لدخول الجنة من الأغنياء يوم القيامة.

۞ ثم قال النبي ﷺ: «**وَاطَّلَعتُ فى النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّساء**».

وهذه مسألة مهمة فى غاية الخطورة ... ولا بد أن نستطرد فيها حتى يتضح لنا معنى هذا الحديث.

۞ وفى الحقيقة أننى لما بحثت فى أحاديث النبى ﷺ وجدت أن النساء أكثر أهل الجنة وفى نفس الوقت هُن أكثر أهل النار.. فكيف ذلك؟!

۞ سأذكر لكم الآن الدليل على ما ذهبت إليه.

ففى صحيح مسلم عن ابن سيرين قال: اختصم الرجال والنساء: أيهم أكثر فى الجنة؟ وفى رواية: إما تفاخروا، وإما تذاكروا: الرجال فى الجنة أكثر أم النساء؟ فسألوا أبا هريرة، فاحتجَّ أبو هريرة على أن النساء فى الجنة أكثر بقول الرسول ﷺ: «**إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتى تليها على أضوإ كوكبٍ دُرِّيٍّ فى السماء، لكل امرئٍ منهم زوجتان اثنتان، يُرَى مُخُّ سُوقهما من وراء اللحم، وما فى الجنة أعزب**»[١].

والحديث واضح الدلالة على أن النساء فى الجنة أكثر من الرجال.

وقد احتجَّ بعضهم على أن الرجال أكثر بحديث: «**رأيتكن أكثر أهل النار**». والجواب أنه لا يلزم من كونهن أكثر أهل النار أن يَكُنَّ أقل ساكنى الجنة كما قال ابن حجر العسقلانى[٢]، فيكون الجمع بين الحديثين أن النساء أكثر أهل النار وأكثر أهل الجنة... وبذلك يَكُنَّ أكثر من الرجال وجودًا فى الخلق ...

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) فتح البارى: (٦/ ٣٢٥).

ويمكن أن يُقال: إن حديث أبى هريرة يدل على أن نوع النساء فى الجنة أكثر سواءً كن من نساء الدنيا أو من الحور العين.

والسؤال هو: أيهما أكثر فى الجنة: رجال أهل الدنيا أم نساؤها؟

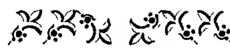
وقد وفَّق القرطبى بين النَّصين بأن النساء يَكُنَّ أكثر أهل النار قبل الشفاعة وخروج عصاة الموحدين من النار ... فإذا خرجوا منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين كُن أكثر أهل الجنة(١).

لكن كيف نجمع بين ما ذُكر هنا أن النساء هُنَّ أكثر أهل الجنة، وبين حديث: «يا معشر النساء تصدَّقن فإنِّي رأيتكن أكثر أهل النار»؟

الجواب: أن عدد النساء فى الدنيا أصلًا أكثر من عدد الرجال ... بمعنى أن عدد خلق الله من النساء أكثر من عددهم من الرجال ... وقد جاء فى الحديث أنه فى آخر الزمان فى الدنيا يكون لكل خمسين امرأة قيِّمٌ واحد .. أى: رجل واحد.

وفى عصرنا اليوم بدأت نِسَب الولادات من البنات تزداد بشكلٍ ملحوظ، حتى صارت نسبة الذُّكور فى بعض البُلدان تصل إلى خمس نساء مقابل رجل واحد، وبذلك تكون النساء أكثر من الرجال وجودًا فى البشر... فإذا دخل نصف رجال الدنيا إلى الجنة، ونصف نساء الدنيا أيضًا، فإن عدد النساء سيكون أكثر؛ لأن النساء فى الدنيا أكثر... وكذلك الحال فى النار، فلو دخل النار عُشر رجال الدنيا، وعُشر نساء الدنيا، فستكون النساء فى النار عددهن أكثر؛ لأنهن أكثر فى الدنيا.

وعلى ذلك لا يُفهم من حديث إن النساء أكثر أهل النار ذَمّ جنس النساء، أو التنقُّص منهن(٢).



(١) راجع التذكرة للقرطبى: (ص٤٧٥).
(٢) العالم الأخير (ص ٥١٧).

(٤٩٤) وعَنْ أُسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الجَنَّة، فَكَانَ عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا المَسَاكينُ. وأَصَحَابُ الجَدِّ محبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أصحَابَ النَّار قَد أُمِرَ بِهِمْ إلى النَّارِ»[1].

وقد سبق بيان هذا الحديث في باب فضلِ الضَّعَفَةِ.

۞ وهنا في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه قام على باب الجنة فوجد أن عامة مَن دخلها وأكثر مَن دخلها المساكين والفقراء .. وهذا هو الذي أخبر عنه النبي ﷺ في الأحاديث السابقة... وقلنا: إن السبب أن أكثر أتباع الأنبياء كانوا هم الفقراء..

۞ ثم قال النبي ﷺ: «وأَصَحَابُ الجَدِّ محبُوسُونَ» أي: أصحاب البَخت والحظ في الدنيا .. أصحاب الغِنى والثراء والوجاهة وأصحاب الولايات .. محبوسون للحساب على أموالهم وسلطانهم وما فعلوه في رعيتهم ويسبقهم الفقراء بخمسمائة عام.

۞ قوله ﷺ: «غَيْرَ أَنَّ أصحَابَ النَّار قَد أُمِرَ بِهِمْ إلى النَّارِ» قال الإمام النووي رحمه الله: معناه: مَن استحق من أهل الغِنى النار بكفره، أو معاصيه. وفي هذا الحديث تفضيل الفقر على الغِنى. وفيه فضيلة الفقراء والضعفاء[2].

قُلتُ: وبعض أهل العلم قالوا: إن الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر ... لأن الله عز وجل قد اختبر الغنى الشاكر فكان وفيًّا .. أما الفقير الصابر فلم يُختبر بعد والله أعلم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٩٦) كتاب النكاح، (٦٥٤٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٧٣٦) كتاب الذكر والدعاء.
وَ «الجَدُّ»: الحَظُّ والغِنَى.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٨٤).

(٤٩٥) وعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «أصدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: (ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلاَ الله بَاطِلُ)»[1].

۞ أي: أن كل شيء سوى الله فهو باطلٌ ضائعٌ لا ينفع ... وأما ما كان لله فإنه ينفع صاحبه ويبقى له.

ومن ذلك: الدنيا فإنها باطل...كما قال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

إلا ما كان فيها من ذكر الله وطاعته، فإنه حَقٌّ وخيرٌ.

وفي هذا الحديث: إشارة إلى أن الحق يُقبَل حتى لو كان من الكفار.

فالحق مقبولٌ من كل أحدٍ جاء به، حتى لو كان كافرًا وقال بالحق فإنه يُقبَل منه، ولو كان كافرًا أو شاعرًا أو فاسقًا وقال بالحق فإنه يُقبل منه.

وأما مَن قال بالباطل فقوله مردود ولو كان مسلمًا.

يعني العبرة بالمقالات لا بالقائلين ... ولهذا يجب على الإنسان أن ينظر إلى الإنسان من خلال فعله لا من خلال شخصه[2].

والشاعر لبيد هو لبيد بن ربيعة الشاعر المعروف .. وكان من أصحاب المُعلقات .. وهم شعراء معدودون كانت أشعارهم تُعلَّق على الكعبة ..

وقال ذلك البيت من الشعر قبل أن يُسلم .. فلما أسلم في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال للبيد بن ربيعة: أنشدني شيئًا من شعرك يا لبيد ... فأخذ يقرأ شيئًا من سورة البقرة.. فتعجَّب عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال له: أقول لك أنشدني شيئًا من شعرك يا لبيد فتقرأ آيات من سورة البقرة! فقال لبيد: يا أمير المؤمنين ما كنت لأنشد شعرًا بعد أن تعلمت سورتي البقرة وآل عمران.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٤١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٢٥٦) كتاب الشعر.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٩٨).

(٥٦) باب فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول والمشروب والملبوس وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات

۞ قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾[مريم: ٥٩، ٦٠] وقال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ [القصص: ٧٩ ، ٨٠] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] ... وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٨] ... والآياتُ في الباب كثيرة مَعلُومَةٌ .

۞ هذا الباب ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد باب الزهد في الدنيا، يبين فيه أن على الإنسان ألا يُكثر من الشهوات في أمور الدنيا، وأن يقتصر على قدر الحاجة فقط... كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك ... وذكر آياتٍ فيها بيان عاقبة الذين يتبعون الشهوات ويُضيعون الصلوات ... فذكر قول الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المُخلصون المُتبعون لمراضي ربهم، المُنيبون إليه، ذَكَر مَن أتى بعدَهم، وبدَّلوا ما أُمروا به، وأنه خَلَفَ ﴿ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أُمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيَّعوها ... وإذا ضيَّعوا الصلاة التي هي عمادُ الدين،

وميزانُ الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التى هى آكدُ الأعمال، وأفضلُ الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيعَ، وله أرفضَ... والسببُ الداعى لذلك، أنهم اتبعوا شهواتِ أنفسهم وإراداتها فصارت هِممُهم منصرفةً إليها، مُقدِّمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهواتِ أنفسهم، مهما لاحت لهم، حصَّلوها، وعلى أى وجهٍ اتفقت تناولوها.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أى: عذابًا مُضاعفًا شديدًا ... ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصى، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها، ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وهو العمل الذى شرعه الله على ألسنة رُسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذى جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، مُوفَّرة أجورها، مُضاعفًا عددها[1].

❁ وقد جعل المؤلف هذا الباب تحت عنوان: باب فضل الجوع وخشونة العيش.. ولقد وجدت بعد البحث أن للجوع عشر فوائد.. وليس المراد بالجوع أن يعيش الإنسان بلا طعام ولكن المقصود أن يتخفف من الطعام بحيث لا يملأ بطنه فيتكاسل عن العبادة.

❁ **أما فوائد الجوع العشرة فهى:**

الفائدة الأولى: صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة ... فإن الشبع يُورث البلادة ويُعمى القلب.

(١) تفسير السعدى (ص ٥٧٣) بتصرف.

الفائدة الثانية: رِقَّةُ القلب وصفاؤه الذى به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثُّر بالذِّكر ... فكم من ذِكرٍ يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابًا من قسوة القلب.

قال أبو سليمان الدارانى: أحلى ما تكون إلىَّ العبادة إذا التصق ظهرى ببطنى.

الفائدة الثالثة: الانكسار والذُّل وزوال البَطَر والفرح والأَشَر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله -تعالى-، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذُلها.

الفائدة الرابعة: أن لا تنسى أهلَ البلاء ... فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاءً من غيره إلا يتذكر بلاء الآخرة، فيذكر مِن عطشه عطش الخلق فى عَرَصات القيامة، ومِن جوعه جُوعَ أهل النار.

الفائدة الخامسة: وهى من أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصى كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء ... فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ... ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة .. فتقليلها يُضعف كل شهوة وقوة، وإنما السعادة كلها فى أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة فى أن تملكه نفسه ... وكما أنك لا تملك الدابة الجَموح إلا بضعف الجوع.

فإذا شَبِعتْ قَويتْ وشَردتْ وجَمحتْ ... فكذلك النفس. إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا.

الفائدة السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإن مَن شبع شرب كثيرًا ومَن كَثُر شُربه كَثُر نومه ... وفى كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد.

الفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة ... فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان فى

شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال، ثم يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه. الأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكَثُر ربحه.

قال السرى: رأيت مع على الجرجانى سويقًا يستف منه ... فقلت: ما حَمَلَك على هذا؟ قال: إنى حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

الفائدة الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل ... ثم المرض يمنع من العبادات ويُشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر.

حُكى أن هارون الرشيد جمع أربعة أطباء: هندى، وورومى، وعراقى، وسوادى، وقال: ليصف كل واحدٍ منكم الدواء الذى لا داء فيه...فقال الهندى: الدواء الذى لا داء فيه عندى هو الإهليلج الأسود، وقال العراقى: هو حَبُّ الرشاد الأبيض، وقال الرومى: هو عندى الماء الحار، وقال السوادى -وكان أعلمهم-: الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء، وحَبُّ الرشاد يزلق المعدة وهذا داء، والماء الحار يرخى المعدة وهذا داء ... قالوا: فما عندك؟ فقال: الدواء الذى لا داء معه عندى أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه... فقالوا: صدقت.

الفائدة التاسعة: خفة المئونة، فإن مَن تعوَّد قلة الأكل كفاه من المال قدرٌ يسير، والذى تَعوَّد الشبع صار بطنه غريمًا مُلازمًا له آخِذٌ بمخنقه فى كل يوم... فيقول: ماذا تأكل اليوم؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل، فيكتسب من الحرام فيعصى..أو مَن الحلال فيُذل، وربما يحتاج إلى أن يَمُد أعيُن الطمع إلى الناس.

وكان إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقولون إنها غالية، فيقول: أرخصوها بالتَّرك -أى: اتركوها يرخص سعرها-.

الفائدة العاشرة: أن يتمكن من الإيثار والتصدُّق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين .. فيكون يوم القيامة في ظل صدقته.

عن الحسن قال: والله لقد أدركت أقوامًا كان الرجل منهم يُمسى وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأَكَلَهُ فيقول: والله لا أجعل هذا كله لبطنى حتى أجعل بعضه لله.

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها ... فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة.

ولأجل هذا قال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ... والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة[1].

كان الحسن يقول: رحم الله عبدًا جعل العيش عيشًا واحدًا، فأكل كَسرة، ولبس خلقًا، ولَزِقَ بالأرض، واجتهد فى العبادة، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة، ابتغاء الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[2].

وقال زيد بن أرقم رضي الله عنه: كنا مع أبى بكر الصدِّيق رضي الله عنه فدعا بشرابٍ فأُتى بماءٍ وعسل فلما أدناه من فِيه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وما سكت... ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لن يقدروا على مسألته قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ فقال: كنت مع رسول الله فرأيته يدفع عن نفسه شيئًا ولم أرَ معه أحدًا فقلت: يا رسول الله ما الذى تدفع عن نفسك؟ قال: «هذه الدنيا مُثِّلت لى فقلت لها: إليك عنى ثم رَجَعتْ فقالت: إنك إن أفلتَّ منى فلن يَفلت منى مَن بعدك»[3].

وقال رجل لِابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحمَنِ رَقَّتْ مُضْغَتُكَ، وَكَبُرَ سِنُّكَ،

(١) الإحياء (٣/ ٩١) باختصار.
(٢) الزهد للبيهقى (٢/ ٦٥).
(٣) عدة الصابرين (ص٢٥٧).

وَجُلَسَاؤُكَ لَا يَعرِفُونَ لَكَ حَقَّكَ وَلَا شَرَفَكَ، فَلَوْ أَمَرْتَ أَهْلَكَ أَنْ يَجْعَلُوا لَكَ شَيْئًا يُلَطِّفُونَكَ إِذَا رَجعتَ إِلَيْهِمْ، قَالَ: وَيْحَكَ، وَاللهِ مَا شَبِعتُ مُنْذُ إِحدَى عَشْرَةَ سَنَةً، وَلَا اثْنَتَىْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَلَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَلَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً، فَكَيْفَ بِى وَإِنَّمَا بَقِىَ مِنِّى ما بقى[1].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: رأى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لحمًا مُعلقًا فى يدى فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحمًا فاشتريته، فقال عمر: أفكلما اشتهيت اشتريت يا جابر؟ أفكلما اشتهيت اشتريت يا جابر؟ أما تخاف هذه الآية يا جابر ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال صفوان بن محرز: إذا أكلت رغيفًا أشد به صلبى، وشربت كوز ماء فعلى الدنيا وأهلها العفاء[2].

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل، ويقول: مَن قنع بهذا لم يحتج إلى أحد.

قَالَ ابْنُ بَشَّار: أَمْسَينا مَعَ إِبْرَاهِيْم بْنِ أَدْهَم لَيْلَةً، لَيْس لَنَا مَا نَفطَرُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ بَشَّارٍ! مَاذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِيْنِ مِنَ النَّعِيْمِ وَالرَّاحَةِ، لاَ يَسْأَلُهُم يَوْمَ القِيَامَةَ عَنْ زَكَاةٍ، وَلاَ حَجٍّ، وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلاَ صِلَةِ رَحِم! لاَ تَغتَمَّ، فَرِزقُ اللهِ سَيَأْتِيْكَ... نَحنُ -وَاللهِ- المُلُوْكُ الأَغْنِيَاءُ، تعجلنَا الرَّاحة، لاَ نُبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ كُنَّا إِذَا أَطَعنَا اللهَ. ثُمَّ قَامَ إِلَى صَلاَتِه، وَقُمْتُ إِلَى صَلاَتِى، فَإِذَا بِرَجُل قَد جَاءَ بِثَمَانِيَةِ أَرْغِفَةٍ، وَتَمْرٍ كَثِيْرٍ، فَوَضَعَهُ، فَقَالَ: كُلْ يا مغموم ...فَدَخَلَ سَائِلٌ، فَأَعطَاهُ ثَلاَثَةَ أَرغِفَةٍ مَعَ تَمْرٍ، وَأَعطَانِى ثَلاَثَةً، وَأَكَلَ رَغِيْفَيْنِ[3][4].

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص٥١٥).

(٢) تاريخ الخلفاء (ص١٢٠).

(٣) السير (٧/ ٣٩٤).

(٤) بتصرف من كتاب (أين نحن من هؤلاء) الجزء الخامس/ د. عبد الملك القاسم.

۞ ولقد أورد الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ مجموعة من الأحاديث التى تُوضح فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل.. والتى توضح كيف كان حال النبى ﷺ مع الجوع وخشونة العيش وهو الذى عُرضت عليه جبال مكة أن تصير له ذهبًا فقال: «**بل أجوع يومًا فأصبر وأشبع يومًا فأشكر**».

(٤٩٦) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: **ما شَبِعَ آلُ مُحمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ**[1].

وفى رواية: **مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ المَدِينةَ مِنْ طَعَامِ البُرِّ ثَلاث لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ**.

۞ ومن المعلوم أن خبز الشعير على عهد النبى ﷺ كان من أردإ أنواع الخبز ومع ذلك لم يشبع النبى ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى مات ﷺ.. إن شبع يومًا جاع أيامًا.. وإن أكل يومًا خُبزًا لينًا أكل أيامًا خُبزًا خشنًا ... فكيف يحزن بعد اليوم فقير على حاله بعدما رأى حال النبى ﷺ سيد ولد آدم ﷺ.

۞ بل وصل الحال بالنبى ﷺ وأزواجه التسع (رضى الله عنهن) أنه كان لا يُوقَد نار فى بيوته التسع لمدة شهرين متتابعين ... وعدم إيقاد النار دليل على أنهم لم يُنضجوا لحمًا ولا طعامًا طوال هذه الفترة وإنما كان طعامهم التمر والماء واللبن.

(٤٩٧) وعَنْ عُروَةَ عَنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **أَنَّها كَانَتْ تَقُولُ: وَالله يا ابْنَ أُخْتِى إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلى الهِلالِ ثُمَّ الهِلالِ ثُمَّ الهِلالِ ثلاثةُ أهِلَّة فى شَهْرَيْن. وَمَا أُوقِدَ فى أَبْيَاتِ رسول الله ﷺ نارٌ.. قُلتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قالتْ: الأَسْوَدَان: التَّمرُ**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤١٦) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٩٧٠) كتاب الزهد والرقائق.

وَالمَاءُ إِلَّا أَنَّهُ قَد كَانَ لرسول الله ﷺ جِيرانٌ مِنَ الأَنْصَارِ. وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يُرسِلُونَ إلى رسول الله ﷺ مِنْ ألبانها فَيَسْقِينا[1].

۞ ففى هذا الحديث تخبر أُمنا عائشة رضي الله عنها ابن أختها عروة أن بيوت النبي ﷺ كلها كان يمر عليهم شهران كاملان لا يوقد فى بيتٍ منهم نار .. أى: لا يُطبخ فيه ولا يجهز فيه طعامٌ واحد .. وهى أعظم بيوت عرفها الكون كله على مدى العصور والأزمان.

حتى أن أبا هريرة رضي الله عنه الذى كان مُلاصقًا للنبى ﷺ لمدة أربع سنوات ولم يفارقه وكان يرى زهده وخشونة عيشه ﷺ واقتصاره على القليل من المأكول والمشروب والملبوس .. مَرَّ أبو هريرة بعد وفاة النبى ﷺ على قوم بين أيديهم شاة مشوية فلما رأوه دعوه ليأكل معهم .. فقد كان كل الناس يحبونه رضي الله عنه .. فرفض أن يأكل وقال لهم: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير.

❊ ❊ ❊

(٤٩٨) وعَنْ أبى سعيد المقْبُرِىِّ عَنْ أبى هُرَيرةَ رضي الله عنه أنه مَرَّ بِقَوم بَيْن أيْديهم شَاةٌ مَصلِيَّةٌ. فدَعَوْهُ فأَبى أَنْ يَأكُل، وقال: خَرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولَمْ يَشْبَع مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ[2].

۞ وقد وردت أحاديث كثيرة تخبر أن النبى ﷺ كان يعيش على الكفاف ومع ذلك فقد كان أسعد رجلٍ فى العالم ﷺ.

❊ ❊ ❊

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٧٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٤١٤) كتاب الأطعمة.

«مَصلِيَّةٌ» بفتحِ الميم: أىْ: مَشْوِيَّةٌ.

(٤٩٩) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال: لَمْ يأْكُل النَّبِيُّ ﷺ على خِوَانٍ حَتَّى مَات، وَما أَكَلَ خُبزًا مُرَقّقًا حَتَّى مَاتَ(١).

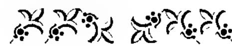
وفى روايةٍ له: وَلا رَأى شَاةَ سَمِيطًا بِعَيْنِهِ قطُّ.

۞ ففى هذا الحديث يخبر أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خادم النبى ﷺ الذى خدم النبى ﷺ عشر سنين .. يخبر أنس أن النبى ﷺ لم يأكل على خِوَانٍ حتى مات ﷺ.. والخِوان هى المائدة ما لم يكن عليها طعام .. وأما السفرة فاشتهرت لما يوضع عليها الطعام وأصلها الطعام نفسه.

فقد كان النبى ﷺ يحب أن يجلس على الأرض ليأكل تواضعًا لله (جل وعلا) .. وليس معنى ذلك أن الذى يأكل على السفرة أو المائدة يكون متكبرًا... كلَّا.. ولكن النبى ﷺ كان يختار لنفسه الحياة البسيطة التى يرتاح لها قلبه.. والتى تكون سهلة يسيرة على مَن أراد أن يفعل مثله ﷺ.. فتخيل لو كان النبى ﷺ يعيش حياة الترف فلن يستطيع فقيرٌ أن يفعل مثله.. فكان ﷺ يعيش الحالة التى يستطيع الفقير والغنى أن يقلده فيها ﷺ.

فلم يأكل النبى ﷺ على مائدة ولم يأكل خُبزًا مُرقَّقًا حتى مات.. والخبز المُرقق أى اللين المُحسَّن كخبز الحوارى وشبهه.

قال ابن الجوزى: هو الخبز الخفيف ... كأنه مأخوذ من الرقاق وهى الخشبة التى يُرقق بها.



(٥٠٠) وعَنْ النُّعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: لقد رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وما يَجِدُ مِنْ الدَّقَلِ ما يَمْلأُ به بَطْنَهُ(٢).

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٥٠) كتاب الرقاق-والرواية الأخرى رواها البخارى (٥٤٢١) كتاب الأطعمة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٩٧٧) كتاب الزهد والرقائق.

الدَّقَلُ : تمْرٌ رَدِيءٌ.

۞ وهنا تأتى شهادة الصحابى الجليل النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه يخبر أنه رأى النبى ﷺ وهو لا يجد من التمر الردىء ما يملأ به بطنه..

فلقد كانت حياته ﷺ صفحة مفتوحة لكل مَن حوله.. فلم يُخبر أحدهم بحاله والباقى لا يعلم بحاله ﷺ.. بل الكل يرى زُهده ﷺ وخشونة عيشه.. ومن أجل ذلك كانوا جميعًا فى قمة الزهد والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة... لأن أستاذهم وأستاذ البشرية كلها ﷺ كان يعلمهم الزهد عمليًّا من خلال حياته لا من خلال كلامه .. فقد كان النبي ﷺ قدوة فى كل شىء .. وكان لا يأمرهم بشىء إلا كان هو أول من يعمله ﷺ.

(٥٠١) وعَنْ سهل بن سعد رضي الله عنه ، قال: ما رَأى رُسولُ الله ﷺ النَّقِىَّ مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ الله تعالى حتَّى قَبَضَهُ الله تعالى، فقيل لَهُ: هَلْ كَانَ لَكُمْ فى عهْد رسول الله ﷺ مَناخلُ؟ قال: ما رأى رسولُ الله ﷺ مُنْخَلاً مِنْ حينَ ابْتَعثُهُ الله تعالى حَتَّى قَبَضُه الله تعالى، فَقِيلَ لهُ: كَيْفَ كُنتُمْ تَأْكُلُونَ الشَّعِيرَ غيرَ مَنْخُولٍ؟ قال: كُنَّا نَطْحَنُهُ ونَنْفُخُهُ، فَيَطيرُ ما طارَ، وما بَقِى ثَرَّيْنَاهُ[1].

۞ وهنا يخبر سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبى ﷺ ما رأى الخبز الحوارى المنخول الناعم منذ بعثته وحتى تُوفى ﷺ... بل كان يأكل خبز الشعير الخشن... ولم يكن أهله ﷺ يستعملون المناخل التى تُنقى الدقيق وتطرد الخشن وتُبقى الناعم منه ليخبزوه.. بل كانوا يطحنون الشعير وينفخون فيه فيطير الخشن منه وما بقى يُبلّل بالماء ويُعجن...

فيا من تشكو من خشونة العيش.. هذا هو الحبيب محمد ﷺ.. وتلك هى حياته ﷺ.

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٤١٣) كتاب الأطعمة.
قوله: «النَّقىّ»: وهُوَ الخُبْزُ الحُوَّارَى، وَهُوَ: الدَّرمَكُ - قوله: «ثَرَّيْنَاهُ»، أىْ: بَلَلْنَاهُ وعَجَنَّاهُ.

(٥٠٢) وعَنْ أبى هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ ذات يَوْمٍ أوْ لَيْلَة، فَإذا هَوَ بِأبى بكْرٍ وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فقال: «ما أخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكما هذِهِ السَّاعَةَ؟» قالا: الجُوعُ يا رسولَ الله. قالَ: «وَأنا، والَّذِى نَفْسى بيَدِهِ، لأخْرَجَنى الَّذى أخْرَجَكُما، قُوما» فقاما مَعَهُ، فَأتَى رَجُلاً مِنَ الأنْصارِ، فَإذَا هُوَ لَيْسَ فى بيتِه، فَلَمَّا رَأتْهُ المرأةُ قالَتْ: مَرحَبًا وَأهْلاً. فقال لها رَسُولُ الله ﷺ: «أيْنَ فُلانٌ» قالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعذِبُ لَنا الماءَ، إذ جاءَ الأنْصارىُّ، فَنظَرَ إلى رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبَيْه، ثُمَّ قالَ: الحَمْدُ لله، ما أحَدٌ اليَوْمَ أكْرَمَ أضيْافًا منِّى فانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وتَمْرٌ ورُطَبٌ، فقال: كُلُوا، وَأخَذَ المُديَةَ،فقال لَهُ رسُولُ الله ﷺ: «إيَّاكَ وَالحَلُوبَ» فَذَبحَ لَهُمْ، فَأكلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذلكَ العِذْقِ وشَرِبُوا. فلمَّا أنْ شَبعُوا وَرَوُوا قال رسولُ الله ﷺ لأبى بكر وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «وَالَّذى نَفْسى بيَدِهِ، لَتُسْألُنَّ عَنْ هذَا النَّعيمِ يَوْمَ القِيامَةِ، أخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أصَابَكُمْ هذا النَّعِيمُ»(١).

۞ رسول الله ﷺ أفضل هذه الأمة وخيرته من خلقه، وأفضل أنبيائه ورُسله صلوات الله وسلامه عليه .... وصاحباه ووزيراه أفضل هذه الأمة بعد نبيّها، يُخرجهم الجوع من منازلهم، فلا يجدون فيها ما يَسُدُّ رمقهم، ولو شاؤوا لادَّخروا فيها ما يجعل بطونهم وبطون ذويهم ملأى، ولكنهم كانوا يبذلون ما عندهم فى حاجة المسلمين، وقد خَيَّر اللهُ رسوله ﷺ بين أن يكون مَلَكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا يشبع يومًا، ويجوع يومًا، واستمر على ذلك صلوات الله عليه إلى أن توفّاه الله تعالى.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٨) كتاب الأشربة.
قَوْلُها: «يَسْتَعذبُ» أىْ: يَطْلُبُ الماءَ العَذْبَ، وهُوَ الطَّيبُ - و«العِذْقُ»: وَهُو الكِباسَةُ، وهِىَ الغُصنُ. و«المُديةُ»: هى السِّكِّينُ. و«الحلُوبُ» ذاتُ اللبَن. وَالسؤالُ عَنْ هذا النعِيم سُؤالُ تَعديدِ النِّعَم لا سُؤالُ توْبيخٍ وتَعذيبٍ. والله أعلَمُ...وهذا الأنصارىُّ الَّذِى أتَوْهُ هُوَ أبُو الهَيْثمِ بنُ التَّيِّهان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَذا جاءَ مُبَيَّنًا فى رِواية الترمذى وغيره.

ويُحدِّث أبو هريرة رضي الله عنه في هذا الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج يومًا من منزله... وجاء في رواية الترمذي: أن خروجه كان في ساعة لم يكن من عادته الخروج فيها ... وفي رواية الموطأ: أن خروجه كان إلى المسجد، فإذا هو يُفاجأ بقدوم أبي بكر وعمر عليه في موضعه ذاك وساعته تلك.

وعندما استعلم منهما عن سبب خروجهما، وجد أن الذي أخرجهما هو الذي أخرجه: الجوع.

فانطلق بهما إلى منزل أحد أصحابه من الأنصار ... وقد حددت رواية الترمذي ورواية الموطأ اسم هذا الصحابي، وهو أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وكان رجلًا كثير النخل والشاء، فلم يجدوه في منزله وبستانه ... فرحبت بهم زوجته أجمل ترحيب، وأخبرتهم أن زوجها ذهب يستعذب لهم الماء.

أي: يأتي بماءٍ عذب من عينٍ أو بئرٍ يتصف ماؤه بالعذوبة.

وقد صرح الترمذي في روايته: أن أبا الهيثم لم يكن له خادم يخدمه، ولذلك كان يقوم بحاجاته من استعذاب الماء والحرث وجني الثمر بنفسه، ولم يَطُل غياب أبي الهيثم، فقد وصل يحمل قِربة الماء العذب على ظهره، فوضعها سريعًا، وأقبل على رسول الله ﷺ وصاحبيه تبرق أسارير وجهه فرحًا، وأخذ يلتزم رسول الله ﷺ -أي: يحتضنه- ويفديه بأبيه وأمه، أي يقول له: فداك أبي وأمي، ويقول: الحمد لله، ما من أحدٍ اليوم أكرم أضيافًا مني، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطًا، ثم انطلق إلى نخلة من نخله فجاءهم بقطفٍ من قطوفها، ويُسمَّى القطف في مثل هذا (القنو) وعندما قال له رسول الله ﷺ: **«أفلا تنقّيت لنا من رُطَبِه؟»** قال: يا رسول الله، إني أردت أن تختاروا، أو قال: تخيَّروا من رُطَبِه وبُسْرِه، ثم أخذ أبو الهيثم المُدية وهي السكين، فعرف الرسول ﷺ أنه يريد أن يذبح لهم، فقال له: **«إياك والحَلوب»**.

والحلوب: الشاة ذات اللبن ... نهاه عن ذبحها، لأنه ينتفع بلبنها، وقد يكون ولدها حيًّا فيتضرر بذبح أمه لفقده حليبها، فذبح لهم شاة. وأمر لهم بشعير فعمل منه خبزًا، فلما نضج الطعام قدّم لهم خبز الشعير ولحم الشاة فأكلوا وشبعوا، وسقاهم من ذلك الماء العذب بعد أن برد ... فقال الرسول ﷺ لأبى بكر وعمر: «**والذى نفسى بيده، لتُسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**».

وفى رواية الترمذى أن الرسول ﷺ قال لصاحبه: «**هذا والذى نفسى بيده من النعيم الذى تُسألون عنه يوم القيامة: ظِلٌّ بارد، ورُطَبٌ طَيِّبٌ، وماء بارد**» وكانت مقالته تلك بعد أَكْلِهم الرُّطب وشُربهم الماء، وقبل أن يأكلوا لحم الشاة.

وجاء فى رواية الترمذى أن الرسول ﷺ سأل أبا الهيثم: هل له من خادم؟ فقال: لا، قال: «**فإذا أتانا سَبىٌ فأتنا**» فأُتى النبى ﷺ برأسين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم، فقال النبى ﷺ: «**اختر منهما**»، فقال: يا نبى الله، اختر لى، فقال النبى ﷺ: «**إن المستشار مُؤتَمن، خُذ هذا، فقد رأيته يصلى، واستوصِ به معروفًا**».

وعندما أخذ أبو الهيثم عبده الذى أعطاه الرسول ﷺ إياه، وعرَّف زوجته بما وصّاه الرسول ﷺ به، وكانت امرأة دَيِّنة عاقلة، نصحته بعتقه، فإن قمة تحقيق وصية الرسول به لا يتم إلا بالعتق ... وقد استجاب الرجل الصالح لنصيحة زوجه، وعاد ليعتمد على نفسه فى العمل فى بستانه، وعندما بلغ الرسول ﷺ خبرُ ما أشارت به زوجة أبى الهيثم قال: «**إن الله لم يبعث نبيًّا ولا خليفة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف، وتناه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالًا، ومَن يُوقَ بطانة السُّوء، فقد وُقى**».

وقول الرسول ﷺ يشير إلى سُنة من سُنن الله فى خلقه من بنى آدم، فلكل واحدٍ منَّا بطانتان من أهله وأقاربه ومعارفه، بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره

بالشر، والسعيد هو الذى يُوقَى بطانة الشر ... وقد كان أبو الهيثم من هؤلاء الذين يَسَّر الله لهم زوجة صالحة تأمره بالخير، وتنهاه عن الشر[١].

۞ وهذا الحديث مشتمل على مجموعة كبيرة من الفوائد.. منها:

مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِىُّ ﷺ وَكِبَارُ أَصحَابِهِ ﷺ مِنَ التَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا ابْتُلُوا بِهِ مِنَ الْجُوعِ وَضِيقِ الْعَيْشِ فِى أَوْقَاتٍ ... وَقَد زَعَمَ بَعضُ النَّاسِ أَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ فَتْحِ الْفُتُوحِ وَالْقُرَى عَلَيْهِمْ وَهَذَا زَعمٌ بَاطِلٌ فَإِنَّ رَاوِىَ الْحَدِيثِ أَبُو هُرَيْرَةَ... وَمَعلُومٌ أَنَّهُ أسلم بعد فتح خيبر ... فإن قيل: لا يلزم مِنْ كَوْنِهِ رَوَاهُ أَنْ يَكُونَ أَدركَ الْقَضِيَّةَ فَلَعَلَّهُ سَمِعَهَا مِنَ النَّبِىِّ ﷺ أَوْ غَيْرِهِ ... فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا خِلَافُ الظاهر ولا ضرورة إِلَيْهِ بَلِ الصَّوَابُ خِلَافُهُ وَأَنَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَزَلْ يتقَلَّبُ فِى الْيَسَارِ وَالْقِلَّةِ حَتَّى تُوُفِّىَ ﷺ فَتَارَةً يُوسَرُ وَتَارَةً يَنْفَدُ مَا عِنْدَهُ كَمَا ثَبَتَ فِى الصَّحِيحِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَع مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ» ... وَعَنْ عَائِشَةَ: «مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ وَتُوُفِّىَ ﷺ وَدِرعُهُ مَرْهُونَةٌ عَلَى شَعِيرٍ اسْتَدَانَهُ لِأَهْلِهِ»... وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعرُوفٌ ... فَكَانَ النَّبِىُّ ﷺ فِى وَقْتٍ يُوسَرُ ثُمَّ بَعدَ قَلِيلٍ يَنْفَدُ مَا عِنْدَهُ لِإِخْرَاجِهِ فِى طَاعَةِ اللهِ مِنْ وُجُوهِ الْبِرِّ وَإِيثَارِ الْمُحتَاجِينَ وَضِيَافَةِ الطَّارِقِينَ وَتَجْهِيزِ السَّرَايَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ... وَهَكَذَا كَانَ خُلُقُ صَاحِبَيْهِ ﷺ بَلْ أَكْثَرُ أَصحَابِهِ... وَكَانَ أَهْلُ الْيَسَارِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﷺ مَعَ بِرِّهِمْ لَهُ ﷺ وإكرامهم إياه وإتحافه بالطُّرف وغيرها رُبَّمَا لَمْ يَعرِفُوا حَاجَتَهُ فِى بَعضِ الْأَحيَانِ لكونهم لا يعرفون فَرَاغَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْقُوتِ بِإِيثَارِهِ بِهِ ... وَمَنْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ رُبَّمَا كَانَ ضَيِّقَ الْحَالِ فِى ذَلِكَ الْوَقْتِ كَمَا جَرَى لصاحبيه ولا يعلم أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلِمَ حَاجَةَ النَّبِىِّ ﷺ وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ إِزَالَتِهَا إِلَّا بَادَرَ إِلَى إِزَالَتِهَا

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه/ د. عمر الأشقر (ص ٥١-٥٤) بتصرف.

لَكِنْ كَانَ ﷺ يَكْتُمُهَا عَنْهُمْ إِيثَارًا لِتَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ وَحَمْلًا عَنْهُمْ ... وَقَد بَادَرَ أَبُو طَلْحَةَ حِينَ قَالَ: سَمِعتُ صَوْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعرِفُ فِيهِ الْجُوعَ إِلَى إِزَالَةِ تِلْكَ الْحَاجَةِ وَكَذَا حَدِيثُ جَابِرٍ فى غزوة الخندق[1].

۞ لم يكن جميع الصحابة على هذه الحالة التى وصفت من التقلُّل فى الدنيا ... فقد كان فيهم الأغنياء ... منهم أصحاب النخل والشاء كحال هذا الصحابى الذى استضاف الرسول ﷺ وصاحبيه، كما جاء فى رواية الترمذى. ومنهم أصحاب التجارة، كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وأبى بكر. ومنهم الصُّنَّاع الذين مهروا فى الصناعات، كصهيب الرومى، وقد ترك مالًا كثيرًا لأهل مكة، حتى أذنوا له بالهجرة إلى المدينة. وليس من هدى الإسلام أن يأمر المسلمين بأن يتخلوا عن جميع أموالهم، ليكونوا فقراء، بل كان فى بعض الأحوال يأمر أصحابه أن يُمسكوا بعض أموالهم، ويأمر بالاعتدال فى الإنفاق.

۞ لا حرج على مَن أظهر ما أصابه من ضيق أو جوع على غير وجه التشكِّى ... كما فعل الرسول ﷺ وصاحباه عندما تحدث كل واحدٍ بحاله، وبالسبب الذى أخرجه من داره، وهو الجوع.

۞ لا حرج على مَن أظهر المشاعر النبيلة التى يُحس بها تجاه الآخرين... فقد فرحت أم الهيثم وزوجها أبو الهيثم بحلول رسول الله ﷺ وصاحبيه ضيوفًا عليهم، وعبّروا عن فرحهم هذا الذى ملأ نفوسهم بألوانٍ كثيرة ... فأم الهيثم تقول للرسول ﷺ وصاحبيه عندما قدموا الدار: «مرحبًا وأهلًا» وعندما نظر أبو الهيثم إليهم حمد الله، وقال: «ما أحدٌ اليوم أكرمَ أضيافًا منى» وفى رواية الترمذى: أن أبا الهيثم عندما عاد ورأى الرسول ﷺ أقبل عليه يفديه بأمه وأبيه، أى يقول له: فداك أبى وأمى، وأخذ يلتزمه.

وإذا أنت تأملت فى الحديث ورأيت فعل أبى الهيثم من اختيار أحسن

---
(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٣٠٦-٣٠٧).

الأمكنة فى بستانه، وما قدَّمه من الرُّطب، وذبح الشاة، ونحو ذلك رأيته كله ينطق بالمشاعر الإنسانية النبيلة التى يعبر بها صاحبها عن فرحته وسروره وسعادته... والمسلم الحق يمثل الإنسان الحق فى أكرم صوره، وأرقى مشاعره.

۞ شكر المؤمن ربه على ما أحدث له من نعم ... فقد حَمِدَ أبو الهيثم ربه عندما وجد خير الناس فى منزله ضيوفًا عليه، وهى نعمة من أعظم النعم التى يُنعم الله بها على عباده.

۞ لا حرج على مَن تكلَّف لإكرام ضيفه كما فعل أبو الهيثم بضيوفه، فقد جاءهم بقنوٍ كامل من الرُّطَب، وذبح لهم شاة ... وقد جاء أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ضيوفه من قبل بعجلٍ حنيذ ... وما ذكره أهل العلم من النهى عن التكلُّف فى إكرام الضيف محمول علٰى ما يشقّ على صاحب المنزل مشقة تُرهقه.

۞ مشروعية الثناء على الآخرين، وخاصة فى مقام الترحيب بالضيوف، فقد قال أبو الهيثم مُرحِّبًا بضيوفه مُثنيًا عليهم: ما أحدٌ أكرمَ أضيافًا منى.

وهذا مقيد بأن لا يخاف على المثنى عليه الفتنة، وأن لا يبالغ فى الثناء بحيث يخرج إلى منزلة الكذب.

۞ فى الحديث بيان لمدى محبة الصحابة للرسول ﷺ وإكرامهم له، وتفاؤلهم بقدومه عليهم، كما ظهر ذلك من أبى الهيثم بن التيهان وزوجه.

۞ ما تناوله الرسول ﷺ وصاحباه من طعام وماء هو من النعيم الذى يسأل الله عنه عبده يوم القيامة فى قوله: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] كما أخبر الرسول ﷺ صاحبيه بذلك، والسؤال إنما هو عن مدى شكر العبد ربّه عند حصوله على هذا النعيم ... فالله يرضى عن العبد، يأكل الأكلة فيشكره عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها.

۞ على المستشار أن يخلص النُّصح لمن يستشيره ... فقد طلب أبو الهيثم من الرسول ﷺ أن يختار له خير الرجلين اللذين عرضهما عليه، فاختار له

الرسول ﷺ أفضلهما، وعلل ذلك بقوله: «**المستشار مؤتمن**» فذهبت مثلًا، وأصبحت قاعدة من قواعد الأخلاق في الإسلام. وعلى ذلك فإن من الخيانة أن تدل مستشيرك على ما يعود عليه بالضرر والسوء.

۞ فضَّل الرسول ﷺ الرجل الذي اختاره لأبي الهيثم لكونه رآه يصلي، فدلَّ ذلك على أن المقياس المرتضى هو التزام المرء بالإسلام[1].

(٥٠٣) وعَن خالد بن عُمَيْر العَدَوي قال: خَطَبَنَا عُتْبَةُ بنُ غَزْوانَ، وكانَ أَميرًا عَلى البَصرَةِ، فَحَمِدَ الله وأَثْنى عليْه، ثُمَّ قَالَ: أَمَا بعدُ، فَإنَّ الدُّنْيَا قد آذَنَتْ بصُرمٍ، ووَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ منها إلا صُبَابَةٌ كَصُبابةِ الإناءِ يتصابُّها صاحِبُها، وإنكُمْ مُنْتَقلُونَ مِنْها إلى دارٍ لا زَوالَ لَها، فانْتَقِلُوا بِخَيْرِ ما بحَضْرَتِكُم فَإنَّهُ قَد ذُكِرَ لَنا أَنَّ الحَجَر يُلْقَى مِنْ شَفير جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فيهَا سَبْعِينَ عَامًا لا يُدركُ لها قَعرًا، والله لَتُمْلأنَّ.. أفَعَجِبْتُمْ؟ ولَقَد ذُكِرَ لَنَا أنَّ ما بَيْنَ مِصراعَيْنِ مِنْ مَصاريعِ الجَنَّةِ مَسيرة أَرْبَعينَ عامًا، وَلَيَأْتِينَّ عَلَيه يَوْمٌ وهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحامِ، وَلَقَد رأيتُنى سابعَ سبْعةٍ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ما لَنا طَعامٌ إلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ، حتى قَرِحَتْ أَشْداقُنا، فالتَقَطْتُ بُرْدَةً فشَقَقْتُها بيْني وَبينَ سَعدِ بنِ مالكٍ فاتَّزَرتُ بنصفِها، وَاتَّزَر سَعدٌ بِنِصفِها، فَمَا أَصبَحَ اليَوْم مِنَّا أَحَدٌ إلَّا أَصبَحَ أَمِيرًا عَلى مِصرٍ مِنْ الأَمْصَارِ. وإنى أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ في نَفْسي عَظِيمًا. وعَنْدَ الله صَغِيرًا[2].

۞ ففي هذا الحديث يخبر خالد بن عُمير العدوي أن عُتبة بن غزوان رضي الله عنه لما كان أميرًا على البصرة قام فخطب في الناس فحمد الله وأثنى عليه.. وهكذا

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه (ص ٥٥-٥٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٧) كتاب الزهد والرقائق.

قوله: «آذَنَتْ»، أيْ: أعلَمَتْ - وقوله: «بِصُرْمٍ» أي: بانْقطاعها وَفَنائِها - وقوله «ووَلَّتْ حَذَّاء» أَيْ: سَريعَة. وَ«الصُّبابةُ»: وهي البقيَّةُ اليَسيرَةُ - وقولُهُ: «يَتَصابُّها» أيْ: يجْمَعُها - والكَظيظُ: الكثيرُ المُمْتَلئ- وقوله: «قَرِحَتْ» أيْ: صارَتْ فِيهَا قُرُوحٌ.

ينبغى على المسلم أنه إذا خطب أو قام ليدعو أن يحمد الله ويُثنى عليه ويصلى على رسول الله ﷺ...

فلما قام عتبة يخطب قال لهم -ما معناه- أن الدنيا قد أعلمت بفنائها وانقطاعها وولَّت مُسرعة وأنه لم يبقَ منها إلا بقية يسيرة... وإنكم منتقلون من هذه الدنيا إلى دارٍ لا انقطاع ولا زوال لها.. فاحرصوا على أن تعملوا أعمالًا صالحة لتنتقلوا بها إلى الدار الآخرة فتجنوا ثمرة تلك الأعمال فى يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلبٍ سليم... فإن الإنسان لا بُدَّ أن يحرِص على أن ينجو من النار ويدخل الجنة.. فقد ذكر النبى ﷺ أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم إلى قعرها فلا يدرك قعرها بعد سبعين عامًا.. وسوف تمتلئ جهنم يوم القيامة بالكفار والمنافقين والعصاة .. ثم قال لهم: أفعجبتم؟ أى: هل تتعجبون لهذا الكلام .. اعلموا أن الآخرة فيها أيضًا نعيمٌ عظيم فلقد ذكر لنا النبى ﷺ أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عامًا وسيأتى عليه يومٌ وهو مُمتلئ من شدة الزحام.

ثم ذكر لهم عتبة رضي الله عنه ما كان عليه حالهم وحال النبى ﷺ من الجوع وخشونة العيش فقال لهم: وَلَقَد رأيتُنى سابعَ سبْعةٍ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ما لَنا طَعامٌ إلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حتى قَرِحَتْ أشْداقُنا، فالتَقَطْتُ بُردَةً فشَقَقْتُها بينى وَبَينَ سَعدِ بنِ مالكٍ فاتَّزَرتُ بنصفِها، وَاتَّزَر سَعدٌ بنِصفِها، فَمَا أَصبَحَ اليَوْم مِنَّا أَحَدٌ إلَّا أَصبَحَ أَمِيرًا عَلى مِصرٍ مِنْ الأَمْصَارِ. وإنى أَعُوذُ بالله أَنْ أَكْونَ فى نَفْسى عَظِيمًا. وعَنْدَ الله صَغِيرًا.

فلقد كانوا مع النبى ﷺ لا يجدون طعامًا إلا ورق الشجر الخشن الذى يصيب الحلق والأشداق.. وكانوا يتقاسمون الثياب لقلة ما كان عندهم ... وأنه قد أصبح بعد ذلك كل واحدٍ منهم أميرًا وأنه يخشى أن يكون فى نفسه عظيمًا وأن يكون عند الله صغيرًا.. بل كان يسعى كل واحدٍ منهم أن يكون عند الله عظيمًا وأن يكون فى نفسه صغيرًا.

هكذا كان حالهم رضي الله عنهم مع النبى ﷺ.

(٥٠٤) وعَنْ أبي موسى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قال: أَخْرَجَتْ لَنا عائِشَةُ رضي الله عنها كِساءً وَإِزارًا غَلِيظًا قالَتْ: قُبِضَ رسُولُ الله ﷺ في هذين(١).

ففى هذا الحديث يخبر أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه أن أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ عائشة بنت أبى بكر رضي الله عنها أخرجت لهم كِساءً وإزارًا غليظًا لا يتحمله جسد الإنسان إلا بصعوبة شديدة وقالت لهم: قُبض رسول الله ﷺ فى هذين.. أى كان يلبسهما ﷺ عند موته... فهذا حال رسول الله ﷺ الذى لو أراد أن يلبس أجمل وأفخم الثياب فى هذا الوقت لفعل لكنه اختار تلك الحياة ليستطيع الفقير والغنى أن يقتدى به... فالفقير سيتأسى بالنبى ﷺ ويتصبر به ﷺ ويقول لنفسه: لا بد أن أتحمل وأحمد الله فهل أنا أفضل من النبى ﷺ.. والغنى أباح له النبى ﷺ أن يلبس كل الثياب الطيبة ما دام ليس فيها ما يخالف الشرع.. فإن أراد أن يلبس الثياب البسيطة فقد سبق إليها النبى ﷺ.

(٥٠٥) وعَنْ سَعد بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه قال: إِنِّي لأَوَّلُ العَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ في سَبِيل الله، وَلَقَد كُنا نَغْزُو مَعَ رسول الله ﷺ ما لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الحُبْلَةِ. وَهذا السَّمُرُ. حَتى إِنْ كانَ أَحَدُنا لَيضَعُ كما تَضَعُ الشاةُ ما لَهُ خَلْطٌ(٢).

وفى هذا الحديث يخبر سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.. وهو من أوائل الصحابة الذين أسلموا وبذلوا حياتهم لنُصرة هذا الدين العظيم.. فيخبر هنا أنه أول مَن رمى بسهمٍ فى سبيل الله عز وجل.. وذكر أنهم كانوا يغزون مع رسول الله ﷺ.. وبدلًا من أن يأكلوا لحوم الإبل أو الشياه ليستعينوا بذلك على مشقة الجهاد فى سبيل الله.. كانوا يأكلون ورق الحُبلة..

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨١٨) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٨٠) كتاب اللباس والزينة.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥٣) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٦٦) كتاب الزهد والرقائق.
«الحُبْلَةِ» وهى والسَّمُرُ، نَوْعانِ مَعروفانِ مِنْ شَجَرِ البَادِيَةِ.

وهو من شجر البادية وكان يجرح حُلوقهم وأشداقهم ومع ذلك كانوا يتحملون ذلك ابتغاء مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ لأنهم يعلمون أن عاقبة ذلك هو الفوز برضوان الله وجنته ... وهناك سوف يُجهَّز لهم الطير المشوى فى الجنة وسيرون ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(٥٠٦) وعَنْ أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا»(١).

۞ هكذا كان دعاء النبى ﷺ .. فلم يكن يدعو بأن يفتح الله له أبواب الرفاهية والتنعُّم .. بل كان يطلب ما يَسُد الرمق فقط ولا يزيد لأنه يعلم أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ولو كانت تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء.

قال أهل اللغة العربية: القوت ما يَسُدّ الرَّمَق ... وفيه فضيلة التقلُّل من الدنيا والاقتصار على القوت منها والدعاء بذلك(٢).

(٥٠٧) وعَنْ أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: والله الذى لا إلهَ إلَّا هُوَ، إنْ كُنْتُ لأعتَمِدُ بِكَبِدِى على الأرضِ مِنَ الجُوعِ، وإنْ كُنْتُ لأشُدُّ الحجَرَ على بَطْنى منَ الجُوعِ. وَلَقَد قَعَدتُ يوْمًا على طَرِيقهِمُ الذى يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ النَّبِىُّ ﷺ، فتبَسَّمَ حِينَ رَآنِى، وعَرَفَ ما فى وجْهى ومَا فى نَفْسِى، ثُمَّ قال: «أَبا هِرٍّ» قلتُ: لَبَّيْكَ يا رسول الله، قال: «الحَقْ» ومَضَى، فَاتَّبَعتُهُ، فدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لى فدَخَلْتُ، فوَجَدَ لَبَنًا فى قَدحٍ فقال: «مِنْ أَيْنَ هذَا اللَّبَنُ؟» قالوا: أَهْداهُ لَكَ فُلانٌ أَو فُلانة ... قال: «أَبا هِرٍّ» قلتُ:

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٦٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٥) كتاب الزهد والرقائق.
قال أَهْلُ اللُّغَة والْغَرِيبِ: معنى «قُوتًا» أىْ مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ.
(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ٢٠٥).

لَبَّيْكَ يا رسول الله، قال: «الحق إلى أَهْل الصُّفَّةِ فادعُهُمْ لى».

قال: وأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضيافُ الإِسْلام، لا يَأْوُون عَلى أَهْلٍ، ولا مَال، ولا على أَحَدٍ، وكانَ إِذَا أَتَتْهُ صدقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ. ولَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وإِذَا أَتَتْهُ هديَّةٌ أَرسلَ إِلَيْهِمْ وأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فيها، فسَاءنى ذلكَ فَقُلْتُ: وما هذَا اللَّبَنُ فى أَهْلِ الصُّفَّةِ؟ كُنْتَ أَحَقُّ أن أُصيب منْ هذا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذا جاءُوا أَمَرنِى، فكُنْتُ أنا أُعطِيهِمْ، وما عَسَى أَن يَبْلُغَنى منْ هذا اللَّبَنِ، ولمْ يَكُنْ منْ طَاعَةِ الله وطَاعَةِ رسوله ﷺ بُدٌّ.

فأَتيتُهُم فدَعَوْتُهُمْ، فأَقْبَلُوا واسْتأْذَنوا، فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ قال: «يا أبا هِرّ» قلتُ: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله، قال: «خذْ فَأَعطِهِمْ» قال: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْت أُعطِيهِ الرَّجُلَ فيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ علىَّ الْقَدَحَ، فَأُعطيه الآخرَ فَيشْرَبُ حَتَّى يروَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَىَّ الْقَدحَ، حتَّى انْتَهَيتُ إلى النبى ﷺ، وَقَد رَوِىَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ على يَدِهِ، فَنَظَرَ إِلَىَّ فَتبَسَّمَ، فقال: «أبا هِرّ» قلتُ: لَبَّيْكَ يا رسول الله قال: «بَقِيتُ أَنا وَأَنْتَ» قلتُ: صَدَقْتَ يا رسولَ الله، قال: «اقْعُد فَاشْرَبْ» فَقَعَدتُ فَشَرِبْتُ: فقال: «اشرَبْ» فشَرِبت، فما زال يَقُولُ: «اشْرَبْ» حَتَّى قُلْتُ: لا وَالَّذى بعثكَ بالحَقِّ ما أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا، قال: «فَأَرِنى» فأَعطيْتهُ الْقَدَحَ، فحمِدَ الله تعالى، وَسمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ(١).

(٥٠٨) وعَنْ مُحمَّد بن سيرينَ عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: لَقَد رأَيْتُنى وإِنِّى لأَخِرُّ فيما بَيْنَ مِنْبَرِ رسول الله ﷺ إلى حُجْرَة عائشَةَ رضي الله عنها مغْشِيًّا عَلَىَّ، فَيجِىءُ الجَائى، فيَضَعُ رِجْلَهُ عَلى عُنُقى، وَيَرى أَنِّى مَجْنونٌ وما بى مِن جُنُونٍ، وما بى إِلَّا الجُوعُ(٢).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٥٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٣٢٤) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

۞ يُحدثنا أبو هريرة رضي الله عنه عن الحال التى كان يبلغها من الجوع فى العهد النبوى ... فقد كان يصل به الجوع الشديد إلى أن يلصق بطنه بالأرض من شدة الجوع إذا كان نائمًا، فإذا قام أخذ حجرًا رقيقًا فوضعه على بطنه، ثم عَصَبه بعصابة حتى تعتدل قامته.

وكان يبلغ به الحال أعظم من ذلك، فقد كان فى بعض الأحيان يَخِرُّ على وجهه من الجهد والجوع.

وكانت تأبى عليه نفسه أن يستجدى غيره، ويسأله مذقة اللبن، أو كسرة الخبز ... وكذلك حال المتعففين، يظنهم مَن يراهم أغنياء، وواقع الحال أن بهم من البلاء ما الله به عليم ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وكان فى بعض الأحيان يتعرض لصحابة الرسول ﷺ الذين عندهم شىء من المال.. وقد قعد يومًا فى الطريق الذى اعتاد بعض الصحابة من ذوى الثراء المرور منه، لعلهم يفطنون لما به من البلاء، فيدعونه، فيُذهبون ما به من شدة الجوع ... فمرَّ به أبو بكر فسأله عن مسألة علمية، فأجابه، ولم يَدْعُهُ، ثم مَرَّ به عمر، فكان منه ما كان من أبى بكر، ولعلهما لم يَفطِنا لحاله، أو فَطِنا له، ولكن لا يوجد عندهما فى ذلك اليوم ما يواسيانه به ... فقد كان الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر يُخرجهم من بيوتهم الجوع فى بعض الأحيان.

ثم مَرَّ به رسول الله ﷺ، فما إن رآه حتى عرف حاله ومُصابه، فتبسَّم فى وجهه، وناداه آمرًا إياه باتباعه إلى منزله، واستأذن على أهله، وأدخله داره.

فوجد فى الدار لبنًا فى قدح، فاستعلم الرسول ﷺ من أهله عن مصدر هذا اللبن، فإذا به هدية من بعض أصحابه، فأمر الرسول ﷺ أبا هريرة أن ينطلق فيدعو له أهل الصفة، هكذا... كل مَن وجده من أهل الصفة.

ولك أن تتصور حال أبى هريرة والرسول ﷺ يأمره أن يدعو أهل الصفة، وهم جَمْعٌ غفير... والطعام الذى يدعوهم إليه قدح لا يكاد يكفى الواحد أو الاثنين... لقد كان أبو هريرة يرجو أن يدفع إليه الرسول ﷺ، وقد بلغ به الجوع مداه، هذا اللبن يَسُد به جوعته، ويقيم به أَوده، ويتقوَّى به على ضعفه.

لقد كان أبو هريرة يُحدث نفسه بهذا الحديث، وهو منطلق إلى أهل الصُّفة يدعوهم، وتصور فى نفسه ما يمكن أن يحدث بعد دعوته إياهم ... لقد قام فى نفسه أن الرسول ﷺ سيأمره بعد دخول أهل الصفة عليه أن يسقيهم ذلك اللبن، وخشى أن يأتوا عليه، ولا يبقى له منه شىء.

وكان الأمر على النحو الذى توقعه أبو هريرة رضي الله عنه، فبعد أن استأذنوا ودخلوا على رسول الله ﷺ، وأخذوا أماكنهم، ناوله الرسول ﷺ القدح آمرًا إياه أن يباشر إسقاءهم منه ... فكان يناول الرجل القدح، فيشرب، ثم يُعيده إلى أبى هريرة، فيناوله إلى الآخر، وهكذا، حتى شربوا جميعًا، وانتهى بالقدح إلى رسول الله ﷺ، فأخذ صلوات الله وسلامه عليه القدح، ووضعه على يده، وكأنه علم ما دارَ فى خلد أبى هريرة، من خشيته أن ينتهى اللبن من غير أن ينال منه شيئًا، فتبسّم عليه السلام ، وناداه قائلًا: «**أبا هِرّ**»، فقال أبو هريرة: لبيك يا رسول الله، قال: «**بقيت أنا وأنت**»، فقال: صدقت يا رسول الله. فقال: «**اقعد فاشرب**» فشرب أبو هريرة، ثم أمره أن يشرب أخرى، وما زال يأمره بأن يشرب، حتى لم يُطق أبو هريرة أن يتناول المزيد، لقد شرب وتَضلَّع، وامتلأ بطنه، وأقسم للرسول ﷺ أنه لا يجد له مسلكًا.

عند ذلك أخذ الرسول ﷺ الفضلة التى فى الإناء، فحمد الله وسمَّى، وشرب ما بقى فيه، فانتهى اللبن الذى فى القدح بشرب الرسول ﷺ منه[١].

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه (ص ١٩-٢١) بتصرف.

۞ وفى هذين الحديثين بيان الحال الصعبة التى كان عليها الرسول ﷺ وكثير من أصحابه، فما أصاب أبا هريرة من الجوع الشديد لم يكن قصرًا عليه... فأهل الصُّفة كانوا جميعًا على مثل حاله، بل كان الجوع الشديد يصيب الرسول ﷺ وكبار صحابته.

حتى كان الحال يصل بأبى هريرة أنه كان يُغشى عليه (يُغمى عليه) فى المسجد ما بين منبر النبى ﷺ إلى حجرة أمنا عائشة رضي الله عنها ويظن بعض الصحابة أنه مسحور أو به جنون ولم يعلموا أن ذلك كله من شدة الجوع.. لكنه كان عفيفًا رضي الله عنه لا يسأل أحدًا أبدًا.. فإن لم يُعطه النبى ﷺ أو أحد الصحابة لم يكن أبو هريرة يسأل أحدًا شيئًا.

(٥٠٩) وعَنْ عائشةَ، رضي الله عنها قَالَتْ: تُوُفِّىَ رسولُ الله ﷺ ودِرعُهُ مرْهُونَةٌ عِند يهودِىٍّ فى ثَلاثِينَ صاعًا منْ شَعِيرٍ[1].

۞ وهنا تذكر أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان قد رهن درعه عند رجلٍ يهودى من بنى ظفر (اسمه أبو الشحم اليهودى) على ثلاثين صاعًا من شعير.. وظلت درعه ﷺ مرهونة عند هذا الرجل حتى تُوفى النبى ﷺ.

قال العلماء: الحكمة فى عدوله عن معاملة مياسير الصحابة إلى معاملة اليهود، إما لبيان الجواز، أو لأنهم لم يكن عندهم إذ ذاك طعامٌ فاضل عن حاجة مَن عندهم، أو خشى أنهم لا يأخذون ثمنًا أو عِوَضًا فلم يُرد التضييق عليهم، فإنه لا يبعد أن يكون فيهم إذ ذاك مَن يقدر منهم على ذلك أو أكثر منه...فلعله لم يُطلعهم على ذلك وإنما اطّلع عليه مَن لم يكن مُوسرًا به ممن نقل ذلك. اهـ[2].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩١٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٦٠٣) كتاب المساقاة.
(٢) دليل الفالحين (٢/ ٤١٠).

(٥١٠) وعَنْ أَنس رضي الله عنه قال: رَهَنَ النَّبِيُّ ﷺ دِرعهُ بِشَعِيرٍ، ومشيتُ إلى النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْزِ شَعيرٍ، وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ، وَلَقَد سمِعتُهُ يقُولُ: «ما أَصبَحَ لآلِ مُحَمَّدٍ صاعٌ ولا أَمْسَى» وَإِنَّهُم لَتِسْعَةُ أَبْيَاتٍ(١).

۞ وهنا يذكر أنس ما ذكرته أمنا عائشة رضي الله عنها من أن النبي ﷺ رهن درعه بشعيرٍ ليُقدمه طعامًا لأهله ﷺ.

وليس معنى ذلك أن النبي ﷺ قد رهن درعه الوحيد الذي يقاتل به وإنما رهن درعًا من أدراعه كما جاء في رواية البخاري...

قال أنس: ومشيت إلى النبي ﷺ بخبز شعيرٍ وإهالةٍ سَنِخَة.. أي أنه ذهب إلى النبي ﷺ بخبز الشعير ومعه شحمٌ ذائب متغير.. فقد كان النبي ﷺ لا يأكل إلا ما يَسُدّ الرمق ولا يحرص على أكل الأطعمة الشهية ﷺ.

ثم قال أنس: ولقد سمعته -أي النبي ﷺ- يقول: «**ما أصبح لآل محمدٍ صاعٌ ولا أمسى**»..

يقول أنس: وإنهم لتسعة أبيات.

۞ وفي رواية أحمد والترمذي والنسائي أنه ﷺ قال: «**ما أمسى في آل محمدٍ صاع من تمرٍ ولا صاع من حَبٍّ**».

۞ قوله: « وإنهم لتسعة أبيات» وفي رواية: «وإن عنده يومئذٍ لتسع نسوة».

وَمُنَاسَبَةُ ذِكْرِ أَنَسٍ لِهَذَا الْقَدرِ مَعَ مَا قَبْلَهُ الإِشَارَةُ إِلَى سَبَبِ قَوْلِهِ ﷺ هَذَا وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ مُتَضَجِّرًا وَلَا شَاكِيًا مَعَاذَ اللهِ مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا قَالَهُ مُعتَذِرًا عَنْ إِجَابَتِهِ دَعوَةَ الْيَهُودِيِّ وَلِرَهْنِهِ عِنْدَهُ دِرعَهُ ... وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْحَامِلُ الَّذِى زَعَمَ بِأَنَّ قَائِلَ ذَلِكَ هُوَ أَنَسٌ فِرَارًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَلِكَ بِمَعْنَى التَّضَجُّرِ وَاللهُ أَعلَمُ ...

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٥٠٨) كتاب الرهن.
«الإِهَالَةُ» الشَّحمُ الذَّائِبُ - وَ«السَّنِخَةُ» وَهِىَ: المُتَغَيِّرَةُ.

وَفِى الْحَدِيثِ جَوَازُ مُعَامَلَةِ الْكُفَّارِ فِيمَا لَمْ يَتَحَقَّقْ تَحرِيمُ عَيْنِ الْمُتَعَامَلِ فِيهِ وَعَدَمُ الِاعتِبَارِ بِفَسَادِ مُعتَقَدِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَاسْتُنْبِطَ مِنْهُ جَوَازُ مُعَامَلَةِ مَنْ أَكْثَرُ مَالِهِ حَرَامٌ ... وَفِيهِ جَوَازُ بَيْعِ السِّلَاحِ وَرَهْنِهِ وَإِجَارَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكَافِرِ مَا لَمْ يَكُنْ حَرِبيًّا ... وَفِيهِ ثُبُوتُ أَمْلَاكِ أَهْلِ الذِّمَّةِ فِى أَيْدِيهِمْ وَجَوَازُ الشِّرَاءِ بِالثَّمَنِ الْمُؤَجَّلِ وَاتِّخَاذِ الدُّرُوعِ وَالْعُدَدِ وَغَيْرِهَا مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ وَأَنَّهُ غَيْرُ قَادِحٍ فِى التَّوَكُّلِ وَالْكَرَمِ الَّذِى أَفْضَى بِهِ إِلَى عَدَمِ الِادِّخَارِ حَتَّى احتَاجَ إِلَى رَهْنِ دِرْعِهِ وَالصَّبْرِ عَلَى ضِيقِ الْعَيْشِ وَالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ وَفَضِيلَةٌ لِأَزْوَاجِهِ لِصَبْرِهِنَّ مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ[(١)].

(٥١١) وعَنْ أبى هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَقد رَأَيْتُ سبْعينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، ما مِنْهُم رَجلٌ عَلَيهِ رداء، إِمَّا إزارٌ وإمَّا كِسَاءٌ، قَد ربطُوا فى أَعنَاقِهم منهَا ما يَبْلُغُ نِصفَ السَّاقيْنِ، وَمِنهَا ما يَبلُغُ الكَعبَينِ، فيجمعُهُ بِيَدِهِ كَراهِيَةَ أَن تُرى عَوْرَتُهُ[(٢)].

۞ سبق شرحه كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٧٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٥١٢) وعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ فِرَاشُ رسول الله ﷺ مِن أُدْمٍ حَشْوُهُ لِيفٌ[(٣)].

۞ وها هى أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصف كيف كان فراش النبى ﷺ ... فهل كان من الديباج والحرير؟ .. أم كان من الإستبرق؟ .. أم كان من القطيفة؟ .. كلا.. بل كان فراش النبى ﷺ من قطعة جلدٍ حشوها ليف!!.

(١) فتح البارى (٥/ ١٦٨).
(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٤٤٢) كتاب الصلاة.
(٣) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦٤٥٦) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٠٨٢) كتاب اللباس والزينة.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه جواز اتخاذ الفُرش والوسائد والنوم عليها والارتفاق بها وجواز المحشو، وجواز اتخاذ ذلك من الجلود وهى الأُدم والله أعلم(١).

(٥١٣) وعَنْ ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رسولِ الله ﷺ إِذْ جاءَ رَجُلٌ مِن الأَنْصارِ، فسلَّم علَيه، ثُمَّ أَدبرَ الأَنْصَارِيُّ، فقال رسول الله ﷺ: «يَا أَخَا الأَنْصَارِ، كَيْفَ أَخِى سعدُ بنُ عُبادة؟» فقال: صَالحٌ، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟» فَقام وقُمْنا مَعَهُ، ونَحنُ بِضْعَةَ عشَر ما علَينَا نِعالٌ وَلا خِفَافٌ، وَلا قَلانِسُ، ولا قُمُصٌ نمشى فى تلكَ السِّبَاخِ، حَتَّى جِئْنَاهُ، فاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حوله حتَّى دنَا رسولُ الله ﷺ وَأَصحابُهُ الَّذِين مَعهُ(٢).

۞ وهنا يحكى ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا أنهم كانوا جالسين مع رسول الله ﷺ فجاء رجلٌ من الأنصار فسلَّم على النبى ﷺ ثم انصرف فنادى عليه النبى ﷺ وسأله: كيف أخى سعد بن عُبادة؟ ... وما أجمل وفاء النبى ﷺ حين يفتقد أحد الصحابة فيسأل عنه.. وما أجمل تواضعه حين يقول: «**كيف أخى سعد..**» ولم يَقُل: كيف حال تلميذى.. أو: كيف حال سعد.. وإنما قال: أخى لقُربه الشديد منهم وُقربهم الشديد منه ﷺ.

۞ فلما قال لهذا الأنصارى: كيف أخى سعد بن عبادة؟

قال له الرجل: صالحٌ.. أى بخير.

وقد كان النبى ﷺ يسأل عنه لأنه علم أنه مريض..

فنظر إلى أصحابه وقال لهم: «**مَن يعوده منكم؟**».

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٨٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٢٥) كتاب الجنائز.

يقول ابن عمر: فقام ﷺ وقمنا معه ونَحنُ بضْعَةَ عشَر ما علَينا نِعالٌ وَلا خِفَافٌ، وَلا قَلانِسُ، ولا قُمُصٌ نمشى فى تلكَ السِّبَاخِ، حَتَّى جِئْنَاهُ، فاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حوله حتَّى دنَا رسولُ الله ﷺ وَأَصحابُهُ الَّذِين مَعهُ.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه ما كانت الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم فيه من الزهد فى الدنيا والتقلُّل منها وإطراح فضولها وعدم الاهتمام بفاخر اللباس ونحوه. وفيه جواز المشى حافيًا، وعيادة الإمام والعالِم المريض مع أصحابه(١).

(٥١٤) وعَنْ عِمْرانَ بنِ الحُصَينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبى ﷺ أنه قال: «خَيْرُكُمْ قَرنى، ثُمَّ الَّذينَ يلُونَهم، ثُمَّ الَّذينَ يلُونَهُم» قال عِمرَانُ: فَمَا أدرى قال النبى ﷺ مَرَّتَيْن أو ثَلاثًا «ثُمَّ يَكُونُ بَعدَهُمْ قَومٌ يَشهدُون ولا يُستَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهمْ السِّمَنُ»(٢).

۞ قوله ﷺ: «خَيْرُكُمْ قَرنى، ثُمَّ الَّذينَ يلُونَهم، ثُمَّ الَّذينَ يلُونَهُم».

اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ خَيرَ الْقُرُونِ قَرْنُهُ ﷺ وَالْمُرَادُ أَصحَابُهُ وَقَد قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّحِيحَ الَّذِى عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ رَأَى النَّبِىَّ ﷺ وَلَوْ سَاعَةً فَهُوَ مِنْ أَصحَابِهِ ... وَرِوَايَةُ «خَيْرُ النَّاسِ» عَلَى عُمُومِهَا وَالْمُرَادُ مِنْهُ جُمْلَةُ الْقَرنِ وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ تَفْضِيلُ الصَّحَابِىِّ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَلَا أَفْرَادُ النِّسَاءِ عَلَى مَرْيَمَ وَآسِيَةَ وَغَيْرِهِمَا ... بَلِ الْمُرَادُ جُمْلَةُ الْقَرْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ قَرْنٍ بِجُمْلَتِهِ... قَالَ الْقَاضِى: وَاخْتَلَفُوا فِى الْمُرَادِ بِالْقَرْنِ هُنَا فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: قَرْنُهُ أَصحَابُهُ وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ أَبْنَاؤُهُمْ وَالثَّالِثُ أَبْنَاءُ أَبْنَائِهِمْ ... وَالصَّحِيحُ أَنَّ قَرْنَهُ ﷺ

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٣٢١).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٥١) كتاب الشهادات، ومسلم (٢٥٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

الصَّحَابَةُ وَالثَّانِى التَّابِعُونَ وَالثَّالِثُ تَابِعُوهُمْ(١).

۞ هذا الحديث فيه دلالة واضحة على تَفاضُل هذه الأمة، وأن بعضهم أفضل من بعض ... وفيه إخباره ﷺ بفضيلة هذه القرون الثلاثة، وأنها تتفاوت بالفضل ... فالقرن الأول هو أفضلها؛ لأنه امتاز عن غيره بصحبته ﷺ ونزول الوحى عليه وهو فضلٌ لا يمكن مَن فاته تَدارُكه أو ما يماثله، كما امتازوا على غيرهم بفضيلة السابقة فى العلم، والإيمان، والأعمال الصالحة، التى يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها المتفاضلون، فغلب فيهم الخير، وكَثُر أهله، وقَلَّ فيهم الشر وأهله، واعتزَّ فيهم الإسلام، والإيمان، وصَفَتْ سرائرهم، وطهرت قلوبهم، وجاهدوا فى الله حق جهاده، وأخذوا العلم مُشافهة عنه ﷺ، وفهموا مقاصده، وعلموا أسراره، وبذلوا أموالهم، ونفوسهم فى سبيل الله، وقاتلوا لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ... رُحماء بالمؤمنين، رُهبانٌ بالليل، وأُسودٌ بالنهار، إن انتُهكت محارم الله انتقموا انتقام الأسد، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم، ولا يصدهم عن دينهم قطع الرقاب، والجماجم.

ومع هذا كله فهم فى تواضع، وذِلَّةٍ لبعضهم من المؤمنين... يحاسب أحدهم نفسه على الكلمة، ويُخوفها عن النظرة.

يقضى ليله فى ركوعٍ، وسجودٍ، وقيام، وقعودٍ، وتلاوة، وخشوع، وخوف، وخضوع ... ويختم السَّحَر بالتوبة والاستغفار، والتذُّلل والانكسار بين يدى إلهه وبارئه، ومَن كان بالله أعرف كان منه أخوف.

أثنى عليهم القرآن بآياتٍ تُتلى، وفضائل تُجلى ... فخُذ وصفهم من عند خالقهم ...يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٢٧-١٢٨).

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨-٩]، ويخبر سبحانه عن رضاه عنهم بقوله (جل وعلا): ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]. فهذه حالة أصحاب رسول الله، أو هذا وصفٌ لبعض حالتهم ﵃، فلذلك أخبر ﷺ أنهم خير قرون هذه الأمة، وناهيك بهذه الفضيلة، وهذه الشهادة منه ﷺ.

وقد بيَّن النبى ﷺ فى هذا الحديث وغيره فضلهم على مَن سواهم، وفَضَّل منهم الخلفاء الراشدين، وأوصى أمته بالتمسك بسُنته، وسُنة الخلفاء الراشدين من بعده ... وبيَّن ﷺ فضل أهل بدر، وبشَّر عشرة من الصحابة بالجنة، وبشَّر آحادًا منهم كذلك، وأفضل الصحابة على الإطلاق: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم على بن أبى طالب رضى الله عنهم وعن سائر صحابة رسول الله أجمعين.

ثم حصلت الفضيلة لمن بعدهم، وفازوا بقصب السبق على كل أحد، سوى مَن تَقَدَّمهم من الصحابة، فازداد فى وقتهم ظهور الإسلام، وَكثُر الداعى إليه، والراغب فيه، والقائم به، ولم تَكثُر فى زمنهم البدع التى انتشرت بعدهم؛ لأنه متى ظهر شىء منها استنكروه، واستعظموه، وسارعوا إلى إزالته، وإحباطه ... ثم يلى هؤلاء فى فضيلة القرن الثالث، وهم الذين أثنى عليهم ﷺ، ووصفهم بالخيرية على مَن بعدهم... ظهر بينهم شىء من البدع والمنكرات، لكن العلماء فيهم متوافرون، والإسلام فيهم ظاهر، وعزيز، والجهاد فيهم قائم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مُعزز.

۞ ثم لما انقضت القرون المُفضلة وقع ما وقع، وحدث ما حدث، مما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، فكثر الجفاء فى الدين، وتشعبت الآراء،

وتكاثرت الأهواء، وتنوعت البدع، وكثرت المعاصي، واستُخف بالأمانة، ووقعت شهادة الزور، وما زال الوازع الديني يضعف، والشهوات تتغلب، وحب الدنيا يتقوى، والهوى يستولي ... كما قال الله عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩].

وفي كل عام يزيد أهل هذا الوصف، ويكثرون، كما جاء في الحديث: **«لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم»**(١).

فظهرت الخلافات الدينية، والسياسية، وتكاثرت الأهواء، وتعددت المذاهب، والأحزاب، والطرق، وتباينت النزعات، والمشارب... قد رغب أكثرهم عن الآخرة، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها، وزهدوا فيما عند الله.

فَشَتْ وكَثُرت شهادة الزور، فلذلك يقول ﷺ في هذا الحديث: **«ثم يأتي قوم يشهدون، ولا يُستشهدون، ويخونون، ولا يُؤتمنون، وينذرون، ولا يوفون»**، يشهد شهادة بأدنى عرض من الدنيا، بل ربما تبرع بشهادة الزور؛ لقلة دينه، إما نُصرة لصاحبه، أو إغاظة لعدوه، أو رجاء نفعٍ لنفسه، أو كَفَّ شَرٍّ عنها.. يرمي نفسه في الزور والبُهتان، كما يرمي الفَرَاش نفسه على النار، غير مُكترث بتهديد القرآن، وزجره الشديد، حيث يقول سبحانه: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] وقول النبي ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»**، ثم جلس وكان متكئًا، فقال: **«ألا وقول الزور»**، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت»(٢).

وأخبر ﷺ بكثرة الخيانة في آخر الزمان، والخيانة تكون في المال، وهو الأكثر، وتكون في غيره وتكون في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتكون في الوقوع بالكذب والبهتان وتكون في إساءة الظن بأخيه المسلم... بأن

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٠٦٨) كتاب الفتن.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٥٤) كتاب الشهادات، ومسلم (٨٧) كتاب الإيمان.

يحقق ظنه السيئ بدون دليلٍ أو برهان.

وذكر ﷺ الذين ينذرونَ ولا يوفون، وقد عابهم ﷺ بذلك؛ لأن الوفاء بالنذر واجب وإن كان ابتداء النذر منهيًّا عنه... وقد مدح الله الموفين بالنذر فى قوله سبحانه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

ولكن الذين لا يوفون بالنذر هم الذين ضعفت عزائمهم، واتصفوا بالبُخل.

ثم أخبر ﷺ أنه يظهر فيهم السِّمَن، أى فى آخر الزمان، وهو يدل على الإغراق فى السرف، والاشتغال بتنمية الأجسام عن تنمية العقول والإيمان، واشتغلوا بتتبع الشهوات، فهَمُّهم الطعام والشراب، والتفنُّن والتلذُّذ بأصناف المأكولات، واطمأنت نفوسهم بهذا(١).

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْمُرَادُ بِالسِّمَنِ هُنَا كَثْرَةُ اللحم ... ومعناه أنه يَكثُر ذلك فيهم وليس مَعنَاهُ أَنْ يَتَمَحَّضُوا سِمَانًا ... قَالُوا وَالْمَذْمُومُ مِنْهُ مَنْ يَسْتَكْسِبُهُ وَأَمَّا مَنْ هُوَ فِيهِ خِلْقَةً فَلَا يَدخُلُ فِي هَذَا ... وَالْمُتَكَسِّبُ لَهُ هُوَ الْمُتَوَسِّعُ فِي الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ زَائِدًا عَلَى الْمُعتَادِ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالسِّمَنِ هُنَا أَنَّهُمْ يَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ وَيَدَّعُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَفِ وَغَيْرِهِ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ جَمْعُهُمُ الْأَمْوَالَ(٢).

ومن المعلوم أن أهل العلم من العلماء والدعاة وطلبة العلم يليق أن يكون أحدهم قليل اللحم؛ لكثرة الصيام، والقيام، وكثرة الهم، والخوف من الله؛ لما عندهم من العلم الذي يحملهم على هذا ... فالمسلم إذا اهتم لآخرته، وتَذكَّر ما أمامه، وعرف أنه لا يدري ما الله صانعٌ فيه، أوجب له الهم والغم، فأوجب ذلك نحافة الجسم ... وفي هذه الأحاديث دلائل للنبوة ومعجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ فإن كل الأمور التي أخبر بها وقعت كما أخبر.

---

(١) من هدى المصطفى ﷺ/ الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص٢١٤-٢١٩) بتصرف كبير.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٣٠).

(٥١٥) وعَنْ أبى أُمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يا ابْنَ آدمَ: إِنَّكَ إِنْ تَبْذُل الفَضلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِن تُمْسِكهُ شرٌّ لَكَ، ولا تُلامُ على كَفَافٍ، وَابدأ بِمنْ تَعُولُ»[(١)].

۞ مَعناهُ: إِنْ بَذَلْتَ الْفَاضِلَ عَنْ حَاجَتِكَ وَحَاجَةِ عِيَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ لِبَقَاءِ ثَوَابِهِ وَإِنْ أَمْسَكْتَهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ .. لِأَنَّهُ إِنْ أَمْسَكَ عَنِ الْوَاجِبِ اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ عَلَيْهِ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنِ الْمَنْدُوبِ فَقَد نَقَصَ ثَوَابُهُ وَفَوَّتَ مَصلَحَةَ نَفْسِهِ فِى آخِرَتِهِ.. وَهَذَا كُلُّهُ شَرٌّ .... وَمَعنَى (لَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ) أَنَّ قَدرَ الْحَاجَةِ لَا لَوْمَ عَلَى صَاحِبِهِ وَهَذَا إِذَا لَمْ يَتَوَجَّهْ فِى الْكَفَافِ حَقٌّ شَرْعِيٌّ كَمَنْ كَانَ لَهُ نِصَابٌ زَكَوِيٌّ وَوَجَبَتِ الزَّكَاةُ بِشُرُوطِهَا وَهُوَ مُحتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ النِّصَابِ لِكَفَافِهِ وَجَبَ عَلَيْهِ إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ وَيُحَصِّلُ كِفَايَتَهُ مِنْ جِهَةٍ مُبَاحَةٍ.

وَمَعنَى: «ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»: أَنَّ الْعِيَالَ وَالْقَرَابَةَ أَحَقُّ مِنَ الْأَجَانِبِ[(٢)].

(٥١٦) وعَنْ عُبَيد الله بن مِحصَن الأنصارِيِّ الخَطْمِىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصبح مِنكُمْ آمِنًا فى سِرْبِهِ، مُعافًى فى جَسدِه، عِندهُ قُوتُ يومِهِ، فَكأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِها»[(٣)].

۞ قَوْلُهُ: «مَنْ أَصبَحَ مِنكُمْ» أَىْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ «آمِنًا» أَىْ غَيْرَ خَائِفٍ مِنْ عَدُوٍّ «فِى سِرْبِهِ» الْمَشْهُورُ كَسْرُ السِّينِ أَىْ فِى نَفْسِهِ وَقِيلَ السِّرْبُ الْجَمَاعَةُ فَالْمَعنَى فِى أَهْلِهِ وَعِيَالِهِ وَقِيلَ بِفَتْحِ السِّينِ أَىْ فِى مَسْلَكِهِ وَطَرِيقِهِ، «مُعَافًى» أَىْ صَحِيحًا سَالِمًا مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْقَامِ «فِى جَسَدِهِ» أَىْ فِى بَدَنِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا «عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ» أَىْ كِفَايَةُ قُوتِهِ مِنْ وَجْهِ الْحَلَالِ «فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ» أَىْ جُمِعَتْ لَهُ «الدُّنْيَا»

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٣٦) كتاب الزكاة.
(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٧٨).
(٣) حسن: رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع(٦٠٤٢).
«سِرْبِهِ» أى: نَفْسِهِ، وقِيلَ: قَومِه.

بِحَذَافِيرِهَا ... وَالْمَعنَى فَكَأَنَّمَا أُعطِيَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا[١].

۞ فمن أصبح آمنًا فى بيته وخارج بيته ليس عنده أسقامٌ ولا أمراض وعنده قوت يومه من الحلال فكأنما جُمعت له الدنيا بحذافيرها..

وكثيرٌ من الناس عنده من النعم ما يزيد على هذا الوصف بكثير ولكن كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

۞ إن مما يُسخط الناس على أنفسهم وعلى حياتهم، ويحرمهم لذة الرضا، أنهم قليلو الإحساس بما يتمتعون به من نِعَمٍ غامرة، ربما فقدت قيمتها بإلفها، أو بسهولة الحصول عليها، وهم يقولون دائمًا: ينقصنا كذا وكذا، ونريد كذا وكذا، ولا يقولون: عندنا كذا وكذا.

ولكن المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضلٍ عميم، وإحسانٍ عظيم، ونِعَمٍ تُحيط به عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته. إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان فى المهد صبيًّا.

بل منذ كان فى بطن أمه جنينًا، كان صبيًّا وليدًا لا سنَّ له تقطع، ولا يد له تبطش، ولا قدم له تسعى، فأجرى الله له عرقين رقيقين فى صدر أمه يجريان لبنًا خالصًا، كامل الغذاء، دافئًا فى الشتاء، باردًا فى الصيف، وألقى الله محبته فى قلب أبويه، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب، ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش؛ حتى يكفياه ما أهمَّه ويدفعا عنه كُلَّ سوء.

وكان فى بطن أمه جنينًا، فجعل له قرارًا مكينًا، هيأ له فيه أسباب الغذاء والدفء والتنفس، وجعل له متكئًا عن يمينه، ومتكئًا عن شماله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾

[المرسلات: ٢٠-٢٣]

---

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ٢١٧).

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه فى كل شىء حوله، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة من الله له، تُيسر له معيشته، وتُعينه على القيام برسالته فى الحياة. إنه يرى نعمة الله فى هبة الريح، وسير السحاب، وتَفَجُّر الأنهار، وبزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار، وظلام الليل، وتسخير الدواب، وإنبات النبات[1].

(٥١٧) وعَنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَن أَسلَمَ، وكَانَ رِزقُهُ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ الله بِمَا آتَاهُ»[2].

(٥١٨) وعَنْ أبى مُحَمَّد فَضَالَةَ بنِ عُبَيْد الأنْصارىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رسول الله ﷺ يَقُول: «طُوبَى لِمَنْ هُدِىَ إِلى الإِسْلام، وَكَانَ عَيْشهُ كَفَافًا، وَقَنِعَ بِهِ»[3].

۞ يخبر النبى ﷺ فى هذا الحديث أن مَن أسلم واصطفاه الله عَزَّ وَجَلَّ ليكون من أهل الإسلام والتوحيد والإيمان.. وكان رزقه كفافًا بقدر الحاجة من غير زيادة ولا نُقصان.. ورزقه الله نعمة القناعة فكان قانعًا راضيًا بما قسمه الله تعالى له فقد تحقق فلاحه وفاز بخيرى الدنيا والآخرة.

قال القرطبى: معنى الحديث أن من حصل له ذلك فقد حصل على مطلوبه وظفر بمرغوبه فى الدارين.

(٥١٩) وعَنْ ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِىَ المُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا، وَأَهْلُهُ لا يَجِدُونَ عَشاءً، وَكَانَ أَكْثَرَ خُبْزِهِمْ خُبْزُ الشَّعِيرِ[4].

۞ ففى هذا الحديث يخبر ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حبر الأمة وترجمان القرآن

(١) الإيمان والحياة (ص: ١٣٠، ١٣١).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٥٤) كتاب الزكاة.
(٣) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٣١).
(٤) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٩٥).

الذى دعا له النبى ﷺ وقال: «**اللهم فقهه فى الدين وعلِّمه التأويل**» .. يخبر ابن عباس أن النبى ﷺ كان يبيت الليالى المتابعة جائعًا هو وأهل بيته لا يجدون طعامًا للعشاء... ولم يحدث هذا فى ليلة أو ليلتين.. بل كان يحدث فى ليالٍ كثيرة متابعة .. وكان أكثر خُبزهم خُبز الشعير فكانوا يأكلونه من غير نخيل.. ومع ذلك فقد كان النبى ﷺ راضيًا عن الله وعن قضائه سبحانه وتعالى ... لم يزده ذلك إلا حُبًّا لله وطاعة له ونُصرة لدينه.. هكذا كان حال النبى ﷺ... فيا ليتنا نشكر الله فى السراء ونصبر فى الضراء لنتأسى بسيد الأتقياء ﷺ.

(٥٢٠) وعَنْ فَضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى بالنَّاس يَخِرُّ رِجَالٌ مِنْ قَامَتِهِمْ فى الصَّلاةِ مِنَ الخَصَاصةِ وَهُمْ أَصحابُ الصُّفَّةِ حَتَّى يَقُولَ الأَعرَابُ: هُؤُلاءِ مَجَانينُ، فَإِذَا صلى رسول الله ﷺ انْصَرف إِلَيْهِمْ، فقال: «لَوْ تَعلَمُونَ ما لَكُمْ عِنْدَ الله تعالى لأَحبَبْتُمْ أَنْ تَزْدادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً»[(١)].

۞ فى هذا الحديث يُخبر فَضالة بن عُبيد رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا صلى بالناس الصلوات الخمس.. يسقط رجالٌ على الأرض من شدة الجوع والضعف.. فلم تستطع أرجلهم أن تحملهم من شدة الضعف الذى حَلَّ بجسدهم بسبب الفقر والجوع.. وهم أصحاب الصُّفَّة الذين هم أضياف الإسلام.. وكانوا سبعين رجلًا .. يقلون أحيانًا ويكثرون أحيانًا وكانوا يسكنون صُفَّة المسجد لأنهم لا مسكن لهم ولا مال ولا ولد.

وكان الصحابة يتصدقون عليهم ويرسلون إليهم الطعام والشراب والملابس وما يحتاجون إليه.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وأحمد، وابن حبان وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٦٥).
«الخَصاصَةُ» : الْفَاقَةُ والجُوعُ الشَّديدُ.

فكانوا إذا سقطوا فى الصلاة من شدة الفقر والجوع يقول الأعراب: هؤلاء مجانين .. وذلك لأنهم توهموا أن ذلك السقوط على الأرض صادرٌ عن اختيارهم لا عن سببٍ يقتضيه.

(فإذا صلى رسول الله ﷺ) أى الصلاة بإتمامها بسلامه منها وانصرف عنها (انصرف إليهم) أى متوجهاً إليهم (فقال) عقب وصوله إليهم «**لو تعلمون ما لكم عند الله**» أى ما أعدَّه لكم مما لم تسمعه أُذن ولم يَرهُ بصر.

وفيه شهادة لهم بمكانتهم عند المولى سبحانه لصدق إيمانهم، وحسن مجاهدتهم وكمال وجهتهم(١).

«**لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة**» أى: لو تعلمون ما خبَّأه الله لكم فى الجنة لأحببتم أن تزدادوا فقرًا واحتياجًا.

فالفقير سينسى كل شقاءٍ وبلاءٍ مع أول غمسة فى الجنة.. وسيدخل الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام وسيجبر الله كَسره فى الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(٥٢١) وعَنْ أبى كَرِيمَةَ المِقْدام بن معد يكَرِب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «مَا ملأَ آدمِيٌّ وعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابن آدمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإنْ كَانَ لا مَحالَةَ، فَثلُثٌ لطَعَامِهِ، وثُلُثٌ لِشرابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»(٢).

۞ قوله ﷺ: «**مَا ملأَ آدمِيٌّ وعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنه**» الأوعية كثيرة، وهى جمع وعاء، وهو الإناء يُحفظ فيه الماء، أو الطعام... والإنسان يملأ الأوعية طوال حياته لحاجته إليها، ولكنه ما ملأ وعاءً شرًّا من بطنه ... إذا ملأه بالطعام أو

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٢١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٧٤).
«أُكُلاتٌ» أىْ: لُقَمٌ.

الشراب لما يعود عليه ذلك من الضرر القاتل: قال هذا رسول الله ﷺ مُحذِّرًا من الشَّبَع المؤدِّى إلى التُّخمة المهلكة.

« بِحَسْبِ ابن آدمَ» أى يكفيه فى درء غائلة الموت من الجوع.

«لُقيمات» جمع لقمة، وهى ما يتناوله العبد من طعام ويضعه فى فمه... والتصغير فى لُقيمات للتقليل .... وقوله: « يُقِمْنَ صُلْبَهُ» أى يَشْدُدن ظهره حتى يقدر على القيام والقعود، أى يحفظن حياته.

«فإن كان لا محالة» أى: إن غلبته نفسه على أن يأكل أكثر مما يُقيم به صُلبه فليجعل ثُلث بطنه للطعام، وثُلثه الثانى للشراب أى الماء أواللبن، ويترك الثلث الباقى للنفَس، وبذلك يحفظ حياته حتى يعبد ربَّه إذ أعطى الحياة وأسبابها من أجل العبادة...قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال الطيبى رَحِمَهُ اللَّهُ: أى: الحق الواجب أن لا يتجاوز عما يُقام به صُلبه ليتقوَّى به على طاعة الله...فإن أراد ألبتة التجاوز فلا يتجاوز عن القسم المذكور[1].

فالأكل فى مقام العدل يصح البدن وينفى المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام على التقلُّل من الطعام يُضعف القوى ... وقد قَلَّل أقوام مطاعمهم حتى قصَّروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك...ومَن مدح الجوع، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التى ذكرناها.

وطريق الرياضة فى كسر شهوة البطن أن مَن تعوَّد استدامة الشبع، فينبغى له أن يُقلل من مطعمه يسيرًا مع الزمان، إلى أن يقف على حد التوسُّط الذى أشرنا إليه... وخيْر الأمور أوساطها، فالأَولَى تَناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سببًا لبقاء القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن،

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٤٨).

وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر...ومتى زاد فى الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار فى الدماغ حتى يغطى مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضاً أُخر"[1].

(٥٢٢) وعَنْ أبى أُمَامَةَ إِيَاسِ بنِ ثَعلَبَةَ الأَنْصَارِيِّ الحارثيِّ رضي الله عنه قال: ذَكَرَ أصحابُ رَسولَ الله ﷺ يوْمًا عِنْدَهُ الدُّنْيَا، فقال رسول الله ﷺ: «أَلا تَسْمَعُونَ؟ أَلا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِن الإِيمَان، إِنَّ الْبَذَاذةَ مِنَ الإِيمَانِ»[2] يعنى: التَّقَحُّلَ.

هنا يحكى أبو أُمامة رضي الله عنه أن أصحاب الرسول ﷺ كانوا جالسين مع النبى ﷺ كعادتهم ليُعلمهم ويربيهم فذكروا الدنيا وزينتها الفانية أمام النبى ﷺ.. فأراد النبى ﷺ أن يُخرج حُب الدنيا من قلوبهم لكى تتعلق قلوبهم بالله والدار الآخرة ليعملوا ويستعدوا للقاء الله وليفوزوا بجنة الرحمن (جل وعلا).. فقال لهم ﷺ: «أَلا تَسْمَعُونَ؟ أَلا تَسْمَعُونَ؟».

بدأ النبى ﷺ كلامه بـ «ألا» وهى أداة عرض للتحريض على الاستماع لما بعدها والإصغاء إليه.

ثم كرر كلمة «أَلا تَسْمَعُونَ؟ أَلا تَسْمَعُونَ؟» للتأكيد والتصريح بالإصغاء والاستماع سماع فهمٍ وانتفاع مع أنه ﷺ عالم بأنهم يستمعون لما يقوله ويبادرون إلى امتثاله، لكن يكون أبلغ فى الموعظة والإتيان بلفظ (إن) للتأكيد وهى عوض إعادة الكلام مرّتين.

«البذاذة من» كمال «الإيمان» الراسخ فى القلب ... قال زيد بن وهب: رأيت

(١) مختصر منهاج القاصدين/ ابن قدامة المقدسى (ص٢٠٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني فى صحيح الجامع (٢٨٧٩).

«الْبَذَاذَةُ» : وَهِيَ رَثَاثَةُ الهَيْئَة، وَتَرْكُ فَاخِرِ اللِّبَاسِ، وأَمَّا «التَّقَحُّلُ» قال أَهْلُ اللُّغَة: المُتَقَحِّل: هُوَ الرَّجُلُ الْيَابِسُ الجِلدِ مِنْ خُشُونَةِ الْعَيْشِ، وَتَرْكِ التَّرَفُّهِ.

عمر بن الخطاب خرج إلى السوق وبيده الدرّة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أُدم: أي جلد ... وعُوتب عليٌّ رضي الله عنه في إزارٍ مرقوع فقال: يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب ... قال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خُيلاء القلب.

وإنما كانت البذاذة من الإيمان لما تؤدى إليه من كسر النفس والتواضع، ولكن ليس ذلك عند كل أحد بل يورث عند بعض الناس من الكبرياء ما يورثه لبس نفيس الثياب عند آخرين، وبالجملة فالمحبوب التوسُّط فى الثياب[1].

فلا يلبس الإنسان الثياب الباهظة التى تجلب له الكبر ولا يلبس الثياب المرقعة التى تجعل الناس يسخرون منه ويأنفون منه ... فخير الأمور الوسط.

(٥٢٣) وعَنْ أبى عبد الله جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بَعَثَنَا رسول الله ﷺ وَأَمَّرَ عَلَينَا أَبَا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه، نتلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يجِد لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدة يُعطِينَا تَمْرةً تمرةً، فَقِيل: كَيْف كُنْتُمْ تَصنَعُونَ بِهَا؟ قال: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيهَا مِنَ المَاءِ، فَتكْفِينا يَوْمَنَا إِلى اللَّيْلِ، وكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصيِّنا الخَبَطَ، ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالمَاءِ فَنأْكُلُهُ.

قال: وانْطَلَقْنَا على سَاحِلِ البَحرِ، فرُفِعَ لنَا على ساحل البَحرِ كهَيْئَةِ الكَثِيبِ الضخم، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذا هِى دَابَّةٌ تُدعى العَنْبَرَ، فقال أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ، ثُمَّ قال: لا، بلْ نحنُ رُسُلُ رسول الله ﷺ، وفى سبيلِ الله، وقَدِ اضْطُرِرتُم فَكُلُوا، فَأَقَمْنَا علَيْهِ شَهْرًا، وَنَحنُ ثَلاثُمائَة،حتَّى سَمِنَّا، ولقَد رَأَيْتُنَا نَغْتَرِفُ من وَقْبِ عَيْنِهِ بالْقِلالِ الدُّهْنَ ونَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفِدَرَ كَالثَّوْرِ أَو كقَدرِ الثَّوْرِ.

فَلَقَد أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَأَقْعَدَهُم فى وقْبِ عَيْنِهِ وَأَخَذَ ضِلَعًا مِنْ أَضْلاعِهِ فأَقَامَهَا ثُمَّ رَحَلَ أَعظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحتِهَا وَتَزَوَّدنَا مِنْ لحمِهِ وَشَائِقَ،

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٢٣).

فَلمَّا قدِمنَا المدينَة أَتَيْنَا رسول الله ﷺ فَذَكَرْنَا ذلكَ له، فقال: «هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ الله لَكُمْ، فَهَلْ معَكمْ مِنْ لَحمِهِ شَيء فَتُطْعِمُونَا؟» فَأَرْسلْنَا إلى رسول الله ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ[(١)].

۞ أخبرنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ أرسل جماعة من أصحابه بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، يلتقون عِيرًا لقريش، وكان عدد الجيش الذى خرج لملاقاة العير ثلاثمائة راكب[(٢)].

وزوَّد الرسول ﷺ ذلك الجيش بجرابٍ من تمر... وماذا يفعل الجراب مع ذلك العدد الكبير، ولكن هذا هو الطعام الذى كان موجودًا عند الرسول ﷺ، ليس عنده غيره.

لقد فنى التمر الذى زوَّدهم به الرسول ﷺ قبل أن يصل الجيش إلى مقصده الذى يريده .. هنا تَصرَّف أمير الجيش بما تقتضيه المصلحة، فقد أمر جنوده أن يجمعوا ما بأيديهم من خاص تمرهم، فجمعوه فكان يقوتهم من ذلك التمر قليلًا قليلًا حتى فَنِيَ، فلما قلَّ الزاد أخذ الأمير يعطى كل واحدٍ من جنده تمرة واحدة فى اليوم[(٣)] وعندما عجب راوى الحديث عن جابر وقال له: «ما تُغنى عنكم تمرة؟» قال له جابر: «لقد وجدنا فَقْدَها حين فنيت»[(٤)].

وهذا يفيدنا أنهم مع تقتيرهم الشديد على أنفسهم بالاقتصار على تمرة فإن تمرهم قد فنى، ولم يبقَ منه شيء، فأسفوا على تلك التمرة التى كانت تُقيتهم فى الأيام السابقة ... وكان الواحد منهم -حتى يحصل من التمرة على أوفر غذاء-

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٨٣) كتاب الشركة - ومسلم (١٩٣٥) كتاب الصيد والذبائح.
«الجِرَابُ»: وِعاء مِنْ جِلْدٍ مَعرُوف - «والخَبَطَ» وَرَقُ شَجَر مَعرُوف تَأْكُلُهُ الإبلُ. «وَالكَثِيبُ» التَّلُّ مِنَ الرَّمْلِ، «والوَقْبُ»: وَهُو نُقْرَةُ العَيْن. «والقِلال»: الجرارُ. «والفِدَرُ» القِطعُ. «رَحَلَ البَعِيرِ» أىْ جعلَ عليه الرَّحْلَ. و «الْوَشَائق» اللَّحمُ الَّذى اقْتُطِعَ لِيُقَدَّدَ مِنه، والله أعلم.
(٢) دليل الفالحين (٢/ ٤٢٣).
(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٤٨٣) كتاب الشركة.
(٤) صحيح: رواه البخارى (٤٣٦٠) كتاب المغازى.

لا يأكلها أكلًا، ولا يمضغها مضغًا، بل يضعها في فمه، ثم يمصها كما يمص الصبي، ثم يشرب عليها من الماء... قال جابر: «فتكفينا يومنا إلى الليل».

وبلغ بهم الجوع أن يخبطوا بعصيهم أوراق شجر السَّلَم، ثم يجمعونه، ويبلونه بالماء، ثم يأكلونه، ولا يكادون يسيغون أكله، فلم يُجعل هذا الورق طُعمة للآدمى .. ولكنه الجوع.

وقد كان فى الجيش قيس بن سعد الأنصارى .. وكان والده ميسور الحال، فلما رأى ما حَلَّ بالجيش من المخمصة، بادر فذبح لهم وأطعمهم، ففى رواية سفيان قال: سمع عمرو جابرًا يقول: إن رجلًا نحر ثلاث جزائر -ثلاثًا من الإبل- ثم ثلاثًا، ثم ثلاثًا، ثم نهاه أبو عبيدة[1].

فقيس بن سعد بادر ثلاث مرات بالذبح للجيش، وفى كل مرة يذبح ثلاث جزائر -ثلاثًا من الإبل- وكان يستطيع أن يخص نفسه بالطعام الفاخر الوافر، ولكنه ساوى نفسه بإخوانه، فجاع كما جاعوا، وأصابه ما أصابهم، فلما رأى مقدار الجوع الذى أصابهم بادر وأطعم الجيش كله ... يفعل ذلك مرارًا، ثم نهاه أمير الجيش خشية أن يَشُق على أبيه فى ماله.

وصل الجيش إلى الموقع الذى يقصده على ساحل البحر فى مكانٍ يُقال له أرض جهينة، وقد هزلت أجسادهم وأثَّر الجوع على قواهم وأبصارهم وأسماعهم، ثم جاءهم الفرج من عند ربّ العباد كثيرًا وافرًا.

لقد ألقى البحر لهم حوتًا عظيمًا كأنه لعِظَمِه الكثيب من الرمل، فأكلوا من لحمه، وادَّهنوا من شحمه، حتى استردُّوا عافيتهم، وظهر فيهم السِّمَن، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

وقد وصف لنا الصحابة عِظَم الحوت الذى وجدوه بطريقة لا يزال كل مَن

(١) البخارى (٤٣٦١) ومسلم (١٩٣٥) - الجزائر: جمع جَزور وهو الجَمل.... أو الإبل.

يقرأ القصة يدرك مدى عظمه ... فمن ذلك.

(١) أنهم أكلوا منه جميعًا أكل شبع، وكان تعدادهم ثلاثمائة مقاتل، طيلة مقامهم فى الموقع الذى نزلوا فيه ... وأقلَّ ما ورد أنهم أقاموا هناك نصف شهر[1]، وأكثر ما ورد فيه أنه شهر[2].

وفى البخارى أنهم مكثوا مقيمين عليه ثمانى عشرة ليلة[3].

وحملوا من لحمه ما كفاهم فى سفر العودة، وفضل منه ما وصل معهم المدينة، وأكل منه رسول الله ﷺ.

(٢) كانوا يغترفون من جحر عينه الدهن بالقلال، ويقتطعون القطعة من لحمه بمقدار الثور.

(٣) أجلس أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا فى جحرٍ واحدٍ من جحور عينيه، فوسعهم.

(٤) نصب الصحابة بأمر من أمير الجيش ضلعين متعامدين من أضلاع ذلك الحوت، ثم جىء بأعظم ناقة فى الركب، فوضع عليها رحلها، ثم ركبها أطول رجل فى الجيش، فمر تحت الضلعين منتصبًا، من غير أن يمس شيئًا من الضلعين[4].

لقد وصلوا إلى المكان الذى كانوا يقصدونه جوعى مخمصين، وغادروه وهم شَبعى، وصنعوا من لحمه وشائق، كانت لهم فى عودتهم زادًا، وفضل منه معهم ما أهدوه إلى أهاليهم، وأتوا الرسول ﷺ فذكروا له ذلك، فقال مُقرًّا إياهم على ما فعلوه «**هو رزقٌ أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شىء فتطعمونا؟**» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٣٦١) كتاب المغازى.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٣٥) كتاب الصيد والذبائح.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٣٦٠) كتاب المغازى.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٩٣٥) كتاب الصيد والذبائح.

عِبَر الحديث وفوائده وأحكامه:

(١) لا بد لكل جيش من أميرٍ يقوده... كما فعل الرسول ﷺ بتأمير أبى عُبيدة على جيش الخبط ... وكان هذا هَديَه فى كل الجيوش التى يبعثها، فإذا خرج بنفسه فهو الأمير والقائد.

(٢) العلم بالمعاناة الشديدة التى كانوا يتحملونها، وهم يقومون بالمهمات العظام فى نُصرة هذا الدين.

(٣) كان الصحابة يفعلون أحسن ما يستطيعون فى المهمات التى يقومون بها من تجهيز الطعام، وإعداد السلاح، ونحو ذلك، ويتوكلون على ربهم فيما لا يستطيعونه.

(٤) كان الصحابة مثالًا يُحتذَى فى الانضباط والجندية... لم يعترضوا على الرسول ﷺ عندما أمرهم بالخروج لتلقِّى العِير، مع أنهم لا يجدون القوت لسفرهم، ولم يعترضوا على أميرهم عندما أمرهم بجمع ما بحوزة كلٍّ منهم من التمر، وقسمته عليهم بعد ذلك بالسويّة.

(٥) صبر الصحابة على شظف العيش ... فاكتفى الواحد منهم بالتمرة فى اليوم بطوله، وأكلوا من أوراق الشجر ما لا يُستساغ أكله، وتفاقم الأمر عندما نفد التمر كله، فلم يبقَ منه شىء.

(٦) إكرام الله صحابة رسوله ﷺ بأن أخرج لهم من البحر ذلك الحوت العظيم الذى كفاهم فى مقامهم، وتزوّدوا منه فى العودة إلى ديارهم، وأهدوا منه لأهاليهم وإخوانهم بعد عودتهم.

(٧) جواز اشتراك الرفقة فيما معهم من الطعام، كما فعل أبو عبيدة حين جمع من الصحابة أقواتهم، ثم وزّعها عليهم بالسوية... وقد حدّثتنا كتب السُّنة أن هذا كان هَدى الأشعريين، قوم أبى موسى الأشعرى وهم من أهل اليمن. ففى صحيح البخارى أن النبى ﷺ قال: «**إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قَلَّ**

طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم فى ثوبٍ واحد، ثم اقتسموه بينهم فى إناءٍ واحدٍ بالسَّوية ... فهم منى وأنا منهم»[(١)(٢)].

(٥٢٤) وعَنْ أَسْمَاءَ بنْت يَزيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كانَ كُمُّ قمِيص رسول الله ﷺ إلى الرُّسغِ[(٣)].

۞ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.

(٥٢٥) وعَنْ جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إنَّا كُنَّا يَوْم الخَنْدَقِ نَحفِرُ، فَعَرضَتْ كُديَةٌ شَديدَةٌ فجاءُوا إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: هَذِهِ كُديَةٌ عَرَضتْ فى الخَنْدَق. فقال: «أَنَا نَازِلٌ» ثُمَّ قَامَ وبَطْنُهُ معصوبٌ بِحَجر، وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ المِعول، فَضرَب فعاد كَثيبًا أَهْيَلَ، أَوْ أَهْيَمَ.

فقلتُ: يا رسولَ الله ائْذَن لى إلى البيتِ، فقلتُ لامْرَأتى: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا ما فى ذلكَ صبْرٌ فِعندَكِ شَيءٌ؟ فقالت: عندى شَعِيرٌ وعَنَاقٌ، فَذَبحتُ العَنَاقَ، وطَحَنْتُ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللحمَ فى البُرْمَة، ثُمَّ جِئْتُ النبى ﷺ وَالعجِينُ قد انْكَسَرَ والبُرْمَةُ بيْنَ الأَثَافِيِّ قَد كَادَت تَنْضجُ.

فقلتُ: طُعَيْمٌ لى فَقُمْ أَنْت يا رسولَ الله وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلان، قال: «كَمْ هُوَ؟» فَذَكَرتُ له فقال: «كثيرٌ طَيِّبٌ، قُل لَهَا لا تَنْزِع البُرْمَةَ، ولا الخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتى» فقال: «قُومُوا» فقام المُهَاجِرُون وَالأَنْصارُ، فَدَخَلْتُ عليها فقلت: وَيْحَكِ جَاءَ النبيُّ ﷺ وَالمُهَاجِرُونَ، وَالأَنْصارُ وَمن مَعَهم، قالت: هل سأَلَكَ؟ قلتُ: نعم، قال:

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٤٨٦) كتاب الشركة.

(٢) قصص الرسول ﷺ وأصحابه/ د.عمر الأشقر (٣٨١-٣٨٥) بتصرف.

(٣) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٤٧٩).

«الرُّصغُ» بالصادِ والرُّسْغُ بالسينِ أيضًا: هوَ المِفْصَلُ بينْ الكَفِّ والسَّاعِدِ.

«ادخُلوا وَلا تَضاغَطُوا» فَجعَلَ يَكْسِرُ الخُبزَ، وَيجْعَلُ عليه اللحمَ، ويُخَمِّرُ البُرْمَةَ والتَّنورَ إذا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلى أصحَابِهِ ثُمَّ يَنْزعُ فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ وَيَغرفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ مِنه، فقال: «كُلِي هذَا وَأهدى، فَإِنَّ النَّاسَ أَصابَتْهُمْ مَجاعَةٌ»(١).

وفي روايةٍ: قال جابرٌ: لَمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأَيتُ بِالنبيِّ ﷺ خَمَصًا، فَانْكَفَأْتُ إِلى امْرَأَتي فقلت: هل عِنْدَكِ شَيْء، فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرسول الله ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا.

فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ، داجِنٌ فَذَبحتُهَا، وَطَحنتِ الشَّعِير فَفَرَغَتْ إلى فَرَاغِي، وَقَطَّعتُهَا في بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلى رسول الله ﷺ، فَقَالَتْ: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومَن معَهُ، فجئتُه فَسَارَرْتُهُ فقلتُ: يا رسول الله، ذَبَحنا بُهَيمَةً لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِير، فَتعالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ، فَصَاحَ رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَهْلَ الخَنْدَق: إِنَّ جابرًا قد صنَع سُؤْرًا فَحَيَّهَلا بكُمْ» فقال النبيُّ ﷺ: «لا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتكُمْ وَلا تَخْبِزُنَّ عجِينكُمْ حَتَّى أجيء».

فَجِئْتُ، وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ، حَتَّى جِئْتُ امْرَأتي فقالتْ: بِك وَبِكَ، فقلتُ: قَد فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ. فَأَخْرَجَتْ عجينًا فَبصَقَ فِيهِ وبارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلى بُرْمَتِنا فَبصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «ادعي خَابِزَةً فلْتَخْبِزْ مَعكِ، وَاقْدَحي مِنْ بُرْمَتكُم وَلا تُنْزِلُوها» وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بالله لأكلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانحرَفُوا، وإِن بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَز كَمَا هُوَ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤١٠٢) كتاب المغازي، ومسلم (٢٠٣٩) كتاب الأشربة.

قَوْله: «عَرَضَت كُديَةٌ»: وَهي قطعةٌ غَلِيظَةٌ صُلْبَةٌ مِنَ الأَرْض لا يَعمَلُ فيها الفَاسُ. «وَالكَثِيبُ» أَصلُهُ تَلُّ الرَّمْل، والمُرَادُ هُنَا: صَارتْ تُرابًا ناعِمًا، وَهُوَ مَعنَى «أَهْيَلَ». و «الأَثَافي» : الأَحجَارُ الَّتي يَكُونُ عَلَيْهَا القِدرُ. و«تَضاغَطُوا»: تَزَاحَمُوا. و « المَجاعَةُ»: الجُوعُ. و«الخَمصُ»: الجُوعُ. و«انْكَفَأْتُ» :انْقَلَبْتُ وَرَجَعتُ. و «البُهَيمَةُ» تَصغير بَهْمَة، وَهِيَ العَنَاقُ و«الدَّاجِنُ»: هِي الَّتي أَلِفَتِ البَيْتَ. و«السُّؤر»: الطَّعَام الَّذِي يُدعَى النَّاسُ إِلَيْه وَهُوَ بالفَارِسِيَّةِ، و «حَيَّهَلا» أَي: تَعَالوا. وَقَوْلها «بِكَ وَبكَ» أي: خَاصَمَتْهُ وَسَبَّتْهُ، لأَنَّهَا اعتقَدَت أَنَّ الذي عندهَا لا يَكفيهم، فاسْتَحيَتْ وخفي عليْهَا مَا أَكْرَم الله سُبحانَهُ وتعالى بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ هذِهِ المُعجِزَةِ الظَّاهِرةِ والآيَةِ البَاهِرَة. «بَسَقَ» أي: بصَقَ، وَيُقَالُ أَيضًا: بَزَقَ ثَلاثُ لُغَات. و«عَمَدَ»: قصَد. و«اقْدَحي» أي: اغرفي، والمِقْدَحةُ: المِغرفَةُ. و «تَغِطُّ» أَي لِغَلَيَانِهَا صَوتٌ. والله أعلم.

۞ يحدثنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن بعض الوقائع التى جرت أيام حفر الخندق، فقد كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق، وكان رسول الله ﷺ يشاركهم عملهم، فعرضت لبعض أصحابه صخرة شديدة الصلابة، تكسرت فيها معاولهم، ولم يستطيعوا إزاحتها عن طريقهم.

فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوه من تلك الصخرة، فقام صلوات الله وسلامه عليه - مع ما به من شدة الجوع - إلى تلك الصخرة، وأخذ المعول، وضربها ثلاث ضربات، فعادت كثيبًا مهيلًا.

وهذه هى الصخرة التى ورد فى بعض الأحاديث أنه كان يكسر مع كل ضربة منها ثُلثها، وكانت تبرق مع كل ضربة بَرقة، ورأى فى ضوء البرقة الأولى قصور الشام، ورأى فى ضوء البرقة الثانية قصور كِسرى فى المدائن، ورأى فى الثالثة أبواب مدينة صنعاء وقصورها... وكان الرسول ﷺ يُكبر مع كل برقة...وأخبر أصحابه أن جبريل أخبره أن مُلك أمته سيبلغ ما رآه فى ضوء تلك البرقات الثلاث.

قال ابن حجر: وقع عند أحمد والنسائى فى هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب، قال: لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة، لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبى ﷺ، فجاء فأخذ المعول. فقال: «**باسم الله**»، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: «**الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأُبصر قصورها الحمر الساعة**»، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: «**الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله إنى لأُبصر قصر المدائن أبيض**»، ثم ضرب الثالثة وقال: «**باسم الله**»؛ فقطع بقية الحجر فقال: «**الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأُبصر أبوب صنعاء من مكانى هذا الساعة**».

وقد استأذن جابر الرسول ﷺ فى الرجوع إلى منزله، فأذِن له، فقد آلمه ما رآه برسول الله ﷺ من الجوع الشديد، فأخبر زوجته بما رآه بالرسول ﷺ من

الجوع، وسألها عما عندها مما يصلح طعامًا لرسول الله ﷺ، فوجد عندها صاعًا من شعير، وشاة صغيرة، فأمر زوجته أن تطحن ذلك الشعير، وقام إلى الشاة فذبحها وقطعها، ووضعها فى قِدرٍ وأوقد النار تحته، وأمر زوجته أن تعجن ذلك الطحين الذى استفادته من الشعير الذى طحنته.

وقبل أن ينطلق إلى رسول الله ﷺ: أوصته زوجته أن لا يدعو صحبة رسول الله ﷺ إلا عددًا قليلًا خشية افتضاحها وزوجها بسبب قلة الطعام، ومما قالته له: لا تفضحنى برسول ﷺ ومَن معه.

جاء جابر إلى رسول الله ﷺ وحوله أصحابه، فدعاه سِرًّا، وأخبره بالحال، وأن عنده طعامًا يكفيه ويكفى رجلًا واحدًا أو رجلين من أصحابه، وأخبره بمقدار ذلك الطعام وقِلته عندما سأله عن مقداره، واستعان جابر على تقرير قلة الطعام بتصغيره بقوله: طُعيم لنا .... فالتصغير هنا للتقليل.

ولكن الطعام القليل فى نظر جابر عند الرسول ﷺ كثير، فقال لما أخبره جابر بقلته «كثيرٌ طيب» وطلب من جابر أن يأمر زوجه بأن لا تُفرغ القدر من اللحم، ولا تخبز الخبز حتى يأتى.

وصاح الرسول ﷺ بأهل الخندق، وعددهم فى ذلك اليوم لا يقل عن ألف رجل بل يزيدون، مُخبرًا إياهم بأن جابرًا صنع لهم وليمة، ودعاهم إلى التوجُّه إلى منزل جابر ... فقام الرجال من المهاجرين والأنصار، وانطلق جابر إلى زوجته يخبرها الخبر، لقد جاء الرسول ﷺ ومعه أهل الخندق كلهم، وكانوا جوعى لم يتناولوا طعامًا من ثلاثة أيام.

لقد ظن جابر وزوجه أنهم وقعوا فى ورطة، فالطعام الذى عندهم قليل لا يكاد يكفى الثلاثة أو الأربعة... يقول جابر مبيّنًا ما حدَّث به نفسه وهو عائد إلى منزله بين يدى ضيوفه: فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وقلت: جاء الخلق على صاعٍ من شعير وعَناق!! -شاة صغيرة-.

وعندما أخبر زوجته بمجيء رسول الله ﷺ مع أصحابه من أهل الخندق ثارت عليه، ولامته لومًا شديدًا على ما كان منه ... ذلك أنها أوصته فلم يرعَ وصيتها كما ظنّت.

فلما أخبرها بما كان منه، وأنه أسرَّ إلى رسول الله ﷺ بالدعوة وأعلمه بقلة الطعام، وأخبرها بما قاله الرسول ﷺ من أن الطعام «**كثيرٌ طيب**»، وأنه يأمرها بعدم إفراغ اللحم وخَبز الخُبز حتى وصوله... اطمأن قلبها، وعلمت أنه سيكون لطعامها شأن، فقالت لزوجها كما صَحَّ فى بعض الروايات: الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا ... قال: فكشفت عنى غمًّا شديدًا.

وجاء الرسول ﷺ يَقْدُم أصحابه، فأخرجت له زوجة جابر العجين، فبصق فيه، ودعا فيه بالبركة، ثم عمد إلى القِدر الذى فيه اللحم، ففعل به مثل ما فعل بالعجين، ثم أمرها أن تدعو امرأة تُعينها، فتخبز معها، فكانتا تخبزان من ذلك العجين، والرسول ﷺ يكسر من ذلك الخبز، ويَصُب عليه اللحم والمرق.... وأمر أصحابه أن يدخلوا من غير ازدحام، فكان يُقرب لكل فوجٍ منهم الطعام فيأكلون حتى يشبعوا، حتى أكلوا جميعًا، ولا يزال العجين على حاله، واللحم على حاله، فأمر الرسول ﷺ جابرًا وزوجته وأولاده أن يأكلوا ما فضل من الطعام، ويُهدوا إلى جيرانهم، فالناس قد أصابتهم مجاعة.

۞ عِبَر الحديث وفوائده وأحكامه :

(١) دَلَّ الحديث على القوة الجسدية التى كان يتمتع بها الرسول ﷺ، فقد ضرب الصخرة التى أعيت أصحابه، ومع الجوع الشديد فإن ضرباته الثلاث كانت كافية لتفتيتها وإزالتها.

(٢) هدى الرسول ﷺ فى مشاركة أصحابه ما ينوبهم من أعمالٍ ومهماتٍ... وهكذا هى القيادات التى تملك النفوس والقلوب، وتتحمل الأعباء، وتكون فى المقدمة دائمًا.

(٣) لم يكن الرسول ﷺ وصحبه وافرى المال .... فقد بقى الرسول ﷺ وصحبه ثلاثة أيام يعملون فى الخندق عملًا شاقًّا مُضنيًا، لا يذوقون فيها طعامًا، ومع ذلك كله بذلوا ما عندهم وما فى قدرتهم، فمكَّن الله لهم فى الأرض، وأقاموا دولة راسخة البنيان، لا يزال أثرها باقيًا على مَرِّ الزمان.

(٤) على المسلمين فى كل عصر أن يعملوا لإقامة دين الله فى الأرض، بما لديهم من إمكانات، والقليل إلى القليل يبارك الله فيه، ويجعل فيه خيرًا كثيرًا.... والله هو الغنى المالك للسموات والأرض.

(٥) النظام سمة المسلمين فى أعمالهم، وخاصة الجامع منها ... فقد قسَّم الرسول ﷺ العمل على أصحابه فى الخندق، لكل عشرة مسافة معينة، وكان الواحد إذا أراد أن يترك العمل لسببٍ ما فإنه يستأذن الرسول ﷺ، كما فعل جابر عندما أراد العودة إلى منزله... وأمر الرسول ﷺ أصحابه أن يدخلوا إلى الطعام مُنظَّمين عشرة عشرة، ونهاهم عن التزاحم وأن يضغط بعضهم بعضًا.

(٦) محبة الصحابة للرسول ﷺ، واهتمامهم بأمره... فمع قلة ما فى يد جابر وزوجه، فإنهما بذلا كل ما عندهما فى منزلهما لإعداد طعامٍ للرسول ﷺ وبعض أصحابه.

(٧) يجوز للرجل أن يُناجى غيره سرًّا إذا كان فى مَجمع من الناس، كما ناجى جابر الرسول ﷺ سرًّا حين دعاه إلى وليمته ... والمنهى عنه أن يتناجى اثنان دون الثالث، إذا كانوا ثلاثة من أجل أن ذلك يُحزنه.

(٨) كان من هدى الصحابة أن يعمل الرجال والنساء فى منازلهم.

فجابر ذبح العَناق، وسلخها وقطَّعها وغسلها، ووضعها فى القِدر، وأشعل النار تحتها، وزوجته طحنت الشعير، وعجنته، وخبزته، وهذا يدل على خطأ مَن زعم من أهل العلم أن الزوجة لا يجب عليها أن تعمل فى منزل زوجها، والزوج وحده المكلف بأعمال المنزل.

(٩) قد يقع لوم وتقريع من الزوجة لزوجها .... فزوجة جابر ثارت عليه وقرعته، عندما جاء ووراءه الرسول ﷺ والصحابة وهم يزيدون على الألف، ولكنها هدأت ورضيت عندما أعلمها أنه عَمِل بوصيتها، فقد أخبر الرسول ﷺ بمقدار الطعام وقِلَّته.

(١٠) كان في وليمة جابر آية من الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ ونبوته ... فقد كثَّر الله تبارك وتعالى ببركة بصاق الرسول ﷺ ودعوته الطعام الذي لا يكاد يكفي الثلاثة أو الأربعة، فكفى العاملين في الخندق، وعددهم يزيد على ألف ... فكلهم أكل من ذلك الصاع من الشعير، ومن لحم تلك الشاة الصغيرة، حتى شبعوا.

(١١) كان الرسول ﷺ يعلم بأن طعام جابر سيكفي ذلك العدد الكبير، ولذلك دعا أهل الخندق كلهم إلى ذلك الطعام، وأمر جابرًا وزوجته أن لا يُنزلوا البرمة عن النار، ولا يخبزوا حتى يأتيهم، لأنه يعلم أنه سيكون لبصاقه ودعوته أثر في تكثير الطعام.

(١٢) تواضع الرسول ﷺ، فقد كان يعمل مع أصحابه في الخندق، وفي الوليمة كان يكسر الخبز، ويصب اللحم فوقه، ويُقرب الطعام لأصحابه، وبقى يفعل ذلك حتى أكلوا كلهم، وأكل هو في آخرهم[١].

***

(٥٢٦) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال أبو طَلْحَةَ لأُمِّ سُلَيْم: قَد سَمعتُ صَوتَ رسول الله ﷺ ضَعِيفًا أعرِفُ فِيهِ الجُوعَ، فَهَل عِندَكَ مِن شيءٍ؟ فقالت: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقراصًا مِن شَعيرٍ، ثُمَّ أَخَذَت خِمَارًا لَهَا فَلَفَّتِ الخُبزَ بِبَعضِه، ثُمَّ دسَّتْهُ تَحتَ ثَوبي وَرَدَّتْني بِبَعضِه، ثُمَّ أَرسلَتْني إِلى رسول الله ﷺ، فَذَهَبتُ بِهِ، فَوَجَدتُ

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه (ص٧٧-٨٢) بتصرف.

رسولَ الله ﷺ جالسًا فى المَسْجِدِ، ومَعهُ النَّاسُ، فَقُمتُ عَلَيهِمْ، فقالَ لى رسولُ الله ﷺ: «أَرسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ؟» فقلت: نعم، فقال: «أَلِطَعَامٍ» فقلت: نَعَم، فقال رسولُ الله ﷺ: «قُومُوا» فَانْطَلَقُوا وَانطَلَقْتُ بَيْنَ أَيدِيهِم حَتَّى جِئتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخبَرتُهُ، فقال أَبُو طَلْحَةَ: يا أُمَّ سُلَيم: قَد جَاءَ رسولُ الله ﷺ بالنَّاسِ وَلَيسَ عِندَنَا ما نُطْعِمُهُمْ؟ فقالتْ: الله وَرسُولُهُ أَعلَمُ.

فَانطَلَقَ أَبُو طَلْحةَ حتَّى لَقِيَ رسولَ الله ﷺ، فأَقبلَ رسولُ الله ﷺ مَعَه حَتَّى دَخَلا، فقال رسولُ الله ﷺ: «هَلُمِّى ما عِندَكِ يا أُمَّ سُلَيْم» فَأَتَتْ بِذلكَ الخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رسولُ الله ﷺ فَفُتَّ، وعَصَرَت عَلَيه أُمُّ سُلَيم عُكَّةً فَآدَمَتْهُ، ثُمَّ قال فيه رسول الله ﷺ ما شَاءَ الله أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «ائذَن لِعَشَرَة» فَأَذِنَ لَهُم، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثم قال: «ائذَن لِعَشَرَةٍ» فَأَذن لهم، فَأَكَلُوا حتى شَبِعُوا، ثم خَرَجوا، ثُمَّ قال: «ائذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمَ حتى أكل القَوْمُ كُلُّهُم وَشَبِعُوا، وَالْقَوْمُ سَبْعونَ رَجُلاً أَوْ ثَمَانُونَ(١).

وفى رواية: فما زال يَدخُلُ عشَرَةٌ وَيَخْرُجُ عَشَرَةٌ، حتى لم يَبْقَ مِنهم أَحَدٌ إلا دَخَلَ، فَأَكَلَ حتى شَبعَ، ثم هَيَّأَها فَإِذَا هِى مِثلُهَا حِينَ أَكَلُوا مِنها.

وفى رواية: فَأَكَلُوا عَشَرَةً عَشَرةً، حتى فَعَلَ ذلك بثَمانِينَ رَجُلاً ثم أَكَلَ النبى ﷺ بعد ذلكَ وَأَهْلُ البَيت، وَتَركُوا سُؤرًا.

وفى روايةٍ: ثمَّ أفضَلُوا ما بَلَغُوا جيرانَهُم.

وفى روايةٍ عن أنسٍ قال: جِئتُ رسولَ الله ﷺ يوْمًا فَوَجَدتُهُ جَالِسًا مع أَصحابِهِ،وَقد عَصَبَ بَطْنَهُ بِعِصابَةٍ، فقلتُ لِبَعضِ أصحَابِهِ: لِمَ عَصَبَ رسولُ الله ﷺ بطْنَهُ؟ فقالوا: مِنَ الجُوعِ.

فَذَهَبْتُ إِلى أبى طَلحَةَ، وَهُوَ زَوْجُ أُمِّ سُلَيم بنتِ مِلحَانَ، فقلتُ: يَا أَبَتَاه، قد رَأَيْت رسولَ الله ﷺ عَصبَ بطنَهُ بِعِصَابَةٍ، فَسَأَلتُ بَعضَ أَصحَابِهِ، فقالوا: مِنَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٥٧٨) كتاب المناقب، (٦٦٨٨) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم (٢٠٤٠) كتاب الأشربة.

الجُوعِ. فَدَخل أَبُو طَلحَةَ على أُمِّي فقال: هَل مِن شَيءٍ؟ قالت: نعم عِندِي كِسَرٌ مِنْ خُبزٍ وَتمرَاتٌ، فإِنْ جَاءَنَا رسول الله ﷺ وَحدهُ أَشبَعنَاه، وإِن جَاءَ آخَرُ معه قَلَّ عَنْهمْ.... وذَكَرَ تَمَامَ الحَديث.

۞ كان أبو طلحة فارس رسول الله ﷺ، وثيق الصلة به، يتفقد أحواله، وينظر فيما ينوبه، ويُكثر من مُجالسته ... فمرَّ يومًا بالمسجد، فرأى الرسول ﷺ جائعًا جوعًا شديدًا، فرجع إلى منزله، وقال لزوجه أم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك شيء؟

وفى رواية عند مسلم عن أنس: رأى أبو طلحة رسول الله ﷺ مُضطجعًا فى المسجد، يتقلب ظهرًا لبطن، فأتى أم سُلَيم، فقال إنى رأيت رسول الله ﷺ مضطجعًا فى المسجد، يتقلب ظهرًا لبطن، وأظنه جائعًا[1].

وفى رواية عند مسلم عن أنس أنه جاء الرسول ﷺ يومًا، فوجده جالسًا مع أصحابه يحدّثهم، وقد عصب بطنه بعصابة، على حجر، فقال أنس: فقلت لبعض أصحابه: لِمَ عصب رسول الله ﷺ بطنه؟ فقالوا: من الجوع، فذهب إلى أبى طلحة -وهو زوج أمه، أم سليم بنت ملحان- فقال: يا أبتاه، قد رأيت رسول الله ﷺ عصَّب بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه، فقالوا: من الجوع، فدخل أبو طلحة على أمى، فقال: هل من شيء؟ فقالت: نعم، عندى كِسَرٌ من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قَلَّ عنهم[2].

وهذه القصة تختلف فى سياقها عن القصة الأولى، وإن اشتركتا فى أن الرسول ﷺ جاء منزل أبى طلحة بجمعٍ من الناس على طعامٍ قليل، فبارك الله حتى أشبع الجمع الكثير.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٤٠) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٤٠) كتاب الأشربة.

ففى القصة الأولى أن الذى رأى رسول الله ﷺ جائعًا يتقلب ظهرًا لبطن، وسمع صوته ضعيفًا من الجوع هو أبو طلحة، وفيه أن أم سليم أخرجت أقراصًا من الشعير، وأرسلتها مع أنس إلى رسول الله ﷺ، وقد لفّت أم سليم بخمارٍ لها الخبز ببعضه، وجعلت ببقية خمارها رداءً لأنس، ودسّت الخبز تحت ثوبه، فوجد أنس الرسول ﷺ وحوله أصحابه، فلم يدرِ كيف يتصرف، فقد علم أنس بنباهته، أنه لا يَحسُن به أن يدفع ذلك الطعام القليل إلى الرسول ﷺ بمحضر أصحابه، وإن كان الأمر الصادر إليه بدفعها إليه.

وقد تنبَّه الرسول ﷺ إلى أنس ووقوفه على الحلقة وحيرته، فبادره بسؤالٍ سهَّل عليه مهمته وأنقذه من حيرته، وكان سؤاله آية تدل على أن الله أعلمه بواقع الحال، أو أنه تفرَّس فراسة لم تُخطئ.

وعندما صرَّح له أنس بما أُرسل به ... لم يأخذ الأقراص منه، بل دعا مَن حوله إلى الانطلاق إلى منزل أبى طلحة.

ففى هذه القصة أرسلت أم سليم بأقراص من شعير مع أنس إلى الرسول ﷺ فأحبَّ الرسول ﷺ أن يُكرم أبا طلحة وأم سليم بدعوة أصحابه على هذه الأقراص، فكفتهم ... وفى قصة أنس السابقة أرسل أبو طلحة أنسًا إلى الرسول ﷺ يدعوه وحده، ولم ترسل معه أم سليم أقراص شعير، وكان الموجود عندها كسراتٍ من خبز، ولم يقف أنس فيها حائرًا حتى فَطِنَ إليه الرسول ﷺ، بل خاطبه قائلًا: أجب أبا طلحة.

وفى كلتا القصتين جاء الرسول ﷺ منزل أبى طلحة بجمعٍ كبير من أصحابه... وفى كلتا القصتين طار أنس وهو الشاب الصغير ذى الجسم الخفيف والحركة السريعة، وسبق موكب الرسول ﷺ، ليخبر الخبر لأبى طلحة وأمه... ويدلك على انفعال أنس أنه عندما أخبر أبا طلحة بإجابة الرسول ﷺ الدعوة، قال: إنه

يقول: «ومَن معى» وكما أدهش مجىء هذا العدد الكبير أنسًا، وكان عددهم ثمانين فى إحدى القصتين وأربعين فى الأخرى، أدهش أيضًا أبا طلحة، فقد قال لزوجه أم سليم: يا أم سليم جاء رسول الله بالناس وليس عندنا ما نُطعمهم.

وقد أبدى أبو طلحة عُذره للرسول ﷺ ... ففى رواية مسلم أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إنما كان شيئًا يسيرًا ... فطمأن الرسول ﷺ قلب أبى طلحة قائلًا: «**هَلُمّه، فإن الله سيجعل فيه البركة**».

وفى كلتا القصتين كانت أم سليم تأتى بذلك الطعام اليسير.

ففى إحداهما كان الطعام أقراصًا من شعير فتّتها، ووضعت عليها بقايا من سمن كان فى وعاء السمن ... وفى الثانية كان الطعام كسرات من الخبز، وتمرات، فكان الرسول ﷺ يدعو فى ذلك الطعام، ويقول فيه ما يشاء الله أن يقول، ثم يأمر أن يدخل عشرة من الصحابة فيأكلون حتى يشبعوا، ثم يخرجون، ويدخل غيرهم، حتى شبعوا جميعًا.

وفى رواية مسلم أن الرسول ﷺ بعد أن شبع أصحابه وخرجوا أكل هو وأبو طلحة وأم سليم وأنس، وفضلت بعد ذلك فضلة، فأهدوها لجيرانهم ... إن الطعام الذى قالت فيه أم سليم: عندى كِسَرٌ من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء معه آخر قَلَّ عنهم، بارك الله فيه بدعوة رسوله ﷺ، فكفى ثمانين من أصحابه، وأكل منه هو وأهل دار أبى طلحة، وفضل منه فضلة أهدوها إلى جيرانهم.

۞ عِبَر الحديث وفوائده وأحكامه:

(١) كان الرسول ﷺ بشرًا، يأكل كما يأكلون، ويجوع كما يجوعون، بل كان يصيبه الجوع الشديد، حتى يتقلب ظهرًا لبطن.

(٢) خُيِّر الرسول ﷺ بين أن يكون مَلَكًا رسولًا، أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، يجوع يومًا، ويشبع يومًا.

(٣) كان الصحابة كبارًا وصغارًا، ورجالًا ونساءً يلحظون أحوال الرسول ﷺ، ويعنيهم ما يصيبه، ويجهدون أنفسهم فى رفع معاناته قدر ما يستطيعون، كما وقع فى هذه القصة من أبى طلحة وأم سُليم وأنس بن مالك رضي الله عنهم.

(٤) الجوع يؤثر فى حواس الناس ... فقد أثَّر شدة الجوع فى صوت الرسول ﷺ، فأضعفه.

(٥) كان الطعام الذى يأكله الصحابة فى العهد النبوى خشنًا قاسيًا، فقد كانوا يطحنون الشعير، ويخبزونه، ويأكلونه، كما وقع فى هذه القصة.

(٦) كان فى بيوت الصحابة آلة الطحن ... فعند حاجتهم كانوا يطحنون الحَبَّ قمحًا أو شعيرًا فى الحال.

(٧) كانت الزوجات الصحابيات هُنَّ اللواتى يطحنّ، ويخبزن، ويصنعن الطعام، ويَقُمن بأعمال المنزل، كما فعلت أم سليم فى هذه القصة.

(٨) كان الرسول ﷺ على ثقة من أن ربّه سيكرمه، ويستجيب دعاءه، ففى كلتا القصتين دعا الصحابة الذين معه إلى الطعام القليل عند أبى طلحة، فبارك الله فى ذلك الطعام، حتى كفاهم وفاض عنهم[1].



---

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه (ص١٤٩-١٥٣) بتصرف.

(٥٧) باب القناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاق وذم السؤال من غير ضرورة

۞ قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

وأَما الأَحَاديثُ، فَتَقَدَّمَ مُعظَمُهَا فى البَابَينِ السَّابِقَينِ، وَممَّا لم يَتَقَدَّم:

(٥٢٧) عن أَبى هُرَيْرَةَ ﷺ عن النبى ﷺ قال: «لَيس الغِنَى عَن كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلكِنَّ الغِنىَ غِنَى النَّفسِ»(١).

وَمَعنَى الْحَدِيثِ: الْغِنَى المحمود غِنى النفس وشبعها وقلة حِرصِهَا لَا كَثْرَةَ الْمَالِ مَعَ الْحِرصِ عَلَى الزِّيَادَةِ لِأَنَّ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ لَمْ يَسْتَغْنِ بِمَا مَعَهُ فَلَيْسَ لَهُ غِنًى(٢).

۞ وفى الحقيقة أن المؤمن راضٍ بما قَسَمَ الله له من رزق، وما قُدر له من مواهب، وما وُهِبَ له من حَظٍّ؛ لأنه مؤمن بعدل الله فيما قسمَ من أرزاق، وبحكمته فيما وَزَّعَ من مواهب، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة.
«العَرَضُ» بفتح العين والراءِ: هُوَ المَالُ.
(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٩٨).

وهذا هو معنى «القناعة» الذى حَثَّ عليه الدِّين، وأشاد به الحكماء والصالحون.

ولقد ظَلم الناس - فيما ظلموا - كلمة «القناعة» فحسبوها الرضا بالدُّون، والحياة الهون، وضعف الهمة عن طلب معالى الأمور، وإماتة رغبة الطموح إلى الرُّقى المادى والمعنوى، وتمجيد الجوع والفقر والحرمان.

وهذا كله خطأٌ واضح، وضلالٌ بعيد ... فالحق أن القناعة لا تعنى شيئًا من أوهام الكثيرين عنها. وإنما تعنى أول ما تعنى أمرين:

أولهما: أن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا لا يكاد يشبع منها أو يرتوى ... وقد صوَّر ذلك الحديث النبوى: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى ثالثًا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب**»[1].

وكان لابد للدين أن يهديه إلى الاعتدال فى السعى للغِنى، والإجمال فى طلب الرزق، وبذلك يضمن التوازن فى نفسه وفى حياته، ويمنحه السكينة التى هى سرُّ السعادة، ويجنبه الإفراط والغلو الذى يُرهق النفس والبدن معًا... ومن ثمَّ قال ﷺ: «**إنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ فى روعُى، أن نَفْسًا لَنْ تَموتَ حتى تَستكْمِلَ أجَلها، وتَستوعبَ رِزقَها، فاتقوا الله، وأجملوا فى الطَّلبِ، ولا يَحملنَّ أحدَكُم استبطاءُ الرِّزقِ أن يطلُبَهُ بمعصيةِ الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته**»[2].

ولو تُركَ الإنسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه، لأصبح خطرًا على نفسه وجماعته، فكان لابد من توجيه طموحه إلى قِيَم أرفع، ومعانٍ أخلد، ورزقٍ أبقى، وذلك هو وظيفة الدين معه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٣٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٤٩) كتاب الزكاة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٧)، من حديث أبى أمامة، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٠٨٥).

ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وظيفة الإيمان هنا أن يَحِدَّ من ثورة الحرص والطمع، وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية فلا تستبد بها وتجعلها تحيا فى قلقٍ دائم، لا تكتفى بقليل، ولا تشبع من كثير، لا يُطفئ غلة ظمئها ما عندها فتمتد عينها إلى ما عند غيرها، ولا يُشبعها الحلال فيسيل لعابها إلى الحرام... مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح... إنها كجهنم - أعاذنا الله منها - تلتهم الملايين فى جوفها، ثم يُقال لها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؟!. ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟! [ق: ٣٠].

وظيفة الإيمان أن يُوجّه النفوس إلى القِيَم المعنوية الخالدة، وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى الله الحى الذى لا يموت، ويعلم المؤمن أن الغِنى - إن كان ينشد الغِنى - ليس فى وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى، وإنما هو فى داخل النفس أولًا... وبذلك ورد فى الحديث: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»(١).

وثانى ما تعنيه القناعة. أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره، وفى حدود ما قُدِّر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش مُتمنيًا ما لا يتيسر له، مُتطلعًا إلى ما وُهِبَ لغيره ولم يُوهَب له، وذلك كتمنِّى الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتَطلُّع المرأة الدميمة إلى الحسناء فى غيرة وحسد. ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل فى حسرة وتَلهُّف، وطموح البدوى الذى يعيش فى أرضٍ قفراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم...

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

وكما حدث فى عهد الرسولِ حين تمنى النساء أن يكُنَّ لهن ما للرجال، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٢٣] (١).

۞ فالشاهد أنه ينبغى عليك أن ترضى بما قسم الله لك من المال والجمال والذكاء والصحة والزوجة والأولاد والمسكن... حتى تعيش سعيدًا راضيًا عن الله (جلَّ وعلا).

۞ ولعلنا نعلم جميعًا أن الأنبياء والمرسلين - صلوات ربى وسلامه عليهم- كلٌّ منهم رعى الغنم ... بل كان زكريَّا نجارًا وإدريس خياطًا، وداود حدَّادًا.. وما نقص ذلك من قدرهم ومكانتهم عند الله (جل وعلا).

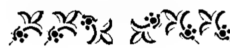
۞ وهناك قائمة رائعة من العظماء الذين بُخسوا حظوظهم الدنيوية:

عطاء بن رباح عالم الدنيا فى عهده، مولى أسود، أفطس، أشل، مفلفل الشَّعر.

الأحنف بن قيس، حليم العرب قاطبة، نحيف الجسم، أحدب الظهر، أحنى الساقين، ضعيف البنية.

الأعمش مُحدِّث الدنيا، من الموالى، ضعيف البصر، فقير ذات اليد، مُمزَّق الثياب، رَثَّ الهيئة والمنزل.

۞ فقيمة المرء ما يُحسن... قيمتك فى عملك الصالح وما تقدمه لخدمة دينك وبلدك وأسرتك.. وليست قيمتك فى المال والجاه والقوة والجمال.. فارضَ بما قسم الله لك، تكن أغنى الناس.



(١) الإيمان والحياة (ص: ١٣٧-١٣٩) بتصرف.

(٥٢٨) وعَنْ عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «قَد أَفلَحَ مَنْ أَسَلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ الله بما آتاهُ»(١).

۞ سبق شرحه كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥١٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

۞ وتأمل معى هذا الدرس العظيم من الحبيب ﷺ لهذا الصحابى الجليل حكيم بن حزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥٢٩) عَنْ حَكيم بن حِزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ رسول الله ﷺ فَأعطَانى، ثم سَأَلْتُهُ فَأَعطَانى، ثم قال: «يا حَكيمُ، إِنَّ هذا المَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمن أخَذَهُ بِسَخَاوَة نَفسٍ بُورِكَ لَهُ فِيه، وَمَن أَخَذَهُ بِإِشَراف نَفْسٍ لَم يُبَارَكْ لهُ فيهِ، وكَانَ كالَّذِى يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، واليدُ العُلَيا خيرٌ مِنَ اليَد السُّفلَى» قال حَكيمٌ: فقلتُ: يا رسول الله وَالَّذِى بَعثَكَ بالحَقِّ لا أَرْزَأُ أَحدًا بَعدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنيا، فَكَانَ أَبُو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدعُو حَكيمًا لِيُعطيَهُ العَطَاءَ، فَيأْبَى أن يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا. ثُمَّ إِنَّ عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعطيهُ، فَأَبَى أن يَقْبَلهُ. فقال: يا مَعشَرَ المُسْلمينَ أُشْهِدُكُم عَلى حَكيمٍ أَنّى أعرضُ عَلَيه حَقَّهُ الَّذى قَسَمَ الله لَهُ فى هذا الْفىءِ، فيأْبَى أن يَأْخُذَهُ. فَلَمْ يَرْزَأْ حَكيمٌ أَحدًا مِنَ النَّاسِ بَعدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى تُوُفى(٢).

۞ لقد كان من هدى النبى ﷺ أنه لا يرد سائلًا أبدًا.. فما سُئل على الإسلام شيئًا إلا أعطاه ﷺ.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٥٤) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٥) كتاب الزكاة.

«يرزَأ» أى لم يأخُذ مِن أحدٍ شيئًا، وأصلُ الرَّزءِ: النُّقصَانُ، أى لم يُنقِص أحدًا شيئًا بالأخذِ مِنهُ. و«إِشرَافُ النَّفسِ» تَطَلُّعُها وطَمعُها بالشَّىءِ. و«سَخاوَةُ النَّفسِ»: هىَ عدمُ الإشرَاف إلى الشَّىءِ، والطَّمَع فيه، والمُبالاةِ بِهِ والشَّرهِ.

فجاءه حكيم بن حزام رضي الله عنه فسأل النبي ﷺ فأعطاه ثم سأله فأعطاه ... فلما وجد النبي ﷺ أنه قد استمر في السؤال قدَّم له تلك النصيحة الغالية التي نفعته حتى آخر يومٍ في حياته.

فقال له ﷺ: **«يا حَكيمُ، إنَّ هذا المَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ»** شبَّهه في الرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء الحلوة المُستلذة.

فإن الأخضر مرغوبٌ فيه على انفراده، والحلو كذلك على انفراده، فاجتماعهما أشد. وفيه إشارة إلى عدم بقائه؛ لأن الخضروات لا تبقى ولا تُراد للبقاء.

«فَمن أخَذَهُ بِسَخَاوَة نَفس بُورِكَ لَهُ فِيه، وَمَن أَخَذَهُ بإِشَراف نَفْسٍ لَم يُبَارَكْ لهُ فيهِ».

۞ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِشْرَافُ النَّفْسِ تَطَلُّعُهَا إِلَيْهِ وَتَعَرُّضُهَا لَهُ وَطَمَعُهَا فِيهِ، وَأَمَّا طِيبُ النَّفْسِ فَذَكَرَ الْقَاضِي فِيهِ احتِمَالَيْن: أَظْهَرُهُمَا: أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الْآخِذِ وَمَعنَاهُ: مَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ سُؤَالٍ وَلَا إِشْرَافٍ وَتَطَلُّعٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَالثَّانِي: أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى الدَّافِعِ، وَمَعنَاهُ: مَنْ أَخَذَهُ مِمَّنْ يَدفَعُ مُنْشَرِحًا بِدَفْعِهِ إِلَيْهِ طَيِّبَ النَّفْسِ لَا بِسُؤَالٍ اضْطَرَّهُ إِلَيْهِ أَوْ نَحوِهِ مِمَّا لَا تَطِيبُ مَعَهُ نَفْسُ الدَّافِعِ(١).

ولهذا قال النبي (عليه الصلاة والسلام) لعمر بن الخطاب: **«ما جاءك من هذا المال وأنت غير مُشرفٍ ولا سائل فخُذه، وما لا فلا تُتبعه نفسك»** يعني: ما جاءك بدون استشراف نفسٍ ولا تطلُّع وتشوُّف فخُذه.... وما جاءك بسؤالٍ واستشراف نفسٍ فلا تأخذه ولا تُتبعه نفسك.

۞ قوله ﷺ: **«وكَانَ كالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ»**: أي أن مَن أخذ المال باستشراف نفسٍ كان كالذي به مرضٌ فيأكل ولا يشبع أبدًا فيظل يسأل الناس ولا يتعفف أبدًا.

ثم قال النبي (عليه الصلاة والسلام) لحكيم بن حزام: **«اليدُ العُليا خيرٌ من اليد**

---

(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٧٧).

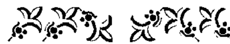
السُّفلى» اليد العُليا هي يد المُعطى، واليد السُّفلى هي يد الآخِذ...فالمُعطى يده خيرٌ من يد الآخِذ، لأن المُعطى فوق الآخِذ...فيده هي العُليا كما قال النبي ﷺ.

فأقسم حكيم بن حزام رضي الله عنه بالذي بعث النبي ﷺ بالحق ألا يسأل أحدًا شيئًا، فقال: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أُفارق الدنيا».

فتُوفى الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وتولى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه، فكان يُعطيه العطاء فلا يقبله... ثم تُوفى أبو بكر، فتولى عمر فدعاه ليُعطيه، فأبى، فقال: اشهدوا أني أُعطيه من بيت مال المسلمين فلا يقبله ... قال ذلك رضي الله عنه لئلا يكون له حُجة على عُمر يوم القيامة بين يدي الله، وليتبرأ من عُهدته أمام الناس، ولكن مع ذلك أصرَّ حكيمٌ رضي الله عنه ألا يأخذ منه شيئًا حتى تُوفى[1].

۞ قال الإمام النووي رحمه الله:

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ وَمَا قَبْلَهُ وَمَا بَعدَهُ الْحَثُّ عَلَى التَّعَفُّفِ وَالْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا بِمَا تَيَسَّرَ فِي عَفَافٍ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا وَالإِجْمَالِ فِي الْكَسْبِ وَأَنَّهُ لَا يَغْتَرُّ الإِنْسَانُ بِكَثْرَةِ مَا يَحصُلُ لَهُ بِإِشْرَافٍ وَنَحوِهِ فَإِنَّهُ لَا يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾[2].



(١)شرح رياض الصالحين (٢/ ٢١١).

(٢)مسلم بشرح النووي (٧/ ١٧٧-١٧٨).

فهرس الموضوعات



هذه وصيتي

كنت منذ طفولتي كلما ذهبت وجدت القرآن الكريم وبجواره كتاب "رياض الصالحين" للإمام النووي رحمه الله وكنت أحب القراءة في هذا الكتاب لكني كنت لا أفهم الكثير من الأحاديث وتمنيت أن أجد كتابًا سهلاً فيه شرح لتلك الأحاديث التي تبلغ ١٩٠٥ حديثًا.

ومرّ الأيام وشرح الله عز وجل صدري لشرح هذا الكتاب ففرغت حياتي لشرح هذا الكتاب الممتع الذي استطاع الإمام النووي رحمه الله من خلاله أن يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الإسلامية والعقائد وفقه العبادات والمعاملات، فوجدته كتابًا شاملاً لكل شيء، فاستعنت بالله عز وجل أن أشرحه شرحًا ميسرًا يفهمه العوام قبل العلماء وطلبة العلم، وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله عز وجل، وقضيت أجمل أيام عمري في شرح هذا الكتاب الممتع الذي لا يستغني عنه بيت مسلم أبدًا، ففيه الخير الكثير والكثير ولعلك تشعر بحسن مقالتي عندما تشرع في قراءة هذا الكتاب القيم.

فوصيتي لكل إخواني وأخواتي وأهلي وأحبابي أن تحرصوا على اقتناء هذا الكتاب القيم لنلتقي جميعًا على المنهج الصافي بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فتعم بيوتنا بركته وعلى الإسلام والمسلمين في كل مكان.

أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسنات أبي وأمي (رحمة الله عليهما) وميزان حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به.

وأرجو ألا تبخلوا عليّ بدعوة صادقة بظهر الغيب بأن يرزقني الله عز وجل الإخلاص في القول والعمل وأن يرزقني حُسن الخاتمة وأن يجمعني بكم في الفردوس الأعلى مع الحبيب المصطفى ﷺ.

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار
محمود المصري
أبو عمار

شرح رياض الصالحين

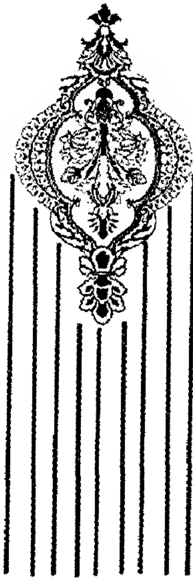
من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

الجزء الرابع

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

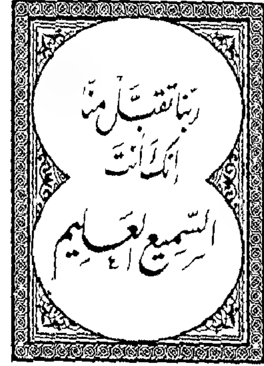




شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم



١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر - أمام الجامع الأزهر - القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ - الفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء الرابع

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤


بسم الله الرحمن الرحيم

(٥٣٠) وعَنْ أبى بُردَةَ عن أبى موسى الأشعَرىِّ رضي الله عنه قال: خَرَجْنا مَعَ رَسُول الله ﷺ فى غَزاةٍ، ونحن سِتَّةُ نَفرٍ بيْنَنا بَعِير نعتَقِبُهُ، فَنَقِبتْ أقدامُنا، وَنَقِبَتْ قَدَمِى، وَسَقَطَتْ أَظْفارى، فَكُنَّا نَلُفُّ عَلى أَرْجُلِنا الخِرَق، فَسُميت غَزوَةَ ذَاتِ الرِّقاعِ لما كُنَّا نَعصِبُ عَلى أرْجُلِنَا مِن الخِرَقَ.. قال أبو بُردَةَ: فَحَدَّثَ أَبو مَوسَى بِهَذا الحَدِيث، ثُمَّ كَرِهَ ذلك، وقال: ما كنْتُ أصنَعُ بِأَنْ أَذْكُرهُ، قالَ: كَأَنَّهُ كَرِه أَنْ يَكُونَ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ أَفْشاهُ[١].

۞ كان هذا الموقف الذى يحكيه أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه فى غزوة ذات الرقاع.

وأما سبب الغزوة ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين... ذلك الغدر الذى تجلَّى فى مقتل أولئك الدُّعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى، فخرج ﷺ قاصدًا قبائل محارب وبنى ثعلبة[٢]. وقد ذكر الدكتور محمد أبو فارس أن قادمًا قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله ﷺ، فما كان منه ﷺ إلا أن سار إليهم فى عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل وقيل سبعمائة مقاتل، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم، وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، وعاد رسول الله إلى المدينة[٣].

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها، وتمكنت من تشتيت الحشد الذى قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درسًا بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط على سحق مَن تُحدثه نفسه بالاقتراب من المدينة، بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه فى عقر داره[٤].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤١٢٨) كتاب المغازى، ومسلم (١٨١٦) كتاب الجهاد.
(٢) فقه السيرة النبوية، (ص١٩٤، ١٩٥).
(٣) انظر: غزوة الأحزاب لأبى فارس، (ص١٤).
(٤) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص٧٧، ٧٨).

ولعلك تسأل وتقول: ولماذا سُميت هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع؟

والجواب: أنها سُميت بذات الرقاع؛ لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخِرَق والرقاع اتقاء الحر ... وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم ... وقيل: لشجرة كان اسمها ذات الرقاع[١]، وقيل: لأن المسلمين نزلوا فى أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسُميت لذلك[٢] ... والصحيح: أنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق ... وقد أخبر أبو موسى الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا ستة نفرٍ مع النبى ﷺ ومعهم بعيرٌ واحد يعتقبونه.. فيركبه كل واحدٍ منهم نوبة لمسافة مُعينة ثم يركبه الثانى ثم يركبه الذى بعده ... فمعنى ذلك أن كل واحد سيركب سُدس المسافة وخمس أسداس المسافة يمشيها على رجليه وهكذا حتى تقطعت أحذيتهم ونقبت أقدامهم أى: قرحت من الحفاء وسقطت أظافرهم فكانوا يلفون على أرجلهم الخِرَق حتى لا تزداد جروحهم ... وهكذا كان النبى ﷺ وأصحابه يبذلون حياتهم كلها من أجل نشر دين الله والتمكين له فى الأرض.. وحتى يصل إلينا هذا الدين العظيم... فيا ليتنا نعرف قدر هذا الدين ونعيش من أجله ومن أجل نُصرته ونُصرة أهله ونشره بين العالمين.

۞ المهم أن أبا موسى الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما حدَّث بهذا الحديث كره ذلك وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره.. وكأنه كره أن يكون شيئًا من عمله أفشاه.

وهذا من شدة إخلاصهم لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ استحباب إخفاء الْأَعمَالِ الصَّالِحَةِ وَمَا يُكَابِدُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْمَشَاقِّ فِى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَلَا يُظْهِرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا لِمَصلَحَةٍ مِثْلَ بَيَانِ حُكْمِ ذَلِكَ الشَّيْءِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِيهِ وَنَحوِ ذَلِكَ ... وَعَلَى هَذَا يُحمَلُ مَا وُجِدَ لِلسَّلَفِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ[٣].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ٣٠٩).

(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، (ص١٧٠).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٢/ ٢٧٢).

(٥٣١) وعَنْ عمرو بن تَغْلِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بمالٍ أَوْ سَبْي فقسَّمهُ، فَأعطَى رجالاً، وتَرَكَ رجالاً، فَبَلَغهُ أنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ الله، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيه، ثُمَّ قال: «أَمَا بَعدُ، فَوَالله إنِّى لأُعطِى الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، والَّذِى أَدَعُ أَحَبُّ إلَىَّ مِنَ الَّذى أُعطِى، وَلكنِّى إنَّما أُعطِى أَقوَامًا لِما أَرى فى قُلُوبِهِمْ مِن الجَزعِ والهَلَعِ، وَأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعَلَ الله فى قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنى والخَيْرِ، مِنهُمْ عَمْرُو بنُ تَغلِبَ» قال عمرُو بنُ تَغلِبَ: فَوالله ما أُحِبُّ أن لى بِكلِمةِ رَسُولِ الله ﷺ حُمْرَ النَّعَم[١].

۞ لقد حدث ذلك عندما غنم النبى ﷺ وأصحابه غنائم كثيرة فى غزوة حُنين... فلما جاء موعد تقسيم الغنائم رأى النبى ﷺ أن يتألف الطُّلَقاء والأعراب بالغنائم تأليفًا لقلوبهم لحداثة عهدهم بالإسلام ... فأعطى لزعماء قريش وغطفان وتميم عطاءً عظيمًا، إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسُهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزارى، والأقرع بن حابس، ومعاوية ويزيد ابنا أبى سفيان، وقيس بن عدى[٢]. وكان الهدف من هذا العطاء المجزى هو تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إن كان الرجل ليُسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها[٣]. وعبَّر عن هذا صفوان بن أمية بقوله: لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى وإنه لأبغض الناس إلىَّ فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىَّ[٤].

وقد تأثر حُدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية، وترددت

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٩٢٣) كتاب الجمعة.

«الهَلعُ»: هُو أَشَدُّ الجَزَعِ، وقِيل: الضَّجرُ.

(٢) انظر: معين السيرة (ص ٤٢١).

(٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط (٤/ ١٨٠٦) رقم (٢٣١٢).

(٤) المصدر نفسه (٤/ ١٨٠٦) رقم (٢٣١٣).

بينهم مقالة، فراعى ﷺ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر، وبيَّن لهم الحكمة فى تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطابًا إيمانيًّا عقليًّا عاطفيًّا وجدانيًّا، ما يملك القارئ المسلم على مَرِّ الدهور وكَرِّ العصور وتوالى الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم.

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه **قال:** «لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة [(١)] حتى قال قائلهم: لقد لقى والله رسول الله ﷺ قومه... فدخل عليه سعد بن عُبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم، لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ... قسَّمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يكُ فى هذا الحى من الأنصار منها شىء. قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومى، قال: «**فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة**» [(٢)].

قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة. قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتنى عنكم وجِدَة** [(٣)] **وجدتموها علىَّ فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالة** [(٤)] **فأغناكم الله، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم!**» قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل. ثم قال: «**ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نُجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المَنُّ

---

(١) القالة: الكلام الردىء.

(٢) الحظيرة: شبيه الزريبة التى تُصنع للإبل والماشية لتمنعها، وتكف عنها العوادى.

(٣) الموجدة: العتاب.

(٤) عالة: جمع عائل: الفقير.

والفضل. قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصُدِّقتم: أتيتنا مُكذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً[١] فنصرناك، وطريدًا فآويناك. وعائلاً فآسيناك[٢].. فقال: وجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة[٣] من الدنيا تألفت بها قومًا ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمدٍ بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا، وسلكت الأنصار شِعبًا: لسلكت شِعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»[٤].

إن النبى ﷺ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يُبشّرون بالإيمان يقابلهم قوم يُبشَّرون بالجِمال (الإبل)، وقوم يصحبهم رسول الله ﷺ يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور، وأدركوا أنهم وقعوا فى خطأ ما كانْ لأمثالهم أن يقع فيه... فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع، وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبى ﷺ الحكيمة فى مخاطبة الأنصار[٥].

ويرى الإمام ابن القيم -استدلالًا بهذه الحادثة-: أنه قد يتعين على الإمام أن يتألف أعداءه لاستجلابهم إليه، ودفع شرهم عن المسلمين فيقول: الْإِمَامُ نَائِبٌ عَنِ الْمُسْلِمِينَ يَتَصَرَّفُ لِمَصَالِحِهِمْ، وَقِيَامِ الدِّينِ. فَإِنْ تَعَيَّنَ ذَلِكَ -أى: التَّأليف- لِلدَّفْعِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَالذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَاسْتِجْلَابِ رُءُوسِ أَعدَائِهِ

(١) مخذولاً: متروكًا.

(٢) آسيناك: أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا.

(٣) لعاعة: بقلة خضراء ناعمة شبَّه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٧٦، ٧٧، ٨١)، وابن جرير (٢/ ٣٦٠، ٣٦١)، وعبد الرزاق فى المصنف (١١/ ٦٤)، وأبو يعلى كما فى مجمع الزوائد (١٠/ ٣٠) وأسانيدهم صحيحة، ابن كثير فى سيرته (٣/ ٦٧٨)، ابن هشام فى السيرة (٢/ ٤٩٨، ٤٩٩) وسنده صحيح.

(٥) انظر: المجتمع المدنى فى عهد النبوة (ص٢١٩).

إِلَيْهِ، لِيَأْمَنَ الْمُسْلِمُونَ شَرَّهُمْ، سَاغَ لَهُ ذَلِكَ، بَلْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ ... وَهَلْ تُجَوِّزُ الشَّرِيعَةُ غَيْرَ هَذَا، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ فِي الْحِرْمَانِ مَفْسَدَةٌ، فَالْمَفْسَدَةُ الْمُتَوَقَّعَةُ مِنْ فَوَاتِ تَأْلِيفِ هَذَا الْعَدُوِّ أَعظَمُ ... وَمَبْنَى الشَّرِيعَةِ عَلَى دَفْعِ أَعلَى الْمَفْسَدَتَيْنِ بِاحتِمَالِ أَدناهُمَا، وَتَحصِيلِ أَكْمَلِ الْمَصلَحَتَيْنِ بِتَفْوِيتِ أَدناهُمَا، بَلْ بِنَاءُ مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ عَلَى هَذَيْنِ الأَصلَيْنِ[1].

(٥٣٢) وعَنْ حَكيم بن حزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «اليدُ العُليا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلى، وابْدَأ بمنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ ما كان عنْ ظَهْرِ غِنى، ومَنْ يَسْتَعفِفْ يُعفَّهُ الله، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله»[2].

۞ الجميل هنا أن الذى يروى هذا الحديث هو حكيم بن حزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذى قال له النبى ﷺ: «يا حَكيمُ، إِنَّ هذا المَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمن أخَذَهُ بِسَخَاوَة نَفس بُورِكَ لَهُ فِيه، وَمَن أَخَذَهُ بِإِشَراف نَفْسٍ لَم يُبَارَكْ لهُ فيِه، وكَانَ كالَّذِى يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، واليدُ العُلَيا خَيرٌ مِنَ اليَد السُّفلَى» فهو يروى هنا أن النبى ﷺ قال: «اليدُ العُليا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلى» واليد العليا هى المنفقة..واليد السُّفلى هى الآخذة.

وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الإِنْفَاقِ فِى وُجُوهِ الطَّاعَاتِ.

وَفِيهِ دليل لمذهب الجمهور أن اليد العليا هى الْمُنفِقَةُ...

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمُتَعَفِّفَةُ وَقَالَ غَيْرُهُ: الْعُلْيَا الْآخِذَةُ وَالسُّفْلَى الْمَانِعَةُ ... وَالْمُرَادُ بِالْعُلُوِّ: عُلُوُّ الْفَضْلِ وَالْمَجْدِ وَنَيْلُ الثَّوَابِ[3].

«وابدأ بمن تعول» فالإنسان يبدأ بمن يعول... يعنى بمن يَلزمه نفقته، فالإنفاق على الأهل أفضل من الصدقة على الفقراء، لأن الإنفاق على الأهل

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٢٧) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٤) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٧٥).

صدقة وصلة وكفاف وعفاف، فكان ذلك أَولَى، والإنفاق على نفسك أَولَى من الإنفاق على غيرك ... كما جاء فى الحديث: «**ابدأ بنفسك فتصدَّق عليها، فإن فضل شىء فلأهلك**».

وفيه الابتداء بالأهم فالأهم فى الأمور الشرعية.

۞ «**وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ ما كان عنْ ظَهْرِ غِنى**» أى أن أفضل الصدقة ما تركت المتصدق غنيًّا مُستغنيًا بما بقى معه.

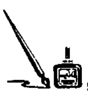
لأن الإنسان قد يتصدق وبعد أن يتصدق بالمال كله يمكن أن يبتليه الله فلا يجد مالًا يسد حوائجه فيندم ويقول: يا ليتنى ما تصدقت بالمال كله، فيكون بهذا قد أضاع أجره عند الله، وأضاع ماله فى الدنيا.

فالأفضل للإنسان إذا تصدق أن يترك لنفسه ما يُغنيه؛ لأنه عندما يعطى ولا يزال غنيًّا يكون ذلك مَدعاة له أن يعطى ويتصدق مرة أخرى، ولا يتضجر من الصدقة ... أما الذى يُعطى ماله كله ثم يجد نفسه فقيرًا، فقد لا يتصدَّق مرة أخرى، ولذلك كان خير الصدقة ما أبقت لصاحبها غِنًى.

۞ «**ومَنْ يَسْتَعفِفْ يُعِفُّهُ الله**» ..أى: ومَن يستعفف عن مسألة الناس يُعفُّه الله.. أى: يرزقه العفة عن ذلك.

ويستعفف: من العفاف ... والعفيف هو الإنسان الذى لا ينظر إلى ما فى أيدى الناس ... فالناظر إلى ما فى أيدى الناس إما أن يَتمنى ما فى أيدى الناس، أو يتحسر على أنه ليس عنده مثلهم.

وإذا تمنى فلعله يُعطَى ولعله لا يُعطَى ... فإذا كان لا يُعطَى فقد أتعب نفسه بالنظر إلى ما فى أيدى الناس، وإذا أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ فلعله يُفتَن فيه فلا يعطى الحقوق لأصحابها ... إذًا: الأفضل أن لا ينظر إلى ما فى أيدى الناس، وإنما ينظر إلى مَن هو دونه وأقل منه ولا ينظر إلى مَن هو أعلى منه.



إذا نظر إلى مَن هو دونه حَمِدَ الله سبحانه على ما أعطاه من النعم.

وإذا نظر إلى مَن هو أعلى منه ربما جعل ذلك فى قلبه حسرة، ولعله يقول: إن الله لم يُعطنى شيئًا، فينكر نعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه فيستحق العقوبة من الله.

۞ ثم قال ﷺ: «ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله» أى: مَن يُظهر الغِنى يُغنه الله.

أى: يُصيره غنيًّا.. وقيل: أى مَن يستغنى بالله يُغنه الله عَزَّوَجَلَّ.

أما النظر إلى الناس فليس من ورائه إلا أن يحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، أو يتحسَّر على حاله الذى هو فيه، وفى كُلٍّ شر.

(٥٣٣) وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِى سفيانَ صَخْر بن حَرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تُلْحِفُوا فى المسألَةِ، فوَالله لا يَسْأَلُنى أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَتُخرِجُ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّى شَيْئًا وَأنا لَهُ كارِهٌ، فَيُبَارَكَ لَهُ فيما أَعطَيْتُهُ»(١).

۞ عن معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب القرشى الأموى، أسلم هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند يوم فتح مكة فلذا قال المصنف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وكان هو أبوه من المؤلفة قلوبهم ثم حَسُن إسلامهما... كان أحد الكُتاب لرسول الله ﷺ، رُوى له عن رسول الله ﷺ مائة وثلاثة وستون حديثًا...

رَوَى عن عددٍ كثير من الصحابة ومناقبه كثيرة وفضائله شهيرة قد أُفردت بالتأليف، توفى بالشام.

ولما حضرته الوفاة أوصى أن يُكفَّن فى قميص كان رسول الله ﷺ كساه إياه، وأن يُجعل مما يلى جسده، وكان عنده قلامة أظفار رسول الله، فأوصى أن تُسحَق وتُجعَل فى عينيه وفمه وقال: افعلوا ذلك وخَلُّوا بينى وبين أرحم الراحمين.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٣٨) كتاب الزكاة.

(قال: قال رسول الله: **لا تُلحفوا**) من الإلحاف والإلحاح: أى لا تُلحوا (فى المسألة)[١].

«فوالله لا يَسْأَلُنى أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَتُخرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّى شَيْئًا وَأنا لَهُ كارِهٌ، فَيُبَارَكَ لَهُ فيما أَعطَيْتُهُ» وهنا يُقسم النبى ﷺ أن مَن سأله شيئًا وظل يُلح فى المسألة مرة بعد مرة حتى أعطاه النبى ﷺ شيئًا بسيف الحياء وهو كارهٌ لذلك فإن الله عَزَّوَجَلَّ لن يُبارك له فى ذلك الشىء الذى أخذه بسيف الحياء.

۞ وفى الحقيقة أن هذا الأمر يحدث كثيرًا فى حياتنا... أن يُقابلك شخص أو يدخل بيتك فيتطلع إلى ما عندك ثم يطلب أن تُعطيه شيئًا وأنت لا تُريد أن تُعطيه.. فيظل يُلح فى طلبه إلى أن يُصيبك الحياء منه فتُعطيه .. فيُقسم النبى ﷺ أن هذا الرجل لن يبارك الله له فيما أخذه.. أما لو أعطاه صاحب ذلك الشىء بل ومثله ألف مرة عن طِيب نفسٍ فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيبارك له فيه.

❊❊❊

(٥٣٤) وعَنْ أبى عبدِ الرحمنِ عَوف بن مالك الأشْجَعِيِّ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قالَ: كُنَّا عنْدَ رسُولِ الله ﷺ تِسَعةً أَوْ ثمانيةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَال: «ألاَ تُبايِعُونَ رَسُولَ الله ﷺ» وكُنَّا حَدِيثى عَهْدٍ بِبيْعَةٍ، فَقُلْنا: قَدْ بَايعناكَ يا رسُولَ الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله فَعَلامَ نُبايِعُكَ؟ قال: «على أَنْ تَعبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، والصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَتُطيعُوا» وَأَسَرَّ كلمةً خَفِيةً: «وَلا تَسْأَلُوا النَّاس شَيْئًا» فَلَقَد رَأيتُ بَعضَ أُولئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحدِهِمْ فَما يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ[٢].

۞ ففى هذا الحديث يحكى عوف بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أنهم كانوا عند رسول الله ﷺ يجلسون معه.. وفجأة قال لهم النبى ﷺ: **«ألا تبايعون رسول الله؟»** .. وكان

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٥٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٤٣) كتاب الزكاة.

من الممكن أن يقول لهم النبى ﷺ: بايعونى. لكنه قال لهم: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» ليُلفت انتباههم إلى أهمية تلك البيعة حتى يستعدوا لها..

فقالوا له ﷺ: قَد بَايعناكَ يا رسُولَ الله.

فأراد النبى ﷺ أن يؤكد لهم أهمية تلك البيعة فكرر السؤال مرة أخرى.. وكان يكفيه أن يقولها مرة واحدة.

فما كان منهم إلا أن بسطوا أيديهم وقالوا: قَد بَايعنَاكَ يا رسُولَ الله فَعَلامَ نُبَايِعُكَ؟

وكأنه ﷺ كان ينتظر منهم هذا السؤال ليعلم أنهم قد أحسُّوا بقدر هذه البيعة فقال لهم ﷺ: «**على أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، والصَّلَوَاتِ الخَمْس وَتُطِيعُوا**» وَأَسرَّ كلمةَ خَفِيةً: «**وَلا تَسْأَلُوا النَّاس شَيْئًا**».

أى: بايعونى على عبادة الله وعدم الشرك، وعلى الصلوات الخمس، وعلى الطاعة لله وللرسول ﷺ ولأُولى الأمر منكم، وتبايعونى أيضًا على (أن لا تسألوا الناس شيئًا).

هذه من ضمن البيعات التى أخذها النبى ﷺ على أصحابه أو على بعضهم، وهؤلاء بايعوا.

فكان يسقط سوط أحدهم أو عصاه وهو راكب على الجمل فيُنيخ جَمَله وينزل فيأخذ عصاه، فهذا أحب إليه من أن يطلب من أحدٍ أن يناوله ذلك... قال: (فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه).

أى: لا يطلب من أحدٍ شيئًا... وهذه تربية عظيمة ربَّاهم عليها النبى ﷺ، فإذا كان هذا الذى تسقط عصاه لا يطلب من أحد أن يناوله إياها، فمن باب أَولَى ألا يسأل أحدًا مالًا أو غيره... فعلمهم النبى ﷺ عزة النفس والتعفُّف عن

أن يبسطوا ويمدوا أيديهم للناس يطلبون شيئًا، وبايعهم على ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

إنها بيعة ووصية غالية من رسول الله ﷺ..

۞ - فارفع هذا الشعار ولا يتعلق قلبك بما عند البشر.

لا تسألنَّ بنى آدم حاجةً ... وسَلِ الذى أبوابه لا تُغلَقُ

الله يغضب إن تركت سُؤاله ... وبنىُّ آدم حين يُسأَلُ يغضبُ

۞ والله... إن النوم على الحصير وأكل الخبز اليابس مع حفظ ماء الوجه وصون النفس عن سؤال الناس، أعز وأشرف من سُكنى القصور الفاخرة وركوب السيارات الفارهة مع التكدير والغمِّ والحزن.

۞ لا تسأل الناس شيئًا حتى لا تحزن ... فلربما منعك بخيل أو اكفهرَّ فى وجهك إنسانٌ عَبوس، أو تطاول عليك سفيه.. ولكن إن أردت أى شىء من متاع الدنيا، أو نعيم الآخرة الباقى فلا تسأل إلا الله (جل وعلا) الذى بيده مقاليد السماوات والأرض.

(٥٣٥) وعَنْ ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبىَّ ﷺ قال: **«لاَ تَزَالُ المَسأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتى يَلْقَى الله تعالى ولَيْسَ فى وَجْهِهِ مُزْعةُ لَحمٍ»**(١).

۞ ومُزعة اللحم: القطعة من اللحم..... فالإنسان لعله يستحيى من إنسان كبير إذا فعل أمامه شيئًا يُستحيا من فعله فيتصبب عرقه حياءً... والله سبحانه وتعالى له المثل الأعلى، فهؤلاء الذين يسألون الناس إلحافًا عندما يأتون ربهم يوم القيامة سيستحيون من الله عَزَّ وَجَلَّ، حتى يتساقط من وجوههم اللحم بسبب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٤) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٤٠) كتاب الزكاة.
«المُزْعَةُ»: القِطْعَة.

أنهم لم يستحيوا فى الدنيا من الله.

۞ قَالَ الْقَاضِى: قِيلَ: مَعنَاهُ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيامَةِ ذَلِيلًا سَاقِطًا لَا وَجْهَ لَهُ عِنْدَ اللهِ، وَقِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ فَيُحشَرُ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ لَا لَحمَ عَلَيْهِ عُقُوبَةً لَهُ وَعَلَامَةً لَهُ بِذَنْبِهِ حِينَ طَلَبَ وَسَأَل بِوَجْهِهِ، كَمَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ الْأُخَرُ بِالْعُقُوبَاتِ فِى الْأَعضَاءِ الَّتِى كَانَتْ بِهَا الْمَعَاصِى... وَهَذَا فِيمَنْ سَأَل لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ سُؤَالًا مَنْهِيًّا عَنْهُ وَأَكْثَرَ مِنْهُ كَمَا فِى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: «مَنْ سَأَلَ تَكَثُّرًا» وَاللهُ أَعْلَمُ[1].

وهذا وعيدٌ شديدٌ يدل على تحريم كثرة السؤال من الناس.

ولهذا قال العلماء: لا يَحِلُّ لأحدٍ أن يسأل شيئًا إلا عند الضرورة...فإذا اضطر الإنسان فلا بأس أن يسأل.. أما أن يسأل للأمور الكماليات لأجل أن يسابق الناس فيما يجعله فى بيته، فإن هذا لا شك فى تحريمه، ولا يحل له أن يأخذ شيئًا حتى الزكاة ولو أُعطيها فلا يأخذها لإنفاقها فى الأمور الكمالية التى لا يريد منها إلا أن يسابق الناس ويماريهم، أما الشىء الضرورى فلا بأس به. والله أعلم.

(٥٣٦) وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال وهو على المِنبرِ، وَذَكَرَ الصَّدقَةَ والتَّعفُّفَ عَنِ المسألَةِ: «اليد العُلْيا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلى، وَاليَد العُلْيا هِىَ المُنْفِقة، والسُّفْلَى هِىَ السَّائِلَة»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٣٢) فأرجو الرجوع إليه ..بارك الله فيكم.

(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٢٩) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٣) كتاب الزكاة.

(٥٣٧) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاس تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَل جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»(١).

۞ يعنى مَن سأل الناس أموالهم ليُكثر بها ماله، فإنما يسأل جمرًا فليستقلّ أو ليستكثر ... إن استكثر زاد الجمر عليه، وإن استقلّ قَلَّ الجمر عليه، وإن ترك سَلِمَ من الجمر ... أى: فهو مُخير إذا عرف مآل ذلك بين الاستكثار والاستقلال فيكثر به عذابه أو يَقِل.

وفى هذا دليل على أن سؤال الناس بلا حاجة من كبائر الذنوب.

قال القاضي: مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُعَاقَبُ بِالنَّارِ وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنَّ الَّذِى يَأْخُذُهُ يَصِيرُ جَمْرًا يُكْوَى بِهِ كَمَا ثَبَتَ فِى مَانِعِ الزَّكَاةِ(٢).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[التوبة: ٣٤-٣٥]

(٥٣٨) وعَنْ سَمُرَةَ بنِ جُنْدب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ المَسألَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بها الرَّجُلُ وجْهَهُ، إِلا أَنْ يَسأَلَ الرَّجُلُ سُلْطانًا أَوْ فى أَمْرٍ لا بُدَّ مِنْهُ»(٣).

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن سؤال الناس لغير حاجة ولا ضرورة كَدٌّ يَكُدُّ بها الرجل وجهه... والكد: المكدة وهى الحديدة التى يحفر بها الإنسان

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٤١) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٨٤).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٤٧).
«الكدُّ» : الخَدشُ ونحوُهُ.

فى خشب ونحوه، فكأنه يوم القيامة يسقط لحم وجهه من سؤاله فى الدنيا، فتأتى المسألة عليه يوم القيامة كخدوش وشقوق فى وجهه بسبب عدم حيائه من الله عَزَّوَجَلَّ فى الدنيا وسؤاله الناس إلحافًا.

لكن يُستثنى (أن يسأل الرجل سلطانًا) يعنى يسأل الحاكم حقه... كأن يريد الحق الذى له فى بيت المال ونحو ذلك إن كان محتاجًا.

(أو فى أمرٍ لا بد منه)، كمن نزلت به كارثة أو مصيبة فيسأل الناس بسبب المصيبة التى نزلت به، فهذا معذور.. لكن يسأل بقدر الحاجة فإن زالت فليُمسك ولا يسأل بعد ذلك... ولكن الذى يسأل أموال الناس يستكثر منها فهو داخل فى هذا الحديث.

❊❊❊

(٥٣٩) وعَنْ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَصابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلها بالله، فَيُوشِكُ الله لَهُ بِرزقٍ عاجِلٍ أَوْ آجِلٍ»(١).

۞ أى: مَن نزلت به حاجة شديدة أو فقرٌ شديد وضيق فى المعيشة.. فأنزلها بالناس: أى: عرضها عليهم وأظهرها بطريق الشكاية لهم وطلب منهم إزالة فاقته واعتمد وتوكل عليهم وطمع فيما عندهم «لَمْ تُسَدَّ فاقَتُهُ» أى: لم تُقضَ حاجته ولم تُزل فاقته.. وكلما سُدَّت حاجته أصابته حاجة أخرى أشد منها لأن مَن تعلق بشىءٍ وُكل إليه ... ولذا فسوف يستمر دائمًا يسأل ولا يشبع.

«وَمَنْ أَنْزَلها بالله» فتوكل على الله واعتمد عليه وأخذ بالأسباب «فَيُوشِكُ الله لَهُ بِرزقٍ عاجِلٍ أَوْ آجِلٍ» أى: أن الله عَزَّوَجَلَّ سيرزقه عاجلًا أو آجلًا ويُفرج كربه

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٤١).
«يُوشكُ» بكسر الشين: أى يُسرعُ.

ويسد فاقته إن توكل عليه ولم يتوكل على الناس.

وفى رواية أبى داود: «**أوشك الله له بالغِنى، إما بموتٍ عاجل أو غِنًى عاجل**».

قال القارى فى شرح قوله: «**إما بموتٍ عاجل**» قيل: بموت قريبٍ له غنى فيرثه.

وقيل فى قوله: «**بموتٍ عاجلٍ**» أى: فإما أن يرزقه ما يكفيه أو يأخذه سبحانه وتعالى فيعطيه جنته، ويكون من أهل المصائب الذين يكرمهم الله تبارك وتعالى عنده.

***

(٥٤٠) وعَنْ ثَوْبانَ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَكَفَّلَ لى أَن لا يسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَتكَفَّلُ له بالجَنَّة؟» فقلتُ: أَنا، فَكَانَ لاَ يسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا[(١)].

۞ إن النبى ﷺ يعلم أنه مهما كافأ أى إنسانٍ بأمرٍ من أمور الدنيا فإن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة.. ثم أنها ستزول عمَّا قريب أو أننا سنتركها عمَّا قريب.

ولذلك كان النبى ﷺ لا يعرض على أصحابه أى أمرٍ من حُطام الدنيا الفانية بل كان دائمًا يُكلفهم ويعرض عليهم الجنة.. ففى بيعة العقبة الثانية قال لهم فى نهايتها: ولكم الجنة.. أى إن بايعتم والتزمتم ببنود البيعة فلكم الجنة.. وكان يقول ﷺ: «**مَن يحفر بئر رومة وله الجنة**» «**مَن يُجهز جيش العُسرة وله الجنة**» «**مَن يأتينى بخبر القوم وهو رفيقى فى الجنة**» «**أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا**».

فالجنة مقابل عدم سؤال الناس... وفى هذا تعليم النبى ﷺ للمسلمين التعفُّف وألا يطلبوا من الناس شيئًا... فكل ما يقدر الإنسان أن يفعله بنفسه فليفعله؛ حتى لا يتعود الخدمة من الناس.

***

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٠٤).

(٥٤١) وعَنْ أبى بِشْرٍ قَبِيصَةَ بن المُخَارِقِ رضي الله عنه قال: تَحمَّلْت حمالَةً فأتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ أَسْأَلُهُ فيها، فقال: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِينَا الصَّدَقَةُ فنأْمُرَ لكَ بِها» ثُمَّ قال: «يا قَبِيصَةُ إِنَّ المَسأَلَةَ لا تَحِلُّ إلاَّ لأَحَدِ ثلاثَةٍ: رَجُلٌ تَحَمَّلَ حمالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصيبَها، ثُمَّ يُمْسِكُ. ورجُلٌ أَصابَتْهُ جائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مالَهُ، فَحَلَّتْ لهُ المسأَلَةُ حَتَّى يُصيبَ قِوَامًا مِنْ عيشٍ، أَوْ قال: سِدادًا مِنْ عَيْشٍ، ورَجُلٌ أَصابَتْهُ فاقَة، حَتى يقُولَ ثلاثَةٌ مِنْ ذَوى الحِجَى مِنْ قَوْمِهِ: لَقَد أَصابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ، فحلَّتْ لَهُ المسْأَلَةُ حتَّى يُصِيبَ قِوامًا مِنْ عَيْشٍ، أَوْ قالَ: سِدادًا مِنْ عَيْشٍ. فَمَا سِواهُنَّ مِنَ المَسأَلِةِ يا قَبِيصَة سُحتٌ، يأكُلُها صاحِبُها سُحتًا»(١).

۞ وفى هذا الحديث يحكى قبيصة أنه كان يُصلح بين الناس.. وكان من ضمن الإصلاح أنه تحمَّل أموالًا وأراد أن يؤديها من أجل أن يُصلح بين الناس.. فذهب إلى أهل الفضل ليساعدوه فيما تحمله.. فذهب إلى النبى ﷺ وأخبره بما حدث..

قال الإمام النوى رحمه الله: قَوْلُهُ (تَحمَّلْتُ حَمَالَةً) هِىَ بِفَتْحِ الْحَاءِ وَهِىَ الْمَالُ الَّذِى يَتَحَمَّلُهُ الْإِنْسَانُ أَىْ يَسْتَدِينُهُ وَيَدفَعُهُ فِى إِصلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ كَالْإِصلَاحِ بَيْنَ قَبِيلَتَيْنِ وَنَحوِ ذَلِكَ... وَإِنَّمَا تَحِلُّ لَهُ الْمَسْأَلَةُ وَيُعطَى مِنَ الزَّكَاةِ بِشَرْطِ أَنْ يَسْتَدِينَ لِغَيْرِ مَعصِيَةٍ(٢).

فلما سمع النبى ﷺ كلامه قال له: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل لأحدٍ إلا لثلاثة»، فعلمه النبى ﷺ أن الحالة الذى هو فيها من الحالات التى تحل فيها

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٤٤) كتاب الزكاة.
«الحَمالةُ» بفتح الحاء: أَنْ يَقَعَ قتَالٌ بَين فَرِيقَين، فَيُصلحُ إِنْسَانٌ بيْنهمْ عَلى مالٍ يَتَحمَّلُهُ ويلْتَزِمُهُ على نفسه. و«الجائحَةُ» الآفَةُ تُصيبُ مالَ الإِنْسانِ. و «القِوامُ» هوَ ما يقومُ بِهِ أَمْرُ الإِنْسانِ مِنْ مَالٍ ونحوِهِ و«السِّدادُ» مَا يَسُدُّ حاجةَ المُعْوِزِ وَيكْفِيه، و«الفَاقَةُ»: الفَقْرُ. و«الحِجَى»: العقلُ.
(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٨٧).

المسألة. فمن هذه الحالات: «**رجل تحمل حَمالة فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك**».

«**رجلٌ تَحمَّل حَمالة**»، يعنى التزم فى ذمته لإصلاح ذات البَين، فهذا يُعطَى وله أن يسأل حتى يصيبها، ثم يُمسك ولا يجوز له أن يسأل بعد ذلك.

والثانى: ورجل آخر أصابته جائحة اجتاحت ماله...كنارٍ وغرق وعدوٍّ وغير ذلك، فيسأل حتى يصيب قوامًا من عيش ثم لا يجوز له أن يسأل بعد ذلك.

والثالث: رجلٌ كان غنيًّا فافتقر بدون سببٍ ظاهر، وبدون جائحة معلومة، فهذا له أن يسأل، لكن لا يُعطَى حتى يشهد ثلاثة من أهل العقول من قومه بأنه أصابته فاقة، فيُعطَى بقدر ما أصابه من الفقر.

فهؤلاء الثلاثة هم الذين تَحِلُّ لهم المسألة وما سوى ذلك يقول الرسول ﷺ: «**وَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ المَسْأَلَةِ، يَا قَبِيصَةُ، سُحتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحتًا** ».

والسُّحت هو الحرام.. وسُمِّى سُحتًا؛ لأنه يسحت بركة المال، وربما يسحت المال كله، فيكون عليه آفات وغرامات تسحت ماله من أصله والله الموفق(١).

***

(٥٤٢) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لَيْسِ المسْكِينُ الَّذى يَطُوفُ عَلى النَّاس تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتان، وَالتَّمْرَةُ والتَّمرتَانِ، وَلَكِنَّ المِسْكِينَ الَّذى لا يجِدُ غِنًى يُغْنيه، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ، فَيُتَصدَّقُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيسْأَلَ النَّاسَ»(٢).

*** قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:**

مَعناهُ: الْمِسْكِينُ الْكَامِلُ الْمَسْكَنَةِ الَّذى هُوَ أَحَقُّ بِالصَّدَقِةِ وَأَحوَجُ إِلَيْهَا لَيْسَ

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢١١-٢١٣) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٩) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٩) كتاب الزكاة.

هُوَ هَذَا الطَّوَّافُ، بَلْ هُوَ الَّذِى لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ... وَلَيْسَ مَعنَاهُ نَفْىَ أَصلِ الْمَسْكَنَةِ عَنِ الطَّوَّافِ، بَلْ مَعنَاهُ نَفْىُ كَمَالِ الْمَسْكَنَةِ... كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ[1].

فهذا الذى لا يقدر أن يعمل ويستحى أن يسأل الناس ولا يعرف أحدٌ أنه فقير محتاج بسبب تعفُّفه.. هو أحق مَن تذهب إليه بزكاة مالك وصدقتك.. فاحرص على أن تبحث عن مثل هذا وأن تعطيه زكاة مالك لأن هذا هو الذى يستحق.. وليس الذى يطوف على الناس ليلًا ونهارًا لا يستحى من أحدٍ أبدًا حتى أنها أصبحت مهنة لآلاف المتسولين.

***

(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٨٢).

(٥٨) باب جواز الأخذ من غير مسألة ولا تطلُّع إليه

(٥٤٣) عَنْ سالمِ بنِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ، عَنْ أَبيه عبد الله بنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ رضي الله عنهم قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يُعطينى العطَاءَ، فَأَقُولُ: أَعطِه مَن هو أَفقرُ إِلَيهِ مِنِّى، فقال: «خُذهُ، إذَا جاءَكَ مِن هذا المَالِ شَىءٌ، وَأَنتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ ولا سَائلٍ، فَخُذْهُ فتموَّلْهُ فَإِن شئِتَ كُلْهُ، وإِن شِئْتَ تَصدَّقْ بِهِ، وَمَا لا، فَلا تُتْبعهُ نَفْسَكَ» قال سَالمٌ: فَكَانَ عَبدُ الله لا يسأَلُ أحدًا شَيْئًا، وَلا يَرُدُّ شَيئًا أُعطِيه[1].

❁ يعنى أن الإنسان لا ينبغى له أن يُعلق نفسه بالمال فيتطلع إليه أو يسأل، لأن ذلك يؤدى إلى ألا يكون له هَمٌّ إلا الدنيا... والإنسان إنما خُلق فى الدنيا من أجل الآخرة... قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

فلا ينبغى للإنسان أن يُعلق نفسه بالمال أو يهتم به... إن جاءه من غير تعب ولا سؤال ولا استشراف نفس فيقبله، وإلا فلا.

فكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يسأل أحدًا شيئًا، وإذا جاءه شىء من غير سؤال قَبِلَه، وهذا غاية ما يكون من الأدب، ألَّا تُذل نفسك بالسؤال، ولا تستشرف للمال وتُعلق قلبك به.

وإذا أعطاك أحدٌ شيئًا فاقبله؛ لأن رَدَّ العطية والهدية قد يحمل مَن أعطاك على كراهيتك فيقول: هذا الرجل مستكبر..هذا الرجل متغطرس، وما أشبه ذلك.

فالذى ينبغى أن مَن أعطاك بغير مسألة تقبل منه، إلا إذا كان الإنسان يخشى ممن أعطاه أن يَمُنَّ به عليه فى المستقبل فيقول: أنا أعطيتك، أنا فعلت معك كذا وكذا وما أشبه ذلك... فهنا يرده؛ لأنه إذا خشى أن يقطع المُعطى رقبته بالمنة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٣) كتاب الزكاة، (٧١٦٣) كتاب الأحكام- ومسلم (١٠٤٥) كتاب الزكاة.
«مُشرفٌ» بالشين المعجمة: أىْ: مُتَطَلِّعٌ إِلَيْه.

عليه؛ فليَحمِ نفسه من هذا[1].

۞ وفى هذا الحديث يقول عمر: (كان رسول الله ﷺ يعطينى العطاء فأقول: أعطه مَن هو أفقر إليه منى)، يعطيه من الأموال التى تأتى النبى ﷺ من مغانم الفيء ونحو ذلك، فكان يقسمها على ما أمر الله تبارك وتعالى به فى الغنائم...

قال الله سبحانه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية.

فذكر أن الخُمس يُصرَف فى هذه المصارف... والأربعة الأخماس تكون للغانمين المجاهدين فى سبيل الله تبارك وتعالى، وإذا كان المال فيئًا فقال الله سبحانه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧].

فكان النبى ﷺ يقسم هذا المال بحسب ما أمر الله سبحانه تبارك وتعالى به، فكان يقسم على المؤمنين بحسب ما أعطاه الله سبحانه... قد يعطى الجميع، وقد يعطى الأكثر، وقد يعطى البعض بحسب المال.

قال عمر رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ يعطينى العطاء)، كأنه تكرر هذا الشيء من النبى ﷺ أن يعطيه، (فأقول: أعطه مَن هو أفقر إليه منى) يعنى يوجد مَن هو أفقر منى، وأحوج منى لهذا المال.

فلما تكرر هذا من عمر رضي الله عنه علَّمه النبى ﷺ فقال: «**خُذه، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مُشرف ولا سائل فخُذه**».

المُشرف: الذى يتطلع إليه يريده، والسائل: الطالب... فالمشرف: أن يكون فى نفسه يريد أن يأخذ هذا المال ولكن لا يسأل، وقد يريد الإنسان ويطلب ويسأل.. وعمر لا يفعل هذا ولا هذا، لا سأل النبى ﷺ ولا استشرفت نفسه هذا المال.

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٢١٤-٢١٥) بتصرف.

فقال له النبى ﷺ: «**إذا جاءك من هذا المال شىء وأنت غير مُشرف ولا سائل فخُذه فتموله**»، العطاء هو الذى يُعطاه الإنسان، وقد كان النبى ﷺ يعطى، ومن بعده الخلفاء الراشدون كانوا يعطون الأموال من المغانم والفيء وغير ذلك أُعطيات.

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى عهده يعطى الناس على حسب تَقدُّمهم فى الإسلام وتَقدُّمهم فى الهجرة وقربهم من النبى ﷺ وغير ذلك... فجعل كل سَنة راتبًا لكل إنسان منهم حتى عَمَّ الخير بفضل الله سبحانه وتعالى على الجميع.

فتعلم عمر من النبى ﷺ أنه إذا جاءك من هذا المال شىء فاقبله طالما أنك لم تسأله ولم تستشرف له، فخذ ما آتاك الله سبحانه وتعالى من بيت المال... وقد أعطى النبى ﷺ لعمر من مال الغنائم ومن مال الفيء ونحو ذلك.

قال: «**فخذه فتموله**» أى: اتخذه مالًا وانتفع به.

«**فإن شئت كله وإن شئت تصدق به**» فخذه وتموله إن احتجت إليه، وإن لم تحتج إليه فاقبله وأعطه للفقراء، فيجرى الله عَزَّوَجَلَّ على يدك الخير، ولا تمتنع من هذا المال طالما أنك لم تسأله، ولكن إما أن تنتفع به إذا كنت محتاجًا أو تعطيه لغيرك.

وهذا أدبٌ عظيم علمه النبى ﷺ لعمر ولغيره... المال الذى من بيت المال حق المسلمين.. ما أتى من أجل أن يُدَّخر فى بيت المال، ويمكث عند النبى ﷺ أو عند الخلفاء من بعده، بل يُوزَّع هذا المال بحسب ما يريد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولو أنه أعطى هذا المال لعمر وقال عمر: لا أريد، فغيره من الناس أيضًا سيقولون: لا نريد... وعمر ما هو مُستشرف ولا متطلع ولا سائل، ولكن غيره قد يكون مُستشرفًا لهذا المال.

وعمر أخلص فى رفضه لله سبحانه، ولعل غيره لا يُخلص فى رفضه لهذا الشىء، وسيفتح على الناس باب شر، فيقول أحدهم: لا أريد؛ حياءً من الناس،

وهو يريده ومحتاج إليه، فيأتى من الباب الخلفى، وإذا لم يكن عنده دين فسوف يسرق من أموال الناس... فأغلق النبى ﷺ هذا الباب ووضع مبدأً عامًّا... فإذا رأيت أنك محتاج فأعطيتك فخُذ، فإن كنت غير محتاج فأعطه لمن ترى أنت، ولكن اقبل المال بحيث أن غيرك لا يستحى أن يأخذ حقه من بيت المال.

فتعلم عمر رضي الله عنه هذا، فأخذ هذا المال، وكان يعطى من هذا المال بعد ذلك لأصحاب النبى ﷺ لما تولى الخلافة، وقسم الناس حسب مراتبهم فى الإسلام ومراتبهم فى الهجرة ومراتبهم من النبى ﷺ.

وكان حكيم بن حزام يرفض أن يأخذ المال منه، فكان يُشهد عليه الناس ويذكر ما حدث بينه وبين النبى ﷺ فى هذا الأثر، ويقول: اشهدوا أن حكيمًا لا يريد أن يأخذ المال الذى هو حقه من بيت مال المسلمين.

وفى رواية لهذا الحديث أن النبى ﷺ قال: «**فإن شئت كُلْه وإن شئت تصدق به، وما لا فلا تُتبعه نفسك**»، أى: إذا لم تأخذ لحاجة فلا تطمع فى شىء، فإذا آتاك الله عز وجل المال فخُذ ما آتاك الله سبحانه.

قال سالم بن عبد الله: فكان عبد الله لا يسأل أحدًا شيئًا.

انتفع عبد الله بن عمر بما سمع من أبيه رضى الله عن الجميع، قال: (فكان لا يسأل أحدًا شيئًا، ولا يرد شيئًا أُعطيه) يعنى: ما كان يطلب من الخلفاء شيئًا ولو طلب لأعطوه، فقد كان عبد الله بن عمر محبوبًا رضي الله عنه.

ولكنه ما كان يطلب من أحدٍ شيئًا، فإذا أعطاه الخلفاء أو أعطاه أحد على وجه الهدية قَبِلَ ذلك، لكنه كان لا يطلب... والسبب ما سمعه من حديث النبى ﷺ ذلك، فهو يأخذ المال فينتفع به إما لنفسه وإما أن يتصدق به أو يعطى الناس على وجه الهدية ونحوها[١].

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ أحمد حطيبة.

(٥٩) باب الحث على الأكل من عمل يده والتعفُّف به عن السؤال والتعرُّض للإعطاء

۞ ذكر المؤلف باب الحث على الأكل من عمل يده، والتعفُّف به عن السؤال والتعرض للإعطاء.

فالمسلم يعمل ويتكسب ويعلم أن أشرف المكاسب ما تعب فيه وكَدَّ وكدح، وجاءه المكسب ولو كان قليلًا، ولكنه يفرح بهذا الشيء، فله أجره عند الله؛ لأنه يتعفف ولا يسأل أحدًا من الناس، ولأنه يقوت أهله وعياله، ولو ترك ذلك لكان آثمًا... وكفى بالمرء إثمًا أن يُضيع مَن يعول... فإذا كان الإنسان يكتسب حتى لا يقع فى هذا الإثم فهو مأجور عند الله سبحانه وتعالى.

۞ وفي هذا الباب ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾

[الجمعة: ٩-١٠].

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين يُنادَى لها والسعى إليها... والمراد بالسعى هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العَدْو الذى قد نُهى عنه عند المُضى إلى الصلاة... وقوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ أى: اتركوا البيع، إذا نودى للصلاة، وامضوا إليها. فإن ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة، التى هى من آكد الفروض. ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن مَن آثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح...

وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات.. ولما كان الاشتغال بالتجارة، مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره لينجبر بهذا، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أى فى حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح[1].

فيوم الجمعة يوم عيد ... فإذا صليت الجمعة وأديت ما عليك، فاذهب وابتغِ من فضل الله بالعمل، أو بالصناعة أو بالتجارة... ما طلب منك ربنا أنك تقعد يوم الجمعة فى البيت، وأن تستريح فى الجمعة أو فى غيرها، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أمرك أن تكتسب، فابتغِ من فضل الله سبحانه وإذا أديت الفرض فأنت حُرٌّ فى أن تستريح أو تعمل، ولكن لا تمد يدك للناس وأنت قادر على أن تعمل وتتكسب.

(٥٤٤) وعَنْ أبى عبد الله الزُّبَيْرِ بنِ العوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لأَنْ يَأْخُذَ أَحدُكُم أَحبلَهُ ثُمَّ يَأْتِيَ الجَبَلَ، فَيَأْتِيَ بحُزْمَةٍ مِن حَطَبٍ عَلى ظَهْرِهِ فَيَبيعَهَا، فَيَكُفَّ الله بها وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَن يَسأَلَ النَّاسَ، أَعطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»[2].

(٥٤٥) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لأَنْ يَحتَطِبَ أَحَدُكُم حُزمَةً على ظَهرِهِ، خَيْرٌ لَهُ من أَنْ يَسأَلَ أَحَدًا، فَيُعطِيَه أو يمنَعَهُ»[3].

۞ إن الإسلام دين يدعو إلى العمل... بل ويعتبر العمل من نوافل العبادات التى يتقرب بها العبد إلى الله بشرط ألا يشغله العمل عن عبادة الله (جل وعلا).

فما أجمل أن يعمل العبد عملًا حلالًا ويكسب رزقًا حلالًا فينفق على أهله

(١) تفسير السعدى (ص١٠٢٤-١٠٢٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٤٧١) كتاب الزكاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٧٤) كتاب البيوع، ومسلم (١٠٤٢) كتاب الزكاة.

وأولاده ويتصدق على الفقراء والمساكين.

وما أقبح أن يعيش المسلم عالة على الناس فيسأل هذا ويأخذ من هذا... فاليد العُليا خير من اليد السُّفلى.

ولذلك كان النبي ﷺ يحضنا على الأكل من عمل اليد والتعفُّف عن سؤال الناس...

۞ **وفي هذا الحديث يحث النبي ﷺ أصحابه وأمته على العمل والكسب من عمل اليد** حتى ولو كان ذلك من خلال مهنة يأنف أن يعمل بها كثيرٌ من الناس لأن فيها مشقة كبيرة وهي مهنة جمع الحطب.

والصحابة ما كانوا حطَّابين... ومهنة جمع الحطب من أقل المهن، ولكن مهما كانت فهي أفضل من أن يسأل الإنسان غيره... فالصحابة منهم التجار ومنهم الزُّرَّاع، وأهل المدينة كانوا متعودين على الزراعة، والمهاجرون كانوا متعودين على التجارة، ولكن لا ينبغي أن يقعد الإنسان من غير عمل.

فالنبي ﷺ يُعلم المسلم ألا يسأل أحدًا شيئًا، فيقول: خُذ **حبلًا على كتفك** واذهب إلى الجبل فاحتطب من هناك، ثم بِعْ هذا الحطب للناس، **فتنتفع بهذا** الشيء فتتكسب وتُؤجَر على ذلك.

قال ﷺ: «**فيبيعها فيكف بها وجهه**»، سيبيع ويكسب ويَكُف **الله** عَزَّوَجَلَّ **وجهه** بذلك ويكتفي ولا يسأل أحدًا شيئًا، فهذا خير له وأفضل له من **أن يسأل الناس** أعطوه أو منعوه.

فسؤال الناس فيه ذُلٌّ، حتى لو أعطوك فتوجد منة من الذي أعطاك، فالأفضل أن لا تسأل أحدًا.

ولذا قال هنا: (خير له)، السؤال لا خير فيه إلا للمحتاج أو المضطر، أما غير ذلك فسؤال الناس لا خير فيه.

فالخير للإنسان أن يكتسب بنفسه ويتعب نفسه... فعلينا أن نكسب المال الحلال من وجهه، ما ننتظر المال الحرام، وما ننتظر أن يُنزل الله علينا رزقًا من السماء، ولكن نبحث عن ذلك ونمشى فى الأرض وننتشر فيها ونأكل من رزق الله ونبحث عن فضل الله سبحانه.

والإنسان لا يستكبر عن أى عمل مهما كان هذا العمل...وكثير من الشباب يبحثون عن أعمال وإذا وجد أحدهم عملًا قال: هذا العمل لا يناسبنى!

جلوسك فى البيت أذل لك من عمل لا يناسبك... ابحث عن العمل الحلال ولو كان من أقل الأعمال، طالما أنك تَكُف به نفسك عن سؤال الناس، فهذا خير لك وأفضل لك، حتى ولو كانت الأجرة فيه قليلة... ولو علم الله عَزَّوَجَلَّ فى قلبك الخير لأعطاك الكثير بعد ذلك لصبرك وتعفُّفك عن سؤال الناس... فيجب على الإنسان المسلم أن يبحث عن الرزق الحلال من وجهه، ولا يقعد فى البيت ينتظر مَن ينفق عليه، ولا يقعد فى البيت وينتظر إنسانًا يعطيه مالًا يُقرضه، وليس عنده ما يُسدد به هذا القرض!

جاء شابان إلى النبى ﷺ يسألانه فنظر إليهما، فوجدهما شابين جلدين، فقال: «**إن شئتما أعطيتكما، واعلما أنه لا حظ فى هذا المال لغنى ولا لذى مِرة سَوى**».

يعنى: سأعطيكما من هذا المال إذا كنتما محتاجين أو مضطرين، لكن: «**لا حظ فى هذا المال لغنى**».

وقد يقولان: نحن فقراء ما عندنا فقال: «**ولا لذى مِرة سَوى**»، فالشاب القوى الذى فيه جَلَد وفيه قوة لا حَظَّ له فى مال الصدقة ولا حَظَّ له فى مال الزكاة.

فلا تأخذ مالًا لا تستحقه، و اسعَ فى طلب الرزق واعمل، وبفضل الله

يرزقك سبحانه: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه هنا قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره**»، لن يأخذ معه حمارًا أو حصانًا يحمله عليه، بل سيحمله على ظهره «**خير له من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه**».

فالأفضل للإنسان أن يتعب فى طلب الرزق، وهذا أفضل من أن تمد يدك لإنسان فيقول لك: ما عندى.. فاذهب واعمل فأنت قوى تقدر على أن تعمل، ولا تمد يدك إلى أحد من الخلق.. ومُدَّ يدك إلى الله الذى يرزق كل المخلوقات سبحانه وتعالى.

۞ كان هناك رجل فقير يعيش فى كوخٍ صغير... وكان هذا الرجل لا يعمل... وعنده زوجة وأولاد لا يجدون لقمة واحدة فما كان من هذا الرجل إلا أنه ذهب إلى النبى ﷺ ليطلب منه مالًا ليشترى به طعامًا له ولأولاده.

فسأله النبى ﷺ: «**هل تعمل؟**» فقال الرجل: لا.

فسأله النبى ﷺ: «**هل عندك شىء فى بيتك؟**».

قال له الرجل: عندى كساء نلبس بعضه ونضع بعضه على الأرض لنجلس عليه وعندى أيضًا إناء نشرب فيه.

فأمره النبى ﷺ أن يعود إلى بيته وأن يُحضر الإناء والكساء.

فذهب الرجل إلى بيته وأخذ الإناء والكساء وذهب بهما إلى رسول الله ﷺ.

فأخذهما النبى ﷺ وقال لمن حوله من أصحابه: «**مَن يشترى هذا الكساء ومَن يشترى هذا الإناء؟**».

قال واحد من أصحابه: أنا أشتريها يا رسول الله بدرهم.

فقال النبى ﷺ: «**مَن يزيد على درهم؟**».

قال رجل آخر: أنا أشتريهما بدرهمين.

فوافق النبى ﷺ وأخذ الدرهمين وأعطاهما للرجل الفقير.

فقال له الرجل الفقير: ماذا أصنع بهذين الدرهمين يا رسول الله؟

فأمره النبى ﷺ: أن يشترى بالدرهم الأول طعامًا لزوجته وأولاده.

وأن يشترى بالدرهم الثانى قَدومًا (شاكوشًا).

فتعجب الرجل وقال: وماذا أصنع بهذا القَدوم يا رسول الله؟

فقال له رسول الله ﷺ: **«تذهب وتجمع الحطب ثم تبيعه فى السوق... وتفعل ذلك كل يوم ... وأريد أن أراك بعد خمسة عشر يومًا»**.

سمع الرجل كلام النبى ﷺ فذهب وجمع الحطب وباعه.

وبعد مرور خمسة عشر يومًا جاء الرجل إلى رسول الله ﷺ.

فقال له رسول الله ﷺ: **«ماذا صنعت فى الأيام الماضية؟»**.

قال له الرجل: ذهبت يا رسول الله وجمعت الحطب ثم بعته... وكسبت عشرة دراهم.

فقال له النبى ﷺ: **«هذا خير لك من أن تطلب مالًا من الناس»**.

***

(٥٤٦) وعَنْ أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنِ النَّبِىِّ ﷺ قال: «كان دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يَأْكُل إِلاَّ مِن عَملِ يَدِهِ»[1].

(٥٤٧) وعَنْه أَن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ نجَّارًا»[2].

(٥٤٨) وعَنْ المِقدَام بن مَعدِ يكَرِبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبى ﷺ قال: «ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِن أَنَ يَأْكُلَ مِن عمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ ﷺ كان يَأْكلُ مِن عَمَلِ يَدِهِ»[3].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٠٧٣) كتاب البيوع.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٧٩) كتاب الفضائل.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٠٧٢) كتاب البيوع.

۞ ففى تلك الأحاديث يخبر النبى ﷺ أن الأنبياء (صلوات ربى وسلامه عليهم) كانوا يعملون.. فمنهم مَن كان يرعى الغنم ومنهم مَن كان يعمل نجارًا ومنهم مَن كان يصنع الدروع.. وهكذا.

وهنا يقول النبى ﷺ: (كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده).

داود عليه السلام كان ملكًا، ومع هذا كان يأكل من عمل يده! وغيره من الأنبياء كانوا يعملون.. ولكن ذكر النبى ﷺ لنا هنا داود عليه السلام لأن العادة أن الملوك لا يشتغلون بالكسب، وعندما يذكرون عنه أنه كان يصنع الدروع قد يُظن أن المقصود أن الأتباع هم الذين كانوا يصنعون السوابغ، يعنى الزرود والدروع.

فلأنه ملك فقد كان الذين حوله هم الذين يصنعون، لكن النبى ﷺ يذكر الشىء على حقيقته، فأخبر أنْ داود كان لا يأكل إلا من عمل يده، فيعمل عليه الصلاة والسلام وهو ملك من الملوك.. ملَّكه الله عز وجل على بنى إسرائيل ومع ذلك كان يصنع الزرود، أى: يصنع القمصان من الحديد ليلبسها المجاهدون ويبيعها ويأكل من هذه الصنعة.

بل أخبر النبى ﷺ أن زكريا عليه السلام كان يعمل نجارًا.

وعندما نزل آدم عليه السلام من الجنة وأُهبط إلى الأرض كان يعمل حرَّاثًا فيزرع ويأكل من حصاد ذلك الزرع.

(وكان نوح نجارًا) فعلم النجارة وكان لا يعلم شيئًا عن صناعة السفن، فأوحى إليه ربه سبحانه أن يصنع السفينة.

قال: (وكان إدريس عليه الصلاة والسلام خياطًا، وكان موسى راعيًا) وكون موسى راعيًا فهذا مذكور فى القرآن، حيث استُؤجر ثمان سنوات أو عشر سنوات ليعمل بالرعى مقابل أن يتزوج عليه الصلاة والسلام ابنة الرجل الصالح من أهل مَدْيَن.

والغرض أن الأنبياء كانوا يعملون، ونبينا ﷺ عَمِلَ قبل أن يُوحَى إليه... كان يعمل فى رعى الغنم ﷺ، وما من نبى إلا ورعى الغنم، وكذلك تَاجَر مع السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ... فتاجر وكسب وربح مالًا كثيرًا (صلوات الله وسلامه عليه).

وبعدما أُوحى إليه (صلوات الله وسلامه عليه) وهاجر وفُرض الجهاد جعل الله للنبى ﷺ أعظم المكسب، فقال: «**وجُعل رزقى تحت ظل رُمحى**»، يعنى الجهاد فى سبيل الله سبحانه وتعالى... فرزقه كان من المغانم، وما كان يأخذها ويستأثر بها على المسلمين وإنما كان له الخُمس من المغانم.... فالمغنم يُقسَّم أخماسًا كما فى قوله تعالى(١): ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ أى: أخذتم من مال الكفار قهرًا بحقٍّ، قليلًا كان أو كثيرًا. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أى: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خُمسها. فدلَّ على أن الباقى لهم، يُقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للراجل سهم، وللفارس سهمان: سهمٌ لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخُمس، فيُقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يُصرف فى مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله... والله ورسوله غنيان عنه، فعُلم أنه لعباد الله. فإذا لم يُعين الله له مَصرفًا، دلَّ على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخُمس الثانى: لذى القربى، وهم قرابة النبى ﷺ من بنى هاشم وبنى المطلب. وأضافه الله إلى القرابة دليلًا على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوى فيه غنيهم وفقيرهم، ذَكَرهم وأُنثاهم.

والخُمس الثالث لليتامى، وهم الذين فُقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خُمس الخُمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد

---

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين/ للشيخ أحمد حطيبة.

فُقد مَن يقوم بمصالحهم.

والخُمس الرابع للمساكين، أى: المحتاجين الفقراء من صغارٍ وكبارٍ، ذكورٍ وإناث.

والخُمس الخامس لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به فى غير بلده[1].

۞ وأما قوله ﷺ: **«ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده»**.

فخير الطعام وأفضل الطعام الذى تأكله مما كسبته بعرق جبينك فأطيب المال وأطيب الطعام هو الذى تعبت أنت فاكتسبته بتعبك وعرق جبينك.

فقد يأكل الإنسان من هدية.. وقد يأكل الإنسان من صدقة.. وقد يأكل الإنسان من طعام فلان، ولكن طعامك الذى اكتسبته بمالك وتعبت فيه واجتهدت فيه هذا هو أطيب الطعام لك وأفضل الطعام لك.

وقد سبق أن ذكرنا أن أُسوتنا وقدوتنا رسول الله ﷺ كان يرعى الغنم.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: **«مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»**، فَقَالَ أَصحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: **«نَعَمْ، كُنْتُ أَرعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»**[2].

---

(١) تفسير السعدى (ص٣٥٤-٣٥٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢) كتاب الإجارة.

(٦٠) باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى

۞ ذكر المصنف باب الكرم والجود والإنفاق فى وجوه الخير ثقة بالله تعالى.

والثقة بالله عظيمة.. فالمؤمن واثقٌ فى الله، ووعد الله حق، لا يُخلف الله الميعاد.. فإذا قال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[سبأ: ٣٩] فيقينًا أنه يُخلفه سبحانه وتعالى... والمسلم يعتقد ذلك يقينًا ويُقسم على ذلك، فإن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى وعد بذلك، والله لا يخلف الموعد أبدًا.

فهنا فى هذه الآية قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[سبأ: ٣٩] فأنفِق ولا تَخف... فربُنا سيُخلف غيره، على شرط ألا يكون فى الإنفاق سَرَف أو يكون الإنفاق فى غير مَحِلّه، فما كان واجبًا عليك فأخرجه، ولا تنظر للنافلة وتترك الفرض الذى عليك! لا يجوز للإنسان الذى عليه زكاة مال أن يقول: أُخرج صدقة بدل زكاة المال.. فزكاة المال فرضٌ عليك، فأخرج أولًا زكاة المال، ثم بعد ذلك أنت حُرٌّ فتصدق أو لا تتصدق، ولكن الزكاة فرض عليك، والإنسان يجب عليه أن ينفق على عياله ولا يترك عياله جائعين وليس عندهم كسوة، ويصرف على إنسانٍ غريب وعياله يحتاجون إلى ذلك، فأهل البيت أَولَى.

النبى ﷺ قال: «**ابدأ بنفسك، وابدأ بمن تعول**»، فتبدأ بنفسك وتبدأ بأقاربك الذين تعولهم ثم بعد ذلك أعطِ الغريب... ولذلك النفقة على القريب فيها أجران، صلة وصدقة، والنفقة على الغريب صدقة فقط، فالنفقة على القريب أعظم أجرًا منها على الغريب.

۞ قال سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٧٢].

﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾ يعنى: مهما أنفقتم من النفقات فى خير: ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ يعنى: نفعها لأنفسكم.

فقد قال الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

۞ فالمسلم الذى ينحر الذبائح سواء كان ذلك فى الهدى أو الأُضحية وغيرها.. هل هو يفعل ذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ سيستفيد منها؟ كلا.. فقد قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ [الحج: ٣٧] لن ينال الله سبحانه وتعالى هذه اللحوم، ولن ينتفع بذلك حاشا لله سبحانه، ولكن ما هو الذى يصل إلى الله؟ الذى يصل إلى الله التقوى ... ويُرفَع إليه العمل الصالح، والتقوى تُرفع إليه لتُؤجروا أنتم على هذه التقوى من فضل الله سبحانه.

وهنا قال: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

يعنى الأصل أنك لا تنفق نفقة إلا وأنت مُستحضر أن هذه لله ليست رياءً ولا سُمعة.. ليس لأن يقول الناس: فلان أنفق أو يُلقبوه بالجواد والمنفق، ولكن ينفق ليبتغى وجه الله سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

سيعطيك الله على الشىء الذى أنفقته عشرة أضعافه إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة ... بل لو لم تنفق أخذت مثله...فأنت إذا نويت النفقة ثم بدا لك أنك محتاج لهذا المال، أو بعدما جئت لتتصدق تذكرت أن عليك دَينًا ... وقضاء الدين أفضل، فلم تنفقه وأرجعت المال إلى جيبك، فالله عَزَّوَجَلَّ يأجرك وكأنك أنفقت هذا المال!... انظر إلى كرم ربك سبحانه وتعالى، أنت لم تفعل وأعطاك الأجر كأنك فعلت، فالله يوفى لك المكيال... فلا يُعطيك مثل الذى أنت عملته فقط، بل أَوفى وأوفى وأفضل.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ يعنى: والحال أنكم لا تُظلمون من الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]

فإذا علم ذلك فهو يُخلف عليك ويأجرك عليه [(١)].

(٥٤٩) وعَنْ ابنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثنتينِ: رَجُلٌ آتاهُ الله مَالًا، فَسَلَّطَه عَلَى هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاه الله حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُها» [(٢)].

۞ الحسد يُطلق ويُراد به الحسد المحرم الذي هو من كبائر الذنوب وهو أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على غيره... هذا هو الحسد أن تكره ما أنعم الله به على غيرك... تجد إنسانًا عنده مال فتكره ذلك وتقول: ليت الله ما رزقه... تجد إنسانًا عنده علم تكره ذلك وتتمنى أن الله لم يرزقه العلم... عنده أولاد صالحون تكره ذلك وتتمنى أن الله لم يرزقه... وهَلُمَّ جَرًّا ... هذا هو الحسد وهذا النوع من كبائر الذنوب.

وهو من خصال اليهود كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٥٤] وقال عنهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

أما النوع الثاني من الحسد فهو حسد الغبطة يعني الذي تغبط به غيرك أن أنعم الله عليه بمال أو علم أو ولد أو جاه أو غير ذلك.

فالغبطة هي تَمَنِّي مثل ما عند الغير دون تمنِّي زوال ما عند الغير.. فإذا

---

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين)/ للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين.
معناه: يَنْبَغِي أن لا يُغبطَ أحدٌ إلاَّ على إحدَى هَاتَينِ الخَصلتَيْنِ.

وجدت جارك قد أنعم الله عليه بسيارة جميلة تقول: اللهم بارك له فيها واجعلها عونًا له على طاعتك وارزقنى مثله.

فالناس يغبط بعضهم بعضًا على ما آتاهم الله من النعم... يقول: ما شاء الله فلان أعطاه الله كذا فلان أعطاه الله كذا... لكن لا غبطة إلا فى شيئين: الغبطة الحقيقية التى يُغبط عليها الإنسان شيئان: الأول العلم، العلم النافع وهو المراد بقوله: «**رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويُعلمها**».

فالحكمة تُطلَق على معانٍ منها أن يضع الشىء فى موضعه.

فالحكيم يفكر بالعقل وعنده قلب وفيه لُبٌّ...

وتُطلَق بمعنى العلم... وتُطلَق الحكمة بمعنى سُنة النبى ﷺ... والحكمة بمعنى الإصابة فى الدين.

فهذا رجل أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ علمًا فى الكتاب وعلمًا فى سُنة النبى ﷺ، وأعطاه الحكم الصواب فى الأشياء فهذا حكيم، فهو يقضى بها ويُعلمها.

قال: «**رجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها**» يعنى أفعاله مبنية على الحكمة، لا يخالف قولُه عملَه، ولا يخالف عملُه علمَه، ولكن يعمل بما عَلِمَ... آتاه الله حكمة فهو يقضى بها فى أفعاله وفى قضائه ويُعلمها للناس.

هذا الذى يستحق أن يقول الإنسان: يا ليتنى مثله.

فهذا الذى يُغبط لأن العلم هو أنفع شىء... أنفع من المال وأنفع للإنسان من الأعمال الصالحة لأنه إذا مات وانتفع الناس بعلمه جرى ذلك عليه إلى يوم القيامة... كلما انتفع به أى إنسان من الناس فله أجر العلم ... كلما أنفقت منه وعلَّمته ازداد... ولهذا من أقوى ما يثبت العلم ويُبقى حفظه أن يُعلمه الإنسان غيره لأن الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ... فإذا علَّمت غيرك علمك الله وإذا علمت غيرك ثبَّت الله العلم فى نفسك... لكن لا تتقدم للتعليم

إلا وأنت أهلٌ له حتى ينفع الله بك وحتى لا تفشل أمام الناس لأن الذى يتقدم للتعليم وليس أهلًا له بين أمرين: إما أن يقول بالباطل وهو لا يشعر وإما أن يفشل وإذا سُئل عجز عن الإجابة مثلًا... فهذا العلم كل ما أنفقت منه ازداد... أيضًا العلم لا يحتاج إلى تعبٍ إلا فى تعَلُّمه.. لا يحتاج مثلًا إلى خزائن كالمال.. فالمال يحتاج إلى خزائن وإلى محاسبين وإلى حسابات وإلى تعب لكن العلم لا يحتاج إلى هذا.. خزينته قلبك وهى معك أينما كنت فلا تخشَ عليه أن يُسرق ولا أن يُحرق لأنه فى قلبك... فالمهم أن العلم هو أفضل نعمة أنعم الله بها على الإنسان بعد الإسلام والإيمان ولهذا قال: «**رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويُعلمها**»[١].

۞ والناس فى الحكمة ينقسمون إلى أقسام:

قسم آتاه الله الحكمة فبَخِل بها حتى على نفسه، لم ينتفع بها فى نفسه، ولم يعمل بطاعة الله، ولم ينتهِ عن معصية الله، فهذا خاسر والعياذ بالله، وهذا يشبه اليهود الذين علموا الحق واستكبروا عنه.

وقسم آخر أعطاه الله الحكمة فعمل بها فى نفسه، لكن لم ينفع بها عباد الله، وهذا خيرٌ من الذى قبله، لكنه ناقص.

وقسم آخر أعطاه الله الحكمة فقضى بها وعمل بها فى نفسه وعلَّمها للناس، فهذا خير الأقسام.

وهناك قسم رابع لم يُؤتَ الحكمة إطلاقًا فهو جاهل، وهذا حُرم خيرًا كثيرًا، لكنه أحسن حالًا ممن أُوتى الحكمة ولم يعمل بها... لأن هذا يُرجى إذا علم أن يتعلم ويعمل، بخلاف الذى أعطاه الله العلم، وكان علمه وبالًا عليه والعياذ بالله[٢].

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٢٦-٣٢٧) بتصرف.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢١٨-٢١٩).

۞ أما الثانى: فهو «**رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته فى الحق**» يعنى صار يبذل ماله فيما يُرضى الله عَزَّوَجَلَّ لا يبذله فى حرام ولا يبذله فى لغو وإنما يبذله فيما يُرضى الله... سلطه الله على هلكته يعنى على إنفاقه فى الحق.

كان غنيًّا فسلط ماله بالتصرُّف فى الحق... يُخرجه للفقراء وللمساكين، ولا يضيع حق نفسه وحق بيته.. فينفق بالقدر الذى يُرضى به ربه سبحانه وتعالى، فالله عَزَّوَجَلَّ آتاك المال لتُخرجه وليس من أجل أن تُكثره وتكنزه حتى تموت وتتركه لغيرك! بل جعل الله المال لتنفق منه فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ وفى وجوه الخير.

فهذا الإنسان ينفق بالعدل، ينفق بالإحسان، يعطى ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والفقراء وغيرهم... فهذا لك أن تقول: يا ليتنى مثل فلان، يا ليت ربنا أعطانى حتى أكون مثله... وهذا الإنسان لا يحرمه ربه أبدًا من فضله ومن كرمه... هذا الغنى الذى يعرف حق الله ويعطى من غير رياء ولا سُمعة، فهذا لا يضيعه الله عَزَّوَجَلَّ، بل يزيد له من فضله ومن كرمه سبحانه.

فهذا أيضًا ممن يُغبَط.... فنحن لا نغبط مَن عنده مال عظيم لكنه بخيل لا ينفق المال.. لا نغبطه بل هذا نتأوه له ونقول هذا المسكين كيف يستطيع الجواب على حساب يوم القيامة على هذا المال من أين اكتسبه وفيما أنفقه وكيف تَصرَّف فيه... لكن إذا رأينا رجلًا آتاه الله مالًا وصار ينفقه فيما يُرضى الله نقول ما شاء الله هذا يُغبَط... لا نغبط إنسانا آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته فى القصور والديكورات والسيارات الفخمة نحن لا نغبطه على هذا بل نقول هذا مُسرف إذا كان قد تجاوز الحد فيما ينفق ... والله لا يحب المسرفين.

هذا لا نغبطه لأنه لم يُسلط ماله فى الحق إنما الذى يُغبَط مَن سلَّط ماله فى الحق... أيضًا لا نحسد إنسانًا آتاه الله مالًا فصار كل ما عَنَّ له أن يتزوج تزوج وجمع عنده من النساء الحِسان ما لا يجمعه غيره.... هذا لا نغبطه أيضًا إلا إذا

كان قد سلَّطه على هلكته فى الحق وأراد بذلك تحصين فرجه وتحصيل السُّنة وكثرة النسل... هذا مقصود شرعى يُغبَط عليه الإنسان.

ولكن مَن آتاه الله الحكمة يعنى العلم فقضى بها وعلَّمها فهذا خير الرجلين.. يعنى خيرٌ من صاحب المال الذى سلَّطه على هلكته فى الحق نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح(١).

(٥٥٠) وعَنْ ابنِ مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: **«أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِليه مِن مَاله؟»** قالُوا: يا رَسولَ الله. ما مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِليه. قال: **«فَإِنَّ مَالَه ما قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِه ما أَخَّرَ»**(٢).

۞ الصحابة أهل صدقٍ وأهل عدل، وجوابهم جواب صدق، وربما لو سُئل غيرهم: هل مالك أحب إليك أو مال الورثة؟ سيقول: مال الورثة، أترك لهم مالًا حتى لا يضيعوا... لكن الصحابة عرفوا أن المال اختبار وامتحان من الله عَزَّوَجَلَّ.

المال فى يدك وأنت تتصرف فى هذا المال: فالإنسان إما أن ينفقه فى الحق ويبقى له الأجر والثواب عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإما أن ينفقه فى الباطل فعليه الإثم.. وإما أن يدخره وهذا المُدَّخِر إما أن يؤدى زكاة ماله أو لا يؤديها، فإذا أدى زكاة ماله انتفع بقدر هذه الزكاة الواجبة عليه، والباقى لم ينتفع به شيئًا، وإذا أخرج من هذا الباقى فأعطى فى الحقوق فالله يُنمى هذا بإعطائه.

فالإنفاق خيرٌ للإنسان من أن يترك المال للوارث.

فلما سألهم النبى ﷺ **«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟»** يعنى: أيكم يحب

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٢٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٤٢) كتاب الرقاق.

أن الله يرزقه مالًا فيجمعه لورثته ويحرم نفسه منه حتى يموت ولم ينتفع بهذا المال ويتركه للوارث!... فقالوا: مالنا أحب إلينا من مال الوارث، فنحن نتحكم فيه ونحكم به ونعطى ونمنع... فقالوا هذا لأنهم أهل صدق وأهل إنفاق رضوان الله عليهم، والمآثر التى تكون عند الله عَزَّوَجَلَّ لن تكون إلا بالبذل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فقال ﷺ: «**فإن ماله ما قدَّم**»، حقيقة مالك ما قدمته لله سبحانه فادخرته عنده بالإنفاق فى وجوه الخير.

قال: «**ومال وارثه ما أخَّر**»، الذى ادخرته فى الدنيا لن تنتفع به يوم القيامة، وهذا يكون للوارث وليس لك أنت.

ثم أنت أدرى بما تصنع في مالك.. أما إذا تركته للوارث فقد ينفقه في مرضاة الله وقد ينفقه في معصية الله ويكون ذلك في ميزان سيئاته وسيئاتك.. وليس معنى ذلك ألا تترك مالًا لورثتك لكن المعنى أن تتصدق وأنت حيٌّ وتقدم الخير لنفسك بين يدي الله.. ثم تترك مالًا لورثتك حتى لا يحتاجوا من بعدك ولكن توصيهم بتقوى الله.. فإذا فعلوا معصية بهذا المال تكون أنت قد برئت ذمتك.

(٥٥١) وعَنْ عَدىِّ بنِ حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ **قال**: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمرةٍ**»(١).

۞ يعنى لا تستقل الصدقة، وإذا عوَّدت نفسك على الإنفاق ولو بأقل الأشياء يكون لك عند الله عَزَّوَجَلَّ أجرٌ عظيم يوم القيامة... فإذا أعطيت هذا الإنسان تمرة، وأعطيت الآخر شِق تمرة، وأعطيت للثالث مثلها، وأنت لم تحتقر هذا الشيء ولكن جُدت بالموجود، فهذا خيرٌ من المنع.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١٧) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم منهم مَن ينفق الكثير، ومنهم مَن ينفق القليل بحسب ما أعطاه الله سبحانه وتعالى[(١)]، فهنا قال النبى ﷺ «**اتقوا النار**» يعنى اجعلوا بينكم وبين النار وقاية وسترًا وحاجزًا ولو بأقل الأشياء.. ألا وهى شق تمرة ... أى نصف تمرة.

(٥٥٢) وعَنْ جابرٍ رضي الله عنه قال: ما سُئِل رسول الله ﷺ شَيئًا قَطُّ فقالَ: لا[(٢)].

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن النبى ﷺ هو أُسوتنا وقدوتنا.. فقد قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فينبغى علينا أن نتشبه بالنبى ﷺ فى عباداته وأخلاقه ومعاملاته بل فى كل شيءٍ.

۞ ولقد كان النبى ﷺ أجود الناس وأكرم الناس حتى وصفه الحق (جل وعلا) بالكرم والجود فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة: ٤٠].

وكانت حياته كلها تطبيقًا عمليًّا لكل ما جاء فى القرآن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه فى كل ليلةٍ من رمضان، فيُدارسه القرآن، فلَرسولُ الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المُرسَلة»[(٣)].

۞ **وعن أنس بن مالك رضي الله عنه**: «كان النبى ﷺ لا يدخر شيئًا لغدٍ»[(٤)].

وكان رسول الله ﷺ يقول: «ما يَسُرُّنى أن عندى مثل أُحُدٍ ذهبًا، تمضى علىَّ ثلاثٌ وعندى منهُ دينارٌ إلا شيئًا أرصُدُهُ لدَينٍ، إلا أن أقُول به فى عباد الله: هكذا،

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٣٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١١) كتاب الفضائل.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦) كتاب بدء الوحى، ومسلم (٢٣٠٨) كتاب الفضائل.

(٤) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٤٦).

وهكذا، وهكذا. عن يمينه وعن شماله ومن خلفه...» [(١)].

ويُروى عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه قال: جاءت امرأةٌ إلى النبى ﷺ ببُردةٍ، فقالت: يا رسول الله، أكسوك هذه. فأخذها النبى ﷺ مُحتاجًا إليها فلبسها، فرآها عليه رجلٌ من الصحابة، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسُنيها فقال: «نعم». فلما قام النبى ﷺ لامهُ أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبى ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يُسألُ شيئًا فيمنعه. فقال: رجوتُ بركتها حين لبسها النبى ﷺ لعلِّى أُكفَّن فيها... وفى رواية قال سهل: فكانت كفنه [(٢)].

ومن خلال هذا الموقف ندرك معنى حديث جابر رضي الله عنه: «ما سُئل النبىُّ ﷺ عن شىءٍ قطُّ فقال: لا» [(٣)].

فعلينا ألا نبخل... فكثيرٌ منا يقول: أهلى أولَى بمالى، وأنا محتاج لهذا الشىء، وليس مطلوبًا منك مالك كله، ولكن تشبه بالنبى ﷺ بأن تعطى لله سبحانه وتعالى الواجب، وتعطى أيضًا من المستحب حتى يكون لك عند الله عز وجل الأجر، ولا تكن بخيلًا فالإنسان إذا أعطى فهذا خيرٌ له في الدنيا والآخرة.

وإذا لم يُعطِ فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٨]، فترد السائل بالكلمة الطيبة، تقول مثلًا: إن شاء الله ربنا يعطيك، وإذا ربنا أعطانى فسوف أعطيك... ربنا يرزقنا ويرزقك.. كلمة طيبة أفضل من أن تطرده مُنتهرًا له، أو تقول: ما معى.

ففرقٌ بين إنسان يقول قولًا كريمًا ميسورًا وبين مَن لا يعطى وينهر السائل.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٦٨) كتاب الاستئذان – ومسلم (٩٩١) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٠٣٦) كتاب الأدب.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٣٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١١) كتاب الفضائل.

(٥٥٣) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ العِبادُ فِيهِ إلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه فى كل صباح يومٍ ينزل ملكان من السماء.. ليس لهم أى عمل سوى هذا الدعاء.. ومن المعلوم أن دعاء الملائكة مُستجاب لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون.

فيقول أحدهما: « **اللَّهُمَّ أَعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا** » أى: اللهم أخلف على كل مَن أنفق على عبادك بالمال الحلال الكثير مكان الذى أنفقه .. والله عَزَّ وَجَلَّ يعطى عطاءً لا يخطر على قلب بشر.

ويقول الملك الآخر: «**اللَّهُمَّ أَعطِ مُمْسكًا تَلَفًا**».

أى: اللهمَّ أتلف مال ذلك البخيل الذى يبخل على عبادك ولا يبذل المال الذى استخلفته فيه.

والتلف نوعان: تَلفٌ حِسِّى، وتَلفٌ معنوى:

١ - التلف الحِسِّى: أن يتلف المال نفسه، بأن يأتيه آفة تحرقه أو يُسرق أو ما أشبه ذلك.

٢- والتلف المعنوى: أن تُنزع بركته، بحيث لا يستفيد الإنسان منه فى حياته.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا فِى الإِنْفَاقِ فِى الطَّاعَاتِ، وَمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَعَلَى الْعِيَالِ وَالضِّيفَانِ وَالصَّدَقَاتِ وَنَحوِ ذَلِكَ بِحَيْثُ لاَ يُذَمُّ وَلاَ يُسَمَّى سَرَفًا... وَالإِمْسَاكُ الْمَذْمُومُ هو الامساك عَنْ هَذَا[٢].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٤٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٣٣).

(٥٥٤) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أَنفق يا ابْنَ آدمَ يُنْفَقْ عَلَيْكَ»[1].

۞ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» هُوَ مَعنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ فَيَتَضَمَّنُ الْحَثَّ عَلَى الإِنْفَاقِ مَعنَى فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ وَالتَّبْشِيرِ بِالْخَلَفِ مِنْ فَضْلِ اللهُ تَعَالَى[2].

وهل هناك بشرى أعظم من تلك البشرى.. فالله يأمرك بأن تنفق ويَعِدك بأنه هو الذى سينفق عليك ويُعوضك بالحلال الطيب الذى تغمره البركة من عند الله (سبحانه وتعالى).

ولكى تستشعر هذا المعنى فتأمل معى قوله ﷺ: «يَدُ اللهِ مَلأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرفَعُ»[3].

وقوله تعالى فى الحديث القدسى: «يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدخِلَ البَحر»[4].

(٥٥٥) وعَنْ عبد الله بن عَمْرو بن العَاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رسول الله ﷺ: أَىُّ الإِسلامِ خَيْرٌ؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لم تَعرِفْ»[5].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٥٢) كتاب النفقات، ومسلم (٩٩٣) (٣٦) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١١٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٩٩٣) (٣٧) كتاب الزكاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

۞ لا بد أن نعلم أن الصحابة ﭬ إذا سألوا الرسول مثل هذه الأسئلة فإنَّهُم لا يريدون مجرد العلم، وإنما يُريدون العمل... فإذا قال الإسلام كذا وكذا فعلوه وتسابقوا إليه... وهكذا ينبغى للسائل الذى يسأل العالِم ويستفتيه أن ينوى بقلبه أنه إذا دَلَّه على الخير فَعَلَه - كما كان دأب الصحابة - لا يريد أن ينظر ماذا عند العالِم فقط.

وهنا يحكى ابن عمرو ﭭ أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: أى الإسلام خيرٌ؟

فقال النبى ﷺ: «**تُطعم الطعام**» يعنى مَن احتاج إليه... وأول مَن يَلزمك إطعامه هم عائلتك.. وإطعامهم صدقة وصلة وأفضل من إطعام الأباعد لأن إطعام أهلك قيامٌ بواجب.. وإطعام الأباعد قيامٌ بمُستحَب.. والواجب أحب إلى الله من المستحب كما فى الحديث القدسى «**ما تقرب إلىَّ عبدى بشىءٍ أحب إلىَّ مما افترضت عليه**»[1] وبعض الناس ينفق على أهله ما ينفق ولكنه لا يشعر بأنه يتقرب إلى الله بهذا الإنفاق... ولو جاءه مسكين وأعطاه ريالًا واحدًا يشعر بأنه مُتقرب إلى الله بهذه الصدقة.. ولكن الصدقة الواجبة على الأهل أفضل وأكثر أجرًا.. فإذا أطعمت الطعام لأهلك فهذا من خير الإسلام.

«**وتقرأ السلام**» وهذا هو الشاهد..وتقرأ السلام: يعنى تقول السلام عليك ويُسمَّى: قراءة السلام وإلقاء السلام «**على مَن عرفت ومَن لم تعرف**» لا يكن سلامك سلام معرفة بل ليَكُن سلامك سلام مثوبة وأُلفة... لأن المسلم يُثاب على سلامه ويحصل بسلامه التأليف كما قال النبى (عليه الصلاة والسلام): «**والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تَحابُّوا أَوَلا أَدلكم على شىءٍ إذا فعلتموه تَحاببتُم: أفشوا السلام بينكم**»[2] أما مَن لا يُسلم إلا سلام

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

معرفة فسوف يفوته خيرٌ كثير لأنه ربما مَرَّ به العشرات لا يعرف منهم إلا واحدًا أما مَن يُسلم سلام مَثوبة وأُلفة فهو يُسلم على مَن عرف ومَن لم يعرف.

إلا إذا كان الذى مررت به كافرًا فلا تبدءوه بالسلام لأن النبى ﷺ قال: «**لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام**»(١) وغيرهم أخبث منهم مثل السيخ والمشركين والشيوعيين ومَن شابههم فلا تقرأ عليهم السلام ولا تُسلم عليهم... وكذلك الفاسق المُعلن بفسقه -إذا كان فى تَرْكِ السلام عليه مصلحة- وهو أنك إذا لم تُسلم عليه تاب من فسقه ورجع إلى الله...... أما إذا لم يكن هناك مصلحة وأن الأمر بالنسبة له سِيان سلَّمت أو لم تُسلِّم وكان عدم سلامك عليه يجعل فى قلبه عداوة عليك ويستمر فى باطله ولا يقبل منك النصيحة فسلِّم عليه.

۞ **مما سبق نجد أن الناس صاروا ثلاثة أقسام:**

١ - **القسم الأول:** الفاسق المُعلن بفسقه... فهذا سلِّم عليه إلا إذا كان فى هجره مصلحة.

٢ - **القسم الثانى:** الكافر... لا تُسلم عليه لكن إن سلَّم عليك رُدَّ عليه.

٣ - **القسم الثالث:** إنسان مسلم لا تَعلم عليه فسقًا فسلِّم عليه واحرص على أن تكون أنت البادئ بالسلام لأن النبى ﷺ كان يبدأ مَن لقيه بالسلام -وهو أشرف الخلق- وقال ﷺ: «**لا يَحِلُّ لمسلمٍ أن يَهجُر أخاه فوق ثلاثِ ليالٍ: يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام**»(٢) وهكذا الحديث الذى معنا: «**خير الإسلام أن تقرأ السلام على مَن عرفت ومَن لم تعرف**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٧) كتاب السلام.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٠) كتاب البر والصلة.

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦-٧) بتصرف.

(٥٥٦) وعَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «أَربَعونَ خَصلَةً أَعلاهَا مَنِيحَةُ العَنْز ما مِن عَامِلٍ يعمل بخَصلَةٍ منها رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصدِيقَ مَوْعُودِهَا إلاَّ أدخَلَهُ الله تعالى بِهَا الجَنَّةَ»[١]. وقد سبقَ بيان هذا الحديث في باب بَيَان كَثرةِ طُرق الخَيْر.

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊ ❊ ❊

(٥٥٧) عَنْ أبي أُمَامَةَ صُدَيِّ بنِ عَجْلانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «يا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إن تَبْذُل الفَضْلَ خيرٌ لَكَ، وإِن تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ، وَلا تُلامُ عَلى كَفَافٍ، وَابْدأْ بِمَنْ تَعُولُ، واليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى»[٢].

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: مَعنَاهُ إِنْ بَذَلْتَ الْفَاضِلَ عَنْ حَاجَتِكَ وَحَاجَةِ عِيَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ لِبقَاءِ ثَوَابِهِ وَإِنْ أَمْسَكْتَهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ .. لِأَنَّهُ إِنْ أَمْسَكَ عَنِ الْوَاجِبِ اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ عَلَيْهِ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنِ الْمَنْدُوبِ فَقَد نَقَصَ ثَوَابَهُ وَفَوَّتَ مَصلَحَةَ نَفْسِهِ فِي آخِرَتِهِ ... وَهَذَا كُلُّهُ شَرٌّ[٣].

فإذا كان عندك فضلٌ من طعام فعُد به على مَن لا طعام عنده، ولا تُلقيه في القمامة...ولم يأمرك النبي ﷺ أن تنفق قوتك وقوت عيالك، وإنما تبذل الفضل.

وجاء في القرآن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي: الزائد عن حاجتك ... فإذا أنفقت من هذا الزائد، فلك الأجر عند الله، ولك الوعد من الله أنه يزيد هذا المال، ويعطيك خيرًا من هذا المال في الدنيا والآخرة...فيُنمي لك المال ببركة إنفاقك، ويُثيبك الجنة في الآخرة.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٦٣١) كتاب الهبة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٣٦) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٧٨).

وقوله ﷺ: «**ولا تُلام على كفاف**» أى: إذا كان دخلك على قدر الواجبات من نفقتك، فلن يلومك الله عَزَّوَجَلَّ على أنك لم تتصدق، فهو لم يُعطك ما تتصدق به.

وقوله ﷺ: «**وابدأ بمن تعول**» هنا يُعلمنا أدب الإنفاق وهو أن المسلم لا يترك الواجب عليه وينتقل إلى النافلة، ولكن يبدأ بالفرض الذى عليه، وهو أن يطعم نفسه وأولاده وزوجته وأباه وأمه، ثم يُخرج الفضل بعد ذلك لمن أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يُخرج إليهم.

وقوله ﷺ: «**واليد العليا**» وهى يد المعطى كما جاء فى الحديث الآخر، فهى خير من اليد السفلى... وهذا تشجيع للمسلمين على الإنفاق، سواء كان عندهم مالٌ كثير أو قليل، فالجميع ينفقون.

(٥٥٨) وعَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما سُئل رسُولُ الله ﷺ عَلَى الإِسْلامِ شَيئًا إلا أَعطاه، وَلَقَد جَاءَه رَجُلٌ فَأَعطَاه غَنَمًا بينَ جَبلَين، فَرَجَعَ إِلى قَومه فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمدًا يُعطِى عَطَاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفاقة، وَإِنْ كَانَ الرَّجُل لِيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلاَّ الدُّنْيَا، فَمَا يَلْبَثُ إِلاَّ يَسِيرًا حَتَّى يَكُونَ الإسْلامُ أَحَبَّ إِلَيه منَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا[١].

۞ لقد كان النبى ﷺ أكرم الناس، وكان يبذل أمواله فيما يُقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وهنا يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه وذلك من أجل أن يتألف قلوب الناس على الإسلام ... فقد يكون هناك رجل لا يريد أن يُسلم إلا إذا تألفت قلبه بالمال أو بأى شيءٍ يريده... فيُباح لك أن تفعل ذلك من أجل أن تتألف قلبه ويُسلم... ومن المعلوم أن هداية إنسانٍ على يديك أفضل من كنوز الدنيا كلها.. فقد قال ﷺ: «**لأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خير**

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣١٢) كتاب الفضائل.

لك مما طلعت عليه الشمس».

فهذا الإنسان الذى سيُسلم بسبب أنك تألفت قلبه بالمال لن يبقى على هذا الحال.. وذلك لأنه بمجرد أن يُسلم ويتذوق حلاوة الإيمان والطاعة فسوف ينشرح صدره بالإيمان ويزهد فى الدنيا وحُطامها الزائل ويصبح إسلامه بعد ذلك حُبًّا لله ورسوله ﷺ ولدين الله عز وجل.

وهذا الذى حصل مع كل الذين أسلموا وتألفهم النبى ﷺ فى البداية.

فالشاهد أن النبى ﷺ ما سُئل على الإسلام شيئًا إلا أعطاه

ومن ذلك أنه ﷺ ما سأله شخص على الإسلام - يعنى: على التأليف على الإسلام والرغبة فيه - إلا أعطاه، مهما كان هذا الشىء، حتى إنه سأله أعرابى فأعطاه غنمًا بين جبلين ... معناه: أنها غنمٌ كثيرة؛ لكن الرسول ﷺ أعطاه لما يرجو من الخير لهذا الرجل ولمن وراءه.

ولذلك ذهب هذا الرجل إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطى عطاء مَن لا يخشى الفاقة»، عليه الصلاة والسلام ... يعنى: يعطى عطاءً جزيلًا، عطاء مَن لا يخشى الفقر ... فانظر إلى هذا العطاء كيف أثَّر فى هذا الرجل هذا التأثير العظيم، حتى أصبح داعية إلى الإسلام.

وهو إنما سأل كغيره من الأعراب... فالأعراب أهل طمع، يحبون المال ويسألونه، ولكنه لما أعطاه الرسول عليه الصلاة والسلام هذا العطاء الجزيل صار داعية إلى الإسلام، فقال: «يا قوم أسلموا» ولم يَقُل أسلموا تدخلوا الجنة وتنجوا من النار، بل قال: «**أسلموا؛ فإن محمدًا يعطى عطاء مَن لا يخشى الفاقة**» يعنى سيعطيكم ويُكثر.

ولكنهم إذا أسلموا من أجل المال، فإنهم لا يلبثون يسيرًا إلا ويصير الإسلام أحب شىء إليهم ... أحب من الدنيا وما فيها، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة

والسلام يعطى الرجل تأليفًا له على الإسلام ... يُعطيه حتى يُسلم من أجل المال؛ لكنه لا يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها ... ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُعطى الرجل تأليفًا له على الإسلام حتى يُسلم، وإن كانت نيته للمال، إلا أنه إذا دخل فى الإسلام وتعلَّم محاسن الإسلام وَقَرَ الإيمان فى قلبه.

۞ **ويُؤخَذ من هذا الحديث وأمثاله:** أنه لا ينبغى لنا أن نبتعد عن أهل الكفر وعن أهل الفسوق، وأن ندعهم للشياطين تلعب بهم؛ بل نُؤلفهم، ونَجذبهم إلينا بالمال واللين وحُسن الخُلق حتى يألفوا الإسلام ... فها هو الرسول ﷺ يعطى الكفار ... يعطيهم حتى من الفىء.

بل إن الله جعل لهم حظًّا من الزكاة فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ ... نُعطيهم لنُؤلفهم على الإسلام، حتى يدخلوا فى دين الله ... والإنسان قد يُسلم للدنيا، ولكن إذا ذاق طعم الإسلام رغب فيه، فصار أحب شىءٍ إليه[1].

❊❊❊

(٥٥٩) وعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَسَمَ رسولُ الله ﷺ قَسْمًا، فَقُلْتُ: وَاللهِ يا رسولَ الله لَغَيْرُ هَؤُلاَءِ كَانُوا أَحَقَّ بِهِ مِنْهُم؟ قال: «إِنَّهُمْ خَيَّرونى أَن يَسأَلُونى بالْفُحشِ أو يُبَخِّلُونى، فَلَستُ بِبَاخِلٍ»[2].

۞ ففى هذا الحديث يخبر عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قسم قَسمًا وأعطى أُناسًا من ضُعفاء الإيمان من أجل أن يتألف قلوبهم .. فكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ له نظرة أخرى فقد رأى أن الذين أعطاهم النبى ﷺ لا يستحقون وأن هناك مَن هُم أَولَى منهم.. فلما قال ذلك للنبى ﷺ أخبره النبى ﷺ أنهم ألَحُّوا فى المسألة لضعف إيمانهم

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٢١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٥٦) كتاب الزكاة.

حتى أن النبى ﷺ أصبح بين حالين، إما أن يُعطيهم وإما أن يتهموه بالبخل... ولو قالوا ذلك فقد فسقوا بذلك بل وقد يكفرون لأنه يُشنعون على النبى ﷺ .. فمن رحمة النبى ﷺ بهم أعطاهم حتى لا يقعوا فيما يقدح فى دينهم .. فهو ﷺ أرحم بهم من أنفسهم فقد وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

۞ قال الإمام النووى تعليقًا على الحديث: معناه أنهم ألحُّوا فى المسألة لضعف إيمانهم وألجأونى بِمُقْتَضَى حَالِهِمْ إِلَى السُّؤَالِ بِالْفُحشِ أَوْ نِسْبَتِى إِلَى الْبُخْلِ وَلَسْتُ بِبَاخِلٍ وَلَا يَنْبَغِى احتِمَالُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَمْرَيْنِ ... فَفِيهِ مُدَارَاةُ أَهْلِ الْجَهَالَةِ وَالْقَسْوَةِ وَتَأَلُّفِهِمْ إِذَا كَانَ فِيهِمْ مَصلَحَةٌ وَجَوَازُ دَفْعِ الْمَالِ إِلَيْهِمْ لِهَذِهِ الْمَصلَحَةِ(١).

۞ وهذا يُذكرنى بما فعله النبى ﷺ عندما كان معتكفًا وجاءته زوجه صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فوقف يتحدث معها فرآه اثنان من الصحابة فنادى عليهما وقال لهما: **«إنها صفية»**.

فقالا: يا رسول الله أفيك نَشُك؟!!

فقال ﷺ: **«إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق وإنى خشيت أن يقذف فى قلبيكما شرًّا»**.

وذلك لأنهما إن ظنَّا السوء بالنبى ﷺ فقد كفرا فخشى النبى ﷺ عليهما وعلى الإيمان الذى فى قلبيهما.

(٥٦٠) وعَنْ جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَقْفَلَهُ مِن حُنَيْنٍ، فَعَلِقَهُ الأَعرَابُ يسَأَلُونَهُ، حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلى سَمُرَةٍ فَخَطَفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ

(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ٢٠٦-٢٠٧).

النَّبيُّ ﷺ فقال: «أعطُونى رِدَائى، فَلَوْ كَانَ لى عَدَدُ هذِهِ العِضَاهِ نَعَمًا، لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثم لا تَجِدُونى بَخِيلًا وَلا كَذَّابًا وَلا جَبَانًا»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر جُبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يسير مع النبى ﷺ عند رجوعه من غزوة حُنين سنة ثمانٍ من هجرة النبى ﷺ بعد فتح مكة، وقد غَنِمَ جيش المسلمين مغانم كثيرة، ولكن مع ذلك كان يود النبى ﷺ إسلام القوم فيرد عليهم المغانم، لكنهم لم يُسلموا إلا بعد تقسيم الغنائم، ومع ذلك رَدَّ نصيبه من القسمة.

قال: فعلقه الأعراب يسألونه، أى: أن الصحابة كانوا يستحيون منه، وإن كانوا يريدون من هذه الغنائم، أما الأعراب فإن فيهم جرأة، فتعلقوا بالنبى ﷺ يريدون منه عطاءً؛ (حتى اضطروه إلى سَمُرة) والسَّمُر: شجر له شوك ويكون فى الصحراء، (فخطفت رداءه) فتعلق بأشواك هذه الشجرة، فوقف النبى ﷺ فقال: «**أعطونى ردائى، فلو كان لى عدد هذه العِضَاه نَعمًا لقسمته بينكم**».

أى: لو كنت أملك مثل أشواك هذه الشجرة من بهيمة الأنعام كنت قسمته بينكم.

قال: «**ثم لا تجدونى بخيلًا ولا كذابًا ولا جبانًا**» وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه وهو أكرم الخلق وأصدقهم وأشجعهم أن يكون بخيلًا أو كذابًا أو جبانًا.

فالنبى ﷺ كان يعطى، ولا يمسك لنفسه شيئًا... فإذا أخذ المغانم التى تخصه أنفق منها على أهل بيته، وعلى أضيافه، وعلى المسلمين أيضًا.

وهو القائل عليه الصلاة والسلام: «**ليس لى فيها إلا الخُمس، والخُمس مَردودٌ عليكم**»، يعنى: لن آخذه وأدخره، بل سأرده عليكم... وهذا كرمٌ منه صلوات الله وسلامه عليه(٢).

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٨٢١) كتاب الجهاد والسير.
«مَقْفَلَهُ» أىْ حَال رُجُوعِهِ. وَ «السَّمُرَةُ» : شَجَرَةٌ. وَ «العِضَاهُ»: شَجَرٌ لَهُ شَوْكٌ.

(٢) شرح رياض الصالحين/ الشيخ أحمد حطيبة.

وفى الحديث ذم الخصال المنفية -البُخل والكذب والجُبن- وأن إمام المسلمين لا ينبغى أن يكون فيه خصلة منها... وفيه ما كان عليه ﷺ من الحلم وحُسن الخلق وسعة الجود والصبر على جُفاة الأعراب ... وفيه جواز وصف المرء نفسه بالخصال الحميدة عند الحاجة لخوف ظن أهل الجهل به خلاف ذلك ولا يكون ذلك من الفخر المذموم .اهـ[1].

(٥٦١) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَما زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلاَّ رَفَعَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ»[2].

❁ وفى هذا الحديث يذكر النبى ﷺ أنه «**ما نقصت صدقة من مالٍ**» أى أن الإنسان إذا تصدق فالنبى ﷺ يؤكد لنا أن هذا الرجل لن ينقص ماله بحالٍ من الأحوال... وقد يأتى الشيطان للإنسان ويُثبطه عن الإنفاق ويوسوس له بأن المال سينقص وأن الأولاد أولَى بهذا المال.. ولكن النبى ﷺ يؤكد لك أنك إذا تصدقت فُزت بالأجر ولن ينقص مالك.. بل سيزيد المال كمًّا وكَيفًا ...

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]. أى يجعل لكم خلفًا عنه عاجلًا، وأجرًا وثوابًا آجلًا.

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

❁ **والزيادة تحصل بأربعة أشياء:**

(١) أن الله عَزَّ وَجَلَّ يفتح لك بابًا من الرزق من حيث لا تحتسب فيعوضك عمَّا تصدقت به.

---

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٨٣) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) أن الله عَزَّوَجَلَّ يُنزل البركة فيما تبقَّى معك من المال فتستطيع أن تقضى به حوائجًا لا تُقضى إلا بعشرة أمثال ما معك أو أكثر.

(٣) أن الله عَزَّوَجَلَّ يبارك فيك أنت ويدفع عنك من المضرات ما كان سيُكلفك أضعاف أضعاف ما أنفقت.. وهذه صورة من البركة الخفية.

(٤) أن الله عَزَّوَجَلَّ يكتب لك من الثواب المترتب على الصدقة ما يوازى سبعمائة ضعف الصدقة التى تصدقت بها.

ولذا فقد كان النبى ﷺ أجود الناس وأكرم الناس ... وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان حين يلقاه جبريل فيُدارسه القرآن.. فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المُرسَلة.

۞ ثم قال ﷺ: «وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عِزًّا».

فقد يجنى عليك إنسان ويظلمك فى نفسك أو أهلك أو مالك أو فى أى حقٍّ من حقوقك.. والنفس شحيحة بالعفو وتريد الانتقام وأن تأخذ بحقك.

وهذا لك...قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]

ولا يُلام الإنسان على ذلك، لكن إذا هَمَّ بالعفو وحدَّث نفسه بالعفو، قالت له نفسه الأمارة بالسوء: إن هذا ذُلٌّ وضعف ... كيف تعفو عن شخص جنى عليك أو اعتدى عليك!.

وهنا يأتيك قول الرسول ﷺ: **«وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بعفوٍ إلا عِزًّا»** فإن ظننت أنك ستكون ذليلًا إذا عفوت فهذا من خداع النفس الأمَّارة بالسوء.. لأن الله يزيدك بعفوك هذا عِزًّا ورفعة فى الدنيا والآخرة.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «وما زاد الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا».

فِيهِ أَيْضًا وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنَّ مَنْ عُرِفَ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ

سَادَ وَعَظُمَ فِي الْقُلُوبِ وَزَادَ عِزُّهُ وَإِكْرَامُهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ أَجْرُهُ فِي الْآخِرَةِ وَعِزُّهُ هُنَاكَ[(١)].

وفي هذا حَثٌّ على العفو ... ولكن العفو مُقيد بما إذا كان إصلاحًا.

لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أما إذا لم يكن إصلاحًا بل كان إفسادًا؛ فإنه لا يُؤمَر به.

مثال ذلك: اعتدى شخصٌ شِرِّير معروف بالعدوان على آخر، فهل نقول للآخر الذي اعتُدي عليه: اعفُ عن هذا الشرير؟ لا نقول: اعفُ عنه؛ لأنه شرير، إذا عفوت عنه تعدَّى على غيرك من الغد، أو عليك أنت أيضًا، فمثل هذا نقول: الحزم، والأفضل أن تأخذه بجريرته، يعني أن تأخذ حقك منه، وألا تعفو عنه؛ لأن العفو عن أهل الشر والفساد ليس بإصلاح؛ بل لا يزيدهم إلا فسادًا وشرًّا.

فأما إذا كان في العفو خير وإحسان، وربما يخجل الذي عفوت عنه ولا يتعدى عليك ولا على غيرك فهذا خير[(٢)].

❁ ثم قال ﷺ: «**وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**» فبعض الناس تراه متكبراً لأنه يظن أنه إذا تواضع للناس فقد سقطت منزلته ونزلت مكانته في قلوب الناس.. وهذا خطأ كبير لأننا لا نتعامل مع الناس إلا لله ولا يهمنا أن نزداد مكانة عندهم أم لا.. بل نريد أن تكون لنا مكانة ومنزلة عند الله.. وحينها سوف يُلقى الله لنا القبول في قلوب الناس فنرى منهم كل الحب والتواضع والأخلاق الطيبة.

فمن تواضع لله فإن الله عَزَّوَجَلَّ يرفع شأنه ويُعلي قدره.

❁ وقوله: «**تواضع لله**» لها معنيان:

المعنى الأول: أن تتواضع لله بالعبادة وتخضع وتنقاد لأمر الله.

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢١٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٢).

المعنى الثانى: أن تتواضع لعباد الله من أجل الله، وكلاهما سبب للرفعة، سواء تواضعت لله بامتثال أمره واجتناب نهيه وذللت له وعبدته أو تواضعت لعباد الله من أجل الله لا خوفًا منهم، ولا مُداراة لهم، ولا طلبًا لمالٍ أو غيره، إنما تتواضع من أجل الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله تعالى يرفعك فى الدنيا وفى الآخرة.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ» فِيهِ أَيْضًا وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: يرفَعُهُ فِي الدُّنْيَا وَيُثْبِتُ لَهُ بِتَوَاضُعِهِ فِى الْقُلُوبِ مَنْزِلَةً وَيَرفَعُهُ اللهُ عِنْدَ النَّاسِ وَيُجِلُّ مَكَانَهُ ... وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ ثَوَابُهُ فِي الْآخِرَةِ وَرَفْعُهُ فِيهَا بِتَوَاضُعِهِ فِى الدُّنْيَا... قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَهَذِهِ الْأَوْجُهُ فِى الْأَلْفَاظِ الثَّلَاثَةِ مَوْجُودَةٌ فِى الْعَادَةِ مَعرُوفَةٌ وَقَد يَكُونُ الْمُرَادُ الْوَجْهَيْنِ مَعًا فِي جَمِيعِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ أَعلَمُ[1].

(٥٦٢) وعَنْ أبى كَبشَةَ عَمرو بنَ سَعدٍ الأَنمارىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سَمع رسولَ الله ﷺ يَقولُ: «ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيهِنَّ وَأُحَدِّثُكُم حَدِيثًا فَاحفَظُوهُ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبدٍ مِن صَدَقَةٍ، وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبرَ عَلَيهَا إلاَّ زَادَه الله عِزًّا، وَلا فَتَحَ عَبْدٌ باب مَسأَلَةٍ إلاَّ فَتَحَ الله عَلَيْهِ باب فَقرٍ، - أَوْ كِلمةً نحوها -. وَأُحَدِّثُكُم حَدِيثًا فَاحفَظُوهُ. قال: إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَربعَةِ نَفَر:

عَبدٍ رَزَقَه الله مَالًا وَعِلمًا، فَهُو يَتَّقى فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعلَمُ لله فِيهِ حَقًّا فَهذَا بأَفضَل المَنازل.

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا، وَلَمْ يَرزُقهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَو أَنَّ لى مَالًا لَعمِلْتُ بِعَمَل فُلانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ.

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا، وَلَمْ يرزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبطُ فى ماله بِغَير عِلمٍ، لا يَتَّقى فِيه رَبَّهُ وَلا يَصِلُ فِيه رَحِمَهُ، وَلا يَعلَمُ لله فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بأَخْبَثِ المَنَازِلِ.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢١٣).

وَعَبْدٍ لَمْ يرزُقْهُ الله مَالًا وَلا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لى مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَل فُلانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يحكى أبو كبشة الأنمارى رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يُقسم ويقول: «ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيهِنَّ».. وقَلَّ ما كان النبى ﷺ يُقسم لأنه الصادق المصدوق الذى يعلم الكون كله -حتى الكفار- أنه الصادق الأمين.

لكنه ﷺ أقسم ليُلفت انتباهنا إلى أهمية تلك الأشياء وأنه ينبغى ألا نعتقد خلاف ما سيخبرنا عنه النبى ﷺ.

۞ قال ﷺ: «ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيهِنَّ» أى أحلف عليهن.

«وَأُحَدِّثُكُم حَدِيثًا فَاحفَظُوهُ» أى: انتبهوا جيدًا لما سأقول واحفظوا هذا الكلام جيدًا ولا تنسوه أبدًا.

«مَا نَقَصَ مَالُ عَبدٍ مِن صَدَقَةٍ» فالنبى ﷺ يقسم بالله أن العبد إذا تصدق فلن ينقص ماله أبدًا .. وقد فصَّلنا الحديث عن ذلك فى الحديث السابق.

«وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبرَ عَلَيهَا إِلاَّ زَادَه الله عِزًّا» فقد يظلمك أحدٌ وأنت قادر على أن تدفع هذا الظلم وأن تفعل معه مثلما فعل معك ولكنك تصبر ليزيدك الله عِزًّا كما أخبرك بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

ولذا قال ﷺ: «مَنْ كَتَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ الله عَلَى رُؤُوسِ الخَلائَقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ الْعَيْنِ يُزَوِّجُهُ مِنْهَا مَا شَاءَ»(٢).

وقد ذكرنا فى الحديث السابق أن لك أن تأخذ حقك وأن تنتصر لنفسك دون أن تتجاوز حقك لكن العفو أفضل لأن الله عز وجل سيزيدك عِزًّا ورفعة ومكانة فى الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢٤).
(٢) حسن: رواه أصحاب السنن، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٨).

۞ «وَلا فَتحَ عَبْدٌ باب مَسأَلَةٍ إلاَّ فَتحَ الله عَلَيْهِ باب فَقْرٍ».

فإذا أخذ العبد يسأل الناس ويسأل ليكون غنيًّا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعامله بنقيض قصده ويفتح عليه باب فقرٍ فيظل فقيرًا بأن يفتح عليه أبوابًا من الإنفاق تأكل الأخضر واليابس أو يُسلط عليه ما هو أشد من ذلك بأن يبتليه بفقر النفس.. وذلك لأن أعظم الفقر الذى يُبتلى به الإنسان وأشنعه فقر النفس، حيث يشعر أنه فقير وأنه لا يجد شيئًا، وقد يكون عنده نقودٌ كثيرة جدًّا، ومع ذلك يستشعر أنه محتاج لكل الناس، وإن كان المال الذى عنده مثل مال قارون، فيشعر أنه فقير وأن ماله سيضيع يومًا من الأيام، فيريد مالًا فوقه، وكلما حصَّل مالًا فتح الله عَزَّوَجَلَّ عليه أبواب الفقر.

۞ ثم قال النبى ﷺ: «وَأُحَدِّثُكُم حَدِيثًا فَاحفَظُوهُ» وكأنه ﷺ يقول لهم: لا تنسوا ما سأقوله لكم الآن فإنه سينفعكم أبدًا ما حَييتم.

ثم بدأ النبى ﷺ يُقسِّم الناس جميعًا إلى أربعة أصناف فقال ﷺ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَربَعَةِ نَفَر» أى: إنما حال أهلها حال أربعة.. وهذا الكلام يشمل الرجال والنساء.

ثم بدأ النبى ﷺ يذكر أول رجل من هؤلاء الأربعة: فهو رجلٌ عالم يعرف الحلال من الحرام ويعرف الصواب من الخطأ... سَلَكَ طريق العلم حتى أصبح عالمًا جليلًا... ولم يرزقه الله العلم فحسب بل رزقه العلم الغزير والمال الوفير، فلم يستعمل هذا المال فى معصية الله بل سخَّر ماله كله فى كل ما يُقربه إلى الله (جل وعلا).. فكان يُخرج زكاة ماله ويتصدق ويصل أرحامه ويتقى ربه فى هذا المال.

وكان أيضًا يعلم حق الله فى هذا العلم فكان يؤدى حقه بتعليم الناس والإقراء والإفتاء والتدريس ابتغاء مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ... ولذا فقد أخبر النبى ﷺ أن هذا الرجل بأفضل المنازل.

۞ ثم ذكر النبى ﷺ الرجل الثانى.. وهو رجلٌ فاضل أيضًا.. فهو عالم جليل سَلَك طريق العلم حتى أصبح عالِـمًا جليلاً... وكان يتمنى أن يتصدق

وأن يفعل الكثير من الخيرات لكنه كان فقيرًا لا يمتلك مالاً فأخلص النية لله (جل وعلا) أنه إذا رزقه المال الكثير فإنه سيفعل مثلما فعل الرجل الأول.

وإذا بالنبى ﷺ يخبر بأنهما فى الأجر والثواب مثل بعضهم البعض... هذا بعمله وهذا بنيته.

۞ ثم أخبرنا النبى ﷺ عن الرجل الثالث بأنه رجل ليس عنده علم ولا دين ولا خُلق ولكنه يمتلك المال الكثير...

ولما كان هذا الرجل ليس عنده وازعٌ دينى يردعه عن فعل المعاصى والمخالفات فإنه أخذ ينفق هذا المال فى المعاصى والمنكرات ... وكان يبخل على أهله وأقاربه.. فأخبر النبى ﷺ أن هذ الرجل بأخبث المنازل.

۞ ثم أخبرنا النبى ﷺ عن الرجل الرابع بأنه رجل ليس عنده علم ولا دين ولا خُلق وفوق ذلك فهو فقير لا يمتلك درهمًا ولا دينارًا.

ومع كل هذا فقد أخذ يتمنى ويستحضر النية بأنه إذا رزقه الله المال الوفير فإنه سيفعل مثلما فعل الرجل الثالث من الوقوع فى المعاصى والمنكرات... فأخبر النبى ﷺ بأنهما فى الوزر سواء: هذا بعمله وهذا بنيته.

۞ إن قصة هؤلاء الأربعة تحكى قصة الخير والشر فى آنٍ واحد.

فأول اثنين تحكى قصتهما جانب الخير فى الإنسان.

وآخر اثنين تحكى قصتهما جانب الشر فى الإنسان.

وعلى المسلم أن يقرر من الآن مع أى الفريقين يريد أن يكون.

۞ وفى هذا الحديث مجموعة من الدروس المستفادة:

(١)أن العلم أفضل من المال.. فالعلم هو الذى يجعل العبد يُحسن التصرف فى المال فيستعمله فى طاعة الله (جل وعلا).

(٢)أن العلماء هم أكثر الناس خشية لله (جل وعلا).

(٣) أن الواجب على المسلم إذا رزقه الله المال الوفير ألا ينسى المسلمين الفقراء من حوله ولكن عليه أن يبدأ بأرحامه الفقراء.

(٤) أن العبد إذا أخلص النية لله (جل وعلا) فقد يفوز بحسنات كالجبال على أعمالٍ لم يعملها ... وإنما أخلص النية فى أنه إذا تيسَّر له أن يعملها فإنه سيعملها.

(٥) أن الجهل بالله وبدين الله يجعل العبد يسىء التصرف فى ماله فينفقه فى معصية الله (جل وعلا).

(٦) أن الجهل والفقر إذا اجتمعا فى عبدٍ فإنه سيحرص على تقليد القدوات السيئة؛ لأنه لا يعلم الخير من الشر.

(٥٦٣) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهُمْ ذَبحُوا شَاةً، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنها؟» قالت: ما بقى مِنها إِلاَّ كَتِفُهَا، قال: «بَقِي كُلُّهَا غيرَ كَتِفِهَا»[1].

❁ (عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنهم) أى ذوى عائشة أو أهل بيت النبىّ ﷺ (ذبحوا شاة) أى فتصدقوا بها ما عدا كتفها (فقال النبى ﷺ) بعد أن عاد لمنزله لداعٍ دعا للسؤال عمَّا بقى من لحمها وقد علم أنهم تصدقوا ببعضها «**ما بقى منها**» أى عندك (قالت: ما بقى منها) أى عندنا (إلا كتفها) أى أنفقنا الجميع وتصدقنا به ما عدا ذلك (قال ﷺ: **بقى كلها**) أى ثواب كلها لأنه تصدَّق به تقرُّبًا إلى الله تعالى فهو يُخلفه ويَجزى عليه «**غير كتفها**» أى فإنه يفنى بأكله .. ومثله لا ثواب فيه إن لم يقارنه قصدٌ صحيح ... وهذا تحريض على الصدقة والاهتمام بها، وأن لا يستكثر المرء ما أنفقه فيها ... فإنه وإن فنى صورة فهو باقٍ حقيقة لصاحبه عند الله يرى ثوابه مُضاعَفًا عند حاجته ومزيد فاقته ... ففيه أعظم تحريض عليها من كل ما يأكله الإنسان .. لأن مَن استحضر أن ما يأكله لا ثواب له فيه حيث لا غرض

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٥٤٤).
ومعناه: تَصَدَّقُوا بها إلاَّ كَتِفَهَا فقال: بَقِيَتْ لَنَا فى الآخِرةِ إلاَّ كَتِفَهَا.

صحيح معه، وأن ما يتصدق به بقى له عند مولاه حمله ذلك على التصدُّق منه ولو بلقمة[1] أما إن استحضر الإنسان أنه يتصدق على زوجته وأولاده بإطعامهم فإنه يُؤجَر على ذلك .. وكذلك إذا أكل بنية أن يتقوى على عبادة الله فهى صدقة.

(٥٦٤) وعَنْ أَسماءَ بنت أبى بكر الصدِّيق رضي الله عنهما قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «لا تُوكِي فَيوكِيَ اللهُ عَلَيْكِ» .

وفى رواية «أَنفِقِى أو انْفَحِى أو انْضَحِى، وَلا تُحصى فَيُحصِىَ اللهُ عَلَيكِ، وَلا تُوعِي فيوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ»[2].

۞ وأسماء زوجة الزبير رضي الله عنهما، وقد كان يعطيها مالًا كثيرًا، فهى تقول: ليس من مالٍ إلا أعطانى إياه الزبير، وكانت تدَّخر بعضه من أجل البيت، فعلَّمها النبى ﷺ أن تنفق مما أعطاها الله سبحانه وتعالى.

وبيَّن لها أن الذى ينفق فإن الله عز وجل ينفق عليه، والذى لا ينفق فيدخر أو يُكثر فإنه يُعامَل بمثل ما يصنع مع الفقراء ... فجزاؤه من جنس عمله.

والإيكاء: هو ربط فم السقاء أو القِربة ... وهنا تشبيه للبخيل، فالله تعالى سوف يعامله بهذا الشىء، فلا يعطيه، أو مثلما هو يُخرج الشىء القليل فالقليل، فالله يعامله بهذه الصورة أيضًا.

۞ **وقوله ﷺ: «أنفقى أو انفحى، أو انضحى، ولا تُحصى فيُحصى الله عليك»**.

والإحصاء: هو التقصِّى فى العَدِّ والحساب ... والإنسان الذى يُخرج المال للمحتاجين ولا ينظر كم أعطى، فالمعاملة من الرب سبحانه وتعالى معه كذلك... فالله أحق بالجُود... فمن كان كريمًا مع الناس كان الله أحق بذلك منه.

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٨٧).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٤٣٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٢٩) كتاب الزكاة.

وَ«انْفَحِى»: هو بمعنى «أَنفِقِى» وكذلك: «انْضَحِى».

لذلك رأينا الإنسان التاجر الذى ذكره النبى ﷺ وقد جاء يوم القيامة وحاسبه الله سبحانه، فلما سأله: هل عملت خيرًا قط؟ اندهش وتحيَّر فلم يَعُد يدرى ما يقول! فهو لا يذكر شيئًا من الخير، قال: ما عملت خيرًا قط! ثم ذكَّره الله بشىءٍ يسير بسيط عَمِلَه، قال: بلى، أنا تذكرت شيئًا، ما هو هذا الشىء؟

قال: كنت أُعامل الناس فى التجارة، أى: فى البيع والشراء، فكنت أُنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر.

يعنى: عندما يأتى شخصٌ غنى يشترى، وأخَّر الثمن يومين أو ثلاثة، كنت أصبر عليه.

وكنت أتجاوز عن المعسر، أى: الفقير الذى اشترى ولم يقدر أن يدفع، هنا الجزاء من جنس العمل.

فكان جواب رب العالمين أن قال: نحن أحق بهذا منك.

أى: أنت تجاوزت، فالله عَزَّوَجَلَّ أحق بالتجاوز منك .... فتجاوز عنه وعفا عنه سبحانه وتعالى ... فهنا جزاؤك حين تنفق لله، أن ينفق الله عليك .... تُعطى أكثر، فالله يعطيك أكثر.

يقول ﷺ هنا فى الحديث: «ولا تُوعى فيوعى الله عليك» من الوعاء.

أى: تأخذ الوعاء وتُغطيه، حتى لا يأخذ أحدٌ منه، فسيُغلَق عليكِ بابٌ من أبواب الرزق، ولو أنكِ فتحتِ فُتح لكِ هذا الباب من أبواب الرزق.

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَوْلُهُ ﷺ: **«وَلَا تُحصِى فَيُحصِىَ اللهُ عَلَيْكِ وَيُوعِى عَلَيْكِ»** هُوَ مِنْ بَابِ مُقَابَلَةِ اللَّفْظِ بِاللَّفْظِ لِلتَّجْنِيسِ .... كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وَمَعنَاهُ: يَمْنَعُكِ كَمَا مَنَعتِ وَيُقَتِّرُ عَلَيْكِ كَمَا قَتَّرتِ وَيُمْسِكُ فَضْلَهُ عَنْكِ كَمَا أَمْسَكْتِهِ...وَقِيلَ: مَعنَى لَا تُحصِى أَىْ لَا تَعُدِّيهِ فَتَسْتَكْثِرِيهِ فَيَكُونُ سَبَبًا لِانْقِطَاعِ إِنْفَاقِكِ[1].

(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٦٧).

(٥٦٥) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقُولُ: «مَثَلُ البَخِيلِ والمُنْفِقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِما جُنَّتَانِ مِن حَديد مِنْ ثُدِيِّهما إلى تَرَاقيهمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ، فَلا يُنْفِقُ إلاَّ سَبَغَتْ - أَوْ وَفَرَتْ - على جِلْدِهِ حتى تُخْفِىَ بَنَانَهُ، وَتعفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ، فَلا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيئًا إلا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَها، فَهُو يُوَسِّعُهَا فَلا تَتَّسِعُ»(١).

۞ وفى هذا الحديث يخبر أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع النبى ﷺ يقول: **«مَثَل البَخِيلِ والمُنْفِقِ»** وبالمثل تتضح للإنسان الصورة ويستحضرها ويعرف حُسنها أو قُبحها.

فقال: **«مَثَلُ البَخِيلِ وَالمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ»**.

فهذا إنسان يريد أن يقاتل الأعداء، واشترى قميصًا حلقاته من حديد، من أجل أن يتقى به سيف الخصم، ثم وضع هذا القميص من رقبته إلى أصابع قدميه .. فالإنسان المنفق يده مبسوطة، فهو ينفق فى وجوه الخير ويده سهلة الحركة فى الإنفاق.

والآخر خائف ضامٌّ يديه على صدره وعلى رقبته لا يريد أن يُخرج شيئًا، كمثل القميص يحتبس فى هذا المكان ولا ينزل.

فعندما يقاتل هذا عدوه وهذا عدوه، أيهما ينجو؟ قال ﷺ: **«فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت»** أى: يمد يده كالقميص ينزل ويغطى سائر جسده.

قال: **«أو وفرت على جلده حتى تُخفى بنانه»** حتى يَلقى ثواب الله سبحانه وتعالى، ووقايته لهذا العبد من النار .. تسبغ فوق هذا الإنسان فيقيه الله عَزَّ وَجَلَّ النار ... معناه: أنه كلما أنفق استرخت المفاصل، ويسرت يده، وإذا بالقميص يوارى هذا الإنسان... فقال ﷺ: **«حتى تُخفى بنانه وتعفو أثره»**، انظروا هنا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٤٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٢١) كتاب الزكاة.
وَ«الجُنَّةُ» الدِّرعُ، ومَعْنَاهُ: أن المُنْفِق كُلَّمَا أَنْفَقَ سَبَغَتْ، وَطَالَتْ حتى تجُرَّ وَرَاءَهُ، وَتُخْفِىَ رِجلَيهِ وأَثَرَ مَشْيِهِ وخُطُواتِهِ.

القميص الذى لبسه، غطاه كله وغطى أصابعه وآثار مشيه.

وقوله: «**تعفو أثره**» المعنى: أنه يريد أن يتوارى من عدوه بلبسه هذا القميص، فحين يهرب من عدوه يطمس قميصه آثار الأقدام فيتوارى عن عدوه، كذلك هذا الإنسان الذى أنفق كأنه ستر نفسه من النار، فلا تلفحه ولا تطوله هذه النار.

قال: «**وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا، إلا لزقت كل حلقة مكانها**» فالبخيل تُحدثه نفسه هل ينفق أو لا؟ فيكون أكثر تشبُّثًا بالمال، كمثل القميص الذى لبسه يقف فى مكانه ولا ينزل، وكل حلقة لزقت مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع، ويريد أن ينجو من غضب الله ومن عذابه يوم القيامة وهو لا ينفق.

إذًا ... هنا الإنسان المؤمن ينفق لله عَزَّوَجَلَّ فينفق الله عَزَّوَجَلَّ عليه فى الدنيا، ويعطيه الأجر العظيم فى الآخرة، ويقيه النار، يوم القيامة[1].

۞ وفى هذا وعدٌ للمتصدق بالبركة وستر العورة والصيانة من البلاء، فإن جُبة الحديد لا تُعَدُّ للستر فقط بل له وللصون من الآفات.

وهذا كما ورد «**إن الصدقة تدفع البلاء**» وفى البخيل على الضد فهى مُعَدَّة لهتك عورته وكونه هدفًا لسهام البلاء والعياذ بالله تعالى.

قال الخطابى وغيره: هذا مثل ضربه النبى ﷺ للبخيل والمتصدق، فشبَّههما برجلين أراد كل واحدٍ منهما لبس درع يستتر به من سلاح عدوه فصبَّها على رأسه ليلبسها، والدرع أول ما يقع على الرأس إلى الثديين إلى أن يُدخل الإنسان يديه فى كُميها...فجعل المنفق كمن لبس درعًا سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه...وجعل البخيل كمثل رجلٍ غُلَّت يداه إلى عُنقه فكلما أراد لبسها اجتمعت فى عنقه فلزمت ترقوته...وهو معنى قلصت: أى تضامَّت واجتمعت.

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ أحمد حطيبة.

والمراد أن الجواد إذا هَمَّ بالصدقة انفسح لها صدره وطابت نفسه وتوسعت في الإنفاق، والبخيل إذا حدَّثها بها شَحَّت بها فضاق صدره وانقبضت يداه.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وقال المهلب: المراد أن الله يستر المنفق في الدارين، بخلاف البخيل فإنه يفضحه... ومعنى يعفو أثره يمحو خطاياه... وتعقَّبه عياض بأن الخبر جاء على التمثيل لا على الإخبار عن كائن. وقيل: هو تمثيل لنماء المال بالصدقة، والبخيل بضده ... اهـ(١).

۞ وَالْحَدِيثُ جَاءَ عَلَى التَّمْثِيلِ لَا عَلَى الْخَبَرِ عَنْ كَائِنٍ وَقِيلَ ضُرِبَ الْمَثَلُ بِهِمَا لِأَنَّ الْمُنْفِقَ يَسْتُرُهُ اللهُ تَعَالَى بِنَفَقَتِهِ وَيَسْتُرُ عَوْرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَسَتْرِ هَذِهِ الْجُنَّةِ لَابِسَهَا ... وَالْبَخِيلُ كَمَنْ لَبِسَ جُبَّةً إِلَى ثُدَيَيْهِ فَيَبْقَى مَكْشُوفًا بَادِيَ الْعَوْرَةِ مُفْتَضِحًا فِي الدنيا والآخرة(٢).



(٥٦٦) وعَنْ أَبِي هُرِيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولا يَقْبَلُ اللهُ إلاَّ الطَّيِّبَ فَإِنَّ الله يَقْبَلُهَا بِيَمِينِه، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبَها، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حتى تَكُونَ مِثْلَ الجَبلِ»(٣).

۞ وفي هذا الحديث يخبر الصادق المصدوق ﷺ أن مَن تصدَّق بعدل تمرة.. أي: بقدر تمرة ولكن بشرطٍ في غاية الأهمية وهو أن تكون: «مِنْ كَسْبٍ طَيِّب».. وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ طيب ولا يقبل إلا الطيب...

ولذلك فمن المستحيل أن يقبل الله عَزَّ وَجَلَّ صدقة من الحرام.

---

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٢) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٥٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٠) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٤) كتاب الزكاة.
«الفَلُوُّ» وهو المُهْرُ.

فى يومٍ من الأيام رأى الإمام أبو حنيفة رجلًا يسرق برتقالة من تاجر الفاكهة دون أن يدرى ثم ذهب فى نفس اللحظة فتصدق بها على رجلٍ فقير.. فتعجب الإمام وقال له: ماذا تفعل؟! تسرق برتقالة وتتصدق بها.. فلماذاً سرقتها؟!.

فقال له اللص: سرقتها فكُتبت سيئة وتصدقت بها فكُتبت عشر حسنات.. فابتسم الإمام وقال له: وما يُدريك؟.. بل سرقتها فكُتبت سيئة وتصدقت بها فلم يُكتب لك شىء لأن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا.

۞ المهم أن النبى ﷺ أخبر أن مَن تصدق بعدل تمرة ولكن بشرط أن تكون من كسبٍ طيب فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقبلها بيمينه... فأى كرمٍ أعظم من هذا؟... فالصدقة التى تعطيها للفقير تقع فى يد الله عَزَّوَجَلَّ قبل أن تقع فى يد الفقير.

ولذلك كان بعض الصحابة إذا أراد أحدهم أن يتصدق يُعطر الصدقة ويقول: لأنها ستقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد الفقير.

فإذا تصدق العبد بعدل تمرة من كسبٍ طيب فَإِنَّ الله يَقْبَلُهَا بِيَمِينِه، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبَها، كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حتى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَل.

أى أن الله عَزَّوَجَلَّ يُنمى لك صدقتك كما يُربى أحدنا فَلُوَّهُ.. والفَلُو هو المُهر الصغير ... وسُمى بذلك لأنه فُلى عن أمه أى: فُصل وعُزل عنها وبدأ يأكل ويعتمد على نفسه.

قال الحافظ: وَقِيلَ هُوَ كُلُّ فَطِيمٍ مِنْ ذَاتِ حَافِرٍ ... وَضَرَبَ بِهِ الْمَثَلَ لِأَنَّهُ يَزِيدُ زِيَادَةً بَيِّنَةً وَلِأَنَّ الصَّدَقَةَ نِتَاجُ الْعَمَلِ وَأَحوَجُ مَا يَكُونُ النِّتَاجُ إِلَى التَّرْبِيَةِ إِذَا كَانَ فَطِيمًا ... فَإِذَا أَحسَنَ الْعِنَايَةَ بِهِ انْتَهَى إِلَى حَدِّ الْكَمَالِ ... وَكَذَلِكَ عمل ابن آدَمَ لَا سِيَّمَا الصَّدَقَةُ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَصَدَّقَ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ لَا يَزَالُ نَظَرُ اللهِ إِلَيْهَا يُكْسِبُهَا الْكَمَال حَتَّى تَنْتَهِىَ بِالتَّضْعِيفِ إِلَى نِصَابٍ تَقَعُ الْمُنَاسَبَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا قَدَّمَ نِسْبَةَ مَا بَيْنَ التَّمْرَةِ إِلَى الْجَبَل(١).

(١) فتح البارى (٣/ ٣٢٨).

(٥٦٧) وعَنْ أَبِى هُريرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «بيْنَما رَجُلٌ يَمشِى بِفَلاةٍ من الأَرض، فَسَمِعَ صَوتًا فى سَحَابة: اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ، فَتَنَحَّى ذلكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فى حَرَّةٍ، فإذا شرجة من تِلْكَ الشِّراجِ قَدِ اسْتَوعَبَتْ ذَلِكَ الماءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الماءَ، فإذا رَجُلٌ قَائِمٌ فى حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسحَاتِهِ، فقال له: يا عَبْدَ الله ما اسْمُك؟ قال: فُلانٌ ... للاسْمِ الذى سَمِعَ فى السَّحابَةِ، فقال له: يا عبد الله لِمَ تَسْأَلُنِى عَنِ اسْمِى؟ فَقَال: إنى سَمِعتُ صَوتًا فى السَّحَابِ الذى هذَا مَاؤُهُ يقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ لاسْمِكَ، فما تَصنَعُ فِيها؟ فقال: أَما إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنى أَنْظُرُ إِلى ما يَخْرُجُ مِنها، فَأَتَصَدَّقُ بثُلُثِهِ، وآكُلُ أَنا وعِيالى ثُلُثًا، وأَرُدُّ فِيها ثُلثَهُ»(١).

❁ إن هذا الكون ملكٌ لله... فالله ربه وخالقه والمتصرف فيه.

وإذا استقام العبد على أمر الله ، أمر الله الكون برعايته، والتصرُّف بما فيه خيره وصلاحه.... وهذا الحديث فيه خبر مُزارع صالح أمر الله السحاب بسقى مزرعته، لاستقامته على أمر الله فيها، وهذا ليس خاصًّا به... فكل مَن كان كذلك بارك الله له فيما أعطاه.

❁ وهنا يحدثنا الرسول ﷺ عن رجلٍ سمع عجبًا، فقد كان يسير فى أرضٍ خالية، فمرَّت سحابة من فوقه، فسمع فيها صوتًا يأمر آخر بأن يسقى حديقة رجلٍ سمَّاه.

ونحن نعلم أن الله أقام على السحاب ملائكة تُوجهه، وهى مأمورة أن تُنزله فى المواقع المحددة له... وهذا الصوت الذى سمعه ذلك الرجل صوت ملكٍ بلا شك... وسُنة الله أننا لا نسمع خطاب الملائكة إلا لحكمة... والحكمة فى سماع ذلك الرجل أن الله يريد تعريفنا بالخير والبركة التى يجلبها استقامة صاحب الزرع لزرعه.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٤) كتاب الزهد والرقائق.

وقد استثار ذلك الصوت الرجل الذى سمعه، فأحب أن يعرف هذا الرجل الذى ذُكر اسمه فى السحاب، فنظر حيث أفرغت السحابة ماءها، فإذا هى قد أمطرته فى حَرَّة من الحِرار، وهى أرضٌ كثيرة الحجارة، حجارتها سوداء، ونظر الرجل إلى الأمطار التى نزلت على الأرض، فوجدها تُشكل قنوات ومسائل تتجه اتجاهًا مُحددًا، فتتبع مسائل الماء، وسار معها حتى رآها تصل إلى حديقة، ورأى رجلًا قائمًا فى الحديقة يُحول الماء بمسحاته فى قنوات حديقته، هنا وهناك... وتوقف ذلك الرجل عند صاحب الحديقة، وسأله عن اسمه، فوجده الاسم الذى سمعه فى السحاب.

واستغرب صاحب الحديقة سؤال السائل، فأعلمه عن خبره، وعن سماعه اسمه من السحاب، وأن أمرًا صدر للموكلين بتلك الغمامة بسقى حديقته ... وهنا سأله عن السبب الذى استحق به أن يُؤمر السحاب بسقى حديقته، إذ لا شك فى أنه يعمل عملًا أرضى به ربه.

۞ فقال له: «**أَما إِذْ قُلْتَ هَذَا**»، والمعنى: أنى لم أكن لأُخبرك لولا أنك بشرتنى بهذه البشارة.

فأخبره أنه ينظر إلى نتاج مزرعته، فيقسمه إلى ثلاثة أقسام: قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجة .. وقسم يجعله لمعاشه ومعاش عياله .. والقسم الثالث يرده فى حديقته.

فالرجل لم يتصدق بالنصف ولم يتصدق بثلاثة أرباع، ولكن بأقل، إذًا: هنا تصدق بالثُّلث والثلث كثير... كما قال النبى ﷺ: «الثلث، والثلث كثير».

فأنفق الرجل لله عَزَّوَجَلَّ الثلث، قال: «فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالى ثلثه، وأرد فيها ثلثه»، أى: الثلث الثالث أرده فيها وأزرعها مرة أخرى .. فكان هذا الذى أنفق الثلث، أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ سحابة خاصة تسقى زرعه.

هذا كرمٌ عظيم من رب العالمين سبحانه، نتعلم منه أن ننفق لله، وأن نُخلص النية، وألا نستكثر شيئًا أخرجناه لله سبحانه، فإن الله يُخلف خيرًا، ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝٧٣﴾ [طه: ٧٣].

ونحن نعلم أن الصدقة تحفظ المال وتُزكيه وتباركه... ونفقة المرء على عياله واجب أوجبه الله عليه، ورعاية البستان بالحرث والتسميد والسقى من أسباب الحفظ، وبذلك يظهر لك أن هذا الرجل كان يمثل المزارع المسلم، الذى يعرف حق ربه عليه، كما يعرف حق نفسه وأهله، وهو فى الوقت ذاته خبير بالطريقة العلمية لإصلاح الأرض واستثمارها.

۞ فوائد القصة وعبرها:

(١) رعاية الله وحفظه للصالحين من عباده الذين يستقيمون على أمره، فقد أمر الله السحاب بسقى حديقة ذلك الرجل الصالح المتصدق بثلث الخارج من حديقته.

(٢) يحب الله العبد المتزن فى أموره وتصرُّفاته ... الذى يعطى كل ذى حَقٍّ حقه ... ومن ذلك ما فعله هذا الرجل من قسمته نتاج بستانه إلى ثلاثة أقسام، فلم يطغَ قسمٌ من هذه الأقسام على القسمين الآخرين.

(٣) قيمة العمل ... فقد خلَّد الله ذكر هذا الرجل بعمله وتصدُّقه، وليس الرجل الصالح هو ذلك المنقطع للعبادة، التارك للعمل، المبتعد عن الزواج، المهمل للذرية، كما يظنه بعض مَن لا علم عنده.

(٤) إذا رضى الله عن العبد سخَّر له ما شاء من الأرض والسماء.

فقد أمر الله السحاب أن يسقى حديقة ذلك الرجل الصالح[1].



(١) صحيح القصص النبوى/ د. عمر الأشقر (ص٢١٦-٢١٨) بتصرف.

(٦١) باب النهي عن البُخل والشُّح

۞ إن من أسوإ الأخلاق التي يجب على المسلم أن يبتعد عنها: البُخل والشُّح... فالإنسان الشحيح يرتكب جريمة كُبرى وهو لا يدرى ... حيث أنه يُسىء الظن بالله أنه لن يُعوضه عما أنفقه وبذله...مع أن الله (جل وعلا) قال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٨-١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

والبُخل: هو منع ما يجب وما ينبغى بذله.

والشُّح: هو الطمع فيما ليس عنده، وهو أشد من البخل... لأن الشحيح يطمع فيما عند الناس ويمنع ما عنده، والبخيل يمنع ما عنده مما أوجب الله عليه من زكاة ونفقات، ومما ينبغى بذله فيما تقتضيه المروءة.

وكلاهما - أعنى البخل والشُّح - خُلقان ذميمان، فإن الله سبحانه وتعالى ذَمَّ مَنْ يبخلون ويأمرون الناس بالبُخل، وقال ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

۞ ولقد أخبر النبى ﷺ أن كثرة الشُّح من علامات الساعة.

عن أَبى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَظْهَرَ الشُّحُّ**»(١).

وعنه رضي الله عنه عن النبى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ**»(٢).

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (١/ ٢٢٨، رقم ٧٤٨). قال الهيثمى (٧/ ٣٢٧): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث بن سفيان وهو ثقة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٦١) كتاب الفتن، ومسلم (١٥٧) (١١) كتاب العلم.

۞ وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قالَ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يوْمَ القِيامَة، واتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُم عَلَى أَن سَفَكُوا دِمَاءَهم واستحَلُّوا مَحَارِمَهُم**»(١).

وفى هذا دليلٌ على أن الظلم من كبائر الذنوب؛ لأنه لا وعيد إلا على كبيرة من كبائر الذنوب...فظلم العباد؛ كله من كبائر الذنوب.

۞ ثم قال ﷺ: « **واتَّقُوا الشُّحَّ** » يعنى الطمع فى حقوق الغير.

اتقوه: أى احذروا منه، واجتنبوه «**فإنه أَهْلَكَ منْ كانَ قَبْلَكُمْ** » يعنى من الأمم « **حَمَلَهُم عَلَى أَن سَفَكُوا دِمَاءَهم واستحَلُّوا مَحَارِمَهُم** » فكان هلاكهم بذلك والعياذ بالله.

الحسرات التي يجنيها البخيل في الدنيا والآخرة

۞ فأما حسرته فى الدنيا فإن الله ينزع البركة من ماله ويُسلط عليه حب الدنيا التى هى رأس كل خطيئة.

۞ بل إن مَن بَخِل فإنه يُيسَّر للعُسرى وهى الحياة السيئة فى الدنيا والآخرة، وهى طريق الشر.

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴾ [الليل: ٨-١٢].

۞ بل إن مَلَكًا يدعو عليه كل يوم بإتلاف ماله .

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: « **مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعطِ مُمْسِكًا تَلَفًا** »(٢).

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨) البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٤٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة.

۞ بل إن من أسباب الاستبدال فى الدنيا: البُخل وترك الجهاد.

قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

۞ وأما حسراته فى الآخرة فهى كثيرة:

أما الحسرة الأولى فإنه يُحرَم من الخير الذى أخبر عنه النبى ﷺ حيث قال: «**لا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللهُ بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ**[1]**، أَوْ قَلُوصَهُ**[2]**، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ، أَوْ أَعْظَمَ**»[3].

۞ أما الحسرة الثانية فتراها واضحة جليَّة فى ذلك المشهد الذى أخبر عنه الحق (جَلَّ وعَلَا) حيث يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

ويا له من مشهدٍ عظيم ... والسؤال هنا لماذا اختار الله الجبهة والجنب والظهر دون سائر الجسد؟!

والجواب عن ذلك: أن الفقير كان فى الدنيا إذا ذهب إلى الغنى ليسأله أن

---

(١) الفلو: هو المُهر الصغير.

(٢) القلوص: الناقة الشابة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١٠) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٤) كتاب الزكاة.

يُعطيه مما أعطاه الله فإنَّ الغنيَّ يعبس بجبهته فى وجه الفقير .. فإذا تكرر السؤال من الفقير فإن الغنى يعطيه جانبه ... فإذا ازداد إلحاح الفقير فإن الغنى يعطيه ظهره!! فاختار الله عَزَّوَجَلَّ تلك المواطن الثلاث التى أعرض بها الغنى عن الفقير لتتعذب بنفس أمواله بعد أن يُحمَى عليها فى نار جهنم ...

وهذا ما أخبر عنه النبى ﷺ أيضًا حيث قال: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**»(١).

۞ أما الحسرة الثالثة فهى التى أخبر عنها النبى ﷺ فى هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة حيث قال: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعنِي: بِشِدقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾** [آل عمران: ١٨٠] الآيَة»(٢)(٣).

(٥٦٨) وعَنْ جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يومَ القِيامَة، واتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُم على أَن سَفَكُوا دِمَاءَهم واستَحَلُّوا مَحَارِمَهُم**»(٤).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٠٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٨٧) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٤٠٣) كتاب الزكاة

(٣) وأنذرهم يوم الحسرة / د. محمود المصرى (ص ١٦٣-١٦٤).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة والآداب.



(٦٢) باب الإيثار والمواساة

۞ ما أجمل أن يتخلق المسلم بخُلق الجُود والإيثار ... فإن مَن تخلَّق بهذا الخُلق فإنه يفوز بمحبة الله ورضوانه ... ويفوز بمحبة الناس من حوله.

۞ **أخي الحبيب:** هل حدث يومًا أن كنت بحاجة إلى المال الذى معك فوجدت زميلك بحاجة إلى المال فأعطيته المال الذى معك وآثرته على نفسك؟

۞ هل ذهبت إلى العمل يومًا وكان معك طعامك الذى صنعته لك أمك الغالية أو زوجتك الوفية فوجدت زميلك فى العمل ليس معه طعام فأعطيته الطعام الذي معك وآثرته على نفسك؟

۞ إذا كنت قد فعلت هذا فأنت ممن أكرمهم الله بخُلق الإيثار فقال عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار: أن يقدم الإنسان غيره على نفسه.

والمواساة: أن يواسى غيره بنفسه...والإيثار أفضل ولكن لا بُدَّ أن نعلم أن الإيثار ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: ممنوع، والثانى: مكروه أو مباح، والثالث: مباح.

أما الممنوع فهو أن تُؤْثِر غيرك بما يجب عليك شرعًا فإنه لا يجوز أن تُقدم غيرك فيما يجب عليك شرعًا.

ومثاله إذا كان معك ماء يكفى لوضوء رجل واحد، وأنت لست على وضوء، وهناك صاحب لك ليس على وضوء فالماء لك، لكن إما أن يتوضأ به صاحبك وتتيمم أنت، أو تتوضأ أنت ويتيمم صاحبك ... ففى هذه الحال لا يجوز أن تعطيه الماء وتتيمم أنت؛ لأنك واجدٌ للماء، والماء فى ملكك، ولا

يجوز العدول عن الماء إلى التيمم إلا لعادم.

فالإيثار فى الواجبات الشرعية حرام، ولا يحل؛ لأنه يستلزم إسقاط الواجب عليك.

وأما القسم الثانى: وهو المكروه أوالمباح: فهو الإيثار بالأمور المستحبة، وقد كرهه بعض أهل العلم وأباحه بعضهم...لكن تَرْكَهُ أَولَى بلا شك إلا لمصلحة.

ومثاله: أن تُؤْثِر غيرك فى الصف الأول الذى أنت فيه...مثل أن تكون أنت فى الصف الأول فى الصلاة، فيدخل إنسان فتقوم عن مكانك وتُؤْثِره به...فقد كره أهل العلم هذا، وقالوا: إن هذا دليلٌ على أن الإنسان يرغب عن الخير...والرغبة عن الخير مكروهة، إذ كيف تقدم غيرك على مكانٍ فاضل أنت أحق به منه؟!

وقال بعض العلماء: تَرْكَهُ أَولَى إلا إذا كان فيه مصلحة، كما لو كان أبوك وتخشى أن يقع فى قلبه شىء عليك فتُؤْثِره بمكانك الفاضل، فهذا لا بأس به.

القسم الثالث: وهو المباح: وهذا المباح قد يكون مُستحبًّا، وذلك أن تُؤْثِر غيرك فى أمرٍ غير تَعبُّدى...أى تُؤْثِر غيرك وتُقدمه على نفسك فى أمرٍ غير تَعبُّدى.

مثل: أن يكون معك طعام وأنت جائع، وصاحبٌ لك جائع مثلك ففى هذه الحال إذا آثرته فإنك محمود على هذا الإيثار؛ لقول الله تبارك وتعالى فى وصف الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ووجه إيثارهم على أنفسهم أن المهاجرين لما قَدِموا المدينة تَلقَّاهم الأنصار بالإكرام والاحترام والإيثار بالمال، حتى أن بعضهم كان يقول لأخيه المُهاجرى: إن شئت أن أتنازل عن إحدى زوجتىَّ لك فعلت... يعنى يطلقها فيتزوجها المهاجرىّ بعد مُضى عدتها. وهذا من شدة إيثارهم رضي الله عنهم لإخوانهم المهاجرين.

۞ قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

يعني يطعمون الطعام وهم يحبونه: مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، ويتركون أنفسهم، هذا أيضًا من باب الإيثار(١).

(٥٦٩) وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرسَلَ إِلى بَعضِ نِسائِهِ، فَقَالت: والَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِندِي إِلاَّ مَاءٌ، ثُمَّ أَرسَلَ إِلى أُخْرَى. فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حتَّى قُلْنَ كُلُّهنَّ مِثل ذَلِكَ: لا وَالذِي بعثَكَ بِالحَقِّ مَا عِندِي إِلاَّ مَاءٌ. فَقَالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ يُضِيِّفُ هَذا اللَّيْلَةَ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِن الأَنْصارِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلى رَحلِهِ، فَقَال لامْرَأَتِهِ: أَكرِمِي ضَيْفَ رسولِ اللهِ ﷺ.

۞ وفي رواية قَالَ لامرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيءٌ؟ فَقَالَتْ: لاَ، إِلاَّ قُوتَ صِبيانِي قال: عَلِّليهِمْ بِشَيءٍ وإذا أَرَادُوا العَشَاءَ، فَنَوِّميهِم، وإِذَا دَخَلَ ضَيفُنَا، فَأَطفِئي السِّرَاجَ، وأَريهِ أَنَّا نَأْكُلُ... فَقَعَدُوا وأَكَلَ الضَّيفُ وبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصبَح، غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَقَد عَجِبَ اللهُ مِن صَنِيعِكُمَا بِضَيفِكُمَا اللَّيْلَةَ»(٢).

۞ يتجلى أثر الضمير الذي صنعه الإيمان بالله واليوم الآخر في مجال المواساة والإيثال بالمال والنفس. فكان الرجل يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويبذل له من ذات يده، ومن جهده ووقته ما يبذله لأعز بنيه عليه، وأحب أهليه إليه... وقد يرتقي الإيمان بأحدهم، فيُؤْثِر أخاه على نفسه. فيجود له بالشيء، وهو أحوج ما يكون إليه ... كل ذلك ولا قانون يُلزمه، ولا حكومة تطالبه، ولا أجهزة تُراقبه، ولا عقوبة تُسلَّط عليه، وإنما هو دافع الإيمان بين جنبيه، يُحفزه

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧٩٨) كتاب المناقب، ومسلم (٢٠٥٤) كتاب الأشربة.

على عمل الخير، والتطوع بالبر، ابتغاء ما عند الله وما عنده خيرٌ وأبقى[(1)].

۞ لقد كان رسول الله ﷺ يجلس دائمًا مع أصحابه ليعلمهم ويربيهم وليطمئن على أحوالهم... وفى يوم من الأيام كان النبى ﷺ جالسًا مع أصحابه فجاء إليه رجل غريب يشكو من شدة الجهد والجوع والتعب والمشقة وأنه فى حالة سيئة من العيش ومن الجوع.

فأرسل النبى ﷺ فى التو واللحظة إلى كل نسائه وطلب منهن طعامًا لهذا الرجل الجائع.. فكان الجواب من كل واحدة من نسائه: لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا الماء.

وهى لا تحتاج أن تُقسم فهى صادقة (رضوان الله عليها)، ولكن لتؤكد للنبى ﷺ أنه لا يوجد أى شىء، ولو كان عندها تمرة لأخرجتها، ولكن ما عندها إلا الماء، فقال النبى ﷺ: «**مَن يُضيف هذا الليلة؟**» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله! فانطلق به إلى رَحله.

وقال لامرأته: أكرمى ضيف رسول الله ﷺ.

وكأنه يقول لها: لو كان ضيفى لكان الأمر يسيرًا ... أما هذا فهو ضيف رسول الله ﷺ فأخرجى أطيب ما عندك.

لكنه لا يعلم أنها ليس عندها إلا قوت الصِّبية الصغار فقال: عَلِّليهم بشىءٍ وإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وأريه أنَّا نأكل... وكان هذا قبل نزول آيات الحجاب.

۞ وبالفعل فقد نفذت الزوجة ما قاله زوجها.

فنام الأطفال وما أن دخل الضيف وتم وضع الطعام حتى أسرعت الزوجة وأطفأت المصباح.

---

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوى (ص ٢٣٧).

فأكل الضيف حتى شبع وهو يعتقد أن الرجل يأكل معه.

وعندما انتهى الضيف من تناول الطعام شكر الرجل الأنصارى؛ لأنه أطعمه.. ثم انصرف بعد ذلك.

بينما نام الرجل وزوجته وأبناؤه وهم جائعون.

وفى الصباح ذهب الرجل الأنصارى للمسجد.. وشاهده رسول الله ﷺ ونادى عليه وأخبره بأن الله عَجِبَ من فعله هو وزوجته مع ضيف رسول الله ﷺ... وأن الله عز وجل أنزل فيهما قرآنا وهو قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

۞ وهكذا شاركت المرأة زوجها هذا الأجر والثواب العظيم عندما شاركته بهذا الإيثار العجيب.

۞ ففى هذا الحديث من الفوائد ما يلى:

أولًا: بيان حال رسول الله ﷺ وما هو عليه من شظف العيش وقلة ذات اليد، مع أنه عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق على الله ... ولو كانت الدنيا تساوى عند الله شيئًا؛ لكان أحق الناس بها رسول الله ﷺ ... ولكنها لا تساوى شيئًا.

ثانيًا: حُسن أدب الصحابة مع النبى ﷺ...فإن هذا الأنصارى رضي الله عنه قال لزوجته: أكرمى ضيف رسول الله ﷺ ولم يَقُل أكرمى ضيفنا مع أن الذى أضافه فى الحقيقة هو هذا الرجل، لكنه أضافه نيابة عن الرسول (عليه الصلاة والسلام)، فجعله ضيفًا لرسول الله ﷺ.

ثالثًا: أنه يجوز عرض الضيافة على الناس، ولا يُعَدُّ هذا من المسالة المذمومة... أولًا لأنه لم يُعيِّن، فلم يَقُل: يا فلان ضَيِّف هذا الرجل حتى نقول: إنه أحرجه، وإنما هو على سبيل العموم...فيجوز للإنسان مثلًا إذا نزل به ضيف وكان مشغولًا، أو ليس عنده ما يُضيفه به، أن يقول لمن حوله: مَنْ يُضيِّف هذا الرجل؟ ولا حرج فى ذلك.

رابعًا: الإيثار العظيم من هذا الرجل الأنصارى، حيث بات هو وزوجته وصِبيته من غير عشاء إكرامًا لهذا الضيف الذى نزل ضيفًا على رسول الله ﷺ.

خامسًا: أنه ينبغى للإنسان ألا يُرى ضيفه أنه يَمُنُّ عليه، أو أن الضيف مُضيِّقٌ عليه، ومُحرجٌ له ... لأن الرجل أمر بإطفاء المصباح حتى لا يظن الضيف أنه ضيَّق عليهم وحرمهم العشاء....وهذا مأخوذ من أدب الخليل إبراهيم عليه السلام حين نزلت به الملائكة ضيوفًا ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦]، مشوى، لكنه راغ إلى أهله، أى ذهب بسرعة وخُفية لئلا يَخجل الضيف.

سادسًا: أنه يجوز للإنسان أن يُؤْثِر الضيف ونحوه على عائلته ... وهذا فى الأحوال النادرة العارضة، وإلا فقد قال النبى ﷺ: «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ**»(١).

ولكن إذا عرضت مثل هذه الأحوال؛ فلا حرج على الإنسان أن يقدم الضيف أو نحوه ممن يجب عليه إكرامه(٢).

۞ ولقد كانت هناك أمثلة عجيبة للإيثار فى تاريخنا الإسلامى المُشرق.. وها هى بعضها:

۞ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ مِسْكِينًا سَأَلَهَا، وَهِيَ صَائِمَةٌ، وَلَيْسَ فِي بَيْتِهَا إِلَّا رَغِيفٌ، فَقَالَتْ لِمَوْلَاةٍ لَهَا: «أَعطِيهِ إِيَّاهُ»، فَقَالَتْ: لَيْسَ لَكِ مَا تُفْطِرِينَ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: «أَعطِيهِ إِيَّاهُ»، قَالَتْ: فَفَعَلْتُ ... قَالَتْ: فَلَمَّا أَمْسَيْنَا أَهْدَى لَنَا أَهْلُ بَيْتٍ أَوْ إِنْسَانٌ مَا كَانَ يُهْدِي لَنَا شَاةً وَكَفَنَهَا، فَدَعَتْنِي عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ: «كُلِي مِنْ هَذَا، هَذَا خَيْرٌ مِنْ قُرصِكِ»(٣).

---

(١) هذا اللفظ مركب من حديثين، الأول: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ»، وهو عند مسلم (٩٩٧) كتاب الزكاة، والثانى: «وابدأ بِمَنْ تَعُولُ» وهو عند البخارى (١٤٢٨) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٤) كتاب الزكاة.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٣) القرطبى (١٨/ ١٩) وكفن الشاة: عجين بُرّ تُغطَّى به ثم تُعلّق فى التنور فلا يخرج من الودك شىء - والودك: الدسم.

۞ وَعَنْ عُمَرَ بْنَ الخطَّابِ رضي الله عنه، قَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فقُلْ: يَقْرَأُ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ عَلَيْكِ السَّلاَمَ، ثُمَّ سَلْهَا، أَنْ أُدفَنَ مَعَ صَاحِبَيَّ... قَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي فَلأُوثِرَنَّهُ اليَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ، قَالَ لَهُ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: أَذِنَتْ لَكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، قَالَ: «مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ المَضْجَعِ، فَإِذَا قُبِضْتُ فَاحمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمُوا، ثُمَّ قُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ، فَإِنْ أَذِنَتْ لِي، فَادفِنُونِي، وَإِلَّا فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ المُسْلِمِينَ...»(١).

۞ وعَنْ مَالِكٍ الدَّارَانِيُّ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَخَذَ أَربَعَمِائَةِ دِينَارٍ فَجَعَلَهَا فِي صُرَّةٍ فَقَالَ لِلْغُلَامِ: اذْهَبْ بِهَا إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، ثُمَّ تَلَبَّثْ سَاعَةً فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصنَعُ، فَذَهَبَ بِهَا الْغُلَامُ فَقَالَ: يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: اجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ، فَقَالَ: وَصَلَهُ اللهُ وَرَحِمَهُ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَيْ يَا جَارِيَةُ، اذْهَبِي بِهَذِهِ السَّبْعَةِ إِلَى فُلَانٍ، وَبِهَذِهِ الْخَمْسَةِ إِلَى فُلَانٍ، وَبِهَذِهِ الْخَمْسَةِ إِلَى فُلَانٍ، حَتَّى أَنْفَذَهَا. فَرَجَعَ الْغُلَامُ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَخْبَرَهُ فَوَجَدَهُ قَد أَعَدَّ مِثْلَهَا لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، فَقَالَ: اذْهَبْ بِهَا إِلَى مُعَاذٍ وَتَلَكَّأْ فِي الْبَيْتِ سَاعَةً حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصنَعُ ... فَذَهَبَ بِهَا إِلَيْهِ فَقَالَ: يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: اجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ، فَقَالَ: رَحِمَهُ اللهُ وَوَصَلَهُ، تَعَالَيْ يَا جَارِيَةُ، اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ فُلَانٍ بِكَذَا، اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ فُلَانٍ بِكَذَا ... فَاطَّلَعَتِ امْرَأَةُ مُعَاذٍ فَقَالَتْ: وَنَحنُ وَاللهِ مَسَاكِينُ فَأَعطِنَا.

وَلَمْ يَبْقَ فِي الْخِرقَةِ إِلَّا دِينَارَانِ فَدَحَا بِهِمَا إِلَيْهَا، وَرَجَعَ الْغُلَامُ إِلَى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ فَسُرَّ بِذَلِكَ وَقَالَ: «إِنَّهُمْ إِخْوَةٌ بَعضُهُمْ مِنْ بَعضٍ»(٢).

۞ وعن نافع أن ابن عمر اشتكى واشتهى عنبًا، فأشرى له عنقود بدرهم،

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣٩٢) كتاب الجنائز.

(٢) القرطبى (١٨/ ١٩).

فجاء مسكين فسأل، فقال: أعطوه إياه، فخالف إنسانٌ فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إلى ابن عمر، فجاء المسكين فسأل، فقال: أعطوه إياه، ثم خالف إنسان فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إليه، فأراد السائل أن يرجع فمُنع. ولو علم ابن عمر أنه ذلك العنقود ما ذاقه. لأن ما خرج لله لا يعود فيه[١].

۞ وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أُهْدِي لِرَجُلٍ مِنْ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَأْسُ شَاةٍ، فَقَالَ: «إِنَّ أَخِي فُلَانًا وَعِيَالَهُ أَحوَجُ إِلَى هَذَا مِنَّا» قَالَ: فَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ بِهَا وَاحِدٌ إِلَى آخَرَ حَتَّى تَدَاوَلَهَا سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى الْأَوَّلِ فَنزَلَتْ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][٢].

۞ وعن حذيفة العدويّ، قال: «انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمٍّ لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن نعم. فإذا رجل يقول آه. فأشار ابن عمّي إليَّ أن انطلق به إليه فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه. فأشار هشام: انطلق به إليه فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمّي فإذا هو قد مات. رحمة الله عليهم أجمعين»[٣].

۞ وحُكي عن أبي الحسن الأنطاكيّ: أنّه اجتمع عنده نيِّفٌ وثلاثون رجلًا بقرية من قُرى الرَّيِّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تُشبع جميعهم، فكسروا الرُّغفان، وأطفئوا السّراج، وجلسوا للطّعام، فلمّا رُفع فإذا الطّعام بحاله لم يأكل منه أحدٌ شيئًا، إيثارًا لصاحبه على نفسه»[٤].

---

(١) القرطبي (١٨/ ١٩).

(٢) الدر المنثور (٨/ ١٠٧).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٥٨).

(٤) القرطبي (١٨/ ١٩).

۞ وعن قيس بن سعد بن عُبادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -وكان من الأجواد المعروفين-: حَتَّى إِنَّهُ مَرِضَ مَرَّةً، فَاسْتَبْطَأَ إِخْوَانَهُ فِي الْعِيَادَةِ[1]. فَسَأَلَ عَنْهُمْ؟ فَقَالُوا: إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحيُونَ مِمَّا لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الدَّيْنِ. فَقَالَ: أَخْزَى اللهُ مَالًا يَمْنَعُ الْإِخْوَانَ مِنَ الزِّيَارَةِ. ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيًا يُنَادِي: مَنْ كَانَ لِقَيْسٍ عَلَيْهِ مَالٌ فَهُوَ مِنْهُ فِي حِلٍّ. فَمَا أَمْسَى حَتَّى كُسِرَتْ عَتَبَةُ بَابِهِ، لِكَثْرَةِ مَنْ عَادَهُ[2].

(٥٧٠) وعن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «طَعَامُ الاثْنَينِ كافي الثَّلاثَةِ، وطَعَامُ الثَّلاثَةِ كافي الأَربَعَة»[3].

وفي رواية عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «طَعَامُ الوَاحِدِ يَكفي الاثْنَيْنِ، وطَعَامُ الاثنَيْنِ يَكْفي الأربَعَةَ وطَعَامُ الأربعِة، يَكفي الثَّمَانِيَةَ»[4].

۞ والمعنى: إذا نزل بالناس الجوع، ونزل بالناس شدة، فالإنسان إذا أكل طعامًا كاملًا سيعيش وتمر عليه الليلة، وإذا أكل في نصف بطنه فقط فأيضًا ستمر عليه الليلة وينتهي الأمر الذي هو فيه ... فيعلمهم النبي ﷺ أن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة ويكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الخمسة ويكفي الثمانية.

فإذا وجد الإنسان مَن يحتاج فليُطعمه من طعامه، وليُعطه وينتظر الأجر من الله عَزَّ وَجَلَّ على ذلك، ولا ينتظر الحمد من الناس، ولو انتظر الحمد من الناس تعب، وقد يُطعم مَن يستحق ومَن لا يستحق ... فالمعاملة ليست مع الناس، وإنما المعاملة مع الله، والذي يتعامل مع الله سبحانه يستريح أعظم الراحة، فلا

(١) العيادة: زيارة المريض.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٠٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٩٢) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٥٨) كتاب الأشربة.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٥٩) كتاب الأشربة.

ينتظر من الناس جزاءً ولا شُكورًا، ولا ينظر إلى ما أخذه هذا الإنسان منه، فهو في شأن حاله يقول كما قال السلف الصالح رضوان الله عليهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩].

(٥٧١) وعَنْ أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه قال: بينَمَا نَحنُ في سَفَر مَعَ النبي ﷺ إذ جَاءَ رَجُلٌ على رَاحلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَصرفُ بَصَرَهُ يَمينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهرٍ فَليَعُد بِهِ عَلى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، وَمَن كانَ لَهُ فَضْلٌ مِن زَادٍ، فَليَعُد بِهِ على مَن لا زَادَ لَهُ» قَالَ: فَذَكَرَ مِن أَصنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأحدٍ مِنَّا في فَضْلٍ[1].

۞ ففي هذا الحديث يحكي أبو سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أنهم كانوا في سفرٍ مع النبي ﷺ.

وسُمي السفر سفرًا من الإسفار كأنه يسفر عن الشيء ويكشف عنه، ولأن الإنسان يستكشف به أرضًا جديدة لم يكن يعرفها، ويستكشف أخلاقًا في الرفقة التي معه لم يكن يعرفها، فيرى أخلاقًا عظيمة عالية ما كان يعلمها قبل ذلك، وقد يكون خلاف ذلك.

فهنا النبي ﷺ وأصحابه كانوا في سفر، وجاء رجل على راحلة، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فهو محتاج، ولم يدرِ مَن يسأل، وهو راكب على جمل وقد يحتاج لطعام، ولا نقول له: انحر الجمل وكُلْهُ في السفر، فكيف سيكمل سفره... فرآه النبي ﷺ مُحتاجًا، فقال النبي ﷺ هذا الكلام العظيم الجميل: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهرٍ فَليَعُد بِهِ عَلى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ»، يعني: لو أن إنسانًا معه راحلتان فليُعطِ راحلة لمن يحتاج إلى راحلة، فكيف يمشي ومعه ما يجعله يركب عليه.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٢٨) كتاب اللقطة.

«فَلْيَعُد بِهِ عَلى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ»، وهم فى سفر ... والمسافر قد يكون غنيًّا فى بلده ... عنده رواحل وعنده جِمال فى بلده، لكن الآن ليس عنده راحلة.

ويقول النبى ﷺ: «وَمَن كانَ لَهُ فَضْلٌ مِن زَادٍ»، من طعام وشراب ونحوه «فَلْيَعُد بِهِ على مَن لا زَادَ لَهُ»، وذكر أصنافًا من المال.

قال الراوى وهو أبو سعيد الخدرى: حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحدٍ منَّا فى فضلة، يعنى لا حق لأحدٍ منَّا فى زيادة... فالذى معه زيادة وأخوه محتاج فى السفر فليُعطِ هذا المحتاج، ولا يبخل عليه، فإن الله يعطى الأجر العظيم... وكلما ضاق الشىء فأعطيت صديقًا كان الأجر أوسع وأعظم من الله سبحانه وتعالى(١).

فكان الواحد منهم بعد ذلك ينظر إلى رفيقه ويُركبه معه ويُشركه فى زاده.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: فِى هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَالْجُودِ وَالْمُوَاسَاةِ وَالْإِحسَانِ إِلَى الرُّفْقَةِ وَالْأَصحَابِ وَالِاعتِنَاءِ بِمَصَالِحِ الْأَصحَابِ وَأَمْرُ كَبِيرِ الْقَوْمِ أَصحَابَهُ بِمُوَاسَاةِ الْمُحتَاجِ وَأَنَّهُ يُكْتَفَى فِى حَاجَةِ الْمُحتَاجِ بِتَعَرُّضِهِ لِلْعَطَاءِ وَتَعرِيضِهِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ وَهَذَا مَعنَى قَوْلِهِ فَجَعَلَ يَصرِفُ بَصَرَهُ... أَىْ مُتَعَرِّضًا لِشَىْءٍ يَدفَعُ به حاجته ... وفيه مواساة ابن السَّبِيلِ وَالصَّدَقَةُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مُحتَاجًا وَإِنْ كَانَ لَهُ رَاحِلَةٌ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ أَوْ كَانَ مُوسِرًا فِى وَطَنِهِ ... وَلِهَذَا يُعطَى مِنَ الزَّكَاةِ فِى هَذِهِ الْحَالِ وَاللهُ أَعلَمُ(٢).

(٥٧٢) وعَنْ سَهلِ بنِ سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ امرَأَةً جَاءَت إِلى رسول الله ﷺ بِبُردةٍ مَنسُوجَة، فقالت: نَسَجتُها بِيَدىَّ لأَكْسُوكَها، فَأَخَذَهَا النَّبِىُّ ﷺ مُحتَاجًا إليها، فَخَرَجَ إِلينا وَإِنَّهَا لإِزَارُهُ، فقال فُلانٌ: اكْسُنِيهَا مَا أَحسَنَها، فَقَالَ: «نَعَمْ» فجلَس النَّبِىُّ ﷺ فى

(١) شرح رياض الصالحين/ الشيخ أحمد حطيبة.
(٢) مسلم بشرح النووى (١٢/ ٤٩-٥٠).

المجلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَواهَا، ثُمَّ أَرسَلَ بِهَا إِلَيْه: فَقَالَ لَهُ القَوْمُ: ما أَحسَنْتَ، لَبِسَهَا النَّبِىُّ ﷺ مُحتَاجًا إِلَيها، ثُمَّ سَأَلتَهُ، وَعَلِمت أَنَّهُ لا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ: إنى والله ما سَأَلْتُهُ لأَلْبَسَها، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتكُونَ كَفَنِى ... قال سَهْلٌ: فَكانت كَفَنَهُ[١].

۞ ففى هذا الحديث أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببُردة منسوجة قد نسجتها بيديها لتكسى بها رسول الله ﷺ. وكان النبى ﷺ فى ذلك الوقت يلبس إزارًا قديمًا فأخذ البُردة وهو محتاجٌ إليها ﷺ.. وقد كان النبى ﷺ يقبل الهدية ويُثيب عليها.. وهذا من كرمه وحُسن أخلاقه ﷺ.

فلما أخذ النبى ﷺ البُردة الجديدة دخل البيت فخلع الملابس القديمة ولبس تلك البُردة الجديدة.. فرآها عليه أحد أصحابه فطلبها منه ﷺ وقال له: اكسُنيها ما أحسنها.

فما كان من النبى ﷺ إلا أن قام فى التو واللحظة دون أى تردُّد وخلع البُردة الجديدة ولبس الإزار القديم مرة أخرى ثم خرج من بيته وأعطى البُردة لذلك الصحابى.

فلما دخل النبى ﷺ بعد انتهاء جلسته مع أصحابه قالوا لهذا الرجل: ما أَحسَنْتَ ... لَبِسَهَا النَّبِىُّ ﷺ مُحتَاجًا إِلَيها، ثُمَّ سَأَلتَهُ، وَعَلِمت أَنَّهُ لا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ: إنى والله ما سَأَلْتُهُ لأَلْبَسَها، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتكُونَ كَفَنِى. قال سَهْلٌ: فَكانت كَفَنَهُ.

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: فى الشمائل النبوية:

(١) تقشُّفه ﷺ مع ما فتح الله عليه من بلاد، ومع ما كان يأتيه من غنائم وأموال كثيرة، حتى إنه يحتاج إلى بُردة، تهديها له امرأة، تكون له إزارًا، يقول

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٠٩٣) كتاب البيوع، و (٥٨١٠) كتاب اللباس.

الراوى واصفًا حال النبى ﷺ: (فَأَخَذَهَا النَّبِىُّ ﷺ مُحتَاجًا إِليهَا)، ومما يوضح شدة احتياجه إليها، قول الرواى: (فَخَرَجَ إِلينا وَإِنَّهَا لإِزَارُهُ)، أى أنه لبسها فى نفس المجلس.

(٢) تواضعه ﷺ .. ويتجلى ذلك فى قبول الهدية من امرأة، وإظهاره الاحتياج إليها، وارتدائها فى نفس المجلس.

(٣) إيثاره أصحابَه على نفسه، وأن تلك كانت عادَتَه... لقول الراوى: (ثُمَّ سَأَلتَهُ، وَعَلِمت أَنَّهُ لا يَرُدُّ)، أى أن عدم رد السائل كان مسلكه دائمًا ﷺ ... وتدبَّر كيف أن النبى ﷺ قد خلعها للسائل بعد أن لبسها.

(٤) رحمته وشفقته ﷺ بالسائل فيعطيه ولو كان ﷺ فى حاجة لما يعطيه.

(٥) زهده ﷺ فى الدنيا وعدم خشيته الفقر، ورجاء ما عند الله، وحُسن الظن به - سبحانه وتعالى- ومن ذلك ما رواه أَبو سَعِيدٍ الخُدرِىِّ رضي الله عنه: إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَعطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِى مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ»[1].

كما يتفرع عليه، أن من السُّنة، أن يعطى المسلم ويبذل ما عنده، ولو كان فقيرًا ... لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وعجبت أن النبى ﷺ كان يعطى وهو فقير...والرجل الآن لا يعطى وهو غنى، حتى إن الرجل الآن، يبخل أن يرد السائل بالكلمة الطيبة، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].

الفائدةالثانية: حب الصحابة للرسول ﷺ.

الفائدة الثالثة: تعظيم الصحابة لكل ما لامس جسد الرسول ﷺ حيث إن السائل رغم حُسن البُردة وجمالها، ما طلبها ليلبسها، بل طلبها ليُكفَّن فيها...

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٧٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٣) كتاب الزكاة.

ولولا علم الصحابة بجواز ذلك، وأنها يمكن أن تنفعه فى قبره لأنكروا عليه، ولو أنهم كانوا يجهلون المسألة أصلًا، لسألوا عنها النبى ﷺ، قال السائل: (رجوت بركتها حين لبسها النبى ﷺ لعلى أُكَفن فيها)، وعند البخارى: (قال سهل: فكانت كَفَنَه).

وتأمل أخى القارئ، قِصَرَ المدة التى لبس النبى ﷺ فيها هذه البردة، حتى يرجو السائل بركتها، لكنه علم أن هذه البركة تحدث بأدنى ملامسة من النبى ﷺ للبُردة... أعَلِمتَ أخى القارئ مكانة النبى ﷺ عند ربه تبارك وتعالى، أن يجعل فى كل ما يلامسه أعظم البركة، وأيضًا مكانته ﷺ عند أصحابه، ويقينهم بذلك.

ويتفرع على ذلك: تقديم الصحابة رضي الله عنهم أمر الآخرة على أمر الدنيا حيث إن السائلَ ادَّخر البُردة للقبر والكفن، وفضَّل ذلك على ارتدائها فى الدنيا، مع ملاحظة أن ارتداءها فى الدنيا، فيه بركة أيضًا، ولكن حاجته إليها فى القبر أشد وأظهر(١).

(٥٧٣) وعَنْ أبى موسى رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ الأشعَرِيين إِذَا أَرملُوا فى الْغَزْوِ، أو قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِم بالمَدِينَة، جَمَعُوا ما كَانَ عِندَهُم فى ثوبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقتَسَمُوهُ بَيْنَهُم فى إِنَاءٍ وَاحد بالسَّويَّة فَهُم مِنِّى وَأَنَا مِنهُم»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يُثنى النبى ﷺ على الأشعريين ويمدحهم .. وهم قوم أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه من أهل اليمن... بل وفوق ذلك جعلهم النبى ﷺ منه فقال ﷺ: «**فَهُم مِنِّى وَأَنَا مِنهُم**» لكن ياترى ما الذى جعل النبى ﷺ يمدحهم وينسبهم إليه ﷺ.

---

(١) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ٣٥٧-٣٥٨) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٨٦) كتاب الشركة، ومسلم (٢٥٠٠) كتاب فضائل الصحابة.

«أَرمَلُوا» : فَرَغَ زَادُهُم، أو قَارَبَ الفَرَاغَ.

والجواب أن الذى جعله ﷺ يقول ذلك هو تلك الخصلة الجميلة التى كانوا يتميزون بها سواء كان ذلك فى المدينة أو حتى عند خروجهم للغزو فى سبيل الله (جل وعلا).

تلك الخصلة والصفة الجميلة أنهم كانوا إذا أرملوا أى: احتاجوا وقَلَّ طعامهم أو كاد ينفد زادهم، يجمعون طعام الجميع فى إناءٍ واحدٍ، ثم يقسمونه بين الجميع بالسوية، ولعل بعضهم عنده الكثير، وبعضهم عنده اليسير، فيقولون: كلنا محتاجون، ولا أحد أَولَى من الآخر بالمال! فالنبى ﷺ يمدحهم على صفتهم هذه، فقال: «**هُم منى وأنا منهم**».

يعنى: هم من أهل الإيثار ومن أهل الكرم، وقد جُبل النبى ﷺ على ذلك ..، فهم من النبى ﷺ وهو منهم.

وهذا الطعام كله بركة لأن البركة مع الجماعة... لكن بشرط أن تكون النفوس صافية .. أما إذا لم تكن النفوس صافية فلا بركة فى هذا الطعام لأن صاحبك قد لا يكون راضيًا أن تأكل من طعامه ... أما أصحاب الرسول ﷺ فقد كانت نفوسهم نقية صافية ليس فيها شىءٌ من الشُّح بل كانت قلوبهم مملوءة بالإيثار وحُب الخير للغير... سواء كان ذلك فى الحضر أو فى السفر.

۞ قال الشيخ ابن عثيمين (رحمه الله رحمة واسعة): وهذا الحديث أصلٌ فى الجمعيات التعاونية التى يفعلها بعض الناس اليوم .. تجتمع القبيلة على أن يضعوا صندوقًا يجمعون فيه ما تيسَّر من المال؛ إما بالنسبة وإما بالاجتهاد والترشيح ... فيتفقون مثلًا على أن كل واحدٍ منهم يدفع اثنين فى المائة من راتبه أو من كسبه أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا الصندوق مُعدًّا للحوائج والنكبات التى تحصل على أى واحدٍ منهم.

فهذا أصله حديث أبى موسى رضي الله عنه الذى سبق ... فإذا جمع الناس صندوقًا

على هذا النحو ليتساعدوا فيه على نكبات الزمان من الحوادث وغيرها، فإن لذلك أصلًا في السُّنة، وهو من الأمور المشروعة.

ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا الصندوق قد يكون لمن يقع عليه الحادث، وقد يكون لمن يقع منه الحادث.

أما الأول: فأن يوضع الصندوق للناس لمساعدة الناس الذين يحصل عليهم جوائح؛ مثل جوائح تُتلف زروعهم ومواشيهم، أو أمطار تهدم بيوتهم، أو حوادث تحدث على سياراتهم من غيرهم، فيحتاجون إلى المساعدة؛ فهذا طيب ولا إشكال فيه.

أما الثاني: فهو للحوادث التي تقع من الشخص، فإذا فعل شخص حادثًا فصدم أحدًا أو ما أشبه ذلك فينبغي أن يُنظَر في هذا الأمر؛ لأننا إذا وضعنا صندوقًا لهذا فإن السفهاء قد يتهورون، ولا يهمهم أن تقع الحوادث منهم.

فإذا قُدر أننا وضعنا صندوقًا لهذا الشيء فليكن ذلك بعد دراسة ما حدث من الشخص دراسة عميقة، وأنه لم يَحدث منه تهورٌ ولم يَحدث منه تفريطٌ، وإلا فلا ينبغي أن تُوضع الصناديق لمساعدة هؤلاء السفهاء الذين يومًا يصدمون شخصًا، ويومًا يصدمون سيارة وما أشبه ذلك، وربما يقع ذلك عن حالٍ غير مرضية كسُكْرٍ، أو عن حال يُفرط فيها الإنسان كالنوم وما أشبه ذلك.

۞ والحاصل أن هذه الصناديق تكون على وجهين:

الوجه الأول: مساعدة مَن يحصل عليه حادث، فهذا طيب ولا إشكال فيه.

والوجه الثاني: أن يكون ممن يحصل منه حادث، فهذا إن وضع - ولا أحبذ أن يوضع، لكن إن وضع - فإنه يجب التحرُّز والتثبُّت من كون هذا الرجل الذي حصل منه الحادث لم يحصل منه تفريط ولا تعدٍّ.

ثم إن هذا المال الذي يوضع في الصندوق ليس فيه زكاة مهما بلغ من القدر، وذلك لأنه ليس له مالك... ومن شروط وجوب الزكاة أن يكون المال له مالك،

وهذا الصندوق ليس له مالك بل مَن حصل عليه حادث فإنه يُساعَد منه... وأما أصحاب النقود الذين وضعوا هذه النقود فيه فإنهم لا يملكون نقدها... لأنهم قد أخرجوها من أموالهم للمساعدة، وعلى هذا فلا يكون فيها زكاة.

ثم هاهنا مسألة يسأل عنها الكثير من الناس، وهى أنه يجتمع أُناسٌ من الموظفين مثلًا، ويقولون: سنخصم من كل راتب من رواتب هؤلاء النفر ألف ريال على كل واحد، أو عشرة فى المائة من راتبه، يعنى إما بالنسبة أو بالتعيين، ونعطيها واحدًا منا، وفى الشهر الثانى نعطيها الثانى، وفى الشهر الثالث نعطيها الثالث، وفى الشهر الرابع نعطيها الرابع، حتى تدور عليهم ثم ترجع للأول للمرة الثانية، فبعض الناس يسأل عنها.

والجواب على هذا أن نقول: إن هذا صحيحٌ ولا بأس به، وليس فيه حرج، ومَن تَوهَّم أنه من باب القرض الذى جَرَّ نفعًا فقد وَهِم؛؛ لأنى إذا سلَّفتُ هؤلاء الإخوان الذين معى شيئًا فأنا لا آخذ أكثر مما أعطيت... وكونهم يقولون سوف يرجع إليه مال كثيرٌ نقول: نعم، ولكن لم يرجع عليه أكثر مما أعطى، فغاية ما فيه أنه سلف بشرط أن يوفى وليس فى هذا شىء.

فهذا وهم من بعض طلبة العلم الذين يظنون أن هذا من باب الربا؛ لأنه ليس فيه ربا إطلاقًا، بل هو من باب التساعد والتعاون، وكثيرًا ما يحتاج بعض الناس إلى أموالٍ حاضرة تفك مشاكله، ويَسلَم من أن يذهب إلى أحدٍ يتدين منه ويربى عليه، أو يذهب إلى بنك يأخذ منه بالربا أو ما أشبه ذلك، فهذه مصلحة وليس فيها مفسدة بأى وجهٍ من الوجوه[1].

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٢٣٢-٢٣٣) بتصرف.

(٦٣) باب التنافس في أمور الآخرة والاستكثار مما يتبرك به

۞ قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ما أجمل أن يتنافس المسلمون فى الطاعات التى تُقرِّبهم من رب الأرض والسماوات.. وما أجمل أن يتنافسوا فى الفوز بالحسنات والفوز بالمغفرة والرحمات والارتقاء فى درجات الجنات.

۞ فنحن فى سباقٍ حقيقى... وينبغى أن يسعى كل واحدٍ منَّا لأن يسبق كل مَن حوله فيما يقربه إلى الله (جلَّ وعلا).

۞ وتعالوا بنا لنتأمل سويًّا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ... فكل واحدٍ منا يقرأ تلك الآيات ويقرأ فى آخرها: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.. نعم إنه سباق حقيقى.. وكل واحد يتمنَّى أن يكون أول المسلمين فى فعل الطاعات... وأول المسلمين فى الفوز بالمغفرة والرحمات... وأول المسلمين فى دخول الجنات.

۞ ومن هنا جاءت الآيات الكثيرة التى تَحُض على المسارعة إلى الخيرات والطاعات.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وهكذا... فالآيات التي تحض على المسارعة إلى الخيرات كثيرة جدًّا.

۞ ومن أجل ذلك لا بد أن تعلو همة كل واحدٍ منا من أجل أن يبذل أقصى ما في وسعه للفوز برضوان الله ورحمته ومغفرته وجنته.

(٥٧٤) وعَنْ سهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ، فَشَرِبَ مِنهُ وعَنْ يَمِينِهِ غُلامٌ، وعَنْ يسارِهِ الأَشْيَاخُ، فقال لِلْغُلام: «أَتَأْذَنُ لي أَن أُعطِيَ هُؤلاءِ؟» فَقَالَ الغُلامُ: لا واللهِ يا رسُولَ الله لا أُوثِرُ بِنَصيبي مِنكَ أَحَدًا، فَتَلَّهُ رسولُ الله ﷺ في يَدِهِ [1].

۞ فها هو ابن عباس رضي الله عنهما وهو غلامٌ صغير يحرص كل الحرص على نصيبه من أن يشرب خلف النبي ﷺ ... لأن هذا شرفٌ عظيم لا يزهد فيه أحدٌ وبركة عظيمة لا مكان فيها للإيثار... فالإيثار قد يكون في أمور الدنيا أما في الطاعات وأمر الآخرة فليس فيها إيثار.

۞ فقد كان ابن عباس رضي الله عنه في مجلس النبي ﷺ ومعه مجموعة من الأشياخ الكبار في السن والمقام كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم.. فجيء للنبي ﷺ بشرابٍ وكان ابن عباس عن يمين النبي ﷺ والأشياخ عن يساره ﷺ.

فلما شرب كانت عادته أن يشرب ويعطي اليمين، ولكن الكبار كانوا عن شماله ﷺ... والسُّنة أن يستأذن الصغير ليعطي الشراب للكبير، فاستأذن النبي ﷺ من ابن عباس لكي يعطي الأشياخ عن يساره ﷺ.. فرفض ابن عباس وكان فقيهًا على الرغم من صغر سِنِّه فهو يريد أن يشرب خلف النبي ﷺ ومما شرب منه النبي ﷺ ولن يُؤْثِر بذلك أحدًا أبدًا مهما كان قدره ومكانته.. فقال للنبي

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٥١) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٠٣٠) كتاب الأشربة.
«تَلَّهُ» أَيْ: وَضَعَهُ، وَهَذَا الغُلامُ هُوَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

ﷺ: «لا والله يا رسول الله لا أُوثر بنصيبي منك أحدًا.. فتلّه رسول الله ﷺ في يده» أي: وضعه في يده فشرب ابن عباس رضي الله عنه.. ولا عجب في ذلك.

فهذا ابن عباس الذي دعا له النبي ﷺ أن يعلمه الله سبحانه وتعالى التأويل، وأن يفقهه في الدين، فاستجاب الله تعالى دعوة النبي (صلوات الله وسلامه عليه) له.

❁ قال الإمام النووي (رحمه الله): تَضَمَّنَ ذَلِكَ بَيَانَ هَـذِهِ السُّنَّةِ وَهِـيَ أَنَّ الأيمن أحق ولا يدفع إلى غيره إلا بإذنه وَأَنَّـهُ لَا بَـأْسَ بِاسْتِئْذَانِهِ وَأَنَّـهُ لَا يَلْزَمُـهُ الإذن وينبغي له أيضًا أن لا يأذن إِنْ كَانَ فِيهِ تَفْوِيتُ فَضِيلَةٍ أُخْرَوِيَّةٍ وَمَصلَحَةٍ دِينِيَّةٍ كَهَـذِهِ الصُّورَةِ ... وَقَد نَصَّ أَصحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ من العلماء على أنه لا يُؤْثر فِي الْقُرَبِ وَإِنَّمَا الْإِيثَارُ الْمَحمُودُ مَا كَانَ فِي حُظُوظِ النَّفْسِ دُونَ الطَّاعَاتِ ... قَالُوا: فَيُكْرَهُ أَنْ يُؤْثِرَ غَيْرَهُ بِمَوْضِعِهِ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَكَذَلِكَ نَظَائِرُهُ.

وَفِي هَـذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْعِلْـمِ مِنْهَـا أَنَّ الْبُدَاءَةَ بِالْيَمِينِ فِي الشَّرَابِ ونحوه سُنة وهذا مما لا خلاف فِيهِ.

فَالْعُلَمَاءُ مُتَّفِقُونَ عَلَى اسْتِحبَابِ التَّيَامُنِ فِي الشَّرَابِ وَأَشْبَاهِهِ.

وَفِيهِ جَوَازُ شُربِ اللَّبَنِ الْمَشُوبِ وَفِيهِ أَنَّ مَنْ سَبَقَ إِلَى مَوْضِعٍ مُبَاحٍ أَوْ مَجْلِسِ الْعَالِمِ وَالْكَبِيرِ فهو أحق به ممن يجيء بعده والله أعلم[١].

(٥٧٥) وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيَّ ﷺ قال: «بيْنَا أَيُّوبُ عليه السلام يغتسلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْه جَرَادٌ مِن ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحثِي في ثَوبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ عز وجل: يَا أَيُّوبُ، أَلَم أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عمَّا تَرَى؟، قَال: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلكِن لا غِنَى بي عَن بَرَكَتِكَ»[٢].

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٢٩٢) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩) كتاب الغسل.

وفى راوية: عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: **«لما عافى الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أمطر عليه جرادًا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده، ويجعل فى ثوبه، فقيل له: يا أيوب: أما تشبعُ؟ قال: يا رب ومَن يشبع من رحمتك..»**.

۞ كان أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ رجلاً كثير المال، آتاه الله جملة عظيمة من الثروة.

فقد أنعم الله عليه من سائر صنوف أنواع النعم، وفى مقدمتها الأراضى المتسعة الخصبة، وكانت له من الخيل ما يُدهش الأبصار، كما كانت له أعداد وفيرة من الإبل والبقر والغنم وسائر الماشية... وقد كان لأيوب ألف شاة برعاتها، ناهيك بالعبيد الذين يقومون برعاية الأرض وخدمة الأنعام.

۞ وكان أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ برًّا تقيًّا رحيمًا، يُحسن إلى المساكين، ويكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل ... وكان شاكرًا لأنعُم الله عليه، مؤديًا لحق الله عَزَّ وَجَلَّ.

۞ وكان لأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أولاد وأهلون كثير، وكانت زوجه (ليا) تَرفُل فى هذا النعيم، شاكرة عابدة عارفة حق الله على العباد فى الشكر، فقد كانت تُكثر الحمد والشكر والثناء على الله عَزَّ وَجَلَّ، إذ رزقها من البنين والبنات ما تقرّ به عينها ولا تحزن، وأوسع عليها وعلى زوجها من الرزق شيئًا مباركًا، وفضَّلهما على كثيرٍ من خلقه.

۞ كانت (ليا) تدرك أن سر بقاء النعمة هو شكر المُنعم.. فكانت دائمة الذكر والحمد، تؤدى إلى كل ذى حقٍّ حقه، فتواسى عباد الله وتبر بهم، وتُحسن إليهم، وتستنير بذلك فى ضوء إرشاد زوجها نبى الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

۞ وفى يوم من الأيام جاءه أحد عبيده ليخبره أن ولدًا من أولاده قد مات فصبر واحتسب ... ثم مات ولدٌ آخر بعد ذلك بأيام فصبر واحتسب وظل أولاده

---

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٤٣، ١٤٤).



يموتون الواحد وراء الآخر حتى مات كل أولاده.

۞ بل وفى نفس الوقت كانت المواشى والأغنام والخيل تموت أمامه حتى فنيت جميعًا وهو صابر محتسب.

۞ وابتُلى فى جسده بأنواع من البلاء، ولم يبقَ منه عضوٌ سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عَزَّوَجَلَّ بهما، وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكرٌ لله عَزَّوَجَلَّ فى ليله ونهاره، وصُبحه ومسائه.

وطال مرضه وانقطع عنه الناس، ولم يبقَ أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتُصلح من شأنه وتُعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضعف حالها، وقَلَّ مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتُطعمه، (رضى الله عنها وأرضاها) وهى صابرة معه على ما حلَّ بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة.

ولم يزد هذا أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا.

حتى إن المثل ليُضرب بصبره عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ويُضرب أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا[1].

۞ وبعد ما قضى فى البلاء سنواتٍ طوال توجَّه إلى ربه بالدعاء، طالبًا منه كشف البلاء ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: ٤١].

واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه ... فالله على كل شىء قدير، وإذا أراد شيئًا فإنه لا يُعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

(١) قصص الأنبياء / للحافظ ابن كثير (ص: ٢٥٧-٢٥٨).

۞ جاء الفرج الإلهى.. وجاءت الوصفة الطبية الربانية لأيوب.

أما صفة هذه الوصفة الربانية فموجودة فى القرآن الكريم والذكر الحكيم فى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص: ٤٢].

هكذا عادت إليه صحته وعافيته مرة أخرى.

۞ وكما رَدَّ الله عليه عافيته وصحته، رَدَّ عليه ضِعفَى المال الذى فقده، ورزَقَه ضِعفَى ما كان عنده من الأولاد ... فقد أرسل الله سحابتين، لا تحملان مطرًا، بل ذهبًا وفضة، وكان لأيوب بيدران أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب فى بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة فى بيدر الشعير[(١)].

وبينما كان يغتسل عريانًا، ليس عنده أحد، أمطر الله عليه جرادًا من ذهب.

وكان هذا الجراد من الذهب كثيرًا ... سمَّاه رسول الله ﷺ فى رواية أخرى عند البخارى: رِجْلَ جراد. فقال عليه الصلاة والسلام: «**بينما أيوب يغتسل عريانًا، خرَّ عليه رِجْلُ جرادٍ من ذهب** ...»[(٢)].

وشاء الله الحكيم أن يرزقه الذهب على صورة جراد، وصَبَّ عليه الجراد من الذهب صبًّا أثناء اغتساله، وأمطره عليه، فكأن هذا الذهب كان مطرًا غزيرًا نازلًا عليه، وكان هذا معجزة من الله سبحانه.

فلما رأى أيوب هذا الذهب مصبوبًا عليه تناول ثوبه الذى وضعه بجانبه أثناء الاغتسال، وصار يجمع الذهب بكلتى يديه، ويحثوه، ويضعه فى ثوبه!!

فعجب الله من صنيعه، وناداه: يا أيوب: ألم أَكُن أغنيتك عما ترى؟

أى أن الله أغناه بما وهبه من رزق، فلِمَ يجمع الذهب بثوبه؟

---

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١٦١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٤٩٣) كتاب التوحيد.

فقال أيوب عليه السلام: بلى. لقد أغنيتنى، ولكن لا غِنى لى عن بركتك؟

أى أن هذا الذهب بركة منك يا رب، وبركة الله لا غِنى عنها، فهى تُبارك مال من كانت عنده ... فأيوب عليه السلام ليس بحاجة إلى الذهب، وهو زاهد فى متاع الدنيا، لأن الأنبياء هم أئمة الزاهدين، وجَمْعُه للذهب بثوبه طلبًا للبركة، وليس سدادًا لحاجة.

وفى الرواية الثانية أن الله لما عجب من فعله قال له: يا أيوب: أما تشبع؟

فقال أيوب عليه السلام: يا رب ومَن يشبع من رحمتك؟

لقد اعتبر هذا الذهب من مظاهر رحمة الله ... ورحمة الله لا يشبع منها مؤمن ... فجَمْعُه للذهب بثوبه ليس بسبب نهمه، بل للتقلب برحمة الله.

وهذا التصرف من أيوب عليه السلام دليلٌ على أنه يجوز للمؤمن أن يجمع المال، وأن يستكثر منه، وأن يحتفظ به، بشرط أن يأتيه من مصدرٍ حلال، وأن لا تستشرفه نفسه، ولا يملأ عليه تفكيره، وأن يُخرج حق الله فيه.

ويُعتبر هذا المال بركة من الله، ولا يستغنى أحدٌ عن بركة الله، ورحمة من الله، ولا يشبع أحدٌ من رحمة الله. ويقتدى فى ذلك بأيوب عليه السلام[١].



(١) القصص القرآنى/ د. صلاح الخالدى (٤/ ٢٦-٢٧).



(٦٤) باب فضل الغني الشاكر وهو مَن أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها

قال المؤلف رحمه الله تعالى: (باب فضل الغنى الشاكر)، وهو الذى يأخذ المال بحقه ويصرفه فى حقه.

فالغنى هو الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى ما يستغنى به عن غيره من مالٍ أو علم أو جاه أو غير ذلك، وإن كان الأكثر استعمالًا أن الغنى هو الذى أعطاه الله المال الذى يستغنى به عن غيره.

والله سبحانه وتعالى يبتلى عباده بالمال يعنى بالغِنى وبالفقر.

فمن الناس مَن لو أغناه الله لأفسده الغِنى، ومن الناس مَن لو أفقره الله لأفسده الفقر... والله عز وجل يعطى كل أحدٍ بحسب ما تقتضيه الحكمة ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وإذا أعطى الله الإنسان المال فإنه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مَن يعطيه الله المال يكتسبه من طريقٍ حرام: كالمُرابى والكذاب والغشاش فى البيع والشراء ومَنْ أكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك، فهذا غِناه لا ينفعه لأنه غِنى فى الدنيا، ولكنه فقرٌ -والعياذ بالله- فى الدنيا والآخرة.

إذ إن هذا الشىء الذى دخل عليه من هذا الوجه سوف يُعاقَب عليه يوم القيامة... وأعظمه الربا، فإن الله عز وجل يقول فى كتابه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

القسم الثاني: من الأغنياء مَن أغناه الله بمالٍ لكن عن طريق الحلال، يبيع بالبيان والنُّصح والصدق، ويأخذ كذلك، ولا يكتسب إلا المال الحلال، فهذا هو الذى ينفعه غِناه، لأن مَنْ كان كذلك فالغالب أن الله يوفقه لصرفه فيما ينفع.

فهذا هو الغنى الشاكر الذى يأخذ المال بحقه، ويصرفه فى حقه على الوجه الذى شرعه الله له(١).

۞ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل: ٥-١٢].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ أى فأما مَن أعطى ماله وأنفق ابتغاء وجه الله، واتَّقى ربه فكفَّ عن محارم الله ... قال ابن كثير: أعطى ما أُمر بإخراجه، واتقى الله فى أموره(٢) ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أى وصدَّق بالجنة التى أعدَّها الله للأبرار ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أى فسنُهيئه لعمل الخير، ونُسهِّل عليه الخصلة المؤدية لليُسر، وهى فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أى وأمَّا مَن بخل بإنفاق المال، واستغنى عن عبادة ذى الجلال ...قال ابن عباس: بَخِل بماله، واستغنى عن ربه عَزَّوَجَلَّ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أى وكذَّب بالجنة ونعيمها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أى فسنُهيئه للخصلة المؤدية للعُسر، وهى الحياة السيئة فى الدنيا والآخرة وهى طريق الشر. قال المفسرون: سَمَّى طريقة الخير يُسرى لأن عاقبتها اليُسر وهى دخول الجنة دار النعيم، وسَمَّى طريقة الشرِّ عُسرى لأن عاقبتها العُسر وهو دخول الجحيم

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٢٣٤).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٦).

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ استفهام إنكارى أىْ أىُّ شىء ينفعه ماله إذا هلك وهو فى نار جهنم؟ هل ينفعه المال، ويدفع عنه الوبال؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أى إنَّ علينا أن نبيِّن للناس طريق الهدى من طريق الضلالة، ونوضّح سبيل الرشد من سبيل الغى.

❊ ❊ ❊

۞ وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧-٢١].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ أى وسيُبعَد عن النار التقىُّ النقىُّ، المُبالغ فى اجتناب الشرك والمعاصى. . ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أى الذى ينفق ماله فى وجوه الخير ليُزكى نفسه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أى وليس لأحدٍ عنده نعمة حتى يكافئه عليها، وإنما ينفق لوجه الله.

قال المفسرون: نزلت الآيات فى حقِّ «أبى بكر الصدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» حين اشترى بلالًا وأعتقه فى سبيل الله ... فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليدٍ كانت له عنده فنزلت ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أى ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أى ولسوف يعطيه الله فى الآخرة ما يُرضيه وهو وعدٌ كريم من ربٍّ رحيم(١).

❊ ❊ ❊

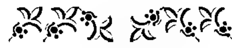
۞ وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أى إن تُظهروا صدقاتكم فنِعم هذا الشىء الذى تفعلونه ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى وإن تخفوها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أى يزيل بجميل أعمالكم سيئ آثامكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا

---

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٥٤١-٥٤٢).

﴿تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى هو سبحانه مُطلع على أعمالكم يعلم خفاياكم ... والآية ترغيب فى الإسرار(١).



۞ وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ أى لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنة حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ أى وما تبذلوا من شىءٍ فى سبيل الله فهو محفوظ لكم تُجزون عنه خير الجزاء(٢).



وقد اختلف العلماء فيهما: أيهما أفضل للمرء: أن يكون غنيًّا شاكرًا أم فقيرًا صابرًا؟

۞ **والذى تدل عليه الأحاديث:** أن الغنى الشاكر هو الأفضل.

وقال ﷺ لسعد رضي الله عنه: «**لأن تترك ورثتك أغنياء، خيرٌ من أن تتركهم عالة يتكففون الناس**»(٣).

وقال ﷺ: «**ما نفعنى مالُ أحدٍ قط ما نفعنى مال أبى بكر**»(٤).

وعن عمرو بن العاص قال: بعث إلىَّ رسول الله ﷺ فقال: «**خُذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتنى**» فأتيته فقال: «**إنى أريد أن أبعثك على جيش فيُسلمك الله ويُغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة**» فقلت يا رسول الله: ما أسلمت من أجل المال، ولكنى أسلمت رغبة فى الإسلام!! فقال: «**يا عمرو نِعم المال**

(١) صفوة التفاسير (١/ ١٥٦).
(٢) صفوة التفاسير (١/ ١٩٨).
(٣) **متفق عليه:** رواه البخارى (٢٧٤٢) كتاب الوصايا، ومسلم (١٦٢٨) (٨) كتاب الوصية.
(٤) **صحيح:** رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦١).

الصالح للرجل الصالح»[1].

وعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ دعا له بكل خير، وكان فى آخر دعائه أنه قال: «اللهم أكثِر ماله وولده وبارك له»[2].

وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، أن عُبيد الله بن كعب بن مالك قال: سمعت كعب بن مالك يحدث بحديث توبته قال: فقلت: يا رسول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى رسوله ﷺ فقال: «أمسِك عليك بعض مالك، فهو خيرٌ لك»[3].

فأما كسبُ المال، فإن مَن اقتصر على كسب البُلْغة من حِلِّها، فذلك أمر لا بد منه، وأما مَن قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال، نظرنا فى مقصوده، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وادَّخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح، أُثيب على قصده، وكان جَمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات.

وقد كانت نِياتُ خلقٍ كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فى جمع المال سليمة، لحُسن مقاصدهم لجَمعه، فحرصوا عليه، وسألوا زيادته.

وكان سعد بن عبادة يدعو، فيقول: اللهم وسِّع علىَّ[4].

قال ابن الجوزى: وأبلغ من هذا أن يعقوب عليه الصلاة والسلام، لما قال له بنوه: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، مالَ إلى هذا وأرسل ابنه بنيامين معهم... وأن الرجل الصالح من أهل مَديَن طمع فى زيادة ما يناله فقال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧]، و«أن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما عُوفى نُثر عليه رِجْلُ جراد من

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو يعلى، والحاكم، وصححه الألبانى فى غاية المرام (٤٥٤).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٧٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٤٨٠) كتاب فضائل الصحابة.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٥٧) كتاب الوصايا، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.
(٤) رواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٦٤).

ذهب، فأخذ يحثو فى ثوبه يستكثر منه، فقيل له: أما شبعت؟ قال: يا رب، مَن يشبع من فضلك!»[١]، وهذا أمرٌ مَركوز فى الطباع، فإذا قصد به الخير كان خيرًا محضًا.

وأما الأنبياء فقد كان لإبراهيم (عليه الصلاة والسلام)، زرعٌ ومال، ولشعيب عليه السلام ولغيره.

وكان سعيد بن المسيب رضي الله عنه يقول: لا خير فيمن لا يطلب المال، يقضى به دَيْنه، ويصون به عِرضه، ويصل به رحمه، فإن مات تركه ميراثًا لمن بعده[٢].

(٥٧٦) وعَنْ عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لا حَسَدَ إلّا فى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ الله مَالًا، فَسَلَّطَهُ على هَلكَتِهِ فى الحَقِّ. ورَجُلٌ آتاه الله حِكْمَةً فَهو يَقضِى بِها وَيُعَلِّمُها»[٣].

(٥٧٧) وعَنْ ابْنِ عمر رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا حَسَد إلاَّ فى اثنَتَين: رَجُلٌ آتاهُ الله القُرآنَ، فهو يَقُومُ بِهِ آناءَ اللَّيل وآناءَ النَّهارِ. وَرَجُلٌ آتاهُ الله مَالًا. فهوَ يُنْفِقهُ آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النَّهارِ»[٤].

۞ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٥٤٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٥٧٨) وعَنْ أبى هُريرة رضي الله عنه أَنَّ فُقَرَاءَ المُهَاجِرِينَ أَتَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجاتِ العُلَى، والنَّعيم المُقِيمِ، فَقَال: «ومَا ذَاكَ؟» فَقَالُوا:

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩) كتاب الغسل.

(٢) الورع والزهد/ د. يوسف القرضاوى (ص ١٩٧-٢٠٠) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٢٥) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٨١٥) كتاب صلاة المسافرين.

«الآنَاء» : السَّاعَات.

يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كمَا نَصُومُ. وَيَتَصَدَّقُونَ ولا نَتَصَدَّقُ، ويَعتِقُونَ ولا نَعتقُ..فقال رسول الله ﷺ : «أفَلا أُعَلِّمُكُمْ شَيئًا تُدرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبقَكُمْ، وتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعدَكُمْ وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُم إلا مَنْ صَنَعَ مِثلَ ما صَنعتُم؟» قالوا: بَلَى يا رسول الله، قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وتَحمَدُونَ، وتُكَبِّرُونَ، دُبُر كُلِّ صَلاة ثَلاثًا وثَلاثينَ مَرَّةً» فَرَجَعَ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ إِلى رسول الله ﷺ ، فَقَالُوا: سمعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَموَالِ بِمَا فَعلْنَا، فَفَعَلوا مِثْلَهُ؟ فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «ذلك فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يشَاءُ»(١).

۞ جاء فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور» جمع أجر «بالدرجات العُلى والنعيم المقيم».

قال: «وما ذاك؟» قالوا: «يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق» يعنى فهم أفضل منا، لأن الله منَّ عليهم بالمال فبذلوه فى طاعة الله، وفيما يُرضى الله.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعتُمْ**» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**».

يعنى تقولون: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر ثلاثًا وثلاثين ... فصاروا يفعلون ذلك، ولكن الأغنياء سمعوا بهذا فصاروا يقولونه ... يسبحون ويكبرون ويحمدون ثلاثًا وثلاثين دُبر كل صلاة.

فرجع الفقراء مرة ثانية إلى النبى عليه الصلاة والسلام وقالوا: «يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما صنعنا فصنعوا مثله»، فقال عليه الصلاة

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٤٣) كتاب الأذان، ومسلم (٥٩٥) كتاب المساجد.
«الدُّثُورُ» : الأَموالُ الكَثِيرَةُ، والله أعلم.

والسلام: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» يعنى أن الله سبحانه وتعالى أغناهم وأعطاهم المال فبذلوه فى طاعة الله، وهذا فضل الله[١].

۞ فى الحديث فوائد منها:

الفائدة الأولى: تطبيق شرع الله عَزَّوَجَلَّ فى أمة من الأمم، لا يمنع أن يكون فيها فقراء ... فالعهد النبوى رغم أنه خير القرون، فما زال فيه فقراء وأغنياء، ولم يُؤمَر الأغنياء أن يوزعوا جميع أموالهم بينهم وبين الفقراء، حتى يستوون فى المعيشة، وهذه سُنة الله فى الكون أن يبتلى عبدًا بالفقر، ليرى هل يصبر أم يجزع؟ هل يرضى بقضاء الله وقدره؟

فمن صبر على البلاء، وسلَّم بالقضاء، فله الأجر الكامل ... والله إنه لأجرٌ لا يوازى مصيبته، بل يفوقها كثيرًا ... ألم تسمع لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

ولا يحسب الأغنياء أنهم قد سَلِموا من الامتحان والاختبار، كيف ذلك؟ والله يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ألم يعلم الغنى ماذا فعل الله بقارون، الذى أُوتى من المال، ما إن مفاتحه لتنوء بالعُصبة أولى القوة، أين هو الآن؟ خُسِفت به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، لم يكن مطلوبًا منه إلا أن يشكر مُسْدِىَ النعمة ويُخرج زكاتها... هل تراه الآن يصبر على ما هو فيه من العذاب، مُسَليًا ومُصبراً نفسه بتنعُّمه فى الدنيا؟ كلا والله، نسى ما كان من نعمة، مع أول غمسة فى العذاب.

الفائدة الثانية: وهى منقبة عظيمة لفقراء الصحابة ... فللفقراء فى كل بلد مطالب وهموم بل ولهم آمال... ومن آمالهم زيادة قدر الصدقات الممنوحة لهم، لتُخفف عنهم عوز الحاجة، وتضمن لهم المعيشة الهنية والعيشة السوية، وقد يذهبون إلى

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٣٦).

الحاكم، يشتكون إليه ما فيه الأغنياء من ترفٍ ورغد، بل قد يثور الفقراء على الأغنياء، كما حدث قبل فى الثورة البلشفية فى روسيا ... فهل حدث هذا من فقراء العصر النبوى؟ لا .. إنهم لم ينظروا إلى الأغنياء، يريدون ما عندهم، ما فكروا إلا فى أمرٍ واحد، وهو أن الأغنياء لهم فضائل أموال يتصدقون بها، ويحجون بها، ويجهزون بها المجاهدين، وليس عندهم- أى الفقراء- ما ينفقونه فى سبيل الله، فتكون للأغنياء أجور عظيمة، والفقراء محرومون منها، فكيف المَخرج وما السبيل؟ يريدون فضل الله فى الآخرة ... وانظر إلى قولهم فى آخر الحديث:

(سمع إخواننا أهل الأموال) وهم صادقون فى قولهم: إن الأغنياء إخوانٌ لهم.

الفائدة الثالثة: فى الحديث مناقب عظيمة لأهل الأموال من الصحابة رضي الله عنهم منها:

(١) بيان مدى حرصهم على فضائل الأعمال، كالصدقة والعتق، وكذا الحج والعمرة والجهاد ... كما ثبت فى رواية عند مسلم، مع همتهم العالية فى بقية العبادات، كالصوم والصلاة.

(٢) أنهم لم يستكثروا ما هم فيه من الخير الحاصل لهم، من الصدقة والحج والجهاد، بل سارعوا إلى مشاركة الفقراء فى ذكر ختم الصلاة.

فلم يقولوا: هذه عبادة الفقراء حتى يدركوا ما نحن فيه من فضل ... ولم يقولوا: كفى ما نحن فيه من خير؟ بل سارَعوا إلى الزيادة، وحرصوا على الزيادة... فانظر كيف ربَّى النبىُّ الأغنياء والفقراء، على حَدٍّ سواء، فلا حسد ولا غل عند الفقراء، ولا تكبُّر ولا ترفُّع عند الأغنياء.

الفائدة الرابعة: التوفيق للطاعات والقربات، مَحضُ فضلٍ من الله عز وجل، حيث قال النبى: «**ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء**» ، فعلى المسلم ألا يرى لنفسه

فضلًا فى أداء الطاعات، ويجب عليه أن يُقرّ ويعترف أنها من توفيق الله- سبحانه وتعالى-، يتفرع على ذلك وجوب شكرها، ولزوم سؤال الله أن يحفظها ويُديمها.

الفائدة الخامسة: وقد يُؤخَذ من الحديث، أن الغنى الشاكر، المؤدى حق الله فى المال، أفضل من الفقير الصابر المحتسب، إذا استووا فى بقية الطاعات[1].

وذلك لأن الغنى الشاكر قد اختُبر بالمال وزهرة الحياة الدنيا فكان وفيًّا شاكرًا لله.. استعمل المال فيما يُرضى الله ولم يستعمله فى معصيته بل وأخرج زكاة ماله طيبة بها نفسه.. أما الفقير الصابر فلم يُختبَر بعد.. فقد يُختبَر فيكون وفيًّا شاكرًا وقد يكون غير ذلك.. فاللهم اجعلنا من الشاكرين لك على نعمك التى لا تُعد ولا تُحصى.



(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٣٨٠-٣٨٢) بتصرف كبير.

(٦٥) باب ذكر الموت وقصر الأمل

۞ لا بد أن يكون الموت على بالنا.. فالموت لم ينجُ منه أحدٌ ولن ينجو منه أحد.. سواء كان نبيًّا مُرسَلًا أو مَلَكًا مقربًا أو وليًّا من الأولياء.. قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ وقال تعالى لسيد ولد آدم ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ وقال له: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

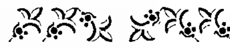
۞ فالموت حتمٌ لازم، لا تمنع منه حصانة القلاع ولا يحول دونه الحجاب ولا تردُّه الأبواب...قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة فى النفس: حقيقة أن الحياة فى هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل؛ ثم تأتى نهايتها حتمًا.. يموت الصالحون ويموت الطالحون. يموت المجاهدون ويموت القاعدون. يموت المُستعلون بالعقيدة ويموت المُستذَلون للعبيد.. يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجُبناء الحريصون على الحياة بأى ثمن.. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت.. ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾.. كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة.. لا فارق بين نفسٍ ونفس فى تذوُّق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع. إنما الفارق فى شىءٍ آخر. الفارق فى قيمة أخرى. الفارق فى المصير الأخير:

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾.

هذه هى القيمة التى يكون فيها الافتراق. وهذا هو المصير الذى يفترق فيه فلان عن فلان(١).



قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فكل نفسٍ منفوسة من بنى آدم وغير بنى آدم ذائقة الموت... لابد أن تذوق الموت... وعبَّر بقوله: ﴿ذَآئِقَةُ﴾؛ لأن الموت يكون له مَذاقٌ مُرٌّ يكرهه كل إنسان.

لكن المؤمن إذا حضره أجله وبُشِّر بما عند الله عَزَّوَجَلَّ أحبَّ لقاء الله ولا يكره الموت حينئذ ... قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أى تعطونها وافية كاملة يوم القيامة.

وإن أُوتى الإنسان أجره فى الدنيا فإنه ليس هذا هو الأجر فقط، بل الأجر الوافى الكامل الذى به يستوفى الإنسان كل أجره يكون يوم القيامة، وإلا فإن المؤمن قد يُثاب على أعماله الصالحة فى الدنيا، لكن ليس هو الأجر الكامل الذى فيه التوفية الكاملة، لأن هذه إنما تكون يوم القيامة ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ زُحزح يعنى: أُبعد عن النار ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ لأنه نجى من المكروه وحصل له المطلوب ... نجى من المكروه وهو دخول النار، وحصل له المطلوب وهو دخول الجنة، وهذا هو الفوز العظيم الذى لا فوز مثله.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ... صدق الله عَزَّوَجَلَّ؛ فالدنيا متاع الغرور يعنى متاع ليس دائمًا، بل كما يكون للمسافر متاع يصل به إلى منتهى سفره، ومع

(١) رحلة إلى الدار الآخرة / د. محمود المصرى (ص ٩٩-١٠٠) بتصرف.

ذلك فهى متاع غرور ... تَغُر الإنسان، تزدان له وتزدهر وتكتحل وتتحسن وتكون كأحسن شىء، ولكنها تغره.

كلما كثرت الدنيا وتشبث الإنسان بها بَعُد من الآخرة... ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تُفتح عليكم الدنيا كما فُتحت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهلككم كما أهلكتهم**».

ولهذا نجد أن الإنسان أحيانًا يكون فى حال الضيق أو الوسط خيرًا منه فى حال الغِنى، لأنه يَغُره الغِنى ويُطغيه والعياذ بالله... ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ يعنى فلا تغتروا بها، وعليكم بالآخرة التى إذا زُحزح فيها الإنسان عن النار وأُدخل الجنة، فإنه بذلك يفوز فوزًا لا فوز مثله[1].

***

۞ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

فهذه إحدى مفاتيح الغيب الخمسة التى لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ومفاتح الغيب هى الخمس المذكورة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩].

۞ قال ﷺ: «**مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٣٨).

ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾»[(١)].

فهذه الخمس لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ ...فعلم الساعة لا يعلمه أحد، حتى إن جبريل وهو أشرف الملائكة سأل رسول الله ﷺ وهو أعلم البشر فقال: «**أخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»[(٢)]. فلا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ والمُنزل للغيث يعلم متى ينزل...فهو سبحانه وتعالى هو الذي يعلم متى ينزل الغيث وهو الذي يُنزله... والغيث هو المطر الذي يحصل به نبات الأرض وزوال الشدة.

وليس كل مطر يُسمَّى غيثًا، فإن المطر أحيانًا لا يجعل الله فيه بركة فلا تنبت به الأرض ... كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ليست السَّنة ألا تُمطَروا**» يعني ليس الجدب ألا تُمطَروا «**بل السَّنة أن تُمطَروا وتُمطَروا ولا تُنبت الأرض شيئًا**»[(٣)].

وهذا يقع أحيانًا ... فأحيانًا تكثر الأمطار ولا يجعل الله تعالى فيها بركة، فلا تُنبت الأرض ولا تحيا.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو ... هل هو ذكر أم أنثى؟ ولهذا يسأل المَلَك المُوكل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من كسب دينها ودُنياها﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل الله تعالى، هو المختص بعلم ذلك جميعه.

ولما خصَّص الله هذه الأشياء، عمَّم علمه بجميع الأشياء فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٧) كتاب تفسير القرآن.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠) كتاب الإيمان، و(٤٧٧٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان، من حديث أبي هريرة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٠٤) كتاب الفتن.

عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ مُحيطٌ بالظواهر والبواطن، والخفايا والخبايا، والسرائر، ومن حكمته التامة، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد، لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على مَن تدبر ذلك(١).

فإذا كان الأمر كذلك فأقصِر الأمل ولا تَقُل: أنا ما زلت في ريعان الشباب.. فالموت لا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا.. وكم من شابٍّ كان عنده من الآمال والأحلام الكثير والكثير فمات وهو في ريعان شبابه.. وكم من صحيحٍ مات بلا مرضٍ وكم من مريضٍ عاش حينًا من الدهرِ.

❊ ❊ ❊

۞ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

فكل إنسان له أجلٌ محدود لا يستطيع أن يتجاوزه بحالٍ من الأحوال... فآجال العباد وأرزاقهم قد قدرها الله عَزَّ وَجَلَّ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ... وجرى بذلك القلم في اللوح المحفوظ.

قال ﷺ: « **كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** »(٢).

۞ وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: « **وَكَّلَ اللهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ، فَمَا الأَجَلُ، فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ** »(٣).

---

(١) تفسير السعدي (٧٦٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٨) كتاب الحيض، ومسلم (٢٦٤٦) كتاب القدر.

۞ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق - قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَربَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ...»(١).

وفى «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبى ﷺ، ورضي الله عنها: «اللَّهم أمتعنى بزوجى رسول الله، وبأبى: أبى سفيان، وبأخى معاوية».

قال: فقال النبى ﷺ: «قَد سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّام مَعدُودَةٍ، وَأَرزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ»(٢).



۞ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون: ٩-١١].

لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته، وعن أداء ما افترضه عليكم من الصلاة، والزكاة، والحج، كما شغلت المنافقين ...قال أبو حيان: أى لا تشغلكم أموالكم بالسعى فى نمائها، والتلذُّذ بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم، وبالنظر فى مصالحهم، عن ذكر الله ... وهو عامٌ فى الصلاة والتسبيح، والتحميد، وسائر الطاعات(٣) ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٣) كتاب القدر.

(٣) البحر المحيط (٢٧٤٨).

﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أى ومَن تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فأولئك هم الكاملون فى الخُسران، حيث آثروا الحقير الفانى على العظيم الباقى، وفضَّلوا العاجل على الآجل ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ أى وأنفقوا فى مرضاة الله، من بعض ما أعطيناكم وتفضَّلنا به عليكم من الأموال ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أى قبل أن يحلَّ الموتُ بالإنسان، ويصبح فى حالة الاحتضار ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أى فيقول عند تيقُّنه الموت، يا ربِّ هلاَّ أمهلتنى وأخَّرت موتى إلى زمنٍ قليل!! ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أى فأتصدق وأُحسن عملى، وأصبح تقيًّا صالحًا.

قال ابن كثير: كلُّ مفرطٍ يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات، ولكن هيهات[1] ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ أى ولن يمهل الله أحدًا أيًّا كان إذا انتهى أجله، ولن يزيد فى عمره... وفيه تحريضٌ على المبادرة بأعمال الطاعات، حذرًا أن يجىء الأجل وقد فرَّط ولم يستعد للقاء ربه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أى مُطلع وعالم بأعمالكم من خيرٍ أو شرٍّ، ومُجازيكم عليها[2].

❊ ❊ ❊

۞ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٦).

(٢) صفوة التفاسير (٣/ ٣٦٥-٣٦٦).

فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى
يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ
ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾
قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ
إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا
لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١١٥].

يُخبر تعالى عن حال مَن حضره الموت، من المُفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قُبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتُّع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما من أجل أن يعمل صالحًا.. ولذا فإنه يقول: ﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا رجعة له ولا إمهال، فقد قضى الله أنهم إليها لا يُرجعون، ﴿إِنَّهَا﴾ أي: مقالته التي تمنَّى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نُهي عنه.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخٌ، وهو الحاجز بين الشيئين ... فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة.

وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويُعذَّب العاصون، من موتهم إلى يوم يُبعثون، أي: فليُعدوا له عُدَّته، وليأخذوا له أُهبته.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمُقلقات، وأنه إذا نُفخ في الصور نفخة البعث، فحُشر الناس أجمعون، لميقات يومٍ معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما يُنسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب.

فغير الأنساب من باب أولَى، وأنه لا يَسألُ أحدٌ أحدًا عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدرى هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يَشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ ... قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

۞ والنفخ فى الصور مرَّتان:

النفخة الأولى: يكون فيها الفزع والصعق يعنى الموت، فينفخ إسرافيل فى الصور نفخة يكون لها صوتٌ عظيمٌ مُزعج جدًّا، فيفزع الناس ثم يموتون كلهم إلا ما شاء الله.

والنفخة الثانية: ينفخ فى الصور فتخرج الأرواح من الصور وتعود إلى أجسادها، وهذه التى يكون بها الحياة الأبدية التى لا موت بعدها.

وفى القيامة مواضع، يشتد كربها، ويَعظُم وقعُها ... كالميزان الذى يُميَّز به أعمال العبد، ويُنظَر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتَبين فيه مثاقيل الذَّرِّ، من الخير والشر، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت حسناتُه على سيئاته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت سيئاتُه على حسناته، وأحاطت بها خطيئاتُه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها -بالنسبة إليها- سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يُجبَرُ مُصابها، ولا يُستدرَك فائتها... خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التى يتمكن بها من السعادة الأبدية ... ففوَّتها هذا النعيم المقيم، فى جوار الرب الكريم.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين...وهذا الوعيد، إنما هو - كما ذكرنا - لمن أحاطت خطيئاتُه بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافرًا.

---

(١) تفسير السعدى (ص٦٥١) بتصرف.

فعلى هذا، لا يُحاسَب محاسبة مَن تُوزَنُ حسناتُه وسيئاتُه، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعَدُّ أعمالهم وتُحصى، فيُوقَفون عليها، ويُقرَّرون بها، ويُخزَون بها.

وأما مَن معه أصل الإيمان، ولكن عَظُمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يَخلُد فيها، كما دلَّت على ذلك نصوص الكتاب والسُّنة[١].

ثم ذكر تعالى، سوءَ مصير الكافرين فقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحرقها بشدة حرِّها ... وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ أي وهم فى جهنم عابسون مُشوَّهو المنظر.

قال ابن مسعود: قد بدتْ أسنانهم وتقلَّصت شفاههم كالرأس المُشيَّط بالنار، ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى يُقال لهم تعنيفًا وتوبيخًا: ألم تكن آيات القرآن الساطع تُقرأ عليكم فى الدنيا؟ ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى فكنتم لا تُصدِّقون بها مع وضوحها ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أى غلبت علينا شقاوتنا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أى وكنَّا ضالين عن الهدى بسبب اتباعنا للملذّات والأهواء[٢].

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ وهم كاذبون فى وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ ولم يُبقِ الله لهم حُجة، بل قطع أعذارهم، وعمَّرهم فى الدنيا، ما يتذكر فيه مَن تذكَّر، ويرتدع فيه المجرم ... فقال الله جوابًا لسؤالهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٣].

أي ذُلُّوا فى النار وانزجروا كما تُزجر الكلاب ولا تكلمونى فى رفع العذاب.. قال فى التسهيل: اخسئوا: كلمة تُستَعمل فى زجر الكلاب ففيها إهانةٌ وإبعاد[٤].

ثم ذكر الحال التى أوصلتهم إلى العذاب وقطعت عنهم الرحمة، فقال:

(١) تفسير السعدى (ص٦٥١).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٢٩٣).

(٣) تفسير السعدى (ص٦٥٢).

(٤) التسهيل (٣/ ٥٧).

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

قال مجاهد: هم بلال، وخبَّاب، وصُهيب وغيرهم من ضعفاء المسلمين... كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم[(١)] ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ أى فسَخِرتم منهم واستهزأتم بهم ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أى حتى نسيتم بتشاغلكم بهم واستهزائكم عليهم عن طاعتى وعبادتى ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أى وكنتم تضحكون عليهم فى الدنيا. ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ على طاعتى، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلىَّ ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ الآيات[(٢)].

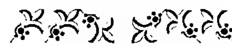
﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ أى قال تعالى للكفار على سبيل التبكيت والتوبيخ: كم مكثتم فى الدنيا وعمَّرتم فيها من السنين؟ ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أى مكثنا يومًا أو أقل من يوم ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أى الحاسبين المتمكنين من العدِّ .... قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المُدة التى لبثوها ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى ما أقمتم حقًّا فى الدنيا إلا قليلًا ... قال الرازى: كأنه قيل لهم: صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلًا فقد انقضت ومضت... والغرضُ تعريفهم قلة أيام الدنيا فى مقابلة أيام الآخرة[(٣)] ﴿ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى لو كان لكم علمٌ وفَهمٌ لعرفتم حقارة الدنيا ومتاعها الزائل ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ أى أظننتم - أيها الناس - أنما خلقناكم باطلًا وهَملًا بلا ثواب ولا عقاب كما خُلقت البهائم ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء؟ لا .. ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ﴾ أى فتنزَّه وتقدَّس الله الكبير الجليل

(١) القرطبى (١٢/ ١٥٤).
(٢) تفسير السعدى (ص٦٥٢).
(٣) التفسير الكبير (٢٣/ ١٢٧).

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أى صاحب السلطان، المتصرف فى مُلكه بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإفناء .. تنزَّه عن العبث والنقائص وعن أن يخلق شيئًا سفهًا لأنه حكيم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى لا ربَّ سواه ولا خالق غيره ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ أى خالق العرش العظيم ... وصفه بالكريم لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أى ومن يجعل لله شريكًا ويعبد معه سواه ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أى لا حُجة له به ولا دليل ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أى جزاؤه وعقابه عند الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أى لا يفوز ولا ينجح مَن جحد وكذَّب بالله ورسله.

افتتح السورة بقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وختمها بقوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ليظهر التفاوت بين الفريقين ... فشتَّان ما بين البدء والختام.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليمًا للأمة طريق الثناء والدعاء[1].



۞ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

لما قَدِمَ المؤمنون المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعُوتبوا ونزلت هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن مسعود: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربعُ سنين»[2].

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٢٩٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٠٢٧) كتاب التفسير.

﴿ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أى أما حان للمؤمنين أن تَرِقَّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أى ولما نزل من آيات القرآن المبين؟ ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أى ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى فطال عليهم الزمن الذى بينهم وبين أنبيائهم، حتى صلبت قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ... قال ابن عباس: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أى وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله، رافضون لتعاليم دينهم، من فرط قسوة القلب ... قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حُمِّلوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الزمن بدَّلوا كتاب الله الذى بأيديهم، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قَسَتْ قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعدٍ ولا وعيد[(١)].

❊ هكذا ينبغى للعبد المؤمن أن يُكثر من ذكر هاذم اللذات (الموت) حتى لا يتعلق قلبه بحُطام الدنيا الزائل.

(٥٧٩) وعَن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أَخَذَ رَسولُ الله ﷺ بِمنكَبى فَقَالَ: «كُنْ فى الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عابرُ سَبيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يقول: إِذا أَمسيت، فَلا تَنْتَظِرِ الصبَّاحَ، وَإِذَا أَصبحتَ، فَلا تَنتَظِرِ المَسَاءَ، وخُذ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِك وَمِن حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ[(٢)].

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٦) كتاب الرقاق.

۞ «أخذ النبى ﷺ بمنكبى» يعنى أمسك به... والمنكب هو أعلى الكتف، أخذ به من أجل أن ينتبه ابن عمر لما سيُلقى إليه الرسول (عليه الصلاة والسلام) من القول. وهذا من حُسن تعليم الرسول (عليه الصلاة والسلام)، فإنه عليه الصلاة والسلام كان إذا تكلم اتخذ الأسباب التى تُوجب انتباه المُخاطَب، إما بالفعل كما هنا، وإما بالقول كما فى قوله: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قالوا: بلى يا رسول الله.

ثم قال النبى ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: «**كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».

فهذه نصيحة النبى ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما وللأمة من بعده ... يوصيه ويقول له: «**كن فى الدنيا كأنك غريب**».

الغريب لا يفكر فى المكان الذى هو فيه غريب .. وأنه دار إقامة؛ لأنه مسافر من بلدٍ إلى آخر، ويريد أن يؤدى الذى عليه ويرجع لداره.

فدارك الجنة، فكن فى الدنيا كأنك غريب سترجع إلى دارك، فجهز الهدايا لهذه الدار التى ستبقى فيها بلا نهاية، فأنت مثل الغريب الذى يقيم فى بلدٍ أخرى غير بلده لا على وجه الاستيطان والإقامة، وإنما يمكث فترة ويرجع...فتراه يحاول أن يدخر المال من أجل أبنائه وزوجته، فأنت تدَّخر عملك الصالح فى دار الدنيا لهذه الدار الآخرة.

يقول ﷺ: «**كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» أى: عابر طريق يمر بالطريق ولا يبنى فى الطريق بيتًا.

فالإنسان لا يؤمل فى الدنيا كأنه سيُخلَّد فيها، وإنما يكتفى برزق الله الحلال الذى آتاه، ويحمد الله عز وجل عليه، ولا يكون شرهًا فى الدنيا طمَّاعًا فيها؛ فإن الطماع والشره يموت بما يأكله.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «**إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح**» .. المعنى لا تُؤمل أنك إذا أصبحت أمسيت، وإذا أمسيت

أصبحت، فكم من إنسانٍ أصبح ولم يُمسِ! وكم من إنسانٍ أمسى ولم يُصبح! وكم من إنسانٍ لبس ثوبه ولم يخلعه إلا الغاسل! وكم من إنسانٍ خرج من أهله وقد هيئوا له غداءه أو عشاءه ولم يأكله! وكم من إنسان نام ولم يقم من فراشه! المهم أن الإنسان لاينبغى له أن يطيل الأمل بل يكون حذرًا حاذقًا حازمًا كيِّسًا... هذا معنى قوله: «**إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح**».

يقول ابن عمر: (وخذ من صحتك لمرضك) يعنى: استغل الوضع الذى أنت فيه ... فأنت الآن شابٌّ قوى وتقدر على أن تحفظ كتاب الله، فاحفظ القرآن، وإذا كنت تقدر أن تتعلم العلم الشرعى فافعل قبل أن تأتى عليك المشاغل فلا تقدر، وقبل أن يأتى عليك الكِبَر والشيخوخة فتنسى، لكن وأنت صغير تدرك ما لا تدركه وأنت كبير ... فخُذ من وقت صحتك لوقت مرضك، فالله كريم سبحانه وتعالى، يعامل العبد معاملة الكرم، فانظر حين تواظب على صلاة الجماعة إذا مرضت تسأل عنك الملائكة: أين فلان الذى كان يصلى هنا؟ وتذهب تعودك فى بيتك، ويأمر الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة أن تكتب للعبد ما كان يصنعه وهو صحيح ... كذلك إذا سافر يُكتب له ما كان يفعله مقيمًا، فإذا كان مواظبًا على الصيام فى الحضر ثم سافر فلم يَصُم يُكتب له كأنه صائم ... هذا كله من فضله ومن رحمته سبحانه.

وهكذا يكون فى سائر الأعمال.

ثم قال: (وخذ من حياتك لموتك) أى: خذ من حياتك ما تدخره بعد موتك.

يعنى: أن المؤمن ينبغى أن يعلم أنه فى كل لحظة قد يأتيه الموت، فليكن فى هذه اللحظة فى خير عمل يَلقى به الله سبحانه وتعالى.

ولذلك جاء عن النبى ﷺ فى الحديث: «**إن الله إذا أراد بعبد خيرًا استعمله**» قالوا: وكيف يستعمله؟ قال: «**يوفقه لعملٍ صالح ثم يقبضه عليه**».

وفى المقابل فإنه إذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ بعبده شرًّا خلَّى بينه وبين نفسه الأمَّارة بالسوء فيعصى الله ويسرق ويرتشى ويفعل كل ما يُغضب الله عَزَّوَجَلَّ ثم يموت على ذلك -والعياذ بالله-.

أما المؤمن فالله عَزَّوَجَلَّ يوفقه لعملٍ صالح ثم يقبضه عليه، بأن يصلى فيموت وهو يصلى، أو يكون صائمًا فيموت وهو على صيامه، أو يتصدق بصدقة ويموت بعدها... فيوفقه الله أن يكون آخر عمله الذى عمله من الأعمال الصالحة فيقبله الله (سبحانه وتعالى).

(٥٨٠) وعَنْ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيءٌ يُوصِي فِيهِ. يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»(١).

وفى روايةٍ لمسلم: «يَبِيتُ ثَلاثَ لَيَالٍ» قال ابن عمر: مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنذُ سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ قال ذَلِكَ إِلاَّ وعِنْدِي وَصِيَّتِي.

❁ ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبى ﷺ قال: «**ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده**» يعنى ما حقه أن يبيت ليلتين إلا وقد كتب وصيته التى يريد أن يوصى بها.

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا منذ سمع هذا الكلام من رسول الله ﷺ لا يبيت ليلة إلا وقد كتب وصيته.

والوصية: معناها العهد، وهى أن يعهد الإنسان بعد موته لشخصٍ فى تصريف شىء من ماله، أو يعهد لشخصٍ بالنظر على أولاده الصغار.

أو يعهد لشخصٍ فى أى شىء من الأعمال التى يملكها بعد موته فيوصى به... هذه هى الوصية.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٣٨) كتاب الوصايا، ومسلم (١٦٢٧) كتاب الوصية.

مثل أن يكتب الرجل: وصيتى إلى فلان ابن فلان بالنظر على أولادى الصغار.

وصيتى إلى فلان بن فلان بتفريق ثُلث مالى أو رُبعه أو خُمسه فى سبيل الله... وصيتى إلى فلان فى أن ينتفع بما خلَّفت من عقار أو غيره أو ما أشبه ذلك.

المهم أن الوصية هى العهد ... عهد الإنسان بعد موته إلى شخصٍ بشىء يملكه.

۞ والوصية أنواع: واجبة، ومحرمة، وجائزة.

أولًا: الوصية الواجبة: وهى أن يوصى الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة، لئلا يجحدها الورثة ... لاسيما إذا لم يكن عليها بينة.

مثل أن يكون على الإنسان دَينٌ أو حَقٌّ لغيره، فيجب أن يوصى به لا سيما إذا لم يكن فيه بينة، لأنه إذا لم يُوصِ به فإن الورثة قد ينكرونه، والورثة لا يُلزَمون أن يصدّقوا كل مَن جاء من الناس وقال: إن لى على ميتكم كذا وكذا، لا يَلزمهم أن يصدقوا... فإذا لم يُوصِ الميت فإنه ربما يكون ضائعًا، فمن كان عليه دَين - يعنى حق فى ذمته لأحد- فإنه يجب عليه أن يوصى به.

كذلك يجب أيضًا أن يوصى لأقاربه غير الوارثين بما تيسَّر.

لقول الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ يعنى: مالًا كثيرًا ﴿ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠].فخرج من الوالدين والأقربين مَن كانوا ورثة... فإن الورثة لا يُوصَى لهم، وبقيت الآية مُحكَمة فيما عدا الوارثين.

هكذا دلالة الآية، وبها فسرها ابن عباس رضي الله عنهما، وذهب إلى ذلك كثير من أهل العلم، أن الإنسان يجب أن يوصى إذا كان عنده مالٌ كثير بما تيسَّر لأقاربه غير الوارثين ... أما الوارث فلا يجوز أن يُوصَى له، لأن حقه من الإرث



يكفيه... فهذان أمران تجب فيهما الوصية.

(١) إذا كان عليه دَينٌ يعنى حقًّا للناس.

(٢) إذا ترك مالًا كثيرًا، فإنه يَلزَمه أن يوصى لأقاربه من غير الوارثين.

ثانيًا: الوصية المحرمة: وهى محرمة إذا أوصى لأحدٍ من الورثة.. مثل أن يوصى لولده الكبير بشىء من بين سائر الورثة، أو يوصى لزوجته بشىء من بين سائر الورثة... فإن هذا حرام عليه، حتى ولو قُدر أن الزوجة كانت تخدمه فى حياته وتطيعه وتحترمه، وأراد أن يكافئها فإنه لا يحل له أن يوصى لها بشىء... وكذلك إذا كان أحد أولاده يبره ويخدمه ويسعى فى ماله، فأراد أن يوصى له بشىء، فإن ذلك حرام عليه.

وكذلك ما يفعله بعض الناس إذا كان له أولاد عدة وزوَّج الكبير أوصى للصغار بمثل المال الذى زوَّج به الكبير ... فإن هذا حرام أيضًا، لأن التزويج دفع حاجة كالأكل والشرب، فمن احتاج إليه من الأولاد وعند أبيهم قدرة وجب عليه أن يُزوجه، ومَن لم يحتج إليه فإنه لا يحل له أن يعطيه شيئًا مثل ما أعطى أخاه الذى احتاج للزواج.

وهذه مسألة تَخفى على كثير من الناس حتى على طلبة العلم، يظنون أنك إذا زوجت ولدك، فإنك يجب أن توصى للأولاد الصغار بمثل ما زوَّجته به، وهذا ليس بصحيح، فالوصية للوارث لا تجوز مُطلَقًا.

فإن قُدر أن أحدًا جاهلًا وأوصى لأحد الورثة بشىء، فإنه يُرجع إلى الورثة بعد موته، إن شاءوا نفذوا الوصية، وإن شاءوا رَدُّوها.

ثالثًا: الوصيَة المباحة: فهى أن يوصى الإنسان بشىء من ماله لا يتجاوز الثلث، لأن تَجاوز الثلث ممنوع، لكن ما دون الثلث أنت حُرٌّ فيه، ولك أن توصى فيه لمن شئت إلا الورثة.

ولكن هل الأفضل الثلث أو الربع أو ما دون ذلك؟ نقول: أكثر شيء الثلث لا تزد عليه، وما دون الثلث فهو أفضل منه ... ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن الناس غَضُّوا من الثلث إلى الربع، فإن النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص: «**الثُلث والثُلث كثير**»، وكان أبو بكر رضي الله عنه أوصى بخُمس ماله، وقال: أرضى بما رضي الله لنفسه، فأوصى بخُمس ماله، وهذا أحسن ما يكون.

وليت أن طلبة العلم والذين يكتبون الوصايا ينبهون الموصين على أن الأفضل الوصية بالخُمس لا بالثلث ... وقد شاع عند الناس الثلث دائمًا، وهذا الحد الأعلى الذي حَدَّه الرسول (عليه الصلاة والسلام) وما دونه أفضل منه، فالربع أفضل من الثلث، والخمس أفضل من الربع.

وإذا كان الورثة محتاجين فتركُ الوصية أَولَى لأنهم أحق من غيرهم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنك أن تَذَر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[1] فإذا كان الورثة الذين يرثونك تعرف أن حالهم، وسط والمال شحيح عندهم، وأنهم إلى الفقر أقرب، فالأفضل ألا تُوصي.

ففي هذا الحديث: الإشارة إلى أن الإنسان يوصي، ولكن الوصية تنقسم إلى أقسام كما أشرنا؛ منها واجبة ومنها محرمة، ومنها مباحة.

فالواجبة: أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة لئلا يجحدها الورثة، فيضيع حق مَن هي له، لاسيما إذا لم يكن عليها بينة...وكذلك وصية مَن ترك مالًا كثيرًا لأقاربه الذين لا يرثون بدون تقدير، على ألا تزيد على الثلث.

والمحرمة: نوعان أيضًا: أن تكون لأحدٍ من الورثة،وأن تكون زائدة على الثلث.

والمباحة: ما سوى ذلك، ولكن الأفضل أن تكون من الخمس فأقل، وإن

(١) متفق عليه:رواه البخاري (٢٧٤٢) كتاب الوصايا، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

زاد إلى الربع فلا بأس، وإلى الثلث فلا بأس، ولا يزيد على الثلث.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما العمل بالكتابة، لقوله ﷺ: «**إلا ووصيته مكتوبة عنده**» فدلَّ هذا على وجوب العمل بالكتابة.

وفي قوله: «**مكتوبة**» اسم مفعول: إشارة إلى أنه لا فرق بين أن يكون هو كاتبها، أو غيره ممن تثبت الوصية بكتابتهم ... فلا بد أن تكون الكتابة معلومة، إما بخط الموصي نفسه، أو بخط شخصٍ معتمد، وأما إذا كانت بخطٍّ مجهول فلا عبرة بها ولا عمل عليها.

وفي قوله: «**عنده**»: إشارة إلى أنه ينبغي أن يحتفظ الإنسان بالوثائق وألا يُسلط عليها أحدًا، بل تكون عنده في شيءٍ محفوظ مُحرَّز كالصندوق وغيره؛ لأنه إذا أهملها فربما تضيع منه، أو يُسلَّط عليها أحدٌ يأخذها ويُتلفها أو ما أشبه ذلك.

المهم في هذا: الاعتناء بالوصية، وأن يحتفظ بها الإنسان حتى لا تضيع.

وفيه أيضًا: سرعة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ ... ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما بعد ما سمع هذا الحديث من النبي ﷺ: «ما مرَّت عليَّ ليلة منذ سمعت النبي ﷺ يقول هذا إلا ووصيتي مكتوبة عندي».

فالذي ينبغي للإنسان أن يهتم بهذا الأمر حتى لا يفجأه الموت، وهو قد أضاع نفسه، وأضاع حق غيره[1].

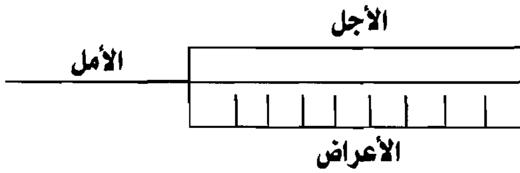
(٥٨١) وعَنْ أَنس رضي الله عنه قال: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا فقال: «هَذا الإنسَانُ وَهَذا أَجَلُهُ. فَبَيْنَما هو كَذَلِكَ إِذ جَاءَ الخَطُّ الأَقْرَبُ»[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (٢/ ٢٤٩-٢٥١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٨) كتاب الرقاق.

(٥٨٢) وعَنْ ابن مسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وخَطَّ خَطًّا في الْوَسَطِ خَارِجًا منْهُ، وَخَطَّ خُططًا صِغَارًا إِلى هَذَا الَّذى في الوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِى في الوَسَطِ، فَقَالَ: «هَذَا الإِنسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطًا به أو قَد أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِى هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ ... وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعراضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا، نَهَشَهُ هَذا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذا نَهَشَهُ هَذا»[1]. وَهَذِهِ صُورَتهُ:



۞ جميل أن نحمل في قلوبنا أملًا، لكي نُعمِّر الكون بكل أنواع الخير، فالإنسان مفطور على حُب الحياة.. لكن لا بد أن نَحذر من أن يَحُول طول الأمل بيننا وبين طاعة الله عَزَّوَجَلَّ .

فإن صاحب الأمل الطويل في الدنيا يركن غالبًا إلى الشهوات والملذات، ولذلك نجد قلبه لا يتحرك لآيات الله وكلام رسول الله ﷺ . ومن أجل ذلك حذَّر النبي ﷺ من طول الأمل.

ولقد قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر: ٣] .

قال الإمام القرطبي: وطول الأمل داءٌ عُضال ومرضٌ مُزمن .. ومتى تمكَّن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من بُرئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة.. ولذا قال رسول الله ﷺ : «**صلاح أول هذه الأمة بالزهد**

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٧) كتاب الرقاق.



واليقين، ويهلك آخرها بالبُخل والأمل»(١).

۞ وفى حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ رسم مستطيلًا ثم رسم خطًّا طويلًا فى وسط هذا المستطيل خارجًا منه.. فالمستطيل يُمثل أجل الإنسان .. وداخل المستطيل خطوط صغيرة تحيط بالإنسان من كل مكان وهى الأعراض التى تعتريه من الشبهات والشهوات والأمراض والابتلاءات.. وأما الخط الطويل الذى رسمه النبى ﷺ داخل المستطيل وجعله يخرج من المستطيل بعيدًا عن حدوده فهذا هو الأمل.

فأمل الإنسان أطول من أجله.. فقد يعيش الإنسان ستين عامًا وعنده آمالٌ لا تتحقق إلا فى ألف عام.. ويظل الإنسان يتمنى أن يحقق كل تلك الآمال وأن يحقق كل ما يتمناه وأن يمتلك كل ما يريد.. وفجأة ينقطع الأجل فيموت الإنسان قبل أن يحقق كل ما يتمناه.

۞ وفى الحقيقة أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون أمل.. بل أقول أن الإنسان إذا عاش بلا أمل فهو كالميت.. وإذا مات الأمل فى قلبه فكأنه قد مات.

فالمؤمن لا بد أن تكون آماله فى حدود ما يقدر عليه لأنه قد يأتيه أجله قبل أن يُحقق ما يتمناه.. والمؤمن لا بد أن تكون آماله فى كل ما يُرضى الله عَزَّ وَجَلَّ سواء كانت آمالًا دنيوية أو دينية.. والأهم من كل هذا أن يكون أمله فى الله رب العالمين فى أن يفوز برحمته ومغفرته ورضوانه وجنته ليضمن السعادة الأبدية فى جنات النعيم التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فالكافر أدخل نفسه فى دوامة الآمال فيظل حائرًا بين حُطام الدنيا الفانية حتى يُفضى به أمله إلى الهلاك لأنه نسى ربه الذى خلقه ورزقه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

---

(١) حسن: رواه أحمد، والطبرانى فى الأوسط، والبيهقى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٤٥).

أما المؤمن فقد حدَّد هدفه وعرف ما الذى يريده فى هذه الحياة القصيرة.. وهو أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ ويعيش فى طاعته وفى نفس الوقت يجتهد فى إعمار الأرض وفى أن يكون له بصمة فى خدمة الكون كله على قدر استطاعته.. فهذا هو الأمل الذى نريد أن ينشغل به كل مسلمٍ.

(٥٨٣) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بَادِرُوا بِالأعمَالِ سَبْعًا، هَل تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فَقْرًا مُنْسِيًا، أَو غِنًى مُطغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفسِدًا، أو هَرَمًا مُفنِّدًا، أَو مَوتًا مُجْهِزًا، أَو الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةُ، والسَّاعَةُ أَدهَى وأَمَرُّ؟»(١).

۞ للأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٥٨٤) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ»(٢) يَعنى المَوْتَ.

۞ وفى هذا الحديث يوصينا النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نُكثر من ذكر هاذم اللذات (الموت).. وهاذم اللذات بمعنى: قاطع اللذات.

فالموت يهدم لذات الإنسان أى يقطعها ويهدمها.

فشبَّه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناءٍ مرتفع ينهدم فجأة بصدماتٍ هائلة ... ثم أمر المنهمك فى تلك الشهوات بذكر الهادم لئلا يستمر فى الركون إليها ويشتغل عما يجب عليه من الفرار إلى دار القرار.

فالعاقل هو الذى يشتغل بآخرته ولا ينسى دُنياه.. والغافل هو الذى يشتغل بالدنيا وينسى آخرته..

(١) ضعيف: رواه الترمذى، والحاكم، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٣١٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢١٠).

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبى ﷺ سُئل: أى المؤمنين أكيس قال: «**أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم استعدادًا له أولئك هم الأكياس**»[١].

وقال الحسن البصرى: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذى لُبٍّ فيها فرحًا.. وما ألزم عبدٌ قلبه الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وُعظ بغيره، ... وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذُكر الموتى، فعُدَّ نفسك كأحدهم.

إن لتذكُّر الموت أثرًا كبيرًا فى إصلاح النفوس وتهذيبها..ذلك أن النفوس تُؤْثِر الدنيا وملذاتها، وتطمع فى البقاء المديد فى هذه الحياة، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصى، وقد تُقصر فى الطاعات، فإذا كان الموت دائمًا على بال العبد، فإنه يصغر الدنيا فى عينه، ويجعله يسعى فى إصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره... قال رسول الله ﷺ: « **أَكْثِرُوا ذِكْرَ هاذِمِ اللَّذَّاتِ: المَوْت فإنَّهُ لم يَذْكُرهُ أَحَدٌ فِي ضيقٍ مِنَ العَيْشِ إلاَّ وسَّعه عليه وَلَا ذَكَرَهُ فِي سَعَةٍ إلاَّ ضَيَّقَها عَلَيْهِ** »[٢].

ويذكر ابن المبارك أن صالحًا المرى كان يقول: «إن ذِكر الموت إذا فارقنى ساعة فسد علىَّ قلبى»[٣].

وقال القرطبى: قال العلماء: تذكُّر الموت يردع عن المعاصى، ويُلين القلب القاسى، ويُذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب[٤].

---

(١) حسن: رواه البخارى فى التاريخ والبيهقى فى الزهد الكبير، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٣٨٤) بمجموع طرقه.

(٢) حسن: رواه البيهقى وابن حبان عن أبى هريرة، والبزار عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢١١).

(٣) الزهد والرقائق / لابن المبارك (ص: ٨٨).

(٤) التذكرة (ص: ١٢).

۞ وقال القرطبي أيضًا: قال العلماء - رحمهم الله -: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور:

أحدها: الإقلاع عما هى عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يُلين القلوب.

الثاني: ذكر الموت، فيُكثر من ذكر هاذم اللذات، ومُفرق الجماعات، ومُيتم البنين والبنات.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمُّل صورته بعد مماته، مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمسح الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد فى الاجتهاد والتعب(١).

قال الدَّقَّاق: مَن أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة... ومن نسى الموت عُوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف والتكاسُل فى العبادة.

***

(٥٨٥) وعَنْ أُبى بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: كانَ رَسولُ الله ﷺ إذا ذَهَبَ ثُلثُ اللَّيلِ، قامَ فقالَ: «يا أيها النَّاسُ اذْكُرُوا الله جَاءَتِ الرَاجفَةُ تَتْبَعُها الرَّادِفَةُ، جاءَ المَوْتُ بما فِيه، جاءَ المَوْتُ بما فِيهِ» قلتُ: يا رَسُولَ الله إنى أُكْثِرُ الصَّلاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لكَ مِن صَلاتى؟ قال: «ما شِئْتَ» قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قال: «ما شئْتَ، فَإنْ زِدتَ فَهُوَ خَيرٌ لكَ» قُلْتُ: فَالنِّصفَ؟ قالَ: «ماشِئْتَ، فإنْ زِدتَ فهو خَيرٌ لكَ» قُلْتُ: فَالثلثَينِ؟ قالَ: «ما شِئْتَ، فإنْ زِدتَ فهو خيرٌ لكَ» قُلْتُ: أَجْعَلُ لكَ صَلاتى كُلَّها؟ قال: «إذًا تُكْفى هَمَّكَ، ويُغْفَرُ لكَ ذَنْبُكَ»(٢).

---

(١) التذكرة (ص: ١٢).

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٦٣).

۞ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يقوم إذا ذهب ثُلث الليل ويقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**» أَرَادَ بِهِ النَّائِمِينَ مِنْ أَصحَابِهِ الْغَافِلِينَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ يُنَبِّهُهُمْ عَنِ النَّوْمِ لِيَشْتَغِلُوا بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَالتَّهَجُّدِ «**جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**» قَالَ فِي النِّهَايَةِ: الرَّاجِفَةُ النَّفْخَةُ الْأُولَى الَّتِي يَمُوتُ لَهَا الْخَلَائِقُ وَالرَّادِفَةُ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يَحيَوْنَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... وَأَصلُ الرَّجْفِ الْحَرَكَةُ وَالِاضْطِرَابُ.

وَفِيهِ إِشَارَةٌ إلى قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وَعَبَّرَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهَا فَكَأَنَّهَا جَاءَتْ ... وَالْمُرَادُ أَنَّهُ قَارَبَ وُقُوعُهَا فَاسْتَعِدُّوا لِتَهْوِيلِ أَمْرِهَا «**جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**» أَيْ مَا فِيهِ مِنَ الشَّدَائِدِ الْكَائِنَةِ فِي حَالَةِ النَّزْعِ وَالْقَبْرِ وَمَا بَعْدَهُ(١).

۞ قال أُبي بن كعب: (قلت يا رسول الله! إني أُكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟).

يعني: كم أجعل لك من دعائي، وليس معناه: أنني سأصلي ركعتين وأجعلها للنبي ﷺ ... بل المعنى: أنا أكثر من الدعاء فكم مرة أقول: اللهم صلِّ على محمد عليه الصلاة والسلام؟ قال: فقال ﷺ: «**ما شئت**».

قلت: الربع؟، يعني: ربع دعائي أجعله صلاة عليك؟

قال ﷺ: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: فالنصف»

أي: أجعل نصف دعائي لك والنصف الآخر دعاءً لنفسي؟

قال ﷺ: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: فالثلثين؟ قال: «**ما شئت فإن زدت فهو خير لك**» قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ يعني: أجعل دعائي كله صلاة عليك؟ قال: «**إذًا تُكفَى همك ويُغفر لك ذنبك**».

يعني: لو كان دعاؤك كله صلاة على النبي فإنك في ذكرٍ لله سبحانه بأن تطلب من الله عَزَّوَجَلَّ الثناء والصلاة عليه ... فإذا كان الأمر كذلك فإن الله سيكفيك همَّك وسيغفر لك ذنبك ما دُمت تصلي على النبي ﷺ.

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٣٣٠).

(٦٦) باب استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر

(٥٨٦) عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَة القُبُورِ فَزُوروها»(١).

وفى رواية: «فَمَنْ أرادَ أن يَزُورَ الْقُبُورَ فَلْيَزُر فإنَّها تُذَكِّرُنا بالآخِرَة».

(٥٨٧) وعَنْ عائشَةَ رضي الله عنها قالت: كان رسُولُ الله ﷺ، كُلَّما كان لَيْلَتُها من رسول الله ﷺ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إلى البَقيع، فيَقُولُ: «السَّلامُ علَيْكُمْ دارَ قَوْمٍ مُؤمِنينَ، وأتاكُمْ ما توعَدُونَ، غَدًا مُؤَجَّلُونَ، وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِر لأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ»(٢).

(٥٨٨) وعَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إذا خَرَجُوا إلى المَقابِرِ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُم: «السَّلامُ عَلَيكُمْ أَهْلَ الدِّيارِ مِنَ المُؤْمِنينَ والمُسْلِمِينَ وَإنَّا إنْ شَاءَ الله بِكُمْ للاحِقُونَ، أَسْألُ الله لَنَا وَلَكُمُ العافِيَةَ»(٣).

(٥٨٩) وعَنْ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: مَرَّ رسُولُ الله ﷺ بقُبورٍ بالمَدِينَة فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بوَجْهِهِ فقالَ: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ يا أَهْلَ القُبُورِ، يَغْفِرُ الله لَنا وَلَكُمْ، أَنْتُم سَلَفُنا ونحنُ بالأَثرِ»(٤).

❁ ذكر المصنف رحمه الله باب استحباب زيارة القبور للرجال..

وزيارة القبور: هى الخروج إليها امتثالًا واتباعًا لرسول الله ﷺ من أجل أن نتذكر الآخرة ولا تتعلق قلوبنا بالدنيا.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٧) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٧٥) كتاب الجنائز.

(٤) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٣٧٢).

۞ والقبور هى دور الأموات.. فالإنسان له أربعة دور:

الدار الأولى: فى بطن أمه.

الدار الثانية: الدنيا.

الدار الثالثة: القبور.

الدار الرابعة: الآخرة وهى المثوى الأخير إما فى الجنة أو فى النار.

۞ وكان النبى ﷺ فى بداية بعثته قد نهى أصحابه عن زيارة القبور سدًّا لذريعة الشرك.. وذلك لأنهم كانوا حديثى عهدٍ بالجاهلية وعبادة الأوثان وكانوا يفتخرون بقبورهم.. فنهاهم النبى ﷺ فى البداية عن زيارتها.. ولكن عندما استقر الإيمان والتوحيد فى قلوبهم أَذِنَ لهم بزيارتها.

ولم يأذن النبى ﷺ بزيارة القبور فحسب بل رغَّب فى زيارتها وقال: «**فإنها تذكرنا بالآخرة**».

وكل شىءٍ يُذكرنا بالآخرة ينبغى أن نحرص عليه ... لأن المسلم لا ينبغى أن يتعلق قلبه بحُطام الدنيا الفانية.

فزيارة القبور تُزهد الإنسان فى الدنيا وتُنشط قلبه وجوارحه على الطاعة وتخمد نيران المعاصى فى قلبه لأنه يعلم أنه سيزور الموتى اليوم وغدًا سيُزار لأنه سيكون واحدًا منهم.

وليس هناك شىءٌ فى الدنيا أبلغ موعظة من رؤية القبور.. حتى أن أحد السلف وهو الربيع بن خُثيم رَحِمَهُ اللَّهُ كان قد حفر قبراً فى فناء بيته.. وكان إذا أحسَّ أن قلبه قد تعلق بشىءٍ يسير من الدنيا كان يدخل القبر ويُغلق على نفسه حتى يكاد أن يختنق ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] ثم يفتح القبر ويقول لنفسه: ها أنتِ يا نفس قد رجعتِ إلى الدنيا مرة أخرى فافعلى صالحًا لعلك تُرحمين.

وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتبكى من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: **«إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدُّ منه»** (١).

قال: وقال رسول الله ﷺ: **«ما رأيت منظرًا قط إلا والقبرُ أفظعُ منه»** (٢).

❁ **الشاهد**: أن النبى ﷺ كان قد نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى زيارتها لأنها تُذكرنا بالآخرة.. وذلك لأن الإنسان إذا اشتغل بالدنيا أضاع الدنيا والآخرة .. وإذا اشتغل بالآخرة ربح الدنيا والآخرة.. كما قال النبى ﷺ: **«مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فى قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِىَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ»** (٣).

❁ وتحكى أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان عندما يكون فى ليلتها التى تكون كل تسع ليالٍ مرة.. كان النبى ﷺ يخرج ليزور أهل بقيع الغرقد فى آخر الليل ويقول لهم: **«السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين وأتاكم ما تُوعدون»**، يعنى: الموت الذى وُعدتم به قد جاءكم.

«غدًا مؤجلون»، يعنى: القيامة ستكون فى الغد، والكل سيُبعث للحساب يوم القيامة.

«وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون»، يعنى: أنتم سبقتم ونحن وراءكم.

ثم يدعو ويقول: **«اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»**.

بقيع الغرقد: هو مقبرة أهل المدينة، وهذه الدعوة يُرجَى أن تشمل مَن كان من أهل بقيع الغرقد إلى يوم القيامة ... ويحتمل أن يُراد بهم أهل بقيع الغرقد الذين كانوا أهله فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام فقط، فلا يشمل مَن

---

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٨٤).

(٢) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٢٣).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٠).

يأتى بعدهم.

ولكن مَن كان من أهل الرحمة فهو من أهل الرحمة، سواء حصلت له هذه الدعوة أم لم تحصل ... ومَن كان من أهل الشَّقاء فإنه لا تشمله هذه الدعوة ولا ينتفع بها.

ولذا فإنه ينبغى أن نزور القبور كلما سنحت لنا فرصة فى الليل أو النهار فى أى يومٍ ولا نُحدد يومًا بعينه.. فالزيارة ليس لها وقتٌ مُحدد كما يفعل بعض الناس من زيارتهم للقبور فى أول رجب ونصف شعبان وأول أيام العيد.. فهذا كله من البدع التى نهى عنها الشارع.

فاحرص على زيارة القبور ... فإذا وصلت إلى هناك فسلِّم عليهم «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» والظاهر -والله أعلم- أنهم يردون السلام، لأنه يسلم عليهم بصيغة الخطاب «السلام عليكم» ويحتمل أن يُراد بذلك السلام مجرد الدُّعاء فقط، سواء سمعوا أم لم يسمعوا، أجابوا أم لم يُجيبوا.

فعلى كل حال: على الإنسان أن يدعو لهم ويقول مُقررًا المصير الحتمى: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» إن شاء الله هذه تعود إلى وقت اللحوق وليس إلى اللحوق، لأن اللحوق مُتيقَّن ... والمُتيقَّن لا يُقيَّد بالمشيئة .. لكن تعود إلى وقت اللحوق، لأن كل واحدٍ منَّا لا يدرى متى يلحق، فيكون معنى قوله: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» أى وإنا متى شاء الله بكم لاحقون ... كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢، ٢٣]

ثم يدعو لهم بالدعاء الذى جاءت به السُّنَّةُ، فإن لم يعرف شيئًا منه، دعا بما تيسَّر: اللَّهم اغفر لهم، اللَّهم ارحمهم، اللَّهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنَّا بعدهم، واغفر لنا ولهم، ثم ينصرف ... هكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يزور المقبرة[١].

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٥٦).

۞ وفى حديث بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ النَّبِىُّ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذا خَرَجُوا إِلى المَقابِرِ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُم: «**السَّلامُ عَلَيكُمْ أَهْلَ الدِّيارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العافِيَةَ**».

فيُشرع للمسلم أن يُسلِّم عليهم قائلًا: (السلام عليكم أهل الديار)، أى: الذين سكنتم هذه الديار، (من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون).

فالإنسان يتذكر وهو فى المقابر أنه أتى لهذا المكان اليوم زائرًا وغدًا أو بعد غدٍ سيذهب إليه محمولًا ويُوضع فى قبره، فيسأل الله عَزَّ وَجَلَّ العافية للأحياء والأموات ... فالحى يحتاج إلى العافية، والميت أحوج إليها.

والعافية بمعنى: المُعافاة من الذنوب، والمعافاة من العقوبة، والمعافاة من الحساب ... فيسأل الله عَزَّ وَجَلَّ له وللأموات أن يعافيه الله عَزَّ وَجَلَّ من عقوبته.

۞ أما ما يفعله بعض الناس من البقاء هناك عند القبور والتمرُّغ على التراب والطواف بالقبر وسؤال الميت قضاء الحاجات وتفريج الكربات فهذا من الشرك الأكبر الذى لا يجوز أن يتلبس المسلم به.. ويجب على العلماء والدعاة أن يُعلموا هؤلاء الناس ويحذروهم من مغبة الوقوع فى مثل هذا. فالأموات لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا فكيف يملكونه لغيرهم.. فمن اعتقد أن هؤلاء الأموات ينفعون أو يضرون كان مشركًا والعياذ بالله خارجًا عن الإسلام، لأن هؤلاء الأموات لا ينفعون ولا يضرون ... لا يستطيعون الدعاء لك، ولا يشفعون لك يوم القيامة إلا بإذن الله.

وأما وهُم فى قبورهم فليس هذا وقت الشفاعة ... وقت الشفاعة يوم القيامة، فلا ينفعك شىء منهم إذا دعوتهم أو سألتهم الشفاعة أو قضاء الحاجات وتفريج الكربات.

فالواجب على العلماء أن ينصحوا هؤلاء الناس وأن يُبينوا لهم أن الأموات

لا ينفعونهم، حتى الرسول (عليه الصلاة والسلام) ما ينفع الناس وهو ميت ... وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا أصابهم الجدب فى عهد الرسول ﷺ وفى حياته جاءوا إليه وقالوا: استسقِ الله لنا، فيستسقى الله لهم.

لكن لما مات ما جاء الصحابة إلى قبره يقولون: ادعُ الله أن يسقينا.. مع أن قبره إلى جانب المسجد ليس بعيدًا، لكن لما أجدبت الأرض فى عهد عمر رضي الله عنه، وحصل القحط قال: اللَّهم إنَّا كُنا نستسقى إليك بنبينا فتسقينا- أى: أنهم كانوا يسألون الرسول أن يدعو لهم بالسُّقيا فيُسقَون- وإنَّا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ... ثم يقوم العباس فيدعو الله.

ولم يَقُل: يا رسول الله، ادعُ الله أن يسقينا، ادعُ الله أن يرفع عنَّا القحط، لأنه رضي الله عنه يعلم أن ذلك غير ممكن ... والإنسان إذا مات انقطع عمله، ولا يمكن أن يعمل أى عمل .. كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث**»(١)، فلا يستطيع الميت أن يستغفر لك ولا أن يدعو لك؛ لأنه انقطع عن العمل.

۞ وقد يسأل سائل ويقول: هل تُشرع زيارة النساء للقبور؟

اختلف أهل العلم فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

أحدها: التحريم.

الثانى: الكراهة.

الثالث: الإباحة من غير كراهة... وهذا هو الراجح لكن بشرط عدم الوقوع فى المحرمات وأن تكون الزيارة للاتعاظ وتذكُّر الآخرة.

والدليل على ذلك:

١- عموم إذنه ﷺ لزيارة القبور فى قوله: «**ألا فزوروها**» فهذا إذنٌ عام يشمل الرجال والنساء.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

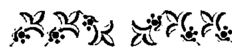
٢- دخول النساء تحت قوله ﷺ: «**فإنها تُذكركم الآخرة**» ومن المعلوم أن المرأة تحتاج كثيرًا للموعظة وتذكُّر الآخرة.

٣- ولزيارة عائشة قبر أخيها ... فعن ابن أبى مليكة «أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت لها: يا أم المؤمنين، من أين أقبلتِ؟ قالت: من قبر أخى عبد الرحمن بن أبى بكر، فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، كان نهى ثم أمر بزيارتها»(١).

٤- إقرار النبى ﷺ لعائشة وقد سألته: كيف أقول لهم يا رسول الله -تعنى: أهل القبور- قال: «**قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنَّا إن شاء الله بكم للاحقون**»(٢).

٥- إقرار النبى ﷺ لهذه المرأة التى رآها عند القبر.

فعن أنس قال: «مَرَّ النبى ﷺ بامرأة تبكى عند قبر، فقال: «**اتقى الله واصبرى**»، قالت إليك عنى، فإنك لم تُصَب بمصيبتى... ولم تعرفه فقيل لها: إنه النبى ﷺ، فأتت النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٣).



س: هناك من يستدل على منع النساء من زيارة القبور بقول النبى ﷺ: «لعن الله زوَّارات القبور» فماذا نقول له؟

ج: نقول له: لا إشكال فى هذا النَّص؛ لأن اللعن هنا ليس لمجرد زيارة المرأة للقبور مع التزام الآداب الشرعية وإنما هو للمرأة التى تُكثر وتبالغ فى زيارة القبور ... ويدل على ذلك صيغة المبالغة فى قوله: «**زوارات**».

(١) صحيح: الحاكم (١/ ٣٧٦)، والبيهقى (٤/ ٧٨)، وأصله عند ابن ماجة (١٥٦٩) مختصرًا.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٦) كتاب الجنائز.

قال القرطبي: (هذا اللعن إنما هو للمُكثرات من الزيارة لما تقضيه الصيغة من المبالغة)[١].

س: **هل هناك حالات لا يجوز فيها للنساء زيارة القبور؟**

ج: نعم هناك حالات لا يجوز فيها للنساء زيارة القبور منها:

١- إذا عُلم من حال النساء أنهن إذا ذهبن إلى القبور يَصِحن ويندبن ويَنُحن ويُعدِّدن على الأموات، ويفعلن البدع والمحرمات، فتحرم حينئذٍ زيارتهن للقبور.

٢- إذا عُلم من أحوالهن أنهن يذهبن إلى قبور مَن يطلقون عليهم الصالحين أو الأولياء، يلتمسن عندهم تفريج الكربات وقضاء الحاجات وكشف الغُمَّات، فهذا شركٌ وتَحرُم حينئذٍ الزيارة بلا شك.

٣- إذا خصص النساء يومًا لزيارة القبور فيه، كما يحدث فى أيام الجُمَع والأعياد ونحو ذلك فهذا من البدع.

٤- لا يجوز خروج النساء إلى المقابر وغيرها متبرجات متزينات متعطرات كما لا يَخفى[٢].

س: **ما هى الأذكار الثابتة عند زيارة القبور؟**

ج: هناك أذكار ثابتة عند زيارة القبور ... منها:

(١) **«السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ»**[٣].

---

(١) نقلًا عن فتح البارى (٣/ ١٤٩).

(٢) بتصرف من جامع أحكام النساء (١/ ٥٨١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز.

(٢) «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»(١).

س: **هل يجوز للمسلم أن يزور قبر قريبه المشرك؟**

ج: تجوز زيارة المسلم لقبر قريبه المشرك ولكن دون الدُّعاء والاستغفار له ما دام أنَّه مات على الشرك.

أما فى حياته فكان يجوز للمسلم أن يدعو لقريبه المشرك بالهداية طمعًا فى أن يهتدى ويكون من أهل التوحيد والإيمان.

فعَنْ أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: زَارَ النَّبِى ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّى فِى أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِى، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِى أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِى، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»(٢).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وتجوز زيارة قبر الكافر لأجل الاعتبار، دون الاستغفار(٣).

وجمهور أهل العلم على جواز زيارة قبر المشرك:

قال النَّووى: وأما زيارة قبره فالصواب جوازها، وبه قطع الأكثرون.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٥) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٦) كتاب الجنائز.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٦٥).

(٦٧) باب كراهية تمنِّي الموت بسبب ضُرٍّ نزل به ولا بأس به لخوف الفتنة في الدين

(٥٩٠) عنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «لا يَتَمَنَّ أَحَدُكُم المَوْتَ إِمَا مُحسِنًا، فَلَعَلَّهُ يَزْدَاد، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعتِبُ»(١).

وفى رواية لمسلم عن أبى هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رسول الله ﷺ قال: «لا يَتَمَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ، وَلا يَدعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذا ماتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لا يَزيدُ المُؤْمِنَ عُمُرُهُ إِلاَّ خَيرًا»(٢).

(٥٩١) وعَنْ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ فَإِنْ كانْ لاَ بُدَّ فاعِلًا، فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ أَحيِنى ما كانَتِ الحَياةُ خَيْرًا لى، وتَوَفَّنى إِذا كانَتِ الوفاةُ خَيرًا لى»(٣).

۞ ففى هذين الحديثين ينهى النبى ﷺ عن أن يتمنى أحدنا الموت لضُرٍّ نزل به من مرضٍ أو بلاءٍ أو فقرٍ أو دَينٍ كبير أو نحو ذلك.. فإن الحياة لا تخلو أبدًا من الابتلاءات ... ويجب على المسلم أن يصبر على قضاء الله وقدره ويوقن أنه إن صبر فسوف يفوز بثلاثة أشياء.

(١) رضوان الله عَزَّ وَجَلَّ.

(٢) تكفير الخطايا، فإن الإنسان لا يصيبه هَمٌّ ولا غَمٌّ ولا أذى ولا شىء إلا كفر الله به عنه حتى الشوكة يُشاكها؛ فإنه يُكفَّر بها عنه.

(٣) إذا وُفِّق لاحتساب الأجر من الله وصبر يبتغى بذلك وجه الله، فإنه

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٧٣) كتاب المرضى، (٧٢٣٥) كتاب التمنِّى - ومسلم (٢٦٨٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٧١) كتاب المرضى، ومسلم (٢٦٨٠) كتاب الذكر والدعاء.

يُثاب.. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه التصريح بكراهة تمنِّى الموت لضُرٍّ نزل به من مرضٍ أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا ... فأما إذا خاف ضررًا فى دينه، أو فتنة فيه، فلا كراهة فيه؛ لمفهوم هذا الحديث وغيره.

وقد فعل هذا الثانى خلائق من السلف عند خوف الفتنة فى أديانهم.

وفيه: أنه إن خالف ولم يصبر على حاله فى بلواه بالمرض ونحوه فليَقُل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى... وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى... والأفضل الصبر والسكون للقضاء»(١).

۞ **قال الحافظ ابن حجر**: لا يتمنّين... أنه إذا حَلَّ به - أى الموت - لا يمنع من تمنِّيه رضًا.

۞ فالإنسان لا يتمنى الموت إذا نزل به البلاء لأنه إما أن يكون مُحسنًا طائعًا لله عَزَّوَجَلَّ.. فكل يومٍ يمر عليه فإنه يزداد إحسانًا وطاعة ويفوز بالحسنات التى لم يكن يستطيع أن يفوز بها لو كان ميتًا إلا إذا كان ممن سَنَّ فى الإسلام سُنة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة ... أو كان قد ترك علمًا نافعًا أو ولدًا صالحًا أو صدقة جارية..... فكلما ازداد عمر المؤمن ازداد خيرًا بالأعمال الصالحة ... يكفى أنه يصلى، ويقرأ القرآن، ويواظب على حضور الجمعة والجماعات، ويصوم رمضان، فيُكتب له بذلك حسناتٍ عظيمة، فلا معنى لأن يتمنى لنفسه الموت.

ومن المعلوم أن التسبيحة الواحدة فى صحيفة الإنسان خيرٌ من الدنيا وما فيها ... لأن الدنيا وما فيها تذهب وتزول، والتسبيح والعمل الصالح يبقى ... قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ١٢-١٣) بتصرف.

ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦]. فأنت إذا بقيت ولو على أذى ولو على ضرر؛ فإنك ربما تزداد حسنات.

۞ وهكذا .. فالإنسان إما أن يكون محسنًا فحياته خيرٌ له ... وإما أن يكون مسيئًا قد عمل سيئًا، فلعله يستعتب أى يطلب من الله العُتبى أى الرضا والعذر، فيموت وقد تاب من سيئاته ... فلا تتمنَّ الموت لأن الأمر كله مقضى، وربما يكون فى بقائك خير لك أو خير لك ولغيرك ... فلا تتمنَّ الموت، بل اصبر واحتسب، فإن الله سيجعل بعد العُسر يُسرًا.

۞ وأما كونه يتمنى الموت بسبب الابتلاءات فقد وقع فى محذورين:

الأول: أنه قد ارتكب ما نهى عنه النبى ﷺ حينما قال: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ**».

الثانى: أن هذا يدل على أنه غير راضٍ بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ.

فيجب عليه أن يقابل تلك المصائب بالصبر والاحتساب وانتظار الفرج وإحسان الظن بالله.. وأن يعلم أن دوام الحال من المُحال وأن الله عَزَّوَجَلَّ قد يُقدر له الفرج من كل هذا فى أقرب وقت.. لأن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كُن فيكون.

أما ما يتعلق بفتنة الدين، إذا افتتن الناس فى دينهم وأصابتهم فتنة؛ إما فى زخارف الدُّنيا أو غيرها من الفتن، أو أفكار فاسدة، أو ديانات منحرفة أو غير ذلك، فهذا أيضًا لا يتمنى بسببه الإنسان الموت، ولكن يقول: اللَّهم اقبضنى إليك غير مفتون، فيسأل الله أن يُثَبِّته وأن يقبضه إليه غير مفتون. وإلا فليصبر لأنه ربما يكون بقاؤه مع هذه الفتن خيرًا للمسلمين.

يدافع عنهم ويناضل، ويساعد المسلمين ويُقوى ظهورهم، لكن يقول: اللَّهم إن أردت بعبادك فتنة؛ فاقبضنى إليك غير مفتون.

قال النبى عليه الصلاة والسلام: «فإن كان لا بد فاعلًا، فليَقُل: اللَّهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى»؛ فأنت لا تدرى وجه الخير فى ذلك ... فاجعل الأمر إلى الله: «اللَّهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى» يعنى إذا كانت. «وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى».

فإذا دعوت الله بهذا الدُّعاء، فإن الله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءك (١).

والتحقيق فى تلك المسألة: أن تمنِّى الموت يقع على وجوه:

۞ منها: تمنِّيه لضُرٍّ دنيوى ينزل بالعبد فيُنْهَى حينئذ عن تمنِّى الموت.

ووجه كراهيته فى هذا الحال أن المُتمنى للموت لضُرٍّ نزل به إنما يتمناه تعجيلًا للاستراحة من ضُرِّه وهو لا يدرى إلى ما يصير بعد الموت.

فلعله يصير إلى ضُرٍّ أعظم من ضُرِّه فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وفى الحديث عن النبى ﷺ قال: «إنَّمَا يَسْتَرِيح مَن غُفِر لَهُ» (٢)، فلهذا لا ينبغى له أن يدعو بالموت إلا أن يشترط أن يكون خيرًا له عند الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ومنها: تمنِّيه خوف الفتنة فى الدين فيجوز حينئذ. وقد تمنّاه ودعا به خشية فتنة الدين خَلقٌ من الصحابة وأئمة الإسلام... وفى حديث المنام: «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون» (٣).

۞ تمنِّى الموت عند حضور أسباب الشهادة: فيجوز ذلك أيضًا.

وسؤال الصحابة الشهادة وتعرُّضهم لها عند حضور الجهاد كثيرٌ مشهور.

وكذلك سؤال مُعاذ لنفسه وأهل بيته الطاعون لما وقع بالشام.

۞ ومنها: تمنِّى الموت لمن وثق بعمله شوقًا إلى لقاء الله عَزَّوَجَلَّ: فهذا يجوز

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٥٩).

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو نعيم، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٧١٠) لكثرة طرقه.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩).

أيضًا وقد فعله كثير من السلف.

قال أبو الدرداء: أُحب الموت اشتياقًا إلى ربي ... وقال عنبسة الخولاني: كان مَن قبلكم لقاء الله أحب إليه من الشهد. وقال بعضهم: طال شوقي إليك فعجِّل قدومي عليك. وقال بعضهم: لا تطيب نفسي بالموت إلا إذا ذكرت لقاء الله عَزَّوَجَلَّ فإنني حينئذ أشتاق إلى الموت كشوق الظمآن الشديد ظمؤه في اليوم الحار الشديد حَرُّه إلى الماء البارد الشديد بَرْدُه.

وفي هذا يقول بعضهم:

أشتاق إليك يا قريبًا نائي ... شوق ظمأ إلى زلال الماء

وقد دَلَّ على جواز ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، فدَلَّ ذلك على أن أولياء الله لا يكرهون الموت بل يتمنونه ... ثم أخبر أنهم ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فدلَّ على أنه إنما يكره الموت مَن له ذنوب يخاف القدوم عليه بها ... كما قال بعض السلف: ما يكره الموت إلا مُريب.

وفي حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، والشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»(١)، فالشوق إلى الله تعالى إنما يكون بمحبة الموت.

قال أبو بكر الصديق لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في وصيته له عند الموت: إن حفظت وصيتي لم يكن غائبٌ أحب إليك من الموت ولا بد منه، وإن ضيَّعتها لم يكن غائب أكره إليك من الموت ولن تُعجزه.

(١) صحيح: رواه النسائي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠١).

قال أبو حازم: كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه ثم لا يضرّك متى مِتَّ.

۞ سُئل أبو حازم: كيف القُدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقُدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصى فكقُدوم العبد الآبق (الهارب) على سيده الغضبان(١).

۞ رُئى أحد الصالحين فى النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيرًا لم يُرَ مثل الكريم إذا حلَّ به مطيع.. الدنيا كلها شهر الصيام للمتقين وعيد فطرهم يوم لقاء ربهم... وصدق من قال:

وقد صُمت عن لذات دهرى كلها ... ويوم لقاكم ذاك فطر صيامى

۞ قال الحافظ ابن حجر: لا يتمنّين... أنه إذا حَلَّ به - أى الموت - لا يمنع من تمنِّيه رضًا بلقاء الله ولا من طلبه من الله لذلك وهو كذلك.

ولهذه النكتة عقَّب البخارى حديث أبى هريرة بحديث عائشة: «اللَّهم اغفر لى، وارحمنى، وألحقنى بالرفيق الأعلى» إشارة إلى أن النهى مختص بالحالة التى قبل نزول الموت(٢).

۞ قال على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى يوم الجمل: ليتنى متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة(٣).

۞ وتمنى عطاء السُّلَمى الموت، وقال: إنما يريد الحياة مَن يزداد خيرًا فأما مَن يزداد شرًّا فما يصنع بالحياة(٤).

۞ وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبىَّ ﷺ قَالَ: « **وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لا تَذْهَبُ الدُّنْيَا**

---

(١) لطائف المعارف (ص: ٥٨٢: ٥٨٥) بتصرف.

(٢) فتح البارى (١٠/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) كتاب المتمنين/ لابن أبى الدنيا (ص: ٦٢).

(٤) كتاب المتمنين/ لابن أبى الدنيا (ص: ٦٩).

حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِى كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا الْبَلَاءُ »[١].

(٥٩٢) وعَنْ قَيسِ بنِ أبى حازم قال: دَخَلْنَا عَلى خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَعُودُهُ وَقَد اكْتوى سَبْعَ كيَّاتٍ فقال: إنَّ أَصحابنا الَّذينَ سَلَفُوا مَضَوْا، ولَم تَنْقُصهُمُ الدُّنْيَا،وإِنَّا أَصَبْنَا ما لا نجدُ لَه مَوْضعًا إِلاَّ الترابَ ولَوْلاَ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ نهانَا أَنْ نَدعُوَ بالمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ ... ثُمَّ أَتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى وهُوَ يَبْنى حائطًا لَهُ، فقال: إِنَّ المُسْلِمَ لَيُؤْجَرُ فى كُلِّ شَىءٍ يُنْفِقُهُ إِلاَّ فى شَىءٍ يَجْعَلُهُ فى هذا الترابِ[٢].

۞ لقد كان خباب بن الأرت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رجلًا من أصحاب الرسول ﷺ الذين ابتُلوا ابتلاءً شديدًا، فلما أسلم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أخذه المشركون وعذبوه عذابًا شديدًا... ومرة فى خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان الناس يتكلمون عمَّا كان يفعله المشركون بالمسلمين، فهنا كشف خباب عن ظهره رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما رأيت أبشع من ذلك، حيث رأى لحم ظهره قد ذاب وكشف عن عظام ظهره ... فقد كان المشركون يوقدون النار حتى تصير جمرًا ثم يطرحونه عليها حتى تنطفئ بشحم ظهره رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فهذا الصحابى الفاضل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أصابه بلاء ومَرِض فى آخر عمره وبسبب هذا المرض اكتوى سبع كيات.

والكى أحد الأدوية النافعة بإذن الله.. وهو أحد أسباب الشفاء الثلاثة التى ذكرها النبى ﷺ حيث قال: «الشِّفَاءُ فِى ثَلاَثَةٍ: شَربَةِ عَسَلٍ، وَشَرطَةِ مِحجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِى عَنِ الكَىِّ»[٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١١٥) كتاب الفتن، ومسلم (١٥٧) (٥٤) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٧٢) كتاب المرضى، ومسلم (٢٦٨١) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٦٨٠) كتاب الطب،

۞ وثَبَتَ فِي صَحِيحِ مسلم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ إِلَى أُبَيِّ بْنِ كَعبٍ طَبِيبًا، فَقَطَعَ لَهُ عِرقًا وَكَوَاهُ عَلَيْهِ»[(١)].

هذه الثلاثة من أنفع ما يكون بإذن الله عَزَّوَجَلَّ ... وهناك بعض العلل ما ينفع فيها إلا الكى ... فمثلًا ذات الجنب، وهو داء يصيب الرِّئة فتتجلط وتلصق بالصدر ويموت الإنسان منها إلا أن يشفيه الله عَزَّوَجَلَّ بأسباب.

هذا النوع من الأمراض لا ينفع فيه إلا الكى ... كم من مريضٍ يُصاب بذات الجنب يذهب إلى الأطباء ويعطونه الإبر والأدوية وغيرها ولا ينفع، فإذا كُوى برئ بإذن الله.

كذلك هناك أشياء تصيب الأمعاء تُسمَّى عند أطباء العرب الطير؛ لأنها تتفرق فى الجسد ... هذه أيضًا لا ينفع فيها إلا الكى ... ومهما أعطيت المريض من الأدوية لا ينفع فيها إلا الكى.

هناك أيضًا شىءٌ ثالث يُسمَّى عند الناس الحبة ... وهو ورم يظهر فى الفم أو فى الحلق، وإذا انفجر هلك الإنسان... هذا أيضًا لا ينفع فيه إلا الكى.

وأشياء كثيرة ما ينفع فيها إلا الكى.

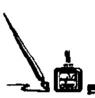
فخباب بن الأرت رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ كُوى سبع كيات، ثم جاءه أصحابه يعودونه.

فقال لهم: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا، وإنَّا أصبنا ما لا نجد له موضعًا إلا التراب.

يعنى: بعد الفتوحات أصبنا من الغنائم وجاء لنا من الرزق، وهو لم يذكر أنه كان مجاهدًا، وكأنه يُقلل من شأن نفسه رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ.

فالمسلمون كانوا فى العهد الأول فقراء، ولكن الله أغناهم بالغنائم الكثيرة التى غنموها من الكفار بإذن الله... كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٠٧) كتاب السلام.



كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح: ٢٠]. وقال: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح: ١٩].

فلما فتح الله على المسلمين كَثُرت الأموال عندهم، فزادت ونمت، فحصل لبعضهم ترف، وصار بعضهم إذا قُدِّم له الغداء أو العشاء يبكي على ما كانوا عليه من ضحالة العيش وقلة ذات اليد.

فأخبرهم خباب رضي الله عنه أنه من كثرة المال لم يجد إلا أن يحفر مكانًا في الأرض ويجعل فيه هذا المال.

وذكروا عنه في رواية عند الترمذي أنه قال: (لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وما أملك درهمًا وإن في جانب بيتي الآن أربعين ألف درهم).

ولا بد أن يكون مال خباب رضي الله عنه هذا حلالًا، ولكن مع ذلك خاف أن يموت وقد ترك أربعين ألف درهم فيسأله الله سبحانه وتعالى عنها.

ثم قال خباب رضي الله عنه: ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به ... فهو لا يريد أن يقع فيما نهى عنه النبي ﷺ.

۞ يقول قيس بن حازم: ثُمَّ أَتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى وهُوَ يَبْنِي حائطًا لَهُ، فقال: إِنَّ المُسْلِمَ لَيُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيءٍ يُنْفِقُهُ إِلاَّ فِي شَيءٍ يَجْعَلُهُ في هذا الترابِ.

فمن تواضعه رضي الله عنه يذكر الشيء الذي يُحقر به نفسه ... فالإنسان عادة إذا صار غنيًّا فإنه يحب أن يظهر أمام الناس بما رزقه الله من المال ويقول: أنا سأبني وأنا سأعمل وأنا عندي ... لكن هذا يقول: إن الإنسان يُؤجَر في كل شيء ينفقه إلا ما يجعله الإنسان في التراب.

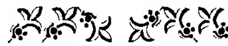
يعني: كل عملٍ حسن يعمله يُؤجَر عليه إلا في شيء يجعله في هذا التراب... وهذا محمول على الكثرة ... يعني: أن يكون عنده ما يستغني به ثم يبني بيتًا ثانيًا وثالثًا فهذا لا يُؤجَر عليه عند الله .. إنما يكون الأجر على عمل ينفعه... فلعله بنى لابنه أو لابنته، أو أراد بذلك أن يُعين إنسانًا فيُؤجَر على هذا كله ... أما أن

يُكثر لنفسه هذه الأشياء فقال خباب: إن النبى ﷺ ذكر أنه لا يُؤجَر على ذلك، لكن لا نقول إنه يأثم ... وإنما المعنى: أن الذى يُكثر من البنيان كأنه يُؤمِّل فى الدنيا، وهذا لا يَحرُم عليه، ولكن غير ذلك أَولَى، وهو أن يعتبر الإنسان من هؤلاء الأفاضل الذين كان الواحد منهم يبنى البيت ومع ذلك لا يمدح نفسه بذلك، وإنما يقول: إن النبى ﷺ قال: إن المرء لا يُؤجَر على هذا الشىء، ولكن لاحتياجه يصنع ذلك، والله أعلم.

فالمقصود: أن الإنسان المؤمن يذكر الموت فيستعين بذلك على العمل، ويخاف من الموت الخوف الذى يُعينه على طاعة الله سبحانه وتعالى ... فالمؤمن خوفه من الموت يحمله على أن يتذكر الحساب ومن ثَمَّ يُطيع الله سبحانه بأن يبتعد عن الحرام ويرد المظالم إلى أصحابها.

فالخوف المندوب هو الخوف الذى يدفع للعمل .. وليس الخوف الذى يجعل الإنسان يجلس فى بيته ولا يصنع شيئًا.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعيننا على ذكره وشُكره وحُسن عبادته، وأن يرحمنا فى الدنيا وفى قبورنا وفى الآخرة[1].



(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين رحمه الله والشيخ أحمد حطيبة.

(٦٨) باب الورع وترك الشبهات

۞ للورع - عند علماء السلوك - مراتب ودرجات بعضها أعلى من بعض، كمعظم مقامات الدين، ومنازل السالكين إلى الله ... فهناك أعلى، وهناك أدنى، وهناك وسط ... ولكل مجتهدٍ نصيبٌ، ومَن سار على الدرب وصل.

والله تعالى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

۞ وقد قسَّم الراغب الأصفهاني الورع إلى ثلاث مراتب:

(١) واجب: وهو الإحجام عن المحارم، وذلك للناس كافَّة.

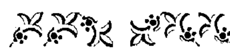
(٢) مندوب: وهو الوقوف عن الشبهات، وذلك للأواسط.

(٣) فضيلة: وهو الكَفُّ عن كثيرٍ من المباحات، والاقتصار على أقل الضرورات ... وذلك للنبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين(١).

۞ فما أجمل أن يتورع المسلم عن كل ما هو حرام وعن كل ما يُغضب الله عَزَّ وَجَلَّ.

فالورع نعمة جليلة لا يتصف بها إلا أهل المروءة والتقوى.

والورع والزهد يشتبه معناهما عند بعض الناس ... لكن الفرق بينهما كما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الروح: الورع تركُ ما يَضرُّ في الآخرة، والزهد ترك ما لا ينفع... فمقام الزهد أعلى من مقام الورع؛ لأن الورع أن يترك الإنسان ما يضر، والزهد أن يترك ما لا ينفع ... لأن الأشياء ثلاثة أقسام: ضارٌّ، ونافعٌ، وما ليس بضارٍّ ولا نافع.



(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣٢٣).

(٥٩٣) وعَنْ النُّعمان بنِ بَشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وَبيْنَهما مُشْتَبِهاتٌ لاَ يَعلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَن اتَّقى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فى الشبُهاتِ، وقَعَ فى الحَرام، كالرَّاعى يرعى حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أَنْ يَرتَع فِيهِ ، أَلاَ وإنَّ لكُلِّ مَلكٍ حِمىً، أَلاَ وَإنَّ حِمَى الله مَحَارِمهُ، أَلاَ وإنَّ فى الجسَدِ مُضغَةً إذا صلَحَت صَلَحَ الجسَدُ كُلُّهُ، وَإِذا فَسَدَتْ فَسدَ الجَسَدُ كُلُّهُ: أَلاَ وَهِى القَلْبُ»[١].

۞ الأشياء ثلاثة أقسام:

حلالٌ بَيِّنٌ واضح لا يَخفى أنه حلال ... كالخبز، والفواكه، والزيت، والعسل، والسمن وغير ذلك من المطعومات، وكذلك الكلام المباح، والنظر المباح، والمشى المباح، وغير ذلك من التصرُّفات.

وأما الحرام البيِّن فكالخمر، والخنزير، وكذلك الزنا، والكذب، والغيبة والنميمة، والنظر إلى الأجنبية وأشباه ذلك.

وأما المشتبهات فهى أمور ليست بواضحة الحِلِّ ولا الحُرمة؛ فلهذا لا يعرفها كثير من الناس، ولا يعلمون حُكمها، فتلك من الأَولى تَركُها، ومَن تَرَكَها حصلت لهُ البراءة لدينه من الذَّمِّ الشرعى، وصان عِرضه عن كلام الناس فيه.

إذا عُلم ذلك فإنه يجب على الإنسان ألا يُعرِّض نفسه للوقوع فى المشتبهات؛ لأنها تقود إلى الوقوع فى الحرام،... وضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً: أن الملوك يكون لكل ملكٍ منهم حِمى حول قصره يحميه عن الناس

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب المساقاة.

(بيِّن): أى واضح لا يخفى أنه حلال.

(مشتبهات) أى أمور ملتبسة غير مبينة.

(استبرأ): أى طلب البراءة.

(وعِرضه): العِرض موضع المدح والذم من الإنسان.

ويمنعهم من دخوله ... فمن دخله أوقع به العقوبة، ومَن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحِمى خوفًا من الوقوع فيه.

وكذلك لله سبحانه وتعالى حِمى وهى محارمه ... أى المعاصى التى حرمها الله، كالقتل، والزنى، والسرقة، والقذف، والخمر، والكذب، والغيبة والنميمة، وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك، فكل هذا حِمى الله سبحانه وتعالى مَن دخله بارتكابه شيئًا من المعاصى استحق العقوبة.

لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، ومَن قارب الحِمى يوشك أن يقع فيه ... فيجب على الإنسان أن يحتاط لنفسه ولا يقاربه بفعل المكروهات والمشتبهات ولا يتعلق بشيء يُقربه من المعصية، فلا يدخل فى شيء من الشبهات...قال رسول الله ﷺ: **«اجعلوا بينكم وبين الحرام سِترًا من الحلال»**[1].

وفى النهاية بيَّن ﷺ أنه بصلاح القلب يَصلُح باقى الجسد، وبفساده يفسد باقيه ... فمهما قلنا: ابتعد عن الحرام واحترز من الشبهات فلن يستجيب العبد إلا إذا صلح قلبه.

۞ قال ﷺ: « **أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ** ».

ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**اللهم يَا مُقلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ ، اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ** ».

فالإنسان مدار صلاحه وفساده على القلب ... ولهذا ينبغى لك أيها المسلم أن تعتنى بصلاح قلبك ... فصلاح الظواهر وأعمال الجوارح طيب، ولكن الشأن كل الشأن فى صلاح القلب...يقول الله عَزَّوَجَلَّ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٢).

تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ [المنافقون: ٤] ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ من الهيئة الحسنة، وحُسن عمل الجوارح ... وإذا قالوا، قالوا قولًا تسمع له من حُسنه وزخرفته، لكن قلوبهم خَرِبة والعياذ بالله ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ [المنافقون: ٤] ليس فيها خير.

فاعتنِ يا عبد الله بصلاح القلب ... انظر قلبك هل فيه شيء من الشر؟ هل فيه شيء من كراهة ما أنزل الله؟ هل فيه شيء من كراهة عباد الله الصالحين؟ هل فيه شيء من الميل إلى الكفار؟ هل فيه شيء من موالاة الكفار؟ هل فيه شيءٌ من الحسد؟ هل فيه شيءٌ من الغلِّ؟ هل فيه شيءٌ من الحقد؟ وما أشبه ذلك من الأمراض العظيمة الكثيرة فى القلوب.

فطهِّر قلبك من هذا وأصلحه، فإن المدار عليه. ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠] ، هذا يوم القيامة.... العمل يكون على الباطن فى الآخرة أما فى الدنيا فالعمل على الظاهر، ما لنا إلا ظواهر الناس، لكن فى الآخرة العمل على الباطن ... أصلح الله قلوبنا وقلوبكم.

۞ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] ﴿تُبۡلَى﴾ يعنى تُختبَر السرائر فمن كان من المؤمنين؛ ظهر إيمانه، ومن كان من أهل النفاق؛ ظهر نفاقه والعياذ بالله.

لذلك أَصلِح قلبك يا أخى، لا تكره شريعة الله، ولا تكره عباد الله الصالحين، لا تكره أى شيء مما أنزل الله[1].

(٥٩٤) وعَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَبِىَّ ﷺ وَجَدَ تَمْرَةً فى الطَّرِيقِ، فقالَ: «لَوْلاَ أَنِّى أَخافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لأَكَلْتُها»[2].

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٢٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٥٥) كتاب البيوع، ومسلم (١٠٧١) كتاب الزكاة.

۞ هذا الحديث برواياته أوردها الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ تحت باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب دون غيرهم.

وأورد رواية أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِى فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«كُخْ كُخْ، ارمِ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»**(١).

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَاللهِ إِنِّى لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِى فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِى - أَوْ فِى بَيْتِى - فَأَرفَعُهَا لِآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً - أَوْ مِنَ الصَّدَقَةِ - فَأُلْقِيهَا»**(٢).

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ تَحرِيمُ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِ ﷺ وَأَنَّهُ لَا فَرقَ بَيْنَ صَدَقَةِ الْفَرضِ وَالتَّطَوُّعِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**الصَّدَقَةُ**» بِالأَلِفِ وَاللَّامِ وَهِىَ تَعُمُّ النَّوْعَيْنِ وَلَمْ يَقُلِ الزَّكَاةُ ... وَفِيهِ اسْتِعمَالُ الْوَرَعِ لِأَنَّ هَذِهِ التَّمْرَةَ لَا تَحرُمُ بِمُجَرَّدِ الِاحتِمَالِ لَكِنَّ الْوَرَعَ تَركُهَا(٣).

۞ فالشاهد أن النبى ﷺ وجد تمرة فى الطريق.. فما قيمة تلك التمرة؟ لا شىء.. فلو وجدها أى إنسانٍ جاز له أن يأخذها ويأكلها.. لكن النبى ﷺ وهو أورع الخلق أجمعين لم يأكل تلك التمرة التى وجدها خوفًا من أن تكون من تمر الصدقة.. وقد حرَّم الله عَزَّ وَجَلَّ على النبى ﷺ وآل بيته أن يأكلوا من الزكاة أو الصدقة لأنها كما قال النبى ﷺ فى الرواية الأخرى: «**إن الصدقة لا تنبغى لآل محمدٍ إنما هى أوساخ الناس**»(٤) فلما وجد النبى ﷺ هذه التمرة خشى أن تكون من الصدقة فلم يأكلها ﷺ، وقال: «**لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة**

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٠٦٩) كتاب الزكاة.
(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٠٧٠) كتاب الزكاة.
(٣) مسلم بشرح النووى (٧/ ٢٤٧) بتصرف.
(٤) **صحيح**: رواه مسلم (١٠٧٢) كتاب الزكاة.

لأكلتها»، يبين لهم أن هذا يجوز لكم ولا يجوز لي ... فهذا ورعه ﷺ في تمرة... فما ظنك بما فوق ذلك؟

(٥٩٥) وعَنْ النَّوَّاسِ بنِ سَمعان رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ وَالإِثمُ ما حاكَ في نفْسِكَ، وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»(١).

(٥٩٦) وعَنْ وابصةَ بنِ مَعبَدٍ رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ رسولَ الله ﷺ فقال: «جِئْتَ تسأَلُ عنِ البِرِّ؟» قلت: نعم، فقال: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، البِرُّ: ما اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ، والإِثْم ما حاكَ في النَّفْسِ وتَرَدَّدَ في الصَّدرِ، وإنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوكَ»(٢).

۞ فقوله ﷺ: «البر حُسن الخلق» يعنى أن حُسن الخلق من البر الداخل في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] وحُسن الخلق يكون في عبادة الله، ويكون في معاملة عباد الله.

فحسن الخلق في عبادة الله: أن يتلقى الإنسان أوامر الله بصدرٍ مُنشرح، ونفسٍ مطمئنة، ويفعل ذلك بانقيادٍ تام، بدون تَردُّد، وبدون شَك، وبدون تسخُّط...يؤدى الصلاة مع الجماعة مُنقادًا لذلك .. يتوضأ في أيام البرد مُنقادًا لذلك...يتصدق بالزكاة من ماله مُنقادًا لذلك ... يصوم رمضان مُنقادًا لذلك، يحج مُنقادًا لذلك.

وأما في معاملة الناس بأن يقوم ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والنُّصح بالمعاملة وغير هذا، وهو منشرح الصدر، واسع البال، لا يضيق بذلك ذَرعًا، ولا يتضجر منه ... فإذا علمت من نفسك أنك في هذه الحال، فإنك من أهل البر.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٣) كتاب البر والصلة والآداب.
«حاكَ» أيْ تَرَدَّدَ فيه.

(٢) حسن: رواه البخارى في التاريخ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٨).

وأما الإثم فقال هو: «**ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**» يعني بما حاك في النفس: ما لم تطمئن إليه نفسك، بل ترددت فيه، وكرهت أن يطلع عليه الناس.

ولكن هذا خطاب للمؤمن ... أما الفاسق فإن الإثم لا يحيك في صدره، ولا يهمه أن يطلع عليه الناس، بل يُجاهر به ولا يبالي .. لكن المؤمن لكون الله سبحانه وتعالى قد أعطاه نورًا في قلبه، إذا هَمَّ بالإثم حاك في صدره، وتردد فيه، وكره أن يطلع عليه الناس، فهذا الميزان إنما هو في حق المؤمنين.

أما الفاسقون فإنهم لا يهمهم أن يطلع الناس على آثامهم، ولا تحيك الآثام في صدورهم؛ بل يفعلونها - والعياذ بالله - بانطلاقٍ وانشراح، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨]

فقد يُزيَّن للإنسان سوء العمل فينشرح له صدره، مثل ما نرى من أهل الفسق الذين يشربون الخمر، وتنشرح صدورهم له، والذين يتعاملون بالربا وتنشرح صدورهم لذلك، والذين يتعودون الزنا وتنشرح صدورهم لذلك، ولا يبالون بهذا، بل ربما إذا فعلوا ذلك سِرًّا ذهبوا يشيعونه، ويعلنونه(١).

لكن صاحب الخير الذي وُفق للبر هو الذي يتردد الشيء في نفسه، ولا تطمئن إليه، ويحيك في صدره، فيعلم بذلك أنه إثم.

وموقف الإنسان من هذا أن يدعه، وأن يتركه إلى شيء تطمئن إليه نفسه، ولا يكون في صدره حرجٌ منه ... وهذا هو الورع، ولهذا قال النبي ﷺ: «**وإن أفتاك الناس وأفتوك**» حتى لو أفتاك مُفتٍ بأن هذا جائز، ولكن نفسك لم تطمئن ولم تنشرح إليه فدعه، فإن هذا من الخير والبر.

إلا إذا علمت أن في نفسك مرضًا من الوسواس والشك والتردُّد فيما أحلَّ

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٠٣) بتصرف.

الله، فلا تلتفت لهذا...والنبى (عليه الصلاة والسلام) إنما يخاطب الناس، أو يتكلم على الوجه الذى ليس فيه أمراض، أى ليس فى قلب صاحبه مرض...فإن البر هو ما اطمأنت إليه نفس صاحب هذا القلب الصحيح، والإثم ما حاك فى صدره وكَرِهَ أن يَطَّلع عليه الناس[1].

۞ وهذا الحديث له شاهدٌ آخر من حديث أبى ثعلبة بالمعنى نفسه، فالمعنى صحيح، ويدل عليه حديث النواس الذى ذكرناه قبله، وهذا الحديث فيه حكاية ذكرها الإمام أحمد فى مسنده، فيها: أن الرجل ذهب إلى النبى ﷺ والناس مزدحمون حوله، فأراد الإقبال على النبى ﷺ، فنهاه الناس أن يفعل هذا أمام النبى ﷺ ... فالرجل علل بأنه يحب النبى ﷺ حبًّا شديدًا يدفعه لذلك، فقال النبى ﷺ لهم: (أفسحوا لوابصة).

فجاء وابصة يريد أن يسأل النبى ﷺ، وقبل أن يسأل قال له النبى ﷺ: (تسأل أم أُخبرك؟) قال: بل أخبرنى يا رسول الله! فقال له النبى ﷺ: (جئت تسأل عن البر؟ قال: نعم، فقال ﷺ: استفت قلبك)، يعنى: الأمر الذى يشكل عليك لعلك تسأل عالمًا من العلماء وبحسب صيغة السؤال يعطى الجواب ... فالمرء قد يسأل بطريقة مُعينة ويفتى العالِم بأن ذلك حلال ليس فيه شىء، فإذا بالعالِم الآخر يعطى تفاصيل أكثر وينقلب الجواب؛ لأنه حرام وليس حلالًا ... فعلى هذا المرء أن يستفتى قلبه ويأخذ بأحد الأمرين... فالنبى ﷺ قال: (استفتِ قلبك ... البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إنيه القلب).

وإذا اطمأن قلبك لشىء فافعل هذا الشىء، وإذا شككت فيه وحاك فى قلبك وفى صدرك فاترك هذا الشىء، والإنسان أدرى بما فى قلبه وبما يريد؛ ولذلك قال النبى ﷺ: «**والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**».

يعنى: الفتوى وحكم الحاكم لا تغير من حقيقة الأمر شيئًا.

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٢٦٨).

فالحرام حرام وإن أجاب المُفتون على سؤالك بأنه حلال... كأن يجد الإنسان قطعة من الأرض فى مكان، وصاحبها غائب منذ زمن، فيأخذ الأرض ويضع يده عليها، ويأتى إلى المحكمة بأوراقٍ مزورةٍ، والقاضى يحكم له، فتصبح قطعة الأرض له.

فهى ليست أرضه وليست ملكه، حتى وإن حكم القاضى أنها له؛ لأنه يعرف بنفسه أنها ليست له، فلا يخدع نفسه بذلك... فإن النبى ﷺ يقول: «**من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين**»، يعنى: يُجعل الطوق فى عنقه من سبع أراضٍ يوم القيامة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فلا يخدع نفسه، ولا يخدع غيره.

***

(٥٩٧) وعَنْ أبى سِروَعَةَ عُقْبَةَ بنِ الحارث ؓ أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لأبى إِهاب بن عَزِيز، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فقالت: إِنِّى قَد أَرضَعت عُقْبَةَ وَالتى قَد تَزَوَّجَ بها، فقال لهَا عُقبةُ: ما أَعلَمُ أَنَّكِ أرضَعتِنى وَلاَ أَخْبَرتِنى، فَرَكِبَ إِلى رسولِ الله ﷺ بالمَدِينَةِ، فَسَأَلَهُ، فقال رسُولُ الله ﷺ: «كَيْفَ، وَقَد قيل؟» ففَارقَهَا عُقْبَةُ ونكَحَتْ زَوْجًا غيرَهُ[1].

۞ ففى هذا الحديث أن عقبة تزوج امرأة ابن أبى إهاب، فلما تزوجها جاءت امرأة فقالت: إنى أرضعته هو والمرأة التى تزوجها ... يعنى فيكون أخًا لها من الرضاع... وأخوها من الرضاع يَحرُم عليها كما يَحرُم عليها أخوها من النسب ... لقول النبى ﷺ: «**يَحرُم من الرضاع ما يَحرُم من النسب**» ولكن لابد لهذا من شروط:

الشرط الأول: أن يكون اللبن من آدمية، فلو اشترك طفلان فى الرضاع من شاة أو من بقرة أو من بعير، فإنهما لا يصيران أخوين، لأنه لا بد أن يكون

(١) صحيح: رواه البخارى (٨٨) كتاب العلم، (٢٦٤٠) كتاب الشهادات.
«إِهَابٌ» بكسرِ الهمزة، وَ «عزِيزٌ» بفتح العين وبزاى مكرَّرة.

الرضاع من آدمية لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣]

الشرط الثاني: لابد أن يكون الرضاع خمس رضعات فأكثر، فإن كان مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات، فإنه ليس بشيء، ولا يؤثر، فلو أن امرأة أرضعت طفلًا أربع مرات في أربعة أيام كل مرة يشبع، فإنه لا يكون ابنًا لها... لا بد من خمس، ولو أرضعته خمس مرات ولو لم يشبع فإنها تكون أمًّا له ويكون الرضاع مُحرِّمًا.

الشرط الثالث: لا بد أن يكون في زمن الإرضاع، وهو ما قبل الفطام في الحولين، فإن لم يكن في هذا الزمن بأن أرضعته وهو كبير، فإن ذلك لا يؤثر ... فلو أن طفلًا له خمس سنوات رضع من امرأة خمس مرات أو عشر مرات، فإنه لا يكون ابنًا لها من الرضاع، لأنه ليس في زمن الإرضاع.

فهذه شروط ثلاثة، وإذا ثبت التحريم فإنه ينتشر إلى المرتضع وذريته فقط، ولا ينتشر إلى إخوانه وآبائه وأمهاته، وعلى هذا فيجوز لأخي الطفل الراضع أن يتزوج أخت أخيه من الرضاع، وأن يتزوج أم أخيه من الرضاع، لأنه لا تأثير في الرضاع إلا على المرتضع وذريته يعني فروعه.

فأما أصوله وحواشيه: أصوله من آباءٍ وأُمهات، وحواشيه من إخوة، وأعمام، وأبنائهم، وبناتهم، فإنه لا تأثير لهم في الرضاع، سواء كان أكبر منه أو أصغر منه، وما اشتهر عند العامة من أن إخوته الذين هم أصغر منه ... يلحقهم حكم الرضاع، فإنه لا صحة له.

بعض العوام يقول: إذا رضع طفل من امرأة صار ابنًا لها وصار إخوته الذين من بعده أبناءً لها وهذا غير صحيح، بل جميع إخوته ليس لهم فيها تعلُّق بوجهٍ من الوجوه[1].

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٦٩).

(٥٩٨) وعَنْ الحَسَنِ بن عَلىٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: حَفِظْتُ مِنْ رَسُول الله ﷺ: «دَع ما يَريبُكَ إِلى مَا لا يرِيبُك»(١).

۞ والمعنى هنا: أنك إذا كان عندك شكٌّ أو ريبة فى مالٍ أتاك أو فى شىء ستفعله أو فى عمل ستعمل فيه فاتركه؛ لأن الأصل هو أن يتورَّع الإنسان عن كل ما يُغضب الله عَزَّوَجَلَّ وذلك بأن تترك كل ما تَشك فيه وتأخذ ما لا تَشُك فيه.

۞ فهذا حديثٌ عظيم.. وهو قريبٌ فى المعنى من قوله ﷺ: **«فَمن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام»**.

فهذا الحديث قال فيه الحسن: حَفِظْتُ مِنْ رَسُول الله ﷺ: **«دَع ما يَريبُكَ إِلى مَا لا يرِيبُك»**.

«دع ما يريبك» يعنى: ما تشك فيه، ولا تطمئن له، وتخاف منه.

لأن الرَّيب هو الشك وعدم الطمأنينة ... يعنى: إذا أتاك أمر فيه عدم طمأنينة لك، أو أنت إذا أقبلت عليه، أو إذا أردت عمله، استربت منه، وصرت فى خوفٍ أن يكون حرامًا، فدعه إلى شىءٍ لا يريبك؛ لأن الاستبراء مأمورٌ به...

فترك المشتبهات إلى اليقين هذا أصلٌ عام، وهذا الحديث دَلَّ على هذه القاعدة العظيمة: أن المرء يبحث عن اليقين؛ لأن فيه الطمأنينة، وإذا حصل له اليقين سيدع ما شَكَّ فيه.

وهذا يدل على أن كل ما فيه خير تطمئن له نفس المؤمن... فأنت تأتى إلى ما تتلفظ به من أقوال، فتزنها بهذا الميزان، وما تأتيه من أعمال فتزنها بهذا الميزان... والعجب ممن يتكلم بشىء وهو بداخله غير مرتاح له، ومع ذلك يغشاه، فهذا مخالف لهذا الأمر العظيم. كذلك أعمال لا يرتاح لها، أو صحبة لا يرتاح لها، ومع ذلك يأتيها وهو غير مطمئن لذلك.

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٧٨).
ومعناهُ: اترُكْ ما تَشُكُّ فِيهِ، وخُذْ ما لا تَشُكُّ فِيهِ.

وهذا - لا شك - أنه مخالفة لهذه الوصية العظيمة: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» وهذا توجيه نبوى عظيم الفائدة عظيم العائدة... وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يستعملون هذا... وهذا الحديث أصلٌ فى الورع، أصلٌ فى ترك المشتبهات، أصل فى التَخَوُّف من أى نوع من الحرام... والورع سهل، فقد قال بعض السلف: «**إذا أتانى أمر وفيه ريبة تركته، وما أسهلها على النفس**».

وهذا - ولا شك - عند نفس المؤمن الذى أخبت لربه، فإنه إذا أتاه ما يريبه يتركه، ويكون فى ذلك راحة النفس وطمأنينة القلب، وهذا أمر واضح فى الشريعة [١].

(٥٩٩) وعَنْ عائشةَ ﵂، قالت: كانَ لأبى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵁ غُلامٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَراجَ، وكانَ أَبو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَومًا بِشَىء، فَأكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلامُ: تَدرى مَا هَذا ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْر: ومَا هَوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لإِنْسَانٍ فى الجاهِلِيَّةِ ومَا أُحسِنِ الكَهَانَةَ إلاَّ أَنِّى خَدَعتُهُ، فَلَقِينى، فَأَعطَانى بِذلكَ هَذَا الذى أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَه فَقَاءَ كُلَّ شَىءٍ فى بَطْنِهِ [٢].

۞ فهذا مثال على ورع أبى بكر ﵁، حيث كان يتحرى الحلال فى مطعمه ومشربه، ويتجنب الشُّبهات... وهذه الخصلة تدل على بلوغه درجاتٍ عُليا فى التقوى ..ولا يَخفَى أهمية طِيب المطعم والمشرب والملبس فى الدين، وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء [٣]، كما فى حديث الرجل الأشعث الأغبر وفيه: «**يمد يديه إلى السماء: يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغُذى بالحرام، فأَنَّى يُستجاب لذلك**» [٤].

۞ ففى هذا الحديث تُخبر أمنا عائشة ﵂ أنه كان لأبى بكر الصديق ﵁

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص ١٣٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٨٤٢) كتاب المناقب.

«الخَراجُ»: شَىءٌ يَجْعَلُهُ السَّيِّدُ عَلى عَبْدِهِ يُؤَدِّيهِ إلى السَّيد كُلَّ يَومٍ، وَبَاقى كَسبِهِ يَكُونُ للعَبْدِ.

(٣) التاريخ الإسلامى للحميدى (١٩/ ١٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

غلام يُخرج له الخَراج.. وهو شيء يجعله السيد على عبد يؤديه إلى سيده كل يومٍ.. وباقى الكسب يكون للعبد.

وهذه المُخارجة جائزة بالنسبة للعبيد... إذا كان الإنسان عنده عبيد وقال لهم: اذهبوا اشتغلوا وائتونى كل يوم بكذا وكذا من الدراهم وما زاد فهو لكم، فإن هذا جائز، لأن العبيد ملكٌ للسيد، فما حصَّلوه فهو له سواء خَارَجهم على ذلك أم لم يُخارجهم.

لكن فائدة المُخارجة أن العبد إذا حصَّل ما اتفق عليه مع سيده فإن له أن يبقى من غير عمل ... يذهب فى طلب العلم، أو يبقى مستريحًا فى بيته أو أن يشتغل ويأخذ ما زاد.

أما بالنسبة للعمال الذى يجلبهم الإنسان إلى البلاد ويقول: اذهبوا وعليكم كل شهر كذا وكذا من الدراهم، فإن هذا حرام وظلم ومخالف لنظام الدولة... والعقد على هذا الوجه باطل، فليس لصاحب العمل شيء مما فرضه على هؤلاء العمال، لأن العامل ربما يكدح ويتعب ولا يُحصل ما فرضه عليه كفيله، وربما لا يُحصل شيئًا أبدًا، فكان فى هذا ظلم.

أما العبيد فهم عبيد الإنسان، ما لهم وما فى أيديهم فهو له.

۞ فكان هذا الغلام يذهب ويعمل ويُحضر الطعام كل يومٍ لأبى بكر رضي الله عنه.. ونظرًا لشدة حرص أبى بكرٍ وورعه فقد كان يسأله دائمًا عن مصدر الطعام قبل أن يأكل.. فإن كان حلالًا أكل منه وإن كان حرامًا امتنع عن الأكل منه... ولكن هذا الغلام كان لا يأتيه إلا بالحلال لأن أبا بكرٍ كان يوصيه دائمًا بتحرِّى الحلال.

وفى يومٍ من الأيام ذهب هذا الغلام إلى العمل ثم عاد بالطعام.. فنسى أبو بكرٍ أن يسأله كعادته عن مصدر الطعام .. فأكل منه شيئًا يسيرًا.. وإذا بالغلام يُفاجئه ويقول له: تدرى ما هذا؟

قال: وما هو؟ قال: هذا عوض عن أجرة كهانة تكهنت بها فى الجاهلية وأنا لا أُحسن الكهانة، لكنى خدعت الرجل فلقينى فأعطانى إياها.

وعوض الكهانة حرام، وسواء كان الكاهن يُحسن صنعة الكهانة أو لا يُحسن؛ لأن النبى (عليه الصلاة والسلام) نهى عن حُلوان الكاهن.

فلما قال لأبى بكر هذه المقالة، أدخل أبو بكر يده فى فمه فقاء كل ما أكل، وأخرجه من بطنه، لئلا يتغذى بطنه بحرام، وهذا مال حرام لأنه عوض عن حرام، وقد قال النبى ﷺ: «**إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه**».

وفى **هذا الحديث**: دليل على شدة ورع أبى بكر رضي الله عنه، فهو جدير بهذا لأنه الخليفة الأول على هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، ولهذا كان قول أهل السنة والجماعة أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل هذه الأمة، لأنه الخليفة الأول.

وفيه: رَدٌّ ظاهر على الروافض الذين يُفضلون عليًّا على أبى بكر وعمر رضي الله عنهما بل بعضهم يُفضل عليًّا على رسول الله ﷺ، ويقول: علىٌّ أفضل من محمد ﷺ وأحق بالرسالة، ولكن جبريل خان الأمانة وانصرف بالرسالة عن علىٍّ إلى محمدٍ... ولاشك أنهم على ضلالٍ بيِّنٍ والعياذ بالله، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

والحاصل أن أبا بكر رضي الله عنه كان من أهل الورع والزهد والبُعد عن المشتبهات؛ ولذلك فقد قاء كلّ ما فى بطنه بعد أن أكله؛ حتى لا يتغذى بطنه على شيءٍ جاء من حرام أو من طريق شُبهة(١).

***

(٦٠٠) وعَنْ نافِعٍ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه، كَانَ فَرَضَ للْمُهاجِرينَ الأَوَّلِينَ أَربَعَةَ آلاف، وفَرَضَ لابْنِهِ ثلاثَةَ آلاف وخَمْسَمائة، فَقِيلَ لَهُ: هُوَ مِنَ المُهاجِرِينَ فَلِمَ نَقَصتَهُ؟ فقال: إِنَّما هَاجَر بِهِ أَبُوه .. يَقُولُ: لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِهِ(٢).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٧١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٩١٢) كتاب مناقب الأنصار.

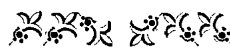
۞ إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت ولايته رحمة للناس، ورحمة بالمؤمنين، وكان قمة فى العدل والرحمة إذ كان يحكم فيعدل بين الناس، ولا يخاف من أحدٍ، إنما يخاف من الله سبحانه وتعالى ... ولما جاءت المغانم وفتح الله عليه الفتوحات إذا به يقسم للناس هذه الغنائم.

فكان يقسم للناس على حسب مراتبهم، ففرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف ... يأخذ المهاجر أربعة آلاف درهم من الدولة كل عام، وذلك من المغانم ومن الفيء ونحو ذلك ... وفرض لابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنه ثلاثة آلاف وخمسمائة وهو من المهاجرين .. وقد كان عبد الله بن عمر فى غزوة أُحد عمره حوالى أربع عشرة سنة، ولم يُجزه النبى ﷺ، فلما بلغ عمره خمس عشرة سنة أجازه النبى ﷺ.

فعبد الله بن عمر رضي الله عنه هاجر مع أبيه إلى النبى ﷺ وعُمره إحدى عشرة سنة مثلًا ... فأبوه يراعى أنه لمَّا هاجر كان صغيرًا، وأن الذى هاجر به أبوه، فأعطاه أقل مما أعطى للمهاجرين.

وهذا يدل دلالة عظيمة على شدة ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهكذا يجب على مَن تولَّى شيئًا من أمور المسلمين ألا يُحابى قريبًا لقرابته، ولا غنيًّا لغِناه، ولا فقيرًا لفقره، بل يُنزل كل أحدٍ منزلته.. فهذا من الورع والعدل... ولم يَقُل عبد الله بن عمر: يا أبتِ أنا مهاجر ولو شئت لبقيت فى مكة، بل وافق على ما فرضه له أبوه.



(٦٠١) وعَنْ عطِيَّةَ بنِ عُروة السَّعدِيِّ الصَّحَابِيِّ رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ: «لا يَبْلُغُ العبدُ أَنْ يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بَأْس بِهِ حَذرًا مما بِهِ بَأْسٌ»[١].

۞ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٣٢٠).

(٦٩) باب استحباب العُزلة عند فساد الزمان أو الخوف من فتنةٍ في الدين أو وقوعٍ في حرامٍ وشُبهاتٍ ونحوها

۞ إن الاختلاط بالناس والصبر عليهم، ودعوتهم إلى الله تعالى من أحسن الأعمال والطاعات، ومن أجلِّ القربات... فقد قال النبى ﷺ: «**المؤمن الذى يُخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»(١).

لكن إذا كان الاختلاط بهم قد يضر المرء فى دينه .. كأن يكونوا عُصاة ولم يستجيبوا لدعوته، فرأى أنهم سيؤثرونَ عليه سلبًا فهنا يعتزلهم ويجالس أهل الصلاح، فإن السلامة لا يعادلها شيء.

۞ وفى هذا الباب يذكر فيه الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ استحباب العزلة عند فساد الزمان، والعزلة أن يعتزل الإنسان الناس عند كثرة الشرور، فإذا كان الإنسان لو اختلط بالناس سيصل به ذلك إلى أن يهوى معهم، وإلى أن يضيع ويُفتن فى دينه، ويُفتن عن هذا الأمر العظيم الذى فى قلبه وهو الإيمان، فعليه أن يبتعد عما يكون سببًا فى ذلك.

فالمؤمن يختلط بالناس اختلاطًا ينتفع بهم وينتفعون به، وأما اختلاط يُضيع على الإنسان دينه، فالمسلم يَضِنُّ بدينه أن يضيع، فلذلك إذا لم تكن هناك وسيلة إلا أنه يعتزل الناس فهذا آخر ما يلجأ إليه المؤمن.

فليس الأصل هو الاعتزال، وإنما الأصل هُوَ الاختلاط بالناس... ولذلك

---

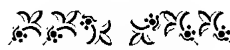
(١) صحيح: رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٥١).

جاء فيها أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ ... بل هو فِعلُه ﷺ وفعل أصحابه والتابعين من بعدهم أنهم يختلطون بالناس، ويدعون الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويجاهدون فى سبيل الله، ولكن حين يضيق الأمر بالمؤمن ولا يجد مكانًا يذهب إليه إلا وفيه الفتن، فإنه يعتزل إما اعتزالًا مخصوصًا لأُناسٍ مُعينين ويختلط بغيرهم، أو أنه يعتزل الجميع إذا كان يخشى أن يضيع باختلاطه بالناس.

إذًا ... فتُستحب العُزلة عند فساد الزمان، حين تَفْسد أحوال الناس، ويصير الحرام هو الذى يشيع بين الناس فى كل شيء: فى أخلاق الناس، وفى معاملاتهم؛ فى أخذهم وعطائهم، فيعتزل هؤلاء الذين يخاف منهم على دينه.

إذًا ... فعند فساد الزمان أو الخوف من فتنة الدين، أو يخاف على نفسه الردة، ويخاف على نفسه أن يصير فاسقًا بعدما كان مؤمنًا، ويخاف أن يَقِلَّ إيمانه فله ذلك.

وأما إذا كان يختلط بالناس فيزداد إيمانًا فليختلط[1].



۞ قال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

لما أمر الله عَزَّوَجَلَّ العباد بالنظر إلى آياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه .. أى: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه، ظاهرًا وباطنًا .. فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وزال عنه المرهوب، وحصل له، غاية المراد والمطلوب.

وسَمَّى الله الرجوع إليه فرارًا، لأن فى الرجوع إلى غيره، أنواع المخاوف

---

(١) شرح رياض الصالحين/ الشيخ أحمد حطيبة.

والمكاره.. وفى الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره.. وكل مَن خِفتَ منه فررت منه إلَّا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: مُنذرٌ لكم من عذاب الله، ومُخوِّفٌ بيِّن النذارة[1].

(٦٠٢) وعَنْ سعد بن أبى وقَّاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ الله يحِبُّ العَبدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ »[2].

۞ فى الحقيقة أن هذا الحديث له قصة عجيبة حدثت مع سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

فقد كان سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يطمع فى أى شىء من حطام الدنيا فهو يعلم أن كل نعيم دون الجنة فهو سراب، وأن كل عذاب دون النار فهو عافية.. فكان لا تطمح نفسه إلا فى جنة الرحمن (جل وعلا).

عن عامر بن سعد أن أباه سعدًا، كان فى غَنَمٍ له، فجاء ابنه عمر، فلما رآه قال سعد: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه، قال: يا أبتِ أرضيتَ أن تكون أعرابيًّا فى غنمك، والناس يتنازعون فى المُلك بالمدينة؟!... فضرب صدر عمر، وقال: اسكت، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ يحب العبد التقى الغنى الخفى**»[3].

۞ «**إن الله يحب العبد التقى**».. فالفوز بمحبة الله عَزَّ وَجَلَّ غاية كل مؤمن على وجه الأرض.. فمن وجد الله فماذا فَقَد ومَن فَقَد الله فماذا وجد؟..

---

(١) تفسير السعدى (ص ٩٦٥-٩٦٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٥) كتاب الزهد والرقائق.
والمُراد بـ «الغَنِيّ» : غَنِيُّ النَّفْسِ. كما سَبَقَ فى الحديث الصحيح.

(٣) سير أعلام النبلاء/ للذهبى (١/ ١٢٢).

والمسلم يعلم أنه إذا فاز بمحبة الله عَزَّوَجَلَّ فقد فاز بخيرى الدنيا والآخرة.. فقد قال ﷺ: **«إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّى أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِى فِى السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الْأَرْضِ»**(١).

وقال تعالى فى الحديث القدسى: **«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِى لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»**(٢)... كل هذا غير ما ينتظره فى الآخرة.

فمن أراد أن يفوز بكل هذا فليعلم أن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى.

۞ «التقى»: هو الذى يتقى الله فيقوم بكل أوامره ويجتنب كل نواهيه ويفعل كل هذا خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ ليجعل بينه وبين عذاب الله وقاية تقيه من سخطه وعذابه.

۞ «الغنى»: الذى امتلأ قلبه إيمانًا وتقوى ومحبة لله ولرسوله ﷺ فاستغنى بالله عَزَّوَجَلَّ عمَّن سواه.. فلا تراه يسأل الناس شيئًا بل هو مُستغنٍ بربه يستحيى أن يسأل غيره.. فمهما أُوتى الناس من كنوز الدنيا فكنزه فى قلبه بإيمانه وتقواه.. فقد علم أنه مهما أُوتى من حُطام الدنيا فسوف يتركه لا محالة فى يوم من الأيام.. فغِناه فى قلبه لا يحتاج لأحدٍ من أهل الدنيا لأنه لا يسأل إلا رب البشر (سبحانه وتعالى).

۞ «الخفى»: الذى يداوم على العمل ويُخفيه عن أعين الناس يريد بذلك وجه الله والدار الآخرة.. فأكثر عمله فى الخفاء لأنه لا يريد أن يُظهر نفسه بين

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

الناس أو أن يُشار إليه بالبنان.. لكن إن احتاج أن يظهر من أجل نشر دعوته بين الناس وتعليمهم فلا بأس بهذا ... ولكن عليه أن يجدد النية دائمًا ليكون عمله خالصًا لوجه الله (جل وعلا).

(٦٠٣) وعَنْ أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه قال: قال رَجُلٌ : أَيُّ النَّاسِ أفضَلُ يا رسولَ الله؟ قال: «مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفسِهِ وَمَالِهِ في سبيل الله» قال: ثم مَنْ ؟ قال: «ثم رَجُلٌ مُعتَزِلٌ في شِعبٍ مِن الشِّعَاب يَعبُدُ رَبَّهُ» .

وفي روايةٍ : «يتَّقي الله، ويَدَع النَّاسَ مِن شَرِّهِ»[١].

(٦٠٤) وعَنْه قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «يُوشِكَ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَال المُسْلِم غَنَمٌ يَتْبَعُ بهَا شَعَفَ الجِبَال. ومواقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ من الفِتنِ»[٢].

۞ ففي الحديث الأول يحكي أبو سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فسأله وقال: أي الناس أفضل يا رسول الله؟

وهكذا كانت همة الصحابة رضي الله عنهم لا يسألون إلا عن أحب الأعمال إلى الله وأفضل الأعمال وأفضل الناس حتى يكونوا مثلهم ويعملوا بمثل أعمالهم.. فهَمُّهم الوحيد هُوَ طاعة الله والعمل من أجل الفوز بجنته ورضوانه.

۞ فلما سأل النبي ﷺ عن أفضل الناس قال له النبي ﷺ: «مُؤْمِنٌ مجَاهِدٌ بِنَفسِهِ وَمَالِهِ في سبيل الله»...

فـ«الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَفْضَل مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٨٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨٨) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٩) كتاب الإيمان.

و«شَعَفَ الجِبَال»: أعلاَهَا.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١).

فهذا الرجل الذى هو من أفضل الناس مُختلطٌ بالناس ليجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله... ويجاهد المنافقين بيده ولسانه وقلبه.. ويختلط بالناس فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُعلمهم الخير.. فهذا أفضل ما يكون لأن نفعه يكون متعديًا لكل مَن حوله.

فالاختلاط بالناس ونفعهم أفضل من العُزلة .. إلا إذا كان يخشى على نفسه الفتنة فى دينه بسبب اختلاطه بالناس فله أن يعتزل وأن ينجو بدينه.

۞ ولذلك بَعدما سأل هذا الرجل رسول الله ﷺ: أى الناس أفضل وأجابه النبى ﷺ بأن أفضل الناس «**مُؤْمِنٌ مجَاهِدٌ بِنَفسِهِ وَمَالِهِ فى سبيل الله**» سأله الرجل وقال: ثم مَنْ ؟ فَقال لَهُ ﷺ: «**ثم رَجُلٌ مُعتَزِلٌ فى شِعبٍ مِن الشِّعَاب يَعبدُ رَبَّهُ**» .

فليس كل واحدٍ يستطيع أن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله.. فكأن الرجل يسأل النبى ﷺ: ومَن لم يقدر على ذلك فماذا يفعل.. فكان الجواب: يعتزل فى شِعبٍ من الشِّعاب يعبد ربه عَزَّوَجَلَّ.

والشِّعب هو الطريق بين الجبلين.. وكأن الدنيا قد ضاقت على هذا الإنسان من كثرة الفتن.. فكلما ذهب إلى مكانٍ وجد الفتن تموج فيه موجًا فذهب إلى ذلك الشِّعب ليعبد ربه. فقد أخبر النبى ﷺ أنه «**لا يَأْتِى زَمَانٌ إِلَّا الَّذِى بَعدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ دَلِيلٌ لِمَنْ قَالَ بِتَفْضِيلِ الْعُزْلَةِ عَلَى الِاخْتِلَاطِ وَفِى ذَلِكَ خِلَافٌ مَشْهُورٌ ... فَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الِاخْتِلَاطَ أَفْضَلُ بِشَرطِ رَجَاءِ السَّلَامَةِ مِنَ الْفِتَنِ ... وَمَذْهَبُ طَوَائِفَ أَنَّ الِاعتِزَالَ أَفْضَلَ ... وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ مَحمُولٌ عَلَى الِاعتِزَالِ فِى زَمَنِ الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ أَوْ هُوَ فِيمَنْ لَا يَسْلَمُ النَّاسُ مِنْهُ وَلَا يَصبرُ عَلَيْهِمْ أَوْ نَحو ذَلِكَ مِنَ الْخُصُوصِ ... وَقَد كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَجَمَاهِيرُ الصَّحَابَةِ

وَالتَّابِعِينَ وَالْعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ مُخْتَلِطِينَ فَيُحَصِّلُونَ مَنَافِعَ الِاخْتِلَاطِ كَشُهُودِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْجَنَائِزِ وَعِيَادَةِ الْمَرضَى وَحِلَقِ الذِّكْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ... وَأَمَّا الشِّعبُ فَهُوَ مَا انْفَرَجَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْسَ الشِّعبِ خُصُوصًا بَلِ الْمُرَادُ الِانْفِرَادُ وَالِاعتِزَالُ ... وَذَكَرَ الشِّعبَ مِثَالًا لِأَنَّهُ خَالٍ عَنِ النَّاسِ غَالِبًا ... وَهَذَا الْحَدِيثُ نَحو الْحَدِيثِ الْآخَرِ حِينَ سُئِلَ ﷺ عَنِ النَّجَاةِ فَقَالَ أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسعك بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ[1].

۞ فهذا الرجل الذى اعتزل الناس فى شِعبٍ من الشِّعاب يعبد ربه خوفًا على نفسه من الفتنة فى دينه كيف سيعيش؟ يخبر النبى ﷺ فى الحديث الثانى ويقول: «**يُوشِكَ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَال المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بهَا شَعَفَ الجِبَال. ومواقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ من الفِتنِ**» يكون معه غنم فى ذلك الشِّعب؛ من أجل ألا يحتاج إلى أحدٍ من الناس، فهو يلبس من صوفها، ويأكل مما يستخرجه منها، ويشرب من ألبانها ... فزهد هذا فى الدنيا لأنه يخاف على نفسه من الفتن، فإذا به يعتزلها إلى أن يصل به الحال إلى هذه الصفة.

وليس ذلك مطلوبًا من الناس كلهم، ولكن إذا ضاقت على المؤمن الدنيا فوجد الملجأ فى البُعد عن الناس فله ذلك، وكل إنسان يبتعد بحسب ما يقدر عليه.

فهذا هو التقسيم..تكون العزلة هى الخير إن كان فى الاختلاط شَرٌّ وفتنة فى الدين، وإلا فالأصل أن الاختلاط هو الخير... يختلط الإنسان مع الناس فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعوهم إلى الحق، ويُبيِّن السُّنة للناس، فهذا هو عين الخير.

لكن إذا عجز عن الصبر وكثرت الفتن، فالعزلة خير ولو أن يعبد الله على رأس جبل أو فى قعر وادٍ.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٥٠-٥١).

(٦٠٥) وعَنْ أبى هُريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن النَّبىِّ ﷺ قال: «ما بَعَثَ الله نَبِيًّا إلاَّ رَعَى الْغَنَمَ» فَقَال أصحابُه: وَأَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، كُنْت أَرعَاهَا عَلى قَرارِيطَ لأهْلِ مَكَّةَ»[1].

۞ وكأن المصنف رَحِمَهُاللَّهُ بعد أن أورد الحديث السابق «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَال الْمُسْلِم غَنَمٌ يَتْبَعُ بهَا شَعَفَ الجِبَال. ومَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ من الفِتنِ» كأن هناك مَن يأنف من ذلك ويقول: وهل من الممكن أن تكثر الفتن حتى أضطر إلى أن أرعى الغنم؟!

فأورد المصنف الحديث الذى بعده ليخبره بأن سيد ولد آدم ﷺ كان يرعى الغنم.. وليس هو وحده فقط بل كل الأنبياء عملوا برعى الغنم.. وكان النبى ﷺ يرعاها لأهل مكة على قراريط.. والقراريط كانت عُملة ضئيلة القيمة يتداولها أهل مكة فى ذلك الزمان.

ورعى موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ الغنم عشر سنين وكان ذلك مهرًا لابنة الرجل الصالح من أهل مَدْيَن ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: ٢٧].

۞ وفى رعى الغنم ما فيه من تهيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لنبيِّه لتلقِّى الرسالة والقيام بأمر الدعوة... ويورد الحافظ ابن حجر فى شرحه للحديث خلاصة أقوال العلماء فى ذلك فيقول: «الحكمة فى إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرُّن برعيها على ما يكفلونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن فى مخالطتها ما يُحصِّل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجَمْعِها بعد تفرُّقها فى المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبعٍ وغيره، كالسارق ...وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرُّقها، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، أَلِفوا من

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢) كتاب الإجارة.

ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها ... فيكون تَحمُّلهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلِّفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعى الغنم ... وخُصَّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرُّقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهى أسرع انقيادًا من غيرها»[1][2].

۞ رعي الغنم يتيح لصاحبه عدة خصال تربوية .. منها

(١) **الصبر**: على الرعى من طلوع الشمس إلى غروبها، نظرًا لبُطء الغنم فى الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر والتحمُّل ... وكذا تربية البشر.

إن الراعى لا يعيش فى قصرٍ مَنيف ولا فى ترفٍ وسَرَف، وإنما يعيش فى جوٍّ حار شديد الحرارة، وبخاصة فى الجزيرة العربية، ويحتاج إلى الماء الغزير ليُذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة فى الطعام وشظف العيش، فينبغى أن يَحمل نفسه على تحمُّل هذه الظروف القاسية، ويألفها ويصبر عليها.

(٢) **التواضع**: إذ طبيعة عمل الراعى خدمة الغنم، والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها والنوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها أو شىء من روثها فلم يتضجر من هذا...ومع المداومة والاستمرار يُبعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز فى نفسه خُلق التواضع ... وقد ورد فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَدخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»[3].

(١) فتح البارى (٤/ ٥١٦).

(٢) نضرة النعيم (١/ ١٩٦، ١٩٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٣) **الشجاعة:** فطبيعة عمل الراعى الاصطدام بالوحوش المفترسة... فلا بُد أن يكون على جانبٍ كبير من الشجاعة تؤهله للقضاء على الوحوش ومنعها من افتراس أغنامه[١].

(٤) **الرحمة والعطف:** إن الراعى يقوم بمقتضى عمله فى مساعدة الغنم إن هى مرضت أو كُسرت أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها وعلاجها والتخفيف من آلامها ...فمن يرحم الحيوان يكون أشد رحمة بالإنسان، وبخاصة إذا كان رسولًا أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان، وإرشاده وإنقاذه من النار وإسعاده فى الدارين[٢].

(٥) **حُبُّ الكسب من عرق الجبين:** إن الله قادر على أن يُغنى محمدًا ﷺ عن رعى الغنم، ولكن هذه تربية له ولأمته للأكل من كسب اليد وعرق الجبين، ورعى الغنم نوع من أنواع الكسب باليد.

إن صاحب الدَّعوة يجب أن يستغنى عما فى أيدى النَّاس، ولا يعتمد عليهم، فبذلك تبقى قيمته، وترتفع منزلته، ويبتعد عن الشُّبَه والتشكيك.

(٦٠٦) وعَنْ أبى هُريرة رضي الله عنه عَنْ رسولِ الله ﷺ أنه قال: «مِنْ خَير مَعَاشِ النَّاسِ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرسه فى سَبِيلِ الله، يَطيرُ عَلى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً، طارَ عَلَيْه يَبْتَغِى الْقَتلَ، أَو المَوْتَ مظانَّه، أَوْ رجُلٌ فى غُنَيْمَةٍ فى رَأْسِ شَعَفَةٍ مِن هَذِهِ الشَّعَفِ، أوْ بَطنِ وادٍ مِن هَذِهِ الأَوْدِيَةِ، يُقِيم الصَّلاةَ ويُؤتى الزَّكاةَ، ويَعبُد رَبَّهُ حتَّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ ليَسَ مِنَ النَّاسِ إلاَّ فى خَيْرٍ»[٣].

(١) انظر السيرة النبوية لأبى فارس (ص١١٤، ١١٥).

(٢) انظر: مدخل لفهم السيرة (ص١٢٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٩) كتاب الإمارة.

«يَطِيرُ» أى يُسرع. «ومَتْنُهُ»: ظَهْرُهُ. «وَالهَيْعَةُ»: الصوتُ للحربِ. «وَالفَزْعَةُ»: نحوهُ. وَ«مَظانُّ الشَّىءِ»: المواضع التى يُظَنُّ وجودُه فيها - «والغُنَيْمَةُ» تصغيرالغنم - «الشَّعفَةُ»: هى أَعلى الجبَل.

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ دون أن يسأله أحد عن خير معاش الناس .. وذلك لأنه ﷺ يحب الخير لأمته ولذا فإنه ما ترك خيرًا إلا وقد دلَّنا عليه وما ترك شرًّا إلا وقد حذرنا منه.

فيخبر النبى ﷺ فى هذا الحديث أنه من خير معاش الناس.. أى: من خير أحوال عيشهم «**رَجُلٌ مُمْسِكٌ عنانَ فَرسه فى سَبِيلِ الله، يَطيرُ عَلى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً، طارَ عَلَيْه يَبْتَغِى الْقَتلَ، أَو المَوْتَ مظانَّه**».

فهذا الرجل خير الناس حياة وهو من خير المسلمين وأفضلهم وأحبهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ... فهو من أنفع الناس للناس ومن أنفع المسلمين للمسلمين ... إنه رجلٌ مرابطٌ على أهبة الاستعداد فى أى لحظة.. فإذا سمع صوت الحرب ونداء الجهاد فى أى لحظة فإنه يركب على ظهر فرسه ويطير على متنه إلى ذلك المكان ليَكُفَّ شرَّ هذا العدو عن الناس.. فهو يُضحى بنفسه من أجل أن يحيا المسلمون فى أمانٍ حتى لو قُتل.. فهو يبحث عن الشهادة فى مواطنها التى تُرجى فيها لشدة رغبته فى الشهادة.

۞ ثم ذكر النبى ﷺ الرجل الذى بعده فقال ﷺ: « **أَوْ رجُلٌ فى غُنَيْمَةٍ فى رَأْسِ شَعَفَةٍ مِن هَذِهِ الشَّعَفِ، أوْ بَطنِ وادٍ مِن هَـذِهِ الأَوْدِيَةِ، يُقِيم الصَّلاةَ ويُؤتى الزَّكاةَ، ويَعبُد رَبَّهُ حتَّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ ليَسَ مِنَ النَّاسِ إلاَّ فى خَيْرٍ**» فهذا الرجل قد اعتزل الناس خوفًا على نفسه من الفتن وعاش فى أعلى الجبل أو فى بطن وادٍ من الوديان ومعه غُنيمة وهى تصغير الغنم ... فمعه غنم قليل جدًّا.. ولو كان يريد الدنيا والتجارة لكان معه قطيعٌ من الأغنام.. فهذا الرجل زاهد فى الدنيا لا يريد منها أى شيءٍ سوى أن يعيش تلك الحياة البسيطة فيشرب من ألبان الغنم ويلبس من أصوافها ويأكل من لحومها ويعبد الله فى ذلك المكان فيقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إن كان ما عنده قد بلغ النِّصاب ... ويظل يعبد ربه حتى يأتيه اليقين -وهو

الموت- فهذا الرجل ليس من الناس إلا فى خير ....

والنبى ﷺ لما فتح الله عَزَّوَجَلَّ عليه الفتوح وأصبح يملك مائة غنمة قال: (لا أحب أن تزيد) أى: لا أريد أكثر من ذلك.

وقد كان نصيبه ﷺ فى المغانم خُمس الخُمس، وكان له من الفيء الخُمس، ومع ذلك ما كان عنده أكثر من مائة غنمة، فكان إذا ولدت واحدةٌ منها ذبح واحدة مكان هذه المولودة حتى لا تزيد.

وكأنه يُعلم المؤمنين ألا يطمعوا، بل يأخذون من الدنيا على قدر حاجتهم، فإذا كان عندك مائة غنمة فلا تتمنَّ أن تكون ألفًا وإنما تطلب الحاجة التى تحتاجها فقط.

فهذا الرجل قد اكتفى بتلك الغُنيمات وعاش فى أعلى الجبل أو بطن الوادى يعبد ربه ويقيم الصلاة.. لا يصليها فحسب بل يُقيمها ويُحسن صلاته ويواظب عليها.. ويؤتى الزكاة.. وقد يسأل سائلٌ ويقول: إذا كان هذا الرجل مُعتزلًا فلمن سيعطى الزكاة؟

والجواب: أنه لا يعتزل كل الناس بل سيعتزل أهل الشر والفساد وسيكون وسط أُناس مُحتاجين فيعطى زكاته لهؤلاء الناس.

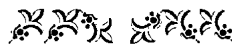
۞ ونلاحظ هنا أن النبى ﷺ قدَّم الرجل المجاهد الذى ينفع المسلمين على الرجل الذى اعتزل الناس.. لأن الأصل كما قلنا أن المؤمن الذى يخالط الناس وينفعهم ويُعلمهم ويدعوهم ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم بل يعتزلهم .. لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد يهدى على يديك رجلًا «ولأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم».. لكن إن خشيت على نفسك أن تُفتن فى دينك فالعُزلة أفضل.



(٧٠) باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جُمَعِهم وجماعاتهم، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر معهم وعيادة مريضهم، وحضور جنائزهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم لمن قدر عَلَى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر عَلَى الأذى

۞ اعلم أن الاختِلاط بالنَّاس على الوَجْهِ الذى ذَكَرْتُهُ هو المختار الذى كان عليه رسول الله ﷺ وسائِرُ الأَنبياءِ صلواتُ الله وسلامُه عليهم، وكذلك الخُلفاءُ الرَّاشدونَ، وَمَنْ بعدهُم من الصَّحَابةِ والتَّابعينَ، ومَنْ بَعدَهُم من عُلَمَاءِ المسلمينَ وأَخْيارِهم، وهو مَذْهَبُ أَكْثَرِ التَّابعينَ ومَنْ بعدَهُم، وَبِهِ قَالَ الشَّافعيُّ وأَحمَدُ، وأكثَرُ الفُقَهاءِ رضي الله عنهم أجمعين.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، والآيات فى معنى ما ذكرته كثيرة معلومة[١].



(١) رياض الصالحين/ للإمام النووى رحمه الله (ص٢١٢).

(٧١) باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين

۞ إن نعمة التواضع من أجلِّ وأعظم النعم التي يمتن الله بها على عباده... ولقد كان نصيب النبي ﷺ من هذا الخُلق هو النصيب الأعظم... فلقد كان الحبيب ﷺ سيد المتواضعين حتى إنه لما أراد أن يخبر الأمة عن قدره ومكانته عند الله عَزَّوَجَلَّ قال بعدها: «**ولا فخر**» وهذا مِن فَرطِ تواضعه ﷺ حتى لا يظن أحدٌ أن النبي ﷺ يقول ذلك تفاخُرًا ... قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخْرَ**»(١).

۞ **التواضع**: ضد التعالي يعني ألا يرتفع الإنسان ولا يترفع على غيره، بعلمٍ ولا نسبٍ ولا مالٍ ولا جاهٍ ولا إمارة ولا وزارة ولا غير ذلك؛ بل الواجب على المرء أن يخفض جناحه للمؤمنين، وأن يتواضع لهم كما كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة عند الله؛ رسول الله ﷺ يتواضع للمؤمنين، حتى إن الصَّبيَّة لتُمسك بيده لتأخذه إلى أي مكانٍ تريد فيقضي حاجتها (عليه الصلاة والسلام).

والتواضع: صفة من صفات عباد الرحمن، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

۞ **قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي يرحمه الله:**

«ذكر أنَّ صفاتهم أكمل الصفات، ونُعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق.

فهذا وصفٌ لهم بالوقار والسَّكينة، والتواضع لله ولعباده»(٢).

---

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٨) وأصله في الصحيحين.

(٢) «تفسير السعدي» (ص ٥٨٦).

ووصف الله عباده الذين هداهم للإيمان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن الحاج يرحمه الله: «مَن أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى؛ فإن العِزة لا تقع إلا بقدر النزول... ألا ترى أن الماء لما نزل إلى أصل الشجرة، صعد إلى أعلاها،... فكأن سائلًا سأله: ما صعد بك هنا أعنى فى رأس الشجرة، وأنت تحت أصلها؟!، فكأن لسان حاله يقول. مَن تواضع لله رفعه الله»(١).

❊ قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

أى: تواضع .. وذلك أن المتعالى والمترفع يرى نفسه أنه كالطير يَسْبَح فى جو السماء فأُمر أن يخفض جناحه ويُنزله للمُؤمنين الذين اتبعوا النبى ﷺ. ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلين جانبك، ولُطف خطابك لهم، وتودُّدك، وتحبُّبك إليهم، وحُسن خُلقك والإحسان التام بهم.

وقد فعل ﷺ، ذلك كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]... فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التى يَحصُل بها من المصالح العظيمة، ودفع المضار، ما هو مُشاهَد ... فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، يدَّعى اتِّباعه والاقتداء به، أن يكون كَلًّا على المسلمين، شَرِسَ الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظَّ القول(٢).

---

(١) «المدخل» لابن الحاج (٢/ ١٢٢).

(٢) تفسير السعدى (ص ٧٠١).

۞ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

يخبر تعالى أنه الغنى عن العالمين، وأن مَنْ يرتد عن دينه، فلن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه. وأن لله عبادًا مخلصين، ورجالًا صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافًا، وأقواهم نفوسًا، وأحسنهم أخلاقًا .. أجلُّ صفاتهم أن الله ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾.

فإن محبة الله للعبد، هى أجلُّ نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضَّل الله بها عليه. وإذا أحب الله عبدًا، يسَّر له الأسباب، وهَوَّن عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه، بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه: أنه لابد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، فى أقواله وأعماله وجميع أحواله ... كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

كما أن من لوازم محبة العبد لله عَزَّوَجَلَّ أن يُكثر العبد من التقرُّب إلى الله، بالفرائض والنوافل ليفوز بمحبة الله عَزَّوَجَلَّ ... كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح عن الله: **«وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يُبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأُعطينَّه ولئن استعاذنى لأُعيذنَّه»** (١).

ومن لوازم محبة الله: معرفته تعالى والإكثار من ذكره؛ فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جدًّا، بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

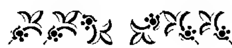
ومَنْ أحب الله أكثر من ذكره. وإذا أحب الله عبدًا، قَبِلَ منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. فهم للمؤمنين أذلة، من محبتهم لهم، ونُصحهم لهم، ولينهم، ورفقهم، ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يُطلب منهم.

وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله - أَعِزَّة قد اجتمعت هممهم وعزائمهم، على مُعاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم ... قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ فالغلظة الشديدة على أعداء الله، مما يُقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم.

ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة من دعوتهم، إلى الدين الإسلامي، بالتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم[1].



❁ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

يخاطب الله عَزَّوَجَلَّ الناس كلهم مُبينًا أنه خلقهم من ذكر وأنثى، أي من هذا الجنس أو من هذا الشخص.

يعني إما أن يكون المراد بالذكر والأنثى آدم وحواء.

أو أن المراد الجنس أي أن بني آدم خُلقوا كلهم من ذكرٍ وأنثى.

---

(١) تفسير السعدي (ص٢٤٨) بتصرف.

وهذا هو الغالب، وهو الأكثر.

وإلا فإن الله خلق آدم من غير أم ولا أب ... خلقه من تراب، من طين، من صلصال كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه .. خلق له روحًا فنفخها فيه فصار بشرًا سويًّا.

وخلق الله حواء من أب بلا أم.

وخلق الله عيسى من أم بلا أب.

وخلق الله سائر البشر من أم وأب.

والإنسان أيضًا كما أنه أربعة أنواع من جهة مادة خلقه، كذلك هو أربعة أنواع من جهة جنس الخلق... يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

۞ هذه أيضًا أربعة أقسام:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ بلا ذكور... يعني يوجد بعض الناس يُولد له الإناث ولا يولد له ذكور أبدًا.. كل نسله إناث.

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فيكون كل نسله ذكورًا بلا إناث.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾ يزوجهم أي يصنفهم..لأن الزوج يعني الصنف.. كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾[ص: ٥٨]. أي أصناف، وقال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم وأشكالهم، يزوجهم أي يصنفهم ذكرانًا وإناثًا، هذه ثلاثة أقسام.

القسم الرابع: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾[الشورى: ٥٠]. لا يولد له لا ذكر ولا أنثى، لأن الله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء، لا مُعقب لحُكمه وهو السميع العليم.

۞ يقول (جل وعلا): ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾، الشعوب: الطوائف الكبيرة كالعرب والعجم وما أشبه ذلك ... والقبائل: ما دون ذلك، جمع قبيلة، فالناس بنو آدم شعوب وقبائل.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾: هذه هى الحكمة من أن الله جعلنا شعوبًا وقبائل من أجل أن يعرف بعضنا بعضًا... هذا عربى، وهذا عجمى، هذا من بنى تميم، هذا من قريش، هذا من خزاعة، وهكذا.

فالله جعل هذه القبائل من أجل أن يعرف بعضنا بعضًا، لا من أجل أن يفخر بعضنا على بعض... فيقول: أنا عربى وأنت عجمى، أنا قبيلى وأنت خضيرى، أنا غنى وأنت فقير... هذا من دعوى الجاهلية والعياذ بالله، لم يجعل الله هؤلاء الأصناف إلا من أجل التعارف فقط، لا من أجل التفاخر، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللهَ قَد أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلاَنِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ**»(١).

فالفضل فى الإسلام بالتقوى...أكرمنا عند الله هو الأتقى لله عَزَّوَجَلَّ، **فمن كان أتقى لله فهو عند الله أكرم.**

ولكن يجب أن نعلم أن بعض القبائل أو بعض الشعوب **أفضل من بعض...** فالشعب الذى بُعث فيه الرسول (عليه الصلاة والسلام) **هو أفضل الشعوب...** شعب العرب أفضل الشعوب لأن الله قال فى كتابه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤].

وقال النبى ﷺ: «الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»(٢).

---

(١) حسن: رواه الترمذى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٨) كتاب الفضائل.

ولا يعنى هذا إهدار الجنس البشرى بالكلية. لا. لكن التفاخر هو الممنوع، أما التفاضُل فإن الله يُفضل بعض الأجناس على بعض، فالعرب أفضل من غيرهم... جنس العرب أفضل من جنس العجم، لكن إذا كان العربى غير متقٍ والعجمى متقيًا، فالعجمى عند الله أكرم من العربى[1].

❊ ❊ ❊

❁ وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: ٣٢].

أى: لا تصفوها بالزكاة افتخارًا... وأما التحدُّث بنعمة الله على العبد مثل أن يقول القائل أنه كان مسرفًا على نفسه، وكان منحرفًا فهداه الله ووفقه ولزم الاستقامة، تحدُّثًا بنعمة الله لا تزكية لنفسه؛ فإن هذا لا بأس به ولا حرج فيه أن يذكر الإنسان نعمة الله عليه فى الهداية والتوفيق، كما أنه لا حرج أن يذكر نعمة الله عليه بالغِنى بعد الفقر.

وقوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ هو أى الرب عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، وكم من شخصين يقومان بعمل أو يدعان عملًا وبينهما فى التُّقى مثل ما بين السماء والأرض، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، تجد الشخصين يصليان كل واحدٍ بجوارِ الآخر، لكن بين ما فى قلبيهما من التقوى مثل ما بين السماء والأرض... شخصان يتجنبان الفاحشة لكن بينهما من التقوى مثل ما بين السماء والأرض، ولهذا قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم:٣٢]

❊ ❊ ❊

❁ وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف: ٤٨-٤٩].

---

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين (٢/ ٢٧٨-٢٨٠) بتصرف.

أصحاب الأعراف: قومٌ تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا يدخلون الجنة ولا يدخلون النار... يُحشر أهل النار إلى النار، ويُساق المتقون إلى الرحمن وفدًا، إلى الجنة زُمرًا... فيدخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، وأصحاب الأعراف فى مكانٍ مرتفع.

فالأعراف: جمع عرف وهو المكان المرتفع، لكن ليسوا فى الجنة وليسوا فى النار، وهم يطلعون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء، وفى النهاية يدخلون الجنة، لأنه ليس هناك إلا جنة أو نار، هما الباقيتان أبدًا، وأما ما سواهما فيزول.

فيقول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أى يعرفونهم بعلامتهم معرفة تامة، ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعنى ما أغنى عنكم جَمعُكم المال والأولاد والأهل، ما أغنى عنكم هؤلاء، وما أغنى عنكم جمعكم من الناس الذين هم جنودكم، تجمعونهم إليكم وتستنصرون بهم، ما أغنوا عنكم شيئًا، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعنى وما أغنى عنكم استكباركم على الحق.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ يعنى الضعفاء... وكان الملأ المكذبون للرسل يَسخرون من المؤمنين ويقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]. يقولون: أهؤلاء أصحاب الرحمة؟ أهؤلاء أهل الجنة؟ يسخرون منهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣١].

فيقولون لهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾.

يعنى قد قيل لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

إذًا ... تواضعهم للحق واتباعهم الرسل هو الذى بلغهم هذه المنازل العالية... أما هؤلاء المستكبرون الذين فخروا بما أغناهم الله به من الجمع

والمال؛ فإن ذلك لم يُغنِ عنهم شيئًا؛ فدلَّ ذلك على فضل التواضع للحق[1].

(٦٠٧) وعَنْ عِيَاضِ بنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أَوحَى إِلَيَّ أَنْ تَواضَعُوا حتى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلى أَحدٍ، ولا يَبغِيَ أَحَدٌ على أَحَدٍ»[2].

۞ «إن الله أَوحَى إِلَيَّ أَنْ تَواضَعُوا» قد يسأل سائل ويقول: لماذا قال النبى ﷺ فى هذا الحديث: «إن الله أَوحَى إِلَيَّ» مع أن كل أقوال وأفعال النبى ﷺ لا تصدر إلا عن وحيٍ من الله عَزَّ وَجَلَّ ... فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤].

والجواب: وكأن النبى ﷺ يوجه عناية الأمة بأن الوحى قد نزل عليه فى هذه المرة يوصيه مرة بعد مرة ويؤكد عليه أن يكرر وصيته للأمة بأن يتواضع بعضهم لبعض ولا يظلم أحدهم أخاهُ حتى تتآلف القلوب وتصبح الأمة قوية متماسكة.

۞ نزل الوحى على النبى ﷺ يوصيه بأن يأمرنا بالتواضع فيما بيننا فلا يترفع أحدٌ على أحدٍ بل يجعله مثله أو أكثر.. لأن الإنسان الذى يتواضع يرفعه الله عَزَّ وَجَلَّ ويُعزه فى الدنيا والآخرة.

فلا بد أن يتواضع المسلم لإخوانه المسلمين فلا يفخر عليهم ويتباهى بمكارمه ومناقبه وحسبه ونسبه.. بل ينبغى ألا يرى لنفسه فضلًا على أحد.

وكان من عادة السلف- رحمهم الله- أن الإنسان منهم يجعل مَنْ هو أصغر منه مثل ابنه، ومَنْ هو أكبر منه مثل أبيه، ومَنْ هو مثله مثل أخيه، فينظر إلى مَنْ هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى مَنْ هو دونه نظرة إشفاقٍ ورحمة، وإلى مَن هو مثله نظرة مساواة... فلا يبغى أحدٌ على أحدٍ، وهذا من الأمور التى يجب

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٠-٢٨١) بتصرف.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

على الإنسان أن يتصف بها...أي بالتواضع لله عَزَّوَجَلَّ ولإخوانه من المسلمين.

فمَن تواضع لإخوانه مُحالٌ أن يفخر عليهم بشيءٍ من حُطام الدنيا الفانية.. ومُحالٌ أن يبغي على أحدهم أو يظلمه أو يتعدى عليه.. وأما من تكبَّر فسَوْف يفخر على إخوانه ويبغي عليهم.. جعلني الله وإياكم من المتواضعين.

(٦٠٨) وعَنْ أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصَتْ صَدقَةٌ من مالٍ، وما زاد الله عَبدًا بِعَفوٍ إلاَّ عِزًّا، وما تَوَاضَعَ أحَدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ الله»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٦١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٦٠٩) وعن أنس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: أنَّهُ مَرَّ عَلَى صبيَانٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وقال: كَانَ النبيُّ ﷺ يفعله[2].

۞ ففي هذا الحديث يحكي أنس بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنْهُ خادم النبي ﷺ أنه مَرَّ على صبيانٍ صغار فسلَّم عليهم وقال: كَانَ النبيُّ ﷺ يفعله .. أي: كان النبي ﷺ إذا مرَّ على صبيانٍ صغار يُسَلِّم عليهم ... وهذا يوضح أن النبي ﷺ لم يفعل ذلك مرة واحدة وإلا لقال أنس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: فعله النبي ﷺ ذات مرة.. وإنما قال: كان النبي ﷺ يفعله .. أي: يفعله دائمًا ... وهذا من شدة تواضع النبي ﷺ.

۞ وحياة النبي ﷺ حافلة مع الأطفال بألوان العطف عليهم... فكان لهم من وقته نصيب، فكان يمازحهم، ويُلاعبهم، ويُقبلهم، ويُعلم الناس أن يسلكوا هذا الطريق اللطيف في معاملة الأطفال.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٤٧) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٦٨) كتاب السلام.

۞ روى البخارى فى «الأدب المفرد» عن أمنا عائشة ابنة الصديق -رضوان الله عليهما- أنها قالت: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: أتُقبِّلون صبيانكم؟فما نُقبِّلهم! فقال النبى ﷺ: «أَوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»(١).

۞ وهذا أسلوبٌ لطيف فيه توجيهٌ إلى رحمة الأطفال والعطف عليهم، ورعايتهم وحسن معاملتهم، وملاطفتهم، وإكرامهم ولو بالسلام عليهم.

فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعثنى النبى ﷺ فى حاجة فرأيت صبيانًا فقعدت معهم، فجاء النبى ﷺ فسلَّم على الصبيان(٢).

۞ وكان الحبيب الأعظم محمد ﷺ يعامل الأطفال بالرفق واللين.

۞ وكان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يتمثلون بأخلاق النبى ﷺ فى هذا الميدان الرحب الجميل، وربما وقع من أحدهم شدة على الأطفال، أو على الغلمان الذين يملكونهم، فيعتقه لوجه الله طلبًا لمرضاة الله ومرضاة رسوله ﷺ.

۞ تروى أسماء بنت عميس رضي الله عنها طرفًا من رعاية النبى ﷺ لأبناء الشهداء، وذلك عقب استشهاد زوجها جعفر رضي الله عنه فقالت: دخل علىَّ رسول الله ﷺ، فدعا بنى جعفر، فرأيته شَمَّهم، وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شىء؟! قال: «نعم قُتِل اليوم».

فقمنا نبكى، ورجع فقال: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا فإنه قد أتاهم ما يشغلهم»(٣).

۞ ولم تتوقف الرعاية النبوية عند هذا الحد بل أخبر أسماء بنت عُميس عندما بكت وذكرت يُتم أطفالها فقال: «العَيْلَة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا

---

(١) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد (٩٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد (٦٧).

(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٣٨٢).

(٣) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠١٥).

والآخرة»[١]؟!.

۞ كما أن الحبيب المصطفى ﷺ كان يُعلّم الناس ألوان التربية للطفل، وغرس الأُلفة والمودة فى قلبه... فقد كان ﷺ يزور الأنصار، فيُسلِّم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم ويدعو لهم[٢].

۞ وتبلغ التربية النبوية الذروة فى عيادة الأطفال، والسؤال عن أحوالهم، فإن ذلك يغرس فى نفوسهم كريم العادات، ولطيف المودات، ناهيك بأن ذلك يُشعره بمكانته واهتمام مَن حوله به، فينسى آلامه، وتكبُر آماله، وتُثمر الزيارة وتُؤتى أُكُلها فورًا... وهذا ما ربَّى النبى ﷺ عليه أصحابه، وكان قدوة لهم بذلك.

۞ روى أنس بن مالك رضي الله عنه قصة ذلك فقال: كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ، فمرض فأتاه النبى ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلِم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: أَطِع أبا القاسم، فأسلم فخرج النبى ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذى أنقذه من النار**»[٣] [٤].

۞ هكذا كان النبى ﷺ يُسلِّم على الصبيان ويُعاملهم أفضل معاملة ليتألف قلوبهم وليكونوا بذرة طيبة تحمل الراية عندما تكبر وتصبح ثمرة طيبة.

وإذا كان هذا يقع من النبى ﷺ مع الصبيان، فإننا نأسف لقوم يمرون بالكبار البالغين ولا يُسلمون عليهم - والعياذ بالله -...قد لا يكون ذلك هجرًا أو كراهة، لكن عدم مبالاة، وعدم اتباع للسُّنة، وجهل، وغفلة... وهم وإن كانوا غير آثمين لأنهم لم يتخذوا ذلك هجرًا، لكنهم قد فاتهم خيرٌ كثير.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى أحكام الجنائز (١١١).

(٢) **صحيح**: رواه النسائى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٩٤٧).

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (١٣٥٦) كتاب الجنائز.

(٤) بتصرف من كتاب (الطفل فى ضوء القرآن والسنة)/ د. أحمد خليل جمعة.

فالسُّنة أن تُسلم على كل مَن لقيت، وأن تبدأه بالسلام، ولو كان أصغر منك، لأن النبي ﷺ كان يبدأ مَن لقيه بالسلام، وهو (عليه الصلاة والسلام) أكبر الناس قدرًا، ومع ذلك كان يبدأ مَن لقيه بالسلام.

وأنت إذا بدأت مَن لقيته بالسلام حصلت على خيرٍ كثير... منه اتباع الرسول ﷺ ومنه أنك تكون سببًا لنشر هذه السُّنة التي ماتت عند كثيرٍ من الناس... ومعلوم أن إحياء السنن يُؤجَر الإنسان عليه مرتين: مرة على فعل السُّنة، ومرة على إحياء السُّنة... ومنه أنك تكون السبب في إجابة هذا الرجل وإجابته فرض كفاية، فتكون سببًا في إيجاد فرض الكفاية من هذا الرجل.

ولهذا كان ابتداء السلام أفضل من الردِّ، وإن كان الرد فرضًا وهذا سُنة، لكن لما كان الفرض ينبني على هذه السُّنة، كانت السُّنة أفضل من هذا الفرض، لأنه مبنيٌّ عليها.

وهذه من المسائل التي ألغز بها بعض العلماء وقال: عندنا سُنة أفضل من الفريضة!! ... لأنه من المتفق عليه أن الفرض أفضل.... مثلًا: صلاة الفجر ركعتان أفضل من راتبتها ركعتين، لأنها فرض والراتبة سُنة، لكن ابتداء السلام سُنة، ومع ذلك صار أفضل من رَدِّه، لأن رَدَّه مبنيٌّ عليه.

فالمهم أنه ينبغي لنا إحياء هذه السُّنة..

أعني إفشاء السلام، وهو من أسباب المحبة، ومن كمال الإيمان، ومن أسباب دخول الجنة.

قال النبي ﷺ: **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أَوَ لا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**[1][2].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٤).

(٦١٠) وعن أنس رضي الله عنه قال: إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِن إِمَاءِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ النبيِّ ﷺ، فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيثُ شَاءَتْ(١).

۞ فى الحَقيقة أننى عندما أقرأ هذا الحديث أتعجب غاية التعجُّب ... رسول الله ﷺ وقائد الأمة كلها تأتى إليه أَمة من إماء المدينة -أى: جارية وليست امرأة حُرة ذات مكانة- فتأخذ بيد النبى ﷺ ولا يعاتبها أو يسألها: ماذا تصنعين؟ وإلى أين تذهبين؟ ألا تعلمين مَن أنا؟ .. بل يذهب معها بكل تواضع لا يخطر على قلب بشر.. ولا يعلم هل المكان بعيدٌ أم قريب.. المهم أنه لا يتركها حتى يقضى حاجتها بنفسه مع أنها من الممكن أن تُقضى عن طريق أحد أصحابه .. لكن النبى ﷺ يذهب معها ويقضى حاجتها بنفسه وهو المسئول ﷺ عن دعوة الإنس والجن وعنده تسع زوجات وعنده مسئوليات تنوء بحملها الجبال.. ومع كل هذا يذهب معها ليقضى حاجتها.. صلوات ربى وسلامه عليك يا سيد ولد آدم ﷺ.



(٦١١) وعَنْ الأَسود بنِ يَزِيدَ قال: سُئِلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: ما كانَ النبى ﷺ يَصنعُ فى بَيْتِهِ؟ قالت: كان يَكُون فى مِهْنَةِ أَهْلِهِ - يَعنى: خِدمَةِ أَهْلِهِ - فإِذا حَضَرَتِ الصَّلاةُ، خَرَجَ إِلى الصَّلاةِ(٢).

۞ إن الرجولة ليس معناها أن يتعالى الزوج على زوجته ويغلظ عليها فى القول من أجل أن تشعر بقوته وجبروته فترتعد فرائصها عندما تراه لتُرضى غروره .... ولكن الرجولة الحقيقة أن يستطيع الزوج أن يغمر زوجته بحنانه ومحبته ورحمته، وفى الوقت ذاته يجعل قلبها متعلقًا بالله (جل وعلا).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٧٢) كتاب الأدب.
(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٧٦) كتاب الأذان.

ولقد كان أعظم الرجال محمد ﷺ لا يستنكف أبدًا - وهو الذى يحمل أعباء الأمة المسلمة بأسرها - أن يساعد زوجته فى عمل البيت - بأبى هو وأمى ﷺ -[(١)].

❁ **ومن المعاشرة بالمعروف**: أن يشاركها فى خدمة البيت إن وجد فراغًا:

ففى هذا الحديث تخبر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبى: كان ﷺ يكون فى مهنة أهله - يعنى خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة.

وعنها رضي الله عنها قالت: كان بَشَرًا من البشر: يَفْلِى ثوبه، ويَحلبُ شاته، ويخدِم نفسه[(٢)].

وبالجملة فكل أمر يُتصور فى الدين والعُرف أنه حَسَن فهو من المعاشرة بالمعروف التى أمر الله بها... قال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى**»[(٣)].

فإن كان بعض الأزواج يظن أن مساعدة الزوجة تُنقص من قدره .. أقول له: هل أنت أفضل من رسول الله ﷺ الذى رزقه الله البركة فى العمر والوقت والصحة ..؟! سيد ولد آدم ﷺ كان عونًا لأهله فى عمل البيت ليكون بذلك مثلاً وقدوة عظيمة لكل زوج يأتى فى هذه الحياة الدنيا لينظر إلى الأسوة والقدوة فيتأسى بأقواله وأفعاله ﷺ.

فيا أخى الكريم: ما الذى يضرك إذا وجدت زوجتك مريضة أو مُتعَبة من أعباء المنزل... أن تقوم أنت وتُعِد الطعام أو تساعدها فى أى عمل من أعمال البيت...ولا تظن أننى أطلب منك المُداومة على ذلك، فهذا شىء لا يستطيعه أحد، وذلك لضيق الوقت ...وكذلك حتى لا تظن الزوجة أنك مسئول عن العمل داخل المنزل وخارجه.

(١) «كيف تسعد زوجتك»/ د. محمود المصرى (ص: ٦٠).
(٢) صحيح: رواه البخارى فى «الأدب»، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٩٩٦).
(٣) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣١٤).

ولكن تأكد أن مساعدتك لها من حينٍ لآخر ستُدخل السعادة والبهجة والسرور على قلبها وستشعر بحبك لها وخوفك عليها، وبذلك تجد أنها تبذل أضعاف أضعاف ما تتمنى لتُدخل عليك السعادة أيضًا ...وبذلك تتكامل أركان السعادة، فالكل يسعى لإسعاد مَن حوله .. وتلك هى المودة والرحمة التى ذكرها الله فى قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١] (١).

(٦١٢) وعَنْ أبى رِفاعَةَ تَميم بن أُسَيدٍ رضي الله عنه قال: انْتَهَيْتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يَخْطُبُ. فقلتُ: يا رسولَ الله، رجُلٌ غريبٌ جاءَ يَسْألُ عن دينِهِ لا يدرى مَا دِينُهُ؟ فَأَقْبَلَ عَلىَّ رسولُ الله ﷺ وتَركَ خُطْبَتهُ حتى انتَهَى إلىَّ، فَأُتى بِكُرسِىٍّ، فَقَعَدَ عَلَيهِ، وجَعَلَ يُعَلِّمُنى مِمَّا عَلَّمَه الله، ثم أَتَى خُطْبَتَهُ، فأتمَّ آخِرَهَا(٢).

۞ فمن تواضع النبى ﷺ أنه لما جاءه هذا الرجل .. وكان النبى ﷺ يخطب.. ومن المعلوم أن الخطيب إذا كان يخطب فإن يكون مُنشغلًا بما سيقوله للناس ولا وقت عنده لأحدٍ حتى يقطع خُطبته.. لكن النبى ﷺ سيد المتواضعين كان على استعدادٍ دائمٍ لبذل الكلمة لهداية الناس وتعليمهم... ولا عجب فى ذلك فقد نزل النبى ﷺ من على المنبر قبل ذلك عندما حَنَّ الجذع لأن النبى ﷺ كان يخطب عليه فتركه وأصبح يخطب على المنبر فحنَّ الجذع أثناء خطبة النبى ﷺ وسُمع له صوت كصوت الناقة العُشراء فنزل النبى ﷺ من على المنبر فى خطبة الجمعة والتزمه -أى: احتضنه- وأسرَّ له بكلمة فسكن الجذع.. وعاد النبى ﷺ إلى خطبته.. فإذا كان النبى ﷺ قد قطع خطبته من أجل جذعٍ من الخشب.. ألا يقطع خطبته من أجل تعليم مسلمٍ.

(١) «موسوعة الزواج الإسلامى السعيد»/ د. محمود المصرى (ص: ٦١٩-٦٢٠).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٧٦) كتاب الجمعة.

لقد كان هذا الرجل حديث عهدٍ بإسلامٍ فجاء إلى النبى ﷺ أثناء الخطبة وقال له: يا رسول الله.. رجلٌ غريب جاء يسأل عن دينه لا يدرى ما دينه.. فما كان من النبى ﷺ إلا أن ترك خطبته وأقبل عليه وَأُتِىَ بكرسى فقعد عليه النبى ﷺ وجعل يُعلمه مما علَّمه الله حتى تَعلَّم الرجل كل ما يريد وانتهى من كل أسئلته ثم عاد النبى ﷺ وصعد المنبر مرة أخرى وأتم خُطبته.

فإن قال قائل: أليست المصلحة العامة أَولَى بالمُراعاة من المصلحة الخاصة؟ وحاجة هذا الرجل خاصة، وهو ﷺ يخطب فى الجماعة؟

قلنا: نعم لو كانت مصلحة العامة تفوت لكان مراعاة المصلحة العامة أَولَى، لكن مصلحة العامة لا تفوت، بل إنهم سيستفيدون مما يُعلمه الرسول ﷺ لهذا الرجل الغريب، والمصلحة العامة لا تفوت.

وهذا الغريب الذى جاء يسأل عن دينه إذا أقبل إليه الرسول عليه الصلاة والسلام وعلَّمه كان فى هذا تأليفٌ لقلبه على الإسلام، ومحبة للإسلام، ومحبة للرسول ﷺ ...وهذا من حكمة رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ اسْتِحبَابُ تَلَطُّفِ السَّائِلِ فِى عِبَارَتِهِ وَسُؤَالِهِ الْعَالِمَ.

وَفِيهِ تَوَاضُعُ النَّبِىِّ ﷺ وَرِفْقُهُ بِالْمُسْلِمِينَ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِمْ وَخَفْضُ جَنَاحِهِ لَهُمْ...وَفِيهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى جَوَابِ الْمُسْتَفْتِى وَتَقْدِيمُ أَهَمِّ الْأُمُورِ فَأَهَمِّهَا وَلَعَلَّهُ كَانَ سَأَلَ عَنِ الْإِيمَانِ وَقَوَاعِدِهِ الْمُهِمَّةِ ...وَقَدِ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ جَاءَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِيمَانِ وَكَيْفِيَّةِ الدُّخُولِ فِى الْإِسْلَامِ وَجَبَ إِجَابَتُهُ وَتَعلِيمُهُ عَلَى الْفَوْرِ.... وَقُعُودُهُ ﷺ عَلَى الْكُرسِىِّ لِيَسْمَعَ الْبَاقُونَ كَلَامَهُ وَيَرَوْا شخصه الكريم وَيُحتَمَلُ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ الَّتِى كَانَ النَّبِىُّ ﷺ فِيهَا خُطْبَةُ أَمْرٍ غَيْرِ الْجُمُعَةِ وَلِهَذَا قَطَعَهَا بِهَذَا الْفَصلِ الطَّوِيلِ..وَيُحتَمَلُ أَنَّهَا كَانَتِ الْجُمُعَةَ وَاسْتَأْنَفَهَا..وَيُحتَمَلُ أَنَّهُ لَمْ يَحصُلْ

فَصلٌ طَوِيلٌ..وَيُحتَمَلُ أَنَّ كَلَامَهُ لِهَذَا الْغَرِيبِ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِالْخُطْبَةِ فَيَكُونُ مِنْهَا ولا يضر المشى فى أثنائها(١).

(٦١٣) وعَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذَا أَكَلَ طَعَامًا لَعِقَ أَصابعه الثلاثَ قال: وقال ﷺ: «إِذَا سَقطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ، فَلْيُمِطْ عَنْهَا الأَذى، ولْيَأْكُلْها، وَلا يَدَعها للشَّيْطَانِ» وَأَمَر أَنْ تُسْلَتَ القَصعَةُ قال: «فَإِنَّكُمْ لا تدرُونَ فى أَىِّ طَعامِكُمُ البَركَةُ»(٢).

۞ هذا من التأديب والتربية للمؤمنين... فمن السهل أن يتكلم الإنسان عن التواضع؛ لكن التنفيذ والتطبيق صعب، فكان يعلمهم النبى ﷺ بفعله ليفعلوا كما كان يفعل ﷺ.

ففى حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من الأكل لعق أصابعه الثلاث... لعقها: أي لحسها حتى يكون ما بقى من الطعام فيها داخلاً في طعامه الذي أكله من قبل... وفيه فائدة ذكرها بعض الأطباء؛ أن الأنامل تفرز عند الأكل شيئًا يُعين على هضم الطعام.

فيكون في لعق الأصابع بعد الطعام فائدتان:

فائدة شرعية: وهي الاقتداء بالنبي ﷺ.

وفائدة صحية طبية: وهي هذا الإفراز الذي يكون بعد الطعام الذى يُعين على الهضم.

والمؤمن لا يجعل هَمَّه فيما يتعلق بالصحة البدنية ... أهم شيء عند المؤمن هو اتباع الرسول ﷺ، والاقتداء به؛ لأن فيه صحة القلب.

---

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٤) كتاب الأشربة.



وكلما كان الإنسان للرسول ﷺ أتبع كان إيمانه أقوى.

وكذلك قال ﷺ: «**إذا سقطت لقمة أحدكم**» يعني على الأرض أو على السفرة «**فليُمط عنها الأذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان**» فإذا سقطت اللقمة، أو التمرة، أو ما أشبه ذلك على السفرة، فخذها وأَزِل ما فيها من الأذى إن كان فيها أذى من تراب، أو عيدان وكُلْها؛ تواضُعًا لله عَزَّوَجَلَّ، وامتثالاً لأمر النبي ﷺ، وحرمانًا للشيطان من الأكل معك، لأنك إذا تركتها أكلها الشيطان.

والشيطان ربما يشارك الإنسان في أكله في مثل هذه المسألة، وفيما إذا أكل ولم يُسمِّ، فإن الشيطان يشاركه في أكله.

والثالث: أمره بإسلات الصحن أو القصعة، وهو الإناء الذي فيه الطعام[1].

يعني: إذا أكلت وبقى قليل من الطعام فى القصعة فلا تتركه وترميه فى القمامة، وإنما تلعقه بأصابعك وتسلته، ولا تترك شيئًا للشيطان.. وإذا تركت شيئًا فحافظ عليه، فإما أن تتصدق به وإما أن تحفظه لتأكله مرة ثانية إن كان مثله يبقى معك ولا يفسد، ولكن لا تتعود أنك تطبخ أكثر من اللازم، والباقى ترميه فى القمامة؛ لأن هذا مُؤْذِن بأن يمنعك ويحرمك الله سبحانه وتعالى.

۞ فإذا بقى منك طعام فى القصعة أو الإناء الذى تأكل منه فعليك أن تُسلت القصعة عند انتهائك من الطعام فهذا من السُّنة التى غفل عنها كثيرٌ من الناس مع الأسف حتى من طلبة العلم أيضًا، إذا فرغوا من الأكل وجدت الجهة التى تليهم ما زال الأكل باقيًا فيها، لا يلعقون الصحفة.

وهذا خلاف ما أمر به النبى ﷺ .... ثم بيَّن الرسول (عليه الصلاة والسلام) الحكمة من ذلك فقال: «**فإنكم لا تدرون فى أى طعامكم البركة**» قد تكون البركة من هذا الطعام فى هذا الذى سلتَّه من القصعة.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٥-٢٨٦) بتصرف.

وفى هذا الحديث: حُسن تعليم الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وأنه إذا ذكر الحُكم ذكر الحِكمة منه، لأن ذِكر الحكمة مقرونًا بالحُكم يفيد فائدتين عظيمتين.

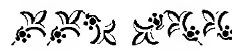
الفائدة الأولى: بيان سمو الشريعة، وأنها شريعة مبنية على المصالح، فما من شىء أمر الله به ورسوله ﷺ إلا والمصلحة فى وجوده... وما من شىء نهى عنه الله ورسوله ﷺ، إلا والمصلحة فى عدمه.

الفائدة الثانية: زيادة اطمئنان النفس، لأن الإنسان بشر قد يكون عنده إيمان وتسليم بما حكم الله به ورسوله، لكن إذا ذكرت الحكمة ازداد إيمانًا وازداد يقينًا، ونشاطًا على فعل المأمور، أو ترك المحظور.



(٦١٤) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبى ﷺ قال: «ما بعثَ الله نَبِيًّا إِلاَّ رعى الغنَمَ» قالَ أَصحابه: وَأَنْتَ؟ فقال: «نَعَمْ كُنْتُ أَرعَاهَا على قَرارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٦٠٥) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.



(٦١٥) وعَنْهُ عن النبىِّ ﷺ قال: «لَوْ دُعِيتُ إِلى كُراعٍ أَوْ ذِرَاعٍ لقَبِلْتُ. وَلَوْ أُهْدى إِلَىَّ ذِراعٌ أَو كُراعٌ لَقَبِلْتُ»[2].

۞ مِن الناس مَن إذا دُعى إلى الطعام عند أحد الأثرياء فإنه يذهب بلا تردُّد لأنه يعلم كيف تكون موائد الأغنياء وأن موائدهم لا تخلو أبدًا من أصناف الطعام الذى لا يراه أكثر الناس إلا نادرًا وقد لا يرونه أبدًا...

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢) كتاب الإجارة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٥٦٨) كتاب الهبة.

وإذا دُعى إلى الطعام عند أحد الفقراء فإنه قد يتردد لأنه يعلم أن مائدة الفقير قد لا يكون عليها أى صنفٍ مما يشتهيه..

لكن النبى ﷺ سيد ولد آدم وأفضل الخلق أجمعين الذى علَّم الكون كله نعمة التواضع كان يقول: «**لو دُعيت إلى كُراعٍ أو ذراعٍ لأجبت..**».

أى: لو دعانى أحدٌ على الطعام ولم يكن على المائدة سوى كُراع لأجبت... والكراع هو من الدابة ما بين الركبتين إلى الساق وهو ما نُسميه نحن (الكارع) وهو فى الغالب ليس فيه لحم.

هكذا يقول النبى ﷺ: «**لو دُعيت إلى كراعٍ أو ذراعٍ لأجبت**» وهنا جمع بين الشىء البسيط والخطير.. فالذراع كانت أحب الطعام إلى النبى ﷺ والكراع لا قيمة لها وهى طعام الفقراء فى الغالب.. وكأنه ﷺ يقول: لو دُعيت عند رجلٍ فقير على كراعٍ أو عند رجلٍ غنى على ذراع لأجبت لأنى لا فرق عندى بين الفقير والغنى فالكل عندى سواء... وهذا ليحض الأمة على جبر خاطر الفقير إذا دعا أحدًا إلى طعامه فعليه أن يُلبى دعوته اقتداءً بالنبى محمد ﷺ.

۞ **ثم قال** ﷺ: «**ولو أُهدى إلىَّ ذراع أو كُراعٍ لقبلت**» ففى الدعوة قدَّم الكُراع على الذراع ليحض الناس على قبول دعوة الفقير لأن أكثر الناس فى الغالب لا يردون دعوة الغنى .. فهم لا يحتاجون لمن يوصيهم بذلك ولذا قدَّم النبى ﷺ الوصية بقبول دعوة الفقير...

ولما تكلم عن الهدية قدَّم الذراع على الكُراع لأن أكثر الهدايا تأتى من الأغنياء.. أما الفقراء فقد لا يجدون قوت اليوم.. ومع ذلك فالنبى ﷺ يخبر أنه لو أُهدى إليه ذراع أو حتى كُراع فلن يرفض بل سيقبل الهدية ويُثيب عليها ﷺ... وفى هذا حضٌّ على قبول الهدية مهما كانت قليلة من أجل تآلف القلوب.. وذلك لأن رَدَّ الهدية يُوغر الصدور ويجلب العداوات... وفى تلبية الدعوة وقبول الهدية تحريضٌ على التواضع مع الخلق ابتغاء مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.

(٦١٦) **وعَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كَانَتْ نَاقَةُ رَسُول الله ﷺ العَضْباءُ لاَ تُسبَقُ، أو لا تكَادُ تُسْبَقُ، فَجَاء أَعرابيٌّ عَلى قَعُودٍ لهُ، فَسبقَها، فَشَقَّ ذلك عَلى المُسْلمِينَ حَتَّى عَرفَهُ النبى ﷺ فَقَالَ: «حَقٌّ عَلى الله أَنْ لاَ يرتَفِعَ شَىءٌ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ وَضَعَهُ»**[١].

ففى هذا الحديث يحكى أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خادم رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ كان عنده ناقة اسمها العضباء وكانت لا تُسبق أبدًا.. والعضباء غير ناقته القصواء التى حَجَّ عليها النبى ﷺ.. وقد كان من هدى النبى ﷺ أنه كان يُسمِّى دوابه وسلاحه وما أشبه ذلك.

فأصحاب الرسول ﷺ كانوا يرون أن العضباء لا تُسبَق أو لا تكاد تُسبق.. فجاء أعرابىٌ على قَعودٍ[٢] له فسبقها.

فكأن ذلك شَقَّ على الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم فقال النبى ﷺ لما عرف ما فى نفوسهم: **«حقٌّ على الله ألا يرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه»**.

فكل ارتفاع يكون فى الدنيا فإنه لا بد أن يئُول إلى انخفاض، فإن صَحِبَ هذا الارتفاع ارتفاع فى النفوس وعُلو فى النفوس، فإن الوضع إليه أسرع، لأن الوضع يكون عقوبة، أما إذا لم يصحبه شىء، فإنه لا بد أن يرجع ويوضع... لأن الدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة.. وهى إلى زوال ولا يبقى من الدنيا إلا ما عمله الإنسان فيها وابتغى بها وجه الله والدار الآخرة.

وفى قوله عليه الصلاة والسلام: «**من الدنيا**» دليل على أن ما ارتفع من أمور الآخرة فإنه لا يضعه الله... فقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فهؤلاء لا يضعهم الله عَزَّ وَجَلَّ ما داموا على وصف

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٨٧٢) كتاب الجهاد والسير.

(٢) القَعود: هو ما استحق الركوب من الإبل... قال الجوهرى: هو البكر حتى يُركَب، وأقل ذلك أن يكون ابن سنتين إلى أن يدخل فى السادسة فيُسمى جملًا... وقال الأزهرى: لا يُقال إلا للذكر، ولا يُقال للأنثى قعود إنما يقال لها قَلوص.

العلم والإيمان، فإنه لا يمكن أن يضعهم الله، بل يرفع لهم الذكر، ويرفع درجاتهم فى الآخرة.

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى:

تعظيم الصحابة رضي الله عنهم ليس لشخص النبى ﷺ فحسب، بل امتد هذا التعظيم وانسحب إلى ما يخصه ﷺ .... ومثاله القَدَح الذى كان يشرب فيه ﷺ وفى الحديث الذى بين أيدينا مثال على تعظيمهم لناقة النبى ﷺ فقد حزنوا ليس لموت الناقة أو مرضها، بل لما هو أقل من ذلك بكثير، وهو أنها قد سُبقت... (فشقَّ ذلك على المسلمين) ، ويبدو أن تلك المشقة التى لحقتهم كانت كبيرة لأنها ظهرت على ملامحهم، والنبى ﷺ قد لحظ ذلك على وجوههم... فقد ورد فى الحديث: (فشقَّ ذلك على المسلمين حتى عرفه) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (فيه حُسن خُلق النبى ﷺ وتواضعه وعظمته فى صدور أصحابه)(١).

الفائدة الثانية:

ملاحظته ﷺ أحوال الصحابة حيث عرف ما حدث لهم لما سُبقت العضباء... مع رحمته وشفقته بهم ﷺ حيث خفَّف عنهم ما يجدونه بقوله: «**حَقٌّ على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه**» .

الفائدة الثالثة:

أسَّس النبى ﷺ قاعدة كونية عظيمة، تُخفف ألم كل مكلوم وتواسى كل محزون، وتُعرِّف الناس بطبيعة الدنيا فلا يغترون بها ولا يُعولون عليها.

فأى شيء مهما علا وارتفع تكفَّل الله بخفضه ووضعه... ومصداق ذلك فى

(١) فتح البارى (٦/ ٧٤).

الحديث قوله ﷺ: «**حقٌّ على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه**» .

وذِكرُ النبي ﷺ هذا الكلام في سياق الحديث عن دابته العضباء، إنما يدل على تواضعه وحرصه على تعليم أمته ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه التزهيد في الدنيا للإشارة إلى أن كل شيء منها لا يرتفع إلا اتضع وفيه حثٌّ على التواضع وفيه حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه»[1].

قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا على الله والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وفيه الحث على التواضع وطرح رداء التكبر والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة، وفيه ما كان عليه ﷺ لحسن خلقه من إذهاب ما يشق على أصحابه عنهم... وما كان قُصد به من الدنيا التقرُّب إلى الله تعالى فليس منها إنما هو فيها فلا يدخل تحت هذا الخبر، بل لا يزال مرفوعًا دنيا وأخرى، وفيه تواضعه إذ سابق أعرابيًّا[2].

(١) شمائل الرسول (٢/ ٢٨٤).

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٥٧).

(٧٢) باب تحريم الكبر والإعجاب

۞ إن الكبر آفة خطيرة لم يَسلم منها إلا ثُلة قليلة ميمونة مباركة قد لامَسَ الإيمان شِغاف قلوبهم.

۞ وإن الكبر طريقٌ موصل إلى غضب الله وسخطه، وهو دليل على سُفول النفس وبُعدها عن الله ويصرف عن فهم آياته ولا يوفق أبدًا إلى طاعته...وهو طريق يجعل صاحبه يُحرَم من دخول الجنة ويوصله إلى النار أعاذنا الله وإياكم من عذاب النار.

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

والكبر: هو التَّرفُّع واعتقاد الإنسان نفسه أنه كبير، وأنه فوق الناس، وأن له فضلًا عليهم.

والإعجاب: أن يرى الإنسان عمل نفسه فيُعجب به، ويستعظمه ويستكثره.

فالإعجاب يكون فى العمل، والكبر يكون فى النفس، وكلاهما خُلقٌ مذموم ... الكبر والإعجاب.

والكبر نوعان: كبرٌ على الحق، وكبرٌ على الخلق...وقد بيَّنهما النبى ﷺ فى قوله: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»(١) فبطر الحق: يعنى: رَدّه والإعراض عنه، وعدم قبوله... وغمط الناس يعنى احتقارهم وازدراءهم وألا يرى الناس شيئًا، ويرى أنه فوقهم(٢).

۞ ولا بد أن نعلم أنَّ أول ذنب عُصِىَ الله به هو الكبر.

فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه ... فأهل الكِبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إبليس إلى النار.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٨).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ الله: سَمِعتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيةَ رَحِمَهُ الله يَقُولُ: التَّكَبُّرُ شَرٌّ مِنَ الشِّركِ فَإِنَّ الْمُتكبِّرَ يَتكبَّرُ عَنْ عِبادَةِ اللهِ تَعَالَى، وَالْمُشْرِكَ يَعبُدُ اللهَ وَغَيْرَه.

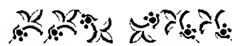
قُلْتُ: وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللهُ النَّارَ دَارَ الْمُتكبِّرِينَ... كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[النحل: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[الزمر: ٦٠] .

وَأَخْبرَ أَنَّ أَهْلَ الْكِبْرِ وَالتَّجبُّرِ هُمُ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾[غافر: ٣٥] .

فالكبر صفة من الصفات التى لا تكون إلا لله وحده لا شريك له، فهو المتكبر سبحانه وتعالى، وهو الكبير سبحانه المتعالى .. ويأبى أن تكون هذه الصفة لأحدٍ من خلقه؛ لأنها صفة لا تليق إلا بعظمته سبحانه، فهى له صفة كمال وجلال، ولذلك يقول: «**الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى فيهما أدخلته النار**».

مَن نازع الله فى عظمته وكبريائه سبحانه فقد أتى ما لا يجوز له، إذ ليس لأحدٍ أن ينازعه فى ذلك ... فإذا أبى الإنسان إلا أن يستكبر وأن يعطى لنفسه صفةً لا تكون إلا للخالق سبحانه، فيأبى الله أن يترك هذا على ما هو فيه حتى يُذله ويُذيقه الذل فى الدنيا والآخرة.. وحقٌّ على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه.

فاحذر من الكبر، ويكفيك أن تعلم أنه صفة لا تليق إلا بالله، فلا يجوز لك أن تنتحل هذه الصفة، فتستكبر على خلق الله سبحانه وتعالى وأنت مثلهم.



۞ قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]،

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ

خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[لقمان:١٨][1].

۞ وقد ذكر الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ تلك الآيات التي تحكي قصة قارون لما تَكَبَّر وأُعجب بنفسه فكانت نهايته أن يُخسف به وبداره وأمواله الأرض ليكون عبرة لمن اعتبر.

***

۞ قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُو۟لِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٧٦-٨٣].

۞ الدار الآخرة: هي آخر دور بني آدم؛ لأن ابن آدم له أربعة دور كلها تنتهي بالآخرة.

الدار الأولى: في بطن أمه.

الدار الثانية: إذا خرج من بطن أمه إلى دار الدنيا.

والدار الثالثة: البرزخ؛ ما بين موته وقيام الساعة.

---

(١) ومعنى تُصعر خدك للناس: أي تُميله وتُعرض به عن الناس تَكَبُّرًا عليهم-والمرح: التَّبختُر.

والدار الرابعة: الدار الآخرة. وهى النهاية، وهى القرار...هذه الدار قال الله تعالى عنها: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص:٨٣]، لا يريدون التعالى على الحق، ولا التعالى على الخلق، وإنما هم متواضعون، وإذا نفى الله عنهم إرادة العلو والفساد، فهو من باب أولَى ألا يكون منهم عُلو ولا فساد، فهم لا يَعلُون فى الأرض، ولا يُفسدون، ولا يريدون ذلك ... لأن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

(١) قسمٌ علا وفسد وأفسد ... فهذا اجتمع فى حقه الإرادة والفعل.

(٢) وقسمٌ لم يُرد الفساد ولا العلو فقد انتفى عنه الأمران.

(٣) وقسمٌ ثالث يريد العلو والفساد ولكن لا يقدر عليه. وهذا الثالث بين الأول والثانى، لكن عليه الوزر؛ لأنه أراد السوء...فالدار الآخرة إنما تكون ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أى تعاليًا على الحق أو على الخلق ﴿وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فإن قال قائل: ما هو الفساد فى الأرض؟ فالجواب أن الفساد فى الأرض ليس هدم المنازل ولا إحراق الزروع، بل الفساد فى الأرض بالمعاصى، كما قال أهل العلم رحمهم الله فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، أى لا تعصوا الله؛ لأن المعاصى سبب الفساد[١].

(٦١٧) وعَنْ عبد الله بن مسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبىِّ ﷺ قال: «لا يَدخُل الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مَنْ كِبرٍ» فقال رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُه حسنًا، ونعلهُ حَسَنَةً قال: «إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ»[٢].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

بَطَرُ الحقِّ: دفْعُهُ وردُّهُ على قائِلِهِ – وغَمْطُ النَّاسِ: احتِقَارُهُمْ.

۞ قوله ﷺ: «لا يَدخُل الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مَنْ كِبرٍ» يدل على أن مَن كان فى قلبه هذا القدر اليسير الذى قد لا يُرى من الكبر فإنه لا يدخل الجنة... فهذا لا يستحق أن يدخل الجنة؛ لأنه متطاول على الناس، يرى أنه أعظم منهم، لا يكلمهم إلا بترفُّع وتطاول، فحال مَنْ فى قلبه مثقال ذرة أنه لا يدخل الجنة، فكيف بمن كان فى قلبه الكبر كله؟!

۞ ففى هذا الحديث يتوعد النبى ﷺ المتكبرين بالحرمان من دخول الجنة...لكن المسألة فيها تفصيل...فالذى يتكبر على الخالق (جل جلاله) ويتكبر عن عبادته ويتكبر على الحق الذى جاء من عند الله عَزَّ وَجَلَّ فهو كافرٌ مُخلَّد فى النار...لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ٩].

ولا يُحبَط العمل إلا بالكفر ... لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وأما إذا كان كبرًا على الخلق وتَعاظُمًا على الخلق، لكنه لم يستكبر عن عبادة الله، فهذا لا يدخل الجنة مع أول الداخلين وإنما يُعاقَب على ما حصل منه من الكِبر ثم يدخل الجنة بعد ذلك .. لأنه لا يُخلَّد فى النار موحدٌ أبدًا.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «لايدخل الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» فَقَدِ اخْتُلِفَ فِى تَأْوِيلِهِ ... فَذَكَرَ الْخَطَّابِىُّ فِيهِ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ التَّكَبُّرُ عَنِ الْإِيمَانِ...فَصَاحِبُهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَصلًا إِذَا مَاتَ عَلَيْهِ وَالثَّانِى أَنَّهُ لَا يَكُونُ فِى قَلْبِهِ كِبْرٌ حَالَ دُخُولِهِ الْجَنَّةَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣]وَهَذَانِ التَّأْوِيلَانِ فِيهِمَا بُعدٌ فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيث وَرَدَ فِى سِيَاقِ النَّهْىِ عَنِ الْكِبْرِ الْمَعرُوفِ وَهُوَ الِارتِفَاعُ عَلَى النَّاسِ وَاحتِقَارُهُمْ وَدَفْعُ الْحَقِّ فَلَا يَنْبَغِى أَنْ يُحمَلَ عَلَى هَذَيْنِ التَّأْوِيلَيْنِ الْمُخْرِجَيْنِ لَهُ عَنِ

الْمَطْلُوبِ... بَلِ الظَّاهِرُ مَا اخْتَارَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دُونَ مُجَازَاةٍ إِنْ جَازَاهُ وَقِيلَ هَذَا جَزَاؤُهُ لَوْ جَازَاهُ وَقَد يَتكَرَّمُ بِأَنَّهُ لَا يُجَازِيهِ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَدخُلَ كُلُّ الْمُوَحِّدِينَ الْجَنَّةَ إِمَّا أَوَّلًا وَإِمَّا ثَانِيًا بَعدَ تَعذِيبِ بَعضِ أَصحَابِ الْكَبَائِرِ الَّذِينَ ماتوا مُصرين عليها وقيل لا يدخلها مَعَ الْمُتَّقِينَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ[(١)].

۞ولما حدَّث النبى ﷺ بهذا الحديث قال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. يعنى: فهل هذا من الكبر؟

فقال النبى ﷺ «**إن الله جميل يحب الجمال**» جميل فى ذاته، جميل فى أفعاله، جميل فى صفاته... كل ما يَصدُر عن الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه جميل وليس بقبيح؛ بل حسن، تستحسنه العقول السليمة، وتستسيغه النفوس.

وقوله: «**يحب الجمال**» أى يحب التجمُّل ... بمعنى أنه يحب أن يتجمل الإنسان فى ثيابه، وفى نعله، وفى بدنه، وفى جميع شؤونه؛ لأن التجمُّل يَجذب القلوب إلى الإنسان، ويُحببه إلى الناس، بخلاف عدم الاعتناء بالنفس الذى يكون فيه الإنسان قبيحًا فى شعره أو فى ثوبه أو فى لباسه... فلهذا قال: «**إن الله جميل يحب الجمال**» أى يحب أن يتجمل الإنسان.

أما جمال الخِلقة الذى هو من عند الله عَزَّ وَجَلَّ فهذا إلى الله سبحانه وتعالى، ليس للإنسان فيه حيلة، وليس له فيه كسب، وإنما ذكر النبى ﷺ ما للإنسان فيه كَسبٌ وهو التَّجمُّل.

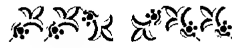
۞ثم قال النبى ﷺ: «**الكبر بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**» غمطهم وغمصهم بمعنى واحد، أى: أن الإنسان يرى أن الناس تحته مغموصين، كل الناس ليس لهم قيمة عنده ولا وزن.

بطر الحق، يعنى: عدم قبول الحق، إذا عرف أن الحق فى هذا الشىء لا

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٢٠-١٢١).

يفعله، ولا يقبله.

«وغمط الناس»: أي احتقارهم.. وكأنه يرى نفسه فوق الناس وأن الناس تحته.



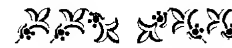
(٦١٨) وعَنْ سلمةَ بنِ الأكْوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجُلًا أكَل عِنْدَ رسول الله ﷺ بشِمالِهِ فقال: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قالَ: لاَ أسْتَطِيعُ، قال: «لا اسْتَطَعتَ» مَا مَنَعَهُ إلاَّ الكِبْرُ. قال: فما رَفَعها إلى فِيهِ[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٦٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(٦١٩) وعَنْ حَارثَةَ بنِ وهْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتكْبِرٍ»[2] وتقدَّم شرحُه في باب ضَعفةِ المسلمين.

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٥٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(٦٢٠) وعَنْ أبي سعيد الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «احتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ، فقالت النَّارُ: فِيَّ الجَبَّارُونَ والمُتكَبِّرُونَ، وقالَت الجنَّةُ: فِيَّ ضُعفاءُ النَّاسِ ومَسَاكينُهُمْ. فَقَضَى الله بيْنَهُمَا: إنَّكِ الجنَّةُ رَحمَتي، أرحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وإنَّكِ النَّارُ عذَابي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكِلَيْكُما عليَّ مِلْؤُها»[3].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢١) كتاب الأشربة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩١٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٥٣) كتاب الجنة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٥٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة.

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٥٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٦٢١) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا يَنْظُرُ الله يَوْم القِيامةِ إلى مَنْ جَرَّ إزارَه بَطَرًا»(١).

۞ فى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينظر يوم القيامة إلى مَن جرَّ إزاره بَطَرًا.

وعلى الرغم من أن هذا الأمر قد يتهاون فيه كثيرٌ من الناس إلا أن الأمر فى غاية الخطورة... فالرجل منهىٌّ عن أن يُسبل ثوبه أو سرواله أو إزاره عن الكعبين.. فإن أسبل ثيابه تحت الكعبين فإنه يكون بذلك قد ارتكب كبيرة من الكبائر -والعياذ بالله-.

فإن فعل ذلك كِبرًا وخُيلاء فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إليه يوم القيامة ولا يكلمه ولا يزكيه وله عذابٌ إليم.

كما قال ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ الَّذِى لا يُعطِى شَيئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الفَاجِرِ» وَفى لفظٍ آخر: «الْكَاذِبِ»(٢).

وإن فعل ذلك بغير كبر ولا خُيلاء فإنه يُعذَّب فى النار .. ويكون العذاب لذلك الجزء الذى حدث فيه الإسبال ... كما قال النبى ﷺ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِى النَّارِ»(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٨٨) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٨٧) كتاب اللباس والزينة.
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٧٨٧) كتاب اللباس.

۞ وإسبال الثياب كما قلنا إن كان للخيلاء فهو حرامٌ، وإن كان بغير قصدٍ فهو مكروه (هذا إن كان فى غير صلاة، فإن كان فى الصلاة فهو أشد كراهة).

قال ﷺ: **«مَنْ أَسْبَلَ إِزَارَهُ فِى صَلَاتِهِ خُيَلَاءَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى حِلٍّ وَلَا حَرَامٍ»**[(١)].

۞ ولقد كان أصحاب الرسول ﷺ يخشون من فعل ذلك بعد الوعيد الذى سمعوه من النبى ﷺ فى حق المُسبل.

ولذا فإنه لما قال ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ إِزَارِى يَسْتَرخِى، إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ؟ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: **«إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلَاءَ»**[(٢)].

وقَالَ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: مَرَرتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِى إِزَارِى اسْتِرخَاءٌ، فَقَالَ: **«يَا عَبْدَ اللهِ، ارفَع إِزَارَكَ»**، فَرَفَعتُهُ، ثُمَّ قَالَ: **«زِد»**، فَزِدتُ، فَمَا زِلْتُ أَتَحَرَّاهَا بَعدُ[(٣)].

فإذا قال قائل: ما هى السُّنَّة؟ **قلنا:** السُّنة من الكعب إلى منتصف الساق.

هذه هى السُّنة... نصف الساق سُنة، وما دونه سُنة، وما كان إلى الكعبين فهو سُنة، لأن هذا هو لبس النبى ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا لا يتجاوز لباسهم الكعبين، ولكن يكون إلى نصف الساق أو يرتفع قليلًا، وما بين ذلك كله سُنة.

قال ﷺ: **«إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما أسفل من الكعبين ففى النار، ومَن جَرَّ إزاره بطرًا لم ينظر الله إليه»**[(٤)].

۞ وهنا مسألة فى غاية الأهمية ألا وهى أنه إذا كان الله عز وجل لا ينظر إلى مَن جَرَّ إزاره بطرًا إلا أنه يراه ويُبصر كل شىء لكنه يعامله معاملة المنسيين ﴿وَمَا كَانَ

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٦٣٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠١٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٧٨٤) كتاب اللباس.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٨٦) كتاب اللباس والزينة.

(٤) صحيح: رواه أحمد ومالك وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٢١).

رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ .. فهو عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إليه نظر رحمة لكنه سبحانه وتعالى يراه ويعلم كل شيءٍ عنه.

وهذا كما يفعل مع أهل النار أنه لا يُكلمهم ولكنه يرد عليهم ويقول: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فهو سبحانه وتعالى لا يجيبهم جوابًا ينتفعون به.

۞ فالشاهد أن الذى يجر إزاره كبراً وبطرًا وخيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يكلمه ولا يزكيه وله عذابٌ أليم.. وإن كان لغير خُيلاء فإنه يُعذَّب فى النار ويكون العذاب لذلك الجزء الذى حدث فيه إسبال «مَا أَسْفَلَ الكَعبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِى النَّارِ» إلا أن يتوب إلى الله ويرجع إليه وينتهى عن فعل ذلك.. فالله غفورٌ رحيم شكورٌ ودود.

۞ ولا بد أن نعلم أن حُكم الإسبال خاصٌّ بالرجال.. أما المرأة فلها أن تستر قدمها لأن المرأة موضع فتنة وواجبٌ عليها أن تستر جسدها.

(٦٢٢) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيامَة، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زانٍ ومَلِكٌ كَذَّابٌ، وعائلٌ مُسْتَكْبِرٌ»(١).

۞ «ثلاثة»: أى: ثلاثة أصناف من الرجال وليس المقصود ثلاثة رجال.. وقد يكونون آلافًا من الناس أو أكثر.

۞ « ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيامَة، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٧) كتاب الإيمان.
«العائِلُ»: الفَقِير.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: مَعنَى لَا يُكَلِّمُهُمْ أَىْ لَا يكلمهم تكليم أهل الخيرات وباظهار الرضى بَلْ بِكَلَام أَهْلِ السُّخْطِ وَالْغَضَبِ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْإِعرَاضُ عَنْهُمْ ... وَقَالَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ: لَا يُكَلِّمُهُمْ كَلَامًا يَنْفَعُهُمْ وَيَسُرُّهُمْ وَقِيلَ لَا يُرسِلُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ بِالتَّحِيَّةِ ... وَمَعنَى لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: أَىْ يُعرِض عَنْهُمْ وَنَظَرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ رَحمَتُهُ وَلُطْفُهُ بِهِمْ ... وَمَعنَى لَا يُزَكِّيهِمْ لَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ[(١)].

ولهم عذابٌ أليم: أى لهم عذابٌ وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه مُؤلم.

فيا تُرى مَن هم هؤلاء الثلاثة؟

۞ الأول: «شيخٌ زانٍ»!!!!!.

فهذا الشيخ الذى قد بلغ من الكِبَر عِتيًّا حتى أنه لا يكاد يرى أمامه وقد انقطعت عنده الشهوة فلا يستطيع أن يأتى امرأة فى الحلال وليس عنده شهوة تُجبره على أن يفعل هذا بعد أن بردت شهوته وزالت أو نقصت كثيرًا بخلاف الشاب الذى قد يكون عنده شهوة ويعجز عن أن يملك نفسه... ومع ذلك يتكلف هذا الشيخ ويتناول المُنشطات أو غير ذلك ليذهب ويفعل الفاحشة فى الحرام!!!... فهذا الرجل لا يكلمه الله يوم القيامة ولا يزكيه ولا ينظر إليه وله عذابٌ عظيم... لأنه فعل الفاحشة دون أن يكون عنده سببٌ قوىٌّ يدفعه إليها.

والزنى كله فاحشة سواء من الشاب أو من الشيخ، لكنه من الشيخ أشد وأعظم والعياذ بالله... إلا أن هذا الحديث مُقيد بما ثبت فى الصحيحين أن مَن أتى شيئًا من هذه القاذورات، وأُقيم عليه الحد فى الدُّنيا فإن الله تعالى لا يجمع عليه عقوبتين بل يزول عنه ذلك، ويكون الحدُّ تطهيرًا له.

۞ الثانى: «ملكٌ كذاب» أى: كثير الكذب.. وهل الملك يحتاج لأن

---

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٥٣).

يكذب؟!

إن الكذب حرامٌ سواء كان ذلك من الملك أو من الرعية ولكنه من الملك يكون أسوأ لأن الذى يكذب هو الذى يحتاج أن يداهن أحدًا لأنه يخاف منه أو يريد منه منفعة.. فهل هذا الملك الكذاب يخشى أحدًا من رعيته أو يرجو منفعة من أحد رعاياه؟!.. ولذا كان عذابه أليمًا يوم القيامة لأنه يكذب ويكذب دون أن يكون عنده سببٌ قوىٌّ يدفعه لذلك.. فهو صاحب الكلمة فى مملكته.. إن أراد شيئًا فعله وإن لم يُرده رفضه ولا أحد يستطيع أن يُعارضه فلماذا يكذب؟!

۞ **الثالث:** «**عائلٌ مستكبر**».. وهذا هو الشاهد من الحديث...فهذا رجلٌ فقير يحتاج أن يكون متواضعًا ليعطف الناس عليه ومع ذلك فهو يستكبر على الناس من حوله ويتكبر على الحق... فالإنسان الغنى ربما يَغُرُّه غِناه فيتكبر على الحق ويتكبر على الناس.. لكن الفقير الذى لا يملك قُوت يومه لماذا يستكبر؟!

والكِبر حرام من الغنى ومن الفقير، لكنه من الفقير أشد، ولهذا تجد الناس إذا رأوا غنيًّا متواضعًا استغربوا ذلك منه، واستعظموا ذلك منه، ورأوا أن هذا الغنى فى غاية الخلق النبيل... لكن إذا وجدوا فقيرًا متواضعًا لكان أمرًا عاديًّا، لأن الفقر يوجب للإنسان أن يتواضع، لأنه لأى شىء يستكبر!.

فإذا جاء إنسان والعياذ بالله عائل فقير يستكبر على الخلق، أو يستكبر عن الحق، فليس هناك ما يوجب الكبرياء فى حقه، فيكون والعياذ بالله داخلًا فى هذا الحديث.

۞ وقد يخطر على بال أحدكم سؤال ويقول: ولماذا جمع النبى ﷺ هؤلاء الثلاثة فى حديثٍ واحد؟ وما الذى يجمع بينهم؟

ويأتيك الجواب من القاضى عياض رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: سَبَبُهُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ الْتَزَمَ الْمَعصِيَةَ الْمَذْكُورَةَ مَعَ بُعدِهَا مِنْهُ وَعَدَمِ ضَرُورَتِهِ إِلَيْهَا وَضَعفِ دَوَاعِيهَا

عِنْدَهُ وَإِنْ كَانَ لَا يُعذَرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ إِلَى هَذِهِ الْمَعَاصِي ضَرُورَةٌ مُزْعِجَةٌ ولا دواعي معتادة أَشْبَهَ إِقْدَامُهُمْ عَلَيْهَا الْمُعَانَدَةَ وَالِاسْتِخْفَافَ بِحَقِّ اللهِ تَعَالَى وَقَصدَ مَعصِيَتِهِ لَا لِحَاجَةٍ غَيْرِهَا.

فَإِنَّ الشَّيْخَ لِكَمَالِ عَقْلِهِ وَتَمَامِ مَعرِفَتِهِ بِطُولِ مَا مَرَّ عَلَيْهِ مِنَ الزَّمَانِ وَضَعفِ أَسْبَابِ الْجِمَاعِ وَالشَّهْوَةِ لِلنِّسَاءِ وَاخْتِلَالِ دَوَاعِيهِ لِذَلِكَ عِنْدَهُ مَا يُرِيحُهُ مِنْ دَوَاعِي الْحَلَالِ فِي هَذَا وَيُخَلِّي سره منه فكيف بالزنى الْحَرَامِ وَإِنَّمَا دَوَاعِي ذَلِكَ الشَّبَابُ وَالْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ وَقِلَّةُ الْمَعرِفَةِ وَغَلَبَةُ الشَّهْوَةِ لِضَعفِ الْعَقْلِ وَصِغَرِ السِّنِّ... وَكَذَلِكَ الْإِمَامُ لَا يَخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ وَلَا يَحتَاجُ إِلَى مُدَاهَنَتِهِ وَمُصَانَعَتِهِ... فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُدَاهِنُ وَيُصَانِعُ بِالْكَذِبِ وَشِبْهِهِ مَنْ يَحذَرُهُ وَيَخْشَى أَذَاهُ وَمُعَاتَبَتَهُ أَوْ يَطْلُبُ عِنْدَهُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةً أَوْ مَنْفَعَةً وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْكَذِبِ مُطْلَقًا... وَكَذَلِكَ الْعَائِلُ الْفَقِيرُ قَدْ عَدِمَ الْمَالَ وَإِنَّمَا سَبَبُ الْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ وَالتَّكَبُّرِ وَالِارْتِفَاعِ عَلَى الْقُرَنَاءِ الثَّروَةُ فِي الدُّنْيَا لِكَوْنِهِ ظَاهِرًا فِيهَا وَحَاجَاتُ أَهْلِهَا إِلَيْهِ... فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَسْبَابُهَا فَلِمَاذَا يَسْتَكْبِرُ وَيَحتَقِرُ غَيْرَهُ فَلَمْ يَبْقَ فِعلُهُ وَفِعلُ الشَّيْخِ الزَّانِي وَالْإِمَامُ الْكَاذِبُ إِلَّا لِضَربٍ مِنَ الِاسْتِخْفَافِ بِحَقِّ اللهِ تَعَالَى وَاللهُ أَعلَمُ[1].

***

(٦٢٣) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: العِزُّ إزارى، والكِبْرياءُ رِدائِى، فَمَنْ يُنازِعُنى فى واحِدٍ منهُما فقد عذَّبتُه»[2].

❁ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: وهذا من الأحاديث التى تمر كما جاءت عن النبى ﷺ، ولا يُتعرض لمعناها بتحريف أو تكييف، وإنما يُقال هكذا قال الله تعالى فيما رواه النبى ﷺ عنه...فمن نازع الله فى عزته وأراد أن يتخذ سلطانًا

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٥٤-١٥٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٠) كتاب البر والصلة والآداب.

كسلطان الله، أو نازع الله فى كبريائه وتكبر على عباد الله، فإن الله يُعذبه...يعذبه على ما صنع ونازع الله تعالى فيما يختص به.

(٦٢٤) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى فى حُلَّةٍ تُعجِبُه نفْسُه، مُرَجِّلٌ رأسَه، يَخْتَالُ فى مِشْيَتِهِ، إِذْ خَسَفَ الله بِهِ، فهو يَتَجَلْجَلُ فى الأَرضِ إلى يوْمِ القِيامةِ»[(١)].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٩) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(٦٢٥) وعَنْ سَلَمَة بن الأَكْوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا يزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بنفسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فى الجَبَّارينَ، فَيُصِيبُهُ ما أصابَهمْ»[(٢)].

۞ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبى محمد ﷺ.

الحسرات التي يجنيها المتكبر في الدنيا والآخرة

۞ فأمَّا حسرته فى الدنيا فإنه يُحرَم من محبة الناس ومحبة الملائكة، وفوق ذلك يُحرَم من مَحبَّة ربِّ العالمين عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[النحل: ٢٣].

۞ وقد قال ﷺ مُخبرًا عن ربه عَزَّوَجَلَّ أنه: «إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّى أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِى فِى أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِى الأَرْضِ»[(٣)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٨٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٨٨) كتاب اللباس والزينة.
«مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ» أى: مُمَشِّطُهُ. «يَتجلْجَلُ» بالجيمين: أَىْ: يَغُوصُ وينْزِلُ.

(٢) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٩١٤)، وضعيف الجامع (٦٣٤٤).
«يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ» أى: يرتَفعُ ويَتكَبَّرُ.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة والآداب.

ثمَّ إن المستكبر يُحرَم الخير العظيم الذى لم يجعله الله إلَّا لأحبابه حيث يقول: « **فَإِذَا أَحبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ**»[١] .

وكذلك فإن الله (جَلَّ وعَلَا) يصرفه عن آياته ... قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف: ١٤٦] .

أى: سأمنع المتكبرين عن فهم آياتى فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها وأطمس على قلوبهم عقوبة لهم على تكبُّرهم.

۞ **وعَنْ أبى سعيد الخُدرىِّ** رضي الله عنه، **عن النبىِّ** ﷺ **قال: «احتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ، فقالت النَّارُ: فِىَّ الجَبَّارُونَ والمُتَكَبِّرُونَ، وقالَت الجنَّةُ: فِىَّ ضُعَفاءُ النَّاسِ ومَسَاكينُهُمْ. فَقَضَى الله بيْنَهُمَا: إِنَّكِ الجنَّةُ رَحمَتى، أَرحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وإِنَّكِ النَّارُ عذَابى، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكِلَيْكُما علىَّ مِلْؤُها»**[٢] .

۞ وأما عن عذاب أهل الكبر فى الآخرة فتأمل معى ما قاله الحبيب ﷺ حيث يقول: « **يُحشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِى صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِى جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولُسَ تَعلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ.. طِينة الخَبال**»[٣] . **فيا له من عذابٍ شديد**[٤] .

۞ والمتكبر قد يُحرم من دخول الجنة مع أول الداخلين .. ويدخل النار.

۞ **عن حارثة بن وهب الخزاعى** رضي الله عنه **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٤٠).

(٤) وأنذرهم يوم الحسرة / د. محمود المصرى (١٨٨، ١٨٩).

«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ(١) جَوَّاظٍ(٢) مُسْتَكْبِرٍ»(٣).

۞ وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لا يَدخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»(٤).

عجبًا لهذا المتكبِّر المخلوق الضَّعيف كيف يتجرَّأ على خالقِهِ مالكِ المُلكِ، (جلَّ وعلا).

---

(١) العتل: الغليظ الفظّ الجافي.

(٢) الجواظ: الجموع للمال، المنوع له. وقيل: الضَّخم المُختال في مشيته.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٧١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٨٥٣) كتاب الجنة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٧٣) باب حُسن الخُلق

۞ ما أجمل أن يتخلق المسلم بأخلاق الرسول ﷺ الذى ربَّاه الحق (جل وعلا) وصنعه على عينه ليُربى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان .. بل وأثنى عليه الحق (جلَّ وعلا) بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

۞ فإذا تخلَّق المسلم بأخلاق الرسول ﷺ كان حَسَن الخُلق مع الله (جلَّ وعلا) ومع الناس فى آنٍ واحدٍ.

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أما حسن الخلق مع الله: فهو الرضا بحكمه شرعًا وقدرًا، وتَلَقِّى ذلك بالانشراح وعدم التضجُّر، وعدم الأسى والحزن...فإذا قدر الله على المسلم شيئًا يكرهه رضى بذلك واستسلم وصبر، وقال بلسانه وقلبه: رضيت بالله ربًّا... وإذا حكم الله عليه بحكم شرعى؛ رضى واستسلم، وانقاد لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ بصدرٍ مُنشرح ونفسٍ مُطمئنة... فهذا حُسن الخلق مع الله عَزَّوَجَلَّ.

أما مع الخَلق: فيُحسن الخُلق معهم بما قاله بعض العلماء: كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقه الوجه.

كَفُّ الأذى: بألا يؤذى الناس لا بلسانه ولا بجوارحه... وبذل الندى يعنى العطاء، فيبذل العطاء من مالٍ وعلمٍ وجاهٍ وغير ذلك... وطلاقة الوجه بأن يَلقى الناس بوجهٍ منطلق، ليس بعبوس، ولا مُصعِّرٍ خده، وهذا هو حسن الخلق.

ولا شك أن الذى يفعل هذا؛ فيكف الأذى ويبذل الندى ويجعل وجهه منطلقًا؛ لا شَكَّ أنه سيصبر على أذى الناس أيضًا، فإن الصبر على أذى الناس لا شك أنه من حُسن الخُلق... فإن من الناس مَن يؤذى أخاه، وربما يعتدى عليه بما يضرّه..بأكل ماله، أو جحد حَقٍّ له، أو ما أشبه ذلك، فيصبر ويحتسب الأجر

من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعاقبة للمتقين، وهذا كله من حسن الخلق مع الناس(١).

۞ وتأملوا معى قول الله (جل وعلا) فى سورة البقرة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- فعرَّف الله عَزَّوَجَلَّ البرَّ بأنه الإتيان بكل هذه الاعتقادات والعبادات.

- فإذا جمعت بين هذه الآية وبين قول النبى ﷺ: «**البر حسن الخلق**» علمت أن حُسن الخلق له مفهوم أوسع وأشمل مما نظن ونعتقد.

- وستجد أن حُسن الخلق يشتمل على: حُسن الخلق مع الله... حُسن الخلق مع رسول الله ﷺ... حُسن الخلق مع كتاب الله (جل وعلا)... حُسن الخلق مع الملائكة... حُسن الخلق مع الناس.

- فحُسن الخلق كلمة جامعة لكل ذلك.

۞ فأما حُسن الخلق مع الله فذلك بأن نُحقق العبودية لله ولا نشرك به شيئًا وأن نمتثل للأمر والنهى... وذلك بأنه إذا جاء الأمر من عند الله فليكن شعارنا: سمعنا وأطعنا... وإذا جاء النهى من عند الله فليكن شعارنا: سمعنا وانتهينا.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

۞ وأما حسن الخلق مع رسول الله ﷺ فذلك بأن نحبه ونتبعه ونمتثل أمره ﷺ ولا نُقدم بين يدى الله ورسوله ﷺ ولا نرفع أصواتنا فوق صوت النبى ﷺ.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٩٨).

۞ وأما حُسن الخلق مع كتاب الله (جل وعلا) فذلك بأن نقرأه ونتدبره ونعمل بما فيه ونتحاكم إليه فى كل صغيرة وكبيرة.

۞ وأما حُسن الخلق مع الملائكة فذلك بأن يعلم كل واحدٍ منا بأن معه ملائكة لا تفارقه وتكتب عليه كل أقواله وأعماله فيتولد عنده الحياء من أن يفعل معصية يكتبها عليه الملك الموكل بذلك.. بل يحرص على فعل الحسنات التى تقربه من الله (جل وعلا).

۞ وأما حُسن الخلق مع الناس فذلك بأن تكون طليق الوجه رحيمًا متسامحًا لينًا فى دعوتك مع البَر والفاجر ولكن من غير مداهنة ... فقد قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام حينما أمرهما بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه:٤٤]... فأنت لست أفضل من موسى وهارون عليهما السلام... ومَن تدعوه ليس بأخبث من فرعون.

۞ فالشاهد من كل هذا أن مفهوم حُسن الخلق أوسع وأشمل مما نتخيل.



۞ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤].

أكتفى هنا بذكر ما قاله الشيخ السعدى رحمه الله فى تفسير تلك الآية الكريمة التى زَكَّت خُلُق النبى ﷺ تزكية عظيمة، ليس قبلها ولا بعدها تزكية، إذ قال رحمه الله ما نَصُّه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ أى: عاليًا به، مُستعليًا بخُلقك الذى مَنَّ الله عليك به... وحاصل خُلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين، عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه، فقالت: «كان خُلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثَّات على الخُلق العظيم فكان له منها أكملها وأجلُّها، وهو فى كل خصلة منها، فى الذروة العليا، فكان ﷺ سهلًا ليِّنًا، قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة مَن استقضاه، جابرًا لقلب مَن سأله... لا يحرمه، ولا يرده خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من مُحسنهم، ويعفو عن مُسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا له إلا أتم عِشرة وأحسنها، فكان لا يعبس فى وجهه، ولا يغلظ عليه فى مقاله، ولا يطوى عنه بِشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يُحسن إلى عشرته غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ[1].

(٦٢٦) وعَنْ أَنسٍ رضي الله عنه قال: كانَ رَسُولُ الله ﷺ أَحسنَ النَّاسِ خُلقًا[2].

۞ لقد اجتمعت فى رسول الله ﷺ خصال الخير من حياءٍ وكرمٍ وشجاعةٍ ووفاء ونجدة وشهامة وحُسن استقبال وحلم وإكرام يتيم وحُسن سريرة وصدق حديث وعفة وطهارة وزكاء نفس وسائر خصال الخير.

۞ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: جمع النبى ﷺ بين تقوى الله وحُسن الخُلق، لأن تقوى الله تُصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه... فتقوى الله تُوجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته[3].

۞ وقد سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلُق النبى ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[4].

(١) تفسير السعدى (ص ٨٧٩).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٠٣) كتاب الأدب، ومسلم (٢١٥٠) كتاب الآداب.
(٣) الفوائد (ص: ٧٥).
(٤) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين.

وصفٌ موجز وبليغٌ تصف به أم المؤمنين الفقيهة العالمة رسول الله ﷺ!

وصفٌ شامل وجامع، «كان خُلقه القرآن» صلوات ربي وسلامه عليه.

خُلقه هذا القرآن الذي ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، و﴿يَهْدِيَ إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ٢].

۞ خلقه القرآن، ذلكم الكتاب الذي: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

۞ لقد كانت أخلاقه ﷺ عظيمة مع أصحابه وأعدائه وفي بيته وخارج بيته ومع القريب والبعيد. فكان لا يعامل الناس بأخلاقهم بل كان يتحمل سوء أخلاقهم ويعاملهم بأخلاقه هو ﷺ... حتى شهد له أعداؤه قبل أحبابه.

فها هو أبو سفيان رضي الله عنه الذي كان زعيمًا للمشركين ومع ذلك فقد شهد للنبي ﷺ بُحسن الخلق قبل أن يُسلم أبو سفيان.. بل قال له عند إسلامه: «والله إنك لكريم، ولقد حاربتك فنعم مُحاربي كنت، ثم سالمتك فنعم المُسالم أنت، فجزاك الله خيرًا»(١).

۞ بل لا أكون مبالغًا إذا قُلت أن أعداءه قد انبهروا بأخلاقه فكان ذلك سببًا في اعتناقهم لهذا الدين العظيم.

فها هو ملك عُمان المعاصر لرسول الله ﷺ وهو الجُلَنْدى(٢)؛ الذي انبهر بأخلاقه ﷺ، فقال: «والله لقد بلَغني عن هذا النبي الأُمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذٍ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تاركٍ له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويُغلَب فلا يضجر، ويفي بالعهد وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي»(٣).

۞ وهذا هو السر في أن النبي ﷺ قد اشتهر بين قومه بأنه الصادق الأمين..

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني: معرفة الصحابة (٣/ ١٥٠٩).

(٢) الجلندى: مَلِك عمان بعث إليه رسول الله ﷺ عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام.
انظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة (١/ ٥٣٨) ترجمة رقم (١٢٩٨).

(٣) الشفا/ للقاضي عياض (١/ ٢٤٨).

وحينما أراد المشركون أن يفتروا على النبى ﷺ وأن يصفوه بما ليس فيه قالوا عنه كلامًا كثيرًا كله ظُلم وبُهتان لكن لم يستطع واحدٌ منهم بأن يصفه بأنه كذاب أو خائن.

- وليس هناك أدل على ذلك من أن الواحد منهم كان إذا أراد أن يحفظ شيئًا ثمينًا من ممتلكاته فإنه كان لا يجد إلا النبى ﷺ فيضعها عنده.. لأنه يعلم أن النبى ﷺ لا يكذب ولا يخون.

ولذلك فإن النبى ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة طلب من على بن أبى طالب رضي الله عنه أن ينام مكانه ليرد تلك الأمانات لأصحابها.

۞ ولم يكن الأمر قاصرًا على قريش فحسب.. بل كان العرب جميعًا يشهدون للنبى ﷺ بحسن الخلق وبدعوته إلى حسن الخُلق.

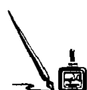
۞ ولم تكن أخلاق النبى ﷺ مع قومٍ دون قومٍ بل كان حسن الخلق مع الغنى والفقير ومع السادة والعبيد.. فكان يحب المساكين ويُجالس الفقراء ويزور أصحابه ويُلبِّى الدعوة ويعود المرضى ويشهد الجنائز وتسير به الأَمة فى شوارع المدينة أينما شاءت.

وبالجملة فقد كان رحيمًا بكل مَن حوله دائم الابتسامة مُتهلل الوجه كثير العفو عمَّن أساء إليه وظلمه.

۞ وكان النبى ﷺ يستمد أخلاقه من القرآن فقد كان النبى ﷺ قرآنًا يمشى على الأرض ... لذلك قالت أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سألها سعد بن هشام بن عامر رضي الله عنه عن خُلُق رسول الله ﷺ: ألست تقرأ القرآن؟ قلتُ: بلى. قالت: فإن خُلق نبى الله ﷺ كان القرآن[1].

۞ ومع كل هذا فقد كانت أخلاقه متكافئة بحيث لا يطغى خُلقٌ على خُلقٍ

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.



آخر ... فكان حياؤه مثل ورعه وكان صدقه مثل حلمه وكان صبره مثل شجاعته وكان توكله مثل إحسانه وكانت أمانته مثل كرمه وكان وفاؤه مثل رحمته.. وهكذا.

۞ ولو أردت أن أتكلم عن أخلاق النبى ﷺ حتى آخر لحظة من عمرى ما استطعت أن أوفيه حقه ﷺ.

وحسبُه أن الله (جل وعلا) وصفه بأعظم وصفٍ فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤][١].

(٦٢٧) وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: مَا مَسَسْتُ دِيباجًا ولاَ حَرِيرًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رسُولِ اللهِ ﷺ وَلاَ شَمَمْتُ رائحَةً قَطُّ أَطْيَبَ مِن رَائحَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَلَقَد خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عشْرَ سِنينَ، فَما قَالَ لى قَطُّ: أُفٍّ، وَلا قالَ لِشَىْءٍ فَعلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟ وَلاَ لشىءٍ لَمْ أفعَلْهُ: أَلاَ فَعَلْتَ كَذا؟[٢].

۞ كان أنس بن مالك رضي الله عنه قد خدم النبى ﷺ عشر سنين؛ جاءت به أمه حين قَدِمَ النبى ﷺ المدينة، فقالت: يا رسول الله، هذا أنس بن مالك يخدمك... فقَبِلَ ﷺ أن يخدمه ، ودعا له أن يبارك الله له فى ماله وولده، فبارك الله له فى ماله وولده، حتى قيل إنه كان له بستان يُثمر فى السنة مرتين، من بركة المال الذى دعا له رسول الله ﷺ به... أما أولاده فبلغوا مائة وعشرين ولدًا...كل هذا ببركة دعوة النبى ﷺ.

يقول: إنه ما مَسَّ ديباجًا ولا حريرًا ألين من يد رسول الله ﷺ فكانت يده ﷺ لينة إذا مسَّها الإنسان فإذا هى لينة.

---

(١) نقلًا من كتاب (محمد رسول الله ﷺ) / للشيخ محمود المصرى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٥٦١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٣٠) كتاب الفضائل.

وكما ألان الله يده فقد ألان الله سبحانه وتعالى قلبه.

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ يعني صرت لينًا لهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] (١).

۞ **أما قول أنس** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ: (والديباج نوع من أنواع الحرير)، قال ابن حجر في الفتح: لا تَعارُض بين هذا الحديث وما رواه أنس أنه كان ضخم اليدين والقدمين وأنه كان شثن الكفين والقدمين أي غليظهما في خشونة... والجمع بينهما، أن المراد اللين في الجلد والغلظ في العظام فيجتمع له نعومة البدن وقوته.

وأعتقد أن من ضمن ما حبا الله به كف نبيه ﷺ بما يُلائم ليونته، ويزيد الكف جمالًا على جماله، أن جعل الله سبحانه وتعالى هذا الكف أبرد من الثلج... فقد روى البخاري: «عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ولا مسست خزة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب رائحة من رائحة رسول الله ﷺ» فاليد أطيب من المسك والجلد ألين من الحرير والملمس أبرد من الثلج، فهل بقي بعد ذلك شيء.

وهذا أيضًا من أنواع الكمال والجمال البشري الذي حبا الله به نبيه ﷺ، فلو اقتصر الأمر على ليونة ونعومة اليد لكان نقصًا في الكمال، ولو اقتصر على الغلظ في العظام لكان نقصًا في الجمال، وفيه أيضا إظهار لكمال قدرة الله في الخلق... إذ خلق الأشياء في أحسن صورة وأجملها مع مناسبتها تمامًا لما خُلقت من أجله، وهذا يتحقق في خلقة الناس على تفاوت.

وتأمل كيف كان النبي ﷺ في عيون الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: ما كانوا يرون أحدًا

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٠٠).

أجمل منه وجهًا، ولا ألين منه كفًّا، ولا أطيب منه رائحة. ورؤيتهم له على هذا الوجه، يدل على حبهم الشديد له وصفاء قلوبهم؛ لأن القلب الصافى من الشبهات هو الذى يرى الأشياء على حقيقتها... انظر إلى كفار مكة لظُلمة قلوبهم لم يروا النبى ﷺ، كما رآه الصحابة، ألم تسمع إلى قول الصحابى الجليل عمرو بن العاص، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالًا له ولو سُئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينى منه)[(١)(٢)].

۞ **وأما قول أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ».

فلقد كان النبى ﷺ أطيب الناس رائحة حتى كان عرقه ﷺ أطيب من رائحة المسك .. وكان الصحابة يتبركون بعرقه ﷺ.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: (كان النَّبيُّ ﷺ يدخل بيت أمّ سُليم فينام على فراشها وليست فيه. قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأُتيت. فقيل لها: هذا النَّبيُّ ﷺ نام فى بيتك على فراشك. قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدتها[(٣)]، فجعلت تُنشّف ذلك العرق، فتعصره فى قواريرها، ففزع النَّبيُّ ﷺ فقال: «**ما تصنعين يا أُمّ سليم؟**» فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا. قال: «**أصبتِ**»[(٤)].

الشاهد فى الحديث: قول أم سليم: (يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا).

۞ **بعض فوائد الحديث:**

(١) عظيم بركة عرقه وشعره ﷺ حيث رَدَّ النبى ﷺ على أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.
(٢) نقلًا عن (شمائل الرسول ﷺ).
(٣) العتيدة: وعاء يوضع فيه ما يشرف ويعظم من المتاع.
(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣١) كتاب الفضائل.

قالت (يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا) . بقوله: «**أصبتِ**» .

أى أن النبى ﷺ قد أقرَّ أم سليم، على كل ما فعلت، من عصر العرق الذى تَصبَّب منه على قطعة الأديم التى كان النبى ﷺ ينام عليها، ووضع ذلك العرق فى قوارير لحفظه.

(٢) طيب عرقه ﷺ حيث كانت أم سليم رضي الله عنها تأخذ هذا العرق فتخلط به طِيبها - عطرها- ... ورد عند البخارى: (فإذا نام النبى ﷺ أخذت من عرقه وشعره فجمعته فى قارورة ثم جمعته فى سُكٍّ) . والسُّك هو طِيبٌ مُركَّب.

وعند مسلم: (هذا عرقك نجعله فى طِيبنا وهو من أطيب الطيب) ، أى أن عرقه ﷺ كانوا يطيبون به الطيب - العطر -.

(٣) لم يكن هذا التعظيم لآثار النبى ﷺ من قِبَل أم سليم وحدها، بل كان من قِبَل أنس بن مالك، رضي الله عنه؛ إذ أوصى عند موته أن يُجعل فى حنوطه، وهو العطر الذى يُطيب به الميت، من الطيب الذى كان يخلط به عرق رسول الله، ﷺ ... فعند البخارى من حديث ثمامة: (فلما حضر أنس بن مالك الوفاة أوصى إلىَّ أن يُجعل فى حنوطه من ذلك السُّك، قال: فجُعل فى حنوطه) ، ولولا أن الأمر كان يشغله ويهتم به فى أوقات صحته، ما تذكره يوم وفاته رضي الله عنه. وتدبر أخى القارئ كم مكث هذا الطيب عقودًا طويلة عند أنس رضي الله عنه حتى مات[1].

وتأمل أخى القارئ كم يصرف أصحاب المناصب والوجاهة من أموال لتكون لهم رائحة زكية عطرة تُعجب الناس فلا يتقززون منهم، وكم تمكث هذه الرائحة الزكية، ثم ما تلبث أن تذهب وتخرج الرائحة الكريهة إذا لم يتدارك الإنسان نفسه، فضلًا عن اضطراره إلى الاغتسال صباحًا ومساءً ليحافظ على رائحته الجميلة، ولكن الله، سبحانه وتعالى، قد كفى نبيه ﷺ مؤونة ذلك، فما

---

(١) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح (٢/ ٣٣٠-٣٣٢) بتصرف كبير.

كان يزيده العرق إلا جمالًا فى الوجه وطيبًا فى الرائحة، إذن ما احتاج النبى ﷺ أبدًا أن يغتسل ليذهب أثر العرق، كما يفعل بقية الخلق، ولا نعلم أحدًا يُشابهه فى ذلك إلا أهل الجنة الذين سَلِمُوا من كل سوء ومكروه... حيث ورد عند البخارى من حديث أبى هريرة عن بعض صفات أهل الجنة: «**ورشحهم المسك**»(١). فسبحان الله العظيم، الذى جمع لنبيه ﷺ، حسن الخُلق والخلقة، وجمال الباطن والظاهر(٢).

۞ **ثم قال أنس** رضي الله عنه: (ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لى قط: أُفٍّ) عشر سنوات وهو يخدم النبى ﷺ، وهو صبى صغير لابد أن يُخطئ، ولا بد أن يفعل أشياء تضايق النبى ﷺ... فقد كان أحيانًا يرسله ليأتيه بشىء، فيذهب ويلعب وينسى الشىء الذى أمره به النبى ﷺ..ويأتى إليه النبى ﷺ ويقول: يا غلام! فيستحيى أنس من النبى ﷺ، فيقول له النبى ﷺ: اذهب لما أمرتك، ولا يقول له أكثر من ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

(ولا قال لشىء فعلته لِمَ فعلته) أى: لم يقل له: ما الذى جعلك تفعل كذا، (ولا لشىء لم أفعله) أى: تلكأ فيه، ولم يفعله، (ألا فعلت كذا!) فكان ﷺ لا يزجره وإن أخطأ رضي الله عنه... هذا فعله مع خادم عنده ﷺ، فكيف بفعله مع باقى الناس!

فكان عليه الصلاة والسلام يُعامله بما أرشده الله سبحانه وتعالى إليه فى قوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أتدرون ما العفو؟ العفو ما عفا من أخلاق الناس وما تيسر... يعنى: خُذ من الناس ما تيسر، ولا تريد أن يكون الناس لك على ما تريد فى كل شىء.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٢٤٦) كتاب بدء الخلق.

(٢) شمائل الرسول ﷺ (١/ ١٩٤).

مَن أراد أن يكون الناس له على ما يريد فى كل شىء فاته كل شىء، ولكن خُذ ما تيسر... عامل الناس بما إن جاءك قَبِلت، وإن فاتك لم تغضب، ولهذا قال: «ما قال لشىء لم أفعله: لِمَ لَمْ تفعل كذا، وكذا؟» وهذا من حُسن خلقه عليه الصلاة والسلام.



(٦٢٨) وعَنْ الصَّعبِ بنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أَهْدَيْتُ رسُولَ الله ﷺ حِمَارًا وَحشِيًّا، فَرَدَّهُ علىَّ، فلمّا رأَى مَا فى وَجْهى قالَ: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إلاَّ لأَنَّا حُرُمٌ»[1].

۞ فمن حُسن خُلقه ﷺ أنه كان لا يُداهن الناس فى دين الله، ولا يفوته أن يُطيب قلوبهم...فالصعب بن جَثَّامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرَّ به النبى ﷺ، والنبى ﷺ مُحرِم، وكان الصعب بن جثامة عَدَّاءً راميًا... عدَّاءً: يعنى سَبوقًا، راميًا: يعنى يجيد الرمى.

فلما نزل به النبى ﷺ ضيفًا رأى أنه لا أحد أكرم ضيفًا منه، فذهب يصيد للرسول ﷺ صيدًا، فصاد له حمارًا وحشيًّا وجاء به إليه فردَّه النبى ﷺ فَصَعُبَ ذلك على الصعب؛ كيف يرد النبى ﷺ هديته؟ فتغير وجهه، فلما رأى ﷺ ما فى وجهه طيَّب قلبه وقال: «**إنَّا لم نَرُدَّه عليك إلا أنَّا حُرُم**» يعنى مُحرِمون...والمُحرم لا يأكل من الصيد الذى صِيد من أجله.

فلو أن مُحرمًا مَرَّ بك وأنت فى بلدك وهو مُحرم وصِدت له صيدًا أو ذبحت له صيدًا عندك، فإنه لا يحل له أن يأكل منه، وذلك لأنه ممنوع من أكل ما صِيد من أجله، أما إذا لم تَصِده من أجله، فالصحيح أنه حلال له إذا لم تَصِده لأجله.

ولهذا أكل النبى ﷺ من الصيد الذى صاده أبو قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لأن أبا قتادة لم يصده من أجل الرسول ﷺ...وهذا أحسن ما قيل فى هذه المسألة، إنه إذا صِيد الصيد من أجل المُحرم كان حرامًا عليه، وإن صاده الإنسان لنفسه وأطعم منه

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٨٢٥) كتاب الحج، ومسلم (١١٩٣) كتاب الحج.

المُحرم فلا بأس[١].

وهذا القول فيه التلطُّف فى الاعتذار، وعدم إيقاع الغير فى الاعتذار بالكذب، لعله يقول له ﷺ: أنا خائف أنك تكون اصطدته من أجلى، فيقول: لا، لم أصطده من أجلك، ويكون قد صاده فعلًا من أجله، ولكن الحياء منعه أن يقول ذلك... لذلك قال الكلمة اللطيفة منه ﷺ: «**إنَّا لم نرده عليك إلا أنَّا حُرم**».

ففيه أن الإنسان إذا أُهدى له هدية، ولم يكن عليه شىء فى قبولها، فليقبل الهدية، فإذا تأذَّى منها أو ظن من ورائها شيئًا، تلطَّف فى الاعتذار.

(٦٢٩) وعَنْ النَّوَّاسِ بنِ سمعانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألْتُ رسُولَ الله ﷺ عنِ البرِّ والإثمِ فقالَ: «البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ، والإِثم: ما حاكَ فى نَفْسِكَ، وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٩٥) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(٦٣٠) وعَنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لم يَكُنْ رسول الله ﷺ فَاحِشًا ولا مُتَفَحِّشًا. وكانَ يَقُولُ: «إنَّ مِن خِيارِكُم أَحسَنَكُم أَخْلاقًا»[٣].

۞ **يُقال**: فلانٌ فاحش، أى: بطبعه، فطبعه فيه الفحش.

(ولا متفحشًا) أى: متكلفًا لذلك.

أما رسول الله ﷺ فقد كان أبر الخلق، لا هو فاحش بطبيعته، ولا يتكلف

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٠١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٣) كتاب البر والصلة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٥٥٩) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٢١) كتاب الفضائل.

ذلك (عليه الصلاة والسلام)، فهو أنقى الناس لسانًا وقلبًا.

وفى الحديث بقية وهو قوله ﷺ: «**إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا**» أى: إن من خيار الناس فى الناس أحاسنهم أخلاقًا.

وفى هذه الأحاديث بيان صفة الرسول ﷺ وأنه «لم يكن فاحشًا ولا مُتفحشًا»، يعنى: أنه ﷺ بعيد عن الفُحش طبعًا وكسبًا، فلم يكن فاحشًا فى نفسه ولا فى غريزته بل هو لينٌ سهل، ولم يكن مُتفحِّشًا أى: متطبع بالفحشاء، بل كان ﷺ أبعد الناس عن الفُحش فى مقاله وفى فِعاله ﷺ.

وكان ﷺ يقول: «**إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا**» وهذا فيه الحثُّ على حسن الخلق، وأنه من أثقل ما يكون فى الميزان يوم القيامة... وهذا من باب الترغيب فيه... فعليك يا أخى المسلم أن تُحسن خلقك مع الله عَزَّوَجَلَّ، فى تلقِّى أحكامه الكونية والشرعية، بصدرٍ مُنشَرحٍ منقادٍ راضٍ مُستسلمٍ، وكذلك مع عباد الله فإن الله تعالى يحب المحسنين.

❊ ❊ ❊

(٦٣١) وعَنْ أبى الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النبيَّ ﷺ قالَ: «ما من شَىءٍ أَثْقَلُ فى ميزَانِ العَبدِ المُؤمِنِ يَومَ القِيامة من حُسْنِ الخُلُقِ. وإِنَّ الله يُبغضُ الفَاحِشَ البَذِىَّ»(١).

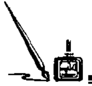
۞ من المعلوم أنه بعد أن ينتهى الحساب يوم القيامة بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ تُنصب الموازين يوم القيامة.. وذلك لأن الوزن يكون للجزاء.. والمحاسبة لتَقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

والميزان أمرٌ غيبى نؤمن به.... فتُوزن أعمال العباد يوم القيامة وتُوزن صحائف الأعمال ويُوزن ثواب العمل ويُوزن العامل نفسه.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٢٦).

«البَذِىُّ»: هُوَ الَّذِى يتكلَّمُ بِالفُحشِ وردىء الكلامِ.



ولا شك أن أعظم ما يُثقل ميزان العبد يوم القيامة هو: (لا إله إلا الله) ... وقد أخبر النبى ﷺ أن هناك ما يُثقل الميزان يوم القيامة مثل تسبيح الله وحمده فقال ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِى المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»(١).. وكذلك كلمة الحمد لله.. كما قال ﷺ: «...**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ**»(٢).

لكن النبى ﷺ فى هذا الحديث يخبر أن أكثر ما يُثقل ميزان العبد يوم القيامة هو حُسن الخلق بمفهومه الشامل: ألا وهو حُسن الخلق من الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والرضا بقضائه وقدره والإكثار من ذكره.. وحُسن الخلق مع رسول الله ﷺ بتصديقه واتباعه ومحبته.. وحُسن الخلق مع الناس ببذل الندى وكفِّ الأذى والصبر عليهم وبسط الوجه وغير ذلك.

۞ فحُسن الخلق هو أكثر ما يُثقل ميزان العبد يوم القيامة بعد (لا إله إلا الله)... ولذا قال النبى ﷺ بعد ذلك: «**وإِنَّ الله يُبغضُ الفَاحِشَ البَذِىَّ**».

فالإنسان إذا كان لسانه بذيئًا فاحشًا يبغضه الله سبحانه وتعالى، وإن أحبه البعض ممن هم على شاكلته، فإن الطيور على أشكالها تقع، فالإنسان البذىء محبوب إلى أهل البذاءة والسفاهة، ولكنه بغيضٌ إلى أهل الإيمان.

لذلك فإن الإنسان المؤمن، عفيف اللسان، إذا تكلم فصوته منخفض، لا يتكلم بالفُحش من القول، ولا يشتم أحدًا، ولا يسب أحدًا، ولا يلعن شيئًا... فالمؤمن حسن الخلق لأن أسوته وقدوته النبى محمد ﷺ الذى قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

۞ وهنا وقفة لطيفة جدًّا فى هذا الحديث وهى قوله ﷺ: «**ما من شَىءٍ أَثْقَلُ**

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦٤٠٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٤) الذكر والدعاء.
(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.

في ميزانِ العَبْدِ المُؤمِنِ» فجاء التقييد هنا بالمؤمن دون الكافر لأن الكافر لا يُوزن عمله لأنه لا طاعة له لتوزن في مقابلة كفره.. ولو كان هناك خيرٌ أو معروف أو حتى طاعة فإن الشرك والكفر يحبطان أي طاعة.. وهناك رأيٌ آخر لأهل العلم أن الكافر توزن طاعاته أو المعروف الذي فعله في الدنيا كبِرِّ الوالدين وصلة الرحم والإنفاق على الفقراء وغيرها ويُخفَّف عنه بها من عذاب النار وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد حرَّم الجنة على الكافرين وجعلها خالصة للمؤمنين.



(٦٣٢) وعَنْ أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنْ أكثر مَا يُدخلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ قال: «تَقْوى الله وَحُسنُ الخُلُق» وَسُئِلَ عن أكثرِ مَا يُدخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ: «الفَمُ وَالفَرجُ»[1].

۞ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ سُئل عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ وهذا دليل على حرص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الفوز بالجنة وبرضوان رب الجنة عَزَّوَجَلَّ ... فتجدهم لا يسألون عن أفضل الوسائل للحصول على المال والثراء أو للوصول إلى أعلى المناصب وإنما يسألون عن أحب الأعمال إلى الله ويسألون عن أكثر ما يُدخل الجنة.. فهناك أعمالٌ كثيرة جدًّا تُدخل الجنة لكنهم يعلمون أن العمر قصير فيسألون عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة.. فكان الجواب المختصر المفيد من النبي ﷺ المُؤيَّد بالوحي من السماء فقال لهم: **«تَقْوى الله وَحُسنُ الخُلُق»**.

قال الإمام ابن القيم: جمع بينهما لأن تقوى الله تُصلح ما بين العبد وبين ربه، وحُسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه.

والتقوى: هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل.. وهي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.. وحُسن

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٧٧).

الخلق يتضمن حُسن الخلق مع الله ومع رسوله ﷺ ومع الناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم.. وذلك لقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ولقول النبي ﷺ: «**وخالق الناس بخُلقٍ حسن**» ولم يَقُل المسلمين فقط.

۞ **فأكثر ما يُدخل الناس الجنة**: تقوى الله وحُسن الخلق.. وفي المقابل فأكثر ما يُدخل الناس النار: الفم والفرج.

وذلك لأن الفم يحتوى على اللسان الذى يأتى منه الخير الكثير كالذكر وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والكلمة الطيبة.. وفى نفس الوقت يصدر منه الكذب والغيبة والنميمة وقذف المحصنات والسب واللعن والشتم وغير ذلك مما أشار إليه الشارع بقوله «**هل يكب الناس فى النار على وجوههم- أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم**» وبقوله: «**وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يُلقى لها بالًا تهوى به فى النار سبعين خريفًا**».

وكذلك قد يأكل الإنسان حرامًا عن طريق فمه فيكون سببًا فى دخوله النار.

۞ وأما الفرج فيصدر منه الزنا واللواط -عياذًا بالله-.

ولهذا سدَّ النبى ﷺ كل باب يكون سببًا لهذه الفاحشة، فمنع من خلوة الرجل بالمرأة، ومنع المرأة من كشف وجهها أمام الرجال الأجانب، ونهى المرأة أن تخضع بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض، إلى غير ذلك من السياج المنيع الذى جعله النبى ﷺ حائلًا دون فعل هذه الفاحشة.

لأن هذه الفاحشة تدعو إليها النفس، فهذا أكثر ما يُدخل الناس النار: أعمال اللسان، وأعمال الفرج.

ولهذا قال النبى ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِى مَا بَيْنَ لَحيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»(١).

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

فما بين لَحييه هو الفم واللسان.. وذلك بأن تصون لسانك عن كل الآفات والمهلكات وتصون الفم عن أكل الحرام..

وأما ما بين رجليه فهو الفرج.. وذلك بأن تصونه عن فعل الفواحش ولا تستعمله إلا فى النكاح الحلال.

(٦٣٣) وعَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤمِنِينَ إِيمَانًا أَحسَنُهُم خُلُقًا، وخيارُكُم خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٦٣٤) وعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الْمؤْمِنَ لَيُدركُ بِحُسنِ خُلُقِه درَجةَ الصائمِ القَائمِ**»[2].

۞ إذا كان يوم القيامة وقف أهل الإيمان والطاعة على أبواب الجنة ينتظرون أن يُؤذَن لهم بدخول الجنة خلف النبى محمد ﷺ.. فمن كان من أهل الصلاة دخل من باب الصلاة.. ومَن كان من أهل الصيام دخل من باب الريان ومَن كان من أهل الزكاة دخل من باب الزكاة.

فيأتى المؤمن الذى أدَّى الفرائض والرواتب لكنه قد لا يكون مُكثرًا من النوافل.. سواء كانت نوافل الصلاة كقيام الليل أو نوافل الصيام كصيام النوافل ولكنه حَسَن الخُلق.. فيأتى هذا الرجل المؤمن حَسن الخلق فيدخل الجنة مع هؤلاء الذين أكثروا من نوافل الصلاة والصيام ويكون معهم فى درجاتهم العُليا فى الجنة..

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٣٢).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٣٢).

فما ظنك لو كان المؤمن حسن الخُلق وفى نفس الوقت كان مجتهدًا فى قيام الليل وصيام النوافل؟!.. نسأل الله من فضله.

(٦٣٥) **وعَنْ أبى أُمَامَة الباهِلِىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنا زَعيمٌ ببيتٍ فى رَبَضِ الجنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِراءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَببيتٍ فى وَسَطِ الجنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ، وإن كَانَ مازِحًا، وَببيتٍ فى أعلى الجَنَّةِ لِمَن حَسُنَ خُلُقُهُ»**[1].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى الصادق المصدوق ﷺ أنه زعيمٌ أى: ضامن وكفيل ببيتٍ فى ربض الجنة لمن ترك المِراء وإن كان مُحقًّا.. والربض: هو الحوش الذى يكون خارج البيت.. والجنة لا يوجد أحد يكون خارجها، بل كلهم داخل الجنة، وكأنه يقصد هنا أسفل الجنة.

والجنة درجات بعضها فوق بعض، والنار دركات بعضها تحت بعض.

فربض الجنة هنا أدنى منزلة فى الجنة، ويعلوها أوسط الجنة، وأعلاها أعلى الجنة...فالنبى ﷺ وعد أنه زعيم، وأنه ضمين وكفيل ببيتٍ فى أدنى الجنة. (لمن ترك المراء) أى: الجدل .. حتى وإن كان هو على الحق وخصمه على الباطل.

فالنبى ﷺ ينهى عن الجدال لأنه لا يأتى بخيرٍ... فالإنسان الذى يجادل بحقٍّ أو بباطل، ينهاه النبى ﷺ عن ذلك؛ لأن المراء لا يأتى بخير، والإنسان حين يجادل فى مسألة علمية إما أن يجادل أهل العلم، أو يجادل الناس ليُظهر أنه أفضل منهم، فمن كان يجادل الناس، ويمارى السفهاء بالعلم، مصيره النار والعياذ بالله... والإنسان الذى يمارى العلماء ليظهر قدر نفسه، وليرى الناس أنه أعلى منهم، وأفضل منهم، مصيره النار والعياذ بالله.

---

(١) حسن: رواه أبو داود ، والضياء، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٦٤).
«الزَّعِيمُ» : الضَّامِنُ.

وأما الذى يجادل ليُحق الحق، ويجادل أهل الباطل ليعلمهم الحق، ويرد عليهم ما يقولون، فهذا يستحق الثواب.

ولذا قال النبى ﷺ: **«مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِىَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَو يُجَارِىَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَو يَصرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدخَلَهُ اللهُ جَهَنَّمَ»**(١).

فالجدال لا يأتى بخيرٍ بل يُوغر الصدور ويشعل نار العداوة بين الناس.. ولذلك أوصى النبى ﷺ بترك الجدال الذى يجلب العداوة ولا يُظهر حقًّا.. أما المناظرة العلمية التى يهدف الطرفان من ورائها إظهار الحق والالتزام به فلا بأس بها...

أما إن وصل الأمر إلى جدالٍ عقيم لا يُراد من ورائه إظهار الحق ولا يقبل الطرف المُخطئ أن يُذعن للحق.. فعلى الطرف الذى معه الحق أن يترك الجدال فقد ضمن له النبى ﷺ بيتًا فى ربض الجنة إن ترك الجدال الذى لا فائدة من ورائه رغم أنه على الحق.

۞ **«وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا»** أى: لا يكذب ولو مازحًا ... فهذا الذى يمزح فيقول كلامًا كذبًا، يقول له النبى ﷺ: أنا كفيل لك إن تركت الكذب جادًّا أو مازحًا ببيتٍ فى وسط الجنة ...لا تكذب إلا فيما يجوز: فى الإصلاح بين الناس، وفى كلام الرجل مع امرأته، وفى الكذب فى الحرب.. فالحرب خدعة، لكن غير ذلك لا يجوز الكذب فيه، فيترك الكذب مازحًا أو جادًّا.

۞ **قال: «وببيتٍ فى أعلى الجنة لمن حَسُن خُلقه»**.

فبحُسن الخلق ينال أعلى الدرجات.

فالإنسان الذى حسن خلقه حين يمر على الصراط فإن حسن خلقه يدفعه سريعًا حتى يتجاوزه، ويدخل الجنة، ويأتى على أبواب الجنة، ويسابق أهل

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٥٨).

الصيام، وأهل الصلاة وأهل الطاعات بحسن خلقه.

هذا الإنسان الذى حَسُن خُلقه، إذا دخل الجنة، صعد إلى أعلى الجنة بفضل الله أولًا ثم بحسن خلقه، وإذا كان فى أعلى الجنة كان قريبًا من النبى ﷺ بحُسن خلقه، وأقرب الناس من النبى ﷺ أحاسنهم أخلاقًا، فانظر إلى حسن الخلق كيف جمع الخير كله فى الدنيا والآخرة... نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُحسن أخلاقنا.

(٦٣٦) وعَنْ جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَن رسول الله ﷺ قال: «إِن مِنْ أَحَبِّكُم إِلىَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّى مَجلسًا يومَ القِيَامَةِ، أَحَاسِنَكُم أَخلاقًا. وإِنَّ أَبغَضَكُم إِلىَّ وَأَبْعَدكُم مِنِّى يومَ الْقيامة، الثَّرثَارُونَ والمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ» قالوا: يا رسول الله قَد عَلِمْنَا الثرثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قال: «المُتكَبِّرُونَ»[(١)].

۞ **«إِن مِنْ أَحَبِّكُم إِلىَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّى مَجلسًا يومَ القِيَامَةِ، أَحَاسِنكُم أَخلاقًا».**

وهل هناك لذة بعد لذة النظر إلى وجه الله تعالى أعظم من صحبة النبى ﷺ فى الجنة.

۞ إنها اللذة التى حملت ربيعة بن مالك على أن يقول للنبى ﷺ حينما سأله قائلًا: **«سلنى شيئًا يا ربيعة»**.

قال ربيعة بلا تردُّد: أسألك مرافقتك فى الجنة.

---

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٠١).

«الثَّرثَارُ»: هُوَ كَثِيرُ الكَلاَمِ تَكَلُّفًا. وَ «المُتَشَدِّقُ»: المُتَطَاوِلُ عَلَى النَّاسِ بِكَلاَمِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِمَلءِ فِيهِ تَفَاصُحًا وَتَعظِيمًا لِكَلامِهِ، وَ «المُتَفَيْهِقُ»: أَصلُهُ مِنَ الفَهْقِ وَهُوَ الامْتِلاءُ، وَهُوَ الَّذِى يَمْلأُ فَمَهُ بِالكَلاَمِ وَيَتَوَسَّعُ فِيهِ، وَيُغْرِبُ بِهِ تَكَبُّرًا وَارتِفَاعًا، وَإظْهَارًا للفَضيلَةِ عَلَى غَيْرِهِ.

وروى الترمذى عن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ فى تفسير حُسْنِ الخُلُقِ، قَالَ: «هُوَ طَلاَقَةُ الوَجه، وَبَذْلُ المَعروف، وَكَفُّ الأذَى».

۞ وها هو رجلٌ آخر قد اشتاق لصحبة النبى ﷺ فى الجنة.

فقد جاء فى الحديث أن رجلًا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنك لأحب إلىَّ من نفسى وإنك لأحب إلىَّ من أهلى. وإنك لأحب إلىَّ من ولدى وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتى فأنظر إليك وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين وإنى إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ... فلم يرد عليه النبى ﷺ شيئًا حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠] (١).

فمن أراد أن يحبه النبى ﷺ وأن يفوز بنعمة القُرب من الحبيب المصطفى ﷺ فى الجنة فعليه أن يتحلى بحُسن الخُلق... وكلما كان أحسن خُلقًا كان أقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ورسول ﷺ من غيره.

۞ ثم أخبر النبى ﷺ بأبغض الناس إليه وأبعدهم منه يوم القيامة وهم «**الثَّرْثَارُونَ والمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ**».

الثرثارون: الذين يُكثرون الكلام ويأخذون المجالس عن الناس.

فإذا جلس فى المجلس أخذ الكلام عن غيره، وصار كأن لم يكن فى المجلس إلا هو، ولا يدع غيره يتكلم، وهذا لا شك أنه نوعٌ من الكبرياء.

لكن لو فرضنا أن أهل المجلس فوَّضوه وقالوا: أعطنا نصيحة، أعطنا موعظة فتكلم فلا حرج، إنما فى الكلام العادى كونك تملك المجلس ولا تدع أحدًا يتكلم، حتى إن بعض الناس يحب أن يتكلم لكن لا يستطيع أن يتكلم، يخشى من مقاطعة هذا الرجل الذى مَلَك المجلس بكلامه.

---

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط، والصغير، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٢٩٣٣).

كذلك أيضًا المتشدقون.... والمتشدق: هو الذى يتكلم بملء شِدقيه، تجده يتكلم وكأنه أفصح العرب تكبُّرًا وتَبخترُا... ومن ذلك من يتكلم باللغة العربية أمام العامة، فإن العامة لا يعرفون اللغة العربية...لو تكلمت بينهم باللغة العربية لعَدُّوا ذلك من باب التشدُّق فى الكلام والتنطُّع... أما إذا كنت تُدرس لطلبة فينبغى أن تتكلم باللغة العربية، لأجل أن تُمرنهم على اللغة العربية وعلى النطق بها، أمَّا العامة الذين لا يعرفون فلا ينبغى أن تتكلم بينهم باللغة العربية، بل تكلم معهم بلغتهم التى يعرفون ولا تُغرب فى الكلمات- يعنى لا تأتى بكلمات غريبة تشكل عليهم- فإن ذلك من التشدق فى الكلام.

أما المتفيهقون: فقد وصفهم النبى ﷺ بالمتكبرين... المتكبر الذى يتكبر على الناس ويتفيهق، وإذا قام يمشى كأنه يمشى على ورق من تكبُّره وغطرسته، فإن هذا لاشك خُلقٌ ذميم، ويجب على الإنسان أن يَحذر منه، لأن الإنسان بشر فينبغى أن يعرف قدر نفسه، حتى لو أنعم الله عليه بمالٍ، أو أنعم عليه بعلم، أوأنعم عليه بجاه، فينبغى أن يتواضع...وتواضُع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالمال والعلم والجاه أفضل من تواضع غيرهم. ممن لا يكون كذلك.

ولهذا جاء فى الحديث أن من الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم: «عائلٌ مستكبر»، لأن العائل لا داعى لاستكباره، والعائل هو الفقير، فهؤلاء منَّ الله عليهم بالعلم والمال والجاه كلما تواضعوا صاروا أفضل ممن تواضع من غيرهم الذين لم يَمُن الله عليهم بذلك.

فينبغى لكل مَن أعطاه الله نعمة أن يزداد شكرًا لله، وتواضعًا للحق وتواضعًا للخلق...وفقنى الله والمسلمين لأحاسن الأخلاق والأعمال وجنَّبنا والمسلمين سيئات الأخلاق والأعمال إنه جوادٌ كريم(١).

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٣٠٦-٣٠٧) بتصرف.

(٧٤) باب الحلم والأناة والرفق

۞ لا بد أن نعلم أن الحلم والرفق من الأخلاق السامية التى يفتح الله بها القلوب ويُلَيِّن بها الأفئدة ... ولذا كان ينبغى على كلِّ مسلم أن يتحلى بهاتين الصفتين ليفتح الله بهما القلوب ... فإن قلوب العباد تميل إلى صاحب القلب الرحيم الذى يرفق بكل مَن حوله ... وتنأى وتبتعد عن صاحب القلب الغليظ الذى لا يرحم مَن حوله ولا يرفق بهم ولا يحلم عليهم.

بل إن الرفق يجعلك تفوز بكل خير فى الدنيا والآخرة.

فكن رفيقًا مع الوالدين والأقارب ومع إخوانك وجيرانك وأصحابك وكل مَن حولك لتعيش فى سعادة غامرة فتكون من الفائزين فى الدنيا والآخرة[(١)].

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: (باب الحلم والأناة والرفق).

هذه ثلاثة أمور متقاربة: الحلم والأناة والرفق.

أما الحلم: فهو أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب... إذا حصل غضب وهو قادر فإنه يَحلُم، ولا يعاقب، ولا يعجل بالعقوبة.

وأما الأناة: فهو التأنى فى الأمور، وعدم العجلة، وألا يأخذ الإنسان الأمور بظاهرها فيتعجل، ويحكم على الشىء قبل أن يتأنى فيه وينظر.

وأما الرفق: فهو معاملة الناس بالرفق والهون، حتى وإن استحقوا ما يستحقون من العقوبة والنكال فإنه يرفق بهم.

ولكن هذا فيما إذا كان الإنسان الذى يرفق به محلًّا للرفق، أما إذا لم يكن محلًّا للرفق فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ

(١) أخلاق الرسول للأطفال (ص ٣٨٧) / د. محمود المصري.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

ثم ساق المؤلف بعض الآيات... الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

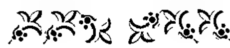
[آل عمران: ١٣٤].

هذه من جملة الأوصاف التي يتصف بها المتقون الذين أُعدت لهم الجنة: أنهم إذا غضبوا كظموا الغيظ.

وفي قوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، دليل على أنهم يشق عليهم ذلك، لكنهم يغلبون أنفسهم فيكظمون غيظهم.. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**ليس الشديد بالصُّرعة**» الصرعة: يعني الذي يصرع الناس إذا صارعوه: «**وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾، فقد سبق الكلام عليه، وبيان التفصيل فيمن يستحق العفو ومَن لا يستحق... فالإنسان الشرير الذي لا يزداد بالعفو عنه إلا سوءًا وشراسة ومعاندة هذا لا يُعفى عنه.

والإنسان الذي هو أهلٌ للعفو ينبغي للإنسان أن يعفو عنه، لأن الله يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].



۞وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]

قال: خُذ العفو ولم يَقُل اعفُ ولا افعل العفو، بل قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ والمراد بالعفو هنا ما عفا وسَهُل من الناس؛ لأن الناس يعامل بعضهم بعضًا، فمن أراد من الناس أن يعاملوه على الوجه الذي يحب وعلى الوجه الأكمل؛ فهذا شيءٌ يَصعُب عليه ويَشُق عليه ويتعب وراء الناس.

وأما مَن استرشد بهذه الآية، وأخذ ما عفا من الناس وما سهل، فما جاء

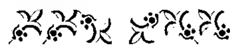
منهم قَبِلَه، وما أضاعوه من حقه تركه، إلا إذا انتُهكت محارم الله.

فإن هذا هو الذى أرشد الله إليه؛ أن نأخذ العفو...فخذ ما تيسَّر من أخلاق الناس ومعاملتهم لك، والباقى أنت صاحب الفضل فيه إذا تركته.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ يعنى: مُر بما يتعارفه الناس ويعرفه الشرع من أمور الخير، ولا تسكت عن الأمر بالخير إذا كان الناس أخلُّوا به فيما بينك وبينهم ... فحقك افعل به ما تشاء ، لكن الشيء المعروف ينبغى أن تأمر به.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ المراد بالجاهل هنا ليس هو الذى لا يعلم الحكم؛ بل الجاهل هو السفيه فى التصرُّف...كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧].

فالجاهلون هنا هم السفهاء الذين يجهلون حقوق الغير، ويُفرطون فيها، فأعرِض عنهم ولا تبالِ بهم، وأنت إذا أعرضت عنهم ولم تُبالِ بهم فإنهم سوف يَملُّون ويتعبون، ثم بعد ذلك يرجعون إلى صوابهم، ولكنك إذا عاندتهم أو خاصمتهم أو أردت منهم أن يعطوك حقك كاملًا، فإنهم ربما بسفههم يعاندون ولا يأتون بالذى تريد.



۞ وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿صَبَرَ﴾: يعنى على الأذى، ﴿وَغَفَرَ﴾: يعنى تجاوز عنه إذا وقع به، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أى لمن معزومات الأمور، أى من الأمور التى تدل على عزم الرجل، وعلى حزمه وعلى أنه قادر على نفسه مسيطر عليها، وذلك لأن الناس ينقسمون إلى أقسام بالنسبة لسيطرتهم على أنفسهم.

فمن الناس مَن لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبدًا، ومن الناس مَن يستطيع

لكن بمشقة شديدة، ومن الناس مَن يستطيع لكن بسهولة.. يكون قد جَبَله الله عَزَّوَجَلَّ على مكارم الأخلاق، فيسهل عليه الصبر والغفران.

فالذى يصبر على أذى الناس ويتحمل ويحتسب الأجر من الله ويغفر لهم، هذا هو الذى صنع هذا المعزوم من الأمور أى من الشئون... وهذا حَثٌّ واضح على أنه ينبغى للإنسان أن يصبر ويغفر، وقد سبق لنا التفصيل فى مسألة العفو عن الجُناة والمعتدين، وأنه لا يُمدَح مطلقًا ولا يُذم مطلقًا، بل يُنظر إلى الإصلاح[١].



(٦٣٧) وعَنْ ابنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأَشَجِّ عبْدِ الْقَيْس: «إِنَّ فيك خَصلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله: الحِلْمُ وَالأَنَاة»[٢].

۞ أما الأشج فاسمه المنذر بن عائذ.

وسبب قول النبى ﷺ له ذلك أنه لما جاء وفد عبد القيس من ضمن الوفود الذين قدموا على النبى ﷺ يتعلمون الإسلام، فقدموا عليه وكان أحدهم أشج، يعنى: كان به جرح مفتوح فى يوم من الأيام ثم التأم بعد ذلك... وكان قد شُجَّ فى مشاجرة مع قريبٍ له، فضربه بشىءٍ شَجَّ رأسه، فكان مشهورًا بهذا الوصف، أشج عبد القيس، يعنى: المشجوج من بنى عبد القيس.

فلما قدموا ابتدروا إلى النبى ﷺ، وكُلٌّ يريد أن يُسلم عليه، صلوات الله وسلامه عليه؛ لينال من بركة النبى ﷺ، فتأخر هذا الرجل قليلًا؛ فقد كانوا أتوا من سفر، وقد اتسخت ثيابهم، فأراد أن يتنظف، فنظف نفسه ولبس ثوبين طيبين، ودخل إلى النبى ﷺ فى هيئة جميلة، ففرح به النبى ﷺ أكثر من فرحه بالآخرين،

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٠٦-٣٠٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧) كتاب الإيمان.

وقال لهذا الرجل مُعظمًا فِعله: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: **الحلم والأناة**»، أنك حليم، أي: تحلم وتعفو عمن يُسيء إليك.

«**والأناة**»، أي: أنك غير متعجل.

والإنسان الذى جاء من سفر قد يكون ممتلئًا عرقًا، وممتلئًا بغبار السفر، فإذا جاء ليقابل أحدًا ويسلم عليه فربما يغضب، فقد يلوث له ثيابه، فهذا الرجل انتظر حتى تَنظَّف ولبس ثوبين وتطيب، ثم ذهب إلى النبى ﷺ طيبًا، ففرح به النبى ﷺ وقال: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»، فسأله الرجل: هاتان الخصلتان اكتسبتهما أنا أم هما هبة من الله عز وجل فطرنى الله عليهما؟ فقال ﷺ: «**من الله**»، يعنى: الله هو الذى فطرك عليهما.

فحمد الرجل ربه سبحانه أن فطره على ذلك.

فالإنسان الحليم محبوب من الله عز وجل، ومحبوب من الخلق، فهو إنسان مُتأنٍّ غير مستعجل، فلا يريد أن يعمل كل شىء بسرعة، ولكنه يفكر قبل أن يعمل الشىء[1].



(٦٣٨) وعَنْ عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فى الأَمْرِ كُلِّه»[2].

(٦٣٩) وعَنْها أَن النبى ﷺ قال: «إِنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، وَيُعطِى على الرِّفق ما لا يُعطى عَلى العُنف وَما لا يُعطِى عَلى ما سوَاهُ»[3].

(٦٤٠) وعَنها أَن النبىَّ ﷺ قال: «إِنَّ الرِّفقَ لا يَكُونُ فى شىءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩٢٧) كتاب استتابة المرتدين، ومسلم (٢١٦٥) كتاب السلام.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٣) كتاب البر والصلة والآداب.

مِنْ شَىءٍ إِلَّا شَانَهُ»(١).

۞ ففى تلك الأحاديث الثلاثة الحثّ على أن يكون الإنسان رفيقًا فى جميع شؤونه، رفيقًا فى معاملة أهله، وفى معاملة إخوانه، وفى معاملة أصدقائه، وفى معاملة عامة الناس ... يرفق بهم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ رفيقٌ يحب الرفق.

ولهذا فإن الإنسان إذا عامل الناس بالرفق يجد لذة وانشراحًا، وإذا عاملهم بالشدة والعنف نَدِمَ، ثم قال: ليتنى لم أفعل، لكن بعد أن يفوت الأوان، أما إذا عاملهم بالرفق واللين والأناة انشرح صدره، ولم يندم على شىءٍ فَعَله.

۞ وهنا لا بد أن نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ له صفات الكمال والجلال..

ولله عَزَّوَجَلَّ صفات يأبى أن يشاركه فيها أحدٌ من خلقه.... وله صفات أمر عباده أن يتخلقوا بنحوها.

فمن صفاته سبحانه التى أبى لعباده أن يتخلقوا بمثلها: صفة الكبر.

ومَن نازع الله عَزَّوَجَلَّ فى ذلك أدخله النار سبحانه تبارك وتعالى.

ومن صفاته الكريمة سبحانه: صفة الكرم، وقد أمر عباده أن يكونوا كُرماء.

وصفة الحلم.. وقد أمر عباده أن يكونوا حُلماء.. وصفة الرفق.. وقد أمر عباده أن يكونوا رُفقاء بغيرهم.

فالله طيب يحب الطيبين، وهو جميل يحب الجمال، ورفيق يحب الرفق، وهو الرحيم وقد جعل المؤمنين فيما بينهم رحماء.

إذاً: فمن صفاته الكاملة سبحانه: صفة الرفق، وصفة الحلم، وقد أمر عباده بأن يَحلُموا.

فالعبد عندما يقول: إن فلانـًا أغاظنى، نقول له: هذا العبد كم أغضب ربه سبحانه؟ وكم حلم عليه سبحانه وتعالى؟ فعندها يرفق العبد، ويعامل الناس

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب.

بالشيء الذى يحب أن يعاملوه به؛ ابتغاء وجه الله سبحانه.

۞ فالله رفيقٌ يحب الرفق فى الأمر كله.. فلا تكن رفيقًا فى جانب وعنيفًا فى جانبٍ آخر.. ولا تكن رفيقًا مع إنسانٍ وعنيفًا مع إنسانٍ آخر إلا إذا كان الموقف يحتاج إلى الشدة لكن لا يكن تعاملك يتسم بالشدة دائمًا.. فالحكمة هى وضع الشيء فى موضعه.. فالنبى ﷺ الذى وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه رحمة للعالمين وبأنه ﷺ بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: ٩].

۞ إذًا.. فالأصل فى المؤمن هو الحلم والرفق... ولذا فإن الرفق لا يكون فى قلب أى إنسان إلا كان زينة لهذا الإنسان.. وما كان الرفق فى عمل من الأعمال أو دعوة من الدعوات إلا كان هذا العمل وتلك الدعوة جميلةً لأنها تزينت بالرفق.. فإذا نُزع الرفق من أى شيءٍ كان شَينًا على صاحبه وعلى العمل الذى يعمله.

۞ وفوق ذلك. فالله عَزَّوَجَلَّ يعطى على الرفق من الثواب ما لا يعطى على العنف.. فمثلًا لو كان هناك إنسان يفعل منكرًا فجاءه رجل ودعاه بالرفق واللين فانتهى وترك ذلك المنكر.. ولو تصورنا أنه جاءه رجلٌ آخر ودعاه بالعنف وهدَّده فترك ذلك المنكر خوفًا من ذلك التهديد.. فكلٌّ منهما نهى عن المنكر لكن الأول أكثر ثوابًا ممن تعامل بالعنف مع أن النتيجة واحدة.. لأن الذى نهى بالرفق سيكون سببًا فى تثبيت قلب هذا الشاب الذى ترك المنكر .. أما الذى نهى عن المنكر بالعنف قد يكون سببًا فى فتنة ذلك الشاب وعودته بعد ذلك لهذا المنكر أو لمنكرٍ أشد منه.

فاللهم ارزقنا نعمة الحلم والرفق يا أرحم الراحمين.



(٦٤١) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بَال أَعرابىٌّ فى المسجد، فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْه لِيَقَعُوا فِيه، فقال النبى ﷺ: «دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِن مَاءٍ، فَإِنَّما بُعِثْتُم مُيَسِّرِينَ ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»(١).

۞ ففى هذا الحديث أن أعرابيًا بال فى المسجد... أعرابى: يعنى بدوى، والبدوى فى الغالب لا يعرف أحكام الشرع، لأنه يعيش فى البادية فى إبله أو فى غنمه، وليس له علم بشريعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]. يعنى أقرب ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله لأنهم فى باديتهم بعيدون عن الناس وعن العلم والشرع.

فهذا الأعرابى دخل المسجد واحتاج إلى أن يبول، فبال فى طائفة المسجد - أى تنحَّى وبال فى المسجد- فهمَّ الناس أن يقعوا فيه وزجروه، ولكن النبى ﷺ، قال: لهم: «دعوه» أى يقضى بوله، «وأريقوا على بوله سجلًا من ماء أو ذنوبًا من ماء، فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين» فتركه الناس.

فلما قضى بوله صَبُّوا عليه ذَنوبًا من الماء -يعنى: دلوًا من الماء-، فطهر المحل، وزال المحذور... ثم دعا بالأعرابى وقال له: «إن هذه المساجد لا يَصلُح فيها شيء من الأذى أو القذر، وإنما هى للصلاة، وقراءة القرآن والتكبير».

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: فى الشمائل النبوية:

(١) حُسن تعليمه ﷺ: ويتبين ذلك من:

أ- أنه ﷺ لم ينهر الأعرابى، ولم يوجه له أدنى عتاب لعدم علم الأعرابى

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٠) كتاب الوضوء.
«السَّجْلُ» وَهِيَ الدَّلْوُ المُمْتَلِئَةُ ماء، كَذلِكَ الذَّنُوبُ.

بآداب المساجد، وإنما نصحه ﷺ بمنتهى الرفق واللين.

قال ﷺ: «إنّ هذه المساجد لا تَصلُح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنّما هى لذكر الله عَزَّوَجَلَّ» .

ب- ومن حُسن تعليمه الجميل، أنه ﷺ لم يأمر الأعرابى أن ينظف مكان النجاسة فى المسجد، مع أنه أَولَى الناس بهذا الأمر، لأن الأعرابى قد يظن أن النبى ﷺ أراد أن يعاقبه على ذلك... قال أنس: (فأمر رجلًا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنَّه عليه) ، وهذا والله غاية الرفق واللين.

ج- لم يتعجل النبى ﷺ توجيه النُّصح للأعرابى وهو يقضى حاجته، بل انتظر حتى ينتهى، ليكون الأعرابى أوعى لقول النبى ﷺ... قال الراوى: (ثم إن رسول الله ﷺ دعاه) .

د- فصَّل النبى ﷺ فى نُصحه تفصيلًا بليغًا حيث ذكر أولًا وجوب تنزيه المساجد عن النجاسات والقاذورات، ثم ذكر الحكمة من بناء المساجد وكيفية إعمارها، وقد ذكر تنزيه المساجد أولًا من النجاسات لأسباب، منها: حاجة الأعرابى الماسة لمعرفة هذا الحكم، وذكره أولًا يكون أدعى لحفظه... كما أن الحكمة العُظمى من بناء المساجد، وهى إقامة الصلاة، من أهم شروط صحتها: طهارة المكان... فطهارة المكان عمل يأتى قبل إقامة الصلاة، ومن حسن التعليم أيضًا أن تأتى النصيحة خالية من التطويل المُمل والاختصار المُخل، وقد كانت كذلك، ولله الحمد.

وتخيل أخى القارئ، لو أن هذه الواقعة حدثت فى وقتنا الحاضر من رجل حديث عهد بالإسلام، ماذا سيفعل به أهل المسجد؟ قد يفتكون به ويتهمونه بالكفر والزندقة، مع أنهم ليسوا بأحرص من النبى ﷺ على طهارة المسجد ونظافته.

(٢) حكمته ﷺ حيث قال لأصحابه: «**لا تزرموه دعوه**» ، أى لا تقطعوا عليه بوله؛ لأن قطع البول سَيَضُرُّ جسمانيًّا بالأعرابى، وقد يزيد من رقعة المكان الذى أصابته النجاسة، خاصة إذا قطعها وهو مضطرب.

(٣) موافقة أقواله ﷺ مع أفعاله، وهو الركن الأساسى فى القدوة الحسنة، فقد أمر النبى ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بالرفق فى الأمر ورغَّبهم فى ذلك.

فتطابق قوله ﷺ مع فعله، كما فعل مع الأعرابى فى حديث الباب.

الفائدة الثّانية:

وجوب أن يحرص المسلمون على نظافة وطهارة المساجد، كُلٌّ قدر استطاعته.. وليعلم كل مسلم أن تنظيف المساجد من أنواع القربات، فلا ينبغى أن يحرم المسلم نفسه من هذه القربة، ولا يُشترط أن يكون خادمًا للمسجد حتى يقوم بها، بل يكفى كلما دخل أو خرج من المسجد أن يتفقد حال المسجد ويلتقط ما استطاع من قاذورات وغيرها.

الفائدة الثّالثة:

على المسلم أن يحرص على أداء الصلوات فى جماعة المسجد، وأن يُكثر من ذكر الله وقراءة القرآن فى المسجد؛ لأن هذه الأعمال هى المقصودة من بناء المساجد... قال ﷺ: «إنما هى لذكر الله- عز وجل- والصلاة وقراءة القرآن» .

الفائدة الرّابعة:

لم يقتصر حُسن تعليم الرسول ﷺ لأصحابه على طريقة النُّصح والإرشاد، ولكن تَعدَّى حُسن التعليم ليشمل اختيار الوقت المناسب للموعظة[1].

---

(١) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ٣٧٠-٣٧٢) بتصرف.

(٦٤٢) وعَنْ أَنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّروا. وَبَشِّرُوا وَلا تُنفِّرُوا»(١).

۞ هذه وصية عظيمة، جامعة لخيرى الدنيا والآخرة... لقد جمعت هذه الجُمل كل خير من أسباب النجاح والفلاح فى أمر الدين والدنيا، فإن تيسير الأعمال وتهوينها، والرفق بأصحابها، واللين والتسامح معهم، ودعوتهم بما يناسب أحوالهم هو أدعى لحصول الإجابة والانقياد... وهذا من الحكمة التى أرشد إليها القرآن، كما فى قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

سيما إذا انضمَّ إلى ذلك التبشير بفائدة العمل، وثمراته المنتظرة فى العاجل والآجل، ونفعه الحاضر والمنتظر.

وأما سلوك طريق التعسير والتنفير، فإنه من أعظم أسباب الردِّ، والصدِّ عن الخير وأهله.

۞ وإنك لو تأملت شرائع الدين التى أوجبها رب العالمين الذى حقه هو أعظم الحقوق، وطاعته أوجب الطاعات؛ لوجدتها مبنية على التيسير ورفع الحرج... كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال جل شأنه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وكان من قواعد الشريعة أن المشقة تجلب التيسير(٢).

۞ **فالنبىِّ ﷺ قَالَ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنفِّرُوا».**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩) كتاب العلم، ومسلم (١٧٣٤) كتاب الجهاد والسير.

(٢) من هدى المصطفى ﷺ/ الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ١١٩-١٢٠) بتصرف.

هذه أربع جُمَل: الأولى قوله: « يَسِّرُوا » يعنى اسلكوا ما فيه اليُسر والسهولة سواء كان فيما يتعلق بأعمالكم أو معاملاتكم مع غيركم.

ولهذا كان النبى ﷺ من هَديِه أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه.

فاختر الأيسر لك فى كل أحوالك...فى العبادات، فى المعاملات مع الناس، فى كل شىء؛ لأن اليُسر هو الذى يريده الله عَزَّوَجَلَّ منا، ويريده بنا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فمثلًا إذا كان لك طريقان إلى المسجد؛ أحدهما صعبٌ فيه حصى وأحجار وأشواك والثانى سهل، فالأفضل أن تسلك الأسهل، وإذا كان هناك ماءان وأنت فى الشتاء، وكان أحدهما باردًا يؤلمك وكان الثانى ساخنًا ترتاح له، فالأفضل أن تستعمل الساخن، لأنه أيسر وأسهل، وإذا كان يمكن أن تحج على سيارة أو تحج على بعير.. والسيارة أسهل، فالحج على السيارة أفضل.

فالمهم أنه كل ما كان أيسر فهو أفضل ما لم يكن إثمًا.

أما إذا كان فعل العبادة لا يتأتى إلا بمشقة، وهذه المشقة لا تُسقطها عنك ففعلتها على مشقة، فهذا أجرٌ يزداد لك...فإن إسباغ الوضوء على المكاره مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به الخطايا، لكن كون الإنسان يذهب إلى الأصعب مع إمكان الأسهل هذا خلاف الأفضل، فالأفضل اتباع الأسهل فى كل شىء.

۞ « وَلاَ تُعَسِّرُوا » يعنى لا تسلكوا طرق العُسر ... لا فى عبادتكم، ولا فى معاملاتكم، ولا فى غير ذلك، فإن هذا مَنهىٌّ عنه فلا تعسر.

ولهذا لما رأى النبى ﷺ رجلًا واقفًا فى الشمس، سأل عنه، قالوا: يا رسول الله، هو صائم؛ نذر أن يصوم ويقف فى الشمس، فنهاه النبى ﷺ عن ذلك لأن هذا فيه عُسرٌ على الإنسان ومشقة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلاَ يَقْعُدَ، وَلاَ يَسْتَظِلَّ، وَلاَ يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»(١).

۞ «وَبَشِّرُوا» يعنى اجعلوا طريقكم دائمًا طريق البشارة... بشِّروا أنفسكم وبشِّروا غيركم...يعنى إذا عملت عملًا فاستبشر وبَشِّر نفسك، فإذا عملت عملًا صالحًا فبَشِّر نفسك بأنه سيُقبل منك إذا اتقيت الله فيه، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]، وإذا دعوت الله فبشِّر نفسك أن الله يستجيب لك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]

۞ «وَلاَ تُنَفِّرُوا» يعنى لا تُنفروا الناس عن الأعمال الصالحة، ولا تنفروهم عن الطرق السليمة؛ بل شجعوهم عليها، حتى فى العبادات لا تنفروهم.

ومن ذلك أن يطيل الإمام بالجماعة أكثر من السُّنة.

فالتنفير لا ينبغى؛ فلا تُنفِّر الناس بل كُن ليِّنًا معهم، حتى فى الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ لا تدعُهم إلى الله بغلظة وشدة ... لا تَقُل إذا رأيت إنسانًا على خطأ: يا فلان أنت خالفت، أنت عصيت، أنت فيك... إلى آخره... فهذا ينفرهم، ويزيدهم فى التمادى فى المعصية، ولكن ادعُهم بكل لينٍ ورحمة(٢).

۞ ولقد كان النبى ﷺ فى دعوته للمشركين والكفار داعيًا إلى الله بالتى هى أحسن برفقٍ ولين.

وفى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ما يدل على ذلك، ويأمر به، انظر إلى قوله تعالى مخاطبًا موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٧٠٤) كتاب الأيمان والنذور.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣١٤-٣١٦) بتصرف كبير.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، قال بعض العلماء: إن هذه الآية باقية، مُحكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن؛ ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل: ١٢٥].



(٦٤٣) وعَنْ جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ يُحرَمِ الرِّفْقَ يُحرَمِ الخيْرَ كُلَّهُ»[1].

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الإنسان إذا حُرم من الرفق فإنه يُحرم الخير كله.. لأن من أعظم الخصال التي تكون في قلب المؤمن أن يكون رفيقًا حليمًا.. فإذا حُرم من الرفق كان عنيفًا شديدًا مُندفعًا مؤذيًا.. وبالتالي فقد يؤذي نفسه ويؤذي غيره فيُحرم من الخير كله.

أما إذا كان يتعامل مع الناس بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر فإنه يحصل على الخير الكثير.. ولهذا ينبغي للإنسان أن يكون دائمًا رفيقًا حتى ينال الخير.



(٦٤٤) وعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قال للنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِني قال: «لا تَغْضَبْ» فَرَدَّدَ مِرَارًا، قال: «لا تَغْضَبْ»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٩) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.



---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦١١٦) كتاب الأدب.

(٦٤٥) وعَنْ أبى يعلَى شدَّاد بن أَوس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الله كَتَبَ الإِحسَان على كُلِّ شَيءٍ، فإِذا قَتلتُم فَأَحسِنُوا القِتْلَةَ وَإِذَا ذَبحتُم فَأَحسِنُوا الذِّبْحة وليُحِدَّ أَحَدُكُم شَفْرَته وَليُرِح ذَبيحَتَهُ»(١).

❁ «إن الله كتب الإحسان على كل شيء».

كتبه على كل شيء: يعنى كتب الإحسان فى كل شيء.. أى أن الله عَزَّوَجَلَّ شرع الإحسان فى كل شيء، حتى فى القتل، وحتى فى الذبح، وفى غير ذلك من الأمور. عليك أن تكون مُحسنًا لما تقوم به.

«فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة». وذلك لأن إزهاق النفوس يكون بالقتل أحيانًا، وبالذبح أحيانًا.

فالذبح والنحر يكونان فيما يَحِل أى فيما يُؤكَل، ويكون النحر للإبل والذبح فيما سواها... والنحر يكون فى أسفل الرقبة مما يلى الصدر، والذبح يكون فى أعلى الرقبة مما يلى الرأس... ولا بد فى الذبح والنحر من قطع الودجين، وهما العرقان الغليظان اللذان يجرى منهما الدم إلى بقية البدن، لأن النبى ﷺ قال: «ما أنهر الدم وذُكر اسم الله عليه فكُلوا»(٢).

ولا ينهر الدم إلا قطع الودجين... فالشرط فى حِلِّ المُذكَّى أو المنحور أن يُقطع الودجان، أما الحُلقوم الذى هو مجرى النَّفَس، والمرىء الذى هو مجرى الطعام، فقطعُهما أكمل فى الذبح والنحر، ولكن ليس ذلك بشرط.

أما القتل فيكون فيما لا يحل أكله، فيما أُمر بقتله، وفيما أُبيح قتله.

ومما أُمر بقتله الفأر وكذلك العقرب، وكذلك الحية، وكذلك الكلب العَقور... فتُقتل هذه الأشياء، وكذلك كل مؤذٍ فإنه يُقتل.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٥٥) كتاب الصيد والذبائح.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٨٨) كتاب الشركة، ومسلم (١٩٦٨) كتاب الأضاحى.

وعند العلماء قاعدة تقول: ما آذى طبعًا قُتل شرعًا... يعنى ما كان طبيعته الأذى فإنه يُقتل شرعًا، وما لم يُؤذِ طبعًا ولكنه صار منه أذية فلك قتله، لكن هذا الأخير مقيد، فلو آذاك النمل فى البيت، فصار يحفر البيت ويفسده فلك قتله... وإن كان منهيًّا عنه فى الأصل، لكن إذا آذاك فلك قتله، وكذلك غيره مما لا يؤذى طبعًا ولكن تعرض منه الأذية فاقتله إذا لم يندفع إلا بالقتل.

فمثلًا إذا أردت أن تقتل فأرة -وقتلها مُستحب- فأحسِن القتلة، اقتلها بما يزهق روحها حالًا، ولا تؤذها... ومن أذيتها ما يفعله بعض الناس حيث يضع لها شيئًا لاصقًا تلتصق به، ثم يدعها تموت جوعًا وعطشًا، وهذا لا يجوز فإذا وضعت هذا اللاصق فلا بد أن تكرر مراجعته ومراقبته، حتى إذا وجدت فيه شيئًا لاصقًا قتلته.

أما أن تترك هذا اللاصق يومين أو ثلاثة وتقع فيه الفأرة وتموت عطشًا أو جوعًا، فإنه يُخشى عليك أن تدخل النار بذلك... لأن النبى ﷺ قال: «**دخلت امرأة النار فى هرة حبستها، حتى ماتت لا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها تأكل من خشاش الأرض**»[1].

ومن ذلك مَن يُقتل قصاصًا، لكن الذى يُقتل قصاصًا فإنه يُفعلُ به ما فَعل بالمقتول... ودليل ذلك أن النبى ﷺ رُفع إليه قضية امرأة أتاها يهودى، وكان معها حُلى، فقتلها وأخذ الحُلى، لكن كيف قتلها؟ وضع رأسها على حجر وقتلها بحجرٍ ثانٍ، فرضَّ رأسها بين حجرين. فأُتى إليها وفيها رمق من حياة، فقيل لها مَن قتلكِ؟... حتى ذكروا اليهودى فأشارت برأسها أن نعم، فأخذوا اليهودى فاعترف، فأمر النبى ﷺ أن يُرَضَّ رأسه بين حجرين، فوُضع رأسه على حجر ثم ضُرب بالحجر الثانى حتى مات.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٦٥) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٢٤٢) كتاب السلام.

لأن هذا قصاص... والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

لكن لو وجب قتله بالحِرابة... يعنى أنه صار يقطع الطريق على الناس؛ ويأخذ الأموال، ويقتل الناس، فهذا يُقتل، لكن يُقتل بالسيف، إلا إذا كان قد مَثَّل بمن قتله فيُمثَّل به حسبما فعل، فيُفعل به كما فعل.

فإن قال قائل: ما تقولون فى الرجل إذا زنى وهو مُحصَن فإنه يُرجم بالحصى، أى بالحجر الصغير حتى يموت، وهذا يؤلمه ويؤذيه قبل أن يموت، فهل يُعارض ذلك هذا الحديث؟

فالجواب: لا. لا يُعارضه، لأنه يُحمل على أحد أمرين:

الأول: إما أن يُراد بإحسان القتلة ما وافق الشرع، وحينئذ يكون الرجم من إحسان القِتلة لأنه موافق للشرع.

والثانى: إما أن يُقال: هذا مُستثنى دلَّت عليه السُّنة، بل دلَّ عليه القرآن الذى نُسخ لفظه وبقى حُكمه، ودلَّ عليه صريح السُّنة.

فالزانى المُحصَن الذى تزوج وجامع زوجته، إذا زنى - والعياذ بالله- فإنه يُؤتَى به، وتُؤخذ حجارة صغيرة أقل من البيضة ومثل التمرة تقريبًا أو أكبر قليلًا ويُرجم حتى يموت، ويُتقى المَقاتل يعنى لا يُضرب فى موضع يموت به سريعًا، بل يُضرب على ظهره وبطنه وما أشبه ذلك حتى يموت، لأن هذا هو الواجب.

والحكمة من هذا أن البدن الذى تلذذ بالشهوة المحرمة.. عمَّت الشهوة جميع بدنه، فمن الحكمة أن تَعُمَّ العقوبة جميع بدنه... وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال النبى ﷺ: «**وليُحد أحدُكم شفرته**»، اللام هنا للأمر... ويحد: يعنى يجعلها حديدة سريعة القطع... والشفرة: السكين.

يعنى إذا أردت أن تذبح فاذبح بسكينٍ مشحوذة، أى: مسنونة بحيث يكون



ذلك أقرب إلى القطع بدون ألم.

«**وليُرح ذبيحته**» هذا أمر زائد على شحذ الشفرة، وذلك بأن يقطع بقوة فيضع السكين على الرقبة ثم يجرها بقوة، حتى يكون ذلك أسرع من كونه يجرها مرتين أو ثلاث.. وبعض الناس يوفقه الله ومن مرة واحدة يقطع الودجين والحلقوم والمرىء، لأنه يأخذ السكين بقوة، وتكون السكين جيدة مشحوذة، فيسهل على الذبيحة أو المنحورة الموت.

ومن إراحة الذبيحة أن تضع رجلك على رقبتها، وتمسك الرأس باليد اليسرى وتذبح باليمنى، وحينئذٍ تكون مضطجعة على الجنب الأيسر.

ودع القوائم -اليدين والرجلين- وخلِّها تتحرك بسهولة، لأنك إذا أمسكت بها فإن هذا ضغطٌ عليها، وإذا تركتها تُحرك يديها ورجليها كان هذا أيسر لها، وهناك أيضًا فائدة من ذلك وهى تفريغ الدم بهذه الحركة، لأنه مع الحركة والاضطراب يتفرغ الدم أكثر، وكلما تفرغ فهو أحسن.

وأما ما يفعله بعض العامة من أنه يأخذ بيدها اليسرى ويلويها على عُنقها، ثم يَبرُكُ على قوائمها الثلاث رجلٌ، ويمسك بها حتى لا تتحرك أبدًا؛ فهذا خلاف السُّنة... السُّنة أن تضع الرِّجل على الرقبة ثم تدع القوائم تتحرك؛ لأن ذلك أيسر لها وأشد تفريغًا للدم.

فالشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ: «**إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**» فإن هذا من الرفق.

ولننتبه إلى أن الإنسان إذا قُتل بحدٍّ، يعنى قُتل وهو زانٍ أو قُتل قِصاصًا، فإنه يُصلَّى عليه، ويُدعَى له بالرحمة والعفو مثل سائر المسلمين، لعلَّ الله أن يعفو عنه ويرحمه.

أما مَن قُتل كافرًا مرتدًا فإنه لا يُدعَى له بالرحمة، ولا يُغسل[1].

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣١٨-٣٢١) بتصرف.

(٦٤٦) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: مَا خُيِّر رسول الله ﷺ بَينَ أمْرينِ قَطُّ إلَّا أخذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَم يَكُن إِثمًا، فإنْ كانَ إِثمًا كَانَ أَبعد النَّاسِ مِنْهُ. ومَا انتَقَمَ رسول الله ﷺ لِنَفْسِهِ فى شَىءٍ قَطُّ، إلَّا أن تُنتَهكَ حُرمَةُ الله، فَينتَقِم لله تعالى[1].

۞ وفى هذا الحديث تخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .. وهى حبيبة رسول الله ﷺ وأقرب الناس إليه أن النبى ﷺ ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

فقد وصف الله نبيه ﷺ بأنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

ولقد كان النبى ﷺ يخشى على أمته من العنت والمشقة ويَسلك بهم طريق اليُسر والسماحة.

ولقد ثبت عن النبى ﷺ جملة أحاديث تدل على شفقته التامة على أمته، وخشيته أن يكون قد جلب عليها ما يُعنتها أو يشق عليها وتَجنُّبه كل طريق يؤدى إلى ذلك... وإليك بعض تلك الأحاديث:

(١) صلى رسول الله ﷺ التراويح ليلة فصلى بصلاته ناسٌ، ثم صلى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم، فلما أصبح قال: **«قد رأيت الذى صنعتم فلم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تُفرض عليكم، - وفى الرواية الأخرى- فتعجزوا عنها»**[2].

(٢) قال ﷺ: **«لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»**[3].

بل أنه عليه الصلاة والسلام كان يخفف الصلاة ويتجوز فيها - وهى قرة عينه وفيها الراحة التى ينشدها - رفقًا بحال المؤمنين ومراعاة لضعفهم وانشغال بالهم ودفعًا لكل ما يُدخل المشقة عليهم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٥٦٠) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٢٧) كتاب الفضائل.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٦١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٨٨٧) كتاب الجمعة -ومسلم (٢٥٢) كتاب الطهارة.

(٣) قال ﷺ: «**إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أن أُطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه**»[(١)(٢)].

وكان ﷺ في حجة الوداع كلما ذكر له أحد أصحابه أنه فعل شيئًا قبل الآخر يقول له: افعل ولا حرج.

وهكذا كان النبي ﷺ لا يُخيَّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما رفقًا بأمته لأنهم يقتدون به ﷺ ... فكان يختار الأيسر ما لم يكن إثمًا فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه... لأنه كان أتقى الناس وأخشى الناس لله عَزَّوَجَلَّ.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه استحباب الأخذ بالأيسر وَالْأَرفَقِ مَا لَمْ يَكُنْ حَرَامًا أَوْ مَكْرُوهًا... قَالَ الْقَاضِي: وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَخْيِيرُهُ ﷺ هُنَا مِنَ اللهِ تَعَالَى فَيُخَيِّرُهُ فِيمَا فِيهِ عُقُوبَتَانِ أَوْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ مِنَ الْقِتَالِ وَأَخْذِ الْجِزْيَةِ.. أَوْ فِي حَقِّ أُمَّتِهِ فِي الْمُجَاهَدَةِ فِي الْعِبَادَةِ أَوِ الِاقْتِصَارِ وَكَانَ يَخْتَارُ الْأَيْسَرَ فِي كُلِّ هَذَا[(٣)].

۞ وأما قولها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حُرمة الله عَزَّوَجَلَّ.

فقد كان النبي ﷺ يعفو دائمًا ما دام الأمر يتعلق بشخصه ﷺ.. فقد عفا عن أهل مكة بعد كل ما فعلوه معه وقال لهم يوم فتح مكة: اذهبوا فأنتم الطُّلقاء.. وعفا عن أهل الطائف الذين ضربوه وآذوه.. وعفا عن وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ... وعفا عن عبد الله بن أُبى بن سلول رأس المنافقين ورفض أن يقتله.. وعفا عن ثُمامة بن أثال وأطلق سراحه.. وعفا عن حاطب بن أبى

---

(١) رواه البخاري (٧٠٧) كتاب الأذان.

(٢) الوسطية فى القرآن الكريم/ د. على الصلابى (ص١٣٥-١٣٦).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٥/ ١٢١).

بلتعة لما أراد أن يُفشى سر فتح مكة.. وعفا عن عكرمة بن أبى جهل الذى ظل يحاربه أكثر من عشرين سنة.. وعفا عن اليهودى الذى سحره.. وعفا عن اليهودية التى وضعت له السم فى ذراع الشاة.. وعفا عن الأعرابى الذى جذبه بشدة من ملابسه.. وعفا عن الكثيرين ممن آذوه ﷺ.

لكنه كان إذا انتُهكت حُرمات الله لا يعفو بل يغضب لله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهَا (إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرمَةُ اللهِ) اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مَعناهُ: لَكِنْ إِذَا انْتُهِكَتْ حُرمَةُ اللهِ انْتَصَرَ لِلَّهِ تَعَالَى وَانْتَقَمَ مِمَّنِ ارتكَبَ ذَلِكَ... وفِى هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الْعَفْوِ وَالْحِلْمِ وَاحتِمَالِ الْأَذَى وَالِانْتِصَارِ لِدِينِ اللهِ تَعَالَى مِمَّنْ فَعَلَ مُحَرَّمًا أَوْ نَحوَهُ.. وَفِيهِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْأَئِمَّةِ وَالْقُضَاةِ وَسَائِرِ وُلَاةِ الْأُمُورِ التَّخَلُّقُ بِهَذَا الْخُلُقِ الْكَرِيمِ فَلَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ وَلَا يُهْمِلُ حَقَّ اللهِ تَعَالَى... قَالَ الْقَاضِى عِيَاضٌ: وَقَد أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْقَاضِىَ لَا يَقْضِى لِنَفْسِهِ وَلَا لِمَنْ لَا يَجُوزُ شَهَادَتُهُ لَهُ[١].

❀❀❀

(٦٤٧) وعَنْ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحرُمُ عَلى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ تَحرُمُ على كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ»[٢].

۞ ففى هذا الحديث يستعمل النبى ﷺ مع أصحابه الأسلوب التشويقى الذى يُهيئ العقول لاستقبال المعلومة من خلال إلقاء السؤال لاستحضار انتباههم ثم إلقاء المعلومة.

فها هو ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بمن يَحرُم على النار أو بمن تَحرُم عليه النار؟**»

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/ ١٢٢-١٢٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٣٨) وصحيح الجامع (٢٦٠٩).

والجواب معلومٌ مُسبقًا.. فمن المؤكد أنهم يريدون معرفة ذلك.. ولذلك لم ينتظر النبى ﷺ منهم جوابًا فأجابهم مباشرة: «**على كل قريبٍ هَيِّنٍ سهلٍ**».

فالمؤمن قريب من الناس ومن قلوب الناس.. فالمؤمن يألف ويُؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف...

والمؤمن هيِّنٌ ليِّنٌ سهل كما قال تعالى فى صفات عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالنار تَحرُم على كل مؤمنٍ قريبٍ هيِّنٍ سهل... فالمؤمن قريب من الناس.. وكل مَن يراه يشعر وكأنه يعرفه منذ زمنٍ بعيد وأن بينه وبينه مودة ومحبة.. وهذا بعكس المنافق الشرير الذى ينفر الناس منه ومن سوء أخلاقه وبذاءة لسانه.. فشرُّ الناس مَن اتقاه الناس مخافة شره وفُحشه... جعلنى الله وإياكم من أهل الإيمان وحرَّم أجسادنا جميعًا على النيران.

(٧٥) باب العفو والإعراض عن الجاهلين

۞ قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ [النور: ٢٢].

۞ ما أجمل أن نعفو عن الناس ونُسامح ونصفح عمَّن أساء إلينا.. فهذا من أعظم الأبواب لجلب المودة والمحبة بين العباد.

۞ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

فإذا قذفك شخص بمسبَّةٍ فاقذفه بالعفو عنه واقذفه بالكلام الطيب.

إذا أساء شخصٌ إليك فأحسِن إليه، فلن يزال معك من الله ظَهيرٌ عليه ما دُمت على عفوك وإحسانك.

۞ إذا ظلمك شخص فتجاوز عنه: فإن الله يدافع عنك...فالله سبحانه وتعالى يدافع عن المظلوم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

۞ إن الله سبحانه وتعالى قد قال في كتابه الكريم: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [الحج: ٦٠]، هذا في حق مَن عاقب بمثل ما عُوقب به، لينصرنه الله!! فكيف بالذي ترك حقه كله لله؟!

۞ فالزم جانب العفو فإن العفو من شيم المحسنين:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[التغابن: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

[الشورى: ٤٠].

❁ وقال النبي ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(١).

❁ وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ارحَمُوا تُرحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرُ لَكُمْ..»(٢).

❁ وصَحَّ عنه (عليه الصلاة والسلام) أنه قال: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ جُرعَةً أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ جُرعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تعالى»(٣)(٤).

(٦٤٨) وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَد لَقِيتُ مِنْ قَومِكِ مَا لَقِيت، وكَان أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يوم العقَبَةِ، إِذْ عرَضتُ نَفسِى عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ ابنِ عبْدِ كُلال، فلَمْ يُجبنِى إِلى مَا أَردتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِى، فلَمْ أَسْتَفِقْ إلاَّ وَأَنا بقرنِ الثَّعالِبِ، فَرفَعتُ رأْسِى، فَإِذا أَنَا بِسحابَةٍ قَد أَظلَّتنى، فنَظَرتُ فَإِذا فِيها جِبريلُ عليه السلام، فنَادانى فَقَالَ: إِنَّ اللهَ تَعالَى قَد سَمِع قَولَ قومِك لَكَ، وَما رَدُّوا عَلَيكَ، وَقد بعثَ إِليك ملَكَ الجبالِ لِتأْمُرهُ بمَا شِئْتَ فِيهم ... فَنَادَانِى ملَكُ الجِبالِ، فَسلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخارى فى الأدب المفرد، والبيهقى فى الشُّعَب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٧).

(٣) صحيح: رواه الإمام أحمد، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٤) فقه الأخلاق / الشيخ مصطفى العدوى (ص ٨١، ٨٢).

إنَّ الله قَد سمعَ قَولَ قَومِكَ لَكَ، وأَنَا مَلَكُ الجِبالِ، وقَد بَعَثَنى رَبِّى إِلَيْكَ لِتأْمُرَنى بِأَمْرِكَ، فَمَا شئتَ: إِنْ شئْتَ: أَطْبَقْتُ عَلَيهمُ الأَخْشَبَيْن» فقال النبى ﷺ: «بَلْ أَرجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصلابِهِم مَنْ يَعبُدُ الله وَحدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(١).

۞ كانت أُمنا عائشة رضي الله عنها جالسة مع النبى ﷺ فسألته: هل مَرَّ عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحد؟ ... ولماذا يوم أُحد؟! لأنها تعلم أنه كان يومًا عصيبًا على النبى ﷺ وأصحابه .. فقد قُتل فى هذا اليوم سبعون من خيرة أصحاب النبى ﷺ وكان من بينهم حمزة بن عبد المطلب – عم النبى ﷺ-.

فأجابها النبى ﷺ بأنه مَرَّ عليه أيامٌ شِداد .. وكان من أشد تلك الأيام -يوم الطائف- .. وذكر لها ما حدث يوم الطائف عندما ذهب إليهم النبى ﷺ ليعرض عليهم دعوته ويدعوهم إلى الله فكانوا أسفه من أهل مكة الذين حاربوه .. فقد اجتمعوا هم وسُفهاؤهم ووقفوا صفَّين متقابلين فى طريق النبى ﷺ وأخذوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه ﷺ .. فذهب وهو مهموم حتى بلغ مكانًا يُسمَّى قرن الثعالب فرأى سحابة قد أظلته .. فرفع رأسه فإذا فيها جبريل عليه السلام فسلَّم عليه ثم قال له: هذا مَلَكُ الجبال يُقرئك السلام .. فسلَّم عليه النبى ﷺ فقال له ملك الجبال: إن ربى أرسلنى إليك لتأمرنى بما شئت... فإن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين – الجبلين- فعلت... فما كان من نهر الرحمة وينبوع الحنان إلا أن عفا عنهم وقال له: «**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئًا**».

وبالفعل ... فقد خرج من أصلاب هؤلاء الكفار رجالٌ آمنوا بالله واتبعوا رسول الله وآزروه ونصروه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٣١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٧٩٥) كتاب الجهاد.
الأخشبان: الجبلان المحيطان بمكة، والأخشب: هو الجبل الغليظ.

۞ وكم من المواقف التي تعرَّض فيها النبي ﷺ للأذى ومع ذلك فقد كان يعفو ويصفح لأن الله أرسله رحمة للعالمين.

(٦٤٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا ضَرَبَ رسولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلاَ امْرأَةً وَلاَ خادِمًا، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ منْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنتَقِمَ مِنْ صاحِبِهِ إِلاَّ أَنْ يُنتَهَكَ شَيء مِن مَحَارِمِ اللهِ تَعَالَى: فَيَنْتَقِمَ للهِ تَعَالَى[1].

۞ وهذا من كرم أخلاق النبي ﷺ.. أنه ما ضرب أحدًا ولا امرأة ولا خادمًا... وإنما كان يضرب إذا جاهد في سبيل الله ...ولم ينتقم لنفسه أبدًا بل كان يعفو دائمًا ويرفع شعار: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» ... ولكنه كان إذا انتُهكت محارم الله فإنه ﷺ كان يغضب لله ولا يرضى بذلك أبدًا.... فكان يتسامح في حق نفسه ولكنه كان يغضب لله (جَلَّ وعلا).

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم وبخاصة الذين أكرمهم الله عز وجل بشرف الدعوة إلى الله ألا يغضبوا لأنفسهم .. فطريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود فينبغي ألا يلتفتوا لمن يُسيئ إليهم ولينشغلوا بالعبادة وشرف الدعوة إلى الله.. لكن إذا انتُهك شيء من محارم الله عز وجل فيجب أن يغضبوا لله.

(٦٥٠) وعن أَنس رضي الله عنه قَالَ: كُنتُ أَمْشِي مَعَ رسول الله ﷺ وَعَلَيْهِ بُردٌ نَجْرَانيٌّ غلِيظُ الحَاشِيةِ، فأَدركَهُ أَعرَابيٌّ، فَجبذهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَة شَدِيدَةً، فَنظرتُ إِلَى صَفْحَةِ عاتِقِ النَّبيِّ ﷺ وقَد أَثَّرت بِها حَاشِيةُ الرِّداءِ مِنْ شِدَّةِ جَبذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُر لِي مِن مالِ اللهِ الَّذِي عِندَكَ. فالتَفتَ إِلَيْه، فضحِكَ، ثُمَّ أَمر لَهُ بعَطَاءٍ[2].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٢٨) كتاب الفضائل.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٤٩) كتاب فرض الخمس، ومسلم (١٠٥٧) كتاب الزكاة.

۞ فانظر إلى هذا الخُلق الرفيع...لم يُوبِّخه النبى ﷺ ولم يضربه، ولم يَكفهِرَّ فى وجهه، ولم يعبس؛ بل ضحك ﷺ ومع هذا أمر له بعطاء.

ونحن لو أن أحدًا فعل بنا هذا الفعل ما أقررناه عليه؛ بل لضربناه.

وأما الرسول ﷺ الذى قال الله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فإنه التفت إليه وضحك إليه، وأعطاه العطاء.

وهكذا ينبغى للإنسان أن يكون حليمًا، وإذا اشتد الناس أن يلين هو.

وسُئل معاوية رضي الله عنه بِمَ سُسْتَ الناس؟ ؛ وذلك لأن معاوية معروف بالسياسة والحكمة، فقال: أجعل بينى وبين الناس شعرة؛ إن جذبوها تبعتهم، وإن جذبتها تبعونى لكى لا تنقطع.

ومعنى كلامه أنه سهل الانقياد؛ لأن الشعرة إذا جعلتها بينك وبين صاحبك إذا جذبها أدنى جذب انقطعت، لكن من حُسن سياسته رضي الله عنه أنه كان يَسوس الناس بهذه السياسية؛ إذا رآهم مقبلين استقبلهم، وإذا رآهم مُدبرين تبعهم حتى يتمكن من استمالة قلوبهم.

فهكذا ينبغى للإنسان أن يكون دائمًا فى سياسته رفيقًا حليمًا، كما كان النبى ﷺ[(١)].

❊ ❊ ❊

(٦٥١) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: كأَنِّى أَنظُرُ إِلَى رسولِ الله ﷺ يحكِى نَبِيًّا مِن الأَنبياءِ، صلوَاتُ اللهِ وَسلامُه عَلَيهم، ضَرَبَهُ قَومُهُ فَأَدموهُ، وَهُوَ يَمسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجهِهِ، ويقول: «اللَّهُمَّ اغفِر لِقَومى فَإِنَّهُم لا يَعلَمُونَ»[(٢)].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٢٤-٣٢٥) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٧) كتاب أحاديث الأنبياء- ومسلم (١٧٩٢) كتاب الجهاد.



(٣٧) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(٦٥٢) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَيس الشَّديدُ بِالصُّرعَةِ، إنَّما الشديدُ الَّذِي يَملِكُ نفسهُ عِند الغضبِ»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٦) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١١٤) كتاب الأدب- مسلم (٢٦٠٩) كتاب البر والصلة.

(٧٦) باب احتمال الأذى

❁ قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. وفى الباب الأحاديث السابقة فى الباب قبله.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (باب الصبر على الأذى)، الأذى: هو ما يتأذى به الإنسان من قولٍ أو عمل أو غير ذلك، والأذى إما أن يكون فى أمرٍ دينى أو دنيوى، فإذا كان فى أمرٍ دينى، بمعنى أن الرجل يُؤذَى من أجل دينه، كان فى هذا الصبر على الأذى أُسوة بالرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]. أُوذوا حتى أتاهم نصر الله عَزَّوَجَلَّ.

والإنسان إذا كان معه دين، وكان معه أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر فلا بُدَّ أن يُؤذَى ولكن عليه بالصبر، وإذا صبر فالعاقبة للمتقين.

ويُبتلى المرء على قدر دينه، فيُسلط الله عليه مَن يؤذيه امتحانًا واختبارًا... كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]. يعنى إذا أُوذى فى الله من جهة دينه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودعوته للخير، جعل هذه الفتنة كالعذاب، فنكص على عقبيه والعياذ بالله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

يعنى أن بعض الناس يعبد الله على حرف، وليس عنده عبادة متمكنة، فإن أصابه خير ولم تأته فتنة ولا أذية استمر واطمأن.. وإن أصابته فتنة من شُبهة أو

أذية أو ما أشبه ذلك، انقلب على وجهه - والعياذ بالله- خسر الدنيا والآخرة.

فالواجب الصبر على الأذى فى ذات الله عَزَّوَجَلَّ.

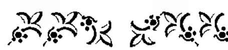
وأما الأذى فيما يتعلق بأمور الدنيا ومعاملة الناس، فأنت بالخيار إن شئت فاصبر وإن شئت فخُذ بحقك... والصبر أفضل، إلا إذا كان فى الصبر عدوان واستمرار فى العدوان، فالأخذ بحقك أَولَى.

فلنفرض أن لك جارًا يؤذيك، بأصواتٍ مزعجة، أو دق الجدار، أو إيقاف السيارة أمام بيتك، أو ما أشبه ذلك، فالحق إذن لك، وهو لم يؤذك فى ذات الله، فإن شئت فاصبر وتحمل وانتظر الفرج، والله سبحانه وتعالى يجعل لك نصيرًا عليه، وإن شئت فخُذ بحقك.. لقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[الشورى: ٤١]. ولكن الصبر أفضل ما لم يحصل بذلك زيادة عدوان من المعتدى، فحينئذ الأفضل أن يأخذ بحقه ليردعه عن ظلمه.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيتين سبق الكلام عليهما.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[الشورى: ٤٣]. وسبق الكلام عليهما[١].



(٦٥٣) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله إنَّ لى قَرَابَةً أَصِلُهم ويَقْطَعونى، وَأُحسِنُ إليهِم ويُسيئُونَ إلىَّ، وأَحلُمُ عنهم ويجهلُونَ عَلَىَّ، فقال: «لَئِن كُنتَ كَمَا قُلتَ فَكَأَنَّما تُسِفُّهم المَلَّ ولا يزَالُ معكَ من الله تعالى ظَهيرٌ عَلَيهم ما دُمْتَ عَلى ذلك»[٢] وقد سَبَقَ شَرحُه فى «باب صلة الأرحام».

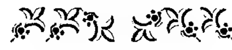
---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٢٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة.

=

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٢٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



= ۞ فكأنما تُسفهم الملَّ: أي تجعل في وجوههم الرماد الحار.

(٧٧) باب الغضب إذا انتُهكت حُرمات الشرع والانتصار لدين الله تعالى

۞ يقول الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [باب الغضب إذا انتُهكت حُرمات الشرع والانتصار لدين الله تعالى].

يعنى: الذى ينبغى للمؤمن ألا يغضب، إلا إذا كان الأمر يتعلق بدينه فيغضب انتصارًا لدينه.. يغضب لله سبحانه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، أما إذا كان الغضب للنفس فإنه يعفو ويحلم ويصفح... وكان من عادة النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصفح والحلم والتجاوز صلوات الله وسلامه عليه، أما إذا كان الأمر يتعلق بشرع الله وبحدود الله فإنه كان يغضب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... وغضبه لله سبحانه.

۞ قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

لأن تعظيم حُرمات الله، من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التى مَن عَظَّمها وأجَلَّها، أثابه الله ثوابًا جزيلًا وكانت خيرًا له فى دينه، ودُنياه وأُخراه عند ربه عَزَّوَجَلَّ.

وحُرمات الله: كل ما له حُرمة، وأمر باحترامه، من عبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التى أمر الله العباد بالقيام بها[1].

۞ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فتعظيم شعائر الله وتعظيم حرمات الله أن يجدها الإنسان عظيمة، وأن يجد امتهانها عظيمًا فيغضب ويثأر لذلك، حتى يفعل ما أُمر به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك.

---

(١) تفسير السعدى (ص ٦٢٤).

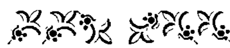
۞ وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد: ٧].

هذا أمرٌ منه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبَّت أقدامهم.. أى: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويُصبِّر أجسامهم على ذلك، ويُعينهم على أعدائهم... فهذا وعدٌ من كريمٍ صادق الوعد، أن الذى ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، ويُيسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم فى تعسٍ، أى: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾ أى: أبطل أعمالهم التى يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم فى نحورهم، وبطلت أعمالهم التى يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن الذى أنزله الله، صلاحًا للعباد، وفلاحًا لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾[1].



(٦٥٤) وعَنْ أبى مسعود عقبة بن عمرو البدريِّ ﷺ قال: جَاءَ رَجُلٌ إلى النبىِّ ﷺ، فقال: إنِى لأَتَأَخَّر عَن صَلاةِ الصُّبْحِ مِن أجْلِ فلانٍ مِما يُطِيل بِنَا..فمَا رأيت النبى ﷺ غَضِبَ فى موعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ ممَّا غَضِبَ يَومئِذٍ، فقَال: «يَا أَيهَا النَّاس: إنَّ مِنكم مُنَفِّرين. فأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاس فَلْيُوجزْ، فإنَّ مِنْ ورائِهِ الكَبيرَ والصَّغيرَ وذا الحَاجَةِ»[2].

۞ ففى هذا الحديث يخبر أبو مسعود عقبة بن عمرو البدرى ﷺ أنه جاء

(١) تفسير السعدى (ص ٩٣٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٤) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٦) كتاب الصلاة.

رجلٌ إلى النبى ﷺ وأخبره أنه يتأخر عن صلاة الصبح لأن الإمام الذى يصلى بهم يُطيل فى الصلاة إطالة أتعبته حتى أنه كان يتعمد أن يذهب إلى الصلاة متأخرًا حتى تفوت الركعة الأولى التى تكون فى الغالب أطول من الثانية ثم يدرك الثانية بسبب إطالة الإمام.... وكان من المتوقع أن يقول له النبى ﷺ: وما يُضيرك فى الإطالة.. ألا تحب أن تستمع إلى القرآن وتستمتع بآياته... لكن الذى حدث خلاف ذلك فقد قال أبو مسعود: فما رأيت النبى ﷺ غضب فى موعظةٍ قَطُّ أشدَّ مما غضب يومئذٍ.

نعم.. لقد غضب النبى ﷺ غضبًا شديدًا وقال: « **يَا أَيهَا النَّاس: إنَّ مِنكم مُنَفِّرين**» منفرين يعنى ينفرون الناس عن دين الله... وهذا الرجل لم يَقُل للناس: لا تُصلوا صلاة الفجر، لكنه نفَّرهم بفعله، بالتطويل الذى هو خارجٌ عن السُّنة، فنفر الناس، وفى هذا إشارة إلى أنَّ كل شىء ينفر الناس عن دينهم - ولو لم يتكلم الإنسان بالتنفير - فإنه يدخل فى التنفير عن دين الله.

ولهذا كان الرسول ﷺ يدارى فى الأمور الشرعية، فيترك ما هو حسن لدرء ما هو أشد من تركه فتنة وضررًا... فإنه ﷺ هَمَّ بأن يبنى الكعبة على قواعد إبراهيم ﷺ، ولكن خاف من الفتنة فترك ذلك، وكان يصوم فى السفر فإذا رأى أصحابه صائمين - وقد شَقَّ عليهم الصوم - أفطر ليسهل عليهم.

۞ ثم أمرهم النبى ﷺ بالتخفيف فى الصلاة فقال ﷺ: «**فأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاس فَليُوجزْ، فإنَّ مِنْ ورائِهِ الكَبيرَ والصَّغيرَ وذا الحَاجَةِ**» نعم.. ينبغى للإمام أن يراعى أنه يصلى وراءه الشيخ الكبير الذى لا يستطيع أن يقف كثيرًا لكِبَر سِنِّه ولمرضه... وكذلك الطفل الصغير الذى لا يتحمل.. ونحن نريد أن نُرغبه فى الصلاة لا أن نُنفره منها.. « **وذا الحَاجَةِ**» المشغول الذى يريد أن يصلى الفريضة ويذهب لقضاء مصالحه.

ثم إن الهدف من صلاة الجماعة -بعد الفوز بثوابها وإعمار بيوت الله- أن يجتمع أهل الحى فى المسجد ويتعارفون وتَحدُث بينهم المحبة والمودة ويواظبون على جميع الصلوات الخمس مع بعض، ويحضرون الجنائز، ويعود بعضهم بعضًا إذا مرض.

إذًا: فى صلاة الجماعة أُلفة تجمع الناس، فإذا كان الإمام يطول بالناس فإنه يُنفرهم فلا أحد يصلى معه... فبدلًا من أن يكون المسجد فيه عددٌ كبير يصبح فيه قلة من المصلين، فتزول الحكمة من صلاة الجماعة، وهى أن يجتمع الجميع فيصلون صلاة الجماعة سويًّا.

۞ ولهذا فإنه ينبغى على الإمام أن يراعى حال المأمومين فلا يشق عليهم إلا إذا علم رضاهم وأنهم جميعًا يرغبون فى التطويل وذلك لشدة حبهم لسماع كلام الله (جل وعلا) فلا بأس عليه حينئذ أن يطول بهم طالما أنهم لا يشعرون بأى مشقة.

ولما صلى الرجل خلف معاذ بالبقرة أو النساء شكاه إلى النبى ﷺ فقال: **«يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ -ثَلاَثَ مِرَارٍ- فَلَوْلا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى»**(١).

فالضابط فى التطويل والتقصير حال المأمومين ورضاهم، وإتمام الصلاة وعدم النقص من أركانها... فعن أنس قال: «كان النبى ﷺ يُوجز الصلاة ويُكملها»(٢).



(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٥) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٥) كتاب الصلاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٦) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٩) كتاب الصلاة.

(٦٥٥) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قدِمَ رسول الله ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وقَد سَترتُ سَهْوةً لى بقِرام فِيهِ تَمَاثيلُ، فَلمَّا رآهُ رسول الله ﷺ هَتكَهُ وتَلَوَّنَ وجهُهُ وقال: «يَا عائِشَةُ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِند الله يوم القيامةِ الَّذينَ يُضاهُونَ بِخَلقِ الله»(١).

وفى رواية: فَلَمَّا قَدِمَ فَرَأَى النَّمَطَ عَرَفْتُ الْكَرَاهِيَةَ فِى وَجْهِهِ فَجَذَبَهُ حَتَّى هَتكَهُ أَوْ قَطَعَهُ وَقَالَ: إِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرنَا أَنْ نَكْسُوَ الْحِجَارَةَ وَالطِّينَ.

قَالَتْ: فَقَطَعنا مِنْهُ وِسَادَتَيْنِ وَحَشَوْتُهُمَا لِيفًا فَلَمْ يَعِبْ ذَلِكَ عَلَيَّ(٢).

۞ لقد أورد المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث فى باب الغضب إذا انتُهكت حُرمات الشرع.

وفى هذا الحديث أُمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كان فى بيتها سهوة.. وهى قد تكون شِبَّاكًا فى الحائط أو تكون شيئًا بداخل الجدار تضع بداخله حاجاتها.

أو كالصُّفَّة التى تكون بين يدى البيت... فأرادت أن تستر تلك السهوة فوضعت ستارًا رقيقًا عليه رسوم وتصاوير.

فلما عاد النبى ﷺ من السفر ودخل البيت ورأى تلك الستارة التى عليها تلك الصور هتكها وقطعها وتَلَوَّنَ وجهُهُ وقال: «يَا عائِشَةُ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِند الله يوم القيامةِ الَّذينَ يُضاهُونَ بِخَلقِ الله». يعنى المصورين، فهم أشد الناس عذابًا، لأنهم أرادوا أن يُضادوا الله سبحانه وتعالى فى خلقه، وفى تصويره.

وكانوا فيما سبق يُصورون باليد، لأنه ليس عندهم آلات وأجهزة تلتقط الصورة بدون عمل يدوى، فكانوا يخططون بأيديهم، فيأتى الحاذق منهم ويصور صورة بيده ويُتقنها لتُشابه ما صوَّره الله من خلقه..، ليُقال: ما أشد مهارة

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٥٤) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٠٧) (٩٢) كتاب اللباس.
«السَّهْوَةُ»: كالصُّفَّة تكونُ بين يدى البيت... و «القِرام» بكسر القاف: سِتْرٌ رقيق.
و«هَتَكَه»: أفسد الصورة التى فيه.

(٢) رواه مسلم (٢١٠٧) كتاب اللباس.

هذا الرجل، وما أعرفه، كيف استطاع أن يقلد خلق الله عَزَّوَجَلَّ؟ فهم يريدون بذلك أن يشاركوا الله سبحانه وتعالى في تصويره،... وهو سبحانه وتعالى لا شريك له: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦]. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٤].. فلما رآه النبي ﷺ هتكه: يعني مزقه عليه الصلاة والسلام.

وفي هذا: دليل على مشروعية تمزيق الصور التي تُصوَّر باليد لأنه يضاهي بها خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وإقرار المنكر كفعل المنكر.

وفيه: الغضب إذا انتُهكت حُرمات الله عَزَّوَجَلَّ، لأن النبي ﷺ غضب وهتكه[1].

وفي رواية أخرى: (أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مزقتها، وقطعتها وجعلت منها وسادتين يتكئ عليهما النبي ﷺ)، فإذا جُعلت هذه الصور في فراش على سرير، أو في فراش على الأرض يُوطأ بالقدم فلا مانع... أما إذا كانت مُعلقة على وجهٍ فيه شيء من الاحترام لها فهذا ممنوع؛ لأن النبي ﷺ غضب من ذلك.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ صَرَّحَتْ فِي الرِّوَايَاتِ الْمَذْكُورَاتِ بَعدَ هَذِهِ بِأَنَّ هَذَا النَّمَطَ كَانَ فِيهِ صُوَرُ الْخَيْلِ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ وَأَنَّهُ كَانَ فِيهِ صُورَةٌ فَيُسْتَدَلُّ بِهِ لِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ وَهَتْكِ الصُّوَرِ الْمُحَرَّمَةِ وَالْغَضَبِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْمُنْكَرِ وَأَنَّهُ يَجُوزُ اتِّخَاذُ الْوَسَائِدُ وَاللهُ أَعلَمُ... وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ حِينَ جَذَبَ النَّمَطَ وَأَزَالَهُ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يأمرنا أن نكسوا الْحِجَارَةَ وَالطِّينَ» فَاسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّهُ يُمْنَعُ من ستر الحيطان وتنجيد البيوت بالثياب وهو منع كراهة تنزيه لا تحريم[2].



(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٣١) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٤/ ١٢١-١٢٢).

(٦٥٦) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ قريشًا أَهَمَّهُم شَأْنُ المرأةِ المخزُومية التى سَرقَت فقالوا: مَن يُكلِّمُ فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: مَن يجتَرِئُ عليهِ إلا أُسامةُ بنُ زيد حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فَكَلَّمهُ أُسامةُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَشفعُ فى حدٍّ مِن حُدُود الله تعالى؟» ثم قامَ فاخْتَطَبَ ثم قال: «إنما أهْلَكَ مَن قبلكُم أَنَّهُم كانُوا إذَا سرقَ فِيهم الشَّرِيفُ تَركُوهُ، وإذا سرق فيهم الضَّعيفُ أَقامُوا عليهِ الحدَّ، وايمُ الله، لو أَنَّ فاطمَة بنت محمدٍ سرقَت لقَطَعتُ يَدهَا»(١).

۞ لقد كانت هذه المرأة من قبيلة من أشرف قبائل العرب وهى قبيلة بنى مخزوم.. وكانت هذه المرأة تستعير المتاع وتجحده ولا ترده لأصحابه.. يعنى تستعير إناءًا أو قِدرًا أو ذهبًا أو غير ذلك فإذا طلبها أصحابها قالت: ما أخذت منكم شيئًا.. فرفعوا أمرها إلى النبى ﷺ فأمر بقطع يدها لأن هذا نوعٌ من السرقة.. فأهمَّ قريشًا شأنها وقالوا: كيف تُقطع يد مخزومية، ثم طلبوا شفيعًا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: أسامة بن زيد حِبَّ رسول الله ﷺ.. يعنى أنه يحبه حُبًّا شديدًا.

وأسامة هو ابن زيد بن حارثة... وزيد بن حارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان عبدًا وهبته خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا للنبى ﷺ فأعتقه... وأسامة ابنه، وكان النبى ﷺ يحبهما، فقالوا: ليس إلا أسامة بن زيد، فتقدم أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النبى ﷺ ليشفع.

فغضب النبى ﷺ غضبًا شديدًا وقال له: **«أتشفع فى حدٍّ من حدود الله تعالى؟»**.. ثم قام وخطب فى الناس لأن الأمر فى غاية الخطورة ولا بد أن يسمع الجميع..

فقال ﷺ: **«إنما أهلك مَن كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله** - يعنى أُقسم بالله - **لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها»**.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٦٨٨) كتاب الحدود.

۞ الحدود هى العقوبات التى قدرها الله ورسوله ﷺ على فاعل المعصية فمنها حد الزنا ومنها حد القذف وحد السرقة وحد الحرابة ... وأما القتل بالرِّدة فليس من الحدود لأن المرتد إذا تاب ولو بعد أن رُفع إلى السلطان فإنه يسقط عنه القتل لكن هذه الحدود لابد منها ولا تسقط إلا إذا تاب الإنسان قبل أن يُقدَر عليه لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

واعلم أن العقوبات على الذنوب تنقسم إلى قسمين: عقوبات أُخروية فهذه أمرها إلى الله ... قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء:٤٨] فكل ذنب سوى الشرك فإنه قابل أن يغفره الله عَزَّوَجَلَّ بفضله ورحمته.

وأما العقوبة الدنيوية فهى أقسام كثيرة: منها: أقسام معينة مُحدَّدة فى الشريعة فهذه لا يجوز تَعدِّيها ... فمثلًا السارق تُقطع يده ولا يجوز أن تُقطع رجله مع يده ولا أن تُقلع عينه ولا أن تُفجر أذنه ... لا يجوز أن يُتعدى فيما حدَّه الله ورسوله وهو قطع اليد.

كذلك أيضًا الزنا ... إذا كان الزانى لم يتزوج من قبل فحدُّه مائة جلدة وتغريب عام ... أى طرده من البلد إلى بلدٍ آخر لمدة سنة ... هذا أيضًا لا تجوز الزيادة فيه ولا النقص منه لأنه حدٌّ من الحدود.

ومثل المحاربين لله ورسوله الساعين فى الأرض فسادًا هؤلاء جزاؤهم أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنفوا من الأرض.

هناك عقوبات أخرى غير مُقدرة هذه يرجع فيها إلى رأى الحاكم يعنى القاضى الشرعى أو مَن له تنظيم وتقنين العقوبات ... فهذه أمرها واسع تارة تكون العقوبة بالمال ... يغرم الإنسان مالًا وتارة تكون العقوبة بالعزل عن منصبه وتارة تكون بالحبس وتارة تكون بالتشهير بأن يُعلَن اسمه ومخالفته بين الناس .. وتارة تكون بالتقويم من المجلس حسب ما تقتضيه المصلحة والتأديب وتارة تكون بالجلد.

فأما العقوبات المُحددة فإنه إذا بلغت السلطان فلا يجوز لأحدٍ أن يشفع فيها كما قال النبى ﷺ « **إِذَا بَلَغَتِ الْحُدُودُ السُّلْطَانَ، فَلَعَنَ اللهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفِّعَ لَهُ**»[(١)] ... اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وقال ﷺ: « **مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ فَقَد ضَادَّ اللهَ فِى أَمْرِهِ**»[(٢)] والعياذ بالله.

وإن لم تصل إلى الحاكم فهنا قد يجوز الشفاعة والتوسُّط ... مثل لو أن أحدًا رأى شخصًا يزنى وشاهده وعنده أربع شهود على ذلك ورأى أن من المصلحة أن يُستتاب هذا الرجل فإذا تاب ستر عليه فلا بأس ... أما بعد أن تبلغ السلطان فلا يجوز.

۞ وذكر المؤلف حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن امرأة من بنى مخزوم سرقت وقد بينت السرقة بأنها تستعير المتاع وتجحده ... يعنى تأتى إلى الناس وتقول أعرنى القِدر أعرنى الدلو فيُعيرونها إحسانًا منهم إليها ثم تجحد العارية وتقول ما أعرتموني.

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير، والدارقطنى، وقال الأرناؤوط فى تحقيق ابن حبان (١٠/ ٢٥٠): وفى سنده أبو غزية ضعَّفه أبو حاتم وغيره، ووثقه الحاكم.. وأخرجه مالك فى «الموطأ» (٢/ ٨٣٥) عن ربيعة، عن الزبير موقوفًا، وبسند آخر حسن عن عليٍّ نحوه كذلك.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والطبرانى فى الكبير، والحاكم، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٩٦).

فجعل النبى ﷺ جحد العارية فى منزلة السرقة لأن السارق يدخل البيوت فى خُفية ويأخذ ... وهذه سرقت أموال الناس فى خُفية أخذتها منهم على أنها عارية وأنها إحسان من أهلها أى من أهل الأموال ثم تجحد.

أمر النبى ﷺ أن تُقطع يدها .. وكانت من بنى مخزوم من أشرف قبائل قريش فأهمَّهم ذلك ... أى لحقهم الهم فى هذا كيف تُقطع يد المخزومية فطلبوا مَن يشفع إلى رسول الله ﷺ فقالوا: مَن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد .. ولم يذكروا أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ولا مَن هو أعلى قدرًا من أسامة بن زيد ... فإما أن يكونوا قد حاولوا ذلك ولم يُفلحوا وإما أن يكونوا من الأصل علموا أنهم لن يشفعوا فى حَدٍّ من حدود الله.

المهم أنهم طلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنه ... وأسامة هو أسامة بن زيد بن حارثة وزيد بن حارثة كان عبدًا مملوكًا وهبته خديجة إلى النبى ﷺ فأعتقه وكان يُحبه ويحب ابنه أسامة ... تكلم أسامة مع النبى فى شأن المرأة لعله يرفع عنها القطع فتلون وجه رسول الله ﷺ **وقال له مُنكرًا عليه: «أتشفع فى حَدٍّ من حدود الله»** يعنى ما كان ينبغى أن تشفع فى حد من حدود الله.

ثم قام فاختطب... أى خطب خُطبة بليغة ثم قال: **«إنما أهلك مَن كان قبلكم** -يعنى من الأمم- **أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»**.

فصارت إقامتهم لحدود الله على حسب أهوائهم.

وفى هذا دليل على أن مَن سبقنا كانوا يسرقون وأن السرقة كانت كبيرة فيهم بين الغنى والفقير والشريف والضعيف.

ثم أقسم (عليه الصلاة والسلام) فقال: **«وايم الله** - أي: أحلف بالله - **لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها»**. هكذا العدالة، وهكذا تنفيذ حكم الله،

لا اتباع الهوى... أقسم بأن فاطمة بنت محمد، وهى أشرف من المخزومية حَسَبًا ونَسبًا؛ لأنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سيدة نساء أهل الجنة. أقسم أنها لو سرقت لقطع يدها.

ثم أمر النبى ﷺ أن تُقطَع يد المرأة المخزومية فقُطعت وهى امرأة من أشراف قريش ومع ذلك لم يسقط عنها الحد ... وهكذا يجب على ولاة الأمر أن يكون الناس عندهم سواء فى إقامة الحدود وألا يحابوا أحدًا لقُربه أو لغِناه أو لشرفه فى قبيلته أو غير ذلك ... فالحدُّ لله عَزَّوَجَلَّ تجب إقامته لله عَزَّوَجَلَّ.

انظر إلى قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ ومن الرأفة الشفاعة لهم ... لا تشفع لأحدٍ فى حَدٍّ.

ولما كانت الأمة الإسلامية على هذه العدالة وعدم المبالاة وأنها لا تأخذها فى الله لومة لائم كان لها العزة والقوة والنصر المُبين ... ولما تخلَّت الأمة الإسلامية عن إقامة حدود الله وصارت المحسوبيات والوساطات تعمل عملها فى إسقاط حدود الله عَزَّوَجَلَّ تدهورت الأمة الإسلامية إلى الحد الذى ترونه الآن... فنسأل الله تعالى أن يُعيد للأمة الإسلامية مجدها وتَمسُّكها بدينها..إنه على كل شيء قدير(١).

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: فى الشمائل النبوية:

(١) شدته ﷺ فى الحق يتبين من رَدِّه ﷺ شفاعة أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِبِّه وابن حِبِّه... وقال ﷺ مقولته المشهورة: «**أتشفع فى حدّ من حدود الله؟**»، وقد ورد عند مسلم: (فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ)، فمع أن الشافع هو رجل من أحب الناس للنبى ﷺ اختاره الصحابة بعناية لهذه المهمة، ولكن الأمر لم يختلف عنده ﷺ كما ظن الصحابة.

فلم ينظر النبى ﷺ إلى مَن هو الشافع، ولكن نظر إلى المشفوع فيه، وهو

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٤/ ٢٥٩-٢٦٢) بتصرف.

حَدٌّ من حدود الله... وفى هذا دليل على تعظيم النبى ﷺ لحدود الله.

وهكذا يجب أن يكون جميع الناس حُكامًا ومحكومين.

(٢) مساواته ﷺ فى إقامة الحدود بين الناس، شريفهم ووضيعهم حيث رَدَّ ﷺ شفاعة أسامة بن زيد فى امرأة شريفة (قرشية مخزومية) وزاد على ذلك، فقال ﷺ: **«وايم الله لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها»**.

(٣) حرصه ﷺ على تعليم الأمة حيث قام ﷺ خطيبًا فى الناس، عشية يوم أن كلمه أسامة بن زيد، وقال: **«إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»**، فحوَّل ﷺ المسألة من مسألة خاصة إلى مسألة عامة، وعلَّم الصحابة الحكمة فى ردِّه لشفاعة أسامة ابن زيد، وبيَّن بذلك مغبة التفرقة فى إقامة الحدود على أساس الشرف والنسب.

الفائدة الثانية:

يتفاوت حب النبى ﷺ لأصحابه، وقد علم الصحابة ذلك، لذا اختاروا أسامة بن زيد رضي الله عنه ليشفع فى المرأة المخزومية وقالوا: (ومَن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ)، وهى منقبة عظيمة لأسامة رضي الله عنه.

الفائدة الثّالثة:

حرص الصحابة على الخير والاستغفار على الفور مما قد يقعون فيه من زلَّات، وعلمهم أن استغفار الرسول ﷺ لهم ليس كاستغفارهم لأنفسهم.. لما ورد أن أسامة قال: (استغفر لى يا رسول الله)، وكان هذا منهم امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤][1].

---

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٤٠٢-٤٠٣) بتصرف.

الفائدة الرّابعة:

أن النبى ﷺ غضب هنا لله عَزَّوَجَلَّ ... ولم يغضب لنفسه لأنه ﷺ كان لا يغضب إلا إذا انتُهكت حُرمات الله.

لأن الغضب والانتقام للنفس مذموم.. ولذا لما طلب أحد الصحابة من النبى ﷺ أن يوصيه قال له: «**لا تغضب**».

فالغضب لله ولشرائع الله محمود، وهو من هدى الرسول ﷺ ، ودليلٌ على غيرة الإنسان وعلى محبته لإقامة شريعة الله... أما الغضب للنفس فينبغى للإنسان أن يكتمه وأن يَحلُم، وإذا أصابه الغضب فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا كان قائمًا فليجلس، وإن كان جالسًا فليضطجع.

كل هذا مما يُخفف عنه الغضب.

(٦٥٧) وعَن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ رَأى نُخامَةً فى القِبلة. فشقَّ ذلكَ عَلَيهِ حتَّى رُؤِى فى وجههِ، فقَامَ فَحَكَّهُ بيدهِ فقال: «إن أَحَدكم إذا قَام فى صَلاتِه فَإِنَّهُ يُنَاجِى ربَّه، وإنَّ ربَّهُ بَينَهُ وبَينَ القِبْلَةِ، فلا يَبْزُقَنَّ أَحدُكُم قِبلَ القِبْلَةِ، ولكن عَنْ يَسَارِه أَوْ تحتَ قدَمِهِ» ثُمَّ أَخَذَ طرفَ رِدائهِ فَبصقَ فِيهِ، ثُمَّ ردَّ بَعضَهُ على بعضٍ فقال: «أَو يَفْعَلُ هكذا»[(١)].

۞ والأمرُ بالبُصاق عنْ يسَارِهِ أو تحت قَدَمِهِ هُوَ فيما إذا كانَ فى غَيْرِ المَسجِدِ، فَأَمَّا فى المسجِدِ فَلا يَبصُقْ إلَّا فى ثوبِهِ.

۞ وهذا الحديث أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فى باب الغضب إذا انتُهكت حُرمات الشرع.

وفى هذا الحديث يحكى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ دخل المسجد فى يومٍ من

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٥)، (٤١٧) كتاب الصلاة - ومسلم (٥٥١) كتاب المساجد.

الأيام فرأى نُخامة في القبلة -أي في قبلة المسجد- فغضب النبي ﷺ وشقَّ ذلك عليه لتعظيمه لحرمات الله ولبيت الله عَزَّوَجَلَّ .. وكأنه يقول ﷺ: كيف يحدث هذا في بيت الله؟!

ثم قام النبي ﷺ - سيد المتواضعين- وحَكَّ تلك النُخامة بيده الشريفة وقال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، وَإِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ».

يعني إذا قام أحدكم يصلي فإنه يناجي ربه أي: يخاطبه والله عَزَّوَجَلَّ يرد عليه... كما قال تعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

فأنت تُناجي الله عَزَّوَجَلَّ بكلامه، وتدعوه سبحانه وتعالى، وتُسبحه، وتُمجده، وتُعظمه... فهو سبحانه وتعالى أمامك بينك وبين القبلة، وإن كان الله سبحانه وتعالى في السماء فوق عرشه، فإنه أمامك، لأنه محيط بكل شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

۞ففي عهد النبي ﷺ كان المسجد نفسه مفروشًا بالتراب وبالحصى، ولم يكن في المسجد سجاد ولا حصير؛ ولذلك كان النبي ﷺ إذا احتاج شيئًا يقول لعائشة: «ناوليني الخُمرة»، وهي حصيرة على قدر ما يصلي فيفرشها ويصلي عليها.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٩٥) كتاب الصلاة.

أما المسجد فى ذلك الزمان فلم يكن مفروشًا.

ولذا كان الواحد منهم إذا غلبه البصاق وأراد أن يبصق كان يخرج خارج المسجد أو أن يبصق فى أرض المسجد ويدفنها بالتراب.. لكن الأصل ألا يفعل ذلك وذلك لأن النبى ﷺ قال: «**الْبُصَاقُ فِى الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا**».. لكن إن اضطر لذلك فعليه دفنها.

إما فى التراب إن كان أرض المسجد تُرابية أو أن يُخرجها خارج المسجد. وهذا إذا كانت أرض المسجد من الحصى والتراب.

أما فى مساجدنا اليوم فلا يجوز ذلك لأن أرض المسجد مفروشة بالموكيت ولا يجوز أن يبصق أحدٌ عليها.. بل يكون معه منديل يبصق فيه ويضعه فى جيبه لحين خروجه من المسجد ثم يُلقيه فى صندوق القمامة.

۞ ثم قال ﷺ: «**فَلاَ يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ قِبْلَتِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحتَ قَدَمَيْهِ**» ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ، فَبَصَقَ فِيهِ ثُمَّ رَدَّ بَعضَهُ عَلَى بَعضٍ، فَقَالَ: «**أَوْ يَفْعَلُ هَكَذَا**».

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ نَهْيُ الْمُصَلِّى عَنِ الْبُصَاقِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ... وَهَذَا عَامٌّ فِى الْمَسْجِدِ وَغَيْرِهِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**وَلْيَبْزُقْ تَحتَ قَدَمِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ**» هَذَا فِى غَيْرِ الْمَسْجِدِ أَمَّا الْمُصَلِّى فِى الْمَسْجِدِ فَلَا يَبْزُقْ إِلَّا فِى ثَوْبِهِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**الْبُزَاقُ فِى الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ**» فَكَيْفَ يَأْذَنُ فِيهِ ﷺ وَإِنَّمَا نَهَى عَنِ الْبُصَاقِ عَنِ الْيَمِينِ تَشْرِيفًا لَهَا... وَفِى رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ فَلَا يَبْصُقْ أَمَامَهُ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا... قَالَ الْقَاضِى وَالنَّهْيُ عَنِ الْبُزَاقِ عن يمينه هو مع إمكان غير اليمين فَإِنْ تَعَذَّرَ غَيْرُ الْيَمِينِ بِأَنْ يَكُونَ عَنْ يَسَارِهِ مُصَلٍّ فَلَهُ الْبُصَاقُ عَنْ يَمِينِهِ لَكِنِ الْأَوْلَى تَنْزِيهُ الْيَمِينِ عَنْ ذَلِكِ مَا أَمْكَنَ[1].

(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ٥٥-٥٦).

وفي هذا الحديث: دليل على أن النخامة ليست نجسة، لأن النبي ﷺ أمر أن يبصق المصلي تحت قدمه أو في ثوبه، ولو كانت نجسة ما أذن له أن يبصق في ثوبه... وفيه التعليم بالفعل لقول النبي ﷺ : «**أو يقول هكذا، وبصق في ثوبه وحَكَّ بعضه في بعض**».

وفيه أيضًا: إطلاق القول على الفعل في قوله: «**أن يقول هكذا**» وهو يريد الفعل.

وفيه أيضًا: أن الإنسان لا حرج عليه أن يبصق أمام الناس، ولاسيما إذا كان للتعليم.

وفيه أن من المروءة ألا يُرى في ثوبك شيء يستقذره الناس - لأنه حَكَّ بعضها ببعض - لئلا تبقى صورتها في ثوبك، وإذا رآها الناس تأذوا منك وكرهوك. فالإنسان ينبغي أن يكون نظيفًا في مظهره وفي ثيابه وفي غير ثيابه، حتى لا يتقزَّز الناس مما يشاهدونه منه.

(٧٨) باب أمر ولاة الأمور بالرفق برعاياهم ونصيحتهم والشفقة عليهم والنهي عن غشهم، والتشديد عليهم، وإهمال مصالحهم، والغفلة عنهم وعن حوائجهم

۞ هذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه هو بابٌ عظيم مُهم يُخاطب به ولاة الأمور ويخاطب به الرَّعية، ولكلٍّ منهم على الآخر حَقٌّ يجب مراعاته.

أما ولاة الأمور فيجب عليهم الرفق بالرعية، والإحسان إليهم، واتباع مصالحهم وتولية مَن هو أهلٌ للولاية، ودفع الشر عنهم وغير ذلك من مصالحهم، لأنهم مسئولون عنهم أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

وأما الرعية فالواجب عليهم السمع والطاعة في غير المعصية، والنُّصح للولاة، وعدم التشويش عليهم، وعدم إثارة الناس عليهم، وطي مساوئهم، وبيان محاسنهم، لأن المساوئ يمكن أن يُنصح فيها الولاة سرًّا بدون أن تُنشر على الناس، لأن نشر مساوئ ولاة الأمور أمام الناس لا يُستفاد منه، بل لا يزيد الأمر إلا شدة؛ فتحمل صدور الناس الكراهية والبغضاء لولاة الأمور.

وإذا كره الناس ولاة الأمور وأبغضوهم وتمردوا عليهم، ورأوا أمرهم بالخير أمرًا بالشر، ولم يسكتوا عن مساوئهم، وحصل بذلك إيغار للصدور وشرٌّ وفساد.

والأمة إذا تفرقت وتمزقت حصلت الفتنة بينها ووقعت...مثل ما حصل في عهد عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حين بدأ الناس يتكلمون فيه، فأوغروا الصدور عليه، وحشدوا الناس ضده، وحصل ما حصل من الفتن والشرور إلى يومنا هذا.

فولاة الأمور لهم حق وعليهم حق.

ثم استدل المؤلف رحمه الله تعالى بآياتٍ من كتاب الله فقال: وقول الله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى لا تتعالى عليهم، ولا ترتفع فى الجو، بل اخفض الجناح، حتى وإن كنت تستطيع أن تطير فى الجو فاخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.

وأما مَن خالفك وعصاك فأقم عليه العقوبة اللائقة به، لأن الله تعالى لم يَقُل اخفض جناحك لكل أحدٍ، بل قال: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وأما المتمردون والعُصاة فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤]. وقول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠][1].

فالعدل الذى أمر الله به، يشمل العدل فى حقه، وفى حق عباده.

فالعدل فى ذلك، أداء الحقوق كاملة موفورة، بأن يؤدى العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمُركبة منهما، فى حقه، وحق عباده. ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدى كلُّ والٍ ما عليه تحت ولايته، سواء فى ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونُواب الخليفة، ونُواب القاضى.

والعدل هو: ما فرضه الله عليهم فى كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه... ومن العدل فى المعاملات، أن تعاملهم فى عقود البيع والشراء وسائر

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقًّا، ولا تغشهم، ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مُستحبة، وذلك كنفع الناس، بالمال والبدن، والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول، وغيره.

وخَصَّ الله إيتاء ذوى القربى - وإن كان داخلًا فى العموم - لتأكُّد حقهم، وتَعيُّن صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل فى ذلك، جميع الأقارب، قريبهم، وبعيدهم، لكن كل مَن كان أقرب، كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو: كل ذنب عظيم، استفحشته الشرائع والفِطَر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعُجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل فى المنكر، كل ذنب ومعصية تتعلق بحق الله تعالى.

وبالبغى، كل عدوان على الخلق، فى الدماء، والأموال، والأعراض.

فصارت هذه الآية، جامعة لجميع المأمورات والمنهيات.. لم يبقَ شىءٌ، إلا دخل فيها ... فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات. فكل مسألة مشتملة على عدل، أو إحسان، أو إيتاء ذى القربى، فهى مما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر، أو بغى، فهى مما نهى الله عنه. وبها يُعلم حُسن ما أمر الله به، وقُبح ما نهى عنه. وبها يُعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك مَن جعل من كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أى: بما بيَّنه لكم فى كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به،

فتفهمونه وتعقلونه. فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها[١].

***

(٦٥٨) عَنْ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كُلُّكُم راعٍ، وكُلُّكُمْ مسئُولٌ عنْ رعِيَّتِه: الإمامُ راعٍ ومَسْئُولٌ عَنْ رعِيَّتِه، والرَّجُلُ رَاعٍ فى أهْلِهِ ومسئولٌ عنْ رَعِيَّتِه، وَالمَرأَةُ راعيةٌ فى بيتِ زَوجها وَمسئُولةٌ عَنْ رِعيَّتِهَا، والخَادِمُ رَاعٍ فى مال سَيِّدِهِ وَمَسئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وكُلُّكُم راعٍ ومسئُولٌ عَنْ رعِيَّتِه»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

***

(٦٥٩) وعَنْ أبى يَعلى مَعقِل بن يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما مِن عبدٍ يسترعِيهِ الله رَعِيَّةً، يَمُوتُ يومَ يموتُ وهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِه، إلَّا حَرَّمَ الله عليهِ الجَنَّةَ»[٣].

وفى روايةٍ: «فَلَم يَحُطْهَا بِنُصحهِ لم يَجِد رَائحَةَ الجَنَّة».

وفى رواية لمسلم: «ما مِن أمِيرٍ يَلِى أُمورَ المُسلِمينَ، ثُمَّ لا يَجهَدُ لَهُم، ويَنْصحُ لهُم، إلَّا لَم يدخُل مَعَهُمُ الجَنَّةَ».

۞ وفى هذا الحديث يخبر معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبى ﷺ يقول: «ما مِن عبدٍ يسترعِيهِ الله رَعِيَّةً» أى: يعطيه رعية يتولاها ويقوم على أمرهم سواء كان حاكمًا أو أميرًا أو رجلًا فى بيته مع زوجته وأولاده.

«يَمُوتُ يومَ يَموتُ وهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِه، إلَّا حَرَّمَ الله عليهِ الجَنَّةَ».

---

(١) تفسير السعدى (ص ٥١٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٥٨) كتاب العتق - ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٥٠) كتاب الأحكام، ومسلم (١٤٢) كتاب الإيمان.

وفى روايةٍ: «**فَلَم يَحُطْهَا بِنُصحِهِ لم يجِد رَائحَةَ الجَنَّة**».

فالواجب على ولى الأمر أن يحافظ على رعيته بتقديم النصيحة النافعة لهم فى أمور دينهم ودنياهم وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ودعوتهم إلى الخير ونشر العدل فيهم والحفاظ على دينهم والدفاع عنه ومنع الأفكار السيئة والأخلاق الفاسدة من أن تصل إلى المجتمع أو تنتشر فيه وتوفير سُبل الحياة الكريمة لهم وحمايتهم من أى عدوانٍ خارجى ومنع كل ما يضرهم فى دينهم ودُنياهم.. وغير ذلك مما يجب عليه.

فإن فعل ذلك فقد أدَّى الأمانة وحفظ الرعية وإن لم يفعل ذلك كان غاشًّا لرعيته... فما هو جزاء مَن غشَّ رعيته؟ ... جزاؤه الحرمان من دخول الجنة ....

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: فَقَوْلُهُ ﷺ: «**حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**».

فِيهِ التَّأْوِيلَانِ الْمُتَقَدِّمَانِ فِي نَظَائِرِهِ .. أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مَحمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ وَالثَّانِي حَرَّمَ عَلَيْهِ دُخُولَهَا مَعَ الْفَائِزِينَ السَّابِقِينَ... وَمَعنَى التَّحرِيمِ هُنَا الْمَنْعُ[1].

(٦٦٠) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بيتى هذا: «اللهم مَن وَلِىَ من أمر أُمتى شيئًا فشقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه، ومَن وَلِىَ من أمر أمتى شيئًا فَرَفَقَ بهم فارفُقْ به»[2].

۞ وفى هذا الحديث تقول أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها سمعت رسول الله ﷺ يدعو ويقول: «**اللهم مَن وَلِىَ من أمر أُمتى شيئًا فشقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه، ومن وَلِىَ من أمر أمتى شيئًا فَرَفَقَ بهم فَارفُقْ به**».

فهذه دعوة مُستجابة من النبى ﷺ على كل مَن تولَّى أمرًا من أمور المسلمين

---

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ٢٢٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٨) كتاب الإمارة.

الخاصة والعامة... سواء كان حاكمًا أو مديرًا فى مدرسة أو موظفًا أو أبًا أو إمام مسجدٍ أو غير ذلك فشقَّ على رعيته.. دعا عليه النبى ﷺ أن يشق الله عَزَّوَجَلَّ عليه فى الدنيا والآخرة.. فأما فى الدنيا فبأن يشق عليه فى رزقه وفى صحته وبدنه فيُصاب بالأسقام وفى قلبه فيجعله حزينًا لا يشعر بطعم السعادة بعيدًا عن الانتفاع بأسباب الهداية .. وفى أهله بأن يُسلطهم عليه وفى عمله بأن يرزقه بمن يُؤذيه.. وغير ذلك.

وأما فى الآخرة فذلك بأن يرى المشقة عند موته وفى قبره ويوم القيامة لأنه كان ظالمًا غَشومًا جائرًا قاسيًا على رعيته.

۞ ثم دعا النبى ﷺ دعوة أخرى مستجابة لكل مَن رفق برعيته فقال ﷺ: «**ومَن وَلِيَ من أمر أمتى شيئًا فَرَفَقَ بهم فَارفُقْ به**»... فهذه دعوة من النبى ﷺ للإنسان الذى يتولى أمور الناس سواء كان موظفًا صغيرًا أو كبيرًا أو حاكمًا... هذا الإنسان إذا كان رفيقًا بالرعية يحوطهم بنُصحه ويعاملهم معاملة الأب لأولاده، فقد دعا له النبى ﷺ أن يَرفُق الله به... يرفق به فى الدنيا وفى قبره، ويوم القيامة؛ لأنه كان رفيقًا برعيته.

فالحاكم يجب عليه أن يرفق برعيته فلا يظلمهم ولا يحرمهم حقوقهم ولا يجلب لهم أسباب الفتنة فى الدين فتشق عليهم الطاعة.. بل يجب عليه أن يمهد لهم الأرض لكل ما يعود عليهم بالنفع فى أمور دينهم ودُنياهم.. وهكذا كل مَن ولى من أمر أمة النبى ﷺ شيئًا يجب عليه أن يرفق بمن ولاه الله عليهم.

وقد يظن بعض الناس أن معنى الرفق أن تأتى للناس على ما يشتهون ويريدون... وليس الأمر كذلك، بل الرفق أن تسير بالناس حسب أمر الله ورسوله، ولكن تسلك أقرب الطرق وأرفق الطرق بالناس، ولا تشق عليهم فى شىء ليس عليه أمر الله ورسوله ﷺ.

(٦٦١) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَت بَنُو إسرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبياءُ، كُلَّما هَلَكَ نبى خَلَفَهُ نبى، وَإِنَّهُ لا نبى بَعدى، وسَيَكُونُ بَعدى خُلَفَاءُ فَيَكثُرونَ» قالوا: يَا رسول الله فَما تَأْمُرُنا؟ قال: «أوفُوا بِبَيعَة الأَوَّلِ فالأَوَّلِ، ثُمَّ أَعطُوهُم حَقَّهُم، وَاسأَلوا الله الذى لَكُم، فَإِنَّ الله سائِلُهم عمَّا استَرعاهُم»[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ.. أى كان الأنبياء يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية.. والسياسة القيام على الشيء بما يُصلحه .. لكن الأنبياء ما كانوا يقومون بشئون السياسة والدولة فحسب.. بل كانوا يقومون بكل ما يُصلح الأمة فى دينهم ودُنياهم ويتولون أمورهم من منظورٍ شرعى يتوافق مع شرع الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفى قول النبى ﷺ: «تسوسهم الأنبياء»: دليلٌ على أن دين الله -وهو دين الإسلام فى كل مكان وفى كل زمان - هو السياسة النافعة، وليست السياسة التى يفرضها أعداء الإسلام من الكفار.

السياسة حقيقةً ما جاء فى شرع الله ... ولهذا نقول: إن الإسلام شريعة وسياسة، ومَن فرَّق بين السياسة والشريعة فقد ضَلَّ...ففى الإسلام سياسة الخلق مع الله وبيان العبادات، وسياسة الإنسان مع أهله، ومع جيرانه، ومع أقاربه، ومع أصحابه، ومع تلاميذه، ومع مُعلميه، ومع كل أحدٍ.

كُلٌّ له سياسة تَخُصُّه ... سياسة مع الأعداء الكفار، ما بين حربيين ومعاهدين ومستأمنين وذميين.

وكل طائفة قد بيَّن الإسلام حقوقهم، وأمر أن نَسلُك بهم كما يجب.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٥٥) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٨٤٢) كتاب الإمارة.

فمثلًا الحربيون نحاربهم، ودماؤهم حلالٌ لنا، وأموالهم حلالٌ لنا، وأراضيهم حلال لنا.

والمستأمنون يجب أن نُؤمِّنهم..كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

والمعاهدون يجب أن نُوفِّي لهم بعهودهم، ثم نحن معهم بين ثلاث حالات: إما أن نطمئن إليهم، أو نخاف منهم، أو ينقضوا العهد.

ثلاث حالات كلها مُبيَّنة فى القرآن... فإن اطْمَأْنَنَّا إليهم وجب أن نفى لهم بعهدهم، وإن خفناهم فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]. أى: قُل لهم: ليس بيننا عهدٌ إذا خفت منهم، ولا تنقض العهد بدون أن تخبرهم.

والثالث: إن هم الذين نقضوا العهد ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢]. إذا نقضوا العهد فلا أيمان لهم ولا عهد لهم... فالمهم أن الدين دين الله وأن الدين فيه سياسة: سياسة شرعية، سياسة اجتماعية، سياسة مع الأجانب، ومع المسالمين، ومع كل أحد.

ومَن فَصَلَ الدين عن السياسة فقد ضلَّ؛ فهو بين أمرين:

إما جاهل بالدين ولا يعرف، يظن أن الدين عبادات بين العبد وربه، وحقوق شخصية وما أشبه ذلك؛ يظن أن هذا هو الدين فقط.

أو أنه قد بهره الكفرة وما هم عليه من القوة المادية، فظن أنهم هم المُصيبون.

وأما مَن عرف الإسلام حق المعرفة عرف أنه شريعة وسياسة[1].

۞ فالشاهد أن النبى ﷺ أخبر أن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء.. كلما هلك نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ.

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٣٨-٣٣٩) بتصرف.

وبنو إسرائيل كانوا أهل معصية وأهل نفور ولا يجتمعون أبدًا على أحدٍ إلا إذا كان هناك نبي من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام.

فإذا كان النبي موجودًا يطيعونه فإذا ابتعد عنهم يعصونه... ولذا فإن موسى عليه السلام لما كان معهم وأنجاهم الله من فرعون كانوا على الإسلام... ولما خرجوا من البحر ومَرُّوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا: ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] أي: نحن نريد أن نعبد إلهًا: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف:١٣٨].

فلما ذهب موسى للقاء ربه سبحانه وتعالى وصنع لهم السامرى عجلًا فعبدوه من دون الله سبحانه وتعالى... فلما جاء النبي ﷺ أخبر أنه لا نبي بعده فضلًا عن أن يكون هناك رسول بعده (صلوات الله وسلامه عليه).

۞ قال: «**وسيكون بعدى خلفاء فيَكثُرون**» أي: سيكون خليفة وراء خليفة وراء خليفة.

فالنبي عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء، ولكن جعل الله له خلفاء: خلفاء فى العلم، وخلفاء فى السلطة... والمراد بالخلفاء فى هذا الحديث: خلفاء السلطة.

ولهذا قال: «**سيكون بعدى خُلفاء فيَكثُرون**» قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ -يعنى: مَن نَفى ببيعته؟ - قال: «**الأول فالأول**»، فإذا بايعوا الخليفة وجب عليهم أن يبقوا على بيعتهم، وأن ينبذوا كلَّ مَن أراد الخلافة وهو حَيٌّ، وأن يُعينوا الخليفة الأول على مَن أراد الخلافة فى حياته... لأن كل مَن نازع السلطان فى سلطانه فإنه يجب أن يُقاتَل؛ حتى تكون الأمة واحدة... فإن الناس لو تُركوا، وصار كل مَن لا يريد هذا السلطان يذهب ويتخذ له حزبًا ويقاتل به السلطان فسدت الأمور.

وفى آخر الحديث حمَّل النبى ﷺ هؤلاء الخلفاء ما عليهم، وأمرنا نحن أن نُوفى لهم بحقهم، وأن نسأل الله الذى لنا... لا نقول: هؤلاء ظلموا، هؤلاء جاروا، هؤلاء لم يقوموا بالعدل، ثم ننابذهم ولا نطيعهم فيما أمرنا الله به.

فهذا لا يجوز ... بل يجب أن نُوفى لهم بالحق، وأن نسأل الله الحق الذى لنا، كالإنسان الذى له قريب إذا قطعك فصِلْهُ، واسأل الله الذى لك.

أما أن تقول لا أَصِل إلا مَن وصلنى، أو لا أطيع من السلطان إلا من لا يظلم ولا يستأثر بالمال ولا غيره، فهذا خطأ ... قم أنت بما يجب عليك، واسأل الله الذى لك.

قال: «**فإن الله سائلهم عما استرعاهم**» أى: اتركوهم ... فلهم يومٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ يجمعهم فيه ويسألهم عما استرعاهم عليه يوم القيامة.

❊❊❊

(٦٦٢) وعَنْ عائِذ بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ دَخَلَ على عُبيد الله بن زِياد، فقال له: أىْ بُنَىَّ، إنى سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الحُطَمةُ فإيَّاكَ أن تَكُونَ مِنْهُم»(١).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٩٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊❊❊

(٦٦٣) وعَنْ أبى مريمَ الأزدِىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قَالَ لمعَاوِيةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن ولَّاهُ الله شَيئًا مِن أُمورِ المُسلِمينَ فَاحتَجَبَ دُونَ حَاجتِهِم وخَلَّتهم وفَقْرِهِمْ، احتَجَبَ الله دُونَ حَاجَتِه وخَلَّتِهِ وفَقرِهِ يومَ القِيامِة»(٢) فَجعَل مُعَاوِيةُ رجُلًا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٠) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٩٥).

على حَوَائِجِ الناسِ.

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن كل مَن ولّاه الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا من أمور المسلمين سواء كان صغيرًا أو كبيرًا فإنه يجب عليه أن يستمع لاحتياجات الناس سواء كان ذلك بنفسه أو بمن ينوب عنه حتى يستطيع أن يقضى لهم كل ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم.. وأنه لا يجوز له أن يتخذ حاجبًا يحجبه عن الناس أو يحجب الناس عنه.

فمن احتجب دون حاجة الناس وخَلَّتهم وفقرهم ماذا يكون جزاؤه؟

يخبر النبى ﷺ بجزاء مَن فعل ذلك بأن الله عَزَّوَجَلَّ يحتجب دون حاجته وخَلَّته وفقره يوم القيامة.

أَىْ أَبْعَدَهُ وَمَنَعَهُ عَمَّا يَبْتَغِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ أَوِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَلَا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى حَاجَةٍ مِنْ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ ... قَالَ الْقَاضِى: الْمُرَادُ بِاحتِجَابِ الْوَالِى أَنْ يَمْنَعَ أَرْبَابَ الْحَوَائِجِ وَالْمُهِمَّاتِ أَنْ يَدخُلُوا عليه فيعرضوها له ويُعسر عليهم إنهاؤها... واحتِجَابُ اللهِ تَعَالَى أَنْ لَا يُجِيبَ دَعوَتَهُ وَيُخَيِّبَ آمَالَهُ فى الدنيا(١).

أما فى الآخرة فإن الله عَزَّوَجَلَّ يحتجب دون حاجته إلى تفريج أى كربة من كُرب يوم القيامة.. والمعنى: أن مَن فعل ذلك بالناس فى الدنيا فمصيره يوم القيامة إلى النار.. لأنه إن لم يُفرج الله كُربَهُ يوم القيامة فأين يكون المصير؟

لكن من المعلوم أنه لا يُخلَّد موحدٌ فى النار أبدًا.

۞ المهم أن أبا مريم الأزدى لما قال لمعاوية هذا الحديث الذى سمعه من النبى ﷺ قام معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بإصدار قرارٍ فورى بتعيين رجلٍ يستمع لاحتياجات الناس كل يومٍ ويرفعها له حتى يقضى للناس حاجاتهم خوفًا من أن يكون من هذا الصنف الذى وصفه النبى ﷺ.. وخوفًا من أن يحتجب الله عَزَّوَجَلَّ دون

---

(١) تحفة الأحوذى (٤/ ٢٣٠-٢٣١).

حاجته يوم القيامة.

۞ فالواجب على كل مَن ولى أمرًا من أمور المسلمين أن يكون عونًا لهم على قضاء حوائجهم ولا يحتجب عنهم ويرفض مقابلتهم.. وإن لم يستطع مقابلتهم بنفسه فليجعل عنده مَن يقابل الناس ويرفع إليه الحاجات ليقضيها لهم «**وَاللهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ**».

(٧٩) باب الوالي العادل

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

قال الإمام النووى رحمه الله: (باب الوالى العادل). والوالى هو الذى يتولى أمرًا من أمور المسلمين الخاصة أو العامة، حتَّى الرجل فى أهل بيته يُعتبر واليًا عليهم ... لقول النبى ﷺ: «**الرجل راعٍ فى أهله ومسئول عن رَعيته**».

والعدل واجبٌ حتى فى معاملة الإنسان نفسه لقول النبى ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقًّا، ولربك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزورك** - أى الزائر لك- **عليك حقًّا، فأعطِ كل ذى حقٍّ حقَّه**».

فالعدل واجب فى كل شىء، لكنه فى حق ولاة الأمور أوكد وأولَى وأعظم.

ثم ساق المؤلف رحمه الله آيات وأحاديث منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ العدل واجب والإحسان فضل وزيادة فهو سُنة. وحسبته سيذكر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

فأمر الله بالعدل.. فكل إنسانٍ يوليه الله عز وجل شيئًا من أمر المسلمين صَغُر أو كَبُر فلا بد أن يعدل فى ولايته.

والعدل من الوالى ألا يُفرق بين الناس ولا يجور على أحدٍ ولا يحابى أحدًا لمكانته ولا قريبًا لقرابته ولا غنيًّا لغناه ولكن يحكم بالعدل.. لأنه يُؤتَى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه.. فإما أن يَفُكَّه عدله أو يُوبقه جوره وظلمه.

قال ﷺ: «**مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا وَهُوَ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا حَتَّى يَفُكَّهُ**

الْعَدلُ أَوْ يُوبِقَهُ الْجَوْرُ»(١).

وقال ﷺ: «مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَدُهُ مَغْلُولَةٌ إِلَى عُنُقِهِ»(٢).

فيلزمه أن يكون عادلًا فى حكمه وولايته سواء كان حاكمًا أو قاضيًا أو مُديرًا أو أبًا فى بيته مع زوجته وأولاده..

فيتعامل مع رعيته بالعدل والإحسان.. وبدأ الله عَزَّوَجَلَّ بالعدل قبل الإحسان لأن الإنسان قد لا يقدر على الإحسان فبدأ بما يقدر عليه وهو العدل.. لكن إن استطاع الإنسان أن يحقق العدل ثم يرتقى لدرجة الإحسان إلى رعيته فسوف يفوز بمحبة كل الناس من حوله لأن الإحسان يستجلب المحبة بين الناس.. ورضا الله عَزَّوَجَلَّ فوق ذلك.

(٦٦٤) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبى ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فى ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: إمَامٌ عادِلٌ، وشَابٌّ نَشَأَ فى عِبادَةِ الله تَعالى، ورَجُلٌ قَلبُهُ مُعَلَّقٌ فى المَسَاجِدِ، ورجُلانِ تَحَابَّا فى الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وتَفرَّقا عَلَيْهِ، ورجلٌ دَعَتْهُ امْرأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقال: إِنِّى أَخافُ اللهَ، ورَجُلٌ تَصدَّقَ بِصدقةٍ، فَأَخْفَاها حَتَّى لا تَعلَمَ شِمالُهُ ما تُنفِقُ يمِينُهُ، ورَجُلٌ ذَكَر الله خَاليًا فَفَاضَتْ عيناهُ»(٣).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٨١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) صحيح: رواه البيهقى فى السنن وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٩٥).

(٢) صحيح: رواه البيهقى فى السنن وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٩٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠) كتاب الأذان، (١٤٢٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٦٦٥) وعَنْ عبد الله بنِ عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ المُقسطينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنابرَ مِنْ نورٍ: الَّذينَ يعدِلُون فى حُكْمِهِمْ وأهليهِمْ وما وُلُّوا»[(١)].

۞ فى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة ألا وهو أن المقسطين: أى أن العادلين الذين يعدلون فى حُكمهم وأهليهم وما وُلُّوا سيكونون يوم القيامة على منابر من النور.

قَالَ الْقَاضِى: يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا عَلَى مَنَابِرَ حقيقة عَلَى ظَاهِرِ الْحَدِيثِ وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنِ الْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ.. قال الإمام النووى: قُلْتُ الظَّاهِرُ الْأَوَّلُ وَيَكُونُ متضمنًا للمنازل الرفيعة فهم على منابر حقيقة وَمَنَازِلُهُمْ رَفِيعَةٌ[(٢)].

۞ فالمقسطون هم أهل العدالة الذين يعدلون بين الناس.. فالمسلم يعدل مع مَن يحب ومَن لا يحب.. يعدل مع صديقه ومع عدوه لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة:٨]، أى: لا يدفعنَّكم بُغضكم لهؤلاء الكفار إلى عدم العدل، فاعدل مع كل الناس، كن عدلًا مع أقربائك ومع الغرباء عنك، مع أصدقائك ومع أعدائك، اعدل كما أمر الله سبحانه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥]... لَم يَقُل: كونوا قائمين، بل قال: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ﴾ أشد القيام وأعظم القيام أن تقوم فى دين الله سبحانه، وتقوم لأمر الله، وتكون قائمًا بالقسط تعدل بين الناس.

۞ فالشاهد أن النبى ﷺ قال: «إنَّ المُقسطينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنابِرَ مِنْ نورٍ» فيجعل الله لكل إنسانٍ عادلٍ منبرًا من النور يجلس عليه يوم القيامة فى الجنة...

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٧) كتاب الإمارة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٢/ ٢٩٢).

لكن ما هى صفات هؤلاء المقسطين؟ .. «**الَّذِينَ يَعدِلُون فى حُكْمِهِمْ**» كالولاة والأمراء والحكام.. لكن ماذا يصنع مَن لم يكن حاكمًا هل يُحرَم من هذا الخير؟ كلا.. بل كل مَن ولّاه الله رعية فعدل بينهم سيكون على منبر من النور ولذا قال النبى ﷺ: «**الَّذِينَ يعدِلُون فى حُكْمِهِمْ وأهليهِمْ وما وُلُّوا**».. فالقاضى يعدل بين المتخاصمين.. والمدير يعدل بين المدرسين.. والمدرس يعدل بين التلاميذ.. والأب يعدل بين أولاده فلا يعطى هذا وينسى هذا ولا يميز هذا على ذاك.. وإذا كان متزوجًا من أكثر من امرأة فلا بد أن يعدل بينهم فى المبيت والعطاء... فكل هؤلاء يكونون على منابرٍ من نورٍ يوم القيامة... فاللهم ارزقنا نعمة العدل والإحسان لنكون يوم القيامة على منابر من نورٍ فى الجنة نتلذذ بنعمة النظر إلى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين.

(٦٦٦) وعَنْ عوف بن مالك رضي الله عنه **قال: سمِعتُ رسول الله** ﷺ **يقولُ: «خِيَارُ أَئِمَتِكُمْ الَّذينَ تُحِبُّونهم ويُحبُّونكُم، وتُصَلُّونَ عليهم ويُصَلُّونَ عليْكُمْ، وشِرَارُ أَئمَّتِكُم الَّذينَ تُبْغضُونهم ويُبغِضُونَكُمْ، وتَلْعنُونَهُمْ ويَلْعَنُونكم» قال: قُلْنا يا رسول الله، أفلا نُنابِذُهُمْ؟ قالَ: «لا...ما أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاة، لا مَا أَقامُوا فِيكُمُ الصَّلاة»**(١).

۞ **الأئمة:** يعنى ولاة الأمور، سواء أكان الإمام الكبير فى البلد وهو السلطان أو الحاكم أم مَن كان دونه.

هؤلاء الأئمة الذين هم ولاة أمورنا، ينقسمون إلى قسمين: قسم نُحبهم ويحبوننا، فتجدنا ناصحين لهم وهم ناصحون لنا، ولذلك نحبهم، لأنهم يقومون بما أوجب الله عليهم من النصيحة لمن ولّاهم الله عليه...ومعلوم أنْ مَن قام بواجب النصيحة فإن الله تعالى يحبه، ثم يحبه أهل الأرض.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٥٥) كتاب الإمارة.
قَوْله: «تُصلّون عَلَيْهِمْ»: تدعون لَهُمْ.

فهؤلاء الأئمة الذين قاموا بما يجب عليهم محبوبون لدى رعيتهم.

وقوله ﷺ: «**ويُصلون عليكم وتُصلون عليهم**». الصلاة هنا بمعنى الدعاء، يعنى تدعون لهم ويدعون لكم، تدعون لهم بأن يهديهم الله ويصلح بطانتهم، ويوفقهم للعدل إلى غير ذلك من الدعاء الذى يُدعَى به للسلطان، وهم يدعون لكم: اللَّهم أصلح رعيتنا، اللَّهم اجعلهم قائمين بأمرك، وما أشبه ذلك.

أما شرار الأئمة: فهم «الذين تُبغضونهم ويُبغضونكم» تكرهونهم لأنهم لم يقوموا بما أوجب الله عليهم من النصيحة للرعية، وإعطاء الحقوق إلى أهلها... وإذا فعلوا ذلك فإن الناس يبغضونهم، فتحصل البغضاء من هؤلاء وهؤلاء... تحصل البغضاء من الرعية للرعاة، لأنهم لم يقوموا بواجبهم، ثم تحصل البغضاء من الرعاة للرعية، لأن الرعية إذا أبغضت الوالى تمردت عليه وكرهته، ولم تُطع أوامره ولم تتجنب ما نهى عنه... وحينئذ «**تلعنونهم ويلعنونكم**» والعياذ بالله...يعنى يسبونكم وتسبونهم، أو يدعون عليكم باللعنة وتدعون عليهم باللعنة.

إذًا ... الأئمة ينقسمون إلى قسمين: قسم وُفِّقوا وقاموا بما يجب عليهم فأحبهم الناس وأحبوا الناس، وصار كل واحد منهم يدعو للآخر.

وقسمٌ آخر بالعكس .. شرار الأئمة، يبغضون الناس والناس يبغضونهم، ويسبون الناس والناس يسبونهم(١).

۞ فسألوا رسول الله ﷺ: وقالوا: أفلا نُنابِذُهُمْ؟ وفى رواية: «**ألا نُقاتلهم؟**» قال: «**لا ما أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاة**» فدلَّ هذا على أنهم -أى الأمراء- إذا رأينا منهم ما نُنكر، فإننا نكره ذلك وننكر عليهم، فإن اهتدوا فلنا ولهم، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم.

وأنه لا يجوز أن نقاتل الأمراء الذين نرى منهم المنكر، لأن مُقاتلتهم فيها

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٤٤).

شَرٌّ كثير، ويفوت بها خير كثير؛ لأنهم إذا قُوتلوا أو نُوبذوا لم يزدهم ذلك إلا شرًّا...فإنهم أمراء يرون أنفسهم فوق الناس، فإذا نابذهم الناس أو قاتلوهم ازداد شرهم، إلا أن النبى ﷺ شرط لقتالهم شرطًا فقال: «**ما أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ**».

فدَلَّ هذا على أنهم إذا لم يقيموا الصلاة، فإننا نقاتلهم.ولكن بشرط أن يكون لدينا القدرة على ذلك.. لأنه إذا لم يكن لدينا القدرة على ذلك فسوف يقضى هذا الوالى الظالم على كل الصالحين فى تلك البلدة التى يحكمها.

(٦٦٧) وعَنْ عِيَاضِ بن حِمار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سمعت رَسُول الله ﷺ يقولُ:«**أَهْلُ الجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطان مُقْسطٌ مُوفَّقٌ، ورَجُلٌ رَحِيمٌ رَقيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِى قُربَى وَمُسْلِمٍ، وعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيالٍ**»[(١)].

۞ ليس معنى الحديث أن هؤلاء الثلاثة فقط هم أهل الجنة... ولكن المقصود أن هؤلاء الثلاثة أصناف من أهل الجنة... أو أن هؤلاء من السابقين الذين يستحقون الجنة.

فكان أولهم: «**ذُو سُلْطانٍ مُقْسِطٌ مُوفَّقٌ**» ذو سلطان يعنى صاحب السلطان.. والسلطان يشمل السلطة العليا وما دونها..

«**مُقْسطٌ**» أى أنه حاكم عادل يحكم بين الناس بالعدل.. وهذا من توفيق الله له.. فالله هو الذى يُلهمه الصواب ويوفقه للحكم بالعدل بين الناس ... لأنه إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيم أقامك.. فلو أقامك فى العدل فهذا قدرك عند الله.. وإن أقامك فى الظلم فهذا قدرك عند الله.. فالفضل لله أولًا وآخرًا .. فإن أخلص الحاكم نيته لله عَزَّ وَجَلَّ فإن الله يُلهمه السداد والتوفيق والعدل والحكمة.... وقد سبق أن علمنا أن الإمام العادل هو أول السبعة الذين يكونون يوم القيامة فى ظل عرش الرحمن (جل وعلا).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

۞ أما الرجل الثانى من أهل الجنة فهو «**رَجُلٌ رَحِيمٌ رَقيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِى قُربَى وَمُسْلِمٍ**».

فقد يكون الإنسان رحيمًا ورقيق القلب على أبيه وأمه، وزوجته وأولاده ويكون قاسيًا على سائر الناس.. لكن هذا الرجل المذكور فى الحديث قلبه رحيم بالناس جميعًا .. فهو يرحم الفقراء ويرحم الصغار ويرحم العجزة ويرحم كل مَن يستحق الرحمة.. أما الكفار فهو غليظٌ عليهم... فالله عَزَّوَجَلَّ ذكر من صفات المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهو رجلٌ رحيم رقيق القلب.. يتأثر قلبه بسرعة إذا رأى إنسانًا ضعيفًا مُحتاجًا.. فيتأثر ويُسرع فى تقديم ما يحتاج إليه.. وهو رقيق القلب لكل ذى قُربى ومسلم.. فبدأ بالأقربين لأن الأقربين أَولَى بالمعروف ... وهذا الرجل لا يكتفى بمجرد الرحمة و رِقَّة القلب.. بل يسعى بكل ما أُوتى من قوة لخدمة أقاربه وجيرانه والمسلمين حوله قدر استطاعته حتى لا تكون علاقته بمن حوله مجرد رقة فى القلب وإنما يُحول تلك الرقة والعاطفة إلى لمساتٍ إنسانية تعود عليهم بالنفع فى دينهم ودنياهم.

۞ وأما الرجل الثالث من أهل الجنة فهو: « **عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيالٍ**» إنسان عفيف لا يأخذ أموال الناس، ولا يمد يده إلى الناس، متعفف، ويستشعر فى نفسه الغِنى وإن كان فقيرًا، وإن كانت حاجته كبيرة ولكن فى قلبه الغِنى ... ربَّى نفسه على العفة، وعدم التطلُّع إلى الغير، فهو ليس محتاجًا إلى أحدٍ، فإن الغِنى غِنى القلب ... أغنى الله قلبه فهو متعفف، أى: مُظهرٌ لهذا الوصف من نفسه.

«**ذو عيال**» أى أنه مع فقره عنده عائلة، فتجده صابرًا محتسبًا يَكِدّ على نفسه، فربما يأخذ الحبل ويحتطب ويأكل منه... المهم أنه عفيف متعفف ذو عيال، ولكنه صابر على البلاء، صابر على عياله ... فهذا من أهل الجنة.

نسأل الله أن يجعلنا من أحد هؤلاء الأصناف.



(٨٠) باب وجوب طاعة ولاة الأمر في غير معصية وتحريم طاعتهم في المعصية

۞ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء:٥٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ أى أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسُّك بالكتاب والسُّنة... وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله ... إذ لا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق.

وفى قوله: ﴿مِنكُمْۖ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين حِسًّا ومعنًى، لحمًا ودمًا، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلًا ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أى فإن اختلفتم فى أمرٍ من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ أى إن كنتم مؤمنين حقًّا وهو شرطٌ حُذف جوابه لدلالة ما سبق.

أى فَرُدُّوه إلى الله والرسول ... والغرض منه الحثُّ على التمسُّك بالكتاب والسُّنة كما يقول القائل: إن كنت ابنى فلا تخالفنى.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أى الرجوع إلى كتاب الله وسُنة رسوله خيرٌ لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلًا..(١).

۞ **وقد ذكر أهل العلم أن ولاة الأمور قسمان: العلماء والأُمراء.**

أما العلماء: فهم ولاة أمور المسلمين فى بيان الشرع، وتعليم الشرع، وهداية الخلق إلى الحق، فهم ولاة أمور فى هذا الجانب، وأما الأمراء فهم ولاة الأمور فى ضبط الأمن وحماية الشريعة وإلزام الناس بها، فصار لهؤلاء وجهة ولهؤلاء وجهة.

---

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٦١).

والأصل: العلماء... لأن العلماء هم الذين يُبينون الشرع ويقولون للأمراء هذا شرع الله فاعملوا به، ويُلزَم الأمراء بذلك، لكن الأمراء لا طريق لهم إلى علم الشرع إلا عن طريق العلماء، وهم إذا علموا الشرع نفذوه على الخلق.

والعلماء يؤثِّرون على مَن فى قلبه إيمانٌ ودين، لأن الذى فى قلبه إيمان ودين ينصاع للعلماء ويأخذ بتوجيهاتهم وأمرهم.

والأمراء ينصاع لهم مَن خاف من سطوتهم وكان عنده ضعف إيمان، فيخاف من الأمير أكثر مما يخاف من العالِم... وبعضهم يخاف أكثر مما يخاف من الله والعياذ بالله.

فلذلك كان لا بد للأمة الإسلامية من علماء وأمراء، وكان واجبًا على الأمة الإسلامية أن يطيعوا العلماء وأن يطيعوا الأمراء، ولكن طاعة هؤلاء وهؤلاء تابعة لطاعة الله ... لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]. ولم يَقُل أطيعوا أولى الأمر منكم، لأن طاعة ولاة الأمر تابعة لا مستقلة... أما طاعة الله ورسوله فهى مستقلة، وعلى هذا فإذا أمر ولاة الأمور بمعصية الله فإنه لا سمع لهم ولا طاعة[1].

لأن النبى ﷺ قال: «لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِى مَعصِيَةِ الْخَالِقِ عَزَّوَجَلَّ»[2].

(٦٦٨) وعَنْ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَن النبى ﷺ قال: «عَلى المَرءِ المُسْلِم السَّمْعُ والطَّاعَةُ فِيما أَحَبَّ وَكَرِهَ، إلاَّ أنْ يُؤْمَرَ بِمَعصِيَةٍ فَإذا أُمِر بِمعصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلا طاعَةَ»[3].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٤٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٥٢٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٤٤) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٣٩) كتاب الإمارة.

(٦٦٩) وعَنْ ابن عمر رضي الله عنهما قال: كُنَّا إذا بايَعنَا رسُولَ الله ﷺ عَلى السَّمْعِ والطَّاعَةِ يقُولُ لَنَا: «فيما اسْتَطَعتُمْ»(١).

۞ فيجب على المسلم أن يسمع ويُطيع لولى الأمر المسلم فى كل شىءٍ إلا فى معصية الخالق (جل وعلا).. فيسمع ويطيع فيما يحب وفيما يكره. حتى لو أمره ولى الأمر بشىءٍ يكرهه فإنه يجب عليه السمع والطاعة ما دام ليس فى ذلك الأمر معصية لله عز وجل.. لأن طاعة الله فوق كل طاعة. فطاعة الله ورسوله ﷺ طاعة مُطلقة.. وأما طاعة أى مخلوقٍ آخر غير الرسول ﷺ فهى مُقيدة بقيدين: المعروف والاستطاعة.

فإن أمرك ولى الأمر بشىءٍ فيه معصية فلا تُطعه.. وإن أمرك بشىء ليس فيه معصية ولكنه ليس فى استطاعتك فلا تُطعه أيضًا... فشرط طاعته أن يأمرك بأمرٍ فى استطاعتك وليس فيه معصية.

ولذا قال ابن عمر رضي الله عنهما: (كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: **فيما استطعتم**).

انظر إلى رحمة النبى ﷺ بالمؤمنين، فهم يبايعونه وهو يأمرهم بطاعة الله عز وجل... يقولون: بايعناك على السمع والطاعة فى المنشط والمكره، وعلى أثرةٍ علينا، وألا ننازع الأمر أهله ... فيقول لهم: قولوا: فيما استطعنا.

يعنى: بقيد الاستطاعة، فقد يقدر الإنسان على أشياء فتَلزمه، وقد تستحيل عليه، فلا يُكلف الله نفسًا إلا وسعها، فكان ﷺ يُعلمهم أن يقولوا: فيما استطعنا.

۞ **وهناك مسألة هامة**: وهى أن من الناس مَن يظن أن طاعة ولى الأمر لا تكون إلا فى الأمور الدينية فقط وهذا خطأ كبير ... فطاعة ولى الأمر واجبة فى الأمور الدينية والدنيوية بشرط ألا يأمرنا بمعصية أو بشىءٍ ليس فى استطاعتنا.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٧٢٠٢) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٦٧) كتاب الإمارة.

فإذا أمرنا ولى الأمر باتباع أنظمة المرور فطاعته واجبة.. ومَن خالف تلك الأنظمة يكون عاصيًا وآثمًا.

وهكذا.. فكل ما يأمرنا به ولى الأمر ويكون فيه مصلحة لديننا أو لدنيانا فواجبٌ علينا أن نُطيعه.

***

(٦٧٠) وعَنْ ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ خلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِى الله يوْم القيامَةِ ولاَ حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ ماتَ وَلَيْس فى عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً**»(١).

وفى رواية له: «**وَمَنْ مَاتَ وَهُو مُفَارِقٌ للجَمَاعَةِ فَإنَّهُ يمُوت مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**».

۞ قوله: (مَن خلع يدًا من طاعة) هذا فى ديار الإسلام، إذا كان الحكام مسلمين يحكمون المسلمين بشرع رب العالمين سبحانه ... وسواء كان هؤلاء الحكام مطيعين أو عُصاة وتولوا الأمر على المسلمين، فإذا حكموهم بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وبسُنة النبى ﷺ فالواجب على المسلم السمع والطاعة، فإذا خلع اليد من الطاعة، وخرج على الحاكم الذى يحكم الناس بالمعروف...لقى الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة ولا حُجة له ... أى لا حجة له يومئذ فيما فعله من نبذ الطاعة ولا عذر له فيه «**ومَن مات وليس فى عنقه بيعة**» أى للإمام بالسمع والدخول فى طاعته «**مات ميتة جاهلية**» أى مات على الضلالة كما يموت أهل الجاهلية عليها من جهة أنهم كانوا لا يدخلون تحت طاعة أمير ويرون ذلك عيبًا بل كان ضعيفهم نهبًا لقويهم.

(وفى رواية لمسلم) عن ابن عمر مرفوعًا «**ومَن مات وهو مُفارق للجماعة**» وهو شامل لعدم المبايعة والدخول فى الطاعة ابتداءً وللخروج عنها بعد الدخول

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٥١) كتاب الإمارة.
«المِيتَةُ» بكسر الميم.

فيها ... والمراد بالجماعة الإمام وجيش الإسلام.

ويجوز أن يُراد به مُفارقة الجماعة فى الصلوات كالروافض فإنه لبدعتهم لا يرون الدخول تحت طاعة أئمة الحق والانقياد لهم إلا اضطرارًا وتقية.

«**فإنه يموت ميتة جاهلية**» أى مات على هيئة موت أهل الجاهلية فإنهم كانوا أفرادًا لا إمام يردعهم ولا جماعة تجمعهم(١).

(٦٧١) **وعَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «اسْمَعُوا وأطيعوا، وإنِ اسْتُعمِل علَيْكُمْ عبْدٌ حبشيٌّ، كَأَنَّ رَأْسهُ زَبِيبَةٌ»**(٢).

۞ «**اسمعوا وأطيعوا**»: يعنى الزموا السمع والطاعة لولاة الأمور، حتى لو استُعمل عليكم عبدٌ حبشى.

والنبى ﷺ هنا يخاطب العرب فيقول: ولو استُعمل عليكم عبدٌ حبشى غير عربى... عبدٌ أصلًا وفرعًا وخِلقةً، كأن رأسه زبيبة، لأن شعر الحبشة غير شعر العرب؛ فالحبشة يكون فى رؤوسهم حِلَق كأنها الزبيب... وهذا من باب المبالغة فى كون هذا العامل عبدًا حبشيًّا أصلًا وفرعًا، وهذا يشمل قوله: «**وإن استُعمل**» فيشمل الأمير الذى هو أمير السلطان، وكذلك السلطان.

فلو فُرض أن السلطان غلب الناس واستولى وسيطر وليس من العرب، بل كان عبدًا حبشيًّا ولكنه حكم بشرع الله وسُنة رسول الله ﷺ فعلينا أن نسمع ونُطيع، لأن العلة واحدة، وهى أنه إن لم نسمع ونُطع حصلت الفوضى، وزال النظام، وزال الأمن، وحَلَّ الخوف... فالمهم أن علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا إلا إذا أمروا بمعصية.

---

(١) دليل الفالحين (٣/ ١١٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٩٣، ٦٩٦) كتاب الأذان، و(٧١٤٢) كتاب الأحكام.

(٦٧٢) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «عليْكَ السَّمْعُ وَالطّاعةُ فى عُسْرِكَ ويُسْرِكَ وَمنْشَطِكَ ومَكْرهِكَ وأَثَرةٍ عَلَيْك»[1].

۞ «عليْكَ السَّمْعُ وَالطّاعةُ» أى: لولاة الأمور الذين يتولون أموركم ويحكمونكم بشرع الله وبسُنة رسول الله ﷺ.

«فى عُسْرِكَ ويُسْرِكَ» أى: فى فقرك وغناك.. فإن طُلب منك أن تُسهم فى أى مصلحة لبلدك أو لجيش المسلمين أو لغير ذلك فابذل ما تستطيع.. فإن كنت غنيًا فابذل الكثير ليكون ذلك فى ميزان حسناتك.. وإن كنت فقيرًا فابذل قدر استطاعتك..

ونحن نعلم أن النبى ﷺ لما ندب الصحابة للصدقة.. فمنهم مَن دفع ماله كله كأبى بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.. ومنهم مَن دفع نصف ماله كعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .. ومنهم مَن أنفق الكثير والكثير كعثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.. ومنهم مَن تصدق بعنقود عنب. فلا تحقرن من المعروف شيئًا فقد قال النبى ﷺ: «سبق درهمٌ مائة ألف درهم».

۞ قوله ﷺ: «وَمنْشَطِكَ ومَكْرهِكَ» يعنى عليك السمع والطاعة لولاة الأمر فى المنشط والمكره..

«فى المنشط»: يعنى الأمر الذى إذا أمروك به نشطت عليه لأنه يوافق هواك، و«فى المكره» فى الأمر الذى إذا أمروك به لم تكن نشيطًا فيه لأنك تكرهه ... اسمع فى هذا وهذا.

۞ قوله ﷺ: «وأَثَرةٍ عَلَيْك» يعنى إذا استأثر ولاة الأمور على الناس بالأموال والقصور الفخمة وركبوا السيارات الفارهة ولبسوا أجمل الثياب.. وكان الناس فى فقرٍ وبُؤسٍ شديد فعليهم السمع والطاعة ما دام ليس فى معصية الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٦) كتاب الإمارة.

فنحن علينا السمع والطاعة، وعلى الولاة النُّصح لنا، وأن يسيروا بنا على هدى رسول الله ﷺ ... لكن لا نقول إذا استأثروا علينا وكانت لهم القصور الفخمة والسيارات المريحة والثياب الجميلة وما أشبه ذلك، لانقول: والله لا سمع لهم ولا طاعة لأنهم سكنوا القصور ونحن فى فقرٍ شديد.. بل نسمع ونطيع حتى فى حال الأثرة.. وحسبُنا أن نكون فى الجنة قبلهم بخمسمائة عام إن أكرمنا الله عَزَّوَجَلَّ بدخول الجنة.

ونحن نعلم أن النبى ﷺ قال للأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض**»[1]، يقول للأنصار ذلك منذ أكثر من ألفٍ وأربعمائة سنة... فمنذ ذلك الوقت والولاة يستأثرون على الرعية، ومع هذا يقول: «**اصبروا حتَّى تلقونى على الحوض**»، فليس استئثار ولاة الأمور بما يستأثرون به مانعًا من السمع والطاعة لهم... بل الواجب السمع والطاعة فى كل ما أمروا به ما لم يأمروا بمعصية.

(٦٧٣) وعَنْ عبد الله بن عَمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُنَّا مَع رسول الله ﷺ فى سَفَرٍ، فَنَزَلْنا منْزِلًا، فَمِنَّا منْ يُصلحُ خِباءَهُ، ومنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فى جَشَرِهِ، إذْ نادَى مُنادى رسول الله ﷺ: الصَّلاة جامعةٌ. فاجْتَمعنَا إلى رَسُولِ الله ﷺ فقال: «إنَّهُ لَمْ يَكُنْ نبىٌّ قَبْلى إلَّا كَانَ حَقًّا علَيْهِ أنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلى خَيرِ ما يعلَمُهُ لهُمْ، ويُنذِرَهم شَرَّ ما يعلَمُهُ لهُم، وإنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِه جُعِلَ عَافيتُها فى أوَّلِها، وسَيُصِيبُ آخِرَهَا بلاءٌ وأُمُورٌ تُنكِرُونَها، وتجىءُ فِتَنٌ يُرقِّقُ بَعضُها بَعضًا، وتجىء الفِتْنَةُ فيَقُولُ المؤمِنُ: هذِهِ مُهْلِكَتى، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وتجىء الفِتنَةُ فَيَقُولُ المُؤمِنُ: هذِهِ هذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أنْ يُزَحزَحَ عن النَّارِ، ويُدخلَ الجنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ، ولْيَأْتِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٧٩٢) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٥) كتاب الإمارة.

إلى الناسِ الذى يُحِبُّ أَنْ يُؤتَى إلَيْهِ.

ومَنْ بَايع إمامًا فأَعطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وثَمرةَ قَلْبِهِ. فَليُطعهُ إنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ ينازِعُهُ، فاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث قال ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كُنا مع النبى ﷺ فى سفرٍ فنزلنا منزلًا.. أى: مكانًا من الأماكن.. فمنَّا مَن يُصلح خِباءه (خيمته).. ومنَّا مَن ينتضل أى: يُسابق بالرمى وبالنَّبل.. ومنَا مَن هو فى جَشَرِه أى: يرعى دوابه.

وفجأة نادى مُنادى رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة.

وهذا النداء يُنادى به لصلاة الكسوف، وينادى به إذا أراد الإمام أو الأمير أن يجتمع بالناس، بدلًا من أن يقول: يا أيها الناس، هَلُمُّوا إلى المكان الفلانى.

فاجتمع الناس فخطبهم النبى ﷺ وأخبرهم أنه ما من نبىٍّ بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ إلا دلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم وأنذرهم شرَّ ما يعلمه لهم.. فكل الأنبياء أخلصوا النصيحة لأقوامهم.. فكانوا يدلونهم على الخير ويُحذرونهم من الشر.. كما قال النبى ﷺ: **«ما تركت من خيرٍ إلا وقد دللتكم عليه وما تركت من شرٍّ إلا وقد حذرتكم منه»**.

وهكذا يجب على العلماء والدعاة وطلبة العلم أن يُعرفوا الناس الخير ويحثوهم عليه وأن يُبينوا لهم الشر ويحذروهم منه.. وذلك لأن العلماء ورثة الأنبياء.. وأن النبى ﷺ هو خاتم الأنبياء.. فيجب على العلماء ما يجب على الأنبياء من البلاغ وبيان الشر وتحذير الناس منه.

۞ **ثم أخبر النبى ﷺ أن هذه الأمة -يعنى أمة النبى محمد ﷺ- جعل الله**

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٤) كتاب الإمارة.

قَوْله: «يَنْتَضِلُ» أى: يُسابقُ بالرَّمْى بالنَّبْل والنُّشَّاب- «والجَشَرُ»: وهى الدَّوابُّ التى تَرعَى وتَبيتُ مَكانَها. وقوله: «يُرقِّقُ بعضُهَا بَعضًا» أى: يُصيرُّ بعضَها بعضًا رقيقًا، أى: خَفِيفًا لِعظَمِ ما بعدَهُ، فالثَّانى يُرقِّقُ الأَوَّلَ. وقيلَ: معناهُ: يُشَوِّقُ بَعضُهَا إلى بعضٍ بتحسينها وتسْويلها وقيل: يُشْبِهُ بعضُها بَعضًا.

عافيتها فى أولها.. فلم يكن هناك فتنة فى عهد النبى محمد ﷺ.. وكذلك فى عهد أبى بكرٍ وعمر رضي الله عنهما.

فلما قُتل عمر رضي الله عنه على يد أبى لؤلؤة المجوسى (لعنه الله) بدأت الفتنة ترفع رأسها وتزداد يومًا بعد يوم .. ولذا قال النبى ﷺ: «**وسَيُصِيبُ آخِرَهَا بلاءٌ وأُمُورٌ تُنكِرُونَهَا**».

ثم وضَّح النبى ﷺ كيف تتصاعد الفتن وتزداد وتنتشر فقال ﷺ: «**وتجىءُ فِتَنٌ يُرقِّقُ بَعضُها بَعضًا**» أى أن بعضها يجعل ما قبله رقيقًا وسهلًا، لأن الثانية أعظم من الأولى، فكل واحدة أعظم من الأخرى فتُرقق ما قبلها، ولهذا قال: «**يرقق بعضها بعضًا**» فتجىء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه مُهلكتى، لأن أول ما تأتى يستعظمها فيقول: من هنا نهلك.

ثم تأتى الأخرى فتُرقق الأولى وتكون الأولى سهلة بالنسبة إليها، فيقول المؤمن: هذه هذه... يعنى هذه التى فيها البلاء كلّ البلاء، ولكن المؤمن يصبر ويحتسب ويلجأ إلى الله عز وجل، ويستعيذ بالله من الفتنة، وفى كل صلاة يقول: «**أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شَرِّ فتنة المسيح الدجال**»(١).

ثم قال النبى ﷺ: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحزَحَ عن النَّارِ، ويُدخَلَ الجنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ**».. أى: مَن أراد النجاة يوم القيامة من النار والفوز بالجنة فليَثبُت على الإيمان بالله واليوم الآخر حتى آخر لحظة فى حياته فيموت وهو يؤمن بالله واليوم الآخر.

«**ولْيَأْتِ إلى الناسِ الذى يُحِبُّ أَنْ يُؤتَى إِلَيْهِ**» وهذا استكمال لما سبق .. أى: ومَن أحب أن يُزحزَح عن النار ويُدخَل الجنة فليأتِ إلى الناس الذى يحب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٧٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

أن يُؤتَى إليه ... وذلك بأن تُعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.. فتحب للناس ما تحب لنفسك وتكره للناس ما تكرهه لنفسك وتكون صادقًا أمينًا وفيًّا معهم كما تحبُ أن يكونوا صادقين أُمناء أوفياء معك... وتُحسن إليهم وتعاملهم باللطف واللين كما تحب أن يُحسنوا إليك ويعاملوك باللُّطف واللين.

۞ ثم قال النبى ﷺ: «**وَمَن بايع إمامًا** -أى: حاكمًا من حكام المسلمين- **فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليُطعه إن استطاع**»، طالما أنه يستطيع الطاعة فى المعروف فليُطعه، حتى وإن كان حاكم هذه الدولة المسلمة يظلم ويفجر ويقع فى المعاصى، ولكنه مسلم، يحكم المسلمين بكتاب الله سبحانه وتعالى وسُنة رسول الله ﷺ فيجب علينا طاعته فى غير معصية الله عَزَّ وَجَلَّ.

۞ ثم قال النبى ﷺ: « **فَإنْ جَاءَ آخَرُ ينازعُهُ، فاضْرُبوا عُنُقَ الآخَرِ**».

أى: أنه إذا جاء رجلٌ آخر يريد أن يعتدى على هذا الإمام ويسلبه مُلكه فادفعوه فإنه خارجٌ على الإمام .. فإن لم يندفع إلا بحربٍ وقتالٍ فقاتلوه.. فإن دعت المقاتلة إلى قتله جاز قتله ولا ضمان فيه لأنه ظالمٌ مُتعدٍّ فى قتاله...فهنا قال النبى ﷺ: «**فاضْرُبوا عُنُقَ الآخَرِ**» لأن قتل واحدٍ أفضل من قتل جُموعٍ من المسلمين.

وكأنه يُحذِّر مَن تُسول له نفسه بطلب الإمارة ومُنازعة الأمر أهله .. إلا إذا رأى كفرًا يعلم كل ذى عينين أن هذا كفر لا تأويل فيه، فإذا كان كذلك فمن حق أهل الحل والعقد أن يبايعوا إنسانًا آخر، ويلغوا بيعة الأول الذى هجر كتاب الله وسنة النبى ﷺ.

❊❊❊

(٦٧٤) وعن أَبى هُنَيْدَةَ وَائِلِ بن حُجرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بن يَزِيدَ الجُعفِىُّ رسولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِىَّ الله، أرأيتَ إنْ قامَت عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسألُونَا حَقَّهُم،

وَيمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعرَضَ عنه، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «اسْمَعوا وَأَطِيعُوا، فإنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»(١).

۞ ففي هذا الحديث أن سلمة بن يزيد سأل رسول الله ﷺ وقال له: «يَا نَبِيَّ الله، أرأيتَ إنْ قامَت عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسألُونَا حَقَّهُم، وَيمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعرَضَ عنه..

لقد سأل النبي ﷺ عن الأمراء الذين يطلبون حقهم من السمع والطاعة ومساعدتهم في شئون البلاد والوقوف بجانبهم في الجهاد ... إلى غير ذلك من الحقوق التي لهم على الرعية .. ولكنهم في نفس الوقت لا يُؤدون للناس حقوقهم ويظلمونهم ويستأثرون عليهم بالأموال والقصور والحياة الناعمة... فلما سمع النبي ﷺ السؤال أعرض عنه وكأنه كره هذا السؤال وكره أن يفتح هذا الباب .. ولكن السائل أعاد السؤال مرة أخرى وكأنه مُصِرٌّ على سماع الإجابة من النبي ﷺ.

فقال له ﷺ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ**».. وفي رواية: «**تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ**».

فأمر النبي ﷺ أن نُؤدي لهم حقهم، وأن عليهم ما حُمِّلوا وعلينا ما حُمِّلنا، فنحن حُمِّلنا السمع والطاعة، وهُم حُمِّلوا أن يحكموا فينا بالعدل، وألا يظلموا أحدًا، وأن يقيموا حدود الله على عباد الله وأن يقيموا شريعة الله في أرض الله، وأن يجاهدوا أعداء الله... هذا الذي يجب عليهم، فإن قاموا به فهذا هو المطلوب، وإن لم يقوموا به فإننا لا نقول لهم: أنتم لم تؤدوا الذي عليكم فلا نؤدي الذي لكم... هذا حرام.. بل يجب أن نؤدي الحق الذي علينا، فنسمع ونطيع، ونخرج معهم في الجهاد، ونصلي وراءهم في الجُمع والأعياد وغير ذلك، ونسأل الله الحق الذي لنا.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٦) كتاب الإمارة.

(٦٧٥) وعَنْ عَبْد الله بن مسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إنَّهَا ستكُونُ بعدِي أَثَرَةٌ، وأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا» قالوا: يا رسول الله، كَيفَ تَأْمُرُ مَنْ أدركَ مِنَّا ذلكَ؟ قَالَ: «تُؤَدُّونَ الحَقَّ الذى عَلَيْكُمْ، وتَسْأَلُونَ الله الذى لَكُمْ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٥٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٦٧٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ أطَاعَنِي فَقَد أطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَد عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فقَد أطَاعَنِي، وَمَنْ يَعصِ الأميرَ فَقَد عَصَانِي»(٢).

۞ قوله ﷺ: «**مَنْ أَطَاعَنِى فَقَد أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِى فَقَد عَصَى اللهَ**» ففى هذا الحديث يوضح النبى ﷺ أن طاعته من طاعة الله.. وذلك لأن الله عز وجل هو الذى أمرنا بطاعة النبى ﷺ فقال تعالى: ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠].. ومن المعلوم أن النبى ﷺ لا يأمر إلا بما أوحاه الله إليه ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ**﴾.. فإذا أمر النبى ﷺ بشىءٍ فقد أمر بشرع الله عز وجل.. فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله عز وجل.

۞ قوله ﷺ: «**وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَد أَطَاعَنِى، وَمَنْ يَعصِ الْأَمِيرَ فَقَد عَصَانِى**»

فالإنسان إذا أطاع الأمير فقد أطاع الرسول ﷺ.. لأن النبى ﷺ أمر فى أكثر من حديث بطاعة ولى الأمر وقال: «**اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك**»(٣) وقال: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشى كأن رأسه زبيبة**»(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٠٣) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٣) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٣٧) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٣٥) كتاب الإمارة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٧) كتاب الإمارة.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٩٣، ٦٩٦) كتاب الأذان، و(٧١٤٢) كتاب الأحكام.

وقال: «**على المسلم السمع والطاعة فى عُسره ويُسره ومَنشطه ومكرهه**»[١] .

والأحاديث فى هذا كثيرة ... فقد أمر بطاعة ولى الأمر، وإذا أطعت ولى الأمر فقد أطعت الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وإذا أطعت الرسول فقد أطعت الله عَزَّوَجَلَّ .

وهذا الحديث وغيره يدل على وجوب طاعة ولاة الأمور إلا فى معصية الله عَزَّوَجَلَّ لأنه لا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق.

۞ وهذا الحديث يذكرنى بقصة عجيبة حدثت للصحابى الجليل عبد الله ابن حذافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

عن على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلًا من الأنصار، قال: فلما خرجوا قال: وجد[٢] عليهم فى شىء فقال: أليس أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعونى؟

قالوا: بلى.

قال: فاجمعوا حطبًا... فجمعوا.

قال: أوقدوا نارًا، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمَّ القوم أن يدخلوها، قال: فقال لهم شابٌّ منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تَلقوا النبى ﷺ فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها.

قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه.

فقال لهم: «**لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدًا، إنما الطاعة فى المعروف**»[٣] .

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٦) كتاب الإمارة.

(٢) وجد: أى حَزِنَ وغَضِبَ.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٣٤٠) كتاب المغازى، ومسلم (١٨٤٠) كتاب الإمارة.

(٦٧٧) وعَنْ ابن عباسٍ رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «مَن كَرِه مِنْ أَمِيرِه شيْئًا فَلْيَصبِر، فإنَّهُ مَن خَرج مِنَ السُّلطَانِ شِبرًا مَاتَ مِيتَةً جاهِلِيةً»(١).

۞ لابد أن نعلم أنه يجب علينا طاعة ولى الأمر الذى يحكم بكتاب الله وبسُنة رسول الله ﷺ فى كل ما يأمرنا به إلا فى معصية الله عَزَّوَجَلَّ ... فإنه لا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق (جل وعلا).

فإذا كان ولى الأمر عاصيًا أو ظالمًا أو يكون قد استأثر بالأموال والقصور وغير ذلك من متاع الدنيا الزائل ولكنه يحكم بشرع الله فلا يجوز لنا أن نخرج عليه أو أن نُنابذه أو نُؤلب الناس عليه.

ذكر الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فى آخر كتاب (العقيدة الواسطية) أن من هدى أهل السنة والجماعة وطريقتهم، أنهم يدينون بالولاء لولاة الأمور، وأنهم يرون إقامة الحج والجهاد والأعياد والجُمَع مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فُجَّارًا، حتى لو كان ولى الأمر فاجرًا فإن أهل السُّنة والجماعة يرون إقامة الجهاد معه وإقامة الحج وإقامة الجُمَع وإقامة الأعياد.

إلا إذا رأينا كفرًا بواحًا صريحًا عندنا فيه من الله برهان والعياذ بالله، فهنا يجب علينا ما استطعنا أن نُزيل هذا الحاكم، وأن نستبدله بخيرٍ منه.

أما مجرد المعاصى والاستئثار وغيرها؛ فإن أهل السُّنة والجماعة يرون أن ولى الأمر له الولاية حتى مع هذه الأمور كلها، وأن له السمع والطاعة، وأنه لا تجوز مُنابذته، ولا إيغار الصدور عليه، ولا غير ذلك مما يكون فساده أعظم وأعظم.

وذلك لأن الشر لا يُدفع بالشر ولكن يُدفع بالخير.. فإذا دُفع الشر بشرٍّ أعظم منه فإن ذلك مفسدة عظيمة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٥٣) كتاب الفتن، ومسلم (١٨٤٩) كتاب الإمارة.

۞ فمن كره من أميره شيئًا فليصبر فإن مَن خرج من السلطان شبرًا مات ميتةً جاهلية... وهذا يحتمل معنيين:

الأول: يحتمل أنه يموت ميتة جاهلية بمعنى أنه يُزاغ قلبه والعياذ بالله، حتى تكون هذه المعصية سببًا لرِدَّته.

الثاني: ويحتمل المعنى الآخر أنه يموت ميتة جاهلية، لأن أهل الجاهلية ليس لهم إمام وليس لهم أمير، بل لهم رؤساء وزعماء لكن ليس لهم ولاية كولاية الإسلام، فيكون هذا مات ميتة جاهلية.

(٦٧٨) وعَنْ أبى بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أهَانَ السُّلطَانَ أَهَانَهُ الله»[١].

۞ ففى هذا الحديث يقول أبو بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبى ﷺ يقول: «**مَن أهَانَ السُّلطَانَ أَهَانَهُ الله**».

أى: مَن أهان مَن أعزَّه الله وألبسه خلعة السلطنة أهانه الله...

وفى رواية: «**مَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ اللهِ تبارك وتعالى فِى الدُّنْيَا، أَكْرَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِى الدُّنْيَا، أَهَانَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٢].

والإضافة فى (سلطان الله) إضافة تشريف.. كبيت الله وناقة الله.

۞ والمقصود هنا بإهانة السلطان أن يسخر الإنسان من أوامر السلطان أو يسخر من شخصه .. أو أن يتكلم السلطان بكلمة لا تُعجبه أو يفعل شيئًا لا يوافقه فيستهزئ به ويقول للناس: انظروا ماذا يقول.. انظروا ماذا يفعل..

وذلك لأنه إذا أهان السلطان بمثل هذه الصورة وغيرها وهوَّن أمر السلطان

---

(١) حسن: رواه الترمذى، وأحمد، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١١١).

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٢٩٧).

أمام الناس استهانوا به ولم يمتثلوا أمره ولم يجتنبوا نهيه.. وبخاصة لو كان يحكم بشرع الله وسُنة رسول الله ﷺ.

ولهذا فإن الذى يُهين السلطان بنشر معايبه بين الناس وذَمِّه والتشنيع عليه والتشهير به يكون عُرضة لأن يُهينه الله عَزَّوَجَلَّ.. لأنه إذا أهان السلطان بمثل هذه الأمور تمرد الناس عليه فعصوه، وحينئذ يكون هذا سبب شَرٍّ فيُهينه الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن أهانه فى الدُّنيا فقد أدرك عقوبته، وإن لم يُهنه فى الدُّنيا فإنه يستحق أن يُهان فى الآخرة والعياذ بالله. لأن كلام الرَّسول ﷺ حق: «**مَن أهان السلطان أهانه الله**»، ومَن أعان السلطان أعانه الله، لأنه أعان على خيرٍ وعلى بِرٍّ ... فإذا بيَّنت للناس ما يجب عليهم للسلطان وأعنتهم على طاعته فى غير معصية فهذا خيرٌ كثير، بشرط أن يكون إعانة على البر والتقوى وعلى الخير.

۞ يُحكى أن سفيان الثورى لقى جعفر الصادق فرأى عليه جُبة خَزٍّ جميلة فقال له: يا ابن رسول الله ﷺ ليس هذا من لباسك.. فابتسم جعفر الصادق وأزاح تلك الجُبة الجميلة فإذا تحتها جُبة صوفٍ بيضاء مُغبرة.. فقال له: يا ثورى لبسنا هذا لله وهذى لكم.. فما كان لله أخفيناه وما كان لكم أبديناه... هكذا تكون الأخلاق ... وهكذا يكون التوجيه المُهذب والنصيحة الخالصة.

(٨١) باب النهي عن سؤال الإمارة واختيار ترك الولايات إذا لم يتعين عليه أو تدعُ حاجة إليه

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣].

فى البداية لا بد أن نعلم أن الإمارة معناها التأمُّر على الناس والاستيلاء عليهم. وهى كبرى وصغرى.

أما الكبرى: فهى التى تكون إمارة عامة على كل المسلمين، كإمارة أبى بكر الصديق رضي الله عنه وهو خليفة رسول الله ﷺ ، وكإمارة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وغيرهم من الخلفاء رضي الله عنهم... هذه إمارة عامة وسلطة عامة.

وإمارة خاصة دون ذلك: تكون إمارة على منطقة من المناطق تشتمل على قرى ومدن، أو إمارة أخص من ذلك على قرية واحدة أو مدينة واحدة، وكلها يُنهى الإنسان أن يطلب فيها أن يكون أميرًا.

ثم صدَّر المؤلف رحمه الله هذا الباب بقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى الجنة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص:٨٣].

وطلب الإمارة ربما يكون قصد الطالب للإمارة أن يعلو على الناس، ويملك رقابهم، ويأمر وينهى، فيكون قصده سيئًا، فلا يكون له حظ من الآخرة والعياذ بالله، ولهذا نُهى عن طلب الإمارة(١).

فالجنة فى الآخرة يجعلها الله عز وجل للذين لا يريدون عُلوًّا فى الأرض ولا

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٥٨).

فسادًا.. لا يريدون عُلوًّا بل يريدون الله والدار الآخرة.

وقد ذُكرت تلك الآية فى نهاية قصة قارون الذى كان من بنى إسرائيل وكان الأحرى به أن يؤمن مع موسى عليه السلام لأنه يعلم أنه نبىٌّ كريم.. ولكنه لكثرة أمواله واختلاطه بفرعون أُعجب بنفسه وكفر بالله واستكبر فى الأرض بغير الحق وقال عن ماله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فانشغل بماله كما انشغل فرعون بمُلكه وكما انشغل هامان بوزارته.. فأرانا الله عز وجل آياته فيهم جميعًا.

فلقد خرج قارون على قومه فى زينته مُفتخرًا يُريهم أمواله، ويُريهم حُلله، ويُريهم قوته وشبابه وجماله، فإذا بالله يأمر الأرض فأخذته هو وما معه، فضاع الرجل وضاع ماله...قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]، وعقَّب ذلك ربنا سبحانه بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾، أى: هذه الجنة العظيمة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣].

(٦٧٩) وعَنْ أبى سعيد عبد الرحمنِ بن سَمُرةَ رضي الله عنه، قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عَبدَ الرَّحمن بن سَمُرَةَ: لا تَسأَلِ الإمارَةَ، فَإنَّكَ إن أُعطِيتَها عَن غَيْرِ مسألَةٍ أُعِنْتَ عليها، وإن أُعطِيتَها عَن مسألةٍ وُكلْتَ إلَيْها، وإذَا حَلَفْتَ على يَمِينٍ، فَرأَيت غَيرَها خَيْرًا مِنهَا، فَأْتِ الذى هُو خيرٌ، وكفِّر عَن يَمِينِكَ»[١].

۞ ففى هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «يا عَبدَ الرَّحمن بن سَمُرَةَ» فناداه باسمه واسم أبيه من أجل أن يُلفت انتباهه إلى أهمية ما سيُلقى عليه الآن.

«لا تَسأَلِ الإمارَةَ» أى: لا تطلب أن تكون أميرًا ولا تحرص على ذلك أبدًا... «فَإنَّكَ إن أُعطِيتَها عَن غَيْرِ مسألَةٍ» أى: من غير سؤالك وحرصك عليها «أُعِنْتَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٢٢) كتاب كفارات الأيمان، ومسلم (١٦٥٢) كتاب الأيمان.

عليها» والمُعين هو الله عَزَّوَجَلَّ الذى سيوفقك ويُسددك ويُلهمك الصواب والرشاد إن لم تسأل الإمارة.

«**وإن أُعطِيتَها عَن مسألةٍ وُكلْتَ إلَيْها**» أى: إن أصبحت أميرًا بسبب سؤالك الإمارة وحرصك عليها وكلك الله إليها وتخلى عنك -عياذًا بالله- فلم يوفقك ولم يُسدد خُطاك وفشلت ولم تنجح.. أما إن كان الناس هم الذين اختاروك لصدقك وأمانتك وكفاءتك فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُعينك عليها.. يعنى: فاقبلها وخُذها.

وهذا يشبه المال، فإن الرسول ﷺ قال لعمر: «**مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَإِلَّا فَلاَ تُتْبِعهُ نَفْسَكَ**»(١).

۞ ولذلك ينبغى على الإنسان ألا يحرص على طلب المناصب فى أى مكانٍ -وليس الإمارة فقط- لأن مَن سأل المناصب وكان حريصًا على ذلك يُخشى أن يكون داخلًا فى هذا الحديث.. فالورع ألا تطلب .. فإن طُلب منك فخذه وسوف يعينك الله على ذلك المنصب.

۞ قوله ﷺ: «**وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفِّر عن يمينك وأتِ الذى هو خير**»، يعنى إذا حلفت ألا تفعل شيئًا، ثم تَبين لك أن الخير فى فعله، فكفِّر عن يمينك وافعله... وإذا حلفت أن تفعل شيئًا ثم بدا لك أن الخير فى تَركِه فاتركه وكفِّر عن يمينك.

وإنما قال النبى ﷺ ذلك.. لأن الإنسان إذا كان حاكمًا أو أميرًا فحلف على شيء.. فربما تُملى عليه أَنَفة الجاه والسلطان ألا يفعل خلاف ما حلف عليه... ولذا يوضح النبى ﷺ أن الإنسان -وإن كان أميرًا- إذا حلف أن يفعل شيئًا ورأى الخير فى تركه أن يتركه.. أو حلف ألا يفعل شيئًا ورأى الخير فى فعله أن يفعله.. وهذا يشمل الأمير وغيره.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٤٥) كتاب الزكاة.

فمثلًا: إذا حلفت ألا تزور أخاك أو ابن عمك فكفِّر عن يمينك واذهب لأخيك وابن عمك لأن صلة الرحم واجبة.

۞ ولكن أحب أن أقول لك: احرص على ألا تتسرع فى الحلف.. فقد تتسرع فى الحلف أو الطلاق فتخسر كل شىء .... فإن حلفت على شىءٍ ورأيت خيرًا منه فكفِّر عن يمينك وافعل هذا الشىء.

۞ وكفارة اليمين تكون بأحد الأمور التالية:

(١) إطعام عشرة مساكين من أوسط طعام أهلك.

(٢) كسوة عشرة مساكين.

(٣) تحرير رقبة (إعتاق العبد المملوك).

فإذا عجزت عن هذه الأمور، فصُم ثلاثة أيام، واعلم أنه لا يجوز أن تُكفر بالصوم إلا بعد العجز عن الإطعام أو الكسوة أو الإعتاق.

وإن كنت مُبتلى بكثرة الحلف وأردت ألا تكون مُلزَمًا بكفارة اليمين فى كل مرة فاقرن حلفك بقولك: (إن شاء الله) فإنك إن حلفت وقلت: إن شاء الله فأنت فى حِلٍّ حتى لو خالفت ما حلفت عليه.

(٦٨٠) وعَن أبى ذر رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا ذَر إنِّى أَرَاك ضعِيفًا، وإنى أُحِبُّ لكَ ما أُحِبُّ لِنَفسى، لا تَأَمَّرَنَّ على اثْنين ولا تَولَّيَنَّ مال يتِيم»[1].

(٦٨١) وعَنْه قال: قلت: يا رسول الله ألا تَستعمِلُنى؟ فضَرب بِيدِهِ على مَنْكِبى ثُمَّ قال: «يا أبا ذَرٍّ إنَّكَ ضَعِيف، وإنَّهَا أَمانة، وإنَّها يوم القيامَة خِزْىٌ ونَدَامةٌ، إلاَّ مَن أَخَذها بِحقِّها، وأدَّى الذى عليهِ فيها»[2].

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٦) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٥) كتاب الإمارة.

۞ ففى هذين الحديثين أن أبا ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلب من النبى ﷺ أن يستعمله وأن يجعله أميرًا على أى بلدٍ من البلاد.. فضرب النبى ﷺ على منكبه ليُشعره بالقُرب الشديد منه وأنه سيُقدم له نصيحة أقرب ما تكون من نصيحة الوالد لولده.

فقال له: «**يا أبا ذرٍّ إنَّكَ ضَعِيف**» ... وفى الرواية الأولى: «**يا أبا ذر إنِّى أَرَاك ضعِيفًا**» وقد يحزن الإنسان إذا قلت له إنك ضعيف.. لكن النبى ﷺ لم يقلها له على سبيل السَّبِّ وإنما قالها له على سبيل النصيحة.. ولكى يستشعر أن النبى ﷺ قالها له على سبيل النصيحة قال له النبى ﷺ بعدها: «**وإنى أُحب لك ما أحب لنفسى**» وهذا من حُسن خُلق النبى (عليه الصلاة والسلام)... لما كانت الجملة الأولى فيها شيء من الجرح قال: «**وإنى أحب لك ما أحب لنفسى**» يعنى لم أقل لك ذلك إلا لأنى أحب لك ما أحب لنفسى.

«**لا تَأَمَّرَنَّ على اثْنين**» أى: لا تكن أميرًا على اثنين وما زاد على ذلك فهو من باب أَولَى.

فنهاه النبى ﷺ أن يكون أميرًا لأنه ضعيف.. والإمارة تحتاج -في الغالب- إلى إنسانٍ قوي تكون له سُلطة ومكانة في قلوب الناس.. يهابه الناس ويُوقرونه ويَحترمون كلمته.. وذلك لأن الناس إذا استضعفوا الأمير فلن يكونْ له حُرمة عندهم بل سيتجرأ عليه الأراذل والأسافل من البشر.. لكن إذا كان قويًّا فلن يستطيع أحدٌ أن يتجاوز حدود الله عَزَّ وَجَلَّ.

«**ولا تولَّيَنَّ مال يتِيمٍ**» لأن اليتيم يحتاج إلى عناية ورعاية ... وأبو ذر ضعيف لا يستطيع أن يرعى هذا المال لليتيم حق رعايته.. مع أنه أمين لكنه ضعيف.

وفى هذا دليل على أنه يُشترط للإمارة أن يكون الإنسان قويًّا أمينًا لأن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّهَا أَمانة**».. وقال لأبى ذر.. «**إنَّكَ ضَعِيف**» فاشترط القوة.

فإن كان عندنا رجلان: أحدهما أمينٌ غير قوى.. والآخر قوى غير أمين.. فأيهما أفضل؟ وبخاصة إذا لم يكن أمامنا غيرهما.

نختار القوى الذى عنده ضعفٌ فى الأمانة ... لأنه فى باب الإمارة يُفضَّل القوى وإن كان فيه ضعف فى الأمانة لأنه ربما يكون بعد ذلك أمينًا.. أما الضعيف الذى فى طبيعته الضعف فإنه مُحال أن يكون قويًّا فى يومٍ من الأيام.

۞ وفى آخر الحديث قال النبى ﷺ: «**إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا مَن أخذها بحقها، وأدَّى الذى عليه فيها**».

فقوله: «**أخذها بحقها**» أى: وصل إلى الإمارة بالطرق الشرعية المعروفة فى شروط الولاية ... فإذا تولَّى عمل بالحق وأدى الواجبات التى عليه، فيكون له ذلك نجاة يوم القيامة.

وقد عرفنا فى حديث النبى ﷺ أن الذى يطلب القضاء لا يُعان عليه.

قال: فكأنما ذُبح بغير سكين، هذا الذى يطلب القضاء ويناله كأنما ذُبح بغير سكين... فكيف بمن طلب الإمارة؟!

❊❊❊

(٦٨٢) وعَنْ أبى هُريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّكم سَتَحرِصون على الإمارةِ، وستكُونُ نَدامَة يوْم القِيامَةِ**»(١).

۞ قال ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم وللأمة من بعدهم: «**إنَّكم سَتَحرِصُون على الإمارةِ**» فهو ﷺ قد نهاهم كثيرًا عن الحرص على الإمارة.. ومع ذلك يخبرهم هنا أن بعضهم سيحرص على الإمارة.

وقد حدث ذلك بعد وفاته ﷺ مباشرة حينما اجتمع بعض الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة... أرادوا أن يكون منهم الأمير الذى يكون خليفة لرسول الله ﷺ ...

(١) صحيح: رواه البخارى (٧١٤٨) كتاب الأحكام.

وحدث خلافٌ كبير فقام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحسم الخلاف بقوله: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يُصلي بالناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟.. فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر.

ثم أكمل كلامه فقال: فإن كان محمدٌ ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون به وإن أبا بكرٍ صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أَولَى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوه... فقاموا وبايعوه جميعًا وحُسم هذا الخلاف الكبير.

۞ ولقد وضَّح لهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ ذكر أن الخلافة فى قريش ليست فى غيرهم، ثم بعد ذلك صارت الخلافة على المنهاج الشرعى حتى حدث الطمع فيها والاقتتال... ففئة تتبع النبى ﷺ فيما يقول، وفئة تخالف فى ذلك، فكانت على الناس أزمة، وجرت سنون إلى أن أصبح طلب الرئاسة وطلب الإمارة للإمارة وللرئاسة، وليس لإقامة شرع الله سبحانه وتعالى، فصارت مُلكًا عَضوضًا... فحذر النبى ﷺ وقال: «**إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة**».

ويتخلى عن الإنسان يوم القيامة أتباعه وأشياعه وجنوده، ويأتى وحده ليُسأل عن كل ما كان تحت يديه... ولذلك فالإنسان يتفكر أنه سوف يُسأل عن نفسه، وعن أولاده .... أما الذى يتولى زمام الأمور والذى يكون رئيسًا على الناس فسوف يُسأل عن كل الناس الذين تحته.

فيا ترى متى سيُنهى الله حسابه؟ ولذلك على المسلم ألا يُطمع نفسه فى ذلك، ولا يحرص عليها، فلا خير فيها.

(٨٢) باب حَثِّ السلطان والقاضي وغيرهما من ولاة الأمور على اتخاذ وزير صالح وتحذيرهم من قرناء السوء والقبول منهم

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى كتابه «رياض الصالحين»: (باب حث القاضى والسلطان وغيرهما من ولاة الأمور على اتخاذ وزير صالح والتحذير من قرناء السوء)، ثم ذكر المؤلف قول الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الأخلاء: جمع خليل، والخليل هو الذى يحبك وتُحبه حبًّا عظيمًا، حتى يتخلل حُبه جميع البدن ... وفى ذلك يقول الشاعر:

قد تخللتَ مسلك الروح منى ... وبذا سُمى الخليل خليلًا

فإذا صدق الودُّ واشتد فإن أعلى أنواع المحبة هى الخُلة، ولهذا اتخذ الله إبراهيم خليلًا، واتخذ محمدًا ﷺ خليلًا. ولا نعلم أنه اتخذ خليلًا من خلقه إلا هذين النبيين إبراهيم ومحمدًا (صلى الله عليهما وسلم).

ولهذا نقول: مَن قال: إن إبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، ومحمدًا حبيب الله، فقد هضم محمدًا ﷺ حقه؛ لأنه إذا جعله حبيب الله فقط فقد أنزل رُتبته... بل هو عليه الصلاة والسلام أعلى من الحبيب... فالله تعالى يحب المؤمنين، ويحب المقسطين، ويحب المتقين... فمحبته أوسع، لكن الخُلة لا تحصل لكل أحد.

ففرقٌ بين الخُلة والمحبة... الخُلة أعظم من المحبة.

فالأخلاء فى الدنيا والأصدقاء فى الدنيا هم على صداقتهم، لكنهم فى الآخرة

كلهم أعداء إلا المتقين ... قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[الزخرف: ٦٧].

فإن المتقين محبتهم فى الله... والرجلان إذا تحابَّا فى الله - اجتمعا عليه وتفرقا عليه- كانا من السبعة الذين يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ويدل على أن الأخلاء سيكونون أعداء إلا المتقين قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[البقرة: ١٦٦] ... قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: تقطعت بهم المحبة، فكانت المحبة بينهما فى الدنيا، وفى الآخرة تتلاشى وتتقطع.

ثم إنه يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى يبتلى العبد، فتارة ييسره لأخِلَّاء صدقٍ يدعونه للخير؛ ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويُعينونه على ما يعجز عنه. وتارة يُبتلى بقومٍ خلاف ذلك... ولهذا جاء فى الحديث: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم مَن يخالل**»[(١)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**مثل الجليس الصالح كحامل المسك إما أن تبتاع منه**» أى يبيع لك مسكًا «**وإما أن يحذيك**» أى يعطيك مجانًا «**وإما أن تجد منه رائحة طيبة**»، أما الجليس السوء -والعياذ بالله - فإنه «**كنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك**» بما يتطاير عليك من شرر النار، «**وإما أن تجد منه رائحة كريهة**»[(٢)(٣)].

---

(١) حسن: رواه أبو داود، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٤٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٠١) كتاب البيوع، ومسلم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة.

(٣) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٦٢-٣٦٣).

(٦٨٣) عن أبى سعيد وأبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «مَا بَعَثَ الله من نَبِيٍّ، ولا استَخْلَف مِنْ خَلِيفَةٍ إلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتحُضُّهُ عليه، وبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بَالشَّرِّ وتَحُضُّهُ عليهِ والمَعصُومُ من عَصَمَ اللهُ»(١).

(٦٨٤) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أَرَادَ الله بالأَمِيرِ خيرًا، جَعَلَ له وزيرَ صِدقٍ، إن نَسى ذكَّرهُ، وَإن ذَكَرَ أَعَانَهُ، وإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيْرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِىَ لَمْ يُذَكِّره، وإِنْ ذَكَرَ لم يُعِنْهُ»(٢).

۞ ففى الحديث الأول يخبر النبى ﷺ أنه ما بعث الله من نبيٍّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان.. وبطانة الرجل صاحب سرِّه.. وهم خواص الملك والمقربون الذين يكونون مُلازمين له.. يستشيرهم فيُشيرون عليه ويأخذ برأيهم أحيانًا.. وأحيانًا يكون قراره من تلقاء نفسه.

فأما الأنبياء فيعصمهم الله عَزَّوَجَلَّ لأنهم لا يتصرفون إلا من خلال ما يُوحَى إليهم.. وأما الملوك والخلفاء.. فقد تجد ملكًا أو أميرًا صالحًا فى نفسه حريصًا على الخير لكن يُقيض الله له وزير سوءٍ أو قُرناء سوء فيصدونه عن الخير ويُزينون له السوء ويجعلونه مبغوضًا عند رعيته.

وقد تجد ملكًا أو أميرًا غير صالح فى نفسه وليس عنده أى حرصٍ على فعل الخير.. لكن يقيض الله له بطانة صالحة تدله على الخير وتُعينه عليه وتدله على كل ما يُوجِد الألفة والمحبة بينه وبين رعيته.. وقد يكون الأمير الصالح له بطانة صالحة.. والأمير الفاسد له بطانة فاسدة. فقد تجد أمثلة فى التاريخ على الأصناف الأربعة.. وقد يكون الأمير له بطانتان: بطانة صالحة تحضه على فعل الخير وبطانة تؤزه على فعل الشر..

(١) صحيح: رواه البخارى (٧١٩٨) كتاب الأحكام.
(٢) صحيح: رواه أبو داود، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢).

فإن كان صالحًا وفقه الله للعمل بمشورة البطانة الصالحة.. وإن كان فاسدًا خلَّى الله بينه وبين بطانة السوء.

۞ وهذا يوضحه الرواية الثانية حيث قال النبى ﷺ: «**إذا أرادَ الله بالأمِيرِ خيرًا، جَعَلَ له وزيرَ صِدق**».. والأصل أن يُقال أنه وزيرٌ صادق لكنه ﷺ قال: «**وزيرَ صِدق**» وكأنه هو عين الصدق.

«**إن نَسى ذكَّرهُ**» أى: إن نسى ما يحتاج إليه أو ضَلَّ عن حكمٍ شرعى أو قضية مظلوم أو مصالح لرعيته ذكَّره «**وَإن ذَكَرَ**» ذلك «**أَعَانَهُ**» عليه بالرأى والفعل.

«**وإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ**» الخير بأن أراد به شرًّا «**جَعَلَ لَهُ وَزِيْرَ سُوء**» والمراد وزير سوءٍ فى القول والفعل «**إِنْ نَسِيَ**» أى: ترك ما لا بد منه «**لَمْ يُذَكِّره**» به لأنه ليس عنده من النور القلبى ما يحمله على ذلك «**وإِنْ ذَكَرَ لم يُعِنْهُ**» بل يسعى فى صرفه عنه لشرارة طبعه وسوء صُنعه.

۞ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدِ اسْتَشْكَلَ هَذَا التَّقْسِيمُ بِالنِّسْبَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّهُ وَإِنْ جَازَ عَقْلًا أَنْ يَكُونَ فِيمَنْ يُدَاخِلُهُ مَنْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ لَكِنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ أَنْ يصغى إِلَيْهِ وَلَا يَعمَلَ بِقَوْلِهِ لِوُجُودِ الْعِصمَةِ ... وَأُجِيبَ بِأَنَّ فِي بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ الْإِشَارَةُ إِلَى سَلامَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**فَالْمَعصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى**» فَلَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ مَنْ يُشِيرُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالشَّرِّ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْبِطَانَتَيْنِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ الْمَلَكُ وَالشَّيْطَانُ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «**وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِى عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ**»(١).

۞ وإذا كان هذا الأمر فى الأمراء والملوك فيجب عليك أن تُفتش فى نفسك عن أصحابك الذين تحبهم وتلازمهم.. فإذا كان هناك مَن يعينك على طاعة الله فاستمسك به.. وإذا كان هناك مَن يأخذك إلى معصية الله عَزَّوَجَلَّ ففر منه فرارك من الأسد.

---

(١) فتح البارى (١٣/ ٢٠٢).

(٨٣) باب النهي عن تولية الإمارة والقضاء وغيرهما من الولايات لمن سألها أو حَرِصَ عليها فعرَّض بها

(٦٨٥) عَن أَبي مُوسَى الأشْعَريِّ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ أَنا وَرَجُلانِ مِنْ بَني عَمِّي، فَقَالَ أحَدُهُمَا: يَا رسول الله، أَمِّرْنَا عَلَى بَعْض مَا ولاَّكَ اللهُ عز وجل وقال الآخَرُ مِثل ذَلِكَ، فَقَالَ: «إنَّا وَاللهِ لا نُوَلِّي هَذَا العَمَلَ أَحَدًا سَأَلَهُ، أَوْ أحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يوضح النبى ﷺ أن مَن طلب الإمارة أو الولاية لا نُوليه ولا نُؤمره حتى وإن كان أهلًا لذلك.. وذلك لأنه فى الغالب لا يطلب ذلك من أجل إصلاح تلك الإمارة وجلب الخير لها وإنما يطلب ذلك من أجل أن يجعل لنفسه سُلطة أو يجلب لنفسه منفعة .. وقد سبق فى حديث عبد الرحمن ابن سَمُرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لا تَسأَل الإمارَةَ، فإنَّكَ إن أُعطِيتَها عَن غَيرِ مسألَةٍ أُعِنتَ عليها، وإن أُعطِيتَها عَن مسألةٍ وُكلْتَ إلَيْها»(٢).

۞ قال الإمام النووى رحمه الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْحِكْمَةُ فِى أَنَّهُ لَا يُوَلَّى مَنْ سَأَلَ الْوِلَايَةَ أَنَّهُ يُوكَلُ إِلَيْهَا وَلَا تَكُونُ مَعَهُ إِعَانَةٌ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِى حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحمَنِ بْنِ سَمُرَةَ السَّابِقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ إِعَانَةٌ لَمْ يَكُنْ كُفئًا وَلَا يُوَلَّى غَيْرُ الْكُفْءِ وَلِأَنَّ فِيهِ تُهْمَةً لِلطَّالِبِ وَالْحَرِيصِ .. وَاللهُ أَعلَمُ(٣).

فإن قال قائل: كيف تجيبون عن قول يوسف (عليه الصلاة والسلام) للعزيز: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٤٩) كتاب الأحكام - ومسلم (١٧٣٣) كتاب الإمارة.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٢٢) كتاب كفارات الأيمان - ومسلم (١٦٥٢) كتاب الأيمان.
(٣) مسلم بشرح النووى (١٢/ ٢٨٦).

فإننا نُجيب بأحد جوابين:

أولًا: إما أن يُقال: إن شرع مَن قبلنا إذا خالفه شرعنا فالعمدة على شرعنا، بناءً على القاعدة المعروفة عند الأصوليين «شَرع مَن قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه» ... وقد ورد شرعنا بخلافه: أننا لا نُولى الأمر أحدًا طلب الولاية عليه.

ثانيًا: أو يُقال: إن يوسف (عليه الصلاة والسلام) رأى أن المال ضائع وأنه يُفرَّط فيه ويُلعَب فيه، فأراد أن يُنقذ البلاد من هذا التلاعُب.

ومثل هذا يكون الغرض منه إزالة سوء التدبير وسوء العمل، ويكون هذا لا بأس به... فمثلًا إذا رأينا أميرًا فى ناحية لكنه قد أضاع الإمرة وأفسد الخلق، فللصالح لهذا الأمر - إذا لم يجد أحدًا غيره - أن يطلب من ولى الأمر أن يُوليه على هذه الناحية... فيقول له: ولِّنى هذه البلدة لأجل دفع الشر الذى فيها.

ويكون هذا لا بأس به، متفقًا مع القواعد.

ويحضرنى فى هذا حديث عثمان بن أبى العاص، أنه قال للنبى ﷺ: اجعلنى إمام قومى؛ يعنى فى الصلاة، فقال: «**أنت إمامهم**»(١) فولى الأمر ينظر ما هو السبب فى أن هذا الرجل طلب أن يكون أميرًا، أو طلب أن يكون قاضيًا، أو طلب أن يكون إمامًا، ثم يعمل بما يرى أن فيه المصلحة(٢).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٨٠).
(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٦٥).

(١) كتاب الأدب

(٨٤) باب الحياء وفضله والحث على التخلُّق به

۞ ما أعظم الحياء.. إنه خُلق من أعظم الأخلاق التى ينبغى أن يتحلى بها كل مسلم ومسلمة.

ومن أجل قدر الحياء وشرفه كان هذا الخُلق فى مقدمة الأخلاق فى هذا الدين الحنيف ... فقد قال النبى ﷺ: **«إن لكل دينٍ خُلقًا وإنَّ خُلق الإسلام الحياء»**[1].

۞ فما أجمل أن نتعايش مع خُلق الحياء.

فنرى الفتاة المسلمة إذا خرجت من بيتها كانت ملتزمة بحجابها وحيائها فلا ترفع صوتها فى الطريق ولا تنظر إلى الرجال ولا تقف مع رجلٍ غريبٍ عنها ليس من محارمها.

ونرى الفتى المسلم يغض بصره عن النساء ولا يتكلم كلامًا فاحشًا ولا يقف مع فتاة أجنبية عنه.. وإذا تكلم مع رجلٍ أكبر منه فإنه يتعامل معه بكل حياءٍ وأدبٍ واحترام.

۞ وهكذا... إذا عشنا جميعًا على خُلق الحياء فإن المجتمع ستشيع فيه روح المودة والمحبة والإخاء.

(٦٨٦) عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِى الحَيَاءِ، فَقَالَ رسُولُ الله ﷺ: «دَعهُ فإنَّ الحياء مِنَ الإيمانِ»[2]

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٤٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٦) كتاب الإيمان.

(٦٨٧) وعَنْ عِمْران بن حُصَيْن رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الحيَاءُ لا يَأْتى إلاَّ بِخَيْرٍ»(١).

وفى رواية لمسلم: «الحَياءُ خَيْرٌ كَلُّهُ» أوْ قَالَ: «الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ».

۞ أورد المصنف رحمه الله هذين الحديثين فى باب الحياء.. وأورد الحياء فى كتاب الأدب.

والأدب: هو مجموعة الأخلاق التى يتأدب بها الإنسان.. وله أنواعٌ كثيرة.. منها الجود والكرم والشجاعة وطلاقة الوجه وانشراح الصدر.. وغير ذلك كثير.

فالأدب هو عبارة عن أخلاقٍ يتخلق بها الإنسان يُمدح عليها، ومنها الحياء.

والحياء صفة فى النفس تحمل الإنسان على فعل ما يُجمل ويزين، وترك ما يُدنس ويشين...فتجده إذا فعل شيئًا يخالف المروءة استحيا من الناس، وإذا فعل شيئًا مُحرمًا استحيا من الله عز وجل، وإذا ترك واجبًا استحيا من الله، وإذا ترك ما ينبغى فعله استحيا من الناس.

فالحياء من الإيمان، ولهذا ذكر ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ مَرَّ برجلٍ من الأنصار يعظ أخاه فى الحياء وكأنه كان ينصح أخاه بأنه قد يُضيع بعض حقوقه بسبب الحياء .. فإذا بالنبى ﷺ يوضح له أن المسلم لا بد أن يتخلق بأخلاق الإسلام حتى وإن فقد شيئًا من متاع الدنيا الزائل.. ولذا قال له ﷺ: «**دعهُ فإنَّ الحياء مِنَ الإيمانِ**».

وقال عليه الصلاة والسلام فى حديثٍ آخر: «**الإيمان بضعٌ وسبعون شُعبة، فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان**»(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦١١٧) كتاب الأدب، ومسلم (٣٧) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

وإذا كان عند الإنسان حياء وجدته يمشى مشيًا مستقيمًا، ليس بالعجلة التى يُذَم عليها، وليس بالتماوت الذى يُذَم عليه أيضًا... كذلك إذا تكلم تجده لا يتكلم إلا بالخير وبكلامٍ طيب، وبأدبٍ، وبأسلوبٍ رفيع حسب ما يقدر عليه.

وإذا لم يكن حييًّا فإنه يفعل ما شاء، كما جاء فى الحديث الصحيح: «**إن مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**»[1][2].

۞ وفى الحديث الأول يحكى ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مَرَّ على رجلٍ من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء .. كأنه ينهاه عن الحياء ويؤنبه.. وقد يكون هذا الرجل الحيى قد فقد شيئًا من المال بسبب أنه استحيا أن يطلبه وكأن صاحبه يقول له: هكذا سيضيع حقك بسبب الحياء... كأن الأمر هكذا وإن كنا لا نعرف ما الذى حدث.

فقال له النبى ﷺ: «**دَعهُ فإنَّ الحياء مِنَ الإيمانِ**».

فالإنسان الذى عنده حياء، قد يمنعه حياؤه من أشياء يريدها، لكن لا يضيع هذا الحياء عند الله عز وجل، فالحياء كله خير، والحياء من خصال الإيمان التى يرتفع بها العبد المؤمن عند الله سبحانه وتعالى.

فبيَّن النبى ﷺ أن الحياء من الإيمان وأننا لا ينبغى أن ننهى أحدًا أن يتخلق بخُلق الحياء إلا إذا كان الحياء فى موضع تضيع فيه الحقوق ويُنتهك فيه حُرمة هذا الدين العظيم.

۞ وفى الحديث الثانى عن عمران بن حُصين رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**الحيَاءُ لا يَأْتى إلاَّ بِخَيْرٍ**» حتى ولو فاتك شىء من الدنيا.. ولكن الثواب الذى تفوز به أعظم من الدنيا وما فيها.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٤٨٤) كتاب أحاديث الأنبياء، و(٦١٢٠) كتاب الأدب.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٦٦).

وهنا يوضح النبى ﷺ أن الحياء كله خير ولا يأتى إلا بخير... وذلك؛ لأن الحياء يحمل الإنسان على أن يتخلق بالأخلاق الحسنة. ويستحيى أن يتخلق بالأخلاق الرذيلة... ومن ثَمَّ فإنه يكون خيرًا على صاحبه وعلى كل مَن حوله.

(٦٨٨) وعَن أبى هُريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الإيمَانُ بضْع وسبْعُونَ، أوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعبةً، فَأَفْضَلُها قوْلُ لا إله إلا الله وَأدنَاها إمَاطةُ الأَذى عنَ الطَّرِيقِ، والحياءُ شُعبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٢٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٦٨٩) وعَنْ أبى سعيد الخُدرِىِّ رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فى خِدرِهَا، فَإِذَا رأى شَيْئًا يَكْرَهُه عَرَفْنَاهُ فى وَجْهِهِ(٢).

۞ ففى هذا الحديث يصف أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه الحبيب المصطفى ﷺ بأنه كان أشد حياءً من العذراء فى خدرها... ثم قال: فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه فى وجهه.. أى أن النبى ﷺ من شدة حيائه كان إذا رأى شيئًا يكرهه لا يتكلم به لحيائه بل يتغير وجهه فيفهمون أنه ﷺ كره ذلك.

«العذراء»: هى المرأة التى لم تتزوج وهى أشد النساء حياءً، لأنها لم تتزوج

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.
«البِضْعُ»: بكسر الباء. ويجوز فتحها وَهُوَ مِن الثلاثِة إلى الْعَشَرَةِ «وَالشُّعبَةُ»: الْقِطْعَةُ والخَصلَةُ. «وَالإماطَةُ»: الإزَالَةُ،«وَالأذى»: مَا يُؤذِى كَحجَرٍ وَشَوْكٍ وَطِينٍ وَرَمَادٍ وَقَذَرٍ وَنحوِ ذلكَ.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٠٢) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣٢٠) كتاب الفضائل.
قال العلماءُ: حَقِيقَةُ الحَياء خُلُقٌ يَبْعثُ على تَركِ الْقَبِيحِ، ويمْنَعُ منَ التقْصير فى حَقِّ ذِى الحَقِّ. وَروَيْنَا عنْ أبى الْقَاسم الجُنَيْدِ رحمه الله قال: الحَيَاءُ رُؤيَةُ الآلاء (أى: النِّعمِ) ورؤْيةُ التَّقْصِيرِ. فَيَتوَلَّدُ بيْنَهُمَا حالَة تُسَمَّى حياءً.

ولم تُعاشر الرجال فتجدها حيية فى خِدرها... فرسول الله ﷺ أشد حياءً منها، ولكنه ﷺ إذا رأى ما يكره عُرف ذلك فى وجهه.

وهكذا ينبغى للمؤمن أن يكون حييًّا لا يتخبط، ولا يفعل ما يُخجل، ولا يفعل ما يُنتقد عليه، ولكن إذا سمع ما يكره أو رأى ما يكره، فإنه يتأثر.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: شدة حياء النبى ﷺ وعلامات شدة هذا الحياء:

(١) أنه ﷺ زاد على حياء العذراء، وهى المرأة التى لم يسبق لها الزواج، ويبدو أن الحياء كان صفة ملازمة للعذراء، وتتأكد هذه الصفة وتزيد إذا دخل عليها أحدٌ هذا الخدر.. والخدر كما عرَّفه الإمام النووى: (سِترٌ يُجعل للبكر جنب البيت)[1]. ولذلك قيد الراوى حياء المرأة بحال كونها فى خدرها لتعظيم هذا الحياء، والذى زاد حياء النبى ﷺ عليه.

(٢) أنه ﷺ إذا سمع شيئًا يكرهه ويخدش حياءه، تغير لون وجهه، فعرف أصحابه أنه يكره هذا الشىء.

ويتفرع عليه: علمنا بكمال خُلق النبى ﷺ حيث أُعطى كل ذلك الحياء الذى لا يأتى إلا بخير.

الفائدة الثانية:

كان حياء النبى ﷺ كله محمودًا؛ لأن حياءه ﷺ لم يمنعه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن بيان كل ما شرع الله - سبحانه وتعالى - أبلغ بيان.

الفائدة الثّالثة:

ما يجب أن تكون عليه العذراء، من حياءٍ وعفة، وحفظٍ للسمع والبصر، ولو

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/ ٧٨).

يعلم الراوى أحدًا أشد حياءً من العذراء لوصف به الرسول ﷺ.

الفائدة الرّابعة:

خطأ مَن يعتقد أن الحياء خصلة للنساء فقط، وأن الرجل يُذَم إذا اتصف بها.. ودليله أن النبى ﷺ كان حييًّا بل فاق حياؤه حياء المرأة... وليس أى امرأة، ولكن أشد أصناف المرأة حياءً؛ وهى العذراء... ويتفرع عليه: خطأ مَن يقول: (لا حياء فى الدين) بين يدى سؤاله عن أمرٍ من أمور الدين، ولكن الصحيح أن يقول: (إن الله لا يستحى من الحق)(١).

من فوائد الحياء

۞ إن فوائد الحياء لا تُعد ولا تُحصى... وحسبنا قول النبى ﷺ: «**الحياء كله خير**».

وها أنا أسوق لحضراتكم بعض فوائد الحياء.

(١) الحياء مفتاح كل خير:

فالحياء هو مفتاح كل خير.. فهو الذى يحضنا على طاعة الله واتباع رسول الله ﷺ وبر الوالدين وصلة الأرحام وإكرام الجار وأداء الأمانة والوفاء بالوعد وإكرام الضيف وغير ذلك من الطاعات التى نتقرب بها إلى رب الأرض والسماوات (جلَّ وعلا).

(٢) الحياء خُلقٌ يحبه الله (جل وعلا):

جاء فى الحديث أن النبى ﷺ قال: «**إن الله تعالى حيىٌّ سِتيرٌ يحب الحياء والستر ....**»(٢).

---

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٣٦٦-٣٦٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٥٦).

وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة قال: قال لى أشجُّ بن عصر: قال لى رسول الله ﷺ: «**إن فيك لخلتين يحبهما الله عَزَّوَجَلَّ** »، قال: قلت: «وما هما؟» قال: «**الحلم والحياء**»، قال: قلت: «قديمًا كانتا فىَّ أم حديثًا؟»، قال: «**قديمًا**»، قال: الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله عَزَّوَجَلَّ[١].

(٣) الحياء من صفات الله عَزَّوَجَلَّ :

ومن صفات المولى عَزَّوَجَلَّ (الحيى) كما فى الحديث أن النبى ﷺ قال: «**إن الله تعالى حَيىٌ كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين**»[٢].

۞ حياء الرب (جل وعلا) من عبده :

قال يحيى بن معاذ: «مَن استحيا من الله مُطيعًا، استحيا الله منه وهو مذنب».

(٤) الحياء خُلقٌ مشترك بين الأنبياء :

۞ قال ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**»[٣].

۞ فقوله ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى**» يشير إلى أنْ هذا مأثور عن الأنبياء المتقدمين.

(٥) الحياء يُعين العبد على هجر المعاصى كلها حياءً من الله عَزَّوَجَلَّ :

(٦) الحياء يحمى العبد من الفضيحة فى الدنيا والآخرة :

لأنه يجعل بين العبد وبين ارتكاب أسبابها ساترًا وحجابًا.

(٧) الحياء يجعل العبد مُقبلاً على طاعة الله (جل وعلا) :

لأنه يرى ويشعر بنعمه التى لا تُعد ولا تُحصى فيزداد العبد طاعة لله وشكرًا

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه العلامة الألبانى فى ظلال الجنة (١٩٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٥٧).

(٣) رواه البخاري (٦١٢٠) كتاب الأدب.

لله ... فهو يفعل ذلك وفاءً لله... وذلك من باب قوله تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾[الرحمن: ٦٠].

(٨) الحياء يكسو المرء الوقار:

بحيث أنه لا يفعل ما يُخلُّ بالمروءة والتوقير ولا يؤذى مَن يستحق الإكرام.

(٩) الحياء أبهى زينة:

فإن العبد لن يتزين بزينة أبهى وأجمل من الحياء..

عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما كان الفُحش فى شىءٍ قط إلا شانه، ولا كان الحياء فى شىء قط إلا زانه**»(١).

(١٠) الحياء إيمان:

عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**الحياء والإيمان قُرنا جميعًا، فإذا رُفع أحدهما، رُفع الآخر**»(٢)..

ليس من الحياء

۞ وبعد أن عشنا سويًّا فى تلك الرحلة مع الحياء كان لا بد لنا من وقفة مع بعض الأشياء التى يظن الناس أنها من الحياء وهى أبعد ما تكون عن الحياء.... وها هى بعضها:

۞ أن تخرج المرأة سافرة متبرجة كاشفة جسدها للأجانب فإذا نظر إليها رجل احمرَّ وجهها وحاولت أن تستر جسدها!!! .... هذا ليس من الحياء فى شىء وإنما الحياء أن تلبس حجابها وتستر جسدها ولا تخرج إلا للضرورة

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٥٥).

(٢) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٠٣).

ومعها أحد محارمها.

۞ أن يصافح الرجل المرأة الأجنبية زعمًا منه أنه استحيا منها لأنها مدَّت يدها لتصافحه!!!

قال ﷺ: **«لأن يُطعن فى رأس أحدكم بمخيطٍ من حديدٍ خيرٌ له من أن يمسَّ امرأة لا تحل له»**[1].

۞ أن يشهد الرجل شهادة زور زعمًا منه أنه فعل ذلك حياءً من أحد أقاربه لأنه طلب منه أن يفعل ذلك.

۞ أن يُقرض رجلٌ رجلاً مالاً وهو لا يثق بأمانته، ويود أن لو أشهد عليه الجن والإنس، ومع ذلك يستحى أن يستكتبه الدَّين أو أن يُشهد عليه،.... أو يمكِّن سفيهًا من ماله استحياءً منه، فيُبدده شذر مذر.

عن أبى موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة يدعون الله عز وجل فلا يُستجاب لهم: رجلٌ كانت تحته امرأة سيئة الخُلق فلم يُطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يُشهد عليه، ورجل آتى سفيهًا ماله»**، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥][2].

۞ أن يترك الإنسان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حياءً من الناس فهذا ليس من الحياء فى شىء بل هذا ضعفٌ وعجزٌ ومهانة.

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تُنكره؟ فإذا لقَّن الله العبد حُجته قال: يا رب رجوتك وفَرِقت من الناس»**[3] - أى: خِفت من الناس-.

---

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٤٥).

(٢) صحيح: رواه الحاكم فى المستدرك، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٧٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨١٨).

۞ فإذا رأينا مسلمًا يفعل منكرًا فلا يجوز أن نتركه يُلقى بنفسه فى النار بحجة أننا نستحيى أن ننكر عليه.

۞ قال رسول الله ﷺ: «**لا يمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحقٍّ إذا علمه، أو شهده، أو سمعه**»[1][2].

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٦٨).

(٢) أخلاق الرسول ﷺ للأطفال/ للشيخ محمود المصري (ص ٣٠٤-٣٠٨).

(٨٥) باب حفظ السر

۞ ما أجمل أن يكون المسلم أمينًا على أسرار الناس من حوله فلا يُفشى لهم سرًّا.. فإن ذلك من أعظم أسباب المحبة بين المسلمين.

و لا شك أننا نعيش زمانًا لا نكاد نرى فيه رجلاً أمينًا يحفظ أسرار الناس من حوله.

فأكثر الناس - إلا مَن رحم الله - لا يحفظون سرًّا بل يُذيعوه وينشروه مع أنهم يعلمون أن إفشاء الأسرار خيانة.

وكم من رجلٍ أذاع سر صاحبه فكان سببًا فى تحطيم حياته.

وكم من رجلٍ أذاع سر صاحبه فكان سببًا فى خراب بيته.

۞ ومن أجلِ ذلك كان لا بد أن نتربى على حفظ أسرار الناس من حولنا حتى تشيع روح المحبة بيننا وبين مَن حولنا...

وحتى نحافظ على حياة إخواننا فلا نُعرضهم للمخاطر والمصائب بسبب نشر أسرارهم(١).

۞ والسر: هو ما يقع خُفية بينك وبين صاحبك،... ولا يحل لك أن تُفشى هذا السر أو أن تُبينه لأحدٍ، سواء قال لك: لا تُبينه لأحدٍ، أو عُلم بالقرينة الفعلية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد، أو عُلم بالقرينة الحالية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد.

مثال الأول: اللفظ... أن يُحدثك بحديثٍ ثم يقول: لا تخبر أحدًا، هو معك أمانة.

ومثال الثانى: القرينة الفعلية؛ أن يحدثك وهو فى حال تحديثه إياك يلتفت؛ يخشى أن يكون أحد يسمع... لأن معنى التفاته أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد.

---

(١) أخلاق الرسول ﷺ للأطفال/ للشيخ محمود المصرى (ص ٤٧٣).

ومثال الثالث: القرينة الحالية؛ أن يكون هذا الذى حدثك به أو أخبرك به من الأمور التى يستحى من ذكرها أو يخشى من ذكرها أو ما أشبه ذلك، فلا يحل لك أن تبيّن وتفشى هذا السر.

ثم استدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ يعنى إذا عاهدتم على شىء بلسان الحال أو بلسان المقال، فإنه يجب عليكم أن توفوا بالعهد... ومن العهود: الشروط التى تقع بين الناس فى الشراء والإجارة والاستئجار والرهن وغير ذلك، فإن هذه الشروط من العهد.

وكذلك ما يجرى بين المسلمين والكفار من العهد، فإنه يجب على المسلمين أن يوفوا به... والمعاهدون من الكفار بيَّن الله فى سورة التوبة أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم: لا يزالون يوفون بالعهد، فهؤلاء يجب أن نُوفى بعهدهم.

وقسم ثانٍ: نقضوا العهد، فهؤلاء لا عهد بيننا وبينهم لأنهم نقضوا العهد... قال الله تعالى: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣].

وقسم ثالث: لم ينقضوا العهد ولم يتبين لنا أنهم سيستمرون فى الوفاء به، بل نخاف منهم أن يخونوا وينقضوا العهد، فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]. يعنى قل لهم: لا عهد بيننا وبينكم حتى يكون الأمر صريحًا(١).

(٦٩٠)وعَنْ أبى سعيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنزِلَةً يَوْم الْقِيامَةِ الرَّجُل يُفضِى إلى المَرْأَةِ وَتُفضِى إلَيهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٧٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٣٧) كتاب النكاح.

۞ فنحن نعلم أن الزوجة سر زوجها.. وأن الزوج سر امرأته.. والواجب على كل واحدٍ منهما أن يحفظ أسرار الآخر ولا يُفشيها.. وذلك لأن البيوت أسرار ولا يجوز لأحدٍ أن ينتهك حُرمة ذلك البيت.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تَحْرِيمُ إِفْشَاءِ الرَّجُلِ مَا يَجْرِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ مِنْ أُمُورِ الِاسْتِمْتَاعِ وَوَصْفِ تَفَاصِيلِ ذَلِكَ وَمَا يَجْرِي مِنَ الْمَرْأَةِ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَنَحْوِهِ... فَأَمَّا مُجَرَّدُ ذِكْرِ الْجِمَاعِ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ فَائِدَةٌ وَلَا إِلَيْهِ حَاجَةٌ فَمَكْرُوهٌ لِأَنَّهُ خِلَافُ الْمُرُوءَةِ.. وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**» وَإِنْ كَانَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ أَوْ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ فَائِدَةٌ بِأَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِ إِعْرَاضُهُ عَنْهَا أَوْ تَدَّعِيَ عَلَيْهِ الْعَجْزَ عَنِ الْجِمَاعِ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فَلَا كَرَاهَةَ فِي ذِكْرِهِ[(١)].

(٦٩١) وعَنْ عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **حين تَأَيَّمتْ بِنْتُهُ حفْصةُ قال:** لقيتُ عُثْمانَ بْنَ عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعَرَضْتُ علَيْهِ حفصةَ فقلتُ: إنْ شِئتَ أنكحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمرَ؟ قال: سَأَنْظُرُ في أمري فَلَبثْتُ ليَالِيَ، ثُمَّ لَقِيني، فقال: قد بدا لي أنْ لا أتَزَوَّجَ يوْمي هذا، فَلَقِيتُ أبا بَكْر الصِّديقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقلتُ: إن شْئِتَ أَنكَحْتُكَ حَفْصةَ بْنَتَ عُمَر، فصمتَ أبو بكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمْ يرْجعْ إلىَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أوجَد مِنِّي على عُثْمانَ، فَلَبْثْتُ ليالي، ثُمَّ خطبَها النبي ﷺ، فَأَنْكَحْتُها إيَّاهُ، فَلقِينَى أَبُو بكرٍ فقال: لَعَلَّكَ وجَدْتَ علَيَّ حِينَ عَرضْتَ علَيَّ حفْصة فَلَمْ أَرْجعْ إلَيْكَ شَيْئًا؟ فقلت: نَعمْ. قال: فإنهْ لَم يَمْنعْني أنْ أرْجعَ إلَيْكَ فيما عرضْتَ علىَّ إلاَّ أنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكرها، فَلَمْ أَكُنْ لأُفْشِي سِرَّ رسول الله ﷺ، ولوْ تركَهَا النَّبِيُّ ﷺ لقَبِلْتُها[(٢)].

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٠/ ١٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٠٠٥) كتاب المغازي.

«تأَيَّمتْ» أيْ: صَارَتْ بِلاَ زَوْجٍ، وَكَانَ زَوْجُهَا تُوُفِّيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - «وَجدتَ»: غَضِبْتَ.

۞ فالسيدة حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت متزوجة من رجلٍ اسمه خُنيس بن حُذافة وكان خُنيس قد أسلم قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم وكان إسلامه على يدى أبى بكر الصديق رضي الله عنه .

واشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب ﷺ فأشار النبى ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة... فكان خُنيس ممن هاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة فلما رأى أن الإيذاء والتعذيب يزداد يومًا بعد يوم أخذ زوجه حفصة وهاجرا إلى يثرب (المدينة المنورة) بعدما أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة... وهناك عاش الزوجان فى رحاب الأنصار وازدادت سعادتهما بهجرة النبى ﷺ إلى المدينة- الذى لما دخل المدينة أضاء منها كل شىء- وما أجملها والله من حياة مع الحبيب ﷺ.

ولما كانت غزوة بدر التى كتب الله فيها النصر والعزة للمسلمين... كان خُنيس رضي الله عنه من أبطال تلك الغزوة فقد كان يشتهى ويتمنى الشهادة من أعماق قلبه فلما شارك فى تلك الغزوة أُصيب بجراحاتٍ كثيرة فى جسده ومع ذلك ظل يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السُّفلى. ولما انتهت غزوة بدر عاد خُنيس إلى المدينة متأثرًا بجراحه.

ومات هذا الصحابى الجليل الذى بذل نفسه لله (جل وعلا) وفاز بأعظم منقبة... فقد صلَّى عليه الحبيب ﷺ ودفنه بالبقيع إلى جانب قبر الصحابى الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه .

وهكذا كان الفراق المؤلم... وهكذا ترمَّلت حفصة رضي الله عنها وهى فى سِنٍّ مُبكرة وحزنت لموته حزنًا كاد أن يمزق قلبها، ولكنها كانت فى قمة سعادتها لأنه مات ميتة كريمة وسوف تشهد له جراحه التى كانت كلها فى سبيل الله (جل وعلا).



وتألم عمر لابنته الشابة التى ترملت فى الثامنة عشرة من عمرها.

وأوجعه أن يلمح الترمُّل يغتال شبابها، ويمتص حيويتها، ويخنق صباها، وبدأ يشعر بانقباضٍ أليم كلما دخل بيته، ورأى ابنته فى حزنها.

فبدا له- بعد تفكير طويل- أن يختار لها زوجًا، قد تأنس إلى صحبته[1].

فأتى عثمان وأخبره أن حفصة تأيمت وقال له: إن شئت أنكحتك حفصة.

فهو لم يقل له: تعالَ تزوج حفصة، ولكن قال: إن شئت، يعنى: يخيره، وكأنه يقول: الأمر إليك أنت، وابنتى موجودة ولن أجد أفضل منك.

فقال له: سأنظر فى أمرى، فكأنه أراد أن يستشير ثم يرد عليه.

قال عمر: فلبثت ليالى ثم لقينى فقال: قد بدا لى ألا أتزوج يومى هذا، فعثمان لم يكن راغبًا فى الزواج ذلك الوقت.. فلم يجد عمر فى نفسه شىء على عثمان لهذا الأمر.

قال: فلقيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: فصمت أبو بكر رضي الله عنه فلم يرجع إلىَّ شيئًا.

فعثمان رضي الله عنه لما عرض عليه هذا الشىء أخبره أنه سيرد عليه وردَّ عليه بعد ذلك بأنه غير راغب فى الزواج، لكن أبا بكر رضي الله عنه لم يرد عليه لا الآن ولا بعد ذلك.

قال عمر: فكنت عليه أوجد منى على عثمان... يعنى: إن كنت وجدت فى نفسى شيئًا على عثمان فما وجدته على أبى بكر الصديق رضي الله عنه أكثر منه.

قال: فلبثت ليالى ثم خطبها النبى صلى الله عليه وسلم فأنكحتها إياه... وعمر لم يعرضها على النبى صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يكن يطمع أن تتزوج ابنته من النبى صلى الله عليه وسلم، فعرضها على عثمان، ثم عرضها على أبى بكر، فلما خطبها النبى صلى الله عليه وسلم خطبها من عمر رضي الله عنه .

---

(١) «صور من سير الصحابيات» (ص:١١٣).

ثم لقيه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ذلك وقال له: لَعَلَّكَ وجَدتَ علَىَّ حِينَ عَرضْتَ علَىَّ حفْصة فَلَمْ أَرجع إِلَيْكَ شَيْئًا؟ فقلت: نَعمْ. قال: فإنه لَم يَمْنعْنى أنْ أرْجعَ إِلَيْكَ فيما عرضْتَ علىَّ إلاَّ أَنِّى كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ ذكَرها ، فَلَمْ أَكُنْ لأُفْشِى سِرَّ رسول الله ﷺ، ولو تَركَها النَّبىُّ ﷺ لقَبِلْتُهَا.

فهذا سِرٌّ من النبى ﷺ حيث تكلم أنه يريد أن يتزوج حفصة.

والنبى ﷺ كان متزوجًا بعائشة بنت أبى بكر الصديق، ولم يغضب أبو بكر الصديق لذلك، ولكنه سكت؛ لأنه لا يستطيع أن يذكر أن النبى ﷺ يريدها؛ لأنه يمكن أن يرجع فى كلامه ولا يتزوجها.

وهذا فيه تأديب للمسلمين وتوجيه ليتخلقوا بهذا الخُلق الفاضل.

فإذا سمعت إنسانًا يتكلم عن فلانة وأنه يريد أن يخطبها، فلا تذهب لصاحب الشأن وتقول: أنا سمعت فلانًا يتكلم أنه يريد أن يخطب من عندك فجئت أُبشرك... لأنه يمكن أن يرجع فى كلامه فتكون كاذبًا أمام هؤلاء الناس، ويمكن أن ذاك الرجل غير جاد فى كلامه وبسبب كلامك يضطر ويذهب ليخطبها.

فعلى ذلك إذا سمعت سرًّا من إنسان فلا تُفشِ هذا السر.

وقول أبى بكر الصديق لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لعلك وجدت علىَّ، يدل على أنه أحسَّ أن عمر من حقه أن يجد فى نفسه من هذا الشىء... وأبو بكر يعلم أن هذا أهون من أن يُفشى سر النبى ﷺ ... بخلاف حال بعض الناس الذى يتساهل فى أن يفشى سرًّا من الأسرار حتى لا يُغضب فلانًا من الناس!... إن السر أمانة والله عَزَّ وَجَلَّ سيحاسبك على هذه الأمانة ويسألك: لِمَ فرطت فيها؟ ثم إن أبا بكر قال لعمر: ولو تركها لتزوجتها، يعنى: لو أن النبى ﷺ ترك ابنتك ولم يتزوجها لكنت أنا تزوجتها؛ لأن ابنتك ليست المرأة التى يُفرَّط فى مثلها.

(٦٩٢) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كُنَّ أَزْواج النَّبِيِّ ﷺ عِنْدهُ، فَأَقْبلتْ فَاطِمةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَمْشِي مَا تُخْطِئُ مِشْيتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رسول الله ﷺ شَيْئًا، فَلَمَّا رآها رَحَّبَ بها وقال: «مرْحبًا بابنَتى» ثُمَّ أَجْلَسهَا عنْ يمِينهِ أَوْ عنْ شِمالِهِ. ثُمَّ سارَّها فَبكتْ بُكَاءً شديدًا، فلَمَّا رَأى جَزَعها سَارَّها الثَّانيةَ فَضَحِكَت، فقلت لهَا: خصَّك رسول الله ﷺ مِن بيْنِ نِسائِهِ بالسِّرارِ، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِين؟

فَلَمّا قَام رسولُ الله ﷺ سأَلْتُهَا: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كُنْتُ لأُفْشِي عَلى رسول الله ﷺ سرَّهُ. فَلَمَّا تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ قلتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكِ بِمَا لى عَلَيْكِ مِنَ الحَقّ، لَمَا حدَّثْتنِي ما قال لك رسولُ الله ﷺ؟ فقالتْ: أَمَّا الآنَ فَنعم، أَما حين سَارَّنى فى المَرَّة الأولى فَأخبرنى أَنَّ جبْريل كَان يُعارِضُهُ القُرْآن فى كُلِّ سَنَة مرَّة أَوْ مَرَّتين، وأَنَّهُ عَارَضهُ الآنَ مَرَّتينِ، «وإنى لا أُرَى الأجَل إلاَّ قد اقْترَب، فاتَّقِى الله واصبِرِى، فإنَّهُ نِعم السَّلَف أَنَا لك» فَبكَيْتُ بُكَائىَ الذى رأيْتِ، فَلَمَّا رَأى جَزَعِى سَارَّنى الثَّانيةَ، فقال: «يَا فَاطمةُ أَما تَرْضينَ أَنْ تَكُونى سيِّدَةَ نساء المُؤمنينَ، أوْ سَيِّدةَ نِساءِ هذهِ الأُمَّة» فَضَحكتُ ضَحِكى الذى رأَيْتِ[1].

۞ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كن أزواج النبى ﷺ عنده فأقبلت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تمشى ما تُخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئًا، فلما رآها رحَّب بها وقال: مرحبًا بابنتى) يعنى: كانت شديدة الشبه بالنبى ﷺ حتى فى مشيتها.

فالسيدة عائشة وصفتها بأنها ما تخطئ مشيتها من مشية النبى ﷺ.

قالت: (فلما رآها رحَّب بها) فيه وصف حال النبى ﷺ فى بيته مع ابنته وكيف قابلها حين جاءت تزوره ﷺ.

قالت: (ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله)، كان النبى ﷺ من عادته إذا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٨٥، ٦٢٨٦) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢٤٥٠) كتاب فضائل الصحابة.

جاءت ابنته أنه يقوم لها ويُقبلها ﷺ ويُجلسها بجواره، وإذا ذهب هو إليها قامت إليه وقبَّلته وأجلسته صلوات الله وسلامه عليه.

قالت: (ثم سارَّها فبكت بُكاءً شديدًا) يعني: بعد أن قال لها السر بكت بُكاءً شديدًا، قالت: (فلما رأى جزعها سارَّها الثانية فضحكت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فقلت لها: خَصَّك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسِّرار ثم أنتِ تبكين؟!).

يعني: النبي ﷺ فضَّلك علينا كلنا وقال لك السر ثم أنت تبكين! وتعجبت من أنها ما رأت ضحكًا أسرع لبكاءٍ من هذا اليوم، فلما قام رسول الله وسألتها عائشة عما قاله لها رسول الله ﷺ قالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (ما كنت لأُفشي على رسول الله ﷺ سرًّا) يعني: كون النبي ﷺ يحدثني بيني وبينه فمعناه أنه لا يريد أن تسمعوا، ولو كان يريد أن تسمعوا لكان حدثني بصوتٍ مرتفع، ولما كان سرًّا.

قالت عائشة: (فلما توفي رسول الله ﷺ قلت لفاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ؟ فقالت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أما الآن فنعم) يعني: الآن وبعد أن مات النبي ﷺ فيمكن أن أخبرك بهذا السر، أما في حياته فلا... قالت: (أما حين سارَّني في المرة الأولى فأخبرني أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يُعارضه القرآن في كل سنة مرة وأنه عارضه الآن مرتين، «**وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري**» يعني: اعتاد النبي ﷺ أن جبريل يُعارضه القرآن كل سنة مرة... ومعنى المعارضة: أن يقرأ النبي ﷺ ويسمع جبريل، أو يقرأ جبريل ويسمع النبي ﷺ، فكل سنة كان يختم معه ختمة، أما هذه السنة فإنه ختم مرتين مع النبي ﷺ، فلذلك استشعر النبي ﷺ أنه قد دنى أجله، فقال لفاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك**»، قالت: فبكيت بكائي الذي رأيتِ)، ففي المرة الأولى أخبرها بأن الأجل قد اقترب منه ﷺ، قالت: (فبكيت بكائي الذي رأيت)، ثم

قالت فاطمة: (فلما رأى جزعى - صلوات الله وسلامه عليه - قال: **«يا فاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة»**، فضحكت ضحكى الذى رأيت).

إذًا: السر الأول: أنه ﷺ سيموت، أما السر الثانى فهو: أن السيدة فاطمة ستكون سيدة نساء العالمين... وأيضًا أخبرها أنها تلحق به ﷺ ولن تعيش بعده كثيرًا، ففرحت بأنها تدرك النبى ﷺ، وأن منزلتها فى الجنة أنها ستكون سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وفى هذا الحديث دلالة على أن الإنسان إذا استودعه إنسان سرًّا فلا يجوز له أن يفشيه[١].

❀❀❀

(٦٩٣) وعَنْ ثابت عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أَتى علىَّ رسول الله ﷺ وأَنا أَلْعبُ مع الْغِلْمانِ، فسلَّمَ عَلَيْنَا، فبَعَثنى فى حاجة، فَأبْطأْتُ على أُمِّى، فَلَمَّا جِئتُ قالت: ما حَبَسَكَ؟ فقلتُ: بَعَثَنى رسولُ الله ﷺ لحاجةٍ، قالت: ما حاجته؟ قلتُ: إنَّها سِرٌّ. قالت: لا تُخبِرَنَّ بِسِرِّ رسول الله ﷺ أحدًا. قال أَنَسٌ: والله لوْ حدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لحدَّثْتُكَ بِهِ يَا ثابِت[٢].

۞ ففى هذا الحديث يحكى أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذى كان قد شرَّفه الله عَزَّ وَجَلَّ بأن يكون خادمًا لرسول الله ﷺ لمدة عشر سنين.. يحكى أن النبى ﷺ كان يبحث عنه ليرسله لقضاء حاجة له فوجده وهو يلعب مع الغلمان.. فسلم عليهم.. أى: على الغلمان... وهنا نرى تواضع رسول الله ﷺ عندما يُسلِّم على

---

(١) شرح رياض الصالحين/ الشيخ أحمد حطيبة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٨٢) كتاب فضائل الصحابة - وأيضًا روى البخارى بعضه مختصرًا (٦٢٨٩) كتاب الاستئذان.

الصبيان وهم يلعبون في السوق... وهذا من السُّنة أن تُسلِّم على كل مَن مَرَّ بك حتى ولو كان صبيًّا صغيرًا.

۞ المهم أن النبي ﷺ أرسل أنس في حاجته فتأخر أنس بسبب ذلك على أمه ... فمن الواضح أن النبي ﷺ قد أرسله إلى مكانٍ بعيدٍ بعض الشيء..

فلما عاد أنس إلى أمه أم سُليم رضي الله عنها قالت له: ما حبسك؟ أي: ما الذي جعلك تتأخر عليَّ هكذا؟

فأخبرها أنس أن النبي ﷺ كان قد بعثه في حاجة له فقالت له: وما حاجته؟ .. تريد أن تعرف هل يستحق ذلك المشوار كل هذا التأخير؟ .. فماذا كان جواب الغلام الصغير أنس رضي الله عنه؟

قال لها: إنها سِرٌّ.

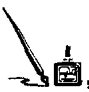
يعني: لن أكشف سِرَّ رسول الله ﷺ .. مع أن النبي ﷺ لا يفعل شيئًا يخجل الإنسان أن يذكره.. ولم يطلع أنس على أي شيءٍ من الرسول ﷺ يخجل أن يتحدث به –حاشا لله– لكنه تربَّى بين يدي النبي ﷺ وتعلَّم منه حُرمة إفشاء الأسرار.

فقالت له أمه: لا تُخبرنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحدًا.

۞ وانظر إلى هذه الأم التي تخشى الله عز وجل .. لم تُجبر ابنها لكي يخبرها بسرِّ رسول الله ﷺ ... بل شجعته على ذلك من أجل أن يحفظ أسرار النبي ﷺ .

فكل أم يلزمها أن تُعلم ابنها كيف يحافظ على السر... فإذا جاء الأب وقال للإبن: خُذ هذا المبلغ واذهب به إلى فلان ولا تَقُل لأحدٍ... فلا يرجع ويقول لأمه: أبي بعثني لأفعل كذا وكذا، وإذا فعل فالواجب على الأم أن تقول له: لا يجوز لك ذلك، فهذا سر من الأسرار فلا تُفشِ سرَّ أبيك.

وعلى الأم أن تُعلم الابن ألا يكون كثير الكلام، وألا يفشي أسرار البيت،



فإذا تربى الطفل على ذلك كانت هذه عادته عند الكبر، ويستحيل أن يستفيد منه الأعداء أو يحصلوا منه على أسرار بلده.

فأنس هنا لما قال لأمه ذلك قالت أمه رضي الله عنها: (لا تُخبرنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحدًا، قال أنس - رضي الله عنه -: والله لو حدثت به أحدًا لحدثتك به يا ثابت).

وثابت هذا هو تلميذ أنس، وهو من التابعين وليس صحابيًّا.. فهو جاء بعد النبى ﷺ بزمان، ومع ذلك يقول أنس: إن سر النبى ﷺ هذا ما أخبرت به أحدًا إلى الآن، ولو كنت أُحدث به أحدًا لكنت حدثتك أنت.

ومعنى هذا: أنه كتم السر حتى بعد وفاة النبى ﷺ مع أنه لا يلزمه ذلك، وهذا ظاهر فى حديث السيدة فاطمة رضي الله عنها، ولكن مع ذلك حافظ على سر النبى ﷺ.

(٨٦) باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد

۞ ما أجمل أن يكون المسلم وفيًّا بالعهد مع كل الناس من حوله ... لأن هذا الوفاء بالعهد هو فى حقيقته دعوة إلى هذا الدين العظيم.

العهد: ما يعاهد الإنسان به غيره وهو نوعان: عهد مع الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فقد أخذ الله العهد على عباده جميعًا أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا لأنه ربهم وخالقهم.... والنوع الثاني: عهدٌ مع عباد الله ومنه العهود التى تقع بين الناس ... بين الإنسان وبين أخيه المسلم .. بين المسلمين وبين الكفار وغير ذلك من العهود المعروفة فقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعهد فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].... يعنى أن الوفاء بالعهد مسئولٌ عنه الإنسان يوم القيامة ... يُسأل عن عهده هل وفَّى به أم لا؟

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] يعنى ولا تخلفوا العهد.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣] والإنسان إذا عاهد ولم يفِ فقد قال ما لا يفعل ... فمثلًا لو قلت لشخص عاهدتك ألا أخبر بالسر الذى بينى وبينك أو عاهدتك ألا أخبر بما صنعت فى كذا وكذا ثم نقضت وأخبرت فهذا من القول بما لا يفعل: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعنى: كَبُر بُغضًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون فإن الله يبغض هذا الشيء ويحب الموفين بالعهد إذا عاهدوا(١).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٧٥) بتصرف.



۞ لقد كان النبى ﷺ سيد الأوفياء وكانَ يحُض الأمة على الوفاء فى كل شىء.

- وكان يرتقى بأرواح المؤمنين إلى جنة رب العالمين (جل وعلا).

فها هو ﷺ يقول: «**اضمنوا لى ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة** - وكان من بينها - **وأوفوا إذا وعدتم**»[١].

(٦٩٤) **عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّث كَذب، وإذا وَعدَ أخْلف، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ»**[٢].

زاد فى روايةٍ لمسلم: «وإنْ صَامَ وصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٠٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٦٩٥) **وعَنْ عبدِ الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أرْبعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خالِصًا. وَمَنْ كَانتْ فيه خَصلَةٌ مِنْهُنَّ كانَتْ فِيهِ خَصلَة مِن النِّفاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إذا اؤْتُمِنَ خَان، وإذَا حدَّثَ كذَبَ، وَإذا عَاهَدَ غَدَر، وَإذا خَاصَم فَجَرَ»**[٣].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن تلك الخصال الأربع لا تجتمع إلا فى المنافق الخالص الذى ليس فيه خير... وأن المؤمن قد يكون فيه خصلة من تلك الخصال لكنه لا يكون منافقًا خالصًا بل يكون فيه خصلة من النفاق حتى يدعها.

---

(١) حسن: رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠١٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٨) كتاب الإيمان.

۞ والمنافق هو الذى يُظهر الخير ويُسرُّ الشرَّ.. يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر.. هذا إذا كان منافقًا نفاقًا اعتقاديًّا..

۞ وقد ظهر النفاق أول ما ظهر فى المدينة المنورة حين قويت شوكة الإسلام فأظهر بعض المنافقين الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم .. أما فى مكة فلم يكن فيها نفاق وإنما كان فيها إسلامٌ وكفرٌ.. وذلك لأن شوكة الإسلام فى مكة كانت ضعيفة.. فلم يكن هناك أحدٌ يحتاج أن يُظهر الإيمان خوفًا من المسلمين لأنهم كانوا ضعفاء فى مكة قبل الهجرة.

۞ وفى هذا الحديث يبين المصطفى ﷺ صفات المنافقين، مُحذرًا منها، ومن الاتصاف بها... فقد أخبر النبى ﷺ أن للنفاق خصالًا، قد تجتمع بالرجل، وقد يكون فيه بعضها دون البعض الآخر، فمن كان فيه خصلة منها، ففيه خصلة من النفاق بمقدارها... فيكون فيه خصلة من النفاق، وخصلة من الإيمان، أو خصال منه... فيكون الإنسان منافقًا خالصًا، أو مؤمنًا خالصًا، أو فيه نفاق وإيمان، وهو لما غلب فيهما.

واعلم أن النفاق على قسمين: اعتقادى، وعملى، والمراد بالعملى: هو ما ورد فى هذا الحديث، وأما الاعتقادى: فهو النفاق الأكبر، الذى يُظهر صاحبه الإسلام، ويُبطن الكفر... وهذا النوع مُخرج من الدين بالكلية، وصاحبه فى الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

[النساء: ١٤٥-١٤٦]

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن أربع صفات للنفاق العملى وهى:

۞ أولًا: إذا اؤتمن خان.

عَدَّ الإمام الذهبى الخيانة من الكبائر وقال: الخيانة قبيحة فى كل شىءٍ..

وبعضها شرٌّ من بعض.. وليس مَن خانك فى فلسٍ كمن خانك فى أهلك ومالك وارتكب العظائم[(١)].

فالخيانة تكون فى الأموال.. بأن يأخذ الإنسان مالك على سبيل القرض ولا يرده إليك.. أو يأخذ مالك ليُشغله لك ثم يخونك ولا يرده إليك..

وتكون أيضًا فى الأعراض.. بأن يخون أخاه فى أهله.

وتكون أيضًا فى الأسرار.. بأن يُفشى أسرار أخيه.

وتكون فى أشياء كثيرة...

۞ ثانيًا: إذا حدَّث كذب.

فالكذب عملٌ مرذول وصفة ذميمة.. فالكذب من أسباب ردِّ القول ونزع الثقة من الكاذب والنظر إليه بعين الخيانة.

والكذاب يقلب الحقائق؛ فيُدنى البعيد، ويُبعد القريب، ويُقبِّح الحسن، ويُحَسِّن القبيح.

قال النبى ﷺ مُحذرًا من الكذب: **«وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِب حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»**[(٢)].

قال الماوردى رَحِمَهُ اللهُ: وَالْكَذِبُ جِمَاعُ كُلِّ شَرٍّ، وَأَصلُ كُلِّ ذَمٍّ لِسُوءِ عَوَاقِبِهِ، وَخُبْثِ نَتَائِجِهِ؛ لِأَنَّهُ يُنْتِجُ النَّمِيمَةَ، وَالنَّمِيمَةُ تُنْتِجُ الْبَغْضَاءَ، وَالْبَغْضَاءُ تؤول إِلَى الْعَدَاوَةِ، وَلَيْسَ مَعَ الْعَدَاوَةِ أَمْنٌ وَلَا رَاحَةٌ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: مَنْ قَلَّ صِدقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ[(٣)].

(١) الكبائر (ص ١٥٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٩٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

(٣) أدب الدنيا والدين (ص٢٦٢).

۞ «**إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب**» وسبق الكلام على هاتين الجملتين.

۞ والثالثة: قال: «**وإذا عاهد غدر**» وهو قريب من قوله فيما سبق: «**إذا وعد أخلف**» أي إذا عاهد أحدًا غدر به، ولم يَفِ بالعهد الذى عاهده عليه.

۞ والرابعة: «**إذا خاصم فَجَر**» والخصومة: هى المخاصمة عند القاضى ونحوه، فإذا خاصم فجر. والفجور فى الخصومة على نوعين:

أحدهما: أن يدَّعى ما ليس له.. كأن يدعى أنه أقرضك مالًا وهو كذاب.

والثانى: أن ينكر ما يجب عليه.. كأن ينكر المال الذى لك عنده.

وهناك صورة أخرى للفجور فى الخصومة وذلك بأن ينسى هذا الإنسان كل ما كان بينكما من المحبة والمودة إذا تخاصم معك.. فيذهب ويُشهِّر بك بين الناس بالكذب ويخوض فى عِرضك ولا يردعه وازعٌ دينىٌّ أبدًا.. ويوقع بينك وبين الناس ويقول فيك ما ليس فيك.. ويخبر الناس بما لم تَقُله.. ويحاول أن يتسبب فى إيذائك بأى صورة.. بل ويُفشى أسرارك ويفعل بك ما لم يفعله مَن هو على غير ملتك.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. فهذه هى صفات المنافقين.

وهذه الخصال الأربع إذا اجتمعت فى المرء كان منافقًا خالصًا، لأنه استوفى خصال النفاق والعياذ بالله، وإذا كان فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها.

وفى هذا الحديث: دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال نفاق لقوله: «**كان فيه خصلة من النفاق**»، هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ أن الإنسان يكون فيه خصلة نفاق، وخصلة إيمان، وخصلة فسوق، وخصلة عدالة، وخصلة عداوة، وخصلة ولاية.

(٦٩٦) وعَنْ جابرٍ رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «لو قد جاءَ مالُ الْبحرَيْن أعطَيْتُكَ هكَذا وهكذا وَهكَذا» فَلَمْ يَجِئْ مالُ الْبحرَيْنِ حَتَّى قُبِضَ النبيُّ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ مَالُ الْبَحرَيْن أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَنادى: مَنْ كَانَ لَهُ عنْدَ رسول الله ﷺ عِدَةٌ أوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتنا. فَأَتيتُهُ وقُلْتُ لَهُ: إنَّ النبي ﷺ قال لي كَذَا وكَذَا، فَحثَى لي حَثْيَةً، فَعدَدتُها، فَإذا هِي خَمْسُمِائَةٍ، فقال لي: خُذْ مثْلَيْهَا[1].

۞ ففي هذا الحديث يحكي جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له: «لو قد جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا» مال البحرين يعني مال الإحساء وما جاورها... كُلها تُسمَّى البحرين في ذلك العهد.

يقول: «**لو قد جاء لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا**» يقول بيديه عليه الصلاة والسلام، وهذا وعد من رسول الله ﷺ لجابر بن عبدالله أن يعطيه من مال البحرين هكذا وهكذا وهكذا.

فلما تُوفي الرسول (عليه الصلاة والسلام) قبل أن يأتي مال البحرين وكان الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه بإجماع الصحابة؛ بايعوه كلهم على أنه هو الخليفة، بعد رسول الله ﷺ.

فجاء مال البحرين في خلافة أبي بكر، فقال رضي الله عنه: «مَن كان له عند رسول الله ﷺ عِدَة أو دَين» عِدَة: يعني وعد.. أو دَين: يعني على الرسول (عليه الصلاة والسلام)... لأنه ربما يكون الرسول اشترى من أحدٍ شيئًا فلزمه دَينٌ، أو وَعَد أحدًا شيئًا... وفعلًا توفي الرسول (عليه الصلاة والسلام) ودرعه مرهونة عند رجل يهودي في المدينة بثلاثين صاعًا من شعير اشتراها لأهله (عليه الصلاة والسلام)... فهو ﷺ ليس عنده مال ولم يُبعث جابيًا للمال ولا يُبقي عنده المال إلا بمقدار ما يفرقه على المسلمين.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٩٦) كتاب الحوالات، ومسلم (٢٣١٤) كتاب الفضائل.

المهم أن أبا بكر نادى: من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا... فجاء جابر رضي الله عنه إلى أبى بكر وقال: إن النبى ﷺ قال: «**لو قد جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا**» فقال: خُذ فأخذ بيديه فعدَّها فإذا هى خمسمائة، فقال: خُذ مثليها... لأن الرسول قال: «**هكذا وهكذا وهكذا**» ثلاث مرات، فأعطاه أبو بكر رضي الله عنه العِدَة التى وعده إياها رسول الله ﷺ[(1)].

۞ أرأيت كيف كان كرم النبى ﷺ على كل مَن حوله حتى أنه لم يترك شيئًا لأزواجه من بعده ﷺ.. حتى السبع دراهم التى كانت فى بيته عند موته ﷺ كان يقول لعائشة رضي الله عنها تصدقى بها يا عائشة.. كيف ألقى ربى عز وجل وفى بيتى سبعة دراهم... وقد أخبر النبى ﷺ أن الأنبياء لا يورثون شيئًا من متاع الدنيا الزائل وإنما يورثون العلم والتقوى «**نَحنُ مَعَاشِرَ الأَنبِيَاءِ لا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ**».

ولا عجب فى ذلك فهو القائل ﷺ: «**لَوْ كَانَ عِنْدِى مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا لَسَرَّنِى أَنْ لا يَمُرَّ عَلَىَّ ثَلاثٌ وَعِنْدِى مِنْهُ شَىْءٌ إِلَّا شَىْءٌ أَرصُدُهُ لِدَيْنٍ**»[(2)].

۞ وفى المقابل انظر إلى حرص أبى بكر رضي الله عنه على أن يَفِى بوعد النبى ﷺ لجابر ولغيره.. وعلى أن يَسُدَّ دَين النبى ﷺ بعد موته إن كان عليه دَينٌ .. ولذا كان أول سؤال يسأله عندما جاء هذا المال: « مَنْ كَانَ لَهُ عنْدَ رسول الله ﷺ عِدَةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتنا».. ولا عجب فى ذلك فقد كان من أحب الناس إلى قلب النبى ﷺ .. وكان أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٧٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٨٩) كتاب الاستقراض، ومسلم (٩٩١) كتاب الزكاة.

(٨٧) باب الأمر بالمحافظة على ما اعتاده من الخير

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾[النحل:٩٢]

«والأنْكاثُ»: جَمْعُ نِكْثٍ، وهُوَ الْغزلُ المَنْقُوضُ.

وقال تعالى:﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

۞ فالمسلم ينبغي عليه أن يحرص على المداومة على العمل الصالح.. لأنه كما يقولون: مَن ذاق عرف.. ومَن عرف اغترف.

فثمرات المداومة على العمل الصالح كثيرة.. ومنها:

أولاً: نَيل محبة الله التى هى غاية كل مؤمن يريد حب الله.

وذلك كما فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى: «**لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبه**». يستمر ويداوم حتى يحبه الله..والنتيجة «**فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يُبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله الذى يمشى بها، ولئن سألنى لأُعطينَّه، ولئن استعاذنى لأُعيذنَّه**»(١)، وفوق هذا ما رواه الشيخان «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل، إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء، إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يُوضع له القَبول فى الأرض**»(٢).

ثانيًا: ترويض النفس على مكابدة الهوى حتى تعتاد الخير، فالنفس من طبعها حب التفلُّت والانطلاق لكنها إذا رُوضت ذلَّت واستجابت

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة.

يقول أحد السلف: عالجت لسانى عشرين سنة قبل أن يستقيم لى.

ثالثًا: الأمن من الحسرة عند العجز، أو المرض، أو الفتنة:

فالمداوم حين يُحال بينه وبين العمل يجرى له ما كان يعمله... يُستشعر هذا مما ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مرض العبد أو سافر كُتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»(١). فلا حسرة ولا ندم.

رابعًا: تربية النفس على أخذ معالى الأمور وعدم الرضا بالدون:

وكما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلَّ**»(٢).

خامسًا: إملال الشيطان وإضعافه وقطع الطريق عليه:

يقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ كما فى الزهد لابن المبارك: «إذا نظر إليك الشيطان فرآك مُداومًا على طاعة الله فبغاك وبغاك فرآك مداومًا مَلَّك ورفضك، وإن كنت مرة هكذا ومرة هكذا تتقدم خطوة وتتأخر خطوتين طمع فيك».

وكان من هدى النبى ﷺ أن عمله ديمة، يعنى يداوم عليه؛ فكان إذا عمل عملًا أثبته ولم يغيره... وذلك لأن الإنسان إذا اعتاد الخير وعمل به ثم تركه، فإن هذا يؤدى إلى الرغبة عن الخير، لأن الرجوع بعد الإقدام شَرٌّ من عدم الإقدام... فلو أنك لم تفعل الخير ابتداءً لكان أهون مما إذا فعلته ثم تركته، وهذا شىءٌ مُشاهَد مُجرَّب.

وذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عدة آيات من القرآن، كلها تدل على أن الإنسان ينبغى أن يحافظ على ما اعتاده من الخير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِي

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٦٤) (٦٤٦٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٧٨٣) كتاب صلاة المسافرين.

نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثٗا ﴾ [النحل: ٩٢]. يعني: لا تكونوا كالمرأة الغازلة التي تغزل الصوف، ثم إذا غزلته وأتقنته نقضته أنكاثًا ومزقته... بل داوموا على ما أنتم عليه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ ﴾ [الحديد: ١٦]. أي: أنهم كانوا يعملون العمل الصالح لكن طال عليهم الأمد فقست قلوبُهم وتركوا العمل فلا تكونوا مثلهم.

فالحاصل أنه ينبغي للمسلم إذا منَّ الله عليه بعمل مما يُتعبد به لله من عبادات خاصة كالصلاة، أو عبادات متعدية للغير كطلب العلم ألا يتقاعس وألا يتأخر، ليستمر على ذلك؛ فإن ذلك من هدى النبي ﷺ[١].

(٦٩٧) وعَنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبْدَ الله، لا تكُنْ مِثل فُلانٍ، كَانَ يقُوم اللَّيْلَ فَترَكَ قيامَ اللَّيْل»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٨٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٥٢) كتاب الجمعة، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(٨٨) باب استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه عند اللقاء

۞ قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(٦٩٨) وعن عدى بن حاتم رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِد فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(١).

(٦٩٩) وعن أَبِى هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النبىَّ ﷺ قَالَ: «وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»(٢).

(٧٠٠) وعن أَبِى ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لى رسول الله ﷺ: «لاَ تَحقِرَنَّ مِنَ الْمَعرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ»(٣).

۞ تستطيع أن تفوز بمحبة الله ومحبة الناس، بلسانك الحلو ... تستطيع أن تظفر بملايين الحسنات، بلسانك الذاكر لله (جلَّ وعلا) ... تستطيع أن تُصلح بين الناس بلسانك وأن تكون أسعد الناس بلسانك .. وأن تكون أنجح داعية بلسانك .. وأن يشتاق الناس جميعًا للقائك ومجالستك بلسانك وكلامك الحلو.

۞ بعض الناس إذا تكلم فإنما ينثر على مُحدثه الورد والياسمين فلا تسمع منه إلا جميل القول وجيد العبارة، وكأنَّما يعدّ كلامه عدًّا فلا تخرج منه كلمة جافية، ولا عبارة نابية.

وانظر إلى سلف هذه الأمة كيف كانوا يختارون ألفاظهم وكيف كانوا ينتقون كلمتهم كما ينتقون أطايب الثمر.

۞ فهذا عمر رضي الله عنه خرج يعسُّ فى المدينة بالليل، فرأى نارًا موقدة فى خِباءٍ،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٢٣) كتاب الأدب، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٨٩) كتاب الجهاد، ومسلم (١٠٠٩) كتاب الزكاة.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة.

فوقف وقال: «يا أهل الضوء» وكَرِه أن يقول: يا أهل النار.

۞ وسُئل العباس: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ فقال: هو أكبر منى، وأنا وُلدتُ قبله![1]

۞ قال الإمام ابن القيم: «وَأَصلُ هَذَا الْبَابِ: قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [الإسراء: ٥٣] فَالشَّيْطَانُ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِذَا كَلَّمَ بَعضُهُمْ بَعضًا بِغَيْرِ الَّتِى هِى أَحسَنُ[2].

۞ وأما البسمة وطلاقة الوجه فينبغى على المسلم أن يَلقَى إخوانه بالبسمة الحانية وطلاقة الوجه لأن هذا من خُلق النبى ﷺ فقد كان النبى ﷺ ... دائم البِشر كثير التبسُّم.. فالبسمة تفتح لك قلوب الناس من حولك.

وحسبُنا أن نعلم أن النبى ﷺ أوصى بها وجعلها من الصدقات التى يُؤجَر عليها المسلم فقال ﷺ: «**تَبسُّمك فى وجه أخيك لك صدقة**»[3].

۞ ولذا فعليك أن تُكثر من التبسم.

فهذا هو هدى نبينا ﷺ ... فعن عبد الله بن الحارث بن جزءٍ رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحدًا أكثر تبسُّمًا من رسول الله ﷺ»[4].

۞ واعلم أن ثمرات التبسُّم لا تقتصر على تكثير الحسنات وتكفير السيئات وكسب قلوب الناس ... بل إنه يبعث على السرور والانشراح ويجعلك تستمتع بمباهج الحياة[5].

۞ وقد ذكر المصنف رحمه الله آياتٍ منها: قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ

(١) الحياة حلوة / للشيخ محمود المصرى (ص ٤٣٨-٤٣٩) بتصرف.

(٢) الطرق الحكمية (ص ٤١).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، والبخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٠٨).

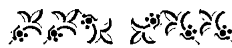
(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى رحمه الله فى مختصر الشمائل (١٩٤).

(٥) الحياة حلوة / للشيخ محمود المصرى (ص ١٦٥).

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ اخفض جناحك: يعنى لِنْ وتواضع للمؤمنين، لأن المؤمن أهلٌ لأن يُتواضع له.

أما الكفار فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. فالذى يُتلقى بالبِشْرِ وطلاقة الوجه هو المؤمن، أما الكافر فإن كان يُرجَى إسلامُه إذا عاملناه بطلاقة الوجه والبِشْرِ، فإننا نعامله بذلك رجاء إسلامه وانتفاعه بهذا اللقاء.

وأما إذا كان هذا التواضع وطلاقة الوجه لا يزيده إلا تعاليًا على المسلم وترفُّعًا عليه، فإنه لا يُقابَل بذلك.



۞ أما الأحاديث التى ذكرها المصنف.. ففى الحديث الأول يوصينا النبى ﷺ أن نقى أنفسنا من النار بأى شىءٍ ولو كان ذلك بأن نتصدق بنصف تمرة.. ماذا يساوى نصف تمرة؟ لا شىء.. لكنه قد يكون سببًا فى نجاتك من النار.. فإن لم تجد شق تمرة.. ومَن هذا الذى لا يمتلك شق تمرة؟ يعنى: إن لم تكن تمتلك من هذه الدنيا أى شىء ولا حتى شق تمرة فتستطيع أن تقى نفسك من النار بكلمة طيبة.. وهذه يمتلكها كل الناس لأنها لا تُكلفك أى شىء... ولذلك أخبر النبى ﷺ فى الحديث الثانى أن «**الكلِمةُ الطَّيِّبَةُ صدَقَةٌ**» وأخبر هنا أنها صدقة حتى لا تزهد فى بذل الكلمة الطيبة لكل مَن حولك.. والكلمة الطيبة قد تكون بإلقاء السلام على الناس أو السؤال على أحوالهم أو الدعاء لهم أو تبشيرهم بما يَسُرهم أو تعليمهم ما ينفعهم أو تذكيرهم بالله عَزَّوَجَلَّ أو غير ذلك من الكلام الطيب.

وحتى لا تتقاعس عن بذل هذا الخير يقول لك الحبيب المصطفى ﷺ: «**لا تحقِرَنَّ مِنَ المعرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخاكَ بِوَجْهٍ طَلِقٍ**».. فقد تكون بسمتك فى وجه أخيك سببًا لتفريج كربه وهمه.. فاحرص على بذل الكلمة الطيبة والبسمة الحانية لكل مَن حولك وستجنى الخير الكثير فى الدنيا والآخرة.

(٨٩) باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمُخاطَب وتكريره ليفهم إذا لم يفهم إلا بذلك

(٧٠١) عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كانَ إذا تَكَلّم بِكلِمَةٍ أعَادها ثَلاثًا حَتَّى تُفْهَم عَنهُ، وإذا أَتَى عَلى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ علَيْهِم ثَلاثًا[١].

(٧٠٢) وعَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان كلامُ رسول الله ﷺ كلامًا فَصلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَن يَسْمَعُهُ[٢].

۞ والمعنى أنه ينبغى للإنسان إذا خاطب الناس أن يتكلم معهم بكلامٍ واضح يسمعوه ويفهموه.. فلا يُسرع فى كلامه لأنه قد يفوتهم بعض ما يقول بل يتكلم كلامًا وسطًا ما بين الإسراع والإبطاء.. وذلك لأن بعض الناس يتكلم بسرعة شديدة فلا يكاد أن يفهم المُخاطَب منه كلمة واحدة وبذلك يفوت المقصود من وراء ذلك الكلام....

فلا تُسرع فى الكلام، وإذا طلبت حاجة فاطلب على مهلك واجعل الذى يسمعك يفهم منك ما تقول ... هذا فى كلامك مع الناس، أما إذا كنت فى الدرس أو فى الخطبة فمن باب أَولَى ألا تقول للناس كلامًا لا يفهمونه، بل احرص على أن تكلم الناس بكلام يتناسب مع عقولهم ولا يُشترط أن تكلمهم باللغة الفُصحى فى حوارك معهم إذا كانوا لا يفهمونها... وإن لم يفهموا كلامك فأعده عليهم مرة أخرى وثالثة حتى يفهموا..فقد كان النبى ﷺ يُعيد الكلام ثلاثًا إذا لم يفهم الذى أمامه أو كان سمعه ثقيلًا.. أما إذا فهم فالنبى ﷺ لم يكن يُعيد الكلام إلا للضرورة ... وليس المعنى أنه ﷺ كان كلما تكلم أعاد كلامه ثلاث مرات.

(١) صحيح: رواه البخارى (٩٥) كتاب العلم.

(٢) حسن: رواه أبو داود، وأحمد، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٢٦).

وكان ﷺ إذا سلَّم على قومٍ «سلَّم عليهم ثلاثًا» معناه أنه كان لا يكرر أكثر من ثلاث ... يُسلم مرة فإذا لم يُجب سلَّم الثانيةَ، فإذا لم يُجب سلَّم الثالثة، فإذا لم يجب تركه.

وذلك حتى لا يحرمهم بركة التسليم عليهم لأن النبى ﷺ حين يقول لهم: السلام عليكم ورحمةِ الله وبركاته فهو يدعو لهم.. فمن شفقته عليهم وحُبه لهم كان أحيانًا يكرر السلام لينالوا بركة دعائه .. وكان أحيانًا يكرر السلام إذا لم يسمعه الذى أمامه ... وكذلك فى الاستئذان كان ﷺ يستأذن ثلاثًا، يعنى إذا جاء للإنسان يستأذن فى الدخول على بيته، يدق عليه الباب ثلاث مرَّات، فإذا لم يُجب انصرف... فهذه سُنته عليه الصلاة والسلام أن يكرر الأمور ثلاثًا ثم ينتهى.

وتذكر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ كان كلامه فصلًا يعنى: مُفصلًا لا يُدخل الحروف بعضها على بعض ولا الكلمات على بعضها .. ومن شدة وضوح كلامه ﷺ أنه لو شاء العادُّ أن يُحصى كلام النبى ﷺ لأحصاه.

وأنت حين تسمع أحاديث النبى ﷺ أو تقرؤها تجدها واضحة بيِّنة، سواءً كانت أحاديث طويلة أو أحاديث قصيرة، فحديثه ﷺ كله جُمَلٌ مفيدة...

فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تذكر أن كلامه كان كلامًا فصلًا يفهمه كل مَن يسمعه، بل قالت فى حديثٍ آخر: «لو أراد العادُّ أن يعده لعدَّه».

۞ فينبغى على كل واحدٍ منَّا أن يحرص على أن يكون كلامه مع الناس من حوله واضحًا جليًّا لا تختلط فيه الكلمات ببعضها.. وأن يتأكد أن مَن يسمعه قد فهم ما يقول وإلا فليكرر كلامه ثلاثًا حتى يفهم.. وهو مع كل هذا يستحضر أنه يفعل ذلك اتباعًا لرسول الله ﷺ.

(٩٠) باب إصغاء الجليس لحديث جليسه الذي ليس بحرام واستنصات العالم والواعظ حاضري مجلسه

(٧٠٣) عن جَرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ فى حجَّةِ الْوَدَاع: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» ثُمَّ قَال: «لا ترجِعُوا بعدِى كُفَّارًا يضْرِبُ بَعضُكُمْ رِقَاب بَعضٍ»[1].

۞ إن إصغاء الجليس إلى حديث جليسه من أدب السماع.. فالإنسان له لسانٌ واحد وله أذنان؛ حتى يسمع أكثر مما يتكلم... فلا ينبغى أن يجلس المسلم فى جلسة ويظل يتكلم وحده دون أن يعطى فرصة لغيره لكى يتكلم.. بل عليه أن يتكلم إن طُلِب منه ذلك.. فإذا تكلم يجعل كلامه قليلًا حتى لا يمل الناس منه ويشتاقوا لكلامه.

فإذا تكلم غيره فينبغى له أن يُنصت إلى كلامه وألا يتكلم أثناء كلامه حتى لا يحصل تشويش على المستمعين.. بل يصمت حتى ينتفع جميع الحاضرين.. فهذا هو الإصغاء بالقول بألا يتكلم إذا كان جليسه يتكلم.

أما الإصغاء بالفعل فيكون ذلك بأن تُقبل بوجهك إلى مَن يتكلم حتى يشعر باهتمامك بكلامه.. ولا تلتفت يمينًا أو شمالًا حتى لا يظن أنك قد مللت من كلامه أو يظن أنك متكبر.. فينبغى أن تُصغى لكلامه وأن تُقبل عليه بوجهك إلا إذا كان يتكلم بشىءٍ مُحرم كالغيبة وغيرها أو يتكلم فى دين الله باستهزاءٍ وسخرية فإنك لا تُصغى إليه بل يجب أن تنهاه عن ذلك وأن تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر.. فإن لم يستجب لك وظل يتكلم بهذا الكلام المحرم فاترك المكان وفارقه.. وهذا هو الإنكار بالقلب..

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢١) كتاب العلم، ومسلم (٦٥) كتاب الإيمان.

فقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء: ١٤٠].

۞ وقد أورد المصنف فى هذا الباب حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه يقول جرير بن عبد الله البجلى رضي الله عنه: (قال لى رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: **استنصت الناس**» يعنى: كان هناك ناس كثير مع النبى ﷺ فى حجة الوداع، وكان عددهم أكثر من مائة ألف رجلٍ وامرأة...فأراد النبى ﷺ أن يَعِظهم ويخطب فيهم فقال لجرير: «**استنصت الناس**» يعنى: مُرهم بالسكوت، لكى يخطب فيهم النبى ﷺ ويعظهم، ثم قال للناس موعظة عظيمة: «**لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**».

يعنى لا ترجعوا بعدى كفارًا حال كونكم يضرب بعضكم رقاب بعض، وفى هذا دليل على أن قتال المؤمنين بعضهم بعضًا كفر... وقد أيَّد هذا الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: «**سِبابُ المسلم فُسوق وقتاله كُفر**» لكنه كفر لا يُخرج من الملة... والدليل على أنه لا يُخرج من الملة قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

(٩١) باب الوعظ والاقتصاد فيه

۞ ما زالت الكلمة الطيبة وسيلة من الوسائل الفاعلة فى تقويم سلوك الناس، وإرشادهم إلى الطريق المستقيم.

ورُبَّ كلمة سمعها مُذنب أو مُقصر.. فكانت سببًا فى تغيير طريقه وتحويل اتجاهه.. فكان لها ثمرات يانعة.

ولهذا المعنى كان العالِم امتدادًا لمعنى النبوة فى الخلق.... وبهذا المعنى كان العلماء ورثة الأنبياء، فهم قادة الأمة على طريق الحق، وبسلوكهم ومواعظهم تكون المعالم على الطريق»[١].

۞ **قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:**

«لولا ثلاثٌ لأحببت أن أكون قد لقيت الله: لولا أن أسير فى سبيل الله عز وجل، ولولا أن أضع وجهى لله، ولولا أن أُجالس قومًا ينتقون أطايب الحديث، كما ينتقون أطايب الثمر».

۞ **وقال على رضي الله عنه:**

«أَجِمُّوا هذه القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تملّ كما تملُّ الأبدان».

۞ **وقال أبو الدرداء رضي الله عنه:**

«ما تصدق مؤمن بصدقة أحب إلى الله عز وجل من موعظة يعظ بها قومه، فيتفرقون، قد نفعهم الله عز وجل بها»[٢].

والوعظ: هو ذكر الأحكام الشرعية مقرونة بالترغيب أو الترهيب.

---

(١) من مقدمة «مواعظ الإمام الحسن البصرى» للشيخ صالح أحمد الشامى.

(٢) من مواعظ الأنبياء والصحابة والتابعين / د. محمود المصرى (ص ٨-٩).

كأن تقول للإنسان مثلًا: إنه يجب عليك كذا وكذا فاتقِ الله، وقُم بما أوجب الله عليك وما أشبه ذلك.

وأعظم واعظ هو كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٥٧]. فأعظم ما يُوعظ به كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، لأنه جامع بين الترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار، والمتقين والفجَّار، فهو أعظم كتاب يُوعَظ به.

فينبغي للإنسان أن يعظ الناس بالقرآن، وبالسُّنة، وبكلام الأئمة، وبكل ما يُلين القلوب ويوجهها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ينبغي الاقتصاد فى الموعظة، فلا تُكثر على الناس فتملهم، وتُكرِّه إليهم القرآن والسُّنة وكلام أهل العلم، لأن النفوس إذا ملَّت كلَّت، وتعبت، وسئمت، وكرهت الحق وإن كان حقًّا.

ولهذا كان أحكم الواعظين من الخلق محمدﷺ يتخوَّل الناس بالموعظة، ولا يُكثر عليهم لئلا يملوا ويسأموا ويكرهوا ما يُقال من الحق.

ثم صدَّر المؤلف هذا الباب بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[النحل: ١٢٥].

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يعنى إلى دِين الله، لأن سبيل الله هو دين الله حيث إنه يوصل إلى الله تعالى... فمن سلك هذا الدين أوصله إلى الله سبحانه وتعالى، ولأن هذا الدين وضعه الله عَزَّوَجَلَّ وشرعه لعباده، ولهذا أُضيف إليه فقيل: سبيل الله.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾.

۞ أى بثلاثة أمور:

أولًا: الحكمة: وذلك بأن تُنزل الأمور منازلها، فى الوقت المناسب، والكلام

المناسب، والقول المناسب، لأن بعض الأماكن لا تنبغى فيها الموعظة، وبعض الأزمنة لا تنبغى فيها الموعظة وكذلك بعض الأشخاص لا ينبغى أن تعظهم فى حال من الأحوال بل تنتظر حتى يكون مُهيئًا لقبول الموعظة...

ولهذا قال: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ قال العلماء: الحكمة وضع الأشياء فى مواضعها.

ثانيًا: الموعظة الحسنة: يعنى اجعل دعوتك مقرونة بموعظة حسنة، موعظة تُلين القلب وتُرقِقه وتوجهه إلى الله، بشرط أن تكون حسنة.

إن كان الترغيب فيها أَولَى فبالترغيب، وإن كان الترهيب والتخويف فيها أَولَى فبالترهيب والتخويف.

وكذلك تكون حسنة من حيث الأسلوب والصياغة، وكذلك تكون حسنة من حيث الإقناع، بحيث تأتى بموعظة تكون فيها أدلة مُقنعة؛ أدلة شرعية وأدلة عقلية تسند الشرعية... لأن بعض الناس يقنع بالأدلة الشرعية كالمؤمنين الخُلَّص، فإن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومن الناس مَن لا يكتفى بالأدلة الشرعية، بل يحتاج أن تسند الأدلة الشرعية عنده بأدلة عقلية... ثم قال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. يعنى: إذا وعظت موعظة حسنة وصار الإنسان يجادل ولم يقبل فجادله، ولا تنسحب، لكن جادل بالتى هى أحسن من حيث الأسلوب، ومن حيث العرض، ومن حيث الإقناع(١).

***

(٧٠٤) عن أبى وائِلٍ شَقيقِ بن سَلَمَةَ قال: كَانَ ابْنُ مسْعُود ﷺ يُذكِّرُنا فى كُلِ خَمِيسٍ مرة، فَقَالَ لهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عبْد الرَّحمنِ لوددتُ أَنَّكَ ذَكَّرتَنا كُلَّ يَوْمٍ، فقال:

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٨٦-٣٨٧) بتصرف.

أما إِنَّهُ يَمنعنى مِنْ ذلكَ أنى أكْرَهُ أنْ أُمِلَّكُمْ وإِنِّى أتخَوَّلُكُمْ بِالموْعِظَةِ، كَمَا كَانَ رسول الله ﷺ يَتخَوَّلُنَا بها مَخافَةَ السَّآمَةِ علَيْنا[1].

ففى هذا الحديث يقول أبو وائل واسمه شقيق بن سلمة وكان من التابعين ومن تلامذة ابن مسعود رضي الله عنه ..قال: كان ابن مسعود يُذكرنا فى كل خميس، يعنى: كل خميس يخرج عليهم ويكلمهم ويعظهم، ويُذكرهم بالله سبحانه... وابن مسعود كان من كبار فقهاء أصحاب النبى صلوات الله وسلامه عليه، فكان مُعلمًا للناس، يعلمهم الفقه.

فكان رضي الله عنه يتخولهم بالموعظة، يعنى: لا يأتى كل يوم يُذكرهم وإنما كان يفعل ذلك مرة واحدة كل أسبوع وذلك فى يوم الخميس.

فكان هناك رجلٌ يتأثر كثيرًا بموعظة ابن مسعود ويحب أن يسمعه كل يوم فقال له: يا أبا عبد الرحمن! لوددت أنك ذكَّرتنا كل يوم... يعنى: ليتك تقول لنا كلامك الطيب وحديثك الجميل هذا كل يوم.

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أُملكم... ثم أخبره أنه يفعل ذلك اقتداءًا بالنبى ﷺ لأنه كان يفعل ذلك.

فالنبى ﷺ ما كان يُلقى المواعظ فى كل وقت.. مع أن النبى ﷺ لو تكلم مائة عامٍ متواصلة فلن يمل أحدٌ أبدًا بل سيجلسون منتبهين وكأن على رؤوسهم الطير.. ومع ذلك كان يتخولهم بالموعظة كل أسبوع حتى نقتدى به فلا نُكثر على الناس بعد ذلك.

ولذا فإنه ينبغى على الداعية ألا يُكثر من مواعظه وظهوره أمام الناس سواء كان ذلك فى المساجد أو على شاشة التلفاز حتى لا يمل الناس منه فلا ينتفعون بوعظه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠) كتاب العلم، ومسلم (٢٨٢١) كتاب صفة القيامة.
«يَتخَوَّلُنَا» يَتعَهَّدُنا.

وعليه أن يُنوع في مواعظه.. فلا يستعمل أسلوب الترغيب دائمًا ولا الترهيب دائمًا.. بل ينتقل بين هذا وذاك.. وليعلم أن هناك مَن يُناسبه الترغيب وهناك مَن يُناسبه الترهيب وهناك مَن يناسبه الانتقال بين هذا وذلك.. فالداعية مثل الطبيب.. يُشخص المرض ويصف الدواء.. وياليتنا نُخلص النية لله عَزَّوَجَلَّ حتى يفتح الله لنا القلوب ويفتح بنا القلوب.. فلأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمر النَّعم.

(٧٠٥) وعَنْ أبي الْيَقظان عَمَّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ طُولَ صلاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِه، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ. فَأَطِيلوا الصَّلاةَ، وَأَقْصِروا الخُطْبَةَ»(١).

۞ وفي رواية: عن واصل بن حيان قال: قال أبو وائل: خطبنا عمار، فأوجز وأبلغ. فلما نزل قلنا: يا أبا اليقظان! لقد أبلغت وأوجزت. فلو كنت تنفّست!(٢) فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن طول صلاة الرجل، وقِصَر خُطبته، مَئِنَّةٌ من فقهه فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخُطبة وإن من البيان سحرًا».

وفي رواية لأحمد: خطبنا عمار بن ياسر فتجوَّز في خطبته، فقال له رجل من قريش: لقد قلت قولًا شفاءً، فلو أنك أطلت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ نهى أن نطيل الخطبة(٣).

۞ من المعلوم أن صلاة الجمعة لها خطبتان ثم تكون الصلاة بعدهما.. وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الخطيب إذا خطب خطبة قصيرة وصلى

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٩) كتاب الجمعة.
«مَئِنَّةٌ» أيْ: علامة دَالَّةٌ على فِقْهِهِ.
(٢) تنفست: أي أطلت قليلًا.
(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٢٠).

صلاة موافقة لصلاة الرسول ﷺ فتلك علامة على فقهه وفهمه.

فينبغي على الخطيب ألا يُطيل في الخطبة لأن الكلام إذا كثر يُنسى بعضه بعضًا .. وفوق ذلك يمل الناس منه... أما إذا كان الكلام قليلًا فإن الناس تستوعب الكلام وتنتفع به.

۞ونحن نعلم أن المسجد يكون فيه الطفل الصغير والشيخ الكبير والرجل المريض والمرأة العجوز... فعلى الإمام أن يقتدى بأضعفهم وأن يراعى أحوالهم ... فيحرص على أن تكون الخطبة قصيرة مُدعمة بالكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة وقصصهم.. وأن يؤديها بأسلوبٍ شيقٍ وممتع حتى يجذب أسماع الحاضرين.. وأن يُخلص النية لله عَزَّوَجَلَّ حتى ينتفع الناس بموعظته فتكون سببًا فى إقبالهم على الله.

وأما طول الصلاة فالمراد أن تكون كصلاة النبى ﷺ ليست طويلة، لأن النبى ﷺ أنكر على معاذٍ إطالتَه فى صلاة العشاء، وأنكر على الرجل الآخر إطالته فى صلاة الفجر، وقال: «**أيها الناس إنَّ منكم منفرين**»[(١)].

فالمراد بطول الصلاة هنا الطول الموافق لصلاة رسول الله ﷺ... هذا إذا كان الإنسان إمامًا، أما إذا صلى لنفسه فليُطوِّل ما شاء.

***

(٧٠٦) وعَنْ مُعاويةَ بن الحَكم السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما أنا أصلِّى مَع رسول الله ﷺ، إذْ عطسَ رجُلٌ مِنْ القَوْمِ فَقُلتُ: يرحَمُكَ الله، فَرَمانى القوم بأبصارِهِمْ، فقلت: واثكل أُمَّيَاه ما شأنكم تنظرون إلىَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يُصَمِّتُوننى لكنى سكتُّ، فَلَمَّا صلى رسول الله ﷺ -فَبِأَبى هُوَ وأُمِّى- مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْله وَلا بَعدَه أَحسنَ تَعلِيمًا مِنْه، فَوَالله ما كَهَرَنى ولا ضَرَبَنى وَلا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٤) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٦) كتاب الصلاة.

شَتَمَنى، قال: «إنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصلُحُ فيها شَىء مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِىَ التَّسْبِيحُ والتَّكْبِيرُ، وقِرَاءَةُ الْقُرآنِ» أو كما قال رسول الله ﷺ. قلت: يا رسول الله، إنى حديث عهدٍ بجَاهلية، وقد جاءَ الله بالإسْلامِ، وإنَّ مِنَّا رجالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ؟ قال: «فَلا تأْتِهِمْ» قلت: وَمِنَّا رجال يَتَطيَّرونَ؟ قال: «ذاكَ شَىْء يَجِدونَه فى صُدورِهِم، فَلا يَصُدَّنَّهُمْ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يحكى معاوية بن الحَكَم السُّلَمى رضي الله عنه أنه كان يصلى خلف رسول الله ﷺ... وبينما هم فى الصلاة إذ عطس رجلٌ من القوم.. فما كان من معاوية إلا أن قال له: يرحمك الله... وذلك لأنك إذا سمعت العاطس يحمد الله بعد عطاسه، وجب عليك أن تُشمته؛ فتقول: يرحمك الله، حتى ولو كنت تقرأ أو تُطالع أو تراجع.

أما فى الصلاة فلا يجوز، لأن الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، ولهذا أنكر الناس بأعينهم على معاوية، فرموه بأبصارهم.

يعنى: أصبح الناس ينظرون إليه ويشيرون إليه لكى يسكت.

قال معاوية: (فقلت: واثكل أمياه، واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إلىَّ).

الثكل: الفاجعة، والمرأة الثكلى التى فقدت ابنها، فهذه الكلمة تُقال عند التوجُّع للنفس، فهو هنا تكلم بكلام لا ينبغى فى الصلاة قال: (واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إلىَّ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم)، فلاحظ أنه ما أحدٌ منهم رَدَّ عليه بالكلام.... فهم أولًا نظروا إليه من أجل أن يسكت فلم يسكت، فضربوا على أفخاذهم.

(فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ) يَعنِى فَعَلُوا هَذَا لِيُسْكِتُوهُ وَهَذَا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد.

«الثُّكْل» بضم الثاءِ المُثلثة: المُصِيبة وَالفَجيعة - «ما كَهَرنى» أىْ ما نهرَنى.

مَحمُولٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُشْرَعَ التَّسْبِيحُ لِمَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْفِعلِ الْقَلِيلِ فِي الصلاة وأنه لا تبطُل به الصَّلَاةِ وَأَنَّهُ لَا كَرَاهَةَ فِيهِ إِذَا كَانَ لِحَاجَةٍ(١).

قال: (فلما رأيتهم يُصمتونني لكني سكت) يعني: كأنه يقول: فلما رأيتهم يصمتونني، كنت سأرد عليهم، لكنني سكت... قال: (فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني عليه الصلاة والسلام).

فهو كان ينتظر من النبي ﷺ أن يضربه أو يشتمه، قال: (ما كهرني) يعني: لم ينهرني ولم يكلمني كلامًا غليظًا، (ولا ضربني، ولا شتمني)، وكأنه يرى في نفسه أنه يستحق ذلك، ولكن النبي ﷺ لم يفعل ذلك.

وفي هذا بيانٌ لما كان عليه رسول الله ﷺ مِنْ عَظِيمِ الْخُلُقِ الَّذِي شَهِدَ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ وَرِفْقِهِ بِالْجَاهِلِ وَرَأْفَتِهِ بِأُمَّتِهِ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ ... وَفِيهِ التَّخَلُّقُ بِخُلُقِهِ ﷺ فِي الرِّفْقِ بِالْجَاهِلِ وَحُسْنِ تَعلِيمِهِ وَاللُّطْفِ بِهِ وَتَقْرِيبِ الصَّوَابِ إِلَى فَهْمِهِ.

فقال النبي ﷺ: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس**»، هذه حكمة النبي ﷺ والموعظة الحسنة التي أمر بها، (قال: **إنما هي التسبيح، والتكبير وقراءة القرآن**».

إذًا: لا ينبغي للإنسان أن يكلم مَن بجواره بأي كلام في الصلاة، ولا حتى بأن يقول له: يرحمك الله ... فإذا خاطب أحدًا بطلت صلاته بذلك.

لكن معاوية هنا لم تبطل صلاته لكونه جاهلًا بالحكم، والنبي ﷺ عَلِمَ جهله، فعذره ولم يأمره بإعادة الصلاة، ولو أمره بذلك لذكره الراوي.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قوله ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ**

(١) مسلم بشرح النووي (٥/ ٢٨).

كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرآنِ» فِيهِ تَحرِيمُ الْكَلَامِ فِى الصَّلَاةِ سَوَاءٌ كَانَ لِحَاجَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَسَوَاءٌ كَانَ لِمَصلَحَةِ الصَّلَاةِ أَوْ غَيْرِهَا فَإِنِ احتَاجَ إِلَى تَنْبِيهٍ أَوْ إِذْنٍ لِدَاخِلٍ وَنَحوِهِ سَبَّحَ إِنْ كَانَ رَجُلًا وَصَفَّقَتْ إِنْ كَانَتِ امْرَأَةً.

وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ النَّهْىُ عَنْ تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ فِى الصَّلَاةِ وَأَنَّهُ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ الَّذِى يَحرُمُ فِى الصَّلَاةِ وَتَفْسُدُ بِهِ إِذَا أَتَى بِهِ عَالِمًا عَامِدًا، وَأَمَّا الْعَاطِسُ فِى الصَّلَاةِ فَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَحمَدَ اللهَ تَعَالَى سِرًّا[1].

۞ وهذا الحديث يوضح لنا أننا لا بد أن نُفرِّق بين مَن يُخطئ متعمدًا وبين مَن يخطئ عن جهلٍ منه.

فالجاهل يحتاج إلى تعليم، وصاحب الشبهة يحتاج إلى بيان، والغافل يحتاج إلى تذكير، والمُصر يحتاج إلى وعظ... فلا يسوغ أن يُسوَّى بين العالم بالحكم والجاهل به فى المعاملة والإنكار، بل إن الشدة على الجاهل كثيرًا ما تحمله على النفور ورفض الانقياد بخلاف ما لو علَّمه أولاً بالحكمة واللين؛ لأن الجاهل عند نفسه لا يرى أنه مخطئ فلسان حاله يقول لمن ينكر عليه: أفلا علمتنى قبل أن تهاجمنى.

وقد يجانب المخطئ الصواب وهو لا يشعر، بل قد يظن نفسه مصيبًا فيُراعَى لأجل ذلك[2].

۞ فلما رأى معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ لم ينهره ولم يشتمه على ما فعله شجَّعه ذلك أن يكلم النبي ﷺ ويسأله عن بعض الأشياء التى يحتاج أن يعرف حكمها فى الشرع. فقال له: يا رسول الله ، إنى حديث عهد بجَاهلية، وقد جاءَ الله بِالإِسْلَامِ، وإِنَّ مِنَّا رجالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ؟ قال: «**فَلا تَأْتِهِمْ**»، فهو قريب عهد

---

(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ٢٩-٣٠) بتصرف.

(٢) رفقًا بالمخطئين (ص ٣٨-٣٩) / د. محمود المصرى.

بجاهلية، ومن قومه مَن لا يزال كافرًا ويأتى الكُهان ويسألهم قال: «**فلا تأتهم**» أى: أنت رجل مسلم فلا يجوز لك ذلك.

قال النبى ﷺ : «**فلا تأتهم**» كلمة واحدة: لا تأت الكُهَّان. وهل تظن أن معاوية أو غيره من الصحابة إذا قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام: لا تفعلوا. أن يفعلوا! لا ... لا نظن ذلك، فإنهم ليسوا كحال كثير من الناس اليوم يُكرَّر عليه النهى ولكنه لا ينتهى، أو يتأول ويقول: النهى للكراهة، أو النهى للأدب أو لخلاف الأَولَى، أو ما أشبه ذلك.

۞ من الناس مَن يذهب إلى الكهنة والعرافين اعتقادًا منهم أن هؤلاء يعلمون الغيب والأشياء التى تحدث فى المستقبل وأنهم يملكون النفع والضُّر لهذا الإنسان... وهذا اعتقاد خاطئ.

ولقد كانت الكهانة فى الجاهلية صنعة لأقوام تتصل بهم الشياطين وتسترق السمع من السماء وتحدثهم به، ثم يأخذون الكلمة التى نُقلت إليهم من السماء بواسطة هؤلاء الشياطين ويضيفون إليها ما يضيفون من القول، ثم يحدثون بها الناس فإذا وقع الشىء مطابقًا لما قالوا اغتر بهم الناس واتخذوهم مرجعًا فى الحكم بينهم، وفى استنتاج ما يكون فى المستقبل، ولهذا نقول: الكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل.

۞ **والذى يأتى إلى الكاهن ينقسم إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: أن يأتى إلى الكاهن فيسأله من غير أن يُصدقه، فهذا محرم، وعقوبة فاعله أن لا تُقبل له صلاة أربعين يومًا، كما ثبت فى «صحيح مسلم» أن النبى ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أربَعِينَ يَومًا**»(١) .

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣٠) كتاب السلام -العراف: هو الكاهن الذى يدَّعى معرفة الغيب.

القسم الثانى: أن يأتى إلى الكاهن فيسأله ويصدقه بما أخبر به... فهذا كفرٌ بالله عَزَّوَجَلَّ لأنه صدقه فى دعوى علمه الغيب... وتصديق البشر فى دعوى علم الغيب تكذيب لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. ولهذا جاء فى الحديث الصحيح «**من أتى عرَّافًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد** ﷺ»(١).

القسم الثالث: أن يأتى إلى الكاهن فيسأله ليُبين حاله للناس، وأنها كهانة وتمويه وتضليل... فهذا لا بأس به، ودليل ذلك أن النبى ﷺ أتاه ابن صياد، فأضمر له النبى ﷺ شيئًا فى نفسه فسأله النبى ﷺ ماذا خبَّأ لك؟ فقال: الدُّخُّ... يريد الدخان، فقال النبى ﷺ: «**اخسأ فلن تَعدُو قدرك**»(٢).

۞ ثم قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قلت: ومنَّا رجال يتطيرون)، يعنى: من قومه، سواء من المسلمين أو من غيرهم... فقال النبى ﷺ: «**ذاك شىء يجدونه فى صدورهم**»، فالإنسان حين يكون قريب عهدٍ بجاهلية فإن نزغات الشيطان لا تزال تُراوده، فيتطير ويتشاءم بسبب جهله بدين رب العالمين.

وكثير من الناس يقعون فى التشاؤم من باب التقليد، فبعضهم يسمع أن الغرب يتشاءمون عند رؤية قطة سوداء تمشى من أمامهم، فيتشاءم هو منها كنوعٍ من التقليد.

ومنهم مَن يرى البعض يتخذون التمائم فيقلدهم فى ذلك، مع أن هذا الفعل حرام وهو من الشرك بالله سبحانه وتعالى ... وبعض الناس يضعون فى أيديهم حظَّاظة -وهى ما يُلبس فى اليد لجلب الحظ- وهذا من الشرك بالله سبحانه وتعالى... فمن اعتقد أن شيئًا ينفعه أو يضره مع الله فقد وقع فى الشرك بالله

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٣٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٥٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٩٣٠) كتاب الفتن.

سبحانه وتعالى.

والتطير: هو التشاؤم بالأشياء ... وكان العرب يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور، فإذا طار يمينًا فله حال، وإن طار يسارًا فله حال، وإن اتجه أمامًا فله حال، أو رجع فله حال. حسب اصطلاحات العرب وخرافاتهم.

فكانوا يتطيرون؛ فيجعلون الطيور هي التي تُمضيهم أو تردهم .. إذا كان الطير مثلًا عن اليسار قال: هذا نذير سوء فلا أسافر .. وإذا طار يمينًا قال: هذا سفرٌ مبارك حيث اليمين من اليُمن والبركة، وهكذا اصطلاحات عندهم.

فكانوا يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور، وربما تشاءموا من الأيام، وربما تشاءموا من الشهور، وربما تشاءموا فيما يصنعون من الأصوات، وربما تشاءموا حتى من الأشخاص، حتى إنه يوجد الآن أُناسٌ إذا خرج أحدهم من بيته ثم لاقاه شخص قبيح المنظر قال: هذا اليوم يوم سوء وتشاءم، وإذا لقي رجلًا جميل الوجه قال: هذا اليوم خير .. فتفاءل.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**هذا شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنَّهم**».

والإنسان إذا ركن إلى التطير تنغصت عليه حاله، وربما يصنع الجن ما يكره ليبقى دائمًا في غمٍّ وهم ... ولكن لا تتشاءم.

وكان العرب يتشاءمون من شهر شوَّال في النكاح، يقولون: الذي يتزوج في شهر شوال لا يُوفق في زواجه؛ هكذا كانوا يقولون، فكانت عائشة رضي الله عنها تقول: تزوجني النبي ﷺ في شوال ... عقد عليها في شوال، ودخل بها في شوال. فتقول: أيكم أحظى إليه مني؟

فالمهم أنه يجب عليك أن تمحو من قلبك التطير والتشاؤم، وكن دائمًا متفائلًا، واجعل الدُّنيا أمامك واسعة، واجعل الطريق أمامك دائمًا مفتوحًا.

فإن الرسول (عليه الصلاة والسلام) كان يكره الطيرة ويُعجبه الفأل الحسن.

فاجعل نفسك دائمًا فى تفاؤل .. والذى يريده الله سيكون، لكن كن مسرورًا فَرِحًا .. فالدُّنيا أمامك واسعة، والطريق مفتوح .. فكن دائمًا فى تفاؤل، وكُنْ دائمًا واسع الصدر، فهذا هو الخير.

أما التشاؤم والانقباض، وأن يجعل الإنسان باله فى كل شىء، فإن الدُّنيا ستضيق عليه.

فمن محاسن الإسلام أنه ألغى الطيرة وأثبت الفأل، لأن الفأل خير والطيرة شَرٌّ.

❊ ❊ ❊

(٧٠٧) وعَنْ العِرباض بن سَارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وَعظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوب. وَذَرفَتْ مِنْهَا العُيُون... وَذَكَرَ الحديثَ[1]، وَقد سَبق بِكَمالِهِ فى باب الأمر بالمُحافَظةِ على السُّنَّةِ.

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٦١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊ ❊ ❊

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٩٢) باب الوقار والسَّكينة

۞ الوقار: هو هيئة يتصف بها العبد فيكون وقورًا، بحيث إذا رآه مَن رآه يحترمه ويُعظمه ... والسكينة: هي عدم الحركة الكثيرة وعدم الطيش، بل يكون ساكنًا في قلبه، وفي جوارحه، وفي مقاله.

ولا شك أن هذين الوصفين: الوقار والسكينة من خير الخصال التي يَمُنُّ الله بها على العبد؛ لأن ضد ذلك أن يكون الإنسان لا شخصية له، ولا هيبة له وليس وقورًا ذا هيبة، بل هو مَهينٌ، قد وضع نفسه وأهانها.

وكذلك السكينة ضدها أن يكون الإنسان كثير الحركات، كثير التلفُّت، لا يُرى عليه أثر السكينة في قلبه ولا قوله ولا فعله .... فإذا مَنَّ الله على العبد بذلك، فإنه ينال بذلك خُلقين كريمين.

وضد ذلك أيضًا العجلة؛ أن يكون الإنسان عَجولًا لا يتحرى ولا يتأنى، ليس له هَمٌّ إلا القِيل والقَال اللذان نهى عنهما رسول الله ﷺ ... فقد كان ينهى عن القيل والقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال ... فإذا كان الإنسان ليس مُتأنيًا ولا متثبتًا في الأمور، حصل منه زَلَلٌ كثير، وأصبح الناس لا يثقون في قوله، وصار عند الناس من القوم الذين يُرد حديثهم ولا يُنتفع به[١].

۞ كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: وَيَنْبَغِي لحامل الْقُرآنْ أَن يكون باكيًا مَحزُونًا حكيمًا حَلِيمًا سَكينًا ... وَلَا يَنْبَغِي لحامل الْقُرآن أَن يكون جَافيًا وَلَا غافلًا وَلَا صخَّابًا وَلَا صيَّاحًا وَلَا حديدًا[٢].

۞ عن الحسن رحمه الله تعالى قال: قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرى

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٩٢-٣٩٣) بتصرف.
(٢) الفوائد (١٤٧).

ذلك في تخشيه، وهديه، ولسانه، وبصره، وبرِّه[١].

۞ قال رجل يصف الإمام مالكًا رحمه الله تعالى:

يَـدَعُ الجـوابَ ولا يُراجَـعُ هيبـةً والسـائلون نـواكسُ الأذقـانِ

نـورُ الوقـارِ وعِـزُّ سُـلطانِ التُّقـى فهـو المَهيـبُ وليـس ذا سـلطانِ[٢]

۞ قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: الفرق بين السكينة والوقار: أن السكينة هي التأنِّي في الحركات واجتناب العبث، والوقار في الهيئة كغضِّ البصر وخفض الصوت وعدم الالتفات[٣].

۞ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: إن من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار، بأن يوقر غيره، ويتوقر هو في نفسه[٤].

❊ ❊ ❊

۞ قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، بَرُّهم وفاجرهم، فكلهم عبيدٌ لله مربوبون مُدبَّرون ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾.

وعبودية لألوهيته، وعبادته ورحمته، وهي: عبودية أنبيائه، وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونُعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي: ساكنين متواضعين لله،

---

(١) الشُّعب (٨/ ٤٢٧).

(٢) شرح حديث «ذئبان جائعان» (ص٧٨).

(٣) فتح الباري (٢/ ١٣٩).

(٤) الفتح (١٠/ ٥٣٨) بتصرف.

وللخلق.. فهذا وصفٌ لهم، بالوقار، والسكينة، والتواضع لله، ولعباده. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: خاطبوهم خطابًا يَسلَمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدحٌ لهم بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال[(١)].

وذلك لأن الجاهل أمره مُشكل؛ إن خاصمته أو جادلته فربما يبدر منه كلامٌ سيئٌ عليك، وربما يبدر منه كلام سيئ على ما تدعو إليه من الخير، فيَسُب الدين وما أشبه ذلك والعياذ بالله. فمن توفيق عباد الرحمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، يعني قالوا قولًا يَسلمون به ولا يحصل لهم به إثم...وكذلك من أوصافهم ما ذكره في آخر الآيات. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]. يعني لا يشهدون القول الكذب، ولا الفعل القبيح.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ﴾ أي: الذي ليس فيه خير ولا شر ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي سالمين منه.

وذلك أن الأشياء: إما خير، وإما شر، وإما لغو... فالشر لا يشهدونه، واللغو يَسلمون منه، ويمرون به كرامًا، والخير يرتعون فيه.

(٧٠٨) وعَنْ عائشة رضي الله عنها قالت: مَا رَأَيْتُ رسول الله ﷺ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حتَّى تُرى مِنه لَهَوَاتُه، إنَّما كانَ يَتبَسَّمُ[(٢)].

۞ وفي هذا الحديث تحكي أُمنا عائشة رضي الله عنها أنها ما رأت رسول الله ﷺ

---

(١) تفسير السعدي (ص ٦٨٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٢٨) كتاب تفسير القرآن، (٦٠٩٢) كتاب الأدب - ومسلم (٨٩٩) كتاب صلاة الاستسقاء.

«اللَّهَوَات» جَمْع لَهَاةٍ: وهِي اللَّحمَةُ التي في أقْصى سَقْفِ الفَمِ.

مُستجمعًا قط ضاحكًا تبدو منه لهواته ... أى أنه ﷺ لا يضحك ضحكًا بصوتٍ عالٍ وقهقهة بحيث تبدو منه لهواته وإنما كان يبتسم أو يضحك حتى تبدو نواجذه أو تبدو أنيابه.. وهذا كله من وقار النبى ﷺ.

۞ **اللهوات:** جمع لهاة، وهى اللحمة الواقعة آخر سقف الحنك، والنازلة من آخر الحلق المُدلاة على القصبة الهوائية.

فهناك أُناس طبيعتهم الضحك بصوتٍ عالٍ وقهقهة، يفتح أحدهم فمه إلى آخره! وهذا لم يكن يفعله النبى ﷺ أبدًا... بل كان دائمًا بسَّام المُحيَا كان يتبسم عليه الصلاة والسلام، وكان لا يُرى عبوسًا أمام الناس ﷺ، وإنما كان يتبسم لأصحابه وهم يضحكون، فكانوا يجلسون إلى شروق الشمس يذكرون الله عَزَّوَجَلَّ فيما بين طلوعها وبين أن يُصلوا الضحى، ولعل بعضهم يتكلم مع الآخر، ويتحدثون عن الجاهلية وما كانوا يفعلونه، فيحكون أنهم كانوا يصنعون التماثيل من العجوة ويعبدونها، فإذا جاع أحدهم أكلها، فيحكون أمثال ذلك ويضحكونْ على أنفسهم، أما هو ﷺ فكان يتبسم ولم يكن يضحك ويقهقه.

فمن الأدب أن المؤمن يتبسم عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، ولا يُكثر منْ العُبوس ... وأيضًا: لا يُكثر من الضحك، كما قال النبى ﷺ فى الحديث: «**وإياك وكثرة الضحك، فإن كثرة الضحك تُميت القلب**»، فكثرة الضحك تُبعد خشية الله عَزَّوَجَلَّ من قلب الإنسان، فيموت قلبه من كثرة الضحك.

۞ فالمؤمن لا بد أن يكون وسطًا بين الإفراط والتفريط.. لا يعبس فيكون ثقيلًا على الناس.. ولا يُقهقه ليلًا ونهارًا فيصبح وضيعًا عند الناس لا قيمة له.. بل على المؤمن أن يكون مبتسمًا دائمًا وذلك من باب الدعوة وتأليف القلوب والقُرب من الناس «**تَبسُّمك فى وجه أخيك صدقة**».. وتكون بسمته ممزْوجة بالوقار لينال حب الناس واحترامهم فى آنٍ واحد... وينوى بهذا أنه يقتدى بالنبى محمد ﷺ ليفوز بالأجر والثواب.

(٩٣) باب الندب إلى إتيان الصلاة والعلم ونحوهما من العبادات بالسكينة والوقار

۞ إن الصلاة هى أعظم الأركان بعد الشهادتين وهى أم العبادات وميزان تعظيم الدين فى قلب المؤمن... فهى التى أمر الله بها وهى الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهى ملجأ المؤمن فى الكربات وهى التى يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسماوات وهى أُمنية المُعذَّبين والأموات وهى العاصمة من الشهوات والناهية عن المنكرات وهى الحادى للنعيم المقيم فى الجنات.

۞ لقد بلغت الصلاة مَبلغًا عظيمًا وقدرًا عاليًا فى قلب النبى ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبُنا أن نتأمل قول النبى ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(١).

وحسبُنا أنها العبادة الوحيدة التى منحها الله لنبيه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بلا واسطة من فوق سبع سماوات لعُلو قدرها ومكانتها عند الله (جل وعلا)... فهى الفريضة الوحيدة التى فُرضت فى السماء.

والإنسان إذا أقبل إلى الصلاة فإنما يُقبل إلى الوقوف بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن المعلوم أن الإنسان إذا أتى إلى شخصٍ من بنى آدم يُعظمه، فإنه يأتى إليه بأدبٍ وسكينة ووقار، فكيف إذا أتى ليقف بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا ينبغى للإنسان أن يأتى إلى الصلاة فى سكينة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣١٢٤).

۞ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]. فالصلاة شعيرة من شعائر الله ... والحج شعيرة من شعائر الله.. فالذى يُعظم شعائر الله فيرى أنها عظيمة فى قلبه سيقوم بما ينبغى لها من التعظيم بجوارحه.. وهذا كله من تقوى القلوب وعلامة على صحة نيته... وكلما ازداد تعظيم شعائر الله فى قلبك فإن ذلك يكون علامة على التقوى فى قلبك.

(٧٠٩) وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا أُقِيمَت الصَّلاة، فَلا تَأْتُوهَا وأنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وأْتُوهَا وَأُنْتم تمْشُونَ، وعَلَيكم السَّكِينَة، فَما أَدرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١).

وزاد مسلم فى رواية له: «فَإِنَّ أحدَكُمْ إذا كانَ يعمِدُ إلى الصلاةِ فَهُوَ فى صلاةٍ».

۞ فالكلام هنا عن صفة تكون فيمن يأتى الصلاة، وفيمن يذهب لطلب العلم، وإلا فالصلاة فريضة لابد وأن يصليها المسلم.. لكن المندوب أن يأتيها وعليه السكينة والوقار؛ لأنه مُقبل على الله سبحانه، فقد أخرجه الله من بيته وأنعم عليه بأن هداه إلى أداء الصلاة دون باقى الناس الذين يجلسون فى الطرقات .. فليتفكر فى هذه النعمة التى أنعم الله بها عليه دون غيره، وكيف أن الله كتب له وهو ذاهب إلى المسجد بكل خُطوة حسنة والأخرى تُكفر سيئة، وهذه نعمة من نعم الله عَزَّ وَجَلَّ.

أيضًا: إذا دخل فى الصلاة تتساقط بعض الذنوب، فإذا ركع تساقطت بعض الذنوب، فإذا سجد تساقطت بعض الذنوب كذلك حتى يخرج من الصلاة ولا ذنب عليه.

أما إذا خرج من بيته ضاحكًا لاهيًا فلن يتفكر فى هذه النعم، وإذا دخل فى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩٠٨) كتاب الجمعة، ومسلم (٦٠٢) كتاب المساجد.

الصلاة سيكون مشغولًا بالدنيا ... فيدخل فى الصلاة ويخرج منها من غير أن يخشع فيها.

وفرقٌ بين مَن يدخل فى الصلاة وهو يخاف من الله سبحانه وتعالى، وهو يُؤمل أن يخرج منها نظيفًا من الذنوب طاهرًا من العيوب ليس عليه دَنَسٌ من بقايا الذنوب، فهذا إنسان له فضل عند الله سبحانه..فالله يتفضل عليه ويعطيه.. وبين إنسانٍ آخر يأتى وعقله مشغول فإذا دخل فى الصلاة سرح فيها ولم يخشع.

فعلى المسلم أن يستعد للصلاة من البيت فيتوضأ فيحسن الوضوء؛ لأنه إذا أسبغ الوضوء تُمحَى عنه الذنوب، فإذا غسل وجهه ويديه ورجليه تساقطت الذنوب مع الماء الذى ينزل من أعضائه.

وفى الحديث: «**الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتُنبت الكبائر**»، فإذا دخل الإنسان فى هذه الصلاة بهذه الصورة ثم خرج منها فلينوِ ألا يعود إلى الذنوب...قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فهذه الصلاة بهذه الكيفية تنهاه عن التفكير فى الذنوب والمعاصى، وتدفعه إلى طاعة الله، وإلى أن يحب بيت الله، فيكون من السبعة الذين يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

فإذا أتى الإنسان إلى الصلاة أو ذهب ليطلب العلم فى المسجد فليمشِ وعليه السكينة والوقار، حياءً من الملائكة التى تَحُفُّه بأجنحتها وتتواضع وتستغفر له، وسوف تَحُفه إذا جلس فى حلقة العلم.

قال تعالى عن الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧]، يا ربنا هؤلاء جاءوا إلى بيتك فاغفر لهم.

فالذى يخرج لطلب العلم الشرعى ينبغى عليه أن يكون متواضعًا مُقبلًا على الله سبحانه وتعالى ... وليتذكر حديث النبى ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة**»، فلعله فى هذا الطريق يجد فيها مَن يزاحمه ويتعرض له، لكنه لا يأبه لذلك؛ لأن الله سيسهل له به طريقًا إلى الجنة.

فطريق الدنيا مُمتلئ بالصعوبات والعقبات... والذى يطلب العلم لا بد أن يصبر ويستسهل طريقه فيه؛ لأنه دين رب العالمين... فالله سيُقبل عليه ويُذلل له العقبات التى فى طريق الجنة، ففى يوم القيامة سيسهل له المرور على الصراط فيمر إلى الجنة، وكما أنه سهل له فى الدنيا طريق العلم فسوف يسهل له فى الآخرة طريق الجنة...والمحروم مَن حرمه الله سبحانه وتعالى.

فعلى مَن يخرج إلى المسجد للصلاة أو طلب العلم أن يتفكر فى هذه الأمور كلها، حتى يمشى بسكينة ووقار...فهذا الحديث يُعلمنا كيف نصلى، وكيف نأتى إلى بيت الله سبحانه، فلا تنشغل حتى تفوتك الصلاة ثم تذهب وتجرى إلى المسجد، وإنما استعد قبل ذلك، ولا تأتِ الصلاة جريًا.

قال ﷺ: «**إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون**»، يعنى إذا سمعتم إقامة الصلاة من خارج المسجد فاحرصوا على أن تأتوا إلى الصلاة وأنتم تمشون مشيًا عاديًّا ولا تأتوها وأنتم تسعون وتُسرعون؛ لأن هذا ليس من توقير واحترام الصلاة.. وكذلك فإنه يُؤثِّر فى خشوع المسلم فى صلاته.

۞ **إلا أن بعض أهل العلم** قالوا: إذا خشى المسلم فوات الركعة -أى: الركوع- فلا بأس أن يُسرع قليلًا دون أن يُحدث إزعاجًا لمن يصلى فإن هذا لا يجوز.

وقوله: «**فما أدركتم من الصلاة مع الإمام فصَلُّوا**» أى: ما تدركونه مع الإمام صَلُّوه... وقوله: «**وما فاتكم فأتموا**» أى: وما فاتكم من الصلاة فافعلوها ولكم

أجر نيتكم فى المجيء إلى بيت الله سبحانه.

وزاد مسلم فى رواية: «**فإن أحدكم إذا كان يَعمَد إلى الصلاة فهو فى صلاة**»، وهذا فضلٌ عظيم من الله علينا... فمن حين يخرج الإنسان من البيت فهو فى صلاة... هذا إذا اجتنب الحدث وكان على وضوء[1].

(٧١٠) وعَنْ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أَنَّهُ دَفَعَ مَعَ النبى ﷺ يَوْمَ عرَفَةَ فَسَمع النبى ﷺ وَرَاءه زَجْرًا شَدِيدًا وَضَربًا وَصوْتًا للإِبل، فَأَشار بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ»**[2].

ففى هذا الحديث يخبر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه دفع مع النبى ﷺ يوم عرفة.. أى أن النبى ﷺ خرج يوم عرفة من عرفة متوجهًا إلى المزدلفة.. فهذا هو الدفع.

فسمع النبى ﷺ وراءه زجرًا شديدًا وضربًا وصوتًا للإبل... فقد كان الناس يضربون الإبل ويحثونها على الإسراع والجرى من أجل أن يذهبوا إلى المزدلفة... وذلك لأنهم كانوا فى الجاهلية إذا دفعوا من عرفة أسرعوا إسراعًا عظيمًا يبادرون النهار قبل أن يُقبل الليل.. فكانوا يضربون الإبل ضربًا شديدًا.. فأشار إليهم النبى ﷺ بسوطه -وهى عصاه التى يُوجِّه بها الناقة- وقال لهم: «**أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ**».. لأنه كان من عادة العرب فى الجاهلية أنهم عندما يمشون يُحدثون ضجة كبيرة لكى تجرى الإبل فمنعهم النبى ﷺ من ذلك وقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ**» أى: الزموا السكينة «**فإن البر ليس بالإيضاع**»، والبر أن تبر فى عملك..والحج المبرور ليس بالإيضاع،

---

(١) شرح رياض الصالحين/ الشيخ أحمد حطيبة -بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٦٧١) كتاب الحج، ومسلم (١٢٨٢) كتاب الحج.
«الْبِرُّ»: الطَّاعَةُ – «وَالإِيضَاعُ»، وَهُوَ: الإِسْرَاعُ.

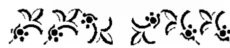
أى: الجرى... فالبر ليس بالجرى، كأن تجرى للصلاة أو تجرى متوجهًا من عرفة إلى مزدلفة، إنما البر أن تتقى الله سبحانه وتعالى، ولا تُزاحم الناس.

۞ وفى رواية عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فى حجة النبى ﷺ أنه قال: إن النبى ﷺ خرج من المزدلفة متوجهًا إلى مِنى، فسألوه كيف كان يسير؟ قال: كان يسير العَنَق) أى: معنقًا، يعنى: على مهله ﷺ، (فإذا وجد فجوة نَصَّ) أى: فإذا لقى مكانًا خاليًا نَصَّ أى أسرع (صلوات الله وسلامه عليه) فيه، فكان يسير العَنق مع الزحمة، وإذا لم تكن هناك زحمة أسرع (صلوات الله وسلامه عليه).

فالغرض أن الإنسان إذا مشى فى طريقه متوجهًا إلى بيت الله للصلاة، أو متوجهًا إلى طلب العلم، أو متوجهًا إلى حاجة من حوائجه يسير كما يسير عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا... حتى لو أسرعوا فى مشيهم بسبب حاجة من حوائجهم فإسراعهم فيه الهدوء والسكينة.

ففى هذا: دليل على أن الإنسان لا ينبغى له أن يُسرع إذا تقدم إلى أماكن العبادة، لأن الذين يدفعون من عرفة يتجهون إلى مزدلفة، إلى عبادة.

فإذا أتيت إلى مجالس العلم والخير، فكن ساكنًا وَقورًا مَهيبًا، حتى لا يُستهان بك أمام الناس... ويكون تعظيمك لهذه المجالس من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ.



(٩٤) باب إكرام الضيف

۞ لا بد أن نعلم أنه ما من أحدٍ إلا وقد يستضيف ضيفًا فى بيته ... إما من أصحابه أو أقاربه أو جيرانه... وإما أن يكون هو ضيفًا على أحدهم.

وإكرام الضيف خُلقٌ عظيم من الأخلاق التى حَثَّ عليها الإسلام.. وذلك لأن الكرم يؤلف القلوب ويُقرب الناس من بعضهم البعض ويجعلهم إخوة متآلفين.

۞ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٧].

۞ والضيافة من سُنن المرسلين...وكان أول مَن ضيَّف الضيف هو إبراهيم الخليل عليه السلام ... ولقد جاء ذلك فى الحديث الصحيح الذى وصفه فيه رسول الله ﷺ هو وذريته بالكرم، فقال: «**إنَّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»[1].

فقد ورث يوسف الكرم عن أبيه يعقوب وعن جده إسحاق وعن جده إبراهيم...ذرية بعضها من بعض.

ولقد كان خليل الرحمن لا يأكل إلا ومعه ضيف، فإن لم يجد ظَلَّ يبحث عنه حتى يجده.

وقد امتدح الله خليله إبراهيم عليه السلام، فقال سبحانه لحبيبه محمد ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[الذاريات:٢٤- ٢٧]

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٨٦).

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾؟ الاستفهام للتشويق ولتفخيم شأن تلك القصة كما يقول القائل: هل بلغك الخبر الفلانى؟ يريد تشويقه إلى استماعه... والمعنى هل وصل إلى سمعك يا محمد خبر ضيوف إبراهيم المعظَّمين؟ قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام[١]، سُمُّوا مُكرَمين لكرامتهم عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أى حين دخلوا على إبراهيم فقالوا: نُسلِّم عليك سلامًا ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أى قال: سلامٌ عليكم أنتم قومٌ غرباء لا نعرفكم فمَن أنتم؟ قال ابن كثير: وإنما أنكرهم لأنهم قَدِموا عليه فى صورة شبانٍ حِسانٍ عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم[٢]... وقال أبو حيان: والذى يناسب حال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لا يخاطبهم بذلك، إذْ فيه من عدم الأُنس ما لا يخفى، وإنما قال ذلك فى نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف[٣] ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أى فمضى إلى أهله فى سرعة وخُفية عن ضيفه، لأن من أدب المُضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه فى التأخير قال ابن قتيبة: عدل إليهم فى خفية ولا يكون الرَّواغُ إلا أن تُخفى ذهابك ومجيئك[٤] ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أى فجاءهم بعجل سمينٍ مشوى، والعجلُ ولدُ البقرة وكان عامة ماله البقر...واختاره لهم سمينًا زيادة فى إكرامهم ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أى فأدناه منهم ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم فى تَلَطُّفٍ وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام... قال ابن كثير: وفى الآية تَلَطُّف فى العبارة وعرضٌ حَسن ... وقد انتظمت الآية آداب الضيافة، فإنه جاء بطعامٍ من

---

(١) تفسير القرطبى (١٧/ ٤٤).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٥).

(٣) البحر المحيط (٨/ ١٣٩).

(٤) تفسر ابن الجوزى (٨/ ٣٦).

حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتنَّ عليهم أولًا فقال نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعةٍ وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتيٌّ سمين مشوى، فقربه إليهم ولم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ألا تأكلون؟ على سبيل العرض والتلطُّف ... كما يقول القائل: إن رأيت أن تتفضل وتُحسن وتتصدق فافعل[(١)] ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إعراضهم عن الطعام ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ أي قالوا له: لا تخف إنَّا رسل ربك ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي وبشروه بولدٍ يُولد له من زوجته سارة يكون عالمًا عند بلوغه.

قال أبو حيان: وفيه تبشيرٌ بحياته حتى يكون من العلماء[(٢)]، والجمهور على أن المُبشَّر به هو إسحاق ... لقوله تعالى في سورة هود ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١][(٣)].

۞ ثم قام إبراهيم عليه السلام بخدمتهم بنفسه... وقد كان رسولنا محمد ﷺ يخدم الضيف بنفسه، وكذلك كان أصحابه وأتباعه رضي الله عنهم.

۞ ولما قَدِمَ وفد النجاشي عليه ﷺ لم يُمكِّن أحدًا أن يخدمهم غيره، وقال: «**إنهم كانوا لأصحابنا مُكرمين، وأنا أريد أن أكافئهم على ذلك**».

وكان السلف يعدون ليلة الضيف كأنها عيد، لما يحصل لهم من السرور.

وكذلك ينبغي للمُضيف أن يتولى صَبَّ الماء لغسل يديه بعد الطعام.

۞ ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ يحض على إكرام الضيف.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٣٩).

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٧١١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليُكرم ضَيفهُ، ومَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليَصِل رَحِمَهُ، ومَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليَقُل خيرًا أو ليَصمُت»(١).

۞ «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه»، وهذا من باب الحَثِّ والإغراء على إكرام الضيف ... يعنى أن إكرام الضيف من علامة الإيمان بالله واليوم الآخر ومن تمام الإيمان بالله واليوم الآخر.

وذلك أن الذى يكرم ضيفه يُثيبه الله تعالى يوم القيامة وربما أثابه فى الدنيا ويوم القيامة...كما قال الله تعالى:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ [الشورى:٢٠] فيُثيبه الله فى الدنيا بالخلف وفى الآخرة بالثواب ولهذا قال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

وإكرام الضيف يختلف بحسب أحوال الضيف ... فمن الناس مَن هو من أشراف القوم ووجهاء القوم فيكرم بما يليق به .... ومن الناس مَن هو من بُسطاء القوم فيكرم بما يليق به ومنهم مَن هو دون ذلك.

فالمهم أن النبى (عليه الصلاة والسلام) أطلق الإكرام فيشمل كل الإكرام فمن الناس مَن إذا نزل بك ضيفًا لا يُرضيه أن تأتى له بطعام عليه دجاجتان وما أشبه ذلك .. بل يحتاج إلى أن تأتى بطعام عليه ذبيحة ويكون من إكرامه أيضًا أن تدعو جيرانك وما أشبه ذلك .. ومن الناس مَنْ هو دون ذلك.

المهم أن النبى ﷺ لم يُقيد الإكرام بشىء بل أَطلَق فيكون راجعًا إلى ما يَعُدُّه الناس إكرامًا(٢).

۞ ووضح النبى ﷺ أن جائزة الضيف هى إكرامه يومًا وليلةً وأما ضيافته

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٦٧) كتاب البيوع، ومسلم (٢٥٥٧) كتاب البر والصلة.
(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٠١-٤٠٢).

ثلاثة أيامٍ بلياليها ... فإن استضفته أكثر من ذلك فهى صدقة.

(٧١٢) وعن أَبي شُرَيْح خُوَيْلِدِ بن عَمرو الخُزَاعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ» قالوا: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رسول الله؟ قَالَ: «يَوْمُهُ وَلَيْلَتُهُ، وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ»[1].

وفي روايةٍ لِمسلم: «لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْثِمَهُ» قالوا: يَا رسول الله، وَكَيْفَ يُؤْثِمُهُ؟ قَالَ: «يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلاَ شَيْءَ لَهُ يَقْرِيه بِهِ»..

۞ فكانت الجائزة للضيف أن تتكلف له يومًا واحدًا وليلة، خاصة إذا كان غريبًا آتيًا من مكانٍ بعيد ونزل عندك ضيفًا... وإذا كان فى مكانٍ ليس فيه فنادق، وليس فيه محلات للأطعمة، فإما أن تُطعمه وإما أن يبيت فى الشارع.

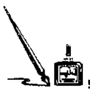
فدليل إيمانك بالله واليوم الآخر أن تكرم هذا الضيف الذى نزل بك.

والواجب الذى عليك فى هذه الحالة هو إكرامه يومًا وليلة، والمُستحب ثلاثة أيام ولياليهن، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه.

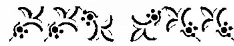
وكأن ذلك إشارة للضيف ألا تُثقل، فهل تريد أن تكون مثل السائل الذى يسأل فيُتصدق عليك فى هذه الأيام؟ فإذا نزلت على إنسان فإنه يكفيك يوم وليلة، وإذا زاد ذلك فثلاثة أيام ولياليهن، وما زاد على ذلك فمعناه أنك تستجدى منه، فتطلب منه أن يعطيك صدقة فوق الثلاثة الأيام، فلا تُحرج الذى نزلت عنده.

۞ ولكن هناك أدبٌ عظيم علَّمه النبى ﷺ لأمته: ألا وهو أنه لا يَحِلُّ لمسلمٍ أن يُطيل المُقام عند أخيه إذا كان فقيرًا ولا يملك شيئًا يُضيفه به.

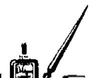
(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٩) كتاب الأدب، ومسلم (٤٨) كتاب الإيمان.



فإذا وجد الضيف أن صاحب البيت رقيق الحال، أو لا يستطيع أن يقوم بواجب الضيافة كما ينبغي، فإنه لا يطيل المُكث عنده بحيث يجعله يشعر بالحرج، أو الضيق، أو يدفعه إلى اغتياب الضيف، أو الشعور بالإثم، أو الاستدانة، ونحو ذلك ... كما قال ﷺ: «**لَا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أخِيهِ حَتَّى يُؤْثِمَهُ**» قالوا: يَا رسول الله، وَكَيْفَ يُؤْثِمُهُ؟ قَالَ: «**يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يَقْرِيهِ بِهِ**»[1] . أي: لا شيء عنده يُضيفه به.



(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨) كتاب اللقطة.



(٩٥) باب استحباب التبشير والتهنئة بالخير

ما أجمل أن نحمل البشريات الجميلة لمن حولنا من أجل أن نُدخل السعادة على قلوبهم فنكون من أحب عباد الله إلى الله (جلَّ وعلا).

فقد قال رسول الله ﷺ « **أحَبُّ النَّاسِ إِلَى الله أَنْفَعُهُمْ وأحَبُّ الأعمَالِ إِلَى الله عز وجل سُرُورٌ تُدخِلُهُ على مُسلِمٍ**...»(١).

والبشارة تكون في الأمور التي تَسُر ... وسُميت بذلك لأن الإنسان كان إذا بُشِّر بما يَسُره ظهر أثر ذلك في وجهه وفي بَشرته ... وقد تكون البشارة فيما يسوء مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

والبشارة فيما يَسُر تكون فيما يَسُر في الآخرة، وفيما يَسُر في الدنيا.

أما البشارة فيما يَسُر في الآخرة فكثيرة، ذكرها الله في القرآن في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥] وقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] وقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة:٢١-٢٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣].

هذا كله فيما يتعلق بأمور الآخرة.

ومن الأمور التي تبشر بالخير في أمور الآخرة: الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له... مثل أن يرى إنسانٌ رؤيا فيُقال له في المنام مثلًا: بَشِّر فلانًا بأنه من أهل الجنة فيبشره ... فهذه بشرى.

---

(١) حسن: رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٦).

كذلك أيضًا .. فالإنسان إذا رأى من نفسه أنه ينقاد للخير والعمل الصالح ويرغب فيه ويحبه وأنه يكره الشر فهذه أيضا بشرى لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل:٥-٧]

۞ وأما البشارة فيما يتعلق بأمر الدنيا فمثل قوله تعالى عن إبراهيم الخليل. ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١] ، يعنى إسماعيل عليه السلام...

ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣] ، يعنى إسحاق عليه السلام.

وكذلك قال الله تعالى عن امرأة إبراهيم: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فهذه أيضًا بشارة للأنثى.

فالحاصل أن البشارة تكون فى أمور الآخرة وفى أمور الدنيا.

وينبغى للإنسان أن يكون مُتفائلًا مُستبشرًا بالخير، وألا يرى الدنيا أمامه كالحة مُظلمة فيستحسر ويَقنَط.

(٧١٣) عن أَبى إبراهيم، ويقال: أَبُو محمد، ويقال: أَبُو معاوية عبد اللهِ بن أَبى أَوفى رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ بَشَّرَ خَدِيجَةَ رضي الله عنها ببَيْتٍ فى الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ، وَلا نَصَبَ(١).

۞ فهذه بُشرى عظيمة لأمنا خديجة رضي الله عنها حملها جبريل عليه السلام للنبى ﷺ ليخبره بأن الله عز وجل قد أعدَّ لها بيتًا فى الجنة من قصب .. أى: من اللؤلؤ المجوف ليس فيه صَخَب ولا ضوضاء بل هو بيت فى قمة الهدوء كما كانت توفر الهدوء للنبى ﷺ فى بيته ... وذلك البيت ليس فيه نَصَب ولا تعب كما كانت تحرص دائمًا على راحة النبى ﷺ ومسح التعب عنه فى الدنيا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨١٩)، (٣٨٢٠) كتاب مناقب الأنصار، ومسلم (٢٤٣٣) كتاب فضائل الصحابة.

القصب هنا: اللؤلؤ المجوف - الصَّخَب: الصياح واللغط - والنَّصَب: التعب.

۞ فخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هى أول مَن آمنت بالله - من النساء - ... وأول مَن صلَّت مع رسول الله ﷺ... وأول مَن رُزق منها الأولاد... وأول مَن بشَّرها بالجنة من أزواجه... وأول مَن أقرأها ربها السلام... وأول صِدِّيقة من المؤمنات وأول زوجات النبى ﷺ وفاة... وأول قبر نزل فيه النبى الكريم ﷺ بمكة... آمنت به حين كفر به الناس وصدقته حين كذَّبه الناس وواسته بمالها حين بخل الناس ورزقه الله منها الولد(١).

۞ وأم المؤمنين خديجة هى أول امرأة تزوجها النبى ﷺ ... تزوجها وهو ﷺ ابن خمسٍ وعشرين سنة، ولها أربعون سنة من زوج سابق قبله، وولدت له بناته الأربع وأولاده الاثنان، ولم يتزوج عليها أحدًا حتى ماتت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ... وكانت امرأة عاقلة ذكية حكيمة، لها مآثر طيبة معروفة يجدها مَن يراجع ترجمتها فى كتب التاريخ ... وكانت تُسامى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يعنى أنها هى وعائشة أفضل نساء الرسول (عليه الصلاة والسلام) وأحب نسائه إليه.

واختلف العلماء أيهما أفضل؛ فقيل: عائشة، وقيل: خديجة، والصحيح أن لكل واحدة منهما مزية تختص بها، لا تشاركها فيها الأخرى.

فلعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فى آخر الرسالة، وبعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام، من نشر الرسالة والعلم والشريعة ما ليس لخديجة.

وخديجة لها فى أول الرسالة ومُناصرة النبى ﷺ ومُعاضدته ما ليس لعائشة، فلكل واحدة منهما مزية.

أما الفضيلة الكبرى فكفى لهما فخرًا أنهما أحب نساء النبى ﷺ إليه، ويكفى هذا، وأما الفضائل فكل واحدة لها فضيلة(٢).

---

(١) أمهات المؤمنين / د. محمود المصرى (ص ١٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٠٨).

۞ وقد كان النبى ﷺ يحرص دائمًا على أن يحمل البشرى لأزواجه وأصحابه .. بل ولأُمته ﷺ .

۞ فها هو الحبيب ﷺ يحمل البشرى لعشرة من الصحابة رضي الله عنهم ليبشرهم بالجنة.

قال ﷺ: «**أبو بكر فى الجنةِ، وعمر فى الجنةِ، وعثمانُ فى الجنةِ، وعلىٌّ فى الجنةِ، وطلحةُ فى الجنةِ، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعدُ بن أبى وقاص فى الجنةِ، وسعيدُ بن زيد فى الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنةِ**»[1] .

۞ وها هو يبشر أربعة من الصحابة بأن الجنة تشتاق إليهم.

قال ﷺ: «**إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علىّ وعمار وسلمان**»[2] .

وفى رواية: «**اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: علىّ وعمار وبلال**»[3] .

فبمجموع الروايتين نجد أن الجنة اشتاقت إلى أربعة: علىّ وعمار وبلال وسلمان رضي الله عنهم .

۞ وها هو ﷺ يبشر أم سعد بن معاذ رضي الله عنهما بأن ابنها سعد قد اهتز عرش الرحمن لموته.

۞ عن أسماء بنت يزيد بن السَّكن قالت: لما توفى سعد بن معاذ صاحت أمه فقال النبى ﷺ : «**ألا يرقا دمعك ويذهب حزنك بأن ابنك أول مَن ضحك الله له واهتز له العرش؟**»[4] .

۞ وها هو يبشر عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما بالشهادة.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على جبل حِراء هو وأبو بكر

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذى والضياء وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠).

(٢) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٣) رواه الترمذى والحاكم (٣/ ١٣٧)، وصححه ووافقه الذهبى.

(٤) رواه الطبرانى والحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ فما عليك إلا نبى أو صدِّيق أو شهيد»(١).

❁ وها هو يبشر ابن مسعود رضي الله عنه بأن ساقيه أثقل فى الميزان يوم القيامة من جبل أُحد.

فعن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكًا من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤهُ فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «مِمَّ تضحكون؟» قالوا: يا نبيٍ الله من دقة ساقيه، فقال: «والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أُحدٍ(٢) - أى من جبل أُحُدٍ».

(٧١٤) وعنْ أبى موسى الأشعرىِّ رضي الله عنه أنَّهُ توضَّأ فى بيته، ثُمَّ خرَجَ فقال: لألْزَمَنَّ رسُولَ الله ﷺ، ولأكُونَنَّ مَعَهُ يوْمِى هذا، فجاءَ المسْجِدَ، فسأَلَ عن النَّبِىِّ ﷺ فقالوا: وَجَّهَ ههُنَا، قال: فخَرَجْتُ على أثَرِهِ أسأَلُ عنه، حتَّى دَخَلَ بئْرَ أريسٍ فجَلَسْتُ عِنْدَ الباب حتَّى قَضَى رسُولُ الله ﷺ حاجَتَهُ وتوضَّأ، فقُمْتُ إليْهِ، فإذا هُو قَد جلَس على بئر أريس، وتوسَّطَ قُفَّهَا، وكَشَفَ عنْ ساقَيْهِ ودلَّاهُما فى البئر، فسلَّمْتُ عَلَيْه ثُمَّ انْصرفْتُ، فجَلسْتُ عِند الباب فقُلت: لأكُونَنَّ بوَّاب رسُولِ الله ﷺ اليوْم.

فجاءَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فدفَع الباب فقُلتُ: مَنْ هذا؟ فقَالَ: أبُو بكرٍ، فقُلت: على رِسْلِك، ثُمَّ ذَهَبْتُ فقُلتُ: يا رسُول الله هذا أبُو بَكرٍ يستأذِن، فقال: «ائْذَنْ له وبشِّره بالجَنَّةِ» فأقْبَلْتُ حتَّى قُلت لأبى بكر: ادخُل ورسُولُ الله ﷺ يُبشِّرُكَ بالجنَّةِ، فدخل أبُو بكر حتَّى جلَس عنْ يمينِ النَّبىِّ ﷺ معَهُ فى القُفِّ، ودلَّى رِجْلَيْهِ فى البئرِ كما صَنَعَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤١٧) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٢٠- ٤٢١)، والطبرانى فى الكبير (٩/ ٧٥) وهو صحيح بمجموع طُرقه.

رسُولُ الله ﷺ، وكَشَفَ عنْ ساقيْهِ، ثُمَّ رَجَعتُ وجَلسْتُ، وقد تركْتُ أخى يتوضأُ ويلْحقُنى، فقُلْتُ: إنْ يُرِدِ الله بفُلانٍ ـ يُريدُ أخاهُ ـ خيرًا يأْتِ بهِ.

فإذا إنْسانٌ يحرِّكُ الباب، فقُلت: مَنْ هذا؟ فقال: عُمَرُ بنُ الخطابِ، فقُلْتُ: عَلى رِسْلِكَ، ثُمَّ جئتُ إلى رسُولِ الله ﷺ، فسلَّمْتُ عليهِ وقُلْتُ: هذا عُمرُ يَستأذِنُ؟ فقالَ: «ائْذَنْ لهُ وبشِّرهُ بالجنَّةِ» فجِئتُ عمر، فقُلْتُ: أَذِنَ ويُبشِّرُكَ رسُولُ الله ﷺ بالجنَّةِ، فدَخَل فجَلسَ معَ رسولِ الله ﷺ فى القُفِّ عنْ يسارِهِ ودَلَّى رِجْليْهِ فى البِئرِ، ثُمَّ رجعتُ فجلَسْتُ فقُلْتُ: إن يُرِدِ الله بفلانٍ خيرًا ـ يعنى أخَاهُ ـ يأْتِ بهِ.

فجاء إنْسانٌ فحركَ الباب فقُلْتُ: مَنْ هذا؟ فقال: عُثْمان بنُ عفانَ، فقُلتُ: عَلى رِسْلِكَ، وجئْتُ النَّبىَّ ﷺ، فأخْبرتُهُ فقال: «ائْذَنَ لهُ وبَشِّرهُ بالجنَّةِ معَ بَلْوى تُصيبُهُ» فجئتُ فقُلتُ: ادخُلْ ويُبشِّرُكَ رسُولُ الله ﷺ بالجنَّةِ معَ بَلْوَى تُصيبُكَ، فدَخَل فوَجد القُفَّ قَد مُلِئَ، فجَلَس وُجَاهَهُم مِن الشِّقِّ الآخرِ.

قال سَعيدُ بنُ المسَيَّبِ: فأوَّلْتُها قُبُورهمْ[1].

وزاد فى رواية: وأَمَرنى رسُولُ الله ﷺ بحِفْظِ الباب، وفيها: أَنَّ عُثْمانَ حينَ بشَّرهُ حمِدَ الله تعالى، ثُمَّ قال: الله المستعانُ.

۞ فمن بين أحاديث البشارة حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه.

فقد أخبر أنه توضأ فى بيته ثم خرج يطلب النبى ﷺ يريد أن يتقرب إلى الله عزوجل بخدمة النبى ﷺ.

وفى هذا: دليل على أن الإنسان ينبغى إذا خرج من بيته أن يكون متوضئًا لأجل أن يكون مستعدًا للصلاة وهو خارج البيت، فإذا جاء وقت الصلاة وهو فى مكانٍ لا يوجد فيه ماء كان على طهارة وصلى .. وإذا حضرت جنازة صلى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٧٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٠٣) كتاب فضائل الصحابة.
قوله: «وجَّهَ» أى: توجَّهَ. «والقُفُّ» هو المبْنِىُّ حوْلَ البئرِ. قوله: «على رِسْلِكَ» أى: ارفُقْ.

عليها وهو خارج البيت، أو على الأقل يكون على طُهر، لأن كون الإنسان على طُهر أفضل من أن يكون على غير طهر، وربما أيضًا يحصل له الموت في هذا الوقت فيكون على طُهرٍ، فالإنسان يحرص ما استطاع أن يكون على طُهر لاسيما إذا خرج من بيته.

فالشاهد أن أبا موسى رضي الله عنه لما خرج من بيته قال: لألزمنَّ رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومي هذا... فذهب إلى المسجد وسأل عن النبي ﷺ فلم يجده.. فقد كان النبي ﷺ إما أن يكون في المسجد أو في بيته في مهنة أهله يُساعدهم ويُعلمهم ... وإما في مصالح أصحابه رضي الله عنهم.. فلما لم يجد النبي ﷺ في المسجد وأشاروا إليه أنه ﷺ قد توجَّه نحو بئر أريس -وهي بئر حول قباء- فذهب أبو موسى في إثره ﷺ حتى وصل إلى البئر فوجد النبي ﷺ هناك فجلس عند الباب حتى قضى النبي ﷺ حاجته وتوضأ ثم جلس على قُفّ البئر - يعني على حافته- ودلَّى رجليه وكشف عن ساقيه ... وكأنه كان في يومٍ حار فأراد النبي ﷺ أن يتبرد بجلوسه على حافة البئر.. فهذا البئر فيه ماء.. والماء قريب وحوله الأشجار والنخيل والظلال.. ومن المعلوم أن الإنسان إذا جلس على حافة البئر ودلَّى رجليه فإنه يأتيه من بُرودة الماء الذي في البئر فيرتاح لذلك.

المهم أنه بعد أن جلس النبي ﷺ على حافة البئر دخل أبو موسى بعد أن استأذن فسلَّم عليه ثم انصرف ليترك النبي ﷺ في خلوته ولا يزعجه.. بل وفوق ذلك فقد قرر أن يكون بواب رسول الله ﷺ وأن يقف على باب البئر حتى لا يأتي إليه أحدٌ فيقطع عليه خلوته ويُزعجه.

وقد تكون تلك المهمة ضئيلة إذا كانت لأي إنسان.. لكنها عظيمة جدًّا إذا كان الإنسان سيكون بوَّابًا لرسول الله ﷺ.

۞ ظل النبي ﷺ جالسًا مُستمتعًا على حافة البئر .. فقد كانت بمثابة فترة راحة قصيرة من أعباء الدعوة وهموم الحياة.

وظل أبو موسى واقفًا على الباب.. وفجأة جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذى كان لا يحب أن يغيب عنه النبى صلى الله عليه وسلم..جاء أبو بكر وطرق على الباب واستأذن..

فقال أبو موسى: مَن؟ .. فقال: أبو بكر.

فطلب منه أبو موسى أن ينتظر حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال للنبى صلى الله عليه وسلم: هذا أبو بكر يستأذن، فقال: «**ائذن له وبشِّره بالجنة**»، فأذن له وقال له: يبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة.. فالله عز وجل أوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم بذلك.

ويا لها من بشارة ... يبشره بالجنة ثم يأذن له أن يدخل ليكون مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

فدخل ووجد النبى صلى الله عليه وسلم متوسطًا القفّ فجلس عن يمينه؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم يُعجبه التيامن فى كل شىء، فجلس أبو بكر على يمينه، وصنع مثل ما صنع النبى صلى الله عليه وسلم ... دلّى رجليه فى البئر، وكشف عن ساقيه كراهة أن يخالف النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الجلسة، وإلا فليس من المشروع أن يجلس الإنسان على بئرٍ ويُدلى رجليه ويكشف عن ساقيه، لكنه لا يحب أن يجلس مع النبى صلى الله عليه وسلم على غير الهيئة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس عليها.

۞ وكان أبو موسى قد ترك أخاه فى البيت يتوضأ فقال فى نفسه: إن يُرد الله بأخى خيرًا يأت به لعلَّ النبى صلى الله عليه وسلم يبشره بالجنة... وتأمل معى كيف كان الأخ يحب الخير لأخيه فى ذلك الزمان.

۞ ظل أبو موسى ينتظر لعلَّ أخاه يأتى ويُبشَّر بالجنة لكنه لم يأتِ.. وفجأة طرق الباب للمرة الثانية فقال أبو موسى: مَن بالباب؟ .. فقال عمر رضي الله عنه: عمر ابن الخطاب.

فطلب منه أبو موسى أن ينتظر حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن عمر يستاذن فقال له صلى الله عليه وسلم: «**ائْذَنْ لهُ وبشِّرهُ بالجنَّةِ**».. فذهب إليه أبو موسى

وقال له: ادخل ويبشرك النبى ﷺ بالجنة.

فدخل عمر فوجد النبى ﷺ ومعه أبو بكر وقد جلسا على حافة البئر فجلس عن يسار الرسول ﷺ.. والبئر ضيقة لكن المكان الضيق يَسَع كل المتحابين.. والمكان الفسيح لا يَسَع المتباغضين.

فجلس عمر رضي الله عنه عن يسار النبى ﷺ.. ودلّى رجليه فى البئر.. وكان الثلاثة فى جانبٍ واحد.

قال أبو موسى: ثم رجعت فجلست، فقلت: إن يُرد الله بفلانٍ خيرًا - يعنى: أخاه- يأتِ به، فجاء إنسان فحرك الباب، فقلت: مَن هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فطلب منه أبو موسى أن ينتظر حتى يستأذن رسول الله ﷺ.

فذهب أبو موسى وأخبر النبى ﷺ أن عثمان يستأذن فقال له ﷺ: «**ائْذَنَ لَهُ وبَشِّرهُ بالجنَّةِ معَ بَلْوى تُصيبُهُ**».

فأذن له وقال: يبشرك الرسول ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك، فاجتمع فى حقه نعمة وبلوى، فدخل فوجد القُف قد امتلأ، لأنه ليس واسعًا كثيرًا، فذهب إلى الناحية الأخرى تجاههم وجلس فيها، ودلّى رجليه، وكشف عن ساقيه.

أوَّلها سعيد بن المسيب - أحد كبار التابعين- على أنها قبور هؤلاء؛ لأن قبور الثلاثة كانت فى مكانٍ واحد، فالنبى ﷺ وأبو بكر وعمر كلهم كانوا فى حجرة واحدة..دُفنوا جميعًا فى مكانٍ واحد، وكانوا فى الدنيا يذهبون جميعًا ويرجعون جميعًا، ودائمًا يقول النبى ﷺ: «**ذهبت أنا وأبو بكر وعمر**»، «**وجئت أنا وأبو بكر وعمر**»، فهما صاحباه ووزيراه، ويوم القيامة يخرجون من قبورهم جميعًا.

فجلس عثمان رضي الله عنه تجاههم، وبشره ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبه.

وهذه البلوى هى ما حصل له رضي الله عنه من اختلاف الناس عليه وخروجهم عليه، وقتلهم إياه فى بيته رضي الله عنه، حيث دخلوا عليه فى بيته فى المدينة وقتلوه وهو

يقرأ القرآن، وكتاب الله بين يديه.

ويذكر بعض المؤرخين أن قطرة من الدم نزلت على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. والله أعلم.

لكن على كل حال .. هو رضي الله عنه كان معروفًا بكثرة القراءة والتهجُّد، فدخل عليه أولئك المعتدون الظالمون فقتلوه... فقُتل شهيدًا.

وبذلك تحقق قول الرسول عليه الصلاة والسلام حينما صعد على جبل أُحد - وهو جبل معروف كبير فى المدينة - هو وأبو بكر وعمر وعثمان، وارتجَّ بهم الجبل، وهذا من آيات الله... ليس هو ارتجاج نقمة وخسف، لكنه ارتجاج فرح.. فلما ارتجَّ بهم الجبل قال له النبى صلى الله عليه وسلم: «**اثبت أُحد، فإنما عليك نبىٌّ وصدِّيق وشهيدان**» ... فالنبى هو عليه الصلاة والسلام، والصدِّيق أبو بكر، والشهيدان: عمر، وعثمان.

وكلاهما رضي الله عنهما قُتل شهيدًا... أما عمر فقُتل وهو مُتقدم لصلاة الفجر بالمسلمين... قُتل فى المحراب، وأما عثمان فقُتل وهو يتهجد فى بيته فى صلاة الليل (فرضى الله عنهما)، وألحقنا وصالح المسلمين بهما فى دار النعيم المقيم.

فهذه القصة فيها بشارة لأبى بكر وعمر وعثمان، ولذلك ذكرها المصنف رحمه الله فى هذا الباب... فرضى الله عنهم جميعًا، وجعلنا والمسلمين ممن يُحشرون فى زمرة محمد صلى الله عليه وسلم(١).

(٧١٥) وعنْ أبى هريرة رضي الله عنه قال: **كُنَّا قُعُودًا حَوْل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومَعَنا أبُو بكر وعُمَر رضي الله عنهما فى نَفَر، فقامَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مِن بينِ أظْهُرِنا فأبْطأ علَيْنا وخَشِينا أنْ يُقْتَطَعَ دُونَنا وفَزِعنَا فقُمنا، فكُنْتُ أوَّل مَن فَزِع.**

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٤٠٩-٤١٠) بتصرف.

فخَرَجْتُ أبْتغى رسُول الله ﷺ، حتَّى أتَيْتُ حائطًا للأنصار لِبَنى النَّجَّارِ، فدُرتُ بِهِ هَلْ أجِدُ لهُ بابًا، فلَمْ أجِد، فإذا ربيعٌ يدخُلُ فى جوْف حائط مِن بئرٍ خارِجَه - والرَّبيعُ: الجَدوَلُ الصَّغيرُ - فاحتَفزْتُ، فدَخلْتُ على رسُول الله ﷺ.

فقال: «أبو هُريرة؟» فقُلْتُ: نَعم يا رسُول الله، قال: «ما شأنُكَ؟» قلتُ: كُنْتَ بيْنَ أظهُرِنَا فقُمْتَ فأبطأتَ علينا، فخَشِينا أنْ تُقتطَع دونَنا، ففزعنَا، فكُنْتُ أوَّل مَن فزِعَ فأتَيْتُ هذا الحائط، فاحتَفَزْتُ كَما يَحتَفِزُ الثَّعلبُ، وهؤلاء النَّاسُ ورَائى.

فقال: «يا أبا هُريرة» وأعطانى نَعلَيْهِ، فقال: «اذْهَبْ بِنَعلَيَّ هاتَيْنِ، فَمنْ لقيتَ مِن ورَاءِ هذا الحائطِ يَشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُه، فبَشِّرهُ بالجنَّةِ» وذكَر الحديثَ بطُولِهِ[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٢٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٧١٦) وعنْ ابنِ شماسَةَ قالَ: حَضرنَا عَمْرو بنَ العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهُوَ فى سِياقَةِ المَوْتِ فبَكى طويلًا، وحَوَّلَ وجْهَهُ إلى الجدارِ، فجَعَل ابْنُهُ يقولُ: يا أبَتَاهُ، أمَا بَشَّرَكَ رسُولُ الله ﷺ بكَذَا؟ أما بشَّرَكَ رسُولُ الله ﷺ بكَذَا؟ فأقْبَلَ بوَجْهِهِ فقالَ: إنَّ أفْضَلَ ما نُعِدُّ شَهَادَةُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ مُحمَّدًا رسُول الله، إنِّى قَد كُنْتُ عَلى أطْباقٍ ثلاثٍ: لَقَد رأيْتُنى ومَا أحَدٌ أشَدَّ بُغْضًا لرَسُولِ الله ﷺ مِنِّى، ولا أحبَّ إليَّ مِن أنْ أكُونَ قَدِ استمْكَنْت مِنْهُ فقتَلْته، فلَوْ مُتُّ عَلى تِلْكَ الحالِ لكُنْتُ مِنْ أهْلِ النَّارِ.

فَلمَّا جَعَلَ الله الإسلامَ فى قَلْبى أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فلأُبَايِعكَ، فبَسَطَ يمِينَهُ فقَبَضْتُ يَدِى، فقال: «ما لكَ يا عمرو؟» قلت: أرَدتُ أنْ أشْتَرِطَ، قال:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٣١) كتاب الإيمان.

«الرَّبيعُ» النَّهرُ الصَّغِيرُ، وهُو الجدوَلُ بفتح الجيم كما فسَّرهُ فى الحديث. وقوله: «احتَفَزْت» روىَ بالرَّاءِ وبالزَّاى، ومعناه بالزاى: تضَامَمْتُ وتصَاغَرتُ حتَّى أمكَنَنى الدُّخُولُ.

«تَشْتَرِطُ ماذا؟» قُلْتُ: أنْ يُغْفَرَ لى، قالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإسلامَ يهْدِمُ ما كانَ قَبلَهُ، وأنَّ الهِجْرَةَ تَهدمُ ما كان قبلها، وأنَّ الحجَّ يَهدِمُ ما كانَ قبلَهُ؟».

وما كان أحَدٌ أحَبَّ إلىَّ مِن رسولِ الله ﷺ، ولا أجَلَّ فى عَينى مِنْه، وما كُنتُ أُطِيقُ أن أملأَ عَينى مِنه إجلالًا له، ولو سُئلتُ أن أصِفَهُ ما أطَقْتُ، لأنِّى لم أكن أملأ عَينى مِنه ولو مُتُّ على تِلكَ الحالِ لرَجَوْتُ أن أكُونَ مِن أهْلِ الجنَّةِ.

ثُمَّ وُلِّينَا أشياءَ ما أدرى ما حَالى فيها؟ فإذا أنا مُتُّ فلا تصحَبنِّى نائِحَةٌ ولا نَارٌ، فإذا دَفَنْتمونى، فشُنُّوا علىَّ التُّرابَ شَنًّا، ثم أقِيمُوا حول قَبْرى قَدرَ ما تُنْحَرُ جَزورٌ، ويُقْسَمُ لحمُها، حتَّى أسْتأنِس بكُمْ، وأنظُرَ ما أُراجِعُ به رسُل ربى[(١)] .

❁ ففى هذا الحديث ذكر ابن شماسة أنهم حضروا عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو فى سياقة الموت. ومن المعلوم أن عمرو بن العاص كان من الأذكياء ومن الفطناء فى الجاهلية.

ولولا ذكاؤه ما أرسله الكفار إلى النجاشى ليأتى بالمسلمين المهاجرين هنالك... وقد كاد للمسلمين كيدًا حتى إن عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة الذى كان معه خشى عليهم، وقال: إن بيننا وبينهم أرحامًا... فأراد عمرو بن العاص أن يوقع بين النجاشى وبين المسلمين، وكاد أن يفعل، لولا أن الله سبحانه وتعالى منع حصول ذلك بعدل النجاشى.

حين رفض ان يقرر أى شىء حتى يستمع إلى المسلمين... فلما دعاهم واستمع إلى كلام جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه رفض أن يُسلم المسلمين لعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة.

ثم رجع عمرو بن العاص، وبعد سنين مَنَّ الله عز وجل عليه فأسلم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

قوله: «شُنُّوا» أى: صبُّوهُ قليلًا قليلًا. والله سبحانه أعلم.

وبعدما أسلم شهد له النبي ﷺ ولأخيه بالإيمان فقال: «**عمرو بن العاص وأخوه مؤمنان**»، وبعد موت النبي ﷺ تولى إمارات، وكان أميرًا رضي الله عنه، ثم بعد ذلك جاءته الوفاة، فلما حضرته الوفاة بكى طويلًا، وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه! أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟

فهنا يُستحب إذا كان الإنسان في سياقة الموت أن يبشره مَن حوله، حتى يَقدُم على ربه وهو يُحسن الظن به سبحانه وتعالى.

فعبد الله بن عمرو بن العاص كان يُبشر أباه بقوله: أليس النبي ﷺ بشَّرك بكذا، وبشَّرك بكذا.

فما كان منه إلا أن أقبل بوجهه فقال له: إن أفضل ما نُعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

أي: أفضل شيء أعددناه لهذا اليوم كلمة التوحيد، والشهادة لله عز وجل بأنه الإله وحده.

ثم قال: إني قد كنت على أطباقٍ ثلاث ... يذكر عن نفسه أن أحواله كانت ثلاثة أحوال ...

ومنه قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق: ١٩].. يعني: حالًا بعد حالٍ... ثم بدأ يذكر هذه الأطباق الثلاث فقال رضي الله عنه: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ مني - يعني: في الجاهلية -، ولا شيء أحب إليَّ من أن أكون قد استمكنت منه فقتلته... فانظر إليه في الجاهلية! كان يتمنى أن يقتل النبي ﷺ... قال: فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النار... وهذا من لُطف الله عز وجل به.. لأنه حال بينه وبين أن يفعل ذلك.

ثم ألقى الله الإسلام في قلبه بعد ذلك فذهب إلى النبي ﷺ ليُسْلِم فلما رأى النبي ﷺ قال له: يا رسول الله ابسط يدك فلأبايعك.. وكان النبي ﷺ أحسن

الناس خُلقًا.. ففى لحظة واحدة نسى عداوته له أكثر من عشرين سنة..

فبسط النبى ﷺ يده لعمرو بن العاص رضي الله عنه .. ولكن عمرو قبض يده فتعجب النبى ﷺ وقال له: «**مالك؟**» قال: يا رسول الله، إنى أشترط - يعنى على الإسلام - قال: «**ماذا تشترط؟**» قال: أشترط أن يُغفر لى.

هذا أكبر همه رضي الله عنه ، يشترط أن الله يغفر له... ظن أن الله لن يغفر له لما كان له من سابقة فى محاربة الدين. فقال له النبى ﷺ: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**» ثلاثة أشياء.

أما الإسلام فإنه يهدم ما كان قبله بنَصِّ الكتاب العزيز.

قال الله عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨] ... والهجرة: إذا هاجر الإنسان من بلده التى كان يعيش فيها وهى بلد كفر، هدمت ما قبلها.

والحج يهدم ما قبله لقول النبى ﷺ : «**مَن حجَّ فلم يَرفُث ولم يَفسُق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[(١)].

ففرح عمرو بذلك فرحًا شديدًا وبايع النبى ﷺ وأسلم بين يديه.

وألقى الله عز وجل حُب النبى ﷺ فى قلب عمرو بن العاص رضي الله عنه حتى أنه قال: وما كان أَحَدٌ أَحَبَّ إلىَّ مِن رسولِ الله ﷺ، ولا أجَلَّ فى عَينى مِنْه، وما كُنتُ أُطِيقُ أن أملأَ عَينى مِنه إجلالًا له، ولو سُئلتُ أن أَصِفَهُ ما أطَقْتُ، لأنِّى لم أكن أملأ عَينى مِنه ... ولو مُتُّ على تِلكَ الحالِ لرَجَوْتُ أن أكُونَ مِن أهْلِ الجنَّةِ.

فتأمل كيف كان حُب النبى ﷺ فى قلبه وإجلاله له.. حتى أنه لم يكن يستطيع النظر فى وجه النبى ﷺ حياءً منه ... حتى أنه لا يستطيع أن يصف النبى ﷺ الذى كان فى صحبته لمدة سنوات!!..

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٢١) كتاب الحج، ومسلم (١٣٥٠) كتاب الحج.

فيقول عمرو رضي الله عنه: ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

سبحان مُقلب القلوب! بالأمس كان يُبغضه بُغضًا شديدًا، حتى أنه كان يتمنى أن يقدر عليه فيقتله، والآن ما يستطيع أن يرفع طرفه إليه إجلالًا له، ولا يستطيع أن يصفه لأنه لا يحيط به، حيث إنه لم يدركه إدراكًا جيدًا مهابة له ﷺ.

يقول رضي الله عنه: إنه لو مات على الطبق الأول لكان من أهل النار.

يقول: ولو مُتُّ على تلك الحال - يعنى الطبق الثانى- لرجوت أن أكون من أهل الجنة. انظر الاحتياط فقد جزم أنه لو مات على الحال الأولى لكان من أهل النار، أما الحال الثانية فإنه لشدة خوفه قال: لو مت على هذه الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ولم يقل: لكنت من أهل الجنة.

لأن الشهادة بالجنة أمرها صعب، نسأل الله أن يجعلنى وإياكم من أهلها.

ثم إنه بعد ذلك تولى أمورًا رضي الله عنه تولى إمارات وقيادات، وحصل ما حصل فى قصة حرب معاوية وغيره...وكان عمرو بن العاص معروفًا أنه من أدهى العرب وأذكى العرب، فيقول: أخشى من هذا الذى حدث بعد الطبق الأوسط أن يكون أحاط بعمله ... ثم أوصى رضي الله عنه أنه إذا مات فلا تتبعه نائحة -والنائحة: هى المرأة التى تنوح على الميت وتبكى عليه بكاءً يشبه نوح الحمام-، وأمر رضي الله عنه إذا دفنوه أن يبقوا عند قبره قدر ما تُنحر جَزور -ناقة- ويُقسم لحمها، حتى يراجع رسل ربه وهم الملائكة الذين يأتون إلى الميت إذا دُفن.

إذا دفن الميت فإنه يأتيه ملكان يُجلسانه فى قبره ويسألانه ثلاثة أسئلة، يقولان: مَن ربك؟ وما دينك؟ ومَن نبيك؟ أما المؤمن الذى ثبته الله بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة - جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه - فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبى محمد ﷺ، يثبته الله فى هذا المقام الضنك.

وأما المنافق - والعياذ بالله - أو المرتاب الذى عنده الشك فيقول: ها ها لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. لأن الإيمان ما دخل إلى قلبه ولا وقر فى قلبه.

فأمر عمرو بن العاص رضي الله عنه أهله أن يقيموا عليه قدر ما تُنحر الجَزور ويُقسم لحمها ليستأنس بهم... وهذا يدل على أن الميت يحس بأهله...

وقد ثبت عن النبى (عليه الصلاة والسلام) أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا من دفنه... قرع النعال الخفى يسمعه الميت إذا انصرفوا من دفنه.

وقد ثبت عن النبى (عليه الصلاة والسلام) أنه كان إذا دفن الميت وقف عليه وقال: «**استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل**»(١)، فيُستحب إذا دُفن الميت أن يقف الإنسان على قبره ويقول: اللهم ثبته، اللهم ثبته، اللهم ثبته، اللهم اغفر له، اللهم اغفر له، اللهم اغفر له.

لأن النبى ﷺ كان إذا سلَّم سلَّم ثلاثًا، وإذا دعا دعا ثلاثًا.

نسأل الله تعالى أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

المهم أن ابن عمرو بن العاص قال له: بشَّرك النبى بالجنة، وهذا من باب البشارة بالخير والتهنئة به(٢).



(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٤٥).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤١٤-٤١٥) بتصرف.

(٩٦) باب وداع الصاحب ووصيته عند فراقه لسفرٍ وغيره والدعاء له وطلب الدعاء منه

۞ قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

وأما الأحاديث : فمنها حديثُ زيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى سبق فى باب إكرامِ أهْلِ بَيْتِ رسول الله ﷺ قَالَ: قامَ رسول الله ﷺ فِينَا خَطيبًا، فحَمِدَ الله، وأثْنَى عَلَيه، ووَعظَ وذَكَّرَ ثُمَّ قال: «أمَّا بَعدُ، ألا أيُّها النَّاسُ إنَّمَا أنا بشرٌ يُوشِكُ أنْ يأْتِي رسُولُ رَبِّى فأُجيبَ، وأَنَا تَارِكٌ فيكُمْ ثَقلَيْنِ: أوَّلهُما: كتاب الله، فيهِ الهُدَى والنُّور، فخُذُوا بكتاب الله، واسْتَمْسِكُوا بِهِ» فحثَّ عَلى كتاب الله، ورغَّبَ فيه، ثُمَّ قال: «وأهْلُ بَيْتى، أُذَكِّرُكُمُ الله فى أهْلِ بَيْتى».

۞ إن من السُّنَّة توديع المسافر، والدعاء له، وطلب الدعاء منه؛ لأن السفر من مواطن قبول الدعاء، كما أن المسافر محتاج للوصية والدعاء من غيره، والسفر قد يكون من بلدٍ إلى بلد، وقد يكون من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

وكان النبى ﷺ إذا بعث جيشًا أو سرية وأمّر عليهم أميرًا قال له: «أوصيك بتقوى الله ومَن معك من المسلمين خيرًا»(١).

وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى مَن يساعده ويُعينه على طاعة ربه لاسيما عند السفر، وذلك لأن السفر مظنة الانشغال والتقصير فى الطاعات ولذلك يحتاج

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير.

المسافر إلى مَن يُذكره ويُثبته دائمًا على الطاعة.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الآيات الواردة فى ذلك فذكر قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وهذه الوصية هو قول الله عَزَّوَجَلَّ فى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: ١٣١]. ولم يتردد فأسلم لله وانقاد له.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ يعنى: وصَّى بهذه الوصية، وهى أن يُسلموا لله عَزَّوَجَلَّ ظاهرًا وباطنًا... فالإسلام الظاهر يكون بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، والإسلام الباطن يكون بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ يعنى أن إبراهيم ويعقوب كلًا منهما وصى بها بنيه قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أى اختاره لكم ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أى اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾ أى بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾؟ أى أىَّ شىء تعبدونه بعدى؟ ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أى لا نعبد إلا إلهًا واحدًا هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أى نحن له وحده مطيعون خاضعون... والغرض تحقيق البراءة من الشرك...

قال تعالى مُشيرًا إلى تلك الذرية الطيبة ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أى تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أى لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أى لا تُسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون فى الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل

وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء[1].

۞ وهكذا.. فهذه الوصية ينبغي لكل مسلم أن يوصي بها نفسه وأن يوصي بها أهله وبنيه وغيرهم بأن يُديموا عبادتهم لله سبحانه وأن تأتيهم الوفاة وهم متمسكون بهذا الدين.

وإذا أردت أن تأتيك الوفاة وأنت على هذا الدين فتمسك به من الآن؛ لأنك لا تدرى متى تأتيك الوفاة...فالمسلم مُستحضِر أنه ربما يموت الآن أو بعد قليل، فيكون متمسكًا بالدين لا يتركه أبدًا إلى الموت.

۞ ومن الأحاديث ما رواه زيد بن أرقم قال: (قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكَّر)، وكانت خُطب النبى ﷺ كلها مواعظ، فقد كان يعظ المؤمنين ويُذكرهم بالله سبحانه وتعالى ويُعلمهم.

ثم قال: «**أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب**»، وهذا فيه التذكير بالموت... وقد قال له ربه سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال له سبحانه وتعالى وللمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

فأخبرهم النبى ﷺ أنه سيموت كما أن كل مَن على الأرض سيموت لأنه لن يبقى إلا الحى الذى لا يموت سبحانه وتعالى.

ثم أخبرهم النبى ﷺ **أنه قد ترك فيهم ثقلين**: كتاب الله الذى فيه الهدى والنور .. فأوصاهم بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ...وكتاب الله عَزَّوَجَلَّ فيه الأمر بطاعة الرسول ﷺ والعمل بسُنته ... ثم أوصاهم بأهل بيته ﷺ أى: لا تظلموهم ولا تبخسوهم

(١) صفوة التفاسير (١/ ٨٥-٨٦).

حقوقهم ... فلعلَّ الناس يجاملونه فى حياته ﷺ، فإذا توفى نسى الناس أهل بيته وأزواجه ﷺ، فيُذكرهم بأن يتقوا الله فيهم.

فعرف الصحابة قدرهم وعرفوا قدر نساء النبى ﷺ، فكانوا يذهبون إلى نساء النبى ﷺ ويتعلمون منهن ما كان من سُنة النبى ﷺ فى بيته وغير ذلك من أحكام هذه الشريعة.

فالنبى ﷺ وصى بالقرآن يعنى: بشرع الله الذى هو: كتاب وسُنة، ووصى الناس بأهل بيته(١).

(٧١٧) وعنْ أبى سُليْمَان مَالك بن الحُوَيْرِثِ رضي الله عنه قال: أتَيْنَا رسولَ الله ﷺ ونَحنُ شَبَبَةٌ متَقَاربُون، فأقمْنَا عِنْدَهُ عشْرينَ لَيْلَة، وكان رسولُ الله ﷺ رَحِيمًا رفِيقًا، فظَنَّ أنَّا قَدِ اشْتَقْنَا أهْلَنَا. فسَألَنا عمَّنْ تَركْنَا مِن أهْلِنَا، فأخْبرنَاهُ، فقال: «ارجِعُوا إلى أهْلِيكم فأقِيمُوا فيهِمْ، وعلِّموهُم ومُرُوهُمْ، وصَلُّوا صَلاةَ كذا فى حينِ كذا، وصَلُّوا صَلاةَ كذَا فى حينِ كذا، فإذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فلْيُؤذِّنْ لكُمْ أحدُكُمْ، وليؤمَّكُم أكبَرُكُم»(٢).

زاد البخارى فى رواية له: «وصَلُّوا كمَا رأيتُمُونى أُصَلِّى».

۞ ففى هذا الحديث يحكى مالك بن الحويرث أنهم كانوا مجموعة من الشباب المتقاربين فى السن فذهبوا إلى النبى ﷺ ليروه وليتعلموا بين يديه وليَسعدوا بالقُرب منه ﷺ... فأقاموا عنده عشرين ليلة ... وانظر إلى رحمة النبى ﷺ ورفقه .. فعلى الرغم من كثرة انشغالاته بشئون الدعوة والجهاد وتعليم أصحابه ومراعاة أزواجه ظلوا عنده عشرين ليلة يهتم بهم ويعلمهم

(١) من أراد المزيد فليرجع إلى شرح الحديث رقم (٣٥٠).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٨) كتاب الأذان، ومسلم (٦٧٤) كتاب المساجد.
قوله: «رَحِيمًا رفيقًا» روِىَ بفاءٍ وقافٍ، وروِىَ بقافين.

ويرفق بهم.. وكان النبى ﷺ رحيمًا ورفيقًا بهم.. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فلما طال مقامهم عند النبى ﷺ أشفق عليهم وظنَّ أنهم يُريدون الرجوع إلى أهليهم، ولكنهم يشعرون بالحرج منه ﷺ .. فلم يتركهم حتى يقولوا: نريد أن نرجع ولكن رحمة منه ﷺ بادرهم وسألهم عمَّن تركوا وراءهم . فأخبروه بمن تركوه .. وكأنه ﷺ يُذكرهم بالرجوع إلى أهليهم حتى لا ينسوهم فى غمار فرحتهم بالقُرب من النبى ﷺ.

فقال لهم: «**ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومُروهم**».

أى: يكفى ما تعلمتموه منِّى فى تلك الأيام الخالية فاذهبوا راشدين إلى أهليكم وعلموهم ما تعلمتموه منِّى ومُروهم بالمعروف ليكون ذلك فى موازين حسناتكم «**ولأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم**».

۞ ثم قال لهم ﷺ: «**وصَلُّوا صَلاةَ كذا فى حينِ كذا، وصَلُّوا صَلاةَ كذَا فى حينِ كذا**»، وكأنه ﷺ ظن أنهم غير مُتقنين لمواقيت الصلاة فأخذ يُذكرهم بالمواقيت مرة أخرى حتى يُحافظوا على الصلوات فى مواقيتها .. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[النساء:١٠٣].

۞ ثم قال لهم ﷺ: «**فإذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فلْيُؤَذِّنْ لكُمْ أحدُكُمْ، وليؤمَّكُم أكبرُكُم**».

فإن قيل: لماذا يؤمهم أكبرهم والمعروف أنه يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله؟ لماذا لم يَقُل: يؤمكم أعلمكم بكتاب الله وبسنة النبى ﷺ؟

الجواب: لا يصح هذا فى هذه الحالة؛ لأنهم مكثوا عشرين يومًا مع النبى ﷺ ولو حفظوا سيحفظ جميعهم مثل بعض، ولم يحاول أن يحفظ أحدهم أكثر من

الثانى، فلم يبقَ تفاضُل بينهم إلا بالسن، فطالما أنهم كلهم ذهبوا إلى النبى ﷺ فى وقتٍ واحدٍ وأخذوا العلم وحفظوا من القرآن خلال عشرين ليلة مثل بعض فلم يبقَ إلا «**وليؤمكم أكبركم**»، وهذا لا يعارض ما جاء فى أحاديث أخرى عنه ﷺ أنه قال: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنة، فإذا كانوا فيها سواء فأقدمهم هجرة**»[1].

فيُقدَّم الأحفظ لكتاب الله ثم الأعلم والأفقه بدين رب العالمين ثم الأقدم هجرة والأكبر سنًّا، لكن إذا لم يوجد إلا خيارٌ واحد بأن يكونوا متساويين فى القرآن والسُّنة والهجرة لم يبقَ إلا بالسن، قال: «**وصَلُّوا مثلما رأيتمونى أصلى**»، والغرض هنا بيان وصية النبى ﷺ.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْأَذَانِ وَالْجَمَاعَةِ وَتَقْدِيمِ الْأَكْبَرِ فِى الْإِمَامَةِ إِذَا اسْتَوَوْا فِى بَاقِى الْخِصَالِ... وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُسْتَوِينَ فِى بَاقِى الْخِصَالِ؛ لِأَنَّهُمْ هَاجَرُوا جَمِيعًا، وَأَسْلَمُوا جَمِيعًا، وَصَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَلَازَمُوهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً فَاسْتَوَوْا فِى الْأَخْذِ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ مَا يُقَدَّمُ بِهِ إِلَّا السِّنُّ. وَاسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ بِهَذَا عَلَى تَفْضِيلِ الْإِمَامَةِ عَلَى الْأَذَانِ لِأَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**يُؤَذِّنُ أَحَدُكُمْ**» وَخَصَّ الْإِمَامَةَ بِالْأَكْبَرِ ... وَمَنْ قَالَ بِتَفْضِيلِ الْأَذَانِ وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمُخْتَارُ قَالَ: إِنَّمَا قَالَ: «**يُؤَذِّنُ أَحَدُكُمْ**» وَخَصَّ الْإِمَامَةَ بِالْأَكْبَرِ لِأَنَّ الْأَذَانَ لَا يَحتَاجُ إِلَى كَبِيرِ عِلْمٍ وَإِنَّمَا أَعظَمُ مَقْصُودِهِ الْإِعلَامُ بِالْوَقْتِ وَالْإِسْمَاعُ بِخِلَافِ الْإِمَامِ وَاللهُ أَعلَمُ[2].

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٦٧٣) كتاب المساجد.

(٢) مسلم بشرح النووى (٥/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٧١٨) وعنْ عُمَر بنِ الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: اسْتأذَنْتُ النبى ﷺ فى العُمْرَةِ، فأذِنَ، وقال: «لا تنْسنَا يا أُخَىَّ مِن دُعائِكَ» فقالَ كَلِمَةً ما يَسُرُّنى أنَّ لى بها الدُّنْيا(١).

وفى رواية قال: «أشْرِكْنا يا أُخَىَّ فى دُعائِكَ».

۞ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبى محمد ﷺ.

(٧١٩) وعن سالمِ بن عبدِ الله بنِ عُمَرَ أنَّ عبدَ الله بنِ عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كانَ يقُولُ للرَّجُلِ إذا أرَادَ سَفرًا: ادنُ مِنِّى حتَّى أودِّعَكَ كمَا كانَ رسولُ الله ﷺ يُودِّعُنا فيقولُ: «أسْتَوْدِعُ الله دِينَكَ، وأمانَتَكَ، وخَواتِيمَ عَمَلِكَ»(٢).

(٧٢٠) وعنْ عبدِ الله بن يزيد الخَطْمِىِّ الصَّحابىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا أرَادَ أنْ يُوَدِّعَ الجيْش قال: «أسْتَوْدِعُ الله دِينكُم، وأمَانَتكُم، وخَواتِيمَ أعمَالِكُمْ»(٣).

۞ ففى الحديث الأول يخبر سالم بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كان يقول للرجل إذا أراد سفرًا: ادنُ مِنِّى -أى: اقترب منى- حتَّى أُودِّعَكَ كمَا كانَ رسولُ الله ﷺ يُودِّعُنا ... فلقد كان ابن عمر من أشد أصحاب النبى ﷺ متابعة للنبى ﷺ .. حتى أنه كان يومًا فى سفرٍ وعلم أن النبى ﷺ كان قد نزل فى هذا المكان وصلى ركعتين ... فما كان منه إلا أن نزل فى نفس المكان وصلى ركعتين كما فعل النبى ﷺ..مع أن ذلك لم يكن سُنة عن النبى ﷺ وإنما كان النبى ﷺ نازلًا فى هذا المكان فصلى ركعتين.

فعبد الله بن عمر كان يقول للرجل الذى يريد أن يسافر: ادنُ منى حتى أُودعك كما كان رسول الله ﷺ يودعنا.

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٢٧٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبوداود، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٤)، وصحيح الجامع (٩٥٧).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٥)، وصحيح الجامع (٤٦٥٧).

ثم يقولُ له: «أَسْتَوْدِعُ الله دِينَكَ، وأمانَتَكَ، وخَواتِيمَ عَمَلِكَ».

وهذا الحديث العظيم معناه جميل جدًّا لمن يتدبره ... يقول ﷺ: «**أستودع الله**» يعنى: أجعل هذه الأشياء التى تخصك وديعة عند الله .. أى: أسأل الله وأدعوه أن يحافظ لك على هذه الأشياء كما يحافظ المودع الأمين على الوديعة التى عنده.. ولله عَزَّوَجَلَّ المثل الأعلى.

«**أستودع الله دينك**» يعنى: ما أنت عليه من دين الإسلام.. والمعنى: أدعو الله أن يحفظ عليك دينك وألا يضلك وأن تظل ثابتًا على هذا الدين.

«**وأمانتك**» سواء كانت الأمانة مع الله أو مع الخلق، فأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يحافظ لك على أمانتك جميعها فتؤدى التكاليف الشرعية ولا تُضيعها، فتحافظ على الصلوات فى وقتها، وتحافظ على صومك، وتحافظ على ما تؤديه من أمانة الله.

«**وخواتيم عملك**»، وفى الحديث: «**الأعمال بالخواتيم**»، فقد يكون الإنسان على عمل صالح وفى آخر حياته كما قال النبى ﷺ: «**فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»، والعياذ بالله.

وقد يكون على عملٍ غير صالح وفى آخر حياته يسبق عليه كتاب الله فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها... فكأنه يودع هذا الإنسان ويسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يحافظ له على هذا العمل حتى يُختم له به.

فتدعو للإنسان المسافر وتوصيه بتقوى الله لأنه سيكون غريبًا فى بلادٍ أخرى لست فيها... وليس هناك مَن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر؛ لذلك توصى الإنسان حين يسافر إلى مكانٍ بقولك: اتقِ الله سبحانه وتعالى، واحذر الفتن، واحذر النساء، واحذر أهل الفسق وأهل الضلال، واحذر الكفار... فلعله يرجع ولعله لا يرجع فتدعو له بقولك: «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**».

۞ وفى الحديث الثانى يوضح عبد الله بن يزيد الخَطْمى رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أن النبى ﷺ كان يوصى نفس الوصية للجيش عندما يودعه فقال: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن

يودع الجيش قال: «**أستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم**»، حتى الجيش الذى يسافر مجاهدًا فى سبيل الله يحتاج لهذه النصيحة ويحتاج لهذه الوصية ولهذا الدعاء... وهذا أَولَى من أن يذهب الإنسان إلى المسافر فيقول له: انتبه لنفسك من كذا! فأنت تجعل الله سبحانه وتعالى هو الذى يرعاه حين تدعو لهذا الإنسان المسافر، ولا مانع من أن تقول للإنسان المسافر: انتبه لنفسك، ولكن لا تنسَ أن تدعو له بهذا الدعاء العظيم «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**».

۞ وهذا لا يتعارض مع أنه ﷺ كان إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ[١]، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ[٢] بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا[٣]، وَلَا تَغْدِرُوا[٤]، وَلَا تُمَثِّلُوا[٥]، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا[٦]**»[٧].

فربما كان يفعل الأمرين ﷺ.. فهو أحرص الناس على أمته ﷺ.

(٧٢١) **وعنْ أنسٍ رضي الله عنه قال: جاءَ رجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال: يا رسُولَ الله انى أُرِيدُ سَفَرًا، فزَوِّدنِي، فقالَ: «زَوَّدَكَ الله التَّقْوَى» . قال: زِدنى، قال: «وغَفَرَ ذَنْبَكَ» قال: زِدنى، قال: «ويَسَّرَ لكَ الخَيْرَ حَيْثُما كُنْتَ»**[٨].

---

(١) سرية: وهى قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه - قال إبراهيم الحربى: هى الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. قالوا: سُمِّيت سرية لأنها تسرى فى الليل ويخفى ذهابها. وهى فعيلة بمعنى فاعلة. يُقال: سرى وأسرى، إذا ذهب ليلًا.

(٢) فى خاصته: أى فى حق نفس ذلك الأمير خصوصًا.

(٣) ولا تغلوا: من الغلول، ومعناه الخيانة فى المغنم، أى: لا تخونوا فى الغنيمة.

(٤) ولا تغدروا: أى: لا تنقضوا العهد.

(٥) ولا تُمثلوا: أى: لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان.

(٦) وليدًا: أى صبيًّا لأنه لا يقاتل.

(٧) صحيح: رواه مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير.

(٨) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٧٩).

۞ وفى هذا الحديث يخبر أنس بن مالك رضي الله عنه خادم النبى ﷺ الذى خدمه عشر سنين وفاز بأعظم منقبة فى هذه الدنيا بأن يكون خادمًا مُلازمًا للنبى ﷺ لمدة عشر سنين.

فهنا يُخبر أنس أن رجلًا جاء إلى النبى ﷺ وقال له : يا رسول الله إنى أُريد سفرًا فزوِّدنى .. يعنى: أعطنى ما أستعين به فى هذا السفر من نصيحة، فقال ﷺ : «زوَّدك الله بالتقوى»، زودك يعنى: أسأل الله عز وجل أن يعطيك التقوى ويجعل التقوى زادك.

وهل هناك زاد أعظم من هذا؟ .. فقد قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ففرح الرجل بهذا وقال للنبى ﷺ: زِدنى... فقال له ﷺ: «**وغفر ذنبك**» يعنى: أسأل الله عز وجل أن يغفر ذنبك.. وما دام النبى ﷺ قد دعا هذا الدعاء لأحدٍ من البشر فاعلم أنه من أهل الجنة.

ففرح الرجل مرة أخرى وقال للنبى ﷺ: زِدنى.

فقال له ﷺ: «**ويسَّر لك الخير حيثما كنت**»، فهذا دعاءٌ جامع لخير الدين والدنيا والآخرة... ماذا تريد بعد التقوى؟ وإذا كان زادك التقوى فاعمل أى عمل لله عز وجل، فإن الله يتقبله منك... لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

وإذا كنت قد زودك الله التقوى فكل الأعمال الصالحة لن يدخلها رياء، فكلها ستكون لله وكلها يقبلها الله عز وجل، وإذا زودك الله التقوى سييسر لك الخير فى كل مكان؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ - ٣].

والتقوى رأس مال المؤمن، وهى عظيمة جدًّا وهى تفتح لك أبواب السعادة

فى الدنيا وفى الآخرة... وإذا زودك الله التقوى تقبل منك عملك ورزقك من حيث لا تحتسب وجعل لك مخرجًا، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق:٢ - ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥]، وتقوى الله جمعت كل خير فى الدنيا وفى الآخرة.

ولذلك ينبغى على المسلم أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ الخير فى سفره، وأن يدعو للمسافر: (زوَّدك الله التقوى، وغفر ذنبك، ويسَّر لك الخير حيثما كنت).

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يزودنا التقوى فى سفرنا للآخرة، وأن ييسر لنا الخير حيثما كنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا[1].



(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطيبة.

(٩٧) باب الاستخارة والمشاورة

۞ نحن نعلم أن احتياجات الإنسان فى حياته كثيرة وأنه قبل أن يخطو أى خطوة فلا بُدَّ أن يستخير الله (جل وعلا) ثم يستشير أهل الخبرة من حوله فيكون بذلك قد أخذ بكل الأسباب التى تَكفُل له النجاح فى حياته... فقد توكل على ربه (جل وعلا) وفى نفس الوقت أخذ بالأسباب.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال الله تَعَالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أىْ: يَتَشَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ فِيهِ.

(٧٢٢) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رسولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الاستِخَارَةَ فى الأُمُورِ كُلِّهَا كَالسُّورَةِ مِنَ القُرآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَركَع ركْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَستَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَستَقْدِرُكَ بِقُدرَتِكَ، وأَسأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيْمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعلَمُ وَلاَ أَعلَمُ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِى فى دِينِى وَمَعَاشِى وَعَاقِبَةِ أَمْرِى» أَوْ قَالَ: «عَاجِلِ أَمْرِى وَآجِلِهِ، فاقْدُرهُ لى وَيَسِّرهُ لِى، ثُمَّ بَارِكْ لِى فِيهِ. وَإِنْ كُنْتَ تَعلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِى فى دِينِى وَمَعَاشِى وَعَاقِبَةِ أَمرِى» أَوْ قَالَ: «عَاجِلِ أَمْرِى وَآجِلِهِ؛ فَاصرِفْهُ عَنِّى، وَاصرِفْنِى عَنْهُ، وَاقْدُر لِىَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أرضِنى بِهِ» قَالَ: «وَيُسَمِّى حَاجَتَهُ»(١).

۞ والاستخارة مع الله... والمشاورة مع أهل الرأى والصلاح.

وذلك أن الإنسان عنده قصور أو تقصير...والإنسان خُلِقَ ضعيفًا فقد تَشكُل عليه الأمور وقد يتردد فيها فماذا يصنع؟ ... لنفرض أنه هَمَّ بسفرٍ وتردَّد هل هو خير أم شر... أو هَمَّ أن يشترى سيارة أو بيتًا أو أن يُصاهر رجلًا - يتزوج ابنته -

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١١٦٦) كتاب التهجد، و(٦٣٨٢) كتاب الدعوات.

أو ما أشبه ذلك ولكنه متردد فماذا يصنع؟

نقول له: هناك طريقان:

الطريق الأول: استخارة رب العالمين عَزَّوَجَلَّ الذى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

الطريق الثانى: استشارة أهل الرأى والصلاح والأمانة.

وكان النبى ﷺ وهو أسَدُّ الناس رأيًا وأصوبهم يستشير أصحابه فى بعض الأمور التى تَشكل عليه وكذلك خلفاؤه من بعده كانوا يستشيرون أهل الرأى والصلاح.

ولا بد من هذين الشرطين فيمن تستشيره أن يكون ذا رأى وخبرة فى الأمور وتأنٍّ وتجربة وعدم تَسرُّع وأن يكون صالحًا فى دينه لأن مَن ليس بصالحٍ فى دينه ليس بأمين حتى وإن كان ذكيًّا وعاقلًا ومُحنَّكًا فى الأمور.

إذا لم يكن صالحًا فى دينه فلا خير فيه وليس أهلًا لأن يكون من أهل المشورة لأنه إذا كان غير صالح فى دينه فإنه ربما يخون والعياذ بالله ويشير بما فيه الضرر أو يشير بما لا خير فيه فيحصل بذلك من الشر والفساد ما الله به عليم.

أما الاستخارة فهى مع الله عَزَّوَجَلَّ... يستخير الإنسان ربه إذا هَمَّ بأمرٍ وهو لا يدرى عاقبته ولا يدرى مستقبله فعليه بالاستخارة.

والاستخارة معناها طلب خير الأمرين ... وقد أرشد النبى ﷺ إلى ذلك بأن يصلى الإنسان ركعتين من غير الفريضة فى غير وقت النهى إلا فى أمرٍ يخشى فواته قبل خروج وقت النهى فلا بأس أن يستخير ولو فى وقت النهى.

أما ما كان فيه الأمر واسعًا فلا يجوز أن يستخير وقت النهى ... فلا يستخير بعد صلاة العصر وكذلك بعد الفجر حتى ترتفع الشمس مقدار رمح وكذلك

عند زوالها حتى تزول ... يصلى ركعتين من غير الفريضة ثم يُسلِّم وإذا سَلَّم قال: «**اللهم إنى أستخيرك بعلمك**».

يعنى: أطلب منك الخير الذى تعلمه بعلمك وأطلب منك أن تعلمنى وأن تدلنى على ما لا أعلم... وفى هذا اعتراف الإنسان بجهله.

«**وأستقدرك**»، السين للاستدعاء على صيغة استفعال.. فالمقصد أنى أطلب منك أن تُقدرنى، فأستقدرك بمعنى أطلب منك بقدرتك أن تُقدرنى على الصواب فى هذا الشىء.

«**وأسألك من فضلك العظيم**»، فأنا أطلب من فضلك، ولا أطلب فرضًا عليك أنك تعطينى، ولكنى أعترف بعجزى وبجهلى، وأنى عبدٌ لك وأنت المتكرم المتفضل... وهذا من التواضع بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا يجعل سؤالك محل جواب من الله عَزَّوَجَلَّ ... فالمستكبر لا ينظر الله عَزَّوَجَلَّ إليه، ولكن المتواضع الذى يعترف بالعجز وبالتقصير والجهل، ويُقر لله عَزَّوَجَلَّ بالقدرة بالعلم والفضل، فهذا جديرٌ أن يستجيب الله عَزَّوَجَلَّ له.

قال: « **وأسألك من فضلك العظيم**»، أطلب من فضلك فإنك كريم وفضلك كثير عظيم.

«**فإنك تقدر ولا أقدر**»، أنت تقدر على كل شىء وأنا لا أقدر إلا على ما تُقدرنى عليه.

«**وتعلم ولا أعلم**»، وهنا يكون الاعتراف بالجهل، «**تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب**»، تعلم ما ظهر وما خفى.

«**اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسمى الأمر**»، أى: الأمر الذى سيقدم عليه فيقول مثلًا: اللهم إن كنت تعلم أن زواجى من فلانة بنت فلان خيرٌ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاقدره لى ويسره لى.

وبذلك يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ إن يسَّر له تلك الزيجة فإنها ستكون خيرًا له فى دينه ودُنياه وآخرته.

۞ قوله: «**فاقدره لى ويسره لى**»، أى: اجعلنى قادرًا عليه واكتب لى أن أفعله واجعلنى أفعل هذا الشىء بتيسيرك لى.

ويمكن أن يقدرك على شىء هو فى الأصل خير ولكن الإنسان بسفاهته يستخدمه فى غير الخير.

قال: «**ثم بارك لى فيه**» أى: تقدرنى عليه فإذا قدرتنى عليه اجعل لى من وراء ذلك: البركة فى العمل، والبركة فى النماء، والبركة فى الأجر والثواب، فجمعت خيرًا عظيمًا باستخارتك ربك، ويكفى هذا الدعاء العظيم الذى دعوته.

قال: «**وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى**» أى: الأمر الذى أستخيرك فيه وأطلبه سيكون فيه شر... وكم من أمرٍ ينظر الإنسان إليه على أنه خير فيحرص على أخذه، وبعد ذلك يجد فيه الشر فيتركه ويزهد فيه... فبدلًا من أن تُجرب اطلب من ربك سبحانه أن يُرشدك إلى الصواب.

إذا كان شرًّا قال: «فاصرفه عنى واصرفنى عنه»، فأريد عملًا فى المكان الفلانى وأنا أسعى لهذا الشىء، وصليت صلاة استخارة ثم أقدمت عليه ولكنه ضاع، فلذلك كان الدعاء الكامل أن تقول: اصرف هذا الشىء عنى واصرفنى أنا أيضًا عنه، فلا أندم عليه ولا أحزن إذا لم أحصل عليه.

قال: «واقدر لى الخير حيث كان» أى: قدِّر لى الخير فى أى مكان يكون، واجعلنى أتوجه إليه وأُحصله.

«**ثم أرضنى به**»، قد يقدر لك الخير الذى يراه وقد لا ترضى عنه، والرضا شىء عظيم جدًّا.. إن ترضى فلك الرضا من الله عَزَّوَجَلَّ ولك الرضا من الخلق، مهما سخطوا عليك فهم يرضون عنك برضا الله عَزَّوَجَلَّ عنك.

وشيء عظيم أن يعيش الإنسان راضيًا مستريح النفس قرير العين[١] .

۞ ثم بعد ذلك إن انشرح صدره بأحد الأمرين بالإقدام أو الإحجام فهذا هو المطلوب ... يأخذ بما ينشرح به صدره فإن لم ينشرح صدره لشيء وبقى مُتَرَدِّدًا أعاد الاستخارة مرة ثانية وثالثة... دون أن يتقيد بعددٍ.

ثم بعد ذلك تأتى المشورة إذا لم يتبين له شيء بعد الاستخارة فإنه يشاور أهل الرأى والصلاح ... ثم ما أُشير عليه به فهو الخير إن شاء الله، لأن الله تعالى قد لا يجعل فى قلبه بالاستخارة ميلًا إلى شيءٍ مُعيَّن حتى يستشير فيجعل الله تعالى ميل قلبه بعد المشورة.

إلا أن الاستخارة لا تكون فى فعل الواجبات أو المستحبات.

وكذلك لا تكون فى ترك المحرمات أو المكروهات وإنما تكون فى المباحات فقط.

۞ ولكى يتضح الأمر أضرب لك هذا المثال:

فلا يجوز مثلًا أن أستخير الله فى أن أصلى الفرائض الخمس أو السنن والنوافل أو أستخير الله فى أن أصوم أم لا ... وكذلك لا يجوز أن أستخير الله فى أن أترك شيئًا مُحرمًا كالخمر أو الميسر أو عقوق الوالدين.

وإنما تكون الاستخارة فى سائر الأمور المباحة كشراء السيارة أو اختيار المدرسة التى سألتحق بها أو شراء الملابس أو الزواج أو غير ذلك من الأمور المباحة[٢] .

---

(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» / للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(٩٨) باب استحباب الذهاب إلى العيد، وعيادة المريض، والحج والغزو والجنازة ونحوها من طريق والرجوع من طريقٍ آخر، لتكثير مواضع العبادة

(٧٢٣) عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ النبيُّ ﷺ إذا كانَ يَوْمُ عِيدٍ خالَفَ الطَّرِيقَ(١).

(٧٢٤) وعنْ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسُولَ الله ﷺ كانَ يخْرُجُ مِن طَرِيقِ الشَّجَرَةِ ويَدخُلُ مِن طريقِ المُعَرَّسِ، وإذا دخَل مَكَّةَ دَخَلَ مِن الثَّنِيَّة العُليَا ويَخْرُجُ مِن الثَّنِيَّة السُّفْلَى(٢).

۞ من الأمور المستحبة فى الشرع: إذا خرج المسلم إلى صلاة العيد أن يذهب من طريق ويعود من آخر، اقتداءً بالنبى ﷺ وتكثيرًا لمواضع العبادة، وحتى تشهد له الملائكة فى الطريقين، ويلتقى بعددٍ كبير من المسلمين.

وحتى تشهد له الأرض يوم القيامة .. وذلك لأن الأرض تشهد على ما عمله العبد عليها من عملٍ صالح أو عملٍ طالح.. قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤-٥]

فتقول: عمل علىَّ فلانٌ كذا ... فتشهد له أو عليه بكل ما عمل.

وكذلك أيضًا من أجل إظهار شعيرة العيد .. فإذا انتشر الناس فى كلِّ الشوارع صار فى ذلك إظهار لهذه الشعيرة.

وقيل: إنما خالف النبى ﷺ الطريق من أجل المساكين .. فقد يكون فى هذا الطريق ما ليس فى الطريق الآخر فأراد النبى ﷺ أن يُكرمهم جميعًا ... وقد يكون

(١) صحيح: رواه البخارى (٩٨٦) كتاب الجمعة.

قوله: «خالَفَ الطَّرِيقَ» يعنى: ذَهَبَ فى طريقٍ ورَجَعَ فى طريقٍ آخرَ.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٣٣) كتاب الحج، ومسلم (١٢٥٧) كتاب الحج.

النبى ﷺ فعل هذا من أجل تلك الأشياء كلها . والله أعلم.

فالعبد وهو يسير على هذه الأرض فى عبادة لله سبحانه وتعالى، فإنه تُكتب له خطواته ومشيه إلى الطاعة.

فمثلًا: الذهاب إلى الصلاة...فكلما كثرت خطوات العبد إلى بيت الله عز وجل كان له أجرٌ عظيم بسبب هذه الخطوات.

ولذا كان النبى ﷺ إذا خرج إلى صلاة العيد ورجع منها، يذهب من طريق ويرجع من طريقٍ آخر.

۞ ومن الناس مَن توسَّع فى الأمر وقالوا: تُشرع مخالفة الطريق فى كل تعبُّد .. كالصلوات الخمس والجمعة .. فتذهب من طريق وترجع من طريق .. وكعيادة المريض وتشييع الجنازة ... وغير ذلك .

وهذا القياس غير صحيح.

لا قياس لصلاة الجمعة على العيدين، ولا بقية الصلوات على العيدين، ولا المشى فى العبادة على العيدين؛ وذلك لأن العبادات ليس فيها قياس، ولأن هذه الأشياء كانت فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

كان فى عهده الجمعة، والصلوات الخمس، وعيادة المريض، وتشييع الجنائز، ولم يُحفظ عنه أنه كان ﷺ يخالف الطريق فى هذا.

والشىء إذا وجد فى عهد الرسول ﷺ ولم يسن فيه شيئًا، فالسُّنة تَركُ ذلك.

۞ وأما حديث ابن عمر: فهو فى حج النبى صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان يدخل من طريق ويخرج من طريقٍ آخر، فإذا خرج من المدينة خرج من طريق الشجرة، ويدخل من طريق المعرس، وإذا دخل مكة يدخل من الثنية العليا، أى: من الحجون، ويخرج من الثنية السفلى صلوات الله وسلامه عليه.

والغرض: أن الحج عبادة لله تعالى، فيدخل عابدًا لله تعالى، ويخرج ذاكرًا لله

سبحانه... فيخالف في الطريق، يعني: في الخروج وفي الدخول.

ومنهم مَن قال: إن هذا حسب تيسُّر الطريق، فاسلك المتيسر سواء من الأعلى أو من الأسفل.

وعلى كل حال إن تيسَّر لك أن تدخل من أعلاها وتخرج من أسفلها فهذا طيب، فإن كان ذلك عبادة فقد أدركته وإن لم يكن عبادة لم يكن عليك ضرر فيه، وإن لم يتيسر كما هو الواقع في وقتنا الحاضر، حيث إن الطرق قد وُجهت توجيهًا واحدًا، ولا يمكن للإنسان أن يخالف، فالأمر والحمد لله واسع.

❊❊❊

(٩٩) باب استحباب تقديم اليمين في كل ما هو من باب التكريم

۞ كالوضوءِ وَالغُسلِ وَالتَّيَمُّمِ، وَلُبْسِ الثَّوْبِ وَالنَّعلِ وَالخُفِّ وَالسَّرَاوِيلِ وَدُخولِ الْمَسجِدِ، وَالسِّوَاكِ، وَالاكْتِحَالِ، وَتقليم الأظْفار، وَقَصِّ الشَّارِبِ، وَنَتْفِ الإبْطِ، وَحلقِ الرَّأسِ، وَالسّلامِ مِنَ الصَّلاَةِ، وَالأكْلِ، والشُّربِ، وَالمُصافحَةِ، وَاستِلاَمِ الحَجَرِ الأَسوَدِ، والخروجِ منَ الخلاءِ، والأَخذ والعطاء وغيرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ في معناه ... ويُستَحَبُّ تَقديمُ اليسارِ في ضدِ ذَلِكَ، كالامْتِخَاطِ وَالبُصَاقِ عن اليسار، ودخولِ الخَلاءِ، والخروج من المَسجِدِ، وخَلْعِ الخُفِّ والنَّعلِ والسراويلِ والثوبِ، والاستِنْجَاءِ وفِعلِ المُستَقْذَرَاتِ وأشْبَاه ذَلِكَ.

فالوضوء يبتدئ فيه الإنسان باليد اليمنى قبل اليد اليسرى وبالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى هذا إذا كانا عضوين متميزين.

أما إذا كان عضوًا واحدًا كالوجه مثلًا فإننا لا نقول ابدأ بيمين الوجه قبل يساره بل يُغسل الوجه مرة واحدة كما جاءت به السُّنة.

نعم لو فُرض أن الإنسان لا يستطيع أن يغسل وجهه إلا بيد واحدة فهنا يبدأ باليمين... ربما يُقال: يبدأ من اليمين وربما يُقال: يبدأ من الأعلى وكذلك مسح الأذنين ... لا تمسح الأُذن اليمنى قبل اليسرى، بل يُمسحان جميعًا إلا إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يمسح بيديه جميعًا فيبدأ باليُمنى قبل اليسرى.

وكذلك في الغُسل إذا أراد الإنسان أن يغتسل من الجنابة فإنه يتوضأ وضوءه للصلاة ثم يفيض الماء على رأسه ثلاث مرات حتى يُروى ثم يغسل سائر جسده ويبدأ بالشق الأيمن منه قبل الأيسر.

كذلك لبس الثوب والنعل والخُف والسراويل .. كل هذه يبدأ فيها

باليمين... إذا أردت أن تلبس الثوب فأدخل اليد اليمنى فى كُمها قبل اليد اليسرى .. وفى السراويل أدخل الرِّجل اليُمنى فى كُمها قبل أن تُدخل الرجل اليسرى .. وفى النعل إذا أردت أن تلبس النعل ابدأ بالرجل اليمنى أدخلها فى النعل قبل اليسرى .. وكذلك فى الخُف والجوارب ابدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى ... هذه هى السُّنة كما جاءت عن النبى ﷺ.

وكذلك دخول المسجد تبدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى تقصد ذلك ... فإذا أقبلت على المسجد فانتبه حتى تكون رجلك اليمنى هى الداخلة الأولى.

كذلك أيضًا السواك إذا أراد الإنسان أن يتسوك فيبدأ بالجانب الأيمن قبل الأيسر... وكذلك الاكتحال إذا أراد أن يكتحل يبدأ بالعين اليمنى قبل اليسرى... كذلك تقليم الأظفار يبدأ بالأيمن قبل الأيسر ... فيبدأ مثلًا فى اليمنى بالخنصر ثم البنصر ثم الوسطى ثم السبَّابة ثم الإبهام وفى اليد اليسرى يبدأ بتقليم الإبهام ثم السبابة ثم الوسطى ثم البنصر ثم الخنصر ويبدأ أيضًا بالقدم اليمنى فى تقليم أظافرها قبل القدم اليسرى.. وكذلك فى قص الشارب ابدأ بالجانب الأيمن منه قبل الأيسر كذلك نتف الإبط وحلق الرأس.

نتف الإبط سُنة فإذا أردت أن تنتف الآباط يعنى تنتف الشعر فابدأ بالإبط الأيمن قبل الأيسر وكذلك فى حلق الرأس ابدأ بالجانب الأيمن من الرأس قبل الأيسر.

وكذلك أيضًا السلام من الصلاة يلتفت الإنسان عن يمينه قبل أن يلتفت عن يساره.

وكذلك الأكل والشرب فيأكل بيمينه ويشرب بيمينه ولا يجوز أن يأكل باليسرى أو يشرب باليسرى لأن النبى ﷺ نهى عن ذلك وقال: «**إن الشيطان يأكل**



بشماله ويشرب بشماله»[١].

ويجب علينا أيضًا أن نُعلِّم أولادنا الصغار أن يأكلوا باليمين ... ويشربوا باليمين .. كذلك المصافحة يصافح باليمين ولا يصافح باليسار.

كذلك استلام الحجر الأسود باليمين وكذلك إذا لم يستطع الإنسان مسحه فإنه يشير إليه ويكون ذلك باليد اليمنى ... وكذلك استلام الركن اليمانى يكون باليمين.

كذلك الأخذ والإعطاء ... يعنى إذا أردت أن تُناول صاحبك شيئًا فناوله باليمين وإذا أردت أن تأخذ شيئًا يناولك إياه فخذه باليمين.

هذه أخلاق الإسلام لكن بعض الناس يناولك باليسار ويأخذ منك باليسار ظَنًّا منه أن هذا هو التقدُّم.

۞ وهناك أشياء مما يُقدَّم فيها اليسار، كالامتخاط والبُصاق فإنه يكون باليسار.

الامتخاط: يعنى إذا استنثر الإنسان ليُخرج ما فى أنفه من الأذى فإنه يكون باليد اليسرى ... وكذلك لو أراد أن يمسح المخاط فإنه يكون باليد اليسرى وكذلك عند دخول الخلاء يقدم الرِّجل اليُسرى وأما الخروج منه فقد سبق أنه يُقدم الرِّجل اليُمنى .. وكذلك إذا خرج من المسجد فإنه يقدم الرجل اليسرى وكذلك إذا أراد أن يخلع النعل أو أن يخلع الخُف أو أن يخلع الثوب أو أن يخلع السراويل فإنه يبدأ بإخراج الرجل اليُسرى وتكون اليُمنى هى الأولى عند اللبس.

كذلك الاستنجاء يكون باليد اليسرى... وقد نهى النبى ﷺ أن يستنجى الرجل بيمينه لأن اليمين محل الإكرام ويُؤكل بها ويُشرب بها فينبغى إبعادها عن

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

القاذورات ... وكذلك كل شيء مُستقذَر فإنه يكون باليد اليسرى وأما اليمنى فهي لما يكون فيه الإكرام ولغيره مما لا إكرام فيه ولا إهانة... فاليُسرى تكون للأذى واليُمنى لما سواها.

***

۞ثم ذكر المؤلف آيتين من كتاب الله هما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]. وهذا يكون يوم القيامة.

فإن الناس يُؤتَون كُتبهم -أي كتب أعمالهم التي كُتب فيها عمل الإنسان- إما باليمين وإما بالشمال، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ جعلنا الله منهم فإنه يأخذه فرحًا مسرورًا يقول للناس: انظروا إليَّ ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ﴾.

كما نشاهد الآن الطالب إذا أخذ ورقة النجاح صار يريها أصدقاءه وأقاربه فرحًا بها، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ فإنه على العكس من ذلك، يتمنى أنه لم يُؤتَ الكتاب فضلًا عن أن يطلع عليه غيره.

والآية الأخرى التي ذكرها المؤلف فهي قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]. فذكر الله سبحانه أن الناس يكونون يوم القيامة ثلاثة أقسام: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون... فالسابقون هم المقربون، وأصحاب الميمنة ناجون، وأصحاب المشأمة هالكون، فهم يوم القيامة ثلاثة أصناف.

وهم كذلك عند خروج الروح من البدن ثلاثة أصناف.. ذكر الله في سورة الواقعة أحوالهم يوم القيامة، وذكر في آخرها أحوالهم عند الاحتضار، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٩].

والمقربون هم السابقون الذين يسبقون إلى الخيرات فى كل نوع من أنواع الخير، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٠-٩٤] وهؤلاء هم أصحاب المشأمة والعياذ بالله، فهم المكذبون الضالون، أعاذنا الله من حالهم[(١)].

(٧٢٥) وعنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ رسولُ الله ﷺ يُعجِبُهُ التَّيمُّنَ فى شأنِه كُلِّه: فى طُهُورِهِ، وترَجُّلِهِ، وتنَعُّلِهِ[(٢)].

ففى هذا الحديث تخبر أُمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ كان يُعجبه التيامن فى شأنه كله .. أى: كان يستحسن ويحب البداءة باليمين فى كل شىء وفى جميع أحواله.

«فى طهوره»: يعنى إذا تطهر يبدأ باليمين، فيبدأ بغسل اليد اليمنى قبل اليسرى، ويغسل الرِّجل اليمنى قبل اليسرى.. وأما الأذنان فإنهما عضوٌ واحد داخلان فى الرأس، فيمسح بهما جميعًا إلا إذا كان لا يستطيع أن يمسح إلا بيدٍ واحدةٍ، فهنا يبدأ بالأذن اليمنى للضرورة.

قالت «وترجُّله»: والترجُّل -يعنى تسريح الشعر ومشطه ودهنه-.

«وتنعُّله»: أى أنه ﷺ كان إذا لبس النعل فإنه يبدأ باليمين قبل اليسار.. وإذا خلع النعل يبدأ باليسار قبل اليمين.. وكذلك إذا لبس الثوب كان يبدأ بإدخال الكُم اليمين قبل اليسار... وكذلك كان إذا لبس السروال فإنه كان يبدأ بإدخال اليُمنى قبل اليُسرى .. وإذا خلع السروال يبدأ باليُسرى قبل اليُمنى ...

---

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٤٢٦-٤٣٠) بتصرف كبير.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٦٨) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٦٨) كتاب الطهارة.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ تَقْدِيمَ الْيَمِينِ عَلَى الْيَسَارِ مِنَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ فِي الْوُضُوءِ سُنَّةٌ لَوْ خَالَفَهَا فَاتَهُ الْفَضْلُ وَصَحَّ وُضُوءُهُ. واعلم أن الابتداء باليسار وإن كَانَ مُجْزِيًا فَهُوَ مَكْرُوهٌ نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَقَد ثَبَتَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرمِذِيِّ وَغَيْرِهِمَا بِأَسَانِيدَ حَمِيدَةٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا لَبِسْتُمْ أو توضأتم فابدؤا بِأَيَامِنِكُمْ**» فَهَذَا نَصٌّ فِي الْأَمْرِ بِتَقْدِيمِ الْيَمِينِ وَمُخَالَفَتُهُ مَكْرُوهَةٌ.

ثُمَّ اعلَمْ أَنَّ مِنْ أَعضَاءِ الْوُضُوءِ مَا لَا يُسْتَحَبُّ فِيهِ التَّيَامُنُ وَهُوَ الْأُذُنَانِ وَالكَفَّانِ وَالْخَدَّانِ بَلْ يُطَهَّرَانِ دَفْعَةً وَاحِدَةً فَإِنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ كَمَا فِي حَقِّ الْأَقْطَعِ وَنَحوِهِ قَدَّمَ الْيَمِينَ ... وَاللهُ أَعلَمُ(١).

(٧٢٦) وعنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَتْ يَدُ رسُولِ الله ﷺ **اليُمْنَى لِطُهُورِهِ وطَعَامِهِ، وكانَتْ اليُسْرَى لِخَلائِهِ وما كانَ مِنْ أذىً**(٢).

۞ وفى هذا الحديث توضح أُمنا عائشة التى كانت تنقل للأمة كل ما تعلمته من النبى ﷺ .. فكان من بين ذلك أنها أخبرت أن النبى ﷺ كان يستعمل يده اليُسرى فى كل ما كان فيه أذى: كالاستنجاء والاستجمار والاستنشاق والاستنثار وما أشبه ذلك ... وكان يستعمل يده اليُمنى فيما سُوى ذلك كالوضوء والطعام والشراب وغير ذلك... فينبغى أن نقتدى بالنبى ﷺ فى كُلِّ أحواله.. فلقد قال تعالى: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) مسلم بشرح النووى (٣/ ٢٠٦) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى المشكاة (٣٣٣).

(٧٢٧) وعنْ أُم عَطِيَّةَ رضي الله عنها أن النَّبِيَّ ﷺ قالَ لَهُنَّ فى غَسْلِ ابْنَتِهِ زَيْنَب رضي الله عنها: «ابْدَأنَ بِميامِنِهَا، ومواضِعِ الوُضُوءِ مِنْها»[١].

۞ عن أم عطية رضي الله عنها ... وكانت أم عطية رضي الله عنها من نساء الأنصار وكان لها أعمالٌ جليلة؛ منها أنها كانت تُغسِّل الأموات من النساء... فلما ماتت زينب بنت النبى محمد ﷺ وحضرن ليغسلنها، فقال لهن النبى ﷺ: «**ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها**».

وكيفية تغسيل الميت بأن تُخلع ثيابه بعد أن يوضع على عورته ما يسترها، ثم يضع الغاسل خرقة على يده فينجيه -يعنى يغسل فرجه القُبل والدُّبر حتى ينظفه-، ثم بعد ذلك يزيل هذه الخرقة ويغسل كفه كما يتوضأ الإنسان فى العادة، ثم يأخذ خرقة مبلولة بالماء، فينظف أسنانه وفمه وينظف منخريه بدلًا عن المضمضة والاستنشاق، ولا يُدخل الماء فى فمه ولا فى أنفه لأنه إذا فعل ذلك نزل الماء إلى جوفه وربما يخرج فيؤذيهم عند التغسيل، ثم بعد هذا يغسل وجهه، ويديه إلى المرفقين، ويمسح رأسه، ويغسل رجليه، وضوءًا كاملًا.

ثم بعد ذلك يغسل رأسه برغوة السدر، بعد أن يكون قد أعدَّ ماءً فيه سدر مطحون يضربه بيده حتى يكون له رغوة، فيأخذ الرغوة ويغسل بها رأس الميت، ثم يغسل ببقية السدر بقية البدن.

على أن المرأة لا يغسِّلها إلا النساء، حتى أبوها لا يُغسلها ولا ابنها ولا أحدٌ من محارمها، إلا النساء أو الزوج.

والرجل لا يغسله إلا الرجال، لا تغسله أمه ولا ابنته ولا أحد من النساء إلا زوجته... فالزوج يُغسِّل زوجته والزوجة تُغسِّل زوجها، وما سوى ذلك لا يُغسِّل الذكر الأنثى ولا الأنثى الذكر.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٦٧) كتاب الوضوء، ومسلم (٩٣٩) كتاب الجنائز.

حضرت النساء لتغسيل زينب بنت رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**ابدأن بميامنها**» -يعنى: بالأيمن قبل الأيسر؛ اليد اليمنى قبل اليسرى، والرجل اليمنى قبل اليسرى، والشق الأيمن قبل الشق الأيسر- «**ومواضع الوضوء منها**»، ففعلن ذلك، وجعلن رأسها ثلاثة قرون -يعنى ثلاث جدايل: الجانب الأيمن قرن، والأيسر قرن، ووسط الرأس قرن-، وألقينه خلفها، ثم أعطاهن النبى ﷺ حقوه -يعنى إزاره- وقال: «**أشعرنها إياه**»[(١)].

يعنى الففنه على جسدها مباشرة، تَبَرُّكًا بإزار النبى ﷺ ... ففعلن ذلك.

(٧٢٨) وعن أبى هُريرة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «**إذا انْتَعَلَ أحدُكُمْ فلْيَبْدَأْ باليُمْنى، وإذا نَزَع فَلْيَبْدَأْ بالشِّمال، لِتكُنِ اليُمْنى أوَّلُهما تُنْعَلُ، وآخرَهُما تُنْزَعُ**»[(٢)].

(٧٢٩) وعنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها أنَّ رسُولَ الله ﷺ كان يَجْعَلُ يَمينَهُ لِطَعامِهِ وشَرابِهِ وثيابِهِ، ويَجعَلُ يَسارَهُ لما سِوَى ذلكَ[(٣)].

(٧٣٠) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا لَبِسْتُم، وإذا توضَّأتُم، فابْدأوا بأيَامِنكُم**»[(٤)].

۞ وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل فى الأحاديث السابقة من أن النبى ﷺ كان يُعجبه التيمُّن فى كل شىء وأنه كان يجعل اليُمنى لطهوره وطعامه وثيابه وترجُّله وتنعُّله وكان يجعل اليُسرى لخلائه وما كان من أذى.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٥٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٩) كتاب الجنائز.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٥٦) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٩٧) كتاب اللباس.
(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢٥).
(٤) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧).

(٧٣١) وعنْ أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ أتى مِنًى، فأتَى الجَمْرةَ فرماهَا، ثُمَّ أتَى مَنْزِلهُ بِمنًى، ونَحَر، ثُمَّ قال للحلاَّق: «خُذْ» وأشارَ إلى جانِبِه الأيمنِ، ثُم الأيسَرِ، ثُمَّ جعلَ يُعطيهِ النَّاسَ[1].

وفي روايةٍ: لـمَّا رمى الجمْرةَ، ونَحَر نُسُكَهُ وحَلَقَ، ناوَل الحلاقَ شِقَّهُ الأيْمنَ فحلَقَه، ثم دعَا أبَا طلحةَ الأنصاريَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأعطَاهُ إيَّاهُ، ثمَّ ناوَلَهُ الشِّقَّ الأيْسَر فقال: «احلِقْ» فحلَقَهُ فأعطاهُ أبا طلحة فقال: «اقسِمْهُ بيْنَ النَّاس».

۞ وهنا ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ: حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، في قصة حلق النبي ﷺ في حجة الوداع. فإن النبي ﷺ في حجة الوداع لما بات بمزدلفة وصلى الفجر، وجلس يدعو حتى أسفر جدًّا ودفع قبل أن تطلع الشمس، ووصل إلى جمرة العقبة وقد ارتفع النهار، وصار للشمس حرارة، فرمى الجمرة وذلك يوم العيد.

وذهب ﷺ إلى منزله فدعا بالحلاق فحلق رأسه، وأشار ﷺ إلى الشق الأيمن فبدأ الحلاق بالشق الأيمن، وكان النبي ﷺ يعفي شعر الرأس، فكان شعر رأسه كثيرًا، فبدأ بالشق الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الأنصاري وأعطاه شعر الشق الأيمن كله، ثم حلق بقية الرأس ودعا أبا طلحة وأعطاه إياه، وقال: «اقسمه بين الناس» فقسمه... فمن الناس مَن ناله شعرة واحد، ومنهم مَن ناله شعرتان، ومنهم مَن ناله أكثر حسب ما تيسر، وذلك لأجل التبرُّك بهذا الشعر الكريم... شعر النبي ﷺ.

وكون أبي طلحة خصَّه الرسول بالجنب الأيمن كله يدل على أن من الناس مَن يختص بخصيصة يخصه الله بها، وإن كان في الصحابة مَن هو أفضل منه... فأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وكثير من الصحابة أفضل من أبي طلحة، لكن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٧١) كتاب الوضوء مختصرًا - ومسلم (١٣٠٥) كتاب الحج.

فضل الله عَزَّوَجَلَّ يؤتيه مَن يشاء، وكان الصحابة يتبركون بشعر النبى ﷺ وبثيابه وبعرقه، لكن غيره لا يُتبرك بشعره ولا بثيابه ولا بعرقه.

وكان عند أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إحدى زوجات الرسول ﷺ شعرات من شعر الرسول ﷺ، وضعتها فى جُلجِل يعنى طابوق من الفضة... وجعلته من الفضة تكريمًا لشعر الرسول ﷺ، فكان الناس إذا مرض عندهم مريض جاءوا إليها فصبَّت على الشعر ماءً وحركته به، ثم أعطته المريض فيشفى بإذن الله ببركة شعر النبى ﷺ.

لكن هذا ليس لغير النبى ﷺ، فإن الصحابة لم يتبركوا بشعر أبى بكر وهو أفضل الأمة بعد الرسول ﷺ، ولا بشعر عمر، ولا غيره من الصحابة، وكذلك مَن دونهم لا يُتبرك بشعره ولا بعرقه ولا بثيابه، إنما ذلك خاص برسول الله ﷺ.

والشاهد من حديث أنس أن النبى ﷺ أشار إلى الحلاق أن يبدأ بالجانب الأيمن... فإذا حججت وأردت أن تحلق أو تُقصر فابدأ بالجانب الأيمن، وكذلك لو حلقت حلقًا عاديًا فابدأ بالجانب الأيمن[1].

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: الشمائل النبوية:

(١) **بركة شعره ﷺ:** ودليله أنه أعطى شعر شِقّه الأيمن لأبى طلحة، زوج أم سليم والدة أنس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأمر ﷺ أبا طلحة بتقسيم شعر شِقّه الأيسر على الناس... وعند مسلم: (فوزعه بين الناس الشعرة والشعرتين)، ولفظ «**اقسمه**» يُشعر أن النبى ﷺ أراد من أبى طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العدل بين الناس فى توزيع الشعر، ولولا علمه ﷺ بعظيم بركة شعره، ما أمر بتقسيمه بين الناس. بل إنه أمر بمراعاة العدل فى التقسيم.

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٤٣٢-٤٣٣) بتصرف.

يتفرع على ذلك إثبات بركة النبى ﷺ فى كل ما يخصه؛ إذ تم توزيع شعره بين الصحابة، رضي الله عنهم بالشعرة والشعرتين، ولولا حدوث البركة بالشعرة الواحدة، ما كان هناك حكمة من وراء توزيعها على الصحابة، ولك أخى القارئ أن تتصور الجهد الذى بذله أبو طلحة ليقسم شعر الشِّق الأيسر للنبى ﷺ بين الناس... ومعلومٌ أن شعره ﷺ كان كثيفًا وطويلًا.

(٢) عظيم اعتناء المولى- سبحانه وتعالى- بنبيه ﷺ إذ جعل فى كل شىءٍ اتصل به عظيم البركة، من الشعر واللباس والأظافر والعرق ومكان الصلاة وفضلة الماء والوضوء، وبصاقه بل ونخامته التى كان الصحابة رضي الله عنهم يتبادرونها فيمسحون بها وجوههم... واقرأ أخى المسلم، ما ورد فى البخارى فى حديث صلح الحديبية الطويل، ما ذكره عروة بن مسعود لأصحابه من كفار قريش: (والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى، والله إن رأيت ملكًا قط يُعظمه أصحابه ما يُعظم أصحاب محمدٍ ﷺ محمدًا... والله إن تنخَّم نخامة إلا وقعت فى كف رجلٍ منهم فدَلَكَ بها وجهه وجلده) .

ولا تتعجب أخى القارئ من سلوك الصحابة رضي الله عنهم ولا تقل فى نفسك: كيف يفعلون ذلك بالنخامة، وتظن أنك لو كنت مكانهم لاستقذرت ذلك؛ لأن الذى عاين وعايش أحوال النبى ﷺ ليس كالذى سمع... وإذا كان عرقه ﷺ كان مثل حبات اللؤلؤ فى جماله، وأطيب من المسك فى ريحه، فلماذا نقيس نخامته ﷺ بنخامة بقية الناس.

الفائدة الثانية: بالغ حب الصحابة رضي الله عنهم للنبى ﷺ ويتبين ذلك من:

(١) حرصهم على اقتناء شعر الرسول ﷺ .... حيث ورد عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: (فما يريدون أن تقع شعرة إلا فى يد رجل) . وما كان هذا إلا لتعظيمهم كل ما يتصل بالنبى ﷺ ولا نقول شعره، بل نقول الشعرة الواحدة

منه... كانوا يرون أن من الخسارة أن تقع الشعرة على الأرض، ولا ينتفع أحدٌ منها.. وقد يكون ذلك أيضًا، من باب إجلالهم للشعرة من أن تقع على الأرض التى يمشى الناس عليها بأقدامهم، وهذا ليس ببعيد ولا مُستغرَب.

(٢) رؤيتهم أن اقتناء شعرة واحدة من شعر رسول الله ﷺ أحب إليهم من الدنيا وما فيها... لما رواه البخارى: (عن ابن سيرين قال: قلت لعبيدة: عندنا من شعر النّبىّ ﷺ أصبناه من قِبَل أنس أو من قِبَل أهل أنس فقال: لأن تكون عندى شعرة منه أحبُّ إلىَّ من الدّنيا وما فيها) . أى أن أحدهم لو خُيِّر بين الدنيا بما فيها من الأولاد والمال والحلائل من النساء، وبين شعرة واحدة، من شعر النبى ﷺ والله ما تردد واختار الشعرة...فهى أرجح عنده فى الميزان من الدنيا وما فيها، فأى حُبٍّ كان هذا الحب... وتنبَّه أخى القارئ، أن ابن سيرين لم يكن من الصحابة، ولكن كان من التابعين، أى أن الشعر كانوا يحتفظون به، مُددًا طويلة، وكانوا إما يتوارثونه أو يتهادونه فيما بينهم، لقول ابن سيرين عن شعر النبى ﷺ: (أصبناه من قِبَل أنس) .

الفائدة الثالثة: وهى منقبة عظيمة لأبى طلحة، حيث خَصَّه النبى ﷺ وحده بشطر شعره الأيمن، وبقية الناس بالشطر الآخر[1].

---

(١) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) كتاب آداب الطعام

(١٠٠) باب التسمية في أوله والحمد في آخره

۞ لابد أن نعلم أن الطعام نعمة كبيرة من عند الله عَزَّوَجَلَّ.. لَفَتَ الله عَزَّوَجَلَّ نظر الإنسان إليها فى كثيرٍ من الآيات القرآنية.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

والله عَزَّوَجَلَّ جعل لنا الطعام ليكون سببًا لحياتنا وعونًا لنا على طاعته ﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون:٥١].

فالطعام يُعينك على العلم والعمل .. وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر. فالكافر يعيش ليأكل ويستمتع.. والمؤمن يأكل ليعيش ويعبد ربه عَزَّوَجَلَّ ... فهذا الطعام نعمة عظيمة.

۞ ولذا فإن المسلم لا بد أن يتعلم كيف يتعامل مع نِعم الله عَزَّوَجَلَّ بالشكر والحمد وموافقة هدى النبى ﷺ ليفوز بمحبة الله (جلَّ وعلا) وبالبركة فى كل نعمة أنعم الله بها عليه.

ومن بين تلك النعم: نعمة الطعام ... ولا شك أن الطعام له آداب ينبغى أن نتعلمها.

۞ والطعام هو ما يطعمه الإنسان .. وقد يكون شرابًا أو أكلًا .. والدليل على أن الشراب يُسمَّى طعامًا قوله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن طالوت أنه قال للجنود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ

مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقوله ﷺ عن ماء زمزم: «إنه طعام طُعمٍ وشفاء سقمٍ».

فاللهُمَّ ارزقنا شُكر نعمتك يا أرحم الراحمين.

(٧٣٢) عن عُمَرَ بن أبى سَلَمة رضي الله عنهما قال: قال لى رسولُ الله ﷺ: «سَمِّ الله، وكُلْ بِيَمينكَ، وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»(١).

(٧٣٣) وعن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذا أكل أحَدُكُمْ فَليَذْكُر اسْمَ الله تعالى، فإنْ نَسِىَ أنْ يَذْكُر اسمَ الله تعالَى فى أوَّلِهِ، فليَقُلْ: بِسْمِ الله أوَّلَهُ وآخِرَهُ»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يحكى عمر بن أبى سلمة رضي الله عنهما أنه كان يأكل مع النبى ﷺ .. وكان عمر ربيب النبى ﷺ يعنى ابن زوجته أم سلمة .. وكان غلامًا صغيرًا فى ذلك الوقت ... فلما جىء بالطعام للنبى ﷺ جلس يأكل معه فجعلت يده تطيش فى الصحفة ... فيأكل من أمامه مرة ومن وسط الصحفة مرة ومن آخرها مرة .. وكان النبى ﷺ لا يترك أحدًا بحاجة إلى التعليم إلا علَّمه ... حتى الصغار كان النبى ﷺ يهتم بهم ويُعلمهم. فقال له النبى ﷺ: « يَا غُلَام سَمِّ الله، وكُلْ بِيَمينكَ، وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » .. فتلك ثلاثة آداب من آداب الطعام .. ومن المعلوم أن التعليم فى الصِّغر كالنقش على الحجر، ولذلك لم ينسَ عمر بن أبى سلمة تلك الآداب بدليل أنه هو الذى يروى الحديث.

وكان النبى ﷺ يهتم بالصغار؛ لأن مَن شَبَّ على شىءٍ شاب عليه.

فإذا شَبَّ على أنه يأكل بيده الشمال، أو على أن يده تطيش فى الصحفة، أو

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٧٦) كتاب الأطعمة – ومسلم (٢٠٢٢) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٠).

على أنه لا يحترم الذى أمامه فى الأكل، أو على أنه يمد يده إلى الذى أمام غيره فيأخذه ويأكله، فإنه يصير هذا دأبه وطبعه بعد ذلك... فلذلك كان النبى ﷺ يُعوِّد أصحابه من صغرهم على أن يتأدبوا بالآداب الشرعية.

۞ وهنا علَّمه النبى ﷺ ثلاثة آداب:

أولًا: «سَمِّ الله» يعنى قُل: بسم الله .. ولا حرج لو قال: بسم الله الرحمن الرحيم .. لكن إن قال: بسم الله يكفيه .. والتسمية على الطعام واجبة إذا تركها الإنسان فإنه يأثم .. وفوق ذلك يُشاركه الشيطان فى طعامه ... فإذا نسيت أن تُسمى فى أوَّل الطعام وتذكرت أثناء الطعام فقل: «بسم الله أوله وآخره» كما أرشد النبى ﷺ إلى ذلك فى الحديث الثانى.

ثانيًا: «وَكُلْ بيمينك»: فالأكل باليمين واجب .. وإذا كان مُتعودًا على الأكل بالشمال فليُجاهد نفسه حتى يأكل بيمينه .. لأن مَن أكل بشماله فهو آثم عاصٍ لله ورسوله - إلا إذا كانت يده اليُمنى شلَّاء أو مكسورة - .. وهو فى نفس الوقت يتشبه بالشيطان فى طعامه .. فقد قال النبى ﷺ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**»(١).

ثالثًا: «كُل مِمَّا يَليك»: يعنى: إذا كنت تأكل مع أحدٍ فكُل مما يليك- أى: من أمامك - ولا تأكل من جهته ومِمَّا يليه ؛ لأن هذا من سوءِ الأدب وقد تُتَّهم بالشراهة دون أن تدرى.

قال العلماء: إلا أن يكون الطعام أنواعًا، مثل أن يكون فيه قرع وباذنجان ولحم وغيره، فلا بأس أن تتخطى يدك إلى هذا النوع أو ذاك، كما كان الرسول ﷺ يتتبع الدُّبَّاء من الصحفة ويأكلها. والدُّبَّاء يعنى القرع.

وكذلك لو كنت تأكل وحدك فلا حرج أن تأكل من الطرف الآخر، لأنك لا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

تؤذى أحدًا فى ذلك ... لكن لا تأكل من أعلى الصحفة لأن البركة تنزل فى أعلاها ووسطها، ولكن كُل من الجوانب... حتى إذا انتهى الطعام من الجوانب تستطيع أن تأكل الطعام الذي في وسط الصحفة ولا حرج عليك.

(٧٣٤) وعنْ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إذا دخلَ الرَّجُل بيْتَهُ، فذَكَرَ الله تعالى عِنْدَ دُخُولِهِ وعِنْدَ طَعامِهِ، قال الشَّيْطانُ لأصحَابِهِ: لا مَبِيتَ لكُمْ ولا عَشَاءَ، وإذا دخلَ فَلَم يَذكُر الله تعالى عِنْد دخُولِه قال الشَّيطانُ: أدرَكْتُم المَبيتَ، وإذا لم يَذْكُرِ الله تعالى عِنْد طَعامِهِ قال: أدرَكْتُم المبيتَ والعَشاء»[1].

۞ لا بد أن نعلم أن الشيطان يتربَّص بالإنسان المؤمن ويقف له بالمرصاد .. فمن بين الأشياء التى يتربص فيها الشيطان بالإنسان عند دخوله بيته وعند عشائه ... فإذا عاد المسلم من عمله أو من أى مكانٍ إلى منزله فإن الشيطان يقف عند باب منزله ومعه مجموعة من الشياطين .. فإذا ذكر المسلم ربه عند الدخول قال ذلك الشيطان لأعوانه: لا مبيت لكم اليوم .. وإذا ذكر الله عند عشائه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء ... أما إذا دخل المسلم بيته ونسى أن يذكر الله عند دخوله يُهنئ الشيطان نفسه وأعوانه ويقول لهم: أدركتم المبيت فى هذا البيت.. فإذا لم يذكر المسلم ربه عند عشائه قام الشيطان يُهنئ أعوانه للمرة الثانية ويقول لهم: أدركتم المبيت والعشاء ... أى: أن الشيطان وأعوانه سيشاركون أهل البيت فى العشاء وكذلك فى المبيت ... فتخرج الملائكة وتبقى الشياطين وتُنزع البركة وتكثر الكوابيس والمشاكل.

۞ وذكر الله تعالى عند دخول البيت أن يقول المسلم:

باسم الله.. «**اللهُم إنى أسألك خير المَولج، وخير المَخرج، باسم الله ولجنا،**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠١٨) كتاب الأشربة.

وباسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا»[1].

۞ وأما الذكر عند العشاء فأن تقول: «**بسم الله**».

ويُستحب أن تُكثر من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وأن تُسلِّم سواء كان فى البيت آدمى أم لا... لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١]، فإذا لم يكن فى البيت أحد تقول:

السلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين.

۞ وإذا كان أهلك بالبيت تقول:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

۞ وإليك بعض ثمرات الذكر عند دخول المنزل:

(١) طرد الشيطان:

قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**إذا دخل الرجلُ بيتهُ فذكر الله تعالى عند دُخوله، وعند طعامه، قال الشيطانُ: لا مبيت لكُم ولا عشاء؟.**

وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله، قال الشيطان: أدركتُم المبيت.

وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»[2].

(٢) البركة:

قال رسول الله ﷺ: «يا بُنى إذا دخلت على أهلك فسلِّم؛ تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك»[3].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والطبرانى فى الكبير، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى صحيح الجامع (٨٣٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠١٨) كتاب الأشربة.

(٣) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٦٠٨).

(٧٣٥) وعن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا حَضَرنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَعَامًا، لَمْ نَضَع أيدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ الله ﷺ فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضرنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فى الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رسولُ الله ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعرَابِىٌّ كأَنَّمَا يُدفَعُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَستَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لا يُذْكَرَ اسمُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بهذِهِ الجارية لِيَستَحِلَّ بِهَا، فأَخَذْتُ بيَدِهَا، فَجَاءَ بهذا الأعرَابىّ لِيَستَحِلَّ بِهِ، فَأَخذْتُ بِيَدِهِ، والَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إنَّ يَدَهُ فى يَدِى مَعَ يَدَيْهِمَا» ثُمَّ ذَكَرَ اسمَ اللهِ تَعَالَى وَأَكَلَ[١].

۞ عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعامًا لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده ... وذلك لكمال احترامهم للنبى ﷺ فلا يضعون أيديهم فى الطعام حتى يضع يده ... فحضر مع رسول الله ﷺ ذات يوم طعامًا قُدِّم إلى رسول الله ﷺ فلما بدءوا جاءت جارية ..يعنى طفلة صغيرة كأنما تُدفَع دفعًا ... يعنى كأنها تركض فأرادت أن تضع يدها فى الطعام بدون أن تُسمى الله فأمسك النبى ﷺ بيدها ... ثم جاء أعرابى كذلك كأنما يُدفَع دفعًا فجاء يده فى الطعام فأمسك النبى ﷺ بيده ثم أخبر النبى ﷺ أن هذا الأعرابى وهذه الجارية جاء بهما الشيطان لأجل أن يستحل الطعام بهما إذا أكلا بدون تسمية ... وهما قد يكونان معذورين لجهلهما ... هذه لصغرها وهذا أعرابى لكن الشيطان أتى بهما من أجل أنهما إذا أكلا بدون تسمية شارك فى الطعام ... ثم أقسم النبى ﷺ أن يد الشيطان مع أيديهما فى يد النبى ﷺ .

۞ وهذا الحديث يدل على فوائد:

منها: احترام الصحابة لرسول الله ﷺ وأدبهم معه.

ومنها: أنه ينبغى إذا كان هناك كبير على الطعام ألا يتقدم أحدٌ قبل أكله بل يُؤْثِرون الكبير بالأكل أولًا لأن التقدُّم بين يدى الكبير غير مناسب ويُنافى الأدب....

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠١٧) كتاب الأشربة.

ومنها: أن الشيطان يأمر الإنسان ويحثه ويزجره على فعل ما لا ينبغي وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور:٢١].

فدلَّ هذا على أن الشيطان له إمرة على بني آدم...والمعصوم مَن عصمه الله.

ومنها: أن الإنسان إذا أتى في أثناء الطعام فليُسمِّ ولا يَقُل سَمَّى الأولون قبلي ... ولكن إذا كانوا جميعًا وبدؤوا بالطعام جميعًا فهل يكفي تسمية الواحد؟ والجواب: إن كان الواحد سَمَّى سرًّا فإن تسميته لا تكفي؛ لأن الآخرين لم يسمعوها وإن سَمَّى جهرًا ونوى عن الجميع فقد يُقال إنها تكفي وقد يُقال الأفضل أن يُسمى كل إنسان لنفسه وهذا أكمل وأحسن.

۞ **ومن فوائد هذا الحديث:** أن للشيطان يدًا لأن النبي ﷺ أمسك بيده.

ومنها أيضًا: أن هذا الحديث آية من آيات الرسول ﷺ حيث أعلمه الله تعالى بما حصل في هذه القصة وأن الشيطان دفع الأعرابي والجارية وأنه أمسك بأيديهم ... أي بأيدي الثلاثة بيده الكريمة صلوات الله وسلامه عليه.

ومنها: أنه إذا جاء أحدٌ يريد أن يأكل ولم تسمعه سَمَّى فأمسِك بيده حتى يُسمي...لأن النبي ﷺ أمسك بأيديهم ولم يَقُل سَمِّيا بل أمسك بأيديهم حتى يكون في ذلك ذكرى لهم يذكرون هذه القصة ولا ينسون التسمية في المستقبل.

ومن فوائد هذا الحديث: تأكد التسمية عند الأكل ...

والصحيح أن التسمية عند الأكل واجبة وأن الإنسان إذا لم يُسمِّ فهو عاصٍ لله عَزَّوَجَلَّ وراضٍ بأن يشاركه في طعامه أعدى عَدوٍّ له وهو الشيطان .. فلذلك كانت التسمية واجبة فإن نسيت التسمية في أوله وذكرت في أثنائه فقُل: بسم الله أوله وآخره[1].

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٣٦-٤٣٧) بتصرف.

(٧٣٦) وعنْ أُمَيَّةَ بنِ مَخْشِيٍّ الصحابيِّ ﷺ قال: كانَ رسُولُ الله ﷺ جالسًا، ورَجُلٌ يأكُلُ، فلَمْ يُسمِّ الله حتَّى لمْ يَبْقَ مِن طَعامِهِ إلَّا لُقْمَةٌ، فلمَّا رَفعها إلى فِيه، قال: بسم الله أوَّلَهُ وآخِرَهُ، فضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ، ثم قال: «ما زَالَ الشَّيْطانُ يأكُلُ معَهُ، فلمَّا ذَكَر اسمَ الله اسْتقاءَ ما فى بَطنِهِ»[١].

۞ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.

(٧٣٧) وعنْ عائشة ﷺ قالتْ: كانَ رسُولُ الله ﷺ يأكُلُ طَعامًا فى سِتَّة مِن أصحَابِهِ، فجاءَ أعرابِيٌّ، فأكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ فقال رسولُ الله ﷺ: «أما إنَّهُ لوْ سَمَّى لكَفاكُمْ»[٢].

۞ ففى هذا الحديث تحكى أمنا عائشة ﷺ أن النبى ﷺ كان ذات مرة جالسًا مع ستة من أصحابه يأكلون طعامًا من قصعة فيها من الطعام ما يكفى هؤلاء الستة ... وقد كان النبى ﷺ لا ينسى أصحابه أبدًا ... فإذا أتاه طعامٌ على سبيل الصدقة فإنه يُعطيه لأصحابه ولا يأكل معهم؛ لأن الزكاة والصدقات لا تحل للنبى ﷺ وآل بيته... وإذا أتاه طعامٌ على سبيل الهدية فإنه كان يأكل ويُطعم أصحابه معه ﷺ.

وهنا كان النبى ﷺ يأكل مع ستة من أصحابه .. وكانوا فى بداية الطعام .. وفجأة جاء أعرابى فأكل الطعام كله بلقمتين ولم يترك أى شيءٍ للنبى ﷺ وأصحابه .. فتعجَّب النبى ﷺ من فعله ولكنه اغتنم هذه الفرصة ليُعلم أصحابه هذا الدرس المهم فقال لهم ﷺ: **«أمَا إنه لو سمَّى لكفَاكم»**.

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود، والنسائى، وضعفه الألبانى فى المشكاة (٤٢٠٣)،وفى تخريج الكلم الطيب (١٨٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه ، وصححه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٢٣).

أي: لو أن هذا الأعرابى قال: بسم الله قبل أن يأكل لكفاهم الطعام جميعًا ... فذكر الله يجعل البركة تحصل فى الطعام.

ولكن الإنسان الذى لا يذكر الله يُزين له الشيطان شهواته، ويقول له: كُلْ لكى تشبع، فلن تجد أكلًا مثل هذا بعده.

فيمد يده ويأكل الطعام كله، ويترك مَن أمامه لا يجدون شيئًا!

فالتسمية تُحدث البركة فى الطعام، وبها يجعل الله عَزَّوَجَلَّ فى قلب الإنسان التقوى التى بها يحافظ على نفسه وعلى غيره، بل يُؤْثِر غيره على نفسه، فحين يأكل ويرى غيره لا يأكل يقول: هو أَولَى منى بهذا الشىء.

فيعطى الطعام لغيره وحينئذٍ يكفى الجميع.

ولذلك جاء فى حديث النبى ﷺ: (طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة أو الأربعة)، فإذا أكل الإنسان بمعدة كاملة أكل الطعام كله، وإذا أكل وترك شيئًا لنَفَسِه وشيئًا لشرابه أمكن أن يأكل غيره معه ... فالطعام الهنىء الطيب يكفى عددًا من الناس.

فإذا قال الإنسان: (باسم الله) حدثت التقوى فى قلبه، فآثر غيره على نفسه، وأشبعه الله عَزَّوَجَلَّ بالذى أكله وجعل فى الطعام بركة، وأبعد الشيطان عنه.

(٧٣٨) وعن أبى أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبىَّ ﷺ كان إذا رفَعَ مائِدَتَهُ قال: « الحَمْدُ لله حمدًا كثيرًا طَيِّبًا مُبارَكًا فيه، غَيرَ مَكْفِىٍّ وَلَا مُودَّعٍ وَلَا مُسْتغْنًى عنهُ ربَّنا»(١).

۞ **ففى هذا الحديث العظيم يُخبرنا أبو أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان إذا انتهى من طعامه ورُفعت مائدته كان يقول: « الحَمْدُ لله حمدًا كثيرًا طَيِّبًا مُبارَكًا فيه، غَيرَ مَكْفِىٍّ ولا مُودَّعٍ ولا مُسْتَغْنًى عنهُ ربَّنا».**

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٤٥٨) كتاب الأطعمة.

۞ فالنبي ﷺ يقول بعد طعامه: (**الحمد لله**) يعني: أُثني على الله سبحانه بالثناء الجميل الذي يستحقه سبحانه على أسمائه الحسنى وصفاته العُلى، وعلى ما أنعم به علينا من فضلٍ ونِعم.

وقوله: (**حمدًا كثيرًا طيبًا**) أي: يطيب هذا الحمد على لسان المؤمن، فيكون المقصود به الحمد الكثير... الحمد الذي يقوله الإنسان مع تنزيهه ربه سبحانه عن أي نقص.

وقوله: (**مباركًا فيه**) يعني حمدًا يزداد كلما زادت نعم الله سبحانه وتعالى.

قوله: (**غير مكفي**) يعني: لا أحد يُطعمه سبحانه، ولا أحد يسقيه حاشاه سبحانه وتعالى، فلا يحتاج إلى أحد، بل هو الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَمْ سبحانه وتعالى.

(**ولا مودع ولا مُستَغنًى عنه ربنا**) يعني: لا نودع ولا نستغنى عن ربنا سبحانه وتعالى، ولا نودع هذا الطعام بحيث يكون آخر طعام، فربنا سبحانه يعطى ويعطى، كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]، فنحن غير مستغنين عن طعام يُطعمناه ربنا سبحانه، ولا عن شراب يسقيناه ربنا سبحانه وتعالى... فقوله: (**ولا مودع**) يعني: غير متروك الطلب.

وكأن المعنى أن ربنا سبحانه وتعالى غير محتاج إلى أحد سبحانه، ولا نودعه سبحانه وتعالى، بل نحتاج إليه أبدًا سبحانه وتعالى، ولا نستغنى عنه... وهذا الذكر يُقال بعد الطعام(١).

***

(٧٣٩) وعنْ مُعاذ بن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أكَلَ طعَامًا فقال: الحَمْدُ لله الذى أطْعَمَنى هذا، ورَزَقْنِيهِ مِن غيْرِ حَوْلٍ مِنِّى ولا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ ما

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) / الشيخ أحمد حطيبة.

تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث دليل على أن الإنسان ينبغى له إذا أكل طعامًا أن يحمد الله سبحانه وتعالى وأن يقول: الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حولٍ منى ولا قوة .. ومعنى ذلك أنه لولا أن الله تعالى يَسَّر لك هذا الطعام ما حصل لك كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

[الواقعة: ٦٣- ٦٧].

فلولا أن الله عَزَّوَجَلَّ يسَّر لك الطعام من حين أن يكون بذرة فى الأرض ما تيسَّر لك .. واعلم أن رغيف الخبز الذى تأكله لا يصل إليك إلا بعد أن توضع البذرة فى الأرض ثم تُسقى ويعتنى بها الفلاح عناية كبيرة .. ثم إذا نبت القمح فإنه يُحصَد ثم يُطحَن ثم يُعجَن ثم يتم تسويته فى الفرن حتى يصل إليك لتأكله هنيئًا مريئًا .. فانظر كم لله عليك من نعمة فى هذا الرغيف فقط .. فكيف بسائر الأطعمة وصنوف النعم .... ثم تأمَّل معى كيف أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى أعطى وأطعم وسقى ثم يقول (جلَّ وعلا): ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم:٧]، فإذا أكل المرء وحمد الله تعالى أو شرب وحمد الله تعالى غفر له ربه سبحانه وتعالى بالشىء القليل الذى يقوله، وهو قوله: (**الحمد لله**).

فقول المرء: «**الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حولٍ منِّى ولا قوة**» معناه أن ربنا هو الذى أطعمنى، وهو الذى رزقنى هذا من غير حولٍ منِّى ...، أى: من غير حيلة منى، ولكن الرزق بيد الله سبحانه، فهو الذى وجهنى، وهو الذى جعلنى أكسب هذا الشىء بفضله ورحمته.

فهو الذى يوفق العبد للكسب الهنىء الطيب، ... فاللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٨٦).

(١٠١) باب لا يعيب الطعام .. واستحباب مدحه

۞ إن المسلم لا يعيب شيئًا من نِعم الله أبدًا.

فإذا تيسَّر أمامك أى طعام فلا يجوز أن تعيب الطعام إن لم يُعجبك، فإن كنت تشتهيه وطابت به نفسك فلتأكله.. وإن لم تكن تشتهيه فلا تأكله، ولكن لا تقدح فى الطعام ولا تعيبه؛ لأنه نعمة من عند الله (جلَّ وعلا).

بل لا بد أن تتذكر فى تلك اللحظة هؤلاء الذين يموتون من الجوع فى أقطار الأرض ولا يجدون لقمة واحدة ... فتحمد الله على أن يسَّر لك الطعام مهما كان حاله.

(٧٤٠) عن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما عَابَ رسُولُ الله ﷺ طَعامًا قَطُّ، إن اشْتَهاهُ أكَلَهُ، وإنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ[(١)].

۞ وهذا من حُسن خُلقه (عليه الصلاة والسلام)، فقد كانوا فقراء وكان الطعام قليلًا... وكسرة الخبز كانت شيئًا كبيرًا جدًّا بالنسبة لهم، وما أكل النبى ﷺ حتى مات طعامًا مُرقَّقًا من عيشٍ قط ﷺ.. إنما كان يُخبز للنبى ﷺ الخبز والدقيق بنخالته، فقد كانوا يأخذونه وينفخون فى الدقيق، حتى يذهب منه بعض نخالته، ويُخبز بباقيها... أما أنه يُعمل له منخل وينتخل فيه الدقيق مثلما يحصل الآن، فلم تكن مثل هذه الأشياء موجودة فى عهد النبى ﷺ.

ولذا فقد كان النبى ﷺ إذا دُعى إلى طعامٍ أو إذا قُدم له طعام .. فإن اشتهاه أكل منه .. وإن كرهه لم يَعبه ولم يأكل منه واعتذر بصورة لا تجرح صاحب الضيافة ... ولذلك عندما كان يُوضع الضَّب على مائدة النبى ﷺ لم يكن

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٠٩) كتاب الأطعمة - ومسلم (٢٠٦٤) كتاب الأشربة.

يشتهيه... والضَّبُّ نوعٌ من الحيوانات الصحراوية وشكله مثل التمساح ولكنه بَرِّى... فالتمساح حيوان برمائى، وهذا يوجد فى الصحارى ونحوها، وأراضى الحجاز ونجد مليئة بالضباب، وفى غيرها من المناطق الصحراوية، وهو صغير فى الحجم، فكانوا يشوونه ويقدمونه لحمًا ... فكان العرب يشتهون ذلك... والضِّباب لم تكن موجودة فى مكة أو المدينة، فلذلك كان يعافه ﷺ ويقول: «**إنَّهُ ليس بأرض قومى فأجدنى أعافه**».

فإن كنت ضيفًا عند أحدٍ وقدَّم لك طعامًا لا تحبه فلا تقدح فى الطعام ولكن ادعُ لصاحب الطعام بكل خير وأخبره أنك لا تريد الطعام الآن.

❊❊❊

(٧٤١) وعنْ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سألَ أهْلَهُ الأُدُمَ، فقالوا: ما عِنْدَنَا إلا خَلٌّ، فدَعَا بِهِ، فجَعل يأكُلُ ويقول: «نِعمَ الأُدُمُ الخَلُّ، نِعمَ الأُدُمُ الخَلُّ»(١).

۞ وفى رواية أُخرى: أن النبى ﷺ مَرَّ بالطريق فوجد جابرًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تحت ظل بيتٍ وكأنه استشعر أن جابر جائعًا، فأمره النبى ﷺ أن يتبعه، فتبع النبى ﷺ فلما دخل النبى ﷺ عند أهله، فسألهم عن الإدام، فقالوا: ما عندنا إلا خَلٌّ، فدعا النبى ﷺ به ليأكل، وقال: « **نِعمَ الأُدُمُ الخَلُّ، نِعمَ الأُدُمُ الخَلُّ**» والإدام: هو الشىء الذى تغمس الخبز فيه... والإدام شىء يساعدك على ابتلاع الطعام واستساغته من زيتٍ أو دهنٍ أو غيره... فأكل النبى ﷺ الخل وقال: « **نِعمَ الأُدُمُ الخَلُّ** ».

وأخبر جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه لم يزل يحبه منذ رأى النبى ﷺ يأكله، وقد غمس الخبز بالخل فأكله ﷺ ومدحه أيضًا... فيُستحَب مدح الطعام فقد خلقه الله سبحانه وتعالى، وهو من فضله ومن رحمته على خلقه.

والمدح للخل يبين أن هناك فائدة كبيرة فى الخل، والنبى ﷺ لم يمدحه إلا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٥٢) كتاب الأشربة.

وهو يعلم فوائده.

۞ **وقد بحث العلماء فى بعض فوائد الخل فتوصلوا إلى نتائج مُبهرة:**

فقد ذُكر فى موسوعة من موسوعات الصيدلة وهى موسوعة مارتن بل الصيدلانية... ذُكر فيها فوائد عديدة للخل، فقد قالوا: إن الخل له فوائد تدفعنا أن نأكل منه كما أكل النبى ﷺ، فهو يُستعمل كعلاج فى معالجات حالات التسمم من المواد القلوية، وهو يفيد فى علاج الحُمى... فالإنسان الذى أُصيب بحُمَّى عالية يساعد على أن يُنزل درجة حرارته، إذا استُخدمت كمَّادات من ماء الخل على رأس الإنسان أو على جسده، وقالوا: إن الإنسان يستخدم أحيانًا مُضادات حيوية كثيرة فتتسبب فى ظهور طبقة سوداء على اللسان لا تذهب، فقالوا: إن الخل يفيد فى إزالة هذه الطبقة ... فإذا أُخذ الخل ووضع على ماءٍ وشُرب ومُسح به اللسان مرة أو مرتين فى اليوم لمدة أسبوع يُزيل ذلك.

وقالوا: إنه مفيد فى التهاب المفاصل إذا وضع على هيئة كمَّادات فيُضاف الخل إلى الماء ويُسخَّن ويُوضع على المفاصل فيُريحها.

وقالوا: إن لدغات النحل ولدغات السمك الهُلامية فى البحر إذا عولجت بوضع الخل عليه مخلوطًا بملح فإن الألم يخف ولا يبقى شىء.

وقالوا: فى الخل وخاصة الخل المصنوع من التفاح شفاء العديد من الأمراض: التهابات المفاصل، والتهاب الأنف، وحساسية الأنف، والربو، واضطرابات الأمعاء، وأنواع من الرشوحات موجودة فى الجسم، وهو الآن يُستخدم للتخسيس، « **نِعمَ الأُدُمُ الخَلُّ** ».

وذكر الدكتور سيرلس كود وموريس هانس فى كتاب عن فوائد الخل يقول: يمنع الإسهال لاحتوائه على مواد قابضة، ويُنشط عملية الهضم لأى إنسان؛ لأنه حامضى فيزيد من حموضة المعدة فيُنشط الهضم والاستقلاب فى الجسم

وتحويل المواد الغذائية.

قالوا أيضًا: يُستخدم كمضمضات ليمنع التنخُّر فى الأسنان، كما أنه يقتل الطفيليات الموجودة فى الأمعاء، ويمكن استعماله لتحسين الهضم عند مرضى عُسر الهضم[1].

۞ بل قالوا: إن الخلَّ يُذيب الدهون .. إذا أُخذ منه ملعقة على ماء السلطة الخضراء مع الأكل (وذلك لأن الخل هو حمض الأسيتيك (Acetic Acid) وهذا الحمض له علاقة بالبروتين والدهون والكربوهيدرات). وإذا تناول الإنسانُ الخَلَّ بصفة منتظمة فى مكونات الطعام، كالسلطة الخضراء، أو ملعقة صغيرة على كوب ماء، وبخاصة إذا كان خل التفاح، فإنه يحافظ على مستوى دهون الجسم.

۞ ويُقلِّل الخل من احتمالية الإصابة بتصَلُّب الشرايين أو يقى منها تمامًا... لأنه يُحول الزائد من الدهون إلى المُركَّب الأوسط وهو الأسيتوأسيتات Acetoacetate الذى يدخل فى التمثيل الغذائى.

والثابتُ عن النبى ﷺ أنه كان يأكُلُ الخلَّ مع الزيت.

۞ وفى عام الرمادة كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأكل الزيت والخل (فقط). وما أكل اللحم إلا بعد أن أكله فقراءُ المسلمين.

۞ وخلُّ التفاح أفضلُ أنواع الخلّ لأنه بجانب حمض الأسيتيك المكون له فإنه يحتوى على العديد من الأحماض العضوية اللازمة للجسم فى التمثيل الغذائى إلى جانب العديد من المعادن اللازمة للجسم.

۞ قال الدكتور جارفيس فى كتابه (الطب الشعبى): الخلُّ مُطهر للأمعاء من الجراثيم كما أنه مُطهرٌ لالتهابات حوض الكلى والمثانة، ويُذكر أن الخل يقضى

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) / للشيخ أحمد حطيبة.

على الصديد الموجود بالبول[1].

هذا ما وصل إليه العلماء من الأبحاث ... ومن الممكن أن تأتى أبحاثٌ جديدة تُثبت أشياء أكثر من هذا الذى ذُكر.

ولكن على كُلٍّ نرجع لحديث النبى ﷺ أنه مدح الطعام وإن كان شيئًا يسيرًا قليلًا بحسب الموجود ... فيمدح الإنسانُ الموجود من الطعام، ويحمد ربه (سبحانه وتعالى) عليه وعلى نعمه... قال سبحانه: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]، فالمؤمن إذا أكل وحَمِدَ الله سبحانه وشكر الله سبحانه فإن الله سيعطيه المزيد من فضله سبحانه.

۞ فاحرص – أخى الحبيب – على أن تُعود نفسك على أن تأكل من الطعام الموجود ... فلو عوَّدت نفسك على الغالى وعلى الفاخر فلعلَّه يَعِزُّ فى زمنٍ من الأزمان فلا تجد هذا الطعام... فعوِّد نفسك على الشىء القليل حتى لا تظل مُتعلقًا بالشىء الغالى وقد لا تجده فيحدث فى نفسك شىء، ... فاللهم ارزقنا نعمة الرضا والقناعة .. وارزقنا شُكر نعمك التى لا تُعد ولا تُحصى.

---

(١) التداوى بالنبات والطب النبوى (بتصرف يسير).

(١٠٢) باب ما يقوله مَن حضر الطعام وهو صائم إذا لم يُفطر

۞ إن من أسباب المحبة بين المسلمين إطعام الطعام.

بل إن إطعام الطعام من أسباب دخول الجنة .. فقد قال النبى ﷺ: «**أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الأَرحَامَ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وادخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»[١].

۞ فإذا دعاك أحد أصحابك أو أقاربك إلى الطعام فلا بُد أن تأكل من طعامه .. ولا يكفى مجرد الحضور .. وذلك لأن صاحبك دعاك من أجل أن تأكل وقد تكلَّف لك وصنع طعامًا ودعاك إليه.

فإن كان قد دعاك أنت وغيرك إلى الطعام، ولم يأكل أحدٌ من طعامه لصار ذلك مَفسدة لماله ومَضيعة له ولصار فى قلبه على الحاضرين شىء لأنهم لم يأكلوا طعامه... بل قد يُلقى الشيطان فى قلبه أنهم لم يأكلوا لأنهم يظنون أن طعامه جاء من مالٍ حرام.

۞ ومن أجل ذلك نقول: إذا دعاك أحد إخوانك أو أقاربك إلى الطعام فمن السُّنة أن تُجيبه ... وإذا دعاك إلى وليمة عُرسه فالواجب أن تُجيب دعوته ولا يحل لك أن تمتنع إلا لعذرٍ... وذلك لقول النبى ﷺ: «**مَن لم يُجب فقد عصى الله ورسوله**»[٢].

يعنى فى دعوة الوليمة .. أما غيرها من الدعوات فأنت بالخيار.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٨٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى الإرواء (١٩٤٧) - وأصله فى الصحيحين.

وذلك مثل أن يدعوك إنسان إلى الطعام؛ لأنه دعا أصحابه ويُحب أن تكون معهم... أو لأنه عادِ من السفر، أو لأن ولده قد نجح هذا العام أو لغير ذلك... فأنت بالخيار .. إما أن تُجيب أو لا تُجيب.. لكن الأفضل أن تُجيب .. وهذا الذى عليه جمهور العلماء.

(٧٤٢) عن أَبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِذَا دُعِىَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطعَمْ»[١].

۞ قال بعض العلماء: يجب أن تُجيب فى دعوة الطعام فى العُرس وغيره إلا لسببٍ شرعى.

فإذا حضرت فإن كنت مُفطرًا فكُلْ، وإن كنت صائمًا فادعُ لصاحب الطعام، وأخبره بأنك صائم، حتى لا يكون فى قلبه شىء... وإن رأيت أنك إذا أفطرت وأكلت صار أطيب لقلبه فأفطِر، إلا أن يكون الصوم صوم فريضة، فلا تُفطر.

۞ فتبين الآن أن المسألة ثلاثة أحوال:

أولًا: إذا دعاك وأنت مُفطر فكُلْ.

ثانيًا: إذا دعاك وأنت صائم صوم فريضة فلا تأكل ولا تفطر.

ثالثًا: إذا دعاك وأنت صائم صوم نفلٍ فأنت بالخيار إن شئت فأفطر وكُلْ وإن شئت فلا تأكل وأخبره بأنك صائم ... واتَّبع فى ذلك ما هو الأصلح إذا رأيت أن من الخير أن تُفطر فأفطر وكُلْ وإلا فلزوم الصيام أَولَى[٢].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٣١) كتاب النكاح.
قَالَ العُلَمَاءُ: مَعنى «فَلْيُصَلِّ»: فليدعُ - ومعنى «فَلْيَطعَمْ»: فليَأْكُلْ.
(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٤١).

(١٠٣) باب ما يقول مَن دُعِى إلى طعامٍ فتبعه غيره؟

۞ قد يدعوك أحد أصحابك أو أقاربك إلى الطعام.. فلما أجبت الدعوة وذهبت إليه ووصلت إلى باب بيته رآك أحد أصحابك فجأة وأراد أن يدخل معك دون أن يدعوه صاحب البيت فماذا تصنع؟

يأتيك الجواب مباشرة من الحبيب المصطفى ﷺ.

(٧٤٣) عن أَبى مسعود البَدرىِّ رضي الله عنه قَالَ: دعا رَجُلٌ النَّبِىَّ ﷺ لِطَعَامٍ صَنعَهُ لَهُ خَامِسَ خَمْسَةٍ، فَتَبِعَهُمْ رَجُلٌ... فَلَمَّا بَلَغَ البَابَ، قَالَ النَّبىّ ﷺ: «إنَّ هَـذَا تَبِعَنَا، فَإنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ، وَإنْ شِئْتَ رَجَعَ» قَالَ: بل آذَنُ لَهُ يَا رَسُولَ الله[١].

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ففى هذا دليل على عدة فوائد:

أولًا: أنه يجوز للإنسان إذا دعا قومًا أن يُحدد العدد ولا حرج فى ذلك وبعض الناس يقول: إنه إذا حدَّد العدد فإنه يكون بخيلًا... ولكن يُقال: قد يكون الإنسان قليل ذات اليد يحتاج أن يُحدِّد لأجل أن يصنع الطعام الذى لا يزيد عن كفايتهم ولا سيما فى مكانٍ يكون فيه عامة الناس فقراء ... أما الأغنياء فالحمد لله لا يُحددون.

وفيه أيضًا: دليل على جواز اتِّباع الرجل للمدعوين لعله يحصل على طعام ... لأن النبى ﷺ لم يمنع هذا الرجل من اتباعهم بل استأذن له.

ولأنه ورد أيضًا فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه حين تَبِعَ النبى ﷺ من أجل أن يُشبع بطنه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٨١) كتاب البيوع - ومسلم (٢٠٣٦) كتاب الأشربة.

وفيه أيضًا: دليل على أنه إذا جاء مع الإنسان مَن لم يُدعَ فإنه يُستأذن له خصوصًا إذا كنت تظن أن صاحب البيت دعاك لغرضٍ خاص لا يُحب أن يطَّلع عليه أحدٌ فحينئذ لا بد أن تستأذن.

وفيه أيضًا: دليل على أنه لا حرج على صاحب البيت إذا لم يأذن للذى تَبِعَ المدعو لأنه لو كان فى ذلك حرج ما استأذنه النبى ﷺ... فلما استأذنه دَلَّ على أنه بالخيار إن شاء أَذِن وإن شاء قال ارجع ... وذلك أن الإنسان إذا استأذن لشخصٍ فصاحب البيت بالخيار إن شاء أذن له وإن شاء قال ارجع.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور:٢٨].

۞ فلا يَكُن فى صدرك حرج ولا فى نفسك ضيق إذا استأذنت على شخصٍ وقال ارجع أنا الآن مشغول ... خلافًا لبعض الناس إذا استأذن أحدهم على إنسانٍ وقال له: ارجع أنا مشغول صار فى قلبه شىء ... وهذا غلط لأن الناس لهم حاجاتٌ خاصة فى بيوتهم وقد يكون لهم تَعلُّقات بأُناسٍ آخرين أهم ... فإذا استأذنت على شخص فى البيت وقال لك: الآن عندى شُغل فارجع ... فارجع بكل راحة وبكل طمأنينة لأن هذا هو الشرع[1].

۞ وقد يسأل سائل ويقول: ألم يَقُل النبى ﷺ: « **طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِى الِاثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الِاثْنَيْنِ يَكْفِى الْأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِى الثَّمَانِيَةَ**»[2].

فلماذا لم يَقُل النبى ﷺ للرجل الذى دعاه إلى الطعام: إن هذا الرجل تَبِعَنا يُريد أن يأكل معنا ... وأنت تعلم أن طعام الخمسة يكفى الستة .. فلا بأس أن يُصبح الخمسة ستة؟

الجواب: لأن النبى ﷺ يُربى كل واحدٍ من أصحابه تربية عملية على أن

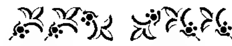
(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٤٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٩٢) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٥٩) كتاب الأشربة.



بيوت الناس لها حُرمات .. وأن صاحب الدعوة قد لا يحب أن يُدخل هذا الرجل بيته .. أو أنه قد يكون بحاجة إلى أنْ يتكلم بكلامٍ لا يسمعه أحدٌ غريب..

۞ ولكن إن حدث لك موقفٌ مُشابهٌ لما حدث مع النبى ﷺ فلك فيه الأُسوة والقدوة ... فعليك أن تفعل مثلما فعل النبى ﷺ وتقول لصاحب البيت (إن هذا تَبِعَنا) أى: نحن لم نَدعُه بل هو الذى أتى بنفسه، (إن شئت أذنت له، وإن شئت رجع) أى: لن نتوسط له ولن نشفع له ولكن حسب ما تريد... حتى لا نُسبب له حرجًا.



(١٠٤) باب الأكل مما يليه ووعظه وتأديب مَن يُسيئ أكله

(٧٤٤) عن عمر بن أبى سَلَمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كُنتُ غلامًا فى حِجْرِ رسولِ الله ﷺ، وكانتْ يَدِى تَطِيشُ فى الصَّحفَةِ فقال لى رسولُ الله ﷺ: «يا غُلامُ، سَمِّ الله تعالى، وكُلْ بيمِينِكَ، وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٠٤) والحديث رقم (٧٣٢) فأرجو الرجوع إليهما .. بارك الله فيكم.

(٧٤٥) وعنْ سَلَمَة بنِ الأكْوَع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رَجُلًا أكلَ عِندَ رسُولِ الله ﷺ بشِمالِهِ فقال: «كُلْ بيَمِينكَ» قال: لا أسْتَطيعُ، قال: «لا اسْتَطَعتَ» ما منَعَهُ إلا الكِبْرُ، فمَا رَفَعَها إلى فِيهِ(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٦٣) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٧٦) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٢٢) كتاب الأشربة.
قوله: «تَطِيشُ» معناه: تتحرَّك وتمتدُّ إلى نواحى الصَّحفَةِ.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢١) كتاب الأشربة.

(١٠٥) باب النهي عن القران بين تمرتين ونحوهما إذا أكل في جماعة إلا بإذن رفقته

(٧٤٦) عن جَبَلة بن سُحَيْم قال: أصابَنا عامُ سَنَةٍ مع ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَرُزِقْنَا تَمْرًا، وكانَ عبْدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما يمُر بنا ونحنُ نأكُلُ، فيقولُ: لا تُقَارِنُوا، فإن النَّبِيَّ ﷺ نَهى عنِ الإِقْرَانِ، ثم يقول: «إلا أنْ يَسْتَأذِنَ الرَّجُلُ أخَاهُ»[1].

۞ فى هذا الحديث تعليم الصغار والكبار آداب الطعام ... فإذا كان الطعام فيه تمر أو نحوه مما يُؤكل واحدة واحدة، وكان معك أحدٌ يأكل .. فالأدب أن تأكل واحدة واحدة، كما يأكل هو، إلا أن يكون الأمر الجارى هو الاتفاق على أن تأكلا اثنتين اثنتين أو ثلاثًا ثلاثًا، أو استأذن أحدكما صاحبه.

لكن لا تُعوِّد نفسك على هذا الشيء.

۞ فهنا يقول جبلة بن سُحيم: (أصابنا عام سَنة مع ابن الزبير).

(عام سَنة) يعنى: عام جدب وقحط وشدة... قال: (فَرُزقنا تمرًا) يعنى: قسّم علينا تمرًا... قال: وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يمر بنا ونحن نأكل.

وذلك فى عام مجاعة لم يصيبوا فيه إلا التمر فكانوا يأكلون التمر.

فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: (لا تُقارنوا؛ فإن النبى ﷺ نهى عن الإقران) يعنى: لا تأكلوا اثنتين اثنتين، ولا يمد أحدكم يده ليأخذ تمرتين تمرتين، بل ليأخذ كُلٌّ منكم واحدة واحدة من الطعام الذى أمامكم.

وذلك ليعلم المرء أنه كما أن له حقًّا فى الطعام فللذى يأكل معه-أيضًا- حقٌّ فى الطعام... فإذا كان سيأكل أكثر من واحدة فإنه سيقول: اسمحوا لى بأن آكل اثنتين اثنتين.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٤٦) كتاب الأطعمة - ومسلم (٢٠٤٥) كتاب الأشربة.

وهذا صعب على نفس الإنسان، وحينئذ سيستأذن مرة وسيستحي بعد ذلك فلن يستأذن، وحينئذ سيأكل واحدة واحدة.

فهذا أدب يؤدبنا به النبي ﷺ بألا نأكل طعام غيرنا، وإلا فإن الجميع سيقومون وفي نفوس بعضهم شيء على الآخرين، فتسمع بعضهم يقول: فلان هذا لا أحب أن آكل معه؛ لأنه يقعد ليأكل معنا فيمد يده ليأكل الطعام كله... كما جاء الأعرابي وأكل الطعام الذي أمام النبي ﷺ وكان يكفي ستة أفراد، فأكله هو كله، ولم يَرَ أن غيره محتاج إلى أن يأكل، بل نظر إلى نفسه فقط! .. فهذا الذي يكون بهذا الخُلق يكون بغيضًا عند الناس... فالناس لا تحبه ولا تحب أن تأكل معه.

۞ أما إذا كان الإنسان يأكل وحده فلا بأس أن يقرن بين التمرتين أو الحبتين مما يُؤكل أفرادًا؛ لأنه بذلك لا يضر أحدًا.

۞ وبالجملة: لو أن كل إنسان اتقى الله (سبحانه وتعالى) وراعَى غيره في طعامه وعرف آداب الطعام؛ فإن الناس سيحبون أن يأكلوا معه؛ لأنه طيب؛ ولأن مجلسه فيه إيثارٌ للناس.

وأما الإنسان الطماع فإنه لا أحد يحب أن يأكل معه.

(١٠٦) باب ما يقوله ويفعله مَن يأكل ولا يشبع

۞ قد نجد أحيانًا إنسانًا يشكو من أنه يأكل ولا يشبع ... ومهما كان الطعام أمامه فإنه يأكل ولا يشبع.

وقد نجد أسرة يشكو جميع أفرادها أنهم يأكلون ولا يشبعون.

فما هو الحل فى هذه المشكلة الكبيرة؟

الحل موجود فى سُنة الحبيب المصطفى ﷺ.

(٧٤٧) عن وَحشِيِّ بن حرب رضي الله عنه: أَنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ قالوا: يَا رسولَ اللهِ، إِنَّا نَأْكُلُ وَلاَ نَشْبَعُ؟ قَالَ: «فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ» قالوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسمَ اللهِ، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ»[1].

۞ فالأسباب الحقيقية فيمن يأكل ولا يشبع تتلخص فى الآتى:

(١) أنه حينما يأكل لا يُسمِّى الله على طعامه .. ولذلك فإن الشيطان يشاركه فى ذلك الطعام ويأكل معه وتُنزع البركة من ذلك الطعام.

(٢) أنه قد يأكل من وسط الصحن وأعلاه ولا يأكل من جوانب الصحن.. وهذا أيضًا مما ينزع البركة من الطعام ... وذلك لأن النبى ﷺ نهى عن أن يأكل الإنسان من أعلى الصحن لأن البركة تنزل فى وسط الصحن.

(٣) ومن الأسباب أيضًا: التفرُّق على الطعام ... فمن السُّنَّة أن تجتمع الأسرة على مائدة واحدة وأن يأكلوا سويًّا لتنزل البركة فى ذلك الطعام ... أما إذا تفرقوا وأكل كلُّ واحدٍ منهم فى إناءٍ خاص فإن الطعام سيتفرق وسوف تُنزع البركة من ذلك الطعام .. وذلك لأن الاجتماع من أسباب نزول البركة ... والتفرُّق من أسباب نزع البركة.

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٢).

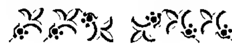
۞ فالعلاج أن يأكل المسلم بعد أن يُسمِّى الله عَزَّوَجَلَّ ... ولا يأكل من أعلى ووسط الصحن بل يأكل من جوانبه ... وإذا كانوا أسرة فعليهم أن يجتمعوا على الطعام لتنزل البركة ... فإذا فعلوا ذلك فمُحالٌ ألا يشبعوا .. وبخاصة إذا كان أصل الطعام يكفى عددهم وكان من مالٍ حلال.

۞ وهكذا .. لما اشتكى أصحاب الرسول ﷺ أنهم يأكلون ولا يشبعون أمرهم النبى ﷺ أن يجتمعوا على طعامهم ويذكروا اسم الله لتحلَّ البركة.

والبركة شىء لا يراه الإنسان، بل شىء يستشعره بقلبه ويستشعره بما يكفيه من هذا الطعام الذى دخل فى فِيه.

فالطعام هو هو، وقد كان كل واحد يأخذ نصيبه لوحده ويأكل ولا يكفيه الطعام... ولما وضعوا الطعام كله وجلسوا جميعًا، جاءت البركة من عند ربنا سبحانه، فأكلوا وشبعوا، فما هو الذى حصل هنا؟ لقد زاد الطعام وإن لم يَزِد أمامهم فى النظر، ولكن جاءت البركة من عند الله (سبحانه وتعالى).

فعلَّم النبى ﷺ الصحابة وعلَّم مَن بعدهم الاجتماع على الطعام؛ حتى تأتى البركة من عند الله (سبحانه وتعالى).



(١٠٧) باب الأمر بالأكل من جانب القصعة والنهي عن الأكل من وسطها

فيه قوله ﷺ: «وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ». متفق عليه كما سبق.

(٧٤٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «البَرَكَةُ تَنْزِلُ وسَطَ الطَّعَام فكُلُوا مِن حَافَّتَيْهِ ولا تأكُلُوا مِن وسَطِهِ»(١).

(٧٤٩) وعن عبدِ الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه قال: كان للنَّبِيِّ ﷺ قَصعَةٌ يُقالُ لها: الغَرَّاءُ، يحمِلُهَا أربَعَةُ رِجالٍ، فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى، أُتِيَ بِتِلْكَ القَصعَةِ؛ يعنى وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا، فَالتَفُّوا عَلَيْهَا، فلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رسولُ الله ﷺ فقالَ أعرابيٌّ: ما هذه الجِلْسةُ؟ قال رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ الله جَعَلنى عَبْدًا كَرِيمًا، ولَمْ يجْعَلْنى جبارًا عَنيدًا» ثم قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا مِن حَوَالَيْهَا، ودَعُوا ذِروَتَهَا يُبارَكْ فيها»(٢).

ففى الحديث الأول يُخبر النبى ﷺ أن البركة تنزل فى وسط الطعام .. ولذا أمرنا أن نأكل من حافة الطعام ولا نأكل من وسطه.

وقد جرت عادة الناس بأن الأكل من وسط الطعام يُقذره فى أنفسهم ويجعل شكله غير لائق.

وهذا صحيح، إلا أن هناك أمرًا أهم، وهو أن ربنا سبحانه وتعالى يُنزل بركة من السماء فى وسط القصعة، فإذا بالطعام يزيده الله سبحانه وتعالى ويبارك فيه.

فإذا كنت تأكل وحدك فلا تأكل من وسط القصعة واحرص على أن تأكل من جوانبها .. فإذا انتهيت من جوانبها فكُلْ ما تبقَّى فى القصعة ولا تتركه

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٠٢).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٠٤).

«ذِروَتها»: أعلاَهَا بكسر الذال وضمها.

للشيطان.. فليس المقصود من هذا الحديث أن نأكل من جوانب القصعة ونترك ما فى وسطها ولا نأكله .. كلا .. بل المقصود أن نأكل من جوانب القصعة ثم نأكل باقى الطعام الذى فيها ... أما إذا كنت تأكل مع جماعة فليأكل كل واحدٍ مما يليه ولا يأكل مما يلى غيره.

قال أهل العلم: إلا إذا كان الطعام أنواعًا، وكان نوعٌ منه فى الوسط وأراد أن يأخذ منه شيئًا فلا بأس... مثل أن يُوضَع اللحم فى وسط الصحفة فإنه لا بأس أن تأكل من اللحم ولو كان فى وسطها، لأنه ليس له نظير فى جوانبها، فلا حرج... كما أن النبى ﷺ كان يتتبع الدُّبَّاء يلتقطها من الصحفة كلها، والدُّبَّاء هو القرع.

۞ أما الحديث الثانى فيخبر فيه عبد الله بن بُسر رضي الله عنه أن النبى ﷺ كانت له قصعة اسمها الغرَّاء ... وقد كان النبى ﷺ يُسمى ما يملكه .. فيُسمى الفرس ويُسمِّى الناقة التى يركبها ويُسمِّى القصعة التى يأكل فيها .. فتلك القصعة كان اسمها الغرَّاء... وكأنها كانت بيضاء، أو لِمَا يُوضع فيها من لحوم وغيرها... قال: (يحملها أربعة رجال) فهذه القصعة كان لا يقدر على حملها إلا أربعة رجال، وهذا من كرمه ﷺ، فكان يملأ هذه القصعة ويضعها لأصحابه ليأكلوا.

(فلما أضحوا وسجدوا الضُّحى أُتى بتلك القصعة) أى: كان من عادة النبى ﷺ أن يصلى الفجر ويجلس فى مُصلاه يذكر الله سبحانه إلى وقت الضحى، فلما صلوا الضحى أُتى النبى ﷺ بتلك القصعة، قال: (وقد ثُرِد فيها) يعنى أنه موضوع فيها خبز عليه اللحم... قال: (فالتفوا حولها، فلما كثروا جَثا رسول الله ﷺ).

فالقصعة كان يحملها أربعة رجال، فحجمها قد يكون مثل الطست، فإذا جلسوا حولها وهم مجموعة لن يسعهم المكان، فكان لا بد أن كل إنسان يأخذ ويبتعد عنها قليلًا لتتسع الدائرة ويكفى المكان للجميع.

وكان النبى ﷺ يتابع أحوالهم حتى يطمئن أنهم جميعًا سيأكلون ..

فقد كان ﷺ حريصًا عليهم ... كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

فلما وجدهم قد كثروا جثا ﷺ .. أى: اعتمد على رُكبتيه وكأنه قاعد على هيئة التشهد فى الصلاة...

وكان معهم رجلٌ أعرابى يجلس معهم على الطعام .. فلما رأى النبى ﷺ جثا على رُكبتيه قال: يا رسول الله ما هذه الجلسة؟

فقال له سيد المتواضعين ﷺ: «إن الله جعلنى عبدًا كريمًا ولم يجعلنى جبَّارًا عنيدًا».. فهو عبدٌ لله سبحانه وتعالى أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بنعمة النبوة والرسالة ... بل أكرم الكون كله ببعثته ونبوته ورسالته ﷺ.

فقد كان النبى ﷺ يجلس مع أصحابه ليأكل معهم من قصعة واحدة ..

أما الجبابرة والملوك وأشباههم فإن أحدهم يجلس ليأكل وحده وحوله الحُراس قائمين يحرسونه.

أما النبى ﷺ فقد كان يقول: «إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد».

ثم قال رسول الله ﷺ لمن كان يأكل: «كُلوا من حواليها ودعوا ذروتها يُبارَك فيها»، فالقصعة كانت كبيرة يحملها أربعة رجال، ولكن مع ذلك كان عددهم كبيرًا، ويمكن أن تنفد بسرعة، فأمرهم بأن يتأدبوا بأدب الطعام، فكل واحد يأكل مما يليه ولا أحد يمد يده إلى وسط الصحفة حتى تنزل البركة فيها من عند الله (جلَّ وعلا).

۞ وفى هذا الحديث استحباب ركعتى الضحى .. وهى سُنة ينبغى للإنسان

أن يُحافظ عليها لأنها تُغنى عن الصدقات التى تصبح على كل عضوٍ من أعضاء البدن وكل مفصل من مفاصله ... فقد قال ﷺ: « **يُصبِحُ عَلَى كُلِّ سُلاَمَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْىٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَركَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى** »[(١)].

۞ وفيه أيضًا دليل على أن الإنسان عند الأكل لا يأكل مُتكئًا وإنما يأكل مستوفزًا يعنى جاثٍ على رُكبتيه حتى لا يُكثر من الأكل ... لقول النبى ﷺ فى الإكثار من الأكل: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه فإن كان لا محالة فثُلثٌ لطعامه وثُلثٌ لشرابه وثُلثٌ لنفَسِهِ**» هذا هو الأكل النافع الطبيعى ... وإذا جُعت فَكُل ... فالأمر ليس مقصورًا على ساعات معينة.

ولو قال قائل: إن الإنسان لو اقتصر على ثُلث وثُلث وثُلث، قد يجوع قبل أن يأتى وقت العشاء. نقول: إذا جُعت فكُل، لكن كونك تأكل هذا الخفيف يكون أسهل للهضم وأسهل للمعدة وإذا اشتهيت فَكُل .... وهذا من الطب النبوى.

لكن لا بأس بالشبع أحيانًا لأن النبى ﷺ أقرَّ أبا هريرة رضي الله عنه حينما سقاه اللبن وقال: «**اشرب اشرب اشرب**» حتى قال: والله لا أجد له مساغًا -يعنى لا أجد له مكانًا- فأقره النبى ﷺ على ذلك ... وإنما الذى ينبغى أن يكون الأكثر فى أكلك كما أرشد إليه النبى ﷺ ثُلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنَّفَس[(٢)].



(١) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٤٨) بتصرف.

(١٠٨) باب كراهية الأكل مُتكئًا

(٧٥٠) عن أبي جُحَيفةَ وهبِ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا آكُلُ مُتَّكِئًا»[(١)].

قال الخَطَّابِيُّ: المُتَّكِئُ هُنا: هو الجالِسُ مُعتَمِدًا على وِطاءٍ تحته.

قال: وأرَاد أنَّه لا يقعُدُ على الوطَاءِ والوسائِدِ كفِعلِ مَن يُريد الإكْثار مِن الطعامِ بل يَقْعدُ مُسْتَوْفِزًا لا مُسْتوطِئًا، ويأكُلُ بُلْغَةً - طعامًا قليلًا- هذا كلام الخطابى، وأشار غيرهُ إلى أنَّ المتكئ هو المائل على جَنْبِه، والله أعلم.

(٧٥١) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيْتُ رسولَ الله ﷺ جالسًا مُقْعِيًا يَأكُلُ تَمْرًا[(٢)].

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن الجلوس عند الطعام ينقسم إلى قسمين: قسمٌ منهيٌّ عنه؛ لأنه ليس من هدى النبى ﷺ وهو أن يأكل الإنسان متكئًا .. إما على اليد اليُمنى أو على اليد اليُسرى .. وذلك لأن الذى يأكل وهو مُتكئ فإن هذا يدل على الكبر والغطرسة التى فى قلبه .. وقد قال النبى ﷺ: «**لا يدخل الجنة مَن كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر**».. وأيضًا فالذى يأكل وهو مُتكئ قد يتضرر؛ لأن مجرى الطعام يكون متمايلًا وليس مستقيمًا فلا يكون على طبيعته .. فربما يحصل له أى أضرار فى مجرى الطعام.

ولهذا قال النبى ﷺ: «**لا آكل متكئًا**» لأنه ﷺ سيد المتواضعين .. ولأن هذا يسبب ضررًا للإنسان.

۞ وأما فى الحديث الثانى فقد ذكر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رأى رسول الله ﷺ مُقعيًا

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٣٩٨) كتاب الأطعمة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٤٤) كتاب الأشربة.

«المُقْعِى» هو الذى يُلْصِقُ أَلْيَتيهِ بالأرضِ، ويَنْصِبُ ساقَيهِ.

يأكل تمرًا .. والإقعاء هو أن ينصب ساقيه ويجلس على عقبيه .. وإنما أكل النبى ﷺ وهو على تلك الحالة حتى لا يستقر فى الجلسة فيأكل كثيرًا .. لأن من المعلوم أن الذى يتكئ أو يجلس مُربعًا فإنه يأكل كثيرًا ..أما الذى يجلس مقعيًا لا يكون مطمئنًا فى الجلوس ... ولذا فإنه لا يأكل كثيرًا...

فالحاصل .. أن عندنا جلستين: الجلسة الأولى الاتكاء.. وهذه ليست من هدى النبى محمد ﷺ فإنه لم يأكل متكئًا أبدًا ... وأما باقى أنواع الجلوس الباقية فهى جائزة .. ولكن أفضل ما يكون ألا تجلس جلسة الإنسان المستقر لئلا تأكل كثيرًا فيتضرر جسدك وتتعب معدتك وتتكاسل عن الطاعة .. فالأفضل أن يجعل الإنسان ثُلثًا لطعامه وثُلثًا لشرابه وثُلثًا لِنَفَسِه .. فهذا أفضل ما يكون فى الطعام .. لكن لا بأس أن يشبع الإنسان أحيانًا فهذا ليس بحرام .. ولكن الأفضل التخفيف من الطعام لكى تنشط فى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

(١٠٩) باب استحباب الأكل بثلاث أصابع واستحباب لعق الأصابع وكراهة مسحها قبل لعقها واستحباب لعق القصعة وأخذ اللقمة التي تسقط منه وأكلها وجواز مسحها بعد اللعق بالساعد والقدم وغيرهما

(٧٥٢) عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إذا أكلَ أحدُكمْ طَعامًا، فلا يَمْسَح أصابِعَهُ حتى يَلعَقَهَا أو يُلْعِقَها»[١].

(٧٥٣) وعن كعبِ بنِ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيتُ رسُولَ الله ﷺ يأكُلُ بِثلاثِ أصابع فإذا فَرغَ لَعِقَها[٢].

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن الدين الإسلامى دينٌ عظيمٌ، ودينٌ كُله يُسْرٌ، والإنسان الناظر إلى هذا الدين يجد فيه الذوقيات والأخلاق العظيمة الراقية، ومراعاة الجميع الغنى والفقير، ومراعاة الأحوال...فقد تكون اليوم غنيًّا ، وغدًا فقيرًا ... فاحفظ النعمة التى منحك الله إياها، وحافظ عليها، وتأدب بآدابٍ تنفعك فى وقت غِناك وفى وقت فقرك.

فهنا يُعلمنا النبى ﷺ المحافظة على نعمة الله سبحانه...فالمحافظ على النعمة جدير أن يحفظه الله عَزَّ وَجَلَّ وأن يحفظ له النعمة التى فى يده.

۞ ونحن نعلم أن حياة النبى ﷺ كانت فيها ضيق وشدة، فكان يجد أحيانًا وكثيرًا لا يجد (عليه الصلاة والسلام)، وليس هو وحده بل وأصحابه كذلك قد يجدون أيامًا وقد لا يجدون.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٥٦) كتاب الأطعمة - ومسلم (٢٠٣١) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٢) كتاب الأشربة.

ويخرج النبي ﷺ في يوم من شدة الجوع وقد عصب الحجر على بطنه (عليه الصلاة والسلام)، فيمشي في الطريق حتى لا يشعر بالجوع...

بل كان من دعائه ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة، وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع»**(١).

والإنسان الجائع لا يستطيع أن ينام من شدة الجوع، وحين يأتي علينا شهر رمضان ونجوع في النهار فإننا نهرب من الجوع بالنوم.

فهو عليه الصلاة والسلام يُعلم المؤمنين أن يتذكروا أنهم في يوم من الأيام قد جاعوا فلا يبطروا بالطعام بأن يأكلوا ويتركوا أكلًا قليلًا في آخر الطعام... فإن البركة تنزل في الطعام، ولا يدرون في أي طعامهم البركة.

وقد تكون هذه البركة في آخر جزءٍ من طعامك الذي رميته.

فحين تغرف لنفسك الطعام اغرف على قدر ما أنت آكله بحيث تأكل جميع ما في الصحن ولا تترك شيئًا بعد ذلك لئلا تضيع منك بركة هذا الطعام.

وقد تكون البركة في كمية قليلة جدًّا في الشيء الذي بقي على يدك، فالعق أصابع يدك بعد الطعام ولا تمسحها بالمنديل ... وبعد لعقها امسح بالمنديل أو اغسل يديك.

۞ وفي هذين الحديثين يُبين لنا النبي ﷺ أن من السُّنة أن يأكل أحدنا بثلاثة أصابع: الوسطى والسبَّابة والإبهام؛ لأن هذا الأدب وتلك السُّنة تدل على التواضع وعدم الشَّره عند تناول الطعام... ولكن إن احتاج الإنسان أن يأكل طعامًا مُعيَّنًا بأكثر من ثلاثة أصابع فلا بأس بذلك..

لكن النبي ﷺ يدلنا على الأفضل.

۞ وحاوِل أن تستحضر وكأنك ترى الآن رجلين يأكلان الطعام: أحدهما

(١) حسن: رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٣).

يأكل بأصابعه الخمس والثانى يأكل بثلاثة أصابع.. ستشعر بمدى الأدب والرُّقى والتواضع وعدم الشَّره عند الذى يأكل بثلاثة أصابع .. على العكس من الذى يأكل بكل أصابعه.

۞ أنه ينبغى للإنسان أن يلعق أصابعه إذا انتهى من الطعام قبل أن يمسحها بالمنديل... فقد أمر النبى ﷺ بذلك فقال: «**فلا يمسح أصابعه حتى يَلعقها أو يُلعقها**».

- وقد يتعجب أحدنا ويقول: من المعقول أن يلعق الإنسان أصابعه لكن كيف يُلعقها لغيره وقد تشمئز النفوس من ذلك؟

أقول: النبى ﷺ دلَّنا على أن نلعق أصابعنا بعد الطعام.. ولكنه لم يُوجب علينا أن نُلعق أصابعنا لغيرنا... وإنما ذكر ذلك حتى لا تفوتنا بركة الطعام.

ومع ذلك فنحن نعلم أنه قد يحدث بين الزوجة وزوجها - من شدة الحب والترابط بينهما -أنه قد يلعق أصابعها وتلعق أصابعه على سبيل الدعابة والمودة بينهما... بل قد تلعق الأم أصابع طفلها أيضًا بعد الطعام... ومع ذلك لم يُلزمنا النبى ﷺ بذلك حتى لا يظن أحدٌ أنه واجب علينا.

وإنما حضَّنا النبى ﷺ على أن نلعق أصابع أنفسنا حتى لا تفوتنا بركة الطعام، وقال: «**إنكم لا تدرون فى أى طعامكم البركة**».

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لا تدرون فى أى طعامكم البركة**» معناه - والله أعلم- أن الطعام الذى يحضره الإنسان فيه بركة، ولا يدرى أن تلك البركة فيما أكله أو فيما بقى على أصابعه، أو فيما بقى فى أسفل القصعة، أو فى اللقمة الساقطة. فينبغى أن يحافظ على هذا كله لتحصل البركة.. وأصل البركة الزيادة وثبوت الخير والإمتاع به... والمراد هنا والله أعلم ما يحصل به التغذية وتسلم عاقبته من أذى ويُقوى على طاعة الله تعالى وغير ذلك.

۞ يقول بعض الأطباء: إن الأنامل تُفرز إفرازات عند الطعام تُعين على هضم الطعام فى المعدة ... وقد تكون هذه هى الحكمة من لعق الأصابع لكننا نفعلها لأنها سُنة عن النبى ﷺ ... فالمهم عندنا هو امتثال أمر النبى ﷺ.

(٧٥٤) وَعَنْ جَابرٍ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ أمر بِلَعقِ الأَصَابعِ والصَّحفَةِ وقال: «إِنَّكُمْ لا تَدرُونَ فى أىِّ طعَامِكم البَركةُ»[1].

۞ ففى الحديثين السابقين أمرنا النبى ﷺ أن نلعق أصابعنا إذا فرغنا من الطعام .. وهنا أمر النبى ﷺ بلعق الأصابع والصحفة التى نأكل فيها .. وذلك لأن النبى ﷺ حريصٌ كل الحرص على ألا يفوتنا أى خيرٍ فى الدنيا والآخرة ..

فنحن نقول: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقِنا عذاب النار .. فإذا نزلت البركة من عند الله عز وجل فى طعامنا نتركها!!... فالنبى ﷺ يأمرنا بلعق أصابعنا والصحفة التى نأكل فيها حتى لا تفوتنا تلك البركة من عند الله عز وجل.

۞ ومن هنا فإنه ينبغى عليك أن تلعق أصابعك والصحفة التى تأكل فيها كما أمر بهذا النبى (عليه الصلاة والسلام) فإنك لا تدرى فى أى طعامك البركة.

ومع الأسف أن الناس يتفرقون عن الطعام بدون تنفيذ هذه السُّنَّة.

فتجد حافات الآنية عليها الطعام كما هى والسبب فى هذا الجهل بالسُّنَّة ... ولو أن طلبة العلم إذا أكلوا مع العامة وجَّهوهم إلى هذه السُّنة وغيرها من سنن الأكل والشرب لانتشرت هذه السنن ... لكن نسأل الله أن يعاملنا بعفوه فنحن نتجاوز كثيرًا ونتهاون فى الأمر وهذا خلاف الدعوة إلى الحق .

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٣) كتاب الأشربة.

(٧٥٥) وَعَنْ جَابرٍ رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا وقَعَتْ لُقمَةُ أحدِكُمْ، فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ ما كان بها من أذًى وليَأْكُلْهَا، ولا يدَعها للشَّيْطان، ولا يمسَح يَدهُ بالمِنْدِيلِ حتَّى يَلعَقَ أصابِعَهُ، فإنه لا يَدرِى فى أيِّ طعامِهِ البركةُ»[1].

۞ إن اللقمة التى تقع من الإنسان إما أن تقع فى مكانٍ نظيف أو فى مكانٍ فيه تراب أو شىء آخر، فإذا وقعت فى مكانٍ نظيف فخُذها وكُلها مرة ثانية، وإن وقعت فى مكان فيه أذى فأمطه وإذا لم يمكن إماطة الأذى منها فاتركها.

قال ﷺ: «ولا يدعها للشيطان»، فالذى يترك الطعام الواقع منه فكأنما يترك تلك اللقمة للشيطان، وكأنه يدعو الشيطان ليأكل معه، فتضيع البركة لأنه ترك الشيطان يأكل معه.

قال ﷺ: «ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدرى فى أى طعامه البركة».

فيأكل الطعام الذى أمامه ولا يترك منه شيئًا للشيطان إذا وقع منه.

فإذا كان لم يُصبه أذى أخذه فأكله، وإذا أصابه أذى أماط عنه الأذى وأكل الباقى ولا يترك منه شيئًا للشيطان فإنه لا يدرى فى أى طعامه البركة.

(٧٥٦) وَعَنْ جَابرٍ رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الشَّيْطانَ يَحضُرَ أحَدكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَىءٍ مِن شأنِهِ، حتى يَحضُرَهُ عِنْدَ طعامِهِ، فإذا سقطَتْ لُقْمَةُ أحَدِكُم فليَأخُذْهَا فليُمِطْ ما كان بها مِن أذًى، ثُمَّ ليَأكُلْهَا ولا يَدَعها للشَّيْطَانِ، فإذا فَرغَ فَلْيَلْعَق أصابِعهُ فإنَّه لا يدرى فى أيِّ طعامِهِ البَركَةُ»[2].

(٧٥٧) وعن أنسٍ رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ قال: كان رسُولُ الله ﷺ إذا أكَلَ طعامًا، لَعِقَ أصَابِعَهُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٣) (١٣٤) كتاب الأشربة.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٣) (١٣٥) كتاب الأشربة.

الثَّلاثَ، وقال: «إذا سَقطَتْ لُقمةُ أحدِكُم فليأخُذْها، وليُمِطْ عنها الأذى، وليأكُلْها، ولا يَدَعها للشَّيْطانِ» وأمَرنا أن نَسْلُتَ القصعةَ وقال: «إنَّكم لا تدرُون في أيِّ طَعَامِكم البَركةُ»(١).

۞ فعندما تتأمل هذين الحديثين تشعر كأن حربًا بينك وبين الشيطان مباشرة في بيتك، وفي مسجدك، وفي صلاتك، وعند وضع طعامك، وعند أخذ شرابك، وعند نومك ...فالشيطان يحاربك لكي يمنعك من طاعة الله سبحانه وتعالى، وأنت لا ترى ذلك ... والذي يرى ذلك هو الله سبحانه وتعالى، ويُعلمك على لسان النبي ﷺ أن تَحذر من الشيطان فإنه واقفٌ لك بالمرصاد فلا تُفرِّط في بركة الطعام، فإن الشيطان ينتظر اللقمة التي ستقع لكي يأخذها.

فلا تُلقِ ما تبقَّى من الطعام فإن هذا فعل المتكبرين وفعل الأغنياء المترفين.

فأنت لا تدري كيف يأتي عليك الزمان ... فأنت الآن واجدٌ للطعام.

لكن قد يأتي عليك زمان لا تجد فيه مثل هذا الطعام ولا أقل من ذلك - أسأل الله أن يحفظ عليكم نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة.

۞ ولذا فإنه ينبغي على الإنسان إذا سقطت منه اللقمة ألَّا يتركها بل يأخذها.. وإذا كانت قد وقعت في مكانٍ نظيف فليأكلها .. وإذا وقعت على الأرض فأصابها شيء من التراب فليمسحها ثم يأكلها ... لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**ولا يدعها للشيطان**» لأن الشيطان يحضر ابن آدم في كل شئونه... إن أراد أن يأكل حَضَره وإن أراد أن يشرب حَضَره وإن أراد أن يأتي أهله حضره حتى يشاركه كما في الآية الكريمة: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء:٦٤] فهو يشارك أهل الغفلة الذين لا يذكرون الله في كل شئونهم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٤) (١٣٦) كتاب الأشربة.

نسلت القصعة: أي نمسحها.

فإذا قلت وأنت تأكل: بسم الله منعته من الأكل، فما يقدر على الأكل معك وقد سَمَّيت على الطعام أبدًا وإذا لم تَقُل بسم الله أكل معك فإذا قلت: بسم الله فإن الشيطان يترقب اللقمة إذا سقطت بالأرض فإن رفعتها أنت فهى لك وإن تركتها أكلها هو فصار إذا لم يشاركك فى الطعام شاركك فيما يسقط من الطعام ولهذا فضيِّق عليه فى ذلك أيضًا ... فإذا سقطت اللقمة أو التمرة أو ما أشبه ذلك فى الأرض فخذها وإذا كان علق بها أذى من تراب أو عيدان أو ما أشبه ذلك فأزِل ذلك الأذى ثم كُلْهَا ولا تدعها للشيطان.

(٧٥٨) وعن سعيد بن الحارث أنَّه سأل جابرًا ﵁ عن الوضوءِ مِمَّا مسَّت النَّارُ، فقال: لا، قد كُنَّا زمنَ النَّبِيِّ ﷺ لا نجدُ مثلَ ذلك الطعام إلا قليلًا، فإذا نحنُ وجدناهُ، لم يَكُنْ لنَا مَنادِيلُ إلا أكُفَّنا وسَواعِدَنا وأقْدامَنا، ثمَّ نُصَلِّى ولا نتَوَضَّأُ[١].

۞ لقد كان الحكم الشرعى فى البداية أن ما مسَّته النار يجب فيه الوضوء ونُسخ هذا الحكم، وكان الأمر فى آخر حياة النبى ﷺ عدم الوضوء مما مسَّته النار.

وفى هذا الحديث سأل سعيد بن الحارث (جابر بن عبد الله ﵁) عن الوضوء مما مسَّت النار ... فقال: قد كنا زمن النبى ﷺ لا نجد مثل ذلك الطعام إلا قليلًا، ... أى: الطبيخ الذى تضعوه على النار..وكذلك الخبز .. فإذا وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكُفنا وسواعدنا وأقدامنا، يعنى: ما كان معهم مناديل إلا القليل منهم، ولم يكن عندهم الماء الكثير، وكانوا يستعذبون للنبى ﷺ ماءً من بعض الآبار البعيده عن المدينة والتى فيها مياه عذبة طيبة، وكان ﷺ يدخل إلى بستان لأبى طلحة ﵁ به ماء عذب يشرب منه النبى صلوات الله وسلامه عليه.

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٤٥٧) كتاب الأطعمة.

فالمياه التى يغسلوا فيها أيديهم كانت قليلة.. فلا يوجد ماء يغسلوا فيه أيديهم... فمن انتهى من الأكل لعق يده ثم مسح اليدين بعضها مع بعض أو مسح يده فى المنديل، ثم يصلى ولا يتوضأ.

۞ فالشاهد أنه لا يجب الوضوء مما مسَّته النار .. بل هو سُنَّة.. يعنى: الأفضل أن تتوضأ حتى ولو كنت على وضوء إذا أكلت شيئًا مطبوخًا على النار فالأفضل أن نتوضأ لكنه ليس بواجب لأن آخر الأمرين من النبى ﷺ ترك الوضوء مما مسَّت النار يعنى عدم الالتزام به.

ويدل لهذا أيضا أن النبى ﷺ سُئل: نتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: نعم قال: نتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: إن شئت ... لأن لحم الإبل إذا أكله الإنسان انتقض وضوءه لو كان على وضوء فلا بد أن يتوضأ.

لأنه كله ناقض للوضوء أما غيره فإذا أكلته مطبوخًا فالأفضل أن تتوضأ ولا يجب عليك ذلك[1].



(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٤٥٣).

(١١٠) باب تكثير الأيدي على الطعام

(٧٥٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «طَعَامُ الاثنينِ كافي الثَّلاثَةِ، وطَعَامُ الثلاثةِ كافي الأربعةِ»(١).

(٧٦٠) وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقُولُ: «طعامُ الوَاحِدِ يَكْفي الاثنَيْنِ، وطعامُ الاثنينِ يكْفي الأربعة، وطعامُ الأربَعةِ يَكْفي الثَّمانية»(٢).

۞ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٧٠) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٩٢) كتاب الأطعمة - ومسلم (٢٠٥٨) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٥٩) كتاب الأشربة.

(١١١) باب أدب الشرب واستحباب التنفس ثلاثًا خارج الإناء، وكراهية التنفس في الإناء واستحباب إدارة الإناء على الأيمن فالأيمن بعد المبتدئ

۞ في البداية أقول لكم: إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا طعامٍ ولا شراب.. بل إن حاجته إلى الشراب أشد من حاجته إلى الطعام.

ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فالأكل والشرب من نِعَم الله سبحانه وتعالى.

ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا مَن حُرمها ... نسأل الله ألا يحرمنا إياها.

فمَن حُرمها وذاق الجوع وذاق العطش عرف قدر نعمة الله تعالى بالأكل والشرب .. وهذه إحدى الحِكَم من الصيام أن الإنسان يُمسك عن الأكل والشرب ليصل لدرجة التقوى وفى نفس الوقت ليشعر بآلام الفقراء.

وقبل أن نبدأ فى شرح تلك الأحاديث فلا بد أن نعلم أولًا أن هناك بعض الآداب التى ينبغى أن نُراعيها عند الطَّعام أو الشراب منها: النية الصالحة.

وذلك بأن ينوى الإنسان بهذا الشراب أن يتقوى على عبادة الله (جل وعلا) وأن يكون هذا الشراب سببًا فى الحفاظ على صحته وحياته.

وكذلك لا بد أن يحرص على أن يذكر الله على طعامه وشرابه.

وذلك بأن يقول قبل أن يشرب (بسم الله) كما يفعل عند الطعام فإن ذلك يكون سببًا فى حصول البركة فى الشراب ويكون سببًا فى طرد الشيطان وحرمانه من هذا الشراب.

۞ وهناك مجموعة من الآداب الأخرى سنتعلمها من خلال شرحنا لتلك الأحاديث.

(٧٦١) عن أنسٍ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ كان يتنَفَّسُ فى الشَّرابِ ثلاثًا[1].

يعنى: يتنَفَّسُ خارِجَ الإناءِ.

(٧٦٢) وعنْ ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا تَشربُوا واحِدًا كشُربِ البَعِير، ولكِن اشْرَبُوا مَثْنى وثُلاثَ، وسَمُّوا إذا أنْتُمْ شَرِبْتُمْ، واحمدوا إذا أنْتُم رَفَعتُمْ»[2].

۞ أى أنه ﷺ كان يتنفس خارج الإناء ثلاثًا...

وذلك بأن يشرب ما يكفيه على ثلاث مرات ولا يشرب ما يكفيه مرة واحدة.

وقد كان هذا هو فعل النبى ﷺ، فإنه ﷺ: «كان يشرب ثلاثة أنفاس: يُسمِّى الله فى أوله، ويحمد الله فى آخره»[3].

فهذه هى السُّنَّة، أن يُسمِّى الإنسان ثم يشرب شيئًا، ثم يحمد الله تعالى، ويُبعد الإناء عن فِيه (فمه) ثم يسمى الله ثانية، ثم يشرب، ثم يحمد الله، ويبعد الإناء عن فيه للتنفس، ثم يسمى الله تعالى، ثم يشرب الثالثة، ثم يبعد الإناء عن فيه، ويحمد الله تعالى،...

وذلك لأنه لو أخذ الإناء ووضعه على فمه وشرب منه دفعة واحدة وأخذ يتنفس فى الإناء فقد يتقذر منه الذى يشرب من بعده فيمتنع عن الشرب .. وقد يكون الماء قليلًا فيُحرم الذى بعده من الشرب بسبب ما فعله.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٣١) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٢٨) كتاب الأشربة.

(٢) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٢٣٣).

(٣) صحيح: رواه ابن السنى، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٩٥٦).

ومما يدل على أن الشارب يُسمِّى فى كل شربة، ويحمد فى آخرها، أنه ﷺ: «كان يشرب فى ثلاثة أنفاس، إذا أدنى الإناء إلى فِيه سمَّى الله تعالى، وإذا أخَّره حَمِد الله تعالى، يفعل ذلك ثلاث مرات»(١).

وهذه السُّنة لها فوائد طبية كثيرة، وقد ذكر بعض الأطباء أن جوف الإنسان تكون حرارته فى العادة أعلى من درجة حرارة الماء المشروب، لذا يشرب الإنسان شيئًا يسيرًا، ثم يزيد، ثم يشبع من الماء، حتى تتدرج حرارة الجوف بما يناسب حرارة الماء الداخل. وتكون الشَّربة الأولى أقل من الثانية، ثم يشرب فى الثالثة ما شاء... والنبى ﷺ ما فعل ذلك إلا لتعليم الناس ما فيه منفعتهم(٢).

❊ ❊ ❊

(٧٦٣) وعن أبى قتادة رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أن يُتَنَفَّسَ فى الإناءِ(٣).

❁ سيأتى شرحه كاملًا فى (باب كراهة النفخ فى الشراب) عند شرحنا للحديث رقم (٧٦٩)، (٧٧٠) بإذن الله عز وجل.

❊ ❊ ❊

(٧٦٤) وعن أنسٍ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ أُتِى بِلَبَنٍ قد شِيب بَماءٍ، وعَنْ يَمِينِهِ أَعرابى، وعَنْ يَسارِهِ أَبو بَكرٍ رضي الله عنه، فَشَرِبَ، ثُمَّ أَعطى الأَعرَابىَّ وقال: «الأَيمنَ فالأَيمنَ»(٤).

(١) صحيح: رواه الخرائطى فى «فضيلة الشكر»، والطبرانى فى «المعجم الأوسط»، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٢٧٧).
(٢) موسوعة الآداب الإسلامية / أ. عبد العزيز ندا (١/ ٤٦٥).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٣٠) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٦٧) كتاب الأشربة.
يعنى: يُتَنَفَّسُ فى نَفْسِ الإناءِ.
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٥٢) كتاب الشرب والمساقاة، ومسلم (٢٠٢٩) كتاب الأشربة.
قوله: «شِيبَ» أى: خُلِط.

(٧٦٥) وعَنْ سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَن رسول الله ﷺ أُتِىَ بشرابٍ، فشربَ مِنْهُ وعنْ يمينِهِ غُلامٌ، وعنْ يسارِهِ أشْياخٌ، فقال للغُلام: «أتَأذَنُ لى أنْ أُعطِىَ هؤلاءِ؟» فقال الغُلامُ: لا والله، لا أُوثِرُ بِنصيبِى مِنكَ أحَدًا، فَتَلَّهُ رسولُ الله ﷺ فى يدِهِ(١).

۞ فاللبن كان قليلًا فزيد عليه ماء، إما لقلة اللبن أو لتبريده ... وخلطُ اللبن بالماء جائز للشرب والتهادى وليس للبيع... فإن كان للبيع فهو حرام لأنه نوعٌ من الغش.

وكان عن يمين النبى ﷺ أعرابى وعن شماله أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا شك أن أبا بكر الصديق أفضل من الأعرابى ومن كل الخلق إلا النبى ﷺ... ومع ذلك لم يُعطِ النبى ﷺ هذا اللبن لأبى بكر لأنه عن شماله.

فإذا كان هناك جماعة من الناس سيشربون فالسُّنة أن نبدأ بالأيمن فالأيمن.

۞ وقد يكون هناك مجموعة من الناس.. فيريد الذى بيده الإناء أن يبدأ بشخصٍ بعينه وذلك لمكانته أو لعلمه... فعليه هنا أن يستأذن الذى يجلس فى اليمين حتى ولو كان صغيرًا فى القدر أو السن .... فإن النبى ﷺ: «أُتى بشراب فشرب منه - وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ - فقال للغلام: «أتأذن لى أن أعطى هؤلاء؟» فقال الغلام: والله يا رسول الله، لا أُوثر بنصيبى منك أحدًا. فتلَّه - أى وضعه وطرحه - رسول الله ﷺ فى يده».

- وهذا الغلام هو ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

۞ وقد سبق شرح حديث ابن عباس كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٧٤) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٥١) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٠٣٠) كتاب الأشربة.
«تَلَّهُ»، أَيْ: وَضَعَهُ، وَهَذَا الغُلامُ هُوَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١١٢) باب كراهة الشرب من فم القربة ونحوها وبيان أنه كراهة تنزيه لا تحريم

(٧٦٦) عن أبى سعيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ قال: نَهَى رسُولُ الله ﷺ عن اخْتِنَاثِ الأسْقِيَةِ. يعنى: أن تُكسَرَ أفْوَاهُها، ويُشرَب منها[(١)].

(٧٦٧) وعن أبى هريرة ﷺ قال: نَهى رسولُ الله ﷺ أن يُشْرَبَ مِن فِيِّ السِّقَاءِ أو القِربةِ[(٢)].

۞ ففى الحديث الأول ذكر أبو سعيد الخدرى ﷺ أن النبى ﷺ نهى عن اختناث الأسقية.

والأسقية: جمع سِقاء، وهى القِرَب والأوعية التى يُوضع فيها الماء، وتكون مُتَّخذَة من الجلد غالبًا.

ومعنى: (اختناث الأسقية) أى: أن تُكسَر أفواهها ويُشرَب منها.

وهذا الحكم يجرى كذلك فى كل إناء كبير يوضع فيه الماء.

واكتُشف حديثًا فى الأبحاث الطبية أن على فم الإنسان آلاف بل ملايين من أنواع الجراثيم، فلو أن إنسانًا فيه مرض معين فى فمه، أو معدته، أو أمعائه، ثم صعد ميكروب إلى فمه، فلعله إن شرب من فِيِّ السِّقاء ينزل الميكروب فى هذا فيؤذى غيره، ولعله يكون حاملًا للمرض فقط، وما يكون هذا الإنسان مريضًا به، فعندما يشرب من فم القربة ينتقل هذا المرض لغيره، مما يؤدى إلى إيذاء أُناسٍ كثيرين بهذا الشىء؛ فلذلك نهى النبى ﷺ عن ذلك.

ولكن قد يحتاج الإنسان إلى الشرب من فم السقاء، أو قد يكون الماء فى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٢٥) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٢٣) كتاب الأشربة.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٢٨) كتاب الأشربة، ومسلم (١٦٠٩) كتاب المساقاة.

القربة قليلًا فيشربه كاملًا من فم القِربة، فعند ذلك لا بأس بهذا الأمر، ولذلك فعلها النبى ﷺ مرة.

۞ وأما حديث أبى هريرة فقد أخبر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ نهى أن يُشرب من فِيِّ السِّقاء أو القِربة.

والقِربة سِقاء يكون من جلدٍ، يملؤه صاحبه بماءٍ كثير، وقد تكفى القِربة أيامًا يشرب منها.

فلو أن الناس تعوَّدوا على الشرب من فم القربة وهى ستمكث معهم أيامًا فإن رائحة النَّفَس ستكون بداخلها مما يؤذى بعضهم بعضًا بذلك.

فنهانا النبى ﷺ من هذا الأمر، وأرشد إلى إفراغ الماء المطلوب من القربة على شىء آخر ثم الشرب من هذا الشىء الآخر.

ويمكن أن تكون هناك حكمة أخرى وهى أن الشارب من فِيِّ السقاء يمكن أن يؤذى نفسه بأن يرفع السقاء وهو كبير إلى فيه فينزل الماء متدفقًا على وجهه وفِيه وأنفه مما يؤدى به إلى أن يغص نفسه بالماء.. وقد يَشرق فيموت[1].

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

والحكمة من هذا أن المياه فيما سبق ليست بتلك المياه النظيفة، فإذا صارت فى القِربة، أو فى السِّقاء، فإنه يكون فيها أشياء مؤذية: عيدان أو حشرات أو غير ذلك مما هو معروف لمن كانوا يستعملون هذا من قبل، فلهذا نهى النبى ﷺ «عن اختناث الأسقية» يعنى أن الإنسان يكسر أفواهها هكذا ثم يشرب.

وذُكر أن رجلًا شرب مرة هكذا فخرجت حية من القربة... وهذا لاشك أنه على خطر، إما أن تلدغه أو تؤذيه... لهذا يُنهى عن الشرب من فم القِربة، وليس من ذلك الشرب من الصنبور، أو من الجرار التى يخزن فيها الماء، لأن هذه

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ أحمد حطيبة.

معلومة ونظيفة، فهو كالشرب من الأوانى، لكن إذا كان هناك حاجة فلا بأس أن يشرب الإنسان من فم القربة، مثل أن يكون محتاجًا إلى الماء وليس عنده إناء، فإنه يشرب من فم القربة، وعلى هذا فيكون النهى عن ذلك للكراهة وليس للتحريم(١).

(٧٦٨) وعنْ أُمِّ ثابتٍ كَبْشَةَ بنتِ ثابتٍ أُخْتِ حسَّان بنِ ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخَل عَلَيَّ رسُولُ الله ﷺ فشَرِبَ مِن فِيِّ قِربَةٍ مُعَلَّقةٍ قائمًا. فقُمْتُ إلى فِيهَا فقَطَعتُهُ(٢).

۞ وإنما قطَعَتْها لِتَحفَظَ موْضِعَ فَم رسولِ الله ﷺ، وتَتَبرَّكَ به، وتَصُونَهُ عن الابتذالِ... وهذا الحديثُ مَحمُولٌ على بيانِ الجواز، والحديثان السابقان لبيان الأفضل والأكمل، والله أعلم.

۞ ففى هذا الحديث أن أم ثابت واسمها كبشة بنت ثابت وهى أخت شاعر النبى ﷺ الذى كان يُدافع ويُنافح عنه: حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .. أخبرت أن النبى ﷺ دخل عليها فشرب من فم قِربة مُعلَّقة .. وكأن القِربة كانت عالية ؛ لأنها مُعلقة ولم يكن هناك إناء يَصُب فيه الماء فشرب النبى ﷺ من فم تلك القِربة المُعلَّقة .. أو قد يكون الماء الذى فى تلك القِربة قليلًا فشرب منه ﷺ .. أو قد يكون النبى ﷺ فعل ذلك ليبين أن النهى عن الشرب من فم القربة مع عدم الحاجة إليه .. وأما مع الحاجة إليه فإنما هو للتنزيه لا للتحريم ولذلك من فقه الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: بيان أنه كراهة تنزيه لا تحريم.

وهنا أيضًا شرب النبى ﷺ من فم القربة وهو قائم ﷺ ... فدلَّ ذلك على أن الأحاديث التى وردت فى النهى عن الشرب قائمًا إنما هى للكراهة فقط وليست

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٥٤٢).

للتحريم.

۞ أما قولها رضي الله عنها: فقمت إلى فِيها فقطعته ...أى: قامت إلى فم القِربة التى شرب منها النبى ﷺ فقطعته .. وذلك لأن أثر فم النبى ﷺ كان على تلك القِربة .. فقطعت فم القربة ليبقى أثر النبى ﷺ معها فتشرب منه كلما أرادت أن تشرب لتفوز ببركة النبى ﷺ.

فدلَّ هذا الحديث على جواز التبرك بآثار النبى ﷺ وهو كذلك.

وقد كان الصحابة يتبركون بعرق النبى ﷺ، ويتبركون بريقه، ويتبركون بثيابه، ويتبركون بشعره... أما غيره ﷺ فإنه لا يُتبرك بشىء من هذا منه.

فلا يُتبرك بثياب الإنسان ولا بشعره ولا بأظفاره ولا بشىء من متعلقاته، إلا النبى ﷺ.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

[إنما قطعتها لتحفظ موضع فم رسول الله ﷺ، وتتبرك بها، وتصونه عن الابتذال] يعنى: أن تصون هذا الموضع من احتمال وقوعه على الأرض ووطئه بالأقدام، وهذا نوع من أنواع إكرامها للنبى ﷺ.

(١١٣) باب كراهة النفخ في الشراب

(٧٦٩) عن أبى سعيدٍ الخدرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبىَّ ﷺ نَهَى عنِ النَّفْخِ فى الشَّرابِ، فقال رجُلٌ: القَذَاةُ أراها فى الإناءِ؟ فقال: «أهْرِقْها» قال: إنى لا أُرْوَى مِن نَفَسٍ واحِدٍ؟ قال: «فأبِنْ القَدَحَ إذًا عَنْ فِيكَ»(١).

۞ ففى هذا الحديث نهى النبى ﷺ عن النفخ فى الشراب سواء كان الإنسان وحده أو مع جماعة .. وذلك حتى لا يعتاد الإنسان على النفخ فى الشراب ... فإن كان الشراب ساخنًا فإنه إما أن ينتظره حتى يبرد أو يَصُبَّه فى إناءٍ آخر ثم يُعيده مرة ثانية حتى يبرد.

۞ وهنا يحكى أبو سعيدٍ الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ نهى عن النفخ فى الشراب فقال رجلٌ: القذاة أراها فى الإناء.. أى: أنه يسأل عن حكم النفخ عند وجود شىءٍ فى الإناء كعُشبة أو أى شىءٍ آخر .. فأرشده النبى ﷺ إلى عدم النفخ فى الإناء حتى لو أدَّى الأمر إلى صبِّ الشراب كله.

والقصد من ذلك الخوف على الإنسان من أن يعتاد على النفخ فى الإناء، فينفخ فيه وهو بحضرة جماعة فيؤدى إلى تأذيِّهم من هذا العمل واستقذارهم له، فيتركون الأكل والشرب لذلك، فيكون بهذا قد أدى إلى الإضرار بالناس... ولهذا نُهى عن هذا العمل.

۞ ثم عاد نفس الرجل وسأل النبى ﷺ للمرة الثانية وقال له: إنى لا أُروَى من نَفَسٍ واحدٍ .. وكأنه يريد أن يتعلل بذلك من أجل أن يُرخص له النبى ﷺ فى التنفُّس فى الإناء .. وكأنه يقول للنبى ﷺ: إنى إذا شربت من الإناء لا أستطيع أن

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٨٥)، وصححه مختصرًا فى صحيح الجامع (٦٩١٢).

أشرب كل ما أريده بنفَسٍ واحدٍ .. بل أحتاج إلى أن أتنفس فى الإناء فماذا أفعل..

فما كان من النبى ﷺ إلا أن قال له: «**فأبِن القدح إذًا عن فِيك**».

أى: إذا أردت أن تتنفس فعليك أن تُبعد القدح أو الإناء عن فمك وتتنفس خارج الإناء ثم تعود فتشرب..

وهذا محمول على الشرب الكثير، وإلا فمن الممكن أن يشرب الإنسان ماءً قليلًا ولا يحتاج معه إلى التنفس.

وهذا الحديث يُوافق الأحاديث السابقة فى النهى عن التنفس فى الإناء أو النفخ فيه فى كل حالة من الأحوال.

(٧٧٠) وعَنْ ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ **نَهى أَن يُتنَفَّسَ فى الإِنَاءِ، أَوْ يُنْفَخَ فِيهِ**(١).

۞ نحن نعلم أن النبى ﷺ إذا نهى عن شىء فمن المؤكد أن فيه ضررًا على المسلمين .. ومَن تأمل فى هذا الحديث يجد أن النهى جاء عن التنفس فى الإناء .. ولم يذكر الطعام فقط أو الشراب فقط .. وهذا وجهٌ إعجازىٌّ جديدٌ فى الحديث ..

فلو نهى النبىُّ ﷺ عن التنفس فى الطعام وسكت، ما شمل نهيُهُ حينها .. التنفس فى الشراب، والعكسُ صحيحٌ، فلو كان النهى عن التنفس فى الشراب وسكت، لما شمل النهىُ التنفس فى الطعام.

فلما جاء النهى عن التنفس فى الإناء شمل ذلك النهى عن التنفس فى الطعام والشراب، وهذا إعجازٌ بلاغىٌّ واضحٌ.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٢٠).

۞ وقد يتساءل أُناسٌ عن حكمة النهى، وعن سببه؟!

۞ وخلاصة القول:

أن النهى عن التنفس فى الطعام والشراب سببٌ فى الوقاية من كثيرٍ من الأمراض.. وهى الأمراض التى تنتقل عن طريق النفس والرذاذ. ومن أخطرها وأشهرها مرض السُّل (الدرن) وهو وباءٌ وطاعونٌ قاتل. T.B.

والسؤال: هل نهى النبى ﷺ كل الناس عن التنفس فى الإناء .. أم اقتصر النهى على المرضىٰ دون الأصحاء؟!!

۞ مَنْ تأمل نهى النبى ﷺ فى الحديث النبوى .. لوجد أن النهى صريحٌ وعامٌّ يشمل الناس كلهم صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وأُنثاهم، ومريضهم وصحيحهم... وهنا وجهٌ إعجازيٌّ آخر.. وهو أن النهى لما كان عامًّا شاملًا.. شمل الصحيح والسقيم، أما السقيم فمعروفٌ علةُ النهى فى حقه، وأما الصحيح .. فقد أثار أمرُهُ عجبًا ودهشة .. لِمَ النهى فى حقه؟! فهو أمام الناس صحيحٌ غير مريض!! سليمٌ غير سقيم!!

والجواب: أن الصحيح نوعان:

(١) صحيحٌ مُطلقًا: أى من جميع الأسقام والأمراض...

(٢) صحيحٌ نسبيًّا ظاهريًّا: وهذا فى ظاهره أنه صحيحٌ مُعافًا لكنه يحمل المرض .. وما تأثر هو نفسه به لقوة مناعته مثلًا.. لكنه يحمل فى جسمه الأجسام المضادة للمرض الذى أُصيب به سابقًا.

والأجسام المضادة إن انتقلت إلى إنسانٍ آخر صحيح (من هذا المرض) عبر نقل الدم مثلًا أو بالمعاشرة بين الرجل والمرأة. انتقل الجسم المضاد إلى الصحيح .. فأصبح سقيمًا، وربما لا تَقوى مناعتُهُ حقًّا على مقاومة المرض، وهنا يمرض..

۞ هذا بالنسبة للصحيح نسبيًّا ظاهريًّا .. الحامل للمرض .. وأمرُهُ قد فُهِم .. فكيف بالصحيح المطلق غير الحامل للمرض؟!!

۞ أما هذا الصحيح المطلق .. فيقل وجودُهُ أولًا، وإن وُجد فهو أيضًا داخلٌ فى النهى ... لِمَ؟!!

لأن فى الهواء الخارج من الزفير يوجد ثانى أكسيد الكربون ، وكفى به بلاءً ووباءً إن دخل فى طعام وشرابٍ (عن طريق النفس) ثم إنه تنتقل بعض الميكروبات والكائنات الدقيقة عن طريق الزفير .. إلى الطعام أو الشراب الذى فى الإناء المُتنفس فيه، وهذه بليةٌ أخرى .. ومِنْ ثَمَّ كان النهى لجميع الفئات، وللناس أجمعين، وما استُثنى منه أحدٌ .. وكانت النجاة من كثيرٍ من الأمراض بسبب اتباع أمرٍ واحدٍ واجتناب نهيٍ واحدٍ للنبى ﷺ.

فكيف بمن اتبع أوامره كلها وائتمر بها، وكيف بمن انتهى عن نواهيه كلها؟. لا شكَّ ولا ريب أنه من السعداء الفالحين الناجحين فى الدنيا والآخرة بإذن الله[1].

---

(١) الموسوعة الذهبية فى إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية / د. أحمد مصطفى متولى (ص ٩٥٩-٩٦١) بتصرف.

فهرس الموضوعات

(١) كتاب الأدب

(٢) كتاب آداب الطعام



هذه وصيتي

كنت منذ طفولتي أينما ذهبت وجدت القرآن الكريم وبجواره كتاب "رياض الصالحين" للإمام النووي، وكنت أحب القراءة في هذا الكتاب لكني كنت لا أفهم الكثير من الأحاديث وتمنيت أن أجد كتابا سهلا فيه شرح لتلك الأحاديث التي تبلغ (١٩٠٠) حديثا.

ثم مرت الأيام وشرح الله صدري لشرح هذا الكتاب ففرغت حياتي لشرح هذا الكتاب الممتع الذي استطاع الإمام النووي من خلاله أن يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الإسلامية والعقائد وفقه العبادات والمعاملات، فوجدته كتابا شاملا لكل شيء فاستعنت بالله وشرحته شرحا يسيرا يفهمه العوام قبل العلماء وطلبة العلم وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله، وعشت أجمل أيام عمري في شرح هذا الكتاب الممتع الذي لا يستغني عنه بيت مسلم أبدا، ففيه الخير الكثير والنفع الوفير ولعلكم تشعرون بسبق سعادتي عندما تسعدون بقراءة هذا الكتاب القيم.

وأوصي كل إخواني وأخواتي وأهلي وأحبابي أن تحرصوا على اقتناء هذا الكتاب القيم الذي يربينا جميعا على المنهج الصافي: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فتسعد بيوتنا ببركته على الإسلام والمسلمين في كل مكان.

أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسنات أبي وأمي (رحمة الله عليهما) وميزان حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به.

وأرجو ألا تبخلوا علي بدعوة صادقة بظهر الغيب بأن يرزقني الله عز وجل الإخلاص في القول والعمل وأن يرزقني حسن الخاتمة وأن يجمعني بكم في الفردوس الأعلى مع الحبيب المصطفى ﷺ.

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري أبو عمار

شرح

رياض الصالحين

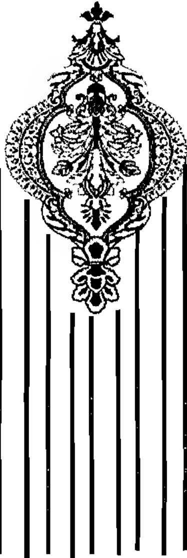
من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء الخامس

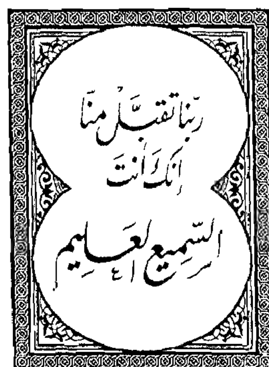




شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم



١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 2-025-763-977-978

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمير صالح

١٢٢ ميدان الأزهر / أمام الجامع الأزهر القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك / خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء الخامس

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤


بسم الله الرحمن الرحيم

(١١٤) باب بيان جواز الشرب قائمًا وبيان أن الأكمل والأفضل الشرب قاعدًا

❁ فيه حديث كبشة السابق[١].

(٧٧١) وعنْ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سَقَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ زَمْزَمَ، فَشَرِبَ وهُوَ قائمٌ[٢].

(٧٧٢) وعنْ النَّزَّال بن سبْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَتَى عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باب الرَّحبَةِ فشَرِب قائمًا، وقال: إنِّي رأيْتُ رسولَ الله ﷺ فعل كما رأيْتُمُونى فَعَلْتُ[٣].

(٧٧٣) وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنَّا نأكُلُ على عَهْدِ رسُولِ الله ﷺ ونحنُ نَمْشى، ونَشْرَبُ ونحنُ قيامٌ[٤].

(٧٧٤) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيْتُ رسُول الله ﷺ يشْربُ قائمًا وقاعِدًا[٥].

(٧٧٥) وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ أنهُ نَهَى أنْ يشربَ الرَّجُلُ قائمًا. قال قتادة: فقُلْنَا لأنس: فالأكْلُ؟ قال: ذلكَ أشَرُّ أو أخْبَثُ[٦].

وفى رواية له أنَّ النبيَّ ﷺ زَجَرَ عنِ الشُّربِ قائمًا.

❁ فهذه الأحاديث تدل على أن الأفضل فى الأكل والشرب أن يكون الإنسان قاعدًا، لأن هذا هو هدى النبى ﷺ... لا يأكل وهو قائم ولا يشرب وهو قائم.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٥٤٢).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦١٧) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٢٧) كتاب الأشربة.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٦١٥) كتاب الأشربة.
(٤) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى صحيح سنن الترمذى (١٥٣٣).
(٥) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى صحيح سنن الترمذى (١٥٣٥).
(٦) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٤) كتاب الأشربة.

أما الشرب وهو قائم فإنه صَحَّ عن النبى ﷺ أنه نهى عن ذلك.

وسُئل أنس بن مالك عن الأكل، قال: ذاك أشر وأخبث... يعنى معناه أنه إذا نهى عن الشرب قائمًا فالنهي عن الأكل قائمًا من باب أَولَى.

۞ قال الدكتور عبد الرازق الكيلانى: إن الشرب وتناول الطعام جالسًا أصحُّ وأسلم وأهنأ وأمرأ حيث يجرى ما يتناول الآكل والشارب على جدران المعدة بتؤدة ولُطف.

أما الشرب واقفًا فيؤدى إلى تساقط السائل بعنفٍ إلى قعر المعدة ويصدمها صدمًا. وإن تكرار هذه العملية يؤدى مع طول الزمن إلى استرخاء المعدة وهبوطها وما يلى ذلك من عُسر هضم.

۞ كما أن الأكل ماشيًا ليس من الصحة فى شىءٍ وما عُرف عند العرب والمسلمين.

۞ وقال الدكتور إبراهيم الراوى: إن الإنسان فى حالة الوقوف يكون متوترًا، ويكون جهاز التوازن فى مراكزه العصبية فى حالةٍ فعَّالةٍ شديدةٍ حتى لا يتمكن من السيطرة على جميع عضلات الجسم لتقوم بعملية التوازن والوقوف منتصبًا، وهى عملية دقيقة يشترك فيها الجهاز العصبى والعضلى فى آنٍ واحدٍ، مما يجعل الإنسان غير قادرٍ على الحصول على الطمأنينة العضوية التى تُعتبر من أهم الشروط الواجبة عند الطعام والشراب.

وهذه الطمأنينة يحصلُ عليها الإنسانُ فى حالة الجلوس حيث تكون الجملة العصبية والعضلية فى حالة من الهدوء والاسترخاء، وحيث تنشط الأحاسيس وتزداد قابلية الجهاز الهضمى لتقبل الطعام والشراب وتمثيله بشكلٍ صحيح.

۞كما أن الاستمرار على عادة الأكل والشرب واقفًا تُعتبر خطيرةً على سلامة جدران المعدة وإمكانية حدوث تقرحات بها، حيث يُلاحظ الأطباء أن

قرحات المعدة تكثر فى المناطق التى تكون عُرضة لصدمات اللقم الطعامية، وجرعات الأشربة بنسبة تبلغ ٩٥٪ من حالات الإصابة بالقرحة.

۞ كما أن حالة عدم التوازن أثناء الوقوف ترافقها تشنجات عضلية فى المرىء تَعوق مرور الطعام بسهولة إلى المعدة، وتُحدث فى بعض الأحيان آلامًا شديدةً تضطرب معها وظيفةُ الجهاز الهضمى، وتُفقد صاحبها البهجة عند تناول الطعام والشراب(١).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ الشُّربُ قَائِمًا مَكْرُوهًا وَقَد فَعَلَهُ النَّبِىُّ ﷺ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ فِعلَهُ ﷺ إِذَا كَانَ بيانًا للجواز لايكون مَكْرُوهًا بَلِ الْبَيَانَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ﷺ فَكَيْفَ يَكُونُ مَكْرُوهًا... وَقَد ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ تَوَضَّأَ مَرَّةً مَرَّةً وَطَافَ عَلَى بَعِيرٍ، مَعَ أَنَّ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْوُضُوءَ ثَلَاثًا وَالطَّوَافَ مَاشِيًا أَكْمَلُ... وَنَظَائِرُ هَذَا غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ، فَكَانَ ﷺ يُنبه على جواز الشىء مَرَّةً أَوْ مَرَّاتٍ وَيُوَاظِبُ عَلَى الْأَفْضَلِ مِنْهُ وَهَكَذَا كَانَ أَكْثَرُ وُضُوئِهِ ﷺ ثَلَاثًا ثَلَاثًا وَأَكْثَرُ طَوَافِهِ مَاشِيًا وَأَكْثَرُ شربه جالسًا وهذا واضح لايتشكك فِيهِ مَنْ لَهُ أدنَى نِسْبَةٍ إِلَى عِلْمٍ وَاللهُ أَعلَمُ(٢).

فهذا يدل على أن النهى ليس للتحريم ولكنه لترك الأَولَى... بمعنى أن الأحسن والأكمل أن يشرب الإنسان وهو قاعد وأن يأكل وهو قاعد، ولكن لا بأس أن يشرب وهو قائم وأن يأكل وهو قائم.

فالحاصل أن الأكمل والأفضل أن يشرب الإنسان وهو قاعد ويجوزْ الشرب قائمًا... وقد شرب علىّ بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائمًا، وقال: إن النبى ﷺ فعل كما رأيتمونى فعلت، فدلَّ ذلك على أن الشرب قائمًا لا بأس به، لكن الأفضل أن يشرب قاعدًا.

---

(١) «روائع الطب الإسلامى» (بتصرف واختصار) د/ إبراهيم الراوى، العدد ١٩٦٧م.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٢٨٤).

بقى أن يُقال: إذا كانت البرادة -الكولدير- فى المسجد ودخل الإنسان المسجد، فهل يجلس ويشرب أو يشرب قائمًا؟ لأنه إن جلس خالف قول النبى ﷺ: «**إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين**»، وإن شرب قائمًا ترك الأفضل. فنقول: الأفضل أن يشرب قائمًا، لأن الجلوس قبل صلاة الركعتين حرام عند بعض العلماء، بخلاف الشرب قائمًا فهو أهون، وعلى هذا فيشرب قائمًا ثم يذهب ويصلى تحية المسجد.

(٧٧٦) وعنْ أبى هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**لا يشْرَبَنَّ أحدٌ مِنْكُم قائمًا، فمَنْ نَسِىَ فَلْيَسْتَقِئْ**»[١].

۞ وهذا الحديث فيه النهى عن الشرب قائمًا... وفيه أيضًا شىء من التعزير وهو أنك إذا نسيت وفعلت هذا الشىء فاستقئ....وليس محمولًا على الوجوب، ولكنه كنوع من التأديب حتى يُعود الإنسان نفسه على أدب الشرب قاعدًا....وكذلك علماء الطب يقولون: إن الشرب قاعدًا أفضل من الشرب قائمًا... لأن الإنسان إذا شرب قاعدًا نزل الشراب من فمه نزولًا خفيفًا هينًا، أما إذا كان قائمًا فإنه ينزل متدفقًا ومندفعًا نحو المعدة.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

اعلَمْ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الِاسْتِقَاءَةُ لِمَنْ شَرِبَ قَائِمًا نَاسِيًا أَوْ مُتَعَمِّدًا .... وَذِكْرُ النَّاسِى فِى الْحَدِيثِ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ الْقَاصِدَ يُخَالِفُهُ بَلْ لِلتَّنْبِيهِ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى لِأَنَّهُ إِذَا أَمَرَ بِهِ النَّاسِى وَهُوَ غَيْرُ مُخَاطَبٍ فَالْعَامِدُ الْمُخَاطَبُ الْمُكَلَّفُ أَوْلَى وهذا واضح لاشك فيه[٢].

---

(١) صحيح:رواه مسلم (٢٠٢٦) كتاب الأشربة.

(٢)مسلم بشرح النووى (١٣/ ٢٨٤).

(١١٥) باب استحباب كون ساقي القوم آخرهم شُربًا

(٧٧٧) عن أبى قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «سَاقى القَوْمِ آخِرُهُمْ شُربًا»(١).

۞ يعنى الذى يسقى القوم ماءً أو لبنًا أو قهوة أو شايًا، ينبغى أن يكون هو آخرهم شربًا، من أجل أن يكون مُؤْثِرًا على نفسه ... ومن أجل أن يكون النقص -إن كان- على نفس الساقى... وهذا لاشك أنه أحسن امتثالًا لأمر النبى ﷺ، وأخذًا بأدب النبى ﷺ ...

لكنه إذا كان لا يشتهى أن يشرب فليس بلازم أن يشرب بعدهم، إن شاء شرب، وإن شاء لا يشرب.

المهم أن يكون هو الأخير إذا أراد أن يشرب، لما فى ذلك من الإيثار وامتثال أمر النبى ﷺ ... وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغى للإنسان أن يخدم إخوانه بسقيهم،وإذا كان صاحب البيت فليقدم إليهم الشراب أو الأكل، كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧].

فصاحب البيت يُقرب الأكل ويناول الشراب، ويكون هو آخر القوم.

ثم هل الأفضل أن يشاركهم فى الطعام سواء كان غداءً أو عشاءً أو فطورًا، أو الأفضل أن ينصرف ولا يشاركهم؟ هذا يرجع إلى عادة الناس، فإذا كانت مشاركته أطيب لقلوب الضيوف وأكثر إيناسًا فليأكل معهم، وإذا كان الأمر بالعكس وجرت العادة أنه لا يأكل الإنسان مع ضيوفه فلا يأكل.

فهذا أمر يرجع إلى العرف؛ إن كان العرف أن من إكرام الضيف ألا تأكل معه وأن تجعله حرًّا يأكل ما شاء فلا تأكل، وإن كان الأمر بالعكس فكل.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٨١) كتاب المساجد.



ولقد قال رسول الله ﷺ: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[(١)]، ولم يُبين نوع الإكرام فيرجع فى ذلك إلى ما جرى به عُرف الناس[(٢)].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٦٢-٤٦٣).

(١١٦) باب جواز الشرب من جميع الأواني الطاهرة غير الذهب والفضة وجواز الكرع وهو الشرب بالفم من النهر وغيره بغير إناء ولا يد وتحريم استعمال إناء الذهب والفضة في الشرب والأكل والطهارة وسائر وجوه الاستعمال

۞ فى البداية لا بد أن نعلم أن الأصل فى كل ما خلق الله عَزَّوَجَلَّ فى الأرض أنه حلالٌ وأن الأصل فى حكمه الحِلّ إلا ما قام الدليل على تحريمه.. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ولذا فإن كل ما فى الأرض من شجرٍ وحجرٍ وحيوانٍ فهو حلال إلا ما قام الدليل على تحريمه.

وبُناءً على هذه القاعدة الأصيلة التى وضَّحها الله عَزَّوَجَلَّ فى كتابه فإن كل من ادَّعى أن هذا حرامٌ فلا بد أن يأتى بالدليل .. فلو قال قائلٌ مثلًا: هذا الشجر حرام .. أو ذلك الحيوان حرام ... فلا بد أن يُقدم لنا الدليل على تحريمه .. وإلا فالأصل أنه حلال – ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب جواز الشرب من جميع الأوانى الطاهرة غير الذهب والفضة .. واستدل على تحريم الشرب فى أوانى الذهب والفضة بحديث حذيفة وحديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وبيَّن النبى ﷺ الحكمة من ذلك فقال: «**هِى لَهُمْ فى الدُّنْيا، وهى لكُمْ فى الآخِرةِ**».

فأهل الجنة يشربون ويأكلون فى أوانى الذهب والفضة .. ولذلك نهى النبى ﷺ عن الأكل والشرب فيهما – فى الدنيا – لأنهما آنية الجنة.

وكذلك نُهى عن لبس الحرير للرجال .. وذلك لأن الحرير لباس المؤمنين فى الجنة .. ولا يليق بالرجال أن يلبسوا الحرير فى الدنيا ... أما النساء فقد رخَّص الشارع لهن فى لبس الحرير من أجل مصلحة المرأة وزوجها فى آنٍ واحد .. وذلك حتى تستطيع المرأة أن تتزين لزوجها .. ولولا هذا لكان الحرير حرامًا على النساء والرجال؛ لأنه لباس أهل الجنة .. ولكن من أجل مراعاة المصلحة كان حلالًا للنساء حرامًا على الرجال.

۞ فالشاهد أن جميع الأوانى من خشبٍ وخزفٍ وزجاج وأحجارٍ وغير ذلك .. الأصل فيها أنها حلال حتى لو كانت من أغلى أنواع المعادن .. فإنها كلها حلال إلا الذهب والفضة .. وليست العلة كما يقول البعض : أنها تجلب الخُيلاء وتكسر قلوب الفقراء وما أشبه ذلك .. لأنه لو كان الأمر هكذا لكان كل إناءٍ يكسر قلوب الفقراء يحرم فيه الأكل والشرب..ولكن العلة وضَّحها النبى ﷺ فقال: «**هِى لَهُمْ فى الدُّنْيا، وهى لكُمْ فى الآخِرةِ**» وهذا خاصٌّ بآنية الذهب والفضة.

فلو أن إنسانًا شرب فى آنية من الأحجار الكريمة كالياقوت والجواهر التى هى أغلى من الذهب والفضة لم يكن حرامًا إذا لم يصل إلى حدِّ السرف .. ولكنه لو أكل أو شرب فى آنية من الذهب أو الفضة لكان حرامًا ؛ لأن النبى ﷺ نهى عن ذلك..

❊❊❊

(٧٧٨) عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حَضَرَتِ الصَّلاةُ، فقَامَ مَنْ كان قَريب الدَّارِ إلى أهْلِهِ، وبقِىَ قَوْمٌ فَأُتِىَ رسُولُ الله ﷺ بِمِخْضَب مِن حِجَارَةٍ، فِيهِ مَاءٌ فصَغُرَ المِخْضَبُ أن يَبْسُطَ فيهِ كفَّهُ، فتَوَضَّأ القَوْمُ كُلُّهُمْ. قالوا: كَم كُنْتُم؟ قال: ثَمانين وزِيادةً[1].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٥) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٢٧٩) كتاب الفضائل.

وفى رواية له ولمسلم: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعا بإِناءٍ مِنْ ماءٍ، فَأُتِيَ بقَدحٍ رَحراحٍ فيهِ شَيءٌ مِنْ ماءٍ، فوَضَعَ أصابِعَهُ فيهِ. قالَ أنس: فجعَلْتُ أَنْظُرُ إلى الماءِ يَنْبُعُ مِن بَيْنِ أصابِعِه، فحزَرتُ مَن تَوَضَّأ ما بيْنَ السَّبْعِينَ إلى الثَّمانينَ.

۞ ففى هذا الحديث يحكى أنس رضي الله عنه أنهم كانوا جالسين مع النبى ﷺ ليُعلمهم ويُربيهم .. وفجأة حان وقت الصلاة فقام مَن كان قريب الدار ليتوضأ فى بيته فإنهم لم يكن عندهم فى ذلك الوقت دورات مياه فى بيوتهم .. بل كان الصحابة يجلسون مع النبى ﷺ فإذا حان وقت الصلاة قاموا من عنده ليتوضئوا ثم يرجعون إلى الصلاة مرة أخرى ... فلما ذهب بعضهم ليتوضأ بقى البعض الآخر مع النبى ﷺ .. والظاهر أن بيوتهم كانت بعيدة .. فلو ذهبوا فلن يدركوا الصلاة ... فأُتى رسول الله ﷺ بمخضب من حجارة.

والمخضب يُطلق على الإناء المصنوع من الحجر، فأوانيهم كانت تُصنع إما من الحجر أو النحاس ونحو ذلك.

قال: (فصغر المخضب أن يبسط فيه كفه) عليه الصلاة والسلام، والمعنى: أنهم أتوا له بإناءٍ من حجرٍ صغير الحجم، عجزت كف النبى ﷺ أن تدخل فيه.

فوضع النبى ﷺ يده الشريفة على ذلك المخضب ففار الماء من بين أصابعه فتوضأ القوم جميعًا وكانوا ما بين السبعين إلى الثمانين .. وهذه بركة من بركات النبى ﷺ .. وهى فى نفس الوقت معجزة من معجزاته ﷺ.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

وَأَكْثَر الْعُلَمَاءِ أَنَّ مَعنَاهُ: أَنَّ الْمَاءَ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ نَفْسِ أَصَابِعِهِ ﷺ وَيَنْبُعُ مِنْ ذَاتِهَا...قَالُوا: وَهُوَ أَعظَمُ فِي الْمُعجِزَةِ مِنْ نَبْعِهِ مِنْ حَجَرٍ...وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّهُ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ: (فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ أَصَابِعِهِ)، وَالثَّانِي: يَحتَمِلُ أَنَّ اللهَ كَثَّرَ الْمَاءَ فِي ذَاتِهِ فَصَارَ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ لَا مِنْ نَفْسِهَا وَكِلَاهُمَا مُعجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ وَآيَةٌ بَاهِرَةٌ[١].

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/ ٥٦-٥٧).

(٧٧٩) وعن عبد الله بن زيدٍ رضي الله عنه قال: أَتَانَا النَّبِىُّ ﷺ، فأَخْرَجْنَا لَهُ مَاءً فى تَوْرٍ مِنْ صُفرٍ فتوَضَّأ(١).

۞ أى: أخرجوا له إناءً من صُفرٍ أى: من نحاس، فتوضأ منه ﷺ.

وهذا يدل على جواز الوضوء من الأوانى الطاهرة، والأكل والشرب فيها، إلا أوانى الذهب والفضة.

(٧٨٠) وعنْ جابرٍ رضي الله عنه أَنَّ رسُولَ الله ﷺ دَخَلَ على رَجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ، ومعهُ صاحبٌ لهُ، فقال رسُولُ الله ﷺ: «إِنْ كانَ عِنْدَكَ ماءٌ باتَ هذِهِ اللَّيْلَةَ فى شَنَّةٍ وإلا كَرعنا»(٢).

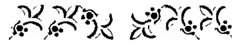
۞ والشنة: هى القِربة... والمعنى: أن النبى ﷺ يحب أن يكون الماء بايتًا فى القِربة.... ومعلوم أنك إن ملأت قِربة من الماء وتركتها إلى أن تبيت، فإن كان الماء مُتعكرًا بالتراب فسيصفى ويُنقَّى، حيث ينزل التراب إلى أسفل القِربة... أما إذا مُلئت القِربة قريبًا ولم يَبِت الماء فيها فسيبقى فيها أثر التعكُّر بالتراب.... وهذا هو مقصد النبى ﷺ.

وقوله: (وإلا كرعنا)، وهذه وإن كانت ليست عادة النبى ﷺ إلا أن ذلك كأنه مُراعاةٌ للحال، حيث لم يجد عند الرجل شيئًا أمامه، وكأنه وجد مَاءً فى إناءٍ كبير ومرتفع، ولم يجد كيزانًا ليشرب، ولعل يده كانت متسخة أو فيها قذى مُعين، فيلجأ إلى الكرع: وهو أَخْذِ الماء بفمه من ذلك الإناء.

ويُحتمل أن يكون قال ذلك تواضعًا منه ﷺ... وكأنه يقول لصاحب الدار:

(١) صحيح: رواه البخارى (١٩٧)، (١٩٩) كتاب الوضوء.
«الصُّفْر» وهو النحاس، «والتَّوْر» كالقدح، وهو بالتاءِ المثناة من فوق.
(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٦١٣) كتاب الأشربة.
«الشَّنُّ» : القِربة.

إنَّا لن نُثقل عليك، ولن نُكلفك بأن تشترى لنا كيزانًا، أو تأتى بها من جيرانك، بل إذا لزم الأمر سنكرع من هذا الإناء كرعًا، وفيه دلالة على أدب النبى ﷺ وتواضعه الجَمّ.



(٧٨١) وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إنَّ النَّبِىَّ ﷺ نَهَانا عنِ الحَريرِ والدِّيبَاجِ والشُّربِ فى آنيةِ الذَّهَب والفِضَّةِ، وقال: «هِىَ لَهُمْ فى الدُّنْيا، وَهِىَ لكُمْ فى الآخِرةِ»[١].

۞ والحرير: هو ما كان ثوبًا خالصًا من حرير، فإن كان الحرير رقيقًا سُمى بالسندس، وإن كان غليظًا سُمى بالإستبرق، وقد يكون مخلوطًا بغيره فيُسمَّى بالديباج، وذلك كأن يكون الثوب الحرير فيه بعض الصوف، إلا أن الغالب عليه أنه حرير.

فالنبى ﷺ نهى الرجل أن يلبس ثوبًا خالصًا من حرير، أو ثوبًا أكثره حرير.

ويجوز أن تكون بعض الخيوط فى الثوب الذى تلبسه حريرًا، لكن بمقدار أصبع أو أصبعين، أو ثلاث أو أربع كأقصى حَدٍّ، فقد رخَّص فيه النبى ﷺ[٢].

لحديث أَبِى عُثْمَانَ، قَالَ: كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ، وَنَحنُ بِأَذْرَبِيجَانَ: أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ «نَهَى عَنْ لُبْسِ الحَرِيرِ إِلَّا هَكَذَا، وَصَفَّ لَنَا النَّبِىُّ ﷺ إِصبَعَيْهِ»[٣].

وفى لفظ لمسلم: « نَهَى نَبِىُّ اللهِ ﷺ عَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ إِلَّا مَوْضِعَ إِصبَعَيْنِ، أَوْ ثَلَاثٍ، أَوْ أَربَعٍ »[٤].

فإن زاد علم الحرير فى الثوب على أربعة أصابع حَرُم.

وذهب الجمهور - خلافًا للمالكية ورواية عن أحمد - إلى جواز لبس

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٣٢) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٦٧) كتاب اللباس والزينة.

(٢) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ / أحمد حطيبة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٢٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٩) كتاب اللباس والزينة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٠٦٩) (١٥) كتاب اللباس والزينة.

الحرير عند الضرورة كحالة المرض أو الحكة ونحو ذلك... لحديث أَنسٍ، قَالَ: «رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحمَنِ فِي لُبْسِ الحَرِيرِ، لِحِكَّةٍ بِهِمَا»(١).

۞ ثم أخبر حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهاهم عن الشرب في آنية الذهب والفضة وقال: «هِيَ لَهُمْ في الدُّنْيا، وهي لكُمْ في الآخِرةِ».. وقد شرحنا ذلك في أول هذا الباب.. ولله الحمد.

(٧٨٢) وعنْ أُمِّ سلمة رضي الله عنها أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «الذي يَشْرَبُ في آنِيَةِ الفِضَّةِ إنَّما يُجَرجِرُ في بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»(٢).

وفي رواية لمسلم: «إنَّ الذي يأكُلُ أو يَشْرَبُ في آنِيَةِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ».

وفي رواية له: «مَنْ شَرِبَ في إناءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ إنَّما يُجَرجِرُ في بَطْنِهِ نارًا مِن جَهَنَّمَ».

۞ **قال الإمام النووي رحمه الله:**

قَالَ الْقَاضِي: وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالْحَدِيثِ فَقِيلَ: هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْكُفَّارِ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ عَادَتُهُمْ فِعلُ ذَلِكَ كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ ... أَيْ هُمُ الْمُسْتَعمِلُونَ لَهَا فِي الدُّنْيَا.. وَكَمَا قَالَ ﷺ فِي ثوب الحرير: «**إنَّمَا يَلبس هَذَا مَنْ لا خَلَاقَ لَهُ فِي الآخِرَةِ**» أي: لا نصيب له... قَالَ: وَقِيلَ: الْمُرَادُ نَهْيُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ ذَلِكَ وأن مَنِ ارتكبَ هَذَا النَّهْيَ اسْتَوْجَبَ هَذَا الْوَعِيدَ، وَقَد يَعفُو اللهُ عَنْهُ. هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي. وَالصَّوَابُ: أَنَّ النَّهْيَ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ مَنْ يَسْتَعمِلُ إِنَاءَ الذَّهَبِ أَوِ الْفِضَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ لأن الصحيح أن الكفار مُخَاطَبُونَ بفُرُوع الشَّرعِ وَاللهُ أَعلَمُ ...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٧٦) كتاب اللباس والزينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣٤) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٦٥) كتاب اللباس والزينة.

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَحرِيمِ الْأَكْلِ وَالشُّربِ فِى إِنَاءِ الذَّهَبِ وَإِنَاءِ الْفِضَّةِ عَلَى الرَّجُلِ وَعَلَى الْمَرأَةِ.

ثم قال: إِنَّ الْإِجْمَاعَ مُنعَقِدٌ عَلَى تَحرِيمِ اسْتِعمَالِ إِنَاءِ الذَّهَبِ وَإِنَاءِ الْفِضَّةِ فِى الْأَكْلِ وَالشُّربِ وَالطَّهَارَةِ والأكل بملعقة من أحدهما والتجمُّر بمجمرة منهما، وَجَمِيعِ وُجُوهِ الِاسْتِعمَالِ وَمِنْهَا الْمُكْحُلَةُ والميل وظرف الغالية وَغَيْرُ ذَلِكَ سَوَاءٌ الْإِنَاءُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ. وَيَسْتَوِى فى التحريم الرجل والمرأة بلا خِلَاف. وَإِنَّمَا فُرِّق بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرأَةِ فِى التَّحَلِّى لِمَا يُقصد منها من التزيُّن لِلزَّوْجِ وَالسَّيِّدِ، وَيَحرُمُ اسْتِعمَالُ مَاءِ الْوَردِ وَالْادِّهَانِ مِنْ قَارُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ.

قَالُوا: فَإِنِ ابْتُلِىَ بِطَعَامٍ فِى إِنَاءِ ذَهَبٍ أَوْ فضة فليُخرج الطَّعَامَ إِلَى إِنَاءٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِهِمَا وَيَأْكُلُ مِنْهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِنَاءٌ آخَرُ فَلْيَجْعَلْهُ عَلَى رَغِيفٍ إِنْ أَمْكَنَ وَإِنِ ابْتُلِىَ بِالدُّهْنِ فى قارورة فِضَّةٍ فَلْيَصُبَّهُ فِى يَدِهِ الْيُسْرَى ثُمَّ يَصُبَّهُ من اليسرى فى اليمنى وَيَسْتَعمِلُهُ[1].

وفى حديث أم سلمة: دليل على أن الأكل فى آنية الذهب والفضة من كبائر الذنوب، لأن النبى ﷺ توعَّد على ذلك بأن مَن فعل ذلك: «**فإنما يُجرجر فى بطنه نار جهنم**» الجرجرة: صوت الطعام والشراب وهو ينحدر فى البلعوم، فإذا أكل أو شرب فى إناء الذهب والفضة، فإنما يجرجر فى بطنه نار جهنم... وهذا يدل على أنه من كبائر الذنوب لأن فيه الوعيد، وكل ذنب فيه وعيد، فإنه من كبائر الذنوب.

والمطلى بالذهب والفضة قال العلماء: إنه كالخالص، لا يجوز أن يُؤكل فيه ولا أن يُشرب فيه.

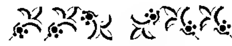
ومن هذا الحديث نعرف لِمَ قذف حذيفة دهقان الفرس بإناء الذهب أو الفضة ... وذلك لأن حذيفة رضي الله عنه عطش ذات مرة وكان أميرًا فى المدائن رضي الله عنه،

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٤٠-٤٢) بتصرف كبير.

فطلب ماءً فإذا بالدهقان يأتى له بإناءٍ من ذهب أو فضة فيه ماء.

فأخذه وقذفه به... وذلك لأن هذا الرجل عرف نهى النبى ﷺ، ولكنه كان يستهين بهذا النهى، ولذلك التفت لمن معه وقال: أما إنى لو لم أنهه مرة ولا مرتين ولا ثلاثة... يعنى: أنا نهيته أكثر من مرة، إلا أنه كان متعمدًا لمخالفة ما قاله النبى ﷺ، فاستحق أن يقذفه بهذا الإناء ليؤدبه، والله أعلم.



(٣) كتاب اللباس

(١١٧) باب استحباب الثوب الأبيض وجواز الأحمر والأخضر والأصفر والأسود وجوازه من قطن وكتان وشعر وصوف وغيرها إلا الحرير

۞ وبعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ آداب الطعام ثم آداب الشرب ذكر هنا آداب اللباس.

وهذا من أحسن الترتيب فإن الأكل والشرب لباس الباطن .. والثياب لباس الظاهر.... قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه:١١٨، ١١٩] ....فقال: ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ لأن الجوع عُرى الباطن فخلو البطن من الطعام عُرىٌ لها.

﴿وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ من لباس الظاهر ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا ﴾ هذا حرارة الباطن ﴿وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ هذا حرارة الظاهر ... ولهذا أَشكَل على بعض الناس قال: لماذا لم يَقُل إن لك ألا تجوع فيها ولا تظمأ وأنك لا تعرى فيها ولا تضحى؟ ولكن مَن تَفَطَّن للمعنى الذى أشرنا إليه تبين له بلاغة القرآن.

﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ هذا انتفاء العرى فى الباطن ﴿وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ انتفاؤه فى الظاهر ﴿لَا تَظْمَؤُا ﴾ هذا انتفاء الحرارة فى الباطن ﴿وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ يعنى لا تتعرض للشمس الحارة فيه انتفاء للحرارة فى الظاهر.

۞ وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦] فذكر الله تعالى نوعين من اللباس: نوعًا ظاهرًا ونوعًا باطنًا أو نوعًا حِسيًّا ونوعًا معنويًّا ... وذكر أن الحِسِّيَّ قسمان: قسمٌ

ضروريٌّ تُوارى به العورة، وقسم كمالى وهو الريش لباس الزينة.

والله سبحانه وتعالى من حكمته أن جعل بنى آدم محتاجين للِّباس لمواراة السوءة ... يعنى لتغطية السوءة حتى يتستَّر الإنسان ... وكما أنه محتاج للباس يوارى سوءته الحسية فهو محتاج للباس يوارى سوءته المعنوية وهى المعاصى ... وهذا من حكمة الله تعالى.

ولهذا نجد غالب المخلوقات سوى الآدمى لها ما يستر جلدها من شعرٍ أو صوفٍ أو وَبَر أو ريش لأنها ليست بحاجة إلى أن تتذكر العرى المعنوى بخلاف بنى آدم فإنهم محتاجون إلى أن يتذكروا العورة المعنوية وهى عورة الذنوب ... حمانا الله منها.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ أى عوراتكم ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ أى ثياب زينة وجمال زائد عن اللباس الضرورى ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ هذا هو اللباس المعنوى ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ أى خير من اللباس الظاهر سواء كان مما هو ضرورى كالذى يوارى السوءة أم من الكمالى ... وإذا كان لباس التقوى خيرًا من لباس الظاهر فيجب على الإنسان أن يفكر فى أن يلبس لباس التقوى .... حيث تجدنا نحرص على نظافة اللباس الظاهر ... فالإنسان إذا أصاب ثوبه بقعة أو وسخ ذهب يغسلها بالماء والصابون وبما يقدر عليه من المنظفات لكن لباس التقوى كثير من الناس لا يهتم به ... يكون نظيفًا أو يتسخ لا يهتم به.

مع أن هذا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ هو الخير وهو إشارة إلى أنه يحب الاعتناء بلباس التقوى أكثر مما يجب الاعتناء بلباس البدن الظاهر الحِسِّى لأن لباس التقوى أهم ... وهنا قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ ولم يقل: ولباس التقوى هو خير لأن ذلك اسم إشارة وجىء بها للبعيد إشارة إلى عُلو مرتبة هذا اللباس كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢].

ولم يَقُل هذا الكتاب إشارة إلى عُلوِّ مرتبة القرآن.

كذلك قوله ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ إشارة إلى علو مرتبة لباس التقوى .

فينبغي للإنسان أن يعتنى بهذا اللباس ... وذلك بأن يتقى الله عَزَّوَجَلَّ وأن يفكر دائمًا فى سيئاته ومعاصيه ... وتنظيف السيئات والمعاصى أسهل من تنظيف الثياب الظاهرة، فالثياب الظاهرة تحتاج إلى عمل وتعب وأجرة وتحضير ماء ومنظف لكن هذا الأمر سهل جدًّا ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٣٥] بالاستغفار والتوبة يُمحَى كل ما سلف ... نسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنِّه وكرمه(١).



(٧٨٣) وعنْ ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «الْبَسُوا مِن ثِيابِكُم البَيَاضَ، فإنَّها مِن خَيرِ ثِيابِكُمْ، وكَفِّنُوا فيها مَوْتَاكُم»(٢).

(٧٨٤) وعنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «البَسُوا البيَاضَ، فإنهَا أطْهَرُ وأطيبُ، وكَفِّنُوا فيها موتَاكُم»(٣).

(٧٨٥) وعنْ البراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ الله ﷺ مَربُوعًا ولَقَد رأيْتُهُ فى حُلَّةٍ حمرَاء ما رأيْتُ شَيئًا قَطُّ أحسَنَ مِنْهُ(٤).

۞ما ترك النبى (عليه الصلاة والسلام) شيئًا ينفعنا إلا وعلمنا إياه، ولا شيئًا يضرنا إلا حذرنا منه، حتى فى أمور اللباس .. فقد رغَّب فى لبس الثوب الأبيض، وبيِّن جواز لبس جميع أنواع الثياب من القطن والكتان والصوف، وحرم لبس الحرير للرجال دون النساء.

---

(١)شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٦٦-٤٦٧).

(٢) **صحيح**:رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٣٦).

(٣) **صحيح**:رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٣٥).

(٤) **متفق عليه**:رواه البخارى (٣٥٥١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٣٧) كتاب الفضائل.

۞ وفى حديث ابن عباس وسمرة رضي الله عنهما أن النبى ﷺ حَثَّ على لبس الثياب البيض، وقال: «فإنَّهَا من خير ثيابكم» وقال: «فإنها أطهر وأطيب» .. وصدق الحبيب المصطفى ﷺ فإن الثوب الأبيض يزيد صاحبه جمالًا فوق جماله ونور الإيمان الذى يُضىء وجهه .. فالثوب الأبيض فيه جمال وفيه طهارة حيث إن الثوب الأبيض إذا كان عليه شىء من تراب أو من وسخ أو من نجاسة تظهر فيه... ولذلك عندما تدعو تقول: (اللهم نقِّنى من خطاياى كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدَّنَس) يعنى: لا تترك علىَّ خطيئة لا ظاهرة ولا باطنة، حتى لا يكون علىَّ شىءٌ منها يوم القيامة.

والثوب الأسود قد يغسله الإنسان وعليه بعض الكدرات فلا تظهر عليه، فيُغسل أدنى غسلٍ ويتنظف الثوب... أما الثوب الأبيض فلا بد أن تغسله جيدًا حتى لا يبقى عليه أى أثر من الدرن أو الوسخ.

فالثياب الأخرى قد تتراكم عليها الأوساخ، والإنسان لا يدرى ولا يغسلها .. أما الثوب الأبيض فأدنى شىء يظهر فيه فيُسارع الإنسان إلى غسله ليظل دائمًا مظهره جميلًا فيكون صورة طيبة أمام الناس من حوله .. ولذا قال النبى ﷺ: **«فإنَّها أطهر وأطيب»**.

ولبس الثياب البيض يشمل القُمص والأُزر والسراويل .. فكلها يُستحب أن تكون من البياض .. ولكن لا بأس أن يلبس الإنسان من أى لونٍ آخر بشرط ألا يكون لباسه شبيهًا بملابس النساء أو ممَّا يختص لبسه بالنساء .. وذلك لأن النبى ﷺ قال: **«لَعَنَ الله المُتشبِّهينَ مِنَ الرِّجَالِ بالنِّسَاءِ، والمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرِّجَالِ»**..

وكذلك يُشترط ألا تكون ثيابه حمراء .. وذلك لأن النبى ﷺ قد نهى عن لبس الثياب الحمراء ... والمقصود هنا هو الأحمر الخالص .. أما إذا كان

مختلطًا بلونٍ آخر فلا بأس .. ولذا فقد جاء فى حديث البراء أنه رأى النبى ﷺ فى حُلة حمراء ... فتلك الحُلة الحمراء لم تكن حمراء خالصة لكن الغالب عليها هو اللون الأحمر .. كالشماغ الذى يكون فيه اللون الأبيض والأحمر لكن الغالب عليه هو اللون الأحمر.

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَغَلِطَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهَا كَانَتْ حَمْرَاءَ بَحتًا لَا يُخَالِطُهَا غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا الْحُلَّةُ الْحَمْرَاءُ: بُردَانِ يَمَانِيَّانِ مَنْسُوجَانِ بِخُطُوطٍ حُمْرٍ مَعَ الْأَسْوَدِ، كَسَائِرِ الْبُرُودِ الْيَمَنِيَّةِ، وَهِيَ مَعرُوفَةٌ بِهَذَا الِاسْمِ بِاعتِبَارِ مَا فِيهَا مِنَ الْخُطُوطِ الْحُمْرِ، وَإِلَّا فَالْأَحمَرُ الْبَحتُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ أَشَدَّ النَّهْيِ(١).

❁❁❁

(٧٨٦) وعنْ أبى جُحَيفةَ وهْبِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: رأيْتُ النَّبيَّ ﷺ بمَكَّةَ وهُوَ بالأبْطَحِ فى قُبَّة لَهُ حمراءَ مِن أدَم فخَرَجَ بِلالٌ بِوَضوئِه، فَمِنْ ناضِحٍ ونَائلٍ، فخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ وعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، كأنِّى أنْظُرُ إلى بياضِ ساقَيْهِ، فتَوَضَّأ وأَذَّنَ بلالٌ، فجَعَلْتُ أتتَبَّعُ فَاهُ ههُنَا وههُنا، يقولُ يَمِينًا وشِمالًا: حيَّ علَى الصَّلاةِ، حيَّ على الفَلاحِ. ثُمَّ رُكِزَتْ لهُ عَنَزَةٌ، فتقدَّمَ فصَلَّى يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ الكَلْبُ والحِمارُ لا يُمْنَعُ(٢).

❁ ففى هذا الحديث يُخبر أبو جُحيفة وهب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه رأى النبى ﷺ بمكة وهو بالأبطح فى قُبَّة له حَمراء من أدم -أى: من الجلد-.

والأبطح مكان فى مكة مأخوذ من البطحاء، والبطحاء الحصباء وهى الحجارة الصغيرة... فالنبى ﷺ لما انتهى من مناسك حَجِّه ﷺ انتقل إلى البطحاء.

فإن النبى ﷺ لما قَدِمَ مكة فى حجة الوداع فى السنة العاشرة من الهجرة،

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٣٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣) كتاب الأذان (٣٥٦٦) كتاب المناقب-ومسلم (٥٠٣) كتاب الصلاة. «العَنَزَةُ» بفتح النون: نحوُ العُكازَة.

قَدِمَها ضُحى يوم الأحد، الرابع من ذى الحجة، ونزل إلى المسجد الحرام فطاف وسعى ثم خرج إلى الأبطح، فنزل فيه إلى اليوم الثامن، وكان فى هذه القبة التى ضُربت له (عليه الصلاة والسلام).

والقُبة هى الخيمة التى كان النبى ﷺ فيها .. وكانت من الجلد ولونها أحمر.

فخرج بلال رضي الله عنه بوَضوء النبى ﷺ .. يعنى بما تبقَّى من الماء الذى توضأ به النبى ﷺ .. فجعل الناس يأخذون من هذا الماء ليتبركوا بأثر النبى ﷺ.

(فَمِنْ نَائِلٍ وَنَاضِحٍ) مَعناهُ فَمِنْهُمْ مَنْ يَنَالُ مِنْهُ شَيْئًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْضَحُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ شَيْئًا مِمَّا نَالَهُ وَيَرُشُّ عَلَيْهِ بَلَلًا مِمَّا حَصَلَ لَهُ وَهُوَ مَعنَى مَا جَاءَ فِى الْحَدِيثِ الْآخَرِ فَمَنْ لَمْ يُصِبْ أَخَذَ مِنْ يَدِ صَاحِبِ(١).

فخرج النبى ﷺ عليه حُلّة حمراء .. والحُلة ثوبان لا يكون واحدًا .. وهما إزار ورداء ونحوهما ... فكانت تلك الحُلة حمراء .. أى أن الغالب عليها اللون الأحمر ويخالطها لونٌ آخر .. وذلك لأن النبى ﷺ نهى عن لبس الأحمر الخالص فمُحالٌ أن ينهى عن شىءٍ ويفعله ﷺ.

۞ قوله: «كأنى أنظر إلى بياض ساقَيه» أى: أن النبى ﷺ لم يكن يلبس ثيابًا تصل إلى الأرض فيها إسبال- حاشا لله- بل كانت فوق الكعبين بدليل أنه رأى بياض ساقَيه ﷺ... فقد كانت حُلته ﷺ مرفوعة عن الكعبين قليلًا بحيث يبدو الساق.

۞ **فتوضَّأ وأذَّن بلال.. قال:** فجعلت أتتبع فاه هَهُنا وهَهُنا يَقُولُ يَمِينًا وَشِمَالًا حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ... فِيهِ أَنَّهُ يُسَنُّ لِلْمُؤَذِّنِ الِالْتِفَاتُ فِى الْحَيْعَلَتَيْنِ يَمِينًا وَشِمَالًا بِرَأْسِهِ وَعُنُقِهِ... وَلَا يُحَوِّلُ قَدَمَيْهِ وَصَدرَهُ عَنِ الْقِبْلَةِ، وَإِنَّمَا يَلْوِى رَأْسَهُ وَعُنُقَهُ وَاخْتَلَفُوا فِى كَيْفِيَّةِ الْتِفَاتِهِ عَلَى مَذَاهِبِ. وَهِىَ ثَلَاثَةُ

---

(١) مسلم بشرح النووى (٤/ ٢٩٢).

أَوْجُهٍ أَصَحُّهَا: وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ يَقُولُ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ مَرَّتَيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ عَنْ يَسَارِهِ مَرَّتَيْنِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ [1].

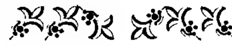
ثم رُكزت العنزة لرسول الله ﷺ... والعنزة: رُمح فى طرفه زج، يعنى رُمح فى طرفه حديدة مُحددة... كان النبى ﷺ يصحبها معه فى السفر.

رُكزت العنزة من أجل أن يصلى إليها، لأن الإنسان إذا كان فى السفر فإنه ينبغى أن يصلى إلى شيءٍ قائم؛ كعصا يُركزها فى الأرض أو ما أشبه ذلك.

فتقدم النبى ﷺ فصلَّى الظهر ركعتين والعصر ركعتين - كما ورد فى الرواية الأخرى - وهذا يدل على جواز الجمع للمسافر وإن كان نازلًا ... لكن الأفضل ألا يجمع إلا من حاجة.

قال: (يمر بين يديه الكلب والحمار ولا يمنعه) يعنى: من وراء السُّترة، فإذا صليت وأمامك سُترة ثم مَرَّ شىء من أمام السُّترة فلا شىء فى ذلك.

ولماذا قال: (يمر بين يديه الكلب والحمار)؟ لأن النبى ﷺ أخبر أن مما يقطع الصلاة الكلب والحمار والمرأة الحائض -أى البالغة- ...ومعنى يقطع أى: يُنقص من صلاة المصلى.. فكان يمر بين يدى النبى ﷺ ذلك من وراء العنزة...فطالما السترة موجودة فلا يضر ما مَرَّ من ورائها.



(٧٨٧) وعنْ أبى رِمْثة رفاعَةَ التَّمِيْمِيِّ رضي الله عنه قال: رأيتُ رسُولَ الله ﷺ وعلَيْه ثوبان أخْضَرانِ [2].

(٧٨٨) وعنْ جابر رضي الله عنه، أَنَّ رسُولَ الله ﷺ دَخلَ يَوْمَ فَتْحِ مكَّةَ وعَلَيْهِ عِمامةٌ سوْداءُ [3].

---

(١) مسلم بشرح النووى (٤/ ٢٩٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٤٣٠).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣٥٨) كتاب الحج.

(٧٨٩) وعنْ أبى سعيد عمرو بن حُرَيْث رضي الله عنه قال: كأنى أنظرُ إلى رسولِ الله ﷺ وعَلَيْهِ عِمَامةٌ سَوْدَاءُ قد أرخَى طَرَفَيْها بيْنَ كتفيْهِ(١).

وفى روايةٍ له: أن رسولَ الله ﷺ خَطَبَ النَّاس، وعَلَيْهِ عِمَامة سودَاءُ.

(٧٩٠) وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: كُفِّنَ رسولُ الله ﷺ فى ثلاثة أثْوابٍ بيضٍ سَحُولِيَّةٍ مِنْ كُرسُفٍ، لَيْسَ فيهَا قَمِيصٌ ولا عِمامةٌ(٢).

۞ ففى تلك الأحاديث بيان أنه وإن كان يُستحب أن يلبس الإنسان الثياب البيضاء إلا أنه يجوز له أن يلبس الثياب الخضراء والصفراء والسوداء والحمراء التى لا تكون حمراء خالصة بل يشوبها لونٌ آخر.

ففى حديث رفاعة التميمى رضي الله عنه أنه رأى النبى ﷺ وعليه ثوبان أخضران.. وفى حديث جابر رضي الله عنه أنه رأى النبى ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء .. وفى هذا دليل على جواز لبس العمامة وأن من الأفضل أن يجعل الإنسان لها ذؤابة، وأن يُرخى طرفها من خلف، كما فعل النبى ﷺ. والعمامة التى ليس لها ذؤابة تُسمى العمامة الصمَّاء، لأنه ليس لها طرف مرخى، وكلاهما جائز، وكلاهما أيضًا يجوز المسح عليه على القول الراجح.

وفى حديث عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كُفِّن فى ثلاثة أثوابٍ بيضٍ سَحولية من كُرسف ليس فيها قميصٌ ولا عمامة.

(ثلاثة أثواب بيض سحولية) مأخوذة من سَحول وهى قرية فى اليمن اسمها سَحول تُنسب إليها هذه الثياب، كانوا يصنعون فيها الثياب من القطن ...

والنبى ﷺ كُفن فى ثلاثة أثواب بيضاء.

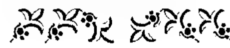
ففيه: دليل على أن الأفضل أن يُكفن الأموات فى الثياب البيض، وهذا إن تيسَّر... لكن لو فُرض أنه لم يتيسر فيُكفن الميت فى مثل ما يلبسه الحى، من أى

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٥٩) كتاب الحج.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٦٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤١) كتاب الجنائز.
«السَّحُوليَّةُ»: ثيابٌ تُنْسَب إلى سَحُولٍ: قَريَةٍ باليَمنِ «والكُرسُف»: القُطْن.

لون كان إلا الأحمر الخالص.

وفى حديث عائشة: دليل على أن الميت لا يُجعل عليه قميص ولا عمامة، وإنما توضع القطع واحدة فوق الأخرى، ثم يوضع عليها الميت، ثم تلف القطع العليا عليه، ثم الوسطى، ثم السُّفلى، ثم تُثنَى من عند رأسه ومن عند الرجلين، وتُربَط وتُحزَم حتى يدخل الميت القبر، فإذا أُدخل القبر فإن الحزائم تُفك ... قال العلماء: تُفك الحزائم لأن الميت إذا مات انتفخ، فإذا انتفخ وقد رُبط فربما يتفجر... فتُفك الحزائم من أجل ألا يتفجر.



(٧٩١) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: خَرَجَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ غَداةٍ وعَلَيْهِ مِرطٌ مُرَحَّلٌ مِن شَعرٍ أسود[1].

۞ يعنى: خرج فى الصباح (وعليه مِرطٌ) المرط هو الكساء.

(مُرحَّل) مأخوذ من الرَّحل ... والرَّحل هو الذى يُوضع على ظهر البعير مثل الكرسى، ويجلس عليه الجالس ... فكان هذا الثوب فيه أعلام، يعنى على الثوب رسوم، وهذه الرسوم على هيئة الرَّحل الذى يُوضع فوق ظهر الجمل ... وليس هو الذى صنعها، فإما أنه اشترى الثوب، أو أُهدى له ﷺ فلبسه ...

وفيه دليل على جواز لبس مثل هذه الثياب.

قولها: (من شعرٍ أسود) يعنى: هذا الثوب مغزول من شعرٍ أسود.

وهكذا تنوعت الأحاديث والروايات لتبين لنا أنه يجوز لنا أن نلبس أى لونٍ ما دام ليس فيه تشبُّه بلبس النساء .. وأما اللون الأحمر فلا بد أن يكون ممزوجًا بلونٍ آخر ولا يكون أحمر صافيًا ؛ لأن النبى ﷺ نهى عن ذلك.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٨١) كتاب اللباس والزينة، و(٢٤٢٤) كتاب فضائل الصحابة.
«المِرط» بكسر الميم، وهو كساءٌ - «والمُرَحَّل» بالحاءِ المهملة: هو الذى فيه صورةُ رِحال الإبل، وهىَ الأكْوَارُ.

(٧٩٢) وعنْ المُغِيرةِ بنِ شُعبة رضي الله عنه قال: كُنْتُ مع رسول الله ﷺ ذاتَ ليلَة فى مسيرٍ، فقال لى: «أمعَكَ ماء ؟» قلت: نَعَمْ، فنَزَلَ عن راحلتِهِ فمَشَى حتى تَوارَى فى سَوادِ اللَّيْلِ ثُم جاء فأفْرَغْتُ عليْهِ مِنَ الإدَاوَةِ، فغَسَل وجْهَهُ وعَلَيْهِ جُبَّةٌ مِن صُوفٍ، فلم يَسْتَطِع أنْ يُخْرِجَ ذِراعَيْهِ منها حتى أخْرَجَهُمَا مِن أسْفَلِ الجُبَّةِ، فغَسَلَ ذِراعَيْهِ، ومَسَحَ برأسِه ثُمَّ أهْوَيْت لأنْزِعَ خُفَّيْهِ فقال: «دعهمَا فإنى أدخَلْتُهُما طَاهِرَتَينِ» ومَسَحَ عليْهِما(١).

وفى روايةٍ: وعَلَيْهِ جُبَّةٌ شامِيَّةٌ ضَيقَةُ الكُمَّيْنِ.

وفى روايةٍ: أنَّ هذِه القصة كانت فى غَزْوَةِ تَبُوكَ.

۞ ففى هذا الحديث يخبر المغيرة بن شُعبة أنه كان مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك .. وفى ليلة من الليالى كان المغيرة يمشى مع النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ: «أمعك ماء؟» فقد كان النبى ﷺ بحاجة إلى الماء ليقضى حاجته ويتوضأ .. فلما سأل المغيرة: «أمعك ماء؟» قال له المغيرة: نعم.

فأحضر المغيرة الماء للنبى ﷺ فنزل النبى ﷺ عن راحلته وأخذ الماء ومشى بعيدًا حتى توارى فى سواد الليل .. وذلك لأن النبى ﷺ كان أشد حياءً من العذراء فى خِدرها .. فلا يحب أن يراه أحد وهو جالسٌ على قضاء حاجته وإن لم تُرَ عورته.

وهذا من كمال أدب النبى ﷺ الذى ربَّاه الحق (جلَّ وعلا) وصنعه على عينه ...

فمن كمال الأدب أنك إذا أردت أن تقضى حاجتك فابعد عن الناس حتى تتوارى عنهم لا من أجل ألا يروا عورتك، لأن ستر العورة واجب ولا يجوز أن تتكشف أمام الناس... لكن هذا فوق ذلك، يعنى الأفضل ألا يُرى الإنسان وهو على حاجته... وهذا من هدى النبى ﷺ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٩٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٧٤) كتاب الطهارة.

فلما قضى النبى ﷺ حاجته أراد أن يتوضأ .. لأنه ﷺ كان يحب أن يكون على وضوءٍ دائمًا حتى وإن لم يُصلِّ.

فأخذ المغيرة يصب الماء على النبى ﷺ من الإداوة ليتوضأ .. - والإداوة هى الإناء الذى يوضع فيه الماء-.

فغسل النبى ﷺ وجهه وكان عليه جُبة من الصوف فلم يستطع أن يُخرج ذراعيه منها حتى أخرجهما من أسفل الجُبَّة.. فقد لبس النبى ﷺ تلك الجُبَّة؛ لأن الوقت كان باردًا .. فتبوك قريبة من الشام.. وبلاد الشام باردة.. فلما لم يستطع أن يُخرج ذراعيه من الكُم ؛ لأنه كان ضيِّقًا أخرجهما من أسفل وغسلهما ﷺ.

«فغسل ذراعيه ومسح برأسه» ، فهذا دليل على وجوب غسل اليدين إلى المرفقين حتى ولو كان الثوب ضيقًا... فلا يكسل الإنسان ويقول: أنا لن أرفعه، ولكن يخلع الثوب حتى يستطيع أن يتوضأ أو يرفع الكم حتى يُخرج يده فيغسل يديه إلى المرفقين.

۞ **يقول المغيرة:** ثم أهويت لأنزع خُفيه .. أى أنه انحنى بسرعة من أجل ألا يمنعه النبى ﷺ من ذلك .. وهذا من أدب هذا الصحابى الجليل مع النبى ﷺ .. فالمغيرة ظن أنه يجب أن ينزع الخُفَّ من أجل أن يغسل رجليه ﷺ... ولكنه كان مسافرًا... والمسافر له أن يمسح على الخُفين طالما أدخل رجليه وهما طاهرتان فى الخُفين إلى ثلاثة أيام ولياليهن.

فقال: «دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين» ومسح عليهما... وفيه أنه يجوز لك أن تمسح على الخُفين بشرط أن تكون قد لبستهما على طهارة كاملة، يعنى: توضأت ولبست الخُفين.

وفرقٌ بين الخُف والنعل.. فالخف رقبته عالية تغطى الكعبين وهما

العظمان اللذان فى جانب الساق.

وكذلك الجورب له نفس حكم الخف، فإذا لبس الجوربين وأحب أن يتوضأ فطالما لبسهما على وضوء فله أن يمسح على الجوربين كما يمسح على الخفين.

۞ وهذا الحديث فيه جملة من الفوائد .. منها:

(١) أن النبى ﷺ يناله ما ينال البشر من البرد والحرِّ والصحة والمرض وغير ذلك.

(٢) أنه لا حرج على الإنسان أن يتوقَّى من كل ما يؤذيه من حَرٍّ أو بردٍ أو غير ذلك.

(٣) أنه لا يجوز أن يمسح على حائلٍ سوى الخُفين أو العمامة.

(٤) أن حكم المانيكير الذى تضعه المرأة ليس كحكم الخفين .. فإذا أرادت أن تتوضأ فيجب عليها إزالة المانيكير وإلا فالوضوء غير صحيح ومن ثَمَّ فالصلاة غير صحيحة.

(٥) جواز إعانة المتوضئ على وضوئه.

(٦) أنه لا يجوز المسح على الخفين أو الجوربين إلا إذا كان لبسهما على طهارة.



(١١٨) باب استحباب القميص

(٧٩٣) عن أُمِّ سَلمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان أَحَبَّ الثِّيابِ إلى رسولِ الله ﷺ القَمِيصُ[١].

۞ وهو الثوب الطويل الذى يُسميه الناس (جلابية).. وكان أحب الثياب إلى النبى ﷺ لأنه أستر للعورة وتكون تكلفته قليلة ويكون لطيفًا على البدن.

ولذا جاء فى الحديث أنه «كان أحبَّ الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص».

۞ ولكن إذا كنت فى بلدٍ تلبس الملابس العادية المعروفة الآن مثل القميص والبنطال - إذا لم يكن ضيِّقًا ويُجسِّم العورة - فلا حرج أن تلبس مثلهم.

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

كان النبى ﷺ يحب القميص لأنه أستر ولأنه قطعة واحدة يلبسها الإنسان مرة واحدة فهى أسهل من أن يلبس الإزار أولًا ثم الرداء ثانيًا.

ولكن مع ذلك لو كنت فى بلد يعتادون لباس الأُزر والأردية ولبست مثلهم فلا حرج ... والمهم ألا تخالف لباس أهل بلدك فتقع فى الشهرة وقد نهى النبى ﷺ عن لباس الشهرة[٢].

وكان عادة العرب أنهم يلبسون الحُلة وهى ثوبان: إزار ورداء ... والإزار هو الذى يستر ما بين السرة إلى الكعبين، كذلك يلبس الرداء، والرداء فوق المنكبين يستتر بها.

فلبس النبى ﷺ الإزار والرداء، وكذلك كان يلبس القميص، وكان أحب اللباس إليه؛ لأنه أستر فكان يحبه ﷺ.

ومَن لبس القميص لا يجره على الأرض.. فكثير من الناس يفعل ذلك ... فهذا غير جائز، وقد نهى عنه النبى ﷺ، فلا بد أن يكون القميص فوق الكعبين ولا يكون دون ذلك.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٢٥).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٧٥).

(١١٩) باب صفة طول القميص والكُم والإزار وطرف العمامة وتحريم إسبال شيء من ذلك على سبيل الخُيلاء وكراهته من غير خُيلاء

(٧٩٤) عن أسماء بنت يزيدَ الأنصاريّةِ رضي الله عنها قالت: كان كُمُّ قَمِيصِ رسول الله ﷺ إلى الرُّسْغِ[١].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.

(٧٩٥) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرِ الله إليهِ يَوْم القِيامةِ» فقال أبو بكر: يا رسول الله إن إزارى يَسْترخى إلا أنْ أتَعاهَدَهُ، فقال له رسول الله ﷺ: «إنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خُيلاء»[٢].

(٧٩٦) وعنْ أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا ينْظُرُ الله يَوْم القِيامة إلى مَن جَرَّ إزَارَهُ بَطَرًا»[٣].

(٧٩٧) وعنه عن النبيِّ ﷺ قال: «ما أسْفَلَ مِن الكَعبَينِ مِن الإزار ففى النار»[٤].

(٧٩٨) وعنْ أبى ذَرٍّ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُم الله يومَ القِيامَةِ، ولا يَنْظُرُ إليهم، ولا يُزَكِّيهِمْ، ولهُم عذابٌ أليمٌ» قال: فقرأها رسولُ الله ﷺ ثلاث مِرارٍ. قال أبو ذرٍّ: خابُوا وخسِرُوا مَن هُمْ يا رسولَ الله ؟ قال: «المُسبِلُ، والمنَّانُ،

(١) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٤٧٩).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٦٥) كتاب المناقب، (٥٧٨٤) كتاب اللباس - ومسلم (٢٠٨٥) كتاب اللباس والزينة.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٨٨) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٨٧) كتاب اللباس والزينة.
(٤) صحيح: رواه البخارى (٥٧٨٧) كتاب اللباس.

والمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِف الكاذِبِ»(١).

وفى روايةٍ له: «المُسبِلُ إزارَهُ» .

(٧٩٩) وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الإسْبَالُ فى الإزارِ، والقَمِيصِ، والعِمامةِ... مَنْ جَرَّ شَيئًا خُيَلاء لَم يَنْظُرِ الله إليهِ يوْمَ القِيامةِ»(٢).

۞ لقد تهاون كثيرٌ من الناس فى قضية قد تكون هينة عندهم لكنها عند الله عظيمة: وهى قضية الإسبال فى الإزار، فإن النبى ﷺ شدَّد فى النهى عن ذلك... وقد عدَّه بعض أهل العلم من الكبائر؛ لأنه تضمن الوعيد الشديد لفاعله، فيجب على المسلم ألا يتساهل فى هذه القضية، فإنها جد خطيرة.

۞ وإسبال الثياب يقع على وجهين:

الوجه الأول: أن يجر الثوب خُيلاء.

الوجه الثانى: أن ينزل الثوب أسفل من الكعبين من غير خُيلاء.

أما الأول: وهو الذى يجر ثوبه خيلاء، فإن النبى ﷺ ذكر له أربع عقوبات والعياذ بالله: لايكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه - يعنى نظر رحمة- ولا يزكيه، وله عذاب أليم... أربع عقوبات يُعاقَب بها المرء إذا جَرَّ ثوبه خيلاء.

۞ وفى هذه الأحاديث يُخبر النبى ﷺ أن الله عز وجل لا ينظر يوم القيامة إلى مَن جَرَّ إزاره بَطَرًا.

وعلى الرَّغم من أن هذا الأمر قد يتهاون فيه كثيرٌ من الناس إلا أن الأمر فى غاية الخطورة ... فالرجل منهيٌّ عن أن يُسبل ثوبه أو سرواله أو إزاره عن الكعب .. فإن أسبل ثيابه تحت الكعب فإنه يكون بذلك قد ارتكب كبيرة من الكبائر - والعياذ بالله-.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع(٢٧٧٠).

فإن فعل ذلك كِبرًا وخُيلاء فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إليه يوم القيامة ولا يُكلمه ولا يُزكيه وله عذابٌ أليم.

كما قال ﷺ: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ** -وفى لفظ آخر: **بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**»[1].

وإن فعل ذلك بغير كبرٍ ولا خُيلاء فإنه يُعذَّب فى النار ويكون العذاب لذلك الجزء الذى حدث فيه الإسبال كما قال النبى ﷺ: «**مَا أَسفل الكَعبَين مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّار**»[2].

۞ وإسبال الثياب كما قلنا إن كان للخيلاء فهو حرامٌ، وإن كان بغير قصد فهو مكروه (هذا إن كان فى غير صلاة، فإن كان فى الصلاة فهو أشد كراهة).

قال ﷺ: «**مَنْ أَسْبَلَ إِزَارَهُ فِي صَلاَتِهِ خُيَلاَءَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي حِلٍّ وَلا حَرَامٍ**»[3].

۞ ولقد كان أصحاب الرسول ﷺ يخشون من فعل ذلك بعد الوعيد الذى سمعوه من النبى ﷺ فى حق المُسبل.

ولذا فإنه لما قال ﷺ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ إِزَارِي يَسْتَرخِي، إِلَّا أَنْ أَتعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفعَلَهُ خُيَلاَءَ**»[4].

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَرَرتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي إِزَارِي اسْتِرخَاءٌ، فَقَالَ: «**يَا عَبْدَ اللهِ، ارفَع إِزَارَكَ**»، فَرَفَعتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**زِد**»، فَزِدتُ، فَمَا زِلْتُ أَتحَرَّاهَا بَعدُ[5].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٧٨٧) كتاب اللباس.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠١٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٦٥) كتاب المناقب، ومسلم (٢٠٨٥) كتاب اللباس والزينة.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٠٨٦) كتاب اللباس والزينة.

۞ فإذا قال قائل: ما هى السُّنَّة؟ قلنا: السُّنَّة من الكعب إلى منتصف الساق هذه هى السُّنة... نصف الساق سُنة، وما دونه سُنة، وما كان إلى الكعبين فهو سنة؛ لأن هذا هو لبس النبى ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا لا يتجاوز لباسهم الكعبين، ولكن يكون إلى نصف الساق أو يرتفع قليلًا، وما بين ذلك كله سُنة.

قال النبى ﷺ: «**إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما كان أسفل من الكعبين ففى النار، ومن جرَّ إزاره بطرًا لم ينظر الله إليه**»(١).

۞ وهنا مسألة فى غاية الأهمية ألا وهى أنه إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إلى مَن جَرَّ إزاره بطرًا إلا أنه يراه ويُبصر كل شىء لكنه يعامله معاملة المنسيين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ .. فهو عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إليه نظر رحمة لكنه (سبحانه وتعالى) يراه ويعلم كل شىءٍ عنه.

وهذا كما يفعل مع أهل النار أنه لا يُكلمهم ولكنه يرد عليهم، ويقول: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فهو سبحانه وتعالى لا يجيبهم جوابًا ينتفعون به.

۞ فالشَّاهد أن الذى يجر إزاره كبرًا وبطرًا وخُيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يُكلمه ولا يُزكيه وله عذابٌ أليم.. وإن كان لغير خيلاء فإنه يُعذَّب فى النار ويكون العذاب لذلك الجزء الذى حدث فيه إسبال «**ما أسفل الكعبين من الإزار ففى النار**» إلا أن يتوب إلى الله ويرجع إليه وينتهى عن فعل ذلك .. فالله غفورٌ رحيم شكورٌ ودود.

ولا تستغرب أن يكون العذاب على بعض البدن الذى حصلت فيه المخالفة، فإنه ثبت فى «الصحيحين» أن النبى ﷺ رأى أصحابه توضئوا ولم

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٢١).

يُسبغوا الوضوء، فنادى بأعلى صوته «**ويلٌ للأعقاب من النار**»(١) فهنا جعل العقوبة على الأعقاب، يعنى العراقيب التى لم يسبغوا وضوءها.

فالعقاب بالنار يكون عامًّا؛ كأن يُحرق الإنسان كله بالنار - والعياذ بالله- ويكون فى بعض البدن الذى حصلت فيه المخالفة، ولا غرابة فى ذلك.

وقد **قال تعالى**: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[التوبة: ٣٤-٣٥]

۞ ولا بد أن نعلم أن حُكم الإسبال خاصٌّ بالرِّجال .. أما المرأة فلها أن تستر قدمها لأن المرأة موضع فتنة .. وواجب عليها أن تستر جسدها.

فالمرأة استثناها الشرع من حكم تحريم الإسبال.. وذلك حتى لا تنكشف أقدامها فتكون سببًا للفتنة ... فقد قال ﷺ: «**ذيل المرأة شبر**». فقالت أم سلمة: إذًا تخرج قدماها! قال: «**فذراع. لا يزدن عليه**»(٢).

وختم المؤلف بحديث أبى ذر أن النبى ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**» قرأها ثلاث مرات، وإنما فعل النبى (عليه الصلاة والسلام) هذا من أجل أن ينتبه الإنسان، لأن اللفظ إذا جاء مُجمَلًا - ولا سيما مع التكرار - ينتبه له الإنسان، حتى إذا جاءه التفصيل والبيان ورد على نفسٍ متشوفة تطلب البيان.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠) كتاب العلم، ومسلم (٢٤١) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه الدارمى (٢/ ٢٧٩)، والبيهقى (٢/ ٢٣٣)، وأحمد (٦/ ٢٩٥، ٣٠٩)، وأبو يعلى (ق٣١٩/ ١)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٨٦٤).

فقال أبو ذر: يا رسول الله، خابوا وخسروا مَن هؤلاء؟ قال: «المُسبل، والمنَّان، والمُنفق سلعته بالحلف الكاذب».

الأول المُسبل: يعنى الذى يجر ثوبه خيلاء.

والثانى المنَّان: الذى يَمُن بما أعطى، إذا أحسن إلى أحدٍ بشىء جعل يَمُن عليه: فعلت بك كذا وفعلت بك كذا.

والمَنُّ من كبائر الذنوب، لأن عليه هذا الوعيد، وهو مُبطلٌ للأجر.. لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ ﴾[البقرة: ٢٦٤].

والثالث المنفق سلعته بالحلف الكاذب: يعنى الذى يحلف وهو كاذب ليزيد ثمن السلعة.. فيقول: والله لقد اشتريتها بعشرة، وهو لم يشترها إلا بثمانية، أو يقول: أعطيت فيها عشرة، وهو لم يعط فيها إلا ثمانية، فيحلف على هذا، فهذا ممن يستحق هذه العقوبات الأربع؛ لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكيه، وله عذاب أليم. نسأل الله العافية[1].



(٨٠٠) وعنْ أبى جُرَىٍّ جابر بن سُلَيم ﷺ قال: رأيتُ رَجلًا يصدُرُ الناسُ عن رأيهِ لا يَقُولُ شَيئًا إلا صَدَرُوا عنه، قلتُ: مَن هذا؟ قالوا: رسول الله ﷺ. قلتُ: عَليكَ السَّلامُ يا رسولَ الله مَرَّتَيْنِ. قال: «لا تَقُل عَلَيْكَ السَّلامُ، عَلَيْكَ السَّلامُ تَحِيَّةُ الموْتَى. قُلِ: السَّلامُ عليك» قال: قلتُ: أنتَ رسول الله؟ قال: «أنا رسُولُ الله الذى إذا أصابَكَ ضُرٌّ فدعَوْتَهُ كَشَفَهُ عنْكَ، وإذا أصَابَكَ عامُ سنَة فدَعَوْتَهُ أنبتَهَا لك، وإذا كنتَ بأرضٍ قَفْرٍ أوْ فلاةٍ، فضَلَّت راحِلَتُكَ، فدعَوْتَه ردَّها علَيْكَ» قال: قلت: اعهَد إليَّ. قال: «لا تسُبَّنَّ أحدًا» قال: فما سَبَبْتُ بعدهُ حُرًّا، ولا عبدًا، ولا بَعيرًا، ولا شاةً. «ولا تَحقِرنَّ مِنَ المعروفِ شَيئًا، وأنْ تُكَلِّمَ أخَاك وأنتَ مُنْبسِطٌ إليهِ وجهُك، إنَّ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٧٦).

ذلك مِن المعرُوفِ. وارفَع إزارَكَ إلى نِصفِ السَّاقِ، فإن أبيتَ فإلى الكَعبين، وإياكَ وإسْبال الإزارِ فإنَّهَا مِن المَخِيلةِ وإنَّ الله لا يحبُّ المَخِيلَةِ، وإن امْرؤٌ شَتَمك وعيَّرَكَ بمَا يَعلَمُ فيكَ فلا تُعَيِّرهُ بما تَعلمَ فيهِ، فإنَّمَا وبالُ ذلك عليهِ»(١).

ففي هذا الحديث أن جابر بن سُليم رضي الله عنه قَدِمَ المدينة فرأى رجلًا يَصدُر الناس عن رأيه .. فهو لا يقول شيئًا إلا صدروا عنه وأخذوا بما يقول .. فسأل مَن هذا؟.. وكأن ذلك كان فى أوَّل إسلامه فقد جاء إلى النبى ﷺ وهو لا يعرفه ... فلما سأل مَن هذا؟ قالوا له: إنه رسول الله ﷺ.

ففرح بذلك فرحًا شديدًا وجاء إلى النبى ﷺ وقال له: عليك السلام يا رسول الله ... فلما قال ذلك قال له رسول الله ﷺ: لا تقل: «**عليك السلام، عليك السلام تحية الموتى**» وكانت عادة أهل الجاهلية حينما يذكرون فلانًا الذى مات يقولون: عليك السلام يا فلان.

يعنى أنهم كانوا فى الجاهلية يُسلمون على الأموات هكذا.

كما قال الشاعر:

عليك سلام الله قيس بن عامر ورحمته ما شاء أن يترحم

لكنّ الإسلام نسخ هذا وصار السلام يُقال لمن ابتُدئ به، السلام عليك... حتى الموتى كان النبى ﷺ يخرج إليهم إلى المقبرة يُسلم عليهم فيقول: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**»، ولا يقول: عليكم السلام.

وفى قوله عليه الصلاة والسلام: «**قل السلام عليك**» دليل على أن الإنسان إذا سلم على الواحد يقول: السلام عليك،وهكذا جاء أيضًا فى حديث الرجل الذى يُسمَّى المُسيء فى صلاته، أنه جاء فسلم على النبى ﷺ فقال: السلام عليك؛ بالإفراد، وهذا هو الأفضل.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٠٩).

۞ فعَظُم قدر النبى ﷺ فى قلب هذا الرجل فقال للنبى ﷺ: أنت رسول الله؟ .. وهو فى قمة الإعجاب والانبهار بشخص رسول الله ﷺ وبتوقير أصحابه ومحبتهم له ﷺ.

فقال له ﷺ: «أَنَا رَسُولُ اللهِ الَّذِى إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وَإِنْ أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ، أَنْبَتَهَا لَكَ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرَاءَ - أَوْ فَلَاةٍ - فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتَهُ، رَدَّهَا عَلَيْكَ».

لم يَقُل له النبى ﷺ: أنا رسول الله ﷺ .. صفتى كذا وكذا ... ما دام الرجل كان مُنبهرًا به ﷺ.

بل دلَّه على الله عَزَّوَجَلَّ ووضح له أنه رسول رب العالمين الذى يكشف الضُّر ويُفرج الكرب .. والذى إذا أصاب أرضك جدبٌ فلم تُنبت فدعوته كشف عنك هذا البلاء وأنبت لك الأرض .. وإذا كنت فى صحراء فضلَّت راحلتك وضاعت منك فدعوته ردَّها عليك.

فبيَّن له أنه -أى الربّ عَزَّوَجَلَّ - يجلب لعباده الخير، وأنه إذا دعاه عبده لم يخب... وهكذا كل دعاء تدعو به ربك فإنك لا تخيب، لو لم يأتك من هذا إلا أن الدعاء عبادة تُؤجَر عليه؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة لكفى.

وإذا لم يكن هناك موانع تمنع إجابة الدعاء، فإن الله تعالى إما أن يعطيك ما سألت وتراه رأى العين... تدعو الله بالشيء فيحصل، وإما أن يكشف عنك من الضُّر ما هو أعظم، وإما أن يدَّخر ذلك لك عنده، وإلا فلن يخيب مَن دعا الله عَزَّوَجَلَّ أبدًا.

ولكن إياك أن تستبطئ الإجابة فتقول: دعوت ودعوت فلم يُستجب لى.

۞ وتأملوا معى وانظروا إلى جمال كلام النبى ﷺ .. فالرجل كان مُنبهرًا

بالنبى ﷺ وقال له: أنت رسول الله؟

فإذا به ﷺ يتواضع ويُبين لهذا الرجل أن الذى يفعل الخيرات كلها ويدفع الابتلاءات ويكشف الكربات هو الله القادر العظيم.

۞ فبدأ الرجل يسأل عن دينه فقال للنبى ﷺ: اعهد إلىَّ.

فقال له ﷺ: «**لا تَسُبنَّ أحدًا**» أى: إياك أن تَسُبَّ أو تشتم أحدًا.

فإذا بالرجل يطيع رضي الله عنه، ويقول: (فما سببت بعده حُرًّا ولا عبدًا ولا بعيرًا ولا شاة)... مع أن النبى ﷺ لمن يذكر البعير ولا الشياه .. لكن الرجل من شدة طاعته لأمر النبى ﷺ ذكر أنه لم يَسُب إنسانًا ولا حيوانًا.

ثم قال ﷺ: «**ولا تحقرن من المعروف شيئًا**» واحتقار المعروف يمنع الإنسان من فعله.

فكل معروف تفعله ستجد ثوابه وبركته فى الدنيا والآخرة .. فلو تصدقت على مسكين فهذا من المعروف .. ولو دللت رجلًا على طريقه فهذا من المعروف .. ولو حملت رجلًا على دابته أو ناولته حاجته فهذا من المعروف ... وهكذا .

واعلم أن هناك قاعدة إذا ذكرها الإنسان سَهُل عليه الإحسان، وهى ما ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام من قوله: «**ومَن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته**»[1]، وما ظنك إذا كان الله فى حاجتك؟ هل تتعثر الأمور؟ الجواب: لا، إذا كان الله فى حاجتك يساعدك على حاجتك ويُعينك عليها، فلا شك أنها سوف تسهل.... فأنت كلما كنت فى حاجة أخيك كان الله فى حاجتك، فأكثِر من المعروف، وأكثِر من الإحسان، ولا تحقرن شيئًا ولو كان قليلًا...قال النبى ﷺ:

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

«**لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة**»[١]، أى لا تحقر ولو هذا الشىء القليل.

۞ **ثم قال له ﷺ: «وأن تُكلِّم أخاك وأنت مُنبسطٌ إليه وجهك .. إن ذلك من المعروف»**.

فإنه لما قال له ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا» بيَّن له أن من المعروف أن تبتسم فى وجه أخيك وألا تعبس فى وجهه.. ولذا قال النبى ﷺ فى حديثٍ آخر: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ...**»[٢]، وقال ﷺ: «**لا تَحقِرَنَّ مِنَ الْمَعرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ**»[٣].

وهذا لاشك أنه خير، إلا أنه فى بعض الأحيان قد يكون المرء الذى يخاطبك من المصلحة ألا تلقاه بوجهٍ مُنبسط؛ كأن يكون قد فعل شيئًا لا يُحمد عليه، فلا تَلقَه بوجهٍ منبسط تعزيرًا له، لأجل أن يرتدع ويتأدب، ولكل مقامٍ مقال.

۞ **ثم قال له ﷺ: «وارفَع إزارَكَ إلى نِصفِ السَّاقِ، فإن أبيتَ فإلى الكَعبين، وإياكَ وإسْبال الإزارِ فإنَّهَا مِن المخِيلةِ وإنَّ الله لا يحبُّ المَخِيلَة »**.

فقد أمره النبى ﷺ هنا أن يرفع إزاره إلى نصف الساق .. فإن أبى فإلى الكعبين .. وذلك لأنه قد يريد أن يكون إزاره طويلًا .. فوضح له النبى ﷺ أن آخر حدَّه عند الكعبين .. وهما العظمتان البارزتان فى آخر الساقين ... فالأمر فى هذا واسع ... فله أن يجعل إزاره نازلًا إلى أى موضع ما بين نصف الساق إلى الكعب.

قال: (**وإياك وإسبال الإزار**) أى: أُحذرك أن تُطول الإزار عن الكعبين؛ ثم قال: (**فإنها من المخيلة**) إذًا فكون الإنسان يفعل ذلك ويطلبه فهذا هو الخيلاء الذى منع منه النبى ﷺ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٦٦) كتاب الهبة، ومسلم (١٠٣٠) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٠٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة.

قال: (**فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة**).

ثم نصحه ﷺ أيضًا فقال: (**وإن امرؤٌ شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك فلا تُعيره بما تعلم فيه**) وهذا أدب عظيم من آداب الإسلام، فإنك مأمور بالستر على عيوب الخلق وعيوبك.

قال: (**لو أن إنسانًا عيَّرك**) قال هنا: (**بما يعلم فيك**)، وقال في حديث آخر: (**بما لا يعلم فيك**) يعني: قد يعيرك بشيءٍ موجود فيك أو بشيءٍ ليس عندك لكنه يفترى عليك، فأنت إذا كنت تعرف فيه عيوبًا فلا ترد عليه؛ ليكون وباله عليه.

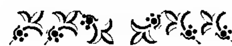
قال ﷺ: (**فلا تُعيره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه**).

إذًا فاتركه يأخذ جزاءه يوم القيامة، ولا تُعوِّد لسانك على سَبِّ الناس أو فضحهم، بل عليك أن تكون كاتمًا لأسرار الناس ساترًا على عيوبهم، حتى وإن أرادوا فضيحتك، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، فالله يدافع عنك ويجعل الناس يحتقرون هذا الذى يتكلم عنك ويريد أن يفضحك بشيء فيك أو ليس فيك ويتكفل بالستر عليك، فلا تأبه لهذا الإنسان ولا تجاوبه بمثل ما قال.

والمقصد من الحديث هو: قول النبى ﷺ: (**إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة**) فهو يُعلم المسلمين التواضع وعدم تقليد أحدٍ من الخلق.

فإذا أردت أن تقتدى فإمامك وقدوتك والأسوة الحسنة لك هو النبى ﷺ.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، وليكن حياؤك من الله عَزَّوَجَلَّ أعظم فى قلبك من حيائك من الناس[1].



(١) شرح رياض الصالحين. الشيخ / أحمد حطيبة.

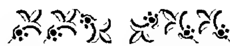
(٨٠١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما رَجُلٌ يُصَلِّي مُسْبِلٌ إزَارَه، قال له رسول الله ﷺ: «اذهَب فَتوضأ» فذَهَب فتوضَّأ، ثم جاء، فقال: «اذهبْ فتوضَّأ» فقال له رجُلٌ: يا رسول الله. ما لك أمرتَهُ أن يَتَوضَّأ ثم سكَتَّ عنه؟ قال: «إنه كان يُصلِّي وهو مُسْبِلٌ إزارهُ، إن الله لا يقْبلُ صلاةَ رجُلٍ مُسبِلٍ»[1].

۞ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف لم يَثبُت عن النبي محمد ﷺ.. لكن أُحب أن أوضح أمرًا قد اشتُهر بين بعض طلبة العلم ألا وهو: أن الله عز وجل لا يقبل صلاة مُسبل... والحقيقة أن هذا الأمر قد اختلف فيه بعض أهل العلم.

والصحيح من أقوال العلماء أن صلاة المُسبل صحيحة، ولكنه آثم.

ومثل ذلك أيضًا مَن لبس ثوبًا مُحرمًا عليه؛ كثوبٍ سرقه الإنسان فصلى به، أو ثوب فيه تصاوير... فيه صليب مثلًا، أو فيه صور حيوان، فكل هذا يَحرُم لبسه في الصلاة وفي خارج الصلاة، فإذا صلى الإنسان في مثل هذا فالصلاة صحيحة، لكنه آثم بلبسه.

وهذا الحديث لو صَحَّ لكان فاصلًا للنِّزاع، لكنه ضعيف...فمَن ضَعَّفه قال: صلاة المسبل صحيحة .... ومَن صحَّحه قال: صلاة المسبل غير صحيحة... وعلى كل حال فإن الإنسان يجب عليه أن يتقي الله عز وجل وألا يتخذ من نعمته وسيلة لغضبه- والعياذ بالله- فإن مَن بارز الله بالعصيان وقيل له: إن الثوب النازل عن الكعب حرام ومن كبائر الذنوب ولكنه لم يُبَالِ بهذا، فهذا استعان بنعمة الله على معصية الله.



(٨٠٢) وعنْ قيسِ بن بشرٍ التَّغْلبيِّ قال: أخْبَرني أبي- وكان جليسًا لأبي الدَّرداءِ - قال: كان بِدِمشقَ رجُلٌ مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ يُقال له ابنُ الحنظَلِيَّة، وكان

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٧٨).

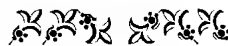
رجُلًا مُتوحِّدًا قَلَّما يُجالسَ النَّاسَ، إنَّما هو صلاةٌ، فإذا فرغَ فإنَّما هو تسبيح وتكبيرٌ حتى يأتى أهْلَهُ، فمَرَّ بِنَا ونَحنُ عِند أبى الدَّردَاءِ، فقال له أبو الدَّرداءِ: كَلِمةً تَنْفَعُنَا ولا تضُرُّكَ. قال: بعثَ رسول الله ﷺ سريَّةً فقَدِمَتْ، فجاءَ رجُلٌ مِنهم فجَلسَ فى المجْلِس الذى يجلِسُ فيهِ رسول الله ﷺ، فقال لرجُلٍ إلى جَنْبِه: لَوْ رأيتنَا حينَ التقَيْنَا نحنُ والعدُو، فحمَل فلانٌ فطعَنَ، فقال: خُذْهَا مِنِّى وأنَا الغُلَامُ الغِفاريُّ، كيْفَ ترى فى قوْلِهِ؟ قال: ما أُرَاهُ إلا قَد بَطَل أجرُهُ. فسَمِعَ بذلكَ آخَرُ فقال: ما أرَى بذَلِكَ بأسًا، فتنَازعا حتى سَمِعَ رسُول الله ﷺ فقال: «سُبْحانَ الله؟ لا بأس أن يُؤجَرَ ويُحمَد» فرَأيتُ أبا الدَّردَاءِ سُرَّ بذلكَ، وجعلَ يَرفَعُ رأسَه إليهِ ويقُولُ: أأنْتَ سَمِعتَ ذلكَ مِن رسول الله ﷺ؟ فيقول: نعَم. فما زال يعِيدُ عَلَيه حتى إنّى لأقولُ ليبرُكَنَّ على رُكْبَتَيه.

قال : فمَرَّ بِنَا يومًا آخرَ ، فقال له أبو الدَّرداءِ : كَلِمةً تَنفَعُنَا ولا تضُرُّكَ. قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المُنفِقُ عَلى الخَيْلِ كالبَاسِطِ يدَهُ بالصَّدَقَة لا يقْبِضُهَا» .

ثم مَرَّ بِنَا يومًا آخرَ، فقال له أبو الدَّرداءِ: كَلِمةً تَنفَعُنَا ولا تضُرُّكَ. قال: قال رسولُ الله ﷺ: «نِعمَ الرَّجُلُ خُرَيْمٌ الأسَدىُّ، لولا طُولُ جُمته وإسبالُ إزَارِه» فبَلغَ ذلك خُرَيمًا، فعجَّلَ فأخَذَ شَفْرَةً فقطَعَ بها جُمتَهُ إلى أُذنيه، ورفَع إزَارَهُ إلى أنْصَاف سَاقَيْه.

ثم مَرَّ بِنَا يومًا آخرَ ، فقال له أبو الدَّرداءِ : كَلِمةً تَنْفَعُنَا ولا تضُرُّكَ. قال : سَمِعتُ رسولُ الله ﷺ يقُولُ: «إنَّكُمْ قادمُونَ على إخْوانِكُم . فأصلِحُوا رِحَالَكم، وأصلحوا لبَاسَكُم حتى تكُونُوا كأنَّكُمْ شَامَةٌ فى النَّاسِ، فإنَّ الله لا يُحبُّ الفُحشَ ولا التَّفَحش»(١).

۞ وللأمانة العلمية فإنَّ هذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ



(١) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٢٣١).

(٨٠٣) وعن أبى سعيدٍ الخدرِىِّ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إزْرَةُ المُسْلِمِ إلى نصفِ السَّاقِ، ولا حَرَجَ أوْ لا جُنَاحَ فيما بَيْنَهُ وبَيْنَ الكَعبينِ، فمَا كان أسْفَلَ مِن الكعبَين فهُوَ فى النَّارِ، ومَن جَرَّ إزارَهُ بَطَرًا لمْ يَنْظُرِ الله إليه»[1].

ففى هذا الحديث قسَّم النبى ﷺ طول القميص إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: السُّنة: إلى نصف الساق.

والقسم الثانى: الرخصة: وهو ما نزل من نصف الساق إلى الكعب.

والقسم الثالث: كبيرة من كبائر الذنوب: وهو ما نزل عن الكعبين ولكنه لم يكن بطرًا.

القسم الرابع: مَن جَرَّ ثوبه خُيلاء أو بطرًا، وهو أشد من الذى قبله.

فصارت الأقسام أربعة: قسمٌ هو السُّنة، وقسمٌ جائز، وقسمٌ محرم بل من كبائر الذنوب، لكنه دون الذى بعده، والقسم الرابع مَن جَرَّه خيلاء، فإن الله تعالى لا ينظر إليه.

وفى هذا: دليل على أن مَن أنزل ثوبه إزارًا أو قميصًا أو سروالًا إلى أسفل من الكعبين فإنه قد أتى كبيرة من كبائر الذنوب، سواء فعل ذلك خُيلاء أو لغير الخُيلاء، لأن النبى ﷺ فَرَّق فى هذا الحديث بين ما كان خيلاء وما لم يكن كذلك... فالذى جعله خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة.

وإذا ضممنا هذا الحديث إلى حديث أبى ذر السابق قلنا: لا ينظر الله إليه، ولا يكلمه، ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

أما ما دون الكعبين، فإنه يُعاقَب عليه بالنار فقط، و لكن لا تحصل له العقوبات الأربع[2].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٢١).

(٢) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٤٨٨-٤٨٩) بتصرف.

(٨٠٤) وَعَن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: مَرَرتُ على رسُولِ الله ﷺ وفى إزارى اسْترخاءٌ، فقال: «يا عَبْدَ الله، ارفَع إزارَكَ» فرفعتهُ، ثُمَّ قال: «زِد» ، فزِدتُ، فمَا زِلْتُ أتَحرَّاها بَعدُ. فقالَ بعضُ القَومِ: إلى أيْنَ؟ فقال: «إلى أنْصَافِ السَّاقَيْنِ»[١].

۞ ففى هذا الحديث أن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كان إزاره يسترخى منه دون قصدٍ أو تعمُّد .. ولكن الإزار كان يسترخى منه وهو يمشى فنصحه النبى ﷺ وأمره أن يرفع إزاره .. فلما رفعه قال له ﷺ: «زِد» أى: ارفعه أكثر من هذا.. فرفعه إلى أنصاف الساقين.

۞ والنبى ﷺ عندما ينصح ابن عمر فإنَّما ينصح رجلًا قد اشتُهر بكثرة العبادة .. ولذا فهو يأمره بالمستحب وليس بالواجب فقط؛ لأنه يعلم أنه صاحب همة عالية فى كل العبادات .. فالواجب أن يكون القميص أو الإزار فوق الكعبين بقليل .. والمُستحب إلى نصف الساقين .. والكعب هو العظمة البارزة فى أسفل الساق.. فكان ابن عمر بعد ذلك يجعل إزاره إلى نصف الساق.

وهكذا تكون همة المؤمن .. إذا أمره الله عَزَّ وَجَلَّ أو النبى ﷺ بفعل الواجب فإنه لا يكتفى بذلك بل يفعل الواجب والمستحب طاعة لله (جلَّ وعلا).

(٨٠٥) وَعَن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن جَرَّ ثَوبَه خُيلاءَ لَمْ يَنْظُرِ الله إليهِ يَوْمَ القيامةِ» فقالتْ أُمُّ سَلَمة: فكيْفَ تَصنَعُ النِّساءُ بِذُيُولِهِنَّ؟ قال: «يُرخينَ شِبْرًا» قالتْ: إذن تَنكَشفُ أقْدامُهنَّ . قال: «فيُرخِينَهُ ذِراعًا لا يَزِدنَ»[٢].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن جَرَّ ثوبه خُيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة .. ففزعت أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حينما سمعت هذا الوعيد فقالت للنبى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٨٦) كتاب اللباس والزينة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٨٠١)، وصحيح الجامع (٦١٨٨)، وأصله فى الصحيحين.

ﷺ: فكيف تصنع النساء بذيولهن؟

- والذيل هنا هو أسفل الثياب - فقال لها النبى ﷺ: **«يُرخين شبرًا»** أى: يُرخين شبرًا من موضع الاستحباب للرجال وهو نصف الساق.. وبالتالى فسوف تصل الثياب إلى الكعبين وقد تنكشف الأقدام .. فقالت أم سلمة رضي الله عنها: إذًا تنكشف أقدامهن .. فخشيت من شدة حيائها أن تنكشف الأقدام .. فقال لها ﷺ: **«فيُرخينه ذراعًا لا يزدن»** أى: يُرخين ذراعًا من نصف الساق لأسفل.

والمقصود منه: جعل الثوب يغطى القدمين، وخصوصًا إذا كانت القدم حافية أو كانت تلبس شيئًا يكشف القدمين، أما إذا كانت تلبس حذاءً أو خُفًّا أو نَعلًا يستر قدميها فلا يلزمها حينئذ أن تُدنى إزارها بقدر الذراع، ولكن بالشىء الذى تمشى به بحيث لا تنكشف قدمها ولا ينكشف ساقها.

وإذا كانت المرأة تمشى وعليها ثوبٌ طويل يستر قدميها، فأصاب هذا الثوب أى شىءٍ من النجاسات فكيف يتم تطهيره؟

الجواب: أن النبى ﷺ أخبر أن الأرض كفيلة بتطهيره فإذا أصاب ثوبها شىء من النجاسة فى مكانٍ ثم تابعت مشيها فإن الأرض تُطهر ما تَنجَّس فى المرة الأولى، ولا يجب عليها أن تغسله بل تصلى فيه، والله أعلم.

قَالَ الْحَافِظُ: إِنَّ لِلرِّجَالِ حَالَيْنِ: حَالُ اسْتِحبَابٍ وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ بِالْإِزَارِ عَلَى نِصفِ السَّاقِ وَحَالُ جَوَازٍ وَهُوَ إِلَى الْكَعبَيْنِ ... وَكَذَلِكَ لِلنِّسَاءِ حَالَانِ حَالُ اسْتِحبَابٍ وَهُوَ مَا يَزِيدُ عَلَى مَا هُوَ جَائِزٌ لِلرِّجَالِ بِقَدرِ الشِّبْرِ وَحَالُ جَوَازٍ بِقَدرِ ذِرَاعٍ.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّفْصِيلَ فِى حَقِّ النِّسَاءِ مَا أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِىُّ فِى الْأَوْسَطِ، عَنْ أَنسٍ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ شَبَّرَ لِفَاطِمَةَ مِنْ عَقِبِهَا شِبْرًا وَقَالَ: **«هَذَا ذَيْلُ الْمَرأَةِ»** وَأَخْرَجَهُ

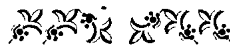
أَبُو يَعلَى بِلَفْظِ شَبَّرَ مِنْ ذَيْلِهَا شِبرًا أَوْ شِبْرَيْنِ وَقَالَ: «**لا تَزِدنَ عَلَى هَذَا**»(١).

۞ **قال الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفى هذا: دليل على وجوب تغطية الوجه، لأنه إذا كانت القدم يجب سترها مع أن الفتنة فيها أقل من الفتنة فى الوجه، فستر الوجه من باب أَولَى، ولا يمكن للشريعة التى نزلت من لَدُن حكيمٍ خبير أن تأمر النساء أن يغطين أقدامهن ولا يغطين وجوههن، لأن هذا تَناقُض، بل هذا إعطاء للحُكم فى شىء وحجب الحُكم عن شىءٍ أَولَى منه... وهذا لا يُتصور فى الشريعة العادلة التى هى الميزان، ولهذا جَانَب الصواب مَن قال من العلماء: إنه يجب أن تُستر القدمان، ولا يجب أن يُستر الوجه والعينان.

هذا لا يمكن أبدًا، والصواب الذى لا شك عندنا فيه، أنه لا يحل للمرأة أن تكشف وجهها إلا لزوجها أو محارمها(٢).

۞ **أقول**: قد اختلف أهل العلم فى مسألة النِّقاب ... فمنهم مَن قال أن النِّقاب واجب .. ومنهم مَن قال أنه مُستحب ... وأما مَن قال أن النِّقاب ليس له أصلٌ فى الإسلام فكلامه يُناقض الأدلَّة الواردة فى الكتاب والسُّنَّة.



(١) تحفة الأحوذى (٥/ ١٢٩).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٨٩).

(١٢٠) باب استحباب ترك الترفُّع في اللباس تواضعًا

قَد سبَقَ فى باب فضل الجُوعِ وخُشُونَةِ العَيْشِ جُمَلٌ تَتَعلَّق بهذا الباب .

(٨٠٦) وعن معاذِ بن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ اللِّباس تَواضُعًا لله، وهُوَ يَقْدِرُ عليهِ، دعاهُ الله يوْمَ القِيامةِ علَى رُءُوسِ الخَلائِقِ حتى يُخيِّره مِن أىِّ حُلَلِ الإيمانِ شاءَ يلبَسُها»(١).

۞ ينبغى للمسلم أن يكون متواضعًا لله عَزَّوَجَلَّ فى كلِّ أحواله وأن يكون متواضعًا مع المخلوقين كذلك فى كُلِّ أحواله.

وفى هذا الحديث يُخبر النبى ﷺ أن مَن ترك اللباس - يعنى اللباس الجميل الباهظ الثمن- تواضعًا لله عَزَّوَجَلَّ.. وهو قادرٌ على أن يشترى ذلك الثياب ... دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يُخيره من أى حُلل الإيمان شاء يلبسها ... ويا له من أجرٍ وثوابٍ عظيم.

۞ فإذا كان الإنسان غنيًّا ويعيش بين أُناسٍ فقراء أو متوسطى الحال لا يستطيعون شراء الملابس الغالية وهو يقدر على أن يشتريها ومع ذلك تواضع ولبس مثلهم من الملابس الجميلة ولكنها متوسطة وليست باهظة الثمن لئلا تنكسر قلوبهم إذا رأوه يلبس تلك الملابس دائمًا.. ولئلا يفتخر عليهم ... فإنه يفوز بهذا الأجر العظيم.

وإذا كان الإنسان غنيًّا .. وكان حريصًا على أن يلبس أولاده الملابس المتوسطة عند ذهابهم إلى المدرسة أو إلى الجامعة لئلا تنكسر قلوب زملائهم.. فإنه يفوز بهذا الأجر العظيم .. فيُدعَى يوم القيامة على رؤوس

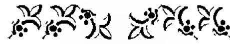
(١) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٤٥).



الخلائق حتى يُخيره الله عَزَّوَجَلَّ من أى حُلل الإيمان شاء يلبسها.

۞ أما إذا كان غنيًّا ويعيش بين أُناسٍ أغنياء رفيعى الحال يلبسون تلك الثياب الباهظة الجميلة فلا بد أن يلبس مثلهم حتى لا يحتقره أحد ولا يتهمونه بالبُخل؛ لأنهم يعلمون أنه غنىٌّ ومع ذلك لا يلبس مثلهم ...

أَضِف إلى ذلك أنه لو لبس فى تلك الحالة ملابس دونهم فإن هذا يُعَدُّ ثياب شهرة .. فالإنسان ينظر ما تقتضيه الحال، فإذا كان ترك رفيع الثياب تواضعًا لله ومواساة لمن كان حوله من الناس، فإن له هذا الأجر العظيم... أما إذا كان بين أُناسٍ قد أغناهم الله ويلبسون الثياب الرفيعة، فإنه يلبس مثلهم.



(١٢١) باب استحباب التوسط في اللباس ولا يقتصر على ما يزرى به لغير حاجة ولا مقصود شرعى

(٨٠٧) عن عمرو بن شُعيبٍ عن أبيه عن جدِّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إن الله يُحِبُّ أنْ يُرى أثَرُ نِعمَتِهِ عَلَى عبْدِه»[1].

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ يقول: «إن الله يُحِبُّ أنْ يُرى أثَرُ نِعمَتِهِ عَلَى عبْدِه».

وفى رواية: « إن الله يُحِبُّ أنْ يَرَى أثَرَ نِعمَتِهِ عَلَى عبْدِه ».

وسببه: (أن رجلًا أتى النبى ﷺ وكان لابسًا ثيابًا رثَّة، تدل على أنه فقير محتاج، فسأله النبى ﷺ: ماذا أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليك من أنواع المال؟ فقال: من كل أنواع المال قد أنعم الله علىَّ) يعنى: أن الله أعطانى من كل شىء، من الإبل والبقر والغنم.

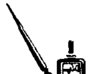
قال: «إن الله إذا أنعم على عبدٍ أحبَّ أن يرى أثر نعمته عليه».

۞ فخير الأمور الوسط .. فإذا أنعم الله عليك بالمال فلا ينبغى أن تَظهر أمام الناس بمظهر الفقراء حتى لا يحسدوك .. بل احرص على أن تُظهر نعمة الله عليك بأن تلبس الملابس الجميلة التى لا تكون سببًا فى أن تفتخر على الناس وتتكبر عليهم .. ولا تكون سببًا فى أن يتهمك الناس بالبُخل.

فالله عَزَّ وَجَلَّ يحب أن يرى أثر نعمته عليك .. فكلما أنعم الله عليك بنعمة فاحرص على أن تُظهر نعمة الله عليك دون كبرٍ أو خُيلاء.

---

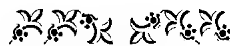
(١) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٨٧).



فإن كانت مالًا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يحب أن يرى أثر هذا المال عليك بالإنفاق والصدقات والمشاركة فى أعمال الخير .. وفى ثيابك الجميلة وبيتك وسيارتك وأولادك ... ولا تترفع على الناس .. بل احرص على أن تكون متواضعًا شاكرًا نعمة الله عَزَّوَجَلَّ. حتى يستشعر الفقير إذا رآك أنك لست بعيدًا عنه وأنه ليس بينك وبينه حواجز فيستطيع أن يقترب منك ويُكلمك ويشعر أنك متواضع ... لأنك إذا لبست بدلة غالية الثمن خاف الفقير أن يقرب منك معتقدًا أنك ذو منصبٍ عالٍ فلا يكلمك... وأنعِم بذلك أن يستشعر الفقير أنك مثله، ولو بتواضعك وحُسن خلقك، فلعلك تُحشر مع المساكين يوم القيامة، الذين تمنى النبى ﷺ أن يُحشر معهم فقال: «**اللهم أحينى مسكينًا، وأمتنى مسكينًا، واحشرنى فى زمرة المساكين**»[١].

۞ وإذا أنعم الله عليك بالعلم فإنه عَزَّوَجَلَّ يحب أن يرى أثر نعمته عليك بالعمل بهذا العلم وحُسن معاملة الناس ونشر هذا العلم وتعليم الناس من حولك.

۞ أما إذا أنعم الله عليك بالمال فلبست ثياب الفقراء وأظهرت للناس أنك فقير .. فإنك بذلك تكون قد جحدت نعمة الله عليك .. وإذا أنعم الله عليك بالعلم فلم يظهر عليك أثر هذا العلم فى أخلاقك وعبادتك ومعاملاتك ولم تنشر هذا العلم فإنك بذلك تكون قد جحدت نعمة الله عليك .. فاحرص على أن يرى الله أثر نعمته عليك فى كل شىء.. وكلما أنعم الله عليك بنعمة فاحرص على أن تُظهر نعمة الله عليك.



---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٦١).

(١٢٢) باب تحريم لباس الحرير على الرجال وتحريم جلوسهم عليه واستنادهم إليه وجواز لبسه للنساء

(٨٠٨) عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تَلْبَسُوا الحرير، فإنَّ مَنْ لَبِسهُ فى الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فى الآخرةِ»[١].

(٨٠٩) وعنه قال: سمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّما يلبَسُ الحريرَ مَن لا خَلاقَ له»[٢].

وفى روايةٍ للبُخارى: «مَنْ لا خَلاقَ لهُ فى الآخرةِ».

(٨١٠) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ لَبِسَ الحرير فى الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فى الآخرةِ»[٣].

(٨١١) وعنْ عليٍّ رضي الله عنه قال: رأيْتُ رسُولَ الله ﷺ أخَذَ حَرِيرًا، فجَعلَهُ فى يَمينه، وذَهَبًا فجَعَلَهُ فى شِمالِهِ، ثم قال: «إنَّ هذَيْنِ حرَامٌ على ذُكُورِ أُمَّتِى»[٤].

(٨١٢) وعن أبى مُوسى الأشْعرىِّ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «حُرِّم لِبَاسُ الحريرِ والذَّهب على ذُكُورِ أُمَّتِى، وأُحِلَّ لإناثِهِم»[٥].

(٨١٣) وعن حُذيفةَ رضي الله عنه قال: نَهانَا النَّبِىُّ ﷺ أن نَشْرب فى آنِيةِ الذَّهب

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٣٤) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٩) كتاب اللباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٣٥) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٨) كتاب اللباس.
قولُهُ: «مَنْ لا خلاقَ له» أى: لا نَصيبَ لهُ.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٣٢) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٧٣) كتاب اللباس.

(٤) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٧٤).

(٥) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٣٧).

والفِضَّةِ، وأنْ نأكُل فيهَا، وعنْ لُبْسِ الحريرِ والدِّيباجِ، وأنْ نَجلِس عليه[١].

۞ خلق الله (سبحانه وتعالى) ما يُباح للخلق كلهم، وخلق الله عَزَّوَجَلَّ ما يشرع للبعض من عباده وما لا يجوز للبعض الآخر... فالذى يملك أن يُشرع ويأمر وينهى هو الله سبحانه، وله الحكمة العظيمة فى كل شىء...الله عليم حكيم، فالله خلق للناس اللباس، وأنزل للناس ريشًا يستمتعون به، وكسوة يستدفئون بها، ويلبسونها ويتزينون بها، وقد أباح لهم على العموم أن يلبسوا، وقال لهم: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إذًا: ما أباحه الله عَزَّوَجَلَّ واستمتع به المؤمن فى الدنيا من نِعَم فهى خالصة له، وهى حلالٌ له، ويوم القيامة لا يُحاسَب عليها، ولن يُقال له: لِمَ لبست كذا وقد أباحها الله عَزَّوَجَلَّ؟ ولكنه عَزَّوَجَلَّ حرم أشياء على العباد إما لكونها لا تليق بهم أن يلبسوها، أو لخبثها ونجاستها فهى لا تُلبس.

لكن هناك أشياء حرمها الله عَزَّوَجَلَّ وهى ليست نجسة ولا مُستقذرة ... كالحرير الذى حرمه الله عَزَّوَجَلَّ على الرجال وكذلك الذهب حرمه الله على الرجال لحكمة منه سبحانه وتعالى .. وجعل عقوبة مَنْ لبس الحرير أو الذهب من الرجال فى الدنيا أن يُحرم من لبسها فى الجنة ..

فأهل الجنة ثيابهم من حرير...

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المرأة مَحِلًّا للزينة، ولذا فقد أباح لها لبس الذهب والحرير لتتزين لزوجها فى الحلال فتكون الفائدة عائدة على الطرفين ... وأما الرجل فزينته فى أخلاقه وتَديُّنه ورجولته .. والله جعل للرجال لباسًا، وللنساء لباسًا... جعل للرجال زينة وللنساء زينة، وحرم خلط الأمرين معًا.

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٨٣٧) كتاب اللباس.

فلعن المرأة تلبس لبسة الرجل، ولعن الرجل يلبس لبسة المرأة.. ولعن المرأة المترجلة التى تلبس مثل الرجل، وتمشى مشية الرجل، ولعن الرجل المُخنث الذى يلبس لبسة المرأة، ويمشى مشية المرأة.

۞ وقد ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا (باب تحريم الحرير على الرجال وافتراشه والاستناد إليه)، هذه ثلاثة أمور: لباس الحرير وافتراشه والاستناد إليه...

وقد جزم المؤلف بأن هذا حرام على الرجال، وذلك للأحاديث التى أوردها عن عمر بن الخطاب، وعلىّ بن أبى طالب، وأنس بن مالك، وأبى موسى الأشعرى، وحذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وكلها تدل على تحريم لباس الذهب، وعلى تحريم لباس الحرير للرجال.

وفى حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه مَن لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة... يعنى إذا لبس الرجل حريرًا فى الدنيا، فإنه لا يلبسه فى الآخرة.

وهذا وعيد يدل على أن لباس الحرير للرجال من كبائر الذنوب؛ لأن فيه الوعيد فى الآخرة ... وكل ذنب فيه وعيد الآخرة فهو كبيرة من كبائر الذنوب عند أهل العلم، ولا فرق بين أن يكون قميصًا أو سراويل أو غُترة أو طاقية أو غير ذلك مما يُلبس كل هذا حرام على الرجال إذا كان من الحرير ولا يجوز للرجال أن يلبسوا شيئًا من الحرير لا قليلًا ولا كثيرًا.

وفى حديث علىٍّ أن النبى ﷺ أخذ ذهبًا وحريرًا بيديه وقال: **«هذان حرام على ذكور أمتى حِلٌّ لإناثهم»** ... والحكمة فى ذلك أن المرأة محتاجة إلى التجمُّل لزوجها فأُبيح لها الذهب والحرير ... وأما الرجل فليس فى حاجة إلى ذلك فلهذا حُرم عليه لبس الذهب والحرير.

وفى حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه: إنما يلبسه مَن لا خلاق له فى الآخرة يعنى من لا نصيب له فى الآخرة.

۞ **وقال أيضًا: «مَن لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»** وهذا يعنى أنه إذا دخل الجنة، لا يتمتع بلباس الحرير مع أن أهل الجنة لباسهم فيها حرير وإنما يلبس شيئًا آخر ... وهذا ما لم يَتُب فإن تاب من ذنوبه فإن التائب من الذنب يغفر الله له ذنبه ... كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر:٥٣].

وهذا فى الحرير الطبيعى الذى يخرج من دود القز وأما الحرير الصناعى فليس حرامًا... يعنى لو لبس طاقية من الحرير الصناعى أو سروالًا لا يُرى فهذا لا بأس به وأما القميص فلا ينبغى وإن كان حلالًا لا ينبغى أن يلبسه الرجل لما فيه من الميوعة والتدنِّى... ولأن الجاهل إذا رآه يظنه حريرًا طبيعيًّا فيظن أن ذلك سائغٌ للرجل وربما يقتدى به ... والسلامة أسلم للإنسان.

وكذلك الذهب فإنه مُحرَّمٌ على الرجال حلالٌ للنساء لأنهن يحتجن إلى التجمل لأزواجهن.



(١٢٣) باب جواز لبس الحرير لمن به حَكَّة

يجوز لبس الحرير لمن به حكَّة..يعني حساسية في الجلد أو جرب.

(٨١٤) عن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: رَخَّصَ رسولُ الله ﷺ لِلزُّبَيْرِ وعَبْدِ الرَّحمن بن عَوْفٍ رضي الله عنهما في لُبْس الحَريرِ لِحِكَّةٍ كَانَتْ بِهِما[١].

سبق أن النبي ﷺ نهى الرجال عن لبس الحرير وقال: «**إنما يلبسه مَن لا خلاق له**»[٢] وقال: «**مَن لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[٣].

لكن إذا دعت الحاجة إلى ذلك فإنه لا بأس به مثل أن يكون في الإنسان حكة..يعني جرب أو حساسية واحتاج إلى لبس الحرير فإنه يلبسه ويكون مما يلي الجسد؛ لأن الحرير لينٌ وناعم وبارد يناسب الحكة فيطفئها ولهذا رَخَّص النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزبير أن يلبسا الحرير من حكة كانت بهما.

كذلك أيضًا إذا كان الحرير أربعة أصابع فأقل ... يعني عرضه أربعة أصابع فأقل فإنه لا بأس به لأن النبي ﷺ رخَّص في ذلك... يعني: مثلًا لو كان إنسان عنده جُبة وفي فتحتها خيوط من الحرير أو تطريز من الحرير لا يتجاوز أربعة أصابع فإن ذلك لا بأس به.

وكذلك إذا كان الثوب مختلطًا بين الحرير والقطن أو بين الحرير والصوف وكان الأكثر الصوف أو القطن يعني أكثر من الحرير فإنه لا بأس به ... فهذه ثلاثة أمور.

الأمر الرابع: إذا كان في الحرب يعني التقى الصفان بين المسلمين والكفار فلا بأس أن يلبس الإنسان ثياب الحرير؛ لأن ذلك يغيظ الكفار وكل شيء يغيظ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٧٦) كتاب اللباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣٥) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٨) كتاب اللباس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣٢) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٧٣) كتاب اللباس.

الكفار فإنه مطلوب.

هذا ما جاء في باب الرخصة، ولا يُؤخَذ به في عموم الأحوال، ولكن يؤخذ به في وقت الاحتياج فقط.

كذلك الذهب يُرخَّص فيه لاستبدال عضو من الأعضاء كعظم من العظام كالمفاصل ونحوها... ولذلك جاء في حديث عرفجة أنه قُطعت أنفه في يوم كلاب –حرب من الحروب الجاهلية– فاتخذ أنفًا من فضة فأنتنت عليه، يعني: كأن عظام أنفه اقتطعت أو أنفه كلها قُطعت، فوضعوا له فضة بدلًا عنها فأنتنت عليه وما نفعته، فاستبدلها بذهب وأقرَّه النبي ﷺ على ذلك.

ففيه أنه قد يُستخدم الذهب في عظم الإنسان يُستبدل به إذا كان يصلح في ذلك كمفصل ونحوه، أو كالأسنان... وكان الصحابة يشدون أسنانهم بالذهب رضي الله عنهم، ويرون أن هذا من باب التطبُّب، وأنهم يحتاجون إلى ذلك طِبًّا، فهذا جائز ولا شيء فيه، أما مَن يلبسه على وجه الزينة فهو غير جائز.



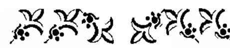
(١٢٤) باب النهى عن افتراش جلود النمور والركوب عليها

(٨١٥) عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «لا تَركَبُوا الخَزَّ وَلَا النِّمَارَ»(١).

(٨١٦) وعن أبى المليح عن أبيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ نَهَى عنْ جُلُودِ السِّباعِ(٢).

وفى روايةِ الترمذى: نَهَى عن جُلُودِ السِّباعِ أنْ تُفْتَرَشَ.

۞ والنمار جمع نمر وهو حيوان معروف فلا يجوز للإنسان أن يلبس فروًا من جلود النمار وكذلك لا يجوز للإنسان أن يلبس فروًا من جلود السباع كما يدل عليه الحديث الآخر؛ لأن جلود السباع نجسة ... كل السباع نجسة وأخبثها الكلب؛ لأن نجاسة الكلب مُغلظة لا يكفى فيها إلا الغسل سبع مرات إحداها بالتراب ... أما ما سواه من السباع فهو نجس، لكن ليس بهذه الغلظة وعلى كل حال فجلود الذئاب وجلود النمور وأى جلود أخرى للسباع حرام كجلد الأسد... مثلًا يَحرُم لبسها وكذلك يحرم افتراشها لأن النبى ﷺ نهى عن ذلك... يعنى لو جعلتها مقاعد تجلس عليها فإن ذلك حرام أما جلود الضأن وجلود ما تحله الذكاة، فلا بأس أن يفترشها الإنسان ولا بأس أن يلبسها أيضًا؛ لأنها طاهرة والطاهر لا بأس باستعماله(٣).



---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٢٨٣).

(٢) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٥٣).

(٣) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٩٣-٤٩٥) بتصرف.

(١٢٥) باب ما يقول إذا لبس ثوبًا جديدًا أو نعلاً أو نحوه

(٨١٧) عن أبى سعيد الخُدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سمَّاهُ باسْمِهِ: عِمامَةً، أو قَمِيصًا، أوْ رِداءً، يقولُ: «اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ أنتَ كَسَوْتَنِيهِ، أسْأَلُكَ خَيْرَهُ وخَيْرَ ما صُنِعَ لهُ، وأعوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وشَرِّ ما صُنِعَ لهُ»(١).

۞ لا شكَّ أن الإنسان لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله عَزَّ وَجَلَّ .. ولا شكَّ أن نِعم الله كثيرة ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[النحل: ١٨] صحة فى بدن.. أمن فى وطن.. غذاءٌ وكساء وهواءٌ وماء ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[لقمان: ٢٠] .. فهناك نِعَمٌ نشعر بها ونراها .. وهناك نعم أكثر منها لا نشعر بها ولا نراها لكنها موجودة .. ولذا فإن الإنسان لا بد أن يكون حريصًا على أن يحمد الله على كل نعمة ظاهرة وباطنة.

ولا شكَّ أنه لولا أن الله عَزَّ وَجَلَّ يسَّر لنا تلك النعم ما تيسرت لنا أبدًا...

لو شاء الله تعالى لفُقِدَ المال من بين أيدينا فلم نستطع أن نُحصِّل شيئًا، ولو شاء الله لَوُجد المال بيننا لكن لا نجد شيئًا نطعمه أو نلبسه أو نشربه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[الملك: ٣٠].

فكل ما بنا من نعمة الله وحده ... ومن ذلك اللباس، فإذا مَنَّ الله عليك بلباسٍ جديد. فلا بد أن تشكر الله على هذا اللِّباس الذى يكون سببًا فى سترك عن أعين الناس ويكون سببًا فى حماية جسدك من الشمس والحر والبرد والهواء والغبار وإيذاء الهوام والحشرات.

فإذا رزقك الله بثيابٍ جديدة فاحمد الله واشكره على تلك النعمة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٦٤).

فلقد كان أُسوتك وقدوتك النبى محمد ﷺ إذا استجدَّ ثوبًا سمَّاه باسمه ويقول: « **اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه** ».. اللهم لك الحمد أنت كسوتنى هذا القميص .. أنت كسوتنى هذا السروال.. أنت كسوتنى هذه الطاقية ... فإذا لبست أى شىء جديد فقل:

« **اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك من خيره، وخير ما صُنع له، وأعوذ بك من شره، وشر ما صُنع له**»[١].

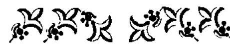
«**أسألك خيره**» يعنى: خير هذا الثوب... الثوب فيه خير وفيه شر.

خير الثوب: أن تلبسه ويكون واسعًا عليك فضفاضًا يكسوك ويستر عورتك ويقيك الحر ويقيك البرد.

هذا من خير الثوب.

وشر الثوب: أن يكون على الإنسان ضيقًا، يدعو الإنسان للخيلاء فيستكبر على الخلق ويرى أنه أفضل منهم، وأنه أحسن منهم بهذا الثوب، أو بهذا النعل الذى لبسه.

فقد يحملك هذا الثوب على الكبر والخُيلاء .. أو يكون سببًا للفتنة وهى من أعظم الشر والفساد .. ولذلك فأنت إذا سألت الله خير هذا الثوب وخير ما صُنِعَ له فسوف يرزقك خيره وخير ما صُنع له .. وإذا استعذت بالله من شر هذا الثوب وشر ما صُنِعَ له أعاذك الله من شرِّه وشرِّ ما صُنِعَ له.



(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٦٤).

(١٢٦) باب استحباب الابتداء باليمين في اللباس

هذا الباب قد تقدم مقصوده، وذكرنا الأحاديث الصحيحة فيه.



(٤) كتاب آداب النوم والاضطجاع والقعود والمجلس والجليس والرؤيا

(١٢٧) باب ما يقوله عند النوم

۞ في البداية أحب أن أُورد ما ذكره الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هدى النبي ﷺ في نومه وانتباهه .. قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ:

كَانَ يَنَامُ عَلَى الْفِرَاشِ تَارَةً، وَعَلَى النِّطْعِ تَارَةً، وَعَلَى الْحَصِيرِ تَارَةً، وَعَلَى الْأَرْضِ تَارَةً، وَعَلَى السَّرِيرِ تَارَةً بَيْنَ رِمَالِهِ وَتَارَةً عَلَى كِسَاءٍ أَسْوَدَ.

قَالَ عبَّاد بن تميم، عَنْ عَمِّهِ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمَسْجِدِ وَاضِعًا إِحدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى»(١) .

وَكَانَ فِرَاشُهُ أُدمًا حَشْوُهُ لِيفٌ. وَكَانَ لَهُ مِسْحٌ يَنَامُ عَلَيْهِ يُثْنَى بِثَنْيَتَيْنِ، وَثُنِيَ لَهُ يَوْمًا أَربَعُ ثَنيَاتٍ فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: «**رُدُّوهُ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ مَنَعَنِي صَلَاتِي اللَّيْلَةَ**»(٢).

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ ﷺ نَامَ عَلَى الْفِرَاشِ وَتَغَطَّى بِاللِّحَافِ وَقَالَ لِنِسَائِهِ: «**مَا أَتَانِي جِبْرِيلُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرَ عائشة**»(٣).

وَكَانَتْ وِسَادَتُهُ أُدمًا حَشْوُهَا لِيفٌ.

«وَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ لِلنَّوْمِ قَالَ: «**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَحيَا وَأَمُوتُ**»(٤).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٥) كتاب الصلاة، ومسلم (٢١٠٠) كتاب اللباس والزينة.

(٢) ضعيف جدًّا: رواه الترمذى فى الشمائل، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٢٢٣).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٧٧٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٧٣٩٤) كتاب التوحيد.

(«وَكَانَ يَجْمَعُ كَفَّيْهِ ثُمَّ يَنْفُثُ فِيهِمَا) وَكَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ، وَوَجْهِهِ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ»(١).

«وَكَانَ يَنَامُ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ وَيَضَعُ يَدَهُ الْيُمْنَى تحت خَدِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**»(٢). وَكَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ لَهُ وَلا مُؤْوِيَ**»(٣) ذَكَرَهُ مسلم. وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ («**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ**»(٤).

وَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ فِي اللَّيْلِ قَالَ: «**لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدنِي عِلْمًا وَلا تُزِغْ قَلْبِي بَعدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**»(٥).

وَكَانَ إِذَا انْتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ قَالَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحيَانَا بَعدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»(٦). ثُمَّ يَتَسَوَّكُ، وَرُبَّمَا قَرَأَ الْعَشْرَ الآيَاتِ مِنْ آخِرِ (آلِ عِمْرَانَ) مِنْ قَوْلِهِ:

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٠١٧) كتاب فضائل القرآن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٠٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧١٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧١٣) كتاب الذكر والدعاء.

(٥) ضعيف: رواه أبو داود، والنسائي في الكبرى، وضعفه الألباني في ضعيف الكلم الطيب (٤٥)، والمشكاة (١٢١٤).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣١٢) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧١١) كتاب الذكر والدعاء.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إِلَى آخِرِهَا [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠-٢٠٠] (١).

وَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِر لِى مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرتُ وَمَا أَسْرَرتُ وَمَا أَعلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِى، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» (٢).

وَكَانَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ آخِرَهُ، وَرُبَّمَا سَهِرَ أَوَّلَ اللَّيْلِ فِى مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ. وَكَانَ إِذَا نَامَ لَمْ يُوقِظُوهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِى يَسْتَيْقِظُ. «وَكَانَ إِذَا عَرَّسَ بِلَيْلٍ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، وَإِذَا عَرَّسَ قُبَيْلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى كَفِّهِ».

وَكَانَ نَوْمُهُ أَعدَلَ النَّوْمِ، وَهُوَ أَنْفَعُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّوْمِ، وَالْأَطِبَّاءُ يَقُولُونَ: هُوَ ثُلُثُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثَمَانُ سَاعَاتٍ (٣).



(٨١٨) عن البَراءِ بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كانَ رسول الله ﷺ إذا أوَى إلى فِرَاشِهِ نامَ على شِقِّهِ الأيمنِ، ثُمَّ قال: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِى إليْكَ، ووجَّهْتُ وجْهِى إليْكَ، وفَوَّضْتُ أمْرِى إليْكَ، وألجأتُ ظهْرِى إليْكَ، رَغْبَةً ورَهْبَةً إليْكَ، لا مَلْجأ ولا مَنْجى مِنْكَ إلا إليْكَ، آمَنْتُ بِكتَابِكَ الذى أنْزَلْتَ، ونَبِيِّكَ الذى أرسَلْتَ» (٤).

(٨١٩) وعنه قال: قال لى رسولُ الله ﷺ: «إذا أتَيْتَ مَضْجَعكَ فَتوَضَّأ وُضُوءَكَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٣) كتاب الوضوء، ومسلم (٧٦٣) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٢٠) كتاب التهجد، ومسلم (٧٦٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) زاد المعاد / للإمام ابن القيم (١/ ١٥٥-١٥٩) بتصرف.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣١٥) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧١٠) كتاب الذكر والدعاء.

للصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِع على شِقِّكَ الأيمنِ، وقُلْ ..» وذكر نحوه، وفيه: «واجْعَلْهُنَّ آخِرَ ما تَقول»(١)

۞ من المعلوم أن النوم آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ تدل على كمال قدرة الله ورحمته وحكمته .. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٢٣]. وهو نعمة من الله تعالى على العبد، لأنه يستريح فيه من تعبٍ سابق، وينشط فيه لعملٍ لاحق... فهو ينفع الإنسان فيما مضى وفيما يُستقبل.

والنوم يُسمَّى الموتة الصغرى .. فالإنسان عندما ينام فإنه لا يسمع ولا يرى ولا يشم مع أن روحه لم تخرج من بدنه الخروج الكامل.

فهذا النوم من آيات الله عَزَّوَجَلَّ... تأتى القوم مثلًا فى حجرة أو فى سطح، وهم نِيامٌ كأنهم جُثث موتى لا يشعرون بشيء، ثم هؤلاء القوم يبعثهم الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٠].

ثم إن الإنسان يعتبر بالنوم اعتبارًا آخر وهو إحياء الأموات بعد الموت، فإن القادر على رَدِّ الروح حتى يصحو الإنسان ويستيقظ ويعمل عمله فى الدنيا، قادر على أن يبعث الأموات من قبورهم، وهو على كل شيء قدير.

۞ وهنا فى هذا الحديث يُعلم النبى ﷺ البراء ويُعلم الأمة من بعده أنه إذا أتيت مضجعك وأردت النوم فتوضأ وضوءك للصلاة.

أى: الوضُوء الكَامِل بِأَركَانِهِ وَشَرَائِطِهِ.

وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ ثَلَاثُ سُنَنٍ مُهِمَّةٍ مُسْتَحَبَّةٍ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ:

إِحدَاهَا: الوضوء عند إرادة النوم؛ فإن كان متوضئًا كَفَاهُ ذَلِكَ الْوُضُوءُ،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٧) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٧١٠) كتاب الذكر والدعاء.

والحكمة فيه أن يكون عَلَى طَهَارَةٍ، مَخَافَةَ أَنْ يَمُوتَ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ أَصدَقَ لِرُؤْيَاهُ، وَأَبْعَدَ مِنْ تَلَاعُبِ الشَّيْطَانِ بِهِ فِي مَنَامِهِ وَتَروِيعِهِ إِيَّاهُ.

الثَّانِيَةُ: النَّوْمُ عَلَى الشِّقِّ الْأَيْمَنِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحِبُّ التَّيَامُنَ؛ وَلِأَنَّهُ أَسْرَعُ إلى الانتباه.

الثالثة: ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى لِيَكُونَ خَاتِمَةَ عَمَلِهِ[1].

۞ «ثم اضطجع على شِقِّك الأيمن».

وفيه: أنَّ النَّبيﷺ أمره أن يضطجع على الْجنب الأيمن؛ لأن ذلك هو الأفضل... وقد ذكر الأطباء أن النوم على الجنب الأيمن أفضل للبدن وأصحُّ من النوم على الْجنب الأيسر.

وذكر أيضًا بعض أرباب السُّلوك والاستقامة أنَّه أقرب في استيقاظ الإنسان؛ لأنَّ بالنَّوم على الْجنب الأيسر ينامُ القلب، ولا يستيقظ بسرعة، بخلاف النَّوم على الْجنب الأيمن فإنه يبقى القلب متعلقًا، ويكون أقل عمقًا في منامه فيستيقظ بسرعة.

(فقل: **اللهم إنى أسلمت نفسى**) أى ذاتى (**إليك**) أى أسلمت وجعلت نفسى مُنقادة لك طائعة لحكمك راضية بقضائك قانعة بقدرك (**ووجهت وجهى إليك**) أى: أقبلت بذاتى إليك مُستسلمًا رَاضيًا قانعًا (**وفوضت أمرى إليك**) أى: توكلت في جميع شئونى الدنيوية والأُخروية عليك وجعلتها راجعة إليك.

۞ «**وألجأت ظهرى إليك**».

قال النووى رَحِمَهُ اللهُ: «أى توكلت عليك، واعتمدتك فى أمرى كله، كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يسنده إليه».

قوله: «**رغبة ورهبة إليك**» الرغبة: الحرص والطمع مع الحب.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٥١-٥٢).

والرهبة: المخافة مع تحرُّز واضطراب... ومعنى «إليك»: صرفت رغبتى فيما أُريده إليك، وحاصل المعنى: طمعًا فى ثوابك ، وخوفًا من عذابك.

۞ «**لا ملجأ**» أى: لا حصن.

۞ «**ولا منجا**» أى: لا خلاص.

۞ «**منك إلا إليك**» أى: لا حصن أعتصم به، ولا خلاص من عذابك، وأخذك إلا إليك.

۞ «**آمنت بكتابك الذى أنزلت**» أى: صدقت بكتابك الذى أنزلته على نبيك.

۞ «**ونبيك الذى أرسلت**»، وفى بعض طرق الحديث، عن البراء ﵁ أنه قال: قلت: وبرسولك الذى أرسلت؟ فراجعه النبى ﷺ وقال: «**قل: ونَبِيِّكَ الَّذى أرسَلْتَ ولا تقل: ورسولك الذى أرسلت**».

قال أهل العلم: وذلك لأنَّ الرَّسول يكون من البشر ويكون من الملائكة... كما قال الله عن جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]. وأمَّا النَّبى فلا يكون إلا من البشر.

فإذا قال: ورسولك الذى أرسلت، فإنَّ اللفظ صالح لأنَّ يكون الْمراد به جبريل، لكن إذا قال: «**ونبيِّك الذى أرسَلت**» اختص بمحمدٍ ﷺ هذا من وجه.

ومن وجهٍ آخر: أنَّه إذا قال: ورسولك الذى أرسلت، فإن دلالة هذا اللفظ على النُّبوة من باب دلالة اللُّزوم، وأما إذا قال: نبيك فإنه يدلُّ على النبوة دلالة مطابقة .. ومعلوم أنَّ دلالة الْمطابقة أقوى من دلالة اللزوم.

۞ **قال الإمام النووى** ﵀:

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِى سَبَبِ إِنْكَارِهِ ﷺ وَرَدِّهِ اللَّفْظَ فَقِيلَ: إِنَّمَا رَدَّهُ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «**آمَنْتُ بِرَسُولِكَ**» يَحتَمِلُ غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ، وَاخْتَارَ الْمَازِرِيُّ وَغَيْرُهُ:

أَنَّ سَبَبَ الْإِنْكَارِ أَنَّ هَذَا ذِكْرٌ وَدُعَاءٌ فَيَنْبَغِي فِيهِ الِاقْتِصَارُ عَلَى اللَّفْظِ الْوَارِدِ بِحُرُوفِهِ، وَقَد يَتَعَلَّقُ الْجَزَاءُ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ، وَلَعَلَّهُ أُوحِي إِلَيْهِ ﷺ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَيَتَعَيَّنُ أَدَاؤُهَا بِحُرُوفِهَا وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ»(١).

وجاء في نهاية الحديث قوله ﷺ: «**فَإِن مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، واجعلهن آخر ما تقول**».

۞ **قَوْلُهُ** ﷺ: «**متَّ عَلَى الْفِطْرَةِ**» أَيْ الْإِسْلَامِ... وإن أصبحت أصبت خيرًا أَيْ حَصَلَ لَكَ ثَوَابُ هَذِهِ السُّنَنِ وَاهْتِمَامُكُ بِالْخَيْرِ وَمُتَابَعَتُكُ أَمْرَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

وفي هذا الحديث: أنَّ النبي ﷺ أمره أن يجعلهن آخر ما يقول مع أن هناك ذكرًا بل أذكارًا عند النَّوم تُقال غير هذا.

مثلًا التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير فإنَّه ينبغي للإنسان إذا نام على فراشه أن يقول: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر أربعًا وثلاثين.

هذا من الذكر، لكن حديث البراء يدلُّ على أن ما أوصاه الرَّسول ﷺ به أن يجعلهن آخر ما يقول.

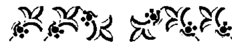
فالمسلم حين يضع جانبه على فراشه يتخيل أن تكون هذه آخر نومة ينامها، فيمكن أن يقبضه الله عَزَّوَجَلَّ خلال هذا النوم، فيختم حياته ويختم يومه بذكر الله سبحانه وتعالى، ويكون هذا آخر شيء كان عليه، فإذا تُوفي على ذلك مات على شيءٍ عظيم من ذكر الله سبحانه، وخاصة إذا كان ختم بقراءة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فيموت على براءة من الكفر، فتبرأ من الكفر، وتبرأ من الشرك وأهله، فيموت على خير حال إذا كان يُختم له بذلك.

ومن حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته أنك لا تكاد تجد فعلًا للإنسان إلا وجدته

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٥٢).

مقرونًا بذكر... اللباس له ذكر، الأكل له ذكر، الشرب له ذكر، النوم له ذكر، حتى جِماع الرجل لامرأته له ذكر، كل شيء له ذكر. وذلك من أجل ألا يغفل الإنسان عن ذكر الله... يكون ذكر الله على قلبه دائمًا، وعلى لسانه دائمًا، وهذه من نعمة الله التي نسأل الله تعالى أن يرزقنا شكرها، وأن يُعيننا عليها.



(٨٢٠) وعنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يُصلِّي مِن اللَّيْلِ إحدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، فإذا طلَع الفَجْرُ صَلَّى ركْعَتيْنِ خَفِيفتيْنِ، ثُمَّ اضْطَجعَ على شِقِّهِ الأيمن حتَّى يَجِيء المؤذِّنُ فيُؤْذِنَهُ[(١)].

لقد كان من هدى النبي ﷺ قيام الليل دائمًا.

فمن أول ما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:١-٢] فقام ﷺ قيامًا طويلًا لله سبحانه؛ لأنه قال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فكان يقوم أكثر الليل... بل قد يقوم كل الليل، وكان المؤمنون على هذه الحالة أيضًا إلى أن نزل التيسير على النبي ﷺ، فعلم الله بضعف هؤلاء، وعلم أنهم سيحرمهم طول القيام بالليل من الجهاد في سبيل الله، وطلب الرزق، فإذا بالله سبحانه وتعالى يخفف ذلك ويقول: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل:٢٠].

فبدلًا من قيام الليل كله كما أمرهم الله بقوله: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل:٣-٤] خفف الله سبحانه وتعالى على نبيه وعلى المؤمنين، ولكن مع ذلك كان النبي ﷺ يقوم ليلًا طويلًا، فيصلي من الليل إحدى عشرة ركعة، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين، ولم تكن هذه الإحدى عشرة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣١٠) كتاب الدعوات، ومسلم (٧٣٦) كتاب صلاة المسافرين.

ركعة يصليها متتابعة، بل كان يصلى ثم يستريح حتى يقوم لمثلها (عليه الصلاة والسلام)، فيصلى أربعًا تقول السيدة عائشة عنهن: (فلا تسأل عن حُسنهن وطولهن).

فينام ﷺ ثم يقوم يصلى أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم ينام ويقوم فيوتر بثلاثٍ (صلوات الله وسلامه عليه).

تقول: (فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين)، فهنا ليلٌ طويلٌ يصليه ﷺ، ولكن إذا طلع الفجر وأذن المؤذن لصلاة الفجر صلى سُنة الفجر ركعتين خفيفتين، وما كان يُطول فى سنة الفجر، بل كان يقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بعد الفاتحة... بل إنه مع سرعته فى الركعتين تقول السيدة عائشة رَضِوَاللَّهُعَنهَا: (لا أدرى أقرأ فيهن بفاتحة الكتاب أم لا) يعنى: سُنة النبى ﷺ الإطالة فى قيام الليل والتقصير فى سنة الفجر.

ولا يُستحب أن يُزاد على ركعتين، ولو استُحب ذلك لفعله النبى ﷺ، ولكن كان يصلى سنة الفجر فى بيته (عليه الصلاة والسلام)، ثم يضطجع ويستريح من عناء الليل والقيام الطويل لكن بدون نوم، فكان إذا وجد امرأته مستيقظة فى هذا الوقت كلمها ﷺ، فإذا كانت نائمة اضطجع ﷺ، ثم يقوم ليصلى (صلوات الله وسلامه عليه)، بل كان ينهى عن صلاة فوق الركعتين بعد الأذان، فيقول: «**لا صلاة بعد الفجر إلا ركعتين**».

فإذا كنت فى المسجد وأذن المؤذن للفجر الصادق، فصلِّ ركعتين فقط، وليس من السُّنة أن تصلى ركعتين فى ركعتين، بل ذهب بعض أهل العلم كالحنابلة إلى أنه يَحرُم الزيادة على الركعتين.

لكن لعلَّ إنسانًا دخل المسجد فصلى تحية المسجد ولم ينوِ سُنة الفجر فله أن يقوم ويصلى سُنة الفجر بعد ذلك، ولك إذا دخلت أن تنوى الاثنتين صلاة تحية المسجد وسنة الفجر، وتُسرع فيها وتجلس تنتظر إقامة الصلاة.

قالت: (ثم اضطجع على شِقِّه الأيمن)، وهذا الشاهد من الحديث وهو أنه نام على شقه الأيمن وإن كان لم ينم حقيقة... وقولها: (حتى يجيء المؤذن فيُؤْذِنَه)؛ لأنه كان في غرفته ﷺ، ولم يكن في المسجد سرج ولا أشياء يضيئون بها المسجد، فكان بلال ينتظر حتى يكتمل عدد المصلين مع النبي ﷺ على وقته المعتاد فيذهب عند بيت النبي ﷺ فيُؤْذِنه بأنه سيُقيم الصلاة... ومعنى يُؤْذِنه أي: يُعلم النبي ﷺ أنه سيقيم الصلاة(١).

(٨٢١) **وعنْ حُذَيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أخَذَ مضْجَعَهُ مِن اللَّيْلِ وضَعَ يدَهُ تَحتَ خَدِّه، ثمَّ يقُولُ: «باسْمِكَ اللَّهُمَّ أمُوتُ وأحيَا» وإذا اسْتَيقَظَ قال: «الحَمْدُ لله الذي أحيَانَا بعدَ ما أمَاتَنا وإليه النُّشُورُ»(٢).**

۞ سبق أن ذكرنا أن النبي ﷺ أمر البراء بن عازب أن يضطجع على جنبه الأيمن، وأن يقول: «**اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك**...» إلى آخر الحديث ... وبيَّنا أن السُّنة والأفضل أن ينام الإنسان على جنبه الأيمن.

وفي هذا الحديث يُخبر حذيفة أن النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه وضع يده تحت خده ثم يقول: «**باسْمِكَ اللَّهُمَّ أمُوتُ وأحيَا**».

يعني أنني أموت وأحيا بإرادة الله عَزَّ وَجَلَّ... والمراد بالموت هنا -والله أعلم- موت النوم، لأن النوم يُسمى وفاة.... أو أنه الموت الأكبر الذي هو مفارقة الروح للبدن... ويكون كقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢].

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ أحمد حطيبة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٣١٤) كتاب الدعوات.

وإذا قام قال: «**الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**».

وهذا يؤيد أن المراد بالموت فى قوله: «**باسمك اللهم أموت وأحيا**» يعنى موت النوم، وهو الموت الأصغر.

وخلاصة السنن أن تتوضأ لتنام وأنت على وضوء، وتضع يدك تحت خدك الأيمن، وتنام على شِقِّك الأيمن... وهذا فى أول نومك، ثم تقول: « **باسمك اللهم أموت وأحيا**»... وتقول أذكار النوم كاملة... ثم تختم بالذكر الذى ورد فى حديث البراء؛ لأن النبى ﷺ قال: «**واجعلهن آخر ما تقول**».

۞ ولا مانع هنا من أن تقول بعدها مباشرة «لا إله إلا الله» وتنام على ذلك .. فإن مت فى تلك الليلة تفوز بتلك البُشرى العظيمة حيث قال النبى ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخر كَلامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1].

وإذا استيقظت تقول: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**».

وفي هذا دليل على الحكمة العظيمة في هذا النوم الذي جعله الله راحة للبدن عما سبق وتنشيطًا للبدن فيما يُستقبل، وأنه يُذكِّر أيضًا بالحياة الأخرى.. فتذكر بذلك إذا قمت من قبرك بعد موتك حيًّا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا يزيدك إيمانًا بالبعث... والإيمان بالبعث أمرٌ مهم... لولا أن الإنسان يؤمن بأنه سوف يبُعث ويُجازَى على عمله ما عمل، ولهذا نجد كثيرًا أن الله يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به عَزَّ وَجَلَّ. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وآيات كثيرة في هذا. فالمهم أنه ينبغي لك إذا أويت إلى فراشك أن تقول: «**باسمك اللهم أموت وأحيا** » وإذا استيقظت تقول: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»



(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٨٢٢) وعن يعيش بنِ طِخْفَةَ الغِفَارىِّ رضي الله عنهما قال: قال أبى: بينما أنا مُضْطَجِعٌ فى المسجِدِ علَى بَطْنى إذَا رَجُلٌ يُحَرِّكُنى برِجْلِهِ فقال: «إنَّ هذهِ ضَجْعَةٌ يُبْغِضُها الله» قال: فنظَرتُ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)].

۞ ففى هذا الحديث دليلٌ على أنه لا ينبغى للإنسان أن ينام على بطنه إلا لحاجة أو ضرورة.. وبخاصة فى الأماكن التى يجتمع فيها الناس كالمساجد ونحوها.. وذلك لأن الناس إذا رأوا إنسانًا نائمًا على بطنه أساءوا الظن به.. لكن إذا كان الإنسان وحده فى بيته أو حتى مع زوجته وأولاده وأخبرهم أنه نائم على بطنه بسبب وجعٍ أو ألمٍ عنده وأن هذا الألم لا يزول إلا بالنوم على البطن فهذا لا بأس به .. إلا إذا كان هناك علاج للوجع يُزيله دون حاجة إلى النوم على البطن فيكون هذا أفضل من الوقوع فيما نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم.. فإن لم ينصرف الوجع إلا بأن ينام على بطنه فلا بأس بذلك لأن هذه حاجة .. ولكن الأَولَى أن نتجنب هذه النومة؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال عنها: **«إن هذه ضجعة يُبغضها الله»**.

(٨٢٣) عَنْ أَبِى هُرَيرَة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ الله تعالى فيهِ كانَتْ عليهِ مِن الله تعالى تِرةٌ، ومَنِ اضْطَجَعَ مُضْطَجَعًا لا يَذْكُرُ الله تعالى فيه كانَتْ عليهِ مِن الله تِرةٌ»[(٢)].

۞ من المعلوم أنه ليس هناك لذة فى الدنيا أعظم من الانشغال بطاعة الله عز وجل .. وعلى رأسها ذِكر الله عز وجل .. فقد قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]..

فمن أحب أحدًا أكثر من ذكره .. ولا أحد أحب إلى المؤمن من ربه عز وجل..

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٧١).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٧).
«التِّرةُ» هى: النَّقصُ، وقيلَ: التَّبِعَةُ... أو الحسرة

ولذا فالمؤمن لا بد أن يُكثر من ذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا... مُمتثلًا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن «**من قعد مقعدًا لم يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله تِرةٌ**»، والترة: الحسرة، وأصلها الوَتر، والوَتر: الانفراد، فكأن الإنسان يصير مَوتورًا أى: حزينًا مفردًا، وهذا يُطلَق فيمن قُتل قريبه كأبيه أو ابنه أو أخيه .. فوُتر أى: صار مَوتورًا بمعنى وحيدًا بعد أن كان معه هذا الآخر.

فكذلك حزن الإنسان الذى يجلس فى مجلس لا يذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيه، يُصاب يوم القيامة بحزنٍ كحزن الذى قُتل له قتيل... ويقول: «**ومَن اضطجع مضجعًا لا يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله تِرةٌ**».

أى: كان عليه حسرة، وكان عليه نقص، وكان عليه تبعة يوم القيامة بذلك.

۞ فاحرص أخى الحبيب .. واحرصى أختى الفاضلة على أن تُرطبوا ألسنتكم بذكر الله عَزَّوَجَلَّ فى كلِّ وقتٍ وحين لتفوزوا بأعظم منقبة فى هذا الكون كله .. ألا وهى: أن يذكركم الله عَزَّوَجَلَّ من فوق سبع سماوات ..

فقد قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

و«**قَالَ اللهُ تَعَالَى: لا يَذْكُرُنِى عَبْدٌ فِى نَفْسِهِ إِلَّا ذَكَرتُهُ فِى مَلَإٍ مِنْ مَلَائِكَتِى، وَلا يَذْكُرُنِى فِى مَلَإٍ إِلَّا ذَكَرتُهُ فِى الرَّفِيقِ الأَعلَى**»(١).

---

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٥).

(١٢٨) باب جواز الاستلقاء على القفا ووضع إحدى الرجلين على الأخرى إذا لم يخف انكشاف العورة ، وجواز القعود مُتربعًا ومُحتبيًا

۞إن الإسلام جاء ليؤدب المسلمين ويُهذب أفعالهم، ويرتقى بهم فى سُلَّم المثالية، حتى يكونوا مثلًا يُحتذَى به ... ومما جاء به الإسلام من الآداب ما يتعلق بالجلوس والاضطجاع خاصة فى المسجد، فبيَّن ضوابط الاضطجاع وحذَّر من انكشاف العورة أثناء ذلك، كما بيَّن ضوابط الجلوس، وبيَّن الجلسات المنهى عنها.



(٨٢٤) عن عبدِ الله بن زيد ﵁ أنه رأى رسول الله ﷺ مُستَلقِيًا فى المسجِد واضعًا إحدَى رِجْليهِ على الأُخْرى[١].

۞ نحن نعلم أن الأفضل للمسلم أن ينام على جنبه الأيمن كما كان يفعل النبى ﷺ فى أغلب أحواله .. لكن النبى ﷺ قعد ونام فى هيئاتٍ مختلفة ليبين لأمته جواز ذلك ما لم يكن هناك محذور من المحاذير كانكشاف العورة مثلًا.

فالأفضل هو النوم على الجانب الأيمن ولا بأس بالنوم على الجانب الأيسر .. وأما النوم على البطن فقد نهى عنه النبى ﷺ إلا لضرورة كمرضٍ ونحوه ... وبقى النوم على الظهر وهو لا بأس به بشرط أن يأمن كشف العورة إذا وضع إحدى رجليه على الأخرى ولم يكن قد ارتدى سراويل تحت ملابسه.

۞ وفى هذا الحديث يخبر عبد الله بن زيد ﵁ أنه رأى رسول الله ﷺ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٥) كتاب الصلاة، ومسلم (٢١٠٠) كتاب اللباس والزينة.

مُستلقيًا فى المسجد واضعًا إحدى رجليه على الأخرى.

فكأنه ﷺ تعب فنام على ظهره فى المسجد ووضع إحدى رجليه على الأخرى .. ولم تكن هذه عادة النبى ﷺ فى نومه .. فقد كان ﷺ ينام على جنبه الأيمن .. لكن فعله هذا يدل على جواز النوم على الظهر حتى وإن وضع النائم إحدى رجليه على الأُخرى .. لكن بشرط أن يكون قد ارتدى سروالًا تحت ملابسه حتى لا تنكشف عورته .. أما إن لم يكن قد ارتدى سروالًا فلا يجوز له أن ينام على ظهره واضعًا إحدى رجليه على الأخرى حتى لا تنكشف عورته.



(٨٢٥) وعنْ جابر بن سَمُرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النَّبىُّ ﷺ إذا صَلَّى الفَجر تربَّعَ فى مَجْلِسِهِ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَسْنَاء[1].

وفى رواية: جَلسَ فى مُصلَّاه حَتَّى تطلع الشمس.

۞ وفى هذا الحديث يخبر جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان إذا صلَّى الفجر وانتهى من صلاته تربَّع فى مجلسه حتى تطلع الشمس حسناء.

لقد كانت هذه عادة النبى ﷺ فى كل أيامه أو فى أكثرها إن كان عنده ما يشغله .. كالخروج إلى الجهاد وغيره.. وذلك لأن النبى ﷺ كان يحب أن يخرج للغزو فى البكور ؛ لأنه ﷺ قال: «**اللهم بارك لأمتى فى بكورها**».

فكان النبى ﷺ يتربع فى مجلسه .. وجلسة التربُّع معروفة لدى الناس فكان ﷺ يجلس على تلك الهيئة حتى تطلع الشمس حسناء.. وهذه الهيئة فيها أدبٌ عظيم .. فإنه مَن يجلس متربعًا غير الذى يجلس وقد مدَّد رجليه تجاه القبلة .. وغير النائم على ظهره واضعًا إحدى رجليه على الأخرى .. أما النبى ﷺ فكان يجلس

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٤٧)، وأصله عند مسلم.

يذكر الله وهو مُتربِّع .. وتلك الجلسة تُقدَّر بحوالى ساعة وربع أو ساعة ونصف .. فقد كان النبى ﷺ لا يكتفى بمجرد طلوع الشمس بل كان ينتظر بعدها بما يوازى ثلث ساعة .. لأنه ﷺ نهى عن الصلاة بعد طلوع الشمس ؛ لأن هذا وقت يَحرُم فيه الصلاة .. لكن بعد أن يبدو قرص الشمس ثم ترتفع قليلًا فوق الأرض .. وهذا يكون بعد حوالى ثلث ساعة من طلوع قرصها كاملًا .. فعند ذلك يجوز أن تصلى صلاة الضحى .. فكان النبى ﷺ يفعل ذلك ويحض الأمة على فعل ذلك .. فقد قال النبى ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، تَامَّةٍ، تَامَّةٍ، تَامَّةٍ**»(١).

فيمكن للإنسان أن يُحصِّل كل يوم أجر حجة وعمرة، وإن كان هذا لا يُغنى عن حجة الإسلام، ولا عن عُمرة الإسلام، ولكن الأجر يساوى أجر حجة، وأجر عمرة.. وكم نُفرط فى مثل ذلك من غير سبب! وعلى المؤمن أن يحاول أن يكسب الثواب قدر المستطاع... وكما ذكرنا قبل ذلك فإن الإنسان لا ينظر فى العبادة إلى مَن هو دونه، ولكن الأسوة الحسنة والقدوة العظيمة هو النبى (صلوات الله وسلامه عليه)، فافعل ما فعله ﷺ إذا رأيت غيرك يفرط فى مثل هذا الأجر فالتمس له العذر، فلعل لديه ما يشغله أو أنه لم ينم بالليل ويحتاج لأن ينام الآن، فأنت عليك بنفسك، فإذا كان عندك الوقت لتفعل هذا الشىء فلا تفرط فى هذا الثواب.



(٨٢٦) وعنْ ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسولَ الله ﷺ بفناء الكَعبةِ مُحتَبيًا بيَدَيْه هكَذَا، ووَصَفَ بيَدِيهِ الاحتِباء، وهُوَ القُرفُصَاء(٢).

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٤٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٧٢) كتاب الاستئذان.

۞ وفى هذا الحديث يخبر ابن عمر ﵄ أنه رأى النبى ﷺ بفناء الكعبة مُحتبيًا .. أى: يجلس جلسة القُرفصاء .. وذلك بأن يُمسك إحدى يديه بالأخرى ويحيط بهما رُكبتيه ﷺ... وقد كان بعضهم يلف ثوبًا من وراء ظهره ويحيط به رُكبتيه ... وقد كان النبى ﷺ يجلس تلك الجلسة أحيانًا وذلك لأنها تُريح الجالس لفترة طويلة حتى لا يشعر بالتعب.. وهكذا كان النبى ﷺ يُنوِّع فى نومه وقعوده حتى يوضح لأمته أنها مباحة.. وحتى لا يظنوا أنهم مُلزَمون بالنوم على هيئة واحدة أو بالجلوس على هيئة واحدة ... وهكذا كان النبى ﷺ يرفع الحرج دائمًا عن أمته.

(٨٢٧) وعنْ قَيْلَةَ بنْت مَخْرَمة ﵂ قالتْ: رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ وهو قاعِدٌ القُرفُصَاءَ فلما رأيتُ رسول الله ﷺ المُتَخَشِّعَ فى الجِلسةِ أُرعِدتُ مِنَ الفَرَقِ(١).

۞ ففى هذا الحديث تُخبر قَيلة بنت مَخرمة أنها رأت النبى ﷺ وهو قاعد القُرفصاء... يعنى: جلسة الاحتباء، فهذه المرأة لما نظرت للنبى ﷺ أخذها المنظر، وكأنها تقول: هذا رسول الله الذى نسمع عنه.

الرسول العظيم يجلس هذه الجلسة على الأرض بينما كسرى وقيصر والنجاشى وغيرهم من الملوك يجلسون على العروش فقالت هنا: (فلما رأيت رسول الله ﷺ المتخشع فى الجلسة أُرعدت من الفَرَق) أُرعدت لهيئة النبى ﷺ، أى: من الخوف من الله سبحانه، ومن إجلال النبى ﷺ وهو على هذه الهيئة (عليه الصلاة والسلام).

وجاءت رواية لهذا الحديث عند الطبرانى بإسنادٍ لا بأس به وذكرها الحافظ ابن حجر فى الفتح قالت: (فجاء رجل فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال ﷺ: وعليك السلام ورحمة الله)، وعليه أسمال مليتين ... يعنى: هذه كانت هيئة

(١) حسن: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد (٩٠٥)، وفى صحيح سنن أبى داود (٤٠٥٧).

النبى ﷺ ... والأسمال جمع سمل: وهو الثوب البالى، فكأن النبى ﷺ كان يلبس إزارًا ورداء باليين.

قالت المرأة: (وبيده عسيب نخلة مقشرة قاعدًا القُرفصاء، فلما رأيت رسول الله ﷺ المتخشع فى الجلسة أُرعدت من الفرق، فقال له جليسه: يا رسول الله! أُرعدت المسكينة) يعنى: المرأة صارت ترتعش لما رأت النبى ﷺ على هذه الهيئة وهو لم ينظر إليها (صلوات الله وسلامه عليه)، فالرجل الذى معها يقول: المرأة أُرعدت من هيئتك يا رسول الله، عليه الصلاة والسلام ... قالت: فقال ﷺ ولم ينظر إلىَّ: **(يا مسكينة عليك السكينة)** فدعا لها النبى ﷺ وقال: (يا مسكينة عليك السكينة قالت: فذهب عنى ما أجد من الرعب)، وإنما كان رعب المرأة حين رأت النبى ﷺ يجلس جلسة إنسانٍ متواضع لله سبحانه فى غاية الخشوع وغاية السكينة عليه الصلاة والسلام... فهيئته ﷺ جعلت المرأة تخشع لله سبحانه، وتخاف وتهاب النبى ﷺ وتُجله[1].



(٨٢٨) وعن الشَّريد بن سُويدٍ رضي الله عنه قال: مَرَّ بى رسولُ الله ﷺ وأنا جَالس هكذا، وقَد وَضَعتُ يَدى اليُسْرَى خَلْفَ ظَهرِى واتَّكأتُ على أَلْيَةِ يَدى. فقال: «أتقْعُدُ قِعدَةَ المغضُوبِ عَلَيْهِم»[2].

۞ لا بد أن نعلم أن جميع أنواع القعود لا بأس بها.. فلا بأس أن يقعد الإنسان مُتربعًا، ولا بأس أن يجلس وهو مُحتبى القُرفصاء -يعنى يقيم فخذيه وساقيه، ويجعل يديه مضمومتين على الساقين- هذا أيضًا لا بأس به، لأن النبى ﷺ قعد هذه القعدة.

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين). الشيخ / أحمد حطيبة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى حجاب المرأة (٢/ ١٠٠)، وصحيح سنن أبى داود (٤٠٥٨).

ولا يُكره من الجلوس إلا ما وصفه النبى ﷺ بأنه قعدة المغضوب عليهم، بأن يجعل يده اليسرى من خلف ظهره ويجعل بطن الكف على الأرض ويتكئ عليها... فإن هذه القعدة وصفها النبى ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم.

أما لو وضع اليدين كلتيهما من وراء ظهره واتكأ عليهما فلا بأس، ولو وضع اليد اليمنى فلا بأس، إنما التى وصفها النبى عليه الصلاة والسلام بأنها قعدة المغضوب عليهم، أن يجعل اليد اليسرى من خلف ظهره ويجعل باطنها - أى أليتها - على الأرض، ويتكئ عليها، فهذه هى التى وصفها النبى ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم(١).

۞ وفى هذا الحديث أن الشريد بن سُويد أخبر أن النبى ﷺ مَرَّ به وهو جالسٌ وقد وضع يده اليُسرى خلف ظهره واتكأ على ألية يده .. أى اتكأ على باطن الكف ... فقال له النبى ﷺ: «**أتقعد قِعدة المغضوب عليهم..**» أى: نهاه النبى ﷺ عن هذه القعدة .. وعلَّل ذلك بأنها جلسة مَن غضب الله عليه.

والمغضوب عليهم هم اليهود .. وكانت تلك قعدتهم المشهورة عنهم.. وقد نُهينا أن نتشبه بالكافرين.. ولذا أنكر النبى ﷺ عليه لأنه إن قعد هذه القعدة فقد تشبه باليهود..

وهكذا كان حرص النبى ﷺ على أصحابه وأمته من بعده ﷺ.



(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٠٤).

(١٢٩) باب في آداب المجلس والجليس

۞ الإنسان اجتماعى بطبعه.. فهو يحتاج إلى أن يجلس مع الآخرين، ويتعامل معهم .. وقد تضطره الحاجة إلى الجلوس فى مجلس من المجالس لأمرٍ من الأمور الدنيوية، أو الدينية.

۞ وأفضل المجالس.. مجالس الذكر .. فهى تُوجب رقة القلوب .. والزهد فى الدنيا، والرغبة فى الآخرة.

وفى مجالس الذكر، تنزل الرحمة، وتغشى السكينة .. وتَحُفُّ الملائكة .. ويذكر الله أهلها فيمن عنده .. وهم القوم لا يَشقَى بهم جليسهم.. فربما رُحم معهم مَن جلس إليهم، وإن كان مذنبًا.

(٨٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسُول الله ﷺ: «لا يُقيمَنَّ أحدُكُم رجُلًا مِنْ مَجْلِسِهِ ثم يَجْلسُ فيه ولكِنْ تَوسَّعُوا وتَفَسَّحوا» وكان ابنُ عُمر إذا قام لهُ رجُلٌ مِن مجلسِه لمْ يَجلِس فيه[1].

۞ لقد ذكر المصنف رحمه الله هذا الباب (باب آداب المجلس والجليس) ليبين بعض الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها المسلم فى مجالسه ومع جليسه.

۞ وفى هذا الحديث نتعلم أدبًا من آداب المجلس .. وهو أنك إذا دخلت مكانًا فوجدت المكان مُمتلئًا فليس لك أن تُقيم أحدًا من مكانه أو أن تقول له: يا فلان قُم ثم تجلس مكانه .. فهذا لا يجوز .. بل لا يجوز أن تجلس بين اثنين إلا بإذنهما.

ولكن إذا كنت تريد أن تجلس فقل: تَفسَّحوا تَوسَّعوا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٧٠) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٧٧) كتاب السلام.

فإذا تفسحوا وتوسعوا فإن الله تعالى يوسع لهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة: ١١].

قال الشيخ السعدى رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا أدبٌ من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا فى مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسُّح له فى المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلًا لهذا المقصود.

وليس ذلك بضارٍّ للفاسح شيئًا، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه ... والجزاء من جنس العمل، فإن مَن فَسَحَ فَسَح الله له، ومَن وسَّع لأخيه، وسَّع الله عليه(١).

أما أن تُقيم الرجل وتجلس مكانه فإن هذا لا يجوز، حتى فى مجالس الصلاة... لو رأيت إنسانًا فى الصف الأول فإنه لا يحل لك أن تقول له: قُم، ثم تجلس فى مكانه، حتى لو كان صبيًّا لكنه يصلى، فإنه لا يحل لك أن تُقيمه من مكانه وتصلى فيه، لأن الحديث عام، والصبى لا بد أن يصلى مع الناس، ويكون فى مكانه الذى يكون فيه.

وأما قول النبى ﷺ: «**ليلنى منكم أولو الأحلام والنُّهى**» فهو أمرٌ للبالغين العقلاء أن يتقدموا حتى يلوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وليس نهيًا أن يكون الصغار قريبين منه.. ولو كان أراد ذلك لقال ﷺ: لا يلنى إلا أولو الأحلام والنُّهى، أما إذا أمر أن يليه أولو الأحلام والنُّهى، فالمعنى أنه يحثهم على التقدُّم حتى يكونوا وراء النبى ﷺ، يلونه ويفهمون عنه شريعته وينقلونها إلى الناس(٢).

فإذا كان الإمام فى الصلاة وجاء إنسان وراءه فلا بد أن يكون حافظًا للقرآن

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٠٦-١٠٠٧).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٠٥).

فلعلَّ الإمام يُحدث فى الصلاة فيكون وراءه مَن يتقدم فيصلى بالناس مكان الإمام، ولعلَّ الإمام يُخطئ فى الصلاة فيكون من هؤلاء مَن يَرُد الإمام عن ذلك الخطأ الذى وقع فيه.

۞ وفى المقابل .. فمن كان يجلس فى المسجد أو مجلس علمٍ أو غير ذلك وكان بإمكانه أن يُفسح لأخيه ليجلس بجواره فليُفسح له .. وبخاصة إذا كان المكان مزدحمًا والناس تجد مُعاناة فى الجلوس.

فأحيانًا تكون المجالس واسعة، وفيها مَن يجلس مادًّا رجليه بحيث لا يُبقى مكانًا لأحد، فإذا جاءه مَن يقول: تفسحوا وتوسعوا ويستأذن للجلوس فيقول له: هذا المكان لى ابحث لك عن مكانٍ آخر... كثير من الناس يفعلون هذا الشىء! وللأسف نرى مثل هذا حتى فى الحرم، فإذا جاء مَن يطلب منه أن يفسح له قال: أنا أعتكف هنا، اذهب وابحث عن مكانٍ آخر!

فيفعل هذا فى بيت الله الذى يُفترض أن يكون الإنسان فيه أخشع ما يكون، لعِظَم هذا المكان.

فالإنسان المؤمن يتعلم الأدب الشرعى من النبى ﷺ فى كيفية جلوسه وفى أمره لنا بالتفسُّح.

فإذا كنت جالسًا فى مجلس وكان بجانبك مكان يسع إنسانًا فأجلس هذا الإنسان، وتصور أنك فى مكانه وجئت تقول للناس: تفسحوا، فهل ترضى أن يمنعك أحد من الجلوس؟ فما لا ترضاه لنفسك لا ترضه لغيرك.

۞ **قال الإمام النووى** رحمه الله:

هَـذَا النَّهْـىُ لِلتَّحـرِيمِ فَمَـنْ سَبَقَ إِلَـى مَوْضِـعٍ مباح فى المسجد وغيره يوم الجمعة أو غيره لِصَلَاةٍ أَوْ غَيْرِهَـا فَهُـوَ أَحَـقُّ بِـهِ وَيَحـرُمُ على غيره إقامته لهذا الحديث.

وأما قوله: وكان ابن عمر إذا قام له رجل عن مجلسه لَمْ يَجْلِسْ فِيهِ فَهَذَا وَرَعٌ مِنْهُ وَلَيْسَ قُعُودُهُ فِيهِ حَرَامًا إِذَا قَامَ بِرِضَاهُ لَكِنَّهُ تَوَرَّعَ عَنْهُ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ رُبَّمَا اسْتَحَى مِنْهُ إِنْسَانٌ فَقَامَ لَهُ مِنْ مَجْلِسِهِ مِنْ غَيْرِ طِيبِ قَلْبِهِ فَسَدَّ ابن عُمَرَ الْبَابَ لِيَسْلَمَ مِنْ هَذَا.. وَالثَّانِي: أَنَّ الْإِيثَارَ بِالْقُرَبِ مَكْرُوهٌ أَوْ خِلَافُ الْأَوْلَى فَكَانَ ابن عُمَرَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ لِئَلَّا يرتكب أَحَدٌ بِسَبَبِهِ مَكْرُوهًا أَوْ خِلَافَ الْأَوْلَى بِأَنْ يَتَأَخَّرَ عَنْ مَوْضِعِهِ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَيُؤْثِرُهُ بِهِ وَشِبْهِ ذَلِكَ ... قَالَ أَصحَابُنَا: وَإِنَّمَا يُحمَدُ الْإِيثَارُ بِحُظُوظِ النُّفُوسِ وَأُمُورِ الدُّنْيَا دُونَ الْقُرَبِ وَاللهُ أعلم(١).

فالإنسان المؤمن إذا قام له الناس فلا يفرح بذلك، ولكن إذا قاموا له من مجلس فالأفضل ألا يجلس فيه كما فعل ابن عمر رضي الله عنه، ولو فرضنا أنه جلس فهل عليه إثم؟ لا، ليس عليه إثم، فصاحب المجلس أذن له فيه فلا مانع من أن يجلس... وكان النبى ﷺ إذا دخل على السيدة فاطمة فى بيتها قامت له وقبَّلته ﷺ وأجلسته مكانها، وكان هو يفعل ذلك مع ابنته صلوات الله وسلامه عليه، فهذا من باب المحبة لكن إذا كان من باب الترفُّع على الناس وأنه أَولَى من غيره بأن يكون خلف الإمام أو حتى مكان الإمام فهذا الذى جاء فيه الوعيد.

۞ **قال بعض أهل العلم**: ويندرج تحت هذا الذى فعله ابن عمر رضي الله عنهما أنه إذا كنت تمر أمام بيت أحد أقاربك أو جيرانك أو أصحابك وقال لك: تفضَّل .. وأنت تعلم أنه قال ذلك حياءً وخجلًا منك لما رآك أمامه فلا تدخل .. لأن هذا يكون كالمُكرَه.. لكن إذا علمت أنه بالفعل يريد أن تدخل؛ لأنه يحب أن يستأنس بوجودك عنده فلا مانع حينئذٍ.

وكذلك إذا أعطاك أحد أحبابك هدية خجلًا منك وحياءً فلا تقبلها ؛ لأن هذا أيضًا كالمُكرَه.

(١) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٢٢٩).

۞ فالحمد لله على نعمة الإسلام .. والحمد لله على بعثة الحبيب المصطفى ﷺ الذى علَّم الكون كله تلك الأخلاقيات والذوقيات.



(٨٣٠) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قامَ أحدُكُم مِن مجْلسٍ ثُمَّ رجَعَ إليهِ فهُو أحقُّ بِهِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه إذا قام إنسان من مجلسه لقضاء الحاجة أو غير ذلك ثم عاد إليه فهو أحق به... سواء كان ذلك المكان فى المسجد أو فى مجلسٍ من مجالس العلم ...

لكن إذا قام منصرفًا إلى بيته أو إلى أى مكانٍ آخر فقد انتهى حقه فى ذلك المجلس ؛ لأنه قد انصرف عن المجلس فيجلس فيه غيره.

۞ **قال الإمام النووى رحمه الله:**

قَالَ أَصحَابُنَا: هَذَا الْحَدِيثُ فِيمَنْ جَلَسَ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْمَسْجِدِ أَوْ غَيْرِهِ لِصَلَاةٍ مثلًا ثم فَارَقَهُ لِيَعُودَ، بِأَنْ فَارَقَهُ لِيَتَوَضَّأَ أَوْ يَقْضِيَ شُغْلًا يَسِيرًا ثُمَّ يَعُودَ، لَمْ يَبْطُلِ اخْتِصَاصُهُ بَلْ إِذَا رَجَعَ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ، فَإِنْ كَانَ قَد قَعَدَ فِيهِ غَيْرُهُ فَلَهُ أَنْ يُقِيمَهُ وَعَلَى الْقَاعِدِ أَنْ يُفَارِقَهُ لِهَذَا الْحَدِيثِ. هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَصحَابِنَا وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ قَعَدَ فِيهِ مفارقته إذا رجع الأول. قَالَ أَصحَابُنَا: وَلَا فَرقَ بَيْنَ أَنْ يَقُومَ مِنْهُ وَيَتْرُكَ فِيهِ سَجَّادَةً ونحوها أم لا، فهذا أَحَقُّ بِهِ فِي الْحَالَيْنِ...

قَالَ أَصحَابُنَا: وَإِنَّمَا يَكُونُ أَحَقَّ بِهِ فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ وَحدَهَا دُونَ غَيْرِهَا وَاللهُ أَعلَمُ(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٧٩) كتاب السلام.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٢٣٢).

۞ لكن هناك مسألة لا يفطن إليها بعض الناس ألا وهى:

بعض المسلمين ممن يحافظون على الصلاة فى المسجد يتخذُ مكانًا مخصوصًا لا يصلى إلا فيه... إما بجوار المنبر أو عن يمين الإمام، أو بجوار سارية من سوارى المسجد ونحو ذلك، وإذا وجد أحدًا سبقه إليه يحاولُ أن يُقيمه منه أو يرجع مُغضَبًا، وهذا كله لا يجوز لأمور:

أولًا: نهى النبى ﷺ عن ذلك... فلقد روى أبو داود عن عبد الرحمن بن شبل قال: «نهى رسول الله عن نقرة الغراب، وافتراش السبع، وأن يُوَطِّنَ الرجل المكان فى المسجد كما يوطِّن البعير»(١).

ثانيًا: يفوت عليه تكثيرُ البُقَعِ التى تشهد له بالسجود عليها يوم القيامة ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤] ... تتحدثُ الأرض بما فعل على ظهرها من الطاعة والمعصية.

ثالثًا: إن إلف المكان والتعود عليه قد يُذهب لذة العبادة وخشوع الطاعة.

رابعًا: قد يَجُرُّ ذلك إلى الرياء والسُّمعة وأنه من كذا وكذا سنة يصلى بجوار المنبر مثلًا(٢).

(٨٣١) وعن جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنهما قال: كُنَّا إذا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ أحدُنَا حيْثُ يَنْتَهى(٣).

۞ ففى هذا الحديث يخبر جابر بن سمرة رضي الله عنه أنهم كانوا إذا ذهبوا إلى النبى ﷺ فى المسجد جلس كل واحدٍ منهم حيث ينتهى به المجلس .. وهذا

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٩٨٢).

(٢) راجع إصلاح المساجد (١٨٥)، المناهى الشرعية للهلالى (١/ ٣٦٨)، نقلًا عن الكلمات النافعة (ص: ٢٥٤-٢٥٥).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٣٠).



أدبٌ عظيم تعلموه من النبى ﷺ وعلَّموه للأمة.

۞ فمن آداب المجالس أن الإنسان إذا دخل خطبة جمعة أو درس علم أن يجلس حيث ينتهى به المجلس .. فهذا هو فعل النبى ﷺ وأصحابه .. فكان لا يتقدم أحدهم إلى صدر المجلس إلا إذا آثره أحدٌ بمكانه عن طيب نفسٍ وليس خجلًا أو حياءً ... أو كان قد تُرِك له مكان فى صدر المجلس فلا بأس بذلك.

أما أن يخترق الصفوف ويتخطَّى الرِّقاب ويُضايق الناس لأجل أن يأتى أمام الناس ويجلس فهذا ليس من آداب المجالس .. وإنما يجلس حيث ينتهى به المجلس .. وإذا وجد فُرجة فى مكانٍ جلس فيها من غير أن يُؤذى أحدًا.

۞ وقد كان النبى ﷺ ذات مرة يخطب الجمعة .. والصحابة يجلسون أمامه وكأن على رؤوسهم الطير من الإنصات لكلام النبى ﷺ .. وفجأة دخل رجلٌ وبدأ يخترق الصفوف ويتخطَّى الرِّقاب .. فما كان من النبى ﷺ إلا أن قطع خُطبته وقال لهذا الرجل: «**اجلس فقد آذيت وآنيت**».

(**اجلس**) أى: اقعد مكانك (**فقد آذيت**)، آذيت الناس بتخطيك الرقاب، (**وآنيت**) أى: تأخرت.

فهذا تأديب من النبى ﷺ لهذا الإنسان أمام الناس... يؤدبه حتى لا يفعل غيره مثل فعله... فاستحق هذا أن يُؤدَّب ويُقال له: اجلس مكانك ولا تتخطَّ رءوس الناس ولا تؤذيهم.

۞ أما إن كان الرجل صاحب خير وتذكير وعلم فإن مكانه الذى هو فيه سيكون هو صدر المجلس، فسوف يتجه الناس إليه إن تكلم، أو يسألونه إذا أرادوا سؤاله، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا دخل المجلس جلس حيث ينتهى به، ثم يكون المكان الذى هو فيه الرسول ﷺ هو صدر المجلس.

۞ فإذا دخلت المجلس فاجلس فى أقرب مكان تجده ولا تتخطَّ الرقاب

حتى لا تؤذى إخوانك وتشغلهم عن طلب العلم.

۞ أما إذا كان الشيخ يريدك أن تجلس قريبًا منه لأنك من أنجب تلاميذه فلا بأس هنا أن تجلس فى المكان الذى يريده الشيخ.

(٨٣٢) وعن أبى عبدِ الله سَلْمان الفارِسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الجُمُعة ويَتطهَّرُ ما اسْتَطاعَ مِن طُهر ويَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ أوْ يَمسُّ مِنْ طِيب بَيْته ثُمَّ يَخْرُجُ فَلا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنينِ ثُمَّ يُصَلِّى ما كُتِبَ لهُ ثُمَّ يُنْصِتُ إذا تَكَلَّمَ الإمامُ إلا غُفِرَ لهُ ما بَيْنَهُ وبَيْن الجُمعَةِ الأُخْرَى»(١).

(٨٣٣) وعن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أن يُفَرِّقَ بَيْنَ اثْنَينِ إلا بإذْنِهما»(٢).

وفى رواية لأبى داود: **«لا يَجْلِسُ بينَ رَجُلين إلا بإذْنِهما»**.

۞ صلاة الجمعة هى عيد المسلمين فى كل أسبوع...فهذا يومٌ عظيم جدًّا، يستجيب الله عَزَّ وَجَلَّ فيه الدعوات، وفيه ساعة إجابة يستجيب الله عَزَّ وَجَلَّ فيها لعبده...والمؤمن يُهيئ نفسه ليستجيب الله عَزَّ وَجَلَّ له... وكان النبى ﷺ يحرص أن يصلى الفجر فى هذا اليوم فيقرأ بسورة السجدة وسورة الإنسان؛ لما فيهما من ذكر بدء الخلق، ومن ذكر القيامة، ومن ذكر الجنة والنار.

ويوم الجمعة هو اليوم الذى خُلق فيه آدم، وأُنزل فيه آدم من الجنة، وهو اليوم الذى تقوم فيه الساعة... وما من مخلوقٍ إلا وهو يُشفق من يوم الجمعة إلا الإنس والجن.

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن أشياء إذا فعلها الإنسان فإنه يُغفر له

(١) صحيح: رواه البخارى (٨٨٣) كتاب الجمعة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٦٥٦).

ما بين الجمعة والجمعة: منها الاغتسال... أن يغتسل كما يغتسل للجنابة... وهذا الاغتسال القول الراجح فيه وجوبه وأنه يجب على الإنسان أن يغتسل ليوم الجمعة إذا كان يصلى الجمعة.

ويأثم مَن لم يغتسل إلا لضرورة... لأن النبى ﷺ قال: «**غُسل الجمعة واجب على كل محتلم**»، يعنى على كل بالغ... فكل بالغ يأتى إلى الجمعة فإنه يجب عليه أن يغتسل إلا أن يخاف ضررًا أو لا يجد ماءً، كما لو مَرَّ مثلًا بقرية وهو مسافر، وأراد أن يصلى الجمعة معهم ولم يجد مكانًا يغتسل فيه، فهذا يسقط عنه ... لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما النساء فلا يجب عليهن الغُسل.... ولكن هذا الوجوب ليس عن حَدَث، فلو تركه الإنسان وصلى الجمعة أَثِم وصحَّت الجمعة؛ لأنه ليس عن حَدَث، ومنها أن يدَّهن بالطِّيب، يعنى: يتطيب بعودٍ أو وردٍ أو ريحان أو غير ذلك، المهم أن يتطيب ويختار أطيب ما يجد. ومنها ألا يُفرق بين اثنين؛ لأنه إذا فرق بين اثنين آذاهما، وهذا يدل على أن المراد إذا وجد الصف مشتبكًا فلا يفرقه، أما لو وجد فُرجة فله أن يدخل فيها؛ لأن الاثنين هما اللذان افترقا.

يعنى إذا جئت ووجدت شخصين جلس أحدهما إلى جنب الآخر فلا تُفرق بينهما إلا إذا أَذِنا لك فى هذا إما إذنًا باللسان يعنى إذا قال أحدهما تعالَ اجلس هنا أو بالفعل بأن يتفرق بعضهما عن بعض إشارة إلى أنك تجلس بينهما وإلا فلا تُفرق بينهما لأن هذا من سوء الأدب إن قلت تفسح ومن الأذية إن جلست وضيقت عليهما.

ومنها أن يصلى ما كُتب له، ولم يحدد النبى ﷺ صلاةً، فدلَّ هذا على أن الجمعة ليست لها راتبة قبلها بل يصلى الإنسان ما شاء، قليلًا كان أو كثيرًا إلى أن يحضر الإمام... ومنها أن يُنصت، يعنى يُنصت للخطبة فلا يتكلم إلى أن

يفرغ الخطيب من الخطبة، فإذا فعل هذه الأشياء الخمسة فإنه يُغفر له ما بين الجمعتين، وهذا فضلٌ عظيم من الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ وها هي بعض الآداب التي ينبغي أن نتأدب بها في يوم الجمعة:

(١) **إخلاص النية لله** عَزَّوَجَلَّ.. وذلك بأن ينوي بذلك وجه الله والفوز بالأجر والثواب وتكثير أعداد المسلمين.

(٢) **الاغتسال لصلاة الجمعة:** حتى يذهب إلى صلاة الجمعة ورائحته طيبة.. فلا يؤذي الناس من حوله ولا يُؤذي الملائكة.

(٣) **أن يتزين بلبس أفضل الثياب والتطيُّب بالعطر:**

وذلك لأن يوم الجمعة يوم عيدٍ وفيه يجتمع المسلمون.. فينبغي أن يكون المسلم في أبهى زينته ليكون قُدوة لمن حوله.

وليعلم غير المسلمين أن ديننا هو دين النظافة والجمال.

وأما المرأة فلا يجوز لها أن تخرج متعطرة سواء كان ذلك للصلاة أو لغيرها.

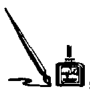
(٤) **كثرة الصلاة على النبي ﷺ:**

فالصلاة على النبي ﷺ من أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى الله (جل وعلا) وتزداد فضيلة الصلاة على النبي ﷺ في يوم الجمعة.

فعن أوس قال: قال النبي ﷺ: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة: فيه خُلق آدم وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضةٌ عليَّ**».

فقال رجل: يا رسول الله، كيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أَرِمت؟ (أي: بليت) قال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[1].

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢١٢).



(٥) قراءة سورة الكهف:

فإن قراءة سورة الكهف مُستحب فى ليلة الجمعة أو فى يوم الجمعة.

۞ **قال ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بين الجمعتين»**[١].

۞ وقال ﷺ : **«من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له النور ما بينه وبين البيت العتيق»**[٢].

(٦) استعمال السواك وترك كل ما يتأذى برائحته المسلمون:

۞ بأن يستعمل السواك وذلك لتطييب رائحة الفم حتى لا يتأذى مَن حوله من المصلين ... وأن يتجنب أكل الثوم والبصل والكراث إلا أن يكون مطبوخًا .. وكذلك يتجنب الدخان حتى لا يتأذى الناس وتتأذى الملائكة.

(٧) التبكير إلى المسجد فى صلاة الجمعة:

فمن السُّنة التبكير إلى الصلاة ساعيًا إليها بالسَّكينة والوقار..

وكلما بكَّر الإنسان بالذهاب إلى صلاة الجمعة كلما كان الأجر عظيمًا.

۞ **عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «مَن اغتسل يوم الجمعة غُسل الجنابة ثم راح فكأنما قرَّب بدنة، ومَن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومَن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن، ومَن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومَن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»**[٣].

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : **«إذا كان يوم الجمعة كان على كل بابٍ من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا**

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٢) صحيح: رواه البيهقى فى شُعب الإيمان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧١).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٨٨١) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٠) (١٠) كتاب الجمعة.

الصحف، وجاءوا يستمعون الذكر»(١).

(٨) ترك البيع والشراء:

لأن البيع والشراء أثناء صلاة الجمعة أمرٌ مُحرم.. فقد قال تعالى فى سورة الجمعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

(٩) عدم تخطِّى الرقاب:

فينبغى على المسلم أن يجلس حيث ينتهى به المجلس ولا يتخطَّى الرقاب.

فعن عبد الله بن بُسر: أن رجلًا جاء إلى النبى ﷺ يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، والنبى ﷺ يخطب فقال: «**اجلس، فقد آذيت وآنيت**»(٢) أى: تأخرت.

(١٠) صلاة ركعتين تحية المسجد قبل الجلوس:

فينبغى أن يصلى المسلم ركعتين تحية المسجد حتى ولو كان الإمام يخطب على المنبر... لكن عليه أن يوجز فيهما - أى: يصليهما بسرعة دون إخلال بأركان الصلاة وواجباتها.

(١١) ألا يُفرق بين اثنين:

وذلك بأن يدخل بين اثنين جالسين فيُباعد بين الاثنين ليجلس بينهما فقد نهى النبى ﷺ عن ذلك.

(١٢) ألا يُقيم أحدًا من مجلسه ليجلس فيه:

فلقد نهى النبى ﷺ عن ذلك فقال: «**لا يُقيمنَّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه، ولكن يقول: افسحوا**»(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩٢٩) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٠) (٢٤) كتاب الجمعة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢١٧٨) كتاب السلام.

(١٣) الانشغال بذكر الله (جل وعلا) :

فينبغى على المسلم إذا دخل المسجد قبل صلاة الجمعة بوقتٍ طويل أن ينشغل بالصلاة وقراءة القرآن والذكر والاستغفار ولا ينشغل بالكلام مع الناس من حوله.

(١٤) الدنو والاقتراب من الإمام :

يُستحب الدنو من الإمام يوم الجمعة... وقد وردت الأحاديث التى تدل على ذلك منها:

عن أوس بن أوس عن النبى ﷺ قال: «**مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا مِنْ بَيْتِهِ إِلَى المَسْجِدِ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا**»[(١)] .

(١٥) الإنصات للإمام وعدم اللغو :

وذلك حتى لا يضيع أجره بسبب الكلام أثناء الخطبة.. وحتى تُتاح له فرصة الاستماع إلى خطبة الجمعة.

(١٦) صلاة ركعتين فى البيت :

فهذا هو هدى النبى ﷺ فإنه كان يصلى بعد الجمعة ركعتين فى البيت.. فإنه ﷺ: «**كان لا يصلى الركعتين بعد الجمعة، ولا الركعتين بعد المغرب إلا فى أهله**»[(٢)] .

لكن لو صلى فى المسجد صلَّى أربعًا... فإن ابن عمر فعل ذلك وقال: «**كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك**»[(٣)] ، وقد قال ﷺ: «**مَن كان مُصليًا بعد الجمعة، فليُصلِّ**

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٠٥).

(٢) صحيح: رواه الطيالسى، والطحاوى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٥٧).

(٣) قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في تمام المنة (١/ ٣٤٢): «قال ابن القيم: قال شيخنا ابن تيمية: إن صلى في المسجد صلى أربعًا وإن صلى في بيته صلى ركعتين». قلت: هذا التفصيل لا أعرف له أصلًا في السُّنة إلا ما سيذكره من حديث ابن عمر ويأتي قريبًا بيان ما فيه وقوله في الحديث الصحيح المتقدم: «مَن كان =

أربعًا»(١).

(١٧) تحرى ساعة الإجابة:

فينبغى للمؤمن أن يتحرى هذه الساعة بالعبادة والذكر والاستغفار والدعاء فإن الدعاء فى ذلك الوقت مستجاب.

فقد قال ﷺ عن يوم الجمعة: «**فيه ساعة لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه**»(٢).

وساعة الإجابة آخر ساعة بعد العصر يوم الجمعة على الراجح:

عن أنس أن النبى ﷺ قال: «**التمسوا الساعة التى تُرجَى فى يوم الجمعة بعد العصر إلى غيبوبة الشمس**»(٣)(٤).

(٨٣٤) وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ **لَعَنَ مَن جَلَسَ وسَطَ الحَلْقَةِ**(٥).

وروى الترمذى عن أبى مِجْلزٍ أن رجُلًا قَعَدَ وسَطَ حَلقَة فقال حُذيفةُ: مَلْعُونٌ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أوْ لَعَنَ الله عَلَى لِسانِ محمدٍ ﷺ مَنْ جَلَسَ وَسَطَ الحَلْقةِ.

۞ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف لا يثبت عن النبى ﷺ.

= منكم **مُصليًا بعد الجمعة فليُصَلِّ أربعًا**». رواه مسلم وغيره وهو في «الإرواء» (٦٢٥) لا دليل فيه على أن الأربع في المسجد والحديث الصحيح المعروف: «**أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**» فإذا صلى بعد الجمعة ركعتين أو أربعًا في المسجد جاز أو في البيت فهو أفضل لهذا الحديث الصحيح.

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٨١) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩٣٥) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٢) كتاب الجمعة.

(٣) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٣٧).

(٤) الآداب الإسلامية للطفل المسلم/ د. محمود المصرى (ص ١٦٧-١٧١) بتصرف.

(٥) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٦٩٤).

(٨٣٥) وعنْ أبى سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «خَيْرُ المَجالِسِ أوْسَعُهَا»(١).

۞ ومما ينبغى فى المجالس أيضًا أن تكون واسعة، فإن سعة المجالس من خير المجالس ... كما قال ﷺ : «خير المجالس أوسعها»؛ لأنها إذا كانت واسعة حملت أُناسًا كثيرين، وصار فيها انشراح وسعة صدر، وهذا على حسب الحال... فقد يكون بعض الناس حُجر بيته ضيقة، لكن إذا أمكنت السعة فهو أحسن؛ لأنه يحمل أناسًا كثيرين ولأنه أشرح للصدر.

(٨٣٦) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ جَلَسَ فى مَجْلسٍ فكثُرَ فيهِ لغَطُهُ فقال قَبْلَ أنْ يقُومَ مِن مجْلِسِهِ ذلك: سُبْحانَك اللَّهُمَّ وبحَمْدِكَ أشْهَدُ أنْ لا إله إلا أنْتَ أسْتَغْفِرُكَ وأتُوبُ إليك. إلا غُفِرَ لهُ ما كانَ فى مجلسهِ ذلك»(٢).

(٨٣٧) وعن أبى بَرزَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يقولُ بآخرة إذا أرادَ أنْ يقُومَ مِن المَجْلِس: «سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ أشْهَدُ أنْ لا إله إلا أنْتَ أسْتَغْفِرُكَ وأتُوبُ إليْكَ » فقال رجلٌ : يا رسول الله إنَّك لتَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيما مَضى؟ قال: «ذلك كفَّارةٌ لِمَا يَكُونُ فى المجْلِسِ»(٣).

۞ ففى حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «مَن جلس فى مجلسٍ فكَثُر فيه لغطه» يعنى: كان فيه لغوٌ كثير وكلامٌ كثير... وليس معناه: أنهم قعدوا يشتمون الناس أو يعصون الله...قال: «مَنْ جَلَسَ فى مَجْلسٍ فكَثُرَ فيهِ لَغَطُهُ فقال قَبْلَ أنْ يقُومَ مِن مجْلِسِهِ ذلك: سُبْحانَك اللَّهُمَّ وبحَمْدِكَ، أشْهَدُ أنْ لا إله إلا أنْتَ،

(١) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٨٥).
(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع(٦١٩٢).
(٣) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٥١٧).

أَسْتَغْفِرُكَ وأَتُوبُ إليك، إلا غُفِرَ لهُ ما كانَ فى مجلسهِ ذلك».

فالله عَزَّوَجَلَّ يغفر له ما كان فى مجلسه ذلك من اللغط... أى: من كثرة الكلام فيما يعنى وفيما لا يعنى...والإنسان ينبغى عليه أن يحاسب نفسه على ما يتكلم به، فإذا جلس فى مجلس مع الناس فالأصل أن المؤمن يعلم أنه ما خُلق إلا لعبادة الله سبحانه، والأصل أن يذكر الله سبحانه، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر..فإذا جلس فى المجلس فضحك كثيرًا وكثر كلامه ناسيًا، ثم تذكر فى آخر مجلسه فليَقُل: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**».

۞ **وأما فى حديث أبى برزة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنه قال:** (كان رسول الله ﷺ يقول بآخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس)، (يقول بآخرة) أى: فى النهاية، وكأنه فى الأول بعدما هاجر إلى المدينة ﷺ مكث فترة فيها لم يكن يقول ذلك، وفى النهاية قُرب آخر حياته ﷺ كان يقول هذا الذكر..فهذا معنى (بآخرة) يعنى: فى آخر عمره ﷺ فكان يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**»، وهل يُعقَل أن النبى ﷺ سيجلس فى مكان يكون فيه ذنوب؟! مستحيل أن يجلس فى مجلسٍ كهذا، ولكنه كان يجلس مع أصحابه ﷺ، وكان يحب أن يُذكرهم بذلك، فهو إذا جلس فى مجلس إما أن يذكر الله سبحانه وتعالى فى سِرِّه أو يذكر الله عَزَّوَجَلَّ أمام أصحابه، ويُعودهم أن يقولوا ذلك فى ختام المجلس.

فقالوا: (يا رسول الله! إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى؟).

ما هذا الذى حصل؟ فقال ﷺ: «**ذلك كفارة لما يكون فى المجلس**».

قد تكون أنت فى المجلس ولم تسئ، ولكن أحد الجالسين أساء فيلزمك أن تنهى عن المنكر، فإذا تجاوزت وسكتَّ يكون ذلك الذكر كفارة لسكوتك،

وكفارة لهذا المجلس الذى شهدته[1].



(٨٣٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رسول الله ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدعُوَ بِهؤلاء الدَّعواتِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتِّعنَا بأسماعِنا، وَأَبْصَارِنَا، وقُوَّتِنَا مَا أحيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوارثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصيبَتَنَا فِى دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّط عَلَيْنَا مَنْ لا يرحَمُنَا»[2].

۞ **«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تَحُول به بيننا وبين معصيتك».**

اقسم بمعنى قَدِّر ... والخشية هى الخوف المقرون بالعلم لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وقوله: «**ما تَحُول به بيننا وبين معصيتك**» لأن الإنسان كلما خشى الله عز وجل منعته خشيته من الله أن ينتهك محارم الله ... ولهذا قال: ما تحول به بيننا وبين معصيتك.

ثم قال: «**ومن طاعتك**» يعنى واقسم لنا من طاعتك «**ما تُبلغنا به جنتك**» فإن الجنة طريقها طاعة الله عز وجل فإذا وُفِّق العبد لخشية الله واجتناب محارمه والقيام بطاعته نجا من النار بخوفه ودخل الجنة بطاعته.

«**ومن اليقين ما تُهون به علينا مصائب الدنيا**» واليقين هو أعلى درجات الإيمان لأنه إيمان لا شك معه ولا تردُّد ... تتيقن ما غاب عنك كما تشاهد ما حضر بين يديك.

---

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) / الشيخ أحمد حطيبة.

(٢) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٦٨).

فإذا كان عند الإنسان يقينٌ تام بما أخبر الله تعالى به من أمور الغيب فيما يتعلق بالله عَزَّوَجَلَّ أو بأسمائه أو صفاته أو اليوم الآخر أو غير ذلك وصار ما أخبر الله به من الغيب عنده بمنزلة المُشاهَد فهذا هو كمال اليقين.

وقوله: «**ما تُهون به علينا مصائب الدنيا**» لأن الدنيا فيها مصائب كثيرة لكن هذه المصائب إذا كان عند الإنسان يقين أنه يكفر بها من سيئاته ويرفع بها من درجاته إذا صبر واحتسب الأجر من الله هانت عليه المصائب وسَهُلت عليه المحن مهما عَظُمت سواء كانت فى بدنه أو فى أهله أو فى ماله ما دام عنده اليقين التام فإنها تهون عليه المصائب.

«**ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا**» تسأل الله تعالى أن يمتعك بهذه الحواس: السمع والبصر والقوة ما دُمت حيًّا لأن الإنسان إذا مُتع بهذه الحواس حصل على خيرٍ كثير .. وإذا افتقد هذه الحواس فاته خيرٌ كثير لكن لا يُلام عليه إذا كان لا يقدر عليه.

«**واجعله الوارث منا**» يعنى اجعل تَمتُّعنا بهذه الأمور: السمع والبصر والقوة الوارث منا ... يعنى اجعله يمتد إلى آخر حياتنا حتى يبقى بعدنا ويكون كالوارث لنا ... وهو كناية عن استمرار هذه القوة إلى الموت.

«**واجعل ثأرنا على مَن ظلمنا**» يعنى اجعلنا نستأثر ويكون لنا الأثرة على مَن ظلمنا بحيث تقتص لنا منه إما بأشياء تصيبه فى الدنيا أو فى الآخرة ولا حرج على الإنسان أن يدعو على ظالمه بقدر ظُلمه... وإذا دعا على ظالم بقدر ما ظلمه فهذا إنصاف والله سبحانه وتعالى يستجيب دعوة المظلوم.

قال النبى ﷺ لمعاذ وقد بعثه إلى اليمن وبيَّن له ما يدعوهم إليه فقال: «**فإن أجابوك لذلك**» أى للصدقة من أموالهم «**فإيَّاكَ وكَرائمَ أمْوالِهِمْ واتّقِ دَعوَةَ**

المَظلومِ فإنهُ ليسَ بيْنَها وَبيْنَ الله حِجاب »[١].

لأن الله تعالى حَكَمٌ عدل ينتقم من الظالم إذا رفع المظلوم الشكوى إليه... فإذا رفع المظلوم الشكوى إلى الله انتقم الله من الظالم...لكن لا يتجاوز المظلوم فى دعائه فيدعو بأكثر من مظلمته لأنه إذا دعا بأكثر من مظلمته صار هو الظالم.

وانصرنا على من عادانا ... وأكبر عدوٍّ لنا مَن عادانا فى دين الله.

«ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا» المصائب فى الحقيقة تكون فى مال الإنسان بأن يحترق ماله أو يُسرَق أو يتلف فهذه مصيبة.

وتكون أيضًا فى أهل الإنسان فيمرض أهله أو يموتون.

وتكون فى العقل بأن يُصاب هو أو أهله بالجنون ... نسأل الله العافية.

وتكون فى كل ما من شأنه أن يُصاب به الإنسان.

لكن أعظم مصيبة هى مصيبة الدين ... نسأل الله أن يثبتنا على دينه الحق فإذا أُصيب الإنسان بدينه والعياذ بالله فهذه أعظم مصيبة.

والمصائب فى الدين مثل المصائب فى البدن ... هناك مصائب خفيفة فى البدن كالزكام والصداع اليسير وما أشبه ذلك وهناك مصائب فى الدين خفيفة كشىء من المعاصى وهناك مصائب فى الدين مُهلكة مثل الكفر والشرك والشك وما أشبه ذلك ... هذه مهلكة مثل الموت للبدن.

فأنت تسأل الله ألا يجعل مصيبتك فى دينك.

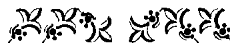
أما المصائب التى دون الدين فإنها سهلة فإن المُصاب مَن حُرم الثواب نسأل الله العافية.

«ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا بذنوبنا مَن لا يرحمنا» فلا تجعل الدنيا أكبر همنا بل اجعل الآخرة أكبر همنا ولا ننسى نصيبنا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٩٦) كتاب الزكاة، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

من الدنيا فلا بد للإنسان من الدنيا لكن لا تكون الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه بل يسأل الله أن يجعل مبلغ علمه علم الآخرة أما علم الدنيا وما يتعلق بها فهذه مهما كانت فإنها ستزول.

«ولا تُسلط علينا مَن لا يرحمنا» لا تُسلط علينا أحدًا من خلقك لا يرحمنا[1] .. والعبد إنما يتسلط عليه الظالم بسبب ذنوبه وآثامه ... فهيا بنا نتوب ونرجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ حتى لا يتسلط علينا مَن لا يرحمنا .. وحتى نفوز بمغفرة الله ورحمته وجنته ورضوانه.



(٨٣٩) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ قَوْمٍ يَقومونَ مِن مَجْلسٍ لا يَذْكُرُون الله تعالى فيه إلا قَاموا عنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمارٍ، وكانَ لهُمْ حَسْرَةً»[2].

(٨٤٠) وعنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لم يَذْكروا الله تَعالَى فيه ولم يُصَلُّوا على نَبِيِّهم إلا كان عليْهم تِرةً، فإنْ شاءَ عذَّبَهُم، وإن شاء غَفَرَ لهم»[3].

(٨٤١) وعنه عن رسول الله ﷺ: «مَن قعَدَ مَقْعَدًا لم يَذْكُرِ الله تعالى فيهِ كانَت عليه مِن الله تِرَة، ومَن اضطَجَعَ مُضْطَجعًا لا يَذْكرُ الله تعالى فيه كانْتَ عليهِ مِن الله تِرَةً»[4].

وقد سبق قريبًا، وشَرَحنَا «التِّرَةَ» فيه.

۞ ذكرنا قبل ذلك أنه ليس هناك لذة أعظم من لذة الانشغال بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ .. والانشغال بذكر الله...فقد قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فمن أحب أحدًا أكثر من ذكره.

ولله المثل الأعلى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾.

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٥١٠-٥١٢) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٥٠).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٠٧).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٧).

فنحن نعلم أن الذى يحب لاعبًا يُكثر من ذكره وسيرته وأهدافه وبطولاته بين أصحابه .. وينشرح صدره لو وجد مَن يُحب هذا اللاعب مثله ويشجع نفس الفريق ... بل من الممكن أن يعقد ولاءه للمسلم الذى يشجع نفس الفريق ويتبرأ من المسلم الذى يشجع الفريق المنافس.. وهذا بلا شك خلل فى العقيدة.

۞ ولله المثل الأعلى ... فإن كان هذا حال مَن أحب لاعبًا أو فنانًا .. فما ظنك بمن أحب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فينبغى علينا أن تلهج ألسنتنا بذكر الله ليلًا ونهارًا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] ... هكذا يكون حال المسلم .. يذكر الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه والتحاكم لشريعته ومحبة أوليائه وكراهية أعدائه والدفاع عن شرعه ودينه وألا يفتر عن ذكره لحظة واحدة.. فمثل هذا يكون جزاؤه أن يذكره الله من فوق سبع سماوات: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] .. وكما قال تعالى: «**لا يَذْكُرُنِى عَبْدٌ فِى نَفْسِهِ إِلَّا ذَكَرْتُهُ فِى مَلَإٍ مِنْ مَلَائِكَتِى، وَلا يَذْكُرُنِى فِى مَلَإٍ إِلَّا ذَكَرْتُهُ فِى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**»(١).

۞ وفى تلك الأحاديث يوضح الحبيب المصطفى مغبة الغفلة عن ذكر الله وعن الصلاة على رسول الله ﷺ.

ففى الحديث الأول يخبر النبى ﷺ أنه «**ما مِنْ قَوْمٍ يَقومونَ مِن مَجْلسٍ لا يَذْكُرُون الله تعالى فيه إلا قَاموا عنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمارٍ**»، فمن المعلوم أن الإنسان إذا دُعى إلى وليمة فلا بد أن يكون فيها أشهى أنواع الأطعمة .. لكن الذين غفلوا عن ذكره قاموا من مجلسهم وكأنهم كانوا مدعوين ليأكلوا حمارًا مُنتنًا..

فإذا كان هذا حالهم فى الدنيا .. فماذا يكون حالهم يوم القيامة؟ .. يكون

---

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٥).

عليهم حسرة يوم القيامة.

ولذلك كان من أسماء يوم القيامة «يوم التغابن» فكل مَن غفل عن طاعة الله وذكره يرى نفسه يوم القيامة مغبونًا منقوصًا من حقه.

۞ وفى الحديث الثانى يُخبر النبى ﷺ أنهم إن جلسوا مجلسًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على رسول الله ﷺ كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة .. وهم فى ذلك الوقت فى مشيئة الله .. إن شاء عذَّبهم بسبب غفلتهم عن ذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ .. وإن شاء غفر لهم ... ولماذا يُعذبهم؟ لأنهم كان فى حياتهم أشياء أهم وأغلى عندهم من الله ورسوله ﷺ .. فانشغلوا بالكلام عن النعم ونسوا صاحب النعم فلم يذكروه .. ونسوا الذى عرَّفهم بالمُنعم وهو رسول الله ﷺ .. فكان الجزاء من جنس العمل.

۞ وفى الحديث الثالث يخبر النبى ﷺ بنفس الكلام إلا أنه زاد هذه الجملة «**وَمَن اضطَجَعَ مُضْطَجعًا لا يَذْكُرُ الله تعالى فيه كانْتَ عليهِ مِن الله تِرَةً**» أى: حسرة.

وهل الإنسان يذكر الله وهو مضطجع؟ .. بلى .. أما سمعت قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١] .

أما علمت أن المسلم قبل أن ينام وهو مضطجع يقرأ أذكار النوم وينام على ذكر الله .. وإذا استيقظ فإنه يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

۞ لكن لا بد أن نعلم أنه ليس المقصود من تلك الأحاديث أن يجتمع الناس على ذكرٍ جماعى فى مجلس .. فهذا يُخالف هدى النبى ﷺ .. بل المقصود أننا إذا جلسنا مجلسًا فيقوم أحدنا ويُذكرنا بنعم الله علينا .. فنكون بذلك ذاكرين لله عَزَّ وَجَلَّ.

أو يقوم أحدنا بتفسير آية من القرآن أو شرح حديث من السُّنَّة أو بتدريس حكم فقهى أو ذكر موقفٍ من سيرة الرسول ﷺ أو ترجمة لصحابى من



أصحاب الرسول أو نتعلم ترتيل بعض الآيات القرآنية وأن نُذكر أنفسنا بفضل الصلاة على رسول الله ﷺ ... فنكون بذلك قد ذكرنا الله وصلينا على رسول الله ﷺ .. فإن فعلنا ذلك كان أمانًا لنا من الحسرة فى الدنيا والآخرة وكان نورًا لنا فى الدنيا وثوابًا ونورًا يوم القيامة.

۞ ولا مانع أن نتكلم أحيانًا فى بعض مصالحنا الدنيوية .. فليس هناك أى مانع من ذلك .. فإذا انتهى المجلس وأردنا أن نقوم فعلينا أن يقول كل واحدٍ منا كفارة المجلس «**سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**».

وفى هذه الأحاديث الثلاثة دليل على أنه ينبغى للإنسان ألا يترك مجلسًا ولا مضجعًا إلا يذكر الله تعالى فيه ... حتى يكون ممن قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١].



(١٣٠) باب الرؤيا وما يتعلق بها

۞ قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم: ٢٣].

(٨٤٢) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «لم يَبْقَ مِن النُّبُوَّة إلا المُبَشِّراتُ» قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قال: «الرؤيَا الصَّالِحةُ»[1].

(٨٤٣) وعنه أن النبىَّ ﷺ قال: «إذا اقترَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَد رُؤيَا المؤمِن تكذبُ، ورُؤيَا المؤْمِنِ جُزْءٌ مِن سِتَّةٍ وأربعين جُزْءًا مِن النُّبُوَّةِ»[2].

وفى رواية: «أصدَقُكُمْ رُؤيا أصدَقُكُم حَديثًا».

۞ الرؤى والأحلام فى المنام لها معانٍ وأحكام، منها ما هو صادق كفلق الصبح، ومنها ما هو كاذب، ومنها أضغاث أحلام وأحاديث نفس.

وقد أخبر النبى ﷺ أخبارًا عن الرؤى تتعلق بأشراط الساعة وعلاماتها.

والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لا يَبْقَى بَعدِى مِنَ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ، إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الرَّجُلُ، أَوْ تُرَى لَهُ»[3].

وصِدقُ الرؤيا وكونها بشارة للمؤمن هى علامة على قرب الساعة ونهاية العالم حيث تكون الرؤيا أكثر صدقًا ومطابقة للواقع والمؤمن أكثر صلاحًا وغُربة بين الناس وكأن الرؤيا أنيسٌ له لمَّا أصبح غريبًا بين الناس فقلما تكذب رؤياه.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٩٩٠) كتاب التعبير.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠١٧) كتاب التعبير، ومسلم (٢٢٦٣) كتاب الرؤيا.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٢٩)، وقال الهيثمى (٧/ ١٧٢): رجاله رجال الصحيح، وقال الألبانى فى الإرواء تحت حديث (٢٤٧٣): وهذا إسناد جيد على شرط مسلم.

قال ﷺ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ، لَمْ تَكَد رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ، وَأَصدَقُهُمْ رُؤْيَا أَصدَقُهُمْ حَدِيثًا، وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَربَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللهِ، وَرُؤْيَا تَحزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرءُ نَفْسَهُ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ وَلْيَتْفُلْ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ، وَأُحِبُّ الْقَيْدَ وَأَكْرَهُ الْغُلَّ وَالْقَيْدُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ»[1][2].

هذا لفظ مسلم.

ولفظ البخاري: « لَمْ تَكَد رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ، ... وَمَا كَانَ مِنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ ».

قَالَ ابن أَبِي جَمْرَةَ: «مَعنَى كَوْنِ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَا تَكَادُ تَكْذِبُ: أَنَّهَا تَقَعُ غَالِبًا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي لَا يَحتَاجُ إِلَى تَعبِيرٍ، فَلَا يَدخُلُهَا الْكَذِبُ؛ بِخِلَافِ مَا قَبْلَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهَا قَد يَخْفَى تَأْوِيلُهَا فَيُعَبِّرُهَا الْعَابِرُ، فَلَا تَقَعُ كَمَا قَالَ، فَيَصدُقُ دُخُولُ الْكَذِبِ فِيهَا بِهَذَا الِاعتِبَارِ».

قَالَ: «وَالْحِكْمَةُ فِي اخْتِصَاصِ ذَلِكَ بِآخِرِ الزَّمَانِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَكُونُ غَرِيبًا؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا»[3]، فَيَقِلُّ أَنِيسُ الْمُؤْمِنِ وَمُعِينُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَيُكَرَّمُ بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ»[4].

۞ وقد يخطر على بال أحدنا أن يقول: ما معنى «رؤيا المؤمن جزءٌ من ستةٍ وأربعين جُزءًا من النبوة»؟

والجواب: أنه وجه كونها جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة: أنه ﷺ بقي حسبما أشارت عائشة رضي الله عنها ستة أشهر يرى الوحي منامًا، ثم جاءه الملك يقظة...

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠١٧) كتاب التعبير، ومسلم (٢٢٦٣) كتاب الرؤيا.

(٢) نهاية العالم (ص ١١٥-١١٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٤٦) كتاب الإيمان.

(٤) «فتح الباري» (١٢/ ٤٠٦).

وستة أشهر بالنسبة إلى ثلاثٍ وعشرين سنة تُعتبر جزءًا من ستة وأربعين جزءًا، ولا تنسَ أن كون الرؤيا الصادقة جزءًا مما ذُكر إنما هو اعتبار صدقها لا غير، وإلا لساغ لصاحبها أن يُسمَّى نبيًّا وليس كذلك.

هكذا أفادنا الحافظ العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ... وعليه، فلا تكون الرؤيا مبدأً للنبوة ولكن تُعَدُّ من مقدماتها، فالظاهر لنا أن رؤى الأنبياء المنامية قبل نبوتهم هى من قبيل الإرهاصات التى تكون قبل النبوة، أى: قبل الزمن الذى يتأهل فيه النبى لقبول الوحى فى اليقظة، وأما رؤياهم فى المنام بعد النبوة بالفعل، فهى وحىٌ صريح، كما نتعلمه من حادثة رؤيا إبراهيم المنامية فى شأن ولده الذبيح.

والخلاصة: أن رؤيا الأنبياء حال نبوتهم نوع من أنواع الوحى، ورؤياهم قبل نبوتهم هى كسائر رؤى أهل الصلاح والخير، تُعَدُّ من أنواع المبشرات لا من قبيل الوحى.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وقد ورد فى الحديث(١): أن البشرى فى الحياة الدنيا هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له.

۞ وقد اختلف العلماء فى تحديد الزمن الذى يقع فيه صدق رؤيا المؤمن على أقوال(٢):

الأول: أَنَّ ذلكَ يقع إِذَا اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، وَقُبِضَ أَكْثَرُ الْعِلْمِ، وَدَرَسَتْ مَعَالِمُ الشريعة؛ بسبب الفِتن وَكَثْرَة القَتل، وأصبَحَ النَّاسُ عَلَى مِثْلِ الْفَتْرَةِ، فَهُمْ مُحتَاجُونَ إِلَى مُجَدِّدٍ وَمُذَكِّرٍ لِمَا دَرَسَ مِنَ الدِّينِ؛ كَمَا كَانَتِ الْأُمَمُ تُذَكَّرُ

---

(١) حسن: رواه أحمد، والطحاوى فى مشكل الآثار، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٧٨٦).

(٢) انظر: «فتح البارى» (١٢/ ٤٠٦-٤٠٧).

بِالْأَنْبِيَاءِ... لَكِنْ لَمَّا كَانَ نَبِيُّنَا ﷺ آخِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وتعذَّرت النُّبُوَّة في هذه الأُمَّة؛ فَإِنَّهُمْ يُعَوَّضُون بِالمَرائي الصَّادِقةِ، الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنَ النُّبُوَّةِ الْآتِيَةِ بِالتَّبْشِيرِ وَالْإِنْذَارِ... وَيُؤَيِّدُ هَذَا القول حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ**»(١).... ورجح ابن حجر هذا القول.

الثَّاني: أن ذلك يقع عند قلَّة عدد المؤمنين، وغَلَبة الكفر والجهل والفسق على الموجودين، فيؤنَس المؤمن، ويُعان بالرؤيا الصَّادقة؛ إكرامًا له وتسلية.

وهذا القول قريبٌ من قول ابن أبي جمرة السابق... وعلى هذين القولين لا يختصُّ صدق رؤيا المؤمن بزمانٍ مُعيَّن، بل كلما قرب فراغ الدنيا، وأخذ أمر الدين في الاضمحلال؛ تكون رؤيا المؤمن الصادق صادقة.

الثالث: أن ذلك خاصٌّ بزمان عيسى ابن مريم عليه السلام؛ لأن أهل زمانه أحسن هذه الأمة حالًا بعد الصدر الأول، وأصدقهم أقوالًا، فكانت رؤياهم لا تُكَذَّب. والله أعلم(٢).



(٨٤٤) وعن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن رآني في المَنامِ فسَيَراني في اليَقَظَةِ أَوْ كأَنَّما رآني في اليَقَظَةِ لا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطانُ بي»(٣).

۞ فهذا الحديث يدل على أن مَن رأى النبي ﷺ في المنام فهذا دليل على قدر الإيمان في قلبه... فالإنسان المؤمن يرى النبي ﷺ بصفاته (صلوات الله وسلامه عليه) التي كان عليها في الدنيا، سواءً رآه صغيرًا في السن أو كبيرًا في السن، شابًّا أو شيخًا، فهي مراحل مَرَّ بها النبي (صلوات الله وسلامه عليه)، ولها تأويلات عند علماء الرؤى.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٧) (١١) كتاب العلم.

(٢) أشراط الساعة (١٨٨-١٩٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٩٩٣) كتاب التعبير، ومسلم (٢٢٦٦) كتاب الرؤيا.

فالغرض: أن الذى يرى النبى ﷺ فى المنام، يبشره النبى ﷺ أنه سيراه يوم القيامة... يعنى: لن يكون بعيدًا عن النبى ﷺ، بل سيكون قريبًا منه ﷺ يوم القيامة.

والأمر الثانى: أنها رؤيا حق... رأى النبى ﷺ صدقًا فى هذا المنام.

قال: «**فسيرانى فى اليقظة**»، وليس معناه: فى الدنيا؛ لأن النبى ﷺ تُوفى، وانتهى أمر الدنيا بالنسبة للنبى ﷺ وهو الآن فى البرزخ فى حياة برزخية، ليست لها صلة بالدنيا فى شىء، لكن الذى رآه فى المنام فسيراه، يعنى: يوم القيامة يكون مع النبى ﷺ، ويكون إمامه النبى (صلوات الله وسلامه عليه).

«**مَن رآنى فى المنام كأنما رآنى فى اليقظة، لا يتمثل الشيطان بى**» فجعل الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ خصيصة ومزية من المزايا أن الشيطان لا يتمثل به... فالشيطان لا يتشكل بشكل النبى ﷺ، ومعلوم أن الشيطان يقدر على التشكُّل بصور بنى آدم... يتشكل فى صورة امرأة، ويتشكل فى صورة رجل، ويتشكل فى صورة فلان أو فلان، ويتشكل فى صورة ثعبان... فالشيطان أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ القدرة على ذلك ليفتن العباد، وخاصة فى المنام ... يفعل ذلك، ولكنه لا يستطيع أن يتشكل فى هيئة النبى (صلوات الله وسلامه عليه)، ولا يقول للإنسان فى منامه: أنا محمد ﷺ... فعلى ذلك فالذى يرى النبى ﷺ فى المنام فقد رأى الحق، وأنه سيرى النبى ﷺ أيضًا يوم القيامة[1].

۞ فإذا رأى الإنسان شخصًا ووقع فى نفسه أنه النبى ﷺ فليبحث عن أوصاف هذا الذى رآه.. هل تطابق أوصاف النبى (عليه الصلاة والسلام)؟

فإن لم تُطابق أوصاف النبى ﷺ فليس النبى ﷺ وإنما هذه أوهام من الشيطان أوقع فى نفس النائم أن هذا هو الرسول ﷺ وليس هو الرسول.

---

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ أحمد حطيبة.

ثم إن من المهم ألا نعتمد على ما يُوجَد فى بعض الكتب ككتاب الأحلام لابن سيرين وما أشبهها فإن ذلك خطأ وذلك لأن الرؤيا تختلف بحسب الرائى وبحسب الزمان وبحسب المكان وبحسب الأحوال.

يعنى ربما يرى الشخص رؤيا فنُفسرها له بتفسير ويرى آخر رؤيا هى نفس الرؤيا فنفسرها له بتفسيرٍ آخر غير الأول وذلك لأن هذا رأى ما يليق به وهذا رأى ما يليق به أو لأن الحال تقتضى أن نفسر هذه الرؤيا بهذا التفسير.

(٨٤٥) وعن أبى سعيد الخدرىِّ رضي الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا رأى أحدُكُم رُؤيَا يُحبُّها فإنَّما هى مِن الله تعالى فليَحمَدِ الله عليهَا وليُحدِّثْ بها».

وفى روايةٍ: «فلا يُحَدِّثْ بها إلا مَن يُحِبُّ، وإذا رأى غَيْرَ ذلك ممَّا يَكْرَهُ فإنَّما هى مِن الشَّيْطانِ فليَسْتَعِذْ مِن شَرِّها ولا يذْكرها لأحدٍ فإنها لا تَضُرُّه»[١].

(٨٤٦) وعن أبى قتادة رضي الله عنه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «الرُّؤيا الصَّالِحةُ - وفى رواية: الرؤيا الحسَنَةُ - مِن الله، والحُلْم مِن الشَّيْطان، فمَن رأى شيئًا يَكْرَهُهُ فَليَنْفُثْ عن شِمالِه ثلاثًا، وليَتَعوَّذْ مِن الشَّيْطان فإنها لا تَضُرُّهُ»[٢].

(٨٤٧) وعن جابر رضي الله عنه عن رسوْلِ الله ﷺ قال: «إذَا رأى أحدُكُم الرُّؤيا يَكْرَهُها فلْيَبصُق عن يَسارِه ثلاثًا، وليَسْتَعِذْ بالله مِن الشَّيْطانِ ثلاثًا، وليَتَحوَّل عَن جَنْبِه الذى كان عليه»[٣].

۞ الرؤيا يعنى رؤيا المنام ... فالإنسان إذا نام فإن الله تعالى يتوفى روحه لكنها وفاة صغرى كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٩٨٥) كتاب التعبير، ولم يروه مسلم عن أبى سعيد الخدرى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩٩٥) كتاب التعبير، ومسلم (٢٢٦١) كتاب الرؤيا.

«النَّفثُ»: نفخٌ لطيفٌ لا رِيقَ معهُ.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٦٢) كتاب الرؤيا.

جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [الأنعام:٦٠] وقال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢].

وهذه الوفاة الصغرى تذهب فيها الروح إلى حيث يشاء الله.

ولهذا كان من أذكار المنام أن نقول: «اللهم بك وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت روحى فاغفر لها وارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

ثم إن الروح فى هذه الحال ترى منامات ومَرائى تنقسم إلى ثلاثة أقسام: رؤيا محبوبة ورؤيا مكروهة ورؤيا عبارة عن أشياء ليس لها معنى وليس لها هدف قد تكون من تَلاعُب الشيطان وقد تكون من حديث النفس وقد تكون من أسبابٍ أخرى.

القسم الأول: الرؤيا الصالحة الحسنة: وهى إذا رأى الإنسان ما يحب فهذه من الله عَزَّوَجَلَّ وهى نعمة الله على الإنسان أن يُريه ما يحب لأنه إذا رأى ما يحب نَشِطَ وفَرِحَ وصار هذا من البشرى ... فمن عاجل بُشرى المؤمن الرؤيا الصالحة يراها أو تُرى له ولهذا قال النبى ﷺ: «**لم يبقَ من النبوة إلا المبشرات**» الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو تُرى له...هذه بشرى وخير وهى من الله عَزَّوَجَلَّ.

القسم الثانى: الحُلم أو الرؤيا المكروهة وهى من الشيطان والغالب أنه يكون فيما يكره الإنسان... أى أن الشيطان يُرى الإنسان بعض الأشياء التى تزعجه حتى يفزع ويتكدر ويحزن وربما يمرض... لأن الشيطان عدو للإنسان يحب ما يسوء الإنسان وما يُحزنه... قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلة:١٠].

فالحُلم هو هذا الذى يراه الإنسان فى منامه يكرهه ويُزعجه ... ولكن من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل لكل داءٍ دواءً.

ودواء الحُلم فيما يلي:

أولًا: أن يَبصُق الإنسان على يساره ثلاث مرات ويستعيذ بالله من شر الشيطان ثلاث مرات ومن شر ما رأى ويقول: أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت ثلاث مرات ويتحول إلى الجانب الثانى فإذا كان على جنبه الأيسر يتحول إلى الأيمن وإذا كان على الأيمن يتحول إلى الأيسر.

ثانيًا: وإذا لم ينفع هذا يعنى لو أنه تحول عن جنبه الأول إلى الثانى ثم عادت هذه الرؤيا التى يكرهها فليقم ويتوضأ ويصلى.

ولا يخبر بها أحدًا ... فلا يقول رأيت ورأيت ولا يذهب إلى الناس يُعبرونها له.. ولا يذهب إلى أحدٍ يفسرها فإنها لا تضره أبدًا.

أما القسم الثالث: وهو الذى ليس له هدف مُعين فهذا أحيانًا يكون من حديث النفس حين يكون الإنسان مُتعلقًا قلبه بشىءٍ من الأشياء يفكر فيه وينشغل به ثم يراه فى المنام... أو أحيانًا يلعب به الشيطان فى منامه فيُريه أشياءً ليس لها معنى كما ذكر رجل للنبى ﷺ قال: يا رسول الله رأيت فى المنام أن رأسى قد قُطع وذهب رأسى يركض وأنا أسعى وراءه... فقال النبى ﷺ: «**لا تُحدث الناس بتلعُّب الشيطان بك فى منامك**» فهذا ليس له معنى... رأسى يُقطع ويركض الرأس وهذا يركض بجسده وراءه هذا ليس له معنى[١].

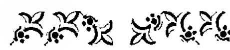
۞ وقد يسأل سائلٌ ويقول: هل الرؤيا تُحرم حلالًا أو تُحل حرامًا أو يترتب عليها حكمٌ شرعى؟

والجواب: أن الرؤيا المنامية ولو كانت صحيحة وحقًّا، فهى لا تُحرم حلالًا، ولا تُحل حرامًا، ولا يترتب عليها حكم شرعى ... وقد حُكى أن رجلًا صالحًا فقيرًا رأى رؤيا: أن النبى ﷺ جاءه فى نومه وقال له: إن فى موضع كذا

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

رِكازًا[١]، احضر وخذه، ولا تُؤدِّ خُمسه، فقام من نومه صباحًا، وأخذ ما يقتضى لحفر الأرض، فاطَّلع على الرِّكاز، فذهب إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام يستفتيه فى عدم إعطاء خُمسه لبيت المال، حسب ما قال له النبى ﷺ منامًا... فقال له الشيخ عز الدين: يجب عليك أن تؤدى خُمسه لبيت المال، كما أفتانا النبى ﷺ يقظة، وفتواه فى اليقظة مُقدمة على فتواه فى المنام... نعم إن رؤيا النبى حق، ولكن يحتمل عدم ضبط الألفاظ تمامًا، فلعله قال لك: وأدِّ خُمسه لبيت المال. وأنت سمعته يقول: ولا تؤدِّ خُمسه.

وهكذا قال الفقهاء: لو اختلف المسلمون فى آخر يوم من شعبان: هل غدًا من رمضان أم لا؟ ثم رأى رجلٌ النبى ﷺ فى نومه، وسمعه يقول له: «إن غدًا أول يوم من رمضان، فصُمه، وأؤمر الناس بصيامه، لا يجب عليه صيامه؛ لأن الرؤيا التى فى المنام، لا يترتب عليها شيء من الأحكام الشرعية، ولو كانت حقًّا وصحيحة... هذا إذا كانت لغير الأنبياء أنفسهم، وأما رؤيا الأنبياء أنفسهم.. أى إذا رأى النبى ﷺ الرؤيا بنفسه فهى وحى كما فى اليقظة، تترتب عليها الأحكام الشرعية بلا خلاف»[٢].



(٨٤٨) وعن أبى الأسقع واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ مِن أعظم الفِرَى أن يَدَّعى الرَّجُلُ إلى غيرِ أبيه، أوْ يُرى عَيْنَهُ مَا لم تَرَ، أوْ يقولَ على رسول الله ﷺ ما لَمْ يَقُلْ»[٣].

۞ ففى هذا الحديث يحذر النبى ﷺ أشد التحذير ممن يفعل واحدة من تلك الأشياء الثلاثة ... فقال ﷺ: **«إنَّ مِن أعظم الفِرَى أن يَدَّعى الرَّجُلُ إلى غيرِ**

---

(١) الركاز: الكنوز المدفونة تحت الأرض.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/ ١٧٦-١٨١) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٥٠٩) كتاب المناقب.

أبيه » والفِرى: جمع فرية وهى الكذبة الكبيرة العظيمة .. فمن أكبر أنواع الكذب .. أن يدَّعى الرجل إلى غير أبيه ... يعنى: يقول الإنسان: أنا فلان بن فلان، ويتسمى باسم رجل غير أبيه، مثل كثير من الممثلين وغيرهم، تجد أحدهم له اسمان: اسم فى البطاقة، واسم أمام الناس! فمن أعظم الكذب أن الإنسان يتسمى لغير أبيه.

وإنما صار أعظم لأنه افتراء على الله تعالى لأن المُدَّعى إلى غير أبيه كأنه يقول: خلقنى الله من ماء فلان وإنما خلقه من ماء غيره.

وقد وردت أحاديث كثيرة توضح لنا عاقبة مَن يفعل ذلك:

عن سعد رضي الله عنه **قال:** قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ ادَّعَى إلَى غَيرِ أَبيهِ وَهُوَ يَعلَمُ أَنَّهُ غير أبيه، فَالجَنَّة عَليهِ حَرَامٌ»**[1].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه **عن النبى** ﷺ **قال: «لا تَرغبُوا عن آبائكُمْ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كَافِرٌ»**[2].

وفيه أيضًا: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيرِ أَبيهِ أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيرِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيهِ لَعنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[3].

وعن أبى ذر رضي الله عنه أنَّه سَمِعَ النبى ﷺ يَقُول: **«لَيسَ مِن رجل ادَّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادَّعى مَا لَيسَ لَهُ، فليسَ مِنَّا وليتبوأ مقعده من النار، ومَن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك، إلا حار عليه»**[4] [أى رجع عليه].

❁ **«أو يُرى عينه ما لم ترَ» .. فهذا أيضًا من أعظم أنواع الكذب.**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٣٢٧) كتاب المغازى، ومسلم (٦٣) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٦٨) كتاب الفرائض، ومسلم (٦٢) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣٧٠) كتاب الحج.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٦١) كتاب الإيمان.

وجاء فى حديث آخر أن هذا الإنسان يُعذَّب فى النار... الذى يكذب فيؤلف أنه رأى بالبارحة وهو لم يرَ شيئًا .. يُكلَّف أن يعقد بين شعيرتين فى النار من أجل أن يخرج منها... والمعنى: أنه لن يخرج من النار والعياذ بالله؛ لأنه يكذب على الله سبحانه.

والرؤيا وحى من الله... والذى يختلق شيئًا فى منامه فإنه يكذب على مقام النبوة، وعلى مقام الوحى من الله سبحانه وتعالى... فلذلك أخبر أنه مَن أرى عينيه ما لم تَرياه يُكلَّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وما هو بعاقد، يعنى: يُقال له: أنت داخل النار، وإذا أردت أن تخرج منها فاربط بين شعيرتين، ومَن يربط شعيرة فى شعيرة أخرى؟! يستحيل هذا الشىء، فهو يُعذَّب بسبب كذبه... فاحذر أن تكذب فى الرؤيا، أو أن ابنك يكذب عليك ويقول: أنا رأيت فى البارحة كذا وكذا، فعليك أن تُحذره من أن يكذب فى المنام.

فالمنام من الله سبحانه وتعالى، وله مَلَكٌ مخصوص يجعل هذا الإنسان يرى أشياءً.. والنوم هو الموتة الصغرى، والموت هو أن روح الإنسان تتجول فى أنحاء الكون بحسب ما يشاء الله سبحانه وتعالى فى وقت نوم الإنسان.

لذلك مَن يُحدِّث فيكذب فيها فإنه يستحق العذاب يوم القيامة على كذبه، لأنه كذب على المَلَك.

لأن ما يراه النائم إنما يراه بإراءة المَلَك... والكذب عليه كذب على الله. وفى البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**مَن تحلَّم بحلمٍ لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل**». قال الطبرانى: إنما أسند الوعيد على الكذب فى المنام مع أن الكذب فى اليقظة أشد مفسدة منه، إذ قد يكون شهادة فى قتل أحدٍ أو أخذ مال، قال: لأن الكذب فى المنام كذب على الله أنه أراه ما لم يره، والكذب على الله أشد من الكذب على المخلوقين، وإنما كان الكذب فى المنام

كذبًا على الله لحديث «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**» فهو من قِبَلِ الله.. اهـ[١].

۞ وحتى تكون الرؤيا رؤيا صالحة وصادقة وبشارة للإنسان المؤمن فإن شرطه أن يكون صادقًا... أتريد أن تكون لك رؤيا صالحة تراها ومبشرات؟ كن صادقًا فى حديثك ولا تكذب على أحدٍ من الناس، فإذا كنت كذلك أراك الله سبحانه وتعالى الرؤيا الصالحة... ومن أعظم ما ترى أن ترى النبى (صلوات الله وسلامه عليه) فى المنام.

وقد كان النبى ﷺ قبل أن يُوحَى إليه أول ما بدأ به الرؤيا الصادقة.

وكان ذلك قبل أن تنزل عليه الرسالة، كان يرى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكان الكفار يُلقبونه الصادق الأمين (عليه الصلاة والسلام)، فكان يرى هذه الرؤى الصالحة فإذا أصبح تحقق الذى رآه... ففى الحديث المتفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان أول ما بدأ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، ثم بعد ذلك نزل عليه الوحى من السماء).

۞ «أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يَقُل» وهذا كحال من ينسب للنبى ﷺ حديثًا لم يقله .. أو ينفى عنه حديثًا ثابتًا عنه ﷺ .. وقد ورد فى وعيد مَن يفعل ذلك أن النبى ﷺ قال: «**مَن كذب علىَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[٢].

۞ فالكاذب يُكتب عند الله كذَّابًا ويتحلَّى بصفة من صفات النفاق العملى: «**وإذا حدَّث كذب**» ويُعذَّب فى قبره - والعياذ بالله- ويوم القيامة يكون من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذابٌ أليم .... بل إنه

---

(١) دليل الفالحين (٣/ ٢٨٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٠) كتاب العلم، ومسلم (٣) كتاب المقدمة.

يُفضح يوم القيامة بوجهه الأسود ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

بل ويفضحهم الأشهاد بين الناس فى أرض المحشر ويقولون: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ١٨].

۞ وفى النهاية فمثواه فى النار - إن لم يتب ويرجع إلى الله - ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨].

۞ فاللهم ارزقنا الصدق فى الأقوال والأعمال والأحوال ونجنا من الكذب برحمتك يا أرحم الراحمين.





(٥) كتاب السلام

(١٣١) باب فضل السلام والأمر بإفشائه

۞ ما أجمل أن يكون السلام هو لغة القلوب بين الناس فى كل أقطار الأرض.. وما أجمل أن يسود السلام وتنتشر المحبة وتصفو القلوب وتتصافح.

لقد جعل الحق (جل وعلا) السلام اسمًا من أسمائه الحسنى.. فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر: ٢٣]، وسَمَّى الجنة التى هى عاقبة المتقين «دار السلام» فقال سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وفى الحديث: «**السلام اسم من أسماء الله فأفشوه بينكم**»(١).

وجعله رب العالمين تحية لآدم أبى البشر، وزفَّتها إليه ملائكته الأطهار، وصارت تحية ذريته من بعده...قال ﷺ: «**لما خلق الله آدم** عليه السلام **قال: اذهب فسلِّم على أولئك** - أى الملائكة - **فاستمع ما يُحيونك، فإنها تحيتك، وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوا - ورحمة الله**»(٢).

بل وجعله سبحانه وتعالى تحية أهل الجنة... قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]، والملائكة يحيونهم فى الجنة بالسلام... كما قال السلام عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

وحين جاءت الملائكة بالبشرى لخليل الرحمن عليه السلام حيوه بالسلام..﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[الذاريات:٢٤، ٢٥].

---

(١) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٣٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٢٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٤١) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

ووصف سبحانه أعظم ليلة وأفضلها وأكرمها (ليلة القدر) بأنها ليلة السلام... فقال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

وكرر سبحانه وتعالى السلام على أنبيائه ورسله تكريمًا لذكرهم، وتخليدًا لأعمالهم وتعريفًا بفضلهم، فقال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، وسلم على يحيى بن زكريا فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

والسلام بمعنى: الدعاء بالسلامة من كل آفة، فإذا قلت لشخص: (السلام عليك) فهذا يعنى أنك تدعو له بأن الله يُسلِّمه من كل آفة: يُسلمه من المرض، ومن الجنون، ويُسلمه من شر الناس، ويسلمه من المعاصى وأمراض القلوب، ويسلمه من النار.... فهو لفظٌ عام، معناه: الدعاء للمُسَلَّم عليه بالسلامة من كل آفة.

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من محبتهم لله عَزَّ وَجَلَّ كانوا يقولون فى صلاتهم: السلام على الله من عباده، السلام على جبريل، السلام على فلان وفلان، فنهاهم النبى ﷺ أن يقولوا: السلام على الله، السلام على عباده، وقال: «**إن الله هو السلام**» يعنى: السالم من كل عيبٍ ونقصٍ عَزَّ وَجَلَّ فلا حاجة أن تُثنوا عليه بالدعاء بأن يُسَلِّمَ نفسه. ثم قال لهم: قولوا: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم ذلك سَلَّمتم على كل عبدٍ صالحٍ فى السماء والأرض**»[1].

ولا أدرى هل نحن نستحضر هذا إذا قلنا فى الصلاة: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**؟!» لا أدرى هل نحن نستحضر أننا نُسلم على أنفسنا، وعلى كل عبدٍ صالح فى السماء والأرض... يعنى نُسلم على الأنبياء، ونُسلم على الصحابة، ونُسلم على التابعين لهم بإحسان، ونُسلم على أصحاب الأنبياء،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٠٢) كتاب العمل في الصلاة، ومسلم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

كالحواريين أصحاب عيسى عليه السلام والذين اختارهم موسى عليه السلام... سبعين رجلاً، وغير ذلك؟! هل نحن نستحضر أننا نُسلم على جبريل وعلى ميكائيل وعلى إسرافيل وعلى مالك خازن النار وعلى خازن الجنة وعلى جميع الملائكة؟! لا أدرى هل نحن نستحضر هذا أم لا؟ إن كنا لا نستحضر فيجب أن نستحضر ذلك؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**إنكم إذا قلتم ذلك سلَّمتم على كل عبدٍ صالحٍ فى السماء والأرض**»(١).

۞ فيا أيها المسلمون الأفاضل:

إن ربكم السلام.. ورسولكم هو نبى السلام.. وقرآنكم هو كتاب السلام.. وتحيتكم هى السلام.. وإن مسعاكم إلى الجنة دار السلام.. وإن رسالتكم هى رسالة السلام.. فأشعروا أنفسكم روح السلام.. ليعمكم ربكم بنعمة السلام.... ورسولنا وحبيبنا محمد ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة، ووصل إلى هناك، وضع دستوره هناك.. لكن ماذا كان هذا الدستور؟

لقد كان دستورًا عظيمًا موجزًا.. لكنه يعطى الأمان والحب والإخلاص.. خطب يومها خطبة.. لم تكن ساعة ولا ساعتين.. وإنما كانت دقائق معدودة،... وهذا هو الصحابى الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه يقول:

لما قدم رسول الله المدينة استشرفه الناس، فخطب فيهم قائلاً: «**أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**»(٢).

والسلام يعمق جذور الحب بين المسلمين، ويُدخل الطمأنينة على الخائف منهم... قال ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَ لا**

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٦٥).

أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[(١)].

فإذا أردت أن تفعل أعظم وأفضل ما جاء به هذا الدين العظيم فعليك بإطعام الطعام، وإفشاء السلام،... قال النبي (عليه الصلاة والسلام) عندما جاءه رجل، فقال له: أي الإسلام خير؟ قال: «**تُطعم الطعام**» قال الرجل: ثم ماذا؟ فقال ﷺ: «**أن تقرأ السلام على مَن عرفت ومَن لم تعرف**»[(٢)].

وإذا أردت أخي الحبيب أن تدخل دار السلام، فعليك بكثرة إفشاء السلام... قال النبي ﷺ: «**إن في الجنة غُرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها**» قيل: لمن؟ قال: «**لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، ووصل الأرحام، وصلى بالليل والناس نيام**»[(٣)(٤)].

۞ وقد أورد المصنف عدة آيات في هذا الباب.. منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾ [النور: ٢٧].

يُرشد الباري (سبحانه وتعالى) عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم بغير استئذان. فإن في ذلك عدة مفاسد:

منها: ما ذكره الرسول ﷺ، حيث قال: «**إنما جُعل الاستئذان من أجل البصر**»[(٥)]. فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات، التي داخل البيوت... فإن البيت للإنسان، في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك، يُوجب الرِّيبة من الداخل، ويتهم بالشر، سرقة أو غيرها، لأن الدخول خُفية، يدل على الشر. ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.
(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.
(٣) **حسن**: رواه أحمد، وابن حبان، والبيهقي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٢٣).
(٤) موسوعة الآداب الإسلامية (ص٤٢٧، ٤٢٨).
(٥) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٢٤١) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٦) كتاب الآداب.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ أى: تستأذنوا... سمى الاستئذان استئناسًا، لأن به يَحصُل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة. ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وصفة ذلك، ما جاء فى الحديث «**السلام عليكم، أأدخل**»؟[1]

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أى: الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة... فإن أذن، دخل المستأذن[2].

۞ **ولذلك جاءت عن المفسرين بذلك أقاويل مضمونها**: أن تُطمئن أهل البيت بنحنحة عند الدخول، أو بذكر الله عَزَّوَجَلَّ بصوتٍ مرتفع، حتى يستشعر مَن بالداخل أن هناك إنسانًا بالخارج يريد أن يستأذن ويدخل، ثم تقول: «**السلام عليكم، أأدخل**»؟ فتُطمئن أهل البيت أنك ما جئت إلا لخير بهذا الإيناس، ثم تُطمئن أهل البيت ثانية بأن تقول: السلام عليكم، فتستأنس وتُسلم على أهل البيت.

وقد كان العرب فى الجاهلية يتركون التحية إذا قويت العلاقات فيما بينهم، فلعلَّ الرجل يأتى إلى أقربائه فيفتح الباب ويدخل ويجلس، ثم بعد ذلك يقول: قد دخلت! وقد أرادوا أن يفعلوها مع النبى ﷺ، فأمر الرجل أن يخرج وأن يُسلم ويستأذن من عند الباب ثم قال لمن معه: «**هلا علَّمتم هذا السلام؟**» فخرج الرجل وسلم على النبى ﷺ واستأذن قبل أن يدخل.

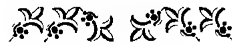
إذاً: لا يوجد شىء اسمه: أنا متعود عليك وأنت متعود علىَّ... بل لا بد من الاستئذان مهما كانت العلاقة بينى وبينك... يقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ومع هذه العلاقة القوية أُمروا أن يستأذنوا قبل دخولهم على النبى (صلوات الله وسلامه عليه)، وهو أيضًا (صلوات الله وسلامه عليه) الذى هو أولَى بالمؤمنين من أنفسهم، كان إذا ذهب إلى بيت سعد بن عبادة وقف خارج البيت وقال: «**السلام عليكم أأدخل؟**» فيرد أهل

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٨١٨).

(٢) تفسير السعدى (ص٦٥٨-٦٥٩).

البيت على النبي ﷺ سرًّا؛ لأنهم يريدون أن يستكثروا من سلامه ودعائه وتحيته (صلوات الله وسلامه عليه)، فيُسلِّم المرة الثانية وهم يردون عليه في سرهم، ثم سلَّم عليهم المرة الثالثة ﷺ ولم يدخل البيت، فخرج أهل البيت ونادوا على النبي ﷺ وقالوا: إنما أردنا الاستكثار من سلامك والبركة من وراء ذلك، فأخبرهم بأن الاستئذان ثلاث مرات فقط، وأن الإنسان ينصرف بعد ذلك.



۞ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور: ٦١].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ نكِرَةٌ في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان، وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا ... فإذا دخلها الإنسان ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: فَلْيُسلِّم بعضكم على بعض... لأن المسلمين، كأنهم شخصٌ واحد، مِن توادِّهم، وتَراحُمهم، وتَعاطُفهم. فالسلام مشروع، لدخول سائر البيوت، من غير فرقٍ، بين بيتٍ وبيت ... والاستئذان تَقدَّم أن فيه تفصيلًا في أحكامه.

ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت، ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة، والبركة، والنماء، والزيادة، ﴿طَيِّبَةً﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طِيبُ نفسٍ للمُحيَّا، ومحبة، وجلب مودة[1].

---

(١) تفسير السعدي (ص٦٧١).

۞ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]....

فالله يُعلمك أنه إذا حياك إنسان بتحية أن تُحييه بأحسن منها أو أن ترد هذه التحية، فإذا قال: السلام عليكم، فَرُدَّ عليه بأفضل منها: وعليك السلام ورحمة الله، أو مثلها: وعليك السلام، فإما أن تزيد وإما أن تردها كما هى بلا زيادة.

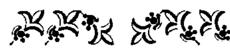
والسلام على المؤمن سُنة، وهو شيء مُستحبٌ عظيم، أما رَدُّ السلام ففرضٌ عليك طالما لا يوجد غيرك يرد السلام، فإذا كنتم مجموعة وحياكم شخصٌ مُعين فإن رَدَّ السلام حينئذ يكون فرضًا كفائيًا، أى: أنه إذا رَدَّ البعض سقط الإثم عن الجميع، ويُؤجَر هذا الذى رَدَّ... وإذا رَدَّ الجميع كلهم أخذوا الأجر على رَدِّهم.



وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات:٢٤]

فقد وصف الله أضياف إبراهيم بأنهم مُكرَمون كَرَّمهم الله... وكانوا ثلاثة من الملائكة...: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ [الذاريات:٢٥]، فسلموا على إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (٢٥)﴾ [الذاريات:٢٥] فكأنه رَدَّ عليهم السلام ثم قال فى نفسه: هؤلاء قوم مُنكَرون، لا أعرفهم، وكانوا حِسان الوجوه، فعجب من أمرهم وأنهم ليسوا من أهل هذه البلدة، فقال فى نفسه ذلك.

فدلَّ هذا على أن السلام من سُنن الرسل والملائكة أيضًا.



(٨٤٩) وعنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ، أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعامَ، وتَقْرأُ السَّلام على مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لمْ تَعرِف»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٥٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

(٨٥٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «لـمَّا خَلَقَ الله آدم ﷺ قال: اذْهَبْ فَسَلِّمْ علَى أُولئِكَ ـ نَفَرٍ مِن الملائكَةِ جُلُوسٌ ـ فاسْتَمِع ما يُحَيُّونَكَ فإنَّها تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ. فقال: السَّلامُ عَلَيْكُم، فقالوا: السَّلامُ عَلَيْكَ ورَحمَةُ الله، فزادُوهُ: ورَحمَةُ الله»[1]..

۞ ففي هذا الحديث أن الله عز وجل لما خلق آدم عليه السلام واستوى وأصبح إنسانًا كامل الخلقة والصورة قال له عز وجل: «اذهب فسلِّم على أولئك». نفرٍ من الملائكة جُلوسٌ-... فأمره أن يبدأ هو بالسلام لتتعلم ذريته من بعده أن يبدأ كل واحدٍ منهم أخاه بالسلام ولا ينتظر أن يُسلم عليه هو..

ثم قال له عز وجل: «فاسْتَمِع ما يُحَيُّونَكَ فإنَّها تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ». فذهب آدم عليه السلام امتثالًا لأمر الله عز وجل فسلَّم على الملائكة وقال لهم: «السَّلامُ عَلَيْكُم، فقالوا له: السَّلامُ عَلَيْكَ ورَحمَةُ الله، فزادُوهُ: ورَحمَةُ الله».

۞ ففي هذا الحديث دليل على:

(١) أن هذه الخليقة البشرية كانت من العدم وأنها لم تكن شيئًا مذكورًا من قبل ... كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فهذه البشرية لم تكن شيئًا مذكورًا من قبل فخلقها الله وأوجدها لحكمة عظيمة.

(٢) أن الملائكة أجسام وليست أرواحًا بلا أجسام... لأنهم جلوس والجالس يعني أنه جسم وقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح قد سَدَّ الأفق... والله سبحانه وتعالى قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١] فالملائكة أجسام ولكن الله عز وجل حجبهم عنَّا وجعلهم عالمًا غيبيًّا كما أن الجن أجسام ولكن الله عز وجل حجبهم عنَّا فجعلهم عالمًا غيبيًّا... وقد تظهر الملائكة في صورة إنسان كما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ مرة بصورة دحية

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٢٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٤١) كتاب الجنة.

الكلبي ومرة بصورة رجل غريب لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه الصحابة.

❁ ومن فوائد هذا الحديث:

(٣) أن السُّنة في السلام (السلام عليك) إذا كان المُسلَّم عليه واحدًا وإذا كانوا جماعة تقول (السلام عليكم) لأن الواحد يُخاطَب بخطاب الواحد والجماعة تُخاطَب بخطاب الجماعة.

(٤) أن السلام مُتلقن من الملائكة بأمر الله حيث قال سبحانه وتعالى إنها تحيتك وتحية ذريتك.

(٥) أن الأفضل في رَدِّ السلام أن يزيد الإنسان ورحمة الله لأن الملائكة زادوا (ورحمة الله)... والله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ فبدأ بالأحسن ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ إذا لم تردوا الأحسن[(١)].



(٨٥١) وعن أبي عُمارة البراء بن عازِبٍ رضي الله عنهما قال: أمَرَنا رسولُ الله ﷺ بِسَبعٍ: «بِعِيادَةِ المرِيضِ، واتِّباعِ الجنائِزِ، وتَشْميتِ العَاطسِ، ونصرِ الضَّعِيفِ، وعَوْن المظلومِ، وإفْشاءِ السَّلامِ، وإبرارِ المُقسِمِ»[(٢)].

(٨٥٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا تَدخُلُوا الجَنَّة حتَّى تُؤمِنُوا، ولا تُؤمِنُوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُمْ علَى شَيءٍ إذا فَعَلْتُمُوه تَحابَبْتُم؟ أفْشُوا السَّلامَ بَيْنكُم»[(٣)].

(٨٥٣) وعن أبي يوسف عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يا أيُّها النَّاسُ أفْشُوا السَّلامَ، وأطْعِمُوا الطَّعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٥) كتاب المظالم والغصب، (٥٦٣٥) كتاب الأشربة - ومسلم (٢٠٦٦) كتاب اللباس والزينة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

بِاللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ، تَدخُلوا الجَنَّةَ بسلامٍ»(١).

(٨٥٤) وعن الطُّفَيلِ بن أُبَيّ بن كعب أنه كان يأتى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فيغدو معَهُ إلى السوق، قال: فإذا غَدَوْنَا إلى السُّوق لَمْ يَمُرَّ عبدُ الله على سَقَّاطٍ ولا صاحبِ بيعَة ولا مِسكين ولا أحد إلا سَلَّم عليه، قال الطُّفَيلُ: فَجِئتُ عبدَ الله بنَ عمرَ يَوْمًا فاسْتَتْبَعنى إلى السُّوقِ فقُلْتُ له: ما تَصنَعُ بالسوقِ وأنْتَ لا تَقِفُ على البَيْعِ ولا تَسأَلُ عن السِّلع ولا تَسُومُ بها ولا تجلِسُ فى مجالسِ السُّوق؟ وأقولُ: اجْلسْ بنا هَهُنا نتَحدَّث، فقال: يا أبا بَطْن - وكان الطُّفَيلُ ذا بَطْن - إنَّما نَغدو مِن أجل السَّلام نُسَلِّمَ عَلَى مَن لَقِيناهُ»(٢).

۞ فهذه الأحاديث كلها تدل على فضل السلام.. وقد سبق الكلام على تلك الأحاديث الثلاثة الأولى قبل ذلك وأن السلام يجلب المحبة بين المسلمين ويُؤلف بين قلوبهم ويجعل القلوب تتصافح قبل الأيدى .. وأنه سببٌ من أسباب دخول جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر

۞ **قال ابن حبان البستى:** «والبادئ بالسلام بين حسنتين، إحداهما. تفضيل الله عَزَّوَجَلَّ إياه على المُسلَّم عليهم بفضل درجة، لتذكيره إياهم بالسلام، وبين رَدِّ الملائكة عليه عند غفلتهم عن الرد.

ثم يقول: الواجب على المسلم إذا لقى أخاه المسلم أن يُسلم عليه مبتسمًا إليه، فإن مَن فعل ذلك تتساقط عنهما خطاياهما كما يتساقط ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس... وقد استحق المحبة مَن أعطاهم بِشر وجهه»(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٢) **صحيح**: رواه مالك فى الموطأ، والبخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد (٧٧٠).

(٣) روضة العقلاء لابن حبان.

ولذلك فإننا إذا أفشينا السلام تحاببنا، واجتمعت كلمتنا، وقهرنا عدونا، وعلونا عليهم، وكانت لنا الرفعة عند الله تعالى، فإن أعداءنا يحسدوننا على هذه التحية، وهذا الأدب الرفيع، الذى علَّمه لنا رسولنا ﷺ.. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**ما حسدتكم اليهود على شىء، ما حسدتكم على السلام والتَّأمين**»[(١)].

۞ أما حديث الطُّفيل بن أُبى كعب فإن له قصة مع عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.. وكان الطُّفيل تلميذه.. فيخبر الطفيل هنا أنه كان يذهب إلى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيغدو معه إلى السوق.. ومن الواضح أن هذا الأمر لم يحصل مرة واحدة بل كان يتكرر كثيرًا.. فكان ابن عمر إذا دخل السوق لا يمر على سقَّاط ولا صاحب بيعة ولا مسكينٍ ولا أحدٍ إلا سلَّم عليه... وهذا هو قمة التواضع.. فهو لا يختار الأغنياء والأثرياء ليُسلم عليهم...بل كان لا يمر على سقَّاط - وهو: بائع السَّقط الذى هو الردىء من المتاع - إلا سَلَّم عليه، فهو لا ينظر إليه على أنه يبيع أشياء حقيرة، بل يُسلم على أى أحد.

قال: (ولا صاحب بيعة) أى: يبيع أشياءً غالية وعظيمة.

قال: (ولا مسكين، ولا أحدٍ إلا سلَّم عليه)، فهو يُسلِّم على الجميع، على المساكين والفقراء والبائعين.

قال الطفيل: (فجئت عبد الله بن عمر يومًا فاستتبعنى إلى السوق) -يعنى: طلب منى أن أتبعه وأخذنى معه- فقلت له: ما تصنع بالسوق -أى: ولا حاجة لك فيه من بيع أو شراء أو مساومة ونحوها- قال: (ما تصنع بالسوق وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس فى مجالس السوق؟)، ثم قال: (وأقول: اجلس ها هنا نتحدث، فقال عبد الله بن عمر له: يا أبا بطن! - وكان الطفيل ذا بطن - .. ولم يكن ابن عمر يسخر منه بل كان يُداعبه.

فقال له ابن عمر: يا أبا بطنٍ إنما نغدو من أجل السلام فنُسلم على مَن

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦١٣).

لقيناه)، هذا فعل ابن عمر رضي الله عنهما، فهو يريد أن يُفشى السلام.

لأن الإنسان إذا سلم وأفشى السلام وأظهره كان هذا سببًا لدخول الجنة كما فى حديث أبى هريرة: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تَحابُّوا، أفلا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم**»؛ ولأن الإنسان إذا سلم على أخيه فقال: السلام عليكم، أو السلام عليك إذا كان واحدًا، فإنه يُكتب له بذلك عشر حسنات، فإذا سلم على عشرة أشخاص كُتِبَ له بذلك مائة حسنة، وهذا خير من البيع والشراء؛فتخيل لو سلَّمت على ألف رجلٍ جُملة واحدة.. ستفوز بعشرة آلاف حسنة فى أقل من ربع دقيقة..

فًابن عمر رضي الله عنهما كان حريصًا على أن يجمع أكبر قدرٍ من الحسنات.. فوجد أن أفضل طريقة لكسب الحسنات وتأليف القلوب ودخول الجنة: هى إفشاء السلام... والأمر لن يُكلفه شيئًا.

ولذلك احرص على إفشاء السلام ولا تَمَلَّ من كثرة السلام.. وسلِّم على مَن عرفت ومَن لم تعرف.

۞ وهذا الحديث يدل على حرص سلفنا الصالح على كسب الحسنات.. وابن عمر كان من أحرص الناس على فعل الخيرات وجمع الحسنات.. ولذلك لما حدَّثه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أن مَن تبع الجنازة حتى يصلى عليها كُتب له قيراط، ومَن شهدها حتى تُدفن كُتب له قيراطان، قيل: وما القيراطان يا رسول الله؟ قال: «**مثل الجبلين العظيمين: أصغرهما مثل أُحد**»[1]. قال: والله لقد فرطنا فى قراريط كثيرة، ثم صار لا تحصل جنازة إلا تبعها رضي الله عنه ...وهكذا السلف الصالح إذا علموا ما فى الأعمال من الخير والثواب بادروا إليها وحرصوا عليها.

فالذى ينبغى للمؤمن أن يكون حريصًا على فعل الخير كلما بان له خصلةُ خيرٍ فليبادر إليها.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٢٥) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٥) كتاب الجنائز.

(١٣٢) باب كيفية السلام

۞ يُسْتَحَبُّ أنْ يقُولَ المُبْتَدئ بالسَّلام: «السَّلامُ عَلَيْكُم ورَحمَةُ الله وبركَاتُهُ» . فيأتى بضَمير الجَمْع، وإنْ كان المُسَلَّمُ عليه واحدًا، ويقُولُ المُجيبُ: «وعَلَيْكُم السَّلامُ ورَحمَةُ الله وبرَكاتُهُ» فيأتى بِواوِ العطفِ فى قوله: «وعليكم».



(٨٥٥) عن عِمران بن حُصين رضي الله عنهما قال: جاءَ رجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال: السَّلامُ عَلَيْكُم، فرَدَّ عَلَيْهِ ثم جلَسَ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «عَشْرٌ» ثم جاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ ورَحمَةُ الله، فرَدَّ عليه فجَلَسَ، فقال: «عِشرون»، ثم جاء آخرُ فقالَ: السَّلامُ عَلَيْكُم ورَحمَةُ الله وبرَكاتُهُ، فرَدَّ عليهِ فجَلسَ، فقال: «ثَلاثُون»[1].

۞ ذكر المؤلف رحمه الله فى كتابه: «رياض الصالحين» باب كيفية السلام: يعنى كيف يُسلم وماذا يقول إذا سَلَّم، وماذا يقول إذا رَدّ.

وذكر المؤلف رحمه الله أنه يُستحب أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله، وإن كان المسَلَّمُ عليه واحدًا، ثم استدل بحديث عمران بن حصين.

وهذه مسألة اختلف فيها العلماء: هل إذا سلم على واحدٍ يقول: السلام عليكَ أم عليكم؟.

والصحيح أن يقول: السلام عليك. هكذا ثبت عن النبى ﷺ كما فى حديث المسىء فى صلاته أنه قال: السلام عليك.

وأما ما استدل به المؤلف من حديث عمران فليس فيه دلالة؛ لأن الرجل دخل مع النبى ﷺ ومعه جماعة فسلم على الجميع... فإذا كانوا جماعة فقل:

(١) **صحيح:** رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٧١٠).

السلام عليكم، وإذا كان واحدًا فقل: السلام عليك، وإن زدت: ورحمة الله. فهو خير، وإن زدت: وبركاته. فهو خير؛ لأن كل كلمة فيها عشر حسنات، وإن اقتصرت على: السلام عليك، فهو كافٍ.

ويقول الرادُّ: وعليكم السلام، ثم إن كان المسلِّم لم يزد على قول: السلام عليك. كفى، وإن كان المسلم قد قال: السلام عليك ورحمة الله. فعلى الراد أن يقول: عليك السلام ورحمة الله، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ يعنى: رُدُّوا مثلها. وقال: يُستحب أن يقول: (وعليكم) بزيادة الواو، وهذا حسن؛ لأنه إذا قال: (وعليكم) صار واضحًا أنه معطوف على الجملة التى سلّم بها المُسلِّم، وإن حذفها فلا بأس... لأن إبراهيم عليه السلام لم يأتِ بالواو فى ردِّه السلام على الملائكة ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾، ولم يأتِ بالواو، فإن أتى بالواو فحسن، وإن تركها فلا بأس[1].

❁ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن كل كلمة من كلمات السلام لها أجرٌ لأن الله عز وجل لا يحرم عبده من الأجر ما دام العبد يجتهد فى الفوز بالأجر والثواب من عند الله عز وجل.

فالرجل الأول لما قال: السلام عليكم كُتبت له عشر حسنات.. والرجل الثانى لما قال: السلام عليكم ورحمة الله كتُبت له عشرون حسنة.. والرجل الثالث لما قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كُتبت له ثلاثون حسنة.. فكل كلمة كانت بعشر حسنات.. فلماذا نقتصر على كلمة واحدة ونُحرَم من تلك الحسنات...

فياليتنا نقول عند السلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته لنفوز بثلاثين حسنة.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ١١) بتصرف.

(٨٥٦) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قالَ لى رسولُ الله ﷺ: «هذا جِبْريلُ يَقرأُ عَلَيْكِ السَّلام» قالت: قُلْتُ: وعَليهِ السَّلام ورَحمَةُ الله وبركاتُهُ[1].

۞ لقد كان النبى ﷺ يرى جبريل عليه السلام ويكلمه.. وكان جبريل يأتيه دائمًا بالوحى من السماء.. وكان النبى ﷺ يقول: «**ما نزل الوحى علىَّ وأنا فى لحاف امرأة من نسائى إلا عائشة**» وفى يوم من الأيام طلب جبريل عليه السلام من النبى ﷺ أن يقرأ السلام على أُمنا عائشة رضي الله عنها .. ويالها من منقبة أن يُرسل السلام إليها أمين الوحى وأمير الملائكة جبريل عليه السلام .. ويجعل الواسطة الذى يُبلغها السلام هو سيد ولد آدم ﷺ .

فلما بلَّغها النبى ﷺ بذلك فرحت، وقالت: وعَليهِ السَّلام ورَحمَةُ الله وبركاتُهُ.. فردَّت السلام كاملًا؛ لتفوز بالأجر الكبير، كما تعلمت من رسول الله ﷺ .

۞ **قال الإمام النووى** رحمه الله: فِيهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها وَفِيهِ اسْتِحبَابُ بَعثِ السَّلَامِ ... وَيَجِبُ عَلَى الرَّسُولِ تَبْلِيغُهُ ... وَفِيهِ بَعثُ الْأَجْنَبِيِّ السَّلَامَ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ الصَّالِحَةِ إِذَا لَمْ يُخَفْ تَرَتُّبُ مَفْسَدَةٍ وَأَنَّ الَّذِى يَبْلُغُهُ السَّلَامُ يَرُدُّ عَلَيْهِ ... قَالَ أَصحَابُنَا: وَهَذَا الرَّدُّ وَاجِبٌ عَلَى الْفَوْرِ وَكَذَا لَوْ بَلَغَهُ سَلَامٌ فِى وَرَقَةٍ مِنْ غَائِبٍ لَزِمَهُ أَنْ يَرُدَّ السَّلَامَ عَلَيْهِ بِاللَّفْظِ عَلَى الْفَوْرِ إِذَا قَرَأَهُ وَفِيهِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ فِى الرَّدِّ أَنْ يَقُولَ وَعَلَيْكَ أَوْ وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ[2] .

۞ وفى هذا الحديث أنه من السُّنة إذا نُقل السلام من شخصٍ إلى شخص أن يقول: عليه السلام. وإن قال: عليك وعليه السلام، أو عليه وعليك السلام، فحسن؛ لأن هذا الذى نَقَلَ السلام مُحسنٌ، فتكافئه بالدعاء له...

فإذا قال شخصٌ لآخر: سَلِّم لى على فلان، ثم نقل الوصية وقال: فلانٌ يسلم

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٢١٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٤٤٧) كتاب فضائل الصحابة. وهكذا وقع فى بعض روايات الصحيحين: «وبركاتُهُ»، وفى بعضها بحذفِها. وزيادةُ الثقة مقبولة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٥/ ٣٠٣).

عليك، فإنه يقول: عليه وعليك السلام، أو يقول: عليه السلام، ويقتصر؛ لأن النبي ﷺ بَلَّغَ عائشة أن جبريل يقرأ عليها السلام، فقالت: عليه السلام.. فدَلَّ ذلك على أنه إذا نقل السلامَ إليك أحدٌ من شخص تقول: عليه السلام، ولكن هل يجب عليك أن تنقل الوصية إذا قال سلم لى على فلان، أم لا يجب؟.

فَصَّل العلماء فقالوا: إن التزمت له بذلك وجب عليك؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ وأنت الآن تحملت هذا.

أما إذا قال: «سلِّم لى على فلان» وسكتَّ أو قلت له مثلاً: إذا تذكرتَ أو ما أشبه ذلك، فهذا لا يلزم إلا إذا ذكرت، وقد التزمتَ له أن تُسلم عليه إذا ذكرتَ، لكن الأحسن ألا يُكلِّفَ الإنسانُ أحدًا بهذا؛ لأنه ربما يَشُقُّ عليه، ولكن يقول: سلِّم لى على مَن سأل عنى... هذا طيب، أما أن يُحمله فإن هذا لا ينفع؛ لأنه قد يستحى منك فيقول: نعم أنقل سلامك، ثم ينسى أو تطول المدة أو ما أشبه ذلك[1].



(٨٥٧) وعن أنسٍ رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ كان إذا تكلم بِكَلمة أعادَها ثلاثًا حتَّى تُفهَم عنه، وإذا أتى على قوْمٍ فسَلَّمَ عليهم سَلَّم عليهم ثلاثًا[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٧٠١) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.



(٨٥٨) وعنْ المقْداد رضي الله عنه فى حَدِيثه الطويل قال: كُنَّا نَرفَعُ للنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبهُ مِنَ اللَّبَن فَيَجِيءُ مِن اللَّيْلِ فيُسَلِّمُ تسليمًا لا يُوقظُ نائِمًا ويُسمِعُ اليَقظان، فجاء النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ١١-١٢).

(٢) **صحيح:** رواه البخارى (٩٥) كتاب العلم.
وهذا محمولٌ على ما إذا كان الجَمْعُ كثيرًا.

فسَلَّمَ كما كان يُسَلِّمُ(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر المقداد رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا جاء من الليل فإنه يُسلِّم سلامًا خفيفًا بحيث يسمعه اليقظان ولا يوقظ النائم.. وهذه لمسة ذوقية من لمسات النبى ﷺ التى ينبغى أن نتعلمها...

فإذا دخلت على أهلك أو أقاربك أو أصحابك أو أى أحدٍ وكانوا جماعة فمنهم النائم ومنهم المستيقظ ... فاحرص على أن تعطى المستيقظ حقه من السلام ولكن بصوتٍ خفيف حتى لا تُزعج النائم فيستيقظ.. وربما لا يستطيع أن ينام مرة أخرى فتفوته الدراسة أو العمل إن كان يعمل فى إحدى المؤسسات.. وهذا فيه من الأذى ما فيه... هكذا علَّمنا النبى ﷺ أن نُسلم سلامًا خفيفًا حتى نعطى المستيقظ حقه ولا نُزعج أحدًا.



(٨٥٩) وعن أسماء بنتِ يزيد رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ مرَّ فى المسْجِدِ يوْمًا وعُصبةٌ مِن النِّساء قُعودٌ فألوَى بيدِهِ بالتَّسْليم(٢).

وهذا محمول على أنه ﷺ جمَعَ بين اللَّفظ والإشارة، ويؤيِّدُهُ أن فى رواية أبى داود: «فسَلَّم علَينا» .

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.

ومع ذلك فأحب أن أُنبِّه هنا على عدة مسائل:

(١) أنه لا يجوز للرجل الأجنبي أن يُسلم على امرأة غريبة عنه وليست من محارمه وبخاصة الشاب مع الشابة.. أما إذا كان الرجل معروفًا بالصلاح والتقوى ومَرَّ على مجموعة من النساء فلا بأس أن يُلقى عليهن السلام.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٠٥٥) كتاب الأشربة.

(٢) **ضعيف**: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى حجاب المرأة المسلمة (ص ٩٩-١٠٠)، وضعيف سنن الترمذى (٥٠٨).

(٢) أن النبي ﷺ نهى عن التسليم بالإشارة باليد من بعيد.. لكن لمن جمع بين السلام والإشارة فلا بأس بذلك.. وبخاصة إذا كان الإنسان بعيدًا أو كان أصمَّ لا يسمع... أو غير ذلك.

(٣) أن السلام من خلال بوق السيارة لا يُسمَّى سلامًا .. إلا إذا كان يقصد بالبوق أن يُلفت نظره ثم يُسلم عليه.. أما البوق وحده فلا يُعَدُّ سلامًا.



(٨٦٠) وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بالله مَن بَدَأهُم بالسَّلام»[١].

❁ (إن أولى الناس بالله) أي أحقهم بالقرب منه بالطاعة.

(مَن بدأ بالسلام) وذلك لما صنع من المبادرة إلى الطاعة والمسارعة إليها مع ما فيه من حمل المجيب على الرد بالتسبُّب فيها.

❁ وفي رواية أخرى (عن أبي أمامة) أيضًا (قيل) أي سُئل رسول الله وقيل (يا رسول الله الرجلان يلتقيان) أي سواء كان بقصدٍ منهما اللقاء أو من أحدهما أو لا قصد لأحدٍ (أيهما يبدأ بالسلام قال: أولاهما بالله).

قال ابن رسلان: ومعنى الروايتين أقرب الناس من الله بالطاعة مَن بدأ أخاه بالسلام عند مُلاقاته لأنه السابق إلى ذكر الله ومُذكره...

ورواه البيهقي في «الشُّعَب» عن ابن مسعود يرفعه «إذا مَرَّ الرجل بالقوم فسلَّم عليهم فرَدُّوا عليه كان له عليهم فضل لأنه ذكَّرهم السلام، وإن لم يردُّوا عليه ردَّ عليه ملأٌ خيرٌ منهم وأطيب» قال القرطبي: الأَولَى بمبادرة السلام ذوو المراتب الدينية كأهل العلم، والفضل احترامًا لهم وتوقيرًا، بخلاف أهل المراتب الدنيوية[٢].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١١).

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٢٩٧-٢٩٨).

وقيل معناه: أن أقرب المتلاقيين إلى رحمة الله عَزَّوَجَلَّ مَن بدأ بالسلام.

فخير الناس مَن يبدأ الناس بالسلام... وقد كان النبى ﷺ وهو أشرف الخلق يبدأ مَن لقيه بالسلام ... فاحرص على أن تكون أنت الذى تُسلم قبل صاحبك ولو كان أصغر منك لأن خير الناس مَن يبدؤهم بالسلام وأَولَى الناس بالله مَن يبدؤهم بالسلام ... فهل تحب أن تكون أَولَى الناس عند الله؟.. كلنا يحب ذلك... إذًا فابدأ الناس بالسلام.

(٨٦١) وعنْ أبى جُرَىٍّ الهُجَيْمِىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ: عَلْيك السَّلامُ يا رسُولَ الله. فقال: «لا تَقُلْ: عليكَ السَّلامُ، فإن عَلَيْكَ السَّلامُ تَحيَّةُ الموتى»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٨٠٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٤٠٢).

(١٣٣) باب آداب السلام

(٨٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «يُسَلِّمُ الرَّاكبُ عَلى المَاشِي، والماشي عَلَى القاعِدِ، والقليلُ على الكَثيرِ»(١).

وفي روايةٍ للبخاري: «والصغيرُ على الكَبيرِ».

۞ فإذا تقابل رجل مع أكثر من رجل سلم عليهم. أو مجموعة مع مجموعة أكبر منهم، فعلى المجموعة الأقل أن يبدؤا بالسلام.

وإذا تقابل صغير مع كبير يبدأ الصغير بالسلام. وإذا تقابل راكب مع ماشٍ يبدأ الراكب بالسلام، ويبدأ الماشي بالسلام على القائم، والقائم يُسلم على القاعد وراكب السيارة أو الدراجة يبدأ بالسلام على الماشي أو القاعد.

وكل ذلك قد أمر به النبي ﷺ، حيث قال: **«ليُسلم الراكب على الراجل، وليُسلم الراجل على القاعد، وليُسلم الأقل على الأكثر، فمَن أجاب السلام فهو له، ومَن لم يُجب فلا شيء له»**(٢)، وقال ﷺ: **«يُسلم الصغير على الكبير، والمارُّ على القاعد، والقليل على الكثير»**(٣)، وقال: **«يُسلم الفارس على الماشي، والماشي على القائم، والقليل على الكثير»**(٤).

وذلك لأن الراكب يكون متعليًا فيسلم على الماشي ... والماشي متعليًا على القاعد فيسلم عليه ... والقليل يسلم على الكثير لأن الكثير لهم حق على القليل ... والصغير يسلم على الكبير لأن الكبير له حق على الصغير ولكن لو قُدِّر أن القليلين في غفلة ولم يُسلموا فليُسلِّم الكثيرون .. ولو قُدر أن الصغير في

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٣٢) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٦٠) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٥٠).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٢٣١) كتاب الاستئذان.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٠) كتاب السلام.

غفلة فليُسلم الكبير ولا تُترك السُّنَّة ... وهذا الذى ذكره النبى ﷺ ليس معناه أنه لو سلم الكبير على الصغير كان حرامًا ولكن المعنى أن الأَولَى أن يُسلِّم الصغير على الكبير فإنه إن لم يُسلِّم فليُسلم الكبير.



(٨٦٣) وعن أبى أُمامة صُدَىٍّ بن عجلان الباهلى رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بالله مَن بَدأهم بالسَّلامِ»[1].

ورواه الترمذى عن أبى أُمامة رضي الله عنه، قِيلَ: يا رسولَ الله، الرَّجُلانِ يَلْتَقيانْ أيُّهُمَا يَبْدأُ بالسَّلامِ، قال: «**أَوْلاهُمَا بالله تعالى**».

۞سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٨٦٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) **صحيح**: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١١).

(١٣٤) باب استحباب إعادة السلام على مَن تكرر لقاؤه على قرب بأن دخل ثم خرج ثم دخل في الحال أو حال بينهما شجرة ونحوها

(٨٦٤) عن أبى هريرة رضي الله عنه فى حديث المُسِيءِ صَلاتَهِ أَنَّهُ جاء فصَلَّى ثُمَّ جاء إلى النَّبيِّ ﷺ فسَلَّم عليهِ فرَدَّ عَلَيهِ السَّلام فقال: «ارجع فَصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ» فرجع فصَلَّى، ثُمَّ جاء فسَلَّم عَلَى النَّبيِّ ﷺ حتَّى فَعَل ذلك ثَلاثَ مرَّاتٍ[1]..

(٨٦٥) وعنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «إذا لقِيَ أحدُكُم أخاه فليُسَلِّمْ عليهِ، فإنْ حالَتْ بَيْنَهُما شَجَرَةٌ أو جِدَارٌ أَوْ حَجَرٌ ثُمَّ لَقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عليه»[2].

۞ فلو كنت تمشى مع أخيك وحال بينكما سيارة أو شجرة أو جدار فينبغى أن تُلقى عليه السلام مرة أخرى ... فقد قال النبى ﷺ: «**إذا اصطحب رجلان مسلمان، فحال بينهما شجرٌ، أو حجرٌ، أو مدرٌ، فليُسلم أحدهما على الآخر، ويتبادلوا السلام**»[3].

مثلًا ... إنسان عنده ضيوف فى البيت فدخل إلى البيت يأتى لهم بماء أو طعام أو نحو ذلك فإنه إذا رجع يُسلم ... وهذه من نعمة الله أنه يُسَنُّ السلام وتكراره كلما غاب الإنسان عن أخيه سواء غيبة طويلة أو قصيرة فإن الله شرع لنا أن يُسلِّم بعضنا على بعضٍ لأن السلام عبادة وأجر كلما ازددنا منه ازددنا عبادة لله وازداد أجرنا وثوابنا عند الله.



---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٧) كتاب الأذان، ومسلم (٣٩٧) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجه، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٩).

(٣) حسن: رواه البيهقى فى الشُّعب، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٥).

(١٣٥) باب استحباب السلام إذا دخل بيته

۞ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أى إذا دخلتم بيوتًا مسكونة فسلِّموا على مَن فيها من الناس ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ أى حيُوهم بتحية الإسلام «السلام عليكم» وهى التحية المباركة الطيبة التى شرعها الله لعباده المؤمنين... قال القرطبى: وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ لِأَنَّ فِيهَا الدُّعَاءَ وَاسْتِجْلَابَ الْمَوَدَّةِ. وَوَصَفَهَا بِالطِّيبِ لِأَنَّ سَامِعَهَا يَسْتَطِيبُهَا[١].

(٨٦٦) وعنْ أنس رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ، إذا دَخَلْتَ علَى أهْلِكَ فسَلِّمْ، يَكُنْ بَركةً عَلَيْكَ وعَلَى أهلِ بَيْتِكَ»[٢].

۞ فمن السُّنة .. بل ومن المعاشرة بالمعروف أنك إذا دخلت على أهلك أن تبدأ بالسواك لتُصبح رائحة الفم طيبة ثم تُسلم على أهلك فإن ذلك يجلب البركة من عند الله عز وجل ويملأ البيت بالبركة فتتآلف القلوب وتنتشر المحبة بين أفراد الأسرة ويُطرَد الشيطان.. وبخاصة إذا ذكرت الله عز وجل عند الدخول وعند العَشاء.. فإنك إن فعلت ذلك قال الشيطان لأعوانه: لا مبيت لكم ولا عَشاء..

ولقد كان النبى ﷺ يستعمل السواك قبل أن يدخل بيته ثم يدخل فيُسلم على أهله.. وكذلك كان يفعل أصحابه رضي الله عنهم.

---

(١) تفسير القرطبى (١٢/ ٣١٩).

(٢) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٦٠٨)، وكان الشيخ رحمه الله قد ضعفه فى ضعيف الجامع (٦٣٨٩) ثم تراجع عن هذا التضعيف، وحسَّنه.

(١٣٦) باب السلام على الصبيان

(٨٦٧) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيانٍ فَسَلَّمَ علَيْهِم وقال: كان رسولُ الله ﷺ يَفْعَلُهُ[(١)]..

ففي هذا الحديث أن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبر أنه مَرَّ على صِبية صغار فسلَّم عليهم وقال لمن معه.. أو قال لمن معه وللصبيان في آنٍ واحدٍ ليتعلموا: كان رسول الله ﷺ يفعله.

ولقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم حريصين على أن يفعلوا كل شيءٍ فعله رسول الله ﷺ... وقد كان رسول الله ﷺ يُسلم على الصبيان ويُرحب بهم ويبتسم في وجوههم بل ويمزح معهم.

وقد جرت عادة الكثير من الناس ألا يُسلِّمَ على الصبيان استخفافًا بهم، ولكن هذا خلاف هدى النبي ﷺ حيث كان يُسلم على الصغير والكبير، فهذا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّ على صبيان فسلم عليهم وقال: إن النبي ﷺ كان يفعله. أي كان يسلم على الصبيان.

وللسلام على الصبيان أكثر من فائدة:

(١) اتباع السُّنة: سُنة النبي ﷺ... وقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾.

(٢) التواضع: حتى لا يذمَّ الإنسان بنفسه، ويشمخَ بأنفه، ويعلوَ برأسه، يتواضعُ ويُسلمُ على الصبيان ... وقد قال النبي ﷺ: «**ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عِزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**».

(٣) تعويد الصبيان لمحاسن الأخلاق: لأن الصبيان إذا رأوا الرجل يمر بهم

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٤٧) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٦٨) كتاب السلام.



ويُسلم عليهم تَعوَّدوا ذلك، واعتادوا هذه السُّنة المباركة الطيبة.

(٤) أن هذا يجلب المودة للصبى، يعنى أن الصبى يحب الذى يُسلم عليه ويفرح لذلك، وربما لا ينساها أبدًا؛ لأن الصبى لا ينسى ما مَرَّ به.

فهذه من فوائد السلام على الصبيان.

فينبغى لنا إذا مررنا على صبيان يلعبون فى السوق أو جالسين يبيعون شيئًا أو ما أشبه ذلك أن نُسلم عليهم لهذه الفوائد التى ذكرناها[1].



(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٧-١٨).

(١٣٧) باب سلام الرجل على زوجته والمرأة من محارمه وعلى أجنبية وأجنبيات لا يخاف الفتنة بهن وسلامهن بهذا الشرط

(٨٦٨) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كانَتْ فينا امرأةٌ ـ وفي رواية: كانتْ لنا عَجُوزٌ ـ تأخُذُ مِنْ أُصُولِ السِّلْقِ فتطْرَحُهُ في القِدرِ وتُكَركِرُ حَبَّاتٍ مِن شَعير، فإذا صَلَّيْنا الجُمُعَةَ وانْصَرَفْنَا نُسَلِّم عليها فتُقَدِّمُهُ إلَيْنَا[1].

(٨٦٩) وعنْ أُمِّ هانئ فاخِتَةَ بنتِ أبي طالب رضي الله عنها قالت: أتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ يَوْمَ الفَتْحِ وهُو يَغْتَسِلُ وفاطِمَةُ تَسْتُرهُ بِثَوْبٍ فسَلَّمْتُ[2]. وذكَرت الحديث.

۞ ففي هذا الحديث الأول يخبر سهل بن سعد رضي الله عنه أنه كانت هناك امرأة عجوز كبيرة في السن.. وكانت رغم أنها فقيرة إلا أنها كانت تحب أن تفعل أي خير.. ومن ذلك أنها كانت تحب إطعام الطعام.. فقد قال ﷺ: «يا أيُّها النَّاسُ أفْشُوا السَّلامَ، وأطْعِمُوا الطَّعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا بالليل والنَّاسُ نيامٌ، تَدخُلوا الجَنَّةَ بسلامٍ» لكنها كانت لا تمتلك مالًا كثيرًا لتُطعمهم اللحم أو الدجاج فكانت تأخذ من أصول السَّلق -وهو نوع من البقل المعروف أصوله طيبة يَصلُح أن يكون إدامًا- فتضعه في القِدر الذي تطبخ فيه وتغليه على النار ثم تطحن حباتٍ من الشعير.. فإذا انتهى النبي ﷺ وأصحابه من صلاة الجمعة وانصرفوا كانوا يُسلمون عليها فتُقدم لهم هذا الطعام البسيط.. وذلك من باب قول النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا».. وكان الصحابة يفرحون به.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٢٤٨) كتاب الاستئذان، (٥٤٠٣) كتاب الأطعمة.
قوله : «تُكَركِرُ» : أي تَطحَنُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٧) كتاب الصلاة، ومسلم (٣٣٦) كتاب الحيض.

لأن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا أغنياء إلا بعد أن فتح الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ وقال: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ فكثرت الأموال بعد الفتوح، أما قبل ذلك فإن غالبية الصحابة كانوا فقراءً.

۞ وفى الحديث الثانى تخبر أم هانئ رضي الله عنها - أخت على بن أبى طالب رضي الله عنه- أنها أتت النبى ﷺ يوم فتح مكة.. وكان النبى ﷺ يغتسل وكانت ابنته فاطمة رضي الله عنها تستره بثوبها.. فسلمت أم هانئ على النبى ﷺ -وهى لا تراه-.

فقال ﷺ: «مَن هذه؟» فقالت له: أنا أم هانئ بنت أبى طالب.

فقال ﷺ: «مرحبًا بأم هانئ».

۞ ومن هذين الحديثين نتعلم أن السلام على النساء له ضوابط... فالسلام على المحارم من النساء والزوجات سُنة.. والمحارم يعنى التى لا يحل لك أن تتزوج بها.. فهذه تُسلم عليها لا حرج عليك فى ذلك.. فتُسلم على أختك وابنة أختك وابنة أخيك وعمتك وخالتك.. أما النساء الأجانب فلا يحل لك أن تُسلم عليهم إلا العجائز الكبيرات فى السن -فى بعض الآراء- .. أما إذا رجعت إلى بيتك ووجدت فيه نساءً من معارفك وألقيت عليهن السلام فلا حرج بشرط أمن الفتنة... وكذلك إذا كان هناك رجلٌ معروف بالصلاح والتقوى وألقى السلام على مجموعة من النساء فلا حرج... لكن لا يُسلم على امرأة بمفردها.. وبخاصة إذا كانا فى مرحلة الشباب.. والله أعلم.



(٨٧٠) وعنْ أسماءَ بنتِ يزيد رضي الله عنها قالت: مَرَّ علينا النَّبىُّ ﷺ فى نِسْوَةٍ فسَلَّمَ علَيْنا[1].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى حجاب المرأة المسلمة (ص ٩٩-١٠٠)، وصحيح سنن أبى داود (٤٣٣٦).

ولفظ الترمذى: أن رسول الله ﷺ مَرَّ فى المسجدِ يوْمًا وعُصبةٌ مِن النِّساءِ قُعُود فألوى بيَدِهِ بالتَّسْليمِ(١).

۞ أما الرواية الأولى فهى صحيحة .. وقد سبق أن ذكرنا أنه يجوز للرجل أن يُسلم على مجموعة من النساء بالكلام فقط دون المصافحة .. وذلك إذا أُمنت الفتنة ... أما الرواية الثانية فهى رواية ضعيفة لم تَثبُت عن النبى ﷺ.

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن الترمذى (٥٠٨).

(١٣٨) باب تحريم ابتدائنا الكافر بالسلام وكيفية الرد عليهم واستحباب السلام على أهل مجلس فيهم مسلمون وكفار

(٨٧١) عن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا تَبْدَءوا اليَهُودَ ولا النَّصارى بالسَّلامِ، فإذا لَقِيتُم أحَدَهُم فى طَرِيقٍ فاضطَرُّوه إلى أضْيَقِهِ»(١).

❁ ذهب طائفة من أهل العلم إلى عدم جواز ابتداء أهل الكتاب بالسَّلام واستدلوا بهذا الحديث .. وذهبت طائفة أخرى إلى جواز إلقاء السلام عليهم .. واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

(١) قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [الممتحنة: ٨]. ومن بِرِّهم: إلقاء السلام عليهم.

(٢) وقوله على لسان إبراهيم عليه السلام لأبيه، وقد كان مشركًا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧].

(٣) وقوله تعالى آمرًا نبيه فى شأن المشركين: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩](٢).

وذكر القرطبىُ أن عددًا من السلف فعل ذلك، ومنهم ابن مسعود، والحسن، والنخعى، وعمر بن عبد العزيز.

وقالوا: أما حديث مسلم: «لا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلا النَّصارَى بِالسَّلامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِى طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ». فهو مُقيَّدٌ بأيام الحرب، ويدل على ذلك ما رواه البخارى فى الأدب المفرد والنسائى، عن أبى بَصرة أن رسول الله قال:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٧) كتاب السلام.
(٢) القرطبى (١١/ ١١١-١١٢).

«إِنِّي رَاكِبٌ غدًا إِلَى يَهُودَ فَمَنْ انْطَلَقَ مِنكُم مَعِي فَلَا تبدؤهم بالسَّلامِ فَإِنْ سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ»(١). فبيَّن هذا الحديث سبب ورود هذا النهى، حيث قيده بحالة الحرب، ولقاء العدو فى المعركة، وهو مقام لا يُبدأ فيه عادة بالسلام.

ويمكن القول بتأكيد الجواز إن كان هناك سبب يستدعى السلام كقرابة أو صُحبة أوجوار، أو سفر، أو حاجة..وقد ذكر القرطبى ذلك عن النخعى فقال: مُؤولًا حديث أبى هريرة: «لا تبدؤوهم بالسلام». إذا كان بغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤهم بالسلام من قضاء ذِمَام أو حاجة تعرِض لكم قِبلَهم، أو حق أو جوار، أو سفر(٢).

۞ ولكن لا بُدَّ أن نعلم أنه لا اجتهاد مع وجود النَّص .. فقد نهى النبى ﷺ عن أن نبدأهم بالسَّلام .. وذلك لما فيه من إظهار الحب والود لهم ... ولكن إذا بدأنا أحدهم بالسلام فيجوز أن نرد عليه السلام .. فإذا قال: السلام عليك فقل له: وعليك السلام .. أما إذا خشيت أن يكون قد قال لك: السَّامُّ عليك ... فقل له: وعليك ... لكن إذا قالها واضحة: السلام عليك .. فقل له: وعليك السلام .. لكن لا تقل له: وعليك السلام ورحمة الله .. لأن الرحمة لا تجوز للكافر ... وأما الرد عليه بقولك: (وعليك السلام) فقد قال الإمام ابن القيم: فالذى تقتضيه الأدلَّة الشرعيَّة وقواعد الشَّريعة أن يُقال له: وعليك السَّلام فإنَّ هذا من بابِ العدلِ واللهُ يَأمر بالإحسان... وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[النساء: ٨٦]، فندب إلى الفضل وأوجب العدل(٣)...

وليس معنى أننا لا نبدأهم بالسلام أن نُؤذيهم أو نظلمهم .. كلا .. بل نُعاملهم بكلِّ رحمة ونُعطيهم حقوقهم كاملة ولا نظلمهم .. وإن كانوا من أهل الذمة نُدافع عنهم ونحميهم وندعوهم إلى الله بكلِّ رفقٍ ولينٍ... لأن مقام

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٦٤).
(٢) انظر القرطبى (١١/ ١١٢).
(٣) أحكام أهل الذمة (١/ ١٩٩).

الدعوة غير مقام الحرب والجهاد .. وقد قال تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ .. بل ونُحسن جوار مَن جاورنا منهم ولا نُسيء إليه.

فالشاهد أنه لا يجوز أن نبدأهم بالسلام.

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

أما إذا كانت التحية بغير السلام فلا مانع منها، كأن يقول له: صباح الخير، مساء الخير، مرحبًا، نهارك سعيد، ونحو ذلك.

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في زاد المعاد: وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا حُكْمٌ عَامٌّ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ: لَا يُبْدَءُونَ بِالسَّلَامِ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى جَوَازِ ابْتِدَائِهِمْ كَمَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ... رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وأبي أمامة، وابن محيريز، وَهُوَ وَجْهٌ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ لَكِنْ صَاحِبُ هَذَا الْوَجْهِ قَالَ: يُقَالُ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَطْ بِدُونِ ذِكْرِ الرَّحمَةِ، وَبِلَفْظِ الْإِفْرَادِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَجُوزُ الِابْتِدَاءُ لِمَصلَحَةٍ رَاجِحَةٍ مِنْ حَاجَةٍ تَكُونُ لَهُ إِلَيْهِ، أَوْ خَوْفٍ مِنْ أَذَاهُ، أَوْ لِقَرَابَةٍ بَيْنَهُمَا، أَوْ لِسَبَبٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ، يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وعلقمة. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: إِنْ سَلَّمْتَ فَقَد سَلَّمَ الصَّالِحُونَ، وَإِنْ تَرَكْتَ فَقَد تَرَكَ الصَّالِحُونَ[1].

۞ أما قوله ﷺ: « فإذا لَقِيتُم أحَدَهُم في طَرِيق فاضطَرُّوه إلى أضْيَقِهِ» فليس المقصود أن تضربه أو تُزيحه بيدك لتضرب به الحائط.. كلا.. لكن المعنى: لا تتوسعوا لهم إذا قابلوكم، حتى يكون لهم السعة، ويكون الضيق عليكم، بل استمروا في اتجاهكم وسيركم، واجعلوا الضيق إن كان هناك ضيق على هؤلاء.

ومن المعلوم أنه ليس من هدى النبي ﷺ أنه إذا رأى كافرًا يزحمه إلى الجدار حتى يلتصق به.. كلا.. ولم يكن النبي ﷺ يفعل هذا باليهود في المدينة ولا أصحابه يفعلونه بعد فتوح الأمصار.

(١) زاد المعاد (٢/ ٤٢٥).

فالمعنى أنكم كما لا تبدءونهم بالسلام، لا تُفسحوا لهم، فإذا لقوكم فلا تتفرقوا حتى يعبروا، بل استمروا على ما أنتم عليه، واجعلوا الضيق عليهم إن كان فى الطريق ضيق ... وليس فى الحديث تنفير عن الإسلام، بل فيه إظهارٌ لعزة المسلم، وأنه لا يذل لأحدٍ إلا لربه عَزَّوَجَلَّ



(٨٧٢) وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إذا سَلَّمَ عَلَيْكُم أهلُ الكتاب فقُولُوا: وعَلَيْكُم»[١].

۞ وأما رَدُّ السلام على غير المسلم، فقد اتفق العلماء على أنه يُرَدُّ على أهل الكتاب بـ«**وعَلَيْكُم**»[٢]. ويشهد لذلك قول النبى ﷺ: «**إذا سَلَّمَ عَلَيْكُم أهلُ الكتاب فقُولُوا: وعَلَيْكُم**».

وقد جعل البخارى هذا الحديث تحت (باب كيف الردُّ على أهل الذمة) وعلَّق على ذلك ابن حجر بقوله: (فى هذه الترجمة إشارة إلى أنه لا مانع من رَدِّ السلام على أهل الذمة، فلذلك ترجم بالكيفية)[٣].

ويكون الرد بهذه الصيغة «**وعَلَيْكُم**». إذا تحقَّق أنه قال: (السام عليكم) أو شك فيما قال[٤].

أما إذا تحقَّق من قول (السلام عليكم) قال ابن القيم: (فالذى تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة: أن يُقال له: وعليك السلام، فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالإحسان، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء: ٨٦]، فندب إلى الفضل، وأوجب العدل)[٥].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى فى (٦٢٥٨) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٦٣) كتاب السلام.
(٢) انظر: موسوعة الإجماع (١/ ١٥٤).
(٣) انظر: فتح البارى (١٤/ ٦٥).
(٤) انظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/ ١٩٩).
(٥) انظر: المرجع السابق (١/ ١٩٩).

وقال الحافظ فى الفتح: (قال ابن بطال: رَدُّ السلام على أهل الذمة فرضٌ لعموم الآية ... وثبت عن ابن عباس أنه قال: مَن سلَّم عليك فَرُدَّ عليه ولو كان مجوسيًّا)[١] ... ولكن يُقال له: السلام عليك فقط دون ذكر الرحمة.



(٨٧٣) وعنْ أُسَامة رَضَالِلَّهُعَنْهُ أن النَّبِىَّ ﷺ مَرَّ على مَجْلِسٍ فيه أخلاطٌ مِن المُسلمينَ والمُشرِكِين ـ عَبَدةِ الأوثَان واليهُودِ ـ فسَلَّمَ عليهم النَّبِىُّ ﷺ[٢].

۞ كان ذلك عندما توجَّه النبى ﷺ لعيادة سعد بن عُبادة رَضَالِلَّهُعَنْهُ وهو مريض.. فمرَّ النبى ﷺ على مجلس كان فيه أخلاط من المسلمين والمشركين فسلَّم النبى ﷺ عليهم.

۞ **قال أهل العلم:** أما إلقاء السلام على مجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين وغير المسلمين. فلا خلاف فى جواز إلقاء السلام عليهم.

وقد روى البخارى فى صحيحه: أن رسول الله ﷺ ركب حمارًا حتى مَرَّ على مجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين والمشركين وعَبَدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أُبى ابن سلول وفى المجلس ابن رواحة، فسلَّم عليهم النبى ﷺ، ثم وقف فنزل...[٣].

وقد بوَّب البخارى لهذا الحديث بعنوان: (باب التسليم فى مجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين والمشركين).

وقال النووى: (السُّنة إذا مَرَّ بمجلسٍ فيه مسلم وكافر أن يُسلِّم بلفظ التعميم ويقصد به المسلم)[٤].

---

(١) فتح البارى (١٤/ ٦٥) - نقلًا عن (فقه الجهاد) للدكتور يوسف القرضاوى (٢/ ١٠٥٧-١٠٥٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى فى (٦٢٥٤) كتاب الاستئذان، ومسلم (١٧٩٨) كتاب الجهاد.

(٣) **متفق عليه:** رواه البخارى (٦٢٥٤) كتاب الاستئذان، ومسلم (١٧٩٨) كتاب الجهاد والسير.

(٤) فتح البارى (١٤/ ٦٠).

(١٣٩) باب استحباب السلام إذا قام من المجلس وفارق جُلساءه أو جليسه

(٨٧٤) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إذَا انتَهَى أحدُكُم إلى المجْلِسِ فلْيُسَلِّمْ، فإذا أرَادَ أنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ. فليسَتِ الأُولى بأحَقَّ من الآخِرَة»(١).

۞ فإذا دخلت أى مجلس فعليك أن تُلقى السلام.. فإذا خرجت فعليك أيضًا أن تُلقى السلام... وإذا رجعت مرة أخرى فسلِّم فإن هذا مما يزيد المحبة والمودة بين المسلمين.

۞ كما أنك إذا دخلت تسلم كذلك إذا فارقت فسلم ... ولهذا إذا دخل الإنسان المسجد سلم على النبى ﷺ وإذا خرج سلَّم عليه أيضًا وإذا دخل مكة لعمرة أو حج بدأ بالطواف وإذا فارق مكة وخرج ختم بالطواف لأن الطواف تحية مكة لمن دخل بحجٍّ أو عمرة وكذلك وداع مكة لمن أتى بحجٍّ أو عمرة ثم سافر وهذا من كمال الشريعة أنها جعلت المُبتدَى والمُنتهَى على حَدٍّ سواء فى مثل هذه الأمور.

قَالَ الطِّيبِيُّ: أَىْ كَمَا أَنَّ التَّسْلِيمَةَ الْأُولَى إِخْبَارٌ عن سَلَامَتِهِمْ مِنْ شَرِّهِ عِنْدَ الْحُضُورِ فَكَذَلِكَ الثَّانِيَةُ إِخْبَارٌ عَنْ سَلَامَتِهِمْ مِنْ شَرِّهِ عِنْدَ الْغَيْبَةِ وَلَيْسَتِ السَّلَامَةُ عِنْدَ الْحُضُورِ أَوْلَى مِنَ السَّلَامَةِ عِنْدَ الْغَيْبَةِ بَلِ الثَّانِيَةُ أَوْلَى...

وقَالَ النَّوَوِيُّ: ظَاهِرُ هَذَا الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْجَمَاعَةِ رَدُّ السَّلَامِ عَلَى الَّذِى يُسَلِّمُ عَلَى الْجَمَاعَةِ عِنْدَ الْمُفَارَقَةِ(٢).



---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٠).
(٢) تحفة الأحوذى (٧/ ١٢٣).

(١٤٠) باب الاستئذان وآدابه

۞ إن الاستئذان من الآداب الرفيعة التى تحمى حُرمة البيوت وتحافظ عليها ... وهو دليلٌ على حياء المسلم وحُسن أخلاقه.

والاستئذان أدبٌ مشروع بالكتاب والسُّنة،... قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[النور:٢٧-٢٨].

والاستئذان يعنى طلب الإذن ... أن تطلب من صاحب البيت أن يأذن لك فى الدخول فإن أذن لك فادخل وإن لم يأذن لك فلا تدخل حتى لو قال لك بصراحة ارجع فارجع ... كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾ [النور:٢٨].

أما الآية الثانية فهى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ [النور:٥٩].

فإذا بلغ الطفل الحلم فإنه لا يدخل البيت إلا باستئذان أما قبل ذلك فأمره هيِّن لكن هناك ثلاث عورات لابد من الاستئذان فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ﴾ [النور:٥٨]

(١) الأولى: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾.

(٢) والثانية: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾.

(٣) والثالثة: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ﴾ هذه الأوقات لا بد أن نستأذن فيها حتى الصغار لا بد وأن يستأذنوا ... لأن الإنسان فى هذه الأوقات الثلاثة قد يكون مُتهيئًا للنوم وعليه ثياب لا يحب أن يطَّلع عليه أحد فلذلك لا بد من

الاستئذان فى هذه الساعات الثلاث[(١)].

۞ والإنسان فى بيته يدخل أى غُرفة من الغرف ويطوف عليها... وطالما أن الغرفة مفتوحة فيُستحب له أن يستأذن، لكن إذا كانت مُغلقة لا بد أن يستأذن فى الدخول، حتى لا يطلع على عورة أحد ... والمسلم يُعلم أولاده فى بيته هذا الأدب ... قال تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ [النور:٥٨] أى: الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحُلم، وإن كان مرفوعًا عنهم القلم والتكليف، فهم لا يأثمون، ولكن مع ذلك يُعوَّدون ذلك... فتُعوِّد ابنك أنه لا يفتح غرفة فى البيت ويدخل مباشرة، ولكن يدق الباب ويستأذن قبل أن يدخل، فإن أُذن له فتح ودخل، وإن لم يُؤذن له رجع ولم يدخل... فإذا كان صغيرًا اعتاد على ذلك، وإذا بلغ الحُلم صارت له عادة أنه لا يدخل أبدًا غُرفة مُغلقة حتى يستأذن مَن فيها.... فها هو رجلٌ يسأل النبى ﷺ أن أمه معه فى البيت هل يستأذن حتى يدخل على أمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أتحب أن تراها عريانة؟**»... قال: لا، قال ﷺ: «**فاستأذن**» ... فليس هناك أحد يحب أن يرى أمه أو أخته عريانة ... ليس هناك مَن يحب هذا الشيء... ولعلها قد خلعت ثيابها، لعلها تُغير ثيابها، لعلها فى حاجة من حوائجها داخل غرفتها، وأنت لا تحب أن تطلع على ذلك، ولا يحل لك ذلك... فلا تحب ذلك؛ لأنك ممنوع منه شرعًا وممنوع منه عادة أيضًا.

فهنا النبى ﷺ علمهم هذا الأدب، أنه لا بد أن تستأذن قبل أن تدخل على الغرفة، ولا تقل: هذه الغرفة فيها ابنتى، هذه فيها أمى، هذه فيها أختى، بل لا بد أن تستأذن؛ لأنك إن رأيتها على غير الحالة التى اعتدت أن تراها عليها حدث فى نفسك شىء ووقعت فى الإثم بسبب ذلك.



---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٣-٢٤) بتصرف.

(٨٧٥) وعنْ أبي موسَى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «الاسْتِئذانُ ثَلاثٌ، فإنْ أُذِنَ لكَ وإلا فارجِع»(١).

۞ وهذا الحديث له قصة عجيبة أُحب أن أذكرها لكم(٢).

فقد ذهب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ... وكان أرسل إليه عمر فاستأذن ثلاث مرات وعُمر مُنشغل فى أمرٍ من الأمور وكأنه عرف أن أبا موسى موجود، ولكن انشغل فى شىءٍ فلم يرد، مرة واثنين وثلاثة، فرجع أبو موسى ، فلما رجع إذا بعمر يسأل: ألم يكن هنا أبو موسى؟ فقالوا: انصرف، قال: ائتونى به، فجاءوا له بأبى موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فسأله: ما الذى جعلك تنصرف وأنا أريدك فى حاجة؟ فقال له: سمعت النبى ﷺ يقول: **«الاستئذان ثلاث فإن أُذن لك وإلا فارجع»**.

فقال عمر بن الخطاب: لتأتينى على ذلك ببيِّنة وإلا أوجعتك؟ ويكفى أن أبا موسى يُحدث بهذا الحديث عن النبى ﷺ، ولا حاجة لمُحدِّثٍ آخر ... وهل لعمر ألا يقبل الحديث إلا من أكثر من واحد؟ لا، بل عمر يقبل الحديث من أبى موسى ومن غيره، ولكن خشى أن يكون فى الناس مَن يُحدث فيكذب على النبى ﷺ، فشدَّد على أبى موسى تخويفًا لغيره ألا يُحدث عن النبى ﷺ إلا بثباتٍ ويقينٍ.

وأبو موسى له مقام وله منزلة عند الناس.

فكأنَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خشى أن يتساهل الناس بالتحديث عن النبى ﷺ، فخوَّف أبا موسى ليخاف غيره فى تحديثهم عن النبى ﷺ.

وذهب أبو موسى إلى الأنصار فوجد أبا سعيد الخدرى ومجموعة من الأنصار فاستغاث بهم، وطلب أن يذهب معه واحدٌ منهم إلى عمر حتى يُحدِّث

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦٢٤٥) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٣) كتاب الآداب.

(٢) الحديث أورده الإمام مسلم برقم (٢١٥٣) كتاب الآداب- ولكنى أحكيه لكم على صورة قصة ولم ألتزم بألفاظ الحديث.

عمر به... فقال له أُبي بن كعب رضي الله عنه: لا نبعث معك إلا أصغرنا.

فقام أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه وحدَّث عمر بذلك، وجاء أُبي بن كعب بعد ذلك ينتهر عمر رضي الله عنه فقال: هذا أصغر مَن علم ذلك، وأنت لم تعرفه يا عمر! فلا تكن حربًا على أصحاب رسول الله ﷺ... يعنى: لا تُشدد عليهم حتى لا يستهين الناس بأصحاب النبى (صلوات الله وسلامه عليه)، وكلهم ثقات وكلهم عُدول، فقد كان أصحاب النبى ﷺ يتناصحون فيما بينهم، وكان يُشدد بعضهم على بعضٍ فى النصيحة فى إطار المحبة فى الله سبحانه وتعالى[١].



(٨٧٦) وعنْ سهلِ بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إنَّمـا جُعِلَ الاستئذانُ مِن أجْلِ البَصَر»[٢].

وها هي روايته كاملة: عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ رضي الله عنه، أَخْبَرَهُ أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ فِي جُحرٍ فِي بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِدرًى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: **«لَوْ أَعلَمُ أَنَّكَ تَنْتَظِرُنِي لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ»** وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّمَا جُعِلَ الإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ»**.



(٨٧٧) وعنْ رِبْعِيِّ بن حِراشٍ قال: حدَّثنا رجُلٌ مِن بَنِى عامرٍ أنَّهُ استأذَنَ على النَّبِيِّ ﷺ وهو فى بيتٍ فقال: أألِج؟ فقال رسُولُ الله ﷺ لخادِمِهِ: «اخْرُج إلى هذا فَعَلِّمْهُ الاستئذانَ فقُل لهُ: قُل: السَّلامُ عَلَيْكُم، أأَدخُلُ؟» فسَمِعَهُ الرَّجُلُ فقال: السَّلامُ عليكم، أأدخُلُ؟ فأذِنَ لهُ النَّبِيُّ ﷺ، فدَخَل[٣].

---

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين)/ للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) **متفق عليه:** رواه البخارى (٦٢٤١) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٦) كتاب الآداب.

(٣) **صحيح:** رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٩٧)، والسلسلة الصحيحة (٨١٨)، (٨١٩).

(٨٧٨) عن كِلدةَ بن الحنبل رضي الله عنه قال: أتيتُ النَّبِيَّ ﷺ فدخَلْتُ عَلَيه ولم أُسَلِّم، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «ارجع فقُلْ: السَّلامُ عَلَيْكُم أأدخُل؟»[١].

۞ ولشرح تلك الأحاديث وما بعدها في باب الاستئذان وآدابه فسوف أذكر لكم ذلك عن طريق عرض آداب الاستئذان كلها.

۞ فتعالوا بنا لنعرف ما هي الآداب التي ينبغي أن يتأدب بها المسلم عند الاستئذان:

(١) الاستئذان قبل الدخول:

فلا ينبغي أن يدخل المسلم بيتًا قبل أن يستأذن أهل البيت في الدخول فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور:٢٧].

(٢) التسليم قبل الدخول:

وذلك بأن يُسلِّم المسلم قبل دخول أي بيت.

(٣) أن يذكر اسمه ويُعرِّف الناس بنفسه:

وذلك بأن يذكر اسمه إذا سأله صاحب البيت: مَن أنت؟ فلا يقول: أنا... بل يقول: أنا فلان... أو يقول: فلان .. ويذكر اسمه.

فإن النبي ﷺ أتاه جابر فدقَّ عليه الباب فقال: «مَن ذا؟» فقال جابر: أنا. فقال النبي ﷺ: «أنا. أنا! كأنه كرهها»[٢].

(٤) عدم استقبال الباب:

أن لا يقف المستأذن أمام الباب بوجهه، وإنما يجعل الباب عن يمينه أو عن يساره... لأنه لو وقف تلقاء الباب ربما يقع بصره على أهل الدار، وقد حُرم ذلك، وشُرع الاستئذان من أجل البصر.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٣١١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٥٠) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٥) كتاب الآداب.

عن عبد الله بن بُسر قال كان رسُول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من رُكنه الأيمن أو الأيسر ويقول: «السلامُ عليكم، السلامُ عليكُم»(١).

(٥) أن يقرع الباب ثلاثًا:

وذلك بأن يقرع الباب أو يدق الجرس ثلاث مرات فقط فإن لم يرد عليه أحد فإنه ينصرف ولا يُزعج أهل البيت.

فإن أهل البيت عند سماعهم قرع الباب فى الأولى يستمعون، وفى الثانية يتأهبون، وفى الثالثة يأذنون ... فإن لم يؤذَن له رجع. وقد قال النبى ﷺ: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يُؤذَن له فليرجع**»(٢).

(٦) أن يقرع الباب برفق:

❁ فلا يقرعه قرعًا عنيفًا يُفزع أهل البيت، وكذلك لا يضغط زر الجرس بشكلٍ متواصل حتى ولو كان هو صاحب البيت، فقد يظن أهل البيت أن هناك هولًا قد حدث ... وقد جاءت امرأة إلى الإمام أحمد فدقَّت عليه الباب دقًّا عنيفًا تريد أن تسأله فى أمر، فخرج وهو يقول: هذا دق الشُّرط (أى: الشُّرطة).

(٧) الفصل بين مرات قرع الباب:

يعنى يجعل مُهلة بين كل دقتين حتى يعطى أهل البيت فرصة للاستعداد، أو لفتح الباب. ولا يكون قرع الباب متواصلًا(٣).

(٨) انتظار الإذن:

وذلك بأن ينتظر المسلم بعد قرع الباب إذن صاحب البيت فإن أذِن له دخل وإلا فإنه ينصرف حتى لا يُسبب حرجًا لأهل البيت.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود (٥١٨٦) كتاب الأدب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع(٤٦٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٤٥) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٤) كتاب الآداب.

(٣) موسوعة الآداب الإسلامية / أ. عبد العزيز ندا (١/ ٨٤).

(٩) الرجوع عند عدم الإذن:

فقد قال النبى ﷺ: «إذا استأذن أحدُكم ثلاثًا فلم يُؤذَن لهُ فليرجع»[١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور:٢٨]

(١٠) قبول اعتذار صاحب البيت:

فإذا اعتذر صاحب البيت عن عدم قدرته على استقبال الضيف فى ذلك الوقت فعلى الزائر أن يقبل عُذره فربما يكون مريضًا أو مشغولًا أو عنده ارتباطات هامة أو عنده مريض أو غير ذلك... فينبغى أن يعذر المسلم أخاه المسلم.

(١١) غض البصر:

فإذا استأذن المسلم على أخيه فيجب أن يغض بصره ولا ينظر من ثقب الباب أو من فتحة الباب إذا كان مفتوحًا... فإذا دخل فإنه يجب عليه ألا يرمى ببصره هنا وهناك بل يغض بصره عن أهل البيت حتى لا يطلع على عورات أهل البيت.

فقد قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠﴾ [النور:٣٠].

وقال النبى ﷺ: «إنما جُعل الاستئذان من أجل البصر»[٢].

(١٢) اختيار الأوقات المناسبة:

وذلك لأن هناك أوقاتًا لا تصلح للزيارة.. كأن يكون الوقت متأخرًا بالليل أو فى الصباح الباكر أو عند وقت الظهيرة..

فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٤٥) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٤) كتاب الآداب.

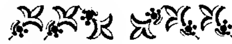
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٤١) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٦) كتاب الآداب.

ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النور:٥٨].

(١٣) الاستئذان على الوالدين:

وذلك بأن يستاذن المسلم قبل أن يدخل على والديه أو على أخته وذلك لاحتمال أن يدخل على أمه أو على أخته وهى فى هيئة لا تحب أن يراها عليها.

عن عطاء بن يسار أن رسُول الله ﷺ سألهُ رجُل فقال: يا رسُول الله، أستأذنُ على أُمى؟ فقال: «**نعم**» قال الرجُل: إنى معها فى البيت، فقال رسول الله ﷺ: «**استأذن عليها**» فقال الرجُل: إنى خادمُها، فقال لهُ رسُول الله ﷺ: «**استأذن عليها، أتُحبُّ أن تراها عُريانة؟**» قال: لا، قال: «**فاستأذن عليها**»(١).



(١) صحيح الأدب المفرد (١٠٩١).

(١٤١) باب بيان أن السُّنة إذا قيل للمستأذن: مَن أنت؟ أن يقول: فلان فيسمي نفسه بما يُعرَف به من اسمٍ أو كُنية وكراهة قوله « أنا » ونحوها

(٨٧٩) عن أنسٍ رضي الله عنه فى حديثه المشهور فى الإسراء قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ثُمَّ صَعدَ بى جِبْريلُ إلى السَّماء الدُّنيا فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبْريلُ، قِيلَ: ومَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ. ثُمَّ صَعدَ إلى السَّماءِ الثانية فاستفتحَ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَنْ مَعَكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ» والثالثة والرابعة وسائرهنَّ ويُقالُ فى باب كل سماء: مَن هذا؟ فيقُولُ: جبريل[١].

(٨٨٠) وعن أبى ذرٍّ رضي الله عنه قال: خَرَجْتُ ليْلَةً مِن الليالى فإذا رسولُ الله ﷺ يمشى وَحدَهُ، فجَعلتُ أمشى فى ظِلِّ القَمَر، فالتفتَ فرآنى، فقال: «مَنْ هذا؟» فقلت: أبو ذرٍّ[٢].

(٨٨١) وعنْ أُمِّ هانئ رضي الله عنها قالت: أتيتُ النَّبِيَّ ﷺ وهو يغتسل وفاطمةُ تَسْتُرُهُ فقال: «مَنْ هذه؟» فقلت: أنا أُم هانئ[٣].

(٨٨٢) وعن جابر رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فدَقَقْتُ الباب، فقال: «مَنْ هذا؟» فقلت: أنا، فقال: «أنا أنا؟» كأنه كَرِهَها[٤].

۞ وقد ذكرنا شرح ذلك فى الباب السابق عند ذكر آداب الاستئذان.. وذكرنا أن صاحب البيت إذا سألك مَن أنت؟ فلا بد أن تذكر اسمك ولا تَقُل:

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٦٢) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٤٣) كتاب الرقاق، ومسلم (٩٤) (٣٣) كتاب الزكاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٥٧) كتاب الصلاة، ومسلم (٣٣٦) كتاب الحيض.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٥٠) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٥) كتاب الآداب.

أنا.. وذلك لأنها تدل على الكبر فى ذلك الموضع.. لأن مَن قال: أنا فى ذلك الموضع كأنه يقول: وهل هناك أحدٌ لا يعرفنى.. إنه أنا.

۞ وقد يظن بعض الناس أن كلمة (أنا) لا تجوز فى كل الأحوال.. فتجده حينما يتحدث يقول: أنا..وأعوذ بالله من كلمة أنا.

هذا خطأ... لأن النبى ﷺ قال كما فى الصحيحين: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر...**»(١).

وقال كما عند البخارى: «**أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا...**»(٢).

وروى مسلم أن النبى ﷺ سأل أصحابه يومًا فقال: «**مَن أصبح منكم اليوم صائمًا؟**». قال أبو بكر: أنا. قال: «**مَن تَبِعَ منكم اليوم جنازة؟**» قال أبوبكر رضي الله عنه: أنا. قال: «**فمَن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟**» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا. قال: «**مَن عاد منكم اليوم مريضًا؟**» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمعن فى امرئٍ إلا دخل الجنة**»(٣).

۞ فكلمة أنا لاتُكره فى كل الأحوال وإنما تُكره فى حالتين اثنتين ألا وهما:

١- إذا كان ذلك على سبيل الكبر والإعجاب بالنفس.

٢- إذا كان فى حال الاستئذان... لأن المسلم عند الاستئذان لا بد أن يذكر اسمه لصاحب البيت.



(١)الحديث عند مسلم (٢٢٧٨) كتاب الفضائل، بدون لفظ: «ولا فخر»، وهو عند الترمذى (٢١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) بتمامه.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٠٠٥) كتاب الأدب.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠٢٨) كتاب الزكاة.

(١٤٢) باب استحباب تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى وكراهية تشميته إذا لم يحمد الله تعالى وبيان آداب التشميت والعطاس والتثاؤب

(٨٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «إن الله يُحِبُّ العطاسَ ويَكْرَهُ التَّثَاؤبَ، فإذا عطَس أحدكُم وحَمِدَ الله تعالى كان حقًّا على كل مسلم سمعهُ أن يقول له: يَرحَمُكَ الله، وأما التَّثاؤب فإنَّما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحَدُكم فَلْيَرُدَّهُ ما استطاع، فإن أحدَكم إذا تثاءب ضَحِكَ منه الشيطان»[1]

(٨٨٤) وعنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إذا عَطَسَ أحدكم فَليَقُل: الحمدُ لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يَرحَمُكَ الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فَليَقُل: يَهديكم اللهُ ويُصلِحُ بَالكم»[2]

(٨٨٥) وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إذا عَطَسَ أحدُكُم فحَمِدَ الله فَشَمِّتوه، فإن لم يَحمَد الله فلا تُشمِّتوه»[3] .

(٨٨٦) وعن أنس رضي الله عنه قال: عطس رجلان عند النَّبِيِّ ﷺ فشَمَّتَ أحدهما ولم يُشمِّتِ الآخَرَ، فقال الذي لم يُشَمِّتْهُ: عَطَسَ فُلانٌ فشَمَّتَّهُ وعَطَسْتُ فَلم تُشَمِّتني؟ فقال: «هذا حَمِدَ الله، وإنك لم تحمد الله»[4]

(٨٨٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطَسَ وضَعَ يدَهُ أو ثَوْبَهُ على فِيه وخَفَضَ -أوْ غَضَّ- بها صَوْتَه[5]. شك الراوي.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٢٢٦) كتاب الأدب.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٢٢٤) كتاب الأدب.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٢٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩١) كتاب الزهد والرقائق.

(٥) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٥٥).

(٨٨٨) وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان اليَهُودُ يَتَعَاطَسُونَ عندَ رسول الله ﷺ يَرجُونَ أنْ يقولَ لهم: «يرحَمُكُم الله»، فيقول: «يهديكُم الله ويُصلحُ بالكم»[1].

(٨٨٩) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا تثاءَبَ أحدُكُم فليُمْسكْ بيده على فِيهِ فإنَّ الشيطان يدخل»[2].

۞ قال المؤلف الإمام النووي رحمه الله في كتاب رياض الصالحين: باب استحباب تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى وبيان آداب العاطس، والتثاؤب.

العطاس من الله عز وجل، يحبه الله كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب العطاس» والسبب في ذلك أن العطاس يدل على النشاط، والخفة، ولهذا تجد الإنسان إذا عطس نَشِط ... والله سبحانه وتعالى يحب الإنسان النشيط الجاد ... وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير»[3]، والعطاس يدل على الخفة والنشاط، فلهذا كان محبوبًا إلى الله، وكان مشروعًا للإنسان إذا عطس أن يقول: الحمد لله؛ لأنها نعمة أُعطيها فليحمد الله عليها، فيقول: (الحمد لله) إذا عطس سواء أكان في الصلاة أو خارج الصلاة في أي مكان كان ... إلا أن العلماء -رحمهم الله- يقولون: إذا عطس - وهو في الخلاء - فلا يقول بلسانه: (الحمد لله) ولكن يحمد الله بقلبه؛ لأنهم يقولون - رحمهم الله -: إن الإنسان لا يذكر الله في الخلاء... فإذا عطس الإنسان وحمد الله كان حقًّا على كل مَن سمعه أن يقول له: (يرحمك الله) وهذا هو التشميت فيدعو له بالرحمة جزاءً له على حمده لله عز وجل فإنه لما حمد الله كان من جزائه أن إخوانه يدعون له بالرحمة.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٧٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٥) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

وقوله: «**كان حقًّا على كل مَن سمعه**» ظاهره أنه يجب على كل السامعين بأعيانهم... ويؤيده قوله فى الحديث الآخر: «**إذا عطس فحمد الله فشمِّتوه**».

وذهب بعض العلماء إلى أن تشميت العاطس فرض كفاية.. يعنى إذا قال واحد من الجماعة: يرحمك الله، كفى؛ لكن الاحتياط أن يُشمته - أى يدعو له بالرحمة - كل مَن سمعه كما جاء فى الحديث.

وأما التثاؤب: فإنه من الشيطان؛ ولهذا كان الله يكرهه لماذا؟

لأن التثاؤب يدل على الكسل؛ ولهذا يكثر التثاؤب فيمن كان فيه نوم؛ ولأجل أنه يدل على الكسل كان الله يكرهه، ولكن إذا تثاءب فالأَولَى أن يرده - أى يرد التثاؤب - يكظمه ويتصبر... قال العلماء: وإذا أردت أن تكظمه فعض على شفتك السفلى، وليس عضًّا شديدًا فتنقطع، ولكن لأجل أن تضمها حتى لا ينفتح الفم، فالمهم أن تكظم سواء بهذه الطريقة أو غيرها.

فإن عجزت عن الكظم فضع يدك على فمك...

وما ذكره بعض العلماء - رحمهم الله - أنك تضع ظهرها على الفم فلا أصل له، وإنما تضع بطنها، تَسُد الفم... والسبب فى ذلك أن الإنسان إذا تثاءب ضحك الشيطان منه؛ لأنه - أى الشيطان - يعرف أن هذا يدل على كسله وعلى فتوره.

والشيطان يحب من بنى آدم أن يكون كَسولًا فَتورًا -أعاذنا الله وإياكم منه - ويكره الإنسان النشيط الجاد الذى يكون دائمًا فى حزم وقوة ونشاط، فإذا جاءك التثاؤب فإن استطعت أن تكظمه وتمنعه فهذا هو السُّنة وهذا هو الأفضل، وإن لم تقدر فضع يدك على فمك.

ولكن هل تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؟ لا... لأن ذلك لم يَرِد عن النبى (عليه الصلاة والسلام) فالنبى ﷺ علمنا ماذا نفعل عند التثاؤب، ولم يقل

قولوا كذا، وإنما قال: «**اكظموا، أو رُدُّوا باليد**». ولم يَقُل: قولوا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... أما ما اشتهر عند بعض الناس أن الإنسان إذا تثاءب يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فهذا لا أصل له.

والعبادات مبنية على الشرع لا على الهوى... لكن قد يقول بعض الناس أليس الله يقول: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقد أخبر النبي ﷺ أن التثاؤب من الشيطان، فهذا نزغ؟ نقول: لا، فقد فهمت الآية خطأ، فالمراد من الآية ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. يعني: الأمر بالمعاصي أو بترك الواجبات، فهذا نزغ الشيطان ... كما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ أنه ينزغ بين الناس، فهذا نزغه: أمرٌ بالمعاصي والتضليل عن الواجبات... فإن أحسست بذلك، فَقُل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أما التثاؤب فليس فيه إلا سُنةٌ، فِعلية فقط، وهي الكظم ما استطعت، فإن لم تقدر فضع يدك على فمك(١).

۞ وقد كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله ﷺ.. أي: يطلبون العطسة من أنفسهم ويتكلفونها.. يرجون ويتمنون بهذه العطسة أن يقول لهم النبي ﷺ: يرحمكم الله.. فكان النبي ﷺ يقول لهم: « **يهديكم الله ويُصلِحُ بالكم**» ولا يقول لهم: يرحمكم الله.. وذلك لأن الرحمة مُختصة بالمؤمنين.. فكان يدعو لهم بما يُصلح بالهم من الهداية والتوفيق والإيمان.



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٦-٢٧).

۞ وها هى بعض الآداب التى ينبغى أن نتأدب بها عند العطاس:

(١) وضع اليد أو الثوب على الفم لخفض الصوت:

وذلك من أجل خفض الصوت حتى لا نُزعج الآخرين.. وكذلك حتى لا يتطاير الرذاذ من فم العاطس فيؤذى مَن حوله أو يتسبب فى نقل عدوى (إذا قدَّر الله ذلك).

ولذا كان من هدى النبى ﷺ أنه «كان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فِيه وخفض بها صوته»[1].

قال أهل العلم: وفى ذلك حكمتان:

الحكمة الأولى: أنه قد يخرج مع هذا العطاس أمراض تنتشر على مَن حوله.

الحكمة الثانية: أنه قد يخرج من أنفه شىء مُستقذَر تتقزز النفوس منه، فإذا غطى وجهه صار ذلك خيرًا ... ولكن لا تفعل ما يفعله بعض الناس بأن تضع يدك على أنفك، فهذا خطأ؛ لأن هذا يَحُدّ من خروج الريح التى تخرج من الفم عند العطاس، وربما يكون فى ذلك ضررٌ عليك.

(٢) أن يحمد الله بعد العطاس:

أن يقول العاطس: الحمد لله.

أن يقول مَن سمعه: يرحمكم الله.

أن يرد العاطس: يهديكم الله ويصلح بالكم.

۞ عن النبى ﷺ قال: «**إذا عطس أحدُكم فليقُل الحمدُ لله وليقُل أخُوهُ أو صاحبُهُ يرحمُك الله ويقول هُو يهديكُمُ الله ويُصلحُ بالكُم**»[2].

۞ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وَلَمَّا كَانَ الْعَاطِسُ قَد حَصَلَتْ لَهُ بِالْعُطَاسِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٥٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٢٤) كتاب الأدب.

نِعمَةٌ وَمَنْفَعَةٌ بِخُرُوجِ الْأَبْخِرَةِ الْمُحتَقِنَةِ فِى دِمَاغِهِ الَّتِى لَوْ بَقِيَتْ فِيهِ أَحدَثَتْ لَهُ أَدوَاءً عَسِرَةً، شُرِعَ لَهُ حَمْدُ اللهِ عَلَى هَذِهِ النِّعمَةِ مَعَ بَقَاءِ أَعضَائِهِ عَلَى الْتِئَامِهَا وَهَيْئَتِهَا بَعدَ هَذِهِ الزَّلْزَلَةِ الَّتِى هِىَ لِلْبَدَنِ كَزَلْزَلَةِ الْأَرضِ لَهَا، وَلِهَذَا يُقَالُ: سَمَّتَهُ وَشَمَّتَهُ بِالسِّينِ وَالشِّينِ فَقِيلَ: هُمَا بِمَعنًى وَاحِدٍ وَكُلُّ دَاعٍ بِخَيْرٍ، فَهُوَ مُشَمِّتٌ وَمُسَمِّتٌ. وَقِيلَ: بِالْمُهْمَلَةِ دُعَاءٌ لَهُ بِحُسْنِ السَّمْتِ، وَبِعَوْدِهِ إِلَى حَالَتِهِ مِنَ السُّكُونِ وَالدَّعَةِ، فَإِنَّ الْعُطَاسَ يُحدِثُ فِى الْأَعضَاءِ حَرَكَةً وَانْزِعَاجًا. وَبِالْمُعجَمَةِ: دُعَاءٌ لَهُ بِأَنْ يَصرِفَ اللهُ عَنْهُ مَا يُشَمِّتُ بِهِ أَعدَاءَهُ، فَشَمَّتَهُ: إِذَا أَزَالَ عَنْهُ الشَّمَاتَةَ وَقِيلَ: هُوَ دُعَاءٌ لَهُ بِثَبَاتِهِ عَلَى قَوَائِمِهِ فِى طَاعَةِ اللهِ ... مَأْخُوذٌ مِنَ الشَّوَامِتِ وَهِىَ الْقَوَائِمُ.

وَقِيلَ: هُوَ تَشْمِيتٌ لَهُ بِالشَّيْطَانِ، لِإِغَاظَتِهِ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى نِعمَةِ الْعُطَاسِ، وَمَا حَصَلَ لَهُ بِهِ مِنْ مَحَابِّ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّهُ... فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ اللهَ وَحَمِدَهُ، سَاءَ ذَلِكَ الشَّيْطَانَ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: نَفْسُ الْعُطَاسِ الَّذِى يُحِبُّهُ اللهُ، وَحَمْدُ اللهِ عَلَيْهِ، وَدُعَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَهُ بِالرَّحمَةِ، وَدُعَاؤُهُ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ، وَإِصلَاحُ الْبَالِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ غَائِظٌ لِلشَّيْطَانِ، مُحزِنٌ لَهُ... فَتَشْمِيتُ الْمُؤْمِنِ بِغَيْظِ عَدُوِّهِ وَحُزْنِهِ وَكَآبَتِهِ، فَسُمِّىَ الدُّعَاءُ لَهُ بِالرَّحمَةِ تَشْمِيتًا لَهُ، لِمَا فِى ضِمْنِهِ مِنْ شَمَاتَتِهِ بِعَدُوِّهِ، وَهَذَا مَعنًى لَطِيفٌ إِذَا تَنَبَّهَ لَهُ الْعَاطِسُ وَالْمُشَمِّتُ انْتَفَعَا بِهِ وَعَظُمَتْ عِنْدَهُمَا مَنْفَعَةُ نِعمَةِ الْعُطَاسِ فِى الْبَدَنِ وَالْقَلْبِ، وَتَبَيَّنَ السِّرُّ فِى مَحَبَّةِ اللهِ لَهُ ... فَلِلَّهِ الْحَمْدُ الَّذِى هُوَ أَهْلُهُ كَمَا يَنْبَغِى لِكَرِيمِ وَجْهِهِ وَعِزِّ جَلَالِهِ[1].

(٣) عدم تشميت العاطس إذا لم يحمد الله:

فقد قال النبى ﷺ: «**إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه، وإذا لم يحمد الله**

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٤٨، ٣٤٩).

فلا تُشمِّتوه»(١)، وقد كان هذا هو فعل النبى ﷺ... فقد عطس رجلان عند النبى ﷺ فشمَّت أحدهما، ولم يُشمِّت الآخر، فقال الرجل: يا رسول الله! شمَّت هذا ولم تُشمتنى! قال: «**إن هذا حَمِدَ الله، ولم تحمد الله**»(٢).

(٤) عدم التشميت بعد الثلاث مرات فقط:

فإذا تكرر العطاس من شخص بشكلٍ مُتتابع، فمن المُستحب تشميته حتى يبلغ الثلاث مرات... فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: عطس رجل عند رسول الله ﷺ وأنا شاهد، فقال رسول الله ﷺ: «**يرحمك الله**» ثم عطس الثانية أو الثالثة فقال رسول الله ﷺ: «**يرحمك الله، هذا رجل مزكوم**»(٣).

أى مُصاب بالزكام.. فلا يُشمَّت بعد ثلاث.. لكن استحب بعضهم أن يدعو له مَن حضر معه بالعافية والسلامة ولا يكون هذا من باب التشميت.

(٥) تشميت غير المسلم بقول: يهديكم الله:

فإن اليهود كانوا يتعمدون العطاس عند النبى ﷺ رجاء أن يقول لهم: «**يرحمكم الله**» فكان يقول لهم: «**يهديكم الله ويصلح بالكم**»(٤).

(٦) إذا عطس صبى صغير يُقال له: بُورك فيك:

فمن آداب العطاس أنه إذا عطس صبى صغير أن يُقال له: بُورك فيك:

أو يُقال له: جَبَرَكَ الله.. هذا إن كان قد تعلَّم أن يقول إذا عطس: الحمد لله.. فإن لم يكن يعلم.. فليحمد عنه وليه.. ثم ليُعلمه كيف يحمد الله.

فعن الحسن رحمه الله قال: سُئل الإمام أحمد عن الصبى الصغير يعطس؟ قال: يُقال له: بورك فيك.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٩٩٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦٢٢٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩١) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٩٩٣) كتاب الزهد والرقائق.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد، والبخارى فى الأدب، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى الإرواء (١٢٧٧).

وبقيت هنا مسألة واحدة.. ألا وهي:

إذا عطس المسلم ولم يحمد الله فهل نُذكره بذلك أم لا؟

قال الإمام ابن القيم (رحمه الله):

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَسْأَلَتَيْنِ: إحداهُمَا: أَنَّ الْعَاطِسَ إِذَا حَمِدَ اللهَ فَسَمِعَهُ بَعضُ الْحَاضِرِينَ دُونَ بَعضٍ، هَلْ يُسَنُّ لِمَنْ لَمْ يَسْمَعهُ تَشْمِيتُهُ؟

فِيهِ قَوْلَانِ، وَالْأَظْهَرُ: أَنَّهُ يُشَمِّتُهُ إِذَا تَحَقَّقَ أَنَّهُ حَمِدَ اللهَ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ سَمَاعَ الْمُشَمِّتِ لِلْحَمْدِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ نَفْسُ حَمْدِهِ .. فَمَتَى تَحَقَّقَ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ التَّشْمِيتُ، كَمَا لَوْ كَانَ الْمُشَمَّتُ أَخْرَسَ وَرَأَى حَرَكَةَ شَفَتَيْهِ بِالْحَمْدِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**فَإِنْ حَمِدَ اللهَ فَشَمِّتُوهُ**». هَذَا هُوَ الصَّوَابُ.

الثَّانِيَةُ: إِذَا تَرَكَ الْحَمْدَ فَهَلْ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ حَضَرَهُ أَنْ يُذَكِّرَهُ الْحَمْدَ؟

قَالَ ابن العربي: لَا يُذَكِّرُهُ ... وَقَالَ النووي: أَخْطَأَ مَنْ زَعَمَ ذَلِكَ، بَلْ يُذَكِّرُهُ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ. قَالَ: وَهُوَ مِنْ بَابِ النَّصِيحَةِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعرُوفِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

وَظَاهِرُ السُّنَّةِ يُقَوِّي قَوْلَ ابن العربي لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُشَمِّتِ الَّذِي عَطَسَ، وَلَمْ يَحمَدِ اللهَ، وَلَمْ يُذَكِّرْهُ وَهَذَا تعزِيرٌ لَهُ وَحِرمَانٌ لِبَرَكَةِ الدُّعَاءِ لَمَّا حَرَمَ نَفْسَهُ بَرَكَةَ الْحَمْدِ، فَنَسِيَ اللهَ، فَصَرَفَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْسِنَتَهُمْ عَنْ تَشْمِيتِهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ ... وَلَوْ كَانَ تَذْكِيرُهُ سُنَّةً، لَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْلَى بِفِعلِهَا وَتَعلِيمِهَا، وَالْإِعَانَةِ عَلَيْهَا[1].



(١) زاد المعاد (٢/ ٤٤٢).

(١٤٣) باب استحباب المصافحة عند اللقاء وبشاشة الوجه وتقبيل يد الرجل الصالح وتقبيل ولده شفقة ومعانقة القادم من سفر وكراهية الانحناء

(٨٩٠) عن أبى الخطاب قتادة قال: قلتُ لأنس: أكانتِ المُصافَحةُ فى أصحابِ رسول الله ﷺ؟ قال: نَعَمْ[1].

۞ أى: أن من عادة العرب عدم المصافحة والتسليم باليد، وإنما كان الواحد منهم يُسلِّم فيقول: أنعِم صباحًا أنعِم مساءً، فيأتى على القوم فيُسلِّم بعضهم على بعضٍ من غير مصافحة باليد.

وكان العرب يظنون أن مَدَّ اليد والمصافحة من أخلاق العجم، ولذلك جاء عن البراء (أنه سلم عليه النبى ﷺ فمدَّ يده مُصافحًا) فالبراء رضي الله عنه يقول: كنت أظنها من أخلاق العجم .. يعنى: أنا كنت أظن هذا من أدب العجم؛ لأنه لم يكن عند العرب هذا الشىء أو لم يكن مشهورًا عند العرب أنه كلما قابل الرجل أخاه مَدَّ يده وصافحه ... فالنبى ﷺ كان يصافح أصحابه ويُسلِّم عليهم (صلوات الله وسلامه عليه) ... فهنا يقول أنس وقد سُئل: (أكانت المصافحة فى أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم).

(٨٩١) وعن أنس رضي الله عنه قال: لـمَّا جاءَ أهلُ اليَمنِ قال رسولُ الله ﷺ: «قَد جاءَكُمْ أهْلُ اليَمَنِ، وهُمْ أوَّلُ مَن جاءَ بالمُصافَحةِ»[2].

۞ هذه الكلمة «**وهم أول مَن جاء بالمصافحة**» ذكرها الإمام أبو داود فى

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٢٦٣) كتاب الاستئذان.

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب، وأحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٥٢٧)

الحديث كأنها مرفوعة للنبي ﷺ، ولكن في مسند الإمام أحمد بيَّن أن أنَسًا هو الذي قال ذلك .... فهذا يوضح ويُبين أن الحديث المرفوع للنبي ﷺ قوله: «**جاءكم أهل اليمن**». كأن هذا كان قبل مقدمهم وقبل مجيء أهل اليمن، كأنه قال لهم: غدًا سيزوركم أهل اليمن أو وفدٌ من أهل اليمن ... وذكر أنس رضي الله عنه هذا الحديث وقال: «**وهم أول مَن جاء بالمصافحة**» يعني: أنهم عندما جاءوا جعلوا يُسلِّمون ويصافحون، فكانوا أول مَن فعل ذلك.

والأمر ليس كذلك، بل كان هذا موجودًا عند العرب، وقد فعله النبي ﷺ مع أصحابه، ولكن كان قليلًا ولم يكن كثيرًا، فهؤلاء جاءوا وفعلوا ذلك، فسلموا على مَن لقيهم، فكانت هذه سُنة من سُننهم التي هي انتشار تلك المصافحة.

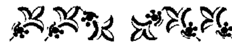
ففي مسند الإمام أحمد عن أنس أيضـًا: قال: لما أقبل أهل اليمن قال رسول الله ﷺ: «**قد جاءكم أهل اليمن، وهم أرق قلوبًا منكم**» يعني: يذكر لهم أن الوفد الذين جاءوا من أهل اليمن هم أرق قلوبًا منكم.

وفي حديثٍ آخر: قال: «**الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية**» فمدح النبي ﷺ أهل اليمن الذين قَدِمُوا، وكانوا وفد الأشعريين، ومنهم: أبو موسى الأشعري رضي الله عنه... فهؤلاء الذين مدحهم النبي (صلوات الله وسلامه عليه) وقومهم الذين من ورائهم هم أرقُّ قلوبًا وأرقُّ أفئدة رضي الله عنهم، وأكثر قبولًا لهذا الدين من غيرهم.

وفي مسند الإمام أحمد أيضًا عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «**سيَقدُم قومٌ هم أرقُّ قلوبًا للإسلام منكم**» كأنه يقول لهم: أنتم لما دعوتكم في مكة إلى الإسلام بقيت فيكم ثلاث عشرة سنة، ومع ذلك لم يُسلم إلا عددٌ قليل جدًّا، لكن أهل اليمن بمجرد ما سمعوا بهذا الدين دخلوا في دين الله، وجاءوا بشوق للنبي (صلوات الله وسلامه عليه)، قال أنس: (فقَدِمَ الأشعريون ... منهم أبو موسى الأشعري) فلما قَدِمَ وفد الأشعريين على النبي ﷺ وكان فيهم أبو موسى

الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقربوا من المدينة، فهم مع تلهُّفهم وشوقهم للقاء النبى ﷺ كانوا يقولون الرجز، وهو نوع من الشعر، فكانوا يرتجزون ويقولون: غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه... من شدة شوقهم للنبى ﷺ وللقائه ولقاء أصحابه.

فلما قَدِموا على النبى ﷺ أحدثوا المصافحة، فهم عندما جاءوا يُسلِّمون على النبى ﷺ ويُسلِّمون على أصحاب النبى ﷺ كانوا يصافحون، فكأنهم نشروا هذا الشيء الذى كان قبل ذلك قليلاً ... كان موجودًا ولكنه قليل، فهم نشروا المصافحة، فيقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وكانوا هم أول مَن جاء بالمصافحة)[1].



(٨٩٢) وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مُسْلِمَين يَلْتَقِيانِ فيتَصافَحانِ إلا غُفِر لهما قبل أن يفترقا»[2].

۞ ففى هذا الحديث أن المسلم إذا قابل أخاه المسلم فصافحه بقلبه قبل أن يصافحه بيده وابتسم فى وجهه وأقبل عليه بكل حُبٍّ وحنانٍ فإن الله يغفر لهما ذنوبهما قبل أن يفترقا.

فهذه المصافحة من أعظم أسباب تكفير الخطايا ومغفرة الذنوب.

ولذا فقد قال النبى ﷺ: **«إن المؤمن إذا لقى المؤمن، فسلَّم عليه، وأخذ بيده فصافحه، تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر»**[3].

فكونك تمد يدك لأخيك فهذا دليل التواضع ودليل المحبة... فبالمصافحة تنتشر المحبة بين المؤمنين ... بالتسليم وبالمصافحة.

يعنى: عندما يضع المرء يده فى يد أخيه ويُسلم عليه ويقول: السلام عليكم

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٧٧٧).

(٣) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٢٦).

ورحمة الله ... فهو يدعو له، فالله عَزَّوَجَلَّ يستجيب لدعاء أحدهما لصاحبه ويغفر للاثنين قبل أن يفترقا.



(٨٩٣) وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل: يا رسول الله، الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيَنْحَنِي لهُ؟ قال: «لا» ، قال: أَفَيَلْتَزِمه ويُقَبِّله؟ قال: «لا» قال: فيأخُذُ بيده ويُصافِحُهُ؟ قال: «نعَم»[1].

۞ لقد كان العجم إذا لقى أحدهم صاحبه يُسلم عليه وينحنى له.. كانت تلك عادتهم عند اللقاء.. فسأل هذا الرجل رسول الله ﷺ عن ذلك.. وكأنه يقول:

هل نفعل كما يفعلون حين نُسلِّم ويصافح بعضنا بعضًا؟ فقال النبى ﷺ له: لا... أى: يُكره هذا الشىء، فقال له الرجل: (أفيلتزمه ويُقبله؟ قال: لا، قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم).

يعنى: أن من السُّنة أنك إذا لقيت أخاك أن تُسلم عليه، إما أن تقول: السلام عليكم وأنت مارٌّ، وإما أن تقف وتُسلم عليه: السلام عليكم وتصافحه بيدك وأنت مبتسم فهذا أفضل.

ففى الحديث أن النبى ﷺ كره أن ينحنى الرجل لصاحبه، إذا قابله.

۞ وكذلك الالتزام والتقبيل ليسا من السُّنة إلا إذا كان صاحبك أو قريبك قادمًا من سفرٍ أو نحوه..

فالالتزام: هو أن تأخذ أخاك فى حضنك.

فالالتزام والمعانقة هذا يكون إذا كان الإنسان مسافرًا وقَدِم من سفره، فهذا تلتزمه وتُقبله، لكن الذى تقابله بين فترة وأخرى كلما قابلته قبَّلته وعانقته، ليس

---

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، والبيهقى، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٦٠).

ذلك من سُنة النبى ﷺ ... ولا نقول: يَحرُم ذلك ولكن يُكرَه؛ لأن النبى ﷺ لما سُئل عن ذلك أمره ألا يفعل ذلك.

فإن قال قائل: كيف يكون قول الرسول ﷺ «**لا ينحنى له**» مع قول الله تعالى فى إخوة يوسف لما دخلوا عليه ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ فالجواب عن هذا: أنه فى شريعة سابقة، وشريعتُنا الإسلامية قد نسختْه، ومنعت منه، فلا يجوز لأحد أن يسجد لأحدٍ، وإن لم يُرِد بذلك العبادةَ ... أو ينحنى، فإن الانحناء منع منه الرسول ﷺ.

إذا قابلك أحدٌ يجهل هذا الأمر وانحنى لك، فانصحه وأرشده، قل له: هذا ممنوع لا تَنْحَنِ، ولا تخضع إلا لله وحده.

❀❀❀

(٨٩٤) وعن صَفوان بن عسَّال رضي الله عنه قال: قال يَهُودىٌّ لِصاحبه: اذْهب بنا إلى هذا النَّبِىِّ .. فأتيا رسولَ الله ﷺ فسَألاه عن تِسْعِ آياتٍ بيناتٍ - فذَكَرَ الحديث إلى قوله: - فقبَّلا يَدَهُ ورِجْلَهُ وقالا: نَشْهَدُ أنَّكَ نبى[١]..

(٨٩٥) وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قصة قال فيها: فدَنَوْنَا مِن النَّبِىِّ ﷺ فقبَّلنا يَدَه[٢]..

(٨٩٦) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَدِمَ زَيْدُ بنُ حارثة المدينة ورسول الله ﷺ فى بَيْتى فأتَاهُ فقَرَعَ الباب. فقام إليه النَّبِىُّ ﷺ يَجُرُّ ثوْبَهُ فاعتنقه وقبَّله[٣].

۞ وللأمانة العلمية.. فتلك الأحاديث الثلاثة ضعيفة ولم تَثْبُت عن النبى محمد ﷺ.

---

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه العلامة الألبانى رحمه الله فى ضعيف سنن الترمذى (٦١٣).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذى، وضعفه العلامة الألبانى رحمه الله فى ضعيف أبى داود (٤٥٥)، وضعيف سنن الترمذى (٥١٦).

(٣) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه العلامة الألبانى رحمه الله فى تحقيق الرياض (٨٩٦)، وضعيف سنن الترمذى (٨٠٧).

(٨٩٧) وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تَحقِرَنَّ مِنَ المعروف شَيئًا ولو أن تَلْقَى أخَاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٢٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

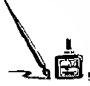
(٨٩٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبَّل النَّبيُّ ﷺ الحسنَ بن عَلِيٍّ رضي الله عنهما، فقال الأقْرَعُ بن حابِس: إنَّ لي عشَرةً مِنَ الوَلَد ما قبَّلْتُ مِنْهم أحدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لا يَرحَمْ لا يُرحَم»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٢٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٩٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١٨) كتاب الفضائل.



(٦) كتاب عيادة المريض وتشييع الميت والصلاة عليه وحضور دفنه والمكث عند قبره بعد دفنه

(١٤٤) باب الأمر بالعيادة وتشييع الميت

۞ إن للمسلم على أخيه المسلم حقوقًا وضعها الشرع الحنيف؛ لتتم الأُلفة والرابطة الوشيجة بين المؤمنين، فينتج من ذلك مجتمعٌ قويٌّ مُتحابٌّ متماسك... ومن هذه الحقوق: اتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ورَدّ السلام، ونصر المظلوم، وإجابة الداعى، وفك العانى، وعيادة المريض، وإبرار المُقسم، وغيرها.

فما أجمل أن يعيش المسلمون مُتحابين مُتآلفين... فإذا غاب أحدهم سألوا عنه وإذا مرض أحدهم عادوه -أى: زاروه- وإذا احتاج أعانوه.. من أجل أن ينتشر الحب والود بين أفراد المجتمع المسلم فيصبح مجتمعًا قويًّا متماسكًا.

وفى هذا الكتاب وتلك الأبواب يعرض المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ مجموعة من الأحاديث التى تُمثل الجانب الإنسانى بين المسلمين.. والذى يتمثل فى عيادة المريض واتباع الجنائز وغيرها من الحقوق التى تنشر عبير الحب بين أفراد المجتمع المسلم وتجعله كالبنيان المرصوص.



(٨٩٩) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أمَرَنا رسول الله ﷺ بِعيادةِ المريض، واتِّباع الجنازة، وتَشْمِيت العاطس، وإبرار المُقْسم، ونَصر المظلوم، وإجابة الداعى، وإفشاء السلام[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣٩) كتاب الجنائز، (٢٤٤٥) كتاب المظالم والغصب - ومسلم (٢٠٦٦) كتاب اللباس والزينة.

(٩٠٠) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حَقُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلام، وعِيادَةُ المريض، واتِّباعُ الجنائز، وإجابة الدَّعوة، وتَشْمِيت العاطس»(١).

۞ يقال: عيادة، وزيارة، وتشييع.

الزيارة للصحيح إذا زُرت أخًا لك فى الله فى بيته أو فى مكانه فهذه زيارة.

والعيادة للمريض؛ لأن الإنسان يُعيدها ويكررها ما دام أخوه مريضًا.

وتشييع الجنازة اتِّباعها ... ثم ذكر المؤلف حديث البراء بن عازب وقد سبق الكلام على أكثره، والشاهد منه قوله: «وعيادة المريض». فهى أمرٌ أمرَ به النبى ﷺ وهى فرض كفاية - إذا قام بها البعض سقط عن الباقين، وإذا لم يَقُم بها أحدٌ وجبَ على مَن عَلِمَ أن يعوده - ثم إن المراد بالمريض الذى يُعاد هو الذى انقطع فى بيته، ولا يخرج، وأما المريض مرضًا خفيفًا لا يعوقه عن الخروج ومصاحبة الناس فإنه لا يُعاد؛ لكن يُسأل عن حاله إذا علم به الإنسان.

۞ وقد يسأل سائل ويقول: ماذا يفعل مَن عاد مريضًا؟

والجواب: ينبغى لمن أراد أن يعود مريضًا أن يراعى تلك الآداب:

(١) إخلاص النية لله (جل وعلا): وذلك بأن يبتغى وجه الله بتلك الزيارة ليفوز بهذا الأجر العظيم المترتب على عيادته للمريض.

(٢) اختيار الوقت المناسب لعيادته:

بمعنى أن لا يزوره فى وقتٍ يُسبب له أى إرهاق أو مشقة.

(٣) أن يُصبِّره ويُذكره بالله (جل وعلا):

وذلك بأن يُذكره بالأجر والثواب المذكور فى كتاب الله وفى سُنة رسول الله ﷺ للصابرين على المرض والراضين بقضاء الله (جل وعلا).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٤٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢١٦٢) كتاب السلام.

- وأنه إذا صبر فإنه قد يفوز بمعية الله ومحبته ... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وأنه إذا صبر فإنه يفوز بالأجر الذى لا يخطر على قلب بشر ... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

(٤) ويسأله عن حاله تأنيسًا له:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل النبى ﷺ على شاب وهو فى الموت فقال: «**كيف تَجِدُك**»؟ قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبى .. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان** - يعنى الخوف والرجاء - **فى قلب عبدٍ فى مثل هذا الموطن** -يعنى الاحتضار- **إلا أعطاه الله ما يرجوه، وأمَّنه مما يخاف**»[1].

(٥) والمستحَب لمن عاد المريض:

أن يسأله عن حاله: كيف أنت؛ وعن عبادته: كيف تتوضأ، كيف تصلى... وعن معاملاته: هل لك حقوق على الناس، أو هل للناس حقوق عليك.

(٦) يفتح له باب الأمل:

فمثلًا إذا جئت مريضًا وقلت له: أنت اليوم أحسن من أمس.. حتى وإن لم يكن أحسن من جهة المرض لكن تقول: أحسن من أمس؛ لأنك زدت خيرًا، ما بين الأمس واليوم صليت خمس صلوات، واستغفرت، وهَلَّلْتَ، كذلك زاد أجرك بالمرض، وذلك حتى يُدخل عليه السرور[2].

(٧) يُثنى على المريض بمحاسن أعماله:

وذلك بما يُذهب عنه خوفه، ويُحسِّن ظنه بربه عَزَّ وَجَلَّ.

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى المشكاة (١٦١٢)، والصحيحة (١٠٥١).
(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤، ٣٥).

ففى «صحيح البخارى» أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال لعمر حين طُعن: «قد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صُحبته، ثم فارقك وهو عنك راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صُحبته ثم فارقك وهو عنك راضٍ، ثم صحبت المسلمين فأحسنت صُحبتهم، ولئن فارقتهم؛ لتفارقنهم وهم عنك راضون...» الحديث(١).

وفى «صحيح مسلم» عن أبى شُماسة قال: حضر عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت يبكى طويلًا، وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا، أما بشَّرك رسول الله بكذا....»(٢) الحديث.

وفى «صحيح البخارى»: عن القاسم بن أبى بكر أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اشتكت فجاء ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «يا أم المؤمنين تَقدمين على فَرَطِ صدقٍ؛ رسول الله ﷺ وأبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»(٣). والمقصود على مَن سبقها.

(٨) **يقص عليه بعض القصص الجميل:**

وذلك؛ لأنه مَدعاة لإدخال السرور عليه.

(٩) **يُذكره بقصص مَن ابتُلى قبله من الأمم السابقة ومن سلفنا الصالح**.

(١٠) **يُذكره بأن الفرج قريبٌ جدًّا وقد يأتى من حيث لا يحتسب**.

(١١) **يدعو للمريض ويرقيه**.

وسنذكر بعد قليل كيف كان هدى النبى ﷺ فى الدعاء للمريض.

(١٢) **ولا تُطِلِ الجلوس عنده؛** لأنه ربما يَملّ ... لأن حال المريض غير حال الصحيح، فربما يَملّ، ويحب أن تقوم عنه، ليأتى إليه أهله وما أشبه ذلك، ولكن إذا رأيت أن المريض مُستأنس بك، ويفرح أن تبقى، وأن تُطيل الجلوس عنده، فهذا خير ولا بأس به وهذا ربما يكون سببًا فى شفائه؛ لأن من أسباب الشفاء

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٦٩٢) كتاب فضائل الصحابة.
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٧٧١) كتاب فضائل الصحابة.

إدخال السرور على المريض(١).

(١٣) تذكير المريض بالتوبة والوصية والخروج من المظالم:

على أن يكون ذلك على وجهٍ لا يُزعج المريض رفقًا به ... وأن يُذكّره بحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، ويؤمله بالدعاء، وبإتمام أعماله الصالحة.

ففى حديث سعد: «**اللهم اشفِ سعدًا، وأتمم له هجرته**»(٢).

(١٤) وإذا أردت أن تقوم واستأذنت تقول: أتأذن لى.

فإن هذا أيضًا مما يَسُره؛ لأنه ربما يود أن تبقى فلا يأذن لك، ثم احرص على أن توجهه إلى فعل الخير فى هذا المرض. وقول الخير فى هذا المرض، فتقول: قد يقدر الله المرض على الإنسان فيكون خيرًا له، فيتفرغ للذكر ولقراءة القرآن وما أشبه ذلك لعله ينتبه ويكون لك أجر السبب.

۞ وأما اتباع الجنائز فسوف نتناولها بالتفصيل فى الأبواب الآتية.



(٩٠١) وعن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقولُ يَوْمَ القِيامةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَم تَعُدنِى، قال: يا ربِّ كيفَ أعُودُكَ وأنْتَ ربُّ العالمين؟ قَالَ: أمَا عَلِمْتَ أنَّ عَبْدى فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أمَا عَلِمْتَ أنَّك لو عُدته لوجدتنى عنده؟ يَا ابْنَ آدم اسْتَطْعَمْتُكَ فلم تُطْعِمْنِى، قال: يا ربِّ كيف أُطعمكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: أمَا عَلِمْتَ أنه اسْتَطْعَمَك عبدى فلان فلم تُطْعِمْه، أما علمتَ أنَّك لو أطْعَمْته لوجدتَ ذلك عندى؟ يا ابْنَ آدمَ استسقيتك فلم تَسْقِنى، قال: يا ربِّ كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما علمتَ أنك لو سقيته لوجدتَ ذلك عندى؟»(٣).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٥٩) كتاب المرضى، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة والآداب.

۞ هذا الحديث ليس فيه إشكال فى قوله تعالى: «**مرضت فلم تعدنى**»؛ لأن الله تعالى يستحيل عليه المرض، لأن المرض صفة نقصٍ .. والله سبحانه وتعالى مُنَزَّه عن كل نقص ... قال الله تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ لكن المراد بالمرض مَرَضُ عبدٍ من عباده الصالحين، وأولياء الله سبحانه وتعالى هم خاصته ... ولهذا جاء فى الحديث الصحيح القدسى أيضًا «**مَن عادى لى وليًّا فقد آذنتُه بالحرب**»[1]. يعنى مَن يعادى أولياء الله مُحاربٌ لله عَزَّوَجَلَّ مع أنه – وإن كان لم يعادِ الله على زعمه – لكنه عادى أولياءه وحاربهم ... كذلك إذا مرض عبدٌ من عباد الله الصالحين فإن الله سبحانه وتعالى يكون عنده؛ ولهذا قال: «**أما إنك لو عُدته لوجدتنى عنده**» ولم يقل: لوجدت ذلك عندى كما قال فى الطعام والشراب بل قال: «**لوجدتنى عنده**» وهذا يدل على قرب المريض من الله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا قال العلماء: إن المريض حَرِىٌّ بإجابة الدعاء إذا دعا لشخصٍ أو دعا على شخصٍ، وفى هذا دليل على استحباب عيادة المريض، وأن الله سبحانه وتعالى عند المريض وعند مَن عاده؛ لقوله: «**لوجدتنى عنده**» وقد سبق لنا كيف تكون عيادة المريض وما ينبغى أن يقوله له العائد.

«**يا ابن آدم استطعمتك فلم تُطعمنى**» يعنى طلبتُ منك طعامًا فلم تُطعمنى... ومعلوم أن الله تعالى لا يطلب الطعام لنفسه .. لقول الله تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو غنىٌّ عن كل شىء لا يحتاج لطعام ولا شراب... لكن جاع عبدٌ من عباد الله فعلم به شخص فلم يُطعمه...قال الله تعالى «**أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى**» يعنى لوجدت ثوابه عندى مُدَّخرًا لك، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة... وفى هذا دليل على استحباب إطعام الجائع، وأن الإنسان إذا أطعم الجائع وجد ذلك عند الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

«**يا ابن آدم استسقيتك** - أى طلبت منك أن تسقينى - **فلم تسقنى**» قال: كيف أسقيك وأنت رب العالمين! يعنى لستَ فى حاجة إلى طعام ولا شراب قال: «أما علمت أن عبدى فلانًا استسقاك فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى» ففيه أيضًا دليل على فضيلة إسقاء مَن طلب منك السُّقْيا، وأنك تجد ذلك عند الله مُدَّخرًا ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

والشاهد من هذا الحديثِ الجملةُ الأولى منه وهى قوله: «**مرضت فلم تَعُدنى**» ففيه دليل على استحباب عيادة المريض[1].

(٩٠٢) وعن أبى موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عُودوا المريض، وأَطعِمُوا الجائعَ، وفُكُّوا العانى»[2].

۞ فقوله ﷺ: (**عودوا المريض**) أى: اذهبوا للمريض فعودوه طالما أنه يحتاج إليكم، وطالما أن العيادة ترفع من روحه المعنوية... وعيادة المريض تَذكِرةٌ بالآخرة، فأنت تتذكر أن هذا كان سليمًا مثلك ثم صار الآن مريضًا، وهذا الأمر -أمر المرض- ليس لإنسانٍ واحد ولكن يدور على الناس.

فهو مريضٌ اليوم وأنت مريضٌ غدًا، ولا تدرى لعلَّ مرضه أخف مما سيأتيك أنت بعد ذلك - أسأل الله أن يُعافيك -...فاعمل للمستقبل، واعمل لما يكون أمامك، وإذا ذهبت إليه فإنك تُنفس له فى الأمل وفى الحياة وتقول له: شفاك الله وعُدت أفضل مما كنت...كما قال النبى ﷺ للمريض: «**لا بأس طهور إن شاء الله**»، فتُنفس له فى العمر وفى الأمل، ولعلك تعرف من حال هذا المريض

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٧).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٣٧٣) كتاب الأطعمة، (٥٦٤٩) كتاب المرضى.
«العانى»: الأسير.

أنه سيموت قريبًا... فالأطباء قد عجزوا فلا تَقُل له: أنت لن تعيش؛ فالأطباء قالوا: إنك فى آخر حياتك... بل احرص على أن تُنفِّس له فى الأجل حتى تبعث الأمل فى قلبه... فإن ذلك من أسباب الشفاء.

ولا مانع من أن تدعوه إلى التوبة والتحلُّل من المظالم بأسلوبٍ رقيق لا يحمله على التضجر ... واحرص على أن تُحدثه بأحاديث الرجاء فلعله يكون فى مرض الموت فيَلقى الله عَزَّوَجَلَّ وهو يُحسن الظن بالله.

ثانيًا: «**أطعموا الجائع**» فإذا وجدنا إنسانًا جائعًا وجب علينا جميعًا أن نُطعمه... وإطعامُه فرض كفاية إذا قام به مَن يكفى سقط عن الباقين، فإن لم يَقُم به أحدٌ تعيَّن على مَن علم بحاله أن يُطعمه... وكذلك أيضًا كسوة العارى وهو فرض كفاية.

وقد أخبر النبى ﷺ أن من بين الذين أعدَّ الله لهم الغُرف فى الجنة: الذين يُطعمون الطعام.. فقال ﷺ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَفْشَى السَّلامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**»(١).

ثالثًا: قوله: «**فُكُّوا العانى**» يعنى الأسير... فكوا الأسير الذى عند الكفار -من الأَسر-.. فإذا اختطف الكفار رجلًا مسلمًا وجب علينا أن نفك أَسره.

وكذلك لو أسروه فى حربٍ بينهم وبين المسلمين فإنه يجب علينا أن نفك أَسره... وفَكُّ أسره فرضُ كفاية أيضًا.

ولا يجوز للمسلمين أن يتركوا أَسراهم بأيدى الكفار فضلًا عن أن يُعينوا الكفار على أن يأخذوا المسلمين من عندهم فيأسرونهم.

فالواجب على المسلمين أن يُحرروا الأسارى من المؤمنين الذين أسرهم الكفار، قال النبى ﷺ: «**وفكوا العانى**» أى: ادفعوا أموالكم حتى تُخرجوه وتُحرروه.

(١) حسن: رواه أحمد والترمذى وابن حبان وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٩٠٣) وعنْ ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إنَّ المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يَزَلْ فى خُرفَةِ الجنةِ حتى يَرجع» قيل: يا رسول الله، وما خُرفَةُ الجنة؟ قال: «جَنَاها»(١) .

۞ ففى حديث ثوبان أن النبى ﷺ قال: «**إذا عاد المسلم أخاه المسلم** - يعنى فى مرضه - فإنه لا يزال «**فى خرفة الجنة**» قيل: وما خُرفة الجنة؟! قال: «**جَناها**»... والجَنى: هو الثمار الناضجة.

فالثمرة إذا نضجت فهى الخرفة... وهذا الإنسان فى مَخرفة، يعنى: فى بستان فيه ثمار... فأنت إذا عُدت المريض فأنت فى بستانٍ مُثمر من بساتين الجنة... يعنى أنك تجنى من ثمار الجنة مدة بقائك جالسًا عند هذا المريض.

قال التوربشتى: المعنى أنه بسعيه إلى عيادة المريض يستوجب الجنة ومخارفها... والعيادة لما كانت مُفضية إلى مخارف الجنة سُميت بها.

فمن أراد أن يغترف من ثمار الجنة فلا بد أن يعلم أن من أسباب الفوز بها عيادة المرضى.. فمن أراد المزيد من ثمار الجنة فعليه بالمزيد من عيادة المرضى.

(٩٠٤) وعنْ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما مِن مسلمٍ يعودُ مسلمًا غُدوةً إلا صلَّى عليه سبعون ألف مَلَكٍ حتى يُمْسى، وإن عاده عَشِيَّةً إلا صلى عليه سبعون ألف مَلَكٍ حتى يصبح، وكان له خريفٌ فى الجنة»(٢)

۞ وهذا الحديث له قصة جميلة.. وهى أن الحسن بن على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان مريضًا.. فقام أبوه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخذ رجلًا اسمه (أبو فاختة) وقال له:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٨) كتاب البر والصلة والآداب.
جناها: أى ما اجتنى من الثمر.
(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٦٧).
«الخريفُ»: الثَّمرُ المخرُوفُ، أى: المُجتَنَى.

انطلق بنا إلى الحسن نعوده، فوجدا عنده أبا موسى، فقال عليٌّ رضي الله عنه: أعائدًا جئت يا أبا موسى أم زائرًا؟ فقال: لا بل عائدًا، فقال عليٌّ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ما مِن مسلم يعودُ مسلمًا غُدوةً إلا صلَّى عليه سبعون ألف مَلَكٍ حتى يُمْسى، وإن عاده عَشِيَّةً إلا صلى عليه سبعون ألف مَلَكٍ حتى يصبح، وكان له خريفٌ فى الجنة**».

۞ قوله ﷺ «**ما مِن مسلم يعودُ مسلمًا غُدوةً**» أى: ما من مسلمٍ يعود أخاه المسلم المريض غدوة: أى ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس «**إلا صلى عليه سبعون ألف مَلَكٍ**» أى استغفروا له ودعوا له بأنواع الرحمة مستمرين كذلك (**حتى**) أى إلى أن (**يمسى**) أى يدخل فى المساء .. وهو من زوال الشمس إلى نصف الليل (**وإن عادة عشية**) وهى آخر النهار، وقيل ما بين الزوال إلى الغروب(١).

«**إلا صلى عليه سبعون ألف مَلَكٍ حتى يصبح**» أى: حتى يدخل فى الصباح «**وكان له**» أى: للعائد «**خريف**» أى: بستان وهو فى الأصل الثمر المُجتنَى أو مخروف من ثمر الجنة.

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ: تَكْرَارُ الْعِيَادَةِ سُنَّةٌ لِمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ بِسَعدِ ابْنِ مُعَاذٍ حِينَ ضَرَبَ لَهُ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ ... قَالَ: وَيُعَادُ الْمَرِيضُ مِنْ كُلِّ أَلَمٍ دَقَّ أَوْ جَلَّ وَيُعَادُ مِنَ الرَّمَدِ ... وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ عَادَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ رَمَدٍ أَصَابَهُ ... وَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرفُوعًا: لَا يُعَادُ مِنْ وَجَعِ الْعَيْنِ وَلَا مِنْ وَجَعِ الضِّرسِ وَلَا مِنَ الدُّمَّلِ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ(٢).



(٩٠٥) وعنْ أنسٍ رضي الله عنه قال: كانَ غُلامٌ يَهُوديٌّ يَخْدُم النَّبِيَّ ﷺ، فمرِضَ فأتاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُوده، فقَعَدَ عِنْدَ رأسِهِ فقالَ لهُ: «أسْلِمْ» فنظَرَ إلى أبيهِ وهُو عندهُ؟

(١) دليل الفالحين (٣/ ٣٢٧).
(٢) تحفة الأحوذى (٣/ ٤٠٥).

فقال : أطِع أبا القاسِمِ، فأسْلَم، فخرَجَ النَّبِىُّ ﷺ، وهُوَ يقولُ: «الحَمْدُ لله الذى أنْقَذَه مِن النارِ»(١).

۞ لقد بعث الله رسوله محمدًا ﷺ ليُخرج الناس من ظلمات الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان..... وكان النبى ﷺ يسلك فى سبيل ذلك مسلكًا كله رحمة ووسطية ... فلقد كان يتمنى الهداية لهم من أعماق قلبه.

بل لقد كاد قلبه أن يتمزق حزنًا عليهم بسبب إعراضهم عن طريق الحق والهداية ... ولذا قال له (جل وعلا): ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

وفى هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أنه كان هناك غلامٌ يهودى يخدم النبى ﷺ.. وفى يومٍ من الأيام مرض ذلك الغلام فما كان من نهر الرحمة وينبوع الحنان ﷺ إلاّ أن ذهب لعيادته فى بيته.. فقعد عند رأسه وقال له: «أَسْلِمْ».. فما كان من ذلك الغلام إلا أن نظر إلى أبيه وكأنه خائفٌ منه أو أنه يستشيره ماذا يصنع..فنظر إليه أبوه وقال له بلا تردُّد: أطع أبا القاسم.. فأسلم الغلام وخرج النبى ﷺ وهو يقول: «الحَمْدُ لله الذى أنْقَذَه مِن النارِ».

۞ وفى هذا الحديث عدة فوائد.. منها:

الفائدة الأولى:

بيان ما كان عليه النبى ﷺ من تواضع لا يُساميه فيه أحد... فهو مع عظيم منزلته وعُلو شأنه وكثرة انشغالاته، لا يستنكف أن يعود غلاما يهوديًّا غير مسلم، يعمل عنده خادماً؟

الفائدة الثّانية:

على المسلمين ألا يستقلوا أى عمل من أعمال الخير، وإن قَلَّ فى نظرهم،

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣٥٦) كتاب الجنائز.

خاصة فى مجال الدعوة إلى الله- سبحانه وتعالى- لأن النبى ﷺ حَرِصَ على زيارة هذا الغلام الخادم اليهودى، ودعاه إلى الإسلام ولم يَقُل فى نفسه كما يقول أمثالنا: وما عسى أن ينفع الله الإسلام بهذا الغلام إن أسلم ، أو يقول: هناك أمورٌ كثيرة أعظم من زيارة هذا الغلام ودعوته إلى الإيمان... بل كانت زيارة مباركة طيبة، كان من عظيم بركتها، أن أنقذ الله بها نفساً من النار.

الفائدة الثّالثة:

على الداعى إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يستثمر الظروف والأحوال الملائمة للناس لدعوتهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ... كالمرض مثلًا، والذى يشعر فيه الإنسان بالضعف والحاجة إلى الله- سبحانه وتعالى- ولكن دون أن يُظهر الداعى للمدعو أنه يستغل هذا الوقت بالذات لدعوته لأنه ضعيف، فقد يُحرِج هذا الشعور المريض، ويجعله لا يتقبل الحق... انظر ماذا قال النبى ﷺ للغلام، قال له: «**أسلم**» ... وانظر إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف استثمر حاجة صاحبيه فى السجن لتأويل رؤيتهما، فدعاهما إلى الإيمان ونفّرهما غاية التنفير من الشرك بالله، دون أن يُشعرهما أنهما فى حاجة إليه، وأنهما مضطران إلى سماع قوله إلى النهاية، حتى يسمعا تأويله لرؤيتهما... وهذا من فقه الدعوة إلى الله- سبحانه وتعالى-.

الفائدة الرّابعة:

جواز استخدام اليهودى مع مراعاة الضوابط الشرعية التى تحكم هذا الاستخدام، والتى من أعظمها، عدم اطلاعه على أعراض المسلمين، وعدم إفشاء الأسرار إليه، وعدم حُبه، وضرورة دعوته إلى الإسلام، وإنكار ما هو عليه من الكفر... وأزيد واحدة، أن نعدل فيه ونُقسط إليه، حتى لا نكون سببًا فى تنفيره من الإسلام.

الفائدة الخامسة:

صحة إسلام الصبى المميّز، ولولا صحة إسلامه، ما دعاه النبى ﷺ إلى

الإسلام وقال: «**الحمد لله الذى أنقذه من النار**»، وهذا القول من النبى ﷺ دليل على صحة إسلام الصبى، ولكن ليس بدليل قطعى، أن الصبى لو مات على الكفر دخل النار، ويمكن أن يُحمَل قول النبى ﷺ: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**» إذا ما استمر على كفره.

الفائدة السّادسة:

ما كان عليه اليهود، من تعظيم أمر النبى ﷺ واعتقادهم صحة دينه ولو خالفوه... لأن أبا الغلام أمر ابنه بإجابة أمر النبى ﷺ وبدا خوفه على غلامه وهو مريض من أن يخالف أمر النبى... وتَدَبَّر ماذا قال الأب لابنه: أطع أبا القاسم، ولم يَقُل له: (أسلم) ، مما يُشعر أن مراد الأب هو طاعة الرسول عليه السلام وعدم مخالفته، كما أنه ذكر الرسول بكُنيته، ولم يذكره باسمه، وهذا أيضًا من التوقير.

الفائدة السّابعة:

قد يكون من ملاطفة المريض عند زيارته، القعود عند رأسه، لإشعاره بالقرب منه، وهذا أدعى لإسماعه والسماع منه.

الفائدة الثّامنة:

الثناء على الله عز وجل بما هو أهله، خاصة عند زوال النعم ورفع النِّقَم، لقوله ﷺ «**الحمد لله الذى أنقذه من النار**»[1].

الفائدة التاسعة:

الأب قد يُؤْثِر ابنه فى الخير وهو لا يفعله... فهذا اليهودى أشار على ابنه أن يطيع أبا القاسم ويُسلم، ولكنه هو لم يُسلم... فالأب قد يحب لابنه الخير وهو محرومٌ منه، والعياذ بالله.



(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٣٧٣-٣٧٤) للشيخ أحمد عبد الفتاح.

(١٤٥) باب ما يُدعَى به للمريض

۞ يبتلى الله سبحانه وتعالى عباده بالأمراض والأدواء... وفى ذلك تطهيرٌ لذنوبهم وتكفير لسيئاتهم، وقد شرع الإسلام لمن زار المريض أن يدعو له بجملة من الأدعية النبوية رُقية وطلبًا للشفاء...كما شرع للمريض نفسه أن يدعو بأدعية يطمع بها فى رحمة الله تعالى...وشرع له أن يذكر ربه ببعض الأذكار النافعة التى يُحرَّم بها على النار إن مات فى مرضه، وذلك دليل الخير للمسلمين.

(٩٠٦) عن عائشة رضي الله عنها أن النَّبِيَّ ﷺ كانَ إذا اشْتكى الإنسانُ الشَّيءَ مِنْهُ، أو كانتْ بِهِ قَرحةٌ أوْ جُرحٌ، قال النَّبِيُّ ﷺ، بأُصبُعِهِ هكذا - ووضع سُفيان بنُ عُيَيْنة الرَّاوى سَبَّابَتَهُ بالأرضِ ثُمَّ رفعَها - وقال: «بِسْمِ الله، تُربَةُ أرضِنا، بِريقَةِ بَعضِنَا، يُشْفَى بِهِ سَقِيمُنا، بإذْنِ رَبِّنَا»[1] .

۞ وإذا أردنا أن نعلم أفضل ما ندعو به للمريض فلا بُدَّ أن نعلم أن خير الهدى هدى محمد ﷺ... وها هى بعض الأحاديث التى تُعلمنا كيف كان يدعو النبى ﷺ للمريض وماذا كان يصنع معه.

۞ ففى هذ الحديث تذكر أمنا عائشة رضي الله عنها أنه إذا كان فى الإنسان المريض جرح أو قرحة أو نحو ذلك، كان النبى ﷺ يبل إصبعه ثم يمسح بها الأرض فيأخذ من التراب بهذا البلل ثم يمسح به الجرح ويقول: « **بِسْمِ الله، تُربَةُ أرضِنا، بِريقَةِ بَعضِنَا، يُشْفَى بِهِ سَقِيمُنا، بإذْنِ رَبِّنَا** ». وهذا يدل على أنه ينبغى للإنسان أن يداوى الجرح بمثل ذلك.

ووجه ذلك: أن التراب طَهور كما قال النبى ﷺ: «**جُعِلَتْ تربتها لنا طَهورًا**»[2] وريق المؤمن طاهر أيضًا، فيجتمع الطهوران مع قوة التوكل على الله

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٥٧٤٥) كتاب الطب، ومسلم (٢١٩٤) كتاب السلام.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٥٢٢) كتاب المساجد.

عَزَّوَجَلَّ والثقة به فيشفى بها المريض، ولكن لا بد من أمرين:

١- قوة اليقين فى هذا الداعى بأن الله سبحانه وتعالى سوف يشفى هذا المريض بهذه الرقية.

٢- قبول المريض لهذا وإيمانه بأنه سينفع.

أما إذا كانت المسألة على وجه التجربة فإن ذلك لا ينفعه؛ لأنه لا بد من اليقين أن ما فعله النبى ﷺ حق، ولا بد أن يكون المَحِلُّ قابلًا - وهو المريض - لا بد أن يكون مؤمنًا بفائدة ذلك، وإلا فلا فائدة... لأن الذين فى قلوبهم مرض لا تزيدهم الآيات إلا رجسًا إلى رجسهم والعياذ بالله.

(٩٠٧) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **أن النَّبِيَّ** ﷺ **كان يعُودُ بعضَ أهْلِهِ يَمْسَحُ بيدِهِ اليُمْنَى ويقول: «اللَّهمَّ ربَّ النَّاسِ، أذْهِب البَأسَ، اشْفِ أنْتَ الشَّافِى، لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا»**(١).

(٩٠٨) وعنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنه قال لثابتٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: **ألا أرقِيكَ بِرُقْيَةِ رسولِ الله** ﷺ؟ **قال: بَلَى، قال: اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ البَأسِ، اشْفِ أنْتَ الشَّافِى، لا شافى إلا أنْتَ، شِفاءً لا يُغادِر سَقَمًا**(٢).

۞ وفى هذا الحديث أيضًا تذكر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ صاحب القلب الرحيم كان يعود بعض أهله.. أو يعود مرضاهم.. فإذا ذهب إليهم كان يمسح بيده اليمنى عليهم ويقول هذا الدعاء العظيم:

«**اللهم رب الناس**» فيتوسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بربوبيته العامة..فهو الرب سبحانه وتعالى الخالق المالك المُدبر لجميع الأمور... فأنت - أيها المريض - تقول:

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٤٣) كتاب الطب، ومسلم (٢١٩١) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٧٤٢) كتاب الطب.

خلقنى الله عَزَّوَجَلَّ ولا بأس بى، ثم قَدَّرَ علىَّ المرض... والذى قدَّر علىَّ المرض بعد الصحة قادر على أن يشفينى.

«**أذهب البأس**» يعنى: المرض الذى حَلَّ بهذا المريض.

«**اشفِ أنت الشافى**» والشفاء: إزالة المرض وبرء المريض.. و«**الشافى**» هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه الذى يشفى المرض، وما يُصنع من الأدوية أو يُقرأ من الرُّقى فما هو إلا سبب قد ينفع وقد لا ينفع ... فالله هو المُسبب عَزَّوَجَلَّ ولهذا رُبما يمرض رجلان بمرضٍ واحد، ويُدَاوَيَانِ بدواءٍ واحد، وعلى وصفة واحدة فيموت هذا، ويَسلَم ذاك؛ لأن الأمر كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ فهو الشافى(١).

ويُخطئ مَن يتوهم أن الشفاء بيد الطبيب، وأنه إذا ذهب إلى الطبيب شفاه الطبيب...فالذى يشفى هو الله...والطبيب سببٌ من الأسباب، وقد أُمرنا بالتداوى، حيث قال النبى ﷺ: «**أى عباد الله! تداووا؛ فإن الله ما أنزل داءً إلا وأنزل له شفاءً، عَلِمَهُ مَن عَلِمَه وجَهِلَه مَن جَهِلَه**» فالشفاء بيد الله سبحانه، فهو الذى يُنزل الداء، وهو الذى يُنزل الشفاء (سبحانه وتعالى)...والطبيب سببٌ من الأسباب، والعلاج سببٌ من الأسباب، والرُّقية بكتاب الله وبأحاديث النبى ﷺ سببٌ من الأسباب.

ثم إذا شاء الله عَزَّوَجَلَّ شفى المريض بسبب ما أخذ من أسباب، وقد يُعلق الشفاء على دعوة، أو على تداوٍ، أو على غير ذلك... فالله يفعل ما يشاء تبارك وتعالى.

«**لا شفاء إلا شفاؤك**»، فالشفاء بيد الله سبحانه وتعالى، ولا شفاء بيد أحدٍ من خلقه سبحانه ... وإذا شفى إنسانًا شفاه شفاءً لا يغادر سقمًا، ولا يترك أثرًا... وهذا شفاؤه سبحانه وتعالى فى خلقه.

۞ وقد ذكر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتلميذه ثابت نفس الدعاء الذى ذكرته أُمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤١) بتصرف.

(٩٠٩) وعنْ سعدِ بن أبى وقّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: عادَنى رسول الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعدًا، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعدًا، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعدًا»(١) .

❁ سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد السابقين الأولين الذين شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وأحد الستة أهل الشورى، وخال رسول الله ﷺ وبطل القادسية، وفاتح «المدائن» ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد.

ففى يومٍ من الأيام مرض سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرضًا شديدًا حتى ظن أنه سيموت من هذا المرض ..... فذهب إليه النبى ﷺ يعوده.. وكان يحبه حُبًّا شديدًا.. فدعا له النبى ﷺ وقال: «**اللَّهُمَّ اشْفِ سَعدًا، اللَّهُمَّ اشفِ سَعدًا، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعدًا**».

ففى هذا الحديث أنه يُستحب أن تدعو بهذا الدعاء للمريض «اللهم اشفِ فلانًا» وتُسميه باسمه ثلاث مرات.

فإن هذا مما يكون سببًا فى شفاء المريض ... وفيه أيضًا دليل على أن الإنسان يكرر الدعاء... لقد كان الرسول ﷺ إذا دعا يدعو ثلاثًا، وإذا سلم ولم يُفهَم عنه سلَّم ثلاثًا... وتكرار الدعاء ثلاثًا من الأمور المشروعة كما كان ﷺ فى الصلاة يقول: «**رب اغفر لى، رب اغفر لى، رب اغفر لى**» يكرر. هكذا أيضًا الدعاء للمريض.



(٩١٠) وعن أبى عبد الله عثمانَ بنِ أبى العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه شَكا إلى رسول الله ﷺ وَجَعًا يجِدُهُ فى جَسدِهِ، فقال له رسول الله ﷺ: «ضَع يَدَكَ على الذى تألَّمَ مِن جسَدِكَ وقُلْ: بِسْمِ الله ثلاثًا، وقُل سَبْعَ مرَّاتٍ: أعُوذُ بِعِزَّةِ الله وقُدرَتِهِ مِن شَرِّ ما أجِدُ وأُحاذِرُ»(٢).

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية-ورواه أيضًا البخارى بلفظٍ آخر(٥٦٥٩) كتاب المرضى.
(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٢٠٢) كتاب السلام.

۞ ففى هذا الحديث يخبر عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه أنه ذهب إلى النبى ﷺ وشكا إليه أنه يجد وجعًا شديدًا فى جسده.. ولا شك أن وجع الجسد قد يُعطله عن عبادة يؤديها أو عن أمرٍ من أمور دُنياه.. فأمره النبى ﷺ أن يضع يده على المكان الذى يتألم فى جسده ويقول هذا الدعاء: «**بِسْمِ الله ثلاثًا** »، وأن يقُول: «**سَبْعَ مرَّاتٍ: أعُوذُ بِعِزَّةِ الله وقُدرَتِهِ مِن شَرِّ ما أجِدُ وأُحاذِرُ**»

فهذا من أسباب الشفاء أيضًا، فينبغى للإنسان إذا أحسَّ بألمٍ أن يضع يده على هذا الألم ويقول: «**بسم الله ثلاثًا، أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**» يقولها سبع مرات ... إذا قاله مُوقنًا بذلك مؤمنًا به وأنه سوف يستفيد من هذا فإنه يسكن الألم بإذن الله عز وجل، وهذا أبلغ من الدواء الحِسِّى كالأقراص، والشراب والحُقَن؛ لأنك تستعيذ بمن بيده ملكوت السموات والأرض.. فالذى أنزل هذا المرض، هو الذى يُجيرك منه.



(٩١١) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَحضُرهُ أجَلُهُ، فقال عِنْدَهُ سَبْعَ مرَّات: أسألُ الله العَظِيمَ ربَّ العَرشِ العَظيمِ أنْ يَشْفِيَك ... إلا عافاهُ الله مِن ذلك المرضِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن عاد مريضًا لم يحضره أجله -أى ليس مرض الموت- فدعا له سبع مرات وقال: «**أسألُ الله العَظِيمَ ربَّ العَرشِ العَظيمِ أنْ يَشْفِيَك**»... إلا شفاه الله من هذا المرض... هذا إن لم يكن هذا المرض هو مرض الموت ولذلك قيد النبى ﷺ ذلك بقوله: «**لَمْ يَحضُرهُ أجَلُهُ**» أما إذا حضر الموت فلا ينفع الدواء ولا الدعاء ولا الرقية... لأن الله عز وجل قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف:٣٤] ...

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٨٨).

لكن ليس معنى ذلك أن نقول: لن ندعو للمريض لأنه فى مرض الموت .. بل ندعو لأن الدعاء عبادة ولنا الأجر والمثوبة على ذلك الدعاء ... فإن شفاه الله فالحمد لله.. وإن تُوفى فقد أخذنا بالأسباب وفُزنا بالأجر والثواب.

(٩١٢) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ دخَلَ على أعرابىٍّ يَعُودُهُ، وكانَ إذا دخَلَ عَلَى مَن يَعُودُهُ قال: «لا بَأس، طَهُورٌ إن شاءَ الله»[1].

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ ذهب لعيادة رجلٍ أعرابى مريض... وما أجمل تواضع النبى ﷺ فإنه لم يكن يزور الأغنياء فقط ويهرب من الفقراء.. بل كان يحرص على زيارة الفقراء والجلوس معهم وعيادة مرضاهم أكثر من الأغنياء.. وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحيِنِى مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِى مِسْكِينًا، وَاحشُرنِى فِى زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ»[2].

وهنا دخل النبى ﷺ على ذلك الأعرابى المريض ليعوده..

وكان ﷺ إذا دخل على مَن يعوده قال:

«لا بأس» يعنى: لا شدة عليك ولا أذى. «طهور» يعنى: هذا طهور «إن شاء الله»، وإنما قال النبى ﷺ: «إن شاء الله» لأن هذه جملة خبرية وليست جملة دعائية؛ لأن الدعاء ينبغى للإنسان أن يجزم به، ولا يَقُل إن شئت... ولهذا نهى النبى ﷺ أن يقول الرجل: «اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت»[3] لا تَقُل هذا؛ لأن الله لا مُكره له، إن شاء غفر لك، وإن شاء لم يغفر ولم يرحم .. فلا يُقال إن شئت إلا لمن له مُكره، أو لمن يستعظم العطاء، فإذا سألت الله فلا تَقُل: إن شئت.

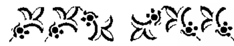
(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٥٦) كتاب المرضى.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والطبرانى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٦١).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٧٩) كتاب الذكر والدعاء.

أما قول إن شاء الله فى قول النبى ﷺ: «**لا بأس، طهور إن شاء الله**» فهذا لأنه خبر وتفاؤل .. فيقول: لا بأس، كأنه ينفى أن يكون به بأس، ثم يقول: «**إن شاء الله**» لأن الأمر كله بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ.

فيُؤخَذ من هذا الحديث أنه ينبغى لمن عاد المريض إذا دخل عليه أن يقول: «**لا بأس، طهور إن شاء الله**».



(٩١٣) وعن أبى سعيد الخُدرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن جِبْريلَ أتى النَّبِىَّ ﷺ فقال: «يا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ قال: نَعَم، قال: بِسمِ الله أَرقِيكَ مِنْ كُلِّ شَىءٍ يُؤْذيك، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حاسِدٍ، اللهُ يشْفِيكَ، بِسْمِ الله أرقِيكَ»[1].

۞ هذا دعاء من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أشرف الرسل، للنبى ﷺ أشرف الرسل.. لكن جبريل أشرف الرسل الملكيين، وأما محمد ﷺ فأشرف الرسل البشريين، يقول له: «**اشتكيت؟**» قال: «**نعم**» وفى هذا دليل على أنه لا بأس أن يقول المريض للناس: إنى مريض إذا سألوه، وأن هذا ليس من باب الشكوى ... الشكوى أن تشتكى الخالق للمخلوق، تقول: أنا أمرضنى الله بكذا وكذا، تشكو الرب للخلق، فهذا لا يجوز.... ولهذا قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لكن إذا أخبر المريض بمرضه على سبيل الإخبار لا الشكوى فلا بأس... ويا حبَّذا لو قال قبلها: الحمد لله.

وفيه أيضًا دليل: على أنه ينبغى أن نقرأ على المريض بهذه الرقية: «**بسم الله أرقيك**» يعنى: أقرأ عليك «**من كل شىءٍ يؤذيك**»: من مرضٍ، حزنٍ، هَمٍّ، أو غَمٍّ... إلخ.

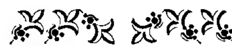
«**من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك**».

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٨٦) كتاب السلام.

«**من شر كل نفس**» من النفوس البشرية أو نفوس الجن أو غير ذلك «**أو عين حاسد**» أى: ما يسمونه الناس بالعين، وذلك أن الحاسد - والعياذ بالله - الذى يكره أن يُنعم الله على عباده بنعمه نَفْسُه خبيثة شريرة، وهذه النفس الخبيثة الشريرة قد ينطلق منها ما يصيب المحسود، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ويكون المحسود مهمومًا بسبب هذه العين... ولهذا قال: «**أو عين حاسد الله يشفيك**» أى: يبرئه ويزيل سقمه «**بسم الله أرقيك**» فبدأ بالبسملة فى أول الدعاء وفى آخره... فإذا دعا الإنسان بما جاء فى السُّنة فهذا خير؛ لأن كل ما جاء فى السُّنة، فإن مراعاته أفضل، وإذا لم تعرف هذا الدعاء فادعُ بالمناسب: شفاك الله، عافاك الله، أسأل الله لك الشفاء، أسأل الله لك العافية، وما أشبه ذلك.

وفى هذا الحديث دليل: على أن النبى ﷺ كغيره من البشر، يصيبه المرض... وفيه أيضا أن القراءة على المريض لا تُنافى كمال التوكل، بخلاف الذى يطلب من الناس أن يقرءوا عليه ففيه شيء من نقص التوكل، لأنه سأل الخلق، واعتمد على سؤالهم... لكن إذا جاء إنسان يقرأ عليه ولم يمنعه فإن ذلك لا شيء فيه ولا يُعَدُّ نقصًا فى التوكل... ولهذا قرأ النبى ﷺ على غيره وقُرئ عليه أيضًا فذلك لا يُنافى كمال التوكل إذا كان بغير سؤال. والله الموفق[1].



(٩١٤) وعنْ أبى سعيد الخدريِّ وأبى هريرة رضي الله عنهما أنَّهما شَهِدَا على رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن قال: لا إله إلا الله والله أكبَرُ، صدَّقَهُ ربُّهُ، فقال: لا إله إلا أنا وأنا أكْبَرُ. وإذا قال: لا إله إلا الله وَحدهُ لا شَرِيكَ له، قال الله: لا إله إلا أنا وحدِى لا شَريكَ لى. وإذا قال: لا إله إلا الله له المُلْكُ ولهُ الحَمْدُ، قال: لا إله إلا أنا لى المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ. وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، قال: لا إله إلا أنا ولا

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٤-٤٥) بتصرف.

حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بى» وكان يقول: «مَن قالها فى مَرَضِهِ ثُمَّ ماتَ لَمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ»(١).

۞ فتلك أربع جُمَلٍ إذا قالها العبد أجابه الحق (جل وعلا) مُصدقًا له.

«لا إله إلا الله والله أكبر»...

«**لا إله إلا الله**» كلمة التوحيد، فإذا مُتَّ مُتَّ على هذه الكلمة... وفى حديث النبى ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» فإذا وفَّق الله العبد وهو يموت لأن يقول كلمة التوحيد «**لا إله إلا الله**» استحق الجنة... ثم تقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له**»، فتُفرده وحده بالعبادة، ولا تشرك به شيئًا، ولا تشرك معه أحدًا سبحانه وتعالى ... ثم تقول: «**لا إله إلا الله له المُلك وله الحمد**»، فتُثبت لله الغِنى سبحانه، وتُثبت لله مُلك كل شىء سبحانه وتعالى، وتُثبت لله أنه وحده الذى يستحق الحمد ويستحق الثناء الحسن بأفعاله الجميلة، وصفاته الجليلة سبحانه وتعالى... ثم تقول: «**لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله**»، فتبرأ من الحول ومن القوة، وتُثبت كل شىء من القوة لله عَزَّوَجَلَّ، قائلاً: المُلك لله سبحانه، والحمد لله، وأما أنا فلا أملك شيئًا، ولا حول ولا حيلة ولا قوة لى على شىء، إلا أن يُعيننى الله سبحانه وتعالى... فأُثبت لله الوحدانية، وأثبت له العبادة، وأثبت له الربوبية بمقتضياتها، وأُثنى على الله سبحانه وتعالى، وأتبرأ من الحول ومن القوة، وبذلك تستحق من الله أن يكرمك، ولا تَطعمك النار، ولا تدخل النار.

۞ فمن قال تلك الكلمات بصدقٍ وإخلاصٍ موقنًا بها قلبه فإنه لا تَطعمه النار، أى: يكون ذلك من أسباب تحريم الإنسان على النار.

فينبغى للإنسان أن يحفظ هذا الذكر، وأن يُكثر منه فى حال مرضه حتى يُختم له بالخير إن شاء الله تعالى.

---

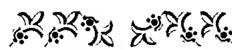
(١) **صحيح**: رواه الترمذى، وابن ماجه، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٤٨١).

(١٤٦) باب استحباب سؤال أهل المريض عن حاله

(٩١٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عليَّ بن أبى طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرجَ مِن عندِ رسولِ الله ﷺ فى وجَعِهِ الذى تُوُفِّىَ فيهِ، فقال النَّاسُ: يا أَبَا الحسنِ، كيفَ أصبَحَ رسولُ الله ﷺ؟ قال: أصبَحَ بِحمْد الله بَارِئًا[1].

۞ وهنا فى حديث ابن عباس الذى رواه البخارى: (أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى تُوفى فيه -فى مرض وفاته عليه الصلاة والسلام- فقال الناس: يا أبا الحسن -يسألون عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال: أصبح بحمد الله بارئـًا) يعنى: نرجو له أن يبرأ وأن يشفيه الله سبحانه وتعالى... وقال ذلك بحسب ظنه أنه أصبح فى النهار وصحته جيدة فنرجو له أن يبرئه الله عَزَّوَجَلَّ من هذا المرض ... ولكن لم يَحدُث، وكان هذا المرض الذى فيه وفاة النبى ﷺ.

۞ وفى هذا الحديث دليل على أنه إذا لم نستطع الوصول إلى المريض لنطمئن عليه فإننا نسأل مَن يرافقه من أقاربه أو غيرهم لنطمئن عليه.. وقد يسَّر الله عَزَّوَجَلَّ لنا فى هذا الزمان أن نتصل بالهاتف لنطمئن على أحوال المرضى وندعو لهم ونُصبرهم ونُذكرهم بالله عَزَّوَجَلَّ.



(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٤٧) كتاب المغازى.

(١٤٧) باب ما يقوله مَن أيس من حياته

(٩١٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَمِعتُ النَّبِىَّ ﷺ وهُوَ مُسْتَنِدٌ إلَىَّ يقول: «اللَّهُمَّ اغفِر لى وارحَمْنى، وألحِقْنى بالرَّفِيقِ الأعلى»[1].

(٩١٧) وعنها قالت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهُوَ بالموتِ، عندهُ قدحٌ فيهِ ماءٌ، وهُو يُدخِلُ يدهُ فى القَدحِ، ثم يمسَحُ وجهَهُ بالماء، ثم يقول: «اللَّهُمَّ أعِنِّى على غمراتِ الموْتِ -أو سَكَراتِ الموْتِ»[2].

۞ كان النبى ﷺ عندما مَرِضَ يعدل بين نسائه التسع إلا سَوْدة بنت زَمْعة، فإنها وهبت يومها لعائشة ... فلما اشتد به المرض صار يقول: «أين أنا غدًا، أين أنا غدًا؟» يريد يوم عائشة فَأَذِنَّ لَهُ (رضى الله عنهن) أن يُمَرَّضَ فى بيت عائشة، وظل عندها رضي الله عنها حتى تُوفى ﷺ.

قال المؤلف رحمه الله فى كتابه «رياض الصالحين» باب ما يقوله مَن أيس من حياته.

۞ فمن المعلوم أن اليأس من الحياة لا يُعلَم إلا إذا حضر الموت.. أما قبل ذلك فمهما اشتد المرض بالإنسان يكون عنده أمل فى الحياة وذلك لما يراه من حوله من أحوال الناس.

فقد يكون له قريب أو صديق أو جار قد مرض مرضًا شديدًا أو حصل له حادثٌ كبير وظن الناس أنه سيموت.. وإذا به يشفيه الله عز وجل ويرد إليه الصحة والعافية.

۞ وهذا يُذكرنا بالرجل الذى خرج مُسافرًا فى الصحراء ومعه ناقته وعليها

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٤٠) كتاب المغازى، ومسلم (٢٤٤٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) ضعيف: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١١٧٦).

طعامه وشرابه وكل أسباب حياته فانفلتت منه فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت.. وبينما هو على تلك الحالة وإذا به يجد الناقة واقفة بجواره فأخذ بخطامها وقال من شدة الفرح: «**اللهم أنت عبدى وأنا ربك**» وهو يريد أن يقول: «اللهم أنت ربى وأنا عبدك» لكنه أخطأ من شدة الفرح.

فهذا الرجل أيس من حياته باعتبار الحال الذى حصل له من انفلات الدابة وعليها طعامه وشرابه... ولكن اليأس الحقيقى يكون إذا حضر الموت وصار الإنسان فى النزع وبداية السكرات.

۞ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ أى فهلَّا إذا بلغت الروح الحلقوم عند معالجة سكرات الموت ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أى وأنتم فى ذلك الوقت تنظرون إلى المحتضر وما يكابده من شدائدٍ وأهوال ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أى ونحن بعلمنا واطلاعنا أقرب إلى الميت منكم ولكن لا تعلمون ذلك، ولا تبصرون ملائكتنا الذين حضروه لقبض روحه.

قال ابن كثير: ومعنى الآية ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام: ٦١](١)

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أى فهلا إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم كما تزعمون ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أى تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعدما بلغت الحلقوم.

ومعنى الآية: إن كان الأمر كما تقولون إنه لا بعث ولا حساب ولا إله يجازى فهلا تردون نفس مَن يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به(٢).

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٠).
(٢) تفسير الخازن (٤/ ٢٧).

۞ فإذا وصل الإنسان إلى اليأس من الحياة واليقين فى الموت عند بداية السكرات فماذا يقول؟

تقول أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: سمعت النبى ﷺ يقول وهو مُستندٌ إلَيَّ: «**اللَّهُـمَّ اغفِـر لى وارحَمْنى، وألحِقْنِى بالرَّفِيقِ الأعلى**».

۞ قال النبى ﷺ ذلك عند الموت وهو الذى غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. فمن باب أَولَى أن نقولها نحن.

۞ أما قوله « **وألحِقْنِى بالرَّفِيقِ الأعلى**».. فمَن هم الرفيق الأعلى؟.. هم الذى ذكرهم الله فى قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

۞ هكذا قال النبى ﷺ عند موته وهو فى شدة السكرات ... فقد كان النبى ﷺ يُوعَك ويَمرض مرض رجلين.. ولذلك شُدِّد عليه فى المرض وشُدِّد عليه فى النزع والسكرات من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر والصابرين.

فكان ﷺ يضع يده فى الإناء الذى فيه الماء، ويمسح بذلك وجهه ويقول: «**اللهم أعنِّى على غمرات الموت**»، أو قال «**على سكرات الموت**» أى: أعنِّى عليها حتى أتحمل وأصبر وأتروى، ولا يزيغ عقلى، وحتى يُختم لى بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله...لأن المقام مقامٌ عظيم، مقام هول وشدة إذا لم يُعِنك الله عَزَّ وَجَلَّ ويُصبرك فأنت على خطر، ولهذا كان يقول: «**اللهم أعنِّى على غمرات الموت**» وفى رواية أخرى يقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**» وصدق النبى ﷺ.

۞ أسأل الله أن يُعيننا جميعًا على سكرات الموت وأن يرزقنى وإياكم حُسن الخاتمة.



(١٤٨) باب استحباب وصية أهل المريض ومَن يخدمه بالإحسان إليه واحتماله والصبر على ما يشق من أمره وكذا بالوصية بمن قرب سبب موته بحدّ أو قصاص ونحوهما

(٩١٨) عن عِمران بن الحُصَين رَضِوَلِلَّهُعَنْهُمَا أن امرأةً مِن جُهَيْنَةَ أَتَتِ النَّبِىَّ ﷺ وهى حُبْلَى مِن الزِّنَا، فقالت: يا رسول الله، أصبتُ حَدًّا فأقِمْهُ علىَّ، فدعا رسولُ الله ﷺ وليَّهَا، فقال: «أحسِنْ إليها، فإذا وَضَعَتْ فأتِنى بِهَا» ففعل فأمر بها النَّبِىُّ ﷺ فشُدَّتْ عليها ثِيابُها، ثمَّ أَمر بها فرُجِمتْ، ثمَّ صَلَّى عليها[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

لكنى أحببت أن أذكر بعض النقاط فى هذا الباب:

۞ ففى هذا الباب يوضح الإمام أنه ينبغى للإنسان أن يُحسن إلى المريض وأن يبالغ فى الإحسان إليه فوق ما كان يفعله معه عندما كان فى وقت الصحة والعافية. وأن يتحمل كل ما يَصدُر منه من كلماتٍ أو تصرفات قد تضايقه أحيانًا.. ويحتسب بذلك الأجر والثواب من الله .. وذلك لأن نفس المريض ضيقة بسبب الآلام التى يشعر بها من شدة المرض.

۞ والإنسان يُثاب على تحمُّله المشقة والأذى من هذا المريض ولا سيما إذا كان هذا الذى يتولاه الإنسان قد وجد سبب موته أو سبب قتله كما ذكر فى حديث عمران بن الحصين رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ وهى حُبلى من الزنا – حامل – فقالت: يا رسول الله إنى أصبت حدًّا فأقمه علىَّ. تريد من

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٩٦) كتاب الحدود.

الرسول ﷺ أن يُقيم عليها الحد وهو الرجم؛ لأنها مُحصَنة، فدعا النبى ﷺ وليها وقال له: «**أحسِن إليها فإذا وضعت فأتنى بها**» فجىء بها إلى رسول الله ﷺ بعد أن وضعت الحمل، ثم أمرها أن تنتظر حتى تفطم الصبى، فلما فطمته جاءت فأقام عليها الحد وأمر أن تُشَدَّ عليها ثيابها أى: تُحزَم وتُربَط؛ لئلا تضطرب عند رجمها فتبدو سوءتها - أى عورتها - ثم أمر بها فَرُجمت وصلَّى عليها.

۞ **أما قَوْلُهُ ﷺ لِوَلِىِّ الْغَامِدِيَّةِ: «أَحسِنْ إِلَيْهَا فَإِذَا وَضَعَتْ فَائْتِنِى بِهَا».**

هَذَا الإِحسَانُ لَهُ سَبَبَانِ: أَحَدُهُمَا: الْخَوْفُ عَلَيْهَا مِنْ أَقَارِبِهَا أَنْ تَحمِلَهُمُ الْغَيْرَةُ وَلُحُوقُ الْعَارِ بِهِمْ أَنْ يُؤْذُوهَا فَأَوْصَى بِالْإِحسَانِ إِلَيْهَا تَحذِيرًا لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ. وَالثَّانِى: أَمَرَ بِهِ رَحمَةً لها إذ قد تابت وحرص عَلَى الْإِحسَانِ إِلَيْهَا لِمَا فِى نُفُوسِ النَّاسِ مِنَ النُّفْرَةِ مِنْ مِثْلِهَا وَإِسْمَاعِهَا الْكَلَامَ الْمُؤْذِى وَنَحوَ ذَلِكَ فَنَهَى عَنْ هَذَا كُلِّهِ[1].

۞ وفى هذا الحديث دليل على أنه لا يُشترط فى الإقرار بالزنا أن يتكرر أربع مرات وأن الزانى إذا أقرَّ ولو مرة واحدة وهو عاقل لا اشتباه فى حاله، فإنه يُؤخَذ بإقراره ويُقام عليه الحد... وفيه أيضًا دليل على أنه يُشترط فى إقامة الحد ألا يتعدى الضرر إلى غير المحدود؛ لأنها لو رُجمت لمات الذى فى بطنها، وهو ليس منه جناية؛ ولهذا أمر النبى ﷺ أن تنتظر حتى تضع مولودها وتفطمه... وفى هذا دليل على أن المرأة لا يُحفَر لها فى الرجم ولكن تُربَط عليها ثيابها ثم تُلقَى عليها الحجارة... حجارة لا صغيرة ولا كبيرة، حتى تموت... وإنما كان الحَدُّ هكذا، لأن الشهوة المحرمة شملت جميع البدن، فناسَب أن يذوق جميع البدن ألم العقوبة، وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ.

وفى هذا دليل: على أن الحدود إذا أُقيمت فإن صاحبها يبرأ منها ويَخلص منها ويَطهُر منها... ولهذا أمر النبى ﷺ بها فصلى عليها وصلى الناس أيضًا[2].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ٢٩٢).

(٢) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٤٨-٤٩) بتصرف.

(١٤٩) باب جواز قول المريض: أنا وجع أو شديد الوجع أو موعوك أو وارأساه ونحو ذلك، وبيان أنه لا كراهة في ذلك إذا لم يكن ذلك على سبيل التسخُّط وإظهار الجزع

۞ هذا بابٌ آخر من كتاب رياض الصالحين للإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه جواز قول المريض: أنا وجع، أو شديد الوجع.

يعنى: أن الإنسان فى مرضه يتألم ويتوجع.

وكان بعض الصالحين من السلف لا يحب أن يُظهر التوجع ولا يرفع صوته لإظهاره، وكان البعض يرى ذلك مباحًا جائزًا.

فهنا الإمام النووى يقول: هذا لا كراهة فيه... فلا بأس بقول الإنسان: آه، أو أنا وجع، أو أنا أتألم لكن بشرط ألا يكون ذلك من باب التسخُّط على الله (سبحانه وتعالى).

فالإنسان الذى يتسخط على قضاء الله وقدره يُضيع أجره فى ذلك، ولا يملك لنفسه شيئًا إذ قد نزل المرض، ووقع البلاء، ولا يرفعه إلا الله سبحانه وتعالى.

فمن صبر ورضى فله الرضا والأجر، ومَن تسخَّط على ذلك فاته الأجر على ذلك... وإنما الصبر عند الصدمة الأولى.

(٩١٩) عن ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: دخَلْتُ على النَّبِيِّ ﷺ وهُو يُوعَكُ، فمَسَسْتُه، فقلْتُ: إنَّكَ لتُوعَكُ وعكًا شديدًا، فقال: «أجَلْ، إنِّى أُوعَكُ كما يُوعَكُ

رَجُلانِ مِنْكُم»(١).

(٩٢٠) وعنْ سعد بن أبى وقَّاصٍ رضي الله عنه قال: جاءَنى رسولُ الله ﷺ يَعُودُنى مِن وجعٍ اشْتَدَّ بى، فقُلْتُ: بلَغَ بى ما ترى، وأنَا ذو مالٍ، ولا يرِثُنى إلا ابنتى. وذكر الحديث(٢).

(٩٢١) وعنْ القاسم بن محمدٍ قال: قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: وارأساهُ، فقال النَّبِىُّ ﷺ: «بلْ أنَا وارأسَاهُ»(٣) وذكر الحديث.

۞ وهنا استدل المصنف رحمه الله بحديث ابن مسعود وحديث سعد بن أبى وقاص وحديث عائشة رضي الله عنهم.. وكلها تدل على أنه لا بأس أن يخبر الإنسان المريض بأنه مريض أو أنه يتوجع ويتألم بشرط أن يكون ذلك على وجه الإخبار عن حاله وليس من باب الشكوى والتسخُّط على أقدار الله عز وجل.

۞ ففى حديث ابن مسعود رضي الله عنه يخبر أنه دخل على النبى ﷺ فى مرض موته وهو يُوعَك وَعكًا شديدًا.. وقد ارتفعت حرارته ﷺ وكانت الحُمَّى شديدة عليه ﷺ..

يقول ابن مسعود: فمسسته.. أى أنه مسَّ جلد النبى ﷺ ليطمئن عليه فوجد حرارته عالية جدًّا فقال له: إنك لتُوعَك وعكًا شديدًا يا رسول الله... أى: أن الحمى قد بلغت بك أمرًا شديدًا.

فقال له النبى ﷺ: «أجل».. يعنى: نعم.

ثم قال له ﷺ: «إنِّى أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُم» أى: يُشدَّد عليه ﷺ فى المرض، وذلك من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر ﷺ.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٥٦٦٧) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧١) كتاب البر والصلة.
(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٢٩٥) كتاب الجنائز، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.
(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٥٦٦٦) كتاب المرضى.

فإن أنواع الصبر ثابتة فى حقه ﷺ على الوجه الأعلى... فقد صبر على أمر الله وصبر عن معاصى الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة ﷺ... صبر على أمر الله حين بلَّغ رسالة ربه مع شدة الإيذاء له حتى كان يُؤذَى فى وسط البيت الحرام وهو صابرٌ محتسب - حتى إنه خرج إلى أهل الطائف ودعاهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولكنهم استهزءوا به وسخروا منه، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه فلم يَفِق إلا وهو فى مكانٍ يُسمَّى قرن الثعالب ثم جاءه ملك الجبال يستأذنه أن يُطبق عليهم الأخشبين فقال: «**لا؛ إنى لأرجو الله أن يُخرج من أصلابهم مَن يعبد الله ولا يشرك به شيئًا**»[1] فهذا صبرٌ على أمر الله .... وصَبَرَ ﷺ عن معصية الله فكان أخشى الناس لله وأتقاهم له ... وصَبَرَ على أقدار الله؛ فكم أُوذى فى الجهاد فى سبيل الله وفى غير ذلك، وكم حصل له من أمراضٍ وهو صابر محتسب؛ لينال بذلك درجة الصابرين ... فلنا فيه أسوة... فالإنسان يجب عليه أن يصبر على أقدار الله المؤلمة، كما صبر الرسول ﷺ ... يصبر ويحتسب ويعلم أنه ما من شىء يصيبه إلا كفَّر الله به عنه خطيئة، حتى الشوكة يُشَاكُها، ثم إذا احتسب الأجر عند الله ونوى بذلك أن يكون هذا الصبر لنيل رفعة درجات له حصل له هذا.

فينال بالمصائب مرتبتين عظيمتين:

(١) مرتبة الصابرين على قضاء الله وقدره.

(٢) ينال من رفعة الدرجات مع الاحتساب ما يناله من الثواب[2].

۞ وأما حديث سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. فهو أنه كان قد مرض فى مكة -وهو من المهاجرين- وكانوا يكرهون أن يموت الإنسان فى بلده الذى هاجر

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٢٣١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٧٩٥) كتاب الجهاد والسير.

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٩-٥٠) بتصرف.

منه.. وذلك لأنه ترك بلده ابتغاء مرضاة الله فيكره أن يعود إليها ويموت فيها..

وكان النبى ﷺ يعود أصحابه إذا مرضوا ولا ينسى واحدًا منهم أبدًا .. فعاده النبى ﷺ وقد اشتد به الوجع فقال للنبى ﷺ: يا رسول الله بلغنى ما ترى من الوجع وأنا ذو مالٍ كثيرٍ ولا يرثنى إلا ابنة لى.. أى: لا يرثه من الذرية إلا بنت وإلا فله عصبة رضي الله عنه.. ثم قال للنبى ﷺ أفأتصدق بثُلثى مالى؟ قال ﷺ: «لا».

قَالَ: قُلْتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: «**لا .. الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِى بِهَا وَجْهَ اللهِ، إِلَّا أُجِرتَ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِى فِىِّ امْرَأَتِكَ**»[1].

قال الإمام النووى رحمه الله: وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ حَثٌّ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْإِحسَانِ إِلَى الْأَقَارِبِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى الْوَرَثَةِ وَأَنَّ صِلَةَ الْقَرِيبِ الْأَقْرَبِ وَالْإِحسَانَ إِلَيْهِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَبْعَدِ[2].

والغالب من الناس اليوم – وقبل اليوم – أنهم يوصون بالثلث مع أن النبى ﷺ قال: «**الثلث كثير**»، وهذا يدل على أنه لا يجب أن يوصى الإنسان بالثلث ولكن أخذ الناس ذلك عادة وأصبحوا يوصون بالثلث، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما حَبْر هذه الأمة الذى دعا له النبى ﷺ أن يُفقهه الله فى الدين ويعلمه التأويل: «لو أن الناس غَضُّوا من الثُلث إلى الربع»[3]. يعنى لكان أحسن؛ لأن النبى ﷺ قال: «**الثلث، والثلث كثير**» ولو أن الناس إذا أرادوا أن يوصوا أوصوا بما هو نفعٌ عام: كبناء المساجد والمدارس، وشراء الكتب النافعة وما أشبه ذلك مما يُنفَّذ فى حينه ويجرى أجره ويَسلَم الورثة أو المُوصَى لهم من التنازع؛ لكان خيرًا.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٢٩٥) كتاب الجنائز – ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٢) مسلم بشرح النووى (١١/ ١١١).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (١٦٢٩) كتاب الوصية.

۞ وأما حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ وهى تشكو من رأسها: وارأساهُ، فقال لها النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أَنَا وارأَسَاهُ**».. فقد اجتمع فى هذا الحديث سُنتان: إقرارية وقولية.. أما السُّنة الإقرارية فإنها تتمثل فى إقرار النبى ﷺ عائشة عندما قالت: وارأساهُ ... وأما السُّنة القولية فهى تتمثل فى قوله ﷺ: «**بلْ أَنَا وارأَسَاهُ**».

۞ ومن هنا نعلم أن الإنسان إذا كان به وجع فى رأسه أو بطنه أو أى جزءٍ من جسده فقال: «وا رأساه.. وا بطناه.. وا رجلاه» وما أشبه ذلك فإنه لا حرج فى ذلك إذا كان على سبيل الإخبار بحاله ولم يقصد بذلك أن يشكو الخالق للمخلوق.. وبخاصة إذا كان يذكر هذا عند الطبيب الذى جاء ليُعالجه.



(١٥٠) باب تلقين المُحتضَر: لا إله إلا الله

(٩٢٢) عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن كانَ آخِرَ كلامِهِ لا إلـه إلا الله دخَلَ الجَنَّةَ»(١).

(٩٢٣) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَقِّنُوا مَوتَاكُم لا إله إلا الله»(٢).

۞ وهذا بابٌ في تلقين المُحتضَر: لا إله إلا الله.

والمُحتضَر: هو الذي تَحضُره الملائكة، أو هو الذي يَحضُره أجله.

والمقصد منه: أنه في سكرات الموت.

فالله سبحانه وتعالى قد وكَّل بالإنسان ملائكة يحفظونه في حال حياته وبعد مماته... قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ وقال الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ والإنسان إذا حضر أجله نزل إليه ملائكة يقبضون روحه من يد ملك الموت، فإن ملك الموت يتولى قبضها من البدن، والملائكة معهم كفن وحنوطٌ من الجنة -عطر- إذا كان من المؤمنين - جعلنا الله وإياكم منهم - وأما إذا كان من الكافرين فملائكة العذاب معهم كفنٌ من النار وحنوطٌ من النار - نعوذ بالله من ذلك - فإذا احتضر الإنسان وعلمنا أنه في النزع وأنه ميت؛ فإننا نُلقنه «لا إله إلا الله»، كما قال النبي ﷺ: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**».

۞ وهنا يخبر النبي ﷺ أن «**مَن كانَ آخِرَ كلامِهِ لا إله إلا الله دخَلَ الجَنَّةَ**»...

وهذه الكلمة كلمة سهلة جدًّا على المؤمنين، وهي أصعب ما تكون على المنافقين والفُجار في وقت الوفاة... قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ

(١) **صحيح:** رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢) **صحيح:** رواه مسلم (٩١٦) كتاب الجنائز.

﴿ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أى: يُثبتهم الله وهم فى سياق الموت فيقولوا: لا إله إلا الله، فيفرحوا وتنشرح صدورهم بها... ويُثبتهم وهم فى القبر حين يأتيهم الملكان فيسألان كل واحدٍ منهم مَن ربك؟ وما دينك؟ ومَن نبيك؟ فيثبته الله عَزَّوَجَلَّ ويجيب الملكين بأن ربه الله، وأن دينه الإسلام، وأن نبيه محمد (صلوات الله وسلامه عليه).

وهذه الكلمة كلمة عظيمة جدًّا، ولذلك يقول النبى ﷺ: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله**»، وكان أعظم الذكر فى أعظم المواقف وهو يوم عرفة قول: لا إله إلا الله... بل اعتبرها النبى ﷺ دعاءً؛ ولذلك يقول النبى ﷺ: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**» وأخبر أن: «**مَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» وذكر فى حديثٍ آخر: «**مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه**».

فمفتاح الجنة هو: لا إله إلا الله، بشرط أن تأتى بهذه الكلمة العظيمة وبشروط هذه الكلمة... فما من مفتاح إلا وله أسنان، فباب الجنة يُفتح بلا إله إلا الله، وأسنان ذلك المفتاح هى شروطها، بأن تقولها وأنت مُوقنٌ بذلك، وأن تعلم معناها... إذ لا يكفى أن يقولها الإنسان ولا يدرى ما معناها ولا يأبه لها، أو يقولها ويُشرك بالله سبحانه وتعالى، أو يقولها نفاقًا ورياءً.

بل لا بد من العلم، واليقين، والقبول، والانقياد، والصدق، والإخلاص، والمحبة، والولاء والبراء، فإذا أتى الإنسان بلا إله إلا الله وشروطها تامة استحق أن يكون من أهل الجنة.

وأما إذا قصَّر فى شىءٍ فأُخِّر عن دخول الجنة فهو بسبب تقصيره، والله أعلم[1].

---

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ أحمد حطيبة.

قال القرطبى: قال علماؤنا: تلقين الموتى هذه الكلمة سُنَّة مأثورة عَمِلَ بها المسلمون، وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيُختَم لهم بالسعادة، وليدخلوا فى عموم قوله ﷺ: «مَن كانَ آخِرَ كلامِهِ لا إله إلا الله دخَلَ الجَنَّةَ»[1].

ومعنى التلقين هو التذكير بالشهادة ... وينبغى أن يكون التلقين بكل رحمة وفى لطفٍ ومُداراة، فإذا نطق الشهادة فلا يُكرَّر عليه لئلا يضجر ويتكلم بكلام آخر لا ينبغى فيُختم له به...وإذا قالها مرة لا يكرر عليه إلا أن يتكلم بعدها بشىءٍ آخر، فيُعاد تلقينه لتكون لا إله إلا الله آخر كلامه[2].

ولكن إذا كان الإنسان - والعياذ بالله - كافرًا مرتدًّا؛ فهذا ربما نقول له بالأمر: قل لا إله إلا الله، فإن مَنَّ الله عليه وقالها فبها ونِعمَت، وإن لم يَقُل فهو كافر؛ لأنه مات على غير ملة الإسلام التى لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ غيرها ... لذلك لما حضرت أبا طالب الوفاةُ وهو عم النبى ﷺ.

وأعمام النبى ﷺ الذين أدركوا الرسالة أربعة: اثنان أسلما: حمزة، والعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأحدهما أفضل من الآخر... حمزة أفضل من العباس ... واثنان ماتا على الكفر، أحدهما أقبح كفرًا من الآخر: أبو طالب - والد علىٍّ الذى كان يحب النبى ﷺ ويُدافع عنه ... - وأبو لهب - والعياذ بالله - من أشد الناس إيذاءً للرسول ﷺولهذا أنزل الله فى ذَمِّه سورة كاملة﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ ولكن أبا طالب - رغم كفره - كان به حُبٌّ للرسول ﷺ وحنان وشفقة ومدافعة وثناء عليه؛ إلا أنه - والعياذ بالله - حِيل بينه وبين الإسلام... فعندما حضرته الوفاة - وكان النبى ﷺ عنده -

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢) شرح مسلم (٢/ ٥٨٠) والمجموع (٥/ ١١٠) والمغنى (٢/ ٤٥٠).

وعنده رجلان من قريش، فقال له الرسول ﷺ: «**يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله**»(١) ولكن كان هذان الرجلان جليسي سوء فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟!. وكأنهما - والله أعلم - رأياه هَمَّ أن يقول: لا إله إلا الله، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلما قالا ذلك أخذته العزة بالإثم فقال: هو على ملة عبد المطلب، وكان آخر كلمة منه كلمة الشرك - والعياذ بالله - ثم مات ... يقول الرسول ﷺ إنه شفع له عند الله فخفف عنه العذاب، فكان في ضحضاح من النار قد غاص به، وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه، والعياذ بالله(٢).

وأما التلقين بعد الدفن فإنه بدعة لعدم ثبوت الحديث عن النبي ﷺ في ذلك... ولكن الذي ينبغي أن يُفعَل ما رواه أبو داود حيث كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «**استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل**»(٣)، وأما القراءة عند القبر وتلقينه في القبر فهذا بدعة لا أصل له(٤).

۞ **وقد يسأل سائل ويقول:**

لماذا يكون التلقين بـ«لا إله إلا الله» ولم يَقُل: «محمد رسول الله ﷺ»؟

والجواب: «تلقينه لا إله إلا الله» ولم يَقُل: محمدًا رسول الله؛ لأن هذا هو الذي ورد فيه الحديث: «**لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله**»(٥)، وقال النبي ﷺ: «**مَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(٦). فكلمة التوحيد مفتاح الإسلام، وما يأتي بعدها فهو من مُكملاتها وفروعها.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٨٨٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٥٢).

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٩٤٥).

(٤) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١٧/ ٧٤-٧٥).

(٥) **صحيح**: رواه مسلم (٩١٦) كتاب الجنائز.

(٦) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو داود والحاكم، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

ولو جمع بين الشهادتين؛ فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا يمنع هذا من أن يكون آخر كلامه من الدنيا «لا إله إلا الله» ؛ لأن الشهادة للنبي ﷺ بالرسالة تابعٌ لما قبلها ومُتممٌ له، ولهذا جعلها النبي ﷺ مع الشهادة لله بالألوهية ركنًا واحدًا، فلا يُعاد تلقينه... وظاهر الأدلة أنه لا يكفي قول المحتضَر: أشهد أن محمدًا رسول الله، بل لا بد أن يقول: لا إله إلا الله[1].

---

(١) الشرح الممتع (٥/ ٢٤٧-٢٤٨) بتصرف.

(١٥١) باب ما يقوله بعد تغميض الميت

(٩٢٤) عن أُمِّ سَلمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: دخَلَ رسُولُ الله ﷺ على أبى سَلَمة وقَد شَقَّ بصَرُهُ، فأغْمَضَهُ، ثم قال: «إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ» فضَجَّ ناسٌ مِن أهْلِهِ فقال: «لا تَدعُوا على أنْفُسِكُم إلا بخَيْرٍ، فإنَّ الملائكةَ يُؤمِّنُون على ما تَقُولون» ثم قال: «اللَّهُمَّ اغْفِر لأبى سَلَمةَ، وارفَع دَرَجَتهُ فى المهْدِيِّينَ، واخْلُفهُ فى عَقِبهِ فى الغَابرينَ، واغْفِر لنَا وله يا ربَّ العالمِينَ، وافْسَح لهُ فى قَبْرِه، ونَوِّر له فيه»[١].

۞ فمن المعلوم أن الميت -فى أغلب الأحوال- يَشخَصُ ببصره ويفتحه باتساع ويشاهد الروح إذا خرجت من جسده .. وذلك لأن الروح إذا خرجت من الجسد يكون لها جسم يراه الميت وتراه الملائكة .. لكن لا يراه الناس من حوله.

۞ وفى هذا الحديث أن النبى ﷺ دخل على أبى سلمة ظنًّا منه أنه ما زال مريضًا.. وقد كان من عادة النبى ﷺ أن يزور المرضى... فلما دخل على أبى سلمة وجده قد شَقَّ بصره وانفتح واتسع فعلم النبى ﷺ أنه مات فقال: **«إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعه البَصَرُ»** فضَجَّ ناسٌ مِن أهْلِهِ حُزنًا عليه لأنهم علموا أنه قد مات... فما كان من النبى ﷺ إلا أن قال لهم: **«لا تَدعُوا على أنْفُسِكُم إلا بخَيْرٍ، فإنَّ الملائكةَ يُؤمِّنُون على ما تَقُولون»**.

وكان الناس فى الجاهلية إذا مات لهم قريب أو حصلت لهم مصيبة كانوا يدعون على أنفسهم بالويل والثبور فنهاهم النبى ﷺ أن يدعوا على أنفسهم وذكر لهم السبب فقال لهم: **«فإنَّ الملائكةَ يُؤمِّنُون على ما تَقُولون»**.

۞ وأرشد النبى ﷺ فى أحاديث أخرى أننا نقول فى مثل هذه الحال: «إنَّا لله

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٩٢٠) كتاب الجنائز.

وإنَّا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها»

۞ المهم أن النبى ﷺ أغمض عينى أبى سلمة ﷺ ثم دعا له فقال: «**اللهم اغفر لأبى سلمة، وارفع درجته فى المهديين، ونوِّرله فى قبره، وافسح له فيه، واخلفه فى عقبه**» خمس كلمات تساوى الدنيا كلها:

«**اللهم اغفر لأبى سلمة**» يعنى اغفر له ذنوبه فلا تعاقبه عليها وسامحه واعفُ عنه.

«**ارفع درجته فى المهديين**» فى الجنة؛ لأن أصحاب الجنة مهديون كلهم.

«**افسح له فى قبره**» يعنى وسِّع له فيه؛ فإن القبر بالنسبة لمنازل الدنيا ضيقٌ جدًّا... لكنه يُفسَح للمؤمن حتى يكون كمدِّ البصر، ويكون روضة من رياض الجنة.

«**نوِّر له فيه**» والقبر مُظلم بحسب الحِسِّ ... ليس فيه نور النهار ولا نور السراج وغيره.

«**واخلفه فى عقبه فى الغابرين**» أى: كُن يا الله خليفة له فى ذريته فاحفظهم بحفظك فى دينهم ودُنياهم ولا تُحوجهم إلى أحدٍ أبدًا.

وإنك مهما تختار من رجل ليخلفك على أولادك فلن يكون رجلًا كاملاً ... إذ كل إنسانٍ فيه نقص، أو لعله يقوم بالأمر الذى تريده ولعله لا يقوم ... وأما أن يكون الله هو مَن يَخلُفك على أولادك فإنه يكفيك سبحانه، وكفى بربك سبحانه حافظًا ووكيلًا وخليفة على أهلك (سبحانه وتعالى).

وقوله: «**فى الغابرين**» من غبر بمعنى: مَن بقى فى عقبه، أى: فكن أنت يا ربنا الوكيل والمتكفل بأمرهم، والمدبر لشئونهم، والحافظ والراعى لهم.

«**واغفر لنا وله يا رب العالمين**» فالإنسان لا ينسى نفسه من الدعاء أن يغفر الله له فى وقت الموت؛ لأن الملائكة تُؤمِّن على الدعاء ... فادعُ لنفسك بالخير.

«**وافسح له فى قبره ونوِّر له فيه**» أى: وسِّع له فى ذلك القبر الضيق ...



فالقبر الذى نراه ضيقًا يُفسَح للمؤمن حتى يكون لبعض المؤمنين سبعين ذراعًا فى سبعين ذراعًا.. ويكون لبعضهم مُتسِعًا كمدِّ البصر.. بل ويُفرَش من الجنة ويلبس الميت من ثياب الجنة.. كما جاء فى الحديث: «**صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَأْتِيهِ مِنْ طِيبِهَا، وَرَوْحِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ**»[1].

۞ ولذا فإنه ينبغى إذا حضرنا موت أحد أحبابنا أن ندعو له بتلك الدعوات المباركة التى دعاها النبى ﷺ لأبى سلمة رضي الله عنه.. وألا ندعوا على أنفسنا إلا بخيرٍ لأن الملائكة حاضرة فى ذلك الوقت تُؤمِّن على ما نقول.. أى أنهم يقولون: آمين...

وأن نُغمض عين الميت بمجرد موته ما دام حارًّا.. لأنه إذا برد جسده ستظل عيناه شاخصتان.. وينبغى أن نحرص على غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه وفق ما جاء فى سُنة الحبيب المصطفى ﷺ.



(١) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).

(١٥٢) باب ما يُقال عند الميت وما يقوله مَن مات له ميت

(٩٢٥) عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذا حَضرتُمُ المريضَ، أوِ الميِّتَ، فقُولُوا خيْرًا، فإنَّ الملائكةَ يُؤمِّنُون على ما تَقُولون» قالت: فلمَّا ماتَ أبُو سَلَمة أتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فقُلتُ: يا رسول الله ، إنَّ أبَا سَلَمَة قد ماتَ، قال: «قولى: اللَّهُمَّ اغْفِر لى وَلَه، وأعقِبْنى مِنْهُ عُقبى حَسَنَةً» فقلتُ: فأعقبنى الله مَنْ هوَ خَيْرٌ لى منهُ: محمَّدًا ﷺ[1].

رواه مسلم هكذا: «إذا حضَرتُم المرِيض» أو «الميِّت» على الشَّكِّ، ورواه أبو داود وغيره: «الميِّت» بلا شكٍّ.

(٩٢٦) وعنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِنْ عبدٍ تُصِيبُهُ مُصيبَةٌ فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعُون، اللَّهمَّ أْجُرنى فى مُصيبَتى، واخْلُف لى خَيرًا مِنْها، إلا آجَرَهُ الله تعالى فى مُصيبتِهِ وأخْلَفَ له خَيرًا مِنْها» قالت: فلمَّا تُوُفِّىَ أبُو سَلَمَة، قلتُ كما أمرنى رسولُ الله ﷺ فأخْلَفَ الله لى خيرًا منه رسولَ الله ﷺ[2].

۞ ففى الحديث الأول تُخبر أمنا أم سلمة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**إذا حضرتم الميت أو المريض فقولوا خيرًا؛ فإن الملائكة يُؤمِّنون على ما تقولون**» ومعنى يُؤمِّنون: يقولون آمين، وآمين معناه: اللهم استجب، (فلما مات أبو سلمة قالت أم سلمة: أتيت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله! إن أبا سلمة قد مات، فقال النبى ﷺ: قولى: «**اللهم اغفر لى وله، وأعقبنى منه عُقبى حسنة**». أى: أخلف علىَّ من ورائه الخلف الحسن أو العُقبى الحسنة... وهو بمعنى: عوِّضنى عنه

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٩١٩) كتاب الجنائز.
(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٩١٨) كتاب الجنائز.

عِوضًا حسنـًا.

قالت: فأعقبنى الله مَن هو خيرٌ لى منه، وقد كانت متعجبة: مَن خيرٌ من أبى سلمة؟ وما كان يخطر ببالها أن يتزوجها النبى صلوات الله وسلامه عليه... ولذلك لما نظرت فى الصحابة رأت أن زوجها فى عينيها أفضل شخصٍ فيهم، ولم يَخطُر ببالها النبى ﷺ ... فلما قالت ذلك كان الزوج الذى بعد أبى سلمة هو سيدنا رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه).

قالت: «فأعقبنى الله مَن هو خيرٌ لى منه: محمدًا ﷺ».

۞ **وفى الرواية الأخرى أنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول:** **«ما من عبدٍ تُصيبه مصيبة فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أجُرنى فى مصيبتى**- أى: أعطنى الأجر فى هذه المصيبة- **وأخلف لى خيرًا منها، إلا آجره الله**- أى: أعطاه الأجر فى مصيبته- **وأخلف له خيرًا منها»**.

قالت: فلما تُوفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيرًا منه: رسول الله ﷺ» هذا الحديث فيه زيادة قول: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، وهى كلمة تُطمئن العبد وتجعل نفسه هادئة غير مثارة.

وهى تعنى: أننا لله سبحانه، فهو يملكنا سبحانه، وهو الذى أخذ هذا وسيأخذنى كما أخذه، فكلنا راجعون إليه سبحانه.

فإذا تذكر الإنسان هذا اطمأنت نفسه بالرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ .. وبذكر الله كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

۞ ولقد كان أبو سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واحدًا من أفذاذ الرجال الفُضلاء الذين يُدركون معنى الحياة الكريمة ... فقد أوصى زوجه أم سلمة وصية كريمة جعلتها من سادات النساء، بل أم المؤمنين.

ذكرت المصادر الوثيقة أن أم سلمة قالت لأبى سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بلغنى أنه ليس

امرأة يموت زوجها، وهو من أهل الجنة، ثم لم تزوَّج إلا جمع الله بينهما في الجنة، فتعالَ أُعاهدك ألا تزوَّج بعدى، ولا أتزوج بعدك.

قال أبو سلمة: أتطيعينني؟

قالت أم سلمة: نعم.

فقال: إذا مُتُّ تزوجي.

ثم رفع يديه داعيًا الله عَزَّوَجَلَّ: اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلًا خيرًا منى لا يُحزنها ولا يُؤذيها.

وقضى أبو سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَحبه، فلما مات قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَن خيرٌ من أبى سلمة؟

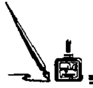
ولم تَلبث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حتى جاء مَن هو خيرٌ من أبى سلمة... جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لما تُوفى أبو سلمة، أتيت النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: كيف أقول؟

قال: «**قولى: اللهم اغفر لنا وله، وأعقبنى منه عُقبى حسنة فقلتُها**»، فأعقبنى الله من هو خيرٌ لى منه: محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لما انقضت عدة أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تقدم إليها أبو بكر الصديق وخطبها، فلم تتزوجه، وردَّته فى رفقٍ ... ثم تقدم إليها عمر الفاروق يخطبها فردَّته بحُجة أنها مُسنة، وأن معها أولادًا صغارًا.

وبعث إليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطبها، فإذا بالنشوة تملؤها من الرأس إلى القدم، فهو شرفٌ عظيم كريم أن تصبح زوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتغدو أم المؤمنين... ولكن، مرت بخيالها عائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر، وهما شابّتان عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتحرّكت إذ ذاك غيرتها، وبعثت إلى رسول لله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولها: إنى



امرأةٌ غَيرَى[(١)]، ومُسنة[(٢)]، وإنى مُصبية[(٣)]، وليس أحدٌ من أوليائى شاهدًا[(٤)].

وبعث إليها رسول الله ﷺ بأنه سيدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يُذهب غيرتها[(٥)]، وأن سِنَّه أكبر من سِنِّها، وأن الله عَزَّوَجَلَّ سيكفيها صبيانها، وهم على الله ورسوله، وأما أولياؤها؛ فليس أحد منهم إلا سيرضى رسول الله ﷺ.

وعند ذلك قالت لابنها: قُم فزوِّج رسول الله ﷺ فزوَّجها .... وكان هذا الزواج الميمون المبارك فى شهر شوَّال من السنة الرابعة من الهجرة النبوية الشريفة[(٦)] [(٧)].



(٩٢٧) وعنْ أبى موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا ماتَ وَلدُ العبْدِ قال الله تعالى لملائكَتِهِ: قَبَضْتُم وَلَدَ عَبْدِى؟ فيقولون: نعَم، فيقولُ: قَبَضْتُم ثَمَرَةَ فُؤادِهِ؟ فيقولون: نَعَم. فيقُولُ: فماذَا قال عَبْدِى؟ فيقُولونَ: حَمِدَكَ واسْتَرجَعَ، فيقولُ الله تعالى: ابْنُوا لعبدى بَيْتًا فى الجنَّةِ، وسَمُّوهُ بيتَ الحَمدِ»[(٨)].

۞ فلله سبحانه أن يبتلى مَن يشاء من عباده بما يشاء سبحانه، لا مُعقب لحُكمه، ولا رادَّ لقضائه، ولا غالب لأمره تبارك وتعالى... والأصل أن الإنسان لا يتمنى المصيبة، كما قال النبى ﷺ: **«لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموه**

---

(١) غَيرَى: كثيرة الغيرة.

(٢) مُسنة: كبيرة السن.

(٣) مُصبية: ذات صبيان وأولاد صغار.

(٤) أى ليس أحدٌ من محارمى شاهدًا.

(٥) من الجدير بالذكر أنه: كان أزواج النبى ﷺ يتحاكمن إلى أم سلمة لعلمهن ببراءتها من الغيرة. (شذرات الذهب ١/ ٢٨٠).

(٦) للحديث أصل عند الإمام أحمد فى المسند (٦/ ٣١٣ و٣١٤ و٣١٧) وعند النسائى (٦/ ٨١).

(٧) نساء أهل البيت/ د. أحمد خليل جمعة (ص٢٤٢-٢٤٣) بتصرف.

(٨) **حسن:** رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥).

فاثبتوا»، لكن إذا نزلت المصيبة فعلى الإنسان أن يتصبر ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ففى هذا الحديث: أن العبد إذا ابتلاه الله فمات له ولد -ابنه أو ابنته- فالله عَزَّوَجَلَّ يسأل الملائكة وهو أعلم (سبحانه وتعالى)، ويريد أن يُباهى بعبده هذا أمام الملائكة، وأن هذا العبد يستحق الرحمة، ويستحق المدح.

فأنتم قُلتم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]، لكن انظروا ماذا فعل؟ فالله يسأل الملائكة -وهو أعلم سبحانه- يقول: «**قبضتم ولد عبدى؟ فيقولون: نعم.**

فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟»، فأغلى شىء عند الإنسان هو ثمرة قلبه وفؤاده... أقبضتموه؟ فتقول الملائكة: نعم.

فيقول الله: «**فماذا قال عبدى؟**» وهو أعلم سبحانه، ولكن أراد سبحانه أن يُباهى بعبده هؤلاء الملائكة... فتقول الملائكة لله تبارك وتعالى: «**حَمِدَك واسترجع**» يعنى: قال: الحمد لله، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ... فيقول الله (سبحانه وتعالى): «**ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة وسَمُّوه بيت الحمد**»، وهذا علامة على حمد هذا العبد وعلى صبره... فيجعل الله عَزَّوَجَلَّ له بيتًا يليق بصبره على هذه المصيبة العصيبة... وليس أى بيت ولكنه بيتٌ فى الجنة ومن قصور الجنة العظيمة... ثم إنهم ميَّزوا هذا البيت بهذه التسمية: بيت الحمد، فمن يحمد الله (سبحانه وتعالى) فالله يعطيه الأجر العظيم.

فإذا أنعم الله عَزَّوَجَلَّ على عبدٍ بنعمة فحمده العبد كان هذا الحمد من العبد أحب إلى الله من النعمة التى أعطاها لعبده، وهذا كله من فضل الله (سبحانه وتعالى)، وهذه نعمة وهذه نعمة، وكُله من الله... فالله هو الذى رزق العبد المال والطعام والشراب والولد وقبل ذلك كله رزقه الإيمان، وهو الذى وفق العبد لهذه الكلمة، ودلَّه عليها، وهداه إليها... إذًا فهما نعمتان من الله: نعمة الرزق، ونعمة الحمد.

فإذا مات للإنسان ولد أو حبيب وقال: الحمد لله، إنا لله وإنا إليه راجعون؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل لهذا الذى توفى ابنه بيتًا فى الجنة ويُسميه بيت الحمد، ويباهى الملائكة بهذا العبد الذى حَمِدَ الله واسترجع[1].

(٩٢٨) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «يقُولُ الله تعالى: ما لِعَبْدِى المؤْمِن عِنْدى جزَاءٌ إذا قَبَضْتُ صَفِيَّه مِن أهْلِ الدُّنْيَا، ثُمَّ احتَسَبهُ إلا الجنَّةَ»[2].

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٩٢٩) وعن أُسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أرسَلَتْ إحدى بناتِ النَّبِىِّ ﷺ إليه تَدعُوهُ وتُخْبِرُهُ أنَّ صَبِيًّا لها أو ابْنًا فى الموتِ فقال للرَّسُول: «ارجِع إليْهَا، فأخبرهَا أنَّ لله تعالى ما أخَذَ ولهُ ما أعطَى، وكُلُّ شىءٍ عِنْدَهُ بأجَلٍ مُسَمًّى، فمُرهَا، فلْتَصبِر ولتَحتَسِب»[3] وذكر تمام الحديث.

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين)/ للشيخ أحمد حطيبة.
(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٦٤٢٤) كتاب الرقاق.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(١٥٣) باب جواز البكاء على الميت بغير ندب ولا نياحة

۞ أَمَّا النِّياحَةُ فحَرَامٌ ... وسيأتى فيها باب فى كتاب النَّهْيِ، إنْ شاء الله تعالى. وأَمَّا البُكاءُ فجاءتْ أحاديثُ كثيرةٌ بالنَّهى عنْهُ، وأنَّ الميِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكاءِ أهْلِهِ، وهى مُتَأَوَّلَةٌ ومَحمُولَةٌ على مَنْ أوْصَى بِهِ، والنَّهْىُ إنَّما هُو عنِ البُكاءِ الذى فيه نَدبٌ أو نِياحَة... والدَّليلُ على جوازِ البُكاءِ بغَيْرِ نَدبٍ ولا نياحة أحاديثُ كثيرةٌ ، منها:

(٩٣٠) عن ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ عادَ سَعدَ بنَ عُبَادَةَ، ومعَهُ عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ، وسعدُ بنُ أبى وقَّاصٍ، وعبدُ الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فبَكَى رسولُ الله ﷺ، فلمَّا رأى القَوْمُ بُكاءَ رسولِ الله ﷺ، بَكَوْا، فقال: «ألا تَسْمَعُون؟ إنَّ الله لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَينِ، ولا بِحُزْنِ القَلْبِ، ولكِنْ يُعَذِّبُ بهذَا أوْ يَرحَمُ» وأشار إلى لسانهِ[1].

۞ من المعلوم أن فراق الإنسان لأحبابه صعبٌ وشديدٌ على النفس.. وهنا يجد الإنسان نفسه باكيًا وحزينًا على مَن مات من أحبابه.. وهذا دليلٌ على الرحمة التى فى قلب هذا الإنسان و رِقة قلبه.. وهذا لا بأس به ما لم يكن مصحوبًا بندبٍ أو نياحة.

فالندب هو أن يقوم بتعداد محاسن الميت إذا بكى ... يبكى ويقول: هذا فلان الذى يأتى لنا بكذا وكذا، ويدافع عنا..... وما أشبه ذلك، أو يقول: واأبتاه... وأما النياحة فهى البكاء برنَّة كنوح الحمام، فهذا هو المحرم.

وقد لعن النبى ﷺ النائحة.

۞ وفى هذا الحديث يحكى ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبى ﷺ سمع بمرض سعد ابن عُبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فذهب إليه يعوده ومعه بعض الصحابة فلما دخل عليه وجده فى غشية (أغمى عليه) كما فى الرواية الأخرى التى رواها مسلم أنه ﷺ لما دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ فِى غَشِيَّةٍ، فَقَالَ: «أَقَد قَضَى؟» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللهِ ... فَبَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٠٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٤) كتاب الجنائز.



رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَكَوْا، فَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرحَمُ».

يعنى أن الله لا يعذب بالبكاء أو بالحزن لكن يُعذِّب بالقول والصوت أو يَرحَم ... فمثلًا إذا أُصيب الإنسان بمصيبة، وقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون مؤمنًا بها قلبه... مؤمنًا بأن لله مُلْكًا وتقديرًا وتدبيرًا وأننا راجعون إليه فى أمورنا كلها وسنُلاقيه يوم القيامة ... إذا آمن بهذا، وقال ما فى حديث أم سلمة رضي الله عنها اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلُف لى خيرًا منها... فهذه يُؤجَر عليها الإنسان ... أما إذا جعل يقول: واجبلاه، وا ويلاه، وا ثبوراه، وما أشبه ذلك، فإن هذا يُعذَّب به والعياذ بالله.

۞ فالنياحة مُحرمة ولا تجوز ولهذا نهى النبى ﷺ المرأة عن النياحة فقال: «ليس منَّا مَن لطم الخدود وشقَّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[(١)].

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ برئ من الصالقة[(٢)] والحالقة[(٣)] والشاقة[(٤)]. وقال: «النائحة إذا لم تَتُب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قَطِرَانٍ ودرعٌ من جَربٍ»[(٥)]. وفى رواية: «... وإن النائحة إذا لم تَتُب قبل أن تموت فإنها تُبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قَطِرَانٍ ثم يُغلى عليها بدروعٍ من لهب النار»[(٦)].

وقال ﷺ: «لعن اللهُ الخامشةَ وجهها والشَّاقَّة جيبها والداعيةَ بالويل والثُّبور»[(٧)].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٢٩٤) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان.

(٢) الصالقة: هى التى ترفع صوتها عند المصيبة.

(٣) الحالقة: هى التى تحلق شعرها عند المصيبة.

(٤) الشاقة: هى التى تشق ثوبها عند المصيبة.

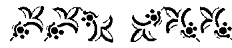
(٥) **صحيح**: رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز.

(٦) **صحيح**: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٨٠٩).

(٧) حسن: رواه ابن ماجه، وابن حبان، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٠٩٢).

(٩٣١) وعن أُسَامة بن زَيْدٍ رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ الله ﷺ رُفِعَ إليهِ ابْنُ ابْنَتِهِ وهُوَ فى الموتِ، فَفَاضَتْ عَيْنَا رسولِ الله ﷺ، فقال له سعدٌ: مَا هذا يا رسولَ الله ؟ قال: «هذهِ رحمةٌ جَعَلَها الله تَعالى فى قلوبِ عبادِهِ، وإنما يَرحَمُ الله مِن عبَادِهِ الرُّحَماءَ»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(٩٣٢) وعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ دخَلَ على ابْنِهِ إبراهيمَ رضي الله عنه وهُوَ يجودُ بِنَفْسِهِ فجعلتْ عَيْنا رسولِ الله ﷺ تَذْرِفَان. فقال له عبدُ الرَّحمن بنُ عوفٍ: وأنتَ يا رسول الله ؟ فقال: «يا ابْنَ عَوْفٍ إنَّها رحمةٌ» ثمَّ أَتْبَعَها بأُخرى، فقال: «إنَّ العَيْنَ تَدمَعُ، والقَلْبَ يحزَنُ، ولا نقولُ إلا ما يُرضى ربَّنَا، وإنَّا لِفِراقِكَ يا إبْراهيمُ لمحزُونُون»[٢].

والأحاديث فى الباب كثيرة فى الصحيح مشهورة، والله أعلم.

۞ **قال الإمام النووى** رحمه الله: فِيهِ جَوَازُ الْبُكَاءِ عَلَى الْمَرِيضِ وَالْحُزْنِ وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يُخَالِفُ الرِّضَا بِالْقَدَرِ بَلْ هِيَ رَحمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا الْمَذْمُومُ النَّدبُ وَالنِّيَاحَةُ وَالْوَيْلُ وَالثُّبُورُ وَنَحو ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ الْبَاطِلِ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: **«وَلا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرضِى رَبَّنَا»**[٣].

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ علم أن ابنه إبراهيم رضي الله عنه فى النزع الأخير.. وكان طفلًا صغيرًا قد بلغ من العمر ستة عشر شهرًا... ولم يكن إبراهيم من خديجة زوجة النبى ﷺ بل كان من مارية القبطية التى أهداها له المقوقس ملك القبط فسرَّاها النبى ﷺ -أى وطئها بملك اليمين- فأتت له بهذا

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.
(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٣٠٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٣١٥) كتاب الفضائل.
(٣) مسلم بشرح النووى (١٥/ ١٠٩).

الولد فكان النبى ﷺ يحبه حُبًّا شديدًا.. لكن عاش ستة عشر شهرًا ومات.. فلما دخل عليه النبى ﷺ ورآه وهو فى النزع الأخير بكى الحبيب المصطفى ﷺ وذرفت عيناه الدموع حُزنًا على ابنه الصغير ورحمة به وشفقة عليه... فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : وأنت يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إنَّها رحمةٌ» ثمَّ أتْبَعَها بأُخرى، فقال: **«إنَّ العَيْنَ تَدمَعُ، والقَلْبَ يحزَنُ، ولا نقُولُ إلا ما يُرضى ربَّنَا، وإنَّا لِفِراقِكَ يا إبْراهيمُ لمحزُونُون»**

ثم تُوفى إبراهيم رضي الله عنه وله ستة عشر شهرًا... وأخبر النبى ﷺ أن الله عز وجل جعل لإبراهيم مُرضعًا تكمل رضاعه فى الجنة.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: سَمِعتُ البَرَاءَ، قَالَ: لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ لَهُ مُرضِعًا فِى الجَنَّةِ»**[1].

ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ أصابه مثلُ ما يصيب الناس، من أقدار الله المؤلمة، كالمرض والجوع وفراق الأحباب ... وما أصابه فى هذا الحديث هو موت الولد المُحبَّب إلى الوالد، خاصة إذا لم يكن عنده غيره، فصبر صبراً جميلًا، وهو الصبر الذى لا نياحة فيه، ولا شكوى ولا جزع ولا اعتراض على قضاء الله وقدره.

فدلَّ ذلك على أن الإنسان لا حرج عليه إذا بكى رحمة بالميت وحزنًا على فراقه ... فإن الرسول قال هنا إنه مَحزونٌ على فراق ابنه.

وفيه أيضًا دليل: على جواز إخبار الإنسان عن نفسه بأنه محزون من هذه المصيبة؛ لأنه ﷺ قال: **«القلب يحزن ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا، وإنَّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»** وفيه دليل على أن النبى ﷺ يموت له الولد ويتألم لذلك وأنه يَلحقه ما يَلحق البشر، فكان له من الأولاد سبعة: ثلاثة ذكور، وأربع إناث،

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٦١٩٥) كتاب الأدب.

وأشهر الذكور هو إبراهيم رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ أما الإناث فأفضلهن فاطمة، وهى مع على ابن أبى طالب رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ وزينب امرأة أبى العاص بن الربيع، وأم كلثوم ورقية كانتا مع عثمان بن عفان ... لما ماتت إحداهما زَوَّجَه النبى ﷺ الثانية، ولم يُزوج الرسول ﷺ أحدًا من صحابته ابنتين إلا عثمان ... فتميز عثمان رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ بأن الرسول زوَّجه ابنتيه، لكن بعد أن ماتت رقية زُوِّج بأم كلثوم.

أما أولاده فهم: القاسم، وعبد الله وإبراهيم، لكن الذى اشتهر وبقى مدة هو إبراهيم، وكل هؤلاء من خديجة رَضِوَاللَّهُ عَنْهَا إلا إبراهيم، فإنه من مارية القبطية... ولم يبقَ أحدٌ من أولاده لا ذكورهم ولا إناثهم بعد موته إلا فاطمة، فقد ماتوا جميعًا فى حياته ... وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا أحد يستطيع أن يدفع الموت، ولو كان أعظم الناس جاهًا عند الله ... حتى النبى ﷺ[1].

۞ وهنا تبقى مسألة فى غاية الأهمية.. ألا وهى:

هل يصح حديث: «إن الميت ليُعذَّب ببكاء الحى»؟ وما المراد بالبكاء فى هذا الحديث؟ وما هى أقوال أهل العلم فيه من ناحية الفقه؟

والجواب: نعم يصح هذا الحديث وهو بهذا اللفظ فى الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ.

أما المراد بالبكاء فى هذا الحديث، فقد نقل النووى رَحِمَهُ اللَّهُ الإجماع على أن المراد بالبكاء فى الحديث هو البكاء بصوتٍ ونياحة .. فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وأجمعوا كلهم على اختلاف مذاهبهم على أن المراد بالبكاء هنا البكاء بصوتٍ ونياحة لا مجرد دمع العين.

۞ أما أقوال أهل العلم فيه فها هى بعض أقوالهم:

قالت عائشة رَضِوَاللَّهُ عَنْهَا لما بلغها هذا الحديث: إنما مَرَّ رسول الله ﷺ على يهودية

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٩٥).

يبكى عليها أهلها فقال: «**إنهم ليبكون عليها، وإنها لتُعذَّب فى قبرها**».

ثبت ذلك عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فى الصحيحين واستدلت بأن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه**»، وقالت: حسبُكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧] [(١)].

وأيَّدها عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فى قولها مُستدلًا بقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

(١) ذهب جمهور أهل العلم إلى أن الذى يُعذَّب ببكاء أهله عليه هو مَن أوصى أن يُبكى عليه ويُناح عليه بعد موته فنفذت وصيته، فهذا يُعذَّب ببكاء أهله ونوحهم عليه؛ لأنه بسببه ومنسوبٌ إليه.

قالوا: فأما مَن بكى عليه أهله وناحوا من غير وصية منه، فلا يُعذَّب لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧] ... قالوا: وكان من عادة العرب الوصية بذلك، ومنه قول طرفة بن العبد:

إذا مُتُّ فانعينى بما أنا أهله ... وشُقِّى علىَّ الجيب يا ابنة معبدِ

(٢) ما ذهب إليه البخارى حيث بوَّب بابًا بعنوان: قول النبى ﷺ: «**يُعذَّب الميت ببعض بكاء أهله عليه**»، إذا كان النَّوح من سُنته ... لقول الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[التحريم: ٦]، وقال النبى ﷺ «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» فإذا لم يكن من سُنته فهو كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧].

(٣) يُعذَّب بنظير ما يبكيه أهله به، وذلك أن الأفعال التى يعددون بها عليه غالبًا تكون من الأمور المنهية... فهم يمدحونه، وهو يُعذَّب بصنيعه ذلك وهو عين ما يمدحون به.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٩) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٢) كتاب الجنائز.

(٤) أن المراد بالتعذيب هو تألُّم الميت مما يُحدثه أهله.

(٥) أنه يُعذَّب لتقصيره فى تعليم أهله مما أدى بهم إلى إحداث ذلك فهو مسؤول عن رعيته[1].

۞ **قلت:** إن الميت يعذَّب ببكاء أهله عليه إذا أوصاهم بذلك أو علم أنهم سيفعلون ذلك ولم يوصهم بترك النياحة عليه ... أما إذا أوصاهم بترك النياحة عليه فلا يعذَّب ببكائهم عليه - والله أعلم-.



(١) جامع أحكام النساء (٥/ ١١٩، ١٢٠) بتصرف.

(١٥٤) باب الكفِّ عما يرى من الميت من مكروهٍ

(٩٣٣) عن أبى رافع أسْلَم مولى رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ غَسَّل ميِّتًا فكَتَم عليهِ، غَفَرَ الله له أربعينَ مرَّةً»(١).

وها هو الحديث كاملًا:

قال ﷺ: «مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، وَمَنْ كَفَّنَ مَيِّتًا كَسَاهُ اللهُ مِنَ السُّنْدُسِ وَإِسْتَبْرَقِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ حَفَرَ لَمَيِّتٍ قَبْرًا فَأَجَنَّهُ فِيهِ أُجْرِيَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ كَأَجْرِ مَسْكَنٍ أَسْكَنَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن الذى يتولى غُسل الميت قد يرى من الميت شيئًا يتعلق بحاله أو شيئًا يتعلق بجسده.

فأما الذى يتعلق بحاله: كأن يرى أن الميت قد تغير وجهه واسودَّ لونه وأصبح قبيحًا ... وهذا دليل على سوء الخاتمة -عافانا الله وإياكم- فينبغى هنا أن يستر عليه ولا يحل له أن يفضحه بين الناس ويقول لهم: إنى قد رأيت كذا وكذا ... فإن الرجل قد قَدِمَ على ربه وسوف يُجازيه بما يستحق من عدلٍ أو فضلٍ.. فإن كان قد عمل خيرًا فإن الله يجزيه على الحسنة بعشر أمثالها وإن كان قد عمل سيئة فقد قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾.

وأما إن رأى الغاسل خيرًا على الميت كأن يراه مبتسمًا مستنير الوجه فعليه أن يُخبر الناس بذلك ليبشرهم ولتكثر الدعوات من الناس لهذا الميت وليكون ذلك حافزًا للناس على فعل الطاعات طمعًا منهم فى الفوز بمثل ذلك عند الموت.

۞ وأما بالنسبة لجسد الميت .. فإذا رأى الغاسل عيبًا فى جسد الميت كأن

(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٤٩٢).

يكون به بَرَص أو غير ذلك فيجب عليه أن يستره ولا يُحدِّث الناس بذلك.

۞ أما إذا كان هذا الميت من الأشرار الذين اشتُهروا بالمجاهرة بالذنوب والمعاصى ومحاربة الإسلام والمسلمين والقَدْح فى ثوابت الدين وغير ذلك.. فمثل هذا يستحق أن يُفضح إذا رأى الناس منه شيئًا حتى يكون عبرة للخلق.. فيرتدع كل مَن تُسول له نفسه بأن يفعل مثله -والعياذ بالله-.

۞ **قال ابن قدامة فى المُغنى:**

وَيَنْبَغِى لِلْغَاسِلِ، وَلِمَنْ حَضَرَ، إذَا رَأَى مِنْ الْمَيتِ شَيئًا مِمَّا يُحِبُّ الْمَيتُ سَتْرَهُ، أَنْ يسْتُرَهُ، وَلَا يُحَدِّثَ بِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِى ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ يوم القِيَامَةِ**»[(١)] . وَإِنْ رَأَى حَسَنًا مِثْلَ أَمَارَاتِ الْخَيرِ، مِنْ وَضَاءَةِ الْوَجْهِ، وَالتَّبَسُّمِ، وَنَحوِ ذَلِكَ، اُسْتُحِبَّ إظْهَارُهُ، لِيَكْثُرَ التَّرَحُّمُ عَلَيهِ، وَيحصُلَ الْحَثُّ عَلَى مِثْلِ طَرِيقَتِهِ، وَالتَّشَبُّهُ بِجَمِيلِ سِيرَتِهِ[(٢)] .

۞ **قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ:** وَإِنْ كَانَ الْمَيتُ مَغْمُوصًا عَلَيهِ فِى الدِّينِ وَالسُّنَّةِ، مَشْهُورًا بِبِدعَتِهِ، فَلَا بَأْسَ بِإِظْهَارِ الشَّرِّ عَلَيهِ، لِتُحذَرَ طَرِيقَتُهُ.

وَعَلَى هَذَا ينْبَغِى أَنْ يُكْتم مَا يُرَى عَلَيهِ مِنْ أَمَارَاتِ الْخَيرِ؛ لِئَلَّا يغْتَرَّ مُغْتَرٌّ بِذَلِكَ، فَيقْتَدِى بِهِ فِى بِدعَتِهِ[(٣)] .

۞ إذًا: فالتحدُّث بما يحدث للظلمة من انتقام الله عَزَّوَجَلَّ وكسره إياهم جائز... ولم ينكر النبى ﷺ على الصحابة ذلك.

ولكن عندما يَرِد الأمر بذكر محاسن الموتى، فهذا يُراد به الإنسان المؤمن، أو الإنسان الذى ستر نفسه ولم يفضحها... أما الفاسق صاحب المعاصى الذى يموت على ذلك، فيُحذَّر الناس من عمله... كأن نجد رجلًا يرقص ويشرب

(١) **متفق عليه:** رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب المظالم، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة.

(٢) والمستند لذلك هو قول على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما غُسّل رسول الله ﷺ: «...وكان طيبًا حيًّا وميتًا...».

(٣) المغنى (٢/ ٤٥٦).

الخمر والحشيش بالليل ثم يصبح ميتـاً، فهذا يُخبَر الناس عنه؛ حتى يتعظـوا مـن هذه النهاية الأليمة التى حصلت لهذا الإنسان فلا يفعلون فعله.

إذاً: هنا فرق بين أن تستر على ميت بأشياء عادية تحدث منه ومن غيره ولكنها قد تكون شيئًا من الأذى، بحيث أنه يتأذى بها الحى أن يُذكَر عن ميته مثل هذا، فهذا شيء ... وأن يكون الميت إنسانًا مجرمًا ظالمًا فاسقًا كافرًا يعصى الله عَزَّوَجَلَّ ، ويحارب دين الله سبحانه، فيجعله الله عبرة حتى يتحدث الناس بآية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ نزلت به فهذا شيء آخر وهو جائز.

وليس الأجر العظيم مقصورًا على تغسيل الميت فقط، ولكن الحديث طويل.

قال ﷺ: «ومَن كفَّنه كساه الله يوم القيامة من سُندس وإستبرق الجنة».

أى: مَن كفَّن ميتًا كساه الله سبحانه وتعالى من سُندس وإستبرق الجنة، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى.

وانظر عندما يكون الناس يوم القيامة عَرايا حيث يقومون من قبورهم حُفاة عُراة غُرلاً، فإذا بالله يكسو هذا الإنسان فى يومٍ يتعرى فيه الخلق؛ لكونه كفَّن إنسانًا مؤمنًا تُوفى.

وفيه: «مَن غَسَّل مسلمًا فكتم عليه غفر الله له أربعين مرة، ومَن حفر له فأجنَّه» أجنَّه أى: أخفاه وواراه بمعنى: دفنه... قال: **«جرى عليه كأجر مسكنٍ أسكنه إياه إلى يوم القيامة»**، فالمقبرة التى تجعلها للناس كلما دُفن فيها إنسان كان لك أجر ذلك، وكأنك استأجرت له منزلًا إلى يوم القيامة.

والأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة[1].



(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطيبة.

(١٥٥) باب الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه وكراهة اتباع النساء الجنائز

(٩٣٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن شَهِدَ الجنَازَةَ حتَّى يُصَلَّى عليها فلَهُ قِيراطٌ، ومَن شَهِدَها حتَّى تُدفَنَ فَلَهُ قِيراطانِ» قيل: وما القيراطان؟ قال: «مِثْلُ الجَبَلَيْنِ العَظِيمَيْنِ»[١].

(٩٣٥) وعنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن اتَّبعَ جنَازَةَ مُسْلمٍ إيمانًا واحتسابًا، وكان معهُ حتَّى يُصَلَّى عليها ويُفْرَغ مِن دَفْنِها، فإنَّهُ يَرجِعُ مِن الأَجرِ بقِيراطَيْن كُلُّ قيراط مِثْلُ أُحُدٍ، ومَن صَلَّى عليها، ثم رجَعَ قبل أن تُدفَنَ، فإنَّهُ يرجعُ بقيراط»[٢].

(٩٣٦) وعنْ أمِّ عطيَّةَ رضي الله عنها قالتْ: «نُهينا عنِ اتِّباعِ الجنائز، ولم يُعزَمْ علَيْنا»[٣].

۞ ينقضى أجَلُ الإنسان فى الحياة الدنيا بالموت، وتنطوى بذلك صفحة عمله، وبذلك ينتقل إلى الدار الآخرة، فيُعرَض على الله تعالى بعمله حسنًا كان أو سيئًا، ويجد من الأهوال ما الله تعالى به عليم... وعندها يكون المرء بحاجة شديدة إلى ما يرحمه الله تعالى به... وقد شُرع لنا أن نصلى على الميت صلاة مقصودها الدعاء له والاستغفار بجملة من الأدعية المأثورة عن النبى ﷺ، وبالكيفية المعلومة فى صلاة الجنازة، لعلَّ الله تعالى أن يرحم الميت ويقبل فيه شفاعة المصلين عليه.

۞ **قال المؤلف** رحمه الله **فى كتابه «رياض الصالحين»**: باب الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه... يعنى: استحباب ذلك للرجال وكراهته للنساء.

الجَنازة - بالفتح - اسمٌ للميت... والجِنازة - بالكسر - اسمٌ للنعش الذى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٢٥) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٥) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٧) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٧٨) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٨) كتاب الجنائز.
ومعناه: ولم يُشدَّد فى النَّهى كما يُشدَّدُ فى المحرَّمات.

يُحمَل عليه الميت.

۞ وفى الحقيقة أن الصلاة على الميت وتشييعه وشهود الدفن له حكمة عظيمة .. فإنه كلما كَثُر المُشيِّعون كَثُرت الدعوات الصالحة للميت .. ولذا كان الحبيب ﷺ إذا حضر جنازة كان يوصى أصحابه بكثرة الدعاء والاستغفار لأخيهم الذى تُوفى فيقول: «**استغفروا لأخيكم وسَلُوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل**»[(١)].. ولك أن تتخيل هذا المشهد الإنسانى عندما يجد أهل الميت أُناسًا لا يعرفونهم يأتون إليهم ويحضرون صلاة الجنازة والدفن ويدعون لقريبهم الذى مات .. هنا يسأل الإنسان نفسه ما الذى جاء بهم؟! وسيأتيه الجواب فى التو واللحظة .. إنها الأُخوة والمحبة فى الله التى جمعت القلوب على «لا إله إلا الله».

۞ وكذلك لا بد لكل مسلمٍ أن يتفكر فى حاله ومآله وأنه مهما طال به العمر فلا بد أن يأتى عليه يوم يُحمَل فيه على أعناق الرجال ليضعوه فى قبره.. ومن هنا فإنه عندما يصلى على الجنازة فلا بد أن يستحضر فى ذهنه ذلك اليوم الذى يُصلَّى عليه فيه.. وإذا دفن مسلمًا فى قبره فلا بد أن يستحضر ذلك اليوم الذى سيُدفن فيه.. فإن ذلك سيكون عونًا له على أن يستقيم على طاعة الله وأن يبتعد عن معصية الله.. وإن وقع فى معصية فإنه يُسارع إلى التوبة والعودة إلى الله خوفًا من أن يدخل قبره قبل أن يتوب من تلك المعصية.

۞ وفى هذين الحديثين يخبر النبى ﷺ أن مَن صلَّى على جنازة فله قيراط وإن استمر مع تلك الجنازة حتى تُدفن فله قيراطان مثل الجبلين العظيمين.. لكن النبى ﷺ اشترط هنا أن يفعل المسلم ذلك إيمانًا واحتسابًا.. يعنى إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده واحتسابًا لثوابه وليس مجرد مجاملة لأهل الميت دون الإيمان والاحتساب.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٤٥).

۞ **أما النساء فقد قالت أم عطية** رضي الله عنها: «نُهينَا عنِ اتِّباعِ الجنائز، ولم يُعزَمْ علينَا»(١).

وقد حمل جمهور العلماء هذا النهى على الكراهة لا على التحريم(٢) لقولها: «ولم يُعزَمْ علينَا».

لكن قال شيخ الإسلام فى «الفتاوى» (٢٤/ ٣٥٥): «قد يكون مرادها: لم يؤكد النهى، وهذا لا ينفى التحريم، وقد تكون هى ظنت أنه ليس بنهى تحريم... والحجة فى قول النبى ﷺ لا فى ظنِّ غيره»اهـ.

۞ لكن الراجح هو قول الجمهور فى أن النهى على الكراهة لا على التحريم - والله أعلم.

۞ وقد نهى النبى ﷺ النساء عن اتباع الجنائز عند الدفن لأن المرأة ضعيفة القلب فربما تصيح وتُولول وتضرب الخد وتَشُق الجيب وتنتف الشعر وتُمزق الثوب.. بل إنه قد يحصل اختلاطٌ بين الرجال والنساء أثناء تشييع الجنازة فيحصل بذلك فتنة وتزول الحكمة من اتعاظ الناس وتأثُّرهم عند اتباع الجنائز... فقد ينشغل بعض الأراذل من الرجال بالنظر إلى النساء وملاحقتهن ومن أجل ذلك نهى النبى ﷺ النساء عن اتباع الجنائز.

۞ **أما عن زيارة النساء للمقابر فقد اختلف أهل العلم فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال:**

أحدها: التحريم.

الثانى: الكراهة.

الثالث: الإباحة من غير كراهة... وهذا هو الراجح لكن بشرط عدم الوقوع فى المحرمات وأن تكون الزيارة للاتعاظ وتَذكُّر الآخرة.

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخارى (١٢٧٨) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٨) كتاب الجنائز.

(٢) المجموع (٥/ ٢٧٧)، وفتح البارى (٢/ ٥٩٩)، وابن عابدين (١/ ٢٠٨).

والدليل على ذلك:

(١) عموم إذنه ﷺ لزيارة القبور في قوله: «**ألا فزوروها**» فهذا إذنٌ عام يشمل الرجال والنساء.

(٢) دخول النساء تحت قوله ﷺ: «**فإنها تُذكركم الآخرة**» ومن المعلوم أن المرأة تحتاج كثيرًا للموعظة وتذكُّر الآخرة.

(٣) ولزيارة عائشة قبر أخيها ... فعن ابن أبى مليكة «أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت لها: يا أم المؤمنين، من أين أقبلتِ؟ قالت: من قبر أخى عبد الرحمن بن أبى بكر، فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، كان نهى ثم أمر بزيارتها»[١].

(٤) إقرار النبى ﷺ لعائشة وقد سألته: كيف أقول لهم يا رسول الله -تعنى: أهل القبور- قال: «**قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المُستقدمين منَّا والمُستأخرين وإنَّا إن شاء الله بكم للاحقون**»[٢].

(٥) إقرار النبى ﷺ لهذه المرأة التى رآها عند القبر.

فعن أنس قال: «مَرَّ النبى ﷺ بامرأة تبكى عند قبر، فقال: «**اتقى الله واصبرى**»، قالت إليك عنى، فإنك لم تُصَب بمصيبتى... ولم تعرفه فقيل لها: إنه النبى ﷺ، فأتت النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[٣].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم، وعنه البيهقى، وصححه الألبانى فى الإرواء (٧٧٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٦) كتاب الجنائز.

(١٥٦) باب استحباب تكثير المصلين على الجنازة وجعل صفوفهم ثلاثة فأكثر

(٩٣٧) عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ ميِّتٍ يُصلِّى عليه أُمَّةٌ مِن المسلمينَ يبلُغُونَ مائةً كُلُّهم يشْفَعُون له إلا شُفِّعُوا فيه»(١).

(٩٣٨) وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ رجُلٍ مُسْلِمٍ يموتُ، فيقومُ على جنازَتِهِ أربعونَ رجُلًا لا يُشركُون بالله شيئًا إلا شَفَّعَهُم الله فيه»(٢).

۞ قال الإمام النووى رحمه الله: قَالَ الْقَاضِى: قِيلَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ خَرَجَتْ أَجْوِبَةً لِسَائِلِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ فَأَجَابَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ سُؤَالِهِ ... هَذَا كَلَامُ الْقَاضِى وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِىُّ ﷺ أُخْبِرَ بِقَبُولِ شَفَاعَةِ مِائَةٍ فَأَخْبَرَ بِهِ ثُمَّ بقبول شفاعة أربعين ثم ثلاث صُفُوفٍ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُمْ فَأَخْبَرَ بِهِ.

وَيَحتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يُقَالَ هَذَا مَفْهُومُ عَدَدٍ وَلَا يَحتَجُّ بِهِ جَمَاهِيرُ الْأُصُولِيِّينَ فَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْ قَبُولِ شَفَاعَةِ مِائَةٍ مَنْعُ قَبُولِ مَا دُونَ ذَلِكَ وَكَذَا فِى الْأَرْبَعِينَ مَعَ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ ... وَحِينَئِذٍ كُلُّ الْأَحَادِيثِ مَعمُولٌ بِهَا وَيَحصُلُ الشَّفَاعَةُ بِأَقَلِّ الْأَمْرَيْنِ مِنْ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ وأربعين(٣).

۞ وفى تلك الأحاديث يخبر النبى ﷺ أنه كلما كَثُر عدد المصلين الذى يصلون على ذلك الميت كان هذا أفضل وأرجى للشفاعة.

۞ والشفاعة مصدر (شفع) ومعنى (شفع): أنه جاء مع غيره، كما يُقال: صليت شفعًا، أى: أن تضم ركعة إلى ركعة، فتصير ركعتين شفعًا، وعكس

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٤٧) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٤٨) كتاب الجنائز.

(٣) مسلم بشرح النووى (٧/ ٢٤-٢٥).

الشفع الوتر.

فكأن الميت يجيء وحده إلى ربه سبحانه وتعالى...فأنت تأتى شفيعًا مع هذا الميت فتدعو لهذا الميت ... فأنت تشفع فى هذا الإنسان وترجو من الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر له.

ولذلك فإن الصلاة على الميت تحتاج إلى الإخلاص... فمن يصلى على الميت عليه أن يُخلص فى دعائه، فيدعو الله سبحانه وتعالى للميت ويتخيل نفسه فى مثل هذا الموقف ... فحين تدعو للميت تخيل نفسك أنك أنت هذا الميت، وحينئذ ادعُ للميت بالشيء الذى تريد أن يُدعَى لك به، ولا تقل: هذا قريب، أو: هذا غريب، أو: هذا صغير، أو: هذا كبير، بل هذا ميت، وغدًا ستكون أنت مكان هذا الإنسان.

والمقام ليس مقام رياء... ليس مقام مَن يتقدم ليصلى على الميت لمجرد التقدُّم والإمامة، بل هو مقام إخلاص، فنُخلص فى الدعاء للميت جميعنا... سواء أَكُنا أئمة أم مأمومين... فنحن نصلى على الميت وندعو له، وهذا المسكين فى هذه الحالة محتاج للدعاء، ومحتاج للتثبيت، ومحتاج لأن تدعو ربك بأن يُنور له قبره... فالقبور مُظلمة على أصحابها، والله ينورها سبحانه عليهم بالصلاة على نبيه ﷺ ... وكذلك ينورها بأعمالهم، وبشفاعة مَن يقبل شفاعتهم فى هذا الميت.

يقول النبى ﷺ: «**ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة**»، فالمقصود هنا أمة من المؤمنين، لا أن يأتى غير المسلمين فيصلوا عليه.

فقوله: «**أمة من المسلمين**» كأن المقصود به الإسلام الحق الخالص، أن تُسلم وجهك وقلبك لله سبحانه وتعالى، وأن تُسلم نفسك لله سبحانه.

ولذلك جاء فى بعض الروايات: «**لا يشركون بالله شيئًا**».

فالمقصود: إنسان مسلم على الحق يلتزم بدين الله سبحانه وتعالى، ويرضى

بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ رسولًا... ويصبر على قضائه وقدره.

فهذا المسلم الذى يُسلم نفسه لله ويُسلم أمره له ويفوض أمره إليه سبحانه ... يصلى على هذا الإنسان المُتوفَّى وكُله يقين بأن الله رحمن رحيم، وأن الذى شرع هذه الصلاة ما شرعها إلا ليُخفف عن هذا الميت وليقبل شفاعة الشافعين فى هذا الإنسان.

والأصل فى الإنسان المؤمن أن يُخلص لله تعالى فى الصلاة على الميت، وأن يتصور نفسه مكان الآخرين... فحين تجد مظلومًا ضَع نفسك مكانه، فالمظلوم محتاج إلى مَن يدافع عنه... فأنا سأدافع عن هذا الإنسان المظلوم ما دام فى قدرتى أن أفعل ذلك... وإذا وجدت إنسانًا ميتًا والناس منتظرون ليصلوا عليه فلا تقل: هؤلاء أُناسٌ كثيرون سيصلون عليه، فأنا سأذهب، ولكن قُل: لو كنت أنا الميت فسأتمنى أن الكثيرين يصلون علىَّ.

إذ يمكن أن يكون أحدهم مُستجاب الدعوة، فيستجيب الله عَزَّوَجَلَّ دعوته لى.

ففى وقت الصلاة على الميت نحتاج إلى الإخلاص لله تبارك وتعالى، ولا يهم مَن يتقدم ليصلى على الميت[1].

۞ ومن المعلوم أنه كلما كَثُر الجمع من المصلين على الميت كان ذلك أفضل وأرجى للشفاعة.. فمن المعلوم أن الذين يُصلون على الجنازة يشفعون إلى الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الميت ويسألون الله المغفرة والرحمة لهذا الميت.

والدعاء للميت فى الجنازة من أوجب ما يكون فى الصلاة، بل هو ركن من أركان الصلاة لا تصح صلاة الجنازة إلا به.

ومن أجل ذلك نجد أن الناس يحرصون على صلاة الجنازة على ميتهم فى تلك المساجد الكبرى التى يجتمع فيها أكبر قدرٍ من المصلين ليكون هناك أكبر

(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطيبة.



عددٍ من الناس الذين يدعون له ويشفعون له فعسى أن يكون واحدٌ منهم مُستجاب الدعاء فيشفع لهذا الميت فيكون سبب سعادته فى قبره ويوم القيامة.

۞ ولذلك ينبغى على الإمام إذا رأى جنازة فى المسجد بعد أن انتهى من صلاة الفريضة.. ينبغى عليه أن ينتظر الذين جاءوا متأخرين حتى ينتهوا من صلاتهم من أجل أن يشاركوا الحاضرين فى الصلاة على الميت فيكثر الناس وتكثر الدعوات والشفاعات لهذا الميت.

(٩٣٩) وعن مَرثَد بن عبد الله اليَزَنىِّ قال: كانَ مالكُ بنُ هُبَيْرَةَ رضي الله عنه إذا صلَّى على الجنازةِ، فَتَقالَّ النَّاسَ عليها، جزَّأهُمْ عليها ثلاثةَ أجزاءٍ ثم قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عليه ثلاثةُ صُفُوف، فقَد أوْجَبَ»(١).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٦٦٨).

(١٥٧) باب ما يقرأ في صلاة الجنازة

۞ يُكَبِّرُ أربعَ تكبيراتٍ، يتعَوَّذُ بعدَ الأُولى، ثُمَّ يقرأُ فاتحة الكتاب، ثُمَّ يُكبِّرُ الثَّانيةَ، ثُمَّ يُصلِّي على النبيِّ ﷺ، فيقول: اللَّهُمَّ صلِّ على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، والأفضلُ أن يُتَمِّمَه بقوله: كما صَلَّيْتَ على إبراهيم... إلى قوله: إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ.

ولا يفعَلُ ما يَفْعَلُهُ كثيرٌ من العَوَامِّ مِن قراءتِهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]، فإنه لا تَصِحُّ صَلاتُهُ إذا اقتَصَرَ عليه.

ثم يُكَبِّرُ الثالثة، ويدعُو للمَيِّتِ وللمُسْلِمينَ بما سَنَذْكُرُهُ مِن الأحاديثِ إن شاء الله تعالى، ثم يُكَبِّرُ الرَّابعةَ ويدعُو ... ومِن أحسَنِهِ: اللَّهُمَّ لا تَحرِمْنَا أجرَهُ، ولا تَفْتِنَّا بعدَه، واغْفِر لنَا وله. والمختارُ أنه يُطَوِّلُ الدُّعاء في الرَّابعةِ خِلافَ ما يعتَادُهُ أكثَرُ الناس، لحديث ابن أبي أوفى الذي سنَذْكُرُه إنْ شاء الله تعالى.

فأمَّا الأدعيَةُ المأثُورةُ بعدَ التَّكْبيرة الثالثة، فمنها[1]:

(٩٤٠) عن أبي عبد الرحمنِ عوفِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: صلَّى رسول الله ﷺ على جَنازَةٍ فحَفِظْتُ مِن دُعائِهِ وهُو يقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِر لهُ، وارحَمْهُ، وعافِهِ، واعفُ عنه، وأكرِمْ نُزُلَهُ، ووَسِّع مُدخَلَهُ، واغْسِلْهُ بالماءِ والثَّلْجِ والبَرَدِ، ونقِّه مِن الخطَايا، كما نَقَّيْتَ الثَّوب الأبْيَضَ مِن الدَّنس، وأبْدِلْهُ دارًا خيرًا مِن دارِهِ، وأهْلًا خَيْرًا مِن أهْلِهِ، وزَوْجًا خيرًا مِنْ زَوْجِه، وأدخِله الجنَّةَ، وأعِذْه مِن عذَابِ القَبْرِ، ومِنْ عذَابِ النَّارِ» حتَّى تَمَنَّيْتُ أنْ أكُونَ أنَا ذلكَ الميِّتَ[2].

(٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣) وعن أبي هريرة وأبي قتادةَ وأبي إبراهيم الأشْهَليِّ عن أبيه - وأبوه صحابيٌّ - رضي الله عنهم عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه صلَّى على جنازَة فقال: «اللَّهُمَّ اغفر لِحَيِّنا ومَيِّتِنا، وصَغيرنا وكَبيرنا، وذَكَرِنا وأُنْثَانا، وشَاهِدِنا وغائِبنا. اللَّهُمَّ مَن أحيَيْتَهُ

(١) رياض الصالحين/ للإمام النووي رحمه الله (ص٢٩٧-٢٩٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٦٣) كتاب الجنائز.

مِنَّا فأحيِه على الإسْلامِ، ومَن تَوَفَّيْته مِنَّا فَتَوَفَّهُ على الإيمان، اللَّهُـمَّ لا تَحرِمْنا أجْرَهُ، ولا تَفْتِنَّا بعدَهُ»(١).

(٩٤٤) وعنْ أبى هريرةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «إذا صَلَّيْتُم على المَيِّت فأخلِصُوا لهُ الدعاءَ»(٢).

(٩٤٥) وعنه عن النَّبىِّ ﷺ فى الصَّلاةِ على الجنازَة: «اللَّهُمَّ أنْتَ ربُّها، وأنتَ خَلَقْتَها، وأنتَ هَدَيْتَها لِلْإِسْلَامِ، وأنتَ قَبَضْتَ رُوحَها، وأنْتَ أعلمُ بِسِرِّها وعلانِيَتِها، وَقَد جِئْنَاك شُفعاءَ لهُ فاغْفِر له»(٣).

(٩٤٦) وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: صَلَّى بِنَا رسولُ الله ﷺ على رجُلٍ مِن المسلمينَ، فسمعته يقول: «اللَّهُمَّ إنَّ فُلان ابنَ فُلان فى ذِمَّتِكَ وحَبل جوارك، فَقِهِ فِتْنَةَ القَبْر، وعذَاب النَّارِ، وأنْتَ أهْلُ الوَفَاءِ والحَمْدِ، اللَّهُمَّ فاغفِر لهُ وارحَمْهُ، إنكَ أنْتَ الغَفُور الرحيم»(٤).

(٩٤٧) وعن عبد الله بن أبى أَوفَى رضي الله عنهما أَنَّهُ كبَّر على جنازةِ ابنةٍ لهُ أربَعَ تَكْبيراتٍ، فقَامَ بعدَ الرابعةِ كقَدرِ ما بينَ التَّكْبيرتينَ يَستغفِرُ لها ويَدعُو، ثم قال: كان رسُولُ الله ﷺ يَصنَعُ هكذا.

وفى رواية: كبَّرَ أربَعًا فمكث ساعةً حتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سيُكَبِّرُ خَمْسًا، ثمَّ سلَّمَ عنْ يَمينِهِ وعَنْ شِمالِهِ، فلَمَّا انْصَرفَ قُلْنَا لهُ: ما هذا؟ فقال: إنِّى لا أَزِيدُكُمْ على ما رأيْتُ رسُولَ الله ﷺ يصنَعُ، أوْ: هكذا صَنَع رسولُ الله ﷺ(٥).

---

(١) صحيح: حديث أبى هريرة رواه أبو داود، وابن ماجه، وحديث أبى قتادة رواه أحمد، وحديث أبى إبراهيم الأشهلى عن أبيه رواه الترمذى، والنسائى فى الكبرى، والحديث صححه الألبانى فى أحكام الجنائز (١٢٤)، وصحيح سنن أبى داود (٢٧٤١).

(٢) حسن: رواه ابو داود، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٩).

(٣) ضعيف: رواه ابو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن أبى داود (٧٠٣).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢٧٤٢).

(٥) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقى، وصححه الألبانى فى أحكام الجنائز (١٦٠).

۞ صلاة الجنازة تشتمل على قراءة الفاتحة ، ثم الصلاة على النبى ﷺ، ثـم الدعاء، فيبدأ أولًا بالفاتحة؛ لأنها ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ ثم الصلاة على النبى ﷺ وهو أحق الناس أن يُقدَّم حتى على النفس ... ثم بعد ذلك الدعاء العام «**اللهم اغفر لحينا وميتنا**» ثم الدعاء الخاص للميت «**اللهم اغفر له وارحمه**» وهذا الترتيب كالترتيب فى التشهد حيث نبدأ أولًا بالتحيات لله وهو الثناء على الله ثم السلام على النبى ﷺ ثم السلام على الإنسان وعلى عباد الله الصالحين...

وهذا أيضًا - الدعاء للميت - كذلك مُرتَّب، لكن نبدأ بالعام قبل الخاص بخلاف التشهد فإنه يبدأ بالخاص قبل العام؛ لأن التشهد تدعو لنفسك «السلام علينا» والنفس مُقدَّمة على الغير إلا على النبى ﷺ.

المهم: أن صلاة الجنازة يكبر الإنسان التكبيرة الأولى ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يقرأ الفاتحة كاملة، ثم يكبر التكبيرة الثانية فيصلى على النبى ﷺ ... وأحسن ما يُصلَّى به عليه ما علَّمه أمته: «**اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد ... اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد**»(١)، ثم يكبر الثالثة فيدعو لعامة المسلمين «**اللَّهُمَّ اغفر لِحَيِّنا ومَيِّتِنا، وصَغيرنا وكَبيرنا، وذَكَرِنا وأُنْثَانا، وشَاهِدِنا وغائِبنا. اللَّهُمَّ مَن أحيَيْتَهُ مِنَّا فأحيِه على الإسْلامِ، ومَن تَوَفَّيْتَه مِنَّا فَتوَفَّهُ على الإيمان، اللَّهُمَّ لا تَحرِمْنا أجْرَهُ، ولا تَفْتِنَّا بعدَهُ**».

وهذه الجُمَل تُغنى عنها جملة واحدة، لو قال اللهم اغفر لحيِّنا وميتنا شمل الجميع، لكن مقام الدعاء ينبغى فيه البسط والتفصيل؛ لأن الدعاء كل جملة منه عبادة لله عَزَّوَجَلَّ وإذا كررته ازددت بذلك ثوابًا.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٣٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٤٠٦) كتاب الصلاة.

فقوله: «**حينا وميتنا**» يشمل الحى الحاضر، والميت القديم، والميت فى عصره «**وصغيرنا وكبيرنا**» كذلك أيضًا يشمل الصغير والكبير الحى والميت... وذكر الصغير مع أن الصغير لا ذنب له من باب التبعية، وإلا فإن الصغير ليس له ذنب حتى تسأل له المغفرة.

«**وذكرنا وأنثانا**» مثلها عامة «**وشاهدنا وغائبنا**» الحاضر والمسافر مثلًا «**اللهم مَن أحييته منَّا فأحيه على الإسلام، ومَن توفيته فتوفه على الإيمان**» الحياة ذكر معها الإسلام وهو الاستسلام الظاهر، وأما الموت قال: توفنا على الإيمان؛ لأن الإيمان أفضل ومحله القلب، والمدار على ما فى القلب عند الموت وفى يوم القيامة. «**اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده**» لا تحرمنا أجره يعنى: بالصلاة عليه، لأن الإنسان يُؤجَر بالصلاة على الميت - كما سبق - أن مَن شهدها حتى يُصلَّى عليها فله قيراط، ومَن شهدها حتى تُدفَن فله قيراطان... كذلك أيضًا أجر آخر للمصاب بهذا الميت الذى حزن لفراقه يُؤجَر أيضًا على صبره على المصيبة «**ولا تفتنا بعده**»: يعنى لا تُضلنا عن ديننا بعده، لأن الحى لا تُؤمَن عليه الفتنة، ما دام الإنسان لم تخرج روحه فإنه عُرضة لأن يُفتَن فى دينه - والعياذ بالله - ولهذا قال: «**لا تفتنا بعده**» فينبغى للإنسان أن يدعو بهذا الدعاء اقتداءً برسول الله ﷺ.

ثم يدعو للميت الدعاء الخاص... ومنه ما فى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ صلى على جنازة فحفظ من دعائه: «**اللهم اغفر له وارحمه، وعافِه واعفُ عنه، وأكرم نُزُلَهُ**» يعنى ضيافته يعنى أكرمه فى ضيافته.

لأن الميت فى ضيافة الله عز وجل إذا انتقل من هذه الدنيا إلى قبره فهو إما أن يكون فى قبره مُعذَّبًا أو مُنعَّمًا... ويقول: «**وأوسع مُدخله**» يعنى: أوسع قبره - لأنه يدخل فيه.

«**واغسله بالماء والثلج والبرد**» واغسله يعنى: طَهِّره من الذنوب بالماء والثلج والبَرَد... ذكر الثلج والبرد، لأنه بارد، وذكر الماء؛ لأن به النظافة...

والذنوب - أجارنا الله وإياكم منها - عقوبتها حارة؛ فناسَب أن يَقرن مع الماء الثلج والبرد، فيحصل بالماء التنظيف، ويحصل بالثلج والبرد التبريد.

«**ونقِّه من الخطايا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدَّنَس**» يعنى: نظِّفه تنظيفًا كاملًا من الخطايا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الوسخ... وذكر الثوب الأبيض؛ لأنه هو الذى تظهر فيه أدنى دنسة، فإذا كان الثوب الأبيض نقيًّا فمعناه أنه ليس به دنس إطلاقًا بخلاف الثوب الأسود والأحمر والأخضر وما أشبه ذلك، فإنه ليس كالأبيض تبين به الدنسة بيانًا واضحًا.

«**اللهم أبدله دارًا خيرًا من داره**» لأنه انتقل من دار الدنيا إلى دار البرزخ، ودار الدنيا - كما نعلم- دار محن وأذى وكدر فيقول: «**أبدله دارًا خيرًا من داره**». ليكون مُنعَّمًا فى قبره.

«**وأهلًا خيرًا من أهله**» أهله: ذَووه، كأمه وخالته وبناته، وأبيه، وابنه وما أشبه ذلك. «**وزوجًا خيرًا من زوجه**» يعنى زوجة خيرًا من زوجته وذلك بالحور العين، وكذلك بزوجته فى الدنيا، لأن الإنسان إذا تزوج امرأة فى الدنيا وماتت على الإيمان فإنها تكون زوجته فى الآخرة.

فإن قال قائل: كيف تكون خيرًا من زوجتى وهى واحدة فى الدنيا؟! نقول: خيرًا منها فى الصفات والجمال وغير ذلك «**وأدخله الجنة وأعِذهُ من عذاب القبر وعذاب النار**» كل هذا دعاء يدعو به الإنسان للميت، وينبغى أن يُخلص الإنسان للميت فى هذا الدعاء... فإن كانت امرأة فإنه يقول: «**اللهم اغفر لها وارحمها، وعافها واعفُ عنها...**» - يعنى بضمير المؤنث، فإن كان لا يدرى هل هى ذكر أم أنثى فإنه مُخيَّر، إن شاء قال: اللهم اغفر له - يعنى لهذا الشخص - والمرأة تُسمَّى شخصًا... أو إن شاء قال: «**اغفر لها**» أى: لهذه الجنازة، والجنازة تُطلَق على الرجل وعلى المرأة.

أما حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إذا دعوتم للميت فأخلصوا له الدعاء**» فالمعنى أنك تدعو بحضور قلبٍ وإلحاحٍ على الله لأخيك الميت؛ لأنه محتاج لك. والله الموفق[1].

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٣-٦٥) للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.

(١٥٨) باب الإسراع بالجنازة

(٩٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «أَسْرِعُوا بالجَنازَةِ، فإنْ تَكُ صَالِحَةً فخَيْرٌ تُقَدِّمُونها إليه، وإنْ تَكُ سِوَى ذلِكَ فشَرٌّ تَضَعُونَهُ عن رِقَابِكُم»[١].

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «فخَيْرٌ تُقَدِّمُونَها عليهِ».

(٩٤٩) وعنْ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه قالَ: كانَ النَّبِيُّ ﷺ يقُولُ: «إذا وُضِعَتِ الجنازَةُ، فاحتَمَلَها الرِّجالُ على أعناقِهِمْ، فإنْ كانتْ صالحةً، قالتْ: قَدِّمُوني، وإنْ كانتْ غَيْرَ صالِحةٍ قالتْ لأهلِهَا: يا وَيْلَها أيْنَ تَذْهبُون بها، يَسْمَعُ صَوْتَها كُلُّ شَيءٍ إلا الإنسانَ، ولَوْ سَمِعَ الإنْسانُ، لَصَعِقَ»[٢].

۞ الإسراع بالجنازة سُنة ... والإسراع أنواع: إسراع من لحظة ما يُتوفَّى الميت، فهو إسراع في التجهيز، وإسراع في استخرج تصريح بدفنه، وإسراع في حفر القبر، وإسراع في إحضار المُغسِّل، وإسراع في إحضار الكفن، فلا يطول هذا الشيء وإنما بقدر ما يجتمع الناس الذين يصلون عليه... فإذا لم يكن الناس قد اجتمعوا فلا بد أن ننتظر حتى يجتمع الناس الذين سيصلون عليه ويشفعون له عند الله بدعائهم له في الصلاة... أما بعد الصلاة فيُستحب الإسراع من أجل دفنه دون أن يتسبب ذلك في حرمان الذين صلوا عليه من حضور الدفن ليفوزوا بثواب جبلين من الحسنات.. والمقصود بالإسراع بالجنازة هو الزيادة على المشي المعتاد لكن بشرط ألا يؤدي ذلك إلى الإضرار بالميت بأن يسقط أو الإضرار بمن يحمله...

لكن لماذا هذا الإسراع؟!.

۞ وذلك لأن الميت إذا مات فإنه إما أن يكون صالحًا أو يكون غير ذلك... فإن كان صالحًا فإنَّ حَبْسَهُ عن الدفن جنايةٌ عليه وحيلولة بينه وبين ما

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣١٥) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٤) كتاب الجنائز.

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (١٣١٦)، (١٣٨٠) كتاب الجنائز.

أعدَّه الله له من النعيم الذى لا يخطر على قلب بشر .. فقد بشَّره ملك الموت عند نزع روحه بقوله: «اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان».

فهو ينتقل من دنيا الآلام والأحزان والابتلاءات إلى نعيم القبر الذى أعدَّه الله له.

ومن أجل هذا قال النبى ﷺ: «**أسرعوا بالجنازة**» أى: لا تُؤخروها. «**فإن تكُ صالحة فخيرٌ تُقدمونها إليه**» فإنها قادمة إلى رحمة الله ورضوانه ونعيم القبر ونوره وسروره.

«**وإن تكُ سوى ذلك فشرٌّ تضعونه عن رقابكم**».

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ: (**فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ**) مَعنَاهُ أَنَّهَا بَعِيدَةٌ مِنَ الرَّحمَةِ فَلَا مَصلَحَةَ لَكُمْ فِي مُصَاحَبَتِهَا ... وَيُؤْخَذُ مِنْهُ تَركُ صُحبَةِ أَهْلِ الْبَطَالَةِ غَيْرِ الصَّالِحِينَ(١).

۞ إذًا .. يُستفاد من هذا الحديث أنه يُسَنُّ الإسراع بالجنازة وألا تُؤخَّر.

وما يفعله بعض الناس اليوم أنه إذا مات الميت قالوا: انتظروا حتى يَقدُم أهله من كل فَجٍّ... وبعضهم ربما كان فى أوروبا أو فى أمريكا، وربما طال ذلك يومًا أو يومين، فهذا جناية على الميت وعصيان لأمر الرسول ﷺ، «**أسرعوا بالجنازة**»... فأهله إذا جاءوا وقد دُفن يصلون على قبره، والأمر واسع والحمد لله ... وهو إذا تأخر دفنه حتى يأتوا ماذا ينفعه من ذلك؟! إنه لا ينفعه إلا الدعاء له بالصلاة عليه، وهذا حاصل إذا صلوا عليه عند قبره، ولا وجه لهذا الحبس إطلاقًا ... فإن قال قائل: أليس النبى ﷺ مات يوم الاثنين ولم يُدفَن إلا ليلة الأربعاء؟! قلنا: بلى، لكن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أرادوا ألا يدفنوا الرسول ﷺ حتى يُقيموا خليفة على عباد الله بعده؛ لئلا تخلو الأرض عن خليفة لله فيها... ولهذا لما تمَّت مبايعة أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دفنوا النبى ﷺ ... وهذه علة ظاهرة واضحة.

(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٧).

وقوله ﷺ: «**إن تك صالحة فخيرٌ تُقدمونها إليه، وإن تَكُ سوى ذلك...**» يُستفاد منه أنه ينبغي أن يُعبَّر عن الألفاظ السيئة بما يدل عليها بدون سوء؛ لأن قسيم الصالحة: الفاسدة ولكن النبي ﷺ عدل عن كلمة «فاسدة» إلى قوله: «**وإن تَكُ سوى ذلك**» وهذا من باب التأدُّب في اللفظ .. وإلا فالمعنى واحد، والتأدب في اللفظ له شأن عجيب.

انظر إلى قوله تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ لما أرادوا الخير أضافوه إلى الله ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وفي الشر قالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ وما قالوا: شَرٌّ أراده الله، مع أن الله مُريدٌ للخير والشر.. لكن الشر الذي يريده الله ليس شرًّا في فعله بل في مفعولاته..أما فعله عَزَّوَجَلَّ فلا شك أنه خير، لكن يُقدر الشر للخير لحكمة يريدها عَزَّوَجَلَّ.

المهم أنه ينبغي للإنسان أن يتأدب في صياغة الألفاظ من غير إخلالٍ بالمعنى... ويُذكر أن ملكًا من الملوك رأى رؤيا، وهي أن أسنانه قد سقطت، واهتم لذلك، فجمع الذين يُعبرون الرؤيا - أي يفسرونها - فقال له واحد: إن حاشيتك تموت وأهلك معهم. ففزع الملك، ولم يعجبه هذا التفسير، فأمر بالرجل فجُلد... ثم دعا آخر وقال له ما رأى. قال: إن الملك يكون أطول أهله عُمرًا.. والمعنى واحد، فأكرمه، وأجازه. فالألفاظ لها تأثير، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**وإن تَكُ سوى ذلك فشرٌّ تضعونه عن رقابكم**»(١).

۞ وأما حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**فإن كانت صالحة قالت: قدِّموني**» فقد أخبر النبي ﷺ أنها تقول ذلك بصوتٍ مسموع يسمعه كل شيء إلا الإنسان.. وهذا من كمال رحمة الله بنا لأننا لو سمعنا ما يقوله الأموات على نعوشهم لامتلأت قلوبنا فزعًا ورُعبًا.

فالشاهد أن الجنازة إن كانت صالحة تقول: قدِّموني: أي لرحمة الله

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٧).

ورضوانه والنعيم والنور والسرور الذى ينتظرها فى قبرها.

«**وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها أين يذهبون بها**» فتدعو على نفسها بالويل لأنها قادمة إلى عذاب القبر الذى لا يَخطُر على قلب بشر... فسوف يُغلَق عليه القبر وحده ويُعذَّب وحده -نسأل الله العفو والعافية- ونحن لا نشعر بذلك ولا نسمعه.. ومن رحمة الله علينا أن أخفى علينا ذلك حتى نستطيع أن ندفن موتانا.. وإلا فقد قال النبى ﷺ: «**إن هذه الأمة تُبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا**[١]**، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه**»[٢].

ويدل على سماع الرسول ﷺ للمُعذَّبين فى قبورهم: الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى «صحيحيهما» عن ابن عباس وفيه أن الرسول ﷺ مَرَّ بقبرين، فقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِى كَبِيرٍ**» الحديث.

وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها **قالت**: دَخَلَتْ عَلَىَّ عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ فَقَالَتْ: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِى قُبُورِهِمْ، قَالَتْ: وَكَذَّبْتُهَا وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهَا... قَالَتْ: فَخَرَجَتْ فَدَخَلَ عَلَىَّ النَّبِىُّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ عَجُوزًا مِنْ عَجَائِزِ يَهُودَ دَخَلَتْ عَلَىَّ فَزَعَمَتْ أَنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِى قُبُورِهِمْ فَقَالَ: «**صَدَقَتْ، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا**» قَالَتْ: فَمَا رَأَيْتُهُ فِى صَلَاةٍ إِلَّا يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ[٣].

ولذلك قال أهل العلم: يُسَنُّ الإسراع فى تجهيز الميت، إلا إذا مات بغتةً فإنه يُنتظَر حتى يُتيقَّن أنه مات... لأنه يحتمل أن يكون غشية وأنه حىٌّ؛ فيُنتظر حتى يُتيقن أنه مات ثم نبادر به.



(١) لولا أن لا تدافنوا: أى مخافة أن لا تدافنوا.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٦٧) كتاب الجنة.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦٣٦٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٥٨٦) كتاب المساجد.

(١٥٩) باب تعجيل قضاء الدَّين عن الميت والمبادرة إلى تجهيزه إلا أن يموت فجأة فيُترك حتى يُتيقن موته

(٩٥٠) عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «نَفْسُ المؤمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حتَّى يُقْضَى عنه»(١).

(٩٥١) وعَنْ حُصَيْنِ بنِ وَحوَح رضي الله عنه أَنَّ طَلْحَةَ بنَ البَراءِ بن عازب رضي الله عنهما مَرِض، فأتاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فقال: «إنِّى لا أُرَى طَلحةَ إلا قد حَدَث فيه الموتُ فآذِنُونى بِهِ وعجِّلُوا به، فإنَّهُ لا ينبغى لجِيفَةِ مُسْلمٍ أنْ تُحبَسَ بينَ ظَهْرانَى أهْلِهِ»(٢).

۞ فالميت قد يُحبَس فى قبره بسبب الدَّين ولذلك يجب على كل مسلمٍ أن يرد إلى الناس حقوقهم قبل أن يترك الدنيا بكل ما فيها ويذوق العذاب الأليم بسبب تلك المظالم.

۞ عن جابر بن عبد الله قال: تُوُفِّى رَجُلٌ فَغَسَّلْنَاهُ وَحَنَّطْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ ثُمَّ أَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ لِيُصَلِّىَ عَلَيْهِ، فَخَطَّ خطًّا ثُمَّ قَالَ: «هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ» قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ» فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ دَيْنُهُ عَلَىَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هُمَا عَلَيْكَ، حَقُّ الْغَرِيمِ وَبُرِءُ الْمَيِّتِ؟» قَالَ: نَعَمْ... فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ لَقِيَهُ فِى الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا مَاتَ أَمْس.

ثُمَّ لَقِيَهُ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ قَد قَضَيْتُهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ»(٣).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٧٩).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٠٩٩).

(٣) حسن: رواه أحمد، والدارقطنى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٧٥٣).

۞ **وعن سعد بن الأطول** رضي الله عنه: «أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم، وترك عيالًا، قال: فأردت أن أُنفقها على عياله، قال: فقال لى نبى الله ﷺ: «**إِنَّ أَخَاكَ مَحبُوسٌ بِدَيْنِهِ، فَاذْهَبْ، فَاقْضِ عَنْهُ**» ، قَالَ: فَذَهَبْتُ، فَقَضَيْتُ عَنْهُ، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَد قَضَيْتُ عَنْهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا امْرَأَةٌ تَدَّعِى دِينَارَيْنِ، وَلَيْسَتْ لَهَا بَيِّنَةٌ. قَالَ: «**أَعطِهَا، فَإِنَّهَا مُحِقَّةٌ**» وفى رواية: «**صَادِقَةٌ**»[(١)].

فقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك الصحابى محبوس بسبب دَينه، ويمكن أن يُفسر هذا الحبس الحديث الآخر حيث قال الرسول ﷺ: «**إنه مأسورٌ بدَينه عن الجنة**».

۞ وهذا يدل على أن المسلم إذا مات فإنه يجب على أهله أن يبادروا بقضاء دَينه إذا كان عليه دَينٌ لأحدٍ.. ولا يجوز لهم أن يُؤخروا ذلك حتى يُقسَّم الميراث وذلك لأن ذلك المال الذى ورثوه من الميت ليس لهم أى حقٍّ فيه إلا بعد الانتهاء من سَداد دَينه ... ولهذا قال الله تعالى فى آيات المواريث: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ ليس للورثة حق أن يأخذوا شيئًا من التركة حتى يقضوا دين الميت... ويجب عليهم المبادرة فى قضاء الدَّين؛ إلا إذا كان مُؤَجَّلًا فإنه يُطلَب من أهل الدَّين أن ينتظروا، فإن أَبَوا فإنه يُعَجَّل لهم، وإلا إذا وثَّق الورثة برهنٍ، أو كفيل.

ودَين الميت يُقضَى من ماله إن كان له مال أو يتولى الورثة قضاء دَينه من مالهم الخاص.. وهذا من باب الإحسان إلى الميت حتى لا يُعذَّب بدَينه ... فقد وصلت خطورة الدين أنه «**يُغْفَرُ للشهيد كلُّ ذنبٍ إلا الدَّيْن**»[(٢)].

۞ ولكن بكل أسف فقد تهاون كثيرٌ من الناس فى قضاء الدَّين عن الأموات.. فما إن يموت الرجل حتى يتصارع الورثة على ميراثه ويتلاعبون

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، وابن ماجه، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٥٠).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٨٨٦) كتاب الإمارة.

بالتركة ويُؤخرون قضاء الدَّين ... وهذا حرامٌ عليهم ولا يجوز أبدًا.. فالواجب عليهم أن يبادروا إلى قضاء دَينه لينجو من العذاب ثم يتقاسمون الميراث حسب ما جاء فى كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ..

ولذا قال النبى ﷺ: «**نفس المؤمن مُعلَّقة بدَينه حتى يُقضَى عنه**» يعنى أن نفسه وهو فى قبره مُعلَّقة بالدَّين... كأنها والله أعلم تتألم من تأخير الدَّين، ولا تفرح ولا تنبسط؛ لأن عليه دَينًا ... ومَن ثَمَّ قلنا: إنه يجب على الورثة أن يبادروا بقضاء الدَّين.

۞ أما الحديث الثانى .. فللأمانة العلمية فالحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.. ومع ذلك فقد تَقدَّم الكلام عن أنه يُسَنُّ الإسراع بالجنازة... ولهذا قال النبى ﷺ:

«**لا ينبغى لجيفة مسلم أن تُحبَس بين ظهرانى أهلها**» لكن لو حُبست لساعة أو ساعتين لانتظار كثرة الجمع، كما لو مات فى أول النهار مثلًا يوم جمعة وقالوا: ننتظر للصلاة لكثرة الجمع، فهذا لا بأس به - إن شاء الله - وهو تأخير **لا يضر**. والله الموفق.



(١٦٠) باب الموعظة عند القبر

(٩٥٢) عن عليٍّ رضي الله عنه قال: كُنَّا في جنازةٍ في بَقيع الغَرقَد فأتانا رسول الله ﷺ، فقعَدَ، وقعَدنا حَوْلَه ومعَهُ مِخْصَرةٌ فنكَسَ وجَعَلَ يَنْكُتُ بمِخْصَرَتِهِ، ثم قال: «ما منكُم مِنْ أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِن النَّار ومَقْعَدُهُ مِن الجنَّةِ» فقالوا: يا رسُول الله، أفلا نَتَّكِلُ على كتابنا؟ فقال: «اعمَلُوا، فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ»[١] وذكر تمام الحديث.

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن الموعظة مطلوبة في كل زمانٍ ومكان لكنها تكون أشد تأثيرًا إذا كانت في تلك الأماكن التي تُسكَب فيها العَبرات وتلين فيها القلوب برؤية الأموات.. وذلك عند دفنهم في قبورهم.

۞ والموعظة هي تذكير الناس بما يُلين قلوبهم .. وذلك يكون إما بالترغيب في الخير أو الترهيب من الوقوع في الشر.

ولا بد أن نعلم أن أعظم واعظٍ في قلب المؤمن هو القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

ولكن بكل أسف فهناك قلوب تتأثر عند سماع القرآن وهناك قلوب لا تتحرك ولو قُرئ عليها القرآن كله... ولقد وصفهم الحق بقوله: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾.

۞ **قال ابن مسعود رضي الله عنه:** اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخَلْوَة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسَل الله أن يَمُنَّ عليك بقلبٍ فإنه لا قلب لك[٢].

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٤٩٤٥)، (٤٩٤٩) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٦٤٧) كتاب القدر.

(٢) الفوائد للإمام ابن القيم (ص١٥٣).

۞ وتعالوا بنا لنرجع للحديث الذى ورد فى ذلك الباب عن على رضي الله عنه قال:

«كنا فى جنازة ببقيع الغرقد» [المعروف الآن بالمدينة] والغرقد نوع من الشجر معروف ... وسُمِّى بقيع الغرقد لكثرة وجود هذا النوع من الشجر به وكان مدفن أهل المدينة، وقد قال النبى ﷺ: «**اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد**» قالها ثلاثًا... فكانوا فى جنازة فجاء النبى ﷺ فقعد وقعد الناس حوله؛ لأن كل الناس يحبون أن يكونوا جُلساء للنبى ﷺ ... جلسوا حوله وفى يده مخصرة، يعنى عود، فنكس رأسه وجعل ينكت بالعود كالمهموم ﷺ ثم قال: «**ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**» كل إنسان من بنى آدم مكتوب مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة، ومقعده من النار إن كان من أهل النار، وذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من السعداء - لما قال هذا الكلام قالوا: يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟! يعنى ما دام الأمر مكتوبًا فما الحاجة للعمل؟! فقال: لا تَدَعوا العمل، فالجنة لا تأتى إلا بعمل، والنار لا تأتى إلا بعمل، فلا يدخل النار إلا مَن عمل بعمل أهل النار، ولا يدخل الجنة إلا مَن عمل بعمل أهل الجنة... قال: «**اعملوا؛ فكُلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له**» أما أهل السعادة فيُيسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسرون لعمل أهل الشقاوة... ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

فأنت يا أخى إذا رأيت الله قد يسَّر لك عمل أهل السعادة فأبشر أنك من أهل السعادة... وإذا رأيت نفسك أنك تنقاد للصلاة، وللزكاة، ولفعل الخير، وعندك تقوى من الله عز وجل فاعلم واستبشر أنك من أهل السعادة؛ لأن الله قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

وإن رأيت العكس بأن رأيت نفسك تنشرح بفعل السيئات - والعياذ بالله - وتضيق ذَرعًا بفعل الطاعات فاحذر، وأنقذ نفسك، وتُب إلى الله عَزَّوَجَلَّ حتى ييسر الله لك، واعلم أنك إذا أقبلت على الله أقبل الله عليك حتى وإن كنت قد أذنبت، مهما أذنبت فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ وعلى هذا فإذا جاء الإنسان إلى المقبرة وجلس الناس حوله فهنا يَحسُن أن يَعظهم بما يناسب، بمثل هذا الحديث(١).

۞ وانظر وتأمل هنا.. كيف كانت موعظة النبي ﷺ موعظة يسيرة قليلة لا يوجد فيها كلامٌ كثير... لأن المجال ليس مجال خطبة طويلة ليقف الواحد ويُظهر للناس أنه يعرف الكلام عند المقابر، لا .. بل المقام مقام تذكرة يكفي فيها الكلام القليل... وفي حديث البراء بن عازب أطال ﷺ في ذكر شيء من أمر الآخرة، ومع ذلك كل الحديث لا يأخذ خمس أو سبع دقائق عند روايته عنه ﷺ... وفي هذا درسٌ لبعض إخواننا الذين يُطيلون الموعظة عند القبر حتى يضجر الناس وينفروا من موعظته.

إذاً: فالموقف عند القبر موقف موعظة وتذكُّر فقط وليس موقفًا لكثرة الكلام الذي قد يكون مُملًّا أحيانًا... ولذلك ورد عنه ﷺ أنه قال في مثل هذا الموقف: «**ادعوا لأخيكم وسَلُوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل**».

۞ فالنبي ﷺ قعد على الأرض وقعد الصحابة حوله ومعه مِخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم وعظهم موعظة قصير جدًّا لأن النبي ﷺ قد أُوتي جوامع الكَلِم.

هذه هي الموعظة عند القبر... أما أن يقوم القائم عند القبر يتكلم كأنه يخطب فهذا لم يكن من هدي الرسول ﷺ .... ليس من هدي الرسول ﷺ أن

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٧٠-٧١) بتصرف.

الإنسان يقف بين الناس يتكلم كأنه يخطب، هذا ليس من السُّنة... بل السُّنة أن تفعل كما فعل الرسول ﷺ فقط... فإذا كان الناس جُلوسًا ولم يُدفَن الميت فاجلس في انتظار دفنه وتحدث حديث المجالس ... حديثًا عاديًا.

فالمواعظ هادئة يكون الإنسان فيها جالسًا ويبدو عليه أثر الحزن والتفكُّر وما أشبه ذلك ... وليست الموعظة صراخًا وكأنه ينذر الجيش يقول صبَّحكم ومسَّاكم ... لكن فضل الله يُؤتيه مَن يشاء ... فبعض الناس يفهم شيئًا من النصوص فهمًا غير مرادٍ بها... والله يهدى مَن يشاء إلى صراط مستقيم.



(١٦١) باب الدعاء للميت بعد دفنه والقعود عند قبره ساعة للدعاء له والاستغفار والقراءة

(٩٥٣) عن أبي عمرو - وقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو لَيْلى - عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه قال: كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا فَرَغَ مِن دفن الميِّتِ وقفَ عليه، وقال: «استغفِرُوا لأخِيكُم وسَلُوا لهُ التَّثْبيتَ فإنَّهُ الآن يُسأَلُ»[(١)].

(٩٥٤) وعنْ عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: إذا دَفنتمُوني، فأقيموا حَوْل قبري قَدرَ ما تُنحَر جَزُورٌ، ويُقَسَّمُ لحمُها حتى أسْتأنِسَ بكم، وأعلم ماذا أُراجِعُ بهِ رُسُلَ ربِّي[(٢)]... وقد سبق بطوله.

۞ فمن المعلوم أن الميت إذا دُفن ووُضع في قبره فإنه يأتيه ملكان يسألانه: مَن ربك؟ وما دينك؟ ومَن نبيك؟ وأنه في تلك الحالة لا يُثبته إلا الله سبحانه وتعالى ... فلا يستطيع أن يجيب على تلك الأسئلة اليسيرة ولو كان حاصلًا على أعلى رسائل الدكتوراة إلا إذا جاءه التثبيت من عند الله.

قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه .. يعني عنده وقال: «استغفروا لأخيكم وسَلُوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» فيُسَن للإنسان - إذا فرغ الناس من دفن الميت - أن يقف عنده ويقول: «اللهم اغفر له» ثلاث مرات، «اللهم ثبِّته» ثلاثًا؛ لأن النبي ﷺ كان غالب أحيانه إذا دعا دعا ثلاثًا، ثم ينصرف

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٩٤٥).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

ولا يجلس بعد ذلك لا للذكر ولا للقراءة ولا للاستغفار.

هكذا جاءت به السُّنة... أما ما ذكره رَحِمَهُ اللهُ عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه أمر أهله أن يقيموا عنده إذا دفنوه قدر ما تُنحَر جَزور -ناقة- قال: لعلِّى أستأنس بكم وأنظر ماذا أُراجع به رسل ربى: يعنى الملائكة. فهذا اجتهادٌ منه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لكنه اجتهاد لا نوافقه عليه؛ لأن هدى النبى ﷺ أكمل من هدى غيره..ولم يكن النبى ﷺ يقف أو يجلس عند القبر بعد الدفن قدر ما تُنحَر الجَزور ويُقسم لحمها؛ ولم يأمر أصحابه بذلك... غاية ما هنالك أنه أمرهم أن يقفوا على القبر ويستغفروا لصاحبه ويسألوا له التثبيت فقط، هذا هو السُّنة، ثم ينصرف الناس... وأما القراءة عند القبر فالأصح أنها مكروهة، وأنه يُكره للإنسان أن يذهب إلى القبر ثم يقف أو يجلس عنده ويقرأ؛ لأن هذا من البدع، وقد قال النبى ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**» وأقل أحوالها أن تكون مكروهة.

۞ وكذلك لا يجوز أن نأتى بمجموعة من القُرَّاء لقراءة القرآن عند قبر الميت.. أو أن نستأجر سُرادقًا للعزاء ونأتى بالقُرَّاء لقراءة القرآن ونُعطيهم آلاف الجنيهات التى لن ينتفع بها الميت.. وهذه الأموال الطائلة لو تصدقنا بها عن الميت لكان أَولَى... ولعلَّ أولاد هذا الميت أحوج ما يكونون لهذا المال الذى يُنفَق على أصحاب البدع هؤلاء... إذًا .. فهذا إنفاق على بدعة ومعصية، وليس على طاعة لله تبارك وتعالى، وهذا تفريط فى حق أهل الميت وورثته الذين لعلهم يحتاجون إلى هذه الأموال.

۞ **وأما قول الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ فى كتاب رياض الصالحين: قال الشَّافعىُّ رَحِمَهُ اللهُ: ويُسْتَحبُّ أن يُقرأ عِنْدَه شيءٌ مِن القرآنِ، وإن خَتَمُوا القُرآن عِنْدَهُ كان حسنًا.**

فقد قال الشيخ الألبانى مُعلقًا على ما عزاه الإمام النووى للإمام الشافعى من قراءة القرآن عند القبر لمن مات: «لا أدرى أين قال ذلك الشافعى رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى،

وفى ثبوته عنه شَكٌّ كبير عندى، كيف لا ومذهبه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، كما نقله عنه الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى عدم ثبوت ذلك عن الإمام الشافعي بقوله في «الاقتضاء»: «لا يُحفَظ عن الشافعي نفسه في هذه المسألة كلام، وذلك لأن ذلك كان عنده بدعة. وقال مالك: ما علمنا أحدًا فعل ذلك. فعُلم أن الصحابة والتابعين ما كانوا يفعلون ذلك».

قلت: وذلك هو مذهب أحمد أيضًا: أن لا قراءة على القبر. كما أثبته في كتاب «أحكام الجنائز» (ص١٩٢-١٩٣). وهو ما انتهى إليه رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما حققته في الكتاب المذكور (ص١٧٣-١٧٦).اهـ.

۞ ولا بُد أيضًا أن نقول أنه ليس من السُّنة أن يقف رجل بعد الدفن ويبدأ فى تلقين الميت ويقول له: إذا جاءك الملكان فسألاك: مَن ربك؟ فقل: ربى الله... فهذا كله ليس من السُّنة لأن الحديث الوارد فى مسألة التلقين لا يصح. وإنما يكون التلقين عند الموت وليس بعد الدفن.

۞ أما السُّنة بعد الدفن أن يقف المشيعون يستغفرون للميت ويسألون له التثبيت...«كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «**استغفروا لأخيكم، وسَلُوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل**»[1].

- ومن المعلوم أن دعاء المُشيعين للميت لا يكون جماعيًا ولا بأن يقوم أحدهم فيدعو والناس يُؤمِّنون خلفه وإنما يكون بصورته الصحيحة الواردة فى السُّنة وذلك بأن يدعو كل واحدٍ للميت بمفرده بصوتٍ منخفض[2].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٢٢١) كتاب الجنائز، والحاكم، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٩٤٥).

(٢) موسوعة أحكام الجنائز (ص ٢٩٨-٢٩٩) / د. محمود المصرى (أبو عمار).

(١٦٢) باب الصدقة عن الميت والدعاء له

۞ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

(٩٥٥) وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ رجُلًا قال للنَّبِيِّ ﷺ: إنَّ أُمِّي افتُلِتَتْ نَفْسُهَا وأُرَاها لو تكَلَّمَتْ، تَصَدَّقَتْ، فهَل لهَا مِن أجْرٍ إن تصَدَّقْتُ عنها؟ قال: «نَعَمْ»(١).

(٩٥٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسُول الله ﷺ قال: «إذا ماتَ الإنسَانُ انقطَعَ عمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدقةٍ جاريَةٍ، أوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أوْ وَلَدٍ صَالحٍ يَدعُو له»(٢).

۞ أما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الصنفين السابقين وهم المهاجرون والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم؛ لأن هذه الأمة ثلاثة أقسام: مهاجرون، وأنصار، ومَن جاءوا من بعدهم... وقد جمع الله ذلك في آيتين في القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وكذلك في سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

أي يدعون لهم قائلين: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان ... قال أبو السعود: وصفوهم بالسَّبق بالإيمان اعترافًا بفضلهم، لأن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٨٨) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٠٤) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

أُخوة الدين عندهم أعزُّ وأشرف من النسب[(١)] ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ولا تجعل في قلوبنا بُغضًا وحسدًا لأحدٍ من المؤمنين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أي مُبالغ في الرأفة والرحمة فاستجب دعاءنا.

قال شيخ زاده: بيَّن تعالى أن مِن شأن مَن جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء، فمَن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجًا عن جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات... وقد رُوي عن الشعبي أنه قال: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سُئلت اليهود: مَن خير أهل ملتكم؟ فقالوا أصحاب موسى وسُئلت النصارى فقالوا: أصحاب عيسى، وسُئلت الرافضة مَن شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد ﷺ أُمروا بالاستغفار لهم فسبُّوهم...فالسيف عليهم مسلولٌ إلى يوم القيامة[(٢)].

۞ فإذا رأيت الرجل يحب أصحاب الرسول ﷺ ويُثنى عليهم ويستغفر لهم ويترحم عليهم فاعلم أنه على خير وأنه سوف يُحشر معهم -إن شاء الله- فالمرء مع مَن أحب.

وإذا رأيت الرجل لا يحبهم ولا يترحم عليهم ولا يستغفر لهم بل يَسُبهم ويقدح فيهم فاعلم أنه على شرٍّ وأنهم بريئون منه وهو بريءٌ منهم وليس له حظٌّ فى صُحبتهم يوم القيامة ... وذلك لأن الطعن فى الصحابة هو طعن فى مُعلمهم الأكبر - رسول الله ﷺ- والطعن فى النبى ﷺ طعنٌ فى الشريعة.. وذلك لأن الصحابة هم الذين نقلوا الكتاب والسُّنة للأمة..

كما أن النبى ﷺ نقل للصحابة تلك الشريعة بوحيٍ من الله عَزَّوَجَلَّ عن طريق أمير الأنبياء وأمين الوحى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) تفسير أبى السعود (٥/ ١٥٢).

(٢) حاشية زاده على البيضاوى (٣/ ٤٧٧).

۞ وأما حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رجلًا قال للنبى ﷺ: إن أمى افتُلتت نفسُها -يعنى ماتت- ولو تكلمت لتصدقت فهل لها من أجرٍ إن تصدقت عنها؟ قال: «**نعم**» ... فهذا دليلٌ صريح وصحيح فى جواز الصدقة عن الميت وذلك بأن تُخرج صدقة وتنوى بها أنك تتصدق عن أمك أو أبيك أو أختك أو أخيك أو عن أى مسلمٍ ميتٍ فإن ذلك ينفعه ويصل إليه نَفْعُها بفضل الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وأما حديث أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «**إذا ماتَ الإنسَانُ انقطَعَ عمَلُهُ**» وذلك لأن الدنيا هى دار العمل وهى مزرعة الآخرة وما تغرسه هنا تجده هناك ... فليس هناك عملٌ بعد الموت ولكن هناك الأجر والثواب للعمل الذى تركت أثره ينتفع به الناس من بعدك.

«**إذا ماتَ الإنسَانُ انقطَعَ عمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدقةٍ جاريَةٍ**» وذلك بأن يشارك هو بنفسه قبل أن يموت فى بناء مسجد أو وقف عقارٍ للفقراء أو بناء مستشفى أو بناء دار أيتام... وإلا فقد أسلفنا أنه يجوز أن يتصدق عنه بعد موته أى أحدٍ من أقاربه أو حتى أى أحدٍ من المسلمين.. لكن المقصود هنا فى هذا الحديث ما قدَّمه هو بنفسه لنفسه.

«**أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ**» وهذا هو أعظم ما ينتفع به الميت بعد موته... وذلك لأن الصدقة الجارية قد تتعثر بسقوط البيت الذى أوقفه أو بهدم المسجد أو غير ذلك.. وأما الولد الصالح الذى يدعو له فقد يموت بعد فترة قصيرة أو طويلة.. ولا يبقى إلا العلم الذى يُنتفع به بعد موته.. وها نحن ننتفع بالأحاديث التى نقلها أبو هريرة وابن عمر وابن عمرو وأنس بن مالك وابن عباس وغيرهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وذلك بعد مئات السنين من موتهم فنترحَّم عليهم ونستغفر لهم.

وها هو الإمام البخارى ومسلم ومالك وابن تيمية وابن القيم وابن حجر وابن كثير وغيرهم (رحمهم الله) ما زلنا حتى الآن ننتفع بعلمهم وندعو لهم ونستغفر لهم.

قال على ﵁: العلم خيرٌ من المال.. فالعلم يحرسك وأنت تحرس المال.

ونحن نعلم أنه كان هناك أثرياء يعيشون فى عهد الإمام البخارى ومسلم فهل نعرف واحدًا منهم؟ كلا.. لكننا نعرف الإمام البخارى ومسلم وسائر الأئمة.. وذلك لأن العلم يُخلد ذِكر صاحبه والمال لا يُخلد ذِكر صاحبه.

وانظر مثلًا إلى هذا الكتاب الذى نشرحه، كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووى ﵀، فقد عاش سنة (٦٣١) هجرية ﵁، ومرت ثمانمائة سنة على وفاة الإمام النووى ﵀، وكتابه لا يزال يُدرَّس ويُقرأ ويُحفظ، وهذا يشرحه وهذا يهذبه وهذا يزيد عليه، وهذا يصحح أحاديث ويضعف غيرها...

فيا ترى كم أخذ مؤلفه من الحسنات (رحمة الله عليه)... وهذا واحد من بعض كتبه ﵀ فقد كتب فى الآداب والأخلاق والسلوك وغيرها، وله كتاب (المجموع) ﵀، وهو كتاب عظيم فى الفقه الشافعى، بل يُعتبر من أمهات الكتب فى الفقه المقارن أيضًا... فهو كتابٌ عظيم يبلغ عشرين مجلدًا بعدما أكمله الشيخ المطيعى وغيره... وهذه كتب عظيمة انتفع بها المسلمون وما زال يُنتفع بها حتى الآن وإلى ما يشاء الله (سبحانه وتعالى).

وكذلك كتابه (روضة الطالبين) فهو كتابٌ كامل فى الفقه الشافعى، ذكر فيه الأقوال للإمام الشافعى والوجوه للأصحاب... وكتابه (تهذيب الأسماء واللغات) فهو كتابٌ عظيم فى اللغة... وكتابه (شرح صحيح الإمام مسلم) وغير ذلك من كتبه العظيمة النافعة.

فهذا إمام من الأئمة ... وما أكثرهم (رحمة الله عليهم)، فقد تركوا لنا ذخيرة عظيمة لا يزال يُنتفع بها إلى ما يشاء الله، وعلى قدر إخلاص أصحابها على قدر ما يُنتفع بها.

۞ بل هؤلاء أصحاب الرسول ﷺ الذين لم يؤلف أحدهم كتابًا واحدًا ولكنهم نقلوا للأمة القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ.. فكم تُلى القرآن الكريم..

فلمن نقله منهم أجر كل مَن قرأ حرفًا واحدًا إلى يوم القيامة.. فكم لهم من مليارات مليارات الحسنات؟.. وكم لهم من الأجر على نقل أحاديث النبى ﷺ التى تعلمت الأمة من خلالها ومن خلال القرآن كيف تعبد الله وتُوحده سبحانه وتعالى.

۞ ولاحظ هنا أن النبى ﷺ قال: «**أو علم يُنتفع به**» إذًا ... فهناك فرقٌ بين علم يُنتفع به وعلم لا يُنتفع به.... فإذا كان هذا العلم كلامًا فارغًا أو كلامًا من أهواء الناس، أو مناقشات ومجادلات سفسطائية وتضييعًا للوقت وإشغالًا لأذهان الناس، فهذا كله لا يُنتفع به، فلا يُؤجر عليه، بل إنه ضيَّع عمره هدرًا... وفى الآخرة لا شىء له... فالنبى ﷺ قيَّد العلم هنا بأن يكون علمًا يُنتفع به.

۞ **قوله** ﷺ: «**أو ولدٍ صالح يدعو له**»، يعنى: عندما يكون لك ولد صالح ويعيش بعدك فإنه سيدعو لك... فقيَّد الولد بالصلاح؛ لأن الولد غير الصالح لا يدعو لك، وإن دعا فلن تنتفع بدعائه، ولكن انتفاعك يكون بالولد الصالح، الذى تُربيه على كتاب الله وعلى سُنة النبى ﷺ، فهو الذى يدعو لك بعد وفاتك.

والمقصود بالولد هنا هو الأبناء والأحفاد.. وأنك لا تنتفع بدعائهم لك فحسب.. بل تنتفع بطاعتهم وعبادتهم لله عَزَّوَجَلَّ ... فكلما صلى أحدهم أو صام أو حَجَّ أو قرأ القرآن أو فعل أى طاعة فسوف تُؤجَر عليها وأنت فى قبرك وسيظل كتابك مفتوحًا ما دُمت أنت الذى ربَّاهم على الطاعة .. وبذلك تكون أنت المُتسبب فى طاعتهم لله.. والفائز فى نفس الوقت بطاعتهم لله عَزَّوَجَلَّ ..

وهذا يجعلنا نحرص كل الحرص على تربية أولادنا تربية صالحة لأن صلاحهم يعود بالنفع علينا فى دُنيانا بالبر.. وبعد موتنا بالدعاء والاستغفار لنا وفعل الخيرات والصدقات ليكون ذلك فى ميزان حسناتنا.



(١٦٣) باب ثناء الناس على الميت

(٩٥٧) عن أنس ﷺ قال: مَرُّوا بجنَازَةٍ، فأثْنَوا علَيْها خَيرًا، فقال النَّبيُّ ﷺ: «وجَبَتْ» ثم مَرُّوا بأُخْرَى، فأثْنَوا عليها شَرًّا، فقال النَّبيُّ ﷺ: «وَجَبَتْ» فقال عُمر بن الخطاب ﷺ: ما وَجبتْ؟ قال: «هذا أثْنَيْتُم عليهِ خيرًا، فوَجَبتْ لهُ الجنَّةُ، وهذا أثْنَيْتُم عليه شَرًّا فوجَبَتْ له النَّارُ، أنتُم شُهداءُ الله في الأرضِ»[١].

(٩٥٨) وعن أبي الأسود قال: قَدِمْتُ المدينةَ، فجَلَسْتُ إلى عمر بن الخطاب ﷺ فمرَّتْ بهم جنازَةٌ، فأُثني على صاحِبِها خيرًا فقال عمر: وجبت، ثم مُرَّ بأخرى، فأُثْنِيَ على صاحِبها خيرًا، فقال عمر: وجَبَتْ، ثم مُرَّ بالثالثةِ، فأُثْنِيَ على صاحبها شرًّا، فقال عمر: وجَبَتْ، قال أبو الأسودِ: فقُلْتُ: وما وَجَبَتْ يا أمير المؤمنين؟ قال: قُلتُ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «أيُّمَا مُسلِم شَهِدَ لهُ أربعةٌ بخَير، أدخَلَهُ الله الجنَّة» فقلنا: وثلاثةٌ؟ قال: «وثلاثةٌ» فقلنا: واثنانِ؟ قال: «واثنانِ» ثم لم نسألْهُ عن الواحِد[٢].

۞ إن عباد الله الصالحين شُهداء الله في الأرض، يَقبل الله ﷻ شهادتهم، فإذا شهدوا لإنسانٍ بالخير أوجب الله له الجنة، وإذا شهدوا له بالشر أوجب له النار... فأهل القرآن والعاكفين على تعلُّمه العاملين به من أول مَن يُثنى عليهم الناس، وكذا مَن عُرف بخيرٍ ما بين الناس، ومَن رضى عنه الله أرضى عنه الناس.

والمقصد من ذلك أن الإنسان المؤمن يتعامل مع الخلق جميعهم بحُسن الخُلق، ويطيع الله ﷻ فيهم، فإذا فعل ذلك كانوا شهداءً له عند وفاته... فإنه لن يَعدِم مَن يشكره، ويُثنى عليه، ويدعو له بخير، فيكون شهيدًا له عند الله ﷻ، ويقبل الله شهادته له.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٩) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٣٦٨) كتاب الجنائز.

ففى حديث أنس أن النبى ﷺ مَرُّوا بجنازة فى مجلسه فأثنوا على صاحبها خيرًا فقال: «وجبت» ثم مروا بجنازة أخرى فأثنوا عليها شرًّا فقال النبى ﷺ: «وجبت» فقال عمر بن الخطاب: ما وجبت يا رسول الله؟ قال: «**أثنيتم على الأول خيرًا فوجبت له الجنة، وأثنيتم على الثانى شرًّا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض**» والثانى كأنه - والله أعلم - من المنافقين.

والمنافقون فى عهد الرسول ﷺ موجودون فى المدينة بكثرة، يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر - والعياذ بالله - والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار إلا مَن تاب... وفى هذا دليل على أن المسلمين إذا أثنوا على الميت خيرًا دَلَّ ذلك على أنه من أهل الجنة فوجبت له الجنة، وإذا أثنوا عليه شرًّا دَلَّ ذلك على أنه من أهل النار فوجبت له النار، ولا فرق فى هذا بين أن تكون الشهادة فى عهد النبى ﷺ أو بعده، لأن حديث أبى الأسود مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بعد النبى ﷺ، وقد تنازل النبى ﷺ إلى أن ذكر مَن شهد له اثنان بخير كان من أهل الجنة.

۞ وقوله: (شهد له أربعة) إذًا ليس شرطًا أن يُثنى عليه بالخير كل الناس... فربما لا يعرفه إلا القليل، ولكن القليلين الذين يعرفونه يعرفون خيرية هذا الإنسان، وأنه بعيد عن المعاصى، وربما أنه كان يُخفى عمله فلا يطلع عليه كثير من الناس، فكان من كرم الله سبحانه أن جعل الشهادة التى يدخل بسببها الإنسان الجنة من أربعة أو ثلاثة أو اثنين.

ومن عقيدة أهل السُّنة والجماعة أننا لا نشهد لأحدٍ بجنة أو نار إلا مَن يشهد له النبى ﷺ ... فنشهد لمن شهد له الرسول ﷺ بالجنة ونشهد بالنار لمن شهد له بالنار... فمثال مَن شهد له بالجنة الخلفاء الأربعة (أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلىّ) وكذلك بقية العشرة المبشرين بالجنة... فإن النبى ﷺ قال: «**أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلىّ فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى**

الجنة، وسعيد بن زيد فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة، والزبير بن العوام فى الجنة»(١).

هؤلاء عشرة جعلهم النبى ﷺ جميعًا من أهل الجنة...وعكاشة بن محصن لما أخبر النبى ﷺ: «**أنه يدخل من هذه الأمة سبعون ألفًا بلا حساب أو عذاب**» قال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى منهم. قال: «**أنت منهم**» فقال آخر: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلنى منهم. قال: «**سبقك بها عُكَّاشة**»(٢).

وثابت بن قيس رضي الله عنه كان جهورى الصوت، فلما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ خاف رضي الله عنه وبقى فى بيته محبوسًا يبكى يخشى أن يكون قد حبط عمله؛ لأنه جهورى الصوت، ففقده النبى ﷺ فأرسل إليه، فأخبره الخبر، فقال: «**بل تعيش حميدًا وتُقتل شهيدًا وتدخل الجنة**»(٣).

فكل مَن شهد له النبى ﷺ بالجنة نشهد له، ومَن شهد له بالنار فإننا نشهد له بالنار... وقد شهد النبى ﷺ لجماعة بالنار.

وكذلك فى القرآن، قال الله تعالى فى أبى لهب وهو عم النبى ﷺ: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾.

وأخبر ﷺ أن عمه أبا طالب فى ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلى منهما دماغه - والعياذ بالله - وجاءه رجل فقال: يا رسول الله أين أبى؟ فقال: «**أبوك فى النار**». وأخبر: «**أن عمرو ابن لُحى الخُزاعى يجر قسطه فى النار**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكذلك مَن أجمعت الأمة على الثناء عليه فإننا

---

(١) **صحيح:** رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠).

(٢) **متفق عليه:** رواه البخارى (٥٧٠٥) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٠) كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٦١)، والرويانى (١٠٠٢)، وابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (٣٣٩٩)، والجهاد (٢٢٥)، والطبرانى فى الكبير (٢/ ٧٠).

نشهد له بالجنة ... فمثلًا الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ والشافعى، وأبو حنيفة، ومالك، وسفيان الثورى، وسفيان بن عيينة، وغيرهم من الأئمة أجمعت الأمة على الثناء عليهم، فنشهد لهم بأنهم من أهل الجنة ... وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أجمع الناس بالثناء عليه إلا مَن شَذَّ، ومن شَذَّ شَذَّ فى النار.

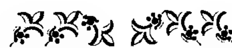
يشهد ويؤيد هذا الرأىَ حديثُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى رواه البخارى أن الرسول ﷺ أخبر أنَّ مَن شهد له أربعة أو ثلاثة أو اثنان بصلاحه فإنه يكون من أهل الجنة.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة[(١)].

۞ وجاء فى حديثٍ آخر بيَّن النبى ﷺ فيه أن الملائكة تنطق على لسان هذا الإنسان... وكأن الله يبعث ملائكة تجعلك تنطق بذلك فتقول: فلان كان رجلًا صالحًا، وكان فيه كذا.. ويُذكرك الله عَزَّ وَجَلَّ بإحسان هذا الإنسان إليك وإلى الناس يومًا من الأيام، فتُثنى عليه خيرًا، ويمكن أن يكون هذا المُتوفَّى قد نسيته وفجأة تذكر وتقول: أنه فى يوم من الأيام أسلفنى مالاً، وفعل بى كذا.

والذى ذكَّرك بذلك هو الله سبحانه وتعالى؛ لتُثنى عليه، فيقبل الله عَزَّ وَجَلَّ منك ثناءك عليه وشهادتك له، فيكون لهذا الإنسان الجنة.

والله عَزَّ وَجَلَّ يقبل هذه الشهادة، ويستر على العبد ما وقع فيه من آثام، ويغفر له، ويقبل شهادة الناس فيه، ويجعل لهذا الإنسان الجنة.



(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٧٥-٧٦) بتصرف.

(١٦٤) باب فضل مَن مات له أولادٌ صِغار

۞ فموت الولد مصيبة كبيرة فى حياة الوالدين، وجُرحٌ لا يزال ينزف ما دامت أرواحهم فى أجسادهم.. ولكن إذا صبروا واحتسبوا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يجزل لهم الأجر والمثوبة.

۞ ففى عهد النبى ﷺ كَانَ رجُلٌ يأْتِى النَّبِى ﷺ وَمَعَهُ ابْنٌ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: النَّبِى ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ؟**» فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَحَبَّكَ اللهُ كَمَا أُحِبُّهُ .. فَفَقَدَهُ النَّبِى ﷺ، فَقَالَ: «**مَا فَعَلَ ابْنُ فُلَانٍ؟**» قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، مَاتَ، فَقَالَ النَّبِى ﷺ لِأَبِيهِ: «**أَمَا تُحِبُّ أَنْ لا تَأْتِى بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، إِلَّا وَجدتَهُ يَنْتَظِرُكَ؟**» قَالَ: بَلَى. قَال ﷺ: «**فَذَلِكَ لَكَ**»فَقَالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللهِ، أَلَهُ خَاصَّةً أَمْ لِكُلِّنَا؟ قَالَ: «**بَلْ لِكُلِّكُمْ**»(١).

وقال ﷺ: « **مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَمُوتُ لَهُمَا ثَلاَثَةُ أَوْلاَدٍ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلاَّ أَدخَلَهُمَا الله بِفَضْلِ رَحمَتِهِ إِيَّاهُمُ الجَنَّةَ يُقَالُ لَهُم: ادخُلُوا الجَنَّةَ فَيَقُولونَ: حَتَّى يَدخُلَ أَبَوَانَا فَيُقَالُ: ادخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَبَوَاكُمْ** »(٢).

وعن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربى ابنٌ كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن ولقّنه من الفقه جانبًا كبيرًا؛قال: فمات. فجئت أُعزيه فقال: كنت أشتهى موت ابنى هذا. قال: قلت له: يا أبا إسحاق أنت عالِم الدنيا تقول مثل هذا فى صبىٍّ قد أنجب، ولقّنته الحديث والفقه؟ قال: نعم. رأيت فى منامى كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قِلال فيها ماءٌ، يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يومًا حارًّا شديدًا حرُّه قال: فقلت لأحدهم: اسقنى من هذا الماء، قال: فنظر إلىَّ. وقال: ليس أنت أبى، قلت: فأى شىء أنتم؟ قال:

---

(١) صحيح: رواه النسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٦٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٨٠).

فقال لى: نحن الصبيان الذين مُتنا فى دار الدنيا وخلَّفنا آباءنا، فنستقبلهم فنسقيهم الماء؛ قال: فلهذا تمنيت موته.

والمقصود أن هذا المقام مقامٌ عظيم شريف لمن يطلب المصيبة ويفرح بها نظرًا إلى ثوابها.

وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولدُ العبد؛ قال الله تعالى لملائكته: قبضتُم ولد عبدى؟**

فيقولون: نعم. فيقولُ: قبضتُم ثمرة فؤاده؟

فيقولون: نعم: فيقول: فماذا قال عبدى؟ -وهو أعلم سبحانه وتعالى-.

فيقولون: حَمِدك واسترجع (أى قال: الحمد لله إنَّا لله وإنا إليه راجعون).

فيقول الله تعالى: ابنُوا لعبدى بيتًا فى الجنة وسَمُّوهُ بيتَ الحمد»[1].

❁ **وفى هذا الباب أورد المصنف رحمه الله ثلاثة أحاديث:**

(٩٥٩) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَا مِن مُسلمٍ يمُوتُ له ثلاثةٌ لم يَبلُغُوا الحِنْثَ إلا أدخَلَهُ الله الجنَّةَ بفَضْلِ رحمَتِهِ إيَّاهُمْ»[2].

❁ ففى هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**مَا مِن مُسلمٍ يمُوتُ له ثلاثةٌ لم يَبلُغُوا الحِنْثَ**» أى: لم يبلغ أى واحدٍ منهم أن تُكتب عليه الذنوب والأوزار لأنهم لم يبلغوا سن التكليف «**إلا أدخَلَهُ الله الجنَّةَ بفَضْلِ رحمَتِهِ إيَّاهُمْ**».

فالولد أحب ما يكون إلى أبيه وإلى أمه وهو صغير لم يبلغ أن يؤذيهما أو يعصيهما ويَعُقهما، فإذا تُوفى يكون الألم شديدًا فى قلب الأب وقلب الأم...

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥).
(٢) صحيح: رواه البخارى (١٣٨١) كتاب الجنائز، ولم يُخرجه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه.

فالله عَزَّوَجَلَّ يُعوضهما بفضله (سبحانه وتعالى) الصبر، ويُنزل المعونة على قدر المئونة، ويُنزل الصبر على قدر البلاء.

والإنسان لا يدرى لو نزلت عليه هذه المصيبة هل سيصبر أو لا؟

فقد يقول: سأصبر وأرضى، ولا يقدر على ذلك... ولعلَّه يقول: لا أستطيع أن أصبر على هذا الشيء؛ فهو شاقٌّ جدًّا... فإذا به ينزل به أشد البلاء وينزل معه الصبر من الله (سبحانه وتعالى) فتراه صابرًا راضيًا عن الله عَزَّوَجَلَّ ...فتعجب للإنسان المؤمن حيث يُثبته الله عَزَّوَجَلَّ ويُقوى قلبه، ويربط عليه، ويجعله ثابتًا حامدًا شاكرًا، ويعوضه بالإيمان فى الدنيا، ويُعوضه بالجنة وبيت الحمد فى الآخرة.

فيرحم الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء ويرحم الآباء الذين صبروا على ذلك.



(٩٦٠) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَموتُ لأحدٍ مِن المسلمينَ ثلاثةٌ مِن الوَلَدِ لا تَمسُّهُ النَّارُ إلا تَحلَّةَ القَسَم»[1].

❁ **والقَسَم هو قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾** [مريم:٧١] فهذا قضاء لا بد وأن يكون.. وكل إنسان لا بد أن يَرِد على النار.

والورود هو المرور فوق الجسر المضروب على جهنم -الصراط-.. فكل إنسان لا بد وأن يمر عليه... فمن الناس مَن يمر سريعًا، ومنهم مَن يُبطئ به عمله، ومنهم مَن يهوى فى النار - والعياذ بالله-.

والإنسان الذى تُوفى له ثلاثة من الولد يرحمه الله عَزَّوَجَلَّ فلا يعانى ولا يقاسى فى المرور على الصراط إلا تَحِلَّة القَسَم.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٢٥١) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٦٣٢) كتاب البر والصلة.

«وتَحِلَّةُ القسَم» قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ والوُرُود: هو العُبُورُ على الصِّراطِ، وهُو جِسْرٌ منصُوبٌ على ظَهْرِ جَهَنَّمَ. عافانا الله منها.

وتَحِلَّةُ القَسَم هنا أن يمر على الصراط ولا يدخل النار، بفضل الله سبحانه وتعالى ... وهذا إذا صبر على أمر الله سبحانه وتعالى.

والصابر له الفضل وله الأجر العظيم عند الله سبحانه وتعالى ... والذى لا يرضى بقضاء الله وقدره ليس له حيلة، فلن يدفع قضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، ولذلك قالوا: إما أن تصبر صبر الكرام وإما أن تَسلو سَلو البهائم.

أى: إما أن يكون الإنسان كريم النفس عفيفها، صابرًا لمقادير الله سبحانه وتعالى مُتجلدًا، فسيأتى عليه يوم من الأيام يُسلِّيه فيه ربه عَزَّوَجَلَّ ويُذهب عنه الغم الذى هو فيه.

وإما أن يتسخط فيرفع صوته، ويلطم خدَّه، ويشق ثيابه، ويشد شعره، ويكون مُعترضًا على قضاء ربه سبحانه، ولن يحصل له بذلك عودة ميته، ويظل على ذلك إلى أن يذهب صوته، وتتمزق ثيابه، ويمرض ويتعب ويستحق العذاب يوم القيامة... إذًا فهى مصيبة فى الدنيا ومصيبة فى الآخرة؛ لأنه لم يصبر على قضاء الله وقدره.

وكان العرب فى الجاهلية يضربون المثل برجل كان يُسمَّى حمارًا، فيقولون: أكفر من حمار.

فهذا الرجل مات له أولاد، فتسخط على الله عَزَّوَجَلَّ ، وأظهر الاعتراض على الله عَزَّوَجَلَّ ، بل أظهر أشد ما يكون من الاعتراضات، ولم يزل على ذلك حتى أخذه الله بصاعقة صعقته فقتله (سبحانه وتعالى).

فلم يصبر ولم يكسب من الدنيا شيئًا إلا الخزى والعار.

وهذا جزاء الإنسان الذى يكفر بربه سبحانه، ويعترض على قضاء الله سبحانه وتعالى فيما حدث لأولاده[1].

---

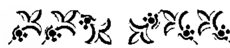
(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين للشيخ أحمد حطيبة.

(٩٦١) وعن أبى سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاءت امرأةٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقالتْ: يا رسُولَ الله ذَهَبَ الرِّجالُ بحديثِكَ، فاجْعَلْ لنَا مِن نَفْسِكَ يَومًا نأتيكَ فيهِ تُعَلِّمُنا مِمَّا عَلَّمَكَ الله. قال: «اجْتَمِعنَ يومَ كذا وكذا» فاجتَمَعنَ، فأتاهُنَّ النبىُّ ﷺ فعَلَّمَهنَّ مِمَّا علَّمهُ الله. ثم قال: «ما مِنْكُنَّ مِنْ امرأةٍ تُقَدِّمُ ثلاثةً مِنَ الوَلَد إلا كانُوا لها حجابًا مِن النَّارِ» فقالت امرأةٌ: واثنينِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنين»[1] .

۞ ففى هذا الحديث أن النساء طلبن من النبى ﷺ أن يجعل لهن يومًا يقبسن فيه من علمه ويتعلمن بين يديه ﷺ.. فجعل النبى ﷺ لهن يومًا وقال لهن: «**اجْتَمعنَ يومَ كذا وكذا**» فاجتَمَعنَ، فأتاهُنَّ النبىُّ ﷺ فعَلَّمَهنَّ مِمَّا علَّمهُ الله عَزَّوَجَلَّ. ثم قال: «**ما مِنْكُنَّ مِنْ امرأةٍ تُقَدِّمُ ثلاثةً مِنَ الوَلَد إلا كانُوا لها حجابًا مِن النَّارِ**». كما قال للرجل: «**ما من مسلم يقدم ...**» فقالت امرأةٌ: واثنينِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**واثنين**» وكأنهن استحيين أن يسألن عن الواحد فلم يسألن.

۞ ولكن يكفى ما يدل على أن مَن قدمت ولدًا واحدًا فإنه يكون لها حجابًا من النار.. ما ورد فى الحديث الذى ذكرناه من قبل أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل ملائكته لقبض ابن عبده المؤمن.. فلما قالوا لله عَزَّوَجَلَّ عن هذا العبد أنه بعد موت ولده حَمِدَ الله واسترجع ... أى قال: الحمد لله إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.. فقال لهم الله (جل وعلا): «**ابْنُوا لَهُ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ**».

فاللهم ارزقنا الصبر والرضا عند البلاء.



(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٠١) كتاب العلم، ومسلم (٢٦٣٣) كتاب البر والصلة.

(١٦٥) باب البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين ومصارعهم وإظهار الافتقار إلى الله تعالى والتحذير من الغفلة عن ذلك

(٩٦٢) عن ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال لأصحابه - يعنى لَمَّا وصَلُوا الحِجْرَ: ديارَ ثَمُودَ -: «لا تَدخُلوا على هؤلاء المُعَذَّبينَ إلا أنْ تَكونُوا باكِينَ، فإنْ لم تكُونُوا باكِين، فلا تدخُلوا عليهم، لا يصيبُكُم ما أصابهُمْ»(١).

وفى روايةٍ قال: لَمَّا مَرَّ رسُولُ الله ﷺ بالحِجْرِ قال: «لا تَدخُلوا مسَاكِنَ الذين ظَلَمُوا أنْفُسَهُم أنْ يُصيبَكُمْ ما أصابَهُمْ إلا أنْ تكونُوا باكينَ» ثم قنَّع رسُولُ الله ﷺ رأسَهُ وأسْرَعَ السَّيْرَ حتَّى أجازَ الوادى.

۞ والمعنى: أن الإنسان المؤمن إذا مرَّ بقبور الظلمة والكفار وبالمشاهد التى يذكرون أنها آثارًا لهم، كآثار الفراعنة، فلا يمر ويفتخر بهؤلاء ويقول: هؤلاء هم آباؤنا وأجدادنا!... إن هذا الذى يفتخر بهؤلاء ويقول: نحن الفراعنة، ونحن أصلنا كذا.

نقول له: إن هؤلاء كفار آذوا رسول الله موسى (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) وأرادوا قتله، وأنكروا بعثته ورسالته، فلا يفتخر بالكافر إلا مَن كان مثله، أو مَن ذهب عقله.

قَالَ ﷺ: «انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ». قَالَ: «فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَن قُل لِهَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ: أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَسِبُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤١٩، ٤٤٢٠) كتاب المغازى، ومسلم (٢٩٨٠) كتاب الزهد والرقائق.

إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ»[(١)].

❁ فالشاهد أن هذا الرجل الذي انتسب إلى تسعة آباءٍ كفار من أهل النار لم يكن كافرًا بل كان مؤمنًا من أتباع موسى عليه السلام لكنه كان في قلبه جاهلية وعصبية...

فقضى الله عز وجل أن الذي يفتخر بالأشرار مثلهم وسيُحشر معهم.

والفراعنة الكفار الذين ملكوا البلاد في يوم من الأيام أين هم الآن؟ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، والعياذ بالله.

فالذي يفتخر بهؤلاء فإنه يفتخر بأهل النار.. وإن لم يَتُب فسوف يُحشر معهم في النار... فلذلك لا يحل لمسلم أن يقول مفتخرًا بالفراعنة الذين بنوا الأهرام حتى يُخلَّدوا ويعيشوا ... فليس له أن يفتخر بهؤلاء... فإذا مَرَّ بقبورهم نظر واتعظ، فيكون المرور للاتعاظ فقد بنوا هذه الآثار العظيمة فهل نفعتهم من الله سبحانه وتعالى شيئًا؟ وهل منعتهم من الموت؟

لقد زعموا أنهم سيُخلَّدون، وزعموا أنهم الآلهة والأرباب لخلق الله، واستخفوا أقوامهم فأطاعهم أقوامهم... فإذا مَرَّ الإنسان بقبورهم وآثارهم اتعظ واعتبر كما قال النبي ﷺ.

❁ وهنا في هذا الباب أورد المصنف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما بمرور النبي ﷺ بالحِجْر - ديار ثمود - وثمود هم قوم صالح الذين أرسل الله إليهم صالحًا (عليه الصلاة والسلام) فذكَّرهم بالله ولكنهم كفروا به فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ثم أخذتهم الصيحة والرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وكان الله

(١) صحيح: رواه النسائي وأحمد والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٩٢).

تعالى قد أعطاهم قدرة وقوة فى نحت الجبال وبناء القصور فى السهول، وأصبحوا أمة قوية، ولكن الله تعالى أخذهم برجفة وصيحة فماتوا عن آخرهم.

فقال ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء المُعذَّبين إلا أن تكونوا باكين».

فالإنسان إذا دخل على أماكن مَن أصابهم العذاب تَذكَّر نقمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء قدير، وأن هؤلاء لما كفروا بالله أهلكهم الله وأتلفهم... وهذا حالهم الآن، فيأمرهم النبى بقوله: «**لا تدخلوا عليهم إلا أن تكونوا باكين**»، أى: فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ... فلا تدخلوا عليهم وأنتم تضحكون وتلعبون، ولا تتخذوا أماكنهم التى أهلكهم الله فيها للهو واللعب؛ بحيث يأتى إليها الناس وهم يُغنون ويرقصون وكأن هذا المكان مكان لهوٍ ولعب... فإذا فعلوا ذلك فكأنهم يسخرون بانتقام الله عَزَّوَجَلَّ من هؤلاء، ويسخرون من الموت... وإذا كان الأمر كذلك استحقوا أن يُصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء، فإن الذى لا يتعظ ولا يعتبر يستحق أن يُبتلى.

قال النبى ﷺ: «لا تدخلوا عليهم؛ لا يصيبكم ما أصابهم» أى: إذا دخلتم فادخلوا وأنتم تعرفون نعمة الله عليكم، وتخافون من بطش الله سبحانه، وإذا لم يكن هذا حالكم فلا تدخلوا حتى لا يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء.

وفى رواية قال ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنَّع رسول الله ﷺ رأسه، وأسرع السير عليه الصلاة والسلام حتى أجاز الوادى).

ومن الحكمة وأنت فى الحج حين تخرج من المزدلفة متوجهًا إلى مِنى أن تمر ببطن محسر مُسرعًا... لأنه المكان الذى أهلك الله عَزَّوَجَلَّ فيه أصحاب الفيل... ولما وصله النبى ﷺ أوضع راحلته، أى: أسرع براحلته حتى جاوز هذا المكان... وصارت سُنة النبى ﷺ المرور فى هذا المكان بسرعة؛ لهذا الغرض

ولهذه العلة.. فإذا مررت تذكرت ذلك، واستحضرت أن هذا المكان مكان نزل فيه العذاب، وليس هناك ما يدعو إلى المُكوث فى هذا المكان بل نُسرع فى هذا المكان، فقد كان شؤمًا على أصحابه حيث نزل عليهم العذاب فى هذا المكان[1].

۞ **وفى رواية أخرى عَنِ ابْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ الرَّسُول ﷺ على تَبُوكَ، نَزَلَ بِهِمُ الْحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُودَ، فَاسْتَسْقَى النَّاسُ مِنَ الْآبَارِ الَّتِى كَانَ تَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا، وَنَصَبُوا الْقُدُورَ بِاللَّحمِ فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَهَرَاقُوا الْقُدُورَ، وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ، ثُمَّ ارتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبِئْرِ الَّتِى كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عُذِّبُوا فقَالَ: «**إِنِّى أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدخُلُوا عَلَيْهِمْ**»[2].

لقد نهى رسولُ الله ﷺ المسلمين عن استعمال الماءِ الذى فى ديار ثمود؛ لأنه ماءُ قومٍ مُعذَّبين، وأَمَرهم بإهراقِ القُدور التى طبخوا فيها بذلك الماء، وإطعام العجين الذى عجنوه بذلك الماء لدوابهم... وهذا النهى للتنزيهِ لا للتحريم، وهذا التصرُّف منه إرشادٌ لهم إلى ما هو أَولَى.

والرسولُ ﷺ يريدُ من المسلمين أنْ تَبقَى قلوبُهم نافرةً من المعَاصِى، وأنْ لا يرضوا نفسيًّا بالقوم المُعذَّبين، ولذلك نهاهم عن الإقامةِ فى ديار القوم المُعذَّبين، وعن الدخول عليهم، حتى لا تهتزَّ نظرتُهم للعُصاة والمعاصى، وحتَّى لا يتأَثَّروا بما كان يفعله المُعذَّبون الهالكون[3].



(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٤٧٠٢) كتاب التفسير-ومسلم (٢٩٨٠) الزهد والرقائق.

(٣) كتاب (قصص الطير والحيوان) / د. محمود المصرى (ص ٨١-٨٢).



(٧) كتاب آداب السفر

(١٦٦) باب استحباب الخروج يوم الخميس واستحبابه أول النهار

۞ نحن نعلم أن الإنسان يحتاج أن يسافر أحيانًا إما من أجل مصلحة دنيوية أو دينية .. فلا بُدَّ للمسافر أن يستحضر النية الصالحة فى سفره وذلك بأن ينوى بسفره أنه يسافر لصلة الرحم أو لزيارة أخٍ فى الله أو للسعى وراء لقمة عيش يُعف بها أهله أو غير ذلك... وأن يحرص على التوبة وردِّ المظالم لأصحابها لأنه ربما يكون سفره الأخير إلى الدار الآخرة..

فالعبد لا يعلم متى يَلقى ربه (جل وعلا)... وألا يسافر إلى معصية وأن يستخير قبل الشروع فى السفر وأن يكتب وصيته وأن يترك لأهله نفقة تكفيهم وأن يتزود بالنفقة الحلال فى سفره وأن يختار الرفيق الصالح وأن يودع الأهل والأقارب وألا ينسى دعاء السفر وأن يدعو فى سفره لأحبابه لأن دعاء المسافر مُستجاب وأن يحرص على أداء الفرائض وأن يتعلم فقه السفر وأن يُعجِّل بالعودة لأهله بمجرد انقضاء حاجته من السفر وأن يُحضر الهدايا لأهله وأحبابه إن استطاع وأن يُخبر أسرته بموعد عودته ولا يأتيهم فجأة حتى لا يرى ما يؤذيه.. فقد تكون زوجته ليست متزينة لاستقباله فيراها على هيئة لا تُرضيه.

۞ وقد علَّمنا النبى ﷺ أدبًا جميلًا فى السفر: ألا وهو أن نسافر يوم الخميس فى الصباح الباكر إن استطعنا.. وإلا فلنا أن نسافر فى أى وقت وبخاصة ونحن نرتبط بمواعيد الطائرات وغيرها من وسائل السفر.



(٩٦٣) عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ خرَجَ في غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الخَمِيسِ، وكانَ يُحِبُّ أنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الخميس[1].

وفي رواية في الصحيحين: لقَلَّما كانَ رسولُ الله ﷺ يخْرُجُ إلا في يوم الخميسِ.

۞ **السفر:** هو مفارقة الوطن، وهو أن يخرج الإنسان من وطنه إلى وطنٍ آخر ... وسُمِّي سفرًا لأنه من الإسفار وهو الخروج والظهور.

كما يُقال: أسفر الصبح إذا ظهر وبان... وقيل: في المعنى سُمِّي السفر سفرًا لأنه يُسْفِر عن أخلاق الرجال .. يعني يبين ويوضح أحوالهم، فكم من إنسانٍ لا تعرفه ولا تعرف سيرته إلا إذا سافرت معه، وعندئذٍ تعرف أخلاقه وسيرته وإيثاره...إلخ...حتى كان عمر رضي الله عنه إذا زكَّى رجلٌ شخصًا عنده قال له: هل سافرت معه، هل عاملته؟ إن قال: نعم قَبِلَ ذلك، وإن قال: لا. قال: لا علم لك به.

ثم إن السفر ينبغي للإنسان أن يتحرى فيه الأوقات التي تكون أسهل، وأنسب، ومن ذلك أن يكون في آخر الأسبوع كما كان النبي ﷺ في أكثر أسفاره يخرج يوم الخميس، وربما خرج في غيره... فقد خرج ﷺ في آخر سَفرة سافرها - وهي حجة الوداع - يوم السبت، لكن دائمًا كان إذا سافر - ولاسيما إذا كان في غزوٍ - كان ذلك يوم الخميس، والحكمة منْ ذلك - والله أعلم - أنه يوم تُرفع فيه الأعمال وتُعرض على الله عز وجل فكان يحب ﷺ أن يُعرض على الله عمله في ذلك اليوم... وكان ﷺ يحب أن يخرج من أول النهار لما في ذلك من استقبال النهار؛ لأنه ربما يطول السفر فيكون في الخروج في الصباح الباكر سعة للوصول في ضوء النهار... ولأن النبي ﷺ قال: «**اللهُمَّ بَارِك لأُمَّتي في بُكورِهَا**».



(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٢٩٥٠) كتاب الجهاد والسير - ولم أجده عند مسلم وكذلك لم يعزه المزي لمسلم في تحفة الأشراف (٧/ ٥٦٦) (١١١٤٧).

(٩٦٤) وعنْ صخْرِ بن وَدَاعةَ الغامديِّ الصحابيِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بارِكْ لأُمَّتِي في بُكُورِهَا» وكان إذا بعثَ سَرِيَّةً أَوْ جيشًا بعَثَهُم مِن أَوَّلِ النَّهارِ وكان صَخْرٌ تاجِرًا، وكانَ يَبْعَثُ تِجارتهُ أَوَّلَ النَّهار، فأثْرى وكَثُرَ مالُهُ[1].

۞ **«اللهم بارك لأمتى فى بكورها»** - أى: فى أول النهار - فدعا النبى ﷺ أن يبارك الله فى أول النهار فيه لأمته ... لأنه مُستقبِل العمل؛ فإن النهار كما قال الله تعالى معاش: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فإذا استقبله الإنسان من أوله صار فى ذلك بركة... وهذا شىءٌ مُشاهَد، أن الإنسان إذا عمل فى أول النهار وجد فى عمله بركة... لكن وللأسف فأكثرنا اليوم ينامون فى أول النهار ولا يستيقظون إلا فى الضحى، فيفوت عليهم أولُ النهار الذى فيه بركة.

وقد قال العامة: أمير النهار أوله. يعنى أن أول النهار هو الذى يتركز عليه العمل ... وكان صخرٌ يبعث بتجارته أول النهار فأثرى وكَثُر ماله من أجل دعاء النبى ﷺ بالبركة لهذه الأمة فى بكورها[2].



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٠٠).
(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٧٩) بتصرف.

(١٦٧) باب استحباب طلب الرفقة وتأميرهم على أنفسهم واحدًا يطيعونه

(٩٦٥) عن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لوْ أنَّ النَّاسَ يَعلَمُون مِن الوِحدَةِ ما أعلَمُ ما سَارَ راكِبٌ بِلَيْلٍ وحدَهُ»(١).

۞ فينبغى للإنسان إذا أراد سفرًا أن يكون معه رفقة يسافرون معه فلا يسافر وحده .. لأنه ربما يخرج عليه لصٌّ أو قاطع طريق فيؤذيه أو يأخذ ماله.. وربما يُصاب بمرضٍ أو إغماءٍ فلا يجد مَن ينقذه.. أو ربما يهجم عليه وحشٌ.. ونحن نعلم أن الوحوش لا تهجم على الإنسان إلا إذا كان وحده فأما إن كان معه صُحبة فلا يجترئ الوحش أن يهجم عليهم.

۞ وهذا النهى عن سفر العبد وحده إنما هو فى الأسفار التى تكون فى أماكن غير عامرة.. أما إذا كان المكان عامرًا بالناس فى الذهاب والإياب فلا بأس أن يسافر المسلم وحده.. ولا يدخل ذلك فى النهى الذى ورد فى الحديث.

۞ **ولقد ورد فى الحديث الآخر:**

(٩٦٦) وعنْ عمرو بن شُعيبٍ عن أبيه عن جَدِّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، والرَّاكِبان شَيْطانانِ، والثَّلاثةُ رَكبٌ»(٢).

۞ وهنا أيضًا ينهى النبى ﷺ عن سفر الإنسان وحده أو مع صاحبه فقط.. وحثَّ على أن تكون الصحبة فى السفر تبدأ من ثلاثة فما فوقها... وأخبر أن المسافر وحده شيطان... وليس المقصود هنا أنه أصبح شيطانًا بل المقصود أنه إن سافر وحده فى طريقٍ محفوفٍ بالمخاطر فهو شيطان: أى عاصٍ لأمر رسول

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٨) كتاب الجهاد.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٢٤).

الله ﷺ... كقوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي: عُصاتهم.

۞ قال الطبرى: «هذا زجرُ أدبٍ وإرشاد؛ لما يُخاف على الواحد من الوحشة، وليس بحرام.. فالسائر وحده بفلاة، والبائت فى بيت وحده؛ لا يأمن من الاستيحاش؛ سيما إن كان ذا فكرة رديئة، أو قلبٍ ضعيف... والحق أن الناس يتفاوتون فى ذلك، فوقع الزجر لحسم المادة، فيُكرَه الانفراد سدًّا للباب، والكراهة فى الاثنين أخف منها فى الواحد».

۞ قال الشيخ الألبانى رحمه الله: ولعل الحديث أراد السفر فى الصحارى والفلوات التى قَلَّما يرى المسافر فيها أحدًا من الناس، فلا يدخل فيها السفر اليوم فى الطرق المُعبَّدة الكثيرة المواصلات. والله أعلم[١].

وقد حَضَّ النبى ﷺ المسلمين إذا سافروا أن يُؤَمِّروا واحدًا عليهم.

(٩٦٧) وعن أبى سعيدٍ وأبى هريرةَ رضي الله عنهما قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا خرَجَ ثَلاثَةٌ فى سفرٍ فليُؤَمِّرُوا أحدهم»[٢].

۞ يعنى: يؤمرون واحدًا منهم يتولَّى تدبيرهم .. يقول نذهب، ونجلس، نتوضأ، نتناول العشاء، وما أشبه ذلك؛ لأنهم إذا لم يُؤمروا واحدًا صار أمرهم فوضى ... ولهذا قيل: لا يُصلح الناس فوضى لا سراة لهم.

لا بد من أمير يتولَّى أمرهم .... وظاهر الحديث أن هذا الأمير إذا رضُوه وجبت طاعته فيما يتعلق بمصالح السفر؛ لأنه أمير.. أمَّا ما لا يتعلق بأمور السفر فلا تجب طاعته: كالمسائل الخاصة بالإنسان، إلا أنه لا يعنى ذلك أن هذا الأمير يستبدُّ بل يكون كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ

(١) السلسلة الصحيحة (١/ ١٣٢).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود والضياء وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٠).

وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فعليه أن يشاورهم في الأمور التي يَخفَى فيها جانب المصلحة، ولا يستبد برأيه، أما الأمور الواضحة فلا حاجة للمشورة فيها.

(٩٦٨) وعنْ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النَّبيِّ ﷺ قال: «خَيرُ الصَّحابةِ أربَعةٌ، وخَيْرُ السَّرايا أربَعمائةٍ، وخَيْر الجُيوش أربعةُ آلافٍ، ولن يُغْلَبَ اثْنَا عشر ألفًا مِن قِلَّة»[1].

۞ **ففي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «خَيرُ الصَّحابةِ أربَعةٌ»** وذلك لأن الْمُسَافِرُ لَا يَخْلُو عَنْ رَحلٍ يَحتَاجُ إِلَى حِفْظِهِ وَعَنْ حَاجَةٍ يَحتَاجُ إِلَى التَّرَدُّدِ فِيهَا... وَلَوْ كَانُوا ثَلَاثَةً لَكَانَ الْمُتَرَدِّدُ وَاحِدًا فَيَبْقَى بِلَا رَفِيقٍ فَلَا يَخْلُو عَنْ خَطَرٍ وَضِيقِ قَلْبٍ لِفَقْدِ الْأَنِيسِ ... وَلَوْ تَرَدَّدَ اثْنَانِ كَانَ الْحَافِظُ وَحدَهُ.

قَالَ الْمُظْهِرُ: يَعنِي الرُّفَقَاءَ إِذَا كَانُوا أَربَعَةً خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونُوا ثَلَاثَةً لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً وَمَرِضَ أَحَدُهُمْ وَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ أَحَدَ رَفِيقَيْهِ وَصِيَّ نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَشْهَدُ بِإِمْضَائِهِ إِلَّا وَاحِدٌ فَلَا يَكْفِي وَلَوْ كَانُوا أَربَعَةً كَفَى شَهَادَةُ اثْنَيْنِ وَلِأَنَّ الْجَمْعَ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ يَكُونُ مُعَاوَنَةُ بَعضِهِمْ بَعضًا أَتَمَّ ... وَفَضْلُ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ أيضاً أَكْثَرُ فَخَمْسَةٌ خَيرٌ مِنْ أَربَعَةٍ وَكَذَا كُلُّ جَمَاعَةٍ خَيْرٌ مِمَّنْ هُوَ أَقَلُّ مِنْهُمْ لَا مِمَّنْ فَوْقَهُمْ[2].

«وخَيْرُ السَّرايا أربَعمائةٍ».

السَّرَايَا: جَمْعُ السَّرِيَّةِ وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْجَيْشِ.

قَالَ فِي النِّهَايَةِ: السَّرِيَّةُ هِيَ طَائِفَةٌ مِنَ الْجَيْشِ يَبْلُغُ أَقْصَاهَا أَربَعَ مِائَةٍ تُبْعَثُ إِلَى الْعَدُوِّ ... وَجَمْعُهَا السَّرَايَا سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ خُلَاصَةَ الْعَسْكَرِ وَخِيَارَهُمْ مِنَ الشَّيْءِ السَّرِيِّ النَّفِيسِ[3].

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٧٨).
(٢) تحفة الأحوذي (٤/ ٥٠٣).
(٣) تحفة الأحوذي (٤/ ٥٠٣).

«وخَيْر الجُيوش أربعةُ آلافٍ» خُصَّت الأربعة آلاف نظير الأربعة التى ذُكرت فى الآحاد «خَيرُ الصَّحابةِ أربَعةٌ».

«ولن يُغْلَبَ اثْنَا عشر ألفًا مِن قِلَّة» أى: لو بلغ الجيش اثنا عشر ألفًا فلن يُغلَب بسبب قلة العدد وإنما بسببٍ آخر: من العُجب بكثرة العدد أو تزيين الشيطان لهم أمرًا آخر نشأ عنه خذلهم ونحوه... كما حدث فى غزوة حُنين .. فقد كانت الهزيمة فى بداية الغزوة بسبب قول أحد الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: لن نُغلَب اليوم من قِلة.. فكانت الهزيمة فى البداية ثم تحول الأمر بعد ذلك إلى نصرٍ بفضل الله عَزَّوَجَلَّ..

ولـذا قـال تعـالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥].



(١٦٨) باب آداب السير والنزول والمبيت والنوم في السفر واستحباب السرى والرفق بالدواب ومُراعاة مصلحتها، وجواز الإرداف على الدابة إذا كانت تطيق ذلك، وأمر من قصَّر في حقها بالقيام بحقها

(٩٦٩) عن أبى هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذا سافَرتُم فى الخِصبِ فأعطُوا الإبِلَ حظَّها مِن الأرضِ، وإذا سافَرتُمْ فى الجَدبِ، فأسْرِعُوا عَلَيْها السَّيْرَ وبادروا بِهَا نِقْيَها، وإذا عرَّسْتُم فاجتَنِبُوا الطَّريقَ، فإنَّها طُرُقُ الدَّوابِّ، ومأوى الهَوامِّ بالليلِ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يحضنا النبى ﷺ على أننا إذا سافرنا فى وقت الخصب وكنا نركب أى دابة فلا بد أن نتأنى فى السير ولا نُسرع حتى نُعطى تلك الدابة حقها فى المرعى بأن تأكل وتتزود حتى لا تفقد نشاطها وعافيتها فيكون ذلك الطعام عونًا لها على إكمال المسير والسفر.....

وأما فى حال القحط وقلة المرعى فعلينا أن نُسرع بها حتى نصل إلى غايتنا بسرعة فتجد الدابة هناك طعامها وشرابها فلا تهلك ويذهب عقلها من شدة التعب والإعياء.

كذلك أمر النبى ﷺ أننا إذا عرَّسنا -نزلنا- ليلًا لنستريح وننام فإننا لا ننام فى الطريق.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٢٦) كتاب الإمارة.

۞ معنى: «أعطوا الإبل حظها من الأرض» أى: ارفقوا بها فى السير لترعى فى حال سيرها - وقوله:«نقيها» وهو المخ...معناه: أسرعوا بها حتى تصلوا المقصد قبل أن يذهب مُخُّها من ضنك السير - والتعريس: النزول فى الليل.

وذلك لأن الطريق هوالمكان الذى تمشى فيه الدواب.. فإذا نام فيه أحدنا ربما تصيبه دابة بحافرها وهو نائم.. وهو كذلك مأوى الهوام والحيات وغيرها.. وذلك لأنها تأوى إلى تلك الطرق لتأكل ما يقع من الناس فى سفرهم.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَعنَى الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الرِّفْقِ بِالدَّوَابِّ وَمُرَاعَاةُ مَصلَحَتِهَا فَإِنْ سَافَرُوا فِى الْخِصبِ قَلَّلُوا السَّيْرَ وَتَرَكُوهَا ترعَى فِى بَعضِ النَّهَارِ وَفِى أَثْنَاءِ السَّيْرِ فَتَأْخُذُ حَظَّهَا مِنَ الْأَرضِ بِمَا تَرعَاهُ مِنْهَا ... وَإِنْ سَافَرُوا فِى الْقَحطِ عَجَّلُوا السَّيْرَ لِيَصِلُوا الْمَقْصِدَ وَفِيهَا بَقِيَّةٌ مِنْ قُوَّتِهَا وَلَا يُقَلِّلُوا السَّيْرَ فَيَلْحَقَهَا الضَّرَرُ لِأَنَّهَا لَا تَجِدُ مَا تَرعَى فَتَضْعُفُ وَيَذْهَبُ نِقْيُهَا -أى: عقلها- وَرُبَّمَا كَلَّتْ وَوَقَفَتْ ... وَقَد جَاءَ فِى أَوَّلِ هَذَا الْحَدِيثِ فِى رِوَايَةِ مَالِكٍ فِى الْمُوَطَّأِ أَنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ...

قَوْلُهُ ﷺ: **«وَإِذَا عَرَّسْتُمْ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ فَإِنَّهَا طُرُقُ الدَّوَابِّ وَمَأْوَى الْهَوَامِّ بِاللَّيْلِ»** قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ التَّعرِيسُ النُّزُولُ فِى أَوَاخِرِ اللَّيْلِ لِلنَّوْمِ وَالرَّاحَةِ وَهَذَا أَدَبٌ مِنْ آدَابِ السَّيْرِ وَالنُّزُولِ أَرشَدَ إِلَيْهِ ﷺ لِأَنَّ الْحَشَرَاتِ وَدَوَابَّ الْأَرض [illegible] ذَوَاتِ السُّمُومِ وَالسِّبَاعِ تَمْشِى فِى الليل على الطرق لِسُهُولَتِهَا وَلِأَنَّهَا تَلْ[illegible]نْهَا مَا يَسْقُطُ مِنْ مَأْكُولٍ وَنَحوِهِ وَمَا تَجِدُ فِيهَا مِنْ رِمَّةٍ وَنَحوِهَا ... فَإِذَا عَرَّس [illegible] نْسَا[illegible] فِى الطَّرِيقِ رُبَّمَا مَرَّ بِهِ مِنْهَا مَا يُؤْذِيهِ فَيَنْبَغِى أَنْ يَتباعَدَ عَنِ الطَّرِيقِ(١).



(٩٧٠) وعنْ أبى قَتادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قالَ: كانَ رَسُولُ الله ﷺ إذا كانَ فى سَفرٍ، فعَرَّسَ بلَيْلٍ اضْطَجَعَ على يمينِه، وإذا عرَّسَ قُبَيْلَ الصُّبحِ نَصبَ ذِراعَهُ ووَضعَ رأسَهُ على كفِّه(٢).**

---

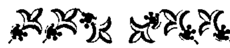
(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ١٠٢-١٠٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٨٣) كتاب المساجد.

قال العلماء: إنَّما نَصَبَ ذِراعَهُ لِئلا يَسْتَغْرِقَ فى النَّوْمِ فتَفُوتَ صلاةُ الصُّبحِ عن وقْتِها أوْ عن أوَّلِ وَقْتِها.

۞ كان من هديه ﷺ أنه إذا عرَّس فى أول الليل اضطجع على يمينه، وإذا عرَّس قُبيل الفجر اتكأ على يده اليسرى، لأن إذا كان أول الليل ينام على اليمين ليعطى النفس حظها من النوم... ولهذا كان ﷺ فى بيته إذا نام ينام على الجنب الأيمن بل أمر بذلك ... أما إذا كان قُبيل الفجر فكان ينصب ذراعه ﷺ وينام على يده لئلا يستغرق فى النوم فتفوته صلاة الفجر.

وفى هذا إشارة إلى أن الإنسان لا بد أن يعطى نفسه حظها من الراحة «**إن لبدنك عليك حقًّا**» .. فإذا نام أول الليل فإنه ينام ويشبع من النوم حتى يستيقظ للقيام نشيطًا.. وإذا نام آخر الليل فإنه لا ينبغى أن ينام نومة المطمئن حتى لا تفوته صلاة الصبح... وينبغى أن يأخذ بالأسباب ليستيقظ للصلاة.. كأن يستعمل المنبه أو يطلب من أحدٍ أن يوقظه.. وهذا من باب قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾.



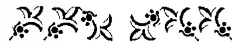
(٩٧١) وعنْ أنسٍ ﷺ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بالدُّلْجَةِ، فإنَّ الأرضَ تُطْوَى باللَّيلِ»[(١)].

۞ ففى هذا الحديث يرشد النبى ﷺ أمته إلى أن يسيروا فى الليل، وأخبر أن الأرض تُطوى للمسافر إذا سافر فى الليل ... يعنى أنه يقطع فى الدُّلجة - الليل - ما لا يقطعه فى النهار، وذلك لأن الليل وقت بَرَاد فهو أنشط للرواحل وأسرع فى سيرها ولهذا عبَّر النبى ﷺ عن ذلك بأنه تُطوى الأرض للمسافر إذا مشى فى الليل.

وقد تكون الأرض نفسها تُطوى بالليل من تحت أقدام الرواحل والمسافرين تيسيرًا للمسافرين فى ظُلمة الليل المُوحِش.. فيكون ذلك نعمة من بين ملايين النعم التى أنعم الله عَزَّوَجَلَّ بها على عباده.. فلا مانع أن يكون هذا

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٦٤).
«الدُّلجة» السَّيْرُ فى اللَّيْلِ.

وذاك... وقد أخبرنى أحد إخوانى الأفاضل أنه جرَّب ذلك بنفسه فسار بسيارته من محافظة إلى محافظة أخرى بنفس السيارة وبنفس السرعة فوصل فى سفره بالليل فى وقتٍ أقل من سفره بالنهار بنصف ساعة أو أكثر.

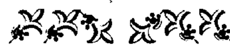


(٩٧٢) وعنْ أبى ثَعلَبَةَ الخُشَنى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كانَ النَّاسُ إذا نَزَلُوا مَنزِلًا تفرَّقُوا فى الشِّعابِ والأوْدِيةِ. فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ تَفرُّقَكُم فى هذه الشِّعابِ والأوْدِيةِ إنَّما ذلكُمْ مِن الشَّيطان» فلَم ينْزلُوا بعدَ ذلك منْزلًا إلا انْضَمَّ بعضُهُم إلى بعضٍ[(١)].

۞ ففى هذا الحديث يخبر أبو ثعلبة الخُشنى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الناس كان من عادتهم أنهم إذا كانوا مسافرين وأرادوا أن يستريحوا فى الطريق فنزلوا منزلًا فإنهم كانوا يتفرقون فى الشِّعاب والأودية.

وفى يومٍ من الأيام كانوا مسافرين مع النبى ﷺ .. فلما أرادوا أن يستريحوا فى الطريق فنزلوا منزلًا وبدأوا يتفرقون فى الشعاب والأودية.. فناداهم النبى ﷺ فاجتمعوا حوله فقال لهم ﷺ: **«إنَّ تفَرُّقَكُم فى هذه الشِّعابِ والأوْدِيةِ إنَّما ذلكُمْ مِن الشَّيطان»** فلَم ينْزلُوا بعدَ ذلك منْزلًا إلا انْضَمَّ بعضُهُم إلى بعضٍ.

قوله ﷺ: «إنما ذلكم من الشيطان» يعنى تَفرُّقَهم ... فما نزلوا بعدَ ذلك منزلًا إلا اجتمعوا جميعًا؛ لأن ذلك أقوى لهم وأحفظ، ولو تسلّط عليهم عدوٌّ فى هدأة الليل - وكانوا جميعًا - أمكنهم المدافعة، لكن إذا تفرقوا توزعوا وفشلوا.



(٩٧٣) وعنْ سهلِ بنِ عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ... وقِيلَ: سَهْلِ بنِ الرَّبيعِ بنِ عمرو الأنْصاريِّ المعروفِ بابنِ الحنْظَليَّةِ، وهُو مِن أهلِ بَيْعةِ الرِّضوان رَضِيَ اللهُ عَنْهُم قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ ببعيرٍ قد لَحِقَ ظَهْرُهُ ببطْنِه، فقال: «اتَّقُوا الله فى هذه البهائمِ المُعجَمةِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٨٨).

فاركبُوها صَالِحَةً، وكُلُوها صالحَة»(١).

۞ لقد كان النبى ﷺ رحيمًا بكل مَن حوله وما حوله ... حتى وصلت رحمته ﷺ بالحيوان الأعجم الذى لا يقدر أن يتكلم ويُوصل شكواه إلى أحدٍ.. فكان النبى ﷺ يُحرم إيذاء الحيوان أو حبسه أو ضربه أو وسمه فى الوجه.. ونهى النبى ﷺ عن اتخاذ الحيوان غرضًا يتعلم الإنسان الرماية فى جسده .. وأمر النبى ﷺ أن نختار لتلك الدواب المرعى الخصب .. بل والأعجب من ذلك أن النبى ﷺ كان حريصًا على الإحسان إلى الحيوان واحترام مشاعره.. وإن أعظم تطبيق لهذا الخُلُق حين ينهى الرسول ﷺ عن تعذيبه أثناء الذبح لأكل لحمه، سواء كان التعذيب جسديًّا بسوء اقتياده للذبح، أو برداءة آلة الذبح، أو كان التعذيب نفسيًّا برؤية السكين.. ومن ثَمَّ يجمع عليه أكثر من موتة! ... فقد روى شدَّاد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كُل شىء؛ فإذا قتلتُم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتُم فأحسنُوا الذبح، وليُحِدَّ أحدُكُم شفرتهُ، وليُرح ذبيحتهُ**»(٢) ... كما رَوى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا أضجع شاة يُريد أن يذبحها - وهو يُحِدُّ شفرته - فقال النبى ﷺ: «**أتريدُ أن تُميتها موتاتٍ، هلا حددت شفرتك قبل أن تُضجعها**»(٣).

وهكذا حَقٌّ للحيوان أن يَنعم بالأمن والأمان، والراحة والاطمئنان فى بيئة علا فيها قول رسول الله ﷺ، وطُبقت فيها أفعاله.

۞ وفى هذا الحديث يخبر ابن الحنظلية أن النبى ﷺ مَرَّ ببعيرٍ قد لحق ظهره ببطنه من شدة الجوع.. فغضب النبى ﷺ وقال: «**اتَّقُوا الله فى هذه البهائمِ المُعجَمةِ فاركبُوها صَالِحَةً، وكُلُوها صالحَة**».

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٤).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٥٥) كتاب الصيد والذبائح.
(٣) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٣).

فأمر كل مَن له بهيمة أن يتقى الله فيها.. فلا يركبها إلا وهى سليمة ليس فيها مرض أو جرح أو كسر فى عظامها لأن ذلك يؤذيها.. وكذلك لا يركبها إلا بعد أن يُطعمها ويسقيها.. ولا يشق عليها فى سفرٍ لا تتحمله..

« **وكُلُوها صالحَة**» أى: حال كونها صالحة للأكل.. أى: سليمة وليس فيها مرض... وهذا كله من الرحمة التى جعلها الله فى قلب النبى ﷺ.

(٩٧٤) **وعن أبى جعفرٍ عبدِ الله بن جعفرٍ رضي الله عنهما قال: أردفنى رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ خَلْفَه، وأسَرَّ إلىَّ حديثًا لا أُحدِّث بِهِ أحدًا مِن النَّاسِ، وكانَ أحبَّ مَا اسْتَتَر بِهِ رسولُ الله ﷺ لِحاجَتِهِ هَدَفٌ أوْ حَائشُ نَخل ـ يعنى: حائط نخْل ـ**[(١)].

وزاد فيه البَرقانىُّ بإسناد مسلم: هذا بعد قوله : حائشُ نخْلٍ: فدَخَلَ حائطًا لِرَجُلٍ مِن الأنْصارِ، فإذا فيه جَمَلٌ، فلَمَّا رأى رسولَ الله ﷺ جَرجَر وذَرفَتْ عَيْناه، فأتَاهُ النَّبىُّ ﷺ فمَسَحَ سَرَاتَهُ ـ أى: سِنامَهُ ـ وَذِفْراهُ فسكَنَ، فقال: «مَنْ رَبُّ هذا الجَمَلِ، لِمَنْ هذا الجَمَلُ؟» فجاء فتًى مِنَ الأنْصارِ فقال: هذا لى يا رسولَ الله . فقال: «أفلا تَتَّقِى الله فى هذه البَهيمَةِ التى مَلَّكَكَ الله إياهَا؟ فإنَّهُ يَشْكُو إلىَّ أنَّكَ تُجِيعُهُ وتُدئِبُهُ» ورواه أبو داود كرواية البَرقانى.

۞ ففى هذا الحديث يحكى عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أنه ركب خلف النبى ﷺ على الدابة وأسرَّ إليه حديثًا أدخل السعادة على قلبه...حتى قال عبد الله: لا أُحدث به أحدًا من الناس...ثم أخبر أن النبى ﷺ ذهب لقضاء حاجته..وكان ﷺ إذا أراد أن يقضى حاجته كان يذهب بعيدًا ويستتر بشىءٍ .. وكان أحب ما استتر به هدف.. مثل العَنزَة التى كان يُركزها فى الأرض... أو حائش نخل .. يعنى: حائِطَ نخلٍ.

---

(١) صحيح :رواه مسلم (٣٤٢) كتاب الحيض.

قوله: «ذِفْرَاه» قال أهلُ اللُّغَةِ: الذِّفْرَى: الموْضِعُ الذى يعرَقُ مِنَ البعيرِ خلْف الأُذِن.

وقوله: «تُدئِبُهُ» أى: تُتْعِبُهُ.

وبعد فترة دخل النبي ﷺ بستانًا لرجلٍ من الأنصار وأخذ يتأمل في الزروع والثمار وهو يُسبِّح الله (جل وعلا)... وفجأة رأى النبي ﷺ جَمَلًا فحدث أمرٌ عجيب أغرب من الخيال ... يا تُرى ما الذي حدث؟

لقد نظر الجمل إلى النبي ﷺ وظل يحن ويبكي وبدأت الدموع تنساب على وجنتيه.

فلما رآه النبي ﷺ ، تأثَّر وذهب إليه وأخذ يمسح بيده على مؤخرة رأسه بكل رحمة وحنان فسكت الجمل وكفَّ عن البكاء.

فسأل النبي ﷺ: «مَن صاحب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟».

فجاء فتى من الأنصار لما سمع صوت رسول الله ﷺ وقال: إنه لي يا رسول الله.

فغضب النبي ﷺ وقال له: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟» .. فتعجب الفتى من كلام النبي ﷺ الذي دخل البستان منذ لحظات وما رأى أي شيء من معاملة هذا الفتى للجَمل، فمن الذي أخبر النبي ﷺ بأن هذا الفتى يُسيء معاملة الجمل.

فإذا بالنبي ﷺ يخبره بأن الجمل قد شكا إليه أنه يُجيعه ولا يطعمه إلا القليل من الطعام الرديء .. وفوق ذلك فهو يُتعبه ويكلفه من الأعمال فوق طاقته.

۞ القصة لم تذكر ما الذي حدث بعد ذلك .. لكني أتوقع أن هذا الفتى قد أحسن معاملة الجمل بعد ذلك إكرامًا لمجيء رسول الله ﷺ .

۞ وهذا من معجزات الرسول ﷺ أن البهائم العُجْم تشكو إليه إذا رأته ﷺ ... لأن ذاك من آيات الله التي يؤيد الله بها رسولَه ﷺ ... فإن الله تعالى ما أرسل رسولًا إلا أعطاه آيات تدل على نبوته لئلا يُكذبه الناس.

لأن الناس إذا جاء إليهم رجل وقال: أنا رسول الله لكم بدون آية ما صدقوه، لكن الله تعالى يؤتي رسله آيات تدل على أنهم صادقون... وأعظم آياتٍ أُعطيها

الأنبياء ما أُعطيه النبي ﷺ... وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «البداية والنهاية» وغيره أيضًا أنه ما من آية لنبي من السابقين إلا كان لرسول الله ﷺ مثلها أو أعظم منها... إما له شخصيًّا وإما لأتباعه، وذكر على ذلك أمثلة وشواهد كثيرة، لكن لم يُعطَ أحدٌ من الأنبياء مثل ما أُعطى النبي ﷺ من هذا الوحي - القرآن - ولهذا قال: «**إنما الذي أُوتيته وحيٌ أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعًا يوم القيامة**»[(١)].

لأن هذا الوحي باقٍ إلى يومنا هذا، والناس كلما قرءوه ازدادوا إيمانًا بالله ورسوله ﷺ .. لما فيه من الآيات العظيمة الدَّالة على أن رسول الله ﷺ هو رسول الله حقًّا[(٢)].



(٩٧٥) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا إذا نَزَلْنا مَنْزِلًا، لا نُسَبِّحُ حتَّى نَحُلَّ الرِّحالَ[(٣)].

۞ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: أَيْ لَا نُصَلِّي سُبْحَةَ الضُّحَى حَتَّى نَحُطَّ الرِّحَالَ وَكَانَ بَعضُ الْعُلَمَاءِ يَسْتَحِبُّ أَنْ لَا يَطْعَمَ الرَّاكِبُ إِذَا نَزَلَ حَتَّى يَعلِفَ الدَّابَّةَ... وَأَنْشَدَنِي بَعضُهُمْ فِيمَا يُشْبِهُ هَذَا الْمَعنَى:

حَقُّ الْمَطِيَّةِ أَنْ تَبْدَأَ بِحَاجَتِهَا ... لا أُطْعِمُ الضَّيْفَ حَتَّى أَعلِفَ الْفَرَسَ[(٤)]

۞ فعلى الرغم من حرصهم الشديد على الصلاة إلا أنهم من كثرة الرحمات التي رأوها من النبي ﷺ في حق الدواب والحيوانات التي لا تستطيع أن تشكو حالها إلى أحد.. كانوا يحلوا الرِّحال ويُريحوا الدواب قبل أن يُصلوا

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٨١) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (١٥٢) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٨٤) بتصرف.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٢٤).

وقوله: «لا نُسَبِّحُ» أي لا نُصلِّي النَّافِلة ... ومعناه: أنَّا - مع حِرصِنا على الصَّلاةِ - لا نُقَدِّمُها على حطِّ الرِّحال وإراحَةِ الدَّوابِّ.

(٤) عون المعبود (٧/ ١٦٠).

ويأكلوا .. رحمة بها.. لأنهم تعلموا من النبى ﷺ أن الإنسان إذا رحم مَن حوله فسوف يرحمه الله.. فقد قال ﷺ: «**ارحَمُوا مَنْ فِى الأرضِ يَرحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ**»[١] وقال ﷺ: «**مَنْ لا يَرحَمُ، لا يُرحَمُ**»[٢].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٢٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٩٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١٨) كتاب الفضائل.

(١٦٩) باب إعانة الرفيق

۞ فى الباب أحاديثُ كثيرةٌ تقدمتْ كحديثِ: «والله فى عوْنِ العَبْدِ ما كانَ العبْدُ فى عونِ أخيهِ» وحديث: «كلُّ معروفٍ صدقة» وأشباهِها.

(٩٧٦) وعن أبى سعيدٍ الخُدرىِّ رضي الله عنه قال: بينما نَحنُ فى سَفَرٍ إذ جاءَ رَجُلٌ على راحِلةٍ لهُ، فجَعلَ يَصرِفُ بَصَرهُ يَمِينًا وشِمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانَ معهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُد بهِ على مَنْ لا ظَهْرَ له، ومَنْ كانَ له فَضْلُ زادٍ، فَلْيَعُد بهِ على مَنْ لا زَادَ له» فذَكَرَ مِن أصنافِ المال ما ذَكَرَهُ، حتى رأينا أنَّهُ لا حقَّ لأحَدٍ منا فى فضْلٍ[(١)].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٥٧١) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

❊ ❊ ❊

(٩٧٧) وعنْ جابرٍ رضي الله عنه عنْ رسول الله ﷺ أنَّه أرادَ أنْ يَغْزُوَ فقال: «يا معشَرَ المهاجِرينَ والأنصارِ، إنَّ مِن إخوانِكُم قَومًا، ليْس لهمْ مالٌ، ولا عَشِيرةٌ، فلْيَضُمَّ أحدُكم إليهِ الرَّجُلينِ أو الثَّلاثَة» فما لأحدنا مِن ظهرٍ يحملُهُ إلا عُقبَةٌ ـ يعنى: كعُقْبَةِ أحدهمْ ـ قال: فضَممْتُ إلىَّ اثنينِ أو ثَلاثَةً ما لى إلا عُقبةٌ كعقبَةِ أحدِهِمْ مِنْ جَملى[(٢)].

۞ ففى هذا الحديث يخبر جابر رضي الله عنه أن النبى ﷺ أراد الخروج للغزو والجهاد وكان هناك نقصٌ شديدٌ فى الدواب التى سيركبون عليها للجهاد.. وكان هناك بعض الصحابة ليس عندهم مالٌ ليشترى كل واحدٍ منهم دابة يركب عليها للجهاد .. ولكنه يرغب فى أن يجاهد مع النبى ﷺ عسى الله أن يرزقه الشهادة فى سبيله.. فلم يُرد النبى ﷺ أن يحرمهم من هذا الشرف العظيم.

فقال ﷺ لأصحابه: «يا معشَرَ المهاجِرينَ والأنصارِ، إنَّ مِن إخوانِكُم قَومًا،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٢٨) كتاب اللقطة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٧٩).

ليْس لهمْ مالٌ، ولا عَشِيرةٌ، فلْيَضُمَّ أحدُكم إليهِ الرَّجُلينِ أو الثَّلاثَة».

يقول جابر رضي الله عنه: فما لأحدنا مِن ظهرٍ يحملُهُ إلا عُقبَةٌ - يعنى كعُقْبَةٍ أحدهمْ - قال: فضَممْتُ إلىَّ اثنينِ أو ثَلاثَةً ما لى إلا عُقبةٌ كعقبَةِ أحدِهِمْ مِنْ جَملى.

يعنى: لم يكن لى فضلٌ فى الركوب على الذين ضممتهم إلىَّ ... بل كان لى عُقبة من جملى مثل عُقبة أحدهم.. يعنى كنت أركب مرة وأمشى بعدها لكى يركب غيرى.. فلو كانوا ثلاثة يركبون بعيرًا واحدًا فكان جابر يركب مسافة ثم يمشى على رجليه ضعفى تلك المسافة حتى يركب الاثنان الآخران...

وهكذا كان الإيثار فى حياتهم.. وهكذا كان التعاون على البر والتقوى فى حياتهم.. وهكذا كانوا يحتسبون الأجر والثواب فى أعمالهم.. عسى مَن يركب معه يرزقه الله الشهادة فيشفع له يوم القيامة وتكون شهادته فى ميزان حسناته.



(٩٧٨) **وعنْ جابرٍ** رضي الله عنه **قال: كان رسول الله** ﷺ **يتَخَلَّف فى المسيرِ فيُزْجِى الضَّعيف ويُردفُ ويدعُو له**(١).

۞ فالرسول ﷺ كان يكون فى أُخريات القوم فى السفر يُزجى الضعيف - يسوقه - ويدعو له... كما ثبت ذلك عنه فى صحيح مسلم فى قصة جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ لحقه - وكان جابر على جملٍ قد أعيا - فضربه النبى ﷺ... أى: ضرب الجمل ودعا له، فصار يمشى كما تمشى الرِّكاب بل كان يتقدم عليها... والحاصل أنه ينبغى للإنسان أن يكون مع رفقائه فى السفر مُحسنًا إليهم قاضيًا لحاجتهم مُعينًا لهم... فإن هذا من الآداب النبوية التى جاءت بها سُنة النبى ﷺ... والله أعلم.



(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٩٠١).

(١٧٠) باب ما يقول إذا ركب الدابة للسفر

۞ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ـ١٤].

(٩٧٩) وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ الله ﷺ كانَ إذا اسْتَوَى علَى بَعِيرِهِ خارجًا إلى سَفرٍ، كبَّرَ ثلاثًا، ثُمَّ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾. اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ فِى سَفَرِنَا هذا البِرَّ والتَّقْوى، ومِن العَمَلِ ما تَرضَى. اللَّهُمَّ هَوِّنْ علَيْنا سَفَرَنا هذا واطْوِ عَنَّا بُعدَهُ. اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ فِى السَّفرِ، والخَلِيفَةُ فِى الأهْلِ. اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِنْ وعثَاءِ السَّفَرِ، وكآبَةِ المَنْظَرِ، وسُوءِ المُنْقَلَبِ فِى المالِ والأهلِ والوَلَدِ».

وإذا رجَعَ قالَهُنَّ وزاد فِيهنَّ: «آيِبونَ تائبونَ عابِدُون لِرَبِّنا حَامِدُونَ»(١).

۞ فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ يعنى: سيَّر لكم. ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾: يعنى السفن وهى ثلاثة أنواع: بحرية، وبرية، وجوية...أما البحرية فكانت معروفة من قديم الزمان من زمن نوح ﷺ حين أوحى الله إليه ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وأما السفن البرية فظهرت متأخرة وهى السيارات...وأما الجوية فهى أيضًا ظهرت بعد ذلك وهى الطائرات ... وكلها داخلة فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ فإنها فلك لأنها تجمع ما شاء الله من الخلق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعنى الإبل والبغال والحمير والخيل وغيرها مما

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٢) كتاب الحج.

مَعنَى «مُقْرِنينَ»: مُطِيقِينَ – وَ«الوَعثَاءُ» وَهِىَ: الشِّدَّةُ – وَ «الكَآبَةُ» بِالمَدِّ، وَهِىَ: تَغَيُّرُ النَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ وَنَحوِهِ – وَ «المُنْقَلَبُ»: المَرجِعُ.

يُركب ... وقد اختلف العلماء في جواز ركوب الإنسان ما لم تجرِ العادة بركوبه... كما لو ركب البقر، فمنهم مَن قال: إنه جائز ما لم يَشُق عليه. ومنهم مَن قال: إنه لا يجوز؛ لأنها لم تُخلَق لهذا... والصحيح أنه جائز، وأنه لا بأس أن يركب الإنسان ما لم تجرِ العادة بركوبه لكن بشرط ألا يَشُق عليها فإن شَق عليها فهو ممنوع.

وقوله تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾، يعني أنه جعل لنا ما نركب لنستقر على الظهور، فلم يجعله صعبًا لا يستوى الإنسان على ظهره، بل هو يُستقر على ظهره ... وهذا مُشاهَد في السيارات والسفن والطائرات والإبل الذَّلول وما أشبه ذلك ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بعد الاستواء تذكرون نعمة الله بما يسَّر لكم مما خلق من الأنعام ومما علمكم من الفلك، وتقولوا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ كان الذى يتبادر أن يقول الإنسان: الحمد لله الذى سخر لنا هذا. ولكنه أُمر أن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ لماذا؛ لأن (سبحان) تدل على التنزيه: يعنى تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن الحاجة وعن النقص ... فكأن الإنسان يشعر إذا ركب على هذه الفلك والأنعام أنه محتاج إليها يستعين بها على حاجاته فيُسبح الله عَزَّوَجَلَّ الذى هو مُستغنٍ عن كل خلقه ... فكان التسبيح في هذا المقام أنسب.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ يعني: ما كنا مُطيقين له لولا أن الله سخَّره أى: ذَلَّله، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أرأيتم لو كانت هذه البعير الكبيرة الجسم القوية النشيطة لو لم تُسخَّر هل نستطيع أن نركبها؟! هل نقدر عليها؟! الجواب: لا؛ لأن هناك من السباع ما هو دونها بكثير ولا نستطيع أن نقدر عليه، لكن الله سخَّر لنا هذا الذى نركبه، حتى إن الصبى الصغير يأخذ بزمام الناقة ويقودها إلى حيث شاء... هذا من تسخير الله عَزَّوَجَلَّ وتذليله ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ هذه الجملة جملة عظيمة،

كأن الإنسان لمّا ركب مسافرًا على هذه الدابة الذَّلول أو الفُلك كأنه يتذكر السفر الأخير من هذه الدنيا .. وهو سفر الإنسان إلى الله عَزَّوَجَلَّ إذا مات، وحمله الناس على أعناقهم فيتذكر ويقول: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ... فالمُنقلَب إلى الله عَزَّوَجَلَّ... والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا ﴾ كادحٌ إلى ربك.. لم يَقُل كادحٌ لربك بل قال: كادحٌ إليه: يعني سيكون مآلك ومآل كَدِّك وكدحك إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي: عامل وراجع إلى ربك، ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ كُلنا سوف يلاقي الله، ولكن على أي شيءٍ وشأنٍ نُلاقي الله عَزَّوَجَلَّ ؟!

فينبغي للإنسان إذا ركب سيارته أو الطائرة أن يقول هذا الذكر الوارد عن النبي ﷺ في حديث ابن عمر: يكبر ثلاثًا ويقول: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ثم يدعو بهذا الدعاء(١).

۞ «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرضَى**» أي وفقنا إلى أن نفعل في سفرنا هذا كل ما يُرضيك وأن نتصف بالبر -أي حُسن الخُلق مع الناس من حولنا- كما عرَّف النبي ﷺ البر فقال: «**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ**».. وأن نتصف بالتقوى: أي أن نفعل الطاعات ونبتعد عن المعاصي والسيئات... فنجعل بيننا وبين غضبك وعقابك وقاية وأن نعمل كل ما يُرضيك عنا.

۞ «**اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ**» أي: يَسِّر علينا هذا السفر وجنِّبنا فيه التعب والمشقة والتِّيه والضياع ولا تجعلنا نشعر بطول السفر ومشقته بل اجعل سفرنا سهلًا ميسورًا وعجِّل لنا بسرعة الوصول سالمين غانمين.

۞ «**اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**».

«**الصاحب في السفر**» يعني تصحبني في سفري، تُيسره عليَّ، وتُسهله عليَّ «**وأنت الخليفة في الأهل**» أي: الخليفة في الأهل من بعدي تحوطهم برعايتك

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين (٣/ ٨٦-٨٨) بتصرف.

وعنايتك... فهو عَزَّوَجَلَّ مع الإنسان فى سفره، وخليفته فى أهله؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ بكل شىءٍ مُحيط.

۞ **«اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب فى المال والأهل والولد»**.

ومعنى وعثاء السفر: مشقته وشدته ... وكآبة المنظر: وهى تَغيُّر النفس من الحزن ونحوه ... وسوء المنقلب: شر الرجوع.

أى: أستعيذ بك من أن أرجع إلى أهلى ومالى وولدى فأرى فيهم ما يُحزننى ويسوءنى من مرضٍ أو موتٍ أو مخالفة أمرك.. فهم فى حفظك ورعايتك فاحفظهم بحفظك فى سفرى وفى حضرى.

۞ وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: **«آيِبونَ تائبونَ عابِدُون لِرَبِّنا حَامِدُونَ»**.

آيبون: جمع آيب، وهو الراجعُ بالخير هنا ... وتائبون: جمع تائب من الذنب. وأصل التوبة الرجوع... كذلك حَدَّها بعض أئمتنا بأن قالوا: التوبة: هى الرجوع عما هو مذمومٌ شرعًا إلى ما هو محمودٌ شرعًا.

عابدون: خاضعون مُتذللون ... حامدون: مُثنون عليه بصفات كماله، وجلاله، وشاكرون عوارف أفضاله(١).



(٩٨٠) وعن عبد الله بن سَرجِس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعدَ الكَوْنِ، وَدَعوَةِ المَظْلُومِ، وَسُوءِ المَنْظَرِ فى الأَهْلِ وَالمَالِ(٢).

(١) المفهم للقرطبى (٣/ ٣٥٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٣) كتاب الحج.

قَالَ العلماءُ: ومعناه بالنون والراءِ جَميعًا: الرُّجُوعُ مِنَ الاسْتِقَامَةِ أَوِ الزِّيَادَةِ إِلَى النَّقْصِ.

قالوا: ورِوايةُ الرَّاءِ مَأخُوذَةٌ مِنْ تَكوِيرِ العِمَامَة وَهُوَ لَفُّهَا وَجَمْعُهَا. ورواية النون، مِنَ الكَوْنِ، مَصدَرُ (كَانَ يَكُونُ كَونًا): إِذَا وُجِدَ وَاسْتَقَرَّ.

هكذا هُوَ فى صحيح مسلم: «الحَوْر بَعدَ الكَوْنِ» بالنون، وكذا رواه الترمذى والنسائى، قَالَ الترمذى: وَيُروَى «الكوْرُ» بالراءِ، وَكِلاهما لَهُ وجه.

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ كان إذا سافر يتعوذ بالله من وعثاء السفر.. أى يستعيذ بالله من مشقة السفر وشدته .. فقد كان السفر على عهد النبى ﷺ شاقًّا.. فلم يكن هناك سيارات ولا طائرات ولا سُفن وإنما كان على ظهور الإبل والخيل فى الصحراء الشاسعة والرمال والشمس المُحرقة.. وليس معنى ذلك أننا إذا ركبنا الطائرة لا ندعو دعاء السفر ولا نستعيذ بالله من وعثاء السفر.. بل لا بد أن نقتدى بالنبى ﷺ فى ذلك.. وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو القادر على أن يجعل السفر سهلًا ميسورًا للعبد الطائع حتى وإن كان مسافرًا على ظهر دابة فى الصحراء.. وقادرٌ على أن يجعل السفر شاقًّا على العبد العاصى حتى وإن كان يركب طائرة.

فلذا لا بد أن نستعيذ بالله من وعثاء السفر.

۞ وكان ﷺ يتعوذ أيضًا من كآبة المُنقلَب أى: الانقلاب من الطاعة إلى المعصية..

۞ «**والحور بعد الكون**».

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: هُوَ الرُّجُوعُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعصِيَةِ ... وَمَعناهُ الرُّجُوعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ ... وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مَعنَاهُ بِالرَّاءِ وَالنُّونِ جَمِيعًا الرُّجُوعُ مِنْ الاسْتِقَامَةِ أَوِ الزِّيَادَةِ إِلَى النَّقْصِ قَالُوا: وَرِوَايَةُ الرَّاءِ مَأْخُوذَةٌ من تكوير الْعِمَامَةِ وَهُوَ لَفُّهَا وَجَمْعُهَا .. وَرِوَايَةُ النُّونِ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْكَوْنِ مَصدَرُ كَانَ يَكُونُ كَوْنًا إِذَا وُجِدَ وَاسْتَقَرَّ.

قَالَ الْمَازِرِىُّ فِى رِوَايَةِ الرَّاءِ: قِيلَ أَيْضًا: أَنَّ مَعنَاهُ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الرُّجُوعِ عَنِ الْجَمَاعَةِ بَعدَ أَنْ كُنَّا فِيهَا ... يُقَالُ كَارَ عِمَامَتَهُ إِذَا لَفَّهَا وَحَارَهَا إِذَا نَقَضَهَا.

وَقِيلَ نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تُفْسَدَ أُمُورُنَا بَعدَ صَلَاحِهَا كَفَسَادِ الْعِمَامَةِ بَعدَ اسْتِقَامَتِهَا عَلَى الرَّأْسِ ... وَعَلَى رِوَايَةِ النُّونِ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: سُئِلَ عَاصِمٌ عَنْ مَعنَاهُ فَقَالَ أَلَمْ تَسْمَع قَوْلَهُمْ حَارَ بَعدَ مَا كَانَ ... أَيْ أَنَّهُ كَانَ عَلَى حَالَةٍ جَمِيلَةٍ فَرَجَعَ عَنْهَا وَاللهُ أَعلَمُ.

۞ «وَدَعوَةِ الْمَظْلُومِ» أَيْ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ دُعَاءُ الْمَظْلُومِ... وَدَعوَةُ الْمَظْلُومِ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ ... فَفِيهِ التَّحذِيرُ مِنَ الظُّلْمِ وَمِنَ التَّعَرُّضِ لِأَسْبَابِهِ(١).

۞ «وسوء المنقلب فى الأهل والمال» أى وأن أنظر ما يسوؤنى فى الأهل من مرضٍ أو موتٍ أو اشتغالٍ بمخالفة أمر الله تعالى.

(٩٨١) وعنْ عليِّ بن ربيعة قال: شَهِدتُ عليَّ بن أبى طالب رضي الله عنه أُتِىَ بِدابَّةٍ لِيَركَبَها، فلما وضَع رِجْلَهُ فى الرِّكابِ قال: بِسْمِ الله، فلَمَّا اسْتَوى على ظَهْرِها قال: الحمدُ لله .. ثُمَّ قَالَ: «سُبحَانَ الذى سَخَّرَ لنَا هذا، وما كُنَّا لهُ مُقْرِنينَ، وإنَّا إلى ربِّنَا لَمُنْقَلِبُون»..ثُمَّ قال: الحمْدُ لله ثلاثَ مرَّاتٍ، ثُمَّ قال: الله أكبرُ ثلاثَ مرَّات، ثُمَّ قال: سُبْحانَك إنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغْفِر لى إنَّه لا يغفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنْت، ثُمَّ ضَحِكَ، فقيل: يا أمير المؤمنين، مِن أىِّ شَىءٍ ضَحِكْتَ؟ قال: رأيتُ النَّبىَّ صلى الله عليه وسلم فعلَ كما فعلْتُ، ثُمَّ ضَحِكَ، فقلتُ: يا رسول الله، مِن أىِّ شىءٍ ضَحِكْتَ؟ قال: «إنَّ ربَّكَ سُبْحانَهُ يَعجب مِن عَبْده إذا قال: اغْفِر لى ذنُوبى، يَعلَمُ أنَّهُ لا يغْفِرُ الذُّنُوبَ غيرى»(٢).

۞ ففى هذا الحديث أن على بن أبى طالب رضي الله عنه أُتى بدابة ليركبها.. فلما وضع رجله فى الرِّكاب قال: بسم الله.. فلما استوى جالسًا مُستريحًا على ظهرها

(١) مسلم بشرح النووى (٩/ ١٥٨-١٥٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٦٥٣)، وصحيح سنن أبى داود (٢٢٦٧).

قال: الحمد لله ثم قال دعاء ركوب الدابة الذى ورد فى سورة الزخرف: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

ثم قال: الحمْدُ لله ثلاثَ مرَّاتٍ، ثُمَّ قال: الله أكبرُ ثلاثَ مرَّات، ثُمَّ قال: سُبْحانَك إنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغفِر لى إنَّه لا يغفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنْتَ، ثُمَّ ضَحِكَ.

فلما سُئل عن سبب ضحكه قال: رأيتُ النَّبِىَّ ﷺ فعلَ كما فعلْتُ، ثُمَّ ضَحِكَ، فقلتُ: يا رسول الله، مِن أىِّ شىءٍ ضَحِكْتَ؟ قال: «**إنَّ ربَّكَ سُبْحانَهُ يَعجب مِن عَبْده إذا قال: اغْفِر لى ذنُوبى، يَعلَمُ أنَّهُ لا يغْفِرُ الذُّنُوبَ غيرى**».

فهذا الحديث يوضح سعة رحمة الله (جل وعلا) ومغفرته وأنه عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبة عبده إذا تاب وعاد إليه..

فلقد قال النبى ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم...**»[1] وذكر الحديث ... وهو أن رجلًا مسافرًا أضلّ راحلته وفقدها فطلبها فلم يجدها وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها ومن الحياة، ونام تحت شجرة ينتظر الموت ... فبينما هو كذلك إذا براحلته قد تعلَّقت بالشجرة، فأخذ بزمامها وقال: «**اللهم أنت عبدى وأنا ربك**» يريد أن يقول: «**اللهم أنت ربى وأنا عبدك**» لكنه أخطأ من شدة الفرح ... فالله عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبة عبده أكثر من فرحة هذا العبد حين عادت إليه راحلته... مع أن توبته لن تزيد فى مُلك الله شيئًا وذنوبه لن تُنقص من مُلكه شيئًا سبحانه وتعالى.

فلو لم يكن هناك ثمرة للتوبة إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبتنا لكان واجبًا علينا أن نتوب وأن نعود إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٠٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٤٧) كتاب التوبة.

(١٧١) باب تكبير المسافر إذا صعد الثنايا وشبهها وتسبيحه إذا هبط الأودية ونحوها، والنهي عن المبالغة برفع الصوت بالتكبير ونحوه

(٩٨٢) عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كُنَّا إذا صَعِدنَا كَبَّرنا، وإذا نَزَلْنَا سبَّحنا[١].

(٩٨٣) وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما قال: كانَ النبيُّ ﷺ وجيُوشُهُ إذا عَلَوا الثَّنَايا كبَّرُوا، وإذا هَبطُوا سَبَّحُوا[٢].

۞ ففى هذين الحديثين نتعلم أدبًا جميلًا من آداب السفر .. ألا وهو: أنه إذا صعد الإنسان فى أثناء سفره شيئًا مرتفعًا كالجبل ونحوه أو كان يركب الطائرة فصعدت فإنه يُكبر ويقول: «الله أكبر» مرة أو مرتين أو ثلاثًا...

وإذا نزل إلى مكانٍ منخفض أو كانت الطائرة تنزل فإنه يُسبِّح ويقول: «سبحان الله» مرة أو مرتين أو ثلاثًا.

ووجه ذلك أن الإنسان إذا كان يركبْ دابة أيًا كان نوعها سواء كانت ناقة أو سيارة أو طائرة فصعد إلى مكانٍ عالٍ فقد يستعظم نفسه.. فإذا قال: «الله أكبر» فيرد نفسه إلى وضعها الطبيعى ويعلم أنه عبدٌ لله عز وجل وأنه مهما علا فإن فوقه مَن هو أعلى من الكون كله وما فيه.. ألا وهو الله عز وجل.. فاطر السماوات والأرض.

وإذا نزل العبد وهو مسافر.. فالنزول فيه سُفول وذُلٌّ ودُنو فيقول: «سبحان الله».. يعنى: أُنزهه سبحانه وتعالى عن النزول والسُّفول عز وجل.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٣) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢٢٦٤).

لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وإن كان ثبت عن رسول الله ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ ينزل إلى السماء الدنيا نزولًا يليق بجلاله وعظمته فإنه لا يَلزم منه السُّفول؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء.

فإذا ركبت أى دابة فصعدت فقل: «الله أكبر» وإذا نزلت فقل: «سبحان الله».

(٩٨٤) وعن ابنِ عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا قَفَلَ مِن الحجِّ أو العُمْرَةِ كُلَّما أَوْفَى علَى ثَنِيَّةٍ أَوْ فَدفَد كَبَّر ثلاثًا، ثُمَّ قال: «لا إله إلا الله وحدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، لهُ المُلْكُ ولهُ الحَمْدُ، وهُو على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ. آيبُونَ تائِبُونَ عابِدُونَ ساجِدُون لِرَبِّنا حَامِدونَ. صدقَ اللهُ وَعدَهُ، ونَصَرَ عبْده، وهَزَمَ الأحزَابَ وحدَه»[1].

وفى روايةٍ لمسلم: إذا قَفَلَ مِن الجيُوشِ أو السَّرايا أو الحجِّ أو العُمْرَةِ.

۞ ففى هذا الحديث يخبر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبى ﷺ كان إذا عاد من الغزو والجهاد أو من الحج والعمرة كلما ارتفع وعلا على مكانٍ مرتفعٍ من الأرض كبَّر ثلاثًا.. أى قال: «الله أكبر» ثلاث مرات..

ثم قال ﷺ: **«لا إله إلا الله وحدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، لهُ المُلْكُ ولهُ الحَمْدُ، وهُو على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ. آيبُونَ تائِبُونَ عابِدُونَ ساجِدُون لِرَبِّنا حَامِدونَ. صدقَ الله وَعدَهُ، ونَصَرَ عبْده، وهَزَمَ الأحزَابَ وحدَه».**

آيبون: جمع آيب، وهو الراجعُ بالخير هنا ... وتائبون: جمع تائب من الذنب. وأصل التوبة الرجوع... كذلك حدَّها بعض أئمتنا بأن قالوا: التوبة: هى الرجوع عما هو مذمومٌ شرعًا إلى ما هو محمودٌ شرعًا.

عابدون: خاضعون متذللون ... (حامدون): مُثنون عليه بصفات كماله،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٧٩٧) كتاب العمرة، ومسلم (١٣٤٤) كتاب الحج.
قوله: «أوْفَى» أى: ارتفَع – وقوله «فَدفَد» وهو: الغَليظُ المرتَفِعُ مِن الأرض.

وجلاله، وشاكرون عوارف أفضاله[(١)].

قَوْلُهُ ﷺ: «صَدَقَ اللهُ وَعدَهُ وَنَصرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأحزَاب وَحدَهُ» أَيْ صَدَقَ وَعدَهُ فِي إِظْهَارِ الدِّين وَكَوْنِ الْعَاقِبَةِ لِلْمُتَّقِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَعدِهِ سُبْحَانَهُ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ... وَهَزَمَ الْأَحزَابَ وَحدَهُ أَيْ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ مِنَ الْآدَمِيِّينَ... وَالْمُرَادُ الْأَحزَابُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَتَحَزَّبُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَرسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ... وَبِهَذَا يَرتَبِطُ قَوْلُهُ ﷺ: «صَدَقَ اللهُ» تَكْذِيبًا لِقَوْلِ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ أَنَّ الْمُرَادَ أَحزَابُ يَوْمِ الْخَنْدَقِ ...

قَالَ الْقَاضِي: وَقِيلَ: يَحتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ أَحزَابُ الْكُفْرِ فِي جَمِيعِ الْأَيَّامِ وَالْمَوَاطِنِ وَاللهُ أعلم[(٢)].

(٩٨٥) وعنْ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله،إني أُرِيدُ أن أُسافِر فأوْصِني، قال: «عَلَيْكَ بتقوى الله، والتَّكْبيرِ على كلِّ شَرَفٍ» فَلَمَّا ولَّى الرجُلُ قال: «اللَّهُمَّ اطْوِ لهُ البُعدَ، وهَوِّنِ عليهِ السَّفر»[(٣)].

۞ ففي هذا الحديث أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ يريد وصيته...

ولقد كان أصحاب الرسول ﷺ يستشيرونه في كل صغيرة وكبيرة ويطلبون منه دائمًا أن يوصيهم ويدلهم على الخير لأنه ﷺ مُؤيَد من السماء فلا ينطق عن الهوى ﷺ.

فلما قال للنبي: إني أُريد أن أسافر فأوصني.

(١) المفهم للقرطبي (٣/ ٣٥٩) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٩/ ١٦١).

(٣) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٤٦).

قال له ﷺ: «عليك بتقوى الله».

قَوْلُهُ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ» أَىْ: عليك بِمَخَافَتِهِ وَالْحَذَرِ مِنْ عِصيَانِهِ.

(وَالتَّكْبِيرِ) أَىْ قَوْلُ اللهُ أَكْبَرُ .. وَمُنَاسَبَةُ التَّكْبِيرِ عِنْدَ الصُّعُودِ إِلَى الْمَكَانِ الْمُرتَفِعِ أَنَّ الِاسْتِعلَاءَ وَالِارتِفَاعَ مَحبُوبٌ لِلنُّفُوسِ لِمَا فِيهِ مِنَ اسْتِشْعَارِ الْكِبْرِيَاءِ فَشُرِعَ لِمَنْ تَلَبَّسَ بِهِ أَنْ يَذْكُرَ كِبْرِيَاءَ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَيُكَبِّرُهُ لِيَشْكُرَ لَهُ ذَلِكَ فَيَزِيدَهُ مِنْ فَضْلِهِ.

(عَلَى كُلِّ شَرَفٍ) أَىْ مَكَانٍ عَالٍ ... (فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ) أَىْ أَدبَرَ (قَالَ) أَىْ دَعَا لَهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِجَابَةِ (اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الْبُعدَ) أَىْ قَرِّبْهُ لَهُ وَسَهِّلْ لَهُ ... وَالْمَعنَى ارفَع عَنْهُ مَشَقَّةَ السَّفَرِ بِتَقْرِيبِ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ لَهُ حِسًّا أَوْ مَعنًى (وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ) أَىْ أُمُورَهُ وَمَتَاعِبَهُ[1].

وتأمل معى كيف كان النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة حريصًا على أن يوصى أصحابه وأمته بالتقوى... أى أن يفعل العبد ما أمره الله به وأن ينتهى عمَّا نهاه الله عَزَّوَجَلَّ عنه وألا يتعدَّى حدوده ويقع فيما يُغضب الله.. فيكون بذلك قد وقى نفسه من غضب الله وعذابه.

بل وتأمل معى مرة أخرى كيف كان حرص النبى ﷺ على أن يدعو لهذا الرجل بظهر الغيب بعد أن انصرف .. وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ وصف النبى ﷺ بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

بل تأمل مرة ثالثة إلى كل هذا الاهتمام من النبى ﷺ بهذا الرجل .. مع أنه ليس معروفًا وليس من كبار الصحابة .. وهذا يدل على تواضع النبى ﷺ وعدم تفرقته بين الشريف والوضيع والغنى والفقير.. فالكل عنده سواء ولا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

(١) تحفة الأحوذى (٨/ ٤٤٥) بتصرف.

(٩٨٦) وعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: كنَّا معَ النَّبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فكنَّا إذا أشْرَفْنا على وادٍ هَلَّلنا وكبَّرنا وارتَفَعتْ أصواتنا ... فقال النَّبيُّ ﷺ: «يا أيُّها الناس اربَعُوا على أنْفُسِكُم فإنَّكُم لا تَدعونَ أصَمَّ ولا غائبًا. إنَّهُ معكُم، إنَّهُ سَمِيعٌ قريبٌ»[1].

۞ ففي هذا الحديث يخبر أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفرٍ.. فكانوا إذا أشرفوا على وادٍ هلّلوا وكبروا.. أي قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر... فظلوا يرفعون أصواتهم ويرفعونها أكثر وأكثر ... فما كان من النبي ﷺ إلا أن قال لهم: **«يا أيُّها الناس اربَعُوا على أنْفُسِكُم فإنَّكُم لا تَدعونَ أصَمَّ ولا غائبًا. إنَّهُ معكُم، إنَّهُ سَمِيعٌ قريبٌ»**.

«اربَعُوا على أنْفُسِكُم» أي: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم عند التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل.. فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبُعد مَن يخاطبه ليسمعه.. والله لا يحتاج منكم أن تُجهدوا أنفسكم في رفع الصوت بالتسبيح وغيره لأنه سبحانه وتعالى يسمع ويُبصر.. وهو قريبٌ عز وجل مع أنه فوق السماوات لكنه محيطٌ بكل شيء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما السموات السبع والأرضون السبع في كَفِّ الرحمن إلا كخردلة في كَفِّ أحدكم» ... كل السموات والأرض.

وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يَشُق على نفسه في العبادات ... لا في أدائها ولا في المداومة عليها.

فمتى كانت العبادة سهلة ميسورة لا ينبغي للعبد أن يعدل عن السهل إلى الصعب.. فإذا كان عندك ماء ساخن في الشتاء فلا ينبغي أن تعدل إلى الصعب

---

[1] **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٩٩٢) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.
«اربَعُوا» أي: ارفقوا بأنْفُسِكم.

وتتوضأ بالماء البارد.. لكن إن لم يكن عندك ماء ساخن فتوضأت بالماء البارد فلا بأس ولك الأجر على ذلك... وكذلك لا تقل: سأذهب إلى الحج ماشيًا ولن أركب السيارة لأن المشى أصعب من الركوب..

نقول لقد: أخطأت لأنك عدلت عن السهل إلى الصعب طلبًا للأجر. بل الصواب أن تركب وتحمد الله على أن سخَّر لك هذا.. فالله لا يريدك أن تُعذب نفسك ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

وهكذا فى كل العبادات.. متى تيسرت وتسهَّلت العبادة فافعل ما تيسَّر ولا تُقصر ولا تلجأ إلى الأصعب... أما إذا لم يكن هناك إلا الأصعب فافعله ولك الأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ.



(١٧٢) باب استحباب الدعاء في السفر

(٩٨٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجاباتٍ لا شَكَّ فيهنَّ: دعوَةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافِرِ، ودعوَةُ الوالِدِ على ولدِهِ»(١).

۞ فينبغي أن يحرص المسافر على الدعاء لنفسه ولأهله وأصحابه.. وذلك لأن دعاء المسافر مُستجاب.

فيدعو المسافر بكل ما يتمناه لنفسه ولأحبابه.. وعليه أن يُكثر من الدعاء لأهله ولإخوانه بظهر الغيب .. فهناك مَلَكٌ كريم يقول: آمين ولك بمثله.

فقد قال النبي ﷺ: **«مَن دعا لأخيه بظهر الغيب قال المَلَك المُوكَّل به: آمين ولك بمثله»**(٢).

وهنا ذكر النبي ﷺ أن هناك ثلاث دعوات مُستجابات لا شك فيهن.

دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد ... أما دعوة المظلوم فمعناها أنه إذا ظلمك أحدٌ فأخذ مالك أو غير ذلك... فإذا دعوت الله عليه استجاب الله دعاءك... بل يستجيب الله دعاء كل مظلوم حتى ولو كان المظلوم كافرًا وظلمه رجلٌ مسلم ثم دعا الله فإن الله يستجيب دعاءه..لا حبًّا للكافر ولكن حبًّا للعدل.

والمظلوم لا بد أن يُنصَف له من الظالم، ولهذا لما أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له: **«اتقِ دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»**(٣) فالمظلوم دعوته مستجابة إذا دعا على ظالمه بمثل ما ظلمه أو أقل.

---

(١) حسن: رواه أحمد، والبخارى فى الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٣١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٨) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

أما إذا تجاوز فإنه يكون معتديًا فلا يُستجاب له.

الثانية: دعوة المسافر ... إذا دعا الله عَزَّوَجَلَّ أن يُيسّر سفره أو يُعينه عليه أو غير ذلك من الدعوات فإن الله تعالى يستجيب له ... ولذا ينبغى أن يغتنم فرصة الدعاء فى السفر... وإذا كان السفرُ سفرَ طاعة كعمرة وحج فإنه يزداد ذلك قوة فى إجابة الدعاء.

الثالثة: دعوة الوالد ... فى بعض ألفاظ الحديث (على ولده) وفى بعض ألفاظه (لولده) أى سواء دعا لولده أو عليه، وهذا هو الأصح... دعوة الوالد لولده أو عليه مُستجابة... أما دعوته لولده فلأنه يدعو لولده شفقة ورحمة، والراحمون يرحمهم الرحمن عَزَّوَجَلَّ ... وأما عليه فإنه لا يمكن أن يدعو على ولده إلا باستحقاق... فإذا دعا عليه - وهو مُستحق لها - استجاب الله دعوته... هذه ثلاث دعوات مُستجابات: دعوة المظلوم والمسافر والوالد سواء الأم أو الأب(١).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٩٢-٩٣) بتصرف.

(١٧٣) باب ما يدعو به إذا خاف ناسًا أو غيرهم

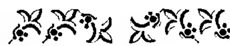
(٩٨٨) عن أبى موسى الأشعرىِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ إذا خافَ قومًا قال: «اللَّهُمَّ إنَّا نجعلُكَ فى نحورِهِمْ، ونعُوذُ بِكَ مِن شرُورِهم»(١).

۞ فقد تُقابل فى سفرك أو فى غير سفرك أُناسًا أشرارًا.. وقد تتعرض للأذى بسببهم ... فإذا قابلت هؤلاء فاحرص على أن تقول: «اللهم إنَّا نجعلك فى نحورهم» أى أمامهم تدفعهم عنَّا وتمنعنا منهم.

«ونعوذ بك من شرورهم» وسوف يكفيك الله شرَّ هؤلاء لأنه ما من دابة فى الكون كله من إنسانٍ أو حيوان أو جان إلا وناصيته بيد الخالق (جل وعلا) .... قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

فإن كان الله معك فمن يستطيع أن يكون عليك.... وإن فقدت معية الله عز وجل ولم يحفظك بحفظه فمن يستطيع أن يحميك من أعدائك ..

فمن وجد الله فماذا فَقَد.. ومَن فَقَد الله فماذا وجد.... فاللهم احفظنا بحفظك من شرور شياطين الإنس والجن برحمتك يا أرحم الراحمين.



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٠٦).

(١٧٤) باب ما يقول إذا نزل منزلاً

(٩٨٩) عن خَولَةَ بنتِ حكيم رضي الله عنها قالتْ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن نزلَ مَنزِلًا ثم قال: أعُوذُ بكلمات الله التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّه شيءٌ حتَّى يرتَحِل مِنْ منزِلِهِ ذلكَ»(١).

۞ قوله: «نزل منزلًا» يشمل مَن نزل منزلًا في السفر إذا كان مسافرًا ثم نزل ليستريح لغداءٍ أو عشاءٍ أو نوم أو غير ذلك ... فإنه إذا نزل يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق». وأعوذ أي: أعتصم بكلمات الله التامات، و«كلمات الله التامات» تشمل كلماته الكونية والشرعية.

فأما الكونية فهي التي ذكرها الله في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيحميك الله تعالى بكلماته الكونية، يدفع عنك ما يضرك إذا قلت هذا الكلام... كذلك الكلمات الشرعية (وهي الوحي) فيها وقاية من كل سوءٍ وشرٍّ، وقاية من الشر قبل نزوله وبعد نزوله، أما قبل نزوله فقد ثبت عن النبي ﷺ أن مَن قرأ آية الكرسي في ليلة؛ لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح .. وأما بعد نزول الأثر فقد ثبت عنه ﷺ أن الفاتحة إذا قُرِئ بها على المريض فإنه يبرأ بها... حتى إن الصحابي رضي الله عنه لما قرأ الفاتحة على سيد القوم الذي لُدِغَ قام كأنما نشط من عِقال...يعني: برأت حاله؛ لأن القرآن شفاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾... فاحرص - يا أخي المسلم - إذا نزلت منزلًا في برٍّ أو بحرٍ، أو منزلًا اشتهيته للنوم وما أشبه ذلك فقل: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» فإنه لا يضرك شيء حتى

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٨) كتاب الذكر والدعاء.

ترتحل من منزلك ذلك. والله الموفق[١].

۞ وفى الحقيقة أن هذا الكلام يريد رجالًا يعتقدون أن قوى الدنيا بأسرها لا يمكن أن تفعل شيئًا أمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ... إذ أن العقيدة دائمًا تحتاج إلى رجل يقرأ ويخزن ما يقرأ فى قلبه وليس فى لسانه، أو يحفظ فى عقله، فيقرأ الأثر من قلبه فيعقد عليه قلبه وعزمه ... وإن وقع به مكروه فهو إما لخللٍ فى اعتقاده، وإما ابتلاء من الله تعالى ليكفر عنه ذنبًا وقع منه قبل هذا.

والنبى ﷺ كان يعرف ذلك ويقوله، لكن ما حصل له هو ابتلاء من الله تعالى ... ولذا إذا نزل أحدنا منزلاً، أو دخل خَرِبَة، أو مكانًا مُظلمًا، أو أتى إلى أحبابه وأصحابه فقال هذا الدعاء بعقيدة، فإنه لا يمكن أبدًا أن يمسَّه أحدٌ بسوءٍ إلا بقدر ... والقدر هذا إذا تم يكون من أجل شيئين: إما مغفرة للذنب، فأراد الله تعالى أن يطهره منه، وهذا منزلة عظيمة كذلك .. أو أن الله تعالى ابتلاه حتى يرفع درجاته.

لكن الأصل أنك إذا نزلت منزلًا فقل: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**».

أى: من شر كل مخلوق .. ثم اعقد قلبك على أنه لا يستطيع أحد أن يَمسَّك بشىءٍ إلا بشىءٍ أُريد بك فى السماء لرفع الدرجات أو لمغفرة الذنوب[٢].

❀❀❀

(٩٩٠) وعنْ ابن عمرو رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا سافَرَ فأقبَلَ اللَّيلُ قال: «يا أرضُ، ربِّى وربُّكِ الله، أعُوذُ باللهِ مِن شرِّكِ وشرِّ ما فيكِ، وشَرِّ ما خُلِقَ فيكِ، وشرِّ ما يَدِبُّ عليكِ، وأعوذ باللهِ مِنْ شَرِّ أسدٍ وأسْودٍ، ومِن الحيَّةِ والعقربِ،

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٩٣-٩٤) بتصرف.

(٢) بتصرف من (شرح صحيح مسلم) للشيخ حسن أبو الأشبال (حفظه الله).

ومِنْ سَاكِنِ البلدِ، ومِن والِدٍ وما وَلَد»[١].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٨٣٧)، وضعيف سنن أبى داود (٥٦٠).

«والأسودُ» الشَّخص ... قال الخطابى: «وساكِن البلدِ»: هم الجنُّ الذين هم سُكَّان الأرض.

قال: والبلد مِنَ الأرضِ ما كان مأوى الحيوَانِ وإنْ لَمْ يَكُن فيهِ بنَاء ومنازِلُ، قال: ويحتَملُ أنَّ المراد «بالوالِدِ»: إبليسُ، «وما ولد» الشَّيَاطينُ.

(١٧٥) باب استحباب تعجيل المسافر الرجوع إلى أهله إذا قضى حاجته

(٩٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِن العذابِ، يمْنَعُ أحدَكم طعامَهُ، وشَرابَهُ ونَوْمَهُ، فإذا قضَى أحدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفرِهِ، فَلْيُعَجِّل إلى أهلِهِ»(١).

۞ قوله ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِن العذابِ» يعنى بذلك عذاب النفس وعذاب الجسد.. ولا سيما فى الزمن الماضى حيث كانوا يسافرون على الإبل ويجدون الكثير من المشقة والتعب النفسى حيث يتركون الأهل والأحباب لفترة طويلة.. وذلك لأن الذى تقطعه اليوم بالطائرة فى ساعة كانوا يقطعونه فى شهرٍ على الإبل.. فيتركون الأهل والأحباب والأولاد ويُحرَمون من الجلوس معهم وتربيتهم وتأديبهم والأُنس بهم وغير ذلك.. وكذلك يعانون من العذاب البدنى حيث الحر الشديد فى الصيف والبرد الشديد والعواصف والرياح فى الشتاء... ولهذا قال عنه النبى ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِن العذابِ».. ثم قال ﷺ: «يمْنَعُ أحدَكم طعامَهُ، وشَرابَهُ ونَوْمَهُ» أى: يمنعه كمال اللذة فى الطعام والشراب والنوم لما فيه من المشقة والتعب ومُقاساة الحر والبرد والخوف ومفارقة الأهل والأصحاب وخشونة العيش وانشغال البال على الأهل والأولاد والأحباب والأصحاب.

۞ ثم قال ﷺ: «فإذا قضَى أحدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفرِهِ، فَلْيُعَجِّل إلى أهلِهِ» أى: إذا قضى أحدكم حاجته لأن النَّهمة هى الحاجة.. فإذا قضى أحدكم حاجته

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٠٤) كتاب العمرة، (٣٠٠١) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٢٧) كتاب الإمارة.

«نَهْمَتَهُ»: مَقْصُودَهُ.

فليتعجل فى الرجوع إلى أهله ولا يتأخر بما ليس له بمهمٍّ ليقوم على أهله بالتأديب والرعاية وغير ذلك.

وفى هذا دليل على أن إقامة الإنسان فى أهله أفضل من سفره إلا أن يكون هناك حاجة ... ووجهه أن أهله يحتاجون إليه؛ ولهذا لما قدم مالك بن الحويرث ومعه عشرون رجلًا من قومه إلى النبى ﷺ وأقاموا عنده نحو عشرين ليلة، فرأى أنهم قد اشتاقوا إلى أهلهم قال: «**ارجعوا إلى أهليكم وأقيموا فيهم وأدبوهم وعلموهم**» فدَلَّ ذلك على أن الإنسان لا ينبغى أن يغيب عن أهله إلا بقدر الحاجة، فهذا هو الأفضل.



(١٧٦) باب استحباب القدوم على أهله نهارًا وكراهته في الليل لغير حاجة

(٩٩٢) عن جابر رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أطالَ أحدُكم الغَيْبةَ فلا يَطْرُقنَّ أهْلَهُ ليْلاً»....وفى روايةٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ نهَى أنْ يَطْرُق الرَّجُلُ أهْلَهُ ليلاً[١].

(٩٩٣) وعنْ أنسٍ رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ الله ﷺ لا يَطْرُقُ أهْلَهُ ليْلاً، وكان يأتِيهمْ غُدوةً أو عَشِيَّةً[٢].

وفى رواية عن جابر رضي الله عنه أنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يَطرُق الرجل أهله ليلًا. يتخونهم أو يلتمسُ عثراتهم.

۞ والمقصد هنا أن الرجل إذا سافر سفرًا قصيرًا لمدة يوم أو يومين وأخبر زوجته بموعد وصوله فلا حرج عليه أن يدخل بيته ليلًا أو نهارًا ... وكذلك إذا سافر سفرًا طويلًا لمدة شهرين أو أربعة.. وقبل أن يعود أخبر زوجته بموعد وصوله فلا بأس أيضًا أن يدخل البيت ليلًا أو نهارًا.. لكن النهى هنا عن أن يسافر الرجل سفرًا طويلًا ويُطيل الغيبة ثم يدخل بيته ليلًا دون أن يُخبر أهله.. لأن زوجته قد لا تكون مُتزينة ومستعدة لاستقباله.. وقد تقع عينه على ما يكرهه منها.. وقد يكون البيت غير نظيف... بل قد تظن هى أنه جاء فجأة لأنه يتخونها ويلتمس عثراتها فيحدث شقاق بينهما بسبب ذلك.... ولذا نهانا النبى ﷺ عن فعل ذلك من أجل المحافظة على روابط المحبة فى الأسرة المسلمة.

۞ إذًا .. فإذا كان الزوج عائدًا من سفرٍ طويل فعليه أن يتصل بزوجته

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٤٣، ٥٢٤٤) كتاب النكاح، ومسلم (١٥٢٨) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٠٠) كتاب الحج، ومسلم (١٩٢٨) كتاب الإمارة.

«الطُّرُوقُ»: المجيءُ فى اللَّيلِ.

ليخبرها بقدومه حتى تستعد لعودته وتتزين وتمشط شعرها وتُهيىء المنزل لاستقباله. فإذا كان قد أعلم أهله أنه سيقدم عليهم الليلة الفلانية فلا بأس أن يقدم عليهم ليلاً، أما إذا كان أطال الغيبة فإنه لا يطرقهم ليلاً؛ لأن النبى ﷺ علَّل ذلك فقال: «**لكى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة**» يعنى: لأجل أن المرأة تتجمل وتتزين لزوجها؛ لئلا يقدم عليها وهى شعثة غير ماشطة، أو لم تستحد... أى: لم تحلق عانتها، فلهذا قيد المسألة إذا أطال السفر، أما إذا لم يُطل السفر، كسفر يوم أو يومين أو ما أشبه ذلك، فلا حرج عليه أن يَقدُم إلى أهله متى شاء.

❁ **قال الحافظ**: وفى الحديث الحثُّ على التوادِّ والتَّحاب خصوصًا بين الزوجين ... لأن الشارع راعَى ذلك بين الزوجين مع اطلاع كُلٍّ منهما على ما جرت العادة بستره ...حتى إنَّ كل واحدٍ منهما لا يَخفى عنه من عيوب الآخر شيء فى الغالب، ومع ذلك فنهى عن الطروق لئلا يطلع على ما تنفر نفسه عنه، فيكون مراعاة ذلك فى غير الزوجين بطريق الأَولَى.

وفيه التحريض على ترك التعرُّض لما يُوجب سوء الظن بالمسلم(١).



(١) زاد المعاد / للإمام ابن القيم رحمه الله (٢/ ٤٥٢).

(١٧٧) باب ما يقوله إذا رجع وإذا رأى بلدته

فيه حديثُ ابنِ عمر السَّابقُ فى باب تكبيرِ المسافر إذا صعِد الثَّنايا.

(٩٩٤) وعنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَقْبَلْنَا معَ النَّبِيِّ ﷺ حتَّى إذا كُنَّا بِظَهْرِ المدينَةِ قال: «آيِبُونَ، تائِبُونَ، عَابِدون، لِرَبِّنا حَامِدُونَ» فلم يزلْ يقولُ ذلك حتَّى قَدِمْنَا المدينة[1].

۞ ففى هذا الحديث يخبر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهم أقبلوا مع النبى ﷺ حتى إذا كانوا بظهر المدينة قال النبى ﷺ: «آيِبُونَ، تائِبُونَ، عَابِدون، لِرَبِّنا حَامِدُونَ» وظل النبى ﷺ يقولها ويُرددها حتى وصلوا إلى المدينة .....

وقد سبق شرح معانى تلك الكلمات بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٩٧٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٥) كتاب الحج.

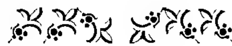
(١٧٨) باب استحباب ابتداء القادم بالمسجد الذي في جواره وصلاته فيه ركعتين

(٩٩٥) عن كعب بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ كانَ إذا قَدِمَ مِن سَفرٍ بدأ بالمسْجِدِ فركع فيهِ رَكْعَتينِ[١].

۞ ففي هذا الحديث يخبر كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا قَدِمَ من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين .. فلا يذهب إلى بيته مباشرة.. بل كان ﷺ يبدأ بالمسجد فيصلى فيه ركعتين.. ثم يُرسل مَن يخبر أهله بقدومه.

۞ فإذا قدم الإنسان من السفر فليبدأ قبل كل شيء بالمسجد قبل أن يدخل على أهله... يبدأ بالمسجد ويصلى فيه ركعتين؛ لأن النبي ﷺ سَنَّ ذلك لأمته بقوله وفعله ... فكان ﷺ إذا قَدِمَ أول ما يبدأ به هو المسجد يصلى فيه ركعتين... ولما جاءه جابر رضي الله عنه ليأخذ ثمن جَمَلِه الذى باعه له قال له ﷺ: **«أدخلت المسجد وصليت»** قال: لا، قال: **«ادخل المسجد وصَلِّ ركعتين»**.

وهذه السُّنة قد غفل عنها كثير من الناس، إما جهلًا بذلك وإما تهاونًا، ولكن ينبغى للإنسان أن يُحيى هذه السُّنة، وإذا وصل إلى البلد فليكن أول ما يبدأ به أن يدخل إلى المسجد ويصلى ركعتين، ثم بعد ذلك يذهب إلى أهله[٢].



(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠٨٨) كتاب الجهاد، ومسلم (٧١٦) كتاب صلاة المسافرين.
(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٩٦).

(١٧٩) باب تحريم سفر المرأة وحدها

(٩٩٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا يَحِلُّ لامْرأة تُؤمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ تُسَافِرُ مَسيرَةَ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ إلا مَعَ ذِي مَحرَمٍ عليْها»[١].

(٩٩٧) وعنْ ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «لا يَخلُونَّ رَجُلٌ بامْرأةٍ إلا ومعَهَا ذُو محرمٍ، ولا تُسافِرُ المرأةُ إلا مع ذِي محرمٍ» فقال لهُ رجُلٌ: يا رسولَ الله إنَّ امْرأتي خَرجتْ حاجَّةً، وإنِّي اكْتُتِبْتُ في غَزْوةِ كذا وكذا؟ قال: «انْطلِقْ فحُجَّ مع امْرأتِكَ»[٢].

۞ ففي هذين الحديثين نهى النبي ﷺ المرأة أن تُسافر بلا مَحرم.. أو أن يخلو رجلٌ بامرأة إلا ومعها ذو مَحرم.

والمَحرَم: هو مَن تَحرُم عليه تحريمًا مُؤبَّدا بنسبٍ أو مُصاهرة أو رضاعة... وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ هؤلاء سبعٌ من النسب ... ثم قال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ هذا من الرضاعة... وكذلك العمّة من الرضاعة والخالة من الرضاعة...كلها محارم لقول النبي ﷺ: **«يَحرُم من الرضاعة ما يَحرُم من النسب»**[٣].

أما المصاهرة: فأبو الزوج وجدّه مِنْ قِبَلِ الأب أو الأم مَحرَم للزوجة، وابن الزوج وابن بنت الزوج وإن نزل كذلك أيضًا من محارم الزوجة.

فلو أن جَدَّ الزوج سافر بامرأة ابنه فإن ذلك لا بأس به؛ لأنه مَحرَم... ولو أن ابن الزوج النابه سافر بزوجة أبيه فلا بأس؛ لأنها مَحرَمٌ له.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٨٨) كتاب الجمعة، ومسلم (١٣٣٩) كتاب الحج.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٠٦) كتاب الجهاد، ومسلم (١٣٤١) كتاب الحج.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٤٥) كتاب الشهادات، ومسلم (١٤٤٧) كتاب الرضاع.

فالمحارم سبعٌ من النسب، وسبعٌ من الرضاع، وأربعٌ من المصاهرة ... أما الزوج فمعلوم أنه مَحرم؛ لأنه زوج. والله الموفق.

۞ وفى الحديث الأول يخبر النبى ﷺ أنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يومٍ وليلة إلا مع ذى محرمٍ عليها.

وذلك لأن المرأة ضعيفة وفى نفس الوقت فهى موضع فتنة بالنسبة للرجال... ولذا قال النبى ﷺ: **«فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِى النِّسَاءِ»**(١).

وقال ﷺ: **«مَا تَرَكْتُ بَعدِى فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»**(٢).

وقال ﷺ: **«الْمَرأةُ عَوْرَةٌ، فَإذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ»**(٣).

قال الطيبى «والمعنى المتبادر أنها مادامت فى خِدرها لم يطمع الشيطان فيها وفى إغواء الناس، فإذا خرجت طمع وأطمع، لأنها حبائله وأعظم فخوخه».

واختلف العلماء فيما إذا كان السفر قصيرًا هل تُمنع منه أم لا؟

فمنهم مَن قال بالمنع حتى من السفر القصير، ومنهم مَن قال: لا تُمنع إلا من السفر الطويل... والصحيح أنها تُمنَع مما يُسميه الناس سفرًا، فكل ما يُطلق عليه اسم سفر فإنه لا يجوز للمرأة أن تسافر إلا مع ذى محرم، خوفًا عليها من الفتنة والشر والبلاء.

ثم ذكر المؤلف حديث أبى هريرة وابن عباس رضي الله عنهم فيما يدل على أنه يَحرُم أن تسافر المرأة بلا مَحرم، وظاهر الحديث أنه لا فرق بين المرأة الشابة والكبيرة، والحسناء والقبيحة، ومَن معها نساء ومَن لا نساء معها، ومَن هى آمنة وغير آمنة، فالحديث عام وإذا قُدِّر أن يوجد فى سفر من الأسفار السلامة يقينًا فإن ذلك لا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الذكر والدعاء.
(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٩٠).

يوجد فى كل سفر، ولما كانت المسألة خطيرة مُنعت المرأة منعًا باتًّا من السفر بلا محرم... وقد تهاون بعض الناس اليوم فى السفر بلا محرم ولا سيما فى سفر الطائرة وكذلك النقل الجماعى وهذا غلط وتهاون فى طاعة الله ورسوله، فلا يحل للمرأة أن تسافر بلا محرم ولو بالطائرة حتى لو كان محرمها سيُشيعها إلى أن تركب الطائرة، ومَحرمها الثانى يقابلها فى البلد الآخر، فإن ذلك لا يجوز؛ لأننا مهما قدَّرنا من السلامة فإنه مَن يركب إلى جنب هذه المرأة[1] قد يكون رجلًا وقد يحاول أن يُحادثها ويضايقها إذا علم أنها ليس معها أى أحد من محارمها.

۞ وأما فى الحديث الثانى أن النبى ﷺ قال: **«لا يخلُونَّ رَجُلٌ بامْرأةٍ إلا ومعَهَا ذُو مَحرمٍ، ولا تُسافِرُ المرأةُ إلا مع ذِى مَحرمٍ»**

قال الإمام النووى رحمه الله: قَوْلُهُ ﷺ: **«لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحرَمٍ»**. هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ لِأَنَّهُ مَتَى كَانَ مَعَهَا مَحرَمٌ لَمْ تَبْقَ خَلْوَةٌ.

فَتَقْدِيرُ الْحَدِيثِ لَا يَقْعُدَنَّ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا مَحرَمٌ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: **«وَمَعَهَا ذُو مَحرَمٍ»**. يَحتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ مَحرَمًا لَهَا وَيَحتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ مَحرَمًا لَهَا أو له وَهَذَا الِاحتِمَالُ الثَّانِي هُوَ الْجَارِي عَلَى قَوَاعِدِ الْفُقَهَاءِ فَإِنَّهُ لَا فَرقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَعَهَا مَحرَمٌ لَهَا كَابْنِهَا وَأَخِيهَا وَأُمِّهَا وَأُخْتِهَا أَوْ يَكُونَ مَحرَمًا لَهُ كَأُخْتِهِ وَبِنْتِهِ وَعَمَّتِهِ وَخَالَتِهِ فَيَجُوزُ الْقُعُودُ مَعَهَا فِي هَذِهِ الْأَحوَالِ ... ثُمَّ إِنَّ الْحَدِيثَ مَخْصُوصٌ أَيْضًا بِالزَّوْجِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَهَا زَوْجُهَا كَانَ كَالْمَحرَمِ وَأَوْلَى بِالْجَوَازِ ... وَأَمَّا إِذَا خَلَا الْأَجْنَبِيُّ بِالْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ ثَالِثٍ مَعَهُمَا فَهُوَ حَرَامٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَكَذَا لَوْ كَانَ مَعَهُمَا مَنْ لَا يُسْتَحَى مِنْهُ لِصِغَرِهِ كَابْنِ سَنَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَنَحوِ ذَلِكَ فَإِنَّ وُجُودَهُ كَالْعَدَمِ وَكَذَا لَوِ اجْتَمَعَ رِجَالٌ بِامْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِخِلَافِ مَا لَوِ اجْتَمَعَ رَجُلٌ بِنِسْوَةٍ أَجَانِبَ فَإِنَّ الصَّحِيحَ جَوَازُهُ، قَالَ أَصحَابُنَا وَلَا

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٩٦-٩٧).

فَرقَ فِى تَحرِيمِ الْخَلْوَةِ حَيْثُ حَرَّمْنَاهَا بَيْنَ الْخَلْوَةِ فِى صَلَاةٍ أَوْ غَيْرِهَا ... وَيُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا كُلِّهِ مَوَاضِعُ الضَّرُورَةِ بِأَنْ يَجِدَ امْرَأَةً أَجْنَبِيَّةً مُنْقَطِعَةً فِى الطَّرِيقِ أَوْ نَحوَ ذَلِكَ فَيُبَاحُ لَهُ اسْتِصحَابُهَا بَلْ يَلْزَمُهُ ذَلِكَ إِذَا خَافَ عَلَيْهَا لَوْ تَرَكَهَا ... وَهَذَا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ عَائِشَةَ فِى قِصَّةِ الْإِفْكِ وَاللهُ أَعلَمُ[1].

۞ وأما قوله: فقال له رجلٌ: يا رسولَ الله إنَّ امْرأتى خَرجتْ حاجَّةً، وإنِّى اكْتُتِبْتُ فى غَزْوةِ كذا وكذا؟ قال: «**انْطلِقْ فحُجَّ مع امْرأتِكَ**» فيه تقديم الأهم من الأمور المتعارضة؛ لأنه لما تعارض سفره فى الغزو وفى الحج معها رجَّح الحج معها؛ لأن الغزو يقوم غيره فى مقامه عنه بخلاف الحج معها[2].

---

(١) مسلم بشرح النووى (٩/ ١٥٥-١٥٦) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووى (٩/ ١٥٦).

(٨) كتاب فضائل القرآن

(١٨٠) باب فضل قراءة القرآن

۞ القرآن الكريم هو كتاب الله الذى ختم به جميع الرسالات... وهو منهج حياة متكامل يكفل للعبد السعادة فى الدنيا والآخرة ... فهو كلام الله المُعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فلقد كانت البشرية قبل مبعث النبى ﷺ تعيش فى ظلمات الشرك والكُفران فجاء النبى ﷺ بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ليُخرج الكون كله من ظلمات الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان... ولذا قال تعالى عن هذا الكتاب العظيم: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، فتحولت الأمة بهذا الكتاب من الشرك والجاهلية إلى الهداية والتوحيد، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن أمة تعيش على هامش الحياة إلى أمة تأخذ بزمام البشرية كلها إلى سعادة الدارين.

فلقد جاء القرآن الكريم ليربى أمة ويُنشئ مجتمعًا ويقيم نظامًا... والتربية تحتاج إلى زمنٍ وإلى تأثير وانفعال بالكلمة وإلى حركة تُترجم التأثير والانفعال إلى واقعٍ منظورٍ فى دنيا الناس.

۞ تأمل قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما سُئلت عن النبى ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرآنَ»[(١)].

۞ فمن أراد أن يتخلق بخُلق النبى ﷺ فعليه بالقرآن وبسُنة سيد الآنام ﷺ[(٢)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) رسائل إلى الشباب/ د. محمود المصرى (ص١٠١، ١٠٢).

والقرآن الذى بين أيدينا هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ ، تكلّم به سبحانه وتعالى حقيقة كلامًا سمعه جبريل، ثم تلاه جبريل على النبى ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ قال: نزل به على قلبك؛ لأن القلب هو محل الوعى والإدراك والفقه لتكون من المُنذرين.

واعلم أن القرآن أول ما نزل: نزل على سبعة أَحرُف؛ لأن الناس عرب من قبائل متعددة ولهجاتٍ مختلفة، وأنتم تعرفون أن الواحد إذا أراد أن يتكلم بلهجة غيره يَصعُب عليه ويَشُق عليه؛ فكان من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل القرآن على سبعة أحرف، كُلٌّ يقرأ بلهجته ... بقى على هذا فى عهد النبى ﷺ كله، وفى عهد أبى بكر، وفى عهد عمر .. وفى عهد عثمان صار الناس يقرءون على لهجاتهم فصار فى هذا اختلاف، واللغة القرشية كانت غلبت على جميع اللهجات، بعد أن تطور اللسان وصارت الدولة كل خلفائها من قريش ... غلبت اللغة القرشية، وغلب حرف قريش على جميع اللهجات، فلما خاف أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يختلف الناس فى كلام الله وأن تؤدى هذه الأحرف السبعة إلى شقاقٍ ونزاع، أمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يُوحَّد القرآن على حرفٍ واحد، ألا وهو حرف قريش - أى لغة قريش - فجمع القرآن على حرفٍ واحد على لغة قريش وهو الذى نقرأ به الآن، ثم أمر بسائر المصاحف فأُحرقت؛ لئلا تبقى فيفتتن الناس بها، فكان فى ذلك مصلحة عظيمة وفضيلة لأمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا تُوصَف ... فنسأل الله تعالى أن يجزيه عن المسلمين خيرًا[1].

۞ ولا بد أن نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أيد النبى ﷺ بالكثير من المعجزات الباهرة .. لكن القرآن الكريم كان أعظم آية أعطاها الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ ...

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٩٩).

ولهذا قال النبى ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِىٌّ إِلَّا قَد أُعطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُه وَحيًا أَوْحَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَىَّ، وَأَرجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

إعجاز القرآن فى أربعة أشياء

❁ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن فى أربعة أشياء:

أحدها: حُسن تأليفه والتئام كَلِمِه مع الإيجاز والبلاغة.

ثانيها: صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نَظْمًا ونثرًا حتى حارت فيه عقولهم ولم يهتدوا إلى الإتيان بشىءٍ مثله مع توفُّر دواعيهم على تحصيل ذلك وتقريعه لهم على العجز عنه.

ثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عمَّا مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب.

رابعها: الإخبار بما سيأتى من الكوائن التى وقع بعضها فى العصر النبوى وبعضها بعده ... فهذا القرآن فيه من الخير والهدى ما يكفى لهداية الكون كله، بل وأكثر من هذا.

❁ ففيه الهدى الذى يوصل إلى كل خير فى الدنيا والآخرة...

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

❁ أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور ودلَّنا على كل طريقٍ يُوصل إلى الجنة وحذرنا من كل طريقٍ يُورد النار.

❁ جعل الله فيه الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة والزاجرة عن كل

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٨١) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (١٥٢) كتاب الإيمان.

رذيلة.. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

❁ تعلّمنا من خلال آياته نعمة التوحيد ومغبة الإشراك.

❁ جعل الله فيه الشفاء لكل الأمراض القلبية والنفسية والعقلية... ففيه الشفاء من الكفر والشرك والكِبر والحسد والبُخل والظلم والخوف والقلق... فقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

❁ وعظنا الله بآيات القرآن فجعل القلوب رقيقة وجعلها تستقبل الحق والهدى وتبتعد عن الضلال والباطل بكل ما فيه.

❁ جعل الله فيه الروح التى تتوقف عليها حياة الإنسان ... فالقرآن هو الروح اللازمة للحياة الفاضلة الكريمة.

إن الناس بدون أن تسرى فيهم الروح القرآنية أمواتٌ حقًّا، لا ينتفعون بوجودهم، ولا بحياتهم المادية.

قال تعالى فى هذا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

❁ وهو النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية، والمُبدد لسائر الجهالات النفسية، والمُبين لسائر الحقائق والأسرار الكونية...

قال تعالى فى تقرير نورانيته: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

❁ وفيه البشرى بخير الدنيا والآخرة وسعادتهما.

قال تعالى فى ذلك: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٩].

۞ الحق الإلهى الثابت فى نفسه، المحقق المثبت لغيره من كل ما هو حق... فكل حقٍّ القرآن يؤيده، والقرآن يقرره... قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[المائدة: ٤٨].

أى مُتلبسًا به مشتملًا عليه، مؤيدًا له، ومقررًا.

۞ الذكر الإلهى الذى تحيا عليه القلوب، وتطيب بتلاوته الأرواح، وتزكو بالعمل به النفوس. الذكر المُكسب للشرف، والمُوصل لحضرة القدس، والرافع إلى ملأ الأخيار. قال تعالى:﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[ص:١].

وقال فى الحديث عنه:﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الزخرف:٤٤].

۞ الخير العام لكل إنسانٍ، وجانٍّ، وحيوانٍ ... فما من كائن فى هذه الحياة إلا وناله من خيرية القرآن[١].

٭٭٭

(٩٩٨) عن أبى أُمامةَ رضي الله عنه قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «اقْرءوُا القُرآنَ فإنَّهُ يأتى يَوْم القيامةِ شَفِيعًا لأصحابِهِ»[٢].

۞ ففى هذا الباب «باب فضل قراءة القرآن» كان أول حديثٍ فيه: «اقْرءوُا القُرآنَ» فالأمر هنا على إطلاقه.. أى: اقرءوا القرآن فى كل وقتٍ وعلى كل حالٍ إلا إذا كان الإنسان فى قضاء حاجته - يعنى يبول أو يتغوط - فلا يجوز أن يقرأ القرآن لأن القرآن له قُدسيته وتعظيمه واحترامه .. فهو كلام الله عز وجل.. وكذلك لا يجوز قراءته أثناء الجنابة ولا يجوز وقت الجماع فإنه لا يقرأ القرآن فى ذلك

---

(١) عقيدة المؤمن / الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص: ٢٥٣-٢٥٤) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

الوقت ولكن يقول عند الجماع: «بسم الله .. **اللهم جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا**».

۞ «**اقرءوا القُرآنَ فإنَّهُ يأتى يَوْم القيامةِ شَفِيعًا لأصحابِهِ**» ففى هذا اليوم العصيب - يوم القيامة - يبحث الإنسان عمَّن يشفع له لينجو من عذاب النار وليدخل جنة الرحمن (جل وعلا)، وإذا به يجد القرآن شافعًا له مُدافعًا عنه أمام الله حتى يأخذ بيديه إلى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

نعم.. يأتى ثواب القرآن قائمًا بنفسه ليشفع لأصحابه عند الله عز وجل.

قال ﷺ: «**الْقُرآنُ شَافعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أمَامَهُ، قَادَهُ إِلَى الْجَنةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَه، سَاقَهُ إِلَى النَّارِ**»(١).

(٩٩٩) وعن النَّوَّاسِ بن سَمْعانَ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «يُؤْتَى يومَ القِيامةِ بالقُرآنِ وأهْلِهِ الذين كانُوا يعمَلُونَ بِهِ فى الدُّنْيَا تَقدُمُه سورة البقَرَةِ وآلِ عِمْرانَ، تُحاجَّانِ عنْ صاحِبِهِما»(٢).

۞ وهناك روايات أخرى توضح فضل سورة البقرة وآل عمران:

منها: قوله ﷺ: «**اقْرَأُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**»(٣).

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان والبيهقى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٤٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٥) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

الغيايتان مُثنى غياية: وهى كل شىء أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة والغاشية ونحوهما.

وفرقان أى: قطعتان.

قال معاوية بن سلام: بلغنى أن البطلة السحرة.

۞ وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يَنفرُ من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة»**(١).

۞ وعن أُسيد بن حُضير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: يا رسول الله بينما أنا أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفى فظننت أن فرسى انطلق ... فقال ﷺ: **«اقرأ أبا عتيك»** فالتفتُّ فإذا مثل المِصبَاحِ مُدَلًّى بين السماء والأرض.. ورسول الله ﷺ يقول: **«اقرأ أبا عتيك»** فقال: يا رسول الله فما استطعت أن أمضى .. فقال رسول الله ﷺ: **«تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب»**(٢).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ ﷺ: **«اقرؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ»** قَالُوا سُمِّيَتَا الزهراوين لِنُورِهِمَا وَهِدَايَتِهِمَا وَعَظِيمِ أَجْرِهِمَا.

قَوْلُهُ ﷺ: **«فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ»** قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْغَمَامَةُ وَالْغَيَايَةُ كُلُّ شَيْءٍ أَظَلَّ الْإِنْسَانَ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ سَحَابَةٍ وَغَبَرَةٍ وَغَيْرِهِمَا ... قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْمُرَادُ أَنَّ ثَوَابَهُمَا يَأْتِي كَغَمَامَتَيْنِ(٣).

۞ فالنبى ﷺ أخبر أن مَن قرأ القرآن وعَمِل به، فإنه يأتى يوم القيامة يتقدمه سورة البقرة وآل عمران يُحاجَّان عن صاحبهما يوم القيامة، ولكن الرسول ﷺ قَيَّد فى هذا الحديث قراءة القرآن بالعمل به؛ لأن الذين يقرءون القرآن ينقسمون إلى قسمين: قسم لا يعمل به، فلا يؤمنون بأخباره ولا يعملون بأحكامه ... هؤلاء يكون القرآن حُجة عليهم ... وقسمٌ آخر يؤمنون بأخباره ويصدقون بها ويعملون بأحكامه. فهؤلاء يكون القرآن حجة لهم يُحاج عنهم يوم القيامة ...

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٨٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه ابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٤٦٤) وأصله فى الصحيحين.

(٣) مسلم بشرح النووى (٦/ ١٢٩-١٣٠) بتصرف.

لأن النبي ﷺ قال: «**القرآن حُجة لك أو عليك**».

وفي هذا دليل على أن أهم شيء في القرآن: العمل به. ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: يتفهمون معانيها ويعملون بها ... وإنما أَخَّر العمل عن التدبُّر لأنه لا يمكن العمل بلا تدبُّر، إذ إن التدبُّر يحصل به العلم، والعمل فرعٌ عن العلم...فالمهم أن هذا هو الفائدة من إنزال القرآن: أن يُتلى ويُعمل به، ويُؤمن بأخباره ويَعمل بأحكامه... يَمتثل أمره، يَجتنب نهيه، فإذا كان يوم القيامة فإنه يُحاجُّ عن أصحابه[1].

۞ وهنا قال ﷺ: «**يُؤْتَى يوْمَ القِيامةِ بالقُرآنِ وأهْلِهِ**» فأهل القرآن هم أهل الله وخاصته .. فهم الذين يحفظون القرآن ويقرءونه ويتدبرون معانيه ويعملون به ويستشفون به ويتحاكمون إليه..

فأهل القرآن هم حُفَّاظ القرآن، ولكنه أتى هنا بشرطٍ فذكر الحافظ لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ الذي كان يعمل به، فلم يحفظه رياءً وسُمعة، ولم يحفظه نفاقًا، ولم يحفظ القرآن ليُجادل به بالباطل، ولا ليُقال عنه: حافظ، ولا ليُقال عنه: عالم، ولا ليُقال عنه: قارئ، وإنما حفظ القرآن طاعة لله وحبًّا لله سبحانه وتعالى، وحُبًّا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وخدمة لدين الله... فهذا الذي يُؤتَى به يوم القيامة كما جاء في الحديث: «**تَقدُمه سورة البقرة وآل عمران**».

فتَقدُمه هاتان السورتان، وهما أعظم سور القرآن بعد الفاتحة «**تُحاجَّان عن صاحبهما**» وهذا الذي تتقدم أمامه سورة البقرة وسورة آل عمران لتدافع عنه يحسده أهل الموقف؛ لأنه يأتي ومعه مَن يدافع عنه، وغيره يأتي وحده، ألا يدفع هذا المسلمَ إلى أن يحاول أن يحفظ سورة البقرة وسورة آل عمران؛ لأجل هذا الموقف العظيم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، فيجد مَن يحامي ويدافع عنه ومَن يُظله يوم القيامة.

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (٣/ ١٠٠).

(١٠٠٠) وعن عثمان بن عفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «خَيْرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وعلَّمهُ»[1].

۞ وإذا كان الله (جل وعلا) قد جعل لكل عبدٍ قدرًا ومنزلة فإن أهل القرآن هم خير الناس منزلة.

فخير الناس مَن جمع بين هذين الوصفين: مَن تعلَّم القرآن، وعلَّم القرآن ... تعلمه من غيره، وعلَّمه غيره...والتعلُّم والتعليم يشمل: التعلُّم اللفظى والمعنوى... فمن حفَّظ القرآن يعنى صار يُعلم الناس التلاوة ويُحفظهم إياه فهو داخل فى التعليم اللفظى.

والنوع الثانى تعليم المعنى يعنى: تعليم التفسير ... أن الإنسان يجلس إلى الناس يُعلمهم تفسير كلام الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن هنا نعرف فضيلة الحِلَق الموجودة الآن فى كثير من البلاد ولله الحمد فى المساجد حيث يتعلم الصبيان فيها كلام الله عَزَّ وَجَلَّ ... فمن ساهم فيها بشىء فله أجر ...ومَن أدخل أولاده فيها فله أجر، ومَن تبرع وعلَّم فيها فله أجر ... كلهم داخلون فى قوله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ».

(١٠٠١) وعنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قال رسولُ الله ﷺ: «الذى يَقرَأُ القُرآنَ وهُو ماهِرٌ بِهِ معَ السَّفَرةِ الكِرَامِ البَرَرةِ، والذى يقرأُ القُرآنَ ويَتَتَعتَعُ فيهِ وهُو عليهِ شاقٌّ له أجْرانِ»[2].

۞ فحين يفتخر أهل الدنيا بانتسابهم إلى العظماء والوجهاء والأغنياء فإن حافظ القرآن يفتخر بأنه سيكون مع السفرة الكرام البررة الذين اختارهم الله

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٠٢٧) كتاب فضائل القرآن.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٣٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٧٩٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

عَزَّوَجَلَّ وشرَّفهم بأن تكون بأيديهم الصحف المطهرة ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦].

فالماهر بالقرآن مع الملائكة .. وأما الذي يتتعتع فيه ويتهجاه وهو عليه شاق فله أجران: أجرٌ للتلاوة وأجرٌ للمشقة والتعب.. وذلك حتى لا يفتر ويهجر القرآن.

ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أجرك على قدر نَصَبك**» أي: على قدر تعبك.. لكن لا شك أن الأول هو الأفضل لأنه يكون مع الملائكة.. مع السفرة الكرام البررة.

قال الإمام النووي: السَّفَرَةُ جَمعُ سَافِرٍ كَكَاتِبٍ وَكَتَبَةٍ ... وَالسَّافِرُ: الرَّسُولُ... وَالسَّفَرَةُ: الرُّسُلُ لِأَنَّهُـمْ يُسْفِرُونَ إِلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِ اللهِ ... وَقِيلَ: السَّفَرَةُ: الْكَتَبَةُ. وَالْبَرَرَةُ: الْمُطِيعُونَ مِنَ الْبِرِّ وَهُوَ الطَّاعَةُ ... وَالْمَاهِرُ: الْحَاذِقُ الْكَامِلُ الْحِفْظِ الَّذِي لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ بِجَوْدَةِ حِفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ.

قَالَ الْقَاضِي: يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعنَى كَوْنِهِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ أَنَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مَنَازِلَ يَكُونُ فِيهَا رَفِيقًا لِلْمَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ لِاتِّصَافِهِ بِصِفَتِهِمْ مِنْ حَمْلِ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى ... قَالَ: وَيَحتَمِلُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ عامل بعملهم وَسَالِكٌ مَسْلَكَهُمْ ...

وَأَمَّا الَّذِي يَتَتَعتَعُ فِيهِ فَهُوَ الَّذِي يَتَرَدَّدُ فِي تِلَاوَتِهِ لِضَعفِ حِفْظِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ أَجْرٌ بِالْقِرَاءَةِ وَأَجْرٌ بِتَتَعْتُعِهِ فِي تِلَاوَتِهِ وَمَشَقَّتِهِ ... قَالَ الْقَاضِي وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: وَلَيْسَ مَعنَاهُ الَّذِي يَتَتَعتَعُ عَلَيْهِ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَاهِرِ بِهِ بَلِ الْمَاهِرُ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا لِأَنَّهُ مَعَ السَّفَرَةِ وَلَهُ أُجُورٌ كَثِيرَةٌ وَلَمْ يَذْكُر هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ لِغَيْرِهِ ... وَكَيْفَ يَلْحَقُ بِهِ مَنْ لَمْ يَعتَنِ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَحِفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ وَكَثْرَةِ تِلَاوَتِهِ وَرِوَايَتِهِ كَاعتِنَائِهِ حَتَّى مَهَرَ فِيهِ؟ وَاللهُ أَعلَمُ(١).

(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ١٢١-١٢٢).

(١٠٠٢) وعنْ أبي موسى الأشْعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمِن الذي يقْرأُ القرآنَ مثلُ الأتْرُجَّةِ: ريحهَا طَيِّبٌ وطَعمهُا حُلْوٌ، ومثَلُ المؤمنِ الذي لا يَقْرأُ القُرآنَ كمثَلِ التَّمْرةِ: لا رِيحَ لهَا وطعمُها حُلْوٌ.. ومثَلُ المُنافِقِ الذي يَقرأُ القرآنَ كمَثَلِ الرَّيْحانةِ: ريحها طَيِّبٌ وطَعمُها مُرٌّ، ومَثلُ المُنافِقِ الذي لا يَقرأُ القرآنَ كمَثَلِ الحَنْظَلَةِ: لَيْسَ لها رِيحٌ وطعمُها مُرٌّ»[1].

❁ ففي هذا الحديث قسَّم النبي ﷺ الناس بحسب حالهم مع القرآن إلى أربعة أقسام: مؤمن يقرأ القرآن ومؤمن لا يقرأ القرآن.. ومنافق يقرأ القرآن ومنافق لا يقرأ القرآن....

فالمؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُترجة ريحها طيب وطعمها طيب.

والأُترجة ثمرة من الثمار أشبه ما تكون بالبرتقالة... فريحها طيب وطعمها طيب.. وفيها فوائد كثيرة في بذرها وفي الطعام الذي بداخلها وفي قشرتها .. فكذلك المؤمن كله فوائد.. فداخله طيب وقلبه موصولٌ بالله.. وريحه طيب.. أي: أنه ينشر خيره ليصل لغيره كرائحة الثمرة فينتفع به كل مَن حوله.

وأما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فهو كمثل التمرة.. لا ريح لها وطعمها حلو.. فهو يحمل الإيمان في قلبه وطعم الإيمان في قلبه «**ذَاقَ طَعمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا**» ولكنه لا ريح له.. وذلك لأنه عنده تقصير في قراءة القرآن أو حفظه أو تحفيظه.. وليس معنى ذلك أنه لا يقرأ القرآن أبدًا ولكنه لا يداوم على ذلك.. ولذا فليس له ريح.. أي: لا يصل نفعه إلى غيره لأنه مُقصر في حق كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.. ولذا فأصل الإيمان في قلبه لكنه لا ينتفع به غيره.. ولا شك أن المؤمن الذي يحفظ القرآن ويقرأ القرآن أفضل منه بكثير.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤٢٧) كتاب الأطعمة، ومسلم (٧٩٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

وأما **الرجل الثالث**: فهو المنافق الذى يقرأ القرآن ... فمثله كمثل الريحانة.. ريحها طيب وطعمها مُرٌّ..

لأن المنافق فى ذاته خبيث لا خير فيه ... والمنافق هو الذى يُظهر أنه مسلم، ولكن قلبه كافر - والعياذ بالله - هو الذى قال الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ يوجد منافقون يقرءون القرآن قراءة طيبة مُرتَّلة مُجودة لكنهم منافقون -والعياذ بالله- كما قال النبى ﷺ فى الخوارج: «**يقرءون القرآن لا يتجاوز حناجرهم**»(١).

هؤلاء - والعياذ بالله- ضرب لهم النبى ﷺ مثلًا بالريحانة: ريحها طيب؛ وذلك لما معهم من القرآن، وطعمها مُرٌّ وذلك لخُبث طويتهم وفساد نيتهم.

وأما **الصنف الرابع**: فهو المنافق الذى لا يقرأ القرآن.. فمثله كمثل الحنظلة ليس لها ريحٌ وطعمها مُرٌّ... فهذا لا خير فيه أبدًا.. فقلبه خبيث لا يحمل الإيمان وإنما يحمل الكفر ويُظهر الإيمان لأنه منافق.. وفوق ذلك كله فإنه لا علاقة له بكتاب الله.. فهو لا ينتفع به ولا ينفع غيره كالأرض الرملية التى إذا نزل عليها الماء فإنها تشربه ولا تنتفع به.. ولا تحتفظ به على سطحها فينتفع به الناس.. فهذا المنافق مثل الحنظلة لا تنتفع بطعمها ولا ريحها... فليس لها ريح.. وإن أردت أن تأكلها فطعمها فى غاية المرارة.

فاحرص أخى الحبيب واحرصى أختى الفاضلة على حفظ القرآن وقراءته لتكونوا مثل الأترجة: ريحها طيب وطعمها طيب.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٣٥١) كتاب المغازى، ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة.

(١٠٠٣) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله يرفعُ بهذا الكتاب أقوامًا ويضَعُ بِهِ آخرين»(١).

وهذا الحديث له قصة جميلة...

۞ فعن نافع بن عبد الحارث أنه لقى عمر رضي الله عنه بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عز وجل، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَد قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(٢).

۞ فمعنى الحديث أن هناك مَن يأخذ القرآن فيتلوه ويحفظه ويعمل به فيمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ويُصدق أخباره ويهتدى بهديه ويتخلق بأخلاقه.. فهذا الإنسان يرفعه الله فى الدنيا ويُعلى قدره بين الناس ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ .. وأما في الآخرة فيرفع درجته في الجنة كما قال النبي ﷺ: «**يُقال لصاحب القرآن: اقْرأ وارق وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فى دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَؤُهَا**»(٣).

وأما الذي يضعه الله عز وجل مع أنه حافظٌ وقارئٌ لكتاب الله.. فإنه إنسان يقرأ أو يحفظ كتاب الله ولكنه لا يعمل به ولا يمتثل أوامره ولا يجتنب نواهيه ولا يصدق أخباره ولا يهتدى بهديه ولا يتخلق بأخلاقه.. فهذا الإنسان يضعه الله في الدنيا بين الخلق فلا يكون له قدر ولا مكانة في قلوب الناس..

فالناس يُبغضونه ولا يحبونه مع أنه قد يكون حافظًا لكتاب الله لكنه يتاجر به -والعياذ بالله- وأما حاله في الآخرة .. فبدلًا من أن يرفع الله قدره يوم القيامة فقد

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨١٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨١٧) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٢٢).

يجعله مع الثلاثة الذين هم أول مَن تُسعَّر بهم النار.. عافانا الله وإياكم .. قال ﷺ: «أول مَن تُسعَّر بهم النار يوم القيامة ثلاثة -من بينهم- ورجلٌ تعلم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليُقال عالم، وقرأت القرآن ليُقال: هو قارئٌ ... فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار»[1].

۞ فأسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يرفعهم الله عَزَّوَجَلَّ بكتابه في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

(١٠٠٤) وعنْ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «لا حَسَدَ إلا فى اثْنَتينِ: رجُلٌ آتاهُ الله القُرآنَ، فهوَ يقومُ بِهِ آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، ورَجُلٌ آتاهُ الله مالاً، فهُو يُنْفِقهُ آناءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النهارِ»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٧٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊ ❊ ❊

(١٠٠٥) وعنْ البراء بنِ عازِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رَجلٌ يَقْرأُ سورةَ الكَهْفِ، وعِنْدَهُ فَرسٌ مَربوطٌ بِشَطَنَيْنِ فتَغَشَّته سَحَابَةٌ فجَعلتْ تدنو، وجعلَ فرسُه يَنْفِر منها. فلَمَّا أصبح أتَى النَّبِيَّ ﷺ. فذكرَ له ذلك فقال: «تِلكَ السَّكِينَةُ تَنزَّلَتْ للقُرآنِ»[3].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٢٥) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٨١٥) كتاب صلاة المسافرين.
«والآناءُ»: السَّاعاتُ.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠١١) كتاب فضائل القرآن - و مسلم (٧٩٥) كتاب صلاة المسافرين.
«الشَطَنُ» بفتح الشينِ المعجمة والطاء المهملة: الحَبْلُ.

۞ وهذا الرجل هو أُسيد بن حُضير رضي الله عنه ، وقد كان رجلًا فيه إخلاص وعبادة، وحب لله ... وقد كان هذا الرجل يذهب أحيانًا إلى النبى ﷺ ومعه شخصٌ آخر، فإذا رجع من عنده والليلة مظلمة وفى يده عصا، يجعل الله سبحانه العصا أمامهما نورًا، وكأنها مصباح وكشَّاف تُضىء له الطريق، وعندما يفترقان فى الطريق ويذهب هذا إلى بيته وهذا إلى بيته، يجعل الله عز وجل لكلٍّ منهما نورًا أمامه.

عن أنس أن أُسيد بن حضير وعبَّاد بن بشر كانا عند رسول الله ﷺ فى ليلة ظلماء قال: فلما خرجا من عنده أضاءت عصا أحدهما فكانا يمشيان فى ضوئها فلما تفرَّقا أضاءت عصا هذا وعصا هذا[1].

وقد كان أُسيد بن حُضير رضي الله عنه يظل ليله مُصليًا لله عز وجل.

وفى إحدى المرات قام يصلى من الليل رضي الله عنه ... قال: (وعنده فرس مربوط بشطنين) أى: فرس قد ربطه بحبلين فتغشته سحابة، فجعلت تدنو منه وهو يقرأ القرآن بالليل)، وفى رواية: (كان يقرأ سورة الكهف، فإذا بسحابة فيها مثل المصابيح -أى: ممتلئة بالنور- نازلة من السماء وابنه بجواره، والفرس بجواره، وهو يقرأ القرآن، فنفر الفرس، وجعل يهتز فى مكانه، وخشى أُسيد بن حضير رضي الله عنه ... فانتبه وجعل ينظر فإذا بهذه السحابة تدنو من رأسه.

فخاف على ابنه بجوار الفرس من أن يرفسه، فتوقف عن القراءة، فارتفعت السحابة ... فعاد يقرأ فنزلت عليه مرة ثانية... فترك القراءة خوفًا على ابنه، فلما أصبح ذهب إلى النبى ﷺ فذكر له ذلك، فقال النبى ﷺ : «**تلك السَّكينة تنزلت للقرآن**»، أى: نزلت السكينة من السماء، وهى سحابة فيها ملائكة الله عز وجل، ولو ظل يقرأ لنزلت الملائكة تُسلم عليه، ولأصبح الناس يُسلمون عليهم وتُسلم

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٦٥) كتاب الصلاة، (٣٨٠٥) كتاب مناقب الأنصار.

عليهم، ولكنه خاف على ابنه.

وقد جاء في الحديث الآخر أن النبي ﷺ قال له: **«اقرأ يا ابن حضير! اقرأ يا ابن حضير!»** أي: ليتك قرأت يا ابن حضير.

فقارئ القرآن يقرأ القرآن ويستمتع به، ولا يدري بالغيب الذي حوله، أن ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ يُنصتون له ويستمعون له، وأن السكينة تنزل على قارئ القرآن، ولذلك عندما تحضر مجالس العلم كن مستيقنًا بما قاله النبي ﷺ: **«ما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»**.

وهذه غيوب نحن لا نراها، ولكن نصدق بما قاله النبي ﷺ(١).

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَد قِيلَ فِي مَعنَى السَّكِينَةِ هُنَا أَشْيَاءُ الْمُخْتَارُ مِنْهَا أَنَّهَا شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ تعالى فيه طُمَأْنِينَةٌ وَرَحمَةٌ وَمَعَهُ الْمَلَائِكَةُ وَاللهُ أَعلَمُ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ رُؤْيَةِ آحَادِ الْأُمَّةِ الْمَلَائِكَةَ.

وَفِيهِ فَضِيلَةُ الْقِرَاءَةِ وَأَنَّهَا سَبَبُ نُزُولِ الرَّحمَةِ وَحُضُورِ الْمَلَائِكَةِ وَفِيهِ فَضِيلَةُ اسْتِمَاعِ الْقُرآنِ(٢).

۞ ونحن نعلم أن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة لها فضلٌ عظيم.

قال ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ»**(٣).

وقال ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»**(٤).

---

(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٦/ ١١٧).

(٣) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٤) صحيح: رواه البيهقي في شُعب الإيمان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧١).

۞ وهذه القصة من كرامات الأولياء... والأولياء لهم كرامات، لكن ليس لكل وليٍّ كرامة، وإنما يُؤتى الله بعضَ أوليائه كرامة تثبيتًا له وتصديقًا لما كان عليه من الحق ... وهى - يعنى الكرامات - أُمورٌ خارقة للعادة - يعنى لا تأتى على وفق العادة - يُجريها الله عَزَّوَجَلَّ على يدى بعض أوليائه تكريمًا له وتثبيتًا له وتصديقًا لما هو عليه من الحق... وهى فى نفس الوقت معجزة للرسول الذى يتبعه هذا الولى.

وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أن الخوارق ثلاثة أقسام:

(١) قسم آيات للأنبياء.

(٢) وقسم كرامات للأولياء.

(٣) وقسم إهانات من الشياطين يُجريها الله على خلاف العادة على أيدى الشياطين -والعياذ بالله-.

وعلامة ذلك أن الذى تحصل له هذه الخوارق إما أن يكون نبيًّا، أو وليًّا للرحمن، أو وليًّا للشيطان.

ومن المعلوم أنه بعد وفاة النبى محمد ﷺ لا يمكن أن تكون معجزةً أبدًا؛ لأن النبوة انقطعت، بموت رسول الله وخاتم النبيين ﷺ.... وبقيت الكرامات والأحوال الشيطانية والشعوذات والسحر وما أشبه ذلك.

و الكرامات علامتها أن يُجريها الله عَزَّوَجَلَّ على يد عبدٍ صالح من أولياء الله، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

فإذا أُجرى شىءٌ خارق للعادة على يد رجلٍ صالح مؤمن تقى معروف بالخير، قيل: هذه كرامة.

القسم الثالث: السحر والأحوال الشيطانية ... وهذه تجرى على الطواغيت وأولياء الشياطين الذين يدّعون أنهم أولياء، ويلعبون بعقول السفهاء وعقول

العامة ... ومن أحسن ما أُلِّف فى ذلك كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر فيها أشياءً كثيرة من كرامات الأولياء وأشياءً أخرى من إهانات الأعداء.

يذكر أن (مُسيلمة الكذاب) الذى خرج فى اليمامة بالرياض وادَّعى أنه نبى... أنه جاءه قوم فقالوا له: إن عندنا بئرًا غار ماؤها ولم يبقَ منه إلا قليل، وطلبوا منه أن يأتى إليها؛ لأجل أن يباركها، كما كان الرسول ﷺ إذا شكوا إليه قلة الماء يسَّر الله عَزَّوَجَلَّ على يديه ﷺ أن ينبع الماء من بين أصابعه ... فجاءوا إلى (مسيلمة الكذاب) فذهب إلى البئر، يقولون: إنه مَجَّ فيها مَجة من الماء..ولما مَجَّ فيها الماء غار الماء الموجود فيها...وكانوا يتوقعون أن الماء يَكثُر وينهمر فأراهم الله عَزَّوَجَلَّ آية لتكذيب هذا الرجل ... وهذا - لا شك - أنه أمرٌ خارق للعادة؛ لأنه ليس من العادة أن الإنسان يَمُج الماء فى بئرٍ ليس فيها إلا ماء قليل ثم يغار ... هذا خلاف العادة لكن الله أجرى ذلك إهانة له.

فعلى كلِّ حال إذا رأيت من شخصٍ ما يكون خارقًا للعادة فإن كان مؤمنًا تقيًّا يُعرف بالصلاح والاستقامة فهذا من كرامات الأولياء، وإن لم يكن كذلك فهى أحوال شيطانية من الشياطين، أو سحر يسحر به أعين الناس(١).

(١٠٠٦) وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرأ حرفًا مِنْ كتاب الله فلَهُ حسَنَةٌ ، والحسنةُ بِعشرِ أمثَالِها لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرفٌ، ولكن: أَلِفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، ومِيمٌ حرفٌ»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يوضح النبى ﷺ أن الذى يقرأ القرآن يفوز بحسناتٍ لا تخطر على قلب بشر.. فكل حرفٍ بعشر حسنات.. فإذا قرأت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٠٦-١٠٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٦٩).

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فتلك الآية تحتوى على (١٩) حرف فإن قرأتها فُزت بـ(١٩٠) حسنة فى ثوانٍ.. فما ظنك بمن يقرأ فى اليوم ثلاثة أجزاءٍ أو أكثر...

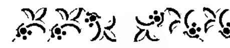
كان لى صديقٌ عزيز يقرأ كل يومٍ عشرة أجزاء.. ويختم كل ثلاثة أيام.. فلما سألته: كيف تقرأ عشرة أجزاء كل يوم؟. قال: أقرأ قبل كل فريضة جزءًا وبعد كل فريضة جزءًا.. وبذلك أقرأ عشرة أجزاء دون أى مشقة...

لكن يكفيك أن تواظب على قراءة ثلاثة أجزاء أو اثنين أو حتى على جزءٍ واحدٍ على الأقل... وتستطيع أن تقرأ ثمانية أجزاء أحيانًا فى ثلاثة ساعات فتفوز بمليون حسنة «مَن سيربح المليون؟»... فاحرصوا على الإكثار من قراءة القرآن لتفوزوا بملايين الحسنات.. فقد يحتاج أحدكم يوم القيامة إلى حسنة واحدة ليدخل بها الجنة.



(١٠٠٧) وعنْ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الذى لَيس فى جَوْفِهِ شَىءٌ مِنَ القُرآنِ كالبيتِ الخَرِبِ»[(١)].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.



(١٠٠٨) وعنْ عبدِ اللهِ بن عمرو بن العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عنِ النَّبىِّ ﷺ قال: «يُقَالُ لِصاحبِ القُرآنِ: اقْرأ وارتَقِ ورَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ فى الدُّنيا، فإنَّ مَنْزِلتَكَ عِنْدَ آخرِ آيةٍ تَقرؤُها»[(٢)].

۞ وهذه مكافأة للإنسان المؤمن عند الله عَزَّ وَجَلَّ.... فإن المؤمن حين يدخل الجنة يفرح فرحًا عظيمًا، ثم تأتيه هذه المكافأة من الله عَزَّ وَجَلَّ فيُقال له: كما كنت تقرأ فى الدنيا أى: كما كنت تقرأ فى الدنيا تَعبُّدًا لله فالآن اقرأ بين يدى الله عَزَّ وَجَلَّ

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٥٢٤).
(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٢٢).

حتى ترتفع فى الدرجات ... وليس كما كنت تقرؤه فى الدنيا تكليفاً، ولكن اقرأه الآن تشريفًا لك، وذلك حين تقرأ القرآن وتُرتله بصوتٍ جميل بين يدى الله سبحانه وتعالى: «**يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتقِ** -أى: ارتفع- **ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**».

والقرآن ستة آلاف ومئتان وستٌّ وثلاثون آية... وكل آية تقرؤها فإنك ترتقى بها درجة فى الجنة... فإذا كنت تحفظ القرآن كله فإنك تعلو إلى أعلى الدرجات، وإذا كنت تحفظ بعضه فإنك تعلو بحسب ما تحفظ منه، وهذا يدفع المؤمنين للتنافس فى ذلك، فيتنافسون فى حب الله عَزَّوَجَلَّ، وفى حفظ كتابه ... ولا تيأس ولا تعجز، وحاول أن تحفظ من القرآن حتى آية فى كل يوم، وراجع ما حفظته قبل ذلك، ... واعلم أن الإنسان قد يجلس وهو يريد أن يحفظ فيحاول أن يحفظ رُبعًا كاملًا فلا يستطيع أن يحفظ منه شيئاً، فيقوم وقد نسيه كله.

وليس ذلك هو المطلوب؛ فالإنسان لا تأخذه الحماسة فيريد أن يحفظ كل شيء مرة واحدة؛ لأن ذلك ليس ممكناً، بل هو صعبٌ جدًّا، وخاصة إذا لم يكن متعودًا على الحفظ، فيحتاج إلى أن يتعود شيئًا فشيئاً، فيحفظ أولًا آية واحدة، ويُرددها فى نهاره وغده إلى أن يحفظها، ثم يضم إليها غيرها، ولا يزال يحفظ كذلك إلى أن يحفظ القرآن كله، أو ما استطاع حفظه منه ... وليبدأ بما يحبه، وبما يستمتع به، فقد يكون يحب أن يحفظ سورة يس، وغيره يحب أن يحفظ سورة الرحمن، وهكذا، فليبدأ بما يحب، وليس شرطًا أن يبدأ من أول البقرة، أو من أول جزء عم، ولكن السورة التى تستهويه ويحبها يبدأ بها؛ لأنها ستكون سهلة عليه، وليضم إليها غيرها وغيرها، وسيجد نفسه فى النهاية قد حفظ الكثير من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، بل حفظه كله بفضل الله عَزَّوَجَلَّ(١) .

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين).

(١٨١) باب الأمر بتعهُّد القرآن والتحذير من تعريضه للنسيان

(١٠٠٩) عنْ أبى مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «تَعاهَدُوا هذا القُرآنَ فوالذى نَفْسُ محمَّدٍ بِيدِهِ لهُو أشَدُّ تَفَلُّتًا مِن الإبِلِ فى عُقُلِها»[1] .

۞ ففى هذا الحديث يأمرنا النبى ﷺ بأن نتعاهد القرآن.. أى: أن نحفظه ونداوم على مراجعته كل يومٍ وأن نجعل له وقتًا ثابتًا للمراجعة ونداوم على ذلك.. وذلك لأن القرآن كما ذكر النبى ﷺ كالإبل فى عُقلها إذا تعهدها الإنسان أمسكها وإن أطلقها ذهبت وضاعت ... وقد أقسم على ذلك النبى ﷺ حين قال كما فى حديث أبى موسى الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«تعاهدوا القرآن، فوالذى نفسى بيده لهو أشد تَفلُّتًا من الإبل فى عُقُلها»**.

أى: مثل الجمل حين يبقى مربوطًا فى عقاله ويحاول أن يفلت منه ليمشى... وكذلك القرآن إن لم تحافظ عليه فإنه يضيع منك ولن تستطيع أن تتذكره.

وإن الذى يحفظ القرآن يتفلت منه بسرعة ... والنبى ﷺ قد أُنسى آية وهو يصلى بالناس، وذكَّره بها أُبى بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد الصلاة، فكيف بغيره ﷺ؟! فالقرآن يتفلت من الإنسان.

فلا بُد أن نتعاهد القرآن دائمًا بالحفظ والمراجعة...

وتأسَّ بالنبى ﷺ، فقد كان جبريل ينزل عليه كل سنة فى رمضان فيراجع مع النبى ﷺ ما يحفظه من القرآن، ويتدارسه معه.

وقد وردت أحاديث كثيرة فى التحذير من نسيانه لمن أهمله... أما مَن نساه

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٣٣) كتاب فضائل القرآن - ومسلم (٧٩١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

بمقتضى الطبيعة فإنه لا يضر، لكن مَن أهمله وتغافل عنه – بعد أن أنعم الله عليه بحفظه – فإنه يُخشى عليه من العقوبة.

فأنت – يا أخي – إذا مَنَّ الله عليك بالقرآن فتعاهده بالقراءة بتلاوته .. أي: بتكرار التلاوة وكذلك أيضًا بالعمل به؛ لأن العمل بالشيء يؤدي إلى حفظه وبقائه... ولهذا قال بعض العلماء: قيِّد العلم بالعمل به، فإن العمل بالعلم يقتضي بقاءه؛ لأنه لا يزال على قلبك وعلى جوارحك، فإذا صار هكذا فإنه يبقى ولا يُنسى، أما إذا أُهمل فإنه يضيع.

(١٠١٠) وعنْ ابنِ عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّمَا مَثَلُ صاحِبِ القُرآنِ كمَثَلِ الإبِلِ المُعقَّلَةِ، إنْ عَاهَد عليها أمْسَكها، وإنْ أطْلَقَها ذَهبتْ»(١).

ففي هذا الحديث يضرب النبي ﷺ مثلًا بما كان في البيئة عندهم ... فإن الرجل منهم إذا كان عنده جِمالٌ فربطها وواظب على أن ينظر إلى الحبل الذي ربطها به أهو سليم أو غير سليم فقد حافظ عليها، وأما إذا غفل عنها فإنها تذهب عنه فلا يجدها.

وكذلك القرآن، فإننا إذا لم نتعاهد كتاب الله عز وجل بالمذاكرة والحفظ والمراجعة فإننا سوف ننساه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٣١) كتاب فضائل القرآن – ومسلم (٧٨٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(١٨٢) باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن وطلب القراءة من حَسَنِ الصوت والاستماع لها

۞ فقارئ القرآن ينبغى أن يُحسن صوته بالقرآن، وأن يتغنى به، تعظيمًا وتوقيرًا لكتاب الله سبحانه وتعالى ... والنبى ﷺ لم يذكر ذلك فى غير القرآن، فلم يذكر شيئًا ثانيًا، لا التغنى بحديث النبى ﷺ، ولا التغنى بالشعر، ولا التغنى بالكلام، ولا التغنى فى الخطبة، ولا التغنى فى الدعاء، وإنما ذكر التغنى بالقرآن فقط.

۞ وقد ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فى كتابه (رياض الصالحين) فى آداب القراءة: باب استحباب تحسين الصوت بالقراءة، وطلب القراءة من حَسَنِ الصوت والاستماع إليه ... هاتان مسألتان:

المسألة الأولى: استحباب تحسين الصوت فى قراءة القرآن.

وتحسين الصوت ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: تحسين الأداء بحيث يبين الحروف ويُخرجها من مخارجها حتى يبدو القرآن واضحًا بيِّنًا، فلا يخفى ولا يُحذف شىءٌ من الحروف؛ لئلا ينقص شىء مما أنزله الله على رسوله ﷺ.

الثانى: تحسين النغمة بالصوت، يُحسن به صوته، وكلاهما أمرٌ مطلوب... ولكن الأمر الأول - تحسين الأداء - لا ينبغى المبالغة فيه والغلو فيه بحيث تجد الرجل يقرأ القرآن يتكلف ويُحمر وجهه، ويتكلف فى الغُنة وفى الإدغام وفى مثل ذلك فإن هذا من إقامة الحروف المتكلفة.

ولكن لتكن قراءته طبيعية يُبين فيها الحروف والحركات ... هذا هو المطلوب، وأما الغُلو والمبالغة فإنهما ليسا مطلوبين ... وبه نعلم أن تعلم التجويد

ليس بواجب؛ لأنه يعود إلى تحسين الصوت بدون غلو ولا مبالغة، فهو من الأمور المستحبة التي يتوصل بها الإنسان إلى شيءٍ مُستحب لا إلى شيءٍ واجب.

وأما القسم الثاني: هو تحسين الصوت فقد يقول قائل: حُسن الصوت ليس باختيار الإنسان؛ لأن الله تعالى هو الذي يَمُن على مَن يشاء من عباده، فيعطيه حنجرة قوية وصوتًا طيبًا ... فيُقال: نعم، الأمر كذلك، لكن يُحسن الإنسان الصوت بالتعلُّم؛ لأن حسن الصوت غريزي ومُكتسب ... فلا يزال يقرأ بصوتٍ حسن حتى يتعلم ويؤدي بصوتٍ حسن[1].

(١٠١١) عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما أذِنَ الله لشَيءٍ ما أذِنَ لِنَبيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يتغَنَّى بالقُرآنِ يَجْهَرُ بِهِ»[2].

۞ ففي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «ما أذِنَ الله لشَيءٍ» أي: ما استمع الله لشيءٍ من الأشياء التي يسمعها عَزَّ وَجَلَّ «ما أذِنَ لِنَبيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يتغَنَّى بالقُرآنِ يَجْهَرُ بِهِ» أي: ما استمع الله عَزَّ وَجَلَّ لشيءٍ من الأشياء التي يسمعها -والله يسمع كل شيء عَزَّ وَجَلَّ- مثل استماعه لنبيٍّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به ليُسمع الناس حوله فيتعلموا ويستمتعوا.

والمقصود هنا هو النبي ﷺ نفسه.. فليس هناك نبيٌّ غيره يقرأ القرآن على أصحابه.. ولكن من تواضع النبي ﷺ أخبر بذلك على وجه الالتفات ولم يَقُل: ما أَذِنَ الله لشيء ما أَذِنَ لي أن أتغنى بالقرآن.. ولذا كان النبي ﷺ يتغنى بالقرآن ويُجمل صوته في قراءته مع أنه ليس هناك صوت أجمل من صوت النبي ﷺ.. ولكنه كان يفعل ذلك من أجل أن يتعلم أصحابه وتتعلم الأمة كلها.

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٠٩-١١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٤٤) كتاب التوحيد - ومسلم (٧٩٢) كتاب صلاة المسافرين.

معنى «أذِنَ الله»: أي اسْتَمعَ، وهو إشارَةٌ إلى الرِّضَا والقَبُول.

(١٠١٢) وعنْ أبي موسى الأشْعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال له: «لَقَد أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ داود»[١].

وفي روايةٍ لمسلمٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قال لهُ: «لَوْ رأيْتَني وأنا أسْتَمِعُ لِقِراءَتِكَ البَارِحةَ».

وفي رواية أبي يعلى: أن النبي ﷺ وعائشة مرَّا بأبي موسى وهو يقرأ في بيته، فقاما يستمعان لقراءته، ثم إنهما مضيا. فلما أصبح لقي أبو موسى رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا موسى، مررت بك» فذكر الحديث ... فقال «أما إني لو علمت بمكانك لحبَّرته لك تحبيرًا».

وفي رواية ابن سعد: «أن أبا موسى قام ليلة يصلي، فسمع أزواج النبي ﷺ صوته -وكان حلو الصوت- فقُمن يستمعن، فلما أصبح قيل له، فقال: لو علمت لحبَّرته لهن تحبيرًا»[٢].

۞ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَوْ رأيْتَني وأنا أسْتَمِعُ لِقِراءَتِكَ البَارِحةَ» أي: لأعجبك ذلك.. لأن مجرد استماع النبي ﷺ لصوت أي إنسانٍ يقرأ القرآن ويقف فترة ليستمع إليه فهذه منقبة لا توازيها الدنيا بما فيها.. فما ظنك وقد أثنى عليه بعدها وقال له: «لَقَد أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ داود».. والمقصود بآل داود هو داود نفسه عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أنعم الله عليه بصوتٍ في غاية الحُسن والجمال ... فكان إذا قرأ بصوته الجميل في الزبور سمعته الجبال والطيور فتُسبح معه في الليل والنهار.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٤٨) كتاب فضائل القرآن - ومسلم (٧٩٣) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) فتح الباري (٨/ ٧١١).

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

فكان الله تعالى قد وهب داود (عليه الصلاة والسلام) من الصوت الجميل ما لم يُعطه أحدًا بحيث إنه كان إذا ترنَّم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يُرجِّع بترجيعه ويُردد، ويُسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتُسبِّح معه، كلما سبَّح بُكرة وعشيًّا.

قال عبد الله بن عامر: أُعطى داود من حُسن الصوت ما لم يُعطَ أحدٌ قطُّ، حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا، وحتى إن الأنهار لتقف[1].

وقد كان الصحابة يستمعون لأبى موسى الأشعرى بعد وفاة النبى ﷺ، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأتى أبا موسى ويقول: ذكِّرنا بالله.

فيقرأ أبو موسى والكل يستمعون إليه فى ذلك المجلس.

۞ وأما قول أبى موسى رضي الله عنه: «أما إنى لو علمت بمكانك لحبَّرته لك تحبيرًا» أى: لو علمت أنك تستمع إلى قراءتى يا رسول الله ﷺ لزيَّنت صوتى وجمَّلته أكثر لتستمتع يا رسول الله..

وحاشا لله أن يقصد أبو موسى أن يُرائى بذلك ولكنه أراد إدخال البهجة والسعادة على قلب النبى ﷺ.

وفى هذا دليل على أن الإنسان لو حسَّن صوته بالقرآن لأجل أن يتلذذ السامع ويُسَرُّ به فإن ذلك لا بأس به ولا يُعَدُّ من الرياء بل هذا مما يدعو إلى الاستماع لكلام الله عز وجل حتى يُسَرُّ الناس به ... ولهذا يوجد بعض الناس إذا ضاق صدره استمع إلى قراءة إنسان حسن القراءة حسن الصوت.

وهذه متيسرة الآن فى أشرطة لبعض القُرَّاء الذين لا يتكلفون القراءة

---

(١) قصص الأنبياء / د. محمود المصرى (ص ٥٥٢-٥٥٣).

وأصواتهم حسنة وأداؤهم حسن إذا استمع الإنسان إليهم لا يكاد يمل لأن كلام الله له تأثير إذا جاء من إنسانٍ حسن الصوت وحسن الأداء لا يمل.

قال القاضى: أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها... قال أبو عبيد: والأحاديث الواردة فى ذلك محمولة على التحزين والتشويق... قال: واختلفوا فى القراءة بالألحان فكرهها مالك والجمهور؛ لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهُّم. وأباحها أبو حنيفة وجماعة من السلف للأحاديث، ولأن ذلك سبب للرقة وإثارة الخشية وإقبال النفوس على استماعه[١].

(١٠١٣) وعن البراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ النَّبىَّ ﷺ قرأ فى العِشاءِ بالتينِ والزَّيْتُون، فما سَمِعتُ أحدًا أحسَنَ صَوْتًا منه[٢].

۞ ففى هذا الحديث يخبر البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبى ﷺ وهو يقرأ فى العِشاء بالتين والزيتون.. ثم يُعلق على ذلك ويقول: فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا منه ﷺ.

ولا عجب فى ذلك.. فالله عَزَّ وَجَلَّ يستمع إلى النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن...

وقد كان إذا قرأ يُسمَع فى صدره أزيزٌ كأزيز المِرجل، من خوفه من الله عَزَّ وَجَلَّ، وبكائه ﷺ، ومع ذلك كان هذا لا يؤثر على جمال صوته، وحُسن تلاوته، ﷺ.

نعم... لقد كان رسول الله ﷺ أجمل الناس صوتًا.. ولا عجب فى هذا فقد كان ﷺ أجمل الناس خَلقًا وخُلقًا وصوتًا.. لقد كان أجمل الناس فى كل شىء.

فهو أول وأولى مَن يدخل فى قوله: **«مَا أَذِنَ اللهُ لِشَىْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِىٍّ حَسَنِ**

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ١١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٤٦) كتاب التوحيد، ومسلم (٤٦٤) كتاب الصلاة.

الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرآنِ، يَجْهَرُ بِهِ ».

وفي هذا الحديث دليلٌ على أنه يجوز أن نصلي العشاء بقصار السور وإن كان الأفضل أن نصلي بأوساط السور لأن النبي ﷺ أمر معاذ بن جبل أن يقرأ فيها بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ وما أشبه ذلك.

(١٠١٤) وعن أبى لُبابَةَ بشير بنِ عبدِ المُنْذِر رَضِوَالِلَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قال: «مَنْ لم يتغَنَّ بالقُرآنِ فَلَيْسَ مِنَّا»(١).

۞ وهذه الكلمة لها معنيان: الأول «من لم يتغنَّ به» أى من لم يستغنِ به عن غيره بحيث يطلب الهدى من سواه فليس منا ... فهذا لا شك أن مَن طلب الهدى من غير القرآن أضله الله والعياذ بالله.

والمعنى الثانى «من لم يتغنَّ» أى مَن لم يُحسن صوته بالقرآن فليس منَّا فيدل على أنه ينبغى للإنسان أن يُحسن صوته بالقرآن وأن يستغنى به عن غيره(٢).

فالقرآن ليس كغيره من الكلام، وإنما هو كلام رب العالمين، نزل به جبريل الروح الأمين على النبى سيد المرسلين ﷺ... نزل عليه فعلمه كيف يتلوه، وقال له ربه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

فقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أى: لا تُحرك لسانك لتعجل؛ بل

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٤٢)، والحديث رواه البخارى بنحوه (٧٥٢٧) كتاب التوحيد من حديث أبى هريرة بلفظ: «لَيسَ مِنَّا مَن لَمْ يتغنَّ بالقُرآن».
۞ ومعنى «يتغنَّى» يُحسِّنُ صَوْتَهُ بالقُرآنِ.

(٢) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١١٢).

اصبر واسمع جيدًا لهذا القرآن، ونحن نُحفِّظك إياه، ونُعلمك أحكامه، ونعلمك كيف تقرؤه.

والنبى ﷺ يُعلم المؤمنين، ويأمرهم أن يتغنوا بالقرآن، فيقول ﷺ: **«مَن لم يتغنَّ بالقرآن فليس منا»**، أى: إن قارئ القرآن لا يقرؤه كما يقرأ أى كتابٍ آخر، وكما يقرأ أى كلامٍ آخر، ولكن يقرأ القرآن مُستشعرًا أنه يُؤجَر على كل حرفٍ منه، فيُحسن التلاوة، ويتعلم كيف يُجود القرآن، ويتعلم أحكام القرآن، وأحكام التجويد، وأحكام القراءة، ويُتقن القراءة، ويتغنى بها، ولا يقيس على القرآن غيره، ولا يجعل شيئًا آخر كالقرآن.

وفى زماننا الآن ما أكثر ما ابتدع الناس من بدعٍ! فقد تغنَّوا بالقرآن، وبدءوا يتغنون بغير القرآن ... والنبى ﷺ لم يذكر سوى القرآن فقط، فقال: **«ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»**، حتى حديث النبى ﷺ لا يُتغنى به.

أما أن يقف الإمام على المنبر ويخطب ويتغنى، فما جاء ذلك عن النبى ﷺ ذلك، إلا أنه كان يقرأ القرآن ويتغنى به، ﷺ(1).

***

(١٠١٥) وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ لى النَّبىُّ ﷺ: «اقْرأ علىَّ القُرآن» فقلتُ : يا رسُولَ الله، أقرأُ عليْكَ وعَلَيْكَ أُنْزِل؟ قال: «إنِّى أُحِبُّ أنْ أسْمَعهُ مِن غَيْرى» فقرأتُ عليه سُورة النِّساء حتى جِئتُ إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ قال: «حَسْبُكَ الآنَ» فالتَفَتُّ إليه، فإذا عَيْناهُ تَذْرِفان(2).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٥١) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

---

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين/ للشيخ أحمد حطيبة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٨٢) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين.

(١٨٣) باب في الحثِّ على سورٍ وآياتٍ مخصوصة

۞ القرآن كله عظيم، ولكن لا مانع من أن تكون آية أفضل من غيرها، وليس المعنى حين نقول: هذه أفضل من هذه، أن هذه أقل... بل القرآن كله فاضلٌ وعظيم ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جعل البعض منه أفضل من البعض الآخر.

(١٠١٦) عن أبى سعيد رافعِ بن المُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لى رسول الله ﷺ: «ألا أُعَلِّمُكَ أعظَم سُورةٍ فى القُرآنِ قَبْلَ أنْ تخْرُج مِن المسجدِ ؟ » فأخَذَ بيدى، فلمَّا أرَدنَا أن نَخرُج قُلْتُ : يا رسولَ الله إنَّكَ قُلْتَ لأُعَلِّمنَّكَ أعظَم سورةٍ فى القُرآنِ؟ قال: «الحَمْدُ لله ربِّ العَالمينَ هى السَّبْعُ المثانى، والقُرآنُ العَظِيمُ الذى أُوتيتُهُ»[1].

۞ وفى رواية لهذا الحديث أنه قال: «كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أُجبه، فقلت: يا رسول الله إنى كنت أصلى، فقال: **ألم يَقُل الله:** ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ؟ ثم قال لى: **لأُعلمنَّك** سورة هى **أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد**».

فلما ناداه النبى ﷺ أولًا لم يرد عليه ولكنه أسرع فى صلاته

وذهب إلى النبى ﷺ ؛ لأنه يعلم أن معنى قول الله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨] أنه لا يقطع صلاته حتى ينتهى منها.

فقال له النبى ﷺ : «**ما منعك أن تُجيبنى**؟ قال: كنت فى صلاة»، وظن أن النبى ﷺ كغيره، ولم يعلم أن النبى ﷺ له حُكمٌ آخر فى صلاة النافلة، وهو وجوب إجابة النبى ﷺ وقطع صلاة النافلة... لأن هذه الصلاة نافلة، وإجابة النبى ﷺ واجبة، فإذا تعارضا فيجب عليه إجابة النبى ﷺ، والخروج من النافلة.

فقال له النبى ﷺ: «**ألم يقل الله** عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]).

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٧٤) كتاب تفسير القرآن.

أى: أليس الله قال هكذا؟ ثم علَّمه النبى ﷺ، فقد أراد أن يُعلمه ما يحيا به، وما يملأ قلبه نوراً، فقال له ﷺ: «**ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد**؟ قال: فأخذ بيدى فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله! إنك قلت: **لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن**، فقال النبى ﷺ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أُوتيته**».

۞ وَفِى حَدِيثِ أَبِى هُرَيْرَةَ: أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِى التَّوْرَاةِ وَلَا فِى الْإِنْجِيلِ وَلَا فِى الزَّبُورِ وَلَا فِى الْفرقَان مثلهَا.

قَالَ ابن التِّينِ: مَعناهُ أَنَّ ثَوابَهَا أَعظَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ تَفْضِيلِ بَعضِ الْقُرآنِ عَلَى بَعضٍ وَقَد مَنَعَ ذَلِكَ الْأَشْعَرِىُّ وَجَمَاعَةٌ لِأَنَّ الْمَفْضُول نَاقِصٌ عَنْ دَرَجَةِ الْأَفْضَلِ وَأَسْمَاءَ الله وَصِفَاته وَكَلَامه لا نقص فِيهَا ... وَأَجَابُوا عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ مَعنَى التَّفَاضُلِ أَنَّ ثَوَابَ بَعضِهِ أَعظَمُ مِنْ ثَوَابِ بَعضٍ فَالتَّفْضِيلُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ الْمَعَانِى لَا مِنْ حَيْثُ الصِّفَةُ ... وَيُؤَيِّدُ التَّفْضِيلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ قال ابن عَبَّاسٍ فِى قَوْلِهِ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾. أَىْ فِى الْمَنْفَعَةِ وَالرِّفْقِ وَالرِّفْعَةِ.

وَاخْتُلِفَ فِى تَسْمِيَتِهَا مثانى ... فَقيل: لِأَنَّهَا تُثَنَّى فِى كُلِّ رَكْعَةٍ أَىْ تُعَادُ.

وَقِيلَ لِأَنَّهَا يُثْنَى بِهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى ... وَقِيلَ: لِأَنَّهَا اسْتُثْنِيَتْ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ لَمْ تَنْزِلْ عَلَى مَنْ قَبْلَهَا(١).

۞ وقد ورد أن هذا الأمر قد تكرر حدوثه مع الصحابى الجليل أُبى بن كعب رضي الله عنه .. ولذا فسوف أذكره الآن وسأذكر بعده عدة أحاديث فى فضل الفاتحة.

عن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج على أُبى بن كعب فقال: «يا

(١) فتح البارى (٨/ ٨) بتصرف.

أُبى!» -وهو يصلى- فالتفت أُبى فلم يُجبه، وصلى أُبى فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «**وعليك السلام، ما منعك يا أُبى أن تُجيبنى إذ دعوتُك؟**». فقال: يا رسول الله! إنى كنتُ فى الصلاة. قال: «**فلم تجد فيما أوحى الله إلىَّ أن** ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟»[الأنفال: ٢٤]. قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله. قال: «**أتحب أن أعلمك سورةً لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلُها**». قال: نعم يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «**كيف تقرأ فى الصلاة؟**». قال: فقرأ (أم القرآن) فقال رسول الله ﷺ: «**والذى نفسى بيده، ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها، وإنها سبعٌ من المثانى والقرآن العظيم الذى أُعطيته**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبى فى مسير فنزل، ونزل رجلٌ إلى جانبه، قال: فالتفت النبى ﷺ فقال: «**ألا أخبرك بأفضل القرآن؟**». قال: بلى. فتلا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٢).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، - وفى رواية: فنصفُها لى ونصفُها لعبدى-. فإذا قال العبد:**﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ **قال الله: حَمِدنى عبدى. فإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قال: أثنى علىَّ عبدى. فإذا قال:** ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قال: مجّدنى عبدى. وإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل.**

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٧٩).

(٢) صحيح: رواه الحاكم وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٤٩٩).

﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدى، ولعبدى ما سأل»[١].

وعن واثلة بن الأسقع؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**أُعطيتُ مكان التوراة السبع**[٢]، **وأعطيتُ مكان الزبور المِئين**[٣]، **وأُعطيت مكان الإنجيل المثانى**[٤]، **وفُضِّلتُ بـ (المُفصَّل)**[٥]»[٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما جبريل قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، وَلَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ إِلَّا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ فَقَالَ: أَبْشِرْ بِسُورَتَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَمْ تَقْرَأْ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُوتِيتَهُ**»[٧].

۞ فسورة الفاتحة هى أعظم سورة فى كتاب الله؛ ولهذا تُسمَّى أم القرآن... والأم هو الذى يرجع إليه الشىء...فسورة الفاتحة ترجع إليها معانى القرآن كلها؛ ولذلك أوجب الله قراءتها فى كل ركعة من الصلوات فقال النبى ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن أو بفاتحة الكتاب**»[٨].

وهذه السورة لها خصائص منها: أن الإنسان إذا قرأها على مريضٍ فإنه

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٩٥) كتاب الصلاة.

وقوله: «قسمت الصلاة» يعنى: القراءة، بدليل تفسيره بها... وقد تُسمَّى القراءة صلاة لكونها جزءًا من أجزائها. والله أعلم.

(٢) يعنى السور السبع الطوال، وهى من (البقرة) إلى (براءة) - أى: سورة التوبة -.

(٣) وهى من السور ما كان فيها مائة آية فأكثر.

(٤) أى: السبع المثانى. وهى الفاتحة كما تقدم، وسُميت بذلك لأنها تُثَنَّى فى كل صلاة.

(٥) والمراد به السور التى كثرت فصولها، وهى من (الحجرات) إلى آخر القرآن على الصحيح، كما فى «فتح البارى» (٩/ ٧٤).

(٦) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٥٩).

(٧) صحيح: رواه مسلم (٨٠٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٨) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٦) كتاب الأذان، ومسلم (٣٩٤) كتاب الصلاة.

يشفي بإذن الله، لكن بشرط: أن يقرأها بإيمانٍ ويقين - يعني وهو مؤمن وعلى يقين- على أنها رُقية نافعة.

والشرط الثاني: أن يقرأها على مريضٍ مؤمنٍ أيضًا مُصدق بأنها رقية ونافعة...ويدل على هذا أن النبي ﷺ بعث سرية، فنزلوا على قومٍ فاستضافوهم ولكن القوم لم يُضيفوهم، فسلط الله على سيدهم - أي سيد القوم - أن لدغته عقرب، وتأذَّى منها أذى شديدًا، فقال بعضهم: اذهبوا إلى هذا الرهط لعلَّ فيهم قارئًا يقرأ، فجاءوا إلى السرية، وقالوا: إن سيدهم لدغته عقرب فهل منكم أحدٌ يقرأ؟ قالوا: نعم، لكن ما نقرأ عليكم إلا إذا أعطيتمونا مكافأة غنمًا .. فقالوا: نعطيكم، فتقدم أحد القوم من الصحابة، فجعل يقرأ عليه سورة الفاتحة - وهو أشد ما يكون من الألم - فقرأ عليه، فقام الرجل المريض كأنما نَشِطَ من عِقالٍ... يعني: كأنه بعير فك عقاله، ليس فيه داء .. فأعطوهم الغنم، ثم قال بعضهم لبعض: نخشى أن تكون الغنم حرامًا...لا نأكل منها حتى نصل إلى النبي ﷺ ونسأله..

فلما وصلوا المدينة وأخبروا النبي ﷺ قال لهم: «**خذوها واضربوا لي معكم بسهم**» يعني اجعلوا لي سهمًا منها...وإنما قال ذلك تطييبًا لقلوبهم، وإلا فهو في غِنًى عن هذا لكن تطييبًا لقلوبهم وبيانًا لحِلِّ هذا الشيء... ثم قال للذي قرأها: «**وما يُدريك أنها رُقية؟**»...فإذا قرأ الإنسان على مريض - وهو مؤمن أنها رقية - والمريض مؤمن كذلك بأنها نافعة بإذن الله فإن الله تعالى ينفع بها نفعًا عجيبًا.

هذا من فضائل سورة الفاتحة، وهي أعظم سورة في كتاب الله[١].

(١٠١٧) وعن أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ فِي قِرَاءَةِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: «والذي نَفْسِي بِيدِهِ، إنَّها لتَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ».

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١١٣-١١٤).

وفى روايةٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لأصحابِهِ: «أيَعجِزُ أحَدُكُم أنْ يقرأ بثُلُثِ القُرآنِ فى لَيْلَةٍ» فشَقَّ ذلكَ عليْهِم، وقالوا: أيُّنا يُطِيقُ ذلكَ يا رسول الله؟ فقال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: ثُلُثُ القُرآنِ»[1].

(١٠١٨) وعن أبى سعيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه أنَّ رجُلًا سمِعَ رجُلًا يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُها فلَمَّا أصبحَ جاءَ إلى رسولِ الله ﷺ، فذَكَر ذلكَ لهُ.. وكانَ الرَّجُلُ يتَقالُّها، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «والذى نَفْسِى بيَدِهِ إنَّها لَتعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ»[2].

(١٠١٩) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال فى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: «إنَّها تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ»[3].

❁ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تُسمى سورة الإخلاص لأن الله عز وجل أخلصها لنفسه فلم يذكر فيها شيئًا إلا أسمائه وصفاته عز وجل.

وهى سورة مكية وقد تحدثت عن صفات الله (جل وعلا) الواحد الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغنى عن كل ما سواه، المُنزَّه عن صفات النقص، وعن المُجانسة والمماثلة... وردَّت على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين.

روى أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد صِفْ لنا ربَّك، أمن ذهبٍ هو، أم من فضةٍ، أم من زبرجدٍ، أم من ياقوت؟! فنزلت[4] ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

أى: ﴿قُلْ﴾: قولًا جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٠١٥) كتاب فضائل القرآن.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٠١٣) كتاب فضائل القرآن.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨١٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صفوة التفاسير (٣/ ٥٩٤).

أى: قد انحصرت فيه الأحدية؛ فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذى له الأسماء الحُسنى والصفات الكاملة العُليا والأفعال المُقدَّسة، الذى لا نظير له ولا مثيل.

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾؛ أى: المقصود فى جميع الحوائج..فأهل العالم العلوىِ والسُّفلىِ مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونَه حوائجَهم، ويرغَبون إليه فى مُهمَّاتهم؛ لأنه الكامل فى أوصافه، العليم الذى قد كمل فى علمه، الحليم الذى قد كمل فى حلمه، الرحيم الذى كمل فى رحمته، الذى وسعت رحمتُه كل شىء... وهكذا سائر أوصافه.

۞ ومن كماله أنه[1] ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ لم يلد: ليس له أولاد عَزَّوَجَلَّ لأنه غنى عن كل أحد، قال الله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ﴾ وفى هذا رَدٌّ وإبطال لما ادَّعته اليهود والنصارى والمشركون... اليهود قالوا: عُزيرٌ ابن الله.

يعنى قالوا: إلهٌ يلد وابنه عُزير... والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، فأبطل الله ذلك كله بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وذلك لأنه عَزَّوَجَلَّ هو الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الآخر الذى ليس بعده شىء .... أما الرب (جل وعلا) فإنه أول أزلىٌّ أبدى.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ يعنى: لا أحد يكافئه ويكون ندًّا له، لا فى علمه ولا فى أسمائه، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله؛ تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

وهذه السورة أقسم النبى ﷺ أنها تعدل ثُلث القرآن، وقال لأصحابه: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ ثُلث القرآن فى ليلة؟**» فشقَّ عليهم ذلك... فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

(١) تفسير السعدى (ص ١١٠٦-١١٠٧).

﴿كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ تعدل ثلث القرآن. يعني: أجرها كأجر ثلث القرآن، لكنها لا تُجزئ عن القرآن، ولهذا لو قرأها الإنسان مثلًا ثلاث مرات بدل قراءة الفاتحة في الصلاة لا تُجزئ... لأن هناك فرقًا بين المعادلة في الأجر والمعادلة في الإجزاء... قد يكون الشيء مُعادلًا لغيره في الأجر ولكنه لا يُعادله في إجزائه، أرأيتم مثلًا إذا قال الإنسان: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل**»(١) يعني يعادل كفارة عتق أربعة رقاب، لكن لو كان عليه كفارة عتق رقبة وقال ذلك ما نفعه ذلك ... فهناك فرق بين المعادلة في الثواب والمعادلة في الإجزاء ... فهي تعدل ثلث القرآن في الثواب ولكنها لا تعدل في الإجزاء، ولهذا لو قرأها الإنسان ثلاث مرات في الصلاة لم تُجزئه عن الفاتحة(٢).

۞ ففي الحديث الأول أن النبي ﷺ لما قال لأصحابه: «**أَيَعجِزُ أَحَدُكُم أَنْ يقرأَ بثُلُثِ القُرآنِ في لَيْلَةٍ**».. والنبي ﷺ يعلم أن أكثر الناس يعجزون عن ذلك ولا يستطيع فعل ذلك إلا مَن أعانه الله عَزَّوَجَلَّ .. فقد كان عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي بالقرآن كله في ركعة الوتر.. وفعلها بعض السلف.. وكان عُروة بن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ يقرأ ربع القرآن في النهار ويقوم به في الليل.. وما تركه إلا في الليلة التي قُطعت فيها رجله.

الشاهد: أن النبي ﷺ لما قال ذلك شَقَّ على الصحابة وقالوا: أينا يُطيق ذلك يا رسول الله؟.. فإذا بالنبي ﷺ يوضح لهم أن الأمر أسهل وأيسر مما يتخيلون فقال ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: **ثُلُثُ القُرآنِ**».. أي: تعدل ثُلث القرآن في الأجر والثواب وليس في الإجزاء.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٣) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ١١٥-١١٦) بتصرف.

۞ وفى الحديث الثانى أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرددها.. فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك وكأنه يتقالها.. ويظن أنها قليلة فى الأجر والثواب لقلة آياتها وحروفها.. والحرف الواحد ثوابه عشر حسنات.

وإذا بالنبى الكريم ﷺ يبين له أنها ليست قليلة كما ظن، وإنما هى عظيمة جدًّا، فقال النبى ﷺ: «**والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن**»، فيُقسم له، وهو لا يحتاج إلى أن يقسم (عليه الصلاة والسلام)، ولكنه أراد أن يُطيب نفس هذا الرجل؛ لأنه رآها شيئًا قليلاً، فقال له النبى ﷺ: «**والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن**».

فكأنك تقرأ فى كل ركعة بثلث القرآن عندما تقرأ بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

۞ بل ثبت أن النبى ﷺ قال: «**من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات بنى الله له بيتًا فى الجنة**»(١).

* * *

(١٠٢٠) وعنْ أنسٍ رضي الله عنه **أنَّ رجُلًا قال: يا رسولَ الله، إنِّى أُحِبُّ هذِهِ السُّورَةَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، قال: «إنَّ حُبَّها أدخَلَكَ الجنَّةَ»**(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٩٣) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

۞ ولكنى أريد هنا أن أُضيف إضافة يسيرة.. ألا وهى: أنك عندما تحب أن تحفظ فانظر السورة التى تحبها فاحفظها؛ لأن حُبك إياها يُدخلك الجنة، وحفظك لها يرفعك درجات عند الله سبحانه وتعالى...فابدأ بما تحبه من السور، وضُمَّ بعضها إلى بعض إلى أن تحفظ القرآن كله.

---

(١) صحيح: رواه أحمد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٧٤) تعليقًا فى كتاب الأذان - ورواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صفة الصلاة (٨٥).

وقد جاء فى رواية: أن هذا الرجل كان يصلى بأصحابه، وكان إذا قرأ فى الركعة ختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فقالوا له: إما أن تقرأ بالسورة، أو تقرأ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، أى: لا تجمع بين الاثنتين ... وكان الرجل يحب هذه السورة، فقال: إن أحببتم أن أصلى بكم بذلك وإلا فقدِّموا غيرى، وكان هو أفضلهم، فتركوه يصلى بهم.

والنبى ﷺ لم يفعل ذلك، ولم يكن يقرأ فى كل ركعة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مع سورة أخرى؛ لأن النبى ﷺ يحب القرآن كله ﷺ، وليس عنده سورة أفضل من سورة، فكان يقرأ بالجميع ﷺ.

وأما هذا فحدث فى قلبه حُبٌّ لهذه السورة أكثر من غيرها، فكان يقرؤها فى كل ركعة ... وليس المعنى: أن السُّنة أن نفعل مثل هذا، وإنما السُّنة أن نفعل كما فعل النبى ﷺ، فهو لم يفعل ذلك ولا مرة واحدة ﷺ...فلم يقرأ فى أى ركعة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مع السورة التى قرأها فى الركعة، ولكن الغرض بيان أن هذا الرجل حدث فى قلبه حب لهذه السورة، فلما قال للنبى ﷺ: إنى أحبها، قال له النبى ﷺ: «**حبك إياها أدخلك الجنة**»، أى: بحبك لها، وليست هى فقط، وإنما القرآن كله، فما أحببت منه وتعلقت به كان سببًا لدخولك الجنة ... أى: أن الإنسان المؤمن يحفظ ما يحبه، ويقرأ ما يحبه، فإذا كان فى الصلاة فخير الهدى هدى النبى ﷺ، فيفعل كما فعل ﷺ.

فالغرض بيان أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لها فضيلة عظيمة، ولذلك جاء عنه ﷺ فى حديث آخر أنه قال: «**من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ عشر مرات بنى الله له بيتًا فى الجنة**»، أى: بنى له قصرًا فى الجنة ... فاحرص على تكثير القصور فى جنة الله سبحانه وتعالى[1].

---

(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطيبة.

(١٠٢١) وعنْ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أَلَمْ تَر آياتٍ أُنْزِلَتْ هذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قطُّ؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»[(١)].

(١٠٢٢) وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يتَعَوَّذُ مِنَ الجانِّ، وعَيْنِ الإنْسانِ، حتَّى نَزَلَتِ المُعَوِّذَتان، فلَمَّا نَزَلَتا ، أَخَذَ بِهِما وتَركَ ما سِواهُما[(٢)].

۞ وفى رواية لأبى داود قال: بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين (الجحفة) و (الأبواء)، إذ غشيتنا ريحٌ وظلمة شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ويقول: «**يا عُقبة! تعوَّذ بهما، فما تَعوَّذ مُتعوذٌ بمثلهما**». قال: وسمعته يؤمنا بهما فى الصلاة[(٣)].

۞ ورواه ابن حبان فى «صحيحه»، ولفظه: يا رسول الله! أقرئنى آيًا من سورة «هود»، وآيًا من سورة «يوسف». فقال النبى ﷺ: «**يا عقبة بن عامر! إنك لن تقرأ سورةً أحب إلى الله، ولا أبلغ عنده من أن تقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فإن استطعت أن لا تفوتك فى الصلاة فافعل**»[(٤)].

۞ سورة الفلق مكية، وفيها تعليم للعباد أن يلجؤوا إلى حِمى الرحمن، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته، ومن شر الليل إذا أظلم، لما يصيب النفوس فيه من الوحشة، ولانتشار الأشرار والفجار فيه، ومن شر كل حاسدٍ وساحرٍ ... وهى إحدى المعوذتين اللتين كان النبى ﷺ يُعوِّذ نفسه بهما.

۞ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أى قل يا محمد: ألتجئ وأعتصم برب الصبح الذى ينفلق عنه الليل، وينجلى عنه الظلام...قال ابن عباس: ﴿الْفَلَقِ﴾ الصبح ... كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨١٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٩٠٢).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٢٩٩).

(٤) صحيح: رواه ابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٤٨٥).

وفى أمثال العرب: هو أبين من فلق الصبح ... قال المفسرون: سبب تخصيص الصبح بالتعوُّذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدّة الظلمة، كالمثل لمجىء الفرج بعد الشدة.. فكما أن الإنسان يكون منتظرًا لطلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجىء النجاة ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أى من شر جميع المخلوقات من الإنس، والجن، والدواب، والهوام، ومن شر كل مُؤذٍ خلقه الله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ أى: ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه، فإن ظُلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ... ولهذا قالوا فى المثل: «الليل أخفى للويل» قال الرازى: وإنما أُمر أن يتعوذ من شر الليل، لأن فى الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارق والمُكابر، ويقع الحريق، ويَقِلُّ فيه الغَوث[1].

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ أى: ومن شر السواحر اللواتى يعقدن عُقدًا فى خيوطٍ وينفثن -أى: ينفخن- فيها ليضروا عباد الله بسحرهن، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال فى البحر: وسبب نزول المعوذتين قصة لبيد بن الأعصم الذى سحر رسول الله ﷺ فى مشطٍ ومشاطة وجف - قشر الطلع - طلعة ذكر، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة، مغروز بالإبر، فأُنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلَّت عقدة، ووجد فى نفسه خفة ﷺ حتى انحلَّت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نَشِطَ من عِقال[2].

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ أى ومن شر الحاسد الذى يتمنى زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له[3].

---

(١) التفسير الكبير للرازى (٣١/ ١٩٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٣٠).

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٥٩٧، ٥٩٨).

والمهم أن الإنسان ينبغى أن يتعوذ بهاتين السورتين.

وذكر الترمذى رَحِمَهُ اللهُ أن النبى ﷺ كان يتعوذ من الجان ومن عين الإنسان حتى نزلت ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فصار يتعوذ بهما وترك ما سواهما.

(١٠٢٣) وعنْ أبى هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «مِنَ القُرآنِ سُورَةٌ ثَلاثُونَ آيةً شَفَعتْ لِرَجُلٍ حتَّى غُفِرَ لَهُ، وهِيَ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[١].

وفى رواية أبى داود: «تَشْفَعُ».

ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن سورة تبارك التى لا تزيد عن ثلاثين آية وليست فى حجم سورة البقرة أو آل عمران أو غيرهما.. إلا أنها شفعت لرجلٍ حتى غُفر له.

وليس ذلك فحسب.. بل أخبر النبى ﷺ فى أحاديث أخرى أن سورة تبارك تمنع من عذاب القبر ... وأنها خاصمت عن صاحبها الذى يداوم على قراءتها حتى أدخلته الجنة - بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ -.

قال ﷺ: «**سورة تبارك هى المانعة من عذاب القبر**»[٢].

وقال ﷺ: «**سورة من القرآن ما هى إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة .. وهى تبارك**»[٣].

فاحرصوا على ألا تناموا كل ليلة إلا بعد أن تقرأوا سورة تبارك .. فمن مات فى تلك الليلة فقد فاز بشفاعة تلك السورة العظيمة.. فتشفع له ليغفر الله

(١) حسن: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٩١).

(٢) صحيح: رواه ابن مردويه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٤٣).

(٣) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط والضياء وحسنه الالبانى فى صحيح الجامع (٣٦٤٤).

ذنبه وينجيه من عذاب القبر ويُدخله الجنة.. فهذا وعد الصادق المصدوق ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى.

(١٠٢٤) وعنْ أبى مسعودٍ البَدرىِّ رضي الله عنه عن النَّبىِّ ﷺ قال: «مَن قَرأ بالآيتينِ مِن آخِرِ سُورةِ البقَرةِ فى لَيْلَةٍ كَفتاهُ»[1].

۞ والآيتان هما قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

[البقرة: ٢٨٥-٢٨٦]

۞ وقد وردت أحاديث أخرى فى فضل هاتين الآيتين:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: بَيْنما جِبْريلُ عليه السلام قاعِدٌ عندَ النَّبىِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فرَفَعَ رأسَهُ فقالَ: هذا بابٌ مِنَ السَّماءِ فُتِحَ اليَوْمَ ولَمْ يُفْتَح قطُّ إلا اليَوْمَ.. فنزَلَ منه مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرضِ لم يَنْزِلْ قَطُّ إلا اليومَ، فسَلَّم وقال: أبْشِر بنورَيْنِ أُوتِيتَهُما، لَمْ يُؤتَهُما نَبىٌّ قَبلَكَ. فاتحةِ الكتاب، وخَواتيم سُورةِ البَقَرةِ، لن تقرأ بحرفٍ منها إلا أُعطِيتَه[2].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة لا يُقرآن فى دارٍ**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٠٨) كتاب المغازى، ومسلم (٨٠٧) كتاب صلاة المسافرين.
قيل: كَفَتاهُ المَكْرُوه تِلْك اللَّيلَةَ، وقيل: كَفتاهُ مِن قِيامِ اللَّيْل.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٦) صلاة المسافرين -النقيض: الصوت.

ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان»[١].

۞ فالشاهد أن النبى ﷺ قال: **«مَن قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه»**.. وأطلق كلمة «**كفتاه**» ولم يُقيدها لتبقى محمولة على كفاية الإنسان من كل خيرٍ فى الدنيا والآخرة.. وأنها تكفيه من كل شرٍّ فى الدنيا والآخرة ....

قال الإمام النووى رحمه الله: قيل: معناه كفتاه من قيام الليل، وقيل: من الشيطان، وقيل: من الآفات، ويحتمل من الجميع[٢].

فياليتنا نحرص على قراءة هاتين الآيتين كل ليلة سواء كان ذلك قبل النوم أو كان ذلك فى صلاة الليل لنفوز بهذا الخير العظيم.

(١٠٢٥) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم مَقَابر، إنَّ الشَّيْطانَ يَنْفِرُ مِن البيْتِ الذى تُقْرأ فيهِ سُورةُ البقَرةِ»[٣].

۞ «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر**» قال العلماء: معنى ذلك لا تتركوا الصلاة فيها - يعنى صلوا فى بيوتكم - وإنما سمى البيوت فى حال عدم الصلاة فيها مقابر؛ لأن المقبرة لا تصح الصلاة فيها كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: **«الأرض كلها مسجدٌ إلا المقبرةَ والحمام»**[٤] وقال: **«لا تُصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»**[٥] فالمقبرة لا تصح فيها صلاة النافلة ولا الفريضة ولا سجدة التلاوة ولا سجدة الشكر، ولا أى شىء من الصلوات إلا صلاة واحدة وهى

(١) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٩٩).

(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ١٣٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٨٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٧٦٧).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٩٧٢) كتاب الجنائز.

صلاة الجنازة، إذا صلى على الجنازة فى المقبرة فلا بأس سواء كان ذلك قبل الدفن أم بعده ... لكن بعد الدفن لا يُصلَّى عليها فى أوقات النهى ... يعنى: مثلاً لو جئت لحضور جنازة بعد صلاة العصر ووجدت أنهم قد دفنوها فلا تُصلِّ عليها؛ لأنه يمكنك أن تصلى فى وقتٍ آخر غير وقت النهى كالضحى مثلاً ... وأما إذا جئت وهم لم يدفنوها، لكن قد وضعت فى الأرض للدفن فلا بأس أن تصلى عليها ولو كان ذلك بعد العصر؛ لأنه فى هذه الحال تكون صلاة لها سبب... والصلاة التى لها سبب ليس فيها وقت نهى ... ثم أخبر ﷺ أن الشيطان ينفر من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة... يعنى إذا قرأت فى بيتك سورة البقرة فإن الشيطان يفر منها ولا يقرب البيت... والسبب أن فى سورة البقرة (آية الكرسى) ويدل لهذا الحديث الذى بعده[1].

۞ ولقد وردت أحاديث أخرى فى فضل سورة البقرة.. منها قوله ﷺ: «**اقْرَأُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**»[2].

قال معاوية بن سلام: بلغنى أن البطلة السحرة.

(١٠٢٦) وعن أُبَىِّ بنِ كَعبٍ رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «يا أبا المُنْذِرِ أَتَدرِى أىُّ آيةٍ مِن كتاب الله معكَ أعظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ: «يا

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ١١٨-١١٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

الغيايتان مُثنى غياية: وهى كل شىء أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة والغاشية ونحوهما.

وفِرقان أى: قطعتان.

أبا المُنْذِرِ أَتدرِى أىُّ آيةٍ مِن كتاب الله معكَ أعظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، فضربَ فى صَدرى وقال: «لِيهْنكَ العِلْمُ أبا المُنْذِر»(١).

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ قال لأبى بن كعب الذى كان النبى ﷺ يوصى أصحابه أن يتعلموا القرآن على يديه.. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُلقبه بسيد القُرَّاء.. فقال له النبى ﷺ: **«يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟»**.. فما كان من سيد القُراء إلا أن قال له: الله ورسوله أعلم.. وهذا هو قمة الأدب من هذا الصحابى الجليل مع النبى ﷺ..فما كان من النبى ﷺ إلا أن أعاد السؤال وقال له: **«يا أبا المُنْذِرِ أَتدرِى أىُّ آيةٍ مِن كتاب الله معكَ أعظَمُ؟»** فما كان من أُبى رضي الله عنه إلا أن قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ... أى: آية الكرسى.. فما كان من النبى ﷺ إلا أن ضرب فى صدره فرحًا بنبوغه وذكائه وعلمه وقال له: **«لِيهْنكَ العِلْمُ أبا المُنْذِر»** يعنى هنَّأه حيث علم أن أعظم آية فى كتاب الله آية الكرسى ... لأن هذه الآية مشتملة على عشر صفات من صفات الله عز وجل.

وفى هذا الحديث منقبة عظيمة لأُبى، ودليلٌ على كثرة علمه. وفيه تبجيل العالِم فُضلاء أصحابه وتكنيتهم، وجواز مدح الإنسان فى وجهه إذا كان فيه مصلحة ولم يَخف عليه إعجاب ونحوه؛ لكمال نفسه ورسوخه فى التقوى.

۞ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّمَا تَمَيَّزَتْ آيَةُ الْكُرسِىِّ بِكَوْنِهَا أَعظَمَ لِمَا جَمَعَتْ مِنْ أُصُولِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ والوحدانية وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْمُلْكِ وَالْقُدرَةِ وَالْإِرَادَةِ ... وَهَذِهِ السَّبْعَةُ أُصُولُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَاللهُ أَعلَمُ(٢).

۞ بل إن آية الكرسى سببٌ لحفظ الإنسان من كيد الشيطان.. فإذا قرأها لم يُصبح للشيطان عليه سلطان.

(١) صحيح: رواه مسلم (٨١٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ١٣٥-١٣٦) بتصرف.

وذلك لما ورد أن الشيطان لما كان يتمثل فى صورة رجل يسرق الطعام الذى أمر النبى ﷺ أبا هريرة أن يحفظه لأنه كان زكاة رمضان... وفى آخر الحديث أخبر أبو هريرة النبى ﷺ أن الشيطان قال له:

إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِى: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصبِحَ...فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: **«أَمَا إِنَّهُ قَد صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»**.

۞ بل أخبر النبى ﷺ أن قراءة آية الكرسى سببٌ فى دخول الجنة.

قال ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرسِيِّ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ»**[١].

(١٠٢٧) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: وكَّلَنى رسولُ الله ﷺ بحِفْظِ زَكَاةِ رمضانَ، فأتَانى آتٍ، فجعل يَحثُو مِن الطَّعام، فأخَذْتُهُ فقُلتُ: لأرفَعنَّك إلى رسُولِ الله ﷺ .. قال: إنِّى مُحتاجٌ، وعلىَّ عِيالٌ، وبى حاجةٌ شديدَةٌ، فَرَحِمْتُه فخَلَّيْتُ عنهُ، فأصبَحتُ، فقال رسُولُ الله ﷺ: «يا أبا هُريرة، ما فَعَلَ أسِيرُكَ البارِحَة؟» قُلْتُ: يا رسولَ الله شَكَا حَاجَةً وعِيالاً، فرحِمْتُهُ، فخَلَّيتُ سَبِيلهُ، فقال: «أمَا إنَّهُ قَد كَذَبَك وسيعُودُ» فعرفْتُ أنَّهُ سيعُودُ لِقَولِ رسُولِ الله ﷺ فرصدتُهُ.

فجاءَ يحثُو مِن الطَّعام، فقُلتُ: لأرفعنَّك إلى رسُولِ الله ﷺ قال: دَعنى، فإنِّى مُحتاجٌ، وعلىَّ عِيالٌ، لا أعودُ، فرحِمْتُه وخَلَّيْتُ سَبيلَهُ، فأصبَحتُ، فقال لى رسُولُ الله ﷺ: «يا أبا هُريرة، ما فَعَلَ أسِيرُكَ البارِحَة؟» قُلْتُ: يا رسولَ الله شَكَا حَاجَةً وعِيالاً، فرحِمْتُهُ، وخَلَّيْتُ سَبِيلهُ، فقال: «إنَّهُ قَد كَذَبَكَ وسيعُودُ».

فرصدتُهُ الثَّالثَةَ. فجاءَ يحثُو مِن الطَّعام، فأخَذْته، فقُلتُ: لأرفَعنَّك إلى رسُولِ

(١) صحيح: رواه النسائى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٦٤).

الله ﷺ، وهذا آخِرُ ثلاثِ مرَّاتٍ .. إنَّكَ تَزْعُم أنَّكَ لا تَعُودُ، ثم تعُودُ.

فقالَ: دعني فإنِّي أُعَلِّمُكَ كَلماتٍ يَنْفَعُكَ الله بها، قلتُ: ما هُنَّ؟ قال: إذا أويْتَ إلى فِراشِكَ فاقرأ آيةَ الكُرسِيِّ، فإنَّه لن يزالَ عليْكَ مِن الله حافِظٌ، ولا يقْرُبُكَ شَيْطانٌ حتَّى تُصبِح. فخَلَّيْتُ سبيلَهُ فأصبَحتُ، فقال لي رسُولُ الله ﷺ: «ما فَعَلَ أسِيرُكَ البارِحَةَ؟» فقُلتُ: يا رسُولَ الله، زَعَمَ أنَّهُ يُعلِّمُني كَلِماتٍ يَنْفَعُني الله بها، فخَلَّيْتُ سَبيلَه. قال: «وما هي؟» قلتُ: قال لي: إذا أويْتَ إلى فِراشِكَ فاقرأ آية الكُرسي مِن أوَّلِها حتَّى تختِم الآية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ وقال لي: لا يزَالُ عليكَ مِن الله حافِظٌ، ولنْ يَقْرَبكَ شَيْطانٌ حتَّى تُصبِحَ. فقال النَّبِيُّ ﷺ: «أمَا إنَّه قَد صَدقكَ وهُو كَذوبٌ...تَعلَم مَن تُخاطِبُ مُنْذُ ثلاثٍ يا أبا هريرة؟» قلت: لا، قال: «ذاكَ شَيْطانٌ»(١).

۞ قال أبو هريرة رضي الله عنه: أمرني النبي ﷺ أن أكون حارسًا على المكان الذي توضع فيه زكاة رمضان وأن أحفظ هذا المكان حتى لا يقترب منه أحد.

فرأيت رجلاً يسرق من الطعام فأخذته وقلت له: سوف أذهب بك إلى رسول الله ﷺ لأشكوك إليه.

فقال الرجل: سامحني يا أبا هريرة فأنا فقير ومحتاج وعندي عيال في أشد الحاجة إلى الطعام وأنا رجلٌ مديون.

قال أبو هريرة: فتركته وخليت عنه .. فلما أصبحت وجدت النبي ﷺ يقول: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟**».

فتعجب أبو هريرة .. كيف علم النبي ﷺ بقصة هذا الرجل؟ .. لكنه تذكر أن النبي ﷺ يُوحَى إليه من السماء ... فمن المؤكد أن الله عز وجل أرسل إليه جبريل عليه السلام ليخبره بهذا الخبر.

وفي تلك اللحظة تذكر أبو هريرة أن النبي ﷺ سأله: «**ما فعل أسيرك البارحة؟**».

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٣١١) كتاب الوكالة.

فقال أبو هريرة: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله.

أراد أبو هريرة أن يُمسكه ليُسلمه للنبى ﷺ؛ لأنه يسرق من مال الزكاة، وعرف أبو هريرة أن النبى ﷺ قال: «**تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغنى من حدٍّ فقد وجب**»[1]، فمن حال بينه وبين إقامة الحد فلعن الله الشافع والمشفع.

فيجوز أن يتنازل قبل أن يصل أمره إلى النبى ﷺ، فإذا وصل اللص إلى النبى ﷺ فيَلزم أن يقيم عليه الحد، ولا يجوز الشفاعة فى ذلك.

فكأن أبا هريرة وجد أن هذا جاء ليسرق فما تمكن من السرقة، وشكا حاجة وعيالاً، فتركه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ... لكن الوحى جاء إلى النبى ﷺ وأخبره بذلك، فقال النبى ﷺ لأبى هريرة: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**»، أى: خدعك وسيرجع مرةً ثانية.

قال أبو هريرة: فعلمت أنه سيعود لأن النبى ﷺ أخبرنى أنه سيعود.

قال: فجلست فى مكانٍ لا يرانى فيه أحد .. وفجأة جاء هذا الرجل وأخذ يحثو من الطعام فأخذته وقلت له: سوف أذهب بك إلى رسول الله ﷺ لأشكوك إليه.

فقال الرجل مرة أخرى: سامحنى فأنا فقير ومحتاج وعندى عيال فى أشد الحاجة إلى الطعام .. ولن أعود مرة أخرى.

قال أبو هريرة: فرحمته وخليت سبيله .. فلما أصبحت وجدت النبى ﷺ يقول: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟**».

قال أبو هريرة: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله.

---

(١) حسن: رواه أبو داود، والنسائى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٥٤).

فقال ﷺ: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**».

قال أبو هريرة: فرصدته للمرة الثالثة فوجدته يحثو من الطعام فأخذته وقلت له: سوف أذهب بك إلى رسول الله ﷺ ولن أتركك هذه المرة.

فأنت فى كل مرة تكذب وتقول: لن أعود ومع ذلك تعود فى كل مرة.

فقال له الرجل: دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها.

قال أبو هريرة: ما هى؟

قال له الرجل: إذا آويت إلى فراشك لتنام فاقرأ آية الكرسى: ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ** ﴾[البقرة: ٢٥٥] حتى تختم الآية فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنَّك شيطان حتى تصبح.

قال أبو هريرة: فخليت سبيله .. فلما أصبحت قال لى رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة؟**».

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله! زعم أنه يُعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله.

قال النبى ﷺ: «**ما هى؟**».

قال أبو هريرة: قال لى: إذا أويت إلى فراشك لتنام فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية .. وقال لى: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح.

فقال النبى ﷺ: «**أما إنه قد صدقك وهو كَذوب** - أى: أنه ليس من عادته أن يكون صادقًا لكنه كان صادقًا معك هذه المرة -».

ثم قال له النبى ﷺ: «**أتدرى يا أبا هريرة مَن الذى يكلمك منذ ثلاث ليالٍ؟**».

قلت: لا يا رسول الله.

قال النبى ﷺ: «ذاك شيطان».

- أى: أن الرجل الذى كان يسرق الطعام كان شيطانًا ولكنه كان يأتى إلى أبى هريرة فى صورة رجل.

الدروس المستفادة:

(١) أن المسلم إذا كان كلَّفه أحدٌ بحفظ أى شىء فلا بد أن يكون أمينًا ولا يسمح لأحدٍ بأن يسرق شيئًا منها.

(٢) أن المسلم لا بد أن يصدق أى كلمة تخرج من فم الرسول ﷺ...

ولقد رأينا كيف أن أبا هريرة لما أخبره النبى ﷺ بأن الرجل سوف يعود... قال: فعلمت أنه سيعود لأن النبى ﷺ قال ذلك.

(٣) أن المؤمن قد يتعلم بعض الأشياء النافعة من غير المؤمن... فقد رأينا كيف أن أبا هريرة تعلم من الشيطان أن قراءة آية الكرسى قبل النوم تحفظ العبد من الشيطان.

(٤) أن المسلم ينبغى أن يحافظ على قراءة آية الكرسى عند النوم ليحفظه الله من كيد الشيطان فلا يقربه شيطان حتى يصبح.

***

(١٠٢٨) وعن أَبى الدَّردِاءِ رضي الله عنه أَنَّ رسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْر آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورةِ الْكَهْف، عُصِمَ منَ الدَّجَّالِ».

وفى رواية: «مِنْ آخِرِ سُورةِ الكهْف»(١).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين.

قال الشيخ الألبانى:الرواية الأخرى شاذة والمحفوظ الرواية الأولى كما حققته فى «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥٨٢)، ويشهد لها حديث النواس بن سمعان الآتى عند المصنف برقم (١٨١٧)، فإن فيه «فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف» اهـ.

۞ النبى ﷺ أخبر أنه مَن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف أو من آخرها عُصم من الدجال ... والدجال رجلٌ كافر يُبعث فى آخر الزمان يدَّعى النبوة أولًا ثم يدَّعى أنه إله والعياذ بالله ... وفتنته أعظم فتنة تكون على الأرض منذ خُلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قيام الساعة كما أخبر بذلك النبى ﷺ وقال: «**إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»(١) وقد حذر النبى ﷺ من فتنته وما من نبى من الأنبياء إلا أنذر قومه حتى يستعد بنو آدم لهذه الفتنة العظيمة ... وإن كان من المعلوم أنه لا يأتى إلا فى آخر الزمان لكن لأجل التنبيه لِعظم فتنته وأنها كبيرة عظيمة لا ينجو منها إلا مَن أنجاه الله عَزَّوَجَلَّ .... وهذا الدجال يجعل الله على يديه آيات وخوارق فتنة للناس ... منها أنه يأمر السماء فتُمطر ويأمر الأرض فتُنبت ... فيأتى إلى القوم ليس فى أرضهم رعى ومواشيهم ضِعَافٌ عِجَاف فيدعوهم ويُمنِّيهم فيتبعونه فيأمر السماء فتُمطر ويأمر الأرض فتُنبت ثم تروح عليهم مواشيهم وهى أكثر ما تكون لبنًا وأوفر ما تكون لحمًا.

ثم يأتى إلى آخرين فيدعوهم ولكنهم ينكرونه فيصبحون مُقفرين ليس فى أرضهم نبات....هل تجدون أعظم من هذه الفتنة لاسيما فى البادية ... فيتبعه أُناسٌ كثيرون ... فمن تَبِعَهُ أدخله جنته وهى فى الحقيقة نار ... ومَن أنكره أدخله ناره وهى فى الحقيقة جنةٌ وماءٌ عذب ... ولكن الناس ليس لهم إلا الظاهر إلا أن الله سبحانه وتعالى بيَّن لنا آياته: أنه كاذب ... لما أخبرنا النبى ﷺ أن هذا الرجل مكتوبٌ بين عينيه كافر يقرؤها كل مؤمن حتى الذى لا يستطيع القراءة ويعمى عنها كل منافق ... كما أن الإنسان فى القبر إذا كان مؤمنًا أجاب بالصواب، وقال: ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد ﷺ.. وإذا كان منافقًا ولو كان قارئًا لم يُجب

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

والعياذ بالله ... وأعطانا نبينا ﷺ آية أيضًا بيِّنة وهى أنه أعور ليس له إلا عينٌ واحدة...وربنا (جل وعلا) ليس بأعور مُنزَّهٌ عن كل عيبٍ ونقص ... فمن وُفِّق سَلِمَ من فتنته ونجا... ويمكث هذا الدجال الخبيث فى الأرض أربعين يومًا ... أول يوم كسنة يعنى اثنى عشر شهرًا واليوم الثانى كشهرٍ - ثلاثون يومًا - والثالث كالأسبوع سبعة أيام وبقية الأيام كأيامنا... فيمكث هذه المدة ثم ينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقتل هذا الدجال ... يسلطه الله عَزَّوَجَلَّ عليه فيقتله ... ومن أجل عِظَم فتنته أمرنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ منه فى كل صلاة فقال: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[١]؛ لأن فتنته عظيمة فينبغى لنا أن نستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ بقلبٍ صادق من فتنة هذا المسيح الدجال ... ثم إنه أيضًا من أسباب الوقاية من فتنته أن مَن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف وقرأهن عليه عُصم من فتنته[٢].

۞ بل ينبغى أن تُداوم أيضًا على قراءة سورة الكهف فى كل ليلة جمعة، أو كل يوم جمعة، وإذا استطعت أن تقرأها ليلة الجمعة يوم الخميس بعد المغرب فافعل، وإذا استطعت أن تقرأها بعد فجر يوم الجمعة فى أى وقتٍ لكن قبل غروب الشمس فافعل ذلك، فقد جاء عن النبى ﷺ أن الذى يقرؤها يجعل الله عَزَّوَجَلَّ له نورًا عظيمًا جدًّا من مكانه إلى بيت الله الحرام...إنه نورٌ عظيم جدًّا يجعله الله لك عَزَّوَجَلَّ ، وأقل نور ينفعك، فكيف بمثل هذا النور إذا جئت به فى ظلمات يوم القيامة، وأنت أمامك نور من مكانك إلى بيت الله الحرام؟! كيف تسير يوم القيامة وأمامك هذا النور! تكون آمنًا يوم القيامة، ولا تحتاج أن تقول

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

(٢) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/ ١٢٦-١٢٧) بتصرف.

لأحدٍ: أعطني نوراً، فقد أعطاك الله عَزَّوَجَلَّ بفضل هذه السورة النور العظيم... هذا فضل قراءتها في يوم الجمعة أو ليلة الجمعة.

قال ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ**»(١).

وقال ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**»(٢).

(١٠٢٩) وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: **بَيْنَما جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قاعِدٌ عندَ النَّبيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رأسَهُ فقالَ: هذا بابٌ مِنَ السَّماءِ فُتِحَ اليَوْمَ ولَمْ يُفْتَح قطُّ إلا اليَوْمَ، فنزَلَ منه مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرضِ لم يَنْزِلْ قَطُّ إلا اليومَ، فسَلَّم وقال: أبْشِر بنورَيْنِ أُوتِيتَهُما، لَمْ يُؤْتَهُما نَبِيٌّ قَبلَكَ. فاتحةِ الكتاب، وخَواتيم سُورةِ البَقَرةِ، لن تقرأ بحرفٍ منها إلا أُعطِيتَه**(٣).

۞ وفي هذا الحديث يحكي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قاعدًا عند النبي ﷺ فسمع صوتًا عاليًا من السماء.. فرفع رأسه وقال للنبي ﷺ الذي كان متعجبًا من ذلك الصوت الآتي من السماء.. فقال له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: هذا بابٌ من السماء فُتح اليوم ولم يُفتح قط إلا اليوم... وفجأة نزل مَلَكٌ من ذلك الباب فقال جبريل للنبي ﷺ: «**هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ..**» فسلَّم ذلك المَلَك على النبي ﷺ وقال للنبي ﷺ: «**أبشِر بنورين أُوتيتهما لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرفٍ منها إلا أُعطيته**».

---

(١) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٢) صحيح: رواه البيهقي في شُعب الإيمان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٠٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

«النَّقِيض»: الصَّوت.

إذاً: هذا الملك ما نزل بالقرآن... فالذى ينزل بالقرآن على النبى ﷺ هو جبريل، وقد نزلت الفاتحة، ونزلت سورة البقرة... ولكن هذا نزل بالبشارة، فقد نزل يبشر النبى ﷺ بأن معك أشياء عظيمة فاعرف فضل هذه الأشياء.

قال: «**أبشر بنورين أُوتيتهما لم يُؤتَهما نبىٌّ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منها إلا أُعطيته**»، لم تقرأ بحرف منها إلا وتُعطَى الفضل وتُعطَى ما سألته ربك سبحانه.

ولذلك جاء حديث عن النبى ﷺ فى فاتحة الكتاب أنه: إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢] ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِى عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[الفاتحة: ٣] ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِى عَبْدِى - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَىَّ عَبْدِى - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥] قَالَ: هَذَا بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى، وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة: ٧] قَالَ: هَذَا لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ.

إذاً: أنت تقرأ فاتحة الكتاب والله يجيبك، ويعطيك سبحانه وتعالى.

كذلك آخر سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦] .

سبع جُمل دعائية ما يدعو بهن مؤمن موقنًا مؤمنًا إلا استجاب الله له وهذه ميزةٌ وفضلٌ عظيم ... نسأل الله تعالى أن يعفو عنا وعنكم وأن ينصرنا على القوم الكافرين.

(١٨٤) باب استحباب الاجتماع على القراءة

(١٠٣٠) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «ومَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، ويتَدَارسُونَه بيْنَهُم، إِلَّا نَزَلتْ عليهم السَّكِينَة، وغَشِيَتْهُمْ الرَّحمَة، وَحَفَّتْهُم الملائِكَةُ، وذَكَرهُمْ الله فِيمنْ عِنده»[١].

۞ قيل: «الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأُذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء.

۞ فإذا ذكرت الله سبحانه وتعالى أكرمك بأفضالٍ ثلاث:

الأولى: جعلك ذاكرًا له بلسانك وقلبك .... ولولا فضله لم تكن أهلاً لأن تذكره سبحانه وتعالى.

والثانية: جعلك محبوبًا ... فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله فإذا أحبه الله حبَّبه إلى خلقه ... وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، وإذا أبغضه الله بغَّضه إلى خلقه.

والثالثة: جعلك مذكورًا عنده ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ فتمَّم نعمته عليك بمزيد الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام.

والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعًا..ثم لا ينبغي أن يُترك الذكرُ باللسان مع القلب خوفًا من أن يُظن به الرياء، بل يذكرُ بهما جميعًا ويقصدُ به وجه الله سبحانه وتعالى[٢].

۞ وأعلى أنواع الذكر أن تتعايش بقلبك ولسانك وجوارحك مع كتاب الله

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) ابن الإسلام (ص٩٣).

عَزَّوَجَلَّ... فإذا اجتمع قومٌ على تلاوة كتاب الله كما يحدث الآن فى حلقات التحفيظ والتلاوة فى المساجد فإن الله يُكرمهم بأربعة أشياء:

نزلت عليهم السكينة - وهى الرحمة أو الطمأنينة- وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة.

(١٨٥) باب فضل الوضوء

۞ إن للاجتماع على تلاوة كتاب الله العزيز فضلٌ عظيم، وثوابٌ جزيل... وقد رتَّب الله عليه من الأجر ما يجعل النفوس المؤمنة الصادقة تشتاق إليه، وتبذل من أجل الحصول عليه الغالى والنفيس...كيف لا وملائكة الرحمن (جل جلاله) تُخالطهم وتَحُفُّهم بأجنحتها.

وإن فضل الوضوء لا يقل عن فضل العبادة الأولى..ولو كان للوضوء فضيلة أو فضيلتان لكانتا كافيتين للترغيب فيه..كيف وقد رتَّب الله ورسوله ﷺ عليه من الفضائل الشىء الكثير...فهو العلامة البارزة الظاهرة التى يَعرف بها رسول الله ﷺ أمته من بين الأمم يوم القيامة.

۞ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

الوضوء: **فى اللغة العربية مأخوذ من الوضاءة، وهى الحُسن والنظافة.**

وأما فى الشرع فهو: **تطهير الأعضاء الأربعة على صفة مخصوصة.**

والأعضاء الأربعة هى: **الوجه واليدان والرأس والرجلان.**

والوضوء من نعمة الله - سبحانه وتعالى - على هذه الأمة؛ حيث أمرهم به ورتَّب عليه الثواب الذى سيُذكر فى هذا الباب إن شاء الله.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ **الآية.**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ **إذا سمعت الله يقول:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

فانتبه وارعها سمعك، فإما خير تُؤمَر به، وإما شر تُنهى عنه، وإما خبر صادق تنتفع به ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أى: إذا أردتم القيام إلى الصلاة - فريضة أو نافلة - ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾.

﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾: ولم يذكر الله تعالى غسل الكفين؛ لأنه سُنَّة وليس بواجب، والوجه من الأذن إلى الأذن عرضًا، ومن منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية طولاً، ويدخل فيه المضمضة فى الفم والاستنشاق فى الأنف، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، والمرفق هو المفصل الذى بين الذراع والعَضُد، وهو داخل فى الغسل؛ لأن النبى ﷺ كان إذا غَسَل يديه شرع فى العَضُد، ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ الرأس يُمسح ولا يجب غسله، وهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده؛ لأن الرأس فيه شعر فلو فُرض غسله لكان فيه مشقة على الناس، ولجرى الماء على الثياب، وللحق الناس مشقة فى أيام الشتاء، ولكن من رحمة الله أن الرأس يُمسح ولا يُغسل... ومن الرأس الأذنان يُمسحان أيضًا؛ لأن النبى ﷺ كان يمسح بأذنيه، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ يعنى: واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين...والكعبان هما: العظمان الناتئان أسفل الساق، وهما داخلتان فى الغسل...

هذه أربعة أعضاء، وهذه هى أعضاء الوضوء... ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾، وفى الآية الثانية: ﴿تَغْتَسِلُوا۟﴾ يعنى إذا كان الإنسان عليه جنابة وجب عليه أن يُطهر جميع بدنه: من رأسه إلى أخمص قدميه... ومنه المضمضة والاستنشاق فالمضمضة والاستنشاق واجبتان فى الوضوء وكذلك الغسل.

والجُنب: هو الذى حصلت عليه جنابة... والجنابة: إما إنزال المَنِى بشهوة وإما جِماع - وإن لم يُنزل - فإذا جامع الإنسان زوجته وجب عليه أن يغتسل سواء أنزل أم لم يُنزل... وإذا أنزل وجب عليه غسل سواء جامَع أو لم يُجامع... حتى لو فكر وأنزل وجب عليه الغسل ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ

جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾: يعنى أن الإنسان إذا وجب عليه الوضوء أو الغُسل ولم يجد ماءً ..أو كان مريضًا يتضرر باستعمال الماء فإنه يتيمم: وذلك بأن يضرب الأرض بكفَّيه ويمسح وجهه وكفَّيه، ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ يعنى: فيما فرض علينا، لم يُرد أن يُحرجنا ويُلحق بنا المشقة بل هو أرحم بنا من أنفسنا وأولادنا وأمهاتنا، والدليل على أنه أرحم بنا من أنفسنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يوصيك ألا تقتل نفسك ... هو أرحم بك من نفسك، فهو لا يريد منا بهذا الفرض أن يشق علينا أو يلحقنا الحرج، ولكن يريد ليطهركم... هذا الذى أراده الله منا بالوضوء والغسل أن يطهر ظواهرنا بالماء وبواطننا بالتوحيد... ولهذا يُسَنُّ إذا فرغت من الوضوء أن تتشهد وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين. ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾: وذلك بهذا الوضوء الذى يحصل به تكفير السيئات ورفعة الدرجات... فإن مَن توضأ وأسبغ الوضوء ثم قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين، فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[1].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾: أى: لأجل أن تشكروا الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه.

فالواجب على المرء أن يشكر الله على نعمه؛ لأن نعم الله لا تُحصَى ولا سيما النعم الدينية؛ لأن بها سعادة الدنيا والآخرة.

والشكر هو: القيام بطاعة الله بامتثال أمره، واجتناب نهيه، باللسان والأركان

(١) الحديث أخرجه مسلم (٢٣٤)، من حديث عمر، بدون زيادة «اللهم اجعلنى من التوابين..»، وأخرجه بالزيادة الترمذى وغيره، وصحح هذه الزيادة العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦١٦٧).

والقلوب... نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر نعمته وحسن عبادته إنه على كل شيء قدير(١).

(١٠٣١) وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أُمَّتِي يُدعَونَ يَوْمَ القِيامةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثارِ الوضوءِ» فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أنْ يُطِيل غُرَّتَه، فليَفْعَل(٢).

۞ ففي هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إنَّ أُمَّتِي يُدعَونَ يَوْمَ القِيامةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثارِ الوضوءِ**» ... والغُرَّة: هي البياض الذي يكون في جبهة الفرس... والتحجيل: هو بياض في قوائم الفرس.

فلو كنت تمتلك خيلًا كثيرًا.. فيها الأبيض والأسود والأحمر.. ومن بينها فرسٌ أسود فيه بياض في الجبهة والقوائم.. فهل يمكن أن يَخفى عليك بين سائر الخيل؟.. كلا.

فالنبي ﷺ لما سألوه: (كيف تعرف أمتك يوم القيامة)، أي: من بين الأمم الكثيرة، فقال: «**إن أمتي يُدعَون يوم القيامة غرًّا مُحجلين**»، أي: تظهر آثار الوضوء يوم القيامة على الجباه وعلى الأيدي والأرجل.

فأنت حين تتوضأ تغسل وجهك فيأتي فيه نور، وتغسل يديك إلى مرفقيك فيأتي فيهما نور، وتغسل الرجلين فيأتي فيهما نور، وتمسح برأسك فيأتي فيه نور يوم القيامة... فهذا الإنسان حتى لو دخل النار - والعياذ بالله - بسبب معصية، وكان مواظبًا على الصلاة في الدنيا، تأكل منه النار كل شيء إلا آثار الوضوء.

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٣٠-١٣١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٤٦) كتاب الطهارة.

فتلك علامة تتميز بها أمة النبي محمد ﷺ على سائر الأمم في ذلك اليوم المشهود.. وهذا دليلٌ على عِظَم فضل الوضوء.. وأن أعضاء الوضوء تأتي يوم القيامة بيضاء ناصعة كالشمس من شدة النور.

«فمن استطاع منكم أن يُطيل غُرته فليفعل» هذه الجملة ليست من كلام النبي ﷺ بل هي من كلام أبي هريرة رضي الله عنه وليست بصحيحة من جهة الحكم الشرعي... لأن ظاهرها أن الإنسان يمكنه أن يُطيل غُرته. يعني: يطيل وجهه وهذا غير ممكن، فالوجه محدد من الأذن إلى الأذن، ومن منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية، وهذا مما يدل على أن هذه الجملة من كلام أبي هريرة رضي الله عنه قالها اجتهادًا، كما أشار إلى ذلك ابن القيم في النونية قال:

وأبو هريرة قال ذا من كيسه ... فغدا يُميزه أولو العرفانِ

وإطالة الغُرَّات ليس بممكنٍ ... أيضًا وهذا واضح التبيانِ

لكن على كل حال ما فرضه الله علينا أن نغسل الوجوه والأيدي إلى المرافق، والأرجُل إلى الكعبين ... هذا هو منتهى الوضوء، وكفى فخرًا أن يأتي الناس يوم القيامة وهذه المواضع تتلألأ نورًا من أجسادهم من أثر الوضوء، ففي هذا دليل على فضيلة الوضوء وعلى إثبات البعث.

(١٠٣٢) وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ خَلِيلي ﷺ يقُول: «تَبْلُغُ الحِلية مِن المؤمِن حَيثُ يَبْلُغ الوضوءُ»[1].

۞ وفي هذا الحديث يقول أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت خليلي ﷺ... والخليل أرفع من الحبيب.. فالخُلة هي أرفع درجات المحبة.

فقال: سمعت خليلي يقول: «**تَبْلُغُ الحِلية مِن المؤمِن حَيثُ يبْلُغُ الوضوءُ**».

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٠) كتاب الطهارة.

فالمرأة فى الدنيا هى التى تتحلى بالذهب واللؤلؤ لتزداد جمالًا فى عين زوجها ومحارمها.. أما الرجل فحرامٌ عليه الذهب والحرير أو أن يتزين بزينة تختص بالنساء.. فإذا كان يوم القيامة ودخل الجنة وكان من أهل الوضوء والصلاة.. فهناك يتحلى الرجل وتتحلى المرأة ... يلبس الرجال والنساء حلية من ذهب وفضة ولؤلؤ ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾..﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ فهم يُحلَّون بهذه الأنواع الثلاثة ... يلبس الرجل والمرأة فى الجنة حُليًّا من هذه الأنواع الثلاثة: ذهب وفضة ولؤلؤ.

وتكون الحلية هناك مُرتبة ومتداخلة ومتناسقة بصورة تزيد جمالها جمالًا وتزيد جمال صاحبها حُسنًا وبهاءً.. فيوم القيامة تبلغ الحلية التى يتحلى بها المؤمن حيث يبلغ الوضوء... فكل الذراع يكون عليه حلية من الذهب والفضة واللؤلؤ للرجال والنساء.. وهذا دليلٌ على فضل الوضوء حيث تكون مواضع الوضوء يوم القيامة مُزينة بتلك الحلية التى يُحلَّى بها المؤمن فى الجنة.

(١٠٣٣) وعن عثمان بن عفانَ ﷺ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَوضَّأ فأحسَنَ الوضوءَ، خَرَجَتْ خَطاياه مِنْ جَسَدِهِ حتَّى تَخْرُجَ مِنْ تحتِ أظفارِهِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن «**مَن توضأ فأحسن الوضوء**» وهذا يدل على أن الإحسان مطلوب فى الوضوء.. وليس الوضوء فحسب.. بل قال النبى ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شىء**» فمن توضأ وأحسن فى الوضوء وأسبغ مواضع الوضوء بالماء نال هذا الثواب العظيم «**خَرَجَتْ خطايَاه مِنْ جَسَدِهِ حتَّى تَخْرُجَ مِنْ تحتِ أظفارِهِ**».. فالوضوء يكون سببًا لتكفير الخطايا وخروجها حتى من أدق مكان وهو ما تحت الأظفار.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٥) كتاب الطهارة.

وفى الحقيقة أنه كلما سمعنا تلك الأحاديث كلما تشوق المؤمن للمحافظة على الوضوء..ولا أحد يستغنى عن الوضوء، فإذا استطعت أن تكون دائماً على وضوء فهذا أفضل؛ لأن النبى ﷺ كان يحب أن يذكر الله وهو على طهارة، وليس هذا فرضاً واجباً إلا عند الصلوات أو عند قراءة القرآن من المصحف، ولكن مع ذلك كان النبى ﷺ يحب أن يكون على وضوء عند ذكره لله...ومرة لقيه إنسان فى الطريق فسلَّم عليه فلم يرد عليه السلام حتى تيمَّم، وقال: «**كرهت أن أذكر الله على غير وضوء**»، ﷺ.

فاحرص على أن تكون على وضوءٍ دائمًا لتكون مستعدًّا لأداء العبادات .. بل إن الوضوء نفسه عبادة يُكفر الله بها الذنوب والخطايا.. ولذا فإنه لا بد أن تستحضر وأنت تتوضأ أنك تتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتستحضر أنك مُثابٌ على ذلك وأن خطاياك ستُغفر وتخرج مع كل وضوء..

فإذا استحضرت ذلك فلا شك أنك ستُحسن الوضوء.

(١٠٣٤) وعن عثمان بن عفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيْتُ رسُولَ الله ﷺ توضَّأ مثلَ وُضوئى هذا، ثم قال: «مَنْ توضَّأ هكذا غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِهِ، وكانَتْ صَلاتُهُ ومَشْيُهُ إلى المسْجِدِ نَافِلَةً»[1] .

۞ ففى رواية أخرى لهذا الحديث أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتى بماءٍ فتوضأ أمام بعض الصحابة.

فغسل كفيه ثلاثًا، وتمضمض، واستنشق ثلاثًا، بثلاث غرفات، وغسل وجهه ثلاثًا، وغسل يديه إلى المرفقين ثلاثًا، ومسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، ومسح أُذنيه، وغسل رجليه ثلاثًا إلى الكعبين. ثم قال: قال النبى ﷺ:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٩) كتاب الطهارة.

«مَن توضأ نحو وضوئى هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدث بهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

وهذا شيءٌ يسير.. وذلك بأن يتوضأ المسلم فيُحسن الوضوء.. وإحسان الوضوء يكون بإسباغ جميع مواضع الوضوء.. وليس بالإسراف فى الماء وإنما باستعمال القدر الذى يوصل الماء إلى جميع المواضع..

فإذا فعل ذلك غُفر له ما تقدم من ذنبه.. فالإنسان ما بين ذنوب يريد مغفرتها ومحوها.. وبين درجات يريد الوصول إليها.. فإذا توضأ فأحسن الوضوء كفَّر الله خطاياه وذنوبه ورفعه درجاتٍ بفضله ورحمته.

وفى هذا الحديث قال: «وكانَتْ صَلاتُهُ ومَشْيُهُ إلى المسْجِدِ نَافِلَةً» يعنى: زائد على مغفرة الذنوب، وليس معنى نافلة يعنى صلاة تطوع...

قد يكون ذاهبًا لأداء صلاة الفريضة...ولكن هنا كلمة نافلة: يعنى شيئًا زائدًا على مغفرة الذنوب؛ لأن ذنوبه غُفرت بوضوئه وصلاته الأولى، فيكون مشيه للمسجد وصلاته (ولو فريضة) نافلة أى زيادة على مغفرة الذنوب... لأن النفل فى اللغة معناه الزيادة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾.

وأخذ العلماء من ذلك أنه يُستحب لمن أسبغ الوضوء أن يصلى ركعتين، وتُسمَّى سُنة الوضوء، سواء فى الصباح أو المساء، فى الليل أو النهار، بعد الفجر أو بعد العصر؛ لأنها سُنة لها سبب... فإذا توضأ الإنسان نحو وضوء الرسول ﷺ فإنه يصلى ركعتين يُغفر له ما تقدم من ذنبه.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَدْ يُقَالُ: إِذَا كَفَّرَ الْوُضُوءُ فَمَاذَا تُكَفِّرُ الصَّلَاةُ؟. وَإِذَا كَفَّرَتِ الصَّلَاةُ فَمَاذَا تُكَفِّرُ الْجُمُعَاتُ وَرَمَضَانُ؟. وَكَذَلِكَ صَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ كَفَّارَةُ سَنَتَيْنِ وَيَوْمُ عَاشُورَاءَ كَفَّارَةُ سَنَةٍ .. وَإِذَا وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.

وَالْجَوَابُ: مَا أَجَابَهُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ صَالِحٌ لِلتَّكْفِيرِ فَإِنْ وَجَدَ مَا يُكَفِّرُهُ مِنَ الصَّغَائِرِ كَفَّرَهُ وَإِنْ لَمْ يُصَادِفْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً كُتِبَتْ بِهِ حَسَنَاتٌ وَرُفِعَتْ بِهِ دَرَجَاتٌ .. وَإِنْ صَادَفَتْ كَبِيرَةً أَوْ كَبَائِرَ وَلَمْ يُصَادِفْ صَغِيرَةً رَجَوْنَا أَنْ يُخَفِّفَ مِنَ الْكَبَائِرِ وَاللهُ أَعْلَمُ[١].

(١٠٣٥) وعنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا توضَّأ العبدُ المُسلِم ـ أو المؤمنُ ـ فغَسل وجهَهُ خرجَ مِن وجهِهِ كلُّ خَطيئة نَظَر إليْهَا بِعَيْنَيهِ مع الماءِ أوْ معَ آخرِ قَطْرِ الماءِ.. فإذا غَسل يديهِ، خرَجَ مِنْ يدَيهِ كُلُّ خَطيئةٍ كانَ بطشَتْهَا يداهُ معَ الماءِ أوْ مع آخِر قَطْرِ الماءِ.. فإذا غَسَل رِجْليهِ، خرجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْها رِجلاه مع الماءِ أوْ مع آخرِ قطرِ الماءِ، حتى يخرُجَ نَقيًّا مِن الذُّنُوبِ»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٣١) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١٠٣٦) وعنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ أتَى المقبرةَ فقال: «السَّلامُ علَيْكُم دارَ قَومٍ مُؤمنينَ وإنَّا إنْ شاءَ الله بِكُمْ لاحِقُون، وَدِدتُ أنَّا قَد رأيْنَا إخْوانَنا» قالوا: أَوَلَسْنَا إخْوانَكَ يا رسُول الله؟ قال: «أنْتُمْ أصحابي، وإخْوانُنَا الذينَ لَم يأتُوا بعد» قالوا: كيف تَعرِفُ مَنْ لَمْ يأتُوا بعدُ مِن أُمَّتِكَ يا رسول الله؟ فقال: «أرَأيْتَ لَوْ أنَّ رَجُلاً لهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحجَّلَةٌ بيْنَ ظَهرىْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ، ألا يعرِفُ خَيْلَهُ؟» قالوا: بَلَى يا رسول الله، قال: «فإنَّهُمْ يأتُون غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الوُضُوءِ، وأنَا فَرطُهُمْ على الحوْضِ»[٣].

۞ لقد كان النبي ﷺ في بداية الأمر قد نهى أصحابه عن زيارة القبور.. وذلك

(١) مسلم بشرح النووي (٣/ ١٤٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٤) كتاب الطهارة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٤٩) كتاب الطهارة.

لأن الناس كانوا حديثى عهدٍ بشركٍ فخشى أن تتعلق قلوبهم بالقبور ويُفتنوا بها.. فنهى عن الزيارة .. فلما استقر الإيمان فى قلوبهم أَذِنَ لهم فى زيارة القبور فقال ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تُذكر الموت**»[1] وفى رواية «**تُذكر الآخرة**» فأمر بزيارتها وبيَّن الحكمة العظيمة من هذه الزيارة وأنها تُذكر الإنسان الذى على ظهر الأرض أنه اليوم على ظهرها وغدًا فى بطنها، ولا يدرى متى يكون هذا؟ قد يُصبح الإنسان على ظهر الأرض ويُمسى فى بطنها، وقد يُمسى على ظهر الأرض ويُصبح فى بطنها، فكان فى زيارة المقابر تذكير بالموت والآخرة... فالإنسان عندما يذهب إلى المقابر يرى أمه وأباه وعمه وأخاه فيتذكر أنهم كانوا معه بالأمس يأكلون معه ويتنعمون معه.. وها هم الآن فى قبورهم مُرتَهنون بأعمالهم التى عملوها... ويتذكر أنه عمَّا قريب سيكون معهم فى ذلك القبر فيكون ذلك سببًا فى اجتهاده فى طاعة الله وبُعده عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ وأن يتذكر آخرته وتلك اللحظة الحاسمة التى يقف فيها بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ ليسأله عن كل صغيرة وكبيرة عملها فى الدنيا.

ولهذا كان النبى ﷺ يخرج هو بنفسه إلى البقيع يزور أهل البقيع، ويُسلم عليهم ﷺ ويدعو لهم: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**». يعنى: يا أهل دار قوم مؤمنين... والظاهر - والله أعلم - أنه يُسلم عليهم ويسمعونه، إذ لا فائدة من خطابٍ لا يسمعه المُخاطَب؛ لكنهم لا يستجيبون؛ لأنهم فى قبورهم... فيسلم عليهم: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون**» وصدق النبى ﷺ ما من حى إلا سيلحق الميت بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ ...ولذا يقول: «**وإنا إن شاء الله بكم للاحقون**».

واختلف العلماء - رحمهم الله - لماذا قال: وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وهو أمرٌ معلومٌ مُتيقن؟ والصحيح أنه لا إشكال فى هذا فإن معنى التعليق هنا: أننا إذا لحقنا بكم فإنما نلحق بمشيئة الله... متى شاء لحقنا بكم؛ لأن الأمر أمره،

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٩٧٧) كتاب الجنائز.

والمُلك مُلكه، هو الذى يدبر عَزَّوَجَلَّ ما شاء فيمن شاء... أليس الله يقول: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾؟ مع أنهم سيدخلونه.

«**وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»، أى: كُلنا ميتون، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ للنبى ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، فلا أحد سيُخلَّد فى هذه الدنيا، فالكل سيموت... فقال النبى ﷺ وهو عند المقابر وقد سلم على الأموات: «**وددت أنَّا قد رأينا إخواننا، قالوا: أَوَلسنا إخوانك يا رسول الله؟!**» فالصحابة المؤمنون الأتقياء الأبرياء الأنقياء الذين هم قلوبهم مثل مصابيح الدُّجَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقولون للنبى ﷺ: أَوَلسنا إخوانك؟ فيقول النبى ﷺ: «**أنتم أصحابى**»، - أخص من الإخوان - فالصاحب أخٌ وزيادة، والأخ أخٌ بلا مصاحبة... قال: «**أنتم أصحابى**» - يعنى: فأنتم أخص منهم، وهم: - الصحابة - إخوانٌ للرسول ﷺ وأصحابٌ له.. أما مَن جاءوا بعدهم من المؤمنين فهم إخوانه وليسوا أصحابه.

«**وددت أنا لقينا إخواننا**» قالوا: أَوَلسنا إخوانك يا رسول الله؟! قال: «**أنتم أصحابى وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**»، فكأنه يريد أن يُبين لهم مَن يعنى بذلك، وإلا فإن هؤلاء الأصحاب إخوانه...والله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهم إخوة، ولكن الذين يعنيهم النبى ﷺ فى هذا الحديث هم مَن لم يأتوا بعد..بل مَن لم يُولدوا بعد من القرون التى تأتى بعد ذلك، «**قالوا: كيف تعرف مَن لم يأتِ بعد من أمتك يا رسول الله؟!**»، أى: أنت تعرفنا لكونك رأيتنا، لكن كيف ستعرف مَن يأتون بعدنا إلى يوم القيامة؟ فقال النبى ﷺ: «**أرأيتم لو أن رجلاً له خيلٌ غُرٌّ مُحجَّلة بين ظهرى خيلٍ دُهم بُهمٍ ألا يعرف خيله؟**»، أى: لو أن رجلاً خيوله كلها سوداء، وله خيلٌ غُرٌّ مُحجَّلة ضمن هذه الخيول السوداء... والغُر المُحجلة: هى التى فى رأسها ويديها بياض...ألا يستطيع أن يميز بين هؤلاء وهؤلاء؟ «فقالوا: بلى يا رسول الله! قال: **فإنهم يأتون غرًّا مُحجَّلين من الوضوء**»، فالنور الذى يكون للمؤمن يوم القيامة هو بسبب الوضوء.

قال: «وأنا فرطهم على الحوض»، أي: أنا سابقهم على الحوض الذي يأتي ماؤه من نهر الكوثر... قال الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ - ٣].

والكوثر: هو نهرٌ عظيم .. ماؤه أحلى من العسل، وأشد بياضًا من اللبن، وآنيته كعدد نجوم السماء، أي: لا أحد يستطيع أن يعدها ... لا علماء الفلك ولا غيرهم، فيشرب منه المؤمنون، ومَن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا... نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يَسقينا من حوضه ﷺ في أول مَن يسقيهم النبي ﷺ.

(١٠٣٧) وعنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «ألا أدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو الله به الخَطَايا، ويرفَعُ بِهِ الدَّرَجاتِ؟» قالُوا: بلى يا رسُولَ الله، قال: «إسْباغُ الوُضُوءِ على المكارِهِ، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجِدِ، وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بعد الصَّلاةِ، فذَلِكُمْ الرِّبَاطُ، فذلِكُمْ الرِّباطُ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٣) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١٠٣٨) وعن أبي مالكٍ الأشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ»(٢).

وفي البابِ حديثُ عمرو بْنِ عَبْسةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السَّابِقُ في آخِرِ باب الرَّجاءِ، وَهُو حدِيثٌ عظيمٌ، مُشْتَمِلٌ عَلَى جُمَلٍ من الخيرات.

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٦) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.

(١٠٣٩) وعن عُمر بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما مِنْكُم مِنْ أحدٍ يتوضَّأُ فيُبْلِغُ ـ أو فيُسْبِغُ الوُضُوءَ ـ ثُمَّ قالَ: أشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شَريكَ له، وأشْهَدُ أنَّ محمَّدًا عبْدُهُ ورسُولُه، إلا فُتِحَت لهُ أبْوابُ الجنَّةِ الثَّمانِيَةُ يَدخُلُ مِنْ أيِّها شاءَ»[1].

(١٠٣٩ أ) وزاد الترمذي: «اللَّهُمَّ اجْعَلْني من التَّوَّابِينَ واجْعلْني مِنَ المُتَطَهِّرِينَ».

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه ما من أحدٍ من أهل الإيمان والتوحيد يتوضأ فيُسبغ الوضوء ويُحسن فيه ثم يقول: «**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله** ﷺ» فتلك كلمة التوحيد بأن يشهد العبد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

فالوضوء من الإيمان، والشهادة أعظم أركان الإسلام.. فأنت تتوضأ وتذكر الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا القول، ثم تقول: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**»، كما في الرواية الأخرى.. فتسأل الله وتدعوه أن يرزقك التوبة ويجعلك من المتطهرين.

وقوله: «**اللهم اجعلني من التوابين**»، مناسب للوضوء، فهو يكفر الخطايا، فكأنه يقول يا رب! كما أسقطت عني الخطايا فاجعلني دائمًا أتوب إليك من المعاصي إذا وقعت فيها، وتُب عليَّ واجعلني من عبادك المتطهرين...والذي يقول هذا الدعاء ثوابه كما قال النبي ﷺ: «**فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**»، أي: لم يبقَ بينك وبين أن تدخل الجنة إلا أن تموت.

فالوضوء عظيم، والصلاة عظيمة، والعمل لله عَزَّ وَجَلَّ أعظم الأشياء قيمةً في حياة الإنسان المؤمن.. فليحرص المؤمن على أن يُرضي الله سبحانه بطاعته وحسن عبادته...نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُعيننا على ذكره وشكره وحُسن عبادته.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٤) كتاب الطهارة.

۞ **قال بعض العلماء:** اعلم أنك إذا توضأت، فإنك ستزور ربك عَزَّوَجَلَّ، فعليك أن تتوب إليه، لأنه جعل الغسل بالماء مقدمة للغسل من الذنوب.. فإذا تمضمضت فطهِّر لسانك من الكذب والغيبة والنميمة.. فإنما خُلق لسانك لذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، والتسبيح والتحميد والتهليل.

وإذا استنشقت فطهِّر أنفك من أن تشم محرمًا.. وإذا طهرت وجهك، فطهر نظرك من ثلاث:

(١) من أن تنظر إلى مُحرم.

(٢) أو تنظر إلى مسلم بعين الاحتقار.

(٣) أو تنظر إلى عيب أحد ... فَكُلك عيوب.. وقد خُلقت العينان لتهتدى بهما إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ولتستعين بهما فى الحاجات، وتنظر بهما إلى عجائب ملكوت الأرض والسموات فتعتبر بما تراه من الآيات.

وإذا غسلت يديك وطهرتهما بالماء، فطهرهما من أن تؤذى بهما مسلمًا.. أو تتناول بهما مُحرمًا.. أو تكتب بهما ما يؤذى مسلمًا.

فالمسلم مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده.

وإذا مسحت رأسك، فاعلم أن مسحه امتثال لأمر الله، والخضوع لجلاله، والتذلُّل بين يديه.. وإظهار الافتقار إليه.

وإذا غسلت رجليك وطهرتهما، فطهرهما من المشى إلى ما حرم الله، فما من عبدٍ يخطو خطوة إلا سُئل عنها ماذا أراد بها[1].

---

(١) منهاج الصالحين (ص ١٣٤، ١٣٥) أ. محمد بحيرى.

(١٨٦) باب فضل الأذان

۞ لا بد أن نعلم أولاً أن الأذان هو الإعلام بالصلاة أي: بدخول وقتها.

والأذان المشروع: هو الذى يؤذَّن للصلوات الخمس.. ولقد فُرض فى السنة الثانية من الهجرة، بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة شُرع الأذان.

واختلف الصحابة حين تشاوروا كيف نعلم بدخول وقت الصلاة؟

فقال بعضهم: نوقد نارًا عظيمة ليعرف الناس أن الوقت قد دخل، وقال بعضهم: بل نضرب بالناقوس - الناقوس الذى يشبه الجرس -: وهو الذى ينادى به النصارى لصلواتهم، وقال آخرون: بل ننفخ بالبوق كما يفعل اليهود... وكل هذا كرهه النبى ﷺ، فهرع رجل من الصحابة -وهو: عبد الله بن زيد - بعد أن رأى رجلاً فى المنام وفى يده ناقوس فقال له: أتبيع هذا؟ قال: وماذا تصنع به؟ قال: أُعلِمُ به للصلاة، قال: أفلا أدلك على خيرٍ من ذلك، قال: بلى. فقرأ عليه الأذان كاملًا، وقرأ عليه الإقامة كاملة .. فلما أصبح غدا إلى النبى ﷺ وأخبره بالخبر، فقال النبى ﷺ: «**إن هذا رؤيا حق**» ثم عَلَّمه بلالاً فأذَّن به، هذا الأذان المعروف.

ولما كان فى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه وكثر الناس جعل أذانًا أولاً للجمعة قبل الأذان الثانى الذى هو عند حضور الإمام، فكان فى يوم الجمعة أذانان، وفى رمضان أمر النبى ﷺ بلالاً أن يؤذن فى آخر الليل إذا قرب وقت السحور، وقال: «**إن بلالاً يؤذن بليلٍ ليوقظ نائمكم وليُرجع قائمكم فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر**»(١) فصار عندنا الفجر لها أذان أول، ولكن ليست لها بل لأجل الإعلان أن وقت السحور قد حَلَّ...والجمعة لها أذان أول من سُنة عثمان رضي الله عنه وهو أحد الخلفاء الراشدين الذين أُمرنا باتباع سُنتهم.

---

(١) **صحيح:** رواه النسائى، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٤١) وأصله فى الصحيحين.

قال ﷺ: «**عليكم بسُنتى وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى**»[(١)] وبإجماع المسلمين أن عثمان رضي الله عنه من الخلفاء الراشدين.

۞ **وقد يقول قائل: لماذا لم يشرعه الرسول ﷺ والجمعة موجودة فى عهده؟**

والجواب: أن السبب هو أن الناس فى عهد عثمان كثروا واتسعت المدينة واحتاجوا إلى أذان يُنبههم يكون قبل الأذان الأخير الذى يكون عند مجىء الإمام ... فكان من الحكمة أن يكون هذا الأذان الأول... وعثمان رضي الله عنه بنى على أساس... فها هو النبى ﷺ يأمر بلالاً أن يؤذن بآخر الليل..لا لأن الصلاة حلَّت ولكن ليُوقظ النائم ويرجع القائم... فهو مقصدٌ شرعى، ولا إشكال فى شرعية أذان الجمعة الأول[(٢)].

۞ **أقول:** إن عثمان رضي الله عنه إنما سَنَّ هذا الأذان لظروفٍ مُعينة فى المدينة النبوية آنذاك ... فإذا وُجدت هذه الظروف فى بلدةٍ ما شُرعَ لأهلها أن يُؤَذِّنوا أذانين، وإلا ظل التمسك بالأذان الواحد هو الأصل كما كان عليه العمل فى زمن النبى ﷺ وأبى بكر وعمر رضي الله عنهما.

وذلك؛ لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

والعلة فى ذلك كثرة الناس وتَباعُد منازلهم وعدم وصول صوت المؤذن إليهم... فأمر عثمان رضي الله عنه مؤذنًا يؤذن على دارٍ مرتفعة فى السوق عند اجتماع الناس تُسمى «الزَّوراء» - وذلك قبل دخول وقت الجمعة - ليتهيأ الناس لها.

فعن السائب بن يزيد قال: «إن الأذان كان أوله حين يجلس الإمام على المنبر يوم الجمعة، فى عهد النبى ﷺ، وأبى بكر، وعمر... فلما كان خلافة عثمان، وكَثُر الناس [وفى رواية: وتباعدت المنازل] أمر عثمان يوم الجمعة بالأذان الأول على

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٢) بتصرف من شرح رياض الصالحين.

دارٍ فى السوق يُقال لها: «الزوراء» ليعلم الناس أن الجمعة قد حضرت»[(١)].

فمن هنا يتبين لنا أن العلة فى الأذان الأول إعلام الناس الذين لا يصل إليهم صوت الأذان أن الجمعة قد اقتربت.

فإذا وُجدَتْ الآن قريةٌ ليس فيها مكبرات صوت لرفع الأذان، ولا يمتلك أصحابها ساعات لتعريفهم باقتراب وقت الجمعة، وليس فى بيوتهم المذياع ونحوه من وسائل الإعلام الحديثة التى بها يعرفون دخول وقت الجمعة، فإنه يُشرع أن يؤذن لهم مؤذنٌ على مكانٍ مرتفع قبل وقت الجمعة بزمنٍ يكفى للتهيؤ لصلاة الجمعة.

أما إذا كان الناس يمتلكون ساعات تُعرفهم الوقت، أو كان بالمسجد مكبرات الصوت التى تُسمع الناس فى منازلهم وأعمالهم..فالأذان الأول فى هذه الحالة تحصيل حاصل... فالأَولَى حينئذٍ الاقتصار على أذانٍ واحدٍ عندما يصعد الخطيب المنبر[(٢)].

قال الإمام الشافعى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأحب أن يكون الأذان يوم الجمعة حين يدخل الإمام المسجد ويجلس على موضعه الذى يخطب عليه: خشب أو جريد أو منبر، أو شىء مرفوع له... فإذا فعل أخذ المؤذن فى الأذان، فإذا فرغ قام فخطب لا يزيد عليها. اهـ[(٣)].

قال الشيخ الألبانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما البلدة التى بها جوامع كثيرة كمدينة دمشق مثلاً، لا يكاد المرء يمشى فيها إلا خطوات حتى يسمع الأذان للجمعة من على المنارات، وقد وضع على كثير منها الآلات المكبرة للأصوات، فحصل بذلك المقصود الذى من أجله زاد عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الأذان وهو إعلام الناس أن صلاة

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٩١٢) كتاب الجمعة.

(٢) الكلمات النافعة (ص: ٣٦٣-٣٦٤).

(٣) «الأم» (٣/ ٦٠) ط/ قتيبة.

الجمعة قد حضرت..فالأخذ حينئذ بأذان عثمان من قبيل تحصيل الحاصل، وهذا لا يجوز، ولا سيما فى مثل هذا الموضع الذى فيه التزيُّد على سُنة رسول الله ﷺ دون سببٍ مُسوِّغ...ولذلك كان على بن أبى طالب رضي الله عنه وهو بالكوفة يقتصر على السُّنة ولا يأخذ بزيادة عثمان رضي الله عنه..كما فى القرطبى..اهـ.ملخصًا[1].

۞ وفى الحقيقة أن الأذان من أفضل الأعمال، وهو أفضل من الإمامة، يعنى أن مرتبة المؤذن فى الأجر أفضل من مرتبة الإمام؛ لأن المؤذن يُعلن لتعظيم الله وتوحيد الله والشهادة للرسول بالرسالة .. وكذلك أيضًا يدعو الناس إلى الصلاة والفلاح فى اليوم والليلة خمس مرات أو أكثر.

والإمام لا يحصل منه ذلك... والمؤذن لا يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مَدَر إلا شهد له يوم القيامة؛ ولهذا كان الأذان مرتبته فى الشرع أعلى من مرتبة الإمامة.

فإن قال قائل: إذا كان كذلك لماذا لم يكن الرسول ﷺ يؤذن ولا الخلفاء الراشدون؟ أجاب العلماء عن هذا بأن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين كانوا مشغولين بمصالح العباد؛ لأنهم خلفاء أئمة يدبرون أمر الأمة .. والأذان فى عهد الرسول ﷺ ليس كالأذان فى وقتنا.. الآن إذا أراد الإنسان أن يؤذن ليس عليه سوى أن ينظر إلى الساعة ويعرف الوقت حَلَّ أو لم يَحِلَّ، لكن فى عهد الرسول ﷺ كانوا يُراقبون الشمس ويُتابعون الظل حتى يعرفوا أن الشمس قد زالت، وكذلك أيضًا يراقبونها حتى يعرفوا أنها غربت ثم يراقبون الشفق، ثم يراقبون الفجر... ففيه صعوبة عظيمة؟ لذلك كان النبى ﷺ والخلفاء الراشدون لا يتولون الأذان... لا لأن فضله أقل من الإمامة ولكن لأنهم مشغولون بما هم فيه عن الأذان... وقد بيَّن النبى ﷺ فضيلته فى أكثر من حديث[2]..... ومنها:

(١) الأجوبة النافعة (٢١، ٢٢).

(٢) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٤١).

قال رسول الله ﷺ: «المؤذنُ يُغفرُ له مدَّ صوته، وأجرهُ مثلُ أجر من صلى معهُ»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «المؤذنُ يُغفرُ له مدَى صوته، ويشهدُ له كُلُّ رطبٍ ويابسٍ، وشاهدُ الصلاة يُكتب له خمسٌ وعشرون صلاةً، ويُكفَّرُ عنه ما بينهما»(٢).

۞ وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَعجبُ ربُّك من راعى غنم فى رأس شظية(٣) للجبل، يُؤذن بالصلاة، ويصلى، فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدى هذا يُؤذنُ ويُقيمُ الصلاة، يَخافُ منى، قد غفرتُ لعبدى، وأدخلتُه الجنة»(٤).

۞ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «مَن أذن اثنتى عشرة سنة، وجبت له الجنةُ، وكُتب له بتأذينه فى كل يوم ستون حسنةً، وبإقامته ثلاثون حسنةً»(٥).

(١٠٤٠) عن أبى هُريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لَوْ يَعلَمُ النَّاسُ ما فى النِّداءِ والصَّفِّ الأولِ. ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلا أنْ يَسْتَهِموا عليهِ لاسْتَهموا عليهِ، ولَوْ يَعلَمُونَ ما فى التَّهْجِير لاسْتَبقوا إليه، ولَوْ يَعلَمُون ما فى العَتَمَةِ والصُّبحِ لأتَوْهُما ولَوْ حَبوًا»(٦).

۞ ففى هذا الحديث يَحثُّنا النبى ﷺ على أن نتسابق ونتنافس على الأذان والصف الأول... والتسابق هنا ليس بالمزاحمة والجرى وإيذاء الناس من حولنا ولكن بالحرص على أن تأتى مبكرًا قبل إخوانك فتؤذن وتقف فى الصف الأول..

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٣).
(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٤).
(٣) الشظية: هى القطعة تنقطع من الجبل ولم تنفصل عنه.
(٤) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٠٢).
(٥) صحيح: رواه ابن ماجة والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٠٢).
(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٥) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٧) كتاب الصلاة.
«الاسْتهامُ»: الاقْتراعُ - و«التَّهجِيرُ»: التَّبْكيرُ إلى الصَّلاةِ.

فقد قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ**»(١).. فإن لم تدرك الصف الأول فاحرص على الصف الثانى فقد جاء فى رواية أبى داود «**الصُّفُوفِ الْأُولِ**» وجاء فى رواية النسائى «**الصُّفُوفِ الْمُقَدَّمَةِ**» لكن على العموم إياك أن تؤذى أحد المصلين من أجل أن تصلى فى الصف الأول.

ونلاحظ هنا أن النبى ﷺ عظَّم من ذكر فضل الأذان والصف الأول حينما قال: «**لَوْ يَعلَمُ النَّاسُ ما فى النِّداءِ والصَّفِّ الأولِ**» أى: أن الأجر والثواب والمنزلة التى تحصل للمؤذن ولمن يصلى فى الصف الأول فوق ما يخطر على قلب بشر.. ولذا زادنا النبى ﷺ تشويقًا فقال: «**ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلا أنْ يَسْتَهِموا عليهِ لاسْتَهموا عليهِ**» أى: اقترعوا من أجل أن يعرفوا مَن الذى يستحق أن يؤذن ومَن الذى يستحق أن يكون فى الصف الأول.

۞ ثم قال ﷺ: «**ولوْ يَعلَمُونَ ما فى التَّهْجِير لاسْتَبقوا إليه**» أى: لو يعلمون ما فى التبكير إلى الصلاة من الأجر والثواب وشهادة الملائكة لهم ورضا الله عنهم وحبه لما يفعلونه لاستبقوا إليه وحرص كل واحدٍ منهم على أن يكون أول مَن يدخل المسجد وآخر مَن يخرج منه.

۞ قَوْلُهُ ﷺ: «**وَلَوْ يَعلَمُونَ مَا فِى الْعَتَمَةِ وَالصُّبحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**».

فِيهِ الْحَثُّ الْعَظِيمُ عَلَى حُضُورِ جَمَاعَةِ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ وَالْفَضْلُ الْكَثِيرُ فِى ذَلِكَ لِمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَى النَّفْسِ مِنْ تَنْغِيصِ أَوَّلِ نَوْمِهَا وَآخِرِهِ.

وَلِهَذَا كَانَتَا أَثْقَلَ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ.

وهذا الفضل لصلاة العشاء وصلاة الصبح، عظيم ولذا أخبر النبى ﷺ أنهم: لو يعلمون فضلهما لأتوهما ولو حبوًا...فلو أن الإنسان لا يقدر أن يذهب ماشيًا على رجليه مشى حبواً على الأرض، مع أن هذا الذى يحبو لا تجب عليه الصلاة جماعة، ولكن النبى ﷺ يخبره أن فيهما فضيلة عظيمة لو يعلمها لتناسى

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٣٩).

الإنسان مرضه معها...وإن كان ليس على المريض حرج، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ [النور: ٦١]، ولكنه الحث على أن تدرك الجماعة ولا تفوتها إلا إذا كان العذر يمنعك من ذلك.

وقوله ﷺ: «**لو يعلمون ما فى العتمة**»، أى: صلاة العشاء... والمعنى: لو يعلمون كم يكون فيها من الثواب والفضل! ومثلها الصبح، وخاصة إذا جاء يوم القيامة وجد أن أكثر ما يُنير له ظُلمات يوم القيامة صلاة الصبح والعشاء فى جماعة.... قال النبى ﷺ مُخبراً عن النور الذى تمنحه صلاة الفجر وصلاة العشاء «**بَشِّر المشائين فى الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»[1]، ما ذهب مرة لصلاة الفجر فحسب بل هو مشَّاء أى: كثير المشى والذهاب إلى بيت الله عَزَّوَجَلَّ فى صلاة الفجر والعشاء... لا يمنعه حَرٌّ فى الصيف، ولا بردٌ فى الشتاء، ولا مطر ولا شدة رياح... فلا يمنعه شىء عن أن يصلى جماعة فى بيت الله عَزَّوَجَلَّ، فلهذا يقول: أبشر فلك نورٌ تام يوم القيامة... ومن الناس مَن يكون له نور على قدر عمله... فبعضهم له نور يخفت مرة ويزيد أخرى وينطفئ ثالثة، لكن هذا المواظب على صلاة الفجر والعشاء فى الجماعة له النور التام يوم القيامة.

۞ وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ تَسْمِيَةُ الْعِشَاءِ عَتَمَةً ... وَقَد ثَبَتَ النَّهْىُ عَنْهُ وَجَوابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ بَيَانٌ لِلْجَوَازِ وَأَنَّ ذَلِكَ النَّهْىُ لَيْسَ لِلتَّحرِيمِ وَالثَّانِى وَهُوَ الْأَظْهَرُ أَنَّ اسْتِعمَالَ الْعَتَمَةِ هُنَا لِمَصلَحَةٍ وَنَفْىِ مَفْسَدَةٍ لِأَن الْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعمِلُ لَفْظَةَ الْعِشَاءِ فِى الْمَغْرِبِ. فَلَوْ قَالَ: لَوْ يَعلَمُونَ مَا فِى الْعِشَاءِ وَالصُّبْحِ لَحَمَلُوهَا عَلَى الْمَغْرِبِ فَفَسَدَ الْمَعنَى وَفَاتَ الْمَطْلُوبُ... فَاسْتَعمَلَ الْعَتَمَةَ الَّتِى يَعرِفُونَهَا وَلَا يَشُكُّونَ فِيهَا ... وَقَوَاعِدُ الشَّرعِ مُتَظَاهِرَةٌ عَلَى احتِمَالِ أَخَفِّ الْمَفْسَدَتَيْنِ لِدَفْعِ أَعظَمِهِمَا[2].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٢٣).

(٢) مسلم بشرح النووى (٤/ ٢٠٧، ٢٠٨) بتصرف.

(١٠٤١) وعنْ مُعاوِيةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمِعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «المُؤذِّنونَ أَطْولُ النَّاسِ أعناقًا يوْمَ القِيامةِ»(١).

۞ أما قول النبى ﷺ: «المُؤذِّنونَ أَطْولُ النَّاسِ أعناقًا يوْمَ القِيامةِ».

فإنه يُقال: فلان هذا طويل العُنق بمعنى: أنه شريف... فكأنه يقول: أشرف الناس يوم القيامة... إذ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُميزهم على غيرهم بطول عُنقٍ، وهيئة جميلة تكون لهم.. والإنسان فى الدنيا عندما ينظر إنسانًا ذا رقبة طويلة هل يراها جميلة؟ لا... بل ذلك قُبحٌ وليس بجمال، ولكن الله يُجمل هؤلاء بتشريفهم يوم القيامة، فيجعلها لهم علامة على الشرف والجمال الذى يكون لهم ذلك اليوم.

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: فإنه إذا بُعث الناس يوم القيامة فإن المؤذنين يكون لهم ميزة ليست لغيرهم وهى أنهم أطول الناس أعناقًا فيُعرفون بذلك تنويهًا لفضلهم وإظهارًا لشرفهم؛ لأنهم يؤذنون ويعلنون بتكبير الله عَزَّ وَجَلَّ وتوحيده والشهادة لرسوله ﷺ بالرسالة، والدعوة إلى الصلاة وإلى الفلاح، يُعلنونها من الأماكن العالية؛ ولهذا كان جزاؤهم من جنس العمل أن تعلو رءوسهم وأن تعلو وجوههم وذلك بإطالة أعناقهم يوم القيامة... وهذا يدل على أنه ينبغى للإنسان أن يحرص على أن يكون مؤذنًا حتى لو كان فى نُزهة هو وأصحابه فإنه ينبغى أن يبادر لذلك(٢).

(١٠٤٢) وعنْ عبْدِ الله بنِ عبدِ الرَّحمَنِ بنِ أبى صَعصعَةَ أن أبَا سعِيدٍ الخُدرىَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ لهُ: «إنِّى أراكَ تُحِبُّ الغَنَم والبادِيةَ، فإذا كُنْتَ فى غَنَمِكَ ـ أوْ بادِيَتِكَ ـ فأذَّنْتَ للصَّلاةِ، فارفَع صَوْتَكَ بالنِّداءِ، فإنَّهُ لا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المؤذِّن جِنٌّ، ولا

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٨٧) كتاب الصلاة.

(٢) شرح رياض الصالحين/ الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٤٢) بتصرف.

إنسٌ، ولا شَيءٌ، إلا شَهِدَ لهُ يَوْمَ القِيامةِ» قال أبو سعيدٍ: سَمِعتُهُ مِن رسُولِ الله ﷺ(١).

۞ ففى هذا الحديث قام أبو سعيدٍ الخدرى رضي الله عنه وهو من خيرة أصحاب الرسول ﷺ.. قام بنصيحة أحد التابعين وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة رحمه الله فقال له: «**إنى أراك تحب الغنم والبادية**».. أى: إنى أرى لديك غنمًا تخرج بها إلى البادية .. وأراك تحب الغنم والبادية؛ لأن هذا عملك وتلك مهنتك فاحرص على صلاة الجماعة ولا تُضيعها حتى وأنت فى الصحراء والبادية.. فإذا كنت فى البادية ومعك غنمك فاحرص على أن تُؤذن للصلاة وأن ترفع صوتك بالأذان فقد يأتى مَن يسمعك ليصلى معك صلاة الجماعة... ولا تقل مَن سيصلى معى فى هذا المكان فقد يبعث الله إليك مَن يشاء من الإنس أو الجن ليصلى خلفك وأنت لا تدرى ...

فقد قال ﷺ: «**إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بِأَرضٍ قِيٍّ فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَلْيَتَوَضَّأْ، فَإِنْ لَمْ يَجِد مَاءً فَلْيَتَيَمَّمْ، فَإِنْ أَقَامَ صَلَّى مَعَهُ مَلَكَاهُ، وَإِنْ أَذَّنَ وَأَقَامَ صَلَّى خَلْفَهُ مِنْ جُنُودِ اللهِ مَا لاَ يُرَى طَرَفَاهُ**»(٢).

فمن المعلوم أن راعى الغنم فى البادية لا يستطيع أن يذهب إلى الصلاة فى جماعة فى المسجد ويترك الغنم وحدها فى تلك الصحراء وإلا فسوف تضيع أو تُسرق.

۞ ثم بشَّره أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه وقال له: « **فارفَع صَوْتَكَ بالنِّدَاءِ، فإنَّهُ لا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المؤذِّن جِنٌّ، ولا إنسٌ، ولا شَيءٌ، إلا شَهِدَ لهُ يَوْمَ القِيامةِ**».

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٩) كتاب الأذان.
(٢) صحيح: رواه عبد الرزاق فى المصنف وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٩).
القى: هى الأرض القفر.

والمعنى: أنه يشهد لمن يؤذن الإنس والجن وأى شيء سمعه حتى الجماد يشهد للإنسان الذى يؤذن يوم القيامة.

۞ ثم قال له: سمعته من رسول الله ﷺ.. أى أن هذا الكلام ليس من كيس أبى سعيد بل سمعه من النبى ﷺ مباشرة...فقد قال له النبى ﷺ نفس الكلام.

(١٠٤٣) وعنْ أبى هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذا نُودِيَ بالصَّلاةِ أدبَرَ الشَّيْطانُ ولهُ ضُراطٌ حتَّى لا يسْمَعَ التأذِينَ، فإذا قُضِيَ النِّداءُ أقْبَل، حتَّى إذا ثُوِّبَ للصَّلاةِ أدبَر، حتَّى إذا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أقْبَلَ، حتى يَخْطِر بينَ المرءِ ونَفْسِهِ يقُولُ: اذْكُر كَذا، واذكُر كذا ـ لِمَا لَمْ يذْكُر مِنْ قَبْلُ ـ حتَّى يظَلَّ الرَّجُلُ مَا يدرى كَمْ صَلَّى»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن حيلة من حيل الشيطان التى لا تُعد ولا تُحصَى .. فيخبر أن الشيطان إذا سمع المؤذن يُؤذن فإنه يُدبر ويهرب فزعًا من صوت الأذان..

ولشدة فزعه يهرب وهو يضرط...ومعلوم أن الإنسان حين يرى شيئًا يُفزعه قد يَبول على نفسه أو يخرج منه ريح؛ لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى نفسه... كذلك الشيطان يفزع حين يسمع الأذان، فيحدث منه ذلك لأمرين: الأول: من شدة فزعه ورُعبه من الأذان.

والثانى: لأنه لا يريد أن يسمع الأذان، فيضرط بهذه الصورة القبيحة ليسمع ضراطه ولا يسمع الأذان... ولذلك كان الأذانُ شفاءً للإنسان المؤمن حين يسمعه؛ لما فيه من إذهابٍ للشيطان والنجاسات عن الإنسان المؤمن من الجان الذين لا يؤمنون بالله.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٨) كتاب الأذان - ومسلم (٣٨٩) كتاب الصلاة.
«التَّثويبُ»: الإقامةُ.

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ [الناس: ٤] الذي يخنس عند ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ويختفي ويبعد ... لأن الشيطان أكره ما عنده عبادة الله وأبغض ما عنده من الرجال عباد الله وأحب ما يحب الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ والمعاصي لأنه يأمر بالفحشاء ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ فيحب من الناس أن يأتوا ما لم يأمر الله به ويكره أن يأتوا ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ ..

فإذا أذن المؤذن وَلَّى وابتعد عن مكان الأذان حتى يخرج بعيدًا عن البلاد لئلا يسمع الأذان.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَإِنَّمَا أَدبَرَ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْأَذَانِ لِئَلَّا يَسْمَعَهُ فَيُضْطَرَّ إِلَى أَنْ يَشْهَدَ لَهُ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لا يسمع صَوْتَ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلا إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: وَقِيلَ إِنَّمَا يَشْهَدُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَأَمَّا الْكَافِرُ فَلَا شَهَادَةَ لَهُ... قَالَ: وَلَا يُقْبَلُ هَذَا مِنْ قَائِلِهِ لِمَا جَاءَ فِي الْآثَارِ مِنْ خِلَافِهِ.

قَالَ: وَقِيلَ: أَنَّ هَذَا فِيمَنْ يَصِحُّ مِنْهُ الشَّهَادَةُ مِمَّنْ يَسْمَعُ وَقِيلَ بَلْ هُوَ عَامٌّ فِي الْحَيَوَانِ وَالْجَمَادِ وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَخْلُقُ لَهَا وَلِمَا لَا يَعقِلُ مِنَ الْحَيَوَانِ إدرَاكًا لِلْأَذَانِ وَعَقْلًا وَمَعرِفَةً ... وَقِيلَ: إِنَّمَا يُدبِرُ الشَّيْطَانُ لِعِظَمِ أَمْرِ الْأَذَانِ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ التَّوْحِيدِ وَإِظْهَارِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَإِعلَانِهِ وَقِيلَ: لِيَأْسِهِ مِنْ وَسْوَسَةِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ الْإِعلَانِ بِالتَّوْحِيدِ[1].

۞ «**فإذا قُضِيَ النِّداءُ**» أي: إذا انتهى الأذان أقبل الشيطان مرة أخرى ليوسوس للناس ويُغويهم.

«**حتَّى إذا ثُوِّبَ للصَّلاةِ أدبَر**» أي: إذا سمع إقامة الصلاة أدبر مرة أخرى وهرب كما هرب عند سماع الأذان.. فهو يهرب إذا سمع الأذان أو الإقامة.

(١) مسلم بشرح النووي (٤/ ١٢٢).

«**حتَّى إذا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أقْبلَ**» أى: إذا فرغت الإقامة أقبل حتى يَحُول بين المرء وقلبه فى صلاته ... يقول له: اذكر كذا اذكر كذا اذكر كذا ... حتى لا يطيق المصلى ... وهذا أمر يشهد له الواقع .... فإن الإنسان أحيانًا ينسى أشياء فإذا دخل فى الصلاة فتح الشيطان عليه باب التذكُّر حتى يذكرها.... ويُذكَر أن رجلًا جاء إلى الإمام أبى حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: إنه استودع وديعة ونسيها فقال له: اذهب فتوضأ فصلِّ ركعتين وستذكرها .. ففعل الرجل ذلك فتوضأ ودخل فى الصلاة فذكَّره إياها الشيطان حتى لا يُكمل صلاته ... وهذا أمر يشهد له الواقع.

فأهم شىءٍ عند الشيطان أن تخرج من الصلاة ليس لك منها شىء.

وفى **الحديث**: سُئل النبى ﷺ عن الالتفات فى الصلاة فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم**»، الالتفات فى الصلاة كما لو كنت تصلى فتنظر عن شمالك أو يمينك مُتلهيًا عن صلاتك، وقد تنظر شيئًا أمامك كألوان الحائط، أو صورة عليه... فالشيطان يسرق بذلك من صلاتك، ويترصدك كلما تلهَّيت وتعمدت ذلك، ولو كنت تفكر فى شىء غير الصلاة لضاع منك بعض الثواب، والشيطان يفرح بذلك.

مع أن هذه الأشياء وإن كانت مهمة بالنسبة لك لكنها بالنسبة للشيطان لا تعنى شيئًا..فالأهم عنده أن يُضيع عليك الصلاة.. لأنَّ الصلاة هى التى تُدخلك الجنة، وهو لا يريدك أن تدخل الجنة، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]، فقد توعَّد الشيطان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنيه أن يدخلوا النار، وأقسم على ذلك بعزة الله وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢].

فالشيطان يريد أن يجعلك لا تدرى كم صليت، فإذا بالإنسان يضجر من الصلاة، وكلما صلى ثلاث ركعات أو أربعًا لا يدرى كم ركعة صلى، فإذا به من شدة ما ألَمَّ به من الشك يخرج من الصلاة، والشيطان يريد ذلك، ولذا إذا ابتُليت

بالسهو فى الصلاة فاسجد للسهو؛ فإنك تؤذى الشيطان بذلك وتغيظه...

قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، اعتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، وَقَالَ: يَا وَيْلَهُ!**[(١)] **أُمِرَ هَذَا بِالسُّجُودِ، فَأَطَاعَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرتُ بِالسُّجُودِ، فَعَصَيْتُ، فَلِيَ النَّارُ**»[(٢)].

فقد جاء يوسوس له من أجل ألا يدرى هل صلى ركعتين أو ثلاثـًا، فإذا جعلهن ثلاثـًا وسجد سجدتين زاد على ما كان يريد ألا يفعله... فهنا تغيظ الشيطان بطاعتك لله عَزَّوَجَلَّ، وبإقبالك على الله سبحانه تبارك وتعالى.

۞ وفى هذا الحديث فائدتان عظيمتان:

بيان فضل الأذان وأنه يطرد الشياطين..ولهذا استحب الكثير من العلماء إذا وُلد المولود أول ما يولد أن يُؤذَّن فى أذنه حتى يطرد الشيطان عنه.

وبعضهم يقول: يؤذن فى أذنه حتى يكون أول ما يسمع ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

***

(١٠٤٤) وعن عبدِ الله بن عمرو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **أنه سَمِع رسُولَ الله** ﷺ **يقُولُ:** «**إذا سَمِعتُمُ النِّداءَ فقُولُوا مِثْلَ ما يقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَليَّ، فإنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى الله عليه بها عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا الله لىَ الوَسيلةَ، فإنَّها مَنزِلَةٌ فى الجنَّةِ لا تَنْبَغِى إلا لعَبْدٍ مِنْ عِبادِ الله وأرجُو أنْ أكُونَ أنَا هو، فمنْ سأَلَ لىَ الوسيلة حَلَّتْ لهُ الشَّفاعةُ**»[(٣)].

(١٠٤٥) وعنْ أبى سعيد الخُدرىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أنَّ رسُولَ الله** ﷺ **قال:** «**إذا سَمِعتُمُ النِّدَاءَ، فقُولُوا كما يقُولُ المؤذِّنُ**»[(٤)].

---

(١) هذا دعاء على نفسه بالويل وهو الهلاك.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٨١) كتاب الإيمان.

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٣٨٤) كتاب الصلاة.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦١١) كتاب الأذان - ومسلم (٣٨٣) كتاب الصلاة.

۞ ففي هذا الحديث يأمرنا النبي ﷺ ويرشدنا إلى أن نقول مثلما يقول المؤذن ... وقد كان الصحابة يتمنون الأذان حتى قال قائلهم: تركتنا نتشاحّ فى الأذان ... فأمرهم النبي ﷺ ألا يتعاركوا على الأذان، ودلَّهم إلى شيءٍ آخر يَصِلون به إلى ما يَصل إليه المؤذن من الثواب، وذلك بأن يقولوا مثلما يقول، إذ ليس من الممكن أن كل الناس يؤذنون، ولكن البعض يؤذن والباقون يُرددون فيُؤجَرون كما يُؤجَر هذا المؤذن.

أى أننا نقول مثلما يقول المؤذن ونُردِّد خلفه كل جملة من الأذان إلا إذا قال: «حى على الصلاة» «حى على الفلاح» نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله... لحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ، قَالَ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ، قَالَ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**(١).

۞ وكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) تعنى أننا عزمنا على الإجابة ولكننا نستعين بالله عز وجل ... ولهذا أقول: إن هذه الكلمة كلمة استعانة تُعين الإنسان على أموره وعلى صلاح أحواله ... ولهذا قال الرجل المؤمن لصاحبه فى قصة صاحبى الجنتين: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ يعنى لكان خيرًا لك وسَلِمَت جنتك من التلف ... فهذه الكلمة كلمة عظيمة حتى قال النبي ﷺ لعبد الله بن قيس أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه: **«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»**(٢) فإذا قال المؤذن حى

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٨٥) كتاب الصلاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٠٥) كتاب المغازى - ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

على الصلاة حى على الفلاح نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ... وإذا قال فى صلاة الفجر: الصلاة خيرٌ من النوم نقول: الصلاة خير من النوم

۞ وهناك معنى آخر عظيم لكلمة (حى على الفلاح): فمعنى حى على الفلاح أى تعالوا إلى سبب الفوز والبقاء فى الجنة والخلود فى النعيم والفلاح... فنقول إذا سمعناها: «لا حول ولا قوة إلا بالله» الحول: الحركة.

أى لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله ... وقيل: لا حول فى دفع الشر ولا قوة فى تحصيل الخير إلا بالله ... وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته[1].

۞ قال: «**ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ**» ... أى بعد الترديد خلف الأذان نصلى على النبى ﷺ.. وليس المؤذن هو الذى يصلى على النبى ﷺ فقط.. بل الكل يصلى على النبى ﷺ فى سِرِّه وليس فى الميكرفون لأن الكل مشغولٌ بالذكر خلف الأذان وبالصلاة على سيد الأنام ﷺ... فمن صلَّى على النبى ﷺ مرة واحدة صلى الله عليه عشر مرات.. ويا لها من منقبة عظيمة.

۞ قال ﷺ: «**ثُمَّ سَلُوا الله لى الوَسيلةَ**».. والوسيلة هى أعلى درجة فى الجنة.. وقد أخبر النبى ﷺ أنها لا تنبغى إلا لعبدٍ واحدٍ من عباد الله.

وقال ﷺ من تواضعه: «**وأرجُو أنْ أكُونَ أنَا هو**» بل هو هو ﷺ ولكنه يقول ذلك تواضعًا منه.. وهل هناك أحدٌ فى الكون كله من لَدُن آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها يستحق تلك المنزلة إلا النبى محمد ﷺ.

۞ قال ﷺ: «**فمن سأل لى الوسيلة حلَّت له الشفاعة**» وفى رواية: «**حلَّت عليه**»، أى: صارت حلالاً له... فكأنها محظورة إلا بذلك، فإذا صليت على النبى ﷺ وسألت الله له الوسيلة (عليه الصلاة والسلام) استحققت ما كان

---

(١) مسلم بشرح النووى (٤/ ١١٥).

محظورًا قبل ذلك.

۞ ومعنى سؤال الوسيلة للنبى ﷺ وضَّحه النبى ﷺ نفسه فى الحديث التالى:

(١٠٤٦) وعنْ جابرٍ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «مَن قالَ حِينَ يَسْمعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هذِه الدَّعوةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ القائمةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوسِيلةَ والفَضِيلَة، وابْعَثُه مقَامًا مَحمُودًا الذى وعَدتَه، حَلَّتْ لهُ شَفاعَتى يوْم القِيامةِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن قال حين يسمع النداء -أى الأذان- يعنى بعد أن يفرغ المؤذن من الأذان فإنك تصلى على النبى ﷺ ثم تقول: اللَّهُمَّ رَبَّ هذِه الدَّعوةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ القائمةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوسِيلةَ والفَضِيلَة، وابْعَثُه مقَامًا مَحمُودًا الذى وعَدتَه.

۞ «**اللَّهُمَّ رَبَّ هذِه الدَّعوةِ التَّامَّةِ**» فهذا النداء دعوة تامة.

وقيل: المراد: دعوة التوحيد؛ وقيل: دعوة التوحيد تامة؛ لأن الشرك نقصٌ... أو التامة التى لا يدخلها تغيير ولا تبديل، بل هى باقية إلى يوم النشور، أو لأنها هى التى تستحق صفة التمام وما سواها فمُعرَّض للنقص.

«**والصَّلاةِ القائمةِ**» أى: التى ستُقام.

«**آتِ مُحَمَّدًا الوسِيلةَ**» أى: آتِ النبى ﷺ الوسيلة وهي أعلى درجة في الجنة.. ولا ينبغي أن تكون إلا لعبدٍ واحدٍ فاجعلها للنبي ﷺ.

«**والفَضِيلَة**» أي: المرتبة الزائدة على جميع الخلق..وقد كان..فقد أخبر النبي ﷺ وقال: «**أنا سيِّدُ ولدِ آدم يوم القِيامَة، وأولُ مَنْ ينشقُّ عنه القَبرُ، وأوَّل شافع، وأوَّل مُشفَّعٍ**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦١٤) كتاب الأذان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٨) كتاب الفضائل.

«وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته» وقد وعده الله ذلك فى قولـه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ ومن هذا المقام المحمود الشفاعة العظمى.

ولم يأتِ فى الحديث: «**والدرجة الرفيعة**» والأصل أن نتوقف على ما قاله ﷺ، كما لم يأت فيها زيادة: «**إنك لا تُخلف الميعاد**»، فنتوقف على ما قاله النبى ﷺ.

فالذى يقول ما جاء فى هذا الحديث .. قال عنه النبى ﷺ: «**حلَّت له شفاعتى يوم القيامة**»، أى: استحقت ووجبت أو نزلت عليه وصارت حلالًا له أن أشفع له يوم القيامة.

❀❀❀

(١٠٤٧) وعن سعدِ بن أبى وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبىِّ ﷺ **أنَّه قال: «مَنْ قال حينَ يسْمعُ المؤذِّنَ: أشْهَدُ أنْ لا إلـه إلا الله وحدَه لا شَريكَ لهُ، وأنَّ محمدًا عبْدُهُ ورسُولُه، رضِيتُ بالله ربًّا، وبمحَمَّدٍ رسُولاً، وبالإسلامِ دِينًا، غُفِرَ لهُ ذَنْبُهُ»**[1].

۞ فإذا ردَّدت الأذان إلى أن انتهى المؤذن مما قال **فعليك أن تقول هذا** الذكر: «**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله ربـًا وبالإسلام دينـًا وبمحمد** ﷺ **رسولاً**»، **فإذا قلت ذلك غُفر لك** ما تقدم من ذنبك.

قوله: «**رضِيتُ بالله ربًّا**» أى: مَلِكًا ومالكًا ومُتصرفًا ومُدبرًا... وإلهًا حقًّا.

قوله: «**وبمحَمَّدٍ رسُولاً**» أى: رسولًا من عند الله -تعالى-؛ فأُتابعه بكل ما جاء به... وأأتمر بأمره وأنتهى عما نهى.

قوله: «**وبالإسلامِ دِينًا**» أى: بأحكامه وشرائعه.

غفر الله عَزَّ وَجَلَّ له ذنبه.

۞ فيا ليتنا نحرص على ذلك لنفوز بالمغفرة وبشفاعة النبى ﷺ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٨٦) كتاب الصلاة.

(١٠٤٨) وعنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «الدُّعاءُ لا يُرَدُّ بين الأذانِ والإقامةِ»[1].

۞ ولفظ الدعاء بإطلاقه شامل لكل دعاء... ولكن لا بد من تقييده بما فى الأحاديث الأخرى من أنه ما لم يكن دعاءً بإثمٍ أو قطيعة رحم أو اعتداء.

والمؤمن عندما يأتى إلى بيت الله عَزَّ وَجَلَّ يرجو أن يتقبله الله ... فقد جاء يطلب فضل الله عَزَّ وَجَلَّ ورحمته ويذكر الله تبارك وتعالى... فلم يأتِ كى يُضيع وقته، ولا ليسأل الناس، بل جاء يسأل الله سبحانه وتعالى، فإذا جاء إلى بيت الله فلا يضيع الوقت بالحديث مع فلان ولا ليمزح مع فلان.

وقد تجد بين الأذان والإقامة كل اثنين يتحدثان سويًّا ... ونسى كل واحدٍ منهما أن الدعاء لا يُرد بين الأذان والإقامة... والأصل أن ننشغل بالدعاء والأذكار.

فينبغى أن تذكر ربك سبحانه وترفع يديك بالدعاء بين الأذان والإقامة؛ فإن الدعاء لا يُرد بينهما كما قال النبى ﷺ.

وقد نرى أحيانًا بعض المصلين إذا أُقيمت الصلاة وقف ورفع يديه يدعو... وهذا لم يأتِ عن النبى ﷺ، فالوارد بعد الإقامة أن يتوجه إلى القبلة ويدخل فى الصلاة كما كان يفعل النبى ﷺ.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٠٨).

(١٨٧) باب فضل الصلوات

۞ إن الصلاة هى أعظم الأركان بعد الشهادتين وهى أم العبادات وميزان تعظيم الدين فى قلب المؤمن ... فهى التى أمر الله بها وهى الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهى ملجأ المؤمن فى الكربات وهى التى يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسماوات وهى أمنية المُعذَّبين والأموات وهى العاصمة من الشهوات والناهية عن المنكرات وهى الحادى للنعيم المقيم فى الجنات.

لقد بلغت الصلاة مبلغًا عظيمًا وقدرًا عاليًا فى قلب النبى ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبُنا أن نتأمل قول النبى ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(١).

وقد كان النبى ﷺ يفزع إلى الصلاة.... ففزع إليها ليلة الأحزاب.

قال حذيفة رضي الله عنه: «رجعت إلى النبى ﷺ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل فى شَملة يصلى، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ صلَّى»(٢).

وفزع إليها يوم بدر: ... عن (علىٍّ) رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح.

۞ وكان يفزع إليها كذلك عند تجدُّد النعم.

فمن ذلك أن الله عز وجل لما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات شكرًا لله عز وجل.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٧٠٣).

وكان ﷺ يحب الصلاة حُبًّا جمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «**يَا بِلالُ! أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحنَا بِهَا**»(١).

بل إنه ﷺ فى مرض الموت وفى آخر لحظات حياته كان يُغشى عليه ثم يفيق ويقول: «**أصلَّى الناس؟**» فيقولون له: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، ويُغشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «**أصلَّى الناس؟**»(٢).

۞ وكان أصحاب النبى ﷺ ومَن تبعهم بإحسان يحبون الصلاة، ويشتاقون إليها... فلقد استولت على قلوبهم واستغرقت نفوسهم.

إن الصلاة شأنها عظيم عند الله (جل وعلا) ولذلك فقد تميزت على ما عداها من الفرائض بخصائص لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

وحسبُنا أنها العبادة الوحيدة التى منحها الله لنبيه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بلا واسطة من فوق سبع سماوات لعُلو قدرها ومكانتها عند الله (جل وعلا) فهى الفريضة الوحيدة التى فُرضت فى السماء.

۞ ومن أجل ذلك فإنه يجب على كل مسلم أن يحافظ على الصلاة وأن يعرف قدرها وأن يعرف ما هى الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها كل مسلم فى صلاته.

۞ **قال الله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ... إذا كنت قد هممت بذنب أو كان قلبك يميل إلى المعاصى فإنك إذا صليت انمحى ذلك كله لكن بشرط أن تكون الصلاة التى تُراد منك والتى تريدها أنت لله عَزَّوَجَلَّ صلاة على أكمل ما يكون... ولهذا يجب علينا أن نعتنى بصلاتنا ونكملها بقدر المستطاع بجميع أركانها وشروطها وواجباتها ومكملاتها فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(١٠٤٩) وَعنْ أَبى هُرَيْرةٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال: سمِعتُ رسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْراً بِباب أَحَدِكم يغْتَسِلُ مِنْه كُلَّ يَوْمٍ خَمْس مرَّاتٍ، هلْ يبْقى مِنْ دَرَنِهِ شَىءٌ؟» قالُوا: لا يَبْقَى مِنْ درنِهِ شَىْء، قَال: «فذلكَ مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، يَمْحُو الله بهِنَّ الخطَايا»(١).

۞ فتصور لو أن أحدًا كان أمام بابه مباشرة نهر قريب لا يحتاج إلى أن يذهب إليه بعيدًا بل هو أمام باب بيته مباشرة... فكلما احتاج أن يغتسل فيه فإنه يفتح باب بيته وينزل فيه مباشرة .. وكان هذا العبد يغتسل فى ذلك النهر كل يومٍ خمس مرات فهل يبقى على بدنه أى شىءٍ من القاذورات أو الأوساخ التى تُلطخ ثوبه وبدنه... هذا مستحيل بعد أن يغتسل خمس مرات..

فكذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا..

كأن الخطايا والذنوب لا تُلوث بدن العبد، بل تُلوث قلبه، ولا تزال الذنوب نُكتًا سوداء على قلب العبد... نكتة وراء أخرى إلى أن يصبح القلب أسودًا بالكلية... فهذه الصلوات الخمس تُزيل وتمحو عنه هذه الذنوب التى سَوَّدت قلبه وبدنه وعمله.



(١٠٥٠) وعنْ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الصَّلواتِ الخَمْسِ كمثَلِ نَهْرٍ جارٍ غَمْرٍ على باب أَحَدِكُمْ يغْتَسِلُ منْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مرَّاتٍ»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٣٤) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٥٢٨) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٦٧) كتاب المساجد.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٦٦٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

«الغَمْرُ»: الكثيرُ.

(١٠٥١) وعنْ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجُلاً أصابَ مِن امرأةٍ قُبْلةً، فأتَى النَّبيَّ ﷺ فأخبرهُ ... فأنزلَ الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ فقال الرَّجُلُ: أَلِيَ هذا؟ قال: «لجمِيعِ أُمَّتي كُلِّهِمْ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث عند شرحنا للحديث رقم (٤٣٩) إلا أنى أريد أن أذكر هنا بعض التفاصيل التى لم أذكرها هناك.

۞ ففى هذا الحديث يخبر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة)، وهذا فى عهد النبى ﷺ... والصحابة أفضل خلق الله عَزَّ وَجَلَّ بعد الأنبياء، ولكنهم ليسوا معصومين من الخطأ، فقد وقع بعضهم فى الذنوب، وكانت رحمة من الله بنا أن وقع هؤلاء فى الذنوب حتى لا نيأس من التوبة إذا وجدنا أن صحابياً أذنب ثم تاب إلى الله، ونزلت بسبب ذنبه وتوبته آية، وهذا فيه خيرٌ للمسلمين.

وهذا الحديث رواه البخارى ومسلم ولفظ البخارى: (أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة فأتى النبى ﷺ فأخبره)، ولفظ مسلم فى إحدى رواياته: (جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله! إنى عالجتُ امرأة فى أقصى المدينة، وإنى أصبت منها ما دون أن أَمسَّها)، أى: أنه وهو فى أقصى المدينة وجد امرأة تمشى وحدها فكأنه عالجها... ومعنى المعالجة: المحاولة إما بالكلام أو أنها التفتت إليه فقبَّلها أو أنه أخذ بيدها... قال: أصبت منها ما دون أن أمسها، أى: لم أطأها.

فجاء هذا الرجل من أقصى المدينة يقول للنبى ﷺ: أنه قد تاب بعدما وقع فى المعصية... وهكذا فإن الشيطان يدل الإنسان على المعصية ويدفعه إليها، وبعد أن يقع يتركه... فإما أن يستحلى المعصية ويقع فيها مرة ثانية وثالثة، وإما أن يراجع نفسه ويندم على ما صنع... وتوبة هذا الرجل كانت توبة صادقة، فقد ذهب إلى النبى ﷺ باكياً تائباً لله عَزَّ وَجَلَّ مما صنع، وقال له: هأنذا اقضِ فِيَّ ما

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٦) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٢٧٦٣) كتاب التوبة.

شئت، أى: اعمل فِىَّ ما تريد... إما أن تَرجُمنى وإما أن تجلدنى... فسكت النبى ﷺ ولم يُجبه، فقال عمر رضي الله عنه لهذا الرجل: لقد سترك الله فلو سترت على نفسك، أى: لو تُبت بينك وبين الله ولم تفضح نفسك بهذا الذى فعلت... وهذا هو الأصل، فالإنسان لا ينبغى له أن يفضح نفسه إذا وقع فى معصية وستر الله عز وجل عليه، وليتُب إلى الله سبحانه وتعالى.

فانتظر الرجل جالساً أمام النبى ﷺ... والنبى ﷺ ينظر إليه وكأنه يُعاتبه على هذا الذى صنع، إلى أن قام الرجل وانصرف، فلما انصرف أنزل الله عز وجل على النبى ﷺ هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[هود: ١١٤] وهذه الآية إما أنها نزلت قبل ذلك وهى فى سورة مكية، وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ جبريل ليعلمه بالحكم فى هذه الحادثة... وفى هذه الحالة تكون هذه الآيات قد نزلت فى مكة ثم نزلت على النبى ﷺ مرة أخرى فى المدينة، أو جاء جبريل ليُذكر النبى ﷺ أن هذا الحكم يتعلق بهذه الواقعة، فأرسل النبى ﷺ إلى هذا الرجل وقال: «**رُدُّوه علىَّ**»، فرجع الرجل للنبى ﷺ فقال له -وكانوا قد أكملوا الصلاة-: «**هل صليت معنا؟**» قال: نعم.

فتلا عليه النبى ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤] ففرح الرجل، وقال: أَلِىَ خاصة -أى: هل هذه الآية نزلت فىَّ أنا- فقال النبى ﷺ: «**بل للنَّاس كافَّة**».

إذاً: هذه الآية لكل مَن تاب إلى الله عز وجل، ورجع إلى ربه بالتوبة نادماً على ما فعل وصلى لله عز وجل فإنه يغفر له ويتوب عليه... ولكن على العبد ألا يغتَرّ، ولا يقول: سوف أعمل المعصية ثم أستغفر الله وأتوب إليه وأصلى ركعتين ويكفينى ذلك، ثم يفعل المعصية مرة أخرى.

فالله عز وجل ذكر أنه غفورٌ رحيم وأنه شديد العقاب، فعلى العبد أن يُحسن الظن بالله عز وجل ويتوب إلى الله سبحانه، فإذا وقع فى معصية وقصَّر رجع إلى الله وعاد

على نفسه باللوم... والله عَزَّوَجَلَّ قد مدح الإنسان الذى يلوم نفسه فى الله عَزَّوَجَلَّ(١).

(١٠٥٢) وعنْ أبى هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الصَّلواتُ الخَمْسُ، والجُمُعَةُ إلى الجُمُعَةِ، كفَّارةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، ما لم تُغشَ الكبَائرُ»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٢) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١٠٥٣) وعن عثمانَ بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما مِن امْرِئٍ مُسْلم تَحضُرُهُ صلاةٌ مكتُوبَةٌ فيُحسِنُ وُضُوءَهَا، وخُشوعَهَا، ورُكُوعها، إلا كانت كفَّارةً لِمَا قَبْلَها مِنْ الذُّنوبِ ما لم تُؤْتَ كَبيرةٌ، وذلك الدَّهْرَ كلَّهُ»(٣).

۞ وهذا من الأحاديث العظيمة التى تُريح المؤمن إذا وقع فى المعصية، واحتاج لمن يأخذ بيده حتى يرجع عن هذه المعصية ويتوب إلى الله (سبحانه وتعالى).

فعلى الإنسان أن يتوب إلى الله فإنه حَيِىٌّ كريم يستر عبده ويتوب عليه، ويُلهمه ويرزقه التوبة فيتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فيقبل توبته.

فالصلوات الخمس كل صلاة تُكفر ما بينها وبين الصلاة الأخرى، والإنسان بين الصلوات قد تُحدثه نفسه بشىءٍ أو قد يتلبس بمعصية، وقد ينظر إلى شىء أو يمد يده إليه، وغير ذلك من صغائر الذنوب التى قد يقع فيها...ولعله يتذكر ويتوب، ولعله ينسى، فإذا جاء إلى الصلاة تاب إلى الله مما يعرف ومما لا

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين/ للشيخ أحمد حطيبة.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٨) كتاب الطهارة.

يعرف من ذنوبه، فيركع ويسجد ويدعو ربه سبحانه فى السجود، وما بين السجدتين يقول: اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى واجبرنى، ويدعو بالمغفرة وهو ساجد أو راكع: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى، فيغفر الله له.

ولذلك كانت الصلوات من الصلاة إلى الأخرى كفارة لما بينهما بشرط ألا يكون الإنسان قد وقع فى الكبائر.

إذاً: فالوضوء والصلاة والنوافل كفارة لذنوب العبد، وكذلك الجمعة إلى الجمعة كفارة للذنوب ... فإذا قام العبد فأتقن الوضوء ولم يُسرف فى الماء بل توضأ بالقدر الذى يكفيه، وأسبغ الوضوء فى البرد والحر والشتاء والصيف والليل والنهار، ثم دخل فى الصلاة فأحسن خشوعها وركوعها... وكأنه ﷺ يُنبه على هيئات الصلاة من الركوع والسجود وغيرها من أفعال البدن، ثم الخشوع الذى هو من أفعال القلب... فإذا أحسن العبد فقد أتى بالصلاة التى يكفر الله عَزَّوَجَلَّ بها عنه من الذنوب والخطايا.

قال ﷺ: «إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تُؤتَ كبيرة».

أى: هذه كفارة لما قبلها من صغائر الذنوب... ولكن لا يتساهل الإنسان فى صغائر الذنوب، فإنه لا يدرى هل هذه الصلاة هى التى أراد الله عَزَّوَجَلَّ أم لا؟ فيخرج من صلاته وهو لا يعرف هل أحسن أو أساء فيها؟ فينبغى على الإنسان ألا يغتر بصلاته، ولا بسعة رحمة رب العالمين، ولكن يعمل ويرجو، ومع ذلك يخاف من الله (سبحانه وتعالى).

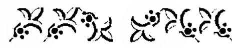
ثم قال فى الحديث: «وذلك الدهر كله»، أى: فى عمرك كله ما دُمت تصلى وتُحسن الصلاة كما يريد الله عَزَّوَجَلَّ منك، فلك من الله أن يغفر لك[1].

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ أحمد حطيبة.



۞ فمن صلَّى الصلوات الخمس وأحسن وضوءها وكان قلبه حاضرًا خاشعًا وأتم ركوعها وسجودها فإنه يفوز بمغفرة الذنوب ما دام قد أقام الصلاة .... فالصلوات الخمس تُكفِّر الصغائر .. أما الكبائر فتحتاج إلى توبة مستقلة حتى يغفرها الحق (جل وعلا).

فنسأل الله أن يجعلنا من مقيمي الصلاة كما قال خليل الله إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]



(١٨٨) باب فضل صلاة الصبح والعصر

(١٠٥٤) عن أَبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسول اللهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ »(١).

(١٠٥٥) وعن أَبي زهيْرٍ عِمارَةَ بن رُوَيْبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «لَنْ يَلِجَ النَّار أَحدٌ صلَّى قبْلَ طُلوعِ الشَّمْس وَقَبْل غُرُوبَها» يعنى الفجْرَ، والعصرَ(٢).

۞ سبق شرح الحديث الأول عند شرحنا للحديث رقم (١٣٤) لكنى أحببت أن أُعيد تفسيره مقرونًا بالحديث الذى يليه لأنه سيضيف معنًى جديدًا.

۞ فهاتان الصلاتان تَميَّزتا بفضل ليس فى غيرهما ... أما الفجر فقد قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[الإسراء:٧٨] يشهده الله وملائكته...وهذه فضيلة عظيمة واختصَّت أيضا بأنها مفصولة عن الصلوات الخمس منفردة بوقتها ... فبينها وبين صلاة العشاء نصف الليل الأخير وبينها وبين صلاة الظهر نصف النهار الأول لأن وقت العشاء ينتهى بنصف الليل ولا يمتد إلى طلوع الفجر فإذا انتصف الليل خرج وقت صلاة العشاء وبقى هذا النصف إلى الفجر ليس وقتًا لصلاة مفروضة لكنه وقت التهجد لمن وفَّقه الله عَزَّ وَجَلَّ .

أما من طلوع الشمس إلى زوال الشمس فليس أيضًا وقتًا لصلاة مفروضة وإنما هو وقت لصلاة مُطلقة كصلاة الضحى وما أشبه ذلك فتميزت بأنها مشهودة وبأنها منفردة بوقتها لا يتصل بها ما قبلها ولا تتصل بما بعدها.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.
البردان: الصبح والعصر.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٣٤) كتاب المساجد.

أما صلاة العصر فتميزت بأنها الصلاة الوسطى...فإن الصلاة الوسطى بنَصِّ الحديث عن النبي ﷺ هى صلاة العصر وتميزت بأن الله تعالى نَوَّه بفضلها وشرفها حيث خصَّها بالذكر بعد أن عَمَّم فقال: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ هذا عام ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ يعنى صلاة العصر فخصَّها بالذكر لفضيلتها.

وهناك فضائل وميزات اشتركت فيها صلاة الفجر وصلاة العصر ... منها ما أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فى هذا الباب :

(١) أن مَن صلى البردين دخل الجنة.. والبردان هما صلاة الفجر وصلاة العصر لأن الفجر يأتى فى براد الليل فى آخره والعصر تأتى فى براد النهار فى آخره... ولذلك قال ﷺ: « **مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ** ».

(٢) وكذلك أخبر ﷺ أنه لا يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ...يعنى صلاة الفجر وصلاة العصر ...ففى الأول إثبات دخول الجنة وفى الثانى انتفاء دخول النار فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ وهذا وعد من النبى ﷺ وهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى: بأن مَن حافظ على صلاة الفجر قبل أن تطلع الشمس وصلاة العصر قبل غروبها أنه: «**لن يلج النار**»، أى: لن يدخلها...وهذا لا يمنع من المرور فوق الصراط، إنما يمنع من دخول النار.

فمن حافظ على تلك الصلاة وأحسن وضوءها وخشوعها وركوعها لن يلج النار.

وقوله ﷺ: «**لن يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس**»، أى: لم يؤخر الصبح إلى أن تطلع الشمس، ولا العصر إلى أن تغرب...فإذا سمع الأذان ذهب إلى الصلاة، وإن كان معذورًا صلى فى بيته، ولكن لا يجعل الوقت يمر عليه إلى أن تطلع الشمس أو تغرب فيصليها كالمنافقين.

(١٠٥٦) وعنْ جُندَب بن سُفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فهُوَ فى ذِمَّةِ الله، فانْظُر يابْنَ آدَم لا يَطْلُبَنَّك الله مِنْ ذِمَّتِهِ بشىءٍ**»[1].

۞ وهذا حديثٌ آخر عظيم يبين فضل الله عَزَّوَجَلَّ على عباده المؤمنين المحافظين على الصلوات... وأن الذى يصلى له من الله عَزَّوَجَلَّ المعونة والخير والبركة.

۞ ففى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ**».. ومن المعلوم أن (مَن) من ألفاظ العموم.. أى مَن صلى الصبح سواء كان رجلًا أو امرأة فى المسجد إلا إذا كان معذورًا فيصليها فى البيت فى وقتها.. مع العلم أن المرأة لا يلزمها صلاة الجماعة بل الأفضل لها أن تصليها فى بيتها.. لكن لو أحبَّت أن تذهب مع مَحرمٍ لها إلى صلاة الصبح «**فلا تمنعوا إماء الله مساجد الله**».

۞ إذًا .. «**مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فهُوَ فى ذِمَّةِ الله**» أى: فى عهد الله وأمانه وضمانه.. أى له الضمان والعهد عند الله أن يدافع عنه وأن ينتصر له وينتقم له ممن ظلمه... فاحذر أن تظلم أحدًا يحافظ على صلاة الفجر، وإذا ظلمته فإن الله كيده متين يُملى للظالم... ولا تغتر بأنك تصلى الفجر؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينتصر للمظلوم من ظالمه وإن كان الظَّالم يصلى الفجر.

يقول ﷺ فى رواية أخرى فى صحيح مسلم: «**فلا يطلبنَّكم الله من ذمته بشىء؛ فإنه مَن يطلبه الله من ذمته بشىءٍ يُدركه، ثم يَكُبه على وجهه فى النار**».

إن الظالم -وخاصة الذى يظلم مَن يصلى الفجر- يُملى الله له إلى أن يأخذه، فإذا أخذه لم يُفلته، بل يجعله عِبرة للخلق... هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فيكبه الله فى النار، أى: يُدخله نار جهنم.

۞ فعلى الإنسان المسلم أن يكون من المصلين الذين تنهاهم صلاتهم عن

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٥٧) كتاب المساجد.

الفحشاء والمنكر وتدفعهم إلى فعل الخيرات والتحلِّى بأجمل الأخلاقيات .. أما أن يصلى ثم يذهب فيظلم الخلق ويأكل حقوقهم ويخوض فى أعراضهم ويأكل الحرام ويأخذ الرشوة فهذا ليس المصلى الذى ذكر النبى ﷺ أنه فى ذمة الله..

وصلاته ليست التى ذكرها الله فى قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ لأنه لا بد أن يظهر أثر هذه الصلاة على فعل العبد ... وذلك بأن يُتقن عمله ويُحسن إلى الخلق، ويفعل الخير، ويمتنع من الشر، ويجتنب الفواحش والمعاصى.

(١٠٥٧) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «يَتَعاقَبُونَ فيكم مَلائِكَةٌ باللَّيْلِ وملائِكَةٌ بالنَّهارِ، ويجْتَمِعُون فى صَلاةِ الصُّبْحِ وصلاةِ العصرِ، ثُمَّ يَعرُجُ الذين باتُوا فيكم، فيسألُهُم الله ـ وهو أعلمُ بهم ـ: كيفَ تَرَكْتُم عِبادى؟ فيقُولُون: تَركناهُم وهُم يُصَلُّونَ وأتيناهُم وهم يُصلُّون»[١].

۞ إن الله عَزَّ وَجَلَّ وكَّل بعباده ملائكة مُعقبات يتعاقبون فينا يحفظوننا من أمر الله عَزَّ وَجَلَّ... فوكَّل ملائكة ينزلون ويجتمعون فى صلاة الفجر ويظلون إلى صلاة العصر ثم يصعدون بعد أن ينزل ملائكة آخرون فى صلاة العصر ويظلون إلى صلاة الفجر..

فيصعد الذين باتوا فينا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.. فيسألهم -وهو أعلم بعباده ولا يحتاج إلى كلام الملائكة- يسألهم: كيف تركتم عبادى؟ وذلك لإظهار شرف عباده وفضلهم.. فالله يعلم السر وأخفى.. فتقول الملائكة: أتيناهم وهم يُصلون وتركناهم وهم يصلون.. لأنهم يأتون فى أول الليل وأول النهار فيتعاقبون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ... هؤلاء ينزلون وهؤلاء يصعدون وقيَّد الله سبحانه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٢) كتاب المساجد.

وتعالى وقت صعودهم ونزولهم بهاتين الصلاتين لفضلهما ... لأن صلاة العصر هى الصلاة الوسطى وصلاة الفجر هى الصلاة المشهودة.

فيباهى الله عَزَّوَجَلَّ بهم الملائكة... أهؤلاء الذى قلتم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]؟! فانظروا ماذا يعملون.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمَعنَى يَتَعَاقَبُونَ تَأْتِى طَائِفَةٌ بَعدَ طَائِفَةٍ وَمِنْهُ تَعقُّبُ الْجُيُوشِ وَهُوَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى ثَغْرٍ قَوْمٍ وَيَجِيءَ آخَرُونَ ... وَأَمَّا اجْتِمَاعُهُمْ فِى الْفَجْرِ وَالْعَصرِ فَهُوَ مِنْ لُطْفِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَكرِمَةٌ لَهُمْ أَنْ جَعَلَ اجْتِمَاعَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَهُمْ وَمُفَارَقَتُهُمْ لَهُمْ فِى أَوْقَاتِ عِبَادَاتِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ فَيَكُونُ شَهَادَتُهُمْ لَهُمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْخَيْرِ(١).

(١٠٥٨) وعن جرير بنِ عبدِ الله البَجَلِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كُنا عِندَ النَّبىِّ ﷺ فنَظَرَ إلى القَمَرِ ليْلَةَ البَدرِ، فقال: «إنَّكُم سَتَرَوْنَ ربَّكُم كما تَرَوْنَ هذا القمر، لا تُضامُّونَ فى رُؤيَتِهِ، فإنِ اسْتَطَعتُم أنْ لا تُغْلَبُوا على صلاةٍ قَبل طُلُوعِ الشَّمْسِ، وقَبلَ غُرُوبها فافعلُوا»(٢).

وفى روايةٍ: «فنظَرَ إلى القمر ليْلَةَ أربَع عَشَرَةَ».

۞ ففى هذا الحديث يخبر جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا عند النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر.. ومن المعلوم أن القمر ليلة البدر يكون فى قمة اكتماله ووضوحه وبهائه.. فقال ﷺ وهو ينظر إلى القمر: «إنَّكُم سَتَرَوْنَ ربَّكُم كما تَرَوْنَ هذا القمر» وهذا من باب التشبيه للتقريب.. أى: تشبيه الرؤية بالرؤية وليس تشبيه المرئى بالمرئى...

(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ١٨٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.

فليس المعنى أن الله مثل القمر... لأن الله ليس كمثله شيء بل هو أعظم وأجلُّ عَزَّوَجَلَّ... وقد قال النبي ﷺ فيما صَحَّ عنه «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[1] لكن المراد من المعنى تشبيه الرؤية بالرؤية... فكما أننا نرى القمر ليلة البدر رؤية حقيقية ليس فيها اشتباه فإننا سنرى ربنا عَزَّوَجَلَّ كما نرى هذا القمر رؤية حقيقية بالعين دون اشتباه.

۞ قوله ﷺ: «**لا تُضامُّونَ فى رُؤيَتِهِ**» أى: لا يلحقكم ضَيمٌ فى رؤيته سبحانه وتعالى ولا مشقة.. والمراد هنا نفى ازدحام الناس لرؤيته.

فلو كان الناس فى الدنيا يريدون أن ينظروا إلى القمر فلن يزدحموا فى الشارع من أجل ذلك، بل إن كل إنسان سينظر إليه من مكانه، وهذه الرؤية التى أرادها النبى ﷺ كما فى الحديث.

فكما أن الناس سينظرون إلى القمر من غير أن يضيم بعضهم بعضًا، كذلك فى الجنة سيرون ربهم من منازلهم، فإذا كان يوم الجمعة حضروا بحسب ترتيبهم فى صلاة الجمعة عندما كانوا فى الدنيا...وبحسب مكانتهم عند ربهم عَزَّوَجَلَّ.. فمن كان يأتى مبكرًا قبل الباقين سيكون حضوره فى يوم المزيد فى يوم الجمعة، فيرى ربه سبحانه، وينظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ثم قال ﷺ: «**فإنِ اسْتَطَعتُم أنْ لا تُغْلَبُوا على صلاةٍ قَبْل طُلُوعِ الشَّمْسِ، وصَلاةً قَبْل غُرُوبها فافعلُوا**»... وفى هذا دليل على أن المحافظة على صلاة الفجر وصلاة العصر من أسباب النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

ويا لها من نعمة عظيمة ... فيا مَن تريد أن تستمتع بالنظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ حافِظ على صلاة الفجر وصلاة العصر تنظر إلى وجه الله يوم القيامة فى جنات النعيم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٩) كتاب الإيمان.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالرُّؤْيَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَلَا يرونه سبحانه وتعالى .. وقيل: يراه منافقوا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهَذَا ضَعِيفٌ.

وَالصَّحِيحُ الَّذِى عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَرَوْنَهُ كَمَا لَا يَرَاهُ بَاقِى الْكُفَّارِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ(١).

۞ بل أخبر النبى ﷺ أن مَن حافظ على صلاة العصر كان له أجره مرتين... عَنْ أَبِى بَصرَةَ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعَصرَ بِالْمُخَمَّصِ(٢)، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا، فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ**»(٣).

***

(١٠٥٩) وعن بُريدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تركَ صَلاةَ العصر فَقَد حَبِطَ عَملُهُ»(٤).

۞ أى: أتى وقت الصلاة وأُذِّن للصلاة ولم يُصلِّ بل تَشاغل عنها إلى أن خرج وقتها..فهذا العقاب لمن ترك هذه الصلاة إلى أن خرج وقتها عامداً ذاكرًا.

أما إذا كان ناسياً أو مُكرَهاً فإن النبى ﷺ يقول: «**إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه**»، فإذا تركها خطأً أو نسياناً أو إكراهاً فهو معذور، لكن إذا كان متعمداً ينشغل ويلعب إلى أن خرج وقت الصلاة فقد حبط منه عمل يومه... فإذا استمر على ذلك حبط العمل كله.

۞ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: قِيلَ الْمُرَادُ مَنْ تَرَكَهَا جَاحِدًا لِوُجُوبِهَا أَوْ مُعترِفًا لَكِنْ مُسْتَخِفًّا مُسْتَهْزِئًا بِمَنْ أَقَامَهَا... وَقِيلَ الْمُرَادُ مَنْ تَرَكَهَا مُتكَاسِلًا لَكِنْ

---

(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ١٨٧).

(٢) المُخمص: اسم طريق.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٣٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٥٣) كتاب مواقيت الصلاة.

خَرَجَ الْوَعِيدُ مَخْرَجَ الزَّجْرِ الشَّدِيدِ وَظَاهِرُهُ غَيْرُ مُرَادٍ كَقَوْلِهِ «**لا يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ**» كَأَنَّ الْمَعنَى فقَد أَشْبَهَ مَنْ حَبِطَ عَمَلُهُ ... وَقِيلَ: مَعنَاهُ كَادَ أَنْ يَحبَطَ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَبَطِ نُقْصَانُ الْعَمَلِ فِى ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِى تُرفَعُ فِيهِ الْأَعمَالُ إِلَى اللهِ ... فكَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَمَلِ الصَّلَاةُ خَاصَّةً أَىْ لَا يَحصُلُ عَلَى أَجْرِ مَنْ صَلَّى الْعَصرَ وَلَا يرتَفِعُ لَهُ عَمَلُهَا حِينَئِذٍ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَبطِ الإِبْطَالُ أَىْ يَبْطُلُ انْتِفَاعُهُ بِعَمَلِهِ فِى وَقْتٍ مَا ثُمَّ يَنْتَفِعُ بِهِ ... وَأَقْرَبُ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ خَرَجَ مَخْرَجَ الزَّجْرِ الشَّدِيدِ وَظَاهِرُهُ غير مُرَاد وَالله أعلم[1].

(١) فتح البارى (٢/ ٤٠) بتصرف.

(١٨٩) باب فضل المشي إلى المساجد

(١٠٦٠) عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ غَدا إِلى المسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ الله لهُ فى الجَنَّةِ نُزُلاً كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٢٥) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

۞ والمقصود بالمشى إلى المساجد: أى لأداء الصلاة فيها.. ولكن قد يكون المشى إلى المساجد لطلب العلم أو لمُدارسة القرآن أو لغير ذلك.. فمن غدا: أى ذهب إلى المسجد فى الصباح.. أو راح: يعنى ذهب فى العشى بعد الزوال فإن الله يكتب له نُزلًا فى الجنة.. يعنى ضيافة فى الجنة خمس مراتٍ فى اليوم.

(١٠٦١) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ تَطَهَّرَ فى بَيْتِهِ، ثُمَّ مَضى إلى بيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرائِضِ اللهِ، كانَتْ خُطُواتُهُ، إِحدَاها تَحُطُّ خَطِيئَةً، والأُخْرى تَرفَعُ دَرَجَةً»[2].

۞ وهنا يخبر النبى ﷺ أن مَن تطهر فى بيته وأسبغ الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة فإنه لا يخطو خطوة إلا حَطَّ الله عنه خطيئة.. والخطوة الأخرى يرفعه الله بها درجة فى الجنة... فيكتسب فى الخطوة الواحدة رفع الدرجة وحَطُّ الخطيئة بشرط أن يتوضأ فى بيته ويُسبغ الوضوء ثم يخرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة... فهذا له بكل خطوة يخطوها أن يرفع الله له بها درجة ويَحُط عنه خطيئة.

۞ وكلما كان المسجد بعيدًا كلما ازدادت الخطوات وزاد الأجر والدرجات.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢) كتاب الأذان - ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٦) كتاب المساجد.

(١٠٦٢) وعنْ أُبَيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه قال: كانَ رجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ لا أعلَم أحدًا أبْعدَ مِنَ المسْجِدِ مِنْهُ، وكانَتْ لا تُخْطِئُهُ صَلاةٌ، فقيل له: لو اشْتَرَيْتَ حِمَارًا لتَركَبَهُ في الظَّلْماءِ وفى الرَّمْضَاءِ، قال: ما يَسُرُّنِى أنَّ مَنْزِلى إلى جَنْبِ المسْجِد، إنِّى أُرِيدُ أنْ يُكْتَبَ لى مَمْشاى إلى المسْجِدِ ورُجوعِى إذا رَجَعتُ إلى أهْلى. فقال رسُولُ الله ﷺ: «قَد جَمَع الله لكَ ذلكَ كُلَّه»(١).

(١٠٦٣) وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: خَلَتِ البِقَاعُ حَوْلَ المسْجِد، فأرادَ بَنُو سَلِمَة أنْ يَنتقلُوا قُربَ المَسْجِدِ، فبَلَغَ ذلكَ النَّبِيَّ ﷺ، فقالَ لهم: «بَلَغَنى أنَّكُمْ تُرِيدُون أن تَنْتَقِلُوا قُربَ المسْجِدِ؟» قالوا: نعم يا رسولَ الله، قد أرَدنَا ذلكَ، فقال: «بَنِى سَلِمَة ديارَكُمْ تُكْتَبْ آثارُكُم، ديارَكُم تُكْتَبْ آثارُكُم» فقالوا: ما يَسُرُّنا أنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا(٢)..

۞ سبق شرح هذين الحديثين كاملين بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديثين رقم (١٣٩، ١٤١) فأرجو الرجوع إليهما... بارك الله فيكم.

(١٠٦٤) وعنْ أبى موسى رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أعظَم الناس أجرًا فى الصَّلاةِ أبْعَدُهُمْ إليها مَمْشَى فأبْعَدُهُمْ. والذى يَنْتَظِرُ الصَّلاةَ حتَّى يُصلِّيَها معَ الإمامِ أعظَمُ أجرًا مِنَ الذى يُصلِّيها ثُمَّ يَنامُ»(٣).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ ويقول: «إنَّ أعظَم الناس أجرًا فى الصَّلاةِ أبْعَدُهُمْ إليها مَمْشًى فأبْعَدُهُمْ».

فمن المعلوم أن الإنسان إذا تطهر فى بيته وخرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة فقط فإنه لا يخطو خطوة إلا حَطَّ الله عنه خطيئة ورفع له بها درجة ولا

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٦٣) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٥) كتاب المساجد- ورواه البخارى مختصرًا (٦٥٥)، (٦٥٦) كتاب الأذان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥١) كتاب الأذان – ومسلم (٦٦٢) كتاب المساجد.

تزال الملائكة تصلى عليه ما دام جالسًا فى مُصلاه وما لم يُحدث..

فإذا كان بيتك بعيدًا عن المسجد ومع ذلك فأنت حريصٌ على حضور الصلاة فى جماعة فإنك تكون أعظم أجرًا من القريب المجاور للمسجد .. وذلك لأن القريب ليس له أى عذرٍ فى ترك صلاة الجماعة لأن وصوله إلى المسجد سهلٌ ميسور.

أما البعيد فقد يكون له شىء من العذر لبُعده ومع ذلك يتجشم البُعد ويأتى إلى المسجد ويصلى مع الجماعة فكان هذا أفضل.

۞ ثم ذكر النبى ﷺ أن الذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرًا من الذى يصليها ثم ينام.

والمقصود هنا: صلاة العشاء.. فإن المشروع فى صلاة العشاء أن تُؤخَّر إلى ثُلث الليل لأن النبى ﷺ صلى العشاء ذات يوم وقد مضى عامة الليل وقال: «**إِنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي**»(١) فهذا الذى صلى وحده ونام لأنه يشق عليه أن ينتظر صلاة الجماعة لكونهم يؤخرونها نقول له: إذا انتظرت وصليت مع الجماعة فهو أفضل وأما إذا كان الإمام يصلى فى الوقت المعتاد بعد أذان العشاء بثلث ساعة فإنه لا يجوز للإنسان أن يصلى وحده ثم ينام لأن صلاة الجماعة واجبة حتى إن النبى ﷺ قال: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِق مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّق عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٣٨) كتاب المساجد، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤) كتاب الأذان، و مسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

(١٠٦٥) وعن بُريدةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «بَشِّروا المَشَّائِينَ في الظُّلَمِ إلى المسَاجِدِ بالنور التَّامِّ يوْمَ القيامةِ»[١].

۞ قوله ﷺ: «**بَشِّروا المَشَّائينَ**» .. وفى رواية: «**بَشِّر المَشَّائينَ**».

أى: احملوا لهم البُشرى...

والمُخاطَب بذلك الصحابة فمَن بعدهم.. «**المَشَّائِينَ**» جمع المشَّاء وهو كثير المشى «**فى الظُّلَمِ إلى المسَاجِدِ**» جمع ظُلمة وهى تَعُم ظُلمة العِشاء والفجر.

۞ «**بالنور التَّامِّ يوْمَ القيامةِ**» قال المناوى: أى بالنور التام الَّذِى يُحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ... أَيْ عَلَى الصِّرَاطِ ... لَمَّا قَاسَوْا مَشَقَّةَ الْمَشْيِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ جُوزُوا بِنُورٍ يُضِيءُ لَهُمْ وَيُحِيطُهُمْ... وَقَالَ الطِّيبِيُّ: فِي وَصفِ النُّورِ بِالتَّامِّ وَتَقْيِيدِهِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ تَلْمِيحٌ إِلَى وَجْهِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ وإِلَى وَجْهِ الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾..[٢]

أى بشِّر كل ماشٍ إلى المسجد فى الظُّلمة «**بالنور التام**» أى من جميع جوانبهم ... فإنهم يختلفون فى النور على قدر الأعمال.

«**يوم القيامة**» أى على الصراط... قال ابن رسلان: ويحتمل أن يُراد بالنور المنابر التى من النور ... لرواية الطبرانى: «**بَشِّر المُدلجين إلى المساجد فى الظُّلَم بمنابر من نورٍ يوم القيامة، يفزع الناس ولا يفزعون**».

وفى الحديث: فضل المشى إلى الصلاة سواء كان المشى طويلاً أو قصيراً، وفضل المشى إليها للجماعات فى ظُلَم الليل[٣].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٢٣).

(٢) تحفة الأحوذى (١/ ٤٨١).

(٣) دليل الفالحين (٣/ ٤٧٣).

فأبشر يا مَن تحرص على الذهاب إلى المسجد فى صلاة العشاء والفجر فى ظلمة الليل بالنور التام يوم القيامة.. حينما يصعد الناس يوم القيامة على الصراط المنصوب على نار جهنم المظلمة فتجد أنوار الذهاب إلى المسجد فى ظلام الليل أمامك وعن يمينك تُضىء لك طريقك على الصراط.. وغيرك غارقٌ فى الظلام يتخبط على الصراط.

(١٠٦٦) وعنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «ألا أدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللهُ به الخَطَايَا، ويَرفَعُ بِهِ الدَّرجاتِ؟» قالوا: بَلَى يا رسولَ الله، قال: «إسْباغُ الوُضُوءِ علَى المَكَارِهِ، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المَسَاجِدِ، وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعد الصَّلاةِ، فذلِكُمُ الرِّبَاطُ، فذلكُمُ الرِّباطُ»[(١)] .

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٣) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١٠٦٧) وعنْ أبى سعيدٍ الخدرِىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبىِّ ﷺ قال: «إذا رأيْتُمُ الرَّجُلَ يَعتَادُ المسَاجِدَ فاشْهدُوا لهُ بالإيمانِ» قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ الآية[(٢)].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

(٢) ضعيف: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٠٩).

(١٩٠) باب فضل انتظار الصلاة

(١٠٦٨) عنْ أَبى هريرةَ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**لا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فى صَلاةٍ مَا دَامتِ الصَّلاَةُ تَحبِسُهُ، لا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلى أَهْلِهِ إِلاَّ الصَّلاةُ**»[1].

۞ فالذى يذهب إلى المسجد مُبكرًا وينتظر الصلاة حتى تُقام فهو فى صلاة وكذلك الذى يصلى صلاةً ثم يجلس فى المسجد لينتظر الصلاة التى تليها فهو فى صلاة.. كمن يصلى المغرب وينتظر صلاة العشاء فهو فى صلاة.

۞ بل إن الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مُصلَّاه وتقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِر لَهُ، اللَّهُمَّ ارحَمْهُ**».. لكن بشرط: «**مَا لمْ يُحدِثْ**».

(١٠٦٩) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**المَلائِكَةُ تُصَلِّى عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِى مُصَلاَّهُ الَّذى صَلَّى فِيهِ مَا لمْ يُحدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِر لَهُ، اللَّهُمَّ ارحَمْهُ**»[2].

۞ وقوله: «**مَا لمْ يُحدِثْ**» قيل: ما لم يُحدِث حَدَثًا فى الإسلام .. يعنى ما لم يعصِ وقيل: ما لم يُحدِث حَدَثًا ينقض الوضوء لأنه إذا أحدث حَدَثًا ينقض الوضوء؛ فإنه يُبطل الصلاة فيمنع أن يكون فى صلاة ... وأيًّا كان ففيه دليل على فضيلة انتظار الصلاة بعد الصلاة وعلى فضيلة انتظار الصلاة وإن لم يكن بعد الصلاة.

ومهما طال الوقت فى انتظار الصلاة فأنت فى صلاة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٩) كتاب الأذان، ومسلم (٦٤٩) (٢٧٥) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٩) كتاب الأذان.

(١٠٧٠) وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ **أَخَّرَ لَيْلَةً صَلاَةَ العِشَاءِ إِلَى شَطْرِ اللَّيْلِ**[١]**، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ بَعدَ مَا صَلَّى، فَقَالَ: « صَلَّى النَّاسُ وَرَقَدُوا وَلَمْ تَزَالُوا فِي صَلاَةٍ مُنْذُ انْتَظَرتُمُوهَا »**[٢].

۞ ففى هذا الحديث يُخبر أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ أخَّر ليلة صلاة العشاء إلى شطر الليل.. أى: إلى منتصف الليل.. والصحابة ينتظرون النبى ﷺ.. فلما انتهى النبى ﷺ من صلاة العشاء فى ذلك الوقت المتأخر أقبل على الصحابة بوجهه الأنور ﷺ وقال لهم: «**صَلَّى النَّاسُ ورَقَدُوا ولَمْ تَزَالُوا فى صَلاةٍ مُنْذُ انْتَظَرتُموها**» أى: أنه كُتب لهم منذ وقت العشاء إلى نصف الليل أنهم كانوا فى صلاة وكأنهم يُصلون طوال ذلك الوقت الطويل.

فى هذا دليلٌ على أن الأفضل فى صلاة العشاء أن تُؤخَّر إلى ثُلث الليل أو نصفه إلا إذا كان فى ذلك مشقة على الناس أو على بعضهم فالأفضل أن يُقدموها لأن الأصل فى الدين، التيسير وليس المشقة.. وما خُيِّر النبى ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا.

وعلى هذا فإذا كانوا جماعة فى سفر أو فى غير سفر أو فى بلدٍ لا تُقام فيها جماعات فإن الأفضل أن تُؤخَّر الصلاة إلى قريبٍ من منتصف الليل؛ لأن النبى ﷺ قال: «**إن هذا لوقتها لولا أن أَشُقَّ على أمتى**» وكان ﷺ فى صلاة العشاء إذا رآهم اجتمعوا عجَّل، وإذا رآهم أبطئوا أخَّر.

۞ **ولقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل انتظار الصلاة .. وإليك بعضها:**

۞ عن أنس رضي الله عنه أن هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] «نزلت فى انتظار الصلاة التى

(١) شطر الليل: نصفه.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٠٠) كتاب مواقيت الصلاة، (٦٦١) كتاب الأذان.

تُدعَى العَتَمة»[(١)] -أي: العِشاء-.

۞ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب فرجع مَن رجع وعَقَّب مَن عَقَّب فجاء رسول الله ﷺ مُسرعًا قد حَفَزه النَّفَس قد حسر عن رُكبتيه قال: «أَبْشِرُوا، هَذَا رَبُّكُمْ قَد فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَد قَضَوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى»[(٢)].

۞ وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَإِعمَالُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعدَ الصَّلَاةِ، يَغْسِلُ الْخَطَايَا غَسْلًا»[(٣)].

۞ وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْقَاعِدُ عَلَى الصلاة كَالْقَانِتِ، وَيُكْتَبُ مِنَ الْمُصَلِّينَ مِنْ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ حَتَّى يَرجِعَ إِلَيْهِ»[(٤)].

قوله ﷺ: «الْقَاعِدُ عَلَى الصلاة كَالْقَانِتِ» أى: أجره كأجر المصلى قائمًا، ما دام قاعدًا ينتظر الصلاة ... لأن المراد بالقُنوت هنا: القيام بالصلاة.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٥٨٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦) والصحيحة (٦٦١).

(٣) صحيح: رواه الحاكم، وأبو يعلى، والبيهقى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٢٦).

(٤) صحيح: رواه أحمد وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٣٧).

(١٩١) باب فضل صلاة الجماعة

۞ بعدما حدثتك عن فضل الصلوات الخمس بقى أن أسألك سؤالاً هامًّا: هل أنت تصلى فى البيت أم فى المسجد؟

لا بد أن تعلم أن صلاة الجماعة أفضل من صلاتك وحدك فى بيتك خمسًا وعشرين مرة.

فإذا توضأت وذهبت إلى المسجد ماشيًا، فلك بكل خطوة تخطوها رفع درجة، أو مغفرة ذنب حتى تدخل المسجد.

وإذا جلست فى المسجد تنتظر الصلاة فكأنك فى الصلاة، ويكتب الله لك بانتظارك أجر الصلاة...ثم وأنت جالس تنتظر الصلاة، ومُحافظ على وضوئك تستغفر لك الملائكة، وتدعو لك بالرحمة...فيا لها من وعود وهباتٍ وعطايا من الله الكريم، حذار أن تضيع منك(١).

ما حكم صلاة الجماعة؟

صلاة الجماعة واجبة فى الصلوات الخمس.. وقد دَلَّ على وجوبها الكتاب والسُّنة،... فمن الكتاب، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] والأمر للوجوب وإذا كان ذلك مع الخوف فمع الأمن أولَى.

ومن السُّنة: حديث أبى هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أثْقَلُ الصَّلاةِ على المُنافِقِينَ صَلاةُ العِشاءِ، وصَلاةُ الفَجْرِ، ولوْ يَعلَمُونَ مَا فِيهما لأتَوهُما ولوْ حَبْوًا، وَلَقَد هَمَمْتُ أنْ آمُرَ بالصَّلاةِ، فَتُقَامَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيُصَلِّى بالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِق**

(١) ابن الإسلام (ص: ٦٤).

مَعِي بِرِجالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلاَةَ فَأُحَرِّق عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بالنَّارِ»(١).

فدلَّ الحديث على وجوب صلاة الجماعة؛ وذلك لأنه ﷺ:

أولاً: وصف المتخلفين عنها بالنفاق... والمتخلف عن السُّنَّة لا يُعَدُّ منافقًا، فدلَّ على أنهم تخلفوا عن واجب.

ثانيًا: أنه هَمَّ بعقوبتهم على التخلُّف عنها... والعقوبة إنما تكون على ترك واجب، وإنما منعه من تنفيذ العقوبة أنه لا يعاقب بالنار إلا الله عَزَّ وَجَلَّ... وقيل: منعه من ذلك مَن في البيوت من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم صلاة الجماعة.

۞ ومنها: أن رجلاً كفيف البصر ليس له قائد-وهو عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- استأذن النبي ﷺ أن يصلي في بيته، فقال: «أتسمع النداء». قال: نعم. قال: «أَجِب لا أجد لك رخصة»(٢).

۞ ولكي تحرص أكثر وأكثر على صلاة الجماعة فسوف أذكر لك بعض فضائل الصلاة في المسجد في جماعة.

(١٠٧١) عن ابنِ عمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «صَلاةُ الجَمَاعَةِ أَفضَلُ مِنْ صَلاةِ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ درَجَةً»(٣).

(١٠٧٢) وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «صَلاةُ الرَّجُلِ في جَماعةٍ تُضَعَّفُ عَلى صلاتِهِ فِي بَيْتِهِ وفي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرينَ ضِعفًا، وذلكَ أَنَّهُ إِذا تَوَضَّأَ فَأَحسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلى المَسْجِدِ، لا يُخْرِجُه إِلاَّ الصَّلاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلاَّ رُفِعَتْ لَه بهَا درَجَةٌ، وَحُطَّتْ عَنْه بهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذا صَلى لَمْ تَزَلِ المَلائِكَةُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٤) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٥٣) كتاب المساجد.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٥) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥٠) كتاب المساجد.

تُصَلِّى عَلَيْهِ مَا دَامَ فى مُصَلاَّه، مَا لَمْ يُحدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارحَمْهُ. وَلا يَزَالُ فى صَلاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاةَ»(١).

۞ القاعدة: أن مَن ترك واجبًا فى الصلاة بطلت صلاته لكن الراجح أن صلاة الجماعة واجبة يأثم الإنسان بتركها ولكن إذا صلَّى وحده قُبلت صلاته؛ لأنها ليست شرطًا لصحة الصلاة .. ووجه الدلالة أنه لو كانت صلاة المنفرد لا ثواب فيها ما صحَّت المُفاضلة ... ولكن يأثم الإنسان الذى لا يصلى مع الجماعة ... وأما حديث أبى هريرة فبيَّن النبى ﷺ أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المرء فى بيته وفى سوقه بخمسٍ وعشرين ضعفًا ... ولا مُنافاة بين الحديثين بل يُؤخَذ بالزائد؛ لأن فضل الله واسع ... ثم بيَّن ذلك فقال: وذلك أنه إذا توضأ فى بيته فأسبغ الوضوء يعنى أتمَّه ثم خرج من بيته إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة لم يَخطُ خطوة إلا رُفعت له بها درجة وحُطَّت عنه بها خطيئة.

الخطوة الواحدة فيها فائدتان:

(١) أنه يُرفع له بها درجة. (٢) أنه يُحَطُّ عنه بها خطيئة.

فإذا دخل المسجد وصلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مُصلاه تقول اللهم اغفر له اللهم ارحمه ما لم يُحدِث، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة... وهذا أجرٌ عظيم وفضلٌ كبير لا ينبغى للرجل المؤمن العاقل أن يفرط فيه ... لو أنه قيل لك إن سلعتك إذا بِعتها فى بلدك بعتها بمائة وإذا بعتها فى بلدٍ آخر بالسفر إليه بعتها بمائة وعشرة لسافرت من أجل عشرة بالمائة ولم يشق عليك السفر ... والكثير من الناس والعياذ بالله حُرموا من الخير.

تجدهم قريبين من المسجد ويتركون هذا الفضل العظيم وهذا المكسب العظيم ... الصلاة الواحدة بسبعٍ وعشرين مرة .. ومع ذلك لا يأتى إلى

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخارى (٦٤٧) كتاب الأذان - ومسلم (٦٤٩) كتاب المساجد.

المسجد... وربح الدنيا مع قِلَّته يسعى إليه ويهتم به مع أنه زائل ... فإن كل ما في الدنيا من نعيم فإما أن يزول عنك بالفقر، وإما أن تزول عنه بالموت ... فما من نعيم في الدنيا دائم ولا إقامة دائمة ... ونعيم الآخرة باقٍ ومع ذلك نجد بعض الناس يفرط فيه ولا يهتم به ... وفضل الله تعالى يُؤتيه مَن يشاء ... نسأل الله تعالى أن يُعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته[1].

(١٠٧٣) وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قالَ: أَتى النَّبيَّ ﷺ رَجُلٌ أعمَى فقال: يا رسولَ الله، لَيْسَ لي قَائِدٌ يَقُودُني إلى المَسْجِدِ، فسأَلَ رسولَ الله ﷺ أن يُرَخِّصَ لهُ فيُصَلِّي في بيْتِهِ، فرَخَّصَ لهُ، فلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فقال له: «هَلْ تَسْمَعُ النِّداءَ بالصَّلاةِ؟» قال: نَعَم، قال: «فأَجِبْ»[2].

(١٠٧٤) وعن عبدِ الله – وقِيلَ: عمرو – بن قَيْسٍ المعروف بابنِ أُمِّ مَكْتُوم المؤذِّنِ رضي الله عنه أنَّهُ قال: يا رسولَ الله إنَّ المدينةَ كثيرَةُ الهَوامِّ والسِّباعِ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أَتَسْمَعُ حَيَّ على الصَّلاةِ، حَيَّ على الفلاحِ، فَحَيَّ هَلا»[3].

۞ وهناك رواية ثالثة عند أبي داود عن ابن أمِّ مكتوم، أنه سأل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إني رجلٌ ضريرُ البَصَر شاسِعُ الدَّار، ولي قائد لا يُلايمُني، فهل لي رُخصة أن أُصلّيَ في بيتي؟ قال: «هل تسمعُ النِّداء؟» قال: نعم، قال: «لا أجِدُ لك رُخصةً».

۞ ففي الرواية الأولى أن ابن أم مكتوم رضي الله عنه -وهو رجلٌ أعمى- جاء إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله ليس لي قائد يقودني إلى المسجد.. وكأنه لم يكن عنده ولدٌ كبير أو أخ أو ربما كان ذلك لانشغالهم أو لبُعدهم عن بيته أو غير ذلك.

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٥٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٥٣) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥١٧).
ومعنى «حيَّ هلا»: تعالَ.

المهم أنه رجلٌ أعمى لا يرى وسأل النبى ﷺ أن يُرخص له فى أن يصلى فى بيته.. وبالفعل فقد رخَّص له النبى ﷺ فى بداية الأمر.. فلما ولَّى وهَمَّ بالانصراف دعاه النبى ﷺ مرة أخرى وقال له: «**هَلْ تَسْمَعُ النِّداءَ بالصَّلاةِ؟**» أى: هل تسمع الأذان؟ قال: نَعَم، قال: «**فأجِبْ**»

۞ قال الإمام النووى رحمه الله: وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ لِمَنْ قَالَ: الْجَمَاعَةُ فَرضُ عَيْنٍ ... وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ عَنْهُ بِأَنَّهُ سَأَلَ هَلْ لَهُ رُخْصَةٌ أَنْ يُصَلِّىَ فِى بَيْتِهِ وَتَحصُلُ لَهُ فَضِيلَةُ الْجَمَاعَةِ بِسَبَبِ عُذْرِهِ فَقِيلَ لَا وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّ حُضُورَ الْجَمَاعَةِ يَسْقُطُ بِالْعُذْرِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ... وَدَلِيلُهُ مِنَ السُّنَّةِ حَدِيثُ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ الْمَذْكُورِ بَعدَ هَذَا[1].

وفيه أَنَّ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ - وَهُوَ مِنْ أَصحَابِ النَّبِىِّ ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدرًا مِنَ الْأَنْصَارِ - أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّى قَد أَنْكَرتُ بَصَرِى، وَأَنَا أُصَلِّى لِقَوْمِى، وَإِذَا كَانَتِ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِى الَّذِى بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ وَلَمْ أَسْتَطِع أَنَّ آتِىَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّىَ لَهُمْ، وَدِدتُ أَنَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ تَأْتِى فَتُصَلِّى فِى مُصَلَّى، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، قَالَ عِتْبَانُ: فَغَدَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ حِينَ ارتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّىَ مِنْ بَيْتِكَ؟**» قَالَ: فَأَشَرتُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَكَبَّرَ، فَقُمْنَا وَرَاءَهُ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ[2].

۞ وَأَمَّا تَرخِيصُ النَّبِىِّ ﷺ لابنِ أُمِّ مَكتُوم ثُمَّ رَدُّهُ مَرَّةً أُخْرَى وَقَوْلُهُ فَأَجِبْ فَيَحتَمِلُ أَنَّهُ بِوَحيٍ نَزَلَ فِى الْحَالِ وَيَحتَمِلُ أَنَّهُ تَغيَّرَ اجْتِهَادُهُ ﷺ إِذَا قُلْنَا بِالصَّحِيحِ

---

(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ٢١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٣) (٣٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وَقَوْلُ الْأَكْثَرِينَ أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الِاجْتِهَادُ ... وَيَحتَمِلُ أَنَّهُ رَخَّصَ لَهُ أَوَّلًا وَأَرَادَ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْكَ الْحُضُورُ إِمَّا لِعُذْرٍ وَإِمَّا لِأَنَّ فرض الكفاية حاصل بحضور غيره وإِمَّا للأمرين ... ثُمَّ نَدَبَهُ إِلَى الْأَفْضَلِ فَقَالَ: الْأَفْضَلُ لَكَ وَالْأَعظَمُ لِأَجْرِكَ أَنْ تُجِيبَ وَتَحضُرَ «فَأَجِبْ»[1].

۞ **وفى الرواية الثانية قال ابن أم مكتوم:** يا رسول الله إنَّ المدينةَ كثيرةُ الهَوامِّ والسِّباعِ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**تَسْمَعُ حَيَّ على الصَّلاةِ، حَيَّ على الفلاحِ، فَحَيَّ هَلا**».

(كَثِيرَةُ الْهَوَامِّ) أَيِ الْمُؤْذِيَاتِ مِنَ الْعَقَارِبِ وَالْحَيَّاتِ (وَالسِّبَاعِ) كَالذِّئَابِ أَوِ الْكِلَابِ (حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ) أَىْ الْأَذَانُ .... وَإِنَّمَا خُصَّ اللَّفْظَانِ لِمَا فِيهِمَا مِنْ مَعنَى الطَّلَبِ (فَحَيَّ هَلَا) قَالَ الطِّيبِيُّ: كَلِمَةُ حَثٍّ وَاسْتِعجَالٍ وُضِعَتْ مَوْضِعَ أَجِبْ.

وقال ابن الأثير فى النهاية: وهى كَلِمَتَانِ جُعِلَتَا كَلِمَةً وَاحِدَةً ... فَحَيَّ بِمَعنَى أَقْبِلْ ... وَهَلَا بِمَعنَى أَسْرِع.

۞ وفى الرواية الثالثة أن ابن أم مكتوم قال للنبى ﷺ إنى رجلٌ (ضَرِيرُ الْبَصَرِ) أَىْ أَعمَى (شَاسِعُ الدَّارِ) أَىْ بَعِيدُ الدَّارِ (وَلِى قَائِدٌ) الْقَائِدُ هُوَ الَّذِى يُمْسِكُ يَدَ الْأَعمَى وَيَأْخُذُهَا وَيَذْهَبُ بِهِ حَيْثُ شَاءَ وَيَجُرُّهُ (لَا يُلَاوِمُنِى) ... قَالَ الْخَطَّابِيُّ: هَكَذَا يُروَى فِى الْحَدِيثِ وَالصَّوَابُ لَا يُلَائِمُنِى أَىْ لَا يُوَافِقُنِى وَلَا يُسَاعِدُنِى فَأَمَّا الْمُلَاوِمَةُ فَإِنَّهَا مُفَاعَلَةٌ مِنَ اللَّوْمِ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ.

وَفِى هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حُضُورَ الْجَمَاعَةِ وَاجِبٌ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ نَدبًا لَكَانَ أَوْلَى مَنْ يَسَعُهُ التَّخَلُّفُ عَنْهَا أَهْلُ الضَّرَرِ وَالضَّعفِ وَمَنْ كَانَ فى مثل حال بن أُمِّ مَكْتُومٍ... وَكَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِى رَبَاحٍ يَقُولُ: لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ فِى الْحَضَرِ وَالْقَرْيَةِ رُخْصَةٌ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ فِى أن يدع الصلاة جماعة ... وقال الأوزاعى

---

(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ٢١٧).

لاطاعة لِلْوَالِدِ فِي تَركِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ يَسْمَعُ النِّدَاءَ أَوْ لَمْ يَسْمَع ...

وَكَانَ أَبُو ثَوْرٍ يُوجِبُ حُضُورَ الْجَمَاعَةِ وَاحتَجَّ هُوَ وَغَيْرُهُ بِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَمَرَ رَسُولَ اللهُ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ جَمَاعَةً فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ وَلَمْ يَعذُر فِي تَركِهَا فَعُقِلَ أَنَّهَا فِي حَالِ الْأَمْنِ أَوْجَبُ ... وَأَكْثَرُ أَصحَابِ الشَّافِعِيِّ عَلَى أَنَّ الْجَمَاعَةَ فَرضٌ عَلَى الكفاية لا على الأعيان وتأولوا حديث ابن أُمِّ مَكْتُوم عَلَى أَنَّهُ لَا رُخْصَةَ لَكَ إِنْ طَلَبْتَ فَضِيلَةَ الْجَمَاعَةِ وَأَنَّكَ لَا تُحرِزُ أَجْرَهَا مَعَ التَّخَلُّفِ عَنْهَا بِحَالٍ ... وَاحتَجُّوا بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**» انْتَهَى.

۞ «**هَلْ تَسمَعُ النِّدَاءَ**» أَيِ الْإِعلَامَ وَالتَّأْذِينَ بِالصَّلَاةِ «**لا أَجِدُ لَكَ رخصة**».

قال على القارى: مَعناهُ لَا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً تُحَصِّلُ لَكَ فَضِيلَةَ الْجَمَاعَةِ مِنْ غَيرِ حُضُورِهَا .... لَا الْإِيجَابُ عَلَى الْأَعمَى فَإِنَّهُ ﷺ رَخَّصَ لِعِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ فِي تَركِهَا وَيُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا «**مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَأْتِهِ فَلَا صَلَاةَ لَهُ إِلَّا مِنْ عُذْرٍ**»[1].

❊❊❊

(١٠٧٥) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «والذى نَفْسِى بيدِهِ لقد هَمَمْتُ أن آمُرَ بحَطَبٍ فيُحتَطَب، ثُمَّ آمُرَ بالصَّلاةِ فيُؤذَّنَ لهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فيَؤُمَّ النَّاسَ ثُمَّ أُخَالِفَ إلى رِجَالٍ فأُحَرِّقَ عَلَيْهِم بيوتهم»[2].

۞ هذا الحديث يوضح وجوب صلاة الجماعة وأن تكون فى المسجد.

ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ أقسم -وهو الصادق المصدوق بدون قسم أنه هَمَّ أن يأمر بالصلاة فتُقام، ثم يأمر رجلاً فيصلى بالناس، ثم ينطلق بحُزَمٍ من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فيُحرِّق عليهم بيوتهم بالنار.

وهذا يدل على وجوب صلاة الجماعة؛ لأن النبى ﷺ لا يَهِمّ هذا الهَمّ إلا لترك أمرٍ واجبٍ، ولا يخبر الناس بذلك إلا ليحذرهم من تركه ومخالفته، وإلا

(١) عون المعبود (٢/ ١٨٠-١٨١).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

لم يكن هناك فائدة... وكونه ﷺ هَمَّ أن يعاقبهم هذه العقوبة دليل على تأكُّد الجماعة وأنها واجبة.

۞ وذلك لأنه ﷺ هَمَّ بعقوبتهم على التخلُّف عنها... والعقوبة إنما تكون على ترك واجب... وأما الذى منعه من تنفيذ العقوبة أنه لا يعاقب بالنار إلا الله عَزَّوَجَلَّ .. وقيل: منعه من ذلك مَن فى البيوت من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم صلاة الجماعة.

ودَلَّ ذلك أيضًا على أنها تجب فى المسجد وأنه ليس المقصود الجماعة فقط بل الجماعة وأن تكون فى المسجد... ودَلَّ ذلك أيضًا على أن العبرة بسماع النداء... ودَلَّ ذلك أيضًا على أنه لا يصح اقتداء مَن كان خارج المسجد بمن فى المسجد ولو أمكنه أن يقتدى به ... يعنى - مثلاً - لو كان الإنسان عنده بيت بجوار المسجد وهو يسمع تكبيرات الإمام فقال لابنه - مثلاً - نصلِّى مع الإمام جماعة فى بيتنا فإن ذلك لا يصح؛ لأنه لا بد من حضور المكان الذى تُقام فيه الجماعة... إلا أنه إذا امتلأ المسجد، وصلّى الناس فى الأسواق فإن الذين خارج المسجد يكونون تبعًا لمن فى المسجد فى اتصال الصفوف، وإلا فبدون اتصال الصفوف فإن مَن كان خارج المسجد لا تصح صلاته مع أهل المسجد... لا بد من الحضور حتى لو كان يسمع كل التكبيرات.

فإذا قال قائل: إذا كان الإنسان مريضًا ولا يستطيع الحضور لكن يسمع النداء بواسطة الميكروفون فهل يتابع الإمام؟.

قلنا: لا يصلِّى مع الإمام هو معذور فى ترك الجماعة... وإذا كان من عادته أنه يصلى مع الجماعة فإنه يُكتب له ما كان يعمل لمَّا كان صحيحًا.

لقول النبى ﷺ: «**إِذا مَرِضَ العَبْدُ أَو سافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْل مَا كانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[1]. والله أعلم.

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

(١٠٧٦) وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: مَنْ سَرَّه أن يَلْقَى الله تعالى غدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ على هؤلاءِ الصَّلوات حَيْثُ يُنادَى بهنَّ، فإنَّ الله شَرَعَ لِنَبِيِّكم صلى الله عليه وسلم سُنَنَ الهُدَى وإنَّهُنَّ مِن سُنَنِ الهُدَى، ولَو أنَّكُمْ صَلَّيْتُم في بُيوتِكُم كما يُصَلِّي هذا المُتَخَلِّف في بيتِهِ لتَرَكْتُم سُنَّة نَبِيِّكم، ولَو تركتم سُنَّةَ نَبِيِّكُم لضَلَلْتُم، ولَقَد رأيْتُنا وما يَتَخَلَّف عنها إلا مُنافِقٌ مَعلُومُ النِّفَاق، ولَقَدَ كانَ الرَّجُلُ يُؤتَى بهِ، يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حتَّى يُقامَ في الصَّفِّ[1].

وفي روايةٍ له قال: إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عَلَّمَنا سُنَنَ الهُدَى، وإنَّ مِن سُنَنِ الهُدَى الصَّلاةُ في المَسْجِدِ الذي يُؤَذَّنُ فيه.

۞ ساق المؤلف رحمه الله في باب فضل الجماعة هذا الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ... هذا الأثر الذي كأنما يخرج من مشكاة النبوة؛ كأنه من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم في سلاسته وحُسنه ونَظمه... يقول رضي الله عنه: مَن سَرَّه أن يَلقى اللهَ غدًا مسلمًا فليحافظ على هذه الصلوات حيث يُنادَى بهنّ - وكلنا يَسُره أن يَلقى الله تعالى مسلمًا مؤمنًا به (جل وعلا) فمن أراد ذلك فليحافظ على هؤلاء الصلوات الخمس حيث يُنادَى بهن-أي: في المكان الذي نادى به عليهن، أي: المساجد - وذلك لوجوب صلاة الجماعة في المسجد .... فلا يجوز لأحدٍ يقدر على أن يصلي في المسجد إلا وجب عليه إذا كان من أهل وجوب الجماعة كالرجال... ثم ذكر رضي الله عنه **أن الله سبحانه وتعالى شرع لنبيه صلى الله عليه وسلم سُنن الهُدى** - يعني طُرق الهُدى - فكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فهو هُدًى ونور شرعه الله له...«**وإنهن**- يعني الصلوات الخمس- **من سُنن الهدى**» وصدق رضي الله عنه بل الصلوات الخمس أعظم سنن الهُدى بعد الشهادتين... لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، ثم قال: «**لو أنكم صليتم في بيوتكم كما صلّى هذا المتخلف في بيته لتركتم سُنة**

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٥٤) كتاب المساجد.

نبيِّكم، **ولو تركتم سُنة نبيكم لضللتم»** - يعنى: لو أن كل واحد صلّى فى بيته كما صلّى هذا المتخلف لتركنا السُّنة ولتعطلت المساجد ولانقطع الناس بعضهم عن بعض، ولما تعارفوا ولا تآلفوا، ولا حصل هذا المظهر العظيم فى الدين الإسلامى، ولكن من رحمة الله وحكمته أن شرع للعباد أن يُصلّوا جماعة؛ كلَّ يوم خمس مرات .. تَلقى أخاك تُسلِّم عليه ويُسلم عليك وتقتدى معه على إمامٍ واحد فهى نعمة عظيمة من أعظم روابط الأُخوة فى المودة والمحبة.

ثم قال: **«ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنها إلا منافق»** والمنافقون كثيرون لاسيما إذا اعتزَّ الإسلام وقَوِى ما استطاع الإنسان أن يُعلن كفره ... ولهذا لم يَبْرُز النفاق ولم يَكثُر فى عهده ﷺ إلا حين انتصر المسلمون فى غزوة بدر.

لما انتصر المسلمون فى غزوة بدر ... فى السنة الثانية من الهجرة بدأ النفاق يظهر... خاف الكفار على أنفسهم فصاروا يعلنون الإسلام؛ حتى إنهم يأتون إلى الرسول ﷺ يقولون: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ يعنى: ما قالوا ذلك صدقًا بل قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ... قوله: **«ما يتخلَّف عنها إلا منافق»**: لماذا يتخلف المنافق؟ لأن المنافق لا يرجو ثوابًا، ولا يؤمن بالحساب، فلا يحضرها... ولهذا قال الرسول ﷺ: **«أثقل الصلوات على المنافقين: العشاء، والفجر»**؛ لأن صلاة العشاء لا يُرى فيها الذى يتخلف .... ففى عهد النبى ﷺ لم يكن يوجد كهرباء ولا أنوار فيتخلَّف الإنسان ولا يُدرَى عنه... ثم إن صلاة العشاء والفجر تأتى فى وقت الراحة والنوم فهى ثقيلة على المنافقين لا يأتون إليها، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا.

ثم ذكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الرجل من المسلمين كان يُؤتَى به يُهادَى بين الرجلين حتى يُقام فى الصف... فهو رجلٌ مريض لا يستطيع أن يمشى وحده، يُهادونه: يمشون به رُويدًا رُويدًا حتى يُقام فى الصف فيصلِّى مع الجماعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ... وبهذه الأعمال

وغيرها مَلَكوا مشارق الأرض ومغاربها... ولمّا تخلّفت الأمة الإسلامية واختلفت قلوبها صارت إلى ما ترون الآن: أمة ذليلة مع أنهم يبلغون مليارًا من البشر ونصف المليار ومع ذلك هم فى أذلِّ ما يكون من الأمم؛ لأنهم متفرقون، بل بعضهم مُتعادون..بل بعضهم يرى أن الآخر أشدُّ عليه من اليهود والنصارى - والعياذ بالله -؛ لأنهم مُتنازعون مُتفرِّقون ... لكن فى عهد الرسول ﷺ لا يمكن أن يتخلف أحد عن الجماعة حتى ولو كان مريضًا يُؤتَى به يُهادَى بين الرجلين حتى يُقام فى الصف... فلو أننا عُدنا إلى ما كان الصحابة عليه لصرنا أمةً عزيزةً مرموقة ... الكلُّ يخافها، والكلُّ يُصانعها، والكلُّ يتودَّد إليها - نسأل الله أن يُعيد لنا مجدنا لديننا ويعيد لنا كرامتنا ... إنه على كل شىء قدير[1].

(١٠٧٧) وعن أبى الدرداءِ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما مِن ثَلاثَةٍ فى قَريَةٍ ولا بَدوٍ لا تُقامُ فيهِمُ الصَّلاةُ إلا قد اسْتَحوَذَ عليهِمُ الشَّيْطانُ. فعَلَيْكُم بالجَماعَةِ، فإنَّمَا يأكُلُ الذِّئبُ مِن الغَنَمِ القاصِيَةَ**»[2].

۞ ففى هذا الحديث يُخبر أبو الدرداء رضي الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول: «**ما مِن ثَلاثَةٍ فى قَريَةٍ ولا بَدوٍ لا تُقامُ فيهِم الصَّلاةُ إلا قد اسْتَحوَذَ عليهِمُ الشَّيْطانُ**»...

فمن المعلوم أنه قد يبدو من المستحيل أن تكون هناك قرية أو بادية لا تكون إلا من ثلاثة أشخاص.. وكأن النبى ﷺ يقول: لا عُذر لكم فى ترك الجماعة حتى ولو كنتم ثلاثة.. فإن كنتم ثلاثة فإنه يجب عليكم أن تصلوا جماعة... والمقصود هنا أنه إذا كنتم ثلاثة فأكثر بالنسبة لصلاة الجمعة .. لأن صلاة الجمعة لا تجب إلا إذا كانوا ثلاثة فأكثر فى غير البرية.. فأما البادية والمسافرون فليس عليهم جمعة.. أما القُرى والأمصار فتُقام فيها صلاة

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٦٠-١٦٢) بتصرف.
(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن حبان، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٠١).

الجمعة.. ... وأما البادية فليس عليهم جمعة.. ولهذا لم تكن البادية فى عهد النبى ﷺ يقيمون الجمعة.. وهم حول المدينة.. وأما صلاة الجماعة فهناك أحاديث أخرى تدل على أن صلاة الجماعة تجب إذا كانا اثنين فأكثر وتُقام فى كل مكان: فى القُرى والأمصار والبادية..

۞ ثم قال ﷺ: «**فعَلَيْكُم بالجَماعَةِ، فإنَّمَا يأكُلُ الذِّئبُ مِن الغَنَمِ القاصِيَةَ**» فهذا دليل على أن المسلم لا ينبغى أن يفترق عن إخوانه المسلمين وأنه يجب على المسلمين أن يجتمعوا ويتوحدوا لأن الاجتماع قوة والتفرُّق ضعف... والشرود عن الجماعة سببٌ فى الهلاك.

۞ ولذا لما أخبر النبى ﷺ حذيفة عن زمن الفتن الذى يكون فيه دُعاة على أبواب جهنم مَن أجابهم قذفوه فيها.. فقال له حذيفة: فماذا تأمرنى إن أدركنى ذلك؟ قال: «**تَلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفِرَق كلها، ولو أن تَعضَّ على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»(١).

فكانت وصية النبى ﷺ لحذيفة إن أدرك تلك الفتن - مع أنه لن يُدركها ولن تدركه- أن يَلزم جماعة المسلمين.. وليس المقصود جماعة كذا أو جماعة كذا .. بل المقصود جماعة المسلمين أهل السُّنة فى كل زمانٍ ومكان.. أهل الصلوات الخمس والجمعة ورمضان والأعياد والحج والعمرة.. أهل التوحيد والإيمان.

لأن الابتعاد عن جماعة المسلمين سببٌ للهلاك ولذا شبَّه النبى ﷺ مَن فعل ذلك بالغنم القاصية البعيدة عن أخواتها فيأكلها الذئب بسهولة لأنها وحدها.. فكذلك الشيطان يتسلط على الخارج عن الجماعة وأهل السُّنة... جمعنى الله وإياكم على الخير والطاعة وجعلنا من أهل السُّنة والجماعة.

---

(١) رواه البخارى (٣٦٠٦) كتاب المناقب.

(١٩٢) باب الحث على حضور الجماعة في الصبح والعشاء

(١٠٧٨) عن عثمانَ بنِ عفانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَنْ صَلَّى العِشَاء فى جَماعَةٍ، فكأَنَّما قامَ نِصفَ اللَّيْلِ، ومَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فى جمَاعَةٍ، فكأَنَّما صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ»(١).

وفى روايةٍ للترمذى عن عثمان بن عفانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ العِشَاءَ فى جَماعةٍ كان لهُ قِيامُ نِصفِ لَيْلَة، ومَنْ صَلَّى العِشَاءَ والفَجْر فى جَماعةٍ، كان لهُ كَقِيامِ لَيْلَة».

۞ ففى هذا الحديث يخبر عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ صَلَّى العِشَاء فى جَماعَةٍ**» سواء كانت قليلة أم كثيرة فاضلة أو مفضولة «**فكأَنَّما قامَ نِصف اللَّيْلِ**» أى: كأنما قام يصلى ويتهجد نصف ليلة كاملة.. «**ومَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فى جمَاعَةٍ، فكأَنَّما صَلَّى اللَّيْل كُلَّهُ**» أى: وإذا صلى فى نفس الليلة الصبح فى جماعة فكأنما قام يصلى الليل كله.. العشاء نصف الليل.. والفجر نصف الليل الباقى... فيا له من أجرٍ عظيم... ومن أجل ذلك قال النبى ﷺ فى الحديث الذى يليه: «**وَلَوْ يَعلَمُونَ مَا فِى الْعَتَمَةِ**-العشاء- **وَالصُّبحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْواً**» أى: من عِظَم الأجر الذى فيهما.

(١٠٧٩) وعن أبى هُرَيْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «وَلَوْ يعلَمُون مَا فى العَتَمَةِ والصُّبحِ لأَتَوْهُما ولَوْ حبْوًا»(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٥٦) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٥) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٧) كتاب الصلاة.

(١٠٨٠) وعن أبي هُرَيْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لَيْسَ صَلاةٌ أَثْقَلَ على المُنَافِقِينَ مِنْ صَلاةِ الفَجْرِ والعِشاءِ ولَوْ يَعلَمُونَ ما فِيهما لأتَوْهُما ولَوْ حبْوًا»[1].

۞ فالعَتَمة هي صلاة العشاء.. والصبح معروف.. فيخبر النبي ﷺ هنا أن الناس لو كانوا يعلمون ما فيهما من الأجر والثواب والبركة والخير لأتوهما يحبون على الأرض كما يحبو الصبي الصغير.. ومع أن النبي ﷺ أخبر في الحديث السابق أن مَن صلى العشاء والصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله.. لكن من الواضح أن هناك أجرًا وثوابًا آخر لا نعلمه وإلا لم يَقُل النبي ﷺ: **«ولَوْ يَعلَمُونَ ما فِيهما»** إذًا.. فهناك ثوابٌ آخر سيكون مفاجأة لأهل صلاة الصبح والعشاء يَسعدون به يوم القيامة بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومع كل هذا فهناك صنف لا يريد الخير ولا الثواب أبدًا.. ومهما علم من الأجر والثواب في أي طاعة فإنه لا يُقبل عليها.. ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ: **«لَيْسَ صَلاةٌ أَثْقَلَ عَلَى المُنَافِقِينَ مِنَ الفَجْرِ وَالعِشَاءِ، وَلَوْ يَعلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا»** وذلك لأن المنافقين يُصلون رياءً وسُمعة ... فكانوا يصلون الظهر والعصر والمغرب لأن الناس يرونهم... فإذا كانت صلاة العشاء والصبح في وقت الظلام كانوا لا يصلونها لأنه لم تكن على عهد رسول الله ﷺ أنوارٌ ولا سُرج فلا يستطيع أحد أن يعرف الغائبين عن تلك الصلاة ... ثم إن صلاة العشاء والفجر تأتي في وقت الراحة والنوم فهي ثقيلة على المنافقين لا يأتون إليها ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا.

فينبغي للإنسان أن يحرص على صلاة العشاء والفجر .. لكن صلاة العشاء ليست أفضل من صلاة العصر، فصلاة العصر أفضل؛ ولهذا صارت صلاة الفجر قرينة للعصر وقرينة للعشاء، فهي قرينة للعصر كما سبق «من صلّى

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٧) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

البردين دخل الجنة»[1] وقال ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس - الفجر - وصلاة قبل غروبها - العصر - فافعلوا»**[2] وهى - أى صلاة الفجر - مع العشاء أيضًا إذا اجتمعتا فكأنما قام الإنسان الليل كله ... وكذلك أيضًا لو يعلم الناس ما فى العشاء والفجر لأتوهما ولو حبوًا... فاحرص - أخى المسلم - على جميع الصلوات.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.

(١٩٣) باب الأمر بالمحافظة على الصلوات المكتوبات والنهي الأكيد والوعيد الشديد في تركهن

۞ إن الصلاة هى أعظم الأركان بعد الشهادتين وهى أم العبادات وميزان تعظيم الدين فى قلب المؤمن فهى التى أمر الله بها ... وهى الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهى ملجأ المؤمن فى الكربات وهى التى يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسماوات وهى أمنية المُعذَّبين والأموات وهى العاصمة من الشهوات والناهية عن المنكرات وهى الحادى للنعيم المقيم فى الجنات.

لقد بلغت الصلاة مبلغًا عظيمًا وقدرًا عاليًا فى قلب النبى ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبُنا أن نتأمل قول النبى ﷺ: **«حُبِّب إلىَّ من دُنياكم: النساء والطِّيب وجُعلت قُرة عينى فى الصلاة»**[١].

قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾.

[التوبة: ٥]

۞ الصلوات خمس كتبهن الله عَزَّوَجَلَّ على عباده فى كل يومٍ وليلة؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حين سأل النبى ﷺ ربه أن يُخفف عن العباد قال: هن خمس فى الفعل خمسون فى الميزان... وسأل رجلٌ النبى ﷺ عن الإسلام - ومنه الصلوات- فذكر له خمس صلوات .. قال: هل علىَّ غيرها؟ قال: **«لا، إلَّا أَنْ تَتَطَوَّعَ»**[٢]

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦) كتاب الإيمان - ومسلم (١١) كتاب الإيمان.

وأرسل معاذًا إلى اليمن وقال: «فَأَعلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»(١)، وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] خصَّها لما لها من المزية والفضل .. والمراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر ... فسَّرها بذلك النبى ﷺ أعلم الخلق بكتاب الله وبمراده ولا قول لأحد بعد قول النبى ﷺ.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

❊ ❊ ❊

(١٠٨١) وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سَأَلْتُ رسولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الأعمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِها» قلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجهادُ فى سَبِيلِ اللهِ»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣١٧) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

❊ ❊ ❊

(١٠٨٢) وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شَهادَةِ أَنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسُولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحَجِّ البيْتِ، وصَوْمِ رَمَضانَ»(٣).

۞ ففى هذا الحديث العظيم يقول النبى ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ» فشبَّه النبى ﷺ الإسلام بالقصر أو البناء العظيم الكبير الذى يقوم على خمسة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٥٩) كتاب الزكاة - ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٣٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٨٥) كتاب الإيمان.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٨) كتاب الإيمان - ومسلم (١٦) كتاب الإيمان.

أعمدة.. ومن المعلوم أن الأعمدة هى التى تحمل البُنيان.. وبدونها يقع البنيان وينهدم... فإذا كان البناء مبنيًّا بدون أعمدة فلا شك أنه سيكون ضعيفًا ولن يصمد طويلًا .. وإذا كانت الأعمدة ضعيفة فإنه أيضًا لن يصمد طويلًا.. لكن بناء الإسلام قوىٌّ مُحكَم لأن الذى بناه وشرعه هو فاطر السماوات والأرض قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٢٣].

قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله ﷺ: « **بُنِىَ الإسَلامُ عَلَى خَمْسٍ** » أى: فمن أتى بهذه الخمس فقد تَمَّ إسلامه، كما أن البيت يتم بأركانه كذلك الإسلام يتم بأركانه، وهى خمس. وهذا بناء معنوى شُبِّه بالحِسِّى... ووجه التشبيه أن البناء الحِسِّى إذا انهدم بعض أركانه لم يتم. فكذلك البناء المعنوى ... ولهذا قال ﷺ: «**الصلاة عماد الدين، فمن أَقَامَهَا فَقد أَقَامَ الدِّين، ومَنْ تركها فقد هدم الدين**»(١).

وقال **أبو العباس القرطبى** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يعنى أن هذه الخمس أساس دين الإسلام وقواعده التى عليها بُنى وبها يقوم وإنما خصَّ هذه بالذكر ولم يذكر معها الجهاد مع أنه يُظهر الدين ويقمع عناد الكافرين؛ لأن هذه الخمس فرضٌ دائم والجهاد من فروض الكفايات ... وقد يسقط فى بعض الأوقات.

والخمسة المذكورة فى الحديث أصول البناء، وأما التتمات والمكملات – كبقية الواجبات وسائر المستحبات– فهو زينة للبناء، وقد ورد فى الحديث أنه ﷺ قال: « **الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»(٢).

«**شَهادَةِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ الله، وأَنَّ مُحمدًا رسولُ اللهِ**»: يعنى أن تشهد معترفًا

(١) ضعيف: رواه البيهقى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٥٦٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

بلسانك مؤمنًا بقلبك أنه لا معبود بحقٍّ إلا الله ولا متبوع إلا النبى ﷺ.

۞ أما الثانى فهو «إقام الصلاة» يعنى الصلوات الخمس وما يتبعها من النوافل لكون الصلاة من أركان الإسلام ... والصلوات الواجبة بالإجماع هى خمس: الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ... والجمعة تكون فى محل الظهر.

ومعنى: «إِقامِ الصَّلاةِ» أن يأتى بها الإنسان فى أوقاتها مُتممًا شروطها وأركانها وواجباتها ومُكملًا ذلك بمُستحباتها ... هذا هو إقام الصلاة.

وأما«وَإِيتاءِ الزَّكاةِ» فهو إعطاء الزكاة لمُستحقها ... والزكاة هى القسط من مالك الذى أوجبه الله عليك فى الذهب والفضة والنقد وعروض التجارة والخارج من الأرض وبهيمة الأنعام ... فيجب أن تعطى هذه الزكاة لمُستحقيها...وقد بيَّن الله المستحقين لها فى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة:٦٠].

وأما «حَجُّ البَيْتِ» فهو قصد مكة لأداء المناسك ... وقد فرضه الله عَزَّ وَجَلَّ على هذه الأمة فى السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة... وهو فرضٌ على كل مسلمٍ مرة واحدة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلًا.

وأما «صَوْمِ رَمضانَ» فهو صوم الشهر الذى بين شعبان وشوال ... وفُرض فى السنة الثانية من الهجرة ... فهذه هى أركان الإسلام مَن أتى بها فهو المسلم وقد بُنى على أساسٍ متين.

(١٠٨٣) وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرتُ أَنْ أُقاتِلَ النـاسَ حتَّـى يَـشْهدُوا أَنْ لا إِلـه إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّـدًا رسـولُ اللهِ، وَيُقِيمُـوا الـصَّلاَة، ويُؤْتُـوا الزَّكاةَ، فَإذا فَعَلُوا ذلكَ عَصمُوا مِنِّى دِماءَهُمْ وَأَمْوَالَهمْ إِلاَّ بحقِّ الإِسلامِ، وَحِسَابُهْم على اللهِ»(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان - ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٩٥) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(١٠٨٤) وعنْ معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثَني رسُولُ الله ﷺ إلى اليمن فقال: «إنَّكَ تأتي قَوْمًا مِنْ أهلِ الكتاب، فادعُهُم إلى شهادةِ أنْ لا إله إلا الله، وأنِّي رسُولُ الله، فإنْ هُم أطاعُوا لذلكَ، فأعلِمْهُم أنَّ الله تعالى افتَرضَ عليهِمْ خَمْسَ صلواتٍ في كُلِّ يوم ولَيْلَةٍ، فإنْ هُمْ أطاعُوا لذلكَ، فأعلِمهُم أنَّ الله تعالى افْتَرض عليهم صَدقةً تُؤخَذُ مِنْ أغْنيائهم فَتُرَدُّ على فُقرائِهم، فإنْ هُمْ أطاعُوا لذلكَ، فإيَّاكَ وكرائم أموالِهم واتَّقِ دَعوةَ المظْلُومِ، فإنَّهُ ليسَ بيْنَها وبينَ الله حِجَابٌ»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢١٣) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١٠٨٥) وعنْ جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ الشِّركِ والكُفْرِ تَركُ الصَّلاةِ»[2].

(١٠٨٦) وعن بُرَيْدَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «العَهْدُ الذي بيْننا وبَيْنَهم الصَّلاةُ، فمنْ تَركَها فقد كَفَر»[3].

(١٠٨٧) وعنْ شقِيق بن عبدِ الله التابعيِّ المُتَّفَقِ على جَلالته رَحِمَهُ اللَّهُ قال: كانَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ لا يَرَوْنَ شَيئًا مِن الأعمالِ تَركُهُ كُفْرٌ غيْرَ الصَّلاةِ[4].

۞ فهذه الأحاديث وردت في التحذير الشديد من ترك الصلاة وإضاعتها...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٥٨)، (١٤٩٦) كتاب الزكاة - ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٢) كتاب الإيمان.
(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٤٣).
(٤) صحيح موقوف: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٦٥).

وقد اختلف أهل العلم فى حكم تارك الصلاة.

قال الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يختلف المسلمون أنَّ تَرْكَ الصّلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذّنوب وأكبر الكبائر، وأنّ إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النّفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزِّنى والسَّرقة وشُرب الخمر، وأنّه مُتعرِّضٌ لعقوبة الله وسخطه وخِزيه فى الدّنيا والآخرة... وقد كان عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكتب إلى الآفاق، أنّ أهمّ أموركم عندى الصّلاة، فمن حفظها، حفظ دينه، ومَن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظَّ فى الإسلام لمن ترك الصّلاة... والصّلاة أوّل فروض الإسلام، وهى آخر ما يُفقَد من الدّين، فهى أوّل الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوّله وآخره فقد ذهب جميعه، وكلّ شيء ذهب أوّله وآخره فقد ذهب جميعه»(١).

وقد عدَّ ابن حجر تعمُّد ترك الصّلاة من الكبائر...وذكر قول الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٣].

ونقل بعضهم أنَّه صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّ تارك الصّلاة كافر، وكذلك كان رأى أهل العلم من لَدُن النَّبيِّ ﷺ أنَّ تارك الصَّلاة عمدًا من غير عُذرٍ حتَّى يذهب وقتها كافر... وقال أيُّوب: ترك الصّلاة كفر لا يُختلَف فيه(٢).

۞ وَأَمَّا تَارِكُ الصَّلَاةِ فَإِنْ كَانَ مُنْكِرًا لِوُجُوبِهَا فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ خَارِجٌ مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَرِيبَ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ وَلَمْ يُخَالِطِ الْمُسْلِمِينَ مُدَّةً يَبْلُغُهُ فِيهَا وُجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ... وَإِنْ كَانَ تركهُ تَكَاسُلًا مَعَ اعتِقَادِهِ وُجُوبَهَا كَمَا هُوَ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ ... فَذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ (رَحِمَهُمَا اللهُ) وَالْجَمَاهِيرُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ بَلْ يَفْسُقُ

---

(١) انظر كتاب الصلاة / للإمام ابن القيم (٢١، ٢٢).

(٢) الزواجر / لابن حجر (١٧٢).

وَيُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ حَدًّا كَالزَّانِي الْمُحصَنِ وَلَكِنَّهُ يُقْتَلُ بِالسَّيْفِ ... وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ يَكْفُرُ وَهُوَ مَروِيٌّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ إِحدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ وَبِهِ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ وَهُوَ وَجْهٌ لِبَعضِ أَصحَابِ الشَّافِعِيِّ (رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ) وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَالْمُزَنِيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُمَا اللهُ أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ وَلَا يُقْتَلُ بَلْ يُعَزَّرُ وَيُحبَسُ حَتَّى يُصَلِّيَ ... وَاحتَجَّ مَنْ قَالَ بِكُفْرِهِ بِظَاهِرِ الْحَدِيثِ الثَّانِي الْمَذْكُورِ وَبِالْقِيَاسِ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ... وَاحتَجَّ مَنْ قَالَ لَا يُقْتَلُ بِحَدِيثِ: «**لا يَحِلُّ دَم امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحدَى ثَلَاثٍ**» (وَلَيْسَ فِيهِ الصَّلَاةُ) وَاحتَجَّ الْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨]، وَبِقَوْلِهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ لا إله الا الله دخل الجنة**» «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعلَمُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» وَ«**لا يَلْقَى اللهَ تَعَالَى عَبْدٌ بِهِمَا غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحجَبُ عَنِ الْجَنَّةِ**» «**حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» وَغَيْرِ ذَلِكَ وَاحتَجُّوا على قتله بقوله تعالى: ﴿**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ**﴾ [التوبة: ٥]، وَقَوْلُهُ ﷺ: «**أُمِرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذَلِكَ فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**» وَتَأَوَّلُوا قَوْلَهُ ﷺ: «**بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تركُ الصَّلَاةِ**» عَلَى معنى أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ بِتَركِ الصَّلَاةِ عُقُوبَةَ الْكَافِرِ وَهِيَ الْقَتْلُ أَوْ أَنَّهُ مَحمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ أَوْ عَلَى أَنَّهُ قد يؤول بِهِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ أَنَّ فِعلَهُ فِعلُ الْكُفَّارِ وَاللهُ أَعلَمُ(١).

(١٠٨٨) وعن أَبِي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العبْدُ يَوْم القِيامةِ منْ عَملِهِ صلاتُهُ، فَإِنْ صَلَحت، فَقَد أَفلَحَ وَأَنجح، وَإِنْ فَسدتْ،**

(١) مسلم بشرح النووي (٢/ ٩٣-٩٤).

فَقَد خَابَ وخَسِر، فَإِنِ انْتقَص مِنْ فِريضتِهِ شَيْئًا، قَالَ الرَّبُّ، عَزَّوَجَلَّ: انظُروا هَلْ لِعَبْدِي منْ تَطَوُّع، فَيُكَمَّلُ مِنْهَا مَا انْتَقَص مِنَ الفَرِيضَةِ؟ ثُمَّ تكونُ سَائِرُ أَعمالِهِ عَلى هَذَا»[١].

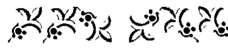
۞ أى أن أول ما يُحاسَب عليه العبد من أعماله يوم القيامة الصلاة... وهذا بالنسبة لحق الخالق (جل وعلا) فإن صلحت الصلاة فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر.

وهذا لا يتعارض مع قولهﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى الدِّمَاءِ»[٢] لأن الأول محمولٌ على حق الخالق والثاني محمول على حق الخلق.

وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِى الدِّمَاءِ»[٣].

۞ «فإن انتقص من فريضته شيئًا» يُنظَر فى أعماله هل له نوافل فإنها تُكمَّل بها الفرائض ... ولهذا كان من فضل الله ورحمته ونعمته وإحسانه أن شرع لنا النوافل خلف الصلوات وقبلها وفى كل وقت إلا الأوقات المنهى عنها وذلك لأن الإنسان لا بد أن يكون فى صلاته خلل فيكمل الخلل بهذه النوافل.

كل هذه النوافل يزداد بها أجر المصلى ويكمل بها النقص الذى حصل فى الفريضة ... وهذه من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ.



(١) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٠).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٣) كتاب الرقاق، ومسلم (١٦٧٨) كتاب القسامة.
(٣) فتح البارى (١١/ ٣٩٦) - والحديث رواه النسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٧٢).

(١٩٤) باب فضل الصف الأول والأمر بإتمام الصفوف الأُوَل وتسويتها، والتراصّ فيها

(١٠٨٩) عن جابرِ بنِ سَمُرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: خَرَجَ علَيْنَا رسول الله ﷺ فقال: «ألا تَصُفُّون كما تُصَفُّ الملائكةُ عِنْدَ ربِّها؟» فقُلْنَا: يا رسُولَ الله، وكيفَ تُصَفُّ الملائكةُ عِند ربِّها؟ قال: «يُتِمُّونَ الصُّفوفَ الأُول، ويَتراصُّونَ فى الصفِّ»(١).

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن الملائكة لا يفترون لحظة واحدة عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وتنفيذ أوامره... والملائكة لهم عبادات كثيرة متنوعة وهم (عليهم الصلاة والسلام) ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وتأمل قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ولم يَقُل يسبحون فى الليل والنهار لأنهم يستوعبون الوقت كله فى التسبيح.

۞ ومن عباداتهم أنهم يَصُفُّون عند ربهم عَزَّوَجَلَّ.. كما قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

۞ وهنا فى هذا الحديث يقول النبى ﷺ لأصحابه: **«ألا تَصُفُّون كما تُصَفُّ الملائكةُ عِنْدَ ربِّها؟»**

وفى الحقيقة أن بداية الحديث كما وردت فى صحيح مسلم أن جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: **«مَا لِى أَرَاكُمْ رَافِعِى أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ، اسْكُنُوا فِى الصَّلاةِ»**، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَآنَا حِلَقًا، فَقَالَ: «**مَا لِى أَرَاكُمْ عِزِينَ**»، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «**أَلا تَصُفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟**»، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تُصَفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «**يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَل، وَيَتَرَاصُّونَ فِى الصَّفِّ**».

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٣٠) كتاب الصلاة.

قوله ﷺ «مالى أَرَاكُمْ رَافِعِى أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمُسٍ» وَهِىَ الَّتِى لَا تَسْتَقِرُّ بَلْ تَضْطَرِبُ وَتَتَحَرَّكُ بِأَذْنَابِهَا وَأَرجُلِهَا ... وَالْمُرَادُ بِالرَّفْعِ الْمَنْهِىِّ عَنْهُ هُنَا رَفْعُهُمْ أَيْدِيَهُمْ عِنْدَ السَّلَامِ مُشِيرِينَ إِلَى السَّلَامِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِى الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ قَوْلُهُ (فَرَآنَا حِلَقًا) جَمْعُ حَلْقَةٍ.

قَوْلُهُ ﷺ: «مَا لِى أَرَاكُمْ عِزِينَ» أَىْ مُتَفَرِّقِينَ جَمَاعَةً جَمَاعَةً ... الْوَاحِدَةِ عِزَةٌ مَعنَاهُ النَّهْىُ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالْأَمْرُ بِالِاجْتِمَاعِ وَفِيهِ الْأَمْرُ بِإِتْمَام الصُّفُوفِ الْأُوَّلِ والتراصّ فى الصفوف ... وَمَعنَى إِتْمَامِ الصُّفُوفِ الأُولِ أَنْ يَتِمَّ الْأَوَّلُ وَلَا يَشْرَعُ فِى الثَّانِى حَتَّى يَتِمَّ الْأَوَّلُ وَلَا فِى الثَّالِثِ حَتَّى يَتِمَّ الثَّانِى وَلَا فِى الرَّابِعِ حَتَّى يَتِمَّ الثَّالِثُ وَهَكَذَا إِلَى آخِرِهَا[1].

۞ إذًا.. فنحن إذا صففنا بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ فى صلاتنا ينبغى أن نكون كالملائكة: فنكمل الصف الأول فالأول.. ولا نقف فى الصف الثانى حتى نُكمل الأول.. ونُسوى الصفوف بحيث لا يتقدم أحدنا على الآخر... ونتراص فيها بحيث لا يكون هناك أى فُرجة تَسَعُ مُصليًا حتى لا يدخل الشيطان بيننا.

۞ والتراصُّ فى الصلاة يكون بأن يلصق أحدنا كعبه بكعب أخيه ومنكبه بمنكب أخيه حتى تتراص الصفوف.

وليس المقصود بالتراص أن تُزعج الذى بجوارك من شدة الملاصقة وإنما المقصود ألا تدع فُرجة بينك وبينه.

(١٠٩٠) وعنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لَوْ يَعلَمُ الناسُ ما فى النِّداءِ والصَّفِّ الأوَّلِ، ثُم لَمْ يجِدُوا إلا أنْ يَسْتَهِمُوا عليهِ لاسْتَهمُوا»[2].

---

(١) مسلم بشرح النووى (٤/ ٢٠٠-٢٠١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٥) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٧) كتاب الصلاة.

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٠٤٠) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١٠٩١) وعنْ أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «خَيْرُ صُفوفِ الرِّجالِ أوَّلُهَا، وشرُّها آخِرُها، وخيْرُ صُفوفِ النِّساء آخِرُها، وشَرُّها أوَّلُها»(١).

۞ فصفوف النساء تكون خلف الرجال وبذلك يكون أولها قريبًا من الرجال ولذلك قال النبي ﷺ: «خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» فخيرها آخرها لأنها تكون بعيدة عن الرجال.

أما إذا كان هناك مكان مخصوص للنساء يكون بعيدًا عن الرجال فيكون هنا خير صفوف النساء أولها وشرها آخرها.. لأنها تكون بذلك قريبة من الإمام وليس هناك محذورٌ بقُربها من الرجال.

۞ أما الرجال فكلما تقدموا فهو أفضل كما قال النبي ﷺ مُحذِّرًا عن التأخُّر: « لاَ يزالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتى يُوخِّرَهُمُ الله» وهذه خطيرة أن الإنسان كلما تأخر عن الصف الأول أو الثاني أو الثالث ألقى الله في قلبه محبة التأخُّر في كل عملٍ صالح والعياذ بالله.

(١٠٩٢) وعنْ أبي سعيد الخُدري رَضِيَاللَّهُعَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ رأى في أصحابهِ تأخُّرًا، فقال لهُم: «تَقَدَّمُوا فأْتَمُّوا بي، وليَأتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعدَكُم، لا يزالُ قَوْمٌ يتأَخَّرونَ حتى يُؤخِّرَهُم الله»(٢).

۞ ففي هذا الحديث يخبر أبو سعيد الخدري رَضِيَاللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ رأى في

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٤٠) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٣٨) كتاب الصلاة.

أصحابه تأخُّرًا.. أى: فى صفوف الصلاة..

فقال لهم ﷺ: «**تَقَدَّمُوا فأْتَمُّوا بى**» أى: اقتدوا بى وافعلوا مثلما أفعل ...

۞ «**وليَأْتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعدَكُم**».

معناه: ليقف خلفى من غير تأخُّر كثير .. بأن لا يزيد ما بينهم وبينه على ثلاثة أَذرُع، وكذا ما بين كل صف، وما يليه ... فَلِيه أولًا أهل الفضل والصلاح ثم خلفهم مَن هو دونهم فى ذلك وهكذا...ومعنى ائتمام كل صف بمن قبله أنه يتبعه فى حركاته لأن مَن قبله أسرع علمًا بانتقالات الإمام منه.

«**لا يزال قوم يتأخرون**» أى عن اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل «**حتى يُؤخرهم الله**» عن رحمته وعظيم ثوابه وفضله ورفيع منزلة أهل قُربه حتى يكون عاقبة أمرهم النار ... كما جاء فى رواية... وفيه الحثُّ على التسابُق إلى معالى الأمور والأخلاق، وأبلغ زجر عن الميل إلى الدعة والرفاهية، وأبلغ تنبيه إلى أن ذلك يؤدى إلى تَجرُّع غُصص البُعد والغضب، أعاذنا الله من ذلك بمنِّه[1].

۞ ومن المعلوم أن الإنسان إذا اعتاد التأخُّر عن الصف الأول أو الثانى فسوف يعتاد التأخُّر عن كل عملٍ صالحٍ وعن كل شىءٍ يعود عليه بالنفع فى دينه ودُنياه وعن كل عملٍ يخدم به دينه ووطنه.... فالمبادرة إلى الصلاة من الإسراع إلى إدراك الصف الأول فيها يجعل همة العبد عالية فى أن يكون دائمًا فى المقدمة فى أمر الدنيا والآخرة.. حتى ينتهى به المطاف أن يكون مع أول الداخلين إلى جنة الرحمن (جل وعلا) مع الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه.

❊❊❊

(١٠٩٣) وعنْ أبى مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يَمْسحُ مَناكِبَنا فى الصَّلاةِ، ويقُولُ: «اسْتوُوا ولا تَختلفوا فتَخْتَلِفَ قُلُوبُكم، لِيَلِينى مِنْكُم أُولُو الأحلامِ

(١) دليل الفالحين (٣/ ٤٩٤) بتصرف.

والنُّهى، ثمَّ الذينَ يلُونَهمْ، ثُمَّ الذين يَلُونَهم»(١).

❁ وفى هذا الحديث يوضح ابن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان من رقة قلبه وحُبه لأصحابه ورحمته بهم إذا أراد أن يُسوى الصفوف للصلاة فإنه كان يمسح بمناكبهم فى الصلاة.. أى: يُسوى مناكبهم فى الصلاة ويعدلهم فيها لتستوى الصفوف فلا يتقدم بعضهم على بعضٍ ويتراصوا بحيث لا يوجد فُرجة بينهم.

وكان ﷺ يقول لهم أثناء ذلك: «**اسْتوُوا ولا تَختلفوا فتَخْتَلِفَ قُلُوبُكم**» يعنى: أن اختلاف الناس بحيث يكون البعض مُتقدمًا والبعض متأخرًا يُوجِب اختلاف القلوب واختلاف أهويتها وإرادتها.

❁ ثم قال ﷺ : «**لِيَلِينى مِنْكُم أُولُو الأحلامِ والنُّهى**».

«**أُولُو الأحلام**» أصحاب الحلم والأناة والتثبُّت فى الأمر وذلك من شعار العقلاء... فأولو الأحلام هم العقلاء.. وقيل: البالغون.

«**والنُّهَى**» العقل.. وسُمى العقل نهية لأنه ينتهى إلى ما أُمر به ولا يتجاوز.. وقيل: لأنه ينهى صاحبه عن القبائح.

«**ثمَّ الذينَ يلُونَهمْ**» أى: الذى يقربون منهم فى هذا الوصف.

❁ **قال الإمام النووى** رحمه الله:

فِى هَذَا الْحَدِيثِ تَقْدِيمُ الأَفْضَل فَالْأَفْضَلِ إِلَى الْإِمَامِ لِأَنَّهُ أَوْلَى بِالْإِكْرَامِ وَلِأَنَّهُ رُبَّمَا احتَاجَ الْإِمَامُ إِلَى اسْتِخْلَافٍ فَيَكُونُ هُوَ أَوْلَى وَلِأَنَّهُ يَتَفَطَّنُ لِتَنْبِيهِ الْإِمَامِ عَلَى السَّهْوِ لِمَا لَا يَتَفَطَّنُ لَهُ غَيْرُهُ وَلِيَضْبِطُوا صِفَةَ الصَّلَاةِ ويحفظوها وينقلوها ويُعلموها الناس وليقتدى بأفعالهم مَنْ وَرَاءَهُمْ ... وَلَا يَخْتَصُّ هَذَا التَّقْدِيمُ بِالصَّلَاةِ بَلِ السُّنَّةُ أَنْ يُقَدَّمَ أَهْلُ الْفَضْلِ فِى كُلِّ مَجْمَعٍ إِلَى الْإِمَامِ وَكَبِيرِ الْمَجْلِسِ كَمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَالْقَضَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْمُشَاوَرَةِ وَمَوَاقِفِ الْقِتَالِ وَإِمَامَةِ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٣٢) كتاب الصلاة.

الصَّلَاةِ وَالتَّدرِيسِ وَالْإِفْتَاءِ وَإِسْمَاعِ الْحَدِيثِ وَنَحوَهَا.

وَيَكُونُ النَّاسُ فِيهَا عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَالْعَقْلِ وَالشَّرَفِ وَالسِّنِّ وَالْكَفَاءَةِ فِي ذَلِكَ الْبَابِ ... وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ مُتَعَاضِدَةٌ عَلَى ذَلِكَ ... وَفِيهِ تَسْوِيَةُ الصفوف وَاعتِنَاءُ الْإِمَامِ بِهَا وَالْحَثُّ عَلَيْهَا[١].

(١٠٩٤) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، فإنَّ تَسويَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمامِ الصَّلاةِ»[٢].

وفي رواية البخاري: «فإنَّ تَسويةَ الصُّفُوفِ مِن إقامة الصلاة».

❁ قوله ﷺ: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ» أي: بحيث لا يتقدم أحدكم على الآخر..

قال الشيخ تقي الدين القشيري: تسوية الصفوف اعتدال القائمين بها على سمتٍ واحد، وقد تدل تسويتها أيضًا على سَدِّ الفُرَج فيها بناءً على التسوية المعنوية[٣].

«فإنَّ تَسويَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمامِ الصَّلاةِ».. وفي رواية: «فإنَّ تَسويَةَ الصَّفِّ مِنْ حُسن الصَّلاةِ».. وفي رواية: «فإنَّ تَسويَةَ الصَّفِّ مِنْ إقامة الصَّلاةِ»

ولهذا كان الصحابة يلصق أحدهم قدمه بقدم صاحبه ومنكبه بمنكبه وفي هذا الوصف دليل على فساد فَهم هؤلاء الذين إذا وقفوا في الصف فتحوا بين أرجلهم حتى تكون القدم لاصقة بالقدم لكن المناكب متباعدة وهذا ليس من السُّنة... فالسُّنة أننا نتراصّ جميعًا بحيث يلصق الكعب بالكعب والمنكب بالمنكب.

---

(١) مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٠٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٣) كتاب الصلاة - ومسلم (٤٣٣) كتاب الصلاة.

(٣) دليل الفالحين (٣/ ٤٩٥).

(١٠٩٥) وعن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: أُقِيمتِ الصَّلاةُ، فأقبل علينا رسُولُ الله ﷺ بوَجْهِهِ فقالَ: «أقِيمُوا صُفُوفَكُم وتَراصُّوا، فإنِّى أراكُم مِن وراءِ ظَهْرِى»(١).

وفى روايةٍ للبُخارى: وكانَ أحدُنا يَلْزَقُ مَنكِبَهُ بِمَنْكِبِ صاحبِهِ وقَدَمَه بقَدمِهِ.

۞ وهنا يحكى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه فى يومٍ من الأيام أُقيمت الصلاة.. فأقبل عليهم النبى ﷺ بوجهه.. وهذا فيه زيادة من الاهتمام بهم وإظهار الحب لهم ومُراعاة أحوالهم والحرص على أن تكون عبادتهم على حالٍ يُرضى الله عز وجل عنهم.

ثم قال لهم ﷺ: «**أقِيمُوا صُفُوفَكُم**» أى داوموا على إقامتها واعتنوا بها لعِظَم جدواها وشرف غايتها، «**وتَراصُّوا**» أى تلاصقوا بالمناكب حتى لا يكون بينكم فُرجة «**فإنِّى أراكُم مِن وراءِ ظَهْرِى**» أى حقيقة فأعلم ما يقع منكم ... ولا يُنافى هذا الحديث حديث «**لا أعلم ما وراء جدارى**» لأن هذا خاص بحالة الصلاة... لأنه ﷺ لما حصل له فيها قُرة العين بما أُفيض عليه فيها من غايات القُرب المختص بها التى لا يوازيه فيها غيره صار بدنه الشريف كالمرآة الصافية التى لا تحجب ما وراءها.

فالنبى ﷺ كان يُسوى الصفوف فيُقبل على الناس ويقول: أقيموا صفوفكم فإنى أراكم من وراء ظهرى ... فأمرهم ﷺ بإقامة الصفوف وأخبر أنه يراهم من وراء ظهره ... وهذا من خصائص النبى ﷺ أنه فى هذه الحالة المعينة يرى الناس من وراء ظهره أما فيما سوى ذلك فإنه لا يرى من وراء ظهره شيئًا.

(وفى رواية للبخارى) من حديث أنس أيضًا (وكان أحدنا يلزق منكبه) هو مجتمع رأس العضد والكتف (بمنكب صاحبه وقدمه بقدمه) مبالغة فى التراصّ الذى أُمروا به... وعند البخارى أيضًا: قال النعمان بن بشير «رأيت الرجل منا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٩) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٤) كتاب الصلاة.

يلزق كعبه بكعب صاحبه»(١).

(١٠٩٦) وعنْ النُّعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَتُسوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أوْ ليُخَالِفَنَّ الله بينَ وجُوهِكُمْ»(٢).

وفي روايةٍ لمسلم: أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يُسَوِّي صُفُوفَنا، حتَّى كأنَّما يُسَوِّي بهَا القِدَاحَ، حتَّى رأى أنَّا قد عَقَلْنَا عنهُ. ثُمَّ خَرَج يَوْمًا فقَامَ حتَّى كادَ يُكَبِّرُ، فرأى رجُلاً بَادِيًا صَدرُهُ مِنَ الصَّفِّ، فقال: «عِبَادَ الله، لتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُم، أوْ ليُخالِفَنَّ الله بيْنَ وجُوهكُم».

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٦٤) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١٠٩٧) وعن البراءِ بن عازبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يَتَخلَّلُ الصَّفَّ مِن ناحِيَةٍ إلى ناحِيَةٍ، يَمسَحُ صُدُورَنا، ومَناكِبَنا، ويقولُ: «لا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ»(٣) وكان يقولُ: «إنَّ الله ومَلائكتَهُ يُصَلُّونَ على الصُّفُوفِ الأُوَلِ».

۞ لقد كان النبي ﷺ يمسح صدور أصحابه ومناكبهم ليُسوي صفوفهم ويقول: «لا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ» وكان ﷺ يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية يُسوي الصف بيده الكريمة .... وكان هذا عادته ولما كَثُر الناس في زمن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وفي زمن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صار هناك رجال مُوكَّلون من قِبَل الخليفة يُسوون الصفوف ... فإذا جاءوا إلى الإمام وقالوا إن الصفوف قد تمَّت وكملت كبَّر للصلاة ... وهذا دليل على عناية النبي ﷺ والخلفاء الراشدين

(١) دليل الفالحين (٣/ ٤٩٦) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٧) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٦) كتاب الصلاة.

(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٥٦).

بالصفوف والتراصّ فيها وتسويتها وعدم ترك فُرجات للشيطان حتى تكون الصلاة تامة مستوية .. فإن تسوية الصف من تمام الصلاة ومن إقامة الصلاة.

۞ ولقد حذرهم النبي ﷺ من عدم تسوية الصفوف فقال لهم ﷺ: «**لا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ**»... وفي الرواية الأخرى: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بينَ وجُوهِكُمْ**»...

واختلف العلماء في قوله: «**بينَ وجُوهِكُمْ**» فقيل المعنى أن الله يعاقبهم بأن يجعل وجوههم نحو ظهورهم فتُلوى الأعناق... وقيل: المعنى أي بين وجهات نظركم فهو كالحديث الذي سبق: «**لا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ**» وهذا المعنى أصح وأرجح ... فالرسول (عليه الصلاة والسلام) نهى أن نختلف بل قال: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بيْنَ وجُوهكُمْ**» ومعلوم أن الاختلاف الظاهر يؤدي إلى اختلاف الباطن ... فإذا اختلف الناس فيما بينهم ظاهرًا أدى ذلك إلى اختلاف القلوب وإذا اختلفت القلوب صار الشر والفساد والعياذ بالله.

(١٠٩٨) وعنْ ابن عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ وحَاذُوا بينَ المناكِبِ، وسُدُّوا الخَلَلَ، وَلِينُوا بأيْدِي إخْوانِكُمْ، ولا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ للشيْطانِ، ومَن وَصَل صَفًّا وَصَلَهُ الله، ومَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعهُ الله»[1].

۞ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال:

«**أَقِيمُوا الصُّفُوفَ**» أَيْ عَدِّلُوهَا وَسَوُّوهَا «**وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ**» أَيِ اجْعَلُوا بَعضَهَا حِذَاءَ بَعضٍ بِحَيْثُ يَكُونُ مَنْكِبُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُصَلِّينَ مُوَازِيًا لِمَنْكِبِ الْآخَرِ وَمُسَامِتًا لَهُ فَتَكُونَ الْمَنَاكِبُ وَالْأَعْنَاقُ وَالْأَقْدَامُ عَلَى سَمْتٍ وَاحِدٍ «**وَسُدُّوا الْخَلَلَ**» أَيِ الْفُرجَةَ فِي الصُّفُوفِ «**وَلِينُوا**» أَيْ كُونُوا لَيِّنِينَ هَيِّنِينَ مُنْقَادِينَ «**بِأَيْدِي**

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٨٧).

إِخْوَانِكُمْ» أَيْ إِذَا أَخَذُوا بِهَا لِيُقَدِّمُوكُمْ أَوْ يُؤَخِّرُوكُمْ حَتَّى يَسْتَوِيَ الصَّفُّ لِتَنَالُوا فَضْلَ الْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

«وَلَا تَذَرُوا» أَيْ لَا تَتْرُكُوا «فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ» الْفُرُجَاتُ جَمْعُ فُرجَةٍ «وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا» بِالْحُضُورِ فِيهِ وَسَدِّ الْخَلَلِ مِنْهُ «وَصَلَهُ اللهُ» أَيْ بِرَحمَتِهِ «وَمَنْ قَطَعَ» أَيْ بِالْغِيبَةِ أَوْ بِعَدَمِ السَّدِّ أَوْ بِوَضْعِ شَيْءٍ مَانِعٍ «قَطَعَهُ اللهُ» أَيْ مِنْ رَحمَتِهِ الشَّامِلَةِ وَعِنَايَتِهِ الْكَامِلَةِ[1].

وفيه أبلغُ حَثٍّ على وصل الصفوف بسدِّ فُروجها وتكميلها بأن لا يشرع فى صفٍّ حتى يُكمل ما قبله... وأبلغ زجر عن قطعها بأن يقف فى صفٍّ وبين يديه صفٌّ آخر ناقص أو فيه فُرجة... ومَن تأمل بركة دعائه ﷺ للواصل وخطر دعائه المقبول الذى لا يُرَد على القاطع وكان عنده أدنى ذرة من الإيمان بادر إلى الوصل وفرَّ عن القطع ما أمكنه[2].

(١٠٩٩) وعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «رُصُّوا صُفُوفَكُم، وقَارِبُوا بينَها، وحاذُوا بالأعناقِ، فوالذى نَفْسِى بيدِهِ إنِّى لأرى الشَّيطانَ يَدخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ، كأنَّها الحَذَفُ»[3].

❁ ففى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «رُصُّوا صُفُوفَكُم» أى: ضُمُّوا بعضها إلى بعضٍ حتى لا يبقى فيها فُرجة ولا خلل... ومنه رَصُّ البناء.. قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

«وقاربوا بينها» بأن يكون ما بين كل صفين ثلاثة أذرع تقريباً، فإن بَعُد صَفٌّ

(١) عون المعبود (٢/ ٢٥٨) بتصرف.
(٢) دليل الفالحين (٣/ ٤٩٨).
(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٠٥).
«الحَذَفُ» وهى: غَنَمٌ سُودٌ صغارٌ تكُونُ باليَمنِ.

عما قبله أكثر من ذلك كُره لهم وفاتهم فضيلة الجماعة حيث لا عذر من حَرٍّ أو بَردٍ شديد وهذا فى غير النساء، أما هُن فَيُسن لهن التأخر عن الرجال كثيرًا «**وحاذوا بالأعناق**» ينبغى تفسيره بالمحاذاة بالمناكب التى سبق الأمر بها قولاً وفعلاً، إذ يلزم فى المحاذاة بالأعناق بأن لا يتقدم عُنق أحدهم ولا يتأخر للمُحاذاة بالمناكب «**فوالذى نفسى بيده إنى لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف**» أى: فُرجتها أو تَباعُدها عن بعضها بأكثر مما مرّ.

«**كأنها الحذف**» والحذف: هى غنمٌ سُودٌ صِغار تكون باليمن.

۞ وهنا نبَّه ﷺ بهذا الإقسام العظيم على تأكيد التراصّ والتقارُب لعِظَم فائدتهما وهى منع دخول الشيطان بينهم المستلزم لتسلُّطه وإغوائه ووسوسته حتى يُفسد عليهم صلاتهم وخشوعهم الذى هو روح الصلاة وعود بركة ما فيها من الأنفاس الطاهرة على البقية...ولا مذهب للشيطان وكيده أعظم من الذكر الصادر من القلب الصالح»(١).

(١١٠٠) وعنْ أَنَسَ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أَتِمُّوا الصَّفَّ المُقدَّم، ثُمَّ الذى يلِيهِ، فمَا كانَ مِنْ نَقْصٍ فليَكُنْ فى الصَّفِّ المُؤَخَّرِ**»(٢).

۞ وفى هذا الحديث يَحُثُّ النبى ﷺ أصحابه وأمته - كما فى الأحاديث السابقة - على إتمام الصفوف الأُولى والمُقدَّمة.. فقال ﷺ: «**أتموا الصف المُقدَّم**» أى الأول وذلك بسدِّ فُرجه حتى لا يبقى منها ما يسع واحدًا.

«**ثم**» أى بعد تمام الأول أتموا الصف «**الذى يليه**» وهو الثانى وهكذا «**فما كان من نقصٍ فليكُن فى الصف المُؤخَّر**» أى الأخير.

(١) دليل الفالحين (٣/ ٤٩٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٢).

ومن هذا الحديث الصريح فى إتمام الصف الأول والثانى أخذ أصحابنا قولهم يُسَنُّ إتمام الصف الأول ثم الذى يليه حتى لا يبقى نقصٌ فى غير الأخير... وفيه أن مَن وقف فى صَفٍّ قبل إتمام ما قبله كان مُقصرًا تاركًا للسُّنة فيفوته فضل الجماعة[١].

(١١٠١) وعنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله وملائكتهُ يُصلُّونَ على مَيامِن الصُّفوفِ»[٢].

ولللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ

(١١٠٢) وعنْ البراءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنَّا إذا صَلَّيْنا خَلْفَ رسولِ الله ﷺ أحبَبْنَا أنْ نكونَ عنْ يمينِهِ، يُقبِلُ علَينا بِوَجْهِهِ، فسمِعتُهُ يقول: «رَبِّ قِنِي عذابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ ـ أو تَجْمَعُ ـ عِبَادَكَ»[٣].

«عنْ البراءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنَّا إذا صَلَّيْنا خَلْفَ رسولِ الله ﷺ» فيه الإيماء إلى ندب تأخُّر المأموم عن الإمام وإن كانت المساواة له فى الموقف لا تُبطل الصلاة «أحببنا أن نكون عن يمينه» أى واقفين بجهة يُمناه...وعلَّل حُبهم ذلك على طريق الاستئناف البيانى بقوله: «يُقبل علينا بوجهه» ولا مخالفة بين هذا الحديث وحديث ابن ماجه «مَن عَمَّر مَيسرة المسجد كُتب له كفلانِ من الأجر» لاختلاف زمنهما كما قال المحدثون، وذلك أنه لما حَثَّ على التيامُن عُمرت جهة اليمين وازدحموا عليها فتعطلت المَيسرة فقال ذلك... «فسمعته يقول» خضوعًا لربه وتعظيمًا لأمته «رب قنى عذابك يوم تبعث، أو» شك من الراوى «تجمع عبادك»

(١) دليل الفالحين (٣/ ٥٠٠) بتصرف.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٦٦٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٠٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

والمراد منه يوم القيامة وطلب الوقاية من عذابه لأنه أشد العذاب وأعظمه[١].

قال الْقَاضِي: يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ التَّيَامُنُ عِنْدَ التَّسْلِيمِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِأَنَّ عَادَتَهُ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ جَمِيعَهُمْ بِوَجْهِهِ ... قَالَ: وَإِقْبَالُهُ ﷺ يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَعدَ قِيَامِهِ مِنَ الصَّلَاةِ أو يكون حين ينفتل[٢].

(١١٠٣) وعنْ أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «وسِّطُوا الإمامَ، وسُدُّوا الخَلَلَ»[٣].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى محمد ﷺ الشطر الأول منه.. أما الشطر الثاني وهو قوله ﷺ: «وسُدُّوا الخَلَلَ» فصحيح وقد سبق شرحه فى الحديث رقم (١٠٩٨) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

۞ وخلاصة هذا الباب كلِّه: أننا مأمورون بتسوية الصفوف على النحو التالى:

(١) تسوية الصف بالمحاذاة: بحيث لا يتقدم أحدٌ على أحدٍ؛ ولهذا كان الصحابة يلصق أحدهم قدمه بقدم صاحبه، ومنكبه بمنكبه... وفى هذا الوصف دليل على فساد فهم هؤلاء الذين إذا وقفوا فى الصف فتحوا بين أرجلهم حتى تكون القدم لاصقة بالقدم لكن المناكب متباعدة.

وهذا بدعة، ليس من السُّنة... السُّنة أننا نتراص جميعًا بحيث يُلْصَق الكعب

(١) دليل الفالحين (٣/ ٥٠١) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووى (٥/ ٣١٠).

(٣) ضعيف إلا شطره الثانى: أخرجه أبو داود، وقال الشيخ الألبانى فى «صحيح سنن أبى داود» (٦٣٢): ضعيف لكن الشطر الثانى منه صحيح.

* قلت: والشطر الثانى منه هو: «وسُدُّوا الخَلل».

* قال الشيخ الألبانى: فى إسناده مجهولان كما بيَّنته فى «ضعيف أبى داود» (١٠٥)، لكن الشطر الثانى منه له شاهد من حديث ابن عمر. اهـ بتصرف يسير.

* وانظر ما سبق برقم (١٠٩٨) فهو حديث ابن عمر الذى أشار إليه الشيخ الألبانى رحمه الله.

بالكعب والمنكب بالمنكب.

(٢) تسوية الصف بإكمال الأول فالأول بحيث لا يَصُف أحد فى الصف الثانى، والأول لم يتم، أو فى الثالث والثانى لم يتم.... إلخ.

(٣) أن الأَولَى إذا اجتمع رجال ونساء أن تبتعد النساء عن الرجال، فإن خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها... إلا إذا كان هناك مكان خاص بالنساء فيكون هنا خير صفوف النساء أولها وشرها آخرها.

(٤) سَدُّ الفُرَج: ألا ندع للشياطين فُرَجًا يدخلون من بينها.

لأن الشياطين تُسَلَّط على بنى آدم ابتلاءً من الله وامتحانًا ... فإذا وجدوا فُرجة فى الصف تخلَّلوا المصلين حتى يُشوِّشوا عليهم صلواتهم.

(٥) ومن تمام الصفوف: إذا كانوا ثلاثة فإنه يتقدم أحدهم إمامًا ويكون الباقيان خلفه، وإن كانا بالغين أو صغيرين أو بالغ وصغير .. كلهم يكونون خلفه؛ لأن ذلك ثبت عن النبى ﷺ فى صلاة النفل ... وصلاة الفرض مثل صلاة النفل إلا إذا قام دليل على الفرق بينهما. والله الموفق[1].

***

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ١٧٨).

(١٩٥) باب فضل السنن الراتبة مع الفرائض وبيان أقلها وأكملها وما بينهما

(١١٠٤) عنْ أُمِّ المؤمِنِينَ أُمِّ حبِيبَةَ رَمْلَةَ بِنتِ أَبِى سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالتْ: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَا مِنْ عبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّى للهِ تَعَالى كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَىْ عشْرةَ رَكْعَةً تَطوعًا غَيْرَ الفرِيضَةِ، إلاَّ بَنَى الله لهُ بَيْتًا فى الجَنَّةِ، أَوْ: إلاَّ بُنِى لَهُ بيتٌ فِى الجنَّةِ».

قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١).

زاد الترمذى: «أَربَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعدَهَا، ورَكْعتَيْنِ بَعدَ الْمَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعدَ العِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلاَةِ الْفَجْرِ»(٢).

۞ فالمحافظة على تلك الرَّواتب كأنَّها السياج الواقى الذى يحمى المسلم من التفريط فى الفرائض .. فإن ترك المسلم تلك السنن الرواتب فإنه يوشك أن يترك الفرائض.

(١١٠٥) وعنْ ابن عُمر رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قالَ: صَلَّيْتُ معَ رسُولِ الله ﷺ رَكْعتَينِ قَبْلَ الظُّهْرِ، ورَكْعَتينِ بعدها، ورَكْعَتينِ بعدَ الجُمُعةِ، ورَكْعَتينِ بعد المغرِبِ، وركْعَتينِ بعد العِشاءِ(٣).

(١١٠٦) وعنْ عبدِ الله بن مُغفَّلٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أذانَيْنِ صلاةٌ، بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صلاةٌ - وقال فى الثالثة: لِمَنْ شاء»(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٢٨) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه الترمذى (٤١٥)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٦٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١١٦٩) كتاب التهجد - ومسلم (٧٢٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٧) كتاب الأذان، ومسلم (٨٣٨) كتاب صلاة المسافرين.

المرادُ بالأذانين: الأذَان والإقَامة.

۞ إن أحب شيء نتقرب به إلى الله هو صلاة الفريضة...فقد قال (جل وعلا) فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى: «.. **وَمَا تقرَّبَ إلىَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أحَبَّ إلىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عليهِ..**»(١).

ولكن قد يُقصِّر الإنسان فى الفريضة فكيف يَجْبُر كسر هذا التقصير؟

يكون ذلك بصلاة التطوع من الرواتب والنوافل.

۞ **فأما** الرواتب فهى السنن التى تكون قبل الصلوات الخمس وبعدها.

وقد جاء توضيحها فى رواية الترمذى السابقة التى ذكرناها.

فالفرائض لا تخلو من النقص.. ولولا أن الله عَزَّوَجَلَّ شرع لنا الرواتب والنوافل لكانت بدعة.. لكن من نعمة الله علينا أن شرع لنا تلك الرواتب والنوافل حتى تُكمل نقص الفرائض.. كما قال ﷺ: «**إنَّ أوَّلَ مَا يُحاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ الصَّلاةُ، فَإن صَلحَتْ فقد أفلَحَ وأنجح، وَإن فسَدَت فقد خَابَ وخَسِرَ، وَإن انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَة، قَالَ الرَّبُّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي منْ تَطَوُّعٍ؟ فيُكمَّلُ بهَا مَا انتقَصَ منَ الفَرِيضَةِ ثمَّ يَكون سائِرُ عَمَلِهِ على ذَلِك**»(٢).

۞ والنوافل أنواعٌ وأجناسٌ متعددة.. فمنها الرواتب المذكورة فى حديث أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا... والتى مَن صلاهن فى كل يومٍ وليلة بنى الله له بيتًا فى الجنة.. ويا له من أجرٍ عظيم.

۞ والأفضل أن تصلى تلك الرواتب فى البيت -وذلك للإمام والمأموم- .. وذلك لأن النبى ﷺ قال: «**أَفْضَلُ صَلَاةِ الْمَرءِ فِى بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ**»(٣).

أى: إلا الصلوات الخمس فإنها واجبة على الرجل فى المسجد إن لم يكن هناك عذرٌ شرعى يمنعه من الصلاة فى المسجد.. فيصليها فى البيت فى وقتها.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٧٢٩٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

۞ وهناك نوافل تابعة للفرائض ولكنها ليست كهذه الرواتب.. وهذا ما ورد فى الحديث الثالث أن النبى ﷺ قال: «**بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ**» وكررها ثلاث مرات.. وفى الثالثة قال: «**لِمَنْ شَاءَ**»... والمراد بالأذانين: الأذان والإقامة ... وقوله ﷺ: «**لِمَنْ شَاءَ**» حتى لا يتخذها الناس سُنة راتبة.

۞ وعلى هذا فبين أذان وإقامة صلاة الفجر سُنة لكنها راتبة... وبين أذان وإقامة صلاة الظهر سُنة راتبة.

وبين أذان وإقامة صلاة العصر سنة لكنها غير راتبة.. فتدخل فى هذا الحديث .. فإذا سمعت أذان العصر تستطيع أن تصلى ركعتين نافلة ليست راتبة قبل الإقامة.. وإن صليت أربعًا -ركعتين ركعتين- قبل الإقامة فسوف تفوز بدعاء النبى ﷺ لك بالرحمة .. فقد قال ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ امْرأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصرِ أربَعًا**»[1] وبين أذان وإقامة صلاة المغرب سنة لكنها غير راتبة.. لكن يُسَنُّ لك أن تصلى ركعتين بعد الأذان ... وقد ورد فيها حديث بخصوصها قال: «**صَلُّوا قَبلَ المغرِبِ**» ثلاثًا ... وقال فى الثالثة لمن شاء.

وكذلك العشاء ليس لها سُنة راتبة بين الأذان والإقامة لكن تدخل فى الحديث أيضًا.. فلك أن تصلى ركعتين نافلة بين الأذان والإقامة.

۞ وإذا فاتتك الرواتب التى قبل الصلاة فإنك تستطيع أن تقضيها بعدها.. أو تجمعها كلها فى آخر اليوم -عند الضرورة- ولا تجعل ذلك ديدنًا لك فى صلاة الرواتب.

فإذا كنت مثلًا فى صلاة الظهر.. وهناك سنن قبلية وبعدية.. فإن فاتتك السنة القبلية للظهر تستطيع أن تصليها بعد الانتهاء من صلاة الظهر.. وذلك بأن تصلى السُّنة البعدية ثم تقضى السُّنة القبلية.

---

(١) حسن: رواه أبو داود والترمذى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٩٣).

۞ أما سُنة الجمعة.. فمن المعلوم أنه ليس للجمعة سُنَّة قبلية، حيث لا مكان لها، ولم يَثبُت فعلها عن النبى ﷺ، ولا عن أصحابه رضي الله عنهم، وإنما الثابت أن لها سُنَّة بَعدية تُؤدَّى فى المسجد، أو فى المنزل وهو الأفضل، وهى ركعتان فى البيت أو أربع ركعات فى المسجد.

فهذا هو هدى النبى ﷺ فإنه كان يصلى بعد الجمعة ركعتين فى البيت فإنه ﷺ: «كان لا يصلى الركعتين بعد الجمعة ولا الركعتين بعد المغرب إلا فى أهله»(١).

لكن لو صلى فى المسجد صلَّى أربعًا، فإن ابن عمر فعل ذلك وقال: «كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك»(٢)، وقد قال ﷺ: **«مَن كَان مُصليًا بعد الجمعة، فليُصلِّ أربعًا»**(٣).

واعلم أيها الأخ الحبيب أنه لا يحافظ على السنن والنوافل إلا مَن امتلأ قلبه حبًّا لله (جل وعلا) فإنه لا يكتفى بالفرائض بل يحرص على أداء الرواتب والنوافل لما فيها من الخير الكثير والفوز برضوان الله ومحبته وبيتٍ فى جنته.

---

(١) صحيح: رواه الطيالسى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٥٧).

(٢) قال الشيخ الألباني رحمه الله في تمام المنة (١/ ٣٤٢): «قال ابن القيم: قال شيخنا ابن تيمية: إن صلى في المسجد صلى أربعًا وإن صلى في بيته صلى ركعتين». قلت: هذا التفصيل لا أعرف له أصلًا في السُّنة إلا ما سيذكره من حديث ابن عمر ويأتي قريبًا بيان ما فيه ... وقوله في الحديث الصحيح المتقدم: «مَن كان منكم مُصليًا بعد الجمعة فليُصلِّ أربعًا». رواه مسلم وغيره وهو في «الإرواء» (٦٢٥) لا دليل فيه على أن الأربع في المسجد ... والحديث الصحيح المعروف: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» فإذا صلى بعد الجمعة ركعتين أو أربعًا في المسجد جاز أو في البيت فهو أفضل لهذا الحديث الصحيح.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٨١) كتاب الجمعة.

(١٩٦) باب تأكيد ركعتي سُنة الصبح

(١١٠٧) عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ لا يدَعُ أَربعـًا قَبْلَ الظُّهْرِ، ورَكْعَتَيْنِ قبْلَ الغَدَاةِ[1].

(١١٠٨) وعنها قالت: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ تَعَاهُدَاً مِنهُ عَلَى رَكْعَتَى الفَجْرِ[2].

(١١٠٩) وَعنْها عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «رَكْعتا الفجْرِ خيْرٌ مِنَ الدُّنيا ومَا فِيها»[3].

وفى روايةٍ: «لَهُمَا أَحب إِلىَّ مِنَ الدُّنْيا جميعـًا».

✿ تمتاز سُنة الفجر وهى ركعتان قبل الصلاة بأمور:

(١) أنه يُسَنُّ تخفيفهما ... فلو أطالهما الإنسان لكان مُخالفًا للسُّنة بل يخفف ... حتى كانت عائشة تقول أنهﷺ يخفف فيهما حتى أقول: أَقَرأ بأم القرآن؟ -الفاتحة- من شدة التخفيف.

(٢) أنه يُسَنُّ فيهما قراءة مُعينة ... إما ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ فى الركعة الأولى و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فى الثانية ... وإما ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾[البقرة: ١٣٦] و ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ الآية[آل عمران:٦٤] يعنى مرة هذا ومرة هذا.

(٣) ومنها أن النبىﷺ لم يكن على شيءٍ من النوافل - يعنى رواتب الصلوات - أشد تَعاهُدًا منه على ركعتى الفجر يتعاهدهماﷺ.

(٤) أن النبىﷺ أخبر أنهما خيرٌ من الدنيا وما فيها وأحب إليه من الدنيا وما فيها.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١١٨٢) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٦٣) كتاب الأذان - ومسلم (٧٢٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٢٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٥) أن النبى ﷺ لم يكن يَدَعهما حَضَرًا ولا سفرًا ... كل هذا تتميز به سُنة الفجر ...فينبغى للإنسان أن يحافظ عليها وأن يحرص عليها حَضَرًا وسفرًا وإذا فاتته قبل الصلاة فليُصلهما بعدها إما فى نفس الوقت وإما بعد ارتفاع الشمس قيد رمح .... وذكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ كان لا يَدَع أربعًا قبل الظهر لكنهما بتسليمتين؛ لأن الظهر راتبتها ست ركعات: أربع قبلها واثنتان بعدها... فينبغى لنا أن نحرص على ما كان النبى ﷺ يحرص عليه وأن نقتدى بسُنته ﷺ ما استطعنا ... فإن الله يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١] والله الموفق(١).

(١١١٠) وعن أبى عبدِ الله بلالِ بنِ رباحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُؤذِّنِ رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ أَتى رسُولَ الله ﷺ لِيُؤذِنَه بِصلاةِ الغدَاةِ، فشَغلَتْ عائشَةُ بِلالاً بأمْرٍ سألتهُ عنهُ حتَّى أصبَحَ جِدًّا، فقَامَ بِلالٌ فآذَنَهُ بالصَّلاةِ، وتابَعَ أذانَهُ، فَلَم يَخرُجْ رسُولُ الله ﷺ، فلما خَرَج صلَّى بالنَّاسِ، فأخبره أنَّ عائشةَ شَغلَتْهُ بأمْرٍ سألتْهُ عنهُ حتى أصبحَ جِدًّا، وأنَّهُ أبطأ عليهِ بالخُروجِ، فقال -يعنى النَّبِى ﷺ-: «إنِّى كُنْتُ رَكَعتُ ركعتى الفَجْرِ» فقال: يا رسول الله إنَّكَ أصبَحتَ جِدًّا؟ فقال: «لوْ أصبحتُ أكْثَرَ مِما أصبحتُ، لرَكَعتُهما، وأحسنْتُهُما وأجمَلْتُهُما»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يخبر بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أتى رسول الله ﷺ ليُؤْذِنه .. أي: ليُعلمه (بصلاة الغداة) أي: الصبح... وكان بلال إذا ذهب إلى النبي ﷺ عند إقامة الصلاة ليخبره بأن حان وقت إقامة الصلاة كان يقول له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.. رحمك الله.

۞ فشغلت عائشة بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأمرٍ سألته عنه ... وهذا فيه جواز حديث

(١) شرح رياض الصالحين / لفضيلة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/ ١٨٣).
(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٣٦).

المرأة لعتيق أبيها وسؤالها إياه عما تحتاج إليه وطول الحديث معه وإن كان جاء في حاجة لزوجها ... وتعظيمه لحُرمتها في عدم إنكاره عليها وإعلامها أنها شغلته عمَّا جاء بسببه وأن المصلين ينتظرون حضور رسول الله ﷺ ليصلي بهم (حتى أصبح جِدًّا) أي دخل في الصبح (فقام بلال فآذنه): أي أعلمه (بالصلاة وتابع) أي: والَى وكرر (أذانه) أي إعلامه بأن أتبع بعضه بعضاً وذلك لما رأى من الإصباح (فلم يخرج رسول الله ﷺ) أي إليه (فلما خرج) أي بعد ذلك (صلى بالناس) واعتذر إليه بلال (فأخبره) أن سبب تأخُّره بالأذان (أن عائشة شغلته بأمرٍ سألته عنه حتى أصبح جِدًّا وإنه) أي النبيّ (أبطأ عليه) أي على بلال (بالخروج) حتى تابع أذانه.

۞ فقال - يعني النبي ﷺ -: «**إِنِّي كُنْتُ رَكَعتُ ركعتي الفَجْرِ**»

(فقال يا رسول الله إنك أصبحت جِدًّا) أي وذلك مقتضٍ للاهتمام بأمر الفريضة وترك النافلة (قال) أي النبي ﷺ له (لو أصبحت أكثر مما أصبحت) أي ولم أكن ركعتهما (لركعتهما وأحسنتهما) بالإتيان بالسنن والهيئات (وأجملتهما) بالآداب والتطوعات... وفيه أن مَن ترك فعل الصلاة أول وقتها لغير عُذرٍ شرعي بل لنحو بيعٍ أو شراء أن يأتي بها فيه زائدة عما كان يصليها أوله من القراءة والتسبيح والدعاء والطمأنينة والخشوع ما بقي الوقت ... ويكون فيها خَجِلاً مُستحيياً مُعترفاً بالتقصير لتأخير الصلاة عن أول وقتها وحرمانه فضيلته لذنبٍ صدر منه ويتصدق ويعتق كما كان يفعل السلف... قال ابن رسلان: وهذا شأن ذوي القلوب اليقظة ... والناس اليوم عملهم بخلاف ذلك فإنهم يؤخرونها اشتغالاً بأمر دنياهم عن أول الوقت ثم يفعلونها آخره مقتصرين على الفرض دون السُّنة وينقصون عما كانوا يعتادون من القراءة إذا صلوها أوله ويتركون الأذكار والطمأنينة[1].

(١) دليل الفالحين (٣/ ٥٠٦).

(١٩٧) باب تخفيف ركعتي الفجر وبيان ما يقرأ فيهما، وبيان وقتهما

(١١١١) عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يُصلى رَكْعَتين خَفِيفَتين بيْنَ النِّدَاءِ والإقامةِ مِن صلاةِ الصُّبْحِ[١].

وفى روايةٍ لهما: يُصَلِّى رَكعتَى الفَجْرِ، فيُخَفِّفُهما حتى أقُولَ: هَل قرأ فيهما بِأُمِّ القُرآنِ؟.

وفى روايةٍ لمُسْلم: كان يُصَلِّى ركعتَى الفَجْرِ إذَا سَمِعَ الأذانَ ويُخَفِّفُهما.

وفى روايةٍ: إذا طَلَعَ الفَجْرُ.

(١١١٢) وعنْ حفصَة رضي الله عنها أن رسُولَ الله ﷺ كانَ إذا أذَّنَ المؤذِّنُ للصُّبحِ، وبدَا الصُّبحُ، صَلَّى ركعتَينِ خَفيفتينِ[٢].

وفى روايةٍ لمسلمٍ: كان رسولُ الله ﷺ إذا طلعَ الفَجْر لا يُصلى إلا رَكْعَتينِ خَفيفَتينِ.

(١١١٣) وعنْ ابن عُمر رضي الله عنهما قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يُصلِّى مِنَ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، ويُوتِر برَكْعَةٍ مِن آخِرِ اللَّيْلِ، ويُصلِّى الرَّكْعتينِ قَبْل صَلاةِ الغَداةِ، وكأنَّ الأذانَ بأُذُنَيْهِ[٣].

۞ ففى الحديث الأول تخبر أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان يصلى ركعتين خفيفتين بين النداء -الأذان- والإقامة من صلاة الصبح..

ووصفت ذلك التخفيف بقولها: حتى أقول: هل قرأ فيهما بأم القرآن؟ - أى: الفاتحة-.. وفى رواية أنه ﷺ كان يصلى الركعتين.. إذا طلع الفجر.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٩) كتاب الأذان - ومسلم (٧٢٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٨) كتاب الأذان - ومسلم (٧٢٣) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٩٩٥) كتاب الوتر - ومسلم (٧٤٩) كتاب صلاة المسافرين.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ أَنَّ سُنَّةَ الصُّبْحِ لَا يَدخُلُ وَقْتُهَا إِلَّا بِطُلُوعِ الْفَجْرِ .. وَاسْتِحبَابُ تَقْدِيمِهَا فِى أَوَّلِ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَتَخْفِيفِهَا وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِىِّ وَالْجُمْهُورِ وَقَالَ بَعضُ السَّلَفِ لَا بَأْسَ بِإِطَالَتِهِمَا وَلَعَلَّهُ أَرَادَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُحَرَّمَةً وَلَمْ يُخَالِفْ فِى اسْتِحبَابِ التَّخْفِيفِ.

وهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِى التَّخْفِيفِ .. وَالْمُرَادُ الْمُبَالَغَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَادَتِهِ ﷺ مِنْ إِطَالَةِ صَلَاةِ اللَّيْلِ وَغَيْرِهَا مِنْ نَوَافِلِهِ[(١)].

۞ وأما فى الحديث الثانى تخبر أمنا حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ كان إذا أذَّن المؤذن للصبح وبدا الصبح صلى ركعتين خفيفتين.

۞ قال الإمام النووى:

قَد يَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ يَقُولُ: تُكْرَهُ الصَّلَاةُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَّا سُنَّةُ الصُّبْحِ وَمَا لَهُ سَبَبٌ ... وَلِأَصحَابِنَا فِى الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ: أَحَدُهَا: هَذَا وَنَقَلَهُ الْقَاضِى عَنْ مَالِكٍ وَالْجُمْهُورِ ... وَالثَّانِى: لَا تَدخُلُ الْكَرَاهَةُ حَتَّى يُصَلِّىَ سُنَّةَ الصُّبْحِ ... وَالثَّالِثُ: لَا تَدخُلُ الْكَرَاهَةُ حَتَّى يُصَلِّىَ فَرِيضَةَ الصُّبْحِ ... وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَصحَابِنَا ... وَلَيْسَ فِى هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى الْكَرَاهَةِ إِنَّمَا فِيهِ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ كَانَ ﷺ لا يصلى غير ركعتى السُّنة ولم ينهَ عن غيرها[(٢)].

۞ وأما الحديث الثالث ففيه أن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أخبر أن النبى ﷺ كان يصلى من الليل مَثنى مَثنى.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

هَذَا الْحَدِيثُ مَحمُولٌ عَلَى بَيَانِ الْأَفْضَلِ وَهُوَ أَنْ يُسَلِّمَ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَسَوَاءٌ نَوَافِلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يُسْتَحَبُّ أَنْ يُسَلِّمَ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ... فَلَوْ جَمَعَ

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٥-٦) بتصرف.
(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ٤-٥) بتصرف.

رَكَعَاتٍ بِتَسْلِيمَةٍ أَوْ تَطَوَّعَ بِرَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ جَازَ عِنْدَنَا[(١)].

۞ (ويوتر بركعة) فى آخر جزء (من آخر الليل) فيه أن أقل الوتر ركعة وأنها مفصولة عما قبلها بالتسليم وبه قال الأئمة الثلاثة خلافاً لأبى حنيفة (ويصلى الركعتين) أى سُنة الفجر (قبل صلاة الغداة) أى الصبح...ففيه أنها سُنة قبلية (وكأن الأذان بأذنيه) أى لقرب صلاته من الأذان.

قال فى «فتح البارى» : والمراد بها هنا الإقامة. والمعنى أنه كان يُسرع ركعتى الفجر إسراع مَن يسمع إقامة الصلاة خشية فوات أول الوقت[(٢)].

(١١١٤) وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسُولَ الله ﷺ كان يَقْرأ فى رَكْعَتى الفَجْرِ فى الأولى مِنهما: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية التى فى البقرة، وفى الآخرة منهما: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

وفى روايةٍ: فى الآخرةِ التى فى آل عمران: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾[(٣)].

(١١١٥) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قرأ فى رَكْعَتى الفَجْرِ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[(٤)].

(١١١٦) وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: رمَقْتُ النَّبِىَّ ﷺ شَهْرًا فكَانَ يقْرَأ فى الرَّكْعَتينِ قَبْلَ الفَجْرِ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[(٥)].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ: قَرَأَ فِى رَكْعَتَيِ الفجر ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٤٤).

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٥٠٨) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٢٧) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٧٢٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٥) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٣٤١).

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى قَرَأَ الْآيَتَيْنِ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟﴾ هَذَا دَلِيلٌ لِمَذْهَبِنَا وَمَذْهَبُ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقْرَأَ فِيهِمَا بَعْدَ الْفَاتِحَةِ سُورَةً وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ هَاتَانِ السُّورَتَانِ أَوِ الْآيَتَانِ ... كِلَاهُمَا سُنَّةٌ[1].

۞ وقد أخبر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الركعة الأولى من سُنة الصبح ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وذلك بعد قراءة الفاتحة ... لأنه لا صلاة إلا بأم الكتاب.... وأنه ﷺ كان يقرأ في الركعة الثانية بعد الفاتحة ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾. أو كان يقرأ في الركعة الثانية بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

۞وأما في حديثي أبي هريرة وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقد أخبرا أن النبي ﷺ كان يصلي في سُنة الفجر في الركعة الأولى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ أي: بعد الفاتحة.. وفي الركعة الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ أي: بعد الفاتحة....

۞ وبالجمع بين الأحاديث فقد يكون النبي ﷺ يقرأ بهذا أحيانًا وبذاك أحيانًا أخرى.. والله أعلم.

۞ والشاهد من كل تلك الأحاديث الواردة في سُنة الفجر أن النبي ﷺ كَانَ تَعَاهُدُهُ وَمُحَافَظَتُهُ عَلَى سُنَّةِ الْفَجْرِ أَشَدَّ مِنْ جَمِيعِ النَّوَافِلِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٨-٩).

يَدَعُهَا هِيَ وَالْوِتْرَ سَفَرًا وَحَضَرًا ... وَكَانَ فِي السَّفَرِ يُوَاظِبُ عَلَى سُنَّةِ الْفَجْرِ وَالْوِتْرِ أَشَدَّ مِنْ جَمِيعِ النَّوَافِلِ دُونَ سَائِرِ السُّنَنِ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْهُ فِي السَّفَرِ أَنَّهُ ﷺ صَلَّى سُنَّةً رَاتِبَةً غَيْرَهُمَا، وَلِذَلِكَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَزِيدُ عَلَى رَكْعَتَيْنِ وَيَقُولُ: «سَافَرتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَ أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، فَكَانُوا لَا يَزِيدُونَ فِي السَّفَرِ عَلَى رَكْعَتَيْنِ».

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ: أَيُّ الصَّلَاتَيْنِ آكَدُ: سُنَّةُ الْفَجْرِ أَوِ الْوِتْرُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: وَلَا يُمْكِنُ التَّرْجِيحُ بِاخْتِلَافِ الْفُقَهَاءِ فِي وُجُوبِ الْوِتْرِ، فَقَدِ اخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي وُجُوبِ سُنَّةِ الْفَجْرِ ... وَسَمِعتُ شَيْخَ الْإِسْلَام ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: سُنَّةُ الْفَجْرِ تَجْرِي مَجْرَى بِدَايَةِ الْعَمَلِ، وَالْوِتْرُ خَاتَمَتُهُ. وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي سُنَّةَ الْفَجْرِ وَالْوِتْرَ بِسُورَتَي الْإِخْلَاصِ وَهُمَا الْجَامِعَتَانِ لِتَوْحِيدِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَتَوْحِيدِ الْمَعرِفَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَتَوْحِيدِ الِاعتِقَادِ وَالْقَصدِ[1].

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣١٥-٣١٦) للإمام ابن القيم رحمه الله.

(١٩٨) باب استحباب الاضطجاع بعد ركعتي الفجر على جنبه الأيمن والحث عليه سواء كان تهجد بالليل أم لا

(١١١٧) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا صلَّى رَكْعَتى الفَجْر، اضْطَجع على شِقِّهِ الأيْمنِ[(١)].

(١١١٨) وعنها قالتْ: كانَ النبيُّ ﷺ يُصَلِّى فيما بيْنَ أنْ يَفْرُغَ مِنْ صلاة العِشَاءِ إلى الفَجْرِ إحدَى عَشْرةَ رَكْعةً يُسَلِّمُ بيْنَ كُلِّ ركْعَتينِ، ويُوتِرُ بِواحِدة، فإذا سَكَتَ المؤذِّنُ مِن صلاةِ الفجرِ، وتَبيَّنَ لهُ الفَجْرُ، وجاءَهُ المؤذِّنُ، قام فرَكَعَ ركعَتين خَفيفَتين، ثم اضْطَجَعَ على شِقِّه الأيْمَنِ، هكذا حتَّى يأتِيَه المؤذِّنُ للإقامةِ[(٢)].

قولها: «يُسلِّمُ بين كُلِّ ركعتين» هكذا هو فى مسلم .. ومعناه: بعد كُلِّ ركعتين.

(١١١٩) وعنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا صَلَّى أحدُكُم ركْعَتى الفَجْرِ فليضطجع على يمينه»[(٣)].

۞ سبق لنا أن النبى ﷺ كان يصلّى ركعتى الفجر، وسبق أن هاتين الركعتين تتميزان عن بقية الرواتب بميزات سبق ذكرها، ومن مميزاتهما: أنه إذا صلّى هاتين الركعتين اضطجع على شِقِّه الأيمن كما كان النبى ﷺ يفعل...وثبت ذلك عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فى الصحيحين: «أنه كان إذا صلى سُنة الفجر اضطجع بعدها على الجنب الأيمن»، وفى حديث عائشة الثانى الذى رواه مسلم: «أنه كان ﷺ يصلِّى إحدى عشرة ركعة يُسلِّم بين كل ركعتين»، وفى هذا دليل على وهم مَن

(١) صحيح: رواه البخارى (١١٦٠) كتاب التهجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٣٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٢).

توهمَّ أنه إذا صلّى إحدى عشرة ركعة يصلِّى أربعًا أربعًا ثم ثلاثًا بناء على حديثها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «كان النبى ﷺ لا يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة ... يصلى أربعًا فلا تسأل عن حُسنهن وطولهن ثم أربعًا فلا تسأل عن حُسنهن وطولهن ثم ثلاثًا» فظن بعض الناس أنه ﷺ كان يُصلِّى أربعًا جميعًا ثم أربعًا جميعًا ثم ثلاثًا، وهذا وهم؛ فقد أخذوا بظاهر الحديث ... فيُحمَل هذا على أنه يصلى أربعًا على ركعتين ركعتين ثم يستريح ثم يصلى أربعًا على ركعتين ركعتين ثم يستريح ثم يصلى ثلاثًا، هكذا يجب أن يُحمَل ... لأن الراوى عن النبى ﷺ فى ذلك واحد وهى عائشة، والفعل واحد، فيجب حمل بعضها على بعض لتتفق السُّنة، لا يُقال: إنه يفعل هذا مرة وهذا مرة ... لأن كلمة «كان» تدل على دوام الفعل غالبًا.

۞ وأما حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «**إذا صَلَّى أحدُكم ركْعَتى الفَجْرِ فليضطجع على يمينه**».. فعلى الرغم من تصحيح بعض أهل العلم الثقات لهذا الحديث إلا أن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ قال فى كتابه زاد المعاد: وَسَمِعتُ ابن تيمية يَقُولُ: هَذَا بَاطِلٌ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، وَإِنَّمَا الصَّحِيحُ عَنْهُ الْفِعلُ لَا الْأَمْرُ بِهَا[1].

۞ وقد يكون الجمع بين هذين الرأيين ما جاء فى ترجمة هذا الباب وهو: استحباب الاضطجاع بعد ركعتى الفجر على جنبه الأيمن (والحث عليه) سواء كان تهجد بالليل أم لا ... والحث هنا ليس على سبيل الأمر والإيجاب.. فقد يُفهم من الأمر الحث على فعل هذا الشىء المُستحب وبخاصة لمن تهجد فى تلك الليلة حتى لا يظهر على وجهه أثر القيام فيكون أقرب إلى الإخلاص.. والله أعلم.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣١٩).

وأما حديث أبي هريرة في أمر النبي ﷺ من صلّى ركعتي الفجر أن يضطجع على جنبه الأيمن فهذا - وإن كان الترمذي وأبو داود قد روياه، وقال المؤلف: إنه بأسانيد صحيحة فقد قال حبر الأمة وبحر العلوم العقلية والنقلية شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا حديث منكر، وإنه لم يصح الأمر به عن النبي ﷺ... وهذا هو الصحيح؛ لأن الرسول لم يأمر بأن يضطجع الرجل إذا صلى سُنة الفجر على جنبه الأيمن.

وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في الترجمة: (لا فرق بين المتهجد وغيره) إشارة إلى خلاف في ذلك، وهو: أن بعض العلماء قال: يُسَنُّ الاضطجاع بعد ركعتي الفجر مُطلَقًا، وبعضهم قال: لا يُسَنُّ مُطلَقًا، وبعضهم قال بالتفصيل: إن كان له تَهجَّد فإنه يُسن له أن يضطجع بعدهما من أجل الراحة بعد التعب، وإن لم يكن قد تَهَجَّد فلا يضطجع.

ومن أعجب الأقوال وأغربها أن بعض العلماء قال: إن الاضطجاع بعد سنة الفجر شرط لصحة صلاة الفجر، وأن مَن لم يضطجع فصلاته باطلة !! وهذه من غرائب العلم، وغرائب الأقوال؟ ! ما الرابط بين هذا الاضطجاع وبين صلاة الفجر؟ ! الجهة منفصلة عن الصلاة ولا علاقة لها بالاضطجاع؟، والصحيح هو ما قاله شيخ الإسلام: أنه إذا كان الإنسان مُتعَبًا من تَهجُّده فإنه يستريح بأن يضطجع على جنبه الأيمن، وهذا بشرط ألا يخشى أن يغلبه النوم فتفوته الصلاة، فإن خشي فلا ينم[1].

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي اضْطِجَاعِهِ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ سِرٌّ، وَهُوَ أَنَّ الْقَلْبَ مُعَلَّقٌ فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ، فَإِذَا نَامَ الرَّجُلُ عَلَى الْجَنْبِ الْأَيْسَرِ، اسْتَثْقَلَ نَوْمًا، لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي دَعَةٍ وَاسْتِرَاحَةٍ، فَيَثْقُلُ نَوْمُهُ، فَإِذَا نَامَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، فَإِنَّهُ

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٨٥-١٨٦) بتصرف.

يَقْلَقُ وَلَا يَسْتَغْرِقُ فِي النَّوْمِ، لِقَلَقِ الْقَلْبِ، وَطَلَبِهِ مُسْتَقَرَّهُ، وَمَيْلِهِ إِلَيْهِ ... وَلِهَذَا اسْتَحَبَّ الْأَطِبَّاءُ النَّوْمَ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ لِكَمَالِ الرَّاحَةِ وَطِيبِ الْمَنَامِ... وَصَاحِبُ الشَّرعِ يَسْتَحِبُّ النَّوْمَ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ، لِئَلَّا يَثْقُلَ نَوْمُهُ فَيَنَامَ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، فَالنَّوْمُ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ أَنْفَعُ لِلْقَلْبِ، وَعَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ أَنْفَعُ لِلْبَدَنِ، وَاللهُ أَعلَمُ[1].

***

(١) زاد المعاد (١/ ٣٢١-٣٢٢).

(١٩٩) باب سُنة الظهر

(١١٢٠) عن ابنِ عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: صلَّيْتُ مع رسولِ الله ﷺ ركْعَتين قَبْل الظُّهْرِ، وركْعَتين بعدَها[١].

(١١٢١) وعنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النَّبيَّ ﷺ كان لا يَدَعُ أربعًا قَبْلَ الظُّهْرِ[٢].

(١١٢٢) وعنها قالت: كانَ النبيُّ ﷺ يُصَلِّى فى بَيْتى قبْلَ الظُّهْر أربَعًا، ثم يَخْرُجُ فيُصلِّى بالنَّاسِ، ثُمَّ يَدخُلُ فيُصَلِّى رَكْعَتينِ، وكانَ يُصلِّى بالنَّاسِ المغْرِب، ثُمَّ يَدخُلُ بيتى فيُصلِّى رَكْعَتينِ، ويُصَلِّى بالناسِ العِشاء، ويَدخُلُ بَيْتى فيُصَلِّى ركْعَتينِ[٣].

۞ فتلك الأحاديث تدل على أن صلاة الظهر لها ست ركعات من السنن الرواتب: أربعٌ قبلها يصليها ركعتين ركعتين.. وركعتان بعدها..

وإذا نسى الإنسان أو انشغل عن صلاة الأربع ركعات القبلية فإنه يستطيع أن يقضيها بعد صلاة الظهر.. وذلك لأن الرواتب تُقضَى كما تُقضَى الفرائض.. ولكن قد ورد فى حديثٍ رواه ابن ماجة أنه يبدأ أولًا بالسُّنة البعدية ثم يأتى بالسُّنة القبلية.

۞ وفى الحديث الثالث تُخبر أُمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ كان يصلى فى بيتها أربعًا قبل صلاة الظهر ثم يخرج فيصلى بالناس فريضة الظهر ثم يدخل البيت ويصلى ركعتين... وكان يصلى بالناس المغرب ثم يعود إلى البيت فيصلى ركعتين ثم يصلى بالناس صلاة العشاء ويعود إلى البيت فيصلى ركعتين.. ومن ثَمَّ فقد علمنا أن النبى ﷺ كان يصلى النوافل والرواتب فى البيت ولا يصلى -فى الغالب- فى المسجد إلا المكتوبة.. وذلك لأنه ﷺ قال: «أَفْضَلُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩٣٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٧٢٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه البخارى (١١٨٢) كتاب التهجد.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٣٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

صَلَاةِ الْمَرءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ»(١).

۞ ولعلَّ هناك مَن يسأل ويقول: ما الحكمة فى جعل النافلة فى البيت أفضل؟

والجواب: قال الإمام النووى: لِكَوْنِهِ أَخْفَى وَأَبْعَدَ مِنَ الرِّيَاءِ وَأَصوَنَ مِنَ الْمُحبِطَاتِ ... وَلِيَتَبَرَّكَ الْبَيْتُ بِذَلِكَ وَتَنْزِلَ فِيهِ الرَّحمَةُ وَالْمَلَائِكَةُ وَيَنْفِرُ مِنْهُ الشَّيْطَانُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ(٢).

(١١٢٣) وعنْ أُمِّ حبيبةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن حَافظَ على أربَعِ رَكَعاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ، وأربَعٍ بعدَها حرَّمهُ الله على النارِ»(٣).

۞ قد علمنا أن سُنة الظهر أن نصلى قبله أربع ركعات: نصلى ركعتين ونُسلِّم ثم ركعتين ونُسلِّم.. ثم نصلى بعد الظهر ركعتين ... لكن النبى ﷺ قد أضاف هنا ركعتين بعد الظهر ليصبح بعد الظهر أيضًا أربع ركعات وذلك لإضافة ثواب آخر ألا وهو أن مَن صلى أربع ركعات قبل الظهر وأربع ركعاتٍ بعد الظهر حرَّمه الله على النار.

۞ قوله ﷺ: «مَن حَافظَ» أى: داوم وواظب.

«على أربَعِ رَكَعاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ» يصليها ركعتين ركعتين.

«وأربَعٍ بعدَها» يصليها أيضًا ركعتين ركعتين.

«حرَّمهُ الله على النارِ» أَيْ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ ... وَفِي رِوَايَةٍ: «لَمْ تَمَسَّهُ النار» وَفِي أُخْرَى: «حَرَّمَ اللهُ لَحمَهُ عَلَى النَّارِ» وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي مَعنَى ذَلِكَ هَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يَدخُلُ النَّارَ أَصلًا أَوْ أَنَّهُ وَإِنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ دُخُولُهَا لَا تَأْكُلُهُ النَّارُ أَوْ أَنَّهُ يَحرُمُ عَلَى

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٢٩٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.
(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ٩٧).
(٣) صحيح: رواه أصحاب السنن، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٩٥).

النَّارِ أَنْ تَسْتَوْعِبَ أَجْزَاءَهُ وَإِنْ مَسَّتْ بَعضَهُ كَمَا فِى بَعضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ عِنْدَ النَّسَائِيِّ بِلَفْظِ: «فَتَمَسَّ وَجْهَهُ النَّارُ أَبَدًا» وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ فِى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «وَحَرَّمَ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مَوَاضِعَ السُّجُودِ» فَيَكُونُ قَد أَطْلَقَ الْكُلَّ وَأُرِيدَ الْبَعضُ مَجَازًا ... وَالْحَمْلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحَرِّمُ جَمِيعَهُ عَلَى النَّارِ وَفَضْلُ اللهِ تَعَالَى أَوْسَعُ وَرَحمَتُهُ أَعَمُّ، وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى تَأَكُّدِ اسْتِحبَابِ أَربَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ وَأَربَعٍ بَعدَهُ وَكَفَى بِهَذَا التَّرغِيبِ بَاعِثًا عَلَى ذَلِكَ... وَظَاهِرُ قَوْلِهِ: «مَنْ صَلَّى» أَنَّ التَّحرِيمَ عَلَى النَّارِ يَحصُلُ مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنَّهُ قَد أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمَا بِلَفظِ: «مَنْ حَافَظَ» فَلَا يَحرُمُ عَلَى النَّارِ إِلَّا الْمُحَافِظُ[1].

❊❊❊

(١١٢٤) وعنْ عبدِ الله بن السائب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يُصلِّى أربعًا بعدَ أن تزولَ الشَّمْسُ قَبْلَ الظُّهْرِ، وقال: «إِنَّها ساعةٌ تُفْتَحُ فيهَا أبوابُ السَّمَاءِ، فأُحِبُّ أن يَصعَدَ لى فيها عمَلٌ صَالحٌ»[2].

۞ ففى هذا الحديث يخبر عبد الله بن السائب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان يصلى أربعًا بعد أن تزول الشمس قبل الظهر... وتلك الركعات ليست هى سُنة الظهر.

قَالَ الْعِرَاقِيُّ: هِىَ غَيْرُ الْأَربَعِ الَّتِى هِىَ سُنَّةُ الظُّهْرِ قَبْلَهَا وَتُسَمَّى هَذِهِ سُنَّةَ الزَّوَالِ (وَقَالَ إِنَّهَا) أَىْ مَا بَعدَ الزَّوَالِ[3].

فهى صلاة مستقلة كان النبى ﷺ يصليها بعد الزوال... ووضح النبى ﷺ السبب فى ذلك فقال ﷺ: «**إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فيهَا أبوابُ السَّمَاءِ، فأُحِبُّ أن يَصعَدَ لى فيها عمَلٌ صَالحٌ**» أى: إلى السماء.. وفيه تلميح إلى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ

(١) عون المعبود (٤/ ١٠٤).
(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٥٨٧).
(٣) تحفة الأحوذى (٢/ ٣٤٠).

ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾.

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (زاد المعاد): وَعَلَى هَذَا، فَتَكُونُ هَذِهِ الْأَرْبَعُ الَّتِي قَبْلَ الظُّهْرِ وِردًا مُسْتَقِلًّا سَبَبُهُ انْتِصَافُ النَّهَارِ وَزَوَالُ الشَّمْسِ...

وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ يُصَلِّي بَعدَ الزَّوَالِ ثَمَان رَكَعَاتٍ، وَيَقُولُ: إِنَّهُنَّ يَعدِلْنَ بِمِثْلِهِنَّ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ... وَسِرُّ هَذَا- وَاللهُ أَعلَمُ- أَنَّ انْتِصَافَ النَّهَارِ مُقَابِلٌ لِانْتِصَافِ اللَّيْلِ، وَأَبْوَابُ السَّمَاءِ تُفَتَّحُ بَعدَ زَوَالِ الشَّمْسِ، وَيَحصُلُ النُّزُولُ الْإِلَهِيُّ بَعدَ انْتِصَافِ اللَّيْلِ، فَهُمَا وَقْتَا قُرْبٍ وَرَحمَةٍ.

هَذَا تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَهَذَا يَنْزِلُ فِيهِ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا[(١)].

(١١٢٥) وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ إذا لَمْ يُصَلِّ أربعًا قبْلَ الظهْرِ صَلاَّهُنَّ بعدَها[(٢)].

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديثين رقم (١١٢٠، ١١٢١)... وقلنا: أن السنن الرواتب تُقضَى كما تُقضَى الفرائض.. فمن فاته أن يصلى أربعًا قبل الظهر لنسيانٍ أو انشغالٍ أو غير ذلك فإنه يستطيع أن يقضيها بعد صلاة الظهر ... وذلك بأن يصلى السُّنة البَعدية ثم يقضى بعدها السُّنة القبلية.. والله أعلم.

(١) زاد المعاد (١/ ٣٠٩).

(٢) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٥٩).

(٢٠٠) باب سُنة العصر

(١١٢٦) عن عليٍّ بن أبى طالبٍ رضي الله عنه قال: كانَ النَّبِىُّ ﷺ يُصلِّى قَبْلَ العَصرِ أربَعَ رَكَعاتٍ، يَفْصِلُ بَيْنَهُنَّ بالتَّسليمِ على الملائكةِ المقربِينَ، ومَنْ تَبِعَهم مِن المسلمينَ والمؤمنين[١].

(١١٢٧) وعن ابن عُمر رضي الله عنهما عن النَّبىِّ ﷺ قال: «رَحِمَ الله امْرَءًا صلَّى قبْلَ العَصرِ أربَعًا»[٢].

۞ ففى هذا الحديث يخبر على بن أبى طالب رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان يصلى قبل العصر أربع ركعات... وقد قلنا قبل ذلك أن العصر ليس له سُنة راتبة.. لا قبلية ولا بعدية... وإنما له سُنة نافلة قبلية.. إما أن تكون ركعتين أو أربع ركعات: يصليها ركعتين ركعتين... والأفضل أن يُصليها أربع ركعات - يعنى يصلى ركعتين ثم ركعتين- ليفوز بدعاء النبى ﷺ الذى ورد فى الحديث الثانى عندما قال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ امْرأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصرِ أربَعًا».

۞ وقد قال الإمام العراقى: يُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ دُعَاءً وَأَنْ يَكُونَ خَبَرًا»[٣] أى: يُحتمل أن يكون هذا دعاءً من النبى ﷺ بالرحمة لكل مَن صلى قبل العصر أربعًا.. ويُحتمل أن يكون إخبارًا من النبى ﷺ أن مَن صلى قبل العصر أربعًا فقد فاز برحمة الله... ولا مانع أن يكون دُعاءً وخبرًا... ففضل الله واسع.

۞ وأما قوله: «يَفْصِلُ بَيْنَهُنَّ بالتَّسليمِ على الملائكةِ المقربِينَ، ومَنْ تَبِعَهم مِن المسلمينَ والمؤمنين».. فالمراد هنا بالتسليم: تسليم التشهُّد فقد أخبر النبى ﷺ بذلك فقال ﷺ: «فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِى الصَّلَاةِ، فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ

(١) حسن: رواه الترمذى وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٣٥٣).
(٢) حسن: رواه أبو داود والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٩٣).
(٣) تحفة الأحوذى (٢/ ٢٨٣).

وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ - فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ، أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[١].

(١١٢٨) وعنْ عليٍّ بن أبى طالب رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُصَلِّى قَبْلَ العَصرِ رَكْعَتينِ[٢].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف.. وقد قال الشيخ الألبانى رحمه الله: حسن لكن بلفظ (أربع ركعات) وقال: لكنه شاذ بلفظ ركعتين.. والمحفوظ بلفظ (أربع ركعات) وبيانه فى «ضعيف أبى داود» رقم (٢٣٥). اهـ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٣٠) كتاب الاستئذان - ومسلم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٥٦٨).

(٢٠١) باب سُنة المغرب بعدها وقبلها

۞ تقدم في هذه الأبواب حديثُ ابن عمر، وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهما صحيحان أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّى بَعدَ المَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ.

(١١٢٩) وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبىِّ ﷺ قالَ: «صَلُّوا قبلَ المَغرِب» قَالَ في الثَّالثَةِ: «لمَنْ شَاءَ»[١].

(١١٣٠) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: لَقَد رَأَيْتُ كِبارَ أَصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ يَبْتَدِرُونَ السَّوَارِىَ عندَ المغربِ[٢].

(١١٣١) وعَنْهُ قَالَ: كُنَّا نُصَلِّى عَلى عَهدِ رسولِ اللهِ ﷺ رَكعَتيْنِ بعدَ غُروبِ الشَّمْس قَبلَ المَغربِ، فقيلَ: أَكانَ رسولُ اللهِ ﷺ صلاَّهُما؟ قَالَ: كانَ يرانا نُصَلِّيهِمَا فَلَمْ يَأْمُرنَا وَلَمْ يَنْهَنا[٣].

(١١٣٢) وعنه قَالَ: كُنَّا بِالمَدِينَةِ فإذا أَذَّنَ المُؤَذِّنُ لِصَلاةِ المَغرِبِ، ابْتَدَرُوا السَّوَارِىَ، فَرَكَعُوا رَكعَتَين، حَتى إنَّ الرَّجُلَ الغَرِيبَ ليَدخُلُ المَسجدَ فَيَحسَبُ أَنَّ الصَّلاةَ قد صُلِّيتْ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ يُصَلِّيهِما[٤].

۞ سيتم شرح هذا الباب مع الباب القادم إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١١٨٣) كتاب التهجد.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٥) كتاب الأذان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٣٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٨٣٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢٠٢) باب سُنة العشاء بعدها وقبلها

۞ فيهِ حديثُ ابنِ عُمَرَ السَّابقُ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَكعَتَينِ بَعدَ العِشَاءِ، وحديثُ عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّل: «بَيْنَ كلِّ أَذَانَيْنِ صَلاةٌ»(١).

۞ هذه الأبواب في بيان سُنة العصر والمغرب والعِشاء ... وقد سبق بيان سُنة الفجر وسنة الظهر فأما العصر فمن السنن التي قبلها أن يصلي الإنسان أربع ركعات استئناسًا بهذا الحديث: «**رَحِمَ الله امْرَءًا صلَّى قبْلَ العَصرِ أَربعًا**».

وهذه الجملة دعائية يعني أن النبي ﷺ دعا لمن صلى قبل العصر أربعًا.

وهذا الحديث وإن كان فيه مقال عند أهل العلم لكنه يُرجَى أن ينال الإنسان الأجر إذا صلى هذه الأربع .... وأما المغرب فلها سُنة قبلها وبعدها .... لكن السُّنة التي قبلها ليست راتبة والتي بعدها راتبة .... السُّنة التي قبلها فيها الحديث أن النبي ﷺ قال: «**صَلُّوا قَبلَ المَغرِب**» وَقَالَ في الثَّالثَةِ: «**لمَنْ شَاءَ**» لئلا تُتخذ سُنة راتبة.

فإذا أذن المغرب فصلِّ ركعتين سُنة لكن ليست كالتي بعدها راتبة مؤكدة بل هي سُنة إن تركها الإنسان فلا حرج وإن فعلها فلا حرج.

ولهذا قال أنس كان النبي ﷺ يرانا نصلي فلم يأمرنا ولم ينهنا.... وأما العشاء فلها سُنة قبلها وبعدها لكن السُّنة التي قبلها ليست راتبة بل هي داخلة في عموم قول النبي ﷺ: «**بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاةٌ**» أما بعدها فهي ركعتان سنة راتبة.

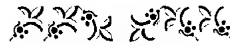
فتبين بهذا أن الصلوات الخمس: الفجر لها سُنة قبلها وليس لها سُنة بعدها... الظهر لها سُنة قبلها وبعدها .... العصر ليس لها سُنة قبلها ولا بعدها .... يعني راتبة ... لكن لها سُنة غير راتبة قبلها وأما بعدها فهو وقت نهي.... المغرب لها

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٧) كتاب الأذان، ومسلم (٨٣٨) كتاب صلاة المسافرين.

سُنة بعدها أى راتبة، وقبلها غير راتبة.... العشاء لها سُنة بعدها يعنى راتبة وقبلها وليست براتبة.

هذه هى السنن التابعة للمفروضات ... ومن فوائدها أنه إذا حصل نقصٌ بالفرائض فإنها تُكملها[1].



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢٠٣) باب سُنة الجمعة

۞ فيهِ حديثُ ابنِ عُمَرَ السَّابقُ: أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِىِّ ﷺ رَكعَتَينِ بَعدَ الجُمْعة (متفق عليه).

(١١٣٣) عنْ أَبى هُريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحدُكُمُ الجُمُعَةَ، فَلْيُصَلِّ بعدَهَا أَربعًا»[(١)].

(١١٣٤) وَعَنِ ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كانَ لاَ يُصلِّى بَعدَ الجُمُعةِ حتَّى يَنْصَرِف فَيُصَلِّى رَكْعَتيْنِ فى بَيْتِهِ[(٢)].

۞ فصلاة الجمعة ليس لها سُنة راتبة قبلها .. لكن يجوز للمسلم إذا ذهب إلى المسجد مُبكرًا أن يصلى من النوافل ما يشاء أو يقرأ القرآن أو يذكر الله حتى يصعد الإمام على المنبر ... أما بعد صلاة الجمعة فلها سُنة راتبة.

وسُنة الجمعة أربع ركعات فى المسجد أو ركعتين فى البيت...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إذا صلى فى المسجد صلى أربعًا، وإذا صلى فى بيته صلى ركعتين. اهـ[(٣)].

۞ وصلاة الجمعة: صلاة مُستقلة ليست هى الظهر؛ ولهذا لا يُجمع العصر إليها... يعنى إذا كان الإنسان مسافرًا ومَرَّ ببلدٍ وصلى معهم الجمعة، فلا يجمع العصر إليها؛ لأنها مُستقلة... والسُّنة إنما جاءت بالجمع بين الظهر والعصر لا بين الجمعة والعصر.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٨١) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩٣٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٨٢) كتاب الجمعة.

(٣) نقله عنه تلميذه ابن القيم فى الزاد (١/ ٤٤٠) وقال: وعلى هذا تدل الأحاديث.

(٢٠٤) باب استحباب جعل النوافل في البيت سواء الراتبة وغيرها والأمر بالتحول للنافلة من موضع الفريضة أو الفصل بينهما بكلام

(١١٣٥) عن زيدِ بن ثابتٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «صلُّوا أيُّها الناسُ فى بُيُوتِكُم، فإنَّ أفضلَ الصَّلاةِ صلاةُ المَرءِ فى بَيْتِهِ إلا المكتوبةَ »(١)

(١١٣٦) وعنْ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «اجْعَلُوا مِن صلاتِكُمْ فى بُيُوتِكُم، ولا تَتَّخِذُوها قُبُورًا»(٢) .

(١١٣٧) وعنْ جابرٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذا قَضَى أحدُكُم صلاتَهُ فى مَسْجِدِهِ، فليَجْعَل لِبَيْتِهِ نَصيبًا مِنْ صلاتِهِ، فإنَّ الله جاعِلٌ فى بيْتِهِ مِن صلاتِهِ خَيْرًا»(٣) .

۞ لما ذكر المصنف رحمه الله السُّنن الرواتب التابعة للصلوات المكتوبة المفروضة وضَّح فى هذا الباب أن الأصل أن يصلى الإنسان تلك الرواتب والنوافل فى بيته.. وذكر مجموعة من الأحاديث.. منها: قول النبى ﷺ «**صلُّوا أيُّها الناسُ فى بُيُوتِكُم**» فأمر النبى ﷺ بأن نصلى الرواتب والنوافل فى بيوتنا ووضح السبب فى ذلك فقال ﷺ: «**فإنَّ أفضلَ الصَّلاةِ صلاةُ المَرءِ فى بَيْتِهِ إلا المكتوبةَ**».

فدلَّ ذلك على أن الإنسان ينبغى أن يصلى كل الرواتب والنوافل فى بيته.. سواء التى تكون قبل وبعد الصلوات المكتوبة.. أو صلاة الضحى أو صلاة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٢٩٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – ومسلم (٧٨١) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٣٢) كتاب الصلاة – ومسلم (٧٧٧) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٧٨) كتاب صلاة المسافرين.

التهجد أو غير ذلك من النَّوافل التى يجتهد الإنسان فيها فى غير أوقات النهى.

۞ وفى الحديث الثانى قال ﷺ: «**اجْعَلُوا مِن صلاتِكُمْ فى بُيُوتِكُم، ولا تَتَّخِذُوها قُبُورًا**» مَعنَاهُ صَلُّوا فِيهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا كَالْقُبُورِ مَهْجُورَةً مِنَ الصَّلَاةِ وَالْمُرَادُ به صَلَاةُ النَّافِلَةِ أَىْ صَلُّوا النَّوَافِلَ فِى بُيُوتِكُمْ[1].

۞ وفى الحديث الثالث أن النبى ﷺ أمرنا إذا انتهينا من صلاة الفريضة أن نجعل لبيوتنا نصيبًا من صلاة الرواتب والنوافل.. ووضح السبب أيضًا فقال ﷺ: «**فإنَّ الله جاعِلٌ فى بيْتِهِ مِن صلاتِهِ خَيْرًا**».

وذلك بأن يراه أهله وأولاده فيقتدوا به ويألفوا الصلاة ويحبوها .. ولا سيما الصغار منهم.. ومنها أن الصلاة فى البيت تكون أبعد عن الرياء لأن الإنسان إذا صلى النافلة فى المسجد بخشوع فقد يراه أحد وربما يقع شىء فى قلبه.... ومنها: الراحة التى يجدها الإنسان فى صلاة النوافل فى بيته بحيث إذا أراد أن يُطيل فيها لا يخشى أن يراه أحد.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وَإِنَّمَا حَثَّ عَلَى النَّافِلَةِ فِى الْبَيْتِ لِكَوْنِهِ أَخْفَى وَأَبْعَدَ مِنَ الرِّيَاءِ وَأَصوَنَ مِنَ الْمُحبِطَاتِ وَلِيَتَبَرَّكَ الْبَيْتُ بِذَلِكَ وَتَنْزِلَ فِيهِ الرَّحمَةُ وَالْمَلَائِكَةُ وَيَنْفِرُ مِنْهُ الشَّيْطَانُ كَمَا جَاءَ فِى الْحَدِيثِ الْآخرِ[2].

(١١٣٨) وعنْ عُمر بن عطاءٍ أَنَّ نافِعَ بنَ جُبير أرسَلَهُ إلى السَّائب ابن أُخْتِ نَمِرٍ يسألُهُ عنْ شىءٍ رآهُ مِنْهُ مُعاويةُ فى الصَّلاةِ فقال: نَعمْ، صَلَّيْتُ معهُ الجُمُعةَ فى المقصُورةِ، فلَمَّا سَلَّمَ الإمامُ، قُمْتُ فى مقَامى، فصلَّيْتُ، فلَمَا دخل أرسلَ إلىَّ فقال: لا تَعُد لِمَا فعلتَ، إذا صَلَّيْتَ الجُمُعة، فلا تَصِلها بصلاةٍ حتَّى تتكَلَّم أو تخْرُجَ، فإن

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٩٦).

(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ٩٦).

رسُولَ الله ﷺ أمَرَنا بذلكَ، أنْ لا نُوصِلَ صلاةً بصلاةٍ حتَّى نتكَلَّمَ أو نخْرُجَ[١].

۞ ففى هذا الحديث أن السائب كان قد صلى مع معاوية رضي الله عنه فى المقصورة... قال الإمام النووى رحمه الله: قَوْلُهُ صَلَّيْتُ مَعَهُ الْجُمُعَةَ فِي الْمَقْصُورَةِ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ اتِّخَاذِهَا فِي الْمَسْجِدِ إِذَا رَآهَا وَلِيُّ الْأَمْرِ مَصلَحَةً...قَالُوا: وَأَوَّلُ مَنْ عَمِلَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ حِينَ ضَرَبَهُ الْخَارِجِيُّ. قَالَ الْقَاضِي: وَاخْتَلَفُوا فِي الْمَقْصُورَةِ فَأَجَازَهَا كَثِيرُونَ مِنَ السَّلَفِ وَصَلُّوا فِيهَا... وكان ابن عُمَرَ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ وَهُوَ فِي الْمَقْصُورَةِ خَرَجَ مِنْهَا إِلَى الْمَسْجِدِ ... قَالَ الْقَاضِي: وَقِيلَ إِنَّمَا يَصِحُّ فِيهَا الْجُمُعَةُ إِذَا كَانَتْ مُبَاحَةً لِكُلِّ أَحَدٍ فَإِنْ كَانَتْ مَخْصُوصَةً بِبَعْضِ النَّاسِ مَمْنُوعَةً مِنْ غَيْرِهِمْ لَمْ تَصِحَّ فِيهَا الْجُمُعَةُ لِخُرُوجِهَا عَنْ حُكْمِ الْجَامِعِ[٢].

۞ فلما سلَّم الإمام من صلاة الجمعة قام السائب فى مقامه الذى صلى فيه الجمعة فصلى سُنة الجمعة... فدعاه معاوية رضي الله عنه وقال له: لا تَعُد لما فعلت.. إذا صليت الجمعة فلا تَصِلها بصلاة حتى تتكلم أو تخرج... وأخبره أن هذا الكلام ليس من عنده فقال له: فإن رسول الله ﷺ أمرنا بذلك أن لا نُوصل صلاة بصلاة حتى نتكلم أو نخرج..

فمثلًا: إذا صليت صلاة المغرب وأردت أن تصلى السُّنة البعدية فلا ينبغى أن تصلى السُّنَّة فى مكانك.. بل اخرج إلى بيتك لتصليها لأن أفضل الصلاة صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة.. أو تَحرَّك من مكانك وصَلِّ فى مكانٍ آخر فى المسجد.. أو على الأقل إن لم تستطع أن تتحرك بسبب الزحام فتكلم ثم صَلِّى السنة.. لأن النبى ﷺ نهى أن تُوصَل صلاة بصلاة حتى يخرج الإنسان أو يتكلم.

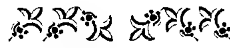
قال الإمام النووى رحمه الله: قَوْلُهُ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَنَا بِذَلِكَ أن لا نُوصل

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٨٣) كتاب الجمعة.

(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٤٢-٢٤٣) بتصرف.

صلاة حَتَّى نَتكَلَّمَ أَوْ نَخْرُجَ فِيهِ دَلِيلٌ لِمَا قَالَهُ أَصحَابُنَا أَنَّ النَّافِلَةَ الرَّاتِبَةَ وَغَيْرَهَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَتحَوَّلَ لَهَا عَنْ مَوْضِعِ الْفَرِيضَةِ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ وَأَفْضَلُهُ التَّحَوُّلُ إِلَى بَيْتِهِ ... وَإِلَّا فموضع آخر مِنَ الْمَسْجِدِ أَوْ غَيْرِهِ لِيُكْثِرَ مَوَاضِعَ سُجُودِهِ وَلِتَنْفَصِلَ صُورَةُ النَّافِلَةِ عَنْ صُورَةِ الْفَرِيضَةِ.

وَقَوْلُهُ: حَتَّى نَتكَلَّمَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْفَصل بَيْنَهُمَا يَحصُلُ بِالْكَلَامِ أَيْضًا وَلَكِنْ بِالِانْتِقَالِ أَفْضَلُ لِمَا ذكرناه والله أعلم(١).



(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٤٣).



فهرس الموضوعات

(٣) كتاب اللباس

(٤) كتاب آداب النوم

(٥) كتاب السلام

(٦) كتاب عيادة المريض وتشييع الميت والصلاة عليه



(٧) كتاب آداب السفر

(٨) كتاب فضائل القرآن

هذه وصيتي

كنت منذ طفولتي كلما ذهبت وجدت القرآن الكريم وبجواره كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي (رحمه الله) وكنت أحب القراءة في هذا الكتاب لكني كنت لا أفهم الكثير من الأحاديث وتمنيت أن أجد كتابًا سهلًا فيه شرح لتلك الأحاديث التي تبلغ (١٩٠٤) حديثًا

وتمر الأيام ويشرح الله (عز وجل) صدري لشرح هذا الكتاب ففرغت حياتي لشرح هذا الكتاب الممتع الذي استطاع الإمام النووي (رحمه الله) من خلاله أن يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الإسلامية والعقائد وفقه العبادات والمعاملات فوجدته كتابًا شاملًا لكل شيء فاستعنت بالله (عز وجل) وشرحته شرحًا ميسرًا يفهمه العوام قبل العلماء وطلبة العلم وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله (عز وجل) وعشت أجمل أيام عمري في شرح هذا الكتاب الممتع الذي لا يستغني عنه بيت مسلم أبدًا ففيه الخير الكثير والكثير ولعلكم تعلمون مدى سعادتي عندما تسعدون بقراءة هذا الكتاب القيم

أوصيكم إخواني وأخواتي وأهلي وأحبابي أن تحرصوا على اقتناء هذا الكتاب القيم وأوصيكم جميعًا على التمسك بالمصدرين الصافيين: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فتمسكوا بهما تعود بركتهما على الإسلام والمسلمين في كل مكان.

أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسنات أبي وأمي (رحمة الله عليهما) وميزان حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به.

وأرجو ألا تبخلوا عليَّ بدعوة صادقة بظهر الغيب بأن يرزقني الله عز وجل الإخلاص في القول والعمل وأن يرزقني حُسن الخاتمة وأن يجمعني بكم في الفردوس الأعلى مع الحبيب المصطفى ﷺ.

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري
أبو عمار

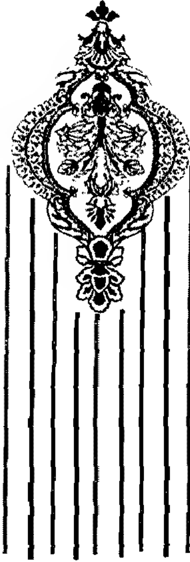
شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء السادس

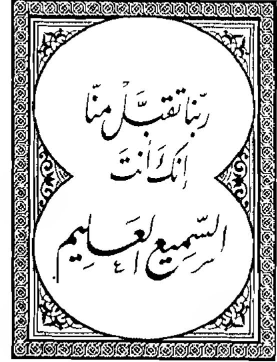




شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم



١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر / أمام الجامع الأزهر / القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك / خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

شرح

رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء السادس

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤


بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٠٥) باب الحث على صلاة الوتر وبيان أنه سُنة مؤكدة وبيان وقته

(١١٣٩) عن عليٍّ رضي الله عنه قال: الوِتْرُ ليْس بِحَتْمٍ كصَلاةِ المكتُوبةِ، ولكِنْ سَنَّ رسولُ الله ﷺ قال: «إنَّ الله وِترٌ يُحِبُّ الوِتْرَ، فأوْتِرُوا يا أهلَ القُرآنِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يقول عليٌّ رضي الله عنه: الوتر ليس بحتمٍ كصلاة المكتوبة.. أى أن صلاة الوتر ليست فرضًا كالصلوات الخمس المكتوبة بل هى سُنة مؤكدة.... وفى الصحيح: لما سأله الرجل عن الصلوات المفروضات فقال «**خمس صلوات فى اليوم والليلة**»، قال: هل علىَّ غيرها؟ قال: «**لا .. إلا أن تطوَّع**»(٢).

ولكن سَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله وِترٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**» فالله ليس معه إله ثانٍ .. فهو سبحانه واحدٌ أحدٌ فى ذاته لَا يَقْبَلُ الِانْقِسَامَ .. وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ فَلَا شِبْهَ لَهُ وَلَا مِثْلَ لَهُ ... وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ فَلَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مُعِينَ «**يُحِبُّ الْوِتْرَ**» أَيْ يُثِيبُ عَلَيْهِ وَيَقْبَلُهُ مِنْ عَامِلِهِ(٣).

وقد ظهرت آثار هذه المحبة فى مخلوقاته وفيما شرعه الله عز وجل لعباده من الطاعات والعبادات..... فأعظم المخلوقات العرش وهو واحد.. والسماوت سبع سماوات ثم الأرضون وهى سبع.

وأما العبادات: فالصلوات الخمس عددها سبع عشرة ركعة .. وصلاة الليل إحدى عشرة ركعة وهى وتر ... والطواف والسعى والرمى وتسبيحات الصلاة كلها وتر... فتجد أن الوترية وحُب الوترية ظاهرة فى مخلوقاته (سبحانه وتعالى) وفيما شرعه الله لعباده.. لأنه عز وجل وتر يحب الوتر.

(١) حسن: رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٣١).
(٢) دليل الفالحين (٣/ ٥٢٤).
(٣) عون المعبود (٤/ ٢٠٥).



۞ «فأَوْتِرُوا يا أهلَ القُرآنِ».

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: تَخْصِيصُهُ أَهْلَ الْقُرآنِ بِالأَمْرِ فِيهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوِتْرَ غَيْرُ وَاجِبٍ وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا لَكَانَ عَامًّا ... وَأَهْلُ الْقُرآنِ فِي عُرفِ النَّاسِ الْقُرَّاءُ وَالْحُفَّاظُ دُونَ الْعَوَامِّ ... وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ لِلأَعْرَابِيِّ: لَيْسَ لَكَ وَلَا لِأَصحَابِكَ[1].

(١١٤٠) وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: مِنْ كُلِّ الليْلِ قَد أَوْتَر رسول الله ﷺ مِن أَوَّلِ اللَّيْلِ، ومِنْ أَوْسَطِهِ، ومِنْ آخرِهِ، وانْتَهى وِتْرُهُ إلى السَّحَرِ[2].

(١١٤١) وعنْ ابنِ عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبيَّ ﷺ قال: «اجْعلوا آخِرَ صلاتِكُمْ باللَّيْلِ وِتْرًا»[3].

(١١٤٢) وعنْ أبي سعيدٍ الخُدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال: «أَوْتِرُوا قبلَ أنْ تُصبِحُوا»[4].

(١١٤٣) وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُصلِّي صَلاتَهُ باللَّيْلِ وهي مُعتَرِضَةٌ بينَ يَدَيْهِ، فإذا بَقِيَ الوِتْرُ أيقَظَها فأَوْتَرتْ[5].

وفي روايةٍ له: فإذا بَقِيَ الوترُ قال: «قُومِي فأَوْتِري يا عائشة».

(١١٤٤) وعنْ ابن عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «بَادِروا الصُّبْحَ بالوِتْرِ»[6].

(١١٤٥) وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ خافَ أنْ لا يقُوم مِن آخِرِ اللَّيْلِ فليُوتِر أوَّلَه، ومَن طمِعَ أنْ يقُومَ آخِرَهُ فليُوتِر آخِرَ الليْلِ، فإنَّ صلاة آخِرِ

(١) عون المعبود (٤/ ٢٠٥).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٩٦) كتاب التهجد - ومسلم (٧٤٥) كتاب صلاة المسافرين.
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٩٩٨) كتاب التهجد - ومسلم (٧٥١) كتاب صلاة المسافرين.
(٤) صحيح: رواه مسلم (٧٥٤) كتاب صلاة المسافرين.
(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٢) كتاب الصلاة - ومسلم (٧٤٤) كتاب صلاة المسافرين.
(٦) صحيح: رواه مسلم (٧٥٠) كتاب صلاة المسافرين.

اللَّيْلِ مشْهُودةٌ، وذلكَ أفضَلُ»(١).

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن صلاة الوتر سُنة مؤكدة فى كل ليلة.. وهذا ما ذهب إليه جمهور العلماء... وكان النبى ﷺ لا يدعها أبدًا فى السفر والحضر.. وكان فى السفر يُواظب على سُنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل.. ولم يُنقل عنه ﷺ فى السفر أنه صلى راتبة غير سنة الفجر والوتر.

وقد أخبرت أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قد أوتر فى أول الليل وأوسطه وآخره .. لكنه جعل الوتر فى وقت السَّحَر بعد ذلك ﷺ.... ولعله ﷺ صلى الوتر فى كل أوقات الليل ليُعلم الأمة جواز صلاة الوتر فى أى وقتٍ من الليل لكنه فى النهاية اختار أحب أوقاته وهو وقت السَّحَر.

ولذا قال ﷺ: **«اجْعلوا آخِرَ صلاتِكُمْ باللَّيْلِ وِتْرًا»** وقال ﷺ: **«أوْتِرُوا قبْلَ أنْ تُصبِحُوا»** ومن المعلوم أن آخر ساعة فى الليل هى التى تكون قبل الصبح.

وكان ﷺ من شدة حرصه على صلاة الوتر.. كان يصليها ويُوقظ أمنا عائشة رضي الله عنها لتصليها ويقول لها: **«قُومِى فأوْتِرى يا عائشة»**.

واعلم أيضًا أن الوتر وتران ، وتر فريضة، ووتر سُنة:

أما وتر الفريضة: فهو صلاة المغرب كما ثبت فى الحديث الصحيح أنها وتر النهار... يعنى تُختَم بها صلاة النهار وهى وتر، وإن كانت فى أول الليل.

وأما وتر النافلة: فهو الوتر الذى يُختم به صلاة الليل.

۞ أما وقت صلاة الوتر فهو كما قلنا فى أى ساعة من ساعات الليل.. ولو أن إنسانًا كان على سفرٍ وجمع العشاء مع المغرب جمع تقديم فى وقت المغرب فإن الوتر يدخل وقته.. فيستطيع أن يصلى العشاء ثم السُّنة الراتبة ثم يوتر.. وإن كان الأفضل تأخير الوتر إلى وقت السَّحر.. لكن مَن خاف ألا يستيقظ فليوتر قبل أن ينام... ولذا قال ﷺ: **«مَنْ خافَ أنْ لا يقُومَ مِن آخِرِ اللَّيْلِ فليُوتِر أوَّلَه، ومَن**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٥٥) كتاب صلاة المسافرين.

طمِعَ أنْ يقُومَ آخِرَهُ فليُوتِر آخِرَ الليْلِ، فإنَّ صلاة آخِرِ اللَّيْلِ مشْهُودةٌ، وذلكَ أفضَلُ».

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «مَتَى تُوتِرُ؟»، قَالَ: أُوْتِرُ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ، وَقَالَ لِعُمَرَ: «مَتَى تُوتِرُ؟»، قَالَ: أَنَامُ ثُمَّ أُوْتِرَ، فَقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخَذْتَ بِالْحَذَرِ»، وَقَالَ لِعُمَرَ: «أَخَذْتَ بِالْقُوَّةِ»[(١)].

۞ وأما قوله ﷺ: «أوتروا قبل أن تصبحوا»؛ لأن الوتر ينتهى وقته بطلوع الفجر، فإذا طلع الفجر فلا وتر حتى ولو بين أذان الفجر والإقامة لا وتر، ولكن إذا طلع الفجر والإنسان لم يُوتر فإنه يصلى فى النهار شفعًا... إن كان يوتر بثلاثٍ صلى أربعًا، إن كان يوتر بخمسٍ صلى ستًّا، إن كان يوتر بسبعٍ صلى ثمانى .. لقول عائشة رضي الله عنها: كان النبى ﷺ إذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة.

۞ واعلم أن الوتر له صفات:

الصفة الأولى: أن يُوتر بواحدة فقط وهذا جائز ولا يُكره الوتر بها.

الثانية: أن يُوتر بثلاثٍ وله الخيار إن شاء سلَّم من الركعتين ثم أتى بالثالثة وإن شاء سردها سردًا بتشهُّدٍ واحد.

الثالثة: أن يُوتر بخمسٍ فيسردها سردًا لا يتشهد إلا فى آخرها.

الرابعة: أن يُوتر بسبعٍ فيسردها سردًا لا يتشهد إلا فى آخرها.

الخامسة: أن يُوتر بتسعٍ فيسردها سردًا لكن يتشهد بعد الثامنة ولا يسلم ثم يصلى التاسعة ويسلم.

السادسة: أن يُوتر بإحدى عشرة فيسلم من كل ركعتين ويوتر بواحدة.

هذه صفة الوتر وقد سبق أنه سُنة مؤكدة وأن من العلماء مَن أوجبه فلا تُضع الوتر ... ثم إن كنت ترجو أن تُوتر من آخر الليل فاجعل الوتر فى آخر الليل وإن كنت تخاف ألا تقوم فاجعل الوتر من أول الليل ... لا تنم إلا مُوترًا ولهذا أوصى

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٢٧١).

النبى ﷺ أبا هريرة أن يُوتر قبل أن ينام؛ لأن أبا هريرة كان يقرأ أحاديث الرسول ﷺ فى أول الليل وينام فى آخره فأمره النبى ﷺ أن يوتر قبل أن ينام ... واعلم أن الوتر سُنة فى الحضر والسفر حتى فى السفر لا تتركه ومن ذلك ليلة المزدلفة فإن الإنسان إذا صلى العشاء فإنه يصلى المغرب والعشاء جمعًا ثم يُوتر وإن كان جابر رضي الله عنه لم يذكره فى حديثه لكن الأصل بقاء ما كان على ما كان وأن الرسول ﷺ لا يدع الوتر حضرًا ولا سفرًا والله الموفق(١).

۞ وأما عن القراءة فى الوتر فلا بُدَّ أن تعلم أنه يجوز لك أن تقرأ بعد الفاتحة بأى شىء من القرآن لكن يُستحب لك إذا أوترت بثلاث ركعات أن تقرأ بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كما ثبت عن النبى ﷺ.

عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الوتر بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فى ركعة ركعة»(٢).

يعنى: فى كل ركعة سورة منها.

۞ وأما عن القنوت فى الوتر فاعلم أنه من المُستحب أن نَقنُت فى صلاة الوتر طوال السَّنة ولا نُخصص يومًا بعينه أو شهرًا بعينه بل هو مُستحب طوال العام.

عن الحسن بن على رضي الله عنهما قال: علمنى رسول الله كلمات أقولهن فى الوتر: **«اللهم اهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت، وتولَّنى فيمن توليت، وبارك لى فيما أعطيت، وقِنى شر ما قضيت، فإنك تقضى ولا يُقضى عليك، إنه لا يذل مَن واليت، تباركت ربنا وتعاليت»**(٣).

وفى رواية: «**ولا يعز مَن عاديت**». وهذا القنوت سُنة فى الوتر.

(١) شرح رياض الصالحين لفضيلة الشيخ ابن عثيمين (٣/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى التعليقات الحسان (٢٤٢٣)، وصفة الصلاة (ص ١٢٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى الإرواء (٤٢٩).

(٢٠٦) باب فضل صلاة الضحى وبيان أقلها وأكثرها وأوسطها والحث على المحافظة عليها

(١١٤٦) عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أوصَاني خَليلي ﷺ بصِيامِ ثَلاثَةِ أيَّامٍ مِن كُلِّ شهر، وركْعَتي الضُّحَى، وأنْ أُوتِرَ قَبل أنْ أرقُد[1].

والإيتار قبل النوم إنما يُسْتَحَبُّ لمن لا يَثِقُ بالاستيقاظ آخر الليلِ فإنْ وَثِقَ فآخِرُ اللَّيل أفْضَلُ.

(١١٤٧) وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «يُصبِحُ عَلَى كُلِّ سُلامَى مِنْ أحدِكُم صدَقَةٌ، فكُلُّ تَسْبِيحة صدقَةٌ، وكُلُّ تَحمِيدة صدقة، وكُل تَهْلِيلةٍ صدَقَةٌ، وكُلُّ تَكْبيرة صدقَةٌ، وأمْرٌ بالمعروفِ صدقةٌ، ونَهْيٌ عنِ المنْكَرِ صدقَةٌ، ويُجْزِئ مِن ذلك ركْعتانِ يركَعُهُما مِن الضحى»[2].

(١١٤٨) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كان رسولُ الله ﷺ يصلِّي الضُّحَى أربَعًا، ويزيدُ ما شاءَ الله[3].

(١١٤٩) وعنْ أُمِّ هانِئٍ فاخِتةَ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: ذهَبْتُ إلى رسولِ الله ﷺ عامَ الفَتْحِ فوجدتُه يَغْتَسِلُ، فلَمَّا فرَغ مِن غُسْلِهِ، صَلَّى ثماني ركعاتٍ، وذلكَ ضُحًى[4].

۞ إن صلاة الضحى لها فضلٌ عظيم.. فهي صلاة الأوابين وهي تُجزئ عن كل مفصل من مفاصلك صدقة:

۞ وسوف أتناول شرح هذا الباب من خلال ذكر فضائل صلاة الضحى ثم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٨١) كتاب الصوم - ومسلم (٧٢١) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧١٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٧) كتاب الصلاة - ومسلم (٣٣٦) كتاب الحيض.

ذكر حكمها ووقتها وعدد ركعاتها... ولنبدأ أولًا بالسؤال عن فضل صلاة الضحى.

س: ما هو فضل صلاة الضحى؟

ج: أما عن فضل صلاة الضحى فإن فضلها عظيم وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة سأكتفى بذكر بعضها.

(١) فهى من أعظم الوسائل التى يؤدى بها العبد شكره لله على تلك النعم:

فعن أبى ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُصبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَركَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى**».... وقد سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٢٠) فأرجو الرجوع إليه بارك الله فيكم.

(٢) وهى صلاة الأوابين:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «أَوْصَانِى خَلِيلِى بِثَلَاثٍ لَسْتُ بِتَارِكِهِنَّ: أَنْ لَا أَنَامُ إِلَّا عَلَى وِتْرٍ، وَأَنْ لَا أَدَعَ رَكْعَتَيِ الضُّحَى فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ، وَصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ»[١].

وعنه قال رسول الله ﷺ: «**لَا يُحَافِظُ عَلَى صَلَاةِ الضُّحَى إِلَّا أَوَّابٌ**». قَالَ: «**وَهِيَ صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ**»[٢].

(٣) وهى وصية النبى ﷺ لأصحابه:

عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: «**أَوْصَانِى حَبِيبِى ﷺ بِثَلَاثٍ، لَنْ أَدَعَهُنَّ مَا عِشْتُ: «بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَبِأَنْ لَا أَنَامَ حَتَّى أُوتِرَ**»[٣].

---

(١) صحيح: رواه ابن خزيمة، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٦٦٤) – وأصله فى الصحيحين.

(٢) حسن: رواه الحاكم، وابن خزيمة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٢٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٢٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) ومَن صلاها أربعًا كفاه الله يومه :

۞ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ الْغَطَفَانِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: « يَا ابْنَ آدَمَ صَلِّ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَوَّلَ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ »(١).

(٥) وهى أعظم ثوابًا من سرية غنمت وأسرعت الرجعة :

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبى ﷺ جيشًا فأعظم الغنيمة، وأسرعوا الكَرَّة، فقال رجل: يا رسول الله، مَا رَأَيْنَا بَعثًا قَطُّ أَسْرَعَ كَرَّةً، وَلَا أَعظَمَ مِنْهُ غَنِيمَةً مِنْ هَذَا الْبَعثِ، فَقَالَ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَسْرَعَ كَرَّةً مِنْهُ، وَأَعظَمَ غَنِيمَةً؟ رَجُلٌ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ تَحَمَّلَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ الْغَدَاةَ، ثُمَّ عَقَّبَ بِصَلَاةِ الضَّحوَةِ، فَقَد أَسْرَعَ الْكَرَّةَ، وَأَعظَمَ الْغَنِيمَةَ»(٢).

(٦) ومَن صلاها بعد أن صلى الصبح فى جماعة وجلس يذكر الله حتى تطلع الشمس فله أجر حجة وعمرة تامة.

۞ وذلك لما ورد فى الحديث: «مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ»(٣).

(٧) ومن خرج لصلاتها فأجره كأجر المعتمر:

۞ عن أبى أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحرِمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلَاةٍ لا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ»(٤).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٤٢).

(٢) حسن: رواه أبو يعلى، وابن حبان، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٥٣١).
ومعنى «أسرع كَرَّة» أى: رجعة.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صَحِيح الْجَامِع: (٦٣٤٦)، وصَحِيح التَّرغِيبِ وَالتَّرهِيب: (٣٤٠٣).

(٤) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٨).
ومعنى: « لا يَنْصِبُهُ » أى: لا يُخرجه ويعانى مشقته إلا إياه.

(٨) ومن صلاها أربعًا ؛ بُنى له بيت فى الجنة.

قال ﷺ: « **مَنْ صَلَّى الضُّحَى أَربَعًا وَقَبْلَ الأُولَى أَربَعًا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الجَنَّةِ** »(١).

س : ما حكم صلاة الضحى؟

ج: اختلف أهل العلم فى حكم صلاة الضحى...ولكن الصحيح الذى دلَّت عليه الأحاديث والآثار أن صلاة الضحى تُستحب مُطلقًا ويُستحب المواظبة عليها.

س : ما هو وقت صلاة الضحى؟

ج: يبتدئ وقت صلاة الضحى من بعد شروق الشمس بثلث ساعة تقريبًا ويستمر إلى قُبيل صلاة الظهر بثلث ساعة تقريبًا.... لكن فعلها فى آخر الوقت أفضل.. وذلك لقول النبى ﷺ: «**صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ حِينَ تَرمَضُ الْفِصَالُ**»(٢).

والفِصال: أولاد النوق .. وتَرمَضُ يعنى: تشتد عليها الرمضة وهذا فى آخر الوقت.

س : ما هو عدد ركعاتها؟

ج: لا شك فى أن أقل عدد لركعات الضحى هو ركعتان لحديث: «...**وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَركَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى** »(٣).... ولحديث أبى هريرة: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ -منها -...ورَكْعَتَيِ الضُّحَى...»(٤).

ثم اختلفوا فى أكثر صلاة الضحى على أقوال:

فبعضهم يقول: أكثرها ثمان ركعات.. ومنهم مَن يقول: أكثرها اثنتا عشرة ركعة.. ومنهم مَن يقول: لا حَدَّ لعددها.

---

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٤٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٤٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١١٧٨) كتاب التهجد - ومسلم (٧٢١) كتاب صلاة المسافرين.

وذهب آخرون إلى أن أفضلها أربع ركعات.

لحديث أبى الدرداء عن النبى ﷺ عن الله تعالى: « يَا ابْنَ آدَمَ صَلِّ لِى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَوَّلَ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ »(١).

ولحديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أنه كان يصلى الضحى أربع ركعات»(٢).

وغيرها من الأحاديث - والله أعلم -.

فينبغى للإنسان أن يغتنم عمره بصالح الأعمال، لأنه سوف يندم إذا جاءه الموت أن أمضى ساعة من دهره لا يتقرب بها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

كل ساعة تمر عليك وأنت لا تتقرب إلى الله بها فهى خسارة؛ لأنها ضاعت عليك لم تنتفع بها... فانتهز الفرصة بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والتعلُّق بالله عَزَّ وَجَلَّ... اجعل قلبك دائمًا مع الله سبحانه وتعالى ... ربك فى السماء وأنت فى الأرض لا تغفل عن ذكر الله بقلبك ولسانك وجوارحك.. فإن الدنيا زائلة لن تبقى لأحد. انظر إلى مَن سبقك من الأمم السابقة والماضية البعيدة المدى، وانظر إلى مَن سبقك من أصحابك، بالأمس كانوا معك يتمتعون، ويأكلون كما تأكل، ويشربون كما تشرب، والآن هم فى أعمالهم مُرتَهنون، وأنت سيأتى عليك هذا اليوم ... طالت الدنيا أم قصرت.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

فانتهز الفرصة يا أخى... انتهز الفرصة، فإنه لا ينفعك يوم القيامة مالٌ ولا بَنون ولا أهل، لا ينفعك إلا أن تأتى الله بقلبٍ سليم... أسأل الله أن يجعلنى وإياكم ممن يأتى ربه بقلبٍ سليم وأن يتوفانا على الإيمان والتوحيد، إنه على كل شىء قدير(٣).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٤٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧١٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ١٩٧) بتصرف.

(٢٠٧) باب تجويز صلاة الضحى من ارتفاع الشمس إلى زوالها .. والأفضل أن تُصلَّى عند اشتداد الحر وارتفاع الضحى

(١١٥٠) عن زيدِ بن أرقم رضي الله عنه أَنَّهُ رَأى قَوْمًا يُصَلُّونَ مِن الضُّحَى، فقال: أمَا لقَد عَلِمُوا أنَّ الصَّلاَة في غَيْرِ هذهِ السَّاعةِ أفْضَلُ، إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «صَلاةُ الأوَّابينَ حينَ ترمَضُ الفِصَالُ»[1].

۞ قال الإمام النووي رحمه الله: قوله ﷺ: «صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ حِينَ تَرمَضُ الْفِصَالُ»... يُقَالُ رَمِضَ يرمَضُ كَعَلِمَ يَعلَمُ ... وَالرَّمْضَاءُ: الرَّملُ الَّذِى اشْتَدَّتْ حَرَارَتُهُ بِالشَّمْسِ أَىْ حِينَ يَحترِقُ أَخْفَافُ الْفِصَالِ وَهِىَ الصِّغَارُ مِنْ أَوْلَادِ الْإِبِلِ -جَمْعُ فَصِيل- مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الرَّمْلِ ... وَالْأَوَّابُ: الْمُطِيعُ. وَقِيلَ: الرَّاجِعُ إِلَى الطَّاعَةِ ... وَفِيهِ فَضِيلَةُ الصَّلَاةِ هَذَا الْوَقْتَ ... قَالَ أَصحَابُنَا: هُوَ أَفْضَلُ وَقْتِ صَلَاةِ الضُّحَى ... وَإِنْ كَانَتْ تَجُوزُ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى الزَّوَالِ[2].

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.
«تَرمَضُ» يعنى: شدة الحرِّ.
«والفِصالُ» جمعُ فَصيل، وهو: الصغير مِن الإِبِل.
(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ٤٣-٤٤).



(٢٠٨) باب الحث على صلاة تحية المسجد وكراهية الجلوس قبل أن يصلي ركعتين في أي وقتٍ دخل وسواء صلى ركعتين بنية التحية أو صلاة فريضة أو سُنة راتبة أو غيرها

(١١٥١) عن أبى قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إذا دخل أحدُكم المسْجِدَ، فلا يجْلِسْ حتَّى يُصَلِّيَ ركْعَتينِ»[١].

(١١٥٢) وعنْ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وهو فى المسْجِدِ، فقال: «صَلِّ ركْعَتين»[٢]

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: فِيهِ اسْتِحبَابُ تَحِيَّةِ الْمَسْجِدِ بِرَكْعَتَيْنِ وَهِيَ سُنَّةٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ... وَفِيهِ التَّصرِيحُ بِكَرَاهَةِ الْجُلُوسِ بِلَا صَلَاةٍ وَهِيَ كَرَاهَةُ تَنْزِيهٍ ... وَفِيهِ اسْتِحبَابُ التَّحِيَّةِ فِي أَيِّ وَقْتٍ دَخَلَ وَهُوَ مَذْهَبُنَا وَبِهِ قَالَ جَمَاعَةٌ... وَكَرِهَهَا أَبُو حَنِيفَةَ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ فِي وَقْتِ النَّهْيِ وَأَجَابَ أَصحَابُنَا أَنَّ النَّهيَ إِنَّمَا هُوَ عَمَّا لَا سَبَبَ لَهُ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بَعدَ الْعَصرِ رَكْعَتَيْنِ قَضَاءَ سُنَّةِ الظُّهْرِ فَخَصَّ وَقْتَ النَّهْيِ وَصَلَّى بِهِ ذَاتَ السَّبَبِ وَلَمْ يَتْرُكِ التَّحِيَّةَ فِى حَالٍ مِنَ الْأَحوَالِ بَلْ أَمَرَ الَّذِى دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخطُبُ فَجَلَسَ أَنْ يَقُومَ فَيَركَعَ رَكْعَتَيْنِ مَعَ أَنَّ الصَّلَاةَ فِى حَالِ الْخُطْبَةِ مَمْنُوعٌ مِنْهَا إِلَّا التَّحِيَّةَ[٣].

يعنى حتى لو دخل أثناء الخطبة ... لما رواه مسلم فى صحيحه أن النبي ﷺ قال: « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ، فَلْيَركَع رَكْعَتَيْنِ، وَلْيَتَجَوَّزْ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٦٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧١٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٣) كتاب الصلاة - ومسلم (٧١٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) مسلم بشرح النووى (٥/ ٣١٧).

فِيهِمَا »[١].

يعنى: يُخففهما؛ لأجل أن يستمع للخطبة. وإذا كان الرسول ﷺ أمره أن يصلى حال الخطبة مع أن استماع الخطبة واجب، كان ذلك أذانًا بأن تحية المسجد واجبة... ولولا أن النصوص دلَّت على عدم الوجوب، لقلنا إنها واجبة، لكنها سُنة مؤكدة.

أما حديث: «**إذا صعد الخطيب المنبر فلا صلاة ولا كلام**» فهو حديث ضعيف جدًّا. ضعفه الهيثمى فى المجمع[٢] والحافظ فى الفتح[٣] وقال الألبانى: حديث باطل[٤].

ولقد دخل أبو ذر رضي الله عنه المسجد فقال له النبى ﷺ: «**أركعت ركعتين؟**».

قال: لا. قال: «**قم فاركعهما**»[٥]. وترجم عليه ابن حبان: أن تحية المسجد لا تفوت بالجلوس، وله أيضًا أن يصليهما فى جميع الأوقات حتى فى أوقات النهى بعد الفجر وبعد العصر؛ لأنها صلاة من ذوات الأسباب كصلاة الطواف والخسوف.

فَلَوْ كَانَتِ التَّحِيَّةُ تُتْرَكُ فِى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ لَتُرِكَتِ الْآنَ لِأَنَّهُ قَعَدَ وَهِىَ مَشْرُوعَةٌ قَبْلَ الْقُعُودِ وَلِأَنَّهُ كَانَ يَجْهَلُ حُكْمَهَا وَلِأَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَطَعَ خُطْبَتَهُ وَكَلَّمَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يُصَلِّىَ التَّحِيَّةَ ... فَلَوْلَا شِدَّةُ الِاهْتِمَامِ بِالتَّحِيَّةِ فِى جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ لَمَا اهْتَمَّ عليه السلام هَذَا الِاهْتِمَامَ ... وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَنْوِىَ التَّحِيَّةَ بَلْ تَكْفِيهِ رَكْعَتَانِ مِنْ فَرْضٍ أو سُنة راتبة أو غيرهما ... ولو نَوَى بِصَلَاتِهِ التَّحِيَّةَ وَالْمَكْتُوبَةَ انْعَقَدَتْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٧٥) كتاب الجمعة.
(٢) مجمع الزوائد (٢/ ١٨٤).
(٣) فتح البارى (٢/ ٤٠٩).
(٤) السلسلة الضعيفة (٨٧).
(٥) رواه ابن حبان فى صحيحه - كما فى الفتح (١/ ٥٣٨).

صَلَاتُهُ وَحَصَلَتَا لَهُ وَلَوْ صَلَّى عَلَى جِنَازَةٍ أَوْ سَجَدَ شُكْرًا أَوْ لِلتِّلَاوَةِ أَوْ صَلَّى رَكْعَةً بِنِيَّةِ التَّحِيَّةِ لَمْ تَحصُلْ التَّحِيَّةُ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ مَذْهَبِنَا[(١)].

۞ فإذا دخلت بعد صلاة الفجر صلِّ ركعتين.. بعد صلاة العصر صلِّ ركعتين...عند غروب الشمس صلِّ ركعتين... عند طلوع الشمس صلِّ ركعتين، لا تجلس... إذا دخلت والإمام يخطب صلِّ ركعتين... إذا دخلت والناس تستمع إلى درس صلِّ ركعتين ... فى أى حالٍ وفى أى وقت، لا بد أن تصلى ركعتين، لكن يُستثنى من ذلك:

أولًا: إذا دخل الخطيب فإنه لا يُسَن للخطيب أن يصلى ركعتين، بل يعمد إلى المنبر ويُسلم على الناس ويخطب.

الثانى: إذا دخل المسجد الحرام للطواف، فإنه يُجزئه الطواف عن صلاة الركعتين. وأما مَن دخل المسجد الحرام للصلاة فإنه كغيره من المساجد يصلى تحية المسجد.

وما اشتهر بين العامة أن تحية المسجد الطواف، هذا لا أصل له.

بل يُقال: مَن دخل المسجد الحرام ليطوف أجزأه الطواف عن تحية المسجد، ومَن دخل لاستماع درس أو انتظار فريضة أو ما أشبه ذلك فهو كغيره من المساجد، لا يجلس حتى يصلى ركعتين[(٢)].



(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ٣١٧-٣١٨).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ١٩٨، ١٩٩) بتصرف.

(٢٠٩) باب استحباب ركعتين بعد الوضوء

(١١٥٣) عن أبى هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال لِبلالٍ: «يا بِلالُ حَدِّثْنى بأرجَى عَمَل عَمِلْتَهُ فى الإسلامِ، فإنِّى سمعتُ دَفَّ نعلَيْكَ بيْنَ يَدىَّ فى الجنَّةِ» قال: مَا عَمِلْتُ عملاً أرجَى عِنْدِى مِن أنِّى لَم أتطَهَّر طُهُورًا فى سَاعَةٍ مِن لَيْلٍ أَوْ نَهارٍ إلا صَلَّيْتُ بذلكَ الطُّهورِ ما كُتِبَ لى أنْ أُصَلِّىَ[١].

۞ ففي هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال لبلالٍ رضي الله عنه.. وقد كان النبى ﷺ يحب بلالًا واتخذه مؤذنًا له.. فكان بلالٌ أول مؤذنٍ فى الإسلام وأخبره النبى ﷺ أن الجنة تشتاق إليه فقال ﷺ: **«اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: عليٍّ وعمار وبلال»**[٢].

الله أكبر...!!! الجنة تشتاق لبلال...!!!

كيف استطاع بلال رضي الله عنه بعد تلك البشرى أن تحمله قدماه ليمشى على الأرض بين الناس؟!

فمنذ فترة يسيرة كان عبدًا حبشيًّا والآن أصبح معروفًا فى الأرض، بل وفى السماوات حتى اشتاقت الجنة إليه.

۞ **وهنا قال النبى ﷺ لبلال: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنى بِأَرجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهِ فِى الْإِسْلَامِ، فَإِنِّى سَمِعتُ دَفَّ نَعلَيْكَ بَيْنَ يَدَىَّ فِى الْجَنَّةِ».**

أى: سمعت صوت تحريك نعليك أمامى فى الجنة.

وكان من المتوقع أن يقول بلالٌ: إن أرجى أعمالى هو جهادى معك فى سبيل الله يا رسول الله ﷺ.. أو: هو مُحافظتى على الصلوات الخمس .. أو هو الأذان الذى أرفعه كل يومٍ خمس مرات.. لكنه قال للنبى ﷺ أمرًا آخر.. قال له:

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٩) كتاب التهجد - ومسلم (٢٤٥٨) كتاب فضائل الصحابة.
«الدَّفُّ» بالفاء: صَوْتُ النَّعلِ وحَرَكَتُهُ على الأرضِ، والله أعلم.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٩٨) المناقب - والحاكم (٣/ ١٣٧)، وصححه ووافقه الذهبى.

مَا عَمِلْتُ عملاً أرجَى عِنْدِى مِن أنّى لَم أتَطَهَّر طُهُورًا فى سَاعَةٍ مِن لَيْلٍ أوْ نَهارٍ إلا صَلَّيْتُ بذلكَ الطُّهورِ ما كُتِبَ لى أنْ أُصَلِّىَ.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: مَعناهُ قَدَّرَ اللهُ لِى ... وَفِيهِ فَضِيلَةُ الصَّلاَةِ عَقِبَ الْوُضُوءِ وَأَنَّهَا سُنَّةٌ وَأَنَّهَا تُبَاحُ فِى أَوْقَاتِ النَّهْىِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَاسْتِوَائِهَا وَغُرُوبِهَا وَبَعدَ صَلاَةِ الصُّبْحِ وَالْعَصرِ لِأَنَّهَا ذَاتُ سَبَبٍ وَهَذَا مذهبنا(١).

۞ قلت: وهذا كله ثمرة من ثمرات المداومة على العمل الصالح.

والجزاء من جنس العمل.

قال ابن حجر فى الفتح: لما مشى بالأذان بين يدى النبى ﷺ فاتفق مثله فى الجنة. ولا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ دُخُولُ بِلَالٍ الْجَنَّةَ قَبْلَ النَّبِىِّ ﷺ لِأَنَّهُ فِى مَقَامِ التَّابعِ وَكَأَنَّهُ أَشَارَ ﷺ إِلَى بَقَاءِ بِلَالٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِى حَالِ حَيَاتِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَى قُربِ مَنْزِلَتِهِ وَفِيهِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِبِلَالٍ(٢).

۞ فيُستحب لك كلما توضأت أن تصلى ركعتين أو أكثر .. وهذا على وجه الاستحباب وليس فرضًا عليك.

فينبغى لك إذا توضأت أن تصلى ركعتين أو أكثر فى أى وقتٍ كان .. حتى لو كان ذلك بعد الفجر أو بعد العصر .. واحرص على أن تُقبل بقلبك على هاتين الركعتين لتفوز بمغفرة الذنوب وجنة علّام الغيوب.

قال ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لا يَسْهُو فِيهِمَا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تقدَّم من ذنبه**»(٣).

وقال ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ يُقْبِلُ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**»(٤).

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٩).

(٢) فتح البارى (٣/ ٤٣).

(٣) حسن: رواه أحمد وأبو داود والحاكم وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٦٥).

(٤) صحيح: رواه النسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٦٦).

(٢١٠) باب فضل يوم الجمعة ووجوبها والاغتسال لها والتطيب والتبكير إليها والدعاء يوم الجمعة والصلاة على النبي ﷺ فيه وبيان ساعة الإجابة، واستحباب إكثار ذكر الله بعد الجمعة

۞ وقبل أن أخبرك بما ينبغى فعله يوم الجمعة فإنه ينبغى أن أخبرك ببعض فضائل يوم الجمعة.

إن يوم الجمعة هو خير يومٍ طلعت عليه الشمس .. فهو يومٌ عظيم مبارك... وهو أفضل أيام الأسبوع فهو عيد المسلمين الأسبوعى.

وهو اليوم الذى خُصَّت به هذه الأمة، وأضل الله عنه اليهود والنصارى، فاليهود كان لهم السبت، والنصارى كان لهم الأحد، فكانوا تبعًا لنا مع أنهم قبلنا فى الزمن، وهذا من فضائل هذه الأمة ولله الحمد.

بل لقد أقسم الله تعالى به فى كتابه فقال سبحانه: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٢، ٣].

قال أبو هريرة: «اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة»(١).

۞ قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة: ٩، ١٠]

فخاطب الله المؤمنين أن يتركوا البيع إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة،

---

(١) الحديث رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى الصحيحة تحت حديث (١٥٠٢)، وهداية الرواة: (١٣١١).

والمراد به النداء الثانى الذى يكون إذا حضر الإمام ...أما النداء الأول فإن عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما كَثُر الناس فى المدينة أمر أن يُؤذَّن أذان سابق ليستعد الناس للحضور ... فكان هذا من سُنة الخليفة الراشد عثمان الذى أُمرنا باتباع سنته كما قال النبى ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِى وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعدِى»(١).

۞ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والمراد بذكر الله: الخطبة والصلاة ... أما الخطبة فيذكر الله فيها بالتشهد وذكر الأحكام والموعظة وغير ذلك ... وأما ذكر الله فى الصلاة فهذا ظاهر:

﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ اتركوا البيع، ولهذا إذا نُودى للصلاة من يوم الجمعة حُرم البيع إلا على مَن لا تجب عليه كالنساء مثلًا، وأما مَن تجب عليه الجمعة فإنه يَحرُم عليه البيع ولو باع لم يَصِح... حتى لو كان فى طريقه إلى المسجد، وسمع أذان الجمعة ومعه زميلٌ له فتبايعا فإن البيع باطل لا ينتقل به المبيع إلى المشترى ولا الثمن إلى البائع لأنه باطل ... وكل شىء نهى الله عنه فهو باطل لقول النبى ﷺ: «كُلُّ شَرطٍ لَيْسَ فِى كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ»(٢).

﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعنى خير لكم من البيع لأن فيه إقامة شعيرة من شعائر الإسلام وقيامًا بواجبٍ فهو خير من البيع.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعنى إن كنتم من ذوى العلم فاعلموا أنه خير.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعنى انتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله فى البيع والشراء لكن لا يُلهيكم ذلك عن ذكر الله.

ولهذا قال: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ يعنى: لا تظنوا أنكم إذا فرغتم من ذكر الله فى الخطبة والصلاة أنكم انتهيتم من ذكر الله... لا... فذكر الله فى كل حال وفى كل وقت وفى كل مكان(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٥٥) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٠٤) كتاب العتق.
(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٠٠، ٢٠١) بتصرف كبير.

(١١٥٤) وعنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «خيْرُ يوْمٍ طلَعَتْ عليهِ الشمسُ يوْمُ الجُمُعةِ: فيهِ خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدخِلَ الجنَّةَ، وفيه أُخْرِجَ مِنْها»(١)

۞ قَالَ الْقَاضِى عِيَاضٌ: الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ الْمَعْدُودَةَ لَيْسَتْ لِذِكْرِ فَضِيلَتِهِ لِأَنَّ إِخْرَاجَ آدَمَ وَقِيَامَ السَّاعَةِ لَا يُعَدُّ فَضِيلَةً وَإِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ وَمَا سَيَقَعُ لِيَتَأَهَّبَ الْعَبْدُ فِيهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِنَيْلِ رَحمَةِ اللهِ وَدَفْعِ نِقْمَتِهِ... وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بن العربى فِى كِتَابِهِ الْأَحوذِىِّ فِى شَرحِ التِّرمِذِىِّ: الْجَمِيعُ مِنَ الْفَضَائِلِ وَخُرُوجُ آدمَ مِنَ الْجَنَّةِ هُوَ سَبَبُ وُجُودِ الذُّرِّيَّةِ وَهَذَا النَّسْلِ الْعَظِيمِ وَوُجُودِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا طَرْدًا بَلْ لِقَضَاءِ أَوْطَارٍ ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهَا .. وَأَمَّا قِيَامُ السَّاعَةِ فَسَبَبٌ لِتَعجِيلِ جَزَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ وَإِظْهَارِ كَرَامَتِهِمْ وَشَرَفِهِمْ ... وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ فَضِيلَةُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَمَزِيَّتُهُ عَلَى سائر الأيام(٢).

۞ قوله ﷺ: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة**»، والمراد بذلك خير يوم من أيام الأسبوع ... وإنما قلنا هذا لئلا يتعارض مع قول النبى ﷺ: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم عرفة**»، فإن يوم عرفة أفضل باعتبار العام، وهذا أفضل باعتبار الأسبوع.

۞ «**فيهِ خُلِقَ آدمُ**» .. فآدم عليه السلام هو أبو البشر.. خلقه الله بيده... خلقه من ترابٍ ونفخ فيه من روحه ثم قال له: كُن فكان.. وكان خلقُ آدم فى يوم الجمعة.. وبعد خلق حواء من آدم عليه السلام أُدخلا الجنة أيضًا فى يوم الجمعة.. وهى جنة المأوى وأباح الله لهما كل شيءٍ من نعيم الجنة ما عدا شجرة واحدة.

فقال تعالى: ﴿**وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩] ... ولكن الشيطان ظل يوسوس لهما

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٥٤) كتاب الجمعة.
(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٠٢-٢٠٣).

ليأكلا من تلك الشجرة.. وأقسم لهما أنهما إذا أكلا من تلك الشجرة فسوف يحصل لهما الخُلد والمُلك الذى لا يفنى ولا يَبلى.. وما زال بهما حتى أكلا من تلك الشجرة ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

فلما أكلا من تلك الشجرة بدت لهما سوءاتهما وصار كل واحدٍ منهما ينظر إلى عورته ثم أمرهما الله عَزَّوَجَلَّ بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض بمعصية واحدة.

ولكن اعلموا أن آدم تاب إلى الله هو وزوجه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢٢]، فكان بعد التوبة خيرًا منه قبل التوبة.

وهذا درسٌ لنا.. فقد أُخرج آدم وحواء من الجنة بمعصية واحدة فكيف بنا نحن وقد امتلأت حياتنا بالذنوب والمعاصى... فواجبٌ علينا أن نُسارع إلى التوبة والعودة إلى الله (جل وعلا).

۞ فهذا فضل يوم الجمعة.. فيه خُلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.. وفيه أُدخل الجنة وفيه أُخرج منها.. ولا نظن أن خروج آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجنة هو وحواء كان شرًّا.. بل كان فيه خيرٌ كثير.. فلولا ذلك ما وُجدت تلك البشرية وما بُعث هؤلاء الرسل والأنبياء للناس.. فمن آمن عاد مع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الجنة مرة أخرى يوم القيامة.. ومَن كفر حُرم من دخول الجنة.

۞ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى الرواية الأخرى: «**لا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة**».

ولما كانت الساعة تقع فى هذا اليوم فإنَّ المخلوقات فى كل يوم جمعة تكون مشفقةً خائفةً إلَّا الإنس والجن.

قال ﷺ: «**خيرُ يومٍ طَلعتْ فيه الشَّمسُ يومُ الجُمعةِ، فيه خُلقَ آدمُ، وفيه أُهبط، وفيه تِيبَ عليه، وفيه قُبِضَ، وفيه تقومُ السَّاعةُ، ما على وجه الأرض منْ دابَّة إلا وهى تُصبِحُ يومَ الجُمعةِ مُصيخةً**[1]**؛ حتى تطلُع الشَّمسُ شفَقًا منَ السَّاعةِ؛ إلا ابنَ آدم، وفيه ساعةٌ لا يُصادفُها عبدٌ مُؤمنٌ وهو فى الصَّلاةِ يسأل الله شيئًا إلا أعطاهُ إيَّاهُ**»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**خَيرُ يومٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يوْمُ الْجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِي مُصِيخَةٌ يوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ حِينَ تُصبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجِنَّ وَالإِنْسَ**»[3].

(١١٥٥) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قالَ: قال رسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ تَوضَّأَ فأحسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ أتى الجُمُعَةَ، فاسْتَمَعَ وأنْصَتَ، غُفِرَ لهُ ما بَيْنَهُ وبينَ الجمُعةِ وزِيَادة ثلاثةِ أيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الحَصَى فقَد لَغَا**»[4].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) منتظرة قيام الساعة.

(٢) صحيح: رواه مالك وأحمد والترمذى عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٣٤).

(٣) حسن: رواه ابن خزيمة، وابن حبان، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٦٩٧).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٨٥٧) كتاب الجمعة.

(١١٥٦) وعن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الصَّلواتُ الخَمْسُ والجُمُعةُ إلى الجُمعَةِ، ورمَضَانُ إلى رَمضانَ، مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهُنَّ إذا اجْتُنِبَتِ الكبائرُ»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١١٥٧) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّهما سَمِعَا رسولَ الله ﷺ يقولُ عَلى أعوادِ مِنبَرِهِ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقْوامٌ عنْ وَدعِهِمُ الجُمُعاتِ، أوْ لَيَخْتِمَنَّ الله على قُلُوبِهم، ثُمَّ ليَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلين»[٢].

۞ وهنا يأتي الترهيب من ترك صلاة الجمعة.. فقد توعَّد النبي ﷺ مَن ترك صلاة الجمعة بأن يُطبَع على قلبه وأن يكون من الغافلين وأن يُكتَب من المنافقين.

قال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهاوُنًا مِنْ غَيرِ عُذْرٍ طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ»[٣].

۞ وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعَاتٍ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ كُتِبَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ»[٤].

۞ قوله ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقْوامٌ عنْ وَدعِهِمُ الجُمُعاتِ» وهذا فيه من التهديد والوعيد ما فيه.. فقد جمع الله عَزَّوَجَلَّ من العقوبات على ترك صلاة الجمعة الكثير والكثير.. وحسبُنا أن مَن ترك ثلاث جُمعٍ تهاونًا فإنه «يُختم على قلبه..» وفي روايه أنه «يُطبع على قلبه» ويكون من الغافلين ويُكتب من المنافقين – عياذًا بالله– ولذا قال ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقْوامٌ عنْ وَدعِهِمُ الجُمُعاتِ» أي: عن تركهم صلاة الجمعة مرة بعد مرة.

«أوْ لَيَخْتِمَنَّ الله على قُلُوبِهم» فلا يصير فيها تأهُّل لقبول الهدى ولا استعداداً

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٦٥) كتاب الجمعة.

(٣) صحيح: رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٣).

(٤) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٤).

لتلقِّى الأنوار...والمعنى: ليكونن أحد الأمرين: الانتهاء عن تركهم الجمعة أو الختم على قلوبهم.

قال الإمام النووى رحمه الله: وَفِيهِ أَنَّ الْجُمُعَةَ فَرضُ عَيْنٍ ... وَمَعنَى الْخَتْمِ الطَّبْعُ والتغطية... قَالُوا فِى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى طبع وَمِثْلُهُ الرَّيْنُ ... فَقِيلَ الرَّيْنُ الْيَسِيرُ مِنَ الطَّبْعِ وَالطَّبْعُ الْيَسِيرُ مِنَ الْإِقْفَالِ وَالإِقْفَالُ أَشَدُّهَا... قَالَ الْقَاضِى: اخْتَلَفَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِى هَذَا اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَقِيلَ هُوَ إِعدَامُ اللُّطْفِ وَأَسْبَابُ الْخَيْرِ ... وقَالَ غَيْرُهُمْ: هُوَ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِمْ ... وَقِيلَ: هُوَ عَلَامَةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى فِى قُلُوبِهِمْ لِتَعرِفَ بِهَا الْمَلَائِكَةُ مَنْ يُمدَح ومن يُذَم(١).

(١١٥٨) وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا جاءَ أحدُكم الجُمُعة، فليَغْتَسِلْ»(٢)

(١١٥٩) وعن أبى سعيدٍ الخُدرِى رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «غُسْلُ يَوْمِ الجُمُعةِ واجِبٌ على كلِّ مُحتَلِمٍ»(٣)

(١١٦٠) وعن سَمُرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الجمعةِ فَبِها ونِعمَت، ومَن اغتسَلَ فالغُسْل أفضَلُ»(٤).

۞ اختلفت آراء العلماء فى حكم الغُسل يوم الجمعة على قولين.

فذهب فريقٌ منهم إلى استحباب الغُسل يوم الجمعة، مُستدلين على ذلك بقوله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأحسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨٧٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٤) كتاب الجمعة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٨٧٩) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٦) كتاب الجمعة.

المرادُ بالمُحتَلِم: البَالِغُ - والمرادُ بالوجُوب: وجُوبُ اختيارٍ، كقولِ الرَّجُلِ لِصاحبِهِ: حقُّكَ واجبٌ علىَّ، والله أعلم.

(٤) حسن: رواه أحمد والترمذى وأبو داود وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٨٠).

بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ»(١) فقد رتَّب الثواب الحاصل على ما ذُكر مع الوضوء... لكن يُجاب على هذا الدليل أنه لم ينفِ الغُسل بدليل أنه ذكر فى نفس الحديث أن النبى ﷺ قال: «**مَنْ اغتَسَلَ ثُمَّ أَتَى الجُمُعَة..**».

قال الحافظ: (وقد ورد من وجهٍ آخر فى الصحيحين بلفظ «اغتسل» -أى بدلًا من «توضأ» فيُحتمل أن يكون ذكر الوضوء لمن تَقدَّم غُسله على الذهاب، فاحتاج إلى إعادة الوضوء)(٢). انتهى.

ومما استدلوا به قوله ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَبِهَا وَنِعمَتْ، وَمَنِ اغْتَسَلَ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ**»(٣).

والجواب: أنه ليس فى هذا الحديث دليل على استحباب الغسل ونفى وجوبه، بل هو مُفاضَلة بين الوضوء والغسل. فالغسل أفضل لأنه الواجب، والوضوء أقل ما يُجزئ به الصلاة.

۞ وأما الفريق الثانى: فقد ذهب إلى وجوب غسل يوم الجمعة وهو الراجح للأمر به، وللتصريح بوجوبه.

فأما الأمر به فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل**»(٤).

وأما التصريح بالوجوب: ففى حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**غُسْلُ يَوْمِ الْجُمْعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كلِّ مُحتَلِمٍ**»(٥).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٥٧) كتاب الجمعة.

(٢) فتح البارى (٢/ ٢٦٢).

(٣) حسن: رواه أحمد والترمذى وأبو داود وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٨٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٨٧٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٤) كتاب الجمعة.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٨٧٩) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٦) كتاب الجمعة.

المرادُ بالمُحتَلِم: البَالِغ - والمرادُ بالوجُوب: وجُوبُ اختيارٍ، كقولِ الرَّجُلِ لِصاحبِهِ: حقُّكَ واجبٌ علىَّ، والله أعلم.

والقول بالوجوب رجحه شيخنا الألباني ورجحه شيخنا ابن عثيمين(١).

۞ ذهب بعض أهل العلم إلى أن الغسل إن كان واجبًا فإنما يجب على مَن يذهب لحضور الجمعة، وأما مَن لا يذهب إلى الجمعة، فلا غُسل عليه مُستدلين بحديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**إذا جاءَ أحدُكُم الجُمُعةَ، فليَغْتَسِلْ**»(٢).

قالوا: فلما كانت الجمعة لا تجب على النساء فكذلك لا يجب عليهن الغُسل لها.

وحكمة مشروعية الغسل والسواك، والطِّيب -العطر- والتجمُّل بأحسن الثياب يوم الجمعة أن يكون المصلي على أكمل حال وأطيبه فلا يتأذى به أحد؛ ولأن الملائكة تقف على أبواب المساجد يكتبون الأول فالأول فربما صافحوه أو لمسوه(٣).

۞ **الحاصل أن القول الراجح وجوب غُسل الجمعة، لكن لو لم يغتسل، فهل تَبطُل الجمعة؟ لا، لا تبطل؛ لأن هذا ليس غُسل حَدَث، حتى نقول إنه صلى بغير طهارة، بل هو غُسلٌ واجبٌ من غير حَدَث، ولهذا لا يُغني عن غسل الجنابة...لو أن الإنسان اغتسل للجمعة وهو عليه غسل جنابة وما نوى غسل الجنابة لم يُجزئه؛ لأن غُسل الجمعة ليس عن حَدَثٍ بخلاف غُسل الجنابة.**

(١١٦١) وعنْ سَلمَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**لا يَغْتَسِلُ رجُلٌ يَوْمَ الجُمُعةِ، ويَتَطَهرُ ما استَطاعَ مِنْ طُهْرٍ، ويَدَّهِنُ مِن دُهْنِهِ، أو يَمَسُّ مِن طِيبِ بَيتِهِ، ثُمَّ**

(١) تمام المنة للألباني رَحِمَهُ اللهُ والشرح الممتع لابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٧٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٤) كتاب الجمعة.

(٣) الدين الخالص (٤/ ١٣٢).

يَخْرُجُ فلا يُفرِّق بَيْنَ اثنين، ثُمَّ يُصلِّي ما كُتِبَ له، ثُمَّ يُنْصِتُ إذا تكلَّم الإمَامُ، إلا غُفِرَ لهُ ما بَيْنَهُ وبيْنَ الجُمُعةِ الأخرَى»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٨٣٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١١٦٢) وعنْ أبي هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «مَن اغْتَسَلَ يَوْم الجُمُعةِ غُسْل الجَنابةِ، ثُمَّ راحَ في الساعةِ الأولى، فكأنَّمَا قرَّبَ بَدَنَةً، ومَنْ راحَ في السَّاعةِ الثانيةِ، فكأنَّما قرَّبَ بقَرَةً، ومَنْ راحَ في السَّاعةِ الثَّالثةِ فكأنَّما قرَّبَ كَبْشًا أقرَنَ، ومَن راحَ في السَّاعةِ الرَّابعةِ، فكأنَّما قَرَّبَ دَجاجَةً، ومَن راحَ في السَّاعةِ الخامِسةِ فكأنَّما قرَّبَ بَيْضَةً، فإذا خرَجَ الإمامُ، حضرَتِ الملائكةُ يَسْتمِعُون الذِّكْر»(٢).

۞ قَالَ الأَزْهَرِيُّ: لُغَةُ الْعَرَبِ الرَّوَاحُ الذَّهَابُ سَوَاءٌ كَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ أَوْ آخِرَهُ أَوْ فِي اللَّيْلِ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَدِيثُ ... وَالْمَعنَى لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَكْتُبُ مَنْ جَاءَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى وهو كالمُهدي بَدَنَةً وَمَنْ جَاءَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ ثُمَّ الثَّالِثَةِ ثُمَّ الرَّابِعَةِ ثُمَّ الْخَامِسَةِ وَفِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ السَّادِسَةِ فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طَوَوْا الصُّحُفَ وَلَمْ يَكْتُبُوا بَعدَ ذَلِكَ أَحَدًا .. وَمَعلُومٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْجُمُعَةِ مُتَّصِلًا بِالزَّوَالِ وَهُوَ بَعدَ انْفِصَالِ السَّادِسَةِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنَ الْهَديِ وَالْفَضِيلَةِ لِمَنْ جَاءَ بَعدَ الزَّوَالِ وَلِأَنَّ ذِكْرَ السَّاعَاتِ إِنَّمَا كَانَ لِلْحَثِّ فِي التَّبْكِيرِ إِلَيْهَا وَالتَّرغِيبِ فِي فَضِيلَةِ السَّبْقِ وَتَحصِيلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَانْتِظَارِهَا وَالِاشْتِغَالِ بِالتَّنَفُّلِ وَالذِّكْرِ وَنَحوِهِ ... وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَحصُلُ بِالذَّهَابِ بَعدَ الزَّوَالِ وَلَا فَضِيلَةَ لِمَنْ أَتَى بَعدَ الزَّوَالِ لِأَنَّ النِّدَاءَ يَكُونُ

(١) صحيح: رواه البخاري (٨٨٣) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٨١) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٠) كتاب الجمعة.
قَوْله: «غُسلَ الجَنَابة»، أي: غُسلاً كغُسْل الجنَابَةِ في الصِّفَةِ.

حِينَئِذٍ.. وَيَحرُمُ التَّخَلُّفُ بَعدَ النِّدَاءِ وَاللهُ أَعلَمُ وَاختَلَفَ أَصحَابُنَا هَل تَعيِينُ السَّاعَاتِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ أَمْ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالْأَصَحُّ عِنْدَهُمْ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ ثُمَّ إِنَّ مَنْ جَاءَ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ مِنْ هَذِهِ السَّاعَاتِ وَمَنْ جَاءَ فِي آخِرِهَا مُشْتَرِكَانِ فِي تَحصِيلِ أَصلِ الْبَدَنَةِ وَالْبَقَرَةِ وَالْكَبْشِ وَلَكِنْ بَدَنَةُ الْأَوَّلِ أَكْمَلُ مِنْ بَدَنَةِ مَنْ جَاءَ فِي آخِرِ السَّاعَةِ وَبَدَنَةُ الْمُتَوَسِّطِ مُتَوَسِّطَةٌ وَهَذَا كَمَا أَنَّ صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاةِ الْمُنْفَرِدِ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ...وَمَعلُومٌ أَنَّ الْجَمَاعَةَ تُطْلَقُ عَلَى اثْنَيْنِ وَعَلَى أُلُوفٍ فَمَنْ صَلَّى فِي جَمَاعَةٍ هُمْ عَشَرَةُ آلَافٍ لَهُ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَمَنْ صَلَّى مَعَ اثْنَيْنِ لَهُ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ لكن درجات الأول أكمل ... وأشباه هذا كثيرة مَعرُوفَةٌ[1].

❁ فمن اغتسل يوم الجمعة غُسل الجنابة.. أي: كغُسل الجنابة

ثم راح يعنى فى الساعة الأولى، فكأنما قرب بدنة، يعنى: كأنما ذبح بدنة -ناقة- ووزعها على الفقراء...ومَن راح فى الثانية فكأنما قرب بقرة... ومَن راح فى الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن... وخَصَّ الكبش بالأقرن؛ لأنه أقوى وأكبر حجمًا.

ومَن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة... ومَن راح فى الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا حضر الإمام طُويت الصحف ولم يُكتب للحاضر شىء من الأجر إلا أجر الصلاة العادية... فإذا دخل الإنسان بعد أن دخل الإمام فإنه لا يُكتب له أجر التقدُّم... ولكن يُكتب له أجر الخُطا من بيته إلى المسجد.

وفى هذا دليل على أنه ينبغى للمسلم أن يذهب إلى يوم الجمعة مبكرًا ليفوز بهذا الأجر العظيم.



(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ١٩٤).

(١١٦٣) وعن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ ذكر يَوْمَ الجُمُعةِ، فقال: «فيها سَاعَةٌ لا يُوافِقها عَبْدٌ مُسلِمٌ، وهُو قائِمٌ يُصَلِّي يسأَلُ الله شيئًا إلا أعطاهُ إيَّاه» وأشار بيدِهِ يُقَلِّلُها[1].

(١١٦٤) وعن أبي بُردةَ بنِ أبي مُوسَى الأشعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ عَبْدُ الله بنُ عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَسَمِعتَ أبَاكَ يُحَدِّثُ عن رسُولِ الله ﷺ في شأنِ ساعَةِ الجُمُعةِ؟ قالَ: قلتُ: نعم، سَمِعتُه يقُولُ: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقُولُ: «هي ما بيْنَ أنْ يجلِسَ الإمامُ إلى أنْ تُقْضَى الصَّلاةُ»[2].

۞ فينبغي للمؤمن أن يتحرى هذه الساعة بالعبادة والذكر والاستغفار والدعاء ... فإن الدعاء في ذلك الوقت مُستجاب.

۞ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « **التَمِسُوا الساعةَ الّتِي تُرجَى فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ بَعدَ العَصرِ إِلَى غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ** »[3].

۞ وعن عبد الله بن سلام قال: قلت ورسول الله ﷺ جالس: إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِ اللهِ: «فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا قَضَى لَهُ حَاجَتَهُ» . قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَأَشَارَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوْ بَعضُ سَاعَةٍ**» ، فَقُلْتُ: صَدَقْتَ، أَوْ بَعضُ سَاعَةٍ. قُلْتُ: أَيُّ سَاعَةٍ هِيَ؟ قَالَ: «**هِيَ آخِرُ سَاعَاتِ النَّهَارِ**» . قُلْتُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ سَاعَةَ صَلَاةٍ، قَالَ: «**بَلَى. إِنَّ العَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا صَلَّى ثُمَّ جَلَسَ، لا يَحبِسُهُ إِلَّا الصَّلاةُ، فَهُوَ فِي الصَّلاةِ**»[4].

۞ وعن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: « **يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً، لا يُوجَدُ فِيهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ ، فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعدَ**

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩٣٥) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٥٢) كتاب الجمعة.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٨٥٣) كتاب الجمعة.
(٣) حسن: رواه الترمذي، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٧).
(٤) حسن صحيح: رواه ابن ماجه، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٧٠٢): حسن صحيح.

الْعَصرِ»(١).

۞ قال الإمام ابن القيم بعد أن ذكر الاختلاف فى تعيين هذه الساعة: وأرجح هذه الأقوال قولان تضمنتها الأحاديث الثابتة.

الأول: أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة؛ لحديث ابن عمر فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال: «**هِىَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ**»(٢) والقول الثانى أنها بعد العصر، وهذا أرجح القولين(٣).

(١١٦٥) وَعَنْ أَوسِ بنِ أَوسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَفضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فأَكثروا عليَّ مِنَ الصَّلاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلاتَكُمْ مَعروضَةٌ عليَّ**»(٤).

۞ ولا شك أن النبى ﷺ أحب إلينا من أنفسنا وآبائنا وأمهاتنا وأبنائنا وله حقٌّ كبير علينا .. فمن حقه ﷺ أن نُكثر من الصلاة عليه فى كل وقت وأن نُكثر من الصلاة عليه فى يوم الجمعة بالذات لأنه هو الذى أمرنا بذلك ... ولا بد أن نعلم أن النبى ﷺ ليس بحاجة إلى صلاتنا عليه بل نحن الذين نحتاج إلى أن نصلى عليه لأن مَن صلى على النبى ﷺ مرة واحدة صلى الله عليه عشر مرات وغفر ذنبه وفرَّج همه.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صَحِيح الْجَامِع (٨١٩٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٥٣) كتاب الجمعة.

(٣) زاد المعاد (١/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٤) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائى، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢١٢).

(٢١١) باب استحباب سجود الشكر عند حصول نعمة ظاهرة أو اندفاع بليَّة ظاهرة

(١١٦٦) عنْ سعدِ بن أبى وقَّاصٍ ﵁ قالَ: خَرَجْنَا معَ رسُولَ الله ﷺ مِن مكَّة نُريدُ المدينةَ، فلَمَّا كُنَّا قريبًا من عَزْوَراءَ نزلَ ثُمَّ رَفعَ يدَيْهِ، فدعَا الله سَاعَةً، ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا، فمَكَثَ طَويلاً، ثُمَّ قامَ فرَفَعَ يَدَيْهِ ساعةً، ثمَّ خرَّ ساجِدًا - فعلهُ ثلاثًا - وقال: «إنِّى سألْتُ رَبِّى، وشَفَعتُ لأُمَّتى، فأعطانى ثُلُثَ أُمَّتِى، فخَررتُ ساجدًا لِرَبِّى شُكرًا، ثُمَّ رَفَعتُ رأسِى، فسألتُ ربِّى لأُمَّتى، فأعطانى ثُلثَ أُمَّتى، فخررتُ ساجدًا لربِّى شُكرًا، ثم رَفَعت رأسى فسألتُ رَبِّى لأُمَّتى، فأعطانى الثُّلُثَ الآخَرَ، فخَرَرتُ ساجدًا لِرَبِّى»[١].

۞ وعلى الرغم من ضعف هذا الحديث إلا أنه ورد أحاديث أخرى تدل على أن سجود الشكر له أصلٌ فى سُنة رسول الله ﷺ .. ولذا أقول:

إن الله يحب من عباده أن يشكروه على نعمه التى لا تُعد ولا تُحصى... فإذا بشَّرك أحدٌ بما يَسُرك أو أخبرك بحصول نعمة أو زوال مصيبة فإنه يُستحب لك أن تسجد شكرًا لله (جل وعلا).

عن أبى بكرة ﵁: «أن النبى ﷺ كان إذا أتاه أمرٌ يَسُرُّه، أو بُشِّر به خَرَّ ساجدًا شكرًا لله تعالى»[٢].

وثبت فى الصحيحين أن كعب بن مالك سجد لما جاءته البشرى بتوبة الله عليه[٣].

وعند أحمد أن عليًّا سجد حين وجد ذا الثدية فى قتلى الخوارج[٤]، وهى

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٠٨٩).

(٢) حسن: رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى الإرواء (٤٧٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤١٨) كتاب المغازى، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

(٤) رواه أحمد (٨٥٠)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

صفة أخبر عنها النبى ﷺ عن واحدٍ منهم... فلما رأى علىٌّ رضي الله عنه تلك العلامة سجد لله شكرًا.

۞ ولا بد أن تعلم أنه لا يُشترط الوضوء لسجود الشكر ولا استقبال القبلة وأنه لا يُكره سجود الشكر فى أوقات النهى لأنه ليس بصلاة.

وأنه ليس هناك صلاة بعينها اسمها صلاة الشكر وإنما الوارد هو سجود الشكر.

فيُستحب أن نسجد سجدة شكرٍ عند حصول نعمة ظاهرة أو اندفاع بلاءٍ ظاهر.

فنعم الله لا تُعَدُّ ولا تُحصَى.. وهناك نِعَمٌ مستمرة كنعمة الصحة والعقل والنَّفس وغيرها من النعم.

لكن هناك نِعَمٌ متجددة كالنجاح أو الزواج أو البُشرى بالولد أو غيرها.. فيُستحب لك أن تسجد شكرًا لله إذا علمت بتلك النعمة ... فمثلًا إذا بُشر أحدكم بالولد فإنه يسجد لله كما يسجد فى الصلاة ويقول: سبحان ربى الأعلى، سبحانك اللهمَّ ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى... ثم يشكر الله على النعمة المعينة التى حصلت، فيقول: أشكرك يا ربى على هذه النعمة ويُثنى على الله تعالى فى ذلك.

۞ كذلك يسجد لله شكرًا عند اندفاع المصائب والابتلاءات.

فمثلًا .. إنسان يسير فى الشارع وكادت سيارة أن تصدمه لولا أن جذبه إنسان من يده فأنقذه فإنه يسجد شكرًا لله ثم يشكر الذى أنقذه.. وهكذا.

۞ لكن هل يُشترط الطهارة والوضوء لهذه السجدة؟ ... كلا .. لا تُشترط لأن هذه الأشياء تحدث فجأة وقد يكون الإنسان على غير وضوء .. فلو ذهب يتوضأ لطال الفصل بين السبب ومُسببه.. فعليه أن يسجد شكرًا ولو كان على غير وضوء.

(٢١٢) باب فضل قيام الليل

۞ قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦]. وقال تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧].

لا بد أن نعلم أن المؤمن الذى امتلأ قلبه بحب الله (جل وعلا) لا يكتفى بأداء الفرائض بل يجتهد فى الإكثار من النوافل لأنه يريد أن يفوز بمحبة الله (جل وعلا) فقد قال تعالى فى الحديث القدسى: «... **وما يزالُ عَبْدى يَتَقَرَّبُ إلىَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحبَّه، فَإِذَا أَحببْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذى يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتى يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ التى يَمْشى بِهَا، وإنْ سَألَنى لأعطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتعَاذَنِى لأُعيذَنَّهُ...**»[1].

۞ ومن المعلوم أن من أعظم النوافل التى يتقرب بها العبد إلى الله هى قيام الليل.. فقيام الليل شرف المؤمن وهو دأب الصالحين وقُربة إلى الله تعالى وهو من أعظم أسباب زيادة الإيمان ومن أسباب نعيم القبر والفوز بشفاعة القرآن يوم القيامة ومن أسباب دخول الجنة والارتقاء فى درجاتها.

۞ وقد ذكر الله (سبحانه وتعالى) الثناء على القائمين فى الليل، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ ﴾ أى: صلِّ به فى سائر أوقاته. ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أى: لتكون صلاة الليل، زيادة لك فى عُلو القدر، ورفع الدرجات بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرضٌ عليك، وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرضٌ عليك بالخصوص، ولكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك، المقام

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

المحمود، وهو المقام الذى يَحمدك فيه، الأولون والآخرون... مقام الشفاعة العُظمى، حين يتشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى. وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ﷺ، ليرحمهم الله، من هول الموقف، وكربه. فيشفع عند ربه، فيُشفِّعه، ويُقيمه مقامًا، يغبطه به، الأولون والآخرون. وتكون له المنة على جميع الخلق[1].

وذلك حين يقف الناس فى أرض المحشر لا يجدون مَن يشفع لهم عند ربهم لبدء الحساب...فقد طال عليهم الوقوف فى أرض المحشر وهم حُفاة عُراة والشمس فوق رؤوسهم وقد فاض العرق على أجسادهم حتى آذاهم.فيذهب الناس إلى آدم ثم إلى نوح ثم إلى إبراهيم ثم إلى موسى ثم إلى عيسى (عليهم الصلاة والسلام) فلا يشفعون لهم... فإذا ذهبوا إلى الحبيب المصطفى ﷺ شفع لهم جميعًا لبدء الحساب فتحمده كل الخلائق فى ذلك اليوم العصيب.

❊ ❊ ❊

۞ وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾؛ أى: ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة فى الليل، ومُناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾؛ أى: فى جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾؛ أى: جامعين بين الوصفين، خوفًا أن تُرد أعمالهم، وطمعًا فى قبولها ... خوفًا من عذاب الله، وطمعًا فى ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الرزق، قليلاً أو كثيرًا ﴿يُنفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المُنفَق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المُستحبة فى وجوه

(١) تفسير السعدى (ص٥٣٤).

الخير، والنفقة والإحسان المالي، خيرٌ مُطلَقًا، سواء وافق فقيرًا أو غنيًّا، قريبًا أو بعيدًا، ولكن الأجر يتفاوت، بتفاوت النفع ... فهذا عملهم[١].

۞ وفى الآية الثالثة وصف الله عَزَّوَجَلَّ حال أهل القيامة بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات: ١٧].

فمن أفضل أنواع الإحسان فى عبادة الخالق، صلاة الليل، الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كَانُوا۟﴾ أى: المحسنون ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أى: كان هجوعهم أى: نومهم بالليل، قليلًا .. وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتَضرُّع.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ التى هى قبيل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الله تعالى...فمَدُّوا صلاتهم إلى السَّحَر، ثم جلسوا فى خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه... وللاستغفار بالأسحار، فضيلة وخصيصةٌ، ليست لغيره، كما قال تعالى فى وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[٢].

(١١٦٧) وعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقُومُ مِن اللَّيْلِ حتَّى تَتَفَطَّر قدَمَاهُ، فقُلْتُ لهُ: لِمَ تَصنَعُ هذا يا رسُولَ الله وقَد غُفِرَ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أكُونُ عَبْدًا شكُورًا»[٣].

(١١٦٨) وعنْ المغيرةِ بنِ شعبةَ نحوهُ[٤].

۞ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم

(١) تفسير السعدى (ص٧٧٠).
(٢) تفسير السعدى (ص٩٦٢).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٢٠) كتاب صفة القيامة.
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣٠) كتاب التهجد - ومسلم (٢٨١٩) كتاب صفة القيامة.

(٩٩)، (١٠٠) فأرجو الرجوع إليهما.. بارك الله فيكم.

(١١٦٩) وعنْ عليٍّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ طَرَقَهُ وفاطِمَةَ لَيْلاً، فقال: «ألا تُصَلِّيَانِ؟»[(١)].

۞ وها هي رواية الحديث كاملة... عَن عليِّ بن حُسين أن الحُسين بن عليٍّ حَدَّثه عن علي بن أبي طالب؛ أن النبي ﷺ طَرَقه وفاطمة.

فقال: «**ألا تُصَلُّون؟**» فقلت: يا رسول الله! إنما أنفُسنا بيد الله. فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك. ثم سمعته وهو مُدبرٌ يضرب فَخِذَه ويقول: «**وكان الإنسانُ أكثر شيءٍ جدلًا**».

۞ نحن نعلم جميعًا كيف كانت محبة النبي ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه... وكان ﷺ يحب أن يأخذ بأيديهما إلى ما يُرضي الله عز وجل.. ولقد علم النبي ﷺ قدر قيام الليل ومكانته عند ربه عز وجل فأراد أن يُوصيهما بالقيام ... حتى أنه ﷺ لم ينتظر حتى الصباح بل ذهب إليهما في الليل وقال: «**ألا تصليان**».... فقد كانا في فراشهما... فكان الرد السريع من عليٍّ رضي الله عنه: إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا... فانصرف النبي ﷺ ولم يُعاتبه على ذلك لأن الرفق كان شعاره دائمًا ﷺ في حياته كلها.. ومع ذلك فنحن نعلم أن عليًّا وفاطمة رضي الله عنهما اجتهدا بعد ذلك في قيام الليل.

قال ابن جرير: لولا ما علم النبي من عِظَم فضل الصلاة في الليل ما كان يُزعج ابنته وابن عمه في وقتٍ جعله الله لخلقه سكنًا... لكنه اختار لهما تلك الفضيلة على الدعة والسكون[(٢)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٢٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧٧٥) كتاب صلاة المسافرين.
«طرقَهُ»: أتاهُ ليلاً.

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٥٤٩).

۞ وقال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: الْمُخْتَارُ فِى مَعناهُ أَنَّهُ تعَجَّبَ مَنْ سُرعَةِ جَوابِهِ وَعَدَمِ مُوافَقَتِهِ لَهُ عَلَى الِاعتِذَارِ بِهَذَا .. وَلِهَذَا ضَرَبَ فَخِذَهُ .. وَقِيلَ: قَالَهُ تَسْلِيمًا لِعُذْرِهِمَا وَأَنَّهُ لَا عَتْبَ عَلَيْهِمَا ... وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى صَلَاةِ اللَّيْلِ وَأَمْرُ الْإِنْسَانِ صَاحِبَهُ بِهَا وَتَعَهُّدُ الْإِمَامِ وَالْكَبِيرِ رَعِيَّتَهُ بِالنَّظَرِ فِى مَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأَنَّهُ يَنْبَغِى لِلنَّاصِحِ إِذَا لَمْ يَقْبَلْ نَصِيحَتَهُ أَوِ اعتَذَرَ إِلَيْهِ بِمَا لَا يَرتَضِيهِ أَنْ يَنْكَفَّ وَلَا يُعَنِّفَ إِلَّا لمصلحة[1].

***

(١١٧٠) وعنْ سالِم بنِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم عن أبيهِ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «نِعمَ الرَّجلُ عَبدُ الله لو كانَ يُصلِّى مِنَ اللَّيْلِ» قالَ سالِمٌ: فكَانَ عَبدُ الله بعدَ ذلكَ لا ينامُ مِنَ اللَّيْلِ إلا قليلاً[2].

۞ وهذا الحديث له قصة جميلة وردت فى أصل روايته وهى: عَنْ سَالِمٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِى حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذَا رَأَى رُؤْيَا، قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.. فَتمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا أَقُصُّهَا عَلَى النَّبِىِّ ﷺ، قَالَ: وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا عَزَبًا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِى الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَأَيْتُ فِى النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِى فَذَهَبَا بِى إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِىَ مَطْوِيَّةٌ كَطَىِّ الْبِئْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرنَانِ كَقَرنَىِ الْبِئْرِ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَد عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ النَّارِ، قَالَ فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ فَقَالَ لِى: لَمْ تُرَع، فَقَصَصتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ، عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «نِعمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّى مِنَ اللَّيْلِ» قَالَ سَالِمٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللهِ، بَعدَ ذَلِكَ، لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا[3].

---

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٩٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٢٢) كتاب التهجد - ومسلم (٢٤٧٩) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١١٢٢) كتاب التهجد - ومسلم (٢٤٧٩) كتاب فضائل الصحابة.

۞ فكانت تلك الكلمة التى قالها النبى ﷺ: «**نِعمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّى مِنَ اللَّيْلِ**» لما عرضت عليه حفصة رضي الله عنها ما رآه ابن عمر فى ذلك المنام المذكور... ولما سمع ابن عمر رضي الله عنهما تلك الكلمة غيَّرت مجرى حياته كلها.. فكان ابنه سالم يقول: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا.. مع أن النبى ﷺ لم يأمره بقيام الليل ولم يُوجبه عليه بل قال: «**نِعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل....**» فأرجو أن تقارن بين حال ابن عمر الذى سمع تلك الكلمة فكان لا ينام بعد ذلك إلا قليلًا... وبين مَن أمره النبى ﷺ بالصلاة فتركها وببر الوالدين فعقَّهما .. وبين مَن أمرها النبى ﷺ بالحجاب فتبرجت!!!

قال القرطبى: إنما فسَّر الشارع من رؤيا عبد الله ما هو محمود لأنه عُرض على النار ثم عُوفى منها، وقيل له: لا روع عليك وذلك لصلاحه... وفيه جواز الثناء على مَن أُمن عليه الإعجاب ... وقال المهلب: إنما فسرها بقيام الليل لأنه لم يرَ شيئًا منه يغفل عنه من الفرائض فيُذكَّر بالنار .. وعلم مبيته فى المسجد فعبَّر ذلك بأنه مُنبه على قيام الليل.. وفى الحديث إيماء إلى أن قيام الليل يُنجى من النار، وفيه تَمنِّى الخير[١].

❊ ❊ ❊

(١١٧١) وعنْ عبدِ الله بن عمرو بن العاصِ رضي الله عنهما قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**يا عَبْدَ الله، لا تكن مِثْلَ فُلانٍ، كانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فترَكَ قِيامَ اللَّيْلِ**»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊ ❊ ❊

(١) دليل الفالحين (٣/ ٥٤٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٥٢) كتاب التهجد - ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(١١٧٢) وعنْ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكِر عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ نامَ لَيْلَةً حتى أصبحَ، قال: «ذاكَ رَجُلٌ بالَ الشَّيْطانُ فى أُذُنَيهِ ـ أو قال: فى أُذُنِهِ»[١].

۞ ففى هذا الحديث ذُكر عند النبى ﷺ رجل نام حتى أصبح.

وقوله: (حتى أصبح) أى: حتى طلع الصبح، ولم يتهجد. ويحتمل حتى أصبح أى فاتته صلاة الفجر... فقال النبى ﷺ: «**ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه - أو قال: فى أذنيه**». لما بال لم يسمع النداء... لما بال فى أذنيه حال بينه وبين سماع النداء فلم يَقُم.

۞ فدلَّ هذا على فوائد:

أولًا: أن الشيطان يبول؛ لأن النبى ﷺ قال: «**بال الشيطان فى أذنه**».

ثانيًا: أنه يأكل ويشرب، وهذا ثبت أيضًا عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله**»[٢] أيضًا ثبت عن النبى ﷺ أن الشيطان يتقيأ ... فإن رجلًا أكل طعامًا ولم يُسمِّ، فشاركه الشيطان فيه... وذلك لأنك إذا بدأت فى الطعام ولم تُسمِّ الله شاركك الشيطان، فلما سَمَّى الرجل قال النبى ﷺ: «**تقيأ الشيطان ما أكله**» تقيأه، يعنى: أخرجه من جوفه.

فهذه أربعة أشياء: البول، الأكل، والشرب، التقيؤ ... يجب علينا أن نؤمن بها كما أخبر بها النبى ﷺ، وأن نؤمن بأنها حق على حقيقتها؛ لأن:

(١) الرسول ﷺ هو أعلم الخلق فى أمور الغيب.

(٢) هو أنصح الخلق للأمة.

(٣) أنه أصدق الخلق (عليه الصلاة والسلام) لا يمكن أن ينطق بكلام وهو يريد خلاف ظاهره أبدًا ... إذًا الشيطان يأكل ويشرب ويتقيأ ويبول، ولكن هل بوله

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٧٠) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٧٧٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

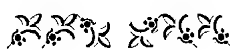
وقيؤه وأكله وشربه شيء محسوس يُشاهَد؟ لا ، لا يُشاهَد ... فنؤمن بذلك ونقول: هذه أمور غيبية لا نعرف شيئًا عن كيفيتها ولا نعرف عنها شيئًا من واقع الأمر المحسوس.

وفي الحديث دليل: أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على قيام الليل حتى لا يكون للشيطان عليه سبيلًا[1].

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله ﷺ: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيهِ» اختلفوا في معناه فقال ابن قُتَيْبَةَ: مَعناهُ أَفْسَدَهُ ... يُقَالُ: بَالَ فِي كَذَا إِذَا أَفْسَدَهُ.

وَقَالَ الْمُهَلَّبُ وَالطَّحَاوِيُّ وَآخَرُونَ: هُوَ اسْتِعَارَةٌ وَإِشَارَةٌ إِلَى انْقِيَادِهِ لِلشَّيْطَانِ وَتَحَكُّمِهِ فِيهِ وَعَقْدِهِ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِهِ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ وإذلاله له ... وَقِيلَ: مَعنَاهُ اسْتَخَفَّ بِهِ وَاحتَقَرَهُ وَاسْتَعلَى عَلَيْهِ ... يُقَالُ لِمَنِ اسْتَخَفَّ بِإِنْسَانٍ وَخَدَعَهُ: بَالَ فِي أُذُنِهِ وَأَصلُ ذَلِكَ فِي دَابَّةٍ تَفعَلُ ذَلِكَ بِالْأَسَدِ إِذْلَالًا لَهُ ... وَقَالَ الْحَرِبِيُّ: مَعنَاهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ وَسَخِرَ مِنْهُ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ قَالَ: وَخَصَّ الْأُذُنَ لِأَنَّهَا حَاسَّةُ الِانْتِبَاهِ[2].



(١١٧٣) وعنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «يَعقِدُ الشَّيْطانُ على قافِيَة رأسِ أحدِكُم إذا هُوَ نامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضرب على كلِّ عُقدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَويلٌ فارقُد، فإنْ اسْتَيْقظَ فذكرَ الله تعالَى انحلَّت عُقْدَةٌ، فإنْ توضَّأَ انحلَّت عُقدَةٌ، فإن صلَّى انحلَّت عُقَدُهُ كُلُّها، فأصبَحَ نشِيطًا طيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصبَحَ خَبيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ»[3].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) مسلم بشرح النووي (٦/ ٩١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٢) كتاب التهجد، ومسلم (٧٧٦) كتاب صلاة المسافرين
«قافيةُ الرَّأسِ» : آخِرُهُ.

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الشيطان يعقد على قافية أحدنا إذا نام ثلاث عُقد.. فيعقد تلك العُقد ويُحكمها إحكامًا شديدًا ويضرب على كل عُقدة وهو يقول: عليك ليلٌ طويلٌ فارقُد.. وذلك من أجل أن يُثبطه عن القيام وفعل الطاعات وذكر الله وتلاوة القرآن فى جوف الليل وأن يحرمه من صلاة الصبح فى جماعة.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِى هَذِهِ الْعُقَدِ فَقِيلَ: هُوَ عَقْدٌ حَقِيقِىٌّ بِمَعنَى عَقْدِ السِّحرِ لِلإِنْسَانِ وَمَنْعِه مِنَ الْقِيَام ... قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ فَعَلَى هَذَا هُوَ قَوْلٌ يَقُولُهُ يُؤَثِّرُ فِى تَثْبِيطِ النَّائِمِ كَتَأْثِيرِ السِّحرِ ... وَقِيلَ: يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِعلًا يَفْعَلُهُ كَفِعلِ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ ... وَقِيلَ: هُوَ مِنْ عَقْدِ الْقَلْبِ وَتَصمِيمِهِ فَكَأَنَّهُ يُوَسْوِسُ فِى نَفْسِهِ وَيُحَدِّثُهُ بِأَنَّ عَلَيْكَ لَيْلًا طَوِيلًا فَتَأَخَّر عَنِ الْقِيَامِ ... وَقِيلَ: هُوَ مَجَازٌ كَنَّى به عَنْ تَثْبِيطِ الشَّيْطَانِ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ[١].

فإذا قام الإنسان فذكر الله عَزَّوَجَلَّ انحلَّت عُقدة.. وهذا من أمور الغيب التى نؤمن بها وإن لم نُدركها بحواسنا.. إذا ذكر الإنسان ربه عَزَّوَجَلَّ انحلَّت العقدة الأولى.. وإذا توضأ انحلَّت العقدة الثانية.. فإذا صلى انحلَّت العُقدة الثالثة... فعلى الرغم من تلك العُقد التى عقدها الشيطان وأحكمها إحكامًا شديدًا إلا أنها لم تصمد أمام ذكر الله أو الوضوء أو الصلاة.

فما أسهل ذلك... اذكر الله، قل: لا إله إلا الله...الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، واقرأ عشر آيات فى آخر سورة آل عمران..توضأ، تنحلّ عقدتان ... صلِّ تنحلّ العُقد الثلاثة ... ولهذا يُستحب أن الإنسان يفتتح قيام الليل بركعتين خفيفتين؛ لأن النبى ﷺ أمر بذلك؛ ولأنه هو نفسه ﷺ كان يفعل ذلك، يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين، لأن ذلك أسرع فى حَلِّ عُقد الشيطان.

---

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٩٣-٩٤).

۞ فإذا ذكر الإنسان ربه وتوضأ وصلى أصبح نشيطًا طيب النفس وذلك لِسُرُورِهِ بِمَا وَفَّقَهُ اللهُ الْكَرِيمُ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ وَوَعَدَهُ بِهِ مِنْ ثَوَابِهِ مَعَ مَا يُبَارِكُ لَهُ فِي نَفْسِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ أُمُورِهِ ..مَعَ مَا زَالَ عَنْهُ مِنْ عُقَدِ الشَّيْطَانِ وتثبيطه.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَإِلَّا أَصبحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ» مَعناهُ لِمَا عَلَيْهِ مِنْ عُقَدِ الشَّيْطَانِ وَآثَارِ تَثْبِيطِهِ وَاسْتِيلَائِهِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يزلْ ذَلِكَ عَنْهُ ... وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَجْمَع بَيْنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ وَهِيَ الذِّكْرُ وَالْوُضُوءُ وَالصَّلَاةُ فَهُوَ دَاخِلٌ فِيمَنْ يُصبِحُ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ .. وَلَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مُخَالَفَةٌ لِقَوْلِهِ ﷺ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسِي» فَإِنَّ ذَلِكَ نَهْيٌ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ هَذَا اللَّفْظَ عَنْ نَفْسِهِ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ صِفَةِ غَيْرِهِ وَاعلَمْ أَنَّ الْبُخَارِيَّ بَوَّبَ لِهَذَا الْحَدِيثِ بَابَ عَقْدِ الشَّيْطَانِ عَلَى رَأْسِ مَنْ لَمْ يُصَلِّ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ الْمَازِرِيُّ وَقَالَ: الَّذِي فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ يَعقِدُ قَافِيَةَ رَأْسِهِ وَإِنْ صَلَّى بَعدَهُ وَإِنَّمَا يَنْحَلُّ عُقَدُهُ بِالذِّكْرِ وَالْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ..

قَالَ: وَيُتَأَوَّلُ كَلَامُ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ اسْتِدَامَةَ الْعُقَدِ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ .. وَجَعَلَ مَنْ صَلَّى وَانْحَلَّتْ عُقَدُهُ كَمَنْ لَمْ يَعقِد عَلَيْهِ لِزَوَالِ أَثَرِهِ(١).

(١١٧٤) وعنْ عبدِ الله بنِ سَلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ، وأَطْعِمُوا الطَّعامَ، وصَلُّوا باللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ، تَدخُلُوا الجنَّةَ بِسَلامٍ»(٢).

۞ وهذا الحديث له قصة يحكيها حَبر اليهود وعالمهم عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذى أسلم وكان من أفاضل أصحاب الرسول ﷺ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٩٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٦٥).

قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلاَمَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلاَمٍ».

۞ ففى هذا الحديث يخبر عبد الله بن سلام أنه لما قَدِمَ النبى ﷺ المدينة أسرع الناس لرؤيته.. وكان عبد الله ممن أسرع لرؤية النبى ﷺ.. فلما رأى وجه النبى ﷺ تيقن أن هذا الوجه ليس بوجه كذابٍ وإنما هو وجه الصادق الأمين ﷺ.. فكان أول كلمات قالها النبى ﷺ عند وصوله المدينة: «أَيُّهَا النَّاسُ» خطابٌ عام للناس جميعًا بكلماتٍ جامعة للمعاملة مع الخلق والحق.

«أَفْشُوا السَّلاَمَ» يعنى: أظهروا وأعلنوا وأكثروا من السلام... والسلام يُخاطَب به المُسَلِّم والمُسَلَّم عليه... فإن المُسلِّم ينبغى له أن يُسلم على كل مَن لاقاه ممن يستحق أن يُسَلَّمَ عليه، سواء عرفه، أو لم يعرفه.

والذى يستحق أن يُسلَّم عليه هو المسلم الذى لا يحل هجره.. أمام الكافر فلا تبدأه بالسلام سواء كان كافرًا لا ينتسب للإسلام، أو كان كافرًا ينتسب للإسلام لكنه على بدعة مُكفرة.

«وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ» أى: لمن يحتاج إليه من الفقراء واليتامى والمساكين.. ولكن يجب على المسلم أن يبدأ بالواجب ثم التطوع.. فالواجب أن يُطعم أهله وأولاده ومَن يَلزمه إطعامهم.. لأن إطعام الأهل قيامٌ بالواجب.. والقيام بالواجب أفضل من القيام بالتطوع.. ولذا قال تعالى فى الحديث القدسى: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَا افْتَرَضْتُه عَلَيْهِ»(١).. فإذا أطعمت أهلك وأولادك فتصدق بالباقى على الفقراء واليتامى والمساكين.

«وَصَلُّوا بِاللَّيلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» وما أجمل أن يقوم العبد فى جوف الليل بين يدى ربه يصلى ويبكى ويخشع فى صلاته ويسأل الله عَزَّوَجَلَّ من خيرى الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

وفى هذا الحديث دليلٌ على أن قيام الليل من أسباب دخول الجنة.

ولذا قال ﷺ: «**تدخلوا الجنة بسلام**» تُسلم عليك الملائكة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، يهنئونهم بما صبروا وبهذا الثواب العظيم.

و«**تدخلوا الجنة بسلام**»: ظاهره أنه بلا عقاب ولا عذاب لأن مَن عُذِّب لم يَسلم...فهذه الأمور الثلاثة فى هذا الحديث من أسباب دخول الجنة بسلام.. أسأل الله تعالى أن يعيننى وإياكم عليها، وأن يجعلنا ممن يدخلون الجنة بسلام.

(١١٧٥) وعنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**أفضَلُ الصِّيامِ بَعدَ رمضَانَ شَهْرُ الله المُحَرَّمُ، وأَفْضَلُ الصَّلاةِ بعدَ الفَرِيضَةِ صَلاةُ اللَّيْلِ**»[١].

۞ من المعلوم أن صيام شهر رمضان هو أحد أركان الإسلام.. وهو واجبٌ بالإجماع.. وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن صيام شهر المحرم أفضل الصيام بعد صيام شهر رمضان.. مع أن أكثر الناس يغفلون عن صيامه ولا يصومون منه إلا يوم التاسع والعاشر.

۞ ولعل أحدنا يسأل ويقول: إذا كان النبى ﷺ قد أخبر الأمة أن أفضل صيام بعد رمضان صيام شهر الله المحرم فلماذا لم يَصُم فى المحرم مثل ما كان يصوم فى شعبان؟

۞ **أجاب عن ذلك العلماء بأجوبة:**

(أ، ب) قال النووى: لعلَّه لم يعلم فضل المحرم إلا فى آخر الحياة، قبل التمكن من صومه.

أو لعلَّه كان يعرض فيه أعذار تمنع من إكثار الصوم فيه كسفرٍ أو مرض[٢].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٣) كتاب الصيام.

(٢) مسلم بشرح النووى (٨/ ٧٩).

(جـ) ذهب ابن رجب إلى أن التطوع بالصوم نوعان:

الأول: التطوع المطلق فهذا أفضله المحرم... كما أن أفضل التطوع المطلق بالصلاة قيام الليل.

الثاني: ما كان صومه تبعًا لصيام رمضان قبله أو بعده، فهذا ملتحق بصيام رمضان، وصيامه أفضل من التطوع مطلقًا... كالسنن الرواتب، فإنها أفضل من السنن المطلقة، والله أعلم.

۞ **«وأفْضَلُ الصَّلاةِ بعدَ الفَرِيضَةِ صَلاةُ اللَّيْلِ»**

فصلاة الليل أفضل بكثيرٍ من صلاة النهار فيما عدا السنن الرواتب التابعة للصلوات الخمس.. فالسنن الرواتب أفضل من قيام الليل لأنها سُنة مؤكدة تابعة للفريضة... وأما مُطلق التنفُّل ففى الليل أفضل من النهار... ولهذا كان **«أفْضَلُ الصَّلاةِ بعدَ الفَرِيضَةِ صَلاةُ اللَّيْلِ»**.. وبخاصة فى الثُلث الأخير حين ينزل الحق (جل وعلا) نزولًا يليق بجلاله وكماله إلى السماء الدنيا كما أخبر النبى ﷺ بذلك فقال: **«يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِى يَدعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِى يَسْأَلُنِى فَأُعطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِى يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ»**(١).

(١١٧٦) وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما **أَن النَّبِيَّ** ﷺ **قَالَ: «صَلاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذا خِفْتَ الصُّبْح فَأَوْتِر بواحِدَةٍ»**(٢).

(١١٧٧) وَعَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ **يُصلِّى منَ اللَّيْل مَثْنَى مَثْنَى، وَيُوترُ بِرَكعة**(٣).

۞ ففيه دليل على أن صلاة الليل تكون مَثنى مَثنى... لا يمكن أن تُصلَّى

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧٤٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٩٩٥) كتاب الوتر - ومسلم (٧٤٩) كتاب صلاة المسافرين.

أربعًا، بل لا بد من اثنين ويُسلم، اثنين ويُسلم.

إلا أنه استثنى من ذلك الوتر، إذا أوتر بثلاثٍ أو خمسٍ أو سبعٍ أو تسعٍ، فإذا أوتر بثلاثٍ فإن شاء سلم من الركعتين الأوليين وأتى بالثالثة وحدها، وإن شاء جمع الثلاث جميعًا بسلام واحد. وإن أوتر بخمسٍ سردها كلها بسلامٍ واحدٍ وتَشهُّد واحد، وإن أوتر بسبع كذلك، كلها بسلام واحد، وإن أوتر بتسع كذلك، إلا أنه في الثامنة يجلس ويتشهد ولا يُسلم، ثم يأتي بالتاسعة ويُسلم .. وإن أوتر بإحدى عشرة، سلم من كل ركعتين، كما فعل النبي ﷺ.

وفي حديث ابن عمر الأول والثاني دليل أن الوتر لا يكون بعد طلوع الفجر، إذا طلع الفجر انتهى وقت الوتر، فإن غلبه النوم ولم يوتر قبل طلوع الفجر صلى من النهار، لكن يصلي شفعًا ... فإن كان من عادته أن يُوتر بثلاثٍ صلى أربعًا، وإن كان من عادته أن يُوتر بخمسٍ صلى ستًّا... وهَلُمَّ جَرًّا[1].

(١١٧٨) وعنْ أَنسٍ رضي الله عنه قالَ: **كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُفطِرُ منَ الشَّهْرِ حتَّى نَظُنَّ أَنْ لاَ يَصُومَ مِنهُ، ويَصُومُ حتَّى نَظُن أَن لاَ يُفْطِرَ مِنْهُ شَيْئًا، وَكانَ لاَ تَشَاءُ أَنْ تَراهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إلا رَأَيْتَهُ، وَلا نَائمًا إلا رَأَيْتَهُ**[2].

۞ فقد كان النبي ﷺ يُراوح بين العبادات من صلاة وصيام وغيرهما وكان يتبع ما هو أصلح وأنفع لنفسه في ذلك الوقت.. فأحيانًا كان يُديم الصوم وأحيانًا يُديم الفطر.. وأحيانًا يُديم الصلاة وأحيانًا تراه نائمًا .. فقد كان ﷺ يتبع ما هو أرضى لله (جل وعلا) وما هو أفضل لنفسه وبدنه ﷺ.

۞ ومعنى ذلك أنه ﷺ ما كان يُعيِّن بعض الليل للنوم وبعضه للصلاة كأصحاب الأوراد وكذا الصوم، بل كان يخالف بين أوقاتهما ليكونا مُشقين على

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٢١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤١) كتاب التهجد - ومسلم (١١٥٨) كتاب الصيام.

النفس لا عادتين لها..فإنه إذا صام مدة صار عادة له واطمأنت له النفس، فإذا أفطر كان شاقًّا عليها وكذا عكسه ...قال الحافظ ابن حجر: لم يكن لتهجُّده ﷺ وقتٌ مُعين بل بحسب ما يتيسر له القيام، ولا يعارضه قول أنس: «كان إذا سمع الصارخ قام» لأنه محمول على ما وراء صلاة الليل...وحديث الباب محمول على صلاته، ولا يُعارضه قول عائشة: «كان إذا صلى صلاة داوم عليها» وقولها: «كان عمله ديمة» لأنّ المراد به ما اتخذه راتبًا لا مطلق النفل ... اهـ ملخصًا... وهذه الطريقة المُشار إليها بحديث أنس أعلى طبقات العبادة وأسناها، وهناك طرائق أُخر: فمنهم مَن شَدَّد على نفسه بالمرة فمنعها حقها وحظها، ومنهم مَن أعطاها كليهما.. وخير الأمور أوسطها: إعطاؤها حقها وحظها واستعمالها معه فى خدمة ربها(١).

(١١٧٩) وعنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ كانَ يُصلِّى إحدَى عَشرَةَ رَكْعَةً - تعنى فى اللَّيْلِ - يَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِن ذلك قَدرَ ما يقرأُ أحدُكُمْ خَمْسين آية قَبْلَ أن يَرفَعَ رأسهُ، ويَركَعُ ركعتينِ قَبْل صَلاةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يضْطَجعُ على شِقِّهِ الأيمنِ حتَّى يأتِيَهُ المُنادى للصلاةِ(٢).

(١١٨٠) وعنها قالتْ: ما كان رسُولُ الله ﷺ يَزيدُ - فى رمضانَ ولا فى غَيْرِه - على إحدَى عشرةَ رَكْعةً ، يُصلِّى أربَعًا فلا تسألْ عنْ حُسْنِهنَّ وطولِهنَّ، ثُمَّ يُصَلِّى أربعًا فلا تسألْ عنْ حُسْنِهنَّ وطولهنَّ ، ثُمَّ يُصَلِّى ثلاثًا . فقُلتُ : يا رسُولَ الله أتنامُ قَبْلَ أنْ تُوترَ ؟ فقال : «يا عائشةُ إنَّ عَينىَّ تنامانِ ولا ينامُ قَلبى»(٣).

(١١٨١) وعنها أنَّ النَّبىَّ ﷺ كان ينَامُ أوَّلَ اللَّيْلِ، ويقومُ آخِرهُ فيُصلى(٤).

---

(١) دليل الفالحين (٣/ ٥٥٤-٥٥٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (١١٢٣) كتاب التهجد.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٦) كتاب التهجد - ومسلم (٧٣٩) كتاب صلاة المسافرين.

۞ فهنا تخبر أمنا عائشة عن قيام النبى ﷺ وأنه كان لا يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة.. وأنه كان يُطيل فى قيام الليل حتى كان يسجد السجدة قدر ما يقرأ أحدنا خمسين آية.. وأنه كان يصلى سُنة الفجر فى البيت ثم يضطجع على شِقِّه الأيمن حتى يأتيه المؤذن ليخبره بوقت إقامة الصلاة.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهَا اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحبَابِ الِاضْطِجَاعِ وَالنَّوْمِ عَلَى الشِّقِّ الْأَيْمَنِ ... قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَحِكْمَتُهُ أَنَّهُ لَا يَسْتَغْرِقُ فِي النَّوْمِ لِأَنَّ الْقَلْبَ فِي جَنْبِهِ الْيَسَارِ فَيَعلَقُ حِينَئِذٍ فَلَا يَسْتَغْرِقُ ... وَإِذَا نَامَ عَلَى الْيَسَارِ كَانَ فِي دَعَةٍ وَاسْتِرَاحَةٍ فَيَسْتَغْرِقُ ... قَوْلُهَا: (حَتَّى يَأْتِيهِ الْمُؤَذِّنُ) دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحبَابِ اتِّخَاذِ مُؤَذِّنٍ رَاتِبٍ لِلْمَسْجِدِ[1].

۞ وفيه أيضًا أن الأفضل للإمام ألا يخرج من بيته إلا للإقامة وأن يبقى فى بيته حتى يأتى وقت الإقامة.. هذا إذا كان بيته مُلاصقًا للمسجد ... أما إذا كان البيت بعيدًا عن المسجد فيصلى السُّنة فى المسجد وينتظر الإقامة حتى لا يَشُق على المصلين وحتى يكون فى وجوده فى المسجد تشجيع للمصلين حتى لا يتكاسلوا عن أداء الصلوات المكتوبة.

۞ وفى الحديث الثانى أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سُئلت كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان؟ فأخبرتهم بأنه ﷺ كان لا يزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشرة ركعة.

«يُصلِّى أربَعًا فلا تسأل عنْ حُسْنِهنَّ وطولِهنَّ».. وهنا قد يظن البعض أن النبى ﷺ يصلى أربع ركعاتٍ بسلامٍ واحدٍ.. وهذا خطأ.. بل قد جاء التفصيل فى ذلك بأنه ﷺ يصلى أربع ركعات يُسلم من كل ركعتين.. فمعنى قولها: «يصلى أربع ركعاتٍ» أى: يصلى ركعتين ثم ركعتين ثم يجلس قليلًا ليستريح.. ثم

---

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٧).

يصلى أربع ركعات -ركعتين ثم ركعتين- ثم يجلس قليلًا ليستريح.. ثم يصلى ثلاث ركعات.. إما أنه ﷺ يصليها متصلة بسلامٍ وتشهُّدٍ واحد.. أو أنه كان يصليها ركعتين ويُسلِّم ثم يصلى ركعة الوتر وحدها.

۞ قالت أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله أتنام قبل أن تُوتر؟ فقال ﷺ: «**يا عائشةُ إنَّ عَينىَّ تنامانِ ولا ينامُ قَلبى**».

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله ﷺ: «**إن عينىَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِى**» هَذَا مِنْ خَصَائِصِ الْأَنْبِيَاءِ (صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ) وَسَبَقَ فِى حَدِيثِ نَوْمِهِ ﷺ فِى الْوَادِى فَلَمْ يَعلَمْ بِفَوَاتِ وَقْتِ الصُّبْحِ حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَأَنَّ طُلُوعَ الْفَجْرِ وَالشَّمْسِ مُتَعَلِّقٌ بِالْعَيْنِ لَا بِالْقَلْبِ...وَأَمَّا أَمْرُ الْحَدَثِ وَنَحوِهِ فَمُتَعَلِّقٌ بِالْقَلْبِ وَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ فِى وَقْتٍ يَنَامُ قَلْبُهُ وَفِى وَقْتٍ لَا يَنَامُ فَصَادَفَ الْوَادِى نَوْمَهُ ... وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ(١).

وهذا من كمال أحواله البشرية ﷺ، أن قلبه لا ينام، وهو من خصائص الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا)يدل عليه ما رواه البخارى فى حديث الإسراء من طريق شريك عن أنس: «**وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم**»(٢).

۞ **بعض فوائد الحديث:**

الفائدة الأولى: كمال قلبه ﷺ حيث إن النوم صفة نقص تعترى النفس البشرية ... فلما ثبت لقلبه ﷺ عدم النوم أبدًا، كان ذلك صفة كمال له.

الفائدة الثانية: تعلُّق قلبه ﷺ الدائم بالله عَزَّوَجَلَّ، إذ لو قدر أن يغفل قلبه ﷺ فى حال اليقظة لكان النوم بالنسبة إليه أولى... وأعتقد أن الاتصال الدائم بالله هو الهدف الرئيس من عدم نوم قلوب الأنبياء صلوات الله عليهم جميعًا.

الفائدة الثّالثة: صحة الوحى إلى النبى ﷺ وهو نائم... نقل صاحب الفتح

---

(١) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين.

عن الخطابى قوله: (وإنما مُنع قلبه النوم ليعى الوحى الذى يأتيه فى منامه)[١].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولو لم تكن رؤيا الأنبياء وحيًا لما جاز لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الإقدام على ذبح ولده)[٢].

قلت: ولو لم تكن وحيًا لما أثنى الله على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإقدام على ذبح ابنه ولما أثنى على الابن بالتسليم بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ... والدليل على صحة الوحى إليه ﷺ وهو نائم، أنه كان ينزل عليه القرآن وهو نائم، والقرآن أشرف ما نزل على النبى ﷺ من وحى... روى مسلم: عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثمّ رفع رأسه مُتبسِّمًا فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: «أُنزلت علىَّ آنفًا سورة، فقرأ: بسم الله الرّحمن الرّحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾» .

الفائدة الرّابعة: النوم فى حقه ﷺ غير ناقض للوضوء.. وهذا هو الصحيح، لما ثبت فى الصحيح عن ابن عباس أنه ﷺ نام حتى نفخ ثم قام فصلى ولم يتوضأ. قال الحافظ فى التلخيص الحبير: (لا ينتقض وضوءه ﷺ بالنوم)[٣].

(١١٨٢) وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صَلَّيْتُ معَ النَّبيِّ ﷺ لَيْلَةً، فلَمْ يَزلْ قائمًا حتى هَمَمْتُ بأمْرِ سُوءٍ. قيل: ما هَممْت؟ قال: هَمَمْتُ أنْ أجْلِس وأدعهُ[٤]..

(١١٨٣) وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: صَلَّيْتُ معَ النَّبيِّ ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ، فافْتَتح البقَرة، فقلتُ: يَركَعُ عِنْدَ المائةِ، ثُمَّ مَضى ، فقلتُ: يُصَلِّى بها فى ركعةٍ، فمَضَى، فقلتُ: يَركَعُ بها، ثُمَّ افْتَتح النِّساءَ فقرَأهَا، ثُمَّ افْتَتَح آل عِمران فقرَأها..يقرأُ مُترَسِّلًا إذا مَرَّ

(١) فتح البارى (١/ ٢٣٩).
(٢) فتح البارى (١/ ٢٣٩).
(٣) انظر التلخيص الحبير (٣/ ١٣٥)- نقلًا عن (شمائل الرسول ﷺ) (٢/ ١٤٥-١٤٦).
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣٥) كتاب التهجد - ومسلم (٧٧٣) كتاب صلاة المسافرين.

بآيةٍ فيها تَسْبيحٌ سَبَّح، وإذا مرَّ بسُؤالٍ سأَلَ، وإذا مرَّ بتعوُّذٍ تعَوَّذَ، ثُمَّ ركَعَ، فجعلَ يقُولُ: سُبْحانَ ربِّى العظيم، فكان رُكُوعه نَحوًا مِنْ قِيامِه، ثُمَّ قال: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَه، رَبَّنَا لكَ الحَمْدُ، ثُمَّ قامَ طَويلًا قَريبًا مِمَّا ركع، ثُمَّ سجدَ فقال: سُبْحانَ رَبِّى الأعلى ، فكان سُجودُهُ قَريبًا مِنْ قِيامِهِ[1].

۞ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٠٤)، (١٠٥) فأرجو الرجوع إليهما.. بارك الله فيكم.

(١١٨٤) وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سُئِلَ رسُولُ الله ﷺ: أيُّ الصَّلاةِ أفْضَلُ؟ قال: «طُولُ القُنُوتِ»[2].

۞ ففى هذا الحديث سُئل النبى ﷺ: أى الصلاة أفضل؟ فقال ﷺ: «طُولُ القُنُوتِ» أى: طول القيام بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: للْعَبد بَين يَدى الله موقفان: موقفٌ بَين يَدَيْهِ فِى الصَّلَاة وموقف بَين يَدَيْهِ يَوْم لِقَائِه ... فَمن قَامَ بِحَق الْموقف الأول هَوَّن عَلَيْهِ الْموقف الآخر وَمن استهان بِهَذَا الْموقف وَلم يُوفِّه حقَّه شُدِّد عَلَيْهِ ذَلِك الْموقف ... قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾. اهـ[3].

ولكن لو قال قائل: هل الأفضل فى قراءة الليل أن أُطيل القيام، أو أن أُطيل السجود والركوع؟ قلنا: انظر ما هو أصلح لقلبك...قد يكون الإنسان فى حال السجود أخشع وأحضر قلبًا، وقد يكون فى حال القيام يقرأ القرآن ويتدبر القرآن،

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٥٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.
المرادُ بالقُنُوتِ: القِيامُ.

(٣) الفوائد (ص ٦٠).

ويَحصُل له لطائف من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ما لا يحصل له فى حال السجود، ولكن الأفضل أن يجعل صلاته متناسبة ... إذا أطال القيام أطال الركوعَ والسجودَ، وإذا قصرَ القيام قصر الركوع والسجود، حتى تكون صلاته متناسبة كصلاة النبى ﷺ.

(١١٨٥) وعنْ عبدِ الله بن عمرو بن العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «أحَبُّ الصَّلاةِ إلى الله صَلاةُ داوُدَ، وأحبُّ الصيام إلى الله صِيامُ داوُدَ، كانَ ينامُ نِصفَ اللَّيْلِ ويَقُومُ ثُلُثَهُ وينامُ سُدُسَهُ، ويَصُومُ يَومًا ويُفْطِرُ يَومًا»[1].

۞ كان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ جميل الخَلق والخُلق وله قلبٌ طاهر نقى ... جمع الله له بين المُلك والنبوة.

وكان الله عَزَّوَجَلَّ قد أنزل عليه كتابًا مُقدسًا وهو (الزبور) .. وكان كثير الذكر والتسبيح والعبادة والصلاة وكان ورعًا تقيًّا.

كان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جزَّأ على أهله وولده ونسائه الصلاة فكان لا تأتى عليهم ساعة من الليل أو النهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى[2].

۞ وهنا يقول النبى ﷺ «**أحَبُّ الصَّلاةِ إلى الله صَلاةُ داوُدَ**» أى: قيام الليل.. فإنه كان ينام نصف الليل ليستيقظ وهو فى قمة نشاطه وقوته ويقوم ثُلث الليل بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ ثم ينام سُدسه.. فكان يُقسِّم الليل ثلاثة أقسام: النصف الأول للنوم ثم الثلث للقيام ثم السدس للنوم ... لأن هذا فيه راحة للبدن بعد ذلك القيام الطويل.. فإذا نام سُدس الليل بعد القيام فإن التعب الذى حصل له من القيام يذهب بالنوم الذى ينامه فى آخر الليل.

والنبى ﷺ يذكر هنا الأفضل والأحسن.. لكن الإنسان إذا قام فى أى جزءٍ من الليل فاز بالأجر والثواب وإن كان هناك وقت أفضل من غيره.. ولا شك أن

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣١) كتاب التهجد - ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧).

أفضل وقت للقيام هو الثلث الأخير من الليل وهو الوقت الذى ينزل فيه الحق عَزَّوَجَلَّ إلى السماء الدنيا نُزولًا يليق بجلاله وكماله.. وقد كان النبى ﷺ يصلى فى أول الليل ووسطه وآخره.. وإن كان أكثر قيامه فى آخر الليل.. فالأمر فى هذا واسع ولله الحمد.

(١١٨٦) وعنْ جابرٍ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قالَ: سَمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ فى اللَّيْلِ لسَاعةً، لا يُوافِقُها رَجُلٌ مُسْلمٌ يسألُ الله تعالى خيرًا من أمرِ الدُّنيا والآخِرةِ إلا أعطاهُ إيَّاهُ، وذلكَ كلَّ لَيْلَة»(١).

وهذه الساعة لم يُحدد النبى ﷺ وقتها بل تركها مُبهمة من أجل أن نتحرى تلك الساعة لنفوز بها.. ومن أجل ذلك لم يُحدد النبى ﷺ وقتًا مُعينًا لقيام الليل بل ترك ذلك لكل إنسان ليُحدد ما يناسبه.. وإن كان الأفضل والأحرى للفوز بهذه الساعة أن تكون فى الثلث الأخير من الليل. والله أعلم.

قال الإمام النووى رَحِمَهُاللَّهُ: فِيهِ إِثْبَاتُ سَاعَةِ الْإِجَابَةِ فِى كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَتَضَمَّنُ الْحَثَّ عَلَى الدُّعَاءِ فِى جَمِيعِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ رَجَاءَ مُصَادَفَتِهَا(٢).

(١١٨٧) وعنْ أبى هريرةَ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبىَّ ﷺ قال: «إذا قامَ أحَدُكُم مِنَ اللَّيْلِ فَليفْتَتِح الصَّلاةَ بركعتَيْنِ خَفِيفَتين»(٣).

(١١٨٨) وعن عائشةَ رَضِوَاللَّهُعَنْهَا قالت: كانَ رسُولُ الله ﷺ إذا قام مِن اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاتَهُ بِرَكْعَتين خفيفتينِ(٤).

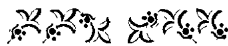
(١) صحيح: رواه مسلم (٧٥٧) كتاب صلاة المسافرين.
(٢) مسلم بشرح النووى (٦/ ٥٣).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٧٦٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٧٦٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

۞ ففى الحديث الأول يُوصى النبى ﷺ بأنه إذا وفق الله عَزَّوَجَلَّ مسلمًا للقيام بين يديه فى جوف الليل أن يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين ليكون ذلك أنشط لما بعدها.

وفى الحديث الثانى تخبر أُمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ كان يفعل ذلك.. أى: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين.

۞ ولعل السبب فى أن النبى ﷺ أوصانا بذلك لأنه فى حديثٍ آخر أخبر أن عُقد الشيطان الثلاثة التى يعقدها على قافية أحدنا كل ليلة لا تُحل إلا بالذكر والوضوء والصلاة.. فكان الأفضل أن تكون أول ركعتين خفيفتين ليكون ذلك أسرع فى حلِّ العُقدة الثالثة فيستمتع المصلى بصلاته بعد ذلك دون أن يكون للشيطان عليه سلطان.

قال ﷺ: «**يَعقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ عَلَى مَكَان كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارقُد.. فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا، فَأَصبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ**»[1].



(١١٨٩) وَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كان رسولُ الله ﷺ **إذا فاتَتْهُ الصَّلاةُ من اللَّيْلِ مِنْ وجعٍ أو غيرهِ، صَلَّى مِن النَّهارِ ثِنْتَى عشَرة ركْعَة**[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٥٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٢) كتاب التهجد–ومسلم (٧٧٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(١١٩٠) وعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ نامَ عن حِزْبِهِ،أو عَنْ شَيءٍ مِنهُ، فَقرأهُ فِيمَا بينَ صَلاةِ الفَجْرِ وصَلاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لهُ كأَنَّما قَرأهُ من اللَّيْلِ»(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَن كان له حزب من قيام الليل فنام عنه أو عن شيءٍ منه فلم يستطع أن يُصليه بالليل فصلَّاه بعد ذلك فيما بين صلاة الفجر -أي: بعد طلوع الشمس- وصلاة الظهر فإنه يُكتب له وكأنه صلَّاه في جوف الليل كما كان يُصليه... وهذا من فضل الله عز وجل علينا.. فالإنسان قد ينام وقد يَمرض وقد ينسى... فإذا فاتته صلاة الليل فإنه يقضيها بالنهار .. ولكن إذا كان يُوتر بواحدة فإنه يصلي مكانها ركعتين وإذا كان يوتر بثلاثٍ فإنه يصليها أربعًا -ركعتين ركعتين- وهكذا.. فيقضي ذلك فيما بين طلوع الشمس وارتفاعها إلى زوال الشمس، كما يدل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه فيمن فاته وِردَه أو حزبه في الليل، أو شيء منه، أنه يقضيه في النهار بالضحى، فيقضي ذلك في الضحى، فإن نسي ولم يتذكر إلا بعد الظهر قضاه بعد الظهر، لعموم قول النبي ﷺ **«مَن نام عن صلاة أو نسيها فليُصلها إذا ذكرها»**.

(١١٩١) وعَنْ أبِي هُريرة رضي الله عنه، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «رَحِمَ الله رجُلًا قامَ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّى وأيْقَظَ امرأتهُ، فإنْ أبَتْ نَضَحَ في وجْهِهَا الماءَ.. ورَحِمَ الله امرأةً قامت مِن اللَّيْلِ فصَلَّتْ، وأيْقَظَتْ زَوْجَها فإن أبَى نَضَحَتْ في وجْهِهِ الماءَ»(٢).

(١١٩٢) وعنْهُ وعَن أبي سَعيدٍ رضي الله عنهما، قالا: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا أيقظَ الرَّجُلُ أهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فصَلَّيا - أوْ صَلَّى - ركْعَتَينِ جميعًا، كُتِبَا في الذَّاكرينَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.
(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٤).

والذاكراتِ»[(١)].

۞ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢]، وأثنى الله على نبيٍّ من أنبيائه وهو إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) بقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

۞ ومن أجمل صور الإحسان بين الزوج وزوجته أنه إذا قام الزوج يصلى بالليل فإنه لا ينسى زوجته الغالية من هذا الخير.. وقد لا تستطيع الزوجة أن تقوم مثل زوجها لفترة طويلة من كثرة ما تُعانيه من أعباء البيت وهموم الأطفال.. لكنه لا ينسى أن يوقظها لتصلى ولو ركعتين خفيفتين أو أن تُوتر قبل الصبح وتسأل الله عَزَّوَجَلَّ من فضله....

وقد تكون الزوجة هى صاحبة الهمة العالية فى القيام.. فإذا قامت بالليل فإنها لا تنسى زوجها الحبيب.. فتوقظه ليصلى بها أو حتى من أجل أن يصلى وحده ما قدَّر الله له... فإن لم يستطع الزوج أن يوقظ زوجته أو لم تستطع الزوجة أن توقظ زوجها فقد رخَّص النبى ﷺ لكل واحدٍ منهما أن يَنضح وجه الآخر برذاذ الماء ليستيقظ.. وهى صورة من أبهى صور الحب والود التى لا تُنسى أبدًا..

ولكى تعلو همة الزوجين للقيام فقد دعا النبى ﷺ بالرحمة لهما إن فعلا ذلك وأعان كل واحدٍ منهما الآخر على القيام...

ثم أخبرهم بجائزة أخرى إذا قاما وصلَّيا..

(١) صحيح: رواه أبو داود والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٣٠).



فأخبر ﷺ أنهما إن قاما وصلّيا كُتبا فى تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

۞ ولأن النبى ﷺ هو الأسوة والقدوة فقد كان يفعل ذلك بنفسه.

ففى الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ النَّبِىُّ ﷺ يُصَلِّى وَأَنَا رَاقِدَةٌ مُعتَرِضَةٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُوتِرَ أَيْقَظَنِى»(١).

وفى صحيح البخارى أيضًا من حديث أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِىُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتَنِ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الخَزَائِنِ، أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الحُجَرِ(٢)، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِى الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِى الآخِرَةِ»(٣).

❊❊❊

(١١٩٣) وعنْ عائشة رضي الله عنها أنَّ النبىَّ ﷺ قال: «إذَا نَعَس أحدُكُم فى الصَّلاةِ، فَلْيَرقُد حتى يَذهَب عنْهُ النَّومُ، فإنَّ أحدكُمْ إذا صَلى وهو ناعِسٌ لعَلَّهُ يَذهَبُ يَستَغفِرُ فيَسُبَّ نَفسهُ»(٤).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊❊❊

(١١٩٤) وعن أَبى هُرَيرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذَا قامَ أحدُكُم مِن اللَّيْلِ فاسْتَعجَمَ القُرآنُ على لِسانِهِ، فَلَم يَدرِ ما يقُولُ، فَلْيَضْطَجِع»(٥).

۞ (إذا قام أحدكم من الليل) يتهجد (فاستعجم القرآن) والتبس (على

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٢) كتاب الصلاة - ومسلم (٥١٢) كتاب الصلاة.

(٢) يريد أزواجه (رضى الله عنهن) كى يُصلين.

(٣) صحيح: رواه البخارى (١١٥) كتاب العلم.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخارى (٢١٢) كتاب الوضوء - ومسلم (٧٨٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٧٨٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

لسانه فلم يدرِ) من النُّعاس القائم به (ما يقول) من القرآن والذكر (فليضطجع) لأن غلبة النعاس عليه تمنعه من تدبُّر القرآن، ولا خير في قراءة لا تدبُّر فيها[(١)].

۞ فالإنسان إذا أراد أن يصلى قيام الليل فلا بد أن يحرص على أن يصلى وهو مستيقظ لا يغلبه النُّعاس وهو يصلى.. وذلك لأنه ربما يريد أن يستغفر لنفسه فيسب نفسه وهو لا يدرى .. يريد أن يدعو لنفسه فيدعو على نفسه وهو أيضًا لا يدرى.. بل قد يستعجم القرآن على لسانه فى تلك الحالة فيقرأ كلمات ليست من القرآن أو يقرأ بالكلمة من القرآن على غير وجهها فيُحرف القرآن... فإذا كان من عادتك أن تصلى بالليل وجاءك النوم فلا تُتعب نفسك ولا تُجهد نفسك .. نَمْ حتى يزول عنك النُّعاس ثم واصل القيام مرة أخرى.

---

(١) دليل الفالحين (٣/ ٥٦٤).

(٢١٣) باب استحباب قيام رمضان (وهو التراويح)

(١١٩٥) عنْ أَبِي هُرِيرةَ ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «منْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١).

(١١٩٦) وَعنْهُ ﷺ قَال: كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُرَغِّبُ فِى قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ فِيه بعزيمةٍ، فيقُولُ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمانًا واحتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ»(٢).

۞ سُمِّيت تراويح؛ لأن السلف الصالح ﷺ كانوا يقومون رمضان ويُطيلون القيام والركوع والسجود، فإذا صلوا أربع ركعات -يعنى بتسليمتين- استراحوا، وإذا صلوا أربعًا استراحوا، ثم يصلون ثلاثًا... وهذا يؤيده حديث عائشة ﷺ السابق أنه ﷺ، كان يصلى أربعًا فلا تسأل عن حُسنهن وطولهن ثم يصلى أربعًا فلا تسأل عن حُسنهن وطولهن، ثم يصلى ثلاثًا.

فكان النبى ﷺ يُرغب فى قيام رمضان من غير أن يأمر فيه بعزيمة.

عن عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، خَرَجَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّى فِى الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ، فَأَصبحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بِذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَأَصبحَ النَّاسُ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ، فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَطَفِقَ رِجَالٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ تَشَهَّدَ، فَقَالَ: «أَمَّا بَعدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ شَأْنُكُمْ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٠٩) كتاب صلاة التراويح-ومسلم (٧٥٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٧) كتاب الإيمان-ومسلم (٧٥٩) كتاب صلاة المسافرين.

اللَّيْلَةَ، وَلَكِنِّى خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَتَعجِزُوا عَنْهَا»[١].

۞ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: فى الشمائل النبوية:

(١) شفقة النبى ﷺ بهذه الأمة حيث ترك صلاة الليل، فى المكان الذى خصصه لنفسه، مخافة أن تُفرَض صلاة الليل على هذه الأمة، ويعجز البعض عن القيام بها فيأثم بتركها.

(٢) حكمته ﷺ ... فقد وازن بين مصالح أداء الناس صلاة الليل فى المسجد، وهى مصالح عظيمة... منها: تَعلُّق قلوب الناس بالمساجد، وسماع الذكر الحكيم، وزيادة الدرجات بالمشى إلى المساجد، وصلاة الملائكة على مَن ينتظر تلك الصلاة... وبين مفسدة أن تُفرض صلاة الليل على الأمة فيعجز عنها الكثيرون، جزئيًّا أو كُليًّا، فيأثمون على تركها، فدفع ﷺ تلك المفسدة العظيمة بتفويت المصالح المترتبة على صلاة الليل، وهى قاعدة شرعية عظيمة فى الشرع وأساسها (أن درء المفاسد مُقدَّم على جلب المصالح) ويمكن أن نستدل بهذا الحديث على صحة القاعدة الشرعية المُشار إليها.

والذى يؤكد لنا عظيم حكمته ﷺ أن صلاة التراويح فى رمضان، أصبحت من زمن عمر رضي الله عنه تُقام فى المساجد بلا خوف من فرضها على الأمة فتحققت المصلحة، ودُرئت المفسدة، ولله الحمد من قبل ومن بعد.

(٣) حُسن معاملته ﷺ لأصحابه حيث بيَّن فى أول لقاءٍ معهم - وهو صلاة الفجر - سبب عدم الخروج إليهم والحكمة من ذلك.

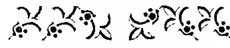
الفائدة الثانية: فى حرص الصحابة على الخير، ويتمثل ذلك فى:

(١) اجتماعهم فى جوف الليل حتى يصلوا خلف النبى ﷺ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠١٢) كتاب صلاة التراويح -ومسلم (٧٦١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) تَحدُّثهم صباح كل ليلة، بأنهم صلوا القيام بالمسجد، مما كان يزيد عدد المصلين كل ليلة، حتى عجز المسجد بأهله فى الليلة الرابعة، وهذا من حرصهم على الخير(١).



۞ وقد يسأل سائل ويقول: ما هو فضل صلاة التراويح وما مشروعيتها؟

والجواب: أما عن صلاة التراويح فى رمضان فهى سُنة مؤكدة للرجال والنساء فى شهر رمضان.

قال ﷺ: « **مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ** »(٢).

وقد صلاها النبى ﷺ بأصحابه فى بعض الليالى، ولم يواظب عليها، خشية أن تُكتب عليهم فيعجزوا عنها... فعن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ: «صلى فى المسجد، فصلى بصلاته الناس، ثم صلى القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا الثالثة فلم يخرج إليهم، فلما أصبح قال: « **قَد رَأَيْتُ الَّذِى صَنَعتُمْ، فَلَمْ يَمْنَعنِى مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ إِلَّا أَنِّى خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ** » وذلك فى رمضان فتُوفى رسول الله ﷺ والأمر على ذلك»(٣).

س: ما عدد ركعات التراويح؟

ج: ذهب بعضهم إلى أنه إحدى عشرة ركعة ... ومنهم مَن قال: إنه عشرون ركعة غير الوتر، ومنهم مَن قال: إنه تسعٌ وثلاثون بالوتر... ومنهم مَن قال: إنه أربعون ركعة، ويُوتر بسبع.

۞ ولكن التحقيق فى تلك المسألة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: «...وهذا كله سائغ، فكيفما قام فى رمضان من هذه الوجوه فقد أحسن،

(١) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ٣٩٠-٣٩٢) بتصرف.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٠٩) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (٧٥٩) كتاب صلاة المسافرين.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠١٢) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (٧٦١) كتاب صلاة المسافرين.

والأفضل يختلف باختلاف أحوال المصلين، فإن كان فيهم احتمال لطول القيام، فالقيام بعشر ركعات وثلاثٍ بعدها، كما كان النبى يصلى لنفسه فى رمضان وغيره - وهو الأفضل- وإن كانوا لا يحتملونه فالقيام بعشرين ركعة هو الأفضل، وهو الذى يعمل به أكثر المسلمين فإنه وسط بين العشر وبين الأربعين... وإن قام بأربعين وغيرها جاز ذلك ولا يُكره شىء من ذلك وقد نَصَّ على ذلك غير واحد من الأئمة كأحمد وغيره.

ومَن ظن أن قيام رمضان فيه عدد مُوقَّت عن النبى ﷺ لا يُزاد فيه ولا يُنقَص منه فقد أخطأ....». اهـ[1].

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٧٢، ٢٧٣).

(٢١٤) باب فضل قيام ليلة القدر وبيان أرجى لياليها

۞ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ⑤﴾ [القدر: ١-٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ الآيات [الدخان: ٣].

۞ وقد انتظمت هذه السورة الكريمة جملة فضائل لهذه الليلة:

١ - أن الله عز وجل أنزل القرآن فى هذه الليلة... كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

٢ - أن الله عز وجل عظَّم شأنها بذكرها بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

٣ - أن العبادة فيها خير من العبادة فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

٤ - أن الملائكة تتنزل فى هذه الليلة... قيل: تتنزل بالرحمات والبركات والسَّكينة..وقيل: تتنزل بكل أمر قضاه الله وقدَّره لهذه السنة... كما قال سبحانه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤، ٥].

٥ - أن الأمن والسلام يحل فى هذه الليلة على أهل الإيمان، وتسليم الملائكة يتوالى عليهم فيها.

٦ - وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدرِ إِيمَانًا وَاحتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[١][٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠١) كتاب الصوم - ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) التسهيل لتأويل التنزيل/ الشيخ مصطفى العدوى (جزء عم) (٢/ ٤٤٨).

(١١٩٧) وعنْ أبى هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبِىِّ ﷺ قال: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدرِ إيمانًا واحتِسابًا، غُفِرَ لهُ مَا تقدَّمَ مِن ذَنْبِه»[١].

(١١٩٨) وعنْ ابنِ عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنْ رِجالًا مِن أصحَابِ النَّبِىِّ ﷺ، أُرُوا ليْلَة القَدرِ فى المنَامِ فى السَّبْعِ الأواخِرِ، فقال رسُول الله ﷺ: «أرى رُؤياكُمْ قَد تَواطأتْ فى السَّبْعِ الأوَاخِرِ، فَمَنْ كانَ مُتحَرِّيها، فَلْيَتَحرَّهَا فى السبْعِ الأواخِرِ»[٢].

(١١٩٩) وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالَتْ: كانَ رسُولُ الله ﷺ يُجاورُ فى العَشْرِ الأوَاخِرِ مِنْ رمضانَ، ويقُول: «تَحرَّوْا لَيْلَةَ القَدرِ فى العَشْرِ الأوَاخِرِ مِنْ رَمَضانَ»[٣].

(١٢٠٠) وعنْها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «تَحرَّوْا لَيْلَةَ القَدرِ فى الوِتْرِ من العَشْرِ الأوَاخِرِ مِنْ رمَضانَ»[٤].

(١٢٠١) وعنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالتْ: كانَ رسُولُ الله ﷺ إذا دَخَلَ العَشْرُ الأوَاخِرُ مِنْ رمَضَانَ، أحيَا اللَّيْلَ، وأيْقَظَ أهْلَه، وجَدَّ وشَدَّ المِئزَر[٥].

(١٢٠٢) وعنْها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ رسُولُ الله ﷺ يَجْتَهِدُ فى رمضَانَ ما لا يَجْتَهِدُ فى غَيْرِهِ، وفى العَشْرِ الأوَاخِرِ منه، ما لا يَجْتَهِدُ فى غَيْرِه[٦].

(١٢٠٣) وعنْها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالَتْ: قُلْتُ: يا رسُولَ الله أرَأيْتَ إن عَلِمْتُ أىَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدرِ ما أقُولُ فيها؟ قالَ: «قُولى: اللَّهُمَّ إنَّك عَفُوٌّ تُحِبُّ العفْوَ فاعفُ عنِّى»[٧].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠١٤) كتاب فضل ليلة القدر، ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠١٥) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٦٥) كتاب الصيام.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٢٠) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٦٩) كتاب الصيام.
(٤) صحيح: رواه البخارى (٢٠١٧) كتاب صلاة التراويح.
(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٢٤) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٧٤) كتاب الاعتكاف.
(٦) صحيح: رواه مسلم (١١٧٥) كتاب الاعتكاف.
(٧) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣٣٣٧)، وصحيح الجامع (٤٤٢٣).

س: ما سبب تسميتها بليلة القدر؟

ج: قال الحافظ ابن حجر: واختُلف فى المراد بالقدر الذى أُضيفت إليه الليلة: فقيل: المراد به «التعظيم» كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، والمعنى: أنها ذات قدرٍ لنزول القرآن فيها، أو لما يقع فيها من نزول الملائكة، أو لما ينزل فيها من البركة والرحمة والمغفرة، أو أن الذى يُحييها يصير ذا قدر.

وقيل: «القدر»: «التضييق» كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]، ومعنى التضييق فيها إخفاؤها عن العلم بتعيينها، أو لأن الأرض تضيق فيها عن الملائكة.

وقيل: القدر هنا بمعنى «القَدَر» الذى هو مؤاخى القضاء...والمعنى أنه يُقدَّر فيها أحكام تلك السَّنة ... لقوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾[1].

س: كيف يتحرى المسلم ليلة القدر؟

ج: هذه الليلة المباركة مَن حُرمها فقد حُرم الخير كله، ولا يُحرم خيرها إلا محروم، لذلك ينبغى للمسلم الحريص على طاعة الله أن يُحييها إيمانًا وطمعًا فى أجرها العظيم، وأن يجتهد فى العشر الأواخر أُسوة بالنبى ﷺ... فعن عائشة قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِى العَشْرِ الأَوَاخِرِ مَا لاَ يَجْتَهِدُ فِى غَيْرِهَا»[2].

وعليه أن يُكثر من القيام فى هذه الليالى وأن يعتزل النساء ويحث أهله على الطاعة فيها... فعن عائشة قالت: « كَانَ النَّبِىُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ[3]، وَأَحيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»[4].

حتى يكون حريًا بموعود رسول الله ﷺ القائل: « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدرِ إِيمَانًا

---

(١) فتح البارى (٤/ ٣٥٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١١٧٥) كتاب الاعتكاف.

(٣) أى اعتزل النساء لأجل العبادة وشمَّر فى طلبها وجدَّ فى ذلك.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٢٤) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٧٤) كتاب الاعتكاف.

وَاحتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[١].

۞ ويُستحب الدعاء فيها والإكثار منه لا سيما بالدعاء الوارد فى حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعفُ عَنِّى**»[٢][٣].

س: متى تكون ليلة القدر؟

ج: اختلفت آراء العلماء فى تحديد وقتها إلى أكثر من أربعين قولًا، ولكن أرجحها وأقواها أنها فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان وأنها متنقلة:

أما كونها فى الوتر من العشر الأواخر فلما ثبت من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدرِ فِى الوِتْرِ، مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ**»[٤].

وأما كونها متنقلة، فقد ورد فى أحاديث ثبوتها ليلة إحدى وعشرين، وفى ليلة ثلاث وعشرين، وفى ليلة سبع وعشرين وفى تسع وعشرين.

فعن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أُرِيتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ أُنسِيتُهَا، فَابْتَغُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ، وَابْتَغُوهَا فِي كُلِّ وِتْرٍ، وَقَد رَأَيْتُنِى أَسْجُدُ فِى مَاءٍ وَطِينٍ**»، فَاسْتَهَلَّتِ السَّمَاءُ فِى تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَأَمْطَرَتْ، فَوَكَفَ[٥] المَسْجِدُ فِى مُصَلَّى النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ إِحدَى وَعِشْرِينَ، فَبَصُرَتْ عَيْنِى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَنَظَرتُ إِلَيْهِ انْصَرَفَ مِنَ الصُّبْحِ وَوَجْهُهُ مُمْتَلِئٌ طِينًا وَمَاءً »[٦].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠١٤) كتاب فضل ليلة القدر– ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣٣٣٧)، وصحيح الجامع (٤٤٢٣).

(٣) صحيح فقه السنة (٢/ ١٤٩).

(٤) صحيح: رواه البخارى (٢٠١٧) كتاب صلاة التراويح.

(٥) وكف: سال من سقفه المطر.

(٦) صحيح: رواه البخارى (٢٠١٨) كتاب فضل ليلة القدر.

ففى هذا الحديث كانت ليلة القدر ليلة «إحدى وعشرين».

وثبت فى حديثٍ آخر عن عبد الله بن أُنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله، مَتَى نَلْتَمِسُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ الْمُبَارَكَةَ؟ قَالَ: «**الْتَمِسُوهَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ**»[1].

وثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنها ليلة سبعٍ وعشرين... وثبت ذلك مرفوعًا عن أُبى بن كعب[2].

وعن معاوية بن أبى سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْتَمِسُوا لَيْلَةَ الْقَدرِ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ**»[3][4] -يقصد ليلة التاسع والعشرين-.

س: ما السبب فى إخفاء ليلة القدر؟

ج: جاء توضيح ذلك فى أكثر من حديث:

عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ القَدرِ فتلاحَى رَجُلاَنِ مِنَ المُسْلِمِينَ فَقَالَ: «**خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدرِ، فَتَلاَحَى فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ، وَالسَّابِعَةِ، وَالخَامِسَةِ**»[5]، ومعنى فتلاحى: (تشاجر) وفى بعض الروايات: «**فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ**». فدَلَّ الحديث على أن المخاصمة كانت سببًا للنسيان.

وفى «صحيح مسلم» عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**أُرِيتُ لَيْلَةَ الْقَدرِ، ثُمَّ أَيْقَظَنِي بَعضُ أَهْلِي، فَنُسِّيتُهَا**»[6].

قال الحافظ: «وهذا سببٌ آخر؛ فإما أن يُحمل على التعدُّد بأن تكون الرؤيا

(١) صحيح: رواه ابن خزيمة (٢١٨٥)، ورواه مسلم (١١٦٨) كتاب الصيام بنحوه.

(٢) حسن: رواه ابن خزيمة (٢١٨٦)، وأحمد (١٠/ ٢٨٦ - الفتح الربانى).

(٣) صحيح: رواه ابن خزيمة (٢١٨٩).

(٤) تمام المنة للعزازى (٢/ ١٨٩، ١٩٠).

(٥) صحيح: البخارى (٢٠٢٣) كتاب فضل ليلة القدر.

(٦) صحيح: رواه مسلم (١١٦٦) كتاب الصيام.

فى حديث أبى هريرة منامًا فيكون سبب النسيان الإيقاظ، وأن تكون الرؤيا فى حديث غيره فى اليقظة فيكون سبب النسيان ما ذُكر من المخاصمة، أو يُحمَل على اتحاد القصة ويكون النسيان وقع مرتين عن سببين... ويحتمل أن يكون المعنى أنه أيقظنى بعض أهلى فسمعت تلاحى الرجلين فقمت لأحجز بينهما فنسيتها للاشتغال بهما»[١].

س : وما الحكمة فى إخفاء ليلة القدر؟

ج: الحكمة فى إخفاء ليلة القدر أن يجتهد العباد فى طاعة الله (جل وعلا) فى جميع الليالى رجاء أن تكون هذه الليلة هى ليلة القدر.

قال الحافظ: قال العلماء: الحكمة فى إخفاء ليلة القدر ليحصل الاجتهاد فى التماسها، بخلاف ما لو عُينت لها ليلة لاقتصر عليها[٢].

س : ما هى علامات ليلة القدر؟

ج: ليلة القدر لها علامات تُعرف بها، ومن هذه العلامات ما يكون فى الليلة نفسها مثل:

١- أن يكون الجو مناسبًا والريح ساكنة،... فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « **لَيْلَةُ القَدرِ لَيْلَةٌ سَمِحَةٌ طَلِقَةٌ لاَ حَارَّةٌ وَلاَ بَارِدَةٌ تُصبِحُ الشَّمْسُ صَبِيحَتَهَا ضَعِيفَةً حَمْرَاءَ** »[٣].

٢- الطمأنينة والسكينة التى تنزل بها الملائكة، فيحس الإنسان بطمأنينة القلب، ويجد من انشراح الصدر ولذة العبادة فى هذه الليلة ما لا يجده فى غيرها.

٣- قد يراها الإنسان فى منامه، كما حصل لبعض الصحابة.

---

(١) فتح البارى (٤/ ٢٦٨).

(٢) فتح البارى (٤/ ٣١٥).

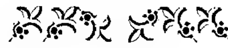
(٣) صحيح: أخرجه الطيالسى (٣٤٩)، والبيهقى، وابن خزيمة (٣/ ٢٣١)، والبزار (١٠٣٤) وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٤٧٥).

ومن العلامات ما يكون لاحقًا مثل:

٤- أن تطلع الشمس في صبيحتها صافية لا شعاع لها.

فعن أُبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: « **صَبِيحَةَ لَيْلَةِ الْقَدرِ تَطْلُعُ الشَّمْسُ لا شُعَاعَ لَهَا، كَأَنَّهَا طَسْتٌ حَتَّى تَرتَفِعَ** »[1].

۞ تنبيه للعامة: حول علامات ليلة القدر خرافات كثيرة، واعتقادات فاسدة، منها أن الشجر يسجد وأن المباني تنام، وأن المالحة تُعذَّب في تلك الليلة وأن الكلاب تَكُف عن النباح وغير ذلك مما هو ظاهر الفساد والبطلان[2].



(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٦٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح فقه السنة (٢/ ١٤٩، ١٥٠).

(٢١٥) باب فضل السواك وخصال الفطرة

(١٢٠٤) عَنْ أَبى هُريرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قالَ: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلى أُمَّتى -أَوْ عَلى النَّاسِ- لأمرتُهُمْ بِالسِّواكِ معَ كلِّ صلاةٍ»(١).

(١٢٠٥) وَعنْ حُذيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا قَامَ مِنَ النَّومِ يَشُوصُ فَاهُ بالسِّواكِ(٢).

(١٢٠٦) وَعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كنَّا نُعِدُّ لرسُولِ اللهِ ﷺ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ فَيَبْعَثُهُ اللهُ مَا شَاءَ أَن يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فيتسَوَّكُ، وَيتَوَضَّأُ ويُصَلِّى(٣).

(١٢٠٧) وعنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكثَرتُ عَليكُمْ فى السِّوَاكِ»(٤).

(١٢٠٨) وعَنْ شُريحِ بنِ هانِئٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: بأَىِّ شىءٍ كَان يَبْدَأُ النَّبىُّ ﷺ إذا دَخَلَ بَيْتَهُ؟ قَالَتْ: بِالسِّوَاكِ(٥).

(١٢٠٩) وَعَنْ أَبى موسَى الأشعَرِىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: دَخلت عَلى النَّبى ﷺ وطَرَفُ السوَاكِ عَلَى لِسانِهِ(٦).

(١٢١٠) وعنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: «السِّواكُ مَطهَرةٌ للفَمِ مَرضَاةٌ للرَّبِّ»(٧).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٨٧) كتاب الجمعة، ومسلم (٢٥٢) كتاب الطهارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٥) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٥٥) كتاب الطهارة.
الشَّوْص: الدَّلْكُ.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: أخرجه البخارى (٨٨٨) كتاب الجمعة.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٣) كتاب الطهارة.

(٦) متفق عليه: أخرجه البخارى (٢٤٤) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٥٤) كتاب الطهارة.

(٧) صحيح: أخرجه أحمد والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٩٥).

۞ السواك هو: التسوك وهو دلك الأسنان واللثة واللسان بعود الأراك.

هذا السواك المعروف هو عود الأراك، ويحصل الفضل بعود الأراك أو بغيره من كل عودٍ يُشابهه... والصحيح أنه يحصل أيضًا بالخِرقة أو بالإصبع لكن العود أفضل، والسواك ذكر النبى ﷺ فيه فائدتين عظيمتين كما فى حديث عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرضَاةٌ لِلرَّبِّ**» مطهرة للفم يعنى: يطهر الفم من الأوساخ والأنتان وغير ذلك مما يضر... وقوله: للفم يشمل كل الفم، الأسنان واللثة واللسان، كما فى حديث أبى موسى أنه دخل على النبى ﷺ وطرف السواك على لسانه.

الفائدة الثانية: مرضاة للرب...أى أنه من أسباب رضا الله عن العبد أن يتسوك.

وللسواك مواضع يتأكد فيها، وإلا فهو مسنون كل وقت، لكن يتأكد فى مواضع معينة منها: إذا قام من النوم، فإنه يُسَن له أن يستاك ... لحديث حذيفة رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك، يعنى يتسوك، وكذلك يؤيده حديث عائشة أنهم كانوا يُعدون له سواكه ووضوءه فإذا قام تسوك وتوضأ وصلى ما شاء الله... ويُسَن عند القيام من النوم بالليل أو بالنهار لأن الفم يتغير فيُسَن أن يتسوك... كذلك يُسَن إذا دخل الإنسان بيته أول ما يدخل يتسوك، لأن عائشة سُئِلت: أى شيء يبدأ به الرسول ﷺ إذا دخل بيته؟ قالت: السواك.

ويتسوك عند الصلاة... فإذا ذهب ليصلى فريضة أو نافلة صلاة ذات ركوع أو سجود، أو صلاة جنازة فإنه يُسَن أن يتسوك، لأن النبى ﷺ قال: «**لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى - أَوْ عَلَى النَّاسِ - لأمرتُهُمْ بِالسِّواكِ معَ كلِّ صلاةٍ**». يُسَن السواك أيضًا بتأكُّد عند الوضوء، ومَحِلّه عند المضمضة أو قبل أو بعد، لكنه عند الوضوء كما جاء ذلك عن النبى ﷺ.

وألحق العلماء (رحمهم الله) ما إذا تغير فمه بأكلٍ أو شُرب لبن أو نحوه مما له

دسم، فإنه يُسن أن يتسوك لأنه يطهر الفم. وعلى كل حال فالسواك سُنة ويتأكد في مواضع، ولكنه من حيث السُّنية مشروع كل وقت حتى للصائم بعد الزوال فإنه كغيره يُسَن له أن يتسوك... وأما مَن كره ذلك من أهل العلم فقوله لا دليل عليه، والصحيح أن الصائم يتسوك أول النهار... والله الموفق[1].

۞ بل تأمل معى هذا الفضل العجيب للسواك:

قال النبى ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّى قَامَ الْمَلَكُ خَلْفَهُ فَتَسَمَّعَ لِقِرَاءَتِهِ، فَيَدنُو مِنْهُ حَتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيهِ، فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَىْءٌ مِنَ الْقُرآنِ إِلَّا صَارَ فِى جَوْفِ الْمَلَكِ، فَطَهِّرُوا أَفْوَاهَكُمْ لِلْقُرآنِ**»[2].

فضائل وفوائد السواك العجيبة

۞ أثبت العلم الحديث الفوائد الطبية التالية للسواك، (وهذا مما دفع الشركات للتنافس على إنتاج المعجون الذى يحتوى على هذه المادة).

١- يحتوى على مادة (الفلوريد) التى تمنع تسوس الأسنان.

هل تعلم أن الفم يُعتبر مستودعًا لكثير من الجراثيم، والتى يسميها الأطباء بالزمرة الجرثومية الفموية، ومنها المكدرات العنقودية والعقدية والرئوية، والعصيات اللبنية والعصيات الخنَّاقة الكاذبة، والملتويات الفوهية والفنسانية وغيرها.

هذه الجراثيم تكون بحالة خاملة عند الشخص السليم ومُتعايشةً معه، لكنها تنقلب إلى مُمْرِضة مؤذية إذا بقيت ضمن الفم وبين الأسنان فضلاتُ الطعام، فإن هذه الجراثيم تعمل على تفسُّخها وتخمُّرها وتنشأ عنها روائح كريهة وهذه

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٣١-٢٣٢) بتصرف.

(٢) حسن صحيح: رواه البزار (٦٠٣)، وحسنه الألبانى فى الصَّحِيحَة (١٢١٣)، وقال فى صَحِيح التَّرغِيبِ وَالتَّرهِيب: (٢١٥): حسن صحيح.

المواد تؤذى الأسنان كذلك مُحْدِثةً فيها النخور، وتَراكُم الأملاح حول الأسنان يُحدث فيها (القلح) والتهاب اللثة وتقيحها، ويمكن لهذه الجراثيم الانتقال بعيدًا فى أرجاء البدن مُحدثةً التهابات مختلفة كالتهاب المعدة أو الجيوب الأنفية أو القصبات الهوائية.

وقد تُحدث خُراجات فى مناطق الجسم المختلفة، وقد تؤدى إلى تسمم الدم أو تَجرثُمه وما ينجم عن ذلك من أمراضٍ حموية عامة.

٢- يحتوى على (زيوت عطرية) مما يُكسب الفم رائحة عطرية مميزة.

٣- يحتوى على (مواد كيماوية) مُزيلة لصفار الأسنان مما يُكسبها لونًا أبيضًا ناصعًا.

٤- يقوم بتنظيف ما يعلق بين الأسنان من بقايا وفضلات الطعام بما يحتويه من (ألياف) كالعيدان.

٥- يحتوى على مادة قابضة للثة ويمنع حدوث نزيفٍ بها.

(١٢١١) وعنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبىِّ ﷺ قالَ: «الفِطرةُ خَمسٌ ـ أو خمسٌ مِن الفطرة ـ: الخِتان، والاسْتِحدادُ، وتَقليمُ الأظفَارِ، ونَتفُ الإبطِ، وقصُّ الشَّارِبِ»[١].

(١٢١٢) وعنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «عَشْرٌ مِن الفِطرةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وإعفاءُ اللِّحيةِ، والسِّواكُ، واسْتنشاقُ الماء، وقَصُّ الأظفَارِ، وغَسلُ البَراجِم، ونَتفُ الإبطِ، وحلقُ العانَة، وانتقاصُ الماءِ» قال الرَّاوى: ونسِيتُ العاشرة إلا أن تكون المضمضةُ... قال وكيعٌ – وهو أحدُ رواتِهِ –: انتقاصُ الماءِ يعنى: الاسْتنجاء[٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٨٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٥٧) كتاب الطهارة.
الاستحدادُ: حلْقُ العَانَةِ، وهو حَلقُ الشعرِ الذى حوْلَ الفرجِ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦١) كتاب الطهارة.
«البَراجِمُ» وهى: عُقَدُ الأَصَابِعِ – وَإِعفَاءُ اللِّحيَةِ مَعنَاهُ: لاَ يَقُص مِنهَا شَيئًا.

(١٢١٣) وعنْ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: « أحفُوا الشَّوارِبَ وأعفُوا اللِّحَى »[١].

۞ سُنن الفطرة هى: الخصال التى إذا فُعلت اتصف فاعلها بالفطرة التى فطر الله العباد عليها، وحشرهم عليها، واستحبها لهم، ليكونوا على أكمل الصفات، وأشرف صورة.

وهى السُّنة القديمة التى اختارها الأنبياء، واتفقت عليها الشرائع.

والفطرة: يعنى التى فطر الخلق على استحسانها وأنها من الخير.

والمراد بذلك الفِطَرُ السليمة لأن الفِطَرَ المنحرفة لا عبرة بها ... لقول النبى ﷺ: **«كل مولودٍ يُولَد على الفطرة فأبواه يُهودانه أو يُنصرانه أو يُمجسانه»**.

۞ وفى حديث أبى هريرة رضي الله عنه ذكر النبى ﷺ أن الفطرة خمسٌ.. وفى لفظٍ: «خمسٌ من الفطرة».. فالمعنى أن تلك الخمس من الفطرة وهناك أشياء أخرى غيرها هى أيضًا من الفطرة.. ولذا جاء فى الرواية التى بعدها: **«عَشْرٌ مِن الفِطْرةِ»**.

۞ **«الختان»** وهو الذى يُسمى عند الناس بالطهارة وهو خاص بالرجال والنساء.

والمعنى الشرعى للختان هو: قطع الجلدة المستديرة على الحشفة -وهى رأس الذكر- ويُقال لها: القلفة بالنسبة للذكر.... وأما الأنثى فتُقطع الجلدة التى هى كعُرف الديك فوق فرجها.

ولقد وردت الأدلة بمشروعيته فى حق الرجال والنساء... ومنها: ما تقدم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه خمس من الفطر، وذكر فيها الختان. ومنها: ما ثبت أيضًا فى الحديث قوله ﷺ: **«إِذَا الْتَقَى الْخِتَانَانِ فَقَد وَجَبَ الْغُسْلُ»**[٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٩٣) كتاب اللباس، ومسلم (٢٥٩) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٥) - وأصله عند مسلم (٣٤٩) كتاب الحيض.

وعن أنس رضي الله عنه أن أم عطية الأنصارية رضي الله عنها -امرأة كانت خاتنة بالمدينة- فقال لها رسول الله ﷺ: **«إِذَا خَفَضْتِ فَأَشِمِّي وَلَا تَنْهَكِي، فَإِنَّهُ أَسْرَى لِلْوَجْهِ وَأَحظَى عِنْدَ الزَّوْجِ»**[1].

۞ ولقد اختلف أهل العلم في حكم الختان على النحو الآتي:-

ذهب الشافعية إلى أنه واجب في حق الرجال والنساء، وذهب الحنفية والمالكية إلى أنه للرجال سُنة[2] وهو مَكْرُمة للنساء..وعن أحمد الختان واجب للرجال ومكرمة في حق النساء، وفي رواية عنه أنه واجب في حق الرجال والنساء.

والراجح أن الختان واجبٌ في حق الرجال.. وأما النساء فختانهن سُنة، وليس بواجب..وذلك أن الرجل إذا لم يُختن وبقيت الجلدة التي فوق الحشفة فإنه يحتقن بها البول، وتكون سببًا في النجاسة لأنه إذا احتقن بها البول ثم حصل ضغط عليها، خرج البول الذي صار بينها وبين الحشفة فتلوثت الثياب وتنجست، ثم هي أيضًا عند الكِبَر، وعندما يصل الإنسان إلى حَدِّ الزواج يكون هناك مشقة شديدة عند الجماع، فلذلك كان من الفطرة أن تُقَص هذه الجلدة.

۞ وأما موعد الختان ومتى يكون؟ فإنه يكون بالنسبة للذكر في اليوم السابع من مولده فما بعده.. وكلما كان في الصغر كلما كان أفضل وأيسر بالنسبة للطفل حتى لا يكون الألم شديدًا عليه ... وأما الجارية (البنت) فلم يُحدَّد لها وقت، إلا أن المعتبر فيه التأخير لكي يظهر «العُرف» وينمو، ولا يكون ذلك إلا في سنٍّ متأخرة، والمعتبر في ذلك رأي الطبيبة التي تجري عملية الختان.

۞ وللختان حِكَمٌ كثيرة أذكر بعضها[3]:-

هو مُكمل للفطرة التي هي الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٩)، وصححه في «السلسلة الصحيحة» (٧٢٢).

(٢) قال القاضي عياض: السُّنة عندهم - أي المالكية - يأثم بتركها.

(٣) من كتاب «تحفة المودود» للإمام ابن القيم بتصرف.

ذهب بعض المفسرين أنه معنى قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾.

فالختان للحنفاء بمنزلة الصبغ والتعميد لعُبَّادِ الصليب... فصبغة الله فى القلوب: معرفته ومحبته وعبادته... وفى الأبدان: خصال الفطرة، ومنها الختان.

الختان طهارة من الوسخ والنجس الذى يتجمع داخل القلفة.

أنه بالنسبة للمرأة أنضر للوجه وأحظى للزوج.

۞ «الاستحداد»: يعنى: حلق العانة.

والمقصود بالعانة: الشعر الخشن الذى ينبت حول ذكر الرجل وحواليه وينبت كذلك حول فرج المرأة... وهو من علامات البلوغ.

فمن سُنن الفطرة أن يحلق الإنسان هذا الشعر لأنه إذا طال فإنه قد يتلوث بالنجاسة ويحصل بذلك وسخٌ وقذر.. ولأنه إذا طال فإنه يضر الإنسان.

۞ «تقليم الأظفار» سواء فى ذلك أظفار اليدين والرجلين.

والمراد بالتقليم: «القطع»، وهو بمعنى القص... وهو سُنة بالاتفاق، ويستوى فى ذلك الرجل والمرأة.

واعلم أنه لم تَرِد أدلة فى كيفية القص، وبأى الأصابع يبدأ .. فعلى أى صفةٍ فَعَل أجزأه. والله أعلم.

ويُكره أن تُترك الأظفار، وكذلك الإبط والعانة والشارب أكثر من أربعين ليلة ... لما ورد فى الحديث: عن أنس رضي الله عنه قال: «وُقِّت لنا فى قص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة أن لا تُترك أكثر من أربعين ليلة»(١).

وفى رواية: وقَّت لنا رسول الله ﷺ(٢).

تنبيه: ليس هناك دليل على دفن قلامة الأظفار، ولا الشعر المحلوق، فيجوز

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨) كتاب الطهارة.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٠٠) والترمذى (٢٧٥٩).



إلقاءه فى القمامات. ولا حرج فى ذلك.

۞ «نتفُ الإبط»: إذا كان هناك شعر قد نبت فى الإبط فإنه يُنتف ولا يُحلق ولا يُقص.. وذلك لأن النتف يُزيله بالكلية ويُضعف أصوله حتى لا ينبت فيما بعد.. ولكن إن كان النتف شاقًّا على الإنسان فلا بأس أن يحلقه أو يستخدم أحد الكريمات المزيلة للشعر.

۞ «قَصُّ الشارب»: وهو الشعر النابت فوق الشفة العليا، وحَدُّه: الشفة، كل ما طال على الشفة العليا فهو شارب فهذا يُحَف لأن بقاءه يكون فيه تلويث بما يخرج من الأنف من الأذى، ثم عند الشرب أيضًا يباشر الشعر المتلوثُ الماءَ فيُقذره، وربما يحمل ميكروبات مُضرة، وعلى كل حال فهو من السُّنة.

۞ وتلك الخمس كما ذكرنا.. فيها الختان الذى يُفعل فى العمر مرة واحدة.. أما الأربع الباقية وهى: الاستحداد وتقليم الأظفار ونتف الإبط وقص الشارب فإنها لا تُترك فوق أربعين يومًا بل ينبغى أن يعتنى الإنسان بها دائمًا.. ولكن النبى ﷺ وقَّت لأمته أقصى مدة تُترك فيها تلك الأشياء وهى مدة الأربعين يومًا...

لا يجوز أن نتجاوزها بحالٍ من الأحوال.. وليكن عندك أجندة تكتب فيها مواعيدك وجدول أعمالك فتجعل من بينها موعدًا مكتوبًا تقوم فيه بفعل تلك الأشياء.

۞ وأما حديث أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.. ففيه أن الفطرة عشر خصال.. ذُكر منها أربعة فى حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبقى ستة من خصال وسنن الفطرة فى هذا الحديث.. وانفرد حديث أبى هريرة بذكر الختان.. وها هى باقى سنن الفطرة الواردة فى حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

۞ «إعفاء اللحية» واللحية هى شعر الوجه واللحيين: يعنى العوارض وشعر الخدَّين.. فهذه كلها من اللحية .... وإعفاء اللحية يعنى إطلاقها

وإرخاءها وتركها على ما هى عليه.. فهذا من الفطرة التى فطر الله الناس عليها وعلى استحسانها وأنها من علامات الرجولة وجمال الرجولة.. وأما عن حكم إعفاء اللحية فإنه يجب إعفاؤها ويَحرُم حلقها. لورود الأمر بإطلاقها بعباراتٍ مختلفة نحو: (اعفوا، أوفوا، أرخوا، وفِّروا، أرجوا)، والأمر يفيد الوجوب، كما هو مُقرر فى علم الأصول.

ثم اعلم أن حلق اللحية - فضلًا عن كونه معصية - إنكارٌ للرجولة والفحولة، وتشبُّه بالنساء، والمردان.

وهى أيضًا تشبُّه بالكفار لقوله ﷺ: **«قُصُّوا الشارب، واعفوا اللِّحى، وخالفوا المشركين»**[1].. وفى رواية: **«خالفوا المجوس أو المشركين وفِّروا اللِّحى وحُفُّوا الشوارب»**.

وفى حلق اللحية تغيير لخلق الله..قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[الروم: ٣٠] وقال تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، وحلق اللحية فيه معنى النمص الذى هو إزالة شعر الوجه، أو الحاجبين من المرأة للحُسن، وهو فى حق الرجل أقبح.

لذا لم يُعرف فى سير الأنبياء، أو الخلفاء، أو أئمة الهدى أحد كان يحلق لحيته[2].

۞ **«السواك»**: تحدثنا عنه فى الأحاديث السابقة.

۞ **«استنشاق الماء»**: الاستنشاق من الفطرة لأنه تنظيف وإزالة لما فى الأنف، فهو طهارة... والاستنشاق يكون فى الوضوء ويكون فى غير الوضوء.

---

(١) قد يحتج البعض بأن المشركين الآن منهم مَن يُطلق لحيته... والجواب: أنهم إن أطلقوها فقد عادوا فى أمرها إلى أصل الفطرة، فلا يصلح للمسلم أن ينكس فطرته، وأيضًا فإن الحلق عندهم هو أصل عملهم فإن خالفوه فلا يستوجب ذلك منا المخالفة..وأيضًا فإن إطلاق اللحية هو من شعيرة المسلمين وشعيرة المرسلين، فالتعليل الوارد فى الحديث بمخالفة المشركين هو أحد التعليلات وليس هو كل العلة.

(٢) تمام المنة/ للشيخ عادل العزازى (١/ ٥٠-٥١).

كلما احتجت إلى تنظيف الأنف فاستنشق الماء ونظف أنفك...

وهذا يختلف باختلاف الناس، فمن الناس مَن لا يحتاج إلى هذا إلا في الوضوء، ومن الناس مَن يحتاج إلى ذلك كثيرًا.

۞ «**غسل البراجم**»: والبراجم قال العلماء: إنها مَسقط الأصابع..فإن مَسقط الأصابع من الباطن يحتاج إلى تنظيفٍ أكثر من ظاهرها؛ لأن ظاهرها ممسوحٌ ليس فيه شيء يحتاج إلى تنظيفٍ أكثر.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَيُلْحَقُ بِالْبَرَاجِمِ مَا يَجْتَمِعُ مِنْ الْوَسَخِ فِي مَعَاطِفِ الْأُذُنِ وَقَعرِ الصِّمَاخِ[1].

۞ «**وانتقاص الماء**»: وقد فسر وكيع انتقاص الماء بأنه الاستنجاء؛ لأن الاستنجاء تنظيف وتطهير وإزالة أذى.

۞ «**المضمضة**»: فالمضمضة من سُنن الفطرة لأن فيها تنظيف الفم، والفم يحتاج إلى تنظيف؛ لأنه يمر به الأكل والدهن وما أشبه ذلك، فيحتاج إلى تنظيف، فكانت المضمضة من خصال الفطرة.

(١) انظر نيل الأوطار (١/ ١٢٦). والمجموع (١/ ٢٨٨).

(٢١٦) باب تأكيد وجوب الزكاة وبيان فضلها وما يتعلق بها

۞ قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

۞ الزكاة هي العبادة المالية الاجتماعية الهامة.

وهي الفريضة الثانية في الإسلام، قرنها القرآن بالصلاة في عشرات المواضع، وذكرها تارة بلفظ الزكاة، وتارةً بلفظ الصدقة، وأحيانًا بلفظ الإنفاق.

وفي مفتتح سورة البقرة يصف الله المتقين الذين ينتفعون بهدى كتابه ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] وفي آيات أُخر من السورة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١١٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وهي في معناها البسيط -معونة الفقير بجزءٍ من المال- عبادة قديمة عُرفت في الرسالات السماوية السابقة، وذكرها الله في وصايا رسله إلى أممهم.

فقال عن الخليل إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب عليهم السلام: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وامتدح إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥].

وذكر الله فى مواثيقه لبنى إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[المائدة: ١٢].

وقال على لسان المسيح عليه السلام وهو فى مهده: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)﴾ [مريم: ٣١].

وقال فى شأن أهل الكتاب عامة: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾[البينة: ٤، ٥].

هذه هى الزكاة فى ديانات السماء... وما كان لهذه الديانات أن تنسى هذا الجانب الخُلقى من رسالتها: جانب البر بالفقراء والإحسان بالمساكين.

ومنذ فجر الإسلام فى مكة والمسلمون أفرادٌ معدودة مُستَخْفون بدينهم، مُضطَّهدون فى ديارهم، كان هذا الجانب الإنسانى الاجتماعى موضع عناية بالغة من القرآن العزيز... فالعقبة التى على كل إنسان أن يجتازها حتى يصل إلى رضاء الله تتمثل فى البر بالناس من تحرير للرقيق، وإطعام للمسكين واليتيم ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)﴾[البلد: ١١-١٨].

وفى سورة الضحى وهى من أوائل ما نزل من القرآن: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩، ١٠] وفى سورة المدثر يسجل القرآن اعتراف

المجرمين فى النار ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٣، ٤٤] وفى سورة الذاريات فى وصف المتقين ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٩] وفى سورة المعارج ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥] وفى سورة القلم يَقُص الله على المسلمين قصة أصحاب الجنة الذين اعتزموا أن يقطفوا ثمارها بليل، ليحرموا منها المساكين: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٩، ٢٠] وفى سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١-٣] وفى سورة الحاقة يُعلل جزاء من يُسجر فى الجحيم ويُسحب فى السلاسل والأغلال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤] وفى سورة فُصلت يُنذر الله المشركين بالويل ويجعل من أخص أوصافهم عدم إيتاء الزكاة: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] وفى سورة الشورى يمدح الله المجتمع المؤمن: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٨] وفى سورة الأنعام: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] وفى سورة المزمل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] هذه بعض عناية القرآن المُلحة بالبر ورعاية المسكين. وأداء حق السائل والمحروم.

إن الزكاة الإسلامية المعروفة شيء يزيد على البر والإنفاق العام.

والزكاة المُطلَقة التى شُرعت فى العهد المكى، بل شُرعت فى الديانات السابقة كما ذكر القرآن... فالزكاة التى شُرعت فى العهد المدنى تشريع جديد، لم يسبق إليه دين سماوى، ولا تنظيم أرضى.

إنها ركن من أركان الإسلام، ودعامة من دعائم الإيمان، وإيتاؤها -مع إقامة الصلاة والشهادة لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة- عنوان على الدخول فى

الإسلام، واستحقاق أُخوة المسلمين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

إنها فريضة لازمة يَكفُر مَن جحدها، ويَفسُق مَن منعها، ويُقاتَل مَن تحدى جماعة المسلمين بتركها ... وحسبُنا أن الخليفة الأول أبا بكر رضي الله عنه جهز أحد عشر لواء لمقاتلة قوم امتنعوا عن أداء الزكاة وقال كلمته الشهيرة: «والله لأُقاتلنَّ مَن فرَّق بين الصلاة والزكاة. والله لو منعونى عقالًا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه».

والزكاة فى الإسلام ليست «تبرُّعًا» يتفضل به غنيٌّ على فقيرٍ أو يُحسن به واجدٌ إلى معدوم. إنها أبعد من ذلك غورًا، وأوسع أُفقًا.

إنها جزءٌ هام من نظام الإسلام الاقتصادى... ذلك النظام الفريد الذى عالج مشكلة الفقر أو مشكلة المال على وجهٍ عام، قبل أن تعرف الدنيا نظامًا يهتم بعلاج هذا الجانب الخطير من حياة الإنسان.

حدَّد الإسلام الأموال التى تجب فيها الزكاة والحد الأدنى لما يجب فيه الزكاة، ومتى تجب الزكاة على المال، والمقدار الذى يجب إخراجه على كُلٍّ منها.

فلا يذهبن الظن بأحدٍ أن الزكاة من الغَنى تفضُّلٌ وامتنان، ومن الفقير «شحاذة» وهوان... فليس بين الغنى والفقير تعامل مباشر فى الزكاة كما شرعها الإسلام: وإنما الحكومة هى نائبة عن الفقير فى أخذ الزكاة من الأغنياء.

ولهذا قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال الرسول ﷺ لمعاذ حين بعثه واليًا ومُعلمًا إلى اليمن: «**أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تُؤخَذ من أغنيائهم، فتُرَدُّ إلى فقرائهم**»(١).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٩٥) كتاب الزكاة، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

وأول ما يدل عليه هذا التعليم النبوى «أن الزكاة فى نظر الإسلام ليس إلا صرف بعض أموال الأمة، مُمثلة فى أغنيائها، إلى الأمة نفسها مُمثلة فى فقرائها. وبعبارة أخرى: ليس إلا نقل الأمة بعض مالها من إحدى يديها، وهى اليد المشرفة التى استخلفها الله على حفظه وتنميته والتصرُّف فيه -وهى يد الأغنياء- إلى اليد الأخرى، وهى اليد العاملة الكادحة التى لا يفى عملها بحاجتها، أو التى عجزت عن العمل وجُعل رزقها فيه ومنه، وهى يد الفقراء»[1].

۞ وإلى أين تذهب أموال الزكاة بعد جمعها وجبايتها؟

إنها تذهب «إلى بيت المال» وهو الخزانة العامة التى تُجمع فيها موارد الدولة الإسلامية من زكاة وفئ وغنائم وخَراج وغيرها، وإن كانت الزكاة تختص ببيت مالٍ مستقل، ولا تُخلَط ببيوت المال الأخرى، حتى يبقى حق الفقراء مضمونًا، ونصيبهم مَصونًا، فلا تطغى عليه حاجات المصارف الأخرى العامة ومطالبها. وهذا ما جرى عليه العمل ونَصَّ عليه جمهور الفقهاء.

هذا إلى أن الإسلام قد حدد الجهات التى تُصرَف إليها وفيها الزكاة، فلم يدعها لأهواء الحاكمين ينفقون منها على مظاهر الترف لهم، أو على الأتباع والأنصار من حولهم، ولم يدعها كذلك لرغبات الطامعين فيها وهم لا يستحقونها.

وفى عهد رسول الله ﷺ تطلعت أعين جماعة من المنافقين إلى أموال الصدقات وسال لعابهم لأخذها ... وفيهم قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة: ٥٨].

ثم بيَّن الله تعالى مصارف الزكاة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ

(١) من كتاب «الإسلام عقيدة وشريعة» للشيخ شلتوت.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

وهكذا تولى الله بنفسه فى كتابه توزيع الزكاة، فليس لبشرٍ بعد ذلك أن يُحولها عن مصارفها الثمانية إلى مصارف تخدم هواه ما أنزل الله بها من سلطان[١].

(١٢١٤) وعنْ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسُول الله ﷺ قالَ: «بُنِيَ الإسْلامُ على خَمْسٍ: شَهَادَةِ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ مُحمَّدًا عَبْدُهُ ورسُولهُ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتَاءِ الزَّكاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رمضان»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٠٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٢١٥) وعنْ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جَاءَ رجلٌ إلى رسُولِ الله ﷺ مِنْ أهلِ نَجْدٍ، ثَائرُ الرَّأسِ نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِه، ولا نَفْقَهُ ما يقُولُ، حتى دَنَا مِنَ رسُولِ الله ﷺ فإذا هُوَ يَسألُ عنِ الإسْلامِ، فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «خَمْسُ صلواتٍ فى اليومِ واللَّيْلةِ» قال: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قالَ: «لا، إلا أنْ تَطَّوَّعَ» فَقَالَ رسُول الله ﷺ: «وصِيَامُ شَهْرِ رَمَضانَ» قالَ: هَلْ علَيَّ غَيْرُه؟ قَالَ: «لا، إلا أنْ تَطَّوَّعَ» قالَ: وذَكَرَ لهُ رسولُ الله ﷺ الزَّكاةَ فقال: هَلْ عليَّ غَيْرُها؟ قالَ: «لا، إلا أنْ تَطَّوَّعَ» فأدبرَ الرَّجُلُ وهوَ يقولُ: والله لا أزيدُ على هذا ولا أنْقُصُ منهُ، فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «أفْلَحَ إنْ صَدَقَ»[٣].

---

(١) بتصرف من كتاب (العبادات فى الإسلام)/ للدكتور يوسف القرضاوى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦) كتاب الإيمان، ومسلم (١١) كتاب الإيمان.

۞ ففى هذا الحديث أخبر طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه أن رجلًا من أهل نجد ثائر الرأس منتفش الشعر غير مسترسل جاء إلى رسول الله ﷺ وله صوتٌ مرتفع ومتكرر لا يُفهم .. وذلك لأنه كان ينادى من بُعدٍ.. فلم يفهم أحدٌ ما يقوله حتى دنا واقترب من النبى ﷺ وأخذ يسأله عن الإسلام.. أى: عن شرائعه.. وفى رواية أنه قال للنبى ﷺ: أخبرنى ماذا فرض الله علىَّ من الصلاة؟

فقال له ﷺ: «خَمْسُ صلواتٍ فى اليومِ والليْلةِ» أى: هى التى فرضها الله عز وجل عليك من الصلاة.

فقال الرجل: هَلْ علىَّ غَيْرُهن؟ .. فقالَ له النبى ﷺ: «لا، إلا أنْ تَطَّوَّعَ».

قال الإمام النووى رحمه الله: قَوْلُهُ ﷺ: «إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ» اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ وَمَعنَاهُ لَكِنْ يُسْتَحَبُّ لَكَ أَنْ تَطَّوَّعَ وَجَعَلَهُ بَعضُ الْعُلَمَاءِ اسْتِثْنَاءً مُتَّصِلًا واستدلوا به على أن مَنْ شَرَعَ فِي صَلَاةِ نَفْلٍ أَوْ صَوْمِ نَفْلٍ وَجَبَ عَلَيْهِ إِتْمَامُهُ وَمَذْهَبُنَا أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الْإِتْمَامُ وَلَا يَجِبُ .. وَاللهُ أَعلَمُ[1].

۞ ثم قال الرجل: صيام شهر رمضان هل علىَّ غيره؟

قالَ له ﷺ: «لا، إلا أنْ تَطَّوَّعَ» ومعناه أيضًا: أنه يُستحب لك أن تطوع.. والمراد هنا بيان الواجب منهما بأصل الشرع وإلا فإنه يجب فى الصلاة زيادة على الخمس صلوات إذا كان قد نذر أن يصلى صلاة بعينها فإنه يجب عليه الوفاء بالنذر.. وكذلك إذا نذر أن يصوم أيامًا بعينها فإنه يجب عليه الوفاء بالنذر.. وكذلك إذا نذر أن ينفق مالًا فإنه يجب عليه الوفاء بالنذر بشرط ألا ينذر فعل طاعة بصورة تُخالف الكتاب أو السُّنة فإنه فى هذه الحالة لا نذر فى معصية الله عز وجل.

۞ وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال الرجل: هَلْ علىَّ غَيْرُها؟ قالَ له ﷺ: «لا، إلا أنْ تَطَّوَّعَ».

(١) مسلم بشرح النووى (١/ ٢٣٤).

قال الدماميني في المصابيح: لا يَخفى أن هذا الرجل إنما وفد بالمدينة، وأقل ما قيل فيه أنه وفد سنة خمس، وقد تقرر في ذلك الزمن النهي عن أمورٍ كالقتل، والزنى، والعقوق، والظلم، والسرقة. فثبت أن عليه وظائف أخرى غير الصلاة والزكاة والصيام..وأجاب ابن المنير بأنه ﷺ كان يجيب بما يقتضيه الحال، وبالأهم فالأهم، إذ لا يمكن بيان الشريعة دفعة، لا سيما لحديث عهدٍ بالإسلام، أو أن الرواة اقتصروا على بعض ما ذكره ﷺ[1].

۞ فما كان من الرجل إلا أن أدبر وانصرف وهو يقول: والله لا أزيدُ على هذا ولا أنْقُصُ منهُ.... وقد ورد في معناها أنه أقسم ألا يزيد على تلك الفرائض المكتوبة مع تعهُّده على المحافظة عليها وعدم التقصير فيها... وقال بعض أهل العلم: أحسن ما يُقال فيه أن المعنى: أُبلغها قومي على ما سمعتها من غير زيادة ولا نقص... لأنه كان وافدًا لهم ليتعلم ويعلمهم...قاله ابن المنير.

قال الدماميني: ولا ينافيه ما في كتاب الصوم من البخاري من قوله: «وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لاَ أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلاَ أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ شَيْئًا».

فقال رسول الله ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ» قال ابن العربي في كتابه القبس: إنما قال له النبي ﷺ ذلك لأنه أول ما أسلم فأراد أن يطمئن فؤاده، وبعد ذلك يفعل ما سواها بما يظهر له من ترغيب الإسلام[2].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قِيلَ هَـذَا الْفَلَاحُ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهُ: لَا أَنْقُصُ خاصة والأظهر أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى الْمَجْمُوعِ بِمَعنَى أَنَّهُ إِذَا لَم يَزِد وَلَمْ يَنْقُص كَانَ مُفْلِحًا لِأَنَّهُ أَتَى بِمَا عَلَيْهِ...وَمَنْ أَتَى بِمَا عَلَيْهِ فَهُوَ مُفْلِحٌ وَلَيْسَ فِي هَذَا أَنَّهُ إِذَا أَتَى بِزَائِدٍ لَا يَكُونُ مُفْلِحًا لِأَنَّ هَذَا مِمَّا يُعرَفُ بِالضَّرُورَةِ...فَإِنَّهُ إِذَا أَفْلَحَ بِالْوَاجِبِ فَلَأَنْ يُفْلِح

(١) دليل الفالحين (٤/ ٧).
(٢) دليل الفالحين (٤/ ٨).

بِالْوَاجِبِ وَالْمَنْدُوبِ أَوْلَى... فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ: لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا... وَلَيْسَ فى هذا الحديث جميع الواجبات ولا المنهيات الشَّرعِيَّةِ وَلَا السُّنَنِ الْمَنْدُوبَاتِ؟.. فَالْجَوَابُ أَنَّهُ جَاءَ فِى رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ فِى آخِرِ هَذَا الْحَدِيثِ زِيَادَةٌ تُوَضِّحُ الْمَقْصُودَ.

قَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ فَأَدبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ شَيْئًا ... فَعَلَى عُمُومِ قَوْلِهِ: (بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ) وَقَوْلِهِ: (مِمَّا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ) يَزُولُ الْإِشْكَالُ فِى الْفَرَائِضِ ... وَأَمَّا النَّوَافِلُ فَقِيلَ: يُحتمَلُ أَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ شَرعِهَا وَقِيلَ: يُحتمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ لَا أَزِيدُ فِى الْفَرضِ بِتَغْيِيرِ صِفَتِهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا أُصَلِّى الظُّهْرَ خَمْسًا وَهَذَا تَأْوِيلٌ ضَعِيفٌ وَيُحتمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ لَا يُصَلِّى النَّافِلَةَ مَعَ أَنَّهُ لَا يُخِلُّ بِشَىْءٍ مِنَ الْفَرَائِضِ وَهَذَا مُفْلِحٌ بِلَا شَكٍّ ... وَإِنْ كَانَتْ مُوَاظَبَتُهُ عَلَى تَركِ السُّنَنِ مَذْمُومَةٌ وَتُرَدُّ بِهَا الشَّهَادَةُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِعَاصٍ بَلْ هُوَ مُفْلِحٌ نَاجٍ وَاللهُ أَعلَمُ(١).

وهذا دليل على أن الإنسان إذا اقتصر على الواجب فى الشرع فإنه مفلح؛ ولكن لا يعنى هذا أنه لا يُسَنُّ أن يأتى بالتطوع... لأن التطوع تُكمَل به الفرائض يوم القيامة... وكم من إنسانٍ أدى الفريضة وفيها خلل وفيها خروق، وفيها خدوش، تحتاج إلى تكميل وإلى رتق الصدع.

(١٢١٦) وعنْ ابن عبَّاس رضي الله عنهما أَنَّ النبيَّ ﷺ، بَعثَ مُعاذًا رضي الله عنه إلى اليمنِ فقال: «ادعُهُم إلى شهادَةِ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنِّى رسُولُ الله، فإنْ هُمْ أطاعُوا لذلكَ، فأعلِمْهُم أنَّ الله تعالى افترض عليهِمْ خَمسَ صَلواتٍ فى كُلِّ يَوْمٍ وليلةٍ، فإن هُمْ أطاعُوا لذلكَ فأعلمْهُمْ أنَّ الله افترض عليهِم صَدَقةً تُؤخَذُ مِن أغْنيائِهِم، وتُردُّ على فُقرائِهِم»(٢).

۞ لقد اختار النبى ﷺ لتعليم أهل اليمن رجلين من خيار أصحابه

(١) مسلم بشرح النووى (١/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٩٥) كتاب الزكاة، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

وفُضلائهم وهما: أبو موسى الأشعرى العالم القارئ الحاذق الفطن، ومعاذ ابن جبل الشَّاب القاضى الذكى الفطن الأمير[(١)].

۞ وكان بعث معاذ إلى اليمن فى أواخر حياة النبى ﷺ، وذلك ليُعَلِّم أهلها شرائع الإسلام ومقاصد الدين... ومن هنا اختار النبى ﷺ هذين العلمين العالمين لما عُرفا به من العلم والفقه والعمل ليكونا مرشدين لأهل اليمن، وزوّدهما بوصية خالدة تَدلُّ على يُسر الإسلام حيث قال لهما: «**يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وتَطاوَعا ولا تنفِّرا**».

وفى رحلة الاستعداد المعاذية إلى اليمن، زوَّد النبى ﷺ تلميذه النجيب معاذ ابن جبل بزادٍ من الوصايا المباركة، وكانت هذه الوصايا تُفصِحُ عن أسلوب الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى نشر الإسلام فى ربوع اليمن وبين أهلها الذى عُرفوا برقة الأفئدة، وصدق العاطفة ونُبلها.

۞ ومن بين الوصايا النبوية لمعاذ نقرأ هذه الوصية الكريمة التى أضاءت الطريق بين يدى معاذ الشاب العالم الداعية، وتلميذ النبوة النجيب، حيث قال له النبى ﷺ مُبينًا له مراحل الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ: «**إنك ستأتى قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم، فادعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**»[(٢)].

فهذا هو أصل الأصول.. وذلك بأن يشهد العبد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.. فمن قالها فقد أصبح مؤمنًا إن لم يأتِ بناقضٍ من نواقضها.. فإن مات على ذلك فهو من أهل الجنة حتى وإن كان مُقصرًا فى بعض الطاعات أو واقعًا فى بعض المعاصى والمخالفات.. فمصيره فى النهاية إلى الجنة .. لأن من عقيدة أهل السُّنة والجماعة أنه لا يُخلَّد موحدٌ فى النار أبدًا.

---

(١) عن الأسود بن يزيد بن قيس النَّخعى قال: «أتانا معاذُ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ باليمن مُعلمًا وأميرًا..» (إرشاد السارى ٩/ ٤٢٩).

(٢) علماء الصحابة/ د. أحمد خليل جمعة (٧٩٠-٧٩١) بتصرف.

۞ ثم قال له ﷺ: «**فَإِنْ هُمْ أطاعُوا لذلكَ، فأعلِمْهُم أنَّ الله تعالى افترض عليهِمْ خمسَ صَلواتٍ فى كُلِّ يَوْمٍ وليلةٍ**»... وهكذا يوصى النبى ﷺ مُعاذًا أن يتدرج معهم فيبدأ بالأهم وهو إنقاذهم من النار بنُطق الشهادتين ثم تذكيرهم بالصلوات الخمس التى هى الركن الثانى بعد الشهادتين والتى هى عماد الدين.. والتى هى أول ما يُحاسَب عليه العبد من عمله يوم القيامة .. فإذا صلحت فقد أفلح وأنجح وإذا فسدت فقد خاب وخسر.

۞ ثم قال له ﷺ: «**فإن هُمْ أطاعُوا لذلكَ فأعلمْهُمْ أنَّ الله افترض عليهِم صَدَقةً تؤخَذُ مِن أغنيائِهِم، وتُرَدُّ عَلى فُقرائهِم**» وهذا هو الشاهد فى الحديث أن النبى ﷺ أمر معاذًا أن يخبرهم بأن الله عَزَّوَجَلَّ افترض عليهم صدقة -وهى زكاة المال- تُؤخَذ من أغنيائهم وتُدفع إلى فقرائهم لتتآلف القلوب ويصبح المجتمع كالأسرة الواحدة.

فالزكاة هى حق الفقير بوصفه أخًا للغنى فى الدين والإنسانية.

فقد جعل الإسلام المجتمع كالأسرة الواحدة يكفل بعضهم بعضًا... بل كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله.

فمن حق الفقير الذى لا يستطيع أن يعمل، أو يستطيع ولا يجد عملًا، أو يعمل ولا يجد كفايته من عمله أو يجد ولكن حَلَّ به من الأحداث ما أفقره إلى المعونة.. من حقه أن يُعان ويُشَد أزره ويُؤخذ بيده... وليس من الإيمان ولا من الإنسانية أن يشبع بعض الناس حتى يشكو التُّخمة، وإلى جواره مَن طال حرمانه حتى أنَّ وتعب من الجوع.

ولا يجوز للمؤمن أن يعيش فى دائرة نفسه مُغفِلًا واجبه نحو الآخرين من ضعفاء ومساكين... فهذا نقصٌ فى إيمانه، موجب لسخط الله فى الدنيا والآخرة.

والزكاة - مع أنها حق الفقير- حق الجماعة أيضًا... فالإنسان لم يكسب المال بجهده وحده، بل شاركت فيه جهود وأفكار وأيدٍ كثيرة، بعضها عن قصد،

وبعضها عن غير قصد... بعضها ساهم من قريب، وبعضها ساهم من بعيد، وكلها أسباب عاونت فى وصول المال إلى ذى المال...فإذا نظرنا إلى التاجر مثلًا كيف جمع ماله وحقق كسبه؟ رأينا للمجتمع عليه فضلًا كبيرًا. فممن يشترى؟ ولمن يبيع؟ ومع مَن يعمل؟ وبمن يسير إذا لم يكن المجتمع؟ وهكذا الزارع والصانع وكل ذى مال. فمن حق المجتمع ممثَّلًا فى الدولة التى تُشرف عليه وترعى مصالحه، وتسد خلات أفراده أن يكون لها نصيب من مال ذى المال.

فلو لم يكن فى المجتمع المسلم أفراد فقراء أو مساكين لوجب على المسلم أن يؤدى زكاته ولا بد؛ لتكون رصيدًا للجماعة، تنفق منه عند المقتضيات، ولتبذل منه «فى سبيل الله» وهو مصرف عام دائم ما دام فى الأرض إسلام.

والزكاة بعد ذلك -وقبل ذلك- حق الله تعالى... فالله هو المالك الحقيقى لكل ما فى الكون أرضه وسمائه... والمال فى الحقيقة ماله، لأنه خالقه وواهبه ومُيسر سُبله، ومانح الإنسان القدرة على اكتسابه[1].

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ قَبُولُ خَبَرِ الْوَاحِدِ وَوُجُوبِ الْعَمَلِ بِهِ ... وَفِيهِ أَنَّ الْوِتْرَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ لِأَنَّ بَعثَ مُعَاذٍ إِلَى الْيَمَنِ كَانَ قَبْلَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بِقَلِيلٍ بَعدَ الْأَمْرِ بِالْوِتْرِ وَالْعَمَلِ بِهِ ... وَفِيهِ أَنَّ السُّنَّةَ أَنَّ الْكُفَّارَ يُدعَوْنَ إِلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ الْقِتَالِ .. وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يُحكَمُ بِإِسْلَامِهِ إِلَّا بِالنُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ كَمَا قَدَّمْنَا بَيَانَهُ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْإِيمَانِ ... وَفِيهِ أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ تَجِبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... وَفِيهِ بَيَانُ عِظَمِ تَحرِيمِ الظُّلْمِ وَأَنَّ الْإِمَامَ يَنْبَغِي أَنْ يَعِظَ وُلَاتَهُ وَيَأْمُرَهُمْ بِتَقْوَى اللهِ تَعَالَى وَيُبَالِغَ فِي نَهْيِهِمْ عَنِ الظُّلْمِ وَيُعَرِّفَهُمْ قُبْحَ عَاقِبَتِهِ ... وَفِيهِ أَنَّهُ يَحرُمُ عَلَى السَّاعِي أَخْذَ كَرَائِمِ الْمَالِ فِي أَدَاءِ الزَّكَاةِ بَلْ يَأْخُذُ الْوَسَطَ وَيَحرُمُ عَلَى رَبِّ الْمَالِ إِخْرَاجُ شَرِّ الْمَالِ ... وَفِيهِ أَنَّ الزَّكَاةَ لَا تُدفَعُ إِلَى كَافِرٍ وَلَا تُدفَعُ

---

(١) العبادات فى الإسلام/ د. يوسف القرضاوى (ص٢١٣-٢١٤) بتصرف.

أَيْضًا إِلَى غَنِيٍّ مِنْ نَصِيبِ الْفُقَرَاءِ ... وَاسْتَدَلَّ بِهِ الْخَطَّابِيُّ وَسَائِرُ أَصحَابِنَا عَلَى أَنَّ الزَّكَاةَ لَا يَجُوزُ نَقْلُهَا عَنْ بَلَدِ الْمَالِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ**» وَهَذَا الِاسْتِدلَالُ لَيْسَ بِظَاهِرٍ لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي فُقَرَائِهِمْ مُحتَمِلٌ لِفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلِفُقَرَاءِ أَهْلِ تِلْكَ الْبَلْدَةِ وَالنَّاحِيَةِ وَهَذَا الِاحتِمَالُ أظهر(١).

❊❊❊

(١٢١٧) وعَنْ ابـن عُمَـر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قـال: قـال رسُـولُ الله ﷺ: «**أُمِـرتُ أنْ أُقاتِـلَ النَّاسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رسُولُ الله، ويُقِيمُوا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلكَ، عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وأمْوالَهم إلا بحقِّ الإسلامِ وحِسابُهُم على الله**»(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٩٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊❊❊

(١٢١٨) وعنْ أبى هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لـمَّا تُوفِّىَ رسُـولُ الله ﷺ، وكـانَ أبُـو بَكْـر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وكَفَرَ مَن كَفَـرَ مِـن العـربِ، فقـالَ عُمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كيـفَ تُقاتِـلُ النَّـاسَ وقـد قـالَ رسول الله ﷺ: «**أُمِرتُ أنْ أُقاتِلَ النَّـاسَ حتى يقُولـوا لا إلـه إلا الله ، فمَـنْ قالَهـا فقَـد عَصَم مِنِّى مَالَهُ ونَفْسَهُ إلا بحَقِّه، وحِسابُهُ على الله**؟» فقَالَ أبُو بكرٍ: والله لأُقاتِلَنَّ مَنْ فرَّقَ بينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، فإن الزَّكاةَ حقُّ المالِ. والله لو مَنَعُونى عِقالًا كـانوا يؤدونَهُ إلى رسُولِ الله ﷺ لقَاتَلْتُهُمْ على منعه، قالَ عُمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَوالله مَا هُـو إلا أن رأيْـتُ الله قَد شَرحَ صَدرَ أبى بَكْرٍ للقِتالِ، فعَرَفْتُ أنَّهُ الحقُّ(٣).

---

(١) مسلم بشرح النووى (١/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٩٩، ١٤٠٠) كتاب الزكاة، (٧٢٨٤، ٧٢٨٥) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - ومسلم (٢٠) كتاب الإيمان.

۞ قال النبي ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**»، يقاتل مَن امتنع عن واحدة من هذه الأربع: من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ومن إقامة الصلاة، ومن إيتاء الزكاة ... يقاتلهم حتى يُذعنوا ويرضخوا لهذه الأربع.

فإذا فعلوا ذلك ... يعني؛ شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، «**عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عَزَّوَجَلَّ**». يعني: إذا فعلوا ذلك فقد استسلموا ظاهرًا فيعصمون دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله... لأن مِن الناس مَن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وقلبه منطوي على الكفر... ولهذا قال: «**حسابهم على الله**» فالمنافقون يقولون: لا إله إلا الله، لكن لا يذكرون الله إلا قليلًا. ويقولون لرسول الله ﷺ: نشهد إنك لرسول الله، ويقيمون الصلاة ولكن لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ويتصدقون ولكن لا ينفقون إلا وهم كارهون. ومع ذلك قلوبهم منطوية على الكفر - نسأل الله العافية - ولهذا قال: «**وحسابهم على الله عَزَّوَجَلَّ**».

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في تحاور أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الخليفة الأول لرسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ في مسألة دينية، مع أن كل واحد منهما يحب الآخر حبًّا عظيمًا، لكن هذه المحبة لا تمنع من المحاورة و المراجعة الدينية؛ لأن الدين فوق كل شيء...

لما كان أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة النبي ﷺ الخليفة بعد الرسول بإشارة الرسول ﷺ إليه، حيث خلَّفه عنه في الحج وهي إمامة كبرى بالنسبة للناس، وفي الصلاة وهي إمامة صُغرى.. لأن أمير الحج يؤم من الناس أكثر ما يؤمه أمير المسجد.

خلَّفه النبي ﷺ إمامًا للمسجد حين مرض وخلَّفه في الحج بالناس عام تسع من الهجرة، واتفق الصحابة بعد موت الرسول ﷺ على أن الخليفة من بعده

أبو بكر، وارتد مَن ارتد من العرب - والعياذ بالله - وقد أشار الله إلى ذلك فى قولــه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾.... وقد حصل؛ فلقد ارتد مَن ارتد من العرب ومنعوا الزكاة وكفروا بالله، فقاتلهم أبو بكر ﷺ فحاوره عمر، قال: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال النبى ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**». وهذا هو الذى سمعه عمر من النبى ﷺ وإلا فإن ابنه سمع من الرسول أكثر من ذلك... سمع من الرسول ﷺ أنه قال: «**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**». لكن عمر روى ما سمع: (حتى يقولوا لا إله إلا الله).

فقال أبو بكر: (والله لأُقاتلن مَن فرق بين الزكاة والصلاة، الزكاة حق المال، والله لو منعونى عقالًا - يعنى عقال بعير - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على ذلك). وهذا دليل على حزم أبى بكر مع أنه ألين من عمر، لكن فى مواقف الشدة والضيق يكون أبو بكر أحزم من عمر.

نضرب لكم أمثلة منها هذا المثال: عمر رأى ألا يقاتل الناس لكن بعد مراجعة أبى بكر له، علم أنه الحق، لما رأى أن الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال وهو الخليفة من بعد الرسول عرف أنه الحق، إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يشرح صدر هذا الخليفة الراشد (أول خليفة فى الأمة الإسلامية) إلا لحقٍّ[1].

وفعلًا كان رأى أبى بكر فى حرب المرتدين رأيًا ملهمًا، وهو الرأى الذى تُمليه طبيعة الموقف لمصلحة الإسلام والمسلمين، وأى موقف غيره سيكون فيه الفشل والضياع والهزيمة والرجوع إلى الجاهلية... ولولا الله ثم هذا القرار الحاسم من أبى بكر ﷺ لتغير وجه التاريخ وتحولت مسيرته، ورجعت عقارب الساعة إلى الوراء، ولعادت الجاهلية تعيث فى الأرض فسادًا[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٢٤١-٢٤٢) بتصرف.

(٢) الشورى بين الأصالة والمعاصرة (ص٨٦).

لقد سمع أبو بكر وجهات نظر الصحابة فى حرب المرتدين، وما عزم على خوض الحرب إلا بعد أن سمع وجهات النظر بوضوح..إلا أنه كان سريع القرار، حاسم الرأى، فلم يتردد لحظة واحدة بعد ظهور الصواب له، وعدم التَّرَدُّد كان سِمة بارزة من سمات أبى بكر -هذا الخليفة العظيم- فى حياته كلها[١]، ولقد اقتنع المسلمون بصحة رأيه، ورجعوا إلى قوله واستصوبوه.

إن أبا بكر كان أنفذ بصيرة من جميع مَن حوله، لأنه فهم بإيمانه الذى فاق إيمانهم جميعًا: أن الزكاة لا تنفصل عن الشهادتين، فمن أقر لله بالوحدانية لا بد أن يُقر له بما يُفرض من حقٍّ فى ماله الذى هو مال الله أصلًا.

***

(١٢١٩) وعنْ أبى أيوبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رجُلًا قالَ للنَّبىِّ ﷺ: أخْبرنى بِعَملٍ يُدخِلُنى الجَنَّةَ، قال: « تَعبُدُ الله ولا تُشْرِكُ به شيئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتى الزَّكاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ »[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٣٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

***

(١٢٢٠) وعنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ أعرابِيًّا أتى النبىَّ ﷺ فقال: يا رسُولَ الله دُلَّنى على عَمَلٍ إذا عمِلْتُهُ، دخَلْتُ الجنَّةَ. قالَ: « تَعبُدُ الله ولا تُشْرِكُ بهِ شيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتِى الزَّكاةَ المَفْروضَةَ، وتَصُومُ رمَضانَ» قال: والذى نَفْسِى بيدِهِ، لا أزيدُ على هذا. فلَمَّا ولَّى، قالَ النبى ﷺ: « مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلى رجُلٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إلى هذا »[٣].

---

(١)الشورى بين الأصالة والمعاصرة (ص٨٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٩٦) كتاب الزكاة - ومسلم (١٣) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٩٧) كتاب الزكاة - ومسلم (١٤) كتاب الإيمان.

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٢١٥)... فهو يصب فى نفس المعنى وإن اختلفت الألفاظ.. إلا أنه ﷺ فى الحديث الأول لما قال الرجل: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.. قال ﷺ: «أَفْلَحَ إنْ صَدَقَ».. وفى هذا الحديث لما قال الرجل: والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا .. قال النبى ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إلى رجُلٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إلى هذا».

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: وأمَّا قوله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُر إِلَى هَذَا» فَالظَّاهِرُ مِنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلِمَ أَنَّهُ يُوفِّى بِمَا الْتَزَمَ وَأَنَّهُ يَدُومُ عَلَى ذَلِكَ وَيَدخُلُ الْجَنَّةَ[1].

❊ ❊ ❊

(١٢٢١) وعنْ جَريرِ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: بَايعت النَّبىَّ ﷺ على إقامِ الصَّلاةِ، وإيتَاءِ الزَّكاةِ، والنُّصحِ لِكُلِّ مُسْلمٍ[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٨٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊ ❊ ❊

(١٢٢٢) وعنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: « مَا مِنْ صاحبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ، لا يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إلا إذا كانَ يَوْمُ القِيامةِ صُفِّحَتْ لهُ صَفَائحُ مِنْ نارٍ، فأُحمِىَ عَلَيْها فى نار جهنَّمَ، فيُكْوَى بهَا جَنبُهُ، وجَبينُهُ، وظَهْرُهُ، كلَّما بَرَدتْ أُعيدتْ لهُ فى يوْمٍ كان مِقْدَارُه خمسِينَ ألف سنَةٍ، حتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ فيُرَى سبِيلَهُ، إمَّا إلى الجنَّةِ وإما إلى النَّارِ».

قيل: يا رسُولَ الله فالإبلُ؟ قالَ: «ولا صاحبِ إبِلٍ لا يؤَدِّى مِنها حقَّها، ومِن

(١) مسلم بشرح النووى (١/ ٢٤٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧) كتاب الإيمان - ومسلم (٥٦) كتاب الإيمان.



حقَّهَا، حَلْبُها يومَ وِردِها، إلا إذا كان يومُ القِيَامَة بُطِحَ لها بِقَاعٍ قَرقَرٍ أوْفر ما كانتْ، لا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا واحِدًا، تَطَؤُهُ بأخْفَافِها، وتَعَضُّهُ بأفْواهِها، كُلَّما مَرَّ عليْهِ أُولاها، رُدَّ عليْهِ أُخْراها، في يومٍ كان مِقْداره خَمْسِين ألفَ سَنةٍ، حتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَاد، فيُرَى سَبِيلُهُ، إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النارِ».

قيل: يا رسول الله فالبَقرُ والغَنَمُ؟ قالَ: «ولا صاحبِ بقرٍ ولا غَنَمٍ لا يُؤدِّى مِنْهَا حقَّهَا إلا إذا كان يوْمُ القيامة، بُطِحَ لها بقَاعٍ قَرقرٍ، لا يفْقِد مِنْهَا شَيئًا لَيس فيها عَقْصاءُ، ولا جَلْحاءُ، ولا عَضْباءُ، تَنْطَحُه بقُرُونها، وتَطَؤُهُ بأظْلافِهَا، كُلَّما مرَّ عليهِ أُولاها، رُدَّ عَلَيْهِ أُخْراها، في يوم كان مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْف سنةٍ حتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ، فيُرَى سَبِيلُهُ إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النارِ».

قيل: يا رسُول الله فالخيْلُ؟ قال: « الخيْلُ ثلاثةٌ: هِى لرَجُلٍ وِزرٌ، وهى لِرَجلٍ سِتْرٌ، وهِى لرجُلٍ أجْرٌ، فأمَّا التى هى لهُ وزر فَرَجُلٌ رَبطَهَا رِياءً وفَخْرًا ونِواءً على أهْلِ الإسْلام، فهى لهُ وِزْرٌ، وأمَّا التى هى لهُ سِتْرٌ، فرَجُل رَبَطها في سبيل الله، ثُم لم ينْسَ حقَّ الله في ظُهُورِها، ولا رِقابِها، فهِى لهُ سِتْرٌ، وأمَّا التى هى لهُ أجْرٌ، فرجُلٌ رَبطَهَا في سبيلِ الله لأهلِ الإسْلامِ في مَرجٍ، أو رَوضة، فمَا أكَلَت مِن ذلك المرجِ أو الروضةِ مِن شيءٍ إلا كُتِبَ لهُ عدد ما أكَلَت حسنَاتٌ، وكُتِب له عدد أرواثِهَا وأبْوَالِها حَسَناتٌ، ولا تَقْطَعُ طِوَلَها فاستَنَّت شَرَفًا أو شَرفَيْنِ إلا كَتَب الله لهُ عددَ آثارِها، وأرواثِهَا حسنَاتٍ، ولا مرَّ بها صاحِبُها على نَهْرٍ فشَرِبَت مِنْهُ، ولا يُريدُ أنْ يَسْقِيَها إلا كتَبَ الله لهُ عددَ ما شَرِبَت حَسناتٍ».

قيل: يا رسول الله فالحُمُر؟ قال: «ما أُنزِل علىَّ في الحُمُر شيءٌ إلا هذه الآية الفَاذَّةُ الجامِعَةُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾»[1]..

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٠٢) كتاب الزكاة - ومسلم (٩٨٧) كتاب الزكاة.
ومعنى القاعِ: المكان المستوى من الأرض الواسع - والقَرقَر: الأمْلَس.

❁-إن مَن يتأمل فى هذا الحديث يجده كالتفسير المُفصَّل لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أى: يُمسكونهما ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المُحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة فى سبيل الله إذا وجبت.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أى: على أموالهم، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيُحمى كل دينار أو درهم على حدته.

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ فى يوم القيامة كلما بردت أُعيدت فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويُقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم، وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله فى هاتين الآيتين انحراف الإنسان فى ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه فى الباطل، الذى لا يُجدى عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال فى المعاصى والشهوات التى لا تُعين على طاعة الله، وإخراجها للصدِّ عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجه فى الواجبات... والنهى عن الشىء، أمرٌ بضدِّه»[(١)].

ويا له من مشهدٍ عظيم... والسؤال هنا لماذا اختار الله الجبهة والجنب والظهر دون سائر الجسد؟!

(١) تفسير السعدى (ص٣٧٢).

والجواب عن ذلك: أن الفقير كان فى الدنيا إذا ذهب إلى الغنى ليسأله أن يعطيه مما أعطاه الله فإن الغنى يعبس بجبهته فى وجه الفقير فإذا تكرر السؤال من الفقير فإن الغنى يعطيه جانبه فإذا ازداد إلحاح الفقير فإن الغنى يعطيه ظهره!! فاختار الله عز وجل تلك المواطن الثلاثة التى أعرض بها الغنى عن الفقير لتُعذَّب بنفس أمواله بعد أن يُحمَى عليها فى نار جهنم... وهذا ما أخبر عنه النبى ﷺ أيضًا حيث يقول: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى فيها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمى عليها فى نار جهنم، فيُكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أُعيدت عليه، فى يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضَى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار**».

۞ فالذهب والفضة تجب الزكاة فى أعيانهما فى كل حال ... فالزكاة واجبة فى أعيان الذهب والفضة فى كل حال سواء أعدها الإنسان للنفقة أو للزواج أو لشراء بيت يحتاج إلى سُكناه أو شراء سيارة يحتاج إلى ركوبها أو ادخرهما ليستكثر بهما المال أو غير ذلك ... ففيهما الزكاة على كل حال حتى ذَهَبُ المرأة الذى تلبسه والفضة التى تلبسها تجب عليها الزكاة، تجب الزكاة فيها على كل حال... لكن لا بد من بلوغ النِّصاب وهو فى الذهب خمسة وثمانون جرامًا، والفضة خمسمائة وخمسة وتسعون جرامًا ... فإذا كان عند الإنسان من الفضة هذا المقدار ومن الذهب ذلك المقدار وجب عليه الزكاة على كل حال، فإن لم يفعل فجزاؤه ما ذكره النبى ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة صُفِّحَت له صفائح من نار**» لا من ذهب وفضة... بل من نار - والعياذ بالله - قطع نارية ويُحمَى عليها فى نار جهنم... ونار جهنم فُضِّلت على نار الدنيا كلها بتسعة وستين جزءًا. نسأل الله أن يُجيرنا وإياكم منها-**يُحمَى عليها** فى نار جهنم **فيُكْوى به جنبُه**، يعنى الجنب الأيمن والأيسر، وجبينه: يعنى وجهه... وظهره: كلما بردت أُعيدت لا تبقى حتى تبرد وتسكت عنه... كلما بردت أُعيدت، فى يوم كان مقداره خمسين

ألف سنة ، ليس ساعة ولا ساعتين ولا شهرًا ولا شهرين ولا سنة ولا سنتين... بل خمسون ألف سنة وهو يُعذَّب هذا العذاب - والعياذ بالله - حتى يُقْضَى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. نسأل الله العافية(١).

۞ قيل: يا رسول الله فالإبل؟ أي: قد عرفنا حُكم النقدين فما حكم الإبل؟ قال ﷺ: «**ولا صاحبِ إبلٍ لا يؤدِّي مِنها حقَّهَا**» ثم وضح ما هو حقها فقال ﷺ: «**ومِن حقِّهَا، حَلْبُها يومَ وِردِها**» .... «**ومِن**» أي بعض «**حقِّهَا**» المندوب.. وذكر ذلك استطرادًا وبيانًا لما ينبغي أن يعتنى به كل مَن كان له مروءة حتى وإن لم يكن فيه عذاب.. لأن العذاب لا يكون إلا بترك واجب أو فعل محرم.

«**حَلْبُها يومَ وِردِها**» أي بأن تُحلب يوم ورودها الماء.

وجرت العادة أنهم يحلبونها ويتصدقون بها على الحاضرين، هذا من حقها؛ لأن الإبل روايا كبيرة، فيها ألبان، فإذا وردت الماء دَرَّت، وإذا درت صار فيها فضلٌ كبير من اللبن ... فإذا جاء الفقراء يُوزَّع عليهم .. هذا من حقها.

«**إلا إذا كان يومُ القِيامَة بُطِحَ لها**» أي: طُرح على وجهه .

قَالَ الْقَاضِي: قَد جَاءَ فِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ يُخْبَطُ وَجْهُهُ بِأَخْفَافِهَا .. قَالَ: وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرطِ الْبَطْحِ كَوْنُهُ عَلَى الْوَجْهِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي اللُّغَةِ بِمَعنَى الْبَسْطِ وَالْمَدِّ .. فَقَد يَكُونُ عَلَى وَجْهِهِ وَقَد يَكُونُ عَلَى ظهره وَمِنْهُ سُمِّيَتْ بَطْحَاءُ مَكَّةَ لِانْبِسَاطِهَا(٢).

«**بُطِحَ لها بِقَاعٍ قَرقَرٍ**» أي: طُرح على وجهه في صحراء واسعة مستوية بحيث لا يخفى عليها بل يكون مطروحًا على وجهه ظاهرًا لها.

«**أوْفر ما كانتْ**» أي: أنها تكون أسمن ما كانت وذلك ليزداد ثقلها عليه عند وطئها له ومرورها عليه.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٤٥-٢٤٦) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٧/ ٩٠).

«**لا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا واحِدًا**» فكلها موجودة وجاهزة ومتأهبة لأن تطأه بأخفافها.

«**تَطَؤُهُ بأَخْفَافِها، وتَعَضُّهُ بأفْواهِها**» فتظل تمر عليه وتطؤه بأخفافها وتضرب بها وجهه وتزيده عذابًا بأن تظل تعضه بأفواهها.. فكلها تضربه بأرجلها وتعضه بأفواهها ولا تتركه واحدة منها أبدًا.. وهو يظل منبطحًا على وجهه يعانى من هذا العذاب « **كُلَّما مرَّ عليْهِ أُخْراها ، رُدَّ عليْهِ أُولاهَا** » فيظلوا ذاهبين آيبين يضربونه ويعضونه ولا يتخلف منهم أحدٌ أبدًا. ويظل حاله هكذا على تلك الحالة البئيسة لمدة خمسين ألف سنة حتى يقضى الله عَزَّوَجَلَّ بين العباد ... وفى تلك اللحظة بعد خمسين ألف سنة يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار.

۞ ثم ذُكر البقر والغنم... قيل: يا رسول الله فالبَقَرُ والغَنَمُ؟ فقالَ ﷺ: ولا صاحب بقر ولا غنم» أى: مما تجب فيه الزكاة بأن يكون نِصابًا ... بدليل قوله «**لا يؤدى منها حقها**» أى: الزكاة الواجبة فيها «**إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها بقاع قَرقرٍ لا يفقد**» أى: لا يعدم «**منها شيئًا ليس فيها عقصاء**» هى ملتوية القرنين «**ولا جلحاء**» أى: لا قرن لها «**ولا عضباء**» هى المكسورة القرن.

أى: أن قرونها فى غاية السلامة والقوةّ ليكون أوجع للمنطوح[1].

«**تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها**» الأظلاف للبقر والغنم والظباء بمنزلة الخُف للإبل... فالظلف المُنشق من القوائم، والخُف للبعير، والقدم للآدمى، والحافر للفرس والبغل والحمار.

«**كلما مَرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضَى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**».

قيل: يا رسول الله فالخيل؟... والخيل مؤنثة.. وقد سُميت خيلًا لاختيالها

(١) دليل الفالحين (٤/ ١٦).

وهو إعجابها بنفسها مرحًا... ومنه يُقال اختال الرجل وبه خُيلاء أى: كبر وإعجاب... والمسئول عنه وجوب الزكاة فيها «قال: **الخيل ثلاثة**» أى: لها أحكام غير ما مرَّ... فلا زكاة فيها... هذا ما دلَّ عليه السياق ويؤيده حديث «**ليس على مسلم فى عبده ولا فرسه زكاة**»، فالتقدير على مذهب الشافعى: دَع السؤال عن الوجوب، فليس فيها حَقٌّ واجب؛ ولكن سَلْ عن اقتنائها، وعما يرجع إلى صاحبها من النفع، أو المضرة ... ثم قال: «**هى لرجلٍ وزر**» أى: إثم «**وهى لرجلٍ ستر**» أى: للحالة التى هو فيها من الفقر أو الضيق «**وهى لرجلٍ أجر**» (١).

«**فأمّا التى هى لهُ وزر فَرَجُلٌ رَبطَها رِياءً وفَخْرًا ونِواءً على أهْلِ الإسْلام، فهى لهُ وِزْرٌ**».. فهذا الذى اقتنى الخيل رياءًا وسُمعة وفخرًا ومُعاداة لأهل الإسلام ليس له أجر فى اقتنائها بل هى عليه وزرٌ.

«**وأمّا التى هى لهُ سِترٌ، فرَجُل رَبَطها فى سبيل الله**» أى: أوقفها فى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وليس للجهاد فحسب.. بل جعلها وقفًا لله يستعملها فى مصالح المسلمين أو الجهاد فى سبيل الله أو غير ذلك مما فيه طاعة له (جلَّ وعلا).

وفى رواية أخرى: (فرجل ربطها تغنيًا وتعفُّفًا) أى: استغناءً بنتاجها وتَعفُّفًا به عن سؤال الناس عند حاجته إلى الركوب... وهذا أشبه بصنيع ذوى الهيئات وأخلاق أهل الكرم والمروءة ... (ثم لم ينسَ حق الله فى ظهورها) بأن يُزكيها للطاعات وعند الحاجات ندبًا تارة ووجوبًا أخرى (ولا رقابها) بأن يتعهدها بما يُصلحها ويدفع ضررها (فهى له ستر) أى: حجاب يمنعه عن الحاجة للناس.

وَقِيلَ: يُحتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَقِّ فِى رِقَابِهَا الإِحسَانُ إِلَيْهَا وَالْقِيَامُ بِعَلْفِهَا وَسَائِرِ مُؤَنِهَا... وَالْمُرَادُ بِظُهُورِهَا إِطْرَاقُ فَحلِهَا إِذَا طُلِبَتْ عَارِيَتُهُ... وَهَذَا عَلَى النَّدبِ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ حَقُّ اللهِ مِمَّا يُكْسَبُ مِنْ مَالِ الْعَدُوِّ عَلَى ظُهُورِهَا وَهُوَ

---

(١) دليل الفالحين (٤/ ١٧) بتصرف.

خُمسُ الْغَنِيمَةِ[١].

«**لأهل الإسلام فى مرج**» أى: أرض ذات نبات ورعى «**أو روضة**» عطف خاص على عام.

«**فمَا أكَلَت مِن ذلك المرجِ أو الروضةِ مِن شىءٍ إلا كُتِبَ لهُ عدد ما أكَلَت حسنَاتٌ**» أى: كلما أكلت من تلك الأرض وذلك النبات كلما كثرت حسناته وزاد أجره وثوابه.

«**وكُتِبَ له عدد أرواثِهَا وأبْوَالِها حَسَناتٌ**» أى: يُكتب له مطلق «**أرواثها وأبوالها**» باعتبار أن بذلك بقاء حياتها مع كون أصلها قبل الاستحالة مالًا لمالكها.

وفى ذكرهما غاية المبالغة؛ لأنهما إذا كُتبا مع استقذارهما فغيرهما أولَى.

«**ولا تقطع طِوَلها**» وهو حبلٌ طويلٌ يُشَد طرفه فى نحو وتد وطرفه الآخر فى يد الفرس أو رجلها لتدور فيه وترعى من جوانبها وتذهب لوجهها.

«**فاستنَّت**» أى: عدت فى مرجها لتوفر نشاطها «**شرفًا أو شرفين**» أى: طلقًا وطلقين.

قال التوربشتى: لأنها تعدو حتى تبلغ شرفًا من الأرض وهو ما يعلو منها فتقف عند ذلك وقفة ثم تعدو ما بدا لها... فعبَّر عن الطلق بالشرف، أو المراد تعدو إلى طرف المرج ثم تعود إلى محلها[٢].

«**إلا كَتَبَ الله لهُ عددَ آثارِها، وأرواثهَا حسنَاتٍ**» فيكتب الله له عدد خُطاها حسنات وعدد ما يخرج منها حسنات لأنه تَشرُف بربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فله أجر كل ما تتلبس به من أكلٍ وشُربٍ وروثٍ وحركة وسكونٍ ونومٍ.

«**ولا مرَّ بها صاحِبُها**» يُحتمل أن يرادَ به مالكها، وأن يراد مَن صَاحَبَها وإن كان غيره... وإذا أُثيب بالمصاحبة فالمالك أولَى بالثواب.

---

(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ٩٢).

(٢) دليل الفالحين (٤/ ١٧-١٨) بتصرف.

«على نَهْرٍ فشَرِبَت مِنْهُ» أي: شربت من ذلك النهر.

«ولا يُريدُ أنْ يَسْقِيَها إلا كتَبَ الله لهُ عددَ ما شَرِبَت حَسناتٍ» وكتب له ذلك؛ لأنه نشأ عن فعله الذى هو إطعامها حتى احتاجت للشرب... وإذا أُثيب بما ذُكر من غير قصد السقى فمع قصده أولَى.

أى أنه إذا أطعمها ثم أخذها لتتحرك وترتاح من الموضع الذى تُربط فيه فمرَّ بها على نهرٍ فشربت.. فكل قطرة تشربها يكتبها الله له حسنات.

قيل: يا رسول الله فالحُمُر؟ قال: «ما أُنزِل علىَّ فى الحُمُر شىءٌ إلا هذه الآية الفَاذَّةُ الجامِعَةُ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾».

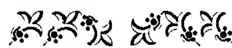
أى: ما أنزل الله علىَّ فى تلك الحُمر شىء إلا هذه الآية الفاذة المنفردة فى معناها الجامعة لأبواب البر.

و مَعنَى الْفَاذَّةِ: الْقَلِيلَةُ النَّظِيرِ ... وَالْجَامِعَةِ: أَىَ الْعَامَّةُ الْمُتَنَاوِلَةُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَمَعرُوفٍ ... وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى التَّمَسُّكِ بِالْعُمُوم ... وَمَعنَى الْحَدِيثِ: لَمْ يَنْزِلْ عَلَيَّ فِيهَا نَصٌّ بِعَيْنِهَا لَكِنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَامَّةُ(١).

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أى: زِنة نملة صغيرة أو جزء من أجزاء الهباء ﴿ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ فإن كان مؤمنًا رأى جزاءه فى الدارين، وإن كان كافرًا ففى الدنيا وقد يُخفف عنه من عذاب الآخرة ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ أى: باعتبار أصل الوعيد فى ترك الزكاة(٢).

فإن استعملت الحمير فى خيرٍ فهو خير، وإن استعملتها فى شرٍّ فهى شر.

والله أعلم.



(١) مسلم بشرح النووى (٧/ ٩٣).

(٢) دليل الفالحين (٤/ ١٨).

(٢١٧) باب وجوب صوم رمضان وبيان فضل الصيام وما يتعلق به

۞ الصيام فى اللغة معناه: الإمساك... ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦]. أى: نذرت إمساكًا عن الكلام ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

أما فى الشرع: فهو التعبُّد لله تعالى بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الثانى إلى غروب الشمس.

وصيام شهر رمضان فرضٌ بنصِّ الكتاب والسُّنة وإجماع المسلمين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. إلى قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وقال النبى ﷺ: «بُنِىَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيْتِ اللهِ الحَرامِ»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا»(٢)، وأجمع المسلمون على أن صيام رمضان فرض، وأنه أحد أركان الإسلام.

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويُذْكى فيهم جَذْوة الإيمان ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أى: فُرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أى: كما فُرض على الأمم قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ أى: لتكونوا من المتقين لله المجتنبين

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٠) كتاب الصوم، ومسلم (١٠٨١) كتاب الصيام.

لمحارمه ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أي: والصيام أيامه معدودات وهى أيام قلائل، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفًا ورحمةً بكم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أى: مَن كان به مرضٌ أو كان مسافرًا فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من أيامٍ غيرها ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ أى: وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخةٍ أو ضعفٍ إذا أفطروا عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أى: فمن زاد على القدر المذكور فى الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى: والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون ما فى الصوم من أجر وفضيلة...ثم بيَّن تعالى وقت الصيام فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ أى: والأيام المعدودات التى فرضتها عليكم أيها المؤمنون هى شهر رمضان الذى ابتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تُفرق بين الحق والباطل ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ أى: مَن حضر منكم الشهر فليَصُمه ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أى: ومَن كان مريضًا أو مسافرًا فأفطر فعليه صيام أيام أُخَر... وكَرَّر لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أى: يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أى: ولتكملوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ أى ولتحمدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ أى ولكى تشكروا الله على فضله وإحسانه(١).



---

(١) صفوة التفاسير (١/ ١٠٨).

(١٢٢٣) وعنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عملِ ابنِ آدم لهُ إلا الصِّيام، فإنَّه لى وأَنَا أجْزِى به. والصِّيام جُنَّةٌ فإذا كان يومُ صومِ أحدِكُمْ فلا يَرفُثْ ولا يَصخَبْ، فإنْ سابَّهُ أحدٌ أوْ قاتَلَهُ، فَلْيَقُل: إنِّى صائمٌ. والذى نَفْس مُحمَّدٍ بيدهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْد الله مِن رِيحِ المِسْكِ. للصَّائمِ فَرحَتَانِ يفرحُهُما: إذا أفْطَرَ فَرِحَ بِفطْرِهِ، وإذا لَقى ربَّهُ فرِحَ بِصَوْمِه»(١).

وهذا لفظ رواية البُخارى... وفى رواية له: «يَترُكُ طَعَامَهُ، وشَرابَهُ، وشَهْوتَهُ، مِن أجْلى، الصِّيامُ لى وأنا أجْزِى به، والحسنَةُ بِعَشْرِ أمْثَالِهَا».

وفى رواية لمسلم: «كُلُّ عَملِ ابنِ آدَمَ يُضاعفُ الحسنَةُ بِعشْر أمْثَالِهَا إلى سَبْعمائة ضِعف. قال الله تعالى: «إلا الصَّوْمَ فإنَّهُ لى وأنا أجْزى به: يدعُ شَهْوَتَهُ وطَعامَهُ مِن أجْلى. للصَّائمِ فَرحَتانِ: فرحة عند فطره، وفرحةٌ عِنْدَ لقاء ربِّهِ. ولخُلُوفُ فِيهِ أطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ ريحِ المِسْكِ».

۞ قال ﷺ: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عملِ ابنِ آدم لهُ إلا الصِّيام، فإنَّه لى وأنَا أجْزِى به» والمعنى: أن الصيام قد اختصه الله عَزَّ وَجَلَّ لنفسه من بين سائر الأعمال لأنه سِرٌّ بين العبد و ربه.. ولأنه العبادة الوحيدة التى لا يتطرق إليها الرياء.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِى مَعنَاهُ مَعَ كَوْنِ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى. فَقِيلَ: سَبَبُ إِضَافَتِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُعبَد أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ تَعَالَى بِهِ. فَلَمْ يُعَظِّمِ الْكُفَّارُ فِى عَصرٍ مِنَ الْأَعصَارِ مَعبُودًا لَهُمْ بِالصِّيَام، وَإِنْ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ بِصُورَةِ الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ وَالصَّدَقَةِ وَالذِّكْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ... وَقِيلَ: لِأَنَّ الصَّوْمَ بَعِيدٌ مِنَ الرِّيَاءِ لِخَفَائِهِ بِخِلَافِ الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ والغزو وَالصَّدَقَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلصَّائِمِ وَنَفْسِهِ فِيهِ حَظٌّ... قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ. قَالَ: وَقِيلَ: إِنَّ الِاسْتِغْنَاءَ عَنِ الطَّعَامِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى فَتَقَرُّبُ الصَّائِمِ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٤) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.

الصِّفَةِ، وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُ اللهِ تَعَالَى لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ. وَقِيلَ: مَعنَاهُ: أَنَا الْمُنْفَرِدُ بِعِلْمِ مِقْدَارِ ثَوَابِهِ أَوْ تَضْعِيفِ حَسَنَاتِهِ ... وَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، أَظْهَرَ سُبْحَانَهُ بَعض مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى مِقْدَارِ ثَوَابِهَا... وَقِيلَ: هِيَ إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ مَعَ أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ لِلَّهِ تَعَالَى ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ عِظَمِ فضل الصوم والحث إِلَيْهِ[1].

۞ وقال بعض أهل العلم:

ومعناه: إذا كان الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .. وكان على الإنسان مظالم للعباد، فإنه يُؤخَذ للعباد من حسناته إلا الصيام ، فإنه لا يُؤخَذ منه شيء، لأنه لله عَزَّوَجَلَّ وليس للإنسان ... وهذا معنى جيد، أن الصيام يتوفر أجره لصاحبه ولا يُؤخذ منه لمظالم الخلق شيئًا.

ومنها: أن عمل ابن آدم يُزاد من حسنة إلى عشرة أمثالها، إلا الصوم، فإنه يُعطى أجره بغير حساب... يعني: أنه يُضاعَف أضعافًا كثيرة.

قال أهل العلم: ولأن الصوم اشتمل على أنواع الصبر الثلاثة، ففيه صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

أما الصبر على طاعة الله، فلأن الإنسان يحمل نفسه على الصيام مع كراهته له أحيانًا... يكرهه لمشقته ، لا لأن الله فَرَضه.. بل لمشقته فيصبر عن الطعام والشراب والنكاح لله عَزَّوَجَلَّ ... ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي».

النوع الثاني من أنواع الصبر: الصبر عن معصية الله، وهذا حاصل للصائم، فإنه يُصبر نفسه عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، فيتجنب اللغو والرفث والزور وغير ذلك من محارم الله.

---

(١) مسلم بشرح النووي (٨/ ٤٢).

الثالث: الصبر على أقدار الله، وذلك أن الإنسان يصيبه فى أيام الصوم (ولا سيما فى الأيام الحارة والطويلة) من الكسل والملل والعطش ما يتألم ويتأذى به، ولكنه صابر لأن ذلك فى مرضاة الله.

فلما اشتمل على أنواع الصبر الثلاث كان أجره بغير حساب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ (١).

۞ قوله سبحانه وتعالى: «وأنا أجْزى به» فلم يُحدد الجزاء والثواب.. وذلك لأن الصوم من الصبر.. وقد قال تعالى عن ثواب الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ⑩﴾.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَنَا أَجْزِى بِهِ» بَيَانٌ لِعِظَمِ فَضْلِهِ وَكَثْرَةِ ثَوَابِهِ لِأَنَّ الْكَرِيمَ إِذَا أَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ الْجَزَاءَ اقْتَضَى عِظَمَ قَدرِ الْجَزَاءِ وَسَعَةَ الْعَطَاءِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ»، وَمَعنَاهُ سُتْرَةٌ وَمَانِعٌ مِنَ الرَّفَثِ وَالْآثَامِ وَمَانِعٌ أَيْضًا مِنَ النَّارِ وَمِنْهُ الْمِجَنُّ وَهُوَ التُّرسُ وَمِنْهُ الْجِنُّ لِاسْتِتَارِهِمْ (٢).

«فإذا كان يومُ صومِ أحدِكُمْ فلا يرفُثْ ولا يَصخَبْ» يعنى: لا يقول قولًا يأثم به ولا يصخب فيتكلم بكلام صخب.. بل يكون وقورًا مطمئنًا متأنيًا، فإن سابَّه أحدٌ أو شَاتَمه فلا يرفع صوته عليه، بل يقول: إنى صائم..يقول ذلك؛ لئلا يتعالى عليه الذى سابَّه..كأنه يقول: أنا لست عاجزًا عن أن أقابلك بما سببتنى ولكنى صائم، يمنعنى صومى من الرد عليك، وعلى هذا فيقوله جهرًا.

كذلك أيضًا إذا قال: (إنى صائم) يردع نفسه عن مقابلة هذا الذى سابَّه.

كأنه يقول لنفسه: (إنى صائم، فلا تَرُدِّى على هذا الذى سَبَّ) وهذا أيضًا معنى جليل عظيم ... ولهذا كان النبى ﷺ إذا رأى من الدنيا ما يُعجبه وخاف أن تتعلق

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣/ ٢٥١).

(٢) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤٣-٤٤) بتصرف.

نفسه بذلك، قال: «**لبيك إن العيش عيش الآخرة**». فالنفس مجبولة على محبة ما تميل إليه، فإذا رأى ما يعجبه من الدنيا فليقل: لبيك: يعني إجابةً لك يا رب.

«**إن العيش عيش الآخرة**» أما عيش الدنيا فزائلٌ وفانٍ.

«**والذى نَفْس محمَّدٍ بيدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْد الله مِن رِيحِ المِسْكِ**» لأن تلك الرائحة إن كانت كريهة بالنسبة للبشر إلا أنها طيبة عند رب البشر لأنها خرجت من طاعة يتقرب بها العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ ... قَالَ الْقَاضِى: يُجَازِيهِ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِى الْآخِرَةِ فتكُونُ نكْهَتُهُ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ كَمَا أَنَّ دَمَ الشَّهِيدِ يَكُونُ رِيحُهُ رِيحَ الْمِسْكِ ... وَقِيلَ يحصل لصاحبه من الثواب أكثر ممن يَحصُلُ لِصَاحِبِ الْمِسْكِ ... وَقِيلَ: رَائِحَتُهُ عِنْدَ مَلَائِكَةِ اللهِ تَعَالَى أَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ الْمِسْكِ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَتْ رَائِحَةُ الْخُلُوفِ عِنْدَنَا خِلَافَهُ(١).

قال أبو حاتم: شعار المؤمنين فى القيامة التحجيل بوضوئهم فى الدنيا فرقًا بينهم وبين سائر الأمم... وشعارهم فى القيامة بصومهم طيبُ خلوفهم أطيب من ريح المسك ليُعرَفوا بين ذلك الجمع بذلك العمل، نسأل الله بركة ذلك اليوم... قال مكحول: يُروَّح على أهل الجنة برائحة فيقولون: ربنا ما وجدنا ريحًا منذ دخلنا الجنة أطيب من هذا الريح..فيقال: هذه رائحة أفواه الصائمين.

۞ «**للصَّائم فرحَتَانِ يفرحُهُما: إذا أفْطَرَ فَرِحَ بِفطْرِه، وإذا لَقى ربَّهُ فرِح بصَومِه**» قَالَ الْعُلَمَاءُ: أَمَّا فَرحَتُهُ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ فَبِمَا يَرَاهُ مِنْ جَزَائِهِ وَتَذَكُّرِ نِعمَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ بِتَوْفِيقِهِ لِذَلِكَ وَأَمَّا عِنْدَ فِطْرِهِ فَسَبَبُهَا تَمَامُ عِبَادَتِهِ وَسَلَامَتُهَا مِنَ الْمُفْسِدَاتِ وَمَا يَرجُوهُ مِنْ ثَوَابِهَا(٢).

قال العلامة ابن رجب: أما فرحة الصائم عند فطره، فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يُلائمها من مطعم ومَشرب ومَنكح... فإذا مُنعت من ذلك فى وقتٍ

(١) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤٣).

(٢) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤٥).

من الأوقات ثم أُبيح لها فى وقتٍ آخر فرحت بإباحة ما مُنعت منه خصوصًا عند اشتداد الحاجة إليه.

قال أبو العالية: الصائم فى عبادة، وإن كان نائمًا على فراشه..فكانت حفصة تقول: يا حبذا عبادة وأنا نائمة على فراشى ... فالصائم فى ليله ونهاره فى عبادة، ويُستجاب دعاؤه فى صيامه وعند فطره، فهو فى نهاره صائم وصابر وفى ليله طاعم شاكر.

وأما فرحه عند لقاء ربه: فبما يجده عند الله من ثواب الصيام مُدَّخرًا فيجده أحوج ما كان إليه ... كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

(١٢٢٤) وعنْ أَبى هُريرَة رضي الله عنه أنَّ رسُولُ الله ﷺ قال: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَين فى سَبيلِ الله نُودِىَ مِنْ أَبْوابِ الجنَّة: يا عَبْدَ الله هذا خَيْرٌ، فمَنْ كان مِن أهلِ الصَّلاة دُعِىَ مِن بابِ الصَّلاةِ، ومَن كان مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِى مِن باب الجِهَادِ، ومَنْ كان مِن أهلِ الصِّيامِ دُعِىَ مِن بابِ الرَّيَّانِ، ومَنْ كان مِن أهْلِ الصَّدَقةِ دُعِى مِن باب الصَّدَقة» قال أبو بكر رضي الله عنه: بأبى أنت وأُمِّى يا رسول الله ما على مَنْ دُعِى مِن تلكَ الأبْوابِ مِن ضرورةٍ، فهلْ يُدعَى أحدٌ مِن تلك الأبْوابِ كلِّها؟ قال: «نعَم، وأرجو أنْ تكونَ منهم»(١).

۞ «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَين فى سَبيلِ الله» أى: مَن أنفق صنفين..مثل أن ينفق دراهم ودنانير.. دراهم وأمتعة..فرسًا وبعيرًا..طعامًا وشرابًا..كسوة وطعامًا..وما أشبه ذلك.

والزوج يقع على الاثنين ويقع على الواحد..وقيل: إنما يقع على الواحد إذا كان معه آخر، ويقع الزوج أيضًا على الصنف وفُسر بقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٩٧) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٢٧) كتاب الزكاة.

ثَلَاثَةً ﴾ وقيل: يحتمل أن يكون هذا الحديث فى جميع أعمال البر من صلاتين أو صيام يومين... والمطلوب تشفيع صدقة بأخرى، والتنبيه على فضل الصدقة والنفقة فى الطاعة والاستكثار منها.

«**نُودِىَ مِنْ أَبْوابِ الجنَّة: يا عَبْدَ الله هـذا خَيْرٌ**» يعنى: أن الملائكة تدعوه من كل بابٍ فتقول: هذا خير.. هذا خير.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قِيلَ مَعنَاهُ لَكَ هُنَا خَيْرٌ وَثَوَابٌ وَغِبْطَةٌ...وَقِيلَ مَعنَاهُ هَذَا الْبَابُ فِيمَا نَعتَقِدُهُ خَيرٌ لَكَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَبْوَابِ لِكَثْرَةِ ثَوَابِهِ وَنَعِيمِهِ فَتَعَالَ فَادخُلْ مِنْهُ...وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مَا ذَكَرنَاهُ أَنَّ كُلَّ مُنَادٍ يَعتَقِدُ ذَلِكَ الْبَابَ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ.

«**فمَنْ كان مِن أهلِ الصَّلاة دُعِىَ مِن بابِ الصَّلاةِ، ومَن كان مِنْ أهْلِ الجِهَادِ دُعِى مِن باب الجِهَادِ، ومَنْ كان مِن أهلِ الصِّيامِ دُعِىَ مِن بابِ الرَّيَّانِ، ومَنْ كان مِن أهْل الصَّدَقةِ دُعِى مِن باب الصَّدَقة**»

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعنَاهُ مَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ فِى عَمَلِهِ وَطَاعَتِهِ ذَلِكَ(١).

فليس المعنى أنه مَن كان من أهل الصيام ولا يصلى فإنه سيدخل من باب الريان... كلا.. بل المقصود أنه يؤدى العبادات والفرائض كلها لكنه إن كان مُكثرًا من الصلاة دُعى من باب الصلاة.. وإن كان مُكثرًا من الصدقة دُعى من باب الصدقة.. وإن كان مُكثرًا من الصيام دُعى من باب الريان.. وهكذا فهو يُدعى من الباب الذى يختص بالعبادة التى يُكثر منها.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ ﷺ فِى صَاحِبِ الصَّوْمِ: «**دُعِىَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ**» **قَالَ الْعُلَمَاءُ**: سُمِّىَ بَابُ الرَّيَّانِ تَنْبِيهًا عَلَى أن العطشان بالصوم فى الهواجر سيُروى وَعَاقِبَتُهُ إِلَيْهِ ... وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرِّيِّ.

---

(١) مسلم بشرح النووى (٨/ ١٦٢-١٦٣) بتصرف.

ولما حدَّث النبى ﷺ بهذا الحديث، قال أبو بكر: يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما على مَن دُعى من أحد هذه الأبواب من ضرورة؟ يعنى الذى يُدعى من بابٍ واحد لا يشق عليه، فهل يُدعى أحد من هذه الأبواب كلها؟ ! يعنى كل باب عليه ملائكة ينادون عليه، يا فلان... قال ﷺ: «**نعم**»، يعنى: ممكن أن يكون الإنسان كثير الصلاة كثير الصدقة، والجهاد، فيُدعَى من الأبواب كلها؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم.

فأبو بكر رضي الله عنه يُدعَى من الأبواب الثمانية كلها؛ لأنه رضي الله عنه سبَّاق إلى الخير.

وفى هذا الحديث منقبة لأبى بكر رضي الله عنه. وفيه جواز الثناء على الإنسان فى وجهه إذا لم يخف عليه فتنة بإعجابٍ وغيره. والله أعلم.

(١٢٢٥) وعنْ سهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه عن النبىِّ ﷺ قال: «**إنَّ فى الجنَّة بابًا يُقَالُ له: الرَّيَّانُ، يَدخُلُ منهُ الصَّائمون يومَ القيامةِ، لا يدخلُ منه أحدٌ غيرهُم.. يُقالُ: أينَ الصَّائمونَ؟ فيقومونَ لا يدخلُ مِنهُ أحدٌ غيرهم، فإذا دخَلوا أُغلِقَ فَلَم يدخلْ منهُ أحدٌ**»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن فى الجنة بابًا اسمه باب الريان.. وهو بابٌ من أبواب الجنة الثمانية... ولكنه بابٌ مخصوص للصائمين فلا يدخل منه أحدٌ غيرهم... فإنهم يأتون يوم القيامة فيُنادَى عليهم: أين الصائمون؟ فيقومون ويدخلون الجنة من ذلك الباب فإذا دخلوا جميعًا أُغلق الباب فلم يدخل منه أحدٌ غيرهم.

فيالها من منقبة عظيمة لأهل الصيام.

۞ **فتدبر يا أخى:**

مُسمى الباب: «الريان» من الرى، والرى ضد الظمأ... مُسمى الباب يبعث على الرى، وأول الغيث قطرة... إنَّ ذِكر الماء فى الصحراء يُقلل من شدة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٩٦) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥٢) كتاب الصيام.

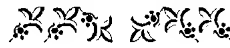
العطش، فما ظنك بالداخل..؟!

هؤلاء الذين تشققت أشداقهم جوعًا فى الدنيا، كيف يكون جزاؤهم من جنس عملهم، وقد قلصت شفاههم عن الأشربة، وضمرت بطونهم؟

قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

قال مجاهد وغيره: نزلت فى الصائمين.

وعن بعض السلف قال: بلغنا أنه يُوضع للصائمين مائدة يأكلون عليها، والناس فى الحساب... فيقولون: يا رب نُحاسَب وهم يأكلون، فيقال: إنهم طالما صاموا وأفطرتم، وقاموا ونمتم.



(١٢٢٦) وعنْ أبى سَعيد الخُدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُول الله ﷺ: « مَا مِن عبْدٍ يَصُومُ يومًا فى سَبيلِ الله إلا باعَدَ الله بذلك اليوم وجهَهُ عن النَّارِ سبعينَ خريفًا»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن العبد إذا صام يومًا فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ فإن الله يُباعد بذلك اليوم نار جهنم عن وجهه سبعين سنة.. وقد اختلف العلماء فى تفسير معنى ذلك الحديث.. فمنهم مَن قال: أن ذلك مُختص بمن يصوم وهو يجاهد فى سبيل الله.. ومنهم مَن قال: بل هو عام فى كل مَن صام نافلة يبتغى بذلك وجه الله.. وإن كان أفضلهم الذى يصوم ذلك اليوم وهو يجاهد فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.... لكن الواقع يشهد بأن الفطر أقوى للمجاهد على جهاده.. ولذا فالأرجح أنه عام فى كل مَن صام نافلة يبتغى بذلك وجه الله تعالى.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ فَضِيلَةُ الصِّيَامِ فِى سَبِيلِ اللهِ وَهُوَ مَحمُولٌ عَلَى مَنْ لَا يَتَضَرَّرُ بِهِ وَلَا يُفَوِّتُ بِهِ حَقًّا وَلَا يَخْتَلُّ بِهِ قِتَالُهُ وَلَا غَيْرُهُ مِنْ مُهِمَّاتِ غَزْوِهِ وَمَعنَاهُ الْمُبَاعَدَةُ عَنِ النَّارِ وَالْمُعَافَاةُ مِنْهَا(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٤٠) كتاب الجهاد والسير – ومسلم (١١٥٣) كتاب الصيام.

(٢) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤٧).

وكنَّى عنها بالخريف؛ لأنه ألطف فصولها؛ لما فيه من اعتدال البرودة والحرارة؛ ولأنه يجرى فيه الماء فى الأغصان(١).



(١٢٢٧) وعنْ أبى هُريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ صامَ رمضَانَ إيمانًا واحتِسابًا، غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذَنْبه»(٢).

ففى هذا الحديث يحثنا النبى ﷺ على إخلاص النية لله عَزَّوَجَلَّ وألا ننوى بصيامنا إلا وجه الله عَزَّوَجَلَّ فقال ﷺ «مَنْ صامَ رمضَانَ» أى: شهر رمضان «إيمانًا» أى: إيمانًا بالله وتصديقًا بما ورد فيه من الثواب «واحتِسابًا» بأن يريد بذلك وجه الله تعالى وحده ولا يقصد رؤية الناس ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص... فإن الثمرة والثواب لمن فعل ذلك «غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذَنْبه» .. والمقصود هنا مغفرة صغائر الذنوب.. وذلك لأن الكبائر تحتاج إلى التوبة... ولذا قال ﷺ فى حديثٍ آخر يوضح ذلك: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»(٣).



(١٢٢٨) وعن أَبِى هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إِذا جَاءَ رَمَضَانُ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجنَّةِ، وغُلِّقَت أَبْوَابُ النَّارِ، وصُفِّدتِ الشياطِينُ»(٤).

وفى رواية لمسلم: «فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحمَةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ».

وقال ﷺ: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ

---

(١) دليل الفالحين (٤/ ٢٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٩٩) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٧٩) كتاب الصيام.

الجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَح مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الخَيرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِر، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذلكَ كُلُّ لَيْلَةٍ»(١).

❁ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَاكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَد حُرِمَ»(٢).

❁ فهذه الأشياء تحدث كلها فى أول ليلة من شهر رمضان:

(١) تُفتح أبواب الجنة ولا يُغلَق منها باب ترغيبًا للصائمين فى فعل الطاعات.

(٢) تُغلق أبواب النار.. وذلك لقلة المعاصى فيه من المؤمنين.

(٣) تُصفَّد الشياطين .. أى المردة منهم .. وهم أشد الشياطين عدوانًا على أهل الإيمان والتوحيد.

(٤) ينادى مُنادٍ: يا باغى الخير أقبِل ويا باغى الشر أقصِر.

(٥) لله عُتقاء من النار وذلك فى كل ليلة.

(١٢٢٩) عن أبى هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: « صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعبَانَ ثَلاثِينَ »(٣).

وفى رواية مسلم: «فَإِن غُمَّ عَليكم فَصُوموا ثَلاثِينَ يَوْمًا» أي حال بينكم وبينه غيم.

وهذا فيما إذا خَفِيَ ولم يظهر هلال شوال فبَيَّن النبى ﷺ فى هذا الحديث أنه متى غُمَّ الهلال ليلة الثلاثين من شعبان، فإنه يجب أن يكمل شعبان ثلاثين يومًا. (وإذا لم يظهر الهلال ليلة الثلاثين من رمضان فإنه يكمل ثلاثين يومًا).

(١) حسن: رواه الترمذى وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٥٩).
(٢) صحيح: رواه أحمد والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٩) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٨١) كتاب الصيام.

(٢١٨) باب الجود وفعل المعروف والإكثار من الخير فى شهر رمضان والزيادة من ذلك فى العشر الأواخر منه

(١٢٣٠) عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فى رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فى كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرسَلَةِ»[1].

۞ **الجود**: هو بذل المحبوب من مالٍ أو عمل... والإنسان يجود بماله فيعطى الفقير ويهدى إلى الغنى، ويواسى المحتاج. ويجود كذلك بعمله فيُعين الإنسان فى أموره: فى سيارته ، فى دُكانه، فى بيته... فالجود هو بذل المال، أو العمل، وربما يدخل فى ذلك أيضًا بذل الجاه، بأن يشفع لأحدٍ أو يتوسط له فى جلب منفعة أو دفع مضرة، أو ما أشبه ذلك.

وكان النبى ﷺ أجود الناس بماله وبدنه وعلمه ودعوته ونصيحته، وكل ما ينفع الخلق ، وكان أجود ما يكون فى رمضان لأن رمضان شهر الجود..يجود الله فيه على العباد... والعباد الموَفَّقون يجودون على إخوانهم... والله -تعالى- جواد يحب الجود، وكان النبى ﷺ ينزل عليه جبريل فى رمضان كل ليلة يدارسه القرآن من أجل أن يُثبِّته فى قلبه، وأن يُحصل الثواب بالمُدارسة بينه وبين جبريل، وجبريل عليه السلام ينزل لكن على كيفية لا نعلمها؛ لأنه ملك من الملائكة، والملائكة لا يُرون إلا إذا شاء الله عز وجل ... كان رسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، أجود بالخير من الريح المُرسَلة ... أى: أنه يسارع إلى الخير

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦) كتاب بدء الوحى - ومسلم (٢٣٠٨) كتاب الفضائل.

عليه الصلاة والسلام، ويجود به، حتى إنه أسرع من الريح المرسلة... يعنى: التى أرسلها الله عَزَّوَجَلَّ، فهى سريعة عاصفة، ومع ذلك فالرسول ﷺ أجود بالخير من هذه الريح فى رمضان[1].

❁ بعض فوائد الحديث:

(١) أنه ﷺ كان أجود الناس على الإطلاق، لأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (أجود الناس)، فعلمنا أن أحدًا لم يكن أجود منه.

(٢) عظيم جوده وبركته، وأنه يَعُمّ الناس جميعًا، مَنْ يتعرض له، ومَنْ لا يتعرض له، لأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وصف الخير الذى يأتى منه، بأكثر من الخير الذى تأتى به الريح المرسلة .... والصحابة فى زمانهم ومكانهم، ما كانوا يعرفون شيئًا أشد خيرًا من الريح، التى تأتى بالماء، رِزق السماء، فيحيى الله به الأرض... وبدون الريح التى تأتى بالماء يموت كل شىء...وعلمنا من قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المُرسَلة) أن جوده أشد خيرًا من الريح من كل الوجوه.

(٣) تنوع عطاء وجود الرسول ﷺ لقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أجود بالخير) ولم يحدد أنواع هذا الخير، فعلمنا أنه كان ﷺ هو الأجود فى كل أنواع الخير، فلم يقتصر جُودُه، على بابٍ واحد من أبواب الخير، ولذلك فضَّل جوده عن الريح المُرسَلة...ولا غرابة فى ذلك، فإذا كانت الريح تُحيى الأرض الميتة، وتُخرج النبات، فإن جوده ﷺ يحيى القلوب والعقول، وهذا أعظم نفعًا من إحياء الأرض.

يتفرع على ذلك: أن الخير الذى يمكن أن يبذله المسلم، لا ينحصر فى إنفاق المال، وأن الفقير لن يعجز أن يجود بالخير، لأن للخير أبوابًا كثيرة، كبذل الجاه فى الشفاعة المحمودة والدعاء لعموم المسلمين وخاصتهم، وإعانة الضعيف،

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٥٥).

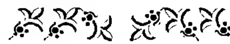
وتعليم الناس، وغير ذلك من أوجه الخير الكثيرة.

(٤) شكر الرسول ﷺ لربه، فى إنزال القرآن عليه، وإرسال الروح الأمين عليه السلام لمدارسته القرآن... وذلك لأن ابن عباس رضي الله عنهما وضح أن سبب هذا الجود العظيم من النبى ﷺ أن جبريل كان يأتيه كل ليلة فيدارسه القرآن.. وأظن أن هذا الجود كان من باب شكر المُنعم.

ويتفرع على ذلك: ألا نلوم أهل الخير، إذا رأيناهم يجودون أكثر فى رمضان، ولا نعتب عليهم أنهم لا يجودون بمثله سائر السنة، شريطة ألا يمتنع أصل جودهم طول السنة، اتباعًا لسُنة النبى ﷺ الذى كان يجود طول العام.

(٥) الخير الذى كان فى الأرض طوال مدة بعثة النبى ﷺ انقطع بوفاة النبى ﷺ... وسبب هذا الخير هو اجتماع النبى ﷺ بجبريل عليه السلام كل ليلة من ليالى رمضان لمدارسة القرآن الكريم.

ويتفرع على ذلك أيضًا: أن أعظم ما ينبغى الاشتغال به فى شهر رمضان المبارك، هو قراءة القرآن العظيم، وما يخدمه من علوم[1].



(١٢٣١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانَ رسُولُ الله ﷺ إذا دخلَ العَشْرُ أحيا الليل، وأيقَظَ أهْلَهُ، وشَدَّ المِئْزَرَ[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٠١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٢٤) كتاب صلاة التراويح - ومسلم (١١٧٤) كتاب الاعتكاف.

(٢١٩) باب النهى عن تقدُّم رمضان بصومٍ بعد نصف شعبان إلا لمن وصله بما قبله أو وافق عادة له بأن كان عادته صوم الإثنين والخميس فوافقه

(١٢٣٢) عن أبي هُريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ يتقَدَّمَنَّ أَحَدُكم رَمَضَانَ بِصَومِ يومٍ أَوْ يومَيْنِ، إِلاَّ أَن يَكونَ رَجُلٌ كَانَ يصُومُ صَوْمَهُ، فَلْيَصُمْ ذلكَ اليوْمَ»[١].

۞ لا يجوز للمسلم صوم يوم الثلاثين من شعبان إلا أن يوافق صومه إياه صومًا كان يصومه... مثل مَن كان عادته صوم يوم الاثنين أو الخميس أو كان يصوم صيام داود عليه السلام .. أى: يصوم يومًا ويفطر يومًا .. فوافق ذلك يوم الثلاثين فله صومه مع أيامٍ صامها من شعبان قبله.

واختلف العلماء رحمهم الله فى هذا النهى: هل هو نهى تحريم أو نهى كراهة؟! والصحيح أنه نهى تحريم، لا سيما اليوم الذى يُشَكُّ فيه. فإن عمار ابن ياسر رضي الله عنهما قال: « مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِى يُشَكُّ فِيهِ فَقَد عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ»[٢].

(١٢٣٣) وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَصُومُوا قَبلَ رَمَضَانَ، صُومُوا لِرُؤْيتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ حالَتْ دُونَهُ غَيَايةٌ فأَكْمِلوا ثَلاثِينَ يَوْمًا»[٣].

۞ وعلى هذا فنقول: لا يجوز للإنسان أن يصوم قبل رمضان بيوم أو يومين إلا مَنْ له عادة، ولا يجوز أن يصوم يوم الشك، وهو يوم الثلاثين من شعبان إذا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩١٤) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٨٢) كتاب الصيام.

(٢) صحيح: رواه أبو داود والترمذى وصححه الألبانى فى المشكاة (١٩١٨).

(٣) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٥٤).

«الغَيَايَة» وهِى: السَّحَابةُ.

كان فى الليلة غيم أو مطر يمنع من رؤية الهلال مُطلقًا ... لأن الرسول ﷺ قال: «صُومُوا لِرُؤْيتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِه».

(١٢٣٤) وعنْ أَبى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذا بَقِىَ نِصفٌ مِنْ شَعبانَ فَلا تَصُومُوا»[١].

۞ والنهى هنا للكراهة وليس للتحريم.. وهذا النهى لمن لم يكن له عادة بصوم النوافل طوال العام فقد نهاه النبى ﷺ عن الصيام فى النصف الثانى من شعبان حتى لا يَضعُف عن صيام الفريضة (شهر رمضان) .. أما مَن كان له عادة بصوم النوافل فله أن يصوم بعد النصف من شعبان لكن عليه أن يتجنب صيام يوم الشك وهو يوم الثلاثين من شعبان.. والله أعلم.

(١٢٣٥) وعنْ أَبى اليَقْظان عمارِ بن ياسِرٍ رضي الله عنهما، قال: مَنْ صامَ اليومَ الذى يُشَكُّ فيهِ فَقَد عَصَى أبا القاسِم ﷺ[٢].

۞ وقد سبق الكلام عن هذا الحديث .. والمعنى أن مَن تعمد صيام يوم الشك وهو يوم الثلاثين من شعبان دون أن يكون له عادة من صيام نافلة فقد خالف أمر رسول الله ﷺ وعصاه.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود والترمذى وصححه الألبانى فى المشكاة (١٩١٨).

(٢٢٠) باب ما يُقال عند رؤية الهلال

(١٢٣٦) عَنْ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ إذا رَأَى الهِلالَ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ علَيْنَا بِاليُمْنِ والإِيمَانِ، وَالسَّلامَةِ والإِسْلامِ، رَبِّي ورَبُّكَ اللهُ»[١].

۞ هكذا يوضح لنا النبي ﷺ أن يقول أحدنا عند رؤية الهلال هذا الذكر الذي ورد في الحديث .. فالذي أهلَّه علينا هو الله عَزَّ وَجَلَّ.. ولولا الله ما أهلَّ علينا هلال رمضان... فلنحمد الله على أن أطال أعمارنا حتى بلَّغنا هذا الشهر الكريم لنفوز برحمة الله وعفوه ومغفرته ولنفوز بالعتق من النيران ولنفوز بليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر.

وإذا كان الهلال قد أطاع ربه عَزَّ وَجَلَّ وأهلَّ علينا عندما أمره الله بذلك.. وكذلك أطاعت السماوات والأرض عندما أمرهما الله عَزَّ وَجَلَّ وقال لهما ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.. فإذا كان الكون كله أطاع ربه عَزَّ وَجَلَّ فهل ستطيع ربك وتمتثل أوامره أم لا؟!

---

(١) حسن: رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٢٦).



(٢٢١) باب فضل السحور وتأخيره ما لم يخشَ طلوع الفجر

۞ فلا بد من السحور ولو على شربة ماء فالسحور بركة.

(١٢٣٧) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «تَسَحَّرُوا، فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»(١).

وعن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ، فَلَا تَدَعُوهُ، وَلَوْ أَنْ يَجْرَعَ أَحَدُكُمْ جَرعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ**»(٢).

۞ فمن بركة السحور امتثال أمر النبى ﷺ... وامتثال أمر النبى ﷺ كله خير، كله أجر وثواب، ومن بركته أنه معونة على العبادة، فإنه يُعين الإنسان على الصيام، فإذا تَسحَّر كفاه هذا السحور إلى غروب الشمس، مع أنه فى أيام الإفطار يأكل فى أول النهار، وفى وسط النهار وفى آخر النهار، ويشرب كثيرًا، فيُنزل الله البركة فى السحور... يكفيه من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس... ومن بركته، أنه يحصل به التفريق بين صيام المسلمين وصيام غير المسلمين.

لأن أهل الكتاب يصومون من نصف الليل فيأكلون قبل منتصف الليل، لا يأكلون فى السَّحَر... أما المسلمون - ولله الحمد - فيأكلون فى السَّحَر، فى آخر الليل. والتمييز بين المسلمين والكفار أمرٌ مطلوب فى الشرع.

۞ ويُستحب تأخير السحور.

وذلك بأن يتسحر قبل الفجر بقليل ليكون عونًا على الصيام.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٢٣) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٩٥) كتاب الصيام.

(٢) حسن: رواه أحمد (٣/ ١٢)، وحسنه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٨٣).

قال رسول الله ﷺ: « ثلاثٌ مِنْ أَخْلَاقِ النُّبُوَّةِ: تَعجِيلُ الإِفْطارِ وتَأخِيرُ السُّحُورِ وَوَضْعُ اليَمِينِ على الشِّمالِ فِي الصَّلاةِ »[١].

(١٢٣٨) وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «تَسَحَّرنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ»، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَ الأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟ قَالَ: «قَدرُ خَمْسِينَ آيَةً»[٢].

(١٢٣٩) وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ: كانَ لرسولِ الله ﷺ مُؤَذِّنَانِ: بلالٌ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ. فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ بلالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ» قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا إِلاَّ أَنْ يَنزِلَ هَذَا وَيَرقَى هَذَا[٣].

۞ وأما قوله في الرواية التي ساقها المؤلف: (ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا وَيَرقَى هذا) فهذه مُدرَجَة في الحديث، شاذة، ليست بصحيحة؛ لأن أمر النبي ﷺ بالأكل والشرب حتى يؤذن ابن أم مكتوم دليل على أن بينهما فرقًا كبيرًا يتسع للأكل والشرب والسحور، فهي جملة ضعيفة شاذة، لا عُمْدة عليها.

وقد بيَّن زيد بن ثابت رضي الله عنه حينما ذكر أنه تسحَّر مع النبي ﷺ ثم قاموا إلى الصلاة، ولم يكن بينهما إلا قدر خمسين آية... خمسون آية: من عشر دقائق إلى ربع الساعة، إذا قرأ الإنسان قراءة مُرَتَّلة أو دون ذلك. وهذا يدل على أن الرسول ﷺ يؤخر السحور تأخيرًا بالغًا، وعلى أنه يقدم صلاة الفجر ولا يتأخر.

(١٢٤٠) وعَنْ عمْرو بنِ العاصِ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «فَضْلُ مَا بيْنَ صِيَامِنَا وَصِيامِ أَهْلِ الكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ»[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٢١) كتاب الصوم – ومسلم (١٠٩٧) كتاب الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٧) كتاب الأذان – ومسلم (١٠٩٢) كتاب الصيام.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠٩٦) كتاب الصيام.

۞ أى إنه ينبغى للإنسان حين يتسحَّر أن يستحضر أنه يتسحر امتثالًا لأمر الله ورسوله، ويتسحر مخالفة لأهل الكتاب، وكُرهًا لما كانوا عليه، ويتسحر رجاء البركة فى هذا السحور، ويتسحر استعانة به على طاعة الله، حتى يكون هذا السحور الذى يأكله خيرًا وبركة وطاعة، والله الموفق[1].

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٥٩) بتصرف.

(٢٢٢) باب فضل تعجيل الفطر وما يفطر عليه وما يقوله بعد إفطاره

(١٢٤١) عَنْ سَهْلِ بنِ سَعدٍ رضي الله عنه أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يَزالُ النَّاسُ بخَيْرٍ مَا عَجَّلوا الفِطْرَ»(١).

(١٢٤٢) وعن أَبى عَطِيَّةَ قَالَ: دخَلتُ أَنَا ومسْرُوقٌ عَلَى عائشَةَ رضي الله عنها فقَالَ لهَا مَسْرُوقٌ: رَجُلانِ منْ أَصحَابِ مُحمَّدٍ ﷺ كلاَهُمَا لا يَأْلُو عَنِ الخَيْرِ: أَحَدُهُمَا يُعَجِّلُ المغْربَ والإِفْطَارَ، والآخَرُ يُؤَخِّرُ المغْرِبَ والإِفْطَارَ؟ فَقَالَتْ: مَنْ يُعَجِّلُ المَغْربَ وَالإِفْطَارَ؟ قالَ: عَبْدُ الله - يعنى ابنَ مَسْعودٍ - فَقَالَتْ: هكَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يصنَعُ(٢).

۞ هنا يوضح النبى ﷺ فضل تعجيل الفطر من خلال السُّنة القولية والسُّنة الفعلية.

أما القولية فهى قوله ﷺ: « **لاَ يَزالُ النَّاسُ بخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ** » أى أنه ما دام الناس يُبادرون إلى سُنة النبى ﷺ ويتسابقون إلى الخير فهم بخير.

وأما الفعلية فتتضح فى حديث أمنا عائشة رضي الله عنها حينما سألها أبو عطية ومسروق عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ أحدهما يؤخِّر الفطر، ويؤخر صلاة المغرب، والثانى يُعجل الفطر ويُعجل صلاة المغرب، أيهما أصوب؟! فقالت عائشة: (مَن هذا؟!) - أى الذى يُعجل - قالوا: ابن مسعود رضي الله عنه فقالت: (هكذا كان النبى ﷺ يفعل). يعنى: يُعجل الفطر، ويُعجل صلاة المغرب... فهذه سُنة فِعلية، تدل على أن الأفضل تقديم الإفطار.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (١٩٥٧) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٩٨) كتاب الصيام.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٩٩) كتاب الصيام - قوله: لا يألو: أى لا يُقصر فى الخير.

(١٢٤٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أحبُّ عِبادِي إليَّ أعجَلُهُم فِطرًا»(١).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبي ﷺ.

(١٢٤٤) وعن عُمر بنِ الخطَّاب رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إذا أقْبَلَ اللَّيْلُ مِن هَهُنا وأدبَرَ النَّهارُ مِن هَهُنا، وغَرَبتِ الشَّمْسُ، فقَد أفْطرَ الصائمُ»(٢).

۞ «إذا أقْبَلَ اللَّيْلُ مِن ههُنا» أي: من جهة المشرق «وأدبَرَ النَّهارُ مِن ههُنا» أي: من جهة المغرب .... والجمع بينهما للتأكيد وإلا فأحدهما يستلزم الثانى، «وغَربتِ الشَّمْسُ» بأن غاب جميع قرصها، ولا يضر بعد تَحقُّقه بقاء الشعاع، «فقَد أفْطرَ الصائمُ» أي: صار مُفطرًا شرعًا، وإن لم يتناول شيئًا؛ لخروج وقت الصوم وهو النهار بذلك... وقيل: معناه دخل وقت إفطاره(٣).

۞ قال الإمام النووى رحمه الله: قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ وَأَدبَرَ النَّهَارُ وَغَابَتِ الشَّمْسُ فَقَد أَفْطَرَ الصَّائِمُ» مَعناهُ: انْقَضَى صَوْمُهُ وَتَمَّ وَلَا يُوصَفُ الْآنَ بِأَنَّهُ صَائِمٌ فَإِنَّ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ خَرَجَ النَّهَارُ وَدَخَلَ اللَّيْلُ، وَاللَّيْلُ لَيْسَ مَحِلًّا لِلصَّوْمِ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ يَتَضَمَّنُ الْآخَرَيْنِ وَيُلَازِمُهُمَا وَإِنَّمَا جَمَعَ بَيْنَهَا لِأَنَّهُ قَد يَكُونُ فِي وَادٍ وَنَحوِهِ بِحَيْثُ لَا يُشَاهِدُ غُرُوبَ الشَّمْسِ فَيَعتَمِدُ إِقْبَالَ الظَّلَامِ وَإِدبَارَ الضِّيَاءِ .. وَاللهُ أَعلَمُ(٤).

وفى قول الرسول ﷺ: «فَقَد أَفْطَرَ الصَّائِمُ»... يعنى: وإن لم ينوِ الفطر...يعنى فقد انتهى صيامه، وأفطر حُكْمًا...وقال بعضهم: فقد أفطر، أي: فقد حَلَّ له

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذى، وابن حبان، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٠٤١).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٥٤) كتاب الصوم - ومسلم (١١٠٠) كتاب الصيام.
(٣) دليل الفالحين (٤/ ٣٧).
(٤) مسلم بشرح النووى (٧/ ٢٩٥) بتصرف.

الفِطرُ. لكن لا شك أنك إذا نويت الفطر - إذا ما لم يكن عندك ما تأكله وتشربه - فهو أحسن وأفضل، حتى تكون مبادرًا إلى الإفطار بالنية، لعدم القدرة على الأكل والشرب.

(١٢٤٥) وَعَنْ أَبى إبراهيمَ عبدِ اللهِ بنِ أَبى أَوْفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: سِرنَا مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ صائمٌ، فَلَمَّا غَربتِ الشَّمسُ، قالَ لِبْعضِ الْقَوْمِ: «يَا فُلانُ انْزِلْ فَاجْدح لَنا»، فَقَال: يَا رَسُول اللهِ لَوْ أَمْسَيتَ؟ قالَ: «انْزِلْ فَاجْدَح لَنَا» قالَ: إِنَّ عليْكَ نَهارًا، قالَ: «انْزِلْ فَاجْدَح لَنَا» قَالَ: فَنزَلَ فَجدَحَ لَهُمْ فَشَرِبَ رسُولُ الله ﷺ ثُمَّ قالَ: «إذا رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ قَد أَقْبَلَ مِنْ ههُنَا، فَقَد أَفْطَرَ الصَّائمُ» وأَشارَ بيَدِهِ قِبَلَ المَشْرِقِ[1].

۞ ففى هذا الحديث يحكى عبد الله بن أبى أوفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنهم كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو صائم.. فلما غربت الشمس قال النبى ﷺ لواحدٍ من القوم: «يا فُلانُ انْزِلْ فاجْدَح لنا» أى: اخلط لنا السويق بالماء وحرِّكه حتى يستوى... فقال الرجل: يا رسول الله لو أمسيت؟ أى: لو تأخرت حتى يدخل المساء.

فكرر النبى ﷺ الكلمة مرة أخرى وقال له: «انْزِلْ فاجْدَح لنا» فقال الرجل: إنَّ علَيكَ نهارًا... أى أنه ظن أنه بقى وقت من النهار ولم يَحِن وقت الإفطار.

فقال النبى ﷺ للمرة الثالثة: «انْزِلْ فاجْدَح لنا» فنزل الرجل فجدح لهم وخلط السويق بالماء حتى استوى ثم قدَّمه للنبى ﷺ فشرب رسول الله ﷺ ثم قال: «إذا رأيْتُمُ اللَّيْلَ قَد أقْبَلَ مِنْ ههُنَا، -وأشار بيَدِهِ قِبَل المَشْرِق- فقَد أفْطَرَ الصَّائمُ»...

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: مَعنَى الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصحَابَهُ كَانُوا صِيَامًا وَكَانَ ذَلِكَ فِى شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِى رِوَايَةِ يَحيَى بْنِ يَحيَى فَلَمَّا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٤١)، (١٩٥٥) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠١) كتاب الصيام.
قَوْله فَاجْدَح لَنَا: أَى: اخْلِطِ السَّوِيقَ بالماءِ.

غَرَبَتِ الشَّمْسُ أَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَدحِ لِيُفْطِرُوا فَرَأَى الْمُخَاطَبُ آثَارَ الضِّيَاءِ وَالْحُمْرَةِ الَّتِي بَعدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَظَنَّ أَنَّ الفِطْرَ لَا يَحِلُّ إِلَّا بَعدَ ذَهَابِ ذَلِكَ وَاحتَمَلَ عِنْدَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرَهَا فَأَرَادَ تَذْكِيرَهُ وَإِعلَامَهُ بِذَلِكَ وَيُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُهُ: إِنَّ عَلَيْكَ نَهَارًا لِتَوَهُّمِهِ أَنَّ ذَلِكَ الضَّوْءَ مِنَ النَّهَارِ الَّذِي يَجِبُ صَوْمُهُ وَهُوَ مَعنَى لَوْ أَمْسَيْتَ أَيْ تَأَخَّرتَ حَتَّى يَدخُلَ الْمَسَاءُ ... وَتَكْرِيرُهُ الْمُرَاجَعَةَ لِغَلَبَةِ اعتِقَادِهِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ نَهَارٌ يَحرُمُ فِيهِ الْأَكْلُ مَعَ تَجْوِيزِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَنْظُر إِلَى ذَلِكَ الضَّوْءِ نَظَرًا تَامًّا فَقَصَدَ زِيَادَةَ الْإِعلَامِ بِبَقَاءِ الضَّوْءِ ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ وَتَفْضِيلُه عَلَى الْفِطْرِ لِمَنْ لَا تَلْحَقُهُ بِالصَّوْمِ مَشَقَّةٌ ظَاهِرَةٌ.

وَفِيهِ بَيَانُ انْقِضَاءِ الصَّوْمِ بِمُجَرَّدِ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَاسْتِحبَابُ تَعجِيلِ الْفِطْرِ وَتَذْكِيرُ الْعَالِمِ مَا يُخَافُ أَنْ يَكُونَ نَسِيَهُ وَأَنَّ الْفِطْرَ عَلَى التَّمْرِ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَحَبٌّ لَوْ تَرَكَهُ جَازَ وَأَنَّ الْأَفْضَلَ بَعدَهُ الْفِطْرُ عَلَى الْمَاءِ[1].

(١٢٤٦) وعن سَلْمانَ بنِ عامر الضَّبِّيِّ الصَّحابيِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أفْطَرَ أحَدُكُمْ، فَلْيُفْطِر على تَمْرٍ، فإنْ لَم يَجِد، فَلْيُفْطِر على ماءٍ فإنَّه طَهُورٌ»[2].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبي ﷺ.

(١٢٤٧) وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُفْطِرُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رُطَبَاتٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٌ فَتُميراتٌ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تُميراتٌ حَسَا حَسواتٍ مِنْ ماءٍ[3].

۞ وهنا يوضح النبي ﷺ لنا أفضل ما نُفطر عليه .. فجعل أفضل شيء أن

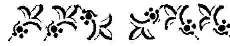
(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ٢٩٦-٢٩٧) بتصرف.
(٢) ضعيف: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٨٩).
(٣) حسن: رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٩٥).

نُفطر على رُطَبَ فإن لم نجد فالتمر فإن لم نجد فالماء.

وذلك لأنك إذا ملأت المعدة بعد يومٍ طويل من الصيام فإن هذا قد يسبب لك ضررًا شديدًا على المعدة وعلى الصحة بشكلٍ عام.

فينبغي إذا سمعت أذان المغرب أن تُفطر على شيءٍ من الرُّطب فإن لم تجد فتفطر على بعض التمرات فإن لم تجد فتفطر على شيءٍ من الماء.

۞ وإنما قدَّم الرطب والتمر؛ لأنه أنفع للبدن من الماء، لأنه حلوى وغذاء، وقوة ... وقد قال أهل الطب: (إن الحلاوة التي في التمر هي أسرع شيء يتقبله الجسم من أنواع الحلوى، وإنها تسرى إلى العروق فورًا). وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ... فهذا الذي ينبغي أن تفطر عليه: رُطَب، فإن لم تجد فتمر، فإن لم تجد فماء.



(٢٢٣) باب أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه عن المخالفات والمشاتمة ونحوها

(١٢٤٨) عنْ أبى هُريرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا كانَ يوْمُ صَوْمِ أَحدِكُمْ، فَلا يرفُثْ وَلا يَصخَبْ، فَإنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّى صائمٌ»(١).

۞ فالله عَزَّ وَجَلَّ فرض علينا الصيام من أجل أن نصل إلى مرتبة التقوى فنجعل بيننا وبين غضبه وعذابه وقاية وحاجزًا منيعًا.. وذلك بفعل الطاعات وترك المحرمات.

كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أى: من أجل أن تتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ وتجتنبوا محارمه.

فالصيام مدرسة ربانية يتعلم فيها العبد المسلم الطريق إلى التقوى ويتعود فيها على القيام بالواجبات وترك المحرمات من خلال تربية عملية لمدة شهرٍ كامل يترك فيها العبد طعامه وشرابه وشهواته من طلوع الفجر إلى غروب الشمس طاعة لله (جل وعلا) ليصل فى نهاية الشهر إلى أن يُصبح إنسانًا تقيًّا.

ولهذا بيَّن الله الحكمة من ذلك بأنها التقوى..وقال النبى ﷺ: « **إذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يرفُثْ، وَلَا يَفْسُقْ**» يعنى: لا يفعل فعلًا محرمًا ولا يقول قولًا محرمًا، « **فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ**» يعنى: صار يعيبه ويشتمه. « **أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى صَائِمٌ** » حتى يدفع عن نفسه العجز عن المدافعة ويبين لصاحبه أنه لولا الصيام لقابلتك بمثل ما فعلت بى، فيبقى عزيزًا لا ذليلًا.

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللهُ: فى قَوْلِهِ ﷺ: «**فَلْيَقُلْ إِنِّى صَائِمٌ إِنِّى صَائِمٌ**» اخْتَلَفُوا فِى مَعنَاهُ فَقِيلَ: يَقُولُهُ بِلِسَانِهِ جَهْرًا يَسْمَعُهُ الشَّاتِمُ وَالْمُقَاتِلُ فَيَنْزَجِر

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٤) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.

غَالِبًا، وَقِيلَ: لَا يَقُولُهُ بِلِسَانِهِ بَلْ يُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَهُ لِيَمْنَعَهَا مِنْ مُشَاتَمَتِهِ وَمُقَاتَلَتِهِ وَمُقَابَلَتِهِ وَيَحرِصُ صَوْمَهُ عَنِ الْمُكَدِّرَاتِ .. وَلَوْ جَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ كَانَ حَسَنًا وَاعلَمْ أَنَّ نَهْىَ الصائم عن الرَّفَثِ وَالْجَهْلِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمُشَاتَمَةِ لَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِثْلُهُ فِى أَصلِ النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ لَكِنَّ الصَّائِمَ آكَدُ .. وَاللهُ أَعلَمُ[1].

(١٢٤٩) وَعَن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النبىُّ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدع قَوْلَ الزُّورِ والعمَلَ بِهِ فلَيْسَ للهِ حَاجةٌ فى أَنْ يَدَعَ طَعامَهُ وشَرَابهُ»[2].

❁ قال ﷺ: «**مَن لمْ يدَع قوْلَ الزُّورِ**» أى: مَن لم يترك الكذب وقول المُحرَّم «**والعمَلَ بهِ**» أى والعمل بالمحرم... «والجهل» كما فى الرواية الأخرى.. يعنى: العدوان على الناس.. «**فلَيْسَ لله حَاجةٌ فى أنْ يَدَعَ طَعامَهُ وشَرابَهُ**» وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ إنما أوجب الصيام لغاية عظيمة ألا وهى الوصول إلى التقوى بفعل الواجبات وترك المحرمات.

قال ابن بطال: ليس معناه أنه يُؤمَر بالأكل والشرب، وإنما معناه التحذير من قول الزور وما معه... وقوله (حاجة) أى: إرادة فى صيامه، إذ الله تعالى لا حاجة له فى شىء... وقيل: هو كناية عن عدم القبول، كما يقول مَن غضب على مَن أهدى له شيئًا...لا حاجة لى فى هديتك، أى: هى مردودة عليك... وقال ابن العربى: إن مقتضى هذا الحديث، أن مَنْ فعل ما ذُكر لا يُثاب على صومه[3].

(١) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٩٠٣) كتاب الصوم.

(٣) دليل الفالحين (٤/ ٤١) بتصرف.

(٢٢٤) باب فى مسائل من الصوم

(١٢٥٠) عنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبىِّ ﷺ قالَ: «إذا نَسِىَ أحَدُكُم، فأكَلَ أوْ شَرِبَ، فَلْيُتمَّ صَوْمَهَ، فإنَّمَا أطْعَمَهُ الله وسَقاهُ»[1].

۞ فإذا أكلت أو شربت ولو شبعت ورويت، وأنت ناسٍ فى الصيام، فإن صومك كامل، ليس فيه نقص .. ولهذا قال: «فليُتم صومه» ... وفى قوله: «فإنما أطعمه الله وسقاه» دليل على أن فعل الناسى لا يُنْسَب إليه، وإنما يُنسب إلى الله، وكذلك النائم لا يُنسب فعله إلى نفسه، وإنما يُنسب إلى الله.

كما قال الله - تعالى - فى أصحاب الكهف ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٨] والذى يتقلب هو النائم، ولكن لما لم يكن له قصد نَسب الله الفعل إليه...كذلك الناسى لم يتعمد فساد الصوم... نسى فأكل وشرب، فنقول له: صومك صحيح، وكذلك لو كان جاهلًا، مثل أن يحتجم وهو لا يدرى أن الحجامة تُفطر، فصومه صحيح... ومثل أن يأكل وهو يظن أن الفجر لم يطلع، ثم تبين أنه طالع، فصومه صحيح... ومثل أن يأكل وهو يظن أن الشمس قد غربت، فأكل ثم تبين أن الشمس لم تغرب ، فصيامه صحيح.

وقد وقعت هذه المسألة فى عهد النبى ﷺ حينما كان الناس صائمين فى يوم غيم، فأفطروا ظنًّا منهم أن الشمس قد غابت، ثم طلعت الشمس، ولم يأمرهم النبى ﷺ بقضاء الصوم؛ لأنهم لا يدرون، ولم يتعمدوا... ولكن متى ذكر الإنسان وجب عليه التَّرك والإمساك، حتى لو كانت اللقمة فى فمه وجب عليه لَفْظُها، وكذلك لو كان الماء فى فمه، وجب عليه أن يُريقَه، وكذلك لو كان جاهلًا ثم أُخبر فإنه يجب عليه أن يُمْسِك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٣٣) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥٥) كتاب الصيام.

فالنسيان لا يُؤاخَذ به المرء فى فعل محظور... لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقال الله تعالى: **قد فعلت.**

أما مَن رآه فإنه يجب عليه أن يُذكره؛ لأن هذا من تغيير المنكر... وقد قال ﷺ: «**مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»[1] ولا ريب أن أكل الصائم وشربه حال صيامه من المنكر، ولكنه يُعفى عنه حال النسيان لعدم المؤاخذة، أما مَن رآه فإنه لا عذر له فى ترك الإنكار عليه.

لأن أخاك إذا عُذر بالنسيان وأنت علمت به، وجب عليك أن تُذكره.

ولهذا قال النبى ﷺ فى الصلاة: «**إذا نسيت فذكرونى**»[2] فأمر أن يُذَكَّر إذا نسى.

كذلك أيضًا إذا رأيت صائمًا يأكل ويشرب ناسيًا فذكِّره، كما لو رأيت إنسانًا يصلى مُنحرفًا عن القبلة، وجب عليك أن تخبره.

فالمهم أنه إذا وقع أخوك فى شىء لا يحل له، فعليك أن تُذكره، لأن النسيان كثير والخطأ كثير.



(١٢٥١) وعن لَقِيط بن صَبِرةَ رضي الله عنه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله أخبرنِى عنِ الوُضوءِ؟ قال: «أَسْبِغِ الوضُوءَ، وخَلِّلْ بين الأَصَابعِ، وبالغْ فى الاسْتِنْشَاقِ، إلا أنْ تكُون صائمًا»[3].

۞ **أسبغ الوضوء:** يعنى توضأ وضوءًا سابغًا كاملًا... والإسباغ: بمعنى الإتمام قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أى: أكملها...والثانى «وخلِّل بين الأصابع» ولا سيما أصابع الرجلين... خلِّل بينهما بالماء، لأن أصابع الرجلين متلاصقة، وربما لا يدخل الماء من بينها، «وبالغ فى الاستنشاق» يعنى: استنشاق

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٩) الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠١) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٧٢) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٢٧).

الماء عند الوضوء، «إلا أن تكون صائمًا» فلا تبالغ فى الاستنشاق لأنك إذا بالغت فى الاستنشاق دخل الماء إلى جوفك من طريق الأنف..فدلَّ ذلك على أن وصول الأكل أو الشرب عن طريق الأنف كوصوله عن طريق الفم، يُفْطِر الصائمَ، وأما الإبر التى تكون فى الوريد أو تكون فى اليد، أو تكون فى الظَّهر، أو فى أى مكان فإنه لا يُفطِّر الصائمَ... إلا الإبر المغذية التى يستغنى بها عن الأكل والشرب، فهذه تُفطِّر الصائمَ، ولا يحل له إذا كان صومه فرضًا أن يستعملها إلا عند الحاجة، وعند الضرورة فإذا اضْطُر إلى ذلك أفطر، واستعمل الإبر، وقضى يومًا مكانه [1].

(١٢٥٢) وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالتْ: كانَ رسُولُ الله ﷺ يُدرِكُهُ الفَجْرُ وهُوَ جُنُبٌ مِن أهْلِهِ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ ويصُومُ» [2].

(١٢٥٣) وعَنْ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتَا: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُصبِحُ جُنُبًا مِنْ غَيْرِ حُلْمٍ، ثُمَّ يَصُومُ [3].

۞ ففى هذين الحديثين تخبر عائشة وأم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبى ﷺ كان أحيانًا يُصبح جُنُبًا فينوى الصوم ثم يغتسل.. أى أنه ﷺ كان إذا أتى زوجته قبل الفجر فإنه كان يستحضر نية الصوم ثم يغتسل.. وهذا يدل على أنه يجوز للجُنب أن ينوى الصوم وإن لم يغتسل إلا بعد طلوع الفجر كما كان النبى ﷺ يفعل أحيانًا ولكن بشرط أن تكون الجنابة قد وقعت قبل الفجر وليس بعده.. وهذا دليل على أن أفعال النبى ﷺ حُجة يُحتج بها ولا يُقال أن هذا من خصائصه ﷺ.. وذلك لأن الأصل عدم الخصوصية إلا أن يكون هناك دليلٌ على ذلك ... لأنه ﷺ هو الأسوة والقدوة لأمته.

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٣/ ٢٦٣-٢٦٤) بتصرف.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٢٥، ١٩٢٦) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٩) كتاب الصيام.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٣٠، ١٩٣٢) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٩) كتاب الصيام.

(٢٢٥) باب بيان فضل صوم المحرَّم وشعبان والأشهر الحُرم

(١٢٥٤) عن أبى هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: « أفضَلُ الصِّيامِ بعدَ رمضَانَ: شَهْرُ الله المحرَّمُ، وأفْضَلُ الصَّلاةِ بَعد الفريضةِ: صلاةُ اللَّيْلِ»[(١)].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١١٧٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٢٥٥) وعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالَتْ: لَمْ يَكُنِ النبىُّ ﷺ يَصُوم مِنْ شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْ شَعبَانَ، فَإِنَّه كانَ يَصُوم شَعبَانَ كلَّه.

وفى رواية: كَانَ يَصُومُ شَعبَانَ إلاَّ قَلِيلًا[(٢)].

۞ وفى رواية: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يَصُومُ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِى شَعبَانَ»[(٣)].

۞ وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، لم أركَ تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان، قال: « ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرفَعُ فِيهِ الأَعمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرفَعَ عَمَلِى وَأَنَا صَائِمٌ »[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٣) كتاب الصيام.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٧٠) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥٦) (١٧٦) كتاب الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٦٩) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥٦) (١٧٥) كتاب الصيام.

(٤) حسن: رواه أحمد، والنسائى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٠٢٢).

❁ الصيام فى شهر شعبان سُنة والإكثار منه سُنة... حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيته ﷺ أكثر صيامًا منه فى شعبان» فينبغى الإكثار من الصيام فى شهر شعبان لهذا الحديث.

قال أهل العلم: وصوم شعبان مثل السنن الرواتب بالنسبة للصلوات المكتوبة، ويكون كأنه تقدمة لشهر رمضان... أى: كأنه راتبة لشهر رمضان، ولذلك سَنَّ الصيام فى شهر شعبان، وسَنَّ الصيام ستة أيام من شهر شوال كالراتبة قبل المكتوبة وبعدها... وفى الصيام فى شعبان فائدة أخرى وهى توطين النفس وتهيئتها للصيام؛ لتكون مستعدة لصيام رمضان سهلًا عليها أداؤه[1].

❁ قال الإمام النووى رحمه الله:

قَوْلهَا: (كَانَ يَصُوم شَعبَان كُلّه ، كَانَ يَصُومُهُ إِلا قَلِيلا) الثَّانِى تَفْسِيرٌ لِلأَوَّلِ ، وَبَيَان أَنَّ قَوْلهَا «كُلّه» أَىْ :غَالِبُهُ. اهـ.

فهذا الحديث يدل على جواز الصيام بعد نصف شعبان، ولكن لمن وصله بما قبل النصف.

❁ وسُئل الشيخ ابن باز رحمه الله عن حديث النهى عن الصيام بعد نصف شعبان فقال: هو حديث صحيح كما قال الأخ العلامة الشيخ ناصر الدين الألبانى... والمراد به النهى عن ابتداء الصوم بعد النصف، أما مَن صام أكثر الشهر أو الشهر كله فقد أصاب السُّنة[2]. اهـ.

وخلاصة الجواب: أنه يُنهى عن الصيام فى النصف الثانى من شعبان إما على سبيل الكراهة أو التحريم، إلا لمن له عادة بالصيام، أو وصل الصيام بما قبل النصف. والله تعالى أعلم.

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢٠/ ٢٢، ٢٣).

(٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز رحمه الله (١٥/ ٣٨٥).

والحكمة من هذا النهى أنَّ تَتابُع الصيام قد يُضعف عن صيام رمضان.

فإن قيل: وإذا صام من أول الشهر فهو أشد ضعفًا !

فالجواب: أن مَن صام من أول شعبان يكون قد اعتاد على الصيام، فتقل عليه مشقة الصيام.

(١٢٥٦) وعن مُجِيبَةَ البَاهِلِيَّةِ عن أَبِيهَا أَوْ عمِّها، أَنَّهُ أتى رسُولَ الله ﷺ، ثُمَّ انطَلَقَ فأَتَاهُ بعدَ سَنَة، وقد تَغَيَّرتْ حَالهُ وهَيْئَتُه، فقالَ: يا رسُولَ الله أَمَا تعرِفُنى؟ قال: « ومَنْ أنتَ؟ » قالَ: أنا البَاهِلِيُّ الذى جئتك عامَ الأوَّل. قال: « فَمَا غيَّرَكَ، وقد كُنتَ حَسَنَ الهيئةِ؟» قال: ما أكلتُ طعامًا منذ فارقْتُك إلا بلَيْلٍ. فقال رسُولُ الله ﷺ: «عَذَّبْتَ نَفسَكَ» ثم قال: «صُمْ شَهرَ الصَّبرِ، ويومًا مِن كلِّ شهرٍ» قال: زِدنى، فإنَّ بى قوَّةً، قال: «صُمْ يومينِ» قال: زِدنِى، قال: « صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ» قال: زِدنِى، قال: « صُمْ مِنَ الحُرُم واتْرُكْ ، صُمْ مِن الحُرُم واتْرُك، صُمْ مِن الحُرُم واتْرُك» وقال بأصَابِعِه الثلاثِ فضَمَّهَا، ثمَّ أرسَلَها[1].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٤٩١).

و«شهرُ الصَّبر»: رمضان

(٢٢٦) باب فضل الصوم وغيره في العشر الأول من ذي الحجة

(١٢٥٧) عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ أيامِ العَمَلُ الصَّالحُ فِيها أَحَبُّ إلى اللهِ مِنْ هذِهِ الأَيَّامِ» يعني: أَيامَ العشرِ، قالوا: يَا رسولَ اللهِ وَلا الجهادُ في سبيلِ اللهِ؟ قالَ: «وَلاَ الجهادُ في سبيلِ اللهِ، إلاَّ رَجُلٌ خَرجَ بِنَفْسِهِ، وَمَالِهِ فَلَم يَرجِع منْ ذَلِكَ بِشَيءٍ»(١).

❁ ففي هذا دليل: على فضيلة العمل الصالح في أيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة، من صيام وغيره... وفيه دليل أيضًا على أن الجهاد من أفضل الأعمال، ولهذا قال الصحابة: (ولا الجهاد في سبيل الله؟!). وفيه دليل على فضيلة هذه الحالة النادرة أن يخرج الإنسان مجاهدًا في سبيل الله بنفسه وماله... وماله يعني: سلاحه ومركوبه، ثم يُقتَل، ويُؤخَذ سلاحه ومركوبه...يأخذه العدو، فهذا فَقَد نفسه وماله في سبيل الله، فهو من أفضل المجاهدين، فهذا أفضل من العمل الصالح في أيام العشر، وإذا وقع هذا العمل في أيام العشر تَضاعف فَضْلُه.

❁ وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث «العمل الصالح» ولم يحدد الصيام... وفي هذا دليل على أن المسلم يُستحب له في هذه الأيام الصيام والقيام وقراءة القرآن والصدقة والذكر والاستغفار وصلة الأرحام وغيرها من العمل الصالح... ويدخل فيها الصيام من باب أَولَى لأنه من أحب العبادات إلى الله (جل وعلا) كما قال تعالى: « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ...»(٢).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٩٦٩) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٠٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.

(٢٢٧) باب فضل صوم يوم عرفة وعاشوراء وتاسوعاء

(١٢٥٨) عن أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن صَوْمِ يوْمِ عَرَفَةَ؟ قال: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الماضيةَ والبَاقِيةَ»(١).

۞ يُستحب صوم يوم عرفة لغير الحاج.. أما الحاج فلا يُسَنّ له صيام يوم عرفة لأن النبي ﷺ أفطر في ذلك اليوم والناس ينظرون إليه .. ولأنه أقوى للحاج على العبادة والدعاء في ذلك اليوم.

وقد أخبر النبي ﷺ أن صيامَهُ يكون سببًا في تكفير ذنوب سنتين: السنة التي قبله والسنة التي بعده.

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: مَعنَاهُ يُكَفِّرُ ذُنُوبَ صَائِمِهِ فِي السَّنَتَيْنِ...قَالُوا: وَالْمُرَادُ بِهَا الصَّغَائِرُ وَسَبَقَ بَيَانُ مِثْلِ هَذَا فِي تَكْفِيرِ الْخَطَايَا بِالْوُضُوءِ وَذَكَرنَا هُنَاكَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ صَغَائِرُ يُرجَى التَّخْفِيفُ مِنَ الْكَبَائِرِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُفِعت دَرَجَاتٍ(٢).

(١٢٥٩) وعنْ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسول اللهِ ﷺ صَامَ يوْمَ عاشوراءَ، وأَمَرَ بِصِيَامِهِ(٣).

(١٢٦٠) وعنْ أَبي قَتَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عاشُوراءِ، فَقَالَ: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ المَاضِيَةَ»(٤).

(١٢٦١) وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قالَ رسُول اللهِ ﷺ: «لَئِنْ بَقِيتُ إِلى قَابِلٍ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٢) كتاب الصيام.
(٢) مسلم بشرح النووي (٨/ ٧٣).
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٠٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٣٠) كتاب الصيام.
(٤) صحيح: رواه مسلم (١١٦٢) كتاب الصيام.

لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ»[(١)].

۞ فمن الأيام التى يُسَنَّ فيها الصيام - صيام عاشوراء ومعه يومٌ قبله- وأخبر النبى ﷺ أن صيامه يُكفِّر السنة الماضية كلها... أى يُكفِّر الصغائر.. وذلك لأن الكبائر تحتاج إلى توبة مُستقلة وحدها.

۞ فصيامه يُكفِّر السنة الماضية فهو أقل أجرًا من صوم يوم عرفة، ومع ذلك ينبغى أن يصوم مع عاشوراء تاسوعاء؛ لأن النبى ﷺ قال: « لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ » يعنى: مع العاشر.

ولأنه أمر أن يُصام يومًا قبله أو يومًا بعده؛ مخالفة لليهود..لأن يوم عاشوراء - العاشر من المحرم - هو اليوم الذى أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه ، فكان اليهود يصومونه شكرًا لله على هذه النعمة العظيمة؛ أن الله أنجى جُنده، وهزم جند الشيطان. أنجى موسى وقومه، وأهلك فرعون وقومه، فهو نعمة عظيمة... ولهذا لما قَدِمَ النبى ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا يوم أَنجى الله موسى وقومه، وأَهْلَك فرعون وقومه فنصومه شكرًا لله، فقال: «نَحنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ»[(٢)]. لماذا؟ لأن النبى والذين معه أَوْلَى الناس بالأنبياء السابقين، ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فرسول الله ﷺ أحق بموسى من اليهود، لأن اليهود كفروا به، وكفروا بعيسى، وكفروا بمحمدٍ، فصامه ﷺ وأَمَر الناس بصيامه، إلا أنه أمر أن يخالفوا اليهود الذين لا يصومون إلا يوم العاشر، كأن نصوم التاسع، أو الحادى عشر، مع العاشر، أو الثلاثة.

۞ ولهذا ذكر بعض أهل العلم، كابن القيم وغيره أن صيام عاشوراء ثلاثة أقسام:

(١) أن يصوم عاشوراء والتاسع، وهذا أفضل الأنواع.

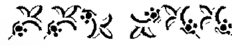
---

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٣٤) كتاب الصيام.

(٢) متفق عليه: صحيح البخارى (٣٩٤٣) كتاب مناقب الأنصار، ومسلم (١١٣٠) كتاب الصيام.

(٢)أن يصوم عاشوراء والحادى عشر، وهذا دون الأول.

(٣)أن يصوم عاشوراء وحده فكرهه بعض العلماء... لأن النبى ﷺ أمر بمخالفة اليهود... ورخَّص فيه بعض العلماء[1].



---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٦٢٧-٦٢٨) بتصرف.



(٢٢٨) باب استحباب صوم ستة أيام من شوّال

(١٢٦٢) عَنْ أَبِى أَيوبٍ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضانَ ثُمَّ أَتبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كانَ كصِيَامِ الدَّهْرِ»[١].

۞ يُستحب أن يُتبع رمضان بصيام سِتٍّ من شَوَّال- لا يُشترط تَتابُعها- لأن هذا يعدل صيام الدهر... فعن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ صَامَ رَمَضانَ ثُمَّ أَتبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كانَ كصِيَامِ الدَّهْرِ**».

وإنما كان ذلك كصيام الدهر، لأن الحسنة بعشر أمثالها..فرمضان بعشرة أشهر، والستة بشهرين..كما فى حديث ثوبان عن النبى ﷺ قال: «**مَنْ صَامَ رَمَضانَ فَشَهْرٌ بِعَشَرَةِ أَشْهُرٍ، وَصِيَامُ سِتَّةِ أَيَّامٍ بَعدَ الْفِطْرِ فَذَلِكَ تَمَامُ صِيَامِ السَّنَةِ**»[٢].

والظاهر من حديث أبى أيوب المتقدم أن حوز فضيلة ثواب صوم الدهر مشروطة بصيام رمضان ثم إتباعه بستٍّ من شوال... فلا يقدم صيام الست على قضاء رمضان[٣]، قلت: إلا أن يُقال إن قوله: «ثم أتبعه ستًّا» خرج مَخرج الغالب فليس له مفهوم، فيجوز حينئذ صيام الست قبل قضاء رمضان لاسيما لمن ضاق عليه شوال لو قضى، والله أعلم[٤].

فالشاهد أنه يُستحب للعبد أن يقضى ما عليه من صيام رمضان أولًا فإن خشى فوات شهر شوال قبل أن يصوم الست من شوال فله أن يصوم الست من شوال أولًا ثم يقضى ما عليه.. فلقد كانت أمنا عائشة رضي الله عنها تقضى ما عليها من

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٤) كتاب الصيام.

(٢) صحيح: رواه النسائى، وابن ماجه، وابن خزيمة، وصححه الألبانى فى الإرواء تحت حديث: (٩٥٠)، وصَحِيحِ التَّرغِيبِ وَالتَّرهِيب: (١٠٠٧).

(٣) أفاده العلامة ابن عثيمين رحمه الله كما فى «الممتع» (٦/ ٤٤٨).

(٤) صحيح فقه السنة (٢/ ١٣٤).

رمضان في شهر شعبان.

۞ ومن المعلوم أن تلك الأيام الست لا تُصام إلا في شوَّال ... إلا أن الشيخ الحبيب ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ قال:

وسواء صُمتها من ثاني يوم العيد وأتبعت بعضها بعضًا، أو صُمتها بعد يومين أو ثلاثة، أو صمتها متتابعة، أو صمتها متفرقة، الأمر في هذا واسع.

لكن لو أنك تساهلت حتى خرج شوال وصُمت، فإنها لا تكون بهذا الأجر، اللهم إلا مَن كان معذورًا، مثل أن يكون مريضًا، أو امرأة نُفساء أو مسافرًا، ولم يَصُم في شوال وقضاها في ذي القعدة، فلا بأس[1].



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٦٨).

(٢٢٩) باب استحباب صوم الإثنين والخميس

(١٢٦٣) عن أبى قَتَادَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمِ الاثْنَين، فقال: «ذلكَ يومٌ وُلِدتُ فيه، ويَوْمٌ بُعِثْتُ، أَوْ أُنْزِلَ عليَّ فيه»[١].

(١٢٦٤) وعن أبى هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عنْ رسولِ الله ﷺ قالَ: «تُعرَضُ الأعمَالُ يوْمَ الإثنينِ والخميسِ، فأُحِبُّ أن يُعرَضَ عَملى وأنا صَائمٌ»[٢].

(١٢٦٥) وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ رسولُ الله ﷺ يَتَحَرَّى صَوْمَ الاثنينِ والخَميسِ[٣].

۞ ففى الحديث الأول سُئل النبى ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال ﷺ: «ذلكَ يومٌ وُلِدتُ فيه» فالنبى ﷺ وُلد يوم الاثنين وكان ميلاده إشراقة لشمس التوحيد على الكون كله.. فلقد بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ ليُخرج به الناس من ظُلمات الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

۞ «ويَوْمٌ بُعِثْتُ، أَوْ أُنْزِلَ عليَّ فيه»

وكان بداية نزول القرآن عليه فيه. وبداية بعثته كانت يوم الإثنين أيضًا وكذلك هو يومٌ مات فيه النبى ﷺ.

والراوى شَكَّ، هل قال: (أُنْزِل) أو (بُعِثت)؟، وبينهما فرق؛ لأنه أُنْزِل عليه القرآن قبل أن يُبعث... أُنزلت عليه سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ...﴾ وبهذا صار نبيًّا وأُنزل عليه، وأما البعث وهو الإرسال، فإنما كان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ وهذا بعد الأول. وعلى كُلٍّ صار هذا اليوم فيه مناسبات شريفة عظيمة، ولادة الرسول ﷺ وإنزال الوحى عليه، أو إرساله إلى الناس.

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٢) كتاب الصيام.

(٢) صحيح: رواه النسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٥٩)، ورواه مسلمٌ بغير ذِكرِ الصَّوم.

(٣) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٩٧).

۞وقد وضح النبى ﷺ فى الحديث الثانى لماذا كان يتحرى صيام الاثنين والخميس فقال ﷺ «تُعرَضُ الأعمَالُ يوْمَ الاثنَيْن والخَميسِ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعرَضَ عَملى وَأَنا صَائمٌ»(١).

فالصيام يشفع للعبد .. فإذا صعد الصيام مع الأعمال التى تُرفع إلى الله فإنه يشفع للعبد عند الله (جل وعلا).

قال ﷺ: « الصِّيَامُ وَالْقُرآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. يَقُولُ الصِّيَامُ: أىْ رَبِّ إِنِّى مَنَعتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعنى فِيهِ .. يَقُولُ الْقُرآنُ: رَبِّ مَنَعتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعنى فِيهِ فَيُشَفَّعَانِ »(٢).

۞«تُعرَضُ الْأَعمَالُ» أَىْ عَلَى اللهِ تَعَالَى «فَأُحِبُّ أَنْ يُعرَضَ عَمَلِى وَأَنَا صَائِمٌ» أَىْ: لطَلَبِ الزِّيَادَةِ ورفعة الدرجة... قال ابن الْمَلكِ وَهَذَا لَا يُنَافِى قَوْلَهُ عليه السلام يُرفَعُ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ لِلْفرقِ بَيْنَ الرَّفْعِ وَالْعَرضِ .. لِأَنَّ الْأَعمَالَ تُجمَعُ فِى الْأُسْبُوعِ وَتُعرَضُ فِى هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ.

وَفِى حَدِيثِ مُسْلِمٍ تُعرَضُ أَعمَالُ النَّاسِ فِى كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّتَيْنِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ إِلَّا عَبْدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحنَاءُ فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هذين حتى يصطلحا .. قال ابن حَجَرٍ: وَلَا يُنَافِى هَذَا رَفْعَهَا فِى شَعبَانَ فَقَالَ إِنَّهُ شَهْرٌ تُرفَعُ فِيهِ الْأَعمَالُ وَأُحِبُّ أَنْ يُرفَعَ عَمَلِى وَأَنَا صَائِمٌ لِجَوَازِ رَفْعِ أَعمَالِ الْأُسْبُوعِ مُفَصَّلَةً وَأَعمَالِ الْعَامِ مُجْمَلَةً(٣).

۞ ومن أجل ذلك أخبرت أُمنا عائشة رضي الله عنها فى الحديث الثالث أن النبى ﷺ كان يتحرى صوم الإثنين والخميس.

---

(١) صحيح: رواه النسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٥٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبرانى فى الكبير وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٨٢).

(٣) تحفة الأحوذى (٣/ ١٧٠).

(٢٣٠) باب استحباب صوم ثلاثة أيامٍ من كل شهر

۞ والأفضلُ صومُها فى الأيام البيض، وهى : الثالثَ عَشَر، والرابعَ عَشَر، والخامِسَ عشَرَ... وقيلَ: الثَّانى عَشَرَ، والثالثَ عشَرَ، والرابعَ عشَرَ... والصحيح المشهُورُ هوَ الأوَّلُ .

(١٢٦٦) وعن أَبى هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: أَوْصَانى خليلى ﷺ بثلاثٍ: صيَامِ ثَلاثة أَيَّامٍ مِن كلِّ شَهرٍ، وَرَكعَتى الضُّحَى، وأَن أُوتِر قَبْلَ أَنْ أنامَ(١).

(١٢٦٧) وعَنْ أَبى الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: أَوْصَانِى حَبِيبى ﷺ بثلاثٍ لَنْ أَدَعهُنَّ مَا عِشْتُ: بصِيامِ ثَلاثَة أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْر، وَصَلاةِ الضحَى، وَبِأَنْ لاَ أَنام حَتى أُوتِر(٢).

(١٢٦٨) وَعَنْ عبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «صوْمُ ثلاثَةِ أَيَّامٍ منْ كلِّ شَهرٍ صوْمُ الدهْرِ كُلِّهِ»(٣).

(١٢٦٩) وعنْ مُعاذَةَ العَدَوِيَّةِ أَنَّها سَأَلَتْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يصومُ مِن كُلِّ شَهرٍ ثلاثةَ أَيَّام؟ قَالَت: نَعَمْ. فَقُلْتُ: مِنْ أَىِّ الشَّهْر كَانَ يَصُومُ؟ قَالَتْ: لَمْ يَكُن يُبَالى مِنْ أَىِّ الشَّهْرِ يَصُومُ(٤).

(١٢٧٠) وعنْ أَبى ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذا صُمْتَ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاثًا، فَصُمْ ثَلاثَ عَشْرَةَ، وَأَربعَ عَشْرَةَ، وخَمْسَ عَشْرَةَ»(٥).

(١٢٧١) وعنْ قتادَةَ بن مِلحَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يأْمُرُنا بِصِيَامِ أَيَّامِ البيضِ: ثَلاثَ عشْرَةَ، وأَربَعَ عَشْرَةَ، وَخَمْسَ عَشْرَةَ(٦).

(١٢٧٢) وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسولُ الله ﷺ لا يُفْطِرُ أَيَّامَ البِيضِ فى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٧٨) الجمعة، ومسلم (٧٢١) صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٢٢) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٧٩) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١١٦٠) كتاب الصيام.

(٥) صحيح: رواه أحمد والترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٣).

(٦) صحيح: رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢١٣٩).

حَضَرٍ ولا سَفَرٍ»[١].

۞ أخبر النبى ﷺ أن صيام ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر كله ولكن الأفضل أن تكون فى الأيام البيض: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر. فإن لم يمكن بأن كانت المرأة حائضًا، أو حصل سفر، أو ضيق، أو ملل، أو مرض يسير، أو ما أشبه ذلك، فإنه يحصل الأجر لمن صام هذه الأيام الثلاثة، سواء كانت الأيام البيض الثالث عشر، والرابع عشر والخامس عشر، أو خلال أيام الشهر.

قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كان النبى ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، لا يبالى أصامها فى أول الشهر، أو وسطه، أو آخره».

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

ثم إن الأيام الثلاثة يجوز أن تصومها فى العشْر الأوَّل، أو فى العشر الأوسط، أو فى العشر الأخير، أو كل عشرة أيام يومًا، أو كل أسبوع يومًا..كل هذا جائز، والأمر واسع، ولهذا قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أن النبى ﷺ لا يبالى من أى الشهر صامها، من أوله أو من وسطه أو من آخره. لكن اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، أحسن وأفضل، لأنها أيام البيض ... أما صوم يوم الخميس فهو أيضًا سُنة، لكنه دون صوم يوم الاثنين.. فصوم يوم الإثنين أفضل، وكلاهما فاضل. وإنما كان صيامهما فاضلًا؛ لأنه يُروَى عن النبى ﷺ أن الأعمال تُعرَض فيهما على الله، قال: «**فَأُحِبُّ أَنْ يُعرَضَ عَمَلِى وَأَنَا صَائِمٌ**».

وأفضل الصيام صيام داود .. وذلك أن يصوم الإنسان يومًا ويُفطر يومًا.

هذا لمن قدر ولم يكن عليه مشقة، ولم يُضع بسببه الأعمال المشروعة الأخرى، ولم يمنعه عن تعلُّم العلم... لأن هناك عبادات أخرى، إذا كان كثرة الصيام تُعجزك عنها فلا تُكثر الصيام.. والله الموفق[٢].

---

(١) صحيح: رواه النسائى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٥٨٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٧١).

(٢٣١) باب فضل مَن فطَّر صائمًا وفضل الصائم الذى يُؤكَل عنده ودعاء الآكل للمأكول عنده

(١٢٧٣) عن زَيْدِ بن خالدٍ الجُهَنىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبىِّ ﷺ قال: «مَنْ فَطَّرَ صائمًا، كان لهُ مِثْلُ أجْرِه غَيْر أَنَّهُ لا يَنْقُصُ مِن أجْر الصائمِ شىءٌ»(١).

۞ قلت لإخوانى ذات مرة قبل دخول شهر رمضان: مَن منكم يريد أن يصوم شهر رمضان القادم مائة مرة؟! فتعجب الناس وقالوا: كيف ذلك؟.

فقلت لهم: إذا أطعم أحدكم تسعًا وتسعين صائمًا فكأنه صام شهر رمضان مائة مرة لأن صيامهم يصبح فى ميزانهم وميزان مَن أطعمهم بالإضافة إلى صيامه فيصبح وكأنه صام مائة رمضان.

ومن أجل ذلك نجد فى شهر رمضان تنافُسًا جميلًا بين الأثرياء من أجل إعداد مائدة الرحمن ليفوزوا بذلك الأجر الكبير.

ولو يعلم الناس مدى الأجر والثواب الذى يتحصل عليه الإنسان إذا فطَّر صائمًا.. فلن يمر على أحدهم يوم إلا وهو يبحث عمَّن يقدم له الطعام عند إفطاره.

فاحرص على أن تدعو أرحامك وجيرانك والفقراء واليتامى والمساكين على الإفطار قدر استطاعتك لتفوز بهذا الأجر العظيم.

فقد قال سبحانه وتعالى فى وصف الفائزين بالجنة: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤١٥).

مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان: ٨-١٢].

واختلف العلماء في معنى: «مَنْ فَطَّر صَائِمًا» فقيل: إن المراد مَن فطَّره على أدنى ما يُفَطَّر به الصائم، ولو بتمرة.

وقال بعض العلماء: المراد بتفطيره أن يُشبعه؛ لأن هذا هو الذي ينفع الصائم طول ليله، وربما يستغني به عن السحور؟.

ولكن ظاهر الحديث: أن الإنسان لو فطَّرَ صائمًا ولو بتمرة واحدة، فإن له مثل أجره.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يحرص على إفطار الصائمين.

(١٢٧٤) وعن أُمِّ عمَارةَ الأنْصاريَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ عليها، فقدَّمَتْ إليه طعَامًا، فقال: «كُلِي» فقالت: إنِّي صائمةٌ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الصائمَ تُصلِّي علَيْهِ الملائِكةُ إذا أُكِلَ عنْدَهُ حتَّى يَفْرَغُوا» ورُبَّما قال: «حتَّى يَشْبَعُوا»(١).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبي ﷺ.

(١٢٧٥) وعنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ جاء إلى سَعد بنِ عُبَادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجاء بخُبْزٍ وزَيْتٍ، فأكَلَ، ثمَّ قال النَّبيُّ ﷺ: «أفْطَرَ عِندكُمْ الصَّائمونَ، وأكَلَ طَعامَكُمْ الأبْرارُ وصَلَّتْ عَلَيْكُم الملائكةُ»(٢).

۞ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ ذهب إلى سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. وقد كان النبي ﷺ يزور أصحابه ويتفقد أحوالهم ويسأل عنهم إذا غابوا ويعودهم إذا

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٤٨٣).
(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٣٧).

مَرضوا ولا ينسَى واحدًا منهم أبدًا.

وهنا ذهب النبي ﷺ إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج (فجاء بخبزٍ وزيت) وهذا فيه إحضار ما سهل وأنه لا ينافى الجود ... فقد كان سعد كأبيه من أجواد العرب (فأكل) أى: النبى ﷺ (ثم قال النبى ﷺ) أى: بعد تمام الأكل (أفطر عندكم الصائمون) أى: أثابكم الله إثابة مَن فطَّر صائمًا.. فهى خبرية لفظًا دعائية معنى كجملة (وأكل طعامكم الأبرار) جمع بَرّ، وهو التقى (وصلَّت عليكم الملائكة) أى: استغفرت لكم[1].

۞ وهكذا يُعلمنا النبى ﷺ أدبًا عظيمًا عندما ينزل أحدنا ضيفًا على أحد إخوانه أو أقاربه لتناول الطعام أن يدعو له ولأهل بيته بهذا الدعاء بعد الانتهاء من تناول الطعام.

فإنه ينبغى للضيف أن يشكر صاحب الضيافة على حُسن استضافته، فإن هذا مما يدعو إليه الإسلام... قال ﷺ: «**مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[2].

وكذلك فإن النبى ﷺ دعا لمن أكرمه فقال لسعد بن عبادة بعد أن أطعمه: «**أفْطَرَ عِندكُمْ الصَّائمونَ، وأكَلَ طَعامَكُمْ الأبْرارُ وصَلَّتْ عَلَيْكُم الملائكَةُ**».

ودعا ﷺ لعبد الله بن بُسر بعدما أطعمه فقال: «**اللهم بارك لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم وارحمهم**»[3].

(١) دليل الفالحين (٤/ ٥٥-٥٦) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٤١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٤٢) كتاب الأشربة.

(٩) كتاب الاعتكاف

(٢٣٢) باب الاعتكاف في رمضان

(١٢٧٦) عَنِ ابن عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعتكِفُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ»[١].

(١٢٧٧) وَعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَعتكِفُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضانَ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَى، ثُمَّ اعتكَفَ أَزواجُهُ مِنْ بعدِهِ[٢].

(١٢٧٨) وعَنْ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: كانَ النبيُّ ﷺ يَعتكِفُ في كُلِّ رَمَضَانَ عَشَرةَ أيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ العَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ اعتكَفَ عِشرِينَ يَوْمًا[٣].

۞ الاعتكاف: لزوم المسجد لطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.. وهو مشروع في العشر الأواخر من رمضان؛ لأن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأخير، ثم اعتكف العشر الأوسط، يتحرى ليلة القدر، ثم قيل له: (إنها في العشر الأواخر)، فصار يعتكف العشر الأواخر من رمضان. وبهذا عرفنا أنه لا يُشْرَع الاعتكاف في غير رمضان، وأن ما ذكره بعض العلماء من أنه ينبغي للإنسان إذا قصد المسجد أن ينوي الاعتكاف مدةَ مُكثه فيه.. فهذا قولٌ لا دليل عليه... لأن النبي ﷺ لم يشرعه لأمته، لا بقوله، ولا بفعله... يعني: لم يَقُل للناس إذا دخلتم المسجد فانووا الاعتكاف فيه في أي وقت، ولم يكن يفعل ذلك هو بنفسه، وإنما كان يعتكف العشر الأواخر تَحرِّيًا لليلة القدر، ولهذا ينبغي للمعتكف ألا يشتغل إلا بالطاعة، من صلاة وقراءة القرآن وذِكْر وغير ذلك، حتى تعليم العلم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٥) كتاب الاعتكاف، ومسلم (١١٧١) كتاب الاعتكاف.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٦) كتاب الاعتكاف، ومسلم (١١٧٢) كتاب الاعتكاف.
(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٠٤٤) كتاب الاعتكاف.

قال العلماء: «لا ينبغي للمعتكف أن يشتغل بتعليم العلم، بل يُقبل على العبادات الخاصة؛ لأن هذا الزمن مخصوص للعبادات الخاصة».

ولا يجوز للمعتكف أن يخرج من المسجد إلا لما لا بد منه، كأن يكون ليس عنده مَن يأتيه بالطعام والشراب، فيخرج ليأكل ويشرب، أو يخرج لقضاء الحاجة، أو يحتاج إلى الخروج من أجل غُسْل الجنابة، وما أشبه ذلك.

أو يحتاج للخروج لكونه في مسجد غير جامع فيذهب إلى الجمعة..المهم أن المعتكف لا يخرج من المسجد، إلا لشيءٍ لا بد له منه، شرعًا، أو طبعًا.

ثم إنه ينبغي للمعتكف إذا جاءه أحد يريد أن يشغله بالكلام اللغو الذي لا فائدة منه أن يقول له: يا أخي أنا معتكف..إما أن تُعينني على الطاعة، وإما أن تتركني أعبد الله عَزَّوَجَلَّ ... والله تعالى لا يستحي من الحق..وأما الجلوس اليسير عند المعتكف والتحدث اليسير فهذا لا بأس به؛ لأن النبي ﷺ كان يستقبل نساءه، وهو معتكف فيتحدث إليهن، ويتحدثن إليه. والله الموفق[1].



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٧٢، ٢٧٣) بتصرف.



(١٠) كتاب الحج

(٢٣٣) باب وجوب الحج وفضله

۞ الحج هو الشعيرة الرابعة فى الإسلام، وهو آخر ما فُرض من الشعائر والعبادات التى رسم الله حدودها ومعالمها. إذ كانت فرضيته فى السنة التاسعة من الهجرة النبوية على أرجح الأقوال.

والحج هو تلك الرحلة الفريدة فى عالم الأسفار والرحلات. ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه «إلى البلد الأمين» الذى أقسم الله به فى القرآن. للوقوف بعرفات، والطواف ببيت الله الحرام، الذى جعله الإسلام رمزًا لتوحيد الله، ووحدة المؤمنين به... ففرض على المسلم أن يستقبله كل يوم فى صلواته ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[البقرة: ١٤٤]. ثم فرض عليه أن يتوجه إليه بشخصه ويطوف به بنفسه فى العمر مرة واحدة(١).

۞ ما معنى الحج؟

الحجُّ فى اللغة: القصد.

وفى الشرع: التعبُّد لله بأداء المناسك فى مكانٍ مخصوص فى وقتٍ مخصوص، على ما جاء فى سنة رسول الله ﷺ.

۞ ما حكم الحج والعمرة؟

لابد أن نعلم أن الحج فريضة على المسلم والمسلمة عند القدرة وهو أحد أركان الإسلام.

لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٧].

(١) العبادات فى الإسلام/ د. يوسف القرضاوى (ص٢٣٥).

ولقوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ولحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**بُنى الإسلام على خمس...**». وذكر منها الحج.

وقد أجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع مرة واحدة فى العمر.

۞ وأما عن العمرة: فمن أهل العلم مَن قال أنها سُنة مؤكدة.

ومنهم مَن قال أن العمرة واجبة على المسلم والمسلمة مرة فى العمر عند القدرة ... وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

۞ **ما الحكمة من مشروعية الحج؟**

١- الشعور بالتجرد لله، والاستعداد والخروج فى سبيله وترك المال والأهل.

٢- تجديد روابط الإيمان، والتعارف.

٣- فرصة للتعارف والتعاون على البر والتقوى.

٤- يشهد الناس فى الحج منافع لهم ويذكرون الله فى أيامٍ عظيمة.

٥- إجابة دعوة أبيهم إبراهيم، واقتفاء سنة نبيهم محمد ﷺ.

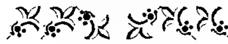


۞ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وهذه الآية نزلت فى العام التاسع من الهجرة، وهو العام الذى يُسمى عام الوفود، وبها فُرِض الحج...أما قوله تعالى فى سورة البقرة:﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ففيها فَرض الإتمام لا فَرض الابتداء... فَفَرض الابتداء كان فى السنة التاسعة فى آية سورة آل عمران، وأما فرض الاستمرار والإتمام، فكان فى آية البقرة، فى سنة سِتٍّ من الهجرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ على الناس يعنى: على جميعهم..لكن الكافر لا نأمره بالحج حتى يُسلم، وأما المسلم فنأمره بأن يحج بهذا الشرط الذى اشترطه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ يعنى: مَن استطاع أن يصل إلى مكة، فمن لم يستطع لفقره، فلا حَجَّ عليه، ومَن لم يستطع لعجزه نظرنا: فإن كان عجزه لا يُرجَى زوالُه، وعنده مال، وجب أن يُقيم مَن يَحُجّ عنه.

وإن كان يُرجى زواله كَمَرضٍ طارئ، طرأ عليه فى أيام الحج، فإنه ينتظر حتى يعافيه الله، ثم يحج بنفسه[1].



(١٢٧٩) وعن ابن عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بُنِيَ الإسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهادَةِ أنْ لا إله إلا الله وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحجِّ البَيْت، وصَوْمِ رمضانَ»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٠٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٢٨٠) وعن أبى هُرَيْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ، فقالَ: «يا أيُّها النَّاسُ إنَّ الله قَد فَرضَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ فحُجُّوا» فقال رجُلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسولَ الله؟ فسَكَتَ، حتَّى قالَها ثلاثًا. فقال رسولُ الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لوجَبت ولمَا اسْتَطَعتُم» ثم قال: «ذَرُونِى ما تركْتُكُم، فإنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُم بكَثْرَةِ سُؤالِهِم، واخْتلافِهِم على أنْبيائِهِم، فإذا أمَرتُكُمْ بِشَىءٍ فَأْتوا مِنْهُ ما استطَعتُم، وإذا نَهَيْتُكُم عَن

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦) كتاب الإيمان.

شَىءٍ فدَعُوه»(١).

۞ إن من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يفرض الحج إلا مرة واحدة فى العمر.. وذلك لأن أكثر الناس قد يجد مشقة شديدة فى الوصول إلى مكة.

ولهذا تجد أن الصلوات الخمس تُؤدَّى فى أى مسجد.. أما الجمعة فالأفضل أن تكون فى المسجد الجامع من كل حى حتى يجتمع أهل الحى فى ذلك المسجد .. ولما كان الاجتماع فى مسجد الحَىِّ فيه مشقة لبعض الناس كان من رحمة الله أن جعل صلاة الجمعة مرة واحدة فى الأسبوع.. وكذلك الصيام لا يجب إلا شهرًا واحدًا فى السنة.. والزكاة لا تجب إلا مرة كل عام.. والحج لا يجب إلا مرة فى العمر.

۞ وفى هذا الحديث قال النبى ﷺ: **«يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فَحُجُّوا»** والكلام واضح لا يحتاج إلى بيان.. ومع ذلك قام رجل ليسأل: أكل عامٍ يا رسول؟ فسكت النبى ﷺ.

فأعاد الرجل سؤاله ثلاث مرات.. وفى كل مرة يقول:

(أفى كل عام؟)، يعنى: هل أحج كل عام؟... ولو فُرض الحج فى كل عام لما استطاع الناس أن يحجوا، كما قال الرسول ﷺ إذ كيف سيستطيعون أن يحجوا؟ وكيف سيسعهم المكان إذا كان واجبًا عليهم جميعًا؟ فهذا فيه صعوبة شديدة، ومشقة عظيمة، ولا يُستطاع؛ فقال ﷺ: **«ذَرُونِى ما تركْتُكُم»** يعنى: لا تسألوا عن أشياء أنا ساكتٌ عنها، ما دُمت ساكتًا عن الشيء فاسكتوا عنه؛ لأن أعظم الناس جُرمًا مَن سأل عن مسألة حلال فحُرمت من أجل مسألته، أو عن مسألة غير واجبة، فوجبت من أجل مسألته.

لكن بعد موت النبى ﷺ لا بأس أن يسأل الناس العلماء عن أمور دينهم؛

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٣٧) كتاب الحج.

لأن الشرع انتهى، ما فى تحليل ولا تحريم، ولا إيجاب، ولا إسقاط.

وفيه التحذير من السؤال إذا لم يكن الإنسان محتاجًا إليه، فإن كثرة الأسئلة التى يكون السائل فيها مُتعنتًا تضره... ولهذا قال النبى ﷺ: «**ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك مَن قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»، والمراد كثرة السؤال الذى يقصد منه صاحبه التعنُّت أو الرياء والسمعة وإظهار نفسه أو الإعنات وإتعاب المسئول وإيقاعه فى العنت والعجز، أو السؤال عن الأسئلة التى لم تقع، فهذا مَنهىٌّ عنه.

أما إذا كان السؤال المقصود منه الاستفادة والاسترشاد فإنه مطلوب، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٤٣]، وبيَّن النبى ﷺ أن هلاك السابقين إنما هو بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، ولهذا قال النبى ﷺ: «**ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك مَن قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شىءٍ فاجتنبوه**».

وفيه دليل على أن النواهى يجب أن يجتنبها الإنسان، أما الأوامر فإنه يفعل منها ما يستطيع، وما عجز عنه فإنه يُعفَى عنه... فقد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال لعمران بن حصين: «**صَلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»، زاد النسائى: «**فإن لم تستطع فمُستلقيًا**»، وقد قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]، فالإنسان يفعل الأوامر ويتقى ربه بقدر الاستطاعة، أما النواهى فإنه يجتنبها.

۞ **ولقد جاء فى الحديث: «إن أعظم الناس جُرمًا مَن سأل عن شىءٍ لم يُحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته»**، يعنى: الأسئلة التى يترتب عليها مضرة فى زمن النبوة... لأن الزمن زمن تشريع، فقد يُوجب ما فيه مشقة، وقد يُحرَّم ما فيه مصلحة ومنفعة وفائدة... فلهذا ذُمَّت الأسئلة التى فيها تكلُّف وتشديد،

فالأسئلة التى يترتب عليها تشديد على هذه الأمة مذمومة..والرسول ﷺ حرمها، وبيَّن أن تلك من أسباب هلاك الأمم السابقة.

۞ وقد جاء فى الشريعة أمثلة من أسئلة الأمم السابقة والأشياء التى يسألون عنها وفيها تكلُّف وتعسُّف... منها ما قاله عَزَّوَجَلَّ فى القرآن عن أهل الكتاب: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء:١٥٣].

فهذا من الأسئلة التى فيها تعنُّت، وتكلُّف، ومن الإتيان بأمور لا يصلح أن يسأل عنها أو يتشاغل بها.

وكذلك قصة البقرة التى أُمر بنو إسرائيل بذبحها، فكان يكفيهم أن يأخذوا أى بقرة فيذبحوها، ثم يضربوا بلحمها على القتيل الذى قُتل، ولكنهم سألوا أسئلة متعددة، وتعنتوا وشددوا فشدَّد الله عليهم، وكان يكفيهم أىُّ بقرة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ ﴾ [البقرة:٦٧]، أىَّ بقرة، لكنهم سألوا عن سِنِّها ولونها وصفاتها، وبعد ذلك صاروا إلى نوعٍ مُعين بعد تلك الأسئلة المتكلَّفة، فشددوا فشدَّد الله عليهم.

فهذا من جملة ما أُثر وما جاء عن الأمم السابقة من التكلُّف، ومن الأسئلة التى كانت من أسباب هلاكهم، وحُذرت هذه الأمة أن تفعل مثلما فعلوا.

ثم إن المسائل منها ما يكون الإنسان بحاجة إليه، كمعرفة الأمور التى لا بد منها، كمعرفة كيف يتوضأ، وكيف يصلى، وكيف يزكى إذا كان عنده مال، وكيف يصوم، حيث إن هذه الأمور مطلوب أن يسأل عنها.

وأما إذا سُئل عن أسئلة فيها تكلُّف، أو أمور مغيبة، مثل السؤال عن متى تقوم الساعة؟ وعن عمر الدنيا: كم مقدار عمرها؟ وعن الأشياء التى هى أمور مغيبة لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ ، أو السؤال عن كيفيات أشياء ليس للإنسان أن

يسأل عنها، مثل الذى سأل مالكًا عن: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فمثل هذه الأسئلة لا يجوز السؤال عنها، بل على الإنسان أن يسأل عما يحتاج إليه فى أمور دينه..ثم عن أمور يحتاج الإنسان إليها فى أعماله اليومية وباستمرار..أما أن يسأل عن أمورٍ خيالية أو نادرة الوقوع، أو لا يتصور وقوعها، فإن ذلك شغل وقت فى غير طائل، ومن التكلف غير المحمود.

(١٢٨١) وعن أَبِى هُريرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سُئِلَ النبى ﷺ: أىُّ العَمَلِ أفضَلُ؟ قال: «إيمانٌ بالله ورَسُولِهِ» قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: «الجِهَادُ فى سَبيلِ الله» قيل: ثم ماذا ؟ قال: «حَجٌّ مَبرورٌ»[١].

۞ ففى هذا الحديث سُئل النبى ﷺ: أى العمل أفضل؟ فأخبر النبى ﷺ السائل بأن أفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله.. لأن هذا هو أصل الأصول الذى ينبنى عليه بعد ذلك سائر الأعمال.. وذلك لأن الأعمال لا تُقبل بدون إيمان.. فلا بد من الإيمان قبل أى شىء.

۞ وعندما يسأل هذا الرجل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فإنه يريد بذلك الأعمال الصالحة، وهى تَشمَلُ أعمالَ القلوب من الاعتقادات، والنِّيَّات، والإرادات، والأقوال: كقول الحقِّ، والشَّهادة، وقراءةِ القرآن، والذِّكْرِ، والدُّعاء، والأَمْر بالمعروف، والنَّهْى عن المنكر .. وأعمَالِ الجَوَارح: كالجِهَادِ، والحَجِّ، والصَّلاة، والصِّيام، والصَّدقات، والرِّباط[٢]، فأخبر رسولُ الله ﷺ أنَّ أفضل هذه الأعمال ثلاثة، وهى: الإيمان بالله ورسوله..وقدَّمه لأنَّه هو الذى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦) كتاب الإيمان، ومسلم (٨٣) كتاب الإيمان.

المبرور: هو الذى لا يَرتَكِبُ صَاحِبُهُ فِيهِ معصية.

(٢) الرباط: هو أن يحبس الإنسان نفسه على الحدود والثغور الإسلامية ليحميها من تعدِّى الأعداء أو الهجوم منها على البلاد الإسلامية.

يُثْمِرُ غيره، ولولاه ما عَمِل امرؤٌ عملًا صالحًا... ثم «**الجهاد في سبيله**» تعالى وهو يشمل جهادَ الفُسَّاق بأمرهم، ونهيهم، وجهاد الكفار بدعوتهم، وقتالهم إنْ قاتلوا، وجهادَ النَّفْس وهو حَمْلُها على أن تتعلم مَحابَّ الله، ومكارهه، وحَمْلُها على أن تعمل المحبوب، وتتجنَّبَ المكروه، وحملها على أن تُعلِّمه غيرَها من النَّاس... ثُمَّ «**الحجُّ المبرور**»(١).

۞ فالحج المبرور جاء في المرتبة الثالثة بعد الإيمان بالله ورسوله ﷺ وبعد الجهاد في سبيل الله تعالى..

والحج المبرور هو الذي يكون خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ.. لا يكون فيه رياء ولا سُمعة.. وأن يكون على صفة حج النبي ﷺ. وذلك بأن يفعل الحاج مثل ما فعل النبي ﷺ.. وهذان هما الإخلاص والمتابعة .. وهما شرطا قبول العمل الصالح.

والحج المبرور -أيضًا- هو الذي يكون من مالٍ حلال وليس من مالٍ حرام ولهذا قال بعضهم:

إذا حججت بمالٍ أصلهُ سحتٌ فما حججت، ولكن حَجَّت العيرُ

يعني الإبل حجَّت، أما أنت فما حججت، لماذا؟؛ لأن مالك حرامٌ.

والحج المبرور هو الذي يتجنب فيه الحاج الرفث والفسوق والجدال لقول الله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فيجتنب الرفث وهو الجماع ودواعيه، ويجتنب الفسوق، سواء كان في القول المحرم مثل الغيبة، والنميمة، والكذب... أو الفعل: كالنظر إلى النساء، وما أشبه ذلك... ولا بد أن يكون قد تجنب فيه الرفث والفسوق...والجدال: المجادلة والمنازعة بين الناس في الحج... فهذه تُنقص الحج كثيرًا.

---

(١) كتاب المسجد وبيت المسلم / الشيخ أبو بكر الجزائري (ص ٩٣).

اللهم إلا جدالًا يُراد به إثباتُ الحق، وإبطال الباطل، فهذا واجب.

فمن حجَّ فلم يرفث ولم يفسُق رجع من حَجِّه كيوم ولدته أمه.. والحجة المبرورة ليس لها جزاء عند الله إلا الجنة.

(١٢٨٢) وعن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: « مَنْ حَجَّ فلَم يَرفُثْ، ولم يفسُقْ، رجعَ كيَومِ ولَدَتْه أُمُّهُ»[1].

(١٢٨٣) وعنه أنَّ رسولَ الله ﷺ،قالَ: « العُمْرَة إلى العُمْرَة كفَّارةٌ لما بيْنهُما، والحجُّ المبرُور ليس لهُ جزاءٌ إلا الجنَّةَ»[2].

۞ ففى الحديث الأول يخبر النبى ﷺ أنه مَن حج فلم يرفث.. والرفث هو مقدمات الجماع ودواعيه.. وقيل: هو اسمٌ للفُحش من القول.. وقيل: هو كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة..

فمن حج فلم يرفث (ولم يفسق) أى: بارتكاب كبيرة أو إصرارٍ على صغيرة.

(رجع كيوم ولدته أمه).. والمراد أن الحجَّ يكفر عنه كل الذنوب المتعلقة بحق الله تعالى.. وأما الذنوب المتعلقة بحق الناس فلا تسقط إلا بالتحلُّل منها أو المسامحة والعفو.

۞ وفى الحديث الثانى يخبر النبى ﷺ أن «العُمْرَةُ إلى العُمْرَة» يعنى: العُمْرَةَ الكاملة، التَّامَّةَ، المستوفاةَ الأركانِ، والواجباتِ، والمستحباتِ، الباعثِ عليها طاعة الله، والرغبةُ فيما عنده من عظيم الأجر، وحُسن المثوبة..هذه العُمْرةُ يكفِّر الله بها ذنوبَ العبد التى ارتكبها فى الفترة الزَّمَانيَّةِ بين العُمْرَةِ الأولى والثانية،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٢١) كتاب الحج، ومسلم (١٣٥٠) كتاب الحج.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٧٧٣) كتاب الحج، ومسلم (١٣٤٩) كتاب الحج.

أمَّا صغائر الذنوب فلا شكَّ فى تكفيرها بالعُمرتين... وأما كبائر الذنوب فلا بُدَّ من مصاحبة التوبة عند الاعتمار بأن يعزم على ألَّا يعود إلى الكبيرة وهو نادم على ما سَلَف، مستغفرٌ ربَّه منه[1]. وقوله: «**والحجُّ المَبْرُورُ ليس له جزاءً إلا الجَنَّة**» فيه بُشْرَى عظيمة لِمَنْ حجَّ، وبَرَّ فى حجِّه[2] بأنَّ أجره زيادةٌ على تطهيره من سائر ذنوبه هو الجنة، ولا شيء أسْمَى من الجنَّة إذ هى دار السَّلام والأبرار، وفيها من النعيم المقيم ما لا يأتى على مثله عَدٌّ ولا حَصر... وأعظمُ من ذلك رضا الله، وجِوارهُ الكَرِيم[3].



(١٢٨٤) وعنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: قُلْتُ: يا رسُولَ الله، نرَى الجهادَ أفضَلَ العملِ، أفلا نُجاهِدُ؟ فقال: «**لَكُنَّ أفضَلُ الجِهَاد: حَجٌّ مبرُورٌ**»[4].

۞ ففى هذا الحديث أن أُمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت للنبى ﷺ: نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟.. فهى سمعت النبى ﷺ كثيرًا وهو يتحدث عن فضل الجهاد.. بل رأت مدى حرص النبى ﷺ وأصحابه على الجهاد فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ فاشتاقت إلى أن تفوز بثواب المجاهدين ولذا سألت النبى ﷺ هذا السؤال.. فما كان من النبى ﷺ إلا أن قال لها: «**لَكُنَّ أفضَلُ الجِهَاد: حَجٌّ مبرُورٌ**».

أى أن المرأة ليس عليها جهاد لأن الجهاد إنما كُتب على الرجال القادرين عليه.. أما النساء فلهن جهادٌ من نوعٍ خاص: ألا وهو الحج.

---

(١) والدليل على تأويل الأحاديث التى فيها كفارات الذنوب بالصغائر وحملها على ذلك قول الرسول ﷺ: «**الصلاة إلى الصلاة... كفارة لما بينهن**» رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) والبر فى الحج: الإتيان به كاملًا بأركانه وشروطه وواجباته كما حج رسول الله ﷺ... فالبر فيه: إتمامه وإكماله وعدم النقص فى أعماله.

(٣) كتاب المسجد (ص٩٥).

(٤) صحيح: رواه البخارى (١٥٢٠) كتاب الحج.

فالنساء جهادهن هو الحج... أما الرجال فالجهاد فى سبيل الله أفضل من الحج، إلا الفريضة فإنها أفضل من الجهاد فى سبيل الله؛ لأن الفريضة ركن من أركان الإسلام.

ومع كل هذا ظلت أمنا عائشة تبحث لنفسها عن دورٍ لتساعد به المجاهدين فى سبيل الله لتفوز بالأجر والثواب على إعانتهم على الجهاد.. فكانت تحمل الماء للمجاهدين فى غزوة أُحد.

ترجم الإمام البخارى فى كتاب الجهاد من صحيحه: (باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال)، وذكر فيه حديث أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أُحد انهزم الناس عن النبى ﷺ قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سُلَيم (أُمَّه) وإنهما لمُشمِّرتان، أرى خدم سوقهما (أى الخلاخيل فى سيقانهما) تنقزان القِرَب - وقال غيره: تنقلان القرب- على متونهما (أى ظهورهما)، ثم تُفرغانه فى أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم[1].

وقد ذكر ابن سعد فى (طبقاته) فى ترجمة أم عُمَارة الأنصارية، عن عمر قال: لقد سمعت النبى ﷺ يقول: «**ما التفتُّ يمينًا ولا شمالًا يوم أُحد إلا وأنا أراها تقاتل دونى**»[2].

وهذا دليلٌ جليٌّ على أن جهاد المرأة فى أُحد لم يكتفِ بخدمة الجيش، بل قاتلت بالفعل مع الرجال، كما صنعت أم عُمَارة رضي الله عنها.

قال الحافظ فى الفتح: (وقد وقع عند مسلم من وجهٍ آخر عن أنس: أن أم سُليم اتَّخذت خنجرًا يوم حُنين..قالت: اتَّخذته، إن دنا منى أحد من المشركين بقرتُ به بطنه)[3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٨٠) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨١١) كتاب الجهاد والسير.

(٢) رواه ابن سعد فى الطبقات (٨/ ٤١٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٠٩) كتاب الجهاد والسير.

كما ورد أنَّ صفيَّة بنت عبد المطلب -عمَّة النبى ﷺ- قتلت يهوديًا فى غزوة الخندق... جَبُن عنه حسان بن ثابت. فضربته بعمودٍ فى رأسه، فقتلته، قالوا: وهى أول امرأة قتلت رجلًا من المشركين(١).

وذكر البخارى كذلك: (باب مداواة النساء الجرحى فى الغزو). وبعده: (باب ردِّ النساء الجرحى والقتلى إلى المدينة). وذكر فى البابين حديث الرُّبيِّع بنت مُعوِّذ أنها قالت: كنا مع النبى ﷺ، فنسقى ونداوى الجرحى(٢). وفى طريق آخر: كنا نغزو مع النبى ﷺ فنسقى القوم ونخدُمهم، ونردُّ الجرحى والقتلى إلى المدينة(٣).

وذكر ابن إسحاق فى قصة سعد بن معاذ رضي الله عنه، لما أُصيب فى غزوة الخندق، فقال رسول الله ﷺ: «**اجعلوه فى خيمة رُفَيدة، التى فى المسجد، حتى أعوده من قريب**». وكانت رُفيدة رضي الله عنها امرأة تداوى الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَن كانت به ضيعة من المسلمين(٤)(٥).



(١) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر فى ترجمتها فى (الإصابة) ونقله من عدَّة مصادر، وعدَّة طرق. (الإصابة: ٤/ ٣٤٨، ٣٤٩). وقد قيل: إنها قتلته بعد أن جَبُن عنه حسان بن ثابت، الذى عرضت عليه أن يقوم فيقتله، قبل أن يدلَّ على عورات المسلمين، فقال لها: لقد عرفت ما أنا بذلك الرجل! حتى إنه جَبُن أن يأخذ سَلَبه بعدما قُتل! ... وفى البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٥٠): حكى السهيلى (الروض الأنف: ٦/ ٣٢٤) عن بعضهم أنه قال: كان حسان جبانًا شديد الجُبن. قال: وأنكر آخرون ذلك، وطعنوا فى الخبر، فقالوا: هو منقطع. قالوا: وقد كان يُهَاجى المشركين من الشعراء، كابن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وغيرهما، فلم يُعيره واحد منهم بالجُبن. قال: وممَّن أنكر ذلك الشيخ أبو عمر (ابن عبد البر) النَّمرى (الاستيعاب: ١/ ٣٨٤). قالوا: وبتقدير صحة هذا الخبر، لعله كان منقطعًا فى الآطام لعلة عارضة. ومال إلى هذا السهيلى. والله أعلم. وانظر: الدرر فى اختصار المغازى والسير (ص١٨٦).

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٢٨٨٢) كتاب الجهاد والسير.

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٢٨٨٣) كتاب الجهاد والسير.

(٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٥٨).

(٥) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/ ١٣٣-١٣٥) بتصرف كبير.

(١٢٨٥) وعنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أنَّ رسولَ الله ﷺ،قال: «ما مِنْ يَوْمٍ أكْثَر مِنْ أنْ يُعتِقَ الله فيهِ عبْدًا مِن النَّارِ مِنْ يوم عَرَفَة»(١).

وها هى رواية الحديث كاملة.. أن النبى ﷺ قال: «**ما مِنْ يَوْمٍ أكْثَر مِنْ أنْ يُعتِقَ الله فيهِ عبدًا مِن النَّارِ مِنْ يومِ عَرَفَةَ. وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة. فيقول: ما أراد هؤلاء؟**».

۞ فلقد أخبر النبى ﷺ أن أكثر يومٍ يعتق الله فيه عباده من النار هو يوم عرفة.. وإنه ليدنو من عباده دُنوًّا حقيقيًّا يليق بجلاله وكماله (سبحانه وتعالى) ويباهى بهم الملائكة.

ويقول: ما أراد هؤلاء؟.. وهو أعلم (جل وعلا) أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة» لا يتعارض مع حديث: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة**»، ووجه الجمع بين الحديثين: أن خير أيام الأسبوع هو يوم الجمعة، وخير أيام السنة هو يوم عرفة.

والدُّنو دُنو حقيقى يليق بالله عَزَّ وَجَلَّ.. والإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ كان يقع فى التأويل أحيانًا، وتلاميذه من فحول أهل العلم اعتذروا عن النووى بأنه لم يُتقن مسائل العقيدة، وتَصدَّر للتصنيف والتأليف فى الفقه والأصول وغير ذلك قبل أن يستيقن من مسائل الاعتقاد، فكلما مرت عليه المسألة فى أثناء تصنيفه تكلم فيها ونقل فيها عن أهل العلم...فتارة ينقل، وتارة يسكت، وتارة يوافق المتأولة.

وله تأثُّر بعلماء زمانه ومشايخه، وأنهم كانوا متأولة... فقد كانوا فى العقيدة أشاعرة..فقد قال النووى فى شرحه لهذا الحديث: قال القاضى عياض: قال

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٨) كتاب الحج.

المازرى: معنى (يدنو) أى: تدنو رحمته وكرامته، لا دنو مسافة ومُماسة.

وهذا تأويل أيضًا، لأن دنو الرحمن صفة فعل لله عَزَّوَجَلَّ... وصفة أفعاله لا يعلم كيفيتها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، كما لا يعلم صفات ذاته إلا هو سبحانه.

فأهل السُّنة يُثبتون جميع الصفات لله عَزَّوَجَلَّ على المعنى اللائق به، ولا نخوض فيها بكيفٍ ولا تأويل، إنما نؤمن بها كما جاءت ونُمرها كما أمرَّها سلفنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ... وهذا أسلم وأحكم وأعلم[١].

(١٢٨٦) وعنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبىَّ ﷺ قال: «**عُمْرَةٌ فى رمضَانَ تَعدِلُ عُمْرَةً أو حَجَّةً مَعِى**»[٢].

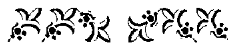
۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن المسلم إذا اعتمر فى شهر رمضان فإنها تعدل عمرة أو حجة مع النبى ﷺ.. وذلك فى الثواب وليس فى الإجزاء... أى أنها تقوم مقامها فى الثواب لا أنها تعدلها فى كل شىء.. فإنه لو كان عليه حجة فاعتمر فى رمضان لا تُجزئه عن حج الفريضة التى عليه.

وهذا كما قال النبى ﷺ فى قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾: «**والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثُلث القرآن**»[٣]... يعنى: أجرها كأجر ثلث القرآن لكنها لا تُجزئ عن القرآن .. ولهذا لو قرأها الإنسان مثلًا ثلاث مرات بدل قراءة الفاتحة فى الصلاة لا تُجزئ.. لأن هناك فرقًا بين المعادلة فى الأجر والمعادلة فى الإجزاء.

أرأيتم مثلًا إذا قال الإنسان: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفسٍ من ولد**

(١) شرح صحيح مسلم / للشيخ حسن أبو الأشبال (حفظه الله).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٦٣) كتاب الحج، ومسلم (١٢٥٦) كتاب الحج.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٠١٣) كتاب فضائل القرآن.

إسماعيل»[١] يعنى يعادل عتق أربعة رقاب..لكن لو كان عليه عتق رقبة وقال ذلك ما نفعه ذلك... فهناك فرق بين المعادلة فى الثواب والمعادلة فى الإجزاء، فهى تعدل ثلث القرآن فى الثواب ولكنها لا تعدل فى الإجزاء، ولهذا لو قرأها الإنسان ثلاث مرات فى الصلاة لم تُجزئه عن الفاتحة.



(١٢٨٧) وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ امرأةً قالتْ: يا رسُولَ الله، إنَّ فريضَةَ الله على عِبَادِهِ فى الحجِّ، أدركَتْ أبى شيخًا كبيرًا، لا يَثْبُتُ على الرَّاحِلَةِ أفَأَحُجُّ عنه؟ قال: «نعم»[٢].

(١٢٨٨) وعن لقيطِ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّهُ أتى النبيَّ ﷺ، فقال: إنَّ أبى شَيخٌ كبيرٌ لا يستطيعُ الحجَّ، ولا العُمرةَ، ولا الظَّعَنَ، قال: «حُجَّ عنْ أبيكَ واعتمِر»[٣].

(١٢٨٩) وعنِ السائبِ بنِ يزيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قال:حُجَّ بى مَعَ رسولِ الله ﷺ، فى حَجةِ الوَداعِ، وأنَا ابنُ سَبعِ سِنينَ[٤].

۞ ففى الحديث الأول والثانى يدور الكلام عمَّن عجز عن الحج هل يحج عنه أحدٌ أم لا؟

ففى حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن امرأة سألت النبى ﷺ فقالت: إنَّ فريضَةَ الله على عِبَادِهِ فى الحجِّ، أدركَتْ أبى شيخًا كبيرًا، لا يثبُتُ على الرَّاحِلَةِ أفَأَحُجُّ عنه؟ قال: «نعم».

فدلَّ هذا على أن الإنسان إذا عجز عن الحج عجزًا لا يُرجَى زواله بسبب المرض الذى لا يُرجى شفاؤه أو الشيخوخة وما أشبه ذلك فإنه يجوز أن يُحج

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٣) كتاب الذكر والدعاء.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٥١٣) كتاب الحج، ومسلم (١٣٣٤) كتاب الحج.
(٣) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٢٧).
(٤) صحيح: رواه البخارى (١٨٥٨) كتاب الحج.

عنه... ولذلك أذن النبى ﷺ للرجل الذى قال للنبى ﷺ: إنَّ أبى شَيخٌ كبيرٌ لا يستطيعُ الحجَّ، ولا العُمرةَ، ولا الظَّعنَ.. فما كان من النبى ﷺ إلا أن قال له: «حُجَّ عنْ أبيكَ واعتمِر».

وفى هذا دليل: على أن المرأة يجوز أن تحج عن الرجل، وكذلك الرجل يجوز أن يحج عن المرأة، والرجل عن الرجل، والمرأة عن المرأة..كل ذلك جائز.

وفى هذه الأحاديث أيضًا دليل: على جواز حج الصبيان..فها هو السائب بن يزيد رضي الله عنه يقول: حُج بى مع النبى ﷺ فى حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين.

ففى هذا الحديث دليل: على جواز حج الصبيان..والصبى يفعل ما يفعله الكبير، وإذا عجز عن شىء فإنه يُفعل عنه إن كان مما تدخله النيابة، أو يُحمل إذا كان مما لا تدخله النيابة... فمثلًا إذا كان لا يستطيع أن يطوف أو يسعى يُحمل، وإذا كان لا يستطيع أن يَرمى يُرمى عنه.

لأن حمله فى الجمرات فيه مشقة ولا فائدة من حمله؛ لأنه ليس رميًا بيده لهذا نقول: فى الطواف والسعى يُحمَل، وفى الرمى يُرمَى عنه.

❊ ❊ ❊

(١٢٩٠) وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ النبى ﷺ، لَقِىَ رَكْبًا بالرَّوْحَاءِ،فقالَ: «مَن القَوْمُ؟» قالوا: المسلمُونَ. قالُوا: مَنْ أنتَ؟ قالَ: «رسولُ اللهِ» فرَفَعَتِ امرَأةٌ صَبيًّا فقَالتْ: ألهَذَا حَجٌّ ؟ قالَ: «نَعَمْ ولكِ أجرٌ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٨٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

❊ ❊ ❊

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٣٦) كتاب الحج.

(١٢٩١) وعنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ، حَجَّ على رَحلٍ، وكانتْ زامِلتَهُ[١].

۞ ففي هذا الحديث يذكر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ حَجَّ أي: في عام حجة الوداع إذ لم يحج بعد الهجرة غيرها (على رحلٍ) كل ما يُعَدّ للرحيل من وعاء المتاع ومركب البعير..أي: حج على قتب الراحلة من غير محمل ولا محاره (وكانت) أي: الراحلة التي ركبها وإن لم يجرِ لها ذكر، لكن دلَّ عليه ذكر الرَّحل (زاملته) والزاملة البعير الذي يُحمَل عليه الطعام والمتاع، من الزمل وهو الحمل... والمراد: أنه لم يكن معه زاملة لحمل طعامه ومتاعه، بل كان ذلك محمولًا معه على راحلته وكانت هي الراحلة والزاملة[٢].

(١٢٩٢) وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: كانت عُكاظُ، ومِجَنَّةُ، وَذو المجازِ أسْواقًا في الجاهليَّةِ، فتأثَّمُوا أن يتَّجِرُوا في المواسِمِ، فنزلتْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨] في مواسِمِ الحجِّ[٣].

۞ (وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كانت عكاظ)، سوق من أعظم أسواق الجاهلية، وراء قرن المنازل بمرحلة من عمل الطائف على طريق اليمن.

وقال أبو عبيد: هي صحراء مستوية لا جبل بها ولا علم، وهي بين نجد والطائف، وكان يُقام بها السوق في ذي القعدة نحوًا من نصف شهر، ثم يأتون موضعًا دونه إلى مكة يُقال له: سوق مِجَنَّة، فيُقام فيه السوق إلى آخر الشهر، ثم يأتون موضعًا قريبًا منه، يُقال له: ذو المجاز، فيُقام فيه السوق إلى يوم التروية، ثم يصدرون إلى مِنى.

(١) صحيح: رواه البخاري (١٥١٧) كتاب الحج.
(٢) دليل الفالحين (٤/ ٦٥).
(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٥١٩) كتاب تفسير القرآن.

(أسواقًا فى الجاهلية) هى ما قبل الإسلام..سُمى بها لكثرة الجهالات الواقعة فيه (فتأثموا) أى تحرَّجوا وخافوا من الحرج (أن يتَّجروا فى المواسم) على تقدير: أى بسبب اتجارهم فيها فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ أى حرج ﴿أَن تَبْتَغُوا ﴾ أى: فى أن تبتغوا ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى بالتجارة (فى مواسم الحج)[١].

فإنه لما أمر الله تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسُّب فى مواسم الحج وغيره، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب ..إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالًا منسوبًا إلى فضل الله، لا منسوبًا إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المُسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه[٢].

ففى ذلك أن التجارة فى الحج لا تُنافى صحته وإن كان الكمال خُلو يد الحاج منها لأنها تشغل عن تمام التوجه إلى الله تعالى ... والصحيح أنه يُثاب على قصده الدينى وإن قَلَّ ... أخذًا من عموم قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ وهذا جارٍ فى كل عمل شرك فيه قصد دينى وقصد دُنيوى[٣].



(١) دليل الفالحين (٤/ ٦٦).
(٢) تفسير السعدى (ص٩١).
(٣) دليل الفالحين (٤/ ٦٦).

(١١) كتاب الجهاد

(٢٣٤) باب فضل الجهاد

﴿ لا بد أن نعلم أولًا أن الجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

(١) جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلُّم الهدى، ودين الحق الذى لا فلاح لها، ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت فى الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّد العلم بلا عمل إن لم يضرَّها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه مَن لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا يُنجِّيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مُجمعون على أنَّ العالِم لا يستحقُّ أن يُسمَّى (ربَّانيًّا) حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويُعلمه، فمن عَلِمَ وعمل وعلَّم، فذاك يُدعى عظيمًا فى ملكوت السماوات.

(٢) جهاد الشيطان مرتبتان:

وأما جهاد الشيطان، فمرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يُلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة فى الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات.

فالجهاد الأول: يكون بعُدَّة اليقين، والثاني: يكون بعُدَّة الصبر.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

فأخبر أنَّ إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين... فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة... واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

(٣) جهاد الكفار والمنافقين أربع مراتب:

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس... وجهاد الكفار أخصُّ باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

(٤) جهاد الظلمة والفُسَّاق ثلاث مراتب:

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب: الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه.

فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد، و«**مَن مات ولم يَغزُ، ولم يُحدِّث نفسه بالغزو، مات على شُعبة من النفاق**»(١).

۞ لا جهاد إلا بهجرة وإيمان:

ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان.

والرَّاجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة... قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت: هجرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد، والإخلاص، والإنابة، والتوكل، والخوف

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٠) كتاب الإمارة.

والرجاء، والمحبة، والتوبة... وهجرة إلى رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره.

«فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(١).

وفُرض عليه جهادُ نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحدٌ عن أحدٍ.

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد(٢) انتهى(٣).

❁ قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين، والكافرين برب العالمين.

ولا تَخُصُّوا أحدًا منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداءً كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداءً لهم، لا يألونهم من الشر شيئًا.

ويحتمل أن ﴿كَآفَّةً ﴾ حال من الواو ... فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفير، على جميع المؤمنين.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥-١٢) طبعة الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.
(٣) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوي (١/ ١٥٥-١٥٧).

وقد نُسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾ الآية.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ بعونه، ونصره، وتأييده... فلتحرصوا على استعمال تقوى الله، فى سركم، وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصًا عند قتال الكفار، فإنه فى هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى فى معاملة الكفار الأعداء المحاربين(١).

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

[البقرة: ٢١٦].

هذه الآية فيها فرض القتال فى سبيل الله، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه، لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك... فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، وكثُر المسلمون وقووا، أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس، لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف.

ومع هذا، فهو خيرٌ مَحض، لما فيه من الثواب العظيم، والتحرُّز من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك مما هو مُربٍ، على ما فيه من الكراهة(٢).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ أى: فُرض عليكم القتال.. ومَن الذى فرضه؟ .. إنه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾.. فالقتال مكروهٌ للنفوس.. لكنه خير.. ما هو الخير الذى فيه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ

(١) تفسير السعدى (ص٣٧٣).
(٢) تفسير السعدى (ص٩٦).

بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

فأنت أيها المسلم إذا قاتلت وجُرحت أو استُشهدت .. فهل تظن أن عدوك سالم؟!.. كلا.. فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أى: لا تضعفوا فى طلب عدوكم ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ فعدوك يتألم من جُرحه كما تتألم أنت وزيادة ... ولكن الفرق الذى بينك وبينه ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فهؤلاء كفار ليس لهم إلا النار، أما أنت فترجو من الله منازل الشهداء، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ... ولذا لما قام أبو سفيان قبل أن يُسلم فى يوم أُحد يقول: يومٌ بيومِ بدرٍ، والحرب سِجال ..يعنى أنتم غلبتمونا، ونحن غلبناكم، ماذا قال المسلمون؟! قالوا: لا سواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار.

ومن أجل ذلك قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

أول الآية خاص، بماذا؟ بالقتال، وآخر الآية عام ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢١٦]، ولم يقل وعسى أن تكرهوا القتال ولكن قال: شيئًا، أى شىء يكون، ربما يكره الإنسان شيئًا يقع ويكون الخير فيه وربما يحب شيئًا أن يقع ويكون الشر فيه ... وكم من شىء وقع وكرهته ثم فى النهاية تجد أن الخير فيه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهذه الآيات عامة مُطَّردة فى أن أفعال الخير التى تكرهها النفوس لِما فيها من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التى تحبها النفوس لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة فهى شرٌّ، بلا شك.

وأما أحوال الدنيا، فليس الأمر مُطردًا، ولكن الغالب على العبد المؤمن، أنه إذا أحب أمرًا من الأمور، فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خيرٌ له، فالأوفق له فى ذلك أن يشكر الله، ويعتقد الخير فى الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه.

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره، سواء سرَّتكم أو ساءتكم[1].

❁ ❁ ❁

۞ وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

يقول تعالى لعباده المؤمنين مُهيجًا لهم على النفير فى سبيله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ فى العُسر واليُسر، والمَنشط والمَكره، والحر والبرد، وفى جميع الأحوال.

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أى: ابذلوا جهدكم فى ذلك، واستفرغوا وسعكم فى المال والنفس... وفى هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد فى النفس- يجب الجهاد فى المال،حيث اقتضت الحاجة، ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أى: الجهاد فى النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول فى جملة جنده وحزبه[2].

❁ ❁ ❁

۞ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ

(١) تفسير السعدى (ص٩٧).
(٢) تفسير السعدى (ص٣٧٥).

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١﴾ [التوبة: ١١١].

يخبر تعالى خبرًا صدقًا ويَعِدُ وعدًا حقًّا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ بنفسه الكريمة ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ فهى الثمن والسلعة المبيعة.

﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التى فيها ما تشتهيه الأنفس، وتَلَذُّ الأعيُن من أنواع اللذات، والأفراح، والمسرَّات، والحور الحِسان، والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم فى جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته، وإظهار دينه فـ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ التى هى أشرف الكتب، التى طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل، أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله، ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ أى: لتفرحوا بذلك، وليُبشر بعضكم بعضًا، ويحث بعضكم بعضًا.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذى لا فوز أكبر منه، ولا أجلُّ، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذى هو أكبر من نعيم الجنات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشترى مَن هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العِوَض، وهو أكبر الأعواض وأجلُّها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو: النفس، والمال، الذى هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى مَن جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأى كتابٍ رُقم؟ وهى كتب الله الكبار المُنزلة، على أفضل الخلق[1].

(١) تفسير السعدى (ص٣٩٣-٣٩٤).

۞ وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ عَلَى الْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ أى لا يتساوى مَن قعد عن الجهاد من المؤمنين مع مَن جاهد بماله ونفسه فى سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض... قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله: هل لى من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ - وكان أعمى - فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ﴾.

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ﴾ أى فضَّل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم فى النية...كما قال ﷺ: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سِرتُم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «**نعم حبسهم العذر**»(١) ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾ أى وكلًا من المجاهدين والقاعدين بسبب ضررٍ لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن فى الآخرة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ عَلَى الْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: وفضَّل الله المجاهدين فى سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة ... وفى الحديث «**إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**»(٢)(٣).

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٢٣) كتاب المغازى.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صفوة التفاسير (١/ ٢٧٣).

۞ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٠ -١٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ صدَّر الله تعالى هذه الآيات بهذا النداء الشريف المُوجَّه للمؤمنين، من أجل إثارة هممهم وتنشيطهم على قبول ما يسمعون من كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ القائل هو ربنا عَزَّوَجَلَّ، وهذا الاستفهام للتشويق ...يُشوقنا (جل وعلا) بهذه التجارة التي يدلنا عليها... ويُستفاد من قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أنه ليس لنا طريق إلى هذه التجارة إلا الطريقُ الذي شرعه الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الدَّالُّ على ذلك. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذه التجارة ليست تجارة الدنيا؛ لأن تجارة الدنيا قد تُنجي من العذاب الأليم وقد تكون سببًا للعذاب الأليم... فالرجل الذي عنده مال لا يُزكِّي... يكون ماله عذابًا عليه والعياذ بالله، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[التوبة:٣٤،٣٥].

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[آل عمران: ١٨٠].

تجارة الدنيا قد تُنجي من العذاب وقد تُوقِع في العذاب... لكن هذه التجارة التي عرضها الله عَزَّوَجَلَّ علينا - ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا وإياكم ممن يقبلونها -:

﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، أي عذابٍ مؤلمٍ؛ لأنه لا عذاب أشد ألمًا من عذاب النار... أعاذني الله وإياكم منها.

ما هذه التجارة؟ قال: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ هذه التجارة: الإيمان بالله ورسوله..وهذا يتضمن جميع شرائع الإسلام كلها، لكن نَصَّ على الجهاد؛ لأن السورةَ سورةُ الجهاد من أولها إلى آخرها.. كلها جهاد، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف:٤] ثم ذكر ما يتعلق بذلك، وهنا يقول: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: تبذلوا جهدكم في سبيل الله، ببذل المال وبذل النفس، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ خير لكم من كل شيء، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني إن كنتم من ذوي العلم...وفي هذه الآية وأمثالها يحسن الوقوف على قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ولا تَصِل..لا تقل: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لأنك لو وصلت لأفهمت معنى باطلًا في الآية، لكان المعنى: (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، وإن كنتم لا تعلمون فليس خيرًا لكم) وهذا ليس مراد الله عَزَّوَجَلَّ، بل إن المعنى: ذلكم خير لكم ثم قال: إن كنتم من ذوي العلم، كأنه يقول: فاعلموا ذلك إن كنتم أهلًا للعلم.

هذا هو العمل، فما هو الثواب؟! ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

جنات: هي ما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين، وبالأخص المجاهدين في سبيل الله، «**إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله عَزَّوَجَلَّ للمجاهدين في سبيله**»[(١)].

ولهذا جمع جنات ... ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: من تحت قصورها، وأشجارها، وهي أنهار ليست كأنهار الدنيا.. إنها أربعة أصناف: أنهار من ماءٍ غير آسن، يعني: لا يمكن أن يتغير بخلاف ماء الدنيا فإنه إذا بقي يتغير،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

وأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمه، وأنهار من خمرٍ لذة للشاربين، وأنهار من عسلٍ مُصفًّى ... أنهار تجرى، أنهار العسل فيها لم يخرج من النحل، واللبن لم يخرج من ضَرع بهيمة، والماء لم يخرج من نبع أرض، وكذلك الخمر لم يخرج من زبيب أو تمر أو شعير أو غير ذلك... أنهار خلقها الله عَزَّوَجَلَّ فى الجنة تجرى هذه الأنهار... ورد فى الحديث أنها أنهار لا تحتاج إلى شقٍّ، ولا إلى سدٍّ.. يعنى لا تحتاج أن تضع لها أُخدودًا يمنعها من التسرُّب يمينًا وشمالًا.

قال الإمام ابن القيم فى النونية:

أنهارها فى غير أخدودٍ جرت سبحان مُمسكها عن الفيضانِ

ثم إن هذا النهر يسير حسبما تريد .. إن أردت أن يسير يمينًا أو شمالًا أو للإمام أو للخلف فإنه يسير كما أردت؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى سخَّر لك تلك الأنهار.

وقوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ مساكن طيبة: طيبة فى بنائها، طيبة فى غُرفها، طيبة فى منظرها، طيبة فى مسكنها، طيبة من كل ناحية، والساكن فيها: حورٌ مقصورات فى الخيام... خيام من لؤلؤ، مرتفعة من أحسن ما تراه بصرًا... قال النبى ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»(١) اللبِنَ: لَبِن البناء ليس من الطوب والتراب، بل هو من الذهب أو من الفضة، ولهذا وصفها الله بالطيب.

ثم إن من طِيبها أن ساكنها لا يبغى عنها حِولًا.. مساكن الدنيا مهما حَسُنت سترى ما هو أحسن من بيتك، فتقول: ليت هذا لى.

لكن فى الجنة لا تبغى حِولًا عن مسكنك، ولا انتقالًا... كل إنسان يرى أنه هو أنعم أهل الجنة، لكى لا ينكسر قلبه لو رأى مَن هو أفضل منه، ولكن يرى أنه

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخارى (٤٨٧٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٨٠) كتاب الإيمان.

أنعم أهل الجنة... عكس ذلك أهل النار، أهل النار يرى الواحد منهم أنه أشد أهل النار عذابًا، وإن كان هو أهونهم.

فهذه المساكن الطيبة فى جنات عدن ... قال العلماء: العدن بمعنى الإقامة.. ومنه المَعدِن فى الأرض لطول إقامته بمعدنه ومكانه.

أى: فى جنات إقامة لا يمكن أن تزول أبد الآبدين... نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: الفوز أن ينال الإنسان ما يريد، وينجو مما يخاف، العظيم: الذى لا أعظم منه..ربح ليس فوقه ربح، عوض ليس فوقه عوض، لهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا فى سبيل الله..أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنى وإياكم منهم ولا يحرمنا هذا الفضل بسوء أعمالنا، وأن يعاملنا بعفوه، إنه على كل شىء قدير(١).

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ يعنى ولكم أخرى تحبونها.. ثم بيَّنها بقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ينصركم الله به على أعدائكم..ولا شك أن الإنسان إذا انتصر على عدوه فإن ذلك له فوز عظيم، لأن الله تعالى يجعل عذاب عدوه على يده، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فوائد عظيمة، إذا عذَّب الله تعالى عدوك على يديك، ولهذا قال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾.

وقد حصل هذا للمؤمنين فى صدر هذه الأُمة..فتح الله عليهم فتوحات عظيمة، وغنموا غنائم كثيرة؛ لأنهم قاموا بما يجب عليهم من الإيمان بالله، والجهاد فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ... ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى بشِّر بهذه الأمور كلها مَن كان

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٢٨٩-٢٩١) بتصرف.

مؤمنًا بها، قائمًا بما يجب عليه من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله.

(١٢٩٣) عنْ أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ الأعمالِ أفْضَلُ؟ قال: «إيمانٌ بالله ورسولِهِ» قيل: ثُمَّ ماذَا؟ قالَ: «الجهادُ في سبِيلِ الله» قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: «حَجٌّ مَبرُورٌ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٢٨١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٢٩٤) وعن ابنِ مسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قُلتُ: يا رسُول الله، أيُّ العَمَل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: «الصَّلاةُ عَلى وَقْتِهَا» قُلتُ: ثُمَّ أي؟ قالَ: «بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: «الجِهادُ في سَبيلِ الله»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣١٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٢٩٥) وعنْ أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قُلْتُ: يَا رسُولَ الله أيُّ العملِ أفْضَلُ؟ قالَ: «الإيمانُ بالله، والجِهادُ في سبِيلِهِ»(٣).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١١٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦) كتاب الإيمان، ومسلم (٨٣) كتاب الإيمان.
المبرور: هو الذي لا يَرتَكِبُ صَاحِبُهُ فِيهِ معصية.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٨٥) كتاب الإيمان.
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥١٨) كتاب العتق، ومسلم (٨٤) كتاب الإيمان.

(١٢٩٦) وعنْ أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «لَغدوةٌ في سبيلِ الله، أوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِن الدُّنْيَا ومَا فيها»(١).

۞ قال الإمام النووي رحمه الله:

قَوْلُهُ ﷺ «لَغدوةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» الْغَدوَةُ بِفَتْحِ الْغَيْنِ السَّيْرُ أَوَّلَ النهار إلى الزوال ... والروحة السير من الزوال إلى آخر النهار وأو هُنَا لِلتَّقْسِيمِ لَا لِلشَّكِّ ... وَمَعنَاهُ: أَنَّ الرَّوْحَةَ يَحصُلُ بِهَا هَذَا الثَّوَابُ وَكَذَا الْغَدوَةُ... وَالظَّاهِرُ: أنه لايختص ذَلِكَ بِالْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ مِنْ بَلْدَتِهِ، بَلْ يَحصُلُ هَذَا الثَّوَابُ بِكُلِّ غدوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ فِي طريقه إلى الغزو، وكذا غدوة وَرَوْحَةٍ فِي مَوْضِعِ الْقِتَالِ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ يُسَمَّى غَدوَةً وَرَوْحَةً فِي سَبِيلِ اللهِ ... وَمَعنَى هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ فَضْلَ الْغَدوَةِ وَالرَّوْحَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَثَوَابَهُمَا خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لو ملكها انسان وَتَصَوَّرَ تَنَعُّمَهُ بِهَا كُلِّهَا... لِأَنَّهُ زَائِلٌ وَنَعِيمَ الْآخِرَةِ بَاقٍ.

قَالَ الْقَاضِي: وَقِيلَ فِي مَعنَاهُ: وَمَعنَى نَظَائِرِهِ مِنْ تَمْثِيلِ أمور الآخرة وثوابها بأمور الدنيا أنها خيرمن الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ مَلَكَهَا إِنْسَانٌ وَمَلَكَ جَمِيعَ مَا فِيهَا وَأَنْفَقَهُ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ(٢).

(١٢٩٧) وعنْ أبي سَعيدٍ الخُدرِي رضي الله عنه قال: أتى رَجُلٌ رسُولَ الله ﷺ، فقالَ: أيُّ النَّاسِ أفْضلُ؟ قال: «مُؤمِنٌ يُجاهِدُ بِنفْسِه ومالِهِ في سبيلِ الله» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «مُؤمِنٌ في شِعبٍ مِن الشِّعابِ يَعبُدُ الله، ويَدَعُ النَّاسَ مِن شرِّهِ»(٣).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٦٠٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٩٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨٠) كتاب الإمارة.
(٢) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٣٩-٤٠).
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٨٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨٨) كتاب الإمارة.

(١٢٩٨) وعن سهل بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قالَ: «رِباطُ يَومٍ فى سبيلِ الله خَيْرٌ مِن الدُّنيا وما عَلَيْها، ومَوْضِعُ سَوْطِ أحدِكُم مِن الجنَّةِ خيرٌ مِن الدُّنيا وما عليْها، والرَّوْحَةُ يَرُوحُها العبدُ فى سبيلِ الله تعالى، أوِ الغَدوَةُ، خيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها»(١).

(١٢٩٩) وعنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَة خيرٌ مِن صِيامِ شَهْرٍ وقيامِه، وإنْ ماتَ فيه أُجْرِىَ عليه عمَلُهُ الذى كان يَعمَلُ، وأُجْرِى عليهِ رِزقُهُ، وأَمِنَ الفَتَّانَ»(٢).

(١٣٠٠) وعنْ فضَالة بن عُبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ على عملِهِ إلا المُرابِطَ فى سبيلِ الله، فإنَّهُ يُنَمَّى لهُ عَمَلُهُ إلى يوم القِيامَةِ، ويُؤَمَّنُ فِتْنَةَ القَبرِ»(٣).

(١٣٠١) وعن عُثْمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَ سَمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «رباطُ يومٍ فى سبيلِ الله خَيْرٌ مِن ألفِ يَوْمٍ فيما سواهُ مِن المنازِلِ»(٤).

۞ وهذه الأحاديث تتحدث كلها عن الرباط وفضل الرباط فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ قال الإمام ابن قدامة: معنى الرباط: (الإقامة بالثغر، مقوِّيًا للمسلمين على الكفار... والثَّغر: كل مكانٍ يُخيف أهلُه العدو ويخيفهم. وأصل الرباط من رباط الخيل؛ لأن هؤلاء يربطون خيولهم، وهؤلاء يربطون خيولهم..كلٌّ يُعد لصاحبه، فسُمِّى المُقام بالثغور رباطًا وإن لم يكن فيه خيل.. وفضله عظيم، وأجره كبير.

قال أحمد: ليس يعدل الجهاد عندى والرباط شىء..والرباط دفعٌ عن المسلمين، وعن حريمهم، وقوة لأهل الثغر ولأهل الغزو..فالرباط عندى أصل الجهاد وفرعه، والجهاد أفضل منه للعناء والتعب والمشقَّة.

فالرباط هو الإقامة فى الثغر لإعزاز الدين، ودفع خطر الأعداء عن

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٩٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨١) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩١٣) كتاب الإمارة.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٦٢).

(٤) حسن: رواه الترمذى، والنسائى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٢٢٤).

المسلمين. والمراد بالثغر: مكان ليس وراءه إسلام.

فالمرابطون بمثابة الحُراس لحدود البلاد الإسلامية من هجوم المشركين والأعداء المعتدين.

وكلما كان الثغر أشد خوفًا، واحتمال الخطر عليه من الأعداء أكبر: كانت المرابطة فيه أفضل وأعظم أجرًا.

واشترط الإمام مالك: أن يكون الثغر المقام فيه غير وطنه - يعنى بلده الذى نشأ فيه- وذلك لأن إقامته ببلده جبرية لا فضل له فيها.

ولكن من العلماء مَن نظر فى ذلك بأنه قد يكون وطنه، وينوى بالإقامة فيه دفع العدو، فينال بذلك أجر المرابطين. ومن ثَمَّ اختار كثير من السلف سُكنى الثغور لهذا السبب[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا كَانَ النَّبِىُّ ﷺ وَأَصحَابُهُ يُقِيمُونَ بِالْمَدِينَةِ دُونَ مَكَّةَ؛ لَمَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُرَابِطِينَ بِالْمَدِينَةِ..فَإِنَّ الرِّبَاطَ هُوَ الْمُقَامُ بِمَكَانٍ يُخِيفُهُ الْعَدُوُّ وَيُخِيفُ الْعَدُوَّ فَمَنْ أَقَامَ فِيهِ بِنِيَّةِ دَفْعِ الْعَدُوِّ فَهُوَ مُرَابِطٌ وَالْأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ[2].

وهذه المرابطة فى سبيل الله أفضل من الإقامة للعبادة بمكة والمدينة وبيت المقدس... حتى قال أبو هريرة: لأن أرابط ليلة فى سبيل الله: أحب إلىَّ من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود.

فقد اختار الرباط ليلة على العبادة فى أفضل الليالى عند أفضل البقاع.

وكذلك بعث الإمام عبد الله بن المبارك إلى صديقه الزاهد العابد الفُضيل ابن عياض يُرغِّبه فى اللحاق به فى الرباط، وترك الإقامة فى الحرمين الشريفين، فقال له:

---

(١) الفتح (٧/ ٤٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤١٨).

يـا عابـد الحـرمين لـو أبـصرتنا   لعلمـت أنـك بالعبـادة تلعـبُ!

مَـن كـان يَخـضِبُ خـدَّه بدموعـه   فَنُحورنـا بـدمائنا تتخـضبُ

ذكر الإمام البخارى فى كتاب الجهاد: باب فضل رباط يوم فى سبيل الله. وأورد فيه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال الحافظ فى الفتح: الرِّبَاطُ: مُلَازَمَةُ الْمَكَانِ الَّذِى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ لِحِرَاسَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُم.

قال: واستدلال المصنف بالآية: اختيار لأشهر التفاسير.

فعن الحسن: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾: على طاعة الله. ﴿وَصَابِرُوا۟﴾: أعداء الله فى الجهاد. ﴿وَرَابِطُوا۟﴾: فى سبيل الله[1].

وقيل: اصبروا على النعماء. وصابروا على البأساء والضراء. ورابطوا فى دار الأعداء. واتقوا إله الأرض والسماء. لعلكم تفلحون فى دار البقاء.

فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك، والمرابطة الثبات وإعداد العُدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضًا لزوم ثغر القلب لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه ويخربه أو يشعثه.

۞ ثم أورد حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةَ خيرٌ مِن الدنيا وما فيها» أى أن رباط يومٍ وليلة على الثغور لحفظها من هجوم الأعداء خيرٌ من الدنيا بكل ما فيها من شهوات وملذات ومتاعٍ زائل.

«ومَوْضِعُ سَوْطِ أحدِكُم مِن الجنَّةِ خيْرٌ مِن الدُّنيا وما فيها» فهذا القدر اليسير وهو موضع السوط خيرٌ من الدنيا وما فيها.. لأن الدنيا فانية والجنة باقية..

(١) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/ ٥١٥-٥١٧) بتصرف.

فهى دار الخُلد التى أعدَّها الله لعباده الصالحين.. وجعل فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

«**والرَّوْحَةُ**» وهى السير من الزوال إلى آخر النهار «**يَرُوحُها العبدُ فى سبيلِ الله تعالى**» أى يخرج فى سبيل الله يبتغى بذلك وجه الله.

«**أوِ الغَدوَةُ**» وهى السير أول النهار.. أيضًا فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ «**خيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها**» أى: خيرٌ من نعيم الدنيا كلها لو ملكها وتنعَّم بها .. أو ملكها وأنفقها فى سبيل الله.. لأن الدنيا زائلة وثواب الآخرة باقٍ.

۞ وفى الحديث الثانى يخبر النبى ﷺ أن رباط يومٍ وليلة خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه... فمن رابط على الثغور يومًا وليلة فقط فهو أفضل من صيام شهرٍ كاملٍ وقيامه... وياله من أجرٍ عظيم.. وكيف لا يفوز المرابط بهذا الأجر وهو الذى جعله الله سببًا لأمن الناس وراحتهم وقيامهم بعبادة ربهم دون خوفٍ أو فزع.. فكان بذلك عونًا للناس على طاعتهم لله فنَفعُه عام ومُتعدٍّ .. فكان ثواب مرابطته لمدة يومٍ وليلة أفضل من ثواب صيام شهرٍ وقيامه.. فما ظنك بمن يُرابط لمدة سنة بأكملها؟!.

۞ «**وإنْ ماتَ فيه أُجْرِيَ عليه عمَلُهُ الذى كان يَعمَلُ**».

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذِهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْمُرَابِطِ وَجَرَيَانُ عَمَلِهِ عليه بَعدَ مَوْتِهِ فَضِيلَةٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ.

وَقَد جَاءَ صَرِيحًا فِي غَيْرِ مُسْلِمٍ: «**كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

قَوْلُهُ ﷺ: «**وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ**» مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى فِي الشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وَالْأَحَادِيثُ السَّابِقَةُ أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ[1].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٩٠).

۞ **قوله ﷺ: «وأَمِنَ الفَتَّانَ»**.. وفى الرواية الأخرى: «**ويُؤَمَّنُ فِتْنَةَ القَبرِ**».

وقد استدل غير واحد بهذا الحديث على أن المرابطِ لا يُسأل فى قبره كالشهيد... وقال الشيخ ولى الدين العراقى: المراد به مسألة مُنكر ونكير. قال: ويحتمل أن يُراد أنهما لا يجيئان إليه ولا يختبرانه بالكلية، ويُكتفى بموته مرابطًا فى سبيل الله شاهدًا على صحة إيمانه، ويُحتمل إنهما يجيئان إليه لكنه يأنس بهما بحيث أنهما لا يضرانه ولا يُروعانه، ولا يحصل له بسبب مجيئهما فتنة، اهـ[1].

۞ **وفى حديث فُضالة بن عُبيا.** ﷺ **أن النبى** ﷺ **قال: «كُلُّ مَيِّت يُخْتَمُ على عملِهِ»** فلا يزداد ثوابًا ولا عقابًا «**إلا المُرابِط فى سبيلِ الله**» الواقف على الثغور لحماية المسلمين فى ديارهم «**فإنَّهُ يُنَمَّى لهُ عمَلُهُ إلى يومِ القِيامَةِ**» بتنمية ثوابه والزيادة فيه.. فتظل صحيفته مفتوحة إلى يوم القيامة وتُوضع فيها الحسنات كل يومٍ وتزداد.. وتظل هكذا إلى يوم القيامة .. وكلما ازدادت حسناته كلما ازداد نعيمه فى قبره إلى يوم القيامة «**ويُؤَمَّنُ فِتْنَةَ القَبرِ**» أى: لا يسأله الملكان فى القبر.

۞ **وفى حديث عثمان** ﷺ **أنه سمع النبى** ﷺ **يقول: «رباطُ يَومٍ فى سبيلِ الله خَيْرٌ مِن ألفِ يَوْمٍ فيما سواهُ مِن المنازِلِ»** قال الحافظ فى الفتح: نقلًا عن ابن بريرة، لا تَنافى بينه وبين حديث «**خيرٌ من صيام شهر**»، لأنه يُحمَل على الإعلام بالزيادة فى الثواب على الأول، أو باختلاف العاملين.... وقال العلقمى: أو باختلاف العمل قِلة وكثرة... وقال البيهقى فى الشُّعَب: القصد من هذا ونحوه الإخبار بتضعيف أجر المرابط على غيره، ويختلف ذلك بحسب اختلاف حال الناس نيةً وإخلاصًا، وباختلاف الأوقات[2].



(١) دليل الفالحين (٤/ ٧٣).

(٢) دليل الفالحين (٤/ ٧٤).

(١٣٠٢) وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فى سبيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إلا جِهَادٌ فى سَبيلى، وإيمانٌ بى وتَصدِيقٌ بِرُسُلى فَهُو ضامِنٌ أنْ أُدخِلَهُ الجنَّة، أوْ أرجِعَهُ إلى مَنْزِلِهِ الذى خَرَجَ منهُ بما نَالَ مِن أجْرٍ، أوْ غنِيمَة، والذى نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِهِ ما مِنْ كَلْمٍ يُكلَم فى سبيلِ الله إلا جاءَ يومَ القِيامةِ كهَيْئَتِهِ يوم كُلِم، لونُهُ لَوْن دم، ورِيحُهُ ريحُ مِسْك، والذى نَفْسُ محمَّدٍ بيده لوْلا أنْ يَشُقَّ على المسلمينَ ما قَعَدتُ خلاف سرِيَّة تَغْزُو فى سَبيلِ الله أبدًا، ولكنْ لا أجِدُ سَعَةً فأحمِلَهُم ولا يجدُون سَعَةً، ويَشُقُّ علَيهِم أن يتخَلَّفُوا عنِّى، والذى نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لوَدِدتُ أن أغزوَ فى سبيلِ الله، فأُقْتَل، ثمَّ أغزو، فأُقتل، ثمَّ أغزو، فأُقتل»[١].

(١٣٠٣) وعنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «ما مِنْ مَكلوم يُكْلَمُ فى سبيلِ الله إلا جاءَ يومَ القِيامةِ، وكَلْمُهُ يُدمى: اللوْنُ لونُ دمٍ والريحُ ريحُ مِسْكٍ»[٢].

۞ ففى هذا الحديث يقول الحبيب المصطفى ﷺ «**تَضَمَّنَ الله**» وفى رواية: «**تكفَّل الله**» أى: أوجب الله عَزَّوَجَلَّ على نفسه فضلًا منه وإحسانًا «**لِمَنْ خَرَجَ فى سبيلِهِ**» مجاهدًا فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ «**لا يُخْرِجُهُ إلا جِهَادٌ فى سَبيلى، وإيمانٌ بى وتَصدِيقٌ بِرُسُلى**» أى: لا يُخرجه إلا الجهاد فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.. فلم يخرج من أجل دنيا ولا غنيمة ولا رياء ولا سُمعة ولا عصبية وإنما خرج جهادًا فى سبيل الله وإيمانًا بالله وبوعده وتصديقًا برسله وإخبارهم ورسالتهم... فالله عَزَّوَجَلَّ تكفل لمن فعل ذلك بأن يضمن له دخول الجنة والفوز بما فيها من النعيم المقيم دون سابقة عذاب إن مات شهيدًا.. أو أن يُسلِّمه من كل مكروهٍ فيعود إلى منزله الذى خرج منه بما نال من الأجر والثواب والغنيمة.

وَهَذَا الضَّمَانُ وَالْكَفَالَةُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة - وروى البخارى بعضه (٣٦) كتاب الإيمان.
«الكَلْمُ»: الجرح.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.

﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «**أَنْ أُدخِلَهُ الْجَنَّةَ**» قَالَ الْقَاضِي: يَحتَمِلُ أَنْ يَدخُلَ عِنْدَ مَوْتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الشُّهَدَاءِ: ﴿**أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ وَفِي الْحَدِيثِ: «**أَرواحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ**» قَالَ: وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ دُخُولَهُ الْجَنَّةَ عِنْدَ دُخُولِ السَّابِقِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ وَلَا مُؤَاخذَةٍ بِذَنْبٍ وَتكُونُ الشَّهَادَةُ مُكَفِّرَةً لِذُنُوبِهِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

وَمَعنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى ضَمِنَ أَنَّ الْخَارِجَ لِلْجِهَادِ يَنَالُ خَيْرًا بِكُلِّ حَالٍ فَإِمَّا أَنْ يُسْتَشْهَدَ فَيَدخُلَ الْجَنَّةَ، وَإِمَّا أَنْ يَرجِعَ بِأَجْرٍ وَإِمَّا أَنْ يَرجِعَ بِأَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ.. قَوْلُهُ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده مامن كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ**» أَمَّا الْكَلْمُ فَهُوَ الْجُرحُ وَيُكْلَمُ أَيْ يُجْرَحُ ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَ لَايَزول عنه الدم بغسل ولا غيره... وَالْحِكْمَةُ فِي مَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَاهِد فَضِيلَتِهِ وَبَذْلِهِ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْيَمِينِ وَانْعِقَادِهَا بِقَوْلِهِ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**» وَنَحوِ هَذِهِ الصِّيغَةِ مِنَ الْحَلِفِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ وَلَا خِلَافَ فِي هَذَا ... قَالَ أَصحَابُنَا: الْيَمِينُ تَكُونُ بِأَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ أَوْ مَا دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ(١).

قوله ﷺ: «**لولا أن يَشُقّ على المسلمين ما قعدت خلاف سريّة تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة، فأحملهم ولا يجدون سعة فيتبعوني**»، فالنبي ﷺ يود ويحب أن يخرج في كل غزوة وسرية ولا يتخلف أبدًا عن الجهاد، ولكن هناك فئة من المسلمين ليس عندهم مؤنة ليخرجوا للجهاد، وليس عند النبي ﷺ مؤنة تكفيهم..فستضطر هذه الفئة أن تتخلف عن الخروج، وستشعر بالحرج الشديد

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٣٠-٣١) بتصرف.



لعدم الخروج وعدم الصحبة، لذلك أشفق عليهم النبى ﷺ ورأف بحالهم وقعد خلف السرايا.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ وَأَنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ بَعْضَ مَا يَخْتَارُهُ لِلرِّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ بَدَأَ بِأَهَمِّهَا وَفِيهِ مُرَاعَاةُ الرِّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَالسَّعيِ فِي زَوَالِ الْمَكْرُوهِ وَالْمَشَقَّةِ عَنْهُمْ.

قَوْلُهُ ﷺ: «**لوددت أن أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ**» فِيهِ فَضِيلَةُ الْغَزْوِ وَالشَّهَادَةِ ... وَفِيهِ تَمَنِّي الشَّهَادَةِ وَالْخَيْرِ وَتَمَنِّي مَا لايمكن فِي الْعَادَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ ... وَفِيهِ أَنَّ الْجِهَادَ فرض كفاية لا فرض عَيْنٍ[1].

❁ **وفى الحديث فوائد جمَّة تظهر فى الفوائد التالية:**

الفائدة الأولى: حرص النبى ﷺ على أعمال الخير والتقرب إلى ربه عَزَّوَجَلَّ: «**لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية**»، وقوله: «**لوددت أن أغزو فى سبيل الله**».

الفائدة الثانية: عِظَم أمر الجهاد فى سبيل الله وجزيل ثوابه، حتى إن النبى ﷺ يقسم بربه أنه يود أن يخرج فى كل سرية لولا إيثار رفع الحرج عن بعض أفراد الأمة.

الفائدة الثالثة: قد يريد المسلم عمل خير يبتغى به وجه الله عَزَّوَجَلَّ ولكن يُحال بينه وبين هذا العمل، لسببٍ خارج عنه، مثل عدم وجود المئونة.

الفائدة الرابعة: فى الحديث ما يثبت أن النبى ﷺ عبدٌ من عباد الله، يفتقر إلى الله فيما يفتقر إليه كل العباد، مثل الرزق والصحة وطلب جلب النفع ودفع الضُّر، إلا أنه فُضِّل على الأنبياء وجميع الناس بما ورد فى الكتاب والسُّنة.

الفائدة الخامسة: أن الله لا يُكلف نفسًا إلا وسعها.. فهؤلاء لم يخرجوا لعدم

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٣٢).

الاستطاعة، ومع عدم خروجهم لم يتوجه إليهم اللوم أو العتاب، بل قعد الرسول ﷺ خلف السرية تطييبًا لخاطرهم.

الفائدة السادسة: هل الذى يقعد خلف السرية لعذر له أجر أم لا؟ نعم له أجر، لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: «**إنّ بالمدينة أقوامًا ما سِرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلّا كانوا معكم**» . قالوا: يا رسول الله: وهم بالمدينة؟! قال: «**وهم بالمدينة، حبسهم العذر**»[1] .

الفائدة السابعة: يُشترط لضمان حصول المجاهد على أجر الجهاد، ثلاثة شروط:

الأول: النية الخالصة: التى لا تشوبها شائبة، مثل الرياء، والسمعة، والحمية قال: «**لا يخرجه إلا جهادًا فى سبيلى**» .

الثانى: الإيمان بالله: فهو الذى دفعه للخروج يحتسب الأجر والثواب من الله.

الثالث: التصديق برسل الله: ويتضمن الإيمان بكل ما جاء به الرسل من أوامرٍ ونواهٍ، والتصديق بما أبلغونا عن أجر وثواب الخروج فى سبيل الله.

وهذا هو الذى دفعهم للخروج..وهذا ينطبق على جميع الأعمال التى نتقرب بها إلى الله.

الفائدة الثامنة: قوله: «**حقٌّ على الله**» ، أوجبه هو على نفسه، أن يكافئ المجاهد فى سبيله بإحدى الثلاثة على الأقل، إما الجنة فى حال موته فى سبيل الله، وإما الأجر فى حال عدم النصر فى المعركة، وإما الغنيمة والأجر فى حال النصر، وهذا من البركة العظيمة للجهاد ألا يخرج منه المسلم صفر اليدين.

الفائدة التاسعة: فى الحديث عظيم حب الصحابة للنبى ﷺ إذ يَشُق عليهم أن يخرج الرسول ﷺ فى الغزو، ويتخلفوا عنه.

الفائدة العاشرة: فى الحديث أن للخروج فى سبيل الله شروطًا حتى يتكفل الله

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٢٣) كتاب المغازى.

بالثواب، «لا يُخرجه إلا جهادًا فى سبيلى» ، وقال: «ما من كَلْمٍ يُكلَم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة» ، فاشترط أن يكون لله وإن كان جرحًا يسيرًا.

ولما كانت النيات لا يعلمها إلا الله، فلا يحق لنا أن نحكم لأحدٍ أنه مات شهيدًا، أو نحكم على أحدٍ أنه لم يمت شهيدًا.

الفائدة الحادية عشرة: يُستثنى من ذلك- أى حكمنا بالشهادة على أحد من المسلمين بعينه- مَن حكم له الله أو رسوله ﷺ أنه مات شهيدًا أو سيموت شهيدًا... كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة كثير.

الفائدة الثانية عشرة: ينبنى على ذلك أن الشهداء ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد الدنيا والآخرة: وهو الذى قاتل لتكون كلمة الله هى العليا بإخلاصٍ ونية.

والثانى: شهيد الدنيا دون الآخرة: وهو الذى يموت سُمعة ورياء.

والثالث: شهيد الآخرة دون الدنيا: وقد عدَّهم النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال النّبىُّ ﷺ: «الشهداء: الغرق، والمطعون، والمبطون، والهدم»[١] وغيرهم كثيرٌ .. فقد ورد ذكرهم فى أحاديث كثيرة.

۞ وأحكام الشهداء على النحو التالى:

الأول: لا يُغسَّل ولا يُكفَّن فى الدنيا ويدخل الجنة بحول الله.

والثانى: لا يُغسل ولا يُكفن فى الدنيا، وأمره فى الآخرة إلى الله عز وجل إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له.

والثالث: يُغسَّل ويُكفن ويُصلَّى عليه، وفى الآخرة يُرجى له الجنة بشهادته[٢].

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٢٠) كتاب الأذان.

(٢) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ٣٨٥-٣٨٨) بتصرف كبير.

(١٣٠٤) وعن معاذٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «مَنْ قاتل فِى سَبيلِ الله مِن رجلٍ مُسلمٍ فُواقَ نَاقةٍ وجبتْ له الجنَّةُ، ومَنْ جُرِح جُرحًا فى سبيلِ الله أوْ نُكِبَ نَكبَة، فإنَّها تجىء يومَ القيامة كأغزَرِ ما كانَتْ: لوْنُها الزَّعفرانُ، ورِيحُها كالمِسكِ»[1].

۞ أيًّا كان حكم الجهاد فى الإسلام: فرض كفاية، أم فرض عين، أم تطوعًا، فلا ريب أن منزلة الجهاد فى دين الله لا تعدلها منزلة.. لأن الجهاد هو الذى يحمى الأمة فى دينها ودنياها، ويحرسها من أعدائها المتربصين بها..يحمى دينها وعقيدتها، ويحمى أرضها وحُرمتها، ويحمى استقلالها وسيادتها، فهو حصن الأمة الحصين، وهو ركنها الركين، وهو الذى يصنع الأبطال، ويُعد الرجال، الذين يبذلون النفس والنفيس فى سبيل الله. فلا غرو أن يُعَدَّ ذروة سنام الإسلام، كما جاء فى حديث معاذ: «**أَلا أُنبئكم بِرَأسِ الأمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذِروَةِ سَنَامِهِ؟ رَأْسُ الأمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِروَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللهِ**»[2].

وتكاثرت آيات القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم، تَحُث على الجهاد فى سبيل الله، وتُبين فضله، ومكانة أصحابه عند الله، وأن المجاهد بمنزلة الذى يصوم فلا يُفطر، ويقوم فلا يَفتُر أبدًا.

۞ وفى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «**مَنْ قاتل فِى سَبيلِ الله مِن رجلٍ مُسلمٍ فُواقَ نَاقةٍ**» وهو مقدار ما بين الحلبتين.. وذلك كناية عن أنه قاتل فترة يسيرة من الزمن لا تتعدى الزمن الذى يكون بين الحلبتين... «**وجبتْ له الجنَّةُ**» ففيه بشارة لمن جاهد فى سبيل الله طلبًا لمرضاته بالموت على الإسلام ودخول الجنة.. فإن الجنة لا تكون إلا لأهل الإيمان والتوحيد.

«**ومَنْ جُرِح جُرحًا فى سبيلِ الله**» أى: بسلاح الكفار «**أوْ نُكِبَ نَكبَة**» أى أُصيب

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤١٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٦).

بسبب وقوعه من على دابته أو وقوع سلاحه عليه أو أُصيب في حادث.

«**فإنَّها تجيء يومَ القيامة كأغزَرِ ما كانَتْ**» أي: تجيء يوم القيامة ودمها أغزر مما كانت في غير ذلك الوقت.

«**لوْنُها الزَّعفرانُ، وريحُها كالمِسكِ**» فاللون لون الزعفران.. والريح يكون كالمسك.

۞ فالشاهد من هذا الحديث أن الله عَزَّوَجَلَّ يكافئ على العمل اليسير بالأجر الكبير.. فمن جاهد في سبيل الله تلك الفترة اليسيرة التي لا تزيد عن الزمن الذي يكون بين الحلبتين فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُوجب له الجنة..وأما الذي يُجرح من عدوه أو يقع من على دابته أو يقع عليه سلاحه فإن جرحه يأتي يوم القيامة كأغزر ما يكون.. لونه كلون الزعفران وريحه كالمسك ليكون شاهدًا له يوم القيامة على أنه جاهد في سبيل الله ... فيفوز بأجر المجاهدين في أعلى درجات الجنة.

(١٣٠٥) وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: **مَرَّ رَجُلٌ مِن أصحابِ رسُول الله ﷺ، بشِعبٍ فيه عُيَيْنَةٌ مِن ماءٍ عَذْبةٌ، فأعجبتهُ، فقالَ: لو اعتزَلْتُ النَّاسَ فأقَمْتُ في هذا الشِّعبِ، ولنْ أفعلَ حتى أسْتأذنَ رسُول الله ﷺ..فذكر ذلكَ لرسُول الله ﷺ، فقال: «لا تفعلْ، فإنَّ مُقامَ أحدِكُمْ في سبيلِ الله أفضَلُ مِنْ صلاتِهِ في بيتِهِ سَبْعِينَ عامًا، ألا تُحبُّونَ أنْ يَغفِرَ الله لكُمْ ويُدخِلكُمُ الجنَّةَ؟ اغزُوا في سبيلِ الله، مَنْ قاتَلَ في سبيلِ الله فُوَاقَ ناقَة وَجَبتْ له الجنَّةُ»**[1].

۞ ففي هذا الحديث يحكي أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا من أصحاب الرسول ﷺ مَرَّ بشِعبٍ.. أي: بطريقٍ في الجبل .. فوجد في ذلك الشِّعب «عُيينة من ماءٍ

(١) حسن: رواه الترمذي، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٧٩).
والفُوَاقُ: مَا بَيْنَ الحَلْبَتيْنِ.

عذبة فأعجبته».. لقد وجد عينًا صغيرة لكنها عذبة صافية تروق بها الأعيُن وتبتهج بها الأنفُس .. فأعجبته وفرح بها فرحًا شديدًا..

فقال فى نفسه: لو اعتزَلْتُ النَّاسَ فأقَمْتُ فى هذا الشِّعبِ مُنفردًا لأعبد الله عَزَّوَجَلَّ..لكنه فجأة تذكَّر أنه ليس من حقه أن يتخذ هذا القرار إلا بعد أن يرجع إلى النبى ﷺ ويستشيره فى ذلك... وهذا يدل على ما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ من لزوم الأدب مع النبى ﷺ.. وأنه كان لا يقرر أحدهم أمرًا ولو كان خاصًّا إلا بعد الرجوع إلى النبى ﷺ ...

فذهب إلى النبى ﷺ وذكر له ذلك واستشاره فنهاه النبى ﷺ عن ذلك وقال له: «**لا تفعلْ، فإنَّ مُقامَ أحدِكُمْ**» أى: قيام أحدكم «**فى سبيلِ الله أفضَلُ مِنْ صلاتِهِ فى بيتِهِ سَبْعِينَ عامًا**» أى أن مقام أحدكم فى الجهاد ومقاتلة الكفار والدفاع عن الإسلام وحُرمات المسلمين أفضل من صلاته النافلة فى بيته سبعين عامًا.. والمقصود هنا الكثرة وليس التحديد... فإذا هجم الكفار على بلاد المسلمين وخُشى استيلاؤهم عليها فالانشغال بالجهاد حينئذٍ أفضل من صلاة النافلة لما فيه من إنقاذ المسلمين وحُرماتهم.

۞ **ثم قال له ﷺ**: «**ألا تُحبُّونَ أنْ يَغفِر الله لكُمْ ويُدخِلكُمُ الجنَّةَ؟**» أى: هل تحبون أن يغفر الله لكم مغفرة تامة ويُدخلكم الجنة مع السابقين دون سابقة حسابٍ ولا عذاب... والجواب معلوم... ولا يحتاج إلى تعليق.. فالكل يتمنى المغفرة والرضوان ودخول الجنة.... وكأن النبى ﷺ يقول له ولهم: فإن أردتم ذلك: «**اغزُوا فى سبيلِ الله**» أى: دُوموا على الغزو والجهاد فى سبيل الله..

وحتى لا يظن أحد أنه لن ينال المغفرة والجنة إلا بأن يظل طوال حياته مجاهدًا فى سبيل الله .. قال ﷺ ليُطمئن الجميع: «**مَنْ قاتَلَ فى سبيلِ الله فُوَاقَ ناقَة**» أى: أن مَن قاتل وجاهد فى سبيل الله فواق ناقة.. وهو الوقت اليسير الذى يكون بين الحلبتين.

قَالَ فِي الْقَامُوسِ: الْفُوَاقُ هُوَ مَا بَيْنَ الْحَلْبَتَيْنِ مِنَ الْوَقْتِ أَوْ مَا بَيْنَ فَتْحِ يَدِكَ وَقَبْضِهَا عَلَى الضَّرعِ ... وَقَالَ فِي الْمَجْمَعِ هُوَ مَا بَيْنَ الْحَلْبَتَيْنِ لِأَنَّهَا تُحلَبُ ثُمَّ تُتْرَكُ سَرِيعَةً تُرضِعُ الْفَصِيلَ لِتُدِرَّ ثُمَّ تُحلَبَ..[1].

فمن قاتل وجاهد فى سبيل الله مقدار تلك الفترة اليسيرة كان جزاؤه عند الله أنه «وَجَبتْ له الجنَّةُ» فرَبِحَ البيع لمن باع نفسه لله عَزَّوَجَلَّ ليفوز بجنة عرضها السماوات والأرض.

(١٣٠٦) وعن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: قِيلَ: يا رسُولَ الله، ما يَعدِلُ الجِهَادَ فى سبيلِ الله؟ قال: «لا تَسْتَطيعُونه» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه». ثُمَّ قال: «مَثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصَّائمِ القائمِ القَانِتِ بآياتِ الله لا يَفْتُر: مِن صلاةٍ، ولا صيامٍ، حتى يرجِعَ المجاهدُ فى سبيل الله»[2].

وفى روايةِ البخارى، أنَّ رجلًا قال: يا رسُولَ الله دُلَّنى على عملٍ يَعدِلُ الجهَادَ؟ قال: «لا أجدهُ» ثمَّ قالَ: «هل تَستَطيعُ إذا خَرَجَ المُجاهِدُ أن تدخُلَ مَسجِدَك فتَقُوم ولا تَفْتُر، وتَصُومَ ولا تُفطِرَ» فقال: ومَن يستطيعُ ذلك؟

۞ ففى هذا الحديث أنه قال جماعة للنبى ﷺ: يا رسول الله ما يعدل الجهاد فى سبيل الله؟.. فهم يعلمون أن الجهاد ذروة سنام الإسلام.. لكنه قد لا يكون هناك جهاد فى كل وقتٍ.. فهم يريدون عملًا يُعوضهم عن أجر الجهاد فى سبيل الله ليس من أجل ترك الجهاد ولكن من أجل أن ينشغلوا بهذا العمل إلى أن يحين وقت الجهاد.. فلما سألوا النبى ﷺ عن الشىء أو العمل الذى يعدل الجهاد قال لهم النبى ﷺ: «لا تستطيعونه» أى أن هناك ما يعدل الجهاد لكن لا يقدر عليه أحد...

(١) تحفة الأحوذى (٥/ ٣٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٨٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٨) كتاب الإمارة، واللفظ له.

فأعادوا السؤال عليه مرتين أو ثلاثًا.. والنبى ﷺ مُشفقٌ عليهم فيقول لهم: «لا تستطيعونه».. فلما رأى إصرارهم على معرفة ذلك قال لهم ﷺ «مثل المجاهد فى سبيل الله» أى: صفته العظيمة الشأن التى كادت أن تكون كالمثل «كمثل الصَّائمِ القائمِ القَانِتِ بآياتِ الله لا يَفْتُر: مِن صلاةٍ، ولا صيامٍ، حتى يرجِعَ المجاهدُ فى سبيل الله» وكأن النبى ﷺ يقول لهم: إن أراد أحدكم أنَّ يعمل عملًا يوازى أو يكون قريبًا من عمل المجاهد فى سبيل الله.. فعليه أن يظل صائمًا قائمًا مطيعًا لله تاليًا لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ منذ أن يخرج المجاهد من بيته للجهاد وإلى أن يرجع.. وقد يمكث المجاهد عامًا أو عامين فى الجهاد أو أكثر من ذلك.

ومَن فى الدنيا يستطيع أن يفعل ذلك... فالمجاهد منذ أن يخرج وإلى أن يعود له مثل أجر الصائم الذى لا يُفطر والقائم الذى لا يَفتُر... فمن أراد أن ينال مثل أجره فليفعل مثله... وهذا دليل على أنه لا شىء يوازى أجر الجهاد فى سبيل الله.

۞ ولذا جاء فى الرواية الأخرى أن رجلًا قال للنبى ﷺ دُلَّنى على عملٍ يعدل الجهاد؟ قال له النبى ﷺ «لا أجدهُ».. فلو علم النبى ﷺ عملًا يوازيه لأخبره بذلك.. ثم قال له: «هل تَستطيعُ إذا خَرَجَ المُجاهِدُ أن تدخُلَ مَسجِدَك فتَقُومَ ولا تَفْتُر، وتَصُومَ ولا تُفطِر؟». فقال الرجل: ومَن يستطيع ذلك؟

(١٣٠٧) وعن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُول الله ﷺ قال: «مِنْ خَير معاشِ الناس لَهُم رجُلٌ مُمْسِكٌ بعِنَانِ فَرسِهِ فى سبيلِ الله، يطيرُ على مَتْنِهِ كُلَّما سمِع هَيعةً، أوْ فَزْعَة طار على مَتْنِهِ، يَبْتَغى القتل أو الموتَ مَظانَّهُ، أو رَجُلٌ فى غُنَيْمةٍ أو شَعفةٍ من هذه الشَّعفِ أو بطنِ وادٍ من هذِهِ الأوديةِ يُقيمُ الصَّلاةَ، ويُؤْتى الزَّكاة، ويَعبُدُ ربَّهُ حتى يأْتِيَه اليقينُ ليْسَ من النَّاسِ إلا فى خيرٍ»[١].

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٩) كتاب الإمارة.

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن خير أحوال عيش الناس فقال ﷺ «**مِنْ خَير معاشِ الناس لهُم**».. المعاش هو العيش وهو الحياة.. وكأن التقدير: من خير أحوال عيشهم «**رجُلٌ مُمْسِكٌ بعنَانِ فرسِهِ فى سبيلِ الله**» أى: رجل ممسك بحبل فرسه وهو مستعدٌ فى أى لحظة للخروج للجهاد فى سبيل الله.. فليس فى قلبه أى تعلُّق بزهرة الدنيا.. بل هو مستعدٌ للجهاد من أجل حماية المسلمين فى بلادهم ومن أجل أن يكون عونًا للمسلمين على أن يعيشوا فى أمانٍ وأن يعبدوا الله فى أمانٍ.. فهو قد أوقف حياته لله عَزَّوَجَلَّ من أجل أن يجاهد أعداء الله.. ولذا فهو مُمسك بعنان فرسه علامة على الاستعداد الدائم..

«**يطيرُ على مَتْنِهِ كُلَّما سمِع هَيعةً، أوْ فَزْعَة طار على مَتْنِهِ**» فهو كلما سمع هيعة وهى الصوت عند حضور العدو.. أو فزعة وهى النهوض إلى العدو طار على ظهر فرسه.. أى: أسرع إلى الجهاد ولم يتردد حتى شبَّهه النبى ﷺ بأنه لا يُسرع ولكنه يطير من شدة سرعته وإقباله على الجهاد.

«**يَبْتَغى القتل أو الموتَ مظانَّهُ**» أى أنه يطلب الشهادة ويبحث عن الموت فى مواطنه التى يُرجَى فيها لشدة رغبته فى الشهادة.

۞ فهذا من خير معاش الناس.. وهذه أفضل حياة.. ولكن ليس كل الناس يقدرون على الجهاد.. فهل يُحرَم باقى الناس من خير المعاش والحياة؟.. كلا.. فقد أخبر النبى ﷺ عن الرجل الثانى الذى وصف حياته بأنها خير المعاش أو خير الحياة... فمن هو يا ترى؟

قال النبى ﷺ: «**أو رَجُلٌ فى غُنَيْمةٍ**» أى: رجل يعيش حياة بسيطة ومعه عددٌ قليل جدًّا من الغنم.. «**أو شَعفةٍ من هذه الشَّعفِ**» أى: يعيش فى أعلى الجبل.. «**أو بطنِ وادٍ من هذِهِ الأوديةِ**» أو يعيش فى بطن وادٍ من تلك الأودية التى بين الجبال.. أى أنه يعيش حياة بسيطة ومعه مجموعة من الغنم يعيش على لبنها

ولحمها القليل ويرعاها ويُكرم مَن حوله من جيرانه الفقراء.. ولكنه لا ينسى حق ربه عَزَّوَجَلَّ.. ولذا قال ﷺ: «يُقيمُ الصَّلاةَ، ويُؤْتى الزَّكاة» فهو لا يصلى فحسب بل يقيم الصلاة ويصليها كما صلاها النبى ﷺ.. ويؤتى الزكاة مع أنه فقير لكنه يتصدق على الفقراء والمساكين من حوله ولا ينقطع أبدًا عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ.. ولذا قال النبى ﷺ: «ويَعبُدُ ربَّهُ حتى يأْتِيَه اليقينُ» أى: يعبد ربه حتى يأتيه الموت.

ثم قال النبى ﷺ: «ليْسَ من النَّاسِ إلا فى خيرٍ» فهو لا يؤذى أحدًا أبدًا.. بل يكرم الناس ويُحسن إليهم ويصبر على أذاهم. فهذا أيضًا من خير معاش الرجل.

۞ وإن كان الأصل أن المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم.. لكن إن خشى المسلم على نفسه من أن يُفتن فى دينه فالعُزلة خيرٌ له من الفتنة.

***

(١٣٠٨) وعن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ فى الجنَّةِ مائةَ درجة أعدَّها الله للمُجاهِدينَ فى سبيلِ الله ما بيْن الدَّرجَتَينِ كما بيْنَ السَّماءِ والأرضِ»[١].

(١٣٠٩) وعن أبى سعيدٍ الخُدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «مَنْ رضِى بالله رَبًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبِمُحمَّدٍ رسُولًا، وَجَبت لهُ الجنَّةُ» فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعِدها عَلَيَّ يا رسولَ الله، فأعادَها عليه، ثُمَّ قال: «وأُخْرى يَرفَعُ اللهُ بها العَبْدَ مائةَ درجةٍ فى الجنَّةِ، ما بين كُلِّ دَرَجَتَين كَما بين السَّماءِ والأرض» قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الجِهادُ فى سبيل الله، الجِهادُ فى سبيلِ الله»[٢].

۞ ففى الحديث الأول يخبر النبى ﷺ أن فى الجنة مائة درجة أعدَّها الله عَزَّوَجَلَّ للمجاهدين فى سبيل الله.. ونحن نعلم أن درجات الجنة لا يُحصى عددها إلا الله عَزَّوَجَلَّ... وأن المؤمن يرتقى فى تلك الدرجات برحمة الله أولًا ثم بفضل

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٤) كتاب الإمارة.



أعماله الصالحة التى يتقرب بها إلى الله..

فعلى سبيل المثال فقد أخبر النبى ﷺ أن قارئ القرآن يرتقى فى درجات الجنة بعدد الآيات التى يحفظها من كتاب الله عز وجل

قال ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ: اقْرَأ وَارقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَ مَنْزِلَتكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَؤُهَا**»(١).

وهنا فى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن مائة درجة أعدَّها الله عز وجل للمجاهدين فى سبيل الله.. وهى درجات عالية فى أعالى الجنان.. ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.. فتأمل كم تبلغ المسافة بين السماء والأرض لتعلم أن هذه درجة واحدة.. وللمجاهدين مائة درجة .. كل درجة مسيرة ما بين السماء والأرض.

۞ وفى الحديث الثانى قال النبى ﷺ «**مَنْ رضِى بالله رَبًّا ، وبالإسلامِ دينًا، وبِمُحمَّدٍ رسُولًا ، وَجَبت لهُ الجنَّةُ**» أى أن: مَن رضى بالله ربًّا وخالقًا ورازقًا ومُدبرًا ومعبودًا ومُطاعًا.. فأطاعه فى كل ما يأمر به وانتهى عن كل ما نهاه عنه وتحاكم إلى شرعه وآمن بوحدانيته فى ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .. ورضى بالإسلام دينًا فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلًا ولم يرض بدينٍ سوى دين الإسلام..

ورضى بمحمدٍ ﷺ رسولًا فأحبه واتبعه وصدَّقه فى كل ما أخبر عن ربه... وجبت له الجنة .. والذى أوجبها له هو الله (جل وعلا)... فعجب أبو سعيدٍ فرحًا بهذا الكلام وقال للنبى ﷺ أعِدها علىَّ يا رسول الله .. فأعادها عليه النبى ﷺ ثم قال له: «**وأُخْرى يَرفَعُ الله بها العَبْدَ مائةَ درجةٍ فى الجنَّةِ، ما بين كُلِّ دَرَجَتَين كَما بين السَّماءِ والأرض**» فتعجب أبو سعيد وقال له بكل لهفة: وما هى يا رسول

(١) صحيح :رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٢٢).

الله؟ فقال له ﷺ: «**الجِهادُ في سبيل الله، الجِهادُ في سبيلِ الله**».

وهو ما أخبر عنه النبي ﷺ في الحديث الذي قبله أن الله عز وجل أعدّ للمجاهدين في سبيل الله مائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.

(١٣١٠) وعنْ أبي بَكْرِ بن أبي موسى الأشعريِّ، قال: سَمِعتُ أبي رضي الله عنه، وهُوَ بحَضْرَةِ العَدُوِّ، يقول: قال رسُولُ الله ﷺ: «**إنَّ أبْوابَ الجنَّةِ تَحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**» فقامَ رجُلٌ رَثُّ الهَيْئَةِ فقال: يا أبا موسى أأنْت سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجَع إلى أصحَابِهِ، فقال: «أقرأ عليْكُم السَّلامَ» ثمَّ كسَر جَفْن سَيْفِهِ فألقاه، ثم مَشَى بسَيْفِهِ إلى العدوِّ فضَرب بِهِ حتَّى قُتل[1].

❁ ففي هذا الحديث يحكي أبو بكر بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه سمع أباه وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أبْوابَ الجنَّةِ تَحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**».

يا ترى ما الذي حمل أبا موسى الأشعري رضي الله عنه أن يقول هذا في تلك اللحظة؟.

والجواب: أنهم كانوا في تلك اللحظة قد وقفوا في ساحة الجهاد أمام العدو فأراد أبو موسى أن يُحفزهم على الجهاد وأن يُشجعهم على قتال العدو ليجددوا النية ويُخلصوا في جهادهم عسى الله أن يرزقهم الشهادة فيفوزوا بالجنة.. فقال لهم جميعًا: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أبْوابَ الجنَّةِ تَحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**» قال العلماء: معناه أن الجهاد وحضور معركة القتال طريقٌ إلى الجنة وسببٌ لدخولها.

فقام رجلٌ رث الهيئة يلبس ثيابًا قديمة ويبدو عليه الفقر والفاقة فقال لأبي موسى: يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم.. ولم يستحلفه لأنه يعلم أن هذا الجيل هو جيل الصدق والأمانة والإخلاص فليس بينهم ولا حولهم كذاب.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٢) كتاب الإمارة.

فما كان من الرجل إلا أن رجع إلى أصحابه وقال لهم: أقرأ عليكم السلام.. ثم كسر جفن سيفه حتى لا يضعه فى الغمد مرة أخرى وألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو وظل يقاتل بالسيف ويقتل فى العدو حتى قُتل رضي الله عنه.

وهكذا كانوا يتفاعلون مع كلام النبى ﷺ.. فبمجرد أن علم أن النبى ﷺ قال هذا.. قام وقدَّم روحه ونفسه لله عز وجل.. فيا ترى.. هل ستلبس المسلمة حجابها إذا علمت أن النبى ﷺ أمرها بالحجاب؟ .. وهل سيصلى الشاب المسلم إذا علم أن النبى ﷺ أمره بالصلاة؟... يا ليتنا نتفاعل مع كلام النبى ﷺ كما تفاعل هذا الرجل الذى قدَّم نفسه لله عز وجل لأنه سمع النبى ﷺ قال: **« إنَّ أبْوابَ الجنَّةِ تَحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ»**.

❊ ❊ ❊

(١٣١١) وعن أبى عَبْسٍ عبدِ الرَّحمنِ بن جَبْر رضي الله عنه، قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: **«ما اغْبَرَّتْ قدَما عَبْدٍ فى سبيل الله فتَمَسَّه النَّارُ»**[١].

۞ وياله من فضلٍ عظيم... فمن خرج مجاهدًا فى سبيل الله عز وجل ولم يبدأ فى الجهاد والحرب بعد.. بل إنه ما زال فى طريقه إلى العدو..فأصاب الغبار والتراب قدمه.. أو جاء الغبار على قدمه أو حذائه.. فذلك الغبار الذى لامس قدمه أو حذاءه يمنع وصول النار إليه يوم القيامة.. فالمعنى أن مجرد المسّ ينتفى بوجود الغبار المذكور.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وَفِى ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى عَظِيمِ قَدرِ التَّصَرُّفِ فِى سَبِيلِ اللهِ ... فَإِذَا كَانَ مُجَرَّدُ مَسِّ الْغُبَارِ لِلْقَدَمِ يُحَرِّمُ عَلَيْهَا النَّارَ فَكَيْفَ بِمَنْ سَعَى وَبَذَلَ جَهْدَهُ وَاسْتَنْفَدَ وُسْعَهُ؟[٢]

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٨١١) كتاب الجهاد والسير.

(٢) فتح البارى (٦/ ٣٦).

(١٣١٢) وعن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: « لا يَلِجُ النَّارَ رجُلٌ بَكَى مِن خَشْيَةِ الله حتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فى الضَّرعِ ، ولا يَجْتَمِعُ عَلى عَبْدٍ غُبارٌ فى سبيل الله ودخان جهنَّم »(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٤٥٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣١٣) وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «عَيْنَانِ لا تَمسُّهمَا النَّارُ: عيْنٌ بكَت مِن خَشْيَةِ الله، وعيْنٌ باتَت تَحرُسُ فى سبيلِ الله»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن عينين لا تمسهما النار... ولم يقل ﷺ: لا تحرقهما النار.. فالنار لا تمسهما مجرد المسّ.. فيا ترى مَن هما؟ ... قال ﷺ: «عيْنٌ بكَت مِن خَشْيَةِ الله..» أى: عين بكى صاحبها من خشية الله.. سواء كان يصلى أو يقرأ القرآن فتأثر بكلام الله عز وجل .. أو تذكَّر وهو قائم يصلى يوم وقوفه بين يدى الله يوم القيامة للحساب فبكى.. أو كان يتذكر نِعَم الله عليه وتقصيره هو فى شكر الله عز وجل فبكى.. أو جلس يتذكر ذنوبه وآثامه فأشفق على نفسه من غضب الله وعذابه فبكى..

فهذا الإنسان يكون يوم القيامة فى ظل عرش الرحمن (جل وعلا) كما أخبر النبى ﷺ حيث قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ. يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: -وذكر منهم- وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».... وكذلك يوم القيامة لا تمسه النار.

أما الرجل الثانى الذى لا تمسه النار.. فهو صاحب العين التى باتت تحرس فى سبيل الله عز وجل.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٧٨).
(٢) صحيح: رواه الترمذى، وأبو يعلى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١١٢)، (٤١١٣).

ومن المعلوم أن المسلمين إذا كانوا فى أرض الجهاد فإنهم يحتاجون إلى مَن يحرسهم حتى لا يُباغتهم العدو فجأة وهو نائمون أو إذا كانوا يُصلون أو يأكلون .. فلا بد من حارسٍ يُنذرهم بقدوم العدو.. ولا بد من حارسٍ ليحرس قائد المسلمين لئلا يغتاله العدو.

وهناك أحاديث كثيرة فى فضل الحراسة فى سبيل الله سأكتفى بذكر حديث واحد منها.. وهو قول النبى ﷺ : «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِلَيْلَةٍ أَفْضَلَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدرِ** -قالوا: بلى يا رسول الله. فقال ﷺ :- **حَارِسٌ حَرَسَ فِى أَرضِ خَوْفٍ، لَعَلَّهُ أَلَّا يَرجِعَ إِلَى أَهْلِهِ**»[١] .

فمن حرس فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ لا تمسه النار أبدًا يوم القيامة.

***

(١٣١٤) وعن زَيدِ بن خالدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «**مَن جهَّزَ غَازِيًا فى سبيلِ الله فقَد غَزَا، ومَنْ خَلَفَ غازِيًا فى أهْلِهِ بخَيْر فقَد غَزَا**»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

***

(١٣١٥) وعنْ أبى أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**أفْضَلُ الصَّدَقات ظِلُّ فُسْطَاطٍ فى سبيل الله ومَنِيحةُ خادمٍ فى سبيل الله أو طَروقةُ فحلٍ فى سبيل الله**»[٣].

۞ من كمال رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يحرم أحدًا من فضله وجُوده وكرمه... فالذى يستطيع أن يخرج للجهاد فقد فاز بالأجر والثواب العظيم إن خرج مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ ... والذى لا يستطيع أن يخرج فإنه يستطيع أن يجهز غازيًا وذلك بأن يزوده بالسلاح والعتاد والراحلة وينال مثل أجره... فإن لم يستطع

(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٢٣٢).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٤٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٩٥) كتاب الإمارة.
(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٠٩).

فإنه يخلفه فى أهله بخير وينال مثل أجره.. فإن لم يستطع فليس هناك أقل من أن يقدم للغازى إحدى ثلاث من التى ذكرها النبى ﷺ: إما أن يعطى المجاهدين فسطاطًا: أى خيمة يستظلون بها... فالمجاهد يدخل أرض الجهاد ويقاتل فى الشمس المحرقة فإذا عاد إلى معسكر المجاهدين فإنه يحتاج أن يستظل تحت ظل خيمة.. فمن تصدق بتلك الخيمة فاز بثواب كل مَن يستظل فى ظلها...

وإما أن يمنح المجاهدين خادمًا لهم يخدمهم ويُعد لهم الطعام والشراب ويجهز لهم السلاح ويخدمهم.. ليكون ذلك فى ميزان حسناته.. وهذا هو ما يُسمى (منيحة خادم فى سبيل الله)... وإما أن يعطى المجاهد (طروقة فحلٍ) وهى الناقة التى صلحت لطرق الفحل وأقل سنها ثلاث سنين ودخلت فى الرابعة.. فيأخذها المجاهد ليذهب بها إلى أرض الجهاد.. فيشاركه الذى أعطاه تلك الناقة فى الأجر دون أن يُنقص من أجره شيئًا..

فما أعظم هذا الدين الذى يفتح للجميع باب الأجر والثواب حتى لا يُحرم أحد من أجر الجهاد ولو بالمشاركة التى لا تُكلفه إلا القليل مع استحضار النية الصالحة.

❊❊❊

(١٣١٦) وعن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ فَتًى مِن أَسْلَمَ قال: يا رسول الله إنِّى أُريد الغَزْو ولَيْس معِى ما أَتَجهَّزُ بهِ، قال: «ائتِ فُلانًا، فإنَّه قد كانَ تجهَّزَ فَمَرِضَ» فأتاه فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يُقرِئُكَ السَّلامَ ويقولُ: أعطِنى الذى تَجهَّزتَ به، قال: يا فُلانَةُ، أعطِيه الذى كُنْتُ تجهَّزْتُ بهِ، ولا تَحبِسى عنهُ شيئًا، فوَالله لا تَحبِسى منه شيئًا فيُبارَكَ لكِ فيهِ(١).

۞ ففى هذا الحديث يحكى أنس بن مالك رضي الله عنه أن فتًى من قبيلة أسلم جاء

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٤) كتاب الإمارة.

إلى النبى ﷺ وكُله رغبة فى أن يذهب إلى الجهاد فى سبيل الله لعله يفوز بالشهادة فيشفع فى سبعين إنسانٍ من أهل بيته فيُدخلهم الجنة... فلما ذهب إلى النبى ﷺ قال له: يا رسول الله إنى أريد الغزو وليس معى ما أتجهز به.. ومع أنه معذور لأنه ليس عنده السلاح الذى يجاهد به إلا أنه عنده شوقٌ عجيب للجهاد.. فدفعه ذلك الشوق لأن يذهب إلى النبى ﷺ ويقول له ذلك.

فما كان من النبى ﷺ إلا أن قال له: «**ائتِ فُلانًا، فإنَّه قد كانَ تجهَّزَ فَمَرِضَ**».. فذهب هذا الفتى الأسلمى إلى ذلك الرجل المريض وقال له: إنَّ رسولَ الله ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلامَ... فهنيئًا له أن النبى ﷺ يُقرئه السلام...

قال له: إنَّ رسولَ الله ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلامَ ويقولُ: أعطِنِى الذى تَجهَّزتَ به... فلم يَقُل الرجل: ولماذا أعطيه سلاحى وعتادى وفرسى.. فقد يُقتل وأفقد كل ذلك ولا أستطيع الجهاد بعد اليوم... بل كان يعلم يقينًا أنه إن أعطاه السلاح فقد فاز بأجر مَن جهَّز غازيًا.. وقد قال النبى ﷺ: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا**» فكأنه غزا وهو نائم فى فراشه...

بل إنه يعلم أيضًا أن هذا الشاب إن قُتل وفاز بالشهادة فإنه سيشاركه فى الأجر وسينال أجر الشهادة أيضًا وهو نائمٌ فى فراشه.. ففى كل الأحوال هو فائزٌ إن شاء الله.

ولذا قال لامرأته فى التو واللحظة: يا فُلانَةُ، أعطِيه الذى كُنْتُ تجهَّزْتُ بهِ، ولا تَحبِسى عنهُ شيئًا، فوَالله لا تَحبِسى منه شيئًا فيُبارَكَ لكِ فيهِ.

وانتهى الحديث عند ذلك.. وكأنك تقرأ المشهد بأن الفتى قد أخذ السلاح والفرس وذهب وجاهد فى سبيل الله.. وسواء كان قد قُتل ونال الشهادة أم عاد مرة أخرى... فقد فاز هذا الرجل المريض بأجر الجهاد فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

(١٣١٧) وعن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسُولَ الله ﷺ بَعثَ إلى بني لِحيانَ، فقال: «لِيَنْبعِثْ مِن كُلِّ رجُلَيْنِ أحدُهُما، والأجْرُ بيْنَهُما»(١).

وفى رواية له: «لِيخْرُجْ مِن كُلِّ رجلين رجُلٌ» ثم قال للقاعِدِ: «أَيُّكُمْ خَلَفَ الخارج فى أهْلِهِ ومالِهِ بخَيْرٍ كان لهُ مِثْلُ نِصفِ أجرِ الخارجِ».

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٨٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣١٨) وعن البراء رضي الله عنه، قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ مُقنَّعٌ بالحديد، فقال: يا رسُول الله أُقاتِلُ أوْ أُسْلِمُ؟ فقال: «أسْلِمْ، ثُمَّ قاتِلْ» فأسْلَم، ثُمَّ قاتَلَ فقُتِلَ، فقال رسول الله ﷺ: «عَمِلَ قليلًا وأُجِرَ كثيرًا»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يحكى البراء رضي الله عنه أن رجلًا مُقنَّعًا بالحديد جاء إلى النبى ﷺ فقال له: يا رسُول الله أُقاتِلُ أوْ أُسْلِمُ؟.. إنه يسأل النبى ﷺ هذا السؤال لأنه قابل النبى ﷺ فى إحدى الغزوات.. ولعلها غزوة أُحد.. ومن الواضح أنه كان عازمًا على الإسلام ولذا سأل النبى ﷺ: أُقاتِلُ أوْ أُسْلِمُ؟ يعنى أدخل لأجاهد معك أولًا ثم أُسلم بعد الغزوة.. أم أُسلم أولًا ثم أدخل لأُجاهد..

فقال له ﷺ: «أسْلِمْ، ثُمَّ قاتِلْ».. وذلك لأنه إن قاتل قبل أن يُسلم فقُتل فلن يكون شهيدًا لأنه ما زال كافرًا.. أما إن أسلم أولًا ثم قاتل.. فإما أن يَسلَم ولا يُقتل فقد فاز بأجر وثواب المجاهدين... وإما أن يُقتل فيفوز بأجر الشهادة فى سبيل الله.. فما كان من الرجل إلا أن أسلم ثم قاتل فقُتل وفاز بالشهادة.. فقال ﷺ: «عَمِلَ قليلًا وأُجِرَ كثيرًا».

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٦) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٠٨) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٠٠) كتاب الإمارة، واللفظ للبخارى.

أى أنه لم يسجد لله سجدة واحدة ولم يفعل أى شيء سوى أنه نطق الشهادة ودخل ليجاهد ففاز بالشهادة.. فكان عمره فى الإسلام ساعة.. وارتقى إلى أعلى درجات الجنة مع الشهداء فى تلك الساعة.

ولعل هذا الرجل يذكرنا بقصة عمرو بن ثابت ... فقد حدث له قصة قريبة من قصة هذا الرجل...

فَقد أخرج ابن إِسْحَاقَ فِى الْمَغَازِى قِصَّةَ عَمْرِو بْنِ ثَابِتٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَخْبِرُونِى عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَمْ يُصَلِّ صَلَاةً ثُمَّ يَقُولُ: هُوَ عَمْرُو بْنُ ثَابت... قَالَ ابن إِسْحَاقَ: قَالَ الْحُصَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ: قُلْتُ لِمَحمُودِ بْنِ لَبِيدٍ: كَيْفَ كَانَتْ قِصَّتُهُ؟ قَالَ: كَانَ يَأْبَى الْإِسْلَامَ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ بَدَا لَهُ فَأَخَذَ سَيْفَهُ حَتَّى أَتَى الْقَوْمَ فَدَخَلَ فِى عُرضِ النَّاسِ فَقَاتَلَ حَتَّى وَقَعَ جَرِيحًا فَوَجَدَهُ قَوْمُهُ فِى الْمَعرَكَةِ، فَقَالُوا: مَا جَاءَ بِكَ أَشَفَقَةً عَلَى قَوْمِكَ؟! أَمْ رَغْبَةً فِى الْإِسْلَامِ؟! قَالَ: بَلْ رَغْبَةً فِى الْإِسْلَامِ قَاتَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى أَصَابَنِى مَا أَصَابَنِى ... فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[1].

(١٣١٩) وعن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ النبى ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخُلُ الجنَّة يُحِبُّ أنْ يَرجِعَ إلى الدُّنيا وله ما على الأرضِ منْ شيءٍ إلا الشَّهِيدُ، يتمنَّى أنْ يرجِع إلى الدُّنيا، فيُقْتَل عشْرَ مرَّاتٍ، لِما يرى مِن الكَرَامة».

وفى رواية: «**لِمَا يَرَى مِن فَضْلِ الشَّهادةِ**»[2].

۞ هذا الحديث أورده الإمام البخارى تحت باب: «تمنِّى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا»...

(١) فتح البارى (٦/ ٣٠-٣١).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨١٧) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٧) كتاب الإمارة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَد وَرَدَ بِلَفْظِ التَّمَنِّى وَذَلِكَ فِيمَا أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا ابن آدَمَ كَيْفَ وَجَدتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ خَيْرَ مَنْزِلٍ. فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّهْ. فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُكَ وَأَتَمَنَّى أَنْ تَرُدَّنِى إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلُ فِى سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا رَأَى مِنْ فضل الشَّهَادَة» الحَدِيث .... وَلمُسلم من حَدِيث ابن مَسْعُودٍ رَفَعَهُ فِي الشُّهَدَاءِ قَالَ: «فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى...» وَلِابْنِ أَبِى شَيْبَةَ مِنْ مُرسَلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَمُصعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ... وَلِلتِّرمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ لِى رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللهُ لِأَبِيكَ؟ قَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ تَمَنَّ عَلَيَّ أُعطِكَ قَالَ: يَا رَبِّ تُحيِينِى فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً قَالَ إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّى أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرجَعُونَ»(١).

فعن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، يوم أُحدٍ، قال رسول الله ﷺ: «يَا جَابِرُ، أَلَا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِأَبِيكَ؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا(٢)، فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، تُحيِينِى فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً. فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّى أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يرجِعُونَ. قَالَ: يَا رَبِّ، فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِى. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾»(٣).

۞ فمن خلال تلك الروايات يتضح لنا أنه ليس هناك أحد يدخل الجنة يتمنى أن يرجع إلى الدنيا مرة أخرى حتى لو كان له كل ما على الأرض من

(١) فتح الباري (٦/ ٣٩).
(٢) أي: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول..وهذا بعد موته أما قبله فلا.
(٣) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٠٥).

شيء... وذلك لما في الجنة من النعيم الذي لا يخطر على قلب بشر... فلا وجه للمقارنة بحالٍ من الأحوال... فلا أحد يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا.. لا من أجل أن يستمتع بما فيها .. كلا.. فقد رأى نعيم الجنة الذي لا يخطر على قلب بشر.. ولكنه يريد أن يرجع إلى الدنيا من أجل أن يُقتَل في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.. وذلك لِمَا رأى من الكرامة وفضل الشهادة في الجنة.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: هَـذَا مِنْ صَرَائِحِ الْأَدِلَّةِ فِي عَظِيمِ فَضْلِ الشَّهَادَةِ وَاللهُ الْمَحمُودُ الْمَشْكُورُ ... وَأَمَّا سَبَبُ تَسْمِيَتِهِ شَهِيدًا فَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْل: لِأَنَّهُ حَيٌّ فَإِنَّ أَرواحَهُمْ شَهِدَتْ وَحَضَرَتْ دَارَ الإسلام وَأَرواحَ غَيْرِهِمْ إِنَّمَا تَشْهَدُهَا يَوْمَ الْقِيامَةِ ... وَقَالَ ابن الْأَنْبَارِيِّ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) يَشْهَدُونَ لَهُ بِالْجَنَّةِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ شَهِدَ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ مَا أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْكَرَامَةِ... وَقِيلَ: لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحمَةِ يَشْهَدُونَهُ فَيَأْخُذُونَ رُوحَهُ.

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ شُهِدَ لَهُ بِالْإِيمَانِ وَخَاتِمَةِ الْخَيْرِ بِظَاهِرِ حَالِهِ... وَقِيلَ: لِأَنَّ عَلَيْهِ شَاهِدًا بِكَوْنِهِ شَهِيدًا وَهُوَ الدَّمُ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُ مِمَّنْ يَشْهَدُ عَلَى الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِبْلَاغِ الرُّسُلِ الرِّسَالَةَ إِلَيْهِمْ وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يُشَارِكُهُمْ غَيْرُهُمْ فِي هَذَا الْوَصفِ(١).



(١٣٢٠) وعن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «يَغْفِرُ الله للشَّهِيدِ كُلَّ شَيءٍ إلا الدَّيْنَ»(٢).

وفي رواية له: «القَتْلُ في سَبِيلِ الله يُكفِّرُ كُلَّ شيءٍ إلا الدَّيْنَ».

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الشهادة تكفر كل شيءٍ من الأعمال

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٣٥-٣٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٦٦) كتاب الإمارة.

إلا الدَّيْنَ: يعنى إلا دَين الآدمى، فإن الشهادة لا تُكفره، وذلك؛ لأن دَيْنَ الآدمى لا بُدَّ من إيفائه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ... وفى هذا الحديث التحذير من التَّساهُل فى الدَّين وأنه لا ينبغى للإنسان أن يتساهل فى الدَّين ولا يتداين إلا عند الضرورة القُصوى... لأن النبى ﷺ لم يأذن للرجل الذى قال: زوِّجنى، فقال: «**أصدق المرأة**»، أى: قدِّم لها صَدَاقًا.. قال: ليس عندى إلا إزارى، قال: «**إزارك لا ينفعها، إن أعطيتها إياه بقيت بلا إزار، وإن أبقيته عليك بقيت بلا مهر، التمس ولو خاتمًا من حديد...**» فالتمس فلم يجد، فقال: «**زوَّجتكها بما معك من القرآن**»، ولم يَقُل: استقرض من الناس، مع أنه زواج، وحاجة مُلحَّة؛ لكن لم يأذن له الرسول ﷺ بل لم يُرشده إلى الاستدانة؛ لأن الدَّين خطير جدًّا.... وقد روى عن النبى ﷺ: «**أن نفس المؤمن مُعلَّقة بِدَينهِ حَتَّى يُقضَى عَنهُ**»[1] فالأمر مهم فلا تستهن بالدَّينِ... فالدَّينُ هَمٌّ فى الليل وذُلٌّ فى النهار، فالإنسان مهما أمكنه يجب أن يتحرز من الدَّين، وأن لا يكثر فى الإنفاق؛ لأن كثيرًا من الناس تجده فقيرًا ثم يريد أن ينفق على نفسه وأهله كما ينفق الأغنياء، فيقترض من هذا، ويقترض من هذا، أو يستدين، أو يُرابى، وهذا غلط عظيم... يعنى لو لم يكن لك إلا وجبة واحدة فى الليل والنهار، فلا تقترض بل اصبر، وقُل: اللهم أغننى .... قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨] أما تهاون بعض الناس - نسأل الله العافية - يستدين من أجل أن يفرش كل البيت -هذا غلط- أو يستدين من أجل أن يأخذ سيارة فخمة مع أنه يكفيه سيارة متوسطة.

هذا من سوء التصرف ومن ضعف الدِّين ومن قلة المبالاة؛ لأن الدَّين لا تُكفره حتى الشهادة فى سبيل الله، لا تُكفر الدَّين، فكيف تستدين؟[2]

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٧٩).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٩٩).

(١٣٢١) وعن أبى قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسُول الله ﷺ قامَ فيهمْ فذَكَرَ أنَّ الجهادَ فى سَبيلِ الله، والإيمانَ بالله، أفضَلُ الأعمَال، فقامَ رجُلٌ، فقال: يا رسُولَ الله أرأيْتَ إنْ قُتِلْتُ فى سبيل الله أتُكَفَّرُ عنِّى خَطاياى؟ فقالَ لهُ رسُولُ الله ﷺ: «نعمْ، إنْ قُتلتَ فى سبيلِ الله وأنْتَ صابِرٌ مُحتَسِبٌ مُقبلٌ غيْرُ مُدبرٍ» ثُمَّ قالَ رسُولُ الله ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قال: أرأيْتَ إنْ قُتِلْتُ فى سبيل الله أتُكَفَّرُ عنِّى خَطاياى؟ فقالَ لهُ رسُولُ الله ﷺ: «نعمْ، وأنْتَ صابِرٌ مُحتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غيْرُ مُدبِرٍ، إلا الدَّيْنَ، فإنَّ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لى ذلكَ»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٢٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٢٢) وعنْ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رجُلٌ: أين أنا يا رسُولَ الله إنْ قُتِلتُ؟ قال: «فى الجنَّةِ» فألقى تَمراتٍ كُنَّ فى يَدِهِ، ثُمَّ قاتَلَ حتَّى قُتِلَ[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٩٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٢٣) وعن أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: انْطَلَقَ رسُولُ الله ﷺ وأصحابُهُ حتَّى سَبَقُوا المشْركِينَ إلى بَدرٍ، وجَاء المُشركونَ، فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا يَقْدِمنَّ أحَدٌ منْكُمْ إلى شىءٍ حتَّى أكُونَ أنا دُونَهُ» فدَنَا المُشركونَ، فقال رسُول الله ﷺ: «قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرضُها السَّمواتُ والأرضُ» قال: يقولُ عُميْرُ بنُ الحُمامِ الأنصارىُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله جَنَّةٌ عَرضُها السَّمواتُ والأرضُ؟ قال: «نعم» قال: بَخٍ بَخٍ، فقالَ رسُولُ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٥) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٤٦) كتاب المغازى، ومسلم (١٨٩٩) كتاب الإمارة.

الله ﷺ: «ما يَحمِلُكَ على قَولِك بَخ بخ؟» قال: لا والله يا رسُولَ الله إلا رَجاءَ أن أكُونَ مِن أهْلِها، قال: «فإنَّكَ مِنْ أهلِهَا» فأخْرج تَمَراتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فجعلَ يأكُلُ منهنَّ، ثُمَّ قال: لئنْ أنا حَييتُ حتى آكُل تَمَراتى هذه إنَّها لحيَاةٌ طَويلةٌ، فرَمَى بما مَعَهُ مِن التَّمْرِ. ثُمَّ قاتَلَهُمْ حتَّى قُتِلَ(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ انطلق هو وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر.. وجاء المشركون فقال النبى ﷺ لأصحابه: «**لا يَقْدِمنَّ أحَدٌ منْكُمْ إلى شىءٍ حتَّى أكُونَ أنا دُونَهُ**» أى أمامه.. متقدمًا فى ذلك الشىء لئلا يفوت شىء من المصالح التى لا تعلمونها.

فلما اقترب المشركون أراد النبى ﷺ أن يُحفز أصحابه للجهاد فى سبيل الله ولبذل النفس فى سبيل الدفاع عن هذا الدين العظيم... فقال ﷺ لأصحابه: «**قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرضُها السَّمَواتُ والأرضُ**».. فقام شابٌّ من شباب الصحابة اسمه عُمير بن الحُمام فقال: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال ﷺ: «**نعم**» فقال عُمير: بَخٍ بَخٍ.. وهى كلمة تُطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه فى الخير.

فقال له ﷺ: «**ما يَحمِلُكَ على قَولِك بَخٍ بخٍ؟**»

قال: لا والله يا رسُولَ الله إلا رَجاءَ أن أكُونَ مِن أهْلِها.. أى: أنا ما قلت ذلك إلا لأننى أرجو أن أكون من أهل الجنة.. فكانت المفاجأة الكبرى.. فلقد قال له النبى ﷺ فى التو واللحظة: «**فإنَّكَ مِنْ أهلِهَا**» فانفعل عُمير مع تلك الكلمة وأخرج بعض التمرات وأخذ يأكل منهن ثُمَّ قال: لئنْ أنا حَييتُ حتى آكُل تَمَراتى هذه إنَّها لحيَاةٌ طَويلةٌ، فرَمَى بما مَعَهُ مِن التَّمْرِ. ثُمَّ قاتَلَهُمْ حتَّى قُتِلَ.

لقد اعتبر أن بقاءه لمدة دقيقتين ليأكل فيها ذلك التمر حياة طويلة لا يستطيع

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠١) كتاب الإمارة.

«القَرَنُ»: هو جُعبةُ النُّشَّابِ.



أن يتحملها.. فلقد بشَّره النبى ﷺ بالجنة فاشتاق إليها.

قال النووى: فِيهِ جَوَازُ الانْغِمَارِ فِى الْكُفَّارِ وَالتَّعَرُّضِ لِلشَّهَادَةِ وَهُوَ جَائِزٌ بِلَا كَرَاهَةٍ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ[١].

وفيه قوة يقين الصحابة، وصدقهم، وتصديقهم لرسول الله ﷺ..ولا يمكن للمسلم أن يبذل الدنيا إلا وهو مؤمن تمام اليقين بالآخرة، فإن حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير... وإنما كثُرت قصص البذل والتضحية والفداء عند الصحابة الكرام لقوة يقينهم، وكمال إيمانهم وزهدهم..ولم تتشرف البشرية بجيلٍ بعدهم ظهرت فيه هذه الآيات البينات والبراهين الساطعات على اليقين والزهد والصدق..فرضى الله عنهم أجمعين وجمعنا بهم فى عِلِّيين مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.



(١٣٢٤) وعن أنس رضي الله عنه قال: جاءَ ناسٌ إلى النبى ﷺ أن ابْعَث معنا رِجالًا يُعلِّمونا القُرآنَ والسُّنَّة، فبعثَ إليهم سبعينَ رجلًا مِن الأنصارِ يُقالُ لهُم: القُرَّاءُ، فيهم خَالى حرَامٌ[٢]، يقرءون القُرآن، ويَتَدارسُونَهُ باللَّيْلِ يتعلَّمُون، وكانُوا بالنَّهارِ يجيئُون بالماءِ، فيَضعونهُ فى المسجد، ويحتَطِبُون فيبيعُونه، ويَشْتَرونَ بهِ الطَّعام لأهلِ الصُّفَّةِ وللفُقراء، فبعثَهم النبى ﷺ، فعرضوا لهم فقتلُوهُم قبل أنْ يبلُغُوا المكان، فقالوا: اللَّهُمَّ بلِّغ عنَّا نبيَّنَا أنَّا قد لَقِينَاكَ فرضِينا عنْكَ ورضيت عنا... وأتى رجُلٌ حرامًا خالَ أنس مِنْ خَلْفِهِ، فطَعَنَهُ برُمْحٍ حتى أنْفَذَهُ، فقال حرامٌ: فُزْتُ وربِّ الكَعبةِ... فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ إخوانكُم قد قُتِلُوا وإنهم قالوا: اللَّهُمَّ بلِّغ عنَّا نبينا أنَّا قد لَقِيناك فرضِينَا عنكَ ورضِيتَ عنَّا»[٣].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٦٩).

(٢) أى: خاله حرام بن مِلحان رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٩٠، ٤٠٩١) كتاب المغازى، ومسلم (٦٧٧) كتاب المساجد.

۞ مُلخَّص هذه القصة أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بمُلاعِب الأسنة) قَدِمَ على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يُسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك؛ لرجوت أن يجيبوهم .. فقال ﷺ: «**إني أخاف عليهم أهل نجد**»، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم- أي: أنا أحميهم- فبعث معه سبعين رجلًا.

وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة المُلقَّب [بالمُعتَق ليموت، وكانوا من خيار المسلمين وفُضلائهم وساداتهم وقُرائهم]، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصُّفّة، ويتدارسون القرآن، ويصلون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة- وهى أرض بين بنى عامر وحَرَّة بنى سليم- فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سُليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلًا فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: الله أكبر، فُزت وربِّ الكعبة.. ثم قتلوا باقى السبعين.

لقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع- اللتين وقعتا خلال أيام معدودة- تألُّمًا شديدًا وتغلَّب عليه الحزن والقلق، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه.

قال أنس: دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا، يدعو فى صلاة الفجر على رِعل وذَكْوان ولِحيان وعُصَيَّة، ويقول: «**عُصية عصت الله ورسوله**»، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا قرأناه حتى نُسخ بعد: «**بلِّغوا قومنا أنَّا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه**» فترك رسول الله ﷺ قُنوته[١].

فأخبر النبى ﷺ وقال لهم: «**إنَّ إخوانكم قد قُتِلُوا وإنهم قالوا: اللَّهُمَّ بلِّغ عنَّا نبينا أنَّا قد لَقِيناك فرضِينَا عنكَ ورضِيتَ عنَّا**».

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (٢٨١٤) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٦٧٧) كتاب المساجد.

(١٣٢٥) وعن أَنسٍ رضي الله عنه قال: غابَ عَمِّى أنسُ بنُ النضْر رضي الله عنه عن قِتَالِ بدرٍ، فقال: يا رسول الله، غِبتُ عن أوَّلِ قِتالٍ قاتَلتَ المشركِين، لئِن الله أشْهدنِى قِتالَ المُشركِينَ ليَرينَّ اللهُ ما أصنع. فلمَّا كان يومُ أُحُدٍ انكشفَ المسلمُونَ، فقال: اللَّهُمَّ إنِّى أعتَذِرُ إليك مِمَّا صنع هؤلاءِ ـ يعنى أصحابهُ ـ وأبْرأُ إليكَ مِمَّا صنع هؤلاء ـ يعنى المشركينَ ـ ثُمَّ تقدَّم فاستَقبلهُ سعدُ بنُ معاذٍ فقال: يَا سَعدَ بنَ مُعاذٍ الجنَّةُ وربِّ النَّضْرِ، إنِّى أجدُ ريحَهَا مِن دونِ أُحدٍ... قال سعدٌ: فما استَطَعتُ يا رسول الله ما صنَع... قال أنسٌ: فوجدنَا بهِ بِضعًا وثمانِينَ ضربةً بالسَّيف، أوْ طعنَةً برُمْحٍ أوْ رميةً بِسهمٍ، ووجدناهُ قد قُتِلَ ومثَّلَ بهِ المُشركونَ، فما عرفَهُ أحدٌ إلا أُختُهُ ببنانِهِ.

قال أنسٌ: كُنَّا نَرى ـ أو نَظُنُّ ـ أنَّ هذه الآية نزلتْ فيه وفى أشْباهِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ إلى آخرها [الأحزاب: ٢٣][١].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١١١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٢٦) وعن سَمُرة رضي الله عنه قالَ: قال رسُولُ الله ﷺ: «رأيتُ اللَّيْلَةَ رجُلين أتيانى فصعِدا بى الشَّجَرةَ، فأدخلانى دارًا هى أحسنُ وأفضَل، لَمْ أرَ قَطُّ أحسنَ منها، قالا: أمَّا هذه الدَّار فدارُ الشهداء»[٢].

۞ ففى هذا الحديث الطويل الذى يحكى فيه النبى ﷺ أنه رأى مشاهد كثيرة من نعيم القبر وعذابه.. وكان بداية الحديث أن النبى ﷺ قال: «رأيتُ اللَّيْلَةَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٠٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٠٣) كتاب الإمارة.
قوله: «لَيُرِيَنَّ اللهُ» روى بضم الياء وكسر الراء: أى لَيُظْهِرَنَّ اللهُ ذلِكَ للنَّاس، وَرُوىَ بفتحهما ومعناه ظاهر، والله أعلم.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩١) كتاب الجهاد والسير.
رواه البخارى وهو جزء من حديث طويل يعرض صورًا من نعيم القبر وعذابه .. وسيأتى فى باب تحريم الكذب إن شاء الله تعالى.

رجُلين أتيانى فأخذا بيدى فأخرجانى إلى الأرض المقدسة...»

ثم ذكر بعض المشاهد التى رآها ﷺ.. وكان من بينها أنه ﷺ قال: «فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ، وَأَدخَلاَنِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصِبْيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدخَلاَنِي دَارًا هِيَ أَحسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ، قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ، قَالاَ: نَعَمْ ..»

فقالا له: «الشَّيْخُ فِي أَصلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، وَالصِّبْيَانُ، حَوْلَهُ، فَأَوْلاَدُ النَّاسِ ... وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَالدَّارُ الأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ المُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارفَع رَأْسَكَ، فَرَفَعتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالاَ: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدخُلْ مَنْزِلِي، قَالاَ: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»

فكانت الدار الأولى دار عامة المؤمنين ثم التى فوقها وأعلى منها منزلة دار الشهداء... ثم كان منزل النبى ﷺ فى أعلى مكانٍ فى الجنة فى درجة اسمها الوسيلة... فاللهم احشرنا فى زُمرة النبى ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فى الفردوس الأعلى.

(١٣٢٧) وعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ أُم الرَّبيع بنْتَ البَراءِ وهى أُمُّ حارثةَ بنِ سُراقة، أتت النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسُولَ الله ألا تُحدِّثنى عنْ حارِثَةَ -وكان قُتِل يَوْمَ بدرٍ- فإنْ كان فى الجنَّةِ صَبرتُ، وإن كان غير ذلك اجْتَهَدتُ عليه فى البُكاء، فقال: «يا أم حارِثَة إنَّها جِنَانٌ فى الجنَّة، وإنَّ ابنَكَ أصابَ الفردوْسَ الأعلَى»(١).

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٨٠٩) كتاب الجهاد والسير.

۞ ففى هذا الحديث أن أم حارثة بن سراقة رضي الله عنهما جاءت إلى النبى ﷺ بعدما استُشهد ولدها حارثة فى غزوة بدر.. لأنه قد أُصيب بسهمٍ لا يُدرى مَن الذى ضربه.. فخافت أمه ألا يكون شهيدًا لأنه قُتل بسهمٍ لا يعلم أحدٌ مَن الذى ضربه به.. فجاءت أم حارثة إلى النبى ﷺ وقالت له: يَا رَسُولَ اللهِ، قَد عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّى، فَإِنْ يَكُنْ فِى الجَنَّةِ أَصبر وَأَحتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصنَعُ، فَقَالَ: «وَيْحَكِ، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الفِردَوْسِ»(١).

۞ وفى الرواية الأخرى أنها قالت: يا رسُولَ الله ألا تُحدِّثْنى عنْ حارِثَةَ -وكان قُتِل يَوْمَ بدرٍ- فإنْ كان فى الجنَّةِ صَبَرتُ، وإن كان غير ذلك اجْتَهَدتُ عليه فى البُكاء، فقال: «يا أُم حارِثَة إنَّها جِنَانٌ فى الجنَّة، وإنَّ ابنَكَ أصابَ الفردوْسَ الأعلَى».

۞ هكذا أخبرها النبى ﷺ أن حارثة فى الفردوس الأعلى .. وهى أعلى درجات الجنة.. ولذا أمرنا النبى ﷺ إذا سألنا الله الجنة أن نسأله الفردوس الأعلى فقال ﷺ: «... إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»(٢).

(١٣٢٨) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: جيءَ بأبى إلى النبى ﷺ قد مُثِّل بهِ فوُضِعَ بيْنَ يدَيْه، فذَهَبْتُ أكْشِفُ عنْ وجهِهِ فنهانى قَوْمٌ فقال النبى ﷺ: «ما زالَتِ الملائِكَةُ تُظِلُّهُ بأجْنِحَتِها»(٣).

۞ ففى هذا الحديث أن والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.. وهو عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه كان قبل غزوة أُحد بليلة يشعر بأنه سينال الشهادة غدًا فى

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩٨٢) كتاب المغازى، و(٦٥٥٠) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٠) كتاب الجهاد.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨١٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٤٧١) كتاب فضائل الصحابة.

تلك الغزوة فقال لابنه جابر: يا بُنى ما أُرانى إلا مقتولًا فى أول مَن يُقتل من أصحاب النبى ﷺ، وإنى لا أترك بعدى أعزَّ علىَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن علىَّ دَينًا فاقضِ واستوصِ بأخواتك خيرًا.

وفى اليوم التالى دخل والد جابر الغزوة وقاتل قتالًا شديدًا وكان من أوائل الذين استُشهدوا فى غزوة أُحد وقام المشركون فمَثَّلوا به.. فأمر النبى ﷺ أصحابه أن يُغطوه حتى لا يتأثر جابر برؤية والده وقد مُثِّل به... فلما أراد جابر أن يكشف وجه أبيه نهاه الصحابة عن ذلك.

فرفعه رسول الله ﷺ، أو أمر به فرُفع فسمع صوت باكية أو صائحة. فقال: «مَن هذه؟» فقالوا: بنت عمرو، أو أخت عمرو. فقال: «**وَلِمَ تبكى؟ فما زالت الملائكة تُظله بأجنحتها حتى رُفع**»(١).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «**فَمَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ**» قَالَ الْقَاضِى: يُحتَمَلُ أَنَّ ذَلِكَ لِتَزَاحُمِهِمْ عَلَيْهِ لِبِشَارَتِهِ بِفَضْلِ اللهِ وَرِضَاهُ عَنْهُ وَمَا أُعِدَّ لَهُ من الكرامة عليه ... ازْدَحَمُوا عَلَيْهِ إِكْرَامًا لَهُ وَفَرَحًا بِهِ أَوْ أَظَلُّوهُ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ لِئَلَّا يَتَغَيَّرَ رِيحُهُ أَوْ جِسْمُهُ ... قَوْلُهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَبْكِيهِ أَوْ لا تَبْكِيهِ مازالت الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ**» مَعنَاهُ سَوَاءٌ بَكَتْ عَلَيْهِ أَمْ لَا فَمَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ ... أَىْ فَقَد حَصَلَ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ هَذَا وَغَيْرُهُ فَلَا يَنْبَغِى الْبُكَاءُ عَلَى مِثْلِ هَذَا وَفِى هَذَا تَسْلِيَةٌ لَهَا(٢).

ولم تكن تلك الكرامة الوحيدة التى حدثت له.. بل لقد أخبر النبى ﷺ جابر ابن عبد الله أن الله عَزَّوَجَلَّ كلَّم أباه كِفاحًا بغير حجاب.

فعن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، يوم أُحدٍ، قال رسول

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٧١) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٧-٣٩) بتصرف.

الله ﷺ: «يا جابر، ألا أخبرك ما قال الله عَزَّوَجَلَّ لأبيك؟»، قلت: بلى. قال: «ما كلَّم الله أحدًا قطُّ إلَّا مِنْ وراءِ حِجاب، وكلَّم أباكَ كِفاحًا(١)، فقال: يا عبدي، تمنَّ عليَّ أُعطِكَ. قال: يا ربِّ، تُحيِيني فأُقتَلُ فيكَ ثانيةً. فقال الرَّبُّ سُبحانَهُ: إنَّهُ سبق منِّي أنَّهُمْ إليها لا يرجِعُونَ. قال: يا ربِّ، فأبلِغْ مَنْ ورائي. قال: فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾»(٢).

(١٣٢٩) وعن سهل بن حُنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «مَن سأَلَ الله تعالى الشَّهادةَ بِصِدقٍ بلَّغهُ اللهُ منازِلَ الشُّهداءِ وإنْ ماتَ على فراشِه»(٣).

(١٣٣٠) وعنْ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُول الله ﷺ: «مَنْ طلب الشَّهادَةَ صادقًا أُعطِيها ولو لم تُصِبْهُ»(٤).

۞ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٣١) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «ما يَجِدُ الشَّهيدُ مِن مَسِّ القتْلِ إلا كما يجدُ أحدُكُم مِن مسِّ القَرصَةِ»(٥).

۞ وحتى لا يخشى المجاهد من آلام القتل وهو يرى السيوف والرماح وهي تُقطع الأجساد إلى أشلاء.. وفي عصرنا هذا نرى الرصاص يخترق الأجساد والألغام والقنابل تُحول الأجساد إلى أشلاء فنفزع من هول تلك

(١) أي: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول..وهذا بعد موته أما قبله فلا.
(٢) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٠٥).
(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٩) كتاب الإمارة.
(٤) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٨) كتاب الإمارة.
(٥) حسن: رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨١٣).

المشاهد البشعة.. فيُطمئن النبى ﷺ قلوبنا وقلوب الباحثين عن الشهادة وقلوب المجاهدين الصابرين أن كل المشاهد البشعة التى نراها وتفزع لها قلوبنا لا يجد الشهيد منها أى آلامٍ إلا كمسِّ القرصة.. فلو أصيب برصاصة فى رأسه فإنه يشعر وكأن إنسانًا قَرَصَهُ قرصة خفيفة بأطراف أصابعه..أو كأن نملة صغيرة قرصته وذلك لأن الله يُسهل عليه القتل وخروج الروح. لأن الروح تُبشَّر برضوان الله والجنة فيسهل عليها الخروج... مع أن المشهد فى غاية الفزع .. وهذا يُفسر لنا لماذا يتمنى الشهيد أن يعود مرة أخرى إلى الدنيا بعد استشهاده ولقاء ربه عَزَّوَجَلَّ.. لأنه لم يجد أى ألم عند الشهادة إلا كمسِّ القرصة.. ثم يرى ما أعدَّه الله للشهداء فيتمنى أن يُقتل عشرات المرات فى سبيل الله ليفوز بهذا الأجر العظيم.

(١٣٣٢) وعن عبد الله بن أبى أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسُولَ الله ﷺ فى بعض أَيَّامِهِ التى لَقِيَ فيهَا العدُوَّ انتَظر حتى مالتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قام فى النَّاسِ فقال: « أَيُّها النَّاسُ، لا تَتَمنَّوْا لِقاء العدُو، وَسَلُوا الله العافيةَ، فإذا لقِيتُمُوهُم فاصبرُوا، واعلمُوا أَنَّ الجنَّة تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ» ثم قال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكتاب، ومُجرِيَ السَّحابِ، وهازِمَ الأحزَابِ، اهْزِمهُم وانْصُرنَا عليهِم»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٣٣) وعن سهْلِ بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ثِنْتانِ لا تُردَّانِ، أَوْ قَلَّمَا تُردَّانِ: الدُّعاءُ عِنْد النِّداءِ وعِند البأسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعضُهُم بعضًا»[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٦٥، ٢٩٦٦) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٧٤٢) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٧٩).

۞ فالنبى ﷺ يُعلم الأمة دائمًا أن تُكثر من الدعاء.. وذلك لأن العبد عند الدعاء ينخلع من حوله وقوته إلى حول الله وقوته.

قال النبى ﷺ: «**الدُّعاءُ هُوَ العِبادَةُ**» **ثُمَّ تَلَا قوله تعالَى:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠][(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ شَىْءٌ أَكْرَمَ عَلَى الله تَعَالَى مِنَ الدُّعاءِ**»[(٢)].

فمن رحمة الله تعالى بعبده - وهو الرحيم - أن العبد يدعوه بحاجة من الدنيا، فإذا لم يُؤته إياها عوَّضه خيرًا منها:

فإما أن يصرف عنه بذلك مصيبة.

أو يدخرها له فى الآخرة.

أو يصرف عنه من السوء مثل ما طلب من الخير.

۞ وفى هذا الحديث يوضح لنا النبى ﷺ **أن الدعاء لا يُرد عند موضعين:** عند النداء.. أى: عند الأذان والإقامة.. ولذا فإنه ينبغى أن نُكثر من الدعاء وأن نلتمس أوقات الاستجابة .. والتى منها: الدعاء بين الأذان والإقامة.. كما قال ﷺ: «**لا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ**»، قالوا: إذًا نُكثر يا رسول الله! قال: «**اللهُ أَكْثَرُ**»[(٣)].

وأما الموطن الثانى لاستجابة الدعاء.. والذى ذكره النبى ﷺ فى هذا الحديث: فهو عند البأس.. أى: عند الحرب حين تلتحم الصفوف للقتال.. فالدعاء فى ذلك الوقت لا يُرد ... فهذا وقت كربٍ شديد.. والنبى ﷺ يُعلمنا أن نلجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ عند الشدائد والكربات وأن نُكثر من الدعاء .. فقد قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾... ففى وقت الجهاد والتحام

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٠٧).

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٩٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٠٨).

الصفوف الدعاء مستجاب... ويا لها من نعمة عظيمة....

فالمجاهد أحوج ما يكون إلى استجابة دعائه عند القتال بأن ينصره الله على عدوه وأن يرزقه الشهادة إن قدَّر له أن يُقتل.. فهو فائز في الحالتين: إما أن ينصره الله أو يرزقه الشهادة.

۞ وقد علمنا النبي ﷺ أننا إذا أردنا أن يُفرج الله عنا الكرب وقت الشدائد فلنُكثر من الدعاء عند الرخاء.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكُرَبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ**»(١).



(١٣٣٤) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كانَ رسُولُ الله ﷺ إذا غَزَا قال: «اللَّهُمَّ أنت عَضُدِي ونَصيري، بِكَ أحُولُ، وبِكَ أَصُولُ، وبِكَ أُقاتِل»(٢).

۞ وهنا يخبر أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا غزا يدعو بهذا الدعاء العظيم ويقول: :«**اللَّهُمَّ أنت عَضُدِي**» أي: أنت الذي تُقوي عضدي حتى أمسك السيف لأجاهد وأقاتل أعداءك .. فأنت الذي أعطيتني القوة والتفكير والقدرة على مواجهة أعدائك.. «**ونَصيري**» أي: مُعيني ومُغيثي وناصري «**بِكَ أَحُولُ**» أي: بك وحدك أنتقل من مكانٍ إلى مكان.. ومن حالٍ إلى حال بحولك وقوتك وعونك ونُصرتك.

«**وبِكَ أصولُ**» على أعداء الدين..يُقال صال القرن على قرنه إذا وثب عليه.. أي: بحولك وقوتك وقدرتك أثب على أعدائك وأكرّ عليهم وأنتصر عليهم.

«**وبِكَ أُقاتِل**» أي: بحولك وقوتك أقاتل أعداءك حتى لا يبقى إلا مسلمٌ أو مُسالم ... فهذا هو طريق النصر.. وهو الخروج والانخلاع من الحول والقوة إلى

---

(١) حسن: رواه الترمذي والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٥٧).

حول الله وقوته بالاعتماد والتوكل على الله.. وهذا هو معنى: لا حول ولا قوة إلا بالله... وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

(١٣٣٥) وعن أبى مُوسى رضي الله عنه، أنَّ النبىَّ ﷺ كانَ إذا خافَ قومًا قال: «اللَّهُمَّ إنَّا نَجعلُكَ فى نُحورهم، ونَعُوذُ بِكَ مِن شُرورِهِم»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٩٨٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٣٦) وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «الخَيْلُ مَعقُودٌ فى نواصِيهَا الخَيرُ إلى يَومِ القيامةِ»[2].

(١٣٣٧) وعن عُروَة البَارقى رضي الله عنه، أنَّ النبى ﷺ قال: «الخَيْلُ مَعقُودٌ فى نواصِيهَا الخَيرُ إلى يَومِ القيامةِ: الأجْرُ، والمَغنَمُ»[3].

وفى رواية: «**الْبَرَكَةُ فِى نَوَاصِى الْخَيْلِ**».

۞ والمقصود هنا خيل الجهاد.. وذلك لأنه ﷺ فسَّر هذا الخير بقوله: «الأجر والمَغنم ..» وهذا لا يكون إلا فى خيل الجهاد.. فخيل الجهاد فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة.. وقد يكون الحديث عامًّا .. أى أن الخيل كلها فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة سواء كانت مما يُجاهَد عليها أم لا.

۞ قوله ﷺ: «**الخَيْلُ مَعقُودٌ فى نواصِيهَا الخَير إلى يَومِ القيامةِ**»أى: إعداد العُدة للجهاد فى سبيل الله.. ومن هذه العُدة: الخيل أو ما يقوم مقامها..

ففى هذا الإعداد وفى تلك الخيول المُعدَّة للجهاد يكون الخير إلى يوم

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٤٠٦).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٤٤) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٧١) كتاب الإمارة.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٥٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٣) كتاب الإمارة.

القيامة.. لأن فى هذا عودة العزة للإسلام والمسلمين والتمكين لهذا الدين.

والمراد بالناصية هنا الشعر المسترسل على الجبهة.

قال الخطابى وغيره: قالوا: وكَنَّى بالناصية عن جميع ذات الفرس... ويُقال: فلان مبارك الناصية ومبارك الغُرة، أى الذات .. وفى هذه الأحاديث استحباب رباط الخيل واقتنائها للغزو، وقتال أعداء الله، وأن فضلها وخيرها والجهاد باقٍ إلى يوم القيامة.

وأما الحديث الآخر **«الشؤم قد يكون فى الفرس»** فالمراد به غير الخيل المُعدة للغزو ونحوه، أو أن الخير والشؤم يجتمعان فيها، فإنه فسر الخير بالأجر والمغنم ولا يمتنع مع هذا أن يكون الفرس مما يُتشاءم به[1].

۞ ولقد عُنِيَ القرآن والسُّنة جميعًا برباط الخيل، واحتباس الخيل فى سبيل الله، وتضميرها وإعدادها لمعارك الجهاد، حتى جعل الرسول فى قسمة الغنائم للراجل (الماشى) سهمًا واحدًا، وللفارس (راكب الخيل) ثلاثة أسهم: سهمًا له، وسهمين لفرسه[2].

ذلك أنَّ الخيل كانت هى مَركَبات ذلك العصر، ومن أهمِّ الوسائل المساعدة فى الحرب، ولكن فى عصرنا تغيَّر الحال، فلم تَعُد الخيل مهمة فى القتال إلا فى نطاقٍ محدودٍ جدًّا، فى بعض المواقع. ومن هنا كانت خيل عصرنا هى: الدبابات والمُجنزرات والمُصفَّحات وسائر المركبات التى أصبحت تُستعمل فى الحروب اليوم، وغدا الذين يحسنون استخدامها هم فرسان عصرنا.

فكلُّ ما قيل فى رباط الخيل وفضله يُقال فى خيل عصرنا ومركباته.

ومن المعلوم: أن الأهداف الأساسية ثابتة، ولكن الوسائل هى التى تتغيَّر،

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٢٤-٢٥) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٦٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٦٢) كتاب الجهاد والسير.

ومن واجب الأمة: ألا تُجمِّد وسائلها وآلياتها، وقد تَغيَّر العالم من حولها، وتكتفى بركوب الخيل حيث يركب عدوها الدبابة فى البرِّ، والغوَّاصة فى البحر، والطائرة فى الجوِّ. وتقاتل بالسيف، حيث يقاتل خصومها بالمدفع العملاق، وأنواع الأسلحة المتطوِّرة. وترمى بالنبل حيث يرمون بالقذائف والصواريخ والقنابل الذكية(١).

(١٣٣٨) وعنْ أبى هُريْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن احتَبَس فَرسًا فى سبيل الله، إيمانًا باللهِ، وتَصديقًا بِوعدِهِ، فإنَّ شِبَعهُ ورِيَّه وروْثَهُ، وبولَهُ فى مِيزَانِهِ يومَ القِيامةِ»(٢).

❁ قوله ﷺ: «مَن احتَبَس فَرسًا فى سبيل الله» المراد: احتبسه على نفسه لسدِّ ما عسى أن تحدث ثلمة فى ثغرٍ من الثغور «إيمانًا باللهِ» تصديقًا بوعده وإخلاصًا له وامتثالًا لأمره «وتَصديقًا بِوعدِهِ» أى الذى وعد به من الثواب على ذلك..

وفيه إشارة إلى المعاد.. كما أن لفظ الإيمان إشارة إلى المبدأ... فإن الله عَزَّوَجَلَّ وعد خيرًا على الاحتباس..فمن احتبس فرسًا كأنه قال: صدقت يا رب فيما وعدتنى «فإنَّ شِبَعهُ» أى: ما يشبع به «ورِيَّه» ما يُروى به من الماء «وروْثَهُ، وبولَهُ فى مِيزَانِهِ يومَ القِيامةِ» والمراد ثواب ذلك لا أن الأرواث والأبوال تُوزن.. وفيه أن المرء يُؤجَر بنيته كما يُؤجَر العامل.

قَالَ ابن أَبِى جَمْرَةَ: يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ هَذِهِ الْحَسَنَاتِ تُقْبَلُ مِنْ صَاحِبِهَا لِتَنْصِيصِ الشَّارِعِ على أَنَّهَا فِى ميزانه بِخِلَافِ غَيْرِهَا فَقَد لَا تُقْبَلُ فَلَا تَدخُلُ الْمِيزَان(٣).

(١) فقه الجهاد (١/ ٦١٢).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٨٥٣) كتاب الجهاد والسير.
(٣) فتح البارى (٦/ ٦٨).

۞ وبلغة العصر.. فإن مَن أعدَّ مركبة للجهاد فله أجرها وأجر ما يضعه فيها من زيتٍ وبنزين وغير ذلك من مستلزماتها.. ما دام قد أعدَّها ضمن منظومة الدولة وليس من قِبَل نفسه.

(١٣٣٩) وعنْ أبى مسْعُود ﷺ، قال: جاءَ رجُلٌ إلى النبىِّ ﷺ بناقَةٍ مَخْطُومةٍ فقال: هذه فى سبيل الله، فقال رسُولُ الله ﷺ: « لكَ بِهَا يومَ القِيامةِ سَبعُمائةِ ناقةٍ كُلُّها مخطُومةٌ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يحكى أبو مسعود ﷺ أن رجلًا جاء إلى النبى ﷺ بناقة مخطومة .. أى: مجعولٌ فى رأسها الخطام.. وهو قريب من الزمام الذى يُوضع فى مُقدم الأنف والفم للدابة.

فلما جاء بتلك الناقة المخطومة قال للنبى ﷺ: هذه فى سبيل الله.

فما كان من النبى ﷺ إلا أن بشَّر هذا الرجل بتلك البشرى العظيمة وقال له: «**لكَ بِهَا يومَ القِيامةِ سَبعُمائةِ ناقةٍ كُلُّها مخطُومةٌ**».

قال الإمام النووى رحمه الله: قِيلَ: يُحتمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ لَهُ أَجْرُ سَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ وَيُحتمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَيَكُونَ لَهُ فِى الْجَنَّةِ بِهَا سَبْعُمِائَةٍ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مَخْطُومَةٌ يَركَبُهُنَّ حَيْثُ شَاءَ لِلتَّنَزُّهِ كَمَا جَاءَ فِى خَيْلِ الْجَنَّةِ وَنجبِهَا .. وَهَذَا الِاحتِمَالُ أَظْهَرُ وَاللهُ أَعلَمُ(٢).

وهذا لأن الصدقة بسبعمائة ضعف كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١] وهذه البشرى من النبى ﷺ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٢) كتاب الإمارة.
(٢) مسلم بشرح النووى (٣/ ٥٧).

لهذا الرجل تتضمن البشرى بالجنة لأنه سيكون له سبعمائة ناقة فى الجنة.. فكيف تكون له فى الجنة دون أن يدخل الجنة ويأخذها.. وهذا دليل على أن الله عَزَّوَجَلَّ يُثيب على القليل كثيرًا فضلًا منه وتكرُّمًا (سبحانه وتعالى).

(١٣٤٠) وعن أبى حمَّاد ـ ويُقال: أبو سُعاد، ويُقالُ: أبو أَسد، ويقال: أبو عامرٍ، ويقالُ: أبوعَمْرو، ويقالُ: أبو الأسْودِ، ويقال: أبو عَبْسٍ ـ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ الجُهَنىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ وهُوَ على المِنْبَر، يقولُ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾، ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْىُ، ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْىُ، ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْىُ»[1].

۞ النصر هدف ينشده كلُّ مجاهدٍ مسلم، وكل جيش مسلم، وأمل يحلُم به ويرنو إليه. ولكن تحقيق الأهداف المنشودة، والآمال المرجوة، لا يتمُّ بالكلام، ولا بإرخاء العنان للخيال، ليُحلِّق فى آفاقٍ عالية، لا يملك جناحين يطير بهما إليها.

ولكن هناك واجبات أساسية، ومتطلِّبات ضرورية، يجب أن يراعيها كل المجاهدين، قادةً ومقودين، رُعاة ورعية.

إن أول مستلزمات النصر، وأول واجبات الجيش المقاتل، وهو من مقومات الأمة العزيزة: إعداد العدة للعدو، وهو ما فرضه الله تعالى على الأمة، وأمر به فى كتابه العزيز، فى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

قال الإمام الرازى فى تفسير الآية: (اعلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَوْجَبَ عَلَى رَسُولِهِ أَنْ يُشَرِّدَ مَنْ صَدَرَ مِنْهُ نَقْضُ الْعَهْدِ، وَأَنْ يَنْبِذَ الْعَهْدَ إِلَى مَنْ خَافَ مِنْهُ النَّقْضَ، أَمَرَهُ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٧) كتاب الإمارة.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْإِعدَادِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ... قِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا اتَّفَقَ أَصحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قِصَّةِ بَدرٍ أَنْ قَصَدُوا الْكُفَّارَ بِلَا آلَةٍ وَلَا عُدَّةٍ أَمَرَهُمُ الله أَنْ لَا يَعُودُوا لِمِثْلِهِ وَأَنْ يُعِدُّوا لِلْكُفَّارِ مَا يُمْكِنُهُمْ مِنْ آلَةٍ وَعُدَّةٍ وَقُوَّةٍ... وَالْمُرَادُ بالقوة هاهنا: مَا يَكُونُ سَبَبًا لِحُصُولِ الْقُوَّةِ وَذَكَرُوا فِيهِ وُجُوهًا:

الْأَوَّلُ: الْمُرَادُ مِنَ الْقُوَّةِ أَنْوَاعُ الْأَسْلِحَةِ.

الثَّانِي: رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْمِنبَرِ وَقَالَ: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**» قَالَهَا ثَلَاثًا[1].

الثَّالِثُ: قَالَ بَعضُهُمْ: الْقُوَّةُ هِيَ الْحُصُونُ.

الرَّابِعُ: قَالَ أَصحَابُ الْمَعَانِي: الْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ: هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَا يُتَقَوَّى بِهِ عَلَى حَربِ الْعَدُوِّ، وَكُلُّ مَا هُوَ آلَةٌ لِلْغَزْوِ وَالْجِهَادِ فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْقُوَّةِ.

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**» لَا يَنْفِي كَوْنَ غَيرِ الرَّمْيِ مُعتَبَرًا، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**»[2] وَ«**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»[3] لَا يَنْفِي اعتِبَارَ غَيْرِهِ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَذْكُورَ جُزْءٌ شَرِيفٌ مِنَ الْمَقْصُودِ.

فَكَذَا هاهنا... وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاستِعدَادَ لِلْجِهَادِ بِالنَّبْلِ وَالسِّلَاحِ وَتَعلِيمِ الْفُرُوسِيَّةِ وَالرَّمْيِ فَرِيضَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ)[4] انتهى.

أوجبت الآية الكريمة على الأمة -بالتضامن- أن تُعِدَّ لأعدائها ما استطاعت من قوة، وهذا يشمل كل أنواع القوة: القوة المادية والقوة المعنوية، أي ما يضمُّ: القوة العسكرية، والقوة الاقتصادية، والقوة العلمية، إلى جوار القوة البشرية المُدرَّبة على أنواع السلاح، والمُهيَّأة -بدنيًّا وعقليًّا ونفسيًّا- للقتال.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٧) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني فى صحيح الجامع (٣١٧٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني فى صحيح الجامع (٦٨٠٢).

(٤) تفسير الفخر الرازى (١٥/ ١٨٥).

وهذه هى التى ركَّز عليها الحديث النبوى: «أَلَا إِنَّ القوة الرمى»، لأن السلاح وحده لا يُغنى بدون العنصر البشرى المُدرَّب، وإليه تشير كلمة «الرمى»: أى القدرة على استخدام السلاح بجدارة، وإصابة الهدف به.

وأما ﴿رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: فيقصد به المركبات المطلوبة للقتال، وهى تتطوَّر من عصرٍ إلى عصر. وقد كانت الخيل فى العصور الماضية أعظم أنواع المركبات الميسَّرة للناس، وهى تضيف إلى صاحبها قوَّة لا يملكها المقاتل الراجل[1] -أى الذى يمشى على رجليه فى أرض الجهاد-.

ذلك أنَّ الخيل كانت هى مَركَبات ذلك العصر، ومن أهمِّ الوسائل المساعدة فى الحرب، ولكن فى عصرنا تغيَّر الحال، فلم تَعُد الخيل مهمة فى القتال إلا فى نطاق محدود جدًّا، فى بعض المواقع. ومن هنا كانت خيل عصرنا هى: الدبابات والمجنزرات والمصفَّحات وسائر المركبات التى أصبحت تُستعمل فى الحروب اليوم..وغدا الذين يُحسنون استخدامها هم فرسان عصرنا.

۞ وقد كانت قوة الرمى فى عهد النبى ﷺ متمثلة فى الرمى بالنَّبل (السهام) والمنجنيق.. التى تطورت فى عصرنا هذا فأصبحت كالمدافع والدبابات والرمى بالطائرات وغير ذلك.. وهى أقوى من سلاح الالتحام والقتال المباشر.

ولقد هُزم المسلمون فى يوم أُحد لأنهم فرطوا فى سلاح الرمى.. عندما نزل الرُّماة من على الجبل فكانت الهزيمة.

ومن أجل ذلك قال النبى ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ».

(١٣٤١) وعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقول: «ستُفْتَحُ علَيكُم أرضُونَ، ويكفيكُم الله، فلا يَعجَز أحدُكُمْ أنْ يلْهُوَ بأسْهُمِهِ»[2].

(١) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/ ٦٠٥-٦٠٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩١٨) كتاب الإمارة.

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ بأن المسلمين ستُفتح لهم البلاد وستمتد الفتوحات إلى بلادٍ كثيرة يفتحها الله عَزَّوَجَلَّ عليهم .. وأن الله عَزَّوَجَلَّ سيكفيهم بالمال ويكفيهم الحرب والقتال ويُغنيهم من فضله ويكفيهم من كل شيء.. ثم قال لهم النبى ﷺ **«فلا يعجز أحدُكُمْ أنْ يلْهُوَ بأسْهُمِهِ»** أى: لا يركن أحدكم إلى ذلك النصر والكفاية وينسى أن يتدرب على الرمى وأن يستعد للعدو فى كل لحظة.. لأنه ربما يباغتهم العدو فى أى لحظة فيكونوا مستعدين لذلك.

۞ ولذا فإن الجيوش الإسلامية يجب عليها أن تتدرب على السلاح حتى وإن لم يكن هناك أى حروب حتى تكون على استعدادٍ دائمًا لمواجهة أى عدوٍّ يحارب الإسلام والمسلمين.



(١٣٤٢) وعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «من عُلِّمَ الرَّمْىَ ثُمَّ تَركَهُ، فَلَيس مِنَّا، أوْ فقَد عَصَى» (١).

۞ فالذى يتعلم الرمى ويتعلم السلاح لا ينبغى أن يتركه أو أن يترك التدريب عليه ... فمن تعلَّم الرمى ثم تركه.. يخبر النبى ﷺ بأنه ليس منَّا وأنه قد وقع فى المعصية... وهذا تحذيرٌ شديد لمن يتعلم الرمى ويتركه .. وذلك لأن المسلم لابد أن يكون على استعدادٍ دائمٍ لمواجهة الأخطار التى تحيط بالمسلمين من كل مكانٍ.. فلو علم الأعداء بأن المسلمين قد تركوا التدريب على سلاحهم لهاجموا المسلمين فى التو واللحظة واستباحوا بيضتهم.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذَا تَشْدِيدٌ عَظِيمٌ فِى نِسْيَانِ الرَّمْيِ بَعدَ عِلْمِهِ وَهُوَ مَكْرُوهٌ كَرَاهَةً شَدِيدَةً لِمَنْ تركه بلا عذر (٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٩) كتاب الإمارة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٩٦).

(١٣٤٣) وعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الله يُدخلُ بالسهمِ ثلاثَةَ نَفَرٍ الجنَّةَ: صانِعهُ يحتسبُ فى صنْعتِهِ الخير، والرَّامى به، ومُنْبِلَهُ، وارمُوا واركبُوا، وأنْ ترمُوا أحَبُّ إلىَّ مِنْ أن تركَبُوا. ومَنْ تَرَكَ الرَّمى بعد ما عُلِّمهُ رغبَةً عنه، فإنها نِعمةٌ تركهَا» أو قال: « كَفرَهَا »[١].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١٣٤٤) وعنْ سَلَمَة بن الأكوعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: مرَّ النبىُّ ﷺ على نَفَرٍ ينتَضِلُون، فقال: «ارمُوا بَنِى إسماعيل فإنَّ أباكم كان رَاميًا»[٢].

۞ ففى هذا الحديث يخبر سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ مَرَّ على بعض أصحابه وهم ينتضلون.. أى: يترامون بالسهام ويتسابقون فى أيهما أكثر مهارة فى دقة الرمى.. فأراد النبى ﷺ أن يشجعهم فقال: «ارمُوا بَنِى إسماعيل فإنَّ أباكم كان رَاميًا» فهو ﷺ يُذكرهم بأن جدهم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ماهرًا فى الرمى.. فكأنه يقول: افعلوا كما كان يفعل جدكم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه كان ماهرًا فى الرمى.

وفى تكملة هذا الحديث أن النبى ﷺ قال: «ارموا وأنا مع بنى فلان» فأمسك أحد الفريقين بأيديهم وامتنعوا عن الرمى.. فلمَّا سألهم النبى ﷺ: «ما لكم لا ترمون؟» قالوا: كيف نرمى وأنت معهم؟ يعنى: أننا بذلك سنُهزم قبل أن نبدأ ما دُمت معهم.

فأراد النبى ﷺ أن يُشجعهم فقال ﷺ: «ارموا فأنا معكم كلكم».

(١٣٤٥) وعنْ عمْرو بنِ عبسَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقولُ: «مَنْ رَمَى بِسهمٍ فى سبيلِ الله فهُو لهُ عِدلُ مُحرَّرةٍ»[٣].

---

(١) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٧٣٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٨٩٩) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٦٨).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن رمى بسهمٍ فى سبيل الله أثناء الجهاد فهو له عدل محررة.. أى أنه يعادل ويساوى ثواب مَن أعتق رقبة.. ويا له من أجرٍ عظيم.

بل لقد وقفت على رواية أخرى للحديث يقول فيها النبى ﷺ: **«مَنْ رَمَى الْعَدُوَّ بِسَهْمٍ فِى سَبيلِ اللهِ، فَبَلَغَ سَهْمُهُ الْعَدُوَّ، أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ، فَعَدلُ رَقَبَةٍ»**(١).

يعنى أنه إذا رمى سهمًا فبلغ ذلك السهم إلى العدو.. سواء أصاب أو أخطأ فقد فاز صاحب السهم بثواب عتق رقبة.

❊ ❊ ❊

(١٣٤٦) وعن أبى يحيى خُريم بن فاتكٍ رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن أنْفَقَ نَفَقةً فى سبيلِ الله كُتِبَ لهُ سبْعُمائةِ ضِعفٍ»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الذى ينفق نفقة فى سبيل الله عز وجل فإنه يُكتب له سبعمائة ضعف ما أنفقه... ومصداق هذا فى كتاب الله عز وجل حيث قال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

۞ قال الشيخ عبد الرحمن السعدى رحمه الله: هذا حَثٌّ عظيم من الله لعباده فى إنفاق أموالهم فى سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل فى هذا إنفاقه فى ترقية العلوم النافعة، وفى الاستعداد للجهاد فى سبيله، وفى تجهز المجاهدين وتجهيزهم، وفى جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلى ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.

وقد يجتمع الأمران، فيكون فى النفقة دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعافٍ أكثر

---

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائى وابن ماجة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٦٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١١٠).

من ذلك... ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان، والإخلاص التام، وفى ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزاء من جنس العمل[1].

(١٣٤٧) وعنْ أبى سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ما مِن عبد يصومُ يومًا فى سبيلِ الله إلا باعد الله بذلكَ اليوم وجْهَهُ عنِ النَّارِ سبْعِين خَرِيفًا»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٢٢٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٤٨) وعن أبى أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبى ﷺ قال: «مَن صامَ يومًا فى سبيلِ الله جعلَ الله بينَهُ وبيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بيْن السَّماءِ والأرضِ»[3].

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن صام يومًا فى سبيل الله... وقد اختلف أهل العلم فى كلمة «فى سبيل الله» ففسرها بعضهم بمن صام وهو يجاهد فى سبيل الله... وفسرها البعض الآخر بالمعنى العام.. وهو مَن صام نافلة ابتغاء مرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ... ومن المعلوم أن الفطر أقوى للمجاهد فى سبيل الله... فيبقى المعنى أن مَن صام يومًا نافلة ابتغاء مرضاة الله.. أو صام يومًا وهو يجاهد فى سبيل الله دون أن يكون صيامه عائقًا له عن الجهاد ... فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يجعل بينه وبين النارخندقًا كما بين السماء والأرض يحميه من النار ولفح النار.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ فَضِيلَةُ الصِّيَامِ فِى سَبِيلِ اللهِ، وَهُوَ مَحمُولٌ عَلَى

---

(١) تفسير السعدى (ص١١٤-١١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٤٠) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١١٥٣) كتاب الصيام.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٣٣).

مَنْ لَا يَتَضَرَّرُ بِهِ وَلَا يُفَوِّتُ بِهِ حَقًّا وَلَا يَخْتَلُّ بِهِ قِتَالُهُ، وَلَا غَيْرُهُ مِنْ مُهِمَّاتِ غَزْوِهِ وَمَعناهُ الْمُبَاعَدَةُ عَنِ النَّارِ وَالْمُعَافَاةُ مِنْهَا[١].

(١٣٤٩) وعن أبى هُريرة رضي الله عنه، قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَنْ ماتَ ولَمْ يَغزُ، ولَمْ يُحَدِّث نَفْسَهُ بِغَزوٍ، ماتَ على شُعبةٍ مِن النِّفاقِ»[٢].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه «مَنْ ماتَ ولَمْ يَغْزُ» أى: لم يباشر القتال والجهاد فى سبيل الله «ولَمْ يُحَدِّث نَفْسَهُ بِغَزوٍ» أى: لم يستحضر نية الغزو والجهاد ولم يخطر ذلك على باله أبدًا وآثر الحياة الدنيا واطمأن إليها.. فإنه على خطرٍ عظيمٍ لأن النبى ﷺ أخبر أنه إن فعل ذلك «ماتَ على شُعبةٍ مِن النِّفاقِ» ولم يقل النبى ﷺ أنه يُصبح منافقًا خالصًا.. وإنما قال ﷺ: «ماتَ على شُعبةٍ مِن النِّفاقِ».

قال الإمام القرطبى رحمه الله: فى الحديث إن لم يتمكن من عمل الخير ينبغى له العزم على فعله إذا تمكن منه ليكون بدلًا من فعله...فأما إذا خلا عنه ظاهرًا وباطنًا فذلك شأن المنافق الذى لا يعمل الخير ولا ينويه، خصوصًا الجهاد الذى أعزَّ الله به الإسلام وأظهر به الدين حتى علا على كل الأديان... اهـ[٣].

وقال الإمام النووى رحمه الله: وَالْمُرَادُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَد أَشْبَهَ المنافقين المتخلفين عن الجهاد فى هذا الوصف ... فَإِنَّ تَركَ الْجِهَادِ أَحَدُ شُعَبِ النِّفَاقِ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ نَوَى فِعلَ عِبَادَةٍ فمات قبل فعلها لايتوجه عَلَيْهِ مِنَ الذَّمِّ مَا يُتَوَجَّهُ عَلَى مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَنْوِهَا[٤].

(١) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤٧).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩١٠) كتاب الإمارة.
(٣) دليل الفالحين (٤/ ١١٠).
(٤) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٨٣-٨٤).

(١٣٥٠) وعن جابرٍ رضي الله عنه، قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ في غَزَاة، فقال: «إنَّ بالمدينةِ لَرِجالًا ما سِرتُم مَسيرًا، ولا قَطَعتُمْ واديًا إلا كانُوا معكُم، حَبسهُمُ المرضُ»[1].

وفي رواية: «حَبَسهُمُ العُذْرُ». وفي رواية: «إلا شَرَكُوكُمْ في الأجر».

رواه البخاري من رواية أنسٍ. ورواه مسلمٌ من رواية جابرٍ واللفظ له.

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٥١) وعن أبي مُوسى رضي الله عنه، أنَّ أعرابيًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسُولَ الله، الرَّجُلُ يُقاتِلُ لِلْمَغْنم، والرَّجُلُ يُقاتِلُ ليُذْكَرَ، والرَّجُلُ يُقاتِلُ ليُرى مكانُه؟

وفي رواية: يُقاتلُ شَجاعَةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً. وفي رواية: ويُقاتلُ غَضَبًا، فَمَن في سبيل الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «مَن قاتَلَ لتكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيا، فهُو في سبيل الله»[2].

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٥٢) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ما مِن غَازِيةٍ، أو سَرِيَّةٍ تَغزُو، فَتَغْنَمُ وتَسْلَم، إلا كانُوا قَد تَعجَّلُوا ثُلُثَيْ أجورِهِم، وما مِنْ غازِيةٍ أوْ سريَّةٍ تُخْفِقُ وتُصابُ إلا تمَّ لهم أُجورُهُمْ»[3].

❁ قال الإمام النووي رحمه الله: قَالَ أَهْلُ اللغة: الإخفاق أن يغزو فَلَا يَغْنَمُوا شَيْئًا وَكَذَلِكَ كُلُّ طَالِبِ حَاجَةٍ إِذَا لَمْ تَحصُلْ فَقَد أَخْفَقَ .. وَمِنْهُ أَخْفَقَ الصَّائِدُ إِذَا

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١١) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٣) كتاب العلم، ومسلم (١٩٠٤) كتاب الإمارة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٦) كتاب الإمارة.

لَمْ يَقَع لَهُ صَيْدٌ ... وَأَمَّا مَعنَى الْحَدِيثِ فَالصَّوَابُ الَّذِى لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ أَنَّ الْغُزَاةَ إِذَا سَلِمُوا أَوْ غَنِمُوا يَكُونُ أَجْرُهُمْ أَقَلَّ مِنْ أَجْرِ مَنْ لَمْ يَسْلَمْ أَوْ سَلِمَ وَلَمْ يَغْنَمْ وَأَنَّ الْغَنِيمَةَ هِىَ فِى مُقَابَلَةِ جُزْءٍ مِنْ أَجْرِ غَزْوِهِمْ ..فَإِذَا حَصَلَتْ لَهُمْ فَقَد تَعَجَّلُوا ثُلُثَىْ أَجْرِهِمُ الْمُتَرَتِّب عَلَى الْغَزْوِ وَتَكُونُ هَذِهِ الْغَنِيمَةُ مِنْ جُمْلَةِ الأَجْرِ.

وَهَذَا مُوَافِقٌ لِلأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنِ الصَّحَابَةِ كَقَوْلِهِ: مِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا أَىْ: يَجْتَنِيهَا فَهَذَا الَّذِى ذَكَرنَا هُوَ الصَّوَابُ وَهُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ[1].

۞ وقد حمله بعض أهل العلم على أنه تطييب لخواطر المجاهدين إذا أخفقوا وعادوا بجراحهم.. فقد يقول لهم بعض الناس: أنتم مهزومون أو يُعيرهم بذلك .. فجبر النبى ﷺ خواطرهم وكأنه يقول: ليس الأمر كذلك.. فقد ذهبوا وجاهدوا وبذلوا أقصى ما عندهم لكنهم أخفقوا .. وقد جبر الله خاطرهم بأن جعل أجورهم تامة موفورة... والله أعلم.

(١٣٥٣) **وعن أبى أُمامةَ رضي الله عنه، أنَّ رجُلًا قالَ: يا رسولَ الله ائذَن لى فى السِّياحة، فقال النبىُّ ﷺ: « إنَّ سِياحةَ أُمَّتى الجِهادُ فى سبيلِ الله عز وجل »[2].**

۞ ففى هذا الحديث يحكى أبو أمامة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله ائذن لى فى السياحة.

أراد مفارقة الوطن، والذهاب فى الأرض.. وأصله من السيح وهو الماء الجارى على وجه الأرض مُنبسطًا... كأنه استأذن فى الذهاب فى الأرض، قهرًا لنفسه بمفارقة المألوف وهجر المباحات واللذات، فردَّ عليه ذلك لما فيه من ترك

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٧٨)

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٩٣).

الجمعة والجماعات..كما رَدَّ على عثمان بن مظعون إرادته التبتُّل وهو الانقطاع عن النساء وترك النكاح لعبادة الله تعالى (فقال النبى ﷺ) لهذا السائل «**إنَّ سِياحةَ أُمَّتي الجِهادُ فى سبيلِ الله عَزَّوَجَلَّ**» قال ابن رسلان: لعله محمول على أن السؤال كان فى زمن تعيَّن فيه الجهاد وكان السائل شجاعًا، قال: أما السياحة فى الفلوات والانسلاخ عما فى النفس من الرعونات إلى ملاحظة صفات ذوى الهمم العاليات مع تجرُّع مرارات فُرقة الأوطان والأهل والقرابات لمن علم من نفسه الصبر على ذلك قاطعًا من قلبه العلائق الشاغلات ملتبسًا بصدق الطويات من غير تضييع مَن يعوله من أولادٍ وزوجات، ففيها فضيلة بل هى من المأمورات[1].

۞ والمقصود هنا: أن المسلم لا يسافر ويسيح بلا هدف.. فإما أن يخرج للجهاد فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.. أو يخرج إلى مكان يتمكن فيه من طاعة الله وممارسة الشعائر لأنه يعانى فى بلده من التضييق عليه ومحاولة فتنته فى دينه.. أو أن يخرج لطلب العلم فيسيح فى الأرض باحثًا عن أهل العلم الثقات الذين يتعلم على أيديهم العلم النافع.. أو يسيح فى خدمة الإسلام والمسلمين.. فتلك هى سياحة المؤمن.

❊❊❊

(١٣٥٤) **وعن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبى ﷺ قال: «قَفْلَةٌ كَغزْوةٍ»**[2].

۞ أى أن المجاهد إذا غزا عدوه فله أجرٌ عظيم فى ذلك.. فإذا انتهى من الغزو وعاد إلى أهله وبلده كان له مثل الأجر عند عودته.. فله الأجر ذاهبًا وعائدًا.. يُثاب فى ذهابه وفى رجوعه.

---

(١) دليل الفالحين (٤/ ١١٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٩٣).

«القَفْلَةُ»: الرُّجُوعُ، والمراد: الرُّجوعُ مِن الغزوِ بعد فراغِه.

ومعناه: أنه يُثابُ فى رُجُوعه بعد فراغهِ مِن الغزوِ.

قال فى النهاية: أى أجر المجاهد فى انصرافه إلى أهله بعد غزوه كأجره فى إقباله إلى الجهاد؛ لأن فى قفوله راحة للنفس واستعدادًا بالقوة للعودة وحفظًا لأهله برجوعه إليهم ... وقيل: أراد بذلك؛ التعقيب وهو رجوعه ثانيًا فى الوجه الذى جاء منه سفرًا وإن لم يلقَ عدوًّا ولم يَشهد قتالًا... وقد يفعل ذلك الجيش إذا انصرفوا من مَغزاهم لأحد أمرين:

أحدهما: أن يأمن العدو برجوعهم عنه فيغيروا عليه فينالوا الفرصة منه.

ثانيهما: أنهم إذا انصرفوا ظاهرين لم يأمنوا أن يقفو العدو أثرهم فيوقعوا بهم وهم غارون، فربما استظهر الجيش أو بعضهم بالرجوع على أدراجهم، فإن كان من العدو طلبٌ كانوا مستعدين للقائهم، وإلا فقد سَلِموا وأحرزوا ما معهم من الغنيمة... وقيل: يُحتمل أن يكون عن قوم قفلوا لخوفهم أن يدهمهم من عدوهم مَنْ هو أكبر منهم عددًا، وقفلوا يستضيفون إليهم عددًا آخر من أصحابهم، ثم يكروا على عدوهم... والمعنى الأول مذكور فى الأصل[1].



(١٣٥٥) وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه، قال: لـمَّا قدِمَ النبىُّ ﷺ من غَزوةِ تبُوكَ تَلَقَّاه النَّاسُ، فتَلَقَّيْتُهُ مع الصِّبيان على ثَنِيَّةِ الوَداعِ. رواه أبو داود بإسناد صحيح بهذا اللفظ، ورواه البخارى قال: ذهَبْنَا نتلقَّى رسولَ الله ﷺ مع الصبيانِ إلى ثنيةِ الوَداعِ[2].

۞ ففى هذا الحديث يخبر السائب بن يزيد رضي الله عنه أنه لما قَدِمَ النبى ﷺ من غزوة تبوك .. والتى تُسَمَّى بغزوة العُسرة.

وَكَانَتْ فِى زَمَنِ عُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ وَجدبٍ مِنَ الْبِلَادِ، وَحِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالنَّاسُ يُحِبُّونَ الْمُقَامَ فِى ثِمَارِهِمْ وَظِلَالِهِمْ، وَيَكْرَهُونَ شُخُوصَهُمْ عَلَى تِلْكَ

(١) دليل الفالحين (٤/ ١١٣-١١٤).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٠٨٣) كتاب الجهاد والسير.

الْحَالِ... وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَلَّمَا يَخْرُجُ فِى غَزْوَةٍ إِلَّا كَنَّى عَنْهَا وَوَرَّى بِغَيْرِهَا، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ وَشِدَّةِ الزَّمَانِ[١].

واشتُهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكانٍ هو عين تبوك، التى انتهى إليها الجيش الإسلامى.

فيخبر السائب أنه لما قَدِمَ النبى ﷺ من غزوة تبوك تلقَّاه الناس .. أى: المتخلفون فى المدينة.. قال: فتلقيته مع الصبيان على ثنية الوداع.. وهى محل بقرب المدينة.. وسُميت بذلك لأن المسافر كان يُودَّع عندها ويُشيع إليها... وكان الصبيان يتلقون النبى ﷺ من شدة حبهم له ﷺ وحبه لهم ﷺ... فقد كان النبى ﷺ فى قمة الرحمة بكل الناس.. وبخاصة الصبية الصغار.

(١٣٥٦) وعن أبى أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبىِّ ﷺ قال: «مَن لم يَغْزُ، أوْ يُجهِّزْ غازيًا، أوْ يَخْلُفْ غازيًا فى أهْلِهِ بخَيرٍ أصابَهُ الله بقارعةٍ قَبْلَ يومِ القيامةِ»[٢].

ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن «مَن لم يَغْزُ» أى: مَن لم يخرج مجاهدًا فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ. «أوْ يُجهِّزْ غازيًا» بأن يُهيئ له أسباب الجهاد ويعطيه المال والسلاح والعتاد وغيره مما يحتاج إليه.

«أوْ يَخْلُفْ غازيًا فى أهْلِهِ بخَيرٍ» وذلك بأن يقوم بمصالحهم ويوفر لهم الطعام والدواء والكساء وكل ما يحتاجون إليه حتى يذهب المجاهد إلى أرض الجهاد وهو لا يحمل هَمَّ أهله فيبذل جهده فى مجاهدة الأعداء والذَّود عن حياض الإسلام.

مَن لم يفعل ذلك «أصابَهُ الله بقارعةٍ» أى: داهية أو مصيبة تَقرعه وتُقلقه «قَبْلَ

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٢٦).

(٢) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢١٨٥).

يومِ القيامةِ» أى: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُعجِّل له عقوبته فى الدنيا. لأن مَن كان هذا حاله فهو إنسان مشغول بالدنيا ناسٍ لآخرته لا يهمه إلا نفسه.. لا يعيش من أجل دينه ونُصرة دينه .. فمن هنا كان مُستحقًّا لتلك العقوبة.

۞ وقد يكون المقصود بالقارعة ما ورد فى حديثٍ سابق أن النبى ﷺ قال: «**مَنْ ماتَ ولَمْ يَغْزُ، ولَمْ يُحَدِّث نَفْسَهُ بِغَزوٍ، ماتَ على شُعبةٍ مِن النِّفاقِ**».. والله أعلم.

(١٣٥٧) وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبىَّ ﷺ قال: «جاهِدُوا المُشركينَ بأموالِكُمْ وأنْفُسِكُم وألسنَتِكُم»(١).

۞ ففى هذا الحديث الحثُّ على جهاد المشركين بالمال والنفس واللسان... بالمال: أى يبذل الإنسان مالًا يساعد به المجاهدين أو يشترى به سلاحًا أو غير ذلك... والنفس: أن يخرج بنفسه يقاتل... واللسان: أن يهجوهم «أى المشركين» بالقصائد والأشعار؛ لأن هجو المشركين يؤثر عليهم ويكون ذكرى سيئة فى حقهم إلى ما شاء الله.

مثلًا إلى الآن ونحن نسمع هجاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهم للمشركين.

۞ وقد يكون الجهاد باللسان بأن يقول المسلم كلمة الحق أو ينصر المجاهدين بلسانه إن كان عالمًا من علماء المسلمين.. وذلك بأن يحشد المسلمين للجهاد أو أن يُشجع المجاهدين ويرفع من معنوياتهم ويُحفزهم على الجهاد بذكر أحاديث النبى ﷺ التى تحض المسلمين على الجهاد والتى تُخبرهم بالأجر والثواب العظيم الذى ينتظرهم عند النصر وعند الشهادة... فهذا نوعٌ من الجهاد باللسان... والله أعلم.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٩٠).

(١٣٥٨) وعن أبي عمرو -ويُقال: أبو حكيم - النُّعمان بنِ مُقَرِّنٍ رضي الله عنه قال: شَهِدتُ رسولَ الله ﷺ إذا لَمْ يُقاتِلْ مِن أوَّلِ النَّهارِ أخَّر القِتالَ حتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وتَهُبَّ الرِّياحُ، ويَنزِلَ النَّصرُ(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر النعمان بن مقرن رضي الله عنه أنه شَهِدَ رسول الله ﷺ إذا لم يقاتل من أول النهار حال برد الصبح، وهبوب نسماته (أخَّر القتال حتى تزول الشمس) من كبد السماء إلى جهة المغرب (وتهب الرياح وينزل النصر) وذلك ليبرد الوقت، ويسهل لبس السلاح على المقاتلة، وعلى الخيل الكرُّ والفرُّ، ويكون مع ذلك النصر بالتأييد الإلهي... قال ابن رسلان: وحربه عند هبوب الرياح استبشار بما نصره الله من الرياح، وهذا مفهوم من قوله «**نُصرت بالصبا وأُهلكت عادٌ بالدبور**» ويرجو أن يُهلك الله أعاديه بالدبور، كما أهلك عادًا بها، ونُصر بالصبا... وعند البخاري: «**وتهب رياح النصر**»، وفي رواية: «**ويحضر الصلوات أوقاتها**»، فأوقاتها أفضل الأوقات ويُستجاب فيها الدعاء(٢).

۞ والمقصود هنا: أن النبي ﷺ كان يحب أن يبدأ القتال بعد صلاة الفجر في برد الصبح وهبوب نسماته.. فإذا فاته وقت الصباح أخَّر الجهاد حتى تزول الشمس وتهب الرياح ليكون ذلك أيسر على المجاهدين من القتال في الشمس المحرقة... وحينئذ ينزل نصر الله عز وجل على نبيه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

(١٣٥٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «**لا تَتَمَنَّوْا لِقاءَ العَدُوِّ، فإذا لقيتُمُوهم، فاصبِروا**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣١٣).

(٢) دليل الفالحين (٤/ ١١٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦) كتلب الجهاد والسير - ومسلم (١٧٤١) كتاب الجهاد والسير.

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٣٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٦٠) وعن أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ وعن جابرٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، أن النبيَّ صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «الحربُ خُدعَةٌ»[1].

۞ قال ابن العربى: الخديعة فى الحرب تكون بالتورية، وبالكمين وبخلف الوعد، وذلك من الْمُستثنى الجائز المخصوص من المحرم..والكذب حرام لكنه جائز فى مواطن بالإجماع أصلها الحرب، أذن الله له فيه وفى أمثاله رفقًا بالعباد لضعفهم..وليس للعقل فى تحليله ولا تحريمه أثر إنما هو إلى الشرع.

قال المهلب: الخداع فى الحرب جائز كيفما أمكن إلا بالأيمان والعهود والتصريح بالأمان فلا يحل شىء من ذلك ... قال بعض أهل السير: قال النبى صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا الكلام يوم الأحزاب لنعيم بن مسعود[2]. اهـ.

۞ وقال الإمام النووى رَحِمَهُاللَّهُ: وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ خِدَاعِ الْكُفَّارِ فِى الْحَرْبِ وَكَيْفَ أَمْكَنَ الْخِدَاعُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ أَوْ أَمَانٍ فَلَا يَحِلُّ وَقَد صَحَّ فِى الْحَدِيثِ جَوَازُ الْكَذِبِ فِى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ أَحَدُهَا فِى الْحَرْبِ ...

قَالَ الطَّبَرِيُّ: إِنَّمَا يَجُوزُ مِنَ الْكَذِبِ فِى الْحَرْبِ الْمَعَارِيضُ دُونَ حَقِيقَةِ الْكَذِبِ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ ... هَذَا كَلَامُهُ وَالظَّاهِرُ إِبَاحَةُ حَقِيقَةِ نَفْسِ الْكَذِبِ لَكِنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى التعريض أفضل والله أعلم[3].

۞ والخداع هنا غيرالغدر.. فلا يجوز للمسلم أن يغدر بأحدٍ ولو كان كافرًا.. ولكن يجوز أن يخدع الكافر المحارب فى الحرب.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠٢٩، ٣٠٣٠) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٧٤٠) كتاب الجهاد والسير.

(٢) دليل الفالحين (٤/ ١١٧).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٢/ ٦٧).

(٢٣٥) باب بيان جماعة من الشهداء فى ثواب الآخرة يُغسَّلون ويُصلَّى عليهم بخلاف القتيل فى حرب الكفار

(١٣٦١) عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «الشُّهداءُ خَمسةٌ: المَطعُونُ، وَالمَبْطُونُ، والغَرِيقُ، وصَاحبُ الهَدم، والشَّهِيدُ فى سبيل الله»[1].

(١٣٦٢) وعنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما تَعُدُّونَ الشهداء فيكُم؟» قالوا: يا رسولَ الله مَن قُتِل فى سبيل الله فهو شهيدٌ. قال: «إنَّ شُهداءَ أُمَّتى إذًا لقليلٌ» قالوا: فَمنْ يا رسُول الله؟ قال: «مَنْ قُتِل فى سبيلِ الله فهُو شهيدٌ، وَمَنْ ماتَ فى سبيلِ الله فهو شهيدٌ، وَمَن ماتَ فى الطَّاعونِ فهُو شهيدٌ، وَمَنْ ماتَ فى البطنِ فهُو شَهيدٌ، والغَريقُ شهيدٌ»[2].

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فى كتابه (رياض الصالحين): باب بيان جماعة من الشهداء يعنى غير المقتولين فى سبيل الله ... والمقتول فى سبيل الله هو أعلى أنواع الشهداء، أما الشهداء الآخرون فهم كما أشار إليهم المؤلف هم شهداء فى الآخرة فى أحكام الآخرة، لا فى أحكام الدنيا...ويتبين ذلك بأن الشهيد المقتول فى سبيل الله شهيد فى الدنيا والآخرة، فهو شهيد فى الدنيا إذا قُتل ومات، فإنه لا يُغسَّل ولا يُكفَّن ولا يُصلَّى عليه، ويُدفن، ولا يأتيه الملكان اللذان يسألانه عن ربه وعن دينه، وعن نبيه ... فلا يُغسل من أجل أن يبقى عليه أثر الدم الذى قُتِلَ فى سبيل الله من أجله، فيأتى يوم القيامة وجرحه يسغب دمًا..اللون لون الدم والريح ريح المسك..لذلك قال العلماء: يَحرُم أن يُغسَّل، ويَحرُم أن يُغسل دمه، بل يبقى على ما هو عليه.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٢٩) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٩١٤) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩١٥) كتاب الإمارة.

ولا يُكفن وإنما يُكفن في ثيابه التي قُتل فيها، حتى يأتي يوم القيامة بهذه الثياب، ولا يُصلى عليه؛ لأن الصلاة شفاعة، كما قال النبي ﷺ في الصلاة على الميت: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه**»(١)، والمقتول في سبيل الله لا يحتاج لأن يشفع له أحد، لأن الشفاعة له كونه يغرض رقبته لأعداء الله إعلاءً لكلمة الله.

ولهذا علَّل النبي ﷺ عدم فتنته في قبره، فقال: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»(٢)، أي كفى بها اختبارًا ... وصدق رسول الله ﷺ.

فالشهيد يُكفن في ثيابه ليأتي بها يوم القيامة ولا يُصلَّى عليه ... ونظير هذا في بعض الوجوه: الرجل إذا مات مُحرِمًا، فإنه يُغسَّل بماءٍ وسدر، ولا يُحنط، ولا يَقرَب طِيبًا، ولا يُغطى رأسه، ولا يُكفن في ثيابٍ غير ثياب الإحرام؛ التي كانت عليه؛ لأنه يُبعث يوم القيامة مُلبيًا... يُبعث وهو يقول: لبيك اللهم لبيك.

والشهيد يُبعث يوم القيامة جرحه يسغب دمًا، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك..فهذا الشهيد في أحكام الدنيا...الشهيد في سبيل الله، يُجنَّب هذه الأشياء، لا يُغسل، لا يُكفن بكفنٍ جديد، وإنما يُكفن في ثيابه ولا يُصلى عليه، ويُدفن، ولا يأتيه الملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه؛ لأن هذا أكبر امتحان واختبار له ودليل على صدقه...أما في الآخرة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١]

أما بقية الشهداء المذكورين في الحديث فهم شهداء في الآخرة، لا في الدنيا، ومع ذلك فإنهم لا يساوون الذين قُتلوا في سبيل الله، ولكنهم شهداء.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٤٨) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨٣).

ولكلٍّ درجات مما عملوا... فشهداء الآخرة فقط مثل المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم.

الأول: المطعون: يعني: مَن مات بالطاعون..والطاعون وباءٌ فتَّاك مُعدٍ - نسأل الله العافية- إذا وقع فى أرض فإنه يُهلك، ولهذا قال النبى ﷺ فى الطاعون: «**إذا سمعتم به فى أرضٍ فلا تقدموا عليها، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارًا منه**»(١)؛ لأنه كيف تفر من الله عَزَّوَجَلَّ.. وانظر إلى قومٍ أُلوف خرجوا من ديارهم حَذَرَ الموت فقال الله لهم: موتوا، فماتوا ...هربوا من الموت، لكن الله تعالى أراد أن يبين لهم أنه لا مفر من الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله لهم: موتوا فماتوا ثم أحياهم، ليتبين أنه لا مفر من قدر الله عَزَّوَجَلَّ، لكن نفعل الأسباب التى أُمرنا بها، أما التى نُهينا عنها فلا..ولهذا قال:«**إذا وقع وأنتم فى أرض فلا تخرجوا منها فرارًا منه**» هذا المطعون إذا مات بالطاعون كان شهيدًا(٢).

وهناك أحاديث أخرى توضح لنا ما هو الطاعون.

قال ﷺ: «**الطَّاعُونَ بَقِيَّةُ رِجْزٍ، أَوْ عَذَابٍ أُرسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بنى إسرائيل، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلاَ تَهْبِطُوا عَلَيْهَا**»(٣).

وقال ﷺ: «**الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِأُمَّتِى، وَوَخْزُ أَعدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ، غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الإِبْلِ تَخْرُجُ بَيْنَ الآبَاطِ وَالْمَرَاقِّ، مَنْ مَاتَ فِيهِ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ أَقَامَ فِيهِ كَانَ كَالْمُرَابِطِ فِى سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ فَرَّ مِنْهُ كَانَ كَالفارِّ مِنَ الزَّحفِ**»(٤).

الثانى: المبطون: والمبطون هو صاحب داء البطن وهو الإسهال.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٢١٨) كتاب السلام.

(٢) شرح رياض الصالحين/ الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٠٩-٣١٠) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٣) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢١٨) كتاب السلام.

(٤) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٤٦).

قَالَ الْقَاضِى: وَقِيلَ: هُوَ الَّذِى بِهِ الِاسْتِسْقَاءُ وَانْتِفَاخُ البطن..وقيل: هُوَ الَّذِى تَشْتَكِى بَطْنُهُ. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِى يَمُوتُ بِدَاءِ بَطْنِهِ مُطْلَقًا[1] أو بشىءٍ فى بطنه مثل الكلى أو الكبد أو الطحال.

وهو يشمل كل داءٍ يصيب ما فى البطن.. كالفشل الكلوى والفشل الكبدى وأمراض الطحال.. وكل ما يصيب البطن من أمراضٍ تؤدى إلى الموت.. فصاحبه حُكمه حُكم المبطون.

الثالث: الغريق: والغريق قد يغرق وهو مسافر إلى الحج أو العمرة.. أو مسافر إلى أى بلدٍ أخرى فغرقت به السفينة .. أو يكون صيادًا يسعى على رزق أولاده فغرق.. أو كان يَسْبَح فى النهر أو البحر فغرق.. المهم فى كل ذلك أن يكون عند الغرق على طاعة وليس على معصية... وقد أُمرنا أن نتعلم السباحة لنقى أنفسنا من الغرق.. وذلك من باب الأخذ بالأسباب.. وإلا فإن الله إذا قدَّر شيئًا فإنه كائنٌ لا محالة.

الرابع: صاحب الهدم: يعنى رجل انهدم عليه البيت، أو الجدار، أو ما أشبه ذلك. فإنه يكون شهيدًا، لأن هؤلاء كلهم ماتوا بحوادث مُميتة بريئة..وهل يُقاس عليهم مثلهم كالذى يموت فى حادث أو فى صدم أو ما أشبه ذلك؟ الله أعلم، قد يُقاسون على هذا، ويُقال لا فرق بين أن ينهدم الجدار، أو أن تنقلب السيارة؛ لأن كل حادث مات به الإنسان، يُحكم على مَن مات بهذا الحادث أنه شهيد..لكننا لا نجزم به؛ لأن مسائل الجزاء عقوبة أو مثوبة ليس فيها قياس.

فالحاصل أن هناك شهداء غير المقتولين فى سبيل الله ... ومن ذلك أيضًا مَن مات فى سبيل الله، وإن لم يُقتل فهو شهيد، لكنه شهيد فى الآخرة، كرجل خرج مع المجاهدين، ومات فى الطريق موتة طبيعية، فهذا أيضًا من الشهداء... وشهيد

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٩٢).

الآخرة حُكمه فى الدنيا أنه يُغسَّل ويُكفَّن ويُصلَّى عليه، ويُدفَن مع الناس، كالشهداء الذين ذكرهم الرسول ﷺ وهم مَن مات بهدمٍ، أو غرقٍ، أو طاعون، أو بطن[1].

(١٣٦٣) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن قُتِل دُونَ مالِه فهُو شهيدٌ»[2].

(١٣٦٤) وعن أبى الأعور سعيدِ بنِ زيدِ بن عمرو بنِ نُفَيْلٍ، أحد العشَرَةِ المشهُودِ لهم بالجنَّةِ رضي الله عنهم، قال: سمعت رسُول الله ﷺ يقولُ: «مَن قُتِل دُون مالِهِ فهُو شهيدٌ، وَمَن قُتِلَ دُونَ دمِهِ فهو شهيدٌ، وَمَن قُتِلَ دُونَ دِينهِ فهو شهيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أهْلِهِ فهُو شهيدٌ»[3].

۞ لا بد أن نعلم أن الشهداء ثلاثة أقسام: أَحَدُهَا الْمَقْتُولُ فِى حرب الكفار بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْقِتَالِ فَهَذَا لَهُ حُكْمُ الشُّهَدَاءِ فِى ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَفِى أحكام الدُّنْيَا وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُغَسَّلُ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ ... وَالثَّانِى شَهِيدٌ فِى الثَّوَابِ -أى فى الآخرة- دُونَ أَحكَامِ الدُّنْيَا وَهُوَ الْمَبْطُونُ وَالْمَطْعُونُ وَصَاحِبُ الْهَدمِ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِتَسْمِيَتِهِ شَهِيدًا ... فَهَذَا يُغَسَّلُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَهُ فِى الْآخِرَةِ ثَوَابُ الشُّهَدَاءِ وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ ثَوَابِ الْأَوَّلِ ... وَالثَّالِثُ مَنْ غَلَّ فى الغنيمة وشبهه ممن وَرَدَتِ الْآثَارُ بِنَفْىِ تَسْمِيَتِهِ شَهِيدًا إِذَا قُتِلَ فِى حَربِ الْكُفَّارِ فَهَذَا لَهُ حُكْمُ الشُّهَدَاءِ فِى الدُّنْيَا فَلَا يُغَسَّلُ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَيْسَ لَهُ ثَوَابُهُمُ الْكَامِلُ فِى الْآخِرَةِ[4].

۞ وهنا فى هذين الحديثين يخبر النبى ﷺ أن مَن قُتل دون ماله فهو

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٨٠) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٤١) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٥).

(٤) مسلم بشرح النووى (٢/ ٢١٧) بتصرف.

شهيد... يعني: إذا جاء لِصٌّ يريد أن يسرق مالك فدافعت عن مالك.. وظللت تدافع عن مالك حتى لا يأخذه فقتلك فأنت شهيد.. وإن دافعت عن مال غيرك وقُتلت فأنت أيضًا شهيد...

«**وَمَن قُتِلَ دُونَ دمِهِ فهو شهيدٌ**»..يعني: لو أراد رجلٌ أن يقتلك فدافعت عن حياتك حتى قُتلت فأنت شهيد...وإن دافعت عن حياة غيرك فقُتلت فأنت أيضًا شهيد.

«**وَمَن قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فهو شهيدٌ**» يعني: إذا أراد إنسان أن يفتنك عن دينك أو يُخرجك عن ملتك فقاتلت دفاعًا عن دينك فقُتلت فأنت شهيد.

«**وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فهُو شهيدٌ**» يعني: إذا أراد إنسان أن ينتهك عِرض أحدٍ من نسائك أو بناتك أو يعتدى على أولادك فدافعت عنهم حتى قُتلت فأنت شهيد... وكذلك إن دافعت عن حريم غيرك وعيال غيرك فقُتلت فأنت شهيد.

* * *

(١٣٦٥) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقالَ: يا رسول الله أرأيتَ إنْ جاء رجُلٌ يُرِيدُ أخْذَ مالى؟ قال: « فلا تُعطِهِ مالكَ » قال: أرأيْتَ إنْ قاتلنى؟ قال: «قاتِلْهُ» قال: أرأيتَ إن قَتلنى؟ قال: « فأنْت شَهيدٌ» قال: أرأيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ؟ قال: « هُوَ فى النَّارِ»[١].

۞ وفى هذا الحديث يحكى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا سأل النبى ﷺ قال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء أحدٌ يريد أخذ مالى، قال: « **فلا تُعطِهِ مالكَ** » قال: أرأيْتَ إنْ قاتلنى؟ قال: «**قاتِلْهُ**» قال: أرأيتَ إن قَتلنى؟ قال: « **فأنْت شَهيدٌ**» قال: أرأيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ؟ قال: « **هُوَ فى النَّارِ**».

فدلَّ ذلك على أن الإنسان يُدافع عن ماله إذا جاء أحدٌ يريد أخذ المال،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٠) كتاب الإيمان.

فإنك تدافع، فإذا لم يندفع إلا بالقتل فاقتله، وإن اندفع بدون ذلك فلا تقتله، يعنى لو أمكن أن تكون أنت أقوى منه، وتشد يديه ورجليه، وتأسره فلا تقتله؛ لأنه لا حاجة لقتله، وإذا كان لا يمكن فقاتلك فقاتله، ولو قتلته.. وإن خِفت أن يبادرك بالقتل فاقتله، ولا حاجة للمقاتلة...يعنى لو جاء إليك يسعى يشتد ومعه سلاح قد شهره فاقتله؛ لأنك إن لم تُبادره قتلك... فإذا قتلته فإنه فى النار، وإن قتلك هو فأنت شهيد.

ولهذا قال العلماء: إن دفع الصائل ولو أدى إلى قتله جائز؛ لأنه إذا صال عليك فلا حُرمة له، لكن إذا اندفع بما دون القتل فلا تقتله.

نسأل الله تعالى أن يُعيذنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

۞ وليس معنى هذا حصر الشهداء فى هؤلاء.. فقد ذكر النبى ﷺ شهداء آخرين غيرهم:

۞ قال ﷺ: **«مَنْ فَصَلَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَمَاتَ، أَوْ قُتِلَ، أَوْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ، أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ، أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ، أَوْ بِأَىِّ حَتْفٍ شَاءَ اللهُ، فَإِنَّهُ شَهِيدٌ وإِنَّ لَهُ الجَنَّةَ»**[(١)].

وقال ﷺ: **«الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِى سَبِيلِ اللهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِى يَمُوتُ تَحتَ الْهَدمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ[(٢)] شَهِيدَةٌ»**[(٣)].

تموت بجُمعٍ: أى: تموت وفى بطنها ولد أو من الولادة.

---

(١) حسن: رواه أبو داود والحاكم عن أبى مالك الأشعرى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤١٣).

(٢) هو ورم حار يعرض فى الغشاء المستبطن للأضلاع: «أى تموت وفى بطنها ولد..وقيل التى تموت بكرًا، والجُمع بالضم بمعنى المجموع، كذخر بمعنى المذخور، وكسر الكسائى الجيم، والمعنى أنها ماتت مع شىء مجموع فيها غير منفصل عنها من حملٍ أو بكارة». قلت: والمراد هنا الحمل قطعًا بدليل الحديث المتقدم بلفظ **«يقتلها ولدها جمعاء»**.

(٣) صحيح: رواه مالك، وأحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٣٩).

(٢٣٦) باب فضل العتق

۞ العتق: هو تحرير الرقاب.. يعنى أن يكون هناك إنسان مملوك فيأتى رجل فيعتقه ويحرره ابتغاء مَرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.. فهذا من أفضل الأعمال التى يتقرب بها العبد إلى الله.

قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾ أى فهلا أنفق ماله فى اجتياز العقبة الكئود..قال فى البحر: والعقبةُ استعارةٌ للعمل الشاق على النفس، من حيث فيه بذل المال، تشبيهًا لها بعقبة الجبل وهو ما صَعُب منه وقت الصعود، فإنه يلحقه مشقة فى سلوكها... ومعنى اقتحمها: دخلها بسرعة وشدة[1]، وهو مَثلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، حتى ينال رضى الرحمن ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ أى وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل. . ثم فسرها تعالى بقوله ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ أى هى عتق الرقبة فى سبيل الله، وتخليص صاحبها من الأَسْرِ والرِّقِّ، فمن أعتق رقبة كانت له فداءً من النار ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤﴾ أى أن يطعم الفقير فى يومٍ عصيب ذى مجاعة... قال الصاوى: وقيَّد الإطعام بيوم المجاعة، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس[2] ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥﴾ أى أطعم اليتيم الذى بينه وبينه قرابة ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦﴾ أو المسكين الفقير البائس الذى قد لصق بالتراب من فقره وضُرِّه... وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس... قال ابن عباس: هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شىء ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أى عمل هذه القربات لوجه الله تعالى، وكان مع ذلك مؤمنًا صادق الإيمان.

قال المفسرون: وفى الآية إشارة إلى أن هذه القُرَب والطاعات لا تنفع إلا مع

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٧٦).

(٢) حاشية الصاوى على الجلالين (٤/ ٣٢٢).

الإيمان ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أى وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أى هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة، هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويَسعدون بدخول جنات النعيم[1].

۞ وفك الرقبة: يشمل العتق.. ويشمل أيضًا فكُّ الأسير من العدو.. فإن هذا من فكِّ الرقاب.

(١٣٦٦) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لى رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أعتَقَ رقبَةً مُسْلِمةً أعتَقَ الله بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْه مِن النَّارِ حتى فرجَهُ بِفَرجِهِ»[2].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن أعتق رقبة مسلمة بأن أعتقها من الرِّق أو الأَسر فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعتق بكل عضوٍ منه عضوًا منه من النار حتى فرجه بفرجه...

فإن كان الله عَزَّ وَجَلَّ يعتق بكل عضوٍ منه عضوًا منك فلا بد أن تحرص على أن تعتق إنسانًا كامل الأعضاء حتى يعتق الله جسدك كله من النار.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ فَضْلِ الْعِتْقِ وَأَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعمَالِ، وَمِمَّا يَحصُلُ بِهِ الْعِتْقُ مِنَ النَّارِ وَدُخُولُ الْجَنَّةِ... وَفِيهِ اسْتِحبَابُ عِتْقِ كَامِلِ الْأَعضَاءِ فَلَا يَكُونُ خَصِيًّا وَلَا فَاقِدَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ...وَفِى الْخَصِيِّ وَغَيْرِهِ أَيْضًا الْفَضْلُ الْعَظِيمُ، لَكِنِ الْكَامِلُ أَوْلَى وَأَفْضَلُهُ أَعلَاهُ ثَمَنًا وَأَنْفَسُهُ... وَقَد رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرمِذِىُّ عَنْ أَبِى أُمَامَةَ وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعتَقَ امْرَأً

---

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٥٣٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧١٥) كتاب كفارات الأيمان–ومسلم (١٥٠٩) كتاب العتق.

مُسْلِمًا كَانَ فِكَاكَهُ مِنَ النَّارِ يَجْزِى كُلُّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهُ وَأَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعتَقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ كَانَتَا فِكَاكَهُ مِنَ النَّارِ يجزى كل عضو منهما عُضْوًا مِنْهُ وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعتَقَتِ امْرَأَةً مسلمة كانت فكاكها من النار يجزئ كل عضوٍ منها عُضْوًا مِنْهَا».

وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عِتْقَ الْعَبْدِ أَفْضَلُ مِنْ عِتْقِ الْأَمَةِ...قَالَ الْقَاضِى عِيَاضٌ: وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ أَيُّمَا أَفْضَلُ عتق الإناث أم عتق الذُّكُورِ فَقَالَ بَعضُهُمْ الْإِنَاثُ أَفْضَلُ لِأَنَّهَا إِذَا عُتِقَتْ كَانَ وَلَدُهَا حُرًّا سَوَاءٌ تَزَوَّجَهَا حُرٌّ أَوْ عَبْدٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: عِتْقُ الذُّكُورِ أَفْضَلُ لِهَذَا الْحَدِيثِ وَلِمَا فِى الذَّكَرِ مِنَ الْمَعَانِى العامة المنفعة التى لا توجد فى الإنات مِنَ الشَّهَادَةِ وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَخصُّ بِالرِّجَالِ إِمَّا شَرعًا وَإِمَّا عَادَةً وَلِأَنَّ مِنَ الْإِمَاءِ مَنْ لَا تَرغَبُ فِى الْعِتْقِ وَتَضِيعُ بِهِ بِخِلَافِ الْعَبِيدِ... وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ .. وَأَمَّا التَّقْيِيدُ فى الرَّقَبَةِ بِكَوْنِهَا مُؤْمِنَةً فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفَضْلَ الْخَاصَّ إِنَّمَا هُوَ فِى عِتْقِ الْمُؤْمِنَةِ وَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ فَفِيهِ أَيْضًا فَضْلٌ بِلَا خِلَافٍ وَلَكِنْ دُونَ فَضْلِ الْمُؤْمِنَةِ وَلِهَذَا أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِى عِتْقِ كَفَّارَةِ الْقَتْلِ كَوْنُهَا مُؤْمِنَةً(١) .

(١٣٦٧) وعنْ أبى ذرٍّ ﵁، قال: قُلْتُ يا رسُول الله، أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «الإيمانُ بالله، والجهادُ فى سبيلِ الله» قال: قُلتُ: أيُّ الرِّقابِ أفْضَلُ؟ قال: «أنْفَسُها عِنْد أهْلِها، وأكْثَرُها ثَمَنًا»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١١٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) مسلم بشرح النووى (١٠/ ٢١٢-٢١٤) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥١٨) كتاب العتق - ومسلم (٨٤) كتاب الإيمان.

(٢٣٧) باب فضل الإحسان إلى المملوك

۞ قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٦].

فجاء في هذه الآية الحض على الإحسان إلى المملوك .. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أي: من الآدميين والبهائم بالقيام بكفايتهم وعدم تحميلهم ما يَشُق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذى يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل .. ومَن لم يَقُم بذلك فإنه عبدٌ مُعرِضٌ عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله معجب بنفسه فخور بقوله... ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾[1].

(١٣٦٨) وعن المعرُور بن سُويد قال: رأيتُ أبا ذرٍّ رضي الله عنه، وعليه حُلَّةٌ، وعلى غُلامه مِثْلُها، فسألْتُهُ عنْ ذلك، فذكر أنَّه سَابَّ رجلًا على عهْدِ رسُولِ الله ﷺ، فَعَيَّرَهُ بأُمِّهِ، فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّكَ امْرُؤٌ فِيك جاهِلِيَّةٌ .. هُم إخوانُكُمْ، وخَولُكُمْ، جَعلهُمُ الله تحتَ أيدِيكُم، فمَن كانَ أخُوهُ تحت يدِه فليُطْعِمْه مِمَّا يأكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ مِمَّا يلبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهم ما يَغْلِبُهُمْ، فإن كَلَّفْتُموهُم فأعِينُوهُم»[2].

۞ ففى هذا الحديث يحكى المعرور بن سويد أنه رأى أبا ذرٍّ رضي الله عنهما وعليه حُلةٌ جميلة .. وعلى غلام أبى ذر حُلة مثلها فتعجَّب المعرور.. لأنه من المعلوم

(١) تفسير السعدى ص(١٨٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠) كتاب الإيمان - ومسلم (١٦٦١) كتاب الأيمان.

أن العبد لا يلبس أبدًا مثل سيده.. بل يكون لباس سيده أجمل وأفضل من لباسه بكثير ... فسأل المعرور أبا ذرٍّ عن ذلك.. فذكرله أبو ذر أنه سابَّ رجلًا على عهد رسول الله ﷺ .. وفي رواية أنه قال: كان بيني وبين رجلٍ من إخواني كلامٌ وكانت أُمه أعجمية فعيرته بأمه.

قال الإمام النووي رحمه الله: أَمَّا قَوْلُهُ: رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِي فَمَعْنَاهُ: رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ عَبْدًا، وَإِنَّمَا قَالَ: مِنْ إِخْوَانِي لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ**»(١).

المهم أن أبا ذرٍّ رضي الله عنه لما عيَّر هذا الرجل بأمه قال له النبي ﷺ: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيك جاهِلِيَّةٌ**» ولم يقل له: إنك جاهلي .. بل قال له ﷺ : «**امْرُؤٌ فِيك جاهِلِيَّةٌ**» أي: فيك خصلة أو خُلق من أخلاق الجاهلية... وهذا يوضح أنه لا يجوز لمسلم أن يُعير أخاه بأمه أو أبيه.. وأن ذلك من أخلاق الجاهلية.

۞ ثم قال له ﷺ: «**هُم إخوانُكُمْ، وخَوَلُكُمْ**» أي: أنْ هؤلاء العبيد إخوانكم خوَّلكم الله إياهم وجعلهم الله تحت أيديكم..

أي: احرص على أن تعامل هذا المملوك كما تعامل أخاك من أمك وأبيك.

۞ ثم قال ﷺ: «**فمَن كانَ أخُوهُ تحت يدِه فليُطْعِمْه مِمَّا يأكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ مِمَّا يلبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهم ما يَغْلِبُهُمْ، فإن كَلَّفْتُموهُم فأعِينُوهُم**».

۞ قال الإمام النووي رحمه الله: **وَالْأَمْرُ بِإِطْعَامِهِمْ مِمَّا يَأْكُلُ السَّيِّدُ وَإِلْبَاسُهُمْ مِمَّا يَلْبَسُ مَحمُولٌ عَلَى الِاسْتِحبَابِ لَا عَلَى الْإِيجَابِ .. وَهَذَا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا فِعلُ أَبِي ذَرٍّ فِي كِسْوَةِ غُلَامِهِ مِثْلَ كِسْوَتِهِ فَعَمَلٌ بِالْمُسْتَحَبِّ .. وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ نَفَقَةُ الْمَمْلُوكِ وَكِسْوَتُهُ بِالْمَعرُوفِ بِحَسَبِ الْبُلْدَانِ وَالْأَشْخَاصِ سَوَاءٌ كَانَ مِنْ جِنْسِ نَفقَةِ السَّيِّدِ وَلِبَاسِهِ أَوْ دُونَهُ أَوْ فَوْقَهُ .. حَتَّى لَوْ قَتَّرَ السَّيِّدُ عَلَى نَفْسِهِ**

(١) مسلم بشرح النووي (١١/ ١٩٠).

تَقْتِيرًا خَارِجًا عَنْ عَادَةِ أَمْثَالِهِ إِمَّا زُهْدًا وَإِمَّا شُحًّا لَا يَحِلُّ لَهُ التَّقْتِيرُ عَلَى الْمَمْلُوكِ وَإِلْزَامُهُ وَمُوَافَقَتُهُ إِلَّا بِرِضَاهُ ... وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُكَلِّفَهُ من العمل مالا يُطِيقُهُ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَزِمَهُ إِعَانَتُهُ بِنَفْسِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ .. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمَسْبُوبَ هُوَ بِلَالُ الْمُؤَذِّنُ"(١).

۞ **والحاصل**: أن هذا التوجيه النبوى الرفيع، قد جمع فأوعى كل العلاقة التى تربط الخادم بالمخدوم حيث حدد منزلة الخادم من المخدوم، فهو أخٌ له، وحدد مَن الذى قدّر على الخادم هذا الأمر (إنه الله عَزَّوَجَلَّ) وحدد نوع المأكل والملبس الذى يلبسه الخادم، فهو من جنس ما يأكل ويلبس المخدوم، وحدد الأعمال التى يقومون بها، وهى كل ما يطيقون ويستطيعون..وإذا تَطلَّب الأمر تكليفهم بأعمالٍ شاقة، فقد وجب إعانتهم، إما بالنفس أو بتوفير آلة لهم تيسر عليهم العمل، أو ندب عامل يساعدهم حتى ينتهى العمل الشاق.

ودليله أن الحديث لم يحدد كيفية الإعانة فيدخل فيها كل وسيلة من شأنها رفع المشقة، فإن قال قائل: هناك أمور فى العلاقة بين الخادم والمخدوم لم يحددها أو يتطرق إليها الحديث... قلت: تلك الأمور يجب معالجتها فى نطاق قوله ﷺ: «**إخوانكم خولكم**» ، فهل يوجد مَن هو أرحم بالأخ من أخيه.

وأقول لإخوانى المسلمين:معاملة الأجير بالحسنى، ابتغاء وجه الله- سبحانه وتعالى - ومحبة اتباع سنة الحبيب ﷺ لا تظهر ولا تكون إلا إذا أساء الخادم أو الأجير، فهنا يظهر التسامح والعفو والإحسان ...قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فهل يكظم الإنسان غيظه ويعفو إلا إذا حدث له ما يُغضبه.. ولن يبلغ المسلم منزلة الإحسان إلا إذا تقيد بهذه الآية الكريمة.. كظم

(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ١٩١-١٩٢) بتصرف.

للغيظ ثم عفو ثم إحسان(١).

(١٣٦٩) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أتى أحدَكم خَادِمُهُ بِطَعامِهِ، فإنْ لم يُجْلِسْهُ معهُ، فلْيُنَاولْهُ لُقْمَةً أوْ لُقْمَتَيْنِ أوْ أُكْلَةً أوْ أُكْلَتَيْنِ، فإنَّه ولِيَ عِلاجَهُ»(٢).

❁ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ يوصينا بالإحسان إلى الخدم.. ثم ذكر صورة من صور الإحسان إليهم.. وهى الإحسان إليهم ومُراعاة مشاعرهم عند الطعام وعدم حرمانهم..

فقال ﷺ: **«إذا أتى أحدَكم خَادِمُهُ»** وهو يشمل الرقيق والأجير وغيرهما من الخادم بالنفقة من غير عقد إجارة أو على سبيل التبرع... **«إذا أتى أحدَكم خَادِمُهُ بِطَعامِهِ»** أى: إن أحضر لك خادمك أو العبد المملوك.. إن أحضر لك طعامك **«فإنْ لم يُجْلِسْهُ معهُ»** أى: إن كنت تستطيع أن تُجلسه ليأكل معك فهذا بابٌ عظيم من أبواب التواضع سوف يرفعك الله به فى الدنيا والآخرة.

«فلْيُنَاولْهُ لُقْمَةً أوْ لُقْمَتَيْنِ أوْ أُكْلَةً أوْ أُكْلَتَيْنِ» يعنى: إن لم تستطع أن تُجلسه معك.. كما هو الحال فى أكثر البيوت.. بأن تكون جالسًا مع زوجتك وأولادك وتريد أن تأنس بهم وأن تتحدث معهم ولن تستطيع فعل ذلك أمام الخادم.. فليس هناك أقل من أن تعطيه أى شىءٍ من ذلك الطعام مما تطيب نفسك به... وقد وضح النبى سبب ذلك فقال ﷺ: **«فإنَّه ولِيَ عِلاجَهُ»** أى أن هذا الخادم أو المملوك هو الذى أوقد النار وأعدَّ الطعام وصنعه فليس هناك أقل من أن يذوق شيئًا من ذلك الطعام حتى تطيب نفسه.. وحتى لا ينظر فى ذلك الطعام.. وحتى

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٣٨٣).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٥٧) كتاب العتق - ومسلم (١٦٦٣) كتاب الأيمان.
«الأُكلَةُ» بضم الهمزة: هِيَ اللُّقمَة.

لا يحسد أهل البيت على طعامهم... إلى غير ذلك..

لكن عليك وأنت تعطيه من طعامك أن تحتسب ذلك عند الله لتفوز بالأجر والثواب.. وأن تنوى بذلك جبر خاطر هذا الخادم أو المملوك الذى ليس له أهل وليس له أحدٌ فى الدنيا غيرك.. فأحسِن إليه ليُكرمك الله عَزَّوَجَلَّ فى الدنيا والآخرة.

۞ وقد كان النبى ﷺ إذا أهدى عبدًا لواحدٍ من أصحابه كان يوصيه به خيرًا.. فكانوا يعاملونهم أفضل وأطيب معاملة ابتغاء مرضاة الله.. لأن النبى ﷺ لما قال لهم: «**جَعلهُمُ الله تحتَ أيدِيكُم**» فعلموا أن الإحسان إليهم طاعة لله عَزَّوَجَلَّ.

(٢٣٨) باب فضل المملوك الذى يؤدى حق الله وحق مواليه

(١٣٧٠) عن ابن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «إنَّ العَبْد إذا نَصحَ لِسَيِّدِه، وأحسَنَ عبادةَ الله، فَلَهُ أجْرُهُ مرَّتَيْنِ»(١).

(١٣٧١) وعن أبى هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «للعبدِ الممْلُوكِ المُصلِحِ أجْرَانِ»، والذى نَفسُ أبى هُريرةَ بيَدِه لَولا الجهادُ فى سبيلِ الله، والحجُّ، وبِرُّ أُمِّى، لأحببتُ أنْ أموتَ وأنَا مملوكٌ(٢).

(١٣٧٢) وعن أبى مُوسى الأشْعَرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «المَمْلُوكُ الذى يُحسِنُ عِبادَةَ رَبِّه، ويُؤدِّى إلى سَيِّدِهِ الذى عليهِ مِن الحقِّ، والنَّصيحةِ، والطاعَةِ، لهُ أجْرانِ»(٣).

۞ فبعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الأحاديث التى تَحُث على الإحسان إلى العبد أو المملوك.. ذكر هنا الأحاديث التى تحث على إحسان المملوك إلى سيده.

۞ ففى الحديث الأول يذكر النبى ﷺ أن العبد إذا نصح لسيده وقام بخدمته قدر طاقته وحسب استطاعته وكان أمينًا على مال سيده وعلى بيته «وأحسنْ عبادة ربه» فجاء بها مستوفية للأركان والشروط والآداب وأدَّى العبادات كلها خالصة لوجه الله تعالى: «فلَهُ أجْرُهُ مرَّتَيْنِ» الأجر الأول لقيامه بحق الله عَزَّ وَجَلَّ.. والأجر الثانى لقيامه بحق سيده.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْمَمْلُوكِ الْمُصلِحِ وَهُوَ الناصح لسيده والقائم بعبادة ربه المتوجبة عَلَيْهِ وَأَنَّ لَهُ أَجْرَيْنِ لِقِيَامِهِ بِالْحَقَّيْنِ وَلِانْكِسَارِهِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٤٦) كتاب العتق، ومسلم (١٦٦٤) كتاب الأيمان.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٤٨) كتاب العتق، ومسلم (١٦٦٥) كتاب الأيمان.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٥٥١) كتاب العتق .

بِالرِّقِّ[(١)].

قَالَ ابن عَبْدِ الْبَرِّ: مَعنَى هَـذَا الْحَدِيثِ عِنْدِى أَنَّ الْعَبْدَ لَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ وَاجِبَانِ: طَاعَةُ رَبّهِ فِى الْعِبَادَاتِ وَطَاعَةُ سَيِّدِهِ فِى الْمَعرُوفِ فَقَامَ بِهِمَا جَمِيعًا كَانَ لَهُ ضِعفُ أَجْرِ الْحُرِّ الْمُطِيعِ لِطَاعَتِهِ ... لِأَنَّهُ قَد سَاوَاهُ فِى طَاعَةِ اللهِ وَفُضِّلَ عَلَيْهِ بِطَاعَةِ مَنْ أَمَرَهُ اللهُ بِطَاعَتِهِ .. قَالَ وَمِنْ هُنَا أَقُولُ إِنَّ مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فَرضَانِ فَأَدَّاهُمَا أَفْضَلُ مِمَّنْ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا فَرضٌ وَاحِدٌ فَأَدَّاهُ كَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ صَلاَةٌ وَزَكَاةٌ فَقَامَ بِهِمَا فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ صَلاَةٌ فَقَطْ ... وَمُقْتَضَاهُ أَنَّ مَنِ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ فُرُوضٌ فَلَمْ يُؤَدِّ مِنْهَا شَيْئًا كَانَ عِصيَانُهُ أَكْثَرَ مِنْ عِصيَانِ مَنْ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ إِلَّا بَعضُهَا اهـ[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالَّذِى يَظْهَرُ أَنَّ مَزِيدَ الْفَضْلِ لِلْعَبْدِ الْمَوْصُوفِ بِالصِّفَةِ لِمَا يَدخُلُ عَلَيْهِ مِنْ مَشَقَّةِ الرِّقِّ .. وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ التَّضْعِيفُ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ جِهَةِ الْعَمَلِ لَمْ يَخْتَصَّ الْعَبْدُ بِذَلِكَ .. وَقَالَ ابن التِّينِ: الْمُرَادُ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَعمَلُهُ يُضَاعَفُ لَهُ .. قَالَ وَقِيلَ سَبَبُ التَّضْعِيفِ أَنَّهُ زَادَ لِسَيِّدِهِ نُصحًا وَفِى عِبَادَةِ رَبِّهِ إِحسَانًا فَكَانَ لَهُ أَجْرُ الْوَاجِبَيْنِ وَأَجْرُ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِمَا[(٣)].

۞ وفى الحديث الثانى أن النبى ﷺ قال: «للعبدِ المملُوكِ المُصلِحِ أجْرَانِ» وقد ذكرنا أنه يتحصل على أجرين: أحدهما لقيامه بعبادة ربه عَزَّوَجَلَّ.. والثانى: لقيامه بخدمة سيده والنُّصح له والأمانة على ماله وبيته.

فقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُعلقًا على كلام النبى ﷺ حينما أخبر بمضاعفة أجر العبد المملوك: «والذى نَفسُ أبى هُريرةَ بيَدِه» أى: والله «لَولا الجهادُ فى سبيلِ الله، والحجُّ، وبرُّ أُمِّى، لأحببتُ أنْ أموتَ وأنَا مملوكٌ».

(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ١٩٤-١٩٥) بتصرف.

(٢) فتح البارى (٥/ ٢٠٩).

(٣) فتح البارى (٥/ ٢٠٩).

وهنا لا بد أن نعلم أن من كمال رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل أجر العبد المملوك مُضاعَفًا إن قام بعبادة ربه وخدمة سيده.. وذلك لأن العبد المملوك لو خُيِّر لاختار أن يكون حُرًّا ولكنه دون إرادة منه وجد نفسه عبدًا مملوكًا فجبر الله خاطره بأن جعل أجره مُضاعفًا إن قام بعبادة ربه وخدمة سيده على الوجه المطلوب.

وهنا تمنَّى أبو هريرة أن يكون عبدًا مملوكًا ليفوز بمضاعفة الأجر لولا أنه يعلم أن العبد المملوك لا جهاد عليه ولا حج لأنه غير مستطيع.. فقد أوقفه سيده على خدمته ولا يستطيع أن يذهب إلى الجهاد أو الحج إلا إذا أذن له سيده بذلك.. وكذلك العبد المملوك لا يستطيع أن يقوم بخدمة أمه إن لم يأذن له سيده بذلك.

فلولا حرص أبى هريرة على الجهاد فى سبيل الله.. والذهاب إلى الحج.. والتفرُّغ لخدمة أمه والنفقة عليها والقيام بمصالحها لتمنَّى أن يكون عبدًا مملوكًا حتى آخر لحظة فى حياته ليفوز بمضاعفة الأجر والثواب.

۞ وأما الحديث الثالث فهو يحمل نفس معنى الحديث الأول.

(١٣٧٣) وعن أبى مُوسى الأشْعَرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ثلاثةٌ لهمْ أجْرانِ: رَجُلٌ مِنْ أهلِ الكتاب آمن بِنَبيِّه وآمنَ بمُحمدٍ، والعبدُ المملُوكُ إذا أدَّى حقَّ الله، وحقَّ موالِيهِ، ورَجُل كانَتْ لهُ أَمَةٌ فأدَّبها فأحسَنَ تأدِيبَها، وعلَّمها فأحسَنَ تَعلِيمها، ثُمَّ أعتقَها فتزَوَّجها، فلَهُ أجْرانِ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن هناك ثلاثة أصناف من البشر لهم أجران... وليس الأمر مقصورًا على هؤلاء الثلاثة فقط .. فللحافظ السيوطى رَحِمَهُ اللهُ: جزء سمَّاه «مطلع البدرين فيمن يُؤتَى أجره مرتين» بلغ بهم ثلاثين ويمكن الزيادة على ذلك بتتبُّع كتب السُّنة .. والله المُعين[٢].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩٧) كتاب العلم -ومسلم (١٥٤) كتاب الإيمان.

(٢) دليل الفالحين (٤/ ١٢٧).

فالشاهد أن النبى ﷺ أخبر أن هناك ثلاثة أصناف يُؤتَون أجرهم مرتين: «**رَجُلٌ مِنْ أهلِ الكتاب**» يهودى أو نصرانى.. آمن بنبيه ثم آمن بالرسول ﷺ.. فهذا له أجره مرتين.. الأجر الأول لإيمانه برسوله.. والأجر الثانى لإيمانه بمحمد ﷺ.

وليُعلم أن اليهود والنصارى إذا بلغتهم رسالة محمد ﷺ فلم يؤمنوا به حبطت أعمالهم، حتى أعمالهم التى يتدينون بها فى ملتهم، حابطة غير مقبولة، لقول الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾[آل عمران:٨٥].

أما الثانى: فهو العبد المملوك الذى قام بحق سيده وحق الله عَزَّوَجَلَّ.

أما الثالث: فرجل عنده أَمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها، وتزوجها، فله الأجر مرتين... المرة الأولى لإحسانه إليها وهى رقيقة مملوكة، والأجر الثانى لإحسانه إليها بعد أن أعتقها لم يُضيّعها، بل تزوجها وأكرمها وأحصن فرجها.

۞ ومن المعلوم أن هذا الرجل الثالث الذى كان عنده أَمة فأدَّبها فأحسن تأديبها وعلَّمها فأحسن تعليمها.. إنما كان الناس يفعلون ذلك بإمائهم ليبيعوها بعد ذلك للملوك والأمراء ويحصلوا من وراء ذلك على الأموال الكثيرة.. لكن هذا الرجل لم يفعل ذلك بل أعتقها لوجه الله وتزوجها وأكرمها غاية الإكرام فكان له هذا الثواب العظيم بأن يكون له أجران.

(٢٣٩) باب فضل العبادة فى الهرج وهو الاختلاط والفتن ونحوها

(١٣٧٤) عن مَعقِل بن يسار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «العِبَادةُ فى الهَرجِ كهِجْرةٍ إليَّ»(١).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: الْمُرَادُ بِالْهَرجِ هُنَا الْفِتْنَةُ وَاخْتِلَاطُ أُمُورِ النَّاسِ وَسَبَبُ كَثْرَةِ فَضْلِ الْعِبَادَةِ فِيهِ أَنَّ الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها ولا يتفرغ لها إلا أفراد(٢).

قال القرطبى رَحِمَهُ اللهُ: المُتنسك فى ذلك الوقت والمُنقطع إليها المُنعزل عن الناس أجره كأجر المُهاجر إلى النبى ﷺ؛ لأنه ناسَبه من حيث إن المهاجر فَرَّ بدينه ممن يصد عنه للاعتصام بالله أولًا ثم بالنبى ﷺ.. وكذا هذا المُنقطع للعبادة فَرَّ من الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه، فهو فى الحقيقة قد هاجر إلى ربه وفَرَّ من جميع خلقه(٣).

وهذا الحديث ينطبق علينا فى هذا الزمان، فالإنسان عندما يتأمل فى أى مكان حوله لا يجد شبراً قد خلا من الفتنة... فقد تكون جالسًا فى بيتك، تعتزل الناس، فيُدخلون عليك الموسيقى والتليفزيون والفيديو والأغانى إلى البيت، فتجد أنه ما خلا شبر من هذه الفتن! .. وقد جاء تفسير الهرج فى بعض الأحاديث بأنه كثرة القتل وإراقة الدماء.

قال المناوى رَحِمَهُ اللهُ: «**كهجرة إليَّ**» يعنى: مَن يثبت على دينه فى وقت الغربة، ووقت الفتنة التى تصرف الناس عن دينهم، وتعظيمه وإقامة حدوده.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

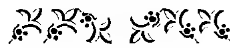
(٢) مسلم بشرح النووى (١٨/ ١١٧).

(٣) دليل الفالحين (٤/ ١٣١) بتصرف.

فمن صبر على ذلك فثوابه كأنه هاجر إلى النبي ﷺ، ونال الثواب الكثير.

أو يُقال: الهجرة في الأول كانت قليلة لعدم تمكُّن أكثر الناس من ذلك، فهكذا العابد في الهرج قليل... قال ابن العربي: وجه تمثيله بالهجرة أن الزمن الأول كان الناس يفرون فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفتن تَعيَّن على المرء أن يفر بدينه من الفتنة إلى العبادة، ويهجر أولئك القوم وتلك الحالة، وهو أحد أقسام الهجرة.

يعني: إذا لم يكن في استطاعة الإنسان أن يهاجر من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو لم تكن أصلًا هناك دار إسلام، أو لم يستطع أن يهاجر من دار البدعة إلى دار السُّنة، أو من دار الظلم إلى دار العدل فعليه انتقال نفسي بأن يهجر المعاصي، ويهجر المحرمات، فينتقل من الفتنة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى، ويهجر معاصي الله.. وهذا أحد أقسام الهجرة التي تجب على كل مسلم.



(٢٤٠) باب فضل السماحة فى البيع والشراء والأخذ والعطاء وحُسن القضاء والتقاضى وإرجاح المكيال والميزان والنهى عن التطفيف وفضل إنظار الموسر والمعسر والوضع عنه

۞ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود:٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

۞ خلق الله الناس على حالة يحتاج فيها بعضهم إلى بعض، فليس يملك كل فرد ما يهمه ويكفيه، بل يملك هذا بعض ما يستغنى عنه، ويحتاج إلى بعض ما يستغنى عنه الآخرون، فألهمهم الله أن يَتبادلوا السلع والمَنافع بالبيع والشراء وسائر هذه المُعاملات، حتى تستقيم الحياة، ويسير دولابها بالخير والإنتاج.

فالبيع والشراء أمران ضروران لا تقوم حياة بنى آدم إلا بهما غالبًا لأن الإنسان لا يستغنى -غالبًا- عمَّا عند غيره.. فكيف يتوصل إليه؟ إن استعاره بقى فى هَمٍّ وقلق.. وإن طلب منه أن يهبه له أذلَّ نفسه.. وإن أخذه غصبًا كان ظالمًا له.. فكان من حكمة البارى (جل وعلا) أن شرع لنا البيع والشراء.. ولكن قد نجد من الناس مَن يبيع بالعدل والقسط.. وقد نجد مَن يبيع بالبخس والظلم.. وقد نجد مَن يبيع بالإحسان.. فالناس ثلاثة أقسام:

(١) قسم يبيع بالعدل، لا يَظلم ولا يُظلم.

(٢) وقسم يبيع بالجور، والظلم..كالغشاش، والكذاب، وما أشبه ذلك.

(٣) وقسم يبيع بالفضل والإحسان، فيكون سمحًا فى البيع وفى الشراء، إن باع لم يطلب حقه وافيًا، بل يُنزل من الثمن، ويُمهل فى القضاء..وإن اشترى لا يهمه أن يزيد عليه الثمن ويبادر بالوفاء فيكون محسنًا.

وقد استدل المؤلف رحمه الله على فضل السماحة فى البيع والشراء بآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥].

۞ ونلاحظ هنا أن كلمة «خير» نكرة فى سياق الشرط فتَعُمّ جميع أنواع الخيرات.. أى: أن أى خيرٍ تفعلونه فإن الله به عليم ولا يخفى عليه شىء وسوف يجازيكم على هذا الخير بأفضل مما عملتم ... لأن الله عز وجل يجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثير.

۞ ومن بين الخير الذى يفعله الإنسان: السماحة فى البيع والشراء فهذا الإنسان يحبه الله ويحبه الناس ويحبون أن يتعاملوا معه دائمًا بالبيع والشراء لسماحته.. فهو رابحٌ فى الدنيا والآخرة.

وقد دعا النبى ﷺ للمتسامحين فى البيع والشراء، فقال: «**رحم الله امرءًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى**».

فالإنسان كلما كان أسمح فى بيعه وشرائه، وتأجيره، واستئجاره، ورهنه، وارتهانه وغير ذلك فإنه أفضل... قال الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[هود: ٨٥].

أوفوا المكيال: أى ما تبيعونه كيلًا... والميزان: ما تبيعونه وزنًا، أوفوه ولا تنقصوا منه شيئًا.

وهذا دليل على: أن الوفاء فى العقود مما قد جاء فى الشرائع السماوية السابقة..وقد نهى الحق (جل وعلا) عن التطفيف فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾

أى هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بيَّن أوصافهم القبيحة بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أى إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيًا كاملًا لأنفسهم ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أى وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، ينقصون الكيل والوزن...قال المفسرون: نزلت فى رجل يُعرف بـ«أبى جهينة» كان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطى بالآخر، وهو وعيدٌ لكل مَن طفَّف الكيل والوزن، وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان..وفى الحديث «**ولا طففوا الكيل إلَّا مُنعوا النبات وأُخذوا بالسنين**»[١] ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى ألا يعلم ويستيقن أولئك المطففون أنهم سيُبعثون ليومٍ عصيب، شديد الهول كثير الفزع؟! ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أى يوم يقفون فى المحشر حُفاةً عُراةً، خاشعينْ خاضعين لرب العالمين...قال فى البحر: وفى هذا الإنكار والتعجيب، ووصف اليوم بالعِظَم، وقيام الناس لله خاضعين، ووصفهُ برب العالمين، دليلٌ على عِظَم هذا الذنب وهو التطفيف[٢]، وفى الحديث عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أُذنيه[٣].

***

(١٣٧٥) وعن أبى هُريرة رضي الله عنه، أَنَّ رجُلًا أتى النبىَّ ﷺ يتقاضَاهُ فأغْلَظَ لَهُ، فهمَّ بِهِ أصحابُهُ، فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «دَعُوهُ فإنَّ لصَاحِبِ الحقِّ مقَالًا» ثُمَّ قال: «أعطُوه سِنًّا مِثْلَ سِنِّه» قالوا: يا رسولَ الله لا نَجِدُ إلا أمْثَل مِنْ سِنِّهِ، قال: «أعطُوهُ فإنَّ خَيْرَكُم أحسنُكُمْ قَضَاءً»[٤].

۞ لقد كان من أخلاق النبى ﷺ السهولة والتيسير..فقد كانْ أحسن الناس

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٤٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٣٨) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٦٢) كتاب الجنة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٠٦) كتاب الوكالة - ومسلم (١٦٠١) كتاب المساقاة.

قضاءً ولذلك أخبر أبو هريرة في هذا الحديث: (أن رجلًا أتى النبي ﷺ يتقاضاه)، والنبي ﷺ كان يستدين؛ لكثرة الضيوف الذين ينزلون عليه وكثرة أهل الحاجة...ولا يوجد بيت مال عند النبي ﷺ حتى ينفق منه، ولهذا كان يستدين، ويقضي مما آتاه الله عَزَّوَجَلَّ من رزقٍ...قال (عليه الصلاة والسلام): «**جُعل رزقي تحت ظل رُمحي**»، فماله ﷺ من الفيء ومن المغانم..كان يعطي منه لأهله النفقة الواجبة، وينفق على الناس (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان لا يعطي أهل بيته صدقات ولا زكوات؛ لأنهم لا يحل لهم منها شيء، وكان يوزع الغنائم للناس الذين يأتون يطلبون منه.

فجاء رجل قد استلف منه النبي ﷺ بكرًا - ناقة صغيرة- فجاء ليتقاضاه ويطلب من النبي ﷺ فأغلظ على النبي ﷺ فهمَّ به أصحابه... أي: أن هذا الرجل جاء للنبي ﷺ يطلب ما عليه بطريقة سيئة، فحاول النبي ﷺ أن يُهدئ هذا الرجل، فإذا بالرجل يَتَطاول على النبي ﷺ ويقول: يا محمد! اقضِ ما عليك، فإنكم - يا بني عبد المطلب- قومٌ مُطلٌ -أي: أُناسٌ مُماطلون -... والأعراب كما نعلم عندهم جفاء..فلما قال ذلك قام الصحابة ليضربوه، فهدَّأ الرسول عليه الصلاة والسلام الصحابة وقال لهم: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا....**» صحيح أنه أساء الأدب ولكنه صاحب حق فاصبروا عليه.... وقد يكون لهذا الرجل الحق لو ماطل النبي ﷺ.. ولكن النبي ﷺ لم يُماطل حتى يتكلم الرجل بهذه الطريقة .. وحاشا للنبي ﷺ أن يُماطل.. فلقد أخذ النبي ﷺ تلك الناقة من هذا الرجل ليُعطيها لرجل آخر كان مُحتاجًا إليها ... ولو كانت عند النبي ﷺ لأعطاها له في التوِّ واللحظة.

۞ هكذا صبر النبي ﷺ وأرانا حُسن خُلقه ﷺ ، بل أعظم من ذلك أنه يعذر مثل هذا الإنسان المتهجم عليه بالكلام القبيح، ويقول: لا بأس إنه صاحب حق وله مقال...وليس من حق هذا ولا غيره أن يقول للنبي ﷺ ذلك، ولكن النبي

ﷺ بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ...فصبر عليه وأمرهم أن يوافقوه وأن يؤدوا له الذى يريده فقال ﷺ: «**أعطوه سنًّا مثل سِنِّه**».

ويُطلَق على الجمل أو الناقة عندما تبلغ سنة بنت مخاض، أو بنت لبون وهى التى تبلغ من العمر سنتين، أو حقة وهى التى تبلغ ثلاث سنوات، وجذعة عندما تبلغ أربع سنوات..وهكذا، فإذا زادت فى السن تكون أغلى فى السعر.

فهذا الرجل أقرض النبى ﷺ سِنًّا مُعينًا فقال: «**أعطوه سنًّا مثل سِنِّه**»، فقالوا: لا نجد إلا أمثل من سِنِّه، أى: الذى عندنا أحسن من الذى أعطاه لنا...وكأنهم نظروا أنه لا يستحق؛ لأنه قليل الأدب، فلا يستحق أن نعطيه أحسن مما أعطى للنبى ﷺ ... فإذا بالنبى ﷺ يقول: «**أعطوه؛ فإن خيركم أحسنكم قضاءً**»، فأرانا حُسن خلقه ﷺ مع هذا الإنسان السيئ، وأرانا حلمه مع هذا الإنسان المتهور المتعجل، وأرانا حُسن القضاء مع هذا الذى يُعسر فى طلب الحق الذى له... فأرانا النبى ﷺ بعمله وخُلقه أن الإنسان يتجاوز لعل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يتجاوز عنه.

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِيهَا أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ مِنْ قَرضٍ وَغَيْرِهِ أَنْ يَرُدَّ أَجْوَدَ مِنَ الَّذِى عَلَيْهِ وَهَذَا مِنَ السُّنَّةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَرضٍ جَرَّ مَنْفَعَةً فَإِنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ..لِأَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ مَا كَانَ مَشْرُوطًا فِى عَقْدِ الْقَرضِ .. وَمَذْهَبُنَا أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الزِّيَادَةُ فِى الْأَدَاءِ عَمَّا عَلَيْهِ وَيَجُوزُ لِلْمُقْرِضِ أَخْذُهَا سَوَاء زَادَ فِى الصِّفَةِ أَوْ فِى الْعَدَدِ بِأَنْ أَقْرَضَهُ عَشَرَةً فَأَعطَاهُ أَحَدَ عَشَرَ(١).

يعنى إذا اقترضت من أحدٍ مائة جنيه ولم يشترط عليك أى شرطٍ بأن ترد إليه المال زائدًا.. بل تعامل معك معاملة حسنة عندما أعطاك المال... وعندما جاء ليطلب المال.. فأردت أنت من نفسك أن تكافئه فأعطيته مائة جنيه وهدية أخرى دون أن يشترط عليك أو يطلب منك ذلك.. فهذا جائز لا بأس به.. وهذا يندرج تحت قول النبى ﷺ: «**فإنَّ خَيْرَكُم أحسنُكُمْ قَضَاء**».

(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ٥٢).

(١٣٧٦) وعن جابر رضي الله عنه، أن رسُولَ الله ﷺ قالَ: «رَحِمَ الله رجُلًا سَمْحًا إذا بَاع، وإذا اشْتَرَى، وإذا اقْتَضى»(١).

۞ من المعلوم أن الرجل السمح يُحبه الناس وترتاح إليه قلوبهم ... بل ويَتعاملون معه بكل حُبٍّ.

وقد دعا رسول الله ﷺ بالرحمة للرجل السمح، فقال: «**رَحِمَ الله رجُلًا سَمْحًا إذا بَاع، وإذا اشْتَرَى، وإذا اقْتَضى**»، وفى رواية: «**وإذا قَضَى**».

هذا خبر بمعنى الدعاء.. يعنى يدعو له بالرحمة إذا كان سمحًا فى هذه المواضع الأربعة: سمحًا إذا باع لا يشتد على المشترى ويكون سهلًا يُواضعه ويضع عنه.. سمحًا إذا قضى، إذا قضى غيره كان سمحًا يعطيه فى وقته ولا يماطل، كذلك سمحًا إذا اشترى بألا يُكثر من الفصال ويُتعب البائع .. وكذلك سمحًا إذا اقتضى؛ إذا أخذ حقه، فهذه الأحوال الأربع ينبغى للإنسان أن يكون سمحًا فيها حتى ينال دعاء رسول الله ﷺ

۞ بل دعا النبى ﷺ بالجنة لمن كان سمحًا وسهلًا فى بيعه وشرائه.

عن عَطَاءُ بْنُ فَرُّوخَ مَوْلَى الْقُرَشِيِّينَ: أَنَّ عُثْمَانَ رضي الله عنه اشْتَرَى مِنْ رَجُلٍ أَرضًا، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَلَقِيَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ مِنْ قَبْضِ مَالِكَ؟ قَالَ: إِنَّكَ غَبَنْتَنِى، فَمَا أَلْقَى مِنَ النَّاسِ أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ يَلُومُنِى. قَالَ: أَوَ ذَلِكَ يَمْنَعُكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَاخْتَرْ بَيْنَ أَرضِكَ وَمَالِكَ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**أَدخلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ رَجُلًا كَانَ سَهْلًا مُشْتَرِيًا، وَبَائِعًا وَقَاضِيًا، وَمُقْتَضِيًا**»(٢).

۞ فاحرص على أن تكون سهلًا عند شرائك.. ولا تُتعب البائع فى كثرة الفصال.. وكُن سهلًا إذا كنت تبيع وكن رفيقًا بالناس ولا تُكثر عليهم فى ثمن

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٠٧٦) كتاب البيوع.

(٢) حسن: رواه أحمد، والنسائى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٣).

السلعة وتَجاوز عن بعض ثمنها إكرامًا لهم وتأليفًا لقلوبهم.. وإذا كان لك حق عند أحدٍ فاطلبه برفقٍ ورحمة وأدبٍ ولا تتعنت معه إن كان معذورًا وأنظره إن كان مُعسرًا لتفوز بدعاء النبى ﷺ لك بالرحمة فى الدنيا والآخرة.

(١٣٧٧) وعن أبى قتادَةَ رضي الله عنه، قالَ: سمِعتُ رسُول الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ الله مِن كُرَبِ يَوْمِ القِيامةِ، فَلْيُنَفِّسْ عنْ مُعسِرٍ أَوْ يَضَع عنْهُ»(١).

۞ ما أجمل أن يتراحم المسلمون فيما بينهم حتى تسود المحبة والأُلفة مجتمعاتنا الإسلامية ... والإسلام دائمًا يحضنا على التراحُم فيما بيننا ... فقد قال النبى ﷺ: «**إنما يرحم الله من عباده الرُّحماء**»(٢).

۞ وكان من صور التراحم بين المسلمين: إنظار المُعسر إلى ميسرة.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

۞ وقد أخبر النبى ﷺ أن الذى يقرض أخاه مالًا أنه يُكتب له كل يومٍ وكأنه تصدق عليه بنفس قيمة المال الذى أقرضه لأخيه... فإذا حَلَّ موعد أداء الدَّين فأنظره وأمهله فإنه يُكتب له كل يومٍ وكأنه تصدق عليه بضعف قيمة المال الذى أقرضه لأخيه.

عَنْ بُرَيدَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعسِرًا، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْم مثله صَدَقَةٌ قبل أن يحلَّ الدَّين، فإذا حَلَّ الدَّين فَأَنْظَرَهُ بعدَ حِلِّهِ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مثلاهُ صَدَقَةٌ**»(٣).

فلو أقرضت أخاك عشرة آلاف جنيه لمدة مائة يوم.. فكل يومٍ يمر من المائة يوم يُكتب لك كأنك تصدقت عليه بعشرة آلاف جنيه إلى أن تمر المائة يوم..

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٦٣) كتاب المساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٠٨).

فإذا جاء موعد أداء الدَّين وكان مُعسرًا ولم يستطع أن يدفع إليك مالك فأنظرته مائة يومٍ أخرى فإنه يُكتب لك في كل يومٍ كأنك تصدقت عليه بعشرين ألف جنيه.

۞ وفوق ذلك يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن مَن نفَّس عن مُعسرٍ.. أي: نفَّس له في الأجل بأن أنظره إلى وقتٍ آخر ليدفع ما عليه من الدَّين.. وبدأ النبي ﷺ بالأيسر وهو الإنظار إلى وقتٍ آخر.. ثم قال ﷺ: «**أَوْ يَضَعَ عنْهُ**» أي: يتنازل عن الدَّين.. ويجوز له إن وجد أخاه فقيرًا أن يتنازل له عن الدَّين ويعتبره من زكاة ماله أو حتى من الصدقات.. فإن فعل ذلك بأن نفَّس عنه أو وضع عنه فإن الله عز وجل يُفرج عنه كُربات يوم القيامة.. ويا له من أجرٍ عظيم.. فإن كُربات يوم القيامة يتمنى الإنسان لو يفتدي منها بملء الأرض ذهبًا وفضة.. فييُسر الله عز وجل لك ذلك بأيسر الأشياء.

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

أما إنظار المعسر فإنه واجب..يجب على الإنسان إذا كان صاحبُه معسرًا لا يستطيع الوفاء يجب عليه أن يُنظره ولا يحل له أن يكربه أو يطالبه... لقول الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ فهناك فرق بين الإبراء وهو إسقاط الدَّين عن المعسر وبين الإنظار... الإنظار واجب، والإبراء سُنة، ولا شك أن الإبراء أفضل؛ لأن الإبراء تَبرأ به الذمة نهائيًا، والإنظار تبقى الذمة مشغولة.. لكن صاحب الحق لا يُطالب به حتى يستطيع المطلوب أن يوفي... وبعض الناس - نسأل الله العافية - تحل لهم الديون على أُناسٍ فقراء فيؤذونهم ويضربونهم ويطالبونهم ويدفعون بهم إلى ولاة الأمور ويحبسونهم عن أهليهم وأولادهم وأموالهم.

وهذا لا شك أنه منكر ... والواجب على القُضاة إذا علموا أن هذا معسر لا يستطيع الوفاء، فالواجب عليهم أن يقولوا للدائن ليس لك حق في مطالبته؛ لأن الله تعالى هو الحاكم بين العباد وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ

مَيْسَرَةٍ﴾ لكن يتعلل بعض القضاة في هذه المسألة، يقولون: إن بعض المدينين يتلاعبون بالناس فيأخذون الأموال ويدَّعون الإعسار، فيعاملونهم بهذا تنكيلًا بهم...

نعم إذا ثبت أن هذا المدين يدَّعى الإعسار وليس بمعسرٍ فإنه لا بأس أن يُجبَر ويُحبَس ويُضرب حتى يُوفى فإن لم يفعل فإن الحاكم يتولى بيع ما شاء من ماله ويُوفى دَينه. أما الذى نعلم أنه مُعسر حقيقة فإنه لا يجوز لطالبه أن يطالبه ولا أن يقول: أعطنى، بل يجب أن يُعرض عنه بالكلية ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ والله الموفق(١).

(١٣٧٨) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «كانَ رجلٌ يُداينُ النَّاسَ، وكان يَقُولُ لِفَتَاهُ: إذا أتَيْتَ مُعسِرًا فتجاوزْ عنهُ، لعلَّ الله أن يتجاوزَ عنَّا فَلَقِىَ الله فتجاوزَ عنه»(٢).

(١٣٧٩) وعن أبى مسْعُودٍ البدرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كان قبلكم فَلَمْ يُوجد لهُ مِن الخَير شىءٌ إلا أنَّه كان يُخالطُ النَّاس، وكان مُوسِرًا، وكان يأمُرُ غِلْمانَه أن يتَجاوَزُوا عن المُعسِر... قال الله عَزَّ وَجَلَّ: نحنُ أحقُّ بذلكَ مِنْهُ، تجاوَزُوا عنهُ»(٣).

(١٣٨٠) وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أُتِىَ الله تعالى بِعَبْدٍ من عِبادِهِ آتاهُ الله مالًا، فقال له: ماذا عَمِلْتَ فى الدُّنْيا؟ قال: ـ ولا يكتُمُونَ الله حديثًا ـ قال: يا ربِّ آتيْتَنى مالَكَ فكُنْتُ أُبايعُ النَّاسَ، وكانَ مِن خُلُقى الجوازُ، فكُنْتُ أتيَسَّرُ على المُوسِرِ، وأُنْظِرُ المُعسِر. فقال الله تعالى: أنا أحقُّ بذا مِنْكَ، تجاوزُوا عن عَبْدِى» فقال عُقْبَةُ

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٢٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٨٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٥٦٢) كتاب المساقاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٥٦١) كتاب المساقاة.

ابنُ عامرٍ، وأبو مَسْعودٍ الأنصارى رضي الله عنهما: هكذا سَمِعناهُ مِن فِيِّ رسُولِ الله ﷺ(١)

وفى رواية عند البخارى: عن حُذيْفَة قـالَ: سَمِعتُ رسـول الله ﷺ يَقُـولُ: «إِنَّ رَجُلًا كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَتَاهُ المَلَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعلَمُ، قِيلَ لَهُ: انْظُر، قَالَ: مَا أَعلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّى كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ فِى الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ، فَأُنْظِرُ المُوسِرَ، وَأَتَجَاوَزُ عَنِ المُعسِرِ، فَأَدخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ»(٢).

۞ فهذه الأحاديث الثلاثة تحكى قصة متقاربة من بعضها البعض.. فهى تحكى قصة رجل لم يجد عملًا صالحًا عمله عندما جاءته ملائكة الموت تنزع روحه إلا أنه كان يتجاوز فى مبايعته عمن يبايعهم.. فإذا دَاين الناس، وحَلَّ الأجل، فيُنظر الموسر إلى أن يجد سَدادًا، ويتجاوز عن المُعسر، وكان يرجو من وراء عمله أن يتجاوز الله عنه، فتجاوز الله عنه، وغفر له ذنوبه بتجاوزه فى تعامُله.

۞ لقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أن العبد عندما ينزل به الموت، ويحين أجله، تتنزل عليه الملائكة... أما المؤمن فإنها تُبشِّره، وأما الكافر فإنها تسأله وتوبِّخه وتُعذِّبه، وتُبشِّره بالنار... قال تعالى فى حق المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال فى حق الكفرة المجرمين عندما يكونون فى النزع: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الأنعام:٩٣].

ويُحدثنا رسولنا ﷺ فى هذا الحديث عن رجلٍ ممن كان قبلنا أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فسألته الملائكة عن أعماله الخيِّرة التى عملها فى دُنياه، فلم يجد لنفسه عملًا من أعمال الخير... فلما أجاب بالنفى، طلبوا منه أن يُمعن

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٦٠) كتاب المساقاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٤٥١) كتاب أحاديث الأنبياء.

النظر، فلم يجد لنفسه عملًا خيِّرًا إلا أنه كان يعمل تاجرًا، فيُوصى فتيانه الذين يعملون عنده أن يُنظروا الموسر، ويتجاوزوا عن المعسر، وكان يُعلِّل لهم ما يأمرهم به قائلًا: لعل الله يتجاوز عنا، فحقَّق الله رجاءه فيه فتجاوز عنه، وغفر له.

إنَّ هذا النمط من التعامل يمثل النمط الذى يُريده الإسلام، وهو يقوم على التساهل فى البيع والشراء والتسامح حين التعامل، وإنظار الموسرين، والتجاوز عن المعسرين... وقد دعا الرسول ﷺ لمن يتصف بهذه الصفات فقال: «**رَحِمَ الله عَبْدًا سَمْحًا إذا بَاعَ، سَمْحًا إذا اشْتَرَى، سَمْحًا إِذَا قَضَى، سَمْحًا إذا اقْتَضى**»[1].

۞ فالرجل كان فى قلبه رحمة لكل مَن حوله.. فكان يتيسر على الموسر - أى الغنى - وهو يعلم أنه يمتلك مالًا ويستطيع السداد.. ومع ذلك كان يتجاوز عن بعض ما عنده وكان يُؤجله أحيانًا ويلتمس له الأعذار..

وكان يُنظر المعسر الفقير فيمد له فى الأجل.. فإذا حان وقت السداد ولم يكن عنده مال أمهله مُدة أخرى ولم يطالبه حتى يدفع هو بنفسه ما عليه بنفسٍ طيبة.

فقال له الله عَزَّوَجَلَّ: «**أنا أحقُّ بذا مِنْكَ، تجاوزُوا عن عَبْدِى**»... وفى رواية: «**فَأَدخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**» فيا ليتنا نتراحم فيما بيننا حتى نفوز برحمة الله ورضوانه وجنته.

(١٣٨١) وعن أبى هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**مَن أنْظَرَ مُعسِرًا أوْ وضَعَ لَهُ، أظلَّهُ الله يوْمَ القيامَةِ تَحتَ ظِلِّ عَرشِهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ**»[2].

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن «**مَن أنْظَرَ مُعسِرًا**» أى: أمهله فى سداد الدَّين ولم يُضيق عليه .. بل إنه بمجرد أن علم أنه لن يستطيع السداد أعطاه مُهلة أخرى وأمهله حتى يتمكن من سَداد الدَّين.

---

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٢٣٨-٢٣٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٠٧).

«أَوْ وضَعَ لَهُ» أى: تنازل عن الدَّين ولم يُطالبه بشىءٍ لأنه وجد أنه فقير وليس عنده ما يسد به الدَّين..

۞ أخبر النبى ﷺ أن مَن فعل واحدة منهما: «أَنْظَرَ مُعسِرًا أَوْ وضَعَ لَهُ» فإنه يفوز بأعظم مكافأة يُكافأ بها العبد يوم القيامة.. وذلك بأن يُظله الله عَزَّوَجَلَّ فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله..

فالناس يوم القيامة يُحشرون حُفاة عُراةً غُرلًا ويقفون فى أرض المحشر وقد دَنَتِ الشمس فوق الرؤوس بمقدار ميل.. ويفيض العرق على أجسادهم.. فمنهم مَن يبلغ العرق إلى كعبيه ومنهم مَن يصل إلى رُكبتيه.. ومنهم مَن يصل إلى حِقويه.. ومنهم مَن يُلجمه العرق إلجامًا... وفى نفس اللحظة فهناك صنفٌ كريم من الناس يجلسون فى ظل عرش الرحمن.. منهم الذى يُنظر مُعسرًا.. والذى يضع عن المُعسر.. وهذا كله بالإضافة إلى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله كما جاء فى الحديث الآخر.

فمن أراد أن يكون يوم القيامة فى ظل عرش الرحمن (جل وعلا) فليحرص على أن يُنظر معسرًا أو يضع عن مُعسرٍ.. أسأل الله أن يفرج هموم المسلمين وأن يوسع أرزاقهم.

❊ ❊ ❊

(١٣٨٢) وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النبيَّ ﷺ اشْتَرى مِنْهُ بَعِيرًا، فوَزَنَ لهُ، فأَرجَحَ[١].

۞ هذا الحديث له قصة عجيبة:

ففى إحدى الغزوات خرج جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع النبى ﷺ ولكنه كان يعانى من مشكلة كبيرة ألا وهى: أن جَمَله تَعِب وأصبح بطيئًا جدًّا.. فحزن جابر حُزنًا شديدًا لذلك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٠٤) كتاب الهبة - ومسلم (٧١٥) كتاب صلاة المسافرين.

فأقبل عليه النبى ﷺ وقال له: «**ما شأنك يا جابر؟**».

قال جابر: تعب جملى وأصبح بطيئًا فتخلفت عن الناس.

فنزل النبى ﷺ وغمز جمل جابر بعصا معوجة ثم قال لجابر: «اركب».

فركب جابر جَمَله فوجده سريعًا حتى أنه كان يمنعه من الجرى حتى لا يسبق جَمَل رسول الله ﷺ.

۞ وها هى القصة من خلال هذا الحديث:

ففى الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنت مع النبى ﷺ فى غزاة فأبطأ بى جملى وأعيا فأتى علىَّ النبى ﷺ فقال: «**جابر؟**» فقلت: نعم. قال: «**ما شأنك؟**» قلت: أبطأ علىَّ جملى وأعيا[١] فتخلفت فنزل يحجنه بمحجنه[٢] ثم قال: «**اركب**» فركبته فلقد رأيته أكفُّه[٣]، عن رسول الله ﷺ[٤].

قلت: ولا عجب فى ذلك فالكون كله يعرف أنه رسول الله ﷺ إلا عُصاة الإنس والجن.

فلما عاد النبى ﷺ وزن له الثمن وأرجح له.. كرمًا منه ﷺ..يعنى أرجح الوزن لأنهم كانوا فيما سبق يتعاملون بالنقود وزنًا لا عددًا وإن كانوا يتعاملون أيضًا بها عددًا، لكن أكثر التعاملات كانت وزنًا كما جاء فى الحديث: «**ليس فيما دون خمس أواقٍ صدقة**»[٥]. فوزن له النبى ﷺ وأرجح يعنى زاده أكثر مما يستحق، وهكذا ينبغى للإنسان عند الوفاء أن يُوفى كاملًا بدون نقص وإذا زاد فهو أفضل.

---

(١) أعيا: أى تعب.

(٢) أى يغمزه بالمحصبة وهى العصا المعوجة.

(٣) أكفه: أى أمنعه من أن يسبق رسول الله ﷺ، فبعد أن كان بطيئًا أصبح مسرعًا لدرجة أنى أمنعه من أن يسبق جمل رسول الله ﷺ.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٩٧) كتاب البيوع، ومسلم (٧١٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٨٤) كتاب الزكاة، ومسلم (٩٧٩) كتاب الزكاة.

۞ بل لقد ورد أن النبى ﷺ بعد أن أعطاه الثمن وزاده فيه .. نادى عليه وأعطاه الجمل أيضًا هدية منه ﷺ لجابر.

فيا ليتنا نتعلم الكرم والسماحة من أسوتنا وقدوتنا وحبيبنا محمد ﷺ.

(١٣٨٣) وعن أبى صَفْوان سُوْيدِ بنِ قَيْس رضي الله عنه، قال: جَلبْتُ أنا ومَخْرَمةُ العبدىُّ بَزًّا مِن هَجَر، فجاءنَا النَّبىُّ ﷺ، فساومنَا بسراويلَ، وعنْدِى وَزَّانٌ يَزِنُ بالأجْرِ، فقال النبىُّ ﷺ للوَزَّانِ: «زِنْ وأرجِح»(١).

۞ وفى هذا الحديث يحكى سويد بن قيس رضي الله عنه أنه كان يتاجر هو ومَخرمة العبدى فى الثياب.. فكانا يشتريان البَزَّ -وهى الثياب أو متاع البيت من الثياب- من هجر.. وهى موضع قريب من المدينة.. وقيل: هى بلدٌ باليمن....

قال سويد بن قيس رضي الله عنه: فجاءنا النبى ﷺ فاشترى منا سراويل .. قال سويد: وعندى وزَّان يَزِنُ بالأجر.. أى: كان عنده رجل يزن الدنانير والدراهم مقابل أجرٍ يسيرٍ يأخذه.. فلما أراد أن يَزِنَ للنبى ﷺ ثمن السراويل وإذا بالنبى ﷺ يقول له: «زِنْ وأرجِح» وذلك من أجل أن يعطيه النبى ﷺ ثمن السراويل بزيادة.... كرمًا منه ﷺ.

فهنا يعلمنا النبى ﷺ أن نكون كُرماء عند الشراء.. فلا نُتعب البائع بل نُعطيه فوق ما يريد ليرى منا السماحة فى البيع والشراء.. لنفوز بدعاء النبى ﷺ: «**رَحِمَ الله رجُلًا سَمْحًا إذا بَاع، وإذا اشْترَى**».

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٧٤).

(١٢) كتاب العلم

(٢٤١) باب فضل العلم تعلُّمًا وتعليمًا لله

۞ قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

۞ قال المؤلف الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ فى كتابه رياض الصالحين: باب فضل العلم تَعَلُّمًا وتَعلِيمًا لله عَزَّوَجَلَّ.. والمراد بالعلم الذى وردت به النصوص فى فضله والثواب عليه ورفعة أهله وكونهم ورثة الأنبياء، إنما هو علم الشريعة عقيدة وعملًا، وليس علم ما يتعلق بالدنيا كالحساب والهندسة، وما أشبه ذلك..المراد بالعلم: العلم الشرعى؛ الذى جاءت به الشرائع ... هذا هو العلم الذى يُثنى على مَن أدركه وعلى مَن عَلِمَه وتعلمه.

ففضل العلم عظيم لا يعلم قدره إلا الله (جل وعلا).

فعندما خلق الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلَّمه الأسماء كلها ثم أراد بعد ذلك أن يُظهر لملائكته فضل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فأظهر لهم أحسن ما فيه -وهو علمه- فدلَّ ذلك على أن العلم أشرف ما فى الإنسان بعد إيمانه بالله (سبحانه وتعالى).

فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتفوق على الملائكة بكثرة الصلاة ولا بطول القيام ولا بكثرة الصيام والذكر والتسبيح... فتلك العبادات قد تفوقت فيها الملائكة على سائر المخلوقات ... وإنما تفوق عليهم بالعلم.

۞ فلما أنعم الله على آدم بالعلم جعله خليفة فى الأرض وأسجد له ملائكته ورفعه فوق مصافِّ الملائكة وفضَّله عليهم.

۞ ولم يكن الاحتفال بقيمة العلم منذ خلق آدم عليه السلام بل كان ذلك قبل خلقه بكثير.. فإن الله عز وجل بعدما خلق العرش خلق القلم الذى هو أداة العلم فى كل زمانٍ ومكان.

قال ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ القَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**»[1].

وقال ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّى**»[2].

۞ فلم يكن العلم أمرًا على هامش الحياة بل كان وسيظل أمرًا محوريًّا فى هذه الحياة الإنسانية إلى قيام الساعة.

۞ بل إنه (سبحانه وتعالى) لما أراد أن يُظهر فضل يوسف عليه السلام على أهل ذلك الزمان أظهر للملك ولأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير فى عصره.. فعند ذلك قدَّمه الملك ومكَّنه وسلَّم إليه خزائن الأرض.

۞ وعند بداية ظهور الإسلام كانت الحقيقة الكبرى التى ظهرت فى الأرض عند نزول جبريل عليه السلام لأول مرة على رسول الله ﷺ أن هذا الدين العظيم (الإسلام) دينٌ يقوم على العلم ويرفض الخُرافات والضلالات والأوهام جُملة وتفصيلًا.

فقد كان أول ما نزل على النبى ﷺ خمس آيات تتحدث كلها عن قضية واحدة.. ألا وهى قضية العلم.

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [القلم: ١-٥].

---

(١) صحيح: رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٨).

۞ لقد اختار الحق (جل وعلا) موضوعًا بعينه من بين آلاف المواضيع - ألا وهو العلم - مع أن الرسول ﷺ الذى يتنزل عليه القرآن أُمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب... ليكون ذلك دلالة على أن العلم هو مفتاح فهم الدين والدنيا والآخرة فى آنٍ واحد.

۞ ولم يكن العرب فى ذلك الزمان يهتمون بقضية العلم.. بل كانت الخرافات والأباطيل هى التى تحكم حياتهم من أولها لآخرها.. فكانوا يفتقرون إلى العلم إلا فى مجال الشعر والبلاغة ... فنزل القرآن يتحداهم فى المجال الذى برعوا فيه ويدعوهم للعلم بالجوانب الأخرى.

۞ واختار الحق (جل وعلا) فى تلك الآيات أصعب وسيلة للعلم وهى القراءة وذلك لأنها أرسخ من السماع أو النظر أو غيرهما...

۞ ولقد كان الإسلام بمثابة ثورة علمية فى بيئة ما تعودت على روح العلم ولا حَرصت عليه... حتى أن المرحلة التى سبقت نزول تلك الآيات كانت تُسمَّى باسم «الجاهلية».

ولعلكم تعجبون حينما تعلمون أن كلمة العلم بمشتقاتها قد وردت فى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٧٧٩) مرة... يعنى بمعدل سبع مراتٍ تقريبًا فى كل سورة.

أما السُّنة النبوية فإحصاء هذه الكلمة فيها يكاد يكون مستحيلًا.

۞ ولقد كان العلم صفة مُلازمة لكل الأنبياء والمرسلين.. وذلك لأن مهمتهم فى هذه الحياة أن يُخرجوا الناس من ظلمات الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان -بإذن الله عَزَّوَجَلَّ-. ولن يكون ذلك إلا من خلال ذلك العلم الذى يُنير القلوب بأنوار التوحيد والإيمان.

ومن هنا فقد جاء ذكر الأنبياء دائمًا مرتبطًا بالعلم.

فقد قال تعالى فى حق آدم عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

وقال فى حق لوطٍ عليه السلام: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال فى حق موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾.

[القصص: ١٤]

وقال فى حق يعقوب عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٨].

وقال فى حق يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف: ٢٢] .

وقال فى حق دواد وسليمان عليهما السلام: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾[الأنبياء: ٧٩] .

وقال فى حق عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾[المائدة: ١١٠] .

وقال كذلك فى حق رسولنا الكريم ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾[النجم: ٤-٥] .

وقال أيضًا: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ﴾ [النساء: ١١٣].

وقد روى البخارى عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّى لَأَرَى الرِّىَّ يَخْرُجُ فِى أَظْفَارِى، ثُمَّ أَعطَيْتُ فَضْلِى عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ**» قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**العِلْمَ**»[1] .

۞ ولقد مدح الله عز وجل الخضر عليه السلام ودلَّ موسى عليه السلام على مكان الخضر

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٠٤) كتاب التعبير.

ليذهب إليه وليتعلم منه جانبًا من العلم لا يعلمه هو.

فقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٥، ٦٦]

فرضي موسى عليه السلام وهو رسول من أُولي العزم الخمسة أن يكون تابعًا للخضر عليه السلام وهو نبيٌّ من الأنبياء من أجل أن يتعلم منه.. مع أن موسى عليه السلام أفضل منه وأعلى منه رُتبة ومكانة.

۞ بل لقد امتنَّ الله على الإنسان بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] ومع أن الله عز وجل خلق الإنسان أولًا ثم علَّمه القرآن إلا أنه قدَّم العلم أولًا لنعلم أن الإنسان إذا ترك العلم وغرق في الجهل فكأنه لم يُخلق بعد.... ثم قال تعالى بعد ذلك ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ وكأنه يخبرنا بأن العلم يحيط بحياة الإنسان من أولها إلى آخرها.

۞ ولقد نفى الله التسوية بين أهل العلم وغيرهم فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وأخبر أنه يرفع قدر أهل العلم ودرجاتهم فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

۞ واستشهد سبحانه بأُولي العلم على أجلِّ مشهود عليه وهو توحيده فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وهذا يدل على فضل العلم وأهله.

۞ وعدَّد نعمه وفضله على رسوله وجعل من أجلِّها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلَّمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]

۞ وأُمر النبيُّ ﷺ أن يسأله المزيد من العلم...فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

۞ ولقد أخبر الحق (جل وعلا) أن العلمَ حياةٌ ونورٌ.. وأن الجهلَ موتٌ وظُلمة ... والشر كله سببه عدم الحياة والنور ... والخير كله سببه النور والحياة فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. كان قلبه ميتًا بالجهل فأحياه بالعلم وجعل له من الإيمان نورًا يمشى به فى الناس.

۞ وأخبر أن الدنيا ملعونة إلا العلم وأهله.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا**»(١).

۞ وجعل العلم ميدانًا من أشرف ميادين التنافس بين البشر.

قال رسول الله ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِى بِهَا، وَيُعَلِّمُهَا**»(٢).

فأخبر ﷺ أنه لا ينبغى لأحدٍ أن يحسد أحدًا - يعنى حسد غبطة بأن يتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه - إلا فى واحدة من هاتين الخصلتين وهى الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله.

۞ وقد جعل الله عز وجل صيد الكلب الجاهل ميتة يَحرُم أكلها وأباح صيد الكلب المُعلَّم ... وهذا أيضًا من شرف العلم أنه لا يُباح إلا صيد الكلب العالم وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده ... فدلَّ على شرف العلم وفضله.

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه والطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

۞ وأخبر النبي ﷺ أن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاثٍ - كان من بينها العلم -.

قال رسول الله ﷺ: « **إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَهُ** »[١].

۞ وأخيرًا.. فلقد أخبر النبي ﷺ أن العلم طريقٌ إلى الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ** »[٢].

وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل فكما سلك طريقًا يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقًا يحصل له ذلك.

۞ ومن هنا كان النبي ﷺ يحرص كل الحرص على أن يطلب المزيد من العلم ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[طه: ١١٤] وكان يحرص على أن يُعلم أصحابه[٣].

۞ وطلب العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام: فرض عين، وفرض كفاية، وسُنة.

أما فرض العين: فهو علم ما تتوقف العبادة عليه. يعني العلم الذي لا يسع المسلم جهله، مثل العلم بالوضوء، بالصلاة، بالزكاة، بالصيام، بالحج، وما أشبه ذلك. فالذي لا يسع المسلم جهله، فإن تَعلُّمه يكون فرض عين. ولهذا نُوجب على هذا الشخص أن يتعلم أحكام الزكاة؛ لأنه ذو مال، ولا نُوجب على الآخر أن يتعلم أحكام الزكاة؛ لأنه ليس ذا مال...كذلك الحج: نُوجب على هذا أن يتعلم أحكام الحج؛ لأنه سوف يحج، ولا نوجب على الآخر أن يتعلمها؛ لأنه ليس عندهُ استطاعة لأن يحج.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) من مقدمة الشيخ محمود المصري في كتاب «علماء التابعين» (ص ٨-١٤).

أما فرض الكفاية: فهو العلم الذى تُحفظ به الشريعة..يعنى هو العلم الذى لو تُرك لضاعت الشريعة، فهذا فرض كفاية، إذا قام به مَن يكفى سقط عن الباقين، فإذا قُدر أن واحدًا فى البلد قد قام بالواجب فى هذا الأمر وتعلم، وصار يفتى ويُدرِّس ويعلم الناس فى هذه الحال صار طلب العلم فى حق غيره سُنة، وهو القسم الثالث.

إذًا... طالب العلم يدور أجره بين أجر السُّنة، وأجر فرض الكفاية، وأجر فرض العين. والمهم أنه لا يمكن أن نحافظ على السُّنة وآدابها إلا بعد معرفة السُّنة وآدابها[1].

والعلم جهاد فى سبيل الله، وعليه يُبنى الجهاد وسائر الإسلام؛ لأن مَن لا يعلم لا يمكن أن يعمل على الوجه المطلوب... ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

يعنى لولا نفر بالجهاد من المؤمنين من كل فرقة منهم طائفة، وقعدت طائفة أخرى ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .. أى رجعوا من الغزو لعلهم يحذرون. فجعل الله تعالى الفقه فى دين الله مُعادلًا للجهاد فى سبيل الله، بل أَولَى منه...لأنه لا يمكن أن يجاهد المجاهد ولا أن يصلى المصلى ولا أن يُزكى المُزكى ولا أن يصوم الصائم ولا أن يحج الحاج ولا أن يعتمر المعتمر ولا أن يأكل الآكل ولا أن يشرب الشارب ولا أن ينام الإنسان ولا أن يستيقظ إلا بالعلم.. فالعلم هو أصل كل شىء ولذلك قال النبى ﷺ: **«مَن يُرد الله به خيرًا يُفقهه فى الدين»**[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٣٢) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١) كتاب العلم، ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

ولا فرق بين المجاهد الذى يُسوى قَوسه، وبين طالب العلم الذى يستخرج المسائل العلمية من بطون الكتب... كُلٌّ منهم يعمل للجهاد فى سبيل الله وبيان شريعة الله لعباد الله. ولهذا أعقب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ باب الجهاد بباب العلم، ليبين أنه مثله... بل إن بعض العلماء فضَّله على الجهاد فى سبيل الله.

والصحيح أن فى ذلك تفصيلًا، فمن الناس مَن يكون الجهاد فى حقه أفضل، ومن الناس مَن يكون طلب العلم فى حقه أفضل. فإذا كان الرجل قويًّا شجاعًا مقدامًا؛ لكنه فى العلم بضاعته مُزجَاة، قليل الحفظ قليل الفهم يَصعُب عليه تَلقِّى العلم، فهنا نقول: الجهاد فى حقه أفضل، وإذا كان بالعكس رجل ليس عنده تلك القوة البدنية أو الشجاعة القلبية لكن عنده حفظًا وفهمًا واجتهادًا فهذا طلب العلم فى حقه أفضل..فإن تساوى الأمران فإن من أهل العلم مَن رجَّح طلب العلم؛ لأنه أصل؛ ولأنه ينتفع به الناس كلهم القاصى والدانى، وينتفع به مَن كان حيًّا ومَن يُولد بعد، وينتفع به صاحبه فى حياته وبعد مماته..كما قال النبى ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثٍ: صدقة جارية، وعلم يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**»[1]. وجميع الناس محتاجون للعلم: الأنبياء وغير الأنبياء كلهم محتاجون للعلم ولهذا أمر الله نبيه أن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾...فالرسل محتاجون إلى العلم والزيادة فيه، وإلى سؤال الله عَزَّوَجَلَّ أن يزيدَهم منه..فمَن دون الأنبياء من باب أَولَى...فجدير بالعبد أن يسأل الله دائمًا أن يزيده من العلم ولكن إذا سأل الله أن يزيده من العلم فلا بد أن يسعى فى الأسباب التى يُحصل بها العلم، أما أن يطلبه ويقول: رب زدنى علمًا وهو لم يفعل الأسباب فهذا ليس من الحكمة ولا من الصواب .... هذا كمن قال: اللهم ارزقنى ولدًا ولا يتزوج.. فمن أين يأتى هذا الولد؟ فلا بد إذا سألت الله شيئًا أن تسعى للأسباب التى

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

يحصل بها؛ لأن الله حكيم، قرن المسببات بأسبابها.. وفى هذه الآية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ دليل على فضل العلم..فإنه عَزَّوَجَلَّ لم يَقُل لنبيه: وقل رب زدنى مالًا، بل قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.وقال له فى أمور الدنيا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾أسأل الله تعالى أن يَمُنَّ علينا وعليكم بالعلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الله على بصيرة[1].

(١٣٨٤) وعن مُعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن يُرِد الله بهِ خيرًا يُفقِّهْهُ فى الدِّيْنِ»[2].

۞ هذا الحديث الشريف يدل على فضل العلم وطلبه.. علم شريعة المصطفى ﷺ الذى هو معرفة أصول الدين، وشرائع الإسلام، والأحكام الشرعية، وكل ما يُقرب من الله، ويباعد من سخطه..فشمل ذلك أركان الإسلام، وأركان الإيمان، والإحسان، كما جاء ذلك فى الصحيحين فى حديث جبريل المشهور، عندما سأل الرسول ﷺ عنها، فأخبره بها، ثم قال: **«هذا جبريل أتاكم يُعلمكم أمر دينكم»**.

وهذا الحديث يدل على أن من علامات إرادة الله بعبده الخير؛ أن يجعله فقيهًا فى أمور دينه... ولا شك أن الفقه فى الدين من أشرف الأعمال وأفضلها، وقد نوَّه الله بفضل العلماء، وقرن شهادتهم على توحيده، وأُلوهيته بشهادته وشهادة ملائكته، فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾[آل عمران: ١٨]، فبدأ سبحانه بنفسه، وثَنَّى بملائكته، وثلَّث بأهل العلم... وناهيك بهذا شرفًا وفضلًا..وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾[المجادلة: ١١].

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٢١-٣٢٢) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١) كتاب العلم، ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام».

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فإذا حصل للعبد الفقه فى الدين حصلت له سعادة الدنيا والآخرة... ولذلك دعا رسول الله ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، لما رأى عليه مخائل الذكاء والنجابة والمعرفة، فدعا له ﷺ فقال: «**اللهم فقِّهه فى الدين وعلِّمه التأويل**».

فالفقه فى الدين هو عنوان سعادة العبد، وأهم شىء معرفة أصول الدين وما يجوز على الله وما لا يجوز، ومعرفة أنواع التوحيد، والعلم بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق المدبر لجميع شؤون الخلق..ومعرفة توحيد الألوهية، وأن الله (جَلَّ وَعَلَا) هو المستحق للعبادة بجميع أنواعها، فلا يُصرف منها شىء لغير الله... لا مَلَك مُقرَّب، ولا نبى مُرسَل ... ويدخل فى توحيد الربوبية توحيد الأسماء والصفات، وأن يُوصَف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه نبيه ﷺ أعلم الخلق به، وأن يقفو أثر السلف بهذا، فلا يُكيف، ولا يُمثل، ولا يُشبه، ولا يُؤول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

وأمِرَّ آياتِ الصفات كما أتت   من غير تشبيهٍ ولا تأويلِ

فيثبت من الأسماء والصفات ما جاء فى القرآن الكريم أو فى السُّنة الصحيحة، وينفى عن الله ما نفاه الله، أو نفاه عنه رسوله ﷺ.. وما لم يَرِد ذِكْرُه فى القرآن أو السُّنة لا نفيًا ولا إثباتًا نسكت عنه، ولا نُثبته ولا نَنفيه..ولذلك كان من عمق علم السلف رحمهم الله وقوة فقههم أن نهوا عن التعرُّض لآيات الصفات بالتأويل، ونهوا عن السؤال عن كيفيتها..فلا يعلم كيفيتها إلا الله جل جلاله، كما أنه لا يعلم

كيفية ذاته إلا هو سبحانه، فكذلك لا يعلم كيفية صفاته إلا هو.

ولهذا لما قيل للإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أبا عبد الله، ما معنى الاستواء؟

قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، ولا أظنك إلا مبتدعًا... فأمر بإخراجه من مجلسه.

وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله ﷺ[1].

(١٣٨٥) وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا حَسَدَ إلا فى اثْنَتينِ: رَجُلٌ آتاهُ الله مالًا فسَلَّطَه على هَلَكتِهِ فى الحقِّ، ورَجُلٌ آتاهُ الله الحِكْمَةَ فهُوَ يَقْضى بِهَا، ويُعَلِّمُها»[2].

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٤٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٨٦) وعن أبى مُوسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالَ النبىُّ ﷺ: «مَثَلُ مَا بعثَنِى الله به مِن الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أصاب أرضًا، فكانَتْ مِنْها طائفَةٌ طيِّبَةٌ قَبِلَتْ الماءَ فأنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثير، وكانَ مِنْها أجادبُ أمسَكَت الماء، فنَفَعَ الله بها النَّاسَ، فشَربُوا مِنْها وسَقَوا وزَرعُوا، وأصاب طائفةً منها أُخرى إنَّما هى قِيعانٌ، لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلكَ مَثلُ مَنْ فَقُهَ فى دِينِ الله، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِى الله بِهِ فعلِمَ وعلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرفَع بذلكَ رأسًا، ولَمْ يَقبَل هُدَى الله الذى أُرسِلْتُ به»[3].

---

(١) من هدى المصطفى ﷺ/ الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص١٠٢-١٠٤) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين.
والمرادُ بالحسدِ: الغِبْطَةُ، وهو أنْ يتَمنَّى مِثْلَه.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٩) كتاب العلم، ومسلم (٢٢٨٢) كتاب الفضائل.

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٦٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٨٧) وعن سَهْلِ بن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لِعَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فوالله لأنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رجُلًا واحِدًا خَيْرٌ لكَ من حُمْرِ النَّعم»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٩٥)، (١٨٠) فأرجو الرجوع إليهما.. بارك الله فيكم.

(١٣٨٨) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بلِّغُوا عَنِّى ولَوْ آيةً، وحَدِّثُوا عنْ بنى إسرائيلَ ولا حَرَج، ومَن كَذَب علىَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّار»[٢].

۞ فالنبى ﷺ فى هذا الحديث يقول: «بلِّغُوا عَنِّى ولَوْ آيةً» والمقصود أنه ﷺ يأمرنا أن نُبلغ الناس بكل ما نتعلمه ونعرفه من هذا الدين العظيم وأن نُبلغ الناس بجميع أقواله ﷺ وأفعاله وسُنته.... لينتشر الخير ويَكثُر الصلاح والصالحون والمُصلحون فى هذا الكون.

وقوله ﷺ: «بلِّغُوا عَنِّى ولَوْ آيةً» من كتاب الله.. أى: لا يَقُل أحدكم: لن أدعو إلى الله إلا إذا صرت عالمًا كبيرًا.. بل عليك أن تبلغ ولو آية بشرط أن تكون عالمًا بها وبتفسيرها ومعناها... وإن كنت تُعلم الناس حديثًا من أحاديث الرسول ﷺ فلا بد أن تكون واثقًا أن هذا من كلام النبى ﷺ وأن تستوثق من صحة الحديث الذى تُبلغه للناس من حولك... والأمر الآن - ولله الحمد- أصبح سهلًا ميسورًا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢١٠) كتاب المغازى- ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء.

ولهذا قال بعدها ﷺ: **«ومَن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»** مَن كذب على الرسول متعمدًا يعلم أنه كاذب، فليتبوأ مقعده من النار..هنا اللام للأمر لكن المراد بالأمر هنا الخبر، يعنى فقد تبوأ مقعده من النار - والعياذ بالله - أى: فقد استحق أن يكون من ساكنى النار..لأن الكذب على الرسول ليس كالكذب على واحدٍ من الناس...الكذب على الرسول كذب على الله عَزَّوَجَلَّ، ثم هو كذب على الشريعة لأن ما يخبر به الرسول ﷺ من الوحى هو من شريعة الله وكذلك يُقال: الكذب على العالم ليس كالكذب على عامة الناس.

لأن العلماء ورثة الأنبياء يبلغون شريعة الله إرثًا لرسول الله ﷺ، فإذا كذبت عليهم، وقلت: قال العالم فلان كذا وكذا وأنت تكذب فهذا إثمه عظيم.

فالحاصل أن مَن كذب على الرسول ﷺ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار، ومَن نقل عَمدًا حديثًا كذبًا يعلم أنه كذب فهو أحد الكذابين...يعنى فليتبوأ مقعده من النار.

وما أكثر مَن ينشر من النشرات التى بها الترغيب أو الترهيب وهى مكذوبة على الرسول ﷺ ... لكن بعض المجتهدين الجُهَّال ينشرون هذه النشرات ويوزعونها بكمية كبيرة.. ويقولون: نعظ الناس بهذا... كيف تعظونهم بشىء كذب؟؟ ولهذا يجب الحذر من هذه المنشورات التى تُنشر فى المساجد أو تُعلق على أبواب المساجد أو غير ذلك، يجب الحذر منها، وربما يكون فيها أشياء مكذوبة فيكون الذى ينشرها قد تبوأ مقعده من النار إذا علم أنها كذب.

وقال فى حديث عبد الله بن عمرو: **«حدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»**، بنو إسرائيل: اليهود والنصارى إذا قالوا قولًا فحدِّث عنهم ولا حرج عليك؛ بشرط أن تعلم أنه لا يُخالف الشريعة..لأن بنى إسرائيل عندهم كذب، يحرفون الكلم عن مواضعه ويكذبون، فإذا أخبروك بخبر فلا بأس أن تُحدث به بشرط أن لا يكون مخالفًا لما جاء فى شريعة الرسول ﷺ ..فإن كان مخالفًا له فإنه لا يجوز

أن تُحدث إلا إذا حَدَّثت لتُبين أنه باطل فلا حرج، والله أعلم[١].

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مُعلقًا على قوله ﷺ: «**بلِّغُوا عَنِّي ولَوْ آيةً**» أن النبي ﷺ أمر بالتبليغ عنه ﷺ لما فِي ذَلِك من حُصُول الْهدى بالتبليغ...وَله أجر مَن بلَّغ عَنهُ وأجر مَن قَبِلَ ذَلِك الْبَلَاغ... وَكلما كَثُر التبلغ عَنهُ تضَاعف لَهُ الثَّوَاب... فَلهُ من الأجر بِعَدَد كل مُبلغ وكل مُهتدٍ بذلك الْبَلَاغ سوى مَا له من أجْرِ عمله الْمُخْتَص بِهِ... فَكل مَن هدى واهتدى بتبليغه فَلهُ أجره لأنه هُوَ الدَّاعِي إليه... وَلَو لم يكن فِي تَبْلِيغ الْعلم عَنهُ إلا حُصُول مَا يُحِبهُ لكفى بِهِ فضلًا... وعلامة الْمُحب الصَّادِق أن يسْعَى فِي حُصُول مَحبُوب محبوبه ويبذل جهده وطاقته فِيهَا... وَمَعلُوم أنه لَا شَيْء أحب إلى رَسُول الله من إيصاله الهدى إلى جَمِيع الأمة... فالمُبلغ عَنهُ ساعٍ فِي حُصُول مَحابِّه فَهُوَ أقْرب النَّاس مِنْهُ وأحبهم إليه وَهُوَ نَائِبه وخليفته فِي أمته وَكفى بِهَذَا فضلًا وشرفًا للْعلم وأهله[٢].

(١٣٨٩) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسُولَ الله ﷺ، قال: «..... **ومَن سَلَك طرِيقًا يَلْتَمِسُ فيهِ عِلْمًا، سهَّلَ الله لهُ بهِ طريقًا إلى الجنَّةِ**»[٣].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٥٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٩٠) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسُول الله ﷺ، قال: «**مَنْ دعا إلى هُدًى كانَ لهُ مِن الأجرِ مِثلُ أُجورِ مَنْ تَبِعهُ لا يَنْقُص ذلكَ من أُجورِهم شيئًا**»[٤].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٣٠) بتصرف.
(٢) مفتاح دار السعادة.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.
(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤) كتاب العلم.

(١٧٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٩١) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذا ماتَ ابْنُ آدم انْقطَع عَملُهُ إلا مِن ثلاثٍ: صَدَقَةٍ جارية، أوْ عِلمٍ يُنْتَفعُ بِه، أوْ وَلدٍ صالحٍ يدعُو له»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٩٥٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٩٢) وعنه قال: سمِعتُ رسُول الله ﷺ يقولُ: «الدُّنْيا ملْعُونَةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلا ذِكْرَ الله تعالى، وما والاهُ، وعالِمًا أوْ مُتَعلِّمًا»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٣٩٣) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَن خرَج فى طَلَبِ العِلْمِ، فهو فى سبيلِ الله حتى يرجِعَ»(٣).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١٣٩٤) وعن أبى سعيدٍ الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنْ رسُولِ الله ﷺ قالَ: «لنْ يَشبَع مؤمِنٌ مِن خَيْرٍ حتى يكون مُنْتَهاهُ الجنَّةَ»(٤).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٢) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٠٩).
قوله «وما والاهُ» أى: طاعةُ الله.

(٣) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٥٧٠).

(٤) ضعيف: رواه الترمذى، وابن حبان، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٧٨٣).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١٣٩٥) وعن أبى أُمامة رضي الله عنه، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «فضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلى على أدناكُم» ثُمَّ قال رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ الله وملائكتَهُ وأهْلَ السَّمواتِ والأرضِ حتَّى النَّمْلَةَ فى جُحرِها وحتى الحُوتَ ليُصَلُّونَ على مُعَلِّمى النَّاسِ الخَيْر»[1].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ بفضل أهل العلم الذين عاشوا من أجله وأخلصوا النية لله (جل وعلا) فقال ﷺ: «**فضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلى على أدناكُم**» أى: فضل العالم بالعلوم الشرعية.. بعلوم الكتاب والسُّنة .. فضله على العابد: أى الذى أقبل على العبادة ولم يتزود إلا بالقليل من العلم الشرعى.. «**كفَضْلى على أدناكُم**».

أَىْ نِسْبَةُ شَرَفِ الْعَالِمِ إِلَى شَرَفِ الْعَابِدِ كَنِسْبَةِ شَرَفِ الرَّسُولِ إِلَى شَرَفِ أَدْنَى الصَّحَابَةِ ... قَالَ القارئ: فِيهِ مُبَالَغَةٌ لَا تَخْفَى فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ: كَفَضْلِى عَلَى أَعْلَاكُمْ لَكَفَى فَضْلًا وَشَرَفًا[2].

ثم قال ﷺ: «**إنَّ الله وملائكتَهُ**» أى: أن الله عز وجل وملائكته الكرام «**وأهْلَ السَّمواتِ**» هذا تعميم بعد تخصيص.. لأن النبى ﷺ قال: «**إنَّ الله وملائكتَهُ**» ثم قال: «**وأهْلَ السَّمواتِ**» الذين هم أيضًا ملائكة.. فكأنه ﷺ يقول: إن الله وخواص الملائكة المقربين وسائر ملائكة السماوات السبع... وكذلك أهل الأرض «**حتَّى النَّمْلَةَ فى جُحرِها وحتى الحُوتَ ليُصَلُّونَ على مُعَلِّمى النَّاسِ الخَيْر**» وهذا يدل على مكانة العالم.. فالله عز وجل فاطر السماوات والأرض.. وملائكته الذين لا يُحصى

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢١٣).

(٢) تحفة الأحوذى (٧/ ١٠٠).

عددهم إلا الله يصلون على أهل العلم ويدعون لهم ويستغفرون لهم..

وقال النبي ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِط، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى**»(١).

فكل هؤلاء الملائكة يدعون ويستغفرون للعالِم.. وكذلك أهل الأرض جميعًا..«**حتَّى النَّمْلَةَ في جُحرِها وحتى الحُوتَ**» فذكر أصغر مخلوق وأكبر مخلوق.. وكأنه يقول: وما بينهما أيضًا من كل المخلوقات يدعون ويستغفرون للعالِم.

۞ ولا تستغرب أن تلك المخلوقات تستغفر الله عَزَّوَجَلَّ للعالِم..

لأن الله سبحانه وتعالى قال في القرآن الكريم على لسان موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] فالبهائم والحشرات تعلم ربها عَزَّوَجَلَّ وتعرفه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] كل شيء يُسبح بحمد الله حتى إن الحصى سُمع تسبيحه بين يدي النبي-وهو حصى.. لأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه..حتى إن الله قال للسماوات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فالكون كله يعرف ربه ويعبد ربه عَزَّوَجَلَّ.. كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، ولهذا الكافر لا يستجيب لله، ولا يسجد لله شرعًا وتعبُّدًا، لكنه يسجد لله ذُلًّا قدريًّا ما له مفر عما قضى الله... كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] والسجود هنا السجود القدري..فكل أحد خاضع لقدر الله، ما أحد يستطيع أن يُغالب الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

(١٣٩٦) وعن أبي الدرداءِ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقول: «مَن سلكَ طريقًا يَبْتَغِي فيهِ عِلْمًا سهَّلَ الله له طريقًا إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أجْنِحَتَها لطالبِ العِلْمِ رِضًا بما يَصنَعُ، وإنَّ العالِم ليَسْتَغْفِرُ لهُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حتَّى الحِيتانُ في الماءِ.. وفَضْلُ العَالِم على العابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ على سائرِ الكَواكِبِ، وإنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ، وإنَّ الأنبِيَاءَ لمْ يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرهَمًا وإنَّمَا ورَّثُوا العِلمَ، فمَنْ أخَذَهُ أخَذَ بِحظٍّ وافِرٍ»(١).

۞ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَن سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا من علوم الكتاب والسُّنة.. أو حتى من علوم الدنيا التي ينتفع بها الناس جميعًا في كل أقطار الأرض.. سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة.. وكلما ازداد الإنسان علمًا.. كلما كان الطريق إلى الجنة سهلًا ميسورًا.

۞ ثم ذكر النبي ﷺ أن ملائكة الرحمن تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع.. وياله من فضلٍ عظيم.. أن تضع الملائكة الكرام -الذين كرمهم الله عز وجل- أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع من حرصه على طلب العلم والسعي إليه والعمل به وتبليغه للناس.

۞ «**وإنَّ العالِم ليَسْتَغْفِرُ لهُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حتَّى الحِيتانُ في الماءِ**».. وقد ذكرنا ذلك في الحديث السابق وذكرنا مدى عِظَم عدد الملائكة في السماوات السبع.. وكلها تدعو وتستغفر للعالِم.. فيا له من فضلٍ عظيم.

۞ «**وفَضْلُ العَالِمِ على العابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ على سائرِ الكَواكِبِ**».. وقد قال النبي ﷺ في الحديث السابق: «**فضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلي على أدناكُم**».. فالنبي ﷺ أجمل من القمر.. والصحابة أجمل من الكواكب.

۞ ثم قال النبي ﷺ: «**وإنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ**» نعم.. العلماء ورثة الأنبياء..

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

ورثوا منهم العلم النافع.. وورثوا العمل الصالح كما يعمل الأنبياء.. وورثوا شرف الدعوة إلى الله.. وورثوا هداية الخلق ودلالتهم على طريق الجنة..

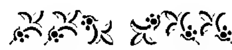
«وإنَّ الأنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرهَمًا وإنَّمَا ورَّثُوا العِلمَ، فَمَنْ أخَذَهُ أخَذَ بِحظٍّ وافِرٍ».

لقد توفى النبى ﷺ ولم يترك لفاطمة رضي الله عنها ولا لأقاربه درهمًا ولا دينارًا.. وهذا من حكمة الله عز وجل.. لأن النبى ﷺ لو ترك ثروة لابنته وأقاربه لقالوا: إنما ادَّعى النبوة ليجمع المال لكنه ﷺ لم يترك درهمًا ولا دينارًا.

وأما قول زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥،٦] فالمراد بذلك إرث العلم والنبوة وليس المال...فالأنبياء ما ورَّثوا درهمًا ولا دينارًا إنما ورَّثوا هذا العلم - صلوات الله عليهم - هذا أعظم ميراث، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر، أى بنصيبٍ وافرٍ كثير.

أليس الإنسان يسعى من شرق الأرض إلى مغربها من أجل أن يحصل على مالٍ خلَّفه أبوه له وهو متاع دنيا..فلماذا لا نسعى من مشارق الأرض ومغاربها إلى أخذ العلم الذى هو ميراث الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

جديرٌ بنا أن نسعى بكل ما نستطيع لأخذ العلم الموروث عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام-.



(١٣٩٧) وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «نَضَّرَ الله امرأً سَمِع مِنَّا شيئًا، فبَلَّغَهُ كما سَمِعَهُ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعى مِن سامِعٍ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يدعو النبى ﷺ بنضارة وحُسن وجه مَن يسمع أحاديث النبى ﷺ ويُبلغها لمن حوله لكى ينتفعوا بها.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٦٤).

فقال ﷺ: «نَضَّرَ الله امْرأً» أى: حسَّنه وجعل وجهه حسنًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢،٢٣] ناضرة يعنى حسنة.. إلى ربها ناظرة يعنى تنظر بالعين إلى الله عَزَّوَجَلَّ، جعلنا الله وإياكم منهم.. وكذلك أيضًا قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أى حُسنًا وسرورًا.. حُسنًا فى الوجوه وسرورًا فى القلوب.

۞ «سَمِع مِنَّا شيئًا»: قَالَ الطِّيبِىُّ: يَعُمُّ الْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ الصَّادِرَةَ مِنَ النَّبِىِّ ﷺ وَأَصحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَدُلُّ عَلَيْهِ صِيغَةُ الْجَمْعِ فِى مِنَّا.

قُلْتُ: الظَّاهِرُ عِنْدِى أَنَّ الْمَعنَى مَنْ سَمِعَ مِنِّى أَوْ مِنْ أَصحَابِى حَدِيثًا مِنْ أَحَادِيثِى...«فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ» أَىْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ ... وَخَصَّ مُبَلِّغَ الْحَدِيثِ كما سَمِعَهُ بِهَذَا الدُّعَاءِ لِأَنَّهُ سَعَى فِى نَضَارَةِ الْعِلْمِ وَتَجْدِيدِ السُّنَّةِ فَجَازَاهُ بِالدُّعَاءِ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَهُ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ الْحَدِيثِ وَفَضْلِهِ وَدَرَجَةِ طُلَّابِهِ حَيْثُ خَصَّهُمُ النَّبِىُّ ﷺ بِدُعَاءٍ لَمْ يُشْرَكْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَّةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِى طَلَبِ الْحَدِيثِ وَحِفْظِهِ وَتَبْلِيغِهِ فَائِدَةٌ سِوَى أَنْ يَسْتَفِيدَ بَرَكَةَ هَذِهِ الدَّعوَةِ الْمُبَارَكَةِ لَكَفَى ذَلِكَ فَائِدَةً وغُنمًا.

۞ «فَرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع»، لأنه ربما يكون الإنسان يسمع الحديث ويبلغه ويكون المبلغ أوعى من السامع يعنى أفقه وأفهم وأشد عملًا من الإنسان الذى سمعه وأدَّاه... وهذا كما قال النبى ﷺ معلوم... تجد مثلًا من العلماء مَن هو راوية يروى الحديث يحفظه ويؤديه لكنه لا يعرف معناه فيبلغه إلى شخصٍ آخر من العلماء يعرف المعنى ويفهمه ويستنتج من أحاديث الرسول ﷺ أحكامًا كثيرة فينفع الناس... وقد سبق أن مثل الأول كمثل الأرض التى أمسكت الماء فرُوِيَ الناس وارتووا لكنها لا تُنبت... وأما الأرض الرياض التى أنبتت هم الفقهاء الذين عرفوا الأحاديث وفقهوها واستنتجوا منها الأحكام الشرعية(١).

(١) تحفة الأحوذى (٧/ ٧٠).

(١٣٩٨) وعن أبى هُريرةَ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَنْ سُئِل عنْ عِلمٍ فكَتَمَهُ، أُلجِمَ يومَ القِيامَةِ بِلجامٍ مِن نارٍ»(١).

۞ وهنا يُحذر النبى ﷺ أهل العلم من كتمان العلم.. لأن العالِم إذا كتم علمه فكيف يعرف الناس دينهم... فكتمان العلم مظنة ضياع الحق وغياب الخير وانتشار الفساد وضياع العباد والبلاد.

قال ﷺ: «مَنْ سُئِل عنْ عِلمٍ» أى: مَن سُئل عن علمٍ من علوم الشريعة التى يحتاج إليها الناس «فكَتَمَهُ» ولم ينشره بين الناس أو منع عنهم كُتب العلم التى ينتفعون بها.

«أُلجِمَ يومَ القِيامَةِ» أَىْ أُدخِلَ فِى فَمِهِ لِجَامٌ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ خُرُوجِ الْعِلْمِ وَالْكَلَامِ.

قَالَ الطِّيبِىُّ: شَبَّهَ مَا يُوضَعُ فِى فِيهِ مِنَ النَّارِ بِلِجَامٍ فِى فَمِ الدَّابَّةِ.

«بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» مُكَافَأَةً لَهُ حَيْثُ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِالسُّكُوتِ وَشُبِّهَ بِالْحَيَوَانِ الَّذِى سُخِّرَ وَمُنِعَ مِنْ قَصدِهِ مَا يُرِيدُهُ.

لأنه كتم ما أنزل الله بعد أن سُئل عنه... وهذا إذا علمت أن السائل يسأل لاسترشاده فلا يجوز لك أن تمنعه...أما إذا علمت أنه يسأل امتحانًا وليس قصده أن يسترشد فيعلم ويعمل، فأنت بالخيار إن شئت فعلِّمه وإن شئت فلا تُعلمه... لقول الله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [المائدة:٤٢] لأن الله عَلِمَ أن هؤلاء يأتون النبى ﷺ يستحكمونه لا لأجل أن يعملوا بكلامه ولكن لينظروا ما عنده.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(١٣٩٩) وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَنْ تعلَّمَ عِلمًا مِمَّا يُبتَغَى بِهِ وجْهُ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يَتعلَّمُهُ إلا ليُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِن الدُّنْيا لم يجِد عَرفَ الجنَّةِ يوم القِيامةِ» يعني: ريحها[1].

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن العلوم تنقسم إلى قسمين:

قسمٌ يُراد به وجه الله.. وهو العلوم الشرعية -علم الكتاب والسُّنة- وما يساندها من علوم عربية.

وقسمٌ آخر: علم الدنيا.. كالطب والهندسة والمكانيكا وغير ذلك..

فأما هذا العلم - علم الدنيا- فلا بأس أن يطلب الإنسان به عَرَض الدنيا .. كأن يتعلم الطب ليكون طبيبًا ويفتح عيادة فيكسب من وراء ذلك أموالًا كثيرة.. أو يتعلم الهندسة من أجل أن يعمل فى شركة كبيرة...

لكن لو جدَّد النية بأنه يتعلم الطب من أجل أن ينفع المسلمين وأن يكون سببًا فى رفع الآلام عنهم.. وفى نفس الوقت يكسب أموالًا كثيرة ليكفى أسرته وأولاده.. فهذا أفضل بكثير.

أما إذا تعلم الإنسان علوم الكتاب والسُّنة من أجل أن يُصبح مشهورًا أو ليصرف وجوه الناس إليه فيحترموه ويُعظموه.. أو من أجل أن يجمع الأموال من وراء ذلك فهذا الذى لا يجد يوم القيامة عَرف الجنة -أى: ريحها- لأنه من المفترض أن يطلب الإنسان العلم الشرعى ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ومن أجل معرفة الحق والعمل به والدعوة إليه.

۞ قال ﷺ: «مَنْ تَعلَّمَ عِلمًا» أى: علمًا شرعيًّا «مِمَّا يُبتَغَى بِهِ وجْهُ الله» فالعلوم الشرعية يُبتغى بها وجه الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيه إثبات صفة الوجه لله عَزَّ وَجَلَّ وإثبات لازم الصفة التى هى رضا الله عَزَّ وَجَلَّ،

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٥٩).

وأما إذا فُسِّر برضا الله فقط فهذا لا يسوغ؛ لأن الوجه صفة، ورضا الله صفة، فإذا فُسر الوجه بأنه الرضا فمعناه: أنه لم يُثبت الوجه..ولكن إذا أثبت الوجه وأثبت الرضا الذى هو لازم هذه الصفة فى ابتغاء وجه الله عَزَّوَجَلَّ فإن ذلك صحيح.

❁ قوله ﷺ: «**لا يَتَعلَّمُهُ إلا ليصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِن الدُّنْيا**» يعنى: شيئًا من الدنيا وعرضًا من أعراضها الزائلة.

«**لم يجد عَرف الجنة**» يعنى: ريحها؛ لأن العَرف هو: الريح، وليس معنى ذلك أنه يكون حُكمه حُكم الكفار الذين لا يجدون ريح الجنة أبدًا، وإنما المقصود من ذلك: أنه إذا لم يتجاوز الله تعالى عنه لا يحصل ذلك له من أول وهلة.. ولكن كل مَن مات مُذنبًا وهو غير مشرك بالله عَزَّوَجَلَّ فإن أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء عفا عنه وتجاوز عنه، وإن شاء عذَّبه..وإذا عذَّبه لا يُخلده فى النار كتخليد الكفار، وإنما يُخرجه منها ويُدخله الجنة فيكون مآله إلى الجنة.

وإن قيل: هل يدخل فى هذا الحديث الاشتراك فى المسابقات التى عليها جوائز، إذا كان طالب العلم ممن يحرص على العلم؟

الجواب: كون الإنسان يشتغل بالعلم من أجل معرفة الحق والهدى ثم بعد ذلك جُعلت مسابقة فيها جوائز ودخل فيها فهذا لا يُخرجه عن كونه تعلَّم العلم من أجل معرفة الحق والعمل به.. لأنه لم يتعلم فى الأصل من أجل الجوائز، ولم يكن الباعث له أن يكون عنده استعداد للمنافسة فى الجوائز.. وإنما تعلَّمه لمعرفة الحق والهدى، وهذا جاء عَرَضًا وتبعًا وشيئًا طارئًا لم يكن هو المقصود عند التعلُّم وعند الاشتغال بالعلم.

وأما هل يدخل فى هذا مَن يدرس ليصبح مُدرِّسًا ويحصل على الراتب؟ فإذا كان غرضه الدنيا فقط فله نصيب من هذا الحديث، وإن كان قصده أنه يتعلم الحق ويعمل به وينفع الناس به فهذا من الثواب المُعجَّل الذى يُعجله الله له فى

الدنيا قبل الآخرة.. لأن الإنسان قد يُعلِّم ويُرشد الناس ويفيد التلاميذ ويكون سببًا فى هدايتهم وفى استقامتهم مع كونه مُدرسًا ويأخذ الراتب الذى يُعطَى للمدرسين...فإذا كان الباعث له أن يفيد الناس وأن يفيد الطلاب وأن يكون عونًا لهم على معرفة الحق والهدى فلا شك أنه على خير كما قال ﷺ: «ولكل امرئٍ ما نوى».

(١٤٠٠) وعن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يقبِض الْعِلْمَ انْتزَاعًا ينْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، ولكنْ يقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَماء حتَّى إذا لَمْ يُبْقِ عالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلوا، فأفْتَوا بغَيْرِ علمٍ، فضَلُّوا وأضَلُّوا»(١).

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن حاجة الأمة إلى العالِم أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والهواء.

قال الآجرى فى أخلاق العلماء: «إن حاجة الأمة إلى العلماء أشد من حاجة قوم فى ليلة مُظلمة فى أرضٍ مُسبعة، فى وادٍ فيه السباع والهوام والشوك والأحجار وليس معهم نور، ولا يدرون ماذا يواجهون؟ ثم جاءهم مَن بيده مصباح يتقدمهم ويبصرون به الطريق، ويأمنون به مما يفاجئهم، مما يضرهم... ففضلُ هذا عليهم - أى فضل العالِم فى الأمة - أفضل من فضل هذا الرجل الذى جاء بالمصباح فى هذه الليلة المظلمة فى الصحراء المهلكة.. وذلكم لأن هؤلاء القوم الذين يمشون فى الظلام خسارتهم فى دنياهم، أما مَن عاش بدون عالِم يهديه سواء السبيل، ويدله على الخير وإذا حصل له إشكال أو مشكلة فى دينه، أو وقع فى مخالفة يدله على الطريق هذا أعظم لأنه بهذا يُحفظ الدين.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٠٠) كتاب العلم - ومسلم (٢٦٧٣) كتاب العلم.

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء.

وهذا فيه إشارة إلى أن العلم سيُقبض .. وفى آخر الزمان لن يبقى فى الأرض آية من كتاب الله.. وذلك لأن القرآن سيُنزع من المصاحف والصدور.. كما قال رسول الله ﷺ: «**يَدرُسُ الإِسْلَامُ كَمَا يَدرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لا يُدرَى مَا صِيَامٌ وَلا صَلاةٌ وَلا نُسُكٌ وَلا صَدَقَةٌ. وَيُسرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِى لَيْلَةٍ، فَلَا يَبقَى فِى الأَرضِ مِنْهُ آيَةٌ...**»(١).

وقَالَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَيُنْتَزَعَنَّ الْقُرآنُ مِنْ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا فَيُذْهَبُ بِهِ مِنْ أَجْوَافِ الرِّجَالِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيءٌ»(٢).

قال الإمام ابن تيمية: «يُسْرَى بِهِ فِى آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ الْمَصَاحِفِ وَالصُّدُورِ فَلَا يَبْقَى فِى الصُّدُورِ مِنْهُ كَلِمَةٌ وَلَا فِى الْمَصَاحِفِ مِنْهُ حَرفٌ»(٣).

وذلك لأن الناس فى آخر الزمان سيهجرون القرآن هجرًا تامًّا.

ونظير ذلك الكعبة المشرفة .. حماها الله عَزَّوَجَلَّ لما أراد أبرهة أن يهدمها وقَدِمَ إليها بفيلٍ عظيم وجنودٍ كثيرة .. حماها الله عَزَّوَجَلَّ منه وأنزل الله فى ذلك سورة كاملة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [سورة الفيل].

لكن فى آخر الزمان إذا انتهك الناس حُرمة هذا البيت وأكثروا فيه من المعاصى وغير ذلك مما يُعَدُّ امتهانًا لحرمته سلط الله عليهم رجلًا من الحبشة

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٧٧).

(٢) صحيح موقوف: رواه الطبرانى، وقال ابن حجر: سنده صحيح، ولكنه موقوف (فتح البارى ١٣/ ١٦).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ١٩٨-١٩٩).

أفحج الرِّجلين قصير فينقضها حَجرًا حَجرًا.. يأتى إليها بجنود، فينقضها ويهدمها حَجرًا حَجرًا، إذا نزع الحجر أعطاه لأحد الجنود ثم التالى الذى بجنبه من مكة إلى البحر... يتمادون حجارتها حتى تُهدم عن آخرها.. فانظر كيف أنه فى الأول حماها الله عَزَّوَجَلَّ من أولئك الكفرة؛ لأنه يعلم أنه سيبعث فيها رسولًا ينقل الناس من الضلال والظلم والشرك إلى الهدى والعدل والتوحيد.

لكن فى آخر الزمان عندما ينتهك الناس هذه الحُرمة تُرفع من مكانها، ويُسلط الله عليها بحكمته مَن يهدمها، ولا أحد يقول أى شىء، ولا أحد يعارض هذا الرجل.. والله عَزَّوَجَلَّ بحكمته يُمكِّنه من ذلك..كذلك القرآن الكريم يُنتزع من الصدور ومن المصاحف ويُرفع إلى الرب عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه كلامه منه بدأ وإليه يعود.

۞ إذًا.. فالله عَزَّوَجَلَّ لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس... مع أنه قد يحدث أحيانًا أن يُعاقَب رجل من أهل العلم بنسيان بعض العلم بسبب ذنوبه...

فقد ثبت أن بعض مَن ينتسب إلى العلم وعنده شىء من العلم لما عصى سُلب بعض العلم الذى كان يحفظه ... وأسرع ما يُسلب من الإنسان القرآن، فقد يذنب الذنب ثم يصبح يتفلت منه القرآن، أو يُشغَل بما ينسى بسببه القرآن، ولا شك أن هذه عقوبة.

۞ «**ولكنْ يقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَماء**» أى: يموت العلماء.. فموت العالم مصيبة لا تعدلها مصيبة.. ولقد رأينا كيف توفى مشايخنا وعلماؤنا الأفاضل: الشيخ الألبانى والشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين (رحمهم الله تعالى) فى فترة وجيزة من الزمن.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه.

وقال ابن مسعود يوم مات عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنى لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب.

۞ «**حَتَّى إذا لَمْ يُبقِ عالِمًا اتَّخذ الناس رُؤوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضَلُّوا وأضلُّوا**».

يموت العلماء الذين هم علماء فى الحقيقة ولا يبقى عالِم، فيتخذ الناس رؤساء، يعنى: يتخذ الناس مَن يترأسهم ويستفتونه؛ لكنهم جُهال يُفتون بغير علم فيَضلون ويُضلون، والعياذ بالله... وتبقى الشريعة بين هؤلاء الجُهال يحكمون بها بين الناس وهم جهلة لا يعرفون فلا يبقى عالم... وحينئذ لا يوجد الإسلام الحقيقى الذى يكون مبنيًّا على الكتاب والسُّنة؛ لأن أهله قد قُبضوا.

وفى هذا الحديث حَثٌّ على طلب العلم لأن الرسول أخبرنا بهذا لأجل أن نتحاشى ونتدارك هذا الأمر ونطلب العلم ... وليس المعنى أنه أخبرنا لنستسلم فقط، لا .. بل من أجل أن نحرص على طلب العلم حتى لا نصل إلى الحال التى وصفها الرسول ﷺ ... والإخبار بالواقع لا يعنى إقراره(١).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤١) بتصرف.

(١٣) كتاب حمد الله تعالى وشكره

(٢٤٢) باب فضل الحمد والشكر

قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء: ١١١] وقال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]

فالشكر والحمد باب المزيد.. فالله عَزَّوَجَلَّ يحب أن يحمده عبده ويشكره على نِعَمِهِ التى لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ... ولذا قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضلٍ عميم وإحسانٍ عظيم، ونِعم تحيط به عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته. إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان فى المهد صبيًّا، بل منذ كان فى بطن أمه جنينًا،... كان صبيًّا وليدًا لا سن له تقطع، ولا يد له تبطش، ولا قدم له تسعى، فأجرى الله له عِرقين رقيقين فى صدر أمه يُجريان لبنًا خالصًا، كامل الغذاء، دافئًا فى الشتاء، باردًا فى الصيف... وألقى الله محبته فى قلب أبويه، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب، ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش، حتى يكفياه ما أهمَّه ويدفعا عنه كل سوء.

وكان فى بطن أمه جنينًا، فجعل الله له قرارًا مَكينًا..هيأ له فيه أسباب الغذاء والدفء والتنفس، وجعل له متكئًا عن يمينه ومتكئًا عن شماله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

[المرسلات: ٢٠-٢٣].

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه فى كل شىء حوله، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة من الله له، تُيسر له معيشته، وتُعينه على القيام برسالته فى الحياة،

إنه يرى نعمة الله في هبة الريح، وسير السحاب، وتفجُّر الأنهار، وبزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار، وظلام الليل، وتسخير الدواب، وإنبات النبات.

ولنقرأ في مثل هذا قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠][1].

وما أجمل أن يشعر المؤمن بنعم الله عليه .. فقد قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وأمرنا أن نشكره على تلك النعم .. فقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

ووعدنا بالجزاء العظيم على شكر النعمة .. فقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

بل وأخبر أن الشكر سببٌ لزيادة النعم وسعة الأرزاق .. فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وأخبر الله (جلَّ وعلا) أن الشكر سببٌ للنجاة من العذاب ... فقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق لأجلها: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح.

۞ فأما الشكر بالقلب: فيكون ذلك بأن تعترف بقلبك بأن هذه النعم من عند الله وأنها تستوجب الشكر لله (جلَّ وعلا).

۞ وأما الشكر باللسان: فيكون ذلك بأن تتحدث بنعم الله عليك ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ

(١) الإيمان والحياة (ص ١٣٠، ١٣١).

رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١].

۞ وأما الشكر بالجوارح: فيكون ذلك بأن تستعمل تلك الجوارح فى طاعة الله (جلَّ وعلا)... كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣][1].

إن الكون كله بكل ما فيه من الإنس والجن والملائكة والجماد والنبات والدواب والطيور لو اجتمعوا على قلب رجلٍ واحدٍ ليشكروا الله على نعمة واحدة لعجزوا عن أداء شكرها فكيف بسائر النعم.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [لقمان: ٢٠].

ولذلك كان الحبيب ﷺ إذا أراد أن يُثنى على الله (جل وعلا) كان يقول: «..**لا أُحصِى ثَناءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[2].

۞ وقد حضَّنا النبى ﷺ أيضًا على شكر الناس على ما يفعلوه معنا من معروف.. فقال ﷺ: «**مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[3].. فمن أسدى إليك معروفًا فكافئه واشكره واعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى جعل لك هذا الإنسان سببًا فى قضاء حاجتك.. فهو وإن كان مجرد سبب إلا أنه ينبغى أن تشكره.

وقال ﷺ: «**مَن صُنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا فقد أبلغ فى الثناء**»[4].

۞ ولكن إياك أن تشكر المخلوق وتنسى الخالق (جل وعلا).

---

(١) أخلاق الرسول ﷺ للأطفال/ الشيخ محمود المصرى (ص٣٤٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة.

(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذى وصححه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٤١).

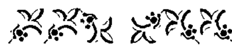
(٤) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٦٨).

(١٤٠١) وعن أبى هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبىَّ ﷺ أُتِى لَيْلةَ أُسْرِىَ به بقَدَحَيْنِ مِن خَمْرٍ ولَبن، فنظَرَ إليْهِما فأخذَ اللبنَ، فقالَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الحمْدُ لله الذى هدَاكَ للفِطْرةِ .. لوْ أخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمّتُكَ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يحكى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ فى ليلة الإسراء والمعراج .. تلك الليلة التى كانت تكريمًا لشخص النبى محمد ﷺ .. فى تلك الليلة أُوتى النبى ﷺ بقدحين من خمرٍ ولبن.. قدح فيه خمر.. والآخر فيه لبن (فنظر إليهما ﷺ) أى وكأنه خُيِّر بينهما فأُلهم ﷺ اختيار اللبن (فأخذ اللبن فقال جبريل: الحمد لله الذى هداك للفطرة) قال المصنف: فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة .. ومعناه والله أعلم: اخترت علامة الإسلام والاستقامة، وجعل اللبن علامة ذلك لكونه سهلًا طيبًا طاهرًا سائغا للشاربين سليم العاقبة، والخمر أم الخبائث جالبة لأنواعٍ من الشر حالًا ومآلًا[٢].

۞ وتأمل معى كيف كان حُب النبى ﷺ لشرب اللبن.

قال ﷺ: «**إذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا: فَلْيَقُل: اللهُمَّ بَارِكْ لَنا فِيهِ، وَأَبْدِلْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإذَا شَرِبَ لَبَنًا فَلْيَقُلِ: اللهُمَّ بَارِكْ لَنا فِيهِ، وَزِدنَا مِنْهُ، فَإنَّهُ لَيْسَ شَىْءٌ يَجْرِى مَجْرَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إلَّا اللَّبَنُ**»[٣].



(١٤٠٢) وعن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنْ رسولِ الله ﷺ قال: «كُلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبْدأُ فيه بالحمد لله فهُو أَقْطَعُ»[٤].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٠٩) كتاب تفسير القرآن – ومسلم (١٦٨) كتاب الإيمان.

(٢) دليل الفالحين (٤/ ١٥٢).

(٣) حسن: رواه أحمد وأبو داود والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨١).

(٤) ضعيف: رواه ابن ماجه والبيهقى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٢١٦).

(١٤٠٣) وعن أبى مُوسى الأشعرىّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا ماتَ وَلَدُ العبْدِ قال الله تعالى لملائِكَتِهِ: قَبضْتُمْ ولَدَ عبْدِى؟ فيقولون: نَعمْ، فيقولُ: قَبَضْتُم ثَمرةَ فُؤادِه؟ فيقولون: نَعَمْ، فيقولُ: فمَاذَا قال عَبْدى؟ فيقولون: حَمِدَكَ واسْتَرجَع، فيقُولُ الله تعالى: ابْنُوا لِعَبْدِى بيْتًا فى الجنَّةِ، وسَمُّوه بَيْتَ الحمْدِ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٩٢٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٤٠٤) وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ الله ليرضى عنِ العبْدِ يأكُلُ الأكْلَةَ فيَحمَدُهُ عَلَيها، ويَشْربُ الشَّربَةَ فيَحمَدُهُ عليها»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ الغنى عن عباده.. الذى لا تنفعه طاعة عباده ولا تضره معصيتهم.. يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرضى عن عبده إذا أكل الأكلة - الوجبة من الطعام - فيحمد الله عليها.. ويشرب الشَّربة فيحمد الله عليها..

فالعبد لا ينسى فضل الله أبدًا فى طعامه وشرابه وفى كل حياته... لأن كل النعم هى من عند الله ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾..

فإذا أكل العبد الوجبة فحمد الله.. فهو بين نعمتين.. نعمة الطعام الذى يأكله فهو فى الأصل نعمة من عند الله.. وإذا حمد العبد ربه عَزَّ وَجَلَّ. فتلك نعمة أخرى لأن الذى وفَّقه لذلك الحمد هو الله عَزَّ وَجَلَّ.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وفيه استحباب حمد الله تعَالَى عَقِبَ الْأَكْلِ

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء.

وَالشُّربِ وَقَد جَاءَ فِي الْبُخَارِيِّ صِفَةَ التَّحمِيدِ «**الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا**» وَجَاءَ غَيْرُ ذَلِكَ ولواقتصر عَلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ حَصَّلَ أَصل السُّنَّةِ[1].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٨٠).

(١٤) كتاب الصلاة على رسول الله ﷺ

(٢٤٣) باب الأمر بالصلاة عليه وفضلها وبعض صيغها

۞ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى تفسيره للآية: «والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملإ الأعلى بأنه يُثنى عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلى عليه.. ثم أمر تعالى أهل العالم السُّفلى بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العُلوى والسُّفلى جميعًا»[(١)]. اهـ.

۞ وهل هناك أحدٌ يستطيع أن يُحصى عدد الملائكة الذين يُصلون على النبى ﷺ .... فإن البيت المعمور وهو قبلة أهل السماء السابعة فقط يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه إلى قيام الساعة.

فكل يوم يدخل سبعون ألفًا ثم يأتى فى اليوم التالى سبعون ألفًا غيرهم فمن يستطيع أن يُحصى عدد ملائكة السماء السابعة وحدها.

قال ﷺ: **«إنه ليدخل البيت المعمور فى كل يومٍ سبعون ألف ملكٍ لا يرجعون إليه إلى قيام الساعة»**[(٢)].

بل قال ﷺ: **«.. أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ للهِ تَعَالَى سَاجِدًا ..»**[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٨٠٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٤) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٢٠)، (٢٤٤٩).

اختلف العلماء - رحمهم الله- هل تجب الصلاة على النبي ﷺ في العمر مرة أو بأسباب أو لا تجب... والصحيح أنها تجب بأسباب، وإلا فالأصل أنها مستحبة... فما معنى الصلاة على النبي ﷺ، أي ما معنى قول القائل: اللهم صَلِّ على محمد؟

معناه أنك تسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُثنى عليه في الملأ الأعلى بين الملائكة حتى تزداد محبتهم له ﷺ ويزداد ثوابهم بذلك.

واختلف العلماء - رحمهم الله- هل يُصلَّى على غير النبي ﷺ أم لا؟

يعني هل يجوز أن تقول: اللهم صَلِّ على فلانٍ العالِم الفلاني أو الشيخ الفلاني، أو اللهم صَلِّ على أبي أو ما أشبه ذلك؟

والصحيح أن في ذلك تفصيلًا: فإن كان ذلك تابعًا للصلاة على النبي ﷺ فلا بأس... ولهذا قال الرسول ﷺ حين سألوه كيف يصلون عليه؟ قال: «**قولوا اللهم صل على محمدٍ وعلى آل محمد**». وإن كان مُستقلًّا، فإن كان لسببٍ فلا بأس، ومن ذلك إذا أتى الإنسان إليك بصدقته لتوزعها، فقل: اللهم صَلِّ عليه.

قال عبد الله بن أبي أَوفى: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: «**اللهُمَّ صلِّ عليهم**» فأتاه أبي أبو أَوفى، فقال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**»(١)، هذا أيضًا لا بأس به... كذلك إذا صليت على إنسان دون أن تجعل ذلك شعارًا له كلما ذكرته صليت عليه فلا بأس... يعني حتى لو قلنا: اللهم صَلِّ على أبي بكر أو على عمر أو على عثمان أو عليٍّ فلا بأس ولكن لا تجعل هذا شعارًا كلما ذكرت هذا صليت عليه، لأنك إذا فعلت ذلك جعلته كأنه نبي.

۞ هذا بالنسبة للصلاة على النبي ﷺ ... فما معنى ﴿**وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٦] أي ندعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يُسلِّمه تسليمًا تامًّا.. لكن مما يُسلمه؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٣٢) كتاب الدعوات، ومسلم (١٠٧٨) كتاب الزكاة.

أن يُسلِّمه فى حياته من الآفات الجسدية والآفات المعنوية، وبعد موته، من الآفات المعنوية .. بمعنى أن تَسلَم شريعته من أن يقضى عليها قاضٍ، أو ينسخها ناسخ.. وكذلك الجسد لأنه ربما يُعتدَى عليه بعد موته فى قبره، كما يأتى فى قصة مشهورة أن رجلين أرادا أن يستخرجا جسد النبى ﷺ فنزل المدينة رجلان غريبان وبدءا يحفران من تحت الأرض حفرة، حتى يتوصلا إلى قبر النبى ﷺ فيأخذا جسده الشريف..فبقيا على ذلك مُدة... فرأى أحد الملوك (نور الدين زُنكى) فى المنام أن رجلين يحفران ليصلا إلى جسد النبى ﷺ ويأخذاه، فاهتم بذلك اهتمامًا عظيمًا، ثم ارتحل إلى المدينة، لكن من أين يعلم هذين الرجلين؟ كيف يتوصل إلى معرفتهما؟ فقال لأمير المدينة: ادعُ لى جميع أهل المدينة، فدعاهم، فأطعمهم، وما رأى الرجلين، قال: أين أهل المدينة؟ قالوا: الكل جاء وما بقى أحد غير رجلين غريبين فى المسجد... يعنى ليس لهما قيمة.. قال: أحضرهما، فجيء بهما فإذا هما اللذان رآهما فى المنام، فعرفهما، ثم أمر بأن يُحفَر حفرة على جوانب الحجرة التى فيها قبر النبى ﷺ قبل أن تكون حجرة بالبناء ثم صبَّها بالنحاس والرصاص والرخام حتى يحمى الله جسد هذا النبى الكريم ﷺ...فصبَّ الرصاص إلى الأرض ولهذا قبر النبى ﷺ محفوظ حفظًا تامًّا... فالمهم أن قول المسلم: اللهم صلِّ وسلم على محمدٍ، يعنى: سلِّمه من الآفات الجسدية حيًّا وميتًا، وسلِّم شريعته من أن يطمسها أحد أو أن يعدو عليها أحد... ثم اعلموا أن أجساد الأنبياء لا يمكن أن تأكلها الأرض، لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

۞ **والصلاة على النبى واجبة فى مواضع: منها:** إذا ذُكر اسمه عندك فصلِّ عليه، لأن جبريل أتى إلى النبى ﷺ وقال: « **رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ** »[1]. رَغِمَ أنف..معنى رغم يعنى سقط فى الرغامة... والرغامة هى الأرض الترابية.

(١) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١٠).

وتجب الصلاة على النبى أيضًا عند كثير من العلماء فى الصلاة فى التشهُّد الأخير... فعند كثير من العلماء أنها ركن لا تصح الصلاة إلا به... وعند بعضهم أنها سُنة، وعند بعضهم أنها واجب. والاحتياط أن لا يدعها الإنسان فى صلاته أى الصلاة على النبى ﷺ، ولو أن الإنسان جعل كل دعاء يدعو به مقرونًا بالصلاة على النبى ﷺ لكان كما جاء فى الحديث يُكفَى همه ويُغفَر ذنبه.

ولهذا أكثِر يا أخى من الصلاة والسلام على الرسول ﷺ ليزداد إيمانك ويسهل لك الأمر... ثم اعلم أن الرسول ﷺ بشر لا يملك لك النفع ولا الضُّر، فلا تسأله، لا تَقُل: يا رسول الله، افعل كذا، يا رسول الله، استغفر لى، يا رسول الله، أغثنى، يا رسول الله، سهِّل أمرى... هذا حرام، وشركٌ أكبر لأنه لا يجوز أن تدعو مع الله أحدًا[1].

(١٤٠٥) وعنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّهُ سمِعَ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ صلَّى علىَّ صَلاَةً، صلَّى الله علَيْهِ بِهَا عشْرًا»[2].

يعنى أنك إذا صليت على النبى ﷺ مرة فإن الله عز وجل لا يكافئك بعددٍ من الحسنات ولو كان كثيرًا ... وإنما يكافئك بأن يصلى عليك عشر مرات وذلك بأن يُثنى عليك ويرحمك عشر مرات فى الملأ الأعلى... وهذا يدل على عُلو مرتبة النبى ﷺ عند الله (جل وعلا).... فأنت المستفيد من صلاتك على النبى ﷺ ... لأن النبى ﷺ ليس بحاجة إلى صلاتك ... فالله عز وجل وملائكته يصلون عليه ﷺ.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤٧-٣٤٩) بتصرف كبير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٨٤) كتاب الصلاة.

(١٤٠٦) وعن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ رسُول الله ﷺ قال: «أَوْلَى النَّاسِ بى يومَ القِيامةِ أَكْثَرُهُم علىَّ صلاة»[(١)].

۞ وللأمانة العلمية .. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبى ﷺ.

(١٤٠٧) وعن أوس بن أوسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ مِن أَفْضلِ أيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعةِ، فَأَكْثِرُوا علىَّ مِنَ الصلاةِ فِيهِ، فإنَّ صَلاتَكُمْ معرُوضَةٌ علَىَّ» فقالوا: يَا رسول الله، وكَيْفَ تُعرَضُ صلاتُنَا عليْكَ وقد أرَمْتَ؟ قال: -يقولُ: بَلِيتَ- قالَ: «إنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأرضِ أجْساد الأنْبِياءِ»[(٢)].

۞ فالنبى ﷺ يأمرنا أن نُكثر من الصلاة عليه فى كل وقتٍ .. وعلى وجه الخصوص فى يوم الجمعة وأخبرنا أن صلاتنا عليه تُعرَض عليه ﷺ ويُقال له: فلان يصلى عليك.. فيا له من شرفٍ عظيم أن يُذكر ويُعرَض اسمك على النبى ﷺ كل يوم وأنت تصلى عليه.

فقالوا: يا رسول الله، كيف تُعرَض عليك، وقد أرَمت، أى: بليت، فقال: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**». فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام مهما بقوا فى الأرض فإن الأرض لا تأكل أجسادهم .. فالأنبياء أحياء فى قبورهم ... أما غير الأنبياء فإنها تأكل أجسادهم .. لكن قد يكرم الله تعالى بعض الموتى فلا تأكلهم الأرض وإن بقوا... ولكننا لا نتيقن أن أحدًا لا تأكله الأرض إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وابن حبان، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٨٢١).

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢١٢).

(١٤٠٨) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رجُلٍ ذُكِرتُ عندَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عليَّ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رجُلٍ» أى: لصق أنفه بالتراب كناية عن حصول الذل.. أى: أذله الله وحقره.. وهذا إخبار أو دعاء.. «ذُكِرتُ عندَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عليَّ» والمعنى: أن مَن ذكر عنده النبى ﷺ فلم يُصلِّ عليه أذله الله وحقره... فلا تغفل عن الصلاة على النبى ﷺ.

(١٤٠٩) وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تَجْعلُوا قَبْرِى عِيدًا، وصَلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكُم تَبْلُغُنى حيثُ كُنْتُم»(٢).

۞ أى: لا تجعلوا قبره ﷺ عيدًا تُكرمونه بالمجىء إليه كل سنة مرة أو مرتين أو ما أشبه ذلك... ولذا كان النبى ﷺ يقول: «اللهُمَّ لا تَجْعَل قَبْرِى وَثَنًا يُعبَد».

وفيه دليل على تحريم شَدّ الرَّحل لزيارة قبر النبى ﷺ وأن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المدينة لا يقصد أن يسافر من أجل زيارة قبر الرسول ولكن يسافر من أجل الصلاة فى مسجده؛ لأن الصلاة فى مسجده خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام... قال: «وَصلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنى حيْثُمَا كُنْتُمْ»، إذا صليت على الرسول ﷺ فإن صلاتك تبلغه حيثما كنت فى بَرٍّ أو بحرٍ أو جوٍّ، قريبًا كنت أو بعيدًا.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١٠).

(٢) صحيح: رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٢٢٦).

ومعناه النهى عن الاجتماع لزيارته ﷺ اجتماعهم للعيد إذ هو يومٌ رخص لهم فيه اللهو واتخاذ الزينة ويبرزون فيه للنزهة وإظهار السرور وكان أهل الكتاب يسلكون ذلك فى زيارة قبورهم حتى ضرب الله على قلوبهم حجاب الغفلة واتبعوا سنن أهل الأوثان فى زيارة طواغيتهم فاتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

(١٤١٠) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «ما مِن أحدٍ يُسلِّمُ علىَّ إلا ردَّ الله علىَّ رُوحى حتَّى أرُدَّ عليه السَّلامَ»(١).

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه ما من أحدٍ يُسلم عليه إلا ردَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عليه روحه حتى يرد عليه السلام.

أما كيفية حياة النبى ﷺ فى عالم البرزخ فلا نعلم كيفيتها.. وإن كان النبى ﷺ قد قال: **«الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون»**(٢).

وهذه الصلاة ليست من باب التكليف وإنما هى من باب زيادة النعيم فى قبورهم.. كما أن أهل الجنة يُلهَمون التسبيح فى الجنة.

ولكننا نصدق النبى ﷺ فيما أخبر به أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرد عليه روحه ليرد النبى ﷺ السلام على كل مَن يُسلم عليه... ولكن ليس فى هذا الحديث دليل على أن النبى ﷺ يسمع سلام مَن يُسلم عليه.. وإنما فيه دليل على أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرد عليه روحه حتى يرد السلام.. والسلام إنما يصل إليه عن طريق الملائكة الذين يُبلغون الرسول ﷺ السلام من قريبٍ ومن بعيدٍ.. كما فى الحديث: **«إن لله ملائكة سياحين يُبلغوننى عن أمتى السلام»**.. فالحديث ليس فيه نَصٌّ على أن هذا خاص بمن يُسلم عليه عند قبره وأنه يسمعه.. وإنما هو عام فيمن يُسلم عليه من قريب أو بعيد فى أى مكانٍ فى الأرض.

(١٤١١) وعن علىٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «البخِيلُ مَن ذُكِرتُ عندَهُ، فلَم يُصَلِّ علىَّ»(٣).

۞ كل الناس يعلمون أن البخيل هو الذى يبخل بالمال ولكن النبى ﷺ يُعرفنا هنا أن البُخل درجات.. أو إن صَحَّ القول: فالبُخل دركات.. وأشدها أن

(١) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٧٩).
(٢) صحيح: رواه أبو يعلى، والبزار، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٧٩٠).
(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٧٨).

يسمع المسلم اسم النبى ﷺ فلا يصلى عليه... هذا هو أشد أنواع البخل.

قال ﷺ: «**البخيل**» أى: الكامل فى البُخل «**مَن ذُكرت عنده**» أى: ذُكر اسمى عنده «**فلم يُصلِّ علىَّ**» أى: لم يُصلِّ على النبى ﷺ.

وكيف لا يصلى المسلم على النبى ﷺ... وهو الذى جعله الله سببًا فى خروجنا من الظلمات إلى النور.. وهو الذى جعله الله سببًا لنعرف الحق من الباطل والحلال من الحرام والخير من الشر .. وهو الذى علَّمنا كيف نسير فى طريق الجنة وكيف نتقى الطريق الموصل إلى النار...

فهذا البخيل الذى لم يُصلِّ على النبى ﷺ وبخل عليه بالصلاة.. هو أيضًا بَخِلَ على نفسه بأن يصلى الله عليه عشر مرات إذا صلى هو على النبى ﷺ مرة واحدة.... ألا فلنُكثر من الصلاة على حبيبنا محمد ﷺ.

(١٤١٢) وعنْ فَضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: سمِع رسولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يدعُو فى صلاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ الله تَعالى، وَلَمْ يُصلِّ عَلى النَّبىِّ ﷺ فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «عَجِلَ هَذَا»، ثمَّ دعَاهُ فَقَالَ لهُ أوْ لِغَيْرِهِ: «إِذَا صلَّى أحَدُكُمْ فليبْدأْ بِتَحمِيدِ ربِّهِ سُبْحانَهُ والثَّناءِ عليهِ، ثُمَّ يُصلى عَلى النَّبىِّ ﷺ ثُمَّ يدعُو بَعدُ بِما شاءَ»(١).

۞ المراد بذلك التشهُّد وأن هذا الرجل تشهَّد ولم يُثنِ على الله ولم يُمجده ولم يُصلِّ على النبى ولكنه دعا مباشرة...ومعلوم أن التشهد فيه أولًا الثناء على الله فى قوله: «**التحيات لله والصلوات والطيبات**»، وفيه أيضًا السلام على النبى ﷺ والصلاة عليه ثم الدعاء ... فيُحمل حديث فَضالة بن عُبيد، على أن المراد بالصلاة الدعاء فى الصلاة، وأنه يُسبق بالتحيات ثم بالسلام والصلاة على النبى ﷺ ثم الدعاء.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٨).

۞ ثم وضَّح النبى كيف نصلى عليه:

(١٤١٣) وعن أَبى محمدٍ كَعب بن عُجرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرج علَيْنَا النبىُّ ﷺ فقُلْنا: يَا رَسُولَ الله، قَد علِمْنَا كَيْف نُسلِّمُ علَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّى علَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى مُحمَّدٍ، وَعَلى آلِ مُحمَّد، كَمَا صَلَّيْتَ عَلى آلِ إبْرَاهِيمَ، إنَّكَ حمِيدٌ مجيدٌ. اللهُمَّ بارِكْ عَلى مُحَمَّد، وَعَلى آلِ مُحَمَّد، كَما بَاركْتَ عَلَى آلِ إبْراهِيم، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ»(١).

(١٤١٤) وعن أَبى مسعود البدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أتانَا رسُولُ الله ﷺ، ونَحنُ فى مَجْلِس سعد بن عُبَادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال لهُ بَشِيرُ بنُ سعدٍ: أمرَنَا الله أن نُصَلِّى علَيْكَ يا رسول الله، فكيْفَ نُصَلِّى عليك؟ فسكَتَ رسولُ الله ﷺ، حتى تَمنَّيْنَا أنه لم يَسْألْه، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ، وعلى آلِ محمَّدٍ، كما صلَّيْتَ على آل إبراهيم، وبارِكْ على محمَّد، وعلى آلِ محمَّدٍ، كما باركْتَ على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ... والسلام كما قد عَلِمْتم»(٢).

(١٤١٥) وعن أَبى حُمَيْدٍ السَّاعِدِى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالوا: يا رسول الله كيْفَ نُصلِّى عليكَ؟ قال: «قولوا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّد، وعلى أزْواجِهِ وذُرِّيَّتِهِ، كما صَلَّيْتَ على آلِ إبراهيم، وبارِكْ على محمَّدٍ، وعلى أزواجِهِ وذُرِّيَّتِهِ، كما بَاركْتَ على آلِ إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ»(٣).

۞ والمراد بآل محمد هنا كل أتباعه على دينه ... فإن آل الإنسان قد يُراد بهم أتباعه على دينه، وقد يُراد بهم قرابته، لكن فى مقام الدعاء ينبغى أن يُراد بهم العموم؛ لأنه أشمل... فالمراد بقوله: « **وَعَلى آلِ مُحمَّد** »، يعنى: جميع أتباعه، فإن قال قائل: هل تأتى الآل بمعنى الأتباع؟ قلنا: نعم... قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٥٧) كتاب الدعوات، ومسلم (٤٠٦) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٠٥) كتاب الصلاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٦٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٤٠٧) كتاب الصلاة.

﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ قال العلماء: معناه أدخلوا أتباعه أشد العذاب.

وقوله: «**كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**»، الكاف هنا للتعليل، وهذا من باب التوسل بأفعال الله السابقة إلى أفعاله اللاحقة... يعنى كما مننت بالصلاة على إبراهيم وآله فامنُن بالصلاة على محمدٍ وآله ﷺ، فهى من باب التعليل وليست من باب التشبيه، وبهذا يزول الإشكال الذى أورده بعض أهل العلم رحمهم الله، حيث قالوا: كيف تلحق الصلاة على النبى ﷺ وآله بالصلاة على إبراهيم وآله مع أن محمدًا أشرف من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فالجواب أن الكاف هنا ليست للتشبيه ولكنها للتعليل... «**اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد**»، أى: أنزل فيهم البركة... والبركة هى الخير الكثير الواسع الثابت. «**كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»، هذه هى الصلاة على النبى ﷺ(١).

***

۞ وفى نهاية كتاب (الصلاة على رسول الله) أدعو نفسى وإخوانى إلى كثرة الصَّلاة والسلام على رسول الله ﷺ **فإنّه كما قال الإمام ابن الجوزى**: «وَاعلَمُوا رحمكم الله أَن فِي الصَّلَاة على سيدنَا مُحَمَّد ﷺ عشر كرامات: إِحدَاهُنَّ صَلَاة الْملك الْجَبَّار ،وَالثَّانِيَة شَفَاعَة النَّبِي الْمُخْتَار، وَالثَّالِثَة: الِاقْتِدَاء بِالْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَار، وَالرَّابِعَة: مُخَالفَة الْمُنَافِقين وَالْكفَّار، وَالْخَامِسَة: محو الْخَطَايَا والأوزار، وَالسَّادِسَة: قَضَاء الْحَوَائِج والأوطار، وَالسَّابِعَة: تنوير الظَّوَاهِر والأسرار، وَالثَّامِنَة: النجَاة من عَذَاب دَار الْبَوَار. والتاسعة: دُخُول دَار الرَّاحَة وَالقَرَار، والعاشرة: سَلام الْملك الْغفار»(٢).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٥٣-٣٥٤) بتصرف كبير.

(٢) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزى (ص ٣١٩).

(١٥) كتاب الأذكار

(٢٤٤) باب فضل الذكر والحث عليه

۞ قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[الأعراف:٢٠٥] وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الأحزاب: ٤١، ٤٢]

۞ اعلم أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ هو ذكر القلب، وأما ذكر اللسان مجردًا عن ذكر القلب فإنه ناقص... ويدل لهذا قوله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[الكهف: ٢٨] ولم يَقُل مَن أمسكنا لسانه عن ذكرنا... بل قال: مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا... فالذكر النافع هو ذكر القلب، وذكر القلب يكون فى كل شيء.

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

من الذاكرين مَن يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر.

ومنهم مَن لا يرى ذلك، ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع فى الذكر بقلبه، فإذا قوى، استتبع لسانه فتواطآ جميعًا.

فالأول: ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه.

والثاني: ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولًا حتى يحسَّ بظهور الناطق فيه، فإذا أحسَّ بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النُّطق القلبى

إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك؛ حتى يجد كل شيء منه ذاكرًا.

وأفضلُ الذكر وأنفعُه: ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكرُ معانيه ومقاصده[١]. اهـ.

في رحاب الذاكرين

۞ فها هو سيد الذاكرين رسول الله ﷺ تقول عنه أمنا عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يَذكر الله تعالى على كل أَحيانه.

ولم تستثنِ حالةً من حالةٍ.

۞ وكان ﷺ يدعو ويقول: «.... **اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا ....**»[٢].

۞ وقال تعالى لكليمه موسى عليه السلام: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه: ٤٢].

وقال تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه: ٣٣-٣٥].

۞ وها هو زكريا عليه السلام يسأل الله أن يرزقه الولد فتبشره الملائكة بالولد... فيطلب آية وعلامة على هذه المعجزة فكانت العلامة أنه يظل ثلاثة أيام لا يستطيع أن يتكلم إلا بذكر الله.

قال تعالى حاكيًا عنه أنه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [آل عمران: ٤١].

۞ وهذا نبي الله يونس عليه السلام التقمه الحوت... فنجَّاه الله برحمته ثم بكثرة ذكره وتسبيحه وقوله: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

---

(١) الفوائد للإمام ابن القيم (ص: ٢٧٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٤٨٥).

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

(١٤١٦) وعَنْ أَبِى هُرِيرةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلِمتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلى اللِّسانِ، ثَقِيلَتَانِ فِى المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحمنِ: سُبْحان اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبحانَ الله العظيمِ»[1].

۞ فهما كلمتان خفيفتان على اللسان ليس فيهما أى مشقة عليك ... ومع ذلك فهما ثقيلتان فى الميزان يوم القيامة حين تُوزن الأعمال.. وكذلك فهما حبيبتان إلى الرحمن (جل وعلا) .. فالله يحبهما ويحب مَن قالهما .. فهاتان الكلمتان من أسباب الفوز بمحبة الله (جل وعلا).

ولكن ما معنى (سبحان الله وبحمده) ... المعنى: أنك تُنزه الله تعالى عن كل عيبٍ ونقصٍ وأنه الكامل من كل وجهٍ (جل وعلا)، مقرونًا هذا التسبيح بالحمد الدَّال على كمال إفضاله وإحسانه إلى خلقه (جل وعلا) وتمام حكمته وعلمه وغير ذلك من كمالاته.

(سبحان الله العظيم) يعنى: ذى العظمة والجلال فلا شىء أعظم من الله سلطانًا ولا أعظم قدرًا ولا أعظم حكمة ولا أعظم علمًا .. فهو عظيم بذاته وعظيم بصفاته (جل وعلا).

۞ فاحرص- أخى الحبيب- على أن تُكثر من هاتين الكلمتين.. لأنهما ثقيلتان فى الميزان وحبيبتان إلى الرحمن..وهما فى نفس الوقت خفيفتان على اللسان.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٨٢) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء.

(١٤١٧) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لأَنْ أَقُولَ سبْحانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلا إلَه إلَّا الله، وَالله أكْبرُ، أَحبُّ إلىَّ مِمَّا طَلَعَت عليهِ الشَّمْسُ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن تلك الكلمات اليسيرة وهذا الذكر الجميل أحب إليه من الدنيا وما فيها.. وذلك لأن هذه الكلمات من أعمال الآخرة وهن الباقيات الصالحات.. وثوابها لا يبيد وأجرها لا ينتهى ولا ينقطع.. أما الدنيا فإلى زوال.

فتلك الكلمات أحب إلى النبى ﷺ من الدنيا ومتاعها الزائل ... ولعلك تعجب من أُناسٍ يقطعون آلاف الكيلو مترات من أجل لقمة عيشٍ قد لا يتحصلون عليها ويغفلون عن كلماتٍ هى أغلى من الدنيا وما فيها.

۞ وأنا أسأل سؤالًا: لو أنك ملكت الدنيا بكل ما فيها ثم مُت.. ماذا تستفيد؟!.. لن تستفيد شيئًا..

لكن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هى الباقيات الصالحات..قال الله تعالى:﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فينبغى لنا أن نغتنم الفرصة بهذه الأعمال الصالحة.

(١٤١٨) وَعَنْ أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «منْ قَالَ: لا إله إلَّا الله وَحدَهُ لا شرِيكَ لَهُ، لهُ المُلكُ، ولهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ، فى يومٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كانَتْ لَهُ عَدل عَشر رقَابٍ وكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنةٍ، وَمُحِيت عنهُ مِائة سيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرزًا مِنَ الشَّيطَانِ يومَهُ ذلكَ حَتَّى يُمسِى، وَلَمْ يأْتِ أَحدٌ بِأَفضَل مِمَّا جاءَ بِهِ إلَّا رجُلٌ عَمِلَ أَكثَر مِنه»، وقالَ: «مَنْ قالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبحمْدِهِ، فى يومٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَاياهُ، وإنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحر»(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٩٣) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٦٩٥) كتاب الذكر والدعاء.

۞ فمن قال تلك الكلمات فاز بتلك الثمار الخمسة:

كان كمن أعتق عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة وحُطَّت عنه مائة خطيئة، وكانت له حِرزًا من الشيطان، ولم يأتِ أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا مَن عَمِلَ أكثر مما عمل.

وهذا أمرٌ يسير .. تستطيع أن تقولها وأنت فى طريقك لصلاة الفجر أو عندما تجلس فى انتظار الصلاة أو بعد الفجر .. لكن ينبغى أن تحافظ عليها وتداوم عليها لتفوز بهذا الفضل العظيم.

أما سبحان الله وبحمده: فمن قالها مائة مرة حُطَّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زَبَد البحر.. وهذه تقولها فى آخر النهار لأجل أن تحط عنك خطايا النهار. فانتهز الفرصة يا أخى .. فالعمر يمضى ولا يرجع .. ما مضى من عمرك فلن يرجع إليك وهذه الأعمال أعمال خفيفة مفيدة ثوابها جزيل وعملها قليل.

۞ ولذا قال النبى ﷺ: «**أَلا أُخْبِرُكَ بِأَحبِّ الكَلامِ إِلَى اللهِ؟ إِنَّ أحبَّ الكَلامِ إِلَى اللهِ: سُبْحانَ اللهِ وبحَمْدِهِ**»(١).

(١٤١٩) وعَنْ أَبى أيوبَ الأنصارىِّ رضي الله عنه عَن النَّبىِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قالَ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لا شَرِيكَ لهُ، لَهُ المُلْكُ، ولَهُ الحمْدُ، وَهُو عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ، عشر مرَّاتٍ: كَانَ كَمَنْ أَعتَقَ أربعةَ أَنفُسٍ مِن وَلِد إسْماعِيلَ**»(٢).

۞ يعنى كان كالذى أعتق أربع رقاب من أشرف الناس نسبًا وهم بنو إسماعيل .. لأن أشرف الناس نسبًا هم العرب وهم بنو إسماعيل ... وأما العجم فلهم آباء آخرون ولكن ذرية إسماعيل هم العرب فمن قال لا إله إلا الله

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣١) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٣) كتاب الذكر والدعاء.

وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفُس ... وهذا دليل على فضل هذا الذكر.

۞ ولكي تعلم قدر الذكر ومكانته فلقد أخبر النبي ﷺ أن سبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض.

(١٤٢٠) وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: **«ألا أُخْبِرُكَ بأحبِّ الكَلامِ إلى الله؟ إنَّ أحبَّ الكلامِ إلى الله: سُبْحانَ الله وبحمْدِهِ»**(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أبا ذرٍّ رضي الله عنه أن أحب الكلام إلى الله عز وجل: سبحان الله وبحمده.

وقد سبق أن قال النبي ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»**.

وقال ﷺ: **«مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحرِ»**(٢).

قال الإمام النووي رحمه الله: هَـذَا مَحمُولٌ عَلَى كَلَامِ الْآدَمِيِّ .. وَإِلَّا فَالْقُرآنُ أَفْضَلُ وَكَذَا قِرَاءَةُ الْقُرآنِ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ الْمُطْلَقِ .. فَأَمَّا الْمَأْثُورُ فِي وَقْتٍ أَوْ حَالٍ وَنَحوِ ذَلِكَ فَالِاشْتِغَالُ بِهِ أَفْضَلُ وَاللهُ أَعْلَمُ(٣).

فينبغي على كل مسلمٍ أن يُكثر من (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) لأنها أحب الكلام إلى الله.. وما كان أحب إلى الله فهو أحب إلينا من الدنيا وما فيها.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣١) كتاب الذكر والدعاء.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٥) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩١) كتاب الذكر والدعاء.
(٣) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٧٦).

(١٤٢١) وعن أبي مالكٍ الأشْعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان، والحمدُ لله تَمْلأُ الميزانَ، وسُبْحانَ الله والحَمْدُ لله تمْلآنِ - أو تَمْلأ - ما بينَ السَّمَواتِ والأرضِ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٤٢٢) وعن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاءَ أعرابي إلى رسُولِ الله ﷺ، فقال: علِّمْني كَلامًا أقُولُهُ. قال: «قُل : لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ، الله أكْبَرُ كبيرًا، والحمْدُ لله كثيرًا، وسُبحان الله ربِّ العالمين، ولا حوْل ولا قُوَّةَ إلا بالله العَزيز الحكيم» قال: فهؤلاء لِربِّي، فما لي؟ قال: «قُل: اللَّهُمَّ اغْفِر لي وارحمني، واهْدِني، وارزُقْني»(٢).

۞ ففي هذا الحديث يذكر سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد العشرة المبشرين بالجنة.. أن رجلًا من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فقال له: علِّمْني كَلامًا أقُولُهُ... فما كان من النبي ﷺ إلا أن قال له: «**قُل : لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ**» فقدَّمها على ما بعدها لأنها كلمة التوحيد التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ كلمة الدخول إلى الإسلام ومفتاح الجنة وهي التي من أجلها خلق الله السماوات والأرض وخلق الجنة والنار وأنزل الكتب وأرسل الرسل وكلَّف الإنس والجن بعبادته ليفترق الناس يوم القيامة بحسب ما قدموه إلى فريقٍ في الجنة وفريقٍ في السعير.

۞ «**الله أكْبَرُ كبيرًا، والحمْدُ لله كثيرًا**»

«**وسُبحان الله**» أي: أُنزه ربي عَزَّوَجَلَّ عن كل نقصٍ .. فالله عَزَّوَجَلَّ له صفات

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٦) كتاب الذكر والدعاء.

الكمال والجلال «ربِّ العالمين» خالق العالمين ومالكهم ورازقهم سبحانه وتعالى.

«ولا حوْل» عن المعصية «ولا قُوَّةَ» على الإتيان بالطاعة «إلا بالله العَزيز» الذى لا يُغالَب فى مراده «الحكيم» الذى يضع الأشياء فى مواضعها بحسب حكمته البالغة.

۞ فقال الأعرابى: «هؤلاء الكلمات لربى» أى لشأن ربى؛ أى: حقه؛ لأنها: أوصافه؛ لأنها تهليل، وتوحيد، وتحميد، وتسبيح، وثناء، وتمجيد وذلك كله حقه.

قال: «**فما لى**» أى: أى شىء يكون لى وأذكره لحقِّى.

قال ﷺ: قل: «**اللهُمَّ اغْفِر لى وارحمنى، واهْدِنى، وارزُقْنِى**» أصل اللهم يا ألله، والمُيم المُشددة فى آخره عوض من الياء.

قوله: «**اغفر لى**» الغَفْر معناه: الستر، ومنه: المِغْفَر وهو ما يُلبس على الرأس تحت البيضة أو القلنسوة..والمراد هنا: ستر الذنوب.

قوله: «**وارحمنى**» الرحمة معناها: العطف والحنو، وهى متضمنة إنعامه وإحسانه؛ لأن مآل العطف والحنو يُفضى إلى هذا.

قوله: «**واهدنى**» الهدى نقيض الضلال، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية.

قوله: «**وعافنى**» من المعافاة؛ وقد جمع رسول الله ﷺ فى تعليمه هذا الدعاء بَينَ ما يجلب المنافع الأُخروية، وبين ما يجلب المنافع الدنيوية؛ لأن المغفرة والرحمة والهداية من المنافع الأُخروية... والمعافاة والرزق من المنافع الدنيويَّة، وقَدَّم المنافع الأخروية لكونها هى المقصود بالأصل... وهذا التعليم من الرسول ﷺ تعليم إرشاد، ودلالة إلى طريق الخير.

(١٤٢٣) وعن ثوبانَ ﵁ قال: كان رسُولُ الله ﷺ إذا انصرفَ مِنْ صلاتِهِ استَغْفَر ثلاثًا، وقال: «اللَّهُمَّ أنْتَ السَّلامُ، ومِنكَ السَّلامُ، تباركْت يا ذا الجلالِ والإكرام» قيل للأوزاعي - وهو أحد رُواةِ الحديث -: كيفَ الاستغفارُ؟ قال: تقول: أَسْتَغْفِرُ الله، أَسْتَغْفِرُ الله[1].

۞ ففى هذا الحديث يذكر ثوبان ﵁ أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاته بالتسليم استغفر ثلاثًا.. أى قال: أستغفر الله ثلاث مرات ... وإنما كان النبى ﷺ يستغفر ثلاثًا بعد التسليم من الصلاة ليُعلمنا أن نستغفر بعد تلك الطاعة رجاء أن يغفر الله لنا ما كان من خللٍ أو تقصيرٍ فى تلك الصلاة.

وهذا فيه بيان لما كان عليه رسول الله ﷺ من الخوف والرجاء... فبعد صلاته ﷺ وهى الصلاة الخاشعة المطمئنة كان يستغفر ربه بقوله: أستغفر الله (ثلاثًا) وهو بهذا الهدى المبارك يُعَلِّم أتباعه إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها أنه ينبغى على العبد أن يستغفر ربه بعد فعل الطاعات لجَبر ما كان من تقصير.

ونظير ذلك أن المجتهدين المتهجدين فى الليل إذا فرغوا من تهجُّدهم استغفروا ... كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

۞ وتقول: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام**». أنت السلام يعنى السالم من كل نقصٍ وعيبٍ، «**ومنك السلام**» يعنى منك السلامة ... يعنى: اللهم إنى أتوسل إليك بهذا الاسم الكريم من أسمائك أن تُسلم لى صلاتى حتى تكون تكفرة للسيئات ورفعة للدرجات.

«**تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» وليس فيها (وتعاليت) ولكن فى أحاديث أخرى فيها.... «**يا ذا الجلال والإكرام**»: أى عَظُمت خيراتك وبركاتك ونعمك على عبادك... فينبغى للإنسان أن يستغفر بعد الصلاة -الفريضة- ثلاث مرات ويقول: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**».

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٩١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

۞ وقد كان النبى ﷺ يحثنا على الإكثار من قول « يا ذا الجلال والإكرام» قال ﷺ: «أَلِظُّوا[(١)] بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»[(٢)].

(١٤٢٤) وعنِ المغيرةِ بن شُعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ كان إذا فَرَغَ مِن الصَّلاةِ وسلَّم قال: «لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، لهُ المُلْكُ ولهُ الحمْدُ، وهو على كلِّ شَيءٍ قديرٌ. اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أعطيْتَ، ولا مُعطِيَ لِمَا مَنَعت، ولا ينْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجدُّ»[(٣)].

۞ وقبل أن أشرح الحديث أحب أن أذكر موقفًا لطيفًا حول هذا الحديث.. فقد كان المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا على الكوفة من قِبَل معاوية ابن أبى سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.. فطلب منه معاوية أن يكتب له كتابًا يذكر فيه ما كان النبى ﷺ يقوله دُبر الصلاة.. فكتب له المغيرة هذا الحديث الذى بين أيدينا فنشره معاوية بين الناس وأمرهم بالمحافظة عليه.

۞ وهنا يذكر المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلَّم قال: «لا إله إلا الله» أى لا معبود بحقٍّ إلا الله.. فليس هناك معبود فى الكائنات كلها يستحق أن يُعبد ولا أن يُطاع من دون الله عَزَّ وَجَلَّ ... فإنها ليست آلهة، بل هى كما قال الله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ فالمعبود حقًّا هو الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله: «وحده لا شريك له»، هذا من باب التأكيد ... تأكيد وحدانيته (جل وعلا) وأنه لا مشارك له فى أُلوهيته .... له المُلك وله الحمد وهو على كل شىء قدير... له المُلك المُطلق العام الشامل الواسع، مُلك السماوات والأرض وما

(١) أى الزموه واثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به فى دعائكم. «نهاية».

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٥٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣٠) كتاب الدعوات، ومسلم (٥٩٣) كتاب المساجد.

بينهما، مُلك الآدميين والحيوانات والأشجار والبحار والأنهار والملائكة والشمس والقمر... كل هذه ملكٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ما علمنا وما لم نعلم... له الملك كله يتصرف فيه كما يشاء وعلى ما تقتضيه حكمته (جل وعلا).

«**ولهُ الحمْدُ**» فهو سبحانه وتعالى محمودٌ على كل حال: في السراء والضراء.. أما في السراء فينبغي على الإنسان أن يحمد الله وأن يشكره على نِعَمه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

وأما في الضراء فيحمد الإنسان ربه حمد تفويض.. وذلك لأن الإنسان لا يعلم ولا يدرى أين تكون مصلحته.. فقد يتمنى الإنسان ما فيه هلاكه فيحجبه الله عنه رحمة به.. وقد يكره الإنسان ما فيه مصلحته.. فالله عَزَّوَجَلَّ يعلم ما فيه مصلحة عباده.. ولذا فإنه يجب علينا أن نحمد الله عَزَّوَجَلَّ في السراء والضراء وفي كل حال.

وكان النبي ﷺ إذا أتاه ما يَسُره قال: «**الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات**» وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «**الحمد لله على كل حال**»(١).

وأما ما يقوله بعض الناس: الحمد لله الذى لا يُحمَد على مكروهٍ سواه؛ فهذه كلمة خاطئة لم تَرِد..ومعناها غير صحيح، وإنما يُقال: الحمد لله على كل حال.

۞ «**اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أعطَيْتَ**» فما أعطاك الله عَزَّوَجَلَّ وما قدره لك لا يستطيع أحد أن يمنعه عنك أبدًا ولو اجتمع الناس جميعًا فلن يستطيعوا أن يحجبوا عنك خيرًا قدره الله لك.

---

(١) صحيح: رواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٤٠).

«**ولا مُعطِي لِمَا مَنَعتَ**» وما منعه الله عنك لا يستطيع أحدٌ أن يعطيك إياه.... فإن أعطاك الله الثواب على تلك الصلاة. فمن يمنعه عنك.. وإن حرمك الله ثوابها فمن يعطيك ثوابها... إن أعطاك الله من فضله ورحمته فمن يمنعك وإن حرمك منهما فمن يعطيك..

فأنت إذا خرجت من المسجد فإنك تقول: «**اللهم افتح لى أبواب فضلك**» فمن يمنعك من فضله (جل وعلا).

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾.

فيا الله.. لقد أجزلت لنا وأعطيت فلا أحد يمنع فضلك وعطاءك وجودك ورحمتك.... وهذا هو معنى قوله ﷺ: «**وَاعلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَت عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعَت عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»(١).

فإذا علمنا هذا فلا ينبغى أن نسأل أو نطلب إلا من الله عَزَّوَجَلَّ.

«**إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**» وإذا أعطاك أحدٌ شيئًا فاعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى قدَّر لك هذا وما هو إلا مجرد سبب..

لكن نحن مأمورون بأن نشكر مَن صنع إلينا معروفًا..كما قال النبى ﷺ: «**مَن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»(٢) لكن لا بُدَّ نعلم أن الذى يسَّر لنا هذا العطاء وصيَّر لنا هذا المعطى هو الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ «**ولا ينْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجدُّ**» الجد: هو الحظ والغِنى... فلا ينفع الغَنى غِناه عند الله إذا لم يكن مؤمنًا صالحًا ينفق ماله فى أبواب الخير... وقد تجد

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٢١).

إنسانًا غنيًّا صاحب ثروة وقصورٍ.. فإذا أُصيب بمرضٍ لا يقدر أن يرفع عن نفسه المرض بماله وغناه.. لا يقدر على رفعه عنه إلا الله.. ولو كان يوم القيامة من أهل النار فلن يستطيع أن يفدى نفسه بملء الأرض ذهبًا وفضة...ولذا فإنه يجب على مَن آتاه الله مالًا أن يشكر الله عَزَّوَجَلَّ وأن يطيعه وأن يستعمل هذا المال فى مرضاة الله وأن يستمتع أيضًا بهذا المال فيما أحلَّه الله له وأن يُخرج زكاة ماله.. ليصبح كما قال النبى ﷺ: «**نِعمَ الْمَالُ الصَّالح لِلرَّجُلِ الصَّالح**».. أما إن استعمل المال فى معصية الله عَزَّوَجَلَّ فإن ماله لن ينفعه ولن يُنجيه بين يدى الله يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

(١٤٢٥) وعن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كان يقُول دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ، حينَ يُسَلِّمُ: لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، لهُ الملك ولهُ الحمْدُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ. لا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبُدُ إلا إيَّاهُ، لهُ النعمةُ، ولهُ الفضْلُ ولهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ، لا إله إلا الله مُخْلصينَ لهُ الدِّينَ ولوْ كَرِه الكافرُون. قال ابْنُ الزبير: وكان رسولُ الله ﷺ يُهَلِّلُ بهِنَّ دُبُر كلِّ صلاةٍ مكتوبة(١).

❁ وفى هذا الحديث يذكر ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبى ﷺ كان يقول دُبر كل صلاة حين يُسلِّم:

«**لا إله إلا الله**» أى لا معبود بحقٍّ إلا الله.

«**وحدَهُ لا شريكَ له**» تأكيد لوحدانيته (جل وعلا) وأنه لا مُشارك له فى أُلوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

«**لهُ الملك ولهُ الحمْدُ**» له الملك المطلق الشامل الواسع لكل ما فى السماوات وما فى الأرض وما فى الكون كله.. وله الحمد المطلق.. فهو المحمود على كل حالٍ فى السراء والضراء.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٩٤) كتاب المساجد.

«وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ» فله القدرة المطلقة التى لا تحدها حدود.

«لا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله» هى كنز من كنوز الجنة لأن الإنسان ينخلع من حوله وقوته إلى حول الله وقوته.

فالإنسان ليس له حَول وليس له قوة..فلا يتحول من حالٍ إلى حال ولا يَقوى على ذلك إلا بالله عَزَّوَجَلَّ ... فهى كلمة استعانة إذا أعياك الشىء، وعجزت عنه قل: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإن الله تعالى يعينك عليه.

«لا إله إلا الله» وكرر هذه الكلمة العظيمة لأنها الكلمة التى يدخل بها الإنسان فى الإسلام.. وهى الكلمة التى إذا خُتم بها حياة الإنسان كان من أهل الجنة «مَنْ كَانَ آخِر كَلَامِهِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

«ولا نعبُدُ إلا إيَّاهُ» فعبادتنا مقصورة عليه سبحانه وتعالى.. ليس لنا ربٌّ ولا إلهٌ سواه..فلا نصرف أى عباده بدنية أو مالية أو قلبية ظاهرة أو باطنة إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

«لهُ النعمةُ» فنعمه لا تُعَدُّ ولا تُحصَى سواء كانت ظاهرة أو باطنة ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾... فكل النعم منه سبحانه وتعالى.

«ولهُ الفضْلُ» فى كل شىء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

«ولهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ» فهو وحده الذى يستحق الثناء الحسن الجميل... والثناء يشمل أنواع الحمد والمدح والشكر.. ولن نستطيع أن نُثنى على الله بما يستحق ولذا كان النبى ﷺ يقول: «... لا أُحصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١).

«لا إله إلا الله» ويكرره للمرة الثالثة لتكون راسخة فى قلبك فلا تفارقك ولا تفارقها حتى آخر لحظة فى عمرك..

وأن تحقق شروطها كلها من العلم واليقين والقبول والانقياد والصدق

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة.

والإخلاص والمحبة.

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ فنجدد النية دائمًا ونُخلص لله عَزَّوَجَلَّ في أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا .. لأن العمل لا يُقبل إلا بشرطين هما: الإخلاص والمتابعة... فنحن نُخلص لله عَزَّوَجَلَّ ونتبع رسول الله ﷺ ولو كره الكافرون والمنافقون.

۞ قال ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.. وكان رسول الله ﷺ يُهلل بهن دُبر كل صلاة مكتوبة ... أي: يرفع صوته قليلًا ليُسمع نفسه ويسمعه مَن كان قريبًا منه ﷺ.

۞ وهذا الحديث فيه ما كان عليه النبي ﷺ من دوام ذكر الله عَزَّوَجَلَّ والإكثار من الثناء عليه بأنواعٍ شَتَّى من الذكر الذي يتضمن الإقرار له بالتوحيد وأنه المالك المتصرف في شئون خلقه، لا يُنازعه أحد في ملكه، وأنه هو عَزَّوَجَلَّ المعبود بحقٍّ وما سواه باطل.

(١٤٢٦) وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ فُقَرَاءَ المُهاجِرِينَ أَتَوْا رسُولَ الله ﷺ فقالوا: ذَهب أهْلُ الدُّثُورِ بالدَّرجاتِ العُلى، والنَّعِيمِ المُقيم: يُصلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كما نصُومُ، ولهمُ فَضْلٌ مِن أمْوالٍ: يحجُّونَ، ويَعتَمِرُون، ويُجاهدُون، ويَتصَدَّقونَ. فقال: «ألا أُعلِّمُكُم شيئًا تُدركونَ بهِ مَن سَبَقَكُم، وتَسبِقُون به مَن بَعدكُم. ولا يكُونُ أحدٌ أفْضلَ مِنْكُم إلا مَن صَنَعَ مِثلما صَنَعتُم؟» قالوا: بَلَى يا رسول الله، قال: «تُسبِّحون، وتَحمدُونَ، وتُكبِّرون، خَلْفَ كُلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين» قال أبو صالح الرَّاوي عن أبي هُريرة، لَمَّا سُئِلَ عن كيفيةِ ذِكْرِهنَّ، قال: يقول: سُبحان الله، والحمْدُ لله، والله أكْبرُ، حتَّى يكونَ مِنْهنَّ كُلِّهنَّ ثلاثًا وثلاثين[1].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٤٣) كتاب الأذان – ومسلم (٥٩٥) كتاب المساجد.
«الدُّثورُ» جمع دَثْرٍ وهو المالُ الكثير.

وزاد مُسْلمٌ فى روايته: فرجع فُقراءُ المهاجرين إلى رسُولِ الله ﷺ، فقالوا: سمع إخْوانُنا أهلُ الأموال بِما فعلْنا، ففَعَلُوا مِثْلهُ؟ فقال رسول الله ﷺ: « ذلكَ فَضْلُ الله يُؤْتيهِ مَنْ يشاءُ ».

۞ ففى هذا الحديث أن فقراء المهاجرين جاءوا إلى النبى ﷺ وهم فى غاية الحزن والأسى.. لماذا؟ هل كانوا يريدون مالًا أو جاهًا؟ كلا.. ولكن كانوا فى غاية الحزن لأن الأغنياء سبقوهم إلى فعل بعض الطاعات التى تحتاج إلى المال: كالحج والعمرة والجهاد والصدقة.. فكانوا يريدون أن يدركوا الأغنياء وأن يسبقوهم بأعمالٍ أخرى لا تحتاج إلى المال.. فما كان من النبى ﷺ إلا أن أخبرهم بشىءٍ يسبقون به مَن سبقهم ومَن بعدهم فقال ﷺ: «**أَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعتُمْ**» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولُ اللهِ قَالَ: «**تُسَبِّحُونَ، وَتَحمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**».

يعنى تقولون: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر ثلاثًا وثلاثين مرة، فهذه تسعٌ وتسعون ... ثم إنهم فعلوا ذلك، ولكن سمع الأغنياء بهذا ففعلوا مثله، فتساووا معهم فى هذا الذكر، فرجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما صنعنا فصنعوا مثله ... وكأنهم يريدون شيئًا آخر يختصون به، فقال: «**ذلك فضل الله يُؤتيه مَن يشاء**».

۞ ففى هذا الحديث دليلٌ على حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل الخير، وتَنافسهم، وتسابقهم فى ذلك، امتثالًا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ**﴾[آل عمران: ١٣٣]، ولقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين: ٢٦]، ولقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[الواقعة: ١٠-١٢]،

ولقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١].

فكانوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وأرضاهم يتسابقون إلى فعل الخير، والأعمال الصالحة، ويتنافسون فى ذلك، ويبذلون جهدهم وطاقتهم ابتغاء رضوان الله، وطلبًا لما أعدَّه سبحانه للعاملين من عباده المؤمنين..تصديقًا لقوله سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وفى الحديث دليل على أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم كان يَشُق عليهم، ويُحزنهم فوات بعض الأعمال الصالحة، التى تتعلق بالمال إذ لم يكن لديهم من المال ما يساعدهم على فعل هذه الطاعات، التى عمل بها غيرهم..فكان الفقراء منهم يحزنون على فوات الصدقة بالأموال التى يقدر عليها الأغنياء، ولا يقدرون هم عليها، كما يحزنون على التخلُّف عن الخروج فى الجهاد فى سبيل الله؛ لعدم القدرة على الزاد والراحلة. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بذلك فى كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢][1].

وفى هذا الحديث بيانٌ منه ﷺ إلى أن كل أعمال المعروف والخير تكون صدقة لصاحبها .. إذ ليست الصدقة قاصرة على إخراج المال، بل إن ذكر الله (جل وعلا)، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وإتيان الرجل أهله... كله من الصدقات التى يمتن الله بها على عبده.

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أن الأغنياء من الصحابة كالفقراء حريصون على فعل الخير والتسابق فيه، ولهذا صنعوا مثل ما صنع الفقراء، فصاروا يُسبحون ويحمدون ويكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين.

---

(١) من هدى المصطفى ﷺ (ص ٢٦٠-٢٦١) بتصرف.

ومن فوائد هذا الحديث: أن هذا الذكر: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر ثلاثًا وثلاثين مشروع خلف الصلوات...وقد ورد فى حديثٍ آخر أنه تكمل المائة بقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير.

(١٤٢٧) وعن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنْ رسُولِ الله ﷺ قال: «مَنْ سبَّحَ الله فى دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين، وحَمِدَ الله ثلاثًا وثلاثين وكَبَّرَ اللهَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ فَتْلِكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وقال تمام المائةِ: لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ لهُ، لهُ المُلْكُ ولهُ الحمْد، وهو على كل شىءٍ قديرٌ، غُفِرَتْ خطاياهُ وإن كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحر»[١].

(١٤٢٨) وعنْ كعبِ بن عُجْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنْ رسول الله ﷺ قال: «مُعقِّبَاتٌ لا يَخيبُ قائلُهُنَّ - أو فاعِلُهُنَّ - دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ: ثلاثًا وثلاثينَ تَسْبِيحَةً، وثلاثًا وثلاثينَ تَحمِيدَةً، وأربعًا وثلاثينَ تكبيرةً»[٢].

۞ ففى الحديث الأول يخبر النبى ﷺ أن الذى يُسبِّح الله بعد كل صلاة مكتوبة ثلاثًا وثلاثين مرة ويحمد الله ثلاثًا وثلاثين مرة ويكبر الله ثلاثًا وثلاثين مرة.. فهذه (٩٩ مرة) ثم يقول تمام المائة: لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ لهُ، لهُ المُلْكُ ولهُ الحمْد، وهو على كل شىءٍ قديرٌ.. فإن هناك جائزة عظيمة فى انتظاره.. فيا ترى ما هى تلك الجائزة؟ تُغْفَر ذنوبه وخطاياهُ وإن كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحر.

ومن المعلوم أن زَبَد البحر هو تلك الرغاوى البيضاء الكثيرة التى تنشأ من تتابُع الأمواج وكثرتها... ومن المعلوم أنه لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يحصى عدد زَبَد البحر.. وكأنه ﷺ يقول: مَن فعل هذا فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر كل ذنوبه وآثامه

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٩٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٩٦) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

-أي: من الصغائر المتعلقة بحق الله عَزَّوَجَلَّ- ولا يترك له ذنبًا دون مغفرة... ويا له من فضلٍ عظيم.. فبتلك الكلمة المباركة اليسيرة تُغفر كل ذنوبه وآثامه.

۞ وفي حديث كعب بن عُجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مُعقِّباتٌ لا يَخيبُ قائلُهُنَّ**» مَعناهُ تَسْبِيحَاتٌ تُفْعَلُ أَعقابَ الصَّلاةِ. وسُمِّيَتْ مُعَقِّبَاتٌ لِأَنَّهَا تُفْعَلُ مَرَّةً بعد أخرى..وقوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ ﴾ أَيْ: مَلَائِكَةٌ يَعقُبُ بَعضُهُمْ بَعضًا[1].

وذلك بأن تُسبح الله ثلاثًا وثلاثين وتحمد الله ثلاثًا وثلاثين وتُكبر الله أربعًا وثلاثين... فمن قالها فلن يخيب سعيه ورجاؤه في الدنيا والآخرة.

۞ ففي الحديث الأول: تكبر ثلاثًا وثلاثين وتجعل تمام المائة لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ لهُ، لهُ المُلْكُ ولهُ الحمْد، وهو على كل شيءٍ قديرٌ..

وفي الحديث الثاني: تكبر أربعًا وثلاثين.. فهذا جائز وهذا جائز.. فاللهم اجعلنا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

(١٤٢٩) وعن سعدِ بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ كانَ يَتَعوَّذُ دُبُر الصَّلواتِ بهؤلاء الكلِمات: «اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِن الجُبْنِ والبُخْلِ، وأعُوذُ بِكَ مِن أنْ أُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وأعُوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ الدُّنْيا، وأعوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ القبر»[2].

۞ ففي هذا الحديث يخبر سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دُبر الصلوات بهؤلاء الكلمات...

فكلمة «دُبُر الصَّلواتِ» تختلف باختلاف ما يُقال.. فإن كان المذكور أذكارًا فإنها تكون بعد التسليم من الصلاة..

وإن كان المذكور دُعاءً فإنه يكون بعد التشهُّد وقبل التسليم.

(١) مسلم بشرح النووي (٥/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٨٢٢) كتاب الجهاد والسير، (٦٣٧٤) كتاب الدعوات.

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: دُبر الشيء من الشيء.. كما يُقال: دُبر الحيوان: المؤخرة.

۞ المهم أن النبى ﷺ كان يتعوذ دُبر الصلوات بهؤلاء الكلمات:

«اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن الجُبْنِ والبُخْلِ، وأعُوذُ بِكَ مِن أنْ أُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وأعُوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وأعوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ القبر».

الأول: **البخل وهو: الشُّح بالمال**.

الثانى: الجبن وهو: الشُّح بالنفس.. فالبخل أن يمنع الإنسان ما يجب عليه بذله من ماله من زكاة أو نفقات أو إكرام ضيف أو غير ذلك...وأما الجبن فأن يَشُح الإنسان بنفسه، لا يقدم على جهاد؛ لأنه يخشى أن يُقتل ولا يتكلم بكلمة الحق ؛ لأنه يخشى أن يُسجَن، وما أشبه ذلك.. فهذا جُبن.

وأما «أعوذ بك أن أُردَّ إلى أرذل العُمر»؛ أرذل يعنى أرداه وأنقصه، وذلك على وجهين:

الوجه الأول: أن يحدث للإنسان حادث فيختل به عقله فيهذى فيُرد إلى أرذل العُمر ويصير كالصبى... أو أن يكون ذلك عن كِبَر وهو الوجه الثانى؛ لأن الإنسان كلما كبر إذا استوى وبلغ أربعين سنة بدأ يأخذ فى النقص.

فمن الناس مَن يُرد إلى أرذل العمر فى قواه الحسية وقواه العقلية، فيضعف بدنه ويحتاج إلى مَن يحمله ويُوضئه ويوجهه وما أشبه ذلك... أو عقليًّا بحيث يهذى ولا يدرى ما يقول... فالرد إلى أرذل العمر يشمل هذا وهذا، ما كان بحادث وما كان بسبب تَقادُم السن به. ثم إن الإنسان إذا وصل إلى هذه الحال، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم منها، فإن أهله يَمَلُّونه... أهله الذين هم أشفق الناس به يتعبون منه ويملونه، وربما يتركونه فى مكان تتكفل به الحكومة مثلًا.

وهذا لا شك أن الإنسان لا يرضاه ولا يرضى لنفسه أن يصل إلى هذا الحد.

وتسقط أيضًا عنه الصلاة ويسقط عنه الصوم، وتسقط عنه الواجبات؛ لأنه وصل إلى حَدٍّ يرتفع عنه التكليف.

الثالث: «**وأعوذ بك من فتنة الدنيا**» وما أعظم فتنة الدنيا وما أكثر المفتونين فى الدنيا لا سيما فى عصرنا هذا.. وعصرنا هذا هو عصر الفتنة، كما قال النبى ﷺ: «**والله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَن كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها مَن قبلكم فتُهلككم كما أهلكتهم**»(١).

وهذا هو الواقع فى الوقت الحاضر، فُتحت علينا الدنيا من كل جانب ومن كل وجه... منازل كقصور الملوك، ومراكب كمراكب الملوك، وملابس ومطاعم ومشارب.. فُتحت فصار أكثر الناس الآن ليس لهم هَمٌّ إلا البطون والفروج. فُتنوا بالدنيا، نسأل الله العافية.

ففتنة الدنيا عظيمة، يجب على الإنسان أن ينتبه لها... ولهذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

الرابع: «**وأعوذ بك من فتنة القبر..**» أو من عذاب القبر: وفتنة القبر أيضًا فتنة عظيمة... إذا دفن الميت وانصرف عنه أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم منصرفين عنه، أتاه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه... فإن كان مؤمنًا خالصًا أجاب بالصواب، وقال: ربى الله، ونبيى محمد ﷺ، ودينى الإسلام. وإن كان مُرائيًا أو منافقًا أعاذنا الله وإياكم من ذلك، قال: هاها لا أدرى، هاها لا أدرى، فيُضرَب بمرزبة من حديد... المرزبة من الحديد قالوا مثل المطرقة، وقد ورد فى بعض الأحاديث أنه لو اجتمع عليها أهل مِنى ما أقلُّوها، من عظمتها.. نسأل الله العافية، فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين يعنى الإنس والجن، وهذه من رحمة الله أن الله تعالى لا يُسمعنا عذاب القبر؛ لأننا إذا سمعنا الناس يُعذَّبون

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠١٥) كتاب المغازى، ومسلم (٢٩٦١) كتاب الزهد والرقائق.

فى قبورهم ما طاب لنا عيش ولتنكدنا ، وإن كان قريبًا لنا تنكدنا من وجهين: من قرابته، ومن هذه الأصوات المزعجة.

وإن كان غير قريب أيضًا انزعجنا منه... ففتنة القبر فتنة عظيمة... نسأل الله أن يُعيذنا وإياكم منها(١).

۞ ولقد كان سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُعلم بنيه هؤلاء الكلمات كما يُعلم المعلم الغلمان الكتابة والقراءة.

(١٤٣٠) وعن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ أخَذَ بيَدِهِ وقال: «يا مُعَاذُ، والله إنِّى لأُحِبُّكَ» فقال: «أُوصيكَ يا معاذُ لا تَدَعنَّ فى دُبرِ كُلِّ صلاةٍ تقولُ: اللَّهُمَّ أعِنِّى على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسنِ عِبادتِكَ»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٨٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٤٣١) عن أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «إذا تشهَّد أحدُكُمْ فليسْتَعِذ بالله مِن أربَع، يقول: اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن عذابِ جهنَّم، ومِن عذابِ القَبرِ، ومِن فِتْنَةِ المحيَا والمَماتِ، ومِنْ شرِّ فِتْنَةِ المسيح الدَّجَّالِ»(٣).

۞ ففى هذا الحديث يأمرنا النبى ﷺ إذا فرغنا من التشهُّد وقبل التسليم أن نستعيذ بالله من أربعة أشياء ويقول كل واحدٍ منَّا: «اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن عذابِ جهنَّم» فتستعيذ بالله من عذاب النار التى هى أشد من نار الدنيا بتسعة وستين

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٦٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

جزءًا كلها مثل حرها.. النار التى أُوقد عليها ألف عامٍ حتى احمرَّت وألف عامٍ حتى ابيضَّت وألف عامٍ حتى اسودَّت فهى الآن سوداء قاتمة.... النار التى أُلقى فيها حجر من على شفيرها فما وصل إلى قعرها إلا بعد سبعين سنة.. النار التى يُؤتَى بها يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمامٍ سبعون ألف مَلَكٍ يجرونها فلا يبقى مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبىٌّ مُرسَل إلا جَثى على رُكبتيه وقال: يارب سلِّم سلِّم.

والتعوذ بالله من عذابها يشمل ما عملت من سوءٍ تسأل الله أن يعفو عنك منه.. وما لم تعمل من سوءٍ تسأل الله أن يُجنبك إياه.

۞ «ومِن عذابِ القَبرِ» أى: وتستعيذ بالله من عذاب القبر.. لأن القبر فيه نعيمٌ وعذاب.. عذابٌ دائم للكافرين والمنافقين نفاقًا اعتقاديًّا.. وعذابٌ قد ينقطع لعُصاة الموحدين.

وقد ثبت أن النبى ﷺ مَرَّ بقبرين فقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِى كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِى بِالنَّمِيمَةِ**».

۞ «ومِن فِتْنَةِ المحيَا والمَماتِ» فأما فتنة المحيا فهى ما يفتتن به الإنسان فى حياته.. وتدور على شيئين: إما جهل وشبهة وعدم معرفة بالحق، فيشتبه عليه الحق بالباطل فيقع فى الباطل فيهلك. وإما شهوة أى: هوى، بحيث يعلم الإنسان الحق لكنه لا يريده وإنما يريد الباطل..وأما فتنة الممات فقيل: إنها فتنة القبر وهى سؤال الملكين للإنسان إذا دُفن عن ربه ودينه ونبيه، وقيل: فتنة الممات هى ما يكون عند موت الإنسان، وذلك أن أشد ما يكون الشيطان حرصًا على إغواء بنى آدم عند موتهم..فيَأْتى للإنسان عند موته ويوسوس له ويشككه وربما يأمره بأن يكفر بالله عَزَّوَجَلَّ. فهذه الفتنة من أعظم الفتن.

ولما كانت الفتن تُعرض على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا كما أخبر

بذلك النبى ﷺ، سَنَّ لنا أن نتعوذ بالله منها فلا يصرفها عنا إلا الله ... لأن الفتنة أصلها الامتحان والاختبار، ومنها إدخال الذهب فى النار ليُعرف الجيد منه من الخبيث ... قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

۞ «ومِنْ شرِّ فِتْنَةِ المسيح الدَّجَّالِ» وأما فتنة المسيح الدجال، فالمسيح الدجال هو مَن يبعثه الله عَزَّوَجَلَّ عند قيام الساعة.. رجلٌ خبيثٌ كاذب، مكتوبٌ بين عينيه: كافر يقرؤه المؤمن الكاتب وغير الكاتب... ويفتن الله تعالى الناس به؛ لأنه يُمكَّن له فى الأرض بعض الشىء... يبقى فى الأرض أربعين يومًا، اليوم الأول طوله طول السنة الكاملة، والثانى طوله شهر والثالث طوله أسبوع، وباقى الأيام كسائر الأيام.

يدعو الناس إلى أن يكفروا بالله، وأن يشركوا به، ويقول: أنا ربكم، ومعه جنة ونار، لكنها جنة فيما يرى الناس، ونار فيما يرى الناس، وإلا فحقيقة جنته أنها نار، وحقيقة ناره أنها جنة، كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ..فيغتر الناس به ويفتتن به ما شاء الله أن يفتتن... وفتنته عظيمة فإن النبى ﷺ قال: «**ما فى الدنيا فتنة أعظم من خلق آدم إلى قيام الساعة مثل فتنة المسيح الدجال، وما من نبى إلا وأنذر به قومه**»[1] ولهذا خصَّه من بين فتنة المحيا بأن فتنته عظيمة. نسأل الله أن يُعيذنا وإياكم منها، وهذه الأربع يذكرها الإنسان بعد التشهُّد وقبل أن يُسلِّم[2].

(١٤٣٢) وعن علىٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسُولُ الله إذا قام إلى الصَّلاةِ يكونُ مِن آخِر ما يقولُ بينَ التَّشَهُّدِ والتَّسْليم: «اللَّهُمَّ اغفِر لى ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسْررتُ ومَا أعلَنْتُ، وما أسْرفْتُ، وما أنتَ أعلمُ بهِ مِنِّى، أنْتَ المُقَدِّمُ، وأنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إله

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وابن خزيمة، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).
(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٦٦) بتصرف.

إلا أنتَ»(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر علي بن أبي طالب رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهُّد والتسليم: «**اللَّهُمَّ اغفِر لي ما قدَّمتُ**» أي: من الذنوب.

«**وما أخَّرتُ**» أي: من الطاعات.. وقيل: إن وقع مني ذنب فيما بعد فاغفره لي.

«**وما أسْرَرتُ ومَا أعلَنْتُ**» أي: ما أخفيت وما أعلنت.. فالكل سواء عند الله.. فالله عَزَّوَجَلَّ يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعيُن وما تُخفي الصدور.

«**وما أسْرَفْتُ**»أي: وما أكثرت من الذنوب والخطايا والآثام والأوزار... وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ بذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

«**وما أنتَ أعلمُ بهِ مِنِّي**» فالله عَزَّوَجَلَّ يعلم ما تُكنه الأنفُس والصدور.. وهو أعلم بنا منَّا.. فكم من معصية نسيناها يذكِّرنا الله بها ويُبديها عندما نقف بين يديه.. وكم من معصية لم يعلم العبد أنها معصية إلا عندما يقف بين يدي الله يوم القيامة... فالله أعلم بما فعلنا من علمنا نحن بأنفسنا.. ولذا قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨].

«**أنْتَ المُقدِّمُ**»: تُقدم مَن شئت بطاعتك وغيرها.

«**وأنْتَ المُؤخِّرُ**»: تُؤخر مَن شئت عن طاعتك كما تقتضيه حكمتك.

«**لا إله إلا أنْتَ**» فلا معبود بحقٍّ إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وفي هذا الحديث بيان سعة علم الله عَزَّوَجَلَّ وأنه لا تخفى عليه خافية فإن

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

الإنسان قد ينسى ذنبًا اقترفه ولكن الله لا ينسى، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وكقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وفيه شدة إلحاحه ﷺ على ربه بطلب المغفرة تواضعًا منه وتعليمًا لأتباعه ﷺ.

(١٤٣٣) وعنْ عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُكْثِرُ أنْ يقولَ في رُكوعِهِ وسُجُودِه: «سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وبِحمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِر لي»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١١٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٤٣٤) وعنها أنَّ رسُولَ الله ﷺ كانَ يقولُ في رُكوعِهِ وسجودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكةِ والرُّوحِ»(٢).

۞ وهنا تحكي أمنا عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده:

«سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ»: وهما اسمان للمبالغة في النزاهة والطهارة عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله وكبريائه وعظمته (سبحانه وتعالى)

أي: أن ركوعي وسجودي لمن هو البالغ في النزاهة والطهارة عز وجل.

والسُّبوح: سبحانه هو الذي سَبَّح بحمده المُسبحون..قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال سبحانه: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨١٧) كتاب الأذان - ومسلم (٤٨٤) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٧) كتاب الصلاة.

بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأما القدوس: فهو المُنزَّه عن العيوب والنقائص.

«ربُّ الملائكةِ» الذين هم جُندٌ من جنود الله.. وهم أعظم العوالم وأطوعهم لله تعالى وأدومهم على عبادته.

«والرُّوحِ» الروح هو جبريل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء:١٩٣] وإنما عطفه على الملائكة من باب عطف الخاص على العام... ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر:٤] فيكون جبريل ذُكر مرتين للاهتمام به وللتنويه بشأنه .. مرة ذُكر مع غيره؛ لأنه واحد من الملائكة، ومرة ذُكر بالتنصيص ... وذُكر في سورة القدر: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾[القدر: ٤]، وهو أيضًا من باب عطف الخاص على العام؛ اهتمامًا بالخاص وتنويهًا بقدره.

فينبغي للإنسان أن يكثر في ركوعه وسجوده من قوله: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، تأسيًا برسول الله ﷺ وأن يقول كذلك في ركوعه وسجوده: سُبُّوحٌ قُدوسٌ رب الملائكة والروح.

(١٤٣٥) وعنْ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «فأمَّا الرُّكوعُ فَعَظِّموا فيهِ الرَّبَّ، وأمَّا السُّجودُ فاجْتَهِدُوا في الدُّعاءِ فَقَمِنٌ أنْ يُستجابَ لكُمْ»[١].

۞ هذا طرف من حديثٍ طويل قال فيه النبي ﷺ: «**وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** عَزَّوَجَلَّ، **وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**» أي: حَرِيٌّ أن يُستجاب لكم.. وذلك لأن «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**» ... فلا يجوز أن نقرأ القرآن في الركوع أو السجود.. لكن يجوز أن تدعو بالدعاء الذي يوافق القرآن.. مثل أن

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٧٩) كتاب الصلاة.

تقول مثلًا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾... لكن لا تقرأ القرآن فى ركوعك أو سجودك.

«فأمَّا الرُّكوعُ فَعَظِّموا فيهِ الرَّبَّ» أى: بذكر الثناء عليه سبحانه وتعالى والمبالغة فى التنزيه والتقديس.. كأن تقول: «سبحان ربى العظيم» «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكةِ والرُّوحِ» وما أشبه ذلك..

«وأمَّا السُّجودُ فاجْتَهِدُوا فى الدُّعاءِ» لأن «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ».

«فَقَمِنٌ أنْ يُستجابَ لكُمْ» أى: حرىٌّ أن يُستجاب لكم.

(١٤٣٦) وعنْ أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «أقربُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِن ربِّهِ وهُو ساجدٌ، فأكثِرُوا الدُّعاء»[١].

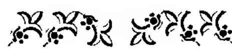
۞ لأن السجود هو حالة من العبد يبرهن بها عن مزيد ذُلِّه وخضوعه لله عز وجل، إذ إنه يأتى بهامته التى هى أعلى شىء وأشرف شىء فى بدن الإنسان فيضعها فى الوحل والتراب والرغام لله عز وجل من جهة الحب أو على جهة الحب والعبادة والقرب...فإذا كان العبد يحقق هذا لله عز وجل، فياحبذا لو أنه دعا بدعاءٍ بين يدى الله عز وجل فى هذا الموطن وافتقر إلى الله تعالى على نحو قوله: (اللهم إنى ظلمت نفسى ظُلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم).

۞ (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) وهذا فيه بيان أن حالة السجود هى أخص أحوال العبد، وأقرب ما يكون فيها صلة بالله سبحانه وتعالى؛ لأنه فى غاية الخضوع والذلة لله سبحانه وتعالى، فيكون بذلك

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٢) كتاب الصلاة.

مُخبتًا راجيًا سائلًا؛ لأنه فى حالة غاية التذلل لله سبحانه وتعالى؛ لأنه يضع أشرف شيء فيه وهو وجهه - جبهته وأنفه- على الأرض؛ خضوعًا لله وذُلًّا له سبحانه وتعالى، فيكون عند ذلك مأمورًا بأن يُكثر من الدعاء؛ لأن هذا أقرب أحوال العبد صلة بربه، وأرجى ما يكون فى الدعاء أن يكون ساجدًا مخبتًا لله سبحانه وتعالى...وقد صار على هذه الهيئة التى هى الخضوع والذل لله سبحانه وتعالى، ويكون فيها أغلب أعضائه أو أكثر جسمه على الأرض، بخلاف الأحوال الأخرى فهو إما قائم أو راكع أو جالس، ولكن فى حالة السجود أكثره على الأرض وأشرف شيء فيه على الأرض، ولهذا فى السجود القدمان والركبتان واليدان والوجه كل ذلك موضوع على الأرض.

فيأبى الله تعالى إلا أن يقرب منك فى هذا الحال وأنت تقرب من ربك، فأكثروا من الدعاء وأنتم سجود فى الفرائض والنوافل... أكثِر من الدعاء فى أمور الدنيا وأمور الآخرة، حتى لو كنت تدعو الله فى أمور الدنيا وأنت ساجد فهو خير لأن الدعاء نفسه عبادة... لو قلت: اللهم كثِّر مالى، اللهم هيئ لى سكنًا جميلًا، اللهم هيئ لى سيارة مريحة، وما أشبه ذلك فلا بأس به، ولو كان فى الفريضة اللهم اغفر لى ولوالدى، لأن الدعاء عبادة، فأى شيء تدعو به الله فإنه عبادة حتى جاء فى الحديث: «**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسع نعله إذا انقطع**»[1]، لأن كل شيء تسأله الله فهو عبادة ... ثم اعلم أنك إذا سألت الله فإنك رابح فى كل حال، لأنه إما أن يعطيك ما تسأل، أو يصرف عنك من السوء ما هو أعظم، أو يدَّخر ذلك لك عنده يوم القيامة أجرًا... فمن دعا الله تعالى فإنه لا يخيب... فأكثِر من الدعاء.



(١) ضعيف: رواه الترمذى ، وابن حبان، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٩٤٦).

(١٤٣٧) وعنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ كان يقُولُ فى سُجودِهِ: «اللَّهُمَّ اغفِر لى ذَنبى كُلَّهُ : دِقَّه وجِلَّهُ، وأوَّله وآخِرَهُ، وعلانيته وسِرَّه»(١).

۞ ففى هذا الحديث يُخبر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان يقول فى سجوده: «**اللهم اغفر لى ذنبى كُله، دِقَّه وجِلَّه**».

يعنى: صغيره وكبيره؛ لأن (الدِّق) المقصود به الصغير أو الدقيق، و(الجِلّ) الكبير العظيم.

قوله: «**وأوله وآخره**» يعنى: ما كان أولًا وما كان آخرًا.

«وعلانيته وسره» والمقصود به ما كان شيئًا ظاهرًا للناس ومُشاهَدًا وشيئًا خفيًّا لا يطلع عليه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ ... والله تعالى هو الذى يعلم الغيب والشهادة، وهو الذى يعلم السر والعلانية، ويعلم الخفى والظاهر.

وهذا فيه بيان أن الدعاء يمكن أن يُطول فيه وأن يُكرر وأن يأتى فيه بالألفاظ المتقاربة؛ لأن المقام فى مثل هذا لا بأس به...وإلا فإنه يمكن أن يقول: (اللهم اغفر لى ذنبى كله) ويكون هذا مُغنيًا عن قوله: دِقَّه وجِلَّه وعلانيته وسره وأوله وآخره...لكن ذكر التفاصيل فى الأدعية هذا من الأمور المطلوبة... لأن الدعاء هو العبادة.

***

(١٤٣٨) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ : افْتَقَدتُ النبىَّ ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ، فتَحَسَّسْتُ، فإذا هُو راكعٌ ـ أو سَاجدٌ ـ يقولُ: «سُبْحانَكَ وبحمدِكَ، لا إله إلا أنتَ»، وفى روايةٍ: فوَقَعَتَ يَدى على بَطْنِ قَدميهِ، وهو فى المَسْجِد، وهما منْصُوبتانِ، وهو يقُولُ: «اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ برِضَاكَ مِن سَخَطِكَ، وبِمُعافاتِكَ مِن عُقوبَتِكَ، وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحصِى ثَناءً عليكَ أنْتَ كما أثنيتَ على نَفْسِكَ»(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٣) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة.

۞ ففى هذا الحديث تحكى أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .. وكانت أحب نساء النبى إليه ﷺ.. وكانت تحبه حُبًّا جمًّا.

فتحكى أنها افتقدته ﷺ فى ليلة فى الليالى فخشيت أن يكون قد حدث له شىء.

فذهبت تتحسس فوجدته ﷺ فى المسجد وهو ساجد يدعو الله تبارك وتعالى بهذا الدعاء... قالت: ووقعت يدى على بطن قدميه وهو ساجد... واستدل العلماء بذلك على أن الساجد ينبغى له أن يضم قدميه بعضهما إلى بعض ولا يفرقهما؛ لأنه لا يمكن أن تقع اليد الواحدة على قدمين متفرقتين... وكذلك هو أيضًا فى صحيح ابن خزيمة أن النبى ﷺ كان يضم رجليه فى السجود. أما الركبتان فهما على طبيعتهما لا يفرقهما ولا يضمهما بل يتركهما على طبيعتهما.

فكان من دعائه ﷺ: **«اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك»**، والمعنى: أنه ﷺ يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ بالأعمال الصالحة عن الأعمال السيئة ... لأن الأعمال السيئة تُوجب الغضب والسخط، والأعمال الصالحة تُوجب الرضا.... والشىء إنما يُداوَى بضده... فالسخط ضده الرضا، فيستعيذ بالرضا من السخط...

أى: كأنه ﷺ يسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُوفقه ويُعينه على الأعمال الصالحة التى تجلب له الرضا وتدفع عنه السخط ... أو أنه ﷺ يسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرضى عنه ليكون ذلك وقاية له من سخطه .. ومن المعلوم أن النبى ﷺ هو أحب الخلق إلى ربه عَزَّوَجَلَّ، ... وكأن النبى ﷺ يُعلمنا نحن أن نقول ذلك لنفوز برضوان الله ونَنجو من سخطه.

و**«بمعافاتك من عقوبتك»**، يعنى أستعيذ بمعافاتك من الذنوب وآثارها وعقوباتها من عقوبتك على الذنوب، وهذا يتضمن سؤال المغفرة.

«وأعوذ بك منك»، وهذا أشمل وأعم، أنه يتعوذ بالله من الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك؛ لأنه لا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه... لا أحد ينجيك من عذاب الله إلا الله عَزَّوَجَلَّ... فتستعيذ بالله من الله سبحانه وتعالى، أى: تستعيذ به من عقوبته وغير



ذلك مما يُقدره.

ودَلَّ هذا على أن النبى ﷺ كان يصلى أحيانًا النافلة فى المسجد مع أن الأفضل أن تكون فى البيت كما قال رسول الله ﷺ: «**أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة**»(١) لكنه عليه الصلاة والسلام أحيانًا يصلى النافلة فى المسجد.

وفيه أيضًا دليل على محبة عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ ولا غرابة.. فإنه (عليه الصلاة والسلام) كانت هى أحب نسائه اللاتى عنده، ولا يُساميها أحد.. اللهم إلا خديجة رضي الله عنها، فإن خديجة هى أول نسائه ﷺ ولم يتزوج عليها أحد حتى ماتت، وكان يذكرها دائمًا بكل خيرٍ ويُثنى عليها ... لكن عائشة رضي الله عنها هى أحب نساءه الموجودات فى عهد عائشة.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسان يستعيذ بصفات الله عز وجل من ضدها بالرضا من السخط، وبالمعافاة من العقوبة، وأنه لا ملجأ له من الله إلا إليه، فيستعيذ بالله منه تبارك وتعالى. والله الموفق(٢).

(١٤٣٩) وعن سعد بن أبى وقاصٍ رضي الله عنه قال: كُنَّا عِند رسُولِ الله ﷺ فقال: «أيعجِزُ أحدُكم أنْ يكْسِبَ فى كلِّ يومٍ ألف حسنة» فسألَهُ سائلٌ مِن جُلسائه: كيفَ يكسِبُ ألفَ حَسَنَةٍ؟ قال: «يُسَبِّحُ مائةَ تَسْبِيحة، فيُكتَبُ لهُ ألفُ حسَنَةٍ، أو يُحَطُّ عنهُ ألفُ خَطِيئةٍ»(٣).

۞ وفى هذا الحديث يحكى سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أنهم كانوا جالسين عند النبى ﷺ يعلمهم ويربيهم ويُرغبهم فى الخير ويحذرهم من كل شر.. وفجأة

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٢٩٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

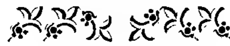
(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٦٩-٣٧٠) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٨) كتاب الذكر والدعاء.

قال الحُميديُّ: كذا هو فى كتاب مسلم: «أوْ يُحَطُّ» قال البَرقَانى: ورواهُ شُعبَة، وأبوعوانَة ويحيى القطَّان، عن مُوسى الذى رواه مسلم من جهتِهِ فقالوا: «ويُحَطُّ» بغَيْرِ ألفٍ.

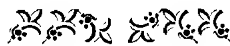
سألهم النبى ﷺ سؤالًا على سبيل التشويق فقال لهم: «**أيعجِزُ أحدُكم أنْ يكْسِبَ فى كلِّ يومٍ ألف حسنة**».. ومن المعلوم أن الألف حسنة عدد كبير سيحرص عليه كل الصحابة لأنهم كانوا حريصين على الحسنة الواحدة فكيف بالألف حسنة.. فسأله أحدهم: كيفَ يكسِبُ ألفَ حَسَنَةٍ؟... وكانوا يتخيلون أن النبى ﷺ سيذكر لهم أعمالًا شاقة... كأن يقول لهم: بأن تجاهدوا شهرًا كاملًا أو أن تقوموا الليل شهرًا كاملًا أو غير ذلك.. فما كان من النبى ﷺ إلا أن قال لهم: «**يُسَبِّحُ مائةَ تَسْبِيحة، فيُكتَبُ لهُ ألفُ حسَنَةٍ، أو يُحَطُّ عنهُ ألفُ خَطِيئَةٍ**».

فكانت مفاجأة كبيرة للصحابة... فمن المعلوم أن الإنسان يستطيع أن يُسبح مائة مرة فى دقيقة واحدة.. فإن فعل ذلك فاز بألف حسنة أو مُحيت عنه ألف خطيئة.. يعنى إذا سبَّح لمدة ساعة واحدة فقط فإنه يفوز بستين ألف حسنة أو يُمحى عنه ستون ألف سيئة... فكم فاتنا من الحسنات .. فيا ليتنا نحرص على التسبيح كل يوم ولو لمدة ربع ساعة لنفوز بهذا الخير العظيم.



(١٤٤٠) وعن أبى ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «يُصبِحُ على كُلِّ سُلامَى مِنْ أحدكُمْ صَدَقةٌ: فكُلُّ تَسْبِيحةٍ صدقةٌ، وكُلُّ تَحمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وكُلُّ تَهْلِيلةٍ صَدَقَةٌ، وكُلُّ تَكْبِيرةٍ صدقةٌ، وأمْرٌ بالمعرُوف صَدَقةٌ، ونَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صدقةٌ. ويُجْزِئُ مِن ذلك ركْعَتانِ يَركَعُهُما مِن الضُّحَى»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٢٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

«السُّلامَى»: المِفْصَلُ.

(١٤٤١) وعن أُمِّ المؤمنين جُوَيْرِيَةَ بنتِ الحارثِ رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ خَرجَ مِن عِنْدِها بُكرَةً حينَ صَلَّى الصُّبْحَ وهِيَ في مسْجِدِها، ثُمَّ رَجع بَعد أنْ أضْحَى وهي جَالِسَةٌ فقال: «ما زِلْتِ على الحال التي فارَقْتُكِ عَليها؟» قالت: نَعم. فقالَ النبي ﷺ: «لَقَد قُلْتُ بَعدَكِ أربَعَ كلماتٍ ثلاثَ مرَّاتٍ، لوْ وُزِنَتْ بما قُلْتِ مُنْذُ اليوم لوَزَنَتْهُنَّ: سُبحَانَ الله وبحمْدِه عددَ خَلْقِهِ، ورِضَاءَ نَفْسِهِ، وزِنَةَ عَرشِه، ومِداد كلماتِهِ»[1].

وفي رواية لهُ: «سُبحانَ الله عَددَ خَلْقِهِ، سُبحان الله رِضا نَفْسِهِ، سُبحانَ الله زِنَةَ عَرشِهِ، سُبحانَ الله مِداد كلماتِهِ».

وفي رواية الترمذي: «ألا أُعلِّمُكِ كَلماتٍ تَقُولِينَها ؟ سُبحانَ الله عَددَ خَلْقِهِ، سُبحانَ الله عَددَ خَلْقِهِ، سُبحانَ الله عَددَ خَلْقِهِ، سُبحان الله رِضَا نَفْسِهِ، سُبحان الله رِضا نَفْسِهِ، سُبحان الله رِضَا نَفْسِهِ، سُبحانَ الله زِنَةَ عَرشِهِ ، سُبحانَ الله زِنَةَ عَرشِهِ ، سُبحانَ الله زِنَةَ عَرشِهِ ، سُبحانَ الله مِدادَ كلماتِهِ ، سُبحانَ الله مِداد كلماتِهِ، سُبحانَ الله مِداد كلماتِهِ»[2].

۞ ففي هذا الحديث تخبر أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها في الصباح الباكر وهي في مُصلاها الذي تصلي فيه... فبعد أن انتهت من صلاتها جلست تذكر الله عز وجل.. وبعد فترة عاد إليها النبي ﷺ بعد الضحى وهي ما زالت جالسة تذكر الله عز وجل فقال لها النبي ﷺ: **«ما زِلْتِ على الحال التي فارَقْتُكِ عَليها؟»** قالت: نَعم.

فإذا بالنبي ﷺ يقول لها: **«لَقَد قُلْتُ بَعدَكِ أربَعَ كلماتٍ ثلاثَ مرَّاتٍ، لوْ وُزِنَتْ بما قُلْتِ مُنْذُ اليومِ لوَزَنَتْهُنَّ: سُبحَانَ الله وبحمْدِه عددَ خَلْقِهِ، ورِضَاءَ نَفْسِهِ، وزِنَةَ عَرشِه، ومِداد كلماتِهِ»**.

ويا لها من كلمات لو علم الناس معناها وما فيها من الحسنات لطاشت

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٦) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه الترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٢٤).

عقولهم من هول المفاجأة.

«سُبحَانَ الله وبحمْدِه عدَدَ خَلْقِهِ» فمعناها أنك تُسبح الله عَزَّوَجَلَّ وتحمده عدد مخلوقاته من الإنس والجن والملائكة والطير والوحش والنبات وغير ذلك من المخلوقات التى لا يُحصى عددها إلا الله.

فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فالناس الذين يعيشون فى هذه اللحظة فقط ستة مليارات..وهذا غير الذين خُلقوا من لَدُن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قيام الساعة.. والملائكة يقول عنهم النبى ﷺ: «..أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ للهِ تَعَالَى سَاجِدًا»(١).ولما كانت الملائكة أجسامًا نورانية لطيفة، فإن العباد لا يستطيعون رؤيتهم، خاصة أن الله لم يُعطِ أبصارنا القدرة على هذه الرؤية.

ولم يرَ الملائكة فى صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول ﷺ... فإنه رأى جبريل مرتين فى صورته التى خلقه الله عليها.

فأعدادهم تفوق أعداد البشر بما لا يخطر على قلب بشر..

هذا غير أعداد الجن والطير والوحش والدواب والنباتات وغيرها من المخلوقات.. وأنت إذا قلت سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفرت ذنوبك ولو كانت مثل زَبَد البحر... فكيف إذا كان عددها بعدد مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ «سُبحَانَ الله وبحمْدِه رِضَاءَ نَفْسِهِ» فكم يبلغ التسبيح والحمد الذى يرضى به الله عَزَّوَجَلَّ... هذا شىءٌ يفوق خيال البشر .. ولا يعلم قدر ذلك إلا الخالق (سبحانه وتعالى).

۞ «سُبحَانَ الله وبحمْدِه زِنَةَ عَرشِه» فهل هناك أحدٌ من البشر أو الملائكة أو الأنبياء يعرف قدر زنة عرش الرحمن (جل وعلا).. لقد قال النبى ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِى الْكُرسِىِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرشِ عَلَى

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٤٩).

الْكُرسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلاَةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَةِ»(١).

وقال ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرشِ، رِجْلاَهُ فِي الأَرضِ السُّفْلَى، وَعَلَى قَرنِهِ الْعَرشُ، وَبَيْنَ شَحمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ خَفَقَانُ الطَّيْرِ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ، يَقُولُ ذَلِكَ الْمَلَكُ: سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ»(٢).

۞ «**سُبحَانَ الله وبحمْدِه مِداد كلماتِهِ**» والمِداد ما يُكتب به الشيء.. وكلمات الله تعالى لا تنفد أبدًا ولا يستطيع إنسٌ ولا جان ولا مَلَكٌ أن يُحصيها فقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾.

فكلمات الله تعالى لا نهاية لها.

۞ فاحرصوا على حفظ هذا الذكر الذى يجمع لكم مليارات المليارات المليارات من الحسنات التى لا يُحصى عددها إلا فاطر الأرض والسماوات (سبحانه وتعالى).

سبحان الله وبحمده عدد خلقه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده رضا نفسه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده زنة عرشه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده مداد كلماته (ثلاث مرات) فيكون الجميع اثنتى عشرة مرة.

(١٤٤٢) وعن أبى مُوسَى الأشعرىِّ رضي الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «مَثَلُ الذى يَذكُرُ ربَّهُ والذى لا يذكُرُهُ، مَثَلُ الحىِّ والميِّتِ»(٣).

---

(١) **صحيح**: أخرجه محمد بن أبى شيبة فى كتاب «العرش»، وابن جرير فى «تفسيره». وقال الألبانى «الحديث بهذه الطرق صحيح وخيرها الطريق الأخير» انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٩).

(٢) **صحيح**: رواه الطبرانى فى الأوسط وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٥٣).

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٦٤٠٧) كتاب الدعوات.

وروواه مسلم فقال : «مَثَلُ البَيْتِ الذى يُذْكَرُ الله فيه ، والبيت الذى لا يُذْكَرُ الله فيه ، مَثَلُ الحىِّ والميِّتِ»(١).

۞ **المَثَلُ**: الصفة... أى صفة الذى يذكر ربه، والذى لا يذكره صفة «الحى والميت» أى الذاكر حىّ، والتارك للذكر ميت.. وبيان ذلك أن الذكر يكون بالقلب واللسان، فمن ذكر ربه دَلَّ ذِكره على حياته؛ لأن الإدراك والفهم والوعى يكون بالقلب، والنُّطقِ، والإعرابُ، والبيانُ يكون باللسان، ومَن لا يذكر ربه دلَّ عدم ذكره على موت قلبه، وتوقف حركة لسانه، وبذلك فهو ميِّت، وسرُّ هذه الظاهرة أن الله تعالى خلق للإنسان هذه الكائنات لتقوم عليها حياته، وخلقه هو لعبادته... وعبادة الله تعالى - وإن كانت طاعته بفعل أمره، وترك نهيه- فإنها تدور على حقيقة الذكر، والشكر.

وقوله ﷺ: «**مثل البيت الذى يُذكر الله فيه ... إلخ**» دالٌّ على ما دلَّ عليه الحديث قبله، وهو أن البيت الخالى من ذكر الله تعالى صاحبه ميت، إذ لو كان حيًّا لَذكَر الله تعالى بعبادته، كما أن البيت الذى يُذكَر الله تعالى فيه صاحبه حيٌّ، ودليل حياته ذكره لله تعالى بعبادته التى تدور على الذكر والشكر(٢).

۞ فالغافل عن ذكر الله يصبح قلبه قاسيًا.. بل ربما يموت قلبه فيصبح كمثل الميت.. أما الذى يُكثر من ذكر الله فإن الله يُحيى قلبه ويشرح صدره ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

(١٤٤٣) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسُولَ الله ﷺ قال: «يقُولُ الله تعالى: أنَا عِنْدَ ظَنِّ عبدى بى، وأنا مَعهُ إذا ذَكَرَنى ، فإنْ ذَكَرَنى فى نَفْسِهِ ، ذَكَرتُهُ فى نَفسى، وإنْ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) كتاب المسجد / الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص ٥١).

ذَكَرَنى فى ملإٍ، ذَكَرتُهُ فى ملإٍ خَيْرٍ منهم»[(١)].

۞ قيل: «الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأُذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء.

۞ فإذا ذكرت الله سبحانه وتعالى أكرمك بأفضالٍ ثلاث:

الأولى: جعلك ذاكرًا له بلسانك وقلبك .. ولولا فضله لم تكن أهلًا لأن تذكره سبحانه وتعالى.

والثانية: جعلك محبوبًا، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله فإذا أحبه الله حبَّبه إلى خلقه وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، وإذا أبغضه الله بغَّضه إلى خلقه.

والثالثة: جعلك مذكورًا عنده فتمَّم نعمته عليك بمزيد الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام.

والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان .. والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعًا .. ثم لا ينبغى أن يُترك الذكرُ باللسان مع القلب خوفًا من أن يُظن به الرياء، بل يذكرُ بهما جميعًا ويقصدُ به وجه الله سبحانه وتعالى[(٢)].

۞ فالعبد إذا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فى نفسه ذكره الله عَزَّوَجَلَّ فى نفسه.. وإذا كان العبد جالسًا فى ملإٍ من الناس فذكر الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله يذكرهُ فى نفس اللحظة فى ملإٍ أيضًا.. لكنهم ليسوا من البشر وإنما هم من خيارِ الملائكة المقربين.. فيذكرك الله عَزَّوَجَلَّ عندهم ويُثنى عليك ويُعلى ذكرك ويرفع قدرك.

ولذا كان أحد السلف يقول: والله إنى لأعلم متى يذكرنى الله عَزَّوَجَلَّ!!... فقالوا: كيف ذلك؟!

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٠٥) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) ابن الإسلام (ص ٩٣).

فقال لهم: أما سمعتم قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ فإنني إذا ذكرته عَزَّوَجَلَّ ذكرني.

ومن المعلوم أن مَن أحب أحدًا فإنه يُكثر من ذكره.. فهل هناك أحدٌ أحب إلينا من الخالق سبحانه وتعالى؟

فأكثروا من ذكره لتفوزوا بذكره لكم سبحانه وتعالى.

❊❊❊

(١٤٤٤) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «سبقَ المُفَرِّدُونَ» قالوا: ومَا المُفَرِّدُونَ يا رسُول الله؟ قال: «الذَّاكِرُون الله كثيرًا والذَّاكِراتُ»[(١)].

۞ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «**سبقَ المُفَرِّدُونَ**» وجاء بهذه الكلمة التي لا يعرف أصحابه معناها من أجل أن يُشوقهم لمعرفة معناها ومن أجل أن يسألوا...

فقالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

فأجابهم موضحًا معناها وقال: «**الذَّاكِرُون الله كثيرًا والذَّاكِراتُ**».

۞ وكان من الممكن أن يقول لَهُم النبي ﷺ في البداية: «سبق الذاكرون» وإنما قال لهم: «سبقَ **المُفَرِّدُونَ**» لتشويقهم إلى معرفة معناها.

۞ فالشاهد أن النبي ﷺ أخبر أن الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات هم الذين سبقوا إلى الخير وسبقوا إلى الطاعة وسبقوا إلى المنزلة العالية عند الله.. لأنهم كلما ذَكروا الله ذُكروا.. فإذا كانوا يذكرون الله كثيرًا فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيذكرهم كثيرًا ويُثنى عليهم بين الملائكة ويرفع قدرهم وذِكرهم في الملأ الأعلى.. ولم يفرق النبي ﷺ هنا بين الذاكرين والذاكرات.. فالكل سواء في التكاليف.. والكل سواء في الأجر والثواب والمنزلة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٦) كتاب الذكر والدعاء.

روى: «المُفَرِّدُون» بتشديد الراء وتخفيفها، والمشْهُور الذى قَالَهُ الجمهورُ: التَّشديدُ.

فيا ليتنا نُكثر من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ لنكون من السابقين ولنكون ممن امتثل أمر الله عَزَّوَجَلَّ حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران: ١٩١].

(١٤٤٥) وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمِعتُ رسُول الله ﷺ يقولُ: «أفْضَلُ الذِّكْرِ: لا إله إلا الله»[١].

وفي رواية: «**أفْضَلُ الذِّكْرِ لا إله إلاَّ اللهُ، وَأفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ للهِ**».

أفضل الذكر لا إله إلا الله لِأَنَّهَا كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ... وَالتَّوْحِيدُ لَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ وَهِيَ الْفَارِقَةُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَلِأَنَّهَا أَجْمَعُ لِلْقَلْبِ مَعَ اللهِ وَأَنْفَى لِلْغَيْرِ وَأَشَدُّ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَتَصفِيَةً لِلْبَاطِنِ وَتَنْقِيَةً لِلْخَاطِرِ مِنْ خُبْثِ النَّفْسِ وَأَطْرَدُ لِلشَّيْطَانِ[٢].

وقد قال النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ. وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ**»[٣].

فهي مفتاح الدخول إلى الإسلام.. وهي أيضًا مفتاح الجنة.

«**وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**» الدُّعَاءُ عِبَارَةٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَأَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ الْحَاجَةَ وَالْحَمْدُ يَشْمَلُهُمَا فَإِنَّ مَنْ حَمِدَ اللهَ يَحمَدُهُ عَلَى نِعمَتِهِ وَالْحَمْدُ عَلَى النِّعمَةِ طَلَبُ الْمَزِيدِ وَهُوَ رَأْسُ الشُّكْرِ... قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٤].

---

(١) حسن: رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٤).

(٢) تحفة الأحوذي (٨/ ٣٨٥).

(٣) حسن: رواه مالك، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٢).

(٤) تحفة الأحوذي (٨/ ٣٨٥).

(١٤٤٦) وعن عبد الله بن بُسْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رَجُلًا قال: يا رسُولَ الله، إنَّ شرائِع الإسْلامِ قَدْ كَثُرت عليَّ، فأخبرني بشيءٍ أتشَبَّثُ به قال: «لا يَزالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله»(١).

۞ وفى هذا الحديث يحكى عبد الله بن بُسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلًا جاء إلى النبى ﷺ فقال له: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيءٍ أتشبث به...والشرائع: جمع شريعة بمعنى مشروعة: أى مشروعاته..فهذا الرجل يؤدى الفرائض لكنه يشكو من كثرة النوافل وكأنه يقول: كَثُرت عليَّ النوافل فأخبرنى بشيءٍ يجمع لى ذلك كله ويكون يسيرًا.. ولم يُرد أنه يترك شرائع الإسلام رأسًا بل طلب ما يتشبث به بعد الفرائض عن سائر ما لم يُفترض عليه.

فقال له ﷺ: «لا يَزالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِن ذِكْرِ الله» فالذكر يسد ما يحصل من الخَلل فى النوافل... ونلاحظ هنا أن النبى ﷺ جمع له كل شيءٍ فى هذه الكلمات اليسيرة..

فمن المعلوم أن الإنسان يستحيل عليه أن يعصى الله وهو يذكر الله .. فالذكر سيصرفه عن معصية الله.. وفوق ذلك فالذكر سيجعل قلبه حيًا .. وما دام القلب حيًا فسوف يستمتع صاحبه بالنوافل ولو على فتراتٍ متتابعة.

فالذكر يُحيى القلب وينشط الجوارح ويشغلها بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ ويُنفرها عن كل ما يُغضب الله عَزَّوَجَلَّ.

فالنبى ﷺ دلَّه على الشيء الذى إن تمسَّك به تمسَّك بكل شيء.. ألا وهو: ذكر الله تعالى.. فهو الذى يعينه على التمسك بالشريعة كلها.

قال الحسن البصري: (التمسوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة، وفى الذكر وفى تلاوة القرآن ... فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٠٠).

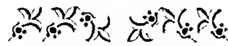
الذكر له لذة في القلب كما قال مالك بن دينار: ما تلذّذ المتلذّذون بمثل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ... فالذكر من نعيم المؤمن في الدنيا، وهو أيضًا من نعيم الجنة ... فأهل الجنة يُلهَمون التسبيح والتحميد كما نُلهَم النَّفَس، ولا إله إلا الله لأهل الجنة أعظم من الماء البارد لأهل الدنيا.

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ١٠].

وأحد السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: **«رجلٌ ذكَر الله خاليًا ففاضت عيناه»**.

وقال الإمام ابن القيم في «الوابل الصَّيِّب» في فوائد الذكر ما مُلخصه: إن الذكر قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حِيل بينه وبين قوته.

ومنها: أنه يطرد الشيطان، ويقمعه، ويكسره، ويُرضي الرحمن عَزَّوَجَلَّ، ويُزيل الهم، والغم عن القلب، ويجلب له الفرح، والسرور، والبسط، وينور القلب، والوجه، ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، ويورثه محبة الله عَزَّوَجَلَّ، وتقواه، والإنابة إليه وكذلك يورث العبد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة: ١٥٢].



(١٤٤٧) وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبي ﷺ قال: **«مَن قال: سُبْحانَ الله العَظِيمِ وبِحَمْدِه، غُرِسَتْ لهُ نَخْلةٌ في الجنَّةِ»**(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن: **«مَن قال: سُبحانَ الله العَظِيمِ وبِحَمْدِه، غُرِسَتْ لهُ نَخْلةٌ في الجنَّةِ»**.

وتخيل معي لو أن إنسانًا أراد أن يشتري نخلة في الدنيا وينقلها من مكانٍ إلى

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٢٩).

مكانٍ ليزرعها.. فكم يتكلف من المال والوقت والتعب.. وهى فى النهاية نخلة من نخيل الدنيا.

وفى المقابل يخبرنا النبى ﷺ أن الذى يقول: «**سُبْحانَ الله العَظِيمِ وبِحَمْدِه**» وهى كلمات يسيرة على اللسان يستطيع الإنسان أن يقولها خمسين مرة فى دقيقة واحدة فيُغرس له خمسون نخلة فى الجنة يمتلكها المؤمن بالأرض التى عليها.. وشتَّان شتَّان بين نخيل الدنيا ونخيل الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وخصَّ النبى ﷺ النخلة لكثرة منفعتها وطيب ثمرتها وَلِذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى مَثَلَ الْمُؤْمِنِ وَإِيمَانِهِ بِهَا وَثَمَرَتَهَا فِى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهى كلمة التوحيد ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وَهِىَ النَّخْلَةُ[(١)].

(١٤٤٨) وعن ابن مسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ: «**لَقِيتُ إبراهيمَ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بى فقال: يا مُحمَّدُ أقرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّى السَّلام، وأخبِرهُم أنَّ الجنَّة طَيِّبَةُ التُّربة، عذْبةُ الماءِ، وأنَّها قِيعانٌ وأنَّ غِرَاسَها: سُبحانَ الله، والحمْدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبرُ**»[(٢)].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه لقى أباه إبراهيم عليه السلام فى ليلة الإسراء والمعراج فى السماء السابعة مُسندًا ظهره إلى البيت المعمور.. فقال له إبراهيم عليه السلام: يا محمد... ولم يَقُل له: يا رسول الله رغم أن قدر النبى محمد ﷺ أعظم من قدر ومكانة جميع الأنبياء إلا أنه قال له ذلك لأنه ﷺ بمثابة ابنه.. ولذا كان النبى ﷺ يقول: «**أَنَا دَعوَةُ أَبِى إِبْرَاهِيمَ...**»[(٣)].

---

(١) تحفة الأحوذى (٨/ ٤٦٥).

(٢) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٥٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن عساكر، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٥٤٥)، وصحيح الجامع (١٤٦٣).

المهم أن إبراهيم عليه السلام قال للنبى ﷺ: «**يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّى السَّلاَمَ**» أى: بلغهم منى السلام..

ونحن نقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا خليل الرحمن.

۞ **ثم قال له إبراهيم** عليه السلام: «**وَأَخْبِرهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّربَةِ**». وكيف لا تكون طيبة التربة.. وترابها من المسك والزعفران وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت «**عَذْبَةُ الْمَاءِ**» أى: ماؤها طيب ليس فيه مُلوحة كماء الدنيا «**وَأَنَّهَا قِيعَانٌ**» وهى الأرض المستوية الخالية من الشجر «**وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ**» يعنى: أن الإنسان إذا قالها فإنه يُغرس له فى الجنة غرسًا مع كل كلمة.. وكلما أكثرت منها كلما كثر غراسك وأشجارك فى الجنة.

وليس معنى ذلك أن الجنة خالية من الأشجار والزروع.. فإذا قال المسلم تلك الأذكار غُرست الجنة بالأشجار.. كلا.. بل هى مزروعة ولكن المؤمن إذا قال تلك الأذكار زادت أشجاره وتزينت قصوره فى الجنة.

***

(١٤٤٩) وعن أبى الدَّرداء رضي الله عنه **قال: قالَ رسولُ الله** ﷺ: «**ألا أُنَبِّئُكُم بِخَيْرِ أعمَالِكُم، وأزْكَاهَا عِندَ مَليكِكُم، وأرفعِها فى دَرجاتكم، وخَيْرٍ لكُمْ مِن إنْفَاق الذَّهَبِ والفضَّةِ، وخَيْرٍ لَكُمْ مِن أنْ تَلْقَوْا عدُوَّكم، فتَضربُوا أعنَاقَهُم، ويضرِبوا أعنَاقكُم؟» قالوا: بلى، قال: «ذِكرُ الله تعالى**»[١].

۞ ففى هذا الحديث يسأل النبى ﷺ أصحابه من أجل أن يُشوقهم لمعرفة الجواب فقال ﷺ: «**ألا أُنَبِّئُكُم بِخَيْرِ أعمَالِكُم**» أى: ألا أخبركم بخير أعمالكم «**وأزْكَاهَا عِندَ مَليكِكُم**» أى: أكثرها ثوابًا وأطهرها عند الخالق (جل وعلا) «**وأرفعِها فى دَرجاتكم**» أى: أزيدها فى رفع الدرجات يوم القيامة.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٢٩).

«وخَيْرٍ لكُمْ مِن إنْفَاق الذَّهَبِ والفضَّةِ» أى: خيرٌ لكم من بذل أموالكم وممتلكاتكم وأنفسكم فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

«وخَيْرٍ لَكُمْ مِن أنْ تَلْقَوْا عدُوَّكم» أى: الكفار فى معترك الحرب «فتَضربُوا أعنَاقَهُم» لإعلاء كلمة الله «ويضرِبوا أعنَاقكُم؟» فتنالوا الشهادة فى سبيل الله.

فتعجب الصحابة... وكأنهم يقولون: وأى شىءٍ أفضل من كل ذلك؟!

فكان الجواب من الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى فقال ﷺ: «ذِكرُ الله تعالى».

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ فِي قَوَاعِدِهِ: هَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الثَّوَابَ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَى قَدرِ النَّصَبِ فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ بَلْ قَد يَأْجُرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى قَلِيلِ الْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْجُرُ عَلَى كَثِيرِهَا فَإِذَا الثَّوَابُ يَتَرَتَّبُ عَلَى تَفَاوُتِ الرُّتَبِ فِي الشَّرَفِ[1].

قال العاقولى: بعد أن ذكر ما تقدم عن ابن عبد السلام من أن الثواب ليس على قدر النَّصَب بل على قدر إرادته تعالى، وقد يعطى على العمل القليل الأجر الجزيل ... ويمكن أن يكون المراد من ذكر الله تعالى المداومة عليه باطنًا وظاهرًا، فيقتضى حينئذٍ صرف العمر كله فيه، ولا شكَّ أنه إذا كان الذاكر بهذه المثابة كان أكثر أجرًا من إنفاق مالٍ ينفد وجهادٍ يَخلص منه فى زمانٍ يسير، لأن الصبر على مضاضة القتل ساعة واحدة... والصبر على مداومة الحضور مع الذكر طويل.

وفى فتح البارى: الجمع بحمل حديث الباب ونحوه مما يدل على أن الذكر أفضل من سائر الأعمال على الذكر الكامل، وهو ما اجتمع فيه ذكر اللسان والقلب والتفكُّر فى المعنى واستحضار عظمة الله تعالى... فالذى يحصل له ذلك أفضل من المجاهد للكفار من غير استحضارٍ لذلك، وإن أفضلية الجهاد بالنسبة

---

(١) تحفة الأحوذى (٨/ ٣٨٠).

لذكر اللسان المجرد ... فمن اجتمع له كل ذلك بأن ذكر الله بقلبه ولسانه واستحضر عظمته تعالى فى كل حال، وقاتل الكفار مثلًا فهو الذى بلغ الغاية القصوى... والعلم عند الله[1].

(١٤٥٠) وعن سعدِ بن أبى وقَّاصٍ رَضِوَٱللَّهُعَنهُ أَنَّهُ دَخَل مع رسولِ الله ﷺ على امْرأةٍ وبْينَ يَديْهَا نَوًى ـ أوْ حَصًى ـ تُسبِّحُ بِهِ فقال: «ألا أُخْبِرُك بما هُو أيْسرُ عَليْكِ مِن هذا ـ أوْ أفْضَلُ» فقال: «سُبْحان الله عددَ ما خَلَقَ فى السَّماء، وسُبْحانَ الله عددَ ما خَلَقَ فى الأرض، وسُبحانَ الله عددَ ما بيْنَ ذلك، وسُبْحانَ الله عدَدَ ما هُوَ خَالقٌ. والله أكبرُ مِثْلَ ذلكَ، والحمْد لله مِثْل ذلك، ولا إله إلا الله مِثْل ذلك، ولا حوْل ولا قُوَّةَ إلا بالله مِثْل ذلك»[2].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١٤٥١) وعنْ أبى مُوسى رَضِوَٱللَّهُعَنهُ قال: قال لى رسُولُ الله ﷺ: «ألا أَدُلُّكَ على كَنْزٍ مِن كُنُوزِ الجنَّةِ؟» فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله»[3].

۞ ففى هذا الحديث يستعمل النبى ﷺ الأسلوب التشويقى من خلال السؤال .. فقال ﷺ لأبى موسى الأشعرى رَضِوَٱللَّهُعَنهُ: «ألا أَدُلُّكَ على كَنْزٍ مِن كُنُوزِ الجنَّةِ؟» أى: ألا أدلك على ذخيرة من ذخائر الجنة أو من مُحصلات نفائسها.. ومعنى (الكنز) هنا أنه ثوابٌ مُدَّخر فى الجنة لصاحبها.. وهو ثوابٌ نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم.

فقال أبو موسى الأشعرى: قلت: بلى يا رسول الله.

(١) دليل الفالحين (٤/ ١٩٥-١٩٦).
(٢) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢١٥٥).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٠٩) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

فقال ﷺ: «**لا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله**»

قال الإمام النووى رحمه الله: قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْحَوْلُ الْحَرَكَةُ وَالْحِيلَةُ أَيْ: لَا حَرَكَةَ وَلَا اسْتِطَاعَةَ وَلَا حِيلَةَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى .. وَقِيلَ: مَعنَاهُ لَا حَوْلَ فِى دَفْعِ شَرٍّ وَلَا قُوَّةَ فِى تَحصِيلِ خَيْرٍ إِلَّا بِاللهِ ... وَقِيلَ: لَا حَوْلَ عَنْ مَعصِيَةِ اللهِ إلا بعصمته ولاقوة على طاعته إلا بمعونته[1].

۞ فما أجمل أن يعتصم العبد بـ(لا حول ولا قوة إلا بالله) وأن ينخلع من حوله وقوته إلى حول الله وقوته وأن يعلم يقينًا أنه لا يدور شىء فى هذا الكون إلا بحول الله وقوته.

۞ قال الإمام ابن تيمية: بـ«لا حول ولا قوة إلا بالله» تُحمَل الأثقال، وتُكابَد الأهوال، ويُنال شريف الأحوال.

فالزمها أيها العبد! فإنها كنز من كنوز الجنة، وهى من بنود السعادة ومن مسارات الراحة وانشراح الصدر.

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٤٤).

(٢٤٥) باب ذكر الله تعالى قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا ومُحدِثًا وجُنبًا وحائضًا إلا القرآن[1] فلا يحل لجُنب ولا حائض

۞ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾

[آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى إن فى خلق السماوات والأرض على ما بهما من إِحكام وإبداع ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أى وتَعاقُب الليل والنهار على الدوام ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أى علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوى العقول الذين ينظرون إِلى الكون بطريق التفكُّر والاستدلال لا كما تنظر البهائم... ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ أى يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم فى جميع الأحوال: فى حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم فى مراقبته ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى يتدبرون فى ملكوت السماوات والأرض، فى خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أى ما خلقت هذ الكون وما فيه عبثًا من غير حكمة ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أى نُنزهك يا الله عن

(١) قال الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا الاستثناء ليس فيه حديث يصح، ولذلك لم يذكر المصنف فيه شيئًا بل حديث عائشة الآتى وغيره يخالفه فتأمل.

العبث فأجرنا واحمنا من عذاب جهنم(١).

(١٤٥٢) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانَ رسُولُ الله ﷺ يَذكُرُ الله تعالى على كُلِّ أحيانِهِ(٢).

۞ ففى هذا الحديث تخبر أُمنا عائشة رضي الله عنها حبيبة رسول الله ﷺ أن النبى ﷺ كان يذكر الله عز وجل على كل أحيانه.. أى فى كل وقتٍ .. فكان ﷺ يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.. فلم يكن ﷺ يفتر لحظة عن ذكر الله عز وجل... لأن مَن أحب أحدًا أكثر من ذكره.. وهل هناك أحدٌ يحب الله عز وجل مثل رسول الله ﷺ.

فكان النبى ﷺ يذكر الله فى كل زمانٍ ومكانٍ ما عدا الخلاء لأنه لا يجوز لأحدٍ أن يذكر الله عز وجل فى هذا المكان.. ولذا كان النبى ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «غُفْرَانكَ» وكأنه يستغفر ربه على تلك الفترة اليسيرة التى لم يذكر الله تعالى فيها.

۞ ولذا فإنه كما جاء فى ترجمة الباب يجوز للإنسان أن يذكر ربه فى كل حالٍ حتى المُحدِث والجُنب والحائض... أما قراءة القرآن فلا تجوز للجُنب... ويستطيع الجُنب أن يغتسل فى خمس دقائق ليعود إلى قراءة القرآن.. أما الحائض فإنه قد يطول الأمر عليها إلى سبعة أيامٍ أو أكثر فأباح بعض أهل العلم أن تقرأ القرآن من حفظها.. وإن أرادت أن تُمسك المصحف لتقرأ منه فيجوز ذلك ولكن عليها أن تُقلب الصفحات بحائلٍ حتى لا تُلامس القرآن مباشرة.. وأما ذكر الله فيجوز لها بلا حرج لأنها معذورةً .. وعُذرها ليس بيديها.. والله أعلم.

---

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٣٠-٢٣١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٧٣) كتاب الحيض.

(١٤٥٣)وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبى ﷺ قال: «لو أنَّ أحدكُمْ إذا أتَى أهلَهُ قال: بِسْمِ الله اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وجنِّبِ الشَّيطانَ ما رزَقْتَنَا فَقُضِى بيْنهُما ولَدٌ لم يضُرَّهُ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يوضح لنا النبى ﷺ أن المسلم لا يغفل عن ذكر الله أبدًا.. حتى عند جماع أهله فإنه يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ قبل أن يأتى زوجته..

وما أروع هذا التوجيه النبوى الذى يدعو إلى البدء بذكر الله حين العملية الجنسية ، للإعلان عن هدفها السامى وطهارتها، بخلاف نظرية بعض الأديان الأخرى التى تعتبر هذه العملية قذارة ولوثة، مما يصطدم مع الفطرة السليمة!

والجماع ليس المقصود منه فقط الحصول على اللذة والاستمتاع...فهو فى الإسلام له مقصدٌ آخر إذا نوى به الزوجان طلب العفة والإحصان.. لذلك سمَّاه الإسلام بالجماع، حتى جعله عبادةٌ يُؤجَر عليها!!

«وفى بُضْع أحدكم[٢] صدقة». قالوا يا رسول الله، أيأتى أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجْرٌ؟!

قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وِزْرٌ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجرًا»[٣].

لذا ترى الإسلام الحنيف قد ارتقى بشأن الجماع إلى درجة العبادة إذا نوى به الزوج قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذى أمر الله تعالى به، أو طلب الولد الصَّالح، أو إعفاف نفسه أو إعفاف الزَّوْجة.

۞ فإذا ذكر الزوج ربه عَزَّ وَجَلَّ قبل الجماع وقال: «بِسْمِ الله اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وجنِّبِ الشَّيطانَ ما رزَقْتَنَا» فإن فعل ذلك وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ قبل الجماع كانت الثمرة الطيبة التى أخبر عنها النبى ﷺ أنه إذا قُضى بينهما ولدٌ لم يضره الشيطان.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١) كتاب الوضوء - ومسلم (١٤٣٤) كتاب النكاح.

(٢) البضع يُطلق على الجماع ويُطلق على الفرج نفسه.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٦) كتاب الزكاة.

(٢٤٦) باب ما يقوله عند نومه واستيقاظه

(١٤٥٤) عن حُذيفةَ، وأبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: كان رسُولُ الله ﷺ إذا أوَى إلى فِراشِهِ قال: «باسمِكَ اللَّهُمَّ أحيَا وأمُوتُ» وإذا اسْتَيقظَ قال: «الحمْدُ لله الذى أحيَانا بعدما أمَاتَنَا وإليهِ النُّشُورُ»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٨٢١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣١٤) كتاب الدعوات.

(٢٤٧) باب فضل حِلَق الذكْر، والندب إلى ملازمتها، والنهى عن مفارقتها لغير عذر

۞ قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أى احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أى لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوى الغِنى والشرف...قال المفسرون: كان عليه السلام حريصًا على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مُريدًا لزينة الدنيا قط، فأُمِر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى تبتغى بمجالستهم الشرف والفخر ... قال ابن عباس: لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أى لا تُطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله، وقد شُغلوا عن الدين وعبادةِ ربهم بالدنيا ... قال المفسرون: نزلت فى عيينة بن حصن وأصحابه أتى النبى ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسى رضي الله عنه وعليه شملة صوف قد عرق فيها، فقال عُيينة للنبى ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادةُ مُضر وأشرافها إن أسلمنا يُسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحِّهمْ عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلسًا ولهم مجلس... فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال «**الحمد لله الذى جعل فى أُمتى مَن أمرنى ربى أن**

أصبر نفسى معهم»(١).

ففى هذه الآية الكريمة: فضل الاجتماع على الذكر والدعاء... وفيها فضل الإخلاص، وأن الإخلاص هو الذى عليه مدار كل شيء ... وفيها أن الإنسان لا ينبغى له أن يدع أحوال الآخرة والعبادات إلى أحوال الدنيا.

(١٤٥٥) وعن أَبى هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إنَّ للهِ تَعَالَى مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فى الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ عزَّ وجلَّ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِم إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أعلَم: مَا يقولُ عِبَادى؟ قَالَ: يقولون: يُسَبِّحُونَكَ، ويُكَبِّرُونَكَ، وَيَحمَدُونَكَ، ويُمَجِّدُونَكَ، فيقول: هَلْ رَأَوْنِى؟ فيقولونَ: لا واللهِ مَا رَأَوْكَ. فيقولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنى؟! قَالَ: يقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا. فَيقُولُ: فماذا يَسْألونَ؟ قَالَ: يقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ. قَالَ: يقولُ: وَهل رَأَوْها؟ قَالَ: يقولون: لا واللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يقول: فَكيفَ لَوْ رَأوْهَا؟ قَالَ: يقولون: لَوْ أَنَّهُمْ رَأوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرصًا، وأشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وأعظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يقولون: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّارِ؛ قَالَ: فيقولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يقولون: لا واللهِ مَا رَأَوْهَا. فيقولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟! قَالَ: يقولون: لَوْ رَأَوْهَا كانوا أشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وأشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فيقول: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّى قَد غَفرتُ لَهُم، قَالَ: يقولُ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ: فِيهم فُلانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»(٢).

(١) صفوة التفاسير (٢/ ١٧٥).

(٢) الحديث بهذا اللفظ صحيح: رواه البخارى (٦٤٠٨) كتاب الدعوات.

أما حديث مسلم: أخرجه فى صحيحه (٣٦٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

سيارة: يسيحون فى الأرض- فُضلًا: زائدون عن الحفظة وغيرهم لا وظيفة لهم.

۞ وفى رواية لمسلم عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبىِّ ﷺ قال: «إن للهِ مَلائِكَةً سَيَّارَةً فُضلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ، قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعضُهُمْ بَعضًا بِأجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلأُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّماءِ الدُّنْيَا، فإذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعدُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْأَلُهُمْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أعلَمُ: مِنْ أيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبادٍ لَكَ فى الأرضِ: يُسَبِّحُونَكَ، ويُكبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحمَدُونكَ، وَيَسْألُونَكَ. قَالَ: وَمَاذا يَسْألُونِى؟ قالوا: يَسْألُونَكَ جَنَّتَكَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قالوا: لا، أَيْ رَبِّ. قَالَ: فكيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتى؟! قالوا: ويستجيرونك. قَالَ: ومِمَّ يَسْتَجِيرُونِى؟ قالوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارى؟ قالوا: لا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِى؟! قالوا: وَيَسْتَغفِرُونكَ؟ فيقولُ: قَد غَفَرتُ لَهُمْ، وَأَعطَيْتُهُمْ مَا سَألُوا، وَأجَرتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا. قَالَ: فيقولون: ربِّ فيهِمْ فُلانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ إنَّمَا مَرَّ، فَجَلَسَ مَعَهُمْ. فيقُولُ: ولهُ غَفَرتُ، هُمُ القَومُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

۞ الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن.. وهو عالم كريم، كله طُهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العبادة، ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به، ولا يعصون الله أبدًا.

والإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبدٍ ما لم يؤمن بهم ... قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[البقرة: ٢٨٥].

ولما كانت الملائكة أجسامًا نورانية لطيفة، فإن العباد لا يستطيعون رؤيتهم، خاصة أن الله لم يُعطِ أبصارنا القدرة على هذه الرؤية.

ولم يرَ الملائكةَ فى صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول ﷺ، فإنه رأى جبريل مرتين فى صورته التى خلقه الله عليها.

۞ولكن الأصل أن عالم الملائكة عالم غيبى ... والملائكة كلهم خير ولهذا لا يدخلون الأماكن التى فيها ما يُغضب الله عَزَّوَجَلَّ فلا يدخلون بيتًا فيه صورة ولا يصحبون رفقة فيها جرس ولا رفقة معهم كلب إلا الكلب المُحلَّل الذى يجوز اقتناؤه... هؤلاء الملائكة جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ يسيحون فى الأرض فإذا وجدوا حِلَق الذكر جلسوا معهم ثم حَفُّوا هؤلاء الجالسين بأجنحتهم إلى السماء ... يعنى هؤلاء الملائكة من الأرض إلى السماء..ثم إن الله تعالى يسألهم ليُظهر فضيلة هؤلاء القوم الذين جلسوا يذكرون الله ويسبحونه ويحمدونه ويُهللونه ويكبرونه ويدعونه وإلا فالله أعلم عَزَّوَجَلَّ لماذا جلسوا لكن ليُظهر فضلهم ونُبلهم.

فيسألهم الله ماذا يقول عبادى؟ فيقولون: يُسبحونك ويُكبرونك ويحمدونك ويمجدونك فهم لا يفترون عن ذكر الله مع أنهم لم يروه .. ولذا قال تعالى: فكيف لو رأونى؟ فقالت الملائكة: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدًا وأكثر لك تسبيحًا. ثم يسأل الله الملائكة – وهو سبحانه أعلم بكل شىء– وماذا يسألونى؟ فيقولون: أن هؤلاء الناس يسألون الله الجنة ويستعيذون به من النار مع أنهم ما رأوا الجنة ولا النار لكنهم علموا بهما من الكتاب والسُّنة فهم على يقين بكل ما جاء فيهما .. فإذا بالحق (جل وعلا) يقول: أُشهدكم أنى قد غفرت لهم جميعًا .. وإذا غفر الله لإنسان استحق أن يدخل الجنة وأن ينجو من النار ..فيقول ملك من الملائكة: إن فيهم فلانًا ما جاء للذكر لكن جاء لحاجة فوجد هؤلاء القوم فجلس معهم. فيقول (جل وعلا) فله قد غفرت..هُم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

۞ففى هذا الحديث دليل على فضيلة مُجالسة الصالحين وأن الجليس الصالح ربما يشمله الله سبحانه وتعالى برحمته لمجالسته هذا الجليس الذاكرَ الصَّالح وإن لم يكن مثله لأن الله قال قد غفرت لهذا مع أنه ما جاء من أجل الذكر والدعاء لكنه جاء لحاجة وقال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ... وعلى هذا فيُستحب الاجتماع على الذكر وعلى قراءة القرآن وعلى التسبيح والتحميد

والتهليل .. وكُلٌّ يدعو لنفسه ... ويسأل الله لنفسه ويذكر لنفسه.

- أي ليست مجالس ذكر جماعية؛ لأن هذا لم يكن من هدى النبي ﷺ.

ومن الاجتماع أن يجتمع المسلمون على صلاة الفجر وصلاة العصر لأنها ذكر تسبيح وتكبير وتهليل وقراءة قرآن ودعاء ... وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الملائكة الموكلين ببنى آدم يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر[١].

❊ ❊ ❊

(١٤٥٦) وعن أَبِي هُرَيرَةَ وعن أبى سعيدٍ رضي الله عنهما قالا: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ الله إلا حفَّتْهُمُ الملائِكة، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحمَةُ ونَزَلَتْ عليهِمُ السَّكِينَة، وذكَرَهُم الله فيمن عِنْدَه»[٢].

❁ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه ما جلس قومٌ يذكرون الله تعالى إلا حفَّتْهُمُ الملائِكة وكانوا حولهم يَحُفُّون بهم إكرامًا لهم ورضًا بما فعلوا.. وغشيتهم الرحمة وأحاطت بهم من كل جانب ليكونوا أقرب إلى رحمة الله عز وجل ... ونزلت عليهم السَّكينة وهى الوقار وطمأنينة القلب وخشوعه وإنابته إلى الله عز وجل .. وذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة المقربين.. وقد مَرَّ علينا أن الله عز وجل قال: **«مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»**.

وهذا يدل على فضل الاجتماع على ذكر الله عز وجل .. ولكن لا ينبغى أن يكون الذكر جماعيًّا بصوتٍ واحد كما يفعل أصحاب الطرق الصوفية فإنه لم يُعتمد عن السلف أنهم كانوا يفعلون ذلك.

❁ **وقال بعض أهل العلم:** أن الذكر هنا بمعنى دراسة العلم... وأهل السُّنة لهم منهج فى موضوع الذكر..فالذكر فى القرآن والسُّنة يعنى: الاستغفار والتسبيح

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٧٩-٣٨٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٠) كتاب الذكر والدعاء.

والتدبُّر فى آلاء الله عَزَّوَجَلَّ ، أو قراءة القرآن ودراسته، وقراءة السُّنة ودراستها وغير ذلك من علوم الشرع.

(١٤٥٧) وعن أبى واقِدٍ الحارثِ بن عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ **بَيْنَما هُو جَالِسٌ فى المسجِدِ، والنَّاسُ معهُ، إذ أقْبل ثلاثَةُ نَفرٍ، فأقْبَل اثْنَانِ إلى رسولِ الله ﷺ وذَهَب واحدٌ، فوقَفَا على رسول الله ﷺ. فأمَّا أحدُهُما فرأى فُرجَةً فى الحلْقَةِ، فجَلَسَ فيها وأمَّا الآخَرُ، فجَلَسَ خَلْفَهُم، وأمَّا الثالثُ فأدبر ذاهبًا. فلمَّا فرَغَ رسُول الله ﷺ قال: «ألا أُخْبِرُكم عن النَّفَرِ الثَّلاثةِ، أمَّا أحدُهم، فأَوى إلى الله فآواه الله، وأمَّا الآخرُ فَاسْتَحيَا فاسْتَحيا الله منه، وأما الآخرُ فأعرَضَ ، فأعرضَ الله عنه»**[1].

۞ ففى هذا الحديث يخبر الحارث بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان جالسًا فى المسجد فأقبل ثلاثة رجالٍ... فأما أحدهم فولَّى وأعرض وذهب ولم يأتِ إلى الحلقة.. وأما الثانى فرأى فُرجة فى الحلقة فجلس فيها.. وأما الثالث فجلس خلف الحلقة وكأنه استحيا أن يُزاحم الناس وأن يتسبب فى مضايقتهم ... فلما فرغ النبى ﷺ من حلقة العلم قال لأصحابه: «**ألا أُخْبِرُكم عن النَّفَرِ الثَّلاثةِ**» وكأنهم قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ.

فقال ﷺ: «**أمَّا أحدُهم، فأَوى إلى الله فآواه الله**» وهو الذى جلس فى تلك الفُرجة .. فآواه الله لأنه كان صادق النية فى الجلوس مع النبى ﷺ .. «**وأمَّا الآخرُ فَاسْتَحيَا فاسْتَحيا الله منه**» وهو الذى جلس خلف الحلقة واستحيا أن يُزاحم الناس.. «**وأما الآخرُ فأعرضَ ، فأعرضَ الله عنه**» ولم يوفقه لأن يجلس مع النبى ﷺ وأصحابه الأطهار فى هذا المجلس المبارك.

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ اسْتِحبَابُ جُلُوسِ الْعَالِمِ لِأَصحَابِهِ وَغَيرِهِمْ فِى مَوْضِعٍ بارز ظاهر للناس

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦) كتاب العلم - ومسلم (٢١٧٦) كتاب السلام.

والمسجد أفضل فيذا كرهم الْعِلْمَ وَالْخَيْرَ ... وَفِيهِ جَوَازُ حِلَقِ الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ فِي الْمَسْجِدِ وَاسْتِحبَابُ دُخُولِهَا وَمُجَالَسَةِ أَهْلِهَا وَكَرَاهَةُ الِانْصِرَافِ عَنْهَا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَاسْتِحبَابُ الْقُربِ مِنْ كَبِيرِ الْحَلْقَةِ لِيَسْمَعَ كَلَامَهُ سَمَاعًا بَيِّنًا وَيَتَأَدَّبَ بِأَدَبِهِ وَأَنَّ قَاصِدَ الْحَلْقَةِ إِنْ رَأَى فُرجة دخل فيها وَإِلَّا جَلَسَ وَرَاءَهُم ... وفيه الثناء على مَن فعل جميلًا فإنه ﷺ أَثْنَى عَلَى الِاثْنَيْنِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ... وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَعَلَ قَبِيحًا وَمَذْمُومًا وَبَاحَ بِهِ جَازَ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ وَاللهُ أَعلَمُ.

«أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ» قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعنَى أَوَى إِلَى اللهِ أَيْ لَجَأَ إِلَيْهِ مَعنَاهُ هُنَا دَخَلَ مَجْلِسَ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى أَوْ دَخَلَ مَجْلِسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَجْمَعَ أَوْلِيَائِهِ وَانْضَمَّ إِلَيْهِ ... وَمَعنَى آوَاهُ اللهُ أَيْ قَبِلَهُ وَقَرَّبَهُ ... وَقِيلَ مَعنَاهُ رَحِمَهُ أَوْ آوَاهُ إِلَى جَنَّتِهِ أي كتبها لَهُ .... قَوْلُهُ ﷺ: «وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحَيَى فَاسْتَحَيَى اللهُ مِنْهُ» أَيْ تَرَكَ الْمُزَاحَمَةَ والتخطِّي حياءً من اللهِ تَعَالَى وَمِنَ النَّبِيِّ ﷺ والحاضرين أواستحياءً مِنْهُمْ أَنْ يُعرِضَ ذَاهِبًا كَمَا فَعَلَ الثَّالِثُ فَاسْتَحيَى اللهُ مِنْهُ أَيْ رَحِمَهُ وَلَمْ يُعَذِّبْهُ بَلْ غَفَرَ ذُنُوبَهُ وَقِيلَ جَازَاهُ بِالثَّوَابِ ... قَالُوا وَلَمْ يُلْحِقْهُ بِدَرَجَةِ صَاحِبِهِ الْأَوَّلِ فِي الْفَضِيلَةِ الَّذِي آوَاهُ وَبَسَطَ لَهُ اللُّطْفَ وَقَرَّبَهُ...وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعرَضَ فَأَعرَضَ اللهُ عَنْهُ أَيْ لَمْ يَرحَمْهُ وَقِيلَ سَخِطَ عَلَيْهِ وَهَذَا مَحمُولٌ عَلَى أَنَّهُ ذَهَبَ مُعرِضًا لَا لِعُذْرٍ وَضَرُورَةٍ[1].

وفى هذا الحديث: إثبات الحياء لله عَزَّوَجَلَّ، ولكنه ليس كحياء المخلوقين، بل هو حياء الكمال يليق بالله عَزَّوَجَلَّ... وقد قال النبى ﷺ: «إن الله حَيِيٌّ كريم»[2] وقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، والله سبحانه وتعالى يُوصف بهذه الصفة لكن ليس مثل المخلوقين؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فكلما مر عليك صفة من صفات

(١) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٢٢٦-٢٢٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٥٧).

الله مشابهة لصفات المخلوقين فى اللفظ فاعلم أنهما لا يستويان فى المعنى لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فإذا مَرَّ بك مثلًا أن الله استوى على العرش، فلا تظن أن استواءه على العرش كاستوائك أنت على ظهر البعير الذى قال فيه ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾... وإذا قال الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فلا تظن أن يدى الله (جل وعلا) مثل يديك؛ لأن الله ليس كمثله شىء..فجميع صفاته هو منفرد بها، وكما أننا نوحده فى ذاته، ونوحده فى العبادة، كذلك نوحده فى صفاته. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(١)].

(١٤٥٨) وعن أبى سعيد الخُدرى ﷺ قال: خَرَج معاوية ﷺ على حَلْقَةٍ فى المسْجِدِ، فقال: ما أجْلَسكُمْ ؟ قالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله. قال: آلله ما أجْلَسكُم إلا ذاكَ؟ قالوا: ما أجْلَسَنا إلا ذاكَ، قال: أما إنِّى لَمْ أَسْتَحلِفْكُم تُهْمةً لَكُم وما كانَ أحدٌ بمنْزِلتى مِن رسُولِ الله ﷺ أقلَّ عنْهُ حَدِيثًا مِنِّى، إنَّ رسُول الله ﷺ خرج على حَلْقَةِ من أصحابه فقال: «ما أجْلَسكُمْ ؟» قالوا: جَلَسْنا نَذكُرُ الله، ونحمَدُهُ على ما هَدَانا للإسْلامِ، ومَنَّ بهِ علينا. قال: «آلله ما أجْلَسَكُم إلا ذَاكَ؟» قالوا: والله ما أجْلَسنا إلا ذاكَ. قال: «أما إنِّى لَمْ أَسْتَحلِفْكُم تُهمةً لكُمْ، ولكنَّهُ أتانِى جبرِيلُ فأخْبرنى أنَّ الله يُباهى بِكُمُ الملائكةَ»[(٢)].

❁ ففى هذا الحديث يحكى أبو سعيدٍ الخدرى أن معاوية ﷺ خرج ذات يومٍ على حلقة فى المسجد فقال لهم: **«ما أجْلَسكُمْ؟»**... أى: ما الذى جعلكم تجلسون فى هذا المسجد هكذا؟ فقالوا له: جلسنا نذكر الله ﷻ.. فما كان من معاوية إلا أن استحلفهم وقال لهم: **«آلله ما أجْلَسَكُم إلا ذَاكَ؟»** قالوا: ما أجلسنا

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٨١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠١) كتاب الذكر والدعاء.

إلا ذاك.. أي: والله العظيم ما جلسنا إلا لنذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

وحتى لا يظنوا أن معاوية كان يُكذبهم قال لهم: «**أما إنِّى لَمْ أسْتَحلِفْكُم تُهمةً لكُمْ**» وما كان أحدٌ بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا منى.. إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجْلَسكُمْ؟»...... فذكر لهم معاوية مثل الذى حدث معهم وأن النبى ﷺ قال لأصحابه: «**أما إنِّى لَمْ أسْتَحلِفْكُم تُهمةً لكُمْ، ولكنَّهُ أتانِى جبرِيلُ فأخْبرنى أنَّ الله يُباهى بِكُمُ الملائكةَ**».

فدلَّ ذلك على فضيلة هذا الاجتماع على ذكر الله وأن الله عَزَّوَجَلَّ يباهى بهم الملائكة فيقول مثلًا: انظروا إلى عبادى اجتمعوا على ذكرى وما أشبه ذلك مما فيه المباهاة .. ولكن كما أسلفنا ليس هذا الاجتماع أن يجتمعوا على الذكر بصوتٍ واحد ولكن يتذكرون نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من نعمة الإسلام وعافية البدن والأمن وما أشبه ذلك فإن ذكر نعمة الله من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيكون فى هذا دليل على فضل جلوس الناس ليتذاكروا نعمة الله عليهم ... ولهذا كان بعض السلف إذا مَرَّ بأخيه أو أتاه أخوه قال: اجلس بنا نؤمن ساعة. أى اجلس بنا نتذكر نعمة الله علينا حتى يزداد إيماننا ... فدلَّ ذلك على فضيلة هذا الاجتماع.

وقد يكون جلوسهم واجتماعهم من أجل مُدارسة القرآن أو مدارسة بعض العلوم الشرعية .. فكل ذلك يدخل تحت مظلة الجلوس لذكر الله.

نسأل الله أن يجمع قلوبنا على ذكره وشكره وحسن عبادته.



(٢٤٨) باب الذكر عند الصباح والمساء

۞ إن ذكر الله حياة القلوب وغذاء الأرواح.

وأذكار الصباح والمساء لها مكانة خاصة بالنسبة للمؤمنين.. ولذلك حثَّنا عليها النبى ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢] ، والأصيل: ما بين العصر وغروب الشمس.

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]. والإبكار: أول النهار، والعشى: آخره.

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾.

[سورة ق:٣٩]

وقال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

ومحل هذه الأذكار هو الصباح الباكر من بعد صلاة الصبح إلى قبل طلوع الشمس... والمساء ويُقال: العَشى والآصال من بعد صلاة العصر إلى قبل الغروب... على أن الأمر فى ذلك واسع إن شاء الله فيما لو نسى العبد ذلك فى وقته أو عرض له عارض فلا بأس أن يأتى بأذكار الصباح بعد طلوع الشمس، وأذكار المساء بعد غروبها(١).

۞ ولقد ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الآيات فى هذا الباب: منها قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

---

(١) فقه الأدعية والأذكار (٣/ ١١).

الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله ... فأمر الله عبده ورسوله محمدًا ﷺ أصلًا وغيره تبعًا بذكر ربه فى نفسه أى: مخلصًا خاليًا.

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: مُتضرعًا بلسانك مُكررًا لأنواع الذكر ﴿وَخِيفَةً﴾ فى قلبك بأن تكون خائفًا من الله، وَجِلَ القلب منه، خوفًا أن يكون عملك غير مقبول.. وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد، فى تكميل العمل وإصلاحه، والنُّصح به.

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أى: كُن متوسطًا، لا تجهر بصلاتك، ولا تُخافت بها، وابتغِ بين ذلك سبيلًا. ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ آخره.

وهذان الوقتان لذكر الله، فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حُرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز، فى ذكره وعبوديته، وأقبلوا على كل الشقاوة والخيبة، فى الاشتغال به[1].

۞ ثم ذكر مجموعة أخرى من الآيات التى تحث على كثرة الذكر.

(١٤٥٩) وعن أبى هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن قال حِينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسى: سُبحانَ الله وبحمدِهِ مائةَ مرةٍ لَم يأتِ أحدٌ يوْم القِيامة بأفضَلَ مِما جاء به، إلا أحدٌ قال مِثلَ ما قال أوْ زادَ»[2].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن قال حين يصبح وحين يُمسى: سبحان الله وبحمده مائة مرة.. أى: إذا قالها مائة مرة فى الصباح ما بين طلوع الفجر وارتفاع الشمس ضُحًى.. وإذا قالها فى المساء ما بين صلاتى العصر

(١) تفسير السعدى (ص٣٤٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٢) كتاب الذكر والدعاء.

والمغرب مائة مرة لم يأتِ أحدٌ يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا مَن عمل أكثر مما عمل... كأن ذَكَر الله أكثر منه أو كان أشد إخلاصًا منه أو غير ذلك...

وهذا الذكر «سُبحانَ الله وبحمدِهِ» معناه أنك تُنزه ربك عَزَّوَجَلَّ عن كل النقائص وعن كل ما لا يليق بجلاله وكماله (سبحانه وتعالى).. وتُثنى عليه وتصفه بصفات الكمال..

ولذا ينبغى أن تحافظ على «سُبحانَ الله وبحمدِهِ» مائة مرة فى الصباح ومائة مرة فى المساء.... وأنت تعلم أن النبى ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِى يوم مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّت خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحرِ».



(١٤٦٠) وعن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجُلٌ إلى النبىِّ ﷺ فقال: يا رسُول الله ما لَقِيتُ مِن عَقْرَبٍ لدَغْتنى البارحةَ، قال: «أما لو قُلتَ حِينَ أمْسيت: أعُوذُ بِكَلماتِ الله التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ لم تَضُرَّكَ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا جاء إلى النبى ﷺ فاشتكى له أنه قد لدغته عقرب البارحة.. ومن الواضح أنه كان يتألم كثيرًا.. وإذا بالنبى ﷺ يذكر له وللأمة من بعده أعظم وقاية من العقارب والحيات ومن كل ما يؤذينا فقال له ﷺ: «أما لو قُلتَ حِينَ أمْسيت: أعُوذُ بِكَلماتِ الله التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ لم تَضُرَّكَ».

فهذا لجوء إلى الله سبحانه وتعالى واعتصام به من شر ما خلق.

فإذا قُلتَه ثلاث مرات فى الصباح وثلاث مراتٍ فى المساء فإنه لا يضرك شىء.

أما قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات» قيل: معناه: الكاملات.

أى: أعوذ بكلمات الله الكاملات التامات التى لا يدخلها نقص ولا عيب.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٩) كتاب الذكر والدعاء.

وقيل: أعوذ بكلمات الله النافعة الشافية المانعة... والمراد بالكلمات هنا: القرآن الكريم.

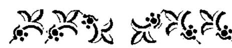
وفى هذا جواز الاستعاذة أو التعوذ أو الرقية بكلام الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ فكان الواحد من أصحاب الرسول ﷺ يقولها بعد ذلك وهو فى قمة اليقين أنه لن يقربه شىء يؤذيه.

وتصور أن واحدًا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقول هذا وهو معتقد أن العقارب والخفافيش وحشرات الأرض وهوامها ودوابها لا يمكن أن تقربه إلا بإذن الله...لذا فقد كان معظم الصحابة أهل بادية، والبادية معروفة بالحشرات السامة القاتلة، فالواحد منهم كان يقول تلك الكلمة ثم ينام على عقيدة أنه لا يمكن لأى شىء أن يأتيه.

۞ وقد يسأل سائل ويقول: وماذا لو قلت تلك الكلمات ثم لدغتنى عقرب!!!.

أقول: تكون قد أخذت بالأسباب.. والله عَزَّوَجَلَّ قد قدَّر لك هذا البلاء لمغفرة الذنوب أو لرفعة الدرجات.



(١٤٦١) وعن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبىِّ ﷺ أَنَّه كان يقول إذا أصبَحَ: «اللَّهُمَّ بِكَ أصبَحنَا وبِكَ أمسَيْنَا وبِكَ نَحيا، وبكَ نَمُوتُ، وإليكَ النُّشُورُ» وإذا أمْسى قال: «اللَّهُمَّ بِكَ أمْسينا، وبكَ نَحيا، وبك نمُوتُ، وإليكَ المصير»[1].

۞ ففى هذا الحديث يذكر أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه كان يُعلم أصحابه ويقول لهم: «**إذا أصبح أحدكم فليقل: اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت**». يعنى: لا حول لنا ولا قوة فى حياتنا ومماتنا..كلنا لله عَزَّوَجَلَّ، وكلنا فى قبضة

---

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٣).

الملك تبارك وتعالى .. اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، لا يمكن لنا أن نصبح إلا بك، ولا نمسى إلا بك، ولا غِنى لنا عنك طرفة عين..فصباحنا ومساؤنا بك.

وهذا توكُّلٌ كامل على الله عَزَّوَجَلَّ فى الحياة والموت؛ ولذلك يُسَنُّ لك إذا نمت أن تنام على خَدِّك الأيمن وعلى جنبك الأيمن وتقول: «**باسمك اللهم أموت وأحيا**» يعنى: أنام على اسم الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يمكن أن أقوم من نومتى إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى اسم الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ **قوله: «وإليك النشور»**.

أى: البعث من هذا النوم الذى هو الموتة الصغرى...فشبَّه أهل العلم النوم بالموت، واليقظة بالبعث ... ولذلك جاء فى الحديث الصحيح: «**إنكم تموتون كما تنامون وتُبعثون كما تستيقظون**» فشبَّه هذا بذاك... عندما يستيقظ الإنسان يقول: «**اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا**»، وإذا أمسى قال: «**اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا**»، وإذا كان فى الصباح قال: «**وإليك النشور**»، الذى هو البعث والانتشار، وإذا كان فى المساء قال فى نهاية الدعاء: «**وإليك المصير**»، أى: نحن عائدون إليك، وصائرون إليك، وراجعون إليك... فيتذكر الموت عند النوم؛ لأن النوم هو الموتة الصغرى.

❁❁❁

(١٤٦٢) وعن أَبِى هُريرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أبا بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسُولَ الله مُرنِى بكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إذا أصبَحتُ وإذا أمْسَيتُ، قال: «قُل: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهادةِ، ربَّ كُلِّ شيءٍ ومَلِيكَهُ. أشْهَدُ أن لا إله إلا أنتَ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفسى وشَرِّ الشَّيْطانِ وشِرْكِه» قال: «قُلها إذا أصبَحتَ وإذا أمْسَيْتَ، وإذا أخَذْتَ مَضْجعَكَ»[١].

❁ ففى هذا الحديث يحكى أبو هريرة أن أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال للنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٠٢).

رسُولَ الله مُرنِى بكَلمَاتٍ أقُولُهُنَّ إذا أصبَحتُ وإذا أمْسَيتُ .. فقال له النبى ﷺ: «قل: اللهم فاطر السماوات والأرض» يعنى: يا الله يا فاطر السموات والأرض، وفاطرهما يعنى: أنه خلقهما عَزَّوَجَلَّ على غير مثالٍ سابق بل أبدعهما وأوجدهما من العدم على غير مثالٍ سابق.

«عالم الغيب والشهادة» أى: العالم بكل شىء مما يشاهده الناس ومما هو غائبٌ عنهم... فالله تعالى عالمٌ به لا تَخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء سبحانه وتعالى.

«رب كل شىءٍ ومليكه» يعنى: يا رب كل شىء ومليكه. والله تعالى هو رب كل شىء وهو مليك كل شىء... والفرق بين الرب والمالك فى هذا الحديث، أن الرب هو المُوجِد للأشياء الخالق لها، والمليك هو الذى يتصرف فيها كيف يشاء.... وكل هذا ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ وتمهيد للدعاء الذى يدعو به الإنسان.

قوله: «أشهد أن لا إله إلا أنت» وهذه الشهادة لله بالوحدانية والشهادة له بالألوهية، وأنه الإله الواحد الذى لا شريك له، كما أنه لا شريك له فى الخلق فلا شريك له فى العبادة، وكما أنه المتفرد بالخلق والإيجاد فهو الذى يجب أن يُفرَد بالعبادة وحده لا شريك له.

وكأنك تقول بلسان الحال والمقال: أشهد وأعترف بلساني وقلبى أنه لا معبود بحقٍّ إلا أنت يا رب العالمين..

فكل ما عُبد سواك فهو باطل.. فأنت الإله الحق وما سواك فهو باطلٌ.

«أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفسى» لأن النفس أمَّارة بالسوء.. كما قال تعالى حاكيًا على لسان امرأة العزيز أنها قالت: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾.

فإذا لم يعصمك الله من شرور نفسك فإنها تضرك، وتأمرك بالسوء، ولكن

الله إذا عصمك من شرها، وفقك إلى كل خير.

«**ومن شر الشيطان**» أى: من شر الشيطان الذى هو عدو الإنسان..لأنه آلى على نفسه والتزم بأن يُغوى الناس وأن يجتهد فى إغوائهم وإخراجهم من النور إلى الظلمات.

قوله: «**وشركه**» يعنى: ما يدعو إليه من الشرك الذى هو أظلم الظلم وأبطل الباطل، والذى صاحبه يكون خالدًا مُخلدًا فى النار...وأقصى ما يريده الشيطان أن يُخرج المرء من الإسلام إلى الشرك وإلى الكفر؛ حتى يكون معه فى نار جهنم وحتى يكون من الخالدين الباقين فيها إلى ما لا نهاية..لأن الشرك هو أعظم ذنب وهو الذى لا يُغفر، وهو الذى يُخلَّد صاحبه فى النار ولا سبيل له إلى دخول الجنة، بخلاف الذنوب الأخرى فإنها تحت مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء عفا عن صاحبها، وإن شاء عذبه ثم أخرجه منها وأدخله الجنة.

وجاء فى بعض الروايات: «**ومن شر الشيطان وشركه وحبائله**».

«**وأن أقترف على نفسى سوءًا**» هذا تتمة الحديث، ولعله سقط من هذه النسخة «**أن أقترف على نفسى سوءًا**» أقترف يعنى أَجُرّ على نفسى سوءًا «**أو أَجُره إلى مسلم**» فهذا الذكر أمر النبى ﷺ أبا بكر أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه.

قوله: قال: «**قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**».

يعنى: تُقال فى ثلاثة أحوال: فى الصباح، وفى المساء، وعند النوم.

***

(١٤٦٣) وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان نبىُّ الله ﷺ إذا أمسى قال: «**أمْسَينا وأمْسى المُلكُ لله، وَالحَمْدُ للهِ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» قال الراوى: أَرَاهُ قال فيهِنَّ: «**لهُ المُلكُ وله الحمْدُ وهُوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ربِّ أسْألُكَ خَيْرَ ما فى هذه الليلةِ، وخَيْرَ ما بَعدَها، وأعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما فى هذه الليلةِ وشَرِّ ما بعدَها، ربِّ**

أعُوذُ بِكَ من الكَسَل، وسُوء الكِبَرِ، وأعوذُ بِكَ مِن عذابٍ فى النَّارِ، وعذابٍ فى القبر» وإذا أصبح قال ذلك أيضًا: «أصبَحنا وأصبَح المُلك لله»(١).

۞ ففى هذا الحديث يذكر ابن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله».

يعنى: دخلنا فى المساء وأمسى الملك كله لله عز وجل ..وكل ما فى الكون فهو لله عز وجل مالكه والمتصرف فيه، وهو دائمًا وأبدًا فى قبضته وتحت تصرُّفه سبحانه وتعالى، ونحن من جملة المُلك؛ لأن لله ملك السماوات وما فيهما وما بينهما... قوله: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

وهذا تعظيم لله عز وجل وإقرار له بالألوهية، وأنه إله كل شىء ومليكه.

ولا إله إلا الله نفىٌ وإثبات... ووحده لا شريك له نفى وإثبات.

۞ لهُ المُلكُ كُلُّهُ، وله الحمْدُ كُلُّهُ، وهُوَ على كلِّ شىءٍ قديرٌ .. فلا يُعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

قوله: «رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها». يعنى: كل ما فى هذه الليلة من خير أسألك إياه، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وما بعدها.

قوله: «أعوذ بك من الكسل» يعنى: أعوذ بك من الخمول والفتور والكسل فى الطاعة الذى يحصل عنه عدم القيام بها كما ينبغى.

قوله: «وسوء الكِبَر» الذى هو الهرم، بحيث يُرَدُّ الإنسان إلى أرذل العُمر.

قوله: «رب أعوذ بك من عذابٍ فى النار وعذابٍ فى القبر».

يعنى: يستعيذ بالله عز وجل من عذاب القبر وعذاب البرزخ ومن عذاب النار... ومعلومٌ أن عذاب البرزخ هو من عذاب النار إلا أن ما يكون بعد البرزخ أشد، كما قال الله عز وجل عن آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٣) كتاب الذكر والدعاء.

ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦]، وقال ﷺ: «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعدهُ أيسرُ منه و إن لم ينجُ منه فما بعده أشدُّ منه»[(١)] يعنى: أنهم فى البرزخ مُعذَّبون بعذاب النار، وعندما يحصل البعث والنشور ينتقلون إلى عذاب النار الذى هو أشد من هذا الذى حصَّلوه فى قبورهم من عذاب النار والعياذ بالله.

۞ قوله: «وإذا أصبح قال مثل ذلك أيضًا: «أصبَحنَا وأصبَح المُلكُ لله» يعنى: هذا من أدعية الصباح والمساء.

(١٤٦٤) وعن عبد الله بن خُبَيْب رضي الله عنه قال: قال لى رسُولُ الله ﷺ: «اقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوِّذَتَيْن حِين تُمْسى وحين تُصبِحُ، ثلاثَ مرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِن كلِّ شىءٍ»[(٢)].

۞ ففى هذا الحديث يحكى عبد الله بن خُبيب رضي الله عنه أن النبى ﷺ أمره أن يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾.و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فى الصباح والمساء ثلاث مرات، وبيَّن أن هذا يكفيه كل شىء... أما السورة الأولى فهى سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ التى أخلصها الله تعالى لنفسه فلم يذكر فيها شيئًا إلا يتعلق بنفسه (جل وعلا)، وقد بيَّن النبى ﷺ أنها تعدل ثُلث القرآن، ولكنها لا تُجزئ عنه... تعدله ولا تجزئ عنه ... والشىء قد يكون عديلًا للشىء ولكن لا يجزئ عنه... ألم تروا أن الإنسان إذا قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير» كان كمن أعتق أربعة أنفُس من ولد إسماعيل، ومع ذلك لا يجزئ عن عتق رقبة.. ففرقٌ بين المعادلة فى الأجر وبين الإجزاء فى الكفارة، ولهذا لو قرأ الإنسان ﴿قُلْ هُوَ

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٨٤).
(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٠٦).

﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فى الصلاة ثلاث مرات ما أجزأت عن الفاتحة، مع أنه لو قرأها ثلاث مرات كأنما قرأ القرآن كله لأنها تعدل ثُلث القرآن.

وأما ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فهما السورتان اللتان نزلتا على رسول الله ﷺ حين سحره الخبيث لبيد بن الأعصم اليهودى، فأنزل الله هاتين السورتين، فرَقَاه بهما جبريل، فأحَلَّ الله عنه السحر.

قال النبى ﷺ: «**ما تعوَّذ مُتعوِّذٌ بمثلهما**»(١).

تستعيذ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ فالفلق فلق الإصباح، وهو فالق الحب والنوى عَزَّوَجَلَّ ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ كل ما خلق ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ يعنى الليل إذا دخل؛ لأن الليل تكثر فيه الهوام والوحوش وغير ذلك، فتستعيذ بالله من شر غاسقٍ إذا وقب ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ أى: الساحرات اللاتى يعقدن عُقد السحر، وينفُثن فيها بالطلاسم والتعوذات والاعتصام بالشياطين والاستعانة بهم والعياذ بالله ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ هو العائن يصيب بعينه؛ لأن الساحر يؤثر؛ والعائن يؤثر، فأُمِرتَ أن تستعيذ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ عَزَّوَجَلَّ ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ وتأمل تَناسُب هذه الآيات الثلاثة ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الليل ... لأنَ البلاء يكون فيه خفيًّا، والسحر كذلك خفى، والعين كذلك خفية، فنستعيذ برب الفلق الذى يفلق الإصباح حتى يتبين ويفلق النوى حتى يظهر ويبرز: فهذه من مناسبة المقسَم به والمقسَم عليه.

أما ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فهى السورة الأخرى أيضًا التى بها الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ فهو الرب الملك ذو السلطان الأعظم الذى لا يُمانعه شيء ولا مبدل لكلماته جل وعلا

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٤٩).

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ أى: معبودهم الذى يُعبَد بحق، فلا معبود بحقٍّ إلا الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾، هذه وساوس الصدور التى يُلقيها الشيطان فى قلب ابن آدم...وما أكثر ما يُلقى الشيطان فى هذا العصر من الوساوس العظيمة التى تُقلق الإنسان.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ هذه الجُمَل الثلاثة، الآيات الثلاث يمكن أن يُقال أنها استوعبت أقسام التوحيد ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ توحيد الربوبية ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ الأسماء والصفات؛ لأن الملك لا يستحق أن يكون ملكًا إلا بتمام أسمائه وصفاته ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ الألوهية ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ يعنى هذا الوسواس يكون من الجِنة ويكون من الناس... الجِنة هى الجن والمراد بهم الشياطين التى توسوس فى الصدور ... والناس أيضًا منهم شياطين بنى آدم وما أكثرَ الشياطين فى زماننا وقبل زماننا وإلى يوم القيامة.

فالمهم أن هذه السور الثلاث ينبغى للإنسان أن يقرأها كل صباح وكل مساء لأمر النبى ﷺ بها. والله الموفق[1].



(١٤٦٥) وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فى صَبَاحِ كلِّ يومٍ ومَسَاءِ كلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ الله الَّذِى لا يَضُرُّ مَع اسْمِهِ شىء فى الأرضِ ولا فى السماءِ وَهُوَ السَّميعُ الْعَلِيمُ، ثلاثَ مَرَّاتٍ، إلَّا لَمْ يَضُرَّهُ شىءٌ»[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٨٦-٣٨٨) بتصرف كبير.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٤٥).

۞ وفى هذا الحديث يروى أبان بن عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن أباه عثمان بن عفان أخبر أن النبى ﷺ قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِى صَبَاحِ كُلِّ يَومٍ ومَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِى لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شىء فِى الأَرْضِ ولا فِى السماءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثلاثَ مَرَّاتٍ، إِلاَّ لَمْ يَضُرَّهُ شىءٌ**».

إنها كلمات يسيرة لكن فائدتها عظيمة.. فالله عَزَّ وَجَلَّ هو فاطر السماوات والأرض وبيده ملكوت كل شىء.. واسمه مباركٌ إذا ذُكر على أى شىء فإن البركة تحل فيه.

ولهذا يُسَنُّ أن تذكر الله عَزَّ وَجَلَّ عند الطعام والشراب.. بل حتى عند إتيان الزوجة فى الحلال.. فالتسمية مشروعة فى مواطن كثيرة.

فمن قال: «**بِسْمِ اللهِ الَّذِى لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شىء فِى الأَرْضِ ولا فِى السماءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**» ثلاث مرات فى الصباح وفى المساء لم يضره شىء.

وقوله: «**وهو السميع العليم**» فالسميع من أسماء الله، والعليم من أسماء الله.

فالسميع من أسماء الله تعالى ولها معنيان:

الأول: السمع الذى هو إدراك كل صوت... فالله تعالى لا يخفى عليه شىء، كل صوت فالله يسمعه مهما بَعُد ومهما ضَعُف.

لمَّا أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات،والله لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تكلمه وإنى لفى الحُجرة، ويَخفى علىَّ بعضُ حديثها، والله تعالى من فوق سبع سموات يسمع كلامهما[١].

ومن معانى السميع: أنه سميع الدعاء، أى مُجيب الدعاء، كما قال إبراهيم

---

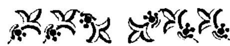
(١) صحيح: رواه النسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى الإرواء (٧/ ١٧٥)، وفى ظلال الجنة (٦٢٥).

عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ أي: مجيبه، فهو عز وجل يجيب دعاء المضطر وإن كان كافرًا... وأما العليم فهو من أسمائه أيضًا... وعِلمُ الله تعالى علمٌ واسع محيط بكل شيء ... قال الله تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ومفاتح الغيب خمسة مذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ فالله عز وجل عنده مفاتح الغيب.

فالمهم أن هذا الدعاء مشروع في كل صباح وفي كل مساء «**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**» ثلاث مرات في الصباح وفي المساء.

۞ والعجيب أن أبان بن عثمان الذي حدَّث بهذا الحديث حصل له فالج - شلل- فجعل الرجل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه ... ففهم منه أنه حدَّث بهذا الحديث ومع ذلك حصل له الفالج... فقال أبان: ما كذبت على عثمان ولا كذب عثمان على رسول الله ﷺ ولكنني في اليوم الذي حصلت لي هذه المصيبة غضبت فنسيت أن أقول تلك الكلمات.



(٢٤٩) باب ما يقوله عند النوم

۞ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

(١٤٦٦) وعن حُذيفةَ وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما أنَّ رسُول الله ﷺ كانَ إذا أوَى إلى فِرَاشِهِ قال: «باسْمِكَ اللَّهُمَّ أحيَا وأمُوتُ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٨٢١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٤٦٧) وعن عليٍّ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال له ولِفاطمةَ رضي الله عنها: «إذا أوَيْتُمَا إلى فِراشِكُما -أوْ إذا أخَذْتُما مضَاجِعَكُما- فَكَبِّرا ثَلاثًا وثلاثينَ، وسَبِّحَا ثلاثًا وثلاثِينَ، واحمَدَا ثَلاثًا وثلاثين» وفي روايةٍ: «التَّسْبِيحُ أربَعًا وثلاثينَ» وفي روايةٍ: «التَّكبيرُ أربعًا وثلاثين»(٢).

۞ وقبل أن نبدأ في شرح الحديث أحب أن أروى لكم الرواية الكاملة لهذا الحديث: عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، قال: حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، أَنَّ فَاطِمَةَ رضي الله عنها أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ تَشْكُو إِلَيْهِ مَا تَلْقَى فِي يَدِهَا مِنَ الرَّحَى، وَبَلَغَهَا أَنَّهُ جَاءَهُ رَقِيقٌ، فَلَمْ تُصَادِفْهُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخبرَتْهُ عَائِشَةُ، قَالَ: فَجَاءَنَا وَقَد أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْنَا نَقُومُ، فَقَالَ: «عَلَى مَكَانِكُمَا» فَجَاءَ فَقَعَدَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، حَتَّى

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣١٤) كتاب الدعوات.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣١١٣) كتاب فرض الخمس، (٦٣١٨) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧٢٧) كتاب الذكر والدعاء.

وَجدتُ بَردَ قَدَمَيهِ عَلَى بَطْنِي، فَقَالَ: «أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا - أَوْ أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا - فَسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَاحمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَكَبِّرَا أَربَعًا وَثَلاَثِين، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»(١).

۞ لم تكن أسماء بنت أبى بكر وحدها التى أرهقها عمل منزلها، فهذه فاطمة بنت رسول الله ﷺ لم يكن عندها خادم يكفيها عمل المنزل، ولذلك «جَرَّت بالرحى حتى أثَّر فى يدها، واستقت بالقِربة حتى أثَّر فى نحرها، وكنست البيت حتى اغبرَّت ثيابها».

وبلغ فاطمة أن الرسول ﷺ جاءه بعض السبى، فانطلقت إليه مُؤملة أن يهب لها خادمًا يُعينها على الأعباء التى تواجهها، فلم تجده فى منزله، فأخبرت عائشة بالغرض الذى قَدِمت لأجله، فأخبرت عائشة الرسول ﷺ خبر فاطمة.

فانطلق إلى منزلها، فوجدها أخذت هى وزوجها أهبتهما للنوم، فذهبا ليقوما، فأمرهما بالبقاء حيث هما، وجلس بينهما حتى إن عليًّا وجد برد قدمى رسول الله ﷺ على صدره.

فلم يعطها الخادم الذى طلبته، وقال لها كما فى رواية أبى داود: (اتقى الله يا فاطمة، وأدِّى فريضة ربك، واعملى عمل أهلك).

ثم دلَّها وزوجها على ما هو خير لهما من خادم فقال: «أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا، أَو أَخَذْتُمَا مَضَاجِعكُمَا، فَكَبِّرَا أَربَعًا وَثَلاَثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَاحمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، فَذَلِكَ خَيرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ».

وقد عملا بوصية رسول الله ﷺ، قال عليٌّ: «فما تركتها بعد.. قيل: ولا ليلة صِفِّين؟ قال: ولا ليلة صِفِّين».

والسبب فى عدم إعطائهم حاجته ﷺ إلى ثمن السَّبى لينفقه على أصحاب

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٣٦١) كتاب النفقات.

الحاجات.. فقد جاء فى رواية السائب أنه قال لهما: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصُّفة تُطوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكنى أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»(١).

۞ **فيا أيتها الأخت الفاضلة:** احرصى على هذا الذكر قبل النوم وسيكون عونًا لك - بإذن الله - على القيام بكل أعباء البيت دون أن تشعرى بتعبٍ أو مللٍ.. فهذا وعد الصادق المصدوق ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى.

***

(١٤٦٨) وعن أبى هُريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أَوَى أحَدُكُم إلى فِراشِه، فلْيَنْفُض فِراشَهُ بداخِلَةِ إزَارِهِ فإنَّهُ لا يَدرى ما خَلَفَهُ عَلَيه، ثُمَّ يقولُ: باسْمِكَ رَبِّى وضَعتُ جَنْبى، وبِكَ أرفَعُهُ، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِى فارحَمْها، وإنْ أرسَلْتَهَا فاحفَظْهَا بِمَا تَحفَظُ به عِبادَكَ الصَّالحينَ»(٢).

۞ «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره**» يعنى: الإنسان يكون عليه إزار، وينفض فراشه بداخلة الإزار مما يلى جسده.

وقيل: إن الحكمة فى ذلك أنه قد يكون عليه شىء من وسخ أو هوام، أو شىء من ذلك.

قوله: «**فإنه لا يدرى ما خَلَفه عليه**» يعنى: بعد أن تركه وقبل أن يرجع إليه لا يدرى أى شىء خلفه... ومن المعلوم أن هذا يتعلق بهوام أو بغبار أو وسخ وما إلى ذلك.

فعلى الإنسان أن ينفض فراشه سواء كان فيه شىء أو لم يكن فيه شىء... وأما بالنسبة للجن فإن التسمية والتعوذ بالله يطردان الجن... وإنما المقصود من ذلك أن يكون هناك غبار أو هوام أو وسخ أو شىء من ذلك.

---

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه / د. عمر الأشقر (ص ٣٤٤-٣٤٥) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٢٠) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧١٤) كتاب الذكر والدعاء.

«**ثم يقول باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه**» يعنى: وضعت جنبى فى النوم، ورفعته بعد النوم..كل ذلك بمشيئة الله وإرادته، مثل قوله: «**بك أحيا وبك أموت**».

«**إن أمسكت نفسى فارحمها**». يعنى: إن أنت قبضتها فى هذه النومة وخرجت من الدنيا بالموت فى حال النوم فارحمنى برحمتك التى وسعت كل شىء .. فلا غِنى لى عن رحمتك طرفة عين ولا أقل من ذلك.

«**وإنْ أرسَلْتَهَا فاحفَظْهَا**» يعنى: إن لم تقبضها ولم يحصل لها الموت بل عادت إلى الحياة فاحفظها من سائر المكاره دينًا ودنيا.. احفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين.. وذلك بالاستقامة على أمرك والعيش فى طاعتك وطاعة رسولك ﷺ حتى آخر لحظة فى حياتى.. وأن تختم لى حياتى على (لا إله إلا الله) فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة.

***

(١٤٦٩) **وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أخَذَ مضْجَعَهُ نَفَثَ فى يَدَيْهِ، وقَرَأ بالمُعَوِّذاتِ ومسحَ بِهمَا جَسَدَهُ**[١].

وفى رواية لهما: أنَّ النبىَّ ﷺ كانَ إذا أوى إلى فِراشِهِ كُلَّ لَيْلة جَمَع كَفَّيْه ثم نَفَثَ فيهما فَقَرأ فيهما: قُلْ هو الله أحدٌ، وقُل أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ، وقُلْ أعُوذُ بِربِّ النَّاسِ، ثمَّ مَسَحَ بِهِما ما اسْتَطَاعَ مِن جسَده، يَبْدأُ بِهما على رأسِهِ وَوَجْهِهِ، وما أقبل مِن جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذلك ثَلاثَ مرَّات.

۞ ففى هذا الحديث تذكر أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا أخذ مضجعه جمع كفَّيه يعنى ضَمَّ بعضهما إلى بعض ونفث فيهما... والنفث هو

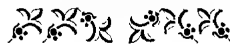
---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠١٧) كتاب فضائل القرآن، و(٦٣١٩) كتاب الدعوات - ومسلم (٢١٩٢) كتاب السلام.

قال أهلُ اللُّغةِ: «النَّفْثُ» نَفخٌ لَطِيفٌ بِلا رِيق.

النفخ مع ريقٍ يسير، ثم يقرأ قل هو الله أحد، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس، يمسح بهما. أي: بيديه ما استطاع من جسده يبدأ برأسه ومقدم جسده ثلاث مرات.

فينبغي للإنسان إذا أخذ مضجعه أن يفعل ذلك... ينفخ في يديه مجموعتين ويقرأ فيهما قل هو الله أحد، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس «ثلاث مرات»، يمسح رأسه ووجهه وصدره وبطنه وفخذيه وساقيه وكل ما يستطيع من جسده.



(١٤٧٠) وعن البراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فتَوَضَّأْ وضُوءَكَ لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِع على شِقِّكَ الأيمَنِ، وقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إليكَ، ووَجَّهْتُ وَجْهِي إلَيْكَ. وفَوَّضْتُ أمري إلَيْكَ، وألجَأْتُ ظَهرِي إلَيْكَ، رغبةً ورهْبَةً إلَيْكَ، لا مَلجأ ولا مَنْجى مِنْكَ إلا إليكَ، آمنتُ بِكِتابِكَ الذي أنزَلْتَ، وبِنَبِيِّكَ الذي أرسَلْتَ، فإنْ مِتَّ مِتَّ على الفِطْرةِ، واجْعَلْهُنَّ آخِرَ ما تَقُولُ»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٨١٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٤٧١) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا أَوَى إلى فِرَاشِهِ قال: «الحَمْدُ لله الذي أطْعَمَنَا وسقَانا، وكفَانَا وآوانَا، فكمْ مِمَّنْ لا كافيَ لَهُ ولا مُؤْوِيَ»[2].

۞ وهنا يذكر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مُؤوي**» يحمد الله

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣١١) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧١٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧١٥) كتاب الذكر والدعاء.

عَزَّوَجَلَّ الذى أطعمه وسقاه.... فإنه لولا أن الله عَزَّوَجَلَّ يسَّر لك هذا الطعام وهذا الشراب ما أكلت ولاشربت... كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ فتحمد الله الذى أطعمك وسقاك «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا» كفانا يعنى: يسَّر لنا الأمور وكفانا المؤونة.. وآوانا أى: جعل لنا مأوى ومسكن نأوى إليه..فكم من إنسانٍ لا كافى له ولا مأوى، فينبغى لك إذا أتيت مضجعك أن تقول هذا الذكر.

(١٤٧٢) وعن حُذَيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسُول الله ﷺ كانَ إذا أرَادَ أنْ يرقُدَ، وضَعَ يدَهُ اليُمْنَى تَحتَ خَدِّه، ثُمَّ يقُولُ: «اللَّهُمَّ قِنى عَذَابكَ يوْمَ تَبْعَثُ عِبادَكَ»[1].

ورواه أبو داود مِن رواية حفْصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه أنه كان يقوله ثلاثَ مرات[2].

۞ وفى هذا الحديث يذكر حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقد -أى: ينام- كان ينام على الجانب الأيمن ويضع يده اليُمنى تحت خدِّه ثم يقول: «اللَّهُمَّ قِنى عَذَابكَ يوْمَ تَبْعَثُ عِبادَكَ»

هذا منه ﷺ خضوع كذلك لمولاه وأداء لحق مقام الربوبية المطلوب من العبد أداؤه، وتنبيه للأمة أن لا يأمنوا مكر الله فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون[3].

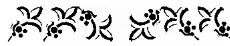
وهذا درسٌ جليل للأمة .. فإن كان النبى ﷺ الذى غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول: «اللَّهُمَّ قِنى عَذَابكَ يوْمَ تَبْعَثُ عِبادَكَ» فماذا يقول مَن يحمل على

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٩٠).
(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٥٦).
(٣) دليل الفالحين (٤/ ٢٢٢).

ظهره أوزارًا كالجبال.. فحريٌّ بنا أن ندعو كل ليلة بهذا الدعاء وأن نقرنه بالتوبة الصادقة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.. وما أجمل أن نقول دعاء سيد الاستغفار قبل أن ننام لأن مَن قاله بالليل فمات دخل الجنة... ومن قاله بالنهار فمات دخل الجنة... فيا ليتنا نحرص على هدى النبى ﷺ لنكون من الفائزين فى الدنيا والآخرة.

وها هو دعاء سيد الاستغفار:

« سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[1].



(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٦، ٦٣٢٣) كتاب الدعوات.

(١٦) كتاب الدعوات

(٢٥٠) الأمر بالدعاء وفضله وبيان جُمل من أدعيته ﷺ

۞ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وقال تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]. وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية[البقرة:١٨٦]، وقال تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ الآية [النمل:٦٢].

يا له من ربٍّ رحيم ودود لطيف شكور... يتودد إلى عباده وهو الغنى عنهم... يأمرك بأن تدعوه وهو الغنى عن دعائك.

إنه الملك (جل وعلا) الذى يَفزع إليه المكروب ويستغيث به المنكوب وتلجأ إليه كل المخلوقات.

فإذا نزلت بك النوازل وأحاطت بك المصائب وألمَّت بك الخُطوب فما عليك إلا أن ترفع أَكُفَّ الضراعة لتطلب منه العون والمدد وتُمرغ الجبين لتبلَّ الحصى بدموع التوبة والندم وتنخلع من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته وتقول بلسان الحال والمقال: اللَّهُمَّ إنى أبرأ من الثقة إلا بك ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الرضا إلا عنك ومن الصبر إلا على بابك، ومن الذل إلا فى طاعتك، ومن الرهبة إلا لجلالك العظيم، ومن الرجاء إلا لما فى يديك الكريمتين.

۞ **إذا نزلت بك المصائب فقل: يا الله.**

۞ إذا خانك الصديق والرفيق فقل: يا الله.

۞ إذا ضاع المال والعيال فقل: يا الله.

۞ إذا اجتمع عليك أهل الأرض فقل: يا الله.

۞ الزم بابه... وتبتل إليه.... وترقَّب فتحه ونصره... وارفع إليه أكُف الضَّراعة... وأحسن الظن فيه... واطلب منه العون والمدد.

فهو الذى يشفى المريض ويُعافى المبتلى ويسد الدَّين عن المديون وينصر كل مظلوم ويهدى كل ضالٍّ ومحروم ويرد الغائب ويفكُّ أسر المسجون.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

يا صاحب الهمِّ إن الهمَّ مُنفرجٌ أبشر بخيرٍ فإن الفارجَ اللهُ
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه لا تيأسنَّ فإن الكافى اللهُ
إذا بُليت فثقْ بالله وارضَ به فإن الذى يكشف البلوى هو اللهُ
الله يُحدث بعد العُسر مَيسرة لا تجزعنَّ فإن الصانعَ اللهُ
والله ما لك غير الله من أحدٍ فحسبُك اللهُ فى كلٍّ لك اللهُ(١)

شروط إجابة الدعاء

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ والاستجابة فى دعاء العبادة هى قبولها والاستجابة فى دعاء المسألة إعطاء الإنسان مسألته ... وهذا وعدٌ من الله تعالى لكن لا بد من أمور فلا بد لإجابة الدعاء من شروط:

۞ الشرط الأول: الإخلاص وذلك بأن تُخلص لله فتكون داعيًا له حقًّا ... وإن كنت فى عبادة لا تشرك به شيئًا ولا تعبده رياءً ولا سُمعة ولا من أجل أن يُقال فلان حاج، فلان سخى، فلان كثير الصوم ... إذا قلت هذا أحبط عملك

---

(١) من كتاب (لا تحزن وابتسم للحياة) الشيخ محمود المصرى (ص ٦٤٣-٦٤٤).

فلا بد من الإخلاص فى المسألة ... أيضًا ادعُ الله وأنت تشعر بأنك فى حاجة إليه وأنه غنى عنك وقادر على إعطائك ما تسأل ....

الشرط الثانى: ألا يكون هناك عدوان فى الدعاء..فإن كان فيه عدوان فإن الله لا يقبله ولو من الأب لابنه أو من الأم لابنها إذا كان فيه عدوان فإن الله لا يقبله لقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥] فلو دعا الإنسان بإثم بأن سأل ربه شيئًا مُحرمًا فهذا لا يُقبل لأنه مُعتدٍ.

ولو سأل ما لا يمكن شرعًا مثل أن يقول: اللهم اجعلنى نبيًّا هذا لا يجوز وهو عدوان لا يُقبل... ولو دعا على مظلوم فإنه لا يُقبل... ولو دعت المرأة على ابنها لأنه يحب زوجته فإنه لا يقبل... وكذلك الأب لو دعا على ابنه لأنه صاحَب أُناسًا طيبين فإنه لا يُقبل... فيُشترط أن لا يكون فى الدعاء عدوان.

۞ الشرط الثالث: يُشترط أن يدعو الله تعالى وهو موقن بالإجابة لا دعاء تجربة... لأن بعض الناس قد يدعو ليُجرب وليرى هل يُقبل الدعاء أم لا؟

فهذا لا يُقبل منه ... ادعُ الله وأنت مُوقن بأن الله تعالى سوف يجيبك ... فإن كنت دعوته وأنت فى شكٍّ فإن الله لا يقبله منك.

۞ الشرط الرابع: اجتناب الحرام بأن لا يكون الإنسان آكلًا للحرام.. فمن أكل الحرام من ربا أو فوائد غش أو كذب أو ما أشبه ذلك فإنه لا يُستجاب له.. والدليل على هذا قول النبى ﷺ: **«إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١] وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢] ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يَمُد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغُذى بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك»**(١)

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

فاستبعد النبي ﷺ أن يستجيب الله لهذا مع أنه فعل من أسباب الإجابة ما يكون جديرًا بالإجابة ولكن لما كان يأكل الحرام صار بعيدًا أن يقبل الله منه.

فهذه أربعة شروط للدعاء لا بد منها والله الموفق(١).

وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات

۞ لا تَفتُر أبدًا عن الدعاء فالدعاء من أنفع الأدوية.

وهو عدو البلاء، يُدافعه ويُعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل. وهو سلاح المؤمن.

۞ **وله مع البلاء ثلاث مقامات:**

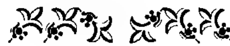
أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء؛ فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحدٍ منهما صاحبه.

قال رسول الله ﷺ: «لا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ فَيَعتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٢)(٣).

فالدعاء من أفضل وسائل مقاومة البلاء قبل أن ينزل، وهو من أفضل وسائل رفع البلاء إن نزل.



---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣-٤) بتصرف.

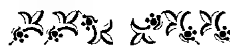
(٢) حسن: رواه الحاكم (١/ ٦٦٩)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٧٣٩).

(٣) الداء والدواء/ للإمام ابن القيم (ص: ١٤).

۞ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

هذا جواب سؤال..سأل النبيَّ ﷺ بعضُ أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريبٌ ربنا فنُناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ فنزل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾، لأنه تعالى، الرقيب الشهيد، المُطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعيُن وما تُخفى الصدور، فهو قريب أيضًا من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلبٍ حاضرٍ، ودعاءٍ مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهى الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة.. فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أي: يحصل لهم الرشد، الذى هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغى المنافى للإيمان والأعمال الصالحة(١).



۞ وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

مَن الذى يفزع إليه المكروب، ويستغيث به المنكوب، وتصمد إليه الكائنات، وتسأله المخلوقات، وتلهج بذكره الألسُن، وتألهه القلوب ... إنه الله لا إله إلا هو. وحَقٌّ علىَّ وعليك أن ندعوه فى الشدة والرخاء، والسراء والضراء، ونفزع إليه فى المُلمَّات، ونتوسل إليه فى الكربات، ونطرح على عتبات بابه سائلين باكين ضارعين مُنيبين... حينها يأتى مدده ويصل عونه ويسرع فرجه،

(١) تفسير السعدى (ص٨٥).

ويحل فتحه ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فينجي الغريق ويرد الغائب، ويعافي المُبتلَى، وينصر المظلوم، ويهدى الضال ويشفى المريض، ويفرج عن المكروب ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

إن دعاءك ربك عبادة أخرى وطاعة عُظمى ثانية فوق حصول المطلوب، وإن عبدًا يجيد فن الدعاء حَرِيٌّ أن لا يهتم ولا يغتم ولا يقلق.. كل الحبال تتصرم إلا حبله، كل الأبواب تُوصَد إلا بابه، وهو قريب سميع مجيب، يجيب المضطر إذا دعاه ... يأمرك وأنت الفقير الضعيف المحتاج، وهو الغنى القوى الواحد الماجد بأن تدعوه ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إذا نزلت بك النوازل وألمَّت بك الخطوب، فالهج بذكره، واهتف باسمه واطلب مدده واسأله فتحه ونصره، مرِّغ الجبين لتقديس اسمه، لتحصل على تاج الحرية. مُدَّ يديك، ارفع كفيك، أطلق لسانك، أكثِر من طلبه، بالغ فى سؤاله، أَلِحَّ عليه، الزم بابه، انتظر لُطفه، ترقَّب فتحه، أحسِن ظنك فيه، انقطع إليه، تبتل إليه تبتيلًا حتى تَسعد وتُفلح[١].

(١٤٧٣) وعن النُّعمان بنِ بشيرٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «الدُّعاءُ هوَ العِبادةُ»[٢].

۞ «الدُّعاءُ هوَ العِبادةُ»، ويُقصَد به: الدعاء تعبُّدًا أو الدعاء طلبًا .. يعنى: إما أن يدعو الإنسان ربه عز وجل تعبُّدًا لا يأخذ به شيئًا، أو أنه يدعو الله تعالى لجلب نفعٍ أو لرفع ضُرٍّ ... فالدعاء إما أن يكون محض عبادة لله، كما كان دعاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أو دعاء يطلب به حاجة أو يرفع به مضرة.

فالدعاء هو العبادة: ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

---

(١) حدائق ذات بهجة (ص ٢٦٠- ٢٦١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٠٧).

لم يقل: يستكبرون عن دعائي. قال: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ فدلَّ هذا على أن الدعاء هو العبادة... ووجه ذلك من النظر أن الإنسان إذا دعا ربه فقد اعترف لله عَزَّوَجَلَّ بالكمال وإجابة الدعاء، وأنه على كل شيء قدير، وأن العطاء أحب إليه من المنع. ثم إنه لم يلجأ إلى غيره، لم يدعُ غير الله، لا مَلَكًا ولا نبيًّا ولا وليًّا ولا قريبًا ولا بعيدًا، وهذا هو حقيقة العبادة، وبذلك تعرف أنك إذا دعوت الله أُثِبْتَ على هذا الدعاء سواء استُجيب لك أم لا، لأنك تعبَّدت لله عَزَّوَجَلَّ وعبدت الله فإذا قلت: يا رب اغفر لي، يا رب ارحمني، يا رب ارزقني، يا رب اهدني؛ فهذه عبادة تُقربك إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويكتب الله لك بها ثوابًا عنده يوم القيامة(١).

(١٤٧٤) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسُول الله ﷺ يَسْتَحِبُّ الجوامِعَ مِن الدُّعاءِ، ويَدَعُ ما سِوَى ذلكَ(٢).

۞ لقد كان النبي يحب جوامع الدعاء.. يعني أنه كان إذا دعا فإنه كان يختار من الدعاء كلمات جامعة عامة ويدع التفاصيل .. وذلك لأن الدعاء العام يجمع لك الخير كله بكلماتٍ موجزة... فعلى سبيل المثال بدلًا من أن يقول أحدنا: اللهم تقبل قيامنا وركوعنا وسجودنا وخشوعنا.. يستطيع أن يقول: اللهم تقبل صلاتنا.... وبدلًا من أن يقول: اللهم إني أسألك طعام الجنة وشراب الجنة وحور الجنة وأشجار الجنة... يستطيع أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها.. وهكذا.

۞ وأُهدي إليكم مثالين من الأدعية الجامعة للنبي ﷺ:

قال ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي

(١) شرح رياض الصالحين (٦/٤).
(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٤٩).

أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِى خَيْرًا»(١).

وقال ﷺ: «اللهُمَّ أَصلِح لِى دِينِى الَّذِى هُوَ عِصمَةُ أَمْرِى، وَأَصلِح لِى دُنْيَاىَ الَّتِى فِيهَا مَعَاشِى، وَأَصلِح لِى آخِرَتِى الَّتِى فِيهَا مَعَادِى، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِى فِى كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِى مِنْ كُلِّ شَرٍّ»(٢).

(١٤٧٥) وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان أكثَرُ دُعاءِ النبىِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِنَا فى الدُّنْيا حَسَنَةً، وفى الآخرةِ حَسنَةً، وقِنَا عذابَ النَّارِ»(٣).

زاد مُسلمٌ فى روايته قال: وكانَ أنسٌ إذا أراد أنْ يدعُوَ بِدعوَةٍ دعَا بها، وإذا أرادَ أن يدَعُو بدُعاءٍ دَعا بهَا فيه.

۞ هذا دعاءٌ عظيم جمع بين خير الدنيا والآخرة؛ لأن حسنة الدنيا كل خير وكل سعادة، من زوجة صالحة ومركبٍ مريح ومسكنٍ جميل، وكل ما هو نافع فى هذه الحياة فهو من حسنة الدنيا... وكل ما يحصل فى الآخرة من نعيم وبهجة من الحساب اليسير وإعطاء الكتاب باليمين والمرور على الصراط بسهولة، كل ذلك من حسنة الآخرة... ثم بعد ذلك مَن يَحصُل على حسنة الآخرة يَسلَم من عذاب النار... فهذا دعاء جاء به القرآن، وكان رسول الله ﷺ أكثر ما كان يدعو به، وقد ورد أن أنسًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان إذا أراد أن يدعو بدعوة واحدة اقتصر على هذا الدعاء: «**اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» وإذا أراد أن يدعو بجملة من الأدعية يدعو بهذا الدعاء مع هذه الأدعية... أى: أنه كان لا

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٧٦).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٠) كتاب الذكر والدعاء.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٨٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٠) كتاب الذكر والدعاء.

يترك هذا الدعاء سواء دعا بدعوة واحدة أو دعا بدعواتٍ كثيرة... فقد كان ﷺ لا يُفرط فيه ولا يغفل عنه، وذلك لكونه يجمع خير الدنيا والآخرة..كذلك هذا الدعاء يُقال ما بين الركنين فى الطواف. ... فلقد كان النبى ﷺ يحرص على أن يختم به أشواط الطواف.. فيقول هذا الدعاء بين الركن اليمانى والحجر الأسود ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (٢٠١)﴾.

(١٤٧٦) وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ النبىَّ ﷺ كانَ يقولُ: «اللَّهُمَّ إنى أسْألُكَ الهُدَى، والتُّقَى، والعفَافَ، والغِنَى»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٧٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٤٧٧) وعن طارقِ بنِ أشْيَمَ رضي الله عنه، قال: كانَ الرَّجلُ إذا أسْلَمَ عَلَّمَهُ النَّبىُّ ﷺ الصَّلاةَ، ثُمَّ أمَرَهُ أنْ يَدعُو بهَؤلاءِ الكَلِماتِ: «اللَّهُمَّ اغفِر لى، وارحَمْنى، واهْدِنِى، وعافِنى، وارزُقنى»(٢).

وفى رواية لهُ عنْ طارقٍ أنَّهُ سَمِعَ النَّبِىَّ ﷺ وأتاهُ رَجُلٌ، فقالَ: يا رَسُولَ الله. كيفَ أقُولُ حينَ أسْألُ رَبِّى؟ قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِر لى، وارحَمْنِى، وعَافِنى، وارزُقْنِى، فإنَّ هؤلاءِ تَجْمَعُ لكَ دُنْيَاكَ وآخِرَتَكَ».

۞ ففى هذا الحديث يخبر طارق بن أشيم رضي الله عنه أن الرجل على عهد النبى ﷺ كان إذا أسلم علَّمه النبى ﷺ الصلاة.. وذلك لأن الصلاة أهم أركان الإسلام الخمسة بعد الشهادتين.. فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢١) كتاب الذكر والدعاء.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٧) كتاب الذكر والدعاء.

محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا.. فكان النبى ﷺ إذا أسلم الرجل يعلمه الصلاة ثم يأمره أن يدعو بتلك الكلمات التى تجمع له دنياه وآخرته... وهى خمس كلمات أو خمس دعوات: «**اللَّهُمَّ اغفِر لى**» أى: اغفر لى الذنوب.. ومع أن الكافر إذا أسلم فإن الله يغفر له ذنوبه كما قال تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ**﴾ [الأنفال: ٣٨] ومع ذلك يُعلمه النبى ﷺ أن يطلب المغفرة.. وذلك لأن الإنسان بعد إسلامه لا يخلو من الذنوب كما قال ﷺ: «**كل بنى آدم خطَّاء وخير الخطَّائين التوابون**»[1].

«**وارحَمْنى**» أى: أسبغ علىَّ رحمتك.. والرحمة تشمل الفوز بالمطلوب والنجاة من المكروب.

«**واهْدِنِى**» أى: دُلَّنى على طريق الخير والهداية ووفقنى إلى القيام به وثبتنى عليه.. فالهداية تشمل هداية الدلالة وهداية التوفيق.

«**وعافِنِى**» أى: عافنى من مرض القلب ومرض البدن.. وعافنى من كل بلاء.. ومرض القلب أخطر من مرض البدن.. فمرض البدن إذا صبر الإنسان واحتسبه عند الله فاز بالأجر وصار رفعة له فى درجاته وتكفيرًا لسيئاته.. أما مرض القلب ففيه فساد الدين والدنيا والآخرة.. وبخاصة إذا مرض القلب بالشك أو الشرك أو النفاق أو كراهة ما أنزل الله أو بُغض أولياء الله أو ما أشبه ذلك.. فقد خسر دُنياه وآخرته.

«**وارزُقنى**» أى: الرزق الذى يقوم به القلب من العلم النافع والعمل الصالح.. أو الرزق الذى يقوم به البدن من الطعام والشراب والمسكن واللباس..

هكذا كان النبى ﷺ يحرص على أن يُعلم كل مَن يسلم الصلاة ويُعلمه هذا

---

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥١٥).

الدعاء الذى يجمع له دُنياه وآخرته.

(١٤٧٨) وعنْ عبْدِ الله بنِ عمرو بن العاصِ رضي الله عنهما، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصرِّفَ القُلُوبِ صرِّف قُلوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»(١).

۞ وها هى رواية الحديث كاملة.. فعن ابن عمرو رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِى آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**».

فمعنى الحديث: أنه سبحانه وتعالى مُتَصرِّف فى قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء، ولا يفوته ما أراده، كما لا يمتنع على الإنسان ما كان بين إصبعيه، فخَاطَب العرب بما يَفهمونه ومثَّله بالمعانِى الحِسِّيَّة تأكيدًا له فى نفوسهم(٢).

ولهذا ينبغى للمسلم أن يسأل الله عز وجل دائمًا أن يثبت قلبه على الإيمان، وأن يُصرف قلبه على طاعته ... وذلك لأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله .. كما قال النبى ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِى الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِىَ القَلْبُ**»(٣).

ولذا كان أكثر دعاء النبى ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِىَ عَلَى دِينِكَ**»(٤).

۞ وقوله: «**صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**» قد يتبادر إلى الذهن أن الأولى أن يُقال «**إِلَى طَاعَتِكَ**» لكن قوله: «**عَلَى طَاعَتِكَ**» أبلغ، يعنى قلَّب القلب على

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢١٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب البيوع.

(٤) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٩٨٧).

الطاعة فلا يتقلَّب على معصية الله؛ لأن القلب إذا تقلب على الطاعة صار ينتقل من طاعة إلى أُخرى ... من صلاة إلى ذكر إلى صدقة إلى صيام إلى علم إلى غير ذلك من طاعة الله.

(١٤٧٩) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَهْدِ البَلاَءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ»[1].

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ سُفْيَانُ: أَشُكُّ أَنِّي زِدْتُ وَاحِدَةً مِنْهَا.

۞ فهذه أربعة أشياء أمرنا النبي ﷺ أن نتعوذ منها:

أولًا: جهد البلاء: هو البلاء الذي يسبب للإنسان المشقة والعُسر بحيث أن الإنسان يتعب منه ولا يتحمله ولا يصبر عليه ولا يقدر عليه.. وقد يكون البلاء في الخير وقد يكون في الشر.. كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

فقد يُبتلى الإنسان بالمال والثراء بحيث يكون عنده الكثير من المصانع والشركات والتجارات فلا يجد ساعة واحدة يرتاح فيها.. فهو يقضي يومه كله في السفر ما بين هذا المصنع وتلك الشركة وتلك المزرعة وذاك المتجر فتضيع حياته كلها في الخوف على أمواله والسعي وراء الحفاظ عليها..

وقد يكون البلاء في الشر بأن يبتليه الله ببلاءٍ شديد يُتعبه أو يُسلط عليه مَن لا يقدر عليه.

وقد يكون البلاء في جسده بأن يُبتلى بمرضٍ شديد يُتعبه.. وقد يكون البلاء معنوي بأن يتسلط عليه إنسان بلسانه فينشر معايبه ويُخفي محاسنه.. وما أشبه ذلك من البلاء الذي يشق على الإنسان.. فأمرنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله من

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦١٦) كتاب القدر، ومسلم (٢٧٠٧) كتاب الذكر والدعاء.

* جهد البلاء: المشقة والعسر. الدرك: الإدراك والإلحاق، شماتة الأعداء: الحزن بفرح عدوه.

جهد البلاء.

«ومن دَرَك الشقاء» أى: ومن أن يُدركك الشقاء..والشقاء ضد السعادة، والسعادة سببها العمل الصالح، والشقاء سببه العمل السيئ، فإذا استعذت بالله من درك الشقاء، فهذا يتضمن الدعاء بألا تعمل عمل الأشقياء.

«ومن سوء القضاء» سوء القضاء يحتمل معنيين: المعنى الأول أن أقضى قضاءً سيئًا..والمعنى الثانى أن الله يقضى على الإنسان قضاءً يسوءه.

و«شماتة الأعداء» أنَّ الأعداء يفرحون بما أصابك .. والعدو لا شك أنه يفرح فى كل ما أصاب الإنسان من بلاء، ويحزن من كل ما أصابه من خير، فأنت تستعيذ بالله عَزَّ وَجَلَّ من شماتة الأعداء.

فمن المعلوم أن الإنسان قد يُبتلى ببلاءٍ شديد ويصبر عليه ولكن إذا رأى شماتة الأعداء فيه.. فإنه يتعب من شماتة الأعداء أكثر من التعب الذى يجده من ذلك البلاء.

۞ ومن أجل ذلك أمرنا النبى ﷺ أن نستعيذ بالله من تلك الأشياء الأربعة.

(١٤٨٠) وعن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسُولُ الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ أصلِح لى دِينى الذى هُوَ عِصمَةُ أمْرِى، وأصلِح لى دُنْيایَ التى فيها مَعَاشى، وأصلِح لى آخِرَتِى التى فيها معادى، واجْعلِ الحياةَ زِيادةً لى فى كُلِّ خَيْرٍ، واجْعَلِ الموتَ راحَةً لى مِن كُلِّ شَرٍّ»(١).

۞ وهذا أيضًا من جوامع الدعاء.. فالنبى ﷺ أُوتى جوامع الكلم وجوامع الذكر وجوامع الدعاء..

فبدلًا من أن يقول المسلم: اللهم أصلح لى صلاتى وصيامى وخشوعى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٠) كتاب الذكر والدعاء.

وقراءتى للقرآن وكذا وكذا.. يقول: « **اللهُمَّ أصلِح لى دِينى الذى هُوَ عِصمَةُ أمْرِى**».

وبدلًا من أن يقول: اللهم أصلح لى بيتى وزوجتى وأبنائى وعملى وتجارتى وكذا وكذا.. يقول: «**وأصلِح لى دُنْيايَ التى فيها مَعَاشى**».

وبدلًا من أن يقول: اللهم بيِّض وجهى يوم العرض عليك ويسِّر حسابى ويسِّر مرورى على الصراط وكذا وكذا... يقول: «**وأصلِح لى آخِرَتِى التى فيها معادى** ..» هكذا يعلمنا النبى ﷺ أن ندعو بجوامع الدعاء.

۞ وفى هذا الحديث بدأ النبى ﷺ بالدين فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ أصلِح لى دِينى الذى هُوَ عِصمَةُ أمْرِى**» لأنه كلما صلح الدين اعتصم الإنسان به من كل شرٍّ وفتنة.. وصلاح الدين يكون بإخلاص النية لله عَزَّوَجَلَّ ومتابعة النبى ﷺ .. فمن وقع فى الشرك فدينه غير صالح .. ومَن عَبَدَ الله رياءً فدينه غير صالح ... فقد قال تعالى فى الحديث القدسى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك. مَن عمل عملًا أشرك فيه معى غيرى تركته وشِركَه**»[1].. وكذلك المبتدع دينه غير صالح .. فالذى يعصمك من الشر أن يصلح دينك.. وذلك بأن تكون مخلصًا لله ومُتبعًا لرسول الله ﷺ وألا تكون مبتدعًا وألا تكون مُرائيًا بعبادتك.. فهذا الذى يعصمك من الشر والفتن.

۞ «**وأصلِح لى دُنْيايَ التى فيها مَعَاشى**».. الدنيا ليست دار قرار ولكنها قنطرة سنعبر عليها جميعًا إلى الآخرة.. ولكن الدنيا مزرعة للآخرة.. فكل خيرٍ ستزرعه فى الدنيا ستحصده يوم القيامة.

ولكن هذه الدنيا أنت تعيش فيها الآن.. وتحتاج أن تكون فى راحة ... ولذا فأنت تدعو أن يُصلح الله لك دُنياك بأن يُيسر لك الرزق الحلال والزوجة الصالحة وأن يرزقك الذرية الطيبة وأن يجمع لك شملك فلا تنشغل بالدنيا عن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق.

الآخرة .. وأن يرزقك الصحبة الطيبة التى تُعينك على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.. وأن يحفظك من شياطين الإنس والجن.. وأن ينصرك على أعدائك.. وأن يستعملك فى طاعته وفى إعمار الأرض وفى الدعوة إليه.. هكذا يكون إصلاح دُنياك والذى يترتب عليه السعادة فى أُخراك.

۞ «وأصلح لى آخِرَتِى التى فيها معادى» فنحن مهما عشنا فى هذه الدنيا ستأتى اللحظة التى سنرحل فيها من هذه الدنيا إلى الآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

الأولون والآخرون كلهم سوف يجمعهم الله عَزَّوَجَلَّ فى صعيدٍ واحدٍ يوم القيامة يُسمعهم الداعى وينفذهم البصر ... قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾[هود: ١٠٣،١٠٤].

وصلاح الآخرة يكون بأن يجعل الله قبرك روضة من رياض الجنة وأن ييسر لك الحساب يوم القيامة أو يُدخلك الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب .. وأن يُثقل ميزانك يوم القيامة وأن تكون فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة وأن تشرب من حوض النبى ﷺ .. وأن يُيسر لك المرور على الصراط..

وأن ينجيك من النار ويُدخلك الجنة وأن يرزقك صحبة النبى ﷺ فى الجنة وأن يرزقك لذة النظر إلى وجهه تعالى فى الجنة.. فهذا هو إصلاح الآخرة.

۞ «واجْعلِ الحياةَ زِيادةً لى فى كُلِّ خَيْرٍ» وذلك بأن يوفقك الله عَزَّوَجَلَّ لأن تعيش كل لحظة فى طاعته..

وذلك بأن تزداد كل يومٍ عملًا صالحًا.. تصلى.. تُسبح.. تبر والديك .. تصل أرحامك.. تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. تفعل الخيرات.. تترك المنكرات.. تبذل المال للفقراء واليتامى والمساكين.. تبنى المساجد.. وهكذا

كلما طالت بك الحياة تزداد خيرًا.. كما قال ﷺ: «**خير الناس مَن طال عمره وحَسُن عمله..**»(١).

۞ «**واجْعَلِ الموتَ راحَةً لى مِن كُلِّ شَرٍّ**» فأنت لا تدرى ما الذى تُخبئه الأيام .. فقد تحدث فتنة عظيمة تتعب فيها وتقول: ليت أمى لم تلدنى.. يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نَسيًا مَنسيًّا... وقد تنتكس والعياذ بالله... فأنت تَكِل أمرك إلى الله وتقول له: يا رب إن كانت الحياة خيرًا لى فأبقنى فيها لأزداد طاعة لك.. وإن كانت الحياة ستُصبح شرًّا لى فاجعل الموت راحة لى من كل شر.. فأنت لا تختار لنفسك متى تحيا ومتى تموت وإنما تكل أمرك كله لله..ولذا كان النبى ﷺ يعلمنا أن الإنسان إذا خاف على نفسه أن يُفتن فى دينه فليقل: «**اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى**»(٢).

فعليك يا أخى المسلم بهذا الدعاء «**اللَّهُمَّ أصلِح لى دِينى الذى هُوَ عِصمَةُ أمْرِى، وأصلِح لى دُنْيایَ التى فيها مَعَاشى، وأصلِح لى آخِرَتِى التى فيها معادى، واجْعلِ الحياةَ زِيادةً لى فى كُلِّ خَيْرٍ، واجْعَلِ الموتَ راحَةً لى مِن كُلِّ شَرٍّ**».

(١٤٨١) وعن علىٍّ رضي الله عنه، قال: قال لى رسُولُ الله ﷺ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنى، وسَدِّدنى**».

وفى رِوايةٍ: «**اللَّهُمَّ إنِّى أسْأَلُكَ الهُدَى، والسَّدادَ**»(٣).

وفى رواية: «**قُلْ: اللَّهُمَّ! اهْدِنِى وَسَدِّدنِى. وَاذْكُر بِالْهُدَى، هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ، سَدَادَ السَّهْمِ**».

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٩٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٧١) كتاب المرضى، ومسلم (٢٦٨٠) كتاب الذكر والدعاء.

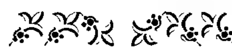
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٥) كتاب الذكر والدعاء.

۞ **قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِى»**: أى: دُلَّنى على طريق الخير والهداية ووفقنى إلى القيام به وثبتنى عليه.. فالهداية تشمل هداية الدلالة وهداية التوفيق.

وأما السداد: فهو تسديد الإنسان فى قوله وفعله وعقيدته وعبادته. بحيث يُوفَّق الإنسان إلى الصواب فلا يضل.. وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَعنَى سَدِّدنِى: وَفِّقْنِى وَاجْعَلْنِى مُنْتَصِبًا فِى جَمِيعِ أُمُورِى مُسْتَقِيمًا، وَأَصلُ السَّدَادِ الِاسْتِقَامَةُ وَالْقَصدُ فِى الْأُمُورِ... وَأَمَّا «**الْهُدَى**» هُنَا فَهُوَ: الرَّشَادُ... وَمَعنَى: «**اذْكُر بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقِ والسداد سداد السهم**» أى: تذكَّر ذلك فِى حَالِ دُعَائِكَ بِهَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ، لِأَنَّ هَادِىَ الطريق لايزيغ عَنْهُ، وَمُسَدِّدَ السَّهْمِ يَحرِصُ عَلَى تَقْوِيمِهِ، وَلَا يَستَقِيمُ رَمْيُهُ حَتَّى يُقَوِّمُهُ... وَكَذَا الدَّاعِى يَنْبَغِى أَنْ يَحرِصَ عَلَى تَسْدِيدِ عِلْمِهِ وَتَقْوِيمِهِ وَلُزُومِهِ السُّنَّةَ... وَقِيلَ: لِيَتَذَكَّرَ بِهَذَا لَفْظِ السَّدَادَ وَالْهُدَى لئلا ينساه(١).



(١٤٨٢) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ رسُولُ الله ﷺ يقولُ: «اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ، والجُبْنِ والهَرَمِ، والبُخْلِ، وأعُوذُ بكَ مِن عذابِ القَبْرِ، وأعُوذُ بكَ مِن فتنةِ المَحيا والمَماتِ» .

وفى رواية: «وضَلَعِ الدَّيْنِ، وغَلَبَةِ الرِّجَالِ»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يخبر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان يستعيذ بالله عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٦٧).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦٣٦٧) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٠٦) كتاب الذكر والدعاء.

من تلك الأشياء ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِن العَجْزِ والكَسَلِ**» أما العجز: فهو عدم القدرة عن الإتيان بما هو خير.. وقيل: هو ترك ما يجب فعله والتسويف به. وقد يكون العجز فى البدن.. وقد يكون العجز فى الرأى..

فأما العجز فى البدن.. فيكون ذلك بأن يَمرض الإنسان أو يُصاب فى حادث أو يفقد الذاكرة فيحتاج إلى مَن يُعينه ويساعده... فالعجز قد يَحُول بينه وبين العبادة أو قد يمنعه من فعل الخير .. قد لا يستطيع أن يصلى قائمًا كما كان يصلى.. وقد لا يستطيع أن يعمل لينفق على أسرته بسبب عجزه.. وقد يكون عنده عجز فى الرأى فلا يستطيع أن يتخذ قرارًا فى حياته فيحتاج إلى مَن يدبر له أمره أو يشير عليه.. ولا شك أنها حالة بئيسة.. ولذا كان النبى ﷺ يستعيذ بالله من العجز.

«والكَسَلِ» فإن الإنسان قد لا يكون عاجزًا لكنه كسول... فالكسل قد يمنعه من الخير الكثير ويُضيع عليه وقته وعمره.. فيأتى يوم القيامة بأعمالٍ ضئيلة بسبب كسله.

وتأمل معى كيف كان النبى ﷺ أنشط الناس جميعًا.. انظر ليومه ﷺ.. كان يفعل فيه كل شىء.. يراعى زوجاته التسع ويدعو الناس ويعلمهم دين الله عَزَّوَجَلَّ ويصلى بهم ويُذكرهم بالله ويخرج للجهاد.. ويصلى قيام الليل.. ويزور أصحابه ويعود مرضاهم ويحضر جنائزهم ويقضى حوائجهم.. ويستقبل زُوَّاره.. ويستقبل الذين يدخلون فى الإسلام ويعلمهم ويفعل كل شىء.. بل ويستمر على ذلك لآخر لحظه فى حياته ﷺ.

۞ «**وأعوذ بك من الجُبن والهرم والبخل**».. وذلك لأن الجُبن يؤدى إلى التقصير فى أداء الواجبات كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونُصرة المظلوم والجهاد فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.. وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا

لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

وأما بشجاعة النفس وقوتها المعتدلة فإنه تتم العبادات ويقوم بنصر المظلوم والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله.

وقد كان النبى ﷺ أشجع الناس.. حتى كان الصحابة يقولون: كُنا إذا احمرَّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ.. ولقد رأينا شجاعته ﷺ فى كل غزواته.. ولقد كان النبى ﷺ يحذر من البُخل والجُبن.. فقال ﷺ: «**شَرُّ ما فى رجُلٍ: شُحٌّ هالعٌ وجُبنٌ خالعٌ**»(١).

۞ **وأما الهرم**: أى الشيخوخة.... وليس المقصود بدايات الشيخوخة وإنما المقصود هو أن يُرَدُّ الإنسان إلى أرذل العُمر... لأن الإنسان إذا وصل لتلك المرحلة فإنه يصبح عاجزًا فى جسده وفى عقله وذاكرته ويصبح غير قادر على أن يأتى بالعبادة على الوجه الذى كان يفعله فى شبابه.. بل ويصبح محتاجًا لكل مَن حوله.. وقد يتضجر الناس من كثرة طلباته وانفعالاته فيشعر أنه أصبح حِملًا ثقيلًا على مَن حوله فيزداد حُزنًا وهمًّا على عجزه وعدم قدرته..

ومن أجل ذلك كان النبى ﷺ يستعيذ بالله أن يُرد إلى أرذل العمر.

«**وأعوذ بك من البُخل**» لأن البُخل يمنع الإنسان من أداء الواجبات .. فالبُخل هو الشُّح بالمال فلا يبذله بل يُمسكه حتى فى الأمور الواجبة... ومن أجل ذلك استعاذ النبى ﷺ من البخل ... لأن بالسلامة من البُخل يقوم الإنسان بحقوق المال وينبعث للإنفاق والجود.

ولقد كان النبى ﷺ أجود الناس وكان أجود من الريح المُرسَلة.. وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يأتيه جبريل فيُدارسه القرآن.

---

(١) صحيح: رواه البخارى فى التاريخ، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٠٩).

۞ «**وأعوذ بك من عذاب القبر**» وكان النبى ﷺ يستعيذ كثيرًا من عذاب القبر.. ويُعلم الأمة أن تستعيذ بالله من عذاب القبر حتى كان النبى ﷺ إذا كان أمام القبر بين أصحابه يقول لهم: «**أى إخوانى.. لمثل هذا اليوم فأعدوا**».

۞ «**وأعُوذُ بكَ مِن فتنةِ المَحيا والمَمَاتِ**» وأما فتنة المحيا: فهى ما يُفتتن به الإنسان فى حياته ... وتدور على شيئين: إما جهل وشُبهة وعدم معرفة بالحق فيشتبه عليه الحق بالباطل فيقع فى الباطل فيهلك.. وإما شهوة أى: هوى.. بحيث يعلم الإنسان الحق لكنه لا يريده وإنما يريد الباطل.

وأما فتنة **الممات فقيل**: إنها فتنة القبر وهى سؤال الملكين للإنسان فى قبره عن ربه ودينه ونبيه... وقيل: فتنة الممات هى ما يكون عند موت الإنسان، وذلك أن أشد ما يكون الشيطان حرصًا على إغواء بنى آدم عند موتهم. فيأتى للإنسان عند موته ويوسوس له ويشككه وربما يأمره بأن يكفر بالله عَزَّوَجَلَّ... فهذه الفتنة من أعظم الفتن.

۞ «**وأعوذ بك من ضلع الدَّين وغلبة الرجال**».

وذلك بأن يستدين بدَينٍ شديد لا يستطيع قضاءه.. ومن المعلوم أن أكثر الناس يستدينون .. بل إن النبى ﷺ نفسه كان يستدين لكنه كان لا يستدين لنفسه وإنما كان يستدين من أجل المحتاجين ... لأنه ﷺ كان لا يرد سائلًا ولا محتاجًا أبدًا.. وقد مات النبى ﷺ ودرعه مرهونة عند رجلٍ يهودى على ثلاثين صاعًا من الشعير كانت دَينًا عليه ﷺ.

فالدَّين هَمٌّ بالنهار وسهرٌ بالليل.. ومن أجل ذلك استعاذ النبى ﷺ من ضلع الدَّين.. أى الدَّين الشديد.

«**وغلبة الرجال**» أن يكون الإنسان مغلوبًا بين الناس.. إما بسبب دَينٍ عليه يطلبه منه الرجل صاحب الدَّين ولا يعذره بل يقسو عليه فى طلبه.. أو يكون

الإنسان مغلوبًا فى القتال.. أو أن يكون الإنسان مغلوبًا فى رأيه أمام الناس.

ومن أجل ذلك كان النبى ﷺ يستعيذ بالله من كل تلك الأشياء.

فاحرصوا على أن تستعيذوا بالله من تلك الأشياء التى استعاذ منها النبى ﷺ.

(١٤٨٣) **وعن أبى بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، أنه قال لرسولِ الله ﷺ: عَلِّمنى دُعاءً أدعُو به فى صلاتى، قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ظُلْمًا كثيرًا، ولا يَغفرُ الذُّنوبَ إلا أنْتَ، فاغْفِر لى مغفرةً مِن عندِكَ، وارحَمْنى، إنَّكَ أنْتَ الغَفور الرَّحِيم»**(١).

۞ ففى هذا الحديث أن أبا بكرٍ سأل النبى ﷺ أن يُعلمه دعاءً يدعو به فى صلاته... وتأمل معى: مَن السائل؟ إنه أبو بكر الصديق أحب الناس إلى قلب النبى ﷺ بعد عائشة رضي الله عنها.. ومَن المسئول؟ إنه رسول الله ﷺ أحب الناس إلى قلب أبى بكر رضي الله عنه... فلا بد أن يكون الجواب أعظم جواب.. لأنه هدية من المحب لحبيبه ثم لأمته المحبوبة (عليه الصلاة والسلام).

وما دام أن أبا بكرٍ طلب هذا الدعاء ليدعو به فى صلاته.. فمن المؤكد أنه سيدعو به إما فى سجوده أو بعد التشهُّد وقبل التسليم.

فقال له ﷺ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ظُلْمًا كثيرًا**» فهذا توسُّلٌ إلى الله عز وجل واعترافٌ له من العبد بالظلم فى التقصير فى الأوامر والوقوع فى بعض المناهى.

يعنى أن ذِكر الإنسان حاله إلى ربه عز وجل تتضمن الدعاء فهو وسيلة.

كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٢٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٠٥) كتاب الذكر والدعاء.

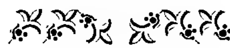
وفى رواية: «وفى بيتى» ورُوِىَ: «ظُلْمًا كثيرًا» ورِوىَ« كبيرًا» بالثاء المثلثة وبالباء الموحدة، فيَنْبَغِى أن يُجْمَعَ بينهما ، فيُقال: كثيرًا كبيرًا .

فتوسل إلى الله بحاله.

«**ولا يغفر الذنوب إلا أنت**» هذا ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ واعتراف بالعجز وأنه لا يغفر الذنوب إلا الله... كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ١٣٥]، لو اجتمع الناس كلهم على أن يغفروا لك ذنبًا واحدًا ما استطاعوا، وإنما الذى يغفر لك هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «**اغفر لى مغفرة من عندك**» أضافها إلى الله لأنها تكون أبلغ وأعظم، فإن عِظَم العطاء من عِظَم المُعطى ... «**وارحمنى**» أى: رحمة من عندك .. ووفقنى إلى كل خير.

«**إنك أنت الغفور الرحيم**» هذا تَوسُّل إلى الله عَزَّوَجَلَّ باسمين مناسبين للدعاء، لأنه قال: «اغفر لى وارحمنى» فالمناسب «إنك أنت الغفور الرحيم» فينبغى للإنسان أن يقول هذا الدعاء فى صلاته، إما فى سجوده أو بعد التشهد الأخير. والله الموفق.



(١٤٨٤) وعن أبى موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، **عن النبى** ﷺ **أَنَّهُ كانَ يَدعُو بهذا الدُّعَاء: «اللَّهُمَّ اغْفِر لى خَطِيئتى وجهْلى، وإسْرافِى فى أمْرِى، وما أنْتَ أعلَم بهِ مِنِّى، اللَّهُمَّ اغفِر لى جِدِّى وهَزْلى، وخَطَئى وعَمْدِى، وكُلُّ ذلكَ عِنْدِى، اللَّهُمَّ اغْفِر لى ما قدَّمْتُ وما أَخَّرتُ، وما أَسْرَرتُ وما أعلَنْتُ، وما أنْتَ أعلَمُ به مِنِّى، أنْتَ المقدِّمُ، وأنتَ المؤخِّرُ، وأنْتَ على كُلِّ شَىءٍ قديرٌ»**(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر أبو موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبى ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء.. وكان ﷺ لا يقصد به نفسه وإنما كان يُعلمه لأمته حتى يتعلم كل واحدٍ منا أن يدعو بهذا الدعاء العظيم.

---

(١) متفقٌ عليه: رواه البخارى (٦٣٩٨) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧١٩) كتاب الذكر والدعاء.

قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِر لى خَطِيئتى وجهْلى**» وهناك فرق بين الخطأ والخطيئة .. فالخطأ يكون عندما يخطئ الإنسان بدون أن يكون متعمدًا ..أما الخطيئة فيكون الإنسان فيها متعمدًا .. وهل أذنب النبى ﷺ سواء كان متعمدًا أو غير متعمدٍ؟! ... إنه المعصوم ﷺ الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومع ذلك يقول هذا الدعاء ليُعلمنا نعمة الذل والانكسار والتواضع بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ..... ومع كل هذا العلم الذى تعلمه النبى ﷺ حتى قال له الحق عَزَّوَجَلَّ ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**﴾ ومع ذلك يقول ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِر لى خَطِيئتى وجهْلى**» فماذا نقول نحن؟!.

وكلمة «جهل» أى: أنى قد وقعت فى هذا الذنب وصار منى ما صار بسبب جهلى.. وفيه إيحاء إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ**﴾ فكل مَن عصى الله فهو جاهل.... والنبى ﷺ يُعلم الأمة أن تدعو بهذا الدعاء .. وإلا فهو المعصوم ﷺ.

وقيل: إن الجهل ضد الحلم.. لا العلم... ولذلك كان النبى ﷺ يقول إذا خرج من بيته: «**اللهم إنى أعوذ بك أن أَجهل**» يعنى: أن أنتقم لنفسى، أو أثأر لنفسى.

«**أو يُجهَل علىَّ**» يعنى: أعوذ بك أن تُسلط علىَّ رجلًا غليظًا لا رحمة عنده ولا حلم... فالجهل هنا ضد الحلم وليس هو الذى يقابل العلم.

۞ «**اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى**».

هو لم يسرف (عليه الصلاة والسلام)، لكن هذا أدب الدعاء، وما دمت تدعو الإله سبحانه وتعالى فيُستحب لك أن تبين له أنك فى منتهى الذل بين يديه، وأن تعد الصغائر بين يديه كبائر، لا أن تقول: يا رب! أنا لم أفعل شيئًا.

«**وما أنْتَ أعلَم بهِ مِنِّى**» أى: من المخالفات والسيئات.. أى أن هناك الكثير مما لا أعلمه فاغفره لى.. وهذا من تواضع النبى ﷺ.

«**اللَّهُمَّ اغفِر لى جدِّى وهَزْلى**» أى: اغفر لى ما أفعله من المخالفات على

طريق الاجتهاد.. «وهزلى» أى: ما بَدَر منى فى مزاحى.. والنبى ﷺ كان لا يمزح إلا قليلًا.. وإذا مزح كان لا يقول إلا حقًّا.... ولكنه فى مقام المُعلم الذى يُعلم غيره.

«وخَطَئى وعَمْدِى» أى: اغفر لى ما كان منى على سبيل الخطأ وما تعمدته من شىء...

«وكُلُّ ذلكَ عِنْدِى» قال ذلك ﷺ تواضعًا وهضمًا لنفسه.

قال على بن أبى طالب رضي الله عنه: عَدَّ فوات الكمال وترك الأَولَى ذنوبًا.. وحاصله أن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

«اللَّهُمَّ اغْفِر لى ما قدَّمْتُ وما أخَّرتُ» يعنى: الذنوب التى أذنبتها مُقدمها ومُؤخرها، «وَمَا أَسرَرتُ وَمَا أَعْلَنتُ» وما أسررت منها وما أعلنته، ما كان علانية يطلع عليه الناس وما كان مستورًا لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى... وكذلك ما أسرفت، أى: ما تجاوزت فيه الحدود.

وقوله: «وما أنت أعلم به منى». أى: لأنك العالم بكل شىء، والإنسان لا يعلم كل شىء، وإن علم فإنه ينسى... والله سبحانه وتعالى هو الذى لا تَخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء سبحانه وتعالى.

وقوله: «أنت المُقدِّم وأنت المُؤخِّر». يعنى: المُقدَّم مَن قدَّمته والمُؤخَّر مَن أخَّرته... فالتأخير منك والتقديم منك... فمن قدمته فهو المُقدَّم، ومَن أخَّرته فهو المُؤخَّر.

وهذا التقديم والتأخير هو فى الفضل، وكذلك فى تحصيل الثواب، وفى الإتيان بالأعمال الصالحة.

«وأنْتَ على كُلِّ شَىءٍ قديرٌ» لا يُعجزك شىء يا أرحم الراحمين.. لأن القدرة صفة ذاتية لله عز وجل.

۞ وكل هذا الدعاء كان على سبيل التعليم والإرشاد من النبى ﷺ لأمته.. وإلا فالنبى ﷺ هو المعصوم وهو الذى غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

۞ وكل هذا الدعاء كان يُغنى عنه كلمة واحدة «**اللهم اغفر لى ذنبى كله**» لكن التفصيل فى مقام الدعاء أمرٌ مطلوب، لأنه يؤدى إلى أن يتذكر الإنسان كل ما عمل، مما أسرَّ وأعلن وما علم وما لم يعلم، ولأنه كلما تمادى فى سؤال الله عَزَّ وَجَلَّ ازداد تعلُّقًا بالله تعالى ومحبة له وخوفًا منه ورجاءً... فلذلك كان النبى ﷺ يُفصل فيما يسأل ربه عَزَّ وَجَلَّ من مغفرة الذنوب وغير ذلك.

وكذلك أيضًا استعاذ الرسول ﷺ من أمورٍ كثيرة... من شر الذنوب وآفاتها وعذاب القبر وغير ذلك مما سمعتم فى هذه الأحاديث.

وهذه الأحاديث ينبغى للإنسان أن يكتبها عنده من هذا الكتاب ويذكر الله تعالى بها ويدعو بها حتى ينتفع، وأما قراءتها هكذا هنا فهى حسنة ولا بأس بها... لكن فى علمى أو ظنِّى أنكم سوف تسمعونها الآن ثم تذهب عن قلوبكم، لكن خير من هذا أن تكتبوها من هذا الكتاب وتدعوا الله تعالى بها[1].

(١٤٨٥) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبيَّ كانَ يقُولُ فى دُعائِهِ: «اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بكَ مِن شرِّ ما عملْتُ ومِن شرِّ ما لم أعمَل»[2].

۞ ففى هذا الحديث تخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه: «**اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل**».

يعنى: يستعيذ الله تبارك وتعالى ويستغفره لما يمكن أن يكون بدر منه، ولما يمكن أن يقع منه فى المستقبل... وهذا محمولٌ منه (عليه الصلاة والسلام) على

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ١٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧١٦) كتاب الذكر والدعاء.

الهفوات والهنَّات.

أما الكبائر فإن الأنبياء جميعًا معصومون من الوقوع فيها، وما وقع من الكبائر على يد الأنبياء إنما ذلك كان قبل البعثة وقبل النبوة... كما وقع من موسى عليه السلام ، من أنه قتل رجلًا من بنى إسرائيل، وهذا القتل كان قبل مبعثه (عليه الصلاة والسلام).

أما الهفوات والصغائر فإن المحققين من أهل العلم، ومن أهل الأصول والحديث يقولون بجوازها على الأنبياء... ولذلك قوله هنا: «**اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت**» أى: من الصغائر والهفوات والهنَّات واللمم. أى: الشىء الصغير جدًّا الذى يلم بالفرد دون قصدٍ منه.

فالنبى (عليه الصلاة والسلام) يستعيذ بالله مما يمكن أن يكون وقع منه فى أيامه الأولى قبل البعثة أو بعد البعثة مما وقع فيه من هنَّات وزلَّات يسيرة جدًّا، أعقبها استغفارًا وتوبة وإنابة إلى الله عز وجل، أو أنه (عليه الصلاة والسلام) أراد أن يدعو بهذا الدعاء لعلمه اليقينى بأن الدعاء هو العبادة، فهو أراد أن يتقرب إلى ربه ومولاه وسيده بهذا الدعاء؛ لأن الدعاء عبادة، أو أراد (عليه الصلاة والسلام) بهذا الدعاء: التواضع، وأن يُعلم أمته كيف يدعون الله عز وجل.

وغير ذلك من التأويلات الكثيرة التى قالها أهل العلم فى شرح هذا الحديث[1].

(١٤٨٦) وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما قال: كانَ مِن دُعاءِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن زَوَالِ نِعمَتِكَ، وتَحوُّلِ عَافِيَتِكَ، وفُجاءةِ نِقْمَتِكَ، وجَميعِ سخَطِكَ**»[2].

ففى هذا الحديث يذكر ابن عمر رضي الله عنهما **أنه كان من دعاء الرسول** صلى الله عليه وسلم:

---

(١) شرح صحيح مسلم / للشيخ حسن أبو الأشبال.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٩) كتاب الذكر والدعاء.

«اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن زَوَالِ نِعمَتِكَ» وكأن النبى ﷺ يقول: يا رب أنا لا أستطيع أن أُحصى نعمك علىَّ فلقد أسبغت علىَّ نِعَمك ظاهرة وباطنة.. فأعوذ بك أن أفعل شيئًا يُغضبك فيحق علىَّ زوال نعمتك الدينية والدنيوية.. فارزقنى شكر نعمتك لتدوم نعمتك وأفوز بالمزيد ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾..

ولقد استعاذ النبى ﷺ من زوال النعمة.. لأن زوال النعمة من ورائها الفقر والحاجة وشماتة الأعداء... ولقد استعاذ النبى ﷺ من شماتة الأعداء وكون الإنسان يكون فى نعمة فيُسلبها، فيتحول مثلًا من الغِنى إلى الفقر.

والنعمة أعم من الغِنى؛ لأن نعم الله عَزَّوَجَلَّ لا تُحصى، فيدخل فيها الصحة والعافية ويدخل فيها المال، ويدخل فيها أنواع النعم.

كقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

۞ ولذا لما كان أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فى نعمة وعافية ومالٍ وأولادٍ فابتلاه الله عَزَّوَجَلَّ بموت الأولاد وضياع الأموال والأنعام والصحة والعافية وابتلاه بمرضٍ شديد.. فظل صابرًا ثمانية عشر عامًا وكان راضيًا بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ.. إلى أن سمع أحد أقاربه يقول للآخر: لقد أذنب أيوب ذنبًا فابتلاه الله هذا البلاء وحرمه من تلك النعم.. فحزن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعا ربه فشفاه الله وردَّ عليه النعم مُضاعفة ورزقه أولادًا أكثر من الذين ماتوا وصرف عنه شماتة الناس.

۞ قوله: «وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ».. أى: أعطيتنى العافية فى الدين والبدن والمال والنفس فلا تُبدل ما رزقتنى من العافية إلى البلاء ثم إلى الزوال...

وتحوُّل العافية يكون من الصحة إلى المرض ومن الغِنى إلى الفقر ومن الخير إلى الشر..

۞ وقوله: «وفُجاءةِ نِقْمَتِكَ» النقمة: العقوبة والعذاب .. والفُجاءة: أى

البغتة.. فكأنه ﷺ يقول: أعوذ بك أن يحل عذابك وتحل عقوبتك ونقمتك عليَّ فجأة... وحاشا لله أن يحدث ذلك للنبى ﷺ.. لكن النبى ﷺ يعلمنا نحن أن نستعيذ بالله من ذلك.

ولقد رأينا فى حياتنا أُناسًا كانوا فى نعمة عظيمة لكنهم استعملوا النعمة فيما يُغضب الله.. وكان الله حليمًا بهم.. فأمهلهم كثيرًا لعلهم يرجعون فلم يرجعوا فنزلت بهم النقمة والعقوبة فتحولت حياتهم من حالٍ إلى حال.. وهكذا يكون الإنسان آمنًا فيحصل له الانتقام فجأة.. كما قال النبى ﷺ: «**إن الله ليُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته**.. ثم تلا النبى ﷺ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾»(١).

ولذلك كان من علامات الساعة الصغرى: موت الفجأة.. وهو يكون للمؤمن نعمة حيث يموت على الإيمان والتوحيد دون سابقة ألمٍ أو عذاب.. لكنه يكون للكافر والعاصى نقمة.

ولذا قال ﷺ: «**موت الفجأة أخذةُ أَسَفٍ**»(٢).. ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم يفرحون بالمرض قبل الموت.. لأنه إنذار للعبد ليتهيأ.

۞ قوله ﷺ: «**وجَميعِ سخَطِكَ**» أى: أعوذ بك من كل أسباب سخطك وغضبك... وكأنه إجمالٌ بعد التفصيل.

***

(١٤٨٧) وعن زَيْدِ بنِ أرقَم رضي الله عنه، قال: كانَ رسُولُ الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن العَجْزِ والكَسَلِ، والبُخْلِ والهَرَم، وعذاب القَبْر، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْواهَا، وزَكِّهَا أنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاها، أنْتَ وَلِيُّها ومَوْلاها، اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٦) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة.
(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٣١).

لا يَنْفَعُ، ومِن قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، ومِن نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، ومِن دَعوَةٍ لا يُسْتجابُ لها»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

۞ ولكن هناك زيادة فى ألفاظ هذا الحديث كقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا**» أى: ارزقنى التقوى وذلك بأن أفعل كل ما تأمرنى به وأنتهى عن كل ما تنهانى عنه حتى أجعل بينى وبين سخطك وعذابك وقاية تقينى من غضبك وعقابك.

« **وزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاها**» أى: كما رزقتنى نعمة التقوى فطهِّر نفسى وزكِّها من كلِّ الشبهات والشهوات واجعل نفسى مُنقادة إلى طاعتك ومَرضاتك واجعلها نفسًا مطمئنة.

«**أنْتَ وَلِيُّها ومَوْلاها**» فلا يملك أحد أن يُزكى أنفسنا غيرك .. فقلوبنا بين إصبعين من أصابعك ونواصينا بيديك .. وأنت الذي تهدى قلوبنا وأنفسنا إلى طريق طاعتك ومرضاتك.

« **اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ**» فالعلم الذى لا ينفع يكون حُجَّة علينا وأما العلم النافع فهو الذى يقود صاحبه إلى العمل به والدعوة إليه واستحضار الإخلاص والنية الصالحة فى كل كلمة وكل عملٍ وكل دعوة نقوم بها لنُصرة دينك.

« **ومِن قَلْبٍ لا يَخْشَعُ**» وما فائدة القلب إذا لم يكن خاشعًا.. فخشوع القلب يُثمر خشوع الجوارح.. فإذا خشعت الجوارح فإنها سوف تنقاد إلى طاعة الله وتبتعد عن معصيته عَزَّوَجَلَّ ... كما قال النبى ﷺ: «**أَلاَ وَإنَّ فِى الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِىَ القَلْبِ**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب البيوع.

« **ومِن نَفْسٍ لا تَشْبَعُ**» والنفس إذا لم تشبع ولم تَقنع فإنها ستلهث وراء الشهوات وسيكون شعارها دومًا وأبدًا: هل من مزيد ... أما النفس التى تشبع فيكفيها القليل حتى لا تشغل صاحبها باللهث وراء حُطام الدنيا والانشغال بها.. فيتفرغ القلب وتتفرغ الجوارح لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ .. ولذا قال النبى ﷺ: «**مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِى قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِىَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ**»[١].

«**ومِن دَعوَةٍ لا يُسْتجابُ لها**» وأى مصيبة أعظم من أن يدعو الإنسان ويدعو ولا يستجيب الله دعوته ... فإن عدم استجابة الدعاء يُضعف الرجاء فى قلب الإنسان .. أما إذا كان الدعاء مُستجابًا فإن شجرة الرجاء تنمو وتترعرع فى قلب المؤمن ويُحسن الظن بالله فيَسعد فى الدنيا والآخرة.. فلقد قال تعالى: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عبدى بى، إنَّ ظنَّ بِى خيرًا فلهُ، وإن ظنَّ بِى شرًّا فَلَهُ**»[٢].

وكما قلنا من قبل فإن النبى ﷺ يعلم الأمة أن تدعو بتلك الأدعية لتفوز فى الدنيا والآخرة .. وإلا فالنَّبى ﷺ هو صاحب أنقى قلب فى العالم وأزكى نفس وأخشع قلب وأزهد نفس ودعوته مستجابة .. لكنه يُعلم أمته الخير الذى يعود عليهم بالنفع فى دينهم ودُنياهم وآخرتهم.

❊ ❊ ❊

(١٤٨٨) وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسُولَ الله ﷺ كان يقُولُ: « اللَّهُمَّ لكَ أسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وعلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإليْكَ أنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، وإليْكَ حَاكَمْتُ. فاغفِر لى ما قَدَّمْتُ وما أخَّرتُ، وما أسْرَرتُ وما أعلَنْتُ، أنْتَ المُقَدِّمُ وأنْتَ المؤخِّرُ، لا إله إلا أنتَ» .

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١٥).

زاد بعضُ الرواة: «ولا حَوْل ولا قُوَّةَ إلا بالله»[(١)].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٧٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٤٨٩) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَدعُو بهؤلاءِ الكَلِماتِ: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ النَّارِ، وعَذَابِ النَّارِ، ومِن شرِّ الغِنَى والفَقْرِ»[(٢)].

۞ ففى هذا الحديث تخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ النَّارِ» أى: من الشهوات التى يُفتن بها العبد فتكون سببًا لدخول النار.. كما قال ﷺ: «حُفَّت النار بالشهوات».. أو يكون المعنى: أعوذ بك من فتنة النار.. أى: من توبيخ خزنتها...كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨-٩].

«وعَذَابِ النَّارِ» أى: عذاب الإحراق بالنار.

«ومِن شرِّ الغِنَى» فالغِنى فيه خيرٌ وفيه شر.. أما الشر الذى فى الغِنى فهو ما يترتب عليه من الكبر والعُجب والشَّره والحرص والجمع للمال من الحرام والبُخل بأداء حق الله الواجب المُرتب عليه.

«والفَقْر».. والفقر أيضًا فيه خيرٌ وفيه شر.. أما الشر الذى فى الفقر فهو التضجُّر والتبرُّم والاعتراض على قضاء الله والوقوع فى المساخط، وحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء:٣٥]، فإن البلوى تكون

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣١٧) كتاب الدعوات، ومسلم (٧٦٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود - وأصل الحديث فى البخارى (٦٣٦٨) كتاب الدعوات - ومسلم (٥٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

بالخير وتكون بالشر... والإنسان إذا أُعطى المال ولم يشكر الله عَزَّوَجَلَّ على هذه النعمة، وحصل له الطغيان والإفساد بالمال، وصرفه فى الأمور التى لا تجوز؛ يكون الغِنى وبالًا عليه...والله تعالى يقول: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦ - ٧] فيحصل بسبب الغِنى الطغيان من بعض الناس.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[الشورى:٢٧].

ومن الناس مَن يستعمل المال فى طاعة الله، ومن الناس مَن يستعمله فيما يعود عليه بالخير كما كان حال الصحابة (رضى الله عنهم وأرضاهم)، مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما من أثرياء الصحابة الذين كانوا يصرفون أموالهم فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فانتفعوا بذلك دنيا وأخرى، ونفعوا غيرهم، ويعود ثواب ذلك عليهم حيث ينفقون أموالهم فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ .... والفقر وهو قلة ذات اليد فتنة، فقد يجعل الإنسان يُقدِم على سرقة أو يُقدم على تسخُّط أو تألُّم وعدم صبر وما إلى ذلك من الأمور التى تترتب على الفقر الذى لا يكون معه صبر.

لكن إن صبر الفقير ورضى بقضاء الله ولم يعترض فإنه يسبق الأغنياء يوم القيامة بأن يدخل الجنة قبلهم بخمسمائة عام.

(١٤٩٠) وعن زِياد بن عِلاقَةَ عن عمِّه، وهو قُطْبَةُ بنُ مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: كان النَّبِيُّ ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن مُنْكَراتِ الأخلاقِ، والأعمَالِ والأهْواءِ»(١).

۞ وفى هذا الحديث يخبر قطبة بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبى ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات:

«اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن مُنْكَراتِ الأخلاقِ» المنكرات كثيرة لكنها تجتمع

(١) صحيح: رواه الترمذى، والطبرانى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٩٨).

كلها في ثلاثة أشياء: إما أن تكون المنكرات في أخلاق الإنسان أو في أعماله وتصرفاته أو في قلبه.. فتلك هي أصول المنكرات.

أما منكرات الأخلاق: فهي الأعمال الباطنة مثل أن يكون سيء الخلق أو يكون متكبرًا أو عنده سوء معاملة مع الخَلق.

ولقد كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلقًا .. فكان خُلقه القرآن حتى زكَّاه الله عَزَّوَجَلَّ فقال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾.. لكن النبي ﷺ يُعلمنا نحن أن نستعيذ بالله من منكرات الأخلاق.

وأما منكرات الأعمال: فهي المعاصي التي يفعلها العبد من الأعمال الظاهرة والأعمال الرديئة.

وأما منكرات الأهواء: مثل أن يهوى القلب شيئًا في أمر الاعتقاد أو أن يهوى شيئًا مخالفًا لمراد الله عَزَّوَجَلَّ.... فمن الناس مَن يكون هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ.. ومنهم مَن يكون هواه تبعًا لنفسه وما تهواه.

❊❊❊

(١٤٩١) وعن شَكَلِ بنِ حُمَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ يا رسُولَ الله، عَلِّمْني دُعاءً، قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِي أعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ سَمْعِي، ومِن شَرِّ بَصَري، ومِن شَرِّ لِسَاني، ومِن شرِّ قَلبي، ومِن شَرِّ مَنِيِّي»[1].

۞ وفي هذا الحديث أن شَكَلِ بنِ حُمَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلب من النبي ﷺ أن يُعلمه دعاءً يدعو به.. ومن المعلوم أن كل إنسانٍ يعلم كيف يدعو.. لكنه يريد أن يُعلمه النبي ﷺ أفضل دعاءٍ يدعو به..

فقال له النبي ﷺ: «قُل: اللَّهُمَّ إِنِي أعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ سَمْعِي» أي: ألجأ إليك وأستعيذ بك أن أسمع شيئًا يُغضبك من الغناء المحرم أو الغيبة أو النميمة أو

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٩٢) (٤٣٩٩).

الكذب أو غير ذلك «ومِن شَرِّ بَصَرى» أى: أعوذ بك أن أنظر إلى ما حرمته علىَّ.

«ومِن شَرِّ لِسَانى» أى: أعوذ بك أن أتكلم بكلامٍ لا يُرضيك من الكذب والغيبة والنميمة والقذف والبهتان.. أو أن أقول كلمة الكفر أو أن أستعمل لسانى فى السَّبِّ والشتم والفسوق والعصيان ... وقد جاء فى حق اللسان أحاديث كثيرة تُحذر من خطر اللسان ومنها: «مَن يضمن لى ما بين لَحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»(١).

وقوله ﷺ: «إِذا أصبحَ ابنُ آدمَ فإِنَّ الأعضاءَ كُلَّها تُكفِّرُ اللِّسانَ(٢) فتَقُولُ: اتَّقِ الله فِينا، فإِنَّما نَحنُ بِكَ، فإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وإِنِ اعوَجَجْتَ اعوججنا»(٣).

ومنها حديث معاذ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِملاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا -وأشار إلى لسان نفسه- فَقَالَ: وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ! فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»(٤).

۞ «ومِن شرِّ قَلبى» بأن يكون فى القلب معتقدات كُفرية أو الظن السيئ أو ما يكون فيه من الحقد والحسد والنفاق والرياء.

كأنه يقول: أعوذ بك أن يكون فى قلبى أى شىءٍ من ذلك.

«ومن شر مَنيى» يعنى: كونه يضعه فى موضع لا يحل له أن يضعه فيه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧]، فإذا وضع مَنيَّهُ فى غير هذين الموضعين -وهما الأزواج ومِلك

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

(٢) تُكفِّر: أى تذل وتخضع له.

(٣) حسن: رواه الترمذى، وابن خزيمة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٦).

اليمين- فإنه من العدوان والاعتداء، وصاحبه مَلوم... وفى الحديث الذى أشرت إليه: «مَن يضمن لى ما بين لَحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة» يعنى: يحفظ فَرجه ولسانه.

❊ ❊ ❊

(١٤٩٢) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبىَّ ﷺ كانَ يقولُ: «اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن البَرَصِ، والجُنُونِ، والجُذامِ، وسَيِّئِ الأسْقامِ»[1].

❁ وفى هذا الحديث يخبر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن البَرَصِ**» والبَرَص مرضٌ ليس فيه أى ألم جسدى.. لكن صاحبه يعانى من الألم النفسى حيث أن جلده يكون منظره مُشوهًا.. وبعض الناس قد ينظرون إليه نظرة فيُسببون له ألمًا نفسيًا.. ولذا استعاذ النبى ﷺ من البرص.

«**والجُنُونِ**»: والجنون هو زوال العقل.. ولذلك فالمجنون غير مكلف.. لكن الذى يُصاب بالجنون يتأذى من تعامُل الناس معه وإيذائهم له.

«**والجُذامِ**»: هو مرض يصيب الإنسان فى أطرافه أحيانًا والعياذ بالله.. إذا بدأ بالطرف يتآكل حتى يقضى على البدن كله.. ولهذا قال العلماء إنه لا يجوز أن يخالط الجُذماء الناس وإنه يجب على ولى الأمر أن يجعلهم فى مكانٍ خاص، وهو ما يُعرف الآن عند الناس بالحَجْر الصحى لأن هذا المرض والعياذ بالله «الجذام» من أشد الأمراض عدوى، يسرى سير الهواء...نسأل الله العافية.

«**وسَيِّئِ الأسْقامِ**» وهذا يشمل كل الأمراض المستعصية التى تسوء العبد كالعمى والشلل والسرطان والإيدز وسائر الأمراض الشديدة.. عافانا الله وإياكم وسائر المسلمين من الأمراض كلها وألبسكم جميعًا ثوب العافية.

❊ ❊ ❊

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٨١).

(١٤٩٣) وعن أبى هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كانَ رسُولُ الله ﷺ يقولُ: «اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن الجُوعِ، فإنَّهُ بِئسَ الضَّجِيعُ، وأعُوذُ بكَ مِن الخِيانةِ، فإنَّها بئسَتِ البِطانةُ»[1].

۞ ففى هذا الحديث يذكر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن الجُوعِ، فإنَّهُ بِئسَ الضَّجِيعُ**» فالنبى ﷺ يستعيذ بالله من الجوع.. ويُعلمنا أن نستعيذ بالله من الجوع.. لأن الجوع يُشوش على ذهن الإنسان وفكره.. وإن لم يكن الإنسان الجائع عنده وازعٌ دينى فقد يسرق من أجل أن يأكل.. ولقد كان أبو هريرة – راوى الحديث- يجوع حتى يقع على الأرض من شدة الجوع حتى يظن مَن يراه أنه مصروع.. وكان النبى ﷺ يربط على بطنه حجرًا من شدة الجوع أحيانًا...

وهنا يَصِفُ النبى ﷺ الجوع بأنه بئس الضجيع.. والضجيع هو الذى يُلازم الإنسان فيكون معه يُلازمه إذا اضطجع.

۞ «**وأعُوذُ بكَ مِن الخِيانةِ، فإنَّها بئسَتِ البِطانةُ**» والخيانة: ضد الأمانة.. وقد تكون الخيانة فى تضييع حقوق الله عَزَّ وَجَلَّ: كالصلاة والصيام والصدقة والزكاة والحج وغُسل الجنابة.. وقد تكون الخيانة فى الكذب على رسول الله ﷺ ووضع أحاديث لم يَقُلها النبى ﷺ.. وقد تكون فى حقوق الناس: كخيانتهم فى أموالهم أو أعراضهم أو إفشاء أسرارهم أو غشهم فى البيع والشراء والمعاملة أو خيانة العهود وتضييع الأمانات أو خيانة الصديق عند عدوه.

والبطانة فى الأصل هى اللباس الداخلى، أو بطانة الشىء ما يكون من الداخل؛ لأن الثوب له بطانة وظهارة، فالبطانة ما تكون من الداخل.

ومعنى هذا أنها بئس الصفة للإنسان أن يتصف بها، وينطوى عليها...

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٨٣).

وبطانة الشخص هم خاصته الذين يلازمونه، ويحصل منهم له إما الدلالة على الخير أو الدلالة على الشر.

(١٤٩٤) وعن عليٍّ رضي الله عنه أَنَّ مُكَاتَبًا جاءهُ، فقالَ: إنِّي عجزتُ عن كتابتي. فأعِنِّي. قال: ألا أُعلِّمُكَ كَلِماتٍ عَلَّمَنيهنَّ رسُولُ الله ﷺ لو كان عَلَيْكَ مِثْلُ جبلٍ دَيْنًا أدَّاهُ الله عنْكَ؟ قُلْ: «اللَّهُمَّ اكْفِني بِحلالِكَ عن حَرامِكَ، وأغْنِني بِفَضْلِكَ عمَّنْ سِوَاكَ»[1].

۞ ففي هذا الحديث أن رجلًا مُكاتَبًا جاء إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه والمُكاتَب: هو الذي كاتب سيده على أن يدفع له مبلغًا مُعينًا مقابل أن يصبح حُرًّا بعد ذلك ..... فلم يستطع أن يجمع المال فذهب إلى عليٍّ ليُعينه على ذلك فقال له عليٌّ رضي الله عنه.

«ألا أُعلِّمُكَ كَلِماتٍ» قَالَ الطِّيبِيُّ: طَلَبَ الْمُكَاتَبُ الْمَالَ فَعَلَّمَهُ الدُّعَاءَ، إِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمَالِ لِيُعِينَهُ، فَرَدَّهُ أَحسَنَ رَدٍّ عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ أَوْ أَرْشَدَهُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْأَوْلَى وَالْأَصلَحَ لَهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ لِأَدَائِهَا، وَلَا يَتَّكِلَ عَلَى الْغَيْرِ ... وَيَنْصُرُ هَذَا الْوَجْهَ قَوْلُهُ: «وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ»[2].

۞ المهم أنه قال للرجل: ألا أُعلِّمُكَ كَلِماتٍ عَلَّمَنيهنَّ رسُولُ الله ﷺ لو كان عَلَيْكَ مِثْلُ جبلٍ دَيْنًا أدَّاهُ الله عنْكَ؟

أي: ما رأيك أن أعلمك تلك الكلمات؟

وكأن الرجل قال له: بلى.. علِّمني ما علَّمك رسول الله ﷺ.

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٢٥).

(٢) تحفة الأحوذي (٩/ ٧٥).

فقال له عليٌّ رضي الله عنه: قُلْ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِى بِحلالِكَ عن حَرامِكَ، وأغْنِنى بِفَضْلِكَ عمَّنْ سِوَاكَ**».

«**اللَّهُمَّ اكْفِنى بِحلالِكَ عن حَرامِكَ**» أى: ارزقنى الحلال الذى يكفينى ويُغنينى عن الحرام.

«**وأغْنِنى بِفَضْلِكَ عمَّنْ سِوَاكَ**» أى: تفضَّل علىَّ بالرزق الحلال حتى أستغنى عمَّن سواك.

هكذا كان النبى ﷺ يُعلم أصحابه أن يأخذوا بالأسباب وأن يتوكلوا على الخالق (سبحانه وتعالى) ولا يتوكلوا على المخلوق.

(١٤٩٥) وعن عِمرانَ بنِ الحُصين رضي الله عنهما أن النبىَّ ﷺ علَّم أباهُ حُصينًا كَلِمَتَيْنِ يَدعُو بهما: «اللَّهُمَّ ألهِمْنِى رُشْدِى، وأعِذنِى مِن شَرِّ نفسى»(١).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١٤٩٦) وعن أبى الفَضْلِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِب رضي الله عنه، قال: قُلْتُ يا رسول الله، عَلِّمنى شَيئًا أسْألُهُ الله تعالى، قال: «سَلُوا الله العافِيَة» فمكَثْتُ أيَّامًا، ثُمَّ جِئتُ فقُلْتُ: يا رسول الله، علِّمْنِى شَيئًا أسألُهُ الله تعالى، قال لى: «يا عبَّاسُ يا عمَّ رسُولِ الله، سَلُوا الله العافية فى الدُّنيا والآخرة»(٢).

۞ كان العباس رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ أسن من النبى ﷺ، بسنتين أو ثلاث، ولم يزل مُعظَّمًا فى الجاهلية والإسلام، وكان إليه أمر السقاية فى الجاهلية، وأقره رسول الله ﷺ على ذلك، وحضر ليلة العقبة مع النبى ﷺ، وأكد له العقد مع الأنصار، وخرج إلى بدرٍ مع المشركين مُرائيًا لهم، وأُسر ففادى نفسه، وابنى

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٠٩٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٣٨).

أخويه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث، وأسلم عقب ذلك، وعذره ﷺ فى الإقامة بمكة من أجل سقايته، ولقى النبى ﷺ فى سفر الفتح مهاجرًا ببنيه، فرجع معه وكان سبب تسكين الشر وحقن الدماء، ثم خرج إلى حُنين وثبت مع النبى ﷺ حين انهزم الناس عنه، وكان ﷺ يُعظمه ويُبجله، ومناقبة كثيرة[1].

المهم أن العباس رضي الله عنه ذهب إلى النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله علمنى شيئًا أسأله الله تعالى .. أى: أطلبه من الله. فقال له ﷺ: «**سلوا الله العافية**» ..

وفى أمره ﷺ للعباس بِالدُّعَاءِ بِالْعَافِيَةِ بَعدَ تَكْرِيرِ الْعَبَّاسِ سُؤَالَهُ بِأَنْ يُعَلِّمَهُ شَيْئًا يَسْأَلُ اللهَ بِهِ دَلِيلٌ جَلِيٌّ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ بِالْعَافِيَةِ لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَدعِيَةِ، وَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ شَيْءٌ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِى يُدعَى بِهِ ذُو الْجَلَالِ.

وَقَد كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُنْزِلُ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ مَنْزِلَةَ أَبِيهِ، وَيَرَى لَهُ مِنَ الْحَقِّ مَا يَرَى الْوَلَدُ لِوَالِدِهِ... فَفِى تَخْصِيصِهِ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَقَصرِهِ عَلَى مُجَرَّدِ الدُّعَاءِ بِالْعَافِيَةِ؛ تَحرِيكٌ لِهِمَمِ الرَّاغِبِينَ عَلَى مُلَازَمَتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلُوهُ مِنْ أَعظَمِ مَا يَتَوَسَّلُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَسْتَدفِعُونَ بِهِ فِى كُلِّ مَا يُهِمُّهُمْ[2].

فمكث العباس أيامًا ثم جاء إلى النبى ﷺ وقال له: **يا رسول الله علمنى شيئًا أسأله الله تعالى.**

فقال له ﷺ: «**يا عبَّاسُ يا عمَّ رسُولِ الله، سَلُوا الله العافية فى الدُّنيا والآخرة**»..

فالعافية فى الدنيا: هى السلامة من البلاء والمحن والآلام والأسقام والسلامة من كل شرٍّ ... والسلامة من شر الأبدان والقلوب والأهواء.

والعافية فى الآخرة: هى العفو عن الذنوب والآثام والنجاة من النار والفوز بالنعيم فى الجنة.

فكان هذا الدعاء عُدة لدفع كل ضُرٍّ وجلب كل خيرٍ.

---

(١) دليل الفالحين (٤/ ٢٤١-٢٤٢).

(٢) تحفة الأحوذى (٩/ ٣٣-٣٤).

(١٤٩٧) وعن شَهْرِ بن حوشَب قال: قُلْتُ لأُمِّ سَلَمَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يا أُمَّ المؤمنين ما كانَ أكْثَرُ دُعَاءِ رسُولِ الله ﷺ إذا كانَ عِندكِ؟ قالتْ: كان أكْثَرُ دُعائِهِ: «يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ»(١).

۞ ففي هذا الحديث أن شهر بن حوشب سأل أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقال لها: يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟

فقالت: كان أكثر دعائه: «يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ».

فالقلوب تتقلب .. وسُمي القلب قلبًا لشدة تقلُّبه..

فالنبي ﷺ هو صاحب أطهر قلب وأتقى قلب كان يسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يثبت قلبه على دينه.. على إيمانه.. على تقواه.. على خشيته.

.. وفي رواية أخرى أنه ﷺ كان يدعو بدعاءٍ آخر مُقارب لهذا الدعاء وهو «اللهم يا مُصرِّفَ القلوب صَرِّف قلوبنا على طاعتك»، فإذا جمعتَ بينهما وقلت: «اللهم يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك، اللهم يا مصرف القلوب صرِّف قلبي على طاعتك» كان هذا خيرًا.

❀❀❀

(١٤٩٨) وعن أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «كانَ مِن دُعاءِ داودَ ﷺ: اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ حُبَّكَ، وحُبَّ مَن يُحِبُّكَ، والعملَ الذي يُبَلِّغُني حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعل حُبَّكَ أحَبَّ إليَّ مِن نَفْسِي، وأهلي، ومِن الماءِ البارد»(٢).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبي ﷺ.

❀❀❀

(١) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٠١).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي، والحاكم، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤١٥٣).

(١٤٩٩) وعن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «أَلِظُّوا بِياذا الجَلالِ والإكرامِ»(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أَلِظُّوا بِياذا الجَلالِ والإكرامِ» أي: الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها... أي: إذا دعوت دعوة وسألت الله عَزَّوَجَلَّ أي شيء فأكثر في هذا الدعاء من يا ذا الجلال والإكرام.

ولذلك ورد هذا الاسم من ضمن اسم الله الأعظم الذي ذكره النبي ﷺ... ففي الحديث أنه سمع النبي ﷺ رجلًا يقول في التشهد: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار».

فقال ﷺ لأصحابه: «تدرون بما دعا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «والذي نفسي بيده، لقد دعا الله باسمه العظيم -وفي رواية: الأعظم- الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى»(٢).

(١٥٠٠) وعن أبي أُمامةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: دعا رسُولُ الله ﷺ بدُعَاءٍ كثيرٍ، لم نَحفَظْ منه شيئًا، قُلنا: يا رسول الله دعوتَ بدُعاءٍ كثيرٍ لم نَحفظ منه شيئًا، فقال: «ألا أدُلُّكُم على ما يَجْمَعُ ذلكَ كُلَّهُ؟ تقُولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُك مِن خَير ما سألَكَ منهُ نبيُّكَ محمَّدٌ ﷺ، وأعُوذُ بكَ مِن شرِّ ما اسْتعاذَ منهُ نبيُّكَ مُحمَّدٌ ﷺ، وأنْتَ المُسْتعانُ، وعليكَ البلاغُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ»(٣).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٥٠).
«أَلِظُّوا»: الزَمُوا هذه الدَّعوةِ وأكْثروا منها.

(٢) حسن صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٦٤١): حسن صحيح.

(٣) ضعيف: رواه الترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢١٦٥).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١٥٠١) وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: كانَ مِن دُعاءِ رسُولِ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّى أسْألُكَ مُوجباتِ رحمَتِكَ، وعزَائمَ مغفِرَتِكَ، والسَّلامَةَ مِن كُلِّ إثمٍ، والغَنِيمَةَ مِن كُلِّ بِرٍ، والفَوْزَ بالجنَّةِ، والنَّجاةَ مِن النَّارِ»[1].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١) ضعيف: رواه الحاكم، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١١٨٤).

(٢٥١) باب فضل الدعاء بظهر الغيب

۞ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى إخبارًا عن إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

(١٥٠٢) وعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه أنَّـهُ سمع رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «ما مِن عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدعُو لأخِيهِ بِظَهْرِ الغَيبِ إلا قال المَلَكُ: ولَكَ بِمِثْلٍ»(١).

(١٥٠٣) وعنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ كانَ يقُولُ: «دَعوَةُ المرءِ المُسْلِم لأخيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجابةٌ، عِند رأْسِهِ مَلَكٌ مُوكَّلٌ كلَّمَا دعا لأخِيهِ بخيرٍ قال المَلَكُ المُوكَّلُ بهِ: آمينَ، ولَكَ بِمِثْلٍ»(٢).

۞ ذكر المصنف باب فضل الدعاء بظهر الغيب – أي: دعاء المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب- يعني في حال غيبته.

وذلك لأن الإنسان قد يدعو لأخيه في وجهه حياءً منه.. أما إذا دعا له بظهر الغيب فهذا يدل دلالة واضحة على صدق إيمانه وعلى صدق محبته له.. فقد قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

۞ ثم استدل المصنف بثلاث آياتٍ من كتاب الله.. ومنها قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فأمر الله نبيه ﷺ أن يستغفر لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات.. والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

۞ والآية الثانية: قوله تعالى ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٣) كتاب الذكر والدعاء.

ٱلْحِسَابُ﴾ فطلب المغفرة له ولوالديه «وللمؤمنين» وهذا أيضًا دعاء للمؤمنين بظهر الغيب.

۞ أما الآية الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وهؤلاء هم الصنف الثالث من الأصناف الثلاثة الذين قال الله فيهم: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، فوصفهم الله بالهجرة والنُّصرة ... ثم ذكر الصنف الثاني ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وهؤلاء هم الأنصار... أنصار المدينة.

والصنف الثالث: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه دعوة لإخوانهم بظهر الغيب.

۞ إذًا... الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب من هدى الرسل (عليهم الصلاة والسلام) ومن سبيل الرسل (عليهم الصلاة والسلام)... ومن ذلك أننا نحن جميعًا ندعو لإخواننا في صلاتنا بظهر الغيب ... كلنا يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وهذا دعاء .. وقد قال النبي ﷺ: «**إنكم إذا قلتم ذلك فإنكم قَد سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ**»(١).

فمن أعظم أسباب تفريج الهموم أن يتوجه العبد إلى الله تعالى بالحاجة التي يريدها لنفسه فيدعو بها لأخيه فيقول له الملك الموكَّل بذلك: آمين ولك بمثل.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٢٠٢) كتاب الجمعة - (٦٢٣٠) كتاب الاستئذان.

فلو أراد مثلًا أن يوسع الله عليه رزقه فليقل: الله ارزق فلانًا - ويُسميه باسمه - رزقًا واسعًا وبارك له فيه.

فلو قال ذلك لاستجاب الله دعاءه له ولأخيه.

وكان أبو الدرداء يقول: إنى لأدعو لسبعين من إخوانى فى سجودى أُسميهم بأسمائهم ... وكان محمد بن يوسف الأصفهانى يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلَّفت، وهو منفرد بحزنك مهتمٌّ مما قدمت وما صرت إليه، يدعو لك فى ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى.

وقال بعض السلف: الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء...فيدخل المَلَك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول: هذه هدية لك من عند أخيك فلان...قال: فيفرح بذلك كما يفرح الحى بالهدية»(١).

(١) مفاتيح الفرج من الكتاب والسنة / الشيخ محمود المصرى (ص: ١٩ - ٢٦) بتصرف.

(٢٥٢) باب فى مسائل من الدعاء

(١٥٠٤) عن أُسامَةَ بنِ زَيدٍ رضي الله عنهما قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**مَن صُنِعَ إليهِ مَعرُوفٌ، فقال لفاعِلِهِ: جزَاكَ الله خيرًا، فقد أبلغَ فى الثَّنَاءِ**»[١].

۞ ففى هذا الحديث يُعلمنا النبى ﷺ أن نشكر الناس على ما يقدمونه لنا من المعروف ... فالناس يحتاج بعضهم لبعض ولا يستغنى أحدٌ عن أحدٍ.. ولكى يتشجع الإنسان على فعل المعروف فلا بد أن يرى من أخيه خُلقًا طيبًا.. مثل أن يشكره أو يدعو له.

۞ وهنا يقول النبى ﷺ: «**مَن صُنِعَ إليهِ مَعرُوفٌ**» بمالٍ أو جاهٍ أو علمٍ أو غير ذلك.. فإن النبى ﷺ أمر أن نُكافئ صانع المعروف فقال ﷺ: «...**مَن صَنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»[٢]

فمن الناس مَن تكون مكافأته بأن تُعطيه مثل ما أعطاك أو أكثر.. ومن الناس مَن تكون مكافأته بأن تدعو له ولا يرضى أن يأخذ مكافأة مثلها.. ومن ذلك أنك إذا أردت أن تُكافئ إنسانًا قد عجزت عن مكافأته فإنك تقول له: «جزاك الله خيرًا» أى: أعطاك الله خير الجزاء من خيرى الدنيا والآخرة.. فيخبر النبى ﷺ أنك إذا قلت له: «جزاك الله خيرًا» فقد أبلغت فى الثناء.

أى: قد بالغت فى أداء شكره.. وذلك لأنك اعترفت بالتقصير عن مكافأته وفوضت جزاءه إلى الله ليجزيه الجزاء الأوفى.. قال بعضهم: إذا قصَّرت يداك بالمكافأة فليَطُل لسانك بالشكر والدعاء.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٦٨).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٢١).

(١٥٠٥) وعن جابرٍ ﵁ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا تَدعُوا على أنْفُسِكُم، ولا تَدعُوا على أولادِكُم، ولا تَدعُوا على أمْوَالِكُم، لا تُوافِقُوا مِن الله ساعة يُسألُ فيها عَطاءً، فيَسْتَجيبَ لكُم»(١).

۞ ففي هذا الحديث ينهانا النبي ﷺ الذي وصفه الله ﷻ بأنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾.. ينهانا النبي ﷺ أن ندعو على أنفسنا أو أولادنا أو أموالنا في ساعة الغضب.. فقد يغضب الإنسان أحيانًا ويخرج عن شعوره فيدعو على نفسه بالموت أو المرض أو غير ذلك.. وقد يدعو على ابنه باللعنة أو الموت أو المرض.. وقد يدعو على ماله أو سيارته أو بيته.

ثم وضَّح النبي ﷺ السبب في هذا النهي.. فقال ﷺ: **«لا تُوافِقُوا مِن الله ساعة يُسألُ فيها عَطاءً، فيَسْتَجيبَ لكُم»** ولقد رأينا هذا كثيرًا في الحياة.. فكم من أُمٍّ دعت على ابنها بالهلاك وكانت ساعة إجابة فمات ابنها في حادث سيارة.. وكم من أبٍ دعا على ابنه أو على ماله فاستجاب الله له.. فإن كانت هناك دعوة ستخرج من أفواهنا فلنجعلها لأولادنا وليست عليهم.. ولنجعلها لأنفسنا وليست على أنفسنا.. فاحذروا أن تدعو على أنفسكم أو أولادكم أو أموالكم حتى لا توافق ساعة إجابة فتندموا حين لا ينفع الندم.

(١٥٠٦) وعن أبي هُريرةَ ﵁ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «أقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِن ربِّهِ وهُوَ سَاجِدٌ، فأكْثِروا الدُّعَاء»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٣٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٠٠٩) كتاب الزهد والرقائق.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٢) كتاب الصلاة.

(١٥٠٧) وعن أبى هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «يُسْتَجابُ لأحَدِكُم ما لَم يَعجَل، يقولُ: قد دَعَوْتُ رَبِّى، فَلم يُسْتَجَبْ لى»[١].

وفى روايةٍ لمُسْلمٍ: «لا يَزَالُ يُسْتَجابُ للعَبْدِ مَا لَم يدعُ بإثم، أوْ قَطِيعة رَحِم، ما لَم يَسْتَعجِلْ» قيل: يا رسُولَ الله، ما الاسْتِعجَالُ؟ قال: «يقُولُ: قد دَعَوْتُ، وقَد دَعَوْتُ، فلَم أرَ يَسْتَجيبُ لى، فيَسْتَحسِرُ عند ذلك، ويَدَعُ الدُّعاءَ».

۞ قلنا: إن الدعاء قد يكون عبادة محضة؛ لأن الدعاء هو العبادة.

يعنى: أنه بابٌ عظيم جدًّا من أبواب العبادة، حتى وإن كان الإنسان لا يريد أن يسأل، فيسأل فى حالٍ مُعين أو فى وقتٍ مُعين فيدعو فى هذا الوقت إظهارًا للعبودية، وإن لم يكن له حاجة فى هذا التوقيت بالذات... فإذا دعا فى توقيت ليس له فيه مصلحة مُعينة مع خُلو ذهنه وعدم انشغال قلبه بشىءٍ مُعين فإن هذا الدعاء يكون محض العبادة، وهى صورة ظاهرة جدًّا فى عبادة النبى (عليه الصلاة والسلام)... والعباد أحوج الخلق إلى طلب الحاجات من الله عَزَّ وَجَلَّ فى كل وقتٍ وحين.

۞ وهنا يؤكد لك النبى ﷺ أنه «**يُسْتَجابُ لأحَدِكُم ما لَم يَعجَل**» فإن لم تتعجل الاستجابة فلا بد أن تكون على يقين من أن الله عَزَّ وَجَلَّ سوف يستجيب دعاءك ولكن عليك أن تدعو وتدعو وتُلح فى الدعاء فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يحب أن يسمع دعاء عبده المؤمن.. وكُن على يقين من أن الله عَزَّ وَجَلَّ لن يحرمك من خير ما تطلب.. لكن إياك أن تترك الدعاء.. بل عليك أن تدعو فى وقت الرخاء وإن لم تكن بحاجة إلى الدعاء لأن الدعاء عبادة.. ولأن النبى ﷺ قال: «**مَن سرَّه أن يستجيب الله له عند الشَّدائِدِ والكُرَب؛ فليُكثر الدُّعاء فى الرَّخاء**»[٢].

وإن تأخرت إجابة الدعاء فلا تتعجل وتترك الدعاء وتقول: قد دعوت ودعوت فلم أرَ يَستجيبُ لى.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٤٠) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٣٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) حسن: رواه الترمذى والحاكم وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٠).

لأن الله سبحانه وتعالى لا يمنعك ما دعوته به إلا لحكمة أو لوجود مانع يمنع من إجابة الدعاء... ولكن إذا دعوت الله فادعُ الله تعالى وأنت مُغَلِّبٌ للرجاء على اليأس حتى يحقق الله لك ما تريد ... ثم إنْ أعطاك الله ما سألت فهذا المطلوب، وإن لم يُعطك ما سألت فإنه يدفع عنك من البلاء أكثر، وأنت لا تدرى، أو يدخر ذلك لك عنده يوم القيامة.

(١٥٠٨) وعن أبى أُمامةَ رضي الله عنه قال: قِيلَ لِرسُولِ الله ﷺ: أَيُّ الدُّعاءِ أَسْمَعُ؟ قال: «جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرِ، ودُبُرَ الصَّلواتِ المكْتُوباتِ»[١]

۞ ففى هذا الحديث أنه قيل للنبى ﷺ: أَيُّ الدُّعاءِ أَسْمَعُ؟

يعنى: أى الدعاء أقرب للإجابة؟.

فاختار النبى ﷺ موضعين لإجابة الدعاء ألا وهما: «جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرِ» .. أى: الثلث الأخير من الليل.. لأن هذا هو أعظم أوقات الليل بركة حيث ينزل الحق (جل وعلا) نزولًا يليق بجلاله وكماله .. كما أخبر النبى ﷺ حيث قال: «يَنْزِلُ اللهُ تَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِى يَدعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِى يَسْأَلُنِى فَأُعطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِى يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ»[٢].

۞ ثم أخبر النبى ﷺ عن الموضع الثانى لإجابة الدعاء فقال ﷺ: «ودُبُرَ الصَّلواتِ المكْتُوباتِ» أى: دُبر الصلوات الخمس.

وأدبار الصلوات يعنى أواخرها، وهذا قد أرشد إليه النبى ﷺ حين ذكر التشهد، ثم قال بعد ذلك: «ثم ليتخير من الدعاء ما يشاء»[٣] وليس المراد بأدبار

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٧٨٢).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٥) كتاب التهجد، ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٣٠) كتاب الاستئذان، ومسلم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

الصلوات هى ما بعد السلام... لأن ما بعد السلام فى الصلوات هو ليس محل دعاء إنما هو محلُّ ذكر.. لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، ولكن المراد بأدبار الصلوات المكتوبة أواخرها.

يعنى بعد التشهُّد وقبل التسليم ... فهذا أيضًا موضع إجابة الدعاء.

(١٥٠٩) وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «مَا عَلَى الأرضِ مُسْلمٌ يدعو الله تعالى بِدَعوَةٍ إلا آتاهُ الله إيَّاها ، أَوْ صَرَف عنهُ مِن السُّوءِ مِثْلَها. ما لم يَدعُ بإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعةِ رَحِم» فقالَ رجُلٌ مِن القومِ: إذًا نُكْثِرُ. قال: « الله أَكثَرُ»(١).

ورواه الحاكم من رواية أبى سعيدٍ وزاد فيه: «أو يَدَّخر له مِن الأجْرِ مِثلها».

۞ فمن رحمة الله تعالى بعبده وهو الرحيم أن العبد يدعوه بحاجة من الدنيا، فإذا لم يؤته إياها عوَّضه خيرًا منها:

فإما أن يصرف عنه بذلك مصيبة.

أو يدخرها له فى الآخرة.

أو يصرف عنه من السوء مثل ما طلب من الخير.

لكن كل هذا مشروط بألا يدعو العبد بإثمٍ أو قطيعة رحم وما لم يستعجل.. فإن تَعجَّل وتركَ الدعاء لا يُستجاب له.. وإن دعا بقطيعة رحم لا يُستجاب له وإن دعا بإثمٍ لا يُستجاب له إلا أن يكون مظلومًا.. فإن كان مظلومًا وقال: اللهم إن كنت تعلم أن حقى عند فلان وقد ظلمنى فانتقم منه يارب العالمين.. فهذا دعاءٌ مستجاب.. لأن دعوة المظلوم ليس دونها حجاب..

يقول الله عز وجل: «وعزتى وجلالى لأنصرنَّك ولو بعد حين».

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٣٧).

(١٥١٠) وعنْ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ كان يقُولُ عِنْدَ الكَربِ: «لا إلـه إلا الله العظيمُ الحَليمُ، لا إلـه إلا الله ربُّ العَرشِ العظيمِ، لا إلـه إلا الله ربُّ السمَواتِ، وربُّ الأرض، وربُّ العرشِ الكريم»[١].

۞ كان ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَعجب أشد العجب من هذا الدعاء، ويوصى به دائمًا، وهو الذى رواه عن النبى عليه الصلاة والسلام.

۞ قال الإمام النووى: (وهو حديثٌ جليل ينبغى الاعتناء به).

أى: ينبغى على كل مسلم أن يحفظه، وأن يدعو به إذا نزل به الكرب أو الهم أو الغم... وما أكثره خاصة فى هذا الزمان.

قال: (والإكثار منه عند الكرب والأمور العظيمة).

أى: يُسَنُّ ويُستحَب لك أن تُكرره دائمًا حتى يزول هذا الكرب وينكشف الغم.

قال: (قال الطبرى: كان السلف يدعون به -يعنى: كان السلف يهتمون اهتمامًا عظيمًا جدًّا بهذا الدعاء- ويُسمونه دعاء الكرب -أى: الدعاء الذى يُزيل الكرب- فإن قيل: هذا ذِكرٌ وليس فيه دعاء).

لأن الدعاء عبارة عن طلب، مثل: اللهم اكشف كربى وأزل همى وغمى وغير ذلك... أما هذا فهو ذكرٌ لله تعالى، فكيف نفهم أنه دعاء؟

قال الإمام النووى: (فجوابه من وجهين: أحدهما: أن هذا الذكر يُستفتح به الدعاء).

يعنى: اجعل هذا الذكر دائمًا فى مقدمة دعائك، فإذا أردت أن تدعو الله أن يكشف عنك الهم والحزن فقدِّم بين يدى طلبك ودعائك هذا الذكر لله تعالى، وكأن هذا الذكر هو مفتاح الدعاء الذى إذا قدمته على الدعاء تقبَّل الله تعالى دعاءك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٤٦) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧٣٠) كتاب الذكر والدعاء.

قال: (ثم يدعو بما شاء).

۞ (والثانى: جواب سفيان بن عُيينة أنه قال: أما علمت قول الله تعالى فى الحديث القدسى: «**مَن شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل مما أعطى السائلين**».

يعنى: لو أن العبد انشغل بذكر الله تعالى ولم ينشغل بالطلب والدعاء فهذا أَولَى وأفضل.

ولكن هذا الحديث ضعيف وجوابه عند الإمام النووى وغيره من أهل العلم: أن هذا وإن كان ذكرًا إلا أنه كالمفتاح لدعائك الله تعالى برفع الهم وإزالة الغم وتفريج الكربات التى نزلت بك... فعلى الإنسان أن يقدم بين يدى دعائه هذا الذكر.

۞ وقد ذُكر أن أمية بن أبى الصلت (الشاعر) ذهب إلى رجل من كُرماء العرب اسمه عبد الله بن جُدعان يريد منه مالًا لكنه استحيا أن يطلب منه فقال له:

أأطلب حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك..إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرُّضه الثناء

فأعطاه عبد الله بن جُدعان ما يكفيه من المال.

فإن كان هذا عبدٌ اكتفى بالثناء فكيف برب الأرض والسماء.

فإذا ذكر المرء ربه عَزَّوَجَلَّ فى يوم فإن هذا الثناء والذكر لله تعالى يُغنيه عن طلب الدعاء أو عن طلب تفريج الهم والغم... وليس معنى هذا أن نترك الدعاء.. فالدعاء هو العبادة .. ولكن المقصود أن مَن امتلأ قلبه بحب الله عَزَّوَجَلَّ وانشغل بذكره عن كثرة الدعاء - وليس عن الدعاء بالكلية- فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُعطيه ويُفرج همومه.

(٢٥٣) باب كرامات الأولياء وفضلهم

۞ ولقد أورد المصنف رحمه الله في هذا الكتاب المبارك بابًا بعنوان: باب كرامات الأولياء وفضلهم.

۞ فتعالوا بنا لنعرف أولًا ما الفرق بين المعجزة والإرهاصة والكرامة والمعونة والإهانة والاستدراج.

(١) المعجزة:

فالمعجزة هي أمرٌ خارقٌ للعادة يُجريه الله على أيدي الأنبياء والمرسلين وهي تقترن برسالتهم... كانشقاق القمر لرسول الله ﷺ.. وقلب العصا إلى حية لموسى عليه السلام وغير ذلك.

ولقد أيّد الله أنبياءه ورسله بالمعجزات التي لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثلها ليعلموا أن هذا لا يكون إلا بتأييدٍ من الحق (جل جلاله) الذي إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كُن فيكون.

وكانت كل معجزة تتناسب مع أحوال الناس.

فإنه لما كان السحر مُتفشيًا في قوم فرعون أكرم الله نبيه موسى عليه السلام بمعجزة تَفُوق هذا السحر فإذا بعصاه تلقف ما يأفكون.

ولما كان الناس في عهد عيسى عليه السلام على درجة عالية من الطب أكرم الله نبيه عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله.

ولما كان العرب في أرض الجزيرة على درجة عالية من البلاغة والفصاحة أكرم الله نبيه محمدًا ﷺ بمعجزة القرآن الذي تحدَّى الله به الجن والإنس على أن يأتوا بسورة من مثله.

ونحن إذا تكلمنا عن تلك المعجزات فإن ذلك يجعل الإيمان يزداد في قلوبنا.. وإن كنا - ولله الحمد - نؤمن بنبينا ﷺ وإن لم يكن له معجزة واحدة

فنحن نعلم أنه رسول الله ﷺ وأنه سيد الأولين والآخرين وأنه أكرم الخلق على الله (جل وعلا).

(٢) الإرهاص:

ومن الأمور الخارقة للعادة وإن لم يكن معجزة لفقد شروط المعجزة: الإرهاص... وهو ما يظهر للنبى قبل بعثته من أمور عجيبة لا تظهر لسائر البشر كقصة ولادته ﷺ وما وقع من الله فى إهلاك الفيل وأهله... والنور الذى خرج من أم النبى ﷺ عند ولادته ﷺ فأضاء قصور الشام.

(٣) الكرامة:

ثم نأتى لأمرٍ آخر خارق للعادة وإن لم يكن من المعجزات لافتقاد شروطها... وهى الكرامة.

فالكرامة: أمرٌ خارقٌ للعادة تظهر على يد مؤمن ملتزم لمتابعة نبى مُكلَّف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح عَلِمَ بها أو لم يعلم... فما يجرى على يد الأولياء من خوارق وعجائب تُسمَّى كرامات وقد تُسمى الكرامة آية لأنها تدل على نبوة مَن اتبعه ذلك الولى، لأن كل كرامة لولىٍّ هى معجزة لنبيه.

والولى: هو العارف بالله تعالى وبصفاته.. المواظب على طاعته لله، المجتنب معصيته... وسُمّى الولى بهذا لأن الله تولى أمره فلم يَكِله إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة، والله تعالى يتولى عباده دائمًا. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]

❁ وهناك بعض المواقف تدل على الكرامة:

روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى الأعداء من مسافة شهر فقال: «**يا سارية الجبل**»(١) فسمع سارية قائد جيش المسلمين صوته فانحاز بالناس إلى

(١) سارية: قائد جيش المسلمين.

الجبل وقاتلوا العدو فنصرهم الله تعالى... فتلك كرامة لعمر أن رأى من تلك المسافة... كذلك لسارية أن سمع من المسافة نفسها.

روى أن عبد الله بن شقيق كان إذا مرت عليه سحابة يقول لها: أقسمت عليكِ بالله إلا أمطرتِ فتمطر فى الحال.

هذا قليل القليل من كثير من كرامات الصحابة والأولياء.

(٤) المعونة:

ومن الأمور الخارقة للعادة أيضًا: المعونة.

فهناك أمر قد لا يظن الإنسان الصالح وجوده أو حدوثه ثم يقع له حسب رغبته أو حسب ما ينجيه ... كمن كان فى صحراء وظهر له الأسد فوجد شجرة فى مكان لا توجد فى مثله الأشجار فتسلقها ونجى من الأسد.

(٥) الإهانة:

ومن الأمور الخارقة للعادة: الإهانة - أعاذنا الله من كل سوء - وهى أمرٌ خارقٌ للعادة يُظهره الله على يد كاذب يدَّعى النبوة على عكس مراده كما وقع لمسيلمة الكذاب عندما تفل فى عين رجل - عوراء - لتصح فعميت الاثنتان أخزاه الله ولعنه.

(٦) الاستدراج:

ثم نأتى إلى آخر الأمور الخارقة للعادة: الاستدراج .. وهو أمرٌ خارق للعادة يُظهره الله على يد مُدَّعى الألوهية كما يقع للمسيح الدجال عندما يقتل شخصًا ثم يُحييه ولكن بعد ذلك يأخذه الله أخذ عزيزٍ مُقتدر[1].

---

(١) صحيح معجزات النبى ﷺ/ للحافظ ابن كثير (ص ١٨-١٩) بتصرف.

۞ قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أى انتبهوا أيها الناس واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم فى الآخرة من عذاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم فى الدنيا...ثم بيَّن تعالى هؤلاء الأولياء فقال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أى الذين صدّقوا الله ورسوله، وكانوا يتقون ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه... فالوليُّ هو المؤمن التقيُّ.

وفى الحديث: «**إن لله عبادًا ما هم بأنبياء ولا شهداءَ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله**»، قالوا أخبرنا مَن هم يا رسول الله؟ وما أعمالهم؟ فلعلَّنا نحبُّهم، قال: «**هم قومٌ تحابّوا فى الله، على غير أرحامٍ بيْنهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنورٌ، وإنهم لعلى منابرَ من نور، لا يخافون إذا خاف الناسُ، ولا يحزنون إذا حزن الناس**.. ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ....﴾ الآية[1]» ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أى لهم ما يسرهم فى الدارين، حيث تبشرهم الملائكة[2] عند الاحتضار برضوان الله ورحمته، وفى الآخرة بجنان النعيم والفوز العظيم.. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أى لا إخلاف لوعده[3].

---

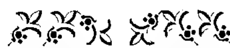
(١) الطبرى (١١/ ١٣٢).

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة فى الدنيا هى «الرؤية الصالحة» التى يراها المؤمن أو تُرى له، وقد ورد ذلك فى حديث أخرجه الحاكم...واختار الطبرى أن البشارة تكون بالرؤية الصالحة وببشارة الملائكة عند الموت.

(٣) صفوة التفاسير (١/ ٥٤٨-٥٤٩).

۞ ومن كرامات الأولياء ما حدث لمريم بنت عمران: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣ - ٢٥]، هذه من آيات الله، كرامة لمريم.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أى فألجأها ألم الطَّلق وشدة الولادة إلى ساق نخلةٍ يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى قالت يا ليتنى كنت قد مِتُّ قبل هذا اليوم وكنت شيئًا تافهًا لا يُعرف ولا يُذكر[1] قال ابن كثير: عرفت أنها ستُبتلى وتُمتحن بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها فى خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت[2] ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى ﴾ أى فناداها المَلَك من تحت النخلة قائلًا لها: لا تحزنى لهذا الأمر ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ أى جعل لك جدولًا صغيرًا يجرى أمامك ... قال ابن عباس: ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماءٍ عذب فجرى جدولًا ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أى حركى جذع النخلة اليابسة ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ أى يتساقط عليك الرُّطب الشهىُّ الطرىُّ قال المفسرون: أمرها بهزِّ الجذع اليابس لترى آية أخرى فى إحياء موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذى جرى جدولًا، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامة من الله لها ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى ﴾ أى كلى من هذا الرُّطب الشهى، واشربى من هذا الماء العذب السلسبيل[3].



---

(١) هذا قول قتادة ... وقال ابن عباس: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى لم أُخلق ولم أكُ شيئًا.

(٢) مختصر ابن كثير (٢/ ٤٤٨).

(٣) صفوة التفاسير (٢/ ١٩٦).

۞ ومن الكرامات أيضًا ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في قصة زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ مع مريم ابنة عمران.. قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ أي قبلها الله قبولًا حسنًا قال ابن عباس: سلك بها طريق السعداء ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أي ربَّاها تربية كاملة ونشَّأها تنشئة صالحة ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي جعل زكريا كافلًا لها ومتعهدًا للقيام بمصالحها، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعامًا... قال مجاهد: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ أي من أين لك هذا ؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي رزقًا واسعًا بغير جهدٍ ولا تعب[1].

۞ ومن الكرامات أيضًا ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في قصة أصحاب الكهف.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٦-١٧].

وخلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكًا جبارًا يسمى «دقيانوس» ظهر على بلدة من بلاد الروم تُدعَى «طرطوس» بعد زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان يدعو الناس الى عبادة الأصنام، ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة، حتى عَظُمت الفتنة على أهل الإيمان، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حُزنًا شديدًا وبلغ خبرهم الملك الجبار فبعث في طلبهم، فلما مثلوا عند

---

(١) صفوة التفاسير (١/ ١٨١).

الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت ، فوقفوا فى وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ ﴾ فقال لهم : إنكم فتيانٌ حديثةٌ أسنانكم وقد أخَّرتكم إلى الغد لتروا رأيكم ! ! فهربوا ليلًا ومرُّوا براعٍ معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح آووا الى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك: سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعًا وعطشًا ... وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون (ثلاثمائة وتسع سنين) ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يومًا أو بعض يوم ، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشترى لهم طعامًا ، وطلبوا منه التخفِّى والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ، ولم يعرف أحدًا من أهلها فقال فى نفسه: لعلِّى اخطأت الطريق إلى البلدة ، ثم اشترى طعامًا ولما دفع النقود للبائع جعل يُقلبها فى يده ويقول : من أين حصلت على هذه النقود؟ واجتمع عليه الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون ، ثم قالوا : مَن أنت يا فتى؟ لعلك وجدت كنزًا؟ فقال : لا والله ما وجدت كنزًا إنها دراهم قومى، قالوا له: إنها من عهدٍ بعيد، من زمن الملك (دقيانوس) قال: وما فعل دقيانوس؟ قالوا: مات من قرون عديدة... قال: والله ما يصدقنى أحد بما أقوله: لقد كنا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس ، فأوينا إلى الكهف فأرسلنى أصحابى اليوم لأشترى لهم طعامًا ، فانطلقوا معى إلى الكهف أُريكم أصحابى ، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك - وكان مؤمنًا صالحًا - فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة ، وحين وصلوا الى الغار سمعوا الأصوات وجلبة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس ، فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرآهم يصلون ، فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمنٍ بعيد ، وسمع كلامهم

وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ... ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم(١).

(١٥١١) وعن أبى مُحمدٍ عبدِ الرحمن بن أبى بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما أَنَّ أصحاب الصُّفَّةِ كانُوا أُناسًا فُقراءَ وأنَّ النبيَّ ﷺ قال مرَّةً: «مَنْ كانَ عِنْدَهُ طَعامُ اثنَينِ، فلْيَذْهَبْ بثَالثٍ، ومَن كان عنْدَهُ طعامُ أربَعَةٍ، فَليذْهَبْ بخَامِسٍ وبِسادسٍ» أوْ كما قالَ، وأنَّ أبَا بكْرٍ رضي الله عنه جاءَ بثَلاثَةٍ، وانْطَلَقَ النبى ﷺ بِعَشْرَةٍ، وأنَّ أبا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْد النَّبى ﷺ، ثُمَّ لَبِثَ حتَّى صَلَّى العِشَاءَ، ثُمَّ رجَعَ، فجاءَ بَعدَ ما مَضَى مِن اللَّيلِ مَا شاءَ الله، قالتْ امرأتُهُ: ما حَبَسَكَ عنْ أضْيافِكَ؟ قالَ: أوَ ما عَشَّيتِهِمْ؟ قالَتْ: أبَوْا حتَّى تَجِىءَ، وقَد عَرَضُوا عليْهِم. قال: فذَهَبْتُ أنَا، فاختبأتُ، فقَالَ: يا غُنْثَرُ، فجدَّعَ وسَبَّ وقال: كُلُوا لا هَنيئًا، والله لا أطْعمُهُ أبدًا، قال: وايمُ الله ما كُنَّا نأخذُ مِن لُقْمة إلا رَبَا مِن أَسْفَلِهَا أكْثرُ مِنْهَا حتَّى شَبِعُوا، وصَارَتْ أكثَرَ مِمَّا كانَتْ قَبْلَ ذلكَ، فنَظَرَ إليْهَا أبُو بَكْرٍ فقال لامرأتِهِ: يا أُخْتَ بنى فِرَاسٍ ما هذا؟ قالتْ: لا وَقُرَّةِ عَينى لهى الآنَ أكثرُ مِنْهَا قَبلَ ذلكَ بثلاثِ مرَّاتٍ، فأكَل مِنْها أبُو بكرٍ وقال: إنَّما كانَ ذلكَ مِن الشَّيطانِ -يعنى يَمينَهُ- ثُمَّ أكَلَ مِنها لقمةً، ثُمَّ حمَلَها إلى النَّبيِّ ﷺ فأصبَحَت عِنْدَهُ. وكانَ بَيْنَنَا وبينَ قوم عَهْدٌ، فمَضَى الأجَلُ، فتَفَرَّقْنا اثنى عشَرَ رَجُلًا، مَعَ كُلِّ رجُلٍ منهُم أُناسٌ، الله أعلم كَم معَ كُلِّ رجُلٍ فأكلوا مِنْها أجمعُونَ.

وفى رواية: فحَلَفَ أبُو بَكْرٍ لا يَطْعَمه، فحَلَفَتِ المرأةُ لا تَطْعَمهُ، فحلفَ الضَّيفُ -أوِ الأضْيافُ- أن لا يَطعَمَه، أوْ يَطعَمُوه حتَّى يَطعَمه، فقالَ أبو بُكْرٍ: هذه مِن الشَّيطانِ، فدَعَا بالطَّعامِ فأكَلَ وأكَلُوا، فجَعَلوا لا يرفَعونَ لُقْمَةً إلا رَبَتْ مِن أسْفَلِها أكْثَر مِنْها، فقالَ: يا أُختَ بنى فِراس، ما هذا؟ فقالتْ: وقُرَّة عَيْنى إنَها الآنَ

(١) صفوة التفاسير (٢/ ١٦٩).

لأكثرُ مِنْها قَبْلَ أنْ نأكُلَ، فأكَلُوا، وبعَثَ بها إلى النبى ﷺ فذَكَر أنَّه أكَلَ مِنهَا .

وفى رواية: إنَّ أبا بَكْرٍ قالَ لِعَبْدِ الرَّحمن: دُونَكَ أضْيافَكَ، فإنِّى مُنْطَلِقٌ إلى النبى ﷺ، فافرُغْ مِنْ قِراهُم قَبْلَ أنْ أَجِىءَ، فانْطَلَقَ عبدُ الرَّحمنِ، فأتاهم بمَا عِنْدَهُ، فقال: اطْعَمُوا، فقالوا: أيْنَ ربُّ مَنزِلنا؟ قال: اطعموا، قالوا: ما نَحنُ بآكلين حتى يَجىء ربُّ مَنْزِلنا، قال: اقْبلوا عنَّا قِرَاكُم، فإنَّه إنْ جاءَ ولمْ تَطْعَمُوا لنَلقَيَنَّ مِنْهُ، فأبَوا، فعَرَفْتُ أنَّه يَجد عَلَيَّ، فلَّما جاء تَنَحَّيْتُ عنْه، فقال: ما صنعتُم؟ فأخْبَروه، فقال: يا عبدَ الرحمنِ، فسَكَتُّ، ثُمَّ قال: يا عبدَ الرحمن. فسكت، فقال: يا غُنْثَرُ أقْسَمْتُ علَيْكَ إن كُنْتَ تَسمَعُ صوتى لما جِئتَ، فخَرَجْتُ، فقُلْتُ: سَلْ أضْيَافَكَ، فقالوا: صَدَقَ، أتَانَا بِهِ. فقال: إنَّما انْتظَرتُمونى والله لا أطعَمُه اللَّيْلَة، فقال الآخرون: والله لا نَطْعَمُه حتَّى تَطعمه، فقال: ويْلَكُم ما لَكُم لا تَقبَلُون عنَّا قِرَاكُم؟ هاتِ طَعَامَكَ، فجاءَ بِهِ، فوضَعَ يَدَه، فقال: بِسْمِ الله، الأولى مِن الشَّيطانِ فأكلَ وأكلوا[1].

۞ عنوان هذه القصة يبين الحالة التى وصل إليها أبو بكر رضي الله عنه، حيث سبَّ ابنه عبد الرحمن مُناديًا إياه بقوله: يا غُنثر، ودعا عليه أن يُجدع أنفه.

لقد أثار أبا بكر وهو الحليم الوديع الهادئ ضيفانٌ استضافهم فى منزله، أبوا أن يتناولوا عشاءهم حتى يعود... ولم يَعُد إلا مُتأخرًا، فشَقُّوا على أنفسهم، كما شقّوا على أهل المنزل، فثارَ وغضب، ولو تمادى به الغضب لتمادت المشكلة، ووقع ما لا تُحمَد عُقباه، ولكنه ألجم نفسه بلجام التقوى، فحنث فى يمينه، وأرغم الشيطان، وأَرضَى الرحمن، فأنزل عليه وعلى بيته من بركاته، وبدَّل حزنهم سرورًا، وكذلك عاقبة مَن أقبل على الله، وألقى هواه وراء ظهره.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٢) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٢٠٥٧) كتاب الأشربة.

قوله: «غُنْثَر»، وهو: الغَبىُّ الجَاهلُ -وقوله: «فجدَّع» أى شَتَمه، والجَدع: القطع -قوله: «يجِدُ علىَّ» أى: يَغْضَبُ.

۞ ومختصر هذه القصة أن الرسول ﷺ أمر أصحابه الذين لديهم سعة فى الرزق أن يحمل كل واحدٍ منهم بعضًا من الفقراء وأهل الصُّفة، وأمر مَن كان عنده اثنين أن يستضيف ثالثًا على العشاء، ومَنْ لديه أربعة أن يستضيف خامسًا وسادسًا، فاستضاف أبو بكر رضي الله عنه ثلاثة من أهل الصُّفة، واستضاف الرسول ﷺ عشرة.

وكانت أسرة أبى بكر تتكون منه وزوجته، وولده عبد الرحمن وزوجته، وخادم يقوم على رعاية الأسرتين: أسرة أبى بكر وأسرة عبد الرحمن، فكان عددهم خمسة.

ذهب أبو بكر بضيوفه إلى منزله، وكلَّف ابنه عبد الرحمن أن يقوم عنه بقِرى الضيوف، وأخبره أنه لن يَحضُر لتناول الطعام مع الضيوف، وقام عبد الرحمن بما كُلِّف به، فحضَّر الطعام، وقدَّمه للضيوف، فأبوا أن ينالوا منه شيئًا حتى يحضر ربّ المنزل - أبو بكر رضي الله عنه.

كان عبد الرحمن يعلم طباع أبيه، وأنه يغضب حين يخالف أمره، وقد حاور الضيوف، وأخبرهم بما سيترتب على رفضهم تناول الطعام حتى يعود والده، وأن أول مَن سيناله الضرر هو نفسه، فأصروا على موقفهم إصرارًا، وزاد من سوء الموقف أن أبا بكر بقى مع الرسول ﷺ إلى أن صلَّى العشاء، واستمر معه إلى أن ذهب جزءٌ من الليل.

ولم يشأ عبد الرحمن مواجهة العاصفة، فقد كان أبو بكر حليمًا، ولا أشد من غِضبة الحليم حين يثور كالبركان، فيقذف حممًا، فلا يصمد له أحد، فآثر أن يختفى من وجهه.

وأول مَن توجه إليه غضب أبى بكر ابنه عبد الرحمن، فهو المُكلَّف الأول بما طلبه منه.. وزاد غضبه عليه أنه توارى من وجهه، مما يؤكد له أنه السبب فى هذا التقصير الواقع، فوجَّه إليه سيلًا من الألفاظ القاسية: يا غنثر، أى: يا ثقيل،

يا خامل، وأخذ يدعو عليه بأن تُقطع أذنه، ويُجدع أنفه، «فسبَّ! وجدَّع».

كان عبد الرحمن يسمع ما يقذفه به والده في موضع اختفائه، ولكنه لا يجرؤ على الظهور، منتظرًا أن تهدأ ثورته، ويخفّ غضبه..ولكن عندما وصل إليه صوت الشيخ مُقسمًا عليه أن يأتيه ، ويحضر إليه إن كان يسمع صوته، لم يكن أمامه إلا أن يخرج من مخبئه، ويواجه غضب الشيخ.

دافع عبد الرحمن عن نفسه، وأدلى بحُجّته، واستشهد بالضيوف على صدق ما يقول، فنجا عبد الرحمن وما كان يظن أنه منها ناجٍ... وتوجه غضب أبي بكرٍ إلى ضيوفه، وعلم أن مقصدهم أن يَسعدوا بالجلوس معه ومُحادثته، فعاملهم بنقيض قصدهم، فحلف أن لا يذوق من ذلك الطعام شيئًا.

عند ذلك تفاقمت المشكلة إذ حلفت أم رومان كما حلف أبو بكر، فما كان من الضيوف إلا أن أقسموا كما أقسم.

لقد أدرك أبو بكر حجم المشكلة، وأن الشيطان نجح في مقصده بإحزانه وإحزان أهل بيته وضيوفه، فعاد إلى الأدب الذي تعلمه من رسوله ﷺ، فقد كان الرسول ﷺ لا يُقسم على يمين، فيرى غيرها خيرًا منها إلا كفَّر عن يمينه، وأتى الذي هو خير، فلم يجعل يمينه حائلًا بينه وبين إتيان الذي هو خير: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

لقد راغم أبو بكرٍ الشيطانَ، وأرضى الرحمن، ومدَّ يده إلى الطعام، وطلب من ضيوفه أن يتناولوا ضيافتهم، فهدأت النفوس، وطابت القلوب، وانزاح الهم عن الجميع، فظهرت بركة هذا التصرف لا في النفوس والقلوب فحسب، بل وفي الطعام أيضًا.

لقد أخذ الطعام الذي في الجفنة يتكاثر، ويزيد ولا ينقص، فكلما أخذ منه لقمة نبت مكانها أخرى... بل زاد الطعام حتى أصبح ثلاثة أمثاله فحُملت الجفنة إلى

منزل رسول الله ﷺ، فأكل منها، ثم أرسل بها إلى جيشٍ يُعدّه ليرسل به إلى قومٍ بينهم وبينه عهد انتهت مدته، وقد اجتمع منهم عددٌ كبير فكفاهم ذلك الطعام.

وهكذا يكون حال مَنْ راغم الشيطان، وأطاع الرحمن، واهتدى بهدى الإسلام... فرضى الله عن أبى بكر وأرضاه، وجمعنا به فى دار الخلد، إنه على ما يشاء قدير.

عِبَر الحديث وفوائده وأحكامه

(١) بيان الطريقة التى كان يرعى بها الرسول ﷺ أهل الصُّفة..فقد أمر أصحابه الذين يجدون قوت ليلتهم أن يأخذ كل واحدٍ منهم من أهل الصفة بما يتناسب مع عدد أهل الدار... فالذى عنده طعام اثنين يذهب بثالث، والذى عنده طعام أربعة أو خمسة يستضيف اثنين أو ثلاثة وهكذا... وبذلك يواسى الصحابة إخوانهم، ويشركونهم فى طعامهم.

(٢) كانت القيادات الإسلامية من الصحابة فى مقدمة مَن يقوم بالتكاليف، فقد ذهب أبو بكر بثلاثة من أهل الصفة، وذهب الرسول ﷺ بعشرة منهم.

(٣) ويجوز للرجل أن يُوكِّل مَن ينوب عنه فى إكرام ضيوفه ورعايتهم إذا كانت لديه مهمات تَحول دون قيامه بذلك بنفسه، كما كلَّف أبو بكر ابنه عبد الرحمن بإضافة ضيوفه.

(٤) قوة صلة أبى بكر بالرسول ﷺ، فقد صلَّى مع رسول الله ﷺ المغرب، وتعشَّى فى منزل الرسول ﷺ، وصلَّى معه العشاء، وبقى ملازمًا له حتى مضى من الليل جزءٌ طويل... ولا شكَّ أن الرسول ﷺ كان محتاجًا إليه، يُباحثه فى أمور المسلمين.

(٥) جواز إنكار الرجل على أهله فيما يظن أنهم قصَّروا فيه، كما فعل أبو

بكر حين وجد أن ضيوفه لا يزالون فى المنزل لم يتناولوا قِراهم -ضيافتهم-.

(٦) مع كون أبى بكر أفضل هذه الأمة بعد نبيها إلا أنه بَشَرٌ، يأخذه ما يأخذ البشر، فقد ثار وغضب على ابنه، وسبَّه ودعا عليه... فلما علم أنه لم يقصِّر فيما عهد به إليه، انتقل غضبه إلى ضيوفه، وحلف أن لا يذوق ذلك الطعام، وقال لهم: «ويلكم، ما أنتم؟ ما لكم لا تقبلون عنَّا قِراكم؟!!».

(٧) على العاقل إذا تفاقمت الأمور، وعظمت الإشكالات، أن يثوب إلى رُشده، ويُلجم نفسه بلجام التقوى، كما فعل أبو بكر..فإنه لما حلف أن لا يأكل من ذلك الطعام، حلف ضيوفه وأهل داره بمثل ما حلف به، فاستعاذ بالله من الشيطان، وأمر بوضع الطعام وأكل، فأكل ضيوفه، وأكل أهل بيته... ولا بد أنه كفَّر عن يمينه، فهذا حكم الحانث فى يمينه.

(٨) إكرام الله لمن ألجم نفسه بلجام التقوى، وراغَم الشيطان ، وأرضى الرحمن ، كما أكرم اللهُ أبا بكر، فقد كان لا يأخذون من القصعة لقمة إلا رَبا من أسفلها أكثر، فشبعوا وقد أصبح الطعام بمقدار ثلاثة أمثاله.

(٩) إثبات كرامات الصالحين والأتقياء، كما كثَّر الله طعام أبى بكر رضي الله عنه.

(١٠) صورة من الخطاب الذى كان يتخاطب به المسلمون فى منازلهم.

فأبو بكر يقول لزوجته مُخاطبًا إياها: «يا أخت بنى فراس» وبنو فراس هم أهلها، وهى تقول له مجيبة: «لا، وقرة عينى» وهو خطاب المرأة المُحبة لزوجها، التى تُحسن خطابه، وتوقره فى حديثها.

(١١) استحباب الإهداء إلى الصالحين... فقد أهدى أبو بكر للرسول ﷺ من ذلك الطعام المبارك، فأكل منه، ثم أرسل به إلى جمعٍ من أصحابه كانوا يتهيئون للغزو، فكفاهم[1].

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه/ د. عمر الأشقر رحمه الله ص (١٤١-١٤٥).

(١٥١٢) وعن أبى هُريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لقَد كان فيما قَبْلَكُم مِن الأُمَمِ ناسٌ مُحَدَّثونَ، فإن يَكُ فى أُمَّتِى أحَدٌ، فإنَّهُ عُمرُ»[(١)].

۞ جاء فى بعض الروايات الصحيحة أن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ هو الذى اقترح على النبى ﷺ أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى، فنزل القرآن مطابقًا لما أشار به عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، وهذه من المسائل التى يقولون عنها: موافقات عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، أى: أنه يقول القول ثم ينزل القرآن مطابقًا له، فأُطلق على ذلك موافقات عمر، وهى عديدة .. منها هذا الموضع.

ومنها: اقتراحه على النبى (عليه الصلاة والسلام) أن يحجب نساءه.

ومنها: عدم أخذ الفداء فى أسارى بدر.

۞ وفى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: **«لقد كان فيما كان قبلكم مُحَدثون»** يعنى: مُلهَمون للصواب، يقولون قولًا فيكون موافقًا للحق، وهذا من كرامة الله للعبد أن الإنسان إذا قال قولًا، أو أفتى بفتوى، أو حكم بحكم تبين له بعد ذلك أنه مطابق للحق... فعمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ من أشد الناس توفيقًا للحق، كما سيأتى إن شاء الله تعالى فيما سيذكره المؤلف من أمثلة لذلك... قال النبى ﷺ: **«فإن يَكُ فى أُمَّتِى أحَدٌ، فإنَّهُ عُمرُ»** يعنى إن كان فيكم مُحدَّثون فعمر، ويحتمل قوله: **«إنْ يَكُ فى أُمَّتِى»** أنه خطاب لقومٍ مجتمعين ليس فيهم أبو بكر ويحتمل أنه خطاب إلى الأمة كلها، ومن بينهم أبو بكر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، فإن كان الأول فلا إشكال، وإن كان الثانى فقد يقول قائل: كيف يكون عمر مُلهمًا وأبو بكر ليس كذلك؟!.. فيُقال: إن أبا بكر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ يُوفَّق للصواب بدون إلهام، بمعنى أنه رَضِوَاللَّهُعَنْهُ من ذات نفسه بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ يُوفَّق للصواب ...ويدل على أن أبا بكر أشد توفيقًا للصواب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٦٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٩٨) كتاب فضائل الصحابة. «محدَّثون» أى: مُلهَمون.

من عمر عدةُ مسائل:

أولًا: فى صلح الحديبية لما اشترطت قريش على النبى ﷺ شروطًا يبدو أنها ثقيلة عظيمة، عمل عمر رضي الله عنه على إبطالها، وجاء إلى النبى ﷺ يراجعه فى ذلك ويقول: كيف نُعطى الدنيَّة فى ديننا؟ كيف نشترط على أنفسنا أن مَن جاءنا منهم مسلمًا، رددناه إليهم، ومَن جاءهم منَّا لا يردونه؟ هذا ثقيل... ولكن النبى ﷺ قال له «**إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى**»، فذهب عمر رضي الله عنه إلى أبى بكر رضي الله عنه يريد أن يستنجد به فى إقناع الرسول ﷺ فكلم أبا بكر فقال له أبو بكر مثل قول الرسول ﷺ سواءً بسواء ... قال إنه رسول الله وليس بعاصيه وهو ناصره فاستمسك بغرزه... يعنى لا يكن عندك شك فى أمره... فهذه واحدة.

إذًا .. مَن الموفق إلى الصواب فى هذا؟ إنه أبو بكر بلا شك... كذلك أيضًا فى موت الرسول ﷺ، لما شاع الخبر فى المدينة أن النبى ﷺ مات. قام عمر فى الناس وقال إنه لم يَمُت وإنما ذهب للقاء ربه كما ذهب موسى ابن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات .. وليبعثنه الله، فليُقطعن أيدى أقوام وأرجلهم من خلاف، وأنكر أن يكون قد مات... وكان أبو بكر قد خرج ذلك اليوم إلى بستانٍ له خارج المدينة فلما رجع وجد النبى ﷺ قد مات حقًّا، فخرج إلى المسجد وصعد المنبر، وقال كلماته المشهورة التى تُكتَب بأغلى من ماء الذهب. قال: أما بعد أيها الناس، مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومَن كان يعبد الله، فإن الله حىٌّ لا يموت، ثم قرأ قول الله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[الزمر: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾[آل عمران: ١٤٤]، قال عمر: فوالله ما إن تلاها أبو بكر حتى عُقرت فما تحملنى رجلاى... يعنى الإنسان إذا خاف واشتد به الشىء ما يقدر أن يقف... هذه الثانية.

۞ الثالثة: أنه لما تُوفى الرسول ﷺ ارتد مَن ارتد من العرب - كفروا والعياذ بالله - وكان النبى ﷺ قد جهز جيشًا أميره أسامة بن زيد، ليقاتل أدنى أهل الشام والجيش كان ظاهر المدينة ولكن لم يسيروا بعد، ولما ارتد العرب جاء عمر لأبى بكر، وقال لا تُرسل الجيش، نحن فى حاجة.. فقال له أبو بكر: والله لا أَحلنَّ راية عقدها رسول الله ﷺ.. وسيَّرهم أبو بكر، فكان الصواب مع أبى بكر رضي الله عنه لأن الناس لما سمعوا أن أهل المدينة أرسلوا الجيوش إلى أطراف الشام، قالوا: هؤلاء عندهم قوة ولا يمكن أن نرتد، فامتنع كثيرٌ من الناس عن الردة وبقوا فى الإسلام... المهم أن أبا بكر رضي الله عنه أبلغ من عمر رضي الله عنه فى إصابة الصواب لا سيما فى المواضع الضنكة الضيقة... وعلى كل حال كلا الرجلين رضي الله عنهما، موفق إلى الصواب، جمعنا الله وإياكم بهما فى الجنة[1].

(١٥١٣) وعن جابِر بن سَمُرة رضي الله عنهما قال: شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعدًا، يَعنى: ابن أبى وقَّاص رضي الله عنه، إلى عُمَر بنِ الخطابِ رضي الله عنه، فعزَلَهُ واسْتَعمَلَ عليهِم عمَّارًا، فشَكَوْا حتَّى ذكَرُوا أَنَّهُ لا يُحسِنُ يُصَلِّى، فأرسَل إليه، فقالَ: يا أبا إسحاقَ، إنَّ هؤلاء يزْعُمون أَنَّكَ لا تُحسِنُ تُصَلِّى. فقالَ: أمَّا أنَا والله فَإِنِّى كُنْتُ أُصَلِّى بِهِم صَلاةَ رسُولِ الله ﷺ لا أَخْرِمُ عنْهَا... أُصَلِّى صَلاةَ العِشَاء فأركُدُ فى الأُولَيَيْنِ، وأَخِفُّ فى الأُخْرَيَينِ، قال: ذلك الظَنُّ بِكَ يا أبا إسْحاقَ، وأرسلَ معهُ رجُلًا - أو رِجَالًا - إلى الكُوفَةِ يَسألُ عنْهُ أهلَ الكُوفةِ، فَلَمْ يَدَع مَسْجِدًا إلا سألَ عنهُ، ويُثْنُونَ مَعرُوفًا، حتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لبَنِى عَبْسٍ، فقَامَ رجُلٌ مِنْهُم، يُقالُ لهُ أُسامةُ بنُ قَتادَةَ، يُكَنَّى أبا سَعدَةَ، فقالَ: أمَا إذْ نَشَدتَنَا فإنَّ سَعدًا كان لا يسِيرُ بالسَّرِيَّة، ولا يَقْسِمُ بالسَّوِيَّةِ، ولا يَعدِلُ فى القَضِيَّة.

قال سعدٌ: أمَا والله لأدعُونَّ بثلاثٍ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ عبْدُكَ هذا كاذبًا، قامَ رِيَاءً،

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٤/ ٣٧-٣٨) بتصرف.

وسُمْعَةً، فأطِلْ عُمُرَهُ، وأطِلْ فَقْرَهُ، وعَرِّضْهُ للفِتَنِ... وكانَ بَعدَ ذلكَ إذا سُئِلَ يقُولُ: شَيْخٌ كَبيرٌ مَفْتُون، أصَابَتْنِي دَعوةُ سعدٍ.

قال عبدُ الملكِ بنُ عُميرٍ الرَّاوي عنْ جابرِ بنِ سَمُرَةَ: فأنَا رأيْتُهُ بَعدُ قَد سَقَط حَاجِبَاهُ على عيْنَيْهِ مِن الكِبَر، وإنَّهُ ليَتَعَرَّضُ للجوارِي في الطُّرُقِ فيغْمِزُهُنَّ[1].

❁ وهذه كرامة أخرى لرجل من العشرة المبشرين بالجنة.. ألا وهو سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه.. الذي كان مُستجاب الدعاء.

وفي الحقيقة إنه ما من مسلمٍ إلا ويتمنَّى أن يستجيب الله دعاءه في كل مرة يدعو فيها ويسأل ربه من خيرى الدنيا والآخرة.

ولقد قام النبي ﷺ في يومٍ من الأيام ودعا لسعد بن أبي وقاص دعوة عظيمة بأن يستجيب الله دعاءه في أي وقتٍ وحين، فقال ﷺ: «**اللهُمَّ اسْتَجِب لِسَعدٍ إذَا دَعَاكَ**»[2].

❁ وفي يومٍ من الأيام أمَّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه واليًا على الكوفة.. فمكث بها مدة من الزمن فحصل بينه وبين بعض أهلها شيء حتى تكلموا فيه، وقدحوا فيه وسَبُّوه، حتى بلغ بهم الحد -والعياذ بالله- أنهم قالوا: (لا يُحسن أن يصلي!!) وهذا الكلام قالوه في رجلٍ يمشي على الأرض وهو من أهل الجنة... رجل من العشرة المبشرين بالجنة، ومع ذلك لم يَسلم من أذاهم.

فلما بلغ عمر رضي الله عنه شكواهم، وأنهم قالوا عنه: (لا يُحسن أن يصلي) كلَّم سعدًا في ذلك، فأخبره سعد أنه كان يصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ، وأنه كان يمد القراءة في الأُوليين ويطيلهما، ويحذف في الأُخريين، أي: يقصر القراءة فيهما، وقال: إنه لا يألوا -أي: لا يُقصر- فيما اتبع فيه رسول الله ﷺ، وإن هذا الفعل الذي يفعله إنما هو اقتداء برسول الله ﷺ... فقال له عمر رضي الله عنه: (هذا هو

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٥) كتاب الأذان، ومسلم (٤٥٣) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي، والحاكم (٣/ ٤٩٩) وصححه ووافقه الذهبي.

الظن بك يا أبا إسحاق).

ولكن مع ذلك تحرَّى عمر رضي الله عنه؛ لأنه يتحمل المسئولية ويعرف قدر المسئولية... أرسل رجالًا إلى أهل الكوفة، يسألونهم عن سعد وعن سيرته، فكان هؤلاء الرجال، لا يدخلون مسجدًا ويسألون عن سعد إلا أثنوا عليه معروفًا.

حتى أتى هؤلاء الرجال إلى مسجد بنى عبس، فسألوهم، فقام رجل اسمه أسامة بن قتادة فقال: أما إذ ناشدتنا، فإن سعدًا كان لا يعدل فى القضية ولا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية... فقوله لا يسير فى السرية، يعنى لا يخرج فى الجهاد... ولا يقسم بالسوية إذا غَنِم ولا يعدل فى القضية إذا حكم بين الناس.. فاتهمه بتلك التُّهَم الثلاث .. فما كان من سعدٍ رضي الله عنه إلا أن قال: أما والله لأدعون بثلاثٍ....

فدعا عليه سعد – وكان مُجاب الدعوة – فقال: (اللهم إن كان كاذبًا فيما يقول فأطِل عمره، وأطل فقره، وعرِّضه للفتن) فطال عمره، وكثر فقره، ونزل حاجباه على عينيه، وكان يلاحق النساء فتنة وابتلاءً وامتحانًا، فأصابته دعوة سعد.. وقال عن نفسه: (أصابتنى دعوة سعد) رضى الله عن سعد وعن الصحابة أجمعين.

ولكن عمر رضي الله عنه رأى من المصلحة أن يعزل سعدًا عن الكوفة ما دام أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد خشية أن يحصل له شىء لا يُحمَد عُقباه.. ولم ينسَ أن يُنبه على ذلك رضي الله عنه ، فإنه لما اختار ستة -بعدما طُعن- ليكونوا أهل الشورى فيختاروا خليفة منهم كان سعد واحدًا من هؤلاء الستة... فخشى عمر أن يقول قائل: لقد نسى عمر، فكيف يعزله من الكوفة وهى قرية ثم يُرشحه للخلافة؟ فأراد أن يبين أنه لم ينسَ، وأنه ما زال ذاكرًا للذى حصل منه من عزل سعد، فقال رضي الله عنه : (إن أصابت الإمارةُ سعدًا فذاك، هو أهلٌ لها، وإن لم تُصبه فليستعن به مَن أُمِّر، فإننى لم أعزله من عجزٍ ولا خيانة) فمسوغات العزل: العجز والخيانة، وإنما كان عزله لمصلحة، وهى: أن لا يعتدى عليه أحد، أو يحصل له ضرر لا تُحمَد عُقباه من هؤلاء السفهاء الذين بلغ بهم الحد إلى أن قالوا فيه ما قالوا،

فهو رجل يمشى على الأرض وهو من أهل الجنة رضي الله عنه.

(١٥١٤) وعن عُروةَ بن الزُّبَير أنَّ سعيدَ بنَ زَيْد بنِ عَمْرو بنِ نُفَيْلٍ رضي الله عنه، خَاصَمَتْهُ أرْوَى بِنْتُ أوْسٍ إلى مروانَ بنِ الحَكَم، وادَّعَتْ أنَّهُ أخَذَ شَيئًا مِن أرضِها، فقال سَعيدٌ: أنَا كُنْتُ آخُذُ مِن أرضِها شيئًا بعدَ الذى سمِعتُ مِن رسُولِ الله ﷺ؟ قال: ماذا سَمِعتَ مِنْ رسُولِ الله ﷺ؟ قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ أخَذَ شِبْرًا مِن الأرضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ إلى سَبْعِ أرضينَ» فقال لهُ مروان: لا أسألُكَ بَيِّنَةً بعد هذا... فقالَ سعيدٌ: اللَّهُمَّ إنْ كانَتْ كاذِبَةً، فأعمِ بَصَرهَا، واقْتُلها فى أرضِهَا... قال: فما ماتَتْ حتَّى ذهَبَ بصَرُها، وبيْنَما هى تمشى فى أرضِها إذ وَقَعَتْ فى حُفْرَةٍ فمَاتَتْ[1].

وفى روايةٍ لمسلم عن محمد بن زَيْد بن عبد الله بن عُمَر بمَعناهُ وأنَّهُ رآها عَمْياءَ تَلْتَمِسُ الجُدُرَ تقولُ: أصَابَتْنِي دَعوَةُ سعيدٍ، وأنَّها مرَّتْ على بِئرٍ فى الدَّارِ التى خاصَمَتْهُ فيها، فوقَعَتْ فيها، وكانَتْ قَبْرَها.

ففى هذا الحديث يحكى عروة بن الزبير رحمه الله **أن سعيد بن زيد** رضي الله عنه **أحد العشرة المبشرين بالجنة خاصمته امرأة اسمها أروى بنت أوسٍ إلى مروان بن الحكم وادَّعت عليه كذبًا أنه أخذ شيئًا من أرضها.. أى: اتهمته بأنه أدخل جزءًا من أرضها فى أرضه فأرسل مروان إلى سعيد من أجل أن يأتيه... فجاءه سعيد بن زيد فأخبره مروان أن أروى قد اتهمته بأنه أخذ شيئًا من أرضها.. فغضب سعيد وتعجَّب من هذا الكلام وقال لمروان:**

أَنَا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أَرضِهَا شَيْئًا بَعدَ الَّذِى سَمِعتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ... قَالَ: وَمَا سَمِعتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٩٨) كتاب بدء الخلق - ومسلم (١٦١٠) كتاب المساقاة.

مِنْ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ» فَقَالَ لَهُ مَروَانُ: لَا أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعدَ هَذَا.

فما كان من سعيد بن زيد رضي الله عنه إلا أن دعا على هذه المرأة التى كذبت وافترت عليه.. فقال فى دعائه:

اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً، فَأَعمِ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِى أَرضِهَا، قَالَ: فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا... ثُمَّ بَيْنَا هِىَ تَمْشِى فِى أَرضِهَا إِذْ وَقَعَتْ فِى حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ.

كل مؤمن يؤمن بالله ورسوله إذا سمع مثل هذا الخبر الصادر عن الصادق المصدوق ﷺ فإنه لا يمكن أن يظلم أحدًا ولا يأخذ من أرضه ولا شبرًا... فالرسول ﷺ يخبر أنك لو أخذت شبرًا من الأرض ... وقيده بالشبر من باب المبالغة وإلا فإن مَن أخذ أقل من ذلك ولو سنتيمتر واحدًا فإنه يُطوَّق به يوم القيامة من سبع أرضين... إذا كان يوم القيامة جاءت هذه القطعة التى أخذها مُطوقة فى عنقه من سبع أرضين... لأن الأرضين سبع طباق، كما قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢].

والإنسان إذا مَلَك أرضًا، مَلَك قعرها إلى أسفل السافلين، إلى الأرض السابعة، وإذا ملكها أيضًا مَلَك هواءها إلى الثُّريا، لا أحد يستطيع أن يبنى فوقه جسرًا أو أن يحفر تحته خندقًا، لأن الأرض له إلى أسفل السافلين، وإلى أعلى السماء، كلها له... فإذا كان يوم القيامة وهذا قد اقتطع شبرًا من الأرض بغير حق، فإنه يأتى يوم القيامة مُطوَّقٌ به عنقه - نسأل الله العافية [1].

❊ ❊ ❊

(١٥١٥) وعن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: لـمَّا حَضَرَتْ أُحُدٌ دَعانى أبى مِن اللَّيْلِ فقال: ما أُرَانِى إلا مَقْتُولًا فى أوَّل مَن يُقْتَلُ مِن أصحابِ النبى ﷺ، وإنِّى لا أتْرُكُ بعدِى أعزَّ علىَّ مِنْكَ غَيْرَ نَفْسِ رسُولِ الله ﷺ، وإنَّ علىَّ دَيْنًا فاقْضِ، واسْتَوصِ

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٤١).

بأَخَواتِكَ خَيرًا. فأصبَحنَا، فكان أوَّلَ قَتِيلٍ، ودَفَنْتُ معهُ آخرَ في قَبْرِه، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفسي أنْ أتْرُكَهُ مع آخَرَ، فاسْتَخْرَجته بعدَ سِتَّةِ أشْهُرٍ، فإذا هُو كيَوْمِ وضَعتُهُ غَيْرَ أُذُنِهِ، فجَعَلْتُهُ في قَبْرٍ على حِدَةٍ[1].

۞ ففي هذا الحديث أن والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.. وهو عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه كان قبل غزوة أُحد بليلة يشعر بأنه سينال الشهادة غدًا في تلك الغزوة فقال لابنه جابر: يا بنى ما أُرَانِي إلا مَقْتُولًا في أوَّل مَن يُقتَلُ مِن أصحابِ النبي ﷺ، وإنِّي لا أتْرُكُ بعدِي أعزَّ عليَّ مِنْكَ غَيْرَ نَفْسِ رسُولِ الله ﷺ، وإنَّ عليَّ دَيْنًا فاقْضِ، واسْتَوصِ بأَخَواتِكَ خَيرًا.

وفي اليوم التالي دخل والد جابر الغزوة وقاتل قتالًا شديدًا وكان من أوائل الذين استُشهدوا في غزوة أُحد وقام المشركون فمثَّلوا به.. فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يُغطوه حتى لا يتأثر جابر برؤية والده وقد مُثِّل به... فلما أراد جابر أن يكشف وجه أبيه نهاه الصحابة عن ذلك.

فرفعه رسول الله ﷺ، أو أمر به فرُفع فسمع صوت باكية أو صائحة. فقال: «مَن هذه؟» فقالوا: بنت عمرو، أو أخت عمرو. فقال: «**وَلِمَ تبكي؟ فما زالت الملائكة تُظله بأجنحتها حتى رُفع**»[2]

قال الإمام النووي رحمه الله: قوله ﷺ: «**فما زالت الملائكة تُظله بأجنحتها حتى رُفع**» ... قال القاضي: يحتمل أن ذلك لتزاحُمهم عليه لبشارته بفضل الله، ورضاه عنه، وما أعد له من الكرامة عليه. ازدحموا عليه إكرامًا له، وفرحًا به، أو أظلوه من حر الشمس لئلا يتغير ريحه أو جسمه... قوله: فقال رسول الله ﷺ: «**تبكيه أو لا تبكيه ما زالت الملائكة تُظله**» معناه: سواء بكت عليه أم لا فما زالت

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (١٣٥١) كتاب الجنائز.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٤٧١) كتاب فضائل الصحابة.

الملائكة تظله ... أى: فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره فلا ينبغى البكاء على مثل هذا.. وفى هذا تسلية لها.(١)

۞ ولم تكن تلك الكرامة الوحيدة التى حدثت له.. بل لقد أخبر النبى ﷺ جابر بن عبد الله أن الله عز وجل كلَّم أباه كِفاحًا بغير حجاب.

فعن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، يوم أُحدٍ، قال رسول الله ﷺ: **«يا جابر! ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك؟»** قلت: بلى، قال: **«ما كلَّم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحًا**(٢)**، فقال: يا عبدى، تمنَّ علىَّ أُعطك، قال: يا رب تُحيينى فأُقتلُ فيك ثانيةً. قال: «إنه سبق منى أنهم إليها لا يُرجعون»** قال: يا رب فأبلغ مَن ورائى، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾»(٣).

۞ وفوق ذلك كله فلقد أخبر جابر رضي الله عنه أن أباه لما دُفن مع صحابى آخر فى قبر.. لم تطب نفس جابر أن يتركه فى القبر مع رجلٍ آخر فاستخرجه من قبره بعد ستة أشهر.. فكانت الكرامة الأخرى أنه وجده كيومِ وضعه فى القبر غير أذنه فقط هى التى تغيرت.. فوضعه فى قبرٍ وحده...

فى هذا الحديث كرامة لأبى جابر وهو عبد الله بن عمرو بن حرام أنه رضي الله عنه صَدَقَ اللهُ رؤياه فصار أول قتيل فى أُحد... ودفن ولم تأكل الأرض منه شيئًا إلا يسيرًا وقد مضى عليه ستة أشهر وهذا من كراماته.

واعلم أن الإنسان إذا دُفن فإن الأرض تأكله لا يبقى إلا عجبُ الذَّنَب، وعَجبُ الذَّنَب هذا يكون كالنواة لخلق الناس يوم القيامة، تنبت منه الأجساد، إلا الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) فإن الأرض لا تأكلهم... كما قال النبى

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٧- ٣٩) بتصرف.

(٢) كفاحًا: أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول... وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٣) صحيح: رواه الترمذى،وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٠٥).

ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» أما غير الأنبياء فإن الأرض تأكل أجسادهم، ولكن قد يمنع الله الأرض أن تأكل أحدًا كرامة له.

(١٥١٦) وعن أنسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلَيْنِ مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ خَرَجا مِن عِنْدِ النَّبيِّ ﷺ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ومَعَهُما مِثْلُ المِصبَاحَينِ بيْنَ أيدِيهِما، فَلَمَّا افترَقَا، صَارَ مَعَ كلِّ واحِدٍ منهما واحِدٌ حتَّى أتَى أهْلَهُ(١).

۞ ففي هذا الحديث يحكي أنس رضي الله عنه أن رجلين من أصحاب الرسول ﷺ - وهما أُسيد بن حُضير وعبَّاد بن بشر رضي الله عنهما - كانا عند النبي ﷺ فجلسا عند النبي ﷺ فترة طويلة حتى حَلَّ الظلام.. فلما خرجا من عنده ﷺ.. كان مع كل واحدٍ منهما عصاه.. فأضاءت عصا واحدٍ منهما وكأنها مصباح.. فلما افترقا صار مع كل واحدٍ منهما نور في عصاه وكأنه مصباح حتى وصل إلى بيته..

وهذا كما جاء في الرواية الأخرى.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ وَعَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ كَانَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ أَضَاءَتْ عَصَا أَحَدِهِمَا فَكَانَا يَمْشِيَانِ بِضَوْئِهَا فَلَمَّا تَفَرَّقَا أَضَاءَتْ عَصَا هَذَا وَعَصَا هَذَا»(٢).

۞ وتلك كرامة عجيبة لهذين الصحابيين.. وكما أنعم الله عليهما بالنور الحسِّي.. فهناك نورٌ معنوي يقذفه الله في قلب مَن يشاء من عباده.. فتجد بعض أهل العلم قد أنار الله بصيرته وفتح عليه من العلوم الواسعة في كل فنٍّ ورزقه الفهم والحفظ والمجادلة .. فاللهم ارزقنا نورًا حِسِّيًّا ومعنويًّا في الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٦٥) كتاب الصلاة.
رواهُ البُخاري مِنْ طُرُقٍ؛ وفي بَعضِهَا أنَّ الرَّجُلَيْنِ أُسَيْدُ بنُ حُضير، وَعَبّادُ بنُ بِشْرٍ رضي الله عنهما .
(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٢٠٣٠).

(١٥١٧) وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بَعثَ رسُولُ الله ﷺ عَشَرةَ رهْطٍ عَيْنًا سَرِيَّةً، وأمَّرَ عليهم عَاصِمَ بنَ ثابتٍ الأنصاريّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فانطَلَقُوا حتَّى إذا كانُوا بالهَدأةِ، بيْنَ عُسْفانَ ومكَّةَ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ منْ هُذَيلٍ يُقالُ لهم: بنُو لِحيَانَ، فنَفَرُوا لهمْ بقَريب منْ مائةِ رجُلٍ رامٍ فاقْتَصُّوا آثارَهُم، فلَمَّا أحَسَّ بهمْ عاصمٌ وأصحابُهُ، لجأوا إلى مَوْضِعٍ، فأحاطَ بهمُ القَوْمُ، فقالوا: انْزلوا فأعطُوا بأيْدِيكُمْ ولكُم العَهْدُ والمِيثاقُ أنْ لا نَقْتُلَ مِنْكُم أحدًا، فقالَ عاصم بن ثابت: أيها القومُ، أمَّا أنَا فلا أنْزِلُ على ذِمَّةِ كافرٍ. اللَّهمَّ أخْبِر عنَّا نَبيَّكَ ﷺ، فرمَوْهُم بالنَّبْلِ فقتَلُوا عَاصِمًا، ونَزَلَ إليْهِمْ ثلاثَةُ نَفَرٍ على العهدِ والمِيثاقِ، مِنهم خُبَيْبٌ، وزَيْدُ بنُ الدَّثِنَة ورَجُلٌ آخَرُ، فلمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُم أطْلَقُوا أوتَار قِسِيِّهِمْ، فَربطُوهُمْ بها، قال الرَّجلُ الثَّالِثُ: هذا أوَّلُ الغَدرِ والله لا أصحبُكم إنَّ لي بهؤلاءِ أُسْوَةً - يُريدُ القَتْلى - فجرُّوهُ وعالجوه، فأبى أنْ يَصحَبَهُمْ، فقَتَلُوه، وانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ، وزَيْدِ بنِ الدَّثِنَة، حتَّى باعُوهما بمكَّة بَعد وَقْعةِ بدرٍ، فابتَاعَ بَنُو الحارِثِ بنِ عامِرِ بن نوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ خُبَيْبًا، وكانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَل الحارِثَ يوْمَ بَدرٍ، فلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُم أسِيرًا حتَّى أجْمَعُوا على قَتْله، فاسْتَعارَ مِن بعضِ بناتِ الحارِثِ مُوسَى يَسْتَحِدُّ بها فأعَارَتْهُ، فدَرجَ بُنَيٌّ لها وهي غَافِلَةٌ حتَّى أتَاه، فوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ على فَخِذِهِ والمُوسَى بِيده، ففَزِعَتْ فَزْعَةً عَرَفَها خُبَيْبٌ، فقال: أتَخْشَيْنَ أن أقْتُلَهُ، ما كُنْتُ لأفْعَل ذلكَ، قالتْ: والله ما رأيْتُ أسِيرًا خَيْرًا مِن خُبيبٍ، فوالله لقَد وجدتُهُ يومًا يأكُلُ قِطْفًا مِن عِنبٍ في يدهِ، وإنَّهُ لمُوثَقٌ بالحديدِ وما بمَكَّةَ مِنْ ثَمرةٍ، وكانَتْ تقُولُ: إنَّهُ لرزقٌ رزقَهُ الله خُبيبًا، فلَمَّا خرجُوا بهِ مِن الحرمِ لِيَقْتُلُوهُ في الحِلِّ، قال لهُم خُبيبٌ: دعُوني أُصَلِّي ركعَتَيْنِ، فترَكُوه، فركعَ رَكْعَتَيْنِ، فقال: والله لَولا أنْ تَحسبُوا أنَّ ما بي جزَعٌ لزدتُ: اللَّهُمَّ أحصِهِمْ عددًا، واقْتُلهمْ بِدَدًا، ولا تُبْقِ منهم أحدًا وقال:

فلَسْتُ أُبالي حينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... على أيِّ جَنْبٍ كانَ لله مَصرَعِي
وذلِكَ في ذاتِ الإلَهِ وإنْ يَشَأ ... يُبَارِكْ عَلَى أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وكانَ خُبيْبٌ هُو سَنَّ لِكُلِّ مُسْلمٍ قُتِلَ صبْرًا الصَّلاةَ، وأخْبَر - يعنى النبى ﷺ أصحابهُ يوْمَ أُصِيبُوا خبرهُمْ، وبعَثَ ناسٌ مِن قُريشٍ إلى عاصِم بن ثابتٍ حينَ حُدِّثُوا أنَّهُ قُتِل أنْ يُؤْتَوا بشَىءٍ مِنْهُ يُعرَفُ. وكان قتَل رجُلًا مِن عُظمائِهِمْ، فبعَثَ الله لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ، فحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ، فلَمْ يقْدِرُوا أنْ يَقْطَعُوا مِنه شيئًا[(١)].

وفى الباب أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ سبقت فى مواضعها مِن هذا الكتاب منها حديثُ الغُلام الذى كان يأتى الرَّاهِبَ والسَّاحِرَ، ومنها حديثُ جُرَيجٍ، وحديثُ أصحابِ الغار الذين أطْبَقَتْ عليهم الصَّخْرَةُ، وحديثُ الرَّجُلِ الذى سَمِعَ صَوتًا فى السَّحابِ يقول: اسْقِ حدِيقة فلانٍ، وغيرُ ذلك ... والدلائلُ فى الباب كثيرةٌ مَشهورةٌ، وبالله التوفيقُ.

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ أرسل عَشَرَةَ رهْطٍ عَيْنًا.. أى: مثل الجواسيس على العدو.. وأمَّرَ عليهم عَاصِمَ بنَ ثابتٍ الأنصارىّ رضي الله عنه... فلما وصلوا إلى مكانٍ قريبٍ من مكة شعر بهم جماعة من هُذيل فخرجوا عليهم فى نحو مائة رجل يجيدون الرمى جميعًا.. فاحاطوا بهم وقالوا لهم: انْزلوا فأعطُوا بأيْدِيكُمْ ولكُمُ العَهْدُ والمِيثاقُ أنْ لا نَقْتُل مِنْكُم أحدًا... فقالَ عاصم بن ثابت: أمَّا أنَا فلا أنْزِلُ على ذِمَّةِ كافرٍ... وذلك لأن الكافر قد خان الله عز وجل فكيف لا يخون عباد الله؟!... المهم أنهم رموهم حتى قتلوا منهم سبعة فيهم عاصم الذى هو أميرهم، وبقى ثلاثة، فنزل هؤلاء الثلاثة، وهم خُبيب و زيد بن الدثنة ورجلٌ آخر... فلما نزلوا أطلقوا أوتار قسيهم - جمع قوس - فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩٨٩) كتاب المغازى.

قولُهُ: الهَدأَةُ: مَوْضِعٌ، والظُّلَّةُ: السحاب، والدَّبْرُ: النَّحلُ. وقولُهُ: «اقْتُلْهُم بِدَدًا» بكسر الباء وفتحها، فمن كسر، قال: هو جمع بِدَّةٍ بكسر الباء، وهو النصيب، ومعناه اقْتُلْهُم حِصَصًا مُنْقَسِمَةً لِكلِّ واحدٍ منهم نصيبٌ، ومَن فتحَ قال: معناه: مُتَفرِّقِينَ فى القَتْلِ واحِدًا بعدَ واحِد مِن التَّبْدِيدِ.

وهو كونهم قالوا: انزلوا ولكم العهد أنه لا يحصل لكم شيء.

ثم بعد ذلك ربطوهم، فقال: لى بأصحابى أسوة ولن أصحبكم.

فجعلوا يجرونه وهو يأبى أن يصحبهم، فقتلوه فصار الذين قُتلوا ثمانية، فبقى الاثنان خُبيب وزيد بن الدثنة.

ثم ذهبوا بخُبيب وصاحبه إلى مكة فباعوهما، فاشترى خبيبًا رضي الله عنه أُناسٌ من أهل مكة وقد كان قتل زعيمًا لهم فى بدر ، ورأوا أن هذه فرصة أن يقتلوه ثم أبقوه عندهم أسيرًا مغلولة يداه، وفى يوم من الأيام كان خُبيب فى البيت وكان أسيرًا مغلولة يده، فدرج صبى من أهل البيت إلى خبيب رضي الله عنه ، فكأنه رَقَّ له ورحمه فأخذ الصبى ووضعه على فخذه وكان قد استعار من أهل البيت موسى (يعنى موس) يستحد به أى يحلق به عانته، لما ذهب الصبى يلعب وأمه غافلة عنه... فلما تفطنت له إذا هو على فخذ خُبيب.. وخُبيب معه الموس فظنت أن هذه فرصة لخبيب، ليذبح الولد... فالموس معه والولد صبى صغير وهو منفرد به، لكنه رضي الله عنه رجلٌ أمين، وصحابى جليل، لما أحسَّ أنها ارتاعت (فزعت)، قال: والله ما كنت لأذبحه... قالت: والله ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب.. لقد رأيته ذات يوم وفى يده قطفٌ من عنب يأكله، ومكة ما فيها ثمر، فعلمت أن ذلك من عند الله عز وجل ... الله سبحانه وتعالى هيأ له هذا العنب وهو أسير لا يملك لنفسه شيئًا... لا يستطيع أن يخرج إلى السوق يشترى أو يطعم... فهو تحت رحمة هؤلاء، ولكن الله (جل وعلا) يسَّر له هذا القطف من العنب، ليأكل عنبًا وهو فى مكة فعلمت أنه من عند الله.

المهم أنهم خرجوا بخبيب خارج الحرم إلى الحِلِّ ليقتلوه، فطلب منهم أن يصلى ركعتين؛ لأن أشرف الأعمال البدنية الصلاة، ولأنها صلة بين العبد وبين ربه عز وجل ، فأذنوا له أن يصلى ركعتين.. فلما انتهى منها قال: لو لا أنى أخاف أن

تظنوا أن بى جزعًا لزدت... لأنه رضي الله عنه، كان حريصًا على الصلاة ويحب أن يُكثر منها عند موته ... ثم دعا عليهم رضي الله عنه بهذه الدعوات الثلاث... اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بَددًا، ولا تُبقِ منهم أحدًا. فأجاب الله دعوته، وما دار الحَول على واحدٍ منهم، حتى قُتلوا وهذا من كرامته. ثم أنشد هذا الشعر:

فلَسْتُ أُبالى حينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... على أىِّ جَنْبٍ كانَ لله مَصرَعِى

وذلِكَ فى ذاتِ الإلَهِ وإنْ يشَأ ... يُبَارِكْ عَلَى أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فصار من الكرامة لهذا الرجل أن الله سبحانه وتعالى كان يرزقه الفاكهة التى لا تُوجد فى مكة، وأنه كان يأكلها بيده، ويده موثقة بالحديد، وأنه أول مَن سَنَّ الصلاة عند القتل، فإنه فعل ذلك وأقره الله ورسوله ﷺ... وأنه دعا على هؤلاء القوم، فأجاب الله دعوته.

أما عاصم بن ثابت الذى قُتل رضي الله عنه، فإنه شعر به قوم من قريش، وكان قد قَتل رجلًا من عظمائهم فأرسلوا إليه جماعة يأتون بشىء من أعضائه يُعرف به حتى يطمئنوا أنه قُتل... فلما جاء هؤلاء القوم ليأخذوا شيئًا من أعضائه، أرسل الله سبحانه وتعالى عليه شيئًا مثل الظُّلة من الدَّبر (أى من النحل أو الدبابير)، يحميه به الله تعالى من هؤلاء القوم، فعجزوا أن يقربوه ورجعوا خائبين.

وهذا أيضًا من كرامة الله سبحانه وتعالى لعاصم رضي الله عنه، أن الله سبحانه وتعالى حمى جسده بعد موته من هؤلاء الأعداء الذين يريدون أن يُمثلوا به[1].

***

(١٥١٨) وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما قال: ما سَمِعتُ عُمرَ رضي الله عنه يقولُ لِشَىءٍ قَطُّ: إنِّى لأظُنُّهُ كذا إلا كان كما يَظُنُّ[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٤٧-٤٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٨٦٦) كتاب المناقب.

۞ وهذا موافق لما قاله النبى ﷺ عن عمر رضي الله عنه حيث قال ﷺ: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناسٌ مُحدَّثون فإن يك فى أمتى أحدٌ فإنه عمر**».

«**مُحدَّثون**»: أى: مُلهَمون..

(١٧) كتاب الأمور المنهى عنها

(٢٥٤) باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان

۞ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ [الحجرات:١٢].

۞ الغيبة من أخطر آفات اللِّسان، وهى مرضٌ خطيرٌ يُفرِّق بينَ الأحباب، ومن أحسن تعاريفها: «**ذكْرُ العَيبِ بظَهْرِ الغَيبِ**»(١).

وأحسن من ذلك التَّعريف تعريفُ النبىِّ ﷺ بأنَّها: ذِكرُكَ أخاكَ بِمَا يكرهُهُ مِنْ خَلْفِهِ.

۞ **فعن المَّطلب بن عبد الله قال**: قال رسول الله ﷺ: «**الغيبةُ: أن تَذْكرَ الرَّجلَ بما فِيهِ مِنْ خَلْفِهِ**»(٢)(٣).

۞ **وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه، **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ، **قَالَ**: «**أَتَدرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**» قِيلَ: أَفَرأَيْتَ(٤) إِنْ كَانَ فِى أَخِى مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَد بَهَتَّهُ**»(٥)(٦).

إن الواجب على المسلم أن يحفظ لسانه من كل سوء فلا يذكر أحدًا بسوء ولا ينطق بكلمة تجلب له سخط الله وغضبه بل وتذهب بحسناته وتزيد من سيئاته.

---

(١) «التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف» (ص ٢٥٤).

(٢) قال الغزالىُّ فى «الإحياء» (٣/ ١٥٢): «مِن خَلفِه»: «أى: فى غيبته، بلغه ذلك أم لم يبلغه، وسواء ذكره بنقصٍ فى بدنه، أو نَسَبِه، أو خُلقه، أو فِعله، أو قوله، أو دينه، وحتى فى ثوبه، وداره، ودابته».

(٣) صحيح: رواه الخرائطىُّ فى «مساوئ الأخلاق»، ورواه مالكٌ وابن المبارك، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٨٦).

(٤) أفرأيت: أخبرنى.

(٥) «بهتَّه»: افتريت عليه الكذب.

(٦) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة.

۞ ومن هنا فإنه يجب علينا ألا نذكر أحدًا بسوء وألا نغتاب الناس من حولنا ... بل علينا أن نذكرهم بخير حتى تتآلف القلوب ويزداد المسلمون محبةً وترابُطًا وقوةً وتآلفًا.

۞ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فنهى الله عن الغيبة ثم ضرب مثلًا يُنفِّر منه كل أحدٍ، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، لو قُدم لك أخوك المسلم ميتًا هل تحب أن تأكل لحمه؟ الجواب: لا.

الكل يقول: لا أحب ذلك، ولا يمكن... فإذا قال قائل: ما هى مناسبة الغيبة لهذا المثل؟ قلنا: لأن الذى تغتابه غائب لا يمكن أن يدافع عن نفسه، كالميت إذا قطعت لحمه لا يمكن أن يقوم ليدافع عن نفسه... ولهذا إذا ذكرت أخاك بما يكره فى حال وجوده فإن ذلك لا يُسمَّى غيبة بل يُسمَّى سَبًّا وشَتمًا.

۞ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾، فأمر بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ بعد أن نهى عن الغيبة... وهذا إشارة إلى أن الذين يغتابون الناس لم يتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ.

واعلم أنك إذا سُلِّطت على عيب أخيك ونشرته وتتبعت عورته فإن الله تعالى يقيد لك مَن يفضحك ويتتبع عورتك حيًّا كنت أو ميتًا.

لأن النبى ﷺ قال: «مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، فَضَحَهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»[1][2].

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٤).

(٢) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٤/ ٥٢-٥٣).

واعلم أن الغيبة تزداد قُبحًا وإثمًا بحسب ما تؤدى إليه... فغيبة العامة من الناس ليست كغيبة العالِم أو ليست كغيبة الأمير أو المدير أو الوزير أو ما أشبه ذلك... لأن غيبة ولاة الأمور صغيرًا كان الأمر أو كبيرًا أشد من غيبة مَن ليس له إمرة وليس له أمر ولا ولاية... لأنك إذا اغتبت واحدًا من عامة الناس فإنما تُسيء إليه شخصيًّا فقط، أما إذا اغتبت مَن له أمر فقد أسأت إليه وإلى ما يتولاه من أمور المسلمين.

۞ وعن أَبى بَكْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ فى خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحرِ بِمِنًى فى حَجَّةِ الوَدَاعِ: «**إنَّ دِماءكُم، وَأمْوَالَكُمْ، وأعرَاضَكُمْ، حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فى شَهْرِكُمْ هَذَا، فى بَلَدِكُمْ هَذَا، ألا هَلْ بَلَّغْتُ**»(١).

۞ بل وضَّح النبى ﷺ أن الغيبة من أسباب عذاب القبر، وأن مَن اغتاب المسلمين وتتبَّع عوراتهم فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يتتبع عورته ويفضحه، ولو فى جوف بيته وأن من اغتابه فى الدنيا فإنه يُقدَّم له ميتًا ليأكل لحمه يوم القيامة ...

وها هى الأحاديث الدَّالة على ذلك.

عَنْ أَبِى بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ النَّبِىُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ. فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِى كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيُعَذَّبُ فِى الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَيُعَذَّبُ فِى الْغِيبَةِ**»(٢).

۞ وعَنْ جَابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَارتَفَعَتْ رِيحٌ مُنْتِنَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَدرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ الْمُؤْمِنِينَ**»(٣).

۞ وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا عُرِجَ بِى مَرَرتُ**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٥٠) كتاب الأضاحى، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة والمحاربين.

(٢) الحديث رواه أحمد – وأصله فى الصحيحين وفيه ذكر النميمة بدل الغيبة – رواه البخارى (٢١٨) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٩٢) كتاب الطهارة.

(٣) حسن: رواه أحمد، وابن أبى الدنيا، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٨٤٠).

بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ(١) وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»(٢).

۞ وَعَنْ أَبِي بَرزَةَ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا مَعشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»(٣).

۞ وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ(٤) مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا(٥) وَكَذَا -قَالَ بعضُ الرُّواة: تَعنِي قَصِيرَةً- فَقَالَ: «لَقَد قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحرِ لَمَزَجَتْهُ» قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا(٦)، فَقَالَ: «مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا»(٧).

۞ قال النووي رحمه الله: ومعنى: «مَزَجَتْهُ» خَالَطَتْهُ مُخَالَطَةً يَتَغَيَّرُ بِهَا طَعمُهُ أَوْ رِيحُهُ لِشِدَّةِ نَتْنِها وَقُبْحِهَا . . . وهذا الحديث مِنْ أبلَغِ الزَّواجِرِ عَنِ الغِيبَةِ(٨).

۞ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَربَى الرِّبَا الاسْتِطَالَةَ فِي عِرضِ المُسْلِمِ بِغَيرِ حَقٍّ»(٩).

---

(١) يخمشون: يجرحون.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١٣)، والصحيحة (٥٣٣).

(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤).

(٤) حسبك: كافيك.

(٥) استدلَّ العلماء بهذا الحديث بأنَّ الغيبة تقع بغير اللِّسان. قال النَّوويُّ: «وكذا سائر ما يُتوصَّل به إلى فهم المقصود: كأن يمشيَ مِشيته فهو غيبة، بل هو أعظمُ من الغيبة». «الزواجر» (٢/ ١٧).

(٦) «حكيت له إنسانًا»: أي: حكيتُ له حركةَ إنسانٍ يكرهها، بمعنى: فعلتُ مثلَ فعله.

(٧) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٤٠).

(٨) «رياض الصالحين» (ص ٤٤٨).

(٩) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٣).

۞ وَقَالَ ﷺ: «الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَدناهَا مِثْلُ إِتْيَانِ الرَّجُلِ أُمَّهُ، وَإِنَّ أَربَى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرضِ أَخِيهِ»(١).

۞ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ لَحمَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا قُرِّبَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: كُلْهُ مَيِّتًا كَمَا أَكَلْتَهُ حَيًّا فَيَأْكُلُهُ وَيَكْلَحُ وَيَصِيحُ»(٢).

۞ قال تَعالَى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تَعالَى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨].

اعلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يحفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَمِيعِ الكَلامِ إِلاَّ كَلامًا ظَهَرَتْ فِيهِ المَصلَحَةُ... ومَتَى اسْتَوَى الكَلامُ وَتَركُهُ فِي المَصلَحَةِ، فالسُّنَّةُ الإمْسَاكُ عَنْهُ، لأَنَّهُ قَد يَنْجَرُّ الكَلاَمُ المُبَاحُ إِلَى حَرَامٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، وذَلِكَ كَثِيرٌ فى العَادَةِ، والسَّلامَةُ لا يَعدِلُهَا شَيْءٌ.

(١٥١٩) وعن أَبِي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصمُتْ»(٣).

۞ وهذا الحَدِيث صَرِيحٌ فى أَنَّهُ يَنْبَغى أَنْ لا يَتكَلَّمَ إِلاَّ إِذَا كَانَ الكلامُ خَيرًا، وَهُوَ الَّذِى ظَهَرَتْ مَصلَحَتُهُ... ومَتَى شَكَّ فى ظُهُورِ المَصلَحَةِ، فَلاَ يَتكَلَّم.

يعني: يتكلم بما هو خير ... من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والدلالة على الخير، وإرشاد الضال، ودلالة

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الأوسط، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٣٧).
(٢) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (١٠/ ٤٨٥) : سنده حسن.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٧٥) كتاب الرقاق - ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

مَن يحتاج إلى الدلالة على الخير ... كل ذلك يكون من الأعمال التى يستعمل فيها اللسان، وإذا لم يكن الإنسان يستعمل لسانه فى الخير فلا أقل من أن يصمت... وأما إن استعمله فيما يعود عليه بالضرر فإن وباله عظيم، وضرره كبير... كما قال ﷺ: **«وهل يَكُبّ الناسَ فى النار على وجوههم -أو قال: على مناخرهم- إلا حصائدُ ألسنتهم»**.

ويقولون: (كَلْمُ اللسان أنكأُ من كَلْم السِّنان)، أى: الجرح الذى يكون باللسان أشد من الجرح الذى يكون بالسِّنان ... والإنسان إذا لم يتكلم بالكلمة غير السائغة فإنه يكون مالكًا لها؛ ولكنه إذا تكلم بها ملكته ولم يملكها، فلا يستطيع ردَّها أو إرجاعها ... وفى المثل: كم من كلمة قالت لصاحبها دعنى! سواء ندم الإنسان عليها أو لم يندم عليها ولكنه تضرر بها... فكأنها قالت له: دعنى قبل أن يقولها..وقبل أن يقولها لو صرفها لسَلِم؛ لكنه لما قالها وخرجت من فِيه ترتَّبت عليها آثارها، ولا يتخلص الإنسان منها... فإن كانت حقًّا لله عَزَّوَجَلَّ فيستغفر الله عَزَّوَجَلَّ ويتوب، وإن كانت حقًّا للناس فعليه أن يطلب منهم أن يجعلوه فى حِلٍّ مما نالهم به من الغيبة أو من الكلام الذى يسوءهم.

وعلى هذا: فعلى المسلم الناصح لنفسه أن يحفظ لسانه من الكلام إلا فى خير، كما قال (عليه الصلاة والسلام) فى هذا الحديث: **«مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَقُل خيرًا أو ليصمت»**، ففيه الترغيب فى الكلام فى الخير، والترهيب من الكلام فى الشر؛ لأنه إذا لم يستعمله فى الخير واستعمله فى الشر، فإن مغبة ذلك ومضرته تعود عليه.

فما كان من خيرٍ فَقُله، وما كان من شر فاسكت عنه، واعلم أن الشر يؤذيك فى الدنيا وفى الدين... ويوم القيامة ينطق عليك لسانك شاهدًا عليك بما قلته وبما آذيت به غيرك، ولذلك فإن المؤمن يخطم نفسه ويكتم لسانه، ويسكت إلا فى الخير، فينطق دون أن يَملَّ من الخير.

(١٥٢٠) وعن أبى مُوسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ: يا رسولَ الله، أيُّ المُسْلمينَ أفْضَلُ؟ قال: «مَنْ سَلِمَ المُسلمونَ مِن لِسَانِهِ ويدِهِ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢١٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٥٢١) وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِى مَا بَيْنَ لَحيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»(٢).

(١٥٢٢) وعن أَبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّه سمع النبىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنَّ العَبْدَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ»(٣).

(١٥٢٣) وعنه، عن النبىّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إنَّ العَبْدَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تَعالَى مَا يُلْقِى لَهَا بَالًا يرفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرجاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلَمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعالَى لا يُلْقِى لَهَا بَالًا يَهْوِى بِهَا فى جَهَنَّمَ»(٤).

(١٥٢٤) وعن أَبى عبد الرحمن بِلالِ بن الحارثِ المُزَنِىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يوم يَلْقَاهُ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغتْ يَكْتُبُ الله لَهُ بِهَا سَخطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»(٥).

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذه أحاديث فى بيان خطر اللسان وأنه من أعظم ما يكون من الأعضاء

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٢) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

ما بين لحييه: أى لسانه - ما بين رجليه: أى الفرج.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٧٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٨٨) كتاب الزهد والرقائق.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٤٧٨) كتاب الرقاق.

(٥) صحيح: رواه أحمد والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦١٩).

خطورة ... ففى الحديث الأول أن النبى ﷺ قال: «**مَنْ يَضْمَنْ لِى مَا بَيْنَ لَحيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ** » الذى بين لَحييه هو اللسان والذى بين الرجلين هو الفرج، سواء كان للرجل أو المرأة... يعنى مَن حفظ لسانه وحفظ فرجه ... حفظ لسانه عن القول المحرم، من الكذب والغيبة والنميمة والغش وغير ذلك، وحفظ فرجه من الزنا واللواط ووسائل ذلك... فإن النبى ﷺ يضمن له الجنة... يعنى أن جزاءك هو الجنة إذا حفظت لسانك وحفظت فرجك.. فزلة اللسان كزلة الفرج، خطيرة جدًّا، وإنما قرن النبى ﷺ بينهما لأن فى اللسان شهوة الكلام ... فكثير من الناس يتنطع ويتلذذ إذا تكلم فى أعراض الناس ويتفكه والعياذ بالله ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين:٣١] فنجده أحب شىء عنده أن يتكلم فى أعراض الناس... ومن الناس مَن يهوى الكذب، فتجد أحسن شىءٍ عنده هو الكذب ... والكذب من كبائر الذنوب.

وأما الثانى: الذى قرن بينه وبين شهوة الكلام فهو شهوة النساء، فإن الإنسان مجبول على ذلك ولاسيما إذا كان شابًّا... فإذا حفظ هاتين الشهوتين، ضمن النبى ﷺ له الجنة... أى هذا جزاؤه، لأنهم خطيران.

۞ **وأما الحديث الثانى: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»** الكلمة (ما يتبين فيها) يعنى لا يتأكد ... ينقل ما سمع «**وكَفَى بِالْمَرءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ** »[1]. فتجده يتكلم بالكلمة ولا يتبين ولا يتثبت ولا يدرس معناها ولا يدرس ماذا تُوصل إليه، والعياذ بالله يزل بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.

ومسافة ما بين المشرق والمغرب بعيدة جدًّا... نصف الكرة الأرضية، ومع ذلك كلمة واحدة زَلَّ بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥) كتاب المقدمة.

وهذا يدل على وجوب التأكد مما تتكلم به، سواء نقلته إلى غيرك أو نقلته عن غيرك ... تَثَبَّت، واصبر، لا تستعجل، ما الذى يوجب لك أن تستعجل فى المقال؟ اصبر حتى تتثبت ويتبين لك الأمر، ثم إن رأيت مصلحة فى الحديث فتحدث، وإذا لم ترَ مصلحة فى الحديث فاسكت «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصمُتْ»[1].

۞ **وأما الحديث الثالث:** هو أن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله ...يعنى كلمة تُرضى الله ... قرآن، تسبيح، تكبير، تهليل، أمر بالمعروف، نهى عن المنكر، تعليم علم، إصلاح ذات البين، وما أشبه ذلك ... يتكلم بالكلمة تُرضى الله عَزَّوَجَلَّ ولا يُلقى لها بالًا... يعنى أنه لا يظن أنها تبلغ به ما بلغت، وإلا فهو قد درسها وعرفها وألقى لها البال، لكن لا يظن أن تبلغ ما بلغت يرفعه الله بها درجات فى الجنة... وفى المقابل فهذا رجل يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقى لها بالًا يهوى بها فى النار، لأنه تكلم بها وما ظن أن تبلغ ما بلغت... وهذا يقع كثيرًا من الناس والعياذ بالله.

قَالَ ﷺ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِى إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا مُذْنِبًا، وَالآخَرُ مُجْتَهِدًا فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِر، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِر، فَقَالَ: خَلِّنِى وَرَبِّى أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لا يُدخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فقُبض روحهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِى عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِى يَدِى قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحمَتِى، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»[2].

۞ وَعَنْ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَدَّثَ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٧٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٥٥).

اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّى قَدْ غَفَرتُ لِفُلَانٍ، وَأَحبَطْتُ عَمَلَكَ»[1].

انظر، والعياذ بالله..تحجَّر واسعًا وتألَّى على الله، وقال: والله لا يغفر الله لفلان.

لأن الرجل العابد هذا مُعجبٌ بعمله، يرى نفسه، ويدلّ بعمله على ربه، وكأن له المنة على الله سبحانه وتعالى، فقال: «**وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّى قَد غَفَرتُ لِفُلَانٍ، وَأَحبَطْتُ عَمَلَكَ**» المُلك والسلطان لمن؟ لله عَزَّوَجَلَّ... المُلك ليس لك حتى تقول: والله لا يغفر الله لفلان.

والملك والسلطان لله لا ينازعه فيه منازع إلا أذله الله ...قال: مَن ذا الذى يتألَّى عليَّ -أى: يحلف عليَّ- أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت لفلان وأحبطت عملك ... كلمة واحدة صارت سببًا لحبط عمله ... نسأل الله العافية.

إذًا ...احذر زلة اللسان ... ومن ذلك أيضًا - أى من زلل اللسان - إذا قال رجلٌ مثلًا: يا فلان، إن جارنا لا يصلى لعلك تنصحه إن شاء الله ...قال له: هذا لا يمكن أن يهتدى أبدًا...هذا طاغٍ .. هذا فاسق.

أعوذ بالله...القلوب بيد مَن؟ بيد الله عَزَّوَجَلَّ كما أخبرنا النبى ﷺ وقال: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»[2].

وهذا شىء مُسَلَّمٌ به حتى إن الإنسان أحيانًا يجد فى قلبه أشياء يعرف أنها من الشيطان، وأنه إن لم يُثبِّته الله زَلَّ...فالقلوب بيد الله عَزَّوَجَلَّ فكيف تقول: هذا لا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر.

يمكن أن يهتدى أبدًا!!... هذا لا يجوز...عليك بالدعاء له بالهداية ولا تيأس... ألا يوجد فى هذه الأمة مَن كان من ألدِّ أعدائها وأشد خصومها؟ وكان ثانى اثنين فى زعامة الأمة بعد نبينا محمد ﷺ؟ ... إنه عمر بن الخطاب... نعم لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مناوئًا للدعوة الإسلامية، وكان يُحذر منها وكان يفر منها وكان من ألد أعدائها، فهداه الله فصار هو الخليفة الثانى بعد الرسول ﷺ ...وكذلك خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل، ماذا فعلا فى أُحدٍ؟ كَرَّا على المسلمين من الخلف على فرسيهما ومعهما فرسان آخرون واختلطا بالمسلمين وحدثت الهزيمة وفى النهاية كانا قائدين عظيمين من قواد المسلمين.

فلا تيأس يا أخى، واسأل الله الهداية والثبات... ولا تَزِل بلسانك، فتهلك، حمانا الله من معاصيه، ووفقنا لما يُرضيه، إنه على كل شىء قدير[1].

(١٥٢٥) وعن سُفيان بن عبدِ الله رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يا رسُولَ الله حدِّثنى بأمْرٍ أعتَصِمُ بهِ قال: «قُلْ: ربِّى الله ، ثم اسْتَقِمْ» قُلتُ: يا رسُول الله، ما أخْوفُ ما تَخافُ علىَّ؟ فأخَذَ بِلسَانِ نَفْسِهِ، ثم قال: «هذا»[2].

❁ أما الشق الأول من الحديث فسبق شرحه بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٨٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم... وفيه قال النبى ﷺ لسفيان رضي الله عنه: «قل: آمنت بالله ثم استقم» أى: ائتِ أولًا بالأساس للأعمال الصالحة وهو الإيمان..ثم استقم بامتثال الأوامر واجتناب النواهى... وهو لفظٌ جامع لجميع الأوامر والنواهى؛ فإنه لو ترك أمرًا أو فَعَل منهيًّا فقد عدل عن الطريق المستقيمة حتى يتوب[3].

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٤/ ٥٦-٥٩) بتصرف.

(٢) حسن صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وقال الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٨٦٢): حسن صحيح.

(٣) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٨٠).

وهو موافق لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ .

۞ قال سفيان: قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟

أي: ما أكثر الأشياء التي تخاف منها عليَّ؟ أي: أن أهلك بسببها.. فأخذ النبي ﷺ بلسان نفسه ثم قال ﷺ: «هذا».. أي أن هذا أكثر ما أخاف منه عليك.

وذلك لأنه سهل الحِراك وفي حِراكه أنواع الهلاك إلا إذا قُيد بقيود الشريعة وحُبس عليها... قال العاقولي: أسند الخوف إلى اللسان لأنه زمام الإنسان، فإذا أطلقه لزم منه «ما» لن يرضى صاحبه شاء أو أبى... وليس هذا الوصف في عضوٍ آخر من الأعضاء سواه[1].

***

(١٥٢٦) وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تُكثِرُوا الكلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ الله، فإنَّ كَثْرَةَ الكلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ الله تعالى قَسْوَةٌ لِلقَلْبِ، وإنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِن الله القلبُ القاسي»[2].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبي ﷺ

***

(١٥٢٧) وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ وَقَاهُ الله شَرَّ مَا بيْنَ لَحييْهِ، وشَرَّ ما بيْنَ رِجْلَيهِ دَخَلَ الجَنَّة»[3].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥٢١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

***

(١) دليل الفالحين (٤/ ٢٨٧).

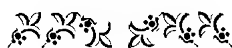
(٢) ضعيف: رواه الترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٦٥).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٩٣) - وأصله في صحيح البخاري (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

(١٥٢٨) وعنْ عُقْبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ: يا رسولَ الله، ما النَّجاةُ؟ قال: «أمْسِكْ عَلَيْكَ لِسانَكَ، وَلْيَسَعكَ بيْتُكَ، وابْكِ على خَطِيئَتِكَ»(١).

۞ وفى هذا الحديث أن عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سأل النبى ﷺ عن سبيل النجاة.. رغم أنه لم يكن فى زمان الفتن.. بل كان يعيش مع النبى ﷺ وأصحابه.. أى: فى زمن الخير والصلاح والنور والهداية والحب والإيثار.. ومع ذلك يسأل عن النجاة كيف تكون؟ وكأنه يسأل هذا السؤال لنستفيد نحن من الإجابة ونعلم كيف تكون النجاة.. فأخبره النبى ﷺ أن النجاة فى ثلاثة أشياء فقال له: «أمْسِكْ عَلَيْكَ لِسانَكَ» أى احفظه عما لا خير فيه ولا تجره إلا بما يكون لك لا عليك واحفظه من الكذب والغيبة والنميمة والقذف والسب والشتم والبُهتان وشهادة الزور وغير ذلك من آفات اللسان المُهلكة.

«وَلْيَسَعكَ بيْتُكَ» الأمر فى الظاهر وارد على البيت.. والمقصود به المُخاطَب: أى: تعرض لما يكون سببًا فى لزومك البيت من الاشتغال بطاعة الله والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار... «وابْكِ على خَطِيئَتِكَ» أى اندم على ذنوبك وابكِ من خشية الله عسى أن تكون يوم القيامة فى ظل عرش الرحمن «ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»... فتذكر ذنوبك دائمًا وأكثِر من التوبة والاستغفار.



(١٥٢٩) وعن أبى سعيدٍ الخُدرِى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبىِّ ﷺ قال: «إذا أصبَح ابْنُ آدم، فإنَّ الأعضاءَ كُلَّها تُكفِّرُ اللِّسانَ، تقولُ: اتَّقِ الله فينا، فإنَّما نحنُ بِكَ، فإن اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وإن اعوَجَجْتَ اعوَجَجْنا»(٢).

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٩٢).

(٢) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١).

« تُكَفِّرُ اللِّسان » : أى تَذِلُّ وتَخْضعُ له .

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه «**إذا أصبَح ابنُ آدم**» أى: دخل فى الصباح وبدأ يومه... فإن هناك أشياء تحدث ولا يدرى بها.

«**فإنَّ الأعضاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسانَ**» أى: أن جميع الجوارح والأعضاء تتذلل وتخضع وتتواضع للسان.. والتكفير: هو انحناء قريب من الركوع.. من قولهم: كفر اليهودى إذا خضع وطأطأ رأسه وانحنى لتعظيم صاحبه.

«**تقُولُ: اتَّقِ الله فينا**» أى: أن الأعضاء تقول ذلك حقيقة للسان.. أو هو مجازٌ بلسان الحال ... فتقول للسان «**اتَّقِ الله فينا**» أى: خفِ الله فينا وفى حفظ حقوقنا.

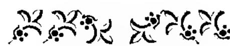
«**فإنَّما نحنُ بِكَ**» أى: نتعلق ونستقيم أو نَعوج بك وبسببك.. أو: نحن مُجازون بما يصدر عنك.

«**فإن اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا**» أى: إن اعتدلت اعتدلنا تبعًا لك.

«**وإن اعوَجَجْتَ اعوَججْنا**» أى: إن مِلتَ عن طريق الهدى مِلنا عنه اقتداءً بك.

قال الطِّيبىُّ: فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ التَّوْفِيقُ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ: «**إِنَّ فِى الْجَسَدِ لَمُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِىَ الْقَلْبُ**». قُلْتُ: اللِّسَانُ تُرجُمَانُ الْقَلْبِ، وَخَلِيفَتُهُ فِى ظَاهِرِ الْبَدَنِ، فَإِذَا أُسْنِدَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ فِى الْحُكْمِ، كَمَا فِى قَوْلِكَ: شَفَى الطَّبِيبُ الْمَرِيضَ.

قَالَ الْمَيْدَانِىُّ فِى قَوْلِهِ: «**الْمَرءُ بِأَصغَرَيْهِ يَعنِى بِهِمَا: الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ**» أَىْ يَقُومُ وَيُكْمِلُ مَعَانِيَهُ بِهِمَا[1].



---

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٧٧-٢٧٨).

(١٥٣٠) وعن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ: يا رسُول الله أخبرنى بِعَمَلٍ يُدخِلُنِى الجنَّةِ، ويُبَاعِدُنى عن النَّارِ؟ قال: «لقد سألْتَ عنْ عَظِيمٍ، وإنَّه لَيَسيرٌ على مَن يَسَّرَهُ الله تعالى عليه: تَعبُد الله لا تُشْرِكُ بِهِ شَيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتى الزَّكاةَ، وتَصُومُ رمضَانَ، وتَحُجُّ البَيْتَ إن استطَعتَ إليه سَبيلًا» ثم قال: « ألا أدُلُّك على أبْوابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ تُطفِئُ الخَطِيئة كما يُطْفِئُ الماءُ النَّار، وصلاةُ الرَّجُلِ فِى جَوْفِ اللَّيْلِ» ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتَّى بلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]، ثم قال: «ألا أُخْبِرُكَ برَأسِ الأمْرِ، وعمودِهِ، وذِروَةِ سَنامِهِ» قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: « رأْسُ الأمْرِ الإسْلامُ، وعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِروَةُ سَنامِهِ الجهَادُ » ثم قال: «ألا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذلكَ كله ؟ » قُلْتُ : بَلى يا رسولَ الله، فأخذ بِلِسانِهِ قال : «كُفَّ عَلَيْكَ هذا» قلتُ : يا رسول الله وإنَّا لَمُؤاخَذُونَ بما نَتكَلَّمُ به؟ فقال:«ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فى النَّارِ على وجُوهِهِم إلا حصَائِدُ ألسِنَتِهِمْ؟»[(١)].

۞ قال معاذ بن جبل: «قلت: يا رسول الله أخبرنى بعمل يُدخلنى الجنة، ويباعدنى عن النار» هذا فيه ما ينبغى من التأدب مع أهل العلم... لأن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أعلم هذه الأمة بالحلال والحرام.. بل هو أعلم الأمة بالحلال والحرام.

فهو من أهل العلم، وهذا يدل على أن طالب العلم ينبغى عليه أن يكون حريصًا على ما يقربه من الجنة، ويباعده عن النار... قال معاذ: «يا رسول الله، أخبرنى بعمل يُدخلنى الجنة، ويباعدنى عن النار».

وهذا مما ينبغى لكل طالب علم أن يحرص على ما يقربه إلى الجنة، وما يباعده من النار... لأن العلم له شهوة، والعلم له عنفوان، وقد يصرف صاحبه عن السعى فى الغاية من العلم، وهو ما يقرب من الجنة، وما يُباعد عن النار.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٦).

وقد قال **عبد الله بن المبارك** رَحِمَهُ اللَّهُ: إن للعلم طغيانًا كطغيان الماء.

فالعلم يُطغى إذا لم يكن صاحبه يسعى فيما يقربه إلى الجنة، ويباعده عن النار.

فالعلم له مقتضيات كثيرة، وأصحاب العلم وأهل العلم وطلبة العلم ينبغى لهم أن يكونوا ألين الناس فى غير تفريط، وأن يكونوا أبصر الناس، وأحق الناس بالحكمة والأخذ بما يقربهم إلى الله (جل وعلا)؛ فهم القدوة، وهم البُصراء فى العلم والعمل. لهذا سأل معاذ هذا السؤال، وذلك من حكمة الله (جل وعلا) أن يسأل ليُبصِّر أهل العلم جميعًا بما ينبغى أن يكونوا عليه.

قال: «أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى عن النار».

قال ﷺ: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسَّره الله - تعالى - عليه».

هذا السؤال سؤالٌ عظيم، وهو شاقٌّ من حيث الامتثال، لكنه يسير على مَن يسَّره الله عليه، إذا أقبل العبد يُسِّر عليه الأمر، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ - ٧] فتيسير الله - جل وعلا - أمور الخير للعبد هذا يكون بشىء يبذله العبد: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ - ٧].

قال (عليه الصلاة والسلام) هنا: «وإنه ليسير على مَن يسَّره الله تعالى عليه» ثم فصَّل فقال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا**» يعنى: أن تتوجه بجميع أنواع العبادات إلى الله (جل وعلا) وحده... فإذا دعوت دعوت الله، وإذا سألت سألت الله، وإذا صليت صليت لله، وإذا استغثت استغثت بالله، وإذا أعظمت الرجاء أعظمته بالله. وكل العبادات القلبية، واللسانية، والعملية بالجوارح كلها تكون لله (جل وعلا) وحده، ولا يكون لمخلوقٍ فيها نصيب... قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا**» يعنى: كبير الشرك وصغيره وخَفِيَّه... لأن كلمة «**شيئًا**» نكرة جاءت فى سياق النفى فتعم كل ما كان فى معناها. فلا يشرك بأى شىء.

«**وتُقيم الصلاة، وتُؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**» وهذه الأربعة مَرَّ بيانها... ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنة، والصدقة تُطفئ الخطيئة**» الصوم يريد به صوم النفل؛ لأنه قدم صيام رمضان.

«**الصوم جُنة**» يعنى: وقاية يقى العبد من سخط الله وعذابه.

لأن الصيام فيه تذكير بحقوق الله (جل وعلا) وحقوق عباده، فهو جُنة من نفوذ الشيطان إلى العبد... قال: «**والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**» الصدقة بأنواعها تطفئ الخطايا..الصدقة بالقول وبالعمل، الواجبة والمستحبة، والصدقة بالمال، كل هذه تطفئ الخطايا؛ لأنها حسنات....والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

كلما حصلت منك خطيئة فعليك بكثرة الصدقات، «**والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النارَ**» النار إذا شبَّت لا يُطفئها إلا الماء، فإنك تأتى بالماء فتنطفئ، وهذا مثال الحسنات بعد السيئات... قال: «**وصلاة الرجل فى جوف الليل**» صلاة الرجل فى جوف الليل، يعنى: أن يقوم الليل القيام المستحب... وقيام الليل على درجات، وأعلاه أن يكون كقيام المصطفى ﷺ الذى جاء فى آخر سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾[المزمل: ٢٠].

ثم قال: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟**» قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «**رأس الأمر الإسلام**» لأن الأمر الذى هو الدين رأسه الإسلام، فإذا صُدع الرأس فلا حياة...فإذا ذهب الإسلام فلا حياة للمرء فى الدين، ولذا قال: «**رأس الأمر الإسلام**» وهو الاستسلام لله (جل وعلا) بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله... قال: «**وعموده الصلاة**» العمود هو ما يقوم عليه البناء.

لأن الصلاة هى الركن العملى الذى به يحصل الامتثال لمقتضيات الإيمان العملية، يعنى: بركن الإيمان الذى هو العمل... فالإيمان: قولٌ واعتقادٌ وعمل،

والعمل عموده الصلاة، فإذا ذهبت الصلاة فلا قيام فى ذلك..

لهذا قال عمر: «لا حظَّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة»... وثبت عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: **«العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»**[١].

قال ﷺ بعد ذلك: **«وذروة سنامه الجهاد»**.

«ذروة سنامه» تشبيه للأمر بالجَمَل... والجَمَل أعلاه ذروة السنام، والجمل متحرك، والجهاد أيضًا يبعث على الانتشار والتحرك ... فهو سبب انتشار الإسلام، وامتداد الدخول فى الدين... فمثَّله - عليه الصلاة والسلام - يعنى: مثَّل الدين بالجَمل -، وجعل الجهاد من هذه الراحلة ذروة السنام؛ لأنه بارز متميز. فالإسلام تَميز من بين الأديان كتميُّز الجمل بذروة سنامه[٢].

۞ ثم قال له ﷺ: **«ألا أُخبرُكَ بِملاكِ ذلكَ كله ؟»** مِلاك الأمر: هو جماع الأمر:... وهو ما يملك أطرافه وصُلبه وحواشيه... كأنه يقول: ألا أخبرك بما تمتلك به كل ما تقدَّم؟.

قال معاذ: بلى يا رسول الله ﷺ.

فأخذ النبى ﷺ بلسانه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هذا».

فتعجب معاذ وقال للنبى ﷺ: يا رسول الله وإنَّا لمُؤاخَذُونَ بما نَتكَلَّمُ به؟

أى: بكل صغير وكبير مما يخرج من ألسنتنا.

فقال له ﷺ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ» أى: فقدتك أمك يا معاذ.. وهو دعاءٌ عليه بالموت ولا يُراد وقوعه.. بل هو من باب التنبيه من الغفلة وتعظيم للأمر.. وهى كلمة كانت مشهورة ودارجة على ألسنة العرب فى ذلك الوقت.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٤٣).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ٢٣٥-٢٣٩) بتصرف كبير.

«وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فى النَّارِ على وجُوهِهِم» أى: وهل يُسقط ويصرع الناس على وجوههم أو على مناخرهم فى النار « إلا حصَائِدُ ألسِنَتِهِمْ؟».

كأن اللسان يزرع أشياءً.. فإن زرع خيرًا جنيت خيرًا وإن زرع شرًّا جنيت شرًّا.. ومَن زرع الورد جنى وردًا.. ومَن زرع شوكًا جنى شوكًا.

فاللسان أخطر جارحة ... ونجاة الجسد أو هلاكه بالقلب واللسان.. فإذا صلح القلب صلح اللسان ونجا الجسد كله.. وإن فسد القلب فسد اللسان وهلك الجسد وصاحبه.

(١٥٣١) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «أتَدرُونَ ما الغِيبةُ؟» قالوا: الله ورسُولُه أعلَمُ. قال: « ذِكرُكَ أخَاكَ بما يكْرَهُ» قيل: أفرأيْتَ إن كان فى أخى ما أقُولُ؟ قال: « إنْ كان فيهِ ما تَقُولُ فقَدِ اغْتَبْته، وإنْ لم يكُن فيهِ ما تَقُولُ فقد بَهَتَّهُ»[1].

(١٥٣٢) وعن أبى بكْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ قال فى خُطْبتِهِ يوْم النَّحر بِمنًى فى حَجَّةِ الوداعِ: «إنَّ دِماءَكُم، وأموالَكم، وأعراضَكُم، حرامٌ عَلَيْكُم كَحُرمَة يومِكُم هذا، فى شهرِكُم هذا، فى بلدِكُم هذا، ألا هلْ بلَّغْت»[2].

(١٥٣٣) وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: قُلتُ للنبىِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِن صَفِيَّة كذا وكَذا - قال بعضُ الرُواةِ: تعنى قَصِيرةً - فقال: « لقد قُلْتِ كَلِمةً لو مُزِجَتْ بماءِ البحرِ لمَزَجَتْهُ» قالتْ: وحكَيْتُ له إنسانًا فقال: « ما أُحبُّ أنى حكَيْتُ إنسانًا وإنَّ لى كذا وكذا»[3].

(١٥٣٤) وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لمَّا عُرِجَ بى مررتُ بقَوْمٍ لهُمْ أَظْفَارٌ مِن نُحاسٍ يَخمِشُون بها وجُوهَهُمْ وصُدُورَهُم، فقلتُ: مَنْ هؤلاء يا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٥٠) كتاب الأضاحى، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٤٠).



جبريل؟ قال: هؤلاء الذِينَ يأكُلُونَ لحُوم النَّاسِ، ويقَعُونَ فى أعراضِهِم»(١).

(١٥٣٥) وعن أبى هُريرة رضي الله عنه أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حرَامٌ؛ دَمُهُ وعِرضُهُ ومالُهُ»(٢).

۞ سبق شرح كل هذه الأحاديث فى مقدمة هذا الباب .. (باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢١٣)، والصحيحة (٥٣٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.



فهرس الموضوعات

(٩) كتاب الاعتكاف

(١٠) كتاب الحج

(١١) كتاب الجهاد

(١٢) كتاب العلم

(١٣) كتاب حمد الله تعالى وشكره

(١٤) كتاب الصلاة على رسول الله ﷺ

(١٥) كتاب الأذكار

(١٦) كتاب الدعوات

(١٧) كتاب الأمور المنهي عنها

هذه وصيتي

كنت منذ طفولتي أينما ذهبت وجدت القرآن الكريم وبجواره كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي رحمه الله وكنت أحب القراءة في هذا الكتاب لكني كنت لا أفهم الكثير من الأحاديث وتمنيت أن أجد كتابا سهلا فيه شرح لتلك الأحاديث التي تبلغ (١٩٠٥) حديثًا

ومرت الأيام ويشرح الله صدري لشرح هذا الكتاب ففرغت حياتي لشرح هذا الكتاب الممتع الذي استطاع الإمام النووي رحمه الله من خلاله أن يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الإسلامية والعقائد وفقه العبادات والمعاملات فوجدته كتابا شاملا لكل شيء، فاستعنت بالله وشرحته شرحا يسيرا يفهمه العوام قبل العلماء وطلبة العلم وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله وقضيت أحلى أيام عمري في شرح هذا الكتاب الممتع الذي لا يستغني عنه بيت مسلم أبدًا .. لما فيه من الخير الكثير والكثير ولعلك تلمس صدق ما أقول عندما تسعد بقراءة هذا الكتاب القيم.

فوصيتي لكل إخواني وأخواتي وأهلي وأحبابي أن تحرصوا على اقتناء هذا الكتاب القيم لنتربى جميعًا على النهج الصالحين بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لنصبح جميعًا بركة على الإسلام والمسلمين في كل مكان.

أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسنات أبي وأمي (رحمة الله عليهما) وميزان حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به.

وأرجو ألا تبخلوا علي بدعوة صادقة بظهر الغيب بأن يرزقني الله عز وجل الإخلاص في القول والعمل وأن يرزقني حُسن الخاتمة وأن يجمعني بكم في الفردوس الأعلى مع الحبيب المصطفى ﷺ.

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

أبو عمار

محمود المصري

شرح

رياض الصالحين

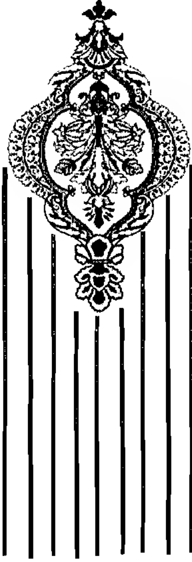
من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء السابع

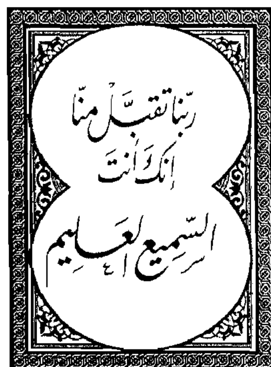




شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم



١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر أمام الجامع الأزهر القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار

الجزء السابع

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤


بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٥٥) باب تحريم سماع الغيبة وأمر مَن سمع غيبة محرمة بردِّها، والإنكار على قائلها، فإن عجز أو لم يقبل منه فارق ذلك المجلس إن أمكنه

❁ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨].

❁ فبعد أن ذكر المصنف رحمه الله النصوص الواردة فى تحريم الغيبة أعقب ذلك بهذا الباب الذى يوضح فيه أن إثم الغيبة لا يقتصر على المغتاب فحسب.. بل يتعدى إلى المستمع.. فالمغتاب والمستمع وزرهما سواء.. ولذا فإنه يجب على مَن يستمع إلى الغيبة أن ينهى المغتاب عن ذلك حتى لا يشاركه فى الإثم.. فإن لم ينتهِ فعليه أن يفارق ذلك المجلس لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾[النساء:١٤٠]، فدلَّ ذلك على أن الإنسان إذا استمع إلى المحرم، فهو مشارك لمن يفعل هذا المحرم... فالواجب أن يقوم ... ثم ذكر آيات متعددة فى بيان الإعراض عن اللغو... واللغو هو: الكلام الذى لا فائدة فيه...قال الله تعالى فى وصف عباد الرحمن:﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾[الفرقان: ٧٢]، يعنى سالمين منه لا يلحقهم شيء منه لا يستمعون إليه ولا يصغون له.

۞ واعلم أيها الأخ الحبيب أن الذى يستمع للغيبة مشارك للمغتاب فى الوزر... والدليل على ذلك أنه فى قصة توبة ماعز الأسلمى ﵁ جاء فى بعض الروايات أنه لما رجم رسول الله ﷺ ماعزًا فى الزنا قال رجلٌ لصاحبه: هذا رُجم رَجم الكلب ...فمرَّ رسول الله ﷺ وهما معه بجيفة فقال: «انهشا منها» فقالا: ننهش جيفة؟! فقال: **«مَا أَصَبْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا أَنْتَنُ مِنْ هَذِهِ»**[1].

۞ والشاهد هو قول النبى ﷺ: «**ما أصبتما**» فحكم على المستمع أنه إن لم يدفع الغيبة عن أخيه فهو والمغتاب فى الوزر سواء.

(١٥٣٦) وَعَن أَبِى الدَّرداءِ ﵁: عن النبى ﷺ أنه قَالَ: **«مَنْ رَدَّ عَنْ عِرضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[2].

۞ فعلى مَن سمع الغِيبَةَ أن يردَّها، وينصحَ قائلها، فإنْ لم يقبلِ المغتابُ منه النَّصيحةَ، وجب عليه أنْ يُفارق ذلك المجلس... فإنْ فعل ذلك، فقد أدَّى ما عليه من حقِّ أخيه، وإنْ خَذَلَهُ خَذَلَهُ الله فى موطنٍ يُحبُّ فيه نُصرتَهُ.

قال الإمام النووى ﵀: «ينبغى لمن سمع غِيبةَ مسلم أن يردَّها ويزجرَ قائلَها، فإن لم ينزجر بالكلام زجرَه بيده، فإن لم يستطع باليدِ ولا باللسان، فارقَ ذلكَ المجلس ... فإن سمع غَيبَةَ شيخه أو غيره مِمَّن له عليه حقّ، أو كانَ من أهل الفضل والصَّلاح، كان الاعتناءُ بما ذكرناه أكثر».

۞ فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، وَأَبِى طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ الْأَنصَارِيّ قَالا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ **«مَا مِنَ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِى مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِى مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصرَتَهُ، وَمَا مِنَ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِى مَوْضِعٍ**

(١) رواه أبو داود (٤٤٢٨/٤٤٤١٤٨)، والنسائى بسندٍ جيد وأصله فى صحيح مسلم.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٦٢).

يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصرَتَهُ»[١].

(١٥٣٧) وعن عِتْبَان بن مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى حدِيثِهِ الطَّوِيلِ المشهورِ الذى تقدَّم فى باب الرَّجاءِ قالَ: قامَ النبىُّ ﷺ يُصلِّى فقال: « أينَ مالِكُ بنُ الدُّخْشُمِ؟ » فقال رجل: ذلك مُنافِقٌ لا يُحِبُّ الله ورسُولَهُ، فقال النبىُّ ﷺ: «لا تَقُلْ ذلكَ، ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله يُرِيدُ بذلك وجْه الله، وإن الله قد حرَّم على النَّارِ مَن قال: لا إله إلا الله يبْتَغِى بذلكَ وجْهَ الله»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٢٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٥٣٨) وعن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى حديثِهِ الطَّويلِ فى قصَّةِ توْبَتِهِ وقد سبقَ فى بابِ التَّوبةِ قال: قال النبىُّ ﷺ وهُو جالسٌ فى القَوْمِ بتبُوكَ: «ما فعل كَعبُ بنُ مالك؟» فقال رجُلٌ مِن بنى سَلِمَةَ: يا رسول الله، حبسَهُ بُرداهُ، والنَّظَرُ فى عِطْفَيْهِ. فقال لهُ معاذُ بنُ جبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بِئسما قُلْتَ، والله يا رسُولَ الله ما عَلِمْنا عليهِ إلا خيرًا، فسكَتَ رسُولَ الله ﷺ[٣].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والضياء وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٩٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٨٦) كتاب التهجد - ومسلم (٣٣) كتاب الإيمان.

«وعِتْبانُ» بكسر العين على المشهور، وحُكِيَ ضمُّها، وبعدها تاء مثناةٌ مِن فوق، ثمَّ باء موحدةٌ. و«الدُّخْشُمُ» بضم للدال وإسكان الخاء وضمِّ الشين المعجمتين.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤١٨) كتاب المغازى - ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

«عِطفَاهُ» جانِباهُ، وهو إشارةٌ إلى إعجابه بنفسه.

(٢٥٦) باب ما يُباح من الغيبة

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن الغيبة تُباح لغرضٍ صحيح شرعى لا يمكن الوصول إليه إلا بها.. وهو بستة أسباب:

الأول: التظلُّم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضى وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمنى فلان بكذا.

الثانى: الاستعانة على تغيير المنكر، وردِّ العاصى إلى الصواب.

فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا؛ فازجره عنه، ونحو ذلك... ويكون مقصوده التوصُّل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء: فيقول للمفتى: ظلمنى أبى، أو أخى أو زوجى، أو فلان بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقى فى الخلاص منه، وتحصيل حقى، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك....فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول فى رجلٍ أو شخصٍ، أو زوج، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين .. ومع ذلك فالتعيين جائز كما سنذكره فى حديث هند إن شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها: المشاورة فى مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته... ويجب على المشاور أن لا يُخفى حاله، بل يذكر المساوئ التى فيه بنية النصيحة.

ومنها: إذا رأى متفقهًا يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة،

وهذا مما يُغلَط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويُلبِّس الشيطان عليه ذلك، ويُخيل إليه أنه نصيحة فليُتفطَّن لذلك.

ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها: إما بألا يكون صالحًا لها، وإما بأن يكون فاسقًا، أو مغفلًا، ونحو ذلك... فيجب ذِكرُ ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولِّى مَن يُصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى فى أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته: كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظُلمًا، وتولِّى الأمور الباطلة... فيجوز ذِكرُه بما يجاهر به، ويَحرُم ذِكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناهُ.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفًا بلقبٍ كالأعمش، والأعرج والأصم، والأعمى، والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك .. ويَحرُم إطلاقه على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أَولَى.

فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مُجمَعٌ عليه، ودلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورة ... فمن ذلك:[1]

(١٥٣٩) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رجلًا استأذن على النبى ﷺ فقال: « ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ ؟ »[2].

احتج به البخارى فى جواز غيبة أهل الفساد وأهل الريب.

❁ ففى حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ استأذن عليه رجل، يعنى ليدخل بيته

---

(١) رياض الصالحين (ص: ٤٤١، ٤٤٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٥٤) كتاب الأدب – ومسلم (٢٥٩١) كتاب البر والصلة والآداب.

فقال: « **ائذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ** »، وكان هذا الرجل من أهل الفساد والغى.

فدلَّ هذا على جواز غيبة مَن كان من أهل الفساد والغى وذلك من أجل أن يحذر الناس فساده حتى لا يغتروا فيه ... فإذا رأيت شخصًا ذا فسادٍ وغَيٍّ لكنه قد سحر الناس ببيانه وكلامه يأخذ الناس منه ويظنون أنه على خير، فإنه يجب عليك أن تبين أن هذا الرجل لا خير فيه وأن تُثنى عليه شرًّا؛ لأجل ألا يغتر الناس به... فكم من إنسانٍ طليق اللسان فصيح البيان إذا رأيته يعجبك جسمه وإن يقول تسمع لقوله، ولكنه لا خير فيه... فالواجب بيان حاله(١).

(١٥٤٠) وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ رسُول الله ﷺ: «**ما أظُن فُلانًا وفُلانًا يعرِفان مِن ديننا شيئًا**»(٢).

قال الليثُ بنُ سعدٍ أحدُ رواةِ هذا الحديث: هذان الرَّجُلانِ كانا مِن المنافقين.

۞ ففى هذا الحديث تخبر أمنا عائشة أن النبى ﷺ قال: «**ما أظُن فُلانًا وفُلانًا يعرِفان مِن ديننا شيئًا**» فالذى دعا النبى ﷺ إلى أن يقول ذلك أن هذين الرجلين كانا من المنافقين.. وقد كان كثيرٌ من المنافقين لا يجهرون بنفاقهم حتى لا يعلم أحدٌ بشأنهم.. لكن هذين الرجلين قد ظهر نفاقهما فأراد النبى ﷺ أن يُحذر منهما حتى لا يغتر الصحابة بهما.. وبخاصة وأن المنافقين كانوا يُخذلون الناس من حولهم ويبثون الشائعات بينهم ويتكلمون فى حق النبى ﷺ وأصحابه بكلامٍ لا ينبغى أن يُقال.. مما دعا النبى ﷺ إلى أن يقول هذا ليُحذر الصحابة من شرِّ هذين الرجلين.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٦٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٠٦٧) كتاب الأدب.

(١٥٤١) وعن فاطمة بنتِ قَيْس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أتيْتُ النَّبِىَّ ﷺ فقلت: إنَّ أبا الجَهْمِ ومُعاويةَ خَطباني؟ فقال رسُول الله ﷺ: «أمَّا مُعَاويةُ فصُعلُوكٌ لا مال له، وأمَّا أبو الجَهْمِ فلا يضَعُ العَصا عنْ عاتِقِهِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث أن فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أتت النبى ﷺ فأخبرته أنها قد تقدم لخطبتها أبو الجهم ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.. وكأنها تستشير النبى ﷺ فى زواجها.. هل توافق على أبى الجهم أم معاوية؟.. فقال النبى ﷺ: **«أمَّا مُعَاويةُ فصُعلُوكٌ لا مال له»** أى: أنه فقير ليس عنده مال.. ومن الواضح أنها كانت غنية وربما تتضرر لقلة ذات اليد عند معاوية.. وإلا فلو كانت فقيرة لما قال لها النبى ﷺ ذلك... وسبحان مُغير الأحوال.. فقد كان معاوية فقيرًا ثم أصبح بعد ذلك أميرًا للمؤمنين.

۞ ثم قال لها النبى ﷺ: **«وأمَّا أبو الجَهْمِ فلا يضَعُ العَصا عنْ عاتِقِهِ»** وتلك الكلمة لها معنيان: إما أنه كثير الضرب للنساء.. وفاطمة بنت قيس من الطبقة الغنية التى لا تتحمل هذه المعاملة فنهاها النبى ﷺ عن الزواج منه.. لانه سيئ العشرة مع النساء.. يضربهن.. والمرأة لا يجوز ضربها إلا لسبب بيَّنه الله فى قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٣٤] أما أن تضرب امرأتك كلما خالفت أية مخالفة، فهذا غلط ولا يحل.. لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] لكن إذا خفت نشوزها وتَرفُّعها عليك وعدم قيامها بواجبك، فاستعمل معها هذه المراحل:

أولًا: عِظها .. خوِّفها بالله، وبيِّن لها أن حق الزوج لا يجوز أن تُضيعه، فإن استقامت فهذا المطلوب، وإلا فالمرحلة الثانية: اهجرها فى المضجع، لا تنم معها أما الكلام فلا تهجرها، لكن لك رخصة أن تهجرها فى الكلام ثلاثة أيام،

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٨٠) كتاب الطلاق - والحديث لم أجده عند البخارى.
وفى رواية لمسلم: **«وأمَّا أبُو الجَهْمِ فضَرَّابٌ للنِّساء»** وهو تفسير لرواية: **«لا يضَعُ العَصا عن عاتِقِهِ»** وقيل: معناه: كثيرُ الأسفارِ.

لأنه لا يحل لأحدٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام.

الرتبة الثالثة: إذا لم ينفع معها هذا فاضربها، لكن ضربًا غير مُبرح.. يعنى ليس شديدًا، بل ضرب يحصل به التأديب فقط.

۞ والمعنى الثانى: أن أبا الجهم كثير الأسفار.. فلا يستقر فى بيته إلا قليلًا وبذلك ستصبح الزوجة فى أكثر أيام حياتها بلا زوج .... وهنا ذكر لها النبى ﷺ ذلك من باب النصيحة لها حتى لا تتعب فى زواجها..

وفى رواية أخرى أن النبى ﷺ قال لها: «**ولكن أنكحى أسامة بن زيد**» فلقد رأى النبى ﷺ أنه مناسبٌ لها.

۞ ولذا فإنه يُباح لنا إذا جاءنا رجل يسألنا ويقول: تقدَّم لابنتى فلان فما رأيكم فيه.. فيُباح لنا أن نذكر ما فيه بكل صراحة دون الخوض فى عِرضه وسيرته.. فإذا سألنا الرجل: هل هو يحمل شهادة كذا.. نقول له: نعم أو لا .. ولا داعى لأن نقول له: إنه كذا وكذا.. فهذا لا يجوز بل ينبغى أن نرد على قدر السؤال ونقول الحقيقة حتى لا نخدع الناس.

(١٥٤٢) وعن زيد بنِ أرقَمَ رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مع رسول الله ﷺ فى سفرٍ أصاب النَّاس فيهِ شِدةٌ، فقال عبد الله بنُ أُبَىٍّ: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾، وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، فأتيتُ رسول الله ﷺ فأخْبرتُهُ بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أُبَى فاجْتَهد يمينَهُ: ما فَعَل، فقالوا: كَذَب زيدٌ رسولَ الله ﷺ.. فوقَعَ فى نفسى مِمَّا قالوه شِدَّةٌ حتى أنْزَل الله تعالى تَصديقى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ثم دعاهم النبى ﷺ ليَسْتَغْفِرَ لهم فلَوَّوْا رُءُوسَهُم[1].

(١) متفق عليه:رواه البخارى (٤٩٠٣) كتاب تفسير القرآن، مسلم (٢٧٧٢) كتاب صفات المنافقين.

ففى هذا الحديث يحكى زيد بن أرقم رضي الله عنه أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ فى سفرٍ .. وكان مع النبى ﷺ مجموعة من المؤمنين والمنافقين فأصاب الناس شدة، فتكلم المنافقون وقالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧]، يعنى: لا تعطوهم شيئًا من النفقة حتى يجوعوا ويتركوا النبى ﷺ .... وكذبوا؛ فالمؤمنون لا يمكن أن يتركوا النبى ﷺ حتى لو ماتوا جوعًا وظمأً؛ ما تركوه... لكن هذا هو حال المنافقين الذين يلمزون النبى ﷺ فى الصدقات إذا أُعطوا رضوا وإذا لم يُعطَوا فإذا هم يسخطون... أما المؤمنون فلن يتركوا الرسول ﷺ.

﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ حتى هنا للتعليل وليست للغاية ... يعنى لأجل أن ينفضوا عنه، ولكن كذبوا فى ذلك ....وقالوا أيضًا: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

وكان الذى قال ذلك هو رأس المنافقين عبد الله بن أُبى ابن سلول (لعنه الله). وكان يعنى بالأعز نفسه.. ويعنى بالأذل: رسول الله ﷺ... فسمع ذلك زيد ابن أرقم رضي الله عنه فأتى إلى النبى ﷺ فأخبره بأن عبد الله بن أُبى قال هذا الكلام، فأرسل النبى ﷺ إلى عبد الله بن أُبى، فاجتهد يمينه أنه لم يَقُل هذا... يعنى حلف وأقسم واشتد فى القَسَم أنه ما قال ذلك... لأن المنافقين هذا دأبهم، يحلفون على الكذب وهم يعلمون ... فأقسم أنه ما قال ذلك، وكان النبى ﷺ يقبل علانيتهم ويترك سرائرهم إلى الله، فلما بلغ ذلك زيد بن الأرقم اشتد عليه الأمر؛ لأن الرجل حلف وأقسم عند الرسول ﷺ واجتهد يمينه فى ذلك فاشتد هذا على زيد بن أرقم لأنه قال: كذب زيدٌ على رسول الله ﷺ يعنى أخبره بالكذب.... حتى أنزل الله تصديق زيد بن أرقم فى قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ

ﭐﻟۡﻤُﻨَٰﻔِﻘِﻴﻦَ ﻟَﺎ ﻳَﻔۡﻘَﻬُﻮﻥَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٧، ٨].

وتأمل جواب الله عَزَّوَجَلَّ لقول عبد الله بن أُبى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ ولم يَقُل: إن الله هو الأعز.. لأنه لو قال: هو الأعز لصار فى ذلك دليل على أن المنافقين لهم العزة، وهم لا عزة لهم، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فى هذه الآية دليل على أنه لا بأس أن الإنسان ينقل كلام المنافق إلى ولى الأمر حتى يتخذ فيه ما ينبغى اتخاذه، وكذلك ينقل كلام المفسد إلى ولى الأمر حتى لا يتمادى فى إفساده... وإذا كان الإنسان يخشى من الكلام أن يحصل فيه فساد وجب عليه أن يبلغه إلى ولى الأمر حتى يقضى على الفساد قبل أن يستشرى، ولا يُقال: أخشى أن ولى الأمر يفعل بى أو يفعل فيه.

فى عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) لما أنكر عبد الله بن أُبى ما قيل عنه نزل الوحى بتصديق زيد بن أرقم... لكن فى وقتنا لا يوجد وحىٌ يؤيد أو يُفند، فأنت إذا تثبَّت وسمعت من بعض الناس كلامًا يؤدى إلى الشر والفساد وجب عليك أن تبلغ به ولى الأمر حتى لا يستشرى الشر والفساد[١].

(١٥٤٣) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قالت هِنْدُ امرأةُ أبى سُفيانَ للنبى ﷺ: إنَّ أبا سُفيانَ رجُلٌ شَحيحٌ ولَيْس يُعطِينى ما يَكْفِينى ووَلَدِى إلا ما أخَذْتُ مِنه، وهو لا يَعلَمُ؟ قال: «خُذِى ما يَكْفِيكِ ووَلَدَكِ بالمعرُوفِ»[٢].

۞ ففى هذا الباب ذكر المصنف ما يجوز من الغيبة وذكر ستة مسائل كان من بينها التظلم.. يعنى إذا تظلم إنسان عند ولى الأمر أو عند مَن يستطيع أن

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٦٧-٦٩) بتصرف.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٦٤) كتاب النفقات - مسلم (١٧١٤) كتاب الأقضية.

يرفع عنه الظلم فإنه لا بأس بذلك.. والدليل على ذلك حديث هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان أنها جاءت إلى النبى ﷺ واشتكت إليه أن أبا سفيان رجلٌ شحيح -يعنى بخيل- وأنه لا يعطيها ما يكفيها وولدها بالمعروف... ولا شك أن الإنسان يكره أن تصفه زوجته بذلك.. لكنها كانت مضطرة لذكر ذلك من أجل أن يرفع عنها النبى ﷺ الظلم الواقع عليها...

وذلك أن الواجب على الإنسان أن ينفق على زوجته وعلى أولاده بالمعروف، لا يُقصر ولا يزيد ... كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧].

وأما البخل الزائد فهذا حرام لا يجوز... ومَن وقع عليه ذلك فله أن يتظلم إلى شخص يمكن أن يأخذ الحق له.

فهند بنت عتبة لما تظلمت عند الرسول ﷺ وقالت له: إن أبا سفيان رجلٌ شحيح لم ينكر عليها تلك المقولة.. ولم يَقُل لها: لا تقولى ذلك بل أقرها على ذلك لأنها فى حال المُتظلم الذى يطلب حقه.

فقال لها النبى ﷺ: «**خُذى ما يكفيكِ وولدك بالمعروف**» فأذن لها أن تأخذ من ماله بغير علمه ما يكفيها ويكفى ولدها، ولكن بالمعروف، يعنى لا تزيد على ذلك.



(٢٥٧) باب تحريم النميمة وهى نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد

۞ قال الله تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم: ١١].

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

(١٥٤٤) وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا يَدخُلُ الجنةَ نمَّامٌ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «لا يَدخُلُ الجنةَ نمَّامٌ».

والنميمة هى نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد.

وهى محرمة بل هى من كبائر الذنوب.. ومن أسباب عذاب القبر.. وكذلك فهى من أسباب الحرمان من دخول جنة الرحمن (جل وعلا).

۞ والمسلم لا بد أن يحب الناس من حوله وأن يحب لهم الخير ويسعى دائمًا للإصلاح بينهم إذا حدث بينهم خصام.

أما مَن ينقل الكلام بين الناس من أجل أن يوقع بينهم وأن يفسد العلاقة فيما بينهم فهذا هو النمام الذى حذرنا الله منه.

فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

أى: الذى يمشى بين الناس بالنميمة.

۞ والنَّميمة من أخطر آفات اللِّسان، وتُطلَق فى الغالب على قول إنسان فى إنسانٍ... مثل أن يقولَ: قال فيكَ فُلانٌ كذا وكذا، وليست مخصوصةً بهذا، بل حدُّها كشف ما يُكره كشفه، سواءً كان من الأقوال أو الأعمال، حتَّى لو رآه يَدفِنُ مالًا لنفسِهِ فذكره فهو نَمَّامٌ[٢].

(١) متفق عليه: رواه البخارى(٦٠٥٦)كتاب الأدب بلفظ:«**لا يدخل الجنة قتَّات**»، ومسلم(١٠٥)كتاب الإيمان.

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص ١٧٤).

وعدَّها بعضُهم من أنواع السِّحر؛ لأنَّها تُشاركُ السِّحرَ في التَّفريق بين النَّاس، وتغيير قلوب المتحابِّين، وتلقيح الشُّرور[١].

قال يحيى بن أكثم: «النَّمامُ أشرُّ منَ السَّاحر، ويعملُ النَّمام في ساعةٍ ما لا يعملُ السَّاحرُ في شَهْرٍ»[٢].

ويُقال: «عملُ النَّمامِ أضرُّ من عمل الشَّيطان؛ لأنَّ عملَ الشَّيطان بالخيال والوَسْوَسة، وعملَ النَّمَّامِ بالمواجهة والمعاينة»[٣].

۞ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن النمام لا يدخل الجنة.. أي: لا يدخل الجنة مع أول الداخلين لأنه قد ارتكب كبيرة ووقع في مظلمة كبيرة بالإفساد بين الناس.. ومن المعلوم أنه لا يُخلَّد موحدٌ في النار.. فإن عُذِّب في النار فلا بُدَّ أن يدخل الجنة ولو بعد حين.. والله أعلم.

(١٥٤٥) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ الله ﷺ مرَّ بقَبْرَينِ فقال: «إنَّهُمَا يُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كَبيرٍ، بَلى إنَّه كبيرٌ: أما أحدهما، فكان يمشِي بالنَّميمةِ، وأمَّا الآخرُ فكانَ لا يسْتَتِرُ مِن بولِه»[٤].

۞ ففي هذا الحديث يخبر ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ مرَّ بقَبْرَينِ فسمع صوت رجلين يُعذَّبان في قبرهما.. والنبي ﷺ يرى ما لا نراه ويسمع ما لا نسمعه.. فقد قال ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون...**»...

وقد أعطى اللهُ رسوله ﷺ القدرة على سماع المُعذَّبين في قبورهم.

ففي الحديث الذي يرويه مسلم في «صحيحه» عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:

---

(١) انظر: فتح المجيد (ص ٣٢٥).

(٢، ٣) تنبيه الغافلين (ص ٨٩).

(٤) **متفق عليه:** رواه البخاري (١٣٧٨) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٩٢) كتاب الطهارة.
قال العلماءُ: معنى «وما يُعَذَّبانِ في كبير»: أي كبير في زَعمِهما، وقيل: كَبيرٌ تَركُهُ عليهما.

«بينما النبى ﷺ فى حائط لبنى النجار، على بغلة له، ونحن معه، إذ حادت به[١]، فكادت تُلقيه، وإذا أَقْبُرٌ ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: «**مَن يعرف أصحاب هذه الأقبُر؟**» فقال رجل: أنا، قال: «**فمتى مات هؤلاء؟**» قال: ماتوا فى الإشراك، فقال: «**إن هذه الأمة تُبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا**[٢]، **لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه**»[٣].

فهنا سمع النبى ﷺ صوت رجلين يُعذَّبان فى قبرهما فقال ﷺ: «**إنَّهما يُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان فى كَبير**» أى: أنهما يُعذَّبان فى شىء هو فى زعمهما غير كبير وذلك لاستخفافهما بأمور الديانة.. كما قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.. ثم أكَّد النبى ﷺ أن الذى يفعلانه شىءٌ كبير فقال ﷺ: «**بَلى إنَّه كبيرٌ، أما أحدهما، فكان يمشِى بالنَّمِيمةِ..**» أى: يسعى بين الناس بالنميمة ليوقع بينهم ويُفسد ذات بينهم «**.. وأمَّا الآخرُ فكانَ لا يسْتَتِرُ مِن بولِه..**» أى: إذا أراد أن يقضى حاجته فإنه يقضى حاجته أمام الناس كاشفًا عن عورته فيؤذى مشاعر الناس فى طُرقاتهم ويخدش حياء الناس فى الطرقات بما يفعله.

***

(١٥٤٦) **وعن ابن مسْعُودٍ** رضي الله عنه **أنَّ النبى ﷺ قال: «ألا أُنبِّئكُم ما العَضْهُ؟ هى النَّمِيمةُ، القَالَةُ بينَ النَّاسِ»**[٤].

«**ألا أُنبِّئكُم ما العَضْهُ؟**» والنبأ والخبر فى اللغة العربية معناها واحد.. والعضة، من القطع والتمزيق، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[الحجر: ٩١]،

---

(١) حادت به: أى مالت عن الطريق ونفرت.

(٢) لا تدافنوا: أى مخافة أن لا تدافنوا.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٧) كتاب الجنة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٠٦) كتاب البر والصلة والآداب.

«العَضْهُ»: ، ورُوى: «العِضَةُ» بِكسْر العَيْن وفَتْح الضَّاد المعجمةِ على وزْنِ العِدَةِ، وهى: الكذِبُ والبُهتانُ، وعلى الرواية الأولى: العَضْهُ مصدرٌ، يقال: عَضَهَهُ عَضْهًا، أى: رماهُ بالعَضْهِ.

يعني قطعًا وأجزاءً يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه... فما هى الأداة المُفرِّقة للأمة المُمزِّقة لهم؟. قال: هى النميمة .. وذلك بأن ينقل الإنسان كلام الناس بعضهم فى بعض من أجل الإفساد بينهم، وهى من كبائر الذنوب.

والعضه هى: الكذب والبهتان وهى الفاحش الغليظ التحريم.

۞ وإذا كان النبى ﷺ قد أخبر أن عذاب القبر يكون بسبب النميمة وعدم الاستتار أو عدم الاستنزاه من البول وكذلك يكون عذاب القبر بسبب الغيبة.. كما جاء فى بعض الروايات أن النبى ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ. فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيُعَذَّبُ فِي الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَيُعَذَّبُ فِي الْغِيبَةِ**»(١).

ويكون عذاب القبر لسائر الذنوب.. لكنه أكثر ما يكون بسبب الغيبة والنميمة والبول.. ولكن ما السبب فى ذلك.

۞ ولقد ذكر بعضهم السر فى تخصيص البول والنميمة والغيبة بعذاب القبر وهو أن القبر أول منازل الآخرة، وفيه أنموذج مما يقع فى يوم القيامة من العقاب والثواب ... والمعاصى التى يُعاقَب عليها العبد يوم القيامة نوعان: حَقٌّ لله، وحَقٌّ لعباده، وأول ما يُقضَى فيه يوم القيامة من حقوق الله: الصلاة، ومن حقوق العباد: الدماء ... وأما البرزخ فيُقضَى فيه فى مقدمات هذين الحقين، ووسائلهما. فمقدمة الصلاة: الطهارة من الحدث والخَبَث، ومقدمة الدماء: النميمة، والوقيعة فى الأعراض، وهما أيسر أنواع الأذى، فيبدأ فى البرزخ بالمحاسبة، والعقاب عليهما.

ماذا يفعل من نُقلت إليه نميمة

۞ قال الإمام النَّووىُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكُلُّ مَنْ حُمِلَتْ إِلَيْهِ نَمِيمَةٌ، وَقِيلَ لَهُ: فُلَانٌ يَقُولُ فِيكَ أَوْ يَفْعَلُ فِيكَ كذا فعليه ستة أمور:

(١) رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٤١)، وأصله فى الصحيحين وفيه ذكر النميمة بدل الغيبة.

الأول: أن لا يُصَدِّقَهُ لِأَنَّ النَّمَّامَ فَاسِقٌ.

الثَّانِي: أَنْ يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْصَحَهُ وَيُقَبِّحَ لَهُ فِعلَهُ.

الثَّالِثُ: أَنْ يُبْغِضَهُ فِي اللهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ بَغِيضٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَيَجِبُ بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَهُ الله تعالى.

الرابع: أن لا يَظُن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يَحمِلَهُ مَا حُكِيَ لَهُ عَلَى التَّجَسُّسِ وَالْبَحثِ عن ذلك.

السادس: أن لا يَرضَى لِنَفسِهِ مَا نَهى النَّمَّام عَنْهُ.... فَلَا يَحكِي نَمِيمَتَهُ عَنْهُ، فَيَقُولُ فُلَانٌ حَكَى كَذَا فَيَصِيرُ بِهِ نَمَّامًا وَيَكُونُ آتِيًا مَا نَهى عَنْهُ[1].

۞ وقد ضرب لنا السَّلف أروعَ الأمثلة في تعاملهم مع النَّمَّام.

وإليك بعضًا منها:

۞ رُوي أن سليمان بن عبد الملك كان جالسًا وعنده الزهري، فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيَّ، وقلت كذا وكذا فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت. فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق .. فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقًا .. فقال سليمان: صدقت ثم قال للرجل: اذهب بسلام[2].

۞ وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَذَكَرَ عِنْدَهُ رَجُلًا فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنْ شِئْتَ نَظَرنَا فِي أَمْرِكَ. إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١١]، وَإِنْ شِئْتَ عَفَوْنَا عَنْكَ. فَقَالَ: الْعَفْوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا أَعُودُ إِلَيهِ أبدًا[3].

(١) «شرح النووي على مسلم» (٢/ ١١٣)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٧٣) نقلًا عن أبي حامد الغزالي.
(٢) «الإحياء» (٣/ ١٦٦)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٧٤).
(٣) «الإحياء» (٣/ ١٦٦).

(٢٥٨) باب النهى عن نقل الحديث وكلام الناس إلى ولاة الأمور إذا لم تدع إليه حاجة كخوف مفسدة ونحوها

۞ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وفى الباب الأحاديث السابقة فى الباب قبلَهُ.

(١٥٤٧) وعن ابن مسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا يُبَلِّغْنِى أحدٌ من أصحابى عنْ أحَدٍ شيئًا، فإنِّى أُحِبُّ أنْ أَخْرُجَ إليكُمْ وأنا سليمُ الصَّدرِ»(١).

۞ وللأمانة العلمية.. هذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ

---

(١) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٣٢٢).

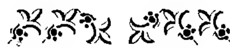
(٢٥٩) باب ذمِّ ذى الوجهين

۞ قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أى يستترون من الناس خوفًا وحياءً ولا يستحيون من الله وهو أحق بأن يُستحيا منه ويُخاف من عقابه ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾ أى وهو معهم عَزَّوَجَلَّ عالم بهم وبأحوالهم يسمع ما يدبرونه فى الخفاء ويُضمرونه فى السر من رمى البرىء وشهادة الزور والحلف الكاذب ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ أى لا يَعزُب عنه شىءٌ منها ولا يفوت[(١)].

۞ ومثل ذلك أيضًا مَن يعمل المعصية خفاءً ولا يعملها أمام الناس حياءً منهم وخجلًا... وأما الله فلا يستحى منه ولا يخجل والعياذ بالله... وهذا يدخل فى الآية الكريمة... وأما مَن عمل المعصية وندم وتاب فإنه لا يجوز له أن يحدث الناس بما فعل، فإن النبى ﷺ قال: «**كل أمتى مُعافى إلا المجاهرين**»[(٢)].

والمجاهر: هو الذى إذا فعل المعصية حدَّث بها.



(١٥٤٨) وعن أبى هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «تجدُون النَّاسَ معادِنَ: خِيارُهُم فى الجَاهِلِيَّةِ خيارُهُم فى الإسْلامِ إذا فَقُهُوا، وتجدُون خِيارَ النَّاسِ فى هذا الشَّأنِ أشدَّهُمْ لهُ كراهِيةً، وتجدُونَ شرَّ الناسِ ذا الوجْهيْنِ، الذى يأتى هؤلاء بوجْهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ»[(٣)].

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٧٨) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٩٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٥٢٦) كتاب فضائل الصحابة.

(١٥٤٩) وعن محمد بن زَيْدٍ أَنَّ ناسًا قالوا لجَدِّهِ عبدِ الله بن عُمر رضي الله عنهما: إنَّا نَدخُل على سلاطِيننا فنقولُ لهُمْ بخلافِ ما نتكلَّمُ إذا خَرَجْنا مِن عِندِهِم. قال: كُنَّا نَعُدُّ هذا نِفاقًا على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ[1].

۞ إن المسلم يجب أن يكون صادقًا لا يغش ولا يخدع ولا يجامل أحدًا على حساب الحق ولا يخشى إلا الله (جل وعلا).

أما أن يأتى إلى رجلين مُتناحرين أو إلى فئتين بينهما عداوة فيُظهر لهذا أنه صديقه وأنه سينصره ويقول للآخر نفس الكلام ويذم كل واحدٍ منهما عند الآخر ... فهذا هو المنافق ذو الوجهين الذى يعاقبه الله يوم القيامة بأن يجعل له لسانين من النار.

۞ ولقد حذرنا الله (جل وعلا) من هذه الصفة الذميمة. فقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ**»[2].

وهذا يوجد فى كثير من الناس والعياذ بالله وهو شعبة من النفاق... تجده يأتى إليك يتملق ويُثنى عليك وربما يغلو فى ذلك الثناء، ولكنه إذا كان من ورائك ذَمَّك وشتمك وذكر فيك ما ليس فيك، فهذا والعياذ بالله كما قال النبى ﷺ: «**تجدون شر الناس ذا الوجهين يأتى هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ**» وهذا من كبائر الذنوب؛ لأن النبى ﷺ وصف فاعله بأنه شر الناس...والواجب على الإنسان أن يكون صريحًا، لا يقول إلا ما فى قلبه..فإن كان خيرًا حُمِد عليه وإن كان سوى ذلك وُجِّه إلى الخير.

أما كونه يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، سواء كان فيما يتعلق بعبادته... بحيث يُظهر أنه عابد مؤمنٌ تقى وهو بالعكس... أو فيما يتعلق بمعاملته مع الشخص؛... يُظهر أنه ناصح له ويُثنى عليه ويمدحه ثم إذا غاب عنه اغتابه..فهذا لا يجوز[3].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧١٧٨) كتاب الأحكام.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٧٣) كتاب الأدب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٩٦).

(٣) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٤/ ٧٤) بتصرف.

(٢٦٠) باب تحريم الكذب

۞ لا شك أن الكذب عملٌ مرذول، وصفة ذميمة؛ فهو من خصال النفاق.

والكذب هو: أن يخبر الإنسان بخلاف الواقع، فيقول: حصل كذا، وهو كاذب.. أو قال فلان كذا، وهو كاذب وما أشبه ذلك، فهو الإخبار بخلاف الواقع.

والكذاب يقلب الحقائق؛ فيُدنى البعيد، ويُبعد القريب، ويُقبِّح الحسن، ويُحَسِّنُ القبيح.

وقيل فى ذم الكذَّاب: «لا تطلبوا الحوائج من كذاب؛ فإنه يُقربها وإن كانت بعيدة، ويُبعدها وإن كانت قريبة».

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى بعض عُماله: «إياك أن تستعين بكذوبٍ؛ فإنك إن تُطِع الكذوب تَهلكْ».

وإن مما يُؤسَف عليه فى هذه الأزمان المتأخرة كثرة الكذب، وقلة الصدق؛ فما أقلَّ مَن يَصدُق فى حديثه، وعلاقاته، ومعاملاته.

۞ واعلم أن الكذب أنواع:

الأول: الكذب على الله ورسوله، وهذا أعظم أنواع الكذب... لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٤] واللام فى قوله: ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ اللام لام العاقبة وليست لام التعليل... فهى كقوله تعالى فى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ [القصص:٨] وهم ما التقطوه لهذا، ولكن الله تعالى جعل العاقبة أن كان لهم عدوًّا وحَزنًا... وهكذا مَن افترى على الله كذبًا، فإنه بافترائه يُضل الناس بغير علم.

۞ والافتراء على الله نوعان:

النوع الأول أن يقول: قال الله كذا، وهو كاذب على الله..ما قال الله ذلك.

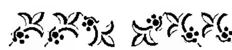
والنوع الثانى: أن يفسر كلام الله بغير ما أراد الله، لأن المقصود من الكلام معناه... فإذا قال: أراد الله بكذا كذا وكذا، فهو كاذب على الله، شاهد على الله بما لم يُرده الله عَزَّوَجَلَّ... لكن الثانى إذا كان عن اجتهاد وأخطأ فى تفسير الآية فإن الله تعالى يعفو عنه؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

والكذب على رسول الله ﷺ بأن يقول: قال رسول الله كذا، ولم يَقُله، لكن كذب عليه ... وكذلك أيضًا إذا فسر حديث رسول الله ﷺ، بغير معناه فقد كذب على رسول الله ﷺ ... وقد قال النبى ﷺ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(١).

أما القسم الثانى: من الكذب فهو الكذب على الناس... والكذب على الناس نوعان أيضًا: كذب يظهر الإنسان فيه أنه من أهل الخير والصلاح والتُّقى والإيمان وهو ليس كذلك... بل هو من أهل الكفر والطغيان والعياذ بالله، فهذا هو النفاق.

والنوع الثالث: من الكذب هو الكذب فى الحديث بين الناس.

يقول: قلت لفلان كذا وهو لم يَقُله...قال فلان كذا وهو لم يَقُله، جاء فلان وهو لم يأتِ وهكذا... هذا أيضًا محرم ومن علامات النفاق كما قال النبى ﷺ: « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ** »(٢)(٣).



(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩١) كتاب الجنائز، ومسلم (٤) فى المقدمة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٧٥-٧٦) بتصرف.

(١٥٥٠) وعن ابنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ الصِّدقَ يهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البرَّ يَهْدِي إلى الجنَّة، وإنَّ الرَّجُل ليَصدُقُ حتَّى يُكتَبَ عندَ الله صِدِّيقًا، وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وإن الفُجُورَ يَهْدِي إلى النارِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليكذِبُ حتى يُكْتَبَ عندَ الله كَذَّابًا»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٥٥١) وعن عبد الله بن عمْرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ قال: «أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالِصًا، ومَن كانتْ فيه خَصلَةٌ مِنهُنَّ كانت فيهِ خَصلَةٌ مِن نِفَاقٍ حتَّى يَدَعها؛ إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خاصَمَ فَجَرَ»[٢].

وقد سبق بيانه مع حديث أبي هُريرة بنحوه في «باب الوفاء بالعهد».

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٦٩٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٥٥٢) وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَحلَّمَ بِحُلْمٍ لم يَرَهُ كُلِّفَ أنْ يَعقِدَ بيْن شَعِيرتين، ولنْ يفْعَل، ومَن اسْتَمَع إلى حديثِ قوم وهُم له كارِهُونَ، صُبَّ في أُذُنَيْهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيامَةِ، ومَن صَوَّر صُورة عُذِّبَ وكُلِّفَ أنْ يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ وليْسَ بنافِخٍ»[٣].

(١٥٥٣) وعن ابنِ عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبيُّ ﷺ: «أفْرَى الفِرَى أنْ يُرِي الرجُلُ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٩٤) كتاب الأدب - ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤) كتاب الإيمان - ومسلم (٥٨) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٧٠٤٢) كتاب التعبير.

«تَحلَّم» أي: قال: إنهُ حَلم في نَومِهِ ورأى كذا وكذا، وهو كاذبٌ - و«الآنك»: وهو الرَّصاصُ المذابُ.

عَيْنَيْهِ ما لَمْ تَرَيا»(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لم يَرَهُ كُلِّفَ أنْ يَعقِدَ بيْن شَعِيرتين، وَلَيسَ بِعَاقِدٍ» يعني مَن كذب في الرؤيا قال: رأيت في المنام كذا وكذا وهو كاذب، فإنه يوم القيامة مُكلَّف أن يعقد بين شعيرتين... والمعلوم أن الإنسان لو حاول مهما حاول أن يعقد بين شعيرتين فإنه لا يستطيع، ولكنه لا يزال يُعذَّب ويُقال له: لا بد أن تعقد بينهما.. وهذا وعيد يدل على أن التحلُّم بحُلمٍ لم يره الإنسان من كبائر الذنوب، وهذا يقع من بعض السفهاء، يتحدث ويقول: رأيت البارحة كذا وكذا؛ لأجل أن يُضحك الناس ... وهذا حرام عليه، وأشد من ذلك أن يقول: رأيت النبي ﷺ وقال لي كذا وكذا وما أشبه ذلك، فإنه أشد وأشد، لأنه كذب على رسول الله ﷺ ... أما مَن تَحلَّم بحُلمٍ رآه فهذا لا بأس به ... ولكن ينبغي للإنسان أن يعلم أن ما يراه الإنسان في منامه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسمٌ: يكون خيرًا ويستبشر به الإنسان ويفرح به الإنسان، فهذا لا يُحدِّث به إلا مَن يحب، لأن الإنسان له حُسَّادٌ كثيرون، فإذا رأى رؤيا حسنة وحدَّث بها مَن لا يحب فإنه ربما يكيد له كيدًا، ويَحول بينه وبين هذا الخير الذي رآه، كما فعل إخوة يوسف ﷺ.

القسم الثاني: رؤيا شر... هذا القسم الثاني مما يراه الإنسان في المنام، رؤيا شر تُزعج وتُخوف، فهذا لا تخبر به أحدًا أبدًا لا صديقك ولا عدوك... وإذا قمت من منامك فاتفُل عن يسارك ثلاثًا وقل: أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت. وإن كنت تريد أن تواصل النوم فنَم على الجنب الآخر، يعني لا على الجنب الذي رأيت فيه ما تكره فإنها لا تضر.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٠٤٣) كتاب التعبير.
ومعناه: يقول رأيتُ فيما لم يره.

القسم الثالث: رؤيا أضغاث أحلام، ليس لها رأس ولا قدم... يرى الإنسان أشياءً متناقضة ويرى أشياءً غريبة، وهذه لا تُحدِّث بها أحدًا ولا تهتم بها، وقد حدَّث رجلٌ رسول الله ﷺ حديثًا قال: يا رسول الله رأيت فى المنام أن رجلًا قد قطع رأسى، فذهب الرأس شاردًا، فذهبت وراءه لاحقًا له. فقال له النبى ﷺ: «**لا تُحدث الناس بتلعُّب الشيطان بك فى منامك**»(١).

❁ **أما المسألة الثانية: «مَن تَسمَّع قومًا وهم له كارهون صُبَّ فى أُذنيه الآنك يوم القيامة»** يعنى الذى يتسمع إلى أُناسٍ وهم يكرهون أن يسمع فإنه يُصَبُّ فى أذنيه الآنك يوم القيامة.

قال العلماء: الآنك هو الرصاص المُذاب والعياذ بالله... والرصاص المذاب بنار جهنم أعظم من نار الدنيا بتسعٍ وستين مرة.. وسواء كانوا يكرهون أن يسمع لغرضٍ صحيح أو لغير غرض؛ لأنَّ بعض الناس يكره أن يسمعه غيره ولو كان الكلام ما فيه خطأ ولا فيه سَبٌّ، ولكن لا يريد أن أحدًا يسمعه... وهذا يقع فيه بعض الناس... تجده مثلًا إذا رأى اثنين يتكلمون يأخذ المصحف ويجلس قريبًا منهم ثم يبدأ يطالع المصحف كأنه يقرأ، وهو يستمع إليهم وهم يكرهون ذلك، هذا الرجل يُصَب فى أذنيه الآنك يوم القيامة فيُعذَّب هذا العذاب والعياذ بالله.

❁ **«ومَن صوَّر صُورة عُذِّبَ وكُلِّفَ أنْ يَنْفُخَ فيها الرُّوح وليْسَ بنافِخٍ»**.

والتصوير ينقسم إلى قسمين:

قسم متفق على تحريمه: وهو أن يصور ما فيه روح على وجه تمثال من خشب أو حجر أو طين أو جبس أو ما أشبه ذلك... فهذا إذا صوَّره على صورة حيوان أو إنسان أو أسد أو أرنب أو قرد أو غير ذلك فهذا حرام بالاتفاق، وفاعله ملعون على لسان النبى ﷺ ويُعذَّب يوم القيامة فيُقال له: أحيى ما خلقت.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٦٨) كتاب الرؤيا.

وفى حديث ابن عباس قال: «**كل مصور فى النار.... فإن كنت لا بد فاعلًا فاصنع الشجر وما لا روح فيه**».

والقسم الثانى: تصوير ما لا روح فيه مثل الأشجار والشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال، وما أشبهها ... فهذه جائزة[١].

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: إن صور جميع الأحياء من آدمى أو حيوان حرام، سواء كانت مُجسمة أم رسومًا وألوانًا فى ورق ونحوه أم نسيجًا فى قماش أو صورًا شمسية... وإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة لعموم الأحاديث الصحيحة التى دلَّت على ذلك.

ويُرخَّص فيما دعت إليه الضرورة كصور المجرمين والمشبوهين لضبطهم، والصور التى فى جوازات السفر وحفائظ النفوس... ونرجو ألا تكون هذه وأمثالها مانعة من دخول الملائكة البيت لضرورة حفظها وحملها، والله المستعان.

وهكذا الصور التى تُمتهن، كالتى فى الفراش والوسائد.

ومن الأحاديث الواردة فى ذلك قول النبى ﷺ: «**إن أصحاب هذه الصور يُعذَّبون يوم القيامة، ويُقال لهم أحيوا ما خلقتم**»[٢].

وعن أبى جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبى ﷺ لعن آكل الربا وموكله، ولعن المصور[٣].

ولقول النبى ﷺ لعلىٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مُشرفًا إلا سوَّيته**»[٤].

---

(١) بتصرف من كتاب شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٠٥) كتاب البيوع - ومسلم (٢١٠٧) (٩٦) كتاب اللباس والزينة.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٩٦٢) كتاب اللباس.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٩٦٩) كتاب الجنائز.

لكن إذا كانت الصورة فى بساط يُمتهن أو وسادة يرتفق بها فلا حرج فى ذلك لما ثبت عن النبى ﷺ:

أنه كان على موعد مع جبرائيل، فلما جاء جبرائيل امتنع عن دخول البيت، فسأله النبى ﷺ فقال: إن فى البيت تمثالًا، وسترًا فيه تصاوير، وكلبًا، فمُرْ برأس التمثال أن يُقطع، وبالستر أن يُتخذ منه وسادتان منتبذتان تُوطآن، ومُرْ بالكلب أن يُخرج، ففعل ذلك النبى ﷺ فدخل جبرائيل عليه السلام[١].

وفى الحديث المذكور أن الكلب كان جروًا للحسن أو الحسين رضي الله عنهما تحت نضد فى البيت.

وقد صَحَّ عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة ولا كلب**»[٢].

وقصة جبريل هذه تدل على أن الصورة فى البساط ونحوه لا تمنع من دخول الملائكة... ومثل ذلك ما ثبت فى الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها اتخذت من الستر المذكور وسادة يرتفق بها النبى ﷺ[٣].

(١٥٥٤) وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحدٌ مِنكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟» فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ، وإِنَّهُ قَالَ لَنا ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِيَ اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وإِنهُمَا قَالا لِي: انْطَلِقْ، وإِنِّي انْطَلَقتُ

(١) صحيح: رواه أحمد (٧٩٨٥)، وأبو داود (٤١٥٨) كتاب اللباس، والترمذى (٢٨٠٦) كتاب الأدب، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٢٥) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢١٠٦) كتاب اللباس والزينة.

(٣) بل ورد فى حديث أم المؤمنين ما يدل على طمس الصورة قبل اتخاذ القرام وسادتين.
فعند البخارى (٤/ ٨٢): «قَدِمَ رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت بقرام لى على سهوة لى فيها، فرآه رسول الله ﷺ هتكه...». فهتكُ النبى ﷺ للستر دلالة على طمس الرأس.... فحملُ هذا الحديث على ما ورد فى حديث أبى هريرة أَولَى، والله أعلم.

مَعَهُمَا، وإنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِى بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ(١)، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ(٢) هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ فَلاَ يَرجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَما كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأوْلَى!» قَالَ: «قُلْتُ لهما: سُبْحَانَ اللهِ! مَا هَذَانِ؟ قَالا لى: انْطَلِقِ انطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ(٣) مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرشِرُ(٤) شِدقَهُ إِلَى قَفَاهُ، ومِنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجانبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بالجَانِبِ الأوَّلِ، فَمَا يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ الجانبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجانبُ كما كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي المرَّةِ الأُوْلَى» قَالَ: «قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا هذانِ؟ قَالا لى: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ» فَأَحسِبُ أَنَّهُ قَالَ: «فإذا فِيهِ لَغَطٌ، وأصواتٌ، فَاطَّلَعنَا فِيهِ فإذا فِيهِ رِجَالٌ وَنِساءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فإذا أتاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا(٥). قُلْتُ: مَا هَؤلاءِ؟ قَالا لِى: انطَلِقِ انطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهرٍ» حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «أَحمَرُ مِثْلُ الدَّمِ»، وَإِذَا فى النَّهْرِ رَجُلٌ سابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَد جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كثيرةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ، مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأتِي ذَلِكَ الَّذِى قَد جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فاهُ(٦)، فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَينْطَلِقُ فَيَسْبَحُ، ثُمَّ يرجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَغَرَ لَهُ فَاهُ، فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قُلْتُ لهُما: مَا هذانِ؟ قالاَ لِى: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقنا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَريهِ المرآةِ(٧)، أَوْ كَأَكْرَهِ مَا

(١)«يَثلَغ رَأسَهُ»: يَشدَخُهُ وَيَشُقُّهُ.

(٢)«يَتَدَهْدَهُ»: يَتَدَحرجُ.

(٣)«الكَلُّوبُ» حَديدَة مُعوجَّة الرَّأس يُنزع بها اللحم من القِدر.

(٤)«فيُشَرشِرُ»: يُقَطِّعُ..

(٥)«ضَوْضَوا»: أىْ صاحوا.

(٦)«فَيَفْغَرُ فَاهُ» يفتح فَمه.

(٧)«كَرِيهَ المَرآةِ»: كَرِيهَ المنظر.

أنتَ رَاءٍ رجُلًا مَرأىً، فإذا هُوَ عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا[١] وَيَسْعَى حَوْلَهَا. قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قالاَ لى: انْطَلِقِ انطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعتمَّةٍ[٢] فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَى الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لا أَكادُ أَرَى رَأسَهُ طُولًا فى السَّماءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلدانٍ رَأيْتُهُمْ قَطُّ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ وَمَا هؤلاءِ؟ قالا لى: انْطَلِقِ انطَلِقْ، فَانطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ[٣] عَظيمةٍ لَمْ أَرَ دَوْحَةً قَطُّ أعظمَ مِنْهَا، وَلاَ أحسَنَ! قالا لى: ارقَ فِيهَا، فارتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ المَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحنَا، فَفُتِحَ لَنَا فَدَخَلْنَاها، فتَلَقَّانَا رِجالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كأَحسَنِ مَا أنت راءٍ! وَشَطرٌ مِنْهُمْ كأقْبَحِ مَا أنتَ راءٍ! قالا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فى ذَلِكَ النَّهرِ، وَإِذَا هُوَ نَهرٌ مُعترِضٌ يَجْرِى كأَنَّ ماءَهُ المَحضُ[٤] فى البَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَد ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فى أحسَنِ صُورَةٍ» قَالَ: «قالا لِى: هذِهِ جَنَّةُ عَدنٍ، وهذاك مَنْزِلُكَ، فسَمَا بَصَرى[٥] صُعُدًا، فإذا قَصرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ[٦] البَيضاءِ، قالا لى: هذاكَ مَنْزِلكَ؟ قلتُ لهما: باركَ اللهُ فيكُما، فذَرانى فأدخُلَه. قالا لى: أَمَّا الآنَ فلاَ، وأنتَ دَاخِلُهُ، قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّى رَأيتُ مُنْذُ اللَّيْلَة عَجَبًا؟ فما هَذَا الَّذِى رأيتُ؟ قالا لى: أمَا إنَّا سَنُخْبِرُكَ: أَمَّا الرَّجُلُ الأوَّلُ الَّذِى أَتَيت عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأسُهُ بالحَجَرِ، فإنَّهُ الرَّجُلُ يَأخُذُ القُرآنَ فيَرفُضُهُ، ويَنَامُ عَنِ الصَّلاةِ المَكتُوبَةِ. وأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِى أَتيت عَلَيْهِ يُشَرشَرُ شِدقُهُ إِلَى قَفَاهُ، ومِنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فإنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفاقَ. وأمَّا الرِّجَالُ والنِّساءُ العُراةُ الَّذِينَ هُمْ فى مِثْلِ بناءِ التَّنُّورِ،

(١)«يَحُشُّها» أىْ: يُوقِدُها.

(٢)«رَوْضَةٍ مُعتمَّةٍ» أىْ: وافية النَّباتِ طَويلَته.

(٣)«دَوْحَةٌ»: الشَّجَرَةُ الكَبيرةُ.

(٤)«المَحضُ»: هُوَ اللَّبَنُ.

(٥)«فَسَمَا بَصَرى» أىْ: ارتَفَعَ.

(٦) «الربَابَةُ»: السَّحابَة.

فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ والزَّوانى، وأما الرجلُ الذى أتيتَ عَليهِ يَسْبَحُ فى النهرِ، ويلقم الحجارةَ، فإِنَّهُ آكلُ الربا، وأَمَّا الرَّجُلُ الكَريهُ المَرآةِ الَّذِى عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فإِنَّهُ مالكٌ خازِنُ جَهَنَّمَ، وأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِى فى الرَّوْضَةِ، فإِنَّهُ إبراهيم ﷺ وأَمَّا الولدان الَّذِينَ حَوْلَهُ، فكلُّ مَوْلُودٍ ماتَ عَلَى الفِطْرَةِ» وفى روايةِ البَرقانِيِّ: «وُلِدَ عَلَى الفِطْرَةِ» فَقَالَ بعض المُسلمينَ: يَا رسولَ الله، وأولادُ المُشركينَ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وأولادُ المشركينَ، وأما القومُ الذينَ كانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبيحٌ، فإِنَّهُمْ قَومٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تَجاوَزَ الله عنهم». رواه البخارى.

وفى روايةٍ لَهُ: «رَأيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أتيَانِى فأَخْرَجَانِى إِلَى أرضٍ مُقَدَّسَةٍ» ثُمَّ ذَكَرَهُ وقال: «فَانْطَلَقْنَا إِلَى نَقْبٍ مثلِ التَّنُّورِ، أعلاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ واسِعٌ؛ يَتَوَقَّدُ تَحتَهُ نارًا، فإذا ارتَفَعَتِ ارتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا، وَإِذَا خَمَدَتْ! رَجَعُوا فِيهَا، وفيها رِجالٌ ونساءٌ عراةٌ». وفيها: «حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ» - ولم يشكَّ - «فِيهِ رَجُلٌ قائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهْرِ وعلى شطِّ النَّهرِ رجلٌ، وبينَ يديهِ حِجارةٌ، فأقبلَ الرجلُ الذى فى النَّهرِ، فإذا أرادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فى فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جاءَ لِيَخْرُجَ جَعَلَ يَرمِى فى فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرجع كما كَانَ». وفيها: «فَصَعِدَا بى الشَّجَرَةَ، فَأدخلانِى دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أحسَنَ مِنْهَا، فيهَا رِجالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ». وفيها: «الَّذِى رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدقُهُ فَكَذَّابٌ، يُحَدِّثُ بِالكِذْبَةِ فَتُحمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفاقَ، فَيُصنَعُ بِهِ مَا رَأَيْتَ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ»، وَفِيهَا: «الَّذِى رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعمَلْ فِيهِ بالنَّهارِ، فَيُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، والدَّارُ الأولَى الَّتى دَخَلْتَ دارُ عَامَّةِ المُؤمِنِينَ، وأَمَّا هذِهِ الدَّارُ فَدارُ الشُّهداءِ، وأنا جِبْرِيلُ، وهذا مِيكائيلُ، فَارفَع رَأْسَكَ، فَرَفَعتُ رَأسِى، فإذَا فَوْقِى مِثْلُ السَّحابِ، قالا: ذاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِى أدخُلْ مَنْزِلى، قالا: إنَّهُ بَقِىَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَهُ أَتَيتَ مَنْزِلَكَ»(١).

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣٨٦) كتاب الجنائز.

۞ فالشاهد من هذا الحديث هو مشهد الرجل الذى رآه النبى ﷺ مُستلقيًا على قفاه وإذا برجلٍ آخر قائم عليه بقطعة حديد مُعوجة كالهلب.. وإذا به يُشرشر .. أى: يقطع فمه إلى قفاه ويقطع أنفه إلى قفاه ويقطع عينه إلى قفاه.. ثم يذهب إلى الجانب الآخر ويفعل نفس الشىء.. فإذا فرغ من جانب عاد الجانب الآخر سليمًا فيذهب إليه ويُشرشره .. فلما سأل النبى ﷺ أخبره جبريل عليه السلام أن هذا الرجل يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق.

كمن ينشر كذبة على النت أو على الفضائيات فتصل كذبته إلى الآفاق.. فيكون هذا عقابه فى القبر إلى يوم القيامة .. عافانا الله وإياكم من الكذب.

(٢٦١) باب بيان ما يجوز من الكذب

۞ وقد يسأل سائلٌ: هل هناك أحوالٌ يجوز الكذب فيها؟

وللجواب على هذا السؤال يقول الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

اعلَمْ أنَّ الكَذِبَ، وإنْ كَانَ أصلُهُ مُحَرَّمًا، فَيَجُوزُ فى بَعضِ الأحوَالِ بِشُروطٍ قَد أوْضَحتُهَا فى كتاب: «الأَذْكَارِ»، ومُخْتَصرُ ذَلِكَ: أنَّ الكلامَ وَسيلَةٌ إلَى المَقَاصِدِ.

فَكُلُّ مَقْصُودٍ مَحمُودٍ يُمْكِنُ تَحصِيلُهُ بِغَيْرِ الكَذِبِ يَحرُمُ الكَذِبُ فِيهِ، وإنْ لَمْ يُمْكِنْ تَحصِيلُهُ إلاَّ بالكَذِبِ، جازَ الكَذِبُ. ثُمَّ إنْ كَانَ تَحصِيلُ ذَلِكَ المَقْصُودِ مُبَاحًا كَانَ الكَذِبُ مُبَاحًا، وإنْ كَانَ وَاجِبًا، كَانَ الكَذِبُ وَاجِبًا.

فإذا اخْتَفَى مُسْلِمٌ مِنْ ظَالِمٍ يُريدُ قَتْلَهُ، أَوْ أَخذَ مَالِهِ وأخفى مالَه وَسُئِلَ إنْسَانٌ عَنْهُ، وَجَبَ الكَذِبُ بإخْفَائِه. وكذا لو كانَ عِندَهُ وديعَةٌ، وأراد ظالمٌ أخذها، وجبَ الكذبُ بإخفائها ... وَالأحوَطُ فى هَذَا كُلِّهِ أن يُوَرِّىَ.

ومعنَى التَّوْرِيَةِ: أَنْ يَقْصِدَ بِعِبَارَتِهِ مَقْصُودًا صَحيحًا لَيْسَ هُوَ كَاذِبًا بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ، وإنْ كَانَ كَاذِبًا فى ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وبالنِّسْبَةِ إلَى مَا يَفْهَمُهُ المُخَاطَبُ.... وَلَوْ تَرَكَ التَّوْرِيَةَ وَأَطْلَقَ عِبَارَةَ الكَذِبِ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ فى هَذَا الحَالِ.

وَاسْتَدَلَ العُلَمَاءُ بِجوازِ الكَذِبِ فى هَذَا الحَالِ بِحَديثِ أُمِّ كُلْثُومٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها سمعتْ رسُولَ الله ﷺ يقول: **«لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِى يُصلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِى[1] خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»**.

زاد مسلم فى رواية: قالت أُمُّ كُلْثُومٍ: وَلَمْ أَسْمَعهُ يُرَخِّصُ فى شَىْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ إلاَّ فى ثَلاثٍ، تَعنِى: الحَربَ، والإصلاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَديثَ الرَّجُلِ

---

(١) فينمى خيرًا: أى يبلغ خبرًا فيه خير.

امْرَأَتَهُ، وَحديثَ المَرأَةِ زَوْجَهَا(١).

۞ سبق لنا أن الكذب محرم وأن منه ما هو كبيرة من كبائر الذنوب كالكذب على الله ورسوله...ذكر المؤلف فى هذا الباب أن الكذب يجوز أحيانًا إذا كانت المصلحة كبيرة عظيمة، وأنه قد يجب الكذب إذا كان فيه دفع مضرة وظُلم...مثال ذلك فى دفع المضرة والظلم أن يكون شخص ظالم يريد أن يقتل شخصًا معصومًا، فيختفى هذا الشخص المعصوم عن الظالم، وأنت تعلم مكانه، فسألك هذا الظالم الذى يريد قتله بغير حق: أين فلان؟ هل فلان فى هذا المكان؟ فتقول: لا ليس فلان فى هذا المكان... وأنت تدرى أنه فيه.

فهذا لا بأس به بل هو واجب لإنقاذ المعصوم من الهلكة .. فإن إنقاذ المعصوم من الهلكة واجب ... وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولكن الأفضل أن تُورِّى يعنى تنوى معنًى صحيحًا ليس فيه كذب وإن كان ظاهر اللفظ أنه كذب فتقول مثلًا إذا قال هذا الظالم فلان هنا؟ تقول: ليس هنا وتشير إلى شىءٍ مُعين ليس فيه ... كما يُذكر أن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ جاءه رجل يسأل عن أحد التلاميذ: أين فلان، فقال الإمام أحمد: ليس فلان هاهنا وما يصنع فلان هاهنا ... وكان يشير إلى يده ... يعنى ليس فى يدى وما يصنع فى يدى... هذه تورية فإذا قيل مثلًا: إذا جاءك هذا الظالم الذى يريد أن يقتل هذا الشخص بغير حق، وقال هل فلان هاهنا؟. تقول: لا ليس هنا وتلمس يدك بيدك الأخرى يعنى ليس فى يدى.

وكذلك أيضًا إذا كانت المصلحة كبيرة كالكذب فى الحرب لا بأس به لأنه فيه مصلحة كبيرة .. مثل أن تأتى عيون العدو يعنى جواسيسه يقولون مثلًا: هل الجيش كبير وهل معه عُدة، وهل هو قوى؟. تقول: نعم الجيش كبير وعظيم وقوى ومعه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٩٢) كتاب الصلح - ومسلم (٢٦٠٥) كتاب البر والصلة.

عُدة .. ولو كنت تعرف أن الأمر بخلاف ذلك فهذا لا بأس به لأن فيه مصلحة كبيرة وهى إلقاء الرعب فى قلوب الأعداء....وكذلك الإصلاح بين الناس ...

يأتيك شخص قد ذُكر له أن شخصًا آخر يغتابه ويَسُبه فيأتى إليك ويقول: سمعت أن فلانًا قال فِيَّ كذا وكذا، فتقول: أبدًا ما قال فيك شيئًا ...هذا لا بأس به لأن فيه إصلاحًا بين الناس ... كذلك من المصلحة حديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها فيما يُوجب الألفة والمودة ... مثل أن يقول لها أنت عندى غالية وأنت أحب إلىَّ من سائر النساء ... حتى وإن كان كاذبًا لكن من أجل إلقاء المودة والمصلحة تقتضى هذا .. فالمهم أن الكذب يجب إذا كان لإنقاذ معصوم من هلكة أو حماية مال معصوم من تلف ... ويُباح إذا كان فيه مصلحة عظيمة ... ومع ذلك فمن الأَولَى أن يُورِّى أى يجعل الكلام تورية حتى يَسلَم من الكذب(١).

۞ فالكذب على طريق التَّورية والتَّعريض جائزٌ للضَّرورة والحاجة.. كما سُئل رسول الله ﷺ وقد تطرَّف برداءٍ، وانفرد عن أصحابه، فقال له رجلٌ: ممَّنْ أنت؟ قال: «من ماءٍ»، فورَّى عن الإخبار بنفسه بأمرٍ يُحتَمَلُ.. فظنَّ السَّائلُ أنَّه عنى القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنَّما أراد رسول الله ﷺ أنَّه من الماء الذى يُخلق منه الإنسان ، فبلغ ما أحبَّ من إخفاء نفسه وصَدَق فى خبره(٢).

وكالذى حُكِيَ عن أبى بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّه كان يسير خَلْفَ رسول الله ﷺ حين هاجر معه، فتلقَّاه العرب، وهم يعرفون أبا بكرٍ، ولا يعرفون رسول الله ﷺ، فيقولون: يا أبا بكرٍ، مَنْ هذا؟ فيقول: «هذا يهدينى السبيل»، فيظنُّون أنَّه يعنى: هداية الطريق، وهو إنَّما يريد هداية سبيل الخير... فيَصدُق فى قوله، ويُورِّى عن مُراده(٣).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٨٧-٨٨) بتصرف.
(٢، ٣) «أدب الدُّنيا والدين» (ص ٢٦٥).

وكان إبراهيم النَّخعيُّ إذا طلبه مَنْ يكره أن يخرج إليه وهو فى الدَّار، قال للجارية: «قولى له: اطلبه فى المسجد، ولا تقولى له، ليس ها هنا... كى لا يكون كذَّابًا»[1].

وكان الشَّعبيُّ إذا طلبه أحدٌ فى المنزل وهو يكرهه، خطَّ دائرة، وقال للجارية: «ضعى الأصبع فيها، وقولى : ليس ها هنا»[2].

۞ وقد بوَّب البخاريُّ فى «صحيحه» بابًا بعنوان: المعاريضُ مَنْدُوحةٌ عن الكذب... وممَّا أورد تحته حديث أنس ﷺ قال: «مات ابنٌ لأبى طَلْحَةَ، فقال: كيفَ الغُلام؟ قالت أُمُّ سُلَيمٍ: هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وأرجو أنْ يكون قد استراح، وظنَّ أنَّها صادقةٌ» وهى تقصد أنه مات .. وهو فهم منها أنه قد برئ من المرض وهدأ واستراح.

وقال عُمرُ بن الخطَّاب ﷺ: «إنَّ فى المعاريضِ ما يكفى أن يعفَّ الرَّجل عن الكذب»[3].

وهذا كُلُّه فى موضع الحاجة.... فأمَّا فى غير موضع الحاجة فلا؛... لأنَّ هذا تفهيم الكذب، وإنْ لم يكن اللَّفظ كذبًا فهو مكروهٌ على الجملة[4].

۞ وأخيرًا قول الشاعر:

إِذَا مَا الْمَرءُ أَخْطَأه ثَلاثٌ ... فَبِعهُ وَلَوْ بِكَفٍّ مِنْ رَمَادِ
سلامةُ صدره والصدقُ منه ... وكتمانُ السرائرِ فِى الْفُؤادِ[5]

فاللهم ارزقنا الصدق فى الأقوال والأعمال والأحوال.

---

(١) «الإحياء» (٣/ ١٤٩).
(٢) «الإحياء» (٣/ ١٤٩).
(٣) «أدب الدُّنيا والدين» (ص ٢٦٥).
(٤) «الإحياء» (٣/ ١٤٩).
(٥) «روضة العقلاء» (٥٣) - نقلًا عن (الأخلاق بين الطبع والتطبع) للشيخ فيصل الحاشدى.

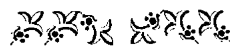
(٢٦٢) باب الحث على التثبُّت فيما يقوله ويحكيه

۞ لما ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحريم الكذب وذكر الأدلة على ذلك من الكتاب والسُّنة.. أعقبه بهذا الباب (باب الحث على التثبُّت فيما يقوله ويحكيه) وذلك من أجل أن يتثبت الإنسان فيما ينقله عن الناس.. ولا سيما فى هذا الزمان الذى انتشر فيه الكذب والقيل والقال.

۞ ثم استدل المصنف ببعض الآيات والأحاديث..

منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أى: ولا تتبَّع ما ليس لك به علم، بل تَثَبَّتْ فى كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فحقيقٌ بالعبد الذى يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التى خلقها الله لعبادته، أن يُعِدَّ للسؤال جوابًا... وذلك لا يكون، إلا باستعمالها، بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكَفِّها عما يكرهه الله تعالى[١].

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ خير أو شرٍّ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أى: مُراقبٌ له، حاضرٌ لحاله... كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢].



(١٥٥٥) وعن أبى هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كفى بالمرءِ كَذِبًا أنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ ما سمِعَ»[٣].

---

(١) تفسير السعدى (ص ٥٢٦).

(٢) تفسير السعدى (ص ٩٥٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥) فى المقدمة.

۞ يعنى أن الإنسان إذا أصبح يحدث بكل ما يسمعه من غير أن يتثبت ويتأكد من صحة هذا الكلام فإنه يُصبح عُرضة للكذب.. فلا يصح أن كل ما يدخل فى سمعه يخرج من لسانه.. وقد ورد فى الحديث «**بئس مطية الرجل زعموا**»... ولهذا تجد كثيرًا من الناس يقولون لك: لقد حدث كذا.. أو قال فلان: كذا.. فإذا بحثت وجدت أكثر هذا الكلام لم يحدث... وأسوأ شىء أن يكون ذلك فيما يتعلق بالأحكام الشرعية بأن يكذب الإنسان على الله أو على رسول الله ﷺ أو ينقل كلامًا عن واحدٍ من أهل العلم لم يَقلُه لأن الكذب على العلماء كالكذب على النبى ﷺ.. وذلك لأن العلماء ورثة الأنبياء... ولذا أخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ كرِهَ لنا قِيل وقال.

فكون الإنسان يُحدث بكل شىءٍ يسمعه ويُخبر به، وقد يكون ذلك الذى سمعه ليس مُتثبتًا فيه، وقد يكون خبراً غير مطابق للواقع، فإنه بعد ذلك مَن سمعه منه نسبه إليه... فالرسول ﷺ قال: «**كفى بالمرءِ كَذِبًا أنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ ما سمِعَ**».

(١٥٥٦) وعن سَمُرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «**مَن حدَّث عنِّى بِحَدِيثٍ يرَى أنَّهُ كذِبٌ، فهو أحدُ الكاذِبين**»(١).

۞ هذا الحديث وهذه الترجمة فيهما التحذير من التهاون بالحديث عن رسول الله ﷺ، وهو يظن أو يعلم أنه كذب، «**مَنْ حَدَّث عنى بحديثٍ وهو يَرى**»، يعنى: يعلم أو(وهو يُرى)بالضم بمعنى: يظن أنه كذب «**فهو أحدُ الكاذِبين**» ومن الممكن أن تُقرأ: «**فهو أحد الكاذِبَين**»، بالتثنية، أى: أنه شارك فى الإثم... فأحد الوضَّاعين، روى هذا وهذا..وهو أحد الكاذِبَين... يعنى: الكاذب الأول الذى كذب وهو الثانى؛ لأنه حدَّث به وهو يظن أو يعلم أنه كذب فهو أحد الكاذبين:

(١) صحيح: رواه مسلم (١/ ٧) فى المقدمة.

وهو من جملة الكاذبين ومن جملة الوضَّاعين... وهذا فيه التحذير الشديد من الكذب على رسول الله ﷺ .. وقد ورد فى الحديث الذى رواه البخارى أن النبى ﷺ قال: «.. ومَن كذب علىَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».. وقد سبق شرحه فى الحديث رقم (١٣٨٨) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١٥٥٧) وعن أسماءَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن امرأةً قالت: يا رسولَ الله إنَّ لى ضَرَّةً فهل علىَّ جُناحٌ إن تَشبَّعتُ من زَوْجى غيرَ الذى يُعطينى؟ فقال النبىُّ ﷺ: «المُتشبِّعُ بِما لم يُعطَ كلابِس ثَوْبَى زُورٍ»[1].

۞ أى: الذى يستكثر من شىء وهو غير واجدٍ له وغير مالكٍ له، كأن يقول: عندى كذا وليس عنده... مما يترتب على ذلك إيهام السامع بأن عنده قدرة، فيؤدى ذلك إلى أن يتعامل معه بُناءً على كلامه الكاذب غير الصحيح.

أو يدَّعى أمرًا ليس له، كأن يدَّعى نسبًا شريفًا وهو ليس له هذا النسب، فإنه مُتشبعٌ بما لم يُعطَ، ومُضيفٌ لنفسه شيئًا ليس له... مثل ما هو مُنتشرٌ الآن فى هذا الزمان من الانتساب إلى أهل البيت، فإن كثيرًا من العجم فضلًا عن العرب يحصل منهم هذا الشىء، فتجدهم ينتسبون إلى أهل البيت... وهذا إذا كان الإنسان عالمًا بذلك وفاعلًا لذلك عن علم أنه ليس كذلك، فإنه داخلٌ تحت التشبُّع بما لم يُعطَ... لأنه أضاف شيئًا إليه وهو ليس عنده أو ليس له.

۞ أورد أبو داود حديث أسماء بنت أبى بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : أن امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ ، وقالت: إن لى جارة- ضَرَّة - فهل علىَّ جُناح إذا ذكرت لها أن

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢١٩) كتاب النكاح، ومسلم (٢١٣٠) كتاب اللباس والزينة.
المُتشبِّعُ: هو الذى يُظهرُ الشِّبع وليس بشبعان... ومعناها هنا: أنَّهُ يُظهرُ أنه حصلَ له فضِيلةٌ وليْست حاصِلة. « ولابس ثَوْبى زورٍ» أى: ذى زُورٍ، وهو الذى يُزَوِّرُ على النَّاس بأن يَتَزَيَّى بِزِىِّ أهل الزُّهْدِ أو العِلم أو الثروةِ، ليغْترَّ بِهِ النَّاسُ وليْس هو بِتلك الصِّفةِ، وقيل غير ذلك والله أعلم.

زوجى أعطانى كذا وهو لم يُعطنى؟ فهى بهذا القول تريد أن تضرها وتريد أن تُحزنها...فالنبى ﷺ قال: «**المتشبع بما لم يُعطَ كلابس ثوبى زور**» يعنى: أن كلامه وفعله زور... فهو كالمتصف بوصفين ذميمين، وهو أنه لابس ثوبى زور وليس ثوبًا واحدًا، وهذه زيادة فى الإثم، وزيادة فى الضرر[1].



---

(١) شرح سنن أبى داود/ للشيخ عبد المحسن العبَّاد.

(٢٦٣) باب بيان غلظ تحريم شهادة الزور

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر:١٤].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال العلامة ابن سعدى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى تفسيرها:

أى: لا يحضرون الزور ... أى: القول والفعل المُحرَّم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض فى آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسَّبِّ والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير، والصور ونحو ذلك.

وإذا كان ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ داخلة فى قول الزور فمن باب أولَى وأحرَى أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة فى قول الزور وتدخل فى هذه الآية بالأولوية(١).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال ابن سعدى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ أى: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذى هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور(٢).

---

(١) تفسير السعدى (ص٥٨٧).

(٢) تفسير السعدى (ص٥٣٨).

وشهادة الزور أن يشهد بما يعلم أن الأمر بخلافه، أو يشهد بما لا يعلم أن الأمر بخلافه أو بوفاقه، أو يشهد بما يعلم أن الأمر على وفاقه لكنه على صفة غير الواقع... هذه ثلاثة أحوال وكلها حرام.

العظائم التى يرتكبها شاهد الزور

❁ شاهد الزور قد ارتكب عظائم كثيرة .. منها:

(١) الكذب والافتراء:

فقد كذب شاهد الزور فى شهادته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٨].

(٢) إباحة ما حرم الله (جلَّ وعلا):

فقد أباح شاهد الزور ما حرم الله تعالى وعَصَمه من المال والدم والعِرض.

(٣) تضليل الحاكم عن الحق:

والسبب فى الحكم بالباطل ...ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ**[١] **بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعضٍ، فَأَقْضِى عَلَى نَحوِ مَا أَسْمَعُ»**[٢].

(٤) الظُّلم لمن شَهِدَ له:

لأنه ساق إليه ما ليس بحقٍّ بسبب شهادة الزُّور، فوجبت له النار، ولذلك قال ﷺ: **«إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا»**[٣].

(١) ألحن: أعلم.

(٢، ٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٥٨) كتاب المظالم والغصب، و(٢٦٨٠)(٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣) كتاب الأقضية.

(٥) الظُّلم لمن شَهِدَ عليه :

فيتعرَّض الشَّاهد لدعوة المشهود عليه بغير الحقِّ ظُلمًا، ودعوة المظلوم مستجابةٌ، كما قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لا يَردُّ اللهُ دُعَاءَهُمْ: الذَّاكِرُ اللهَ كَثِيرًا، وَدَعوَةُ الْمَظْلُومِ، وَالإِمَامُ الْمُقْسِطُ**»(١).

ودعوة المظلوم كما وصفها أحد الشعراء فقال وأحسن:

وساريةٍ لم تَسِر فِي الأرض تبتغى محلًا　وَلم يقطع بهَا الْبِيدَ(٢) قَاطعُ
سَرَتْ حَيْثُ لم تُحدَ(٣) الرِّكابُ(٤) وَلم تُنخ(٥)　لورِدٍ وَلم يقصُر لَهَا الْقَيْدَ مَانعُ
تَمُرُّ وراء اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ ضَاربٌ　بجُثمانه فِيهِ سميرٌ(٦) وهاجعُ(٧)

وقال آخر:

لا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا　فَالظُّلْمُ يَرجِع عُقبَاهُ إِلَى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ　يدعو عليك وعينُ اللهِ لم تَنَمِ

(٦) قد يُطلَب منه اليمين على صحَّة شهادته ، فيتعرَّض لغضب الله ومقته :

قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ(٨) حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:

---

(١) حسن: رواه البيهقى فى الشُّعب، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٦٤)، والسلسلة الصحيحة (١٢١١).

(٢) البيد: جمع بيداء، وهى الصحراء الواسعة، لا ماء فيها ولا نبات.

(٣) الحدو والحداء: الغناء للإبل لسوقها وحثها على السير.

(٤) الرِّكاب: الإبل التى يُسار عليها.

(٥) أناخ الجمل: أبركه.

(٦) سمير: ساهر.

(٧) هاجع: نائم.

(٨) اقتطع: أخذ.

«وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ[(١)]»[(٢)].

(٧) تخليص المجرمين من عقوبة الجريمة.

(٨) تزكية المشهود له، وهو ليس أهلاً لذلك[(٣)].

(١٥٥٨) وعن أبي بكْرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألا أُنبِّئكُم بأكبر الكبائر» قُلنا: بَلَى يا رسول الله، قال: «الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالِدينِ» وكان مُتَّكِئًا فجلس، فقال: «ألا وقَوْلُ الزُّورِ، وشهادةُ الزورِ» فما زال يُكرِّرُها حتى قُلنا: لَيْتَهُ سَكَت[(٤)].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٤١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) الأراك: شجر معروف يُستاك بأعواده.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان، عن أبي أمامة.

(٣) انظر: مجلة البحوث، بحث قدمه الشيخ عبد الله القصير بتصرف.. نقلًا عن (الأخلاق بين الطبع والتطبع) للحاشدي.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٥٤) كتاب الشهادات - ومسلم (٨٧) كتاب الإيمان.

(٢٦٤) باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابة

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن اللعن معناه: الطرد والإبعاد عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.. فإذا قلت: اللهم العن فُلانًا فكأنك تقول: اللهم اطرده من رحمتك... ومن أجل ذلك كان لعن المُعيَّن من كبائر الذنوب.. يعنى لا يجوز أن تلعن إنسانًا بعينه وتقول: اللهم العن فلانًا أو تقول لأحدٍ: لعنة الله عليك.. هذا لا يجوز.

حتى لو كان الذى تلعنه كافرًا فإنه لا يجوز لك أن تلعنه لأنه قد يهديه الله ويُسلم بعد ذلك فكيف تلعنه؟!...

وكم من إنسانٍ كان من أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين فهداه الله وأسلم بعد ذلك وكان من خيار المسلمين.. كعمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولهذا قال أهل العلم: يجوز اللعن بالوصف الأعم كقولك: لعنة الله على الكافرين أو الظالمين أو المبتدعين.. لكن لا يجوز لعن المُعين .. إلا إذا كان هذا الشخص قد ثبتت لعنته شرعًا فيجوز أن تلعنه.. كقولك: لعنة الله على فرعون أو لعنة الله على أبى جهل لأنه قد ثبت أنهما ماتا على الكفر..

أما أن تلعن كافرًا ما زال على قيد الحياة فلا تلعنه لأنه قد يهتدى ويُسلم بعد ذلك.. ولذلك لما لعن النبى ﷺ الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرًا نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] يعنى أنهم ربما يُسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون؟

أما إذا مات الإنسان على الكفر وعلمنا أنه مات كافرًا فلا بأس أن نلعنه؛ لأنه ميئوسٌ من هدايته والعياذ بالله لأنه مات على الكفر ... ولكن ما الذى نستفيده من لعنه؟... ربما يدخل هذا - أعنى لعنه - فى قول النبى ﷺ: «لا تَسُبُّوا

الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا»(١).

وبخاصة إذا كان هذا الكافر له قريبٌ مسلم قد يتأذَّى من لعنه فلا تلعنه حرصًا على مشاعر هذا المسلم.

وكذلك لا يجوز أن نلعن البهيمة: كالبعير أو البقرة أو الشاة أو غيرها... فالأصل أن المسلم لا ينبغى أن يُعوِّد لسانه كثرة اللعن.. لكن من ناحية الشرع فيجوز له أن يلعن الكافرين على العموم أو يلعن الكافر الذى مات كافرًا إلا إذا كان فى ذلك إيذاء لقريبه المسلم.. لكن لا يلعن كافرًا على قيد الحياة لأنه ربما يهتدى ويُسلم بعد ذلك.. والله أعلم.

***

(١٥٥٩) عن أبى زَيْدٍ ثابتِ بنِ الضَّحَّاكِ الأنصاريِّ ﷺ، وهو من أهْلِ بَيْعةِ الرِّضوانِ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَن حَلَفَ على يمينٍ بِمِلَّةٍ غيْرِ الإسلامِ كاذبًا مُتَعَمِّدًا، فهو كما قال، ومَن قَتَل نَفْسَهُ بشىءٍ عُذِّب بهِ يومَ القِيامةِ، وليس على رجُلٍ نَذْرٌ فيما لا يَملِكهُ، ولعنُ المؤمنِ كَقَتْلِهِ»(٢).

۞ **«مَن حلف على يمينٍ بملة غير الإسلام كاذبًا مُتعمدًا فهو كما قال»** وهذا فيه زجر وفيه وعيد شديد... وليس معنى ذلك أنه يكون كافرًا، ولكنه تلفظ بكلام خبيث وقبيح، فهو آثم وإثمه شديد، وسواء كان كاذبًا أو صادقًا؛ لأن التلفُّظ بهذا الكلام لا يجوز لا بكونه صادقًا ولا كاذبًا... فكون الإنسان يكذب ويتلفظ بمثل هذا فقد جمع سوءًا إلى سوءٍ، فإذا تلفَّظ بهذا التلفُّظ الخبيث ومع ذلك كذب فيكون قد جمع بين خصلتين ذميمتين: كذب ولفظ سيئ.. وإذا كان صادقًا فإن الصدق محمود ولكن اللفظ مذموم.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣٩٣) كتاب الجنائز.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٤٧) كتاب الأدب - ومسلم (١١٠) كتاب الإيمان.

فقوله: «**من حلف على يمينٍ بملة غير الإسلام كاذبًا مُتعمدًا فهو كما قال**» معناه: كأن يقول: هو يهودى أو هو نصرانى إن فعل كذا وكذا أو إن حصل كذا وكذا.

۞ **قال الإمام القرطبى** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فى المُفهم:**

وقوله: «**كاذبًا متعمدًا**» **يُحتمل أن يريد به النبىّ** ﷺ: مَن كان معتقدًا لتعظيم تلك الملّة المُغايرة لملّة الإسلام، وحينئذ يكون كافرًا حقيقةً، فيبقى اللفظ على ظاهره، أى فى حال تعظيم تلك الملّة التى حلف بها، فتكون هذه الحال من الأحوال اللازمة، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا ﴾ [البقرة: ٩١]؛ لأن مَن عظّم ملّةَ غير الإسلام كان كاذبًا فى تعظيمه دائمًا فى كلّ حال، وكلّ وقتٍ، لا ينتقل عن ذلك، ولا يَصلُح أن يُقال: إنه يعنى بكونه كاذبًا فى المحلوف عليه؛ لأنه يستوى فى ذَمِّه كونه صادقًا، أو كاذبًا إذا حلف بملّة غير الإسلام؛ لأنه إنما ذمّه الشرع من حيث إنه حلف بتلك الملّة الباطلة، مُعظّمًا لها، على نحو ما تُعظَّم به ملّة الإسلام الحقّ، فلا فرق بين أن يكون صادقًا، أو كاذبًا فى المحلوف عليه. والله تعالى أعلم.

وأما إن كان الحالف بذلك غير معتقد لذلك فهو آثمٌ، مرتكبٌ كبيرة، إذ قد نسبه فى قوله لمن يعظّم تلك الملّة، ويعتقدها، فغلّظ عليه الوعيد، بأن صَيَّره كواحدٍ منهم، مبالغة فى الردع، والزجر... كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١][1].

۞ وقوله: «**ومَن قتل نفسه بشىءٍ عُذِّب به يوم القيامة**» هذا فيه أن الجزاء من جنس العمل... وقد جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «**مَن قتل نفسه بحديدة جاء وحديدته بيده يجأ بها نفسه** -أى: يقتل بها نفسه- **ومَن قتل نفسه بسُمٍّ فإنه يتحساه فى نار جهنم**»، أى: أنه يُعذَّب بالشىء الذى قتل نفسه به فى الآخرة، وهذا

---

(١) المفهم/ للإمام القرطبى (١/ ٢١١).



يدل على أنه يجب على الإنسان أن يحافظ على نفسه وألا يُعرضها للتهلكة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء:٢٩]، فنفس الإنسان ليست ملكًا له يتصرف فيها كيف يشاء، وإنما يتصرف فى حدود ما هو مأذون له وما هو مشروع له، وقد حُرم عليه أن يقتل نفسه، فإذا أقدم على قتل نفسه فإنه يكون بذلك مرتكبًا أمرًا خطيرًا وهو مستحق للعقوبة، ويُعذَّب بالشىء الذى قتل نفسه به... فإن قتل نفسه بحديدة فإنه يوم القيامة يجأ نفسه بتلك الحديدة، وإن قتلها بسُمٍّ فإنه يتحسَّى ذلك السُّم، وإن قتل نفسه برميه نفسه من جبل فإنه يُعاقَب بمثل ذلك يوم القيامة.

وقوله: «**وليس على رجل نذر فيما لا يملكه**» أى: أن الإنسان ينذر بالشىء الذى يملكه، أما الشىء الذى لا يملكه فليس له أن ينذر به... كأن يقول: إن شفى الله مريضى فعبد فلان حُر... فليس له ذلك؛ لأنه لا يملكه.

فالإنسان لا ينذر إلا فى الشىء الذى يملكه، ولا يكون النذر إلا فى طاعة، أما شىء لا يملكه الإنسان فليس له أن ينذر به.

۞ وعلى كل حال قال أهل العلم رحمهم الله: إن النذر أقسام:

النذر الأول: نذر الطاعة ... أن ينذر الإنسان أن يصلى أو يصوم أو يتصدق أو يحج أو يعتمر فهذا يجب الوفاء به لقول النبى ﷺ: «**مَن نذر أن يطيع الله فليُطعه**» وسواء كان مُعلقًا على شرط أو غير مُعلق.

الثانى: نذر المعصية ... فهذا لا يجوز الوفاء به، مثل أن ينذر الإنسان أن لا يكلم فلانًا وفلانًا من المؤمنين (الذين لا يُهجَرون)، لكن صارت بينه وبينه عداوة وخصام، فقال: لله علىَّ نذر ألا أكلم فلانًا ، أو لله علىَّ نذر ألا أزور أخى أو قريبى أو ما أشبه ذلك .. فهذه معصية مُحرمة ولا يجوز الوفاء بهذا النذر، لقول النبى ﷺ: «**مَن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**»[1] ولكن ماذا يفعل؟ يجب عليه

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.

أن يُكفر كَفارة اليمين.

الثالث: ما يسمى عند العلماء بنذر اللجاج والغضب، وهو الذى يقصد به الإنسان المنع أو الحث أو التصديق أو التكذيب مثل أن يقول: لله علىَّ نذر أن لا أفعل كذا وكذا...يحمله على ذلك أنه يريد الامتناع ولكنه ما أراد النذر، لكن أراد معنى النذر...فهذا يُخيَّر بين فعله إن كان فعلًا أو تَركِه إن كان تَركًا وبين كفارة اليمين...مثاله أن يقول: لله علىَّ نذر لا ألبس هذا الثوب، نقول: أنت الآن بالخيار إن شئت فالبسه وكَفِّر كفارة اليمين، وإن شئت فلا تلبسه ولا كفارة عليك.

القسم الرابع: النذر المطلق يعنى ليس فى شىءٍ مُحدد... كأن يقول الإنسان: لله علىَّ نذر فقط.. فهذا عليه كفارة يمين، لقول النبى ﷺ: «**كفارة النذر إذا لم يُسَمِّ كفارة يمين**»(١) والحاصل أنه لا ينبغى للإنسان أن ينذر، فالخير يأتى بدون نذر، والقضاء لا يرد بالنذر...كما قال النبى ﷺ: «**إنه لا يأتى بخير ولا يرد قضاءً**»(٢)(٣).

۞ وقوله: «**لعن المؤمن كقتله**» أى: فى الإثم... ووجهه: أنَّ مَنْ قال لمؤمن: لعنه الله؛ فقد تضمَّن قولُه ذلك إبعاده عن رحمة الله تعالى التى رَحِمَ بها المسلمين، وإخراجه من جملتهم فى أحكام الدنيا والآخرة، ومَن كان كذلك فقد صار بمنزلة المفقود عن المسلمين بعد أن كان موجودًا فيهم، إذ لم ينتفع بما انتفع به المسلمون، ولا انتفعوا به، فأشبه ذلك قَتْله، وعلى هذا فيكون إثمُ اللاعن كإثم القاتل، غير أن القاتلَ أَدخلُ فى الإثم، لأنه أفقد المقتولَ حسًّا ومعنًى..واللاعن أفقده معنًى، فإثمه أخفّ منه، لكنهما قد اشتركا فى مُطْلَق الإثم، فصدق عليه أنه مثله، والله أعلم(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٦٤٥) كتاب النذر، وقال ﷺ: «**كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ**».

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦٦٠٨) كتاب القدر، ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر، بنحوه.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٩٥) بتصرف.

(٤) المفهم/ للإمام القرطبى (١/ ٢١٣).

(١٥٦٠) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا ينبَغِى لِصِدِّيقٍ أن يكُونَ لعَّانًا»(١).

(١٥٦١) وعن أبى الدرداءِ رضي الله عنه قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا يكُونُ اللَّعَّانُون شُفعاءَ، ولا شُهداءَ يومَ القِيامةِ»(٢).

۞ «لا يكُونُ اللَّعَّانُون شُفعاءَ» فَمعنَاهُ: لَا يَشْفَعُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِينَ يُشَفَّعُ الْمُؤْمِنُونَ فِى إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ. «وَلَا شُهَدَاءَ» فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَصَحُّهَا وَأَشْهَرُهَا: لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْأُمَمِ بِتَبْلِيغِ رُسُلِهِمْ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَاتِ، وَالثَّانِى: لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ فِى الدُّنْيَا أَىْ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهِمْ لِفِسْقِهِمْ، وَالثَّالِثُ: لَا يُرْزَقُونَ الشَّهَادَةَ وَهِىَ الْقَتْلُ فِى سَبِيلِ اللهِ .... وَإِنَّمَا قَالَ ﷺ: «لَا يَنْبَغِى لصدِّيق أن يكون لَعَّانًا ولا يكون اللعانون شُفَعَاءَ» بِصِيغَةِ التَّكْثِيرِ، وَلَمْ يَقُلْ لَاعِنًا؛ لِأَنَّ هَذَا الذَّمَّ فِى الْحَدِيثِ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ كَثُرَ مِنْهُ اللَّعنُ لَا لِمَرَّةٍ وَنَحوِهَا؛ وَلِأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا اللَّعنُ الْمُبَاحُ وَهُوَ الَّذِى وَرَدَ الشَّرعُ بِهِ وَهُوَ «لَعنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى» «لَعَنَ اللهُ الْوَاصِلَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَشَارِبَ الْخَمْرِ وَآكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَالْمُصَوِّرِينَ وَمَنِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَتَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ وَغَيَّرَ مَنَارَ الْأَرضِ» وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ هُوَ مَشْهُورٌ فِى الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ(٣).

(١٥٦٢) وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تَلاعنُوا بلعنةِ الله، ولا بِغضبِهِ، ولا بالنَّارِ»(٤).

۞ هذا نهىٌ عن أن يلعن الرجل أخاه أو يدعو عليه بالنار، أو يدعو عليه

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٢٥).

(٤) حسن: رواه أبو داود، والترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٤٤٣).

بالغضب، أو غير ذلك... وهذا فيه النهى عن هذه الأعمال التى هى التكلُّم باللعن، أو بالدعوة بالغضب، أو بالنار، أو أن يكون من أهل النار، أو أن يُجعل من أهل النار.

۞ قوله ﷺ: «لا تَلاعنُوا بلعنةِ الله» أَىْ لَا يَلْعَنُ بَعضُكُمْ بَعضًا ... فَلَا يَقُلْ أَحَدٌ لِمُسْلِمٍ مُعَيَّنٍ: عَلَيْكَ لَعنَةُ اللهِ مَثَلًا «وَلا بِغَضَبِهِ» بِأَنْ يَقُولَ غَضَبُ اللهِ عَلَيْكَ «وَلا بِالنَّارِ» بِأَنْ يَقُولَ: أَدخَلَكَ اللهُ النَّارَ أَوِ النَّارُ مَثْوَاكَ.

قَالَ الطِّيبِيُّ: أَىْ لَا تَدعُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا يُبْعِدُهُمُ اللهُ مِنْ رَحمَتِهِ إِمَّا صَرِيحًا كَمَا تَقُولُونَ: لَعنَةُ اللهِ عَلَيْهِ ... أَوْ كِنَايَةً كَمَا تَقُولُونَ: عَلَيْهِ غَضَبُ اللهِ، أَوْ أَدخَلَهُ اللهُ النَّارَ ... فَقَوْلُهُ: «لا تَلاعَنُوا» مِنْ بَابِ عُمُومِ الْمَجَازِ؛ لِأَنَّهُ فِى بَعضِ أَفْرَادِهِ حَقِيقَةٌ وَفِى بَعضِهِ مَجَازٌ، وَهَذَا مُختَصٌّ بِمُعَيَّنٍ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ اللَّعنُ بِالْوَصفِ الْأَعَمِّ كَقَوْلِهِ: ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَوْ بِالْأَخصِّ كَقَوْلِهِ: «لَعنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ» أَوْ عَلَى كَافِرٍ مُعَيَّنٍ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ كَفِرعَوْنَ وَأَبِى جَهْلٍ[1].

(١٥٦٣) وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ليس المؤمِنُ بالطَّعَّانِ، ولا اللَّعَّانِ، ولا الفَاحِشِ، ولا البذِىِّ»[2].

۞ ففى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «ليْس المؤمِنُ» أى: ليس المؤمن كامل الإيمان «بالطَّعَّانِ» أى: الذى يعيب الناس ويطعن فى أنسابهم أو أعراضهم أو شكلهم أو هيئاتهم.

«ولا اللَّعَّانِ» أى: الذى يُكثر من اللعن.. كلما تكلم قال: فلان الله يلعنه.. أو لعنة الله على فلان.. أو: اذهب وأحضر لى كذا لعنك الله.

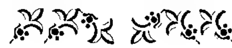
---

(١) تحفة الأحوذى (٥/ ٣٨٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٨١).

«ولا الفَاحِشِ» أى: الذى يكون فاحشًا فى كلامه وأفعاله «ولا البذِىِّ» وهو الذى لاحياء عنده فيكون بذىء اللسان يعتدى على غيره.

وهذا يدل على أن هذه الأشياء نقصٌ فى الإيمان وأنها تسلب عن المؤمن كمال الإيمان..مثل قوله ﷺ:«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، وقوله: «لاَ يُؤْمِنُ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بوائقه» يعنى: ليس عنده كمال الإيمان الواجب، بل هو ناقص الإيمان.



(١٥٦٤) وعن أبى الدَّرداءِ ﷺ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ العَبْد إذا لَعنَ شَيئًا، صَعِدتِ اللَّعنَةُ إلى السَّماءِ، فتُغْلَقُ أَبْوابُ السَّماءِ دُونَها، ثُمَّ تَهبِطُ إلى الأرضِ، فتُغْلَقُ أبوابُها دونَها، ثُمَّ تَأخُذُ يَمينًا وشِمالًا، فإذا لم تَجِد مَساغًا رجعتْ إلى الذى لُعِنَ، فإن كان أهلًا لِذلك، وإلا رجَعتْ إلى قائِلِها»[١].

۞ ذكرنا قبل ذلك أن الأصل عند أهل السُّنة أن المُعيَّن لا يُلعَن.. وذلك لأن الإنسان قد يكون على شَرٍّ، ثم يُختم له بخير، وتكون نهايته على خير.... ومن المعلوم أن الناس بالنسبة للنهايات والبدايات أربعة أقسام: منهم مَنْ تكون بدايته ونهايته طيبة، ومنهم مَنْ تكون بدايته ونهايته سيئة، ومنهم مَنْ تكون بدايته حسنة ونهايته سيئة، ومنهم مَنْ تكون بدايته سيئة ونهايته حسنة... فهذه أربعة أقسام للناس بالنسبة للبداية والنهاية... فأما مَن كانت بدايته ونهايته طيبة فمثل الأنبياء والمرسلين وكثير من المؤمنين.. وأما مَن كانت بدايته ونهايته سيئة فمثل فرعون وهامان وقارون وأبو جهل وأبو لهب وكثير من الكفار والمشركين... وأما من كانت بدايته حسنة ونهايته سيئة فمثل الذين كانوا مسلمين ثم انتكسوا وارتدوا فى نهاية حياتهم فخُتم لهم بالكفر والعياذ بالله... وأما مَن كانت بدايته

(١) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٢).

سيئة ونهايته حسنة فمثل كثير من أصحاب الرسول ﷺ الذين كانوا مشركين وماتوا وهم على الإيمان والتوحيد وفازوا بصحبة سيد الأولين والآخرين ﷺ.

۞ وفى هذا الحديث يذكر النبى ﷺ أن اللعنة التى تصدر من الإنسان تذهب إلى السماء فتُغلَق أبواب السماء دونها، ثم ترجع إلى الأرض فتُغلَق أبواب الأرض دونها، ثم تذهب يمينًا وشمالًا حتى تذهب إلى الذى قِيلت فيه، فإن كان كذلك .. يعنى: إن كان أهلًا لها وإلا عادت على صاحبها وقائلها .. وهذا وعيدٌ شديد على مَن لعن أحدًا ليس أهلًا للعن.

فيا ليتنا نحذر من كثرة اللعن حتى لا نبوء بذلك إذا لعنَّا أحدًا ليس أهلًا للعن.



(١٥٦٥) وعن عِمرانَ بنِ الحُصين رضي الله عنهما قال: بينَمَا رسُولُ الله ﷺ فى بعضِ أسْفَارِه، وامرأةٌ مِن الأنْصَارِ على ناقةٍ، فضَجِرَتْ فلَعَنَتْها، فسمع ذلك رسُولُ الله ﷺ فقال: «خُذوا ما عليها، ودَعُوها، فإنَّها مَلْعُونةٌ» قال عِمران: فكأنِّى أرَاهَا الآن تمشى فى الناس ما يَعرِضُ لها أحدٌ[١].

(١٥٦٦) وعن أبى بَرزَةَ نَضلَةَ بْنِ عُبيدٍ الأسلمىِّ رضي الله عنه قال: بينما جاريةٌ على ناقةٍ عليها بعضُ مَتاع القَوْم، إذْ بَصُرَتْ بالنَّبِىِّ ﷺ وتَضَايَقَ بهمُ الجبلُ، فقالتْ: حَلْ، اللَّهُمَّ الْعَنْها، فقال النبىُّ ﷺ: «لا تُصاحِبنا ناقةٌ عليها لعنةٌ»[٢].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٥) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٦) كتاب البر والصلة والآداب.

قوله: «حلْ»، وهى كلمةٌ لزَجْرِ الإبل.

واعلَم أنَّ هذا الحديث قد يُستَشْكَلُ معناه، ولا إشكال فيه، بل المرادُ النَّهىُ أنْ تُصاحِبَهُم تلك النَّاقةُ، وليس فيه نهىٌ عن بيْعِها وذَبْحِها ورُكوبِها فى غيرِ صُحبةِ النبى ﷺ، بل كُلُّ ذلك وما سواهُ من التَّصَرُّفاتِ جائزٌ لا مَنْع منه، إلا مِنْ مُصاحبةِ النبى ﷺ بها، لأنَّ هذه التَّصرُّفاتِ كُلَّها كانت جائزة فمُنع بعضٌ منها، فبقى الباقى على ما كان. والله أعلم.

۞ ففى الحديث الأول أن النبى ﷺ كان فى بعض أسفاره.. وكانت هناك امرأة من الأنصار على ناقة لها.. فلعلَّ الناقة قد أبطأت بها أو كادت أن تُوقعها فما كان من هذه المرأة إلا أن لعنتها.. فلما سمع ذلك النبى ﷺ قال: «**خُذوا ما عليها، ودَعُوها، فإنَّها مَلْعُونةٌ**» فتركتها المرأة تسير وحدها ولكنها لم تتركها لتضيع وحدها فى الصحراء وإنما كانت تمشى قريبًا منها.

قال عمران بن الحصين رضي الله عنه: فكأنِّى أرَاهَا الآن تمشى فى الناس ما يعرِضُ لها أحدٌ.... لأن النبى ﷺ قال: «**دَعُوها، فإنَّها مَلْعُونةٌ**».

۞ **وفى الحديث الثانى أن جارية لعنت ناقتها أيضًا فقال النبى** ﷺ: «**لا تُصاحِبنا ناقةٌ عليها لعنةٌ**».. فكان هذا من باب التعزير لتلك المرأة لأنها لعنت ناقة ليس لها ذنب حتى تلعنها وتدعو عليها بالطرد من رحمة الله عز وجل...وليس معنى أن النبى ﷺ نهاها عن ركوبها أنه نهاها عن بيعها والانتفاع بثمنها؟ .. كلا.. بل كانت هذه عقوبة لها من أجل التأديب حتى لا تفعل مثل ذلك مرة أخرى..وحتى لا يتجرأ غيرها على لعن دابته وهى ليس لها ذنب فى تلك اللعنة.

۞ **قال الإمام النووى** رحمه الله:

وَاعلَمْ أنَّ هَذَا الحَدِيثَ قَد يُسْتَشكَلُ مَعنَاهُ، وَلاَ إشْكَالَ فِيهِ، بَلِ المُرَادُ النَّهىُ أَنْ تُصَاحِبَهُم تِلْكَ النَّاقةُ، وَلَيْسَ فِيهِ نَهْىٌ عَنْ بَيْعِهَا وَذَبْحِهَا وَرُكُوبِهَا فِى غَيْرِ صُحبَةِ النبىِّ ﷺ بَلْ كُلُّ ذَلِكَ وَمَا سِوَاهُ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ جائِزٌ لا مَنْعَ مِنْهُ، إلاَّ مِنْ مُصَاحَبَةِ النَّبىِّ ﷺ بِهَا؛ لأنَّ هذِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلَّهَا كَانَتْ جَائِزَةً فَمُنِعَ بَعضٌ مِنهَا، فَبَقِىَ البَاقِى عَلَى مَا كَانَ، واللهُ أَعلم[1].



(١) رياض الصالحين/ للإمام النووى (ص/ ٤٥٤).

(٢٦٥) باب جواز لعن أصحاب المعاصى غير المُعينين

۞ أورد الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ فى كتابه (رياض الصالحين) بابًا بعنوان: «باب جواز لعن أصحاب المعاصى غير المعينين».

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وقال تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ وَالمُسْتَوْصِلَةَ[(١)]»[(٢)].

وَأَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا»، وأَنَّهُ «لَعَنَ المُصَوِّرِينَ»[(٣)].

وأَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ غيَّرَ مَنَارَ الأَرضِ»[(٤)] أيْ: حُدُودَهَا.

وأَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ»[(٥)].

وأَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيهِ» وَ«لَعَنَ اللهُ من ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ». وَأَنَّه قَالَ: «مَنْ أَحدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحدِثًا فَعَلَيْهِ لَعنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَة والنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[(٦)].

وأَنَّه قَالَ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ رِعلًا، وَذَكْوَانَ، وعُصَيَّةَ: عَصَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ»[(٧)] وهذِهِ ثَلاَثُ قَبَائِلَ مِنَ العَرَبِ.

وأَنَّه قَالَ: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[(٨)].

---

(١) قال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم (٧/ ٢٩٠): «الواصلة: هى التى تصل شعر المرأة بشعر آخر، والمستوصلة: التى تطلب مَن يفعل بها ذلك».

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٣٧) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٢) كتاب اللباس والزينة.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٠٨٦) كتاب البيوع.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٩٧٨) (٤٣) كتاب الأضاحى، من حديث علىّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٨٣) كتاب الحدود، ومسلم (١٦٨٧) (٧) كتاب الحدود.

(٦) أجزاء من حديث علىٍّ السابق الذى أخرجه مسلم (١٩٧٨).

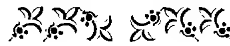
(٧) صحيح: رواه مسلم (٦٧٧) (٣٠٣) كتاب المساجد.

(٨) متفق عليه: رواه البخارى (٤٣٦) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٢٩) (١٩) كتاب المساجد.

وأنـهُ «لَعَـنَ المُتَـشَبِّهِينَ مِـنَ الرِّجَـالِ بالنِّساءِ والمُتَـشَبِّهاتِ مِـنَ النِّسَاءِ بالرِّجالِ»[1].

وَجَميعُ هذِهِ الألفاظِ فى الصحيحِ؛ ... بعضُها فى صَحيحَىّ البُخارى ومسلمٍ، وبعضها فى أحَدِهِمَا، وإنما قصدت الاختِصَارَ بالإشارةِ إلَيهمَا[2].

۞ ففى تلك الأحاديث التى أوردها الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ دليل على جواز لعن أصحاب المعاصى غير المُعينين... كأن يلعن الإنسان مَن يأكلون الربا على العموم لكن لا يلعن شخصًا بعينه ويقول: فلان الذى يأكل الربا لعنه الله .. فهذا لا يجوز.. وكأن يلعن الكافرين على العموم لكن لا يلعن كافرًا بعينه إلا إذا ورد الشرع بلعنه مثل أبى جهل وأبى لهب.. أما إذا كان رجلًا كافرًا ما زال على قيد الحياة فلا تلعنه بعينه لأنه ربما يهديه الله ويشرح صدره للإسلام فيُسلم .. أما مَن مات كافرًا فيجوز لعنه لأنه قد انقطع الأمل فى هدايته.. إلا أن يكون فى ذلك أى إيذاءٍ لمسلم.. كأن يكون هذا الكافر قريبًا له.. والله أعلم.



(١) صحيح: رواه البخارى (٥٨٨٥) كتاب اللباس، من حديث ابن عباس.

(٢) رياض الصالحين للإمام النووى (ص ٤٥٤).

(٢٦٦) باب تحريم سَبِّ المسلم بغير حق

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جنايةٍ واستحقاقٍ للأذى ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾أي: فقد حمَّلوا أنفسهم البُهتان والكذب والزور، والذنب الواضح الجلي... قال القرطبي: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيَّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبدًا[1]، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ما يكون بحقٍّ ومنه ما لا يكون بحقٍّ.

وهذا يشمل كل أذية سواء كان بالقول أو بالفعل ... وكلما كان الإنسان أحق بالإكرام كانت أذيته أعظم وأكبر إثمًا ... فأذية القريب ليست كأذية البعيد وأذية الجار ليست كأذية غير الجار وأذية مَن له حق عليك ليست كأذية مَن لا حق له عليك ...المهم أن الأذية يتفاوت إثمها وجُرمها بحسب المُؤذَى والعجب أن كثيرًا من المسلمين اليوم يؤذون جيرانهم بالمضايقات والاطلاع على عوراتهم وغير ذلك وهذا من أعظم ما يكون من الإثم... قال النبي ﷺ: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ**، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[2] يعني ظلمه وغشمه.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ يُفهم منها أنه إذا أُوذي المؤمن بما اكتسب فليس في ذلك بأس...يعني لو آذيت إنسانًا ردًّا على فعلٍ له..آذاك فأذيته فلا بأس أو آذى إنسانًا لإقامة حدٍّ لله عَزَّوَجَلَّ أو آذى لأداء حقٍّ عليه أَبَى أن يقوم به

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٦) كتاب الأدب، ومسلم (٤٦) كتاب الإيمان.

فلا بأس ... بل قد أمر الله تعالى بالَّذين يأتيان الفاحشة فقال: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ فأمر بإيذائهما ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ﴾ [النساء:١٦] وهذا قبل أن يشرع قتل الفاعل والمفعول به في اللواط ...

كان اللوطي في الأول لا يُجلَد ولا يُقتل لكن يُؤذَى حتى يتوب ثم أمر الله تعالى بقتل الفاعل والمفعول به على لسان نبيه ﷺ وأجمع الصحابة على ذلك.



(١٥٦٧) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتالُهُ كُفْرٌ»(١).

قال الإمام النووي رحمه الله:

السَّبُّ فِي اللُّغَةِ: الشَّتْمُ وَالتَّكَلُّمُ فِي عِرضِ الإِنْسَانِ بِمَا يَعِيبُهُ... وَالْفِسْقُ فِي اللُّغَةِ الْخُرُوجُ وَالْمُرَادُ بِهِ فِي الشَّرعِ: الْخُرُوجُ عَنِ الطَّاعَةِ... وَأَمَّا مَعنَى الْحَدِيثِ فَسَبُّ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الأُمَّةِ وَفَاعِلُهُ فَاسِقٌ كَمَا أَخبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَمَّا قِتَالُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَا يَكْفُرُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ كُفْرًا يَخرُجُ بِهِ مِنَ الْمِلَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ إِلَّا إِذَا اسْتَحَلَّهُ... فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَقِيلَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ أَقْوَالٌ أَحَدُهَا أَنَّهُ فِي الْمُسْتَحِلِّ وَالثَّانِي أَنَّ المراد كفر الإحسان والنعمة وأخوة الإسلام لا كفر الجحود... والثالث أنه يؤول إِلَى الْكُفْرِ بِشُؤْمِهِ... وَالرَّابِعُ أَنَّهُ كَفِعلِ الْكُفَّارِ وَاللهُ أَعلَمُ(٢).

وهذا يدل على أن الفسق أهون من الكفر لأنه جعل السبَّ فُسوقًا وجعل المُقاتلة كُفرًا ... فعلى هذا إذا سبَّ المسلم أخاه صار هذا السابُّ فاسقًا لا تُقبل شهادته؛ لأنه صار فاسقًا ولا يصح أن يكون إمامًا للمسلمين.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٦٤) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢/ ٧١).

أما مَنْ قاتله فإنه يَكفُر إن استحلَّ المقاتلة بغير حق فهو كافر كُفرًا مُخرجًا عن الملة ... وإن لم يستحلها ولكن لهوى فى نفسه فإنه يكون كافرًا لكنه كفر لا يُخرج من الملة ... والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠] فجعل الله الطائفتين المقتتلتين إخوة للطائفة المُصلحة ... وهذا يدل على أنهما لا يخرجان من الإيمان لكنه كفرٌ دون كفرٍ والله الموفق.

* * *

(١٥٦٨) وعن أَبى ذرٍّ رضي الله عنه: أنهُ سَمِعَ رسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «لاَ يَرمِى رَجُلٌ رَجُلًا بِالفِسْقِ أَوِ الكُفْرِ، إلاَّ ارتَدَّتْ عَلَيْهِ، إنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كذَلِكَ»(١).

❁ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله فى الفتح:

وَهَذَا يَقْتَضِى أَنَّ مَنْ قَالَ لِآخَرَ أَنْتَ فَاسِقٌ أَوْ قَالَ لَهُ أَنْتَ كَافِرٌ فَإِنْ كَانَ لَيْسَ كَمَا قَالَ كَانَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْوَصفِ الْمَذْكُورِ وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَمَا قَالَ لَمْ يَرجِع عَلَيْهِ شَىْءٌ لِكَوْنِهِ صَدَقَ فِيمَا قَالَ ... وَلَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ لَا يَصِيرُ بِذَلِكَ فَاسِقًا وَلَا كَافِرًا أَنْ لَا يَكُونَ آثِمًا فِى صُورَةِ قَوْلِهِ لَهُ أَنْتَ فَاسِقٌ بَلْ فِى هَذِهِ الصُّورَةِ تَفْصِيلٌ: إِنْ قَصَدَ نُصحَهُ أَوْ نُصحَ غَيْرِهِ بِبَيَانِ حَالِهِ جَازَ ذَلِكَ وَإِنْ قَصَدَ تَعيِيرَهُ وَشُهْرَتَهُ بِذَلِكَ وَمَحضَ أَذَاهُ لَمْ يَجُزْ لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِالسِّتْرِ عَلَيْهِ وَتَعلِيمِهِ وَعِظَتِهِ بِالْحُسْنَى فَمَهْمَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ بِالرِّفْقِ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِالْعُنْفِ لِأَنَّهُ قَد يَكُونُ سَبَبًا لِإِغْرَائِهِ وَإِصرَارِهِ عَلَى ذَلِكَ الْفِعلِ كَمَا فِى طَبْعِ كَثِيرٍ من النَّاس من الأَنفة لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْآمِرُ دُونَ الْمَأْمُورِ فِى الْمَنْزِلَةِ(٢).

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٤٥) كتاب الأدب.

(٢) فتح البارى (١٠/ ٤٨٠-٤٨١).

وفي هذا دليل على أن هذا من كبائر الذنوب لأن النبي ﷺ توعَّد هذا القائل أن يكون هو الذي يتصف بهذه الصفة... وعلى هذا فلا يحل للإنسان أن يقول لأخيه المؤمن يا فاسق أو يقول فلانٌ فاسق إلا إذا كان كذلك وأراد أن يُحذر منه فلا بأس ... وكذلك لا يقول له يا كافر أو يقول فلان كافر فإنه لا يحل له ذلك ما لم يكن هكذا ... وفيه التحذير من تكفير المسلمين بغير دليلٍ شرعي خلافًا لما يتجاسر عليه بعض الناس والعياذ بالله ... يُكفِّر على أدنى شيء يقول: هذا كفر وهذا فسق وما أشبه ذلك[١].

(١٥٦٩) وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «المُتَسَابَّانِ مَا قَالاَ فَعَلَى البَادِي منهُمَا حَتَّى يَعتَدِي المَظْلُومُ»[٢].

❁ قال الإمام النووي رحمه الله:

مَعنَاهُ: أَنَّ إِثْمَ السِّبَابِ الْوَاقِعِ مِنَ اثْنَيْنِ مُخْتَصٌّ بِالْبَادِئِ مِنْهُمَا كُلُّهُ إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ الثَّانِي قَدرَ الِانْتِصَارِ فَيَقُولُ لِلْبَادِئِ أَكْثَرَ مِمَّا قَالَ لَهُ... وَفِي هَذَا جَوَازُ الِانْتِصَارِ وَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِهِ وَقَد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسُّنة.

قال الله تَعَالَى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩] وَمَعَ هَذَا فَالصَّبْرُ وَالْعَفْوُ أَفْضَلُ... قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣] وللحديث المذكور بعد هذا «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» وَاعلَمْ أَنَّ سِبَابَ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ حَرَامٌ كَمَا قَالَ ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ» وَلَا يَجُوزُ لِلْمَسْبُوبِ أَنْ يَنْتَصِرَ إِلَّا بِمِثْلِ ما سَبَّه ما لم يَكُنْ كَذِبًا أَوْ قَذْفًا أَوْ سَبًّا لِأَسْلَافِهِ[٣].

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٤/ ١٠٦-١٠٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٧) كتاب البر والصلة.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢١٢).

ومن صور الانتصار المباح هنا أن يقول له: يا ظالم أو يا جافى .. أو نحو ذلك ولا يتعداها إلى الألفاظ النابية..

فإذا انتصر المسبوب استوفى حقه من الذى سبَّه وبرئ الأول من حقه وبقى عليه إثم الابتداء بالسبِّ .. وقيل: بل يرتفع عنه جميع الإثم إذا استوفى المظلوم حقه ... ولذلك كان العفو أفضل فإن لم يستطع أن يعفو فعليه ألا ينتصر لنفسه حتى يستوفى حقه كاملًا يوم القيامة.

(١٥٧٠) وعن أَبى هريرة رضي الله عنه قال: أُتِىَ النبىُّ ﷺ برجُلٍ قد شَرِب قال: «اضربُوهُ» قال أبو هريرة: فَمِنَّا الضَّاربُ بيدِهِ، والضَّاربُ بِنَعلِه، والضَّارِبُ بثوبه، فلمَّا انصَرفَ، قال بعض القَوم: أخزاكَ الله، قال: «لا تقولوا هذا، لا تُعِينُوا عليه الشَّيْطان»[(١)].

۞ ففى هذا الحديث يحكى أبو هريرة رضي الله عنه أنه أُتِىَ النبىُّ ﷺ برجُلٍ قد شَرِب الخمر بعد أن نزل تحريمها.. ومن المعلوم أن كل ما أسكر فهو خمر سواء كان من العنب أو التمر أو الشعير أو غير ذلك.. فقد قال النبى ﷺ: «كل مُسكرٍ خمر وكل مُسكرٍ حرام»[(٢)].

والإسكار هو تغطية العقل على وجه اللذة .. وليس مجرد تغطية العقل.. فالبنج يغطى العقل ولكن ليس على سبيل اللذة ولذا فهو ليس بحرام.

۞ وكان الخمر على أربع مراحل:

المرحلة الأولى: إباحة... أى أن الله أباح الخمر للعباد إباحة طيبة.

فقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، يعنى: تشربونه فتسكرون، وتتجرون به فتُحصلون رزقًا.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٧٧٧) كتاب الحدود.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٠٣) كتاب الأشربة.

المرحلة الثانية: تعريض الله تعالى بتحريمه ... وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ولم يَنْه عنهما فى هذه المرحلة الثانية.

المرحلة الثالثة: قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، فنهى عن قُربان الصلاة فى حال السُّكْر وهذا يقتضى أنه يُباح شرب الخمر فى غير أوقات الصلاة.

المرحلة الرابعة: التحريم «البائن» قال تعالى فى سورة المائدة، وهى من آخر ما نزل...قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة: ٩٠]، فاجتنبه الناس. لكن لما كانت النفوس تدعو إليها - إلى الخمر - وشربها، جُعل لها رادع يردع الناس عن شربها، وهو العقوبة(١).

۞ المهم أنه لما جيء بهذا الرجل وقد شرب خمرًا فقال النبى ﷺ: «اضربُوهُ» فقاموا يضربونه...

فمنهم الذى يضرب بيده، والذى يضرب بنعله، والذى يضرب بثوبه.

(فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله) يدعو عليه، كأنه يقول: أخزاك الله... فَضَحَكَ الله... فقال النبى ﷺ: «**لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطان**»، يعنى: طالما أنك تدعو على إنسانٍ بالفضيحة، ستبقى أنت أول واحدٍ يفضحه، فكأنك تُعين الشيطان عليه.

إذًا بدلاً من أن تدعو عليه بأن يفضحه الله، ادعُ له أن يستره الله، وأن يتوب الله عليه فلا يقع فى هذه المعصية مرة أخرى... وإذا فعل معصية فيها حَدٌّ فأقِم عليه الحد، ولكن لا تُعن الشيطان عليه ... أحِب للمسلم ما تحب لنفسك، فأنت تحب لنفسك التوبة، فأحِبَّ له أيضًا أن يتوب الله عَزَّوَجَلَّ عليه.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ١٠٩) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إذًا: لا تدعُ على مسلم بأن يفضحه الله، ولا أن يخزيه الله سبحانه وتعالى.

لأنك إذا فعلت ذلك فقد تأخذه العزة بالإثم فيتمادى فى المعصية ويأبى أن يتوب فتكون قد أعنت الشيطان على إغوائه وفساده.. بل عليك أن تدعوه بالرحمة وأن تدعو له وأن تستعمل الرفق معه.. «**ما كان الرفق فى شىء إلا زانه وما نُزِع من شىءٍ إلا شانه**».

۞ ولقد اختلف أهل العلم فى عقوبة شارب الخمر.. فمنهم مَن قال: أن النبى ﷺ حَدَّ لشارب الخمر أن يُجلد أربعين جلدة.. ومنهم مَن قال أن هذا ليس على سبيل الحد وإنما هو من باب التعزير لكن فى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتشرت الفتوحات، ودخل فى دين الإسلام أُناسٌ جُدُد، وكَثُر شرب الخمر فى عهده، وكان رضي الله عنه رجلًا حازمًا فأراد أن يعاقب شارب الخمر بعقوبة تكون أشد وأردع، إلا أنه رضي الله عنه - لورعه وتَحرُّزه - جَمَع الصحابة، أى جمع ذوى الرأى، من الصحابة، وقال لهم ما معناه: (كَثُر شرب الخمر)، وإذا قل الوازع الدينى، يجب أن يقوى الرادع السلطانى... يعنى إذا ضعف الأمر من الناحيتين: الوازع الدينى، والرادع السلطانى فسدت الأمة.

فاستشارهم ماذا يصنع فقال عبدالرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين أخف الحدود ثمانون جلدة، ارفع العقوبة إلى ثمانين جلدة... ويشير رضي الله عنه - أعنى عبد الرحمن بن عوف- إلى حد القذف... فإن الله تعالى قال: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً** ﴾ [النور: ٤]، هذا أخف الحدود... فرفع عمر رضي الله عنه عقوبة شارب الخمر إلى ثمانين.

والذى يترجَّح لدىَّ أن الحدَّ أربعون؛ لأنه الذى فعله النبى ﷺ وأبو بكر وعمر صدرًا من خلافته...وأما ما زاده عمر رضي الله عنه واستشار فيه الصحابة، فإنه قَدْرٌ زاده على الحدِّ من باب التعزير لما رأى من اجتراء الناس وتَتابُعهم على شربها.

(١٥٧١) وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَا، يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ»[1].

وقال ﷺ: **«مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ، وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ، جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَدًّا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ»**[2]. فإن كان هذا هو الحال مع المملوك فكيف بالحرَّة الطَّاهرة؟

❁ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

المملوك هو العبد يملكه الإنسان... والمملوك كالسلعة يُباع ويُشترَى ويُوهَب، ويُرهَن ويُوقَف إلا أن أحكام الله عَزَّ وَجَلَّ أنه جعله هو والحر على حَدٍّ سواء فى غير الأمور المالية.

والسيد مالك للرقيق لعينه - يعنى: رقبته - ولمنافعه فإذا قذف عبده بأن قال للعبد: يا زانى أو يا لوطى، أو ما أشبه ذلك من كلمات القذف فإنه لن يُحَدَّ فى الدنيا؛ لأنه سيد، والعبد مملوك، لكن يُقام عليه فى دارٍ عذابها أشد والعياذ بالله وهى الدار الآخرة ... يُقام عليه الحَدّ يوم القيامة... وعلى هذا فيكون قذف المملوك من كبائر الذنوب لأنه رتَّب عليه عقوبة فى الآخرة وكل شىء رُتِّب عليه عقوبة فى الآخرة فإنه يكون من كبائر الذنوب، كما قال أهل العلم رحمهم الله فى حَدِّ الكبيرة.

وأما لو زنى المملوك حقيقة وقذفه سيده بذلك فإنه لا حَدَّ عليه.

لقول النبى ﷺ: **«إلا أن يكون كذلك»** يعنى: كما قال ... ولكن متى يكون كما قال؟ يكون بأن يشهد عليه أربعة رجال عُدول بأنه زنى ويصرحون بذكر حقيقة الوطء أو يُقر هو بنفسه على نفسه فحينئذ يرتفع الحد عن السيد.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٦٠) كتاب الأيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٥٨) كتاب الحدود، ومسلم (١٦٦٠) كتاب الأيمان.

واعلم أن الرقيق إذا زنى فإن عليه نصف حد الحر كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ يعني: الإماء ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، والذى يتنصف من عذاب المُحصنات هو الجَلد فيكون على الرقيق إذا زنى خمسون جلدة فقط.

قال العلماء: ويسقط عنه التغريب، لأن الزانى الحر إذا زنى وهو غير محصن فإنه يُجلَد مائة جلدة ويُطرَد عن البلد عامًا كاملًا أما الرقيق فإنه يُجلَد خمسين جلدة ولا يُغرَّب لأن التغريب إضرار بسيده فيكون من باب تحميل الإنسان ما لم يحتمله... وللسيد أن يقيم على عبده الحد إذا زنى ..لقول النبى ﷺ: «**إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدهَا**»[1] فأمر السيد أن يجلدها ... أما الحر فإنه لا يتولى جلده إلا الإمام أو نائبه... حتى لو كان ابنك قد زنى وهو بالغ عاقل فإنه لا يتولى إقامة الحد عليه إلا الإمام أو نائبه .... وكذلك لو زنى أخوك بعد بلوغه وهو عاقل فإنه لا يقيمه إلا الإمام أو نائبه ... أما السيد فيقيمه على عبده خاصة فى الجلد.

وأما لو سرق العبد فالسرقة فيها قطع اليد ولا يتولى قطع اليد إلا الإمام أو نائبه ولهذا قال العلماء: إن السيد لا يقيم الحد على عبده إلا إذا كان الحد جَلدًا ...والله أعلم[2].



(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٥٢) كتاب البيوع، ومسلم (١٧٠٣) كتاب الحدود.

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ١١١-١١٢).

(٢٦٧) باب تحريم سب الأموات بغير حق ومصلحة شرعية

۞ وهو التَّحذِيرُ مِن الاقتداءِ بِهِ فى بِدعَتِهِ وفِسْقِهِ، ونحوِ ذلك، وفيه الآيةُ والأحاديثُ السَّابقة فى الباب قبلهُ.

(١٥٧٢) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا الأمواتَ، فإنَّهُمْ قد أفْضَوْا إلى ما قدَّموا»(١).

۞ أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فى كتابه باب تحريم سبِّ الأموات بغير حقٍّ ومصلحة شرعية.

ويقصد بالأموات هنا أموات المسلمين.. فيحرم سب المسلم حيًّا وميتًا.. أما الكفار الذين يُؤذون المسلمين ويقاتلونهم ويحاربونهم من أجل أن يفتنوهم فى دينهم.. فهؤلاء لا حُرمة لهم... وهذا معنى قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «بغير حق».

أو مصلحة شرعية.. مثل أن يكون هذا الميت صاحب بدعة ينشرها بين المسلمين ليُفسد عليهم دينهم.. فهنا تكون المصلحة فى أن نُحذر الناس منه ومن بدعته حتى لا يغتر الناس به.

۞ ولقد أورد الإمام البخارى رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث تحت باب: (ما يُنهى من سبِّ الأموات).. ثم ترجم الباب الذى بعده بعنوان: (باب ذكر شِرار الموتى) وأورد فيه حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال أبو لهب – عليه لعنة الله– للنبى ﷺ: تبًّا لك سائر اليوم فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾(٢).

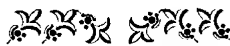
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِىُّ

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣٩٣) كتاب الجنائز.
(٢) صحيح: رواه البخارى (١٣٩٤) كتاب الجنائز.

ﷺ: «وَجَبَتْ» ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: «وَجَبَتْ» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ ﷺ: «هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ»(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ذكر الثانية بشرٍّ وذكر الأولى بخيرٍ، وهذا يشير إلى ما قلت: أن ذكر محاسن الأموات بالنسبة للمسلم أصل، وذكر شرار الأموات بالنسبة للمشركين جائز، ولذلك قال النبى ﷺ: «لا تَسُبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»، يُشير إلى أموات المسلمين... و﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد:١]، يُشير إلى موتى المشركين.

والأصل فى النهى التحريم فلا نَسُب الأموات، ثم علل وقال: فإنهم أفضوا إلى ما قدموا. وسَبُّكُم إياهم لا يُغنى شيئًا لأنهم أفضوا إلى ما قدموا حين انتقلوا إلى دار الجزاء من دار العمل ... فكل مَنْ مات فإنه أفضى إلى ما قدم والتحق بدار الجزاء وقامت قيامته ... أفضى وانقطع عمله ولم يَبْقَ له حظ من العمل إطلاقًا إلا ما دلَّت السُّنة عليه مثل قول النبى ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَهُ»(٢) وفى هذا دليل على أنه ينبغى للإنسان أن يحفظ لسانه عما لا فائدة منه فإن هذا طريق أهل التُّقى ... فإن عباد الرحمن إذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِرامًا. وأما الزور فلا يشهدونه إطلاقًا ولا يتكلمون إلا بالحق. والله الموفق(٣).



(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٦٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٩) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ١١٢-١١٣).

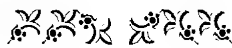
(٢٦٨) باب النهى عن الإيذاء

۞ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٨].

۞ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ ﴾أي: يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جنايةٍ واستحقاقٍ للأذى ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾أي: فقد حمَّلوا أنفسهم البُهتان والكذب، والزور، والذنب الواضح الجلى... قال القرطبى: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيَّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حقٍّ أبدًا[1]، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ما يكون بحقٍّ ومنه ما لا يكون بحقٍّ.

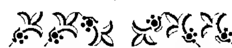
۞ الإيذاء يشمل الإيذاء بالقول والإيذاء بالفعل والإيذاء بالتَّرك... أما الإيذاء بالقول فأن يُسمع أخاه كلامًا يتأذى به وإن لم يضره، فإن ضَرَّه كان أشد إثمًا والإيذاء بالفعل أن يضايقه فى مكانه، فى جلوسه، فى طريقه، وما أشبه ذلك.

والإيذاء بالتَّرك أن يترك شيئًا يحتار منه أخوه المسلم فيتأذى به.



(١٥٧٣) وعن عبدِ الله بنِ عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسُول الله ﷺ: «المُسْلِم مَن سَلِمَ المُسْلِمون مِن لِسانهِ ويدِهِ، والمُهاجرُ مَن هَجَر ما نَهَى الله عنه»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢١٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



---

(١) تفسير القرطبى (١٤/ ٢٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.

(١٥٧٤) وَعَن ابنِ عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَن أحبَّ أن يُزَحزَح عن النَّارِ، ويُدخَل الجنَّة، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وهو يُؤمنُ بالله واليومِ الآخِر، ولْيَأتِ إلى النَّاسِ الذى يُحِبُّ أنْ يُؤتَى إليه»(١).

۞ من المعلوم أن كل إنسانٍ يجب أن يُزحزح عن النار ويُدخل الجنة.. وذلك لأن الله عز وجل قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

وبُناءً على هذا فإنه يجب على الإنسان أن يؤمن بالله واليوم الآخر... لأن الإنسان إذا آمن بالله عز وجل وبمقتضى أسمائه وصفاته وآمن أيضًا باليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب فإنه لابد أن يستقيم على طاعة الله وعلى دين الله عز وجل ... وهذا هو حق الله - أى: الإيمان بالله واليوم الآخر وتحصيل أصول الإيمان-.

«وليأت إلى الناس الذى يُحب أن يُؤتَى إليه»، فما تحبه من الناس فافعله بهم، فأنت تحب من الناس أن يكونوا مخلصين معك فكن مخلصًا معهم، وتحب منهم أن يحبوك فأحبهم، وتحب منهم ألا يغدروا بك وألا يضايقوك فابدأ أنت بذلك فلا تغدر بهم ولا تضايق أحدًا ولا تؤذِ أحدًا.... فإذا أتتك منيتك وأنت كذلك فأنت من أهل الجنة بوعد الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ.

---

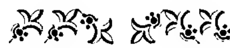
(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٤) كتاب الإمارة.
وهو بعض حديثٍ طويلٍ سبقَ فى باب طاعةِ وُلاةِ الأمُور.

(٢٦٩) باب النهى عن التباغض والتقاطع والتدابر

۞ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال تَعالَى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال تَعالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

۞ قد يحدث خصامٌ بين الأصحاب والأحباب.. فمن الناس مَن لا يُخاصم ولا يُعاتب وإنما يعفو ويسامح .. وشعاره فى ذلك (تَركُ المُعاتبة من المروءة)... ومنهم مَن لا يُخاصم وإنما يُعاتب صاحبه حتى لا يتكرر منه هذا الخطأ فيكون سببًا لفقده.. فالمُعاتبة خيرٌ من القطيعة.

أما أن يُقاطع المسلم أخاه بغير سببٍ شرعىٍّ فهذا لا يجوز ولا يكون من أخلاق المؤمنين أبدًا.



(١٥٧٥) وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبىّ ﷺ قَالَ: «لاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ»(١).

۞ والتباغض يكون بالقلوب .. أما التَّقاطُع فإنه يكون بالأقوال والأفعال.. وبُغض المؤمن لأخيه حرامٌ ... ولماذا تُبغض أخاك؟

إن قلت: إنك تُبغضه؛ لأنه يعصى الله عَزَّوَجَلَّ. نقول لك: لا تُبغضه حتى وإن كان يعصى الله بل عليك أن تبغض ما يفعله من تلك المعاصى وتحبه على ما معه من الإيمان .. وعليك أن تقدم له النصيحة الرقيقة الرحيمة عسى أن يهديه الله بتلك النصيحة فيكون ذلك فى ميزان حسناتك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى(٦٠٦٥، ٦٠٧٦) كتاب الأدب – ومسلم (٢٥٥٩) كتاب البر والصلة.

۞ حُكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: أحوج ما كان إلىَّ فى هذا الوقت لما وقع فى عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له فى المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه».

وإلى هذا أشار أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قيل له: ألا تُبغض أخاك وقد فعل كذا؟ فقال: إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى.

۞ فالمهم ألا تتباغضوا؛ لأن النبى ﷺ نهى عن التباغُض.

حتى لو وقع فى قلبك بُغض لإنسان فحاول أن ترفع هذا عن قلبك وانظر إلى محاسنه حتى تمحو سيئاته ... وقد أرشد النبى ﷺ إلى هذا حيث قال: «لا تباغضوا» أى: لا تأتوا بالأسباب التى تجلب البغضاء بينكم، ولا تفعلوا الأسباب التى تُسبب البغضاء، وإنما اعملوا على وجود الأسباب التى تسبب الأُلفة والمودة والصفاء والتقارب والتآلف، وابتعدوا عن الأسباب التى يترتب عليها تنافُر النفوس والقلوب، بل احرصوا على الألفة وعلى المودة.

وقوله: «**ولا تحاسدوا**» أى: لا يحسد بعضكم بعضًا... فمن حصلت له نعمة من الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يحسده أخوه على هذه النعمة ويتمنى زوالها عنه سواء حصلت له أم لم تحصل له.

والحسد الذى بمعنى الغبطة لا بأس به، وهو أن يتمنى الإنسان إذا رأى غيره على خير وعلى استقامة أن يكون مثله، وأن يكون له مثل ما له دون أن يتمنى زوال ما معه، بل يبقى ذلك الفضل له ويحب أن يكون له فضلٌ مثل ذلك الفضل... فهذا حسد بمعنى الغبطة وهو محمود، وقد جاء عن الرسول ﷺ ما يدل على ذلك.

وأما إذا كان الحسد المذموم الذى ينتج عن نفسٍ خبيثة بأن يكره حصول الخير للغير وبقاء النعمة عنده ويتمنى زوالها عنه، فإن هذا من الحسد المذموم

الذى نهى عنه الرسول ﷺ.

وقوله: «**ولا تدابروا**» أى: لا يحصل منكم التقاطع بحيث أن الشخصين إذا التقيا يُعرض كُلٌّ منهما عن الآخر فيوليه دُبره ولا يوليه وجهه...فلأجل التقاطع الذى يكون بينهما ينتج عن ذلك أن كل واحدٍ منهما يُولِّى الآخر دُبره بدلًا من وجهه، فيحصل بذلك التدابُر...والتدابُر معناه: أن كل واحد يولى الآخر دبره؛ لأنه لا يريد أن يلقاه ولا يريد أن يُسلم عليه ولا يريد أن يتكلم معه.

۞ قوله: «**وكونوا عباد الله إخوانًا**» أى: هذه الأخوة التى منحكم الله إياها وهى أُخوة الإسلام كونوا عليها بأن يحب كل واحدٍ لأخيه ما يحبه لنفسه، ويحرص على ألا يكون هناك تباغُض وتَحاسُد وتَدابُر بينه وبين أخيه المسلم.

ثم لما ذكر التدابر الذى هو أن يُولى كل واحدٍ الآخر دُبره قال: «**ولا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ**» أى: إذا كان هناك فى النفوس شىء لأمورٍ دنيوية أو لأُمورٍ شخصية أو خاصة فيما بينه وبين غيره من التعامل ولم يكن ذلك لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يحل له أن يهجره أكثر من ثلاث، وإنما عليه أن يحرص على أن يلتقى به وأن يُزيل ما بينه وبينه، وأن يُسلِّم أحدهما على الآخر، وألا يستمرا على هذه الهيئة الرديئة... وأما إذا كان الهجر لله عَزَّوَجَلَّ وكان يترتب عليه مصلحة، فإنه لا مانع من الزيادة على ذلك؛ لأن الهجر الذى هو مُحدد بهذا المقدار هو الهجر الذى هو لمصلحة النفس وللحظوظ الدنيوية وللأشياء التى تجرى بين الناس عادة وليست من أجل الله، أما إذا كان من أجل الله فإن الزيادة سائغة... والرسول ﷺ هجر كعب بن مالك وصاحبيه ومنع الناس من كلامهم خمسين ليلة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، ثم بعد ذلك تاب الله عَزَّوَجَلَّ عليهم ونزل القرآن بتوبتهم، فالزيادة على ثلاث ليالٍ فيما يتعلق بحق الله، وفيما يترتب عليه مصلحة ذلك سائغ، وقد جاءت به الشريعة. ... وهذا موقوف على

أن يكون الهجر سببًا لصلاحه وتوبته .. أما إذا كان الهجر سيكون عونًا للشيطان عليه وسيصده عن الهداية والتوبة فيحرم الهجر فوق ثلاثٍ.

وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ... وليس فى هذا انتقاصٌ لقدره ولا مذلة له فقد قال النبى ﷺ: «..وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عِزًّا».

(١٥٧٦) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسُولَ الله ﷺ قال: «تُفْتَحُ أبْوابُ الجنَّة يومَ الإثنينِ ويومَ الخَمِيس، فيُغْفَرُ لِكُلِّ عبدٍ لا يُشْرِكُ بالله شيئًا، إلا رجُلًا كانت بيْنَهُ وبينَ أخيهِ شَحنَاءُ فيُقال: أنْظِرُوا هذيْنِ حتَّى يصطَلِحَا أَنظِروا هَذِينِ حَتَّى يَصطَلِحَا»[1].

وفى رواية له: «تُعرَضُ الأعمالُ فى كُلِّ يومِ خميسٍ واثنينِ» وذكر نحوَهُ.

❁ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن أبواب الجنة تُفتح يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع وتُعرض فيهما الأعمال.. فإذا فُتحت أبواب الجنة وأنعم الله على عباده بهذه النعمة العظيمة قرن ذلك بنعمة أعظم منها ألا وهى: أن الله عز وجل يغفر لكل عبدٍ لا يُشرك بالله شيئًا.. فلا يحرم اللهُ عبدًا موحدًا من نعمة المغفرة أبدًا... لكن هناك صنف يحرمه الله من نعمة المغفرة مُؤقتًا فيا تُرى مَن هو؟ .. إنه العبد الذى بينه وبين أخيه خصام وتشاحُن فإن الله عز وجل يحرمه من المغفرة مؤقتًا حتى يتصالح مع أخيه .. فإذا تصالح مع أخيه غفر الله له ولأخيه ... ولذا جاء فى الحديث أن الله يأمر ملائكته ويقول لهم: «أَنْظِرُوا هذيْنِ حتَّى يصطَلِحَا» أى: أَجِّلُوا هذين حتى يصطلحا... فدلَّ ذلك على أنه يجب على المسلم أن يبادر بإزالة الشحناء والعداوة بينه وبين أخيه المسلم...

فإن كان الأمر ثقيلًا على النفس فلا مانع أن يُوسِّط بينهما رجلًا ليُمهد لذلك الصلح دون أن يسبب حرجًا لأى طرفٍ من الطرفين ويكون له الأجر

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة والآداب.

والمثوبة... فإذا حصل التصالح فاز الاثنان بمغفرة الرحمن (جل وعلا) لأن الله عز وجل قال: «**أَنْظِرُوا هذين حتَّى يصطَلِحَا**» وقد اصطلحا....وأما الذى أصلح بينهما فقد فاز بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة.. كما أخبر بذلك النبى ﷺ حيث قال: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هى الحالقة**»(١).

وليس معنى ذلك أن الإنسان يُصلح بين الناس ويترك الصيام والصلاة والصدقة.. فالنبى ﷺ لا يتكلم عن أفضلية العمل وإنما يتكلم عن أفضلية الدرجة... لأن الإصلاح بين المسلمين يقوى شوكة المسلمين ويتعدى نفعُه إلى الغير.. وقد يكون المقصود أن درجة الإصلاح بين الناس أفضل من نوافل تلك العبادات.. والله أعلم.



---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٩٥).

(٢٧٠) باب تحريم الحسد

۞ وهو تَمَنِّي زوال النِّعمَة عن صاحبها؛ سواء كانتْ نِعمةَ دين أو دنيا.

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤].

۞ إن الله عَزَّوَجَلَّ قسَّم الأرزاق بين عباده على مقتضى علمه وحكمته فنال كل إنسانٍ نصيبه كاملًا غير منقوص... قال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الزخرف: ٣٢].

لكن النفس البشرية تتطلع دائمًا إلى المزيد.. وقد تتحرك كوامن الحقد والحسد إذا رأى الإنسان ما أنعم الله به على عباده.. ولا مانع من أن يغبط الإنسان أخاه فيدعو له بالبركة فيما رزقه الله ويتمنى أن يرزقه الله مثله.. لكن الأمر قد يتخطى ذلك بكثيرٍ حتى يصل إلى درجة أن يحسد الإنسان أخاه ويحقد عليه ويتمنى زوال النعمة التى أنعم الله بها عليه .. بل وقد يزداد الأمر سوءًا بأن يتهم الله عَزَّوَجَلَّ فى عدله وحكمته بأنه قد أعطى مَن لا يستحق وحرم مَن يستحق -عياذًا بالله-... فالحسد من كبائر الذنوب ومن سمات اليهود.. وفيه اعتراضٌ على قضاء الله وقدره.. وربما يخرج الأمر من مجرد شىء فى القلب إلى البغى والعدوان على مَن أتاه الله من فضله.

مع أن الحسد لا يرد نعمة الله على عبده مهما حسدته وبغيت عليه.. ولن يجلب لك رزقًا لم يقدره الله عَزَّوَجَلَّ.

ولذلك يقول الحكماء:

اصبر على مَضضِ الحَسود ... فإنَّ صبرك قاتِلُه

فالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله

وليس هناك للحاسد دواء، ولا من غيظه شفاء ولا لعداوته علاج، إلا الصبر

عليه ومُداراة شره... فمهما أحسن رب النعمة إليه، ومهما عطف بجوده عليه، ومهما حاول الإنسان الاقتراب منه ومهما تودَّد إليه بمعسول الأقوال، وجميل الأفعال، ومهما اصطنع إليه جميلًا ومعروفًا فإنه لا يمكن أن تُطفأ نار حقده، ولا يهدأ أبدًا جمر عداوته، ولا يمكن أن يَكُفَّ عن المحسود كيده وضرره أو يمنع عنه خطره وأذاه... ورحم الله القائل:

كل العداوة قد تُرجى إزالتها ... إلا عداوة مَن عاداك من حسدِ

ورحم الله القائل:

يا حاسدًا لى على نعمتى ... أتدرى على مَن أسات الأدبْ

أسات إلى الله فى حُكمه ... لأنك لم ترضَ لى ما وهبْ

❁ قيل للحَسَنِ البصرىِّ: «أَيَحسُدُ المؤمنُ؟». فقال: «مَا أنسَاكَ إخوة يُوسُفَ عليه السلام؟! لا أبا لك، ولكن عَمِّهِ فى صدرك، فإِنَّهُ لا يضرُّكَ، مَا لَمْ تَعِد بِهِ يَدًا وَلِسَانًا»[1].

والحسد خُلقٌ ذميمٌ، نَاهيكَ بِهِ شرًّا، فهُوَ أوَّل ذنبٍ عُصِيَ اللهُ به فى السَّمَاءِ، وأَوَّلُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ فى الأرضِ ... ففى السَّماءِ حَسَدَ عدوُّ الله إبليسُ أبانَا آدم عليه السلام، وفى الأرض حَسَد ابنُ آدمَ أخاه حَتَّى قتله!

أقسام الحسد

❁ قسَّم العلماء الحسد إلى قسمين: حقيقى، ومجازى.

فالحقيقى: تمنِّى زوال النِّعمة عن صاحبها، وهذا حرامٌ بإجماع الأمة مع النّصوص الصَّريحة.

(١) «مكارم الأخلاق» لابن تيميَّة، تحقيق وإعداد عبد الله بدران، ومحمَّد عُمر الحاجى (ص ٢٤٧).

وأمَّا المجازىُّ فهو الغبطة: وهو أن يتمنَّى مثلَ النَّعمةِ التى على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإذا كانتْ فى أمور الدُّنيا كانت مُباحةً، وإنْ كانتْ طاعةً فهى مُسْتَحبَّةٌ(١).

(١٥٧٧) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ النبىَّ ﷺ قال: «إيَّاكُم والحسدَ، فإنَّ الحسدَ يأكُلُ الحسناتِ كَما تأكُلُ النَّارُ الحطبَ ـ أوْ قال العُشْبَ»(٢).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبى ﷺ.

---

(١) «شرح مسلم» (٢/ ٤٦٤).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢١٩٧).

(٢٧١) باب النهى عن التجسُّس والتسمُّع لكلام مَن يكره استماعه

۞ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

نَهَتْ الآيةُ الكريمةُ أولًا عن الظنِّ؛ لأنَّ الظنَّ السيئ هو سبب الأمراض الثلاثة التى نهت عنها الآية السابقة، وهو أيضًا سبب للمرضين المذكورين بعده، فهو الذى يحمل على احتقار الناس، والسُّخرية منهم، واغتيابهم.

ولما نهى الله تعالى عن الظَّنِّ أتبعه بالنهى عن التَّجسُّس ... والتجسُّس هو محاولة هتك ستر الآخرين، والبحث عن عوراتهم، فلا يجوز لمسلم أن يتتبع عورات أخيه، ولا يجوز لمسلم أن يبحث عن عيوب أخيه، فإن رسول الله ﷺ بيَّن أن «مَن سَترَ مسلمًا ستره اللهُ فى الدُّنيا والآخرة»(١)، وبالعكس مَن فضحَ مسلمًا فضحه الله فى الدُّنيا والآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»(٢).

۞ إن تَتبُّعَ عوراتِ المسلمين ومحاولة البحث عن أسرارهم وعيوبهم عنوان النفاق أو ضعف الإيمان... فما يتتبَّع عوراتِ المسلمين إلا منافق أو ناقص الإيمان...ولذا قال ﷺ: «يَا مَعشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٤).

لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ».

وإنما نهى الله تعالى عن التَّجسُّس عقب النهى عن الظنِّ السَّيئ لأن القلب إذا أُشرب سوء الظَّنِّ حمله ذلك ولا بد على التجسس، فإن الإنسان بفطرته لا يكتفى بالهَواجسِ ولا بالظُّنُون، بل يحاولُ أن يتحقَّقَ..ولا يمكن التحقُّقُ إلا بالتجسُّسِ ولذا فإنَّنَا نرى أنَّ هذا السُّداسى الجاهلى، الذى يمثل هذه الآفات السِّتَّ مرتبطٌ بعضه ببعض: السُّخرية، الهمزُ، اللَّمزُ، سوء الظن، التَّجسُّس، الغِيبةُ.. فالواجبُ على المسلم أن يعمل على السلامة من هذه الآفات كلها(١).



(١٥٧٨) وعن أَبى هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، ولا تحسَّسوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَنَافَسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ. المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحقِرُهُ، التَّقْوَى هاهُنَا التَّقْوَى هاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدرِهِ «بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعِرضُهُ، وَمَالُهُ. إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أجْسَادِكُمْ، وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وأعمَالِكُمْ»(٢)(٣).

وَفِى روايةٍ: «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوانًا».

---

(١) تذكير المؤمنين والمؤمنات (ص ٣٦١-٣٦٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى(٦٠٦٤، ٦٠٦٦) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

(٣) هذا الحديث سبق شرحه عند شرحنا للحديث رقم (٢٣٩) (٢٤٠) ما عدا الجزء الأول منه لم يتم شرحه وهو «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا» - وأما الجزء الأخير وهو: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فسبق شرحه عند شرحنا للحديث رقم (٨).

وفى رواية: «لاَ تَقَاطَعُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوانًا».

وَفِي رِوَاية: «وَلاَ تَهَاجَرُوا وَلاَ يَبِع بَعضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعضٍ».

(١٥٧٩) وعن معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إِنَّكَ إِنِ اتَّبعت عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَفْسَدتَهُمْ، أَوْ كِدتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ»[١].

(١٥٨٠) وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ أُتِىَ بِرَجُلٍ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا فُلاَنٌ تَقْطُرُ لِحيَتُهُ خَمْرًا، فَقَالَ: إِنَّا قَد نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ، ولكِنْ إِنْ يَظْهَر لَنا شَىْءٌ، نَأخُذ بِهِ[٢].

۞ قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنّ» قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ: لَيْسَ الْمُرَادُ تَركَ الْعَمَلِ بِالظَّنِّ الَّذى تُنَاطُ بِهِ الْأَحكَامُ غَالِبًا. بَلِ الْمُرَادُ تَركَ تَحقِيقِ الظَّنِّ الَّذِى يَضُرُّ بِالْمَظْنُونِ بِهِ، وَكَذَا مَا يَقَعُ فِى الْقَلْبِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ ... وَذَلِكَ أَنَّ أَوَائِلَ الظُّنُونِ إِنَّمَا هِىَ خَواطِرُ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهَا، وَمَا لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ لَا يُكَلَّفُ بِهِ.

وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ: «تَجَاوَزَ اللهُ لِلأُمَّةِ عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا». وَقَالَ الْقُرطُبِيُّ: الْمُرَادُ بِالظَّنِّ هُنَا التُّهْمَةُ الَّتِى لَا سَبَبَ لَهَا كَمَنْ يَتَّهِمُ رَجُلًا بِالْفَاحِشَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ مَا يَقْتَضِيهَا، وَلِذَلِكَ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «وَلا تَجَسَّسُوا» وَذَلِكَ أَنَّ الشَّخْصَ يَقَعُ لَهُ خَاطِرُ التُّهْمَةِ فَيُرِيدُ أَنْ يَتَحققَ فَيَتَجَسَّسُ وَيَبْحَثُ وَيَسْتَمِعُ، فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ... وَهَذَا الْحَدِيثُ يُوَافِقُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ ﴾ فَدَلَّ سِيَاقُ الْآيَةِ عَلَى الْأَمْرِ بِصَوْنِ عِرضِ الْمُسْلِمِ غَايَةَ الصِّيَانَةِ لِتَقَدُّمِ النَّهْيِ عَنِ الْخَوْضِ فِيهِ بِالظَّنِّ... فَإِنْ قَالَ الظَّانُّ: أَبْحَثُ لِأَتَحَقَّقَ، قيل لَهُ: «وَلا تَجَسَّسُوا» فَإِنْ قَالَ: تَحَقَّقْتُ مِنْ غَيْرِ تَجَسُّسٍ قِيلَ لَهُ: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ ﴾ .. قوله: «ولا تحسسوا ولا تجسسوا».

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٠٨٨).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٠٩٠).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ مَعناهُ: لَا تَبْحَثُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ وَلَا تَتَّبِعُوهَا... قَالَ اللهُ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ يَعقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وَيُسْتَثْنَى مِنَ النَّهْيِ عَنِ التَّجَسُّسِ مَا لَوْ تَعَيَّنَ طَرِيقًا إِلَى إِنْقَاذِ نَفْسٍ مِنَ الْهَلَاكِ مَثَلًا كَأَنْ يُخْبِرَ ثِقَةٌ بِأَنَّ فُلَانًا خَلَا بِشَخْصٍ لِيَقْتُلَهُ ظُلْمًا، أَوْ بِامْرَأَةٍ لِيَزْنِيَ بِهَا، فَيُشْرَعُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ التَّجَسُّسُ وَالْبَحثُ عَنْ ذَلِكَ حَذَرًا مِنْ فَوَاتِ اسْتِدرَاكِهِ.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَحَاسَدُوا» الْحَسَدُ تَمَنِّي الشَّخْصِ زَوَالَ النِّعمَةِ عَنْ مُسْتَحِقٍّ لَهَا.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَدَابَرُوا» قَالَ الْخَطَّابِيُّ: لَا تَتَهَاجَرُوا فَيَهْجُرُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ.

قَوْلُهُ: «وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا» كَأَنَّهُ قَالَ: إِذَا تَرَكْتُمْ هَذِهِ الْمَنْهِيَّاتِ كُنْتُمْ إِخْوَانًا ... وَمَفْهُومُهُ إِذَا لَمْ تَتْرُكُوهَا تَصِيرُوا أَعدَاءً ... وَمَعنَى كُونُوا إِخْوَانًا اكْتَسِبُوا مَا تَصِيرُونَ بِهِ إِخْوَانًا... اهـ بتصرف[1].

۞ ويؤيد هذا الكلام حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أما حديث معاوية رضي الله عنه ففيه يخبر النبى ﷺ أن الأمير أو ولى الأمر سواء كان حاكمًا أو رب أسرة أو غير ذلك إذا تتبع عورة رعيته أو أحد رعيته فإنه سوف يُفسده ... وذلك لأن الإنسان إذا كان على معصية فقد أُمرنا بالستر عليه وبذل النصيحة الرحيمة له.. وإذا لم يكن على معصية وأسأنا الظن به وبدأنا نتجسس عليه فإن ذلك قد يُفسده لأننا بذلك نكون عونًا للشيطان عليه ... ومن أجل ذلك نهى النبى ﷺ أن يَطرُق الرجل أهله طُروقًا ... وذلك بأن يكون مُسافرًا سفرًا طويلًا ثم يرجع فجأة فى جوف الليل دون أن يُخبر زوجته فتظن أنه يتخونها ويظن أنها خائنة .. فإذا تكرر هذا المشهد ولم يكن عند هذه الزوجة وازعٌ إيمانى فقد تخون زوجها؛ لأنه هو الذى أعان الشيطان عليها .. وليس معنى ذلك أنه يجوز للمرأة أن تخون زوجها إذا أساء الظن بها .. بل عليها أن

(١) فتح البارى (١٠/ ٤٩٦-٤٩٨) بتصرف.

تتقى الله وتعلم أنها تصون نفسها ابتغاء مرضاة الله وليس من أجل إرضاء الزوج..

فالشاهد أنه يجب علينا أن نُحسن الظن فيمن حولنا .. وإذا رأينا شيئًا يُخالف الشرع فعلينا بالستر عليهم وبذل النصيحة الرحيمة حتى لا نُفسدهم ونكون عونًا للشيطان عليهم.. والله أعلم.



(٢٧٢) باب النهى عن سوء الظن بالمسلمين من غير ضرورة

۞ الرجل صاحب الأخلاق الطيبة لا يظن بإخوانه المسلمين إلا خيرًا، فهو يمتثل لأمر الله عز وجل الذى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، قال بعض العلماء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ هو أن تظن بأهل الخير سوءًا ... فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظن بهم مثل الذى ظهر لنا(١).

۞ قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

۞ عن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه لِسَعدٍ رضي الله عنه: لَقَد شَكَوْكَ فِى كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى الصَّلاَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَنَا، فَأَمُدُّ فِى الأُولَيَيْنِ وَأَحذِفُ فِى الأُخْرَيَيْنِ، وَلاَ آلُو -أى: لا أُقصِّر- مَا اقْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ صَلاَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ» قَالَ: صَدَقْتَ ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ أَوْ ظَنِّى بِكَ(٢).

(١٥٨١) وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»(٣)(٤).

---

(١) الأخلاق بين الطبع والتطبع/ للحاشدى (ص ٢٤٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٧٠) كتاب الأذان، ومسلم (٤٥٣) كتاب الصلاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٦) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٣) كتاب البر والصلة.

(٤) سبق شرح الحديث عند شرحنا للحديث رقم (١٥٧٨).

۞ عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال لى أبى: يا بُنى، إذا سمعت كلمة من امرئٍ مسلم فلا تحملها على شىء من الشر ما وجدت لها مَحملًا من الخير[١].

أقسام سوء الظن

۞ وقد قُسم سوء الظن إلى قسمين كلاهما من الكبائر وهما:

(١) سوء الظن بالله:

وهو أبلغ فى الذنب من اليأس والقنوط (وكلاهما كبيرة) وذلك لأنه يأس وقنوط وزيادة... لتجويزه على الله تعالى أشياء لا تليق بكرمه وجوده[٢].

(٢) سوء الظن بالمسلمين:

وهو أيضًا من الكبائر وذلك أن مَن حَكَم بشرٍّ على غيره بمجرد الظن حمله الشيطان على احتقاره وعدم القيام بحقوقه والتوانى فى إكرامه وإطالة اللسان فى عِرضه ... وكل هذه مُهلكات.. وكل مَن رأيته سيئ الظن بالناس طالبًا لإظهار معايبهم فاعلم أن ذلك لخُبث باطنه وسوء طويته... فإن المؤمن يطلب المعاذير لسلامة باطنه، والمنافق يطلب العيوب لخبث باطنه[٣].

۞ ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات:١٢] ولم يَقُل الظن كله؛ لأن الظن المبنى على قرائن لا بأس به، فهو من طبيعة الإنسان أنه إذا وجد قرائن قوية توجب الظن الحسن أو غير الحسن... فإنه لا بد أن يخضع لهذا القرائن، ولا بأس بذلك، لكن الظن المجرد هو الذى حذر منه النبى ﷺ وقال: «**إنه أكذب الحديث**».

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٧٨).
(٢) الزواجر (ص١١٤).
(٣) الزواجر (ص١٠٩).

(٢٧٣) باب تحريم احتقار المسلمين

۞ السُّخرية لا تَصدُر إلَّا من إنسانٍ ممتلئٍ بمساوئ الأخلاق، مُتَّصفٍ بكُلِّ خُلقٍ ذميم... أما الرجل المتخلِّق بجميل الأخلاق، وكرائم الخِصَال فهو بمنأى عن ذلك...وكيف يسخرُ من الآخرين وهو يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ نهى عن السُّخرية بالمؤمنين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١](١).

فالسُّخريةُ من الناس غيرُ جائزة... لا يجوزُ أن يَسخَرَ غنيٌّ من فقيرٍ، ولا قويٌّ من ضعيفٍ، ولا صحيحٌ من سقيمٍ، ولا ذكيٌّ من بليدٍ، ولا يَجُوزُ أن تَسْخَرَ غنيَّةٌ من فقيرةٍ، ولا سَوِيَّةٌ من مُشَوَّهَةٍ. ولا جميلةٌ من دميمةٍ، ولا شَابَّةٌ من عَجُوزٍ،... فإنَّ هذه القيم ليست هى التى يُوزَنُ بها النَّاسُ، إنَّما هناك قيمٌ أُخرى يعلمها الله عَزَّوَجَلَّ يَزِنُ بها العبادَ، وإن كانت تلك القيم خافيةً على كثيرٍ من الناس.

هذا ما قَرَّرهُ الإسلامُ ووضَّحَهُ النبيُّ ﷺ توضيحًا رائعًا:

عَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِى هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِى هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»(٢).

۞ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

وعسى من الله موجبة ، فَمَهْمَا أحسنت الظَّنَّ بنفسك، ورأيت أنَّك على خيرٍ، فإنَّ فى المؤمنين مَن هو عند الله خيرٌ وأكرمُ منك،... فإيَّاك والسُّخرية من

(١) جاء تخصيص النساء فى الآية بالذكر تحذيرًا من سخرية بعضهن من بعض؛ لأن السخرية شائعة فيهن أكثر من الرجال.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٠٩١) كتاب النكاح.

المؤمنين، وإيَّاك والاستهزاء بهم.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: عسى أن يكونَ المسخور منه خيرًا من السَّاخر كما هو الحال والواقع، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ»(١).

إن السُّخرية من المؤمنين والاستهزاء بهم عملٌ من أعمال الكُفَّار والمُنَافقين فكيفَ يستبيحُ مؤمنٌ لنفسه أن يعمل عمل الكفَّار والمنافقين فيسخر من المؤمنين ويستهزئ بهم؟!

قال الله تعالى عن الكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦]

فالله الله يا عبد الله، لا تسخر من مؤمنٍ، ولا تستهزئ به.

واعلم أن الناس لا يُوزَنون بالمظهر والصُّورة، وإن كانوا ذوي منظرٍ حسنٍ وصورة جميلةٍ.... قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وأعمالِكُمْ**»(٢)(٣).

هذا هو المقياس والميزان ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

۞ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ**

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٣٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٣)(٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

(٣) بتصرف من كتاب (الأخلاق بين الطبع والتطبع) للشيخ فيصل الحاشدي – وكتاب (تذكير المؤمنين والمؤمنات) للشيخ عبد العظيم بدوي.

يُسْرِع بِهِ نَسَبُهُ»(١).

فلا ينبغى أن يسخر رجال من رجال عسى أن يكونوا خيرًا منهم عند الله (جَلَّ وعَلَا) ، ولا ينبغى أن تسخر نساءٌ من نساء عسى أن يَكُنَّ خيرًا منهن عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم قال: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى: لا يَعِب بعضكم على بعض.

واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما مَنهىٌّ عنه حرام، مُتوعَّد عليه بالنار...كما قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾، وسمَّى الأخ المؤمن نفسًا لأخيه، لأن المؤمنين ينبغى أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ أى: لا يُعير أحدكم أخاه، ويُلقبه بلقبٍ يكره أن يُطلَق عليه وهذا هو التنابز... وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل فى هذا. ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أى: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما يقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذى هو التنابز بالألقاب. ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فهذا هو الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله، والاستغفار، والمدح له مقابلة على ذَمِّه. ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثَمَّ غيرهما(٢).

(١٥٨٢) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أن يَحقِرَ أخَاهُ المُسْلِم»(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) تفسير السعدى (ص ٩٥٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٤٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٥٨٣) وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «لا يَدخُلُ الجنَّة مَن كانَ فى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» فقال رجلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يكونَ ثَوْبُهُ حَسنًا، ونَعلُهُ حَسنةً، فقال: «إنَّ الله جميلٌ يُحِبُّ الجَمَال، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٦١٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٥٨٤) وعن جُنْدَبِ بن عبدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «قالَ رجُلٌ: والله لا يَغْفِرُ الله لفلانٍ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: مَن ذا الذى يَتَألَّى علىَّ أنْ لا أغفِرَ لفُلانٍ فإنِّى قد غَفَرتُ له، وأحبطْتُ عملَكَ»(٢).

۞ وهناك رواية أخرى مشابهة لهذه الرواية .. فلقد قال رسول الله ﷺ:

«كانَ رَجُلانِ فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَينِ، وَكانَ أحدُهُمَا مُذنبًا، والآخرُ مُجتهِدًا فِى الْعِبَادَةِ، وَكانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِر فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِر، فَقَالَ: خَلِّنِى وَرَبِّى أَبُعثتَ عَلَىَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَالله لاَ يَغْفِرُ الله لَكَ، أَوْ لاَ يُدخِلُكَ الله الجَنَّةَ، فَقُبِضَ رُوحُهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فقال لهذا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِى عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِى يَدِى قَادِرًا؟! وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادخُلِ الجَنَّةَ بِرَحمَتِى، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.
ومعنى «بطر الحق»: دَفْعه، و«غمطُهُم»: احتِقارُهم، وقد سبق بيانُهُ أوْضح مِن هذا فى باب الكِبر.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب.
(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٥٥).

۞ يخبرنا النبى ﷺ فى هذين الحديثين عن قصة رجلٍ كان عابدًا لكنه كان مُعجبًا بعمله محتقرًا لمن حوله..

وكان له صاحبٌ يقع كثيرًا فى المعاصى.. فكان ينصحه ولكن بكل كبرٍ واحتقار.. وفى يومٍ من الأيام تكلم بكلمة أوبقت دُنياه وآخرته، على الرغم من اجتهاده فى العبادة، وأمرِه بالمعروف ونهيِه عن المنكر... فقد حلف - لما رأى صاحبه على ذنب- أن الله لا يغفر له.

وكان صاحبه يكثر من الذنوب، وهو يُكثر من نهيه عنها... فأغضب ربه عليه بحلفه الذى حلفه ... فرحمة الله واسعة، ولا يُعجزه أن يغفر لأحدٍ من خلقه مهما عَظُم ذنبه ... لقد غفر الله للمذنب وأدخله الجنة، وأمر بالمجتهد إلى النار من أجل تلك الكلمة.

۞ وفى الحديث الثانى يحدثنا الرسول ﷺ فى هذا الحديث عن رجلين من بنى إسرائيل، كانا صديقين متآخيين، وكان أحدهما مجتهدًا فى عبادته، والآخر مُقصِّرًا فى أداء ما وجب عليه.

وكان المجتهد فى العبادة يرى صاحبه يرتكب الذنوب والمعاصى، فينكر عليه وينهاه... وهذا أمرٌ طيبٌ مطلوبٌ مشروع، وقد جاءت الشرائع كلها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر... وكان الرجل المذنب يضيق ذَرعًا بإنكار صديقه عليه، ولما اشتد عليه صاحبه بالإنكار يومًا، قال له: خلِّنى وربى، أَبُعثت علىَّ رقيبًا؟ عند ذلك حلف العابد - ويا لهول ما حلف- فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يُدخلك الجنة.

وما كان لهذا العابد أن يتألَّى على الله عَزَّوَجَلَّ... فالله له الأمر كله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن...يهب الخيرات ويمسكها، يغفر لمن يشاء، ويعذِّب مَن يشاء... يهدى ويُضل، وما كان لعبدٍ من عباد الله أن يُحجِّر على ربه أن يغفر

لفلان أو يحبط عمل فلان... لقد تكلم هذا المسكين - كما قال أبو هريرة راوى الحديث- بكلمة أوبقت عليه دُنياه وآخرته، فقد قبض الله روحيهما، فاجتمعا عنده، وقال لذلك المُتألِّى: مُوبِّخًا له ومؤنبًا: أَوَكنت بى عالمًا؟ أو كنت على ما فى يدى قادرًا؟ وأمر بإدخاله النار، وأمر بإدخال المذنب الجنة.

عبر الحديث وفوائده

(١) القول على الله بغير علم من أعظم الكبائر التى تُوبق عمل صاحبها، ومن ذلك دعوى هذا الرجل أن الله لا يغفر لفلان... فالله لا يُعجزه شىء أراده، ورحمته واسعة.

(٢) على المسلم أن يَتوخَّى الحيطة والحذر فى معاملته لربه تبارك وتعالى، فيقف موقف العبودية، يعمل بطاعة الله، ويأتمر بأمره، ويصبر على دعوة الناس، ولا يتسرع فى الحكم عليهم.

(٣) الخوف من سوء الخاتمة، فقد دخل العابد النار، ودخل العاصى الجنة.

(٤) فى الحديث دليل لأهل السُّنة الذين يقولون بأن الله يغفر الذنوب من غير توبة إن شاء، كما غفر لهذا العاصى، وهو مُصِرٌّ على ذنوبه كما يدل عليه الحديث[1]. وكما تدل عليه الآية فى قوله تعالى: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾.



(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٣٤٢-٣٤٣) بتصرف.

(٢٧٤) باب النهى عن إظهار الشماتة بالمسلم

۞ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

(١٥٨٥) وعن واثِلَةَ بنِ الأسْقَعِ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: **«لا تُظْهِرِ الشَّماتَة لأخيكَ فيرحَمْهُ الله ويَبتَلِيكَ»**(١).

وفى الباب حديثُ أبى هريرة السابقُ فى باب التجَسُّس: «كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حرامٌ» الحديث.

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

لكن من المعلوم أن الشرع قد نهانا عن أن نشمت بمؤمنٍ أبدًا... وبخاصة فيما ليس له فيه شأن ولا يستطيع تغييره.. مثل شكله وضعف قوته وأُسرته وفقره.. فتلك أمور ليس للإنسان فيها يد فلماذا نُعيره.. وأين نحن من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وأين نحن من قول النبى ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه» «بحسب امرئٍ من الشر أن يَحقِرَ أخاه المسلم»**.

وقد يُعير الإنسان أخاه فيُعافيه الله ويبتليه.. وكم رأينا فى هذه الحياة أمثلة كثيرة على ذلك.

فالواجب على المسلم ألا يشمت بأخيه المسلم.. بل إذا رآه قد ابتُلى بشىءٍ فإنه ينبغى أولًا أن يُشفق عليه وأن يدعو له بأن يعفو الله عنه.. وعليه أن يحمد الله عز وجل على أن عافاه من ذلك البلاء.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله: وفى الباب حديث أبى هريرة السابق فى باب التجسس: **«كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حرامٌ»**.

---

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٢٤٥).

(٢٧٥) باب تحريم الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع

۞ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

(١٥٨٦) وعن أبى هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «اثنَتانِ فى النَّاسِ هُما بهم كُفْرٌ: الطَّعنُ فى النَّسَبِ، والنِّياحةُ على الميِّتِ»(١).

۞ قوله ﷺ: **«اثنَتَانِ فى النَّاسِ هُما بهم كُفْرٌ»**.

قال الإمام النووى رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَفِيهِ أَقْوَالٌ: أَصَحُّهَا أَنَّ مَعنَاهُ هُمَا مِنْ أَعمَالِ الْكُفَّارِ وَأَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَالثَّانِى: أَنَّهُ يُؤَدِّى إِلَى الْكُفْرِ. وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ كُفْرُ النِّعمَةِ وَالْإِحسَانِ. وَالرَّابِعُ: أَنَّ ذَلِكَ فِى الْمُسْتَحِلِّ. وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ تَغْلِيظُ تَحرِيمِ الطَّعنِ فِى النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةِ. وَقَد جَاءَ فِى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا نُصُوصٌ مَعرُوفَةٌ وَاللهُ أَعلَمُ(٢).

۞ قوله ﷺ: **«الطَّعنُ فى النَّسَبِ»**.. فمعناه إما أن ينفى نَسَبَه كأن يقول لأخيه المسلم: أنت تدَّعى أنك ابن فلان وهو ليس أباك.. أو يقول له: أنت تدَّعى أنك من العائلة الفلانية أو قبيلة كذا وأنت لست منهم ولو كنت منهم لكنت أفضل من ذلك لكنك تدَّعى ذلك..

أو أن يُعيره بنسبه.. كأن يقول له: أنت من العائلة أو القبيلة التى صفتها كذا وكذا ... ويذكر أشياءً قبيحة عن عائلته أو قبيلته... وقد قال النبى ﷺ: **«إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية»**..

وقال ﷺ: **«دعوها فإنها مُنتنة»**.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٧) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ٧٦).

۞ وأما الثانية فهى: «**النِّياحةُ على الميِّتِ**».

والنياحة على الميت أن يبكى عليه النساء والرجال أيضًا.. لكنها تكون فى النساء أكثر بأن تنوح على مثل ما تنوح به الحمامة.. أى تبكى بُكاءً برنة معروفة. وهذا حرام.. وقد لعن النبى ﷺ النائحة والمستمعة.

ولهذا نهى النبى ﷺ المرأة عن النياحة فقال: «**ليس منَّا مَن لطم الخدود وشَقَّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية**»[١].

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ برئ من الصالقة[٢] والحالقة[٣] والشَّاقة[٤][٥].

وقال: «**النائحة إذا لم تَتُب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سِربالٌ من قَطِرَان ودرعٌ من جَرب**»[٦].

وفى رواية: «**... وإن النائحة إذا لم تتُب قبل أن تموت فإنها تُبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قطران ثم يُغلى عليها بدروع من لهب النار**»[٧].

وقال ﷺ: «**لعن الله الخامشة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثُّبور**»[٨].

۞ ومن النياحة ما يفعله بعض الناس اليوم من الاجتماع فى بيت الميت ويُؤتَى إليهم بالطعام ويجلسون للبكاء والنواح.

ولذا قال أهل العلم:

يُكرَه اتِّخاذ الضِّيافة من الطَّعام من أهل الميت لأنه شُرِع فى السُّرور لا فى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٤) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان.

(٢) الصالقة: هى التى ترفع صوتها عند المصيبة.

(٣) الحالقة: هى التى تحلق شعرها عند المصيبة.

(٤) الشاقة: هى التى تشق ثوبها عند المصيبة.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٦) كتاب الجنائز - ومسلم (١٠٤) كتاب الإيمان.

(٦) صحيح: رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز.

(٧) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٠٩).

(٨) حسن: رواه ابن ماجه، وابن حبان، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٩٢).

الشُّرور، وهى بدعة مُستقبحة.

روى الإمام أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن جرير بن عبد الله قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ الِاجْتِمَاعَ إِلَى أَهْلِ الْمَيتِ وَصَنِيعَةَ الطَّعَامِ بَعدَ دَفْنِهِ مِنَ النِّيَاحَةِ». اهـ.

أما الحديث الَّذى فى الصَّحيحين عن عائشة رضي الله عنها أَنَّها قالت: لَمَّا جَاءَ رَسُولَ الله ﷺ قَتْلُ ابن حَارِثَةَ وَجعفرِ بْنِ أَبِى طَالِبٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ، جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعرَفُ فِيهِ الْحُزْنُ... الحديث.

فلا يأخذ منه جواز هذا الأمر؛ لأن هذا - كما فى سنن أبى داود- كان فى المسجد فلم يجعل النبى ﷺ مكانًا مُعينًا للاجتماع للعزاء بل يُعزَّى الإنسان حيث وُجد.

۞ ملاحظة: إذا جاء للإنسان مُعَزُّون من السفر فعليه أن يتلطف معهم ويدعو لهم بالخير ولا حرج أن يجلس معهم لا للعزاء وإنما لحضورهم من السفر.

۞ **قال ابن قدامة فى «المغنى» وفى «الشرح الكبير» وفى كتاب «مطالب أُولى النُّهى»:**

«وإن دَعت الحاجة إلى ذلك جاز؛ فإنه ربما جاءهم مَن يحضر ميتهم من القرى والأماكن البعيدة، ويبيت عندهم، ولا يمكنهم إلَّا أن يضيفوه» انتهى[(١)].

❊❊❊

(١) بتصرف من (حاشية رد المحتار) و(فتح القدير) و(شرح كنز الدقائق).

(٢٧٦) باب النهى عن الغش والخداع

۞ قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

(١٥٨٧) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «مَن حَمَلَ عَلَيْنا السِّلاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، ومَن غَشَّنا فلَيْسَ مِنَّا»(١).

وفى روايةٍ له أنَّ رسُولَ الله ﷺ مرَّ على صُبْرَةِ طعامٍ، فأدخَلَ يدَهُ فيها، فنالَتْ أصابِعُهُ بَللًا، فقال: «ما هذا يا صَاحِبَ الطَّعامِ؟» قال: أصابَتْهُ السَّمَاءُ يا رسُول الله، قال: «أفَلا جَعَلْتَه فَوْقَ الطَّعامِ حتَّى يَراهُ النَّاس، مَن غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

۞ أما قوله ﷺ: «مَن حَمَلَ عَلَيْنا السِّلاحَ فَلَيْسَ مِنَّا».

إن كان حَمْلُه للسلاح مُستحلًّا قتل المسلمين فلا شك أن قوله: «ليس منا» على حقيقته ... يعنى يَكفُر بذلك؛ لأنه استحلَّ أمرًا مُحرمًا معلومًا تحريمه بالضرورة من دين الإسلام... إذا استحلَّ ذلك فهو يَكفُر بذلك.

وأما مَن حمل السلاح يريد قتل المسلم مع علمه بتحريمه واعتقاده بذلك فالأمر خطيرٌ جدًّا، «فزوال الدنيا أهون عند الله من إراقة دمِ مسلم»، «ولا يزال المسلم فى فسحة من دينه حتى يصيب دمًا حرامًا» وفى ذلكم الوعيد الشديد.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

أما إذا لم يستحلّ قتل المسلم بل أَقدم على قتله معتقدًا تحريم القتل فإنه لا يَكفُر بذلك، وإن تعمَّد قتله فى قول جمهور العلماء، لكنه على خطرٍ عظيم.

فالفرق بينهما: أن الأول كافر، والثانى مرتكب كبيرة من الكبائر.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١) كتاب الإيمان.

۞ وأما قوله ﷺ: «ومَن غَشَّنا فلَيْسَ مِنَّا» أى ليس على منهاجنا وطريقتنا.... فطريق النبى ﷺ هو الصدق والأمانة والزهد فى الدنيا وعدم الحرص عليها.

۞ وأما الرواية الأخرى: أن النبى ﷺ مَرَّ على صُبرة طعام.. أى: على كومة مجموعة من الطعام.. فلما أدخل يده فيها وجد بَللًا فيها.. فقال: «**ما هذا يا صَاحِبَ الطَّعام؟**» قال له التاجر: أصابَتْهُ السَّمَاءُ.. أى: المطر. فقال له ﷺ: «**أفَلا جَعَلْتَه فَوْقَ الطَّعامِ حتَّى يَراهُ النَّاس، مَن غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**».

وهذا الحديث فيه زجرٌ لكثير من التجار فى هذا الزمان .. حيث يضع أكثرهم الفاكهة أو الخضروات الجيدة فى أعلى الصندوق ويضع السيئة أسفل الصندوق ليخدع المشترى فيظن أن كل البضاعة طيبة.. وإذا به يُفاجأ عندما يرجع إلى بيته بأن أكثرها لا تَصلُح للطعام.. نقول لهذا التاجر: « **مَنْ غشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا** » .

(١٥٨٨) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا تَناجَشُوا»[1].

(١٥٨٩) وعن ابنِ عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ نَهى عن النَّجْشِ[2].

۞ قوله ﷺ: «لا تَناجَشُوا» النجش: هُوَ أَنْ يَزِيدَ فِى ثَمَنِ السِّلْعَةِ وَهُوَ لَا يُرِيدُ شِرَاءَهَا... وَلَهُ وَجْهَان: إِمَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُحسِن إِلَى البَائِعِ بِإِكْثَارِ النُّقُود لَهُ، أَو يَسِىء إِلَى المُشْتَرِى بِزِيَادَةِ السعر عليهِ فيتضرَّر بِذَلِكَ، وَهَذَا هُوَ النجش الذى نهى عنه الرسول ﷺ.

۞ ولكى تتضح الصورة أكثر .. فتخيل معى أنه أُقيم مزاد على سلعة مُعينة.. فيأتى إنسان لا يريد أن يشترى وإنما يريد أن يُحسِن إلى البائع أو يُسىء

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٥٠) كتاب البيوع - ومسلم (١٥١٥) كتاب البيوع.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩٦٣) كتاب الحيل - ومسلم (١٥١٦) كتاب البيوع.

إلى المشترى.. وقد يكون هناك اتفاق بينه وبين البائع على مبلغ سيدفعه له بعد انتهاء المزاد.. فيبدأ هذا الرجل ويزيد فى السلعة وهو لا يريد أن يشترى .. ويظل يرفع فى سعرها.. إلى أن يصل إلى سعرٍ بعينه ثم ينسحب ويشتريها الطرف الآخر الذى كان يتنافس معه على شرائها.. فهذا هو النجش الذى حرمه النبى ﷺ ... أما إذا كانت السلعة تُباع بالمزاد العلنى، وكان للإنسان حاجة فيها وهو يريد شراءها فله أن يزيد ... وإن كان لا يُريد شراءها ، فإنه يتركها ولا يفعل الزيادة من أجل أن ينفع إنسانًا ويضر إنسانًا آخر.

(١٥٩٠) وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما قال: ذَكَرَ رجُلٌ لِرسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ يُخْدَعُ فى البُيُوعِ؟ فقال رسُولُ الله ﷺ: «مَن بايَعتَ، فقُل: لا خِلابَةَ»[١].

۞ ففى هذا الحديث أنه جاء رجلٌ للنبى ﷺ وأخبره أنه يُخدع فى البيوع.. أى: أن الناس يخدعونه.. فقال له ﷺ: **«مَن بايَعتَ، فقُل: لا خِلابَةَ»** أى: لا خديعة.. أى: لا تخدعنى ولا أخدعك.

والمقصود من ذلك: أن الشخص قد لا توجد عنده خبرة أو معرفة أو فطنة فى البيع، وأنه قد يُخدع ويُزاد عليه فى السعر، وقد يكون عنده شىء من الغفلة، فهو عندما يذكر شيئًا يدل على حاله يجعل البائع على حذر من أن يقع فى أمر لا يصلح ولا ينبغى، وأنه إن حصل منه خديعة فإنه سيترتب على ذلك رجوع المبيع إليه، وعدم بقاء البيع على ما هو عليه، هذا هو المقصود من الترجمة ومما جاء تحتها.

ويترتب على ذلك أن البائع يعرف وضع المشترى، وأنه إن حصل له شىء فيه ظلم أو غبن كبير فإن الأمر سيعود إلى ما كان، بحيث ترجع السلعة إلى بائعها ولا يستفيد من ذلك البيع شيئًا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢١١٧) كتاب البيوع - ومسلم (١٥٣٣) كتاب البيوع.
«الخِلابة»: وهى الخدِيعةُ.

وقد لا يفهم التجار فى زماننا هذا معنى كلمة (لا خِلابة).. فيجوز للمشترى أن يقول للتاجر كلمة تؤدى نفس المعنى.. كأن يقول له: لا تخدعنى ولا أخدعك.. فإن كان فى السلعة عيب فمن حقى أن أردها إليك.. وبذلك يحرص التاجر على أن يعطيه سلعة طيبة حتى لا تعود إليه مرة أخرى.. والله أعلم.



(١٥٩١) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن خَبَّب زَوْجَةَ امْرِئٍ، أو ممْلُوكَهُ، فلَيْسَ مِنَّا»(١).

۞ قوله ﷺ: «مَن خَبَّب زَوْجَةَ امْرِئٍ» أى: أفسدها عليه أو أوقع بينهما الشقاق والتنافُر فخرجت عن طاعته.. أو أن يسعى إلى أن يُفسد ما فى قلبها حتى تتمرد عليه وتسعى إلى التخلُّص منه بسبب هذا الإفساد فيكون الفراق.

وقد يريد بذلك التخبيب أن يتزوجها هو أو أن يتزوجها غيره أو أن يريد إيذاء هذا الزوج فقط ولا يريد أن يتزوجها.

۞ وأما معنى: مَن خبَّب مملوك امرئٍ. يعنى: أفسده عليه وعمل معه أعمالًا جعلته يتمرد على سيده ويعامله معاملة سيئة... وقد يكون ذلك التخبيب من أجل أن بينه وبين سيده عداوة، أو قد يكون له رغبة فيه فيريد أن يجعل سيده يزهد فيه ويُرخصه ويبادر إلى التخلص منه فيشتريه.

وقوله: «ليس منَّا» يدل على تحريمه وأنه من الأمور المحرمة، وأن مَن يفعل ذلك فقد عرَّض نفسه لأن يكون من أهل هذا الوصف.... لكن لا يعنى ذلك أنه ليس من المسلمين، بل هو مسلم، ولكنه ليس على المنهج الصحيح وعلى الطريق الصحيح، بل هو عاصٍ ومُخالف.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٣).
«خَبَّب»، أى: أفسدَهُ وخدعَهُ.

(٢٧٧) باب تحريم الغدر

۞ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

۞ للوفاء بالعهود قيمة إنسانيّة وأخلاقيّة عُظمى لأنّه يُرسى دعائم الثِّقة فى الأفراد ويؤكّد أواصر التّعاون فى المجتمع.

يقول الرّاغب الأصفهانى فى ذلك: الوفاء أخو الصِّدق والعدل... والغدر: أخو الكذب والجَور ... ذلك أنّ الوفاء: صدق اللّسان والفعل معًا ... والغدر كَذِبٌ بهما، لأنّ فيه مع الكذب نقضٌ للعهد.

والوفاء: يختصّ بالإنسان، فمن فُقد فيه (الوفاء) فقد انسلخ من الإنسانيّة ... وقد جعل الله تعالى العهد من الإيمان وصيَّره قِوامًا لأمور النّاس ... فالنّاس مُضطَرون إلى التّعاون، ولا يتمّ تعاونهم إلّا بمراعاة العهد والوفاء به، ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفع التّعايش. ولذلك عظَّم الله تعالى أمره فقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقيل فى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ٤] أى: نَزِّه نفسك عن الغدر[1].



(١٥٩٢) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبى ﷺ قال: «أربَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيهِ خَصلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[2].

---

(١) نضرة النعيم (٨/ ٣٦٣٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤) كتاب الإيمان - ومسلم (٥٨) كتاب الإيمان.

سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٦٩٥) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

قوله ﷺ: « **وإذا عاهد غدر** » هو داخل فى قوله: « **وإذا اؤتُمن خان** ».

وقوله ﷺ: « **وإذا خاصم فَجَر** » أى مال عن الحق، وقال الباطل والكذب.

فالغدر من صفات المنافقين - عافانا الله وإياكم من النفاق-.

(١٥٩٣) وعن ابن مسعود، وابن عمر، وأنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قالوا: قال النبى ﷺ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدرَةُ فُلَانٍ »[1].

(١٥٩٤) وعن أبى سعيد الخُدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النبى ﷺ قال: « لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ إِسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرفَعُ لَهُ بِقَدرِ غَدرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعظَمُ غَدرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ»[2].

۞ اللواء ما يكون فى الحرب مثل العَلَم ... يُرفع لكل غادر لواء تحت استه والعياذ بالله، أى تحت مقعدته... ويرتفع هذا اللواء بقدر غدرته إن كانت كبيرة صار كبيرًا، وإن كانت صغيرة صار صغيرًا، ويُقال: هذه غدرة فلان بن فلان - والعياذ بالله- وفى هذا الحديث دليل على أن الغدر من كبائر الذنوب، لأن فيه هذا الوعيد الشديد.

۞ «**ألا .. ولا غادر أعظمُ غدرًا من أمير عامة**» فتخيل لو أن أميرًا أو خليفة يغش أمة بأسرها فإنه سيكون لواؤه أعظم لواء .. فعندما نُبعث من القبور نرى لواءه فى أرض المحشر أكبر لواء .. وذلك لأنه غدر بأمته وضيع دينه وأمانته .. فبدلًا من أن يَحُطهم بنُصحه ويُعلمهم ويُقيمهم على الجادة وإذا به يظلمهم

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٨٦، ٣١٨٧) كتاب الجزية، ومسلم (١٧٣٦، ١٧٣٧) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٣٨) كتاب الجهاد والسير.

ويُفسد عليهم دينهم ودُنياهم.

❁ قال الإمام المناوى رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُرفع له علم يوم القيامة خلفه، تشهيرًا له بالغدر، وإخزاءً وتفضيحًا على رؤوس الأشهاد . يُنادَى عليه فى ذلك المحفل العظيم: ألا إن هذه غدرة فلان ... أى علامة على غدرة فلان ابن فلان، ويُرفَع فى نَسَبِه حتى يتميز عن غيره تمييزًا تامًّا ... وظاهره أن لكل غدرة لواء، فيكون للواحد ألوية بعدد غدراته...

وحكمة نصب اللواء أن العقوبة تقع غالبًا بضد الذنب، والغدر خفى فاشتهرت عقوبته بإشهار اللواء[1].

❁❁❁

(١٥٩٥) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: « قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلاثَةٌ أَنَا خَصمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعطَى بِى ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعطِهِ أَجْرَهُ »[2].

وفى هذا الحديث الأخير أيضًا التنبيه على مسألة يفعلها كثيرٌ من الناس اليوم، وهى أنهم يستأجرون الأُجراء ولا يعطون لهم أجرًا.... هذا الذى يستأجر الأجير ولا يعطيه أجره يكون الله عَزَّوَجَلَّ خصمه يوم القيامة، كما قال تعالى فى الحديث القدسى: « ثَلاثَةٌ أَنَا خَصمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعطَى بِى ثُمَّ غَدَرَ» يعنى: عاهد بى ثم غدر ... أى أعطى يمينه بى .. أى عاهد عهدًا وحلف عليه بالله ثم نقض العهد وغدر بصاحبه ... والثانى «رَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَه» حتى لو كان ابنه أو أخاه الأصغر ثم باعه وأكل ثمنه يكون الله عَزَّوَجَلَّ خصمه يوم القيامة..قال المهلب: وإنما كان إثمه شديدًا ؛ لأن المسلمين أكفاء فى الحرية فمن باع حُرًّا فقد منعه

(١) فيض القدير (٤/ ٣٧٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٢٢٧) كتاب البيوع.

التصرُّف فيما أباح الله له وألزمه الذُّل الذى أنقذه الله منه.. وقال ابن الجوزى: الحُر عبد الله فمن جنى عليه فخصمُه سيده[١]... والثالث هذا الرجل الذى استأجر أجيرًا فاستوفى منه وقام الأجير بالعمل كاملًا ثم لم يُعطه أُجرته.

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس اليوم فى العمال الذى يأتون بهم من الخارج، تجده يستأجره بأُجرة مُعينة مثلًا ستمائة ريال فى الشهر، ثم إذا جاء به إلى هنا ماطل به وآذاه ولم يُؤته حقه، وربما يقول له تريد أن تبقى هنا بأربعمائة ريال وإلا سافرت... هذا والعياذ بالله يكون الله خصمه يوم القيامة، ويأخذ من حسناته ويعطيها هذا العامل، لأن قوله إما أن تعمل بأربعمائة وإلا رددتُك إلى بلدك... هذا استأجره بستمائة ولم يعطه أجره، فيدخل فى هذا الوعيد الشديد، وهؤلاء الذى يأتون بالعمال ولا يعطونهم أجورهم أو يأتون بهم وليس عندهم عمل .. ولكن يتركونهم فى الأسواق، ويقول أحدهم للعامل: اذهب وما حصلته فلى نصفه، أو مثلًا يقول: اذهب وعليك فى الشهر ثلاثمائة ريال أو أربعمائة ريال.

كل هذا حرام والعياذ بالله، ولا يحل لهم، وما أكلوه فإنه سُحتٌ، و«**كل جسدٍ نَبَتَ من سُحتٍ فالنار أَولَى به**»[٢]، وهؤلاء الذين يأكلون أموال هؤلاء العمال المساكين، لا تُقبل لهم دعوة والعياذ بالله... يدعون الله فلا يستجيب لهم؛ لأن النبى ﷺ «**ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر، يَمُد يديه إلى السماء: يارب يارب. ومطعمه حرام وملبسه حرام، وغُذى بالحرام، فأَنَّى يُستجاب له**»[٣] وما يأكل هؤلاء من أجور هؤلاء العمال أو يظلمونهم به، فإنهم يأكلونه سُحتًا ... نسأل الله العافية[٤].

---

(١) فتح البارى (٤/ ٤٨٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وأبو نُعيم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥١٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

(٤) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ١٣٣) بتصرف.

(٢٧٨) باب النهى عن المنِّ بالعطية ونحوها

❁ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

❁ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ أى لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمنِّ على مَن أحسنوا إليه ... كقوله قد أحسنتُ إليك وجبرتُ حالك، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى لا يعتريهم فزعٌ يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائت زهرة الدنيا.

❁ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٦٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ أى لا تُحبطوا أجرها بالمنِّ والأذى ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾أى كالمُرائى الذى يُبطل إنفاقه بالرياء ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾أى لا يصدّق بلقاء الله ليرجو ثوابًا أو يخشى عقابًا ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ أى مثل ذلك المرائى بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذى عليه شىء من التراب يظنه الظانُّ أرضًا طيبةً منبتةً ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ أى فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلدًا أملس ليس عليه شىء من الغبار أصلًا... كذلك هذا المنافق يظن

أن له أعمالًا صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلَّت وذهبت.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي لا يجدون له ثوابًا في الآخرة فلا ينتفع بشيءٍ منها أصلًا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد[1].

(١٥٩٦) وعن أَبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثلاثَ مِرارٍ: قَالَ أَبُو ذر: خَابُوا وخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رسول الله؟ قَالَ: «المُسْبِلُ، والمَنَّانُ، وَالمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكَاذِبِ»[2].

۞ وفي رواية له: «المُسْبِلُ إِزَاره» يعني: المُسبل إزاره وثوبه أسفل من الكعبين للخُيلاء.

سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٧٩٨) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(١) صفوة التفاسير (١/ ١٥٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

(٢٧٩) باب النهى عن الافتخار والبغى

۞ ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب (باب النهى عن الافتخار والبغى) والافتخار: أن يمدح الإنسان نفسه وأن يفتخر بما أنعم الله به عليه من نعمة المال أو الجاه أو الولد أو القوة أو الحَسَب والنَّسَب أو غير ذلك من باب الفخر والاستعلاء على الناس من حوله.

أما أن يتحدث الإنسان بنعمة الله عليه من باب إظهار نعمة الله عليه فلا بأس بهذا.. فقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١] وقال النبى ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»(١) أى: لا أفتخر بذلك.. وهذا من باب تواضع النبى ﷺ.. وهو أسوتنا وقدوتنا فقد قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

۞ ثم استدل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ۝٣٢﴾ [النجم: ٣٢] فنهى الحق (جل وعلا) عباده أن يُزكوا أنفسهم أو أن يمدحوها افتخارًا واستعلاءً على الناس . كأن يقول أحدهم لأخيه: أنا أغنى منك .. أنا أفضل منك.. أنا أعلم منك.. وما أشبه ذلك.. وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] فالتزكية التى نهى الله عنها هو أن يفتخر الإنسان ويعلو ويزهو بنفسه وبما أعطاه الله من المال والعلم والقوة.

وأما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ أى: قد أفلح من طهَّر نفسه من الذنوب ونقَّاها من العيوب، ورقَّاها بطاعة الله، وعلَّاها بالعلم النافع والعمل الصالح. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أى: أخفى نفسه الكريمة، التى ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنُّس بالرذائل، والدُّنو من العيوب، والاقتراف للذنوب، وترك ما

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٨) كتاب الفضائل.

يُكملها ويُنميها، واستعمال ما يشينها ويُدسِّيها [١].

ثم استدل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ على تحريم البغى بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، السبيل: التَّبِعة واللوم والمَذمَّة على هؤلاء الذين يظلمون الناس فى أموالهم أو فى أعراضهم أو فى أنفسهم أو فى أهليهم... هؤلاء هم الذين عليهم السبيل والتبعة ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يعنى يعتدون بغير الحق... وإنما وصف الله البغى بغير حق، لأنه حقيقةً ليس بحق... كل البغى فهو بغير الحق، فالقيد هنا ليس للاعتراض بل هو لبيان الواقع، وهو أن كل شىء من البغى فإنه بغير الحق... وهذا يَرِدُ فى القرآن كثيرًا، أن تجد قيدًا يبين الواقع وليس قيدًا يُخرج ما سواه، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] فهنا ليس هناك ربٌّ لم يخلقنا وربٌّ خلقنا بل هو لبيان الواقع أن الرب هو الذى خلقنا وهو الذى رزقنا... فالحاصل أن الله تعالى بيَّن أن السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق [٢].

(١٥٩٧) وعن عِياض بنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إن الله تعالى أَوْحَى إلَيَّ أن تَوَاضَعُوا حتى لا يَبْغِي أَحَدٌ على أحدٍ، ولا يَفْخَرَ أَحَدٌ على أحدٍ»[٣].

سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٦٠٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٩٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ١٣٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.
قال أهل اللغةِ: البَغْيُ: التَّعَدِّي والاستِطالةُ.

(١٥٩٨) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا قال الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فهُو أهْلَكُهُمْ»(١).

❁ الرِّوايةُ المشْهُورةُ: «أهْلَكُهُمْ» بِرفعِ الكافِ... ورُوِى بِنَصبِهَا. وذَلِكَ النَّهى لمنْ قالَ ذلكَ عجْبًا بِنفْسِهِ، وَتَصاغُرًا للناسِ، وارتِفاعًا علَيْهِمْ، فهَذَا هُو الحَرامُ... وَأمَّا مَنْ قالهُ لِما يَرَى فى النَّاسِ مِن نقْصٍ فى أمْر دينِهِم، وقَالهُ تَحزُّنًا علَيْهِمْ، وعَلَى الدِّينِ، فَلاَ بَأسَ بِهِ... هَكَذا فَسَّرهُ العُلماءُ وفصَّلوهُ، ومِمنْ قالَه مِنَ الأئمةِ الأعلام: مالكُ بنُ أنسٍ، والخَطَّابيُّ، والحميدِيُّ وآخرونَ، وَقَد أوْضَحته فى كتاب «الأذْكَارِ»(٢).

❁ فهذا الحديث يكون على وجهين: فمن قال: هلك الناس .. أى: يصفهم بأنهم وقعوا فى المعاصى وفسقوا وهلكوا .. يريد بذلك أن يُزكى نفسه وأن يمدح نفسه ويقدح فى غيره.. فهذا هو أهلك الناس لأن إعجابه وتزكيته لنفسه تُحبط عمله وهو لا يشعر بذلك.. كما فى قصة الرجل من بنى إسرائيل الذى كان يمر على صاحبه الذى يعصى الله فكان ينصحه ولكن بشىءٍ من التعالى والغلظة وهو لا يستجيب له... فقال له يومًا: والله لا يغفر الله لك أو لا يُدخلك الله الجنة، فقال الله تعالى: «مَن ذا الذى يتألَّى علىَّ أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك»(٣) لأنه قال ذلك افتخارًا وإعجابًا بنفسه واحتقارًا لهذا الرجل واستبعادًا لرحمة الله عز وجل... ومَن الذى يستبعد رحمة الله إلا جاهل بالله عز وجل! قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، فهذا الذى يقول: هلك الناس، ضاع الناس، فسق الناس. وما أشبه ذلك، يريد بهذا أن يُزكى نفسه وأن يقدح فى غيره، فهو أَهلَك الناس، يعنى أشدهم هلاكًا والعياذ بالله.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٣) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) رياض الصالحين / للإمام النووى (ص ٤٦٤).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب.

وهناك رواية لكلمة: «أهلكَهم» بالنَّصب ... يعنى أنه تسبَّب فى هلاكهم، وأن مَن قال ذلك يُيئس الناس ويَيأسون هُم بسبب مقالته.

۞ أما مَن قال ذلك حُزنًا على الناس وعلى الدين فلا بأس بذلك... لذلك لا يجوز لإنسان أن يقول: كل الناس هلكوا وسيدخلون النار.. ولكن الإنسان يدعو لغيره برحمة رب العالمين، وأن يهديهم الله سبحانه تبارك وتعالى... وليس معنى ذلك أنه يرى المنكر ويتركه، ولكن يرى المنكر فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وليكن سبيله إليه التغيير برفق ورحمة.

(٢٨٠) باب تحريم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام إلا لبدعة في المهجور، أو تظاهر بفسق، أو نحو ذلك

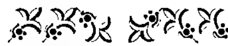
۞ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢].

(١٥٩٩) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُول الله ﷺ: «لا تَقاطَعُوا، ولا تَدابروا، ولا تباغضُوا، ولا تَحاسَدُوا، وكونوا عِبادَ الله إخوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ»(١).

(١٦٠٠) وعن أبي أيوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخَاهُ فوْقَ ثَلاثِ ليالٍ، يَلْتَقِيانِ، فيُعرِضُ هذا ويُعرِضُ هذا، وخَيْرُهُما الذي يَبْدَأ بالسَّلامِ»(٢).

۞ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٥٧٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٦٠١) وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «تُعرَضُ الأعمالُ في كُلِّ اثنين وخميس، فيغفر الله لِكُلِّ امرئٍ لا يُشْرِكُ بالله شيئًا، إلا امرأً كانتْ بينَهُ وبينَ أخِيه شَحناءُ، فيقولُ: اترُكوا هذَينِ حتَّى يصطَلِحا»(٣).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٥٧٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري(٦٠٦٥، ٦٠٧٦) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٩) كتاب البر والصلة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري(٦٠٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٠) كتاب البر والصلة.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة.

(١٦٠٢) وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقول: «إنَّ الشَّيْطانَ قد يَئِسَ أنْ يَعبُدَهُ المُصَلُّونَ فى جَزيرةِ العربِ، ولكن فى التَّحرِيشِ بينهم»(١).

❁ **قال أهل العلم:**

مداخل الشيطان إلى العبد من ثلاثة محاور: فهو يجتهد عليه ليُوقعه فى الشرك ... فإن وجد هذا الباب مُغلَقًا فى وجهه، وأن العبد عنده من التوحيد ما يحرسه ويحميه فى هذا الباب؛ اجتهد عليه فى باب البدعة.

فإذا عجز أنْ يدخل للعبد من باب البدع؛ لأنه صاحب سُنة قائم بها وعليها، وحريص على نفسه أن يقع فى شىء من هذا؛ اجتهد عليه فى باب المعاصى.

فالمحاور ثلاثة: المحور الأول: الشرك.

الثانى: البدعة. **الثالث:** المعصية الكبيرة والصغيرة.

ومعنى هذا الحديث: أنه أَيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى فى التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والبغضاء والحروب والفتن وغيرها.

وهذا الحديث من معجزات النبوة.. فقد حدث ما أخبر به النبى ﷺ.

❁❁❁

(١٦٠٣) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا يَحِلُّ لمسْلِمٍ أن يَهْجُرَ أخاه فوقَ ثلاثٍ، فمَنْ هَجرَ فوْقَ ثلاثٍ فمات دخل النَّارَ»(٢).

(١٦٠٤) وعن أبى خِراشٍ حَدرَد بن أبى حدرَد الأسْلَمى، ويُقالُ: السُّلمى الصَّحابى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه سَمِعَ النبى ﷺ يقولُ: «مَن هجرَ أخاهُ سَنةً فهُو كَسَفْكِ دمِهِ»(٣).

❁ سبق شرح هذين الحديثين عند شرحنا للحديث رقم (١٥٧٥).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨١٢) كتاب صفات المنافقين.
«التحريشُ»: الإفسادُ وتغييرُ قُلُوبِهم وتقَاطُعُهم.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٥٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٨١).

لكن فى الحديث الأول أخبر النبى ﷺ أن مَن هجر أخاه المسلم دون أى سببٍ شرعى.... والسبب الشرعى كأن يكون قد هجره من أجل وقوعه فى المعاصى أو البدع فأراد أن يزجره عن ذلك فهجره... أما إذا هجره من أجل المال والدنيا فوق ثلاثٍ ومات على تلك الحالة من غير توبة دخل النار.. وليس معنى ذلك أن يُخلَّد فى النار.. ولكن المقصود أنه يُعاقَب على ذلك بدخول النار فإذا انتهت عقوبته دخل الجنة لأنه لا يُخلَّد موحدٌ فى النار...

۞ أما الحديث الثانى فيخبر فيه النبى ﷺ أن مَن هجرَ أخاهُ سَنَةً - أى: بدون أى سببٍ شرعى- فهو كسفك دمه .. أى: كإراقة دمه فى استحقاق مزيد الإثم لا فى قدره.... وهذا من باب الوعيد على الهجر.. لأن الذى يهجر أخاه سنة كاملة من أجل الدنيا وحُطامها الزائل ليس عنده وازع دينى يردعه.. فهو يعلم أن النبى ﷺ نهاه عن هجره أكثر من ثلاثة أيام ومع ذلك فهو مستمرٌ فى هجره لأخيه لمدة سنة كاملة.... بل (والله) لقد رأيت مَن يخاصم أخاه (من أمه وأبيه) لمدة تربو على خمسة وعشرين عامًا من أجل الميراث!!!

۞ فيا ليتنا نمتثل أمر النبى ﷺ ولا يهجر أحدنا أخاه أكثر من ثلاثة أيام - وخيرهما الذى يبدأ بالسلام-. أما إذا كانت الهجرة لله فليس فى ذلك أى شىء.



(١٦٠٥) وعنْ أبى هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا يَحِلُّ لمؤمنٍ أنْ يَهْجُرَ مُؤمِنًا فَوْقَ ثلاثٍ، فإنْ مرَّتْ به ثلاثٌ فَلْيَلْقَهُ وليُسَلِّمْ عليهِ، فإن ردَّ عليه السَّلام، فقد اشْتَرَكا فى الأجر، وإنْ لم يَرُدَّ عليهِ فقد باءَ بالإثم، وخرَجَ المُسْلِّمُ من الهِجْرةِ»[١].

قال أبو داود: إذا كانت الهجرةُ لله تعالى فَلَيْس مِن هذا فى شىءٍ.

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبى ﷺ

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى غاية المرام (٤٠٥)، الإرواء (٢٠٢٩).

(٢٨١) باب النهى عن تناجى اثنين دون الثالث بغير إذنه إلا لحاجة، وهو أن يتحدثا سرًّا بحيث لا يسمعهما، وفى معناه ما إذا تحدث اثنان بلسانٍ لا يفهمه

۞ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المجادلة:١٠].

(١٦٠٦) وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانُوا ثَلاثَةً، فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ»(١).

ورواه أَبُو داود وزاد: قَالَ أَبُو صالح: قُلْتُ لابنِ عُمرَ: فَأَربَعَة؟ قَالَ: لا يَضُرُّكَ.

ورواه مالك فى «الموطأ»: عن عبد الله بن دينارٍ، قَالَ: كُنْتُ أَنَا وابْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بنُ عُقْبَةَ الَّتى فى السُّوقِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُنَاجِيَهُ، وَلَيْسَ مَعَ ابْنِ عُمَرَ أَحَدٌ غَيْرِى، فَدَعَا ابْنُ عُمَرَ رَجُلًا آخَرَ حَتَّى كُنَّا أَرْبَعَةً، فَقَالَ لِى وَللرَّجُلِ الثَّالِثِ الَّذِى دَعَا: اسْتَأْخِرَا شَيْئًا، فَإِنِّى سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقُولُ: «لا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ».

(١٦٠٧) وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً، فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحزِنُهُ»(٢).

۞ ففى هذه الأحاديث يُعلمنا النبى ﷺ أدبًا عظيمًا من آداب الإسلام.. ألا وهو أنه إذا كان هناك ثلاثة فإنه لا يحل لاثنين أن يتناجيا ويتحدَّثا جانبًا دون

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٨٨) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٨٣) كتاب السلام.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٨٨) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٨٤) كتاب السلام.

الثالث؛ لأن ذلك يُحزنه .. وكذلك إذا كانوا أربعة أو خمسًا أو أكثر فلا يحل لهم أن يتناجوا جانبًا ويتركوا واحدًا يقف وحده بعيدًا عنهم؛ لأن ذلك يُحزنه ... بل قد يُسىء الظن بهم ويظن أنهم يتآمرون عليه.

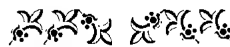
۞ أما إذا كانوا أربعة واستأذن اثنان ليتحدَّثا فى مسألة ما .. وبقى الاثنان الآخران يتحدثان سويًّا فلا بأس بذلك.

۞ **فإن قال قائلٌ**: بينى وبين صاحبى مسألة هامة ولا أحب أن يطَّلع عليها أحد فماذا أفعل إذا كان معنا ثالث؟

نقول: عليك أن تدعو شخصًا رابعًا ليقف مع الثالث ليُؤنسه ويتحدث معه وتستأذن أنت وصاحبك لتتحدَّثا سويًّا دون أن تُسبِّبا حرجًا أو حُزنًا للثالث.

۞ وهنا أريد أن أُنبِّه على أمرٍ هام ... وهو أنه قد يكون هناك ثلاثة فيقوم اثنان منهم بالتحدُّث بلغة أجنبية لا يفهمها الثالث وهما معه ولم يُفارقاه.. فهذا أيضًا لا يجوز ؛ لأن ذلك يُحزنه وقد يُسىء الظن بهما ويظن أنهما يَسخران منه أو يتآمران عليه...

ألا فلنحرص على مراعاة مشاعر الآخرين كما علمنا النبى ﷺ.



(٢٨٢) باب النهى عن تعذيب العبد والدابة والمرأة والولد بغير سببٍ شرعى أو زائدٍ عن قدر الأدب

۞ قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

۞ ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أى وحِّدوه وعظِّموه ولا تشركوا به شيئًا من الأشياء صنمًا أو غيره، واستوصوا بالوالدين بِرًّا وإنعامًا وإحسانًا وإكرامًا ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أى وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أى الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أى الجار الأجنبى الذى لا قرابة بينك وبينه ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ قال ابن عباس: هو الرفيق فى السفر...

وقال الزمخشرى: «هو الذى صحبك إما رفيقًا فى سفر، أو جارًا مُلاصقًا، أو شريكًا فى تعلُّم علمٍ، أو قاعدًا إلى جنبك فى مجلس أو غير ذلك، مَن له أدنى صُحبةٍ التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه...وقيل: هى المرأة»[1] ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أى المسافر الغريب الذى انقطع عن بلده وأهله ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾[2] أى: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفايتهم وعدم

(١) الكشاف (١/ ٣٩٣) وهذا الرأى اختيار الطبرى أيضًا.

(٢) صفوة التفاسير (١/ ٢٥٢).

تحميلهم، ما يَشُق عليهم وإعانتهم على ما تحملوه، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم...فمَنْ قام بهذه المأمورات، فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذى يستحق الثواب الجزيل، والثناء الجميل، ومَنْ لم يَقُم بذلك، فإنه عبدٌ مُعرِضٌ عن ربه، غير مُنقادٍ لأوامره، ولا متواضع للخلق. بل هو متكبر على عباد الله، مُعجَبٌ بنفسه، فَخُورٌ بقوله.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[١].



(١٦٠٨) وعن ابن عُمر رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فى هِرَّةٍ حَبَسَتْها حتَّى ماتت، فدَخَلَتْ فيها النَّار، لا هى أطْعَمَتْها وسَقَتْها إذ هى حَبسَتْها، ولا هى تركَتْها تأكُلُ مِن خَشَاشِ الأرض»[٢].

۞ كان فى بنى إسرائيل امرأة قاسية القلب، لا ترحم أى أحدٍ حولها حتى ولو كان هِرة (قطة) ضعيفة ... وفى يوم من الأيام خرجت هذه المرأة القاسية من بيتها لقضاء بعض حوائجها، فوجدت هِرَّة ضعيفة تسير فى الطريق، فأخذتها ووضعتها فى البيت وأغلقت عليها الباب.

ظنَّت الهرة فى بداية الأمر أن هذه المرأة سترحمها وتُقدم لها الطعام والشراب وتتركها لتنام فى هذا البيت الجميل.

لكن الذى حدث أن المرأة حبست الهرة فى البيت وتركتها بلا طعامٍ ولا شراب.

اشتد الجوع والعطش بتلك الهرة، فظلت تصرخ ليل نهار والمرأة تسمع صوتها ومع ذلك لم تستجب لنداء الهرة ولم ترحمها بأن تأتى إليها بالطعام

(١) تفسير السعدى (ص١٨٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٦٥) كتاب المساقاة - ومسلم (٢٢٤٢) كتاب السلام.
«خشاشُ الأرض»: وهى هَوَامُّها وحشراتُها.

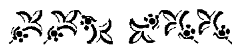
والشراب أو أن تتركها لتبحث عن رزقها فى مكانٍ آخر.

ولعلها وقد حبستها كانت تموء ليل نهار، وهى تعانى الجوع والعطش، وصوت الهرة فى هذه الحال يحمل الاستجداء والاستغاثة، وهو صوتٌ مُميز يُدركه العارفون بأصوات الحيوان، ولكن قلب هذه المرأة المتحجر لم يستجب لنداء الهرة، ولم يقبل رجاءها وتوسُّلها... وبقى الصوت يخفت حتى انقطع، وماتت الهرة تشكو إلى ربها ظلم الإنسان، وقسوته وتَحجُّر قلبه.

لقد كان بإمكان تلك المرأة إن كانت تريد القطة فى منزلها أن تُقدم لها ما يحفظ حياتها من الطعام والشراب... وقد أخبرنا الرسول ﷺ أننا نُؤجَر فى الإحسان إلى البهائم... فإن أبت أن تقدم لها ما يحفظ حياتها، فعليها أن تُخلى سبيلها، وتتركها تنطلق فى أرض الله الواسعة، فلن تعدم وجود ما يقيتها، ويحفظ حياتها... خاصة وأن الله قد جعل لها رزقًا فيما يُلقيه الناس من بقايا الطعام، وما تصطاده من الحشرات والهوام.

فأخبر النبى ﷺ أن هذه المرأة دخلت النار بسبب ظلمها لتلك الهرة.

ولقد رأى الرسول ﷺ هذه الهرة وهى تهاجم تلك المرأة فى النار، فتُحدث بها خُدوشًا فى وجهها وجسدها جزاءً على ما صنعت بها فى الدنيا [١].



(١٦٠٩) وعن ابن عُمر رضي الله عنهما أنَّه مرَّ بِفِتْيَانٍ مِن قريشٍ قد نَصَبُوا طَيْرًا وهُم يَرمُونَهُ وقَد جعلُوا لِصاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خاطِئَةٍ مِن نَبْلِهِمْ، فلمَّا رأَوُا ابنَ عُمر تَفرَّقُوا، فقال ابنُ عُمر: مَن فَعَلَ هذا؟ لعنَ الله مَن فعل هذا، إنَّ رسُول الله ﷺ لَعَنَ مَن اتَّخَذَ شيئًا فيهِ الرُّوحُ غَرَضًا [٢].

---

(١) حكايات عمو محمود / الشيخ محمود المصرى - الجزء الأول (ص: ٧٠-٧١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥١٥) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٩٥٨) كتاب الصيد والذبائح.
«الغَرَضُ»: وهو الهَدفُ، والشَّىءُ الذى يُرمَى إليه.

۞ ففى هذا الحديث يحكى ابن عمر رضي الله عنهما أنه مَرَّ ببعض الفتيان من قريش فوجدهم قد نصبوا طيرًا.. أى: ربطوه فى شىءٍ وجعلوه غرضًا لسهامهم... وأخذوا يرمون على ذلك الطير بالسهام ليروا مَن هو أشد مهارة فى رمى السهام على ذلك الطير.

وقد علموا أن صاحب الطير سيفقده بسبب ما يفعلونه به.. فجعلوا لصاحب الطير كل السهام التى لا تصيب الطير تكون من نصيبه.. وبينما هم يرمون الطير بالسهام إذ رأوا ابن عمر.. فلما رأوه تفرقوا خوفًا منه لأنه كان لا تأخذه فى الله لومة لائم ... فلما رأى ابن عمر ما يفعلونه قال: مَن فعل هذا لعن الله مَن فعل هذا لعن الله مَن فعل هذا ... وذكر أن النبى ﷺ لعن مَن اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا. وهذا لأنه يتألم ... إذ أن هذا يضربه على جناحه، وهذا يضربه على صدره، وهذا يضربه على ظهره، وهذا على رأسه فيتأذى، فلهذا لعن النبى ﷺ مَن اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا... أما بعد ما مات فقد مات فلا يشعر بشىءٍ... وإن كان الأفضل أن يجعلوا هدفهم الذى يرمونه شيئًا من الجمادات.

۞ ولذا فإنه لا يجوز أن نربط طيرًا أو حيوانًا ونضرب عليه بالسهام أو ببندقية رش حتى نتعلم النشان أو نتعلم مهارة الرمى لأن هذا فيه إيذاء لحيوانٍ أو طير ضعيف لا يملك من أمره شيئًا.. وسوف يحاسب اللهُ ويعاقب مَن فعل هذا بذلك الطير أو الحيوان.



(١٦١٠) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنَّ تُصْبَرَ البَهَائِمُ[1].

۞ الصبر معناه أنها تُحبَس للذبح...إما أن تُحبَس وتُجاع حتى تموت، أو أنها تُمسك وتُتخذ غرضًا ... يعنى هدفًا بحيث يتراماها الناس؛ لأن هذا فيه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥١٣) كتاب الذبائح والصيد-ومسلم (١٩٥٦) كتاب الصيد والذبائح.
ومعناه: تُحبس للقَتْلِ.

تعذيب للحيوان وإيذاء له وهو لا يجوز، بل المطلوب أن يحصل الرفق والإحسان فى قتلها أو ذبحها.

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: صَبْرُ الْبَهَائِمِ أَنْ تُحْبَسَ وَهِيَ حَيَّةٌ لِتُقْتَلَ بِالرَّمْيِ وَنَحْوِهِ وَهُوَ مَعْنَى: «**لا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا**» أَيْ لَا تَتَّخِذُوا الْحَيَوَانَ الْحَيَّ غَرَضًا تَرْمُونَ إِلَيْهِ كَالْغَرَضِ مِنَ الْجُلُودِ وَغَيْرِهَا ... وَهَذَا النَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ .. وَلِهَذَا قَالَ ﷺ فِي رِوَايَةِ ابن عُمَرَ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا**» وَلِأَنَّهُ تَعْذِيبٌ لِلْحَيَوَانِ وَإِتْلَافٌ لِنَفْسِهِ وَتَضْيِيعٌ لِمَالِيَّتِهِ وَتَفْوِيتٌ لِذَكَاتِهِ إِنْ كَانَ مُذَكًّى وَلِمَنْفَعَتِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُذَكًّى[(١)].

***

(١٦١١) وعن أبى علىٍّ سُوَيد بنِ مُقَرِّن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال: لَقَد رأيْتُنى سابعَ سَبْعَةٍ مِن بنى مُقرِّنٍ ما لَنا خادِمٌ إلا واحِدةٌ لطَمها أصغَرُنا، فأمَرَنا رسُولُ الله ﷺ أن نُعتِقَها**[(٢)].

وفى رواية: «سابع إخْوةٍ لى».

۞ ففى هذا الحديث يحكى سُويد بن مُقرِّن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا سبعة من بنى مُقرن ولم يكن عندهم خادم إلا جارية صغيرة كانت تخدمهم.. وفى يومٍ من الأيام لطمها أصغر واحدٍ من هؤلاء السبعة... فوصل الخبر إلى النبى ﷺ فأمرهم أن يعتقوها كفارة لتلك اللطمة.. وذلك لأن النبى ﷺ قال فى حديثٍ آخر: «**مَن ضرب غلامًا له حدًّا لم يأته أو لَطَمه فإن كفارته أن يُعتقه**».

ومن الواضح أنهم جميعًا رضوا بعتق تلك الجارية وتبرعوا بذلك وإلا فاللطمة كانت من واحدٍ منهم ولم تكن منهم جميعًا.. لكنهم سمحوا له بعتقها تكفيرًا لذنبه.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ١٥٨-١٥٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٨) كتاب الأيمان.

فالأصل أنه لا يُعتَق منها إلا حظ مَن لطمها.. لأن العبد أو الأَمة مالٌ تجوز فيه الشراكة.. يعنى يجوز أن يشترك فيه عددٌ من الناس.. فإذا لطم سيدٌ واحد من هؤلاء عبدًا فالأصل أن يعتق نصيبه فيه فيكون بعض العبد حُرًّا والبعض الآخر رِقًّا ... ولكن النبى ﷺ عرف منهم أنهم على استعدادٍ لعتقها فأمرهم جميعًا بإعتاقها.

فما أعظم هذا الدين الذى جعل كفارة لطم العبد أو الجارية أن يعتقها... فليتدبر هؤلاء الذين يضربون الخدم ضربًا قاسيًا كل يومٍ حتى يصل الأمر أحيانًا إلى تكسير العظام وتشويه الجسد.. مع أنهم خدم وليسوا عبيدًا .. ألا فلنتقِ الله فى هؤلاء المساكين الذى ما رضوا بهذا الذل إلا من أجل لقمة العيش لأولادهم.

***

(١٦١٢) وعن أبى مسعود البدرِى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ أَضْرِبُ غلامًا لى بالسَّوطِ، فسمِعتُ صوتًا مِن خَلفى: «اعلَمْ أبا مَسْعُودٍ» فَلَم أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِن الغَضب، فلَمَّا دَنا مِنِّى إذا هُو رسُولُ الله ﷺ فإذا هُو يقُولُ: «اعلَمْ أبا مسعُودٍ أنَّ الله أَقْدَرُ عليكَ مِنْكَ على هذا الغُلامِ» فقلتُ: لا أَضْرِبُ مملُوكًا بعدَهُ أبدًا.

وفى روايةٍ: فَسَقَطَ السَّوْطُ مِن يدى مِن هَيْبَتِهِ.

وفى روايةٍ: فقُلْتُ: يا رسُولَ الله هُو حُرٌّ لِوَجْهِ الله تعالى فقال: «أمَا لوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلَفَحتْكَ النَّارُ، أو لمَسَّتكَ النَّارُ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر أبو مسعودٍ البدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يضرب غلامًا له بالسوط عقابًا له على شىءٍ فعله.. فسمع صوتًا يأتى من خلفه لكنه لم يتبين الكلام من شدة غضبه... فلما اقترب أكثر سمع مَن يقول له: **«اعلَمْ أبا مَسْعُودٍ»** فاستدار ونظر خلفه فإذا هو برسول الله ﷺ وهو يقول له: **«اعلَمْ أبا مسعُودٍ أنَّ الله**

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٩) كتاب الأيمان.

أقْدَرُ عليكَ مِنْكَ على هذا الغُلامِ» فتأثر أبو مسعود من تلك الكلمات وسقطت العصا من يده هيبة لرسول الله ﷺ وقال للنبى ﷺ: لا أضْرِبُ مملُوكًا بعدَهُ أبدًا.. وفى رواية قال له: يا رسول الله هو حُرٌّ لوجه الله تعالى.. فإذا بالنبى ﷺ يقول له: «أمَا لوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أو لمَسَّتكَ النَّارُ».

لهذا أرشد النبى ﷺ إلى هذا بأن مَن ضرب عبده أو لطمه فإن كفارة ذلك أن يعتقه، لأن الحسنات يُذهبن السيئات.

وهذا يدل على أن العتق فيه تكفير لذلك الذنب الذى قد حصل منه، وهو كونه ضرب مملوكه، لكن هذه الكفارة ليست على سبيل الوجوب.



(١٦١٣) وعن ابن عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَن ضربَ غُلامًا له حَدًّا لم يأتِهِ، أو لَطَمَهُ فإن كفَّارَتَهُ أن يُعتِقَهُ»[١].

وفى رواية عن زاذان: (أن ابن عمر دعا بغلام له، فرأى بظهره أثرًا -أى: أثر الضرب الذى ضربه إياه ابن عمر - فقال له: أوجعتك؟ قال: لا، قال: فأنت عتيق).

وقول العبد لما قال له سيده عبد الله بن عمر: أوجعتك؟ قال: لا، يدل على أن هذا الضرب غير مبرح، وعلى هذا يكون أعتقه ابن عمر استحبابًا وخروجًا من الخلاف... وربما يكون جواب العبد بقوله: لا.. أو: ما أوجعتنى على سبيل التأدب مع سيده، مع أنه قد أوجعه... فأراد ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يخرج من ذنبه مخافة أن يكون دفعه الحياء إلى عدم ذكر ألمه ووجعه، فقال: فأنت عتيق، أى: أنت حُرٌّ لوجه الله.

والعلماء يفرقون فى ضرب المماليك أو فى ضرب الخدم -والخدم هم

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٧) كتاب الأيمان.

الإماء الرقيق- بين الضرب المبرح والضرب الخفيف... قال الدارقطني: إذا كان ضربًا مُبرحًا فإنما كفارته العتق، وإذا كان ضربًا خفيفًا لا يتأذى به المملوك فليس على سيده شيء.

❁ أما قول النبي ﷺ: «مَن ضربَ غُلامًا له حَدًّا لم يأتِهِ» أي: لم يفعل ما يقتضي ذلك الحدّ الذي حدَّه به «أو لَطَمَهُ» أي: ضربه ببطن كفِّه من غير سبب «فإن كفَّارَتَهُ» أي: مُكفر إثم ذلك عنه «أن يُعتِقَهُ» أي: محو ذلك الإثم عنه، بإعتاقه... قال القاضي عياض: أجمعوا على أن الإعتاق غير واجب، وإنما هو مندوب. لكن أجر هذا الإعتاق، لا يبلغ أجر الإعتاق شرعًا.

وفي الحديث الرفق بالمماليك، إذا لم يذنبوا ... أما إذا أذنبوا فقد رخَّص ﷺ بتأديبهم بقدر إثمهم، ومتى زادوا يأخذ بقدر الزيادة[1].

❊❊❊

(١٦١٤) وعن هِشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنهما أنَّهُ مرَّ بالشَّامِ على أُناسٍ مِن الأنباطِ، وقد أُقِيمُوا في الشَّمْسِ، وصُبَّ على رُءُوسِهِم الزَّيْتُ، فقال: ما هذا؟ قِيل: يُعَذَّبُون في الخَراجِ... وفي رواية: حُبِسُوا في الجِزْيةِ. فقال هِشامٌ: أشهَدُ لسَمِعتُ رسُول الله ﷺ يقُولُ: «إن الله يُعذِّبُ الذينَ يُعذِّبُونَ الناسَ في الدُّنيا» فدخل على الأمير، فحدَّثَهُ، فأمر بهم فَخُلُّوا[2].

❁ ففي هذا الحديث أن هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنهما مرَّ بالشَّامِ على أُناسٍ مِن الأنباطِ – وهم فلاحو العجم- وسُمُّوا أنباطًا لأنهم كانوا يستنبطون الماء أي: يستخرجونه... وكانوا قد حُبسوا في الشمس لأنهم لم يُؤدوا الخَراج أو لم يدفعوا الجزية التي عليهم... فحُبسوا في الشمس المُحرقة وصُبَّ فوق

(١) دليل الفالحين (٤/ ٣٧٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦١٣) كتاب البر والصلة والآداب.

«الأنباط»: الفلاحُون مِن العَجَمِ.

رؤوسهم الزيت.. وهذه عقوبة شديدة جدًّا.. لأن الزيت تشتد حرارته مع الشمس وقد يتسلخ الجلد بسبب ذلك.. فهذا عذابٌ مؤلمٌ جدًّا.. فلما سأل هشام بن حكيم ما هذا؟ قيل له: إنهم يُعذَّبون فى الخَراج.. وفى رواية: حُبسوا فى الجزية.. أى: لم يدفعوا الخراج[1] أو الجزية[2].. فغضب هشام بن حكيم وقال: أشهَدُ أنى سَمِعتُ رسُول الله ﷺ يقُولُ: «**إن الله يُعذِّبُ الذينَ يُعذِّبُونَ الناسَ فى الدُّنيا**».. ثم دخل على الأمير عُمير بن سعد رضي الله عنه وكان أميرًا على فلسطين.. فأخبره بما سمعه من رسول الله ﷺ فأمر بهم فأُطلق سراحهم.. ولعلَّ الأمير لم يكن يعلم ما حدث لهؤلاء الأنباط.. لأن عُمير بن سعد كان قمة من قمم الزهد والورع والحلم والرفق.. وما أن سمع ما يحدث لهم حتى رفع عنهم هذا العذاب.. وفى هذا دليل على حُسن سيرة السلف رضي الله عنهم فى بذل النصيحة للحكام والولاة.... وكان الولاة يقبلون النصيحة ولا تأخذهم العزة بالإثم.



(١٦١٥) وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: رأى رسُولُ الله ﷺ حِمارًا مَوْسُومَ الوجْهِ، فأنْكَر ذلك؟ فقال: «والله لا أَسِمُهُ إلا أقْصى شىءٍ مِنَ الوجْهِ» وأمرَ بحمارِهِ، فكُوِىَ فى جاعِرتَيْهِ، فهو أوَّلُ مَن كوى الجاعِرَتَيْنِ[3].

(١٦١٦) وعنه أنَّ النبىَّ ﷺ مرَّ عليه حِمارٌ قد وُسِم فى وَجْهِه، فقال: «لعنَ الله الذى وَسَمَهُ»[4].

وفى رواية لمسلم أيضًا: نهى رسُولُ الله ﷺ عن الضَّربِ فى الوجه، وعنْ الوسْمِ فى الوجهِ.

---

(١) الْخراج: مَا يخرج من غلَّة الأَرض.
(٢) مَا يدفعه أهل الذِّمَّة للدولة الإسلامية.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢١١٨) كتاب اللباس والزينة.
«الجاعِرَتانِ»: ناحِيتا الوَرِكَيْن حوْل الدُّبُر.
(٤) صحيح: رواه مسلم (٢١١٧) كتاب اللباس والزينة.

۞ ففى الحديث الأول يخبر ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أن النبى ﷺ رأى حِمارًا مَوْسُومَ الوجْهِ، فأنْكَر ذلك.

والوسم هى علامة يجعلها الرجل على دابته بالمكواه فى مكانٍ فى جسده من أجل أن يُعرف أن تلك الدابة هى دابة فلان حتى لا تختلط بين الدواب فلا يعرفها صاحبها.

لكن النبى ﷺ أنكر أن يكون الوسم فى الوجه حتى لو كان الموسوم حيوانًا فقال: «**والله لا أَسِمُهُ إلا أقْصى شىءٍ مِنَ الوجْهِ**» وأمر بحماره فكُوى فى جاعرتيه... وهما ناحيتا الوركين حول الدُّبر .. أو فى مؤخرة الحمار..

۞ وفى الرواية الثانية لما رأى النبى ﷺ حمارًا قد وُسم فى وجهه قال: «**لعنَ الله الذى وَسَمَهُ**» واللعن: هو الطرد من رحمة الله.. وهذا دليل على أن وسم الحيوان فى وجهه من كبائر الذنوب لأن النبى ﷺ لعن مَن فعل هذا.

والوسم عبارة عن كى يُكوى به الحيوان ليكون علامة يعرفها صاحبه.... وأصحاب المواشى يحتاجون إلى ذلك.. فكل قبيلة لها علامة معينة تجعلها على مواشيها حتى إذا ضاعت شاة أو ناقة يعرف الناس أنها لأهل تلك القبيلة .. لكن الوسم يكون فى الرقبة أو الفخذ أو الظهر ولا يكون أبدًا فى الوجه.. لأن الوجه لا يُضرب ولا يُوسم...

يعنى: أنه لا يجوز أن يُوسَم فى الوجه، ولا أن يُضرب الحيوان على الوجه...والإنسان من باب أَولَى... وقد جاء فيه النهى عن رسول الله ﷺ، وذلك لأن الوجه فيه مُعظم الحواس والتى هى السمع والبصر والفم والأسنان واللسان وما إلى ذلك، فيكون فيه إيذاء، بخلاف الجهات الأخرى أو الأماكن الأخرى التى ليست كذلك، فيترتب على ذلك تشويه الخِلقة أو فقد حاسة من الحواس، وما إلى ذلك من الأمور المحظورة التى عنيت وقُصدت فى النهى عن الوسم والضرب فى الوجه.

۞ وفى هذا دليل على أن الإنسان إذا رأى شيئًا مما يُلعن فاعله فقال: «اللهم العن مَن فعل هذا» فلا إثم عليه.. يعنى لو وجدنا شاة موسومة فى الوجه فقلنا: «اللهم العَن مَن فعل هذا» فلا بأس .. لكن لا نقول: اللهم العن فلان بن فلان..

ومثل ذلك إذا رأينا قذرًا فى الشارع ... يعنى غائطًا وجدناه فى الشارع، فلنا أن نقول: لعن الله مَن تَغوط هاهنا؛ لأن النبى ﷺ يقول: «**اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد وقارعة الطريق والظل**»[١].

---

(١) حسن: رواه أبو داود، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٢).

(٢٨٣) باب تحريم التعذيب بالنار في كل حيوان حتى النملة ونحوها

(١٦١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثنا رسُولُ الله ﷺ في بعثٍ فقال: «إنْ وجدتُم فُلانًا وفُلانًا -لِرَجلين مِن قريش سمَّاهما- فأحرِقُوهُما بالنَّارِ» ثم قال رسُولُ الله ﷺ حينَ أردنَا الخُرُوج: «إنِّي كُنْتُ أمرتُكم أن تُحرِّقُوا فُلانًا وفُلانًا، وإنَّ النَّار لا يُعَذِّبُ بِهَا إلا الله، فإنْ وجَدتُموهُما فاقْتلُوهُما»[1].

۞ ففي هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثهم في بعثٍ وقال: «إنْ وجدتُم فُلانًا وفُلانًا» وذكر لهم اسم رجلين من قريش «فأحرِقُوهُما بالنَّارِ» من شدة ما فعلاه بالمسلمين.. فلما أرادوا الخروج نادى عليهم النبي ﷺ وقال لهم: «إنِّي كُنْتُ أمرتُكم أن تُحرِّقُوا فُلانًا وفُلانًا، وإنَّ النَّار لا يُعَذِّبُ بِهَا إلا الله، فإنْ وجَدتُموهُما فاقْتلُوهُما».

فنسخ النبي ﷺ أمره الأول بأمره الثاني لأن الوحي نزل وأمره بذلك..

فدلَّ هذا على أن التحريق بالنار لا يجوز، اللهم إلا إذا كان على سبيل القصاص، بأن يكون حرق غيره فيُحرق هو.

وقد سبق أن مَرَّ في المُثلة أنه لا يُمثَّل بالإنسان، ولكنه إذا قتل بالتمثيل فإنه يُجازَى بمثل ما فعل ويُعامَل بمثل ما عامل غيره به.

إذًا: التحريق بالنار لا يجوز، وإنما يجوز في حق مَن قَتل بالتحريق فإنه يُقتل بالتحريق جزاءً وفاقًا.

أي أنه لا يُعذَّب أو يُقتل أحدٌ بإحراقه بالنار بأن تُؤجَّج نارٌ فيُقذف فيها، أي أن ذلك لا يجوز، وإنما يُقتل بالسيف أو بأي وسيلة من الوسائل التي يكون

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٠١٦) كتاب الجهاد والسير.



بها إزهاق روحه بدون هذه الطريقة التى هى التحريق بالنار.

وقد يحصل أنه فى الحرب تُقذَف القنابل والصواريخ التى تشتعل نارًا على العدو.

وهنا يُقال: إذا لم يجد المجاهدون وسيلة إلا قذف مثل ذلك فإن اشتعالها نارًا بالعدو قد يحصل وقد لا يحصل، وليس هو مثل تأجيج النار ثم بعد ذلك قذفهم فيها... فلا يُعتبر تعذيبًا أو قتلًا بالنار.

(١٦١٨) وعن ابن مسعودٍ رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: كُنَّا مع رسُولِ الله ﷺ فى سَفَرٍ، فانْطَلَقَ لحاجَتِهِ، فرأيْنَا حُمَّرَةً معَها فَرخَانِ، فأخَذْنَا فرخَيْها، فجاءتْ الحُمَّرَةُ تَعرِشُ، فجاء النبى ﷺ فقال: «مَنْ فَجَعَ هذه بِولَدِها؟ رُدُّوا وَلَدَها إليْها»، ورأى قَريَةَ نَمْلٍ قَد حرَّقْنَاها، فقال: «مَن حرَّقَ هذه؟» قُلنا: نَحنُ. قال: «إنَّهُ لا يَنبُغى أنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلا ربُّ النَّارِ»[1].

۞ وفى هذا الحديث يخبر ابن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنهُ أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ فى سفرٍ .. فلما نزلوا فى مكانٍ للراحة ذهب النبى ﷺ لحاجته.. فرأى الصحابه حُمَّرة.. وهى طائر صغير من الطيور حجمه ما بين العصفورة والحمامة.. وكان مع تلك الحُمَّرة فرخان – ولداها– فأخذ الصحابة فرخيها.. ولعلهم أخذوا الفرخين للطعام أو للتسلية لأن منظرهما جميل.. فجاءت الحُمَّرة وأخذت تُرفرف بأجنحتها وترتفع وتنزل وتصيح لفقد ولديها.. فالله عَزَّوَجَلَّ جعل الرحمة فى قلوب الطيور والحيوانات تجاه أولادها حتى إن الدابة لترفع حافرها عن وليدها خشية أن تُؤذيه.. فلما رآها النبى ﷺ تفعل ذلك علم أنها مفجوعة لأنهم

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٥)، وصحيح الجامع (٢٤٢٥).
قوله: «قرية نَمْلٍ» معناه: موْضِعُ النَّمْلِ مع النَّملِ.

أخذوا منها شيئًا فقال النبى ﷺ: «**مَنْ فَجَعَ هذه بِوَلَدِها؟ رُدُّوا وَلَدَها إليْها**» فقام الصحابة: ورَدُّوا إليها ولدها ففرحت وهدأت.

۞ وبعد فترة يسيرة رأى النبى ﷺ قرية نملٍ قد حرقها الصحابة فقال النبى ﷺ: «**مَن حرَّقَ هذه؟**» فقال الصحابة: نَحنُ فقال النبى ﷺ: «**إنه لا ينبغى أن يُعذب بالنار إلا ربُّ النار**»، أى: أنه لا يجوز فى هذه الشريعة التعذيب بالنار... وإنما قال بعض أهل العلم: إنه يمكن أن يُحرق مَن قتل بالتحريق...أى أنه يُعامَل بمثل ما عامل به غيره، وأنه يُقتص منه بنفس الطريقة التى حصلت منه.

قالوا: فيكون ذلك مُستثنى؛ لأنه عُومل بالشىء الذى عامل به، والقصاص يكون بالمماثلة.

۞ ومعروف قصة اليهودى الذى قتل جارية بين حجرين، فأمر برضِّ رأسه بين حجرين؛ حتى يُقتل كما قَتل... وكذلك قصة العُرنيين الذين قتلوا الراعى، ومثَّلوا به، فأمر بقتلهم والتمثيل بهم كما فعلوا بذلك بالراعى... فالقصاص يكون من جنس العمل، إلا أن يكون فى أمرٍ مُحرَّم لا يسوغ تعاطيه، فإنه يُقتَل بغير الطريقة المحرمة.

۞ وعلى هذا فإذا رأيت نملًا وأنت فى سفرٍ فلماذا تؤذيه وأنت لن تعيش فى هذا المكان.. اتركه وابحث عن مكانٍ آخر... أما إذا آذاك فى بيتك فادفعه بأيسر طريقة يمكن أن تدفعه بها.. كأن تضع شيئًا من الجاز بالقرب منه فإنه سوف ينفر ويذهب من البيت.. وإن لم تستطع اتقاء أذاه فاستعمل مُبيدًا حشريًّا لكن لا تحرقه لأن هذا لا يجوز.. ولقد نهى النبى ﷺ عن قتل النمل.. لكن إذا آذاك ولم يندفع إلا بالقتل فلا بأس بقتله وإن لم يؤذك فلا تقتله.



(٢٨٤) باب تحريم مطل الغنى بحقٍّ طَلَبهُ صاحبه

۞ قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

۞ ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا باب تحريم مطل الغنى.. يعنى تحريم مطل الغنى فى الحق الذى يجب عليه لغيره.. والمطل هو التأخير وعدم التسديد.

وعدم توفية صاحب الحق حقه... وهذا ظلمٌ وعدوان.

ومن ذلك ما يفعله أصحاب الشركات والمصانع الأغنياء من تأخير رواتب العمال وهم يستطيعون دفعها ولكنهم يؤجلون وكأن الأموال سوف تزيد فى خزائنهم.. ومن ذلك ما يفعله الكُفلاء لمكفوليهم ... فإن بعضهم يُماطلون ويؤذون هؤلاء العمال الفقراء الذين تركوا أوطانهم وديارهم وأولادهم من أجل لقمة العيش.. فيبقى العامل ستة أشهر دون أن يأخذ أجره.

والكفيل يماطل هذا العامل الفقير والعياذ بالله ويهدده بأنه إن تكلم فسوف يرده إلى بلده .... ألا يعلم هؤلاء أن الله فوقهم وأن الله أعلى منهم وأنه ربما يسلط عليهم قبل أن يموتوا مَن يسومهم سوء العذاب... نسأل الله العافية فهؤلاء مساكين، وقد قال النبى ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بى ثم غدر**» يعنى عاهد بالله ثم غدر والعياذ بالله «**ورجل باع حُرًّا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يُعطه أجره**»[1] فهؤلاء خُصماء الله يوم القيامة.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بأداء الأمانة فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٧٠) كتاب الإجارة.

(١٦١٩) وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَع»(١).

۞ فجمع النبى ﷺ فى هذا الحديث بين حُسن القضاء وحُسن الاقتضاء.

أما حُسن القضاء فهو فى قوله ﷺ: «مطل الغنى ظُلم» أى: تأخير الحق عن صاحبه مع قدرته على التسديد ظلمٌ لصاحب الدَّين... لأنه أخَّر عنه حقه بغير حق، وهذا يدل على تحريم ذلك، وأنه لا يجوز للإنسان أن يفعل هذا؛ لأنه ظلم، والظلم مَنهيٌّ عنه... قال النبى ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

وعلى هذا: فالمدينون منهم مَن هو غنيٌّ واجد، ومنهم مَن هو فقيرٌ غير واجد... فعدم تسديد المَدين مع قدرته هو ظلم منه للدائن... والفقير المعسر الذى لا يستطيع الوفاء ليس بظالم؛ لأنه ليس عنده شىء يقضى دَينه به... والله تعالى يقول فى حقه: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة:٢٨٠] يعنى: يُنظَر إلى أن يُيسر الله عَزَّ وَجَلَّ له.

وينبغى على القاضى إذا علم أن هذا المَدين رجلٌ فقير أن يُنظره حتى يستطيع أن يدفع.. لا أن يحكم عليه بالسجن وهو فقيرٌ ومعذور.. وليس معنى ذلك أننا نُعطى رُخصة لكل فقير أن يستدين لأن القاضى سيعذره ولن يُحبَس.. كلا.. بل أقول: إذا تأكد القاضى أنه معذور فعليه أن يُنظره... وكذلك إذا كان المَدين غنيًّا لكنه ليس مُتمكنًا من أداء الدَّين لغيبة المال أو لأنه غير حاضر عنده الآن جاز له التأخير والإنظار إلى أن يتمكن من أداء دَينه.

أما إن كان المال حاضرًا وهو لا يريد أن يَسُد الدَّين فلا بُدَّ من عقابه.

وقد جاء فى بعض الروايات: «لى الواجد يحل عِرضه وعقوبته» بمعنى: أنه

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٨٧) كتاب الحوالات، ومسلم (١٥٦٤) كتاب المساقاة.
معنى «أُتبع»: أُحِيل.

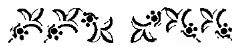
يَحِل أن يُعاقَب فيُحبس حتى يقوم بالتسديد؛ لأنه قادر على القضاء، ويحل عِرضه بأن يقول: منعنى حقى، ويتكلم فيه، ويَذُمه؛ لأنه منعه حقه... وهذا إذا كان غنيًّا مماطلًا.

۞ **قوله ﷺ: «وإذا أُحيل أحدكم على ملىءٍ فليَتبع»** أى: إذا أحال المَدينُ الدائنَ على شخصٍ آخر ملىءٍ غير مُعسر، فليقبل الإحالة عليه، ويذهب إلى الشخص الذى أُحيل عليه، ويستوفى دَينه منه...وهذا إذا كان مليئًا وعنده مال.

يعنى إذا كان أحمد له عند أسامة عشرة آلاف جنيه.. وكان أسامة له عند إبراهيم عشرة آلاف جنيه..فإذا جاء أحمد يطلب المال من أسامة فأحاله أسامة إلى إبراهيم وقال له: لى عند إبراهيم عشرة آلاف فخذها منه وقد أخبرته بذلك.. فيُستحب لأحمد أن يقبل وأن يذهب إلى إبراهيم... إلا إذا كان أحمد يعلم أن إبراهيم ليس عنده مال أو أنه يُماطل فله أن يرفض ذلك ويطلب حقه من أسامة.

والأمر فى قوله: «**فليتبع**» للاستحباب.

وإذا مَطَل الغنى فلا يحل للدائن أن يأخذ شيئًا من متاعه، بل يرفع أمره إلى السلطان،.. والله أعلم



(٢٨٥) باب كراهة عودة الإنسان فى هبة لم يُسلِّمها إلى الموهوب له وفى هبة وهبها لولده وسلَّمها أو لم يُسلمها وكراهة شرائه شيئًا تصدق به من الذى تصدق عليه أو أخرجه عن زكاة أو كفارة ونحوها، ولا بأس بشرائه من شخصٍ آخر قد انتقل إليه

(١٦٢٠) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسُولَ الله ﷺ قال: «الذى يَعُودُ فى هِبَتِهِ كالكَلْبِ يرجعُ فى قَيْئِهِ»(١).

وفى رواية: «مَثَلُ الذى يَرجِعُ فى صَدقَتِهِ، كَمَثَلِ الكَلْبِ يَقىءُ ثُمَّ يعودُ فى قَيْئِهِ فيأكُلُهُ».

وفى روايةٍ: «العائِدُ فى هِبَتِهِ كالعائدِ فى قَيْئِهِ».

❁ يعنى: الذى يتصدق ويأخذ الصدقة مرة أخرى، ولو عن طريق الشراء، كالكلب يقىء ما فى بطنه، ثم يأكل هذا القىء مرة أخرى.

جمهور أهل العلم على أن القىء نجس، خاصة قىء الكلب، ولذلك مثَّل به النبى (عليه الصلاة والسلام)، ولكن لم يَقُل: كالرجل مثلًا يعود فى قيئه، وإنما قال: (كالكلب)؛ لأن الكلب نجسٌ لُعابه... وهذا مذهب جميع الفقهاء، فإذا كان اللُّعاب نجسًا، فكذلك قيئه يكون نجسًا.

فإذا وهبت أحدًا شيئًا مجانًا على سبيل الهبة فإنه لا يَحِلُّ لك أن تأخذه مرة أخرى سواء كان قليلًا أو كثيرًا وسواء كان الذى وهبته من أقاربك أو من الأباعد.. فلو وهبت أخاك ساعة أو سيارة أو شقة فإنه لا يحل لك أن ترجع فى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٢١، ٢٦٢٢) كتاب الهبة - ومسلم (١٦٢٢) كتاب الهبات.

ذلك.. لأن النبى ﷺ شبَّه الذى يعود فى هِبته كالكلب يقىء ثم يعود فيأكله... وكذلك لو وهب الابن لأبيه شيئًا فإنه لا يرجع فى ذلك.. كأن تكون غنيًا ووالدك فقيرًا فأعطيته شقة فلا يجوز لك أن تأخذها منه مرة أخرى.. لكن الوالد لو وهب لابنه شقة أو أى شىءٍ فإنه يجوز له أن يعود فى هبته لقول النبى ﷺ: **«لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُعْطِيَ عَطِيَّةً أَوْ يَهَبَ هِبَةً فَيَرجِعَ فِيهَا إِلَّا الْوَالِدُ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ»**(١) لأن الوالد له الحق أن يأخذ من مال ولده الذى لم يهبه له ما لم يضره.

(١٦٢١) وعن عُمَر بن الخطَّابِ رضي الله عنه قال: حَمَلْتُ على فَرَسٍ فى سبيلِ الله فأضَاعَهُ الذى كان عِنْدَهُ، فأَرَدتُ أن أَشْتَرِيَهُ، وظَنَنْتُ أَنَّهُ يَبِيعَهُ بِرُخْصٍ، فسألتُ النبىَّ ﷺ فقال: «لا تَشْتَرِهِ ولا تَعُد فى صَدَقَتِكَ وإن أعطاكَهُ بِدِرهَمٍ، فإنَّ العائدَ فى صَدَقَتِهِ كالعَائِدِ فى قَيْئِهِ»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه حمل على فرسٍ فى سبيل الله.. يعنى: أعطى رجلًا فرسًا على سبيل التمليك ليجاهد عليه فى سبيل الله ويكون ذلك فى ميزان حسنات عمر رضي الله عنه.

«فأضَاعَهُ الذى كان عِنْدَهُ» أى: أن مالكه ضيَّع هذا الفرس الذى حملته عليه، بمعنى أنه لم يعتنِ به ولم يعلفه ولم يُكرمه، بل قصَّر فى خدمة الفرس من حيث الإطعام... لأن هذا الرجل كان فقيرًا قليل المال، حتى أُصيب الفرس بضعفٍ وهزالٍ... ولكنه على أية حال بمجرد أن انتقل من ملك عمر رضي الله عنه فقد تملَّكه هذا الرجل المسلم.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٥٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٩٠) كتاب الزكاة، ومسلم (١٦٢٠) كتاب الهبات.

قوله: «حَمَلْتُ على فرسٍ فى سبيلِ الله» معناه: تَصَدَّقْتُ به على بعض المجاهِدِينَ.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأَرَدتُ أن أَشْتَرِيَهُ، وظَنَنْتُ أَنَّهُ يَبيعَهُ بِرُخْصٍ.

يعنى: غلب على ظنى لقلة مال الرجل أنه فى يومٍ ما لا بد أن يبيعه؛ لأنه ليس له مال، ولا يستطيع أن يقوم على خدمة الفرس.

فوقع فى نفس عمر شراء هذا الفرس مرة أخرى؛ لأنه فرسٌ عتيقٌ جيدٌ سريع.

ثم قال: «فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك». لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ما تردد فى أنفسهم شىء يتعلق بالحلال والحرام إلا ويرجعون إلى المرجعية العُظمى، وهو النبى ﷺ فى معرفة الحلال والحرام فى جميع شئونهم.

ولما حاك فى نفس عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يشترى هذا الفرس لو أراد صاحبه أن يبيعه، ظن أن هذا البيع ربما يكون فاسدًا وباطلًا، فذهب إلى النبى ﷺ ليسأله.. فقال له النبى ﷺ: «**لا تَشْتَرِهِ ولا تَعُد فى صَدَقَتِكَ وإن أعطاكَهُ بِدِرهَمٍ، فإنَّ العائدَ فى صَدَقَتِهِ كالعَائِدِ فى قَيْئِهِ**» فالنبى ﷺ سمَّى شراء الصدقة رجوعًا فيها، حتى ولو كان بعوض.... فما بالك بمن يتصدق ويرجع فى صدقته، أو يتصدق ويَمُنُّ بهذه الصدقة... لا شك أن المَنَّ بالصدقة من الكبائر... ولذلك قال النبى ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليم: المنَّان، والمُسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**».

ولهذا قال ﷺ: «**العائد فى صدقته كالكلب يقىء ثم يعود فى قَيئه**» فتركه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... هذا إذا قبض الموهوب له الهبة، أما قبل قبضها فهذا لا يحرم عليه أن يعود، لكن الأفضل أن يفى بوعده... كما لو قال شخصٌ لآخر: سوف أُعطيك ساعةً مثلًا. ولكنه لم يسلمها له، فله أن يرجع لكن ينبغى أن يَفى بوعده، لأن الذى لا يفى بما وعد فيه خصلة من خصال النفاق، ولا يجوز للإنسان أن يتحلى بخصال المنافقين.

(٢٨٦) باب تأكيد تحريم مال اليتيم

۞ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة:٢٢٠].

۞اهتم القرآن الكريم والسُّنة النبوية برعاية اليتيم وكفالته والعناية بشأنه اهتمامًا لا يخطر ببال الإنسان، ونال اليتيم من العناية به ما لم ينله أى قريب محتاج من ذوى الرحم المَحرم... وكأنَّ الإسلام جَنَّد المسلمين جميعًا للقيام بحق اليتامى، والتقرب إلى الله بالعطف عليهم، ونَيل أعظم الدرجات بسبب البذل لهم والقيام بما يحتاجون إليه. من رحمة، وحُسن تربية، وإقبالٍ عليهم، والتبسُّم فى وجوههم ومسح رؤوسهم، وتفقُّد شؤونهم فى كل حين، خصوصًا فى المناسبات السارة وأيام الأعياد، وذلك ليشعر اليتيم أنه إن كان فَقَدَ أباه فقد وجد فى الرُّحَماء آباءً يعطفون عليه ويتولون أمره، فلا تنكسر نفسه ولا يشعر بذلة أو حزن وهو يرى كل ولد يسير بجوار أبيه، ويُقبل بفرحٍ عليه، ويرتمى بين أحضانه.. لأنه وجد له من المسلمين أكثر من واحد يضنع معه ذلك.

وكذلك تجد الفتاة أكثر من امرأة تحاول تعويضها عن أمها . وهذا هو نفس المنهج الإسلامى فى إدخال السرور على الجميع، وفى نشر روح السعادة بين أفراد المجتمع، وفى تحقيق أكبر قدر من العناية والرعاية والعطف للضعفاء والمحرومين من الناحيتين: المادية والمعنوية... ولو تمعنت الآيات والأحاديث الواردة فى شأن إكرام اليتيم والعطف عليه لوجدتها تضع اليتيم

الأجنبى بعد الأقرباء فى الأهمية، فما بالك باليتيم القريب[1].

❁ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢] يعنى لا تتعاملوا فى أموال اليتامى إلا بالتى هى أحسن ... فإذا كان أمامك مشروعان تريد أن تشغل مال اليتيم فى واحد منهما فانظر أيهما أقرب إلى المصلحة والربح والسلامة فافعل ولا يحل لك أن تفعل ما هو أسوأ لحظٍّ نفسك أو لحظٍّ قريب أو أشبه ذلك بل انظر للذى هو أحسن فإن أشكل عليك هل فيه مصلحة لليتيم أم لا فلا تتصرف فى المال بل أمسك الدراهم لأن الله قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فإذا أشكل عليك فلا تفعل... ولا يحل لك أن تُقرض أحدًا من مال اليتامى؛ لأنه قد يعجز عن الوفاء ولا مصلحة لليتيم فى قرضه وإذا كان لا يجوز أن تُقرضه غيرك فمن باب أَولَى أن لا تستقرضه أنت لنفسك.

❁ **أخى الحبيب:**

إياك أن تأكل مال اليتيم ظلمًا ... فهو وبالٌ ونكالٌ ونار، ولذلك صوَّر القرآن الكريم أكل مال اليتيم بصورة مفزعة مؤلمة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠].

ولقد هزَّت هذه الآية قلوب أصحاب رسول الله ﷺ هزًّا عنيفًا وملأتها بالخوف والرهبة من حين نزولها؛ لأنهم شعروا بأنهم قد وقعوا فى حرجٍ شديد.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية، انطلق كل مَن كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعام اليتيم، وشرابه من شرابه، فجعل يَفضُل الشىء – أى: يتبقى – من أكل اليتيم، فيُحبس له، ولا يأكله أحد حتى يأكله اليتيم، أو يَفسد.

فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٢٠].

(١) السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب (ص ٢٤٩).

۞ فالاعتداء على مال اليتيم كبيرة من أعظم الكبائر، ولقد بيَّن العلماء صور الاعتداء على أموال اليتيم ... فهى على صورٍ منها:

(١) الاستيلاء على كل أو بعض أموال اليتيم وحرمانه منها.

(٢) الخلط بين أموال اليتيم والمتعدى عليه.

(٣) إحداث مُبادلة بين المالين... فيعطى اليتيم الردىء ... ويأخذ الجيد الثمين... ويعطيه المريض ويأخذ الصحيح السليم.

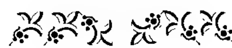
أو كما قال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ: «لا تُعطِ مَهزولًا، وتأخذ سمينًا».

وأساس ذلك كله هو قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء:٢].

قال القرطبى: لا تتبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالشاة الهزيلة، ولا الدرهم الطيب بالدرهم المزيف ... فقد كانوا فى الجاهلية يفعلون ذلك ويقولون: اسمٌ باسمٍ، ورأسٌ برأسٍ، فنهاهم الله عن ذلك.

(٤) تجاوز الحد المسموح به فى الأكل من مال اليتيم، والتى أشار القرآن إليها بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾[النساء: ٦].

۞ ومن أجل ذلك جعل النبى ﷺ أكل أموال اليتامى من السبع الموبقات - أى المُهلكات-.



(١٦٢٢) وعن أَبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبىِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ!» قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحَقِّ، وأَكلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحفِ، وقَذْفُ المُحصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»(١).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٦٦) كتاب الوصايا - ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

«المُوبِقَاتِ»: المُهلِكات.

=

۞ قوله ﷺ: « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » أى: اتركوا الموبقات جانبًا، ولا تلتفتوا إليها، لما فيها من الضَّرر الكبير لكم... والأمر هنا للوجوب فلا يَحِلُّ لمسلم أن يرتكب واحدةً من هذه الكبائر من الذُّنوب، وسمَّاها موبقات أى مهلكات؛ لأنَّ مرتكبها يَهلك بها فى النار... وبيَّنها ﷺ لهم لما سألوه قائلًا: «الشِّركُ باللهِ»، وهو أن يُعبَد مع الله غيره أيًّا كان هذا المعبود، مَلكًا كان، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو كوكبًا، أو حجرًا، وكيفما كانت هذه العبادة دعاءً، أو ذبحًا له، أو نذرًا، أو حلفًا، أو خوفًا منه.. «والسِّحرُ»، أى سِحرُ إنسانٍ لإفساد عقله، أو صَرفِ قلبه عَمَّن يُحبُّه، أو إدخالِ ضَرَرٍ على جسمه، «وَقَتْلُ النَّفسِ»، أى نفس كانت مؤمنةً، أو كافرةً، صغيرة أو كبيرة، ما عدا نفس الكافر المحارب فإنَّها مباحة وليست محرمة. وكذلك يجوز قتل النفس قِصاصًا ويجوز قتل المرتد والزانى المُحصَن بعد أن يشهد عليه أربعة من الرجال أو يعترف هو على نفسه كما قال ﷺ: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إِلَّا بِإِحدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِى، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»[١].. «وأكلُ الرِّبَا»، وهو أن يُقرض دراهم، أو دنانير بزيادة قليلة كانت، أو كبيرة، أو يَبيعُه شيئين من جنسٍ واحدٍ مع تَفاضُل بينهما فى الكمية أو العدد... كأن يبيعه قنطارًا من القمح بقنطار وربع مثلًا، أو يبيعه دينار ذهب بدينار وزيادة قلَّت أو كثرت، «وأكْلُ مَالِ اليَتِيمِ»، مُطلقًا قليلًا، أو كثيرًا ومن أىِّ نوع من أنواع ماله. «والتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحفِ»، أى الهروب من صفوف القتال. «وقَذْفُ المُحصَنَاتِ » أى العفيفات اللائى لم يعرفن الفاحشة، ولم تَخْطُر ببالهن، لإيمانهن وصلاحهن[٢].

= التولى يوم الزحف: الهروب من ميدان القتال عند لقاء العدو - القذف: رمى النساء المحصنات المؤمنات بالزنا - المحصنات: العفائف - الغافلات: الغافلات عن الفواحش وما قُذفن به ... والإحصان فى الشرع على خمسة أقسام: العفة، والإسلام، والنكاح، والتزويج، والحرية.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧٨) كتاب الديات - ومسلم (١٦٧٦) كتاب القسامة.

(٢) كتاب المسجد / الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص ١١٣) بتصرف.

(٢٨٧) باب تغليظ تحريم الربا

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ﴾ إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٨].

لابد أن نعلم أن الربا من أكبر الكبائر ومن أعظم الذنوب التى تُغضب الله (جلَّ وعلا) حتى أنه عز وجل أمر المؤمنين بترك الربا ثم قال لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾، ولم يقُل ذلك أبدًا فى أى ذنبٍ ولا فى أى كبيرة من كبائر الذنوب...ومن أجل ذلك ذكره النبى ﷺ من السبع الموبقات - أى المُهلكات-.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحفِ، وَقَذْفُ المُحصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»(١).

وقد أخبر النبى ﷺ أن انتشار الربا علامة من علامات الساعة الصغرى.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ يَظْهَرُ الرِّبَا»(٢).

وفى «الصحيح» عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يُبَالِى الْمَرءُ بِمَا أَخَذَ الْمَال أمن حَلاَلٍ، أَمْ مِن حَرَامٍ»(٣).

ومن فقه الإمام البخارى رحمه الله أنه أورد حديث أبى هريرة السابق فى باب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٦٦) كتاب الوصايا، ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه الطبرانى فى الأوسط، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٤١٥/ ٢).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٠٨٣) كتاب البيوع.

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠]؛ ليُبين أن أكل الأضعاف المضاعفة من الربا يكون بالتوسُّع فيه عند عدم مبالاة الناس بطرق جمع المال، وعدم التمييز بين الحلال والحرام.

۞ ولقد حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن الكريم من الرِّبا تحذيرًا شديدًا فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

فمن يأكل الربا فهو محاربٌ لله ورسوله ﷺ... ومَن يقدر على حرب الله ورسوله ﷺ؟!!!

۞ لقد انتشر الربا انتشار النار في الهشيم وسُمِّي بغير اسمه فسُمِّي بالقروض والفوائد والأرباح وشهادات الاستثمار وغيرها من المُسميات التي لا تصرفه عن حقيقته في أنه هو عين الربا .. وأن مَن يفعل ذلك فهو محاربٌ لله ورسوله ﷺ.

۞ وإن كان هناك من أهل العلم مَن أفتى بجواز تلك المعاملات الرِّبوية فلا يعني ذلك أن نقع في تلك الكبيرة؛ لأن تلك الفتوى صادفت هوًى في أنفسنا.

۞ ومع كل هذا فها هو النداء يأتينا من عند الله عَزَّوَجَلَّ من أجل أن نتوب من تلك المعاملات الربوية.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

وإلا فإن الذي يتعامل بالربا - إن لم يَتُب- فسوف يجني الحسرات في الدنيا والآخرة.

❁ فأما حسرته فى الدنيا فيقول النبى ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ وشَاهِدَيهِ وَكَاتِبه وَهُمْ فِيهِ سَوَاء**»(١)، وقال ﷺ: «**دِرهَم رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعلَمُ، أَشَدُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً**»(٢)، وقال ﷺ: «**الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَابًا، أدناها مِثْلُ إِتْيَانِ الرَّجُلِ أُمَّهُ، وَإِنَّ أَربَى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرضِ أَخِيهِ**»(٣).

بل إنه إذَا ظهر الربا فى قوم فقد أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله عَزَّوَجَلَّ:

قال ﷺ: «**إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَريَةٍ، فَقَد أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللهِ**»(٤).

وأما حسرة آكل الربا فى القبر فيقول ﷺ فى جزءٍ من حديثٍ طويل: «**فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَينَا عَلَى نَهرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - أَحمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهرِ رَجُلٌ قَد جَمَعَ عِندَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِى قَد جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا**».

فلما سأل النبى وقال: «**مَا هَذَانِ؟**». قالا: «**وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِى أَتَيت عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا**»(٥) فهذا عذابه فى قبره.

وأما عن عذابه وحسرته يوم القيامة فقد قال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

أى: أن الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبُّط الشيطان له وذلك أنه يقوم قيامًا مُنكرًا.

يقول ابن عباس: آكل الربا يُبعث يوم القيامة مجنونًا يخنق(٦).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٩٨) كتاب البيوع.
(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٧٥).
(٣) صحيح: رواه الطبرانى فى الأوسط عن البراء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٣٧).
(٤) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٩)
(٥) صحيح: رواه البخارى (٧٠٤٧) كتاب التعبير.
(٦) وأنذرهم يوم الحسرة / الشيخ محمود المصرى (ص ١٥١).

(١٦٢٣) وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لعنَ رسُولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا ومُوكِلَهُ»[(١)].

زاد الترمذى وغيره: «وشَاهديه، وكاتِبَهُ».

۞ وفى رواية قال ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَكَاتِبَهُ .. هُمْ فِيهِ سَوَاء**».

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ لعن كل هؤلاء .. واللعن هو الطرد من رحمة الله .. فدلَّ ذلك على أن الربا من كبائر الذنوب.

آكل الربا هو الذى يأخذ الربا، وليس المقصود بذكر الأكل قصر الانتفاع على الأكل، بل الحكم واحد ولو استعمله فى غير الأكل... كأن يشترى به لباسًا أو سيارة أو بيتًا، ولكنه ذكر الأكل لأنه أغلب وجوه الانتفاع... وقد قال الله فى القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، فهو من هذا القبيل، ذكر الأكل لأنه أهم وجوه الانتفاع.

وموكله هو الذى دفعه؛ لأن المعاملة فيها آخذٌ ومُعطى... فآكله هو الذى أخذه، وموكله هو الذى دفعه، وكاتبه هو الذى يكتب بين الآكل والموكل، والشهود هم الذين يشهدون على عقد الربا... فهؤلاء ملعونون أيضًا؛ لأن مساعدتهم والكتابة لهم والشهادة على أمرٍ مُحرم هو من التعاون على الإثم والعدوان، وكلهم ملعونون على لسان رسول الله ﷺ.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٩٧) كتاب البيوع.

(٢٨٨) باب تحريم الرياء

۞ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وقال تَعَالَى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقال تَعَالَى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

۞ **الرياء:** هو أن يُظهر الإنسان العمل الصالح للآخرين أو يُحسنه عندهم، أو يَظهر عندهم بمظهر الخاشعين المتقين ليمدحوه ويَعظُم فى أنفسهم.

فمن أراد وجه الله والرياء معًا فقد أشرك مع الله غيره فى هذه العبادة.

أما لو عمل العبادة وليس له مقصد فى فعلها أصلًا سوى مدح الناس فهذا صاحبه على خطرٍ عظيم.

۞ **والرياء له صور عديدة، منها:**

(١) الرياء بالعمل، كمُراءاة المصلى بطول الركوع والسجود.

(٢) المُراءاة بالقول، كسرد الأدلة إظهارًا لغزارة العلم، ليُقال: عالم.

(٣) المُراءاة بالهيئة والزى، كإبقاء أثر السجود على الجبهة رياءً.

ولهذا ينبغى للمسلم البعد عن الرياء والحذر من الوقوع فيه.

۞ **قال الله تعالى:** ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

قال الشيخ ابن عثيمين فى شرح رياض الصالحين للإمام النووى (رحمهما الله):

المراد بالرياء هنا: أن يتعبد الإنسان لربه عَزَّوَجَلَّ ولكن يُحسِّن العبادة من أجل أن يراه الناس فيقولون: ما أعبده وما أحسن عبادته وما أشبه ذلك .. فهو يريد من الناس أن يمدحوه فى عبادته .. لا يريد أن يتقرب إليهم بالعبادة؛ لأنه لو فعل هذا لكان شركًا أكبر لكنه يريد أن يمدحوه فى عبادة الله، فيقولون: فلانٌ عابد فلان كثير الصوم فلان كثير الصدقة وما أشبه ذلك، فهو لا يُخلص لله فى عمله لكن يريد أن يمدحه الناس على ذلك .. فهو يرائى الناس والرياء يَسيرُه من

الشرك الأصغر، وكثيره من الشرك الأكبر .. ثم استدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على تحريمه بآياتٍ منها قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ يعنى: ما أُمر الناس إلا بهذا: أن يعبدوا الله مخلصين له الدين يُصلون إخلاصًا لله ويتصدقون إخلاصًا لله ويصومون إخلاصًا لله ويَحُجُّون إخلاصًا لله ويساعدون الناس إخلاصًا لله ... إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة ... نكون مخلصين لله فى ذلك.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتون بها مستقيمة على الوجه الأكمل ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعطونها مستحقها﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾أى: دين الملة القيمة...والمخلص لله عَزَّوَجَلَّ لا يكون فى قلبه رياء لأنه إنما يريد بعبادته وجه الله وثواب الله والدار الآخرة[١].

۞ وقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧]، فقد تهدد الله هذا الصنف المرائى بصلاته بالويل وهو الهلاك.

۞ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فالمتصدق الذى يَمُنُّ بصدقته على المُتصدَّق عليه أو يؤذيه .. عمله باطل، مثله مثل الذى ينفق رياءً.

۞ وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] فالذى يريد بعمله ثواب الدنيا يُعطَاه إذا شاء الله تعالى[٢]. ومصيره فى الآخرة العذاب الشديد؛ لأنه جرَّد قصده إلى الدنيا.

فالآية - كما يقول القرطبى - عامة فى كل من ينوى بعمله غير الله -كان معه أصل إيمانه أو لم يكن- وهذا قول مجاهد، وميمون بن مهران، وإليه ذهب معاوية[٣].

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٤/ ١٦٧) بتصرف.

(٢) هذه الآية مُطلَقة، وآية الإسراء مُقيدة لها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

(٣) تفسير القرطبى (٩/ ١٥) - نقلًا عن (الإخلاص) د. عمر الأشقر.

(١٦٢٤) وعن أَبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «قَالَ الله تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِركَهُ»(١).

۞ ومعناه: أنا غنىٌّ عن المُشاركة وغيرها فمن عمل شيئًا لى ولغيرى لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير... والمراد أنْ عمل المرائى باطل لا ثواب فيه ويأثم به.

إذا عمل الإنسان عملًا لله ولغير الله تركه الله ... لو صلى الإنسان لله وللناس لم يقبل الله صلاته .. ولا يُقال إنه يقبل نصفها ويترك نصفها أو يقبلها قبولًا نِصفيًّا بل لا يقبلها أبدًا ... لو تصدق الإنسان بصدقة يرائى بها الناس فإنها لا تُقبَل منه لأن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك ... إذا عمل الإنسان عملًا أشرك فيه مع الله غيره فإن الله لا يقبله منه... وفى هذا دليل على أن الرياء إذا شارك العبادة فإنها لا تُقبل.

(١٦٢٥) وعن أَبى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أَولَ النَّاسِ يُقْضَى يومَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِىَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعمَتَهُ، فَعرَفَها، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِىءٌ! فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فى النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرأَ القُرآنَ، فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعرَفَها. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ! وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فى النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأعطاهُ مِنْ أصنَافِ المَالِ،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق.

فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ! فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِىَ فى النَّارِ»(١).

۞ فهؤلاء الثلاثة لو أخلصوا النية لله (جلَّ وعلا) ولم يقعوا فى الرياء وحُب الثناء من الناس عليهم لكانوا فى أعلى درجات الجنة .. ولكن لما تبدلت نياتهم وفسدت مقاصدهم وأرادوا بأعمالهم الصالحة الثناء من الناس ولم يُريدوا وجه الله تعالى كانوا أول مَن تُسعَّر بهم النار يوم القيامة.

۞ ففى هذا الحديث ذكر النبى ﷺ ثلاثة أصناف:

المتعلم والمقاتل والمتصدق.. فأما المتعلم فهو الذى تعلَّم العلم وتعلم القرآن وأخذ يُعلم الناس العلم والقرآن... فلما أُتى به يوم القيامة .. فعرَّفه الله نعمته فعرفها وأقرَّ واعترف، فسأله ماذا صنعت؟ يعنى فى شكر هذه النعمة، فقال: تعلمت العلم وقرأت القرآن فيك، فقال الله له: كذبت، ولكن تعلمت ليُقال: عالم، وقرأت القرآن ليُقال: قارئ... ليس لله، بل لأجل الرياء، ثم أمر به فسُحب على وجهه فى النار... وهذا دليل على أنه يجب على طالب العلم فى طلب العلم أن يخلص نيته لله عَزَّ وَجَلَّ وألا يبالى أقال الناس أنه عالم أو شيخ أو أستاذ أو مجتهد أو ما أشبه ذلك. لا يهمه هذا الأمر... لا يهمه إلا رضا الله عَزَّ وَجَلَّ وحفظ الشريعة وتعليمها ورفع الجهل عن نفسه ورفع الجهل عن عباد الله حتى يُكتب من الشهداء الذين مرتبتهم بعد مرتبة الصدِّيقين. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾[النساء: ٦٩]، وأما مَن تعلم لغير ذلك، ليُقال إنه عالم وإنه مجتهد وإنه علَّامة وما أشبه ذلك من الألقاب فهذا عمله حابط والعياذ بالله، وهو أول مَن يُقضى عليه

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمارة.

ويُسحب على وجهه فى النار ويُكذَّب يوم القيامة ويوبَّخ.

أما الثانى فهو رجلٌ مُقاتل، قاتل فى سبيل الله وقُتل، فلما كان يوم القيامة أُتى به إلى الرب عَزَّوَجَلَّ فعرَّفه نِعَمَه فعرفها ... يعنى: أنه سبحانه وتعالى أمدَّه وأعدَّه ورزقه وقوَّاه حتى وصل إلى هذه المرتبة إلى أنْ قاتل، ثم سُئل ماذا صنعت فيها؟ قال: يا رب قاتلت فيك- أى من أجلك- حتى قُتلت.... فيُقال: كذبت.. بل قاتلت من أجل أن يُقال فلان شجاع جرىء، وقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه فى النار والعياذ بالله... فالمقاتلون فى سبيل الله لهم نوايا متعددة .... منهم مَن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله، كما قال النبى ﷺ...وأما مَن قاتل وطنية ففى سبيل الطاغوت، ومَن قاتل حَمية على قومية فهو فى سبيل الطاغوت، ومَن قاتل لينال دنيا فهو فى سبيل الطاغوت... لأن الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٧].

لكن لو قاتل الإنسان، لا من أجل القومية ولا الوطنية، ولكن من أجل حماية وطنه المسلم أن يعتدى عليه الكفار فهذا فى سبيل الله.

أما الثالث فرجل أنعم الله عليه بالمال وصار يتصدق ويعطى وينفق ... فإذا كان يوم القيامة أُتى به إلى الله وعرَّفه نعمه فعرفها ثم سأله ماذا صنعت فيها؟ فيقول: تصدقت وفعلت وفعلت... فيُقال: كذبت ولكنك فعلت ليُقال فلان جواد يعنى أنه كريم، وقد قيل... ثم أمر به فسُحب على وجهه فى النار... هذا أيضًا من الثلاثة الذين تُسَّعر بهم النار يوم القيامة. وفى هذا دليل على أنه يجب على الإنسان أن يُخلص النية لله فى جميع ما يبذله من مالٍ أو بدنٍ أو علم أو غيره، وأنه إذا فعل شيئًا مما يُبتغى به وجه الله تعالى وصرفه إلى غير ذلك، فإنه آثمٌ به. والله الموفق(١).

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ١٧٠-١٧١).

(١٦٢٦) وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما أنَّ ناسًا قالوا له: إنَّا نَدخُلُ على سَلاطِيننا فنقُولُ لهُمْ بِخلاف ما نَتكلَّمُ إذا خرَجْنَا مِن عندِهم؟ قال ابنُ عمر رضي الله عنهما: كنَّا نَعُدُّ هذا نِفاقًا على عهدِ رسُولِ الله ﷺ[1].

۞ **وفى رواية:** أنه دخل قومٌ على ابن عمر رضي الله عنهما فوقعوا فى يزيد بن معاوية رضي الله عنهما فقال: أتقولون هذا فى وجوههم؟ قالوا: بل نمدحهم ونُثنى عليهم..

وفى رواية عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: أتيت ابن عمر فقلت: إنَّا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون فى شيء نعلم أن الحق فى غيره فنصدقهم، فقال: كنَّا نَعُدُّ هذا نفاقًا، فلا أدرى كيف هو عندكم.

وذلك لأن الواجب على مَن يدخل على الأمراء والحكام والملوك أن ينصح لهم وأن يذكر لهم الأمر على حقيقته ولا يداهنهم ويزين لهم الباطل.. بل يذكر لهم الحق ولكن بكل أدبٍ وبكل رفقٍ ورحمة.. وإذا كان هناك فساد بين الرعية فعليه أن يخبر الراعى بذلك من أجل أن يُصلح الراعى ذلك الفساد بكل رفقٍ ورحمة.. أما النفاق والمداهنة فهذا لا يجوز لأنه سيكون عونًا بذلك على انتشار الفساد وعلى ضياع الرعية وعلى تضليل الراعى وعدم معرفته بما يَحدُث.. لأن الراعى لا يرى كل ما حوله.. فإن لم ينصحه أحدٌ ويبين له ما يَحدُث فلن يعرف شيئًا من ذلك.. ولن يستطيع إصلاح ما فسد إلا من خلال البطانة الصالحة التى تدله على الخير.

(١٦٢٧) وعنْ جُنْدَبِ بن عبدِ الله بنِ سُفيانَ رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «مَن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومَن يُرَائِى يُرَائِى اللهُ بِهِ»[2].

---

(١) **صحيح:** رواه البخارى (٧١٧٨) كتاب الأحكام.

(٢) **متفق عليه:** رواه البخارى (٦٤٩٩) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٩٨٧) كتاب الزهد والرقائق.

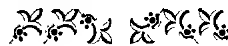
« سمَّعَ»، ومعناه: أظْهَرَ عملَهُ للنَّاس رياءً - « سمَّعَ الله به» أى: فضَحَهُ يومَ القِيامة.

=

۞ قوله ﷺ: «مَن سَمَّعَ سَمَّع الله به» أى: أن مَن قال قولًا يتعبد لله به.. وكان يقصد بذلك أن يُسمع الناس ليُثنوا عليه ويمدحوه بأنه عالمٌ مُفوَّهٌ أو كثير القراءة أو كثير الذكر.. فإنه يكون بذلك قد سمَّع الناس وأراد منهم الثناء عليه وما فعل ذلك إلا رياءً.. فيعامله الله عَزَّوَجَلَّ بنقيض قصده فيُسمِّع الناس به ويفضحه ويكشف أمره للناس ويبين عيبه ويُعرف الناس أنه من أهل الرياء.. ثم يفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦].

«ومَن يُرَائِى يُرَائِى اللهُ بِهِ» أى: مَن عمل عملًا من أجل أن يراه الناس ويُثنوا عليه ويمدحوه فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعامله بنقيض قصده فيرائى به ويجعل الناس يرون عيبه ويعرفون أنه من أهل الرياء.. فيفضحه الله فى الدنيا.. هذا غير فضيحته يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

قال ابن حجر: قال الخطّابى: المعنى مَن عمل عملًا على غير إخلاص، يريد أن يراه الناس ويسمعوه جُوزى على ذلك بأن يُشهِّر الله به ويفضحه ويُظهر ما كان يُبطنه ... وقيل: مَن قَصَد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يُرد به وجه الله فإنّ الله يجعله حديثًا عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له فى الآخرة وقيل: المراد: مَن قَصَد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليُعظِّموه وتعلو منزلته عندهم، حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاءه على عملهْ، ولا يُثاب عليه فى الآخرة ... وقيل: المعنى: من سمَّع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عيوبه وسمَّعه المكروه... وقيل غير ذلك[1].

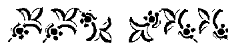


= ومعنى: «مَن راءى» أى: مَن أظْهَر للنَّاسِ العَمَل الصَّالِح لِيَعظُمَ عندهُم «راءَى الله به» أى: أظْهَر سَرِيرَتَهُ على رءُوس الخلائقِ.

(١) انظر: فتح البارى (١١/ ٣٤٤- ٣٤٥).

(١٦٢٨) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِد عَرفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]. - يعني: ريحها -.

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٩٩) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.



(١) صحيح: رواه أحمد (٨٢٥٢)، وأبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، والحاكم، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح الجامع (٦١٥٩).

(٢٨٩) باب ما يتوهم أنه رياء وليس برياء

(١٦٢٩) عن أبى ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال: قِيل لِرسُول الله** ﷺ: **أرَأيْتَ الرَّجُلَ الذى يعملُ العملَ مِن الخير، ويَحمدُه النَّاسُ عليه؟ قال: «تِلْكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمنِ»**[(١)].

۞ ففى هذا الحديث أنه سُئل النبى ﷺ عن الرجل الذى يعمل العمل من الخير فيحمده الناس عليه؟ فقال ﷺ: **«تِلْكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمنِ»**.

ولكى تتضح المسألة فأرجو أن تتخيل معى هذا المثال: لو أن رجلًا عمل أعمالًا صالحة وما أراد بذلك إلا وجه الله عَزَّ وَجَلَّ.. ولم ينشغل هل علم الناس أو لم يعلموا.. وهل سمعوه أو رأوه أم لا.. لكنه أخلص النية لله.

وإذا به يجد الناس يحمدونه ويذكرونه بكل خير ويقولون: فلان رجلٌ صالح يفعل الخير الكثير.. أخلاقه طيبة.. كثير العبادة.. كثير الصدقة.. إلى غير ذلك من كلمات الثناء عليه.. وهو لم يستشرف لذلك ولم ينشغل بكلامهم ولم يغترَّ بذلك.. قال ﷺ: **«تِلْكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمنِ»**.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعناهُ هَذِهِ الْبُشْرَى الْمُعَجَّلَةُ لَهُ بِالْخَيْرِ وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى رِضَاءِ اللهِ تَعَالَى عَنْهُ وَمَحبَّتِهِ لَهُ فَيُحَبِّبُهُ إِلَى الْخَلْقِ كَمَا سَبَقَ فِي الْحَدِيثِ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الأَرضِ ... هَذَا كُلُّهُ إِذَا حَمِدَهُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ مِنْهُ لِحَمْدِهِمْ وَإِلَّا فَالتَّعَرُّضُ مَذْمُومٌ[(٢)].

لأن الناس إذا أثنوا على الإنسان خيرًا فهم شهداء الله فى أرضه.

ولهذا لما مَرَّت جنازة من عند النبى ﷺ وأصحابه أثنوا عليها خيرًا. قال: «وجبت»، ثم مرت أخرى فأثنوا عليها شرًّا قال: «وجبت» فقالوا: يا رسول الله ما

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٩٠).

وجبت؟ قال: «**أما الأول فوجبت له الجنة، وأما الثانى فوجبت له النار أنتم شهداء الله فى الأرض**»(١)... فهذا معنى قوله: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**».

والفرق بينها وبين الرياء أن هذا الرجل الصالح عمل هذا العمل خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ ولم يخطر على باله أن يمدحه الناس أو يذموه... وأما المرائى فهو لا يعمل العمل أصلًا إلا لأجل الناس حتى يراه الناس ويمدحوه.. عافانا الله وإياكم من الرياء.



(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٣٦٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٩) كتاب الجنائز.

(٢٩٠) باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية والأمرد الحسن لغير حاجة شرعية

۞ إن المتأمل لحال كثيرٍ من شباب وفتيات المسلمين مع نعمة غض البصر ليبكى الدماء بدل الدموع،... فكثير من الشباب لا يغض بصره عن النساء، وكثير من النساء لا يغضضن أبصارهن عن الرجال.

ولعل السبب فى ذلك هو ضعف الوازع الدينى وعدم استحضار مراقبة الله للعبد.. فالله (جل وعلا) هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور.

ولا يَخفى علينا أيضًا أن الانفتاح الذى يعيشه كثير من الناس فى هذا الزمان على شبكات الإنترنت والقنوات الفضائية، وما تَبُثه من الفواحش والرذائل التى تُذهب الحياء، وتؤجج نار الشهوة، وتُبعد العبد عن طاعة ربه (جل وعلا).. كان سببًا رئيسًا فى انتشار ظاهرة عدم غض البصر.

ومما يجدر ذكره أن مَن أرخى لشهوته العَنان، فإن سُعار هذه الشهوة لا حدَّ له ولا انقضاء ... وإذا كان الشخص المُولَع بالدنيا لا يشبع من المال - فلو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب - فكذا الشخص المُولَع بشهوة النظر إلى النساء لا يقف عند حدٍّ مُعين ولا يرعوى.

يقول الشيخ على الطنطاوى رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أُوتيت مال قارون، وجسد هرقل، وواصلتك عشرة آلاف من أجمل النساء من كل لونٍ وكل شكل وكل نوع من أنواع الجمال، هل تظن أنك تكتفى؟ لا... أقولها بالصوت العالى: لا. أكتبها بالقلم العريض، ولكن واحدة بالحلال تكفيك.

لا تطلبوا منى الدليل، فحيثما تلفَّتم حولكم وجدتم فى الحياة الدليل قائمًا

ظاهرًا مرئيًا»[(١)].

﴿ قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠] فأمر بغض البصر وحفظ الفرج وهذا يدل على أن عدم غض البصر سبب لعدم حفظ الفرج وأن الإنسان إذا أطلق بصره تعلق قلبه بالنساء ثم لا يزال به النظر حتى يدنو من المرأة ويكلمها ويخاطبها ثم يعدها ثم تحصل الفاحشة - والعياذ بالله- ولهذا يُقال: إن النظر بريد الزنا يعني أنه يدعو إلى الزنا... فأمر الله بغض البصر وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩] خائنة الأعين أي مُسارقتها النظر.. يعني أن تنظر على وجه الخفاء الذي لا يدركه الناس لكن الله يعلمه فهو يعلم خائنة الأعين ويعلم عَزَّ وَجَلَّ ما تُخفي الصدور من النيات الحسنة والنيات السيئة... بل هو يعلم ما تُوسوس به النفس وما يُستقبَل للمرء.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦] فالإنسان مسئول عن السمع ماذا سمع بأذنيه ... هل سمع قولًا مُحرَّمًا أو استمع إلى امرأة أجنبية يتلذذ بصوتها؟ .. وكذلك البصر وكذلك الفؤاد ... فالواجب على الإنسان حفظ نفسه.

***

(١٦٣٠) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا مُدرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ: العَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِناهُ الكَلاَمُ، وَاليَدُ زِنَاهَا البَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا، والقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الفَرجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[(٢)].

---

(١) فتاوى علي الطنطاوي (ص ١٤٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦١٢) كتاب القدر - ومسلم (٢٦٥٧) كتاب القدر.

۞ قوله ﷺ: «**كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنا**» الكتابة هنا كتابة قدرية؛ لأن الكتابة تكون شرعية وتكون قدرية كونية... والكتابة القدرية الكونية هى التى فى اللوح المحفوظ... فما كتب الله فى اللوح المحفوظ فإنه يقع، وما قدر الله أن يكون فإنه لا بد من أن يكون... أما الكتابة الشرعية فمثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة:٤٥] يعنى: فرضنا وأوجبنا وحكمنا بأن النفس بالنفس، ولكن الكتابة المذكورة فى الحديث كتابة قدرية.

والمقصود بقوله: «**ابن آدم**» فيه أقوال، والذى يظهر أن المقصود بذلك مَن كان كُتب عليه ذلك، ولا يعنى أن كل بنى آدم كُتب عليهم ذلك، فإن من عباد الله ومن خلق الله ومن أولياء الله مَن يعصمه الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك... فالكتابة ليست على كل أحد، والعموم فيها ليس بمرادٍ على الإطلاق؛ لأن من بنى آدم رسل الله، ومنهم الصدِّيقون، ومنهم أولياء الله عَزَّوَجَلَّ الذين يبتعدون ويحرصون على الابتعاد عنْ الصغائر فضلًا عن الكبائر، وعلى هذا فيكون المراد بابن آدم مَنْ حصل منه ذلك..... أما مَن عصمه الله ومَن وفقه الله فلم يكن من أهل الزنا فإنه لا يحصل منه ذلك، وليس مكتوبًا عليه؛ لأن المكتوب لابد من أن يقع... فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

۞ «**العينان زناهما النظر**» أى أنّ الرجل إذا نظر إلى امرأة سواء كان ذلك بشهوة أو بغير شهوة وهى ليست من محارمه فهذا نوعٌ من الزنا وهو زنا العين.

«**والأذنان زناهما الاستماع**» وإذا جلس رجل يستمع إلى صوت امرأة فى المذياع أو أمامه أو من خلال الهاتف ويتلذذ بسماعها فهذا هو زنا الأذن.

«**واللسان زناه الكلام**» وذلك بأن يتكلم بكلامٍ فاحش يُثير الغرائز ويثير الشهوات الكامنة.

«**واليد زناها البطش**» وذلك من خلال لمس امرأة لا تحل له وما أشبه ذلك.

«**والرجل زناها الخُطا**» وذلك بأن يمشى الرجل إلى أماكن الفاحشة أو يرى امرأة فيمشى خلفها أو غير ذلك.

«**والقلب يهوى ويتمنى**» أى أن القلب قد يهوى ويتعلق بامرأة لا تحل له ويتخيل ويتصور أشياء لا تحل له... فهذا زنا القلب.. بل قد يكون الرجل مع امرأته فى الحلال وهو يتخيل نفسه مع امرأة أخرى فى الحرامِ.. فهذا زنا القلب.

«**ويصدق ذلك الفرج أو يُكذبه**» فإذا زنى الفرج –عياذًا بالله– فقد صدَّق زنا الأعضاء كلها ... وإن لم يزنِ بفرجه بل حفظ نفسه عن ذلك فإن هذا يكون تكذيبًا لتلك الأعضاء كلها... فالواجب على كل عاقل أن يَحذر من فتنة النساء ولا يستشرف لها حتى لا يقع فى تلك الفاحشة.. فقد حذرنا النبىﷺ من ذلك فقالﷺ: «**فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِى النِّسَاءِ**»(١).

وقال ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعدِى فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»(٢).

(١٦٣١) وعن أبى سعيدٍ الخُدرى رضي الله عنه عن النبىِّ ﷺ قال: «إيَّاكُم والجُلُوس فى الطُّرُقاتِ» قالوا: يا رسُولَ الله ما لنا مِن مجالِسِنا بُدٌّ، نتحَدَّثُ فيها. فقال رسُولُ الله ﷺ: «فإذا أبَيْتُم إلا المجْلِسَ، فأعطُوا الطَّرِيقَ حقَّهُ» قالوا: وما حَقُّ الطَّريق يا رسُولَ الله؟ قال: «غَضُّ البَصر، وكَفُّ الأذَى، وردُّ السَّلامِ، والأمْرُ بالمعرُوفِ والنَّهْىُ عنِ المُنْكَرِ»(٣).

(١٦٣٢) وعن أبى طَلْحَة زَيْدِ بنِ سهلٍ رضي الله عنه قال: كُنَّا قُعُودًا بالأفنِيةِ نتحَدَّثُ فيها فجاءَ رسُولُ الله ﷺ فقامَ علينا فقال: «ما لكُم ولِمجالِسِ الصُّعُداتِ؟» فقُلنا: إنَّما قَعدنَا لغَير ما بأس: قَعدَنا نتَذاكَرُ، ونتحدَّثُ. قال: «إما لا فأدُّوا حقَّها: غَضُّ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الرقاق.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٢٩) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٢١) كتاب اللباس.

البصرِ، وردُّ السَّلام، وحُسْنُ الكلام»(١).

۞ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٩٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٦٣٣) وعن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَألتُ رسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الفجأةِ فقال: «اصرِفْ بصَرَك»(٢).

۞ فيا تُرى ما هو نظر الفجأة؟

هو أن تنظر أمامك لتُبصر الطريق فتقع عينك من غير قصدٍ ولا تعمُّدٍ على امرأة فعليك أن تغض بصرك فى التوِّ واللحظة.

ولابد أن نعلم أن غض الأبصار مطلوب من الرجال والنساء... وقد جاء ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور:٣٠] ثم قال فى الآية التى بعدها: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ [النور:٣١]... فغضُّ البصر مطلوب... فالرجال يغضون الأبصار عن النساء، والنساء يغضضن الأبصار عن الرجال.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اصرف بصرك**» معناه أن الإنسان إذا وقع بصره على امرأة فجأة من غير اختيار فإنه لا يواصل ويستمر، وإنما عليه أن يصرف بصره ذلك الذى حصل اتفاقًا من غير قصد، وهو معذور فيه... وأما إذا أمعن النظر وداوم واستمر فإن هذا يكون مُؤاخَذًا عليه ومنهيًّا عنه.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصرِفَ بَصَرَهُ فِى الْحَالِ فَإِنْ صَرَفَ فِى الْحَالِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٦١) كتاب السلام.
«**الصُّعداتُ**»: أى: الطُّرقاتِ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٥٩) كتاب الآداب.

وَإِنِ اسْتِدَامَ النَّظَرَ أَثِمَ.

وَيَجِبُ عَلَى الرِّجَالِ غَضُّ الْبَصَرِ عَنِ النِّسَاءِ فِى جميع الأحوال إلَّا لِغَرَضٍ صَحِيحٍ شَرعِيٍّ وَهُوَ حَالَةُ الشَّهَادَةِ وَالْمُدَاوَاةِ وَإِرَادَةِ خِطْبَتِهَا أَوْ شِرَاءِ الْجَارِيَةِ أَوِ الْمُعَامَلَةِ بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَغَيْرِهِمَا وَنَحوِ ذَلِكَ .. وَإِنَّمَا يُبَاحُ فِى جَمِيعِ هَذَا قَدرُ الْحَاجَةِ دُونَ مَا زَادَ والله أعلم(١).

(١٦٣٤) وعن أُم سَلَمَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: كنتُ عِنْدَ رسول الله ﷺ وعِندَهُ مَيْمُونَة، فَأَقْبَلَ ابنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَذَلِكَ بَعدَ أَنْ أُمِرنَا بِالحِجَابِ فَقَالَ النبيُّ ﷺ: «احتَجِبَا مِنْهُ» فَقُلْنَا: يَا رسولَ اللهِ، أَلَيْسَ هُوَ أعمَى! لاَ يُبْصِرُنَا، وَلاَ يَعرِفُنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفَعَمْيَاوَانِ أنتُمَا أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ!؟»(٢).

۞ وللأمانة العلمية ... فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١٦٣٥) وعن أبى سَعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إلى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، ولا المرأةُ إلى عَوْرَةِ المرأةِ، ولا يُفْضِى الرَّجُلُ إلى الرَّجُلِ فى ثوبٍ واحِدٍ، ولا تُفْضِى المرأةُ إلى المرأةِ فى الثَّوْبِ الواحِدِ»(٣).

۞ وهذا الحديث فيه النهى عن نظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة... بل يجب على الرجل أن يستر عورته، ولا يجوز له أن يكشف عورته، ولا أن يجعل أحدًا ينظر إلى عورته، وكذلك المرأة.

وفيه النهى عن إفضاء الرجل إلى الرجل فى الثوب الواحد، بمعنى: أن يمس جسده جسد غيره بدون ثوبٍ أو حائل، كأن يضطجعا ولا يكون بينهما حائل.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٤/ ١٩٧).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذى، وضعفه الألبانى فى المشكاة (٣١١٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٣٣٨) كتاب الحيض.

قوله: «**لا يُفضى الرجل إلى الرجل**» يعنى: أنه يمس اللحم اللحم من دون ثوبٍ أو حائل؛ فيكون مَدعاة إلى تحرُّك الشهوة... وكذلك كون المرأة تضطجع بجانب المرأة ويمس لحمها لحمها بدون حائل أو ثوب.

والنهى هنا يفيد التحريم، فلا يجوز للرجل أن ينظر إلى عورة الرجل، ولا المرأة أن تنظر إلى عورة المرأة؛ لأن هذا من أسباب الشر وتحرُّك الشهوة.

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللهُ: فَفِيهِ تَحرِيمُ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ والمرأة إلى عورة المرأة ... وهذا لا خلاف فِيهِ وَكَذَلِكَ نَظَرُ الرَّجُلِ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرأَةِ وَالْمَرأَةِ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ ... وَنَبَّهَ ﷺ بِنَظَرِ الرَّجُلِ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ عَلَى نَظَرِهِ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرأَةِ وَذَلِكَ بِالتَّحرِيمِ أَوْلَى ... وَهَذَا التَّحرِيمُ فِى حَقِّ غيرالأزواج وَالسَّادَةِ أَمَّا الزَّوْجَانِ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا النَّظَرُ إِلَى عَوْرَةِ صَاحِبِهِ ... وَأَمَّا ضَبْطُ الْعَوْرَةِ فِى حَقِّ الْأَجَانِبِ فَعَوْرَةُ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ وَكَذَلِكَ الْمَرأَةِ مَعَ الْمَرأَةِ[١].



(١) مسلم بشرح النووى (٤/ ٤١-٤٢) بتصرف.

(٢٩١) باب تحريم الخلوة بالأجنبية

۞ المرأة الأجنبية هي التي ليست لك بمَحرَمٍ وتكون الخلوة بها حرام مثل بنت العم وبنت العمة وبنت الخال وبنت الخالة وسائر النساء اللاتي يجوز لك أن تتزوجهن سواء كانت من أقاربك أو من غير أقاربك.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[الأحزاب:٥٣].

يعني لا تدخلوا عليهن واسألوهن من وراء حجاب حتى لا تحصل خلوة محرمة.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ لأنه أبعد عن الريبة. وكلما بَعُد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه.

فلهذا، من الأمور الشرعية التي بيَّن الله كثيرًا من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته، ممنوعة، وأنه مشروعٌ البُعد عنها، بكل طريق[(١)].

(١٦٣٦) وعن عُقبةَ بن عامرٍ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إيَّاكُم والدُّخُولَ على النِّساءِ» فقال رجُلٌ مِن الأنْصارِ: أفرأيْتَ الحَمْوَ؟ قال: «الحَمْوُ الموْتُ»[(٢)].

(١٦٣٧) وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «لا يَخْلُوَنَّ أحدُكُم بامْرأةٍ إلا معَ ذِي مَحرَمٍ»[(٣)].

والحمو: هو قريب الزوج الذي لا يحل للمرأة... فبيَّن النبي ﷺ أنه يُفسد الحياة الزوجية كما يفسد الموت البدن.

---

(١) تفسير السعدي (ص٧٨٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٣٢) كتاب النكاح، ومسلم (٢١٧٢) كتاب السلام.
«الحَمْوُ» قَرِيبُ الزَّوْجِ كأخِيهِ، وابن أخيه، وابنِ عمِّه.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٣٣) كتاب النكاح – ومسلم (١٣٤١) كتاب الحج.

۞ فلا يحل لشخص بعد هذه النصوص أن يخلو بامرأة لا تحل له.

۞ فلا يحل لقريب الزوج كأخيه وابن عمه أن يأتى إلى البيت فى غياب الزوج ويخلو بالزوجة.

۞ ولا يحل لصديق الزوج أن يأتى إلى المنزل فى غياب الزوج ويخلو بالزوجة... ولا يحل له أن يخلو بها فى حضور الزوج فى البيت ويُغلَق على الأجنبى مع الزوجة باب.

۞ لا يحل لمدرس أن يخلو بفتاة يُعلمها، ولا أن يُغلَق عليهما باب، فهذا بابٌ عظيم من أبواب البلاء.

۞ وكذلك لا يحل لمُحفظ قرآن أن يخلو بامرأة يعلمها القرآن.

۞ وكذلك لا يحل لمعالج يعالج بالقرآن أن يخلو بامرأة يعالجها.

۞ ولا يحل لطبيب أن يخلو بمريضة ولا بممرضة.

۞ وقبيح ـ أيما قُبحٍ ـ أمر صيدلى يستأجر فتاة للعمل معه حيث هناك مكان يخلو بها فيه.

۞ وكذلك لا يحل ـ ثم لا يحل ـ لمدير أن يخلو بسكرتيرة، ولا أن يُغلَق عليهما باب... فالشيطان ثالث هؤلاء.

۞ ولا يحل كذلك لخاطب أن يخلو بمخطوبته، فهو لا يزال رجلًا أجنبيًّا عنها.

۞ كذلك لا يحل لرجل أن يخلو بالخادمة التى تخدم فى بيته، فليست هى من محارمه.

۞ ولا يحل لسائق أن يخلو بامرأة مَن يعمل عنده فهو رجل أجنبى كذلك[1].

(١) «ولا تقربوا الزنا »/ الشيخ مصطفى العدوى (ص: ٦٩، ٧١) بتصرف.

۞ ومن المعلوم أن دخول أقارب الزوج بيته أخطر من دخول الأجانب.. لأن هؤلاء يدخلون فى أى وقتٍ فلا يستنكر أحدٌ دخولهم.. ولذا فإنه قد تَحدُث الخيانة من جانبهم دون أن يفطن الزوج لذلك لأنه لا يتخيل أبدًا أن أخاه يفعل ذلك بزوجته أو أن أحد أقاربه قد يفعل ذلك ... ولذا فإنه لا يجوز أبدًا أن يُمكِّن الزوج أخاه أو أحد أقاربه من دخول بيته فى غيابه فإن هذا لا يجوز أبدًا.. فإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق.. وما خلا رجلٌ بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.. ودرء المفاسد مُقدَّم على جلب المنافع.... فربما يحدث شيء – عياذًا بالله – فيكون فى ذلك تدمير الأسرة والعائلة كلها... وقد حذرنا النبى ﷺ من ذلك.. فلنستمع إلى نصيحته ﷺ ولنعمل بها.. ففيها الخير كل الخير.. وفيها حماية بيوتنا وأعراضنا من الضياع.

(١٦٣٨) وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ: «حُرمَةُ نِساءِ المُجاهِدِينَ على القَاعِدينَ كَحُرمةِ أُمهاتِهِمْ، ما مِن رجُلٍ مِن القَاعِدِينَ يَخْلُفُ رجُلًا مِن المجاهِدِينَ فى أهله، فيَخُونُهُ فيهم إلا وقَف لهُ يَوْم القيامة، فيأخُذُ مِن حَسناتِهِ ما شاءَ حتَّى يَرضى» ثم التفَت إلينا رسُولُ الله ﷺ فقال: « ما ظَنُّكُم؟ »[١].

۞ والمجاهدون هم الذين يخرجون فى سبيل الله، ويَخلُفهم الناس فى أهليهم فحرمتهم شأنها عظيم.. وذلك أن النبى ﷺ جعل حُرمة نساء المجاهدين على القاعدين الذين يخلفونهم فى أهليهم كحرمة أمهاتهم... ومعنى هذا أنهم لا بد أن يحذروا من أن يقعوا فى أمورٍ لا تنبغى ... كما أن الإنسان يرى ذلك فى حق أمه... وكذلك عليه أن يرى ذلك فى حق أهل الغازى الذين خلفه فيهم.

وهذا فيه بيان تعظيم شأن المحافظة على مَن استوصوا عليهم، فإن

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٧) كتاب الإمارة.

المجاهدين أوصوا الباقين على أن يقوموا بما يلزم لأهليهم... فبيَّن النبى ﷺ أن على الإنسان أن يقوم بما يجب لهم ولا يخونه فيهم .. لا بأن ينظر أو يحاول أن يقع فى أمرٍ مُحرم، ولا فى أن يُقصر فيما هو مطلوب منه من الرعاية والعناية وإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم.

۞ فمن حَفِظَ المجاهد فى أهله فسوف يجزل الله عَزَّوَجَلَّ له الأجر والمثوبة.. فقد قال النبى ﷺ: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللهِ فَقَد غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ فَقَد غَزَا**»[1].

فما أجمل هذا وما أروعه! أن تُعَدَّ خلافة الغازى بخيرٍ فى أهله وماله ضربًا من الغزو، ومشاركة فى الجهاد...فهذا يقاتل العدو، وهذا يحفظ له أهله وولده.

۞ **قال الإمام النووى** رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «**حُرمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ**» هَذَا فِى شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا تَحرِيمُ التَّعَرُّضِ لَهُنَّ بِرِيبَةٍ مِنْ نَظَرٍ مُحَرَّمٍ وَخَلْوَةٍ وَحَدِيثٍ مُحَرَّمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ... وَالثَّانِى فِى بِرِّهِنَّ وَالْإِحسَانِ إِلَيْهِنَّ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِنَّ الَّتِى لَا يَتَرَتَّبُ عليها مفسدة ولايتوصل بِهَا إِلَى رِيبَةٍ وَنَحوِهَا[2].

أَمَّا مَن خان المُجاهد فى أهله، فقد ارتكب إثمًا عظيمًا، ويُضاعَف الوزر عليه، فإنَّ المعصية يَتَضاعف إثمها بما يُصاحبها من مُلابسات...فالزَّانى بامرأة المُجاهد، أو بحليلة الجار أعظم عقوبة عند الله من الزَّانى بامرأة عادية.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ فِى الَّذِى يَخُونُ الْمُجَاهِدَ فِى أَهْلِهِ: «**إِنَّ الْمُجَاهِدَ يَأْخُذُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ فَمَا ظَنُّكُمْ**» مَعنَاهُ مَا تَظُنُّونَ فِى رَغْبَتِهِ فِى أَخْذِ حَسَنَاتِهِ وَالِاسْتِكْثَارِ منها فى ذلك المقام ... أى لا يُبقى مِنْهَا شَيْئًا إِنْ أَمْكَنَهُ وَاللهُ أَعلَمُ[3].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٤٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٩٥) كتاب الإمارة.
(٢، ٣) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٦٣).

قال أبو عبد الله الحليمى مُعلِّقًا على هذا الحديث: هذا - والله أعلم- لعِظَم حقِّ المُجاهد على القاعد، فإنه نابَ عنه، وأسقط بجهاده فرض الخروج عنه، ووقاه مع ذلك بنفسه ، وجعل نفسه حصانًا له، وجُنَّة دونه..فكانت خيانته له فى أهله أعظم من خيانة الجار فى أهله، كما يكون خيانة الجار أعظم من خيانة البعيد، والله أعلم[1].

وقد جاء فى حديث المقداد، أن النبى ﷺ قال: «وَلِأَنْ يَزْنِىَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِىَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ »[2].

فانظر كيف جعل الحديث حُرمة نساء المجاهدين كحرمة الأمهات، وهذا يتمثَّل فى أمرين:

الأول: فى بِرِّهن والإحسان إليهنَّ، وقضاء حوائجهنَّ.

والثانى: فى تحريم التعرُّض لهنَّ بريبة من خَلوة أو نظرٍ بشهوة، أو حديثٍ محظور أو غير ذلك. ومعنى هذا: أنَّ مَن زنى بامرأة المجاهد فكأنما زنى بأمه، والعياذ بالله.

وفى الحديث الذى رواه عبد الله بن عمرو مرفوعًا: **«مَثَل الذى يجلس على فراش المُغَيَّبَة، مثل الذى ينهشه أَسود (أى حية) من أساود يوم القيامة»**[3].

والمُغيبة: التى غاب عنها زوجها، ولا سيما فى الجهاد.

وبهذا يحيا المجاهد فى جهاده بنفسٍ مطمئنة، واثقًا بأنَّ من ورائه مجتمعًا أمينًا على مَن خلَّفه وما خلَّفه... وهذا له أثره وأهميته فى بقاء (الرُّوح المعنوية) فى الجيش.المسلم قوية وثابتة، لا يعتريها وَهنٌ ولا خَوَر[4].

---

(١) نقله ابن النحاس فى مشارع الأشواق (١/ ٣٠٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٤٣).

(٣) حسن: رواه الطبرانى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٠٥).

(٤) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/ ٦٦٣-٦٦٤) بتصرف.

(٢٩٢) باب تحريم تشبُّه الرجال بالنساء وتشبُّه النساء بالرجال فى لباسٍ وحركة وغير ذلك

(١٦٣٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْمُتَرَجِّلاَتِ مِنَ النِّسَاءِ.

وفى رواية: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ(١).

(١٦٤٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرأَةِ، وَالْمَرأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ»(٢).

۞ وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الذكور والإناث وجعل لكلٍّ منهما مزية...فالرجال يختلفون عن النساء فى الخلقة والخلق والقوة والدين وغير ذلك.. والنساء كذلك يختلفن عن الرجال فمن حاول أن يجعل الرجال مثل النساء أو أن يجعل النساء مثل الرجال فقد حادَّ الله فى قدره وشرعه... لأن الله سبحانه وتعالى له حكمة فيما خلق وشرع ... ولهذا جاءت النصوص بالوعيد الشديد باللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله لتشبُّه الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل.

فمن تشبه بالنساء فهو ملعون على لسان النبى ﷺ ومَن تشبهت بالرجال فهى ملعونة على لسان النبى ﷺ ... كما فى حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ لعن المخنثين من الرجال وفى لفظ المتشبهين من الرجال بالنساء ... وهؤلاء هم

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٨٨٥، ٥٨٨٦) كتاب اللباس.

المخنث: الذى يتشبه بالنساء فى الحركة والكلام واللباس فهو المؤنث من الرجال.

المترجلات: اللاتى كالرجال تشبيهًا... قال الطبرى: المعنى أنه لا يجوز للرجال التشبه بالنساء فى لبسٍ أو زينة مختصات بهن ولا العكس.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٤٥٤).

المُخنثون فى هذا الحديث... ولعن المترجلات من النساء يعنى المتشبهات بالرجال... واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله... فإذا تشبه الرجل بالمرأة فى لباسه ولا سيما إذا كان لباسًا مُحرمًا كالحرير والذهب أو تشبَّه بالمرأة فى كلامها وصار يغير لسانه فى الكلام حتى كأنما تتكلم امرأة .. أو تشبه بالمرأة فى مشيتها أو فى غير ذلك مما يختص بالمرأة فإنه ملعون على لسان أشرف الخلق ﷺ.. فالمتشبه من الرجال بالنساء ملعون كذلك المرأة إذا تشبهت بالرجال فهى ملعونة.

(١٦٤١) عن أبى هُريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَومٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ لاَ يَدخُلْنَ الجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدنَ رِيحَهَا، وإنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»[1].

۞ قوله ﷺ: «صِنْفَانِ مِن أهلِ النَّارِ لمْ أرَهُما» أى أن هذين الصنفين من أهل النار لم يكونا فى زمان النبى ﷺ.

وليس معنى ذلك أنهما من أهل الخلود فى النار.. فمن المعلوم أنه لا يُخلَّد موحدٌ فى النار.... ومن المعلوم أن مرتكب الكبيرة فى مشيئة الله.. إن شاء عذَّبه وإن شاء عفا عنه... وهذا فى حق النساء الكاسيات العاريات..

أما الذين يضربون الناس فقد ارتكبوا مظالم لا تُغفر إلا بالعفو من أصحاب المظالم أو القصاص يوم القيامة.

۞ قوله ﷺ: «قَوْمٌ معهم سِياطٌ كأذْنابِ البَقَرِ».

ولا يلزم أن هذه السياط كأذناب البقر، المهم أنها كناية عن ظلم العباد.

قوله: «يضربون بها الناس».

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٢٨) كتاب اللباس والزينة.

أي: بغير حُجة ولا برهان ولا ذنبٍ اقترفوه... ولذلك يقول الإمام النووي: (هذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر به ﷺ... فأما أصحاب السياط فهم غلمان والى الشرطة).

هؤلاء الظلمة الذين يضربون الناس ويعذبون الناس بغير ذنبٍ ارتكبوه، ولا جريرة اقترفوها.

۞ قال: «**ونساء كاسيات عاريات مائلات مُميلات، رءوسهن كأسنمة البُخت المائلة**»... والبُخت هي الإبل.

۞ **قال الإمام النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ:

هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ مُعجِزَاتِ النُّبُوَّةِ فَقَد وَقَعَ هَذَانِ الصِّنْفَانِ وَهُمَا مَوْجُودَانِ وَفِيهِ ذَمُّ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ .. قِيلَ: مَعناهُ كَاسِيَاتٌ مِنْ نِعمَةِ اللهِ عَارِيَاتٌ مِنْ شُكْرِهَا وَقِيلَ: مَعنَاهُ تَسْتُرُ بَعضَ بَدَنِهَا وَتَكْشِفُ بَعضَهُ إِظْهَارًا بِحَالِهَا وَنَحوِهِ... وَقِيلَ: مَعنَاهُ تَلْبَسُ ثَوْبًا رَقِيقًا يَصِفُ لَوْنَ بَدَنِهَا ... وَأَمَّا مَائِلَاتٌ فَقِيلَ: مَعنَاهُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَمَا يَلْزَمُهُنَّ حِفْظُهُ ... مُمِيلَاتٌ أَيْ يُعَلِّمْنَ غَيْرَهُنَّ فِعلَهُنَّ الْمَذْمُومَ ... وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ يَمْشِينَ مُتَبَخْتِرَاتٍ مُمِيلَاتٍ لِأَكْتَافِهِنَّ ... وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ يَمْشُطْنَ الْمِشْطَةَ الْمَائِلَةَ وَهِيَ مِشْطَةُ الْبَغَايَا مُمِيلَاتٌ يَمْشُطْنَ غَيْرَهِنَّ تِلْكَ المشطة(١).

وقيل: مائلات إلى الرجال، مميلات لهم بما يُبدين من زينتهن وغيرها.

وأما قوله: «**رءوسهن كأسنمة البخت**» فمعناه: يُعظمن رءوسهن بالخُمر والعمائم... يعني: المرأة تضع عمامة على رأسها، والعمامة هي كل ما يَعُم الرأس عند الرجل والمرأة كالخمار تمامًا... فهن يُعممن رءوسهن بالخُمر والعمائم مما يُلَف على الرأس حتى تُشبه أسنمة الإبل، وهذا هو المشهور في التمثيل.

ويجوزُ أن يكون معناه: يطمحن إلى الرجال ولا يغضضن أبصارهن عنهم،

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٤/ ١٥٦).

ولا يُنكسن رءوسهن.

۞ **قال: «لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها»**.

والحكم النهائى أن هذين الصنفين لا يدخلان الجنة مع أول الداخلين، ولا يَشُمان رائحتها.

قال: «وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»، وفى رواية: **«من مسيرة خمسمائة عام»**.

۞ فيا ليتنا نحافظ على نسائنا وأن نحفظهن عن أعين الرجال بالحجاب الشرعى.. فسوف نُسأل عن هذه الأمانة بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ.. فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

وقال ﷺ: **«كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته...»**.

(٢٩٣) باب النهي عن التشبُّه بالشيطان والكفار

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن الشيطان هو رأس الكفر .. فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. والكفار من بنى آدم هم أعداء الله وأولياء الشيطان.. كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٥٧].

ولما طُرد إبليس من رحمة الله (جل وعلا) ولعنه الله إلى يوم الدين قام إبليس وأعلن عداءه لبنى آدم وطلب من الله عَزَّوَجَلَّ الإنظار - التأجيل -: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٤، ١٧].

فلا يجوز بحالٍ من الأحوال أن نتشبه بالعدو الأكبر الذى يكيد لنا المكائد فى كل لحظة ولا يفتر أبدًا عن عداوته وإيذائه لنا.

۞ وإذا كان الشرع قد حرم علينا أن نتشبه بالكفار فى أعمالهم وأقوالهم ولباسهم وحياتهم.. فمن باب أَولَى ألا نتشبه بالشيطان.

وإن كان الشيطان من عالم الغيب فلا نعلم عن أعماله وأحواله إلا ما أخبرنا به النبى ﷺ .. فقد أخبرنا النبى ﷺ أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله.

(١٦٤٢) عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا تأكُلُوا بالشِّمالِ، فإن الشَّيْطانَ يأكُلُ بالشِّمالِ»(١).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠١٩) كتاب الأشربة.

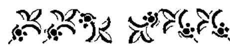
(١٦٤٣) وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا يأكُلَنَّ أحدُكُمْ بِشمالِهِ، ولا يَشْرَبَنَّ بها، فإنَّ الشَّيْطانَ يأكُلُ بِشِمالِهِ ويَشْرَبُ بها»(١).

۞ ففى هذين الحديثين ينهى النبى ﷺ أن نأكل بالشمال أو أن نشرب بالشمال لأن مَن فعل ذلك فقد تشبَّه بالشيطان وتشبَّه بالكفار .. فالشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله..وقد نُهينا عن اتباعه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١].

ومن العجب العُجاب أن بعض الناس إذا كان يأكل مع عِلية القوم فإنه يأكل بشماله ويشرب بشماله لأنه يخشى أن يسخروا منه ... لأنه إذا أكل بيمينه فقد خالف (الإيتيكيت).. فأيهما أَولَى بالاتباع: النبى ﷺ أم الإيتيكيت؟!

كُن عزيزًا.. وإذا وُجدت فى مثل هذه الأماكن فكُل بيمينك وقل لهم: هذه هى سُنة النبى ﷺ ومَن أكل بشماله فقد تشبَّه بالشيطان.. واذكر لهم الأحاديث ولا تستحِ من الحق.. ولكن اذكر لهم الحق بأدبٍ وبرفقٍ ورحمة.

۞ فالشاهد أنه لا يجوز أن يأكل المسلم بشماله أو يشرب بشماله إلا لضرورة.. كأن تكون يده اليمنى مقطوعة أو شلَّاء أو مجروحة أو مكسورة أو ليس له أصابع وما أشبه ذلك... ولا ينبغى أن يعطى أو يأخذ بشماله إلا لضرورة كأن تكون يده اليمنى مشغولة.. كأن يكون قد حمل فى يده اليمنى شيئًا ثقيلًا ولا يستطيع أن ينقله إلى يده اليسرى.... فخير الهدى هدى محمد ﷺ.



(١٦٤٤) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إنَّ اليَهُود والنَّصارى لا يَصبِغُون، فخالِفُوهم»(٢).

---

(١) صحيح:رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

(٢) متفق عليه:رواه البخارى (٣٤٦٢) كتاب أحاديث الأنبياء - مسلم (٢١٠٣) كتاب اللباسِ والزينة.

=

والمراد هنا: خضاب شعر اللحية والرأس الأبيض بصُفرة أو حُمرة.. وأما السواد فمنهيٌّ عنه.

۞ **قوله** ﷺ: «**إنَّ اليَهُود والنَّصارى**» أى: أهل الكتاب «**لا يَصبِغُون**» أى: لا يُخضبون شعرهم ولا لِحاهم «**فخالِفُوهم**» أى: خضِّبوا شعركم ولِحاكم بالصُّفرة أو الحُمرة وتجنبوا السواد.. فلا يجوز أن نُخضب باللون الأسود إلا فى الجهاد من أجل إرهاب العدو ليشعر أن كل الذين يقاتلونه فى عُمر الشباب.

۞ والمقصود هنا أن يتميز المسلم عن غيره من أهل الكتاب فى كل شىء حتى خضاب شعر الرأس واللحية.

= المُرادُ: خِضَابُ شَعرِ اللِّحية والرَّأسِ الأبيضِ بصُفْرةٍ أو حُمْرةٍ، وأمَّا السَّوادُ فمَنْهيٌّ عنه كما سنذكُرُ فى البابِ بعدَهُ، إن شاء الله تعالى.

(٢٩٤) باب نهي الرجل والمرأة عن خضاب شعرهما بسواد

(١٦٤٥) عن جابرٍ رضي الله عنه قال: أُتِي بأبي قُحَافَةَ والدِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما يوم فتْحِ مكَّةَ ورأسُهُ ولِحيتُهُ كالثَّغَامةِ بياضًا، فقال رسولُ الله ﷺ: « غَيِّرُوا هذا، واجْتَنِبُوا السَّوادَ»[1].

۞ ففي هذا الحديث أنه جاء أبو بكر الصدِّيق بأبيه رضي الله عنهما يوم فتح مكة ليُسْلِم. فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ» فَأَسْلَمَ، وَدَخَلَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَأْسُهُ كَأَنَّهُ ثَغَامَةٌ[2]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «غَيِّرُوا هَذَا، واجْتَنِبُوا السَّوادَ»... ففي هذا دليل على أن الأفضل أن المسلم يغير الشيب إما باللون الأصفر كالحناء.. أو بالأصفر الممزوج بالكتم..فإذا مُزج الأصفر بالكتم – وهو أسود– ظهر اللون البُنِّي.. فيستطيع بذلك أن يصبغ باللون البُنى أو الأصفر.. كما أمر بذلك النبي ﷺ.

والعجيب أن بعض الناس في هذا الزمان يُنكرون على مَن يُخضب شعره ولحيته باللون البُنى ولا يعرفون أن النبي ﷺ هو الذي أمر بذلك .. وليس على سبيل الوجوب ولكنه على سبيل الاستحباب.. وإلا لكان يأثم مَن لم يخضب شعره ولحيته.. ولكن كل إنسان يفعل ذلك على حسب استطاعته .. فمن استطاع أن يُخضب فقد وافق السُّنة .. ومَن لم يستطع لانشغاله أو لعدم قدرته فلا نُنكر عليه.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٠٢) كتاب اللباس والزينة.

(٢) ثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبه الشيب.

(٢٩٥) باب النهى عن القزع
وهو حلق بعض الرأس دون بعض
وإباحة حلقه كله للرجل دون المرأة

(١٦٤٦) عن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: نَهَى رسُولُ الله ﷺ عنِ القَزعِ[١].

(١٦٤٧) وعنه قال: رأى رسُولُ الله ﷺ صبيًّا قد حُلِقَ بعضُ شَعر رأسِهِ وتُرِكَ بعضُهُ، فنَهاهُم عن ذلك، وقال: «احلِقُوه كُلَّهُ أو اتْرُكُوه كُلَّهُ»[٢].

(١٦٤٨) وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ أَمْهَلَ آلَ جعفر رضي الله عنه ثلاثًا، ثُمَّ أتاهُم فقال: «لا تَبْكُوا على أخى بعدَ اليوم» ثم قال: «ادعُوا لى بَنِى أخِى» فجىء بِنا كأنَّنا أفْرُخٌ فقال: «ادعُوا لى الحلاَّقَ» فأمرهُ، فحَلَقَ رُءُوسَنا[٣].

۞ ففى تلك الأحاديث نهى النبى ﷺ عن القزع .. وهو حلق بعض الرأس وترك بعضه .. وهو ما يُسمَّى عندنا فى مصر (حَلْقة كابوريا) .. وسواء كان ذلك من جانبٍ واحد أو من كل الجوانب .. أوْ من فوق أو من الوراء.

فأمر النبى ﷺ أن يحلق المسلم رأسه كله أو يُقصره كله أو يتركه كله .. لكن لا يأخذ شيئًا من بعضه ويترك بعضه.

۞ ثم ذكر المصنف رحمه الله حديث أولاد جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه الذى استُشهد فى سرية مؤتة بعد أن قُطع ذراعاه فأبدله الله بدلًا منها بجناحين يطير بهما

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٢١) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٠) كتاب اللباس والزينة.
القزع: حلق بعض شعر الرأس وترك بعضه.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٢)-وأصله عند مسلم.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٥٣٢).
كأننا أفرخ: جمع فرخ وهو ولد الطائر... وذلك لما اعتراهم من الحزن على فقده.

فى الجنة مع الملائكة.....

فأمهلهم النبى ﷺ ثلاثة أيام من أجل تطييب نفوسهم وذهاب الحزن من قلوبهم ثم ذهب إليهم ونهاهم أن يبكوا على جعفر وقال لهم: «**لا تَبْكُوا على أخى بعدَ اليوم**» ثم طلب منهم أن يأتوا بأولاد جعفر وقال: «**ادعُوا لى الحلاَّقَ**» فجىء بالحلاق وطلب منه النبى ﷺ أن يحلق رؤوسهم حتى لا تتسخ.. لأن الصبيان تتسخ رؤوسهم وأبدانهم من كثرة اللعب والحركة... أما الإناث فإن النبى ﷺ نهى أن تحلق المرأة شعرها.. ولهذا فإنه إذا وُلد المولود فإنه يُحلق رأسه فى اليوم السابع مع العقيقة إذا كان ذكرًا.. أما الأنثى فلا يُحلق شعر رأسها.

۞ وفى هذه الأحاديث دليل على أن اتخاذ الشعر وإطالته ليس من السُّنة .. بل هو عادة من العادات.. ولو كانْ سُنة لقال النبى ﷺ اتركوا شعره ولا تحلقوه... فإن كنت فى بلدٍ قد اعتاد الناس فيه على اتخاذ الشعر فاتخذه لئلا تشذ عنهم.. وإن كانوا لا يتخذونه – كما هو معروف الآن– فلا تتخذه.

(١٦٤٩) وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: **نَهى رسُول الله ﷺ أنْ تَحلِقَ المرأةُ رأسَها**[١].

۞ وللأمانة العلمية.. هذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١) ضعيف: رواه الترمذى، والنسائى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٩٩٨).

(٢٩٦) باب تحريم وصل الشعر والوشم والوشر وهو تحديد الأسنان

۞ قال الله تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾

[النساء: ١١٧ ـ ١١٩]

ففى تلك الآيات أقسم الشيطان على إغواء بنى آدم حتى يصل الأمر إلى أنه قال: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ وهذا يتناول (تغيير) الخِلقة الظاهرة، بالوشم، والوشر، والنمص، والتفليج للحُسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخُّط من خلقته، والقدح فى حكمته، واعتقاد أن ما يصنعونه بأيديهم، أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره. ويتناول أيضًا تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده حُنفاء مفطورين على قبول الحق، وإيثاره. فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر، والفسوق، والعصيان.

فإن كل مولودٍ يُولَد على الفطرة، ولكن أبواه، يُهودانه، أو يُنصرانه، أو يُمجسانه، ونحو ذلك، مما يغيرون به، ما فطر الله عليه العباد، من توحيده، وحُبه ومعرفته. فافترستهم الشياطين فى هذا الموضع، افتراس السبع، والذئاب للغنم المنفردة... ولولا لُطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم، ما جرى على هؤلاء المفتونين، وهذا الذى جرى عليهم، من تولِّيهم عن ربهم وفاطرهم، وتولِّيهم لعدوهم المريد لهم الشر، من كل وجهٍ فخسروا الدنيا

والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة.. ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾(١).

(١٦٥٠) وعن أسْماءَ رضي الله عنها أنَّ امرأةً سألتِ النبيَّ ﷺ فقالتْ: يا رسُولَ الله إنَّ ابْنَتِي أصَابَتْها الحَصبةُ، فتمرَّقَ شَعرُها، وإنِّي زَوَّجْتُها، أفأصِلُ فيهِ؟ فقال: «لعَنَ الله الواصِلَة والمَوصولة»(٢).

وفي روايةٍ: «الواصِلةَ والمُسْتوصِلةَ».

(١٦٥١) وعن عائشة رضي الله عنها نحوه(٣).

(١٦٥٢) وعنْ حُميدِ بنِ عَبْدِ الرحمن أنَّهُ سمع مُعاوية رضي الله عنه - عامَ حجَّ - على المِنبَرِ وتَناول قُصَّةً مِن شَعرٍ كانَتْ في يد حَرسيٍّ فقال: يا أهْلَ المدينةِ أينَ عُلماؤكُم؟ سِمعتُ النبيَّ ﷺ يَنْهَى عنْ مِثْلِ هذه ويقول: «إنَّما هلَكَتْ بنُو إسرائيل حينَ اتَّخَذَها نِساؤهم»(٤).

(١٦٥٣) وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسُولَ الله ﷺ لَعَنَ الوَاصِلَةَ والمُسْتَوْصِلَةَ، والوَاشِمَةَ والمُسْتَوشِمَةَ(٥).

(١٦٥٤) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ والمُسْتَوشِمَاتِ وَالمُتَنَمِّصَاتِ، والمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقِ اللهِ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ في ذَلِكَ

---

(١) تفسير السعدي (ص ٢٠٩-٢١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٤١) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٢) كتاب اللباس والزينة.

قَوْلُهَا: «فَتَمَرَّقَ» هو بالراء ومعناهُ: انْتَثَرَ وَسَقَطَ. «وَالوَاصِلَةُ»: التي تَصِلُ شَعرَهَا، أو شَعرَ غَيْرِهَا بِشَعرٍ آخَرَ. «وَالمَوْصُولَةُ»: التي يُوصَلُ شَعرُهَا. «والمُسْتَوْصِلَةُ»: أي: التي تَسْأَلُ مَنْ يَفْعَلُ لها ذلك.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٣٤) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٣) كتاب اللباس والزينة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٣٢) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٧) كتاب اللباس والزينة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٣٧) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٤) كتاب اللباس والزينة.

الواشمة: من تقوم بعمل الوشم وهو أثر وخز الجلد بالإبر. المستوشمة: التي تطلب لنفسها الوشم.

فَقَالَ: وَمَا لِى لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِى كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر:٧][(١)].

❁ قال الإمام النووى رحمه الله:

أَمَّا الْوَاصِلَةُ فَهِىَ الَّتِى تَصِلُ شَعرَ الْمَرأَةِ بِشَعرٍ آخَرَ .. وَالْمُسْتَوْصِلَةُ الَّتِى تَطْلُبُ مَنْ يَفْعَلُ بِهَا ذَلِكَ وَيُقَالُ لَهَا مَوْصُولَةٌ ... وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ صَرِيحَةٌ فِى تَحرِيمِ الْوَصلِ وَلَعنِ الْوَاصِلَةِ وَالْمُسْتَوْصِلَةِ مُطْلَقًا.

قَالَ الْقَاضِى: فَأَمَّا رَبْطُ خُيُوطِ الْحَرِيرِ الْمُلَوَّنَةِ وَنَحوِهَا مما لايشبه الشعر فليس بمنهىٍّ عنه؛ لأنه ليس بوصل ولا هو فى معنى مقصود الوصل وإنما هُوَ لِلتَّجَمُّلِ وَالتَّحسِينِ ... قَالَ: وَفِى الْحَدِيثِ أَنَّ وَصلَ الشَّعرِ مِنَ الْمَعَاصِى والْكَبَائِرِ لِلَعنِ فَاعِلِهِ وَفِيهِ أَنَّ الْمُعِينَ عَلَى الْحَرَامِ يُشَارِكُ فَاعِلَهُ فِى الْإِثْمِ كَمَا أَنَّ الْمُعَاوِنَ فِى الطَّاعَةِ يشارك فى ثوابها والله أعلم[(٢)].

❁ وأما الوشم فهو أن تَغرِزَ إِبْرَةً أَوْ مِسَلَّةً فِى ظَهْرِ الْكَفِّ أَوِ الْمِعصَمِ أَوِ الشَّفَةِ أَوْ غَيرِ ذَلِكَ مِنْ بَدَنِ الْمَرأَةِ حَتَّى يَسِيلَ الدَّمُ ثُمَّ تَحشُو ذَلِكَ الْمَوْضِعَ بِالْكُحلِ أَوِ النُّورَةِ فَيَخْضَرُّ ... وَقَد يُفْعَلُ ذَلِكَ بِدَارَاتٍ وَنُقُوشٍ وَقَد تُكَثِّرُهُ وَقَد تُقَلِّلُهُ ... وَفَاعِلَةُ هَذَا وَاشِمَةٌ وَالْمَفْعُولُ بِهَا مَوْشُومَةٌ فَإِنْ طَلَبَتْ فِعلَ ذَلِكَ بِهَا فَهِىَ مُسْتَوْشِمَةٌ ... وَهُوَ حَرَامٌ عَلَى الْفَاعِلَةِ وَالْمَفْعُولِ بِهَا بِاخْتِيَارِهَا وَالطَّالِبَةِ لَهُ... وَقَد يُفْعَلُ بِالْبِنْتِ وَهِىَ طِفْلَةٌ فَتَأْثَمُ الفاعلة ولاتأثم الْبِنْتُ لِعَدَمِ تَكْلِيفِهَا حِينَئِذٍ.

---

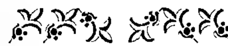
(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٤٣) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٥) كتاب اللباس والزينة.
«الْمُتَفَلِّجَةُ» هِىَ: الَّتِى تَبْرُدُ مِنْ أَسْنَانِهَا لِيَتَبَاعَدَ بَعضُهَا مِنْ بَعضٍ قَلِيلًا، وتُحَسِّنُهَا وَهُوَ الوَشْرُ. «وَالنَّامِصَةُ»: الَّتِى تَأْخُذُ مِنْ شَعرِ حَاجِبِ غَيْرِهَا، وتُرَقِّقُهُ لِيَصِيرَ حَسَنًا. «وَالْمُتَنَمِّصَةُ»: الَّتِى تَأْمُرُ مَنْ يَفْعَلُ بِهَا ذَلِكَ.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٤/ ١٤٧-١٤٨) بتصرف.

وَأَمَّا النَّامِصَةُ فَهِيَ الَّتِي تُزِيلُ الشَّعرَ مِنَ الْوَجْهِ(١) وَالْمُتَنَمِّصَةُ الَّتِي تَطْلُبُ فِعلَ ذلك بها ... وهذا الفعل حرام إلَّا إذا نبتت للمرأة لحية أو شوارب فلا تحرُم إزالتها بل يُستحب عندنا.

وَأَمَّا الْمُتَفَلِّجَاتُ وَالْمُرَادُ مُفَلِّجَاتُ الْأَسْنَانِ بِأَنْ تَبْرُدَ مَا بَيْنَ أَسْنَانِهَا الثَّنَايَا وَالرُّبَاعِيَّاتِ. وَتَفْعَلُ ذَلِكَ الْعَجُوزُ وَمَنْ قَارَبَتْهَا فِي السِّنِّ إِظْهَارًا لِلصِّغَرِ وَحُسْنِ الْأَسْنَانِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْفُرجَةَ اللَّطِيفَةَ بَيْنَ الْأَسْنَانِ تَكُونُ لِلْبَنَاتِ الصِّغَارِ ... فَإِذَا عَجزَتِ الْمَرأَةُ كَبُرَتْ سِنُّهَا وَتَوَحَّشَتْ فَتبْرُدُهَا بِالْمِبْرَدِ لِتَصِيرَ لَطِيفَةً حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ وَتُوهِمَ كَوْنَهَا صَغِيرَةً ... وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا الْوَشْرُ، وَمِنْهُ لَعنُ الْوَاشِرَةِ وَالْمُسْتَوْشِرَةِ.

وَهَذَا الْفِعلُ حَرَامٌ عَلَى الْفَاعِلَةِ وَالْمَفْعُولِ بِهَا، لِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ؛ وَلِأَنَّهُ تَغْيِيرٌ لِخَلْقِ اللهِ تَعَالَى؛ وَلِأَنَّهُ تَزْوِيرٌ؛ وَلِأَنَّهُ تَدليسٌ... وَأَمَّا قَوْلُهُ: «**الْمُتَفَلِّجَاتُ لِلْحُسْنِ**» فَمَعناهُ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ طَلَبًا لِلْحُسْنِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْحَرَامَ هُوَ الْمَفْعُولُ لطلب الحُسن أما لو احتاجت إِلَيْهِ لِعِلَاجٍ أَوْ عَيْبٍ فِي السِّنِّ وَنَحوِهِ فلابأس والله أعلم(٢).



(١) أي: من الحاجبين.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٤/ ١٥٠-١٥٢) بتصرف.

(٢٩٧) باب النهى عن نتف الشيب من اللحية والرأس وغيرهما وعن نتف الأمرد شعر لحيته عند أول طلوعه

(١٦٥٥) عن عمرو بن شُعيبٍ عن أبيه عن جَدِّه رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ، فإنَّهُ نورُ المُسْلِم يومَ القيامةِ».

وفى رواية: «لَا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِى الْإِسْلَامِ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»[٢].

۞ فقوله ﷺ: «لا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ» أى: لا تنتفوا الشعر الأبيض من اللحية أو الرأس.

«فإنَّهُ نورُ المُسْلِم يومَ القيامةِ» أى: وَقَارُهُ الْمَانِعُ مِنَ الْغُرُورِ بِسَبَبِ انْكِسَارِ النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَالْفُتُورِ وَهُوَ الْمُؤَدِّى إِلَى نُورِ الْأَعمَالِ الصَّالِحَةِ فَيَصِيرُ نُورًا فِى قَبْرِهِ وَيَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ فى ظلمات حشره ... قال ابن الْعَرَبِىِّ: إِنَّمَا نَهَى عَنِ النَّتْفِ دُونَ الْخَضْبِ لِأَنَّ فِيهِ تَغْيِيرَ الْخِلْقَةِ عَنْ أَصلِهَا بِخِلَافِ الْخَضْبِ فَإِنَّهُ لَا يُغَيِّرُ الْخِلْقَةَ عَلَى النَّاظِرِ إِلَيْهِ[٣].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٤٦٣).
(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٦٠).
(٣) تحفة الأحوذى (٧/ ٢٣٨).

(١٦٥٦) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن عمِل عملًا لَيْس عليه أمْرُنا فهُو رَدٌّ»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٧٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٩٧) كتاب الصلح - ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

(٢٩٨) باب كراهية الاستنجاء باليمين ومس الفرج باليمين من غير عذر

(١٦٥٧) عن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «إذا بَالَ أَحَدُكُمْ، فَلاَ يَأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَسْتَنْجِ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَتَنَفَّسْ فِي الإِنَاءِ»[1].

۞ الاستنجاء تطهير القُبُل والدُّبر من الحَدَث من البول أو الغائط.

«إذا بَالَ أَحَدُكُمْ، فَلاَ يَأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَسْتَنْجِ بِيَمِينِهِ» يعنى لا يُمسك الذَّكَر باليمين فيغسله؛ لأن اليد اليُمنى مُكرمة... ولهذا قال العلماء رحمهم الله: اليمنى هى المُقدَّمة إلا فى مواضع الأذى، فاليسرى تُقدَّم للأذى واليمنى لما سواه... وعلى هذا فيستنجي باليسار، ويَصُب الماء باليمين؛ لأن النبى ﷺ نهى عن الاستنجاء باليمين.

«وَلاَ يَتَنَفَّسْ فِي الإِنَاءِ» يعنى إذا شرب فالسُّنة أن يتنفس ثلاث مرات يشرب أولًا ثم يقطع ثم يشرب ثانيًا ثم يقطع ثم يشرب ثالثًا... هكذا هى السُّنة، وهو أنفع للبدن وأنفع للمعدة ... لأن العطش التهاب فى المعدة وحرارة فإذا جاءها الماء دفعة واحدة أثَّر عليها ... وإذا كان يمصه مصًّا ويتنفس ثلاثًا فهو أهنأ وأبرأ وأمرأ كما قال النبى ﷺ ... لكن إذا تنفس لا يتنفس فى الإناء ... بل يُزيل فمه عن الإناء ثم يتنفس؛ لأن التنفس بالإناء فيه ضرر على الشارب؛ لأن النَّفَس يكون صاعدًا والماء يكون نازلًا فيلتقيان فيحصل الشَّرَق ... وفيه أيضًا أذى لمن بعده؛ لأنه قد يخرج مع نَفَسِه ميكروبات فتكون فى الماء فتؤثر على مَن شرب من بعده ... فلذلك نهى النبى ﷺ عن أن يتنفس الإنسان فى الإناء ... والله الموفق[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٤) كتاب الوضوء - ومسلم (٢٦٧) كتاب الطهارة.

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ١٩١) بتصرف.

(٢٩٩) باب كراهة المشى فى نعلٍ واحدة أو خُفٍّ واحد لغير عذر وكراهة لبس النعل والخُف قائمًا لغير عذر

(١٦٥٨) عن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «لا يَمْشِ أحدُكم فى نَعلٍ واحدةٍ، لِينْعَلْهُما جميعًا، أو لِيخْلَعهُما جميعًا».

وفى رواية: «أوْ لِيُحفِهِما جميعًا»[١].

(١٦٥٩) وعنه قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقول: «إذا انْقَطَعَ شِسْعُ نَعلِ أحدِكُم، فلا يَمْشِ فى الأخْرَى حتَّى يُصلِحَها»[٢].

(١٦٦٠) وعن جابرٍ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ نَهى أنْ يَنْتَعِلَ الرَّجُلُ قائمًا[٣].

۞ ففى تلك الأحاديث ينهى النبى ﷺ أن ينتعل الإنسان برجلٍ واحدة.. أو أن يلبس خُفًّا برجلٍ واحدة.. فإما أن ينعلهما جميعًا وإما أن يُحفيهما جميعًا.. يعنى: لا يلبس فى الرجلين أى شىء.

ولا بد أن نعلم أن لبس النعال من السُّنة.. وقد تتعجب إذا قلت لك أن الاحتفاء أيضًا من السُّنة.. يعنى أن تمشى أحيانًا حافيًا ليعلم الناس أن هذا أيضًا من سُنة النبى ﷺ.

ولهذا كان النبى ﷺ ينهى عن كثرة الإرفاه ويأمر بالاحتفاء أحيانًا.

۞ فإذا لبست النعل فابدأ بالرجل اليمنى.. وإذا خلعت النعل فابدأ بالرجل اليُسرى... ومن السُّنة أن تصلى بالنعل أو الخُف إذا كان المسجد مفروشًا

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٥٥) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٩٧) كتاب اللباس والزينة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٩٨) كتاب اللباس والزينة.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٤٨٣).

بالرمل أو الحصباء .. أما إذا كان المسجد مفروشًا بالسجاد أو الموكيت فلا بد أن تخلع حذاءك أو نعلك حتى لا يتلوث المسجد.. إلا إذا كان عندك خُفٌّ مخصوص لا تلبسه إلا فى المسجد فلا بأس بذلك من أجل إظهار سُنة النبى ﷺ... لأن النبى ﷺ قال: «**خالفوا اليهود.. صَلُّوا فى نِعالكم**».. وإذا كنت تصلى التهجد فى البيت بالنعل فلا بأس بذلك إحياءً لسُنة النبى ﷺ.

۞ وفى تلك الأحاديث نهى النبى ﷺ أن ينتعل الرجل بنعلٍ واحدٍ.. فإما أن يلبسهما جميعًا أو يخلعهما جميعًا.. وذلك لأن الإسلام جاءٍ بالعدل حتى فى اللباس.. فلا تُنعل إحدى الرجلين وتترك الأخرى لأن هذا فيه ظلمٌ للأخرى ولأنه مخالف للوقار وقد يكون ذلك سببًا لأن تتعثر وتقع على الأرض.

۞ وأما حديث جابر فقد نهى النبى ﷺ أن ينتعل الرجل قائمًا.. هذا إذا كان النعل يحتاج إلى معالجة فى إدخاله فى الرِّجل.. لأنه إن فعل ذلك ورفع رجله ليلبس نعله فربما يسقط على الأرض.. أما النعال التى تُلبس بسهولة فلا بأس أن ينتعل الإنسان وهو قائم لأن ذلك لا يدخل فى النهى الوارد فى الحديث.. والله أعلم.

(٣٠٠) باب النهى عن ترك النار فى البيت عند النوم ونحوه سواء كانت فى سراجٍ أو غيره

(١٦٦١) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النبيِّ ﷺ قال: «لاَ تَتْرُكُوا النَّارَ فِى بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ»[1].

(١٦٦٢) وعن أبى موسى الأشعرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: احترَقَ بَيْتٌ بالمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا حُدِّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَأْنِهِم، قال: «إِنَّ هذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذا نِمْتُمْ، فَأَطْفِئُوهَا»[2].

۞ «لاَ تَتْرُكُوا النَّارَ فِى بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ» هَذَا عَامٌّ تَدخُلُ فِيهِ نَارُ السِّرَاجِ وَغَيْرُهَا .. وَأَمَّا الْقَنَادِيلُ الْمُعَلَّقَةُ فِى الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا فَإِنْ خِيفَ حَرِيقٌ بِسَبَبِهَا دَخَلَتْ فِى الْأَمْرِ بِالْإِطْفَاءِ وَإِنْ أُمِنَ ذَلِكَ كَمَا هُوَ الغَالِبُ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهَا لِانْتِفَاءِ الْعِلَّةِ.

وذلك أن النار كما وصفها النبى ﷺ فى هذه الأحاديث عدو للإنسان فإذا أبقاها الإنسان ونام فربما تأتى الفويسقة - يعنى الفأرة - فتنخسها ثم تشتعل كما هو الشأن فيما سبق .. كانت السُّرُج من النار تُوقَد فى الزمان الأول ... تُوقَد بالودك والزيت وشبهه ثم صارت تُوقَد بالجاز وكلها مواد سائلة ... فإذا جاءت الفأرة وعبثت بها انصبَّ الذى فى السراج على الأرض ثم اشتعلت النار وحصل الحريق ... ولهذا أمر النبى ﷺ بإطفاء النار عند النوم لئلا يحصل هذا الحريق.

أما الآن فهناك مصابيح كهربائية لا يحصل من ورائها الضرر الذى كان يحدث عند ترك السراج الذى به نار.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٩٣) كتاب الاستئذان - ومسلم (٢٠١٥) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٩٤) كتاب الاستئذان.

لكن لا بد أن نحرص على عدم ترك الدفايات موقدة لفترة طويلة وهى قريبة من الفراش لئلا يحدث حريقٌ فى البيت أثناء النوم - عافانا الله وإياكم من كل سوء.

وقد سبق شرح حديث أبى موسى الأشعرى عند شرحنا للحديث رقم (١٦٥) فأرجو الرجوع إليه ففيه فوائد طيبة بإذن الله (جلَّ وعلا).

(١٦٦٣) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «غَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكِئُوا السِّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الْبَابَ، وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَحُلُّ سِقَاءً، وَلا يَفْتَحُ بَابًا، وَلا يَكْشِفُ إِنَاءً، فَإِنْ لَمْ يَجِد أَحَدُكُمْ إِلَّا أَنْ يَعرُضَ عَلَى إِنَائِهِ عُودًا، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللهِ، فَلْيَفْعَلْ، فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ»[1].

۞ هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ جُمَلٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالْأَدَبِ الْجَامِعَةِ لِمَصَالِحِ الْآخِرَةِ وَالدُّنْيَا ... فَأَمَرَ ﷺ بِهَذِهِ الْآدَابِ الَّتِى هِىَ سَبَبٌ لِلسَّلَامَةِ مِنْ إِيذَاءِ الشَّيْطَانِ... وَجَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ أَسْبَابًا للسَّلَامَةِ مِن إيذَائِهِ ... فَلَا يَقْدِرُ عَلَى كَشْفِ إِنَاء وَلَا حَلِّ سِقَاءٍ وَلَا فَتح بَابٍ وَلَا إِيذاءِ صَبِىٍّ وَغَيْرِهِ إِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَمَّى عِنْدَ دُخُولِ بَيْتِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لا مبيت أى لاسلطان لَنَا عَلَى الْمَبِيتِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ ... وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ عِنْدَ جِمَاعِ أَهْلِهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشيطان وجنِّب الشيطان مارزقتنا كَانَ سَبَبَ سَلَامَةِ الْمَوْلُودِ مِنْ ضَرَرِ الشَّيْطَانِ ... وَكَذَلِكَ شِبْهُ هَذَا مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ فِى الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ... وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى فِى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ، يُسْتَحَبُّ أَنْ يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ أَمْرٍ ذِى بَالٍ[2].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠١٢) كتاب الأشربة.

* أوكئوا السقاء: أى اربطوا فتحة السقاء.. والسقاء هو الذى يُوضع فيه الماء والشراب.

* الفويسقة: الفأرة - تُضرم: تُحرق.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٢٦٨).

(٣٠١) باب النهى عن التكلُّف وهو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة

۞ قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أى: قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى أنتحل النبوة وأتقوَّل القرآن.

ولست أيضًا من الشاقِّين عليكم.. ولست من القائلين بغير علمٍ.... بل إنه ﷺ كان يقول ويؤيده فاطر السموات والأرض على قوله بإقراره عليه.

(١٦٦٤) وعن ابن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نُهِينا عنِ التَّكلُّفِ[١].

(١٦٦٥) وعن مسْرُوق قال: دخَلْنا على عبدِ الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أيُّها النَّاسُ مَن عَلِم شيئًا فلْيقُلْ بهِ، ومَن لَم يَعلَم فليقُلْ: الله أعلَمُ، فإنَّ مِنَ العِلْمِ أن يقولَ الرجلُ لِمَا لا يَعلمُ: الله أعلمُ. قال الله تعالى لنَبيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[٢].

۞ أما قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نُهِينَا عنِ التَّكَلُّفِ فهذا موقوفٌ لفظًا مرفوعٌ حُكمًا.. أى أن الذى نهاهم هو النبى ﷺ.. فإذا قال الصحابى كلمة: نُهينا.. فاعلم أن هذا له حُكم الرفع.. يعنى كأنه قال: نهانا رسول الله ﷺ... وقوله: نُهِينَا عنِ التَّكَلُّفِ أى: نُهينا أن يتكلف أحدنا ما لا علم له به أو أن يحاول أن يظهر بمظهر العالِم الذى يعلم كل شيء.. وليس كذلك.

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٢٩٣) كتاب الاعتصام.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٨٠٩) كتاب تفسير القرآن.

۞ أما الحديث الثانى فيخبر فيه مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ وهو أحد أئمة التابعين أنهم دخلوا على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال لهم مؤدِّبًا ومُعلِّمًا: يا أيها الناس مَنْ عَلِمَ شيئًا فليَقُل به ومَن لم يعلم فليَقُل: الله أعلم.

هكذا.. يجب على الإنسان إذا سُئل عما لا يعلم فلا يفتى بما لا يعلم ويقول كلامًا لا يدرى هل هو صحيح أم لا... فإذا سُئل عَما لا يعلم فلا حرج أن يقول: الله أعلم... فقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.. فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم.

ولذا يجب على العلماء أن يُعلموا تلاميذهم قول: الله أعلم.. وقد كان بعض أساتذتى الذين تعلمت على أيديهم يعلمنا حين نسأله بعض الأسئلة.. فكان يجيب على بعضها ويقول فى البعض الآخر: الله أعلم.

فكنا نتعجب مع أننا على يقين أنه يعلم إجابتها.. فكنت أسأله وأنا معه وحدى فكان يخبرنى أنه يربينا على قول: الله أعلم.

ولا بد أن نعلم أن العالِم إذا أجاب فى بعض المسائل بقول: الله أعلم سيثق الناس بعلمه ويعلمون أنه يتورع عن أن يجيب بشىءٍ يخالف الكتاب والسُّنة.. كما أنه إذا قال هذا فإنه يُعوِّد نفسه الرضوخ للحق وعدم التصدُّر للفتوى..

ولقد رأينا فى هذه الأيام مَن يتصدر للفتوى وهو لا يملك أدوات العلم والفقه والفتوى.. فيُفتى بغير علم ... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ **فى كتابه «الفتوى الحموية»**: كانوا يقولون: «ما أفسد الدنيا والدين إلا أربعة: نصف متكلم ونصف فقيه ونصف لغوى ونصف طبيب».

أما المتكلم: فإنه أفسد الأديان والعقائد؛ لأن أهل الكلام الذين نالوا من الكلام شيئًا ولم يصلوا إلى غايته اغتروا به. وأما أهل الكلام الذين وصلوا إلى

غايته فقد عرفوا حقيقته ورجعوا إلى الحق.

ونصف فقيه: يُفسد البُلدان ؛ لأنه يقضى بغير الحق، فيفسد البلدان، فيعطى حق هذا لهذا، وهذا لهذا.

ونصف نحوى: لأنه يُفسد اللسان ؛ لأنه يظن أنه أدرك قواعد اللغة العربية فيلحن فيفسد اللسان.

ونصف طبيب: فيفسد الأبدان ؛ لأنه لا يعرف، فربما يصف دواءً يكون داءً، وربما لا يصف الدواء فيهلك المريض.

فالشاهد أنه لا يجوز للإنسان أن يُفتى بغير علم.. بل عليه أن يُفتى فيما يعلم.. ولا يتحرج أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم.

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: ومَن لَم يَعلَم فليَقُلْ : الله أعلَمُ، فإنَّ مِنَ العِلْمِ أن يَقُولَ الرَجُلُ لِمَا لا يَعلَمُ: الله أعلمُ. قال الله تعالى لنَبيِّهِ ﷺ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾.

(٣٠٢) باب تحريم النياحة على الميت، ولطم الخد، وشق الجيب ونتف الشعر وحَلْقِه، والدعاء بالويل والثبور

(١٦٦٦) عن عمر بن الخطَّابِ ﵁ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «المَيِّتُ يُعذَّبُ في قَبْرِهِ بما نِيح عليه». وفي رواية: «ما نِيحَ عليه»[١].

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الميت يُعذَّب في قبره بما نِيح عليه... وفي رواية أخرى يخبر النبي ﷺ أن مَن نِيح عليه فإنه يُعذَّب بما نِيح عليه يوم القيامة...

فالميت يُعذَّب بما نيح عليه في قبره ويوم القيامة.. فكلما ناح عليه أحدُ أقاربه فإنه يُعذَّب في القبر ويوم القيامة.

۞ ولا بد أن نعلم أولًا أن البكاء نوعان:

أولًا: البكاء الذي تقتضيه الطبيعة البشرية حُزنًا على فراق الأحباب.. كما بكى النبي ﷺ على وفاة ابنه إبراهيم الذي مات وهو طفلٌ صغير.

ثانيًا: البكاء الذي ينوح فيه الإنسان كنوح الحمام.. أي يبكي برنة.

فالبكاء الذي تقتضيه الطبيعة البشرية لا شيء فيه ما دام أنه يبكي حُزنًا على فراق أحبابه دون أن يعترض على القضاء والقدر.. ودون أن يلطم الإنسان خدًّا أو يشق جيبًا أو يدعو بدعوى الجاهلية... أما البكاء المحرم فهو النياحة.

۞ وقد يسأل سائل ويقول: وما ذنب الميت حتى يُعذَّب بما نِيح عليه؟!

والجواب: أن الميت يُعذَّب في قبره ويوم القيامة بما نيح عليه في حالتين

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩٢) كتاب الجنائز - ومسلم (٩٢٧) كتاب الجنائز.

فقط؛ الحالة الأولى: إذا أوصى أهله أن ينوحوا عليه بعد موته فنفذوا وصيته وناحوا عليه.

الحالة الثانية: إذا علم الإنسان أن من عادة أهله أن ينوحوا على كل مَن يموت فلم ينههم أن ينوحوا عليه بعد موته وهو يعلم أنهم سينوحون عليه بعد موته.. فهذا يُعذَّب.

أما إذا أوصاهم قبل أن يموت ألا ينوحوا عليه ولا يعترضوا على القضاء والقدر وأخبرهم أنه برىء ممن ينوح عليه بعد موته فخالفوا وصيته وناحوا فلا ذنب عليه ولا يُعذَّب فى قبره ولا يوم القيامة لأنه أوصاهم ألا ينوحوا.. فالذنب عليهم هم.. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

فيجب على كل واحدٍ منا أن يوصى أهله ألا ينوحوا عليه بعد موته ولا يعترضوا على القضاء والقدر حتى ينجو من هذا العقاب والعذاب بعد موته.



(١٦٦٧) وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ليْسَ مِنَّا مَن ضَرَبَ الخُدُودَ، وشَقَّ الجُيوبَ، ودَعا بِدَعوى الجاهلية»[1].

۞ ومن التقاليد التى حاربها الإسلام: تقاليد الجاهلية فى الموت وما يتصل به من نياحة وعويلٍ، وغُلوٍّ فى إظهار الحزن والجزع.

وقد علَّم الإسلام أتباعه أن الموت إنما هو رحلة من دارٍ إلى دار، لا إلى فَناءٍ مُطلَق، ولا عدمٍ صِرف، وأن الجزع لا يُحيى ميتًا، ولا يرد قضاء الله به.

فعلى المؤمن أن يتقبل الموت كما يتقبل كل مصيبة تصيبه صابرًا محتسبًا، آخذًا العِبَر آملًا فى لقاءٍ أبدى فى الدار الآخرة مُرددًا قول القرآن: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة: ١٥٦].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٤) (١٢٩٧)، كتاب الجنائز - ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان.

أما صنيع أهل الجاهلية فهو منكر حرام برىء منه رسول الله ﷺ حين قال: «**ليس منَّا مَن لطم الخدود وشَقَّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية**».

ولا يحل للمسلم أن يلبس من شارات الحداد أو يترك التزين أو يغير الزى والهيئة المعتادة، إظهارًا للجزع والحزن، إلا ما كان من زوجة على زوجها فإنها يجب أن تَحِدَّ عليه أربعة أشهر وعشرًا، وفاءً لحق الزوجية، وللرباط المقدس الذى جمع بينهما، حتى لا تكون مَعرِضًا للزينة، ومتعلقًا لأبصار الخُطَّاب فى مدة العدة التى اعتبرها الإسلام امتدادًا للزوجية السابقة فى كثير من الحقوق، وسياجًا لها.

أما إذا كان الميت غير الزوج -كالأب والابن والأخ- فلا يحل للمرأة الحداد عليه أكثر من ثلاث ليال... روى البخارى عن زينب بنت أبى سلمة أنها روت عن أم حبيبة زوج النبى ﷺ، حين توفى أبوها أبو سفيان بن حرب، وعن زينب بنت جحش حين توفى أخوها، أن كلا منهما دعت بطِيبٍ لمست منه، ثم قالت: والله مالى بالطِّيب من حاجة، غير أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تَحِدَّ على ميتٍ فوق ثلاث ليالٍ، إلا على زوجٍ، أربعة أشهُرٍ وعشرًا**».

وهذا الإحداد على الزوج واجب لا تَساهُل فيه... ولقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن ابنتى تُوفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها، أفتكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «لا»، وهو يدل على حُرمة التَّزيُّن والتجمُّل طوال المدة المفروضة.

أما الحزن من غير جزع، والبكاء من غير عويل، فذلك من الأمور الفطرية التى لا إثم فيها... وسمع عمر بعض النسوة يبكين على خالد بن الوليد، فأراد بعض الرجال منعهن، فقال له: دعهن يبكين على أبى سليمان، ما لم يكن نقع أو لقلقة[1][2].

---

(١) النقع: التراب على رأس، واللقلقة: الصوت.

(٢) الحلال والحرام/ د. يوسف القرضاوى (٢١٩-٢٢١) بتصرف.

(١٦٦٨) وعن أبى بُردة قال: وَجِعَ أبُو موسى الأشْعرىُّ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، فغُشِىَ عليه، ورأسُهُ فى حِجْرِ امْرأةٍ مِن أهْلِهِ، فأقْبلَتْ تَصِيحُ بِرنَّةٍ فَلَمْ يَسْتَطِعِ أنْ يَرُدَّ عليها شيئًا، فلَمَّا أفاقَ، قال: أنَا بَرِىءٌ مِمَّنْ بَرِئَ مِنْهُ رسُولُ الله ﷺ ... إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَرِئَ مِن الصَّالِقَةِ، والحَالِقَةِ، والشَّاقة[1].

۞ ففى هذا الحديث أن أبا موسى الأشعرى رَضِوَاللَّهُعَنْهُ كان فى مرضه فغُشى عليه – أى: أُغمى عليه– وكان رأسه فى حجر امرأته أم عبد الله.. فلما رأت أنه غُشى عليه ظنت أنه مات فأقبلت برنة أى: بصوتٍ شديد مع البكاء.. فلم يستطع أن يرد عليها لمرضه الشديد.. فلما أفاق قال لها: أنا برىء ممن برئ منه رسول الله ﷺ.. إن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة: وهى التى ترفع صوتها عند المصيبة.. «والحَالِقَةُ»: التى تَحلِقُ رأسَهَا عِنْدَ المُصيبةِ.. وكان هذا من عادة النساء فى الجاهلية أن من مات زوجها كانت تحلق شعرها كله علامة على حزنها عليه.

«والشَّاقَّةُ»: هى التى تَشُقُّ ثَوْبَها عند المصيبة.. وكذلك التى تنكش شعرها.. فهؤلاء الثلاثة تبرأ منهم رسول الله ﷺ

والواجب على كل مسلمٍ ومسلمة أن يرضوا جميعًا بقضاء الله وقدره... فإذا وقعت المصيبة ومات أحد أحبابنا فما فائدة الاعتراض.. هل الاعتراض على القضاء والقدر سيرد إلينا ذلك الميت؟!.. كلا.. بل إن الذى يعترض تشتد عليه المصيبة ويبوء بالذنوب والآثام.. أما الذى يرضى فإن الله عَزَّوَجَلَّ يربط على قلبه ويعوضه خيرًا بالأجر والثواب.. وفوق ذلك بالجنة.. فقد قال تعالى: «مَا لِعَبْدِى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٦) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٤) كتاب الإيمان.
«الصالقة»: التى تَرفَعُ صوتَهَا بالنِّياحةِ والنَّدبِ – «والحَالِقَةُ»: التى تَحلِقُ رأسَهَا عِنْدَ المُصيبةِ. «والشَّاقَّةُ»: التى تَشُقُّ ثَوْبَها.

المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احتَسَبَهُ، إِلَّا الجَنَّةُ»(١).

(١٦٦٩) وعن المغيرةِ بن شُعبَةَ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «مَنْ نِيحَ عليه، فإِنَّهُ يُعَذَّبُ بِما نِيحَ عليهِ يَوْم القِيامةِ»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٦٦٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٦٧٠) وعن أمِّ عَطيَّةَ نُسيْبَةَ رضي الله عنها قالت: أَخَذَ عَلَينا رسُولُ الله ﷺ عِنْدَ البَيْعة أَنْ لا نَنُوح(٣).

۞ فمن أهمية هذا الأمر وخوف النبى ﷺ على الأمة من الوقوع فى الاعتراض على القضاء والقدر.. وعدم الرضا.. كان النبى ﷺ يأخذ البيعة على النساء خاصة على ترك النياحة.. وذلك لأن هذا الأمر خاصٌّ بالنساء فى الغالب.

ولذا قالت أم عطية رضي الله عنها: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح.

قال الإمام النووى رحمه الله: فِيهِ تَحرِيمُ النَّوْحِ وَعَظِيمُ قُبحه والاهتمام بِإِنْكَارِهِ وَالزَّجْرِ عَنْهُ لِأَنَّهُ مُهَيِّجٌ لِلْحُزْنِ وَرَافِعٌ لِلصَّبْرِ وَفِيهِ مُخَالَفَةُ التَّسْلِيمِ لِلْقَضَاءِ وَالْإِذْعَانِ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى(٤).

(١٦٧١) وعن النُّعمانِ بن بشيرٍ رضي الله عنهما قال: أُغْمِيَ على عبدِ الله بن رَواحَةَ رضي الله عنه، فجَعلَتْ أُخْتُهُ تبكى، وتقُولُ: واجبلاهُ، واكذا، واكذا: تُعدِّدُ عليه. فقال حينَ

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٢٤) كتاب الرقاق.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩١) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٣) كتاب الجنائز.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٠٦) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٦) كتاب الجنائز.

(٤) مسلم بشرح النووى (٦/ ٣٣٦).

أفاقَ: ما قُلْتِ شيئًا إلا قِيل لي: أنْتَ كَذَلِكَ؟[١].

۞ ففي هذا الحديث يخبر النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كان مريضًا فأُغمي عليه فظنت أخته أنه مات فأخذت تبكي عليه وتقول: واجبلاه. واكذا.. وكأنها تقول: يا مَن كنت سَنَدي.. ويا من كنت تحميني ويا من كنت تُطعمني.. ويا من كنت تُدخل عليَّ السعادة.... تُعدد عليه..

فلما أفاق – ولم يكن يسمعها حين أُغمي عليه– قال لها: ما قلتِ شيئًا إلا قيل لي – أي قالت له الملائكة–: أنت كذلك؟... وكأن الملائكة تُؤنبه.. أي: هل أنت الذي كان يحميها ويُطعمها ويُسعدها... إذًا .. فأين الله؟!...

۞ فلا بُد أن نعلم أن النياحة والتعديد على الميت يؤذيه... إلا إذا كان قد أوصى بألا يفعل أهله ذلك..

فعلينا أن نرضى بقضاء الله وقدره.. وألا نقول إلا خيرًا عند الميت لأن الملائكة يحضرون غُسله وتكفينه ويُؤمِّنون على ما نقول.

(١٦٧٢) وعن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: اشْتَكى سَعدُ بنُ عُبادةَ رضي الله عنه شَكْوى، فأتاهُ رسُولُ الله ﷺ يعُودُهُ معَ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ، وسَعد بن أبي وقَّاص، وعبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنهم، فلما دخَلَ عليه، وجدهُ في غَشْيةٍ، فقال: «أَقد قَضى؟» قالوا: لا يا رسُول الله. فبَكى رسُولُ الله ﷺ. فلمَّا رأىَ القَوْمُ بُكاءَ النبيِّ ﷺ بَكَوْا، قال: «ألا تَسْمَعُونَ؟ إنَّ الله لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، ولا بِحُزْنِ القَلْبِ، ولكنِ يُعَذِّبُ بهذا ـ وأشار إلى لِسانهِ ـ أو يرحَمُ»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٩٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٢٦٧) كتاب المغازي.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٠٤) كتاب الجنائز – ومسلم (٩٢٤) كتاب الجنائز.

(١٦٧٣) وعن أبى مالكٍ الأشْعرىِّ ﷺ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «النَّائحةُ إذا لَم تَتُبْ قَبْل مَوْتِها تُقَامُ يومَ القيامةِ وعليها سِربَالٌ مِن قَطِرانٍ، ودِرعٌ مِن جَرَبٍ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن المرأة النائحة إذا لم تَتُبْ قَبْل مَوْتِها فإنها تأتى يوم القيامة وعليها سِربَالٌ مِن قَطِرانٍ، ودِرعٌ مِن جَرَبٍ... والسربال هو الثوب الذى تلبسه المرأة فيكون من مادة القطران وهى مادة شديدة الاشتعال لتزيد من اشتعال النار فى جسدها.. والدرع ما كان مُلاصقًا للبدن..

والمعنى: أن جلدها أجرب... والجربان لا يطيق نفسه، فيحك جسده فى الجدران وفى الأرض وبأظافره، وبأى شىء أمامه... فهذه المرأة النائحة تأتى يوم القيامة على هذه الصورة المهينة تُعذَّب فى النار. إن لم تَتُب.. أما إن تابت تاب الله عليها.. فالله غفورٌ رحيم.

فإن كان هذا العذاب للمرأة الضعيفة إذا ناحت فما ظنك بالرجل إذا كان ينوح؟!.

۞ بل وفى رواية أخرى أن النبى ﷺ «لعن النائحة والمستمعة» لأن التى تسمعها وتوافقها على ذلك ولا تُنكر عليها مُشاركة لها فى الإثم.

(١٦٧٤) وعن أُسيدِ بنِ أبى أَسِيد التَّابعىِّ عنِ امْرأةٍ مِن المبايعاتِ قالتْ: كان فيما أَخَذَ علينا رسُولُ الله ﷺ فى المعرُوف الذى أُخِذَ علينا أنْ لا نَعصِيَهُ فيه: أنْ لا نَخمِشَ وجْهًا، ولا نَدعُوَ ويْلًا، ولا نَشُقَّ جيْبًا، وأنْ لا نَنْشُرَ شَعرًا[٢].

۞ ففى هذا الحديث يخبر أُسيد بن أبى أُسيد التابعى عن امرأة من المبايعات.. أى: اللاتى بايعن النبى ﷺ أنها قالت: كان فيما أخذ علينا رسُولُ الله

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى أحكام الجنائز (٣٠)، وصحيح سنن أبى داود (٢٦٨٥).

ﷺ فى المعرُوف الذى أُخِذَ علينا أنْ لا نَعصِيَهُ فيه.. أى: ألا نعصى رسول الله ﷺ فى هذا المعروف.. فمن المعلوم أن طاعة الرسول ﷺ هى طاعة لله عَزَّوَجَلَّ ومعصيته معصية لله عَزَّوَجَلَّ..

«أنْ لا نَخْمِشُ وجْهًا» أى: ألا نخدش ونمزق ونُدمى وجوهنا بأظفارنا.

« ولا نَدعُوَ ويْلًا» أى: كأن تقول كل واحدة منهن: يا ويلى! فكأنها تنادى المصيبة وتقول: يا مصيبة احضرى، ويا عذاب احضر، فهى تنادى العذاب، والملائكة تقول: آمين، فقد يحضر لك عذابك، وتستحقين أن تُعذَّبى عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الملائكة تُؤمِّن على ما يدعو الإنسان به على نفسه أو لنفسه فى مثل هذه الحالة.

وقولها: (ولا نشق جيبًا)، يعنى: ألا تشق المرأة ثيابها من ناحية العنق فيظهر جسدها للناس – عياذًا بالله–.

«وأنْ لا نَنْشُر شَعرًا» أى: لا تنشر المرأة شعرها وتُظهره أمام الناس بدعوى أنها حزينة على المُتوفَّى عندها.

۞ وهذه أشياء خطيرة جدًّا تقع بسببها المرأة فى الاعتراض على القضاء والقدر.. وإن لم تَتُب فقد تبوء بسخط الله وعذابه.

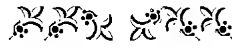
(١٦٧٥) وعن أبى مُوسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسُولَ الله ﷺ قال: «ما مِن ميِّتٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ باكيهِمْ، فيقُولُ: واجبلاهُ، واسَيِّداهُ، أو نحو ذلك إلا وُكِّل بهِ مَلَكانِ يلْهَزَانِهِ: أهَكَذا كُنتَ؟ »[1].

۞ هذا الحديث يحكى ما حدث لعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. وقد سبق شرح

---

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٨٨).
«اللَّهْزُ»: الدَّفْعُ بجُمْعِ اليَدِ فى الصَّدرِ.

هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٦٧١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٦٧٦) وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «اثْنتانِ فی النَّاسِ هُما بِهِم كُفْرٌ: الطَّعنُ فی النَّسَبِ، والنِّياحَةُ على المَيِّتِ»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٥٨٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) صحيح: رواه مسلم (٦٧) كتاب الإيمان.

(٣٠٣) باب النهى عن إتيان الكُهَّان والمنجمين والعراف وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعير ونحو ذلك

(١٦٧٧) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: سأَلَ رسُولَ الله ﷺ أُناسٌ عنِ الكُهَّانِ، فقال: «لَيْسُوا بِشىءٍ» فقالوا: يا رسُولَ الله إنَّهُم يُحَدِّثُونَنا أحيانًا بشىءٍ فيكُونُ حقًّا؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمةُ مِن الحَقِّ يَخْطَفُها الجِنِّىُّ، فيَقُرُّها فى أُذُنِ وَلِيِّهِ، فيخْلِطُونَ معهَا مائةَ كِذْبَة»(١).

وفى روايةٍ للبخارىِّ عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها سمِعَت رسُول الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الملائكةَ تَنْزِلُ فى العَنانِ - وهو السَّحابُ - فتذْكُرُ الأمْرَ قُضِىَ فى السَّماءِ، فَيَسْتَرِقُ الشَّيْطانُ السَّمْعَ، فيَسْمَعُهُ، فيُوحِيهِ إلى الكُهَّانِ، فيكْذِبُونَ معها مائةَ كَذْبةٍ مِن عِنْدِ أنفُسِهِم».

۞ لقد بُعث النبى ﷺ فوجد فى المجتمع طائفة من الدجالين تُعرف باسم «الكُهان» أو «العرافين» الذين يَدَّعون معرفة الغيوب الماضية أو المُستقبَلة، عن طريق اتصالهم بالجن أو غير ذلك... فأعلن الرسول ﷺ الحرب على هذا الدجل الذى لا يقوم على علم ولا هدى ولا كتابٍ مُنير.

وتلا عليهم ما أوحى الله به ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] فلا الملائكة ولا الجن، ولا البشر يعلمون الغيب.

وأعلن النبى ﷺ بأمر ربه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٦٢) كتاب الطب - ومسلم (٢٢٢٨) كتاب السلام.
قوله: «فَيَقُرُّها» هو بفتح الياء، وضم القاف والراء، أى: يُلقِيهَا. «والعنانُ» بفتح العين.

وأخبر تعالى عن جن سليمان عليه السلام: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

فمن ادَّعى معرفة الغيب الحقيقى، فهو كاذب على الله وعلى الحقيقة وعلى الناس... وقد جاء بعض الوفود إلى النبى ﷺ فظنوا أنه ممن يزعمون الاطلاع على الغيب فخبأوا له شيئًا فى أيديهم، وقالوا له: أخبرنا ما هو؟ فقال لهم فى صراحة: «**إنى لست بكاهن، وإن الكهانة والكُهان فى النار**»(١).

۞ والكهان جمع كاهن..والكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل فيقول مثلًا: سيحدث كذا وكذا فى يوم كذا وكذا أو يقول للإنسان ستكون سعيدًا فى اليوم الفلانى أو سيصيبك حادث فى اليوم الفلانى أو ما أشبه ذلك... هؤلاء هم الكهان.

والكهان هم أُناسٌ من بنى آدم لهم أولياء من الجن، والجن أعطاهم الله قدرة عظيمة على الأشياء سرعة وقوة... فهم يصعدون إلى السماء ولكل واحدٍ منهم مقعد مُعيَّن يسترقون السمع أى ما يسمعونه من الملائكة فيقضى الله تبارك وتعالى الأمر فى السماء، ثم يخطفون منه شيئًا فينزلون إلى أوليائهم من البشر من بنى آدم وهم الكهان ثم يضيف هذا الكاهن إلى هذا الذى سمعه من السماء كما قال النبى ﷺ- وهو الصادق-: «**مائة كذبة**» يعنى يزيدون على ما سمعوا فيصادف أن هذه الكلمة المسموعة من السماء تقع كما سمعها الجنى وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ سُئل عن الكهان فقال: «**ليسوا بشىء**».

يعنى لا تعبأوا بهم ولا تأخذوا بكلامهم ولا يهمكم أمرهم... قالوا: يا رسول الله إنهم يقولون القول فيكون حقًّا فأخبر النبى ﷺ أن هذا الحق الذى يقع ممزوج بمائة كذبة.

---

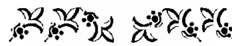
(١) الحلال والحرام/ د. يوسف القرضاوى (ص٢٠٩-٢١٠).

هؤلاء الكهان يجب علينا أن نكذبهم وألا نصدقهم ... ومَن أتاهم وسألهم وصدقهم فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ يعنى كفر بالقرآن ... ووجه كفره أن الله تعالى قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

فإذا ادَّعى هؤلاء علم الغيب وصدَّقهم الإنسان صار مضمون تصديقه إياهم تكذيب قول الله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] أما المُنجمون فهم الذين يتعاطون علم النجوم ... وعلم النجوم قسمان: قسمٌ لا بأس به وهو ما يُسمى بعلم التسيير .. يعنى علم سير النجوم يستدل به على الفصول وعلى طول النهار وقِصَر النهار ... فهى حاجة لا بأس بها ولا حرج بها؛ لأن الناس يهتدون به لمصالحهم.

قال الله تعالى ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ يعنى الجبال ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦] يهتدون فى ظلمات البر والبحر إذا لم يكن هناك سحاب يغطى النجوم اهتدوا بها.

القسم الثانى علم التأثير مقابل علم التسيير: علم التأثير أن يتخذ من علم النجوم سببًا يدَّعى به أن ما حصل فى الأرض فإنه بسبب النجم ... كالذين يقولون فى الجاهلية مُطرنا بنوء كذا وكذا..هذا هو المحرم ولا يجوز اعتماده؛ لأنه لا علاقة لما يحدث فى الأرض بما يحدث بالسماء...السماء مستقلة فما حصل من أثرٍ فى السماء فإنه لا يؤثر على الأرض، فالنجوم لا دخل لها فى الحوادث[1].



(١٦٧٨) وعن صَفِيَّةَ بِنتِ أبى عُبيدٍ، عن بعض أزواج النَّبىِّ ﷺ ورضى الله عنهنَّ، عن النَّبىِّ ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أربَعِينَ يَومًا»[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٠١-٢٠٢) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣٠) كتاب السلام.

العراف: هو الكاهن الذى يدَّعى معرفة الغيب.

۞ من الناس مَن يذهب إلى الكهنة والعرَّافين اعتقادًا منهم أن هؤلاء يعلمون الغيب والأشياء التى تَحدُث فى المستقبل وأنهم يملكون النفع والضُّر لهذا الإنسان... وهذا اعتقادٌ خاطئ.

ولقد كانت الكهانة فى الجاهلية صنعة لأقوام تتصل بهم الشياطين وتسترق السمع من السماء وتُحدثهم به، ثم يأخذون الكلمة التى نُقلت إليهم من السماء بواسطة هؤلاء الشياطين ويُضيفون إليها ما يُضيفون من القول، ثم يحدثون بها الناس ... فإذا وقع الشىء مطابقًا لما قالوا اغترَّ بهم الناس واتخذوهم مرجعًا فى الحكم بينهم، وفى استنتاج ما يكون فى المستقبل..ولهذا نقول: الكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل.

۞ **والذى يأتى إلى الكاهن ينقسم إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: أن يأتى إلى الكاهن فيسأله من غير أن يُصدقه، فهذا مُحرَّم، وعقوبة فاعله أن لا تُقبل له صلاة أربعين يومًا، كما ثبت فى «صحيح مسلم» أن النبى ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أربَعِينَ يَومًا أو أربعين ليلة**».

القسم الثانى: أن يأتى إلى الكاهن فيسأله ويصدقه بما أخبر به، فهذا كُفرٌ بالله عَزَّوَجَلَّ لأنه صدقه فى دعوى علمه الغيب...وتصديق البشر فى دعوى علم الغيب تكذيب لقول الله تعالى: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [النمل: ٦٥]. ولهذا جاء فى الحديث الصحيح «**مَن أتى عرَّافًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ**»(١).

القسم الثالث: أن يأتى إلى الكاهن فيسأله ليُبين حاله للناس، وأنها كهانة وتمويهٌ وتضليل...فهذا لا بأس به... ودليل ذلك أن النبى ﷺ أتاه ابن صياد، فأضمر له النبى ﷺ شيئًا فى نفسه فسأله النبى ﷺ ماذا خبَّأ له؟ فقال: الدُّخُّ...

(١) صحيح: رواه أحمد (٩٠٣٥)، والحاكم، وصححه الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى صحيح الجامع (٥٩٣٩).

يريد الدخان، فقال النبى ﷺ: «اخسأ فلن تَعدُو قدرك»(١).

(١٦٧٩) وعن قَبِيصَةَ بن المُخارِق رضي الله عنه قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقولُ: «العِيافَةُ، والطِّيَرةُ، والطَّرْقُ، مِن الجِبْتِ»(٢).

۞ وللأمانة العلمية.. هذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١٦٨٠) وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَن اقْتَبَسَ عِلمًا مِن النُّجُومِ، اقْتَبَس شُعبةً مِن السِّحرِ زادَ ما زَادَ»(٣).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن اقتبس علمًا من النجوم.. أى: مَن أخذ وتعلَّم علمًا من علومها.. وعلم النجوم: دربٌ من السحر يخبر به مَن يقرأ النجوم بأمورٍ غيبية.. وكلما ازداد علمًا من النجوم كلما ازداد اقتباسًا من السحر... فعلم التنجيم حرام.

ويكون كفرًا وشركًا إذا اعتقد أن النجوم لها تأثير فى المخلوقات وأنها فاعلة... وأما إذا أُريد بعلم النجوم: معرفة الأوقات، ومعرفة الجهات كجهة القبلة، ومعرفة جهة السير فى الليل؛ فإن هذا لا مانع منه، ولا بأس به...

قال الله عز وجل: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل:١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٧]، والناس يستدلون بالنجوم على جهات

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٥٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٩٣٠) كتاب الفتن.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٩٠٠).

الطَّرْقُ: هو الزَّجرُ، أى: زَجْرُ الطَّيرِ، وهو أنْ يَتيمَّنَ أو يتشاءَمَ بطَيرانِه، فإنْ طارَ إلى جهةِ اليمين تَيمَّنَ، وإنْ طارَ إلى جهةِ اليَسارِ تشاءم. قال أبو داود: «والعِيافةُ»: الخَطُّ.

قال الجَوْهَرى فى «الصِّحاح»: الجِبْتُ كَلِمةٌ تقع على الصَّنَم والكاهِن والسَّاحِر ونحو ذلك.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٧٤).

السير، وعلى جهة القبلة، وإذا حصل لهم أن ضاعوا فى أسفارهم نظروا فى مطالع النجوم ومغاربها، ونظروا إلى النجوم الثابتة التى تكون مستقرة، فيعرفون بذلك جهة القبلة، ويهتدون إلى جهة السير، وكذلك يعرفون الشمال من الجنوب والشرق من الغرب بالنجوم.. فإن النجوم تطلع من الشرق، وتغرب فى الغرب، ويعرف بذلك أيضًا الشمال والجنوب... فهذا تَعلُّمه لا بأس به، وإنما المحذور تَعلُّم العلم الذى فيه اعتقاد أن الكواكب والنجوم تؤثر فى الكون، فهذا هو الأمر المحرم.

(١٦٨١) وعن معاويَةَ بنِ الحَكَم ﷺ قال: قُلْتُ يا رسُولَ الله إنِّى حَدِيثُ عَهْدٍ بجاهِلِيَّة، وقد جاء الله تعالى بالإسْلام، وإنَّ مِنَّا رجالًا يأتُونَ الكُهَّانَ؟ قال: «فلا تَأتِهم» قُلتُ: ومِنَّا رجالٌ يتَطيَّرُون؟ قال: «ذلِكَ شَىءٌ يجِدُونَه فى صُدُورِهم، فلا يَصُدَّنَّهم» قُلتُ: ومِنَّا رجالٌ يَخُطُّونَ؟ قال: «كان نَبىٌّ مِن الأنبياءِ يَخُط، فمَنْ وافَقَ خَطَّهُ، فذاكَ»[(١)].

۞سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٧٠٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٦٨٢) وعن أبى مسعودٍ البدرِى ﷺ أنَّ رسُولَ الله ﷺ نَهى عنْ ثَمَنِ الكَلْبِ، ومَهْرِ البَغِىِّ، وحُلوانِ الكاهِنِ[(٢)].

۞هذا الحديث آخر حديث فى هذا الباب ... باب النهى عن إتيان الكُهان والمنجمين ونحوهم... وهو أن النبى ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغى، وحُلوان الكاهن.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٣٧) كتاب البيوع - ومسلم (١٥٦٧) كتاب المساقاة.

أما الكلب فمعروف واقتناؤه حرام، لا يجوز للإنسان أن يقتنى الكلب، ويجعله عنده فى بيته، سواء كان فى بيت الطين أو المُسلح أو الشعر، إلا فى ثلاث حالات:

(١) كلب الحرث - يعنى الزرع -.

(٢) وكلب الماشية - يعنى إنسان عنده غنم أو إبل أو بقر - يتخذ الكلب ليحرسها .. وبالقياس فيجوز اقتناء الكلب لحراسة القصور والمنشآت والمصانع وغيرها. لكن بشرط ألا يكونْ داخل القصر وإنما يكونْ مربوطًا فى الحديقة.

(٣) كلب الصيد - يصيد به الإنسان ... لأن الكلب إذا تعلم وصاد شيئًا فإنه حلال... فلو كان عند الإنسان كلب مُعلَّم، وأرسله على أرنبٍ مثلًا، ثم صادها وقتلها فهى حلال. لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

فهذه الثلاثة: كلب الحرث والماشية والصيد، يجوز للإنسان أن يقتنيها، وما عدا ذلك فاقتناؤه حرام... والكلب أخبث الحيوانات فى النجاسة؛ لأن نجاسته مُغلظة... إذا شرب فى الإناء يجب أن يُغسل الإناء سبع مرات، واحدة منها بالتراب، والأفضل أن يكون التراب مع الأُولى، فهو الأحسن والأَوْلى.

فإذا كان عند الإنسان كلب، ولو كان كلب صيد، أو ماشية، أو زرع، فإنه يَحرُم عليه بيعه، وثمنه عليه حرام.

لكن إذا انتهى منه يعطيه أحدًا يحتاج له، ولا يحل له أن يبيعه ؛ لأن النبى ﷺ نهى عن ثمن الكلب.

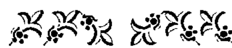
الثاني: حلوان الكاهن: الكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل

فيقول سيحصل كذا، سيكون كذا... سواء كان عامًّا أو خاصًّا، كأن يقول لشخصٍ مُعين سيصيبك كذا وكذا فى يوم كذا وكذا... والكهان كانوا فى الجاهلية يأتى إليهم الناس، فيأخذون منهم أجرًا كبيرًا، فنهى النبى ﷺ عن حلوان الكاهن ؛ لأن الكهانة حرام، وماكان حرامًا، فالتعويض عليه حرام.

الثالث: مهر البغى: يعنى أُجرة الزانية - والعياذ بالله - وذلك بأن يكون هناك امرأة تزنى، فيأتى إليها العُصاة من بنى آدم فيستأجرونها لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل، ويعطونها عن ذلك عِوضًا... هذا أيضًا نهى عنه الرسول ﷺ لأن هذا العوض يكون فى مقابلة حرام... وإذا حرم الله شيئًا، حرم ثمنه، وحرم أُجرته.

فإذا قال قائل: لو أن الكاهن قد تاب إلى الله وقد كسب مالًا من الناس، هل يرده إليهم؟ نقول: لا، لا يرده إليهم لأنهم قد أخذوا عِوضًا، فلا يجمع لهم بين العوض والمعوض... ولكن يتصدق به، تخلُّصًا منه، أو يجعله فى بيت المال، إن كان هناك بيت مال.

وكذلك يُقال فيمن باع كلبًا سواء كان كًلب صيد أو حرث أو ماشية وأخذ ثمنه ثم هداه الله وتاب، نقول: لا ترد هذا الثمن إلى الذى أخذ الكلب، فتجمع له بين العوض والمعوض، ولكن تَصدَّق به تخلُّصًا منه. أو اجعله فى بيت المال. وكذلك يُقال فى مهر البغى، إذا تابت إلى الله ورجعت هل ترد ما أخذت من الزانى أو لا؟ لا ترده إليه، بل تجعله فى بيت المال، أو تتصدق به أو تنفقه فى أى سبيلٍ من سُبل الخير[1].



(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٤/ ٢٠٤-٢٠٥) بتصرف.

(٣٠٤) باب النهى عن التطير

۞ والتطير أو التشاؤم ببعض الأشياء، من أمكنة وأزمنة وأشخاص وغير ذلك من الأوهام التى راجت سوقها - ولا تزال رائجة - عند كثير من الجماعات والأفراد... وقديمًا قال قوم صالح له: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

وكان فرعون وقومه إذا أصابتهم سيئة: ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[الأعراف: ١٣١]

وكثيرًا ما قال الكفار الضالون - حينما ينزل بهم بلاء الله - لدُعاتهم ورسل الله إليهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨].

وكان جواب هؤلاء المرسلين: ﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]..أى: سبب شؤمكم مُصاحبٌ لكم، وهو كفركم وعنادكم، وعُتوكم على الله ورسله.

وكان لعرب الجاهلية فى هذا الجانب سَبْحٌ طويل، واعتقادات شتَّى، حتى جاء الإسلام فأبطلها، وردَّهم إلى النهج العقلى القويم.

ونَظم النبى ﷺ التطير مع الكهانة والسحر فى سلكٍ واحد، وقال: «**ليس مِنَّا من تَطيَّر أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهِّن، أو تَسحَّر أو تُسحِّرَ له**»(١)(٢).

۞ والتطير هو التشاؤم بمرئى أو مسموع أو زمان أو مكان. وإنما سُمِّى تطيُّرًا؛ لأن العرب فى الجاهلية كانوا يتشاءمون بالطيور فغلب الاسم على كل التشاؤم. فمن العرب مَن يتشاءم بالطير إن طار يسارًا تشاءم وإن رجع إليه ألغى ما يريد الإقدام عليه، وإن طار أمامه عزم على تنفيذ ما أراد، وإن طار على يمينه قال: هذا عملٌ ميمون مبارك.. فصاروا يتشاءمون بالطيور.

كذلك إذا رأوا الطيور فى الجو ربما يتشاءمون بها فإذا رأى أحدهم الغراب

---

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢١٩٥)، وصحيح الجامع (٥٤٣٥).

(٢) الحلال والحرام (ص ٢١٥) د. يوسف القرضاوى.

يتشاءم به، والبومة يتشاءم بها أيضًا، وبعض الطيور.

ومن العرب مَن يتشاءم بالزمان. فلقد شاع عندهم أن المرأة إذا تزوجت فى شوَّال لم تُوَفَّق ولا يحبها زوجها ... وهذا باطل، فإن النبى ﷺ عقد على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فى شَوَّال ودخل بها فى شوال فكانت تقول: أيكم أحظى عنده منى .. لأنهم يزعمون أن المرأة إذا تزوجت فى هذا الشهر لم تُوفَّق فى زواجها وهذا أيضًا ما له تفسير... ومنهم مَن يتشاءم بالسفر فى يوم الأربعاء يقولون: إذا سافر الإنسان فى يوم الأربعاء لا بد من حدوث حادثٍ أو خسارة أو بلاء وهذا أيضًا لا صحة له ... فيوم الأربعاء والخميس والثلاثاء وغير ذلك كلها واحد ... ومنهم مَن يتشاءم بشهر صَفَر... الذى بعد محرم ويقولون: لو عمل فيه الإنسان أى عمل: زواج أو وُلد له فيه أو سافر فيه فإنه لا يُوفَّق... وهذا أيضًا باطل، ولا أثر بالشهر فى تفاؤل ولا فى تشاؤم[1].

(١٦٨٣) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا عَدوَى ولا طِيَرَةَ، ويُعجِبُنى الفألُ» قالوا: وما الفألُ؟ قال: «كَلِمةٌ طَيِّبَةٌ»[2].

(١٦٨٤) وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا عَدوَى ولا طِيَرَةَ، وإنْ كان الشُّؤمُ فى شَيءٍ ففى الدَّارِ، والمرأةِ، والفَرَسِ»[3].

(١٦٨٥) وعن بُرَيْدَة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ لا يتطيَّرُ[4].

❁ قوله ﷺ: **«لا عَدوَى»**

فالعدوى المنفية هى اعتقاد أن الأمراض تنتقل بالاختلاط، وأنها مُعدية

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٠٥، ٢٠٦) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٧٦) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٢٤) كتاب السلام.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٧٢) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٢٥) كتاب السلام.

(٤) صحيح: رواه الحكيم، والبغوى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٤١).

بطبعها، وهذا مَنفيٌّ بلا شك؛ لكن مخالطة المريض للصحيح قد يكون سببًا لانتقال المرض، ولكن ليس بلازم أن يكون ذلك، فقد يوجد السبب ويتخلف المسبب بإذن الله عَزَّوَجَلَّ... فاعتقاد أن العدوى حاصلة بالطبع وأنها شيءٌ لازم، فهذا باطل وليس بصحيح... وأما اعتقاد أن مخالطة المريض للصحيح قد يجعله الله سببًا فى انتقال العدوى فهذا صحيح، وقد يوجد الاتصال ولا توجد العدوى، ويبقى المريض مرضه فيه، ويَسلم الصحيح من مرض المريض... فالأمر يرجع إلى مشيئة الله وإرادته، فإن شاء أن يُعدى المريض أعدى، وإن شاء ألا يُعدى لم يُعدِ... لكن الأخذ بالأسباب مطلوب... وقد جاء فى قصة عمر لما ذهب إلى الشام وقت الطاعون، فاستشار الصحابة فى دخول الشام فاختلفوا، فمنهم مَن يقول: أقدم، ومنهم مَن يقول: لا تقدم، وانتهى أمره أنه لا يقدم... وبعد ذلك جاء عبد الرحمن بن عوف وأخبرهم أن النبي ﷺ قال: «**إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه**»، وجاء فى الحديث: «**فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد**» وفى الحديث الآخر: «**لا يُورد مُمرضٌ على مُصحٍّ**».

ولا تَعارُض بين الأحاديث؛ لأن المنفى غير المُثبَت... فالمنفى هو اعتقاد أن الأمراض مؤثرة بطبعها، والمُثبَت هو الأخذ بالأسباب والوقاية، وعدم التعرض لشيء قد يحصل بسببه شيء من المضرة... وقد يتخلف الضرر مع وجود الاتصال والاحتكاك بالمريض؛ ولهذا لما قال النبى ﷺ هذا الكلام قال رجل: ما شأن الإبل تكون فى الرمل كالظباء - يعنى فى صحتها، وقوتها، ونشاطها، وسرعة انتقالها وتحركها- ثم يكون معها البعير الأجرب فيحصل لها الجرب؟! فالنبى ﷺ أجاب بجوابٍ عظيم فقال: «**فمن أعدى الأول؟!**» يعنى: أول بعير حصل له الجرب مَن الذى أعداه؟! فهو ما كان أجرب، ولكن الجرب حصل بتقدير الله عَزَّوَجَلَّ، بدون أن يكون هناك اتصال بين مريض وصحيح.

وهذا يبين أن الأمور كلها ترجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قوله ﷺ: «ولا طِيَرَةَ» وقد تكلمنا عن التطير.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: التطير إِنَّمَا يضر مَن أَشْفق مِنْهُ وَخَافَ وَأما مَن لم يُبالِ بِهِ وَلم يعبأ بِهِ شَيْئًا لم يَضُرّهُ أَلْبَتَّةَ وَلَا سِيمَا إن قَالَ عِنْد رُؤْيَة مَا يُتطير بِهِ أَو سَمَاعه: اللَّهُمَّ لَا طير إِلَّا طيرُك وَلَا خير إِلَّا خيرُك وَلَا إِلَه غَيْرك .. اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْت وَلَا يذهب بالسيئات إِلَّا أَنْت وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بك.

۞ ثم قال ﷺ: «وإِنْ كان الشُّؤْمُ فى شَىءٍ ففى الدَّارِ، والمرأةِ، والفَرَسِ»

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ مَالِكٌ وَطَائِفَةٌ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَإِنَّ الدَّارَ قَد يَجْعَلُ اللهُ تَعَالَى سُكْنَاهَا سَبَبًا لِلضَّرَرِ أَوِ الْهَلَاكِ وَكَذَا اتِّخَاذُ الْمَرأَةِ الْمُعَيَّنَةِ أَوِ الْفَرَسِ أَوِ الْخَادِمِ قَد يَحصُلُ الْهَلَاكُ عِنْدَهُ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى ... وَمَعنَاهُ قَد يَحصُلُ الشُّؤْمُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: هُوَ فِي معنى الاستثناء من الطيرة... أى الطِّيَرَةُ مَنْهِيٌّ عَنْهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ دار يكره سكناها أوامرأة يكره صُحبتها أو فرس أوخادم فَلْيُفَارِقِ الْجَمِيعَ بِالْبَيْعِ وَنَحوِهِ وَطَلَاقِ الْمَرأَةِ... وَقَالَ آخَرُونَ: شُؤْمُ الدَّارِ ضِيقُهَا وَسُوءُ جِيرَانِهَا وَأَذَاهُمْ وَشُؤْمُ الْمَرأَةِ عَدَمُ وِلَادَتِهَا وَسَلَاطَةُ لِسَانِهَا وَتَعَرُّضُهَا لِلرِّيَبِ.. وَشُؤْمُ الْفَرَسِ أَنْ لا يُغزَى عَلَيْهَا وَقِيلَ: حِرَانُهَا وَغَلَاءُ ثَمَنِهَا ... وَشُؤْمُ الْخَادِمِ سوء خُلقه وَقِلَّةُ تَعَهُّدِهِ لِمَا فُوِّضَ إِلَيْهِ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالشُّؤْمِ هُنَا عَدَمُ الْمُوَافَقَةِ[1].

۞ ولذا جاء فى الحديث الثالث أن النبى ﷺ كان لا يتطير من شىء، وكان إذا بعث عاملًا سأل عن اسمه، فإذا أعجبه اسمه فرح به ورُؤى بِشرُ ذلك فى وجهه، وإن كره اسمه رُؤى كراهية ذلك فى وجهه... وإذا دخل قرية سأل عن اسمها، فإن أعجبه اسمها فرح ورُؤى بِشرُ ذلك فى وجهه، وإن كره اسمها رُؤى

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٣١٦، ٣١٩).

كراهية ذلك فى وجهه.

❀❀❀ ❀❀❀

(١٦٨٦) وعن عُروَةَ بنِ عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكِرَتِ الطِّيَرةُ عِنْد رسولِ الله ﷺ فقال: «أحسَنُها الفألُ، ولا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فإذا رأى أحدُكُمْ ما يَكْرَه، فليَقُلْ: اللَّهُمَّ لا يأتى بالحَسنَاتِ إلا أنْتَ، ولا يَدفَعُ السَّيِّئاتِ إلا أنْتَ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِكَ»[1].

۞ وللأمانة العلمية.. هذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

❀❀❀ ❀❀❀

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٩).

(٣٠٥) باب تحريم تصوير الحيوان فى بساطٍ أو حجر أو ثوبٍ أو درهم أو مخدة أو دينار أو وسادة وغير ذلك وتحريم اتخاذ الصورة فى حائط وسقف وستر وعمامة وثوب ونحوهما والأمر بإتلاف الصورة

(١٦٨٧) عن ابنِ عُمر رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الَّذِين يَصنَعونَ هذِه الصُّورَ يُعَذَّبُون يومَ القيامةِ، يُقَالُ لهم: أحيُوا ما خَلَقْتُم»(١).

۞ التصوير ينقسم إلى قسمين:

قسم متفق على تحريمه: وهو أن يصور ما فيه روح على وجه تمثال من خشب أو حجر أو طين أو جبس أو ما أشبه ذلك... فهذا إذا صوَّره على صورة حيوان أو إنسان أو أسد أو أرنب أو قرد أو غير ذلك فهذا حرام بالاتفاق، وفاعله ملعون على لسان النبى ﷺ ويُعذَّب يوم القيامة فيُقال له: أحيى ما خلقت.

وفى حديث ابن عباس قال: كل مصورٍ فى النار.... فإن كنت لا بد فاعلًا فاصنع الشجر وما لا روح فيه.

والقسم الثانى: تصوير ما لا روح فيه مثل الأشجار والشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال، وما أشبهها فهذه جائزة.

۞ **قَوْلُهُ: «إنَّ الَّذِينَ يَصنَعُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ أَحيُوا مَا خَلَقْتُمْ» هُوَ أَمْرُ تَعجِيزٍ ... وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ صِفَةُ تَعذِيبِ الْمُصَوِّرِ وَهُوَ أَنْ يُكَلَّفَ نَفْخَ الرُّوحِ فِي الصُّورَةِ الَّتِي صَوَّرَهَا وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ فَيَسْتَمِرُّ تَعذِيبُهُ**(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٥١) كتاب اللباس - ومسلم (٢١٠٨) كتاب اللباس والزينة.
(٢) فتح البارى (١٠/٣٩٨).

ويُستثنى من هذا كله: الصور التي تكون للضرورة.. كصور البطاقة وجواز السفر وغير ذلك من الضرورات.



(١٦٨٨) وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: قَدِمَ رسُولُ الله ﷺ مِن سَفَرٍ وقَد سَترتُ سَهْوَةً لى بِقِرَامٍ فيه تماثِيلُ، فلَمَّا رآهُ رسُولُ الله ﷺ تلوَّنَ وَجْهُه وقال: «يا عائِشَةُ أشدُّ الناسِ عَذابًا عِنْدَ الله يوم القِيامةِ الذينَ يُضَاهُونَ بخَلْقِ الله» قالت: فقطَعناهُ، فجَعَلنا مِنْه وِسادةً أوْ وِسادَتَيْن(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٦٥٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٦٨٩) وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «كُلُّ مُصوِّرٍ فى النَّارِ يُجْعَلُ لهُ بِكُلِّ صُورةٍ صَوَّرَها نَفْسٌ فيُعَذِّبُهُ فى جهنَّم» قال ابن عباسٍ: فإنْ كُنْتَ لا بُدَّ فاعِلًا، فاصنَعِ الشَّجَرَ وما لا رُوحَ فيه(٢).

(١٦٩٠) وعنه قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «مَن صَوَّرَ صُورة فى الدُّنْيا، كُلِّف أنْ يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ يَوْمَ القِيامةِ ولَيْسَ بِنافِخٍ»(٣).

۞ ففى هذا الحديث أنه جاء رجل إلى ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقال له: إنى رجل أُصور هذه الصور.. وفى رواية البخارى أنه قال: إنى إنسان إنما معيشتى من صنعة يدى وإنى أصنع هذه التصاوير.

فقال له ابن عباس: لا أحدثك إلا بما سمعت من رسول الله ﷺ.. أى: لن

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخارى (٥٩٥٤) كتاب اللباس - ومسلم (٢١٠٧) كتاب اللباس.

«القِرامُ»، هو السِّتْرُ. «والسَّهوةُ» وهى: الصُّفَّةُ تكون بين يدى البيْتِ، وقيل: هى الطَّاقُ النَّافِذُ فى الحائطِ.

(٢) **متفق عليه:** رواه البخارى (٢٢٢٥) كتاب البيوع، ومسلم (٢١١٠) كتاب اللباس.

(٣) **متفق عليه:** رواه البخارى (٥٩٦٣) كتاب اللباس، ومسلم (٢١١٠) كتاب اللباس.

أقول لك قولًا من عندى ولن أذكر لك رأيى.. بل سأذكر لك ما قاله النبى ﷺ.. ثم قال ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً، فِى الدُّنيَا كُلِّفَ أَن يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَومَ القِيَامَة، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيهَا أَبدًا**» فَرَبَا الرَّجُلُ رَبْوَةً شَدِيدَةً، وَاصفَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ، إِنْ أَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَصنَعَ، فَعَلَيْكَ بِهَذَا الشَّجَرِ، وكُلِّ شَىْءٍ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ.

وفى رواية مسلم قال له ابن عباس: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِى النَّارِ، يجْعَلُ لَهُ، بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا، نَفْسًا فَيُعَذِّبُهُ فِى جَهَنَّمَ**» قال ابن عباس: فإن كنت لا بد فاعلًا، فاصنع الشجر وما لا روح فيه.

ففى الرواية الأولى أن الله عَزَّوَجَلَّ يعذب المصور.. أى: يأمر الملائكة أن تعذبه حتى ينفخ الروح فى تلك الصور.. ولن يستطيع أن ينفخ فيها الروح.. وفى الرواية الثانية أن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل له بعدد كل صورة مكانها شخص يعذبه... فلما ارتعد الرجل واصفرَّ وجهه قال له ابن عباس ليُطمئنه: وَيْحَكَ، إِنْ أَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَصنَعَ، فَعَلَيْكَ بِهَذَا الشَّجَرِ، وكُلِّ شَىْءٍ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ.

۞ فالشاهد: أن الصور التى ليس فيها روح لا بأس بها.. إنما المقصود هنا الصور التى فيها روح.. إلا إذا كانت للضرورة -كما قلنا- كصور البطاقة وجواز السفر وغير ذلك من الضرورات التى لا يستغنى عنها الإنسان فى حياته.. والله أعلم.

۞ وأما الحديث الثانى: «**مَن صَوَّرَ صُورة فى الدُّنْيَا، كُلِّف أنْ يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ يَوْمَ القِيامةِ ولَيْسَ بِنافِخٍ**»

يعنى: أنه لما صور صورة فى الدنيا وقد مُنع من ذلك وحُرم عليه ذلك، فإنه يُعاقَب يوم القيامة بأن يُكلَّف بأن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، ولا يقدر على النفخ، وليس بإمكانه أن ينفخ الروح فيها، وهذا تحذير من التصوير وترهيب منه.

(١٦٩١) وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ أشدَّ النَّاسِ عذابًا يومَ القِيامَةِ المُصوِّرُونَ»(١).

۞ والتقدير هنا: إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وقد استشكل كون المصور أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ فَإِنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُصَوِّرُ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْ آلِ فِرعَوْنَ... وَأَجَابَ الطَّبَرِيُّ: بِأَنَّ الْمُرَادَ هُنَا مَنْ يُصَوِّرُ مَا يُعبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ وَهُوَ عَارِفٌ بِذَلِكَ قَاصِدًا لَهُ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ بِذَلِكَ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُدخَلَ مُدخَلَ آلِ فِرعَوْنَ ... وَأَمَّا مَنْ لَا يَقْصِدُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ عَاصِيًا بِتَصوِيرِهِ فَقَطْ(٢).

وقال الإمام النووي رحمه الله: هِيَ مَحمُولَةٌ عَلَى مَنْ فَعَلَ الصُّورَةَ لِتُعبَدَ وَهُوَ صَانِعُ الْأَصنَامِ وَنَحوِهَا فَهَذَا كَافِرٌ وَهُوَ أَشَدُّ عَذَابًا ... وَقِيلَ هِيَ فِيمَنْ قَصَدَ الْمَعنَى الَّذِي فِي الْحَدِيثِ مِنْ مُضَاهَاةِ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى وَاعتَقَدَ ذَلِكَ فَهَذَا كَافِرٌ لَهُ مِنْ أَشَدِّ الْعَذَابِ مَا لِلْكُفَّارِ وَيَزِيدُ عَذَابُهُ بِزِيَادَةِ قُبْحِ كُفْرِهِ... فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَقْصِد بِهَا الْعِبَادَةَ وَلَا الْمُضَاهَاةَ فَهُوَ فَاسِقٌ صاحب ذنبٍ كبير ولا يكفُر كَسَائِرِ الْمَعَاصِي(٣).

(١٦٩٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «قالَ الله تعالى: ومَنْ أظْلَمُ ممن ذهب يَخلُق كخَلقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أو لِيَخلُقُوا حَبَّة، أوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرةً»(٤).

۞ قوله تعالى: «ومَنْ أظْلَمُ» أي: ليس هناك أظلم «مِمَّن ذهبَ يَخْلُقُ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٥٠) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٠٩) كتاب اللباس.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٣٩٧).

(٣) مسلم بشرح النووي (١٤/ ١٣٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٥٩) كتاب التوحيد، ومسلم (٢١١١) كتاب اللباس.

كخَلْقِي» أي: باعتبار التصوير والتقدير.. وإلا فالخلق الذى هو الإيجاد لا يكون من غيره سبحانه وتعالى أصلًا **«فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً»** أى: نملة صغيرة أوْ ليخلقوا «حَبَّةً» من القمح **«أوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»** لأنها من أنواع الحبوب أيضًا.

وفى هذه المواضع، اللام على سبيل التعجيز والتبكيت... تارة بتكليفهم خَلق حيوان وهذا أشد... وأخرى فى تكليفهم بخلق جَماد، وهو أهون ومع ذلك لا قدرة لهم على ذلك[١].

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَعنَاهُ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً فِيهَا رُوحٌ تَتَصَرَّفُ بِنَفْسِهَا كَهَذِهِ الذَّرَّةِ الَّتِى هِىَ خَلْقُ اللهِ تَعَالَى ... وَكَذَلِكَ فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةَ حِنْطَةٍ أَوْ شَعِيرٍ أَىْ: لِيَخْلُقُوا حَبَّةً فِيهَا طَعمٌ تُؤْكَلُ وَتُزْرَعُ وَتَنْبُتُ وَيُوجَدُ فِيهَا مَا يُوجَدُ فِى حَبَّةِ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَنَحوِهِمَا مِنَ الْحَبِّ الَّذِى يَخْلُقُهُ اللهُ تَعَالَى وَهَذَا أَمْرُ تَعجِيزٍ كَمَا سبق والله أعلم[٢].

يعنى إن كانوا صادقين يريدون أن يضاهوا خلق الله فليخلقوا حبة من طعام، ولتكن من البُرِّ... لو اجتمع أهل الأرض كلهم بل وأهل السماء على أن يخلقوا حبة من حنطة فإنهم لا يستطيعون.

۞ **إن الخَلْقَ فى اللغة خَلقان:** خَلقٌ بمعنى الإيجاد والتكوين من العدم، وخَلقٌ بمعنى التحويل... والله عَزَّوَجَلَّ له الخَلقُ المُطلق، أى: الإيجاد والتكوين الأصلى... وأما الذى يُطلَق عليه خالق من دون الله عَزَّوَجَلَّ فإنما يُطلق عليه ذلك مَجازًا، فيُقال للنجار الذى يصنع هذا الطاولة مثلًا: قد خلقها وصنعها وفطرها، وليس معنى ذلك أنه خلقها من عدم... فمادة هذه الطاولة هى من خلق الله عَزَّوَجَلَّ، ولو اجتمع أهل الأرض جميعًا على أن يصنعوا ويخلقوا هذا الخشب فلن يقدروا على ذلك؛ لأن هذا هو ما تفرَّد الله عَزَّوَجَلَّ به منذ الأزل.

(١) دليل الفالحين (٤/ ٤٣٤).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٤/ ١٣٢).

(١٦٩٣) وعن أبي طلحة رضي الله عنه أن رسُولَ الله ﷺ قال: «لا تَدخُلُ الملائِكَةُ بَيْتًا فيهِ كَلْبٌ ولا صُورَةٌ»(١).

(١٦٩٤) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وَعَدَ رسُولَ الله ﷺ جِبْريلُ أنْ يأتيهُ، فرَاثَ عليهِ حتَّى اشْتَدَّ على رسُولِ الله ﷺ، فخَرَجَ فَلَقِيَهُ جِبْرِيلُ فشَكَا إليه. فقال: إنَّا لا نَدخُلُ بيْتًا فيهِ كَلْبٌ ولا صُورةٌ(٢).

(١٦٩٥) وعن عائشة رضي الله عنها قالتْ: واعَدَ رسُولَ الله ﷺ جبريلُ عليه السلام في ساعةٍ أنْ يأتِيَهُ، فجاءتْ تلكَ السَّاعةُ ولم يأتِه، قالتْ، وكانَ بيدِهِ عَصًا، فطرحَها مِن يَدِهِ وهو يقول: «ما يُخْلِفُ اللهُ وَعدَهُ ولا رُسُلُهُ» ثم التَفَتَ، فإذا جِروُ كَلْبٍ تَحتَ سَريره. فقال: «مَتَى دَخَلَ هذا الكلَبُ؟» فقُلْتُ: والله ما دَرَيْتُ به، فأمر به فأُخْرِجَ، فجاءهُ جبريلُ عليه السلام، فقال رسُولُ الله ﷺ: «وَعَدتَنِي، فجلَسْتُ لكَ ولَمَ تأتِني» فقال: مَنَعني الكلْبُ الذي كان في بيْتِكَ وإنَّا لا نَدخُلُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ ولا صورَةٌ(٣).

۞ ففي هذه الأحاديث أن جبريل عليه السلام واعد رسول الله ﷺ أن يأتيه في ساعة مُعينة.. فجاءت تلك الساعة ولم يأتِ جبريل عليه السلام... فنظر النبي ﷺ فوجد جِرو كلبٍ تحت سريره فسأل عائشة رضي الله عنها وقال: «مَتَى دَخَلَ هذا الكلَبُ؟» فقالت له: والله ما دريت.. وكأنها تتعجب: كيف دخل ذلك الكلب ولم يُدخله أحد؟!... فأمر النبي ﷺ فأُخرج الكلب..

فجاءه جبريل عليه السلام.. والفاء هنا تفيد التعقيب والسرعة .. أي: فجاءه جبريل مباشرة بعد خروج الكلب من البيت فقال له ﷺ: «وَعَدتَني، فجلَسْتُ لكَ ولَمَ تأتِني» فقال: «مَنَعني الكلْبُ الذي كان في بيْتِكَ وإنَّا لا نَدخُلُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ ولا صورَةٌ».

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٣٢٢) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢١٠٦) كتاب اللباس.

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٥٩٦٠) كتاب اللباس.

راث: أبطأ وهو بالثاء المثلثة.

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢١٠٤) كتاب اللباس والزينة.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لا تَدخُلُ الملائكة بيتًا فيه كلب ولاصورة**».

قَالَ الْعُلَمَاءُ: سَبَبُ امْتِنَاعِهِمْ مِنْ بَيْتٍ فِيهِ صُورَةٌ كَوْنُهَا مَعصِيَةً فَاحِشَةً وَفِيهَا مُضَاهَاةٌ لِخَلْقِ اللهِ تَعَالَى... وَبَعضُهَا فِي صُورَةِ مَا يُعبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى.

وَسَبَبُ امْتِنَاعِهِمْ مِنْ بَيْتٍ فِيهِ كَلْبٌ لِكَثْرَةِ أَكْلِهِ النَّجَاسَاتِ وَلِأَنَّ بَعضَهَا يُسَمَّى شَيْطَانًا كَمَا جَاءَ بِهِ الْحَدِيثُ ... وَالْمَلَائِكَةُ ضِدُّ الشَّيَاطِينِ .. وَلِقُبْحِ رَائِحَةِ الْكَلْبِ وَالْمَلَائِكَةُ تَكْرَهُ الرَّائِحَةَ الْقَبِيحَةَ وَلِأَنَّهَا مَنْهِيٌّ عَنِ اتِّخَاذِهَا فَعُوقِبَ مُتَّخِذُهَا بِحِرمَانِهِ دُخُولَ الْمَلَائِكَةِ بَيْتَهُ وَصَلَاتَهَا فِيهِ وَاسْتِغْفَارَهَا لَهُ وَتَبرِيكَهَا عَلَيْهِ وَفِي بَيْتِهِ ودفعها أذى الشيطان ... وأما هؤلاء الملائكة الذين لايدخلون بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ أَوْ صُورَةٌ فَهُمْ مَلَائِكَةٌ يطوفون بالرحمة وَالتَّبرِيكِ وَالِاسْتِغْفَارِ ...

وَأَمَّا الْحَفَظَةُ فَيَدخُلُونَ فِي كُلِّ بيت ولايفارقون بَنِي آدَمَ فِي كُلِّ حَالٍ لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بإحصاء أعمالهم وكتابتها ... قال الخطابى: وإنما لا تدخل الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ أَوْ صُورَةٌ مِمَّا يَحرُمُ اقْتِنَاؤُهُ مِنَ الْكِلَابِ وَالصُّوَرِ ... فَأَمَّا مَا لَيْسَ بِحَرَامٍ مِنْ كَلْبِ الصَّيْدِ وَالزَّرعِ وَالْمَاشِيَةِ وَالصُّورَةِ الَّتِي تُمْتَهَنُ فِي الْبِسَاطِ وَالْوِسَادَةِ وَغَيْرِهِمَا فَلَا يَمْتَنِعُ دُخُولُ الْمَلَائِكَةِ بِسَبَبِهِ(١).

(١٦٩٦) وعن أبى الهيَّاجِ حيَّانَ بن حُصين قال: قال لى عَلىٌّ بن أبى طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **ألا أبعثُكَ على ما بَعَثَنى عليه رسُولُ الله ﷺ؟ أنْ لا تَدَعَ صُورةً إلا طَمَسْتَها، ولا قَبْرًا مُشْرِفًا إلا سَوَّيْتَهُ**(٢).

۞ ففى هذا الحديث أن على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لحيان بن حُصين: **ألا أبعثُكَ على ما بَعَثَنى عليه رسُولُ الله ﷺ؟** «**أنْ لا تَدَعَ صُورةً إلا طمَسْتَها، ولا قبْرًا**

(١) مسلم بشرح النووى (١٤/ ١١٨).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٦٩) كتاب الجنائز.

مُشْرِفًا إلا سَوَّيْتَهُ».

۞ قوله: «أنْ لا تَدَعَ صُورةً إلا طمَسْتَها»

المراد بذلك الصور... فالمُجسَّمة منها تُكسَر، والصور التى هى غير مجسمة تُطمَس... إلا إذا كانت فى شىء يُمتهَن كالفراش ونحوه فإنه لا بأس بذلك، لكن ليس للإنسان أن يشتريها، ولا أن يشترى شيئًا فيه صور... ولكنه إذا ابتُلى به ووصل إليه منْ طريقٍ لم يَسْعَ فيها فإنه يستعمله على وجه الامتهان.

۞ قوله: «ولا قَبْرًا مُشْرِفًا إلا سَوَّيْتَهُ»: المقصود من ذلك ألا يكون عليه بناء، فلا يُرفع رفعًا كبيرًا بحيث يزاد عليه من غير ترابه، وإنما يكون فى مقدار تُرابه دون أن يُزاد عليه شىء من غيره... وإن زيد عليه شىء خفيف مثل الحصى أو غير ذلك مما يُوضع عليه حتى لا تأخذه الرياح فيضيع القبر، فيكون وضع هذا الحصى سببًا فى بقائه... فذلك سائغ ولا بأس به، وأما أن يُزاد عليه شىء من غير القبر بحيث يُرفع، أو يُبنى عليه فإن ذلك لا يجوز ولا يسوغ.

ثُمَّ إن منِ العلماء مَن قال: إن القبر يكون مُسطحًا، ومنهم مَنْ قال: إنه يكون مُسنَّمًا، أى: أنه يرتفع شيئًا يسيرًا، بحيث يكون أعلاه ضيقًا وأصله واسعًا، فيتدرج شيئًا فشيئًا.

والأَولَى هو التسنيم؛ لأنه جاء ما يدل عليه فى بعض الآثار التى وصفت قبر النبى ﷺ وأنه كان مُسنَّمًا... وأيضًا التسطيح عُرضة لأن تمكث فوقه الحيوانات، فيكون ذلك سببًا لتهدُّمه، بخلاف ما إذا كان مُسنمًا، فإنه يكون مرتفعًا.





(٣٠٦) باب تحريم اتخاذ الكلب إلا لصيدٍ أو ماشية أو زرع

(١٦٩٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنِ اقْتَنَى كَلْبًا إلاَّ كَلْبَ صَيْدٍ أوْ مَاشِيَةٍ فَإنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أجْرِهِ كُلَّ يومٍ قِيرَاطَانِ»(١).

وفى رواية: «قِيرَاطٌ».

(١٦٩٨) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أمْسَكَ كَلْبًا، فَإنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يومٍ قِيرَاطٌ إلاَّ كَلْبَ حَرثٍ أوْ مَاشِيَةٍ»(٢).

وفى رواية لمسلم: «مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبِ صَيْدٍ، وَلاَ مَاشِيَةٍ وَلاَ أرضٍ، فَإنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أجْرِهِ قِيرَاطَانِ كُلَّ يَوْمٍ».

۞ الكلب معلوم وهو ذو ألوانٍ متعددة ... لكن يختص الأسود منه بأنه شيطان كما قال النبى ﷺ حين سُئل ما بال الكلب الأحمر من الأبيض من الأسود؟ قال: «**الكلب الأسود شيطان**»(٣) والكلب الأسود إذا مرَّ بين يدى المصلى قطع صلاته، ووجب عليه أن يستأنفها من جديد، وكذلك إذا مرَّ بين المصلى وسُترته فإنه يقطع الصلاة، ويستأنفها من جديد... والكلب الأسود لا يحل صيده عند أكثر العلماء حتى لو كان مُعلَّمًا وأرسله صاحبه وسَمَّى عليه؛ فإنه لا يحل صيده لأنه شيطان ... وإذا كان الكفار من بنى آدم لا يحل صيدهم ما عدا اليهود والنصارى فكذلك هذا الكلب الشيطان لا يصح صيده... وأما غيره من الكلاب ذات الألوان المتعددة فإنها لا تُبطل الصلاة ويُباح صيدها بالشروط المعروفة عند العلماء ... وأما اتخاذ الكلب وكون الإنسان يقتنيه فإن هذا حرام(٤).

۞ ومما لا شك فيه أنه يَحرُم على الإنسان اقتناء الكلب إلا فى الأمور التى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٨١) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٥٧٤) كتاب المساقاة.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٢٢) كتاب المزارعة - ومسلم (١٥٧٥) كتاب المساقاة.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٥١٠) كتاب الصلاة.
(٤) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢١٣).

نَصَّ الشرع على جواز اقتنائه فيها ... فإن «**مَن اتَّخذ كلبًا - إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع- انتقص من أجره كل يوم قيراطان**»[(١)] وإذا كان يُنتقص من أجره قيراطان فإنه يأثم بذلك لأن فوات الأجر كحصول الإثم كلاهما يدل على التحريم ... أى على ما رُتِّب عليه ذلك.

وبهذه المناسبة فإني أنصح كل أولئك الذين اغتروا بما فعله الكفار من اقتناء الكلاب وهى خبيثة ونجاستها أعظم نجاسات الحيوانات ... فإن نجاسة الكلاب لا تطهر إلا بسبع غسلات إحداها بالتراب ... حتى الخنزير الذى نَصَّ الله فى القرآن أنه محرم وأنه رجس فنجاسته لا تبلغ هذا الحد.

فالكلب نجسٌ خبيث ... ولكن مع الأسف الشديد نجد أن بعض الناس اغتروا بالكفار الذين يألفون الخبائث فصاروا يقتنون هذه الكلاب بدون حاجة وبدون ضرورة. يقتنونها ويُربونها وينظفونها مع أنها لا تنظف أبدًا ولو نُظفت بالبحر ما نُظفت لأن نجاستها عينية... ثم هم يخسرون أموالًا كثيرة فيضيعون بذلك أموالهم وقد نهى النبى ﷺ عن إضاعة المال[(٢)].

فأنصح هؤلاء المغترين أن يتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأن يُخرجوا الكلاب من بيوتهم... أما مَن احتاج إليها لصيدٍ أو حرثٍ أو ماشية فإنه لا بأس بذلك لإذن النبى ﷺ بذلك.

۞ وإن كان الإنسان المسلم إذا اقتنى كلبًا ليس بكلب صيدٍ ولا ماشية ولا زرعٍ -أى للحراسة- فإنه ينقص من عمله كل يومٍ قيراطان من الحسنات.. بل فوق ذلك أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب.. ولك أن تتصور بيتًا ليس فيه ملائكة... فإذا خلا البيت من الملائكة عشَّشت فيه الشياطين وكَثُرت الذنوب والمشاكل وكان ذلك إيذانًا بخروج البركة من ذلك البيت.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٨١) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٥٧٤) كتاب المساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٧) كتاب الزكاة، ومسلم (٥٩٣) كتاب الأقضية.

(٣٠٧) باب كراهية تعليق الجرس فى البعير وغيره من الدواب وكراهية استصحاب الكلب والجرس فى السفر

(١٦٩٩) عن أبى هريرة ﵁ قال: قال رسُول الله ﷺ: «لا تَصحَبُ الملائِكةُ رُفْقَةً فيها كلبٌ أو جرسٌ»(١).

(١٧٠٠) وعنه أن النبيَّ ﷺ قال: «الجَرَسُ مِن مزاميرِ الشَّيطانِ»(٢).

۞ ففى الحديث الأول أخبر النبى ﷺ أن الملائكة لا تصحب رفقة فيها كلب أو جرس.. والمقصود هنا: الكلب الغير مأذون فيه .. وإلا فقد أخبر النبى ﷺ فى حديثٍ آخر أنه يجوز للإنسان أن يقتنى كلبًا للصيد أو الماشية أو الزرع.. فأما إن كان كلبًا لغير ذلك فإن الملائكة لا تصحب هذه الرفقة.

وأما الحديث الثانى فقد وضَّح النبى ﷺ السبب لعدم صحبة الملائكة لتلك الرفقة التى فيها جرس: وذلك كون الجرس من مزامير الشيطان.

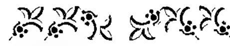
والجرس معلوم وهو هذا الذى يُعلَّق على الدواب، ويكون له رنة مُعينة تجلب النشوى والطرب والتمتُّع بصوته... فهذا نهى عنه النبى ﷺ بالتحذير منه حيث أخبر أن الملائكة لا تصحب رفقة فيها جرس ... لأنه مع مشى الدواب وهملجتها يكون له شىء من العزف والموسيقى.

قال الإمام النووى ﵀: أَمَّا فِقْهُ الْحَدِيثِ فَفِيهِ كَرَاهَةُ اسْتِصحَابِ الكلب والجرس فى الأسفار وأن الملائكة لاتصحب رُفْقَةً فِيهَا أَحَدُهُمَا.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١١٣) كتاب اللباس والزينة.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١١٤) كتاب اللباس والزينة.

وَالْمُرَادُ بِالْمَلَائِكَةِ مَلَائِكَةُ الرَّحمَةِ والاستغفار لا الحفظة ... وَقَد سَبَقَ بَيَانُ هَذَا قَرِيبًا وَسَبَقَ بَيَانُ الْحِكْمَةِ فِي مُجَانَبَةِ الْمَلَائِكَةِ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ ... وَأَمَّا الْجَرَسُ فَقِيلَ سَبَبُ مُنَافَرَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ أَنَّهُ شَبِيهٌ بِالنَّوَاقِيسِ أَوْ لِأَنَّهُ مِنَ الْمَعَالِيقِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا.

وَقِيلَ: سَبَبُهُ كَرَاهَةُ صَوْتِهَا ... وَتُؤَيِّدُهُ رِوَايَةُ «**مَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ**..» وَهَذَا الَّذِي ذَكَرنَاهُ مِنْ كَرَاهَةِ الْجَرَسِ عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ مَذْهَبُنَا وَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَآخَرِينَ وَهِيَ كَرَاهَةُ تَنْزِيهٍ[1].



(١) مسلم بشرح النووي (١٤/ ١٣٣-١٣٤).

(٣٠٨) باب كراهة ركوب الجلاَّلة
وهى البعير أو الناقة التى تأكل العذرة
فإن أكلت علفًا طاهرًا فطاب لحمها زالت الكراهة

(١٧٠١) عن ابن عمر ﭬ قال: نهى رسُولُ الله ﷺ عنِ الجلاَّلةِ فى الإبلِ أنْ يُركَب عليها[١].

❁ **الجلاَّلة:** هى التى تأكل الجَلة يعنى: أنها تأكل روث الحمير ونجاسة الآدمى وما أشبه ذلك حتى يتغير ريحها ويتلوث شىء من بدنها أو قدمها أو ما أشبه ذلك.. فلهذا نهى النبى ﷺ عن ركوبها وأكل لحمها وشرب لبنها..... فلو كانت ناقة أو بقرة أو شاة أو دجاجة تأكل الروث والنجاسات فإنها تكون جَلَّالة... فما كان منها يُركب فإنه يُنهى عن ركوبها كراهة تنزيه.. ويُكره أكل لحمها كراهة تنزيه أو تحريم....

وأما إذا كانت تأكل الطيب والقبيح.. لكن أكثر أكلها الطيب فإنها ليست جلَّالة.. بل هى مُباحة.

وإذا كانت جلالة فحُبست بعيدة عن العذرة والنجاسات زمنًا وعُلفت أكلًا طاهرًا فطاب لحمها وذهب اسم الجلالة عنها حلَّت لأن علة النهى والتغيير قد زالت ... ووجه النهى عن ركوب الجلالة أن العرق يصيب الإنسان عندما يتصبب من جلدها.

ومن العلماء مَن قال: ليس النهى للتحريم بل هو للكراهة؛ وذلك لكونها أكلت هذه المادة النجسة... فالنهى عن الركوب هو من أجل العرق؛ لأن الحُمر الأهلية تُركَب وهى مع ذلك لا تُؤكَل.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٧٥).

(٣٠٩) باب النهى عن البصاق فى المسجد والأمر بإزالته منه إذا وجد فيه والأمر بتنزيه المسجد عن الأقذار

(١٧٠٢) عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «البُصَاقُ فى المسجِدِ خَطِيئةٌ، وكفَّارَتُها دَفْنُها»(١).

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمرادُ بِدَفْنِهَا إِذَا كَانَ المَسْجِدُ تُرَابًا أَوْ رَمْلًا ونَحوَهُ، فَيُوَارِيهَا تَحتَ تُرَابِهِ. قَالَ أبو المحاسِنِ الرُّويَانِى فى كِتَابِهِ «البحر» وقِيلَ: المُرَادُ بِدَفْنِهَا إِخراجُهَا مِنَ المَسْجِدِ، أَمَّا إِذَا كَانَ المَسْجِدُ مُبَلَّطًا أَوْ مُجَصَّصًا، فَدَلَكَهَا عَلَيْهِ بِمَدَاسِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثيرٌ مِنَ الجُهَّالِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَفْنٍ، بَلْ زِيَادَةٌ فِى الخَطِيئَةِ وَتَكْثِيرٌ لِلقَذَرِ فى المَسْجِدِ، وَعَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَنْ يَمْسَحَهُ بَعدَ ذَلِكَ بِثَوْبِهِ أَوْ بِيَدِهِ أَوْ غَيرِهِ أَوْ يَغْسِلَهُ(٢).

❁❁❁

(١٧٠٣) وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رسُولَ الله ﷺ رأى فى جِدارِ القِبْلَةِ مُخَاطًا، أو بُزاقًا، أو نُخامةً، فحكَّه(٣).

❁ فالنبى ﷺ فى هذا الحديث لما رأى مُخاطًا أو بُزاقًا فى جدار القبلة فحكَّه... فالأصل أن الإنسان إذا دخل المسجد ليصلى فإنه يُناجى ربه عَزَّ وَجَلَّ فلا يجوز له أن يبصق أو يتنخم فى المسجد سواء كان ذلك على الأرض أو على

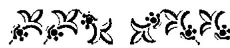
(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤١٥) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٥٢) المساجد ومواضع الصلاة.
(٢) رياض الصالحين (ص٤٩٣).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٧) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٤٩) المساجد ومواضع الصلاة.

الحائط.. وكان المسجد على عهد النبى ﷺ مفروشًا بالحصى والتراب فكان الرجل إذا غلبه البصاق وبصق فكانت كفارته دفنها تحت التراب لئلا يتأذى المصلون .. وإلا فقد كان أحدهم إذا أراد أن يبصق كان يخرج خارج المسجد.. لكنه كان لا يفعل ذلك إلا إذا غلبه ذلك وكان فى الصلاة.

فلا يجوز أن يبصق الإنسان فى المسجد سواء كان ذلك على عهد النبى ﷺ أو على عهدنا لأن المسجد له حُرمة.

ولأن الإنسان إذا فعل ذلك فإنه يتسبب فى إيذاء المصلين ويكون ذلك فيه إهانة لبيت الله عَزَّوَجَلَّ..

وكان كفارة ذلك دفنها على عهد النبى ﷺ... إذا كانت على الأرض.. أو حكُّها إذا كانت على الجدار.. أما فى زماننا هذا فإن الرجل يُخرج المنديل ليبصق فيه.. فإذا وقعت منه على الأرض فإنه يمسحها ولا يدفنها لأن الأرض مفروشة بالسجاد أو الموكيت ... فياليت كل واحدٍ منا يكون معه منديل حتى إذا اضطر إلى ذلك وضعها فى المنديل.. فإن لم يكن معه منديل واضطر إلى ذلك فليمسحها فى ثوبه ولا يبصق على الأرض حتى لا ينتهك حُرمة المسجد وحتى لا يتأذى المصلون بسببه.



(١٧٠٤) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «إنَّ هذه المساجِدَ لا تَصلُحُ لِشىءٍ مِن هذا البولِ ولا القَذَرِ، إنَّما هى لِذِكْرِ الله تعالى، وقراءةِ القُرآنِ» أوْ كما قال رسُولُ الله ﷺ[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١١٦٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥) كتاب الطهارة.

(٣١٠) باب كراهية الخصومة في المسجد ورفع الصوت فيه ونشد الضالة، والبيع والشراء والإجارة، ونحوها من المعاملات

(١٧٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سَمِعَ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «مَنْ سمِعَ رجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فى المسْجِدِ فَلْيَقُل: لا رَدَّهَا الله عليكَ، فإنَّ المساجدَ لمْ تُبْنَ لهذا»(١).

(١٧٠٦) وعنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا رأيتم مَن يَبيعُ أو يبتَاعُ فى المسجدِ، فقولوا: لا أربَحَ الله تجارتَكَ، وإذا رأيتُم مَن ينْشُدُ ضَالَّةً فقولوا: لا ردَّها الله عليكَ»(٢).

(١٧٠٧) وعن بُريَدَةَ رضي الله عنه: أنَّ رَجُلًا نَشَدَ فِي المَسْجِدِ فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى الجَمَلِ الأَحمَرِ؟ فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا وَجَدتَ؛ إنَّمَا بُنِيَتِ المَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ»(٣).

(١٧٠٨) وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّهِ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنِ الشِّراءِ والبَيْعِ فى المَسْجِدِ، وَأنْ تُنْشَدَ فِيهِ ضَالَّةٌ؛ أَوْ يُنْشَدَ فِيهِ شِعرٌ(٤).

(١٧٠٩) وعن السائبِ بن يزيد الصحابى رضي الله عنه قالَ: كُنتُ فى المَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ، فَنظَرتُ فَإذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ: اذْهَبْ فَأتِنِي بِهذَينِ، فَجِئْتُهُ بِهِمَا، فَقَالَ: مِنْ أيْنَ أَنْتُمَا؟ فَقَالا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ، لأَوْجَعتُكُمَا، تَرفَعَانِ أصوَاتَكُمَا فى مَسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ!(٥).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٦٨) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٦٩) كتاب المساجد.

(٤) حسن: رواه أحمد، وأصحاب السنن وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٨٥).

(٥) صحيح: رواه البخارى (١/ ٤٧٠) كتاب الصلاة.

فحصبنى: أى رمانى بالحصباء وهى الحصى الصغار.

۞ لا بد أن نعلم أولًا قدر المساجد فى الإسلام.

فالمسجد هو المحضن التربوى الذى استطاع النبى ﷺ من خلاله أن يربى أصحابه رضي الله عنهم ... والمساجد أحب البلاد إلى الله وهى خير البقاع.. والمسجد بيت كل مؤمنٍ تقى .. ومَن بنى مسجدًا لله بنى الله له بيتًا فى الجنة.. وتعلُّق القلب بالمساجد يوجب لك ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

۞ ومن أجل ذلك كان لتلك المساجد أحكام ولها حُرمات يجب أن تُحتَرم.

ومن ذلك أنه لا يحل للجُنب أن يمكث فى المسجد إلا بوضوء .. لأن الملائكة لا تدخل ذلك المكان وإن دخلوا فإنهم يتأذون بذلك .. ولهذا نقول: مَن كان عليه جنابة فلا يدخل المسجد إلا أن يتوضأ واستثنينا الوضوء؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ينامون فى المسجد فتصيب أحدهم الجنابة فيقوم ويتوضأ ويرجع فينام... وهذا فى عهد النبى ﷺ وقد أقرهم الرسول ﷺ على ذلك.

ومنها: أى من أحكام المساجد أن الإنسان إذا دخل المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين فى أى وقتٍ دخل فى الصباح .. فى المساء .. فى الليل فى النهار عند طلوع الشمس .. عند غروبها .. فى أى وقت؛ لأن النبى ﷺ قال: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ، فَلاَ يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**»(١).

ومن أحكام المساجد أنه لا يجوز بها البيع والشراء سواء كان قليلًا أو كثيرًا،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٦٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧١٤) كتاب صلاة المسافرين.

فإن ذلك حرام عليك والبيع فاسد لا ينتقل فيه الثمن للبائع ولا المبيع للمشترى.. ويجب أن يرد كل واحدٍ منهما للآخر ما أخذ منه سواء قَلَّ أو كَثُر... لأن المسجد سوق الآخرة وليس سوقًا للدنيا.

بل إن النبى ﷺ أمرنا إذا رأينا مَن يبيع أو يشترى فى المسجد أن نقول له: «**لا أربح الله تجارتك**».

ومُحالٌ أن يأمرنا النبى ﷺ بذلك - وهو الذى ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين - إلا إذا كان هذا الفعل قبيحًا .. شرعًا وعقلًا.

۞ وكذلك لا يجوز إنشاد الضالة فى المسجد فإن بعض الناس إذا ضاع منه شىء فإنه يذهب إلى المسجد ويطلب من القائمين عليه أن يعلنوا فى «الميكروفون» عن ضالته... وهذا خطأ؛ لأن النبى ﷺ نهى عن ذلك.

قال ﷺ: « **مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فِى الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ لا رَدَّهَا اللهُ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا** »(١).

بل دعا النبى ﷺ نفسه على رجلٍ نادى على جمل أحمر ضاع منه، فأخذ ينادى عليه فى المسجد فقال النبى ﷺ: «**لا وَجَدتَ، إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ**»(٢).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: فى هذا الحديث فوائد منها:

النهى عن نشد الضالة فى المسجد ويلحق به ما فى معناه من البيع والشراء والإجارة ونحوها من العقود وكراهة رفع الصوت فى المسجد.

ومن المخالفات المكروهة تَسامُر الناس فى المساجد بحديث الدنيا وربما علت أصواتهم وارتفع ضحكهم وكَثُر تصفيقهم الحاد وتصفيرهم المزعج.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٦٨) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٦٩) كتاب المساجد.

وفى هذا هتكٌ لحُرمة بيوت الله تعالى التى أعدها لعبادته ... وفيه أيضًا إيذاء للمصلين ومنع للمتعبدين[1].

فعن أبى سعيد الخدرى: « اعتكَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى الْمَسْجِدِ، فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ، فَكَشَفَ السِّتْرَ، وَقَالَ: **«أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعضُكُمْ بَعضًا، وَلَا يَرفَع بَعضُكُمْ عَلَى بَعضٍ فِى الْقِرَاءَةِ»**[2].

وهذا النهى وقع عند رفع أصواتهم بالذكر والقرآن، فكيف إذا كان بكلامٍ فيه ما فيه من الحُرمة والتشويش.

ولذلك لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلين يرفعان أصواتَهما فى المسجد أرسل إليهما السائبَ بنَ يزيد فقال: اذْهَبْ فَأْتِنِى بِهَذَيْنِ، فَجَاءَ بِهِمَا، قَالَ: مَنْ أَنْتُمَا - أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ - قَالاَ: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ لَأَوْجَعتُكُمَا، تَرفَعَانِ أَصوَاتَكُمَا فِى مَسْجِدِ النبىِّ ﷺ؟![3].

فائدة هامة:

بعض الناس يمنع الكلام فى المسجد عامة ما لم يكن ذكرًا ويستدلون على ذلك بحديثٍ ضعيف أن النبى ﷺ قال: «الكَلام فى المسجِد يَأكُل الحَسنَات كما تأكُل النَّار الحَطَب»، وهو حديث لا أصل له.

قال العراقى: «لم أقف له على أصل».

فالحديث فى أمور الدنيا فى المسجد ليس حرامًا ولكن بشرط ألا يكون فيه تشويش على المصلين وألا يكون برفع الصوت وألا يكون بكلامٍ فاحش[4].

وأما إنشاد الأشعار فى المسجد الذى وردت الأحاديث بالنهى عنها، والمراد

---

(١) الإبداع فى مضار الابتداع (ص: ١٧٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٣٩).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٧٠) كتاب الصلاة.

(٤) تحذير الساجد من أخطاء العبادات والعقائد / الشيخ محمود المصرى.

بذلك الأشعار التى تحتوى على اللغو أو التى لا خير فيها.

وأما الشعر الحلال الذى يَحُث على الزهد والجهاد وغيره من مكارم الأخلاق فلا بأس به، بشرط ألا يطغى على الإنسان بحيث يشغله عن القرآن وبشرط ألا يؤثر على مَن يصلى فى المسجد.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه: «أنَّ **عُمر** رضي الله عنه مَرَّ بحسان بن ثابت رضي الله عنه ينشد فى المسجد فلحظ إليه[1]، فقال: قد كنتُ أنشد فيه وفيه مَنْ هُوَ خَيرٌ منك، ثُمَّ التفت إلى أبى هريرة فقال: أنشدك بالله أسَمعت رَسُول الله ﷺ يقول: **أَجِب عَنِّى اللَّهُمَّ أَيِّده بروُح القُدس**»[2].



(١) لحظ إليه: أى نظر إليه شَزرًا.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢١٢) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٤٨٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٣١١) باب نهى من أكل ثومًا أو بصلاً أو كُراثًا أو غيره مما له رائحة كريهة عن دخول المسجد قبل زوال رائحته إلا لضرورة

(١٧١٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أكَلَ مِنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ - يعنى: الثُّومَ - فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا»(١).

وفى روايةٍ لمسلم: «مساجدنا».

(١٧١١) وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبىُّ ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ فَلاَ يَقْرَبَنَّا، وَلاَ يُصَلِّيَنَّ مَعَنَا»(٢).

(١٧١٢) وعن جابر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النبىُّ ﷺ: «مَنْ أكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعتزِلنا، أو فَلْيَعتَزِلْ مَسْجِدَنَا»(٣).

وفى روايةٍ لمسلم: «مَنْ أكَلَ البَصَلَ، والثُّومَ، والكُرَّاثَ، فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإنَّ المَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ».

(١٧١٣) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَنَّه خَطَبَ يومَ الجُمُعَةِ فَقَالَ فى خُطبته: ثُمَّ إنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَأكُلُونَ شَجرَتَيْنِ مَا أرَاهُمَا إلاَّ خَبِيثَتَيْن: البَصَلَ، وَالثُّومَ. لَقَد رَأَيْتُ رسولَ الله ﷺ إذَا وَجدَ ريحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ فى المَسْجِدِ أَمَرَ بِهِ، فَأُخرِجَ إلَى البَقِيعِ، فَمَنْ أكَلَهُمَا، فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخًا(٤).

۞ والحاصل أن الروائح الكريهة التى تؤذى الناس ينبغى للإنسان أن يتعد

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٥٣) كتاب الأذان - ومسلم (٥٦١) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨٥٦) كتاب الأذان - ومسلم (٥٦٢) كتاب المساجد.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٥٢) كتاب الأطعمة - ومسلم (٥٦٤) كتاب المساجد.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٥٦٧) كتاب المساجد.

عنها... هذا ما كان مباحًا منها، وأما ما كان محرمًا كالدخان فإنه لا يجوز له أن يتعاطاه أبدًا....وأما الثوم والبصل وغيرهما من الأمور المباحة مما فيه رائحة كريهة، فإن على الإنسان أن يَحذر من أن يؤذى الناس بهذه الرائحة، فإذا احتاج الأمر إلى أكلها فإنه يستعمل معها شيئًا يزيل أثرها، أو يأكلها فى وقتٍ مبكر، بحيث إذا جاء الوقت الذى يذهب فيه إلى المسجد تكون تلك الرائحة قد ذهبت، فلا يحصل الإيذاء بسبب أكل الثوم والبصل أو يستعمل شيئًا يُزيل تلك الرائحة.

يقول الخطابى رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما أمره باعتزال المسجد عقوبة له، وليس هذا من باب الأعذار التى تُبيح للمرء التخلُّف عن الجماعة كالمطر والريح العاصف ونحوهما.

يعنى: أن الإنسان لا يكون معذورًا إذا أكل الثوم وتخلف عن صلاة الجماعة، بل إن أمره بالاعتزال من العقوبات...ووجهها أنه يُحال بينه وبين هذا الخير، وذلك أن أكل الثوم والبصل يمكن أن يكون على وجهٍ لا يحصل معه التأُّخر عن الجماعة إذا احتاج إليه، بأن يكون ذلك فى وقتٍ مبكر، بحيث يأتى وقت الجماعة وليس هناك أثر لتلك الرائحة الكريهة.

۞ قال الإمام النووى: هذا تصريح بنهى مَن أكل الثوم ونحوه عن دخول كل مسجد، وهذا مذهب العلماء كافة.

قال العلماء: ويلحق بالثوم والبصل والكراث كل ماله رائحة كريهة من المأكولات وغيرها... قال القاضى: ويلحق به مَن أكل فِجلًا وكان يتجشى. قال: وقال ابن المرابط: ويَلحق به مَن به بخرٌ فى فيه، أو به جرح له رائحة.

قال القاضى: وقاس العلماء على هذا مجامع الصلاة غير المسجد كمُصلَّى العيد والجنائز ونحوها من مَجامع العبادات، وكذا مجامع العلم والذكر

والولائم ونحوها.

قال العلماء: في هذا الحديث دليل على منع آكل الثوم ونحوه من دخول المسجد وإن كان خاليًا؛ لأنه محل الملائكة، ولعموم الأحاديث(١).

وأقول: فإن كان هذا النهى عن شيءٍ أحلَّه الله فما ظنك بمن يشرب الدخان الذى حرمه الله ثم يأتى ليصلى بين يدى الله فيؤذى كل مَن حوله.

والمراد هنا: مَن أكل هذه الأشياء نيِّئة ... فإن أكلها مطبوخة فلا حرج فى ذلك لزوال علة التأذِّى بالرائحة.

وهذا يفيد بأن الإنسان يستعملهما مطبوختين حتى لا يكون لهما رائحة، ومعلوم أن الثوم حتى مع الطبخ يكون فيه شيء من الرائحة، لكن ليست كالحالة التى يكون فيها قبل الطبخ.

والنهى عنهما ليس المقصود به تحريمهما ... فالثوم والبصل ليسا حرامًا بل يجوز للإنسان أكلهما لكن الأفضل أن يأكلهما مطبوخين حتى لا يؤذى المصلين فى الصلاة ولا طلبة العلم فى مجالس العلم وغيرها.

وأخيرًا: هل يجوز للإنسان أن يأكل بصلًا أو ثومًا لئلا يحضر صلاة الجماعة؟.. كلا.. فهذا حرامٌ عليه لأنه لا يجوز للإنسان أن يتوصل إلى إسقاط الفرض بأى سببٍ كان.



(١) مسلم بشرح النووى (٥/ ٦٧: ٦٩) بتصرف.

(٣١٢) باب كراهية الاحتباء يوم الجمعة والإمام يخطب لأنه يجلب النوم، فيُفوت استماع الخطبة ويخاف انتقاض الوضوء

(١٧١٤) عن مُعاذِ بنِ أنسٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النَّبيَّ ﷺ نَهى عن الحَبْوَةِ يَوْمَ الجُمُعَةِ والإمامُ يَخْطُبُ[١].

۞ الحبوة أو الاحتبَاء: هو أن يضم الإنسان فخذيه إلى بطنه وساقيه إلى فخذيه.. ويربط نفسه بسيرٍ أو عمامة أو يُمسك ساقيه بيديه .. وقد نهى النبى ﷺ عن ذلك أثناء خطبة الإمام يوم الجمعة لسببين:

الأول: أن تلك الحبوة قد تكون سببًا لجلب النوم فينام أثناء الخطبة.. وقد يؤدى ذلك إلى انتقاض الوضوء.. لأن النوم العميق من أسباب انتقاض الوضوء.. فقد جاء عن النبى ﷺ قوله: «**العين وكاءُ السَّه، فإذا نامت العينُ استَطلَق الوِكاءُ**»[٢]، فكون الإنسان يجلس على هذه الهيئة يكون سببًا فى نومه، والنوم يترتب عليه انتقاض الوضوء بأن يخرج منه ريح، فيترتب على ذلك أن يقوم ويترك الخطبة ويتوضأ، فيُفوِّت على نفسه حضور الخطبة.. وقد تفوته الصلاة أو يفوته شىء من الصلاة... فأرشد (عليه الصلاة والسلام) إلى عدم هذا الفعل، ونهى عن هذه الحبوة والإمام يخطب.

الثانى: أنه لو تحرك لبدت عورته لأن غالب لباس الناس فيما سبق الأُزُر والأردية... ولو تحرك أو انقلب لبدت عورته... وأما إذا أُمن ذلك فإنه لا بأس بها؛ لأن النهى إذا كان لعلة معقولة فزالت العلة فإنه يزول النهى.

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٧٦).

(٢) حسن: رواه البيهقى فى السنن، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٤٨).

(٣١٣) باب نهى مَن دخل عليه عشر ذى الحجة وأراد أن يُضحى عن أخذ شىءٍ من شعره أو أظفاره حتى يُضحى

(١٧١٥) عـن أُمِّ سَـلَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالـتْ: قـالَ رسُـولُ الله ﷺ: «مَـن كـانَ لـهُ ذِبْـحٌ يَذْبَحُهُ، فإذا أَهَلَّ هِلالُ ذى الحِجَّة، فلا يأخُذَنَّ مِن شَعرِه ولا مِـن أظْفَـارِه شيئًا حتى يُضَحِّى»(١).

۞ **والمقصود من ذلك:** مَن كان يريد أن يضحى سواءً كان الذبح موجودًا فى حوزته وفى ملكه، أو يريد أن يشتريه إذا جاء وقت الأضحية.

«**فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئًا حتى يضحى**» أى أنه يمتنع من حين دخول العشر... وينبغى له أن يتعاهد هذه الأشياء قبل أن تدخل العشر، كما أن الذى يريد الإحرام يتعاهد ذلك قبل أن يُحرم حتى لا يحتاج إلى أخذ شىءٍ من ذلك فى حال الإحرام.

۞ فإذا دخل العشر من ذى الحجة وأردت أن تُضحى عن نفسك أو عن غيرك من مالك فلا تأخذ شيئًا من شعر الرأس أو الإبط أو العانة أو اللحية أو الشارب حتى تضحى.. ولا تأخذ شيئًا من الظفر.. سواء كان من اليد أو القدم حتى تُضحى..



(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٧٧) كتاب الأضاحى.

(٣١٤) باب النهي عن الحلف بمخلوقٍ كالنبي والكعبة والملائكة والسماء والآباء والحياة والروح والرأس ونعمة السلطان، وتُربة فلان، والأمانة.. وهي من أشدها نهيًا

(١٧١٦) عن ابن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى ينهاكُم أنْ تَحلِفُوا بآبائِكُم، فمَن كان حَالِفًا فَلْيَحلِفْ بالله، أوْ لِيَصمُتْ»(١).

وفي رواية في الصحيح: «فمَنْ كانَ حَالِفًا، فلا يَحلِفْ إلا بالله، أوْ لِيَسْكُتْ».

۞ وفي رواية عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحلِفُوا بِآبَائِكُمْ» قال عمر: فَوَاللهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعتُ النَّبيَّ ﷺ، نهى عنها ذَاكِرًا وَلاَ آثِرًا.

۞ قوله ﷺ: «إن الله ينهاكم» أي: ينهاكم يا معشر المؤمنين! ويا معشر المؤمنات! أي: لا ينهى عمر فقط، وإنما ينهى عمر ومَن معه من الأمة إلى قيام الساعة عن الحلف بالآباء.

۞ قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فوالله ما حلفت بها -أي: بآبائي- منذ سمعت رسول الله ﷺ نهى عنها ذاكرًا ولا آثرًا»، يعني: لم يحلف قط بغير الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن سمع النهي في ذلك، ولا أنه نقل يمين غيره... وهذا معنى: (ولا آثرًا)، أي: لا يروي كلامًا عن الآخرين فيه يمين بغير الله.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْحِكْمَةُ فِي النَّهْيِ عن الحلف بغير الله تَعَالَى أَنَّ الْحَلِفَ يَقْتَضِي تَعظِيمَ الْمَحلُوفِ بِهِ ... وَحَقِيقَةُ الْعَظَمَةِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٠٨) كتاب الأدب – ومسلم (١٦٤٦) كتاب الأيمان.

مُخْتَصَّةٌ بِاللهِ تَعَالَى فَلَا يُضَاهِى به غيره ... وقد جاء عن ابن عَبَّاسٍ لَأَنْ أَحلِفَ بِاللهِ مِائَةَ مَرَّةٍ فَآثَم خَيْرٌ مِنْ أَنْ أَحلِفَ بِغَيْرِهِ فَأَبَرّ ... فَإِنْ قِيلَ الْحَدِيثُ مُخَالِفٌ لِقَوْلِهِ ﷺ «أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ» فَجَوَابُهُ أَنَّ هذه كلمة تجرى على اللسان لا يُقصَد بِهَا الْيَمِينُ(١).

فكثير من الناس من أهل زماننا إذا أراد أحدهم أن يحلف فإنه يقول: والعيش والملح... والنعمة... والكعبة الشريفة ... وحياة عيالى... والعَشَرة الكرام... وشرفى... وتربة أمى... وراس أبويا... والنبى... وحياتى عندك... إلى آخره.

وهذا كله من الشرك الأصغر لأن هذا النوع من التعظيم لا يَصلُح إلا لله عَزَّوَجَلَّ... ومَن عظَّم غير الله بما لا يكون إلا لله فهو شرك... لكن لما كان هذا الحالف لا يعتقد أن عظمة المحلوف به كعظمة الله لم يكن الشرك شركًا أكبر بل كان شركًا أصغر. فمن حلف بغير الله فقد أشرك شركًا أصغر.

❊❊❊

(١٧١٧) وعن عَبْدِ الرحمنِ بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تَحلِفوا بالطَّواغِى، ولا بآبائِكُم»(٢).

۞ والشاهد: أن كل ما دون أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته مَنهيٌّ أن نحلف به.

قال أهل اللغة: الطواغى هى الأصنام، واحدها طاغية، بخلاف الطواغيت واحدها طاغوت... ومنه: هذه طاغية دوس، أى: صنمهم ومعبودهم.

وسُمِّى باسم المصدر لطغيان الكفار بعبادته؛ لأنه سبب طغيانهم وكفرهم.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ١٥٠-١٥١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٤٨) كتاب الأيمان.

«الطَّواغِى»: جَمْعُ طاغية، وهى الأصنامُ، ومنه الحديث: «هذه طاغِيةُ دَوْسٍ» :أى صَنمُهُم ومَعبُودُهم. ورُوِىَ فى غير مسلم: «بالطواغِيتِ» جمع طاغُوت، وهُو الشَّيطانُ والصَّنمُ.

وكل ما جاوز الحد يُقال: طغى، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ [الحاقة:١١]، أي: لما فاض وتجاوز الحد بالطغيان والثوران والسيلان... ومنه قول النبي ﷺ: «**لا تحلفوا بالطواغيت**»، وهو جمع طاغوت، وهو الصنم أو الشيطان، أو هو كل ما تجاوز الحد راضيًا بذلك، فيُقال له: طاغوت... ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ [الزمر:١٧]. وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [النساء:٦٠][(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تَحلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلا بِالأَنْدَادِ - كل ما سوى الله - **وَلا تَحلِفُوا إِلَّا بِاللهِ، وَلا تَحلِفُوا بِاللهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ »**[(٢)].

فلا تحلف بغير الله أيًا كان المحلوف به، حتى لو كان النبي ﷺ أو جبريل أو مَن دونهما من الرسل ومن الملائكة أو البشر أو من دون الرسل... فلا تحلف بشيءٍ سوى الله عز وجل.

فمن كان قد تعوَّد لسانه على الحلف بغير الله فليجاهد نفسه ألا يحلف أبدًا وإذا أراد أن يحلف فلا يحلف إلا بالله...

فإن أخطأ بغير قصدٍ ولا تعمُّد وحلف بغير الله فليقُل في نفس اللحظة: «لا إله إلا الله».

ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ، فَلْيَقُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِركَ فَلْيَتَصَدَّقْ بِشَيْءٍ»[(٣)].

قد يقول قائل أليس الله تعالى أقسم بالمخلوقات فقال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ وقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس:٤] وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ [الشمس:٥] نقول: إن

---

(١) مسلم بشرح النووي (١١/ ١٥٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٢٤٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٦٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٦٤٧) كتاب الأيمان.

الله تعالى له أن يحلف بما شاء من خلقه فهو إذا حلف بشيء كان ذلك دليلًا على عظمة الله؛ لأن عِظَم المخلوق يدل على عِظَم الخالق.

فإن قال القائل: نسمع بعض الناس تقول: أقسم بآيات الله ... فهل هذا حلف بغير الله وهل هذا كفر أو شرك؟.. نقول: ماذا يريد بآيات الله .. إن أراد بآيات الله الشمس والقمر والليل والنهار فهذا حلف بغير الله فيكون مشركًا.

وإن قال: أريد بآيات الله القرآن؛ لأن القرآن آيات الله عَزَّوَجَلَّ فهذا ليس بمشرك لماذا؟ لأن القرآن الكريم كلام الله .. وكلام الله تعالى من صفاته .. فإذا قال: أقسم بآيات الله أقصد بذلك القرآن قلنا: هذا قَسَمٌ صحيح وليس فيه شيء[1].

(١٧١٨) وعنْ بُريْدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «مَن حَلَفَ بِالأمانةِ فليْس مِنَّا»[2].

۞ فهذا الحديث فيه الزجر والتحذير وبيان خطورة الحلف بالأمانة، فهو على هذا مُحرم...وكل حلف بغير الله فهو مجرم؛ لأن الحلف إنما يكون بالله وبأسمائه وصفاته...ولا يُحلَف بغيره، كما سبقت الأحاديث فى ذلك...وقد جاء فى بعضها أن ذلك شرك... ومن ذلك ما جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلىَّ من أحلف بغيره صادقًا»، وذلك أن الذنب الذى يُوصف بأنه شرك يكون أخطر من غيره..وإن كان شركًا أصغر، كالحلف بغير الله.

۞ وقوله ﷺ: «فليس منَّا» أى: أن هذا ليس من شأن المسلمين، وليس من عمل المسلمين..ومَن فعل ذلك فليس على طريقتنا ولا على منهجنا وسُنتنا، وإنما هو مُتشبهٌ بغيرنا...وهذا لا يدل على أنه خرج من الإسلام، وإنما يدل على

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٢٦) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٠٣).

الزجر من هذا العمل.

والحاصل: أن الحلف بالأمانة فيه زجرٌ شديد؛ لأن الحلف بالأمانة حلفٌ بغير الله، وكل حلف بغير الله فإنه لا يجوز.. كما قال (عليه الصلاة والسلام): «**ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون**»، فقوله: «**ولا تحلفوا إلا بالله**» فيه قصر الحلف على أن يكون بالله، أي: بأسمائه وصفاته، ولا يكون بغيره؛ لا بالأمانة ولا بالآباء ولا الأمهات، ولا بحياة إنسان، ولا بشرفه، ولا بأي شيء آخر، بل كل حلف يجب أن يكون بالله عَزَّوَجَلَّ.

(١٧١٩) وعنْ بُرَيْدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «**مَن حَلَفَ، فقال: إنِّي بريءٌ مِن الإسْلامِ، فإن كان كاذِبًا فهو كما قالَ، وإنْ كانَ صادِقًا، فلنْ يَرجِع إلى الإسلامِ سالِمًا**»[١].

۞ هذا يدل على خطورة مثل هذا الكلام؛ سواء كان صادقًا أو كاذبًا، وأنه سواء إن كذب أو صدق.. ولكنه إن كذب فإنَّه يُضاف إلى إثم القول الشنيع والقول السيئ إثم الكذب..وإذا كان صادقًا فإتيانه بهذا اللفظ السيئ مضرة عليه؛ لأن اللفظ نفسه شنيع وقبيح ولا يجوز للإنسان أن يأتي به.

فمن حلف بذلك فهو آثِمٌ على كل حال؛ لأنه (عليه الصلاة والسلام) قال: «**فإن كان كاذبًا فهو كما قال**» وذلك مثل أن يقول: هو يهودي أو نصراني.

«**وإن كان صادقًا فلن يرجع إلى الإسلام سالمًا**» أي: لن يبقى على ما كان عليه قبل أن يقول هذه المقالة؛ لأن هذه الكلمة خبيثة يُعاقَب على قولها ولو كان صادقًا.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ حَلَفَ بِالْبَرَاءَةِ مِنَ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ يَأْثَمُ وَلَا تَلْزَمُهُ الْكَفَّارَةُ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ جَعَلَ عُقُوبَتَهَا فِي دِينِهِ وَلَمْ يَجْعَلْ فِي مَالِهِ شَيْئًا[٢].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٧٩٣).

(٢) عون المعبود (٩/ ٦١-٦٢).

(١٧٢٠) وعن ابْن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّه سَمِعَ رجُلًا يقولُ: لا والكَعبَةِ، فقال ابنُ عمر: لا تَحلِفْ بغَيْرِ الله، فإني سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «مَن حَلفَ بِغَيْرِ الله، فقَد كَفَر أَوْ أَشْرَكَ»(١).

۞ وفسَّرَ بعضُ العلماءِ قوْلَهُ: «كَفر أوْ أشركَ» على التَّغْلِيظِ كما رُوِي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الرِّياءُ شِركٌ».

۞ والحلف القصد منه التعظيم... والتعظيم لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصفاته... لأن الحلف يدل على تعظيم المحلوف به، فإذا حلف بغير الله فيجب عليه أن يرجع إلى الذي يستحق التعظيم ويترك ما دونه، فيقول: لا إله إلا الله، وهذا يدل عليه قوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

وهذا يدل على أن هذا كُفرٌ عمليٌّ أو شركٌ عمليٌّ... وليس هو الكفر المُخرج من الملة... ولذلك لم يُخرجه النبي ﷺ من الملة، ولم يحكم بكفره وردَّته عن الإسلام، ويُلزمه ما يلزم المرتد إذا أراد العودة إلى الإسلام.

كما أنه لم يأمره بالكفارة كذلك - يعني: بكفارة عينية- وإنما أمره فقط أن يقول: لا إله إلا الله، وهذا ليس من باب أن يدخل الإسلام من جديد، ولكن من باب رَدِّ التعظيم إلى الله عَزَّوَجَلَّ(٢).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٤).
وأما حديث (الرياء شرك) فهو ضعيف وقد قال الشيخ الألباني: أشار المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله «روى» إلى أن الحديث المذكور ضعيف الإسناد، وهو كما قال، وقد خرجته وبيَّنت علته في «الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة» (١٨٥٠)
(٢) شرح سنن أبي داود/ للشيخ عبد المحسن العبَّاد.

(٣١٥) باب تغليظ اليمين الكاذبة عمدًا

(١٧٢١) عن ابنِ مسْعُودٍ ﵁ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن حَلَفَ على مالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حقِّهِ، لقِيَ الله وهُو عليه غَضبانٌ» قال: ثُمَّ قرأ علينا رسُولُ الله ﷺ مِصداقَه مِن كتاب الله ﷿: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا** ﴾ [آل عمران: ٧٧] إلى آخر الآية[١].

۞ وهذا يدل على عقوبته، وأن فعله هذا يكون سببًا في غضب الله عليه، وفيه أيضًا إثبات صفة الغضب لله... فنُثبت صفة الغضب لله ﷿ على ما يليق بكماله وجلاله كسائر الصفات، حيث يجب إثبات كل ما جاء في الكتاب والسُّنة من الأسماء والصفات لله تعالى على وجهٍ يليق بكماله وجلاله دون تشبيهٍ بخلقه، ودون تأويل أو تعطيل أو تكييف، بل على حَدِّ قول الله ﷿: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

فهذا يدل على خطورة الحلف على الكذب والفجور... ويدل أيضًا على أن كون الإنسان يأخذ مال غيره بالحلف الفاجر الكاذب أن ذلك يؤدي إلى غضب الله عليه يوم يلقاه، فيكون مُستحقًّا للوعيد الذي يعاقبه الله تعالى به.

۞ **قال الإمام النووي** ﵀: قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْإِعرَاضُ وَالْغَضَبُ وَالسَّخَطُ مِنَ اللهِ تَعَالَى هُوَ إِرَادَتُهُ إِبْعَادَ ذَلِكَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ مِنْ رَحمَتِهِ وَتَعذِيبَهُ وإنكار فعله وذَمِّه والله أعلم[٢].

قلت: وأهل السُّنة والجماعة يُثبتون لله ﷿ ما أثبته لنفسه من الصفات في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ دون تشبيهٍ أو تكييفٍ أو تمثيلٍ أو تعطيل ... بل

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٥٦، ٢٣٥٧) كتاب المساقاة - ومسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.
(٢) مسلم بشرح النووي (٢/ ٢١٤).

نؤمن بها كما جاءت ولا نُشبهها بصفات المخلوقين لأن الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

وهذا الذى جاء فى هذا الحديث: أن «مَن حلف على يمينٍ هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلمٍ لقى الله وهو عليه غضبان» ، حصل للأشعث شىء من هذا القبيل، حيث قال: (كان بينى وبين يهودى أرض فجحدها اليهودى، فرفعته إلى رسول الله ﷺ فقال: «ألك بينة؟ قلت: لا، قال لليهودى: احلف. فقلت: إذًا يحلف، ويذهب بمالى» أى: ما دام أن المسألة مجرد حلف فإنه سيحلف ويأخذ مالى، قال: فأنزل الله هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فهذه الآية تدل على عقوبة مَن اشترى بعهد الله وباليمين الفاجرة الكاذبة شيئًا قليلًا من حُطام الدنيا، سواء كان قليلًا أو كثيرًا، فإن هذه عقوبته، وسوف يَلقى الله عَزَّوَجَلَّ فلا يكلمه ولا ينظر إليه ولا يُزكيه، وله عذابٌ أليم... فيحصل له هذا الوعيد الشديد الذى جاء فى هذه الآية الكريمة، وفى هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه (١).

(١٧٢٢) وعن أبى أُمامة إياسِ بنِ ثعلبَةَ الحَارِثىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «مَن اقْتَطَع حَقَّ امْرِئٍ مُسْلمٍ بيَمِينِهِ، فقَد أوْجَب الله له النار، وحَرَّمَ عليهِ الجنَّة» فقال لهُ رَجُلٌ: وإنْ كانَ شيئًا يسيرًا يا رسُولَ الله ؟ قال: «وإنْ كان قَضِيبًا مِن أراكٍ» (٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢١٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) شرح سنن أبى داود / للعبّاد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(١٧٢٣) وعن عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «الكبائِرُ: الإشْراكُ بالله، وعُقُوقُ الوَالِدَيْن، وقَتْلُ النَّفسِ، واليَمِينُ الغَمُوسُ»(١).

وفي رواية له: أن أعرابيًّا جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ما الكَبائِرُ؟ قال: «الإشْراكُ بالله» قال: ثُمَّ ماذا؟ قال: «اليَمِينُ الغَمُوسُ» قُلْتُ: وما اليَمِينُ الغَمُوسُ؟ قال: «الذي يَقْتَطِعُ مالَ امْرِئٍ مُسلم» يعني بيمِينٍ هُو فيها كاذِبٌ.

۞ قوله ﷺ: «الكبائِرُ» يعني: من الكبائر أو من أكبر الكبائر.

۞ قوله ﷺ: «الإشْراكُ بالله» وهو أنواع: فمنه الشرك الأكبر: وهو أن يتخذ العبد لله نِدًّا يُسويه في ربوبيته أو أُلوهيته أو أسمائه وصفاته.

۞ للشرك الأكبر ثلاثة أقسام رئيسة هي:

القسم الأول: الشرك في الربوبية:

وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيبًا من المُلك أو التدبير أو الخلق أو الرزق.

القسم الثاني: الشرك في الأسماء والصفات:

وهو أن يجعل لله تعالى مُماثلًا في شيءٍ من الأسماء أو الصفات...أو يصفه تعالى بشيءٍ من صفات خلقه.

ومن صور هذا الشرك:

الشرك بدعوى علم الغيب، أو باعتقاد أن غير الله تعالى يعلم الغيب، فمن ادَّعى أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب، فقد وقع في الشرك الأكبر المُخرج من الملة.

القسم الثالث: الشرك في الألوهية:

وهو: اعتقاد أن غير الله تعالى يستحق أن يُعبَد أو صَرف شيء من العبادة لغيره.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٦٧٥) كتاب الأيمان والنذور، (٦٨٧٠) كتاب الديات.

كمن يعبد غير الله أو يدعو غير الله أو ينذر لغير الله.

۞ وأما الشرك الأصغر فهو كل ما كان فيه نوع شرك لكنه لم يصل إلى درجة الشرك الأكبر.. وهو ثلاثة أنواع:

(١) النوع الأول: الشرك الأصغر فى العبادات القلبية:

كالرياء وإرادة الدنيا بالعبادة والاعتماد على الأسباب والتطيُّر.

(٢) النوع الثانى: الشرك الأصغر فى الأفعال:

كالرُّقى الشركية والتمائم الشركية.

(٣) النوع الثالث: الشرك الأصغر فى الأقوال:

كالحلف بغير الله والتشريك بين الله وخلقه بالواو.. كقوله: توكلت على الله وعليك ... ما شاء الله وشئت[1] ... والاستسقاء بالأنواء.

۞ قوله ﷺ: «**وعقوق الوالدين**».. وهو عكس البر بالوالدين.. وقد تكلمنا عنه بالتفصيل فيما سبق.

۞ ثم ذكر النبى ﷺ قتل النفس..وقد تكلمنا عنه قبل ذلك فى الأبواب السابقة.

۞ **اليمين الغَمُوس**: التى يحلفها كاذبًا عامدًا .. سُمِّيت غَموسا لأنه تغمس الحالف فى الإثم ومن ثَمَّ فى النار.

وذلك أن الإنسان يجب عليه إذا حلف بالله أن يكون صادقًا سواء حلف على أمرٍ يتعلق به أو على أمرٍ يتعلق بغيره ... فإن حلف على يمين وهو فيها كاذب فإن كان يقتطع بها مال امرئٍ مسلم ولو يسيرًا فإنه يَلقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان.

---

(١) والصواب عطف مشيئة العبد على مشيئة الرب بـ «ثم» فتقول: ما شاء الله ثم شاء فلان ... توكلت على الله ثم عليك .. وقد قال ﷺ: «**لا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَان وَلَكِن قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلان**».

مثال ذلك: رجلٌ أعطى رجلًا عشرة آلاف جنيه فلما حان وقت السَّداد قال له: أُريد مالى الذى أقرضتك إياه، فقال له: والله ما أخذت منك شيئًا .. فخاصمه عند القاضى.

فقال القاضى للمُنكِر احلف أنه ليس له عندك شىء فحلف فقال: والله ما له عندى شىء ... فالقاضى سيحكم بأنه لا حق له عليه لأن البينة على مَن ادَّعى واليمين على مَن أنكر ... فهذا الرجل الذى حلف وهو كاذب يَلقَى الله وهو عليه غضبان - والعياذ بالله- ويُحرم الله عليه الجنة ويُدخله النار ... نسأل الله العافية ...

حتى قالوا يا رسول الله وإن كان شيئًا يسيرًا قال: «**وإن كان قضيبًا من أراك**».

وأما ما يتعلق بنفسه مثل أن يُقال له: إنك فعلت كذا فقال والله ما فعلت وهو كاذب ... فهذا إذا كان كاذبًا فإنه لا يستحق هذا الوعيد لكنه والعياذ بالله آثِمٌ جَمَع بين الكذب وبين الحلف بالله عَزَّوَجَلَّ كاذبًا فتتضاعف عليه العقوبة.

فعلى المسلم أن يكون مُحترمًا لله عَزَّوَجَلَّ مُعظمًا له لا يُكثر اليمين ... وإذا حلف فليكن صادقًا حتى يكون بارًّا بيمينه.



(٣١٦) باب ندب مَن حلف على يمينٍ، فرأى غيرها خيرًا منها أن يفعل ذلك المحلوف عليه، ثم يُكفِّر عن يمينه

(١٧٢٤) عن عبدِ الرحمنِ بنِ سَمُرة ﵁ قال: قالَ لي رسُولُ الله ﷺ: «....وإذا حَلَفْتَ على يمينٍ، فرأيْتَ غيْرَها خَيْرًا مِنها، فَأْتِ الذي هُو خَيْرٌ، وكَفِّر عن يمينك»(١).

(١٧٢٥) وعن أَبي هريرة ﵁: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمينٍ، فَرَأى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيُكَفِّر عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَفْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»(٢).

(١٧٢٦) وعن أَبي موسى ﵁: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إنِّي وَاللهِ إنْ شاءَ اللهُ لاَ أحلِفُ عَلَى يَمِينٍ، ثُمَّ أَرَى خَيرًا مِنْهَا إلاَّ كَفَّرتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»(٣).

۞ فالأصل أن المسلم إذا حلف على شيءٍ ألا يَحنث في يمينه وأن يبقى على ما حلف عليه إن كان فيه طاعة لله (جلَّ وعلا) أو كان فيه مصلحة دنيوية لا تتعارض مع الشرع.

أما إن حلف على تَرك فريضة أو واجب فيجب عليه أن يؤدي الفريضة وأن يفعل ذلك الواجب ويُكفِّر عن يمينه.

فلو قال: والله لن أصلي الجمعة .. نقول له: اذهب وصلِّ الجمعة وكفِّر عن يمينك.

---

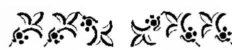
(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧٢٢) كتاب كفارات الأيمان - ومسلم (١٦٥٢) كتاب الأيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٠) كتاب الأيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٣٣) كتاب كفارات الأيمان - ومسلم (١٦٤٩) كتاب الأيمان.

ولو قال: والله لن أزور أمي ولن أَصِلَ أرحامي.. نقول له: اذهب لزيارة أمك وأرحامك وكفِّر عن يمينك.

۞ وأما إذا أمرته أمه أن يصلي صلاة الضحى فحلف ألا يصليها نقول له: الأفضل أن تصليها وتُكفِّر عن يمينك.. ولكن هذا ليس بواجبٍ عليك؛ لأن صلاة الضحى نافلة وليست واجبة... فالحاصل أن الإنسان إذا حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيرًا منها فليُكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير ...وهو بالخيار إن شاء فعل ثم كَفَّر أو إن شاء كَفَّر ثم فعل ... وذكر المؤلف أحاديث منها حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفِّر عن يمينك وأتِ الذي هو خير**» هذا قول النبي ﷺ أما فعله فقال: «**إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفَّرت عن يميني وأتيت الذي هو خير**» فثبت بذلك أي بالسُّنة القولية والفعلية أن الإنسان إذا حلف على شيءٍ ورأى غيره خيرًا منه فإنه يُكفِّر عن يمينه ويأتي الذي هو خير[1].



(١٧٢٧) وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «**لأنْ يَلَجَّ أحدُكُم في يَمِينِهِ في أهْلِهِ آثَمُ لهُ عندَ الله تعالى مِنْ أنْ يُعطِيَ كفَّارَتَهُ التي فَرَض الله عليه**»[2].

۞ فالنبي ﷺ يُقسم هنا مع أنه صادق بغير قَسَم، لكن لتوكيد الأمر.

قال: «**لأن يَلَجَّ أحدكم في يمينه في أهله**»، واللجاج هو الإصرار.. يعني: لئن يُصرَّ أحدكم على يمينه الذي حلفه على أهله أن يفعل كذا، أو ألا يفعل كذا.

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٢٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٢٥) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم (١٦٥٥) كتاب الأيمان.
قَوْلُهُ: «يَلَجّ» أيْ: يَتَمَادَى فِيهَا وَلاَ يُكَفِّرُ - وَقَوْلُهُ: «آثَمُ»، أيْ: أَكْثَرُ إثْمًا.

«آثَمُ له»، يعنى: أكثر إثمًا وأعظم جُرمًا له.

«**عند الله عَزَّوَجَلَّ من أن يعطى كفارته التى فرض الله عليه**»، يعنى: يجب عليه أن يَحنَث، وأن يُكفِّر عن هذا الحنث، وألا يعبأ بهذا اليمين بعد الكفارة؛ لأن إصراره على اليمين الذى تَضرر به أهله وليس معصية لله عَزَّوَجَلَّ أعظم من الحنث.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: (معنى الحديث: أنه إذا حلف يمينًا تتعلق بأهله ويتضررون بعدم حنثه، ويكون الحنث ليس بمعصية؛ فينبغى له أن يحنث، فيفعل ذلك الشىء ويُكفِّر عن يمينه ... فإن قال: لا أحنث، بل أتورع عن ارتكاب الحنث وأخاف الإثم فيه فهو مخطئ بهذا القول، بل استمراره فى عدم الحنث وإدامة الضرر على أهله أكثر إثمًا من الحنث)[1].

۞ **فإذا قال الرجل**: والله لن أُنفق على زوجتى وأولادى .. فتضررت الزوجة وتضرر الأولاد بسبب ذلك .. فيجب عليه هنا أن يَحنَث فى هذا اليمين وأن ينفق على زوجته وأولاده ويُكفِّر عن يمينه .. لأنه إذا أصر على هذا اليمين سيكون آثمًا لأن النبي ﷺ قال: «**كَفَى بالمرء إثمًا أن يُضيع مَن يَقوت**».



(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ١٧٧).

(٣١٧) باب العفو عن لغو اليمين وأنه لا كفارة فيه وهو ما يجرى على اللسان بغير قصد اليمين كقوله على العادة : لا والله وبلى والله ونحو ذلك

۞ قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

۞ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أى لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم لا والله، وبلى والله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ أى ولكن يؤاخذكم بما وثَّقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى كفارة اليمين عند الحنث أن تُطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذى تُطعمون منه أهليكم...قال ابن عباس: أى من أعدل ما تُطعمون أهليكم... وقال ابن عمر: الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزبيب، وخيرُ ما نُطعم أهلينا الخبز واللحم[(١)] ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أى كسوة المساكين لكل مسكين ثوبٌ يستر البدن ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أى إعتاق عبد مملوك لوجه الله... قال فى البحر: وأجمع العلماء على أن الحانث مُخيَّر بين الإطعام والكسوة والعتق[(٢)] ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أى فمن لم يجد شيئًا من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام[(٣)]

(١) ابن كثير (١/ ٥٤٣).
(٢) البحر (٤/ ١١).
(٣) شرط الأحناف والحنابلة التتابع فى الأيام وقال الشافعى ومالك لا يجب التتابع واختار الطبرى أنه =

﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ ﴾ أى هذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ ﴾ أى احفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلا لضرورة قال ابن عباس: أى لا تحلفوا ... وقال ابن جرير: أى لا تتركوها بغير تكفير ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أى مثل ذلك التبيين يبيّن الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم(١).



(١٧٢٨) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: أُنْزِلَتْ هذِهِ الآية: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ في قَوْلِ الرَّجُلِ: لا واللهِ، وَبَلَى واللهِ(٢).

۞ لغو اليمين: هى اليمين التى يقولها الإنسان على لسانه ولا يقصدها بقلبه، وقد عفا الله تعالى عن ذلك ؛ لأنه يحصل كثيرًا أن يقول الإنسان: لا والله ما أنا ذاهب، لا والله ما أنا فاعل، وما أشبه ذلك... فلما كثر هذا فى ألسُن الناس عفا الله عنه... قال الله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ فسَّرته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بأنه قول الرجل: لا والله ، وبلى والله فى عرض الحديث، ولا قَصَد اليمين، هذا لا يُؤاخَذ به، ولا يأثم به ولا يحنث فيه ولا تجب فيه الكفارة.

أما إذا عقد الإنسان اليمين عقدًا جازمًا، فقال: والله لا أفعل كذا، والله لأفعلن كذا، ولم يفعل، لزمته الكفارة وهى: عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم... بدأ الله تعالى بالإطعام ؛ لأنه أهون الثلاثة، قال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ ﴾ فإن

= كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة أجزأه كذا فى الطبرى (١٠/ ٥٦٢).

(١) صفوة التفاسير (١/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٦١٣) كتاب تفسير القرآن.

لم يجد فإنه يصوم ثلاثة أيام متتابعة لا يفطر بينها -أو متفرقة- وهذا من سعة رحمة الله تعالى أن هذه الأيمان التى تتكرر على الألسن ولا يقصدها الحالف ليس فيها إثم وليس فيها كفارة ؛ لأن ذلك يقع كثيرًا.

ولكن مع ذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ يعنى لا تُكثروا من الأيمان، ولا تتركوا الكفارة إذا حَنِثتُم فيها، بل احفظوها ؛ لأن اليمين أمرها عظيم... ولهذا سَمَّى الله تعالى مخالفتها حِنثًا... بل سمَّاها النبى ﷺ حنثًا ؛ لأنه لولا رحمة الله لكان الإنسان إذا حلف لزمه أن يُوفى، ولكن من نعمة الله أنه يسَّر أن الإنسان له أن يخالف ما حلف عليه إذا لم يكن إثمًا ... والله الموفق.

أما الإطعام فإنه كيلو للنفر الواحد من الأرز يكفى بزيادة[1].

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٣٠) بتصرف.

(٣١٨) باب كراهة الحلف فى البيع وإن كان صادقًا

(١٧٢٩) عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ للسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ للكَسْبِ»(١).

(١٧٣٠) وعن أَبِى قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «إيَّاكُمْ وكَثْرَةَ الحَلِفِ فى البَيْعِ، فإنَّهُ يُنَفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ»(٢).

۞ ففى هذين الحديثين ينهى النبى ﷺ عن الحلف فى البيع والشراء سواء كان كثيرًا أو قليلًا .. لأن البائع إن اعتاد على الحلف فقد يَصدُق مرة ويكذب مرات.. فلماذا يحلف؟!

ونحن نعلم أن اليمين إذا كانت كاذبة فهى محرمة، وإذا كانت غير كاذبة فينبغى تركها.. والإنسان يخبر بالشىء دون أن يحلف، ولا يجعل الله عُرضة لليمين، وإنما يخبر بالشىء على ما هو عليه دون أن يحلف..ولكن إن حلف وكان صادقًا فإن ذلك لا يضره، وإن كان كاذبًا فى حلفه فإن ذلك يضره لكونه كذب..وإن تَرتَّب بيعٌ أو شراء بسبب هذه اليمين الكاذبة فإن ذلك يكون سببًا فى محق البركة من وراء هذا البيع أو من وراء هذا الشراء.

ومن المعلوم أن البائع إذا حلف فإن المشترى قد يُخدع بهذا الحلف ويُقبل على الشراء.. ولكن إن كان البائع كاذبًا فإن الحلف سيُروج السلعة ويُسهل شراءها ولكنه سيمحق بركة المال.

فالحلف منفقة للسلعة، وفيه ترويجٌ لها، وترغيبٌ فيها، ولكنه ممحقة للبركة... فهو سبب فى ذهاب البركة من هذه الأموال التى حصَّلها بسبب بيع

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٨٧) كتاب البيوع - ومسلم (١٦٠٦) كتاب المساقاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٠٧) كتاب المساقاة.

هذه السلعة التى نفَّقها بالحلف الكاذب.

فليَحذر التاجر من كثرة الحلف.. فإذا حلف فليحلف صادقًا وإلا فليصمت حتى لا يبوء بسخط الله لأنه يحلف به كاذبًا.. وحتى لا تُمحق بركة المال.



(٣١٩) باب كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله عَزَّوَجَلَّ غير الجنة وكراهة منع مَن سأل بالله تعالى وتَشفَّع به

(١٧٣١) عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يُسْأَلُ بوَجْهِ الله إلا الجنَّةُ»(١).

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١٧٣٢) وعن ابن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالَ رسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اسْتعَاذَ باللهِ فأعِيذُوه، ومَن سأَلَ بالله فأعطُوهُ، ومَنْ دَعَاكُم فأجيبُوه، ومَن صَنَع إليْكُم معرُوفًا فكَافِئُوهُ، فإنْ لَمْ تَجدُوا ما تُكافِئونَهُ به فادعُوا لهُ حتَّى تَرَوْا أنَّكُم قَد كافأتُموهُ»(٢).

۞ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن استعاذ بالله فأعيذوه» قيل: معناه أنه إن استعاذ بالله وأمكنكم إعاذته من ذلك الشيء الذى استعاذ بالله منه، فحققوا له تلك الاستعاذة.

وقيل: إنه إذا حصل الاستعاذة من الإنسان لنفسه فإما أن يكون استعاذ بالله من أمرٍ من الأمور يمكن للإنسان أن يُعيذه منه، وأن يساعده عليه، وأن يُخلصه منه... أو استعاذ فى أمرٍ من الأمور فإنه يحقق له الشيء الذى يريد... وهذا كما جاء فى قصة المرأة التى قالت للنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أعوذ بالله منك، فقال: لقد عُذتِ بمُعاذٍ، الحقى بأهلك» فالمراد أنه هنا يحتمل هذا ويحتمل هذا.

فإذا استعاذ بالله من شيءٍ فأعذه منه.. وإذا استعاذ بالله منك فأعذه إلا إذا استعاذ عن حقٍّ واجب عليه فلا.. فلو أنك كنت تُطالبه بحقٍّ وهو يستطيع أن

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٣٥١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٢١).

يُؤديه إليك ولكنه لا يريد أن يُؤديه فاستعاذ بالله منك فلا تُعذه وخُذ حقك لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُعيذ عاصيًا... لكن إذا لم يكن الأمر محرمًا ولم يكن فيه ضياع حقٍّ فأعذه تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قوله ﷺ: «**وَمَن سأَلَ بالله فأعطُوهُ**» فلو سألك سائل وقال لك: أسألك بالله أن تعطينى كذا.. فإذا كان فى استطاعتك أن تعطيه ولم يكن يطلب شيئًا مُحرمًا فأعطه تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ.

لكن لا بد أن نعلم أن بعض الناس قد يسأل بالله شيئًا لا يَصلُح أن يُعطاه، ولا يَصلح أن يُجاب إليه، وليس كل ما يكون عند الإنسان يمكن أن يبذله ويعطيه، فإذا سأل بالله شيئًا لا يصلح أن يَسأل عنه لا بالله ولا بدون السؤال بالله فالإنسان فى سعة منه... **فإذا** كان عندك سِرٌّ من الأسرار وخبر من الأخبار مثلًا، وقال لك رجل: أسألك بالله أن تخبرنى عن كذا وكذا، أو سألك عن أمورٍ خاصة بحياتك، أو فى أمور لا يصلح أن يخوض فيها .. أو سألك مالًا ليشترى به دخانًا أو شيئًا من المحرمات فلا يَلزمك أن تُعطيه شيئًا.. ولا يلزمك أن تُخبره بأسرارك وحياتك الخاصة... فمثل هذا لا يُجاب ... ويوضح هذا أن إبرار المُقسم قد يناسب أن يُبر وأحيانًا لا يحصل إبراره.

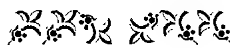
۞ **قوله** ﷺ: «**وَمَنْ دَعَاكُم فأجيبُوه**» أى: مَن دعاك إلى وليمة قليلة أو كثيرة فأجبه إلا إذا كان يدعوك إلى شىءٍ فيه معصية أو يكون فى ذلك ضرر عليك أو يكون هذا الرجل ممن يُهجَر .. كأن يكون مُصرًّا على كبيرة من الكبائر أو بدعة من البدع أو يكون ماله حرامًا فلا تُجبه حتى يُقلع عن ذلك.. إلا إذا علمت أنك إذا هجرته فإنه سيزداد فى معصيته وبدعته فاذهب إليه وادعُه إلى الله باللين والرفق والرحمة ... أما فى وليمة العُرس فقد قال النبى ﷺ: «**مَن لم يُجب فقد**

عصى الله ورسوله»[(١)]، إذا دعاك الزوج لوليمة العُرس فأجبه ما لم يكن عليك ضرر أو يكن هناك منكر... فإن كان عليك ضرر فلا يلزمك إجابته، وإن كان هناك منكر فإن كنت تستطيع أن تُغيره، فأجب وغيِّر المنكر، وإلا فلا تجب.

۞ **قوله ﷺ: «ومَن صَنَع إليْكُم معرُوفًا فكَافِئُوهُ».**

أى: أن مَن صنع إليك معروفًا.. أيًا كان ذلك المعروف فقد قال النبى ﷺ: **«لَا تَحقِرَنَّ مِنَ الْمَعرُوفِ شَيْئًا»**.. فمن فعل ذلك معك فكافئه فقد قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾.. إلا إذا كنت لا تجد ما تكافئه به أو كان ممن لا يستطيع أحدٌ مكافأته كالملك والأمير وما أشبه ذلك...

ولذا قال النبى ﷺ: **«فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»** ويمكن أن يكون الدعاء مع الإحسان والمكافأة... لكن الإنسان قد لا يستطيع المكافأة فلا أقل من الدعاء... والدعاء سهلٌ ميسور، فيدعو له ويكرر ذلك، ويُخلص فى الدعاء... وقد جاء فى الحديث: **«مَن قال لصاحبه: جزاك الله خيرًا فقد أبلغ فى الثناء»**.



(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٥١٧٧) كتاب النكاح - ومسلم (١٤٣٢) كتاب النكاح.

(٣٢٠) باب تحريم قوله شاهنشاه للسلطان وغيره لأن معناه ملك الملوك ولا يُوصَف بذلك غير الله سبحانه وتعالى

(١٧٣٣) عن أبى هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إنَّ أَخْنَعَ اسمٍ عندَ الله عَزَّ وَجَلَّ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأملاكِ»(١).

قال سُفيانُ بن عُيَيْنَة: «مَلِكُ الأمْلاكِ» مِثْلُ شاهِنشَاهِ.

۞ أخنع: أى أذل.. من الخنوع.

وكلمة ملك الأملاك مثل كلمة شاهنشاه باللغة الفارسية ومعناها: ملك الملوك.

وقد نهى النبى ﷺ عن ذلك لأن هذا لا يَصلُح إلا لله عَزَّ وَجَلَّ فهو ملك الملوك، وأما المخلوق فلا يُقال إنه ملك الملوك، وإنما يُقال ملك مثلما جاء فى القرآن: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ [يوسف:٥٠] كما جاء فى قصة العزيز فى سورة يوسف.... لكن كلمة ملك الملوك، هذا هو الذى قال عنه إنه أخنع اسم... ومعناه: أنه يكون فى ذلة جزاء ما زعم من العزة... ولذا فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعامل كل متكبر بنقيض قصده يوم القيامة.. فقد قال ﷺ: «**يُحشَرُ المُتَكَبِّرونَ يَوْمَ القِيامَةِ أَمْثالَ الذَّرِّ فِى صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِى جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولُسَ تَعلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةِ الخَبَالِ**»(٢).

فملك الملوك هو الله.. وملك الأملاك هو الله عَزَّ وَجَلَّ.. فمن تكبّر وأراد أن يلبس ثوب العظمة والكبرياء كان مصيره النار.. لأن العبد لا يجوز له أن يتجاوز

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٠٦) كتاب الأدب، ومسلم (٢١٤٣) كتاب الآداب.

(٢) حسن: رواه أحمد والترمذى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٤٠).



حدوده فى تعامُله مع الخالق (جل جلاله).

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِى، فَمَنْ نَازَعَنِى وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِى النَّارِ»[1].

۞ فهذا الذى أراد أن يلبس ثوب العز والعظمة ويُسمى نفسه ملك الأملاك فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُعامله بنقيض قصده فيجعل ذلك أذل اسم لهذا الإنسان المتكبر ولذا قال ﷺ: «**إنَّ أَخْنَعَ اسمٍ عندَ الله**» أى: أذل اسمٍ عند الله عَزَّوَجَلَّ: «**رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأملاكِ**» فاللهُمَّ ارزقنا نعمة التواضع والذل والانكسار بين يدى العزيز الجبار (جلَّ وعلا).



(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١١).

(٣٢١) باب النهى عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسيدى ونحوه

(١٧٣٤) عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لاَ تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

۞ يعنى: أن المنافق إن كان سيدًا من ناحية أنه كبير قوم وقلتم عليه سيد فقد أسخطتم الله ... لأن وصف السُّؤدد لا يَصلُح له... وإن لم يكن سيدًا فى قومه أو كبيرًا فى قومه، فإن هذا ذَمٌّ إلى ذَمٍّ... فهو أولًا ليس عنده السُّؤدُد الذى يحصل لأمثاله أو يحصل لبنى جنسه؛ لأن فى المنافقين السيد والمَسود... وأيضًا من ناحية أنه كذب؛ لأنه لا يوجد فيه السُّؤدُد الذى يُضاف إلى مَن كان له سُؤدُد على قومه من جنسه... فجمع بين كونه يُغضب الله لو كان سيدًا، وبين كونه أيضًا كذبًا؛ لأنه لا يوجد فيه هذا الوصف.

والمنافق لا يكون سيدًا، وإنما هو ذليلٌ وحقيرٌ، وليس من أهل السُّؤدُد فى الحقيقة... ومع الأسف أن السؤدد الآن حصل لكل أحدٍ حتى للكفار، فيُقال للكافر سيد إما بلغة العرب وإما بلغة العجم(٢).



(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٤٠٥).
(٢) شرح سنن أبى داود / للعبّاد.

(٣٢٢) باب كراهة سب الحُمى

(١٧٣٥) عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ دخَلَ على أُمِّ السَّائِبِ - أوْ أُمِّ المُسَيَّبِ - فقال: «مالَكِ يا أُمَّ السَّائبِ - أوْ يَا أُمَّ المُسيَّبِ - تُزَفْزِفينَ؟» قالتْ: الحُمَّى لا بارَكَ الله فيها .. فقال: «لا تَسُبِّى الحُمَّى، فإنَّها تُذْهِبُ خَطَايا بَنى آدم، كما يُذْهِبُ الكِيرُ خَبثَ الحديدِ»[1].

۞ الحُمَّى هى السخونة التى يجدها العبد فى جسده.. وهى نوعٌ من الأمراض التى قدرها الله عَزَّوَجَلَّ ابتلاءً لعباده الصالحين.. فالله هو الذى يُقدرها ويرفعها متى شاء (سبحانه وتعالى)...

وكل شىء من أفعال الله فإنه لا يجوز للإنسان أن يَسُبه ؛ لأن سَبه سبًّا لخالقه (جل وعلا)، ولهذا قال النبى ﷺ: «**لا تَسُبُّوا الدهر فإن الله هو الدهر**»[2].

۞ والحمى من فيح جهنم كما أخبر النبى ﷺ حيث قال: «**الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ**»[3].. ولهذا قرر الأطباء أن أفضل علاجٍ للحمى أن يوضع المريض فى مكانٍ فيه مكيف وأن يوضع على جسده كمَّادات من الماء البارد... فالماء البارد يُبردها ويطردها بفضل الله عَزَّوَجَلَّ.

وعلى المؤمن أن يصبر ويحتسب إذا أُصيب بالحمى ويعلم يقينًا أن الحمى تُذهب الخطايا كما يُذهب الكير خَبَث الحديد والذهب والفضة ... وأن يعلم أن الحُمى هى حظُّ المؤمن من النار يوم القيامة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٥) كتاب البر والصلة والآداب.

«تُزَفْزِفين» أى: تَتحرَّكِينَ حرَكَةً سريعةً، ومعناه: تَرتَعِدُ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٦٤) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٢٠٩) كتاب السلام.

فقد قال ﷺ: «**الْحُمَّى حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ يوم القيامة**»(١).

۞ وفى هذا الحديث أن النبى ﷺ دخل على أم السائب فوجدها ترتعد وتتحرك بشدة وسرعة فقال لها: «**مالَكِ يا أُمَّ السَّائبِ تُزَفْزِفينَ؟**» قالت: الحمى لا بارك الله فيها.

فنهاها النبى ﷺ عن سَبِّ الحمى لأن الأمراض والابتلاءات كلها خير للمؤمن إذا صبر واحتسب.

فقال ﷺ: «**لا تَسُبِّى الحُمَّى، فإنَّها تُذْهِبُ خطَايا بَنى آدم، كما يُذْهِبُ الكِيرُ خَبثَ الحديدِ**» فإن الحديد إذا صُهر على النار ذهب خَبثُه وبقى صافيًا، كذلك الحمى تفعل فى الإنسان كذلك.

۞ وكل الأمراض والابتلاءات هى عين الخير للعبد .. لأن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أحب قومًا ابتلاهم .. فهى علامة على حب الله للعبد وكفى بها منقبة لا توازيها الدنيا بما فيها... وأيضًا فالأمراض والابتلاءات جعلها الله سببًا لمغفرة الذنوب وتكفير السيئات ورفعة الدرجات فى الجنات .

---

(١) **صحيح**: رواه البزار وابن أبى الدنيا وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٨٦)(٣١٨٧).

(٣٢٣) باب النهى عن سبِّ الريح وبيان ما يُقال عند هبوبها

(١٧٣٦) عن أبى المُنْذِرِ أُبَىِّ بنِ كَعبٍ ﵁ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فإذَا رأيْتُم ما تكْرهُون، فقُولُوا: اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ مِن خَيْرِ هذه الرِّيحِ وخَيْرِ ما فيها وخَيْرِ ما أُمِرَتْ بِهِ، ونَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هذِهِ الرِّيحِ وشَرِّ ما فيها وشرِّ ما أُمِرَتْ بِهِ»(١).

(١٧٣٧) وعن أبى هُريرة ﵁ قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ الله تأتِى بالرَّحمة، وتأتِى بالعذَابِ، فإذا رأيْتُموهَا فلا تَسُبُّوها، وسَلُوا الله خَيْرَها، واسْتَعِيذُوا بالله مِن شَرِّها»(٢).

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن الريح آية من آيات الله ﷿ فى إرسالها وتصريفها .. فلا يقدر أحدٌ أن يرسل الرياح أو يصرفها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم:٤٦]، والآيات فى هذه كثيرة.

والرياح قد تكون عادية لا تضر أحدًا بل تنفع البشر.. ولا يُسَنُّ لها ذكرٌ بعينه .. وهناك ريحٌ عاصفة تُرعب البشر.. وقد أهلك الله ﷿ عادًا بالريح العقيم...

فالشاهد أنه لا يجوز أن تَسُب الريح لأن الذى أرسلها هو الله ﷿.. ولذا قال ﷺ «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ» ثم أرشد النبى ﷺ أمته إذا رأوا ريحًا شديدًا وخافوا منها أن يقولوا: «اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ مِن خَيْرِ هذه الرِّيحِ وخَيْرِ ما فيها وخَيْر ما أُمِرَتْ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣١٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٦٤).

قوله ﷺ: «مِن رَوْحِ الله» هو بفتح الراءِ، أى: رَحمَتِهِ بعِبَادِهِ.

بِهِ، ونَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هذِهِ الرِّيحِ وشَرِّ ما فيها وشرِّ ما أُمِرَتْ بهِ» لأنها تارة تُرسَل بالخير وتارة تُرسَل بالشر.. فتسأل الله خير ما أُرسلت به ... أي: ما تحمله من أمورٍ نافعة وتستعيذ بالله من شر ما أُرسلت إليه لأن تلك الرياح قد تكون عاصفة شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتُدمر السيارات..

يعنى: ما حصل فيها من خير فاسألوا الله عَزَّوَجَلَّ أن يحققه لكم، وما فيها من شر فاسألوه سبحانه وتعالى أن يصرفه عنكم وأن يُخلصكم منه.

ومعنى ذلك أن الريح مأمورة، فالإنسان يسأل الله خيرها ويستعيذ بالله من شرها... وهى تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب... ومعلوم أن الله تعالى يرسل الرياح فتثير سحابًا فيحصل الخير والبركة للناس، وكذلك تكون عذابًا كما كانت عذابًا لعادٍ..فقد أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، تنزع النخيل وتأخذ الرجال وتُلقيهم فى أماكن بعيدة، وتُهلكهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف:٢٥].

واعلم أنه لا يجوز للإنسان أن يتعلق بالريح فى حصول المطر والغيث والصحو وما أشبه ذلك؛ لأن هذا من جنس الاستسقاء بالأنواء الذى نهى عنه النبى ﷺ ... فعليك أن تُعلق قلبك بربك تبارك وتعالى وألا تَسُب ما خلقه من الرياح. واسأل الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به واستعذ بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أُرسلت به.



(١٧٣٨) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان النَّبِيُّ ﷺ إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ قال: «اللَّهُمَّ إنِّى أسْألُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرسِلَتْ بِهِ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرسِلَتْ بِهِ»(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٩٩) كتاب صلاة الاستسقاء.

❁ الشّاهد فى الحديث:

أن النبى ﷺ كان إذا رأى فى السماء سحابة فيها رعدٌ وبرقٌ، تغيَّر وجهه من الخوف، خشية أن يكون فيها عذاب من الله من جنس ما أصاب قوم عادٍ، لأنهم لما رأوا السحاب فى السماء ظنوه سيأتى بالمطر والرحمة، فإذا هى ريح فيها عذاب أليم... قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

❁ **بعض فوائد الحديث:**

الفائدة الأولى: على المسلم أن يكون دائمًا على خوفٍ من آيات الله، التى قد تأتى بالعذاب... وعليه ألا يألف تلك الآيات، فيذهب عنه الخوف إذا ما تكررت... لأنْ عائشة رضي الله عنها أعلمتنا، أنْ النبى ﷺ كانْ كلما رأى السحابْ تغير وجهه، قالت: (وإذا تخيَّلتْ السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر).

ويتفرع على ذلك: خطأ من يطلق على السحاب والريح، والخسوف والكسوف، والزلازل والبراكين، ظواهر طبيعية... يريد بذلك أن يُذهب من قلوب الناس الخوف من الله إذا رأوا تلك الآيات، وألا يجعلهم يتوبون إلى الله ويستغفرونه كلما رأوها... فالنبى ﷺ كان يخاف إذا رأى تلك الآيات، لدرجة أن الخوف يظهر على وجهه، وعلى حركاته التى لا تهدأ، كالمضطرب الوَجِل، وإذا ذهبت ظهر ذلك أيضًا على وجهه، قالت عائشة: (فإذا أمطرت سُرِّى عنه).

الفائدة الثانية: وجوب التضرع والابتهال إلى الله- سبحانه وتعالى- إذا رأى المسلم آية قد يكون فيها عذاب... قالت عائشة: (إذا عصفت قال: **«اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أُرسلت به»**[1].

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٣٧٦).

(٣٢٤) باب كراهة سب الديك

(١٧٣٩) عن زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا الدِّيكَ، فإنَّهُ يُوقِظُ للصلاةِ»[١].

۞ والديك هو: الذَّكر من الدجاج وله صوت يؤذن فيوقظ النائم، وبعضها يؤذن على الأوقات عند أوقات الصلوات... وقد أمر النبى ﷺ مَن سمع صوت الديك أن يَسأل اللهَ من فضله... إذا سمعت صوت الديك فقل: أسأل الله من فضله فإنها رأت مَلَكًا... وبعض الديكة يكون أذانه على دخول الوقت أو قرب دخول الوقت، فيوقظ الناس للصلاة، فنهى النبى ﷺ عن سَبِّه لهذه المزية التى تميز بها، كما نُهى عن قتل النملة؛ لأنها كانت دلَّت أخواتها على النجاة من سليمان عليه الصلاة والسلام... وهذا من تمام عدل الله عَزَّ وَجَلَّ أن بعض الحيوانات التى يكون فيها مصلحة للعباد يكون لها مزية وفضل على غيرها... وسب الديك قد يقع من بعض الناس، إذا فزع من صوته وهو نائم فيسبه ويشتمه وهذا مَنهيٌّ عنه لأن النبى ﷺ قال: «لا تسبوا الديك».

وفى هذا الحديث دليل على: أنه ينبغى للإنسان أن يتخذ ما يُوقظه للصلاة، وذلك مثل الساعات المنبهة... فإن الإنسان ينبغى له أن يقتنى هذه الساعات حتى تُنبهه للصلاة فى الوقت الذى يدرك فيه الصلاة... وكثير من الناس يتهاون فى هذا الأمر فينام معتمدًا على أنه سيقوم فى الوقت الذى يريده ولكن يغلبه النوم، فإذا علمت من نفسك هذا فاجعل لنفسك مُنبهًا يُنبهك للصلاة؛ لأن ما لا يتم المأمور إلا به فهو مأمور به وأنت مُثابٌ على هذا[٢].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣١٤).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٣٦) بتصرف.

(٣٢٥) باب النهى عن قول الإنسان: مُطرنا بنوء كذا

(١٧٤٠) عن زيد بن خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْح بِالحُدَيْبِيَّةِ فى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فقالَ: «هَلْ تَدرُونَ مَاذَا قالَ رَبُّكُمْ؟» قالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعلَمُ. قال: «قالَ: أصبَحَ مِنْ عِبَادِى مُؤْمِنٌ بِى، وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحمَتِهِ، فَذلِكَ مُؤْمِنٌ بِى كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وأَما مَنْ قَالَ مُطِرنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذلكَ كَافِرٌ بِى مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يحكى زيد بن خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنهم كانوا مع النبى ﷺ فى الحديبية... والحديبية غزوة مشهورة معروفة، وذلك أن النبى ﷺ خرج إلى مكة معتمرًا ومعه الإبل - الهَدى -، فلما وصل إلى الحديبية وهى أرضٌ بين الحِلِّ والحرم، منعته قريش أن يدخل مكة، وجرى بينهم وبين النبى ﷺ ما هو معروف من المصالحة... لكن فى إحدى الليالى، صلى بهم النبى ﷺ صلاة الصبح على إثر مطر، فلما انصرف من صلاته أقبل عليهم وقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم... وإنما ألقى عليهم هذا السؤال من أجل أن ينتبهوا ؛ لأن إلقاء الأسئلة يُوجب الانتباه... قالوا: الله ورسوله أعلم. وهكذا كل إنسان يجب عليه إذا سُئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم... فى الأمور الشرعية.

فأخبرهم النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: «أَصبَحَ مِنْ عِبَادِى مُؤْمِنٌ بِى وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِى كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطرنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِى مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ».

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٨٤٦) كتاب الأذان - ومسلم (٧١) كتاب الإيمان.
وَالسَّماءُ هُنَا: المَطَرُ.

فالاستسقاء بالأنواء: أن يُطلب من النجم أن يُنزل الغيث... ويدخل فيه أن يُنسَب الغيث إلى النجم، كما كان أهل الجاهلية يزعمون، فكانوا إذا نزل مطر فى وقت نجم مُعيَّن نسبوا المطر إلى ذلك النجم، فيقولون: مُطرنا بنوء كذا، أو هذا مطر الوسمى، أو هذا مطر الثُّريا، ويزعمون أن النجم هو الذى أنزل هذا الغيث(١).

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن ينسب المطر إلى النجم معتقدًا أنه هو المُنزل للغيث بدون مشيئة الله وفعله عَزَّوَجَلَّ، فهذا شركٌ أكبر بالإجماع(٢).

القسم الثانى: أن ينسب المطر إلى النَّوء معتقدًا أن الله جعل هذا النجم سببًا فى نزول هذا الغيث ... فهذا من الشرك الأصغر(٣)؛ لأنه جعل ما ليس بسبب سببًا(٤)، فالله تعالى لم يجعل شيئًا من النجوم سببًا فى نزول الأمطار، ولا صلة للنجوم بنزولها بأى وجه، وإنما أجرى الله العادة بنزول بعض الأمطار فى وقت بعض النجوم.

هذا وإذا قال المسلم: «مُطرنا بنوء كذا وكذا» ومقصده أن الله أنزل المطر فى وقت هذا النجم(٥)، معتقدًا أنه ليس للنجم أدنى تأثير لا استقلالًا ولا تسبُّبًا فقد

---

(١) ينظر: التمهيد (١٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، شرح السنة (٤/ ٤٢٠).

(٢) قال فى الفروع (٢/ ١٦٣): «وإضافة المطر إلى النَّوء دون الله كفرٌ إجماعًا». وهذا شرك فى الربوبية، ومن الشرك الأكبر فى هذا الباب: أن يدعو النجم أن يُنزل الغيث ... كما سبق قريبًا وهذا شرك أكبر فى الربوبية والألوهية.

(٣) بعض العلماء يسمى هذا الشرك بـ«كفر النعمة»؛ لأنه نسب إنعام الله تعالى عليه بالغيث إلى النجم، وجعله سببًا فى ذلك، مع أن الله لم يجعله سببًا - المعلم (١/ ٣٣٢)، الفروع (٢/ ١٦٣).

(٤) القول المفيد - باب ماجاء فى الاستسقاء بالأنواء (٢/ ١٩).

(٥) لأن الباء تأتى للظرفية بمعنى «فى»، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى: وفى الليل - وكما فى قوله تعالى: ﴿ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر:٣٤]، لكن الباء أظهر فى كونها للسببية - ينظر: مغنى اللبيب (١/ ١٢١)، القول المفيد (٢/ ٣١).



اختلف أهل العلم فى حكم هذا اللفظ: فقيل: هو محرم[(١)].

وقيل: مكروه[(٢)]. وقيل: مباح[(٣)]، ولا شك أن هذا اللفظ ينبغى تَركُه، واستبداله بالألفاظ الأخرى التى لا إيهام فيها... فإما أن يقول: «مُطرنا بفضل الله ورحمته»، أو يقول: «هذه رحمة الله»، وهذا هو الذى ورد الثناء على مَن قاله، كما سبق فى النصوص... فهو أَولَى من غيره، وإما أن يقول: «هذا مطر أنزله الله فى وقت نجم كذا»، أو يقول: «مُطرنا فى نوء كذا»[(٤)]، ونحو ذلك من العبارات الصريحة التى لا لَبس ولا إشكال فيها[(٥)].



(١) الفروع: صلاة الاستسقاء (١/ ١٦٣).

(٢) الأذكار للنووى (ص٣٠٨)، شرح مسلم للنووى (٢/ ٦١).

(٣) شرح السنة: الاستسقاء (٤/ ٤٢١)، النهاية (مادة: نوأ)؛ جامع الأصول: النجوم (١١/ ٥٧٨).

(٤) مغنى المحتاج: صلاة الاستسقاء (١/ ٣٢٦)، الفروع (١/ ١٦٣)، الإنصاف (٥/ ٤٣٩).

(٥) تسهيل العقيدة الإسلامية / أ. د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين (ص ٤٢٩-٤٣٤) بتصرف كبير.

(٣٢٦) باب تحريم قوله لمسلم: يا كافر

(١٧٤١) عن ابنِ عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذا قالَ الرَّجُلُ لأخِيهِ: يا كافِر، فقَد باءَ بها أحَدُهُما، فإنْ كان كَمَا قالَ وإلا رَجَعَتْ عليه»(١).

(١٧٤٢) وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ سَمِعَ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «مَن دَعَا رَجُلًا بالكُفْرِ، أو قالَ: عَدُوَّ الله، وليْس كذلكَ إلا حَارَ عليه»(٢).

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (رياض الصالحين): باب تحريم قوله لمسلم: يا كافر.

المسلم والكافر حُكمهما إلى الله عَزَّ وَجَلَّ .. فالذي يحكم بالكفر هو الله، والذي يحكم بالإسلام هو الله.. كما أن الذي يُحلل ويُحرم هو الله عَزَّ وَجَلَّ، فليس لنا أن نُحلل ما حرم الله، ولا أن نُحرم ما أحلَّ الله، ولا أن نُكفر مَن ليس بكافر في حكم الله، ولا أن نقول هذا مسلم وهذا ليس مسلمًا..... ومسألة التكفير مسألة خطيرة جدًّا، فُتح بها أبواب شرٍّ كبيرة على الأمة الإسلامية.. فإن أول مَن انتحل هذه النِّحلة الخبيثة وهي تكفير المسلمين هم الخوارج... الخوارج الذين أخبر النبي ﷺ أنه «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٣) حتى أخبر النبي ﷺ أن الصحابة يحقِر أحدُهم صلاتَه عند صلاة هؤلاء ... لكنهم والعياذ بالله كَفَّروا المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٠٤) كتاب الأدب - ومسلم (٦٠) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٤٥) كتاب الأدب - ومسلم (٦١) كتاب الإيمان.
«حارَ»: رَجَعَ.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦١١) كتاب المناقب - ومسلم (١٠٦٦) كتاب الزكاة.

ونساءهم، نسأل الله العافية... وما زال هذا الحُكم موجودًا إلى يومنا هذا، فإن هناك شُعبة ضالة مبتدعة خبيثة تُكفر بأهوائها مَن لم يكفره الله ورسوله... هذا كافر، هذا مبتدع، هذا فاسق، وما أشبه ذلك، وماذا حصل من هؤلاء الخوارج المارقين من الإسلام؟ حصل منهم أنهم اجتمعوا مع على بن أبى طالب رضي الله عنه وهو الخليفة الراشد الرابع من الخلفاء الراشدين ... اجتمعوا معه على حرب أهل الشام، واتفقوا على ذلك وجرت بينهم حروب عظيمة ودماء كثيرة، ثم اصطلح علىٌّ رضي الله عنه مع أهل الشام وتصالحوا حقنًا لدماء المسلمين. فقالت الخوارج لعلى بن أبى طالب: أنت كافر لماذا تصالحهم، كفرت كما كفروا... فخرجوا عليه وقاتلوه لكن صارت العاقبة والحمد لله له ... فقد قتلهم قتل عادٍ وإِرَم، وقضى على أكثرهم ... لكن ما زال هذا المذهب الخبيث موجودًا فى المسلمين ، يُبيحوا دماء المسلمين مع احترامها، وأموالهم مع احترامها، ونساءهم مع احترام الأعراض ، فيقولون مثلًا: مَن زنى فهو كافر، ومَن سرق فهو كافر، ومَن شرب الخمر فهو كافر... كل ذنب من كبائر الذنوب فهو عندهم كفر ، والعياذ بالله، يُخرج من الملة.

فهؤلاء الذين يُكفرون المسلمين لا شك أنهم هم الكفار ؛ لأن النبى ﷺ أخبر أن الرجل إذا قال لأخيه يا كافر فإنه يبوء بها أحدهما، لا بد... إن كان كما قال: كافر ، فهو كافر، وإلا كان الكافر هو القائل والعياذ بالله.. ولهذا يجب أن يُنزه الإنسان لسانَه وقلبه عن تكفير المسلمين.. لا يتكلم فيقول: هذا كافر، ولا يعتقد فى قلبه أن هذا كافر، لمجرد الهوى... الحكم بالتكفير ليس لزيدٍ ولا لعمرو، بل هو لله ورسوله ﷺ... مَن كفَّره الله ورسوله فهو كافر، وإن قلنا إنه مسلم، ومَن لم يكفره الله ورسوله فهو مسلم، وإن قال مَن قال إنه كافر... لذلك نقول لمن قال لمسلم يا كافر، أو يا عدو الله... إن كان المُخاطَب كما قال فهو

كافر وعدو لله، وإن لم يكن كذلك فالقائل هو الكافر العدو لله والعياذ بالله... وعلى هذا فيكون هذا القول من كبائر الذنوب إذا لم يكن الذى قيل فيه أهلًا لها، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله فى تحريم هذا، أى فى تحريم القول للمسلم: يا كافر أو يا عدو الله.

نسأل الله تعالى أن يحمى قلوبنا وأن يحفظنا من الكلام الذى يُغضبه ويضرنا، إنه على كل شىء قدير[1].



(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٤/ ٢٣٨-٢٣٩) بتصرف.

(٣٢٧) باب النهى عن الفُحش وبذاء اللسان

(١٧٤٣) عن ابنِ مسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لَيْسَ المؤمِنُ بالطَّعَّانِ، ولا اللَّعَّانِ، ولا الفَاحِشِ، ولا البَذِىء»[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٥٦٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٧٤٤) وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ما كانَ الفُحشُ فى شىءٍ إلا شانَهُ، ومَا كانَ الحَيَاءُ فى شَىءٍ إلا زَانَهُ»[2].

۞ قَالَ الطِّيبِىُّ: فِيهِ مُبَالَغَةٌ ... أَىْ: لَوْ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ الْفُحشُ أَوِ الْحَيَاءُ فِى جَمَادٍ لَزَانَهُ أَوْ شَانَهُ، فَكَيْفَ بِالْإِنْسَانِ؟ وأشار بهذين إلى أن الأخلاق الرذيلة مفتاح كل شر بل هى الشر كله... والأخلاق الحسنة مفتاح كل خير بل هى الخير كله.... قال ابن جماعة: وقد بُلِى بعض أصحاب النفوس الخبيثة من فقهاء الزمان بالفُحش والحسد والعُجب والرياء وعدم الحياء[3]...

وأقول: ليت ابن جماعة عاش إلى الآن حتى يرى بعض علماء هذا الزمان - إلا مَن رحم الله- ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٨١).
(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٥٥).
(٣) فتح القدير (٥/ ٤٦١).

(٣٢٨) باب كراهة التقعير فى الكلام والتشدُّق، وتَكلُّف الفصاحة واستعمال وحشى اللغة، ودقائق الإعراب فى مخاطبة العوام ونحوهم

(١٧٤٥) عن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِىَّ ﷺ قال: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قالَها ثلاثًا[1].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٧٤٦) وعن عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله يُبْغِضُ البَلِيغَ مِنَ الرِّجالِ الذى يَتَخَلَّلُ بِلِسانِهِ كمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ»[2].

۞ والمقصود بذلك الإنسان الذى يتفاصح ويتقعر ويتعمق فى الكلام ويتكلفه، ولم يكن ذلك له سليقة، فيتكلف ويأتى بشىء عن طريق التكلُّف... أما إذا كان من غير تكلُّف بأن يُعطى اللهُ الإنسانَ فصاحة وبلاغة فتكلم واستخدم فصاحته وبلاغته فى بيان الحق، فإن ذلك غير مذموم.

وهذا الحديث فيه أن الله يبغض الذى يتكلف البلاغة، ويأتى بشىء عن تقعُّر وتكلُّف، ووصفه بأنه يشبه البقرة التى تتخلل بلسانها وتُحرك لسانها وتُديره وتمده... يعنى: أنه يتكلف ويتقعر كما أن البقرة هذا شأنها وهذه طريقتها فى كونها تستعمل لسانها فى أكلها... وقيل: إن البقرة ليست كالبهائم؛ لأن البهائم

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٠) كتاب العلم.
«المتَنَطِّعونَ»: المُبالِغُونَ فى الأمورِ.
(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٧٥).

تتناول الشيء بأسنانها، وأما هى فتتناول الشيء بلسانها.

فشبَّه مَن يتفاصح ويتكلف البلاغة والفصاحة بالبقرة التى تُحرك لسانها وتمده وتُميله يمينًا وشمالًا.

وفى هذا إثبات صفة البغض لله عَزَّوَجَلَّ حيث قال: «**إن الله يبغض**» فهذه من صفات الله عَزَّوَجَلَّ التى يجب إثباتها لله عَزَّوَجَلَّ كما يليق به، كما هو الشأن فى جميع الصفات.

وفيه: تحريم مثل هذا العمل وذَمّه، وأن صاحبه ممن هو مُبغَضٌ عند الله سبحانه وتعالى[1].



(١٧٤٧) وعنْ جابرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إنَّ مِن أحَبِّكُمْ إلىَّ وأقْرَبِكُم مِنِّى مَجْلِسًا يَوْمَ القِيامةِ، أحَاسِنُكُم أخْلاقًا، وإنَّ أبْغَضَكُمْ إلىَّ وأبْعَدَكُمْ مِنِّى يوم القِيامَةِ، الثَّرْثَارُون، والمُتَشَدِّقُون والمُتَفَيْهِقُون»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٦٣٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



---

(١) شرح سنن أبى داود / للشيخ عبد المحسن العبَّاد.

(٢) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٠١).

(٣٢٩) باب كراهة قوله: خَبُثت نفسى

(١٧٤٨) عن عائشة رضي الله عنها عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: خَبُثَتْ نَفْسى، ولَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسِى»(١).

❁ **قال المصنف** رحمه الله: (باب: كراهة قول الإنسان: خَبُثت نفسى).

أو أن يقول: إن نفسى خبيثة! فهذا اللفظ أنت منهيٌّ عنه إما لنفسك أو لغيرك... فلا تَقُل: هذا فلان خبيث، أو نفسه خبيثة، أو خَبُثت نفسى، أو خبثت نفس فلان فكل هذه من الألفاظ التى نهى عنها الشارع، ولكن قُل: لَقِست نفسى أو لَقِست نفس فلان... والأَولَى ألا تتهم أحدًا؛ لأن هذا ربما يُعَدُّ من السباب أو الغيبة أو غير ذلك... ولكن إذا أردت أن تُعبر بالخبث فَقُل: لَقِسَت نفسى، ولا تقل خبثت نفسى، وإن كانت الكلمتان تؤديان معنى واحد... فلقست بمعنى خَبُثت؛ واللقس فى اللغة: هو الخبث، ولكن الشارع أراد أن يُنزه عباده عن صريح الألفاظ المذمومة، فعندما تقول لفلان: أنت خبيث؛ فإنه يفهمها ويتأذى بها، لكنك لو قلت له: لقست نفسك. فإنه لن يفهمها وبالتالى فلن يتأذى بها.

فإن قيل: فقد قال ﷺ فى الذى ينام عن صلاة الصبح فى وقتها: «**فأصبح خبيث النفس كسلان**» بخلاف طيب النفس النشيط، فكيف نجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «**لا يقل أحدكم: خَبُثت نفسى**»؟

فالجواب: أن النبى ﷺ أخبر عن صفة غيره، وهو شخصٌ مُبهَم وليس معلوم الحال، فلا يمتنع إطلاق هذا اللفظ عليه ما دام مجهولًا، ومادام قد وقع فى أمرٍ مذموم وهو ترك صلاة الفجر.... والله تعالى أعلم(٢).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٦١٧٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٢٥٠) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.
قال العلماءُ: معنَى خَبُثَتْ: غَثَتْ، وهو معنى «لَقِسَتْ» ولكِنْ كَرِهَ لَفْظَ الخُبْثِ.

(٢) شرح صحيح مسلم / للشيخ حسن أبو الأشبال.

۞ **وفى هذا الحديث دليل على**: اجتناب الألفاظ المكروهة وإبدالها بألفاظٍ غير مكروهة وإن كان المعنى واحدًا ؛ لأن اللفظ قد يكون سببًا للمعنى.

قد يقول: خَبُثت نفسى بمعنى غَثَت ، والخبث: الغثيان، ويأتى فى باله أنه من الخبث الذى هو ضد الطيب... والنفوس الخبيثة هى نفوس الكفرة والعياذ بالله، لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ ﴾[التوبة:٢٨]. ولقوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ ﴾[النور:٢٦]، ولأن النبى كان إذا أراد دخول الخلاء ليبول، أو يتغوط يقول: «**أعوذ بالله من الخُبث والخبائث**». يعنى الشياطين وإناث الشياطين والشر.

فالمهم أن الإنسان يُكْرَه له أن يُطلق ألفاظًا مكروهة على معانٍ صحيحة بل يبدلها بألفاظٍ محبوبة للنفوس.



(٣٣٠) باب كراهة تسمية العنب كَرْمًا

(١٧٤٩) عن أبي هُرَيْرةَ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا تُسَمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ، فإنَّ الكَرْمَ المُسْلِمُ»(١).

وفي روايةٍ: «فإنَّما الكَرْمُ قَلْبُ المؤمِنِ».

وفي روايةٍ للبخاري ومسلم: «يقُولُونَ الكَرْمُ، إنَّمَا الكَرْمُ قَلْبُ المؤمِنِ».

(١٧٥٠) وعن وائِلِ بنِ حُجرٍ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تَقُولوا: الكَرْمُ، ولكِنْ قُولُوا: العِنَبُ، والحَبَلَةُ»(٢).

۞ ففي هذا الحديث نهى النبي ﷺ أن نُسمي العنب الكَرم .. فلماذا؟ لأنه لا بد أن نعلم أولًا أن الكَرم - كما أخبر النبي ﷺ- هو المؤمن أو هو قلب المؤمن .. وذلك لأنه مأخوذٌ من الكَرَم .. ومن المعلوم أن الكرم وصفٌ طيب محبوب يُوصف به العبد المؤمن .. ولا سيما إذا كان معروفًا بالبذل والعطاء والجود والكرم بماله وعلمه وجاهه .. ولذا فإنه أحق أن يُوصَف بهذا الوصف من العنب .. ولهذا فإنه ينبغي أن يُقال للعنب: عنب أو يُقال الحَبلة: وهي شجرة العنب.

۞ قال الإمام النووي رحمه الله:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: سَبَبُ كَرَاهَةِ ذَلِكَ أَنْ لَفْظَةَ الْكَرمِ كَانَتِ الْعَرَبُ تُطْلِقُهَا عَلَى شَجَرِ الْعِنَبِ وَعَلَى الْعِنَبِ وَعَلَى الْخَمْرِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْعِنَبِ ... سَمَّوْهَا كَرمًا لِكَوْنِهَا مُتَّخَذَةً مِنْهُ؛ وَلِأَنَّهَا تَحمِلُ عَلَى الْكَرَمِ وَالسَّخَاءِ فَكَرِهَ الشَّرعُ إطلاق هذه

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٨٢، ٦١٨٣) كتاب الأدب - ومسلم (٢٢٤٧) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٨) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

«الحَبَلَةُ» العنب .. وقيل: شجرة العنب.

اللَّفْظَةِ عَلَى الْعِنَبِ وَشَجَرِهِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا اللَّفْظَةَ رُبَّمَا تَذَكَّرُوا بِهَا الْخَمْرَ، وَهَيَّجَتْ نُفُوسَهُمْ إِلَيْهَا، فَوَقَعُوا فِيهَا أَوْ قَارَبُوا ذَلِكَ... وَقَالَ: إِنَّمَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الِاسْمَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَوْ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّ الْكَرمَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْكَرَمِ ... وَقَدْ قَالَ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ فَسُمِّيَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ كَرمًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْهُدَى، وَالنُّورِ، وَالتَّقْوَى، وَالصِّفَاتِ الْمُسْتَحِقَّةِ لِهَذَا الِاسْمِ وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ[١].



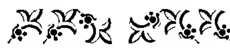
(١) مسلم بشرح النووي (١٥/ ٧-٨).

(٣٣١) باب النهى عن وصف محاسن المرأة لرجل إلا أن يحتاج إلى ذلك لغرضٍ شرعى كنكاحها ونحوه

(١٧٥١) عن ابنِ مسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تُباشِرِ المرأةُ المرأةَ، فتَصِفَها لِزَوْجِهَا كأنَّهُ يَنْظُرُ إليها»(١).

۞ ففى هذا الحديث ينهى النبى ﷺ أن تصف المرأةُ المرأةَ ثم تذهب وتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها .. وهذا يوضح أنها بذلك تصف لزوجها تفاصيل تلك المرأة كأن تقول لزوجها: إن لونها كذا وطولها كذا ولون عينيها كذا ولون شعرها كذا.. وهذا لا يجوز؛ لأن الزوج قد يتخيل هذه المرأة وقد يشتهى أن يتزوجها فتحدث المشاكل بينها وبين زميلتها التى وصفتها هى بنفسها لزوجها ... فليس للمرأة أن تصف امرأة أخرى لزوجها كأنه ينظر إليها.

۞ وكذلك لا يجوز لأى إنسان أن يصف امرأة لرجل إلا إذا كان هذا الرجل يُريد أن يتزوجها فيجوز لأخيها أن يصفها له أو يرسل إحدى محارمه لتنظر إليها وتصفها له إذا كان عنده رغبة فى الزواج منها ولا يريد أن يجرح بيوت الناس حتى يعرف بعض أوصافها عسى أن تكون مناسبة له فيذهب إلى بيت أسرتها .. أو تكون غير مناسبة فلا يجرح بيوت الناس ويُسبب لها ولأهلها حرجًا.



(١) صحيح: رواه البخارى (٥٢٤٠) (٥٢٤١) كتاب النكاح، ولم يُخرجه مسلم كما قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

(٣٣٢) باب كراهة قول الإنسان في الدعاء: اللهم اغفر لي إن شئت بل يجزم بالطلب

(١٧٥٢) عن أبي هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا يَقُولَنَّ أحدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِر لي إنْ شِئتَ، اللَّهُمَّ ارحَمْني إنْ شِئْتَ، لِيَعزِمِ المسْألَةَ، فإنَّه لا مُكْرِهَ لهُ»(١).

وفي روايةٍ لمسلم: «ولكِنْ لِيَعزِمْ وليُعظِّم الرَّغْبَةَ، فإنَّ الله تعالَى لا يَتَعَاظَمُهُ شَيءٌ أعطاهُ».

(١٧٥٣) وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذا دعا أحَدُكُم، فلْيَعزِمِ المسْألَةَ، ولا يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إنْ شِئتَ، فأعطِني، فإنَّهُ لا مُسْتكْرِهِ لهُ»(٢).

۞ قال المؤلف رحمه الله تعالى في كتابه (رياض الصالحين): باب كراهة قول الإنسان اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت.

۞ من المعلوم أن الإنسان لا ملجأ له إلا الله عَزَّوَجَلَّ في طلب الخير ودفع الشر، وإذا كان الله تعالى هو المقصود وهو الذي يريده العباد ويلجأون إليه ويعتمدون عليه، فإنه لا ينبغي للإنسان أن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، بل هذا حرام... لأن قول القائل: إن شئت كأنه يقول: إن شئت اغفر لي وإلا ما يهمني، كأنه يقول أنا في غِنى عنك... كما تقول لصاحبك: إن شئت فَزُرني ... وإن شئت فلا تَزُرني فأنا لست في حاجة إليك... ولهذا كان قول القائل: اللهم اغفر لي إن شئت، هو قولٌ مُحرم... فقول المؤلف كراهة قول الإنسان اللهم اغفر لي إن شئت يعني كراهة التحريم... وكذلك لا يقول اللهم ارحمني إن شئت، بل يعزم؛ لأنه يسأل جوادًا كريمًا غنيًّا حميدًا .. وهو

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٣٩) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٦٧٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٣٨) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٦٧٨) كتاب الذكر والدعاء.

الله عَزَّوَجَلَّ... ولأنه مفتقر إلى الله فليكن عازمًا فى الدعاء، يقول اللهم اغفر لى، اللهم ارحمنى، بدون إن شئت... وكذلك لا يقول اغفر لى إن شاء الله، أو يقول الإنسان: غفر الله لك إن شاء الله، هداك الله إن شاء الله... كل هذا لا يُقال، وإنما يجزم الإنسان ويعزم.

۞ قوله ﷺ: «**فإن الله لا مُكره له**» أى: فإن الله تعالى يعطى ويتفضل ويجود على عباده دون إكراهٍ مِن أحد... أما العباد فمنهم مَن يعطى رغبة ورهبة، فتجد الشخص يعطى مَن يسأله من أجل رغبة فى تحصيل شىءٍ من وراء إعطائه إياه، أو يعطيه خوفًا منه... والله عَزَّوَجَلَّ لا مُكره له، فلا يليق أن يُسأل بهذا السؤال، وإنما يُسأل بالعزيمة بدون التقييد بذكر المشيئة.

كذلك أيضًا يقول الإنسان إن شئت كأنه يتعاظم الشىء... فيقول: إن شئت فأتِ به وإن شئت فلا تأتِ... والله تعالى لا يتعاظمه شىء أعطاه، مهما عظم الشىء فإن الله تعالى غنىٌّ كريم يعطى الكثير عَزَّوَجَلَّ ويترك القليل.. والحاصل أنه لا يحل لك أن تقول: اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت، اللهم أدخلنى الجنة إن شئت، اللهم ارزقنى أولادًا إن شئت، اللهم ارزقنى زوجة صالحة إن شئت، كل هذا لا يجوز... اعزم المسألة ولا تقل فيها المشيئة.

ومن ذلك أيضًا ما يقوله بعض الناس: اللهم إنى لا أسألك رَدَّ القضاء ولكنى أسألك اللُّطفَ فيه.. فإن هذا حرام، كيف لا تسألُ الله رَدَّ القضاء، وهل يرد القضاء إلا الدعاء...كما جاء فى الحديث: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**». وكأنك إذا قلت: اللهم إنى لا أسألك رد القضاء ولكنى أسألك اللُّطف فيه..كأنك تقول: يا ربى عذبنى ولكن ارفق بى، يا رب أهلك أحبابى ولكن أرفق، وما أشبه ذلك... كل هذه الأدعية يجب على الإنسان أن يتوخى فيها ما جاء فى الكتاب والسُّنة[1].

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٤٣-٢٤٤) بتصرف.

۞ **وأما قول الرسول ﷺ لمن وجده مريضًا:** لا بأس طهور إن شاء الله.. فهذا من باب الرجاء وهو خبر ... يعني أرجو أن يكون هذا طهورًا. وأيضًا لم يكن بلفظ المخاطبة... ما قال: إن شئت، بل قال: إن شاء الله، واللفظ بغير المخاطبة أهون وقعًا من اللفظ الذي يأتي بالمخاطبة.

وقوله: «**وإنَّا إن شاء الله بكم للاحقون**» فهذا ليس من التعليق، بل هو من التحقيق؛ لأنه لا بد من أن يَلحق بهم....ولا يوجد احتمال أنه لا يَلحق بهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ **لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ** ﴾ [الفتح:٢٧] يعني: تحقيقًا لا تعليقًا.

فقوله: «**طهور إن شاء الله**» من هذا القبيل، وليس شَكًّا.



(٣٣٣) باب كراهة قول: ما شاء الله وشاء فلان

(١٧٥٤) عن حُذيفةَ بنِ اليَمَانِ رضي الله عنهما عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تَقُولوا: ما شاءَ الله وشاء فُلانٌ، ولكِن قُولوا: ما شَاءَ الله ، ثُمَّ شاءَ فُلان»(١).

۞ أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث في باب كراهة قول: ما شاء الله وشاء فلان .. والكراهة هنا كراهة تحريم .. وذلك لأن الواو تقتضي التسوية .. أما العطف بـ «ثم» فهي جائزة لأنها تفيد الترتيب والتراخي.. فمن قال: «ما شاء الله وشاء فلان» فكأنه جعل هذا العبد مساويًا للخالق (جلَّ وعلا) في المشيئة..

ولله تعالى وحده المشيئة التامة .. وإن ذكر الله عز وجل مشيئةً للعباد فلا بُدَّ أن نعلم أن مشيئة العباد لا بُدَّ أن تكون تابعة لمشيئة الله عز وجل.

ولما جاء رجل فقال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئتَ قال: «أجعلتني لله نِدًّا»، يُنكر عليه، «بل قُل: ما شاء الله وحده»(٢).

ولذلك فإنه يَحرُم العطف بها بين الله وبين أحدٍ من خلقه في أي أمر من الأمور التي يكون للمخلوق فيها دخل في وقوعها... كأن يقال: «ما شاء الله وشئت»، أو يُقال: «هذا من بركات الله وبركاتك»، أو يُقال: «ما لي إلا الله وأنت»، أو يُقال: «أرجو الله وأرجوك»، ونحو ذلك.

وهذا يدل على أن هذه اللفظة وما يشبهها من الألفاظ التي فيها نسبة التأثير والتدبير أو النعمة لغير الله تعالى من الأشياء التي جعلها الله تعالى سببًا كقول بعضهم: «هذا الخير من عرق الجبين»، أو «لولا فلان لم يحصل كذا»، ونحوها مما يُنهى عنها... وقد ذكر بعضهم كابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٣٧٣) أن

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٠٦).

(٢) حسن: رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وابن ماجه، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٩).

هذا من الشرك الأصغر، وذكر ابن رجب في لطائف المعارف: وظائف شهر صفر (ص٧٠) أنه من الشرك الخفي...وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦]: «قيل: معناها: أنهم يدعون الله ليُنجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم: لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا... فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلانٍ، ووقايته منسوبة إلى الكلب... وقد يقع في هذا القول كثير من عوام المسلمين».

وقد استثنى بعض أهل العلم من هذا الحكم: ما إذا أضاف النعمة إلى سببٍ صحيح ثابت على سبيل الإخبار لا غير، مع اطمئنان القلب إلى أن المُنعم الحقيقي هو الله تعالى، وأن هذا السبب إنما هو من فضل الله وإنعامه، فقالوا: بأن هذا جائز... ولهذا أدلة منها حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالبٍ بشيءٍ فإنه كان يَحُوطك ويغضب لك؟ قال النبي ﷺ: «هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[1][2].

وما روته قتيلة بنت صيفي رضي الله عنها أن يهوديًا أتى النبي ﷺ، فقال: إنكم تُندِّدون، وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة... فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولوا: ما شاء الله ثم شئت[3]. فأقر النبي ﷺ هذا اليهودي على تسمية هذا العطف شركًا.

وعليه: فإن كان هذا القائل يعتقد أن ما نسبه إلى المخلوق الذي عطفه على اسم الله تعالى بـ«الواو» ليس على سبيل الاستقلال، ولكن نسبه إلى هذا المخلوق لأنه هو المباشر لهذا الأمر لا غير، مع اعتقاده أن الله هو الخالق

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٠٨) كتاب الأدب - ومسلم (٢٠٩) كتاب الإيمان.
(٢) الشرك الأصغر (ص ١٨٦-١٨٧) بتصرف.
(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصحح الألباني هذه الأحاديث الأربعة في السلسلة الصحيحة (١٣٦-١٣٧).

المقدِّر، فهو شركٌ أصغر، من أجل هذا اللفظ الذى فيه تشريك... وإن كان يعتقد أن هذا المخلوق مُشاركٌ لله تعالى على سبيل الاستقلال، وأن تَصرُّفه فى ذلك بدون مشيئة الله تعالى فهو شركٌ أكبر(١)(٢).

۞ **وفى هذا الحديث دليل على**: أن الإنسان إذا ذكر للناس شيئًا لا يجوز، فليُبين لهم ما هو جائز... لأنه قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان. وهكذا ينبغى لمُعلم الناس إذا ذكر لهم الأبواب الممنوعة فليفتح لهم الأبواب الجائزة حتى يخرج الناس من هذا إلى هذا، بعض الناس يذكر الأشياء الممنوعة، يقول هذا حرام، هذا حرام، ولا يبين لهم الأبواب الجائزة، وهذا سَدٌّ للأبواب أمامهم دون فتح للأبواب.

وانظر إلى لوط (عليه الصلاة والسلام)، قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعده ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٥- ١٦٦]، نهاهم عن الممنوع وأرشدهم إلى الجائز... وهكذا النبى ﷺ قال: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**». بل انظر إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، فنهاهم عن كلمة راعنا وأرشدهم إلى الكلمة الجائزة ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ ولما جِىء إلى النبى ﷺ بتمرٍ طيب، فقال: «**أَكُل تمر خيبر هكذا؟**»، قالوا: لا، لكننا نشترى الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بثلاثة. قال: «...**لا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ التَّمْرَ فَبِعْهُ بِبَيْعٍ آخَرَ، ثُمَّ اشْتَرِ بِهِ**»(٣)(٤).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧٣)، الدر النضيد (مطبوع ضمن الرسائل السلفية ص١٤، ١٥)، القول المفيد باب ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وباب قول ما شاء الله وشئت، الشرك الأصغر (ص١٦٦-١٦٨).

(٢) تسهيل العقيدة الإسلامية/ أ. د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين (ص ٤٢٥-٤٢٨) بتصرف كبير.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخارى (٢٢٠٢) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٩٣) كتاب البيوع.

(٤) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٤٥).

(٣٣٤) باب كراهة الحديث بعد العشاء الآخرة

۞والمرادُ بِهِ الحديثُ الذى يكونُ مُباحًا فى غَيْر هذا الوقت، وفعلُه وتركُهُ سواءٌ، فأمَّا الحدِيثُ المُحَرَّمُ أو المكرُوهُ فى غيرِ هذا الوَقْتِ، فهُو فى هذا الوقتِ أشَدُّ تَحريمًا وكَرَاهَة.. وأمَّا الحديثُ فى الخَيْر كمُذاكَرَةِ العِلْمِ وحكاياتِ الصَّالِحين، ومَكارمِ الأخْلاقِ، والحديثُ معَ الضَّيْفِ، ومَعَ طالبِ حَاجةٍ، ونَحو ذلك، فلا كَرَاهَةَ فيِهِ، بل هُوَ مُسْتَحبٌ.. وكذا الحديثُ لِعُذْرٍ وعارِض لا كراهةَ فيه، وقد تَظاهَرَتْ الأحاديثُ الصَّحِيحَةُ على كُلِّ ما ذَكَرتُهُ[1].

(١٧٥٥) عن أبى بَرزَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ كانَ يَكْرَهُ النومَ قَبْلَ العِشَاءِ والحدِيثَ بعدَهَا[2].

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فى كتابه (رياض الصالحين): باب كراهة الحديث بعد صلاة العشاء الآخرة.

ثم ذكر رحمه الله أن الحديث ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم مكروهٌ أو مُحرم، وقسمٌ مندوب إليه، وقسمٌ مباح.

أما المكروه والمحرم: فإنه يزداد كراهة وتحريمًا إذا كان بعد صلاة العشاء.

وأما المباح: فهو الذى كان النبى ﷺ يكرهه بعد العشاء.

وأما المندوب: فإنه مندوب ولا يضر ولو كان بعد صلاة العشاء.

فأما الأول فمِثل: الحديث فى الغيبة والنميمة وقول الزور والاستماع إلى اللهو والغناء ومشاهدة ما لا يحل مشاهدته، فهذا حرام فى كل وقتٍ وحين، ويزداد إثمًا إذا كان بعد العشاء الآخرة؛ لأنه فى وقتٍ يُكره فيه الكلام المباح

---

(١) رياض الصالحين/ للإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ (ص٥٠٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٨) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٤٧) كتاب المساجد.

فكيف بالمحرم والمكروه.

والقسم الثاني: الكلام اللغو الذى ليس حرامًا ولا مكروهًا ولا مندوبًا وهو أكثر كلام الناس .. فهذا كان النبى ﷺ يكرهُه بعد صلاة العشاء، وذلك لأنه إذا تحدث الإنسان بعد صلاة العشاء يطول به المجلس ثم يتأخر نومه فيكسل عن قيام الليل وعن صلاة الفجر.. وما أدى إلى تهاونٍ فى الأمر المشروع فإنه يكون مكروهًا.

وأما المندوب: فهو التشاغُل بالعلم مُطالعة أو حفظًا أو مذاكرة، والحديث مع الضيف ليؤنسه ويكرمه بحديثه .. والحديث مع الأهل لتأليف قلوبهم، وما أشبه ذلك.. وكذلك الحديث العارض الذى ليس دائمًا ... كل هذا لا يضره، بل أنه مستحب إذا كان المقصود به حصول خير.

ثم ذكر المؤلف أحاديث.. منها حديث أبى برزة رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها ؛ وذلك لأن النوم قبل العشاء يؤدى إلى الكسل إذا قام ليصلى وربما استغرق به النوم حتى أَخَّرَ الصلاةَ عن وقتها، فلذلك كان النبى ﷺ يكره النوم قبل صلاة العشاء من أجل أن يكون الإنسان نشيطًا. وأما النعاس فهذا ليس باختيار الإنسان ولا يضره.

والشاهد من هذا الحديث قوله: «والحديث بعدها»، فإن الحديث بعد العشاء كرهه النبى ﷺ. وأما إذا كان فى خير فإنه لا بأس به... ولهذا كان النبى ﷺ يحدث أصحابه بعد صلاة العشاء وينصحهم، ويبين لهم عليه الصلاة والسلام، فهذا لا بأس به. والله الموفق[1].

❁ **قال الإمام النووى** رحمه الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَسَبَبُ كَرَاهَةِ النَّوْمِ قَبْلَهَا أَنَّهُ يُعَرِّضُهَا لِفَوَاتِ وَقْتِهَا بِاسْتِغْرَاقِ النَّوْمِ أَوْ لِفَوَاتِ وَقْتِهَا الْمُخْتَارُ وَالْأَفْضَلُ وَلِئَلَّا

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٤/ ٢٤٦-٢٤٧) بتصرف.

يَتَسَاهَلَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ فَيَنَامُوا عَنْ صَلَاتِهَا جَمَاعَةً ... وَسَبَبُ كَرَاهَةِ الْحَدِيثِ بَعدَهَا أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى السَّهَرِ وَيُخَافُ مِنْهُ غَلَبَةُ النَّوْمِ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ أَوِ الذِّكْرِ فِيهِ أَوْ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي وَقْتِهَا الْجَائِزِ أَوْ فِي وَقْتِهَا الْمُخْتَارِ أَوِ الْأَفْضَلِ .. وَلِأَنَّ السَّهَرَ فِي اللَّيْلِ سَبَبٌ لِلْكَسَلِ فِي النَّهَارِ عَمَّا يَتَوَجَّهُ مِنْ حُقُوقِ الدِّينِ وَالطَّاعَاتِ وَمَصَالِحِ الدُّنْيَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْمَكْرُوهُ مِنَ الْحَدِيثِ بَعدَ الْعِشَاءِ هُوَ مَا كَانَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَصلَحَةَ فِيهَا ... أَمَّا مَا فِيهِ مَصلَحَةٌ وَخَيْرٌ فَلَا كَرَاهَةَ فِيهِ وَذَلِكَ كَمُدَارَسَةِ الْعِلْمِ وَحِكَايَاتِ الصَّالِحِينَ وَمُحَادَثَةِ الضَّيْفِ وَالْعَرُوسِ لِلتَّأْنِيسِ وَمُحَادَثَةِ الرَّجُلِ أَهْلَهُ وَأَوْلَادَهُ لِلْمُلَاطَفَةِ وَالْحَاجَةِ وَمُحَادَثَةِ الْمُسَافِرِينَ بِحِفْظِ مَتَاعِهِمْ أَوْ أَنْفُسِهِمْ وَالْحَدِيثُ فِي الْإِصلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَالشَّفَاعَةِ إِلَيْهِمْ فِي خَيْرٍ وَالْأَمْرُ بِالْمَعرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَصلَحَةٍ وَنَحوِ ذَلِكَ فَكُلُّ هَذَا لَا كَرَاهَةَ فِيهِ(١) .

(١٧٥٦) **وعن ابنِ عُمر رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ الله ﷺ صَلَّى العِشَاءَ في آخِرِ حَيَاتِهِ، فلمَّا سَلَّم قال: «أرَأيْتكُمْ ليْلَتكُمْ هذِهِ؟ فإنَّ على رأْسِ مائةِ سَنَةٍ لا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلى ظَهْرِ الأرضِ اليَوْمَ أحدٌ»(٢).**

❁ يعني: مَن كان في تلك الليلة موجودًا، لن تمر عليه مائة سنة إلا وقد انتهى، فعند ذلك وَهَل الناس فيما قاله رسول الله ﷺ، فظن مَن ظن أن الساعة تقوم وأن الدنيا تنتهي... وقد بيَّن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ إنما أراد انخرام ذلك القرن، وليس المقصود من ذلك انتهاء الدنيا، وأن الساعة تقوم والدنيا تنتهي.

---

(١) مسلم بشرح النووي (٥/ ٢٠٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٦) كتاب العلم - ومسلم (٢٥٣٧) كتاب فضائل الصحابة.

وإنما المقصود من ذلك أن مَن كان موجودًا يموت، وهذا يدل على قِصَر أعمار هذه الأمة؛ فكل مَن كان على ظهر الأرض في تلك الليلة -وكانت قبل وفاته بقليل- التي أخبر فيها النبي ﷺ أنه إذا مضى عليهم مائة سنة لا بد وأن ينتهوا، وأما الذين يُولدون بعد ذلك اليوم فلا يدخلون في الحديث، لأنه قال: ممن كان في تلك الليلة، ومَن يُولد بعدها قد ينتهي قبل مائة سنة، وقد يُعمَّر فيتجاوز تلك المائة التي بدايتها تلك الليلة التي قال فيها النبي ﷺ ذلك الكلام.

ويُستثنى من ذلك عيسى ابن مريم (عليه الصلاة والسلام)، فإنه حيٌّ ولكنه في السماء... ويُستثنى من ذلك الدجال فإنه في جزيرة من الجزر كما مَرَّ في حديث الجسَّاسة، وهو حديث ثابت في صحيح مسلم وغيره، وهو في تلك الجزيرة مُوثَّقٌ بالحديد ... فإذا أَذِنَ الله له بالخروج فإنه يخرج... فمسيح الهداية في السماء وسينزل في آخر الزمان... ومسيح الضلالة في الأرض، وستكون نهاية مسيح الضلالة على يدي مسيح الهداية عيسى ابن مريم ﷺ.

فاللفظ ذكر ممن هو على ظهر الأرض... ومعلوم أن الجن يكونون على ظهر الأرض، فيبدو والله أعلم أن الجن والإنس يكونون كذلك.

لكن فيما يتعلق بالجن فإن الشيطان الذي هو إبليس ما زال مُعمِّرًا يغوي الناس، وبقاؤه مستمر... وقد آلى على نفسه أن يُغوي الناس، لكن فيما يتعلق بالإنس والجن يبدو - والله تعالى أعلم- أن قوله: «**ممن هو على ظهر الأرض**» يشمل الإنس والجن، لأنهم جميعًا مسكنهم الأرض[(١)].



(١٧٥٧) وعن أنس رضي الله عنه: **أَنَّهم انتظروا النَّبِيَّ ﷺ فَجَاءهُمْ قَرِيبًا مِنْ شَطْرِ اللَّيْلِ فَصَلَّى بِهِمْ - يَعني: العِشَاءَ - قال: ثُمَّ خَطَبَنا فقَالَ: «ألاَ إنَّ النَّاسَ قَد صَلُّوا، ثُمَّ**

(١) بتصرف من «شرح سنن أبي داود» للعبَّاد.

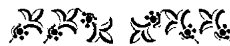
رَقَدُوا، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا فِى صَلاَةٍ مَا انْتظَرتُمُ الصَّلاَةَ»(١).

ففى هذا الحديث يحكى أنس رضي الله عنه أنهم فى ليلة من الليالى انتظروا النبى ﷺ ليصلى بهم صلاة العشاء.. لكن النبى ﷺ تأخَّر كثيرًا ... وهم من شدة حرصهم على الصلاة خلف النبى ﷺ ظلوا منتظرين حتى جاءهم النبى ﷺ قريبًا من شطر الليل.. أى: قريبًا من نصف الليل فصلى بهم العشاء ثم قام يخطب فيهم ﷺ فقال: **«ألا إنَّ النَّاسَ قَد صَلُّوا، ثُمَّ رَقَدُوا، وإنَّكُم لَنْ تَزَالوا فى صَلاةٍ ما انْتَظَرتُمُ الصَّلاةَ»**.

يعنى: هذه المدة التى تنتظرون فيها الصلاة أنتم بها فى صلاة... والإنسان إذا دخل المسجد وجلس ينتظر الصلاة فهو فى صلاة ما انتظر الصلاة.

ولولا شفقة النبى ﷺ على أمته ورحمته بهم لأمرهم بتأخير صلاة العشاء كل ليلة ولكنه ﷺ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

قال ﷺ: **«لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى لأَمَرتُهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوا العِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصفِهِ»**(٢).



(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٠) كتاب مواقيت الصلاة.

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣١٣).

(٣٣٥) باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها إذا دعاها ولم يكن لها عُذر شرعي

(١٧٥٨) عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إذا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إلى فِراشِهِ فأَبَتْ، فبَاتَ غَضْبانَ عليها، لَعَنَتْهَا الملائِكَةُ حتى تُصبح»[١].

وفي روايةٍ: «حتَّى تَرجِع».

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٣٧) كتاب بدء الخلق - ومسلم (١٤٣٦) كتاب النكاح.

(٣٣٦) باب تحريم صوم المرأة تطوعًا وزوجها حاضر إلا بإذنه

(١٧٥٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا يَحِلُّ للمرأةِ أنْ تَصُومَ وزَوْجُهَا شاهِدٌ إلا بإذْنِهِ، ولا تأذَنَ في بَيْتِهِ إلا بإذنِهِ»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٩٥) كتاب النكاح - ومسلم (١٠٢٦) كتاب الزكاة.

(٣٣٧) باب تحريم رفع المأموم رأسه من الركوع أو السجود قبل الإمام

(١٧٦٠) عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبىَّ ﷺ قَالَ: «أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأسَ حِمَارٍ! أَوْ يَجْعَلَ اللهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ»(١).

۞ وهى من المخالفات الشائعة بين العوام وبخاصة إذا كان الإمام بطيئًا فى حركاته... ونحن نعلم أن النبى ﷺ نهى عن مسابقة الإمام.

۞ والمستحب أن يكون شروع المأموم فى أفعال الصلاة من الرفع والوضع بعد فراغ الإمام منه، ويكره فعله معه فى قول أكثر أهل العلم.

۞ فعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قال: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ لَمْ نَزَلْ قِيَامًا، حَتَّى نَرَاهُ قَد وَضَعَ وَجْهَهُ فِى الْأَرْضِ ثُمَّ نَتَّبِعُهُ»(٢).

ولا يجوز للمأموم أن يسبق إمامه .. لقوله ﷺ: «لا تَسْبِقُونِى بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ، وَلَا بِالْقِيَامِ وَلَا بِالِانْصِرَافِ»(٣).

۞ وفى فتاوى اللجنة الدائمة جاء هذا السؤال:

ما حكم مسابقة الإمام وهل صلاة مَن سَابَقه صحيحة؟

- فكانت الإجابة: مسابقة المأموم لإمامه حرام بل هى من كبائر الذنوب لما ورد فيها من الوعيد... فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ، أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ» وفى صحة صلاته خلاف ... والراجح فى ذلك أنه إن سبقه عامدًا بطلت

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩١) كتاب الأذان - ومسلم (٤٢٧) كتاب الصلاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩٠) كتاب الأذان - ومسلم (٤٧٤) كتاب الصلاة.

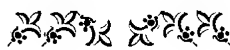
(٣) صحيح: رواه مسلم (٤٢٦) كتاب الصلاة.



صلاته وإن سبقه ساهيًا رجع إليه وتَابَعه[(١)].

وهذا وعيد ...يُخشَى أن الإنسان إذا رفع رأسه من الركوع قبل إمامه أو من السجود قبل إمامه أن يجعل الله صورته صورة حمار والعياذ بالله أو يُحوِّل رأسه إلى رأس حمار ... وإنما اختار النبى ﷺ الحمار دون سائر البهائم لأن الحمار أبلد ما يكون من البهائم ... ولهذا مُثِّل به اليهود الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

وهذا يدل على تحريم سبق الإمام فى الرفع من الركوع والرفع من السجود وكذلك السبق إلى الركوع أو السجود حرام على المأموم ... وأما التأخُّر عن الإمام كما يفعله بعض الناس إذا سجد وقام الإمام من السجود تجده يبقى ساجدًا يزعم أنه يدعو الله وأنه فى خيرٍ ودعاء ... نقول: نعم أنت فى خير ودعاء لو كنت وحدك أما وأنت مع الإمام فإن تأخُّرك عن الإمام مخالف لهدى النبى ﷺ ... لقوله ﷺ: «**فإذا ركع فاركعوا**»[(٢)] والفاء تدل على الترتيب والتعقيب... فالمشروع للإنسان أن يبادر وألا يتأخر[(٣)].



(١) فتاوى اللجنة الدائمة (٧/ ٣٢٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٨) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٢) كتاب الصلاة.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٤٩).

(٣٣٨) باب كراهة وضع اليد على الخاصرة فى الصلاة

(١٧٦١) عن أبى هُريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ نَهَى عنِ الخَصرِ فى الصَّلاةِ[1].

۞ وهنا فى هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ نهى عن الخصر فى الصلاة.

أى: وضع اليدين على الخاصرة.

لكن لماذا نهى عن الخصر فى الصلاة؟

منهم مَن قال: إن هذه وقفة اليهود، والنبى ﷺ نهى عن التشبُّه بهم.

ومنهم مَن قال: لأنها وقفة المتكبرين.

ومنهم مَن قال: لأنها راحة أهل النار.

أى: أن أهل النار حينما يستريحون يتخصرون.

ومنهم مَن قال: إن إبليس لما هبط من الجنة إلى الأرض هبط مُتخصرًا.

والخاصرة: هى ما بين الحقو وأسفل الأضلاع.. ونهى النبى ﷺ عن ذلك لأن الأصل أن الإنسان المسلم لا بد أن يتبع النبى ﷺ فى كل عباداته.. فقد قال ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِى أُصَلِّى**».. وكان النبى ﷺ فى صلاته يضع يده اليمنى على ذراعه اليسرى أو على الرسغ – أى ما بين الكف والذراع– ويرفعهما على صدره.. فهذه هى سُنة النبى ﷺ.. وكان يفعل ذلك فى القيام قبل الركوع وبعد الركوع.. وأما وضع اليدين على الخاصرة فإن النبى ﷺ نهى عن ذلك.

ولها صورتان: الصورة الأولى: أن يضع اليد اليسرى أو اليمنى على الخاصرة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢١٩) كتاب الجمعة – ومسلم (٥٤٥) كتاب المساجد.

والثانية: أن يضع اليد اليمنى على اليسرى كما يفعله بعض الناس ويدعى أنه يفعل هذا ليجعل اليدين على القلب.

وهذا خطأ.. لأن الشرع ليس له مدخل فى العقل.. فالشرع نتلقاه من النبى ﷺ... وهذا الأمر لم يَرِد عن النبى ﷺ.. وهذا النهى للكراهة كما قال المصنف رحمه الله.

❊❊❊

(٣٣٩) باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام ونفسه تتوق إليه أو مع مدافعة الأخبثين، وهما البول والغائط

(١٧٦٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «لا صَلاةَ بحَضْرَةِ طَعَامٍ، ولا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأخْبَثان»(١).

۞ يعنى أنه إذا وُضع الطعام وكان الإنسان جائعًا ويشتهى ذلك الطعام فإنه يأكل حتى يقضى حاجته حتى ولو فاتته الجماعة لأنه معذور... وقد كان ابن عمر يتعشى وهو يسمع قراءة الإمام، وهذا من فقهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن الإنسان إذا دخل فى الصلاة وهو جائع وقد وُضع الطعام بين يديه وهو يشتهيه فإنه يصبح مُشوش القلب ولا يطمئن فى صلاته ولا يخشع فيها لأن قلبه يكون عند طعامه..

والإنسان ينبغى له أن يصلى وقد فرغ من كل شىء، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧- ٨]، ولكنه لا ينبغى أن يجعل ذلك عادة له، بحيث لا يقدم عشاءه أو غداءه إلا عند إقامة الصلاة.

أما إذا كان لا تتوق نفسه إليه فالأمر فى هذا واسع... وإذا قُدم الطعام فإنه يأخذ نهمته ولو بعد الأذان... لكن لا ينبغى للإنسان أن يعتاد تقديم الطعام بعد الأذان، فإذا سمع النداء قال: هاتوا الطعام، فإن هذا معناه التعمُّد لترك الجماعة... لكن إذا قُدم بدون طلب وكان بحاجة إليه، فيأخذ نهمته.

هكذا إذا كان الإنسان جائعًا ونفسه تتوق وحضر الطعام فإنه فى هذه الحالة

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٦٠) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
الأخبثان: البول والغائط.

يقدم الطعام ولو فاتته الجماعة ... ويكون هذا عذرًا له، كما أن مَن أكل كُراثًا أو ثومًا أو بصلًا فهذا عُذرٌ له فى ترك الجماعة، وليس له أن يأتى المسجد، ولا أن يصلى مع الناس وله رائحة كريهة... ويكون هذا عُذرٌ فى ترك الجماعة، لكن إذا تعمَّد أكل الكراث والثوم والبصل لترك الجماعة صار آثمًا.. لكن لو أكل بدون تعمُّد أو أكل مُحتاجًا لعلاجٍ فهذا عذر.

۞ وأما الأمر الثانى: **فإنه لا صلاة وهو يُدافعه الأخبثان**: البول والغائط.... وهذه المدافعة تختلف ما بين القوة والضعف... ما بين دفعٍ يسير ودفعٍ يحتاج إلى مشقة عظيمة جدًّا، وينشغل المرء بذهنه وقلبه عن الصلاة أبدًا، ويتمنى لو أن الإمام فرغ من صلاته... فحينئذ لا يجوز له أن يدخل فى الصلاة وهو على هذه الحال، وإنما يذهب فيقضى حاجته ثم يتوضأ ثم يصلى مع الإمام... وإن أدرك الصلاة يكون خيرًا، وإن كانت الأخرى فله أجر الجماعة، وما خلَّفه عن الجماعة إلا العذر...

أما مَن كان بإمكانه أن يدخل فى الصلاة مع شىءٍ يسيرٍ من المُدافعة فلا بأس بذلك، وإنما المنهى عنه المدافعة التى تشق على صاحبها.

وقد سئُل **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: عن الحاقن أيّما أفضل له: أن يصلى بوضوءٍ محتقنًا أو أن يُحدِث ثم يتيمم لعدم وجود الماء؟.

فأجاب رحمه الله: صلاته بالتيمم بلا احتقان أفضل من صلاته بالوضوء مع الاحتقان ... فإن هذه الصلاة مع الاحتقان مكروهة مَنهيٌّ عنها. وفى صحتها روايتان. وأما صلاته بالتيمم فصحيحة لا كراهة فيها بالاتفاق. والله أعلم.

(٣٤٠) باب النهى عن رفع البصر إلى السماء فى الصلاة

(١٧٦٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا بَالُ أَقْوام يَرفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِى صَلاَتِهِمْ!» فَاشْتَدَّ قَولُهُ فى ذَلِكَ حَتَّى قَالَ: «لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ لَتُخطَفَنَّ أَبْصارُهُمْ!»(١).

۞ إننا كثيرًا ما نرى أُناسًا يرفعون أبصارهم إلى السماء، أو إلى سقف المسجد وهم يصلون... وقد جاء النهى عن ذلك فقد قال النبى ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِهِمْ أَبْصَارَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ فِى الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ، أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ»(٢).

قال الإمام النووى رحمه الله: فيه النهى الأكيد والوعيد الشديد فى ذلك، وقد نُقل الإجماع فى النهى عن ذلك(٣).

والسُّنَّة أن ينظر المصلى إلى موضع سجوده...فعن عائشة رضي الله عنها **قالت:** «دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْكَعبَةَ ومَا خَلَفَ بَصَرُهُ مَوْضِعَ سُجُودِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْهَا»(٤).

وقد روى أحمد وابن خزيمة والبيهقى بإسنادٍ حسن عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا تشهد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، وأشار بأصبعه السبَّابة لا يجاوز بصره إشارته... فدلَّ الحديثان على أن المصلى ينظر إلى موضع سجوده وإن شاء نظر إلى سبَّابته فى أثناء التشهد.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٥٠) كتاب الأذان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٢٩) كتاب الصلاة.

(٣) مسلم بشرح النووى (٤/ ١٩٩-٢٠٠).

(٤) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صفة الصلاة (ص ٢٣١).

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فى الشرح الممتع:

وأما التعليل: فلأن فيه سوء أدب مع الله تعالى... لأن المُصلِّى بين يدى الله، فينبغى أن يتأدَّبَ معه، وأن لا يرفعَ رأسَه، بل يكون خاضعًا... ولهذا قال عَمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه كان قبل أن يُسْلِمَ يكره النبىَّ ﷺ كراهةً شديدةً، حتى كان يحبُّ أن يتمكَّن منه فيقتله، فلما أسلَمَ قال: ما كنت أُطيق أن أملأ عينىَّ منه؛ إجلالًا له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطقتُ(١)... فإن كان هذا حاله مع رسول الله ﷺ.. فكيف يكون الحال مع الله عَزَّ وَجَلَّ.

واستثنى بعض العلماء رحمهم الله من ذلك النظر إلى الإمام ليقتدى به لاسيما إذا كان الإنسان لا يسمع ولا يمكن اقتداؤه بإمامه إلا بالنظر فإنه ينظر إليه ... لأن الصحابة كانوا يفعلون ذلك ... وقد صعد النبى ﷺ المنبر وجعل يصلى عليه وقال: «**فعلت ذلك لتأتموا بى ولتعلموا صلاتكم**»(٢) ولا يمكن أن يحصل تعليم الصلاة إلا وهم ينظرون إليه ... ولهذا كانوا يحكون اضطراب لحيته فى الصلاة السرِّية مما يدل على أنهم كانوا ينظرون إلى إمامهم.

واستثنى بعض العلماء إذا كان الإنسان فى المسجد الحرام والكعبة أمامه فإنه يجعل بصره إلى الكعبة ولكن هذا الاستثناء ضعيف ... والصحيح أنه لا ينظر إلى الكعبة حال الصلاة لأنه لم يَرِد عن النبى ﷺ ولأنه يُوجب التشويش حيث ينظر إلى الناس يطوفون ويذهبون ويجيئون... ثم إن قول بعضهم إن النظر إلى الكعبة عبادة خطأ، ليس بصحيح... لم يَرِد عن النبى ﷺ فيما نعلم حديث صحيح ولا ضعيف أن النظر إلى الكعبة عبادة(٣).

---

(١) الشرح الممتع (٣/ ٢٢٧) - والحديث رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩١٧) كتاب الجمعة، ومسلم (٥٤٤) كتاب المساجد.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٥٢).

(٣٤١) باب كراهة الالتفات فى الصلاة لغير عذر

(١٧٦٤) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: سألْتُ رسُولَ الله ﷺ عنِ الالتِفَاتِ فى الصَّلاةِ فقالَ: «هُوَ اخْتِلاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِن صَلاةِ العَبْدِ»(١).

۞ إن الإنسان إذا قام إلى صلاته فلا بد أن يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ يُقبل عليه بوجهه ... فإذا أعرض الإنسان عن ربه فإنه يوشك أن يُعرض الله عنه... ولهذا نهى النبى ﷺ عن الالتفات فى الصلاة لغير عذر... ولذا فإنه ينبغى على الإنسان إذا دخل فى صلاته ألا يلتفت بقلبه ولا بوجهه إلى غير الله سبحانه وتعالى... والالتفات بالقلب هو أن يفكر الإنسان وينشغل بأمرٍ من أمور الدنيا ولا ينشغل بصلاته.. وذلك مثل الهواجس التى تعترى كثيرًا من المصلين.. ولا بد أن نعلم أن التفات القلب أشد من التفات البدن.. وذلك لأنه يُنقص من الصلاة حتى إن الإنسان لينصرف من صلاته وما كُتب عُشرها أو أقل من ذلك بحسب حضور قلبه فى الصلاة.

۞ وأما الالتفات بالوجه فهو أن يلتفت الإنسان بلى عُنقه يمينًا أو شمالًا.. مع أن الإنسان مأمور بأن يجعل وجهه تلقاء القبلة لا يميل يمينًا أو شمالًا.. فإن التفت يمينًا أو شمالًا فقد أخبر النبى ﷺ أنه «اخْتِلاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِن صَلاةِ العَبْدِ» يعنى أن الشيطان يتسلط على الإنسان فى صلاته بحيث يجعله يلتفت يمينًا أو شمالًا.. وذلك من أجل أن ينقص أجره فى الصلاة.

أما إذا كان الالتفات لحاجة أو لعذرٍ شرعى، فلا حرج فى ذلك... فقد وردت بعض النصوص التى تدل على جواز الالتفات للحاجة منها:

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٥١) كتاب الأذان.
الاختلاس: هو الأخذ بسرعة على غفلة.

۞ عن جابر رضي الله عنه قال: «اشْتكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَلَّيْنَا وَرَاءَهُ وَهُوَ قَاعِدٌ، وَأَبُو بَكْرٍ يُسْمِعُ النَّاسَ تَكْبِيرَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا فَرَآنَا قِيامًا، فَأَشَارَ إِلَيْنَا فقعدنا فَصَلَّيْنَا بِصَلَاتِهِ قُعُودًا »[1].

وكذلك يجوز الالتفات إذا سمعت صوت إنسانٍ يتعرض للخطر.. أو سمعت صوت حيوانٍ مفترس يهجم عليك فإنه لا بأس بذلك لكن بشرط أن يكون الالتفات بالرأس فقط لأن الالتفات بالبدن يُبطل الصلاة .. وذلك لأنه انحرافٌ عن القبلة.. ونحن نعلم أن استقبال القبلة من شروط الصلاة.

وبعض الناس يلتفت ببصره فقط ولا يلتفت بلى العنق.. بل يلتفت ببصره لينظر إلى زخارف المسجد أو إلى الداخل إلى المسجد والخارج منه.. وهذا بلا شك يُنقص من أجر الصلاة .. فلا بد أن يحرص كل واحدٍ منا على أن يكون بصره تلقاء وجهه ناظرًا إلى محل سجوده ولا ينظر يمينًا أو شمالًا.



(١٧٦٥) وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ لي رسُولُ الله ﷺ: «إيَّاكَ والالْتِفَاتَ في الصَّلاةِ، فإنَّ الالْتِفاتَ في الصَّلاةِ هَلَكَةٌ، فإنْ كان لا بُدَّ، ففي التَّطَوُّعِ لا في الفَرِيضَةِ»[2].

۞ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبي ﷺ.



(١) صحيح: رواه مسلم (٤١٣) كتاب الصلاة.

(٢) ضعيف: رواه الترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٨٩).

(٣٤٢) باب النهى عن الصلاة إلى القبور

(١٧٦٦) عن أبى مَرثَدٍ كنَّازِ بنِ الحُصَيْنِ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «لا تُصَلُّوا إلى القبُورِ، ولا تَجْلِسُوا عليها»[1].

❁ ففى هذا الحديث ينهى النبى ﷺ عن الصلاة إلى القبور والجلوس عليها.

أما الصلاة إلى القبور فلا يجوز أن يذهب إنسان إلى المقابر ليصلى هناك.. ولا يجوز الصلاة فى المسجد الذى فيه قبر .. وهو على نوعين:

الأول: أن يكون القبر سابقًا على المسجد، بحيث يُبنى المسجد على القبر، فالواجب هجر هذا المسجد وعدم الصلاة فيه ... وعلى مَن بناه أن يهدمه، فإن لم يفعل وجب على ولى أمر المسلمين أنْ يهدمه.

والنوع الثانى: أن يكون المسجد سابقًا على القبر، بحيث يُدفن الميت فيه بعد بناء المسجد، فالواجب نبش القبر، وإخراج الميت منه، ودفنه مع الناس.

وأما المسجد فتجوز الصلاة فيه بشرط أن لا يكون القبر أمام المصلى، لأن النبى ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور.

❁ وأما أن يذهب الإنسان إلى المقابر ليصلى هناك فإن هذا لا يجوز أبدًا إلا فى حالة واحدة: وهى أن يكون الإنسان قد مات له أحد أحبابه وكان مسافرًا أو غائبًا فلم يستطع أن يصلى عليه صلاة الجنازة.. فيجوز له أن يذهب إلى قبره ويصلى عليه صلاة الجنازة فقط.. وقد فعل النبى ﷺ ذلك عندما ماتت المرأة التى كانت تَقُمّ المسجد – أى: تُنظفه- ليلًا ولم يوقظ الصحابةُ النبى ﷺ من نومه ليصلى عليها.. فلما أصبح وعلم بذلك قال لهم: **«دُلُّونِى عَلَى قَبْرِهَا»**

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٢) كتاب الجنائز.



فذهب إلى قبرها وصلى عليها صلاة الجنازة.

۞ وأما قوله ﷺ: «**وَلا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا**» أي: لا تجلسوا على المقابر.. فلا يجوز أن يجلس الإنسان على القبر لأن للميت حُرمة ... وقد قال النبي ﷺ في حديثٍ آخر: «**لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحرِقَ ثِيَابَهُ، فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ**»[١].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧١) كتاب الجنائز.

(٣٤٣) باب تحريم المرور بين يدى المصلى

(١٧٦٧) عن أَبى الجُهَيْمِ عبد اللهِ بن الحارِثِ بن الصِّمَّةِ الأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «لَوْ يَعلَمُ المَارُّ بَيْنَ يَدَي المُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أربَعِين خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ». قَالَ الراوى: لا أدرِى قَالَ: أربَعينَ يَومًا، أَوْ أربَعِين شَهْرًا، أَوْ أربَعِينَ سَنَةً[١].

❁ وهذا مما عمَّت به البلوى... فتجد أن بعض الناس يمرون أمام مَن يصلى وكأنهم يمشون فى الشوارع والطرقات... وهذا خطأ.

- والصواب أن الواحد منهم إذا لم يجد طريقًا يستطيع أن يمر منه فعليه أن يقف حتى ينتهى المصلى من صلاته.

❁ فلقد حذر النبى ﷺ من هذا الفعل تحذيرًا شديدًا.

ووضَّح لنا النبى ﷺ أن المرور بين يدى المصلى لا يجوز بحالٍ.

فقال ﷺ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّى فَلَا يَدَع أَحَدًا يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلْيَدرَأْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ »[٢].

❁ قال الإمام النووى عن الحديث الأول: فيه دليل على تحريم المرور، فإن معنى الحديث النهى الأكيد والوعيد الشديد على ذلك.

❁ وقال الإمام المنذرى فى كتاب «الترغيب والترهيب» ما نَصُّه: الترهيب من المرور بين يدى المصلى.

فإذا صلى المصلى لغير سُترة فلا حرج على مَن قدَّر ثلاثة أذرُع ثم مرَّ من ورائها، كما نَصَّ على ذلك كثير من أهل العلم ... ويبقى الحرج على مَن مَرَّ بين

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٠) كتاب الصلاة - ومسلم (٥٠٧) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٠٥) كتاب الصلاة.



يدى المصلى فى مسافة ثلاثة أذرع.

۞ وعلى الجانب الآخر فإنه ينبغى على المسلم أن يتخذ لنفسه سُترة إذا أراد أن يصلى لئلا يَشُق على الناس من حوله.

أما المرور بين يدى المأموم فلا حرج فيه؛ لأن سُترة الإمام سُترة لمن خلفه...

قال الإمام البخارى رَحِمَهُ اللهُ: باب سُترة الإمام سترة مَن خلفه ... ثم ساق بسنده إلى عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: أقبلت راكبًا على حمار أتانٍ وأنا يومئذٍ قد ناهزت الاحتلام ورسول الله ﷺ يصلى بالناس بمِنى إلى غير جدار فمررت بين يدى بعض الصف فنزلت وأرسلت الأتان ترتع ودخلت فى الصف فلم ينكر ذلك علىَّ أحدٌ[1].



(١) مختصر مخالفات الطهارة والصلاة (ص: ٧٠)... والحديث رواه البخارى (٤٩٣) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٠٤) كتاب الصلاة.

(٣٤٤) باب كراهة شروع المأموم فى نافلة بعد شروع المؤذن فى إقامة الصلاة سواء كانت النافلة سُنة تلك الصلاة أو غيرها

(١٧٦٨) عن أبى هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «إذا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ، فلا صَلاةَ إلا المكْتُوبَةَ»(١).

۞ أى: أنه إذا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ فإنه لا يَشرع المأموم فى صلاة نافلة .. سواء كانت هذه النافلة هى تحية المسجد أو راتبة هذه الصلاة التى أُقيمت أو كانت تطوعًا مُطلَقًا... مثل أن تذهب مثلًا لصلاة الظهر وتُقام الصلاة فلا يجوز أن تصلى سُنة الظهر لأنه أُقيمت الصلاة .. ولأن النبى ﷺ قال: «إذا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ، فلا صَلاةَ إلا المكْتُوبَةَ»...فقوله ﷺ: «فلا صَلاةَ» يشمل كل صلاة كانت.. حتى لو كان عليك فريضة فائتة وأردت أن تصليها فأُقيمت الصلاة فلا يجوز أن تصليها وتترك الصلاة التى أُقيمت.. لكن إذا كان قد فاتك صلاة الظهر ودخلت المسجد فوجدتهم قد أقاموا صلاة العصر فإنك تستطيع أن تدخل الصلاة خلف الإمام بنية صلاة الظهر ثم إذا انتهى الإمام من الصلاة تقوم وتصلى صلاة العصر.. ومع أن النبى ﷺ نهى عن الصلاة بعد العصر إلا أنه يجوز أن تصلى فى وقت النهى الفرائض الفائتة والصلوات ذوات الأسباب كصلاة الجنازة وتحية المسجد.. وغيرهما.

۞ فالشاهد أنه إذا أُقيمت الصلاة فلا تشرع فى صلاة نافلة.

وإذا أُقيمت الصلاة وكنت تصلى نافلة فإن كنت فى الركعة الأولى فاقطعها بدون تسليم وإن كنت فى الركعة الثانية فخفِّفها حتى تدرك الركعة الأولى... والله أعلم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧١٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣٤٥) باب كراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة من بين الليالى

(١٧٦٩) عن أَبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «لا تَخُصُّوا لَيْلَةَ الجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِى، وَلاَ تَخُصُّوا يَومَ الجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ الأَيَّامِ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِى صَومٍ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ»(١).

(١٧٧٠) وعنه، قَالَ: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «لاَ يَصُومَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلاَّ يومًا قَبْلَهُ أَوْ بَعدَهُ»(٢).

(١٧٧١) وعن محمد بن عَبَّادٍ، قَالَ: سَأَلْتُ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ صَومِ الجُمُعَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ(٣).

(١٧٧٢) وعن أُمِّ المُؤمِنِينَ جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمَ الجُمُعَةِ وهِيَ صَائِمَةٌ، فَقَالَ: «أَصُمْتِ أَمْس؟» قالت: لا، قَال: «تُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غَدًا؟» قَالَتْ: لاَ. قَالَ: «فَأَفْطِرِى»(٤).

۞ يوم الجمعة هو عيد الأسبوع ويتكرر فى كل سبعة أيام ... ولما كان عيدًا نهى النبى ﷺ عن صومه لكنه ليس نهى تحريم لأنه يتكرر كل عام أكثر من خمسين مرة ... وأما النهى عن صوم العيدين عيد الأضحى والفطر فهو نهى تحريم لأنه لا يتكرر فى السنة إلا مرة واحدة ... عيد الفطر مرة وعيد الأضحى مرة أما الجمعة فيتكرر ولهذا كان النهى عنه نهى كراهة ... وتزول الكراهة إذا ضممت إليه يومًا قبله أو يومًا بعده ... ولهذا جاءت أحاديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٤٤) كتاب الصيام.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٨٥) كتاب الصوم، ومسلم (١١٤٤) كتاب الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٨٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٤٣) كتاب الصيام.

(٤) صحيح: رواه البخارى (١٩٨٦) كتاب الصوم.

قال: «**لا تَخُصوا يوم الجمعة بصيام ولا ليلته بقيام**» لكن إذا لم يكن تخصيصًا بأن كان الإنسان يقوم كل ليلة فلا بأس أن يقوم ليلة الجمعة أو كان يصوم يومًا ويفطر يومًا فصادف يوم الجمعة يوم صومه فلا بأس أن يصومه... وكذلك لو صادف يوم الجمعة يوم عرفة أو يوم عاشوراء فلا بأس أن يصومه لأن هذا الصيام ليس تخصيصًا ليوم الجمعة ولكنه تخصيص لليوم الذى صادف يوم الجمعة ... فإذا كان يوم الجمعة يوم عرفة فَصُمه ولا تُبالى وإن لم تكن صائمًا قبله ... وإذا صادف يوم عاشوراء فَصُم ولا تُبالى ... لكن يوم عاشوراء ينبغى أن نخالف اليهود فيه فنصوم يومًا قبله أو يومًا بعده... ولهذا قال فى الحديث الآخر: إلا أن يصوم يومًا قبله أو يومًا بعده أو إلا أن يكون فى صوم يصومه الإنسان.

وفى حديث جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين أن النبى ﷺ قال لها وهى صائمة فى يوم الجمعة: «**أتريدين أن تصومى غدا؟**» قالت: لا قال: «**أصمتِ أمس؟**» قالت: لا قال: «**فأفطرى**»(١) فيه دليل على أن يوم الجمعة إذا صُمت يومًا قبله أو يومًا بعده فلا بأس ... وفى قوله أتصومين غدًا دليل على جواز صوم يوم السبت فى النفل وأنه لا بأس به ولا كراهة إذا ضمَّت إليه الجمعة ... وقد ورد عن النبى ﷺ حديث أنه قال: « **لا تَصُومُوا يَوْمَ السَّبْتِ إِلَّا فِيمَا افْتُرِضَ عَلَيْكُمْ، ولو أن يأخذ أحدكم لحاء عنب فيمضغه**»(٢) لكن هذا الحديث اختلف العلماء فيه فمنهم مَن قال إنه ضعيف لا يُعمل به -لكن الشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ صحَّح هذا الحديث- ومنهم مَن قال إنه منسوخ ... ومنهم مَن قال إن النهى إنما هو عن إفراده فقط وأما إذا صيم يوم الجمعة أو يوم الأحد فلا كراهة ... وإلى هذا ذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٩٨٦) كتاب الصوم.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن خزيمة، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٠٤٩).

وعلى كل حال لو صامه فإنه لا إثم عليه ولكن الأفضل ألا يصومه إلا مضمومًا إليه يوم الجمعة أو يوم الأحد(١).

---

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ٢٥٥).

(٣٤٦) باب تحريم الوصال في الصوم وهو أن يصوم يومين أو أكثر ولا يأكل ولا يشرب بينهما

(١٧٧٣) عنْ أبى هُرَيْرَةَ وعائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عنِ الوِصالِ[١].

(١٧٧٤) وعنْ ابنِ عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: نَهَى رسُولُ الله ﷺ عَنِ الوِصَالِ. قالوا: إنَّكَ تُواصِلُ؟ قالَ: «إنِّى لَسْتُ مِثْلَكُم، إنى أُطْعَمُ وأُسْقَى»[٢].

۞ ففى هذين الحديث نهى النبى ﷺ عن الوصال فى الصيام.

والوصال هو أن يقرن الصائم بين يومين أو أكثر فى الصيام فلا يفطر بينهما.. فهذا هو الوصال.. والله سبحانه وتعالى قد حدد الصيام فى قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ﴾ [البقرة:١٨٧].

قال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ﴾ فحدد الله ابتداء الصيام وانتهاءه.

وقال النبى ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر»[٣] هذا هو المشروع، أن الإنسان يبادر بالفطور ولا يتأخر، ولا يحل له أن يواصل بين يومين؛ لأن النبى ﷺ نهى عن ذلك، وقال: «أيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السَّحر».

بل وجاءت السُّنة بالترغيب فى تأخير السحور وتعجيل الفطر.. وذلك من باب الشفقة والرأفة بالصائم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٦٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٣)، (١١٠٥) كتاب الصيام.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٦٢) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٢) كتاب الصيام.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٥٧) كتاب الصوم، ومسلم (١٠٩٨) كتاب الصيام.

فالمسلم إما أن يبادر بتعجيل الإفطار بعد غروب الشمس وتأخير السحور.. وهذه هى سُنة النبى ﷺ.. وهذا هو الأفضل والأكمل... وإما أن يواصل الصيام إلى وقت السَّحَر فلا يُفطر عند الغروب بل يواصل صيامه إلى وقت السَّحر ويتسحر ثم يصوم اليوم التالى وهذا جائز لكنه خِلاف الأَولَى... وإما أن يواصل الصيام لمدة يومين أو أكثر فلا يُفطر ولا يتسحر لمدة يومين.. وهذا حرام كما ذكر ذلك المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ. لأن النبى ﷺ نهى عن الوصال... وقد ورد أنه ﷺ لما رأى الصحابة راغبين فى الوصال واصل بهم يومًا ويومًا ويومًا حتى رُؤى هلال شهر شوَّال فقال ﷺ: «**لَوْ تَأَخَّرَ الهِلاَلُ لَزِدتُكُمْ**» كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ حين أبوا أن ينتهوا[1]... يعنى يريد ﷺ أن يُوقفهم عن الوصال حتى لا يَلحقهم الضرر بسبب الوصال.

وما يفعله بعض السلف كما يُروى عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه كان يواصل خمسة عشر يومًا لا يفطر بينهما، فهذا اجتهاد منه، وتأويل، ولكن الصواب ما دلَّت عليه السُّنة.

۞ وأما قوله ﷺ: «**إنى لست كهيئتكم؛ إنى أُطعَم وأُسقَى**».

فالرسول ﷺ كان يواصل ... والصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم كانوا يواصلون اقتداءً به، فنهاهم عن الوصال، ولما نهاهم عن شيء هو يفعله ﷺ ذكَّروه بفعله وأنهم إنما يفعلون ذلك اقتداءً به ﷺ، فقال: «**إنى لست كهيئتكم**» أى: هناك فرق بينى وبينكم وهو أنى أُطعَم وأُسقَى.

وفُسِّر كونه **يُطعَم ويُسقَى** بتفسيرين: أحدهما: أن يكون على حقيقته، وأنه يُطعَم ويُسقَى حقيقة، ولكنه ليس كالذى يحصل فى الدنيا من كونه يأكل ويشرب وهو صائم، ولكنه كما جاء فى بعض الأحاديث: «**أبيت عند ربى يُطعمنى**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٢٩٩) كتاب الاعتصام - ومسلم (١١٠٣) كتاب الصيام.

ويسقيني» يعني: يحصل له شيء في النوم فيحصل له ذلك حقيقة.

وقيل: إن المقصود من ذلك أنه يُعطَى قوة الآكل والشارب وكأنه لم يترك الأكل والشرب لما أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ من القوة، فيكون هذا هو الفرق بينهم وبين رسول الله ﷺ.

ونهيه إياهم عن الوصال هو من شفقته عليهم ﷺ، وهو كما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه العزيز: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].



(٣٤٧) باب تحريم الجلوس على قبر

(١٧٧٥) عن أبى هُرَيْرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لأنْ يَجْلِسَ أحدُكُمْ على جَمْرَةٍ، فَتَحرِقَ ثِيَابَه، فتَخْلُصَ إلى جِلْدِهِ خَيرٌ لهُ مِن أنْ يجلِسَ على قَبْرٍ»[١].

۞ ففى هذا الحديث ينهى النبى ﷺ عن الجلوس على القبر لأن الجلوس على القبر فيه امتهانٌ له.. ولأن القبر فيه مسلم أو مسلمة.. والمسلم مُحترمٌ فى حياته وبعد وفاته وكذلك المسلمة.

ولهذا شدَّد النبى ﷺ فى النهى عن الجلوس على القبر حتى وصل الأمر بأن يخبر النبى ﷺ أن جلوس الإنسان على جمرة فتحرق ثيابه وتصل إلى جلده فتحرقه خيرٌ له من جلوسه على قبر مسلمٍ.. وذلك لأن فيه إهانة لمسلمٍ محترم وكذلك لسريان مضرة الجلوس إلى القلب وهو لا يشعر.. وضرر القلب أعظم من ضرر البدن بكثير... فلا يجوز الجلوس على قبر المسلم، وإذا أراد أن يجلس فليجلس من وراء القبر، يجعل القبر خلف ظهره أو عن يمينه أو عن شماله ... وأما إن يجلس عليه فهذا حرام.



(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧١) كتاب الجنائز.

۞ تَخلُص: أى تصل وتَنفذ.

(٣٤٨) باب النهى عن تجصيص القبور والبناء عليها

(١٧٧٦) عن جابرٍ رضي الله عنه قال: نَهَى رسُولُ الله ﷺ أنْ يُجَصَّصَ القَبْرُ، وأنْ يُقْعَدَ عليهِ، وأنْ يُبْنَى عليهِ(١).

۞ ففى هذا الحديث نهى النبى ﷺ عن تجصيص القبور والقعود عليها والبناء عليها.

۞ فأما تجصيص القبر فذلك بأن يُكسى القبر بأحجارٍ ورخامٍ أو يُطلى بالجص ونحو ذلك.. وهذا حرام ولا يجوز.

۞ لكن يُستثنى من كل هذا ما يُفعل فى بلادنا من كتابة اسم العائلة على باب القبر الخارجى وذلك لمعرفة ملكية الأرض حتى لا يحدث أى تعدى من الآخرين عليها ... وأيضًا لمعرفة مكان الدفن الخاص بالأسرة إذا مات أحدهم وبخاصة أن الزيارات تكون قليلة أحيانًا فقد ينسى أحدهم أين مقبرة العائلة ... ومن هنا جاز لهم كتابة اسم العائلة على باب المقبرة الخارجى ولكن بشرط ألا يُكتب أى كلام فيه شىء من التفاخر والثناء... والله أعلم(٢).

۞ وأما القعود على القبر.. فسبق أن قلنا أنه لا يجوز القعود على القبر لأن فيه إنسان مسلم محترم.. فالقعود على القبر فيه إهانة له.. ولذا قال النبى ﷺ «لأنْ يَجْلِسَ أحدُكُمْ على جَمْرَةٍ، فَتحرِقَ ثِيَابَه، فتَخْلُصَ إلى جِلْدِهِ خيرٌ لهُ مِن أنْ يجلِسَ على قَبْرٍ».

۞ أما البناء على القبر فهو حرام ولا يجوز.. لأن البناء على القبر وتجصيصه بأن يُكسى بالأحجار والرخام يؤدى إلى تفخيمه وتعظيمه.. وقد

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٠) كتاب الجنائز.
۞ التجصيص: طلاء القبر بالجص.
(٢) موسوعة أحكام الجنائز / د. محمود المصرى (ص ٢٨٦).

يؤدى إلى التنافس والتفاخر بين الناس.. وقد وردت أحاديث تدل على منعه ومنها هذا الحديث ... وقد يقول أحدهم: لكن النبى ﷺ قد دُفن فى البنيان..

والجواب: أن هذا من خصائص النبى ﷺ لأن الأنبياء يُدفنون فى المكان الذى ماتوا فيه... وقد جاء فى الحديث: «**إن الأنبياء يُدفنون حيث يموتون**»، فلما مات النبى ﷺ فى غُرفة أُمِّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .. يعنى فى البنيان دُفن فى المكان الذى مات فيه، فيكون ذلك من خصائصه... وقد ذكر الإمام الذهبى فى ترجمة ابن لهيعة عندما ذكر الحديث الذى فيه: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تتخذوا قبرى عيدًا**»، ذكر أن الدفن فى البنيان من خصائصه عليه الصلاة والسلام، وأنه ليس لأحدٍ أن يُدفن فى البنيان، ولا أن يَبنى بناءً على القبر...إذًا فلا يسوغ البنيان على القبور، ولا دفن الموتى فى البنيان: لا فى المساجد ولا غير المساجد.



(٣٤٩) باب تغليظ تحريم إباق العبد من سيده

(١٧٧٧) عن جَرِيرِ بن عبد الله ﷺ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ، فقَد بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ»[1].

(١٧٧٨) وعنه عَن النَّبِيِّ ﷺ: «إذا أَبَقَ العَبْدُ، لَمْ تُقْبَلْ لهُ صَلاةٌ»[2].

وفي رواية: « فَقَد كَفَر».

۞ ففي هذين الحديثين يخبر النبي ﷺ أن العبد إذا هرب من سيده فقد برئت منه الذمة وأنه لا تُقبل له صلاة.

قال الإمام النووي رحمه الله: «فقد برئت منه الذمة» فَمَعناهُ لَا ذِمَّةَ لَهُ ...

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو رحمه الله: الذِّمَّةُ هُنَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الذِّمَّةُ الْمُفَسَّرَةُ بِالذِّمَامِ وَهِيَ الْحُرمَةُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَبِيلِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ: «لَهُ ذِمَّةُ اللهِ تَعَالَى وَذِمَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ» أَيْ ضَمَانُهُ وَأَمَانَتُهُ وَرِعَايَتُهُ ... وَمَنْ ذَلِكَ أَنَّ الآبِقَ كَانَ مَصُونًا عَنْ عُقُوبَةِ السَّيِّدِ لَهُ وَحَبْسِهِ فَزَالَ ذَلِكَ بِإِبَاقِهِ وَاللهُ أَعلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ» فَقَد أَوَّلَهُ الْإِمَامُ الْمَازِرِيُّ وَتَابَعَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُمَا اللهُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مَحمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ لِلْإِبَاقِ فَيَكْفُرُ، ولا تُقبل له صلاة - لا غَيْرُهَا، وَنَبَّهَ بِالصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِهَا.

وَأَنْكَرَ الشَّيْخُ أبوعمرو هَذَا وَقَالَ: بَلْ ذَلِكَ جَارٍ فِي غَيْرِ الْمُسْتَحِلِّ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ الْقَبُولِ عَدَمُ الصِّحَّةِ... فَصَلَاةُ الآبِقِ صَحِيحَةٌ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، فَعَدَمُ قَبُولِهَا لِهَذَا الْحَدِيثِ، وَذَلِكَ لِاقْتِرَانِهَا بِمَعصِيَةٍ، وَأَمَّا صِحَّتُهَا فَلِوُجُودِ شُرُوطِهَا وَأَركَانِهَا الْمُسْتَلْزِمَةِ صِحَّتِهَا... وَلَا تَنَاقُضَ فِي ذَلِكَ، وَيَظْهَرُ أَثَرُ عَدَمِ الْقَبُولِ فِي سُقُوطِ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٩) كتاب الإيمان.

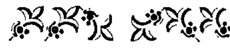
(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٨)، (٧٠) كتاب الإيمان.



الثَّـوَابِ، وَأَثَـرِ الـصِّحَّةِ فِـى سُـقُوطِ الْقَـضَاءِ، وَفِـى أَنَّـهُ لَا يُعَاقَـبُ عُقُوبَـةَ تَـارِكِ الصَّلَاةِ... هَذَا آخِرُ كَلَامِ الشَّيْخِ أَبِى عَمْرٍو رَحِمَهُ اللَّهُ ... وهو ظاهر لا شك فِى حُسْنِهِ.

وَقَد قَالَ جَمَاهِيرُ أَصحَابِنَا: إِنَّ الصَّلَاةَ فِى الدَّارِ الْمَغْصُوبَةِ صَحِيحَةٌ لَا ثَوَابَ فِيهَا[1].

۞ ومنهم مَن قال إن الحديث عام ولا يمتنع أن يُعاقَب بذلك، ويكون المراد بنفى القبول بالنسبة للنوافل نفى الصحة، وبالنسبة للفرائض نفى الإثابة، وهذا جَمْعٌ حسن.



(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ٧٧-٧٨).

(٣٥٠) باب تحريم الشفاعة فى الحدود

قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ﴾ [النور: ٢].

(١٧٧٩) وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُم شأنُ المرأةِ المخْزُوميَّةِ التى سَرَقَتْ فقالوا: مَن يُكَلِّمُ فيها رسُولَ الله ﷺ؟ فقالوا: ومَن يَجْتَرِئُ عَليهِ إلا أُسَامَةُ بنُ زَيدٍ، حِبُّ رسولِ الله ﷺ، فكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «أَتَشْفَعُ فى حَدٍّ مِن حُدُودِ الله تعالى؟» ثم قام فاختطب، ثم قال: «أيها الناس إنَّما أهلَكَ الذينَ قَبْلَكُم أَنَّهم كانُوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّريفُ تَركُوه، وإذا سَرَقَ فيهِمُ الضَّعِيفُ، أقامُوا عليهِ الحَدَّ، وايْمُ الله لَوْ أَنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعتُ يَدَهَا»(١).

وفى رواية: فَتَلَوَّنَ وجْهُ رسولِ الله ﷺ، فقال: «أَتَشْفَعُ فى حَدٍّ مِن حُدودِ الله؟» قالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِر لى يا رسُولَ الله، قال: ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ المرأةِ، فقُطِعَتْ يَدُهَا.

سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٦٥٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (١٦٨٨) كتاب الحدود.

(٣٥١) باب النهى عن التغوط فى طريق الناس وظلهم وموارد الماء ونحوها

۞ قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

(١٧٨٠) وعنْ أبى هُرَيْرَة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «اتَّقُوا اللاَّعِنَيْن» قالوا: ومَا اللاَّعِنَانِ؟ قال: «الذى يَتَخَلَّى فى طرِيقِ النَّاسِ أوْ فى ظِلِّهِمْ»(١).

(٣٥٢) باب النهى عن البول ونحوه فى الماء الراكد

(١٧٨١) عن جابرٍ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ نَهى أنْ يُبَال فى المَاءِ الرَّاكِدِ(٢).

۞ قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ فالإيذاء قد يكون بالقول مثل السبِّ والشتم والتوبيخ وغيره.. ويكون بالفعل كالضرب والتبول والتغوط فى طريق الناس أو أماكن ظلهم ومُشمسهم فى الشتاء وموارد مائهم. وهذا مما عمَّت به البلوى فى هذا الزمان .. فتجد مَن يفعل هذا الفعل المشين فى الأماكن القريبة من موارد المياه أو تحت الأشجار التى يجلس الناس فى ظلها ... فمن فعل ذلك كان مستحقًّا للعن؛ لأن كل مَن رأى ذلك فإنه يلعن فاعله... ولذلك قال النبى ﷺ فى حديث أبى هريرة: « اتَّقُوا اللاَّعِنَيْن ».

قال الخطابى: المراد باللاعنين: الأمران الجالبان للعن... الحاملان الناس عليه والداعيان إليه، وذلك أن مَن فعلهما لُعن وشُتم ... يعنى: عادة الناس لعنه، فلما صار سببًا أُسند اللعن إليهما.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨١) كتاب الطهارة.

ويزداد الإثم إذا كان يُفعل ذلك في الماء الراكد الذي لا يجري؛ لأن التأذِّي به يكونُ أشد ولذلك نهى النبي ﷺ عنه. كما في حديث جابر الذي رواه مسلم.

فلا يجوز للإنسان أن يبول في الماء الراكد مثل الغدير، أو شبهه... أما الماء الجاري، فالجاري يمشي، ولا يتأثر إلا إذا كان جاريًا نحو ساقية وتحته أُناسٌ يتطهرون في هذا الماء، أو يشربونَ منه، فهذا لا يجوز لأنه يؤذي مَن تحته.

ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يُضيق علينا .. فعندنا دورات مياه في بيوتنا.. وهناك حمَّامات عمومية في الشوارع فما الذي يدعونا إلى فعل هذا سواء في الماء الراكد أو الجاري؟!

أسأل الله أن يرزقنا مُراعاة مشاعر الناس من حولنا.

(٣٥٣) باب كراهة تفضيل الوالد بعض أولاده على بعض فى الهبة

(١٧٨٢) عنِ النُّعمَانِ بنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ أبَاهُ أتَى بِهِ رَسُولَ الله ﷺ فقال: إنِّى نَحَلْتُ ابْنى هذا غُلامًا كان لى، فقالَ رسُولُ الله ﷺ : « أكُلَّ وَلَدِكَ نَحلْتَهُ مِثْلَ هذا؟» فقال: لا، فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «فأرجِعهُ» .

وفى روايةٍ: فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «أفَعَلْتَ هذا بِوَلَدِكَ كُلِّهِم؟» قال: لا، قال: «اتَّقُوا الله واعدِلُوا فى أولادِكِمْ» فرجع أبى، فردَّ تلْكَ الصَّدَقَةَ.

وفى روايةٍ: فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «يا بَشِيْرُ ألَكَ وَلَدٌ سِوَى هذا؟» قال: نَعَمْ، قال: «أكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لهُ مِثْلَ هذا؟» قال: لا، قال: «فلا تُشْهِدنِى إذًا فإنِّى لا أشْهَدُ على جَوْرٍ».

وفى روايةٍ: «لا تُشْهِدنِى على جَوْرٍ».

وفى روايةٍ: «أشْهِد على هذا غَيْرِى» ثم قال: «أيَسُرُّكَ أنْ يَكُونُوا إليْكَ فى البِرِّ سَواءً؟» قال: بلى، قال: «فَلا إذًا»(١).

۞ فى البداية أقول أنه لا بد أن يحرص الوالدان على العدل بين أولادهما .. ولا بأس أن يحب الرجل بعض أولاده أكثر من بعض ما لم يصاحب ذلك أى ظلم أو جور.

فلقد كان يعقوب يحب يوسف (عليهما السلام) أكثر من بقية إخوته وذلك لأن المحبة محلها القلب .. والقلب لا يملك زمامه إلا الله عَزَّوَجَلَّ ... فلا عجب أن يحب الوالد ولده الصالح الذى يحفظ القرآن ويصلى ويصوم ويطيع والديه أكثر من حُبه لولده الذى يترك الصلاة ويشرب الدخان .. ولكن على الوالد أن

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٨٦) كتاب الهبة، مسلم (١٦٢٣) كتاب الهبات.

لا يبالغ فى إظهار هذه المحبة ومتبوعاتها إلا لعلة من العلل ... كأن يقول لأبنائه فلان أحسن منكم لكونه يصلى ويصوم، فحينئذٍ قد يحملهم هذا القول وهذا الثناء على الصلاة والصيام.

وكذلك ليحرص الوالد على ألا يحمله حبه لولدٍ من أولاده على أن يعطيه ويحرم إخوانه فهذا من الظلم الذى نهى الله عنه[1].

❁ **وهنا لفظ الأولاد:** يشمل الذكور والإناث .. والمراد هنا بالعطية هو التبرع المحض وليس النفقة.. أما بالنسبة للنفقة فإن الأب يعطى كل واحدٍ من أبنائه ما يحتاج إليه سواء كان قليلًا أو كثيرًا.

فإذا قدر أن أحدهم يطلب العلم، ويحتاج إلى كتب، والآخر ليس كذلك، فأعطى الأول ما يحتاج إليه من الكتب فلا بأس ... وكذلك لو كان أحدهم يحتاج إلى ثياب، والآخر لا يحتاج، فيعطى مَن يحتاج إلى الثياب... وكذلك لو مرض فاحتاج إلى دراهم وإلى دواء فأعطاه فلا بأس... وكذلك لو بلغ أحدهم سن الزواج فزوَّجه فإنه يزوجه ولا بأس... المهم ما كان لدفع الحاجة فالتسوية فيه أن يعطى كل إنسان ما يحتاجه.

أما إذا كان تبرُّعًا مَحضًا فلا بد من العدل بينهم ... ولذا فإنه يجب عليه أن يرد ما فضَّله به.. فإذا أعطى أحدهم مائة، ولم يعطِ الآخرين، وجب عليه أن يرد المائة (أى يستردها) أو يعطى الآخرين مثلما أعطى الأول، أو يستحلهم بشرط أن يُحللوه عن رضا وقناعة، لا عن حياءٍ وخجل.

❁ إذًا: فيجب على الأب أن يُسوى بين أولاده فى العطية حتى يكونوا له فى البر سواء، ويَحرُم عليه أن يُؤْثِر بعضهم بمنحة أو عطاء بغير مسوغ ولا حاجة، فيوغر صدور الآخرين، ويوقد بينهم نار العداوة والبغضاء.. والأم كالأب فى ذلك.

---

(١) موسوعة الزواج الإسلامى السعيد / د. محمود المصرى (ص ٨٨٩-٨٩٠).

قال ﷺ: «اعدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ، اعدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ، اعدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ»[(١)]، وقصة هذا الحديث أن امرأة بشير بن سعد الأنصارى طلبت إليه أن يخص ولدها النعمان بن بشير بمنحة مالية –كحديقة أو عبدٍ– وأرادت توثيق هذه الهبة فطلبت منه أن يُشهد على ذلك رسول الله فذهب إليه، قال: يا رسول الله.. إن ابنة فلان – زوجته – سألتنى أن أنحل ابنها غلامى – عبدى– فقال ﷺ: «أَلَهُ إِخْوَةٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَفَكُلَّهُمْ أَعطَيْتَ مِثْلَ مَا أَعطَيْتَهُ؟» ، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَلَيْسَ يَصلُحُ هَذَا، وَإِنِّى لا أَشْهَدُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ»[(٢)]، «لا تُشْهِدنِى عَلَى جَوْرٍ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم كما لك عليهم من الحق أن يبروك»[(٣)] «اتَّقُوا الله واعدِلُوا فى أولادِكِمْ»[(٤)(٥)].

فأمر (عليه الصلاة والسلام) أن نعدل بين الأولاد فى العطية، حتى لو أعطيت أحدهم عشرة ريالات، فأعطِ الآخر مثله... لا تَقُل هذا شئٌ زهيد، لا يساوى شيئًا ... أبدًا ولو كان ريالًا واحدًا ... أعطهم كما أعطيت الثانى... حتى كان السلف الصالح رضي الله عنهم إذا قبَّلوا أحد الأولاد، قبَّلوا الثانى، من شدة العدل بينهم، وكذلك أيضًا فى النظرة إليهم.. لا تنظر إلى هذا نظرة غضب، وإلى هذا نظرة رضا؛ بل اعدل بينهم حتى فى النظرة وطلاقة الوجه، إلا أن يفعل أحدهم ما يُغضب، فهذا له شأن. أما بدون سبب، فاجعلهم سواءً ولا تُفضل أحدًا على أحدٍ.

---

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٤٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٢٤) كتاب الهبات.

(٣) قال الألبانى فى غاية المرام (٢٧٤): ضعيف بهذا اللفظ أخرجه أبو داود...أمَّا قوله «لاتشهدنى على جور» فصحيح ثابت عند الشيخين وغيرهما...وفى رواية لأبى داود «أليس يسرك أن يكونوا لك فى البر واللطف سواء» قال نعم قال: «فأشهد على هذا غيرى» وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٨٧) كتاب الهبة، ومسلم (١٦٢٣) كتاب الهبات.

(٥) الحلال والحرام/ د. يوسف القرضاوى (ص٢٠٢-٢٠٣).

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِى هَـذَا الْحَـدِيثِ أَنَّـهُ يَنْبَغِـى أَنْ يُسَوِّىَ بَيْـنَ أَوْلَادِهِ فِى الْهِبَةِ وَيَهَـبَ لِكُـلِّ وَاحِـدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ الْآخَرِ وَلَا يُفَـضِّلَ وَيُسَوِّىَ بَيْنَ الـذَّكَرِ وَالْأُنْثَى ....

قَوْلُهُ ﷺ: «أَشْهِد عَلَى هَـذَا غَيْرِى» يَدُلُّ عَلَى أَنَّـهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ فَيَجِبُ تَأْوِيلُ الْجَوْرِ عَلَى أَنَّهُ مَكْرُوهٌ كَرَاهَةَ تَنْزِيهٍ.

وَفِى هَـذَا الْحَـدِيثِ أَنَّ هِبَـةَ بَعْضِ الْأَوْلَادِ دُونَ بَعْضٍ صَحِيحَةٌ وَأَنَّـهُ إِنْ لَـمْ يَهَبِ الْبَاقِينَ مِثْلَ هَذَا اسْتُحِبَّ رَدُّ الْأَوَّلِ.

قَالَ أَصحَابُنَا: يُسْتَحَبُّ أَنْ يَهَبَ الْبَاقِينَ مِثْلَ الْأَوَّلِ فَإِنْ لَـمْ يَفْعَلِ اسْتُحِبَّ رَدُّ الْأَوَّلِ وَلَا يَجِبُ وَفِيهِ جَوَازُ رُجُوعِ الْوَالِدِ فِى هِبَتِهِ لِلْوَلَدِ وَاللهُ أَعلَمُ[1].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ٩٦-٩٧) بتصرف.

(٣٥٤) باب تحريم إحداد المرأة على ميت فوق ثلاثة أيام إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام

(١٧٨٣) عنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أبي سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: دَخلْتُ عَلَى أُمِّ حَبيبةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ حينَ تُوُفِّيَ أبُوها أبُو سُفْيانَ بنُ حَربٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فدَعَتْ بِطِيبٍ فيهِ صُفْرَةُ خَلُوقٍ أوْ غَيْرِهِ، فدَهَنَتْ مِنْه جاريةً، ثُمَّ مَسَّتْ بعَارِضَيْها. ثُمَّ قالتْ: واللهِ مَا لي بالطِّيبِ مِن حاجةٍ، غَيْرَ أنِّي سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ على المِنبَرِ: «لا يَحِلُّ لامْرأةٍ تُؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثلاثِ لَيَالٍ، إلا عَلَى زَوْجٍ أربَعَةَ أشْهُرٍ وعَشْرًا» قالتْ زَيْنَبُ: ثُمَّ دَخَلْتُ على زَيْنَبَ بنْتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حِينَ تُوُفِّيَ أخُوهَا، فَدَعَتْ بِطِيبٍ فمَسَّتْ مِنْه، ثم قالتْ: أما واللهِ مَا لي بالطِّيبِ مِن حاجةٍ، غَيْرَ أنِّي سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ على المِنبَرِ: «لا يَحِلُّ لامْرأةٍ تُؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثلاثِ لَيَالٍ، إلا عَلَى زَوْجٍ أربَعَةَ أشْهُرٍ وعَشْرًا»[١].

۞ الإحداد معناه: ترك الزينة، والطِّيب -العطر- ونحوه، مما يُعَدُّ بهجة وسرورًا وترفُّهًا وهو حرام ... وكانوا في الجاهلية إذا مات الإنسان وهو حبيب إليهم امتنعوا عن الطيب والتجمُّل وما أشبه ذلك إلى مدة حسب ما يقدرونها بأنفسهم ... فبيَّن النبي ﷺ في هذا الحديث الذي رواه عنه زوجتاه أم حبيبة، وزينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنه لا يجوز الإحداد على ميت فوق ثلاثٍ إلا على زوجٍ أربعة أشهر وعشرًا ... فرخَّص النبي ﷺ في هذا، في الإحداد لمدة ثلاثة أيام، ولا يجوز أكثر من ذلك.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨١) كتاب الجنائز، (٥٣٣٤) كتاب الطلاق - ومسلم (١٤٨٦)، (١٤٨٧) كتاب الطلاق.

مثاله: رجل مات ابنه فحزن عليه، فالواجب الصبر، والاحتساب، وأن تجرى الأمور على ما هى عليه... إلا إذا كان الحزن قد أرهقه أو تسبب فى مرضه فلم يستطع أن يخرج من بيته لمدة أيامٍ فله ذلك حتى يستريح ثم يخرج إلى دُكانه إذا كان صاحب دكان، وإلى فلاحته إذا كان صاحب فلاحة وإلى مكتبه إذا كان موظفًا، وإلى مدرسته إذا كان مُعلمًا أو طالبًا.. المهم ألا تتأثر أعماله بشيء، هذا هو المشروع، وهذا هو السُّنة وهذا هو الأوفق، وهذا هو الأرفق بالشخص، ألا يُحد على أحد، حتى على ابنه وأبيه، وأمه وأخيه... فالأمر لله عَزَّوَجَلَّ له الملك وله الحمد، فهو المالك، وهو المحمود على كل حال. فكل إنسان له قلب حى سيحزن، لكن نقول: اصبر واحتسب.

لكن لما كانت النفوس قد لا تطيق هذا لا سيما مع عِظَم المصاب، رخَّص النبى ﷺ فى الإحداد لمدة ثلاثة أيام فقط... يعنى لا بأس مثلًا أن الإنسان إذا مات له صديق أو قريب وحزن حزنًا شديدًا لا يستطيع أن يقابل الناس، لا بأس أن يبقى فى بيته لمدة ثلاثة أيام، فأقل، ولكن لا بد من صلاة الجماعة... إن كان يستطيع .. فإن لم يستطع لمرضه فهو معذور.

وكذلك بالنسبة للنساء لو مات ابنها أو أبوها أو أخوها أو أحد ممن تأثرت بهم تأثُّرًا بالغًا، فلا حرج عليها أن تحد لمدة ثلاثة أيام فأقل: أما ما زاد فلا يجوز.

۞ «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، أن تحد فوق ثلاثٍ إلا على زوج**». فالزوج له حق عظيم، حتى قال النبى ﷺ: «**لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقه عليها**»(١) لكن السجود لا يكون إلا لرب العالمين الخالق عَزَّوَجَلَّ.

المهم أن الزوجة تحد أربعة أشهر وعشرًا، هذا إذا كانت غير حامل، أما الحامل فتحد إلى وضع الحمل فقط، زاد أو نقص.

(١) **صحيح**: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٢٥).

فعلى هذا إذا مات زوجها، فالمرأة تحد أربعة أشهر وعشرة أيام، لقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، حتى لو كان لم يدخل عليها... لو عقد عليها وهي في المدينة وهو في مكة، ومات فإنها تحد عليه وإن لم يدخل عليها، ما دام العقد صحيحًا.

وإذا كانت حاملًا فإلى وضع الحمل. حتى لو وضعت قبل أن يُغَسَّل الزوج، فقد انتهت العدة، وانتهى الإحداد... يعني مثلًا امرأة توفي زوجها وهي في الطَّلق، فلما خرجت روحه، خرج الحمل... يعني ما بين خروج روح زوجها، وخروج حملها إلا دقائق معلومة، فالآن انتهت العدة، وانتهى الإحداد... فلها أن تتزوج، يمكن شرعًا أن تتزوج؛ لأنها وضعت الحمل، ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤]. فهذه انتهت عدتها، والإحداد تبع العدة... نعم يجوز زواجها لكن من المعلوم أن وفاء الزوجة وحزنها على زوجها قد يمنعها من الزواج بهذه السرعة... لكن لو تزوجت لاحتياجها لمن ينفق عليها وعلى أولادها فهذا جائز.

۞ ولكن ما هو الإحداد؟

الإحداد أن تجتنب المرأة الأشياء التالية:

أولًا: **لباس الزينة**، لا تلبس ثوبًا يُعَدُّ ثوبَ زينة... أما الثياب العادية فلها أن تلبسها، بأي لونٍ كان؛ أصفر، أحمر، أخضر.. أي شيء، إنما الذي يُعَدُّ زينة بحيث يُقال: إن هذه المرأة تزينت وتجملت، فإنه لا يحل لها أن تلبسه وهي محادة على الزوج.

الثاني: **الطِّيب -العطر- بجميع أنواعه**: دهنًا، أو بخورًا، أو غير ذلك، لا تتطيب إطلاقًا، إلا إذا طهرت من الحيض، فإنها تأخذ شيئًا يسيرًا من الطيب تتطيب به... أي تُطيب محل الخَبَث حتى لا يكون لها رائحة.

الثالث: **الحُلي بجميع أنواعه**... لا تلبس الحُلي لا في القدمين، ولا في الكفين ولا في الرقبة ولا في الأذنين ولا على الصدر... أي نوع من أنواع الحُلي لا تلبسه.

الرابع: ألا تخرج من البيت أبدًا إلا لضرورة أو حاجة... لضرورة في الليل، أو حاجة بالنهار، وأما بدون حاجة ولا ضرورة فلا يجوز أن تخرج من بيتها الذى مات زوجها وهى فيه، فهى يجب عليها أن تبقى فى البيت فلا تخرج.

إذا قالت أريد أن أخرج إلى جيرانى أستأنس عندهم فى النهار وأول الليل، وأرجع إلى بيتى. نقول: لا... بل جيرانك يأتون إليك أما أنتِ فلا تذهبى... بل تبقين فى البيت الذى مات زوجك وأنت فيه... فإذا قدرنا أنها سافرت مع زوجها إلى بلدٍ للعلاج، ومات زوجها بالبلد الذى هو غير بلدها ، نقول: ارجعى إلى بلدك ؛ لأن هذا ليس مسكنكِ فى الأصل.

الخامس: التجميل والتكحُّل بالكُحل وما أشبه ذلك .. حتى لو فرضنا أن عينها فيها مرض، فلا تتكحل، إلا بصبرٍ أو شبهه - مما لا لون له - تفعله بالليل وتمسحه بالنهار... هذا إن احتاجت وإلّا فلا...ولهذا جاءت امرأة إلى النبى ﷺ وقالت: يا رسول الله إن ابنتى مات زوجها، وقد اشتكت عينَها - يعنى توجعها - أفنُكحلها قال: «لا» مع أنها توجعها عينها فقال: «لا».

وكذلك التحمير والتجميل وما أشبه ذلك... أما الصابون الذى ليس فيه طيب فلا بأس، وكذلك تنظيف الرأس وكذلك تنظيف الجلد.

وما اشتهر عند العوام أن المرأة تغتسل من الجمعة إلى الجمعة، فهذا لا أصل له.

كذلك أيضًا ما اشتهر عندهم أنها فى الليل لا تخرج إلى الحوش بل تكون تحت السقف، فهذا لا صحة له ، بل تخرج إلى ما شاءت[1].

السادس: الخضاب (الحناء ونحوها من المكياج):

وعلى هذا فيَحرُم عليها التزين بجميع وسائل التجميل الحديثة كالمكياج.

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ٢٦٦-٢٦٨) بتصرف كبير.

۞ وقفات هامة:

۞ لا تُمنع الحادة من التنظيف وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، ولا من الاغتسال، ولا من الامتشاط، ولا تُمنع من لبس النقاب إذ لا دليل على ذلك.

۞ ولا تُمنع كذلك من تناول أى نوع من الأطعمة والفواكه والأشربة مما أباحها الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ تقدم أنها تُمنع من الطِّيب (العطر)، ولكن يجوز لها أن تشمه؛ لأن ذلك لا يعلق بها.

۞ إذا كان الحُلى عليها حين موت زوجها فإنها تخلعه إلا ما لا تقدر عليه كالسِّن من الذهب فإنه قد وُضع للضرورة.

۞ الأحاديث قد وردت فى النهى عن لبس المعصفر وعن لبس الحُلى، لا عن سترها ... فلا يجوز للحادة أن تلبس هذه الثياب والحلى حتى لو كانت غير ظاهرة للناس، بأن تكون مثلًا تحت ثيابٍ أخرى، فهى ممنوعة عن لبسها عمومًا.

۞ اعتاد النساء أن يلبسن السواد فى الحداد، ولا دليل على إلزامها بالسواد إلا فى الثلاثة أيام الأولى فقط من وفاة زوجها... ولها بعد ذلك أن تلبس الثياب المأذون لها فيها، وتجتنب الثياب المنهى عنها طوال مدة الإحداد.

وذلك لما ثبت فى الحديث عن أسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها لما أصيب زوجها جعفر: «**تَسلَّبى ثلاثًا، ثم اصنعى ما شئتِ**»[١].

ومعنى «**تَسلَّبى**»: البسى ثوب السلاب وهو الحداد، وقيل: هو ثوبٌ أسود تغطى به المُحدة رأسها[٢].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، وابن حبان، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٢٢٦).

(٢) تمام المنة / للشيخ عادل العزازى (٣/ ٢٥١-٢٥٢).



(٣٥٥) باب تحريم بيع الحاضر للبادى، وتلقِّى الرُّكبان والبيع على بيع أخيه والخِطبة على خِطبته إلا أن يأذن أو يرد

(١٧٨٤) عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نَهَى رسُولُ الله ﷺ أنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ وإنْ كانَ أخَاهُ لأبيهِ وأُمِّهِ[١].

(١٧٨٥) وعنْ ابنِ عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تَتَلَقَّوُا السِّلَع حتَّى يُهْبَطَ بها إلى الأسْواقِ»[٢].

(١٧٨٦) وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تَتَلَقَّوُا الرُّكْبانَ، ولا يَبِع حَاضِرٌ لِبَادٍ» فقالَ لهُ طاوسُ: «ما يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبادٍ؟» قال: لا يكُونُ لهُ سِمْسَارًا[٣].

(١٧٨٧) وعن أبى هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: نَهَى رسُولُ الله ﷺ أنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ، ولا تَنَاجَشُوا ولا يَبِع الرَّجُلُ على بَيْعِ أخيه، ولا يَخْطب عَلَى خِطْبَةِ أخيهِ، ولا تسألِ المرأةُ طلاقَ أخْتِهَا لتَكْفَأَ ما فى إنائها.

وفى روايةٍ قال: نَهَى رسُولُ الله ﷺ عن التَّلقِّى وأن يَبْتَاعَ المُهاجِرُ لِلْأعرَابىِّ، وأنْ تَشْتَرِطَ المرأةُ طَلاقَ أُخْتِهَا، وأنْ يَسْتَام الرَّجُلُ على سَوْمِ أخيهِ، ونَهَى عَنِ النَّجْشِ والتَّصرِيةِ[٤].

(١٧٨٨) وعنْ ابنِ عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «لا يَبِع بَعضُكُمْ علَى بَيْعِ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٦١) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٢٣) كتاب البيوع.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٦٥) كتاب البيوع، ومسلم (١٥١٧) كتاب البيوع.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٥٨) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٢١) كتاب البيوع.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٤٠) كتاب البيوع، ومسلم (١٥١٥) (١٢) كتاب البيوع.

بعضٍ، ولا يَخْطبْ على خِطْبَة أخِيهِ إلا أنْ يأذَنَ لهُ»(١).

(١٧٨٩) وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «المؤمِنُ أخُو المؤمِن، فلا يَحِلُّ لمُؤمِنٍ أنْ يَبْتَاعَ عَلَى بَيْعِ أخيهِ ولا يَخْطبْ على خِطْبَةِ أخيه حتَّى يَذَر»(٢).

فهذه عدة أشياء نهى عنها النبى ﷺ.. فتعالوا بنا لنتناول كل واحدةٍ منها بشىءٍ من الإيجاز:

المسألة الأولى: أن يبيع حاضرٌ لبادٍ:

والحاضر هو ساكن الحاضرة.. والبادى هو ساكن البادية.

فيأتى ساكن البادية بالسلعة التى يريد أن يبيعها سواء كانت غنمًا أو إبلًا أو لبنًا أو سمنًا أو غير ذلك.. فيأتيه أحد أهل البلد ويقول له: يا فلان أنا سأبيع لك تلك البضائع.. أو: اتركها عندى فى الدكان وأنا أبيعها لك بسعرٍ أغلى ولى جزء من الربح فيكون واسطة - أى: سمسارًا- يبيع له... فهذا لا يجوز؛ لأن النبى ﷺ قال: «**دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض**»(٣) دع البدوى يبيع، ربما يريد أن يبيع برُخْصٍ؛ لأنه يريد أن يرجع إلى أهله... وأيضًا إذا باع البدوى فالعادة أن الحضرى يَنقُده الثمن ولا يُؤخره؛ لأنه يعرف أنه صاحب بادية يريد أن يرجع، فيكون بذلك فائدة للبائع وهو البدوى، يُنقَد له الثمن... وفائدة للمشترى وهو أن الغالب أن البدوى يبيع برخص؛ لأنه لا ينتظر الزيادة، ولهذا نهى النبى ﷺ أن يبيع حاضرٌ لبادٍ.

أما أن يبيع له الحاضر فى الحال فلا بأس، مثل أن ينادى بها ويُصوت فى السوق، فهذا لا بأس به... وإذا أتى صاحب البادية بالسلع وهو لا يريد أن يبيعها

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤١٢) كتاب النكاح.
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤١٤) كتاب النكاح.
(٣) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٨٥٥).

فى الحال، فذهب إلى شخصٍ من الحاضرة وقال له: أنا أريد أن تبيع لى هذه السلعة؛ فهذا لا بأس به، وإنما المحذور أن يقول الحاضر للبادى: لا تبع السلع، ولكن دعها عندى أبيعها لك؛ فهذا هو الممنوع.

كذلك أيضًا استنبط العلماء رحمهم الله من هذه العلة، **«دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض»** أنه إذا كان السعر واحدًا سواء باع الحاضر أو البادى فإنه لا بأس أن يبيع الحاضر للبادى ؛ لأن السعر لن يتغير... ومثال ذلك أن تكون الدولة قد قررت سعرًا معينا لهذا النوع لا يزيد ولا ينقص، فهذا لا فرق بين أن يبيعه الحاضر أو البادى... ليس للحاضر مكسب وفائدة فى ذلك... فقالوا: إذا كان السعر معلومًا فإنه لا بأس أن يبيع الحاضر للبادى.

۞ المسألة الثانية: تلقِى الرُّكبان أو تلقِى السلع:

أى: تلقِّى الرُّكبان، أو تلقِّى الجلب، أو تلقِّى السلع التى تُجلب ويأتى بها غير أهل البلد، سواء كانوا من بادية أو غير بادية... فلا يجوز لمن كانوا من أهل البلد أن يخرجوا ويستقبلوهم قبل أن يصلوا إلى البلد، فيشتروا منهم السلع كلها، ثم يهبطوا بها إلى البلد؛ لأنهم قد يخدعونهم بأن يقولوا: الأسعار رخيصة، فيشتروا منهم السلع التى معهم كلها، فيكون فى ذلك غبنٌ للبائعين.. وأيضًا يكون فى ذلك إضرار بأهل البلد؛ لأن الجالب الذى يريد أن يبيع بضاعته... فالناس يشاهدونها، وكُلٌّ منهم يشترى ويحصل له ارتفاق بهذا الشراء، بخلاف ما إذا اشتراها تاجر من أهل البلد ثم ادَّخرها، أو حجزها، أو جعلها عنده وباعها بأسعارٍ زائدة، فإن هذا فيه مضرة على الناس.

۞ وعلى هذا فتلقِّى الركبان فيه محذوران:

الأولى: على أهل البلد، الذين ينتظرون قدوم الرُّكبان من أجل أن يشتروا منهم برُخصٍ.

الثانية: الضرر على الرُّكبان ؛ لأن هذا الذى تلقَّاهم سيغبنهم، ويشترى منهم بأقل من السوق... وهم لم يصلوا إلى السوق حتى يعرفوا السعر... ولهذا قال النبى ﷺ: «**فمن تُلُقِّىَ فاشتُرِىَ منه، فأتى السوق فهو بالخيار**» يعنى أن الجالب إذا تلقاه الإنسان خارج البلد واشترى منه ثم دخل البلد ووجد أنه مَغبونٌ، فله أن يرد البيع ؛ لأنه قد غُرِّرَ به وغُبن...

۞ المسألة الثالثة: «ولا تناجشوا»

والنجش هو: أَنْ يَزِيدَ فِى ثَمَنِ السِّلْعَةِ لَا لِرَغْبَةٍ فِيهَا بَلْ لِيَخْدَعَ غَيْرَهُ وَيَغُرَّهُ لِيَزِيدَ وَيَشْتَرِيَهَا ... وَهَذَا حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ ... وَالْبَيْعُ صَحِيحٌ وَالْإِثْمُ مُخْتَصٌّ بِالنَّاجِشِ إِنْ لَمْ يَعلَمْ بِهِ الْبَائِعُ فَإِنْ وَاطَأَهُ عَلَى ذَلِكَ أَثِمَا جَمِيعًا(١)... أى: الناجش والبائع.

۞ المسألة الرابعة: «ولا يَبِع الرَّجُلُ على بَيْعِ أخيه»

وهذا يكون فيما إذا حصل بيعٌ بين شخصين وبينهما خيار مجلس أو خيار شرط... فإذا حصل البيع والشراء وهم لا يزالون فى المجلس، فلهم خيار المجلس، فكل واحدٍ له أن يفسخ ما دام فى المجلس... فيأتى رجل ثالث إلى المشترى ويقول: اترك هذه السلعة التى اشتريتها وأنا أبيعك مثلها بأرخص منها، إذا كانت بعشرة فأنا أبيعك إياها بثمانية... فهذا يُعتبر من البيع على بيع أخيه... أو كان فى العقد خيار شرط، فقال المشترى: أعطنى مدة ثلاثة أيام أفكر، وبعد ذلك أخبرك هل أعزم على الشراء أو أترك... فيأتى شخصٌ آخر إلى المشترى فى مدة الخيار فيقول له: اترك هذه السلعة وأنا أبيعك مثلها بأرخص منها... هذا هو البيع على بيع أخيه.... وأما الشراء على شرائه فهو مقابل هذا... فيكون البائع والمشترى كُلٌّ منهما له خيار، فيأتى رجل للبائع ويقول: اترك هذا البيع،

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٠/ ٢٢٥).

وأنا أشتريه منك بأزيد من هذا، فإذا باع السلعة بعشرة على إنسان وهما فى خيار مجلس أو خيار شرط يأتى شخص للبائع ويقول له: أنا أشتريها منك بإحدى عشر ريالًا، وأزيدك ريالًا على السعر الذى اشترى منك هذا الشخص.

فكل ذلك لا يجوز... لا يبيع على بيع أخيه، ولا يشترى على شراء أخيه.

۞ المسألة الخامسة: «ولا يَخْطبْ أحدكم على خِطْبَة أخيه»

وذلك أن يتقدم شخص لخطبة امرأة ولا يردونه، وإنما يُمهلونه أو يَعدونه على أن يخبروه برأيهم... فإذا علم أحدٌ بأنه تَقدَّم للخطبة لا يجوز له أن يتقدم حتى يعرف أنه تَرَكَ أو أنه تُرِك... فإذا لم يكن كذلك فإنه لا يجوز؛ لأن فيه سعيًا للحيلولة بينه وبين ما أقدم عليه... فهم لم يرفضوه، فيكون فى ذلك إفساد لما بينهم وبين ذلك الرجل، فلا يجوز لأحدٍ عَلِمَ تَقدُّمه بالخطبة أن يخطب تلك المرأة... وأما إذا كان لا يعلم فليس هناك محذور؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما المحذور فيما إذا كان عن علم.

فهذا حرام؛ إلا إذا أذن الخاطب، بمعنى أنك ذهبت إلى الخاطب وقلت: يا فلان، سمعتُ أنك خطبت فلانة، وأنا لى بها حاجة أتأذن لى؟. إذا قال: نعم لا بأس، فالحق له.

۞ المسألة السادسة: «وَلاَ تَسْأَلُ المَرأَةُ طَلاَقَ أُخْتِهَا لِتَكْفَأَ مَا فِى إِنَائِهَا».

وهذا جاء فى المرأة عندما تُخطَب والخاطب عنده زوجة، فهى تطلب منه أن يطلقها لتستفرغ ما فى صحفتها...ومعناه أن هذه المخطوبة التى يريد أن يعقد عليها تشترط عليه أن يطلق المرأة السابقة التى قبلها لتستأثر به وتكفأ ما فى صحفتها... وكأن تلك المرأة عندها طعام فى صحفة فأفسدت عليها واستأثرت به وأضافته إلى صحفتها واختصت به.

ثم قال: «**ولتنكح**» يعنى أنها إذا خُطبت والرجل عنده زوجة سابقة فلا

تشترط طلاق تلك، ولها أن تنكح فتُقدم على الزواج إذا كان عندها رغبة فيه، ولكن لا تُقيد ذلك بطلاق المرأة الأخرى.... فالشيء الذى كتبه الله لها من الرزق لا بد من أن يأتيها، وأما كونها تسعى إلى التفريق بين رجل وامرأته وتشتغل بذلك فغير صحيح، بل إما أن تقبل وإما أن ترفض.

❁ المسألة السابعة: النهى عن التصرية:

ومنها قوله ﷺ: «وَلا تُصَرُّوا الإِبِلَ وَالْغَنَمَ».

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَعنَاهُ: لَا تَجْمَعُوا اللَّبَنَ فِى ضَرعِهَا عِنْدَ إِرَادَةِ بَيْعِهَا حَتَّى يَعظُمَ ضَرعُهَا، فَيَظُنَّ الْمُشْتَرِى أَنَّ كَثْرَةَ لَبَنِهَا عَادَةٌ لَهَا مُسْتَمِرَّةٌ.

ومنه قول العرب: صريت الْمَاءَ فِى الْحَوْضِ أَىْ جَمَعتُهُ، وَصَرَّى الْمَاءَ فِى ظَهْرِهِ أَىْ حَبَسَهُ فَلَمْ يَتَزَوَّجْ... قَالَ الْخَطَّابِىُّ: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ وَأَهْلُ اللُّغَةِ فِى تَفْسِيرِ الْمُصَرَّاةِ، وَفِى اشْتِقَاقِهَا، فَقَالَ الشَّافِعِىُّ: التَّصرِيَةُ أَنْ يَربِطَ أَخْلَافَ النَّاقَةِ أَوِ الشَّاةِ وَيَتْرُكَ حَلْبَهَا الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ حَتَّى يَجْمعَ لَبَنَهَا فَيَزِيدَ مُشْتَرِيهَا فِى ثَمَنِهَا بِسَبَبِ ذَلِكَ لِظَنِّهِ أَنَّهُ عَادَةٌ لَهَا(١).

ومن أجل ذلك قال النبى ﷺ: «مَنِ اشْتَرَى شَاةً مُصَرَّاةً فَلْيَنْقَلِبْ بِهَا، فَلْيَحلُبْهَا، فَإِنْ رَضِىَ حِلَابَهَا أَمْسَكَهَا، وَإِلَّا رَدَّهَا وَمَعَهَا صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ»(٢).

وفى رواية **«مَنِ ابْتَاعَ شَاةً مُصَرَّاةً فَهُوَ فِيهَا بِالْخِيَارِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، إِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا، وَإِنْ شَاءَ رَدَّهَا، وَرَدَّ مَعَهَا صَاعًا مِنْ تَمْرٍ».**

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاخْتَلَفَ أَصحَابُنَا فِى خِيَارِ مُشْتَرِى الْمُصَرَّاةِ هَلْ هُوَ عَلَى الْفَوْرِ بَعدَ الْعِلْمِ أَوْ يَمْتَدُّ ثَلَاثَةَ أَيَّام ... فَقِيلَ يَمْتَدُّ ثَلَاثَةَ أَيَّام لِظَاهِرِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ... وَالْأَصَحُّ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ عَلَى الْفَوْرِ وَيَحمِلُونَ التَّقْيِيدَ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى

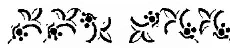
---

(١) مسلم بشرح النووى (١٠/ ٢٢٦-٢٢٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥٢٤) كتاب البيوع.

بَعضِ الْأَحَادِيثِ عَلَى مَا إِذَا لَمْ يَعلَمْ أَنَّهَا مُصَرَّاةٌ إِلَّا فِي ثَلَاثَةِ أَيَّام لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّهُ لَا يُعلَمُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا نَقَصَ لَبَنُهَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي عَنِ الْأَوَّلِ احتُمِلَ كَوْنُ النَّقْصِ لِعَارِضٍ مِنْ سُوءِ مَرعَاهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَإِذَا اسْتَمَرَّ كَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ عُلِمَ أَنَّهَا مُصَرَّاةٌ ثُمَّ إِذَا اخْتَارَ رَدَّ المصراة بَعدَ أَنْ حَلَبَهَا رَدَّهَا وَصَاعًا مِنْ تَمْرٍ سَوَاءٌ كَانَ اللَّبَنُ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا ... سَوَاءٌ كَانَتْ نَاقَةً أَوْ شَاةً أَوْ بَقَرَةً.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُلْزَمُ الْمُشْتَرِي رَدُّ عِوَضِ اللَّبَنِ مَعَ أَنَّ الخراج بالضمان وَأَنَّ مَنِ اشْتَرَى شَيْئًا مَعِيبًا ثُمَّ عَلِمَ الْعَيْبَ فَرَدَّ بِهِ لَا يَلْزَمُهُ رَدُّ الْغَلَّةِ وَالْأَكْسَابِ الْحَاصِلَةِ فِي يَدِهِ ... فَالْجَوَابُ أَنَّ اللَّبَنَ لَيْسَ مِنَ الْغَلَّةِ الْحَاصِلَةِ فِي يَدِ الْمُشْتَرِي بَلْ كَانَ مَوْجُودًا عِنْدَ الْبَائِعِ وَفِي حَالَةِ الْعَقْدِ وَوَقَعَ الْعَقْدُ عَلَيْهِ وَعَلَى الشَّاةِ جَمِيعًا فَهُمَا مَبِيعَانِ بِثَمَنٍ وَاحِدٍ وَتَعَذَّرَ رَدُّ اللَّبَنِ لاختلاطه بما حدث في ملك المشتري فوجب رد عِوضه والله أعلم[1].



(١) مسلم بشرح النووي (١٠/ ٢٣٥-٢٣٧) بتصرف كبير.

(٣٥٦) باب النهى عن إضاعة المال فى غير وجوهه التى أَذِنَ الشرع فيها

(١٧٩٠) عن أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ الله تَعَالَى يَرضى لكُمْ ثلاثًا، ويَكْرَه لكُمْ ثلاثًا: فيَرضى لكُمْ أنْ تَعبدوه ولا تُشركُوا بهِ شَيئًا، وأنْ تَعتَصِموا بحَبْلِ الله جميعًا ولا تَفرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لكُمْ: قِيلَ وقَالَ، وكَثْرَةَ السُّؤالِ، وإضَاعَةَ المالِ»(١).

۞ «إنَّ الله يَرضى لكُمْ» أيها المؤمنون «ثلاثًا» لأنها سبب فوزكم «ويَكْرَه لكُمْ ثلاثًا» وإن كانت بإرادته أيضًا، إذ لا يقع فى مُلكه شىء يخالف إرادته عَزَّ وَجَلَّ «فيَرضى لكُمْ أنْ تَعبدوه ولا تُشركُوا بهِ شَيئًا» أى من المعبودات أو من الإشراك «وأنْ تَعتَصِموا» أى تتمسكوا «بحَبْلِ الله جميعًا» أى بدينه أو بالجماعة أو بعهد الله أو بالقرآن «ولا تَفرَّقُوا» أى كونوا على الحق مجتمعين ولا تتفرقوا عنه: أى كما فعل أهل الكتاب فضلُّوا «وَيَكْرَهُ لكُمْ: قِيلَ وقَالَ» وهو الكلام فيما لا يعنى «وكَثْرَةَ السُّؤالِ» أى عما لا تحتاجون إليه على وجه التعنُّت «وإضَاعَةَ المالِ» وذلك لأن الله جعله بحكمته نظام أمر المعاش وقوام حاجة الإنسان، وبإضاعته يتعرض المرء لإضاعة نفسه وشغلها عن العبادة بالاشتغال بكسبه وكمال التوجُّه له عنها(٢).

فالمال أمرٌ مهم ... فلا يجوز للإنسان أن يُضيعه فى غير فائدة... وإضاعته فى غير فائدة أنواع متعددة، منها: الإسراف فى بذله، فإن الإسراف محرم حتى فى المأكل والمشرب والملابس والمراكب والمنازل... متى تجاوز الإنسان الحد

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧١٥) كتاب الأقضية.
(٢) دليل الفالحين (٤/ ٥٠١).

فإنه آثم ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فمجاوزة الحد إسراف...وهى محرمة وعُرضة لأن يكره الله تعالى فاعلها.

وإذا قلنا إن الإسراف مجاوزة الحد، تبين لنا أن إنفاق المال يختلف... فالغنى مثلًا قد يؤسس بيته أو يشترى سيارة أو يلبس الثياب التى لا تُعَدُّ فى حقه إسرافًا لأنه لم يتجاوز بها حد الغِنى... لكن لو أن فقيرًا فعل مثل فعله، قلنا: إن هذا إسراف وإنه حرام. ولهذا يغلط كثير من الناس من الفقراء ومتوسطى الحال أن يُلحقوا أنفسهم بحال الأغنياء...هذا غلط وخطأ؛ لأن هذا فيه مشقة عليهم.

ومن الإسراف: تَعدُّد الملابس بدون حاجة... كثير من النساء الآن كلما ظهر شكل من أشكال اللباس ذهبت تشتريه حتى تملأ بيتها من الثياب بدون حاجة.

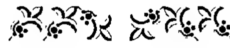
ومما لا يجوز بذل المال فيه: أن يبذله فى محرم، كهؤلاء الذين يشترون الدخان بالمال، فإن هذا حرام عليه، وهو مما نهى الله عنه ؛ لأنه إضاعة للمال واضحة... يبذل الإنسان ماله فى شىء يحرقه؛ لأن الدخان لا يُشرَب إلا إذا أُحرق، فكأنما الرجل أحرق الدراهم وأتلفها فى أمرٍ يضره.

كذلك كثرة السؤال... وكثرة السؤال يحتمل أن يُراد به سؤال الخلق ؛ يعنى لا تسأل الناس ولا تُكثر من السؤال... والسؤال إن كان سؤال مال فإنه حرام بل لا يزال الإنسان يسأل ويسأل حتى يأتى يوم القيامة وما فى وجهه مُزعة لحم والعياذ بالله.

ويحتمل أن يُراد به كثرة السؤال عن أحوال الناس بدون حاجة وبدون فائدة... ماذا تقول فى فلان، هل هو غنى، فقير، متعلم أم جاهل، وما أشبه ذلك.

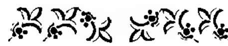
ويحتمل أن يُراد به كثرة السؤال عن العلم الذى لا يحتاج إليه الإنسان ولا سيما فى عهد النبوة... لأنه يُخشى أن يسأل الإنسان عن شىء لم يُحرَّم فيُحرَّم من أجل مسألته أو عن شىء لم يجب، فيُوجَب من أجل مسألته، ولكن الأخير

هذا يُقيد بما إذا لم يحتج الإنسان إلى السؤال، فإن كان يحتاج إلى ذلك، كطالب العلم الذى يسأل ويستفهم، فإنه لا بأس أن يسأل ويستفهم ويزيل اللبس عن نفسه[1].



(١٧٩١) وعن ورَّادٍ كاتبِ المُغِيرَةِ بن شُعبَة قالَ: أَمْلَى عليَّ المغِيرَةُ بنُ شُعبةَ فى كتابٍ إلى مُعاويَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كانَ يقُول فى دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ مكتوبَةٍ: «لا إلهَ إلا الله وحدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، لهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْد وهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أعطَيْتَ، ولا مُعطِيَ لِمَا مَنعتَ، ولا ينْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» وكتَبَ إليْهِ أَنَّهُ «كانَ يَنْهَى عنْ قِيل وقالَ، وإضَاعَةِ المالِ، وكَثْرَةِ السُّؤالِ، وكانَ يَنْهَى عنْ عُقُوقِ الأمهَّاتِ، ووأدِ البَنَاتِ، ومَنْعٍ وهَاتِ»[2].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٢٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين)/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٢٩٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - ومسلم (٥٩٣) كتاب المساجد.

(٣٥٧) باب النهى عن الإشارة إلى مسلم بسلاحٍ ونحوه سواء كان جادًّا أو مازحًا والنهى عن تَعاطى السيف مسلولاً

(١٧٩٢) عن أبى هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنْ رسُولِ الله ﷺ قال: «لا يُشِر أحَدُكُمْ إلى أخِيهِ بالسِّلاحِ، فإنَّهُ لا يَدرى لعَلَّ الشَّيْطانَ يَنْزِعُ فى يَدِه، فيَقَعُ فى حُفْرَةٍ مِن النَّارِ»[(١)].

وفى روايةٍ لِمُسْلِمٍ قالَ: قالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: «مَنْ أشارَ إلى أخيهِ بحَدِيدَةٍ، فإنَّ الملائكةَ تَلْعَنُهُ حتَّى يَنْزِعَ، وإنْ كان أخَاهُ لأَبِيهِ وأُمِّهِ».

(١٧٩٣) وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: نَهى رسُولُ الله ﷺ أنْ يُتَعَاطَى السَّيْفُ مَسْلُولاً[(٢)].

۞ فِيهِ تَأْكِيدُ حُرمَةِ الْمُسْلِمِ وَالنَّهْىُ الشَّدِيدُ عَنْ تَروِيعِهِ وَتَخْوِيفِهِ وَالتَّعَرُّضِ لَهُ بِمَا قَد يُؤْذِيهِ...وَقَوْلُهُ ﷺ: «**وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ**» مُبَالَغَةٌ فِى إِيضَاحِ عُمُوم النَّهْيِ فِى كُلِّ أَحَدٍ سَوَاءٌ مَنْ يُتَّهَمُ فِيهِ وَمَنْ لَا يُتَّهَمُ... وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا هَزْلًا وَلَعِبًا أَمْ لَا. لِأَنَّ تَروِيعَ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ بِكُلِّ حَالٍ وَلِأَنَّهُ قَد يَسْبِقُهُ السِّلَاحُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِى الرِّوَايَةِ الْأُخرَى ... وَلَعنُ الْمَلَائِكَةِ لَهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَرَامٌ[(٣)].

۞ فيجب على المسلم أن يحرص على أرواح الناس من حوله ... فلا يشير إلى أحدٍ بسلاحٍ أو بسكينٍ أو نحوه ... فلربما ينزع الشيطان فى يده فيصيب مَن أمامه أو يقتله دون أن يقصد ذلك فيقع فى حفرة من النار.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٧٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٦١٧) كتاب البر والصلة.
قوله ﷺ: «يَنْزِع» ضُبِطَ بالعين المهملة مع كسر الزاى، وبالغين المعجمة مع فتحها، ومعناهما مُتَقَارِبٌ، وَمَعنَاهُ بالمهملةِ يَرمِى، وبالمعجمةِ أيضًا يَرمِى وَيُفْسِدُ. وَأصلُ النَّزْعِ: الطَّعنُ وَالفَسَادُ.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨١٩).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٥٧).

ويدخل تحت هذا المعنى مَن يكون عنده كلب حراسة فيُطلقه على ضيفه من باب المزاح فلربما يصيبه الكلب أو يقتله.

ويدخل تحته أيضًا مَن يسير بسيارته مُسرعًا نحو أحد أصدقائه ليمزح معه .. فلربما تعطلت الفرامل فأصاب صديقه أو قتله أو أصابه بالفزع على أقل تقدير.

۞ **وأما المسألة الثانية**: فقد نهى رسولُ اللهِ ﷺ **أَنْ يُتَعَاطَى السَّيْفُ مَسْلُولًا**.

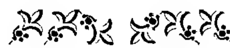
وهنا ينهى النبى ﷺ أن تعطى أحدًا سيفًا أو سكينًا أو نحو ذلك وهو مُوجَّهٌ لصاحبك بل تجعل المقبض نحو صاحبك والسكين من ناحيتك لئلا تصيبه أو تجرحه أو تقتله دون أن تقصد.

۞ وإذا كان هذا فى العموم فإن الحُرمة تزداد إذا دخل المسلم المسجد بالسلاح مسلولًا.

فمن المعلوم أنه لا يجوز أن يدخل الرجل المسجد ومعه سيف أو خنجر أو سكين إلا وقد جعله فى غِمده لئلا يصيب مسلمًا.

وكذلك لا يجوز أن يدخل أحد ومعه مسدس أو رشاش إلا وقد جعله فى وضع الأمان حتى لا تخرج رصاصة منه فلربما تقتل مسلمًا.

۞ **عن أبى مُوسى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: « مَنْ مَرَّ فِى شَىْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا أَوْ أَسْوَاقِنَا بِنَبْلٍ، فَلْيَأْخُذْ عَلَى نِصَالِهَا، لا يَعقِر بِكَفِّهِ مُسْلِمًا »**[1].



(١) صحيح: رواه البخارى (٤٥٢) كتاب الصلاة.

(٣٥٨) باب كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان إلا بعذرٍ حتى يصلى المكتوبة

(١٧٩٤) عَنْ أَبِى الشَّعْثَاءِ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا مَعَ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فِى الْمَسْجِدِ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ يَمْشِى فَأَتْبَعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ بَصَرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «أَمَّا هَذَا، فَقَد عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ»[(١)].

۞ فمن الناس مَن يخرج من المسجد بعد سماع الأذان وقبل أن يصلى الفريضة... وهذا خطأ.

۞ أما إذا كانت هناك ضرورة تُحتم عليه الخروج من المسجد بعد الأذان فلا بأس بذلك.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خَرَجَ وَقَد أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، وَعُدِّلَتِ الصُّفُوفُ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِى مُصَلاَّهُ، انْتَظَرنَا أَنْ يُكَبِّرَ... انْصَرَفَ، قَالَ: «عَلَى مَكَانِكُمْ» فَمَكَثْنَا عَلَى هَيْئَتِنَا، حَتَّى خَرَجَ إِلَيْنَا يَنْطِفُ رَأْسُهُ مَاءً، وَقَدِ اغْتَسَلَ»[(٢)].

۞ واستدل العلماء بهذا الحديث على أنه يَحرُم الخروج من المسجد بعد الأذان لمن تَلزمه الصلاة إلا لعذرٍ أو لحاجة ولأمرٍ يقتضيه... كمن يريد أن يتوضأ، أو كان حاقنًا[(٣)] أو حاقبًا[(٤)] يحتاج إلى الخلاء، أو يكون إمام مسجد فأذن المؤذن وهو فى مسجد من المساجد والناس ينتظرونه فى مسجده ليصلى بهم، فإذا كان هناك أمر يقتضى خروجه فلا بأس، وأما إذا كان لغير حاجة فإنه لا يجوز.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٥٥) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٩) كتاب الأذان، ومسلم (٦٠٥) كتاب المساجد.

(٣) حاقنًا: يحتاج إلى البول.

(٤) حاقبًا: يحتاج إلى الغائط.

وقد سبق أن مَرَّ بنا فى الحديث أن الشيطان يفر عندما يسمع الأذان، فالإنسان عندما يخرج من المسجد وهو غير مضطر لذلك يكون فيه مشابهة للشيطان فى كونه يخرج بعد الأذان... حيث يخرج والناس يُدعون إلى أن يأتوا إلى المساجد، فإذا لم يكن خروجه لضرورة فإن ذلك معصية.

(٣٥٩) باب كراهة ردِّ الريحان لغير عذر

(١٧٩٥) عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيحَانٌ، فلا يَرُدَّهُ، فإنَّهُ خَفيفُ المَحمَلِ، طَيِّبُ الرِّيحِ»[(١)].

(١٧٩٦) وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ لا يَرُدُّ الطِّيبَ[(٢)].

۞ من المعلوم أن الريحان نوعٌ من الطِّيب (العطر).. وهو كما وصفه النبى ﷺ خفيف المَحمل طيب الريح

يعنى: أنه لا ينبغى رَدّه، ولكن هذا كما هو معلوم فيه تفصيل: فإذا كان هذا الطِّيب هدية لشخصٍ موظف أو لشخصٍ مسئول فإنه يجب عليه أن يرده؛ لأنْ هدايا العمال غُلول... وأما إذا لم يكن شيئًا من هذا القبيل، وإنما هو شىء لا مجال فيه لأمرٍ محذور فلا ينبغى للإنسان أن يرده؛ لأن الطِّيب فى ذاته خفيف المَحمل وريحه طيبة تنشرح لها النفوس وترتاح.

ولذلك أمرنا النبى ﷺ ألا نرده.. وبخاصة أن الإنسان إذا ردَّ مثل هذه الهدية البسيطة الجميلة فقد يجعل صاحب الهدية يحمل عليه فى صدره شيئًا ويظن أنه يأنف أن يقبل هديته .. فالأفضل أن يقبلها وبخاصة إذا علم أن النبى ﷺ كان لا يرد الطِّيب (العطر).. أما إذا كان مريضًا بمرضٍ مثل الحساسية فى الجهاز التنفسى ولا يستطيع أن يشم رائحة العطور فعليه أن يُخبر صاحب الهدية بذلك حتى يعذره... أو أن يقبل الهدية ثم يهديها لأحد أحبابه حتى لا يُوغر صدر صاحبه .. وفى نفس الوقت ينتفع بها غيره ما دام لا يستطيع أن يستعمل العطر.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٥٣) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٥٨٢) كتاب الهبة، (٥٩٢٩) كتاب اللباس.

(٣٦٠) باب كراهة المدح فى الوجه لمن خِيف عليه مفسدة من إعجابٍ ونحوه وجوازه لمن أُمِن ذلك فى حقه

(١٧٩٧) عنْ أبى مُوسى الأشْعَرِىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعَ النَّبِىُّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِى علَى رَجُلٍ ويُطْرِيهِ فى المِدحَةِ، فقالَ: «أهْلَكْتُمْ، أو قَطَعتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ» (١).

(١٧٩٨) وعنْ أبى بَكْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رجُلًا ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِىِّ ﷺ، فأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُلٌ خَيْرًا، فقالَ النَّبِىُّ ﷺ: «ويْحَكَ قَطَعت عُنُقَ صَاحِبِكَ ـ يقُولُهُ مِرارًا ـ إنْ كانَ أحدُكُمْ مَادِحًا لا مَحالةَ، فَلْيَقُل: أحسِبُ كَذَا وكَذَا إنْ كان يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وحَسِيبُهُ الله، ولا يُزَكِّى على الله أحدًا» (٢).

(١٧٩٩) وعن هَمَّام بن الحارث، عن المِقْدَادِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَعَمِدَ المِقْدَادُ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَجَعَلَ يَحثو فى وَجْهِهِ الحَصباءَ. فقالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فقال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إذَا رَأَيْتُمُ المَدَّاحِينَ، فَاحثُوا فِى وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ» (٣).

فهذِهِ الأحاديث فى النَهى، وجاء فى الإباحة أحاديث كثيرة صحيحة.

قال العلماءُ: وطريق الجَمْعِ بين الأحاديث أَنْ يُقَالَ: إنْ كان المَمْدُوحُ عِنْدَهُ كَمَالُ إيمانٍ وَيَقينٍ، وَرِيَاضَةُ نَفْسٍ، وَمَعرِفَةٌ تَامَّةٌ بِحَيْثُ لاَ يَفْتَتِنُ، وَلاَ يَغْتَرُّ بِـذَلِكَ،

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٠) كتاب الأدب - ومسلم (٣٠٠١) كتاب الزهد والرقائق.
«والإطْرَاءُ»: المُبالَغَةُ فى المَدحِ.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦١) كتاب الأدب - ومسلم (٣٠٠٠) كتاب الزهد والرقائق.
حسيبه: عليم بحاله.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٣٠٠٢) كتاب الزهد والرقائق.
الحصباء: صغار الحصى.

وَلاَ تَلْعَبُ بِهِ نَفْسُهُ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ وَلاَ مَكْرُوهٍ، وإنْ خِيفَ عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ هَذِهِ الأمورِ، كُرِهَ مَدحُهُ في وَجْهِهِ كَرَاهَةً شَديدَةً ... وَعَلَى هَذا التَفصِيلِ تُنَزَّلُ الأحاديثُ المُخْتَلِفَةُ فِي ذَلكَ.

وَمِمَّا جَاءَ فِي الإبَاحَةِ قَولُهُ ﷺ لأبي بكْرٍ رضي الله عنه: «أرجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» أيْ مِنَ الَّذِينَ يُدعَونَ مِنْ جَمِيعِ أبْوابِ الجَنَّةِ لِدُخُولِهَا[1].

وَفِي الحَدِيثِ الآخر: «لَسْتَ مِنْهُمْ»: أيْ لَسْتَ مِنَ الَّذِينَ يُسْبِلُونَ أُزُرَهُم خُيَلاءَ[2].

وَقالَ ﷺ لعُمَرَ رضي الله عنه: «مَا رَآكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»[3].

وقد يسأل سائل ويقول: هل يجوز أن أمدح إنسانًا بما فيه أم لا؟

والجواب: أن هذا له أحوال:

الحال الأولى: أن يكون في مدحه خير وتشجيع له على الأوصاف الحميدة والأخلاق الفاضلة فهذا لا بأس به لأنه تشجيع لصاحبه ... فإذا رأيت من رجل الكرم والشجاعة وبذل النفس والإحسان إلى الغير فذكرته بما هو فيه أمامه من

---

(١) فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللهِ، دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ، وَبَابِ الرَّيَّانِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا عَلَى هَذَا الَّذِي يُدعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، وَقَالَ: هَلْ يُدعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَأَرجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ».

متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٦٦) كتاب المناقب، ومسلم (١٠٢٧) كتاب الزكاة.

(٢) فَعَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ ذَكَرَ فِي الإِزَارِ مَا ذَكَرَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ إِزَارِي يَسْقُطُ مِنْ أَحَدِ شِقَّيْهِ؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَسْتَ مِنْهُمْ».

صحيح: رواه البخاري (٦٠٦٢) كتاب الأدب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٨٣) كتاب المناقب - ومسلم (٢٣٩٧) كتاب فضائل الصحابة.



أجل أن تشجعه وتثبته حتى يستمر على ما هو عليه فهذا حسن وهو داخل فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٢] .

والثانى: أن تمدحه لتُبين فضله بين الناس وينتشر ويحترمه الناس كما فعل النبىﷺ مع أبى بكر وعمر رضي الله عنهما .

الثالث: أن يمدح غيره ويغلو فى إطرائه ويصفه بما لا يستحق فهذا محرم وهو كذب وخداع ... مثل أن يذكر رجلًا أميرًا أو وزيرًا أو ما أشبه ذلك ويُطريه ويصفه بما ليس فيه من الصفات الحميدة فهذا حرام عليك وهو أيضًا ضررٌ على الممدوح.

الرابع: أن يمدحه بما هو فيه لكن يُخشَى أن الإنسان الممدوح يغتر بنفسه ويزهو بنفسه ويترفع على غيره فهذا أيضًا محرم لا يجوز(١) .

۞ وذكر المؤلف أحاديث فى ذلك أن رجلًا ذكر عند النبىﷺ آخر فأثنى عليه فقال: «**ويحك قطعت عُنق صاحبك**» يعنى: أنك أهلكته؛ لأن قطع العنق يكون به الهلاك، فكذلك الإنسان إذا مُدح مدحًا قد يُلحق به ضررًا فإنه قد يصيبه الهلاك بذلك... أى: الهلاك المعنوى، فكما أن الهلاك الحِسِّى يكون بقطع الرأس، فكذلك الهلاك المعنوى يكون بالمدح الذى يؤدى به إلى الغرور ونحوه.

۞ قوله: « **إنْ كانَ أحدُكُمْ مَادِحًا لا مَحالةَ، فَلْيَقُلْ: أحسِبُ كَذَا وكَذَا إنْ كان يَرَى أنَّهُ كَذَلِكَ، وحَسِيبُهُ الله، ولا يُزَكِّى على الله أحدًا** ».

يعنى: إذا أراد الإنسان أن يمدح أخاه وكان لا بد من المدح فليقل: (أحسبه كما يريد أن يقول) يعنى: يذكر الشىء الذى يريد أن يصفه به، أو يذكر الصفات التى هى فيه.

قوله: «ولا أُزكيه على الله» يعنى: هكذا يَظهر لى، والناس لهم الظاهر وقد

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٧٩).

تكون البواطن بخلاف ذلك، فلا يُزكى على الله أحدًا؛ لأنه سواء كان بالنسبة لواقعه أثناء الكلام فيه، أو بالنسبة للنهاية والمآل، فكل ذلك لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الذى يعلم أن المدح يكون فى محله أو فى غير محله، فهذا فى النهايات و (الأعمال بالخواتيم) كما قال ذلك رسول الله ﷺ.

۞ وفى الحديث الأخير يحكى المقداد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رجلًا جعل يمدح عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ... فما كان من المقداد إلا أن جعل يحثو فى وجه ذلك الرجل المادح الحصباء – وهى صغار الحصى – فتعجب عثمان وقال له: ما شأنك؟ فقال له: إن النبى ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحثُوا فِى وُجُوهِهِم التُّرَابَ**» وقد حمله المقداد على ظاهره ووافقه طائفة وكانوا يُحثون التراب فى وجه المداحين حقيقة.. وقال آخرون: ليس المقصود من ذلك أن يحثوه على وجهه بحيث يدخل الحصى أو التراب فى عينيه وإنما يحثو فى اتجاهه قريبًا من وجهه حتى ينتهى عن المدح.

وقال آخرون: معناه: خيِّبوهم فلا تُعطوهم شيئًا لمدحهم.. والله أعلم.

۞ والمدَّاح هنا غير المادح.. فالمادح قد يمدح أحيانًا من أجل تشجيع الرجل الفاضل على أن يستمر فى فعل الخير من أجل أن يتابعه الناس ويفعلوا مثله... ولهذا لما دعا الرسول ﷺ إلى الصدقة جاء رجل بصُرَّة كبيرة، فقال ﷺ: «**مَن سَنَّ فى الإسلام سُنة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها**»، وهذا مدحٌ لهذا الشخص الذى سبق إلى الخير، واقتدى به الناس وتابعوه... فإذا كان المدح لا يَحصُل من ورائه مضرة، وإنما المقصود منه الفائدة والمصلحة، وأن يُقتدى به ويُؤتسى به، ويُذكر ويُثنى عليه، ويُمدح بما هو فيه من أجل أن يُتابع، فإن هذا أمر مطلوب ولا بأس به، وفى ذلك تحفيز للهمم إلى أن يكون المُخاطَبون مثل ذلك الذى مُدح وأُثنى عليه... وأما إذا كان لأمورٍ دنيوية، أو لطلب حظوظٍ دُنيوية، أو كان بغير حق، فإن هذا غير محمود بل هو مذموم.

(٣٦١) باب كراهة الخروج من بلدٍ وقع فيها البلاء فرارًا منه وكراهة القدوم عليه

۞ قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

(١٨٠٠) وعنْ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ إلى الشَّام حتَّى إذا كانَ بِسَرغٍ لَقِيَهُ أُمراءُ الأجْنادِ ـ أبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجرَّاحِ وأصحابُهُ ـ فأخْبَرُوهُ أنَّ الوبَاءَ قَد وقَعَ بالشَّامِ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ: فقالَ لي عُمَرُ: ادعُ لي المُهاجِرين الأوَّلِين فدَعَوْتُهم، فاسْتَشَارهم، وأخْبَرَهُم أنَّ الوَبَاءَ قَد وقَعَ بالشَّامِ، فاخْتَلفوا، فقالَ بعضُهُمْ: خَرَجْتَ لأمْرٍ، ولا نَرَى أنْ تَرجِعَ عنْهُ. وقالَ بَعضُهُم: مَعَكَ بَقِيَّة النَّاسِ وأصحَابُ رسُولِ الله ﷺ، ولا نَرَى أنْ تُقْدِمَهُم علَى هذا الوَباءِ، فقالَ: ارتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قالَ: ادعُ لي الأنْصَارَ، فدعَوْتُهُم، فاسْتَشَارَهم، فسَلَكُوا سَبِيلَ المهاجِرين، واختَلفوا كاخْتلافهم، فقال: ارتَفِعُوا عَنِي، ثُمَّ قالَ: ادعُ لي مَنْ كانَ هَا هُنا مِن مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرةِ الفَتْحِ، فدَعَوْتُهُم، فلَمْ يَخْتَلِفْ عليه مِنْهُم رَجُلانِ، فقالُوا: نَرَى أنْ تَرجِعَ بالنَّاسِ ولا تُقْدِمَهُم علَى هذا الوَبَاءِ، فنادَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في النَّاسِ: إنِّي مُصبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ، فأصبِحوا عليه، فقال أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أفِرارًا مِن قَدَرِ الله؟ فقالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يا أبَا عُبَيْدَةَ ـ وكان عُمَرُ يَكْرَهُ خِلافَهُ ـ نَعَمْ نَفِرُّ مِن قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله، أرأيْتَ لَوْ كانَ لَكَ إبِلٌ، فهَبَطَتْ وادِيًا لهُ عُدوَتَان، إحدَاهُما خَصبةٌ، والأخْرَى جَدبَةٌ، أَلَيْس إنْ رَعَيْتَ الخَصبَةَ رعَيْتَها بقَدرِ الله، وإنْ رَعَيْتَ الجَدبَةَ رعَيْتَها بقَدَر الله، قال: فجاء عبدُ الرَّحمَنِ بنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانَ مُتَغَيِّبًا في بَعضِ حَاجَتِهِ، فقَالَ: إنَّ عِنْدِي مِن هذا عِلْمًا، سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يَقُول: «إذا سَمِعتُم بِهِ بأرضٍ، فلا تَقْدمُوا عليه، وإذَا وقَعَ بأرضٍ وأنْتُم بِهَا، فلا تَخْرُجُوا فِرارًا

منه» فحَمِدَ الله تَعَالى عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وانْصَرفَ[(١)].

(١٨٠١) وعن أُسامةَ بنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إذَا سَمِعتُم بالطَّاعُونِ فِي أرضٍ، فلا تَدخُلُوها، وإذَا وقَعَ بأرضٍ وأنْتُم فيها، فلا تَخْرُجُوا مِنْها»[(٢)].

۞ هذا الباب بابٌ عظيم عقده المؤلف رحمه الله تعالى فى كتابه رياض الصالحين وهو كراهة أن يَقدُم الإنسان على أرضٍ نزل فيها البلاء، وأن يخرج منها بعد نزول البلاء فرارًا منه... يعنى إذا سمعت بوباءٍ نازلٍ فى أرض فلا تَقدُم عليها وإذا وقع وأنت فيها فلا تخرج منها فرارًا منه ... ثم استدل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بقول الله: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ إشارة إلى قوله: لا تخرجوا منها...والله يقول: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا ﴾ فى أى مكان وفى أى زمان ﴿يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ يعنى مُحصنة مطوية مُحكَمة مُتقَنة فإن الموت سوف يأتيكم... وفى آية أخرى أعظم من هذا وأبلغ ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨]، تفر منه وهو لا يلحقك بل يلاقيك ويقابلك، فلا فرار من الموت فكيف تخرج من أرض نزل فيها الوباء فرارًا من الموت... إنك لو فعلت فليس لك فرار من قدر الله عَزَّ وَجَلَّ.... واقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾[البقرة:٢٤٣]، هؤلاء أُلوفٌ كثيرة مُؤلفة نزل الوباء بأرض فخرجوا خوفًا من الموت، فأراهم الله عَزَّ وَجَلَّ الآية وأنه بكل شيء محيط وأنه مدرك ما أراد لا محالة فقال الله لهم ﴿مُوتُوا ﴾ قال ذلك قولًا كونيًا قدريًا، فماتوا؛ لأن الله إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون...ماتوا وهم أُلوف ثم أحياهم الله... والله على كل شيء قدير، لكن أراهم الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا فرار من قدر الله عَزَّ وَجَلَّ ...

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٢٩) كتاب الطب - ومسلم (٢٢١٩) كتاب السلام.
والعُدوَةُ: جانِبُ الوادِي.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٢٨) كتاب الطب - ومسلم (٢٢١٨) كتاب السلام.

ثم استدل المؤلف على كون الإنسان لا يَقدُم على أرض فيها الوباء بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أى: لا تفعلوا الشيء الذى يكون فيه هلاككم... ثم استدل أيضًا بالأحاديث الواردة عن النبى ﷺ وذكر قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين خرج من المدينة إلى الشام فذُكر له الطاعون، وفيه أن النبى ﷺ قال: «**إذا سمعتم به فى أرض فلا تَقدُموا عليها**» فنهى النبى ﷺ عن القدوم إلى أرضٍ فيها الطاعون... والطاعون وباء فتّاك والعياذ بالله... قال بعض أهل العلم: إنه نوعٌ خاص من الوباء وإنه عبارة عن جروح وتقرُّحات فى البدن تصيب الإنسان وتجرى جريان السيل حتى تقضى عليه، وقيل: إن الطاعون وخزٌ فى البطن يصيب الإنسان فيموت... وقيل: إن الطاعون اسمٌ لكل وباء عام ينتشر بسرعة، كالكوليرا وغيرها. وهذا أقرب، فإن هذا إن لم يكن داخلًا فى اللفظ فهو داخل فى المعنى... كل وباء عام ينتشر بسرعة فإنه لا يجوز للإنسان أن يَقدُم على البلد التى حَلَّ فيها هذا الوباء... وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا منها؛ لأنكم تخرجون منها فرارًا من قدر الله... لو فررتم فإنكم مُدرَكون لا محالة، ولهذا قال: لا تخرجون منها فرارًا منه.

أما خروج الإنسان منها لا فرارًا منه ولكن لأنه أتى إلى هذا البلد لحاجة ثم انقضت حاجته وأراد أن يرجع إلى بلده فلا بأس.

وفى الكلام على هذا الحديث الذى رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان مع عمر حين خرج إلى الشام وذلك - والله أعلم - لفتح بيت المقدس، فلما كان فى أثناء الطريق أتاه أمراء الأجناد يخبرونه أنه وقع فى الشام طاعون... والطاعون والعياذ بالله وباء فتَّاك سريع الانتشار، فتوقف عمر وأمر عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أن يدعو له المهاجرين، فدعاهم وشاورهم، فاختلفوا، فمنهم مَن قال: لا ترجع عما أتيت إليه، ومنهم مَن قال: ارجع، ثم قال: ارتفعوا عنى، ثم أمر عبد الله بن عباس أن يجمع الأنصار، فجمعهم واختلفوا كاختلاف المهاجرين، ثم قال:

ارتفعوا عنى، ثم أمره أن يدعو مشيخة مهاجرة الفتح (يعنى كبار المهاجرين)، فدعاهم فلم يختلف عليه اثنان وقالوا: ارجع. فنادى فى الناس: إنى مُصبح على ظهر - يعنى راجع - فقال أبو عبيدة بن الجراح الذى سمَّاه النبى ﷺ أمين هذه الأمة... قال: يا أمير المؤمنين، أفرارًا من قدر الله؟. يعنى ترجع بالناس تفر من قدر الله... قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، وكان يكره مخالفته، يعنى: لو أن غيرك قد قالها لكان أهون، أما أنت فكيف تقول هذا... ثم ضرب له مثلًا مُقنعًا، قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت بها واديًا له عدوتان يعنى شعبتين إحداهما مُخصبة والثانية مُجدبة، فإن رعيتها فى المخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيتها فى المجدبة رعيتها بقدر الله...ومعلوم أنك سوف تختار المخصبة على المجدبة... وبينما هم كذلك إذ جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان قد تغيب فى حاجة له، فقال: إن عندى من ذلك علمًا، يعنى عن النبى ﷺ ثم تلا عليهم الحديث «**إذا سمعتم به فى أرض فلا تَقدُموا عليه، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارًا منه**». فوافق هذا حكم النبى ﷺ فحمد اللهَ عمرُ على موافقته الصواب[1].

۞ **وأما قوله ﷺ: «إذَا سَمِعتُم بالطَّاعُونَ فى أرضٍ، فلا تَدخُلُوها، وإذَا وقَعَ بأرضٍ وأنْتُم فيها، فلا تَخْرُجُوا مِنْها»**.

فهذا ما يُسمَّى فى العلم الحديث بالحَجْر الصحى... وكان أول مَن دعا إليه هو النبى محمد ﷺ... وتأمل معى هذا الحوار المدهش الذى دار بين المتحدث باسم هيئة الإعجاز العلمى وبين كبير أطباء المستشفى الرسمى بكوبنهاجن (الدكتور لارسون):

قال متحدث الهيئة للدكتور لارسون: إذا كنت حاكمًا على مدينة وأُصيبت تلك المدينة بمرضٍ وبائى خطير، أو ما يُسمى بالطاعون، فماذا تفعل يا دكتور؟

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٨١-٢٨٢).

۞ **قال الدكتور**: سآتى بالجنود وأضرب حصارًا على المدينة لمنع الدخول إليها والخروج منها.

۞ **قال متحدث الهيئة**: أما أن تمنع الدخول فقد علمناه، ولكن لماذا تمنع الخروج؟

۞ **قال الدكتور**: لأن الدراسات فى الفترة الأخيرة من العلم، كشفت لنا أنه عندما يكون الطاعون منتشرًا فى مدينة من المدن أو بمنطقة من المناطق، فإن عدد الذين يظهر عليهم أعراض المرض تتراوح نسبتهم بين (١٠-٣٠٪).

۞ **قال متحدث الهيئة**: والباقون من سكان المدينة، ما بالهم؟

۞ **قال الدكتور**: هؤلاء الباقون يحملون الجرثومة فى أجسادهم، لكن جهاز المناعة عندهم يتغلب على الجراثيم فتبقى فى الجسم بأجسام مُضَادة.

فإذا بقى هذا الصحيح فى البلدة التى فيها الطاعون فلا خوف عليه؛ لأنه مُلقَّح، ولأن عنده مقاومة من جهاز المناعة تدفع عنه المرض... أما لو خرج من هذه المدينة أو البلدة فإنه يخرج حاملًا لهذه الجرثومة فينقل ذلك المرض إلى مدينة جديدة وقد ينشأ عن ذلك هلاك الملايين من البشر بسبب خروج هذا المصاب بالجرثومة من بين أهل المدينة المصابين بالطاعون[1].

۞ وهذا الحديث محمول على اجتناب الأسباب التى قد تكون سببًا للمرض، والإنسان مأمورٌ ابتداءً باجتناب الأسباب التى قد تضره، وذلك لأنها قد تكون سببًا لانتقال العدوى، لكن قد تنتقل وقد لا تنتقل... فالسبب وحده لا يكون مؤثرًا فى ذاته، بل يكون ذلك بتقدير الله عز وجل.. فإن الأسباب وحدها لا تنفع ولا تضر إلا بأمر مُسبب الأسباب.. ولذا قال النبى ﷺ: «**لا عَدوَى**» أى: لا عدوى من تلقاء نفسها إلا بتقدير الله ولكننا قد أُمرنا أن نأخذ بالأسباب.

---

(١) مقال بمجلة الإعجاز، العدد الرابع.

(٣٦٢) باب التغليظ فى تحريم السحر

❁ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

❁ السحر هو عبارة عن عُقَد وقراءات ونفثات يتوصل بها الساحر إلى الإضرار بالمسحور ... فمنه ما يقتل ومنه ما يُمرض ومنه ما يُذهب العقل ومنه ما يوجب العقد يعنى: تعلُّق الإنسان بغيره تعلُّقًا شديدًا ومنه ما يوجب الصرف يعنى: انصرافه عن غيره انصرافًا كاملًا ...فهو أنواع والعياذ بالله لكن كله مُحرَّم ...وقد تبرأ النبى ﷺ ممن سحر وسُحر له ...ومنه ما يوصل إلى الكفر ... فإذا كان الساحر يتوصل إلى سحره بالأرواح الشيطانية يتقرب إليها ويتعبد لها حتى تطيعه فهذا كفر لا شك فيه ... وأما إذا لم يكن كذلك فإنه أذية ومحرم ومن كبائر الذنوب.

لأن السحر والعياذ بالله من أعظم الفساد فى الأرض ومن أعظم الشرور لأنه يأتى الإنسان من غير أن يحترز منه...ولكن هناك شىء يحميك منه بإذن الله عَزَّوَجَلَّ وهو قراءة الأوراد الشرعية مثل آية الكرسى وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وما أشبه ذلك مما جاء فى الآيات والأحاديث عن النبى ﷺ فإن هذا أكبر واقٍ يقى الإنسان من السحر[1].

❁ ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أى أن: هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتختلق من السحر على مُلك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يستعمله، وبه حصل له المُلك العظيم.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٨٤) بتصرف.

وهم كذبةٌ في ذلك؛ فلم يستعمله سليمان، بل نزَّهه الصادق في قيله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾أي: بتعلُّم السحر، فلم يتعلمه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ في ذلك.

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أُنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق ... أُنزل عليهما السحر امتحانًا وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ ينصحاه و﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهيانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته.

فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان (عليه السلام)، وتعليم الملكين امتحانًا مع نُصحهما لئلَّا يكون لهم حجة.

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكُلٌّ يصبو إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفاسد السحر، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[1].

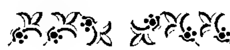
أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سببًا في التفريق بين الزوجين، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحدًا إلا إذا شاء الله ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي والحال أنهم بتعلُّم

---

(١) تفسير السعدي (ص٥٤).

السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أى ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾ أى ولبئس هذا الشيء الذى باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أى ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾ أى لأثابهم الله ثوابًا أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، الذى لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار(١).

وفى هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت فى قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة فى التأثير، ولم يخالف فى هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدرية فى أفعال العباد ... زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ وإجماع الصحابة والتابعين(٢).



(١٨٠٢) وعن أبى هُرَيرةَ رضي الله عنه عنِ النَّبىِّ ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قالوا: يا رسُولَ الله، وما هُنَّ؟ قالَ: «الشِّركُ بالله، والسِّحرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ التى حرَّمَ الله إلا بالحَقِّ، وأكْلُ الرِّبَا، وأكلُ مَالِ اليَتِيم، والتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحفِ، وقَذفُ المُحصَنات المؤمِناتِ الغَافلاتِ»(٣).

---

(١) صفوة التفاسير (١/ ٧٤).

(٢) تفسير السعدى (ص٥٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٦٦) كتاب الوصايا - ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

«المُوبِقَاتِ»: المُهْلِكات.

=

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٦٢٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

۞ لكن أريد هنا فقط أن أذكر كيفية علاج السحر بعد وقوعه.

علاج السحر بعد وقوعه

۞ **يقول الإمام ابن القيم في طُرق علاج السحر بعد وقوعه:**

أحدهما - وهو أبلغهما -: استخراجه وإبطاله... كما صحَّ عنه ﷺ أنه سأل ربه سبحانه في ذلك، فَدُلَّ عليه، فاستخرجه من بئر.

والنوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السِّحر... فإن للسحر تأثيرًا في الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشويشِ مزاجها، فإذا ظهر أثره في عضو، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو، نفع جدًّا[١].

۞ **ومن أنفع أنواع العلاج ما ذكره العلامة ابن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وذلك بأن يأخذ المسحور سبع ورقاتٍ من السدر الأخضر فيدقها بحجرٍ أو نحوه ويجعلها في إناء، ويَصُبّ عليه من الماء ما يكفيه للغسل.

ويقرأ فيها آية الكرسي و ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وآيات السحر التي في سورة الأعراف، وهي قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩].

= التولي يوم الزحف: الهروب من ميدان القتال عند لقاء العدو - القذف: رمي النساء المحصنات المؤمنات بالزنا - المحصنات: العفائف - الغافلات: الغافلات عن الفواحش وما قُذفن به ... والإحصان في الشرع على خمسة أقسام: العفة، والإسلام، والنكاح، والتزويج، والحرية.

(١) زاد المعاد (٤/ ١٢٤: ١٢٥) بتصرف.

والآيات التى فى سورة يونس وهى قوله سبحانه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٩-٨٢].

والآيات فى سورة طه:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

وبعد قراءة ما ذُكر فى الماء يشرب منه ثلاث مرات ويغتسل بالباقى، وبذلك يزول الداء إن شاء الله، وإن دَعَتْ الحاجة لاستعماله مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول الداء.

۞ فاللهُمَّ احفظنا من كيد السَّحرة الأشرار واحفظ المسلمين أجمعين من شرهم وكيدهم يا رب العالمين.

(٣٦٣) باب النهى عن المسافرة بالمصحف إلى بلاد الكفار إذا خيف وقوعه بأيدى العدو

(١٨٠٣) عن ابنِ عُمَر رَضِوَاللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: نَهَى رسُولُ الله ﷺ أنْ يُسَافِرَ بالقرآن إلى أرضِ العَدُوِّ(١).

۞ السفر بالمصحف إلى أرض العدو إذا كان يُؤمَن ألا يناله العدو، ولا يحصل له شىء من امتهانهم وما إلى ذلك فلا بأس به... لأن التعليل هو الخوف من أن ينالوه بشىء لا يليق فى حق القرآن... وأما إذا لم يكن هناك محذور، والإنسان يأخذه معه ليقرأ فيه، والمحذور مأمون فلا بأس بذلك... وإنما النهى إذا كان يَغلُب على الظن أنه تَحصُل إساءة للقرآن وامتهانٌ له أو يناله العدو بسوءٍ، فهذا هو الذى يُمنع منه.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ النَّهْىُ عَنِ الْمُسَافَرَةِ بِالْمُصحَفِ إِلَى أَرضِ الْكُفَّارِ لِلْعِلَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِى الْحَدِيثِ وَهِىَ خَوفُ أَنْ يَنَالُوهُ فَيَنْتَهِكُوا حُرمَتَهُ ... فَإِنْ أُمِنَتْ هَذِهِ الْعِلَّةُ بِأَنْ يَدخُلَ فِى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الظَّاهِرِينَ عَلَيْهِمْ فَلَا كَرَاهَةَ وَلَا مَنْعَ مِنْهُ حِينَئِذٍ لِعَدَمِ الْعِلَّةِ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالْبُخَارِىُّ وَآخَرُونَ ... وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَيْهِمْ كِتَابٌ فِيهِ آيَةٌ أَوْ آيَاتٌ ... وَالْحُجَّةُ فِيهِ كِتَابُ النَّبِىِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ ... قَالَ الْقَاضِى: وَكَرِهَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مُعَامَلَةَ الْكُفَّارِ بِالدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ الَّتِى فِيهَا اسْمُ اللهِ تَعَالَى وَذِكْرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٩٠) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٨٦٩) كتاب الإمارة.
(٢) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٢٠).

۞ أما السفر فى حدِّ ذاته إلى بلاد الكفار فلا يجوز إلا بثلاثة شروط:

أولًا: أن يكون عند المسلم دينٌ يحميه من الشهوات.

ثانيًا: أن يكون عنده علمٌ يدفع عنه الشُّبهات.

ثالثًا: أن يكون هناك ضرورة لسفره.. بأن يسافر لتحصيل علمٍ ضرورى لا يوجد فى بلاد المسلمين ويحتاج الناس إليه.. أو يسافر للعلاج إذا كان هذا العلاج ليس موجودًا فى بلاد المسلمين ... أو غير ذلك من الضرورات المنضبطة بضوابط الشرع.

(٣٦٤) باب تحريم استعمال إناء الذهب وإناء الفضة في الأكل والشرب والطهارة وسائر وجوه الاستعمال

(١٨٠٤) عنِ أمِّ سَلَمَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «الذِى يَشْرَبُ فى آنِيةِ الفِضَّةِ إنَّمَا يُجَرجِرُ فى بَطْنِهِ نَار جَهَنَّمَ»(١).

وفى روايةٍ لمسلم: «إنَّ الذى يأكُلُ أوْ يَشْرَبُ فى آنيةِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ».

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٧٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٨٠٥) وعنْ حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهانَا عن الحَرِيرِ، والدِّيباجِ، والشُّرب فى آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وقال: «هُنَّ لهُمْ فى الدُّنْيَا، وهى لكُمْ فى الآخرةِ»(٢).

وفى روايةٍ فى الصحيحين عنْ حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «لا تَلْبَسُوا الحَرِيرَ ولا الدِّيبَاجَ، ولا تَشْرَبُوا فى آنِيَةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكُلُوا فى صِحَافِها».

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للأحاديث رقم (٨٠٨) إلى (٨١٣) فأرجو الرجوع إليها.. بارك الله فيكم.

(١٨٠٦) وعنْ أنس بن سيرين قال: كنْتُ مع أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْد نَفَرٍ مِن المجُوسِ، فجِيءَ بفَالُوذَجٍ على إناءٍ مِن فِضَّةٍ، فَلَم يأكُلْهُ، فِقِيلَ لَهُ حوِّلهُ فحوَّله على إناءٍ مِن خُلُنْجٍ، وجِيء بِهِ فأكَلَهُ(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٣٤) كتاب الأشربة - ومسلم (٢٠٦٥) كتاب اللباس والزينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٣٢) كتاب الأشربة - ومسلم (٢٠٦٧) كتاب اللباس والزينة.

(٣) رواه البيهقى، وقال الألبانى فى الصحيحة (٣٥٦٨): ورجاله ثقات؛ غير أحمد بن عمرو القطوانى؛ فلم

۞ وهنا يحكى أنس بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان مع أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند نفرٍ من المجوس... ولعله كان جالسًا معهم يدعوهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ كما كان يفعل النبى ﷺ عندما كان يجلس أحيانًا مع بعض المشركين ويأكل معهم من أجل أن يدعوهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ... فجىء بفالوذج - نوع من الحلويات- على إناءٍ من الفضة فأبى أنس أن يأكل منه.. فقيل له: حوِّله.. أى: ضعه فى إناءٍ من خُلُنْج (جفنة).. فجىء به فأكله.

فلنا أن نتفع بالذهب والفضة على ما أردنا إلا ما جاء الشرع بتحريمه، والنبى ﷺ نهى عن الأكل والشرب فى آنية الذهب والفضة، وأخبر أنها للكفار فى الدنيا ولنا فى الآخرة، وأخبر أن الذى يأكل ويشرب فى آنية الفضة إنما يُجرجر فى بطنه نار جهنم، والعياذ بالله...والجرجرة: هى صوت الماء إذا جرى فى الحَلْق.

وهذا يدل على أن الأكل والشرب فى آنية الذهب والفضة من كبائر الذنوب، وأنه لا يحل للمؤمن أن يفعل ذلك.

أما استعمال الذهب والفضة فى غير ذلك، فهذا موضع خلاف بين العلماء.

والأقرب إلى الصواب، أن استعمال الذهب والفضة فى غير الأكل والشرب جائز، لكن الورع تَرْكُه احتياطًا لموافقة جمهور العلماء.

۞ هذا بالنسبة لاستعمال الذهب والفضة فى الأكل والشرب والطهارة وسائر وجوه الاستعمال.. أما استعمالهما فى الزينة .. فيجوز للمرأة أن تلبس الحُلى من الذهب والفضة كما شاءت.. ويجوز للرجل أن يلبس خاتمًا من فضة إن أراد ذلك.. لكن يَحرُم عليه لبس الذهب ... والله أعلم.

= أعرفه الآن.... وللحديث شاهد من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه الشيخان وغيرهما بنحوه، وهو مخرج فى «الإرواء» (٣٢).

الخُلنج: الجفنة.



(٣٦٥) باب تحريم لبس الرجل ثوبًا مُزعفرًا

(١٨٠٧) عنْ أنسٍ ﷺ قال: نَهَى النبىُّ ﷺ أنْ يَتزَعفَر الرَّجُلُ[1].

(١٨٠٨) وعنْ عبدِ الله بنِ عَمرو بن العاص ﷺ قال: رأى النبىُّ ﷺ علَىَّ ثَوْبَيْنِ مُعَصفَرين، فقال: «أمُّكَ أمَرَتْكَ بهذا؟» قُلتُ: أغْسِلهُمَا؟ قال: «بلْ أحرقْهُما».

وفى روايةٍ ، فقال: «إنَّ هذا مِن ثِيَابِ الكُفَّار فلا تَلْبسْها »[2].

۞ ففى هذين الحديثين نهى النبى ﷺ أن يلبس الرجل الثوب المُزعفر.. يعنى: الذى صُبغ بالعُصفر.. وهو نوعٌ من النبات يُشبه الزعفران.. وفى الحديث الثانى أن النبى ﷺ لما رأى ابن عمرو ﷺ يلبس ثوبين مُعصفرين أنكر عليه ذلك وقال له: «أمُّكَ أمَرَتْكَ بهذا؟».. فسأله ابن عمرو وقال له: أغسلهما؟ .. فإذا بالنبى ﷺ يقول له: «بلْ أحرقْهُما».. وفى الرواية الأخرى قال له: «إنَّ هذا مِن ثِيَابِ الكُفَّار فلا تَلْبسْها» فدلَّ ذلك على أنه يَحرُم أو يُكره على الرجل أن يلبس مثل هذه الثياب الصفراء التى تميل إلى الحُمرة قليلًا.. وكذلك الثوب الأحمر الخالص الذى لا يخالطه لونٌ آخر.. نهى النبى ﷺ عن لبسه.. وأخبر أن هذه من ثياب ولباس الكفار..

وإذا كان هذا من لباس الكفار فإنَّا قد نُهينا أن نتشبه بهؤلاء ..وذلك لأن النبى ﷺ قال: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[3].

۞ قال الإمام النووى ﷺ: قَوْلُهُ ﷺ: «أُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهَذَا؟» مَعنَاهُ أَنَّ هَـذَا مِنْ لِبَاسِ النِّسَاءِ وَزِيِّهِنَّ وَأَخْلَاقِهِنَّ ... وَأَمَّا الْأَمْرُ بِإِحرَاقِهِمَا فَقِيلَ هُوَ عُقُوبَةٌ وَتَغْلِيظٌ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٤٦) كتاب اللباس – ومسلم (٢١٠١) كتاب اللباس والزينة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٧٧) كتاب اللباس والزينة.

۞ مُعصفرين: أى مصبوغين بالعُصفر.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٤٩).

لِزَجْرِهِ وَزَجْرِ غَيْرِهِ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْفِعلِ ... وَهَذَا نظير أمر تلك المرأة التى لعنت الناقة بإرسالها وَأَمَرَ أَصحَابَ بَرِيرَةَ بِبَيْعِهَا وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمُ اشْتِرَاطَ الولاء ونحو ذلك والله أعلم[1].

(١) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٧٦).

(٣٦٦) باب النهى عن صَمْتِ يومٍ إلى الليل

(١٨٠٩) عن عَلىٍّ ﵁ قالَ: حَفِظْتُ عن رسُولِ الله ﷺ: «لا يُتْمَ بَعدَ احتِلامٍ، ولا صُمَاتَ يَوْمٍ إلى اللَّيْلِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر على بن أبى طالب ﵁ أنه حفظ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يُتْمَ بَعدَ احتِلامٍ**» أى: لا يُقال لمن بلغ سن الاحتلام أنه يتيم .. بل إنه يُقال عنه أنه يتيم حتى يبلغ.. فإذا بلغ يرتفع عنه اليُتم وترتفع أحكامه.

«**ولا صُمَاتَ يَوْمٍ إلى اللَّيْلِ**» أى: نهى النبى ﷺ عن صمت يوم كاملٍ إلى الليل.. لأن ذلك يؤدى إلى ترك قراءة القرآن وترك التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك..

قال الخطابى فى شرحه: كانْ من نُسك أهل الجاهلية الصمت، فكان أحدهم يعتكف اليوم والليلة ويصمت، فنُهوا عن ذلك وأُمروا بالنطق بالخير.

وأما قوله ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجَا» فهذا محمول على الصمت عن الكلام الذى يُغضب الله ﷿: كالكذب والغيبة والنميمة وقذف المحصنات والسَّبِّ والشتم وشهادة الزور ... وإلا فالأصل أن المسلم لا يَفتُر لسانه عن ذكر الله وقراءة القرآن والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

(١٨١٠) وعن قَيس بن أبى حازم قالَ: دخَلَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﵁ على امْرأةٍ مِن أحمَسَ يُقَالُ لهَا: زَيْنَبُ، فرآها لا تَتكَلَّم. فقال: مَا لَها لا تَتكَلَّمُ؟ فقالُوا: حَجَّتْ مُصمِتَةً، فقالَ لها: تكَلَّمِى فإنَّ هذا لا يَحِلُّ، هذا مِن عَمَلِ الجاهِلية. فتكلَّمَت(٢).

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٠٩).
قالَ الخطَّابِى فى تفسيرِ هذا الحديثِ: كانَ مِنْ نُسُكِ الجاهِلِيَّةِ الصُّماتُ، فنُهُوا فى الإسْلامِ عنْ ذلكَ، وأُمِرُوا بالذِّكْرِ والحدِيثِ بالخَيْرِ.
(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٨٣٤) كتاب المناقب.

۞ ففى هذا الحديث يحكى قيس بن أبى حازم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل على امرأة من أَحمَس.. يعنى: امرأة من الحمس وهى من قريش. اسمها زينب بنت المهاجر.. فرآها لا تتكلم .. فسأل الناس من حولها وقال لهم: ما لها لا تتكلم؟.. فأخبروه أنها حجَّت مُصمتة.. فما كان من أبى بكر إلا أن أمرها أن تتكلم وأخبرها أنَّ هذا لا يَحِلُّ، لأنه مِن عَمَلِ الجاهِلية.. فتكلَّمَت.

۞ **قال الحافظ ابن حجر** رحمه الله: قَوْلُهُ: «**فَإِنَّ هَذَا لا يَحِلُّ**» يَعنِى تَركَ الْكَلَامِ. وَوَقَعَ عِندَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنِ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّ الْمَرأَةَ قَالَتْ لَهُ: «كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِكَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ شَرٌّ فَحَلَفْتُ إِنِ اللهُ عَافَانَا مِنْ ذَلِكَ أَنْ لَا أُكَلِّمَ أَحَدًا حَتَّى أَحُجَّ فَقَالَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ ذَلِكَ فَتكَلَّمِى»، وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ أَبِى بَكْرٍ هَذَا مَنْ قَالَ بِأَنَّ مَنْ حَلَفَ أَنْ لا يتكلم اسْتُحِبَّ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَأْمُرهَا بِالْكَفَّارَةِ ... وَقِيَاسُهُ أن من نذر أن لا يتكلم لَمْ يَنْعَقِد نَذْرُهُ؛ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَطْلَقَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ وَأَنَّهُ مِنْ فِعلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ هَدَمَ ذَلِكَ وَلَا يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ مِثْلَ هَذَا إِلَّا عَنْ تَوْقِيفٍ فَيَكُونُ فِى حُكْمِ الْمَرفُوعِ ...

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ حَدِيثُ ابن عَبَّاسٍ فِى قِصَّةِ أَبِى إِسْرَائِيلَ الَّذِى نَذَرَ أَنْ يَمْشِىَ وَلَا يَركَبَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتكَلَّمَ فَأَمَرَهُ النَّبِىُّ ﷺ أَنْ يَركَبَ وَيَسْتَظِلَّ وَيَتكَلَّمَ.

۞ **وَقَالَ ابن قُدَامَةَ فِى «الْمُغْنِى»**: لَيْسَ مِنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ الصَّمْتُ عَنِ الْكَلَامِ وَظَاهِرُ الْأَخْبَارِ تَحرِيمُهُ وَاحتَجَّ بِحَدِيثِ أَبِى بَكْرٍ وَبِحَدِيثِ عَلِىٍّ الْمَذْكُورِ قَالَ: فَإِنْ نَذَرَ ذَلِكَ لَمْ يَلْزَمْهُ الْوَفَاءُ بِهِ ... وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِىُّ وَأَصحَابُ الرَّأْيِ وَلَا نَعلَمُ فِيهِ مُخَالِفًا ... اهـ[1].

ومن أهل العلم مَن قال: مَن نذر أن يصمت فعليه أن يتكلم وعليه كفارة ذلك النذر.. ومنهم مَن قال: لا تلزمه الكَفَّارَة.. والله أعلم.



(١) فتح البارى (٧/ ١٨٥) بتصرف.

(٣٦٧) باب تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه وتولِّيه غير مواليه

(١٨١١) عن سَعد بن أبى وقَّاص رَضِوَاللَّهُعَنهُ أنَّ النَّبىَّ صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قالَ: «مَن ادَّعَى إلى غَيْرِ أبيهِ وهُوَ يَعلَمُ أنَّهُ غَيْرُ أبيهِ فالجَنَّةُ عليهِ حرامٌ»(١).

(١٨١٢) وعن أبى هُريرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ عن النَّبِىِّ صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال: «لا تَرغَبُوا عَنْ آبائِكُم، فمَن رَغِبَ عنْ أبيهِ فهُو كُفْرٌ»(٢).

(١٨١٣) وعن يزيدَ بن شريك بن طارقٍ قال: رأيتُ عَليًّا رَضِوَاللَّهُعَنهُ على المِنْبَرِ يَخْطُبُ، فسَمِعتُهُ يقولُ: لا والله مَا عِنْدَنا مِن كتابٍ نَقْرؤهُ إلا كتابَ الله، ومَا فى هذه الصَّحِيفَةِ، فنشَرَها فإذا فيهَا أسْنَانُ الإبلِ، وأشْيَاءُ مِن الجِرَاحات، وفيها: قال رسُولُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «المدِينَةُ حَرَمٌ مَا بينَ عَيْرٍ إلى ثَوْرٍ، فمَنْ أحدَثَ فيهَا حَدَثًا، أوْ آوَى مُحدِثًا، فعليهِ لَعنَةُ الله والملائكَة والنَّاسِ أجْمَعين، لا يَقْبَلُ الله منهُ يَوْمَ القِيامةِ صَرفًا ولا عَدلًا... ذِمَّةُ المُسْلمينَ واحِدةٌ، يَسْعَى بها أدناهُم، فمَنْ أخْفَر مُسْلِمًا فعَلَيْهِ لَعنَةُ الله والملائكَةِ والنَّاسِ أجْمَعينَ، لا يَقبَلُ الله مِنْهُ يَوْم القِيامةِ صَرفًا ولا عدلًا. ومَن ادَّعَى إلى غَيْرِ أبيهِ، أو انْتَمَى إلى غَيْرِ مَواليهِ، فعَلَيْهِ لَعنَةُ الله والملائكَةِ والنَّاسِ أجْمَعينَ، لا يَقْبَلُ الله مِنْهُ يَوْمَ القِيامةِ صَرفًا ولا عَدلًا»(٣).

(١٨١٤) وعن أبى ذَرٍّ رَضِوَاللَّهُعَنهُ أنَّهُ سَمِعَ رسولَ الله صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ يقُولُ: «لَيْسَ مِن رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْر أبيهِ وهُوَ يَعلَمُهُ إلا كَفَرَ، ومَن ادَّعَى مَا لَيْسَ لهُ فليْس مِنَّا، ولْيَتَبَوَّأْ مَقْعدَهُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٦٦) كتاب الفرائض، ومسلم (٦٣) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٦٨) كتاب الفرائض، ومسلم (٦٢) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٠٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٣٧٠) كتاب الحج.
«ذِمَّةُ المسلمينَ» أى: عَهْدُهُم وأمانتُهم. «وأخْفَرَهُ»: نَقَضَ عَهْدَهُ. و«الصَّرفُ» التَّوبَةُ، وقيل: الحِيلَةُ. و«العَدلُ»: الفِدَاءُ.

مِن النَّارِ، ومَنْ دَعَا رجُلًا بالكُفْرِ، أو قالَ: عدُوَّ الله، وليسَ كذلكَ إلا حارَ عليهِ»[1].

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (رياض الصالحين): باب تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه، أو تَوَلِّيه غير مواليه.

ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ شيئين كلاهما لحمة يلتحم الناس بعضهم ببعض به، ويدنو بعضهم من بعض.

الأول: النسب.

والثاني: الولاء... وقد قال النبي ﷺ: «**الولاء لُحمة كلُحمة النسب**»[2].

أما النسب: فإن الإنسان يجب عليه أن ينتسب إلى أهله: أبيه، جده، جد أبيه.. وما أشبه ذلك، ولا يحل له أن ينتسب إلى غير أبيه وهو يعلم أنه ليس بأبيه... فمثلًا: إذا كان أبوه من القبيلة الفلانية ، ورأى أن هذه القبيلة فيها نقص عن القبيلة الأخرى، فانتمى إلى قبيلة ثانية أعلى حسبًا؛ لأجل أن يُزيل عن نفسه عيب قبيلته، فإن هذا - والعياذ بالله - ملعون... عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرفًا ولا عَدلًا .- أي: فريضة ولا نافلة-.

وأما إذا انتمى الإنسان إلى جدِّه ، وأبي جدّه ، وهو مشهور ومعروف دون أن ينتفي من أبيه فلا بأس بهذا... فقد قال النبي ﷺ: « **أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[3] مع أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فعبد المطلب جدُّه، ولكنه ﷺ قال ذلك في غزوة حُنين ؛ لأن عبدَ المطلب أشهرُ من أبيه عبد الله ، وهو عند قريش في المكانة العليا فلهذا قال: أنا ابن عبدالمطلب ، لكنه من المعلوم أنه محمد بن عبد الله ولم ينتفِ من أبيه ، وكذلك أيضًا الناس ينتسبون إلى اسم القبيلة: فيقول مثلًا: أحمد بن تيمية وما أشبه ذلك مما ينتسب إلى

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٥٠٨) كتاب المناقب، ومسلم (٦١) كتاب الإيمان.

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في الكبير، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٥٧).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٨٦٤) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٧٦) كتاب الجهاد والسير.

القبيلة ... لكن المهم الذى عليه الوعيد هو الذى ينتمى إلى غير أبيه ؛ لأنه غير راضٍ بحسبه ونسبه فيريد أن يرفع نفسه ويدفع خسيسته بالانتماء إلى غير أبيه فهذا هو الذى عليه اللعنة - والعياذ بالله-.

فيوجد - والعياذ بالله - مَن يفعل ذلك للدنيا... ينتسبون إلى أعمامهم دون آبائهم ؛ للدنيا مثل ما يوجد الآن أُناسٌ لديهم جنسيتان ينتسب إلى عمه أو إلى خاله أو ما أشبه ذلك لينال بذلك شيئًا من الدنيا، هذا أيضًا حرام عليه ولا يحل له ذلك... والواجب على مَن كان كذلك أن يُعدل تبعيته وجنسيته وكذلك بطاقته ولا يُبقيها على ما هى عليه... ومَن اتقى الله جعل له من أمره يُسرًا ورزقه من حيث لا يحتسب.

أما حديث على بن أبى طالب ﷺ أنه أعلن على المنبر وهو يخطب الناس أنه ليس عندهم شىء خصَّهم به الرسول ﷺ إلا كتاب الله.. وهذا عامٌ لكل أحد والمراد بكتاب الله: ما يقرأه المسلمون اليوم من أولهم إلى آخرهم صغارًا وكبارًا لم يزد فيه أحد ولم ينقص منه أحد...وفى هذا رَدٌّ على الرافضة الشيعة الذين يدَّعون أن القرآن الكريم قد حُذف منه ثلثه، وحُذفت منه سورة الولاية وما أشبه ذلك، فخرجوا عن إجماع المسلمين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء: ١١٥].

وفى قَسَم أمير المؤمنين ﷺ وهو الخليفة الرابع وهو البارُّ الصادق بدون قَسَم - أن النبى ﷺ لم يَخُصهم بشىءٍ، دليل على كذب الرافضة الشيعة الذين يقولون: إن النبى ﷺ عَهِدَ بالخلافة إلى على بن أبى طالب، وأن أبا بكر وعمر ظالمون معتدون كافرون منافقون!!! ... هكذا - والعياذ بالله - يصفون خير هذه الأمة بهذه الأوصاف، نسأل الله العافية، ونسأل الله أن يجازيهم بما يستحقون به من عدله إنه على كل شىء قدير.

فعلى بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ... إن كانوا صادقين فى محبته وولايته وأنهم يتولونه وأنهم شيعته فليصدقوه بهذا اليمين الذى أقسم به على المنبر - وهو يخطب الناس - مُعلنًا أن النبى ﷺ ما خصَّهم بشىءٍ أبدًا إلا كتاب الله الذى يقرؤه المسلمون صغارًا وكبارًا إلى يومنا هذا - والحمد لله - ثم نشرها، وقرأ فيها شيئًا من أسنان الإبل فى الزكاة والثياب والجراحات... ولم تُبيَّن فى هذا الحديث ولكنها بُينت فى مواضع أخرى، وذكر فيها أن المدينة حرام ما بين عير إلى ثَور... فالمدينة لها حرم كحرم مكة، لكنه دون حرم مكة فى الأوكدية والفضيلة ؛ لأن حرم مكة لا يمكن لمؤمن يتم إيمانه إلا أن يقصده حاجًّا ومعتمرًا بخلاف حرم المدينة.

ثم إن المحرمات فى المدينة أخف من المحرمات فى مكة، ولهذا يجب فى حرم مكة فى قتل الصيد الجزاء، ولا يجب هذا فى حرم المدينة، وليس هذا موضوع ذكر الفروق بين الحرمين فهى حوالى ستة أو سبعة فروق معروفة... وما بين عير إلى ثور معروف أيضًا، فإن هذا الحرم مساحته بريد فى بريد يعنى أربعة فراسخ فى أربعة فراسخ.

هذا الحرم يقول عنه النبى ﷺ: «مَن أحدث فيه حَدثًا أو آوى مُحدِثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، أحدث حدثًا فى أى شىء: فى العقيدة، فى المنهج، فى السلوك مخالفًا للمسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وكذلك مَن آوى مُحدِثًا - يعنى أدخله المدينة - وهو يعلم أنه صاحب حدث فآواه ونصره وأدخله فى منزله وتَستَّر عليه وما أشبه ذلك، هذا يكون أيضًا مُشاركًا له فى الإثم... عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

الجملة الثانية: «أن ذمة المسلمين واحدة»: يعنى عهدهم واحد... إذا عاهد أحدٌ من المسلمين ممن لهم ولايات العهد وخفر ذمته أحدٌ فعليه لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين...فمثلًا: إذا دخل كافر إلى البلد فى أمانٍ وعهدٍ ممن لهم ولاية العهد أو غيرهم ممن له الأمان ثم خفره أحدٌ استحق اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين... لو أن كافرًا دخل بأمانٍ وآواه رجل مؤمن أمَّن كافرًا وقال له: ادخل وأنت فى أمانى وجوارى (رجل عادى من المؤمنين) ثم جاء إنسان وقتل هذا الكافر وقال هذا كافر لابد أن نقتله - رغم أمانه من المسلم - فعلى القاتل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين - نسأل الله العافية -.

فكيف إذا دخل بأمانٍ من ولى الأمر؟ على أنه مُؤتَمن وفى جوار وأمان الدولة ثم يأتى إنسان فيقتله ... هذا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وفى هذا دليل على حماية الدين الإسلامى لمن دخل بأمانه وجواره، وأن الدين الإسلامى لا يعرف الغدر والاغتيال والجرائم... الدين الإسلامى دينٌ صريح، ما فيه إلا الصراحة...إنسان أمَّنه مسلمون لا بد أن يكون آمنًا.

وبهذا نعرف غلط مَن يغدرون بالذمم ويخونون ويغتالون أُناسًا لهم عهد وأمان، وأن هؤلاء مُستحقون لما أعلنه أمير المؤمنين على رضي الله عنه ... عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين - والعياذ بالله -.(١)



(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٤/ ٢٩٤-٢٩٥) بتصرف.

(٣٦٨) باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله ﷺ عنه

۞ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

۞ أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله محمد ﷺ عنه.. يعنى: أن الإنسان يجب عليه أن يُقبل على طاعة الله وعلى اتباع رسوله ﷺ وأنْ يَحذر كل الحذر من الوقوع فى المعاصى والمحرمات... ويجب عليه أن يخشى الله عَزَّ وَجَلَّ ولا يأمن من مكر الله عَزَّ وَجَلَّ.. فإن الشيطان قد يَغُر الإنسان ويقول له: افعل المعاصى ثم استغفر بعدها فإن رحمة الله سبقت غضبه وأنه هو الغفور الرحيم.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، إلى غير ذلك من الأمانى الكاذبة التى يغر بها الشيطان بنى آدم: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

۞ ثم استدلَّ المصنف بقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أى فليخف الذين يخالفون أمر الرسول ﷺ ويتركون سبيله ومنهجه وسنته ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: تنزل بهم محنة عظيمة فى الدنيا أو ينالهم عذابٌ شديد فى الآخرة.

وقد تُلقَى الفتنة فى قلوبهم.. مثل الشك فيما يجب اليقين فيه أو الشهوة فيما يَحرُم تَناوله... ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: أتدرى ما الفتنة؟ يعنى فى قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة: الشرك... لعله إذا رَدَّ بعض قوله أن يقع فى

قلبه شيء من الزيغ فيهلك - والعياذ بالله -.

فالله غفورٌ رحيم..لكنه فى نفس الوقت شديد العقاب...كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠] وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، فبدأ بالعقاب وثَنَّى بالمغفرة ؛ لئلا يغلب الأمن من مكر الله... والإنسان إذا أمن من مكر الله أصابه البلاء والعذاب... ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٩].

۞ فإذا عرف العبد أنه ساعٍ إلى ربه، وكادح فى هذه الحياة، وأنه لا بد أن يُلاقى ربه، ويلاقى سعيه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقِّى من الأعمال التى تُوجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة، التى تُوجب السعادة والمثوبة... ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وذلك بما يُبدى لكم من أوصاف عظمته، وكمال عدله وشدة نكاله..ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف رحيم.

ومن رأفته ورحمته، أنه خَوَّف العباد، وزجرهم عن الغى والفساد.

كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ فرأفته ورحمته، سهَّلت لهم الطرق، التى ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته، حذرتهم من الطرق التى تُفضى بهم إلى المكروهات(١).

۞ ثم ختم المصنف بهذه الآية:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ﴾ أى مثل ذلك الأخذ

---

(١) تفسير السعدى (ص١٢٩).

والإهلاك الذى أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين، يأخذ تعالى بعذابه الفجرة الظلمة ... قال الألوسى: وفى الآية من إنذار الظالم ما لا يَخفى.

كما قال عليه السلام: «إن الله ليُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته»ثم قرأ الأية[1] ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أى إن عذابه موجع شديد، وهذا مبالغة فى التهديد والوعيد.

وقد فسَّرها النبى ﷺ بقوله: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِى لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][2]



(١٨١٥) وعن أبى هُريرة رضي الله عنه أنَّ النبىَّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يَغارُ، وغَيْرَةُ الله أنْ يأتى المرءُ ما حرَّمَ الله عليه»[3].

۞ سبق شرح هذا الحديث كاملًا بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٦٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



---

(١) روح المعانى (١٢/ ١٣٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٦) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٢٣) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٦١) كتاب التوبة.

(٣٦٩) باب ما يقوله ويفعله مَن ارتكب منهيًا عنه

ذكر المصنف رحمه الله هذا الباب لأنه ليس هناك إنسانٌ قد عصمه الله من الذنوب إلا الحبيب المصطفى ﷺ..

فلا بد أن يقع الإنسان فى الذنوب ويَجِبُ عليه أن يتوب.

قال ﷺ: «**كل بنى آدم خَطَّاء، وخير الخطائين التوابون**»(١) وقال ﷺ «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، ثُمَّ جَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(٢).

فلا بد للإنسان من ذنب، لكن يجب عليه أن يتوب وأن يعود إلى ربه عز وجل فى التو واللحظة لأنه لا يدرى متى يموت ... ولذا قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

لما ذكر تعالى ما يُقابَل به العدو من الإنس وهو مقابلة إساءته بالإحسان ذكر ما يُدفَع به العدو الجِنِّى وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره.

فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾؛ أى: أىُّ وقت من الأوقات أحسست بشىءٍ من نزغات الشيطان ...أى: من وساوسه وتزيينه للشر وتكسيله عن الخير وإصابة ببعض الذنوب وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أى: اسأله مفتقرًا إليه أن يُعيذك ويعصمك منه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتَضرُّعك ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته(٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

لما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذى لا يزال مرابطًا، ينتظر

---

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥١٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩) كتاب التوبة.

(٣) تفسير السعدى (ص٨٨٧).

غرَّته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقى إذا أحسَّ بذنب، ومسَّه طائفٌ من الشيطان، فأذنب بفعل محرَّم أو ترك واجبٍ - تَذكَّر من أى باب أُتِىَ، ومن أى مدخل دخل الشيطان عليه، وتَذكَّر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح، والحسنات الكثيرة، فردَّ شيطانه خاسئًا حسيرًا، وقد أفسد عليه كل ما أدركه منه"(١).

كما قال فى الآية الأخرى التى ساقها المؤلف رحمه الله فى أوصاف المتقين ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾.

﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ يعنى سيئة عظيمة، أو ظلموا أنفسهم: بما دون ذلك ذكروا الله بقلوبهم وألسنتهم، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾: سألوا الله تعالى أن يغفر لهم، ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾: يعنى لا أحد يغفر الذنوب إلا الله لو اجتمع أهل الأرض كلهم وأهل السموات كلهم على أن يرفعوا عنك ذنبًا واحدًا ما استطاعوا أبدًا... كل الخلق لو أرادوا أن يمحوا عنك ذنبًا واحدًا ما استطاعوا، لا يغفر الذنوب إلا الله، ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾: يعنى لم يستمروا فى معصيتهم وذنوبهم وهم يعلمون أنهم على ذنب.

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أى الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى ولهم جنات تجرى خلال أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى ماكثين فيها أبدًا ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾ أى نعمت الجنة جزاءً لمن أطاع الله(٢).

---

(١) تفسير السعدى (ص٣٤٥).

(٢) صفوة التفاسير (١/ ٢١١).

۞ وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

والتوبة إلى الله تعالى هى الرجوع إليه عَزَّوَجَلَّ من معصيته إلى طاعته، ومن الإشراك به إلى توحيده ومن البدعة إلى اتباع الرسول ﷺ... أن يرجع الإنسان إلى ربه فيندم على ما فعل، ويعزم على ألا يعود، ويستغفر الله عَزَّوَجَلَّ.

لما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ «لأنَّ المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة» ثم علق على ذلك الفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهى الرجوع مما يكرهه الله، ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا... ودلَّ هذا، أن كل مؤمن، محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعًا... وفيه الحثُّ على الإخلاص بالتوبة، فى قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أى: لا لمقصد غير وجهه، من سلامةٍ، من آفات الدنيا، أو رياءٍ، وسمعة، أو نحو ذلك، من المقاصد الفاسدة[١].



(١٨١٦) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبىِّ ﷺ قال: «مَن حَلَفَ فقالَ فى حَلِفِهِ: باللاَّتِ والعُزَّى، فليَقُل: لا إلهَ إلا الله، ومَن قالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَليَتَصَدَّق»[٢].

۞ ففى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «**مَن حَلَفَ فقالَ فى حَلِفِهِ: باللاَّتِ والعُزَّى**» اللات: صنم يعبده الجاهلون فى الجاهلية وكذلك العُزَّى.. كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]،

---

(١) تفسير السعدى (ص٦٦٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٦٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٦٤٧) كتاب الأيمان.

كانوا يحلفون بهما كما يحلفون بالله فيقولون: واللات أو والعُزى.

فمن حلف وقال في حلفه: واللات والعزى فماذا يفعل؟

يقول في التوِّ واللحظة: لا إله إلا الله.. فهذا الشرك يداويه بالإخلاص والتوحيد.. ولهذا قال النبي ﷺ: «**فليَقُل: لا إلهَ إلا الله**» ليداوي الشيء بضده.

قال الإمام النووي رحمه الله: قَالَ أَصحَابُنَا إِذَا حَلَفَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَصنَامِ أَوْ قَالَ إِنْ فَعَلْتُ كَذَا فَأَنَا يَهُودِيٌّ أَوْ نَصرَانِيٌّ أَوْ بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ أَوْ بَرِيءٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ نَحوَ ذَلِكَ لَمْ تَنْعَقِد يَمِينُهُ بل عليه أن يستغفر الله تَعَالَى وَيَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ سَوَاءٌ فَعَلَهُ أَمْ لَا... هَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَجَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ.

وَاحتَجَّ أَصحَابُنَا وَالْجُمْهُورُ بِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ ﷺ **إنما أمره بقول**: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يَذْكُر كَفَّارَةً .. وَلِأَنَّ الْأَصلَ عَدَمُهَا حَتَّى يَثْبُتَ فِيهَا شَرعٌ[1].

۞ «**وَمَن قالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرك فليَتَصَدَّق**».. وهذا أيضًا من دواء الشيء بضده.. فالمقامرة هي المخالفة على عِوض.. التي يُسميها الناس الرهن.. كمن يقول لصاحبه: أراهنك أن هذا كذا وكذا.. فيتراهنون على بعض المال أو ما أشبه ذلك.. فمن قال ذلك فقد قال قولًا حرامًا.. فعليه أن يتوب ويُخلص النية لله في التوبة.. ومن توبته أن يتصدق بأي شيءٍ ليكون هذا من باب مُداواة الشيء بضده.

فكذلك كل مَن فرط في واجبٍ فإن دواءه أن يتوب إلى الله عز وجل وأن يُكثر من العمل الصالح «**وَأَتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**».

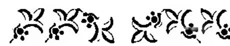
قال الإمام النووي رحمه الله: قَوْلُهُ ﷺ: «**وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِركَ فَلْيَتَصَدَّقْ**» قَالَ الْعُلَمَاءُ: أُمر بالصدقة تكفيرًا لخطيئته فِي كَلَامِهِ بِهَذِهِ الْمَعصِيَةِ.

---

(١) مسلم بشرح النووي (١١/ ١٥٣-١٥٤) بتصرف.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعناهُ فَلْيَتَصَدَّقْ بِمِقْدَارِ مَا أَمَرَ أَنْ يُقَامِرَ بِهِ ... وَالصَّوَابُ الَّذِى عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ وَهُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَا يَخْتَصُّ بِذَلِكَ الْمِقْدَارِ بَلْ يَتَصَدَّقُ بِمَا تَيَسَّرَ مِمَّا يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ اسْمُ الصَّدَقَةِ ... وَيُؤَيِّدُهُ رِوَايَةُ معمرٍ الَّتِى ذَكَرَهَا مُسْلِمٌ فَلْيَتَصَدَّقْ بِشَىْءٍ ...

قَالَ الْقَاضِى: فَفِى هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ لِمَذْهَبِ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْعَزْمَ عَلَى الْمَعصِيَةِ إِذَا استقر فِى الْقَلْبِ كَانَ ذَنْبًا يُكْتَبُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ الْخَاطِرِ الَّذِى لَا يَسْتَقِرُّ فِى الْقَلْبِ[١].



(١) مسلم بشرح النووى (١١/ ١٥٤-١٥٥).



(١٨) كتاب المنثورات والمُلَح

(٣٧٠) باب أحاديث الدجال وأشراط الساعة وغيرها

(١٨١٧) عن النَّواس بنِ سَمْعانَ ﵁ قالَ: ذَكَرَ رسُولُ الله ﷺ الدَّجَّالَ ذاتَ غَدَاةٍ، فخَفَّض فيه، ورَفَّع حتَّى ظَنَنَّاه في طائفةِ النَّخْلِ، فلَمَّا رُحنا إليه، عَرَف ذلكَ فِينَا، فقال: «ما شأنكم؟» قُلنا: يا رسُولَ الله ذَكَرتَ الدَّجَّال الغدَاةَ، فخَفَّضْتَ فيهِ ورَفَّعتَ، حتَّى ظَنَنَّاه في طائفةِ النَّخْلِ، فقال: «غيْرُ الدَّجَالِ أخْوفني عَلَيْكُم، إنْ يخْرُجْ وأنا فيكُم، فأنا حَجِيجُه دونَكُمْ، وإنْ يَخْرج ولَسْتُ فيكمْ، فكلُّ امرئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ، والله خَليفتي على كُلِّ مُسْلِمٍ. إنَّه شابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، كأنِّي أشَبِّهُه بعَبْدِ العُزَّى بنِ قَطَنٍ، فمَنْ أدرَكَه مِنْكُم، فَلْيَقْرَأ علَيْهِ فَواتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ، إنَّه خارجٌ خَلَّةً بينَ الشَّامِ والعِراقِ، فعَاثَ يمينًا وعَاثَ شِمالًا، يا عِبَادَ الله فاثْبُتُوا»

قُلنا: يا رسُولَ الله، وما لُبْثُه في الأرضِ؟ قال: «أربَعُونَ يَوْمًا: يومٌ كَسَنَةٍ، ويَوْمٌ كشَهْرٍ، ويَوْمٌ كجُمُعَةٍ، وسائرُ أيَّامِهِ كأيَّامكُم».

قُلنا: يا رسُولَ الله، فذلكَ اليَوْمُ الذي كَسَنَةٍ أتكْفِينَا فيهِ صلاةُ يَوْمٍ؟ قال: «لا، اقْدُرُوا لهُ قَدرَهُ» قُلْنَا: يا رسُولَ الله، وما إسْراعُهُ في الأرضِ؟ قال: «كالغَيْثِ استَدبَرَتْه الرِّيحُ، فيَأتي على القَوْمِ، فيَدعُوهم، فيؤمنُونَ بهِ، ويَسْتجيبونَ لهُ فيأمُرُ السَّماءَ فتُمْطِرُ، والأرضَ فتُنْبِتُ، فتَرُوحُ عليهم سارِحتُهُم أطوَلَ مَا كانتْ ذُرًى، وأسْبَغَه ضُرُوعًا، وأمَدَّهُ خَواصِر، ثُمَّ يأتي القَوْمَ فيَدعُوهم، فيَرُدُّون عليه قَوْلَهُ، فيَنْصَرِف عنهم، فيُصبِحُون مُمْحِلينَ ليْسَ بأيْدِيهم شَيءٌ من أمْوالِهم، ويَمُرُّ بالخَربَة فيقول لهَا: أخرجِي كُنُوزَكِ، فتَتْبَعُه كُنوزُها كيَعَاسِيب النَّحلِ، ثُمَّ يَدعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبابًا فيَضْرِبُهُ بالسَّيْفِ، فيَقْطَعُهُ جِزْلَتَيْن رَمْيَةَ الغَرَضِ، ثُمَّ يَدعُوهُ، فيُقْبِلُ، ويَتَهَلَّلُ وجْهُهُ يَضْحَكُ.

فَبينما هُو كذلكَ إذْ بَعَثَ الله تعالَى المسيحَ ابْنَ مَريْم ﷺ، فيَنْزِلُ عِنْد المَنارَةِ البَيْضَاءِ شَرقِيَّ دِمَشْق بينَ مَهْرُودتَين، واضعًا كَفَّيْهِ على أجْنِحةِ مَلَكَيْنِ، إذا طأطأ رأسَهُ قَطَرَ، وإذا رَفَعَهُ تَحدَّر مِنْهُ جُمَانٌ كاللُّؤلُؤ، فلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إلا ماتَ، ونَفَسُهُ يَنْتَهِي إلى حَيْثُ يَنْتَهِي طَرفُهُ، فيَطْلُبُه حتَّى يُدرِكَهُ ببَاب لُدٍّ فَيَقْتُلُه.

ثم يأتي عِيسَى ﷺ قَوْمًا قَد عَصَمَهُمُ الله مِنْه، فيَمْسَحُ عَنْ وجُوهِهِمْ، ويُحدِّثُهُم بدرَجاتِهم في الجنَّةِ. فبينَما هُو كذلِكَ إذْ أوْحَى الله تعالى إلى عيسى ﷺ وأصحابِه رضي الله عنهم: أنِّي قَد أخرَجْتُ عِبَادًا لي لا يَدَان لأحَدٍ بِقتَالهم، فحرِّزْ عِبادي إلى الطُّور، ويَبْعَثُ الله يأجُوجَ ومأجوج وهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فيَمُرُّ أوَائلُهُم على بُحَيْرةِ طَبَرِيَّة فيَشْربون ما فيها، ويَمُرُّ آخِرُهُم فيقولونَ: لَقَد كانَ بهذِهِ مرَّةً ماءٌ.

ويُحصَرُ نبي الله عيسَى ﷺ وأصحَابُهُ حتَّى يكُونَ رأسُ الثَّوْرِ لأحدِهِمْ خيْرًا مِن مائةِ دِينارٍ لأحَدِكُم اليومَ، فيرغَبُ نبي الله عيسَى ﷺ وأصحابُهُ رضي الله عنهم إلى الله تعَالى، فيُرسِلُ الله تعالى عَلَيْهم النَّغَفَ في رِقَابِهِم، فيُصبحُون فَرسى كموْت نَفْسٍ واحِدَةٍ، ثم يهْبطُ نبي الله عيسَى ﷺ وأصحابُهُ رضي الله عنهم إلى الأرضِ، فلا يجِدُونَ في الأرضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلا مَلأَهُ زَهَمُهُمْ ونَتَنُهُمْ، فيَرغَبُ نبي الله عيسَى ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم إلى الله تعالى، فيُرسِلُ الله تَعَالى طَيرًا كأعناقِ البُخْتِ، فتَحمِلُهُمْ، فتطْرَحُهم حَيْثُ شاءَ الله، ثُمَّ يُرسِلُ الله عَزَّ وَجَلَّ مطَرًا لا يُكِنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيَغْسِلُ الأرض حتَّى يترُكَها كالزَّلَقَةِ.

ثُمَّ يُقالُ للأرضِ: أنْبِتي ثَمرَتَكِ، ورُدِّي بَركَتَك، فيَومئذٍ تأكُلُ العِصَابة مِن الرُّمانَةِ، ويَسْتظِلون بِقِحْفِهَا، ويُبارَكُ في الرِّسْلِ حتَّى إنَّ اللِّقْحَة مِن الإبلِ لتَكْفِي الفِئامَ مِن النَّاسِ، واللِّقْحَة مِن البَقرِ لتَكفي القَبيلة مِنَ النَّاس، واللِّقْحَةَ مِن الغَنمِ لَتَكْفي الفَخِذَ مِن النَّاس.

فبَيْنَما هُم كذلك إذْ بَعَثَ الله تعالَى رِيحًا طَيِّبَةً، فتأخُذُهم تَحتَ آباطِهِمْ، فتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤمِن وكُلِّ مُسْلِمٍ، ويَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارجُون فيها تَهارُج الحُمُرِ

فعلَيْهِم تَقُومُ السَّاعةُ»(١).

۞ أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (كتاب المنثورات والمُلَح).

المنثورات: يعنى أنها من أبواب متفرقة، ليست من بابٍ واحد.

والمُلَح: جمع مُلْحَة وهى ما يُسْتَمْلَح ويُستعذَب.

ثم ذكر الباب الأول:

باب الدجال وأشراط الساعة.

۞ وقد ذكر المصنف هنا أحاديث الدجال وأشراط الساعة.. وذلك لأن المسيح الدجال من أشراط وعلامات الساعة الكبرى.. وهى عشر علامات ذكرها النبى ﷺ فى أكثر من حديث غير مُرتبة.

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِىُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: «**مَا تَذَاكَرُونَ**» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ: «**إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحشَرِهِمْ**»(٢).

۞ وتعالوا بنا لنذكر الأحاديث التى وردت فى شأن المسيح الدجال كلها ثم نشرحها شرحًا مُبسَّطًا.

---

(١) **صحيح:** رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

قوله: «خَلَّةٌ بين الشَّامِ والعِراقِ» أى: طريقًا بَيْنَهُما. وقوله «عاثَ»: وَالعَيْثُ أَشَدُّ الفَسادِ. و«الذُّرَى»: وهوَ أعالى الأسْنِمَةِ. وهُو جَمْعُ ذِروَةٍ. «واليَعاسِيبُ»: ذكور النَّحلِ. و«جزْلَتين» أى: قِطْعَتينِ و«الغَرَضُ»: الهَدَفُ الذى يُرمَى إليهِ بالنِّشابِ، أى: يَرميه رَمْيَةً كَرمْى النَّشَابِ إلى الهَدَفِ. و«المهْرُودَةُ»، وهى: الثَّوْبُ المصبُوغ. قولُهُ: «لا يدان» أى: لا طاقة. و«النَّغَفُ»: دُودٌ. و«فَرَسَى»: جَمْعُ فَرِيسٍ، وهُو القَتِيلُ، و«الزَّلَقَةُ»، ورُوِىَ «الزُّلْفَةُ»، وهى المرآةُ. و«العِصَابَة»: الجماعةُ، و«الرِّسْلُ»: اللَّبنُ، و«اللَّقْحَة»: اللَّبُونُ، و«الفئام»: الجماعةُ، و«الفَخِذُ» مِن النَّاسِ: دُونَ القَبيلةِ.

(٢) **صحيح:** رواه مسلم (٢٩٠١) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(١٨١٨) وعنْ رِبْعيِّ بنِ حِراشٍ قال: انْطَلَقْتُ معَ أبي مَسْعُودٍ الأنْصاريِّ إلى حُذَيفةَ بنِ اليمانِ رضي الله عنهم، فقالَ لهُ أبُو مسعودٍ، حدِّثْنى ما سمِعت مِن رسُولِ الله ﷺ فى الدَّجَّال، قال: «إنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ وإنَّ مَعَهُ ماءً ونَارًا، فأمَّا الذى يَرَاهُ النَّاسُ ماءً فنارٌ تُحرِقُ، وأمَّا الذى يَرَاهُ النَّاسُ نَارًا، فماءٌ باردٌ عَذْبٌ، فمَنْ أدركَهُ منكُمْ، فَلْيَقع فى الذى يراهُ نارًا، فإنَّهُ ماءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ» فقال أبو مسعودٍ: وأنَا قَد سَمِعتُهُ[1].

(١٨١٩) وعن عبدِ الله بن عَمْرو بن العاصِ رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «يخْرُجُ الدَّجَّالُ فى أُمَّتِى فيَمْكُثُ أربعينَ، لا أدرِى أربعِينَ يَوْمًا، أو أربَعينَ شَهْرًا، أوْ أربَعين عامًا، فيَبْعَثُ الله تعالى عيسَى ابنَ مريمَ ﷺ فيَطْلُبُهُ فيُهْلِكُه، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنينِ عداوَةٌ.

ثُمَّ يُرسِلُ الله عز وجل ريحًا باردَةً مِن قِبَلِ الشَّامِ، فلا يَبْقَى على وجْهِ الأرضِ أحدٌ فى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن خَيْرٍ أوْ إيمانٍ إلا قَبَضَتْهُ، حتَّى لوْ أنَّ أحدَكُم دخَلَ فى كَبِدِ جَبلٍ، لدَخلَتْهُ عليهِ حتَّى تَقْبِضَهُ.

فيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فى خِفَّةِ الطَّيْرِ، وأحلامِ السِّباعِ، لا يَعرفُون مَعروفًا، ولا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فيَتَمَثَّلَ لهُمُ الشَّيْطَانُ، فيقول: ألا تَسْتَجيبون؟ فيقولون: فَما تأمُرُنا؟ فيأمرُهُم بِعِبادةِ الأوثانِ، وهُمْ فى ذلك دارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ.

ثُمَّ يُنْفَخُ فى الصُّور، فلا يَسْمَعُهُ أحَدٌ إلا أصغَى لِيتًا ورفع لِيتًا، وأوَّلُ منْ يَسْمعُهُ رَجُلٌ يلُوطُ حَوْضَ إبله، فيُصعَقُ وَيُصعَقُ النَّاسُ حوله، ثُمَّ يُرسِلُ الله -أوْ قالَ: يُنْزِلُ الله- مَطَرًا كأنَّهُ الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فَتَنبُتُ مِنْهُ أجْسَادُ النَّاس، ثُمَّ يُنفَخُ فيهِ أخْرَى فإذا هُم قِيامٌ يَنْظُرُون.

ثُمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ هَلُمَّ إلى رَبِّكُم، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾، ثُمَّ يُقالُ: أخْرِجُوا بَعثَ النَّارِ، فيُقالُ: مِن كَمْ؟ فيُقالُ: مِنْ كُلِّ ألفٍ تِسْعَمائةٍ وتِسْعةً وتِسعينَ،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٣٠) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٣٤) كتاب الفتن.

فذلكَ يَوْم يجْعَلُ الوِلدانَ شِيبًا، وذلكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عن ساقٍ»[١].

(١٨٢٠) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لَيْسَ مِن بَلَدٍ إلا سَيطَؤُهُ الدَّجَّالُ إلا مَكَّةَ والمدينة، ولَيْسَ نَقْبٌ مِن أنْقَابِهما إلا عليهِ الملائكةُ صافِّينَ تَحرُسُهُما، فيَنْزِلُ بالسَّبَخَةِ، فتَرجُفُ المدينةُ ثلاثَ رَجَفَاتٍ، يُخْرِجُ الله مِنْها كُلَّ كافِرٍ ومُنافِقٍ»[٢].

(١٨٢١) وعنه رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «يَتْبَعُ الدَّجَّال مِن يَهُودِ أصبَهانَ سَبْعُونَ ألفًا عليهم الطَّيالِسة »[٣].

(١٨٢٢) وعنْ أمِّ شَريكٍ رضي الله عنها أنَّها سمعتِ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: « لَيَنْفِرَن النَّاسُ مِن الدَّجَّالِ في الجِبالِ»[٤].

(١٨٢٣) وعن عِمرانَ بنِ حُصَين رضي الله عنهما قالَ: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «ما بَيْنَ خَلْقِ آدَم إلى قِيامِ السَّاعةِ أمْرٌ أكْبرُ مِن الدَّجَّالِ»[٥].

(١٨٢٤) وعنْ أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يخْرُجُ الدَّجَّالُ فيَتَوَجَّه قِبَلَه رَجُلٌ مِنَ المؤمنينَ فَتَتَلَقَّاهُ المسالحُ: مسالحُ الدَّجَالِ، فيقولونَ له: إلى أيْنَ تَعمِدُ؟ فيقول: أعمِدُ إلى هذا الذي خَرَج، فيقولون لهُ: أَوَ ما تُؤمِنُ بِرَبِّنَا؟ فيقول: ما بِرَبِّنا خَفاء، فيقولون: اقْتُلُوه، فيقُول بعضهُم لبعضٍ: ألَيْسَ قَد نَهاكُم ربُّكُمْ أن تقتلوا أحدًا دونَه، فينْطلِقُون بهِ إلى الدَّجَالِ، فإذا رآه المؤمنُ قال: يا أيُّها النَّاسُ إنَّ هذا الدَّجَّالُ الذي ذَكَر رسُولُ الله ﷺ، فيأمُرُ الدَّجَّالُ بهِ فيُشْبَحُ، فيقُولُ: خُذُوه وشُجُّوهُ،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة.
«اللِّيتُ» :صَفْحَةُ العُنُقِ، ومعناه: يضعُ صَفْحَةَ عُنُقِهِ ويَرفَعُ صَفحتَه الأخرَى.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٨١) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (٢٩٤٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٤) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٥) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

فيُوسَعُ ظَهْرُهُ وبَطْنُهُ ضَربًا، فيقولُ: أَوَ ما تؤمِنُ بي؟ فيقُول: أنْتَ المسيحُ الكذَّابُ، فيُؤمَرُ به، فيؤْشَرُ بالمِنْشارِ مِن مَفرِقِهِ حتَّى يُفرَق بَيْنَ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ القِطْعَتين، ثُم يقولُ لهُ: قُمْ، فيَسْتَوِى قائمًا، ثُم يقولُ له: أتؤمِنُ بى؟ فيقولُ: ما ازْدَدتُ فِيكَ إلا بَصِيرَةً، ثُمَّ يقُولُ: يا أيُّها النَّاسُ إنَّهُ لا يفْعَلُ بعدِى بأحَدٍ مِن النَّاسِ، فيأخُذُهُ الدَّجَّالُ ليَذْبَحَهُ، فيَجْعَلُ الله ما بيْنَ رَقَبَتِهِ إلى تَرقُوَتِهِ نُحَاسًا، فلا يَسْتَطِيعُ إليهِ سَبيلًا، فيأخُذُ بِيَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ فيَقْذِفُ بِهِ، فيحسَبُ الناسُ أنَّما قَذَفَهُ إلى النَّار، وإنَّما أُلقِيَ فى الجنَّةِ» فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «هذا أعظَمُ النَّاسِ شَهادةً عِنْد ربِّ العالمِينَ»(١).

(١٨٢٥) وعن المُغيرةِ بنِ شُعبة رضي الله عنه قال: ما سألَ أحَدٌ رسُولَ الله ﷺ عنِ الدَّجَّالِ أكْثَرَ ممَّا سألْتُهُ، وإنَّهُ قال لى: «ما يَضُرُّكَ؟» قلتُ: إنَّهم يقُولُون: إنَّ معهُ جَبَلَ خُبْزٍ ونَهْرَ مَاءٍ، قالَ: «هُوَ أهْونُ على الله مِن ذلِكَ»(٢).

(١٨٢٦) وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَا مِن نَبِيٍّ إلا وقد أنْذَرَ أمَّتَهُ الأعورَ الكذَّاب، ألا إنَّهُ أعورُ، وإنَّ ربَّكُمْ عز وجل لَيْسَ بأعوَرَ، مكْتُوبٌ بيْنَ عَيْنَيه ك ف ر»(٣).

(١٨٢٧) وعن أبى هُريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «ألا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا عنِ الدَّجَّالِ مَا حَدَّث بهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ، إنَّهُ أعورُ وإنَّهُ يجيءُ معَهُ بِمثَالِ الجنَّةِ والنَّارِ، فالتى يقُولُ إنَّها الجنَّةُ هى النَّارُ»(٤).

(١٨٢٨) وعن ابنِ عُمَر رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ الله ﷺ ذكَرَ الدَّجَّالَ بَيْنَ ظَهْرانَى النَّاس

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٣٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٣٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة، واللفظ لمسلم.
«المسَالح» : هُم الخُفَراءُ والطَّلائعُ.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٢٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٣٩) كتاب الفتن وأشراط الساعة.
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٣١) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٣٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٣٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٩٣٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

فقال: «إنَّ الله ليْسَ بأعوَر، ألا إنَّ المسِيحَ الدَّجَّالَ أعورُ العَيْنِ اليُمْنى، كأنَّ عَيْنَهُ عِنبَةٌ طَافِيَةٌ»(١).

۞ النبى ﷺ ذكر الدجال لأصحابه ذات غداة.. يعنى فى الصباح.. فتكلم عنه بكلام طويل وذكر الأمر بتفاصيله حتى ظن الصحابة أن الدجال فى طائفة النخل.. أى: ظنوا أنه قد جاء إلى المدينة.. ولكن الأمر لم يكن كذلك.. لأن الدجال مُحرمٌ عليه أن يدخل مكة والمدينة.

ثم إن النبى ﷺ عرف ذلك فيهم فسألهم فقالوا: إنك ذكرت الدجال الغداة وخفضت فيه ورفعت فظننا أنه فى النخل. فقال: «غير الدجال أخوفنى عليكم» يعنى أخاف عليكم شيئًا أشد من الدجال ... ومن ذلك الرياء حيث ثبت عنه ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسُئِل عنه فقال: «الرياء»(٢) أن الإنسان يُرائى فى عباداته: يصلى لأجل الناس، يتصدق لأجل الناس، يحسن الخُلق لأجل الناس.. فهذا رياء والعياذ بالله ... والمُرائى حابطٌ عمله، والرياء من صفات المنافقين كما قال الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. واعلم أيها المرائى أن الله سيفضحك عن قرب ؛ لأن النبى ﷺ قال: «مَن راءى راءى الله به» يعنى أظهر مُراءاته وعيوبه عند الناس، «ومن سَمَّعَ سمَّع الله به»... ثم قال ﷺ: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجيجُه دونكم»: يعنى لو خرج الدجال وأنا موجود فأنا أكفيكم إياه، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه... يعنى كل إنسان يُحاج عن نفسه، «والله خليفتى على كل مؤمن» فاستخلف ربه عَزَّوَجَلَّ أن يكون مؤيدًا للمؤمنين واقيًا لهم من فتن الدجال الذى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٣٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٦٩) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٥٥).

ليس بين خلق آدم وقيام الساعة فتنة أشد منها نسأل الله أن يقينا وإياكم فتنته[١].

۞ ثم بدأ النبى ﷺ يذكر لهم قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام ليقتله فى آخر الزمان... وسوف أشرحها لكم مختصرة.

۞ أما الدجال: فهو مبالغة من الدجل وهو الكذب.. والدجال يعنى: كثير الكذب الذى لا يُوصف إلا بالكذب فهو يغطى الحق بالباطل.

وسُمى بالمسيح لأن عينه الواحدة ممسوحة.. وقيل: لأنه يمسح الأرض كلها.

۞ وأخبر النبى ﷺ أنه أكبر فتنة وُجدت على وجه الأرض منذ خلق آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها... وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التى تُبهر العقول.... ولذا كان كل نبىٍّ يُحذر قومه من فتنة المسيح الدجال مع أنهم لن يدركوه أبدًا ولن يدركهم.. ولكن من شدة فتنته كانوا يُحذرون أُممهم من فتنته.

۞ وأما عن صفته فلقد وصفه النبى ﷺ وصفًا دقيقًا حتى إذا عرفه المؤمنون لا يُفتنون به.

ومن هذه الصفات أنه رجل، شابٌّ أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة[٢]، ولا جحراء[٣]، كأنها عنبة طافئة، وعينه اليسرى عليها ظفرة[٤] غليظة، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٠٢).

(٢) (ناتئة) مأخوذة من النتوء، وهو الارتفاع والانتفاخ؛ أى: أن عينه ليست بارزة. انظر: «ترتيب القاموس» (٤/ ٣١٨)، و«عون المعبود» (١١/ ٤٤٤).

(٣) (جَحراء): أى: ليست غائرة منجحرة فى نقرتها. انظر: «لسان العرب» (٤/ ١١٨)، و «عون المعبود» (١١/ ٤٤٤).

(٤) (ظفرة): لحمة تنبت عند المآقى، وقد تمتد إلى السواد فتغشاه. انظر «النهاية فى غريب الحديث» (٣/ ١٥٨). و(المآقى): هو مقدمة العين. انظر: «النهاية فى غريب الحديث» (٤/ ٢٨٩).

مسلم كاتب وغير كاتب... ومن صفاته أنه عقيم لا يُولد له.

۞ وقد رأى تميم الدارى المسيح الدجال على حقيقته رأى العين فى إحدى الجُزر وعاد وأخبر النبى ﷺ بذلك.. وقد وجده وهو مُسلسَل بالحديد فى ديرٍ بإحدى الجُزر[1].

۞ وأما عن الإرهاصات التى تكون قبل خروج الدجال فهى كثيرة: (منها) قلة العرب وخروج الملحمة التى تكون بين المسلمين والنصارى والتى سينتصر فيها المسلمون.. ثم فتح القسطنطينية والتى بمجرد فتحها يعلم المسلمون بظهور الدجال.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ، وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ»**[2].

وقبل خروج الدجال بثلاث سنوات يَحدُث جدبٌ وقحط شديد فتمنع السماء مطرها وتحبس الأرض نباتها كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: **«... وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شِداد، يصيب الناس فيها جوعٌ شديد، يأمر الله السماء السنة الأولى أن تحبس ثُلث مطرها، ويأمر الأرض أن تحبس ثُلث نباتها، ثم يأمر السماء فى السنة الثانية فتحبس ثلثى مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثى نباتها، ثم يأمر السماء فى السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا يبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله، قيل: فما يُعيِّش الناس فى ذلك الزمان؟ قال: التهليل، والتكبير، والتحميد، ويجزئ ذلك عليهم مجزأة الطعام»**[3].

---

(١) راجع ذلك فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه (٢٩٤٢) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٩٦).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

۞ ويكون المسلمون عند خروج الدجال لهم شأنٌ كبير وقوة عُظمى.. بدليل انتصارهم على النصارى وفتح القسطنطينية.

۞ وأما عن كيفية خروج الدجال فإنه يخرج بسبب غضبة يغضبها فيكسر السلاسل التى رُبط بها ويخرج إلى الدنيا ليعيث فيها فسادًا وإفسادًا.

۞ وأما عن مكان خروجه فإنه يخرج من المشرق من خُراسان من يهودية أصبهان.. ويُقال أنه سيخرج خلة بين الشام والعراق.. يعنى يخرج من طريق بين الشام والعراق من قِبَل إيران.

۞ وأول ما يخرج يدَّعى أنه نبى ثم يزداد الأمر ويدَّعى أنه رب العالمين -عياذًا بالله-.

۞ وأما عن أتباعه فإنه يتبعه سبعون ألفًا من يهود أصبهان عليهم الطيالسة والتيجان.. وكأنهم يجتمعون هناك ليتبعوا الدجال لأن اليهود أهل دجل وكذب وغدر وخيانة لا يؤمنون.

ويكون أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والتُّرك وأخلاط من الناس غالبهم من الأعراب والنساء.

۞ وأما عن القدرات والإمكانات التى ستكون مع الدجال... والتى ستكون سببًا فى فتنة أصحاب القلوب المريضة فهى:

(١) جنته وناره:

فقد ورد أن معه ما يشبه الجنة والنار أو أن معه ما يشبه نهرًا من ماء ونهرًا من نار... وليس الأمر كما يراه الناس فإن الذى يرونه نارًا فإنما هو ماءٌ بارد وإن الذى يرونه ماءً باردًا فإنه نارٌ.

۞ **قال رسول الله ﷺ: «معه (أى الدجال) جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار»**[١].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٤) كتاب الفتن.

(٢) سرعة انتقاله بين البلدان:

ومن فتنة الدجال أنه يتجول بين البلدان بسرعة تفوق الخيال.

فلقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ -كما عند مسلم - فقالوا: يا رسول الله وما إسراعه فى الأرض؟ قال: «**كالغيث استدبرته الريح**».

ولذلك فهو سيدخل كل بلد على وجه الأرض فيما عدا مكة والمدينة.

(٣) استجابة السماء والأرض لأمره!!!

ومن فتنته أنه يأمر السماء فتُمطر ويأمر الأرض فتُنبت ويدعو الماشية فتتبعه ويأمر الخرائب أن تُخرج كنوزها المدفونة فتستجيب.

۞ قال ﷺ: «... **فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتُنْبِتُ، وَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَتَتْبَعُهُ أَمْوَالُهُمْ وَيُصبِحُونَ مُمْحِلِينَ مَا بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَيَنْطَلِقُ وَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحلِ...**»(١)(٢)(٣).

هكذا يُمكِّن الله عَزَّوَجَلَّ لذلك الدجال ليكون فتنة للكافرين والمنافقين والمجرمين.. وأما أهل الإيمان فيحفظهم الله من فتنة الدجال.

هكذا يُمكِّن الله للدجال فيأتى القوم يدعوهم فيستجيبون له ويؤمنون به،

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢١٣٧) كتاب الفتن.

(٢) **قال الإمام النووى**: أما (تروح) فمعناه ترجع آخر النهار، و(السارحة) هى الماشية التى تسرح أى تذهب أول النهار إلى المرعى، وأما (الذُّرى) وهى الأعالى، و(الأسنمة) جمع ذروة وقوله: (وأسبغه) أى أطوله لكثرة اللبن، وكذا (أمده خواصر) لكثرة امتلائها من الشبع.

قوله ﷺ: (فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل) هى ذكور النحل هكذا فسره ابن قتيبة وآخرون قال القاضى: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة لكنه كنَّى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها، لأنه متى طار تبعته جماعته والله أعلم. [مسلم بشرح النووى (١٨/ ٨٩)].

(٣) قصة النهاية / د. محمود المصرى (ص ٥٠٧-٥٠٩).

«**فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت**»، يشاهدون ذلك بأعينهم، يقول: أيتها السماء: أمطرى، فتمطر... أيتها الأرض أنبتى فتنبت، لكن ليس بقدرته وقوته بل بإرادة الله عَزَّوَجَلَّ لكن الله مكّن له ابتلاءً وامتحانًا، «**فيصبحون تروح عليهم سارحتهم**» يعنى الغنم والإبل أكثر ما يكون ذروعًا وأوفر ما تكون ذُرًا وأمدها خواصر، تمتلئ بطونها، وتمتلئ ضروعها، ويكون عليها الشحم، ويأتى القوم فيدعوهم فلا يستجيبون له يردونه، فينصرف، فيصبحون مُمحلين ليس لهم من أموالهم شيء... الأرض خربت، والسماء لا تمطر والمال يمور... ولكن هؤلاء هم الذين لهم الأجر والثواب، وعاقبتهم حميدة، أما الأولون الذين آمنوا به وأمطرت السماء وأنبتت الأرض فهم خاسرون وإن ظنوا أنهم رابحون... ويأتى إلى الخربة -أرض خربة ما بها بناء وما بها أُناس- فيقول: أيتها الأرض أخرجى كنوزك فتُخرج كنوزها وما بها من معادن: من ذهب، وفضة وغير ذلك، فتتبعه كيعاسيب النحل -أى: كذكور النحل-.

(٤) الدجال يستعين بالشياطين:

قال ﷺ: «**... وإن من فتنته أن يقول لأعرابى: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أنى ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان فى صورة أبيه، وأمه، فيقولان: يا بُنى، اتبعه، فإنه ربك..**» (١).

۞ وأما عن المدة التى يمكثها فى الأرض فإنه يمكث فى الأرض أربعين يومًا: اليوم الأول طوله سنة؟ اثنا عشر شهرًا، (٣٦٠) يومًا..هذا اليوم الأول. والثانى مقداره شهر (٣٠) يومًا، والثالث مقداره جمعة يعنى أسبوعًا، وباقى الأيام وهى سبعة وثلاثون يومًا كالأيام المعتادة...ولكن الله عَزَّوَجَلَّ نبّه الصحابة قالوا: يا رسول الله هذا اليوم الذى كسنة تكفينا فيه صلاة واحدة؟ فيكون عليهم فى هذا اليوم

(١) صحيح: رواه ابن ماجة والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

كم؟ خمس صلوات؟..قال لهم: «**لا، اقدروا له قدره**» يعنى صلوا صلاة السنة كاملة فى يوم واحد، وهذا مما يُؤخَذ على سبيل الطرفة..يُقال: إنسان وجب عليه صلاة سنة كاملة فى يومٍ واحدٍ..وأيضًا يُؤخَذ به من جهة أخرى: رجلٌ وجبت زكاة ماله فى يومٍ واحدٍ...وأيضًا فيقال: يصوم رمضان بعض يوم يعنى جزءًا من اثنى عشر جزءًا من هذا اليوم...نقول: هذا يوم الدجال...وسبحان الله الحكيم الذى أكمل لنا الدين قبل أن يموت سيد المرسلين ﷺ...أنطق الله الصحابة أن يسألوا عن هذا اليوم: هل تكفى فيه صلاة واحدة أم لا؟...لأنه يوجد الآن فى الأرض مَن يومهم ستة أشهر، وليلهم ستة أشهر، عند المدار القطبى...ستة أشهر والشمس تُشرق عليهم، وستة أخرى والشمس لا يرونها فكيف يصلى هؤلاء؟ يصلون صلاة يوم وليل فقط أو يقدرون لها قدرها؟ نقول: يقدرون لها قدرها كيوم الدجال تمامًا.. أى يحسبون أوقات الصلاة بعدد الساعات التى بينها...اليوم الثانى من أيام الدجال كشهر كيف تكون فيه الصلاة؟.. يصلون صلاة شهر، واليوم الثالث يصلون صلاة أسبوع، واليوم الرابع وما بقى كالعادى... ثم سأله الصحابة رضي الله عنهم عن سَيره فى الأرض هل هو كالسير المعتاد كسير الإبل أو سَير الأرجُل؟ قال ﷺ: «**يسير كالغيث استدبرته الريح**»... والله أعلم كيف كان إسراعه؟... هل يُحدث الله له آلات، أو طائرات، أو غيرها؟ ما تدرى، لكنه هذا الذى أخبر به النبى ﷺ أنه يكون كالغيث.

وذكر أيضًا فى هذه الأحاديث أن رجلًا شابًّا مسلمًا يخرج إذا سمع به ليبين للناس كذبه فيتلقاه حرس الدجال المتسلحون ويقولون: أين تريد، يقول: أريد هذا الرجل الذى خرج، فيأخذونه ويقولون: أتؤمن بربنا؟ فيقول: لا، إنه الدجال، فيريدون أن يقتلوه، ولكن بعضهم يقول لبعض: أليس قد قال ربنا: -أى الدجال- لا تقتلوا أحدًا دونى، فيتركونه، ثم يأتون به إلى الدجال فيشهد هذا الرجل المسلم أنه هو الدجال الذى أخبر به النبى ﷺ فيغضب عليه، ويأمر بالمنشار فيُنشر من رأسه إلى ما بين رجليه...يعنى يشقه طُولًا ويجعل كل فرقة

منه فى جانب، ويمشى بينهما، ثم يدعوه فيخرج ويقوم يتهلل وجهه، وهو يقول: والله ما ازددت فيك إلا بصيرة، ثم يريد أن يقتله ويعجز[1].. لأن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل ما بين رقبة هذا الشاب إلى تَرقُوته نُحاسًا فلا يستطيع أن يقتله.

۞ إن الدَّجَّال سيسير فى الأرض كلها ولن يترك قرية إلا نزل فيها .. إلا مكَّة والمدينة فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد حفظ مكة والمدينة من الدَّجَّال فلا يستطيع أن يدخلهما أبدًا.

۞ **قال ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»**[2].

فإذا عجز الدجال عن دخول مكة والمدينة فلا بد أن يخرج إليه المنافقون حتى يتبعوه... ولذا أخبرنا النبى ﷺ عن كيفية خروج المنافقين من المدينة المنورة فقال ﷺ: **«لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا، فَيَنْزِلُ بِالسَّبْخَةِ**[3]**، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»**[4].

۞ وبعد خروج الدجال وإفساده فى الأرض طوال هذه الفترة يُنزل الله عَزَّوَجَلَّ عيسى ابن مريم رسول الله ﷺ ... ينزل واضعًا كفَّيه على أجنحة ملكين ؛ لأن الملائكة أولو أجنحة... ينزلان به من السماء؛ لأن عيسى الآن حيٌّ فى السماء، ينزل عند قيام الساعة ليقتل الدجال ... ينزل، وكأنه والله أعلم قد اغتسل بماءٍ طيب، إذا طأطأ رأسه قَطَّرَ ماءً، وإذا رفعه تَحدَّر منه مثل الجُمان، فيحتمل أن هذا ماء ويحتمل أنه عرق والله أعلم... ثم إنه يطلبه أى يطلب الدجال الخبيث الماكر الأعور فلا يحل لكافرٍ يجدُ ريح نَفَس عيسى إلا مات.

---

(١) بتصرف من كتاب (شرح رياض الصالحين).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٨٨٠) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (١٣٧٩) كتاب الحج.

(٣) السبخة: الأرض الرملية التى لا تنبت لملوحتها ... وبعض أراضى المدينة كذلك.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخارى (١٨٨١) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (٢٩٤٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

- سبحان الله - نَفَسُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقتل الكافر ... ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طرفه... وهذا أيضًا من آيات الله ... يعنى أنفاسنا نحن لا تَعدُو إلا شِبرًا أو نحوه، لكن نَفَس عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ينتهى حيث ينتهى طرفه.

ومعنى ذلك أنه يقتل أُناسًا كثيرين من الكفار؛ لأن هذا النَّفس يطير فى الهواء، ولا يحل لكافر يجد نَفَسَه إلا مات... ينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق هكذا وصفه النبى ﷺ وهى لا بد أن تُوجَد عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ ... وبعد نزوله يتبع الدجال فيُدركه عند باب لُدٍّ... وهو الآن فى فلسطين التى استعمرها اليهود عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة... يدرك عيسى ﷺ المسيحَ الدجال فيقتله هناك، وبهذا انتهى المسيح الدجال، وبقى المسيح رسول الله عيسى ﷺ.

ثم يأتى عيسى ابن مريم قومًا قد عصمهم الله عَزَّوَجَلَّ من فتنة الدجال، فيمسح على وجوههم ويبشرهم بمنازلهم فى الجنة... فبينما هم كذلك - يعنى على حالهم - إذ يوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى عيسى أنى قد أخرجت عبادًا لى لا يدان لأحدٍ بقتالهم... وهؤلاء العباد ليسوا عبادَ دين بل عباد قدر. ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم: ٩٣]، هؤلاء العباد هم يأجوج ومأجوج من كل حدبٍ يَنسِلون - أى من كل مكانٍ مرتفع ينسلون - لأن الشعاب والأودية لا تسعهم فتجدهم يصعدون الجبال لينزلوا إلى الأرض من كثرتهم... هؤلاء من بنى آدم ليسوا جنًّا ولا جنسًا ثالثًا بل هم من بنى آدم.

ودليل ذلك أن النبى ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**» قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ**

تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»** فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.. إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ»**[(١)].

۞ ولقد ورد عن النبى ﷺ أن أهل الجنة مائة وعشرون صفًا منهم ثمانون من هذه الأمة..المهم أن يأجوج ومأجوج من بنى آدم، شكلهم شكل بنى آدم لا يختلفون عنهم، أما ما ورد فى بعض الآثار أن منهم القصير المفرط فى القِصَر، والطويل المفرط فى الطول، وأن بعضهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى كل هذا لا صحة له... هم من بنى آدم ومثلهم، لكنهم أمم عظيمة كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، أى من كل مرتفع ؛ لأن الأرض السهلة لا تسعهم من كثرتهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ أى يسرعون كأنهم مُسلَّطون على بنى آدم، فيقول عَزَّوَجَلَّ لعيسى: إنى قد بعثت عبادًا لا يدان لأحدٍ بقتالهم-يعنى ما لأحدٍ على قتالهم من قوة - فحرِّز عبادى إلى الطور - يعنى احترزوا فيه -.

والطور جبلٌ معروف، فيصعد عيسى ﷺ ومَن معه إلى الطور ويُحصَرون فيه حتى إنهم يلحقهم من الجوع وشدة المؤنة ما يكون رأس الثور أحب إلى أحدهم من مائة دينار... وحينئذٍ يرغب عيسى وقومه إلى الله عَزَّوَجَلَّ يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم هذه الأمم التى حاصرتهم فى هذا الجبل، فيرسل الله تعالى عليهم النَّغَف وهو عبارة عن دودٍ يكون فى أُنوف الإبل والغنم ... فيرسله الله فى رقابهم فيُصبحون فَرسَى - جمع فريسة يعنى موتى - كنفسٍ واحدة ... كل هذه الأمم التى لا يُحصيها إلا الله تموت فى ليلة واحدة ؛ لأن الأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ ... فهذا النغف حينما يدخل فى أعناقهم يموتون على الفور.

ثم ينزل عيسى ابن مريم وقومه إلى الأرض..وإذا الأرض مملوءة من هذه

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٤٨) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢٢) كتاب الإيمان.

الجثث نَتنًا ورائحة خبيثة، فيرغب عيسى وقومه إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يُخلصهم من هذا، فيرسل الله تعالى طُيورًا كأعناق البُخت - يعنى مثل أعناق الإبل - طيورًا كبيرة قوية تأخذ الواحد منهم وتُلقيه فى البحر... ومعنى هذا أنها طيورٌ عظيمة لا يعلم عددها إلا الله عَزَّوَجَلَّ ... كل هذا بقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون ... لا تستغرب، لا تَقُل من أين جاءت الطيور؟ وكيف توالدت؟ الله على كل شيء قدير... هذه الطيور مثل أعناق الإبل تحمل الواحد وتُلقيه فى البحر ولا يبقى فيهم أحد...

لكن كما تعلمون لا بد أن يبقى فى الأرض شيء من القذر والأذى والرائحة بعد هذه الجثث ... فيرسل الله تعالى مطرًا عظيمًا يغسل الأرض لا يُكَنُّ منه مَدَر ولا وَبَر.. كل الأرض تمتلئ ماء حتى تكون كالزَّلقة! -أى: كالمرآة- تنظف تنظيفًا تامًا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ ... ويأمر الله الأرض أن تُخرج بركاتها، وثمراتها فيكون فيها الثمرات العظيمة، والخير والبركة، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى فئامًا من الناس... ومن البقر تكفى القبيلة من الناس... ومن الغنم تكفى الفخذ من الناس ... وهى واحدة لكن الله يُنزل فيها البركة فتكفى أُممًا، وتكثر الخيرات والبركات...وكل هذا يدل على عظمة وقدرة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، بدلًا من حصرتهم فى الطور لا يجدون شيئًا إذا بالأرض تنبت وتنزل فيها البركة والثمار.. وغير ذلك، كل هذا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ (١).

كيف ننجو من فتنة الدجال؟

۞ وإليكم جميعًا الوسائل التى تجعلنا ننجو بإذن الله من فتنة الدجال:

أولاً: الاعتصام بالله (جل وعلا) والتمسك بالإيمان والتعرف على أسماء الله وصفاته الحسنى،... فنعلم أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ٣٠٤-٣٠٥) بتصرف كبير.

أما الدجال فهو أعور والله ليس بأعور، وأننا لن نرى ربنا حتى نموت، أما الدجال فيراه الناس عند خروجه مؤمنهم وكافرهم.

ثانيًا: التعوذ من فتنة المسيح الدجال:

وخاصة فى الصلاة بعد التشهد وقبل التسليم.

❁ **قال رسول الله ﷺ: «إذا تشهَّد أحدكم؛ فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»**(١).

ثالثًا: حفظ آيات من سورة الكهف:

فقد أمر النبى ﷺ بقراءة فواتح سورة الكهف على الدجال... وفى بعض الروايات خواتيمها، وذلك بقراءة عشر آيات من أولها أو آخرها.

ومن الأحاديث الواردة فى ذلك ما رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان الطويل... (وفيه قوله ﷺ:) **«مَن أدركه منكم؛ فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»**(٢).

وروى مسلم أيضًا عن أبى الدرداء رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف؛ عُصم من الدجال»؛ أى: من فتنته.

قال مسلم: «قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف»(٣).

رابعًا: الفرار من الدجال، والابتعاد عنه:

والأفضل سُكنى مكة والمدينة، فقد سبق أن الدجال لا يدخل الحرمين، فينبغى للمسلم إذا خرج الدجال أن يبتعد عنه، وذلك لما معه من الشبهات

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين.

والخوارق العظيمة التى يُجريها الله على يديه فتنة للناس؛ فإنه يأتيه الرجل وهو يظن فى نفسه الإيمان والثبات، فيتبع الدجال.

قال ﷺ: «مَن سمع بالدجال؛ فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يُبعث به من الشبهات، أو لما يُبعث به من الشبهات»(١).

خامسًا: معرفة أسماء الله وصفاته:

لأنَّ الدَّجَّال أعور... والله عَزَّوَجَلَّ ليس بأعور بل هو عَزَّوَجَلَّ جميل مُنَزَّه عن العيوب والنقائص ... قُدوس متنزه عن العيوب ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

سادسًا: حرزٌ خاص من الدَّجَّال:

عَنْ أَبِى قِلَابَةَ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا بِالْمَدِينَةِ وَقَد طَافَ النَّاسُ بِهِ وَهُوَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِذَا رَجُلٌ مِنْ أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فَسَمِعتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: **«إِنَّ مِنْ بَعدِكُمُ الْكَذَّابَ الْمُضِلَّ، وَإِنَّ رَأْسَهُ مِنْ بَعدِهِ حُبُكٌ حُبُكٌ حُبُكٌ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - وَإِنَّهُ سَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَمَنْ قَالَ: لَستَ رَبَّنَا، لَكِن رَبُّنَا اللهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْهِ أَنَبْنَا، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّكَ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ»**(٢)(٣).



(١٨٢٩) وعن أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لا تَقُومُ الساعَةُ حتَّى يُقاتِلُ المُسلِمُونَ اليَهُودَ حتَّى يَختَبِئَ اليهُودِيُّ مِن وراءِ الحَجَرِ والشَّجَرِ، فيقُولُ الحجَرُ والشَّجَرُ: يا مُسْلِمُ، هذا يَهُودِيٌّ خَلْفى تَعالَ فاقْتُلْهُ، إلا الغرقَدَ فإنَّهُ مِن شَجَرِ اليَهُودِ»(٤).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٠١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٨٠٨).

(٣) كتاب «قصة النهاية» د. محمود المصرى (ص ٥٢٩: ٥٣٢) بتصرف

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٢٦) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (٢٩٢٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

۞ لا بد أن نعلم أن المسلمين بعد بعثة الرسول ﷺ هم أتباع الرسول محمد ﷺ ... وأما قبل ذلك فالمسلم مَن اتبع الشريعة القائمة... فقوم موسى عليه السلام في عهد موسى مسلمون...والنصارى في عهد عيسى عليه السلام مسلمون...ومَن آمن من قوم نوح عليه السلام مسلمون... وهكذا كل مَن كان مؤمنًا برسولٍ رسالته قائمة فهو مسلم... لكن بعد بعثة الرسول محمد ﷺ فليس هناك مسلمٌ إلا مَن آمن به ﷺ... وإلا فلا يخفى عليكم أن الحواريين قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وأن ملكة سبأ قالت: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]،وغير ذلك مما هو معروف.

فاليهود هم أتباع موسى سُمُّوا بذلك نسبة إلى جدهم يهوذا، فهم ينتسبون إليه، لكن مع التعريب صاروا (يهود) بالدال... وهي أمة ملعونة غدارة، خَوَّانة، مكارة، واصفة لربها بالعيب والنقص... قالوا - أي اليهود -: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: (إن الله تعب حين خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت..) إلى غير ذلك مما وصفوا الله تعالى به بالنقائص والعيوب...أما مع الرسل فحدِّث ولا حرج .. فقد كفروا بالرسل، وقتلوهم بغير حق، وحاولوا قتل المسيح عيسى ابن مريم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

فهم أخبث أمة من الأمم، وهم قومٌ خونة أهل غدرٍ لا يوفون بعهدٍ ولا ذمة ولا يُؤتمنون على شيء[1].

۞ ونحن نعلم أن المسلمين قاتلوا اليهود في زمن النبي ﷺ وانتصروا عليهم، وأجلوهم من جزيرة العرب... وكل ذلك كان امتثالًا لقول النبي ﷺ: «**لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، حَتَّى لا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا**»[2]...

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٠٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٦٧) كتاب الجهاد والسير.

ولأنهم أيضًا كانوا خائنين فاستحقوا كل ما حدث لهم.

❁ ولكن هذا القتال ليس هو القتال الذى أخبر النبى ﷺ أنَّه من أشراط الساعة ... وإنما أخبر النبى ﷺ أن المسلمين سيقاتلوهم عند خروج المسيح الدجال فيتبع اليهود الدجال فيقاتلهم المسلمون الذين هم فى ذلك الوقت جُند عيسى عليه السلام .. فيُنطق الله الشجر والحجر حينما يختبئ اليهودى خلفه.. فيقول الشجر والحجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى ورائى تعالَ فاقتله.

روى الإمام أحمد عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه حديثًا طويلًا فى خطبة النبى ﷺ يوم كُسفت الشمس ... وفيه أنه ذكر الدَّجَّال، فقال: «**وَإِنَّهُ يَحصُرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيُزَلْزَلُونَ زِلْزَالًا شَدِيدًا، ثُمَّ يُهْلِكُهُ اللهُ وَجُنُودَهُ، حَتَّى إِنَّ جِذْمَ الْحَائِطِ،** أَوْ قَالَ: **أَصلَ الْحَائِطِ، وَأَصلَ الشَّجَرَةِ، لَيُنَادِي، يَا مُؤْمِنُ،** أَوْ قَالَ: **يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ تَعَالَ فَاقْتُلْهُ**»، قَالَ: «**وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا**»(١).

وروى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ(٢)، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**»(٣).

والذى يظهر من سياق الأحاديث أنَّ كلام الحجر والشجر ونحوه حقيقة، وذلك لأن حدوث تكلُّم الجمادات ثابتٌ فى غير أحاديث قتال اليهود.

وإذا كانت الجمادات تتكلَّم فى ذلك الوقت؛ فلا داعى لحمل كلام الشجر

---

(١) رواه أحمد، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٦/ ٦١٠).

(٢) (الغرقد): قال النووى: «نوع من شجر الشوك، معروف ببلاد المقدس، وهناك يكون قتل الدجال واليهود». «شرح مسلم» (١٨/ ٤٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٢٦) كتاب الجهاد، ومسلم (٢٩٢٢) كتاب الفتن.

والحجر على المجاز؛كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء(١)؛ فإنَّه ليس هناك دليلٌ يُوجبُ حمل اللفظ على خلاف حقيقته..ونُطق الجماد قد ورد في آياتٍ من القرآن:

منها: قوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وجاء في الحديث عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَكَانَ أَكْثَرُ خُطْبَتِهِ حَدِيثًا، حَدَّثَنَاهُ عَنِ الدَّجَّالِ، وَحَذَّرَنَاهُ، فذكر خروجه، ثم نزول عيسى عليه السلام لقتله، وفيه: «**قَالَ عِيسَى عليه السلام: افْتَحُوا الْبَابَ، فَيُفْتَحُ، وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ، كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ**(٢)**، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ، كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا، وَيَقُولُ عِيسَى عليه السلام: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً، لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ الشَّرْقِيِّ، فَيَقْتُلُهُ، فَيَهْزِمُ اللهُ الْيَهُودَ، فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلَّا أَنْطَقَ اللهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، لا حَجَرَ، وَلَا شَجَرَ، وَلَا حَائِطَ، وَلَا دَابَّةَ، إِلَّا الْغَرْقَدَةَ، فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ، لا تَنْطِقُ**»(٣).

فالحديث فيه التصريح بنطق الجمادات.

وأيضًا؛ فإن استثناء شجر الغرقد من الجمادات بكونها لا تخبر عن اليهود؛ لأنها من شجرهم، يدل على أنه نُطقٌ حقيقيٌّ، ولو كان المراد بنطق الجمادات المجاز؛ لما كان لهذا الاستثناء معنى.

ولو حملنا كلام الجمادات على المجاز؛ لم يكن ذلك بالأمر الخارق في قتال اليهود في آخر الزمان، وكانت هزيمتهم أمام المسلمين كهزيمة غيرهم من الكفار الذين قاتلهم المسلمون وظهروا عليهم... ولم يَرِد في قتالهم مثل ما ورد

(١) انظر: «هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري» (١/ ٣١٧)، و«العقائد الإسلامية» لسيد سابق، (ص ٥٤)، واختار ابن حجر أن نطق الجمادات من شجر وحجر حقيقة.
انظر: «فتح الباري» (٦/ ٦١٠).

(٢) (الساج): هو الطيلسان الضخم الغليظ، وقيل: الطيلسان المقور.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وابن خزيمة، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

فى قتال اليهود من الدلالة على المختبئ[1] بنطق الجمادات، فإذا لاحظنا أنَّ الحديث فى أمرٍ مُستغرَب يكون آخر الزمان هو من علامات الساعة؛ دلَّ ذلك على أنَّ النُّطق فى قتال اليهود حقيقىٌّ، وليس مجازًا عن انكشافهم أمام المسلمين وعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم كما قيل... والله أعلم[2].

❁ أحجارٌ تنطق وأشجارٌ تنطق! لماذا؟ لأن القتال بين المسلمين وبين اليهود، أما بين العرب واليهود فالله أعلم مَن ينتصر؟ لأن الذى يقاتل اليهود من أجل العروبة فقد قاتل حَمية وعصبية ليس لله عَزَّوَجَلَّ ولا يمكن أن ينتصر ما دام قتاله من أجل العروبة، لا من أجل الدين والإسلام إلا أن يشاء الله... لكن إذا قاتلناهم - أى اليهود - من أجل الإسلام ونحن على الإسلام حقيقة فإننا غالبون بإذن الله.

حتى الأحجار والأشجار تتكلم لصالحنا وضد اليهود... أما ما دامت المسألة عصبية وعروبة وما أشبه ذلك فلا ضمان للنصر أبدًا... ولهذا لا يمكن أن يقوم للعرب قائمة على هذا الأساس -أى أساس العروبة- فقد صارت النكبات العظيمة من اليهود على العرب شيئًا عظيمًا. احتلوا ديارهم وحاصروهم وآذوهم، لكن لو كان القتال من أجل الإسلام وبإسم المسلمين ما قامت لليهود قائمة... لكن من جهل العرب صاروا يقاتلون اليهود من أجل العروبة...ولذلك لم يُنصروا عليهم حتى الآن...الانتصار على اليهود فى الإسلام حقيقة لا غيب، ولن تقوم الساعة حتى يحصل ما أخبر به الصادق المصدوق رسول الله ﷺ... يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون وينتصرون عليهم ويظهرون عليهم، وينادى الحجر والشجر الذى ليس من عادته أن ينطق: يا مسلم هذا يهودى تعالَ فاقتله[3].

(١) انظر: «إتحاف الجماعة» (١/ ٣٣٧-٣٣٨).
(٢) أشراط الساعة (ص ٢٢٢-٢٢٥).
(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣١٠) بتصرف.

(١٨٣٠) وعن أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قال رسُولُ الله ﷺ: «والذى نَفْسِى بِيَدِهِ لا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بالقَبْر، فيتمَرَّغَ عَليهِ، ويقولُ: يا لَيْتَنى مكانَ صاحِبِ هذا القَبْرِ، ولَيْس بِهِ الدَّين وما به إلا البَلاءُ»[١].

۞ ها هو النَّبىُّ ﷺ يُخبر أنَّه سيأتى زمان يكثر فيه الظُّلم وتكثر فيه الفتن والبلاء حتى يَمُرَّ الرَّجُلُ بقبرِ الرَّجُلِ فيتمنَّى أن يكون مكانه.

وتمنِّى الموت يكون عند كثرة الفتن، وتغيُّر الأحوال، وتبديل رسوم الشريعة، وهذا إن لم يكن وقع؛ فهو واقعٌ لا محالة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «سيأتى عليكم زمان لو وجد أحدكم الموت يُباع لاشتراه ... وكما قيل:

وهذا العيش ما لا خير فيه ألا موت يُباع فأشتريه[٢]

قال الحافظ العراقى: «ولا يلزم كونه فى كل بلد ولا كل زمن ولا فى جميع الناس بل يَصدُق على اتفاقه للبعض فى بعض الأقطار فى بعض الأزمان. وفى تعليق تمنِّيه بالمرور وإشعار بشدة ما نزل بالناس من فساد الحال حالتئذ... إذ المرء قد يتمنى الموت من غير استحضارٍ لهيئته ... فإذا شاهد الموتى ورأى القبور نشز بطبعه ونفر بسجيته من تمنِّيه فلقوة الشدة لم يصرفه عنه ما شاهده من وحشة القبور... ولا يناقض هذا النهى عن تمنى الموت لأن مقتضى هذا الحديث الإخبار عما يكون وليس فيه تعرُّض لحكمٍ شرعىٍّ»[٣][٤].

وَقَالَ الحافظ ابن عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَظَنَّ بَعضُهُمْ أَنَّ هَذَا الْحَدِيث مُعَارِضٌ لِلنَّهْيِ عَنْ تَمَنِّى الْمَوْتِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا فِى هَذَا أَنَّ هَذَا الْقَدرَ سَيَكُونُ لِشِدَّةٍ

(١) **متفق عليه**: رواه البخارى (٧١١٥) كتاب الفتن - ومسلم (٥٣)(١٥٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) «فيض القدير» (٦/ ٤١٨).

(٣) «فيض القدير» (٦/ ٤١٨)، وانظر: «فتح البارى» (١٣/ ٧٥-٧٦).

(٤) أشراط الساعة (ص ٢٠٨-٢٠٩).

تَنْزِلُ بِالنَّاسِ مِنْ فَسَادِ الْحَالِ فِى الدِّينِ أَوْ ضَعفِهِ أَوْ خَوْفِ ذَهَابِهِ لَا لِضَرَرٍ يَنْزِلُ فِى الْجِسْمِ»(١).

ويُكره للمؤمن أن يتمنى الموت عندما يشتد عليه البلاء إلا أن يخشى الفتنة فى دينه.

عن أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسُول الله ﷺ قال: «**لا يتمنينَّ أحدُكُمُ الموت إما مُحسنًا، فلعلهُ يزدادُ، وإما مُسيئًا فلعلهُ يستعتبُ**» (٢).

وفى رواية لمسلم عن أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسُول الله ﷺ قال: «**لا يتمنينَّ أحدُكُمُ الموتَ، ولا يَدعُ به من قبل أن يأتيهُ، إنهُ إذا مات انقطع عملُهُ، وإنهُ لا يزيدُ المُؤمنَ عُمُرُهُ إلا خيرًا**»(٣)(٤).

❊❊❊

(١٨٣١) وعن أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لا تقُومُ السَّاعةُ حتَّى يَحسِرَ الفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِن ذَهَبٍ يُقْتَتَلُ عليه، فيُقْتَلُ مِن كُلِّ مائةٍ تِسْعةٌ وتِسْعُونَ، فيقولُ كُلُّ رَجُلٍ منهم: لَعَلِّى أنْ أَكُونَ أنَا أَنْجُو».

وفى روايةٍ: «يوشِكُ أنْ يَحسِرَ الفُراتُ عن كَنْزٍ مِن ذَهَبٍ، فمَن حَضَرَهُ فلا يأخُذ مِنْه شيئًا» (٥).

❁ ومن علامات الساعة الصغرى أن ينحسر نهر الفرات عن جبل من ذهب.

ونهر الفرات نهرٌ معروف وهو كثير الماء ... والنبى ﷺ يخبر أن ذلك النهر سوف يحسر عن جبل من الذهب.

---

(١) «فتح البارى» (١٣/ ١٩٣).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٢٣٥) كتاب التمنى.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٤) قصة النهاية / د. محمود المصرى (ص ٢٦٦-٢٦٧).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٧١١٩) كتاب الفتن، ومسلم (٢٨٩٤) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

ولعل هذا يكون بسبب أن النهر سيتغير مجراه وسيكون ذلك سببًا فى كشف ذلك الجبل الذى هو من الذهب.

۞ **وروى مسلم هذا الحديث عن أُبى بن كعب بلفظ: «يُوشِك الفرات أن يَحسِرَ عن جبلٍ من ذهب فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه لَيُذْهَبنَّ به كُلِّه، قال: فيقتتلون عليه، فيُقتل من كل مائةٍ تسعةٌ وتسعون»** [1].

ومعنى انحساره: انكشافه لذهاب مائة، كما يقول النووى [2]، وقد يكون ذلك بسبب تَحوُّل مجراه، فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور بالتراب وهو غير معروف، فإذا ما تحول مجرى النهر لسببٍ من الأسباب ومَرَّ قريبًا من هذا الجبل كشفه، والله أعلم بالصواب[3].

۞ واليوم تقيم تركيا وسوريا سدودًا على نهر الفرات، وتقيم عنده المصانع، مما أدَّى إلى قلة جريان الماء فيه، فقد يكون هذا مقدمات لظهور ذلك الجبل.

وليس المقصود بهذا الجبل من ذهب (النفط / البترول الأسود)؛ كما يرى ذلك أبو عبية فى تعليقه على «النهاية فى الفتن والملاحم» لابن كثير[4]، وذلك من وجوه:

(١) أنَّ النَّصَّ جاء فيه: «جبل من ذهب»، والبترول ليس بذهب على الحقيقة؛ فإنَّ الذَّهَب هو المعدن المعروف.

(٢) أنَّ النبى ﷺ أخبر أن ماء النهر ينحسر عن جبل من ذهب، فيراه الناس، والنفط أو (البترول) يُستخرج من باطن الأرض بالآلات من مسافات بعيدة.

(٣) أنَّ النبى ﷺ خصَّ الفُرات بهذا دون غيره من البحار والأنهار... والنفط

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٩٥) كتاب الفتن.

(٢) شرح النووى على مسلم: (١٨/ ٩).

(٣) القيامة الصغرى (ص ٢٠٦/ ٢٠٧).

(٤) «النهاية فى الفتن والملاحم» (١/ ٢٠٨)، تحقيق محمد فهيم أبو عبية.

نراه يُستخرج من البحار كما يُستخرج من الأرض، وفى أماكن كثيرة متعدِّدة.

(٤) انَّ النبىَّ ﷺ أخبر أنَّ النَّاس سيقتتلون عند هذا الكنز، ولم يَحصُل أنَّهم اقتتلوا عند خروج النفط من الفرات أو غيره، بل إنَّ النبى ﷺ نهى مَن حضر هذا الكنز أن يأخذ منه شيئًا؛ كما فى الرواية الأخرى عن أُبى بن كعب رضي الله عنه قال: لَا يَزَالُ النَّاسُ مُخْتَلِفَةً أَعناقُهُمْ فِى طَلَبِ الدُّنْيَا... إِنِّى سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**يُوشِكُ الفُرَاتُ أَنْ يَحسِرَ عَنْ كَنْزٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَمَنْ حَضَرَهُ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا**»[١] ، ومَن حمله على النفط؛ فإنه يلزمه على قوله هذا النهى عن الأخذ من النفط... ولم يَقُل به أحد[٢].

وقد رجَّح الحافظ ابن حجر أن سبب المنع من الأخذ من هذ الذَّهب لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والقتال عليه[٣].



(١٨٣٢) وعن أبى هُرَيْرةَ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسُول الله ﷺ يقولُ: «يَتْرُكُونَ المدينةَ على خَيْرِ مَا كانَتْ، لا يَغْشَاهَا إلا العَوافى - يريدُ: عَوافى السِّباعِ والطَّيْرِ - وآخِر مَنْ يُحشَرُ راعِيانِ مِن مُزَيْنَةَ يُريدانِ المدينَةَ ينْعِقَانِ بِغَنَمهما فيَجِدَانها وُحُوشًا. حتى إذا بَلَغا ثَنِيَّةَ الوداعِ خَرَّا على وجوهِهِما»[٤].

۞ حثَّ النبى ﷺ على سُكنى المدينة، ورغَّب فى ذلك... وأخبر أنه لا يخرج أحدٌ منها رغبةً عنها إلا أخلف الله فيها مَن هو خيرٌ منه.

۞ **عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:«لا يصبر على لأْواء المدينة**

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٩٤) كتاب الفتن .

(٢) انظر: «إتحاف الجماعة» (١/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٣) انظر: «فتح البارى» (١٣/ ٨١).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٧٤) كتاب الحج - ومسلم (١٣٨٩) كتاب الحج.

وشِدَّتها أحدٌ من أمتى إلا كنتُ له شفيعًا يوم القيامة أو شهيدًا»[١].

۞ وأخبر النبى ﷺ أن من علامات الساعة نفى المدينة لخَبثها، وهم شرار الناس؛ كما ينفى الكيرُ خَبثَ الحديد.

وقد حمل القاضى عياضٌ نفى المدينة لخَبثها فى زمن النبى ﷺ... لأنه لم يكن يصبر على الهجرة والمُقام فى المدينة إلا مَن كان ثابت الإيمان، وأمَّا المنافقون وجَهَلة الأعراب؛ فلا يصبرون على شدَّة المدينة ولأوائها، ولا يحتسبون من الأجر فى ذلك.

وحمله النووى على زمن الدَّجَّال، واستبعد ما اختاره القاضى عياض، وذكر أنه يحتمل أن يكون ذلك فى أزمانٍ متفرِّقة[٢].

۞ وذكر الحافظ ابن حجر أنه يحتمل أن يكون المراد كلًّا من الزمنين.

وأمَّا خروج الناس بالكليَّة من المدينة؛ فذلك فى آخر الزَّمَان، قرب قيام الساعة.

قال الحافظ ابن حجر: «رَوَى عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَوْفِ ابْنِ مَالِكٍ؛ قَالَ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «**أَمَا وَاللهِ لَيَدَعَنَّهَا أَهْلُهَا مُذَلَّلَةً أَرْبَعِينَ عَامًا لِلْعَوَافِي ... أَتَدرُونَ مَا الْعَوَافِي؟ الطَّيْرُ وَالسِّبَاعُ**».

ثم قال ابن حجر: «وهذا لم يقع قطعًا»[٣].

فدلَّ هذا على أن خروج النَّاس من المدينة بالكليَّة يكون فى آخر الزمان، بعد خروج الدَّجَّال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام... ويحتمل أن يكون ذلك عند خروج النار التى تَحشُرُ الناس، وهى آخر أشراط الساعة، وأول العلامات الدَّالَّة على قيام الساعة، فليس بعدها إلا الساعة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٧٨) كتاب الحج.

(٢) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووى (٩/ ١٥٤).

(٣) «فتح البارى» (٤/ ٩٠).

ويؤيِّد ذلك كون آخر مَن يُحشَر يكون منها؛ ... كما فى حديث أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «وَآخِرُ مَنْ يُحشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ، يُرِيدَانِ المَدِينَةَ، يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا فَيَجِدَانِهَا وَحشًا»[(١)] أى: خالية من الناس، أو أنَّ الوحوش قد سكنتها، والله أعلم[(٢)].

۞ قال الإمام النووى رحمه الله: وَأَمَّا مَعنَى الْحَدِيثِ فَالظَّاهِرُ الْمُخْتَارُ أَنَّ هَذَا التَّركَ لِلْمَدِينَةِ يَكُونُ فِى آخِرِ الزَّمَانِ عند قيام الساعة وتُوضحه قصة الراعيين مِنْ مُزَيْنَةَ فَإِنَّهُمَا يَخِرَّانِ عَلَى وُجُوهِهِمَا حِينَ تُدرِكُهُمَا السَّاعَةُ وَهُمَا آخِرُ مَنْ يُحشَرُ[(٣)].

(١٨٣٣) وعن أبى سعيدٍ الخدرىِّ رضي الله عنه أنَّ النَّبِىَّ صلى الله عليه وسلم قال: «يكُونُ خَلِيفَةٌ مِن خُلفَائِكُم فى آخِرِ الزَّمان يَحثُو المالَ ولا يَعُدُّهُ»[(٤)].

۞ اختلف أهل العلم فى مَن يكون هذا الخليفة الذى يحثو المال ولا يَعُدُّه... أى: أنه يفعل هذا بالمال لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات من سخاء نفسه وكرمه الزائد.

فذهب بعض أهل العلم أنه ربما يكون هذا الخليفة هو عمر بن عبد العزيز رحمه الله الذى كَثُر المال فى عهده حتى اغتنى المسلمون فى عهده.. وكان يُطعم الطيور فى الصحراء ويتصدق على فقراء أهل الكتاب..

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المقصود بهذا الخليفة أنه المهدى رضي الله عنه الذى هو من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم من نسل الحسن ابن فاطمة رضي الله عنهما.. والذى سيملأ الدنيا قسطًا وعدلًا كما مُلئت ظُلمًا وجورًا.

ففى عهد المهدى تكثر الخيرات وتَعُمُّ البركات وتَنعم الأمة فى عهده نعمة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٧٤) كتاب الحج - ومسلم (١٣٨٩) كتاب الحج.
(٢) أشراط الساعة (ص ٢٢٥-٢٢٩) بتصرف.
(٣) مسلم بشرح النووى (٩/ ٢٢٧).
(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٩١٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

لم تَنعمها قط.. فتُخرج الأرض خيراتها وتُنزل السماء بركاتها، ويكثر المال ويفيض ويَسعد الناس سعادة لا يعلم قدرها إلا الله (جل وعلا).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «فى زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر، والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير فى أيامه دائم»(١).

عن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«يخرج فى آخر أمتى المهدى؛ يسقيه الله الغيث، وتُخرج الأرض نباتها، ويُعطى المال صحاحًا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعًا أو ثمانيًا (يعنى: حِجَجًا)»**(٢).



(١٨٣٤) وعن أبى مُوسى الأشْعَرىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِىَّ ﷺ قال: «ليأتِيَنَّ على النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فيه بالصَّدَقَةِ مِن الذَّهَبِ، فلا يَجِدُ أحَدًا يأخُذُهَا مِنْهُ، ويُرَى الرَّجُلُ الواحِدُ يَتْبَعُهُ أربَعُونَ امرأَةً يَلُذْنَ بِهِ مِن قِلَّةِ الرِّجالِ وكَثْرَةِ النِّساءِ»(٣).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه سيأتى زمان يكثر فيه المال وتكثر فيه الكنوز حتى يطوف الرجل بصدقته من الذهب ويعرضها على الناس فلا يقبلها أحد... ويكثر عدد النساء ويقل عدد الرجال حتى يصبح الرجل مسئولًا عن أربعين امرأة وفى رواية أخرى أنهم خمسون امرأة .. يصبح الرجل الواحد مسئولًا عن القيام بحوائجهن.

وأظن – والله أعلم– أن هذا سيحدث عند نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فى آخر الزمان.. فإن المال سيكثر فى عهده ولن يقبله أحد لأنهم يعلمون أن الساعة قد اقتربت فيزهدون فى الدنيا ويقبلون على العبادة.. والدليل على ذلك قول النبى

---

(١) النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ٣١).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٤/ ٥٥٧، ٥٥٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى. وقال الألبانى: «هذا سند صحيح، رجاله ثقات»، «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٧١١).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١٤) كتاب الزكاة – ومسلم (١٠١٢) كتاب الزكاة.

ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرِيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، وَإِمَامًا عَدلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

فتُصبح السجدة الواحدة في هذا الزمان خيرًا من كنوز الدنيا وما فيها.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَسَبَبُ عَدَمِ قَبُولِهِمُ الصَّدَقَةَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَظُهُورِ كُنُوزُ الْأَرضِ وَوَضْعِ الْبَرَكَاتِ فِيهَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ بَعدَ هَلَاكِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَقِلَّةِ آمَالِهِمْ وَقُربِ السَّاعَةِ وَعَدَمِ ادِّخَارِهِمُ الْمَالَ وَكَثْرَةِ الصَّدَقَاتِ وَاللهُ أَعلَمُ.

قَوْلُهُ ﷺ: «يَطُوفُ الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ مِنَ الذَّهَبِ» إِنَّمَا هَذَا يَتَضَمَّنُ التَّنْبِيهَ عَلَى مَا سِوَاهُ .. لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الذَّهَبُ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ فَكَيْفَ الظَّنُّ بِغَيْرِهِ...

وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَطُوفُ» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَتَرَدَّدُ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا فَتَحصُلُ الْمُبَالَغَةُ وَالتَّنْبِيهُ عَلَى عَدَمِ قَبُولِ الصَّدَقَةِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: كَوْنُهُ يَعرِضُهَا وَيَطُوفُ بِهَا وَهِيَ ذَهَبٌ.

قَوْلُهُ ﷺ: «وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ تَتْبَعُهُ أَربَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ» مَعنَى (يَلُذْنَ بِهِ) أَيْ يَنْتَمِينَ إِلَيْهِ لِيَقُومَ بِحَوَائِجِهِنَّ وَيَذُبَّ عَنْهُنَّ كَقَبِيلَةٍ بَقِيَ مِنْ رِجَالِهَا وَاحِدٌ فَقَطْ وَبَقِيَتْ نِسَاؤُهَا فَيَلُذْنَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ لِيَذُبَّ عَنْهُنَّ وَيَقُومَ بِحَوَائِجِهِنَّ وَلَا يَطْمَعَ فِيهِنَّ أَحَدٌ بِسَبَبِهِ ... وَأَمَّا سَبَبُ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ فَهُوَ الْحُرُوبُ وَالْقِتَالُ الَّذِي يَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَتَرَاكُمُ الْمَلَاحِمِ كَمَا قَالَ ﷺ: «وَيَكْثُرُ الْهَرجُ» أَيِ: الْقَتْلُ(٢).



(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٢٢) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٥) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٣٤-١٣٥).

(١٨٣٥) وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النَّبىِّ ﷺ قال: «اشْتَرَى رجُلٌ مِن رَجُلٍ عَقَارًا، فوَجَد الذى اشْتَرى العَقارَ فى عَقارِه جَرَّةً فيها ذَهَبٌ، فقال لهُ الذى اشْتَرَى العَقَارُ: خُذْ ذَهَبَكَ، إنَّما اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأرضَ، ولَم أشْتَرِ الذَّهَبَ، وقال الذى لهُ الأرضُ: إنَّما بِعتُكَ الأرضَ وما فيها، فتَحاكما إلى رجُلٍ، فقالَ الذى تَحاكَما إليهِ: ألَكُما وَلَدٌ؟ قال أحدُهُما: لى غُلامٌ. وقالَ الآخرُ: لى جارِيةٌ، قال: أنْكِحَا الغُلامَ الجارِيَةَ، وأنْفِقَا على أنْفُسِكُمَا مِنْهُ وتصدَّقَا »(١).

۞ فى التاريخ الإنسانى نماذج راقية، يتدافع أصحابها المال، ولا يحرصون عليه، خشية أن يكون حرامًا..وفى هذه القصة خبر رجلين تَدَافعا جَرة فيها ذهب كل واحدٍ منهما يزعم أنها لصاحبه دونه، وقد قضى الذى حَكَّماه بينهما بحكمٍ لطيف إذ أشار عليهما بتزويج ولد أحدهما بابنة الآخر، والإنفاق عليهما من ذلك المال.

۞ أخبرنا رسولنا ﷺ فى هذا الحديث عن رجلين اشترى أحدهما من الآخر أرضًا، فوجد فيها جَرة فيها ذهب، فكان حالهما عجبًا... فالمعهود بين الناس أن يختصم مثل هذين للحصول على الذهب، فيطالب كل واحدٍ منهما به ليحوزه دون الآخر، مُدَّعيًا أنه صاحبه... هذا لأنه اشترى الأرض بما فيها، والآخر لأنه باعه الأرض، ولم يبعه الذهب.

إن حب الأموال من الذهب والفضة وغيرهما مغروسٌ فى أعماق النفوس البشرية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد حمل حب المال الناس على التحاسُد والتباغُض والتدابُر، وحملهم على استحلال الحرمات، وسفك الدماء، والتخاصم لأكل أموال الناس بالباطل.

وقد أعلمنا ربنا أن هذا الداء وهو أكل المال بالباطل وصل إلى الذين

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٢) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (١٧٢١) كتاب الأقضية.

يحملون وحيه، ويقومون على شرعه ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ...﴾ [التوبة: ٣٤].

ولا شك أن هذين الرجلين ورعين صالحين، والإيمان القوى والتُّقى والصلاح يكون غالبًا وراء الزهد فى المال، وبخاصة إذا كان المال حرامًا، أو غير متأكد صاحبه من أن المال له.... فالأتقياء الصالحون يعلمون أن المال الحرام يُهلك الحلال، ويجلب غضب الرب وانتقامه، وقد يكون سببًا فى دخول صاحبه النار... أضِف إلى هذا أن الذين سُلبت أموالهم يأخذون من حسنات السالب بمقدار ما أخذ من أموالهم...ولذا فإن الأتقياء الصالحين يبذلون كل جهدٍ ممكن كيلا يأكلوا مالًا حرامًا، كما يحرصون على دفع الأموال إلى أصحابها، وهذا الصنف كثير فى هذه الأمة، وخاصة فى أوائلها، فقد كان المجاهدون يأتون بالأموال العظيمة، ويدفعونها إلى أمير الجيش، ولا يأخذون منها شيئًا.

وكما كانت قصة هذين الرجلين عجبًا، فإن قضاء القاضى الذى حكم بينهما كان أعجب وأغرب... فقد سألهما عمَّا عندهما من الذرية؟ فقال أحدهما: عندى غلام، وقال الثانى: عندى جارية، فأشار عليهما أن يُزوجا الغلام الجارية، ويُنفقا عليهما من المال الذى عثرا عليه... لقد ربط هذا القاضى بمشورته بين هاتين الأسرتين برباط المصاهرة... فالمصاهرة بين الأخيار تُقوى رباط الإيمان، وتُمتن العلاقة بين الصالحين... والزوجان الصالحان يُكونان أسرة صالحة، ويُرجَى أن يُنجبا ذرية صالحة.

عِبَر الحديث وفوائده

(١) مشروعية البيع والشراء عند الأمم السابقة وفى الشرائع السابقة، خلافًا لمن يزعم أن الملكية كانت معدومة عند البشر قديمًا.

(٢) وجود الصالحين الأتقياء الذين يحرصون على الحلال، ويجتنبون الحرام في كل العصور.

(٣) مشروعية التحاكم إلى مَن يُظَن فيه القدرة على الحكم من أهل العلم، وأصحاب الرأى.

(٤) الصناعات موجودة منذ القِدَم، بدلالة وجود هذه الجَرة، ووجود الذهب فيها.

(٥) **إذا وجد الإنسان مالًا مدفونًا يمكن معرفة أصحابه،** بأن يكون مدفونًا من عهدٍ ليس بالبعيد، فحاله حال اللُّقَطَة يجب البحث عن أصحابه، ودفعِ المال لهم... فإن كان العهد بعيدًا، ولا يُعرف أصحابه بحال، فهو كنز يملكه مَن عثر عليه بعد أن يُخرج منه الخُمس(١).

(٦) أما حكم هذه المسألة فقال العلماء رحمهم الله: **إن الإنسان إذا باع أرضًا** على شخص ووجد المشترى فيها شيئًا مدفونًا فيها من ذهبٍ أو غيره فإنه لا يملكه بملك الأرض ولكنه للبائع... وإذا كان البائع اشتراها من آخر فهي للأول؛ لأن هذا المدفون ليس من الأرض بخلاف المعادن: لو اشترى أرضًا ووجد فيها معدنًا من ذهب أو فضة أو حديد أو غيره فإنه يتبع الأرض... فهذا من المُلَح.



(١٨٣٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «كانَتْ امْرأَتَان معهُما ابْناهُما، جاء الذِّئْبُ فذَهَبَ بابنِ إحداهُما، فقالت لصاحِبَتِها: إنَّما ذهَبَ بابنِكِ، وقالت الأخْرى: إنَّما ذهَبَ بابنِكِ، فتَحَاكما إلى داوُدَ ﷺ، فقَضَى به للكُبْرَى، فخَرَجَتا على سُلَيْمانَ بنِ داودَ ﷺ، فأخبرتاه، فقال: ائْتُوني بالسِّكِينَ أشُقُّهُ بَيْنَهُما. فقالت الصُّغْرَى: لا تَفْعَلْ، رَحِمكَ الله، هُو ابْنُها ..فَقَضَى بهِ للصُّغْرَى»(٢).

(١) صحيح القصص النبوى/ د. عمر الأشقر (ص٢٦٨-٢٧٠).

(٢) **متفق عليه:** رواه البخارى (٣٤٢٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٢٠) كتاب الأقضية.

۞ هذه القصة تُظهر عبقرية نبى الله سليمان فى إظهار الحق فى خصومة خَلَتْ من الدلائل التى تدل على صاحب الحق... فقد أظهر أنه يريد قتل الطفل الذى تنازعت فيه امرأتان كُلُّ واحدة تدَّعى أنها أُمه، فظهرت الأم الحقيقية التى جادت به للأخرى حتى لا يُقتل حفاظًا على حياته، بينما قَبِلت الأخرى شَقَّه نصفين.

۞ وقعت هذه القصة فى عهد نبى الله داود عليه السلام، فقد تحاكمت إليه امرأتان... ذهب الذئب بولد إحداهما، فتنازعتا فى الولد الآخر، وكل واحدة تدَّعى أنه ولدها، فاجتهد نبى الله داود فى الحكم بينهما، فأدَّاه اجتهاده بالحكم به للكبرى بدلائل استدل بها على ذلك.

فلما خرجتا مارَّتين على نبى الله سليمان رأى أن يستخدم معهما طريقة يستطيع من خلالها أن يعرف الأم الحقيقية، فطلب ممن حوله أن يأتوه بسكين ليشق الغلام بينهما نصفين، فيعطى كل واحدة منهما نصفًا، وبذا يعدل بينهما فى الحكم، وقد ظنت المرأتان أن سليمان عليه السلام جادٌّ وعازم على تحقيق هذا الحكم، وهنا ظهر رَدُّ فعل كل واحدةٍ منهما... فالأم الحقيقية، وهى الصغرى جزعت من الحكم، لأن فيه هلاك ولدها، فطابت نفسها به للأخرى، لأن فى ذلك بقاءه وحياته، وإن كان فيه حرمانها من رعايته وتربيته... أما الأخرى التى لا تربطها بالطفل رابطة الأمومة، فإنها قبلت بالحكم الذى أظهره سليمان...فاستدل سليمان بذلك على الأم الحقيقية، فحكم لها بالطفل، على الرغم من إقرارها به للأخرى.

۞ قال النووى رحمه الله: تَوَصَّلَ سُلَيْمَانُ بِطَرِيقٍ مِنَ الْحِيلَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ إِلَى معرِفَةِ بَاطِنِ الْقَضِيَّةِ فَأَوْهَمَهُمَا أَنَّهُ يُرِيدُ قَطْعَهُ لِيَعرِفَ مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهَا قَطْعُهُ فتَكُونُ هِيَ أُمَّهُ ... فَلَمَّا أَرَادَتِ الْكُبْرَى قَطْعَهُ عَرَفَ أَنَّهَا لَيْسَتْ أُمَّهُ ... فَلَمَّا قَالَتِ الصُّغْرَى مَا قَالَتْ عَرَفَ أَنَّهَا أُمُّهُ وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ أَن يَقْطَعهُ حَقِيقَةً وَإِنَّمَا أَرَادَ اخْتِبَارَ شَفقَتِهِمَا لِتَتَمَيَّزَ لَهُ الْأُمُّ ... فَلَمَّا تَمَيَّزَتْ بِمَا ذَكَرت عَرَفَهَا[1].

(١) شرح النووى على مسلم (١٢/ ٣٨١).

وهذا الذى أظهر به سليمان الحق، هو نوع من الفراسة والحكم بالقرائن، والاستدلال بالأمارات، وعدم الوقوف مع مجرد ظواهر البينات والأحوال، وقد استدل الشاهد الذى شهد من أهل المرأة التى راودت نبى الله يوسف عليه السلام عن نفسه على كذبها، وصِدق يوسف بأن قميصه قُدَّ من دُبر، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: ٢٦-٢٨].

وقد لجأ القضاة المسلمون إلى استخراج الحق بأنواع لطيفة من الدلائل والأمارات التى لا ينتبه إليها إلا مَن عَظُمَت فطنته، وتبينت نباهته...وممن اشتهر بذلك من القضاة على بن أبى طالب رضي الله عنه، والقاضى شريح، والقاضى إياس.

وقد ذكر الإمام ابن القيم فى كتابه (الطرق الحُكمية فى السياسة الشرعية) أمثلة كثيرة لهذا النوع استخرج فيه القضاة الحق بالفراسة والأمارات[(١)(٢)].

❊ ❊ ❊

(١٨٣٧) وعن مِرداس الأسلمى رضي الله عنه قال: قال النبىُّ ﷺ: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ أَوِ التَّمْرِ لا يُبَالِيهِمُ اللهُ بَالَةً»[(٣)].

❁ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه يذهب الصالحون الأول فالأول، ثم يبقى حُثالة كحثالة الشعير أو التمر لا يبالى الله بهم بالًا ... يعنى لا يبالى بهم ولا يرحمهم ولا يُنزل عليهم الرحمة، فالصالحون يذهبون الأول...

وهذا الحديث يشبه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حين جاء الناس إليه يشكونه

---

(١) راجع الطرق الحكمية (ص٢٧) وإغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ٦٦).

(٢) صحيح القصص النبوى/ د. عمر الأشقر (ص١٥٠-١٥١).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٤٣٤) كتاب الرقاق.

الحُثالة: هم سَقط الناس .. وأصلها ما يتساقط من قشور التمر والشعير.

ما وجدوا من الحجَّاج بن يوسف الثقفى فأخبرهم أن النبى ﷺ قال: **«لا يأتى على الناس زمان إلا وما بعده شرٌّ منه حتى تَلقوا ربكم»** فهذا الحديث يشبه الحديث الذى أشرنا إليه، ولذلك تجد الناس يتردَّون كل عام عن العام الذى قبله... يذهب الصالحون الأول فالأول...فيما سبق تجد الناس يتهجدون فى الليل، ويصومون فى النهار، ويتصدقون من أقواتهم، ويُؤْثِرون على أنفسهم...

اليوم تجد بعض الناس تغيروا من سَنة إلى أخرى إلى أردى من قبل... سهرٌ فى الليل على غير طاعة الله، ونومٌ فى النهار أو لهو أو بيع وشراء يشتمل على الغش والكذب والخيانة - والعياذ بالله - لكن مع ذلك ففى الناس خيرٌ لا شك - يوجد أُناسٌ - ولله الحمد - على دين الله مستقيمين(١).

۞ لقد أخبر النبى ﷺ أنَّ من أشراط الساعة: ذهاب الصالحين وقلة الأخيار وكثرة الأشرار حتى لا يبقى على الأرض إلا شرار الناس .. وهم الذين تقوم عليهم الساعة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ النَّبىَّ ﷺ قال: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ»**(٢).

۞ ويكون ذلك عندما يرسل الله عز وجل ريحًا عظيمةً تقبض أرواح المؤمنين قبل قيام السَّاعة فلا يبقى على الأرض إلَّا شرار الخلق وعليهم تقوم الساعة.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَأْخُذَ اللهُ شَرِيطَتَهُ(٣) مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَبْقَى فِيهَا عَجَاجَةٌ(٤)، لَا يَعرِفُونَ مَعرُوفا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا»**(٥).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣١٣) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٧) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٤٩) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٣) شريطته: أى: أهل الخير والدين والصلاح.

(٤) عجاجة: العجاج: هم الغوغاء والأراذل ومن لا خير فيه.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٠)، قال الهيثمى (٨/ ١٣): رواه أحمد مرفوعًا وموقوفًا ورجالهما رجال =

أى: يأخذ الله أهل الخير والدين، ويبقى غوغاء الناس وأراذلهم ومَن لا خير فيهم... وهذا عند قبض العلم واتِّخاذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا يُفتون بغير علم.

وذهاب الصالحين يكون عند كثرة المعاصى، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. فإنَّ الصَّالحين إذا رأوا المنكر ولم يُغيِّروه وكَثُر الفساد؛ عَمَّهُم العذاب مع غيرهم إذا نزل؛ كما جاء فى الحديث لما قيل للنبى ﷺ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «**نَعَم إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**».

۞ ولا ينكر عاقل أنَّ المعاصى قد كثرت وأن الخَبَث قد كَثُر فى البَرِّ والبحر والجوِّ ... مبارزة لله (جل وعلا) بالمعاصى فى كُلِّ مكان (ولا حول ولا قوة إلا بالله).

(١٨٣٨) وعن رِفَاعةَ بنِ رافعٍ الزُّرَقِيِّ رضي الله عنه قالَ: جاء جِبريلُ إلى النَّبِيِّ ﷺ قال: ما تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدرٍ فيكُم؟ قالَ: «مِنْ أَفْضَلِ المسلِمين» أَوْ كَلِمةً نَحوَها، قال: «وكذلكَ مَن شَهِدَ بَدرًا مِن الملائكةِ»[(١)].

۞ إن غزوة بدرٍ كانت أول لقاء وأول معركة كانت بين المسلمين والمشركين.. وعلى الرغم من أن النبى ﷺ وأصحابه لم يكونوا قد خرجوا للجهاد وإنما خرجوا للحصول على العير إلا أن الله عز وجل أراد أن يتحول الموقف إلى مواجهة بين معسكر التوحيد ومعسكر الشرك.. ومع أن عدد المسلمين كان ثلث عدد المشركين إلا أن النصر كان حليفًا للنبى ﷺ وأصحابه.

وكان لأهل بدرٍ مكانة عظيمة عند الله عز وجل.

قال ﷺ: «**أن اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدرٍ فَقَالَ: اعمَلُوا مَا شئتم فقد غفرتُ لكم**»[(٢)]...

= الصحيح . والحاكم (٤/ ٤٨١) وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩٩٢) كتاب المغازى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠٠٧) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٤٩٤) كتاب فضائل الصحابة.

وفى تلك الغزوة أنزل الله عَزَّوَجَلَّ خيار الملائكة ليقاتلوا مع النبى ﷺ وأصحابه.

ذَكَرَ ابن إِسْحَاقَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي يَوْمِ بَدرٍ خَفَقَ خَفْقَةً ثُمَّ انْتَبَهَ فَقَالَ: «**أَبْشِر يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصرُ اللهِ، هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهُ الْغُبَارُ**».

وعن مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيًّا يَقُولُ: هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهَا، ثُمَّ هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، وَأَظُنُّهُ ذَكَرَ ثَالِثَةً، فَكَانَتِ الْأُولَى جِبْرِيلَ، وَالثَّانِيَةُ مِيكَائِيلَ، وَالثَّالِثَةُ إِسْرَافِيلَ، وَكَانَ مِيكَائِيلُ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ وَفِيهَا أَبُو بَكْرٍ، وَإِسْرَافِيلُ عَنْ يَسَارِهِ وَأَنَا فِيهَا» ... وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: «قِيلَ لِي وَلِأَبِي بَكْرٍ يَوْمَ بَدرٍ: مَعَ أَحَدِكُمَا جِبْرِيلُ وَمَعَ الْآخَرِ مِيكَائِيلُ، وَإِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يَحضُرُ الصَّفَّ وَيَشْهَدُ الْقِتَالَ».

قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ السُّبْكِيُّ: سُئِلْتُ عَنْ الحِكْمَةِ فِي قِتَالِ الْمَلَائِكَةِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ أَنَّ جِبْرِيلَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَدفَعَ الْكُفَّارَ بِرِيشَةٍ مِنْ جَنَاحِهِ، فَقُلْتُ: وَقَعَ ذَلِكَ لِإِرَادَةِ أَنْ يَكُونَ الْفِعلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصحَابِهِ، وَتَكُونَ الْمَلَائِكَةُ مَدَدًا عَلَى عَادَةِ مَدَدِ الْجُيُوشِ رِعَايَةً لِصُورَةِ الْأَسْبَابِ وَسُنَّتِهَا الَّتِي أَجْرَاهَا اللهُ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ ... وَاللهُ تَعَالَى هُوَ فَاعِلُ الْجَمِيعِ وَالله أعلم[(١)].

(١٨٣٩) وعن ابنِ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**إذا أنزل الله تعالى بِقَوْمٍ عَذابًا أصابَ العَذابُ مَن كان فيهم، ثُمَّ بُعِثُوا على أعمالِهم**»[(٢)].

۞ «**إذا أنزل الله تعالى بِقَوْمٍ**» أى بعث عليهم «**عَذابًا**» من خسفٍ أو نار أو نحو ذلك «**أصابَ العَذابُ مَن كان فيهم**» تبعًا لهم ... قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، «**ثُمَّ بُعِثُوا على أعمالِهم**»

(١) فتح البارى (٧/ ٣٦٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٠٨) كتاب الفتن، ومسلم (٢٨٧٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

فالمؤمن من أهل الجنة والكافر من أهل النار... والحاصل أن العذابْ إذا نزل يَعُم ويصيب القوم أجمع: البَر والفاجر، ويُبعثون على حسب مراتبهم.

وتَقدَّم أول الكتاب فى باب النية حديث الصحيحين من حديث عائشة أَنَّ النبى ﷺ قال: «**يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»(١)(٢).

ولذلك يجب الحذر من أن يكون الإنسان من الحثالة التى كحثالة الشعير أو التمر، وأن يحرص على أن يستقيم على أمر الله حتى لو كان الناس قد هلكوا فإنهم - إن أصيبوا بالعذاب فإنه يُبعث كل إنسان على نيته.

(١٨٤٠) وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ جِذْعٌ يقُومُ إليهِ النَّبِىُّ ﷺ -يعنى فى الخُطْبَةِ- فلَمَّا وُضِعَ المِنْبَرُ، سَمِعنَا للجِذْعِ مِثْل صَوْتِ العِشَارِ حتَّى نَزَلَ النَّبِىُّ ﷺ فوضَعَ يدَه عليه فسَكَن .

وفى روايةٍ: فلَمَّا كانَ يومُ الجمُعة قَعَد النبىُّ ﷺ على المِنْبَرِ، فصاحتِ النَّخْلَةُ التى كان يَخْطُبُ عِنْدَها حتَّى كادَتْ أنْ تَنْشَقَّ.

وفى روايةٍ: فصَاحَتْ صياح الصَّبِىِّ. فنَزَلَ النَّبِىُّ ﷺ، حتَّى أخذَها فضَمَّهَا إليه، فجعَلَتْ تَئِنُّ أنينَ الصَّبِىِّ الذى يُسكَّتُ حتَّى اسْتَقَرَّتْ، قال: «بَكَتْ على ما كانَتْ تسمعُ مِن الذِّكْرِ»(٣).

۞ فى هذا الحديث آية من آيات الله عَزَّ وَجَلَّ، وآية لرسوله ﷺ ... واعلم أن الله تعالى لم يبعث نبيًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر ؛ لأنه لو أرسل

---

(١) متفق عليه: **رواه البخارى (٢١١٨) كتاب البيوع - ومسلم (٢٨٨٤) كتاب الفتن وأشراط الساعة.**

(٢) **دليل الفالحين (٤/ ٥٥٥).**

(٣) صحيح: **رواه البخارى (٢٠٩٥) كتاب البيوع، (٣٥٨٥) كتاب المناقب.**

رسولًا بدون آية تدل على أنه رسول الله ما صدقه أحد ولكان للناس عُذر فى رَدِّ قوله، ولكن الله تعالى بحكمته ورحمته ما أرسل رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر... الآيات يعنى العلامات التى تدل على صدقه.

وآيات النبى ﷺ كثيرة... ومَن أراد الاستزادة منها فعليه بكتابى (معجزات الأنبياء وكرامات الصحابة) ففيه الكثير والكثير من معجزات النبى ﷺ وسائر الأنبياء (صلوات ربى وسلامه عليهم).

۞ وهذا الحديث الذى بين أيدينا يحكى قصة حنين الجذع للنبى ﷺ فإنه بعدما تم بناء مسجد النبى ﷺ أراد النبى ﷺ أن يخطب خطبة الجمعة، فقام بعض الصحابة بقطع جزءٍ من شجرة كانت أمام المسجد وجعلوه منبرًا للنبى ﷺ... فكان النبى ﷺ يخطب كل يوم جمعة على ذلك الجذع من الشجرة.

وفى يوم من الأيام جاءت امرأة من الأنصار وقالت له: يا رسول الله ألا نصنع لك منبرًا لتخطب عليه فى يوم الجمعة؟

فقال النبى ﷺ: «**إن شئتم**».

فصنعوا للنبى ﷺ منبرًا ليخطب عليه.

فلما كان يوم الجمعة صعد النبى ﷺ على المنبر ليخطب خطبة الجمعة فحدثت مفاجأة لا تخطر على قلب بشر!!

يا ترى ما هى هذه المفاجأة؟

لقد صاح الجذع الذى كان النبى ﷺ يخطب عليه كصياح الصبى الصغير .. ويُقال: إنه خار كخوار الثور حزنًا لفراق النبى ﷺ له ولفراق الذكر الذى كان يسمعه.. فارتجَّ المسجد بالبكاء وأخذ الصحابة يتعجبون ويبكون.

فما كان من النبى ﷺ إلا أنه نزل من على المنبر واحتضن الجذع وضمَّه إلى صدره حتى سكت.

ويُخبر النبى ﷺ أصحابه أنه لو لم يحتضن الجذع لظل يحن ويبكى إلى يوم القيامة.

ثم أمر النبى ﷺ أصحابه أن يدفنوا ذلك الجذع فدفنوه.

(١٨٤١) وعن أبى ثَعلَبَةَ الخُشَنىِّ جَرثُوم بنِ ناشِرٍ رضي الله عنه عنْ رسُولِ الله ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى فَرَضَ فرائِضَ فلا تُضَيِّعُوهَا، وحَدَّ حُدُودًا فلا تَعتَدُوها، وحرَّم أشْياءَ فلا تَنْتَهِكُوها، وسَكَتَ عن أشْياءَ رَحمَةً لكُمْ غَيْرَ نِسْيانٍ فلا تَبْحثُوا عنها»[١].

۞ وللأمانة العلمية ... فهذا الحديث ضعيف ولم يَثبُت عن النبى ﷺ.

(١٨٤٢) وعن عبدِ الله بن أبى أَوْفَى رضي الله عنهما قال: غَزَوْنَا مع رسُولِ الله ﷺ سَبْعَ غَزَواتٍ نأكُلُ الجرادَ... وفى روايةٍ: نأكُلُ معهُ الجراد[٢].

۞ ففى هذا الحديث يحكى عبد الله بن أبى أوفى ويقول: غزونا مع النبى ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد معه...الجراد معروف وهو من الحلال، يأكله الإنسان حيًّا وميتًا... قال النبى ﷺ: «**أُحلت لنا مَيتتان ودَمان: فأمَّا الميتتان فالحُوت والجراد**»[٣] ولهذا لا يحتاج إلى تزكية وهو صيد... فإن كان فى مكة حُرم على الإنسان أن يصيده وأن يُطيره من مكانه، ويجب على مَن رأى مَن يصيده بالحرم أن يزجره ويمنعه؛ لأنه صيدٌ مُحرم لا يجوز صيده فى مكة ولا أن تُطيره وغيره من الطيور.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

فِيهِ إِبَاحَةُ الْجَرَادِ.. وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِبَاحَتِهِ ثُمَّ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَحمَدُ وَالْجَمَاهِيرُ: يَحِلُّ سَوَاءٌ مَاتَ بِذَكَاةٍ أَوْ بِاصطِيَادِ مُسْلِمٍ أَوْ مَجُوسِيٍّ

(١) ضعيف: رواه الحاكم، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٥٩٧).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٩٥) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٩٥٢) كتاب الصيد والذبائح.
(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، والبيهقى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٠).

أَوْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ .. سَوَاءٌ قُطِعَ بعضه أَوْ أُحدِثَ فِيهِ سَبَبٌ[(١)].

(١٨٤٣) وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لا يُلْدَغُ المؤمِنُ مِنْ جُحرٍ مرَّتين»[(٢)].

۞ المؤمن لا بد أن يكون فطنًا وأن يحترز من أن يخدعه أحد .. كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لست بالخِبِّ ولا الخِبُّ يخدعني... وإذا خُدع المؤمن مرة – وهذا أمرٌ وارد- فينبغي أن يحرص كل الحرص ألا يُخدع مرة أخرى.. وخصوصًا إذا كان بنفس السبب أو من نفس الشخص الذي خدعه.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ الْقَاضِي: يُروَى عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: بِضَمِّ الْغَيْنِ عَلَى الْخَبَرِ... وَمَعنَاهُ الْمُؤْمِنُ الممدوح، وهو الكَيِّس الحازم الذي لا يُستغفل فيُخدع مرة بعد أخرى، ولا يفطن لِذَلِكَ... وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ الْخِدَاعَ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ دُونَ الدُّنْيَا .... وَالْوَجْهُ الثَّانِي: بِكَسْرِ الْغَيْنِ عَلَى النَّهْيِ أَنْ يُؤْتَى مِنْ جِهَةِ الْغَفْلَةِ... قَالَ: وَسَبَبُ الْحَدِيثِ مَعرُوفٌ، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أسر أبا عزة الشاعر يوم بدر فمنَّ عليه وعاهده أن لا يُحرض عليه ولا يهجوه وَأَطْلَقَهُ فَلَحِقَ بِقَوْمِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى التَّحرِيضِ وَالْهِجَاءِ، ثُمَّ أَسَرَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَسَأَلَهُ الْمَنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لا يُلدغ مِنْ جُحرٍ مَرَّتَيْنِ» وَهَذَا السَّبَبُ يُضَعِّفُ الْوَجْهَ الثَّانِي وَفِيهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ نَالَهُ الضَّرَرُ مِنْ جِهَةٍ أَنْ يَتَجَنَّبَهَا لِئَلَّا يَقَعَ فِيهَا ثانية[(٣)].

(١٨٤٤) وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيامةِ ولا ينْظُرُ إليْهِم ولا يُزَكِّيهِم ولهُم عذابٌ أليمٌ: رجُلٌ علَى فَضْلِ ماءٍ

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ١٥٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٣٣) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٨) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٨/ ١٦٩).

بالفَلاةِ يمْنَعُهُ مِن ابنِ السَّبِيل، ورَجُلٌ بايَع رجُلًا سِلْعَةً بعد العَصرِ فحَلَفَ بالله لأخَذَها بكذَا وكَذا، فصَدَّقَهُ وهوَ على غَيْر ذلكَ، ورَجُلٌ بَايع إمامًا لا يُبايِعُهُ إلا لدُنْيَا، فإن أعطَاه مِنْها وفَّى، وإنْ لم يُعطِهِ مِنْها لَمْ يَفِ»(١).

۞ «ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله» يعني: ثلاثة أصناف وليس المقصود ثلاثة أشخاص.. «لا يُكَلِّمُهُمُ الله» قد يكون المراد أنه سبحانه وتعالى لا يكلمهم عقوبة لهم على ما فعلوه.. وقد يكون المراد أنه (جل وعلا) لا يكلمهم التكليم الذي فيه راحتهم وسعادتهم، وإلا فإن التكليم يمكن أن يكون على وجه التبكيت والتقريع ... ومنه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٨] وهذا كلام، لكنه كلام فيه تقريع وتبكيت لا يحصلون من ورائه على، السرور والارتياح والاطمئنان... فهذا لا ينافي ما جاء من أن الله تعالى يخاطب الكفار ويقول: ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾؛ لأن المنفى غير المُثبَت.

۞ الأول: «رجُلٌ علَى فَضْلِ ماءٍ بالفَلاةِ يمْنَعُهُ مِن ابنِ السَّبِيل» ابن السبيل هو عابر السبيل، سواء كان بنفسه أو معه راحلته أو رواحله، فإن الماء يُبذَل له، ولا يُحال بينه وبينه...لكن هذا الإنسان كان عنده ماء من مزرعة أو بئرٍ أو غير ذلك.. وكان فى أرضٍ صحراوية خالية من السكان.. فإذا مَرَّ أمامه عابر سبيلٍ وطلب منه الماء فإنه يمنعه من الماء... هذا لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم... وما بالك بحال رجلٍ هذا حاله.. لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم يوم القيامة.

الثاني: ورَجُلٌ بايَع رجُلًا سِلْعَةً بعد العَصرِ فحَلَفَ بالله لأخَذَها بكذَا وكَذا، فصَدَّقَهُ وهوَ على غَيْر ذلكَ.

يعني: حلف كاذبًا ليخدع البائع ويُروج سلعته.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٥٨) كتاب المساقاة - ومسلم (١٠٨) كتاب الإيمان.

وذكر النبي ﷺ العصر ؛ لأن أفضل أوقات النهار ما بعد صلاة العصر وإلا فلو حلف الإنسان على سلعة في غير هذا الوقت أيضًا فإنه لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذابٌ أليم.

كما جاء في الحديث الآخر: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمَنَّانُ الَّذِي لا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**»(١) أي: المُروِّج لها، الذي يأتي بما يجعل المشتري يغتر بحلفه وبكلامه الذي فيه ترويجٌ لها.

فدلَّ ذلك على أن ذكر وقت العصر في حديث أبي هريرة إنما هو لشدة العذاب والوعيد. وإلا فكل مَن حلف على سلعة وهو كاذب من أجل أن يزيد ثمنها فإنه لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

وقيل: إن الوقت الذي بعد العصر من الأوقات التي تكون فيها الأيمان مُغلظة ... وقد سبق أن مَرَّ بنا تغليظ اليمين بالمكان، كما جاء في الحلف عند منبر النبي ﷺ... وهذا من حيث الزمان.

۞ الثالث: «**ورَجُلٌ بَايع إمامًا لا يُبايِعُهُ إلا لدُنْيَا ، فإن أعطَاه مِنْها وفَّى ، وإنْ لم يُعطِهِ مِنْها لمْ يَفِ**».

يعني: بايع إمامه أو إمام المسلمين من أجل الدنيا، لا من أجل أن يقوم بالشيء الذي يجب عليه، وإنما بايع من أجل الدنيا، فإن حصل له الذي بايع من أجله رضي، وإن لم يحصل ذلك فإنه يسخط... فبيعته إنما هي من أجل الدنيا، وليست من أجل السمع والطاعة في المعروف على الوجه الذي شرعه الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:٥٩].

المهم هذه ثلاثة أشياء إذا صارت في الإنسان فإن الله لا يكلمه يوم القيامة

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

وفي هذا الحديث دليل على: ثبوت كلام الله عَزَّوَجَلَّ كما هو مذهب أهل السُّنة والجماعة أن الله يتكلم كما شاء وبما شاء ومتى شاء لا أحد يُعجزه ولا يمتنع عليه شيء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

فقوله: «**لا يكلمهم الله**» دليل على أنه يكلم غيرهم وهو كذلك... وفيه أن الله ينظر نظرين: الأول: العام فإنه لا يَخفى على نظره شيء عَزَّوَجَلَّ ... يرى كل شيء. والثاني: الخاص وهو نظر الرحمة وهو المعنى في الحديث فإن الله لا ينظر إليهم نظر رحمة.

وفيه أيضًا دليل على أن الله هو المُزكي للعباد كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، فالمزكِي للأمور وللأشخاص وللأعمال هو رب العالمين عَزَّوَجَلَّ ... فأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن زكَّاه ربه إنه على كل شيء قدير[١].

(١٨٤٥) وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بَيْنَ النَّفْخَتينِ أربعونَ» قالوا: يا أبا هُرَيْرة، أربعُون يَوْمًا؟ قال: أبَيْتُ، قالوا: أربعُونَ سَنَةً؟ قال: أبَيْتُ، قالوا: أربعُون شَهْرًا؟ قال: أبَيْتُ، «ويَبْلَى كُلُّ شيءٍ مِنَ الإنْسانِ إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، فيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ، ثُمَّ يُنَزِّلُ الله مِن السَّماءِ ماءً، فيَنْبُتُونَ كما يَنْبُتُ البَقْلُ»[٢].

۞ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَ النَّفْخَتينِ أربعونَ**» المقصود بذلك النفخ في الصور ...

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٢٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨١٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٩٥٥) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

فإن الله عَزَّوَجَلَّ جعل ملكًا مُوكَّلًا بالنفخ فى الصور اسمه إسرافيل.. وعندما يأتى اليوم الذى يُقدر الله فيه نهاية الحياة فى تلك الأرض يأمر إسرافيل أن ينفخ فى الصور نفخة طويلة تبدأ بالفزع وتنتهى بالصعق.

كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. فالنفخة الأولى يكون بها الفزع والصعق يعنى الموت والفناء.

ثم يكون بينها وبين النفخة الثانية – نفخة البعث– أربعون.

فالنفخة الثانية يكون فيها البعث والقيام ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

ولما سُئل أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الأربعين التى بين النفختين وقيل له: أربعون يومًا؟. قال: أبيت – يعنى لا يدرى –. قالوا: أربعون سنة؟. قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرًا؟. قال: أبيت... قال النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بينهما أربعون**». فنقول كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. والله أعلم.

۞ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ويَبْلَى كُلُّ شىءٍ مِنَ الإنْسانِ إلا عَجْبَ الذَّنَبِ**» فالإنسان عندما يموت ويُدفَن يتحلل جسده إلى تراب ولكن يبقى منه جزء صغير جدًّا وهو (عَجْب الذَّنَبِ) وهو قطعة عظم صغيرة جدًّا فى آخر فقرات الظهر.. وتظل هكذا إلى أن تمر الأربعون التى بين النفختين... فيرسل الله مطرًا غليظًا من السماء كمنى الرجال فينزل على عجب الذنب ويتفاعل معه ويتكون منه الجسد مرة أخرى ويبقى جسدًا بلا روح.. فيأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح من هذا الصور وتدخل كل روحٍ فى جسدها الذى كانت تعمره فى الدنيا ثم يخرجون جميعًا من قبورهم إلى أرض المحشر للحساب والجزاء..

ولينقسم الناس بعدها إلى فريقين: فريق فى الجنة وفريق فى السعير.. جمعنى الله بكم فى الجنة.

(١٨٤٦) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينمَا النَّبِىُّ ﷺ فى مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ، جاءَهُ أعرابىٌّ، فقالَ: متَى السَّاعَةُ؟ فمَضَى رسُولُ الله ﷺ يُحَدِّثُ، فقال بعضُ القَوْمِ: سَمِعَ ما قالَ، فكَرِهِ ما قالَ، وقال بعضُهُم: بَلْ لَم يَسْمَع، حتَّى إذا قَضَى حَدِيثَهُ قال: «أينَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟» قال: ها أنَا يا رسُولَ الله، قال: «إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قال: كيْفَ إضَاعَتُها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمْرُ إلى غَيْرِ أهْلِهِ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يذكر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان جالسًا كعادته مع أصحابه يُعلمهم ويربيهم ويفقههم فى دين الله عَزَّ وَجَلَّ.. فجاء رجلٌ أعرابى فسأل النبى ﷺ: متى الساعة؟ فمضى النبى ﷺ فى حديثه ولم يُجب على سؤاله.. وكأنه والله أعلم كان ﷺ يتكلم فى أمرٍ فى غاية الأهمية ولم يُرد أن يقطع الحديث .. أو أنه لم يُجب؛ لأن موعد الساعة لا يعلمه إلا الله فانتظر النبى ﷺ حتى نزل عليه الوحى ليُخبر النبى ﷺ بما سيقوله لذلك الأعرابى .. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكرهه... والإنسان إذا كره سؤال السائل فلا حرج عليه ألا يجيبه، حتى ولو سمعه ؛ لأنه قد يكون السائل ليس عنده حكمة فيسأل سؤالًا غير مناسب، فللمُجيب أن يدعه ولا يجيب.

وقال آخرون: لعله لم يسمعه. فلما قضى النبى ﷺ حديثه قال: «**أين السائل؟**».

فقال: ها أنا يا رسول الله... فقال ﷺ: «**إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ**».. فسأله الرجل وقال: كيف إضاعتها؟ فقال ﷺ: «**إذا وُسِّد الأمْرُ إلى غَيْرِ أهْلِهِ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ**» وذلك بأن يتولى الوظائف مَن ليس بأهلٍ لها.. ويتولى الإمارة

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٩) كتاب العلم.

مَن لا يصلح لها.. ويتولى الفتوى الجاهل بأحكام الشريعة.. وهكذا .. بأن يُوضَع الرجل المناسب فى المكان غير المناسب.. ويوضع الرجل غير المناسب فى المكان المناسب... والخلاصة: أنه إذا عَمَّ الفساد وتولَّى الأمور أهل الفساد فانتظر الساعة.. لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق.. وفى هذا الحديث التحذير من ضياع الأمانة.. والحرص على أن يتولى المناصب مَن هو أهلٌ لها حتى لا تضيع البلاد ويفسد العباد.

***

(١٨٤٧) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «يُصَلُّون لكُم، فإنّ أصَابُوا فلكُم، وإنْ أخطَأوا فلكُمْ وعَلَيْهِم»[1].

۞ **ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ أخبر أن هناك «أئمة - يعنى أمراء - يصلون لكم فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم» وهذا وإن كان فى الأمراء يشمل أيضًا أئمة المساجد. «يصلون لكم» فإن أحسنوا فى الصلاة وأتوا بها على ما ينبغى فذلك لكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم - يعنى ليس عليكم أنتم من إساءتهم من شىء... وفى هذا إشارة إلى أنه يجب الصبر على ولاة الأمر - وإن أساءوا فى الصلاة، وإن لم يصلوها على وقتها - فإن الواجب ألا نَشِذَّ عنهم، وأن نُؤخر الصلاة كما يؤخرون وحينئذ يكون تأخيرنا للصلاة عن أول وقتها يكون تأخيرًا بعذر؛ لأجل موافقة الجماعة وعدم الشذوذ، ويكون بالنسبة لنا كأننا صلينا فى أول الوقت.**

وفى هذا إشارة إلى أن الشذوذ عن الناس وعن ولاة الأمور والبعد عنهم وإثارة الناس عليهم ونشر مساوئهم كل هذا مجانب للدين الإسلامى، فالدين يأمر بالخير والعدل وينهى عن الشر والفساد حتى إن الله عَزَّوَجَلَّ قال:

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٩٤) كتاب الأذان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ .. فإذا ذكرت سيئة فاذكر الحسنة أما أن تسعد بذكر السيئات وتجحد الحسنات فهذا جَورٌ وظلم.

والله عَزَّوَجَلَّ لا يحب الظلم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، أي: لا يحملكم بُغض قوم على عدم العدل، بل اعدلوا هو أقرب للتقوى. فهؤلاء الذين يُصلون ويؤخرون الصلاة عن وقتها نصلى معهم ويكون لنا الأجر وإن كان التأخير فيه وزر فعلى المؤخرين..[(١)].

(١٨٤٨) وعن أبى هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خَيْرُ النَّاسِ للنَّاسِ يأْتونَ بِهِمْ فى السَّلاسِلِ فى أعناقِهِمْ حتَّى يدخُلوا فى الإِسْلامِ[(٢)].

(١٨٤٩) وعنه عن النَّبِىِّ ﷺ قال: «عَجِبَ الله عَزَّوَجَلَّ مِنْ قَومٍ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ فى السَّلاسِلِ»[(٣)].

۞ والمقصود بهم الأسارى الذين يُؤسَرون وهم كفار.. فإن ذلك الأَسْر من أسباب إسلامهم ودخولهم فى الإسلام، فهم يُقادون إلى الجنة فى السلاسل، يعنى أنهم يُجَرُّون إلى شىءٍ لا يريدونه وهو خيرٌ لهم، فيئول بهم الأمر إلى أن يُسلموا ويكونوا من أهل الجنة وقد كانوا كارهين فى أول الأمر... لأن أَسْرَهم مكروهٌ لهم، ولكنه يترتب على أَسرهم وبقائهم وعدم قتلهم أنهم يشاهدون أحوال المسلمين وأعمال المسلمين وأحكام الإسلام وأخلاق المسلمين، فيدخلون فى الإسلام، فيكونون من أهل الجنة، ويَسلمون من أن يكونوا من أهل النار الذين هم الكفار الذين لا سبيل لهم إلى الجنة، ومآلهم إلى النار، ويبقون

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٢٣).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٥٥٧) كتاب تفسير القرآن.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٠١٠) كتاب الجهاد والسير.

معناها: يؤسَرون ويُقَيَّدون، ثم يُسْلِمون فيدخلون الجنة.

فيها أبد الآباد ولا يخرجون منها أبدًا.

هذا هو المقصود بالحديث، وفيه إثبات صفة العجب لله عَزَّوَجَلَّ، وهى ثابتة فى السُّنة كما فى هذا الحديث وغيره.

والأصل فى الصفات أنها لا تُؤول، وإنما تُثبَت على الوجه الذى يليق بالله بكماله وجلاله... والصفات كلها من بابٍ واحدٍ يُؤتَى بها على نهجٍ واحد وعلى طريقة واحدة بدون تأويل وبدون تحريف وبدون تكييف وبدون تشبيه أو تعطيل أو تمثيل بل على حَدِّ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١][١].

***

(١٨٥٠) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبىِّ ﷺ قالَ: «أَحَبُّ البِلادِ إلى الله مساجِدُهَا، وأبغضُ البِلادِ إلى الله أسواقُها»[٢].

(١٨٥١) وعن سلمان الفارسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قولِه قال: لا تَكُونَنَّ إنِ اسْتَطَعتَ أوَّلَ مَنْ يَدخُلُ السُّوقَ، وَلا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا، فَإنَّهَا مَعرَكَةُ الشَّيْطَانِ، وَبِهَا يَنْصِبُ رَايَتَهُ[٣].

ورواه البرقانى فى صحيحهِ عن سلمان، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَكُنْ أَوَّلَ مَنْ يَدخُلُ السُّوقَ، وَلا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا. فِيهَا بَاضَ الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ»[٤].

۞ ففى الحديث الأول يخبر النبى ﷺ أن: «أحب البلاد إلى الله مساجدها» لأنها بيوت الطاعات ومحل ذكره وعبادته ومُدارسة قرآنه وغير ذلك من المصالح الدينية والدنيوية التى تعود بالخير والصلاح على المسلمين، ولذلك كان البذل فيها أفضل البذل، وهو من الصدقة الجارية التى تعود بالخير على

(١) شرح سنن أبى داود/ للشيخ العباد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٧١) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٤٥١) كتاب فضائل الصحابة.

(٤) رواية البرقانى أخرجها الطبرانى فى الكبير (٦١١٨)، وضعفها الألبانى فى الضعيفة (٧٠٧٣).

صاحبه فى حياته وبعد موته ... ومَن بنى مسجدًا لله بنى الله له بيتًا فى الجنة.

۞ وأما قوله ﷺ: **«وأبغضُ البلادِ إلى الله أسواقُها»** فذلك لأنها محل الغش والخداع والربا والأيمان الكاذبة وإخلاف الوعد والإعراض عن ذكر الله وغير ذلك مما فى معناه... وهى مأوى الشياطين.. وفيها باض الشيطان وفرَّخ - والعياذ بالله- ونصب رايته وخيمته.. لأن أسواق البيع والشراء الغالب فيها الغش والخداع -إلا ما شاء الله-.

وفى هذا الحديث إثبات الحب والبغض لله عَزَّوَجَلَّ أى أن الله يحب ويبغض، ومن أصول أهل السُّنة والجماعة أننا نؤمن بذلك ونقول: إن الله تعالى يحب ويبغض وهو - سبحانه وتعالى - موصوف بصفات الكمال وأنه لا يحب إلا ما فيه الخير والصلاح ولا يبغض إلا الشر والخبائث.

۞ ومن هنا جاءت نصيحة النبى ﷺ: **«لا تَكُونَنَّ إِنِ اسْتَطَعتَ، أَوَّلَ مَنْ يَدخُلُ السُّوقَ وَلا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا»** لأن الأسواق، أبغض البلاد إلى الله.. ولأنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: **قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْمَعركَةُ مَوْضِعُ الْقِتَالِ لِمُعَارَكَةِ الْأَبْطَالِ بَعْضِهِمْ بَعضًا فِيهَا وَمُصَارَعَتِهِمْ... فَشَبَّهَ السُّوقَ وَفِعلَ الشَّيْطَانِ بِأَهْلِهَا وَنَيْلَهُ مِنْهُمْ بِالْمَعرَكَةِ، لِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْبَاطِلِ كَالْغِشِّ وَالْخِدَاعِ وَالْأَيْمَانِ الْخَائِنَةِ وَالْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ وَالنَّجشِ وَالْبَيْعِ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَالشِّرَاءِ عَلَى شِرَائِهِ، وَالسَّوْمِ عَلَى سَوْمِهِ، وَبَخْسِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ... قَوْلُهُ: «وَبِهَا تُنْصَبُ رَايَتُهُ» إِشَارَةٌ إِلَى ثُبُوتِهِ هُنَاكَ وَاجْتِمَاعِ أَعوَانِهِ إِلَيْهِ لِلتَّحرِيشِ بَيْنَ النَّاسِ وَحَمْلِهِمْ عَلَى هَذِهِ الْمَفَاسِدِ الْمَذْكُورَةِ وَنَحوِهَا فَهِيَ مَوْضِعُهُ وَمَوْضِعُ أَعوَانِهِ ... وَالسُّوقُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِقِيَامِ النَّاسِ فِيهَا عَلَى سُوقِهِمْ**[1].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٠-١١).

(١٨٥٢) وعنْ عاصِمِ الأحولِ عنْ عَبْدِ الله بنِ سَرجِسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ الله ﷺ: يا رسُولَ الله غَفَرَ الله لكَ، قال: «ولَكَ». قالَ عاصِمٌ: فقُلْتُ لهُ: اسْتَغْفَرَ لكَ رسُولُ الله ﷺ؟ قال: نَعَمْ ولَكَ، ثم تَلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩][١].

۞ ففى هذا الحديث أن عبد الله بن سرجس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله غفر الله لك.. فقال له النبى ﷺ: «ولَكَ» لأن النبى ﷺ لم يكن يترك أحدًا يعمل معه معروفًا ولو بالكلمة أو بالدعاء إلا كافأه بمثله أو أفضل من ذلك... لما رأى عاصم الأحول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ استغفر لعبد الله قام فقال لعبد الله: اسْتَغْفَرَ لكَ رسُولُ الله ﷺ؟ قال: نَعَمْ ولَكَ... ثم تَلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وهنا لابد أن نعلم أنه يجوز للمسلم أن يسأل النبى ﷺ أن يدعو له وأن يستغفر له فى حياته ﷺ.. وأما بعد موته ﷺ فلا يجوز للمسلم أن يسأله ﷺ أن يدعو له أو أن يستغفر له.

ولا بد أن نعلم أيضًا أن هناك مليارات الحسنات فى انتظارك إذا استغفرت للمؤمنين والمؤمنات .. فقد قال ﷺ: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً»[٢].

(١٨٥٣) وعن أبى مَسْعُودٍ الأنصارىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ النَّبىُّ ﷺ: «إنَّ مِمَّا أدرَكَ النَّاسُ مِن كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إذا لَم تَسْتَحِ فاصنَع ما شِئتَ»[٣].

۞ قوله ﷺ: «إنَّ مِمَّا أدرَكَ النَّاسُ مِن كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى» يعنى: أن هذا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٤٦) كتاب الفضائل.

(٢) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٢٦).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٤٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء، (٦١٢٠) كتاب الأدب.

الكلام مما جاء عند الأنبياء السابقين، وأن الحياء مما جاء عند الرسل وعند الأمم، وأن الحياء محمود، وأنه كان موجودًا فى الأمم السابقة... فهو مما أدركه الناس من كلام النبوة الأولى.

وقوله عليه الصلاة والسلام: « **إذا لَم تَسْتَحِ فاصنَع ما شِئتَ** » فُسِّر بتفسيرين، يعنى: العلماء اختلفوا فيه على قولين: ومُجمل هذين القولين: أن هذا إما أمر، وإما ليس بأمر ... ومَن قال : إنه أمر قال: معنى الحديث إذا كان الأمر ليس حرامًا، وليس مما يخرم مكارم الأخلاق والمروءات، ولم يكن فيه تفريط بواجب، ولم يكن مما يُستحى منه فى الشرع فاصنعه ولا تبالِ؛ لأن هذا دليل أنه لا بأس به.

والقول الثانى: أنه خرج عن معنى الأمر الذى هو الإلزام بالفعل إلى التهديد فمعنى « **إذا لَم تَسْتَحِ فاصنَع ما شِئتَ** » يعنى: إذا لم يكن لك حياء يمنعك من مقارفة الحرام والمنكر، والتفريط فى الواجبات فاصنع ما شئت، فإن مَن لا حياء له لا خير فيه... وهذا يكون خرج للتهديد.

وهذا من جوامع كَلِمِه (عليه الصلاة والسلام)؛ ولهذا أورده الإمام النووى فى الأربعين النووية، واختاره من بين الأحاديث التى اختارها، وهى من جوامع كلم الرسول صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

(١٨٥٤) وعنْ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قالَ النَّبىُّ ﷺ: «**أَوَّلُ ما يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ فى الدِّماءِ**»(١).

۞ لا بد أن نعلم أن الله عز وجل الحَكَم العدل هو الذى يفصل بين عباده يوم القيامة ويحكم بينهم.. فأما ما يكون فيما بينهم وبين الله فحُكمه يدور بين الفضل والعدل.. وأما ما يكون بين العباد من مظالم فيجازى بالعدل.. فلا بد أن يأخذ كل واحدٍ منهم حقه بالعدل دون نقصٍ أو زيادة.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٣) كتاب الرقاق - ومسلم (١٦٧٨) كتاب القسامة.

وأول ما يُقضى بين العباد فى الدماء – القتل – ثم الأموال والأعراض.. ومن المعلوم أن القتل قد يكون بحقٍّ وقد يكون بغير حقٍّ.. والمقصود هنا القتل بغير حقٍّ.. فهذا أول ما يُقضَى بين الناس يوم القيامة.

۞ فيجب على كل مسلم أن يَحذر من سفك الدِّماء بغير حقٍّ وأن ينأى بنفسه عن الخصومات والمشاجرات وأن يكظم غيظه عند الغضب.

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقال ﷺ: « **أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى الدِّمَاءِ** »(١).

۞ قال ابن حجر العسقلانى: ولا يعارض هذا حديث أبى هريرة أنَّ النبى ﷺ قَالَ: « **إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ** »(٢).

لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق. والثانى: فيما يتعلق بعبادة الخالق... وقد جمع النسائى فى روايته فى حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: « **أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِى الدِّمَاءِ** »(٣).

۞ بل يوضح النبى ﷺ بشاعة هذه الجريمة فيقول: « **لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ** »(٤).

۞ ثم يوضح هذا المشهد المفزع من مشاهد يوم القيامة فيقول ﷺ: « **يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تَشْخَبُ دمًا فيقول: يارب سَلْ هذا فِيمَ قتلنى؟ حتى يُدنيه من العرش** »(٥).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٣) كتاب الرقاق، ومسلم (١٦٧٨) كتاب القسامة.

(٢) صحيح: رواه أصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٣) فتح البارى (١١/ ٣٩٦) – والحديث رواه النسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٧٢).

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه عن البراء وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٧٨).

(٥) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٣١).

(١٨٥٥) وعن عَائِشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِقَ الجَانُّ مِن مارِجٍ مِن نار، وخُلِقَ آدمُ مِمَّا وُصِفَ لكُمْ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن بداية الخلق.. فذكر النبى ﷺ أن الملائكة خُلقوا من نور.. ولذلك كانت أعمالهم كلها مليئة بالأنوار.. فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون .. ولا يستكبرون عن عبادة الخالق ولا يستحسرون.. ويُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون.. ولا يُقصرون أبدًا فى تنفيذ أوامر الخالق (جلَّ وعلا).. وأما الجان فخُلق من مارجٍ من نار ولذلك كَثُر منهم العصيان والطيش والعبث وكَثُر منهم العدوان على كل مَن يستطيعون العدوان عليه... وفى هذا دليل على أن الجن هم ذرية الشيطان الأكبر الذى أَبَى أن يسجد لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٞ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٦].

وأما آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فخُلق مما وُصف لكم.. أى أنه خُلق من قبضة من التراب ثم عُجنت هذه القبضة من التراب بالماء فصارت طينًا ثم جَفَّ ويَبَس حت صار كالفخَّار فخُلق منه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فى هذه المراحل جسدًا... مجرد جسد بلا روح ولا حياة فبعد أن خلقه الله من الطين، صوَّره وسوَّاه وجعله تمثالًا كجسمه على صورة إنسان، وتركه فى الجنة مدة من الزمن لا يعلمها إلا الله،... قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

ولقد أخبرنا الله (جل وعلا) بهذه الحقيقة فى كتابه فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ آدَمَ منْ قَبْضَةٍ قَبَضَها منْ جَميعِ الأَرْضِ فجاءَ بَنو آدَمَ على قدرِ الأرضِ، فَجاءَ منْهُمُ الأَبْيَضُ والأحمَرُ والأَسْوَدُ وبَيْنَ ذلِكَ، والخَبِيث

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٦) كتاب الزهد والرقائق.

والطَّيِّبُ والسَّهْلُ والحَزْنُ وبَيْنَ ذلِكَ»[1].

(١٨٥٦) وعن عَائِشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ خُلُقُ نَبى الله ﷺ القُرآن[2].

۞ ففى هذا الحديث أن أُمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سُئلت عن خُلق النبى ﷺ فقالت: «كانَ خُلُقُ نَبى الله ﷺ القُرآن».

يعنى: كان متأدبًا بآداب الكتاب الكريم، فيأخذ أوامره، ويترك نواهيه، ويعمل بآدابه وإرشاداته ونصائحه... والقرآن الكريم يحث على هذا الباب كقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] وقوله: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤]... فكان خُلقه القرآن... فكل ما فى القرآن: من تعاليم، وآداب، وتوجيهات؛ كانت خلقه ﷺ.

قال أهل العلم: الشريعة الإسلامية كلها حسن الخلق؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**إِنَّمَا بُعثت لأُتمم مكارم الأخلاق**».

وفى هذا إشارة من أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أننا إذا أردنا أن نتخلّق بأخلاق الرسول ﷺ فعلينا أن نتخلَّق بالقرآن؟ لأن هذا هو أخلاق النبى ﷺ.

(١٨٥٧) وعن عَائِشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومَن كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءَهُ» فقلتُ: يا رسُولَ الله، أكَراهِيَةُ الموْتِ؟ فكُلُّنا نَكْرَهُ الموْتَ، قال: «لَيْس كَذَلِكَ، ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ بِرَحمَةِ الله ورِضْوانِهِ وَجنَّتِهِ أحَبَّ لِقَاء الله، فأحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وإنَّ الكَافِرَ إذا بُشِّرَ بعذابِ الله

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٥٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

وسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ الله، وكَرِهَ اللهُ لِقَاءهُ»[1].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وأن مَن كره لقاء الله كره الله لقاءه ... فقالت أمنا عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أكراهية الموت؟ فكلنا يكره الموت... لكن النبى ﷺ وضَّح لها وللأمة كلها أن الأمر ليس مجرد كراهية الموت ولكن الأمر يتعلق بمعرفة العبد مصيره فى الآخرة.. فأخبر النبى ﷺ أن العبد المؤمن عندما تأتيه ملائكة الرحمة وتجلس منه مَدَّ البصر ومعها كفنٌ من الجنة وحنوطٌ من الجنة (أى: عطر) وتُجهز الروح لملك الموت.. ثم يأتى ملك الموت ويبشر هذا العبد المؤمن ويقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة مِن فِيِّ السِّقاء.

فإذا علم العبد مصيره وأنه ذاهبٌ إلى مغفرة الله ورضونه ورحمته أحبَّ لقاء الله وأحب الله لقاءه.

وأخبر النبى ﷺ أن العبد الكافر تأتيه عند الموت ملائكة سُود الوجوه معهم المُسوح فيجلسون منه مدَّ البصر.

ثم يجيءُ ملك الموتِ حتَّى يجلسَ عندَ رأسِه، فيقولُ أيتُها النَّفسُ الخَبيثَةُ! اخرجى إلى سخطٍ من الله وغضبٍ... فتُفرَّقُ فى جسدِهِ فينتزعها كما يُنتزع السُّفود من الصُّوفِ المبلول.

بمعنى: أنه يُكْرَه على أن تخرج روحه ؛ وذلك لأنه يُبشَّر - والعياذ بالله - بالشر... ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾[الأنعام: ٩٣]، فهم شحيحون بأنفسهم - والعياذ بالله- لا يريدون أن تخرج ولكن الملائكة تقول:﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ فإذا بُشرت بالسخط والعذاب تَفرقت فى الجسد فينتزعها الملائكة كما يُنتزع

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء.

السُّفود من الصوف المبلول - والعياذ بالله - حتى تخرج.

فإذا علم الكافر أنه ذاهبٌ إلى سخط الله وغضبه وعذابه كره لقاء الله وكره الله لقاءه... فالشاهد أن المؤمن عند الموت يُبشَّر بالمغفرة والرضوان والجنة. فيحب لقاء الله.. فاللهم اجعلنا ممن يحب لقاءك يا أرحم الراحمين.

(١٨٥٨) وعنْ أُمِّ المؤمِنينَ صَفِيَّةَ بنْتِ حُيَيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ النَّبِيُّ ﷺ مُعتَكِفًا، فأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا. فحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ لأنْقَلِب، فقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي، فمَرَّ رَجُلانِ مِن الأنْصارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فلمَّا رَأيَا النَّبِيَّ ﷺ أسْرعَا. فقالَ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُما إنَّها صَفِيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ» فقالا: سُبْحانَ الله يا رسُولَ الله، فقال: «إنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِن ابنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّم، وإنِّي خَشِيتُ أنْ يَقذِفَ في قُلُوبِكُما شَرًّا - أو قالَ: شَيئًا -»[1].

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ كان معتكفًا في المسجد في رمضان ولا اعتكاف إلا في رمضان؛ لأن النبي ﷺ لم يعتكف في غير رمضان إلا سنة واحدة فاتته العشر في رمضان فقضاها في شوال، وما عدا ذلك فلم يشرع لأمته ﷺ أن يعتكفوا في غير رمضان، وإنما كان الاعتكاف من أجل تحرِّي ليلة القدر، فقد كان النبي ﷺ يعتكف العشر الأول من رمضان رجاء ليلة القدر، ثم الأوسط، ثم قيل له: إنها في العشر الأواخر فواظب على الاعتكاف في العشر الأواخر.

وأما حديث عمر: أنه سأل النبي ﷺ أنه نذر - أي عمر - أن يعتكف ليلة أو ليلتين في المسجد الحرام فقال: «أوفِ بنذرك». فهذا لا يدل على أن الاعتكاف مشروع وإنما يدل على وفاء النذر بالاعتكاف، وأنه ليس بمعصية لو أوفى بنذره فيه... لكن السُّنة أن الاعتكاف يكون في رمضان فقط، وفي العشر الأواخر منه فقط... فقد اعتكف ﷺ في العشر الأواخر.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٣٥) كتاب الاعتكاف، ومسلم (٢١٧٥) كتاب السلام.

والاعتكاف هو: لزوم المسجد فى طاعة الله، ليتفرغ الإنسان للعبادة، وليس لغير ذلك.

جاءته صفية رضي الله عنها - وهو معتكف - لتتحدث إليه - وهى امرأته - ولا بأس للإنسان أن يتحدث إليه أهله وهو معتكف، فذلك من الأُلفة والمحبة والمودة ثم قامت إلى بيتها وكان النبى ﷺ خير الناس بأهله كما قال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى**»[(١)] فقام معها يُشيعها إلى بيته فإذا برجلين من الأنصار يَمُرّان، فلما رأيا رسول الله ﷺ خجلا واستحييا، فأسرعا فى مشيهما، فقال النبى ﷺ: «**على رِسْلِكما**»، - يعنى: لا تُسْرِعا - إنها صفية بنت حُيى..لئلا يظنا أنها امرأة جاءت لرسول الله ﷺ فى الليل محل السكن وإيواء البيوت، فقالا: سبحان الله! ... لقد تعجبا أن يقول الرسول هذا الكلام.

فقال النبى ﷺ: «**إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم**» فيصل إلى قلبه وإلى عروقه ... كما أن الدم يسير فى جميع البدن، كذلك الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ... ومجرى هذا اسم مكان: أى فى مكان جريان الدم. «**وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرًّا** أو قال: **شيئًا**»[(٢)].

۞ **ففى هذا الحديث عدة فوائد** ... منها: أن للمعتكف أن يزوره أهله فى المسجد، ويحدثونه ويحدثهم، وأن للمعتكف أن يرافقهم فى الخروج من المسجد لإيصالهم إلى البيت، وأنه لا بأس بذلك، ولا يؤثر على الاعتكاف.

ومنها: أنه ينبغى للإنسان أن يزيل أسباب الوساوس من القلوب... فمثلًا: إذا خشى أن أحدًا يظن به شرًّا فإنه يجب عليه أن يزيل ذلك عنه ويخبره بالواقع حتى لا يحدث فى قلبه شىء.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣١٤).

(٢) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٤/ ٣٢٨-٣٢٩) بتصرف.

ومنها: أنه إذا حدث للإنسان ما يتعجب منه فليقل: سبحان الله.. كما قال ذلك هذان الأنصاريان وأقرهما النبي ﷺ.

ومنها: شفقة النبي ﷺ على أمته، ودرء الشر عنهم.

(١٨٥٩) وعنْ أبي الفَضْلِ العبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِب رضي الله عنه قالَ: شَهِدتُ معَ رسُولِ الله ﷺ يَوْمَ حُنَين فَلَزِمْتُ أنَا وأبُو سُفيانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ، رسُولَ الله ﷺ لَمْ نُفارِقْهُ.. ورسُولُ الله ﷺ على بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاء.

فلَمَّا التقَى المُسْلِمُونَ والمُشْرِكُونَ وَلَّى المُسْلِمونَ مُدبِرينَ، فطَفِقَ رسُولُ الله ﷺ، يَركُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكُفَّارِ، وأنا آخذٌ بِلِجامِ بَغْلَةِ رسُولِ الله ﷺ أكُفُّهَا إرادَةَ أنْ لا تُسْرِعَ، وأبو سُفْيانَ آخِذٌ بِركابِ رسُولِ الله ﷺ.

فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «أيْ عبَّاسُ نادِ أصحابَ السَّمُرةِ» قالَ العبَّاسُ، وكانَ رجُلًا صَيِّتًا: فقُلْتُ بأعلَى صَوْتِي: أيْن أصحابُ السَّمُرَةِ، فوالله لكَأنَّ عَطْفَتَهُمْ حينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةَ البَقرِ علَى أولادِهَا، فقَالُوا: يا لَبَّيْكَ يا لَبَّيْكَ، فاقْتَتَلُوا هُم والكُفَّارُ، والدَّعوةُ في الأنْصارِ يقُولُون: يا مَعشَرَ الأنصارِ، يا مَعشَر الأنصار، ثُمَّ قَصُرَتِ الدَّعوةُ علَى بني الحَارِثِ بن الخَزْرَج.

فنَظَر رسُولُ الله ﷺ وهو عَلَى بَغْلَتِهِ كالمتطَاوِل عَليها إلى قِتالِهم فقال: «هذا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسُ» ثُمَّ أخَذَ رسُولُ الله ﷺ حَصياتٍ، فرَمَى بِهِنَّ وجُوه الكُفَّار، ثُمَّ قال: «انْهَزَمُوا ورَبِّ مُحمَّدٍ» فَذَهَبْتُ أنْظُرُ فإذَا القِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فيما أرَى، فوالله ما هُو إلا أنْ رمَاهُم بِحَصَيَاتِهِ، فمَا زِلْتُ أرَى حدَّهُم كَليلًا، وأمْرَهُمْ مُدبِرًا[١].

۞ لما فتح الله مكة على رسوله ﷺ والمؤمنين وخضعت له قريش خافت

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٧٥) كتاب الجهاد والسير.

«الوطيسُ»: التَّنُّورُ، ومعناه: اشْتَدَّتِ الحربُ - وقوله: «حدَّهُمْ» أي: بأسَهُم.

هوازن وثقيف وقالوا: قد فرغ محمدٌ لقتالنا فلنَغزُه قبل أن يغزونا.. وأجمعوا أمرهم على ذلك.

وكان النبى ﷺ وأصحابه قد فتحوا مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ومعهم عشرة آلافٍ من خارج مكة وألفان من أهل مكة... فكانوا جميعًا اثنا عشر ألفًا.. فجعل بعضهم يقول: لن نُغلَب اليوم من قِلة.. فأُعجبوا بكثرتهم.. فأراهم الله عَزَّوَجَلَّ أن النصر لا يكون إلا من عند الله عَزَّوَجَلَّ.. وأن القوة والكثرة والسلاح والعتاد لا يَحولون بين الناس وبين قضاء الله وقدره.

لم يعلم المسلمون أن هوازن وثقيف قد أعدَّتا لهم الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم.

وأقبلت الطلائع الغفيرة من الجيش الإسلامى تتدافع نحو الوادى فلم يَرُعهم إلا وابل من السهام تتساقط فوق رؤوسهم.. وانتشرت موجة من الفزع وماج بعضهم فى بعض وانهزم مُعظم الجيش ولاذوا بالفرار.. وبقى الرسول ﷺ ومعه نفرٌ قليل فى الميدان كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].. ووقف النبى ﷺ وجعل يركض على بغلته تجاه العدو وهو يقول: «**أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب**». يُعلِمهم (عليه الصلاة والسلام)...وأمر العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان رجلًا جهورىَّ الصوت- أمره أن ينادى الصحابة ليرجعوا، فجعل ينادى: يا أصحاب السَّمُرة... يا أصحاب السَّمُرة، يا أصحاب السَّمُرة أقبِلوا.. هَلُمُّوا.

والسَّمُرة هى: الشجرة التى بايع الصحابة عليها رسول الله ﷺ فى الحديبية على ألا يفروا - وهم فَرُّوا الآن - فقال: يا أصحاب السَّمُرة يُذكرهم بهذه المبايعة... وهذه السمرة شجرة بايع النبى ﷺ تحتها الصحابة على ألا يفروا أبدًا، وفيها يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨]. فأخبر الله تعالى أنه رضى عنهم، وأخبر النبى ﷺ أنه «**لا يدخل النارَ أحدٌ بايع تحت الشجرة**».

فقال العباس - وكان رجلًا صيِّتًا[(١)] - فقلت بأعلى صوتى: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله! لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى، عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبيك؟ يا لبيك! قال: فاقتتلوا والكفار. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا حين حمى الوطيس**»[(٢)].

قال : ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار. ثم قال: «**انهزموا، ورب محمد**».

واشتدَّ القتال فولَّوا مدبرين ، فندب رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «**يا معشر المسلمين أنا رسول الله**» فقالوا: إليك والله جئنا، فنكسوا رؤوسهم، ثم قاتلوا

فلما غَشُوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ، ثُمَّ قبض قبضة من ترابٍ من الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «**شاهت الوجوه**»[(٣)] **فما خلق الله منهم** إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين ... **فهزمهم الله** عَزَّوَجَلَّ، وقسَّم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين»[(٤)].

۞ فكان ذلك النصر آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ... فقد نصر الله المؤمنين بعد أن هُزموا عندما اغتروا بعددهم.. فأراهم الله أن النصر من عند الله عَزَّوَجَلَّ..

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

---

(١) صيِّتًا: قوى الصوت.

(٢) هذا حين حمى الوطيس: الضرب فى الحرب.

(٣) شاهت الوجوه: أى قُبُحت.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٧٧٥) كتاب الجهاد والسير.

(١٨٦٠) وعن أبى هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «أيُّها النَّاسُ إنَّ الله طَيِّبُ لا يقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وإنَّ الله أمَر المؤمنينَ بِمَا أمَر بهِ المرسلِينَ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَر أشْعَثَ أغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيهِ إلى السَّماءِ: يا ربِّ يا ربِّ، ومَطْعَمُهُ حرامٌ، ومَشْرَبُهُ حرامٌ، ومَلْبَسُهُ حرامٌ، وغُذِّيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُسْتَجابُ لِذَلِكَ؟»(١).

۞ «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»، فمن صفاته سبحانه وتعالى أنه طيب، ولا يُرفع إليه إلا العمل الطيب، ولا يقبل من عباده إلا العمل الطيب... قال عليه الصلاة والسلام: «**وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**» فيستوى الجميع عند الله سبحانه وتعالى فى التقرب إليه بالشىء الطيب... فأمر المرسلين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[المؤمنون:٥١].

وقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[البقرة:١٧٢]، (ثم ذكر النبى ﷺ الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب! يا رب!)، والمسافر مستجاب الدعوة كما جاء فى حديث النبى ﷺ فى ذكر ثلاثة يُستجاب لهم: فذكر المظلوم، وذكر المسافر، وذكر دعوة الوالد على ولده.

فالمسافر مع طول سفره كلما دعا استُجيب له، ولكن الإنسان هذا الذى يأكل الحرام لا يستجيب له ربه، مع طول سفره ومع شعثه واغبرار وجهه، ومع كثرة ما يتعب فى السفر، لكن لا يُستجاب له.

والله يستحيى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صِفرًا خائبتين.. ولكن هذا المسافر كان يتعمد أكل الطعام الحرام، سواء كان من سرقة أو من رشوة أو من

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

سُحتٍ أو من غصبٍ... فهو طعام ليس حلالًا .. فكان يأكل الحرام ولا يتورع... ومشربه حرام كذلك، وملبسه حرام وغُذى بالحرام فقد تربَّى على هذا الشيء «فأنَّى يُستجاب له؟!».

فالمسافر يُستجاب له لو كان طيب المطعم وطيب المَشرب، وطيب المَلبس وهذا الذى يستحق أن يستجيب الله عَزَّوَجَلَّ له.

(١٨٦١) وعن أبى هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُم الله يوْمَ القِيامةِ، ولا يُزَكِّيهِمْ، ولا يَنْظُرُ إليْهِمْ، ولهُم عذَابٌ أليمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، ومَلِكٌ كذَّابٌ، وعَائِلٌ مُسْتكْبِرٌ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٦٢٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٨٦٢) وعن أبى هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «سَيْحَانُ وجَيْحَانُ والفُراتُ والنِّيلُ كُلٌّ مِن أنْهار الجَنَّةِ»(٢).

۞ ففى هذا الحديث أخبر النبى ﷺ أن تلك الأنهار الأربعة من أنهار الجنة ... فقال بعض أهل العلم: إنها من أنهار الجنة حقيقة ولكنها لما نزلت إلى الدنيا غلب عليها طابع أنهار الدنيا فصارت من أنهار الدنيا... أو أنها من أطيب أنهار الدنيا فذكرها النبى ﷺ بهذا الوصف من باب رفع شأنها والثناء عليها.

۞ أما نهر الفرات فقيل أنه نهر الفرات الذى فى العراق.. لكن الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ قال: ليس الذى بالعراق.. بل هو نهرٌ فاصلٌ بين الشام والجزيرة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٧) كتاب الإيمان.
«العَائِلُ» : الفَقِيرُ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

وأما سَيحان وجَيحان فهما نهران فى أرض الأرمن بقرب الشام، وليسا هما سيحون وجيحون اللذان بأرض خُراسان... هذه الأنهار الأربعة: سيحان، وجيحان بأرض الأرمن قرب الشام... والفرات الذى هو بين الشام وجزيرة العرب، والنيل الذى هو بأرض مصر... هى من أنهار الجنة.

واختلف العلماء فى معنى أن هذه الأنهار من أنهار الجنة، فقيل: كون هذه الأنهار من أنهار الجنة أى أن ماء الجنة يُصَبُّ فيها، وهذا أظهر الوجهين، وأن أصل هذه الأنهار ينزل فيه الماء من الجنة.

ولذلك قال الإمام النووى: وَأَمَّا كَوْنُ هَذِهِ الْأَنْهَارُ مِنْ مَاءِ الْجَنَّةِ فَفِيهِ تَأْوِيلَانِ ذَكَرَهُمَا الْقَاضِى عِيَاضُ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِيمَانَ عَمَّ بِلَادَهَا أَوِ الْأَجْسَامُ الْمُتَغَذِّيَةِ بِمَائِهَا صَائِرَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ... وَالثَّانِى: وَهُوَ الْأَصَحُّ أَنَّهَا عَلَى ظَاهِرِهَا، وَأَنَّ لَهَا مَادَّةٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْجَنَّةُ مَخْلُوقَةٌ موجودة اليوم عند أهل السُّنة، وقد ذكر مُسْلِمٌ فِى كِتَابِ الْإِيمَانِ فِى حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّ الْفُرَاتَ وَالنِّيلَ يَخْرُجَانِ مِنَ الْجَنَّةِ... وَفِى البخارى من أصل سدرة المنتهى[(١)].

فحينئذ يجب أن نعتقد أن هذه الأنهار إنما أصلها وأصل منبتها من الجنة، وأنها تستمد ماءها من الجنة، فإذا أرادوا أن يقولوا: إن هذا النيل يستمد ماءه من بحيرة ناصر سنقول: إن النيل وبحيرة ناصر يستمدان الماء من الجنة... وإذا كان هذا الماء الذى بين أيدينا هو ماءٌ أصله من الجنة، فعيبٌ علينا أن نُلوثه بالقاذورات والفضلات وآثار التغوط وأكثر من ذلك...وعيب علينا أن نسمح لغير بلاد المسلمين أن يلوث هذه المياه بالكيماويات والسموم وغير ذلك حتى صرنا أفقر بلاد العالم فى الماء، مع كثرته ووفرته.

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٢٥٨).

(١٨٦٣) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أخَذَ رسُولُ الله ﷺ بيَدِى فقالَ: « خَلَقَ الله التُّربَةَ يومَ السَّبْتِ، وخَلَقَ فِيهَا الجِبَالَ يَوْمَ الأحَد، وخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الإثْنَيْنِ، وخَلَقَ المكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاثَاءِ، وخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأربِعَاءِ، وبَثَّ فيهَا الدَّوابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ، وخَلَقَ آدَمَ ﷺ بعدَ العَصرِ مِنْ يَوم الجُمُعَةِ فى آخِرِ الخَلْقِ فى آخرِ سَاعَةٍ مِن النَّهارِ فِيما بَيْنَ العَصرِ إلى اللَّيْلِ »[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق التربة التى هى مادة الأرض يوم السبت.. وخلق الجبال لتكون أوتادًا ورواسى للأرض يوم الأحد.. وخلق الشجر يوم الاثنين.. وخلق المكروه يوم الثلاثاء.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وَهُوَ مَا يَقُومُ بِهِ الْمَعَاشُ وَيَصلُحُ بِهِ التَّدبِيرُ كَالْحَدِيدِ وَغَيْرِهِ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرضِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَقُومُ بِهِ صَلَاحُ شَيْءٍ فَهُوَ تِقْنُهُ... وَمِنْهُ إِتْقَانُ الشَّيْءِ وَهُوَ إِحكَامُهُ، قُلْتُ: وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ فَكِلَاهُمَا خُلِقَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ[٢].

وخلق النور.. وفى رواية: النون — أى: الحوت- يوم الأربعاء.. ولا مُنافاة فكلاهما خُلق يوم الأربعاء.. وبثَّ فيها — أى: فى الأرض- الدواب يوم الخميس.. والدواب: بالمعنى العام هى كل ما دَبَّ على الأرض.

وخَلَقَ آدمَ ﷺ بَعدَ العَصرِ مِنْ يَوم الجُمُعَةِ فى آخِرِ الخَلْقِ فى آخرِ سَاعَةٍ مِن النَّهارِ فِيما بَيْنَ العَصرِ إلى اللَّيْلِ.

۞ ولكن بعض أهل العلم ضعَّف هذا الحديث رغم أنه رواه مسلم.. وذلك لأنه يخالف القرآن الكريم.. وممَّن ذهب إلى تضعيف ذلك الحديث الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ حيث قال:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٩) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٧/ ١٩٤).

فهذا الحديث رواه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ وقد أنكره العلماء عليه فهو حديث ليس بصحيح ولا يصح عن النبى ﷺ ؛ لأنه يخالف القرآن الكريم... وكل ما خالف القرآن الكريم فهو باطل ؛ لأن الذين رووا: نَقَلَةٌ من البشر يخطئون ويصيبون ... والقرآن ليس فيه خطأ، بل كله صواب منقول بالتواتر، فما خالفه من أى حديث كان فإنه يُحكم عليه بأنه غير صحيح وإن رواه مَن رواه ... لأن الرواة هؤلاء لا يتلقون عن رسول الله ﷺ مباشرة لكن بواسطة الإسناد: حدثنا فلان عن فلان إلى رسول الله ﷺ ... وهؤلاء قد يخطئون. لكن القرآن ليس فيه خطأ.

فهذا الحديث مما أنكره أهل العلم - رحمهم الله - على الإمام مسلم ولا غرابة فى ذلك؛ لأن الإنسان بشر «مسلم وغير مسلم» كلهم بشر يخطئون ويصيبون... فعلى هذا لا حاجة أن نتكلم عليه، مادام ضعيفًا فقد كُفيناه - والله الموفق(١).

(١٨٦٤) وعنْ أبى سُلَيْمانَ خالِدِ بنِ الوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَقَدِ انْقَطَعَتْ فى يَدِى يوْمَ مُؤتَةَ تِسْعَةُ أَسْيافٍ، فمَا بقِيَ فى يدِى إلا صَفِيحةٌ يَمَانِيَّةٌ(٢).

۞ من المعلوم أن خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان فى جيش المشركين فى غزوة أُحد .. وكان على رأس الذين كَرُّوا على المسلمين من خلف جبل أُحد وقاتلوا النبى ﷺ وأصحابه. وكان معه عكرمة بن أبى جهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم مَنَّ الله عليهما بعد ذلك بنعمة الإسلام فأسلما وكانا من قُواد المسلمين.

ولقد أمَّر النبى ﷺ فى سرية مؤتة ثلاثة وهم: زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .. فلما قُتلوا أخذ الراية ثابت بن أرقم وأعطاها

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٣٣) بتصرف.
(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٢٦٥) كتاب المغازى.

لخالد بن الوليد الذى استطاع بخطة نادرة أن يُنقذ جيش المسلمين من هزيمة ماحقة وقتلٍ مُحقق .. وكان انسحابه قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة.. وقاتل فى ذلك اليوم قتالًا شديدًا حتى انكسر فى يده تسعة أسياف.. فلك أن تتصور معى كيف كان يقاتل خالد بن الوليد رضي الله عنه الذى قال عنه النبى ﷺ أنه سيفٌ من سيوف الله عز وجل.

❀❀❀

(١٨٦٥) وعنْ عمرو بنِ العَاص رضي الله عنه **أنَّهُ سَمِعَ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «إذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فاجْتَهَدَ، ثُمَّ أصاب، فلَهُ أجْرانِ، وإن حَكَم واجْتَهَدَ فأخْطَأ، فلَهُ أجْرٌ»**[1].

❀ المراد بالحاكم هنا فى هذا الحديث: القاضى أو المفتى... والحديث يوضح أن القاضى أو المفتى إذا اجتهد وتَحرَّى الحق وبذل وسعه فى ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يُثيبه على هذا: إن أصاب فله أجران: الأجر الأول على إصابة الحق، والثانى على اجتهاده... وإن أخطأ فله أجرٌ واحد وهو الاجتهاد وبذل الوسع والطاقة فى طلب الحق.

قال الإمام النووى رحمه الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ فِى حَاكِمٍ عَالِمٍ أَهْلٍ لِلْحُكْمِ فَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ... أَجْرٌ بِاجْتِهَادِهِ وَأَجْرٌ بِإِصَابَتِهِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ بِاجْتِهَادِهِ... وَفِى الْحَدِيثِ مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِذَا أَرَادَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ... قَالُوا: فَأَمَّا مَنْ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِلْحُكْمِ فَلَا يَحِلُّ لَهُ الْحُكْمُ فَإِنْ حَكَمَ فَلَا أَجْرَ لَهُ، بَلْ هُوَ آثِمٌ وَلَا يَنْفُذُ حُكْمُهُ سَوَاءٌ وَافَقَ الْحَقَّ أم لا؛ لأن إصابته اتفاقية لَيْسَتْ صَادِرَةً عَنْ أَصل شَرعِيٍّ، فَهُوَ عَاصٍ فِى جَمِيعِ أَحكَامِهِ سَوَاءٌ وَافَقَ الصَّوَابَ أَمْ لَا. وَهِىَ مَرْدُودَةٌ كُلُّهَا وَلَا يُعذَرُ فِى شىءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَقَد جَاءَ فِى الْحَدِيثِ[2] أن النبى ﷺ قال: **«القُضَاةُ ثَلاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِى النَّارِ، وقَاضٍ فى الجَنَّةِ؛ قَاضٍ قَضَى بِالهَوَى فَهُوَ**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٥٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة-ومسلم (١٧١٦) كتاب الأقضية.
(٢) مسلم بشرح النووى (١٢/ ٢٠).

فى النَّارِ، وقَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ عِلْمٍ فَهُوَ فى النَّارِ، وقَاضٍ قَضَى بِالحَقِّ فَهُوَ فى الجَنَّةِ»[١].

(١٨٦٦) وعن عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «الحُمَّى مِن فَيْحِ جَهَنَّم فأبْرِدُوهَا بالماءِ»[٢].

وفى رواية: عَنْ أَسْمَاءَ، أَنَّهَا كَانَتْ تُؤْتَى بِالْمَرأَةِ الْمَوْعُوكَةِ، فَتَدعُو بِالْمَاءِ فَتَصُبُّهُ فِى جَيْبِهَا، وَتَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ابْرِدُوهَا بِالْمَاءِ» وَقَالَ: «إِنَّهَا مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ».

فالحمى - كما قال النبى ﷺ -: «من فَيح جهنم».... وقد أوصى النبى ﷺ بصبِّ الماء البارد على المريض بالحمى.. فهذا من أسباب الشفاء من الحمى ... ولا مانع من استعمال العقاقير المناسبة فإن النبى ﷺ كان يُعلمنا أن نأخذ بكل الأسباب.

وقد أثبت الطب الحديث أن صَبَّ الماء البارد على المريض بالحمى من أسباب الشفاء.. ونحن لسنا بحاجة إلى ذلك فنحن نصدق النبى ﷺ فى كل ما يقوله ولسنا بحاجة إلى أن يُثبت الطب ذلك أو ينكره.. فالنبى ﷺ هو الصادق المصدوق المُؤيَّد بالوحى من السماء.

(١٨٦٧) وعن عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَن مَاتَ وعَلَيْهِ صَوْمٌ، صَامَ عنْهُ وَلِيُّهُ»[٣].

---

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٤٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٦٣) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٢١٠) كتاب السلام.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٥٢) كتاب الصوم، ومسلم (١١٤٧) كتاب الصيام.
والمخْتَارُ جوازُ الصَّوْمِ عمَّنْ ماتَ وعَلَيْهِ صَوْمٌ لهذا الحَدِيثِ - والمُرادُ بالوَلىِّ: القَرِيبُ وارِثًا كانَ أوْ غَيْرَ وارِثٍ.

۞ فقوله: «من مات وعليه صيام» يعني: معناه صيام واجب، وسواء كان هذا الواجب بأصل الشرع كشهر رمضان، أو واجب بإيجاب الإنسان ذلك على نفسه بالنذر، فإنه يُصام عنه، لعموم الحديث... أي: يصوم عنه وليه.. وسواء كان هذا الولي وارثًا أو غير وارث.

وإن صام عنه صاحبه فالذي يبدو أنه لا بأس، وإنما ذكر الولي من أجل أنه هو الذي يشفق عليه، وهو الذي يُعنَى به، وهو الذي يمكن أن يحصل ذلك منه، ولو صام عنه غيره جاز.

(١٨٦٨) وعنْ عَوْفِ بنِ مالِكِ بنِ الطُّفَيْلِ أنَّ عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حُدِّثَتْ أنَّ عَبْدَ الله بنَ الزُّبَيْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ في بَيْعٍ أوْ عَطَاءٍ أعطَتْهُ عَائشَةُ رضي الله تعالى عنها: والله لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ، أوْ لأحجُرَنَّ عليْها، قالتْ: أهُوَ قالَ هذا؟ قالوا: نَعمْ، قالتْ: هُو لله علَيَّ نَذْرٌ أنْ لا أُكلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أبدًا، فاسْتَشْفَع ابْنُ الزُّبَيرِ إليها حِينَ طالَتِ الهجْرَةُ. فقالتْ: لا والله لا أُشَفِّعُ فيه أبدًا، ولا أتَحَنَّثُ إلى نَذْري.

فلمَّا طَال ذلِكَ علَى ابنِ الزُّبَيْرِ كَلَّم المِسْورَ بنَ مخْرَمَةَ، وعَبْدَ الرَّحمَنِ بنَ الأسْوَدِ بنِ عبْدِ يَغُوثَ وقالَ لهُما: أنْشُدُكُما الله لَمَا أدخَلْتُمَاني على عائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فإنَّها لا يَحِلُّ لَهَا أنْ تَنْذِر قَطِيعَتي، فأقْبَل بهِ المِسْوَرُ، وعَبْدُ الرَّحمن حتَّى اسْتأذَنَا علَى عائشَةَ، فقالا: السَّلامُ عَلَيْكِ ورَحمةُ الله وبركاتُهُ، أندخُلُ؟ قالتْ عائِشَةُ: ادخُلُوا. قالوا: كُلُّنَا؟ قالتْ: نَعم ادخُلُوا كُلُّكُم، ولا تَعلَمُ أنَّ مَعَهُما ابنَ الزُّبَيْرِ، فلمَّا دخَلُوا، دخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الحِجَابَ، فاعتَنَقَ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وطَفِقَ يُنَاشِدُهَا ويبْكِي، وطَفِقَ المِسْوَرُ، وعبْدُ الرَّحمنِ يُنَاشِدَانِهَا إلا كَلَّمَتْهُ وقَبِلَتْ مِنْه، ويقولان: إنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهى عمَّا قد عَلِمْتِ مِن الهِجْرَةِ. ولا يَحلُّ لمُسْلِمٍ أنْ يهْجُر أخَاهُ فَوْقَ ثلاثِ ليَالٍ.

فَلَمَّا أَكْثَرُوا على عائشَةَ مِن التَّذْكِرةِ والتَّحرِيجِ، طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُما وتَبْكى، وتَقُولُ: إنِّى نَذَرتُ والنَّذْرُ شَدِيدٌ، فَلَمْ يَزالا بِهَا حتَّى كلَّمَتِ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وأعتَقَتْ فى نَذْرِهَا ذَلِكَ أربَعينَ رَقَبةً، وكانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بعدَ ذَلِكَ فتَبْكِى حتَّى تَبُلَّ دُمُوعُها خِمارَهَا[1].

۞ نحن نعلم أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين وأفضل زوجاته بعد موته ﷺ، وكانت مَنْ كانت فى العلم والعبادة والرأى والتدبير... وكان عبد الله بن الزبير وهو ابن أختها أسماء بنت أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سمع عنها أنها تبرعت وأعطت عطايا كثيرة فاستكثر ذلك منها وقال: لئن لم تنتهِ لأحجُرن عليها...وهذه كلمة شديدة بالنسبة لأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؛ لأنها خالتُه وعندها من الرأى والعلم والحلم والحكمة ما لا ينبغى أن يُقال فيها ذلك القول... والحَجر عليها يعنى منعها من التصرف فى مالها أو التبرع الكبير من مالها...فسمعت بذلك، وأُخبرت به... أخبرها بذلك الواشون الذين يَشُون بين الناس ويفسدون بينهم بالنميمة - والعياذ بالله - والنميمة من كبائر الذنوب... وقد حذر الله من النمام وإن حلف - فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

المهم أن هذه الكلمة وصلت إلى عائشة، فنذرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ألا تكلمه أبدًا، وذلك لشدة ما حصل لها من الانفعال على ابن أختها، وهجرته.

ومن المعلوم أن هجر أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لابن أختها سيكون شديدًا عليه، فحاول أن يسترضيها ولكنها صمَّمت ؛ لأنها ترى أن النذرَ شديدٌ، فاستشفع إليها برجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وفَعَلا حيلة بأم المؤمنين لكنها حيلة حسنة ؛ لأنها أدَّت إلى مطلوبٍ حسن وهو الإصلاح بين الناس... والكذب فى الإصلاح بين الناس باللسان جائز فكيف بالأفعال؟، استأذنا على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فسلَّما

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٧٣، ٦٠٧٤، ٦٠٧٥) كتاب الأدب.

عليها وهذه هي السُّنة عند الاستئذان أنك إذا قرعت الباب على شخص تقول السلام عليكم... ثم استأذناها في الدخول فقالا: ندخل؟ قالت: نعم، قالوا: كُلنا، قالت: كلكم، ولم تعلم أن عبد الله بن الزبير معهما لكنها لم تَقُل: هل معكم عبد الله بن الزبير فلم تستفصل وأتت بقولٍ عام: ادخلوا كلكم، فدخلوا.

فلما دخلوا عليها وإذا عليها الحجاب: حجاب أمهات المؤمنين وهو عبارة عن ستر تستتر به - أمهات المؤمنين - لا يراهن الناس وهو غير الحجاب الذى يكون لعامة النساء ؛ لأن الحجاب الذى لعامة النساء هو تغطية الوجه والبدن، ولكن هذا حجاب يكون حاجبًا وحائلًا بين أمهات المؤمنين والناس... فلما دخلا البيت دخل عبد الله ابن الزبير الحجاب ؛ لأنه ابن أختها فهى من محارمه فأكبَّ عليها يُقبلها ويبكى ويناشدها الله عَزَّوَجَلَّ ويحذرها من القطيعة ويبين لها أن هذا لا يجوز ... لكنها قالت: النذر شديد، ثم إن الرجلين أقنعاها بالعدول عما صمَّمتْ عليه من الهجر وذكَّراها بحديث النبى ﷺ إنه «**لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث**» حتى اقتنعت وبكَتْ وكلمت عبدَ الله ابن الزبير ولكن هذا الأمر أهمَّها شديدًا ؛ فكانت كلما ذكرته بكت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؛ لأنه شديد. وهذا قاعدة فى كل إنسان يخاف الله... كل مَن كان بالله أعرفَ كان منه أخوفَ... فكانت كلما ذكرت هذا النذر وأنها انتهكته بكت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ... ومع هذا أعتقت أربعين عبدًا من أجل هذا النذر ليُعتق الله تعالى رقبتها من النار... وفى هذا دليل على شدة إيمان أمهات المؤمنين وحرصهن على العتق من النار والبراءة من عذاب الكفار(١).

❁ **ففى هذا الحديث دليل على فائدة عظيمة .. ألا وهى:**

أن الإنسان لا يحل له أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام ولا سيما إذا كان قريبًا وأنه يجب عليه أن يحنث ويُكفِّر، لقول النبى ﷺ: «**مَن حلف على يمينٍ فرأى خيرًا منها فليكفر عن يمينه وليأتِ الذى هو خيرٌ**».

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ٣٣٦-٣٣٧).

(١٨٦٩) وعن عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إلى قَتْلَى أُحُدٍ، فَصَلَّى عليْهِمْ بعد ثَمانِ سِنينَ كالمودِّعِ للأحياءِ والأمْواتِ، ثُمَّ طَلَعَ إلى المِنْبَرِ، فقال: «إنِّي بيْنَ أيْدِيكُمْ فَرَطٌ وأنَا شهيدٌ عليْكُم وإنَّ موْعِدَكُم الحوْضُ، وإنِّي لأنْظُرُ إليه مِن مَقامِي هذا، وإنِّي لَسْتُ أخْشى عَلَيْكُم أنْ تُشرِكُوا، ولكِنْ أخْشَى عَلَيْكُم الدُّنْيا أنْ تَنَافَسُوها» قال: فكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرتُها إلى رسُولِ اللهِ ﷺ(١).

وفي روايةٍ: «ولَكِنِّي أخْشَى علَيْكُم الدُّنْيا أنْ تَنافَسُوا فيهَا، وتَقْتَتِلُوا فتَهْلِكُوا كمَا هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُم» قال عُقْبةُ: فكانَ آخِرَ ما رأيْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ على المِنْبَرِ.

وفي روايةٍ قال: «إنِّي فَرَطٌ لكُمْ وأنَا شَهِيدٌ عليْكُم، وإنِّي واللهِ لأنْظُرُ إلى حَوْضِي الآن، وإنِّي أُعطِيتُ مَفاتِيحَ خَزَائِنِ الأرضِ، أوْ مَفاتِيحَ الأرضِ، وإنِّي واللهِ مَا أخافُ عَلَيْكُم أنْ تُشرِكُوا بعدِي ولكِنْ أخَافُ علَيْكُم أنْ تَنافَسُوا فيها».

والمرادُ بالصَّلاةِ علَى قَتْلى أُحُدٍ: الدُّعاءُ لَهُمْ، لا الصَّلاةُ المعرُوفة.

۞ ففي هذا الحديث يحكي عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ خرج إلى قتلى أُحد فصلى على شُهداء أُحد - أي: دعا لهم كما قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ - لأن صلاة الجنازة المعروفة إنما تكون قبل الدَّفن لا بعده .. إلا مَن فاته الصلاة عليه قبل الدفن يصلي عليه بعده ... لكن هذه الصلاة الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، يعني: ادعُ لهم.

المهم أن النبي ﷺ صلى عليهم بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات.. ثم صعد المنبر ﷺ وبدأ يخطب في الناس وكأنه يودعهم.. ثم أخبرهم بأنه سيكون سابقًا لهم فقال ﷺ: «إنِّي بيْنَ أيْدِيكُمْ فَرَطٌ» وأعطاهم موعدًا على الحوض «وإنَّ موْعِدَكُم الحوْضُ» ثم أخبرهم أنه يرى الحوض من مكانه هذا .. ونحن نعلم أن النبي ﷺ كان وصف حوضه فقال: «حَوْضِي مَسِيرَةُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٤٤) كتاب الجنائز - ومسلم (٢٢٩٦) كتاب الفضائل.

شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْه فَلاَ يَظْمَأُ أَبَدًا» (١).

فهذا الحوض يتسابق إليه المسلمون يوم القيامة ليشربوا من يد النبى محمد ﷺ.. وذلك لأن الناس يخرجون من قبورهم أعطش ما كانوا وأجوع ما كانوا وأعرى ما كانوا.. فمن كان مُتبعًا للنبى ﷺ شرب من الحوض وسقاه النبى ﷺ.. ومَن كان مُبتدعًا فإنه يُذاد عن الحوض ويتبرأ منه النبى ﷺ.

۞ لقد كان النبى ﷺ ينظر إلى الحوض وهو فى الدنيا بين أصحابه .. فقد كُشف له فى الدنيا كما كُشفت له الجنة والنار فى صلاة الكسوف.. وكما كُشف له بيت المقدس وهو فى مكة عندما طلب منه المشركون أن يصفه لهم.

وأخبر ﷺ أنه لا يخشى على أمته الشركَ ؛ لأن البلاد – ولله الحمد – فُتحت وصار أهلها إلى التوحيد ولم يقع فى قلب النبى ﷺ أنه يقع الشرك بعد ذلك، لكن لا يُفهم من هذا – أى من كونه لا يخافِ الشرك على أمته – ألا يقع، فإن الشرك وقع الآن فهو موجود الآن: فمن المسلمين مَن يقول: إنه مسلم وهو يطوف بالقبور، ويسأل المقبورين ويذبح لهم وينذر لهم ... والرسول ﷺ لم يقل: إنكم لن تشركوا حتى نقول: إن ما وقع ليس بشرك.

ولكن الرسول ﷺ فى تلك الساعة لا يخشى على أمته الشرك لكن خشى شيئًا آخر... الناسُ أسرع إليه وهو أن تُفتح الدنيا على الأمة فيتنافسوها ويتقاتلوا عليها فتُهلكهم كما أهلكت مَن قبلهم، وهذا هو الذى وقع الآن.

فقد فُتحت الدنيا على أكثر الناس فتنافسوا عليها وتكالب عليها أكثر الناس – إلا مَن رحم الله– فأصبح أكثر الناس يوالون ويُعادون من أجل الدنيا ويتصالحون ويتخاصمون من أجلها.. وأصبح الإنسان يخدم الدنيا خدمة عجيبة يُرهق فيها

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٧٩) كتاب الرقاق – ومسلم (٢٢٩٢) كتاب الفضائل.

عقله وبدنه وكأنه خُلق من أجل الدنيا ولم تُخلق الدنيا من أجله... حتى وصل الأمر أن أكثر الناس لا يبالون من أين أتى المال: من حلالٍ أم من حرام!!

حتى صدق فيهم قول الرسول ﷺ: «**يأتي على الناس زمان لا يبالي الرجل من أين أخذ المالَ من حلالٍ أو حرام**»(١) - والعياذ بالله - أصبح الناس الآن يتقاتلون على الدنيا وحُطامها الزائل!!

فاحذر - أخي الحبيب- أن تجعل الدنيا أكبر همك حتى لا تفقد الدنيا والآخرة معًا ... فقد قال ﷺ: «**مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»(٢).

ولا مانع من أن تكون ناجحًا وغنيًّا لكن احرص على أن تشكر الله عَزَّ وَجَلَّ.. وذلك بأن تعبد الله عَزَّ وَجَلَّ وتستعمل المال في طاعة الله ولا تنسَ أن تُخرج الزكاة للفقراء واليتامى والمساكين وغيرهم ممن يستحقون الزكاة.

***

(١٨٧٠) **وعنْ أبي زَيْدٍ عمْرِو بنِ أخْطَبَ الأنْصاريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: صلَّى بنا رسُولُ الله ﷺ الفَجْرَ، وصَعِدَ المِنْبَر، فخَطَبَنا حتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فنزَل فَصلَّى. ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَر فخطب حتَّى حَضَرتِ العصرُ، ثُمَّ نَزَل فصلَّى، ثُمَّ صعِدَ المِنْبَر حتى غَرَبتِ الشَّمْسُ، فأخبرنا مَا كان ومَا هُو كائنٌ، فأعلَمُنا أحفَظُنا**(٣).

۞ ففي هذا الحديث يخبر عمرو بن أخطب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ صلى بهم الفجر ثم صعد المنبر وظل يخطب حتى حضرت الظهر.... ولكم أن تتخيلوا معي

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٥٠٩)، (٢٠٨٣) كتاب البيوع.

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٠).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٩٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

كم من الوقت ظل النبى ﷺ يخطب.. إنه ﷺ يخطب من بعد صلاة الفجر إلى وقت الظهر.. ولم ينزل إلا من أجل أن يصلى.. فلما صلى الظهر صعد المنبر وظل يخطب حتى أذان العصر ... ولم يذكر أحد أنه ﷺ حتى هذه اللحظة قد تناول طعامًا ليتقوَّى على هذا الجهد الكبير أم لا... ثم صلى النبى ﷺ العصر وصعد المنبر مرة أخرى وظل يخطب إلى غروب الشمس ... ولعله ﷺ لم يأكل حتى هذه اللحظة لأنه صائم أو لأنه كان مشغولًا بما يقوله...وكذلك أيضًا لم يُذكر أنه صلى راتبة الظهر فيكون هنا اشتغل عن الراتبة بما هو أهم ؛ لأن موعظة الناس وتعليم الناس أهم من الراتبة... فإن دار الأمر بين أداء الراتبة والتعليمِ فالتعليمُ أفضل.

يقول عمرو بن أخطب: فأخبرنا النبى ﷺ بما كان وما هو كائن.. يعنى: مما أطلعه الله عليه لأن النبى ﷺ لا يعلم الغيب على إطلاقه وإنما يعلم بعض الغيبيات التى يُطلعه الله عليها.

يقول عمرو بن أخطب: فأعلمُنا أحفظُنا .. أى أن منهم مَن كان عنده قدرة عالية على الحفظ فحفظ الكثير من كلام النبى ﷺ .. ومنهم مَن لم يستطع ذلك.. وقد كان النبى ﷺ أخطب الناس وأفصح الناس وأخلص الناس.. فبذل كل هذا الجهد وخطب من الفجر للمغرب ليبلغ الرسالة ويدل الناس على الخير ويحذرهم من الشرور التى قد تعترضهم فى دينهم أو دُنياهم.

(١٨٧١) وعنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أن يُطِيعَ الله فَلْيُطِعهُ، ومَنْ نَذَرَ أن يَعصِيَ الله فلا يَعصِهِ»(١).

۞ النذر هو أن يُلزم الإنسان المُكلَّف نفسه شيئًا لله تعالى.

وأما حكم النذر ابتداءً فإنه مكروه غير مستحب؛ لحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٩٦)، (٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.



النبي ﷺ نهى عن النذر وقال: «إنه لا يَردُّ شيئًا وإنما يُستخرَج به من الشحيح»(١)، ولأن الناذر يُلزم نفسه بشيء لا يلزمه في أصل الشرع... فيحرج نفسه، ويُثقلها بذلك، ولأنه مطلوب من المسلم فعل الخير بلا نذر.

إلا أنه إذا نذر فعل طاعة وجب عليه الوفاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، ولحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «مَن نذر أن يُطيع الله فليُطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يَعصه»(٢).

فقد مدح الله عز وجل الموفين بالنذر وأثنى عليهم... وأمر ﷺ بالوفاء به، فدلَّ ذلك على أن النهي المتقدم عن النبي ﷺ إنما هو للكراهة لا للتحريم، وأن المنهي عنه والمكروه هو ابتداء النذر والدخول فيه، وأما الوفاء به، وإنجازه لمن لزمه فواجب، وطاعة لله سبحانه... والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز صرفه لغير الله تعالى، فمن نذر لقبرٍ أو وليٍّ ونحوه، فقد أشرك بالله تعالى شركًا أكبر، والعياذ بالله.

۞ وينقسم النذر بحسب الأحكام المترتبة عليه، ولزوم الوفاء به من عدمه، إلى خمسة أنواع:

(١) النذر المطلق: نحو قوله: لله عليَّ نذر. ولم يُسمِّ شيئًا، فيلزمه كفارة يمين، سواء كان مطلقًا أو مقيدًا... لحديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة النذر إذا لم يُسمِّ كفارة يمين»(٣).

(٢) نذر اللَّجَاج والغضب: وهو تعليق نذره بشرطٍ يقصد به المنع من فعل شيء أو الحمل عليه أو التصديق أو التكذيب... كقوله: إن كلمتك، أو إن لم

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٩٢) كتاب الأيمان والنذور – ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨٨)، وأصله في صحيح مسلم.

أخبر بك، أو إن لم يكن هذا الخبر صحيحًا، أو إن كان كذبًا فعليَّ الحج، أو العتق .. ، فهذا النذر خارجٌ مَخرج اليمين للحث على فعل شيء أو المنع منه، ولم يقصد به النذر ولا القربة... فهذا يُخيَّر فيه بين فعل ما نذره أو كفارة يمين؛ لقوله ﷺ: «**كفارة النذر كفارة يمين**»(١).

(٣) النذر المباح: وهو أن ينذر فعل الشيء المباح، نحو: أن ينذر لبس ثوب أو ركوب دابة .. ونحو ذلك، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لا شيء عليه فيه... لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم وأن يصوم، فقال: «**مُروه، فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليُتم صومه**»(٢).

(٤) نذر المعصية: وهو أن ينذر فعل معصية، كنذر شرب خمر، والنذر للقبور، أو لأهل القبور من الأموات، وصوم أيام الحيض، ويوم النحر.

فهذا النذر لا ينعقد ولا يجب الوفاء به... لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**ومَن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**»؛ لأن معصية الله لا تُباح في حالٍ من الأحوال، ولا يَلزمه به كفارة.

(٥) نذر التبرُّر: وهو نذر الطاعة وفعل البِر... كنذر فعل الصلاة والصيام والحج، سواء أكان مطلقًا، أم معلقًا على حصول شيء، فيجب الوفاء به إن كان مُطلَقًا... وعند حصول الشرط إن كان مُعلَّقًا... لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٤٥) كتاب النذر.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٧٠٤) كتاب الأيمان والنذور.

(٣) بتصرف من الفقه الميسر - مجموعة علماء.

(١٨٧٢) وعنْ أُمِّ شَرِيكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسُولَ الله ﷺ أمرَهَا بِقَتْلِ الأوزَاغِ، وقال: «كانَ ينْفُخُ على إبراهيمَ»(١).

(١٨٧٣) وعن أبى هُرَيرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «منْ قَتَلَ وزَغَةً فى أوَّلِ ضَربَةٍ، فلَهُ كذَا وكذَا حسنَةً، ومَن قتَلَها فى الضَّربَةِ الثَّانيةِ، فَلَه كذَا وكذَا حَسَنَةً دُونَ الأُوْلَى، وإنْ قَتَلَها فى الضَّربَةِ الثَّالِثَةِ فلَهُ كذَا وكذا حَسَنَةً».

وفى روايةٍ: «مَن قَتَلَ وَزَغًا فى أوَّلِ ضَربَةٍ، كُتِبَ لهُ مائةُ حسنَةٍ، وفى الثَّانِيَةِ دُونَ ذلِكَ، وفى الثَّالثَةِ دُونَ ذلكَ»(٢).

۞ ففى هذين الحديثين يحث النبى ﷺ على قتل الأوزاغ.. والوزغ هو السام الأبرص (البُرص).. وأخبر النبى ﷺ أنه حينما أُلقى إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن فى النار كان الأوزاغ ينفخون عليه لتزداد النار لهيبًا واشتعالًا عليه..... وأخبر النبى ﷺ أن مَن قتل الوزغ من أول ضربة فله من الحسنات كذا وكذا.. ولم يحدد النبى ﷺ هنا لكنه جاء فى الرواية الأُخرى أن مَن قتله فى أول ضربة كُتب له مائة حسنة.

ولذا كان عند أُمنا عائشة رُمحٌ تتبع به الأوزاغ وتقتلها... ولهذا ينبغى أن نحرص على قتل الأوزاغ .. وذلك لأن النبى ﷺ أمر بذلك.. وكذلك لأنها تُعادى أهل التوحيد.. كما كانت تفعل ذلك مع إبراهيم عليه السلام... فاحرص على أن تقتلها سواء كان ذلك فى البيت أو العمل أو المسجد أو السوق.

(١٨٧٤) وعنْ أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «قالَ رَجُلٌ لأتَصدَّقَنَّ بِصَدَقةٍ، فخَرَجَ بِصَدَقته، فوَضَعَها فى يَدِ سَارِقٍ، فأصبَحُوا يَتحدَّثُونَ، تُصُدِّقَ الليلةَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥٩) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢٣٧) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٠) كتاب السلام.

قال أَهْلُ اللُّغَةِ: الوَزَغُ: العِظَامُ مِنْ سامٍّ أَبْرَصَ.

على سارقٍ، فقال: اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ لأتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فوَضَعَهَا فى يدِ زَانيةٍ، فأصبَحوا يَتحدَّثُون تُصِدِّقَ اللَّيْلَةَ على زانِيَةٍ، فقالَ: اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ على زانِيَةٍ، لأتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقةٍ، فخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فوَضَعَها فى يدِ غَنِيٍّ، فأصبَحُوا يَتحدَّثُون : تُصُدِّقَ على غَنِيٍّ ، فقالَ : اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ على سارِقٍ ، وعلَى زَانِيَةٍ، وعلَى غَنِي، فأُتِيَ فقِيلَ لهُ: أمَّا صَدَقَتُكَ على سَارِقٍ فلَعَلَّهُ أنْ يَسْتَعِفَّ عنِ سَرِقَتِهِ ، وأمَّا الزَّانِيَةُ فلَعَلَّها تَسْتَعِفَّ عنْ زِناهَا، وأمَّا الغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ أنْ يَعتَبِر، فيُنْفِقَ مِمَّا آتاه اللهُ»[1].

۞ إذا فعل العبد ما أمره به ربه، فلا حرج عليه إن هو أخطأ فيما فعل، ولن يُنقصه الله أجره، ولن يضيع ثوابه ... فقد أخبرنا الرسول ﷺ فى هذا الحديث عن رجل عزم على التصدُّق سرًّا ، فتصدق ثلاث ليالٍ، فوقعت صدقته فى يد سارق مرة، وفى يد زانية أُخرى، وفى يد غنى ثالثة... وقد ساءه ذلك وآلمه ، فأُتى فى المنام، وأُخبر أن صدقته قد قُبلت... وبيَّن له أن فى صدقته على هؤلاء الذين لا يستحقون الصدقة عظات وعِبرًا.

ففى كل جيلٍ وعصر يوجد فيه الإسلام يوجد الأخيار الذين يشتاقون إلى العمل بطاعة الله، وينبعثون إلى العمل عن طواعية ورضا، لا يطلبون من العباد من وراء عملهم جزاءً ولا شُكورًا.

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن رجل أراد أن يتصدق بصدقة خفية، لا يطَّلع على صاحبها إلا علَّام الغيوب ... فصدقة السر تُطفئ غضب الرب، وصدقة السر أفضل من صدقة العلانية.

خرج ذلك الرجل فى جوف الليل يبحث عن مَن يضع صدقته فى يده، فوجد رجلًا ظنَّه فقيرًا، فدفع إليه ذلك المال الذى أراد التصدُّق به، وكان ذلك الرجل سارقًا... وتندَّر الناس فى مَجامعهم وأسواقهم فى صبيحة اليوم التالى بالمُتصدق

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٢١) كتاب الزكاة - ومسلم (١٠٢٢) كتاب الزكاة.

الذى وضع ماله فى يد سارق.

لقد حدَّث اللص بما جرى معه، وهذه الأخبار تَذيع فى المجتمعات الصغيرة، وتنتشر فيها بسرعة مذهلة... وبلغ الخبر صاحبنا من الناس الذين تحدثوا به، وهم لا يعرفون صاحبه، فآلمه ذلك وأحزنه، وعبَّر عن حزنه وألمه بقوله: «اللهم لك الحمد، على سارق!!».

وعزم على أن يُعيد الكَرَّة فى الليلة التالية، لأنه كان يظن أن صدقته قد ذهبت هباءً منثورًا، ولم تقع موقعها عند ربه عَزَّوَجَلَّ... فخرج فى الليلة الثانية بعد أن أظلم الليل وستره بظلامه، ووضع صدقته فى يد امرأة ظنَّها فقيرة فإذا هى زانية... وتحدثت الزانية كما تحدث السارق، وشاع الخبر وذاع، وبلغ صاحبنا، فازداد عجبه وألمه، وقال كما قال بالأمس: «اللهم لك الحمد، على زانية!!!».

وعزم على أن يتصدق مرة ثالثة احتسابًا للأجر، وطلبًا للثواب، فوقعت صدقته فى الليلة الثالثة فى يد غنى... ولك أن تتصور مدى حزن هذا الرجل الذى لم يُصِب فيما كان يطمح إليه ثلاث مرات، ولك أن تتخيل مشهده وهو يخاطب ربه متألمًا مُتعجبًا قائلًا: اللهم لك الحمد، على سارق، وعلى زانية، وعلى غنى!!!

لم يكن يعلم هذا الرجل أن الله كتب له الأجر والمثوبة ... فالذى يبذل من ماله يبتغى الثواب من الله، يرزقه الله الثواب، وإن كان المُتصدَّق عليه لا يستحق الصدقة.

وقد جاءه فى منامه مَن بشَّره بأن الله قَبِلَ صدقته، وأثابه عليها، وأعلمه بحكمة عظيمة من وراء التصدق على هؤلاء الثلاثة: فلعلَّ السارق أن يستعف بها عن السرقة، ولعل الزانية أن تستعف بها عن الزنا، ولعلها تدفع الغنى إلى الإنفاق تأسِّيًا بهذا الرجل الذى يتصدق بالليل ساترًا نفسه عن العباد، طالبًا الأجر من رب العباد.

وقد جاء فى الأحاديث أن الصدقة مقبولة، وإن وقعت فى يدى مَن لا يريد المتصدق أنْ تقع فى يده ... فقد روى البخارى فى صحيحه أنْ يزيد بن الأخنس وضع دنانير عند رجل فى المسجد، ووكّله بصرفها إلى مُستحقيها، فجاء ابنه مَعِن فأخذها، وهو لا يعلم أن مصدرها والده، وجاء بها إلى أبيه، فرفض الوالد أخذه إياها، وقال: والله ما إياك أردت، فخاصمه الإبن إلى رسول الله ﷺ، فقال الرسول ﷺ مُفتيًا وحاكمًا: «**لَكَ مَا نَوَيتَ يَا يَزِيد، ولَكَ مَا أَخَذتَ يَا مَعِن**»[1][2].

ففى هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا نوى الخير وسعى فيه وأخطأ فإنه يُكتب له، ولا يضره...ولهذا قال العلماء (رحمهم الله): إذا أعطى زكاته مَن يظنه من أهل الزكاة فتبيَّن أنه ليس من أهلها فإنها تُجزئه... وكان من هدى النبى ﷺ أنه إذا أصابه ما يَسُره قال: «**الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات**»، وإذا أصابه خلاف ذلك قال: «**الحمد لله على كل حال**»[3] هذا هدى النبى ﷺ.

(١٨٧٥) وعنْ أبى هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنَّا مع رسُولِ الله ﷺ فى دَعوَةٍ فرفع إليه الذِّراع وكانت تُعجِبه فنَهس مِنْها نَهْسَةً وقال: «أنا سَيِّد الناس يومَ القِيامَةِ، هَلْ تَدرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ فى صعيدٍ واحد، فيَنْظُرُهمُ النَّاظِرُ، ويُسمِعُهُمُ الدَّاعِي، وتَدنُو مِنْهُم الشَّمْسُ، فيَبْلُغُ النَّاسُ مِن الغَمِّ والكَربِ مَا لا يُطِيقُونَ ولا يحتَمِلُونَ، فيقُولُ النَّاسُ: ألا تَروْنَ إلى مَا أنْتُم فيه، إلى ما بَلَغَكُم؟ ألا تَنْظُرُونَ مَن يشْفَعُ لكُمْ إلى ربِّكُم؟

فيقولُ بعضُ النَّاسِ لبَعضٍ: أبُوكُم آدَمُ، ويأْتُونَهُ فيقولون: يَا آدَمُ أنْتَ أبُو البَشَرِ،

(١) صحيح: رواه البخارى (١٤٢٢) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٢٦٤-٢٦٥).

(٣) صحيح: رواه الحاكم، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٤٠).

خَلَقَكَ الله بيَدِهِ، ونَفَخَ فيكَ مِن رُوحِهِ، وأمَرَ الملائكةَ فسَجَدُوا لكَ وأسْكَنَكَ الجَنَّةَ، ألا تَشْفَعُ لَنا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلَى ما نَحنُ فيه، وما بَلَغنا؟ فقالَ: إنَّ رَبِّى غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وإنَّهُ نَهانى عنِ الشَّجَرةِ، فعَصَيْتُ. نَفْسِي نَفسِي نَفسِي. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى نُوحٍ.

فيأْتون نُوحًا، فيقُولُون: يا نُوحُ، أنْتَ أوَّلُ الرُّسُل إلى أهْلِ الأرضِ، وقد سمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا، ألا تَرَى إلى مَا نَحنُ فيه، ألا ترى إلى ما بلغَنا، ألا تَشْفَعُ لنا إلى ربِّكَ؟ فيقُولُ: إنَّ ربِّى غَضِبَ اليوْمَ غَضَبًا لمْ يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وأنَّهُ قد كانَتْ لى دَعوةٌ دَعَوْتُ بِها على قَوْمِى، نَفْسِي نَفسِي نَفْسِي. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى إبْراهِيمَ.

فيأْتُونَ إبْراهِيمَ، فيقُولُون: يا إبْراهيمُ أنْتَ نَبِيُّ الله وخَلِيلُهُ مِن أهْلِ الأرضِ، اشْفَع لَنَا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلى ما نَحنُ فيه؟ فيقولُ لهم: إنَّ رَبِّى قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. ولَنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وإنِّى كُنْتُ كَذَبْتُ ثلاثَ كَذِبَاتٍ. نَفْسِي نَفسِي نَفْسِي. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى موسَى.

فيأْتونَ مُوسَى، فيقُولُون: يا مُوسَى أنتَ رسُولُ الله، فضَّلَكَ الله بِرِسالاته وبِكلامِه على النَّاس، اشْفَع لَنَا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلى ما نَحنُ فيه؟ فيقولُ: إنَّ رَبِّى قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. ولنْ يَغْضَبَ بعدَهُ مِثْلَهُ، وإنِّى قَد قَتَلْتُ نَفَسًا لَمْ أُومَر بقَتْلِها، نَفْسِي نَفسِي نَفْسِي. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى عِيسَى.

فيأْتُونَ عِيسَى، فيقُولُون: يا عِيسَى أنتَ رسُولُ الله، وكَلِمَتُهُ ألقَاهَا إلى مَريَم ورُوحٌ مِنْهُ، وكَلَّمْتُ النَّاسَ فى المَهْدِ، اشْفَع لَنَا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلى ما نَحنُ فيه؟ فيقولُ عيسى: إنَّ رَبِّى قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولنْ يَغْضَبُ بَعدَهُ مِثْلَهُ، ولَمْ يَذْكر ذَنْبًا. نَفْسِي نَفسِي نَفْسِي. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى مُحَمَّد ﷺ فيأتونَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وفى روايةٍ: «فيأتُونِى، فيقولُون: يا مُحَمَّدُ أَنْتَ رسُولُ الله، وخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وقَد غفَرَ الله لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تأخَّر، اشْفع لَنَا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلى ما نَحنُ فيه؟ فأنْطَلِقُ، فآتِى تَحتَ العَرشِ، فأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّى، ثُم يَفْتَحُ الله عَلَيَّ مِن مَحَامِدِهِ، وحُسْن الثَّناءِ عليهِ شَيئًا لَمْ يَفْتَحهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِى ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارفَع رأسكَ، سَلْ تُعطَهُ، واشْفَع تُشَفَّع، فأرفَعُ رأسِى، فأقُولُ أُمَّتِى يا رَبِّ، أُمَّتِى يا ربِّ، أُمَّتى يا ربِّ، فيُقَالُ: يا مُحَمَّدُ أدخِلْ مِن أُمَّتِكَ مَن لا حِسَابَ عَلَيْهِم مِن البابِ الأيْمَنِ مِن أبوابِ الجَنَّةِ وهُم شُركاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذلِكَ مِن الأبواب» ثم قال: «والذى نَفْسِى بيدِهِ إنَّ مَا بَيْنَ المصراعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَما بَيْنَ مَكَّةَ وهَجَر، أوْ كما بَيْنَ مَكَّةَ وبُصرَى»(١).

۞ ففى هذا الحديث يحكى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا جالسين مع النبى ﷺ فى دعوة فقُدمت إلى النبى ﷺ ذراع الشاة وكانت تُعجبه لأن لحمها طيب ومفيد.. فنهس النبى ﷺ منها نهسة صغيرة بأطراف أسنانه.. فقد كان النبى ﷺ لا يأكل بكل أسنانه بل كان يأكل بأطرافها حتى يتعلم الناس جميعًا كيف تكون ذوقيات الطعام.

ثم قال لهم النبى ﷺ: «أنا سَيِّد الناس يومَ القِيامَةِ» ولا شك فى ذلك أبدًا.. فالنبى ﷺ هو سيد الأولين والآخرين فى الدنيا والآخرة.

ثم قال لهم النبى ﷺ: «هَلْ تَدرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟» فساق لهم بيان شرفه وفضله ﷺ على جميع بنى آدم.. فذكر ﷺ أن الناس يُحشرون يوم القيامة فى صعيدٍ واحد من أولهم لآخرهم كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] يُجمعون فى صعيد واحدٍ... والأرض يومئذ ممدودة ليست كهيئتها اليوم كروية لا ترى - إذا مددتَ بصرك - إلا ما يواجهك من ظهرها فقط... أما يوم القيامة فإن الأرض تُمَدُّ مدَّ الجلد وليس فيها جبال ولا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧١٢) كتاب التفسير - ومسلم (١٩٤) كتاب الإيمان.

أودية ولا أنهار ولا بحار تُمَدُّ مَدًّا واحدًا والعالم فيها يُسمعهم الداعى ويَنفذهم البصر - يعنى لو تكلم الإنسان يسمعه آخر واحد - والبصر ينفذهم ؛ فيراهم جميعًا؛ لأنه ليس بها تكوُّر حتى يغيب بعضٌ عن بعضٍ ولكن كلهم فى صعيدٍ واحد... ولذا قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

وفى ذلك اليوم تدنو الشمس من الخلائق حتى تكون كمقدار ميل ويفيض العرق على أجسادهم.. فمنهم مَن يبلغ العرق إلى كعبيه.. ومنهم مَن يبلغ العرق إلى رُكبتيه.. ومنهم مَن يبلغ العرق إلى حِقويه.. ومنهم مَن يُلجمه العرق إلجامًا.. ويُؤتَى بجهنم لها سبعون ألف زمامٍ مع كل زمامٍ سبعون ألف ملك يجرونها.. فلا يبقى مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبىٌّ مُرسَل إلا جَثى على رُكبتيه وقال: يا رب سلِّم سلِّم.

فيصبح الناس فى غَمٍّ وشدة وكرب لا يعلمه إلا الله.. فتضيق بهم الأرض.. فيقول الناس: ألا تَروْنَ إلى مَا أَنْتُم فيه، إلى ما بَلَغَكُم؟ ألا تَنْظُرُونَ مَن يشْفَعُ لكُمْ إلى ربِّكُم؟

فيقولُ بعضُ النَّاسِ لبَعضٍ: أبُوكُم آدَمُ، ويأتُونَهُ فيقولون: يَا آدَمُ أنْتَ أبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ الله بيَدِهِ، ونَفَخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ، وأمَرَ الملائكةَ فَسَجَدُوا لكَ وأسْكَنَكَ الجَنَّةَ، ألا تَشْفَعُ لَنا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلَى ما نَحنُ فيه، وما بَلَغَنا؟ فقالَ: إنَّ رَبِّى غَضِبَ اليومَ غَضبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وإنَّهُ نَهَانى عنِ الشَّجَرةِ، فعَصَيْتُ. نَفْسِى نَفسِى نَفْسِى. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى نُوحٍ.

إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ تذكَّر أنه أكل من تلك الشجرة التى نهاه الله عنها.. ولكن إبليس استطاع أن يُغويه حتى أكل منها هو وزوجه حواء فأُخرجا من الجنة وأُهبطا إلى الأرض لحكمة يريدها الله عَزَّوَجَلَّ.. فقال آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا: نفسى نفسى.. يعنى: عسى

أن أستطيع أن أُنقذ نفسى.. اذهبوا إلى غيرى.. اذهبوا إلى نوح.. ونوح عليه السلام هو الأب الثانى للبشرية.. وهو أول رسول أرسله الله عز وجل إلى أهل الأرض..

فيأتُون نُوحًا عليه السلام فيقُولُون: يا نُوحُ، أنْتَ أوَّلُ الرُّسُل إلى أهْلِ الأرضِ، وقَد سمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا، ألا تَرَى إلى مَا نَحنُ فيه، ألا تَرى إلى ما بلغَنَا، ألا تَشْفَعُ لنا إلى ربِّكَ؟ فيقُولُ: إنَّ ربِّى غَضِبَ اليوْمَ غَضبًا لمْ يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وأنَّهُ قد كانَتْ لى دَعوةٌ دَعَوْتُ بِها على قَوْمِى، نَفْسِى نَفسِى نَفْسِى. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى إبْراهِيمَ.

لقد تذكر دعوته التى تعجَّلها ودعا بها على قومه وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وفى رواية أنه يذكر دعوته التى دعا بها لابنه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]... يذكر ذنبه، والشافع لا يشفع إلا إذا كان ليس بينه وبين المشفوع عنده ما يوجب الوحشة والمعصية بين العبد وربه ... فيذكر معصيته ويقول: نفسى نفسى نفسى ويُحيلهم إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

فيأتُونَ إبْراهِيمَ، فيقُولُون: يا إبْراهيمُ أنْتَ نَبِىُّ الله وخَلِيلُهُ مِن أهْلِ الأرضِ، اشْفَع لَنَا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلى ما نَحنُ فيه؟ فيقولُ لهم: إنَّ رَبِّى قد غَضِبَ اليومَ غَضبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. ولنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وإنِّى كُنْتُ كَذَبْتُ ثلاثَ كَذِبَاتٍ. نَفْسِى نَفسِى نَفْسِى. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى موسَى .

والكذبات هى قوله: (إنى سقيم) وهو ليس بسقيم، لكنه قال مُتحديًا لقومه الذين يعبدون الكواكب وحتى لا يخرج معهم فى احتفالهم بأحد أعياد أصنامهم.

والثانية قوله للملك الكافر: (هذه أختى) يعنى زوجته وأخته فى الإسلام ليَسلم من شره وهى ليست كذلك.

والثالثة قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٣٦]، أى الأصنام ؛ لأن إبراهيم ﷺ ذهب إلى أصنامهم فهشَّمها، فلما رجعوا وجدوها مُهشَّمة قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، فقالوا: فعله فتى يُقال له إبراهيم وجرى بينهم وبين إبراهيم عليه السلام ما جرى، فقال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وهو ما فعل، وإنما الذى فعله هو إبراهيم ﷺ لكن ذكر ذلك على سبيل التحدى لهؤلاء الذين يعبدون الأوثان.

هذه كذبات فى ظاهر الأمر لكنها فى الحقيقة وبمناسبة تأويله ﷺ لم تكن كذبات، لكنه لشدة ورعه وحيائه من الله (تبارك وتعالى) اعتذر لهذا الإثم وقال: نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى...

فيأتُونَ مُوسَى، فيقُولُون: يا مُوسَى أنْتَ رسُولُ الله، فضَّلَكَ الله بِرِسالاته وبِكلامِهِ على النَّاس، اشْفَع لَنَا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلى ما نَحنُ فيه؟ فيقولُ: إنَّ رَبِّى قد غَضِبَ اليومَ غَضبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. ولنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وإنِّى قَد قَتَلْتُ نَفَسًا لَمْ أُومَر بِقَتْلِهَا،. نَفْسِى نَفسِى نَفْسِى. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى عِيسَى.

لقد ذكر لهم موسى عليه السلام ذنبه.. وهو أنه قتل الرجل القبطى الذى كان فى خصامٍ مع رجل من بنى إسرائيل .. أى: من قوم موسى عليه السلام.. وكان القبطى من قوم فرعون ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]. دون أن يُؤمَر بقتله، فرأى ﷺ أن هذا مما يَحول بينه وبين الشفاعة للخلق حيث قتل نفسًا لم يُؤمر بقتلها، وقال: نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى.

فيذهبون إلى عيسى عليه السلام ويذكرون فضل الله عليه ومِنَّته بأنه خلقه بلا أب ونفخ فيه من روحه وأنه كلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه.. فلم يذكر عيسى ذنبًا واحدًا ولكنه أحالهم إلى النبى محمد ﷺ... وهذا شرفٌ عظيم للنبى ﷺ فقد اعتذر هؤلاء الأنبياء والرسل جميعًا ورأوا أن محمدًا ﷺ هو أَولَى الرسل

بهذه الشفاعة وبذلك المقام العظيم... فإذا جاءوا إلى النبى ﷺ يقوم فى التو واللحظة ليشفع للناس جميعًا لبدء الحساب.. وهذا هو المقام المحمود.. لأن أهل المحشر يحمدونه جميعًا.

فيذهب النبى ﷺ وينطلق إلى تحت عرش الرحمن (جل وعلا) فيَخِرُّ ساجدًا لله عَزَّوَجَلَّ فيفتح الله عليه من المحامد والثناء على الله ما لم يفتحه على أحدٍ غيره ثم يُقال له: «**يَا مُحَمَّدُ ارفَع رأسكَ، واشْفَع تُشَفَّع**» فيشفع النبى ﷺ ويقول: يارب أُمتى أُمتى.. فيتقبل الله شفاعة النبى ﷺ ويُقال له: يا محمد أدخِل مِن أُمَّتِكَ مَن لا حِسَابَ عَلَيْهِم مِن البابِ الأيْمَنِ مِن أبوابِ الجَنَّةِ وهُم شُركاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَىَ ذلِكَ مِن الأبواب» ثم قال: « والذى نَفْسِى بِيدِهِ إنَّ مَا بَيْنَ المصراعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَما بَيْنَ مَكَّةَ وهَجَر، أوْ كما بَيْنَ مَكَّةَ وبُصرَى».

وهكذا يعلم أهل المحشر جميعًا – مؤمنهم وكافرهم– أن النبى ﷺ هو سيد الأولين والآخرين.. ويحمدونه جميعًا على تلك الشفاعة لبدء الحساب.. وهذا هو المقام المحمود الذى وعده الله إياه فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾

(١٨٧٦) وعنْ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: جاءَ إبْراهِيمُ ﷺ بِأُمِّ إسْماعِيل وبابنِهَا إسْماعِيلَ وهى تُرضِعُهُ حتَّى وَضَعَها عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فى أعلَى المسْجِدِ، ولَيْسَ بمَكَّةَ يومئذٍ أحَدٌ ولَيْسَ بِها ماءٌ، فوَضعَهُمَا هُناكَ، ووَضَعَ عِنْدَهُما جِرَابًا فيه تَمرٌ، وسِقاءً فيه ماءٌ.

ثُمَّ قَفَّى إبْراهيمُ مُنْطَلِقًا، فتَبِعَتْهُ أُمُّ إسْماعيل فقَالَتْ: يا إبراهيمُ أيْنَ تَذْهَبُ وتَتْرُكُنا بهذا الوادِى الذى لَيْسَ فيه أنيسٌ ولا شىءٌ؟ فقَالَتْ لهُ ذلك مِرارًا، وجعل لا يَلْتَفِتُ إليْهَا، قالتْ له: آلله أمَرَكَ بهذا؟ قال: نَعَمْ. قالتْ: إذًا لا يُضَيِّعُنا، ثُمَّ رجعتْ.

فانطَلَقَ إبراهيمُ ﷺ، حتَّى إذا كانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حيْثُ لا يَروْنَهُ . اسْتَقْبَلَ بِوجْهِهِ

البيْتَ، ثُمَّ دعا بهؤلاء الدَّعواتِ، فرفَعَ يدَيْهِ فقَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾.

وجعلَتْ أُمُّ إسْماعِيل تُرضِعُ إسْماعِيل، وتَشْربُ مِن ذلكَ الماءِ، حتَّى إذَا نَفِدَ ما فى السِّقَاءِ عطشت وعَطِشَ ابْنُها، وجعلَتْ تَنْظُرُ إليهِ يَتلَوَّى ـ أو قالَ: يَتلَبَّطُ ـ فانْطَلَقَتْ كَراهِيَةَ أنْ تَنْظُر إليه، فوَجدت الصَّفَا أقْرَبَ جَبَلٍ فى الأرضِ يلِيهَا، فقَامَتْ عليه، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الوادِى تَنْظُرُ هَلْ تَرى أحدًا؟ فَلَمْ تَرَ أحدًا. فهَبطَتْ مِن الصَّفَا حتَّى إذا بَلَغت الوادِى، رَفَعَتْ طَرفَ دِرعِهَا، ثُمَّ سَعتْ سَعى الإنْسانِ المجهُودِ حتَّى جاوزَت الوَادِى، ثُمَّ أتَتِ المروةَ، فقَامتْ عليْها، فنَظَرَتْ هَل تَرى أحدًا؟ فَلَمْ تَرَ أحدًا، ففَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْع مرَّاتٍ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النَّبىُّ ﷺ: «فذَلِكَ سَعىُ النَّاسِ بيْنَهُما».

فلَمَّا أشْرفَتْ على المروَةِ سَمِعَتْ صوتًا، فقَالتْ: صهْ ـ تُرِيدُ نَفْسَها ـ ثُمَّ تَسمَّعَتْ، فسمِعَتْ أيضًا، فقالتْ: قَد أسْمَعتَ إنْ كانَ عِنْدكَ غَواثٌ. فأغِث.

فإذا هى بالمَلَكِ عِنْد موْضِع زمزَمَ، فبحثَ بعقِبِهِ ـ أو قالَ بِجناحِهِ ـ حتَّى ظَهَر الماءُ، فجَعلَتْ تُحَوِّضُهُ وتقولُ بيدهَا هَكَذَا، وجَعَلَتْ تَغْرُفُ الماءَ فى سِقَائِهَا وهو يفُورُ بَعدَ ما تَغرفُ ـ وفى رواية: ـ بِقدرِ ما تَغْرِفُ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النَّبىُّ ﷺ: «رحِمَ الله أُمَّ إسماعيلَ لَوْ تَركَتْ زَمزَم ـ أو قال: لوْ لَمْ تَغرِفْ مِن الماءِ - لكانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا معِينًا» قال: فَشَربتْ، وأرضَعَتْ وَلَدَها.

فقال لَهَا المَلَكُ: لا تَخَافُوا الضَّيْعَة فإنَّ هَهُنا بَيْتًا لله يبنيه هذا الغُلامُ وأبُوهُ، وإنَّ الله لا يُضيِّعُ أهْلَهُ، وكانَ البَيْتُ مُرتَفِعًا مِن الأرضِ كالرَّابِيَةِ تأتِيهِ السُّيُولُ، فتأخُذُ عن يمِينِهِ وعن شِمالِهِ.

فكانَتْ كَذَلِكَ حتَّى مرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِن جُرهُمْ، أو أهْلُ بيْتٍ مِنْ جُرهُم مُقْبِلين

مِن طَرِيقِ كَدَاء، فنزَلُوا فى أسْفَلِ مَكَةَ، فرأوْا طائرًا عائفًا فقالوا: إنَّ هذا الطَّائِر ليَدُورُ على مَاءٍ لعهْدُنا بهذا الوادِى ومَا فيهِ ماء فأرسَلُوا جَرِيًّا أوْ جَرِيَّيْنِ، فإذا هُمْ بالماء، فرَجعُوا فأخْبرُوهم فأقْبَلوا، وأُمُّ إسماعيلَ عند الماء، فقالُوا: أتأذَنِينَ لَنا أن ننزِلَ عِنْدَكَ؟ قالتْ: نَعَمْ، ولكِنْ لا حَقَّ لكُم فى الماءِ، قالوا: نَعَمْ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «فألفى ذلكَ أُمَّ إسماعيلَ، وهِى تُحِبُّ الأُنْسَ» .

فَنزَلُوا، فأرسَلوا إلى أهْلِيهِم فنزَلوا معهم، حتَّى إذا كانُوا بِهَا أهْل أبياتٍ، وشبَّ الغُلامُ وتَعلَّم العربيَّة مِنهُم وأنْفَسَهُم وأعجَبهُمْ حِينَ شَبَّ، فلَمَّا أدرَكَ، زَوَّجُوهُ امرأةً منهُم، وماتَتْ أُمُّ إسماعِيل.

فجاءَ إبراهيمُ بعد ما تَزَوَّجَ إسماعيلُ يُطالِعُ تَرِكَتَهُ فَلم يجِد إسْماعِيل، فسأل امرأتَهُ عنه فقالت: خَرَجَ يَبْتَغِى لَنا - وفى روايةٍ: يصِيدُ لَنا - ثُمَّ سألَها عنْ عَيْشِهِمْ وهَيْئَتِهِم فقالت: نَحنُ بِشَرٍّ، نَحنُ فى ضِيقٍ وشِدَّةٍ، وشَكَتْ إليه، قال: فإذا جاءَ زوْجُكِ، اقرئى عَلَيْه السَّلام، وقُولى لهُ يُغيِّر عَتبةَ بابِه.

فَلَمَّا جاءَ إسْماعيلُ كأنَّهُ آنسَ شيئًا فقال: هَلْ جاءَكُم مِن أحَد؟ قالَتْ: نَعَمْ، جاءَنا شَيْخٌ كذا وكذا، فسألَنا عنْكَ، فأخْبَرْتُهُ، فسألنى كيف عَيْشُنا، فأخْبَرتُهُ أنَّا فى جَهْدٍ وشِدَّةٍ. قالَ: فَهَلْ أوْصاكِ بشَىءٍ؟ قالتْ: نَعمْ ، أمَرنى أنْ أقْرأ عليْكَ السَّلامَ ويقولُ: غَيِّر عَتبةَ بابكَ. قال: ذاكَ أبى، وقد أمرنى أنْ أُفارِقَكِ، الحَقِى بأهْلِكِ. فطَلَّقَهَا، وتَزوَّج مِنْهُم أُخرى.

فلَبِث عنهُمْ إبراهيم ما شاء الله ثُم أتَاهُم بَعدُ، فَلَمْ يجدهُ، فدَخل على امْرأتِهِ، فسأل عنه. قالت: خَرَج يبْتَغى لَنَا. قال: كيفَ أنْتُم؟ وسألَهَا عنْ عَيْشِهِمْ وهَيْئَتِهِم، فقالتْ: نَحنُ بِخيْرٍ وَسَعَةٍ وأثْنتْ على الله تعالى، فقال: ما طَعامُكُمْ؟ قالتْ: اللَّحمُ. قال: فما شَرابُكُم؟ قالتِ: الماءُ، قال: اللَّهُمَّ بارِكْ لهُمْ فى اللَّحمِ والماء، قال النَّبِىُّ ﷺ: «وَلَمْ يكُنْ لهُمْ يومَئذٍ حَبٌّ ، ولو كانَ لهُم دَعَا لهُمْ فيهِ» قال: فهُما لا يخْلُو

علَيْهِما أحدٌ بغَيْرِ مكَّةَ إلا لَم يُوافِقَاهُ.

وفي روايةٍ: فجاء فقال: أيْنَ إسْماعِيلُ؟ فقالَتِ امْرأتُهُ: ذهَبَ يَصِيدُ، فقالتِ امْرأتُهُ: ألا تَنْزِلُ، فتَطْعَم وتَشْرَبَ؟ قال: وما طَعامُكم وما شَرابُكم؟ قالَتْ: طَعَامُنا اللَّحمُ، وشَرابُنا الماءُ، قال: اللَّهُمَّ بارِكْ لهم في طَعامِهِمْ وشَرابِهِم، قال: فقالَ أبُو القَاسِمِ ﷺ: «بَركَةُ دعوةِ إبراهيم ﷺ» قال: فإذا جاءَ زَوْجُكِ، فاقْرئي علَيْهِ السَّلامَ ومُرِيهِ يُثَبِّتْ عَتَبَة بابِه.

فلَمَّا جاءَ إسماعيلُ، قال: هَل أتاكُم مِن أحَد؟ قالتْ: نَعَم، أتَانا شَيْخٌ حَسَن الهَيئةِ وأثْنَتْ عليه، فسألنى عنْكَ، فأخبرتُهُ، فسألنى كيف عَيْشُنَا، فأخْبَرتُهُ أنَّا بخَيرٍ. قالَ: فأوْصَاكِ بِشَيءٍ؟ قالَتْ: نَعمْ، يَقْرأُ علَيْكَ السَّلامَ، ويأمُرُكَ أنْ تُثَبِّتَ عَتَبَة بابِكَ. قال: ذَاكِ أبي، وأنتِ العَتَبَةُ أمرني أنْ أُمْسِكَكِ.

ثُمَّ لَبِثَ عنْهُم ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ جاءَ بعد ذلكَ وإسْماعيلُ يَبْرِي نَبْلًا لهُ تَحتَ دَوْحةٍ قريبًا مِن زَمْزَمَ، فَلَمَّا رآهُ، قامَ إليهِ، فصَنعَ كَمَا يصنعُ الوَالِدُ بالوَلَدِ والوَلَدُ بالوالِدِ، قال: يا إسْماعِيلُ إنَّ اللهَ أمرني بأمْرٍ، قال: فاصنَع ما أمَرَكَ ربُّكَ؟ قال: وتُعِينُني، قال: وأُعِينُكَ، قالَ: فإنَّ اللهَ أمرنِي أنْ أبْنِي بيْتًا ههُنا، وأشَار إلى أكَمَةٍ مُرتَفِعَةٍ على ما حَوْلَها فَعِنْد ذلك رَفَعَ القَواعِدَ مِن البيْتِ، فجَعَلَ إسْماعِيل يأتي بالحِجارَةِ، وإبْراهِيمُ يبْني حتَّى إذا ارتَفَعَ البِنَاءُ جاءَ بهذَا الحجرِ فوضَعَهُ لهُ فقَامَ عليهِ، وهُو يبْنِي وإسْماعيلُ يُناوِلُهُ الحِجارَة وهُما يقُولانِ: «ربَّنَا تَقبَّل مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَليمُ».

۞ وفي روايةٍ: إنَّ إبْراهيم خَرَج بإسْماعيل وأُمِّ إسماعيل، معَهُم شَنَّةٌ فيهَا ماءٌ فجَعَلَتْ أُم إسماعيلَ تَشْرَبُ مِن الشَّنَّةِ، فيَدِرُّ لَبَنُها على صبيِّها حتَّى قَدِم مكَّةَ. فوَضَعَها تَحتَ دَوْحةٍ، ثُمَّ رَجَع إبراهيمُ إلى أهْلِهِ، فاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إسماعيلَ حتَّى لَمَّا بلغُوا كَدَاء نادَتْه مِن ورائِه: يا إبْراهِيمُ إلى مَن تَتْرُكُنا؟ قالَ: إلى الله، قالَتْ: رَضِيتُ بالله، فرَجَعتْ، وجَعلَتْ تَشْرَبُ مِن الشَّنَّةِ، ويَدِرُّ لبَنُها على صَبِيِّها حتَّى لَمَّا فَنِي الماءُ قالَتْ:

لوْ ذَهَبْتُ فنَظَرتُ لَعَلِّي أحِسُّ أحَدًا، قال: فذَهَبَتْ فصعِدَتْ الصَّفا. فنظَرَتْ ونَظَرَتْ هَل تُحِسُّ أحدًا، فلَم تُحِسَّ أحدًا، فلَمَّا بلَغَتِ الوادي سَعَتْ وأتَتِ المروة، وفَعَلتْ ذلكَ أشْواطًا، ثُمَّ قالتْ: لو ذهَبْتُ فنَظَرتُ ما فَعلَ الصَّبِيُّ، فذَهَبتْ ونَظَرَتْ، فإذا هُو على حالِهِ كأنَّه يَنْشَغُ للمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُها. فقالت: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ، لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أحَدًا حتَّى أتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قالتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فنَظَرتُ ما فعل. فإذا هي بصوْتٍ، فقالَتْ: أغِثْ إنْ كان عِنْدَكَ خَيْرٌ فإذا جبريلُ ﷺ فقال بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وغمزَ بِعقبهِ على الأرض، فانْبَثَقَ الماءُ فدَهِشَتْ أُمُّ إسماعيلَ فجعَلَتْ تَحفِنُ - وذكَرَ الحديث بطُولِهِ[1].

۞ قصة الحديث لا تحتاج إلى شرحٍ.. فهي تشرح نفسها بنفسها.

الدروس المستفادة من القصة

(١) أن الزواج من سُنن المُرسلين .. فلقد رأينا كيف أن إبراهيم عليه السلام قد تزوج وكذلك إسماعيل عليه السلام .. بل تزوج نبينا محمد ﷺ وأخبر عن الزواج أنه سُنته ثم قال: «**فمن رَغِبَ عن سُنتي فليس مني**».

(٢) أن الزوجة الصالحة هي التي تحمد الله على كل حال ولا تُكلف زوجها فوق ما يطيق.

(٣) أن على الوالد أن يتفقد حال أولاده ويطمئن عليهم وعلى دينهم .. ولقد رأينا كيف كان إبراهيم عليه السلام يسافر إلى ابنه إسماعيل عليه السلام ليتفقد أحواله ويطمئن عليه.

(٤) أن المسلم لا بد أن يكون له بصمة في هذه الحياة.. بمعنى أنه لا بد أن

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٣٦٤، ٣٣٦٥) كتاب أحاديث الأنبياء.
«الدَّوْحَةُ» الشَّجَرَةُ الكَبِيرَةُ - قولُهُ: «قَفَّى»: أيْ: وَلَّى - «وَالْجَرِيُّ»: الرَّسُولُ - «وَأَلْفَى»: معناه وَجَدَ.
قَوْلُهُ: «يَنْشَغُ»: أيْ: يَشْهَقُ.

تقدم أي خدمة لدينك ولوطنك .. فلقد رأينا كيف قام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام برفع قواعد البيت ابتغاء مرضاة الله (جل وعلا) وليكون قبلة للمسلمين.

(٥) لا تفرح بأى عمل تعمله حتى تعلم هل قَبِله الله منك أم لا؟... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

(٦) أن تحرص على أن تعيش على الطاعة وأن تموت على الطاعة.. فلقد رأينا كيف أن إبراهيم عليه السلام بذل حياته كلها لخدمة دين الله وللدعوة إلى الله (جل وعلا) حتى آخر لحظة فى حياته[1].

(١٨٧٧) وعن سعيدِ بنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الكَمأةُ مِن المنِّ، وماؤهَا شِفَاءٌ للعَيْنِ»[2].

۞ الكمأة: هى التى تُعرف عند الناس بالفجع ... تنبت من كثرة الأمطار ولا سيما الأمطار الموسمية. وهى معروفة، لذيذة الطعم، تنبت على الأرض وإذا كبرت يأخذها الناس بدون كُلفة وبدون مشقة ... ولهذا قال النبى ﷺ إنها: «**من المنِّ**» - أى مما مَنَّ الله به على عباده بيُسرٍ وسهولةٍ -.

«**وماؤها شفاء للعين**» يعنى أن الماء الذى يُستخرج منها إذا مرضت العينُ بسبب الرطوبة فإن هذه تشفيه بإذن الله عز وجل؛ لأن ماءها ناشف - وإن كان سائلًا - يُنَشِّف العين ويزيل عنها الرطوبات، ولهذا قال: «**ماؤها شفاء للعين**» يعنى ليس من كل مرض بل من الأمراض التى أسبابها الرطوبة فإنها تُشْفَى بإذن الله عز وجل... ولكن كيف يُستخرج ماؤها؟ قيل: إنها تُصهَر على النار ثم تُعصَر؛ لأنها إذا صُهرت على النار لانت ثم تُعصر، وقيل: إنها تُقطع قطعًا صغيرة ثم

(١) قصص الأنبياء/ د. محمود المصرى (ص ٢٠٩).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٧٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٠٤٩) كتاب الأشربة.

تُعصر عصرًا شديدًا فيخرج منها الماء ولكنه قليل(١).

وقال الخطابى رَحِمَهُ اللهُ: ليس المراد أنها نوع من المن الذى أُنزل على بنى إسرائيل وإنما المعنى: أن الكمأة شيء ينبت من غير تكلُّف ببَذرٍ ولا بسقى فهو من قبيل المَنِّ الذى كان ينزل على بنى إسرائيل.

۞ وقال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وَاخْتُلِفَ فِي مَعنَى قَوْلِهِ ﷺ: «الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ» فَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَكَثِيرُونَ: شَبَّهَهَا بِالْمَنِّ الَّذِى كَانَ يَنْزِلُ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهُ كَانَ يَحصُلُ لَهُمْ بِلَا كُلْفَةٍ وَلَا عِلَاجٍ ... وَالْكَمْأَةُ تَحصُلُ بِلَا كُلْفَةٍ وَلَا عِلَاجٍ وَلَا زَرعِ بِذْرٍ وَلَا سقى ولا غيره ... وَقِيلَ هِىَ مِنَ الْمَنِّ الَّذِى أَنْزَلَ اللهُ تعالى على بنى اسرائيل حقيقة عملًا بظاهر اللَّفْظِ ... وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَمَاؤُهَا شفاء للعين» قيل: هُوَ نَفْسُ الْمَاءِ مُجَرَّدًا... وَقِيلَ: مَعنَاهُ أَنْ يُخْلَطَ مَاؤُهَا بِدَوَاءٍ وَيُعَالَجَ بِهِ الْعَيْنُ... وَقِيلَ: إِنْ كَانَ لِبُرُودَةِ مَا فِى الْعَيْنِ مِنْ حَرَارَةٍ فَمَاؤُهَا مُجَرَّدًا شِفَاءٌ، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ ذلك فمُرَكَّبٌ مَعَ غَيْرِهِ... وَالصَّحِيحُ بَلِ الصَّوَابُ أَنَّ مَاءَهَا مُجَرَّدًا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ مُطْلَقًا فَيُعصَرُ مَاؤُهَا، وَيُجْعَلُ فِى الْعَيْنِ مِنْهُ ... وَقَد رَأَيْتُ أَنَا وَغَيْرِى فِى زَمَنِنَا مَنْ كَانَ عَمِىَ وَذَهَبَ بَصَرُهُ حَقِيقَةً فَكَحَّلَ عَيْنَهُ بِمَاءِ الْكَمْأَةِ مُجَرَّدًا فَشُفِىَ وَعَادَ إِلَيْهِ بَصَرُهُ، وَهُوَ الشَّيْخُ الْعَدلُ الْأَيْمَنُ الْكَمالُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الدِّمَشْقِىُّ صَاحِبُ صَلَاحٍ وَرِوَايَةٍ لِلْحَدِيثِ ... وَكَانَ اسْتِعمَالُهُ لِمَاءِ الْكَمْأَةِ اعتقادًا فى الحديث وتبرُّكًا به والله أعلم(٢).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٥٠).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٦-٧).

(١٩) كتاب الاستغفار

(٣٧١) باب الأمر بالاستغفار وفضله

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥- ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والآيات في الباب كثيرة معلومة .

لا بد أن نعلم أولاً أن الاستغفار هو طلب المغفرة.. وأنه ما من إنسان فى هذه الحياة إلا وهو مُذنبٌ وخطَّاء.. ولذا قال النبى ﷺ: «كُلُّ بَنِى آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(١) والخطأ الذى يَصدُر من بنى آدم إما تقصيرٌ فى واجب أو فعلٌ لمحرم ولا يخلو الإنسان من ذلك ولكن دواء الذنوب الاستغفار ولله الحمد.

ولقد أقسم الشيطان على إغواء بنى آدم .. فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ على أن يغفر لهم ما داموا يستغفرون...

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥١٥).

قال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لا أَبْرَحُ أُغْوِى عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِى أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِى وَجَلالِى لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِى»(١).

ومن أجل ذلك أمرنا الله عز وجل بكثرة الاستغفار.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)﴾ [النساء: ١١٠].

وأثنى الله عز وجل على المستغفرين بالأسحار الذين قاموا الليل يُناجون ربهم ويبكون من خشيته فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ (١٧)﴾.

وكان النبى ﷺ يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل فى اليوم مائة مرة.. وهو الذى غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأخبر الحق (جل وعلا) أنه كان هناك أمانان لأهل الأرض: الأمان الأول هو وجود النبى ﷺ بيننا.. والأمان الثانى الاستغفار.. فلما تُوفى النبى ﷺ بقى الأمان الثانى من العذاب: ألا وهو الاستغفار.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال: ٣٣].

وأخبر النبى ﷺ أن كثرة الاستغفار تَسُر صاحب الصحيفة يوم القيامة.

قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الاِسْتِغْفَارِ»(٢).

وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِى صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»(٣).

---

(١) حسن: رواه أحمد، والحاكم، وأبو يعلى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٥٠).

(٢) حسن: رواه البيهقى، والضياء، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٥٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد فى الزهد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٣٠).

والاستغفار والتوبة سببٌ للفوز بمحبة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

بل هو سببٌ لسعة الرزق والإمداد بالمال والبنين.

قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

بل هو سببٌ لحصول القوة في البدن كذلك.

قال هود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

بل هو سببٌ لدخول الجنة يوم القيامة.. قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

بل هو سببٌ لرفعة الدرجات في الجنة... قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الرَّجُل لَتُرفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الجَنَّةِ فَيَقُول: أَنَّى لِي هَذَا؟ فَيُقَالُ: باسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**»(١).

❊ ❊ ❊

(١٨٧٨) وعنْ الأغَرِّ المُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ على قَلْبِي، وإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله في اليَوْمِ مائةَ مرَّةٍ»(٢).

---

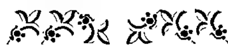
(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء.

۞ «لَيُغَانُ»: الْمُرَادُ هُنَا مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ مِن الغَفْلَةِ عَنِ الذِّكْرِ أَوِ الغَمِّ ونحوه، وَقِيلَ: هُوَ هَمُّهُ بِسَبَبِ أُمَّتِهِ وَمَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحوَالِهَا بَعدَهُ فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ.

۞ فيه ما كان عليه نبى الرحمة ﷺ من انشغاله الدَّائم وجهده الدَّائب خوفًا وشفقة على أمته حتى أنه ﷺ كان يُصاب بالغمِّ من ذلك، فيجد تفريج همَّه فى الاستغفار الذى هو سببٌ لتفريج الهموم والأحزان ... رغم أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر... وفيه أيضًا انزعاجه ﷺ بترك الذكر يسيرًا وإن كان المانع الانشغال بمصالح الأمة والنظر فيها.

وَقِيلَ: هُوَ هَمُّهُ بِسَبَبِ أُمَّتِهِ وَمَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحوَالِهَا بَعدَهُ فَيَسْتَغْفِرُ لَهُم. وَقِيلَ: سَبَبُهُ اشْتِغَالُهُ بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ أُمَّتِهِ وَأُمُورِهِمْ وَمُحَارَبَةُ الْعَدُوِّ وَمُدَارَاتُهُ وَتَأْلِيفُ الْمُؤَلَّفَةِ وَنَحوُ ذَلِكَ فَيَشْتَغِلُ بذلك من عظيم مقامه فيراه ذنبًا بالنسبة إِلَى عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ... وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ أَعظَمِ الطَّاعَاتِ وَأَفْضَلِ الْأَعمَالِ فَهِيَ نُزُولٌ عَنْ عَالِي دَرَجَتِهِ وَرَفِيعِ مَقَامِهِ مِنْ حُضُورِهِ مَعَ اللهِ تَعَالَى وَمُشَاهَدَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ وَفَرَاغِهِ مِمَّا سِوَاهُ فَيَسْتَغْفِرُ لِذَلِكَ...وَقِيلَ يُحتَمَلُ أَنَّ هَذَا الْغَيْنَ هُوَ السَّكِينَةُ الَّتِي تَغْشَى قَلْبَهُ...لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح:١٨] وَيَكُونُ اسْتِغْفَارُهُ إِظْهَارًا لِلْعُبُودِيَّةِ وَالِافْتِقَارِ وَمُلَازَمَةِ الْخُشُوعِ وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَاهُ(١).



(١٨٧٩) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقُولُ: «والله إنِّى لأَسْتَغْفِرُ الله وأتُوبُ إليه فى اليَوْمِ أكثَرَ مِن سَبْعِينَ مرَّةً»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٣٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٧) كتاب الدعوات.

(١٨٨٠) وعن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «والذِى نَفْسِى بيدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لذَهَبَ الله تَعالى بِكُم، ولجاءَ بقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فيَسْتَغْفِرُونَ الله تَعالى فيَغْفِرُ لهمْ»(١).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٢٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٨٨١) وعنْ ابْنِ عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُول الله ﷺ فى المجلِس الواحِدِ مائةَ مرَّةٍ: «رَبِّ اغْفِر لى، وتُبْ علىَّ إنَّكَ أنْتَ التَّوابُ الرَّحِيمُ»(٢).

۞ ولك أن تتخيل معى سيد ولد آدم ﷺ وهو يستغفر فى المجلس الواحد.. وليس فى اليوم الواحد.. بل يستغفر فى المجلس الواحد مائة مرة وهو الذى لم يُذنب ولم يرتكب ذنبًا.. بل وفوق ذلك فهو الذى غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. ولم يكن هناك أصلًا أى ذنوبٍ متقدمة ولا متأخرة..

والنبى ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا.. فياليتنا نُكثر من التوبة والاستغفار لنفوز بخيرى الدنيا والآخرة.

(١٨٨٢) وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَن لَزِم الاسْتِغْفَار، جعلَ الله لهُ مِن كُلِّ ضِيقٍ مَخْرجًا، ومِن كُلِّ هَمٍّ فَرجًا، ورَزَقَه مِن حيْثُ لا يَحتَسِبُ»(٣).

۞ وللأمانة العلمية ... فهذا الحديث ضعيف ولم يَثْبُت عن النبى ﷺ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩) كتاب التوبة.
(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٨٦).
(٣) ضعيف: رواه أبو داود، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٨٢٩).

(١٨٨٣) وعنْ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَن قال: أَسْتَغْفِرُ الله الذى لا إله إلا هُو الحَىَّ القَيُّومَ وأَتُوبُ إليه، غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وإنْ كَانَ قَد فَرَّ مِن الزَّحفِ»(١)

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن قال فى استغفاره: «**أَسْتَغْفِرُ الله الذى لا إله إلا هُو الحَىَّ القَيُّومَ وأَتُوبُ إليه**» غُفرت ذنوبه وإن كان قد فَرَّ من الزحف -أى: من موطن الحرب- أى: غُفرت صغائر ذنوبه المتعلقة بحق ربه، وإن كان قد اقترف ما هو من الكبائر فلا يمنع ذلك مِن غَفْرِ الصغائر بالذكر المذكور ... فلا يخالف ما عليه المحققون من أن أعمال البر لا تكفر إلا الصغائر المتعلقة بحق الله تعالى(٢).

(١٨٨٤) وعن شَدَّادِ بْنِ أَوسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبىّ ﷺ قال: «سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى، لا إلهَ إلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعدِكَ مَا اسْتَطَعتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعمَتِكَ عَلَىَّ، وأَبُوءُ بِذَنْبِى، فَاغْفِر لِى، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ. مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِى، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ، وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»(٣).

۞ سيد الاستغفار أن تقول: «**اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت**..» فتُقر لله عَزَّ وَجَلَّ

(١) صحيح: قال الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى تحقيق رياض الصالحين (١٨٨٣): قلت: هذا يوهم أن أبا داود والترمذى أخرجاه من حديث ابن مسعود وليس كذلك وإنما أخرجه الحاكم فقط وإسناده قوى وأما أبو داود والترمذى فإنما أخرجاه من حديث زيد مولى رسول الله ﷺ وفى إسناده جهالة لكنه شاهد لا بأس به وللحديث شواهد أخرى أشرت إليها فى (التعليق الرغيب) (٢/ ٢٦٩) - ولذا صححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (١٣٤٣).

(٢) دليل الفالحين (٤/ ٦٠٩).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٦) كتاب الدعوات - أبوء: أى أعترف.

بلسانك وبقلبك أن الله هو ربك المالكُ لك المُدبر لأمرك المُعتنى بحالك...وأنت عبده كونًا وشرعًا...عبده كونًا يفعل بك ما يشاء: إن شاء أمرضك وإن شاء أصحَّك وإن شاء أغناك وإن شاء أفقرك، حسبما تقتضيه حكمته عَزَّوَجَلَّ...وكذلك أنت عبده شرعًا تتعبد له بما أمر... تقوم بأوامره وتنتهى عن نواهيه...فتُقر بذلك «**اللهم أنت ربى وأنا عبدك خلقتنى وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**» تُقر بأن الله خلقك وهو الذى أوجدك من العدم وأنك على عهده ووعده ما استطعت...على عهده لأن كل إنسان قد عاهد الله أن يعمل بما علم ويُعلمه ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ**﴾ [آل عمران: ١٨٧] فمتى أعطاك الله علمًا فإنه قد عَهِدَ إليك أن تعمل به...وعلى وعدك أى: أنا على وعدك أى فى الخير.

۞ «**أعوذ بك من شر ما صنعت**» يعنى أنت تستعيذ بالله من شر ما صنعت لأن الإنسان يصنع خيرًا فيُثاب عليه ويصنع شرًّا فيُعاقَب عليه ويصنع الشر فيكون سببًا لضلاله كما قال الله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ**﴾ [المائدة:٤٩] فأنت تتعوذ بالله من شر ما صنعت... «**أبوء لك بنعمتك علىَّ**» يعنى أعترف بنعمك العظيمة الكبيرة التى لا أُحصيها... وأبوء بذنبى: أى: أعترف به فاغفر لى هذا الذنب إنك أنت الغفور الرحيم ...

فاحرص على حفظ هذا الدعاء وحافظ عليه صباحًا ومساءً ... إن متَّ من يومك فأنت من أهل الجنة... وإن متَّ من ليلتك فأنت من أهل الجنة(١).

❊❊❊

(١٨٨٥) وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ **إذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ، اسْتَغْفَرَ اللهَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإكْرَامِ». قِيلَ لِلأوْزَاعِيِّ - وَهُوَ أَحَدُ رُوَاتِهِ-: كَيفَ الاسْتِغْفَارُ؟ قال: يقُولُ:**

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٥٤) بتصرف.

أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ»[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٢٣) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(١٨٨٦) وعن عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ رسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أنْ يقُولَ قَبْل موْتِه: «سُبحانَ الله وبحمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إليه»[٢].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١١٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٨٨٧) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «قالَ الله تعالى: يا ابْنَ آدَمَ إنَّكَ ما دَعَوْتَنى ورَجَوْتَنِى غَفرتُ لَكَ علَى ما كانَ مِنْكَ ولا أُبَالِى، يا ابْنَ آدَمَ لَو بلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنانَ السَّماء ثُمَّ اسْتَغْفَرتَنى غفَرتُ لكَ ولا أُبالى، يا ابْنَ آدمَ إنَّكَ لوْ أَتَيْتَنى بقُرابِ الأرضِ خطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنى لا تُشْرِكُ بى شَيئًا، لأَتَيْتُكَ بقُرابِها مَغْفِرَةً»[٣].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٤٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٨٨٨) وعنْ ابنِ عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبىَّ ﷺ قال: «يا معشَرَ النِّساءِ تَصدَّقْنَ، وأكْثِرنَ مِن الاسْتِغْفَارِ، فإنِّى رأيْتُكُنَّ أكْثَر أهْلِ النَّارِ» قالتِ امْرأةٌ مِنهُنَّ: ما لنَا أكْثَرَ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٩١) كتاب المساجد- الجلال: أى العظمة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٦٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٤٨٤) كتاب الصلاة.

(٣) حسن: رواه الترمذى، والضياء، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٨).
«عنان السماء» بفَتح العينِ، قيل: هُو السَّحابُ، وقيل: هُو ما عنَّ لَكَ مِنْها، أى: ظَهَرَ . و«قُرابُ الأرضِ» بضَمِّ القافِ، ورُوىَ بكَسْرِها، والضَّمُّ أشْهَرُ، وهُو ما يُقاربُ مِلأَها.

أهْلِ النَّارِ؟ قال: «تُكْثِرنَ اللَّعنَ، وتَكْفُرنَ العَشِيرَ .. ما رأيْتُ مِن نَاقِصَاتِ عَقْلٍ ودِينٍ أغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ» قالتْ: ما نُقْصانُ العقْل والدِّينِ؟ قال: «شَهادَةُ امرأتَيْنِ بِشهَادةِ رجُلٍ، وتَمْكُثُ الأيَّامَ لا تُصَلِّى»(١).

۞ فالشاهد من هذا الحديث أن النبى ﷺ أوصى النساء بالصدقة والإكثار من الاستغفار.. ثم وضح السبب فى ذلك فقال ﷺ: **«تُكثرن اللعن وتَكفُرن العشير»**.. أى: أن النساء يُكثرن من اللعن.. لعنة الله على فلانة.. لعنه الله على كذا.. وتَكفُرن العشير: أى الزوج.. وكأنها وصية من النبى ﷺ للنساء أن يُنزهن ألسنتهن عن اللعن وأن يكون عندهن حُسن تبعُّل لأزواجهن... وأما قوله ﷺ: **«فإنِّى رأيْتُكُنَّ أكْثَرَ أهْلِ النَّارِ»** ... فيا ترى هل النساء أكثر أهل النار؟

الجواب: أن عدد النساء فى الدنيا أصلًا أكثر من عدد الرجال، بمعنى أن عدد خلق الله من النساء أكثر من عددهم من الرجال ... وقد جاء فى الحديث أنه فى آخر الزمان فى الدنيا يكون لكل خمسين امرأة قيِّمٌ واحد .. أى: رجل واحد.

وفى عصرنا اليوم بدأت نِسَب الولادات من البنات تزداد بشكلٍ ملحوظ، حتى صارت نسبة الذُّكور فى بعض البُلدان تصل إلى خمس نساء مقابل رجل واحد، وبذلك تكون النساء أكثر من الرجال وجودًا فى البشر... فإذا دخل نصف رجال الدنيا إلى الجنة، ونصف نساء الدنيا أيضًا، فإن عدد النساء سيكون أكثر؛ لأن النساء فى الدنيا أكثر، وكذلك الحال فى النار، فلو دخل النار عُشر رجال الدنيا، وعُشر نساء الدنيا، فستكون النساء فى النار عددهن أكثر؛ لأنهن أكثر فى الدنيا.

وعلى ذلك لا يُفهَم من حديث إن النساء أكثر أهل النار ذَمّ جنس النساء، أو التنقُّص منهن(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٩) كتاب الإيمان.

(٢) العالم الأخير (ص ٥١٧).

(٣٧٢) باب بيان ما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين في الجنة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ
﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ
فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨]، وقال تعالى: ﴿ يَا عِبَادِ لَا
خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ
﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ
وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ
وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ
فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٥١-٥٧]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى
الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾
خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ
بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨]. والآيات في الباب كثيرة معلومة.

وهل هناك أجمل من أن يختم الإمام النووى كتابه المبارك (رياض الصالحين) بذكر ما أعدَّه الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده المؤمنين فى الجنة... وأرجو أن يكون تفاؤلًا حسنًا وأن يختم الله لى ولكم جميعًا بعمل أهل الجنة وأن يجمعنا صُحبة فى الفردوس الأعلى.

قال تعالى: « ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ أى إن الذين اتقوا

الفواحش والشرك لهم فى الآخرة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر والعسل ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ أى يُقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ﴾ أى أزلنا ما فى قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء ﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ أى حال كونهم إخوةً متحابين لا يُكدّر صفوهم شيء... على سُررٍ متقابلين وجهًا لوجه... قال مجاهد: لا ينظر بعضُهم إلى قفا بعض زيادةً فى الأُنس والإكرام... وقال ابن عباس: على سررٍ من ذهبٍ مُكلَّلة بالدُّر والياقوت والزبرجد[1] ﴿ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أى لا يصيبهم فى الجنة إعياءٌ وتعب ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ أى لا يُخرجون منها ولا يُطردون... نعيمهم خالد، وبقاؤهم دائم، لأنها دار الصفاء والسرور[2].

❊ ❊ ❊

۞ وقال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ الله المؤمنين الذين تحققتم فى العبودية لرب العالمين، ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ﴾ فى هذا ﴿ٱلۡيَوۡمَ ﴾ العصيب، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ على ما فاتكم من الدنيا...ثم وضَّحهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ أى هم الذين صدَّقوا بالقرآن، واستسلموا لحكم الله وأمره، وانقادوا لطاعته ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾ أى يُقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات، تُنعَّمون فيها وتُسرُّون سرورًا يظهر أثره على وجوهكم ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ ﴾ أى يُطاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها طعام، وأقداحٍ من ذهب فيها الشراب ...

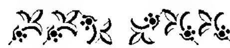
قال المفسرون: آنية أهل الجنة التى يأكلون فيها الطعام، والكئوس التى يشربون فيها الشراب كلُّها من ذهب وفضة.

(١) زاد المسير (٤/ ٤٠٤).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ١٠٤).

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أى وفى الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتُسَرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أى وأنتم فى الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبدًا ...قال أبو السعود: وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمال للسرور، فإنَّ كل نعيمٍ زائلٍ موجبٌ لخوف الزوال[1].. لمَّا ذكر الجنة وأنها موضع الحُبور، ذكر ما فيها من النعم، فذكر أولًا المطاعم، ثم ذكر المشارب، ثم بعد ذلك التفصيل ذكر بيانًا كُليًّا بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ ثم ذكر تمام النعمة بالخلود فى دار النعيم، وهذا حصرٌ لأنواع النعم، لأنها إمَّا مُشتهاة فى القلوب، أو مُستلذةٌ فى العيون[2] ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أُعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة التى قدمتموها فى الدنيا...قال ابن كثير: أى أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم...فإنه لا يدخل أحدٌ الجنة بعمله، ولكنْ برحمة الله وفضله، وإنما الدرجاتُ يُنال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات[3].

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى لكم فى الجنة من أنواع الفواكة والثمار الشيء الكثير سوى الطعام والشراب من هذه الفواكة تأكلون تَفكُّهًا وتَلذُّذًا ...قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقى فعلى الأشجار على الدوام[4].

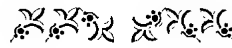


❁ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ أى الذين اتقوا اللهَ فى الدنيا

(١) تفسير أبى السعود (٥/ ٤٩).
(٢) حاشية زاده على البيضاوى (٣/ ٣٠٤).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٩٦).
(٤) صفوة التفاسير (٣/ ١٥٣).

بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم اليوم فى موضع إِقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره، وهو الجنة... ولهذا قال بعده: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أى فى حدائق وبساتين ناضرة، وعيونٍ جارية ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أى يلبسون ثياب الحرير، الرقيق منه وهو السندس، والسميك منه وهو الاستبرق ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أى ستقابلين فى المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام، وزوجناهم أيضًا بالحور الحِسان فى الجنان.

ثم زاد فى بيان النعيم فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أى يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه فى الجنة، لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض، فلا تعب فى الجنة ولا وَصَب ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع... أى لا يذوقون فى الجنة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى فى الدنيا فلم يَعُد ثَمة موت، بل خلودٌ أبد الآبدين ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أى خلَّصهم ونجَّاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أى فعل ذلك بهم تَفضُّلًا منه تعالى عليهم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أى ذلك الذى أُعطوه من النعيم، هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه(١).



۞ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أى إِن المطيعين لله فى الجنات الوارفة، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أى هم على السُّرر المُزينة بفاخر الثياب والستور، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم فى الجنة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أى إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة، لما ترى فى وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورونقه.

(١) صفوة التفاسير (٣/ ١٦٥).

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أى يُسقون من خمرٍ فى الجنة، بيضاء طيبة صافية، لم تُكدرها الأيدى، قد خُتم على تلك الأوانى فلا يَفُك ختمها إلا الأبرار.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أى آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أى وفى هذا النعيم والشراب الهنىء، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله، وليتسابق المتسابقون ... قال الطبرى: التنافُس مأخوذ من الشىء النفيس الذى يحرص عليه الناس، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم... والمعنى فليستبقوا فى طلب هذا النعيم، ولتحرص عليه نفوسهم[١] ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أى يُمزج ذلك الرحيق من عينٍ عالية رفيعة، هى أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تُسمى «التسنيم» ولهذا قال بعده ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أى هى عينٌ فى الجنة يشرب منها المقربون صِرفًا، وتُمزَج لسائر أهل الجنة ... قال فى التسهيل: تسنيم اسمٌ لِعَينٍ فى الجنة يشرب منها المقربون صِرفًا، ويُمزج منه الرحيق الذى يشرب منه الأبرار.. فدلَّ ذلك على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار[٢].

(١٨٨٩) وعَنْ جابرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يأكُلُ أهْلُ الجنَّةِ فِيهَا ويَشْرَبُونَ، ولا يَتَغَوَّطُونَ، ولا يَمْتَخِطُونَ، ولا يَبُولُون، ولكِنْ طَعامُهُم ذلكَ جُشاء كَرَشْحِ المِسْكِ .. يُلهَمُونَ التَّسْبيح والتَّكْبير، كما يُلهَمُونَ النَّفَسَ»[٣].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

فقد تضمنت النصوص أنَّ لهم - أى: لأهل الجنة- فيها - فى الجنة - الخبز، واللحم، والفاكهة، والحلوى، وأنواع الأشربة، من الماء، واللبن،

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ٦٨).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٨٥).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

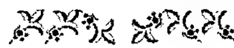
والخمر، والعسل ... وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، وأمَّا المُسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر.

قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾(١).

۞ وأهل الجنة لا يأكلون لأنهم يشعرون بالجوع.. ولا يشربون لأنهم يشعرون بالعطش.. ولكنهم يأكلون ويشربون من أجل المتعة فحسب.

۞ وهم في الجنة إذا أكلوا أو شربوا فإنهم لا يمتخطون.. أي: لا يخرج منهم المخاط الذي يتأذى الإنسان من رؤيته.. وكذلك لا يبولون ولا يتغوطون.. فليس هناك مكان للبول أو للغائط.. فأين تذهب فضلات الطعام؟

أقول لك: لقد سُئل النبي ﷺ نفس السؤال فأجاب بأن بقايا الطعام تتحول إلى رشحٍ كرشح المسك يفيض من أجساد أهل الجنة.. كما يتحول جزء من الطعام والشراب إلى جُشاء ولكنه جشاء تنبعث منه رائحة المسك الجميلة والروائح العطرية الرائعة(٢).



(١٨٩٠) وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعدَدتُ لِعِبادِيَ الصَّالِحينَ، مَا لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، واقرءوا إنْ شِئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»(٣).

۞ الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته ... وهي نعيمٌ كامل لا يَشُوبه نقص، ولا يُعكر صفوه كَدَر.

(١) سورة الطور: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٢) وصف الجنة والنار / د. محمود المصري (ص ١٤٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يُحير العقل ويُذهله، لأن تَصوُّر عظمة ذلك النعيم يَعجز العقل عن إدراكه واستيعابه.

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا... فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافهٌ حقير، لا يساوى شيئًا ... ففى صحيح البخارى عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول الله ﷺ: «**موضعُ سوطٍ فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها**»(١).

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار فى حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى(٢)... قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

***

(١٨٩١) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدخُلونَ الجنَّةَ على صُورَةِ القَمرِ لَيْلَةَ البدرِ. ثُمَّ الذين يَلُونَهُمْ على أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فى السَّماءِ إضاءَةً، لا يَبُولُونَ ولا يتَغَوَّطُونَ، ولا يَتْفُلُونَ، ولا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشاطُهُمُ الذَّهَبُ، ورشْحُهُم المِسْكُ، ومَجامِرُهُم الأُلُوَّةُ ـ عُودُ الطِّيبِ ـ أزْواجُهُم الحُورُ العِينُ، على خَلْقِ رجُلٍ واحِد، على صُورةِ أبيهِمْ آدم سِتُّونَ ذِراعًا فى السَّماءِ»(٣).

وفى روايةٍ للبخاريِّ ومُسْلم: «آنيتُهُم فيهَا الذَّهَبُ، ورشْحُهُم المِسْكُ، ولِكُلِّ واحِدٍ منْهُم زَوْجَتانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهما مِن وراءِ اللَّحمِ مِن الحُسْنِ، لا اخْتِلافَ

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٢٥٠) كتاب بدء الخلق.

(٢)الجنة والنار/ د. عمر الأشقر رحمه الله (ص ١١٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٢٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٣٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- والرواية الثانية فى البخارى (٣٢٤٥) كتاب بدء الخلق.

قوله «على خَلْقِ رجُلٍ واحِد» رواه بعضُهُم بفَتْح الخاءِ وإسْكَانِ اللامِ، وبعضُهُم بضَمِّهما، وكِلاهُما صحيحٌ.

بينَهُم، ولا تَبَاغُضَ، قُلوبُهُم قَلْبُ رَجُلٍ واحدٍ، يُسَبِّحُونَ الله بُكْرَةً وعَشِيًّا» .

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن أول زُمرة يدخلون الجنة يكونون على صورة القمر ليلة البدر.. أى: ليلة الرابع عشر.. وهؤلاء هم أمة النبى محمد ﷺ.. لأنه من المعلوم أن النبى ﷺ قال: **«أَوَّلُ مَنْ يَدخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ، الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ»**.

ثم الذين يلونهم على ألمع كوكبٍ دُرى فى السماء.. يعنى: مثل أضوء نجمٍ فى السماء.. ثم الذين يلونهم على حسب مراتبهم.

ثم أخبر النبى ﷺ أنهم لا يبولون ولا يتغوطون ولا يَتفُلون ولا يمتخطون.. وقد ذكرت أن ذلك كله يخرج على جسد المؤمن كرشح المسك.

أما الأمشاط التى يستعملونها فمن الذهب والفضة - كما فى الرواية الأخرى- ورشحهم الذى يخرج على أجسادهم بعد الطعام والشراب هو المسك... ومجامرهم.. أى: المباخر التى يتبخرون بها من الأُلوة وهو عود الطِّيب نفسه...

وأما الأزواج فمن الحور العين.. لكل واحدٍ زوجتان.. لو أن الواحدة من الحور العين بدا بعض بنانها لطمس ضوء الشمس والقمر.. ولو أن خُصلة من شعرها بدت لملأ ريحُها ما بين المشرق والمغرب.. ولنصيفها - خمارها- على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها.

ويكونون جميعًا على خَلق رجلٍ واحدٍ.. فهم فى حجمٍ واحدٍ وسنٍّ واحدة.. أما الطول فعلى صورة أبيهم آدم عليه السلام ستون ذراعًا فى السماء.. وأما عن السن فيُحشر أهل الجنة جميعًا رجالًا ونساءً وأطفالًا وشيوخًا على سن (٣٣ سنة) كما أخبر بذلك النبى ﷺ فقال: **«يَدخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ جُردًا مُردًا كَأَنَّهم مُكَحَّلُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً»**[1].

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٧٢).

لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحدٍ.. فهم كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فليس هناك حقدٌ ولا حسد .. بل يجمعهم الحب والمؤاخاة على أعلى درجاتها.. يُسبحون الله بُكرة وعشيًّا.. ليس على سبيل التكليف.. فالجنة ليست دار تكليف.. وإنما على سبيل كمال اللذة.

(١٨٩٢) وعنْ المُغيرةِ بن شُعبَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنْ رسُولِ الله ﷺ قال: «سأَلَ مُوسَى ﷺ ربَّهُ، ما أدنَى أهْلِ الجنَّةِ مَنْزلَةً؟ قال: هُو رجُلٌ يجِيءُ بعدَ ما أُدخِل أهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، فيُقَالُ لهُ: ادخُلِ الجنَّة. فيقولُ: أيْ ربِّ كَيْفَ وقد نَزَلَ النَّاسُ منازِلَهُمْ، وأخَذُوا أَخذاتِهِم؟ فيُقالُ لهُ: أتَرضَى أنْ يكُونَ لكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنْيا؟ فيقُولُ: رضيتُ ربِّ، فيقُولُ: لَكَ ذلكَ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ، فيقُولُ في الخَامِسَة: رضِيتُ ربِّ، فيقُولُ: هذا لكَ وعشَرةُ أمْثَالِهِ، ولكَ ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، ولَذَّتْ عَيْنُكَ، فيقُولُ: رضيتُ رَبِّ، قالَ: ربِّ فأعلاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قال: أُولَئِكَ الذينَ أردتُ، غَرَسْتُ كرامَتَهُم بيدِي وخَتَمْتُ علَيْها، فلَمْ تَرَ عَيْنٌ، ولَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، ولَمْ يَخْطُر علَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن أدنى أهل الجنة يعطيه الله عَزَّ وَجَلَّ مثل مُلك مَلِكٍ من ملوك الدنيا خمسين مرة ... وفوق ذلك يقول له (جل وعلا): «وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ» فأي نعيمٍ فوق هذا النعيم؟!.

وفي رواية عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن هذا الرجل سيظل يسأل ويسأل ويُجاب ويُجاب حتى يسكت حياءً من كرم الله عليه:

«فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ : ما لك لا تسأل؟! فيقول: رب قد سألتك حتى استحييتك، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ : ألم تَرضَ أن أُعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩) كتاب الإيمان.

أضعافه، فيقول: أتهزأ بى وأنت رب العزة؟! فيضحك الرب عَزَّوَجَلَّ من قوله». فكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا بلغ هذا المكان من الحديث ضحك. فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن.. قد سمعتك تُحدث بهذا الحديث مرارًا كلما بلغت هذا المكان ضحكت؟ فقال: إنى سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحدث بهذا الحديث مرارًا كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه قال: **«فيقول الرب جلَّ ذِكْره: لا ولكنى على ذلك قادر، فيقول: ألحقنى بالناس، فيقول: الحق بالناس**. قال: **فينطلق يَرمُل فى الجنة حتى إذا دنا من الناس رُفع له قصرٌ من دُرَّة فيَخِرُّ ساجدًا، فيُقال له: ارفع رأسك؟ ما لك فيقول: رأيت ربى أو تراءى لى ربى، فيُقال: إنما هو منزلٌ من منازلك**. قال: **ثم يَلقى رجلًا فيتهيَّأ للسجود له، فيُقال له: مَهْ، فيقول: رأيتُ أنك مَلَكٌ من الملائكة، فيقول: إنما أنا خازنٌ من خُزَّانك وعبدٌ من عبيدك تحت يدى ألفُ قهرمان على مثل ما أنا عليه**. قال: **فينطلق أمامه حتى يَفتح له باب القصر**. قال: **وهو من دُرَّة مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلاقُها ومفاتيحها منها، يستقبله جوهرة خضراء مُبطنة بحمراء، فيها سبعون بابًا كل بابٍ يُفضى إلى جوهرة خضراء مبطنة، كل جوهرة تُفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى فى كل جوهرة سُرُر وأزواجٌ ووصائف، أدناهُنَّ حَوراء عَيناء عليها سبعون حُلة يُرى مُخ ساقها من وراء حُللها، كبدها مرآته، وكبدُه مرآتُها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت فى عينه سبعين ضعفًا عما كانت قبل ذلك، فيقول لها: والله لقد ازددتِ فى عينى سبعين ضعفًا، وتقول له: وأنت لقد ازددت فى عينى سبعين ضعفًا، فيُقال له: أشرِف أشرِف!! فيُشرِف، فيُقال له: مُلكك مسيرة مائة عام يَنفُذه بصرك»**[1].

۞ أما أعلاهم منزلة فهؤلاء لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يتخيل ما أعدَّه الله لهم.. فقد قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: رب فأعلاهم منزلة؟.. أى: كيف يكون نعيمهم؟.

(١) صحيح: رواه ابن أبى الدنيا، والطبرانى من طرق أحدها صحيح واللفظ له، والحاكم وقال صحيح الإسناد، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٩١).

فقال تعالى: «أُولَئِكَ الذينَ أردتُ، غَرَسْتُ كرامَتَهُم بِيدِى وخَتَمْتُ عليْها، فلَمْ تَرَ عَيْنٌ، ولَمْ تَسْمَع أُذُنٌ، ولَمْ يخْطُر علَى قَلْبِ بَشَرٍ».

(١٨٩٣) وعن ابنِ مسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إنِّى لأعلَمُ آخِرَ أهلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنها، وآخِرَ أهْلِ الجنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ: رجُلٌ يَخْرُجُ مِن النَّارِ حَبْوًا، فيقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ لهُ: اذهَبْ فادخُلِ الجنَّةَ، فيأتِيهَا، فيُخيَّلُ إليهِ أنَّها مَلأى، فيرجِعُ، فيقُولُ: يا ربِّ وجدتُها مَلأى، يقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ له: اذهَبْ فادخُل الجنَّةَ، فيأتِيها، فيُخَيَّل إليه أنها مَلأى، فيرجِعُ، فيقُولُ: يا ربِّ وجدتُها ملأى، فَيقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ له: اذْهَبْ فادخُل الجنَّةَ، فإنَّ لكَ مِثْلَ الدُّنْيا وعشَرةَ أمثَالها، أوْ إنَّ لكَ مِثْل عَشرَةِ أمْثَالِ الدُّنيا، فيقُولُ: أَتَسْخَرُ بِى، أو أَتَضْحَكُ بِى وأنْتَ الملِكُ» قال: فلَقد رأيْتُ رسُولَ الله ﷺ ضَحِكَ حتَّى بدَت نَواجِذُهُ فكَانَ يقُولُ: «ذلِكَ أدنَى أهلِ الجنَّةِ منْزِلَةً»[1].

۞ وهناك رواية أخرى أعجب منها:

قال ﷺ: «إنّ أدنى أهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلًا رَجُلٌ صَرَفَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ قِبَلَ الجَنَّةِ ومَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذاتَ ظِلٍّ فَقالَ: أَى رَبِّ قَدِّمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظلها فَقالَ اللهُ: هَلْ عَسَيْتَ أنْ تَسْأَلَنِى غَيْرَهُ؟ قالَ: لا وعِزَّتِكَ..فَقَدَّمَهُ اللهُ إلَيْها ومَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذاتَ ظِلٍّ وثَمرٍ فقَالَ: أىّ رب قدِّمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظِلِّها وَآكلَ مِنْ ثَمرِها فقالَ اللهُ: هَلْ عَسَيْتَ إنْ أعطَيْتُكَ ذلِكَ أنْ تَسأَلَنى غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لا وعِزَّتِكَ فَيُقَدِّمُهُ اللهُ إلَيْها فَيُمَثِّلُ الله لهُ شَجَرَةً أُخْرى ذاتَ ظِلٍّ وثَمَرٍ وماءٍ فَيَقُولُ: أىْ رَبِّ قَدِّمْنِى إلَى هذِهِ الشجرة فأكون فى ظلها وآكل من ثمرها وأشْرَبَ مِنْ مائِها فَيَقُولُ لهُ: هَلْ عَسَيْتَ إنْ فَعَلْتُ أنْ تَسْأَلَنِى غيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ لا أسْأَلُكَ غَيْرَهُ فَيُقَدِّمُهُ اللهُ إليْها فَيَبْرُزُ لهُ بابُ الجَنَّةِ فيقولُ: أىْ رَبِّ قَدِّمْنِى إلَى بابِ الجَنَّةِ فأَكُونَ تَحتَ سجافِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٧١) كتاب الرقاق – ومسلم (١٨٦) كتاب الإيمان.

الجَنَّةِ فأَرَى أهْلَهـا فيُقَدِّمُـهُ اللهُ إليْهـا فيَرَى الجَنَّةَ وَمَا فِيهَا فيَقُولُ: أىّ رَبِّ أدخِلْنِى الجَنَّةَ فيَدخُلُ الجَنَّةَ فإذا دَخَلَ الجَنَّةَ قالَ: هَذَا لى؟ فيَقُولُ اللهُ لهُ: تَمَنَّ فيَتَمَنَّى ويُذَكِّرُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ سَلْ مِنْ كَذا وكذا حتى إذا انقطعت به الأمانى قالَ اللهُ: هُوَ لَكَ وعَشَرَةُ أمْثالِهِ ثُمَّ يُدخِلهُ اللهُ الجَنَّةَ ... فَيَدخُلُ عليهِ زَوْجَتاهُ مِنَ الحورِ العِين فيقولانِ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أحياكَ لنا وأحيانا لَكَ فيقولُ: مَا أُعطِىَ أحَدٌ مِثْلَ مَا أُعطِيتُ وأدنَى أهْلِ النَّارِ عذَابًا يَنْتَعِلُ بِنَعلَينِ مِن نَارٍ يغلى دِماغُهُ مِنْ حَرَارةِ نَعلَيْهِ» [١].

۞ والْمَح التدرُّج فى النعيم الواضح فى الحديث، وكأن هذا العبد لن يطيق رؤية النعيم الكامل مرة واحدة؛ وإلّا مات من هول المفاجأة وشدة الفرح... وقد يكون هذا سِرٌّ من أسرار التدرج من مقامٍ إلى مقام فى الجنة والله أعلم.

۞ جلس الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع بعض أصحاب النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكى لهم قصة آخر رجل يدخل الجنة كما سمعها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فأخبرهم أن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان جالسًا معهم فى يوم من الأيام وحكى لهم قصة آخر رجل يدخل الجنة فأخبرهم أن هذا الرجل يأتى يوم القيامة موحدًا ولكنه قد عمل ذنوبًا كثيرة ولم يَتُب منها فيدخل النار حتى إذا نال العذاب الذى يستحقه عفا الله عنه وأمر بخروجه من النار ودخوله الجنة.

فيخرج هذا الرجل من النار ويمشى على الصراط الذى هو أحدُّ من السيف وأدق من الشعر... فيمشى مرة ويسقط على وجهه مرة وتضرب النار وجهه مرة.. ويظل على تلك الحالة الشديدة زمانًا طويلًا حتى إذا جاوز الصراط وترك النار وراءه التفت إليها وقال وهو لا يكاد يصدق: تبارك الذى نجانى منك.. لقد أعطانى الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين.

ويجلس هذا الرجل ليستريح قليلًا من الأهوال التى رآها فى النار ثم على

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٨) كتاب الإيمان.

الصراط... وبينما هو على تلك الحالة إذ رأى شجرة جميلة حولها ماء عذب جميل فينادى هذا الرجل ويقول: يا رب قربنى من هذه الشجرة كى أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيسأله الله (جل وعلا) عما إذا كان سيطلب شيئًا آخر بعد ذلك.

فيقول الرجل: لا يا رب... ويعطى ربه العهود والمواثيق على أنه إذا قربه من هذه الشجرة فلن يسأل شيئًا آخر.

فيُقربه الله عَزَّوَجَلَّ من هذه الشجرة فيستظل العبد بظلها ويشرب من مائها ويعيش فى متعة لم يكن يحلم بها من قبل.

وفجأة يرى العبد شجرة أحلى وأجمل من الأُولى فيصرخ ويقول: يا رب قربنى من هذه الشجرة لكى أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيقول الله تعالى: يا ابن آدم ألم تُعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟

فيقول العبد: أعاهدك يا رب إن قربتنى من هذه الشجرة أن لا أسألك شيئًا بعد ذلك...

وربه يعذره لأنه يرى شيئًا جميلًا لا يستطيع أن يصبر عليه.

فيقربه الله (جل وعلا) من هذه الشجرة فيستظل بظلها ويشرب من مائها ويظل على تلك الحالة من النعيم إلى أن يرى شجرة ثالثة أجمل من هاتين الشجرتين.. إنها شجرة مغروسة عند باب الجنة.

وهنا يصرخ العبد ويقول: يا رب قربنى من هذه الشجرة لكى أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيقول (جل وعلا): يا ابن آدم ألم تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟

فيقول العبد: أعاهدك يا رب إن قربتنى من هذه الشجرة أن لا أسألك شيئًا بعد ذلك.

وفى كل مرة ربه يعذره لأنه يرى شيئًا جميلًا لا يستطيع أن يصبر عليه.

فيقربه ربه (جل وعلا) من هذه الشجرة الجميلة المغروسة على باب الجنة.

فإذا جلس تحت هذه الشجرة سمع صوت نعيم أهل الجنة فلم يحتمل ذلك فيصرخ: يا رب أَدخلنى الجنة.

فيسأله ربه (جل وعلا) عما يُرضيه حتى لا يسأل شيئًا بعد ذلك ثم يقول له: أيُرضيك أن أعطيك الدنيا وعشرة أمثالها؟

فيقول العبد: يا رب أتستهزئ بى وأنت رب العالمين؟

هنا ضحك عبد الله بن مسعود - راوى الحديث - وقال للصحابة: ألا تسألونى ما الذى يُضحكنى؟ فقالوا: مِمَّ تضحك يا ابن مسعود؟.

قال ابن مسعود: أضحك لأن النبى ﷺ ضحك عند هذه الكلمة فلما سألناه: مِمَّ تضحك يا رسول الله.

فأخبرنا النبى ﷺ أنه يضحك من ضحك رب العالمين حين قال له العبد: أتستهزئ بى وأنت رب العالمين؟

قال تعالى: إنى لا أستهزئ منك ولكنى على ما أشاء قادر.

(١٨٩٤) وعن أبى مُوسَى رضي الله عنه أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قال: «إنَّ للمُؤمِنِ فى الجنَّةِ لَخَيْمةً مِن لُؤْلُؤةٍ واحِدةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُها فى السَّماءِ سِتُّون ميلًا. للمُؤمِنِ فيهَا أهْلُون، يَطُوفُ عَلَيْهِم المؤمِنُ فَلا يَرى بعضُهُم بَعضًا»[(١)].

۞ إذا تنوعت المساكن، كان أنعمَ للسَّاكن .. فمن بيوتٍ من ذهب .. وقصورٍ من فضة .. إلى خيامٍ منصوبة فى كلِّ مكان .. فإن شئت نزلت بها على نهر العسل .. أو نصبتها عند نهر الخمر .. معك أهلك وأحبابك..

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٧٩) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٣٨) كتاب الجنة.
«المِيلُ»: سِتَّة آلافِ ذِرَاعٍ.

والخَيمة هى بيتٌ مُربع من بيوت الأعراب، يُبنى عادة فى الدنيا من القماش ونحوه... وقد ذكر الله تعالى الخيام فقال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] لكن خيام الجنة تختلف، فلكل مؤمن خيمة من لؤلؤة واحدة مُجوَّفة، أى: مثقوبة ومُفرَّغة من الدَّاخل، حتى أصبحت مثل الخيمة يدخل تحتها الناس، وهى لؤلؤة عظيمة الحجم، شاهقة الارتفاع، فطولها ستون ميلًا فى السماء فيها زوايا يطوف المؤمن على أهلٍ له فى كل زاوية لا يرى الأهل بعضهم بعضًا، فالزوجات لا يرى بعضهن بعضًا لِسَعَةٍ الأماكن فى الخيمة، والله على كل شىء قدير.

وفى هذه الغرف والخيام، لا بد أن يوجد أثاث وسُرُر وأَرائك.

(١٨٩٥) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الجَوَادَ المُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُها»(١).

ورویاه في الصحيحين أيضًا من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يَسيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مائةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُها».

۞ وُصفت الجنة بأنها البستان المحفوف بالشجر، المتكاثف بالأعناب والنخيل والرمان، حيث الجمال الرائع والأشجار المتدانية القطوف .. الوفيرة الثمار ... وقد حَفَل القرآن الكريم بشواهد لهذا الصنف من الخير والجمال، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة النبأ: ٣١-٣٢].

وإلى جانب هذه الحدائق والأعناب هناك فاكهة كثيرة متنوعة ومنها ثمر النخيل والرمان ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] ... كما أن من أشجار الجنة السدر المخضود الذى لا شوك فيه، بخلاف سدر الدنيا، فإنه كثير الأشواك، قليل الثمر، وفى الآخرة على العكس، وأن من أشجار الجنة الطلح(٢) المنضود الذى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٥٣) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٢٨) كتاب الجنة.

(٢) الطلح: الموز: واحدتها طلحة.

هو يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل، وأنه متراكم الثمر[١].

وأشجار الجنة دائمة العطاء، فهى ليست كأشجار الدنيا تعطى فى وقتٍ دون وقت، وفصلٍ دون فصل، بل هى دائمة الإثمار والظلال... وهى نعمة تطمئن لها النفس وتستريح[٢]، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد:٣٥]

وقال سبحانه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

ووصف الله عَزَّوَجَلَّ أشجار الجنة بأنها ذات أغصان جميلة وأنها شديدة الخُضرة، وأن ثمارها قريبة دانية مُذللة ينالها أهل الجنة بيُسرٍ وسهولةٍ[٣].

- وقال تعالى: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٢، ٢٣].

وها هو الحبيب المصطفى ﷺ يخبر بأن فى الجنة شجرة يسير الرجل الذى يركب فرسًا سريعًا من خيول السباق مائة عام بأقصى سرعة فلا يستطيع أن يخرج من ظلها.

قال ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا»[٤].

(١٨٩٦) وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أَهْلَ الجنَّةِ لَيَتَراءُونَ أَهْلَ الغُرَفِ مِن فَوْقِهِم كَما تَتَراءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فى الأُفقِ مِن المشْرِقِ أو المغْرِبِ لِتَفَاضُلِ ما بينهم» قالوا: يا رسُولَ الله، تِلكَ مَنَازِلُ الأنْبياءِ لا يَبْلُغُها غَيْرُهُم؟ قال: «بلَى والذى نَفْسِى بِيَدِهِ رِجالٌ آمنُوا بالله وصَدَّقُوا المُرسَلِين»[٥].

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣).
(٢) الحياة فى القرآن الكريم (٢/ ٦٤٦).
(٣) الحياة فى القرآن الكريم (٢/ ٦٤٦) - (نقلًا عن الإيمان باليوم الآخر).
(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٨٢٦) (٢٨٢٧) كتاب الجنة.
(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٥٦) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٣١) كتاب الجنة.

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٧٠٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٨٩٧) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُول الله ﷺ قال: «**لَقَابُ قَوْسٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عليهِ الشمْسُ أوْ تَغْربُ**»[1].

۞ ففي هذا الحديث يُخبر النبي ﷺ أن (قاب قوسٍ)..أي: قدر ما بين المقبض والسية من القوس .. ولكل قوسٍ قابان.

«**في الجَنَّةِ**» أي: أن قاب قوسٍ في الجنة.. خيرٌ مما تطلع عليه الشمس أو تغرب.. أي: خيرٌ من الدنيا وما فيها.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ: «**خَيْرٌ من الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**» قَالَ ابن دَقِيقِ الْعِيدِ: يَحتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ تَنْزِيلِ الْمَغِيبِ مَنْزِلَةَ الْمَحسُوسِ تَحقِيقًا لَهُ فِي النَّفْسِ لِكَوْنِ الدُّنْيَا مَحسُوسَةً فِي النَّفْسِ مُسْتَعظَمَةً فِي الطِّبَاعِ فَلِذَلِكَ وَقَعَتِ الْمُفَاضَلَةُ بِهَا، وَإِلَّا فَمِنَ الْمَعلُومِ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الدُّنْيَا لَا يُسَاوِي ذَرَّةً مِمَّا فِي الْجَنَّةِ... وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ هَذَا الْقَدرَ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي يَحصُلُ لِمَنْ لَوْ حَصَلَتْ لَهُ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَأَنْفَقَهَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى.

قُلْتُ: وَيُؤَيِّدُ هَذَا الثَّانِي مَا رَوَاهُ ابن الْمُبَارَكِ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ مِنْ مُرسَلِ الْحَسَنِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَيْشًا فِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَتَأَخَّرَ لِيَشْهَدَ الصَّلَاةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا أَدرَكْتَ فَضْلَ غَدوَتِهِمْ**».

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْمُرَادَ تَسْهِيلُ أَمْرِ الدُّنْيَا وَتَعظِيمُ أَمْرِ الْجِهَادِ وَأَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ قَدرُ سَوْطٍ يَصِيرُ كَأَنَّهُ حَصَلَ لَهُ أَمْرٌ أَعظَمُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الدُّنْيَا فَكَيْفَ بِمَنْ حَصَّلَ مِنْهَا أَعلَى الدَّرَجَاتِ .... وَالنُّكْتَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ التَّأْخِيرِ عَنِ

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩٣) كتاب الجهاد والسير.

الْجِهَادِ الْمَيْلُ إِلَى سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا فَنَبَّهَ هَذَا الْمُتَأَخِّرَ أَنَّ هَذَا الْقَدرَ الْيَسِيرَ مِنَ الْجَنَّةِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الدُّنْيَا(١).

(١٨٩٨) وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ فى الجنَّةِ سُوقًا يأتونَها كُلَّ جُمُعَةٍ. فتَهُبُّ رِيحُ الشَّمالِ، فتحثُو فى وُجُوهِهِمْ وثِيَابِهِمْ، فيزْدادُونَ حُسْنًا وجَمالًا. فيرجِعُونَ إلى أَهْلِيهِمْ، وقَد ازْدادُوا حُسْنًا وجمالًا، فيقُولُ لهُمْ أَهْلُوهُم: والله لقَدِ ازْدَدتُم حُسْنًا وجمالًا، فيقُولُون: وأَنْتُم والله لَقَدِ ازْدَدتُم بعدَنَا حُسْنًا وجمالًا»(٢).

۞ قال الإمام النووى فى شرحه لهذا الحديث: «المراد بالسوق مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس فى الدنيا فى السوق... ومعنى يأتونها كل جمعة، أى: فى مقدار كل جمعة، أى: أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع، لفقد الشمس والليل والنهار... وخُصَّ ريح الجنة بالشمال، لأنها ريح المطر عند العرب، كانت تهب من جهة الشام، وبها يأتى سحاب المطر، وكانوا يرجون السحابة الشامية... وجاءت فى الحديث تسمية هذه الريح المثيرة، أى: المحركة، لأنها تثير فى وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها»(٣).

(١٨٩٩) وعن سَهْلِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجنَّةِ لَيَتَراءَوْنَ الغُرفَ فى الجنَّةِ كَما تَتَراءونَ الكَوْكَبَ فى السَّماءِ»(٤).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٧٠٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) فتح البارى (٦/ ١٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٣) كتاب الجنة.

(٣) شرح النووى على مسلم: (١٧/ ١٧٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٥٥) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٣٠) كتاب الجنة.

(١٩٠٠) وعن سَهْلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه قال: شَهِدتُ مِن النَّبِيِّ ﷺ مجْلِسًا وَصفَ فيهِ الجَنَّةَ حتَّى انْتَهَى، ثُمَّ قال في آخِرِ حدِيثِهِ: «فيها ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، ثم قرأ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[١].

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٨٩٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١٩٠١) وعن أبي سعيدٍ وأبي هُريرةَ رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا دخلَ أهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ يُنادِي مُنادٍ: إنَّ لكُمْ أنْ تَحيَوْا، فلا تمُوتُوا أبدًا، وإنَّ لكُم أن تَصِحُّوا، فلا تَسْقَمُوا أبدًا، وإنَّ لكُم أنْ تَشِبُّوا فلا تهْرَمُوا أبدًا، وإنَّ لكُم أن تَنْعمُوا فلا تَبْأَسوا أبدًا»[٢].

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن أهل الجنة يسمعون عند دخول الجنة أربعة نداءات تجمع لهم كل نعيم كانوا يتمنونه في الحياة الدنيا.. ولكن شتَّان ما بين نعيم الدنيا ونعيم الجنة...

۞ فأول نداءٍ يسمعونه: «إنَّ لكُمْ أنْ تَحيَوْا، فلا تَمُوتُوا أبدًا» وهذا هو أهم نداء ولذا كان أول نداء.. لأن الذي يدخل الجنة ويرى نعيمها لا يستطيع أنْ يتصور لحظة واحدة أنه سيُحرَم منه أو أنه سيموت ويترك هذا النعيم.. فجاء هذا النداء ليُطمئن أهل الجنة أنهم خالدون مخلدون فيها أبدًا.

۞ وأما النداء الثاني الذي يسمعونه: «وإنَّ لكُم أن تَصِحُّوا، فلا تَسْقَمُوا أبدًا» فكم من الناس عاشوا في شقاءٍ وبلاءٍ بسبب الأمراض والأسقام.. وهنا يأتي هذا

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه عن أبي هريرة (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٥) كتاب الجنة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٧) كتاب الجنة.

النداء ليُطمئن أهل الجنة أن الجنة ليس فيها أمراضٌ ولا أسقام.. بل فيها الصحة والقوة والعافية.

۞ وأما النداء الثالث الذى يسمعونه: «**وإنَّ لكُم أنْ تَشِبُّوا فلا تهْرَمُوا أبدًا**» فكم من إنسان لما بلغ من الكِبَر عِتيًّا وأصبح فى مرحلة الشيخوخة كان يتمنى أن يعود إلى مرحلة الشباب بعد أن تكالبت عليه الأمراض والأسقام والعجز والهموم والوحدة... فيأتى هذا النداء ليُطمئن أهل الجنة أنهم سيعيشون دائمًا أبدًا فى مرحلة الشباب بل فى السن الذى يُمثل مرحلة اكتمال الشباب وهو سن (٣٣ سنة)..

كما أخبر بذلك النبى ﷺ حيث قال: «**يَدخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ جُردًا مُردًا كَأَنَّهُم مُكَحَّلُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً**»(١).

ويظل عمر الإنسان فى الجنة ثابتًا لا يتغير ولا يكبر ولا يشيب بل يظل شبابًا أبد الآبدين.

۞ وأما النداء الرابع الذى يسمعونه: «**وإنَّ لكُم أن تَنْعمُوا فلا تَبْأَسوا أبدًا**» فليس هناك فى الجنة بُؤسٌ ولا شقاء ولا آلام ولا أحزان ولا اكتئاب .. بل هناك نعيم وسعادة وسرور وحُبور لا يزول ولا ينقص بل يزيد يومًا بعد يومٍ .. نعم إنها الجنة وكفى بها نعمة.

❊❊❊

(١٩٠٢) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أدنَى مَقْعَدِ أحدِكُم مِن الجنَّةِ أنْ يقولَ لهُ: تَمنَّ، فيَتَمَنَّى ويتَمنَّى. فيقُولُ لهُ: هلْ تَمنَّيْتَ؟ فيقُولُ: نَعمْ، فيقُولُ لهُ: فإنَّ لكَ ما تَمنَّيْتَ ومِثْلَهُ معهُ»(٢).

۞ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٨٩٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٧٢).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٨٢) كتاب الإيمان.

(١٩٠٣) وعنْ أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقُولُ لأهْلِ الجنَّةِ: يا أهْلَ الجنَّةِ، فيقُولُون: لبَّيكَ ربَّنَا وسعدَيْكَ، والخَيْرُ في يديْكِ فيقُولُ: هَلْ رَضِيتم؟ فيقُولُون: وما لَنا لا نَرضَى يا رَبَّنَا وقَد أعطَيْتَنا ما لمْ تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِكَ، فيقُولُ: ألا أُعطِيكُمْ أفْضَلَ مِن ذلكَ؟ فيقُولُون: وأيُّ شَيءٍ أفْضَلُ مِن ذلكَ؟ فيقُولُ: أُحِلُّ عليْكُم رِضْوانِي، فلا أسْخَطُ عليْكُمْ بَعدهُ أبدًا»(١).

۞ وهو قول الله تعالى بعد أن ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

قال ابن عباس في تفسيرها: «أكبر مما يوصف»(٢).

وأتت به الآية مُنكَّرًا غير مُعرَّف بمعنى أن أي شيء من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة وما فيها... كما قيل:

قليلٌ منك يكفيني ولكن		قليلك لا يُقال له قليل

وفي التنكير إشعار بالتعظيم، ولهذا جيء باسم إشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ لكون المُشار إليه بعيد المكانة ومرتفعًا ارتفاعًا مَجازيًا كناية عن الشرف والعِظَم والفخامة.

وقد سمَّى الله كبير خزنة الجنة: رضوان، وهو اسمٌ مُشتق من الرضا، ليكون أول ما يستقبل أهل الجنة: الرضا الفيَّاض بكل صوره اسمًا ومعنى!!

لكن ما هو طعم هذا الرضوان هذا وما مذاقه في القلب وكيف ستشعر النفس به؟! والجواب: لا أحد يعلم، ولا أحد يستطيع أن يتخيَّله ... لكن ما نعلمه أكيدًا من هذه الآية أن المتع الروحية في الجنة - وعلى قمتها رضوان الله- أعلى وأشرف من المتع الحسية ... ولا مقارنة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٤٩) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٢٩) كتاب الجنة.

(٢) زاد المسير (٣/ ٤٦٩).

(١٩٠٤) وعنْ جريرِ بنِ عبْد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنَّا عِنْدَ رسُولِ الله ﷺ فنظَرَ إلى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدرِ وقال: «إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ ربَّكُمْ عياناً كما تَرَوْنَ هذا القَمرَ، لا تُضامُونَ في رُؤيتِه»(١).

(١٩٠٥) وعن صُهَيْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا دَخَلَ أهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ يقُولُ الله تباركَ وتعالى: تُرِيدُونَ شَيئًا أزِيدُكُم؟ فيقولُون: ألَمْ تُبيِّضْ وُجوهَنَا؟ ألَمْ تُدخِلْنَا الجنَّةَ وتُنَجِّنَا مِن النَّارِ؟ فيَكْشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهِمْ مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ»(٢).

۞ ما من مسلم يعيش على وجه الأرض إلا وهو يتمنى أن يدخل الجنة ليعيش فى نعيم الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.. لكن هناك مَن لا يريد الجنة فحسب بل يريد أن يستمتع بالنظر إلى وجه الله (جل وعلا) ... إنه أعظم نعيم فى الجنة.

ولذلك يخبرنا النبى ﷺ أنه إذا حُشر الناس يوم القيامة ووقفوا بين يدى الله للحساب فإن الله سيقضى بين الناس وسوف ينقسم الناس إلى قسمين: فمنهم مَن يدخل الجنة ومنهم مَن يدخل النار.

فأما الذين يدخلون الجنة فإنهم يعيشون فى نعيم لا يخطر على قلب بشر ومع ذلك فإن الله (جل وعلا) سينادى عليهم ويقول: يا أهل الجنة هل تريدون شيئًا أزيدكم؟

فيتعجب أهل الجنة لأنهم يعيشون فى نعيم لم يحلموا به.. فيقولون: ألم تُبيض وجوهنا.. ألم تُدخلنا الجنة وتُنجنا من النار.

وكأنهم يريدون أن يقولوا للحق (جل وعلا): لقد أعطيتنا فوق ما نريد فنحن

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان.

لم يخطر على بالنا هذا النعيم الذى أكرمتنا به.

وإذا بالحق (جل وعلا) يُفيض عليهم من كرمه ورحمته فيكشف الحجاب فينظرون إلى وجه الله (جل وعلا) فعند ذلك يتضاءل أى نعيم رآه أهل الجنة أمام لذة النظر إلى وجه الله (جل وعلا).

ومن المعلوم أن كل أهل الجنة يتلذذون بالنظر إلى ربهم (جل وعلا) لكن من المؤكد أنه سيكون هناك تفاوت بينهم فى تلك اللذة ... فكما أنه سيكون بينهم تفاوت فى دخول الجنة فكذلك سيكون هناك تفاوت فى النظر... فمنهم مَن يدخل بغير حساب ولا عذاب... ومنهم مَن يدخل الجنة بعد الحساب والعذاب الشديد ومنهم مَن يدخل الجنة قبل أخيه بخمسمائة عام.. ومنهم مَن يكون فى أعلى درجات الجنة فى الوقت الذى يكون فيه مَن هو أدنى منه فى درجات الجنة.

۞ ولذلك فإن الناس سيتفاوتون فى لذة النظر كما بين السماء والأرض لأن «لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذُّذ بمعرفته ومحبته فى الدنيا، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة... فكلما كان المُحب أعرف بالمحبوب وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم»(١).

۞ بل هناك تفاوت فى عدد المرات التى يتلذذ بها العبد برؤية وجه ربه (جل وعلا) كما يقول ابن سعدى فى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

«أى تنظر إلى ربها حسب مراتبهم: منهم مَن ينظره كل يوم بُكرة وعَشيًّا، ومنهم مَن ينظره كل جمعة مرة واحدة... فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر، الذى ليس كمثله شىء».

۞ ومن أجل ذلك فإن الله (جل وعلا) قد جمع لعباده المؤمنين بين التمتع

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣) بتصرف.

بنعيم الجنة وبين التمتع برؤية وجهه (جل وعلا) فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣].

۞ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[يونس: ٩، ١٠].

الحَمْدُ لله الذى هَدانَا لهذَا وما كُنَّا لنَهْتَدِى لوْلا أنْ هدَانا الله، اللَّهُمَّ صَلِّ علَى سَيِّدِنَا محمدٍ عبدِكَ ورسولِكَ، النَّبِى الأُمِّىِّ وعلى آلِ مُحمَّدٍ وأَزْواجِهِ وَذُرِّيتِهِ، كَما صَلَّيْتَ على إبْراهِيمَ وعلى آلِ إبْراهِيمَ، وبارِكْ على مُحَمَّدٍ النَّبِى الأُمِّىِّ وعلى آلِ محمَّدٍ وأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيتِهِ، كمَا باركْتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبْراهِيمَ، فى العالمينَ إنَّكَ حَميدٌ مجيدٌ.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَرغْتُ مِنْهُ يومَ الاثْنَينِ رابِع عَشرَ شهر رمضَانَ سَنَةَ سبْعينَ وستِّمائة بدمشق».

۞ وأقول: «العبد الفقير إلى الله: محمود المصرى أبو عمار»: لقد فرغت من شرح هذا الكتاب المبارك (رياض الصالحين) بفضل الله عَزَّوَجَلَّ ومَنِّه وكرمه يوم ١٢ ربيع الأول سنة ١٤٣٦ هـ... الذى يوافق يوم ميلاد النبى محمد ﷺ .. الموافق ٣ يناير سنة ٢٠١٥م.. سائلًا ربى عَزَّوَجَلَّ أن يتقبل منى هذا الجهد وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم... فالله وحده هو الذى يعلم الجهد الذى بذلته فى شرح هذا الكتاب المبارك.

فأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتقبل منى هذا الجهد المتواضع وأن ينفع به المسلمين

فى كل زمانٍ ومكانٍ.. وأن يجعله فى ميزان حسنات أبى وأمى (رحمة الله عليهما وعلى جميع موتى المسلمين) ... وأن أنتفع به وأنا فى قبرى.. وأن ينفعنى الله بدعائكم الذى أرجو ألا أُحرَم منه.. فكم دعوت للمسلمين والمسلمات بخيرى الدنيا والآخرة فى وقت السَّحَر... وأُقسم لكم بالله عَزَّوَجَلَّ أنِّى ما كتبت كلمة فى هذا الكتاب ولا شرحت حديثًا فيه إلا بعد أن صليت ركعتين وسألت ربى عَزَّوَجَلَّ وأنا ساجد بين يديه أن يرزقنى فى هذا الكتاب الصدق والإخلاص والسَّداد والصواب والرشاد وأن ينفع به المسلمين فى كل زمانٍ ومكانٍ.. فأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجمعنى بكم وبالإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ مع الحبيب المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى الفردوس الأعلى إخوانًا على سُررٍ متقابلين.. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وشرحه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى أبو عمار

١٢ ربيع الأول سنة ١٤٣٦هـ

الموافق ٣ يناير سنة ٢٠١٥م

دعوة مُستجابة

۞ أخى الحبيب.. أختى الفاضلة... آبائى وأُمهاتى وأبنائى وبناتى:

أضع بين أيديكم هذا الكتاب المتواضع سائلًا ربى عَزَّوَجَلَّ أن ينفع به المسلمين فى كل زمانٍ ومكان، وأن يجعله فى ميزان حسنات أبى وأمى (رحمة الله عليهما).

فما كان فى هذا الكتاب من صوابٍ فمن الله وحده، وما كان فيه من سهوٍ أو خطأٍ أو نسيانْ فمنى ومن الشيطان.. والله ورسوله ﷺ منه براء... وأعوذ بالله أن أُذكّركم به وأنساه.

فمن استفاد فائدةً من هذا الكتاب فلا يبخل علىَّ بدعوة لعل الله أن يتجاوز عنى وعنكم، وأن يجمعنا جميعًا فى جنته إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

۞ روى مسلم أن النبى ﷺ قال: «**مَن دعا لأخيه بظهر الغيب قال المَلَك المُوكَّل به: آمين ولك بمثله**»(١).

۞ جزى الله خيرًا كل مَن قرأ هذا الكتاب وتعلَّم منه شيئًا وعلَّمه لمن حوله.

۞ كما أنصح إخوانى وأخواتى بقراءة هذا الكتاب على المسلمين فى المساجد والبيوت ومجالس العلم لِتَعُمَّ الفائدة وتموت البدع وتَحيا السُّنَن وتعود الأمة مرة أخرى خير أمة أُخرجت للناس.

---

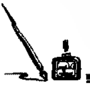
(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

۞ سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك....

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري أبو عمار



فهرس الموضوعات



(١٨) كتاب المنثورات والمُلَح

(١٩) كتاب الاستغفار

هذه وصيتى

كُنت منذ طفولتى أينما ذهبت وجدت القرآن الكريم وبجواره كتاب « رياض الصالحين » للإمام النووى رحمه الله .. وكنت أحب القراءة فى هذا الكتاب لكنى كنت لا أفهم الكثير من الأحاديث وتمنيت أن أجد كتابا سهلا فيه شرح لتلك الأحاديث التى تبلغ (١٩٠٥) حديثا ...

وتمر الأيام ويشرح الله عز وجل صدرى لشرح هذا الكتاب ففرغت حياتى لشرح هذا الكتاب الممتع الذى استطاع الإمام النووى رحمه الله من خلاله أن يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الإسلامية والعقائد وفقه العبادات والمعاملات .. فوجدته كتابا شاملا لكل شىء فاستعنت بالله عز وجل وشرحته شرحا يسيرا يفهمه العوام قبل العلماء وطلبة العلم وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله عز وجل .. وعشت أجمل أيام عمرى فى شرح هذا الكتاب الممتع الذى لا يستغنى عنه بيت مسلم أبدا .. ففيه الخير الكثير والكثير ولعلكم تعلمون صدق مقالتى عندما تسعدون بقراءة هذا الكتاب القيم .

فوصيتى لكل إخوانى وأخواتى وأهلى وأحبابى أن تحرصوا على اقتناء هذا الكتاب القيم .. لنتربى جميعا على النبعين الصافيين « كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ » فتُصبح بيوتنا بركة على الإسلام والمسلمين فى كل مكان.

أسأل الله عز وجل أن ينفعنى وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله فى ميزان حسنات أبى وأمى (رحمة الله عليهما) وميزان حسناتى وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به.

وأرجو ألا تبخلوا علىّ بدعوة صادقة بظهر الغيب بأن يرزقنى الله عز وجل الإخلاص فى القول والعمل وأن يرزقنى حُسن الخاتمة وأن يجمعنى بكم فى الفردوس الأعلى مع الحبيب المصطفى ﷺ .

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى أبو عمار